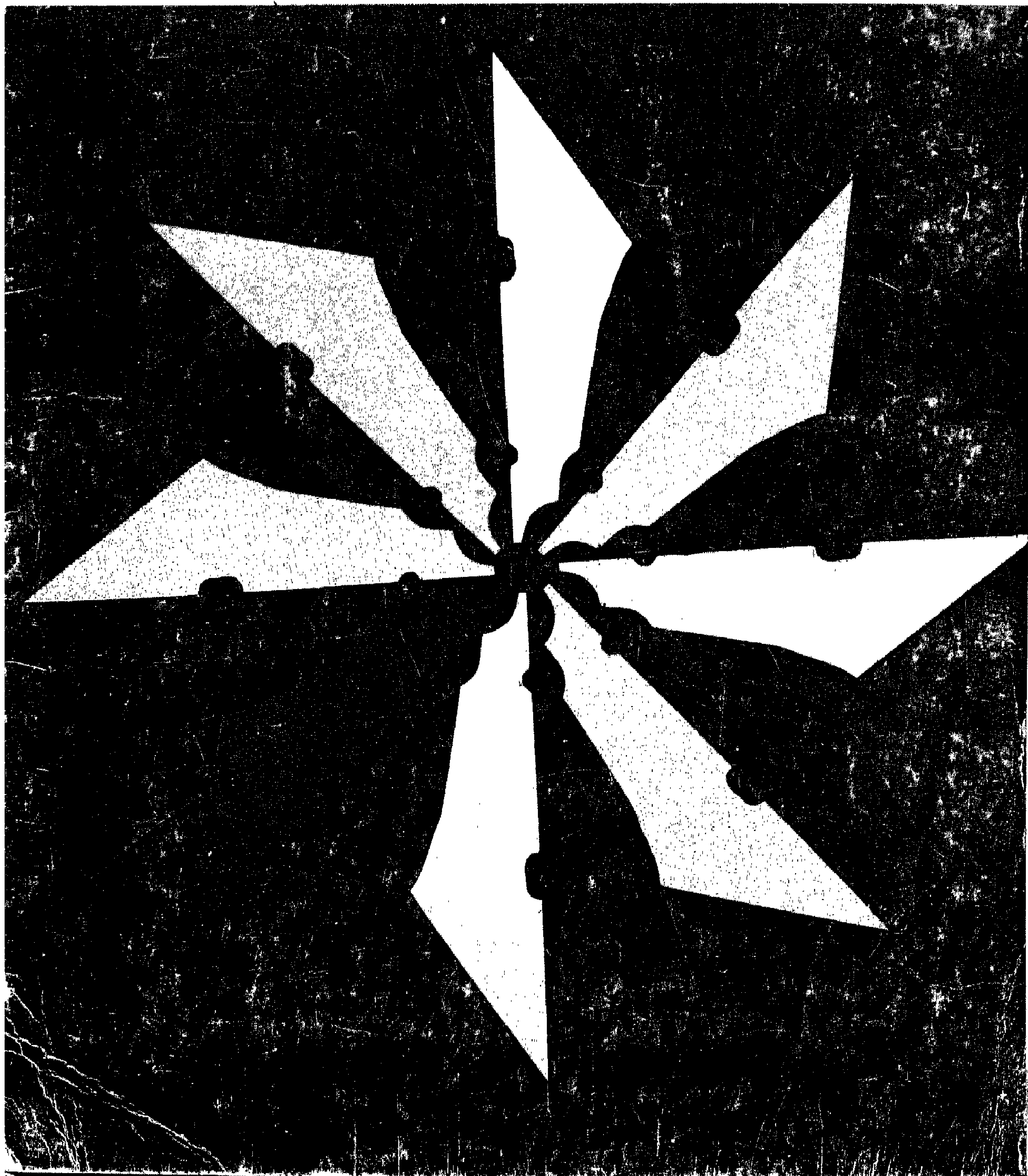
شؤون فلسطينية

٤٩
ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٤٩ | ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبيها ولا تعكس بالضرورة آراء منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت — لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن العدد : ٣½ ل.ل. في لبنان ، ٤ ل.س. في سوريا ، ٤٥٠ فلسا في الكويت والعراق ، ٤½ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في امركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

المحتويات

۱٤۱ **مراجعات** : المشروع الصهيوني لتوطين اليهود في ليبيا ، الدكتورة خيرية قاسمية . نصوص للثورة الفلسطينية ۱۹٦۸ — ۱۹۷٤ ، سلمى حداد . تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ۱۸۹۷—۱۹۱۸ ، عبد العال الباقوري. ثيودور هرتزل ، فارس المنصوري . موعظة الجمل ، اميرة الزين .

۱٦۰ **تقارير** : (۱) التربية القومية في المدارس اليهودية في اسرائيل ، يوسف حمدان . (۲) هل بدأت تتحقق نبوءة نوينبي في عودة الاسرائيليين الى « المهجر » ، محمد أحمد رمضان. (۳) المستشرقون ومعاهد الاستشراق في اسرائيل ، حمدان بدر . (٤) النزاع العربي — الاسرائيلي في كتب العلوم الاجتماعية للمدارس الثانوية في الولايات المتحدة، د. اياد القزاز. (٥) الاضطهاد الفكري والثقافي في الارض المحتلة ، محمود شقير .

۲۰۳ **رسائل من العالم** : (۱) النظام الجديد في البرتغال والصراع العربي — الاسرائيلي ، عبد المنعم عباس . (۲) اسرائيل والحركة الانفصالية في نيجيريا ، نازلي معوض أحمد .

۲۱۰ **شهريات** : (۱) المقاومة الفلسطينية ، عصام سخنيني . (۲) القضية الفلسطينية دوليا . (۳) المناطق المحتلة ، عيسى الشعيبي . (٤) اسرائيليات ، يوسف حمدان وحنه شاهين ومكرم يونس وسمير جريس . (٥) القضية الفلسطينية عسكريا ، الرائد الطيار حسين عويضة . وملحق : الاعتداء على صور في ضوء الاختيارات اللبنانية ، ناشي طه . (٦) جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية وآخر بالعمليات التي اعترف بها العدو من ۷/۱٥ — ۱۹۷٥/۸/۱٥ ، غازي خورشيد .

٤

شكوى
الجندي
الفصيح

محمود درويش

جَلَسَ الجنديُّ في الرمل . وقـالْ :
وطني يبـدأ مني ، وأراهْ
ماشياً في دودة القزّ وفي الخبزِ
أراهْ
يرفعُ المـاء عن المـاء ليسقي برتقالهْ
وأراهْ
يوقظُ الآلـةَ في الفجرِ . ويصطاد السَمَكْ .
وطـني ليس غزالهْ
وطـني يبـدأ منّي ، وأراه
يتجلّى في يـدي نهر سنابـلْ
ولهـذا .. سأقاتـلْ
وأُقاتـل .

* * *

٥

ومَشَى الجنديُّ في النـار وقالْ :
وطـني يبـدأ منـّي
فاختصرني يا دمي تتّسِـعِ الأرضُ وروحي .
ومشى الجنديُّ في عُرْسِ الجروحِ
واشتَعَلْ
واكتَمَلْ
مثلَ قرصٍ من ضياء وعسلْ .
وطني ليس بعيـداً كالهْ
وطني يبـدأ منـّي ، وأراه
جسداً تحـت القنابـلْ
ولهـذا .. سأواصلْ
وأُقاتـلْ .

* * *

جَلَسَ الجنديُّ في السجن ، وصاح :
في تمـام الإنفجارْ
وعلى باب النهـــار
أفرغوني من دم النهر ،
ومن واجب ترويض الرياح .
أخذوا مني سلاحي وسؤالي عن جنود الاحتلالْ
وأعادوني الى وقت الرمال .
وانتهى دَوْري ..
تساءلتُ : هل المسرح يحتاج الى ألفي شهيدْ
والى عشرة آلاف جريح ونشيد ؟
ضربوني . سحبوني من بياض الرمل . ثم اعتقلوني
مَدْخَلُ السجن شجرْ

ونياشينُ على الأغصان والجدرانِ ..
مَدْح وخطوطٌ وصُوَرْ .

وتساءلتُ : مَنِ القاضي ؟
أجابوني : الوطن .
قلتُ : مَنْ !!
قالوا بصوت واحد : نحن الوطن !.
وأضاف الضابطُ الأوّلُ والسوط المائـه :
إنّ للجنديّ مسؤوليّتَينِ
المـوتَ
والصمتَ
فقلتُ : إنني مُتّهَمٌ بالرغبة في خوض القتال
فأجاب الضابط الأوّل والسوطُ المائـه :
إنتهكتَ الصمت في هـذا السؤال
فلتَم في السجن بين الأوبئه
وسندعوك ، إذا شئنا ، الى دور جديد .
ولهـذا .. لا تقاتلْ
لا تقاتـل

* * *

جَلَسَ الجنديُّ في السجن ، وغنّى :
جئتُ من عائلة الطـين
ومن آيـة « آمين »
على أكتاف « كان »
كان لي حُلُمٌ ، وأمٌّ ، كان لي كيس ذُرَهْ
جئتُ من أيِّ مكانْ
من وعود امرأة مُنْكَسِرَهْ

جئتُ من فتحة ثوبٍ أدخلتْ روحي الى أوَّلِ رُكْبه
عَلّمتني العادةَ السريّة الأولى
وأشكالَ الدخانْ
جئتُ من أيِّ مكان
جئتُ من لحيـة شيـخٍ ..
جئتُ من إيقـاع خطبه
عن دخول الريف في عهـد الصناعات الخفيفه
وعن التحرير والتطوير والفتـح المبـينْ
جئتُ من عائـلة الطين
ومن آيـة آمـين
على صوت قذيفـه
جئتُ كي أحمي الوطنْ
تحت رايات الخليفـه
وانتهى دوري . تساءلتُ :
هل المسرح يحتاج الى ألفي شهيـدْ ؟
والى عشرة آلاف جريح ؟
وانتهى دوري لـكي أختار دوري من جديد
فلقد شاهدتهم
كيف يرمون شرايين الوطن
في تجاعيد الأناشيد وفي قصر الخلافـة
وطني ليس خرافـه
وطني يبـدأ مني ، وأراهْ
شارعاً بـين السلاسلْ
ولهذا .. سأواصل
وأُقاتـل
وأُقاتـل ..

فلسطين في القمة الافريقية

نبيل الرملاوي

قبل أن تبدأ منظمة التحرير الفلسطينية حملتها السياسية من أجل طرد اسرائيل من الامم المتحدة كانت تدرك كل الادراك ردود الفعل المختلفة المتوقعة لهذه الحملة سواء من العدو الاسرائيلي او من الدول الرأسمالية الاستعمارية الغربية وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية ، بل كانت على يقين من أن هذه الحملة سوف تفرز المواقف العربية وتوضح حقيقتها ، لانها لا تحتمل المواربة والخداع السياسي ، وانما تفرض على الاطراف المعنية اعلان مواقفها بكل صراحة ووضوح . واذا كان ذلك هو هدف من اهداف منظمة التحرير الفلسطينية لحملتها السياسية تلك ، فان الهدف الاساسي بالاضافة الى اخراج اسرائيل من دائرة الشرعية الدولية ، هو افشال المخططات الامريكية الصهيونية التي تجري الآن من اجل انهاء الصراع مع العدو الصهيوني بما سمي بالحلول السلمية وما تنطوي عليه من أخطار جسيمة ومصيرية تستهدف الثورة الفلسطينية أساسا والامة العربية ومستقبلها بشكل عام .

وهذا أمر منطقي بالنسبة للثورة الفلسطينية التي تدرك الآن بأن خيارات ثلاثة امام الامة العربية في تعاملها مع العدو الصهيوني ، وهي :

١ — انهاء الصراع مع العدو .

٢ — تجميد الصراع مع العدو .

٣ — استمرار اشعال الصراع مع العدو من أجل تحقيق الاهداف الوطنية والقومية بالتحرير الكامل .

فاذا كانت هناك أطراف عربية تعمل من أجل تجميد او انهاء الصراع مع العدو فان ذلك لا يتطابق مع منطق الثورة الفلسطينية ولا مع طبيعتها ولا مع أهدافها .

فقضية فلسطين التي حمل شعبها السلاح وباشر قتال العدو منذ سنوات من أجلها ، ما زالت قائمة وسيظل هذا الشعب يحمل سلاحه ويقاتل حتى يحقق أهدافه الوطنية ، وان أية محاولة لتجميد الصراع او انهاء الصراع مع العدو من اي جانب كان لا يعني الشعب الفلسطيني منها شيئا اللهم الا زيادة جبهات الاعداء وضرورة مضاعفة وتصعيد كفاحه كما ونوعا .

وكان من الطبيعي أن تبدأ المنظمة عملها من أجل انجاح هذا الهدف على المستوى العربي ثم الاسلامي ثم الافريقي ثم عدم الانحياز لنصل بالتالي الى الجمعية العامة للامم المتحدة .

على الصعيد العربي

انطلقت المنظمة ، في تحركها السياسي باتجاه طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، من نص ومضمون قرارات مؤتمر القمة العربي السابع التي جاءت تحت البند الاول باسم (الهدف المرحلي للامة العربية) والبند الثاني باسم (الاسس التي يقوم عليها العمل العربي المشترك) والبند الثالث من الفقرات العاملة والبند الرابع فقرة (١) باسم (في مجال المنظمات والمحافل الدولية) .

فقد جاء في الفقرة الثالثة من البند الاول من القرارات ما يلي :

(الالتزام باستعادة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وفق ما تقرره منظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني) .

وجاء في الفقرة الثالثة من البند الثاني ما يلي :

(عدم قبول أي محاولة لتحقيق أي تسويات سياسية جزئية انطلاقا من قومية القضية ووحدتها) .

وجاء في الفقرة الثالثة من البند الثالث ما يلي :

(دعم منظمة التحرير الفلسطينية في ممارسة مسؤولياتها على الصعيدين القومي والدولي في اطار الالتزام العربي) .

كما جاء في الفقرة أ وب من البند الرابع ما يلي :

(الاستفادة من الامم المتحدة ومؤسساتها لكشف اسرائيل ، واستصدار المزيد من القرارات بشأن قضيتي فلسطين والشرق الاوسط التي من شأنها عزل اسرائيل سياسيا واعلاميا لدى الراي العام العالمي ، ومحاولة الحصول على اجراءات أكثر فاعلية لكشف مناورات اسرائيل ورفضها تنفيذ قرارات المنظمات الدولية وابراز ذلك أمام الرأي العام العالمي وتحميلها مسؤولية اعاقة الجهود باتجاه اقامة السلام العادل) .

ب ـ (تعزيز التعاون مع مجموعة عدم الانحياز ، والعمل على تنفيذ قرارات مؤتمر القمة الرابع لعدم الانحياز ، وطرح موضوع تطبيق عقوبات الفصل السابع من ميثاق الامم المتحدة ، على اسرائيل ، والمطالبة بطردها من الامم المتحدة ، وذلك في مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز الذي سيعقد في صيف عام ١٩٧٥ ، تمهيدا لطرح الموضوع أمام الدورة الثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة) .

وبناء على هذه النصوص الصريحة فقد أرسلت الدائرة السياسية للمنظمة مذكرة الى الامين العام لجامعة الدول العربية في أواخر شهر يونيو (حزيران) الماضي تبلغه فيها ان المنظمة عازمة على الالتزام بقرارات مؤتمر القمة العربي السابع فيما يتعلق بالعمل على طرد اسرائيل من الامم المتحدة وذلك بطرح الموضوع على كل من مؤتمرات وزراء خارجية الدول الاسلامية والقمة الافريقية ووزراء خارجية دول عدم الانحياز . كما طلبت المنظمة اشعار الدول العربية الشقيقة الاعضاء بذلك لمساندة ودعم المنظمة في هذا التوجه التزاما بمقررات القمة العربية وتصعيدا للنضال السياسي ضد العدو الصهيوني على المستوى الدولي ، غير ان الدائرة السياسية للمنظمة لم تتسلم نسخة من تعميم الامانة العامة لجامعة الدول العربية على الدول الاعضاء بهذا الخصوص حتى الآن .

مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية السادس بجدة

حمل الوفد الفلسطيني الى المؤتمر الوزاري السادس للدول الاسلامية بجدة مشروع قرار خاص بقضية فلسطين تضمن المطالبة بتنفيذ قرارات المؤتمرات الاسلامية السابقة بخصوص قضية فلسطين ، كما تضمن فقرة نهائية في الديباجة تقول (واذ يعتبر ان الابقاء على عضوية اسرائيل في منظمة الامم المتحدة أمر يتنافى مع مبادىء وميثاق الامم المتحدة وتشجيع للتمرد على قراراتها وتواطؤ مع الانظمة العنصرية التوسعية العدوانية) .

وفقرة عاملة أخرى تقول (يقرر دعوة الدول الاعضاء للعمل في المحافل والمنظمة الدولية على طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، ويطلب من الدول الاعضاء تكليف ممثليها في الامم المتحدة بالعمل على انجاح هذا القرار) ، كما تضمنت كلمة الاخ ابو لطف رئيس الوفد تعليلا سياسيا وقانونيا لهاتين الفقرتين واعلانا بمطالبة المنظمة بالعمل على طرد اسرائيل من الامم المتحدة . ومن ناحية اخرى كان الوفد السوري قد تقدم بمشروع قرار خاص بقضية الشرق الاوسط تضمن فقرة عاملة طالبت الدول الاعضاء بالعمل على حرمان اسرائيل من عضوية الامم المتحدة وذلك بالعمل على الغاء قرار الجمعية العامة رقم (٢٧٣) (دورة ٣) بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٤٩ المتعلقة بقبول اسرائيل عضوا في الامم المتحدة وذلك بسبب انتهاكاتها للشرعين الاساسيين اللذين بني عليهما ذلك القرار وهما :

١ ـــ تعهدها دون تحفظ بالالتزامات الواردة في ميثاق الامم المتحدة واحترام هذه الالتزامات منذ اليوم الاول الذي تصبح فيه عضوا في الامم المتحدة .

٢ ـــ تعهدها بتطبيق القرار رقم (١٨١) (دورة ٢) بتاريخ ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ والقرار رقم ١٩٤ (دورة ٣) بتاريخ ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ المتعلق بوجوب السماح بعودة اللاجئين الى وطنهم .

وقد اعتبر مشروع القرار الفلسطيني على درجة أكبر من القوة والشمول بالنسبة للمشروع السوري لسبب أساسي وهو ، ان أية محاولة لالغاء قرار الجمعية العامة للامم المتحدة الذي قضى بقبول اسرائيل عضوا في هيئة الامم المتحدة يتطلب اجراءات مسبقة من بينها توصية من مجلس الامن بالالغاء ، ذلك لان قرار القبول المعني والمقصود بالالغاء قد صدر بناء على توصية مسبقة من مجلس الامن نفسه ، في حين قرار طرد اسرائيل من الامم المتحدة لا يحتاج في كل الحالات الى توصية من مجلس الامن بناء على المادة الثامنة عشرة من الميثاق . وبناء على احكام المواد التي أجازت للجمعية العامة اتخاذ قرار الفصل بحق اية دولة تمعن في انتهاك مبادىء الميثاق . . .

ومع ذلك فقد وافق المؤتمر بالاجماع على المشروعين ، المشروع الفلسطيني باعتباره قرارا خاصا بقضية فلسطين والمشروع السوري الذي تبنته مصر في النهاية وأصبح قرارا خاصا بقضية الشرق الاوسط . ومع صدور هذين القرارين عن المؤتمر السادس لوزراء خارجية الدول الاسلامية والذي ضم اثنين وأربعين دولة أصبحت قضية طرد اسرائيل من الامم المتحدة محط انظار الرأي العام العالمي في المؤتمرات الدولية . كما أصبحت على درجة كبيرة من اهتمام الدوائر السياسية العالمية . وبدأت دول العالم تشكل لجان عمل في وزارات خارجيتها للبحث في موضوع طرد اسرائيل من الامم المتحدة وانعكاساته على ضوء تهديدات الولايات المتحدة الامريكية بايقاف التزاماتها ازاء الهيئة الدولية والانسحاب منها في حالة نجاح الجمعية العامة للامم المتحدة في طرد

اسرائيل من بين اعضائها . ومن ناحية اخرى بدأ العالم يتطلع الى مؤتمر كمبالا للقمة الافريقية وما سيخرج عنه في هذا المجال ، في حين أسرعت الولايات المتحدة الامريكية تتصل بالعديد من الدول لحثها على معارضة اي قرار يمكن أن يصدر بهذا الشأن في المؤتمر الافريقي بالاضافة الى تصعيد حملتها العامة ضد الاتجاه الذي بدأ يتبلور حول هذا الموضوع .

المؤتمر الثاني عشر لمنظمة الوحدة الافريقية ــ كمبالا

كما هو معروف وجهت الدعوة الى منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في اعمال مؤتمري وزراء الخارجية الخامس والعشرين والقمة الثاني عشر لمنظمة الوحدة الافريقية اللذين عقدا في مدينة كمبالا عاصمة أوغندا . وقد عقد المجلس الوزاري قبل عشرة أيام من بدء انعقاد مؤتمر القمة ليبحث في القضايا التي ستعرض على مؤتمر الرؤساء . وكما فعل الوفد الفلسطيني في مؤتمر جدة حمل الى مؤتمر كمبالا مشروع قراره الذي تضمن نفس النصوص التي ثبتت في قرار جدة الى حد ما وفي نفس الوقت تقدم الوفد المصري بنفس المشروع السوري الذي تقرر في جدة ليكون مشروع قرار الشرق الاوسط . ولقد بدأت الضجة في المؤتمر حول هذا الاتجاه منذ افتتاحه بالكلمة التي توجه من خلالها الرئيس الاوغندي عيدي أمين وطالب بطرد اسرائيل من الامم المتحدة نظرا لصلفها وانتهاكها لمبادىء ميثاق الأمم المتحدة وتمردها على قراراتها وعدم التزامها بالارادة الدولية .

ونظرا لاهمية القضايا الافريقية على جدول أعمال مجلس الوزراء فقد كان ترتيب مشروع القرار الفلسطيني يحمل رقم ٩ ومشروع القرار المصري يحمل رقم ١٠ ، وبعد الفراغ من أهم القضايا الافريقية انتقل مجلس الوزراء لبحث مشروع القرار الفلسطيني . فتصدت السنغال ثم زائير ، ثم نيجيريا الى الفقرة الحادية عشرة في المشروع وهي التي تنص على طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، فعبرت زائير عن موقفها ازاء هذا الاتجاه الذي اعتبرته من الاهمية بمكان بحيث يجب أن يبحث على ضوء الوحدة الافريقية ، ومن هذه الزاوية أعلنت زائير رفضها للفقرة (١١) ، ثم تحدث مندوب السنغال الذي عبر عن مخاوفه من الفشل في هذا الموضوع الذي يعود الامر فيه الى مجلس الامن ، ولهذا أعلن عن تحفظه على الفقرة المذكورة . وبعدهما تحدث ممثل نيجيريا (قبل الانقلاب) الذي أعلن عن ان افريقيا تسير باتجاه تحمل مسؤولية تحرير فلسطين ، وهذا امر لا تضطلع به افريقيا ، وعارض الفقرة (١١) . غير ان كلا من الجزائر وليبيا وغينيا وبوروندي قد تحدثوا لصالح القرار وطالبوا المؤتمر بالموافقة عليه كما جاء اليهم ولكن وزير خارجية اوغندا الذي كان يترأس الجلسة قد أعلن ان مشروع القرار الحالي لم يعرض على لجنة الصياغة ، ولهذا طلب احالته الى لجنة الصياغة على أن يتم البحث فيه الى جانب مشروع القرار المصري على ضوء تعديلات لجنة الصياغة عليه ووافق المجلس على ذلك .

العمل داخل لجنة الصياغة

تكونت لجنة الصياغة من خمس عشرة دولة الى جانب ممثل منظمة التحرير الفلسطينية ، وبدأ نقاش مشروع القرار الفلسطيني في الساعة الحادية عشرة ليلا حتى الثالثة صباحا ، تولى خلالها ممثل المنظمة تبديد المخاوف التي برزت في المؤتمر من احتمال الفشل ووضح الجوانب السياسية والقانونية والاجرائية السليمة التي يمكن ان تشكلها الجمعية العامة للامم المتحدة في طردها لاسرائيل من عضويتها ، وكانت

النتيجة ان وافقت اربع عشرة دولة على النص الاساسي للفقرة العاملة (١١) مـــن مشروع القرار امام ممثل السنغال الذي أعلن في النهاية انه لا يملك التعليمات التي تخوله بالموافقة على هذه الفقرة ولهذا لم يستطع الموافقة . وهنا برزت الدرجة الكبيرة من الاهتمام الافريقي في موضوع الاجماع على القرارات . وأصبح كل ممثل يتحدث عن ضرورة الاجماع مما حمل الوفد الجزائري على الاتصال بممثل المنظمة للاتفاق على تعديل بسيط لعله يستقطب ممثل السنغال وجاء التعديل كما يلي : (يوجه نداء الى الدول الاعضاء لكي تفوض ممثليها في الامم المتحدة لاتخاذ الاجراءات الملائمة التي تؤدي الى طرد اسرائيل من المنظمة الدولية ووكالاتها المتخصصة حين تعرض مسألة فلسطين على الجمعية العامة خلال دورتها الـ ٣٠ ، وان يتم ذلك بالتعاون مع دول عدم الانحياز والدول الصديقة الاخرى) . غير ان هذا التعديل الذي وافقت عليه المنظمة من أجل أن ينال الاجماع الافريقي لم يحظ بموافقة السنغال الدولة الوحيدة في لجنة الصياغة التي أعلنت تحفظها عليه مما حمل رئيس الجلسة على انهاء الموضوع واعتبـــار التعديل مقبولا من لجنة الصياغة مع تسجيل تحفظ السنغال على الفقرة (١١) ورفع مشروع القرار الى مجلس الوزراء لبحثه تمهيدا لرفعه الى مؤتمر القمة . وكان مجلس الوزراء في انتظار انتهاء لجنة الصياغة من أعمالها حيث كان قد أنهى جميع القرارات الاخرى . وعندما بدأ النقاش حول المشروع المعدل والذي أصبح يسمى بمشروع قرار فلسطين مقدما من لجنـــة الصياغة ، تحدث كل من ممثل تونس ، توجو ، الجزائر ، غينيا ، الصومال ، ليبيا ، السودان ، بوروندي ، موريشيوس ، المغرب ، جزر القمر ، جزر الرأس الاخضر ، غينيا بيساو ، المؤتمر القومي الافريقي ، مالي ، الى جانب القرار وتأييده بشدة ، كما تحدث كل من ممثلي السنغال ، نيجيريا ، زائير ، غانا ، ليبريا ، ضد القرار وعلى وجه التحديد ضد الفقرة العاملة رقم (١١) ، كما تحدث من ناحية ثالثة كل من ممثلي سيراليون ، الكمرون ، فولتا العليـــا ، بالعموميـــات وانتهوا الى التهرب من تحديد موقف واضح ازاء القرار . ومن هنـــا بدأت اتجاهات تركـــز على ضرورة الوحدة الافريقية ، وضرورة العمل على ايجاد صيغة يتفق عليها الجميع . ثم بدأت بعض الاصوات التي كانت صامتة عندما كان النقاش محتدا ، بدأت تتحدث عن موقفها الذي لن يكون الا مع الاجماع ، وأخذ النقاش يطول حول الصيغ والتعديلات التي لم يفز أي منها بالاجماع . وأثناء هذه الجلسة بالذات وفي هذا الجو المحتد وصلت الى قاعة المؤتمر أوراق وكالات الانباء التي تقول أن الرئيس السادات صرح بالخرطوم انه لا يحبذ طرد اسرائيل من الامم المتحدة . وقد تلقف هذا الخبر كل الذين اعترضوا على الفقرة (١١) من المشروع الفلسطيني ليعلنوا ، واحدا بعد الآخر أن مصر الدولة الافريقية المعنية والمعتدى عليها قد أعلنت على لسان رئيسها اليوم انها لا تحبذ طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، فهل يعقل ان تقوم زائير مثلا او السنغال في هذه الحالة بطرد اسرائيل من المنظمة الدولية . وحقيقة الامـــر ، كان تصريح الرئيس السادات سلاحا جديدا وقويا أضيف الى مواقع المتحفظين عـــلى فقرة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، الامر الذي عقد أمور البحث في مجلس الوزراء أكثر فأكثر مما حمل رئيس الجلسة على الاقتراح برفع مشروع القرار كما تقدمت به لجنة الصياغة الـــى مؤتمر الرؤساء للنظر فيه مع الاحاطة بكل ما جرى من نقاش حوله . ونظرا لقناعة المجلس بعدم الوصول الى حل وافق على اقتراح الرئيس ، علما بأن قرارات منظمة الوحدة الافريقية تؤخذ عادة بالاجماع ولو كان ذلك على حساب القرار نفسه ، ومن تقاليد المنظمة الا يجري تصويت على أي امر من أمور بحثها حرصا من الدول الاعضاء على وحدة افريقيا وعدم تعريض المنظمة الى اي انقسام . وقد استغل هذا الوضع عدد من

الدول مثل زائير وغانا لتعلن كلما احتد النقاش بضرورة بحث موضوع طرد اسرائيل في ضوء وحدة افريقيا وعدم انقسام المنظمة وذلك بأسلوب فهم منه تهديد منظمة الوحدة الافريقية بأخطار الانقسام اذا ما اتخذ قرار الطرد بأصوات الاغلبية الواضحة التي أيدت مشروع القرار الفلسطيني .

مؤتمر القمة ومشروع القرار الفلسطيني

كان لكلمة الاخ ابو عمار رئيس اللجنة التنفيذية في اليوم التالي لافتتاح مؤتمر القمة أكبر الاثر على بلورة الموقف الايجابي نحو المشروع الفلسطيني، وقد عزز ذلك اتصالاته بالرؤساء وما قام به الاخ ابو لطف من لقاءات مع وزراء خارجية الدول الافريقية ، وكان على المؤتمر أن يفرغ بسرعة من كلمات الرؤساء لعقد جلساته المغلقة للبحث في مشاريع القرارات التي رفعها له مجلس الوزراء . ففي يوم ٧٥/٧/٣٠ عقد المؤتمر اولى جلساته المغلقة لهذا الغرض ، ولم يصل الـــى بحث المشروع الخاص بقضية فلسطين الا الساعة الثامنة مساء من ذلك اليوم . ولقد بدأ نقـــاش المشروع بنفس الاسلوب الذي انتهى اليـــه مجلس الوزراء ، فتحدث كل من ممثلي غينيا ، النيجر ، داهومي ، الصومال ، غينيا بيساو ، غامبيا ، الكونغو الشعبية ، الجزائر ، رواندا ، جزر القمر ، ليبيا ، موريتانيا ، بوروندي ، الى جانب مشروع القرار ، بينما تحدث كل من ممثلي السنغال ، غانا ، سيراليون ، توجو (تبنت موقف الرئيس السادات) ، ساحل العاج ، كينيا ، في حين غيرت نيجيريا موقفها بعد الانقلاب الذي وقع هناك في ٧٥/٧/٢٩ وأطاح بالرئيس السابق يعقوب جوون ، وأعلنت انها لن تبدي رأيها في هذا القرار ما دام ممثلها لم يتلق تعليمات من قادة بلاده الجدد ، كما تبنت بعض الدول الاخرى موقفا انطلق من موقف بلاده المتكامل مع الاجماع الافريقي ورفضه تأييد ما لا يحظى بالاجماع . وبذلك وقع مؤتمر الرؤساء بنفس الموقف الصعب الذي وقع بـــه مؤتمر وزراء الخارجية ، مما حمل المؤتمر على تشكيل لجنة مصغرة من كل من زائير ، غانا ، الجزائر ، موريتانيا ، منظمة التحرير الفلسطينيـــة ، في محاولة للتوصل الى صيغة يمكن أن تحظى بالاجماع . وعلى الفور اجتمعت هـــذه اللجنة ولكنها وبعـــد ساعتين من العمل المستمر لم تصل الى صيغة موحدة متفق عليها . اذ أعلن ممثل غانا ، أن بلاده لن توافق على أي نص يذكر بوضوح (طرد اسرائيل من الامم المتحدة)، وكذلك زائير بينما أصر ممثل منظمة التحرير الفلسطينية على موقفه المنسجم مع نص المشروع المطروح على الرؤساء . وعادت اللجنة لتنقل عدم اتفاقها الى الرؤساء مما فتح باب التعديلات على الفقرة العاملة رقم (١١) في المشروع وقد أوشك الصباح على البزوغ من تلك الليلة . فاقترحت غانا تعديلا اقتص جوهر المشروع الاصلي ولكنه رفض ثم اقترحت ساحل العاج تعديلا آخر ولكن الجزائـــر أدخلت تعديلا على تعديل ساحل العاج أعادت فيه ذلك الجوهر ، ثم تدخلت ليبيا فعززت من تعديل الجزائر ، واختتم نقاش طويل حول هذه التعديلات كاد أن يصل الى طريق مسدود لولا تدخل الاخ ابو عمار فأدخل تعديلا على هذه التعديلات معلنـــا حرصه على وحدة افريقيـــا وحرصه على وقوف افريقيا الى جانب قضية فلسطين ، فقوبل هذا التعديل بتصفيق حاد ، وأعلن الرئيس عيدي امين رئيس الجلسة قبول المؤتمر للنص النهائي الذي أدخل عليه الاخ ابو عمار تعديله الاخير ، غير ان اسراع زائـــير في اعلان تحفظها على هذا القرار قد فسح المجال للسنغال لكي تعلن تحفظها أيضا على هذا القرار بعد أن أعلنت موافقتها عليه ، وذلك بحجة انه لم يحظ بالاجماع ، وتبع السنغال في هذا الموقف كل من غانا ، سيراليون ، ليبريا ، والغريب ان ساحل العاج صاحبة التعديل الاصلي بعد أن تأكدت من موقف زائير والسنغال وغانا وليبريا طلبت سحب تعديلها والابقاء على

النص الاصلي للبحث من جديد وذلك في محاولة منها لتعقيد الامور بعد أن شعرت بقبول المؤتمر له مع التعديلات عليه . ولكن ذلك كان متاخرا ، فقد أعلن الرئيس عيدي أمين ان القرار قد تم قبوله من المؤتمر وانتهى الامر ، واثر ذلك أعلنت ساحل العاج عن تحفظها عليه بحجة انه لم يحظ بالاجماع الافريقي . ومن الواضح ان مؤتمر القمة الافريقي قد واجه حالة مماثلة لما واجهه مؤتمر وزراء الخارجية ، اذ أنه بينما كان يعيش البحث المضني في هذا الموضوع وصلت اوراق الانباء ان كيسنجر قد خرج من قاعة اجتماعات الاربعة الغربيين الكبار في هلسنكي وأعلن أن الاربعة الكبار يعارضون طرد اسرائيل في الامم المتحدة ثم عاد ثانية الى اجتماعه معهم . وكان وقع هذا على المؤتمر ، تماما كما كان وقع تصريح الرئيس السادات على مؤتمر وزراء الخارجية وان كان بصورة خفية . وقبل أن ينهي مؤتمر الرؤساء جلسته في الساعة السابعة والربع صباحا كان قد أعلن انه قبل مشروع القرار الفلسطيني على الشكل التالي :

ان مجلس وزراء منظمة الوحدة الافريقية المنعقد في دورته العادية الخامسة والعشرين في كمبالا عاصمة اوغندا في الفترة ما بين ١٨ — ٢٥ يوليو ٧٥ . اذ يذكر بالقرار الصادر عن اجتماع المجلس في دورته الرابعة والعشرين التي عقدت في اديس ابابا في الفترة ما بين ١٣ — ٢١ فبراير ٧٥ والاعلان المنبثق عنها خاصا بفلسطين والشرق الاوسط منطلقا من احكام ومبادىء ميثاق منظمة الوحدة الافريقية وميثاق الامم المتحدة ، ومسجلا بالتقدير والاعتزاز والتضحيات البطولية التي قدمها الشعب الفلسطيني في مواجهة المعتدي الصهيوني من أجل تحرير فلسطين ، وبعد أن بحثت تطورات قضية فلسطين والموقف الخطير الناجم من استمرار اسرائيل في احتلالها للاراضي العربية واغتصابها لحقوق الشعب الفلسطيني ورفضها لقرارات الامم المتحدة والمتعلقة بهذا الخصوص وعدم الالتزام بها وخصوصا قرار الجمعية العامة للامم المتحدة رقم ٣٢٣٦ في دورتها التاسعة والعشرين وتنكرها لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية في فلسطين ، وعودته الى وطنه وممتلكاته وحقه في تقرير مصيره بنفسه دون تدخل خارجي وممارسة سلطاته وسيادته الوطنية على أرضه واستمرار اغتصابها لاراضي فلسطين وتشريد شعبها .

واذ يعتبر ان قضية فلسطين هي القضية الاساسية وجوهر الصراع مع العدو الصهيوني ، واذ يعتبر ان هذا الموقف يشكل انتهاكا صارخا لميثاق الامم المتحدة وخرقا لقراراتها والاعلان العالمي لحقوق الانسان ، وان استمراره يهدد السلام والامن الدوليين ، واذ يعتبر ان الانظمة العنصرية في كل من فلسطين المحتلة وتلك التي في زمبابوي وجنوب افريقيا متسامية حيث تكوينها الاستعماري العنصري ، ومرتبطة ارتباطا عضويا في سياستها الرامية لقتل حرية وكرامة الانسان . ومؤكدا من جديد شرعية كفاح شعب فلسطين من اجل استرداده حقوقه الوطنية الكاملة واذ يعتبر ان مساندة الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية للشعب الفلسطيني الشقيق في نضاله من اجل استعادة حقوقه الوطنية الثابتة في فلسطين وتقرير مصيره بنفسه هو واجب يحتمه التضامن الافريقي العربي ، واذ يعرب على يقينه ان الدعم العسكري والاقتصادي والسياسي والادبي الذي تقدمه بعض الدول لاسرائيل وفي مقدمتها الولايات المتحدة الامريكية ، يمكنها من مواصلة تنفيذ سياستها العدوانية ، وترسيخ اغتصابها لفلسطين واحتلالها للاراضي العربية ، واذ يعتبر ان الابقاء على عضوية اسرائيل في منظمة الامم المتحدة أمر يتنافى مع مبادىء وميثاق الامم المتحدة وتشجيع التمرد على قراراتها . وتوافق مع الانظمة العنصرية التوسعية العدوانية :

أولا : يقرر ما يلي :

١ — يؤكد من جديد المساندة الكاملة والفعالة للشعب الفلسطيني في نضاله المشروع لاسترجاع حقوقه الوطنية في فلسطين بما فيها حقه في العودة الى وطنه فلسطين وممتلكاته . وحقه في تقرير مصيره ودون تدخل خارجي . ممارسة حقه في السيادة على أرضه . اقامة سلطته الوطنية المستقلة .

ب — العمل في كافة المجالات لتجسيد الاعتراف بهذه الحقوق والالتزام بها كما تتعهد الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية باتخاذ كافة الاجراءات المناسبة من اجل تحقيق ذلك .

جـ — العمل بين لجنة التحرير في منظمة الوحدة الافريقية ومنظمة التحرير الفلسطينية على وضع استراتيجية لتحرير فلسطين باعتبار قضية فلسطين قضية افريقية .

ثانيا : يطالب جميع الدول بمساندة الشعب الفلسطيني بكافة الوسائل في نضاله ضد الاستعمار الصهيوني والعنصري لاستعادة حقوقه الوطنية كاملة ، ويؤكد ان استعادة هذه الحقوق تشكل شرطا أساسيا لاقامة سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط .

ثالثا : يطالب الامم المتحدة بالعمل على تطبيق قرار الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها التاسعة والعشرين رقم ٣٢٣٦ .

رابعا : يؤكد مجددا ان منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ونضاله المشروع .

خامسا : يطالب الدول الاعضاء بتنفيذ كل قرارات المؤتمرات الافريقية في القمة ومجلس وزراء الخارجية الافريقيين السابق حول قضية فلسطين ووضعها موضع التطبيق في اسرع وقت .

سادسا : يؤكد من جديد انه من الضروري انجاح منظمة التحرير الفلسطينية في كفاحها لارساء الدولة المقبلة للشعب الفلسطيني وأن تعطى كافة الفرص لتأمين الاتصالات الدائمة مع حكومات الدول الاعضاء ، ويمكن ان يكون ذلك بشكل تمثيل المنظمة في عواصمها .

سابعا : يدين انتهاكات اسرائيل لحقوق الانسان في الاراضي العربية المحتلة ورفضها تطبيق اتفاقيات جنيف منذ عام ١٩٤٩ الخاصة بحماية المدنيين وقت الحرب ، وسياستها الصهيونية في الاراضي المحتلة والتي تستهدف محو طابعها الذاتي والثقافي ويعتبر ان مثل هذه الاعمال والممارسات جرائم حرب وتحد للانسانية جمعاء .

ثامنا : يعتبر ان جميع التدابير التي اتخذتها اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة لتغيير معالمها البشرية والجغرافية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية بما في ذلك التدابير التي استهدفت تهويد مدينة القدس الشريفة لاغية وباطلة ولا يمكن الاعتراف بها او بنتائجها .

تاسعا : يدين جميع الدول التي تقدم الدعم العسكري والاقتصادي والبشري لاسرائيل ويطالبها بالكف عن ذلك في الحال .

عاشرا : يطالب كافة الدول التي لم تقطع بعد علاقاتها السياسية والاقتصادية والثقافية مع اسرائيل بأن تفعل ذلك .

الحادي عشر : يطلب من كل الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية ان تتخذ الاجراءات الاكثر ملاءمة لتعزيز الضغوط الممارسة على اسرائيل في منظمة الامم المتحدة وفي الوكالات الاخرى بما في ذلك امكانية حرمانها تبعا لذلك من صفة العضوية في هذه المنظمات .

الثاني عشر : يقرر ادراج بند قضية فلسطين في جدول اعمـــال الدورة السادسة والعشرين العادية القادمة .

الثالث عشر : يطلب من الامين العام تقديم تقرير عن تطـــورات قضية فلسطين في الدورة القادمة .

وبالرغم من التعديل على الفقرة العاملة رقم (١١) من المشروع الاصلي ، الا ان القرار والتعديل الجديد قد حافظا على روح النص الاصلي وقبلته افريقيا بحماس وكان ذلك نصرا وتأييدا لانزال أقصى العقوبات ضد اسرائيل بما في ذلك امكانية حرمانها من العضوية في الامم المتحدة . وهذا ما كان الوفد الفلسطيني يريده في القرار وان تغيرت النصوص .

اسرائيل والأمم المتحدة : عضوية مشروطة

ج. هـ. جانسن

سيحاول العرب في الدورة القادمة للجمعية العامة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، والحجة العربية لهذا الموقف ذات حدين : الحد الاول والاكثر عمومية هو ان اسرائيل تستحق الطرد لانها فشلت دوما وبثبات بتنفيذ مقررات الامم المتحدة العديدة ، وهذه النقطة توصف « بالعمومية » لان كثيرا من الدول الاعضاء تحدوا قرارات الامم المتحدة بدرجة اقل من اسرائيل . والحد الثاني للحجة العربية والاكثر اقناعا هو ان اسرائيل يتوجب عليها اكثر من اية دولة اخرى مراعاة قرارات الامم المتحدة لان الجمعية العامة وافقت على عضوية اسرائيل بناء على فهم محدد وهو الوعد الـــذي قطعته بتنفيـــذ قرارين مهمين جدا حول الشرق الاوسط يتعلقـــان بالقـــدس وحقوق الفلسطينيين . وهكذا فان الحجة العربية لا تقول فقط ان « اسرائيل تستحق الطرد لتحديها قرارات الامم المتحدة » بل ايضا « بما ان اسرائيل دخلت عضوية الامم المتحدة بشرط الوفاء بوعودها بتنفيذ قرارين محددين من قرارات الامم المتحدة فانها تستحق الطرد لانهـــا تحدت هذه القرارات والكثير غيرها » .

وفيما يلي الطريقة التي فرضت بها الجمعية العامة الشروط على عضوية اسرائيل.

عضوية اسرائيل في هيئة الامم المتحدة فريدة في بابها . هذه حقيقة تنفيها اسرائيل بغضب . فاسرائيل هي الدولة الوحيدة بين دول العالم قاطبة التي خلقتها الامم المتحدة لسوء الحظ ، وهي كذلك الدولة الوحيدة التي كان قبولها في الامم المتحدة مشروطـــا بشروط . وبناء عليه ، واذا لم تنفذ هذه الشروط ـــ وهي لم تنفـــذ ـــ يصبح امـــرا سليما ، بل وواجبا ضروريا ، ان تقوم الامم المتحدة بتعليق او بانهاء عضوية اسرائيل فيهـــا .

واذا ما رجع المرء الى محاضر مناقشات الامم المتحدة في اواخر العام ١٩٤٧ وأوائل العام ١٩٤٨ ، بشأن قبول عضوية اسرائيل ، فانه يكتشف الامور المعهودة نفسها : الضغط ، الاكاذيب ، وانصاف الاكاذيب ، والحملة الاعلامية ، وهي الظواهـــر التي واكبت الاقتراع في الامم المتحدة من اجل خلق دولة اسرائيل .

وبنكران جميل نادر تكره اسرائيل ان تعترف بأنها خلقت بواسطة الامم المتحـــدة لان هذا الاعتراف يعني انها ليست مثل غيرها من الدول ولانه يعني ايضا انها ملزمـــة الزاما خاصا بطاعة قرارات المنظمة التي خلقتها . ولكن الفقرة التاسعة من اعـــلان الاستقلال في اسرائيل توضح ان قرار التسليم الصادر عن الامم المتحدة هو الـــذي أسبغ على الشعب اليهودي وضع الدولة . واشار ممثل اسرائيل في الامم المتحدة في خطابه الذي القاه في اعقاب قبول اسرائيل عضوا في الامـــم المتحـــدة الى « الصلة العضوية بين اسرائيل والامم المتحدة » .

ولقد استلزم الامر من صديقي اسرائيل انـــذاك ، الولايـــات المتحدة والاتحـــاد

السوفياتي . ستة اشهر ، حتى تمكنا من تمرير القرار : والحقيقة ان محاولتهم الاولى اخفقت . والواقع ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كانا الصوتين الوحيدين اللذين ارتفعا في جلسة مجلس الامن في الثاني من ديسمبر ١٩٤٨ ، دفاعا عن قبول عضويه اسرائيل . أما باقي اعضاء مجلس الامن فقد كان في تقديرهم جميعا إن قبول عضوية اسرائيل في الامم المتحدة سابق لاوانه ، وذلك لان مستقبل فلسطين كان لا يزال على بساط البحث . وحتى في هذه المرحلة المبكرة للغاية ارتفع صوت كندا بملاحظه تحذيرية : ان قبول اسرائيل « يجب ويتحتم ان يكون مرتبطا بصوره وثيقة » باستعداد اسرائيل لتنفيذ توصيات الجمعية العامة .

وحسب الاصول المرعية الاجراء ، أحال مجلس الامن طلب القبول الى لجنة قبول الاعضاء الجدد . وبعد خمسه ايام أعلنت اللجنة انها لم تتمكن من حيازه المعلومات الضرورية التي تخولها اتخاذ قرار والبت في المسألة .

وعند استئناف مناقشة طلب العضوية في الخامس عشر من ديسمبر ، ارتأت فرنسا ان في وسع لجنة القبول اعادة النظر في المسالة ، لان الجمعية العامة كانت في هذه الاثناء قد اصدرت القرار الحاسم الرقم ١٩٤ (٣) . وان قرار الجمعية العامة هذا لم يكتف بانشاء لجنة التوفيق بغية احلال السلام في فلسطين ، بل ان الفقرة الثانية منه أعطت الفلسطينيين كذلك الحق في العودة الى ديارهم او التعويض عليهم .

وبعدئذ ، قرر مجلس الامن ، خروجا على الاجراءات المعتادة ، التصويت على القبول . وكانت النتيجه اخفاق هذا الاقتراع في توفير الاصوات السبعة المطلوبة لتمرير القرار .

وكانت الدول التي أعطت أصواتها لصالح القبول : الولايات المتحدة ، والاتحاد السوفياتي ، واوكرانيا السوفياتية ، والارجنتين ، وكولومبيا . وكانت الدول الممتنعة بلجيكا ، وكندا ، وفرنسا ، والمملكة المتحدة ، والصين . وصوتت سوريا ضد القبول .

وتقدمت اسرائيل بطلب اخر لقبول عضويتها في فبراير ١٩٤٩ عندما كان جدول الاعمال خفيفا ، وذلك لاعطاء طلبها الاولوية في البحث . وفي هذه المرة كانت عقول كثيرة قد تغيرت او غيرت خلال الشهرين المنصرمين . فلقد أصبح المندوب الفرنسي الان مدافعا عن القبول الفوري ، وهكذا كان مندوب المملكة المتحدة .

وبقيت الصين مصرة على ضرورة التقيد بالاجراءات الاصولية ، اي احالة المسألة ثانية الى لجنة القبول . أما النرويج فوافقت .

ومرة أخرى وضع مجلس الامن الاجراءات النظامية جانبا ، فناقش المسألة في اليوم التالي مباشرة ، اي في الرابع من مارس .

وطلب مندوب المملكة المتحدة ايضاحات بشأن موقف اسرائيل حيال بعض قرارات الامم المتحدة ، وخاصة ما يتعلق بتصريحات « ممثلين رسميين لاسرائيل » أوضحوا فيها ان اسرائيل « لن تلقي بالا » لقرارات الامم المتحدة بخصوص القدس . كما ان المندوب رغب في ان يعرف ما اذا كانت اسرائيل تعترف « بالالتزام الناشيء عن القرار ١٩٤ (٣) » فيما يتعلق باللاجئين الفلسطينيين « الذين لا يزالون يموتون بالمئات والذين قد يظلون على هذا الحال » .

وعند الاقتراع كانت هناك تسعة أصوات مع قبول عضوية اسرائيل ، ولم يكن بينها غير اربعة أعضاء دائمين في مجلس الامن ، لان المملكة المتحدة امتنعت عن

التصويت . وعلى الفور سارعت كل من الارجنتين ومصر الى ملاحظة ان هذا الاقتراع لا يتمشى والمادة ٢٧ - الفقرة الثالثة - من ميثاق هيئة الامم المتحــدة - التي تؤكــد وجوب توفر التاييد الايجابي من جانب جميع الدول الدائمه العضويه الخمس لطلبات قبول العضوية .

ولقد اعترض الاتحاد السوفياتي على هذا التفسير ، فوقف مندوب المملكة المتحدة ليوضح ان امتناع بلاده لا يصل الى حد النقض (الفيتو) .

وحينما شاعت الجمعية العامة مناقشة المسالة ، اتخذت اللجنة الخاصة التابعــة للامم المتحدة قرارها غير الاعتيادي بدعوة ممثل اسرائيل لتوضيح موقف حكومته من قرارات الجمعية العامة بشأن القدس واللاجئين . ان هذا الامر ، اي اخضاع الدولة طالبة العضوية ، لمثل هذا الامتحان ، امر فريد لم يحدث قبل ذلك ولا حدث من بعد .

وان « توضيحات » ابا ايبن لم توضح شيئا ، ولم تعط اي تعهد بشأن أية مسألة .

وفي القدس ألقى أبا ايبن باللائمة على الدول العربية ومؤسسات الامم المتحدة لعدم التزامها بالوضعيه الدولية للجمعية العامة . أما بشأن المستقبل فانه لم يعد بأكثر من « نظام دولي للقدس يجب ان يقتصر اهتمامه على ادارة وحمايــة الاماكن المقدسة » و « ضمانات ... لحماية الاماكن المقدسة في فلسطين وحرية الوصول اليها » .

أما بشأن قضية اللاجئين فلقد قرأ بيانا رسميا يلقي تبعة هذه المشكلة على عاتــق الدول العربية ، ومن جهة ثانية اعلن ان المشكلة لا يمكن حلها « الا في اطار تسويــة نهائية تخلق اوضاعا من التعاون بين اسرائيل وجاراتها » .

أما قضايا الحدود ، فلقد أكد ابا ايبن ان هذه المسألة متصلة بقضية اللاجئــين ، مما يعني وجوب ارجاء طرح هاتين المشكلتين الى ما شاء الله .

واخيرا وعند اغتيال الكونت برنادوت ، عبر أبا ايبن عن « أسف عظيم » ، لكنــه لم يقدم أية معلومات حول اعتقال الجناة .

والان ، وبعد حوالي ٣٠ عاما ، لا يزال موقف اسرائيل ازاء جميع هذه المسائل هو نفسه تقريبا : الاسترسال في العناد والتصلب .

ولقد جرى استجواب لابا ايبن في الاجتماعات الخمسة التالية للجنة الخاصة مــن قبل ثمانية مندوبين : بلد عربي واحد ، هو لبنان ، طرح أية أسئلة . وكانت أجوبــة أبا ايبن المشحونة بالتملص والمراوغة تكرارا للمواقف المذكورة آنفا ، بشأن جميــع القضايا الاساسية .

ومن الطريف بالنسبة لما سيأتي ، ان ابا ايبن ألقى بالطعــم التالي : فاذا قبلــت اسرائيل في الجمعية العامة ، فان هذا « سيكــون اشارة الى زيادة القوة الادبيــة الالزامية لقراراتها » ، وان اسرائيل على خلاف الدول العربيــة « لا تقبل النظريــة القائلة ... ان قرارات الجمعية العامة اختيارية ويمكن اهمالها طوعيا » .

ومنذ ذلك الحين ، اصبحت اسرائيل الداعية الاساسية لهذه النظرية . ثم انه انكر كاذبا ، ان السياسة الاسرائيلية ترمي الى اعادة توطين اللاجئين في اي مكان اخر .

وتقدم لبنان باقتراح يدعو الى ارجاء قبول عضوية اسرائيل ، الى ان تعلن اسرائيل بكل وضوح قبولها بتدويل القدس ، واعادة او تعويض اللاجئين ، الا ان هذا الاقتراح رفض مع انه نال مساندة ١٩ دولة امام ٢٥ دولة عارضته .

وما ان تقدمت الولايات المتحدة واستراليا ودول اخرى بقرار بقبــول عضويــة اسرائيل ، حتى تقدمت تشيلي بتعديل له ، وذلك بادخال فقرة شرطية كاملة شديــدة الاهمية تنص كما يلي : « ان مجلس الامن ، اذ يشير الى قرارات ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ (التقسيم) و ١١ ديسمبــر ١٩٤٨ (القرار الرقــم ١٩٤ ــ ٣ ــ بخصوص حقــوق اللاجئين) ، واذ يحيط علما بالايضاحات والشروحــات التي قدمها ممثــل حكومــة اسرائيل امام اللجنة الخاصة بشأن تطبيق القرارات السالفة الذكر ... »

ان هذه الفقرة الشرطية تبين بكل جلاء ان قبول عضوية اسرائيل في الامم المتحدة كان مرهونا بموافقتها على تنفيذ قرارات الامم المتحدة .

وخلال النقاش اتفق مندوبو الصين والنرويج وفرنسا ، وحتى جنوب افريقيــا ، على أن ايضاحات أبا ايبن لم تكن كافية . وفي المقابل ، لم يكتف الاتحــاد السوفياتي بالاعلان عن عزمه على التصويت الايجابي الى جانب القرار بقبول عضوية اسرائيل ، بل أعلن كذلك انه سيصوت ضد التعديل التشيلي « باعتبار ان قبول اسرائيل لا ينبغي ان يكون مشروطا بأية مسألة من المسائل ودار البحث في الجمعية العامة حول قضية فلسطين » .

وبرغم ذلك جرى تبني التعديل التشيلي ، وجرى التصويت بالقبول . ثم ناقشت الجمعية العامة القرار واقرته في الحادي عشر من مايو ١٩٤٩ .

ولقد أكد مندوب السلفادور بصراحة ان ردود اسرائيل « لم تبين عزم الحكومــة الاسرائيلية القاطع على تطبيق قرارات الجمعية العامــة . ووصفت بلجيكا اجوبــة اسرائيل بأنها « تفسيرات غير كافية » .

أما المندوب الامريكي فعلق آماله على تطبيق هذه القرارات على أيدي لجنة التوفيق الدولية ومؤتمر لوزان الذي كان آخذا مجراه . وهناك عدد اخر من المندوبين ، وبينهم مندوب فرنسا ، حذوا حذو المندوب الامريكي في تــرك مسألة تجاوب اسرائيل مــع قرارات الجمعية العامة ، للجنة التوفيق ومؤتمر لوزان .

ولقد حذر المندوبون العرب مرارا من عبثية هذه الامال . واعلن مندوبون كثــيرون أنهم يشاركون العرب في مخاوفهم ، لكنهم اعلنوا مع ذلك انهم سيقترعون الى جانب قرار القبول .

وخلال المناقشات ، كشف بعض مندوبي دول امريكا اللاتينية التي كانت مهتمــة بمصير القدس خاصة لاسباب دينية ، ان اسرائيل اعطت دولهم ، مباشرة او مداورة، تأكيدات تتجاوز فيما يبدو ايضاحات ابا ايبن أمام اللجنة السياسية الخاصة .

وعلى هذا اعلنت بوليفيا انها « تلقت ضمانات بأن اسرائيــل ... سوف تنشيء نظاما دوليا في كل منطقة القدس تحت اشراف هيئة الامم المتحدة » . كما اعلن مندوب بيرو انه سيصوت الى جانب القرار ، لان كولومبيا ايضا ــ بالاضافة الى بوليفيا ــ تلقت ضمانات وتأكيدات « بانشاء نظام للادارة الدولية في القدس » .

وبالطبع لا حاجة بنا الى القول ، ان اسرائيل لم تكن مستعــدة لا عندئذ ولا في اي وقت لاحق منذ ذلك الحين وحتى الان ، لتدويل كل منطقة القدس . وعنــد الاقتراع صوتت ٣٧ دولة الى جانب قبول عضوية اسرائيل ، و ١٢ ضد ، وامتنعت تسع دول .

ومع أن الولايات المتحدة كانت تبذل كل ما أوتيت من جهد لقبول اسرائيل ، ولطمأنة الامم المتحدة الى ان اسرائيل ستطبق قرارات الامم المتحدة ، فان الرئيس ترومان ،

ذلك الصديق العظيم لاسرائيل ، ارسل وفدا خـاصا الى تـل ابيب في نهاية ابريـل ليشكو من تصلب اسرائيل في مسألتي القدس واللاجئين .

وكان ادى ترومان ما دعاه الى الشكوى من جديد ، اذ انه بعد قبول اسرائيـل في الامم المتحدة بأيام قلائل ، بعث الى اسرائيل بمذكرة شديدة اللهجة تعبر عن خيبة أمله العميقة لان الوفد الاسرائيلي في مؤتمر لوزان لم يقدم ايـة تنـازلات بشأن اللاجئين والحدود ، مما يدل على عدم اكتراث اسرائيل بقرارات الامم المتحدة .

وهكذا ثبت ان الامال التي علقتها الولايات المتحدة خلال مناقشات الامم المتحـدة ، على مدى تأثير مؤتمر لوزان ، كانت واهمة ومضللة .

والواقع ان موقف اسرائيل حيال لجنة التوفيق الدولية ومؤتمر لوزان كان استغلالا وقحا . فطالما حومت فوق رأس اسرائيل ظلال من الشك بشأن ضمـان عضويتها في الامم المتحدة ، فانها كانت تتظاهر الى حد ما بالتعاون لتقديم بعض التنازلات .

وما أن تم قبول عضوية اسرائيل في الامم المتحـدة حتى تخلـت عن بعض الرياء والتظاهر ، واعلنت رفضها لقرارات الامم المتحدة بخصوص القدس واللاجئين ، سواء في لجنة التوفيق الدولية او في مؤتمر لوزان . لقد عبرت بصراحة في كل من اللجنـة والمؤتمر عن موقف سلبي لا تزال تنهجه بعناد واصرار حتى يومنا هذا .

وان هذه الحقيقة تكشف لكل ذي عينين ان اشباه الايضاحات او الوعود الخاصة التي بذلتها اسرائيل للمندوبين في الامم المتحدة قبل اجراء الاقتراع على عضويتهـا ، لم تكن صادقة او نزيهة ، بل استهدفت بكل بساطـة تأمـين الاصوات الضروريـة المطلوبة .

ويتبين من هذا بكل جلاء ان اسرائيل لم تلب الشروط ولم تف بالتعهدات التي الزمها بها قرار قبولها ذاته في عضوية الامم المتحدة .

محاولة أولى في اطروحة : شرق الاردن الفلسطينية

عصام سخنيني

في الاساس كانت الارض في القضية الفلسطينية هي محور الصراع . لمن تكون الارض ؟ هذا هو الجوهر . واستطرادا فان الارض في الثورة الفلسطينية المعاصرة هي مسألة النضال ، ذلك ان تحرير الانسان الفلسطيني من لواجم نموه القومي والاجتماعي لا يمكن فصله الا اعتسافا عن معنى تحرير الارض اولا . وتاريخيا ، عندما نزعت الهوية الفلسطينية عن الارض الفلسطينية في العام ١٩٤٨ انتهك الكيان الوطني للشعب الفلسطيني . وعندما أعيد بناء هذا الكيان بقيام منظمة التحرير الفلسطينية وعزز هذا البناء باعطاء المضمون الثوري له ، بدخول فصائل الثورة في اطار المنظمة ، ظل التعبير عن الكيان تعبيرا مؤسسيا مفرغا من محتوى الارض . غير ان احدى نتائج حرب العام ١٩٧٣ كانت أنها أجرت تحولا أساسيا في التفكير الكياني الفلسطيني سمته الاساسية هي ارتداده الى الجذور في هذه المسألة تحديدا ، وقد تمثل ذلك في ارتباط الكيان بالارض وهو ما جرى التعبير عنه « باقامة السلطة الوطنية على الارض الفلسطينية التي يمكن انتزاعها من العدو » .

ان هذه الحقيقة ميزت الفعل النضالي الفلسطيني حتى الآن بأنه ثورة زاحفة — ان جاز التعبير — من « الخارج » الى « الداخل » ، من خارج الارض المعنية بالتحرير الى الارض ذاتها . ولان الثورة في الاصل لم تكن ثورة — في — المجتمع وانما ثورة موجهة لتحرير الارض فان ولادتها في « الخارج » ، في المهجر ، لم تكن لتنتقص من ثوريتها . وهي ان كانت عملت جهدا لتثوير « الداخل » على الرغم من الظروف الصعبة التي عاكست هذا التثوير (الكبح الشديد وسيطرة العدو من جانب ، وحالة الاسترخاء الاقتصادية النسبية لجماهير الداخل من جانب آخر) فان الثورة ظلت في حجمها الاساسي خارج الارض المستهدفة بالتحرير ، ولكنها استولدت أساليب قتالية تتناسب مع هذه الحقيقة من جانب وتنسجم مع معنى « الثورة لتحرير الارض » من جانب آخر .

في ضوء هذا كان من الطبيعي أن تنشد الثورة قواعد انطلاق لها — عسكرية وسياسية — في الاقطار العربية المجاورة لفلسطين . وبعد هزيمة العام ١٩٦٧ كانت شرق الاردن أكثر الاقطار العربية جذبا في هذه الناحية . ولم يكن ذلك اختيارا ذاتيا أو عرضيا ، وانما كان بالتأكيد محكوما بجملة عوامل موضوعية : ففي شرق الاردن تعيش غالبية الفلسطينيين وهم المعنيون اولا بالثورة وهم مشتلها الخصب . ومن جهة ثانية هي الارض التي تتاخم القطاع الاطول من الوطن الفلسطيني . وثالثا فان الهزيمة الحزيرانية جعلت النظام فيها — بالمقارنة مع القوى العربية الاخرى — أوهى من ان يتصدى للصعود الثوري والممارسات التي استتبعها . وكانت الثورة في بنائها قواعدها في شرق الاردن منسجمة تماما مع معنى الثورة الزاحفة من الخارج الى الداخل والذي

يعني ضمنا ضرورة توفر الارض ذات الظروف المواتية لان تكون مراكز انطلاق لممارسة عملها العسكري .

غير ان الخطأ الذي كاد أن يكون قاتلا ، والذي وقعت فيه الثورة وهي في صدد بناء قاعدة لها في شرق الاردن ، انها اعتقدت بامكانية تعايش سلطتها على هذه القاعدة ، وهي سلطة أصبحت حقيقة واقعة في المناخ الثوري الذي اشاعته من حولها ، الى جانب السلطة الهاشمية . وكان هذا الخطأ — في تقدير تقريري تأريخي — نابعا في الاساس من ان الثورة لم تفطن للوظيفة الكيانية نفسها لشرق الاردن ، بالاضافة الى الاداة اليومية المعبرة عن هذه الوظيفة الكيانية والممثلة في النظام الهاشمي . ودون الحديث باسهاب عن هذه الوظيفة الكيانية فينبغي التذكير هنا بأن شرق الاردن تحولت من واقع جغرافي بصفتها الاراضي الواقعة الى الشرق من نهر الاردن او عبره ، الى وحدة ادارية ثم حقيقة كيانية في مؤتمر استعماري عقــد في القاهرة برئاسة ونستون تشرشل ، وزير المستعمرات البريطانية ، في العام ١٩٢١ ، ثم في لقاء تشرشل — الامير عبدالله في القدس في العام نفسه ، بهدف واضح ومحدد ، أفهمه الامير علنا ووافق عليه ، هو تمكين بريطانيه من تنفيذ سياستها في فلسطين غربي النهر ، ومــن ذلك التزاماتها نحو الحركة الصهيونية بانشاء « الوطن القومي اليهودي » . وقد تزامنت هذه الوظيفة مع القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها وبرز أكثر معالمها وضوحا في العام ١٩٤٨ عندما طمس الكيان الاردني الوجود الفلسطيني المستقل بضم فلسطين الوسطى (الضفة الغربية اصطلاحا) الى شرق الاردن وتجريد المواطن الفلسطيني من هويته الفلسطينية . وبعد العام ١٩٤٨ مثلت الدولة الاردنية كيــانا حاجزا ذا فعل مزدوج : فعل في داخل الكيان نفسه بقمع جميع الاتجاهات الوطنية التي نشأت بعوامل فلسطينية — فلسطينية بمعنى متجهة نحو فلسطين — خلال الفترة التي امتدت ما بين الحربين الفلسطينيتين ، وفعل من واقع ان الكيان — الدولة كان يحمي اسرائيل من اي ممارسة قتالية تأتي من خارج هذا الكيان ، وعبره . وهنا تنبغي الاشارة الى ان حلول الولايات المتحدة الامريكية محل بريطانيه في الزعامة الاستعمارية في المنطقة لم يغير من طبيعة هذه الوظيفة الكيانية لشرق الاردن لسبب واحد هو ان اسرائيل ظلت تتمتع بمرتبة « المصلحة الاولى » لاميركه كمــا كانت بالنسبة لبريطانيــه ، وبالتالي فان المحافظة على هذا الحاجز الكياني الممثل في المملكة الاردنية الهاشمية والذي يحول دون أن تتحول الاراضي المتاخمة لاسرائيل الى قاعدة انطلاق او معبر نحو المس باسرائيل ، هي مسألة ورثتها الامبريالية الامريكية عن سالفتها البريطانية .

هذه الوظيفة الكيانية لم يدخل تحليلها ضمن الفكر الثوري الفلسطيني ، وأقصى ما وصل اليه هذا الفكر هو تحليل دور النظام الهاشمي وموقفه من القضية الفلسطينية دون استبار العلاقة العضوية بين الكيان والنظام وادراك انهما وجهان لعملة واحدة ، بوظيفة محددة رسمت لهما من عشرينات هذا القرن ولم يطرأ عليها تبديل . وكان الشعار الذي رفع في فترة الصعود الثوري في شرق الاردن وهي الفترة التي سبقت مجازر العام ١٩٧٠ ، والذي نص على أن « لا سلطة فوق سلطة المقاومــة » يعني الاعتراف بالسلطة الهاشمية ، واستطرادا امكانية التعايش معها . وذلك يعني ، بموجب ما ذكرنا ، امكان وجود كيانين على أرض واحدة يثبت التحليل انهما متصادمان ومتناقضان تناقضا أساسيا ما دامت وظيفة كل من الكيانين متصادمة مع الاخرى : وظيفة الاول متجهة لنقض المشروع الصهيوني ، ووظيفــة الثاني صممت ورسمت معالمها لتسهم في انجاحه واستمراره . ولكن طرح الشعار في حينه كان خطوة متقدمة نحو تثبيت السلطة الفلسطينية .

كان خطأ التحليل والممارسة المبنية عليه باهظ الثمن دفعت الثورة مقابله تصفية وجودها في شرق الاردن في أيلول ١٩٧٠ . وبجانب هذا الثمن غالي التكاليف فان فقدان الساحة الاردنية تفاعل بنتائجه ومترتباته سلبيا حتى انه يجوز القول ان كل أزمة — هكذا باطلاق وبجزم — تعيشها الثورة راهنا مرتبطة وثيقا بفقدان ساحة شرق الاردن وناتجة عن هذا السبب . وتكفي الاشارة للتدليل على ذلك الى الازمات المتلاحقة التي تعيشها الثورة في لبنان والتي هي في جانب منها نتيجة لاضطرار الثورة الى نقل حجمها الاكبر الى الساحة اللبنانية التي تختلف بتركيبها السكاني والاقتصادي والسياسي عن شرق الاردن ، مما ولد أوضاعا جديدة في لبنان اتخذتها القوى المعادية مبررا لافتعال معاركها مع الثورة . كما تكفي الاشارة كذلك الى ان الاختلاف الذي حدث في الصف الفلسطيني بعد المجلس الوطني الثاني عشر كان في احد جوانبه — دون ان نقع في التبسيط — متسببا عن فقدان الساحة الاردنية . فالسلطة الوطنية على الارض الفلسطينية التي سيجلو عنها العدو نظر اليها « الرافضون » على انها شريحة ستظل تحت رحمة المطرقة الاسرائيلية والسندان الهاشمي ، الامر الذي يثير التساؤل عن مدى نجاعة الشعار من وجهة النظر هذه .

ان تمثل الوظيفة الكيانية لشرق الاردن وعلاقتها بالقضية الفلسطينية ، واتجاه الثورة ، المحكوم لجملة عوامل موضوعية ذكرناها سابقا ، نحو اتخاذ شرق الاردن القاعدة الاساسية لها ، يطرحان ثلاث مقدمات تشكل صلب التفكير في هذه المسألة :

الاولى : ان الثورة الفلسطينية بحاجة الى قاعدة انطلاق لها ثابتة تحكم سيطرتها عليها في المدى الطويل ما دامت هي تمارس أسلوب حرب الشعب طويلة النفس . وقد أثبتت تجارب الشعوب المعاصرة ان هذه القاعدة ضرورية ضرورة مطلقة لاستمرار الثورة ، أي ثورة ، تستهدف تحرير الارض . من التجارب الايجابية كانت فيتنام الشمالية هذه القاعدة لضمان انتصار الثورة في الجنوب .

والثانية : ان الدول العربية جميعها لن تكون هذه القاعدة التي تتمتع بالديمومة والثبات والتي تستطيع منها الثورة أن تمارس فعلها النضالي ، لسبب واحد — وننظر ايجابيا للموضوع — هو ان استراتيجية الثورة ستصطدم في المدى البعيد حتما باستراتيجية الدولة فلكل حساباتها الخاصة بها ، حتى الانظمة الاكثر تقدما في المنطقة والاشد نضالية فهي ان طابقت ما بين استراتيجية الثورة واستراتيجية الدولة فان تكتيكاتها وممارساتها اليومية لا تلتقي دائما مع تكتيكات الثورة وممارساتها اليومية . ولان الدولة شكل من النظام مستقر يتمتع بالقدرة فهي ستخضع الثورة لتكتيكاتها وممارساتها اليومية وليس العكس .

والثالثة : ان تغيير النظام في شرق الاردن او اسقاطه كما هو مطروح كشعار لن يحول شرق الاردن الى هذه القاعدة الثابتة للثورة الا اذا كان هذا الهدف خطوة الى تغيير البنية الكيانية نفسها لشرق الاردن . ان احلال نظام بديل للنظام الهاشمي في شرق الاردن دون اقتحام المسألة الكيانية كما هي هناك لا يعني الا خلق « نظام آخر » في سلسلة الانظمة الراهنة ، ستجد الثورة نفسها بعد أن يمكن جذوره في الارض ، انها باستراتيجيتها من حيث هي ثورة في منطق مختلف معه من حيث هو دولة . وهكذا فان اسقاط النظام كهدف ينبغي — لاستمرار الثورة — أن يستتبع أيضا الوجه الآخر من العملة : نعني الكيان نفسه . وهذه النظرة الجذرية هي الكفيلة بكبح تعارض منطق الدولة ومنطق الثورة بحيث تكون الثورة هي صاحبة المقدرات في شرق الاردن ، ويتم ذلك بخلق الكيان — الثورة وبنائه على أسس سكانية واجتماعية وسياسية تضمن

للثورة استمرارها ، وباطار جغرافي يجعل الارض (القاعـدة ـ المنطلق) جـزءا أساسيا منه .

المطروح اذن بوضوح هو الغاء الكيان الاردني من جانب وبناء كيان ـ ثورة بديل من جانب آخر . غير ان السؤال الذي يثار هنا هو هل يمكن لمثل هذه الاطروحة في تصديها للكيانية الاردنية أن تلغي هذا التراث الذي تطاول لمدة تزيد عن نصف قرن وتقفز من فوقه ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تفترض نظرة واقعية ـ وأن بايجاز ـ الى نمو الكيانية الاردنية وتطورها :

الكيان الاردني كيان طارىء دخيل على تاريخ المنطقة مبرر وجوده الوحيد كما أسلفنا هو تمكين بريطانيه من تنفيذ سياستها في المنطقة ولم ينفك هذا المبرر عن الاستمرار بتغير الزعامة الاستعمارية . وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي مورست لتكريس الكيانية الاردنية فان اي استعراض لتاريخ شرق الاردن يكشف ان هذه المحاولات كانت تصطدم دائما بحقيقة واحدة هي ان مصالح الجماهير وتطلعاتها في شرق الاردن كانت باستمرار تتجاوز هذه الكيانية الضيقة لانها أدركت منذ البدء انها مصطنعة وبذلك لم تحملها محمل الجد . ومع تأسيس هذا الكيان في العام ١٩٢١ يلاحظ ان الحركة الوطنية العربية التي تمثلت آنذاك بالاستقلاليين الذين لجأوا الى شرق الاردن من دمشق بعد سقوط مملكة فيصل ، اعتبرته قاعدة انطلاق لها لمقارعة الفرنسيين في الشمال . وكان تحالفهم مع عبدالله ـ قبل ردته عليهم ـ الذي خدع الحركة الوطنية لدى قدومه من الحجاز بمزاعم التصدي للفرنسيين واستعادة عرش فيصل ، مبنيا على هذا الاساس. كما يلاحظ بعد ذلك ان هموم الحركة الوطنية في شرق الاردن كانت دائما « هموما غير كيانية » ، ودليل ذلك ان جميع الاحزاب والحركات الوطنية التي نشأت هناك كانت باستمرار امتدادات لحركات وأحزاب عربية . ومقابل ذلك فان « الاحزاب » التي أريد لها أن تكون أردنية بحتة دون امتداد عربي كانت دائما ـ باستثناءات قليلة ـ أحزابا مرتبطة بالنظام (بالعرش نفسه او بأركان النظام ورموزه) وبالتالي فان مصلحتها تكمن في تكريس الكيانية . اما الاستثناءات الوطنية القليلة في هذا السياق فلم يكتب لهـا الحياة وكانت طارئة على مسار تاريخ شرق الاردن (نشير هنـا كأمثلة الى حزب الشباب الذي قاده الدكتور ابو غنيمه من دمشق والحزب الوطني الاشتراكي) .

ما نريد استنتاجه هنا هو ان الانتمائية الكيانية الاردنية ظلت عائمة على السطح ولم تصبح من تراث الجماهير المتأصل في وجدانها الوطني لفترة طويلة من تاريخ شرق الاردن وان كانت في السنوات الاخيرة قد اتخذت لهـا شكلا مَرَضيا . وقد بدأ هذا الشكل مع وصفي التل ومدرسته السياسية المعروفة في هذا الصدد الذي حاول منذ ما قبل العام ١٩٦٧ أن يكرس هذه الكيانية ويعصرنها . الا أن الواقع الديموغرافي لشرق الاردن جعل هذه المحاولات تتجه نحو شق المجتمع الواحد ما بين فلسطيني واردني الامر الذي تعزز مع أيلول ١٩٧٠ . وقد شهدت المرحلة ـ ما بعد ـ الايلولية تحولا ظاهرا في الكيانية الاردنية سمته الاساسية اقليمية شرق أردنية غير سوية ضمن المجتمع الواحد . وقد أثرت هذه الظاهرة حتى على بعض الرموز الوطنية في شرق الاردن الذين تحدثوا ، تحت شعار مراجعة مواقفهم السابقة لمجازر أيلول ، عـن « أخطاء » الفترة السابقة وجعلوا احدهـا تبعية الحركة الوطنية الاردنيـة للثورة الفلسطينية . واذا كان هذا التقييم صحيحا ، وهو كذلك ، فلم يكن ذلك نتيجة خطأ الثورة او بذنبها وانما الواقع الموضوعي للثورة الفلسطينية والحركة الوطنية الاردنية ـ التي نميل الى تسميتها الحركة الوطنية في الاردن ـ هو الذي أفرز تقدم الثورة وأخذها موقعا قياديا دون الحركة الوطنية . وهو دليل آخر ، ونتيجة كذلك ، لعدم

تعمق الانتماء الكياني الاردني لدى الحركة الوطنية التي أصبحت وهي « أردنية » جزءا من الثورة وهي « فلسطينية » . وبالاضافة الى هذه الرموز الوطنية فقد وقعت بعض فصائل الثورة الفلسطينية في هذا الشرك عندما أسست برعايتها « أحزابا أردنية » و« جبهات أردنية » تحت تأثير هذا الشرخ الاقليمي الذي نشأ في شرق الاردن .

ليس من جدل في أن الجماهير في شرق الاردن لها همومها المحلية المتصلة بحياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وان هذه الهموم من ناحية نظرية تكاد ان تكون مغايرة لاهداف الثورة التي حددت بالوطن الفلسطيني . بيد ان الواقع العملي يفترض ان هموم الجماهير في شرق الاردن لا يمكن فصلها عن هموم الثورة لسببين : الاول ان الواقع السكاني في شرق الاردن حيث الغالبية هم من الفلسطينيين يفرض على الثورة أن تعالج مسألتهم السياسية والاجتماعية ما دامت تطرح نفسها ممثلة الفلسطينيين في مختلف تجمعاتهم والمعبرة عن حقوقهم ومصالحهم . وبذلك فان من حق الثورة وواجبها في آن ان تجعل نضالها متلاحما مع نضال الكتلة الفلسطينية الاكثر عددا . والسبب الثاني ان الضرورة العملية التي يفرضها اتجاه الثورة نحو تأمين قاعدة ثابتة لها قادرة من عليها أن تمارس عملها الثوري في فلسطين ، هذه الضرورة تجعل ادخال الشأن الشرق أردني ضمن اهتمامات الثـورة الاستراتيجيـة أحد مكونات قدرتها علـى الاستمرار .

ان هذين السببين اللذين ذكرنا يبرران معالجة الثورة للكيانية الاردنية وتصديها لها في شكل جذري خاصة بعد أن أصبح تكريس معنى الكيانية بعد أيلول ١٩٧٠ يتخذ له شكلا مَرَضيا مبنيا على اثارة النزعة الاقليمية مما يعني سيطرة جناح من المجتمع على جناح ، سيطرة الشرق أردنيين على الفلسطينيين . وهذا الاتجاه بجانب الكبت الذي يتعرض له الفلسطينيون في مسألة علاقاتهم بالثورة يعرضهم الى كبت من نوع آخر هو حرمانهم من المشاركة السياسية وتقرير حقوقهم والدفاع عنها ضمن المجتمع الواحد الذي يعيشون فيه . ان الفلسطينيين بعد أن تعرضوا منذ العام ١٩٤٨ لحرمانهم من حمل هويتهم الوطنية المستقلة يتعرضون الآن ، فوق ذلك ، لحرمانهم مـن حقوق المواطنية الكاملة . وذلك سبب كاف لان يجعل الكيانية في شرق الاردن تطرح من جديد على بساط البحث كاحدى المهمات المركزية للثورة ، في ضوء الحقائق التالية :

أولا انه يجب اعادة تصحيح التاريخ لجهتين : الجهة الاولى ان شرق الاردن انشئت وحدة ادارية مستقلة ثم كيانا منفصلا قائما بذاته على ارض فلسطين التاريخية التي تمتد من البحر المتوسط حتى بادية الشام . والجهة الثانية ان من اصطلح على تسميتهم « الاردنيين من اصل فلسطيني » هم فلسطينيون أولا طمست هويتهم بمعزل عـن ارادتهم .

ثانيا ان الواقع السكاني في شرق الاردن يجب أن يؤخذ بالاعتبار لدى كل حديث عن مستقبل الكيان فغالبية السكان فلسطينيون (نحو ٨٥ بالمئة من سكان عمان العاصمة فلسطينيون) ومن حقهم ان يسهموا في بناء الكيان على غـير الاسس التي طمست هويتهم الوطنية .

ثالثا ينبغي عدم القفز من فوق ما جرى في شرق الاردن حتى الآن من نمو الاحساس بالكيانية الاردنية للسكان الشرق اردنيين وتكريسها . فهـي ان كانت دوافعها منذ البداية لغير مصلحة القضايا العربية فانه ينبغي الاقرار بأن انحصارها في اللاوعـي الجمعي للجماهير قد بدأ يأخذ أشكالا واعية من التعبير عن نفسها ، أحيانا بتأثيرات تراثية استمرارية ، وأحيانا أخرى بفعل تحريضي تمارسه الطبقات الاكثر ثراء ونفوذا

في المجتمع والمرتبطة مصالحها بالنظام والتي تعتبر هي والنظام ان استمرارها مرهون بالوظيفة التي جرى الحديث عنها .

ورابعا ان وحدة السكان الفلسطينيين والشرق اردنيين أصبحت ذات التحام عضوي ، فوحدة المصالح والمصير المشترك لم يعودا كلاما للمجاملة وانما حقيقة صلبة ان اعتورها بعض ريب بتأثيرات طارئة فهي في المدى البعيد غير قابلة للفصم .

ان هذه الحقائق — المقدمات تقود الى نتيجة واحدة هي ان شرق الاردن بجانب انها وطن الشرق أردنيين هي ايضا وطن الفلسطينيين لا فرق ، وان « شرق الاردن الفلسطينية » هي الكيان البديل الذي يحمل ضمنا جميع الاعتبارات الراهنة والتاريخية (الفلسطينية والشرق اردنية) ولكنه في الوقت نفسه يصوغ هذه الاعتبارات من جديد لتخلتلف في الوظيفة عما انيط بالكيان الاردني حتى الآن .

هل نكون في ذلك قد وقعنا في فخ « الوطن البديل » وما تدعو اليه اسرائيل من ان الاردن هو وطن الفلسطينيين وان بامكانهم اقامة دولتهم على أرضه ؟ ان المنطقين مختلفان لان المنطلقات متناقضة من الاساس . فبينما « الوطن البديل » هو انهاء للقضية الفلسطينية بالتسليم بالوجود الاسرائيلي وبالتنازل الفلسطيني عن جزء من الوطن مقابل « وطن آخر » ، فان الاساس في « شرق الاردن الفلسطينية » هو بناء الوطن — القاعدة ، الذي هو الخطوة ذات التجسيد العملي نحو فلسطين الكبرى ، وهو الذي يمكن الفلسطينيين من أطراف الارض المرشحة للتحرير ﺑ « يتوسعون » من عليها الى الغرب من النهر . وباقتباس التجارب المعاصرة هو شمال فيتنام بالنسبة لجنوبها . ومن هنا الحديث عن الكيان — الثورة الذي يخضع منطق الدولة لمنطق الثورة وليس العكس، الثورة بخطوطها الاستراتيجية وبممارساتها التكتيكية اليومية . وبذلك فالقصد من الكيان الجديد هو وضعه في المواجهة الصدامية الاولى مع العدو بوعي كامل لدور المجتمع المعسكر وأسس بنيانه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ، وللشروط المقامة على هذه الاسس التي تضمن استمرار الثورة وعدم تحولها الى مجرد « نظام آخر » في المنطقة . كما ان المقصود من هذا الكيان الجديد — الذي يشترك في بنائه الفلسطينيون والشرق اردنيون — أن يخلق المعادل الموضوعي للتفوق الحضاري الاسرائيلي بأن يكون مركز استقطاب للقدرات الفلسطينية من مختلف انحاء العالم ، تنتسب اليه هذه القدرات وتسهم في صنع مستقبله الحضاري ، بادراك غير متواضع لقدرات الخلق الحضاري الفلسطيني .

ان « شرق الاردن الفلسطينية » لا تعني نقض الكيان الوطني الفلسطيني كما هو معبر عنه الآن ، فهي جزء منه وتجسيد — بواقع يدخل الارض في مضمونه — لمعناه الذي هو حتى الآن تعبير من خلال المؤسسات عن وجوده . بتعبير آخر ان الكيان الوطني الفلسطيني سيجد في « شرق الاردن الفلسطينية » المحتوى الذي افتقده حتى الآن وهو الارض ، بوعي ان هذه الارض ليست هي خاتمة المطاف والنهاية التي يتوقف عند حدودها الكيان وانما هي الجزء الممهد ليصبح الكيان الوطني منطبقا تماما على الارض الفلسطينية جميعا .

الاوبيك وسياسة المجابهة النفطية

رهف بدوي

كجزء من الحملة التي تشنها الدول المستهلكة للبترول على الاوبيك تتداول الاوساط النفطية اخبارا وحكايات حول امكانية انهيار سياسات التسعير التي تسير عليها المنظمة البترولية . ويقول مروجو هذه الاخبار أن انخفاض الطلب على البترول خلال العام ١٩٧٤ والهبوط الذي طرأ منذ فترة قريبة على انتاج دول الاوبيك (الذي كان معدله اليومي في ١٩٧٤ ٣٠،٤٦ مليون برميل فانخفض الى ٢٦،٤٤ مليون برميل خلال الربع الاول من السنة الحالية) يشكلان دلائل على أن آمال جبهة الدول المستهلكة حول انهيار سياسة الاوبيك التسعيرية ستتحقق .

ولا يتطلب الامر كثيرا من التدقيق لنتبين ان ترويج مثل هذه الافكار لا يستند الى اية اسس اقتصادية وسياسية جدية ، ولا يتعدى كونه جزءا من الحملة الاقتصادية والايديولوجية والسياسية التي ما فتئت الدول المستهلكة تشنها على منظمة الاوبيك . وكما هو معروف تأتي هذه الحملة ضمن اطار سياسة المواجهة التي تتبعها حاليا جبهة الدول المستهلكة بقيادة الولايات المتحدة ، في حين تدعو دول الاوبيك (والدول المنتجة للمواد الخام عموما) كما سنرى ، لاتباع سياسات يكون اساسها التعاون بين الطرفين المعنيين لحل المشكلات الاقتصادية العالمية الكبرى والتي لا تنحصر بالتأكيد بموضوع النفط وحده .

من هنا ضرورة القاء نظرة موضوعية على العوامل الاقتصادية والسياسية المؤثرة في صنع سياسات الاوبيك وفي تضامن اعضائها وفي قدرتها على الوقوف في وجه الحرب المعلنة عليها . وقد برزت القوة الكامنة في التضامن بين دول الاوبيك فيما بينها من ناحية ومع الدول المنتجة للمواد الاولية من ناحية ثانية في فشل المؤتمر التحضيري المنعقد في نيسان ١٩٧٥ في باريس نتيجة الجبهة الصلبة التي واجهت بها دول العالم الثالث محاولات الدول المستهلكة املاء شروط المؤتمر وجدول أعماله . وبما ان هذا التضامن يزعج الدول المستهلكة الصناعية الى اقصى حد ، تقوم اوساطها برسم صورة عن الاوبيك تجعلها لا أكثر ولا اقل من تراست أو كارتيل احتكارية عادية . في حين أن سياسات الاوبيك الرئيسية لا تتبلور الا نتيجة مجموعة من الحلول الوسط والتنازلات المتبادلة وبعد مناقشات مطولة وجدل عميق تأخذ كلها بعين الاعتبار مصالح الدول المستهلكة ، وليس في كل هذا اية سمة من السمات التي تتميز بها المؤسسات الاحتكارية الكلاسيكية واساليب عملها . في الواقع من المآخذ التي يمكن تسجيلها على سياسة الاوبيك هنا مبالغتها في مراعاة مصالح الدول المستهلكة وترضيتها حتى على حساب مصالح الدول المنتجة . كل هذا واضح في الجهود الكبيرة والمستمرة التي تبذلها المنظمة لتحقيق ما تسميه « بالحوار البناء » بين الدول الصناعية ودول العالم الثالث بهدف الوصول الى صفقة شمولية متعددة الاوجه تسهم في حل المشكلات الاقتصادية الرئيسية التي يعاني منها النظام الرأسمالي

العالمي . واضح كذلك ان سياسات التهديد والاستفزاز التي سارت عليها جبهة الدول المستهلكة قد دعمت بالضرورة نزعات التضامن بين دول الاوبيك (والعالم الثالث عموما) وقربت بين الصقور والحمائم داخل المنظمة . في الواقع اخذ معسكر الحمائم الذي تقوده المملكة العربية السعودية (اكثر الدول قوة ونفوذا داخل الاوبيك والداعية الكبرى للاعتدال ولكبح اندفاع الصقور والسياسات التي يقترحونها) يشعر بالاحراج . فهناك دلائل تشير انه حتى المملكة العربية السعودية اخذت تدرس امكانات التخلي تدريجيا عن هذا الدور التقليدي نتيجة تعنت الدول المستهلكة وعدم تجاوبها مع سياسات الاعتدال التي تمكنت السعودية من فرضها حتى الان . وقد ذكرت مصادر سعودية رفيعة انه اذا لم تبد الدول المستهلكة اهتماما جديا في المستقبل القريب باجراء « حوار بناء » مع الدول المنتجة فان السعودية ستعدل سياساتها التقليدية وستماشي بقية الدول الاعضاء في الاوبيك فيما يتعلق برفع أسعار البترول ودعم هذا الاجراء بشيء من الضبط المشترك والمنسق لعمليات الانتاج . وفي حال تفاقم المجابهة بين الطرفين لا يبدو أن السعودية ستتخلى عن شركائها في الاوبيك بل ستتضامن معهم للدفاع عن المصالح المشتركة للدول الاعضاء بكافة الوسائل بما فيها تخفيض الانتاج اذا دعت الحاجة لذلك . خلاصة القول هي أن الاوبيك وليدة الازمات وقد برهنت حتى الان ان الازمات تزيدها قوة وتضامنا بدلاً من أن تضعفها مما يكذب الاخبار والاشاعات التي تتداولها وتروجها اوساط الدول المستهلكة حول المنظمة .

من أهم المصادر التي تمد الاوبيك بقوتها ومناعتها طبيعة التوزيع القائم في قدرات أعضائها على الانتاج . فبلدان الاوبيك الكثيفة بالسكان والمحتاجة الى تنفيذ خطط ضخمة للتنمية (ايران ، الجزائر ، العراق ، فنزويلا ، اندونيسيا ، الخ) تفتقر الى الاحتياطي النفطي الكبير مما يمنعها من الدخول في أية مزاحمة في ميدان بيع النفط عن طريق تخفيض الاسعار اذ أن مثل هذا التخفيض يضر بمصالحها الحيويه . ومن ناحية اخرى نجد أن بلدان الاوبيك التي تملك احتياطيا نفطيا ضخما وانتاجا كبيرا (مثلا المملكة العربية السعودية ،الكويت ، ابو ظبي ، ليبيا) قليلة السكان وذات حاجات تنموية محدودة نسبيا مما يعني أيضا انه لا مصلحة لها في خفض الاسعار لبيع المزيد من البترول اذ أن دخلها الحالي يفيض عن حاجاتها . على سبيل المثال لم تتمكن السعودية في ١٩٧٤ من استخدام أكثر من ٤ مليارات دولار في حقول التنمية الداخلية من أصل عائدات نفطها المقدرة بـ ٢٥ مليار دولار . هذا على الرغم من أن المساعدات الخارجية التي تقدمها السعودية تقدر بحوالي ٢ ـ ٣ مليارات دولار. أي ان السعودية احتفظت بفائض يبلغ حوالي ١٨ مليون دولار في ذلك العام فقط . يضاف الى ذلك ان أي خفض من انتاج البترول السعودي الى حدود ٥،٩ أو ٦ ملايين برميل في اليوم سيكون لصالح السعودية على المدى البعيد . وفي مقابلة مع الصحيفة الامريكية « الواشنطن ستار » قال وزير النفط السعودي ، أحمد زكي اليماني ، انه بامكان بلاده تخفيض انتاجها الى حوالي ٢ او ٣ ملايين برميل في اليوم اذا دعت الحاجة الى ذلك مؤكدا بأن الدول المستهلكة غير قادرة وحدها على تخفيض أسعار النفط لان القرار في هذا الشأن هو بيد الدول المنتجة . نستنتج اذن انه لا مصلحة لاي طرف عربي في الاوبيك بخفض الاسعار وزيادة الانتاج خاصة وأن الضغوط الاقتصادية داخل الدول المنتجة لا تعمل بهذا الاتجاه بل بالاتجاه المعاكس ، من هنا رغض دولة محافظة جدا وفي غاية الاعتدال في سياساتها النفطية مثل السعودية اي املاء لمستوى الاسعار من قبل جبهة الدول المستهلكة بقيادة الولايات المتحدة ومقاومتها لمحاولات تحطيم الاوبيك الاتية من جانب وكالة الطاقة الدولية .

واذا نظرنا الى دولة منتجه كبيرة اخرى هي ايران ، نجد أن انتاجها في ١٩٧٤ وصل الى معدل ٦ ملايين برميل في اليوم في حين ان طاقتها القصوى على الانتاج لا تتعدى ٦٫٥ ملايين برميل . ومن المعروف ان الابقاء على هذا المعدل العلني غير ممكن بدون عمليات الدفع بالغاز ، وهي عمليات مرتفعة التكاليف وتحرم ايران من عائدات تصدير الغاز المستخدم على النحو المذكور . لذلك تتمحور استراتيجية ايران النفطية — واستراتيجية فنزويلا ايضا — حول العمل لرفع الدخل المتاتي من كل برميل الى أقصى حد ممكن (وليس مجرد زيادة هذا الدخل فحسب) . ولهذا السبب تأخذ ايران موقفا متشددا جدا داخل الاوبيك حول موضوعات مثل زيادة الاسعار وربطها بمعدلات التضخم العالمي .

لا بد من الاشارة هنا الى نقطة تفصيلية لان اوساط الدول المستهلكة تريد أن ترى فيها دليلا على ضعف قائم داخل الاوبيك . معروف ان الجزائر والعراق وليبيا تقدم حسومات على مبيعاتها البترولية في البحر الابيض المتوسط عن طريق تقديم شروط أفضل للتسليف والدخول في صفقات مقايضة مع دول ثالثة تعود الى بيع البترول في السوق بأسعار مخفضة . فعند تدقيق النظر في هذه الممارسة نجد أنها لا تشكل في الحقيقة نقطة ضعف في جبهة الاوبيك لان الدول المعنية تلجأ الى هذا الاسلوب في التعامل احيانا لتفادي اعلان هذه الحسومات بصورة رسمية بحيث لا يجري تدوينها في عقود مبيع البترول الخام . بهذه الطريقة تجعل الدول المذكورة اسعارها قريبة من أسعار بترول دول الخليج التي انخفضت نوعا ما بسبب الانخفاض الكبير الذي طرأ على نفقات الشحن في ناقلات النفط . بعبارة اخرى عن طريق اجراء حسومات غير رسمية على بعض المبيعات الهامشية تتجنب الدول المعنية الوقوع في فخ تخفيض أسعارها على كافة مبيعاتها النفطية . ومن ناحية أخرى فان اضطرار هذه الدول الى تقديم مثل هذه الحسومات في بعض الاحيان لا بد وان يشكل حافزا لها للعمل على استعادة خسائرها عن طريق الضغط لربط أسعار البترول في أقرب وقت ممكن بمعدلات التضخم المالي العالمي .

كانت جبهة الدول المستهلكة تزعم دوما ان انخفاض نسب انتاج البترول بالقياس الى طاقة الانتاج الكلية في كل بلد من البلدان المنتجة سوف يؤدي الى خفض الاسعار بصورة مشابهة للانخفاض الذي طرأ على الاسعار في الستينات . هنا لا بد من التدقيق في هذه المقارنة . في الستينات كان انتاج القسم الاكبر من بترول دول الاوبيك خاضعا للشركات الاجنبية صاحبة الامتياز وموظفا في خدمة مصالحها . وكان الهم الاكبر لهذه الشركات هو استرداد استثماراتها بأسرع وقت ممكن برفع الانتاج حتى لو كان ذلك يعني الحاق الضرر بالحقول . أما اليوم وبعد أن انتقلت سلطة اتخاذ القرار فيما يتعلق بقضايا مثل الاسعار وهامش الارباح العائدة للشركات ومعدلات الانتاج الى حكومات الدول البترولية نفسها فقد توقفت كافة هذه الممارسات الضارة . يضاف الى ذلك أن الحكومات بحكم كونها المالكة الاولى لوسائل انتاج البترول (اما عن طريق التأميم او اتفاقيات المشاركة) لا تهتم بعامل الوقت وتأثيره على الاستثمارات والارباح على طريقة الشركات الاستغلالية . في الواقع ترى بعض هذه الحكومات انه على الرغم من عدم حاجتها الى أية وسائل اضافية لانتاج البترول في السنوات القليلة القادمة من المفيد الاستثمار في هذا المجال الان بسبب الارتفاع المتوقع في النفقات نتيجة التضخم النقدي العالمي .

أما فيما يتعلق بمقدرة الاوبيك على مواجهة اي انخفاض في الطلب على البترول (تفرضه الدول المستهلكة) بنجاح ومرونة كبيرة فيتضح من الجدول التالي :

البلد	معدل الانتاج ١٩٧٤ (بالآف البراميل)	معدل الانتاج للربع الاول من ١٩٧٥ (بالآف البراميل)	نسبة التغيير الطارئة من ١٩٧٤	الطاقة القصوى (بالآف البراميل)	معدل الانتاج للعام ١٩٧٤ نسبة الى الطاقــة القصوى	معدل الانتاج للربع الاول بالنسبــة للطـاقة القصوى
السعودية	٨٤٧٩	٦٠٦٠	—١٦،٧٢	١١٢٠٠	٧٥،٧٠	٦٣،٠٣
ايران	٦٠٢١	٥٦٧٤	—٥،٧٤	٦٥٠٠	٩٦،٦٣	٨٧،٢٩
الكويت	٢٥٤٧	٢١٧٠	—١٤،٨٠	٣٠٠٠	٨٤،٩٠	٧٢،٣٣
العراق	١٨٧٠	٢٠٣٣	+٨،٧٠	٢٦٠٠	٧١،٩٢	٧٨،١٩
دولة الامارات العربية المتحدة	٦٧٩	١١٩٨	—٢٨،٦٤	٢٢٤٠	٧٤،٩٥	٥٢،٤٨
قطر	٥١٩	٤٨١	—٧،٣٢	٦٥٠	٧٩،٨٤	٧٤،٠٠
فنزويلا	٢٩٧٦	٢٦٤٨	—١١،٠٢	٣٠٠٠	٩٩،٢٠	٨٨،٢٦
نيجيريا	٢٢٥٦	١٨٦٤	—١٧،٣٧	٢٥٠٠	٩٠،٢٤	٧٤،٥٦
أندونيسيا	١٣٩٣	١٢٦٥	—٩،١٨	١٥٠٠	٩٢،٨٦	٨٤،٣٣
ليبيا	١٥٢١	٩٦٠	—٣٦،٨٨	٢٥٠٠	٦٠،٨٤	٣٨،٤٠
الجزائر	١٠٠١	٧٣٤	—٢٦،٦٧	١٠٠٠	١٠٠،٠٠	٧٣،٤٠
الغابون	١٧٧	١٩٠	+٧،٣٤	١٩٠	٩٣،١٥	١٠٠،٠٠
الايكوادور	١٧٧	١١٣	—٣٦،١٥	٢٥٥	٦٩،٤١	٤٤،٣١
المجمــوع	٣٠٦١٦	٢٦٣٩٠	—١٣،٨٠	٣٧١٣٥	٨٢،٤٤	٧١،٠٦

يبين هذا الجدول ان الانخفاض في الانتاج البالغ ٤،٢ ملايين برميل في اليوم خلال الربع الاول من ١٩٧٥ (بالقياس الى معدل الانتاج للعام ١٩٧٤) قد توزع على النحو التالي : المملكة العربية السعودية ٣٣ بالمائة . دولة الامارات العربية المتحدة ١١،٤ بالمائة . ليبيا ١٣،٣ بالمائة . الكويت ٨ بالمائة . أي ان هــذه البلدان الاربعــة التي تتمتع بفائض من الرساميل قد تحملت ٦٥،٧ بالمائة من النقص في الانتاج في حين ان حصتها من مجمل انتاج دول الاوبيك تبلغ ٤٦،٤ بالمائة . وفي كل هذا تخفيض كبــير للضغط الذي يمكن ان يتولد على الدول البترولية الكثيفة السكان والتي تنفذ خطط تنموية ضخمة وباهظة التكاليف .

ونلاحظ أيضا من خلال مقــارنة معدل الانتــاج خلال الربع الاول من ١٩٧٥ مــع معدل ١٩٧٤ أن النسبة بين انتاج المملكة العربية السعودية وطاقتها القصوى على

الانتاج قد انخفضت من ٠،٧٥ الى ٠،٦٣ ، ليبيا من ٠،٦٠ الى ٠،٣٨ ، دولة الامارات العربية المتحدة من ٠،٧٥ الى ٠،٥٤ ، الكويت من ٠،٨٥ الى ٠،٧٢ . أما الجزائر فقد كانت نسبة هذا الانخفاض في الفترة المعنية حوالي ٢٥ بالمائة وذلك لاسباب تقنية تتعلق بتدني الضغط في حقول البترول . من ناحية اخرى نجد أن معدل الانخفاض المذكور في البلدان المنتجة الاخرى (اي الكثيفة السكان والمفتقرة الى فائض في الرأسمال) كان أدنى بكثير . انخفضت هذه النسبة على النحو التالي : ايران من ٠،٩٣ الى ٠،٨٧ ، فنزويلا من ٠،٩٩ الى ٠،٨٨ ، نيجيريا من ٠،٩٠ الى ٠،٧٥ ، اندونيسيا من ٠،٩٣ الى ٠،٨٤ . واضح اذن أن الاتجاه العام داخل الاوبيك يميل لصالح البلدان المنتجة التي تحتاج الى كل عائداتها بأسرع وقت وبأعلى مستوى ممكن بسبب ظروفها الاقتصاديه والاجتماعية وخططها التنمويه والتسليحيه . وعلى الرغم من أن شهر نيسان الماضي شهد مزيدا من الانخفاض في انتاج كل من السعودية وايران تبين ان هذا الاتجاه قد وصل الى مداه الاقصى . ويتوقع الخبراء بأن يشهد الربعان الثالث والاخير من ١٩٧٥ ازديادا في انتاج دول الاوبيك بحوالي مليونين الى ثلاثة ملايين برميل في اليوم بحيث يبلغ المجموع حوالي ٢٧،٥ الى ٢٨،٥ مليون برميل في اليوم . ويستند هؤلاء الخبراء في توقعاتهم الى العوامل التالية :

(١) التوقعات القائلة بأن الدول المستهلكة ستشهد تحسنا في نشاطها الصناعي خلال الاشهر الباقية من ١٩٧٥ خاصة الولايات المتحدة والمانيا الغربية مما سيؤدي الى ارتفاع الطلب على البترول .

(٢) كان الانخفاض المفاجىء على طلب البترول خلال الاشهر الاربعة الاولى من ١٩٧٥ تمويها أكثر منه حقيقة . اذ اخذت الدول الاعضاء في وكالة الطاقة الدولية تعتمد بصورة واسعة على مخزونات النفط لديها كجزء من تكتيكاتها المتفق عليها لضرب سياسة الاوبيك التسعيرية . اي لجأت الدول المستهلكة الرئيسية الى التخفيف من مشترياتها للبترول الخام في السوق الدولية على أمل كسر أسعار الاوبيك . الا ان هذا التكتيك لم ينجح اذ على الدول المستهلكة ان تعيد تزويد نفسها بالبترول للحفاظ على مخزونها بمستوياته السابقة . وبما ان مفعول قرار الاوبيك بتجميد الاسعار سينتهي في ١ تشرين الاول ١٩٧٥ من المتوقع ان تشتري الدول المستهلكة كميات كبيرة من النفط (من الدول المنتجة طبعا) قبل هذا التاريخ.وحتى لو لم يرتفع الطلب بأكثر من حوالي مليوني برميل في اليوم سيكون لذلك تأثيره الهام لصالح الاوبيك لان في هذا الاشارة الحاسمة الى انعكاس الاتجاه السابق نحو الانخفاض في الطلب .

مع ذلك ، حتى لو لم تشهد الدول المستهلكة تزايدا في نشاطها الصناعي واستمر الانخفاض في الطلب على البترول سيبقى موقف دول الاوبيك في غاية القوة حتى منتصف ثمانينات القرن على أقل تعديل . وكما سيكون باستطاعة المنظمة ان تلجأ الى عدد من الاجراءات الدفاعية والهجومية لحماية مواقعها ومصالحها . على سبيل المثال بامكان الاوبيك الاسراع في تنفيذ مخططاتها لاصلاح نظامها التسعيري والضرائبي وتصفية أية نزاعات للمنافسة بين الدول المنتجة (التي تعمل لصالح بعض انواع البترول الخام على حساب غيره) . كذلك بامكانها اتباع سياسات معينة لحماية البلدان التي يتعرض بترولها لمقاطعة من قبل الدول المستهلكة في محاولة لاستفرادها وضرب أسعارها واخضاعها . بالاضافة الى هذه الخطوات الدفاعية باستطاعة الاوبيك ايضا أخذ زمام المبادرة بزيادة أسعار النفط وربطها اما كليا او جزئيا بمعدلات التضخم وفقا لما تقتضيه ظروف المواجهة مع الدول المستهلكة . واذا دعت الحاجة بامكان الاوبيك

خفض انتاج البترول الى مستوى يقع دون مستوى الطلب العالمي مما سيرفع الاسعار بصورة اوتوماتيكية . بعبارة اخرى تملك الاوبيك القدرة على اتخاذ سلسلة من الاجراءات القوية لمواجهة أي حد مفتعل في الطلب على البترول من جانب الدول المستهلكة .

بالاضافة الى العامل الاقتصادي في قوة الاوبيك ومناعة مواقعها هناك العامل السياسي ايضا الذي يستحق بعض المعالجة . اولا ، نلاحظ ان المملكة العربية السعودية (وهي اكبر الدول المنتجة واهمها) قد مرت بتغييرات سياسية هامة منذ بداية السبعينات . لقد تخلت عن سياساتها الانعزالية القديمة ودخلت بشكل قوي في مجرى الاحداث العربية الكبيره وشؤون الشرق الاوسط على العموم . ووصل هذا التحول الى ذروته في قرار الملك فيصل باستخدام سلاح النفط لدعم المجهود الحربي العربي خلال حرب اكتوبر ١٩٧٣ . كما ان وزير البترول أحمد زكي اليماني اخذ المبادرة في الوساطة بين العراق وسوريا . وقد تحولت السعودية بذلك الى واحدة من الدول الاربع الكبرى في العالم العربي واصبح لها وزنها الضخم في تسيير شؤون السياسة العربية العليا . ولا شك ان الارتباطات العربية الجديدة للسعودية والتزاماتها تجاه العالم العربي عموما تركت آثارها على سياساتها البترولية . فمع أن السعودية نجحت حتى الان في وضع حد لاتجاه الاوبيك نحو رفع الاسعار وفي تأجيل ربط مستوى الاسعار بمعدل التضخم فانها لم تتمكن من تحقيق أي تخفيض في أسعار البترول بسبب ضغط دول عربية اخرى لا تريد السعودية تدهور العلاقات معها . نلاحظ ثانيا تحسن العلاقات العربية ـ الايرانية (داخل الاوبيك وخارجها) الذي أخذ شكل حل المشكلات العالقة مع العراق بالنسبة للمسألة الكردية وشط العرب وتقرب ايران من مصر ووعدها بمساعدات مالية هامة بالاضافة الى تقربها من العرب عموما عن طريق اطلاق التصريحات المناصرة للجانب العربي في النزاع مع اسرائيل. نتيجة لكل ذلك أصبحت ايران قادرة الان على اخذ زمام المبادرة بقوه اكبر في الدفع داخل الاوبيك باتجاه رفع عائدات البترول الى أقصى حد ممكن . وهناك دول اخرى تدعم ايران في هذا الميدان بقوة مثل الجزائر والعراق وليبيا في محاولة لتخطي النزعات المعتدلة التي تصر عليها السعودية . ثالثا ، هناك عوامل عديدة تفرض على الدول المعنية عدم السكوت على أي انخفاض في عائدات النفط . ومن أهم هذه العوامل الالتزامات المالية المتزايدة للدول العربية المنتجة ازاء الدول العربية الشقيقة والدول النامية الاخرى ، تزايد نفقات التسلح في العالم العربي وايران ، وتصاعد التضخم المالي في الدول الصناعية . رابعا ، لا شك ان مستقبل أسعار النفط حتى نهاية السبعينات سيعتمد على طبيعة العلاقات بين الدول الصناعية المستهلكة ودول العالم الثالث بما في ذلك دول الاوبيك. ونتيجة سياسة المجابهة التي تتبعها الدول المستهلكة ساءت هذه العلاقات كثيرا كما هو واضح من التهديدات بالاحتلال العسكري لحقول النفط وانهيار مؤتمر باريس المذكور سابقا .

ننتقل الان لعرض الخطوط العريضة لموقف دول الاوبيك الشمولي وبرنامجها العام لان هذه الخطوط مطروحة كبديل لسياسة المواجهة والتهديد التي تسير عليها الدول المستهلكة وكسلاح للوقوف في وجه مخططات وكالة الطاقة الدولية لتدمير الاوبيك . يضاف الى ذلك ان هذا البرنامج العام سيحدد السياسات المستقبلية للمنظمة والاتجاه الذي سيسير فيه تطورها ونموها في السنوات القادمة . يبدو لنا ان أفضل مرجع متوفر يطلعنا على هذا البرنامج هو المذكرة التي أعدتها منظمة الاوبيك لتكون أساسا صالحا للمفاوضات بين الدول المستهلكة من جهة والدول المنتجة للبترول والمواد

الاولية من ناحية ثانية . واستندت هذه المذكرة بدورها الى الاراء والمواقف التي تم طرحها في المؤتمر الذي عقدته الاوبيك في الجزائر بين ٢٤ و٢٦ كانون الثاني ١٩٧٥ وحضره وزراء النفط والخارجية والمال للدول المعنية . ويتلخص هذا الموقف كما تبينه المذكرة بالنقاط التالية :

(١) لا تطرأ أية زيادات على أسعار النفط الحقيقية خلال السنوات الست القادمة. وخلال هذه المرحلة الانتقالية يجري ربط أسعار البترول بمعدل التضخم بصورة تدريجية وعلى مراحل من اجل حماية القوة الشرائية للعائدات . وبتحديد أكبر يقول هذا الاقتراح بتجميد أسعار البترول الخام على ما كانت عليه في ١ كانون الثاني ١٩٧٥ خلال السنة كلها على أن يجري رفعه فيما بعد بنسبة تعكس نسبة التضخم في ١٩٧٦ و١٩٧٧ على ان يجري تعديل هذا السعر مجددا ليتماشى كليا مع معدل التضخم بكامل مقداره خلال ١٩٧٨ ــ ١٩٨٠ . بعبارة اخرى سيطرأ انخفاض على الاسعار الحقيقية للبترول خلال السنوات الثلاث الاولى .

(٢) تضمن الاوبيك تزويد السوق العالمية بكميات النفط التي تحتاجها في السنوات المقبلة .

(٣) وضع خطة لاعادة تدوير البترودولارات عن طريق تقديم اعتمادات الى البلدان الصناعية المستهلكة التي تعاني من مشكلات في ميزان مدفوعاتها ، على أن تشمل هذه الخطة اعتمادات محددة لشراء البترول . اما بالنسبة للدول النامية غير المنتجة للبترول فقد جرى طرح اقتراحات لتقديم مساعدات سخية ومتنوعة لها ، مثلا وضع خطة لتزويد هذه البلدان بالاسمدة الازوتية بأسعار مخفضة جدا .

(٤) تطالب دول الاوبيك في مقابل كل ذلك بما يلي : (أ) وضع نهاية سريعة لسياسات المجابهة التي تسير عليها الدول المستهلكة حاليا والانتقال الى « الحوار البناء » على أساس من المساواة بين الدول الصناعية والعالم الثالث الذي تشكل دول الاوبيك جزءا منه . (ب) علاقات منصفة بين أسعار البترول واسعار السلع والخدمات التي تستوردها دول الاوبيك من البلدان الصناعية . (ج) بذل جهود جدية من جانب الدول الصناعية ــ تشرف عليها وتسهم فيها الحكومات بنفسها ــ لدفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العالم الثالث وخاصة تسهيل انتقال التكنولوجيا الحديثة والاموال الى الدول النامية ، وفتح الدول الصناعية لاسواقها امام المنتجات الصناعية الصادرة من العالم الثالث . (د) عدم وضع أية قيود على حرية دول الاوبيك في استخدام اموالها السائلة . (هـ) تنفيذ سياسات تسعيرية مناسبة فيما يتعلق بالمواد الاولية (غير البترول) الصادرة عن العالم الثالث. (و) اصلاح النظام المالي الدولي بحيث يتمكن العالم الثالث من المشاركة الفعلية في اتخاذ القرارات في هذا الميدان . بعبارة أخرى تقترح الاوبيك على الدول المستهلكة الكبرى (خاصة على الولايات المتحدة) صفقة شمولية متعددة الجوانب تتناول بالاضافة الى البترول والطاقة موضوعات مثل المواد الخام (بما في ذلك الاغذية) ، وحماية القوة الشرائية لعائدات البترول والتعاون بين الطرفين في سبيل تنمية الدول المتخلفة واستفادة الاخيرة من التكنولوجيا الحديثة وكل ما يتعلق بمشكلات الاستثمار والنظام النقدي العالمي وضمان أموال الدول المنتجة . ومعروف ان سياسة الدول المستهلكة هي الاصرار على استبعاد كل هذه القضايا ــ الحيوية بالنسبة للعالم الثالث كله ــ والتركيز في « الحوار » على الموضوع الوحيد الذي يهم الدول الصناعية أي البترول والطاقة . ومنذ فشل مؤتمر باريس التحضيري لا توجد اية دلائل تشير الى

أن الدول المستهلكة قد اصبحت على استعداد اكبر لتقبل البرنامج الذي تطرحه الاوبيك على الرغم من اعتدال مطالبه اعتدالا كبيرا . وما زال خصوم الاوبيك يحاولون بكافة الوسائل بما فيها التهديد العسكري « اقناع » الدول المنتجة بأن ميزان القوى وضغوط السوق تميل لصالح الدول المستهلكة مما يعني انه بامكان هذه الدول الانتظار بدلا من الدخول في صفقات شاملة وطويلة الامد حول أسعار البترول وغيره من المواد الاولية الاستراتيجية مع الدول المنتجة لهذه السلع . وما من شك ان بعض الدول المستهلكة تعد حساباتها للوصول الى أهدافها على اساس ان الانتظار قد يفكك جبهة الاوبيك وان انخفاض الطلب على البترول وتدني أسعاره سيضربان بالضرورة سياسات الاوبيك التسعيرية . ومن هنا ضرورة اليقظة والتنبه من جانب الاوبيك لتفشيل الحسابات التي يضعها المعسكر الخصم في حربه على الدول المنتجة .

لقد أوضحت مصادر الاوبيك بأن برنامجها ومقترحاتها المذكورة قابلة للتفاوض في تفاصيلها ولكن ليس في مبادئها وخطوطها العامة . كما ألمحت الى امكانية تمديد تجميد الاسعار الذي فرضته المنظمة حتى نهاية ١٩٧٦ اذا استجابت الجبهة الاخرى استجابة مرضية وجدية على المقترحات اياها .

أما اذا استمرت سياسات المجابهة والتهديد فان الحد الادنى لما يمكن ان تفعله الاوبيك في ردود فعلها نجده في ما ذكرناه سابقا على لسان السعودية . وقد لا تقف الامور عند هذا الحد ، كما ألمحت الى ذلك حتى السعودية ، اذ قد تضطر دول الاوبيك عندئذ الى خفض الانتاج بصورة كبيرة ومنسقة لحماية مواقعها وعائداتها وبترولها . ولا نستبعد أبدا ان يؤدي مثل هذا الاجراء الى مغامرات عسكرية من جانب الولايات المتحدة ينبغي ان نكون مستعدين لمواجهتها ومنعها من تحقيق أهدافها في السيطرة على حقول البترول .

اسرائيل والاحتكارات النفطية

الدكتور سلمان رشيد سلمان

ان التعرض لدور اسرائيل في الشرق الاوسط يقودنا الى معرفة دورها في المخطط الامريكي والقاضي بالسيطرة على الموارد النفطية وضرب اي تحرك جدي عربي لوضع هذه الثروة المهمة في ايدي اصحابها ، وسيتعرض هذا البحث لدور اسرائيل في هذا المخطط ، وتأثير ازمة النفط على اسرائيل ثم وجهة نظر السياسيين الاسرائيليين في هذه الازمة ، وموقف اسرائيل من هذه الازمة .

لقد فكر قادة الصهيونية وخالقو اسرائيل في جعلها منذ البداية كقاعدة امامية للاستعمار الغربي والاوربي ولقد ذكر هرتزل في ان واجب اسرائيل « ان تكون متراسا لاوروبا ضد آسيا ، ان تكون مخفرا اماميا للحضارة ضد البربرية »(١). وكانت الصهيونية العالمية كريمة في اعطاء الوعود الى كل الدول الاستعمارية التي كانت ستفيدها في اقامة الوطن القومي اليهودي ، فقد ابدى قادة الصهيونية استعدادهم للتعاون مع الدولة العثمانية من اجل اقامة دولة يهودية مقابل اسناد الصهيونية للدولة العثمانية ماديا وكذلك تعاملت الصهيونية مع اطراف عديدة كالمانيا الهتلرية وايطاليا الفاشية(٢)، ووضعت ثقلها في الحرب العالمية الاولى الى جانب انكلترا وحصلت مقابل ذلك على وعد بلفور القاضي بانشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين . ونتج عن ذلك قيام تحالف بين انكلترا واسرائيل اسفر عن تحرك اسرائيل ضد مصر حينما عملت الاخيرة على تأميم قناة السويس ، الا ان الفشل الذي اصاب انكلترا في هذه الحرب قد عزز مواقع امريكا في الشرق الاوسط وبالتالي فقد اتجهت اسرائيل نحو التحالف مع الجناح الاكثر قوة. أن من الضروري ملاحظة أن هذا الانتقال الاسرائيلي قد صاحبه تزايد في نسبة الاحتكارات النفطية الامريكية على حساب انخفاض الاحتكارات النفطية البريطانية ، حتى بلغت نسبة الاحتكارات النفطية الامريكية ٦٠ بالمائة من مجموع الاحتكارات النفطية العالمية في الشرق الاوسط(٣).

هذه الاحتكارات التي تعمل لاسناد اسرائيل وليس ذلك بالشيء العجيب فالرأسمالية اليهودية تسيطر على أكبر الشركات والبنوك في اوروبا الغربية وامريكا ولها حصص كبيرة في معظم الشركات الاحتكارية النفطية ومن هنا فان الدور المتداخل الذي تلعبه اسرائيل في حماية الاحتكارات النفطية وفي الاستفادة منها يغدو في منتهى التوافق والانسجام ، وقد ذكر هايمان ليومير بعض الحقائق عن الحركة الصهيونية واسرائيل قائلا(٤) « تقف على رأس الحركة الصهيونية العاملة اليوم مجموعة متنفذة جدا من الرأسماليين اليهود ... وهي المجموعة ذاتها التي تزود أسرائيل بحصة الاسد من الهبات الضخمة ، التي تتلقاها من الولايات المتحدة الامريكية كل عام ، وهي المشتري الرئيسي للسندات الاسرائيلية ، علاوة على انها هي بالذات التي تستثمر أموالا كثيرة جدا في فلسطين المحتلة وتمارس نفوذا وتأثيرا ايديولوجيين واسعين في عقر دار الاستعمار الامريكي » .

لقد كان الغرض من اقامة اسرائيل : ١ ــ السيطرة على اهم منطقة استراتيجية في العالم . ٢ ــ حراسة موارد النفط الغنية والمهمة في الشرق الاوسط . ٣ ــ الوقوف ضد حركات التحرر والتي من اهم اهدافها التحرر السياسي والاقتصادي وبالتالي السيطرة الوطنية على موارد النفط .

لقد عبر غرشوم شوكسن عام ١٩٥١ عن الدور الذي ينبغي لاسرائيل ان تلعبه في الشرق الاوسط بهذه الكلمات « ان تقوية اسرائيل يساعد الدول الغربية على المحافظة على التوازن والاستقرار في الشرق الاوسط ، وان على اسرائيل ان تلعب دور كلب الحراسة ، وليس هناك خوف من ان تمارس اسرائيل سياسة عدوانية تجاه الدول العربية اذا كان ذلك يتعارض مع رغبات الولايات المتحدة وبريطانيا ، ولكن ولاي سبب كان فان فضلت الدول الغربية ان تغلق عيونها فبالامكان الاعتماد على اسرائيل للقيام بمعاقبة واحدة او اكثر من الدول المجاورة التي تجاوزت تصرفاتها تجاه الغرب ، حدود اللياقة المسموح بها »(٥).

ولقد لعبت اسرائيل بالضبط الدور الذي انيط بها في سنة ١٩٥٦ وفي حزيران ١٩٦٧ لضرب الانظمة التي ارادت امريكا ان تعاقبها ومن هنا جاء الاستبشار بنتائج حرب حزيران فقد ذكر احد الكتاب الامريكيين بان « عضلات اسرائيل مع مرونة الولايات المتحدة ، اعطت نتائج مرضية ، وكفائدة غير مباشرة لحرب اسرائيل الخاطفة فان الولايات المتحدة ستكون على الاقل في موقع قوي لتحييد الشرق الاوسط ، حتى يمكن تسويق نفطه بصورة رابحة واستعمال ممراته المائية لفائدة التجارة العالمية(٦) وصرح دين راسك بعد حزيران ١٩٦٧ قائلا « ان نتائج القتال كانت انتصارا للغرب بكل معنى الكلمة »(٧)، اما لجنة الكونجرس الخاصة بالسلام في الشرق الاوسط فقد ذكرت بان « السلام في الشرق الاوسط كان يواجه تهديدا حقيقيا من السياسات التقدمية التي تتبعها الجمهورية العربية المتحدة وحلفاؤها والتي كان يعتقد بانها تعمل لالحاق الضرر بالمصالح الامريكية والبريطانية في المنطقة وتساعد على انتشار الشيوعية »(٨).

لقد لخص شموئيل يعري دور اسرائيل في الحقبة الماضية قائلا بأن « اسرائيل ساهمت في استقرار المنطقة التي تعتبر الدول الرجعية دعامتها ، وترسيخ النفوذ الامريكي وطرد النفوذ السوفييتي ، لقد خرج الغرب رابحا في ١٩٦٧ لان اسرائيل حطمت الحربة الناصرية لازالة النفوذ الغربي وانظمة الحكم الموالية للغرب في الشرق الاوسط ، لذلك فان اي تحول في موقف الولايات المتحدة سيؤدي الى اضعاف وضع اسرائيل ازاء مصر سيساعد على تجديد انقضاض الثوريين العرب والسوفيات من ورائهم ضد الرجعية العربية ومصالح النفط الغربية »(٩).

بدأ الحديث عما يسمى بأزمة النفط منذ مطلع ١٩٧٢ ، ولقد دللت الاحصائيات على ان اعتماد الغرب وامريكا واليابان على نفط الشرق الاوسط وشمال افريقيا سيتزايد في السنين القادمة ، فالولايات المتحدة تواجه حالة جديدة فهي تستورد الان نحو ٤ ملايين برميل في اليوم عشرها فقط من منطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا الا ان الولايات المتحدة ستستورد حوالي ١٥ مليون برميل بعد عام ١٩٨٥ معظمها من هذه المنطقة ويقدر خبراء النفط كلفة هذه الكميات من النفط بحوالي ٣٠ ــ ٣٥ مليار دولار سنويا(١٠)، وسيبلغ احتياج العالم حوالي ١٠٠٠ مليون طن في سنة ١٩٨٠ معظمها من دول الشرق الاوسط ، تستهلك الولايات المتحدة منها حوالي ٦٠٠ مليون طن(١١).
وذكر السناتور هانس بان امريكا ستواجه ازمة في الشرق الاوسط للاسباب التالية :
١ ــ ان الحرب في الشرق الاوسط قد تؤثر على ضخ النفط . ٢ ــ ان الاعتماد على

النفط سيؤدي الى عجز في ميزان المدفوعات الامريكي . ٣ — ان وضع امريكا كقوة عالمية سيصبح مهددا(١٢).

وصرح نيكسون في اليوم السادس من حرب تشرين قائلا : « ان انفجار الوضع في الشرق الاوسط يذكرنا مرة اخرى بمدى اعتماد الولايات المتحدة واوروبا واليابان على شحنات النفط في الشرق الاوسط »(١٣).

ان هذا التخوف قد دفع الولايات المتحدة للتحرك دبلوماسيا في الشرق الاوسط في بداية ١٩٧٣ من اجل تجميد الوضع في الشرق الاوسط وفي نفس الوقت اغداق السلاح على اسرائيل لتقوم بدورها في حالة الحاجة اليها ولقد كانت اسرائيل مدركة لهذه المخاوف لذلك توجهت جولدا مئير الى امريكا لتناقش هذه القضية مع نيكسون ولقد أوضح يوئيل ماركوس القضايا التي اثارتها مئير مع نيكسون قائلا : « لقد اوضحنا للادارة والجمهور الامريكي انه لن تكون هناك فيتنام ثانية وانه لن يسفك الدم الامريكي ، لقد قلنا أعطونا الادوات ونحن نقوم بالمهمة » واضاف « لقد اوضحنا للامريكيين بان اسرائيل قوية وذات وسائل ردع لن تبعث باليأس في نفوس العرب من الحلول العسكرية ، ولن تقرب بالتالي امكان السلام فقط ، بل ستحول دون تحول النزاع الى نزاع عالمي . لقد ادى صمودنا في حرب الاستنزاف الى خروج الروس من مصر خلافا لكل توقع ، لقد بينا بان اسرائيل قوية هي ضمانة للمحافظة على المصالح الامريكية في المنطقة ولقد اوضحنا بان الجيش الاسرائيلي ، بقوته المطلقة لا النسبية ، هو خط الدفاع الاول عن المصالح الامريكية في حوض البحر الابيض المتوسط اكثر من معظم دول حلف الاطلسي ، واننا الضمانة الوحيدة للمحافظة على الانظمة الاسلامية الموالية لهم في المنطقة ، مهما يبدو الامر غريبا ، فان اسرائيل في نهاية الامر هي التي تحمي نظام الاردن الموالي للغرب »(١٤).

اما اليعزر ليفنه فقد ذكر الدور الذي ستلعبه اسرائيل في البحر الاحمر قائلا : « دون الجيش الاسرائيلي ذي القوة الكبيرة والقادر على العمل عند الضرورة على اتساع رقعة المنطقة وبما في ذلك مضائق باب المندب ، لن يكون لواشنطن متكأ ضد تسلط روسيا على دول النفط ، واذا جمد تعاظم القوة الاسرائيلية فستسقط ايران في فلك موسكو وينحل حلف الاطلسي »(١٥).

لقد ركز قادة اسرائيل على ضرورة استمرار الاسناد الاميركي لاسرائيل لان الاعتماد على العرب والتخلي عن اسرائيل لن يخدم المصالح النفطية الامريكية بل سيضعها تحت رحمة الثوريين العرب ، ولقد ذكر احد السياسيين الاسرائيليين : «بأن دولة اسرائيل هي الحارس الرئيسي لاستمرار تدفق النفط من الشرق الاوسط الى أسواق العالم ، انها هي الضمانة الرئيسية لاستقرار تدفق النفط في شبه الجزيرة العربية وفي الخليج الفارسي — اسرائيل تسميه الفارسي، لا العربي — ، ولكن المؤسف انه بالنسبة للاوروبيين الغربيين واليابانيين ، وهم الرابحون الاساسيون من ذلك ، تلعب اسرائيل دور الحارس المجاني ، بينما نظام الحكم الامريكي هو الذي ينظر بتفهم الى الدور الذي يبدو متناقضا في الظاهر والذي تلعبه اسرائيل في ساحة الشرق الاوسط » واضاف الكاتب قائلا : « في الواقع ان اسرائيل هي التي تحمي وجود الاردن وتدافع عنه ضد اخواتها العربيات ، والاردن ما هو الا دولة حاجز تحمي المملكة العربية السعودية وامارات الخليج من الغزو السوري — السوفييتي من الشمال والغرب ، لانه بعد الاردن يأتي دور السعودية ، ان وجود وامن دولة الحاجز العربية هذه مصونان بواسطة اسرائيل »(١٦)، واضاف: جرشوم شوكسن في هآرتس

قائلا :(١٧)، « ان امريكا لن تخدم مصالحها اذا هي رأت في دعمها لاسرائيل دعمـــا لمحتاج ، عليه ان يدفع ثمن المساعدة بالتنازل عن استقلاله ، وليس اتفاقا مجديـا للمحافظة على المصالح الحيوية للولايات المتحدة ، وفي نهاية الامر فالولايات المتحدة تلحق ضررا ان هي تصرفت وكأن اسرائيل فقير يقف على بابها » .

واجهت هذه المخاوف الاسرائيلية حملة تطمينات امريكية بدأها الرئيس نيكسون بأن ذكر بأن تجميد الوضع في الشرق الاوسط سيتم الى ان تتوصل الولايـات المتحدة الى صحة الاستغناء عن نفط الشرق الاوسط بعد خمس سنوات وذكر بأنه لن يقبل ان يبقى تحت رحمة الاوضاع في هذه المنطقة(١٨)، وفي خطاب لنيكسون حول أزمة النفط ذكر نيكسون بأن هؤلاء الذين يتطلعون الى ربط سياسة امريكا نحو اسرائيل بما يحدث في مجال النفط العربي مخطئون وذكر بأن النفط العربي لا قيمة له بدون اسواق(١٩)، وجاء كيسنجر ليضيف بأنه لن يكون هناك تغيير في سياسة الولايات المتحدة تجـاه اسرائيل بسبب أزمة النفط(٢٠)، وجاءت تصريحات نائب وزير الخارجية الامريكـي كينيث رش في ١٩٧٣/١١/٣٠ والتي جاء فيها(٢١) بأن قدرة اسرائيل على الدفاع عن نفسها تشكل أساسا لاتفاقية السلام ، ولن يكن لفورد ــ الرئيس الحالي ــ الا ان يدلي بدلوه في بئر التأييد لاسرائيل فقد ذكر بأن الحزبين الجمهوري والديمقراطـي ملزمان بالحفاظ على بقاء اسرائيل وليس في رأيه ان تتفاوض اسرائيل مـع الـدول العربية من موقع ضعف لان قوة اسرائيل تعتبر الضمان الامثل لبقاء حكومات مسؤولة في منطقة الشرق الاوسط الغنية بالنفط(٢٢).

قبل التطرق الى آراء الاسرائيليين في أزمة النفط لا بد لنا ان نتكلم عن دور اسرائيل المباشر في ضرب المصالح النفطية العربية هذا الدور الـذي تبلـور في قضيتـين مهمتين هما :

١ ــ **خط ايلات ــ عسقلان** : افتتح هذا الخط في سنة ١٩٧٠ واعلن بـأن طاقته ستكون لهذه السنة بحدود ٢٢ مليون طن ، وكل المعلومات تشير الى ان النفط يأتي لهذا الخط من ايران ولقد ذكرت مجلة الايكونومست البريطانية بأن طهران وتل ابيب تعملان الان جادتين لخلق محور خاص بهما(٢٣)، لقد اختصر هذا الخط المسافة بالنسبة لناقلات النفط من ٢٠ الف كيلومتر حول افريقيا الى ٢٥٠ كيلومترا(٢٤) ولقد قـدرت التوفيرات من جراء استعمال هذا الخط بحوالي ٤٨ و٥ر٣٢ بالمائة من التكاليف التي تدفع لتسويق النفط عن طريق رأس الرجاء الصالح(٢٥)، الا ان هذا السبب لم يكـن الدافع الرئيسي لانشاء هذا الخط الذي اعتبره روتشيلد غير اقتصادي ، لان السبب الذي دفع بالشركات ورؤوس الاموال الامريكية للمساهمة بانشاء هذا الخط هو سبب سياسي وهو تكريس اغلاق قناة السويس والتوسع في هذا الخط لكي يكون البديـل لقناة السويس حتى لا تمارس الدول الغربية ضغطا على اسرائيل نتيجة الاضرار التي تقع بها بسبب اغلاق القناة ، علاوة على أن هذا الخط سيزيد من نفوذ اسرائيل فـي البحر الاحمر ، ويجعلها دولة نفطية لتستطيع ان تخدم بصورة افضل المصـالح الاحتكارية ، وبالفعل فان اسرائيل في الطريق الى ان تصبح دولة نفطية ، فان طاقة اسرائيل على تكرير النفط قد بلغت الان حوالي عشرة ملايين طن(٢٦). يوجد الان مصفاتـان ، الاولى في أشدود بطاقة ٢ر٤ مليـون طن سنويـا ، والاخرى فـي حيفا بطاقة ٥ر٦ مليون طن سنويا ، في حين تحتاج اسرائيل الى أقل من نصف هذه الكمية والباقي يصدر الى الخارج ، ولقد ذكر بنحاس سابير بأن طاقة اسرائيل على التكرير ستصبح عشرين مليون طن في ظرف السنين العشر المقبلة علاوة علـى ان

اسرائيل قد استفادت في توسيع شبكة صناعاتها البتروكيمياوية والتي تجني منهـــا الارباح الطائلة .

لقد قدرت الطاقة التي سيعمل بها الخط في ١٩٧٠ كما ذكرنا في حدود ١٢ مليون طن، لكن اسرائيل اعلنت خلال النصف الاول من السنة على ان الخط يضخ بحدود ٤٠ مليون طن ، ولقد جرى تقدير الكمية التي يمكن لايران ان تسوقها عـــن طريق الخط فوجد انها تبلغ نصف طاقة الخط وهذا قاد الى الاعتقاد بأن الشركات النفطية هي التي تسوق بقية النفط(٢٧)، ان هذا الخط ما كان ليمكن ان يصبح حقيقة بدون معونة الاحتكارات النفطية ومعونة ايران في هذا المجال(٢٨) والتي تعتبر ضربة موجهة للعرب وتعاونـــا مكشوفا مع اسرائيل والاحتكارات النفطيـــة ضد حقوق العـــرب المشروعـــة .

٢ ــ **نفط سيناء** : وقعت آبار النفط المصرية في سيناء بيد اسرائيـــل بعـــد حـــرب حزيران ١٩٦٧ ولقد تبين مما نشرته الصحف الاسرائيلية حول فضائح شركة (نتيفي نفط) سنة ١٩٧٢ بأن مدير الشركة موني فريد مان كان قد عين مديرا لابار النفط في سيناء قبل حرب ١٩٦٧ مما يدل على أن اسرائيل كانت تخطط لاحتلال سيناء ونفـــط سيناء(٢٩)، ولقد بدأت اسرائيل باستغلال نفط سيناء مباشرة بعد حرب حزيران ولقد حققت اسرائيل ربحا قدره ٥٠٠ مليون دولار منذ بدأت استغلال هـــذه الابـــار(٣٠) وتنتج الابـــار يوميـــا نفط قيمته ٧٥٠ الف لـــيرة اسرائيليـــة وتبلغ كميـــة النفـــط المستخرجة نحو ٥ ملايين طن سنويا اي أن هذه الكمية تغطي حوالي ٧٠ بالمائة مـــن احتياجات اسرائيل النفطية(٣١)، ولهذا السبب لم تقلق اسرائيل كثيرا عندما كان الجميع يتحدث عن أزمة النفط ، ولقد قدرت كمية النفط الموجودة في آبار سيناء الحالية بحوالي ١٢٠ مليون طن وهذه الكمية ستكفي اسرائيل لمدة عشرين سنة وهذا ما يدفع اسرائيل للاحتفاظ بهذه الابار لان التخلي عن هذه الابار سيكلف اسرائيل مليار دولار كل سنة للتزود باحتياجاتها من النفط في حالة انسحابها(٣٢) ولقد ذكر بعض المعلقين الاجانب بان اسرائيل لن تنسحب من هذه الآبار وانها ستحارب من أجل هذا النفط(٣٣)، ولقد ذكر خبير النفط الاسرائيلي يسرائيل كوزلوف بأن احد شروط السلام الحقيقية هي تأمين حاجة اسرائيل من النفط من الدول المجاورة وينبغي كنتيجة لذلك الغـــــاء المقاطعة العربية وبدون ذلك ستكون اعادة الحقول في سيناء مجافية للمنطق وحتى خطرة(٣٤)، أما تسفي دينشتاين ، نائب وزير المال ومفوض الوقود فقد أكد على ضرورة تزويد اسرائيل بنفط سيناء وان من الضروري ان تسوق الدول العربية الاخرى النفط الـــى اسرائيل وان تنهي الدول العربية المقاطعة ضد اسرائيل ولن تفعل الدول العربية ذلك الا بعد أن توقف مصر حربها الاقتصادية ضد اسرائيل(٣٥)، وذكر عمير شابير(٣٦) بأن سيناء تتحول بفضل معركة النفط الى موقع اقتصادي مهم ومن الممكن ان يؤدي وعي اسرائيل لاهمية حقول النفط الى تصلب في موقفها من محاولات تحقيق حل سلمي الا مقابل تنازلات مهمة لاسرائيل .

ان اسرائيل تساوم على حق وعلى آبار ليست ملكها من أجل ان تحصل من الدول العربية على أقصى قدر من التنـــازلات ، منهـــا فتح الاسواق العربيـــة للبضائع الاسرائيلية وبدون ذلك فان اسرائيل ليست مستعدة للتنازل عن نفط سيناء .

أزمة النفط وردود الفعل الاسرائيلية

مرت اسرائيل بأزمة اقل درجة من تلك التي عانتها بعض الدول الاوروبية ويرجع سبب ذلك الى نفط سيناء ، لقد تشكلت بعد حرب تشرين لجنة وزارية خاصة بالنفط

وفرضت هذه اللجنة قيودا على استهلاك النفط والكهرباء ، وهي:(٢٧) ١ ــ يمنع استعمال السيارات الخاصة الا في حالات استثنائية . ٢ ــ تقييد سرعة السيارات خلال ايام الاسبوع . ٣ ــ خفض قوة الكهرباء التي يستخدمها المستهلكون . ٤ ــ رفع أسعار مشتقات النفط ورسوم الكهرباء .

لقد أثارت ازمة النفط ضجة علـى الصعيد السياسي في اسرائيل وانقسم الرأي بشأنها الى أربعة اتجاهات تتلخص في(٢٨):

١ ــ الاتجاه الذي لا يرى خطرا عربيا حقيقيا في استعمال النفط كسلاح سياسي حاليا ، ولكنه يحذر من تزايد القوة الاقتصادية العربية نتيجة تراكم أموال كميات النفط الكبيرة المصدرة من الدول العربية ، خصوصا الى الولايات المتحدة ويمثل هذا الاتجاه اسحاق رابين ــ رئيس الوزراء الحالي ــ(٢٩) ففي مقابلة مع دافار قال : « ثمة أزمة وقود ، وسيزداد اعتماد الولايات المتحدة على وقود الشرق الاوسط ، ويحتمل ان تستخدم الدول العربية ، من الناحية النظرية ، هذا الاعتماد كسلاح سياسي . وهذا لا يبدو لي ، في هذه اللحظة ، خطرا حقيقيا ، مع انني ارى خطرا جديدا آخر هو ظهور القوة الاقتصادية ــ المالية للدول العربية نتيجة المبالغ الهائلة التي يتوقع أن تتراكم خلال السنوات المقبلة . وستكون هناك اتفاقيات لاستثمار اموال من الدول العربية في الولايات المتحدة . بسبب رغبة الاخيرة في تجنب ميزان مدفوعات سلبي . واذا تطور ذلك على نطاق واسع فسنرى العالم العربي يظهر كقوة اقتصادية ــ مالية داخل الولايات المتحدة بمقاييس لم يكن بالامكان التنبؤ بها .

٢ ــ الاتجاه الذي يعتبر ان اثارة ضجة كبيرة حول ازمة النفط جاء بالاشتراك مع بعض العناصر والجهات الامريكية المؤيدة للعرب والتي تريد استغلال المشكلة للضغط على اسرائيل من أجل التوصل الى اتفاق عربي ــ اسرائيلي . ولقد عبر عن هـذا الاتجاه يهوشع تدمور في دافار(٤٠) وجاء في هذا المقال بأن الشركات الاحتكارية تضغط على نيكسون من أجل انهاء النزاع العربي ــ الاسرائيلي حتى لو اقتضى الامر الضغط على اسرائيل ، وأيد تدمور دعوة السناتور جاكسون الى الوقوف بوجـه الابتزاز العربي (تسمي اسرائيل استعمال العرب لحقهم الشرعي بالابتزاز العربي) عـن طريق النفط والى تطوير مصادر نفط اكثر ضمانا في العالم العربي والى الاسراع في البحث العلمي حول انتاج الطاقة الذرية واستغلال وانتاج متزايدين للطاقة التـي مصدرها الفحم .

٣ ــ الاتجاه الذي يرى بأن الشركات الامريكية تثير ازمة النفط مـن اجل زيادة ارباحها . وقد عبر عن هـذا الاتجاه البروفيسور نداف سفـران فـي يديعـوت أحرونوت(٤١)، وذكر سفران بأن الخطر الحقيقي يكمن في توقف الاستخراج ، فهـو الخطوة التي يمكن ان تشل اقتصاد اوروبا الغربية واليابان ، وان تؤلم الولايـات المتحدة ألما شديدا وبصورة أكبر في المستقبل . وذكر بأنه اذا ما اريد ان يكون تأثير النفط ملموسا لكان على الدول العربية ان توقف الانتاج بصورة كلية وذكر بأن المرة الوحيدة التي ظهر فيها أن هناك خطر اضراب عام لمنتجي النفط عندما كان عبـد الناصر في قمة قدرته على اثارة المشكلات . فلو تحققت فعلا خطته لتوحيد مصر مع سوريا والعراق ، ولولا فشل مغامرته في اليمن ، ولو نجح في اسقاط حكومة السعودية والسيطرة عليها وعلى الكويت وامارات الخليج ، استطاع حقا ، نظريـا ، مسك الغرب من عنقه ، انني أؤكد نظريا ، لانه كان سيتلقى ضربة عسكرية ، قبل ان يصبح بامكانه تحقيق كل هذا ولم يكن لينقذه منها حتى الاتحاد السوفييتي ، الا اذا كـان مستعدا للمخاطرة بحرب شاملة . واضاف : وقد يأتي يوم يتكشف فيه ان شبح الخطر

ذلك هو الذي ادى الى التحول الحالي في سياسة الولايات المتحدة نحو مصلحة اسرائيل .

٤ — الاتجاه الذي يعترف بوجود ازمة نفط ، وان لهذه الازمة انعكاسات على صعيد الصراع العربي — الاسرائيلي بصورة مباشرة ، خصوصا بالنسبة لنفط سيناء، ولقد عبر عن هذا الاتجاه الياهو سلفطر في سلسلة مقالات في هآرتس(٤٢). وجاء في احد هذه المقالات « بأن الشرق الاوسط سيكون سنة ١٩٨٠ ، المصدر لتغطية ٧٧ بالمائة من عجز النفط في العالم الغربي ، وان اوربا الغربية هي التي ستعتمد عليه اساسا ، لا الولايات المتحدة . وستواجه اسرائيل ثلاثة احتمالات : ١) ان استغلال اعتماد الغرب على النفط العربي لاغراض الابتزاز السياسي موجه في الاساس ضد اسرائيل . ٢) استعمال فوائض الدخل الكبيرة المتجمعة في يد العرب لاغراض المعركة السياسية . ٣) تأمين تزويد اسرائيل بحاجتها من النفط في ظروف منافسة شديدة بين الدول الكبرى ، خصوصا اذا اضطرت اسرائيل الى التنازل عن مصادر النفط في سيناء .

وذكر بأن العرب يستطيعون ان يؤثروا على قوة الدولار بواسطة فوائض الدولارات المتجمعة لديهم(٤٣)، وذكر بأن ازمة النفط ستسبب انشقاقا داخل المعسكر الغربي وربما ادت الى تقويض الحلف الاطلسي(٤٤)، كما ذكر بأن الدول العربية تستطيع ان تؤثر من خلال المبالغ المودعة في البنوك المهمة ، وذكر بأن فائض الاموال سيمكن العرب من اغلاق تدفق النفط ، وذكر سلفطر(٤٥) بأن الموقف في اسرائيل يتلخص فيما يلي : ١) ان ضمان تزويد النفط من سيناء وآسيا سيشكل احد البنود الاكبر اهمية في أية تسوية سلمية قد تتحقق . ٢) توجد لاسرائيل مصلحة حيوية في استمرار الاستقرار في منطقة استخراج النفط من اجل تأمين تدفق النفط من تلك المنطقة .

وناقش سلفطر امكان استعمال النفط كسلاح في النزاع العربي — الاسرائيلي وذكر بأن ذلك مستبعد لوجود النفط الامريكي كبديل للنفط العربي. وذكر بأن امريكا نجحت من خلال اتفاقيات المشاركة ان تخلق مصلحة مالية اقوى من الماضي في استمرار ضخ النفط ، وان اعتماد اسرائيل المتزايد على تأييد الولايات المتحدة يقلل من قيمة ضغط عربي مباشر على دول اوربا الغربية التي تعتمد على النفط العربي ، وانتهى سلفطر الى القول : « في السنين التي ستمر حتى ايجاد حل ، سيحاول العرب طبعا استخدام القوة الكبيرة ، ولكن المؤقتة ، التي لديهم من جراء امتلاكهم كنوز النفط هذه ، بهدف ابتزاز سياسي ... يجب ان يكون هدف السياسة الاسرائيلية ، في هذا المضمار تمزيق اوراقهم ، وتقليل ضغطهم قدر الامكان »(٤٦).

آراء اسرائيلية لمواجهة ضغط الدول العربية

ان اهم الاراء التي طرحت لمواجهة ازمة النفط ، والضغط العربي تتلخص فيما يلي :

١ — الراي القائل بأن من الافضل ان تعمل اسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة لتجميد الوضع في الشرق الاوسط حتى يتسنى لامريكا واسرائيل ايجاد مصادر بديلة للنفط في السنين القادمة ، ولقد دعا الكثير من علماء اسرائيل الى جعل اسرائيل مركزا للبحوث العلمية لاكتشاف مصادر طاقة بديلة للنشاط ، للتخلص من الضغط العربي ويرجع هؤلاء الى قول وايزمن في اهمية جعل اسرائيل المركز الذي يكسر الاحتكار النفطي والذي جاء فيه « ان مسألة النفط التي تحوم فوق المشكلة

الصهيونية كما تحوم ولا ريب فوق مشكلات العالم بأسره : هي مسالة علمية جزء من مسألة المواد الخام التي شغلتني عشرات السنين كعالم وصهيوني ، فقد كان من رأيي دوما ان بالامكان جعل فلسطين مركزا للتطور العلمي الجديد الذي سيخلص العالم من الصراع الناشيء عن الوضع الاحتكاري للنفط »(٤٧).

وتعمل الان عدة مراكز للبحوث في اسرائيل في هذا المجال لاستغلال مصادر الطاقة البديلة وهي :(٤٨) ١) الطاقة الذرية . ٢) الطاقة الشمسية . ٣) استعمال الفحم لتوليد الطاقة . ٤) طرق اخرى كاستعمال الطاقة الجيو حرارية وخلايا الوقود .

ولقد دعا علماء اسرائيل الولايات المتحدة والغرب الى توظيف اموالهم في هذه المشاريع وفي ذلك يقول آلوف هوريف رئيس التخنيون (معهد التكنولوجيا الاسرائيلي) بأن التخنيون يعد مشروعا كاملا لايجاد مصادر للطاقة وهو يتوقع ان يوظف العالم الغربي أمواله في هذه البحوث لان البحوث في اسرائيل تكلف اقل مما هي عليه في امريكا(٤٩)، ولقد ساهمت فعلا عدة شركات امريكية في هذه البحوث وأوصى المجلس الاقتصادي الاستشاري في واشنطن بتحويل نحو ١٠ — ١٥ مليون دولار من شركات امريكية الى اسرائيل للقيام ببحوث في هذا المجال ، وذكر المشتركون في المجلس بأن احدى ميزات اسرائيل في هذا الموضوع هي أنها خارج مجال النفوذ المالي لشركات النفط وهذه الحقيقة تحرر اسرائيل من الضغط في هذا المجال وتمكن من تحويلها الى مركز بحث لايجاد مصادر طاقة بديلة عن النفط(٥٠).

٢ — الرأي الثاني والذي يدعو الدول الغربية وامريكا بعدم الانصياع للضغط العربي ويهاجم حاملو هذا الرأي اليابان والدول الغربية لانها أصبحت لينة تجاه هذا الضغط(٥١) ويقول اصحاب هذا الرأي بأن الغرب سيخسر كل نفوذه اذا ما تخلى عن اسرائيل ، ودعا اصحاب هذا الرأي الى استعمال الضغط المعاكس ضد العرب ، وهو منع القمح والآلات عن العرب(٥٢). ويوضح يوئل اليشور هذا الرأي قائلا « ان كلا من سوريا ومصر والاردن والسعودية والكويت تستورد ما يقارب ستين بالمائة من مجمل كميات القمح التي تستهلكها وتستورد عشرات المواد الاستهلاكية الغذائية الحيوية . كما ان الغرب يزودها بمعدات الكترونية ومعدات صناعية ، وان الضرر الذي يمكن ان يلحق بمصر نتيجة لايقاف تصدير القمح اليها يفوق الضرر الذي يلحق بالولايات المتحدة نتيجة لوقف ضخ النفط اليها »(٥٣). وقد وجد هذا الرأي قبولا كما يبدو في امريكا فقد هدد فورد بقطع القمح عن العرب ان هم استمروا في قطع النفط عن امريكا(٥٤).

٣ — اما الرأي الثالث فقد دعا الى استعمال القوة في حالة فشل الاسلحة الاخرى ضد العرب ، وأن تقوم اسرائيل بهذا العمل فقد ذكر ارئيل غيناي « بأن وجود اسرائيل قوية معناه ان هنالك خطرا دائما في امكان القيام بعمل عسكري تشارك فيه اسرائيل في حالة وصول الامور الى حد محاولة العرب شل الصناعة في الغرب عن طريق وقف ضخ النفط »(٥٥). أما حغاي أشد فقد ذكر بأن من واجب اسرائيل ان توضح لشركات النفط التي ستستجيب للضغط العربي بأن في امكانها ان تعرقل سير النفط بصورة كاملة او جزئية كما حدث في الماضي ، وفي امكانات محدودة ، وان العتاب سيوجه الى شركات معينة ودول معينة(٥٦).

٤ — الرأي الرابع يكمل بقية الآراء ويدعو أصحابه الى ايجاد الخلاف بين الدول العربية والدول الاخرى خاصة الدول الافريقية والآسيوية ، وذلك بأن تجعل اسرائيل من نفسها المدافعة عن هذه الدول نتيجة زيادة اسعار النفط ويهدف هذا الموقف الى

تحقيق عدة نتائج أهمها : ا ــ احداث فجوة بين العلاقات العربية ــ الافريقية لكي تخسر الدول العربية تايد هذه الدول . ب ــ اعادة العلاقات الاسرائيلية ــ الافريقية ذات الاهمية الخاصة بالنسبة لاسرائيل . جـ ــ اضعاف الجانب الافريقي المؤيد للعرب وتقوية الجانب الافريقي المؤيد لاسرائيل في افريقيا والمتمثل في كينيا واثيوبيا ودول اخرى وبدات اسرائيل تحقق بعض النتائج الايجابية على هذا الصعيد .

وكمثال على المقولات التي تطرحها الصحف الاسرائيلية لاستغلال الوضع ضد العرب هو ما ذكرته صحيفة الجيروسليم بوست من ان الدول النامية ستحتاج الى السماد النتروجيني ، المشتق من النفط ، ونتيجة لارتفاع الاسعار فسيكون من الصعب لهذه الدول الحصول على هذه المادة الضرورية وستكون النتيجة موت الملايين من هذه الدول(٥٧) .

وذكرت الصحف الاسرائيلية بأن الدول المتقدمة لن تستطيع ان تقدم معونات للدول النامية كما كانت تفعل من قبل نتيجة زيادة هذه الاسعار وكمثال لذلك فان اليابان كانت تقدم ١٧٠ مليون دولار لكوريا في السنين الماضية ونتيجة لازمة النفط فان اليابان قدمت هذه السنة ٩٠ مليون دولار فقط ، كما ان الدول النامية ستتعرض الى نفاد نقدها الاجنبي نتيجة لشراء النفط بهذه الاسعار الغالية(٥٨) . ان الصحف الاسرائيلية تعرف جيدا من الذي يستغل الشرق الاوسط والدول العربية من اجل زيادة الارباح ، ان الولايات المتحدة تجني كنتيجة مباشرة من استغلال النفط العربي أكثر من مليار دولار سنويا ، عدا الارباح الناجمة من تصنيع هذه المواد النفطية والتي تزيد عشرات المرات عن الارباح المباشرة .

ان على الدول العربية أن تعي اهمية الدول النامية في معركتها من اجل النفط ولقد نبه كثير من الكتاب الى أهمية كسب الدول المنتجة للنفط تأييد بلدان العالم الثالث(٥٩) . لان من المستحيل أن تصل الدول المستهلكة النامية الى استعمال اي اجراء جدي ضد الدول المنتجة في حالة تأييد دول العالم الثالث لهذه الدول علما بأن دول العالم الثالث تشترك والدول العربية بنفس المشاكل وتواجه نفس العدو ، ومن هنا فان من الضروري الضغط على الشركات العاملة لبيع النفط الى هذه الدول بأرخص الاسعار ، علاوة على ان من واجب الدول ذات الاحتياطي الهائل من النقد كالعربية السعودية والكويت استغلال جزء اكبر من هذا الاحتياطي من اجل مساعدة هذه الدول في اعطائها قروض طويلة المدى . كما ينبغي على الدول العربية شن حملة اعلامية تؤكد فيها على الدور الذي تلعبه اسرائيل في تعزيز استغلال الدول العربية والدول المنتجة للنفط في الشرق الاوسط لتكون هذه الحملة مدخلا الى تمكين العرب من استعمال سلاح النفط بصورة مباشرة كسلاح في المعركة ضد اسرائيل وضد الدول التي تقف مع اسرائيل ضد حقنا الشرعي في استغلال ثروتنا . كما أن من الضروري شن حملة عالمية لتوضيح الضجة التي اثارتها الدول المتقدمة حول ما يسمى بأزمة النفط ولعلنا لا ننسى تصريحات ممثلي الشركات العاملة في الشرق الاوسط من انهم حققوا أكبر قدر من الارباح في الاشهر التي تلت حرب تشرين .

لقد كان غرض هذا البحث تسليط الضوء على دور اسرائيل واسنادها للمصالح والشركات النفطية ودورها في محاربة اي تحرك من قبل أي نظام عربي من اجل وضع الثروة الوطنية بيد أصحابها .

الحواشي :

١ — مكسيم رودنسون ، **النزاع العربي الاسرائيلي** ، ص ١٤ .

٢ — سلمان رشيد سلمان ، المانيا النازية والقضية الفلسطينية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٣١ ، آذار ١٩٧٤ .

٣ — ريتشارد بارنت ، **حروب التدخل الامريكية في العالم** ، ص ١٥ ، دار ابن خلدون ، ١٩٧٤ .

٤ — E. Yevesegev, Zionist Capital, *International Affairs*, Oct. 1970.

٥ — **هآرتس** ، ١٩٥١/٩/٣٠ .

٦ — **مجلة نيوزويك** ، ١٩٦٧/٦/١٩ ، ص ٧ .

٧ — طالب يونس ، سياسة امريكا الخارجية ، **شؤون فلسطينية** ، عدد ٢٦ .

٨ — نفس المصدر السابق .

٩ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٣/١٤ .

١٠ — **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، ملحق عدد ٣ ، ١٩٧٣/٢/١ .

١١ — **جيروسليم بوست** ، ص ٩ ، ١٩٧٣/١٠/١٤ .

١٢ — **نشرة م. د. ف.** ، ملحق عدد ٣ ، ١٩٧٣/٢/١ .

١٣ — **نشرة م. د. ف.** ، ملحق عدد ٢٧ ، ١٩٧٣/١١/١ .

١٤ — **نشرة م. د. ف.** ، ملحق عدد ٦ ، ١٩٧٣/٣/١٦ .

١٥ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/١١ .

١٦ — **دافار** ، ١٩٧٣/٤/٥ .

١٧ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .

١٨ — **جيروسليم بوست** ، ص ١ ، ١٩٧٣/١٠/٩ .

١٩ — **جيروسليم بوست** ، ص ١ ، ١٩٧٣/١٠/٦ .

٢٠ — **جيروسليم بوست** ، ص ٤ ، ١٩٧٣/١٠/٩ .

٢١ — **ريتشارد بارنت** ، ص ٣٨ .

٢٢ — **رصد اذاعة اسرائيل** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، عدد ٥٢٤ ، ١٩٧٤/٥/٤ .

٢٣ — *The Economist*, June 8, 1968.

٢٤ — **نشرة م. د. ف.** ، عدد ٨ ، ص ١٤٢ — ١٤٤ ، ١٩٧١/٧/١ .

٢٥ — **اللواء** ، **بيروت** ، عدد ٦٥٣ ، ص ٥ ، ١٩٧١/١١/١٠ .

٢٦ — **نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية** ، عدد ١٤ ، ص ٤٤٥ ، ١٩٧٣/٧/١٦ .

٢٧ — يوسف الصائغ ، جريدة **النهار** ، بيروت ، ١٩٧١/٦/١٧ .

٢٨ — عاطف سليمان ، **اسرائيل والنفط** ، مركز الابحاث ، ١٩٦٨ .

٢٩ — **نشرة الارض** ، دمشق ، عدد ٧ — ٨ ، ص ٢٥ ، ١٩٧٣/١٢/٢١ .

٣٠ — **دافار** ، ١٩٧٣/٤/٥ .

٣١ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٨/٣١ .

٣٢ — **جيروسليم بوست** ، ص ٤ ، ١٩٧٤/١/١٨ .

٣٣ — **واشنطن بوست** ، ص ٢٣ ، ١٩٧٤/١/١٤ .

٣٤ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٨/٣١ .

٣٥ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢٣ .

٣٦ — **نشرة م. د. ف.** ، عدد ١٩ ، ص ٦٠٦ ، ١٩٧٣/١٠/١ .

٣٧ — **معاريف** ، ١٩٧٢/١١/٩ ،

٣٨ — **نشرة م. د. ف.** ، ملحق عدد ١٠ ، ص ٢٠٧ ، ٧٣/٥/١٦ .

٣٩ — **دافار** ، ١٩٧٣/٢/٢ .

٤٠ — **دافار** ، ١٩٧٣/٢/٥ .

٤١ — **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٣/٢/٢٣ .

٤٢ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٢/٢ .

٤٣ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٢/١٢ .

٤٤ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٢/٧ .

٤٥ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٢/١٠ .

٤٦ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٢/١٦ .

٤٧ — **جيروسليم بوست** ، ١٩٧٤/١/١٨ .

٤٨ — سلمان رشيد سلمان ، **دراسات عربية** ، عدد ٨ ، حزيران ١٩٧٤ .

٤٩ — **جيروسليم بوست** ، ١٩٧٣/١٢/١٩ .

٥٠ — **معاريف** ، ١٩٧٣/٥/٢٢ .

٥١ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١١/٢٩ .

٥٢ — **جيروسليم بوست** ، ص ٨ ، ١٩٧٤/١/٣ .

٥٣ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١٠/١٧ .

٥٤ — **رصد اذاعة اسرائيل**، بيروت ، عدد ٣٠ ٤٣ .

٥٥ — **هآرتس** ، ١٩٧٣/٦/١٠ .

٥٦ — **دافار** ، ١٩٧٢/٧/١٦ .

٥٧ — **جيروسليم بوست** ، ص ٩ ، ١٩٧٤/٢/١٥ .

٥٨ — **جيروسليم بوست** ، ص ٩ ، ١٩٧٤/٤/٤ .

٥٩ — مايكل تانز ، **الندوة العلمية العالمية** ، عدد ١ ، بغداد ، ص ٣٠ ، ٧٢/١١/١١ .

دور القرى الأمامية العربية في مواجهتنا مع العدو الاسرائيلي

العميد الركن محمد الشاعر

اذا كان اقتصاد السلم الريفي يهدف أساسا الى اشباع الحاجات الاجتماعية في المجتمع الاشتراكي على الصعيدين الفردي والجماعي فان الاقتصاد الريفي يهدف في المقام الاول الى تحقيق النصر الذي لن يتحقق بدون ازالة آثار الاحتلال الصهيوني لاراضينا العربية . من هذا المنطلق تطمح الجماهير الشعبية العربية لجعل المجهود الاقتصادي في المدينة والقرية أساس المجهود الحربي وتخصيص جزء أكبر من الموارد الانتاجية في المجتمع للاستهلاك والاستثمار الحربيين (بالنسبة للحرب النظامية والحرب الشعبية) وذلك على حساب التوسع في الطاقة الانتاجية للمجتمع وعلى حساب الاستهلاك المدني .

واذا كانت ظروفنا الاقتصادية في قطاعها الزراعي (وهذا ما يتعلق في بحثنا) نتيجة للاحتلال الصهيوني تقتضي اتخاذ العديد من الاجراءات لتعبئة الفائض الاقتصادي الزراعي واعطائها عناية خاصة ليس فقط لاهميتها الاقتصادية دائما كذلك لان أية حرب تحريرية لا يمكن ان تستمر الا اذا اتخذت جماهير الفلاحين قاعدة متسعة لها تزود الحرب بالعدد الاكبر ممن يقومون بالقتال في الحرب النظامية وكذلك بالمواد الغذائية والمواد الاولية وتمثل أساس حرب التحرير الشعبية في ريف دول المواجهة بشكل خاص وريف الدول العربية بوجه عام .

نقول اذا كانت ظروفنا الاقتصادية تدفعنا لتحقيق هذه الاجراءات فان القرية الامامية على الحدود المؤقتة تدفعنا كذلك وبقوة أكبر لتحقيق عدة اجراءات اقتصادية وعسكرية وبمعنى أوسع قلب القرية الامامية التي نطلق عليها مجازا (قرية دفاعية) الى وحدة اجتماعية ريفية متماسكة وهذا يعني القضاء نهائيا وبأقل ما يمكن من الزمن على الوجه المتخلف للقرية العربية على الحدود التي تواجهها قرية يهودية عصرية قد تضارع القرية الاوربية من حيث اسلوب المعيشة واستعمال الالة على نطاق واسع في كل مجالات العمل الزراعي والانتاج الريفي بوجه خاص .

وهذا يقتضي خلق علاقات اجتماعية جديدة لسكان القرى الامامية تتلاءم مع معركتنا المصيرية وصمود قريتنا الامامية وتحديها لقوى العدوان الغادر . ويمكن تحقيق ذلك بالتوصل للاهداف الخمسة التالية : خلق علاقات اجتماعية بين سكان القرى الامامية تتلاءم مع المعركة المصيرية ، تحصين هذه القرى وتوفير كل وسائل الصمود لسكانها ، توفير العمل المستمر المنتج لابناء هذه القرى ، تأمين الخدمات الصحية والتعليمية والمرافق الحيوية كالمياه والكهرباء ، استصلاح الاراضي وازالة جميع الصعوبات المتعلقة بهذا الموضوع . ويتم تحقيق هذه الاهداف بتنسيق العمل بين الوزارات المختصة سيما وأن الكثير من الخدمات الاجتماعية هي من اختصاص وزارات متعددة كوزارة الدفاع والصحة والشؤون البلدية والقروية وغيرها .

ان المنطلق الذي تستند عليه فكرة اعتبار القرية الامامية وحدة دفاعية اقتصادية كما ورد في مواضيع مؤتمر التعبئة الاقتصادية للتنمية والدفاع الذي انعقد في دمشق صيف ١٩٦٨ كان صحيحا ومنطبقا تمام الانطباق على واقعنا الاجتماعي وظروفنا الموضوعية التي نمر بها في أصعب مرحلة من مراحل التطور الاقتصادي لبلداننا العربية التي تخلصت ولا تزال تتخلص من عبء التخلف

الاجتماعي والاقتصادي والسياسي بعد ان عانى السنين الطوال مآسي ومصاعب النظام الاقطاعي النصف رأسمالي وأشدد على وصف النظام بالنصف رأسمالي لان معظم ثوراتنا الاجتماعية ولدت وهي تحمل أعباء ومشاكل اقتصادية لنظام متأرجح غير متكامل يعاني نقصا فادحا في كل قطاعاته الاقتصادية وبصورة خاصة القطاعين الرئيسيين : الصناعة والزراعة . أضف الى ذلك تركة ثقيلة من الطاقات البشرية المعباة في الحقول غير المنتجة وكادرا من الموظفين والعمال الفنيين الذين يشكلون في مجملهم عددا كبيرا وكافيا من حيث الكم أما من حيث النوع والمقدرة على العمل والاتقان فمعظمهم دون الوسط ولا أخفي عليكم انه اتيح لي قبل عامين ان أقوم بدراسة تقريبية لاوضاع موظفي بعض الوزارات الفنية لبلد عربي فكانت النتيجة كالتالي : ١٥٪ من الموظفين بدون عمل محدد ، ١٠ ٪ معاون فرع او مكتب او ورشة لرئيس لا يتطلب عمله وجود معاون ، ٢٠ ٪ يمكن الاستغناء عن خدماتهم بدون أن ينقص الانتاج على الصعيدين المكتبي والانتاجي، ١٥ ٪ مخربون وغير راضون عن عملهم ، ٤٠ ٪ موظفون منتجون الا ان معظمهم يشكي ويتظلم ويتألم من وجود الفئات المذكورة .

وعندما نذكر مثل هذا الوضع قد يتراءى للبعض ان في ذلك خروجا عن فكرة موضوعنا الاساسي ، غير ان ذلك غير صحيح وعلة ذلك ان القرية الدفاعية التي نطمح بانشائها في أقصر زمن واقل كلفة قد تتعثر وتسير الخطى بكل صعوبة وثقل بفعل العصي والحجارة التي توضع أمام دولاب العمل ومع ذلك نعود الى موضوعنا الاساسي من الزاوية الاقتصادية قبل الزاوية الدفاعية على اعتبار ان الاقتصاد هو القاعدة الاساسية الذي يستند عليه كل عمل سياسي او عسكري او اجتماعي .

ان قوانين التطور الاقتصادي لمجتمعنا الذي يضع اسس بناء الاشتراكية بصورة خاصة في القرى الامامية تتطلب منا أن نطرد من أذهان فلاحينا فكرة البقاء على الزراعة المجزاة ذات المردود الضئيل . لان هذه القوانين تحتم علينا ايجاد مزارع كبيرة ممكننة على مستوى رفيع من الممكن انشاؤها بطريقتين : الاول — الطريق الرأسمالي : وهو طريق لا يمكن أن يقبل في بلادنا بعد الان لانه لا يتلاءم مع السلطة الشعبية ولن يطالبنا الفلاحون تطبيقه بعد أن ناضلوا ضده على مر عشرات السنين . أما الطريق الثاني — فهو طريق توحيد الجهود ، طريق العمل الجماعي هذا الطريق الذي لا يؤدي الى انقسام الفلاحين وانقسامهم الى أسياد وعبيد ، الى أرباب عمل واجراء ، الى مستثمرين ومستثمرين . هذا الطريق الذي يستند على تجميع الاراضي والادوات الزراعية من اجل العمل المشترك والتوزيع العادل للموارد بين الفلاحين حسب العمل الذي يقدمه كل منهم ، واذا كنا نحن بحاجة لان نختار طريق الانتاج التعاوني لقرانا الداخلية وقد خطت سوريا الثورة وغيرها من الدول العربية خطوة واسعة في هذا المجال فما أحوجنا في هذه المرحلة الى تطبيق طريق استثمار الارض الجماعي ضمن اطار التعاونيات الزراعية لقرانا الامامية التي تقف سدا منيعا امام همجية الصهيونية والاستعمار .

من هنا يجب علينا أن لا نتساءل او نتردد عندما نقرر المضمون الاجتماعي والجوهر الاقتصادي للقرية الامامية التي سنبنيها في هذه الظروف التي اعتمد فيها شعبنا على الكفاح المسلح طريقا لتحرير الارض المغتصبة والعمل على خلق المجتمع الريفي الجديد الذي سيلعب دورا فعالا في معركتنا القادمة التي لا بد ان نخوضها حماية للوجود العربي المهدد من قبل الصهيونية والاستعمار .

القرية التعاونية الزراعية الدفاعية

ان القرية التعاونية الزراعية الدفاعية في ظروف قرانا الامامية هي الشكل المقترح الذي سيسود هذه القرى . ان المضمون الاقتصادي للتعاونية الزراعية يستند على اقامة مؤسسة زراعية جماعية كبيرة وهي تتشكل من توحيد الفلاحين الفقراء والمتوسطين من قرية واحدة او عدة قرى متجاورة ، بعد أن قرروا ان يبنوا تطبيق الاسس الريفية الاشتراكية في القرية بجهودهم المشتركة ، ومن البديهي ان مثل ذلك لن يتحقق اذا لم تتم السلطة في كل قطر عربي على الصعيدين الشعبي والحزبي بنشاط فكري وعلى مستوى الدعاية والتحريض وفقا لبرامج توعية مدروسة وعملية تتلاءم وعقلية فلاحينا الذين يعيشون في مرحلة صعبة ويعانون أزمة مادية ومعنوية

سلطان اتخاذ اجراءات فورية وحاسمة ورفد هذه القرى بمناضلين حزبيين وغير حزبيين الى القرى الامامية لتحقيق مهام عديدة اهمها : المساهمة مع سكان القرى في عمليات التحصين ، الاشتراك مع السكان في عمليات الانتاج ، عقد ندوات توعية لسكان هذه القرى حول مفهوم صراعنا مع العدو وطبيعة المعركة التي تخوضها الجماهير العربية وارادة الصمود التي تحقق النصر وأهم العوامل التي تثبت المواطنين في الارض .

المبادىء الاساسية لانشاء القرية التعاونية الزراعية الدفاعية وتطويرها :

١ ــ الطوعية : يمكن لكل فلاح صغير ومتوسط ان يصبح عضوا في التعاونية بعد ان يقتنع بفوائد الاستغلال التعاوني الكبير للارض وأن يرغب بنفسه في الانضمام غير أن السلطة قد تضطر للمصلحة الدفاعية وللسير في تطبيق الخط الاشتراكي وخاصة في القرى الامامية التي تقع عليها أعباء دفاعية وانتاجية من اتخاذ تدابير صارمة ضد اولئك الذين يتعرضون لخرق الانظمة والاهداف التي وجدت من أجلها فكرة انشاء وتطوير القرى الامامية .

٢ ــ ملكية جماعية لا تتجزأ لوسائل الانتاج والارض بعد أن كانت ملكية خاصة للفلاحين الذين انضموا للتعاونية .

٣ ــ العمل باستمرار على زيادة وتحسين الممتلكات الاساسية والدورية للتعاونية وزيادة الانتاج . ولهذا الغرض تخصص سنويا الاموال من موارد التعاونية لشراء ماكينات جديدة وحيوانات منتجة ولتوسيع المزروعات الدائمة ، ولتشييد الابنية ومنظومات الري وغير ذلك مع مراعاة الناحية الدفاعية في كل منشأة او بناء يجري تنفيذه ويتم ذلك وفقا لتعليمات العسكريين الاخصائيين في وزارة الدفاع .

٤ ــ المبدأ الاشتراكي لتوزيع الموارد . بموجب هذا المبدأ يتقاسم اعضاء التعاونية الدخل السنوي الذي يتبقى لدفع اجور العمل ، وذلك حسب العمل الذي يقدمه كل فرد والنتائج التي يحصل عليها . هذا الامر يشجع أفراد التعاونية ماديا على تقديم منتوجات أكثر بمصاريف أقل .

٥ ــ التوفيق الصائب بين المصالح الشخصية للتعاونيين والمصالح الاجتماعية من جهة وبين مصالح التعاونية ، ومصالح الدولة من جهة ثانية . وما هو مفيد للتعاونية والتعاونيين ، يجب ان يكون مفيدا للمجتمع بكامله .

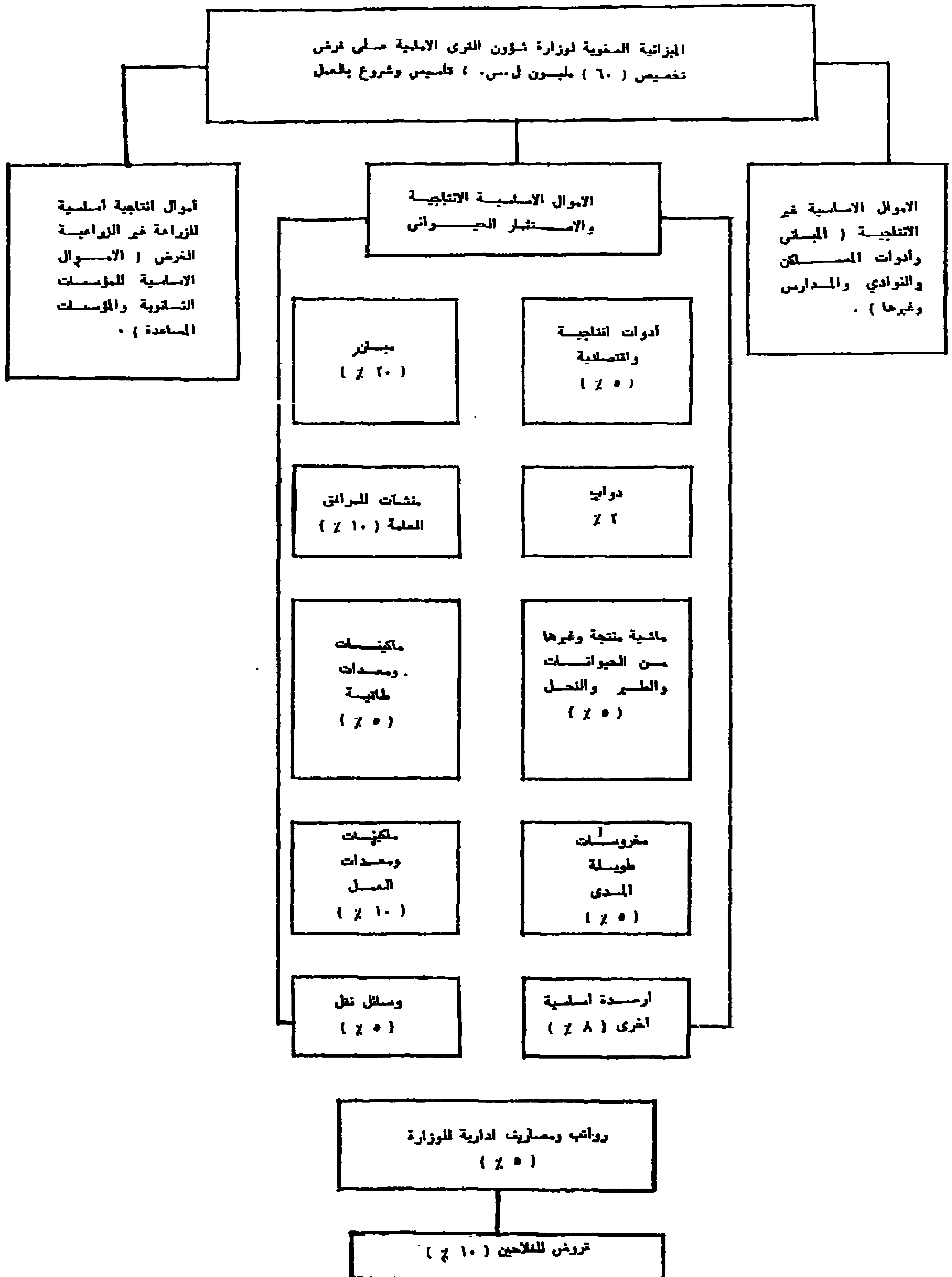
٦ ــ ابقاء قطعة ارض وحيوانات زراعية لكل عائلة تعاونية وذلك بهدف انشاء مزرعة خاصة مساعدة ، وفي الحدود التي يسمح بها النظام الداخلي للتعاونية .

القاعدة التكنيكية للنظام التعاوني في القرى الامامية :

ان عملية التحويل التعاوني للزراعة في القرى الدفاعية يجب ان تبنى على أساس زيادة انتاجية العمل في الزراعة وتربية المواشي وهذا يتطلب توحيد القوى ووسائل الانتاج في المزارع الخاصة المجزأة وتوزيع العمل في داخل المزرعة التعاونية تلك الاسلوب الذي سيؤدي الى نتائج أيجابية . ان العمل اليدوي الشكل السائد في معظم قرى الحدود والتكنيك البدائي لا يمكننا الوصول الى نجاحات كبيرة . ان الضرورة تقتضي تجهيز المزارع الكبيرة المستحدثة بتكنيك حديث . وهنا تبرز الحاجة الماسة الى توفير الاموال للمزارع المستحدثة بغية شراء الماكينات وتأمين الملاكات (الكوادر) التي تستطيع ادارة الماكينات الزراعية ومثل هذا الوضع وفي ظروف قرانا المتخلفة تكنيكيا يقتضي اقامة محطات ماكينات وتراكتورات .

ان الفكرة التي سادت ولا تزال تسود حول انشاء القرية والتركيز على تأمين البيت الريفي للفلاح بشكل فيلا دون التركيز على ما هو أهم من البيت وحتى من المرافق العامة ونعني وسائل الانتاج والتحصين والتدريب العسكري للسكان المقيمين في قرى الحدود نقول ان هذه الفكرة يجب ان تزول فالبيت الصحي للعائلة الريفية ليس هو الهدف المنشود في المراحل الاولى من بناء القرية وتطويرها . ان خلق ظروف العمل وايجاد الجو المناسب الذي يربط الفلاح بالقرية والارض هو الهدف الرئيسي والنقطة الاساسية التي يجب ان تركز عليها جميع الجهود . من هنا تأتي أهمية وضع البرنامج وتوزيع ميزانية الوزارة او المؤسسة التي تتخصص ببناء وادارة قرى الحدود انطلاقا من مبدأ البدء بالاهم ثم المهم وعلى سبيل

توزيع الميزانية المقترحة



المال لو قدرنا ان الميزانية لمثل هذه الوزارة او المؤسسة بحدود ٦٠ مليون ل.س والمطلوب انجاز (٢٠) قرية خلال عام نقترح ان توزع المخصصات حسب النسب المبينة في الجدول السابق .

من مجمل هذا الجدول المقترح يتضح لنــا تخصيص أكثر من ٦٥ ٪ من مجموع الميزانية لتأمين وسائل الانتاج والقروض للفلاحين وهذا اقل ما يمكن تخصيصه لبناء القرى الامامية وتطويرها .

محطات الماكينات والتراكتورات : وقد خصص لها في الجدول المقترح اكثر من ٢٠ ٪ وذلك يعود لعدة أسباب اهمها مكننة الزراعة واشاعة الالة بصورة متتالية وفقا للامكانات المالية مما يلعب دورا حاسما في رفع انتاجية العمل وبالتالي ارتفـاع مداخيل الفلاحين .

ان محطات الماكينات والتراكتور هي عبارة عن مؤسسات زراعية اشتراكية ضخمة ، مخصصـة لمساعدة الفلاحين في عملهم من أجل فلاحة أفضل للارض ، ومـن أجل محاصيل أكثر وانتاجية عمل اعلى .

عن طريق تأمين هذه الماكينات والتراكتـورات للقرى الامامية تقدم الدولة للفلاحـين مساعدة اقتصادية وتكنيكية وتنظيمية اكثر فعالية وبعبارة ادق تضع الدولة بصورة مباشرة القاعدة المادية والتكنيكية للنظام التعاوني المنطلق الرئيسي والارض الصلبة التي يمكن منها الوقوف امام مستوى ريفي متقدم يتمثل بالكيبوتز والموشاف الشكلين السائدين للمزارع في الاراضي المحتلة من قبل الصهيونيـة والاستعمار .

ان التركيز على موضوع القاعدة المادية التكنيكية للقرى الامامية والذي يتمثل بخلق هذه المحطات الالية له من الاهمية بمكان لان العدو عندما نشر التراكتور في القرية اليهودية بقدر ما نشر الدبابة او الطائرة او الصاروخ فكان مقتنعا بأن قيمـة الاولى من الناحية الانتاجية وحتى الدفاعية لا تقل عن الثانية ، من هنا تبرز لنا كثرة حوادث إنفجار الالغام تحت التراكتورات اليهودية التي تحرث كل شبر من أرض وطننا السليب هذه الالغام التي يبثها أبطال المقاومة العرب وابناؤنا الفدائيين . ومن هنا يبرز أيضا سؤال مضمونه كيف ينظـم العدو هذه المحطات ؟ . والاجابة علـى ذلـك تتلخص بالتالي :

ان محطة الماكينات والتراكتورات في «اسرائيل» تشكل شخصية حقوقية مستقلة ويشرف عليها مدير يدير المحطة على أسس القيادة المركزية والانضباط الحكومي وهذا سائد في الكيبوتزات ويساعد المدير مجلس اداري يشترك فيه مهندس زراعي رئيسي والمهندس الميكانيكي الرئيسي ورئيس المحاسبة وقادة المنظمات الاجتماعية في المحطة والقائد العسكري ويشارك في ذلك المجلس الانتاجي للكيبوتـز أو الموشاف . وغير ذلك من الافراد والهيئات ذات العلاقة الانتاجية . تخصص كل فرقة من فـرق التراكتورات لتعاونية زراعية معينة وتعتبر الفرقة وحدة انتاجية أساسية عندما تكون التعاونيـة الزراعية كبيرة تخصص لها فرقتان او أكثر من فرق التراكتورات .

يقــوم رئيس الفرقة وفقا لتوجيهات رئيس التعاونية الزراعية باعداد برنامج لعمل التراكتورات وينظمان العمل المشترك لسائقي التراكتـورات والتعاونيين .

نحن والعدو على صعيد الاقتصاد الريفي

ان الموقف الذي نحن فيه الان بعد أن خضنـا مع العدو اربع حروب خلال مدة ربع قرن يحتم علينا ان ندرس عدونا دراسة موضوعية تستند على العلم والواقع الصحيح . واذا كانت مثل هذه الدراسة تتركز على النواحي العسكرية بشكـل خاص فنحن أحوج ما نكون لان نعيد النظر ونطـور دراستنا لتصبح شاملة وموضوعية تتناول جميـع مرافق الحياة والفاعليات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يمارسـها عدونـا والـريف « الاسرائيلي » بسكانه الذين يؤلفون ما يقـارب الـ ٢٠ ٪ من اليهود في الارض المحتلة يحتـل حيزا اساسيا في المجتمع اليهودي لان هذه النسبة من سكان الريف تلعب دورا هاما على الصعيدين الاستعماري الاستيطاني والاقتصادي والعسكـري من ناحية وعلى الصعيد السياسي والثقافي مـن الناحية الاخرى .

الموشاف والكيبوتز : وفي الريف « الاسرائيلي » يسود شكلان من المؤسسات الريفية همـا : الكيبوتزات والموشافات وعددها يكون ٩٨ في المئة

من المستعمرات القروية ويقيم فيها حوالي ثلثي سكان المستعمرات القروية وقد دون في اخـــر احصاء مفصل صدر عام ١٩٦٤ ان عدد الموشافات تضاعف ثلاث مرات ونصف المرة على ما كان عليه عند اغتصاب فلســطين عام ١٩٤٨ . وتضـــاعف سكان هذه الموشافات اربع مرات بينما تضاعــف عدد الكيبوتزات في الفترة نفسها مرة وثلث المرة ، وتضاعف عدد سكانها مرة ونصف المرة فقط وفي لغة الارقام بلغ عدد الكيبوتزات في عــام ١٩٦٤ حوالي ٢٣٠ كيبوتزا يقيم فيها حوالي ٨١ الــف يهودي وعدد الموشافات في احصاء نفس العــام ٢٦٧ موشافا يقيم فيها حوالي ١٣٤ الف يهودي ومن المنتظر انه بنهاية هذا العام (١٩٧٥) تكون هذه الارقام ـ خلال مدة عشر سنوات ـ قــد زادت بنسبة ١٥ ـ ٢٠ ٪ .

ولا تسمح مثل هذه الدراسة التوسع في دراسـة جوهر وطبيعة هذين النوعــين مــن المؤسسات الريفية الا اننا يمكن ان نعطي بعض الملامح الهامة لهمــا .

الموشاف : مع بداية القرن العشرين بدأ شكل جديد من الزراعة الجماعية يشق طريقه الى الظهور في الاوساط اليهودية في فلسطين بالاضافة الى الشكل الذي كان قد برز الى حيز الوجود وهو الكيبوتز وكان هذا الشكل الجديد من الزراعة التعاونية مزيجا من العناصر الجماعية من جهة ، والعناصر الفردية من جهة أخرى ، وعرف باسم الموتشافيم أي « المستعمرات الزراعية لصغار الملاك » .

١) **المبادىء** : تشكل الزراعة الاساس الــذي يقوم عليه موشاف عوفديم وتعتبر الارض التابعة للموشاف ملكية عامة اما طريقة حياة الافراد فمبنية على العمل الذاتي والمساعدة المتبادلــة والشراء والبيع التعاونيين ، ويشكل الموشاف جمعيــة منظمة لها هدف مشترك تسعى ضمن حدودهـــا لتأمين مصدر عمل وعيش افرادها .

٢) **التحكيم** : تتبع الهستدروت محاكم خــاصة للبت في جميع الخلافات والنزاعات التي تنشأ بين المؤسسات التابعة له ومن اعضاء هذه المؤسسات وتكون قراراتها ملزمة اذا قبل الطرفان تحكيمـــا وبعد قيام « اسرائيل » عام ١٩٤٨ حصرت صلاحيات عدد المحاكم بالقضايا المتعلقة بالعضويــة فــي الهستدروت واحيلت القضايا الاخرى الى المحاكم المدنيــة .

٣) **حقوق وواجبات الاعضاء** : ان اعطـــاء ارض لعضو الموشاف لا يعطيه بموجب الدستور حق بيعها او تأجيرها او زراعتها بواسطة عمال بأجر ، ان بصورة مؤقتة ، او دائمة ، ولا يجوز استخدام العمال بأجور الا بموافقة خاصة .

عدا عن واجبات اخرى تتعلق بدفع أكــلاف الخدمات العامة التي تقدم في القريــة وضرورة زراعة الارض حيث أن كل عضو يفشل في زراعــة أرضه بعد خمس سنوات من اقامته في الموشاف يطرد منه اذا رأت الادارة ذلك .

وهناك العديد من الاسس منها ما يتعلق بالاباء والابناء ومشاكل تزايد العائلة وعدم تجزئة المزرعة والارث ومسؤولية المرأة في الموشـــاف ، وعمــل الموظفين العاملين وغير ذلك من القضايا الاقتصادية والاجتماعية .

الكيبوتز : ان كلمة كيبوتز تعني بالعبرية ـ جماعة ـ وقد تطور معناها فأصبحت ترمز الــى جماعة من الناس يعيشون ويعملون سويا في مزرعة جماعية ، وتمتاز ظروف المعيشــة في الكيبوتــز بالتقشف وفقدان الحياة الخاصة . فسكان الكيبوتز يقطنون البيوت الصغيرة القريبة من بعضها بعضا، فالشقة الواحدة تتكون من أربع وحدات سكنيــة وتحتوي كل وحدة على غرفة واحدة تسكنها عائلة ـ أي رجل وامرأة ـ وفي بعض الحالات يوجــد رواق يستعمل كغرفة ثانية في الصيف . بيد أن النمو الاقتصادي في بعض المستعمرات الجماعيــة (الكيبوتزات) سمح بتوزيع الوحدات السكنيــة المخصصة للمتزوجين . أما الحمام والمنافع والمطبخ وغرفة الغسيل فتعتبر خدمات واماكن جماعية فــلا يوجد حمامات خاصة مثلا ، بينما يتناول الجميــع الطعام في صالة الاكل العامة (المطعم في الكيبوتز) ويتم تنظيف الثياب وكيها في بيت الغسيل العــام للكيبوتز . وبالاضافة الى ذلك يوجد بيت للخياطة ومخزن عام ومكتبة عامة . اما الاطفال فانهم لا يعيشون مع آبائهم .

ولا يخفى على زائر الكيبوتز او على من يطالع الكتب المنتشرة عن هذه المؤسسة انهــا مجتمع

مغلق يحيا حياة تقشف رافقت الكيبوتز منذ ولادته في مطلع القرن الحالي ، وفرضتها آراء «رواده» الذين اتخذوا من الاسبارطيين وحياتهم مثلا أعلى حاولوا تقليده . والعمل في الكيبوتز اجباري لا مهرب منه ولا تسويف فيه ومن هنا كان تنظيم العمل وتوزيعه مهمة في غاية الاولوية ، ولا مجال لمخالفة هذا التنظيم، والذي يشبه التنظيم العسكري في صرامته ، لان العقوبة هي الطرد والتشهير على نطاق واسع .

وتتصف الحياة في الكيبوتز بدرجة عالية من الجماعية فلا يوجد ملكية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . ان الانتاج والعمل والاستهلاك يتم او يفترض أن يتم على أساس جماعي ويحظر القيام بنشاط اقتصادي فردي ، ولا يحتاج سكان المستعمرات الجماعية الى استعمال النقود داخل المستعمرة اذ أن حاجات الفرد في الكيبوتز مؤمنة بموجب مبدأ من كل حسب مقدرته ولكل حسب حاجته .

ان الغاء الملكية الخاصة الغاء تاما هو أحد مبادىء الكيبوتز الرئيسية ، فالملكية الجماعية تشمل وسائل الانتاج والارض والابنية والبضائع الاستهلاكية ...

فلا توجد أية أسهم ، ولا توزع قطع الارض على اعضاء الكيبوتز . ان الملكية الموجودة تابعة للمجتمع ككل .

ويفترض في الاعضاء الجدد تحويل ما يمكن من ممتلكاتهم الى مجتمع الكيبوتز ، كما يفترض في اعضاء الكيبوتز الذين يسمح لهم بالعمل خارج المستعمرة ان يحولوا معاشهم بتمامه الى الكيبوتز ومن ثم يحصلون على مخصصات تكفي لسد حاجاتهم المعيشية .

التخطيط العسكري للقرى والمستعمرات الامامية في « اسرائيل »

انظر المخطط رقم ١

انشئت المستعمرات والقرى الامامية في « اسرائيل » لمهام اقتصادية وعسكرية ولتؤدي عملا زراعيا واخر عسكريا دفاعيا ، وتسكنها عائلات يهودية فلاحية تتمتع بالروح العسكرية واشراك ابنائها رجالا ونساء في الدفاع وان هذه المستعمرات والقرى الامامية تقوم بمهام المخافر الامامية « لاسرائيل » وهي أشبه بجرس الانذار التي تقوم بمهمة قتال الاعاقة للجيش النظامي وتشكل بمجموعها نسق التغطية الاول تدعمها القوات العسكرية المتمركزة قريبا منها ، فاذا كانت القوة الضاربة الرئيسية تشكل قلب الجيش الاسرائيلي تتمركز وراء الحدود لتقوم بمهمة الامن الاستراتيجي للدولة فان المستعمرات والقرى الامامية يقع عليها عبء الامن المحلي والدفاع والقيام بمهام تعبوية واستراتيجية وفقا لامكانياتها ومواقعها .

نظمت المستعمرات والقرى الدفاعية الامامية على أساس نقاط استنادا تشكل بمجموعها جزءا من الخطة الدفاعية وتتعاون اكثر هذه القرى والمستعمرات بالنار وبشكل تستطيع معه الواحدة ان تدعم الاخرى بمدافع الهاون والرشاشات والاسلحة المضادة للدبابات .

ان تنظيم الدفاع فيها بني على الاسس التالية:

١ — ان كل مستعمرة او قرية أمامية تشكل نقطة دفاع متماسكة مع النقاط القريبة منها ، وهي محصنة تحصينا قويا وقادرة على الصمود امام الهجمات مدة من الزمن لا تقل عن (٦ — ١٢) ساعة حتى وصول النجدات اليها في اسوأ الاحوال .

٢ — كل مستعمرة او قرية امامية تحاط بالالغام والاسلاك الشائكة وقادرة على الدفاع عن نفسها من جميع الجهات وقد تطور تحصنها مؤخرا وبصورة خاصة مستعمرات الجليل الاعلى في فلسطين حيث زودت بشبكات معدنية شائكة بعضها مكهرب وبعضها مزود بالاجهزة الالكترونية التي تساعد على كشف الفدائيين وتحدد أماكن دخولهم للحدود العامة او الخاصة بالمستعمرة يضاف الى ذلك ترك زنار رملي بعرض ٦ — ٨ أمتار بين صفين من الاسلاك الشائكة لطبع أقدام المتسللين داخل الارض المحتلة على الرمل اضافة لاجهزة الرصد والاكتشاف الالكتروني .

٣ — الاكتفاء الذاتي من حيث السلاح والذخائر والتموين .

٤ — تبنى معظم المستعمرات بشكل دائري . تقام البيوت على المحيط ثم تليها المزارع . أما

المرافق العامة (مراكز صحة ومدارس ومستودعات ... الخ) . فتقام في الوسط .

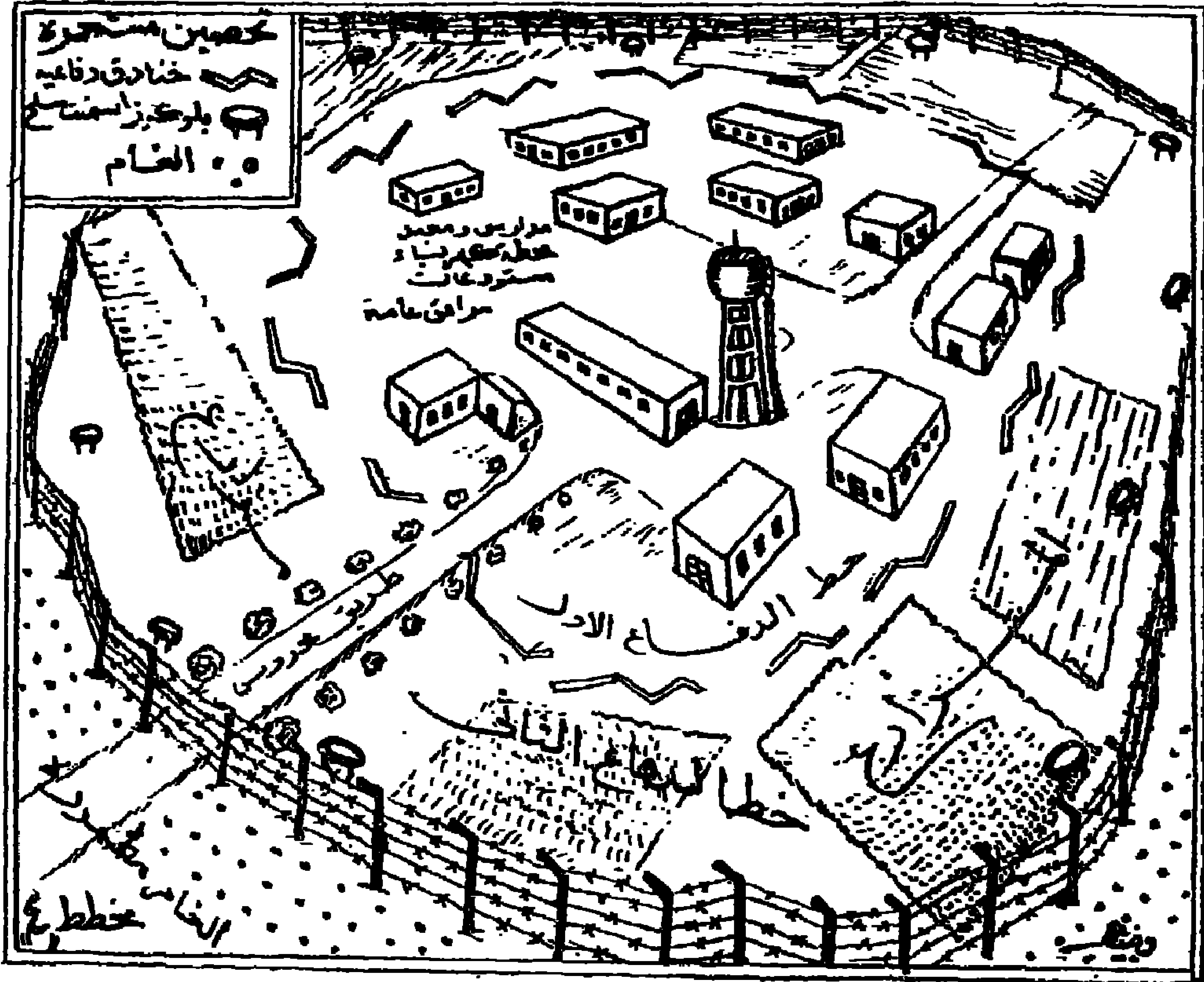
٥ — تحمى المستعمرة او القرية بخطين دفاعيين يبتدأ الاول امام البيوت والثاني ينشأ امام المزارع وتحفر خنادق مواصلات بين هذين الخطين .

٦ — كل عائلة تسكن في وحدة سكنية ولها مزرعتها ونقع عليها مسؤولية الدفاع عن القطاع الذي يقع امام بيتها ومزرعتها ؛ مشكلة بذلك تقاطع نيران بين القطاعات المتجاورة ، ومؤمنة دفاعا دائريا متماسكا من جميع الجهات ، تحاط هذه المستعمرات بالاسلاك الشائكة والالغام .

ان المهمة الاساسية لهذه المستعمرات والقرى الامامية هي كسر حدة هجوم القوات العربية المهاجمة ليسهل نعيين اتجاه محاور الجهود الرئيسية للهجوم حتى تتمكن القوات الاسرائيلية من تجميع قواتها وتوجيه الضربة في المكان والزمان المناسبين .

وتفيد هذه المستعمرات والقرى الامامية الجيش الاسرائيلي في حالة الهجوم لاستعمالها قواعد لحشد القوات والتموين وحماية خطوط المواصلات ودعم المؤخرات .

طريقة تحصين المستعمرة اليهودية



مخطط رقم (١)

— ينشأ الخط الثاني أمام المزارع
— تحفر خنادق مواصلات بين هذين الخطين
— تحاط المستعمرة بحقل من الالغام والاسلاك الشائكة
— تحمى المستعمرة أو القرية بخطين دفاعيين
— ينشأ الخط الاول أمام البيوت

الحياة في الريف الاسرائيلي واسلوب الانتاج :

ان تنظيم المستعمرات في اسرائيل بني على أساس علمي يهدف الى توزيع سكان الريف توزيعا يتفق والاستثمار الامثل لكل جزء من أرض فلسطين سواء كان سهلا ام جبليا ، مع اعطاء الناحية الدفاعية أهمية قصوى للمحافظة على هذه المستعمرات والتوفيق بين خطط التنمية الاقتصادية والخطط العسكرية في الدفاع وعلى هذا الاساس اتجه الاستيطان في الريف ووزعت المستعمرات في المناطق التالية :

آ ــ مستعمرات الجبال : وتشكل خطا دفاعيا قويا في مناطق الحدود . وقد انشأت اسرائيل خلال السنوات العشر الماضية اكثر من ١٥٠ مستعمرة.

ب ــ مستعمرات السهول : تقع في منطقة لاخيش وتمتد من أطراف الجليل قرب بيت جبريل الى ساحل البحر قرب مجدل وعسقلان ، وفيها نحو ٣٠ مستعمرة ذات موقع عسكري جيد ومسيطر على محاور الطرق الهامة .

مستعمرات منطقة تمناع : وتقع بين العفولة ومدينة بيسان وتبلغ مساحتها ٣٢٠ الف دونم .

ج ــ مستعمرات منطقة يفتاح : وتقع عند نهاية وادي عربة ، وفيها يقع ميناء ايلات . وظروف الحياة قاسية في هذه المنطقة مما دفع بحكومة اسرائيل لجعل أكثر النشاط فيها متصورا على وحدات من المجندين يقضون خدمة زراعية اجبارية فيها .

د ــ المستعمرات الساحلية : التي تهتم بصيد الاسماك ويبلغ عددها حوالي ٤٠ مستعمرة موزعة بين حيفا وتل ابيب وعكا .

ويعتبر مستوى الحياة في الريف الاسرائيلي عاليا اذا ما قورن بالريف العربي ، لان الفرق بين الحياة في المدينة والقرية وخاصة في القرى القريبة من المدن شبه معدوم ، فقد عمت الكهرباء جميع المستعمرات الاسرائيلية كما أن طرق المواصلات وتعددها ساعد على سهولة التنقل ، ويندر وجود مستعمرة يبلغ سكانها ٢٥٠ نسمة بدون مدرسة .

ويبلغ عدد المستعمرات في اسرائيل حوالي ١٤٠٠ مستعمرة يعيش فيها السكان حياة تختلف اختلافا جزئيا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . وفي رأينا ان لا صحة لما يفهم خطأ من وجود نظام اشتراكي في بعض المستعمرات . فالنظام الاشتراكي في مجتمع من المجتمعات لا يمكن تطبيقه تطبيقا علميا صحيحا الا اذا كان البلد او الدولة بمجموعها سائرة في هذا الخط . فالنظام الاشتراكي من الوجهة الاقتصادية يقوم بالدرجة الاولى على بناء قاعدة مادية تكنيكية ، وجعل وسائل الانتاج ملكية عامة وغير ذلك من الاجراءات والتدابير السياسية والاجتماعية المتعلقة بوضع الطبقات وتنظيم السلطة وادارة الانتاج واسلوب التوزيع . أما أن تبنى مستعمرة تعرف باسم كيبوتس يدعي سكانها تطبيق المبادىء الاشتراكية ، بينما هم يعيشون وسط مستنقع من التناقضات والنواقص الاقتصادية والاجتماعية والتفسخ الخلقي وقلب دولة رأسمالية خلقتها الصهيونية والامبريالية العالمية لتتجسد فيها الرأسمالية الاحتكارية في الشكل والمحتوى ، فهذا اعتقاد خاطىء لا يتفق مع مبادىء التطبيق الصحيح للاشتراكية العلمية ان النظام القائم في بعض المستعمرات التي يطلق عليها الكيبوتس والذي يستند على تجميع عدد من المواطنين في كيان زراعي تحت ظل مفهوم سياسي واحد ، هدفه خلق جيل من سكان الريف مشبعين بالروح العسكرية والعدائية ، هو مخالف للنظم الاشتراكية الصحيحة .

ان الحياة في مستعمرات الكيبوتس هي أشبه بحياة الجنود داخل المعسكرات . فالاشتراكية لا تعني فتح مطابخ جماعية ومدارس حضانة ومحلات عامة فقط ، ثم يعمل الفرد لقاء الملبس والمأكل والنامة لتحقيق هدف سياسي عسكري معين . ان مثل هذه التدابير قد تكون من حيث الشكل اشتراكية، اما من حيث المحتوى فليس للاشتراكية فيها أي معنى باعتبار ان حكام اسرائيل هم المحرك الرئيسي والعنصر الحاسم الذي يدير دفة الحياة للاستمرار في السير عبر بحر الرأسمالية .

ومهما تنوعت اساليب الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المستعمرات والقرى الزراعية في اسرائيل فان الاهداف الرئيسية لها تتلاقى جميعا في هدف واحد وهو الحفاظ على دولة اسرائيل وتحويلها الى اقوى دولة على الصعيدين الاقتصادي والعسكري في منطقة الشرق الاوسط . ويوجد في اسرائيل عدة انواع من المستعمرات اهمها :

المستعمرات المستقلة (موشاف) وهذا النوع من مجموعة من المستعمرات الكبيرة يغلب الطابع الاوروبي على سكانها لان معظمهم جاءوا اليها خلال عهد الانتداب البريطاني من أوروبه ، وقد انشأتها جمعيات صهيونية وقسمتها الى أراض بيعت بأسعار معتدلة للاغنياء وللفئات متوسطة الدخل ، لاقامة المزارع والبيوت الخاصة بهم .

يتكون سكان الكبوتس من مجموعة من الناس يخضعون لنظام اقتصادي سياسي واجتماعي موحد ، طبق عليهم نظام شبه اشتراكي عسكري يعتبر نوعا خاصا باسرائيل . ويعمل أهل هذه المستعمرات لقاء الحصول على الطعام والسكن والملبس وتأمين بعض الخدمات الاجتماعية . ويوجد في كل مستعمرة (كبوتس) مرافق عامة مشتركة كالمطابخ والحمامات والمدارس ودور الاطفال . أما وسائل الانتاج فقد جعلت ملكية تعاونية ، وطريقة دفع الاجور تكون وفقا لايام العمل التي يقوم بها المزارع مع الحفاظ على مبدأ دفع الراتب الاساسي لكل من يشارك في الانتاج ، ويوجد عدة انواع من الكبوتس فرضتها النزاعات السياسية باعتبارها هي الاساس التي يرتكز عليها نظام الكبوتس ، ومن هذه الانواع :

الكبوتس الموحد : وهي تابعة لحزب الماباي وعددها ٩٠ .

كبوتس العامل المزراحي : وهي تابعة لحزب المزراحي واملاكها تعود للوكالة اليهودية ويبلغ عددها ١٥ .

وكيبوتس حيروت : وهي مستعمرات عسكرية تابعة لحزب حيروت وهي محدودة لا تتجاوز العشر مستعمرات وتقع قرب الحدود ، وغير ذلك من الكبوتسات المختلفة الانظمة والنزعات السياسية ويبلغ عدد الكبوتسات على مختلف أنواعها ٢٥٠ كبوتزا ويوازيها ما يعادل ٤٠٠ موشافا .

المستعمرات الاشتراكية التعاونية : يرتكز الاساس الاقتصادي لها على الملكية التعاونية لوسائل الانتاج الا ان اسلوب العمل فيها وشروط المعيشة في المستعمرات التعاونية سبب وجود ثلاثة أنواع منها : فالنوع الاول قائم على توزيع مزارع متساوية في المساحة لكل أسرة ، وتشترك هذه الاسر في شراء أدوات الانتاج كالتراكتورات والحصادات وغيرها ، والنوع الثاني يتيح للفرد الذي يعمل فيها علاوة على امتلاك المزرعة ، تشغيل عمال بالاجرة ويسمح له بالعيش حسب رغبته (يوجد مثل هذا النوع في يوغوسلافيا) ، والنوع الثالث نظم على أساس توزيع المستعمرة بشكل اسهم للمزارعين لا يجوز بيعها لانها ملكية مشتركة .

وفي مقدمة كتاب بلدانية فلسطين المحتلة للدكتور أنيس صايغ يذكر شرحا وافيا وجيدا لانواع المستعمرات وفقا للاحصاءات والتعاريف التالية : ان النوع السائد، الاكثر شيوعا، في بلدان فلسطين المحتلة ، اليهودية ، هو الكيبوتز . والكيبوتز (وهي كلمة عبرية تعني لم الشمل) قرية جماعية. أرض القرية ومبانيها وأدواتها كلها ملك جماعي للقرية . ولذلك فالحياة فيها مشتركة : فيها مبان لسكن الاولاد واخرى لسكن المتزوجين ، واخرى للطعام او اللهو او للنوادي . وقد برز هذا النوع من المستعمرات الى حيز الوجود خلال موجة الهجرة اليهودية الثالثة الى فلسطين في أعقاب الحرب العالمية الاولى ، أي حوالي ١٩١٨ — ١٩٢١ . وهو تطوير أساسي لنوع اخر من المستعمرات كان قد ظهر منذ ١٩١٠ وسمي الكفوتزا (أي « الجماعة » بالعبرية) ، وهي جماعة زراعية تعاونية تعمل في مزرعة مشتركة على أرض وطنية يكون الانتاج والشراء فيها جماعيين ويرتكز الاستهلاك على مبدأ ارضاء الاحتياجات ضمن القدرة الاقتصادية، ويتحمل الكفوتزا مسؤولية الاسكان والتعليم والتطبيب . وبالتدريج تطور هذا النظام الى الكيبوتزات الشائع حاليا ، وهو أوسع مفهوما من النظام السابق ، بحيث يشمل الصناعة والعمل المأجور ولا يضع حدا لحجم الجماعة .

للكيبوتزات ولاءاتها السياسية . وهي بالتالي تنضم الى واحدة او اخرى من مؤسسات جماعية تشرف عليها . أشهرها الكيبوتز الموحد (هاكيبوتز هاميئوحيد) الذي تأسس ١٩٢٧ . وهو يشكل النواة الرئيسية لحزب احدوت هاعافودا (الذي تأسس ١٩٥٤ منشقا عن حزب المابام) . وهو يسيطر على ٦٠ كيبوتزا يعمل فيها حوالي ٢٥٠٠٠ شخص . قاعدته في عين حارود : يأتي بعد

الكيبوتز الموحد ، في الاهمية ، الكيبوتز الوطني (كيبوتز هارتزي هاشومر هتسعير) الذي تأسس في ١٩٢٧ أيضا . وهو يضم الكيبوتزات التي تستمر في فرض القيود على عدد اعضاء الكيبوتز الواحد ومساحته دون ان ترفض الايدي العاملة المأجورة ولا الصناعة . وتقوم عقيدة الكيبوتزات «الكيبوتز الوطني» على جمع غريب بين الصهيونية والاشتراكية الماركسية . وهي توالي حزب المابام. وعددها ٧٥ كيبوتزا يعمل فيها حوالي ٣٠٠٠٠ شخص . وقاعدتها في مرحفياه . أما الكيبوتزات التي استمرت تفرض القيود على العضوية وتتجنب العمل المأجور من الخارج ، والتي حافظت على تقاليد الكبوتزات في الانتقائية ، فانها تنضوي تحت لواء منظمة ثالثة هي اتحاد الكيبوتزات (ايحود هاكفوتزات في هاكيبوتزيم) . وقد تكون هذا الاتحاد بشكله الحاضر في ١٩٥١ . وهو غير مرتبط بحزب معين . الا ان معظم اعضائه من حزب المباي . وهو يسيطر على ٧٥ كيبوتزا يعمل فيها حوالي ٢٥٠٠٠ شخص . وهناك منظمة رابعة تسيطر على ١٠ كيبوتزات يعمل فيها حوالي ٤٠٠٠ شخص ، هي العامل الشرقي التي تنتمي الى حركة المستعمرات المتدينة (هاكيبوتز هاداتي) ، وهي فرع من حزب هبوعيل همزراحي . وما يميز الكيبوتزات التابعة لهذه المنظمة هو تمسكها بالاشكال الدينية التقليدية ، ومحافظتها الشديدة. والمنظمة الخامسة هي العامل الصهيوني (هعوفيد هتسيوني) التي تأسست ١٩٣٥ وتضم ٦ كيبوتزات يعمل فيها حوالي ١٥٠٠ شخص . وهي ترتبط بحزب الاحرار .

النظام الثاني من المستعمرات اليهودية في فلسطين هو الموشاف . والموشاف مستعمرة لمالكي اراض صغار . نشأت في الاصل عن الموشافا (اي المستعمرة ، بالعبرية) وهي قرية عمل ، أي قرية عادية تقوم على ملكية الارض الخاصة والمجهود الفردي . وقد بدأت بالظهور منذ الهجرة اليهودية الاولى الى فلسطين (١٨٨٢ — ١٩٠٤). والموشاف على انواع . ولم نهتم في هذه الدراسة بذكر الانواع الجزئية الا عند الضرورة . (احيل القارىء الذي يحب التوسع بدرس مؤسستي الكيبوتز والموشاف في اسرائيل ، الى دراستين في الموضوع صدرتا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت : الكيبوتز ، للاستاذ عبد الوهاب كيالي ، رقم ٤ من سلسلة دراسات فلسطينية ، ١٩٦٦ ، والموشاف ، للاستاذ ابراهيم العابد ، رقم ٢٦ من السلسلة نفسها ، ١٩٦٨).

أشهر انواع الموشافات هو الموشاف عوفديم ، أي القرية التعاونية . وهي قرية ترتكز على المساعدة المتبادلة وتكافؤ الفرص ، لكل عضو فيها مزرعة ، على قطعة صغيرة من الارض ، يعمل فيها العضو مع عائلته ، الا ان التعاونيات المركزية هي التي تتولى بيع المحصول وشراء المؤن والبذار والادوات . اما ملكية الارض فتعود الى الصندوق القومي اليهودي ، كما أن القرية تملك ، ككل ، بعض الاليات الزراعية . وهي ، عادة ، مستعمرة زراعية صرف ، يتراوح سكانها بين ١٠٠ و١٠٠٠ عضو . وتنتمي جميع موشافات هذا الصنف الىحركة المستوطنات(تنوعات هاموشافيم)، التي تأسست ١٩٢٨ وتضم حوالي ٣٥٠ موشافا يعمل فيها حوالي ١٠٠٠٠٠ شخص .

أما أنواع الموشافات الاخرى فتنتمي الى عدد من المنظمات ، أكبرها المؤسسة الزراعية (هموعيتزا هكلات) التي تأسست عام ١٩٣٣ وتضم ٥٢ موشافا يعمل فيها حوالي ١٦٠٠٠ شخص ، وعمال حزب اسرائيل (بوعالي اجودات اسرائيل) تضم ١١ موشافا يعمل فيها حوالي ٣٠٠٠ شخص، وحركة حيروت ، تضم ١١ موشافا يعمل فيها حوالي ٢٠٠٠ شخص .

هذه هي المنظمات الرئيسية التي تنتمي اليها غالبية المستعمرات اليهودية في فلسطين ، سواء كانت من الكيبوتزات او الموشافات . لكن هناك منظمات اخرى ، صغيرة الحجم والنفوذ نسبيا، لعدد من المستعمرات . فهناك حركة الفلاح العامل الاميركية ، وجمعية الشبان الصهيونيين ، وبني برث ، والجادناع ، والناحال ، والهداساه ، واتحاد المزارعين ، وحركة المكابي — وكلها مؤسسات صهيونية يسيطر الواحد منها على عدد محدود من المستعمرات .

والكيبوتزات والموشافات هي غالبية المستعمرات اليهودية في فلسطين المحتلة . ففيها اليوم حوالي ٢٥٠ كيبوتزا (أي ضعف عددها في ١٩٤٨) وحوالي ٤٠٠ موشافا (أي أربعة أضعاف عددها ١٩٤٨).

ولكن هناك أنواعا اخرى من المستعمرات . أقل شيوعا ، من الكيبوتزات والموشافات : المعبرة (وهي مخيم للمهاجرين الجدد فقط) ، ومثلها موشاف المهاجرين ، والمستوطن البلدي ، والمستوطن القروي ، والمستوطن الصناعي ، والمؤسسة الثقافية والمدرسة الزراعية، والمزرعة، والمزرعة الاختبارية ، والمركز الزراعي ، ومعسكر العمل ، ومنشآت العمل ، والمصح ، والمنتجع ، ودار النقاهة ، والضاحية المستقلة او شبه المستقلة .

وتهتم بشؤون الزراعة عدة منظمات أهمها :

١ ـ منظمة الكيرن كاييمت : ومعناهـا الصندوق القومي اليهودي : كانت مهمتها شراء الاراضي من العرب وبيعها الى السكان اليهود . وقد بدأ انشاؤها عام ١٩٠١ وتقوم الان بعدة نشاطات منها استصلاح الاراضي وادارة المشاريع الزراعية الكبيرة .

٢ ـ منظمة الهستدروت (الاتحاد العام لنقابات العمال) تضم عدة منظمات ويبلغ عدد المنتمين اليها ١٨٠٫٠٠٠ نسمة يقطنون ٥٠٠ مستعمرة ويستثمرون اراض تقدر مساحتها بـ ٣٫٧ مليون دونم وينتجون ٧٥ ـ ٨٠ ٪ من مجموع حاصلات البلاد .

المبادىء والاسس التي يتركز عليها
تحصين القرى الامامية
(اسلوب الدفاع عن القرية)

ان اسلوب الدفاع عن الاعماق للبلاد او بمعنى اخر الدفاع عن القرى والمدن الصغيرة المتناثرة في انحاء الريف وخاصة على الحدود هـو المفهوم الجديد الذي ينتشر على نطاق واسع بعد تكرر الاعتداءات الصهيونية وبعد ان ثبت أن العدو عندما يهاجم بلادنا بقراها ومدنها المتناثرة فان المدافعين من أبناء المدن والريف سيكون لهم دور كبير في المعركة . ان مركز المقاومة يعترض طريق العدو في خط سيره ويبطىء من تقدمه كما يجعله مضطرا لاستهلاك جزء كبير من قوة هجومه واذا كانت مراكز الدفاع هذه موزعة على طريق تقدم العدو وفقا لتوزيع القرى والمدن الصغيرة فان العدو قبل توغله في أرض الوطن سيضطر كذلك الابطاء في خطوات تقدمه وهجومه فضلا عن فقدانه لحماسه.

وبهـذا يصبح الطريق مجهزا لضربات قواتنـا النظامية ، قوات الجيش المحاربة .

وهنالك وجه آخر من أوجه دفاع القرى والمدن الامامية له وجاهته وقيمته وقوته ، ان العدو قد يكون مدربا على الا يضرب رأسه في المعاقل الحصينة ، بل يتفاداها في البداية ويميل الى اختراق النقاط الضعيفة والاستيلاء عليها . وبهذا فان القرية او المدينة الصغيرة ، اذا اظهرت مقاومة عنيفة عالية فان العدو سيصاب حتمـا بالخيبة ولو كان متقدما بكل قواته المروعة ، ولا يمكن الاستيلاء على المواقع ، اذا كانت قد وضعت خطة محكمة للدفاع تمتاز بسهولة التنسيق والتنفيذ بشكل سليم وحاسم .

ان الاعداد الجيد زمن السلم لكل الاعمـال الهندسية بدءا من ملاجىء حماية النساء والاطفال والشيوخ اثناء قصف القرية بالمدفعية او الطيران وتحصين مراكز المقاومة التي ستحتلها وحدات الجيش الشعبي للدفاع حتى الموت وحفر خنادق المواصلات كل ذلك سيلعب دورا حاسما في مقاومة القرية او المدينة الصغيرة ويكبد العدو خسائر فادحة عندما يحاول احتلالها ويكسر من حـدة موجات هجماته المحمولة او المدرعة . وتعطي قرى لبنان الجنوبية مثلا سيئا للقرية الضعيفة الغير معدة عسكريا او اقتصاديا للصمود امام هجمات العدو المتكررة الامر الذي يتطلب القيام بحملة على مستوى الوطن العربي لتحصين هذه القرى واعداد سكانها عسكريا واجتماعيا واقتصاديا ليصبحـوا على مستوى الصمود امام هجمـات العـدو المتكررة .

ان وضع الخطة الدفاعية للقرية الامامية هو من اختصاص القيادة العـامة للجيش الشعبي بالتنسيق مع القيادة العامة للجيش والقـوات المسلحة للجيوش النظامية . الا ان هناك بعض الاعمال الدفاعية والتي هي جزء من الخطـة العامة يقع عاتق تنفيذها علـى القادة المحليين للجيش النظامي او الشعبي نذكر منها على سبيل المثال انشاء المراكز الدفاعية الصغيرةوالاستحكامات والخنادق والتي يجب ان تكون بوجه عام : قادرة علـى الدفاع من جميع الجهات ، محددة المواقع بحيث تغطي المناطق الحيوية ، يساند بعضهـا البعض الاخر .

ان اعمال التحصين في المدن والقرى بوجه خاص يجب ان تنفذ بالطريقة الاقتصادية وبالاسلوب الشعبي المبسط وان يستفاد من المواد المحلية . ان فكرة انشاء جميع التحصينات من الاسمنت المسلح هي فكرة خاطئة وغير ممكنة للتنفيذ لنشرها على نطاق واسع لحماية الجماهير الواسعة من ابناء شعبنا .

ان المهندس العسكري الواقعي والذي يربط القضايا العسكرية بالواقع الاقتصادي والسياسي لبلدنا يبتكر احسن الطرق ويفتش عن ارخص التكاليف لانشاء الملجأ لحماية المواطن او الحصن للمقاتل ، والارض خير واق واقوى ملجأ اذا ما احسن استعمالها وخاصة الاستفادة من المغاور والجروف والهيئات الطبيعية الحاكمة وغير ذلك .

ان الملاجىء كقاعدة عامة تكون اما خفيفة او ثقيلة وكلها تكون بشكل حفر تحت سطح الارض . تكون الاولى بالعمق (٢ — ٥ر٢) م والثانية أي الثقيلة بعمق اربعة امتار وتزود بمجموعة تصفية وتهوية .

ان النوع الذي يهمنا هو الملاجىء الخفيفة التي تؤمن حدا مقبولا لحماية أرواح المواطنين على نطاق واسع ولا تحتاج الى المال الكثير والجهد الكبير وتقلل من الاعمال الالية . يمكن عند الحاجة استخدام الملاجىء المسبقة الصنع من الاسمنت المسلح والخشب او الصفائح المعدنية القديمة ومن أكياس الرمل وفي بعض الاحيان من البلاستيك.

ان الملاجىء الخفيفة لا تؤمن الوقاية من القصف الجوي او الارضي فحسب بل أنها تؤمن الوقاية من العوامل التدميرية للاسلحة النووية .

١ — الملجأ الخفيف (٣٠٠ — ٤٠٠) م من مركز الانفجار .

٢ — الملجأ الثقيل (١٠٠ — ١٥٠) م من مركز الانفجار .

ان انشاء الملجأ من النوع المسلح ان هو الا وسيلة مرتفعة التكاليف تهدف الى اسناد جوانب التربة وتغطية البناء تحت سطح الارض بطبقة من البيتون المسلح قد لا تصلح في معظم الاحيان لحماية المواطن الرابض تحتها اذا ما سقطت القنبلة (وخاصة العيار المتوسط والثقيل) فوق السطح مباشرة ولو كانت سماكته ٤٠ — ٥٠ سم مع تغطيتها بطبقة مماثلة من التراب .

اما ان تسقط قنابل العدو (سواء أكانت من الطائرات او المدفعية) فوق الملجأ مباشرة فهذه حالة خاصة قد لا تصيب الملجأ واحد في الالف عندما تقصف عشر طائرات متقبلة مساحة من الارض لا تزيد عن ٢٥٠ x ٢٥٠ مترا ولمدة خمس دقائق .

ان المواطن الذي يجلس في حفرة بعمق ١٥٠ — ٢٠٠ سم في مثل هذه المساحة المقصوفة من الارض قد ينجو ٩٥ ٪ وخاصة اذا كانت الحفرة مموهة جيدا وسطحها مغطى بغطاء اقتصادي كأن يكون من ألواح التوتياء والخشب فوقه طبقة عازلة من التراب بسماكة ١٠ — ١٥ سم للحماية من قنابل النابالم وشظايا القنابل (تجارب الفيتناميين في الملاجىء الشعبية الرخيصة الكلفة والسهلة التنفيذ) .

اننا عندما نذكر ذلك فهذا لا يعني بأي شكل من الاشكال اننا ضد اسلوب التحصين واقامة الملاجىء بالاسمنت المسلح . لا ليس المقصود ذلك انما القصد هو (الواقعية) في التنفيذ وامكانية حماية المواطن متطلعين من الامكانات المتوافرة وقدرتنا الاقتصادية والمالية .

ان اسلوب التحصين بالبيتون العالي التسليح والملاجىء المسبقة الصنع قد يستعمل على نطاق محدود للمراكز العسكرية . والنقاط الحساسة المعلمة التي يتوقع ضربها من قبل العدو ١٠٠ ٪ .

ولو أردنا ان نعمم اسلوب التحصين واقامة الملاجىء بالبيتون العادي او العالي التسليح وأجرينا الحساب على ان نشيد مثل هذه الملاجىء لنصف سكان سوريا مثلا في أسوأ الاحوال تخرج بالنتيجة التالية : كلفة ملجأ اسمنتي مع تجهيزاته لعشرة اشخاص هي ١٠٠٠٠ ل. س. يبلغ عدد سكان سوريا (٣ر٦) مليون نسمة . عدد الملاجىء اللازمة للسكان (سعة ١٠ افراد) هي ٢٧٥٠٠٠ ملجأ . تبلغ كلفتها ٣١٥٠٠٠ x ١٠٠٠٠ = ٣١٥٠٠٠٠٠٠٠ ل.س. أي اكثر من ثلاث مليارات ليرة سورية .

وهذا المبلغ تعجز عن تأمينه « اسرائيل » للصرف على مثل هذا العمل اضف الى ذلك ان « اسرائيل »

نفسها لا تستند على الاسمنت المسلح في اعمال التحصين على نطاق واسع حتى لاكثر المستعمرات المنشرة على الحدود الا على نطاق محدود .

وكمحصل حاصل يمكن ان ينشأ ملجأ يكفي لحماية عشرة اشخاص بالطريقة التالية وبتكاليف لا تتعدى ٦٠٠ — ١٠٠٠ ليرة سورية على النحو التالي : ١ — نختار ارض مستورة وأرضها غير صخرية ان امكن لتجنب استعمال الالات والمتفجرات . ٢ — يؤخذ بعين الاعتبار تصريف المياه . ٣ — حجم الحفرة ينفذ بالقياس التالي : العمق (٢) متر ، العرض (٥ر١) متر ، الطول (٤) امتار . ٤ — تحفر الجدران للحفرة بشكل مائل بنسبة ١٠ — ١٥ ٪ لمنع انهيار التراب . ٥ — تسند جدران الحفرة بقوالب الطين المجبول بالتبن او قطع التوتيـاء والخشب البالـي او الحصـير والخشب . ٦ — يغطى سطح حفرة الملجأ بخشب الحور والتوتياء ويردم فوقه التراب بسماكة ١٠ — ١٥ سم . ٧ — يموه سطح الملجأ بصورة جيدة ويترك فتحة للتهوية مقابلة للمدخل .

أسس ومبادىء الدفاع عن القرية :

ان الدفاع عن القرية او المدينة الصغيرة يرتبط ارتباطا عضويا بالنقاط التالية: ١ — مساحة القرية وابعادها . ٢ — موقعها على الارض كأن تكون في ارض مكشوفة او قريبة من الحواجز الطبيعيـة والهيئات الحاكمة . ٣ — مكان القرية وعلاقتهـا بالمخطط الدفاعي كأن تكون ضمن نطاق الحيطـة الامامي او بعمق الدفـاع او متحكمة في عقـدة مواصلات ... الخ . ٤ — نوع ابنية القريـة واسلوب توزيعها وقوة تحمل الابنية وامكان اتخاذ بعضها كمراكز للدفاع بعد ادخال تعديلات وغـير ذلك .

عندما تكون القرية على الحد الامامي مباشرة او في عمق الدفاع يمكن ان ينظم الدفاع على مشارفها او بداخلها. ان الهدف من انشاء المواضع الدفاعية هو ايقاف العدو المهاجم وانهاك قواته قبل وصولها الى القرية وخلق الشروط المناسبة للدفاع عـن القرية ، تجهيز المواضع الدفاعية بالاستخـدام العقلاني للمرتفعات والانهار والهيئات الطبيعيـة الحاكمة وينظم الدفاع على اساس دائري لمنع العدو من الالتفاف والاحتلال المفاجىء للقرية من المجنبات والمؤخرة .

يجب ان تنشأ المواضع الدفاعية الداخلية بالعمق ويعود عدد هذه المواضع وابعادها لعدة أمور منها ابعاد ابنية القرية والوسائط المتوفرة والوقـت والاماكن المأهولة وغير ذلـك وينظم الدفاع على اساس نسق اول ونسق ثانـي ... واساس الانساق هو عقد الدفاع المتقاطعة بالنيران .

ولتأمين الدفاع الدائري تقسم القرية الكبيرة الى قطاعات يتوقف عددها على ابعاد القرية ووجـود الاتجاهات المهمة وعدد تسليح الوحدات المخصصة للدفاع عن القرية ويمكن للسرية من الجيش الشعبي عند تعزيزها الدفاع عن نقاط دفاعية (شكل نقطة استناد) عرضها من (٤٠٠ — ٨٠٠) متر وعمقها من ٢٠٠ — ٦٠٠ متر. أما كتيبة الجيش الشعبي فيمكنها ان تدافع داخـل وخارج القرية ضمـن مساحة تتراوح بين (٥ر١ — ٢) كم بالعرض وبين (١ — ٥ر١) كم بالعمق .

ان ابنية القرية الكثيفـة البنيان والمحاطـة بالاشجار تحد كثيرا مـن مجال الرؤية والرمـي وتجزىء اعمال القتال الى سلسلة معارك محلية وتهدف الـى الحفاظ علـى عقد الدفاع ونقـاط الاستناد . لهذا تضعف الامكانات القتالية للقوات المدافعة عن القرية اذا قورنت بالاعمال الحربية في الاراضي الميدانية .

قد يستخدم العـدو الاسلحة الذرية لتدمـير الاهداف المهمة والقوات المدافعة لذا يجب انشاء الملاجىء والمساتر للاليـات عند تنظيم الدفـاع ويستفاد كثيرا من المغاور على نطاق واسع والاقبية والمساتر الطبيعية .

القرية الامامية
من حيث الوظيفة والتنظيم والانشاء

كان من آثار عدوان الخامس من حزيران الذي رسمت مخططاته في مكاتب الاستخبارات للـدول الرأسمالية الاستعمارية ونفذته قاعدة الاستعمار الحديث « اسرائيل » على وطننا العربي عامة وعلى سوريه العربية خاصة قيام حدود جديدة بيننا وبين العدو (لقد جرى عليها تعديلات طفيفة نتيجة لحرب تشرين التحريرية كما جرى تعديـل اوسع على الحدود الجنوبية في جبهة سيناء بعد تحطيم خط

بارليف ونقل الخط الدفاعي المصري الرئيسي لداخل سيناء ومع ذلك فان هذه الحدود تتميز بشكل رئيسي بتهديدها المباشر من قبل العدو وضرورة القيام بكل ما يمكن وبالسرعة الكلية بتحويلها الى جبهة محصنة قادرة على الصمود في وجه اية مغامرة جديدة يقوم بها العدو ضد بلادنا ، ولهذا الهدف اصبحت قضية تنظيم سكان مناطق الحدود في مجموعات اقتصادية دفاعية لدعم المجهود العسكري النظامي عملا ذي اهمية بالغة الخطورة، ولا شك بأن الشكل التنظيمي الامثل لتأدية مثل هذه الوظيفة هو انشاء القرى الامامية على طول خط وقف اطلاق النار الحالي ولا يعتبر هذا العمل اعترافا بالحدود القائمة اذ ان حدودنا عندما تتقدم وتحرر أراض جديدة فنكون بذلك قد استصلحنا اراض جديدة كانت شبه خالية وقوينا عمقنا الدفاعي بخلق قواعد سكانية جديدة .

ان هذه القرى الدفاعية التي ستناط بها مهمة بلورة الجهد الاقتصادي والدفاعي لسكان مناطق الحدود وصبه في افضل الاشكال التنظيمية لتحقيق خطوط دفاعية صامدة تلتحم فيه ارادة المواطن الشريف ، اي الدفاع عن ارضه واستثمار خيراتها، والجهد العسكري النظامي المرابط في خنادقه الامامية .

القرية الامامية — الوظيفة : ان الوظيفتين الاساسيتين للقرية الامامية تنحصران في تحقيق الجهدين الاقتصادي والدفاعي ولتحقيق هذين الجهدين سنحاول القاء نظرة تفصيلية لشروح الخطوط الرئيسية لكل منهما .

أولا — الوظيفة الاقتصادية للقرية الامامية : ان الهدف الاقتصادي من انشاء القرى الامامية في مناطق الحدود لدول المواجهة بشكل خاص ولحدود البلدان العربية بشكل عام يتلخص في تنظيم جهود سكان مناطق الحدود والنازحين من الاراضي المحتلة في تنظيم اقتصادي عصبه الرئيسي الزراعة التي تقوم عليها حياة سكان كل المنطقة. ولتحقيق هذا الهدف يقترح قيام هذا التنظيم على المبادىء الاتية :

١ — حصر الاراضي الموجودة في المنطقة موضوع البحث ، وتحديد نوع الملكية فيها ، واحصاء انتاجية هذه الاراضي والزراعات الاساسية القائمة عليها .

٢ — احصاء بشري للسكان يتناول النقاط الاتية : عدد العائلات ، حجم العائلة الوسطي ، عدد اليد العاملة في العائلة الواحدة (تحسب على اساس وحدة العمل في العائلة الواحدة باعتبار وحدة العمل تساوي ما ينتجه عامل زراعي واحد في يوم العمل) ، الدخل الوسطي الحالي للعائلة الواحدة ، مصادر الدخل المختلفة للعائلة ، الروابط الاساسية لمجموعات السكان وخاصة ما يتعلق منها بالنواحي العشائرية والعائلية والدينية .

٣ — دراسة حجم المزرعة الواجب تخصيصه للعائلة الواحدة التي تحقق دخلا وسطيا لا يقل بأية حال عن الدخل المتوسط الحالي للعائلة ، ويضمن لها حياة اقتصادية متوازنة وضمن امكانيات عمل افراد العائلة على مدار السنة .

٤ — تحديد عدد القرى على ضوء نتائج الدراسات للفقرتين (١ و ٣) اعلاه ، وذلك بعد دراسة حجم القرية الواحدة من حيث عدد العائلات في كل قرية وعلى ضوء المساحات الزراعية التي ستخصص لها مع مراعاة التوزيع حسب الشروط الاقتصادية والعسكرية .

٥ — وضع نظام اداري — اقتصادي على اساس تشكيل القرية التعاونية كوحدة زراعية متكاملة مع كل ما يلزم لتنظيم الاستثمار على مثل هذا الاساس .

٦ — انتقاء المستوطنين بموجب شروط محدودة تحقق ما يلي : الاختيار الطوعي ، الاساس الطبقي حيث تعطى الافضلية للفلاحين الاجراء والنصف اجراء اي الذين يقومون بخدمات في مزارع الغير ، لتأمين حياتهم مع وجود ملكية يستثمرونها لانفسهم ولا يكفي انتاجها لوحده لاعاشتهم ، توفر نسبة معينة من المتعلمين وانصاف المتعلمين من سكان القرى ، توفر عدد معين من اليد العاملة الفنية (حرف مختلفة — سائقي جرارات — وشاحنات ميكانيكية ... الخ) ، اعطاء الافضلية للعائلات التي لديها اكبر قدر من قوة العمل ، الوعي الوطني والنشاط في الانتاج .

ان القيام بجميع ما تقدم ذكره ، يجب ان يستناد من نتائجه لوضع نظام اقتصادي للقرية الامامية

يقترح ان يعتمد اساسا على المبدأين الاتيين :

— القرية كتنظيم اقتصادي هي تعاونية زراعية. الامر الذي يستدعي ملكية الفلاحين لجميع مصادر الانتاج ووسائله في نطاق التعاونية مع حقهم الكامل في ادارة تعاونيتهم ادارة ديموقراطية لها كامل الصلاحية في ادارة الانتاج من جهة ووضع الضوابط اللازمة لنجاحه وتطويره وتلتزم هذه الادارة بتوجيهات الدولة عامة فيما يتعلق بنوعية الانتاج الذي يجب ان تتخصص به (نوع الزراعات) واية تعليمات تتعلق بوظيفة القرية التعاونية الدفاعية .

— القرية الامامية ليست تدبيرا مؤقتا مرتبطا بوضع معين قائم حاليا وتتطلبه ضرورات الجبهة بظروفها الراهنة وحسب . بل هي جزء لا يتجزأ من التجربة الاشتراكية في القطاع الزراعي على نطاق البلد بكامله ، تتفاعل مع نتائج هذه التجربة مؤثرة ومتأثرة ، مما يعطي المجتمع القائم في تلك المناطق صفة الديمومة ويعطي الانتاج صفته الاجتماعية المتكاملة .

ثانيا — الوظيفة الدفاعية للقرية : اذا قبلنا بالوظيفة الاقتصادية للقرية الامامية على الاسس التي بيناها فيما سبق فان الوظيفة الدفاعية للقرية الامامية تصبح مهمة من المهام الاولية لمجتمع القرية، يفترض تحقيقها شروطا معينة من اهمها الدفاع عن الارض والتشبث بها ولتحقيق هذه الشروط يستلزم ما يلي :

١ — نوعية سكان القرية : من حيث وعيهم وادراكهم لواجبات الدفاع عن اراضيهم والتشبث بها وامكانياتهم الفعلية للقيام بذلك ، ولا شك بأن اعتماد الانتماء الطبقي اساسا ، وتمليك الارض يخلق الشروط الاقتصادية والاجتماعية السليمة لتحقيق هذه الاهداف .

٢ — موقع القرية : ويرتبط بالتخطيط العسكري لخط الجبهة الامامية مع مراعاة الوظيفة الاقتصادية للقرية عند انتقاء الموقع .

٣ — تحصين القرية : ويعتمد على ناحيتين :

أ — تنظيمية : تتناول شكل توزع المساكن في القرية بحيث يتحقق تبعثر هذه المساكن وتوزعها ضمن مساحة معقولة لا تفقد القرية شكلها الاجتماعي وتؤمن حماية مقبولة ضد اية اغارة ممكنة الوقوع من جانب العدو بحيث يصعب تدميرها ويقلل الخسائر الناجمة عن مثل هذه الاغارات الى أقل حد ممكن .

ب — دفاعية : وتتعلق بحماية سكان القرية وذلك بتأمين ملاجىء وخنادق طوارىء يلجأ اليها السكان وخاصة الاطفال والنساء والشيوخ عند الضرورة وتتوزع هذه الملاجىء والخنادق داخل القرية وفي أماكن الانتاج والعمل بحيث تتأمن اسرع امكانية للجوء اليها عند الحاجة .

ولا بد من الاشارة هنا ، الى ان اي تحصين مقبول من الناحية الاقتصادية ، لا يمكن أن يؤمن حماية كاملة في جميع الاحوال ؛ ويبقى مبدأ القبول بوقوع خسائر بأقل الحدود الممكنة مبدأ عاما ، وذلك لتجنب هدر الاموال في اقامة ملاجىء تصمد للاغارة المباشرة عليها ، والتي لا تبرر اكلافها في جميع الاحوال ميزاتها الدفاعية ، ولذلك يفضل اللجوء الى الخنادق الدفاعية المحفورة في اماكن محددة في القرية وخارجها مع تغطيتها بالمواد المتوفرة محليا والتي يمكن ان يقوم بها السكان انفسهم مع اقامة عدد محدود للغاية من الملاجىء المحصنة جيدا الغاية منها حماية الاطفال والوثائق والمؤن وغيرها من المواد الضرورية .

٤ — الجيش الشعبي : ويقوم على اساس الانضواء الطوعي الذي يقبل به سكان القرية عند الاختيار ويعتمد على تدريب جميع القادرين على حمل السلاح من رجال ونساء القرية بجميع أشكاله وبأفضل الاشكال الممكنة مع توزيع السلاح على المتدربين ، بالاضافة الى تأمين كل ما يلزم لاغراض الدفاع المدني مع تدريب عدد كاف من سكان القرية على مثل هذا العمل .

وبشكل عام يجب ان يكون مجتمع القرية جزءا من الجهد العسكري والدفاعي على طول الحدود مع تحديد مهامه وواجباته وشرحها شرحا كافيا وبشكل مستمر لسكان القرى ومن الافضل ربط هذا المجتمع بنوع من العلاقة المرنة مع القيادات العسكرية في المنطقة وخاصة مع الحرس الوطني او بالشكل الذي يضمن استيعاب المواطن لدوره في المعركة ولمسؤوليته تجاه الارض التي يعيش عليها .

٥ — التعاون والتفاعل بين سكان القرية

الامامية والوحدات النظامية المرابطة في الجوار : ويمكن لهذا التعاون أن يأخذ اشكالا متنوعة ومرنة حسب ظروف القرية وموقعها وحجم الوحدات المرابطة في الجوار وامكاناتها ومهامها ، والهدف من مثل هذا التعاون ربط مجتمع القرية بالوضع الدفاعي عن الارض بشكل خاص والبلاد بشكل عام بحيث يبقى الحس الوطني والادراك العميق بالمسؤولية مع القناعة الكلية بالواجب عوامل مسيطرة على حياة القرية .

ومن المفيد في مثل هذا المجال مشاركة الوحدات المرابطة في بعض الاعمال التي يقوم بها سكان القرية ، كحصاد بعض الزراعات الذي يشكل ضغطا كبيرا على اليد العاملة في القرية، والمساهمة في اعمال التحصين للقرية والاشراف عليها وتوجيه سكان القرية لافضل اشكال انشائها والعكس بالعكس من حيث تكليف سكان القرية ببعض الاعمال المتعلقة بالمجهود الحربي في المنطقة وتخصيص مناطق محددة يقع عبء امدادها بالخضار الطازجة والمنتجات الحيوانية على عاتق سكان القرية الى آخر هذه الاشكال المتنوعة التي تعزز من علاقات الواجب المشترك في الدفاع عن الارض وتقييمها على اسس من الاخاء والتعاون الصادق الواعي .

القرية الامامية واسس تنظيمها وانشائها

باعتماد الاسس الاقتصادية والدفاعية العامة التي شرحناها حتى الان ، وبهدف وضع حل يمكن اتخاذه كمثل للمناقشة . افترضنا بعض المعطيات الاساسية التي تساعد على تنظيم قرية أمامية ، مع مراعاة كون هذه الافتراضات اقرب ما تكون الى الصحة من جهة ، وقابلة للتطبيق العملي كأساس مع مراعاة شكل الارض والموقع لكل قرية على حده من جهة اخرى .

وتتلخص هذه الافتراضات في المعطيات الاتية :

١ ــ حجم القرية : تتألف القرية وسطيا من حوالي (٦٠) عائلة ، ويتناسب هذا الحجم مع حجم القرى الشائع في المنطقة موضوع البحث ، كما يساعد على قيام استثماره تعاونية زراعية بشروط ملائمة للتطبيق العملي .

٢ ــ تكوين العائلة : تتألف العائلة وسطيا من سبعة افراد ، وهذا العدد يجب اخذه كرقم وسطي ، حيث ستوجد في القرية عائلات يتفاوت عدد افرادها تفاوتا محسوسا ، الا ان اعتبار الرقم الوسطي لغرض التخطيط والتصميم أمر يمكن القبول به ، مع مراعاة حل يقبل بعض التعديلات التي تناسب الاحتمالات الممكنة في هذا المجال .

وسنشرح فيما يلي الخطوط العريضة للحل الذي وضعناه والذي اوضحناه في المخططين المرفقين رقم (٢) ورقم (٤) .

أولا ــ تنظيم القرية : يبين المخطط رقم (٢) قرية أمامية نظمت بأخذ جميع الافتراضات السابقة بعين الاعتبار ويتميز هذا الحل حسب اعتقادنا بما يلي :

١ ــ وزعت القرية على ثلاث مجموعات تتألف كل مجموعة من حوالي العشرين بيتا ريفيا ، وتتألف كل مجموعة من سلسلة متناسقة من وحدات تضم كل منها ثلاثة بيوت او اربعة وقد حققت الميزات الاقتصادية والدفاعية في هذا التنظيم كما يلي :

أ ــ خصص لكل بيت مزرعة خاصة مساحتها نصف هيكتار ، بحيث تضمن للمزارع مساحة كافية لزراعة بعض الخضراوات والاشجار المثمرة التي تكفيه واسرته ، والتي يمكنه استثمارها بعمله بعض الاوقات الاضافية مع افراد اسرته ، وتساعد على تحسين دخله وتخفيض نفقات معيشته .

ب ــ يحافظ هذا الحل على الترابط التنظيمي الضروري للقرية من حيث الشكل والتوزيع مع مراعاة التبعثر والانتشار الكافي لبيوت القرية لتأمين الحماية الكافية لها ويقلل من اضرار الغارات قدر الامكان .

جـ ــ يفترض هذا الحل ان اراضي القرية الزراعية تقع على مقربة من القرية بحيث لا تقع منازل القرية ضمن الاراضي الزراعية ، وهذا الحل يتناسب مع وظيفة القرية الدفاعية من حيث امكانية اقامتها في جوانب المرتفعات وفي الاماكن التي تناسب طبيعتها وطبوغرافيتها هذه الوظيفة دون ربط مباشر مع الاراضي الصالحة للزراعة والتي تستثمرها القرية .

هذا بالاضافة الى ان وقوع البيوت في المساحات الزراعية يزيد في تبعثر القرية ويفقدها شكلها

التنظيمي والترابط الضروري . كما يزيد من نفقة المرافق العامة ويتنافى مع الشكل التعاوني المقترح لحياة القرية الاقتصادية والتي تستلزم تنظيم العمل على اساس كامل المساحات المخصصة للقرية لا على اساس الملكية الخاصة للارض لكل مزارع على حده .

د — روعي توزيع المنشآت ذات الخدمة العامة توزيعا عقلانيا حيث وضعت في مركز متوسط تقريبا بالنسبة لبيوت القرية مما يسهل وصول جميع سكان القرية الى هذه المنشآت ويعطي القرية مركـزا يستقطب الحياة العامة في القرية وهذه المنشآت هي المدرسة والنادي والسينما ومخازن البيع .

اما المستودعات فقـد قسمت على مستودعين وضـع كل منهما في زاوية من زوايا قاعدة القرية مما يسهل استعمالها من قبل سكان القرية من جهة ويمنع مركزة المستودعات في كل مجمع يؤدي تدميره الى الحاق الضرر الكبير بالقرية ، كما وضعت مولدات الكهرباء في مؤخرة القرية لتحقيق اكبر قدر من الحماية لها ، ومن الافضل توزيع الوحدات الكهربائية على مجموعتين من التوليد في موقعين متقاربين في المؤخرة لضمان عدم تدميرها في وقت واحد .

هـ — افترضنا ان الملاجيء ستكون من حفـر او خنادق تنشأ في المساحات الغير مزروعة قرب المنازل وتسقف بالاخشاب وتردم بطبقة كافية من التراب مع ممرات جانبية تصل البيوت بهذه الخنادق ويقوم بتنفيذها سكان القرية وفق تخطيط تضعه السلطات العسكرية حسب موقع القرية ، كما افترضنا انشاء ملجأ ارضي بمساحة لا تتجاوز (٥٠) م٢ لاطفال القرية ، ويقترح اقامته في البناء المجاور للمسجد او الكنيسة لتقليل احتمالات قصفه الى الحـــدود الدنيا .

٢ — يسمح الشكل الذي تم بموجبه تنظيـم بيوت القرية بتطبيقه حسب طبوغرافية الموقع الذي سيتم اختياره لانشاء القرية الامامية حيث يمكن عن طريق توزيع مجموعـات البيوت حسب الشكـل المرغوب باحداث انزياحات اختيارية في خطوط القرية الاساسية للتلاؤم مع شكل الارض والموقع .

٣ — لم نتعرض لدراسـة وتخطيط الطـرق والساحات في القرية لعدم توفر المعطيات الاساسية اللازمة لهذا الغرض .

ثانيا — وحدة السكن في القرية :

١ — المخطط : يبين المخطط رقم (٤) وحدة السكن في القرية للعائلة الواحدة وقد وضع هذا المخطط على مراعاة ما يلي :

أ — مساحة المسكن بحدود (١٠٠) م٢ ويمكن تخفيضها الى (٧٠) م٢ كحد ادنى نظرا لارتفاع كلفة الثمن يضاف الى ذلك ان استعمال مـــواد البناء الريفية الرخيصة (اسلوب البناء الشعبي المتطور أمرا يجب ان يؤخذ بالحسبان عند عدم توفر الاموال اللازمة) .

ب — يتألف المسكن من غرفتين ومطبخ ومستودع ومدخل صغير ودورة مياه .

روعي في مساحات البيوت ملاءمة الاحتياجات الضرورية لسكن عائلة مؤلفة من سبعة افراد .

جـ — وضع المخطط بحيث يمكن تعديله لملاءمة متطلبات سكن الاسرة التي ستختص به ، وقـد افترضنا امكانية بناء عدد من النماذج في القـرية الواحدة تتألف البيوت للعائلات الكبيرة من بيوت تنطبق مع المخطط رقم (٤) أما في حالة العائلات الاصغر عددا فيمكـن حذف احدى الغرفتين او المستودع او اجراء مبادلـة بين موقع المطبـخ والمستودع وذلك دون ادخـال اي تعديل أساسي على المخطط .

د — صممت الفتحات (النوافذ) بحيث تكون تكاليفها أقل ما يمكن فلم تفتح الا نافذة واحدة في الغرفة الواحدة ، اما اتجاه هذه النوافذ فيمكن التكيف به بحيث يتلاءم مع الموقع واتجاه الريح المسيطرة في المنطقة للحصول على القدر الكافي من الانارة والتهوية .

٢ — مواد البناء : ان مواد البناء القابلـة للاستعمال في مثل هذه الانواع من البيوت يمكن ان تكون :

أ — جدران طينية مـع سقف مـن الاخشاب والحصير والطين : وهي اقل انواع البناء كلفة وشائعة الانتشار في قرى الريف السوري . الا ان مثل هذا الانتشار يجب تجنبه بقدر المستطاع رغم قلة تكاليفه وذلك لقلة متانته وقصر عمره والحاجة الى ترميمه بشكل دائم .

ب ــ جدران حجرية مــع سقف من البيتــون المسلح : وتلي مــن حيث الكلفة النوع الاول ، وتتميز بالمتانة اللازمة الا ان اعتمادها يتطلب توفر احجار البناء في الجوار للقرية ونظرا لعدم تأكدنا من هذا الواقع فلم نلجأ الى مثل هذا الاحتمال ولو انه ينصح به في انشاء القرى التي تتوفر في جوارها احجار البناء السهلة القطع والشغل .

جـ ــ جدران من البلوك الحامل مــع سقف من البيتون المسلح : وتعتبر حتى الان من اكثر انواع الانشاء ملاءمة من حيث الكلفة والمتانة لسهولة التنفيذ وسرعته ، ويمكن تطبيقها في جميع ظروف الارض حيث يمكن تأمين الرمل اللازم لصنع البلوك بسهولة ، ويصبح هذا الحل مناسبا بصورة عامة في الابنية الريفية او السكن الشعبي المؤلف من طابق واحد لقلة الحمولات في مثل هذا النوع من البناء .

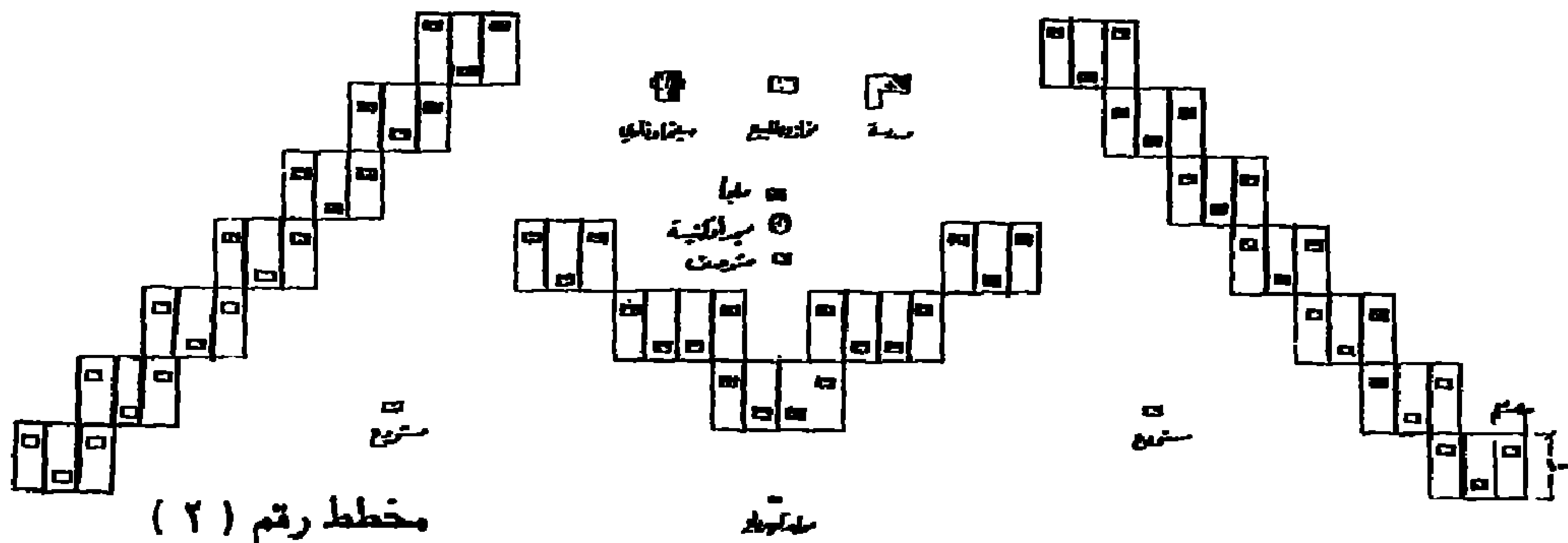
د ــ جدران من البيتون المغموس بالقالب مع سقف من البيتون المسلح : ويعطي هذا الشكل من الانشاء بناء متينا وتكاليفه تزيد قليلا على تكاليف النوع السابق بسبب ضرورة استعمال القالب ، الا انه يتميز بالمتانة وقد يكون من المناسب تبني هذا الحل عند الرغبة في زيادة متانة البيوت وتصميمها على اساس مقاومة نيران الاسلحــة العاديــة والمتوسطة .

هـ ــ البناء الهيكلي : ويتألف مــن اعمدة من البيتون المسلح ترتكز عليه بلاطة السقف وتمــلأ الفراغات بين الاعمدة بالبلوك المفرغ الذي لا يتحمل اية حمولات في مثل هذا الانشاء الا ان هذا النوع من البناء يفضل في حالة الابنية الطابقية ولا تبرر اكلافه استعماله في بيوت الطابق الواحد .

و ــ البناء المؤلف من قطع مسبقة الصنع : ويتراوح عمل هذا النوع من الانشاء من استعمال قطع قياسية من البيتون المسبق الصنع في الجدران الخارجية مع سقوف تصب في الموقع الى تصنيع كامل اجزاء البناء ، وقــد بوشر في تطبيق هذه الطريقة على نطاق واسع في الحالات التي تتميز بما يلي : وجود عدد كبير من الابنية المتشابهة ، سرعة التنفيذ وشموله ، تصنيع البناء والتوفير في اليد العاملة .

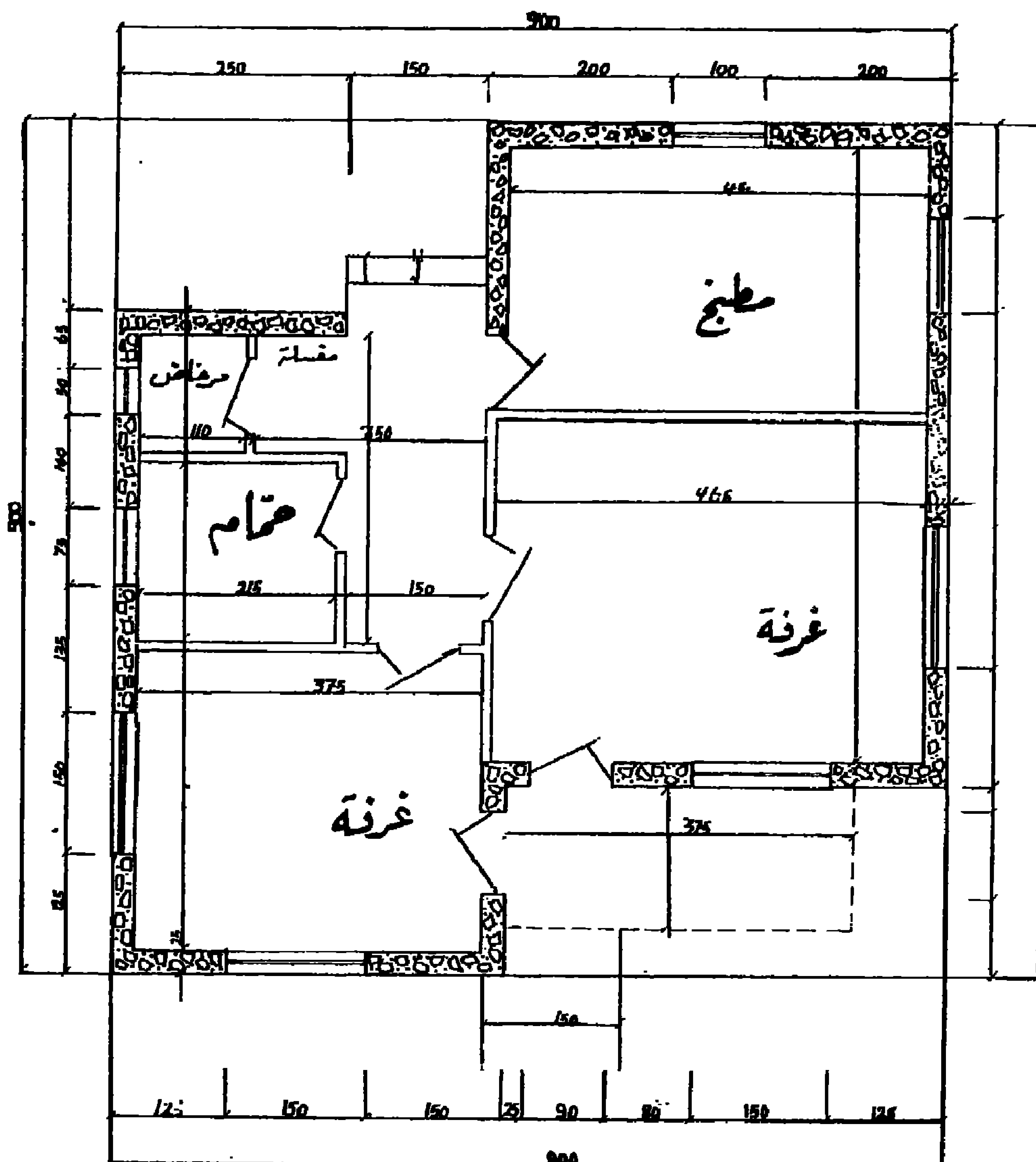
وقد حقق هذا النوع مــن الانشاء في مثل هذه الشروط نتائج بالغة الاهمية . واصبحت تكاليفه في مثل هذه الحــالات تنافس ارخص انواع الانشاء المرونة . (تجربة انشاء البيوت المسبقة الصنع في قرى مشروع سد الفرات الرائد في سوريا) .

٣ ــ نوع الانشاء المستعمل : لعدم توفر دراسة لشروط الارض والموقع من حيث توفر مواد البناء وعدد القرى المطلوب انشاءها اعتمدنا المخطط رقم (٤) بناء جدرانه من البلوك الملآن الحامل بسماكة ٢٠ سم ، مع سقف البيتون المسلح بسماكة ١٠ سم ، ويقوم البناء على قاعدة من البناء الحجري بسماكة ٤٠ سم او من البيتون المغموس او من البيتون المسلح (شيناج) وذلك تبعا للارض التي سيشاد عليها البناء من حيث تحملها وثباتها .



مخطط رقم (٢)

مشروع بيت نموذجي
في قرية دفاعيـــة



المسقـــــط الافـــــقي   مخطط رقم (٤)

القرية الامامية تكاليف الانشاء

لا يمكـــن في هذا المجـــال اعطاء تقديرات دقيقة وذلك لجملة من الاسباب اهمها شكل الدراســـة الاولية ، وكل ما يمكن تقديمه تقديرات أولية تماما قد تفيد في القاء الضوء على الحلول المقترحة .

ويجب تقدير التكاليف على اســاس كلفة المتـــر المربع من مساحة البناء وهي افضل طريقة يمكـــن عن طريقها الوصول الى فكرة صحيحة عن الاكلاف والمقارنة بين نوع من الانشاء ونوع اخر ، وسنعمد للحصول الى كلفة المتر المربع من المساحة المبنة الى حساب كلفة المسكن الواحد حسب المخطط رقم (٢) ثم حساب كلفة المتر المربـــع الواحد علـــى اساس ذلك .

أولا : كلفة المسكن الواحد :

البـــلوك	٢٥م ٣ x ١٠٠ ل٠ س =	٢٥٠٠ ل٠س
البيتــون المسلح	سقف + شيناج + عتبات + عمود ١٥م ٣ x ٢٧٠ ل٠ س =	٤٠٥٠ ل٠س
الارضــية	بلوكاج سماكة ١٥ سم وصبه بسماكة ٨ سم بعيار ٢٠٠ كغ اسمنت سعر المتر المربع ١٧ ل٠س ١٠٢ x ١٧ =	١٧٣٤ ل٠س
المنجـــور	١٨م ٢ x ٧٥ ل٠س =	١٣٥٠ ل٠س
الرشـة الخارجيـة	١٣٣ م x ٨ ل٠س =	١٠٦٤ ل٠س
الطينــة الداخليـــة	٢٥٠م ٢ x ٦ ل٠س =	١٥٠٠ ل٠س
طرشــة كلس داخليــة	٢٥٠م ٢ x١،٢٥ ل٠س =	٣١٢،٥٠ ل٠س
أســاس (ركه)		٧٠٠ ل٠س
الاعمــال الصحيــة		١٤٠٠ ل٠س
كهربـاء		٤٠٠ ل٠س
المجمـــوع		١٦٠١٠،٥٠ ل٠س
هوالك ١٠ ٪ تقريبـا		١٨٣٩،٥٠ ل٠س
		١٧٨٥٠،٠٠ ل٠س

كلفة المتر المربع من البناء ١٧٨٥٠/١٠٢ = ١٧٥ ل٠س (تقريبا).

والكلفة متعادلة تقريبا في حالة استعمال جدران خارجية من البيتون المغموس بسماكــة ٣٠ سم وداخلية من البلوك بسماكة ٢٠ سم ، ويفضل هذا الحل الذي يعطي البناء متانة اكبر ومقاومة أكثر فعالية ضد الرماية المعادية .

ثانيا ــ كلفة القرية : اذا اعتبرنا المساحــات المبنية كمرافق عامة في القريــة مــن مستوصــف ومستودعات ومدرسة وندوة مع سينما ومخــازن ومسجد او كنيسة وملجأ تعادل حوالي ١٠٠٠ م٢ فان كلفة هذه المرافق تعادل تقريبا مبلغ ٢٠٠٠٠٠ ل٠ س .

وتكون تكاليف منازل القريــة التي عددها ٦٠ منزلا .

٦٠ x ١٨٠٠٠ = ١٠٨٠٠٠٠ ل٠ س.

ويفرض ان الطرق والخدمات العامة (انــارة ــ مياه ــ كهاريز) تصل تكاليفها الى ٢٥٪ مــن كلفة ابنية القرية فتكون كلفتهــا حوالي ٢٧٠٠٠٠ ل٠ س .

١٠٨٠٠٠٠ + ٢٠٠٠٠٠ + ٢٧٠٠٠٠ = ١٥٥٠٠٠٠ ل٠ س .

الخلاصة : لا بد من الاشارة في مجمل هــذه الدراسة الى ان ما اوردناه لا يمكن اعتباره الا خطوطا عريضة تحتاج الى الكثير من الدراســة والتمحيص . وككــل عمل هندسي او دراســة اقتصادية يتطلب التوصل الى اقتراح مقبول عمليا، عملا جماعيا يشارك فيه المهندس والخبير الاجتماعي والخبير العسكري والخبير الزراعي وخاصة في مثل هذه الدراسة التي تتناول جانبا حيويا من حيــاة سكان الحدود ومستقبل تطورهــم بالاضافة الــى أهميتها الدفاعية الملحة .

طريقتان لبناء القرية الدفاعية النموذجية

هنالك طريقتان للبنــاء : ١ ــ الطريقــة

الكلاسيكية المعروفة التي تعتمد على اليد العاملة كعنصر اساسي ووحيد تقريبا في اشادة البناء .
٢ — الطريقة الصناعية (القطع المسبقة الصنع) والتي تعتمد على انتاج الآلة أولا واخيرا في عمليات البناء .

وقبل أن أشرح الطريقة الاولى والتي سوف تتبع لاشادة القرى نظرا لعدم توفر المصانع اللازمة لانتاج القطع المسبقة الصنع ولعدم امكانية جلب مصانع وتركيبها وتجهيزها بوقت قصير للظروف التي تمر بها بعض الاقطار العربية ولعامل الزمن الذي يأخذ الدور الافضل حاليا .

لذلك كله فانني سأشرح الطريقة الثانية مع العلم بانه لا يمكن تنفيذها حاليا فقط للاطلاع والمقارنة .

من الطبيعي ان الظروف التي تحيط بالانسان وكذلك تقدمه العلمي والحضاري واسلوب تفكيره هما الذين يقودان خطاه في طريقة استغلال موارده لبناء حياته الخاصة والعامة ولتأمين رفاهيته ومعيشته . وان التقدم العلمي والتكنولوجي في القرن العشرين والتزايد الملحوظ في الانتاج لم يكن يتحقق لولا فضل الآلة وبصورة اعم التقدم التكنيكي الذي اصبح اساس جميع الظواهر الاجتماعية والاقتصادية في عصرنا .

وللاسف فان البناء وحده لم يزل يتبع الطرق البدائية في الانتاج ذات المردود الضعيف بالكمية وبأسعار مرتفعة . ورغم الضرورات المتزايدة بتزايد السكان والحاجة الماسة لتأمين السكن اللازم لهم . فلم تزل الآلة بعيدة كل البعد عن أن تدخل ميدان البناء وخاصة في الدول المتخلفة حيث انه بدأت الآلة تدخل بشكل اساسي في تصنيع البناء وفي بعض الدول المتقدمة .

ولا أريد الدخول في مناقشة فكرة تصنيع البناء وبحث ظواهر التخلف ، هذا لان البحث يطول ولا مجال هنا لمناقشة ذلك ، واكتفي بالميزات العامة لفكرة تصنيع البناء وخاصة في سورية وبالظرف الحالي بالذات .

١ — الضرورة الملحة والعاجلة لبناء كميات كبيرة من المساكن وفي فترة قصيرة لغايات دفاعية واجتماعية واقتصادية (وذلك بتوطين النازحين ونقل وتكثيف سكان جدد لقرى الحدود على الخطوط الامامية للدفاع عن الارض التي يجب ان تملك اليهم) .

٢ — امكانية تخفيض سعر البناء وذلك بسبب انتاج البيوت المتشابهة والاقلال من اليد العاملة .
٣ — السرعة في انجاز العمل وتجنب فتح ورشات كبيرة في الظروف الحالية على طول خطوط النار مما يستلزم تأمين الحماية لهم .

٤ — ان اليد الفنية التي تستطيع العمل في مناطق الحدود قليلة جدا ولا نستطيع انهاء مثل هذه المشاريع الكبيرة والسريعة بالوقت المحدد لها .

٥ — أن وجود (٨ — ١٠) مصانع لانتاج المساكن اللازمة حاليا لانتاج ما تحتاجه القرى الامامية لدول المواجهة كأفضلية اولى في التنفيذ من مساكن لتوطين النازحين والسكان الجدد المتنقلين لتعزيز الدفاع لا يعني انتهاء عملهم بانتهاء المشروع وانما يبقيان وبشكل دائم لانتاج ما تحتاجه البلاد من مساكن نموذجية صغيرة وخاصة لذوي الدخل المحدود .

٦ — ولا مجال هنا للمقارنة بين البناء الذي يقوم المهندس ببنائه مستخدما فنه وعبقريته ليخلق بيتا يعيش فيه أمير او برجوازي ناسيا الغالبية الكادحة من شعبنا التي يهمها بالدرجة الاولى ان تعيش ضمن سكن يقيها حر الصيف وبرد الشتاء ، ولا يعني هذا بحال من الاحوال ان هذا المسكن خاليا من الحياة الانسانية الكريمة بل على العكس فهو بالدرجة الاولى صحي وبسيط وبعيدا عن التزويقات الخارجية التي يجب ان يكون بعيدا عنها .

ونظرا لعدم التمكن من انشاء مصانع في المدى القريب لانتاج القطع المسبقة الصنع للبناء في الظروف الحاضرة مع انه يبقى الحل الانفضل للقيام بمثل هذه المشاريع فاننا نعود للطريقة الاولى في البناء لنناقش على أساس الاسس التي يجب ان تبنى بها القرى الامامية النموذجية .

تدل جميع الاحصائيات التي قامت وتقوم في دول مختلفة من العالم متقدمة او متخلفة ان ٣/٢ من المواطنين لا يرتاحون من الاقامة في ابنية جماعية ، وخاصة الطبقة الكادحة من شعبنا من عمال

وفلاحين حيث يرغبون بالاستقلال في بيت خاص بهم وضمن حياة اجتماعية فيما بينهم . ويفضل كذلك في كل بيت حديقته الخاصة ضمن المدن ، ومزرعته الخاصة في الريف . لذلك عند التفكير في بناء القرى الريفية يجب الاخذ بعين الاعتبار النواحي التي تؤمن للسكان العيش براحة تامة وتأمين مواردهم بشكل طبيعي وتمكينهم من الدفاع عن ارضهم التي يعيشون عليها .

من هذا كله نستطيع وضع بعض النقاط الاولية لبناء القرى الامامية وبشكل خاص قرية نموذجية ريفية تتألف من العناصر التالية :

١ — تستوعب القرية في حدود (٦٠) بيتا ريفيا يسكن كل بيت عائلة يتألف عدد افرادها بالمتوسط (٧) اشخاص ويتألف البيت وهو بشكل اقتصادي من غرفتين ومنافعهما .

٢ — يفضل توزيع البيوت ضمن القرية بشكل يكون فيه لكل بيت مزرعة خاصة به في حدود الهكتار الواحد الى جانب مشاركة كل عائلة بالملكية الجماعية او التعاونية للقرية وكذلك يكون التوزيع العام للبيوت آخذا الطابع الاجتماعي والدفاعي بآن واحد .

٣ — يفضل عدم الانتشار كثيرا بتوزيع البيوت على الطبيعة بحيث لا تأخذ القرية اكثر من مساحة ثلث او نصف كم٢ وذلك توفيرا في المرافق .

٤ — تخصيص للقرية المباني التالية الاجتماعية والثقافية : آ — مدرسة ، ب — مستوصف ، جـ — مخازن للبيع ، د — مستودعات ويفضل ان يكون لكل بيت مستودعه الخاص ، خزان مياه ، نادي ثقافي ، مكان للعبادة ، بعض المرافق العامة الاخرى الضرورية .

٥ — يراعى في توزيع البيوت ضمن حدود القرية النواحي الدفاعية ولهذه الغاية يفضل حفر خندق لكل بيت وتغطيته بشكل متقطع من الخشب او التوتياء فوقه ما لا يقل عن عشرين سنتمتر من التراب كملجأ ضد الغارات الجوية وبحيث يؤمن الحماية لافراد العائلة الواحدة ويكون متصلا مع البيت بخندق صغير ومكشوف ، ويترك للمالك حفر هذا الخندق وتجهيزه بعد اعطائه التعليمات اللازمة .

ويلجأ البعض لانشاء ملجأ يقع مباشرة تحت البيت الا انه لهذا العمل سيئاته واخطاره وخاصة عند القصف المباشر للطائرات المغيرة حيث تعلمنا التجربة من العدو الصهيوني تركيز ضرباته المباشرة على البيوت بالقنابل المتوسطة والثقيلة والصواريخ الحارقة .

٦ — يراعى في تصميم وتنفيذ البيوت وبالتالي القرية النواحي الاقتصادية بالدرجة الاولى بحيث يوفر ما يستطاع توفيره لتخفيف تكاليف البيت الواحد وبالتالي القرية ككل .

ونبحث الان بالتفصيل الطرق الاقتصادية وكيفية بناء القرية الريفية النموذجية .

آ — البيت الريفي : شروطه :

١ — يتألف البيت من غرفتين مساحة كل منهما ٢٠ م٢ تقريبا ومن مطبخ بمساحة ٨ م٢ تقريبا وحمام ومرحاض بمساحة ٥ م٢ ويفضل اضافة مستودع بمساحة لا يقل عن ٧ م٢ خاص بالبيت وهو لا غنى عنه في البيوت الريفية ، وبذلك يكون مجمل مساحة البيت مع الممرات اللازمة في حدود ٧٠ م٢ .

٢ — يحيط البيت مزرعة في حدود الهكتار الواحد ان امكن يعيش عليها افراد العائلة واذا لم تتوفر الارض الصالحة لذلك ، تعطى لهم أرض في مكان اخر .

٣ — يجب ان يكون تكاليف البيت أرخص ما يمكن ويتحقق ذلك بدراسة الحلول الاقتصادية في البناء ، وايجاد المواد الاولية المحلية اللازمة لعملية البناء .

٤ — ان تؤمن البساطة في التصميم وبخطوط مستقيمة وواضحة توفيرا في الانشاءات المسلحة ويراعى ما امكن ان تكون البيوت متشابهة او قريبة الشبه من بعضها لان تكرار البيت الواحد يوفر في الحسابات والمواد اللازمة للعمل .

انطلاقا من هذه الشروط فهناك طريقتان اقتصاديتان لبناء القرى النموذجية — الاقتصادية ولكل منها ميزاتها وسيئاتها .

١ — استعمال البيتون المغموس بسماكة ٢٥ سم للجدران الخارجية والقرميد بسماكة ١٠ سم للقواطع الداخلية .

٢ — استعمال البلوك المليء بسماكة ١٥ سم مع البناء الهيكلي للجدران الخارجية والقرميد

بسماكة ١٠ سم للقطع الداخلية .

ـ اما الطريقة الاولى فميزاتها :

١ ـ رخصة خاصة وان الاحجار اللازمة للبيتون متوفرة بكثرة وبدون ثمن سوى جمعها من الارض .

٢ ـ لا حاجة للبناء الهيكلي من اعمدة وجسور (اذا كان التصميم يسمح بذلك) اذ ان الجدران الخارجية منها تعتبر حاملة .

٣ ـ عازلة للرطوبة والرشح والحرارة وكتيمة.

٤ ـ مقاومة للاسلحة الخفيفة .

اما سيئاتها :

١ ـ بطيئة اذ تحتاج لكميات كبيرة من الخشب لعملية الصب وبالتالي لوقت طويل لعملية الفك والتركيب .

٢ ـ تحتاج لفتح ورشات كبيرة وهي عملية غير مرغوب فيها في الوقت الحاضر في الخطوط الامامية
اما الطريقة الثانية فميزاتها :

١ ـ سريعة الانجاز حيث يمكن فتح ورشةواحدة لصب البلوك يوزع فيها على بقية الورشات التي يجري انجاز البناء فيها .

٢ ـ لا تأخذ مساحة كبيرة في البناء اذ ان سماكة الجدران الخارجية ١٥ سم بدلا من ٢٥ سم في الطريقة الاولى .

ـ أما سيئاتها :

١ ـ غير مقاومة ، وغير كتيمة للرشح والرطوبة .

٢ ـ تحتاج لبناء هيكل من البيتون المسلح (أعمدة وجسور) لانها غير حاملة .

نلاحظ ان الطريقة الاولى مفضلة على الثانية في هذه الحالة ولنفس شروط البناء في جميع النواحي ، لذلك نرى اعتماد الطريقة الاولى بالتنفيذ والتي سيجري عليها الحسابات .

١٠ ـ بناء البيت الريفي من البيتون المغموس

ان تحليل الاسعار لبناء بيت واحد من البيتون المغموس والترميد تبين ما يلي :

١ ـ البيتون المغموس والمؤلف من ٧٠٪ بيتون و ٣٠٪ حجر .

آ ـ ٣٠ ل. س. اسمنت على اعتبار ان العيار ٢٥٠ كغ للمتر المكعب .

ب ـ ٢٠ ل. س. بحص ورمل مع نقله الى اماكن العمل وعلى اعتبار ٨٥٠ ليتر .

جـ ـ ٢ ل. س حجر ٣٠ ليتر اجر الجمع والنقل.

د ـ ٤٤ ل. س. اجرة صب .

هـ ـ ٢ ل. س ثمن مياه .

١٠٠ ل. س ثمن المتر المكعب من البيتون المغموس .

٢ ـ البلوك المليء وبسماكة ١٠ سم للقواطع :

آ ـ ٢٤ ل. س ثمن رمل وبحص .

ب ـ ٢٤ ل. س ثمن اسمنت عيار ٢٠٠ كغ .

جـ ـ ٢٠ ل. س اجرة صب .

د ـ ٢٠ ل. س اجرة بناء .

هـ ـ ٢ ل. س ثمن مياه .

٦١ ل. س ثمن المتر المكعب من البلوك .

٣ ـ الاسمنت المسلح للسقف سماكة ١٠ سم.

ـ ١٠٥ ل. س ثمن حديد ٧٠ ـ ٨٠ كغ .

ـ ٣٦ ل. س اسمنت ٣٠٠ كغ .

ـ ٢٤ ل. س ثمن بحص ورمل .

ـ ١٠٠ ل. س اجرة صب البيتون .

ـ ٥ ل. س اجرة مياه .

ـ ٢٧٠ ل. س ثمن المتر المكعب من البيتون المسلح .

٤ ـ ثمن المتر المربع من المنجور الخشبي ٧٥ ل. س .

٥ ـ ثمن المتر المربع من البلاط ١٥ ل. س.

٦ ـ ثمن المتر المربع من التوريقة ٦ ل. س.

وبدراسة نموذج واحد لبيت ريفي اقتصادي مع اضافة المتفرقات العامة عليه من تمديدات صحية وكهربائية تبين ان سعر المتر المربع من البناء بشكل عام لا يتجاوز ٢٠٠ ل. س باعتبار ارتفاع البيت ٣٤٠ سم و ٣٠٠ ل. س للابنية العامة .

وعلى هذا الاساس يمكن حساب كلفة الابنية .

وصف البيت الريفي :

١ـ صمم البيت بشكل بسيط وبعيد عن التعقيدات وبخطوط مستقيمة واضحة بحيث لا يحتاج الى أعمدة مطلقا بل يركز السقف على الجدران الخارجية الحاملة ويمكن الاستغناء عن الجسور الداخلية فوق القواطع نظرا لعدم البناء على السطح وفي الحالة المعاكسة يجب وضع الجسور ويفضل وضعها لاحتمال بناء طابق ثان فوق الاول.

٢ ـ الجدران الخارجية من البيتون المغموس بسماكة ٢٥ سم وتعتبر جدران حاملة بنفس الوقت ٧٠٪ بيتون ٣٠٪ حجر عيار ٢٥٠ كغ .

٣ ـ الجدران الداخلية القواطع من القرميد العادي ٤٠ x ٢٠ x ١٠ سم وعيار ٢٠٠ كغ .

٤ ـ تلبيس الجدران من الخارج والداخل بطينة اسمنتية سوداء وترش بالكلس .

٥ ـ تبليط الارضية بالبلاط الموزايك العادي .

٦ ـ تكون الفتحات ١٠٠ x ١١٠ سم والابواب ١٠٠ x ٢٠٠ سم وذلك لاغراض دفاعية واقتصادية ويركب عليها منجور خشبي ، ويفضل ان يضاف اليه شبك معدني بسيط للحماية من السرقات وغيرها .

٧ ـ التمديدات الكهربائية مكشوفة وبسيطة، والتمديدات الصحية الحلوة اذا توفرت للحمام والمطبخ والمرحاض والاسيقة الى حفرة فنية تبعد عن البيت ما لا يقل عن (٤) م .

٨ ـ يترك للسقف ميول يركب بنهايتها بالوعة نصب في ميزاب واحد اما يترك ليصب في الارض الزراعية حول البيت او يعمل له بئر صغير للتجميع للاستفادة منه في سقاية الحيوانات في فصل الصيف وان كان لا يفضل ذلك نظرا لان البئر يكون مجمعا للبعوض والحشرات وغيره .

٩ ـ ان مساحة البيت التقريبية ٧٠ م٢ وبذلك يكون مجمل سعر البيت بشكل تقريبي ١٤٠٠٠ ل.س واذا كانت هناك ظروف خاصة في البناء بالجبهة ربما وصل السعر الى ١٧٠٠٠ ل. س .

١٠ ـ الارتفاع الكلي للبيت ٤٠٠ سم يرتفع عن الارض بمقدار ١٥ ـ ٢٠ سم وارتفاع داخلي ٢٤٠ سم وستارة فوق السطح ٥٠ سم .

٢ ـ المدرسة : وتتألف من اربعة غرف مساحة كل منها ٣٠ م٢ تقريبا ومنافع وممرات وغرفة للمعلمين مساحة ٢٠ م٢ ، تقدر مساحة المدرسة بـ ١٨٠ م٢ يضاف اليها ساحة للعب وملعب صغير وتقدر تكاليف المدرسة بـ ٥٤٠٠٠ ل. س.

٣ ـ مستوصف : يتألف من غرفتين ومنافعهما وممر مع صالون انتظار بمساحة عامة ١٠٠ م٢ تقدر تكاليفه بـ ٣٠٠٠٠ ل. س.

٤ ـ نادي ثقافي : يتألف من اربعة غرف وصالون ومنافع وممرات بمساحة اجمالية ٢٥٠ م٢ وبكلفة تقريبية ٧٥٠٠٠ ل. س .

٥ ـ مكان للعبادة : عبارة عن حرم وساحة ومنافع بمساحة قدرها ١٥٠ م٢ تقدر تكاليفه ٤٥٠٠٠ ل. س.

٦ ـ مخازن للبيع : ٦ مخازن بمساحة اجمالية ١٢٠ م٢ وبكلفة قدرها ٢٤٠٠٠ ل.س.

٧ ـ مركز توليد كهربائي كامل : مؤلف من صالة للمولدات واخرى للمراقبة والحراسة وخزان وقود وغير ذلك مع المولدات اللازمة وتقدر تكاليفه ١٠٠٠٠٠ ل. س.

٨ ـ خزان مياه مع التمديدات : مؤلف من خزان بارتفاع عشرة امتار تقريبا او في مكان عال في هضبة مثلا وغرفة للمحرك مع بئر ارتوازي اذا لم تتوفر المياه من مكان قريب جاهز شبكة تمديدات وتقدر تكاليفه بـ ٢٥٠٠٠ ل. س.

٩ ـ مستودعات عامة : مؤلفة من ٦ مستودعات بمساحة عامة ٣٠٠ م٢ وبكلفة قدرها ٦٠٠٠٠ ل. س.

١٠ ـ مركز صغير للشرطة : مؤلف من غرفتين ومنافعهما بمساحة ٧٠ م٢ وبكلفة قدرها ١٤٠٠٠ ل. س.

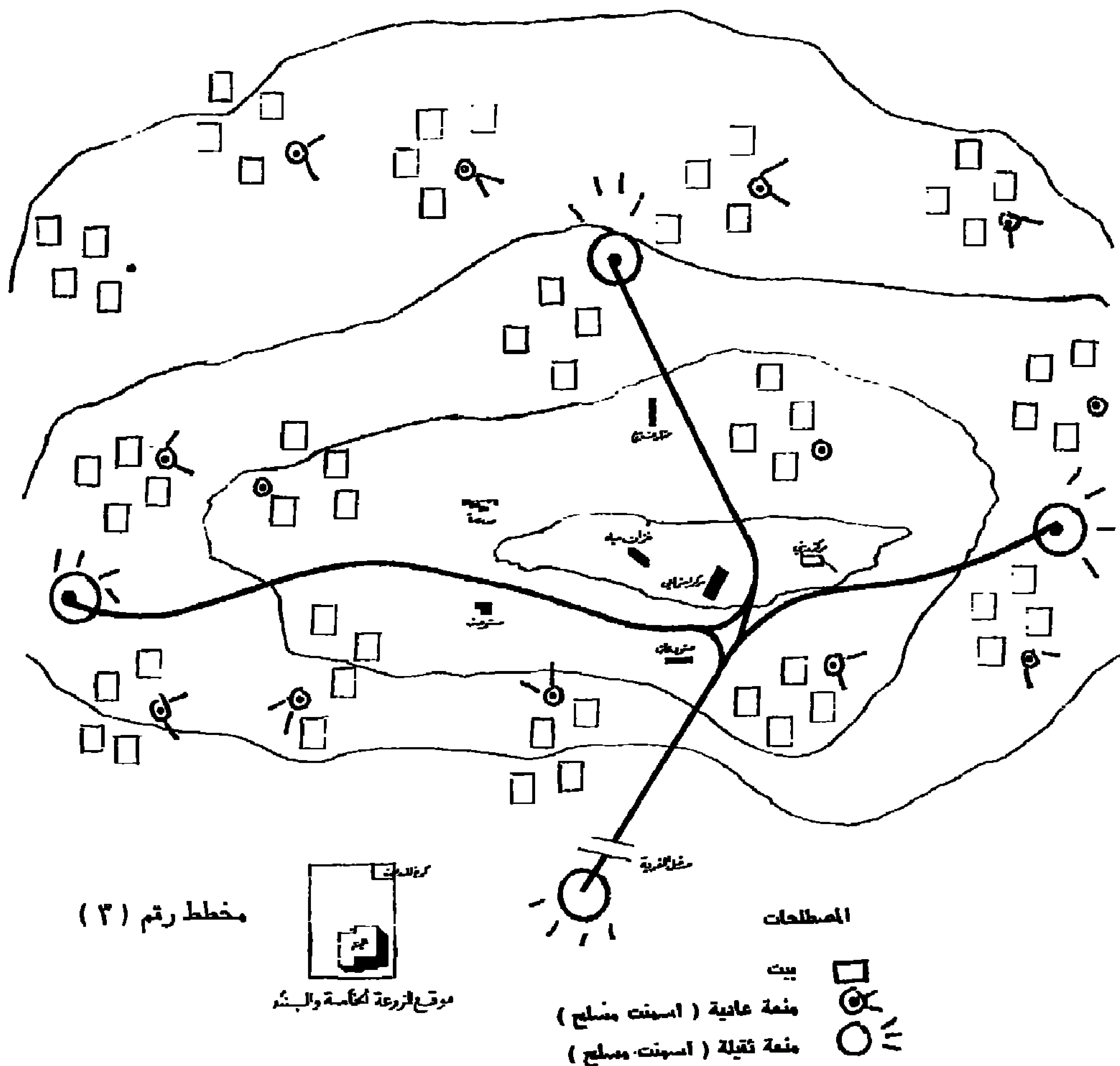
وبذلك يكون مجموع المبلغ اللازم للابنية مع المرافق العامة عدا الطرقات والتحصينات الدفاعية ٢٤٣٦٨٥٠ ل. س.

تخطيط القرية النموذجية والتحصينات الدفاعية التابعة لها :

مخطط عام لقرية دفاعية الاسلوب المبعثر للابنية

مشروع قرية دفاعية نموذجية

ـ المخطط العام ـ



نظرا للاغراض التي من اجلها تنشأ القرية الريفية وهي بالدرجة الاولى لاغراض دفاعية فانني ارى ان تخطط هذه القرى على هذا الاساس وليس على اساس تخطيط المدن العام المعروف بشكله وجماله .

لهذا السبب فهناك طريقتان لتخطيط القرية المذكورة بكل نوع من انواع البيوت .

النوع الاول لكل بيت مزرعة خاصة :

١ ـ الطريقة المنتظمة والتي توزع فيه البيوت بشكل منتظم ولكل بيت مزرعته الخاصة وتكون أما مجمعة او مبعثرة بشكل نظامي ، اما الاغراض الدفاعية في هذه الحالة فيحفر خنادق دفاعية قرب الشارع العام وفي وسط الساحات ان وجدت . ويترك لكل بيت ملجأ صغير لافراد العائلة الواحدة. وهذا النوع يخضع للارض المبسطة .

٢ ـ الطريقة المبعثرة على غير نظام وهو خاضع لطبيعة الارض ، هضبات ، سفوح ، جبال منحدرات وغير ذلك ولا يمكن تخطيط القرية الا على الطبيعة ، يراعى بالدرجة الاولى النواحي الدفاعية ويترك لكل بيت مزرعته الخاصة .

ويمكن التوصل الى النتائج التالية :

١ ـ الطريقة المنتظمة وتكون البيوت بشكل

مجمعات (تنصل البيوت عن بعضها بحدائق صغيرة او غير ذلك) حسب طبيعة الارض .

٣ — الطريقة المبعثرة وتوزع البيوت على غير حدى خاضعة للاغراض الدفاعية .

النوع الثاني ليس للبيت مزرعة خاصة :

١ — ان تخطيط القرية يتبع بالدرجة الاولى لطبيعة الارض ونوع التوزيع .

٢ — يفضل بالدرجة الاولى بعد معرفة طبيعة الارض ان تؤمن النواحي الدفاعية .

٣ — يفضل ان يؤمن لكل بيت مزرعته الخاصة ان أمكن .

٤ — يجب أن لا تزيد مساحة القرية عن نصف كيلو متر مربع .

٥ — يفضل وضع المرافق العامة في مناطق متوسطة من القرية وقرب الساحات .

٦ — يؤمن للقرية الخنادق اللازمة لتأمين الدفاع عنها .

٧ — يجب ان يؤمن اما بواسطة صاحب البيت او الدولة ملاجيء صغيرة لكل عائلة عبارة عن خندق مسقوف بالتوتياء او الخشب ، فوقه طبقة لا تقل عن ٢٠ سم من التراب قريبة من البيت للالتجاء اليها عند سماع اول غارة .

٨ — يترك امر الشوارع والممرات للمستقبل اذا لم يكن بالامكان تأمينها حاليا .

كشف تقديري عام

نوع البناء	المساحة التقريبية م٢	سعر المتر المربع ل. س.	السعر الاجمالي ل. س.
٦٠ بيتا ريفيا	٤٥٠٠	٢٠٠	٩٠٠٠٠٠
مدرسة	١٨٠	٣٠٠	٥٤٠٠٠
مستوصف	١٠٠	٣٠٠	٣٠٠٠٠
نادي ثقافي	٢٥٠	٣٠٠	٧٥٠٠٠
مكان للعبادة	١٥٠	٣٠٠	٤٥٠٠٠
٦ مخازن للبيع	١٢٠	٢٠٠	٢٤٠٠٠
خزان مياه مع التمديدات وحفر بئر ارتوازي			٢٥٠٠٠٠
مركز توليد كهربائي	١٠٠		١٠٠٠٠٠
مركز شرطة	٧٠	٢٠٠	١٤٠٠٠
مستودعات عامة	٣٠٠	٢٠٠	٦٠٠٠٠
المجموع			١٥٥٢٠٠٠
يضاف ١٥ ٪ على التكاليف للتحصينات وغير ذلك			٢٣٢٨٠٠
يصبح مجموع تكاليف القرية العام			١٧٨٤٨٠٠

هجرة المهندسين العرب والمعركة

الدكتور الياس زين

تعاني الاقطار العربية ، في الوقت الحاضر ، ظاهرة خطيرة ، هي نزوح ذوي الكفاءات العلمية والفنية والتقنية ، وفي مقدمتهم فئة المهندسين ، من هذه البلاد الى البلدان المتقدمة . ويأتي ذلك في الوقت الذي تحتاج الامة العربية الى هذه الطاقات والكوادر العلمية والتقنية ، في معركتها ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية من جهة ، وضد التخلف والجهل من جهة ثانية .

والغاية من هذا البحث ، كما يدل العنوان ، ان نتصدى لقضية هجرة المهندسين العرب من حيث علاقة الهجرة بالمعركة التي تخوضها الامة العربية . فاننا ننطلق في بحثنا هذا من الافتراض القائل : ان المهندس يمثل دورا بارزا في المعركة . وعليه فسنبدأ اولا بتحديد بعض المصطلحات الواردة في البحث ، ثم نعرض هجرة المهندسين بالارقام ، وبعدها نبين حاجة البلاد العربية اليهم ، نعدد دور المهندسين في المعركة ، نحلل أسباب النزوح ودوافعه ، نلقي نظرة سريعة على تدابير الحكومات العربية للحد من النزوح ، وأخيرا نقدم اقتراحات عملية لمواجهة الهجرة المستعصية .

ونقصد هنا بالهجرة عامة ،نزوح المهندسين من البلاد العربية الى البلدان الاجنبية، وخاصة المتقدمة والصناعية منها ، وفي مقدمتها الولايات المتحدة الاميركية وكندا ، سعيا وراء العمل والعيش . والهجرة ، كما هو معلوم ، ليست جديدة في التاريخ العالمي . انها قديمة قدم التاريخ نفسه . ولنا من الشعب اللبناني مثل حي على ذلك . الا ان الهجرة التي سنتكلم عنها ، في هذا البحث ، هي هجرة **جديدة من نوعها**، اي هجرة **الطاقات البشرية المتدربة** في حقل من اهم الحقول ، في خدمة التنمية والتقدم. ولا يمكن تحقيق مشاريع التنمية ، التي تصبو اليها الدول العربية ، الا بتهيئة العناصر البشرية ، وفي مقدمتهم فئة المهندسين . .

وفي هذا البحث ، سنتناول نوعين من الهجرة : **الخارجية والداخلية** . ما المقصود بذلك ؟ نقصد بالهجرة «الخارجية» نزوح المهندسين والعلماء وغيرهم من الاختصاصيين من البلاد العربية الى البلدان المتقدمة سعيا وراء العيش . الا ان الهجرة **«الداخلية»** تعني سوء استخدام المهندس المناسب ، المقيم في بلده ، في المكان المناسب او عدم استخدامه . ونذكر على سبيل المثال ، ان احد المهندسين ، المختص في الزراعة ، يعلم اللغة الانكليزية . وسنركز في هذا البحث ، على الهجرة « الخارجية » ، نظرا لتوافر الاحصاءات والمعلومات عنها .

وهنا لا بد من الاشارة الى اننا سنتحدث عن « استنزاف » المهندسين العرب الى الخارج وليس عن « هجرتهم » . ورب سائل يقول: ما الفرق بين الهجرة والاستنزاف؟ فهجرة المهندسين تعني ، ان هناك عددا فائضا overflow من هؤلاء في مجتمعهم ، الذي لا يحتاج اليهم، الامر الذي يؤدي بهم الى الهجرة للخارج.بيد أن مفهوم «الاستنزاف»

العلمي drain يعني ، ان المجتمع يحتاج الى علوم وخبرات هؤلاء ، في الوقت الذي ينزحون الى مجتمع اخر — فيكسبهم . وبما ان المجتمع العربي اليوم يعاني نقصا فادحا في عدد المهندسين، كما سنرى،فان حركة نزوح هؤلاء يفضل أن تعتبر «استنزافا» وليس « هجرة » . بيد اننا سنستعمل كلمة ، هجرة ، في معظم الاحيان ، في هذا البحث، كمرادف لاستنزاف .

ويمثل مفهومنا « للمعركة » : في هذا البحث ، ميدانا واسع النطاق ، أي ان « المعركة » لا تشمل النزاع مع العدو الاسرائيلي والصهيونية والامبريالية العالمية فحسب ، بل تشمل المعركة ضد التخلف ، بكافة اوجهه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية ، وما الى ذلك .

ولا ريب في أن ثمة علاقة وثيقة وترابطا عضويا بين هذين النوعين من الهجرة . فالهجرة الداخلية مثلا ، تشجع الهجرة الى الخارج وتغذيها ، كما سنرى . فالمهندس، الذي لا يعمل في حقل اختصاصه ، والذي لا يشعر انه يخدم بلده بعلمه وخبرته ، او انه لا ينمو مهنيا وهندسيا وعلميا ، فهو مرشح للهجرة الى الخارج ، لا محالة.

ولا بد لنا ، في معرض حديثنا عن استنزاف المهندسين العرب ، من أن نذكر ، بعض الشيء ، عن اهمية هؤلاء في المعركة ، ضد التخلف بكافة اوجهه ، وضد العدو الاسرائيلي —الصهيوني . وقد بات من المؤكد في الوقت الحاضر ان اغلى الثروات القومية تكمن في الكفاءات العلمية والفنية والتقنية.ولا ريب في أن فئة المهندسين تأتي في طليعة رجال العلم والتكنولوجيا.وعليه، فالمهندسون هم العمود الفقري في التنمية الاقتصادية والعلمية والتقنية، وبالتالي في كسب المعركة ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية.أي أن المهندسين يمثلون دورا بارزا في المعركة،بمعناها الاقتصادي والعسكري . ومن هنا فان تسفير هذه الطاقات الانسانية العلمية والتقنية الى الخارج ، او حتى عدم استثمارها بطريقة فعالة في الداخل ، في تطوير المجتمع وانمائه ، يعني انه ما من ثروة مادية أو طبيعية يمكن ان تعوض عن هذه الخسائر الفادحة ، في الكفاءات نفسها وفي الخسائر المالية .

وكدليل على أهمية المهندسين في المعركة ضد اسرائيل مثلا ، فقد كان من أحد مقررات المؤتمر الصهيوني الذي عقد في سويسرا عام ١٩٥٨ ، اشارة واضحة الى ضرورة العمل على **تهجير المهندسين السوريين** . ورب سائل : لماذا فئة المهندسين بالذات ؟ ان التركيز من قبل المؤتمر الصهيوني على تهجير المهندسين السوريين تظهر أهمية المهندسين الذين هم **خط الدفاع الاول ضد اسرائيل** . فهؤلاء ، في الواقع ، هم المحور والعمود الفقري ، في تطوير البلاد وانمائها ، اقتصاديا وعلميا(١).

ويجدر بنا هنا أن نذكر تجربة فرنسا في حربها ضد المانيا ايام نابليون بونابرت . فقد أدرك الالمان ، بعد هزيمتهم من قبل الفرنسيين ، أن القائد نابليون بونابرت ، لم يحاربهم بالسلاح فحسب ، بل حاربهم أيضا **بالادمغة المتمثلة بالمهندسين** الذين كانوا يعملون في جيشه . وقد كانت غالبيتهم من خريجي معهد البوليتكنيك(٢). ولا غرابة ان نذكر انه في المانيا النازية كانوا يضربون التحية للمهندسين ، اسوة بالضباط . وما أصدق ما أوصى به أحد العظماء ، رجال دولتهم عندما خاطبهم قائلا : « المهندسون ، هذه الفئة النادرة ، حافظوا عليها ، حفاظكم على بؤبؤ اعينكم . فهم عماد التنمية ، وحجر الرص ، في تقدمها الاقتصادي »(٣).

وفي هذا المجال صرح العالم الهندي م. س. شاكر ، رئيس « مؤتمر الامم المتحدة لدراسة تطبيق العلم والتكنولوجيا لمنفعة المناطق الضئيلة النمو » في عام ١٩٦٣ :

« ينبغي الا نضن بأي مال او جهد ، لارساء هذا الركن (من اركان الانماء) . فالعلماء والباحثون العلميون المرسون و**المهندسون الاكفاء** والتقنيون الحاذقون ، هم في الحقيقة سادة الانماء القومي »(٤).

واما في معركة **التنمية الاقتصادية** ، فيمثل المهندسون دورا قياديا في عملية التطوير والتقدم . فهم محركون للثورة الانمائية ، نظرا للمؤهلات والخبرات العلمية والفنية والتقنية المنتشرة لديهم . ويذكر ان خطة التنمية القومية الشاملة والمتكاملة تعتمد ، في تنفيذها ، على جهود المهندسين الخلاقة وعلى علومهم وخبراتهم وكفاءاتهم ومدى تواجدهم في المصانع والحقول والمزارع . ومدى مساهمتهم بكافة المراحل ، ابتداء من اجراء البحوث ووضع الدراسات والاستقصاءات ووضع التصاميم ، وانتهاء بالنشر والاشراف على عمليات التنفيذ ، ثم التشغيل والصيانة ، للحصول على المستوى الانتاجي المطلوب . لذا فانجاح الثورة الزراعية مثلا ، يعتمد على المكننة ، اي تهيئة الوسائل الحديثة واستعمالها في الري واستصلاح الاراضي ومكافحة الحشرات بالمبيدات الحديثة ، واعداد الكوادر الفنية والزراعية . ومن هنا يتضح دور المهندسين الذي هو ، بالايجاز ، العمود الفقري لهذه الاعمال كلها .

واما دور المهندسين في معركة التصنيع ، فهو بارز أيضا لانهم هم الاساس الذي يعتمد عليهم تطوير هذا القطاع وانمائه . فهم المصممون والمخططون للنهضة الصناعية ، ولا يمكن انجاح عملية التصنيع بغير المهندسين . فمساهمة المهندسين ، طبعا ، الى جانب الفنيين والعاملين في المصانع والحقول ، من شأنه زيادة الانتاج الزراعي والصناعي وتطويرهما وتحقيق أهداف التنمية القومية(٥). لذلك فلا غرابة ان نجد الدول قد أصبحت تفتخر، بمقدرة كلياتها وجامعاتها علىتخريج المهندسين، مقياسا من مقاييس التقدم والقوة . ولا غرابة أيضا أن يسمى هذا العصر بـ « عصر المهندسين »(٦). وأصبحت الامم اليوم لا تقيس عظمتها بمساحة اراضيها او بعدد سكانها او بثرواتها الطبيعية او بماضيها العريق ، بل بعدد المهندسين والعلماء لديها . فالاتحاد السوفياتي مثلا ، يفتخر بأنه يملك وحده اكثر من ربع عدد المهندسين في العالم اليوم ، وكذلك يملك ربع علماء العالم .

وهكذا يتضح ان المهندسين ، فئة مرغوب فيها دوليا . لذا نرى الدول المتقدمة تسعى بشتى الطرائق لاجتذابها ، ايمانا منها بأن الحصول على اكبر عدد من المهندسين ، يعني كسبا علميا وتقنيا ، وبالتالي تقدما اقتصاديا . فالمهندسون اذن ذخيرة عظمى ، في أي امة ، وهم حجر الاساس في النمو الاقتصادي ومظلة واقية للامة . فهم بالاحرى « انبياء » التكنولوجيا .

هجرة المهندسين بالارقام والحقائق

بعد هذا العرض العام للبحث ، نأتي الى صلب الموضوع ، اي هجرة المهندسين بالارقام والحقائق . ويمكن تقسيم الهجرة الى قسمين : الهجرة الى الخارج والهجرة الداخلية .

١ ــ **الهجرة الى الخارج** : نتيجة البحث تبين ان بعض الاقطار العربية تخسر ، عبر الهجرة ، عددا كبيرا من المهندسين ، وان فئة المهندسين اكثر الفئات العلمية هجرة .

جدول رقم (١) : هجرة المهندسين الى الولايات المتحدة وكندا(٧)

اسم البلد	الولايات المتحدة ١٩٦٢–١٩٦٩ (العدد)	كندا ١٩٦٢–١٩٦٧ (العدد)
مصر	٥٦٤	١١٦
لبنـــان	٢٧٧	١٩
العـــراق	١٦٥	١٣
ســـوريـــا	١٢٩	٥
الاردن وفلســطين	١١٧	—
المغـــرب	١٨	٤
الجزائر	٩	—
تونـــس	٤	—
المجمـــوع	١٢٨٣	١٥٧

يتضح من الجدول الاول ان عدد المهندسين ، المهاجرين من ثماني دول عربية ، الى الولايات المتحدة الاميركية وحدها ، بلغ ١٢٨٣ مهندسا ، ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٩ ، والى كندا ، من خمس دول عربية ، ١٥٧ مهندسا ، ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٧ . كما هاجر من اسرائيل الى الولايات المتحدة ٦٠٦ مهندسين ، والى كندا ١٠٠ مهندس ، خـــلال الفترتين المذكورتين(٨). وبالاضافة الى ذلك ، فان المهندسين الذين منحوا اجازات عمل في فرنسا ، ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٦ ، بلغ عددهم من ستة بلدان عربيـــة ٣٥٤ مهندسا (لبنان ١٢٩ ، المغرب ١٢٩ ، تونس ٩٤ ، سوريا ٥٦ ، مصر ٤٤ ، العراق واحـــد فقط) . وعدد الاسرائيليين الذين منحوا اجازات عمل في فرنسا بـــلغ ١٦٩ مهندسا . هذا وافادت احصائية شملت مهن اعضاء احد النوادي الاجتماعية للجالية العربية في مدينة مونتريال بكندا ، ان عدد المهندسين الاعضاء فيه ، بلغ ٤٤ من اصل ٢٦٧ عضوا، اي بنسبة ١٨ بالمائة . وجاء في بحث مخصص لخريجي الجامعة الاميركية في بيروت فقط ، انه من بين خريجي الهندسة من اللبنانيين ، ثمـــة ٦٥ بالمائة منهم ، قد هاجر الى بلدان متقدمة ، مقابل ٦٠ بالمئة فقط يعملون في البلاد العربية(٩).

ويجدر بنـــا ان نذكر بعض الشيء عن هجرة المهندسين في اوائل الســـبعينات . لم نستطع الحصول على معلومات حول ذلك ، حتى من دائرة الهجرة الاميركية، لانها، على ما يبدو ، قد توقفت عن نشر مهن اصحاب الاختصاص المهاجرين الى الولايـــات المتحدة ، كما كانت تفعل في الماضي . الا انها تذكر عددهم تحت عنوان « الاختصاصيين والفنيين » . لذا اضطررنا ان نقدر عدد المهندسين المهاجرين الى الولايات المتحدة ، للعامين ١٩٧١ و١٩٧٢ ، بنسبة معدل المهاجرين في عقد الستينات . ويلاحظ ان نسبة المهندسين بلغت ١٣ بالمئة لمجموع الاختصاصيين والفنيين المهاجرين الى الولايـــات المتحدة ، ما بين ١٩٦٢ و١٩٦٣ . واذا حافظت النسبة المذكورة على حالتها السابقة في اوائل السبعينات مثلا ، يمكننا ان نقدر عدد المهندسين المهاجرين خلال ١٩٧٢ — ١٩٧٣ الى الولايات المتحدة وحدها ، بحوالي ٣٨٠ مهندسا عربيا ، من اصل مجموع ٢٦٩٢٤ اختصاصيا وفنيا(١٠).

ولا بد من الاشارة الى ان فئة المهندسين اكثر الفئات الاختصاصية هجرة . فقد هاجر الى الولايات المتحدة ٢٠٣٢٦ من المهندسين والاطباء والعلماء خلال ١٩٦٢ — ١٩٦٩ . ومن بين هؤلاء : بلغ عدد المهندسين ١٠٢٨٣ ، يليهم الاطباء ٤٨٣ ، فعلماء الطبيعة ٤٨١ ، فعلماء الاجتماع ٨٩ . هذا يعني ان اكثر من نصف هؤلاء (٥٥ بالمائة) هم من المهندسين ، مقابل (٢١ بالمائة) من الاطباء و(٢١ بالمائة) لعلماء الطبيعة ، كما بلغت نسبة المهندسين ، الذين هاجروا الى كندا ، ٣٧ بالمائة ، مقابل ٣٨ بالمائة ، للاطباء و٢٤ بالمائة لعلماء الطبيعة(١١).

وتعاني سوريا استنزافا هائلا لمهندسيها . فقد نقل مراسل « هيئة الاذاعة البريطانية » في دمشق ، عن لسان نقيب المهندسين السوريين ، في حديث له في ندوة حول هجرة الادمغة ، ان حركة استنزاف المهندسين السوريين الى الخارج قد تفاقمت في السنتين الماضيتين ، بشكل أصبح يدعو الى القلق الشديد ، الامر الذي قد يؤدي الى كارثة وطنية وعلمية . وكشف النقيب عن أن هناك ما لا يقل عن ٨ آلاف مهندس سوري حاليا في الخارج ، من اصل ١٣ ألف مهندس سوري ، أي أن ثلثي المهندسين السوريين يعملون خارج القطر السوري(١٢).

١٠ — **هجرة خريجي الهندسة** : هذا وبلغت نسبة المهاجرين من خريجي فروع الهندسة ، من البلاد العربية الى الولايات المتحدة وكندا نسبة عالية جدا ، كما يتضح من الجدول الثاني . فقد نزح اكثر من ٥٦ بالمائة من الخريجين في الهندسة من سوريا و٣٥ بالمائة من لبنان و٩ بالمائة من العراق و٢ بالمائة من مصر ، مقابل ١٤ بالمائة من اسرائيل .

جدول رقم (٢) : نسبة المهاجرين الى الولايات المتحدة وكندا من خريجي الهندسة ١٩٦٢—١٩٦٦(١٣)

البلد	نسبة المهندسين
سوريا	٥٦٠٥ ٪
لبنان	٣٥٠٥ ٪
العراق	٩٠٢ ٪
مصر	٢٠٠ ٪

ب — **بقاء الطلاب في اميركا** : يبدو ان فئة الطلاب التي تدرس في الولايات المتحدة هي مصدر كبير للهجرة الى تلك البلاد . ويظهر ان عددا كبيرا من هؤلاء الطلاب يتخذون، من الدراسة في الولايات المتحدة ، وسيلة او خطوة اولى للهجرة النهائية . يستفاد من أحدث الاحصاءات ، ان عدد الطلاب العرب في الولايات المتحدة بلغ ٦٠٨٠٤ العام ١٩٧٢ — ١٩٧٣ ، يمثلون ١٨ قطرا عربيا . فمن هؤلاء نجد اكثر من الثلث بقليل ، اي ٢٠٥٦٥ طالبا (٣٤ بالمائة) يتخصصون في مختلف فروع الهندسة . ومن بين هؤلاء ثمة ١٠٢٧٦ طالبا يحملون اشارة سمة دخول « فيزا » هجرة ، اي ١٧ بالمائة، منهم ٢٨٩ طالبا في الهندسة اي ٤ بالمائة خلال العام المذكور .

وعلى صعيد الطلاب الاسرائيليين ، الذين يدرسون في الولايات المتحدة ، فقد بلغ

عددهم ٢٢١٣، طالبا ، منهم ٤٨٦ في الهندسة (٢٢ بالمائة) ومن بين طلاب الهندسة ، كان عشرون طالبا من هؤلاء يحملون سمة دخول او « فيزا » هجرة (أي أقل من واحد بالمائة) . خلال العام الدراسي المذكور .

ويذكر ان ٢٢ بالمائة من مجموع الطلاب الاجانب في الولايات المتحدة يدرسون العلوم الهندسية ، منهم ١٦ بالمائة يحملون سمة دخول « فيزا » هجرة .

مما تقدم يتضح ان فئة الطلاب العرب التي تلتحق بالدراسات الهندسية ، نسبيا ، أكثر من الطلاب الاجانب، بمن فيهم الاسرائيليون. الا ان نسبة الطلاب العرب الذين يحملون سمة دخول « فيزا » هجرة ، تفوق نسبة الطلاب الاسرائيليين بكثير ، كما تفوق مجموع نسبة الطلاب الاجانب بقليل(١٤).

جـ ـ هجرة المهندسين العرب والاسرائيليين ـ مقارنة : ويجدر بنا ان نجري مقارنة خاطفة بين هجرة المهندسين العرب والاسرائيليين ، وذلك بغية معرفة الهوة او الثغرة بين الفريقين . ونتيجة البحث والتحليل ، نستخرج الحقائق الاتية : ان اسرائيل تضم ، نسبيا ، عددا اكبر من المهندسين . ففي اسرائيل ما لا يقل عن خمسة عشر الف مهندس ، كما أن هناك سبعة الاف مهندس وعالم يعملون في البحث العلمي(١٥). ويلاحظ ان عدد المهندسين الاسرائيليين آخذ في الازدياد ، سنه بعد سنة ، على الرغم من نزوح عدد كبير منهم الى الخارج ، نتيجة الهجرة اليها من البلدان المتقدمة. فاسرائيل تعوض او تكسب اضعاف ما تخسره من المهندسين ، كل عام ، عن طريق الهجرة اليها . تفيد الاحصاءات انه قد هاجر من اسرائيل ٤٧١ مهندسا ، الى الولايات المتحدة وكندا ، كما منح ١٦٩ مهندسا اجازات للعمل في فرنسا . ومن جهة ثانية نجد ان اسرائيل كسبت ١٤٤٣٠ مهندسا ، خلال ١٩٦٢ ـ ١٩٦٨(١٦).

٢ ـ هجرة المهندسين « الداخلية » : بعد ما عرضنا بالارقام والحقائق هجرة المهندسين الى الخارج ، سنلقي نظرة سريعة على هجرة من نوع آخر ، أي هجرة المهندسين « الداخليه » ، والتي تعني سوء استخدام المهندسين في مراكز التخصص المناسبة لهم . ولا بد من الاشارة الى اننا لم نعثر حتى الان على دراسة حول هذا الموضوع ، الا ان اطلاعنا واتصالاتنا الشخصية تشير الى ان هناك عددا من المهندسين العرب يقومون باعمال لا تمت بصلة الى اختصاصهم . ونعتبر ذلك هجرة. فما الفرق بين المهندس الذي يهاجر ويغيب عنا جسديا من جهة ، وبين المهندس الذي يقيم بيننا ، ولكنه لا يعمل في حقل تخصصه . فهو اذن **غائب عنا هندسيا** ، لان البلاد لا تستفيد من علومه الهندسية . وهناك قصص لا تصدق عن مهندسين ، من الذين درسوا في الخارج وفي الداخل ،ويعملون حاليا في مهن لا تمت بصلة الى تخصصهم .

جدول رقم (٣) : المهندسون المهاجرون الى اسرائيل ١٩٦٣ ـ ١٩٧١(١٧)

السنة	عدد المهندسين
١٩٧٢	٢٤٨٤
١٩٧١	١٤٥٤
١٩٧٠	١٣٣٨
١٩٦٣ ـ ١٩٦٨	١٤٣١

ويبين الجدول الثالث ان عدد المهندسين المهاجرين الى اسرائيل يتصاعد ، وخاصة في السنوات الاخيرة ، ففي عام ١٩٧٣ وحدها هاجر اليها ٢٠٤٨٤ مهندسا ، مقابل ١٠٤٣١ مهندسا ، لمجموع السنوات ١٩٦٢ — ١٩٦٨ . وتشكل فئة المهندسين وحدها ١٠ بالمائة من مجموع الاختصاصيين والفنيين المهاجرين الى اسرائيل ، وقد بلغ عددهم مثلا ، ٦٠١٨٩ في عام ١٩٧١ .

وينبغي الاشارة الى ان المهندسين المهاجرين الى اسرائيل هم من الفئه الشابه والناشطه والمنتجة . تفيد احدث الارقام للعام ١٩٧٢ ان اكثر من ثلث هؤلاء المهندسين المهاجرين ، كانوا ما بين ٢٠ و٢٩ من العمر، و٤٢ بالمائه ما بين ٢٠ و٤٤ سنه، ١٥ بالمائة ما بين ٤٥ و٥٤ سنه . هذا يعني ان ٩٠ بالمائه من المهندسين، الذين هاجروا الى اسرائيل في سنه ١٩٧٢ ، كانوا ما بين الـ ٢٠ و ٥٤ من العمر ، اي في السنوات الاكثر نشاطا وانتاجا وفتوة(١٨).

وبكلام أوضح ان اسرائيل ، ككيان مبني في اساسه على المهاجرين من الخارج ، تستطيع ، بشتى وسائل الاعلام ، ان تجتذب او تستقطب ، فئات المهندسين المدربين من الخارج ، باعلان في الصحف او بنداء او بتصريح مسؤول في الدولة الصهيونيه او عن طريق المنظمات الصهيونية او البعثات الاسرائيليه في الخارج .

واما على الصعيد العربي ، فيبدو ان الحالة مخالفة تماما للوضع الاسرائيلي . فبالرغم من الاغراءات الماديه والعلميه ، التي يوجهها بعض الحكومات العربيه الى العلماء والمهندسين والاطباء المهاجرين ، من ابلاد العربية والمقيمين في الخارج ، فاننا نجد القليل جدا من هؤلاء يعود الى ارض الوطن ، للعمل في مشاريع التنمية. والغريب في الامر ان الذين يعودون من الخارج ، للعمل في ارض الوطن ، سرعان ما يرحلون الى الخارج . لذا تضطر الاقطار العربية الى استخدام المهندسين والخبراء الاجانب في مشاريع التنمية . فلبنان ، هذا البلد ، الذي يعاني أكثر من غيره ، هجرة المهندسين ، نسبيا ،نجد ١٢٤ مهندسا اجنبيا يعملون في لبنان في عام ١٩٧٣(١٩). وعلى ذكر المهندسين الاجانب ، فلا بد من أن نذكر أن تكاليف المهندس الاجنبي في السنة الواحدة تصل الى حوالي ٨٠ ألف دولار ، بالاضافة الى تكاليف السفر بالدرجة الاولى والامتيازات الاخرى(٢٠).

ولا يخفى ان اعداد المهندس الواحد وتدريبه يستغرق ما لا يقل عن٢٥ الى٣٠ سنة. وهذه فترة طويلة جدا ، في هذه الظروف الصعبة ، التي تمر بها الامة العربية ، في معركتها ضد اسرائيل والصهيونية العالمية وضد التخلف والجهل والرجعية .

الحاجة الى مهندسين ومجالات استخدامهم

بعد كل ما تقدم من حقائق وأفكار ، فان الاسئلة ، التي تتبادر الى الذهن ، هي : هل نحن في البلاد العربية بحاجة الى مهندسين ؟ هل هجرة المهندسين تعني ان لدى البلاد العربية فائضا من هؤلاء ؟ لا شك في ان هناك حاجة ماسة الى المزيد من المهندسين ، في كافة الاختصاصات ، وان الهجرة ليست دليل الفائض من المهندسين ، بل دليل **التخلف** الاقتصادي والاجتماعي ، السائد في البلاد العربية . فهناك مجالات واسعة النطاق لاستخدام المهندسين العرب في المعركة ، سواء في القطاع العسكري او في القطاع المدني ، في المعركة ضد اسرائيل والامبريالية العالمية ، وضد التخلف والجهل بكافة اوجهه . ومما ينبغي الاشارة اليه هو انه لا يمكن الفصل بين المعركتين المذكورتين ، لان المعركة ضد التخلف والجهل تعتبر أساسية ، لدعم المعركة المصيرية ضد اسرائيل والامبريالية العالمية .

تعاني البلاد العربية نقصا فادحا في عدد المهندسين الذين تحتاج اليهم هذه البلاد . ففي ندوة حول هجرة الادمغة ، كشف نقيب المهندسين السوريين النقـاب عن ان سوريا تحتاج الى نحو ٢٠ الف مهندس للعمل في مشاريعها الانمائية للعام الحالي ، في حين لا يتوافر من هؤلاء سوى حوالي ٥ آلاف مهندس فقط .

ولمعرفة الحاجة الماسة الى المهندسين ، في مختلف الاختصاصات ، يكفي ان نلقي نظرة سريعة ، على الاعلانات في الصحف والمجلات الصادرة في البلاد العربية ، لنجد ، عن كثب ، الطلبات المتزايدة على هذه الفئة النادرة من الاختصاصيين . وهذه الاعلانات تصدر عن المؤسسات العامة (الحكومية) والمؤسسات الخاصة .

تفيد احدث الاحصاءات المتوافرة لبعض الاقطار العربية ، ان معدل العلماء والمهندسين ، لكل عشرة آلاف نسمة من السكان ، منخفض جدا في البلاد العربية ، بالمقارنة مع بعض الدول المتقدمة واسرائيل . فاحصاءات اليونسكو تشير الى ان هناك مثلا ٥ر٥٣ عالما ومهندسا لكل عشرة آلاف نسمة في الكويت ، و٣٤ في البحرين ، و١٩ في لبنان ، و١٥ في الاردن ، و٨ في العراق مقابل ١٢٤ عالما ومهندسا لكل عشرة آلاف نسمة في اسرائيل و٢٩٨ في الاتحاد السوفياتي ، و١٩٩ في فرنسا ، و٨٥ في الولايات المتحدة(٢١). كما ان معدل العلماء والمهندسين العاملين في البحوث العلمية ، لكل عشرة آلاف نسمة ، منخفض كثيرا . فالمعدل هو اثنان في مصر ، وواحد في لبنان ، واقل من واحد في بقية الاقطار العربية . بيد ان المعدل مرتفـع في الدول المتقدمـة واسرائيل بحيث نجد ان هناك ٤١ عالما في الاتحاد السوفياتي ، ٢٧ في تشيكوسلوفاكيا، ٢٦ في الولايات المتحدة ، و١٢ في فرنسا و١٠ علماء في اسرائيل(٢٢).

هذا ويعمل في اسرائيل سبعة آلاف عالم ومهندس في مجالات البحوث المختلفة(٢٣).

واما عدد المهندسين في البلاد العربية ، فيبلغ ما لا يقل عن ٦٠ الفا ، الا أن هذه البـلاد ، اذا ارادت حقـا ان تتطور وتتقـدم ، لتصبح مجتمعـا عصريا فعـلا ، تحتاج ، على حد تقدير أحد الخبراء العرب ، الى ما لا يقل عن مليون ونصف المليون من المهندسين(٢٤). فكيف يمكننا ان نحصل على هذا العدد الكبير ؟ يعتقد الخبير نفسه ان باستطاعة العرب ، في غضون ١٥ عاما ، الحصول على الرقم المطلوب فقط ، اذا انشئت جامعات وكليات لهذا الغرض فورا . ولا ريب في أن الدول العربية النفطية تملك الموارد المالية الضخمة ، لانشاء كليات وجامعات ومعاهد من الدرجة الاولى وتمويلها . ولا يخفى ان تأمين هذا العدد الكبير ، في غضون ١٥ سنة ، من شأنه في النهاية أن يساعد العرب كثيرا في حربهم ، التـي لا هوادة فيها ، ضد الصهيونيـة والامبريالية ، وضد التخلف بكافة اوجهه .

ولا بد من الاشارة الى أن عدد طلاب الهندسة في ١٣ قطرا عربيا ، بلغ ٤٧ر٤٦٧ طالبا من أصل ٤٤٥ر٣٩٦ في الجامعات في البلاد العربية. اي ان نسبة طلاب الهندسة للمجموع ١٢ بالمائة ، مقابل ١٣ بالمائة في اسرائيل و٣٦ بالمائة في تشيكوسلوفاكيا و١٤ بالمائة في المملكة المتحدة ، وذلك لاحد الاعوام ١٩٦٨ — ١٩٧٠ . واما عدد خريجي فروع الهندسة في ١١ قطرا عربيا ، فبلغ ٦٣٩ر١ مهندسا ، من اصل ٢٩٨ر٢٠ خريجا، في كافة التخصصات والفروع ، أي ٨ بالمائة فقـط يتخرجون في الهندسـة في البلاد العربية ، مقابل ١٦ بالمائة في اسرائيل و٣٢ بالمائة في بولونيا و٢٢ بالمائة في المانيـا الديمقراطية و٢١ بالمائة في اليابان و١٦ بالمائة في المانيا الاتحادية و١٥ بالمائة في المملكة المتحدة(٢٥).

وهكذا يتضح أن خريجي الهندسة في اسرائيل هو ضعفا نسبة الخريجين في البلاد

العربية . أي ان البلاد العربية ، التي تحتاج الى مهندسين عددا ونوعا ، لا تعد حاليا سوى القليل من هؤلاء ، في حين نجد ان اسرائيل وبعض الدول المتقدمة ، التي تملك ، نسبيا ، عددا أكبر من المهندسين ، فانها لا تزال تعد المزيد منهم . وما اصدق القول : « فمن معه يزاد ومن ليس معه يؤخذ منـــه » . فالخسارة العربيـــة مزدوجة هنا ، بهجرة المهندسين والنقص الكبير في اعداد ما تحتاجه البلاد من مهندسين ، في الوقت الحاضر وفي المستقبل .

دور المهندسين العرب في المعركة

بعد ما علمنا بعض الشيء عن حركة استنزاف المهندسين ، على الرغم من الحاجة الماسة اليهم ، نأتي الى تسليط الاضواء على المهمات التي يمكن ان يقوموا بهـــا في المعركة . فهناك مهمات وأدوار كثيرة يمكن للمهندسين القيام بهـــا في الوقت الراهن والعمل على ايجاد الحلول العلمية والعملية لها . وسنقدم لمحـــة موجزة عـــن دور المهندسين في حرب ١٩٧٣ ، ثم دور المهندسين الفلسطينيين واللبنانيين ودور المهندسين المغتربين ، في المعركة ، وبعدها نتطرق الى مهمات المهندسين ضد التخلف في الحقول الهندسية والاقتصادية والعلمية والسياسية والاجتماعية .

والجدير بالذكر ان دور المهندس ينبع من طبيعة علمه وتدريبه العالي . فطبيعـــة عمل المهندس ، في المرحلة المصيرية من تاريخ الامة العربية ، هو التصدي للقضايا التي تعترض المجتمع العربي الذي يعيش فيه والسعي الى معالجتها ولحلها بطريقة علمية وعملية . فلا يمكن للمهندس اليوم أن يقف مكتوف الايدي أمام التحديات التي تواجه مهماته العربية . فدوره ، بالاختصار ، كامل في النضال والبنـــاء والانماء والاعلام والسياسة .

دور المهندسين في المعركة ضد العدو : ان مهمة المهندس في المعركة ضد العدو ، هي مهمة عسكرية قتالية ضمن اطار تخصصه العلمي والتقني ، كمهندس ، وكذلك المهمة الاعلامية التي لا تقل أهمية عن مهمته الاختصاصية .

١ ــ **الدور العسكري في حرب ١٩٧٣** : تجدر الاشارة الى انـــه كان للمهندسين العرب دور طليعي ، الذي أثار اعجاب العالم كله ، في حـــرب تشرين الاول اكتوبر ١٩٧٣ . فقد ساهم المهندسون العاملون في القوات العربية مساهمة كبيرة من خلال المسؤوليات الكبرى التي ألقيت على عاتقهم . ومن أبرز تلك الاعمال : انشاء السدود والموانع والتحصينات وحفر الخنادق ، تنظيم عملية العبور التاريخية ، اقامة الجسور عبر القناة في ساعات قليلة جدا ، اقامة المعابر فوق « خط بارليف » ، شق الثغرات في خط بارليف ، زرع الالغام في حقول العدو وابطال مفعول الغـــامه الموقوتة ، انشاء مواقع الدفاع الجوي ، اقامة نظام مضاد للدبابات ، فضلا عن تجهيز مراكز القيادة والملاجيء المحصنة الخ .

تفيد تقارير القادة العسكريين المصريين ان سلاح الهندسة قام بدور أساسي في حرب اكتوبر ١٩٧٣ . فقبل الحرب مثلا ، كان سلاح الهندسة في القوات المصرية يعمل بعنف وقسوة طيلة السنوات الست التي سبقت الحرب ، بحيث كان المهندسون يعملون ٢٤ ساعة . وكان سلاح الهندسة يبذل مجهودا قبل المعركة لا يقل اطلاقا عـــن الجهود في اثنائها. وكانت المشكلة الرئيسية امام المهندسين على ضفة قناة السويس هي: كيفية فتح الثغرات او الممرات في الساتر الترابي في خط بارليف الذي أقامه العدو على الضفة الشرقية والذي بلغ ارتفاعه في بعض القطاعات الى ٢٥ مترا ، فضلا عن الخط الترابي المصري على الضفة الغربية . وقد أجريت محاولات عديدة مستخدمة شتى الوسائل

بغية اقتحام خط بارليف ولكن بغير جدوى . اتجه التفكير أول الامر مثلا الى فتح الثغرات بواسطة التفجير ، بحيث استمرت نظرية التفجير هذه سائدة طيلة خمس سنوات ، اي حتى منتصف عام ١٩٧١ . وقد أجريت ما يزيد على ٣٠٠ تجربة على امتداد السنوات المذكورة لفتح هذه الممرات بالمدفعية ، وبكل انواع المفرقعات والصواريخ والالغام ، لكنها فشلت جميعها . الا ان المشكلة قد حلت من قبل احد المهندسين وهو ضابط شاب كان اهتدى الى فكرة استخدام مدافع المياه ، التي استطاعت بواسطتها القوات المصرية فتح ٨٥ ممرا في الساتر الترابي خلال خمس ساعات فقط . وتتلخص نظرية التجويف هذه باستخدام المياه المندفعة من خراطيم ، تحت ضغط عال ، في ازالة الرمال ، من السد الرملي . ومما يجدر التنويه به ان قوات المهندسين العسكريين قد وضعت حوالى مليون لغم مضاد للدبابات خلال حرب ١٩٧٣ . وفي خلال ساعتين من انطلاق الشرارة الاولى ، كان حجم قوات المهندسين العسكريين ، فوق سطح الساتر الترابي وفوق صفحة القناة ، قد تجاوز **خمسة عشر ألف مقاتل من المهندسين العسكريين** من مختلف التخصصات . وهكذا يتضح ان جهود المهندسين وابتكاراتهم كانت فعلا وراء النجاح الكبير الذي حققته القوات المصرية في عملية العبور العظمى(٢٦).

٢ — **دور المهندسين الفلسطينيين** : كان ذلك عن دور المهندسين المصريين ، والان نأتي الى اعطاء لمحة عن دور المهندسين الفلسطينيين في المعركة التي يخوضها الشعب الفلسطيني المناضل بجانب الشعب العربي الشقيق . فمن المعلوم ان المهندسين الفلسطينيين يمثلون دورا طليعيا من أجل انجاح الثورة ودعم الصمود الفلسطيني والعربي . ومن يلقي نظرة سريعة على حركة النضال الفلسطيني يجد بوضوح أن المهندسين هم من فصائل الطليعة النضالية في المعركة ، وقد قاموا بأعمال بطولية . يكفي أن يكون اول من أطلق شرارة الثورة الفلسطينية المهندس ، ياسر عرفات، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والقائد العام للثورة الفلسطينية . هذا وقد ساهم عدد كبير من المهندسين الفلسطينيين في دعم الثورة الفلسطينية ، فمنهم مثلا من حملوا البندقية ، وناضلوا في صفوف الثورة وجماهيرها، مقدمين أمثلة رائعة في البطولة والتضحية والشهادة . ومنهم من حمل السلاح في صفوف المقاتلين ، أمثال وليم نصار وكمال النمري ، ومنهم من استشهد ، أمثال كمال عدوان ، احمد حبش ، ربحي مسوسي ، مازن ابو غزالة ، خالد اليشرطي ، عبد الفتاح حمود .

ودعما للثورة الفلسطينية ، فقد الف الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، يضم المهندسين من فلسطين العاملين في البلاد العربية. وللاتحاد فروع في الوقت الحاضر في ستة أقطار عربية . ومن أهداف الاتحاد ، على الصعيد الدولي ، توضيح حقيقة القضية الفلسطينية للمهندسين في العالم ، والمساهمة ، على الصعيد العربي ، الفعال والمباشر في نضال جماهير الامة العربية ضد أعدائها الامبرياليين والصهاينة. والسعي، على الصعيد الفلسطيني ، لتجميع الطاقات الهندسية الفلسطينية وحثها للدفاع عن وطنها والقيام بمهماتها الانتاجية في الوطن العربي .

هذا ومن أبرز ما قام به الاتحاد مؤخرا ، توجيه الدعوة الى عقد ندوة حول « دور المهندس العربي في معركة الصمود » في بغداد (١٤ — ١٨/٤/١٩٧٥) . وانعقدت الندوة تحت شعار : بالعلم وبالبندقية تستمر الثورة المسلحة . وقد قدمت في الندوة دراسات قيمة حول دور المهندس العربي في معركة الصمود . وتقوم فروع الاتحاد بتصميم الملاجىء وبنائها في المخيمات بغية حماية أرواح المواطنين الآمنين ، فضلا عن انشاء التحصينات والاستحكامات العسكرية للمقاتلين . ولا ريب في ان الملاجىء هذه

عنصر أساسي في تقليل عدد الاصابات بنسبة كبيرة جدا ، ابان الغارات وفي أعقابها ايضا(٢٧).

٣ — **دور المهندسين اللبنانيين** : ويقوم المهندسون اللبنانيون ايضا بدورهم في خدمة معركة لبنان ضد اسرائيل . نظرا لتكرار الاعتداءات الاسرائيلية على قرى لبنان الامامية ، الموجودة على خط المواجهة مع العدو الاسرائيلي ، قررت نقابة المهندسين في لبنان الشمالي ما يأتي : اتخاذ قرار لبناء ملاجىء في القرى الامامية ، وضع كامل امكانات المهندسين للمساهمة في تحقيق المشروع ، اتخاذ كافة التدابير والوسائل الممكنة المتوافرة لانجاز المشروع بأسرع وقت ممكن . ولتنفيذ القرار ، اتخذت تدابير مالية وفنية وادارية ، كما ألفت لجنة من المهندسين للاشراف على المشروع وتنفيذه . وبالاضافة الى ذلك ، فقد تعهدت اللجنة الشعبية لدعم المجهود الحربي، التي ألفت في سنة ١٩٧٤ ، أن يكون التخطيط والانفاق باشراف نقابة الشمال . وقد ساهمت النقابة بوضع التصميم المعماري ، والتصميم الانشائي ، والدراسات المعمارية والانشائية ، الاتصال ببعض المؤسسات الصناعية لتأمين مواد البناء ، فضلا عن الاشراف على التنفيذ والادارة المالية(٢٨).

٤ — **دور المهندسين في دنيا الاغتراب** : كان هذا عن دور المهندسين المقيمين في الوطن العربي بصفة عامة ، ويجدر بنا ألا ننسى الدور البارز الذي يمكن ان يقوم به المهندسون المغتربون ، وخاصة في حقل الاعلام ، في المعركة التي تخوضها الامة العربية ضد اسرائيل والصهيونية العالمية ، والامبريالية وخاصة في مواجهة الحرب الاعلامية والحرب النفسية المعلنة ، من قبل تلك الفئات ضد العرب ، وخاصة بعد حرب اكتوبر المجيدة . يبدو ان المعركة التي تخوضها الامة العربية اليوم قد امتدت كثيرا ، وأصبحت تشمل الساحة الدولية ، بالاضافة الى الساحة العربية والشرق اوسطية نفسها .

وننطلق من استخدام المهندسين المغتربين في المعركة من المبدأ القائل : اذا لم نستطع استرجاع المهندسين المغتربين كافة ، فيجب استخدامهم في دنيا الاغتراب ، في حقل الاعلام ، كسفراء للقضية العربية .

ومما ينبغي الاشارة اليه هو أن مجالات استعمال مواهب المهندسين المغتربين واسعة النطاق في الحقل الاعلامي ، الذي أصبح حقلا واسعا ومهما جدا والذي يتطلب علما وخبرة وجهدا وتضحية . فهؤلاء الجنود المناضلون ، في الساحة الدولية ، يستطيعون ان يقدموا خدمات عظيمة للقضية العربية ، بالقيام بالنشاطات الآتية : أ — القيام باتصالات فردية مع الشخصيات والمواطنين وخاصة فئة المهندسين من هؤلاء . ب — الاشتراك في الندوات والمؤتمرات والحلقات الهندسية وغيرها واثارة القضية العربية وحقوق الشعب الفلسطيني في أرضه. جـ — القاء محاضرات وأحاديث في النوادي والكنائس والتجمعات الهندسية والاجتماعية والثقافية . د — كتابة رسائل الى الصحف والمجلات والاذاعة والتلفزيون ، مدافعين عن الحق العربي ، وناقلين التحولات الاقتصادية والاجتماعية في الوطن العربي الى المجتمع الغربي .

وعليه ، فينبغي تزويد المهندسين المغتربين بأحدث المعلومات والاحصاءات المتعلقة بتطوير البلاد العربية وتقدمها ، وكذلك المتعلقة بالقضية الفلسطينية واللاجئين الفلسطينيين . فالمهندس المغترب ، كما تدل خبرتنا في أميركا ، يحتاج الى معلومات واحصاءات وأرقام ، كي يقنع الشعب الاميركي ، مثلاً ، بالحق العربي .

دور المهندسين في المعركة ضد التخلف : بعد ما ذكرنا بعض الشيء عن المهمات التي

المهني والعلمي . ولعل هذا الدور يتمثل في وضـــع التصاميم الخاصة بالمنشـــآت يقوم بها المهندسون العرب في خدمة المعركة ، ناتي الآن الى تقديم لمحة موجزة عن الادوار التي يمكن للمهندسين ان يقوموا بها ضد التخلف بكافة أوجهه .

١ ــ **الدور الهندسي** : ان الدور الهندسي هو طبعا من صميم اختصاص المهندس الهندسية ، القادرة على الصمود أمام اعتـــداءات العدو وغاراته ، ــ بعد اجـــراء الدراسات اللازمة لها ــ كبناء البيوت الآمنة ، وفق تصميمات خاصة يمكنها التقليل من الخسائر البشرية والمادية في المخيمات وفي المدن أيضا ، وكذلك بناء بيوت بعيدة عن بعضها البعض ، وبناء الملاجىء في كل بيت ، فضلا عن ايجاد الحلول العلمية للمجاري المكشوفة وللاخطار الناجمة عن عوامل الطبيعة ، كتصميم المجاري والقنوات الآمنة اللازمة . ومنع تلوث البيئة والمحافظة على جمال الطبيعة ، الخ(٢٩).

٢ ــ **دور المهندسين العلمي** : لا يختلف اثنان حول ما للعلم وللتكنولوجيا مـــن دور حاسم في المعركة ضد العدو وضد التخلف . والدليل على ذلك واضح في كافة المجالات. ففي حرب ١٩٧٣ مثلا ، استطـــاع المهندسون المصريون أن ينجزوا في يوم واحـــد ، ما كان يعجز عن القيام به في الماضي آلاف الرجال . ولا يخفى ان صراع الامة العربية مع اسرائيل ليس صراعا عسكريا فحسب ، بل صراعا علميا وتكنولوجيا ايضـــا . فالعدو ، الذي ينقصه العدد الكافي في الرجال ، يعوض عن ذلك بالعلم والتكنولوجيا . فمن المعلوم ان المكاسب التي يحققها العدو في الصناعة وفي الحرب مثلا ، تعود اجمالا الى تفوقه العلمي والتكنولوجي . وما المهندس الا « نبي » العلم والتكنولوجيا ، وقد يكون خلاص الامة على يديه .

ولعل من أبرز ما يمكن المهندس القيام به في مجال الانماء العلمي يتمثل في : العمل على بناء عقلية علمية جديدة ، تعتمد على الطريقة العلمية والتفكير الموضوعي لفهم الحقائق والامور ، استخدام النظرة العلمية في كافة الاعمال ، القيام بالبحث والتنقيب والتجارب للمساهمة في التقدم العلمي والتقني ، تبسيط العلوم من خلال الكتابة في الصحف والمجلات والاحاديث في الاذاعة والتليفزيون ، نشر العقلية الهندسية العلمية بين العاملين معه في العمل ، السعي لرفـــع المستوى العلمي والثقافي العـــام في الشعب(٣٠).

٣ ــ **الدور الاقتصادي** : ان امام الكوادر الهندسية العربية مهمات ومسؤوليات واسعة النطاق في مجال التنمية الاقتصادية . فالمهندسون ، بفضل طاقاتهم العلمية والتقنية،وما يتمتعون به من ثقافة عالية،محركون اقتصاديون لهم اهميتهم.ويمكن حصر دور المهندسين في خطط الانماء الاقتصادي بالاعمال الآتية : المساهمة في وضع سياسة تنمية صحيحة واقعية ، وفي التخطيط والتصميم ، معالجة قضايا التنمية المطروحة واتجاهاتها ، المشاركة في وضع أسس لصناعات متعددة ، مشاريع هندسية مختلفة ، اجراء الدراسات الهندسية ، الاشراف على الخطط وتنفيذها وادارتها ، رسم سياسة لتصنيع الوطن العربي ، تدريب الكوادر الفنية الوسطية والماهرة(٣١).

ولا يمكن لهذه الامة ان تنهض من التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، الا برسم خطة اقتصادية شاملة ومتكاملة على صعيد الوطن العربي ، تكون بمثابة « مشروع مارشال عربي » . ولا ريب في ان مثل هذا المشروع الضخم يستوعب عشرات الآلاف مـــن المهندسين العرب في كافة الاختصاصات الهندسية .

٤ ــ **دور المهندس السياسي والاجتماعي** : وللمهندسين واجبات اساسية ايضا في التنمية السياسية والاجتماعية . فالمهندس كما هو معلوم ، طاقة في التغيير السياسي

والتحويل الاجتماعي . وعليه فالسؤال الذي يطرح الان هو : هـل تشكـل مهنـة الهندسة بحد ذاتها مساهمة واضحة وايجابية ، في كل من الكم والكيف ، فيما يتعلق بعملية التحويل السياسي والاجتماعي والاقتصادي ؟ يبدو ان ثمة وعيا كاملا واعتقادا راسخا في الوقت الحاضر في وجوب تحقيق واجبـات اساسية ، للمهندسين ، فـي المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية من ناحية ، وكذلك وجوب تحقيقها من ناحية اخرى . ويمكن ان يتم ذلك بالاشتراك مع افراد اللجان والتنظيمات والنقابات . ولا ريب في أن هذه المهمـة لا تقل اهميـة عن المهـام السابقة التي تقع في صميم اختصاصه(٣٢).

وجملة القول ، يستطيع المهندسون ان يساهموا اسهاما بارزا في خدمة المعركة ، سواء كانت ضد العـدو او ضد التخلـف . ويتزايـد دور المهندسين ـــ المدنيـين والعسكريين ـــ نتيجة للتطور العلمي والتقني . فقد حقـق المهندسون المصريون في حرب ١٩٧٣ انجـازات رائعة ، وكذلـك المهندسون الفلسطينيون في خدمة الثـورة الفلسطينية ومعركة الصمود ، ويساهم المهندسون اللبنانيون في دعم القرى الامامية ، هندسيا وفنيا واداريا . وعلى صعيد المعركة ضد التخلف ، يستطيع المهندسون العرب ان يقوموا بادوار هامة في الحقول الهندسية والاقتصادية والعلمية والسياسية .

اثر هجرة المهندسين واخطارها

يقودنا الحديث عن هجرة المهندسين بطبيعة الحال الى السؤال الاتي : ما هو اثر هجرة المهندسين واخطارها العلمية والمادية ومضاعفاتها على المعركة ؟ لا يخفى على الشخص الواعي ان للهجرة أثرا سلبيا على المعركة بشقيها : المعركة ضد اسرائيل ، والمعركة ضد التخلف . فهي اذن تعتبر **خسارة** في خبرة رجال العلم والتكنولوجيـا ، الذين هم محور التقدم والتنمية والقوة وركنها ، وكذلك خسارة في المال الذي انفـق على تعليم هؤلاء وتدريبهم .

١ ـــ **خسارة علمية وهندسية** : لعل الخسارة الفادحة ، المتأتية من الهجرة العلمية هي ، في الاساس خسارة في العلم والتكنولوجيا ، المتمثلة هنا في المهندسين ، **فهـؤلاء الرجال ثروة وطنية لا تنضب** . فهم مفاتيح التطوير والتغيـير والانماء ، لان العلـم وخاصة العلم التطبيقي هو اساس لاي عملية تطوير اقتصادي وانماء اجتماعـي . وهناك اعتقاد سائد في العالم اليوم بـان **ثروة الامة وتقدمها يكمنان في رجال العلـم والتكنولوجيا** ، وعلى رأسهم فئة المهندسين . واصبحـت قوة البـلاد الاقتصاديـة والعسكرية والقتالية تقاس اليوم بعدد المهندسين والعلماء والتكنولوجيين والفنيـين العاملين في القوات المسلحة وفي القطاعات المدنية المختلفة. فثمة علاقة وثيقة ومباشرة بين عدد المهندسين وغيرهم من رجال العلم والاختصاص ، وبين قوة البلاد وتقدمها . ففي الاتحاد السوفياتي وحده ، مثلا ، نجد انه يضم اكثر من ربع عـدد المهندسين في العالم ، وكذلك ربع العلماء في العالم(٣٣). وكذلك نجد ان عدد المهندسين ، في البلدان المتقدمة ، مرتفع جدا ، وهذا دليل واضح عـلى اهمية فئـة المهندسين في تقدم الامم الحديثة . فلا غرابة ان نجد الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول المتقدمـة تحاول ، بشتى الطرائق والاساليب ، اجتذاب المهندسين من الخارج للعمل فيهـا . وبكلمة وجيزة ، فان وجود فئة المهندسين ، بالاضافة الى غيرهم من الرجال المتعلمين والمدربين في البلاد ، اصبح يعتبر عاليا ، جزءا حيويا لا يتجزأ من التنمية الوطنيـة ، كما يعتبر غالبا الجزء الاكثر حيوية . ما اصـدق قول الـرئيس الاميركي الاسبق ، هربرت هوغر ، الذي كان مهندسا للتعدين ، عندما قال : « ان المهندسين والعلمـاء

هم اثمن ممتلكاتنا القومية »(٢٤). كما اعرب العالم الهندي مالكولم اديسيشيا ، نائب المدير العام لليونسكو ، بقوله : « ان العلماء والمهندسين والاطباء الذين يهاجرون الى العالم المتقدم هم دعامة التنمية وعوامل تكاثرها . وهم الاصل في كل تغيير وتطوير »(٢٥).

وقد حذرت صحيفة « الثورة » (دمشق) من ان هجرة الاف الخبراء والفنيين والعلماء والاختصاصيين لا يعني **كارثة علمية وفنية فقط** ، انما ايضا كارثة سكانية . كما حذر المدير العام لليونسكو من ان هجرة العلماء تؤخر لعشرات السنين تنمية الجامعات العربية ، كمراكز للامتياز العلمي .

هذا ويوافق ٧٠ بالمائة من الطلاب والاختصاصيين الاردنيين والفلسطينيين في اميركا ، كما جاء في دراسة حول هجرة الطلاب الاردنيين والفلسطينيين الى الولايات المتحدة ، ان رحيل الرجال المؤهلين جامعيا ، سوف يؤخر تقدم الاقطار العربية ، كما يؤخر تطويرها وانماءها . ولهذا فان المحاولات الدولية ، الرامية لسد الثغرة ، بين البلدان الغنية والفقيرة ، قد اصابتها الخيبة ، من جراء استنزاف الادمغة ، من البلدان الفقيرة الى البلدان الغنية(٢٦).

وفوق ذلك فان نزوح المهندسين العرب الى الخارج يعتبر خسارة لاثمن ثروة علمية وتكنولوجية تسعى اسرائيل لاستنزافها من الوطن العربي بشتى الاساليب . وبكلام اخر ان استنزاف المهندسين العرب الى الخارج يخدم اغراض اسرائيل الرامية ، منذ زمن بعيد ، لتهجير هذه الفئة العلمية والتقنية ، وخاصة من دول المواجهة لانها تعتبر هؤلاء خط الدفاع الاول ضد اسرائيل .

٢ ــ **خسارة مالية** : في الواقع ان الخسارة المتأتية ، من جراء هجرة المهندسين الى الخارج ، تتجاوز كل تقدير بالدولار او بالدينار . فان تكاليف اعداد المهندس وتدريبه آخذة في الازدياد سنة بعد سنة . وقد افادت احدث الاحصاءات بأن تكاليف اعداد المهندس وتدريبه للعام ١٩٧٤ ــ ١٩٧٥ ، في الجامعة الاميركية في بيروت مثلا تبلغ ٣٫٣٠٠ دولار للطالب الواحد في السنوات الاولى من الجامعة ، بينما تصل الى ٨٫٤٠٠ دولار للطالب الواحد في السنة المذكورة في الدراسات العليا(٢٧). هذه طبعا التكاليف المادية الظاهرة ، واما التكاليف غير الظاهرة ، فلا يمكن لاحد ان يعرفها .

وهكذا يتبين ان حركة استنزاف المهندسين هي خسارة لاغلى ثروة قومية تملكها الامة ، أي الطاقة العلمية والتقنية ، التي هي الاساس لتطوير البلاد وانمائها ، وكذلك خسارة في المال الذي استثمر لتعليم هؤلاء وتدريبهم .

أسباب نزوح المهندسين ودوافعها

بعد ما ذكرنا هجرة المهندسين بالارقام ، واثر الهجرة واخطارها على المعركة والامة العربية ، فمن البديهي ان تتبادر الى الاذهان الاسئلة الاتية: ما هي اهم أسباب نزوح المهندسين العرب ؟ وما هي العوامل الاساسية المؤدية لذلك ؟ ما هي الدوافع للهجرة وحوافزها ؟ لا بد من الاشارة اولا الى ان من احد الاسباب ، المسؤولة عن النزوح ، تعود الى عوامل شخصية . اي ان قرار المرء النزوح من بلده ، للعمل في بلد اخر والعيش فيه ، هو في الاساس قرار شخصي ، يتوقف الى حد بعيد على الظروف الخاصة للفرد ، الذي يتخذ هذا القرار . الا انه ، بالاضافة الى ذلك ، ثمة عوامل ودوافع اقتصادية واجتماعية وسياسية وعلمية وحضارية ــ كلها ــ ترتبط ارتباطا

وثيقا ومباشرا وعضويا بهجرة المهندسين والعلماء. فهناك عوامل خارجية « جاذبة »، يقابلها عوامل داخلية « ضاغطة » او « دافعة » للنزوح .

ومن ابرز العوامل **الخارجية** ، التي تجتذب المهندسين وغيرهم من رجال العلم ، هي : الرواتب المرتفعة والمغرية ، تشريعات الهجرة الجديدة التي تقدم تسهيلات وامتيازات عديدة للمهندسين وغيرهم من اصحاب الكفاءات العلمية ، فرص العمل الواسعة في مجالات الهندسة على انواعها ، اجواء العمل المؤاتية واساليبه التي تعتمد على الكفاءة العلمية والانتاج في الترقية ، الاستقرار السياسي ، الدراسة في الخارج ، الزواج من اجنبيات ، تأمين اسباب الراحة في كل من العمل والعيش ، احترام شخصية الفرد كانسان ، وغير ذلك .

ويقابل هذه العوامل الخارجية ، عوامل **داخلية** مماثلة مضادة . ويمكن تلخيصها بكلمة واحدة ، وهي : **التخلف** . ومن ابرز هذه العوامل : الرواتب المتدنية ، سياسة التوظيف التي تعتمد اكثر على انتماءات الفرد العائلية والعشائرية والاقليمية منها على المؤهلات والكفاءات العلمية ، اجواء العمل غير المناسبة ، اساليب الترقية الرجعية ، الادارة المركزية الجامدة ، التخلف التربوي والعلمي العام ، ضيق مجالات العمل وفرص الترقية ، عدم الاستقرار السياسي في منطقة الشرق الاوسط عامة ، العادات والتقاليد والخرافات الشرقية السائدة في البلاد العربية ، الخ .

وتعزيزا لما تقدم ، يجدر بنا ان نذكر بعض اهم النتائج ، التي توصلت اليها دراسة استقصائية حديثة اجريت في الولايات المتحدة ، حول هجرة الطلاب والاختصاصيين الاردنيين والفلسطينيين ، الى تلك البلاد . فالدراسة المذكورة تعطينا صورة حية ، عما يجول في اذهان ٢٢٣ طالبا واختصاصيا ، الذين اجابوا على استمارة الاستقصاء. ونتيجة هذا البحث تبين، ان الاسباب الرئيسية لهجرة هؤلاء ، تعود الى عوامل سياسية واجتماعية وعلمية .

١ ــ **العوامل السياسية** : كشفت الدراسة المذكورة النقاب على ان القضايا السياسية تأتي في المرتبة الاولى المؤدية لهجرة الطلاب والعلماء . فقد ذكر ٣٧ بالمائة من هؤلاء ، انهم لا يرجعون ، نظرا للاوضاع السياسية السائدة في الوطن الام . ومن بين اهم العوامل ، التي سجلت على ورقة الاستفتاء ، تتلخص بالنقاط الاتية : الزعامة الرجعية ، كبت الحرية السياسية ، غياب الحكومات الشعبية ، عدم كفاءة عدد كبير من الزعماء ، عدم اخلاص الزعماء للجماهير ، الانظمة العسكرية الحاكمة ، النظام الملكي ، نضوج الامة السياسي غير كاف ، عدم الاستقرار ، اضطهاد المثقفين من قبل الحكومة ، اقوال بغير افعال ، نقص في الديمقراطية .

٢ ــ **العوامل الاجتماعية والحضارية** : واتت العوامل الاجتماعية والحضارية في المرتبة الثانية . فقد عزا ٢٥ بالمئة من هؤلاء ، ان من بين أسباب بقائهم في الولايات المتحدة ، الاوضاع الاجتماعية والحضارية ، السائدة في البلاد العربية وهي : الجهل ، نقص في التعليم ، انتشار الامية ، الخرافات ، نقص في التعليم المختلط . وافاد ١٨ بالمائة أن النزوح يعود الى الفقر ، البطالة ، ظروف معينة ، تحديد المركز الاجتماعي للشخص بصداقاته السياسية والشخصية . وعبر ١٥ بالمائة عن اعتقادهم بان **الشخصية العربية مسؤولة عن الهجرة** . ومن ابرز ما ذكروا من صفات الشخصية العربية المتخلفة ، هي : نقص في النقد الذاتي ، الانانية ، عدم وجود ثقة ، عدم القدرة على التعاون ، كثرة الزعماء وقلة الرعايا ، فجوة بين الاقوال والافعال ، نقص الوعي السياسي ، نقص في النظرة الواقعية ، ضعف وسائل الاتصال ، العاطفة ، نقص في

الابداع الفردي ، نقص في الدوافع والرغبة والحس بالهدف كأمة . وافاد ١١ بالمائة بان العوائد والتقاليد السائدة ، والانتماء العائلي ، والعيش في الماضي ، الشعور القبلي ، تدخل العائلة في الزواج ، كانت ــ كلها ــ من بين العوامل الاجتماعية والحضارية التي دفعت بهؤلاء للهجرة .

ويؤمن الذين اشتركوا في الدراسة ، ان نزف الادمغة العربية ، ليس سببا ، ولكن نتيجة الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية المتخلفة في الشرق الاوسط . ويعتقد هؤلاء انه حتى ، لو عاد حامل دكتوراه في علم حديث مثلا ، الى وطنه الام في وضعه الراهن من التخلف، فسوف يواجه مشاكل عديدة، في استخدام علمه في البلاد، وذلك نظرا **للتخلف** ولعدم وجود **الرؤية** اللازمة في البلاد ، التي يمكن ان تتصور اهمية العلم والعلماء في التقدم(٣٨) .

ومن أسباب هجرة المهندسين العوامل الاخرى الاتية : الدراسة في الخارج وخاصة في البلدان الغربية (كما ذكرنا) ، النقص في الشعور القومي والوطني ، النقص في أيجاد رؤية قومية واقتصادية عربية ، عدم شعور المهندس العربي بانه سيد افكاره في اثناء عمله في البلاد العربية، القيود الادارية البيروقراطية المتبعة في الوزارات والدوائر الرسمية ، معادلة الشهادات الاجنبية ، الاوضاع السياسية غير المستقرة في المنطقة العربية ، تفضيل المهندس الاجنبي على المهندس العربي في معظم الاحيان ، نقص في التدريب المستمر للنمو المهني ، عدم ايلاء المهندسين دورا قياديا في الجيوش العربية ، وغير ذلك من العوامل المشابهة .

تدابير الحكومات العربية

يتزايد القلق في الوقت الحاضر ، في البلدان العربية ، من استنزاف الكفاءات العلمية ،وفي طليعتهم المهندسون ، لان نزوح هؤلاء من شأنه ان يهدد التنمية ، ويستنزف **رصيدا حيويا** جدا في المعركة.وقد بدأ العرب مؤخرا بالتحرك ، عبر حملات مركزة ، لاجتذاب المهندسين وغيرهم من اصحاب الكفاءات من الخارج ، ولمنع هجرة هؤلاء الى الخارج . فازدادت دعوات كبار المسؤولين العرب ، من أجل اقناع المهندسين العرب في الخارج ، بالعودة للقيام بدورهم في تنمية اوطانهم ، لان مهاراتهم وعلومهم وخبراتهم تشكل رصيدا وطنيا حيويا .

واتخذت بعض الاقطار العربية كالعراق وليبيا وسوريا والكويت والجزائر اجراءات وخطوات ايجابية لاستعادة المهندسين وغيرهم من اصحاب الكفاءات العلمية المهاجرة، ولمنع هجرة المهندسين المقيمين(٣٩) .

١ ــ **العراق : قانون رعاية الكفاءات** : وكان القطر العراقي الاول في اخذ البادرة في الحملة لاعادة الكفاءات العراقية والعربية المهاجرة في الخارج ، وذلك عندما اصدر مجلس قيادة الثورة « قانون رعاية الكفاءات » في اواخر العام الماضي . وقد نشر في معظم الصحف والمجلات العربية ، في اوائل هذا العام . وبموجب القانون ، فتح العراق ابوابه للادمغة العربية ، مقدما لهم شتى الاغراءات والامتيازات والتسهيلات المادية والمعنوية ، للعمل والعيش في العراق وللحصول على الجنسية العراقية ، بكافة امتيازاتها .

هذا وقد شكلت لجنة لهذا الغرض تدعى « هيئة رعاية الكفاءات » . وسافر بعض اعضائها الى اوروبا الغربية واميركا ، لشرح اهداف القانون الجديد للعلماء والطلاب العراقيين والعرب ، المقيمين في البلدان الغربية(٤٠) .

٢ ــ **سوريا : عمل لكل مهندس** : وفي السياق ذاته ، أبدت سوريا رغبتها في بدء شهر شباط / فبراير الماضي ، عن الحد من هجرة الكفاءات والخبرات الى الخارج . فاصدرت قانونا جديدا يمنع بموجبه خروج السوريين من اصحاب الكفاءات والخبرات من الاراضي السورية ، وتنظيم حملة لاعادة الخبراء السوريين في الخارج ، كما تمنح فيه المهندسين امتيازات واغراءات عديدة ، اذا عملوا داخل القطــر السوري او في الوطن العربي . وتتعهد الحكومة السورية على تأمين اعمال للمهندسين خلال شهرين من تخرجهم . ويقيد القانون الجديد خروج السوريين ، من اصحاب الكفاءات العلمية والفنية ، الى الخارج(٤١).

٣ ــ **ليبيا : ترحب بالكفاءات** : وعلى خطى العراق ، فقــد اصدر مجلــس قيادة الثورة الليبي ، « قانون تشجيع الخبرات » في ١٩٧٥/٢/٦ ، مستهــدفا استقطــاب اصحاب الكفاءات والخبرات العلمية والفنية العربية ، لاغراض التنمية الاقتصاديــة والاجتماعية . وفسر القانون معنى الهجرة بالاقامة الدائمة ، بقصد الحصول علــى الجنسية(٤٢).

٤ ــ **الكويت تمنح الجنسية للكفاءات** : وقررت حكومة دولة الكويت ايضا ، تسهيل منح الجنسية الكويتية ، لاصحاب الكفاءات العربية ، من ذوي المؤهلات والخبــرات الفنية العالية ، والتي تعمل خارج المنطقة العربية ، وذلك لاحتياج قوة العمل اليهــا في المستقبل . كما اعطت الاولوية ، بشأن منح الجنسية ، لهذه الكفاءات والخبرات ، التي تعمل وتخدم في الكويت نفسها . وتقرر تسهيل اجراء منح دخول البلاد والاقامة ، وحق الملكية الخاصة لغير الكويتيين(٤٣).

٥ ــ **الجزائر : ترحب بالكفاءات** : وتسعى الجزائر ، منذ زمن بعيــد ، لاجتــذاب الكفاءات والخبرات الجزائرية والعربية العاملة في الخارج ، وكذلك الادمغة الاجنبية ايضا . فاتخذت الحكومة اجراءات لجذب الكفاءات سواء من الاقطار العربية نفسها ، او من الدول الاجنبية .

بعد هذا ، ينبغي القول ، ان الدول العربية قد ادركت اهمية الكفاءات والخبرات لتحقيق خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، فراحت تفتح لهــم ابوابهــا ، مرحبة بهم ومقدمة لهم شتى الاغراءات المادية والمعنوية(٤٤).

وسائل الحد من هجرة المهندسين

بعد ما ذكرنا أسباب هجرة المهندسين والعوامل الدافعة لها، نسعى الان الى ايجاد الوسائل للحد من استنزاف المهندسين وغيرهم من اصحاب الكفاءات . فمن المعلــوم انه لا يمكن الحد من هجرة المهندسين بسهولة ، اي بمجرد نداء او اعلان في صحيفــة او تشريع جديد ، وانما الحلول تكمن في **تحديث المجتمع العربي وتطويره وانمائه** ، كي يصبح مجتمعا متقدما . لذا فاننا نعتقد ان كافة الوسائل ، الرامية للحد من الهجــرة باطلة ، ما لم ننطلق من الفكرة القائلة ، بان الحد من هجرة الادمغــة ومكافحتهــا ، يتوقف الى حد بعيد ، على **تنمية المجتمع العربي** . وعليه فان المسألة تتطلب اجــراء حلول قصيرة او بعيــدة المدى وعلى قيــام تعاون وتنسيق بين الاقطــار العربية من جهة ، وبين البلدان المتقدمة ، من جهة اخرى .

لذلك يحسن بنا ان ننطلق على الشكل الاتي :

١ ــ **زيادة الرواتب** : من ابرز اسباب هجرة المهندسين وغــيرهم من اصحــاب

الكفاءات ، الرواتب المتدنية وخاصة في القطاع العام . ولا يمكن الحد من هجرة هؤلاء او اجتذاب المهاجرين منهم ، الا بزيادة ملحوظة في الرواتب . هذا ما فعله ويفعله بعض الدول العربية والنامية ، وحتى المتقدمة ، التي تعاني هجرة الادمغة .

٢ ــ **اصلاح سياسة التوظيف** : والحديث عن زيادة الرواتب يطرح قضية اصلاح سياسة التوظيف القائمة حاليا ، وتبني سياسة تقدمية حديثة ، بحيث يمكن للمهندس وغيره ، ان يحصل على مركز ، بناء على كفاءته وخبرته . لذا نقترح انشاء مكتب توظيف للمهندسين ، في كل بلد عربي ، يهتم بوضع المهندس المناسب في المركز المناسب ، وقيام تنسيق بين كافة المكاتب في الاقطار العربية .

٣ ــ **انشاء دائرة لرصد الكفاءات الهندسية** : لعل من الوسائل المفيدة في عملية استعادة المهندسين المغتربين استحداث دائرة في كل سفارة وقنصلية عربية في الدول المتقدمة وخاصة في الولايات المتحدة الامريكية وبلدان اوروبا الغربية ، يناط بها مهمة رصد المهندسين في الخارج ومحاولة اجتذابهم الى الوطن الذي يحتاج الى علومهم وخبرتهم . ومن مهام هذا المكتب ايضا تزويد المهندسين المغتربين بالمعلومات اللازمة عن مجالات العمل المتاحة حاليا ومستقبلا ، في الوطن العربي .

ويذكر ان السفارات الامريكية تنظم مكاتب فيها ، لرصد الكفاءات الاجنبية ومحاولة اجتذابها للعمل ، في الولايات المتحدة الامريكية .

٤ ــ **دعوة المهندسين المغتربين للوطن** : ومن الوسائل المفيدة ايضا توجيه دعوات الى المهندسين العرب المغتربين لزيارة الوطن الام ، بين الحين والاخر ، للوقوف على اوجه التطورات وابداء الرأي بذلك . ويمكن توجيه الدعوات لهؤلاء لحضور مؤتمرات وندوات وحلقات دراسية . ثم يجدر ان توجه نداءات الى المهندسين المغتربين لخدمة وطنهم الام ، سنة على الاقل ، بحيث يطلق عليها « سنة العودة » . ومن المعلوم ان مجالات العمل قد تكاثرت بعد حرب ١٩٧٣ ، نتيجة خطط التنمية الاقتصادية .

٥ ــ **اجراء دراسة شاملة عن اوضاع المهندسين** : في الواقع ، لا يوجد هناك دراسة علمية شاملة لاوضاع المهندسين العرب ولهجرتهم . فكل ما هنالك احصاءات معظمها اعتمدت على مصادر اجنبية ، عن حركة نزوح المهندسين الى بعض البلدان الصناعية . فالمطلوب اذن اجراء دراسة ميدانية شاملة وموضوعية ، تتناول مسح شامل للمهندسين العرب وهجرتهم الخارجية والداخلية والاسباب الدافعة للهجرة والعوامل الجاذبة لها ، وابعاد الهجرة وانعكاساتها ، ثم ايجاد الحلول الجذرية المناسبة لمكافحتها .

٦ ــ **انشاء سوق عربية مشتركة** : من المعلوم ان بعض البلاد العربية تحتاج الى مهندسين اكثر من غيرها ، وتسهيلا لحركة توظيف المهندسين في الاقطار العربية التي تحتاج اليهم ، نقترح انشاء نوع من السوق العربية المشتركة للمهندسين ، بحيث يفتح المجال واسعا امام المهندسين ، للعمل في اي قطر عربي ، حيث تدعو الحاجة ، بقطع النظر عن القيود والشروط القانونية والادارية الجامدة ، التي تفرض عادة على المواطنين الغرباء .

٧ ــ **تطوير كليات الهندسة وانشاء كليات جديدة** : ينبغي تطوير كليات الهندسة في البلاد العربية وتحديثها وتوسيعها ، كي تصل الى مستوى متقدم ، وانشاء كليات جديدة ممتازة للعلوم الهندسية ، تقدم مناهج في الدراسات العليا الهندسية . وبهذه الطريقة نستطيع ان نحد من هجرة الطلاب الى الخارج ، سعيا وراء التخصص .

والجـدير بالذكر ان اكثـر من خمسين بالمـائة ، من الطـلاب والعلماء الاردنيـين والفلسطينيين (الذين سبق القول عنهم) ، لا يسعون في الغالب للدراسة في الولايات المتحدة : اذا كان هناك جامعات أكثر في البلاد العربية ، اذا كان ثمة أساتذة مقتدرون ، اذا وجدت تسهيلات افضل من قبل الجامعات ، اذا كان هنـاك اختيـار اوسـع في البرامج ، اذا استطاع الطلاب تمويل دراستهم في اثناء التعليم ، وذلك بأعمال يقومون بها لقاء اجور معينة . كما هو الحال مثلا ، في الولايات المتحدة .

٨ ـ **اعتماد خطة انماء اقتصادية شاملة** : ولعل الوسيلة الوحيدة ، على المـدى البعيد ، في الحد من هجرة الادمغة ، وفي القضاء على التخلـف ، وتحقيـق النصر في المعركة ، يتمثل في اعتماد خطة انمائية اقتصادية واجتماعية شاملة ومتكاملة (مشروع مارشال عربي) ، لتطوير المجتمع العربي وتحديثه . ولا يمكن انجاح هذه الخطـة ، الا بتأمين جيش كبير من المهندسين والعلماء والخبـراء وغيرهـم من رجـال العلـم والتكنولوجيا . وقد برهنت تجارب الامم المتقدمة على ان هناك علاقة وثيقة ، بـين نمو الاقتصاد وازدهاره ، وبين انخفاض نسبة المهاجرين من المهندسـين والعلمـاء وغيرهم من رجال الاختصاص .

وبالاضافة الى ما تقدم ، هناك اساليب اخرى لاستقطاب المهندسين وللحـد مـن استنزافهم الى الخارج . ومن اهمها : اجراء اصلاحات جذريـة في انظمة التربيـة والتعليم ، تشجيع البحث العلمي ، تأمين اجواء علمية مناسبة ، تعديل قوانين الهجرة والدراسة في الخارج ، رفع المستوى الثقافي والعلمي لعامة الشعب العربي ، وغير ذلـك .

ومن هنا ، ينبغي القول ، انه ليس المهم تقديم اقتراحـات ، للحـد من استنزاف الادمغة او لاجتذابها ، الى الوطن الام ، ولكن الاهم من ذلك : **كيفية تحقيـق** هـذه الاقتراحات او **تنفيذها** . فما هي اذن الخطوات اللازمة لتنفيذ المرغوب فيه ؟ اليكم اهم الخطوات التي ينبغي الاسترشاد بها :

١ ـ **تأمين المال اللازم** : ان الحد من استنزاف المهندسين وتأمين أعمـال لهم ، في البلاد العربية ، يتطلب اموالا ضخمة . لذا نقترح تخصيص نسبة ، ما لا يقل عن واحد بالمائة من عائدات النفط ، لضمان المال اللازم . وهذا النوع من التثمـير هو افضـل انواع الاستثمار واجداها .

٢ ـ **ازالة القيود بين الاقطار العربية** : تسهيلا لاجتذاب المهندسين ، يجب ازالة القيود على السفر والتنقل والهجرة بين الاقطار العربية من جهـة ، وبين البلـدان العربية وشتى البلدان المتقدمة ، الغنية بالطاقات العلمية والتقنية ، من جهة اخرى .

٣ ـ **التوعية العلمية** : ان انجاح اي مشروع اليوم يتطلب توعية لكسب التأييـد اللازم ، من قبل المسؤولين وبقية المواطنين العاديين . ولعل من افضـل الوسائـل لتحقيق ذلك ، استخدام وسائل الاعلام الجماهيرية ، من اذاعة وتلفزيون وجرائـد ومجلات .

٤ ـ **تأمين اجواء عمل مناسبة** : لا يستطيع المهندس ، مهما اوتي من ذكاء وخبرة وصبر وحماسة لبلاده ، ان ينتج ، بغير تأمين ، اولا ، ظروف عمل مناسبة وأجواء علمية ونفسية مؤاتية .

٥ ـ **انفتاح علمي** : لا يستطيع المهندس الناجح اليوم ان يعيش في بلد مغلق علـى نفسه علميا ، لان المهندس الماهر يحتاج الى الاطلاع الدائم على احدث التطـورات

العلمية في حقل تخصصه . لذا ينبغي تأمين احدث الكتب والمجلات والدوريات العلمية والهندسية الصادرة في اللغات العالمية الحية .

٦ ــ **النمو المهني** : هذا وينبغي اتاحة الفرص الكاملة ، لانماء المهندسين مهنيا . فالمعرفة العلمية والتقنية تتضاعف مرة كل سبع سنوات . فالمهندس الذي لا يطالع احدث التطورات في حقل اختصاصه ، فانه يتخلف عن مواكبة عصر العلم والتكنولوجيا . لذا ينبغي تنظيم دورات تدريبية وعلمية لتطوير الكادر الهندسي ، ليتمكن من مواكبة التطور المتصاعد في حقله .

٧ ــ **تأمين الحرية الاكاديمية والشخصية** : هذه نقطة مهمة جدا . فالدول المتقدمة، التي تجتذب المهندسين العرب ، تؤمن لهم حرية اكاديمية وشخصية . هذا ما فعلته الصين الشعبية مثلا ، في محاولاتها لاستعادة علمائها المهاجرين ، بعد سنة ١٩٤٩ .

٨ ــ **ديمقراطية المجتمع العربي** : من الملاحظ ان الاوضاع السياسية في المنطقة العربية مسؤولة ، بالدرجة الاولى ، عن استنزاف المهندسين . فهؤلاء يفضلون العمل والعيش في بلاد يسودها الاستقرار السياسي ، وبالتالي الديمقراطية السياسية الحرة . لذا ينبغي العمل على انشاء مجتمع عربي ديمقراطي حديث .

٩ ــ **تحديث الادارة** : ان الادارة عامة ، في البلاد العربية ، ما زالت تقليدية ، اي ان اساليبها وادواتها البيروقراطية المتبعة ، تعرقل تنفيذ المشاريع والمخططات في الوقت المحدد . فالادارة الحديثة اصبحت اليوم علما قائما بذاته . ومن ابرز عناصر الادارة الديمقراطية الحديثة : الاهداف الواضحة ، التخطيط ، التنظيم ، تفويض السلطة ، قيادة حكيمة ، التنسيق ، التقويم ، والتنفيذ .

١٠ ــ **تحديث العقلية** : ان التخلف هو عادة تخلف في العقلية او الذهنية ، وكذلك التقدم ، فانه تقدم في العقلية او الذهنية . فالعقلية الانفتاحية او المتقدمة ، هي ثروة كبيرة . فمن هذا المفهوم ننطلق . في الواقع لا يمكن العمل والحصول على نتائج فعالة ، الا في اطار عقلية متطورة ومتقدمة .

خـاتمة

وخلاصة القول ان البلاد العربية تخسر أعز ما لديها من الطاقات البشرية المدربة ، وفي مقدمتها ، فئة المهندسين وغيرهم من العلماء والاطباء ورجال العلم ، عبر عملية استنزاف الى الدول المتقدمة ، وفي طليعتها الولايات المتحدة الاميركية . ولا شك في ان نزوح المهندسين يعتبر ، في الوقت الحاضر ، **كارثة وطنية** ، من حيث انها ، **خسارة علمية وتكنولوجية** ، من جهة ، وخسارة في المال ، الذي استثمر في اعداد هؤلاء وتدريبهم ، من جهة اخرى . والغريب في الامر ان نزوح المهندسين يأتي ابان المعركة ، التي تخوضها الامة العربية ، ضد اسرائيل والصهيونية العالمية ، وضد التخلف والجهل . والغريب ايضا ان البلاد العربية ، لا تستطيع استخدام المهندسين العرب في مشاريع التنمية ، على الرغم من قلتهم ، نسبيا ، نظرا للتخلف المهيمن على العرب حاليا ، هذا بالرغم من ان العرب يملكون موارد مادية واقتصادية هائلة . وترتبط الهجرة بعوامل داخلية وخارجية من اقتصادية وسياسية واجتماعية وحضارية وعلمية .

ويمكن الحد من هجرة المهندسين وغيرهم ، بزيادة الرواتب وتحسين اساليب التوظيف واحوال العمل والمعيشة ، واجراء دراسة علمية شاملة عن اوضاع

المهندسين ، وتطوير كليات الهندسة وتحديثها ، وانشاء كليات جديدة من الدرجة الاولى .

ولتحقيق هذه ، ينبغي ان تتخذ خطوات تنفيذ جريئة في تحديث العقلية العربية : ونشر الوعي لاهمية العلم والتكنولوجيا المتمثلة بالمهندسين ، وتطوير الادارة الحالية واصلاحها واعادة تنظيمها على اساس لا مركزي . تأمين احترام الشخصية الانسانية للفرد وضمان الحرية العلمية والاكاديمية .

وبالاختصار ، فان الحل الاوحد ، في رأينا ، لقضية هجرة المهندسين وغيرهم من رجال العلم ، يكمن ، في التغلب على التخلف الذهني والعقلي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعلمي ، المهيمن على العالم العربي حاليا . وستظل الأمة العربية ، تعتمد على الدول المتقدمة ، في معركتها ضد اسرائيل وضد التخلف ، ما لم تبدأ ، فورا ، بتطوير المجتمع العربي وانمائه ، كي يصبح مجتمعا حديثا ، عصريا ، متقدما .

بعد كل ما تقدم من حقائق وافكار ، السؤال الذي يطرح الان هو : ماذا يعني استنزاف المهندسين العرب الى الخارج ؟ في اعتقادنا ، ان حركة استنزاف الطاقات الهندسية العربية تدل على ما يأتي :

١ — تعد حركة استنزاف المهندسين ، من البلاد العربية الى البلدان المتقدمة ، « هربا » من المعركة المصيرية ضد اسرائيل والصهيونية والامبريالية العالمية من جهة، وضد التخلف والجهل من جهة ثانية .

٢ — يعتبر نزف المهندسين العرب الى الخارج « نصرا » لاسرائيل في معركتها ضد الامة العربية ، لان من اولى اهدافها « تهجير » هذه الفئة الممتازة والمختارة من العرب . في حين ان بقاءهم في الوطن يعد كسبا للعرب ولكن خسارة للعدو .

٣ — تنظر اسرائيل الى فئة المهندسين كعدوها الاكبر . لماذا ؟ لانها فئة متعلمة ، تمثل اعظم مظاهر التقدم والتطور والقوة في العالم الحديث ، واثمن ثروة بشرية لدى الامة العربية ، لذا فهي تعتبر اقوى سلاح لدى العرب ، اذا ما استخدم بطريقة فعالة .

٤ — تخدم هجرة المهندسين اغراض اسرائيل بطريقة غير مباشرة ، وذلك لانها ترغب في ان تبقي العرب في وضع متخلف ومتأخر : علميا وحضاريا واقتصاديا ، لانها تحرمهم من « خميرة » الانماء و « رسل » التقدم والقوة .

٥ — ان حركة استنزاف المهندسين العرب ، ليست عملية عابرة او هامشية ، تسير بغير هدف ، بل عملية استغلال هذه الطاقات لتطوير اقتصاديات البلدان المتقدمة في الغرب ، على حساب الاقطار العربية النامية .

٦ — ان ادراك الاقطار العربية لاهمية المهندسين وغيرهم من اصحاب الكفاءات ، والجهود التي تبذل حاليا لاجتذاب المهاجرين من هؤلاء ، لدليل ساطع على دور هذه الطاقة البشرية العلمية في المعركة ، ضد اسرائيل وضد التخلف .

---

١ — جريدة « **البعث** » ، دمشق، ١٩٧٥/٢/٢٨ .

٢ — زين ، الياس ، **هجرة الادمغة العربية** ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٢ .

٣ — **البعث** ، المصدر السابق .

٤ — صروف ، فؤاد ، **أوراق علمية ١٩٦٨ — ١٩٧١** ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ص ٣١٩ — ٣٤٨ .

٥ — فرحان ، محمد حكمت ، « دور المهندس في خطط التنمية » ، **صوت المهندسين** ، بغداد ،

كانون الثاني ١٩٧٥ ، ص ٢٤ — ٢٥ .

٦ — الراوي ، عقيف ، مجلة صوت المهندسين ، بغداد ، شباط ١٩٧٥ ، ص ٥ — ٨ .

٧ — زين ، المصدر السابق .

٨ — زين ، الياس ، هجرة الادمغة والهجـرة المضادة من اسرائيل ، بيروت ، مركز الابحاث في م.ت.ف. ، ١٩٧١ .

٩ — زين ، المصدران السابقان .

١٠ — U.S. Department of Justice, Immigration and Naturalization Service, Annual Report 1973.
U.S. Department of Justice , Immigration and Naturalization Service, Annual Report 1972.

١١ — United Nations General Assembly. *Outflow of Trained Personnel from Developing Countries* (5 November 1981, A/7294).
UNITAR. *The Brain Drain from Five Developing Countries:* New York: United Nations Institute for Training and Research, 1971.
U.S. Department of Justice, Immigration and Naturalization Service. *Annual Indication of Immigration to the United States of Aliens in Professional and Related Occupations* (1966-1969) Chart 3.

١٢ — هيئة الاذاعة البريطانية ، لندن ، تقرير باللغة العربية لمراسل الهيئة حول هجـــرة المهندسين السوريين ، اذيع في صباح ٩/١/١٩٧٥ .

١٣ — زين ، المصدران السابقان .

١٤ — *OPEN DOORS 1973.* Report on International Exchange, New York: Institute of International Education, 1973.

١٥ — *Facts About Israel 1973.* Jerusalem: Ministry of Foreign Affairs.

١٦ — زين ، المصدران السابقان .

١٧ — *Statistical Abstract of Israel 1972.* Jerusalem: Central Bureau of Statistics, 1972.
Statistical Abstract of Israel 1974: Jerusalem: Central Bureau of Statistics, pp. 130-131.

١٨ — زين ، المصدر السابق نفسه .

١٩ — النشرة الاحصائية الشهرية ، (تصدر عن مديرية الاحصاء المركزي في وزارة التصميم العام لبنان) ، المجلد ١٢ ، آب ١٩٧٤ ، ص ٢٠ .

٢٠ — Zahlan, Antoine B., «Strategies for the Utilization of High level Man Power in the Arab Countries», in *Population Bulletin* of the United Nations Economic Commission for Western Asia, no. 7 (Beirut, July, 1974), pp. 125-131.

٢١ — المصدر الرقم ١١ .

٢٢ — المصدر السابق نفسه .

٢٣ — المصدر السابق نفسه .

٢٤ — المصدر الرقم ٢٠ .

٢٥ — المصدر الرقم ١١ .

٢٦ — أبو جياب ، محمد ، « المهندس والحرب » ، مجلة الطلائع ، دمشـق ، ١٨/٣/١٩٧٥ .
اتحاد المهندسين العـرب ، الامانة العامة .
« دور المهندس في معركة الصمود العربية » ، وثيقة من صفحتين قدمت في ندوة « دور المهندس العربي في معركة الصمود » (بغداد في ١٤ — ١٨/٤/١٩٧٥).
جريدة « الاهرام » ، ١١/١٢/١٩٧٣ .
جريدة « السفير » ، بيروت ، الاعداد : ٧ ، ٩ ، ١٠/١٠/١٩٧٤ .
مجلة « قضايا عربية » ، بيروت ، « روايـة الشاذلي في عمليـة العبور » ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، ص ١٨٧ — ١٩١ .

٢٧ — اتحاد المهندسين العرب ، الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين ، « دور المهندس العربي في معركة الصمود » ، (نشرة صغيرة وزعت في ندوة بغداد المذكورة سابقا).
صبح ، رفقي ، « دور المهندس العربي في دعم مخيمات العودة » ، (بحث قدم في ندوة بغداد المذكورة سابقا).

٢٨ — عكاري ، عبد الفتاح ، « دور المهندس العربي في تحصين مخيمات العائدين ضد الغارات الصهيونية في دول المواجهة » ، (دراسـة قدمت في ندوة بغداد المذكورة سابقا) .

٢٩ — صبح ، المصدر السابق .

٣٠ — بدران ، المصدر السابق .

٣١ — البني ، صريح ، « دور المهندس في التنمية القومية » ، (بحث قدم في ندوة بغداد المذكورة سابقا).

بدران ، ابراهيم ، « دور المهندس في التنمية القومية » ، (بحث قدم في ندوة بغداد المذكورة سابقا) .

عمر ، محمد بالحاج ، بحث بغير عنوان قدم في ندوة بغداد المذكورة سابقا .

فرحان ، محمد حكمت ، « دور المهندس في خطط التنمية » ، مجلة « صوت المهندسين »، بغداد، كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥ ، ص ٢٤—٢٥ .

عمر ، المصدر السابق .

٣٢ — البني ، المصدر السابق .

صبح ، المصدر السابق .

٣٣ — جريدة « الاخبار » ، بيروت ، ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ، ص ٣٦ .

٣٤ — صروف ، المصدر نفسه .

٣٥ — اديسيشيا مالكولم ، « هجرة الكفاءات من العالم العربي » ، صحيفة التخطيط التربوي في البلاد العربية ، بيروت ، كانون الثاني — نيسان ١٩٧٠ ، ص ٤ — ٢٢ .

٣٦ — JAFFARI, LAFI IBRAHIM, «The Brain Drain to the United States, the Migration of Jordanian and Palestinian Professionals and Students». *Palestine Studies* (Beirut), Vol. III, no. 1, (Autumn 1973), pp. 119-131.

٣٧ — «Cost of Education for a Student», 1974-1975, *AUB Bulletin*, Vol. XVIII, no. 4, (November 21, 1974), p. 4.

٣٨ — المصدر الرقم ٣٦ .

٣٩ — مجلة « المصارف »، بيروت، آذار (مارس) ١٩٧٥ ، ص ١٥ .

جريدة « النهار » ، بيروت ، ١٩٧٥/٢/١٥ .

٤٠ — الجمهورية العراقية ، رئاسة ديوان رئاسة الجمهورية ، هيئة رعاية أصحاب الكفاءات ، بغداد . قانون رعاية اصحاب الكفاءات ، الرقم ١٥٤ ، للسنة ١٩٧٤ .

وكالة الانباء العراقية ، ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥ ، ص ٦ — ٧ .

« النهار » ، ١٩٧٥/٢/٤ .

٤١ — « النهار » ، ١٩٧٥/٢/٤ .

« النهار » ، ١٩٧٥/٢/١٥ .

٤٢ — الجمهورية العربية الليبية ، وكالة أنباء الثورة الليبية ، نشرة البث الخارجي .

« قانون الرقم ١٣ للسنة ١٩٧٥ » بتشجيع الخبرات العربية اللازمة ، ٩ شباط (فبراير) ١٩٧٥ .

« السفير » ، ١٩٧٥/٢/٧ .

٤٣ — « السفير » ، ١٩٧٥/٤/١١ .

٤٤ — « المصارف » ، آذار (مارس) ١٩٧٥ ، ص ١٥ .

النمو الحضري في فلسطين

الدكتور عبد الاله ابو عيّاش

يتفاوت مفهوم التحضر بين دولة وأخرى كما تختلف المعايير والتعاريف المتبعة لتحديد حضرية المكان ، ويحدد الكتاب السنوي الديمغرافي للامم المتحدة عدة مفاهيم تستخدم كأسس لتحديد المكان الحضري(١).

١ ـ يعرف مكان ما بأنه حضري على اساس حجم السكان ، ويتفاوت الحجم السكاني بين ٢٥٠ نسمة في الدنمرك و ٤٠ الف نسمة في كوريا .

٢ ـ تحدد بعض الدول حضرية المكان على أساس حجم السكان ونوعية الوظائف والفعاليات الاقتصادية التي يؤديها ذلك المكان .

٣ ـ تعرف دول أخرى حضرية المكان على أساس نوعية الوظائف والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بها المكان بغض النظر عن حجم سكانه .

وقد تبنت الامم المتحدة معيارا لتحديد حضرية المكان يقوم على تحديد الاماكن التي يزيد عدد سكانها على ٢٠ الف نسمة(٢). ويعتبر التعريف الاحصائي القائم على تحديد حجم السكان أهم المعايير المستخدمة وأكثرها شيوعا بين الدول لتعريف حضرية المكان(٣). وكما ذكرنا فقد اختلفت هذه المعايير بين الدول ، فقد كانت ايرلنده تعتبر المكان حضريا أو مدينة اذا زاد حجم التجمع السكاني عن ١٥٠٠ نسمة ، وفي فرنسا وتشيكوسلوفاكيا وتركيا أخذ حجم السكان ٢٠٠٠ نسمة كحد أدنى لتعريف المكان الحضري ، وفي هولنده واليونان أعتمد الرقم ٥ آلاف نسمة . وما بين عامي ١٩١٠ و١٩٤٠ كانت الولايات المتحدة تعتبر أي تجمع سكاني يزيد عن ٢٥٠٠ نسمة مدينة او مركزا حضريا وكذلك فعلت المكسيك(٤). واذا ما أخذنا بنظر الاعتبار ان هذه هي المعايير التي كانت سائدة في الثلاثينات والاربعينات في أوروبا وأمريكا رغم تغيرها في الوقت الحاضر وان تعريف الامم المتحدة لحضرية المكان على اساس ٢٠ الف نسمة لم يكن موجودا في تلك الفترة لانه تعريف حديث ، وبما اننا نركز في هذه الدراسة على مقارنة حضرية فلسطين مع بقية الدول في العالم على أساس المعايير والتعاريف التي كانت سائدة في تلك الفترة ـ أي قبل عام ١٩٤٨ ـ ، فاننا نستطيع القول ان جميع الدول الاوروبية والامريكية تكاد تتفق فيما بينها على ان المكان الحضري هو ما زاد حجم سكانه على ٥ آلاف نسمة . وانني أميل الى تبني المعيار الاوروبي ـ الامريكي لانه أكثر المعايير شيوعا ، ثم لان الكثير من الحقائق عن فلسطين شوهت من خلال اجهزة الاعلام الاوروبية والامريكية التي استغلت ببراعة من قبل الدعاية الصهيونية ، ثم لان فلسطين كانت خاضعة للانتداب البريطاني الذي كان يطبق معايير تتبنى وجهة النظر الاوروبية في تحديد حضرية المكان .

تشير كل الحقائق التاريخية صراحة الى أن فلسطين عاشت لآلاف السنين كمنطقة امتازت بجماعات تبنت الحضرية والاستقرار أساسا لحياة سكانها ، ولهذا ظهرت مدن

تجارية وموانيء مهمة ، وكانت فلسطين تمثل بشكل عام همــزة وصل تجاري بين أوروبا والشرق . وقد استمرت فلسطين حتى الفترة الحاضرة تتمتع بنمو ودرجة عالية من التحضر تفوق العديد من الدول الاوروبية . وتشير الاحصائيات الى انه في الوقت الذي وصلت فيه نسبة السكان الحضر في فلسطين الى ٤٧ ٪ من مجموع السكان لعام ١٩٤٥ ، وصلت في النرويج الى ٢٨ ٪ فقط لعام ١٩٤٦ ، و٣٣ ٪ في سويسرا لعام ١٩٤١ ، و٣١٫٧ ٪ في الاتحاد السوفييتي لعام ١٩٣٩ ، كذلك فاقت نسبة السكان الحضر في اليابان التي وصلت الى ٣٨ ٪ عام ١٩٤٠(٥). كذلك تشير الاحصائيات في الجدول (١) الى أن نسبة التحضر في فلسطين كانت أعلى من نسبتها في السويد ، ويلاحظ من الجدول أيضا أن كندا والولايات المتحدة وفرنسا فاقت درجة التحضر في فلسطين بنسبة بسيطة .

واذا ما قارنا درجة التحضر في فلسطين مع معدل درجة التحضر في العالم فاننا نجد ان نسبة السكان الحضر في فلسطين تزيد عن ضعفي معدل هذه النسبة بالنسبة لدول العالم كلها ، ففي الوقت الذي وصلت فيه هذه النسبة الى ٤٧ ٪ في فلسطين فانها وصلت فقط الى ١٩ ٪ بالنسبة لبقية العالم(٦).

جدول (١) : مقارنة بين نسب السكان الحضر في فلسطين وبعض دول العالم

الدولة	السنة	نسبة الحضر
كنـــدا	١٩٤١	٥٤٫٣ ٪
الولايات المتحدة	١٩٤٠	٥٦٫٥ ٪
فرنســـا	١٩٤٦	٥٣ ٪
النرويج	١٩٤٦	٢٨ ٪
السـويد	١٩٤٠	٤٤٫٤ ٪
سويسرا	١٩٤١	٣٣ ٪
الاتحاد السوفياتي	١٩٣٩	٣١٫٧ ٪
اليابـان	١٩٤٠	٣٨ ٪
فلسـطين	١٩٤٤	٤٧ ٪*

المصدر : Peter Hall, The World Cities, p. 19.

* مأخوذة من A Survey of Palestine, p. 818.

جدول رقم (٢) : مقارنة بين نسب السكان في المدن المائة الفية في فلسطين وبعض الدول العربية (١٩٣٢ — ١٩٣٧)

الدولة	(السكان بالآلاف)	نسبة السكان
سوريا ولبنان	٦٠٩	٢٠٫٣ ٪
فلســطين	٢٦٥	٢٠٫١ ٪
العــراق	٣٠٠	٩٫١ ٪
مصر	١٫٢٣٠	١٣٫٣ ٪

المصدر : جمال حمدان ، المدينة العربية ، ص ٢٢ .

كذلك فان نسبة التحضر في فلسطين كانت قد فاقت الكثير من دول العالم عدا الدول الاوروبية آنفة الذكر . فعلى سبيل المثال بلغت نسبة التحضر في الخمسينات في افريقيا حوالي ١٠ ٪ في المعدل ، كما تفوق نسبـــة التحضر في فلسطين في الاربعينات نسبة السكان الحضر في عدة دول امريكية لاتينية حسب احصائها لعام ١٩٦٠ كبوليفيا التي وصلت فيها النسبة الى ١٥ ٪ وكوستاريكا والسلفادور وهايتي وهندوراس التي وصلت النسبة فيها حوالي ١٠ ٪(٧). واذا ما قارنا وضع فلسطين مع بعض الدول العربية نجد ان نسبة سكان المدن الكبرى فيها كانت تزيد عن نسب كل من العراق ومصر ومساوية تقريبا لنسب لبنان وسوريا(٨) وكما هو واضح في الجدول (٢) .

واذا اعتمدنا تعريف جست وفافا(٩) كأساس لقياس نسبة التحضر والذي يعتمد على اخذ نسبة عدد سكان المدن المائة الفية فاننا نستطيع تصنيف فلسطين بكل سهولة ضمن المناطق ذات النسب العالية من التحضر على اساس ان سكان المدن المائة الفية تزيد عن ٢٠ ٪ من مجموع السكان . والواقع انه اذا نظرنا الى احصاء ١٩٤٥ لوجدنا ان هذه النسبه تزيد عما كانت عليه في الثلاثينات اذ أن مجموع سكان المدن المائة الفية في فلسطين وهي القدس وحيفا وتل أبيب وصل الى ٤٦٢ الف نسمة او ٢٦ ٪ من سكان فلسطين (جدول ٣) ، بالاضافة الى ذلك يبـــدو حسب الاحصاءات المتوافرة والتقديرات الواردة في الجدول (٤) الى انه في الوقت الذي كانت فيه نسبة سكان الحضر تتزايد كان هناك انخفاض مستمر في نسبة سكان المناطق الريفية مما يشير الى نوع من الهجرة البطيئة من الارياف الى المدن . فبينما كانت نسبة سكان الحضر في ١٩٣١ تصل الى حوالي ٤١ ٪ ارتفعت حسب التقديرات الى ٤٧ ٪ في عام ١٩٤٤ . ومن جهة اخرى انخفضت نسبة سكان الريف لنفس الفترة من ٥٣ ٪ الى ٤٩ ٪ .

ويلاحظ أن النسبة التقديرية للسكان الحضر لا تتفق تمامـــا والارقام الصادرة في جدول (٥) والذي يشير الى أن نسبة سكان الحضر في ١٩٤٥ كانت ٤٢ ٪ . والواقع ان الفارق بين الرقمين يمكن ان يعزى لعاملـــين الاول ان النسبة ٤٧ ٪ هي نسبة تقديرية بينما النسبة ٤٢ ٪ هي نسبة احصائية فعلية . أما العامل الثاني فيمكن ان يعزى الى اختلاف في مفهوم وتعريف حضرية المكان بين المصدرين فمثلا يصنف مصدر الرقم الاول حضرية المكان على اساس حجم سكاني مقداره ٥ آلاف نسمة فما فوق(١٠)، ولذلك لا نستطيع ان نعتبر مدينة جنين على أساس هذا التعريف مكانا حضريا ، الا أن مصدر الرقم الثاني يدخل جنين ضمن المناطق الحضرية على أساس انها مركز اداري لقضاء جنين(١١) (انظر جدول ٣ و ٤) .

ورغم هذه الاختلافات البسيطة وحتى لـــو أخذنا النسبة ٤٢ ٪ أساسا لمقارناتنا فسيكون لدينا ما يكفي من الادلة والشواهد الاحصائية لاثبات النقطة الرئيسية في هذه المناقشة وهي أن فلسطين لم تكن كما شوهتها وصورتها أجهزة الدعاية الصهيونية على انها صحراء مقفرة دخلتها قطعان تائهة من البدو وانما كانت من أكثر دول العالم تقدما وتطورا اذ أن تركز السكان في مناطق حضرية يشير في كثير من الاحوال الى تطور وسائل الخدمات والصناعات والتجارة والادارات المحلية ذات المهارات العالية التي تمتلك قدرا كافيا من التقدم العلمي القادر على تسيير أمور هذه التجمعات السكانية ، وحتى تبقى الحقيقة واضحة نقول انه كان هناك بدو في فلسطين الا أن نسبة هؤلاء من السكان لم تزد عن ٦ ٪ من مجموع السكان كما هو واضح في الجدول (٤) .

جدول (٣) : أعداد ونسب السكان العرب واليهود في المراكز الحضرية الرئيسية بفلسطين

المركز	مجموع السكان	السكان العرب	النسبة	السكان اليهود	النسبة
القدس	١٥٧٠٨٠	٦٠٠٨٠	٪ ٣٨	٩٧٠٠٠	٪ ٦٢
حيفا	١٢٨٣٠٠	٦٢٨٠٠	٪ ٤٥	٧٥٥٠٠	٪ ٥٥
يافــا	٩٤٣١٠	٢٨٠٠٠	٪ ٣٠	٦٦٣١٠	٪ ٧٠
تل أبيب	١٦٦٦٦٠	٦٦٠	٪ ٠،٠٠٤	١٦٦٠٠٠	٪ ٩٩،٩
عكا	١٢٣٦٠	١٢٣١٠	٪ ٩٩،٩	٥٠	٪ ٠،٠٠٤
غــزة	٣٤٢٥٠	٣٤١٧٠	٪ ٩٩،٩	٨٠	٪ ٠،٠٠٢
بير السبع	٥٥٧٠	٥٥٧٠	٪١٠٠	—	—
الرملة	١٥١٦٠	١٥١٦٠	٪١٠٠	—	—
الخليل	٢٤٥٦٠	٢٤٥٦٠	٪١٠٠	—	—
رام الله — البيرة	٨٠٠٠	٨٠٠٠	٪١٠٠	—	—
طولكرم	٨٠٩٠	٨٠٩٠	٪١٠٠	—	—
نابلــس	٢٣٢٥٠	٢٣٢٥٠	٪١٠٠	—	—
جنين	٣٩٩٠	٣٩٩٠	٪١٠٠	—	—
النــاصرة	١٤٢٠٠	١٤٢٠٠	٪١٠٠	—	—
بيســان	٥١٨٠	٥١٨٠	٪١٠٠	—	—
طبرية	١١٣١٠	٥٣١٠	٪ ٤٧	٦٠٠٠	٪ ٥٣
صــفد	١١٩٣٠	٩٥٣٠	٪ ٨٠	٢٤٠٠	٪ ٢٠
بتاح تكفا	١٧٢٥٠	١٥٠	٪ ٠،٠٠٩	١٧١٠٠	٪ ٩٩،٩
اللــد	١٦٧٨٠	١٦٧٦٠	٪ ٩٩،٩	٢٠	٪ ٠،٠٠١
خان يونس	١١٢٢٠	١١٢٢٠	٪١٠٠	—	—
راحــابوت	١٠٠٢٠	٢٠	٪ ٠،٠٠٢	١٠٠٠٠	٪ ٩٩،٩
المجــدل	٩٩١٠	٩٩١٠	٪١٠٠	—	—
بيت لحم	٨٨٢٠	٨٨٢٠	٪١٠٠	—	—
الخضيرة	٧٨٣٠	٧٨١٠	٪ ٩٩،٩	٢٠	٪ ٠،٠٠٣
ناثانيــا	٥٠٧٠	—	—	٥٠٧٠	٪١٠٠
ريشون صهيون	٨١٠٠	—	—	٨١٠٠	٪١٠٠

المصدر : Sami Hadawi, Village Statistics, 1945, Beirut, Palestine Research Center, 1970, pp. 13-14 and 40-77.

جدول رقم (٤) : توزيع السكان في فلسطين حسب تركزهم في مناطق حضرية وغير حضرية

نوع السكان	احصاء ١٩٣١	تقدير ١٩٣٧	تقدير ١٩٣٨	تقـــدير ١٩٣٨				
	كل الاديان	كل الاديان	كل الاديان	كل الاديان	مسلمون	يهود	مسيحيون	غيرهم
* حضر	٤٢٠٩٤٠	٥٩٨٢٨٠	٦١٣٠٦٤	٥٤٦٨٥٠	١١٧٥٨٠	٣٥٧٠٠٠	٧١٥٥٠	٧٢٠
** شبه حضر				٢٧٩٠٣٠	١٨٣٢٢٠	٥٨٣٨٠	٣٦٢٤٠	١٠٩٠
مجموع الحضر وشبه الحضر	٤٢٠٩٤٠	٥٩٨٢٨٠	٦١٣٠٦٤	٨٢٥٨٨٠	٣٠٠٩٠٠	٤١٥٣٨٠	١٠٧٧٩٠	١٨١٠
النسبة	٪ ٤١	٪ ٤٣	٪ ٤٣	٪ ٤٧	٪ ٢٩	٪ ٧٥	٪ ٨٠	٪ ١٣
ريفيـــون	٥٤٨٣٢٨	٧٣٧١٦٧	٧٥٥٣٨٣	٨٧٢٠٩٠	٦٩٣٨٢٠	١٣٨٢٢٠	٢٧٧٦٠	١٢٢٩٠
النسبة	٪ ٥٣	٪ ٥٢	٪ ٥٢	٪ ٤٩	٪ ٦٥	٪ ٢٥	٪ ٢٠	٪ ٨٧
مجموع المستقرين	٩٦٩٢٦٨	١٣٣٥٤٤٧	١٣٦٨٤٤٧	١٦٩٧٩٧٠	٩٩٤٧٢٠	٥٥٣٦٠٠	١٣٥٥٥٠	١٤١٠٠
النسبة	٪ ٩٤	٪ ٩٥	٪ ٩٥	٪ ٩٦	٪ ٩٤	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠
بـــدو	٦٦٥٥٣	٦٦٥٥٣	٦٦٥٥٣	٦٦٥٥٣	٦٦٥٥٣	—	—	—
النسبة	٪ ٦	٪ ٥	٪ ٥	٪ ٤	٪ ٦	—	—	—
المجمـــوع	١٠٣٥٨٢١	١٤٠٢٠٠٠	١٤٣٥٠٠٠	١٧٦٤٥٢٣	١٠٦١٢٧٣	٥٥٣٦٠٠	١٣٥٥٥٠	١٤١٠٠
النسبة	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠	٪ ١٠٠	٪ ٣١	٪ ٨	٪ ١

* سكان المدن التي تزيد أحجامها عن ٤٥ الف نسمة حسب احصاء ١٩٣١ .

** سكان المدن التي تزيد أحجامها عن ٥ آلاف نسمة حسب احصاء ١٩٣١ .

المصدر : A Survey of Palestine, Prepared in Dec. 1945 and Jan. 1946 for the Information of the Anglo-American Committee Inquiry, Vol. II, Palestine, the Government Printer, p. 818.

جدول رقم (٥) : توزيع السكان الحضر في فلسطين حسب الاقضية لسنة ١٩٤٥

القضاء	مجموع السكان	عدد السكان الحضر	نسبة السكان الحضر
عكـا	٦٨٣٣٠	١٢٣٦٠	١٨ ٪
بير السبع	٥٣٧٠٠	٥٥٧٠	١٠ ٪
بيسـان	٢٢٥٩٠	٥١٨٠	٢٢ ٪
غـزة	١٣٧١٨٠	٥٥٣٨٠	٤٠ ٪
حيفـا	٢٢٤٦٣٠	١٤٩٧٧٠	٦٧ ٪
الخليـل	٨٩٦٥٠	٢٤٥٦٠	٢٧ ٪
يافـا	٣٧٣٨٠٠	٢٠٢٧٦٠	٥٤ ٪
جنين	٥٦٨٨٠	٣٩٩٠	٧ ٪
القـدس	٢٤٦٩٥٠	١٦٩٦١٠	٦٩ ٪
نابلـس	٨٩٢٠٠	٢٣٢٥٠	٢٦ ٪
النـاصرة	٤٦١٠٠	١٦٥١٠	٣٦ ٪
رام الله	٤٧٢٨٠	٨٠٠٠	١٧ ٪
الرمـلة	١٢٧٢٧٠	٣٣٢٨٠	٢٦ ٪
صفـد	٥٣٦٢٠	١١٩٣٠	٢٢ ٪
طبريـة	٣٩٢٠٠	١١٣١٠	٢٩ ٪
طولـكرم	٨٦١٤٠	١٣١٦٠	١٥ ٪
المجموع	١٧٦٤٥٢٠	٧٤٦٦٢٠	٤٢ ٪

المصدر : Sami Hadawi, Village Statistics, p. 39.

التباين الجغرافي في توزيع السكان الحضر

كما هو الحال في كل دول العالم هناك تباين جغرافي واضح في انتشار وتوزيع السكان الحضر في فلسطين حسب المناطق الرئيسية . فقد كانت فلسطين مقسمة الى ستة عشر قضاء كما هو مبين في شكل (١) ، واذا ما نظرنا الى نسب التحضر في هذه المناطق الادارية الست عشرة لوجدنا أن هناك مناطق تتميز بتركز عال للسكان الحضر بينما هناك مناطق تتميز بنسب منخفضة . ويعتبر قضاء القدس أكثر المناطق تحضرا في فلسطين اذ وصلت نسبة السكان الحضر فيه الى ٦٩ ٪ من مجموع السكان بينما يعتبر قضاء جنين من أقل المناطق تحضرا اذ لم تزد نسبة السكان الحضر فيه عن ٧ ٪ . ويمكننا بشكل عام تقسيم فلسطين الى ثلاث مناطق جغرافية رئيسية على أساس

نسبة التحضر . فهناك المناطق التي تقل فيها نسبة السكان الحضر عن ٢٠ ٪ من مجموع السكان وتشمل خمسة أقضية كما هو مبين في الجدول (٥) والشكل (١) وهي عكا . جنين . طولكرم ، رام الله ، وبير السبع ، وتطغى في هذه المناطق وخاصة الاقضية الثلاثة الاولى حرفة الزراعة بينما ترتفع نسبة السكان البدو في القضاء الخامس اي في بئر السبع . وهناك المناطق التي تمتاز بنسب متوسطة من التحضر تتراوح بين ٢٠ — ٤٠ ٪ من مجموع السكان وتقل في هذه المناطق نسب الذين يمتهنون الزراعة بينما ترتفع نسب الذين يمارسون حرفا أخرى كالصناعة والتجارة والخدمات ، وتشمل هذه المناطق أقضية صفد ، طبريه ، بيسان ، الناصرة ، نابلس ، الرملة ، والخليل . وتعتبر مدينتا نابلس والخليل أهم مركزين للصناعة والتجارة ضمن هذه المناطق . اما مناطق المجموعة الثالثة فتمتاز بنسب عالية من التحضر وتشمل أربعة اقضية هي حيفا ، يافا ، القدس ، وغزه . وتعتبر منطقتا القدس وحيفا أكثر المناطق تحضرا اذ تصل نسبة التركز الحضري في الاولى الى ٦٩ ٪ وفي الثانية ٦٧ ٪ ، بينما تعتبر غزه أقل منطقة حضرية ضمن هذه المجموعة اذ أن النسبة فيها ٤٠ ٪ . وتتسم هذه المناطق بتركيز شديد على الفعاليات والنشاطات التجارية والصناعية والخدمات بينما تنخفض الفعاليات الزراعية فيها بشكل كبير . ومما يلفت النظر ان هذه الاقضية شملت على حوالي مليون نسمة من مجموع سكان فلسطين الذي بلغ في تلك الفترة حوالي ١ر٧ مليون نسمة ، وبشكل آخر يمكن القول ان الاقضية الاربعة تشمل على حوالي ٥٥ ٪ من مجموع سكان فلسطين .

التباين الجغرافي لتوزيع السكان الحضر العرب واليهود

يلاحظ في التوزيع الجغرافي للسكان تباين واضح في طبيعة انتشار وكثافة التركز السكاني بين العرب واليهود في المراكز والمناطق الحضرية الرئيسية ، كما يلاحظ ايضا من الجدول (٤) ان السكان اليهود كانوا يتركزون بشكل عام بنسب أكبر في المدن والمناطق الحضرية من الفلسطينيين العرب . الا انه تجدر الاشارة ان نسبة التحضر بين المسيحيين الفلسطينيين كانت أعلى نسبة بين أصحاب الديانات الثلاث اذ بلغت نسبة التحضر بين المسيحيين ٨٠ ٪ وبين اليهود ٧٥ ٪ وبين المسلمين ٢٩ ٪ . ويمكن ان يعزى هذا التركز الحضري اليهودي العالي الى عدة عوامل :

١) ان معظم اليهود جاؤوا مهاجرين وكانوا كما يبدو يفضلون الاقامة في مدن تتمتع بنسبة كبيرة من اليهود لان عامل الامن والطمأنينة النفسية عنصر مهم في اختيار المهاجرين لمناطق سكناهم الجديدة .

٢) تركز معظم اليهود في حيفا ويافا لانهما كانا الميناءين الرئيسيين لاستقبال المهاجرين ، ويبدو أيضا ان الكثيرين من المهاجرين اليهود لم يرغبوا في الانتقال من هذه المدن في فترة كان الريف الفلسطيني وبقية المناطق تشكل مصدر عداوة ومقاومة لطلائع الحركة العدوانية الصهيونية .

٣) ان معظم المهاجرين اليهود كانوا من ذوي الخبرات والكفاءات الحضرية التي لم تكن تلائمها البيئات الريفية ، ففضلوا البقاء في مراكز حضرية تتوفر فيها الاعمال الملائمة لخبراتهم .

٤) ان رقعة الارض الزراعية الممتلكة من قبل اليهود كانت تشكل نسبة قليلة من مجموع الارض الفلسطينية اذ أنها لم تزد عن ٦ ٪ ولم تكن هذه الرقعة قادرة على اعالة الاعداد الكبيرة للمهاجرين الجدد .



شكل (١): نسب توزيع السكان الحضر في اقضية فلسطين

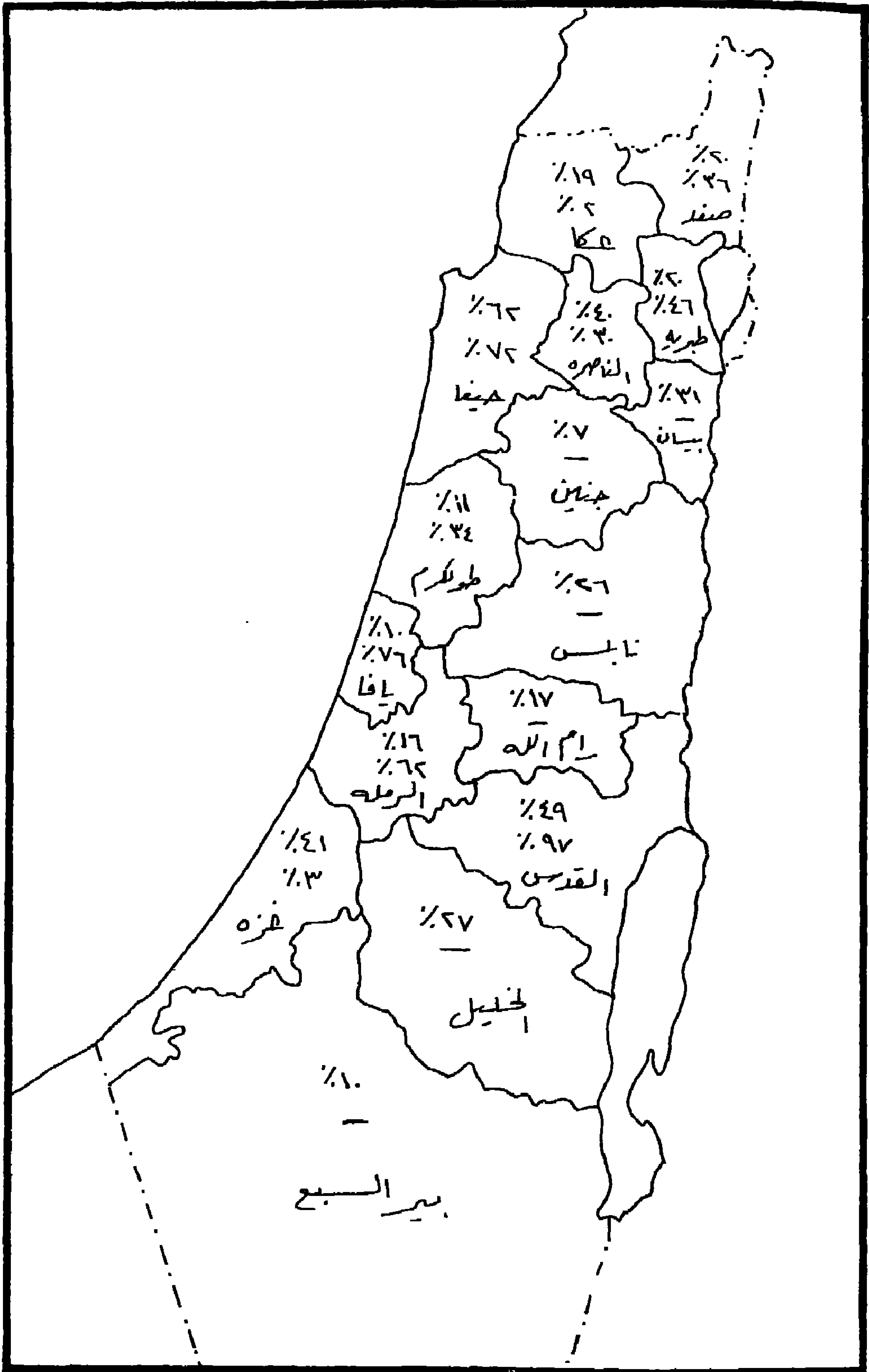
والواقع ان التركز الحضري لليهود في فلسطين هـو استمرار لنمط تميزت بـه التجمعات اليهودية في أوروبا والولايات المتحدة حيث ان الاغلبية الساحقة من اليهود تتجمع في المدن والمراكز الحضرية الرئيسية ، وافضل مثال يؤخذ من الولايات المتحدة اذ ان حوالي ٨٠ ٪ من اليهود يتركزون في بضع مدن امريكية كنيويورك ، شيكاغو ، سان فرانسيسكو ولوس انجلوس ، وميامي . ومن جهة أخـرى فان ارتفاع نسبة الريفيين بين المسلمين في فلسطين يعكس الانتشار الواسع والارتباط الطويل الامد بين السكان العرب الفلسطينيين الذين كانوا يمتلكون معظم الاراضي كما يعكس من ناحية ثانية قلة اهتمام المهاجرين اليهود بالزراعة رغم كـل المغريات التي قدمتها الحـركة الصهيونية لجذب الايدي العاملة اليهودية للعمل في الزراعة .

وتدل احصائيات الجدول (٣) ان نسبة تركز اليهود في بعض المدن كتل ابيب وناثانيا وريشون صهيون كانت عالية جدا اذ انها زادت عن ٩٩ ٪ من مجموع السكان فيها ، كما ان هناك مدنا أخرى مثل اليهود فيها النسبة الغالبة من السكان الحضر كما هو الحال في يافا والقدس وحيفا وطبريه . الا انه في نفس الوقت تميز الكثير من المدن الفلسطينية بغياب السكان اليهود منها بشكل مطلق كما هو في مدن بير السبع ، الرملة، الخليل ، رام الله ، البيره ، طولكرم ، نابلس ، جنين ، بيسان ، خان يونس ، المجدل ، وبيت لحم . وهناك مدن أخرى كانت الاغلبية فيها عـربا كاللد وصفد وغزه وعكا ، وبشكل عام نستطيع القول ان معظم المراكز الحضرية كانت فيها اغلبية فلسطينية .

واذا ما قارنا بين توزيع السكان الحضر العرب واليهود في فلسطين على أساس الاقضية فانه تبرز صورة أخرى مشابهة للتوزيع السابق والقائم على اساس المراكز الحضرية . فالسكان اليهود شكلوا نسبا كبيرة في اقضية حيفا ويافا والقدس والرملة وطبريه . وتدل المقارنات المبينة حسب الجدول (٦) والشكل (٢) ان هناك بعض المناطق التي تزيد فيها نسبة التحضر بين السكان العرب عنها بين السكان اليهود . فعلى سبيل المثال وصلت نسبة التحضر بين السكان العرب في قضاء بيسان الى ٣١ ٪ من مجموع السكان العرب الذين بلغت نسبتهم في القضاء ٧٠ ٪ ، الا ان نسبة التحضر بين السكان اليهود في هذا القضاء كانت معدومة على الرغم مـن ان نسبة السكان اليهود في القضاء بلغت ٣٠ ٪ من السكان ، وهذا التوزيع يعكس نوعيـة النشاط الاقتصادي للمجموعات اليهودية في هذا القضاء والذي كان يعتمد على الزراعة ضمن مستوطنات الكيبوتز والموشاف . وهناك مثال آخر مشابه هو قضاء الناصرة حيث زادت نسبة السكان الحضر العرب عن نسبة السكان الحضر اليهود ، فبينما وصلت النسبة بين العرب الى ٤٠ ٪ كانت بين السكان اليهود ٣٠ ٪ . ويمثل قضاء عكـا وقضاء غزة مثالين آخرين للمناطق التي زادت فيها نسبة السكان الحضر العرب عن نسبة السكان الحضر اليهود . الا انه في نفس الوقت كانت هناك اقضية كالقدس والرملة ويافا وطولكرم تمتاز بنسب مرتفعة من السكان الحضر اليهود ، ويبرز هذا واضحا بشكل رئيسي في القدس اذ وصلت نسبة السكان الحضر اليهود الى ٩٧ ٪ من مجموع السكان اليهود في هذا القضاء ، كما وصلت الى ٧٦ ٪ في قضاء يافا و٧٢ ٪ في قضاء حيفا .

الخلاصة

اننا حينما نبحث ظاهرة التحضر في فلسطين فاننا لا نحاول دراسة تحضر الدولة على اساس التمييز بين السكان سواء كانوا من أديان او اجناس متعددة ، وانمـا نقارنها وفق النسبة العامة الآخذة بنظر الاعتبار مجموع السكان . فنحن عندما نتحدث



شكل (٣) : نسب السكان الحضر العرب واليهود حسب الاقضية
الرقم الاول في كل قضاء يمثل العرب والرقم الثاني يمثل اليهود

جدول (٦) : توزيع السكان العرب واليهود الحضر في فلسطين حسب الاقضية لسنة ١٩٤٥

القضاء	مجموع السكان العرب	نسبة السكان العرب	مجموع العرب الحضر	نسبة العرب الحضر	مجموع السكان اليهود	نسبة السكان اليهود	مجموع اليهود الحضر	نسبة اليهود الحضر
عكا	٦٥٢٨٠	٩٦ ٪	١٢٣١٠	١٩ ٪	٢٩٥٠	٤ ٪	٥٠	٢ ٪
بير السبع	٥٣٧٠٠	٩٩٫٧ ٪	٥٥٧٠	١٠ ٪	١٥٠	٠٫٣ ٪	—	—
بيسان	١٦٥٩٠	٧٠ ٪	٥١٨٠	٣١ ٪	٧٠٠٠	٣٠ ٪	—	—
غزة	١٣٤٢٩٠	٩٨ ٪	٥٥٣٨٠	٤١ ٪	٢٨٩٠	٢ ٪	٨٠	٣ ٪
حيفا	١٢٠١٢٠	٥٣ ٪	٧٤٢٤٠	٦٢ ٪	١٠٤٥١٠	٤٧ ٪	٧٥٥٣٠	٧٢ ٪
الخليل	٨٩٥٧٠	٩٩٫٩ ٪	٢٤٥٦٠	٢٧ ٪	٨٠	٠٫١ ٪	—	—
يافا	١٠٩٧٠٠	٢٩ ٪	٨١٠٠	١٠ ٪	٢٦٤١٠٠	٧١ ٪	٢٠١٩٥٠	٧٦ ٪
جنين	٥٦٨٨٠	١٠٠ ٪	٣٩٩٠	٧ ٪	—	—	—	—
القدس	١٤٧٧٥٠	٦٠ ٪	٧٢٦١٠	٤٩ ٪	١٠٠٢٠٠	٤٠ ٪	٩٧٠٠٠	٩٧ ٪
نابلس	٨٩٢٠٠	١٠٠ ٪	٢٣٢٥٠	٢٦ ٪	—	—	—	—
الناصرة	٢٨٥٠٠	٨٤ ٪	١٤٢١٠	٤٠ ٪	٧٦٠٠	١٦ ٪	٢٣٠٠	٣٠ ٪
رام الله	٤٧٢٨٠	١٠٠ ٪	٨٠٠٠	١٧ ٪	—	—	—	—
الرملة	٩٧٨٥٠	٧٧ ٪	١٥١٨٠	١٦ ٪	٢٩٤٢٠	٢٣ ٪	١٨١٠٠	٦٢ ٪
صفد	٤٦٩٢٠	٨٨ ٪	٩٥٣٠	٢٠ ٪	٦٧٠٠	١٢ ٪	٢٤٠٠	٣٦ ٪
طبرية	٢٦١٠٠	٦٧ ٪	٥٣١٠	٢٠ ٪	١٣١١٠٠	٣٣ ٪	٦٠٠٠	٤٦ ٪
طولكرم	٧١٢٤٠	٨٣ ٪	٨٠٩٠	١١ ٪	١٤٩٠٠	١٧ ٪	٥٠٧٠	٢٤ ٪
المجموع	١٢١٠٩٢٠	٦٩ ٪	٣٤٥٥١٠	٢٩ ٪	٥٥٣٦٠٠	٣١ ٪	٤٠٨٤٨٠	٧٤ ٪

المصدر : Sami Hadawi, Village Statistics, p. 39.

عن التحضر في الولايات المتحدة مثلا فاننا نعني التحضر بين جميع السكان من بيض وسود مسيحيين ويهود . والمقارنات التي أجريناها هنـا بين فلسطين وبقية دول العالم انطلقت من هذا المفهوم . وحينما لجأنا الى المقارنة بين اليهود والعرب فقد أردنا أن نوضح انه حتى اذا أراد البعض استخدام الجنس والدين للتبيان على حضرية فلسطين فان الاحصائيات التي وردت ضمن هذه الدراسة اشارت الى ان عـرب فلسطين كانوا على درجة عالية من التحضر اذا ما قورنت مع كثير من الدول الاوروبية والافريقية والاسيوية والامريكية اللاتينية . ولئن تميز السكان اليهود بدرجة عالية من التحضر فاقت درجة التحضر بين العرب الفلسطينيين فلأنهم جاؤوا وهاجروا مـن مناطق كانت تؤهلهم بخبرات وكفاءات لا تصلح في الغالب الا لحياة المدن ، ومن هنا جاء تركزهم في مراكز حضرية رئيسية محدودة . والواقع ان هذا التركز الحضري الشديد من قبل اليهود كان مخالفا لاهداف الحركة الصهيونية التي ارادت ان يشتغل معظم المهاجرين في الزراعة ليتسنى لهم السيطرة على الارض التي خططوا لاحتلالها بالقوة والعدوان .

ومع ذلك لاحظنا ان هناك اقضية عديدة زادت فيها نسبة السكان الحضر العرب عن السكان الحضر اليهود كما هو الحال في بيسان والناصرة وغزه ، كما ان هناك اقضية اخرى انعدم فيها وجود اليهود كأقضية جنين ونابلس ورام الله . كذلك ظهرت هناك بعض الاقضية التي ارتفعت فيها نسبة الحضر اليهود وفاقت نسبـة الحضر العرب كما هو الحال في أقضية حيفا ويافا والقدس . وبالرغم من ان نسبة السكان اليهود الحضر في فلسطين كانت اعلى منها من نسبة السكان العرب الحضر فقد جاء ذلك نتيجة عدة عوامل عكست بشكل رئيسي خبرات ومهارات حصل عليها اليهـود وخاصة اولئك القادمون من اوروبا ، ولم تتوافر ظروف مماثلة للعرب الفلسطينيين للحصول عليها . ثم ان ارتباط الفلسطيني الشديد بأرض يمكن ان يكـون تفسيرا لارتفاع نسبة السكان الريفيين بين عرب فلسطين . ومجمل القول فاننا نستطيع التأكيد معتمدين على قواعد وأدلة احصائية متعددة الى أن فلسطين كانت منطقة عمرانية مزدهرة ، فهي الى جانب انتشار المجتمعات المستقرة فيهـا وانتشار الزراعـة في أراضيها ، فقد تميزت نسب عالية من سكانها بممارسة فعاليات ونشاطات تجارية وصناعية وادارية تركزت في مناطق حضرية ضاهت في نسبها واعداد سكانها الكثير من دول العالم .

---

١ — United Nations, *Demographic Yearbook*, New York, 1960, p. 34.

٢ — David Herbert, *Urban Geography; A Social Perspective*, NewYork, Praeger Publishers, 1973, p. 25.

٣ — د. جمال حمدان ، **جغرافية المدن**، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٦٠ ، ص ٥٤.

٤ — **نفس المصدر** ، ص ٥٥ .

٥ — Peter Hall, *The World Cities*, New York, McGraw-Hill Book Co., 1969, p. 19.

٦ — د. هيفاء الشنواني، ظاهرة النمو الحضري، في كتاب **النمو الحضري في الـوطن العربي** ، ادارة الشؤون الاجتماعية والشباب ، ليبيا ، طرابلس ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ .

٧ — **نفس المصدر** ، ص ٢٣ .

٨ — د. جمال حمدان ، **المدينة العربية**، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٦٤ ، ص ٢٢ .

٩ — الشنواني ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

١٠ — *A Survey of Palestine*, Prepared in Dec. 1945 and Jan. 1946 for the Information of the Anglo-American Committee Inquiry, Vol. II, Palestine, the Government Printer, p.818.

١١ — Sami Hadawi, *Village Statistics*, 1945, Beirut, Palestine Research Center, 1970, pp. 13-14 and 40-77.

الارض في الحكاية الشعبية الفلسطينية

خليل السواحري

مصطلح الارض في هذه الدراسة لا يعني مجرد « المكان » بمعناه الفني ، على غرار الزمان والحدث والبطل في الحكايات او القصص الصغيرة . ولكنه يعني هنا بالاضافة الى الدلالة الفنية لمصطلح المكان ، الارض بكل معانيها وظلالها انه يعني « الوطن » بكل ما يتفرع عن هذه الكلمة من دلالات متنوعة ، وعليه فان مصطلح الارض حيثما يرد في هذه الدراسة يعني « الوطن » وتلك هي الغاية الاساسية التي استهدفتها هذه الدراسة .

مرت الحكاية الشعبية الفلسطينية ، خلال الفترة منذ عام ١٩٤٨ وحتى الان ، بتغييرات شبه جذرية يمكن معها ان نقسم هذه الحكاية الى نمطين مختلفين وان لم يكونا متغايرين ، وهذان النمطان هما : أ ـ الحكايات التي رويت وما تزال تروى فوق الارض الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٤٨ او الارض الفلسطينية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ وبالامكان تسمية هذا النوع من الحكايات « بالحكايات المقيمة » . ب ـ الحكايات التي رويت وما تزال تروى خارج الارض الفلسطينية في المنافي والمهاجر ورواة هذه الحكايات هم ابناء فلسطين المتقدمون في السن ممن حفظوا هذه الحكايات اثناء وجودهم ، في فلسطين قبل النزوح الاول او النزوح الثاني ويمكن تسمية هذا النوع « بحكايات المنفى » .

وقد تعرض النوع الاخير من « الحكايات » الى تأثيرات متعددة سلبت بشكل او بآخر مصطلح الارض فيها من ايحاءاته الواقعية ، وقد وجدت نفسي مضطرا ورغم كل هذه التحفظات الى الاعتماد على « حكايات المنفى » في تقصي مفهوم الارض في الحكاية الشعبية الفلسطينية ، وذلك لصعوبة الحصول على الحكايات المقيمة من جهة ، وفي محاولة لمعرفة الاثار التي خلفتها تجربة الاغتراب والمنافي على الحكايات المهاجرة . وقد حاولت قبل ان اشرع في كتابة هذه الدراسة ان اقرأ كل ما امكنني الحصول عليه من حكايات شعبية فلسطينية(١)، وتبين لي ان عددا لا يستهان به من هذه الحكايات يصر على تحديد ماهية المكان الذي يتحرك فوقه أبطال هذه الحكايات ، وتلك ميزة لم اجدها في الحكايات الشعبية الفلسطينية كلها كما لم اجدها في معظم الحكايات الشعبية غير الفلسطينية ، وربما كان ذلك راجعا بشكل عام الى ان الحكايات الشعبية ، على اختلاف انواعها ، لا تصر على تحديد ماهية المكان بقدر ما تحصر اهتمامها في شخصية البطل والحدث والاسقاطات الطبقية التي يمثلها البطل(٢).

واذا كان ثمة سمة اساسية تحدد ملامح الحكايات الشعبية في بلد ما فهي ، كما هو معروف علميا وبحكم هجرة الحكايات من بلد الى اخر ، ليست مسألة الاطر الجغرافية للمكان ولكنها مسألة الاطر الحضارية والثقافية والانتروبولوجية للشعب الذي يقطن هذا المكان ، ومن هنا جاء الاختلاف في الحكايات الشعبية بين شعب واخر

وجاء التشابه بين الحكايات الشعبية لمختلف مناطق الوطن العربي ، وقد حاولت في هذه الدراسة أن اغض النظر عن كل عوامل التشابه ، بقصد التاكيد على ابراز الجانب المتميز في الحكاية الشعبية الفلسطينية . راجيا ان انبه الى ان مسألة ذكر الحدود الجغرافية في الحكايات الشعبية الفلسطينية ليست ميزة فريدة وخاصة بهذه الحكايات ، ولكن وبالنظر الى كون هذه الحكايات من النوع المهاجر (الذي روي ويروى خارج الارض الفلسطينية) وبالنظر الى الاصرار الواضح في هذه الحكايات على ايراد أسماء الاماكن والمدن والقرى الفلسطينية واعطاء التحديدات الصارمة الجغرافية لهذه الارض وحتى اسماء النباتات والاشجار فيها ، فقد رايت ان في ذلك دلالة واضحة على أصالة هذه الحكايات وعلى كونها ــ ما دامت تروى في المهجر ــ قد ظلت مشدودة الى المناخ الجغرافي والحضاري الذي افرزها . ولسوف اورد فيما يلي بعض النماذج من هذه الحكايات التي تحدد فلسطين على خارطة العالم العربي كمكان لوقوع احداثها وتحرك أبطالها :

١ ــ في حكاية تحمل اسم « مصير الجاني »(٣) وتروي قصة امرأة تقتل زوجها في بلاد الشام فهربت الى فلسطين حفاظا على عرضها نجد هذا التحديد الواضح لاماكن تحرك المرأة من الشام الى فلسطين : « فتضايقت المرأة من هذا الجو الخانق ، الذي لم تجد فيه من تشكو اليه ورحلت من الشام الى فلسطين باولادها » . وفي موضع لاحق من الحكاية ترد هذه العبارة : « وحينما وصلت المرأة الى جسر على نهر بين الشام وفلسطين » .

٢ ــ وفي حكاية ثانية اسمها « ملك السكرية »(٤) نجد ان السكرية رمز لفلسطين او احدى المناطق فيها ، حيث تكون هذه البلاد معبرا للقوافل التي تنتقل بين الشام ومصر ، وتحدد هذه المسألة بداية الحكاية التي ترد على النحو التالي « كان ملك في بلاد السكرية يقال له الاسد ، ولما جلبوا من بلاد الشام اربعين حمل زعفران وناموا عنده في تلك الليلة قال لهم : ما هذا ؟ قالوا زعفران ، قال : الى أين تريدون ؟ قالوا : الى ملك مصر » .

٣ ــ وفي حكاية ثالثة تدعى « حكاية منصور »(٥) نرى الشاب البدوي الفلسطيني يحب ابنة عم له ويتغزل بها ، وكعادة العرب ، يرحل بها اخوتها الى مكان مجهول من فلسطين فيخرج للبحث عنها في مكان يقع شمال فلسطين ويدعى « عين السويداء »:

حيث عين السويدا مع الضحى   اتتني بنات واردات على ماها

وحين يعلم اخوتها بمقدمه يرحلون باختهم الى بلاد الشام « ثم شدوا على دوابهم واخذوا اختهم وارتحلوا بها من ذلك المكان وقصدوا بلاد الشام » . أما الشاب فقد ضل في بحثه عنها حتى وصل الى مصر ، حيث يقال له هناك :

صاحبك في دمشق يا ولد   في مدينة يخرج عليها وكيلها

شفناه بعيونا في دمشق يا ولد . . . الخ .

ومن الملاحظ ان هذه الحكاية البدوية الفلسطينية حصرت اماكن تنقل ابطالها داخل فلسطين من جانب وخارجها الى مصر والشام من جانب اخر .

٤ ــ وفي حكاية اخرى حملت اسم « بنت تايه الراي »(٦) نجد بالاضافة الى تحديدها جنسية والد الفتاة (شامي) نوعا اخر من التحديد لهوية الرجل الفلسطيني الذي اراد أن يتزوج بهذه الفتاة ، ففي محاولة هذا الرجل للزواج بابنة صديقه الشامي نراه يقدم لها اشتراطات هي في مجملها تحديد لهوية المرأة الريفية الفلسطينية يقول بها :

ــ سوف تحملين قربة الماء على ظهرك .

فتقول : لا مانع عندي من ذلك .

فيقول لها : وتحملين الفأس للتحطيب .

فتجيب : افعل كما تفعل بنات البدو .

ويقول : وتخبزين على الصاج وتحلبين النعاج .. الخ وتلك هي نماذج مما تقوم به المرأة الفلسطينية في بادية فلسطين ومعظم قرى الجنوب الفلسطيني .

ويطول بنا الاستشهاد بهذه الانماط من الحكايات ، وهي جميعها تحدد كما لاحظنا الارض الفلسطينية كموقع مكاني لاحداثها على خارطه العالم العربي ، وهو موقــع يتوسط الشام ومصر وينتقل الابطال عبره بين هذين القطــرين ، وينتمي اغلبهم الى فلسطين رغم ان بعضهم ينتمي الى الشام (المرأة في حكاية مصير الجاني والزوجة في حكايه بنت تايه الراي) ، وبعضهم ينتمي الى مصر كما جاء في حكاية « عايق الشام وعايق مصر » وبطلا هذه الحكايه رجلان احدهما مصري والثاني شامي يلتقيــان في فلسطين ، وباستثناء « حكاية منصور » كان ترحال ابطال الحكايات يتم بين الشام ومصر عبر فلسطين . الا ان هناك نمطا من الحكايات يجعل من فلسطين المكان الرئيسي لحركة الابطال بالاضافة الى التاكيد السابق على عراقة التواصل الجغرافي بين الاقطار الثلاثة الشام وفلسطين ومصر . ومن ذلك على سبيل المثال الحكاية التي تدعى « ثأر الاخت »(٧) ففيها نرى العائله تنتقل داخل فلسطين من مكان الى اخر « وفي مضارب ثانية وثالثة الى السادسة ، فقيل لهم : لم يبق الا عريان زي ما تقول ناحية فلسطين ، ناحية حيفا ، ناحية يافا .. الخ » .

وفي حكاية اخرى حملت اسم « المال في النهر »(٨) نجد بداية الحكاية على النحو التالي : « كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجلان ، كان واحد ساكنا في الشام والثاني ساكن في فلسطين » واثناء زيارة الاول للثاني ترد هذه الفقرة في وصف اماكن التحرك « عندما اصبح الصبح ، مشى ابو سعيد حتى انه قرب يوصل فلسطين، وصل عند « الشريعة » وعندما أراد ان يقطع الشريعة زلقت فرسه » .

وفي حكاية تدعى « حكاية عيشه وام عيشه »(٩) ترد على لسان الراوي هذه الفقرة في بداية الحكاية « كان هناك رجل زوج ابنته غريبــة ، زي ما تقول مــن ساريس لخلده ــ ومن المعروف ان ساريس هي احدى قرى قضاء القدس وخلده هي احدى قرى قضاء الرملة ــ وهذه الحكاية كما هو واضح تحدد أسمي قريتين فلسطينيتين كما سبق ان حددت حكاية ثأر الاخت اسمي مدينتين فلسطينيتين ــ حيفا ويافا .

وقبل أن أتجاوز هذا النمط من الحكايات ــ الترحال داخل فلسطين وذكر أسماء المدن والقرى والمواقع ــ أريد أن أنوه بحقيقة كون معظم حكايات الترحال تنتمي الى أصول بدوية فلسطينية يؤكد ذلك « حكاية منصور » وحكاية « ثأر الاخت » . الا أنني وجدت مع ذلك ان هناك حكاية قدمت لنا نمطا من ترحال الفلاح / المزارع وهو الذي يفترض فيه أن يكون ملتصقا بالارض لا مرتحلا عنها ، وحتى تبرر الحكاية مسألة ترحال هذا الفلاح ربطت ذلك بمعتقد خرافي زواج بين الحظ والنحس وايراق الشجر وجفافه ، ففي الحكاية التي سميت « تزوجت أبنها »(١٠) والتي بنيت فيما يبدو على معتقد خرافي مهاجر(١١) ــ المعتقد الذي قامت عليه مسرحية أوديب ــ نجد بطل الحكاية ، بعد أن فقد أولاده ينتقل داخل فلسطين ليعمل بستانيا ، « اشتغل اول السنــة في بلدة مثل القدس وفي وقت الربيع اورقت كل الاشجار الا شجرته لم تدر فيها الحياة ولم يخضر

عليها ورق ، فترك المكان الى غيره ، وشد ما كان عجبه حينما كان يرى ان الشجرة التي يصطفيها لنفسه هي التي لا تخضر . وفي كل سنة يتحول الى بستان جديد حتى تعددت عليه السنون وكثرت الى أن انتهى الى بلاد غزة ، وفي غزة اشتغل بستانيا في احدى البيارات وانتقى له شجرة معينة فيها وكانت دهشته بالغــة حينما راى ان شجرته قد اخضرت مع سائر الاشجار ، ابتهج بالمنظر ثم قال: ـــ البلاد طلبت أهلها» .

وميزة هذه الحكاية ليست في ذكرها لاسماء المدن الفلسطينية فحسب ولكن في ربطها القدري والميتافيزيقي بين ايراق الشجر وعودة الانسان الفلسطيني الى أرضه ، ومثل هذا الربط بين الشجرة والطالع يؤكد على مدى اصالة الارتباط بالارض وجعل ذلك موازيا للقدر ـــ العودة الى الارض مرهونة بايراق الشجرة التي هي الارتباط الحميم بالارض ـــ وليس ذلك فقط ، فهناك حكاية أخرى شبيهة بهذه الحكاية جعلت الشجرة مرادفا للحياة ـــ الاحتماء بالشجرة للمحافظة على الحياة احتماء خرافيا ولا معقولا ـــ ففي الحكاية التي تسمي « الاخت الغولة »(١٢) نرى البطل يحتمـــي بالشجرة انقاذا لحياته ، ونرى الشجرة ليست مجرد مخبأ مرتفع لا تتمكن الغولة من ان تطال البطل منه ، ولكنها شجرة اسطورية تحمل نوعا من الدلالة الرمزية للانتماء التاريخي للارض؛ فهو حين يهرب الى الشجرة نراه يقول « اوطي يا شجرة أمي وابوي ، فتقصر الشجرة فيصعد اليها ، ثم ترتفع عالية في السماء » .

واذا كانت ظاهرة التأكيد على الارض الفلسطينية (فلسطين بشكل عام وموقعها بين الشام ومصر او بشكل خاص المواقع والمدن والقـــرى الفلسطينية) هي احـــدى السمات البارزة في حكايات المنفى ، فان ثمة سمة أخرى لا تقل أهمية ، تبدو واضحة في هذه الحكايات التي ما تزال في التجمعات الفلسطينية خارج الارض المحتلة ، فهي بالاضافة الى احتفاظها بأسماء المواقع والاماكن الفلسطينية ، وتشبث ذاكرة رواتها بهذه الاماكن تؤكد من جانب آخر على العودة الى هذه الاماكن ، وتجعل من هذا الامل هاجسا أساسيا لابطالها وسمة رئيسية من سماتهم ، كمـــا ان رواة هذه الحكايات يجعلون من العودة أمنية يرددونها سواء في بداية الحكاية او نهايتها ، ولايضاح ذلك فانني سأورد فيما يلي بعض النماذج :

أ ـــ في الحكاية التي تسمى « خروف بخروف »(١٣) والتي تلقي ضوءا على بعض جوانب التطور الاجتماعي في الريف الفلسطينـــي ـــ التناقض بين المجتمع الرعـــوي والمجتمع الزراعي ـــ نرى أن الدافع الاساسي للهجرة كان الصراع الذي نشب بين المزارع صاحب الارض ، وبين الراعي صاحب المواشي ، وقد أدى هذا الصراع الى جريمة قتل جلا بسببها المزارع عن ارضه فهاجر الى منطقة شرقي الاردن ملتجئا عند مثقال الفايز شيخ عشائر الصخور ـــ لاحظ التحديدات المكانية والتاريخية الصارمة في هذه الحكاية ـــ الا أن اللجوء الاضطراري لم يحل دون رغبـــة الفلاح الفلسطيني في العودة الى أرضه وبلاده ، الامر الذي اضطره الى تقديم اثنين من اولاده بدلا من القتيل ليتمكن من العودة الى وطنه .

واذا كان النزوح عن الارض في الحكاية السابقة قد جـــاء نتيجة منطقية لطبيعة التطور الاجتماعي واحتماء من الثأر ، فان حكاية أخرى ـــ مصير الجاني ـــ جعلت للنزوح اسبابا مختلفة وهي الحفاظ على العرض ، كما ان حكاية ثالثة ـــ ثأر الاخت ـــ قدمت سببا آخر للارتحال وهو محاولة الانتقام لعرض منتهك ، ولكن هذه الحكايات جميعا ظلت ـــ رغم وجاهة اسباب الهجرة والترحال ـــ تتخذ من حتمية العودة الى الارض الام محورا أساسيا يدور حوله الحدث وينمو ويتطور .

ب ــ الا اننا نلمس مثل هذه الضرورة في حكايات أخرى بطريقة مختلفة لا تعتمد على الحدث بقدر ما تعتمد على عبارات الراوي وأمنياته ، في حكايـة الاخت الغولة يبدأ الراوي الحكاية على النحو التالي : « صلوا على النبي ، أللهم صل على سيدنا محمد ، الله ينصر دين محمد على القوم الكافرين ويعاودنا على بلادنا سالمين وغانمين » .

وفي حكايات اخرى كثيرة يصعب حصرها تتكرر عبارة « البلاد طلبت أهلها » على لسان ابطال الحكايات ، فبعد ان يضرب هؤلاء في مغامرات الغربة ويحققون أهدافهم يقولون لمضيفيهم «البلاد طلبت أهلها» كناية عن الرغبة في العودة الى مساقط رؤوسهم ففي حكاية طير السعادة مثلا يقول البطل لصهره بعد زواجه من ابنته (البلاد طلبت أهلها) ويعود لفلسطين رغم حسن الضيافة والاغراءات الكثيرة التي قدمت له ، وفي حكاية « الاخت الغولة » نجد البطل يكرر باستمرار واثناء تجواله في بلاد الغربة عبارة « عاداتنا في بلادنا » كدلالة لفظية لاستمرارية انتماء البطل حتى في المسلك اليومي الى التربة والثقافة اللتين تلقاهما في وطنه الاصلي .

وتستحوذ الاشجار والنباتات على جانب كبير من جوانب الحكايات الشعبية بشكل عام الى حد ذهب معه دارسو الفولكلور الى أفراد قسم خاص من الحكايات تحت بند « حكايات النبات » على غرار حكايات الحيوان ، ولا يهمني وانا أتناول هذا الجانب من الحكايات الشعبية الفلسطينية البحث في الجذور الطوطمية او الخرافية لما يرد ذكره من نباتات أو اشجار في هذه الحكايات الا أن ثمة ملاحظة لا بد من ايرادها في هــذا الصدد ، فقد لفت انتباهي وأنا أقوم بعملية احصاء لاسماء وانواع النباتات والاشجار في الحكايات الشعبية الفلسطينية ان ثمة نوعين من الاشجار أو الثمار ، نوع خرافي ونوع آخر حقيقي وواقعي، كما تبين لي أن انتماء الثمار والنباتات والاشجار بمدلولاتها الواقعية يكون عادة للارض الفلسطينية بينما يكون انتماء الثمار أو الاشجار الخرافية لبلدان اخرى ذات سمة خرافية كواق الواق مثلا ففي حكاية « بنت الطرنج »(١٤) نرى البطل يخرج من فلسطين بحثا عن ثمرة خرافية هي ثمرة الطرنج التي تنتجها شجرة خرافية تحمل نفس الاسم وتثمر كل ألف سنة حبتين ، وتوجد هــذه الشجرة في بلاد بعيدة وراء جبل قاف وأهلها خلق غريب من الجن والعفاريت (هكذا) . أمــا الثمار والخضروات بمعناها الواقعي فنجدها تنتمي في هذه الحكايات الى الارض الفلسطينية ومن أمثلة هذه الثمار والخضروات ، القرنبيط في حكاية ملك الهوا ، والبندورة في حكاية كيد النساء ، والبطيخ في حكاية البطيخ في غير أوانه ، والملوخية والسبانخ في حكاية الفلاح والمدني والبدوي ، والتين في حكاية اختين ، والقمح والزيتون والتفاح والبرتقال في حكاية « طابع أمة » .

وعادة ما توظف الحكايات الخرافية وخاصة ما يتعلق منها بالحيوان والنبات في تفسير الظواهر الفيزيائية المختلفة تفسيرا ميتافيزقيا او خرافيا ولا يتسع المجال هنا لسرد الكثير من الامثلة لايضاح هذه الناحية ، خاصة وانها قضية عامة تنسحب على مختلف الحكايات الخرافية لمختلف الشعوب(١٥).

الا أن ظاهرة فريدة استرعت انتباهي في أربع حكايات خرافية فلسطينية وتتلخص هذه الظاهرة في توظيف الخرافة لخدمة الالتحام الحميم بالارض قبل الموت وبعده ، وفي التأكيد على اصالة وجدوى الارتباط بالعمل الزراعي الذي هو بحد ذاته رمز للعلاقة المعاشية الجدلية بين الارض والانسان . وهذه الحكايات الاربع هي : حكاية الطائر الاخضر ، بقرة اليتامى ، حكاية اختين ، قاطع يد ابيه . وتقدم الحكاية الاولى منها معنى شبيها بأسطورة الفينيق ولكن بطريقة يستبدل فيها المعتقد الخرافي القائم على

حرق الجثة بمعتقد ــ ذي أصول دينية ــ يقوم على دفن بقاياها في الارض . وتعد هذه الحكاية بحق اسطورة الانبعاث الفلسطيني(١٦) ففيها تقــوم الاخت التي نكبت بذبح أخيها على يد زوجة الاب بدفن عظامه في حفرة بحديقة البيت حيث تمر هذه العظام في نوعين من التحول :

١ ــ التحول الى طائر أخضر يحوم حول فناء البيت وهو شبيه بالتحول في اسطورة الفينيق ، وبالتحول الذي كانت تعتقد به العرب قديما (طائر الهامة) ويوظف هــذا التحول ليعطي الدلالتين في آن معا . فهو من جــانب يقدم معنى الاستمــرار الروحي لوجود الصبي المذبوح (التجدد والانبعاث في اسطورة الفينيق) ومن جانب آخر يقدم معنى الثأر والانتقام الذي تقصده الاسطورة العربية القديمة ــ الهامة ــ فالطائــر الاخضر يعلن عن استمرار وجوده ويقوم بدور الفضح لجريمة زوجة الاب والانتقام منها بالقاء الابر المسمومة في فمها لقتلها .

٢ ــ التحول في باطن الارض ــ وهذا هو المعنى الاهم بالنسبة لهذه الدراسة ــ الى كنز تنتفع منه الاخت ، فقد تحولت عظام الصبي في الحفرة الــى ذهب ، ومثل هذا التحول المادي الذي تم بفعل الدفن يقدم الدلالة الاخرى الاكثر عمقا وهي الاصرار على ضرورة دفن الموتى او بقاياهم في الارض ، وبغض النظر عن الدوافع الدينية لعمليــة الدفن فان مسالة ربط الدفن بتحول العظام الى ذهب تعطي تفسيرا لمعنى اصرار البنت على دفن عظام أخيها في حديقة البيت (الارض الفلسطينية) . ولا يعدم الدارس لهذه المسألة أن يكتشف ان أمنية معظم الفلسطينيين من المتقدمين في السن خارج الارض الفلسطينية هي ان يتاح لهم أن يدفنوا قريبا من مساقط رؤوسهم ان لم يكن في هذه المساقط ، وكثيرا ما ترد على ألسنة الكهول في المخيمات والمهاجر مثل هذه الامنيات .

ولا تقتصر مسألة تحول عظام الموتى الى ذهب بعد دفنها في الارض على الانسان فقط بل انها تمتد لتشمل الحيوانات كذلك ، ففي حكاية « بقرة اليتامى » حيث كانت البقرة مصدر قوت لابناء الزوجة المتوفاة ، نرى ان عظام هذه البقرة تتحول الى ذهب وجواهر بعد ان قام اليتامى بدفنها تحت التراب خارج المنزل ــ أصرت زوجة الاب على ذبح البقرة ــ وقد لاحظت اثناء مقارنتي لهــاتين الحكايتين ــ الطائر الاخضر وبقرة اليتامى ــ ان هناك تشابها عجيبا بينهما ، فالام في كلتيهما متوفــاة وزوجة الاب هي التي تتآمر لذبح الابن في الحكاية الاولى ولذبح البقرة في الحكاية الثانية ، وفي كلتــا الحكايتين تتحول العظام الى ذهب وبالتالي الى مصدر رزق واثراء للبنت واليتامى ، ومن هنا تغدو مسألة الدفن ــ من وجهة النظر المعاشية المحضة لا من وجهة النظر الدينية ــ وخاصة في حكاية بقــرة اليتامى شبيهة بعملية القــاء البذور في الارض ــ العملية الزراعية ــ وسوف يتأكد لنا هذا المعنى لدى استعراضنا لعملية الدفن في الحكاية التالية .

أما حكاية قاطع يد أبيه « فتقدم مسألة دفن الجثة أو أجزاء منها على انها عملية زراعية صريحة ، ففي هذه الحكاية يوصي الرجل العجوز الذي شارف على الوفاة ابنه بأن يقطع يده (يد ابيه المتوفى) ويدفنها في فناء البيت وأن يبقي ذلك سرا حتى على زوجته . وحين يفعل الابن ذلك تتحول اليد المدفونة الى شجرة غريبة تعطي ثمارا من الذهب والجواهر ، والاضافة التي تقدمها هذه الحكاية الى ما سبق انها تجعل من دفن يد الاب المتوفى عملية زراعية خالصة من جانب وتعطي من جانب آخر دلالة اخرى اكثر أهمية ، فدفن يد الاب في فناء المنزل وتحولها الى شجرة مثمرة تجعل الابن مطالبا بالضرورة بالمحافظة على المنزل والشجرة (رفات الاب) ويكون بالتالي مطالبا بالمحافظة

على الارض التي تضم هذا الرفات المثمر ، ان هذه الحكاية بالاضافة الى تكريسها لمفهوم التحلل والذوبان في صميم الارض ، تكرس ايضا مفهوم « الشجرة » واثمارها وضرورة المحافظة عليها ، وكل الحيثيات المصاحبة لذلك من ارتباط بالارض ودفاع عنهـــا .

وقد ادهشني في هذه الحكاية حقـــا الاشارات الواضحة التي قدمتهـــا للمؤامرة الصهيونية على الارض الفلسطينية ، فتآمر التاجر اليهودي على الشجرة هـــو رمز للتآمر الصهيوني على الفلاح الفلسطيني وعلاقته الحميمة بأرضه ، وقد جعلت الحكاية من هذه العلاقة مصدر اثراء وسر غناء هذا الفلاح، وهو ما عمل التاجر اليهودي جهده للقضاء عليه بمختلف الاساليب الماكرة والشريرة .

اما « حكاية اختين » ففيها نجد حب الزراعة ـــ فصولها وطقوسها ـــ رمزا للخصب والاثراء كما نجد كراهية العمل الزراعي وطقوسه مرادفة للموت والفنـــاء ، فالاخت الفقيرة التي تلتمس قوت عيالها لدى اختها الغنية فتفشل تلتجيء الى الطبيعة حيث يقودها الراعي الى تجربة امتحان يثبت من خلالها حب هـــذه المراة للطبيعة ـــ جنة الصيف وجنة الشتاء ـــ والجنتان هنا كما فهمتهما رمزان للاعمال الزراعية الصيفية والشتوية ، ويقوم الراعي بمكافأة المراة على ذلك ـــ حبها للمواسم الزراعية ـــ بكيس مملوء بأوراق التين التي تتحول في بيت المراة الى ذهب ـــ لاحظ هنـــا دلالة أوراق التين ـــ وفي المقابل تكافأ المراة الاخرى التـــي ابدت احتقارها للزراعة وطقوسهـــا وفصولها بكيس من أوراق التين الجافة ولكنها تتحول في بيت هذه المراة الى زنابير تلسع الام وأولادها حتى الموت ، وهكذا يغدو حب الارض والفصول الزراعية مرادفا للغنى والحياة وتغدو كراهية الزراعة وطقوسها مرادفة للموت والعدم .

وبعد ، فهذه هي بعض ملامح الارض في الحكايات الشعبيـــة الفلسطينية وبعض الدلالات التي رأيت من خلالها ان هذه الحكايات تنفرد بشكل أو بآخـــر ، ورغم كون الارض في الحكايات الشعبية عادة مجرد مفهوم مجرد « للمكان » ـــ في ابراز جغرافية الارض الفلسطينية وأسماء الاماكن والمدن والقرى اثنـــاء تحرك ابطال الحكايات ، وتعطي تحديدا صارما لموقع هذه الارض على خارطة العالم العربي كمكان يتوسط مصر والشام .

كما ان هذه الحكايات ـــ حكايات المهاجر والمنافي ـــ تؤكد على استمرارية وجـــود الارض الفلسطينية في ذاكـــرة الانسان الفلسطيني ـــ راوي الحكاية ـــ وعلى جعل العودة الى هذه الارض هاجسا دائما في وعي ولا وعي هذا الانسان يتساوى في ذلك أبطال الحكايات في حنينهم الدائم لارضهم ورواة هذه الحكايات في الاحتفـــاظ بأسماء الاماكن والمواقع الفلسطينية وفي بدء أو انهاء الحكايات بالتمني على القدر ان يحقق عودتهم الى أرضهم ، ثم ان هذه الحكايات تؤكد علـــى ارتباط الانسان الفلسطينـــي بالعمل الزراعي جاعلة من هذا العمل الديالكتيك الاولـــي والبديهي لارتباط الانسان بأرضه .

وحتى في الحكايات الخرافية نلمس تأكيدا على معتقدات من شأنها ان تكرس المزيد من الالتصاق بالارض والفناء والتحلل فيها كمعتقدات الدفن والانبعاث والصيرورة الى كنوز أو أشجار تثمر الذهب والجواهر ، وذلك هو ما يعطي بدوره التفسير الواضح لاستمرارية تمني الانسان الفلسطيني في المهاجر والمنافي العودة الى ارضه ولو لمجرد أن يدفن فيها .

ولعل في الحكايات المنشورة تاليا ما يقدم الدليل الناصع على صحة ما ذهبت اليه من تحليلات .

النصوص :

(قاطع يد أبيه)

الراوي : زكي علي محمود من بلدة المغار / الرملة .

مكان الاقامة الحالي : مخيم الحسين / عمان

كان يا مكان في قديم الزمان رجل وابنه ، وكان للولد زوجة وفي يوم من الايام قال الرجل لابنه : وقت ما أموت اقطع ايدي وازرعها في الجنينة ، ويدي هذه سوف تطلع شجرة واذا سألك احد عن هذه الشجرة فلا ترد عليه ولا تقول لاحد شيئا عن سرها . وحين مات الرجل ، فعل الولد مثلما قال له أبوه .

كبرت الشجرة وخرج من كل اصبع فرع كبير يحمل نوعا من الفاكهة تضيء في الليل ، فصار الرجل يقطف الثمار ويذهب لبيعها في المدينة لتاجر يهودي بمبالغ كبيرة من المال ، وقد أثارت هذه الثمار دهشة التاجر اليهودي فحاول معرفة سر الشجرة التي تنتج هذه الثمار . واستطاع اليهودي ان يعرف اسم قرية الرجل وقصدها ذات يوم وسأل عن بيته وهناك رأى شجرة غريبة لها خمسة فروع .

وفي اليوم التالي عاد التاجر اليهودي متخفيا في زي بائع للحلى والاقراط وقصد بيت الرجل وسأل زوجته عن سر الشجرة ، وطلب منها ان تعرف ذلك من زوجها .

ولما سألته عن سر الشجرة امتنع عن الاجابة فالحت عليه وأخيرا أخبرها بالسر وطلب منها ألا تخبر احدا. ولكن حين عاد اليهودي اخبرته المرأة بسر الشجرة .

وانتظر التاجر اليهودي مجيء الرجل واخبره بما عرف عن سر الشجرة فكظم الرجل غيظه وقرر ان يستعين بالشمس في الانتقام من اليهودي ومن زوجته التي باحت بالسر فلحق بالشمس (وأطنب) عليها ورجاها أن تساعده فقالت له ان يذهب لليهودي ويراهنه على طلوع الشمس من الغرب في اليوم الفلاني ، ولما عاد الرجل وجد ان اليهودي قد استولى على منزله وزوجته فراهنه على طلوع الشمس من الغرب وقبل اليهودي الرهان .

وفي اليوم المحدد طلعت الشمس فعلا من الغرب فخسر اليهودي الرهان وعاد الرجل الى بيته وطرد اليهودي وزوجته الخائنة منه(١٧).

(الطير الاخضر)

الراوي : وضحة رباح من السافرية / اللد

مكان الاقامة الحالي : مخيم الحسين / عمان

كان يا مكان في قديم الزمان امرأة وزوجها وبنتها وابنها يعيشون سعيدين ، فماتت الام وأصبحوا حزينين ، وفي يوم من ذات الايام تزوج ابوهم امرأة كانت قاسية عليهم وتضربهم . ومرت الايام والشهور وزاد حقد زوجة أبيهم عليهم وصارت تقول اثناء غياب ابيهم انها تريد أن تذبح الولد وتأكله(١٨) وسمعت الاخت ما قالته امرأة الاب ، ولما عاد الولد حكت له اخته ما سمعت وأخذت تبكي فقال لها : يا اختي اذا ذبحتني زوجة أبي فأرجوك أن تلمي عظماتي وتدفنيهن تحت شجرة في الجنينة .

وقامت زوجة أبيه ونبحته وطبخته ولما عاد أبوه أكل من لحمه وهو لا يدري انه يأكل لحم ابنه ، ولما انتهوا من الاكل وأخته تشاهد ذلك وتبكي لمت عظماته ودفنتهن تحت الشجرة في الجنينة مثل ما قال لها أخوها .

ومرت الايام والشهور وصارت العظمات طير جميل لونه أخضر ، وطار الى الكندرجي وقال له :

أنا الطير الاخضر بمشـي وبتمختـر

مرة ابوي ذبحتني ‏ ‏ وابوي أكل من لحمي

واختي الحنونه لمت عظماتي

وحطتهـن تحت الشجـــرة

وطلب الطير من الكندرجي كمية من المسامير وكمية من الدبابيس فاعطاه الكندرجي وطار فوق دار ابيه ورفرف على السطوح ورأى زوجة ابيه جالسة مع نساء في ساحة المنزل فصار يقول :

انا الطير الاخضر ، بمشي وبتمختر ، مرة ابوي ذبحتني ، وابوي أكل من لحمي ، واختي الحنونه لمت عظماتي وحطتهن تحت الشجرة ، فصارت زوجة ابيه تطرده قائلة : روح من هين ... فقال لها : لا اذهب الا بعد أن تفتحي فمك . ففتحت فمها فالقى فيه الدبابيس فماتت ، ثم ذهب الى ابيه وأنشده(١٩)، فحاول طرده ولكنه طلب منه ان يفتح فمه فلما فعل ألقى فيه المسامير فمات ابوه . ثم ذهب الى الحلواني وأنشده وطلب منه بعض الحلوى فاخذها وذهب الى اخته وأنشدها وطلب منها ان تفتح فمها وألقى فيه الحلوى . وذهبت البنت الى عظام أخيها فوجدتها قد تحولت الى ذهب . وتوته توته خلصت الحدوته .

(بقرة اليتامى)

الراوي : صبحه جابر من دير أبان

مكان الاقامة الحالي : جبل النزهة / عمان

كان في قديم الزمان امرأة لها بنت وولد اشترت لهما قبل أن تموت بقرة صفراء ، وكانا يرعيانها وأمها طيبة ، وبعد أن ماتت الام تزوج الاب فصارت الام تطعم الولدين خبزا (حاف) وتطعم اولادها طعامـا جيدا ، الا ان الولد والبنت كانوا لا يأكلون الخبز فحين يخرجون بالبقرة الى المراعي يقولون لها : يا بقرة امنا اطعمينا ، فتنزل لهم البقرة اللحم والارز ، ولاحظت زوجة الاب ان ابناءها يهزلون بينما يزداد الولدان الاخران سمنة وصحة .

وفي صباح اليوم التالي أرسلت الام ابنها مع اليتامى الى المرعى وقالت له اذهب معهم وانظر مـاذا يأكلون ، فذهب الولد معهم ، وعند الظهر جاعوا ولكنهم خافوا ان يفسد الولد عنهم فقالوا له : هل تعدنا أن لا تقول لامك وابيك ونطعمك من اللحم والارز ؟ فوعدهم ، فقالوا للبقرة ، فأنزلت لهم اللحم والارز فأكلوا حتى شبعوا وفي المساء رجعوا الى البيت فقالت الام لابنها : ماذا أكلت وماذا أكلوا ؟ فقال لها الابن : والله يا امي لم يأكلوا الا الاعشاب وورق الاشجار فلم تصدقه أمه .

وفي صباح اليوم التالي قالت الام لابنتها : اذهبي معهم وانظري ماذا يأكلون فذهبت البنت معهم وفعلوا كما فعلوا بالامس وأكلوا حتى شبعوا من اللحم والارز ولكن البنت أخذت معها بالسر ثلاث قطع من اللحم ، ولما عادوا مساء الى البيت اخبرت البنت امها بما رأت . فغضبت الام وقررت ان تحرمهم من البقرة فاشترت كيسا من التبن ونقعته في الماء حتى اصبح الماء اصفر فاستحمت به فأصبح لون جلدها اصفر ، فنامت في الفراش وادعت المرض وقالت ان الطبيب وصف لها دواء وهو معلاق بقرة صفراء ، وطلبت من زوجها ان يذبح لها بقرة اليتامى ولكنه رفض وقال ان هذه البقرة ليست من مالي وهي من مال امهم فكيف اذبحها ؟ فقالت له : انا أموت (علشان) ما تذبح البقرة ، اشتر لهم بقرة ثانية ، فقال لها حرام عليك . فأصرت عليه أن يذبحها . فذهب الرجل الى اولاده وقال لهم : يا اولادي سوف اذبح هذه البقرة ، فقالوا له : يا ابي نحن لا نعيش الا بهذه البقرة وهذه هدية امنا رحمها الله ، أعطتنا اياها ذكرى وعندما نرى هذه البقرة كأننا نرى أمنا ، الا انه قرر ان يذبحها ، فجاء بالمدية وبطح البقرة ليذبحها فحزن الاولاد وصاروا يبكون بكاء شديدا وقالوا : يا بقرتنا لا تنذبحي ، فلم تنذبح ، فضرب الاولاد فقالوا : يا بقرتنا انذبحي ولا تنسلخي ، فضربوهم فقالوا : يا بقرتنا انسلخي فانسلخت ، ثم قالوا يا بقرتنا لا تتقطعي فلم تتقطع ، فضربوهم فقالوا : يا بقرتنا انقطعي ولا تستوي (تنضجي اثناء الطبخ) وظل اليتامى هكذا حتى أكلت البقرة وكان اليتامى يتفرجون ولا يأكلون ولموا عظام البقرة ودفنوها قريبا من البيت ، وبعد اسبوع ذهبا ليريا ماذا حدث ، فوجدا ان العظام تحولت ذهبا واحتفظت البنت بالذهب حتى كبرا واستفادا من هذا الكنز(٢٠).

(خروف بخـــروف)

كان يا ما كان في سالف العمر والاوان رجل مزارع وله زروع كثيرة وكانت المواشي تطأها بشكل مثـير ومرة قرر ان يضع حدا لهذا الاستهتار من الرعيان واصحاب المواشي نحمل بندقيته واطلق بها النار علـى رجل في زرعه فارداه قتيلا وعلى البقر فكسر عواقيب اثنتين .

والرجل من العرب اذا قتل (اندمى) فانه يؤمر بمغادرة المنطقة تماما ولئلا يقتل على يد اي عربي مـن أهل القتيل يظفر به ، هاجر هذا الرجل الى منطقة شرقي الاردن ووجد ملتجئا عند مثقال الفايز شيخ عشائر الصخور ، وكان عنده ولد وبنت .

كبرت ابنته حتى اصبحت في سن الزواج فطلب يدها منه بعض وجهاء العشيرة واعطوه بنتا منه ليشتـد النسب لانهم رأوه رجلا يستحق المصاهرة والقرب .

ومع الزمن انجبت زوجته الجديدة اولادا اربعة وكانوا نشيطين يلعبون مع اترابهم الا انهم لاحظوا غمزا منهم يختص باوطانهم واسمائها وهجرتهم عنها فهرعوا الى ابيهم : ابتاه أليس لنا وطن ؟ ــ بلى .. ــ ألست مشتاقا اليه ؟ ــ بلى ولكن اباكم له من الاسباب القوية ما يجعله يبتعد عن بلده . ألحوا عليه فقال لهم : القتل . ومع الحاحهم على العودة اكثر قرر العودة .

واقام له مشايخ الصخور الذين يقيم عندهم حفلة وداع ضخمة حضرها الصغير والكبير من رجال القبيلة والقبائل المجاورة القريبة .

اقترب من مضارب اعدائه فما العمل ؟ هل يرتمي بينهم بعد غياب حوالي العشرين عاما ام يرسل لهم من يفاوضهم على الصلح ، لم يجزم بعمل واخيرا قال : ننصب خيامنا هنا قريبا منهم عندنا منذ زمن فاذهـب وقل له : ابي يهديك السلام ويقول لك خذ حقك وهذا هو الخروف الذي اخذه منك ذات يوم : فذبح الرجل للشاب ذبيحة وقام بواجب الضيافة نأحسن ما يكون الواجب ثم حمل الشاب شيئا من الهدايا وقال لـــه : قل لابيك لا يكفي لقد تغديت بخروفي .

وتضايق هذا الرجل من هذا الجواب وحمل ولدين اخرين من اولاده وقال لهما : قولا له هاك خروفـين يقول لك ابي ، بدلا لولدين اخرين من اولاده ، وقال لهما قولا له هاك خروفين ــ يقول لك ابي ــ بـدلا من خروفك الذي اخذه منك ابي قبل سنين ، فاكتفى الرجل لمرسله كفاية مقنعة خاصة بعد ان سمع مـن ولدي الرجل ما يشبه الاعتذار عن تأخر سداد الدين بسبب الفقر والهجرة وسمع منهما رجاء ابيهما الحار باخذ ثاره .

ثم اهاب في رجال قبيلته ان يمشوا هم للاصلاح مع هذا الرجل الذي يقدم ذبيحة وذبيحتين مـن اولاده سدادا لدم قبل عشرين سنة او اكثر .

ذهبوا اليه هم في ذبائح وتم الاصلاح بالخير ... والسلام عليكم ...(٢١).

(حكاية اختـين)

كان ياما كان في قديم الزمان اختان احداهما غنية والاخرى فقيرة ، قالت الفقيرة لاولادها يوما : هيا بنا يا ابنائي نذهب الى خالتكم لعلها تتصدق عليكم بشيء من الطعام وهناك وجدت اختها تأكل خبزا محمــرا وجبنا وحينما رأت اختها باولادها وعليهم ملامح الفقر خبأت هذا الخبز تحت الفرشة ، فتعد الاولاد في بيت خالتهم ينتظرون شيئا من الطعام ، لكنهم لم يصيبوا شيئا ، فلسعهم الجوع ، فطلبوا من امهم شيئا ممـا يقيم الاود فقالت لهم : ماذا استطيع ان افعل لكم ؟ اسألوا خالتكم فلعل بقايا من طعام تستطيع ان تقدمها لكم ، فردت اختها والله يا اختي ما عندي شيء .

هبت الام باولادها قائلة لهم هيا بنا نخرج الى البرية لعلنا نجد فيها ما نأكله من ربيع او غيره وفي البرية وجدت الام ما تطعم اولادها من الحشائش التي تؤكل ثم مشوا في طريقهم فمروا عن مخلوق بهيئة قط ،

فطرحت الأم عليه السلام وفي غنمانه وأعله وقصت عليه قصتها وحدثته عن جوع اولادها فضرب عصاه في الارض فظهرت منها على الفور خمسة ارغفة : طعم منها الاولاد وشبعوا .

وحينما غربت الشمس اخذ الام واولادها الى بيته وسلمهم لامه وقال لها : غدا ـــ تأخذين الام الى جنة الصيف والشتاء . وفي عصر اليوم الثاني اخذتها الى ذلك المكان فامتدحته قائلة : ان الصيف فصل جميل ومربح للناس نفيه الخضرة التي تكسو وجه الارض وفيه كل شيء جميل وبعد ان استمتعوا بجنة الصيف ذهبوا الى جنة الشتاء .

فامتدحته ايضا قائلة : ان الشتاء فصل طيب حيث ينزل المطر فيسقي الارض والمزروعات ويستمتع الناس فيه ، وبعد ان انتهت من ذلك عادت بها الى البيت .

عاد الراعي في المساء من المرعى فسأل امه عما قالته ام الاولاد عن جنة الصيف وجنة الشتاء فاخبرته بكل ما قالت فامرها ان تأخذها وتعبىء لها كيسا من ورق التين ، لتذهب بها الى بيتها وتغلق عليها الشبابيك والابواب ليصبح ما في الكيس ذهبا .

نتفعل امه بما امرت به وتفعل الام الفقيرة بما قيل لها ان تفعل فيتحول كله الى ذهب .

وفي بيتها بعدئذ طلبت الى ابنها ان يذهب الى خالته ليحضر من عندها قبعة العجين فيفعل الولد . فتأخذ امه بوزن الذهب بهذه القبعة ثم تعيدها الى اختها فيلزق بقاعها شيء من الذهب ، لان اختها كانت قد وضعت في القعر شيئا من العجين .

وحينما ترى اختها ذلك تطير جنونا فتأخذ اولادها الى المكان الذي اغنى اختها الفقيرة وحينما تجد الراعي تأخذ في مسبته وتحقيره فيقول لامه خذيها الى جنة الصيف وجنة الشتاء وهناك تسب هذه المرأة الصيف والشتاء فتحكي ام الراعي له بما سمعت منها فيقول لها : عبئي لها كيسا من ورق التين الجاف ولتطبق كل خرق في البيت ولا تفتح شيئا من النوافذ .

تمضي المرأة فرحة بما معها مما سيتحول الى ذهب ، وتغلق عليها النوافذ والفتحات ، فيصبح ورق التين زنابير (دبابير) تجوس خلال البيت وتلسع الام واولادها وما زالت بهم حتى ماتوا جميعا(٢٢).

ـــ الهوامش ـــ

١ ـــ اعتمدت في هذه الدراسة بشكل اساسي على الحكايات الشعبية التي جمعها عمر الساريسي وقدمت ضمن اطروحته لنيل الماجستير في الاداب من جامعة القاهرة ٧٢ وعلى المجموعات الثلاث من الحكايات الشعبية التي جمعها فايز علي الغول وصدرت في عمان ١٩٦٦ وهي : الدنيا حكايات ، من سواليف السلف ، اساطير من بلادي ، وعلى حكايات اخرى متفرقة قمت بجمعها شخصيا .

٢ ـــ لمزيد من التفصيل انظر مقالنا في الحكاية الشعبية ، مجلة افكار الاردنية العدد التاسع شباط ١٩٦٧.

٣ ـــ الجزء الثاني من رسالة عمر الساريسي المخطوطة .

٤ ـــ ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ـــ المصدر السابق .

١١ ـــ اثناء تجواله يمر بامرأة تقدم له العزاء في تعـ [illegible] حظه حيث تزعم انها تزوجت ابنها فقتل نفسه بعد ان حملت منه ، ثم قادها القدر الى انزواج من ابنها الثاني وذلك شبيه باسطورة اوديب المعروفة .

١٢ ـــ الجزء الثاني من رسالة عمر الساريسي المخطوطة .

١٣ ـــ المصدر السابق .

١٤ ـــ اساطير من بلادي ، فايز علي الغول ، الطبعة الاولى عمان ١٩٦٦ ـــ ص ـــ ١٠ .

١٥ ـــ من ذلك ما يقال في تفسير الزلزال بأن ثورا ضخما يحمل الارض على احد قرنيه ، ومن عاداته

السيئة انه يغير موضعها من حين الى حين ، ومن ذلك ايضا الطير الخرافي الذي يصفق بجناحيه فيولد العواصف الى غير ذلك . ولمزيد من الاطلاع انظر كتاب « علم الفولكلور » تاليف الكزاندر هجرتي كراب ، ترجمة رشدي صالح ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٦ ــ شاع استعمال هذه الحكاية كرمز للانبعاث في الادب الفلسطيني بعد ايلول ١٩٧٠ حيث استغلها كل من يحيى يخلف في قصته القصيرة الطائر الاخضر مجلة الاداب ــ البيروتية تموز ١٩٧١ والشاعر محمد القيسي في قصيدته طيور خضراء كثيرة ، ديوان رياح عز الدين القسام ص ٩١ .

١٧ ــ وجدت ان في هذا النص ثغرات لم اشأ ان اكملها حفاظا على النص كما روي ومن هذه الثغرات ان الزوجة جعلت الشمس كفيلا لها في عدم البوح بسر الشجرة . ومنها ايضا ان اليهودي راهن الرجل على بيته وزوجته ان هو كشف سر الشجرة ، ولما كشف السر اخذ البيت والزوجة .

١٨ ــ اغفلت الرواية سببا ليس جوهريا في تفاقم حقد زوجة الاب على الابن دون البنت ، وهو كما ورد في روايات اخرى لهذه الحكاية ان الولد كان يعارض بشدة زواج ابيه من هذه المرأة .

١٩ ــ حذفت من النص تكرار الانشودة التي يرددها الطائر الاخضر امام الاب وامام الحلواني وامام الاخت حيث لم اجد ضرورة لتكرارها .

٢٠ ــ حذفت من النص تطويلات وردت عقب عثور اليتامى على الكنز ولم اجد لها ضرورة ، كما تصرفت في النص لغويا الى الحد الذي لا يخل بالسياق .

٢١ و ٢٢ ــ هاتان الحكايتان مأخوذتان من الحكايات التي تم بجمعها عمر الساريسي في الجزء الثاني من رسالته المخطوطة لنيل درجة الماجستير في الاداب ــ جامعة القاهرة ١٩٧٢ .

الشعب ــ البطل في التاريخ

بين « أم سعد » غسان كنفاني و « عجوز » أفنان القاسم*

الدكتور فيصل دراج

« الفن معلم من حيث هو فن وليس من حيث هو فن معلم »

غرامشي

الشروط التاريخية لانتاج العمل الادبي :

على الرغم من خصوصية العمل الادبي فانه لا يمكن أن يرى خارج سياق تاريخي محدد ، فالنص الادبي من خلال أدبيته يعكس الواقع التاريخـي ولا يصنعه ، وهو لا يعكس شروطا غائبة أو لم تولد بعد بل يعكس شروطا قائمة ، وهـو بأدبيته نتاج وانعكاس لها. فليس الادب الفلسطيني « الثوري » هو الذي خلق المقاومة الفلسطينية بل ان هذا الادب بكل اتساعه وحدوده وليد للمقاومة ، كل هذا على الرغم من الدور التحريضي الذي يمكن أن يلعبه الادب . ولا يمكـن أن نرى النص الادبي بمعزل عن التاريخ الذي صنعه ، بل ان هذا التاريخ بكل تميزه يكمن في كل احضان العمل الادبي . وعلى هذا فان كل انتاج أدبي هو في الوقت ذاته انتاج أدبي ــ تاريخي . ان نقد بوليتزر للتحليل النفسي الذي أراد أن « يشرح التاريخ بالتحليل النفسي وليس التحليل النفسي بالتاريخ »(١) يصلح أيضا لتطبيقه على الادب ، فهذا الاخير على الرغم من أدبيته لا يمكنه أبدا أن يتمتع باستقلال ذاتي مطلق وبوجود لا تاريخي ، فالنص الادبي ليس نتاج « الاسطورة الشخصية » للمؤلف لكنه التجسيد لميكانيكية الانتاج الادبي من حيث هي عملية انعكاس لشروط تاريخية ــ اجتماعية محددة « فالرواية لا تخرج من التخيـل الفردي بل من الواقع الاجتماعي ــ التاريخي » .

ورغم انه يمكن التكلم عن التأريخي في الرواية L'historique du roman الا ان الاديب ليس مؤرخا بالمعنى الدقيق للكلمة لانه لا يعكس في عمله الا ظواهر الحركة التاريخية وليس القوانين الداخلية المحركة لها . ضمن هذا الاطار تعتبر الرواية نتيجة لفاعلية حاضرة مستوعبة لماض محدد لمجتمع معطى . ونؤكد من جديد أن النص الادبي لا يمكن أن يرى الا كانعكاس للواقع بمركباته الاجتماعية ، فالادب « لا يهبط من السماء » وليس نتاج « ابداع » غامض لا يدرك كنهه ، أو فاعلية « متخيلة imaginaire » على الرغم من أنه ينتج آثارا خيالية .

* العجوز رواية لأفنان القاسم ظهرت عن مطبوعات وزارة الثقافة والاعلام في العراق مع مقدمة للمستشرق ريج .

لكن نظرية الانعكاس لا تعني بأن الاديب يعكس الواقع بشكل خام وبدون تدخل ذاتي ، فالواقع ينعكس في العمل الادبي بعد ان يخضع لنمط ابداع محدد يتناسب مع موقع الكاتب الاجتماعي ورؤياه للعالم .

وكما ان النص الادبي يتسم بتاريخيته ، فان الاديب من حيث هــو منتج يخضع للقانون التاريخي أيضــا ، لذلك فان ممارســة الاديب ودوره في ساحــة الصراع والايدولوجيا التي يحملها تنعكس في الوحدة الشكلية ــ المضمونية لعمله ، كما ان حدود حركته الاجتماعية تحدد صدق مضمون عمله الادبي ، وتدخل الاديب في عمله الادبي لا يتم فقط من حيث هو ذات متميزة (خالق النص) بل تتم ايضا من حيث هو شكل ــ ذات أي تعبير عن ميزان القوى الاجتماعية في فترة تاريخية محددة .

ان رواية « أم سعد » أو « العجوز » لا يمكن أن ترى بدون وجود المقاومة ، انهما التعبير الادبي عن ظاهر حــركة الشعب الفلسطيني التي ولدتهــا شروط اجتماعية ومعاناة تاريخية . ان النص هنا يعكس ما هو موجود بشكل مادي أي ما هو موجود فعلا ، وقد يومىء النص ويشير الى المستقبل ، لكن ذلك « التنبؤ » يستقي مع ذلك جذوره ومرتكزاته من مادية الواقع . ان ما نريد أن نؤكد عليه هنا هو مادية وتاريخية النص الادبي ، فالادب والاديب هما نتاج للتاريخ والظروف الاجتماعية ، وان أصالة الاديب تكمن في قدرته على عكس الواقع التاريخي ، ودقة هذا الانعكاس وضبطه أو نسبيته تعتمد على مدى مشاركة الاديب في صنع الحركة التاريخية من حيث هو شكل ــ ذات متميزة .

« العجوز » وديالكتيك الموت والحياة :

يعكس أفنان القاسم الكاتب الفلسطيني في روايتــه « العجوز » وضع الشعب الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨ ثم المسار الشائك الذي سلكه هذا الشعب للانتقال من حالة الموات والسكون الى حالة الحركة والحياة . ويرصد أفنان هذا خلال رواية ذهنية أو واقعية رمزية ، فالشخصية عنده ليست نمطا اجتماعيا يعكس كلية اجتماعية بمعنى جورج لوكاتش ، وليس بطلا ايجابيا يذرع مجال حياة يومية محددة التفاصيل والتناقضات بمعنى بريشت ، بل اننا هنــا ازاء شخصية ــ فكرة تنمــو وتتمحور وتتحرك لتحقق معادلات ذهنية للكاتب ترصد الحاضر والماضي والمستقبل ، فالبطل هنا استبدل بفكرة ــ رمز تتحرك في فضاء زماني واسع لتحقق ذاتهــا في النهاية . ان شخصية أفنان هذه تذكرنا بالفكرة عند هيجل التي تتلمس نفسها عشواء في البدء ، ثم تتفتح خلال التاريخ ، لتحقق ذاتها أخيرا وتعثرها عليها بوعــي . ولا نقف في رواية «العجوز» أمام لوحة اجتماعية مكونة من أناس محددين ، بل أمام لوحة ذهنية تعكس بشكل روائي قدر وحركة الفلسطيني ، الذي يغرق بعد النكبة في سديم خانق ثم يبدأ يطفو على السطح حتى يتحرر في النهاية .

ويدخلنا أفنان هنا في مجالات زمنية ثلاثة يعكس كل منها وضعا تاريخيا ، وهذه المجالات ليست محددة المعالم بل هي مختلطة ومتشابكة ومحكومة بقانون عــام هو الزمن النفسي ، تيار الوعي الذي ينتقل من مجال الى آخر ، وينتقل الوعي التعيس هنا من مدار الى آخر باحثا عن توازن منشود ومفقود ، لذلك فهو لا يعرف الاستقرار والراحة لانه محكوم بشروط اضطهاد غدة . وتتم اللعبة هنا بين الزمان والوعي ، أو بشكل أدق تتم في مجال وحدة ثنائية : الزمان / الوعي ، فهما يتعانقان ويدور كل منهما على سطح الآخر بدون نضب بحثا عن شرط تاريخي غائب ويجب اعادة انتاجه . ولا تتم دورة الوحدة المركبة وعي / زمان بدون تحديد مكاني ، بل على العكس من ذلك

فهي تدور ضمن مجال مكاني محدد ؛ بل ان جدلية الوعي / الزمان لا تأخذ أبعادها ومعناها الا من المجال المكاني ، عند ذلك نصل وبشكل ضروري الى وحدة جديدة ، فالزمان يتلاحم بالمكان ليصبح وحدة جديــدة زمكان (زمان + مكان) ، وهذه تعني دلالة أرض الوطن في فترة زمنية محددة ، ثم ما تلبث الوحدة الجديدة الزمكانيــة أن تتلاحم من جديد مع الوعي ، لنصل الى وحدة تكوينية جديدة : وعي / زمكان ، وتدور هذه الوحدة لتمسح وترى شروطا متباينة : شروط الحــرية ، ثم شروط الاضطهــاد الحاضر ، وأخيرا شروط الحرية المفقودة المبحوث عنها . في اطار هذه الوحدة المركبة يشير المكان الى حالة الزمان النفسي ، كما انه في الوقت نفسه يشير الزمان النفسي المتضمن للوعي الى شكل المكان .

نتلمس ضمن هذا الاطار « عجوزا » فلسطينية تعيش في فلسطين بعد النكبة ، وهي عجوز مأزومة ، تعاني حالة عصابية متأتية من وجود الحاكم الذي سلب العجوز كل ما عندها . فهناك العجوز والحاكم والعلاقة بينهما محكومة بحالة عصاب ، علاقة نفي . فزوال العصاب مشروط بتلاشي سببه اي الحاكم . ويجب أن نشير هنا الى أن العجوز ليست ذاتا منفردة بل هي رمز لشعب فلسطين ، الشعب الذي يعيش تاريخه والذي يقف في قلب المأساة وليس على ضفافها، وكما ان « أم سعد » تمثل في المستقبل وضع الشعب الفلسطيني الفاعل في افق محدد ، فان « عجوز » افنان القاسم ترسم وضع هذا الشعب أمام صدمة ٤٨ .

تتحد الحركة الروائية ودلالتها في « العجوز » بواسطة الاطر الزمانية الثلاثية التي تحكم الحدث الروائي .

الزمن الاول هو الحاضر المعاش ابان النكبة واثرها ، وهو حاضر انتزعت منه كل المقومات الايجابية وترك حاضرا ميتا ، لذلك فان هذا الحاضر على الرغم من غلافه الزماني ليس الا مواتا ، هو الموت في الحياة ، فهو يؤطر واقعا يعني الهوان وفقدان الهوية ، انه حاضر العجز والعطالة ، يرسم أفنان هذا الحاضر بواسطة شخصيــة العجوز على الشكل التالي :

« وجه محفور : خريطة . التجعدات تلال . الشعر عشب يابس . القامة جذع مكسور . أية تعاسة ! لم تعد تسير بقامة منتصبة . هذه الخطوات الثقيلة التي يموت الخفق فيها رويدا ، رويدا ، لن تتمكن من حملها الى الرابية »(٢) .

تشير مجموعة هذه الرسوم القاتمة الى حاضر عاجز أسود ، مراوحة وانزواء في عالم بائس ظالم تفقد فيها كل الاشياء طعمها ودلالتها ، فالانسان هنا مكبل وعاجز عن تحقيق ذاته ، فهو ليس سيد الاشياء بل ذاتا سلبية ، حتى الشمس هنا تفقد بريقها ، فالحاضر الظالم يجهض حرارتها .

« تطلعت الى الشمس . « الشمس » . عركت شفتيهــا اليابستين ، خيــال ابتسامة ، وتقوس حاجباها بكثافة وهما ينوءان بالفكرة . انها شمس الحاضر . أما « شمسها » شمس الماضي الخائن ، ماضيها هي ، فقد انطفأت مثلها تماما ، واصبحت ليلا دامسا ! »(٣) .

يسقط شرط الوجود هنا شكله على الاشياء فتفقد معناها الحقيقي وتأخذ معناها هي أي تصبح كلها هالكة ومرة . عالم برود وكهولة ، فالقامة مكسورة والفم كهف دامسة(٤) . وهنا لا يتعلق الانسان بحياة لا يستطيع تحقيق ذاته فيها ، لذلك فهو يتطلع الى تجاوز بؤسه بالموت « كان الموت بالنسبة لها عالم الخلاص ، وهي التي انتهى انتظارها لكل شيء ما عداه »(٥) .

ازاء بؤس الحاضر ينسرب الخيال الى الماضي ، ويصبح الرحيل الى الماضي ضرورة . عملية تعال ارادية ، فاجترار الحلم بكل أشكاله يلطف من ظلم الحاضر ، فالاول هو المعنى والثاني هو اللامعنى ، الاول يعني الشباب والارض والحياة والزوج والخصب ، في حين يعني الثاني الكهولة والموت والعقم والترمل ، فكل ما هو جميل ، وكل مـــا يحقق ذات الانسان وحريته يكمن في الماضي ، لذلك تصبح عملية سحب الماضي على الحاضر ضرورية ، انها تشبه حال البائس الذي يتسامى على بؤسه بخلق فردوس خيالي ، فهو عملية تشبث بالحياة وبحث عن التوازن . لذلك يتلاشى عند العجوز ـــ اللاجيء الفلسطيني الزمان الفيزيائي ، الزمان الفعلي ، ليحل محله زمن نفسي يهدهد وعيا تعيسا وكيانا كسيرا ، لكن استعادة الماضي لا تجمل فقط وجه الحاضر ، لانها تعود من جديد لتظهر عمق المأساة ومدى مرارة هـــذا الحاضر ، لذلك فان هـــذه الاستعادة تكرس الزمن السلبي أولا لكنها لا تلبث أن تزحزح هـــذه السلبية عندما يتخلص الحنين من سلبيته ويسعى الى التحقق .

فهناك اذن استعادة خيالية للماضي وتشبث به يدفع الى الحركة .

لذلك « فالعجوز » أولا تعايش الموت وترتمي الى الماضي :

« تزرع بحخب حيث السنابل ، ... ، حركة تموج وتنحسر ، فاذا على الارض كومة من ذهب ، ... ، ويغني كل منهما أغنية ، ويغنـــي كلاهما معا : يا ميجنا ، يا ميجنا .

أنت تعبان يا ابن عمي ، تعال وتمدد قليلا ، عندك بكره عمل كبير ، سيحتاجك الى نهار كامل »(٦).

لا يتم الحنين لاسترجاع الماضي فعلا ، أي تملك الحاضر ، بسبب قوة الحنين فقط ، بل بسبب التمرد على الظلم ورفضه ، رفض عسف الحاكم، العبد هنا لا يعترف بسيادة السيد : فهو يرفضه على المستوى الروحي ويبحث عن وسيلة لرفضه ماديا ، فالحاكم يستبيح كل شيء ويصبح الانسان كيسا بلا قيمة أو اعتبار :

« لحظتها احسست ان شيئا قد وقع ، شيئا ما أقوى منهـــا ومن ارادتها . لسوف يمرغها الطين ، ولسوف تغطس طويلا في الوحل ، ولسوف تأكل ثمرة الوحل ، ولسوف تبكي كل الليل »(٧).

يدفع العسف والشعور به والتعلق في الماضي « العجوز » الى الحركة ، لكن هذه الحركة المشروطة بواقع مهزوم تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة تعكس هذا الواقع ، لم تصل « العجوز » على الرغم من حالة الموات الملازمة لها الى الاستسلام تماما ، فقد كان بينها وبين الحياة خيط مستمر ، كانت تراه في البيضة الساخنة المحتضنة حيـــاة جديدة ، حياة ستكسر قيودها وتحبو ، كما كان تعلقها أحيانا بالحياة يتجلى وهي تضرب الارض بمعولها كاشارة الى الوجود والبقاء . كان لديها باستمرار أمل بأن رحم الغد سيقذف بالمخلص لذلك تقول « لن أهرب ما دمت على قيد الحياة »(٨).

فذاك المخلص سوف يصنعه الزمان ، سوف ينبت بفضل المثابرة والصمود :

ـــ واذ ما بقيت أحفر ؟

ـــ الى متى ؟

ـــ الى أن يتفجر الماء(٩).

لذلك فالتعلق في الارض يعني قهر الشيخوخة ومحاولة توليد ما هو جديد . لكن قهر

الشيخوخة لا يمنح الشباب ، لكنه يدفع باتجاه خلـق انسان جديد ، فالعجوز على الرغم من اصرارها وتعلقها بالارض ، غير قادرة على لوي عنق الحاكم ، فهي ارث يتعايش فيه السلبي والايجابي ، ومادة بشرية عاشت الهزيمة وشاركت بصنعها . انها والحالة هذه صالحة كمادة خامة لصياغة انسان جديد . فليست العجوز قادرة على كسر هيمنة الحاكم ، فتجاعيدها وقوامها المكسور لا يوصل الى الرابية على الرغم من نيتها الحسنة ، لذلك فهي تضحو السماد المخصب لارض جديدة ، يحتضن جانبها الايجابي، في حين يجتث منها جانبها السلبي، فالتراث لا يؤخذ دفعة واحدة بل يُقلَم .

وهكذا يخرج من أركان العجوز قادم جديد يتجاوزها تاريخيا ، قادم قوي وجميل ، فهو ليس العجوز وليس كائنا معزولا ومنقطعا عنها ، لكنه يخرج مـن صلبها ليعيد صياغتها . لهذا فان القادم الجديد يغمد نصله في قلب العجوز ويلقي بأثوابها السوداء الى النار ، ليلبسها ثوبا جديدا . هنا نرى عملية تجدد عن طريق الحركة والممارسة .

تتخلص العجوز — اللاجيء من مرحلة ، وتحرق فترة زمنية ، لتدخل مرحلة جديدة ، تلفظ الموات لتصل الى الحياة ، لكن هذه العملية لم تتم الا بعـد قتل مرحلة . حدد الفلسطيني نفسه بعد أن عثر على الادوات والمفاتيح الملائمة ، والتي جعلته يتخلص من أوهامه وعوالمه الغائمة .

ان أفنان في روايته لا ينسى عملية التناقض الاجتماعي والقاء الضوء على الموقع الطبقي ، فجانب العجوز المغتصبة كانت هناك من تضاجع الحاكم طواعية ، وتمثل العجوز ما يمكن ان نسميه بالشعب المواكب للحركة التأريخية وصانع هذه الحركة ، أي جماهير الفقراء الصانعة الحقيقية للتاريخ .

كما ان الرواية تفتح نوافذ تفاؤلية ، فليس الماضي عدمية مطلقة ، لكنه تربة غنية مهدت على الرغم من شوائبها ولادة ما يتضمنها ويتجاوزها ، فمن قامة « العجوز » المنكسرة وشعرها اليابس طلعت علينا « أم سعد » رمز الشعب المقاتل ، والمقاتل بدون أوهام والمنطلق من التعب والعرق وليس لاعتبـارات برجماتية تضع الوطـن باستمرار بين قوسين .

أم سعد وعملية التجاوز :

الحياة تجاوز مستمر محكوم بالممارسة المباشرة والتاريخيـة وبالمنطق الداخلي للاشياء ، وبعملية التجاوز هذه يحل الانسان مشاكله « نسبيا » وضمن حقل تاريخي محدد ثم يعود من جديد ليخلق أرضية جديدة تمهد لحل تناقضات جديدة ، وهكذا يتقدم التاريخ ويأخذ طريقه نحو عالم الحرية ، ولا يتقدم هذا التاريخ بفعل ذات محددة ولا بفعل تراكم كمي لذوات محددة ، بل يتم ذلك اثر عملية صراع تاريخية تتمحور حول قطبي التناقض وتجاوزه . تفرز العملية التاريخية شروطا جديدة في مجال تاريخي محدد الخصائص ، ثم ما يلبث التاريخ حتى يعود ليلوي عنق هذه الجدة فتستحيل قـديما وتتوارى بعيدا في أغوار شروط جديدة ، والتناقض بين الجديد والقديم لا يحل دفعة واحدة ، بل خلال مسار تاريخي تنمو فيه التناقضات وتختمر لتكلل فوز الجديد ، ولا يعني حل التناقضات ظهور جديد واختفاء قديـم بالمعنى الدوري للتاريخ ، العـود الابدي ، بل يتضمن هذا الحل تحولا نوعيـا يساير المنحنى الايجابي للتاريخ ، اي الانتقال من عالم الضرورة الى عالم الحرية(١٠).

ان ما يبدو ظاهريا خاملا يرقد على ضفاف الحركة التاريخية في فترة زمنية محددة ،

يأخذ مكانه في قلب التاريخ في حقبة تاريخية لاحقة ، أي له منطقه الخاص للمشاركة في العملية التاريخية .

ان « أم سعد » نموذج البطل الايجابي طلعت علينا من معطف « العجوز » . ان العالم الهادىء « للعجوز » استحال حسب منطقه الخاص الى عالم « اللا هدوء » ؛ فذاك الموات الظاهري ألقى بذور حركة قادمة وقوة خلاقة ، ومـن سديم العطالة التاريخية خرج علينا عالم الحركة والدينامية الثورية ، عالم أياد تطرق أبواب الجديد ، ولا يخرج الجديد هنا من رموس بائدة بل من عمليـة مخاض طويلة أنتجت واعيـد انتاجها لتصل الى ميزان قوى جديد يسمح بالحركة بدون عسف أو قيود .

أم سعد رمز الجديد . ابن « العجوز » المتحرك في دائرة زمن ايجابي ، فالماضي ليس سجنا ، لكنه مجال مكاني ــ روحي نستعيده من خلال الحركة الثورية في الحاضر، وعندها يصبح مستقبلا . البطل هنا (أم سعد) يعيد انتاج التاريخ من خلال حضور مستمر للوطن في الماضي والحاضر والمستقبل .

ونحن هنا ازاء قطبين الوطن / البطل الايجابي ، أو البطل الذي هو شكل ــ ذات في التاريخ ؛ أما العلاقة الديالكتيكية بين القطبين الوطن / البطل فتدور في فضاء زماني هو التاريخ الذي هو في المحصلة الاخيرة الاثر الناتج عن التطلع المستمر للقطب الثاني الى الاول ، أي صراع الفلسطيني لاستعادة أرضه .

ولا يتم الصراع هذا بشكل مبسط ووحيد الجـانب بل يتحدد ويتضمن مـن خلال جملة شروط : التواجد المستمـر للوطن ، والواقـع المعاش في المنفى ، ثـم صراع الفلسطيني لتحمل الحاضر والسيطرة عليه . وعلى هذا فان معركة الفلسطيني والتي تجسدها أم سعد تصبح مضاعفة ، فهي معركة ضـد بؤس الحاضر ، وتجاوز لـه للالتفات الى الوطن = الماضي من أجل المستقبل = الوطن .

في معركته ضد الحاضر المباشر / البؤس يصنع الفلسطيني ذاته ، وخلال عملية الصنع هذه يعي حجـم مأساته ، فيصنع ذاتـه كانسان بالمعنى الفلسفي للكلمـة (براكسس) ، ويصنع في الوقت ذاته نفسه كمقاتل من أجل قضية . وهكذا نعثر في هذا المسار على مستويات عدة : المنفى ، البؤس ، حركة الحياة الضرورية ، تملك الوعي ، ثم بدء المعركة . وعملية الصنع هذه لا تتم كما نرى انطلاقا من ارادة أخلاقية محضة ، بل تأتي كضرورة تاريخية أنتجتها جملة ظروف وشروط تاريخية خارجة عن ارادة الفلسطيني ــ اللاجىء .

وأم سعد هي محصلة هذا المسار . فهي كلية ايجابية فاعلة على الرغم من شروطها البائسة ، وهي كبطل نمطي تصنع ذاتها والتاريخ من خـلال تعايش مستمر للزمان بأبعاده الثلاثة . ولقد استطاع غسان كنفاني بموهبته الادبية أن يعطي صورة مادية متسقة لام سعد ، فهي ليست البطل ــ الفكرة الذي يتحرك في عالم ميكانيكي ، عالم فكراني ؛ بل هي انسان حي مشخص نراه ونلمسه في كل منعطفات حياتها اليومية ، ويذكرنا حذق غسان هنا بكلمات بريشت حين يقول « لا يجب أن نرى البطل الايجابي في صميم المعركة فقط ، بل يجب أن نراه أيضا كيف يذهب الى الخباز ويشتري خبزه » .

والآن ما هي المستويات التي يمكن أن نعثر عليها في شخصية أم سعد . قبل أن نبدأ ذلك يجب أن نؤكد بأننا لا نرى في أم سعد بطلا متفردا بل نرى فيهـا نموذج البطل الايجابي ذي خصائص ولدتها ظروف تاريخية محددة ، فصوتها هو « صوت الطبقة الفلسطينية التي دفعت غاليا ثمن الهزيمة »(١١).

المستوى الاول هو حضور الماضي . ونرى ذلك خلال مؤشرات عدة أهمها الاحتضان المستمر للارض : « وسحبت من فتحتها عرقا بدا يابسا ورمته نحوي :

ــ « قطعته من دالية صادفتني في الطريق ، سأزرعه لك على الباب ، وفي أعوام قليلة تأكل عنبا »

ــ « قد لا تعرف شيئا عن الدالية ، ولكنها شجرة عطاءة لا تحتاج الى كثير من الماء. الماء الكثير يفسدها . . . »(١٢).

هنا يلقي الماضي ظله على الحاضر ، وفي عملية الالقاء هذه يكون الماضي مسيطرا ، لكنها ليست سيطرة ستاتيكية بل سيطرة دافعة . نلمس نوعا من الدائرية المحكومة بالدفع والحركة : حاضر يرتمي في الماضي ، وماض يرتمي في الحاضر ، كل ذلك من خلال علاقه ديالكتيكية فاعلة .

ويتجلى الحنين الى الارض في مكان آخر حين تقول :

« والزيتون لا يحتاج الى ماء أيضا ، انه يمتص ماءه عميقا في بطن الارض ، من رطوبة التراب »(١٣).

من خلال « عرق الدوالي » والزيتون يتم استرجاع الماضي ، وهذا الاسترجاع له دور وظيفي ، وهو تجميل الحاضر بواسطة ارجاع قسري لخضرة الماضي « سأزرعه ، وسترى كيف يعطي عنبا ، هل قلت لك أنه لا يحتاج الى ماء، وانه يعتصر حبات التراب في عمق الارض ويشربها ؟ »(١٤).

واذا كان بؤس الارض قد ولد السماء ، فان بؤس الحاضر يعيــد توليد الماضي ، والفرق أن التوليد الاول دليل على اليأس ، في حين ان التوليد الثاني يمور ويتحرك ويندفع الى الامام .

المستوى الثاني ويتضمن شروط الحياة المادية التي تغوص فيها أم سعد والتي تشكل المادة الخام لتملك الوعي ، والتي تنبجس بواسطة الممارســة والعمل الجماهيري . وتشكل شروط الحياة المادية كلية بائسة حيث أن هناك حضورا مستمرا للبؤس على جميع مستويات الحياة اليومية ، هناك قمع متعدد الابعاد .

فالمخيم هو التعبير الاكثر قوة ، انه نبراس البؤس والقمــع ، انه نقيض الوطن والكرامة والحرية ، انه يجثم ثقيلا وربما بشكل قاتل لو لم تنطلق منه بندقية . وأم سعد تعيش فضاء المخيم بكل أبعادها » .

حكت الوحل بأصابعها الخشنة ، ثم تركته لشأنه حين أحست أنه ما زال طريا ، وقالت :

ــ طاف المخيم في الليل . . . الله يقطع هالعيشة(١٥).

ــ صرت امرأة عجوزة . صرت اتعب . أمضيت كل الليل غارقة في الوحل والماء . عشرون سنة . . .(١٦).

ــ لا أريد أن أموت هنا ، في الوحل ووسخ المطابخ »(١٧).

واذا كان المخيم هو المجال الاول للقمع ، فان مكان عمل أم سعد هو المجال الثاني للقمع « كانت أم سعد قد وصلت ، نازلة ، الى الطابق الثالث ، لاهثة وراء الماء ورغوة الصابون وبرد الشتاء يقرص قدميها الحافيتين . بلحم كفيها المضرجتين بآثار أحذية الصاعدين والهابطين »(١٨).

واذا كان المخيم هو رمز فقدان الهوية القومية المحددة ، فان مكـان العمل رمز الاستغلال . وهكذا فأم سعد تضحو لاجئة (معنى قومي) وعاملة مستقلة (معنى اجتماعي) . فمعان مترابطان ديالكتيكيا .

هذه الشروط البائسة تمهد لخلق المستوى الثالث ، مستوى تملك الوعي. فسنوات الخيام والتشريد والاستغلال أعطت تجربة متراكميـة غنية كفيلة بخلـق شخصية فلسطينية جديدة، وهكذا فان التاريخ يسحب معه الفلسطيني (شكل ـــ ذات) ويجعله يعبر مسار تجارب طويل . وبعد هذا المسار تبدأ لحظة جديدة ، لحظة فاعلة كسرت كل جسورها مع اللحظه السلبية الجامده . فأم سعد هي اذن المحصلة التاريخية ـــ الاجتماعيه لكل هذه السنوات من القمع المتعدد الاشكال . ونلمس هنا ديالكتيك الذات والموضوع في التاريخ . ففي البدء كانت الذات (أو بشكل أدق شكل ـــ الذات) تشكل جزءا خاما من الموضوع ، تتكامل مع شروطها دون أن تستطيع ان تفعل بها او تغيرها، بعد ذلك ومن خلال الممارسة «انخسعت» الذات عن موضوعها وطفت على السطح أي اصبحت قادرة على رؤية مساحـة البؤس الشاسعة التي تعيش فيهـا ، واصبح الفلسطيني بدون أوهام ، ولم يعد يكتفي برحيله الصامت والصوفي الى أرض الوطن ، بل أضحى واعيا لعمق مأساته ، لكن هذا الوعي مع ذلك لم يكن مرتبا ودقيقا ليدفعه بنهج الطريق السليم لتحرره. في اللحظة الثالثة لم يعد الفلسطيني مراقبا بوعي لحاضره فقط ، بل بدأ يتسيد على واقعه بمعرفة السبل والادوات الضرورية للتحرير ، وهكذا وبعد أن كان الموضوع هـو السيد في اللحظـة الاولى ، أصبح شكـل ـــ الذات (الفلسطيني) هو المسيطر(١٩). وعملية التسيد هذه هي عمليه تطور Processus وليست معطى مباشرا ، فأم سعد هي محصلة طويلة تتضمن عجوز ١٩٤٨ وابنهـا المتمرد أيضا .

في هذا المسار المتضمن لتسيد الذات على الموضوع ، يبقـى البراكسس Praxis هو الحلقة الاساسية ، حيث ان بدء المسار وتصحيحه وتحديد هدفه مشروط بشكل جوهري بالممارسة والحركة الفاعلة ، ذلك أن صحة المشروع مهما كان نوعه سياسيا أو اجتماعيا لا تتأتى من صحة الافكار المركبة له بل من صحة هذه الافكار بعد امرارها على حجر التجربة .

بعد كل هذا تصبح أم سعد وعيا جمعيا شفافا قادرا بتراكم تجربته على محاكمة الامور . ويتلاشى عالم سلبي بقيمه ليظهر عالم جديد وبقيم جديدة . كما تتوارى رموز لتحل محلها رموز جديدة « كان المختار يحكي لي القصة وكنت أضحك بعبي ، وقلت له اخيرا « مليح اللي ما ضربوك ، احمد ربك عالسلامة ! « فزعل » . فالمختـار ذلك الرمز الساقط يعطي مكانه وليس طوعا للفدائي الذي بدأ يعـد نفسه ليخلق عالمه الجديد »(٢٠). أنا أعرف أن سعد سيخرج من الحبس . الحبس كله ! أتفهم ؟

يتغير هنا طعم الاشياء وتختلف دلالاتها ، فخيمة الفدائي ليست ذلا كخيمـة المخيم « خيمة عن خيمة تفرق » . ويجب أن لا ننسى هنا بأن الممـارسة هي التي تجاوزت وأعادت بناء خيمة المخيم لتجعل منها خيمة فدائي .

يتغير طعم الاشياء ليس بتعال صوفي وتسام روحاني عقيم بل من خـلال اعـادة صنع الاشياء « لما مضيت من توي الى المخيم ، وفي مستنقع الوحل شهدت أم سعـد واقفة مثل شارة الضوء في بحر لا نهاية له من الظلام »(٢١).

نلمس هنا على جملة متغيرات تعبر عن مرحلة جديدة ، من خـلال ثنائيات عدة :

المختار / الفدائي ، خيمة اللاجي / خيمة الفدائي ، المخيم / المعسكـر ، اللاجيء / المقاتل ، « سيرجع / سيذهب » ، الحجاب / الرصاصة .

بدلا من تحسر عقيم على ماض اخضر ، نرى عالم البنادق والمقاتلين ، عالم الصحو والثورة ، حيث يتحرر الانسان من كرت الاعاشة وسقف الزينكو وبسطار الدولة .

ان المستويات الثلاثة السابقة ليست منفصلة بل تشكل مستوى واحـدا تخـلق وتموضع وتبنين خلال الممارسة التاريخية ، ان يمثل ديالكتيك القمع والثورة ، عملية صنع الانسان المناضل .

ان المسار الطويل الذي تضمن الجحيم والمطهر والذي ألقى بالفلسطيني في كليـة بائسة ثم أعاد صياغته بحيث لا يكون حلقة ساكنة في « التاريخ » بل يصنع ذاتـه ، ويصنع ذاته يتطابق ويتماثل بالحركة التاريخية فيصنع تاريخـه الحقيقي ، تاريـخ محكوم بالصراع وليس مجرد امتداد زمني بارد .

---

١ — Littérature No. 13, p. 17-19.

٢ — « سنتبع هنـا الترقيم حسب المخطوطـة المطبوعة على الآلة الكاتبة وليس حسب الطبعة العراقية » ص ١ .

٣ — ص ١ .

٤ — ص ٥ .

٥ — ص ٩ .

٦ — ص ٤ — ٩ .

٧ — ص ٢٢ .

٨ — ص ٣٦ .

٩ — ص ٣٤ .

١٠ — المادية الديالكتيكية — مؤلف جماعي — دار الجماهير — دمشق ، ص ٢٦٨ .

١١ — غسان كنفاني : الآثار الكاملة ، ص ٢٤٢.

١٢ — المرجع نفسه ، ص ٢٤٩ .

١٣ — المرجع نفسه ، ص ٢٥٠ .

١٤ — المرجع نفسه ، ص ٢٥٣ .

١٥ — المرجع نفسه ، ص ٢٦٩ .

١٦ — المرجع نفسه ، ص ٢٧٠ .

١٧ — المرجع نفسه ، ص ٢٧١ .

١٨ — المرجع نفسه ، ص ٣١٦ .

١٩ — B. Kedrov: Dialectique, logique, gnoséologie; Eds: Moscou, p. 349-355.

٢٠ — غسان كنفاني: الاعمال الكاملة، ص ٢٥٤.

٢١ — غسان كنفاني: الاعمال الكاملة، ص ٢٧٣.

ثقافة

الياس خوري

من أجل الشعر والحياة

يعود نيرودا الينا ، في مذكراته ؛ وكأنه مات لحظة ، ليستفيق الى الابد . فالبيت الذي نهبه الفاشيون وبداخله رجل يحتضر ، يتحول الى قصيدة جديدة ، يحفظها فقراء العالم ، وهم يمارسون باصرارهم على الحياة ، بناء حياة جديدة ، لا تستطيع الاقدام الفاشية تحطيمها . نيرودا هو الشاعر ، الذي يلخص في شعره وموته ، لحظة التقاطع بين الحلم الثوري الجميل الذي تصوغه الاغاني حين ينشدها الفقراء ، وهم ينحنون على التراب او على النحاس والممارسة الثورية التي تغير الواقع . ثم حين تنكسر تحت ضربات الضباط تنحني لتلتقط ابناءها وتعاود المسيرة . جراح الشعر ، هي جراح العمال والفلاحين والحالمين ، الذين يمسكون بأوراقهم يحولونها الى طائرات من ورق ، يحملون طفولتهم باليد التي ترسم طفولة المستقبل .

« هكذا كل يوم ، اكثر من عشرين يوما ، كنت آخذها الى النهر وأحملها الى بيتنا . كانت البجعة كبيرة ، حجمها حجمي . ذات مساء كانت غارقة في التفكير . سبحت قربي لكنها ما اهتمت بالذبابات التي اردت بها تعليمها الصيد من جديد . مكثت هادئة فأخذتها الى حضني من جديد بنية أن أحملها الى دارنا،وما أن اوشكت أن ترتاح في صدري حتى شعرت ان شريطا قد انحل . ان شيئا كأنه ذراع سوداء ، قد لمس وجهي وكشطه فالتفت واذ بعنقها الطويل الملتوي يتهاوى . آنذاك تعلمت ان البجع حين تموت لا تغني » .

يكتب نيرودا طفولته ، وكأنه يرسم مستقبله . لكن البجع حين تموت كانت اغانيها تملأ الارض . فالعمال الذين لم يسيروا في جنازة الشاعر لانهم كانوا نزلاء السجون ، غنوا اغنيات البجع الجميل وهو يموت مستسلما للارض التي أحبها ، وللحقول التي تغنى بعناصرها.فحين مات البجع من الحرقة الى جانب الوحدة الشعبية التشيلية التي دمرها الفاشيون باقدامهم وبأسلحة اميركية ، كانت كل العصافير في فضاء التشيلي الواسع وفي سماء اميركا اللاتينية ، تردد الاغنية الثورية التي لم تكتشف جسدها ، فبقيت حول جسد غيفارا وكأنها مدخل الى بداية تغيير العالم .

ماذا يقدم النقد لمذكرات نيرودا ؟

يقف على هامشها ، ليشهد للشعر . موت نيرودا هو شهادة جديدة للشعر ، لاغاني الفرح والامل ، وهي تكتب لحظة العشق ، وترسم شريطا طويلا ، للحياة ، بتفاصيلها الجميلة ، وقد استحالت الى ذاكرة شبه جماعية . هكذا نعيش مع الشاعر في تفاصيل حياته ، لنلتقط لحظات مفتتة في الماضي ، لحياة ثقافية بالغة الغنى ، انتجت اجمل الشعر الاسباني المعاصر — لوركا ، البرتي، نيرودا ... هنا ندخل الى بيت الشاعر ، الى أشيائه الخاصة جدا ، ولا نخرج بنتيجة نهائية . فالمذكرات ، ليست اكثر من تحايل على الواقع والفن في آن . فهي توحي لنا بأنها تقدم الواقع

---

* مذكرات بابلو نيرودا ، ترجمة د. محمود صبح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، حزيران ١٩٧٥ .

بشكل روائي او شبه روائي . لكنها لا تقدم الواقع ولا الرواية . تقدم نصا يقع بينهما . فهي ليست الواقع : لان النص ، أي نص ، لا يستطيع ان ينقل الواقع . الواقع مفتت في الذاكرة ، يأخذه النص ويعيد تنظيمه ، يعيد تركيز مفاصله ويقدمه بشكل جديد . وبقدر ما يستطيع النص اكتشاف جدل الواقع الحقيقي ، يقترب منه ويتسمى بالواقعية ، لكنه حتى في هذه الحالة ينتخب من التفاصيل يشذبها ويعيد ربطها بتفاصيل اخرى . هكذا النص هو شكل آخر من الممارسة . يقدم الواقع كي يقدم نفسه . أي انه حين يقدم الواقع، يغلفه ، ويعيد تنظيمه بعناصر جديدة تحيله الى شكل جديد . والمذكرات ليست رواية ، لانها شديدة الالتصاق بحياة كاتبها . انها محاولة اعطاء صورة منتخبة عن حياة فرد وعلاقاته . لكنها لا تنضبط بالبناء الروائي ، فالبناء الروائي هو شكل يضبط اعصارا حياتيا ، يفتح له قنوات يربطها بمجرى واسع هو جسد الرواية. اما في المذكرات ، فنحن امام اعصار دون قنوات . نحن امام حكاية متقطعة ، تروي لتخدم هدفا مباشرا ، اعادة صياغة الماضي من اجل تقديم شهادة . فينحل البناء الروائي امام الشهادة ، ليبقى اعصار الحياة في تنجره وامتلائه ، هذه هي العلامة الوحيدة التي يخرج بها الكاتب والقارىء في الوقت نفسه .

هكذا لا تقدم المذكرات الواقع ، ولا تقدم الفن . تقدم مزيجا منهما ، يتجاوزهما الى لحظة الامتلاء التي تسبق الكتابة الفنية ، الى الاشكال وهي تتكون ، لتنقل من الواقع لحظة توهج فنية ، تلبسه وتعيد صياغة بعض عناصره . فالمذكرات هنا هي شهادة . شهادة مرحلة ثقافية وسياسية كاملة ، لكنها شهادة بلا شكل ، لذلك تأخذ شكل الشاعر . تصبح كقصيدة ملحمية طويلة ، بلا اوزان . تترك نفسها لصدفة الخلق ، وتعيد تجميع عناصر الذاكرة الشعرية وكأنها عناصر مفتتة في المكان والزمن . هنا اهمية هذا الكتاب . انه نيرودا الشاعر الذي احببنا دون اشكاله ، دون اللباس الذي يضعه الشعراء حاجزا بينهم وبيننا. لكن الشاعر ، لا يستطيع الغاء لغته . فهو لا يعرف نفسه خارجها . لذلك تأتي كتابته على ذاته بلباس شعري ، وتكتب المذكرات بلغة تقترب من لغة القصيدة .

بعد هذا ، لا معنى لنقد شكل الشاعر . فالنقد هو علاقة موضوعية بالاشكال الادبية . انه محاولة لاكتشاف العناصر الداخلية التي للشكل الادبي وربطها بواقعها الايديولوجي والسياسي ، ثم كشف علاقتها باشكال الممارسة الاجتماعية التي تتمثل في الصراع الطبقي . لا تأخذ هذه العلاقة شكلها الفعلي ، الا داخل ممارستها . اي داخل الكتابة النقدية التي تستعيد ماضي العمل الادبي لتكشف حاضر الممارسة الادبية باسرها . لكننا هنا لسنا امام امكانية ممارسة ، فالنص الذي امامنا . هو شكل الشاعر البريء من الاشكال ، الذي يحاول أن يقدم لنا صورته الخلفية ، طفولته حوافزه ، ومشاكله ، دون اي ادعاء مسبق . فتأخذ هذه الصورة ، شكل قصيدة بلا ضوابط ، لان الشاعر يبقى في نهاية المطاف هو القصيدة التي تحاول كتابة نفسها فلا تستطيع .

لذلك نقف على عتبة هذه الحياة البرية المليئة بالازهار والاشواك ، لنستعيد حياة احد كبار شعراء هذا العصر ، الذين كتبوا ملحمة الانسان، نشيدا شاملا ، يستعيد الماضي ، ليضع يده على عتبة المستقبل .

« في بداية تعلمي الكتابة ، شعرت ذات مرة بشعور عارم يغمرني فسطرت بضع كلمات شبه مسجوعة، عجبت لها ومنها فقد كانت مختلفة متميزة عن الحديث اليومي والكلمات الانيقة . اعدت نسخها في خط انيق بعد ان شذبتها ، كنت حينذاك أسير جوى عميق ، سجين شعور ما كنت شعرت به من قبل البتة ... اخذتها الى والدي ، كانا في غرفة الطعام غارقين في حديث من احاديثهم هذه التي كانا يهمسان بها همسا وبصوت خفيض جدا ، احاديث تفصل اكثر من نهر بين عالمين ، عالم الصغار وعالم الكبار . وكان ذاك الحديث على ما يبدو خاصا بعالم الكبار . مددت لهما الورقة ذات السطور ، وكنت ما زلت ارتعد من هول زيارة الوحي الاولى ، تناولها والدي وهو ساه غافل .، فقرأها وهو ساه غافل ، اعادها لي وهو ساه غافل ، ثم قال :

— من أين استنسختها ؟

وتابع حديثه مع امي في صوت خفيض عن شؤونهما العاجلة والاجلة . هكذا ولدت اولى

قصائدي وهكذا تلقيت اولى عينات النقد الادبي الغافل الساهي » .

مدخل الشعر هذا يبقى ناقصا اذا لم نضف اليه ، حب الطبيعة الذي يبلغ حدا كبيرا ، ينظر نيرودا الى الطبيعة بوصفها امتدادا للانسان . هكذا تصبح الاشجار والنباتات البرية والحقول والادغال وحدة كونية كبرى ، يقف الانسان في وسطها ، ابنا لها ، وطفلا يتدرج في محبتها . نكتشف في هذا الكتاب جميع انواع النباتات التي تحفل بها جبال تشيلي الجميلة والتي في منحدراتها ، كتب نيرودا قصة هربه من الطغيان بعد طرده من البرلمان ، ثم لاجلها ، كتب اجمل قصائده .

يقود هذا الوله بالطبيعة الى وله آخر . حب السفر الذي يؤمنها منصب دبلوماسي يحصل عليه الشاعر ، نتيجة شهرته الشعرية المبكرة . في رانغون وسنغابور ، في مدن الهند الداخلية ، يكتشف نيرودا الانسان المسحوق . انسان الشرق الذي تستعبده الامبريالية وتمارس سحق روحه الثورية . هنا يصبح نيرودا مناضلا ديمقراطيا . يزداد احساسه بالظلم الاجتماعي والسياسي الذي يمارسه الامبرياليون . لكنه لن يصبح ثوريا الا في اسبانيا ، حيث عين قنصلا في مدريد . هناك سيلتقي بلوركا وألبرتي وسيعاين سقوط الجمهوريةالاسبانية بيد الكتائب الفرنكوية الفاشية . وسيكتب ديوانه الجميل « اسبانيا في القلب » .

في اسبانيا ، بدأت صداقة نيرودا ولوركا ، لتنتهي بمرثية كتبها نيرودا بعد مقتل صديقه الشاعر الاسباني الجميل : « وأي شاعر ! ابدا لم أر شاعرا مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية، القلب المجنح والشلال الشفاف . لقد كان فيديريكو غارثيا لوركا العبقري المسرف في وحيه والهامه ، بؤرة الفرح التي تشع كالكوكب بسعادة الحياة . كان نابغة وفكها ، كونيا وريفيا ، موسيقيا فذا ، ممثلا رائعا ، فزعا ومعتقدا بالخرافات ، لامعا ونبيلا ، كان خلاصة اعمار اسبانيا وعهودها ، صفوة الازدهار الشعبي ، نتاجا عربيا — اندلسيا ينير ويفوح مثل أيكة ياسمين على مسرح اسبانيا . كان كل هذا ... » .

كان مقتل لوركا المفجع ، علامة على الزمن الفاشي الذي يسحق الثقافة ويقتل الكادحين بهمجية . لذلك كانت الثورة الاسبانية ، ثورة جنود الجمهورية والفصائل الاممية تحمل النقيض الفعلي للدمار الفاشي . هكذا ولد ديوان نيرودا « اسبانيا في القلب » طبعه الجنود في الجبهة بعد أن صنعوا ورقه بشكل حرفي وحملوه على اكتافهم في رحلة الهزيمة الى فرنسا . هذا المعنى ، الذي يقدمه الجنود في الصف الامامي من القتال ، يؤشر الى الدور الذي يستطيع الشاعر ان يلعبه في مراحل التوهج الثورية ، حين تصبح كلماته سلاحا آخر في جبهة القتال .

في لهب اسبانيا ، تعمدت الثقافة الغربية بأسرها في دماء الشعراء والعمال . وأصبح الانحياز السياسي والطبقي عنوان مرحلة ثقافية كاملة . وفي هذا اللهب خرج نيرودا مناضلا في صفوف الطبقة العاملة ، ليلعب دوره بوصفه شاعرا ومناضلا أمميا . هنا نتعرف مع نيرودا على العالم بشكل جديد،من خلال العلاقة بالادباء الثوريين في الخارج. كما نتعرف على التشيلي بنضالات عمالها ، ويدور الشاعر بوصفه نائبا في البرلمان ، لاكثر قطاعات تشيلي فقرا . حتى نصل الى النهاية المفجعة ، الى تجربة الوحدة الشعبية التي أنهاها الفاشيون حين قصفوا قصر الرئاسة ، وقتلوا الليندي : « لقد كان لهم ان ينتهزوا هذه الفرصة النادرة ، كان لا بد من افراغ الرصاص من الرشاشات في جسده فهو لن يتخلى ابدا عن منصبه . فدفن ذلك الجسد سرا في مكان ما . لقد مضى ذلك الجثمان الى اللحد لا يصاحبه الا امرأة واحدة وحيدة تحمل في نفسها ألم العالم كله ، ان تلك الشخصية المجيدة كانت تمضي وهي مخرقة برصاص رشاشات عساكر تشيلي الذين خانوا تشيلي مرة اخرى » .

وبعد ايام قليلة سوف تطوى حياة نيرودا ، وينتهي هو الاخر الى جانب صديقه ، في جوف الارض ، تاركين تشيلي مرة اخرى للعصبة الفاشية ، لكنهما يتركان هذه المرة تجربة فنية لعرس الموت الجماعي ، الذي سوف يدشن بداية ثورية جديدة .

نخرج من مذكرات نيرودا ، من مأساوية النهاية، لنكتشف البداية . هذا الوله الغريب بالحياة . حب الحياة بشكل جنوني ، هو القوة السحرية التي جعلت من هذا الشاعر احد عناوين عصرنا . يقذف نفسه الى بحر الحياة بلا خوف ، يعارك الموج ،

ينتصر وينهزم ، لكنه يحافظ على ايقاع الطبيعة داخل ايقاع دمه . هنا يشمخ الشاعر ويستطيل ، حتى يصبح عنوانا لفصل خاص من فصول اللغة .
« انا امضي أعمل بالمواد التي أملك والتي هي انا . اني التهم كل شيء : الشاعر ، المخلوقات ، الكتب ، الاحداث ، المعارك ، لو استطيع لاكلت الارض كلها ولشربت البحر جميعه » .

داخل هذا النزق يضحك الشاعر ، يسكر، يلتقط النباتات والحيوانات البحرية ، لكنه يكتشف في غمرة هــذا الحب ، ان الحيــاة حين تفصلهــا البرجوازية على حجم قامتها ، تصبح ضيقة وبحاجة الى تهديم واعادة بناء . هذا هو سر انتمائية اجمل شعراء عصرنا . انهم وهم يرسمون على اوراقهم خريطة ذواتهم ، يكتشفون ان الحدود التي تفرضها البرجوازية على العالم ، تقتل الخيال ، وتحيل الانسان الى سلعة او الى جثة . تفرض الخيار بين السلعة والجثة ، لكن الشاعر يختار شيئا ثالثا ، يختار هدم العالم القديم ، تغييره بالكلمة والممارسة . في نقطة التناقض الداخلي هــذه انتجت البرجوازية الغربية اجمل ادبها الحديث ، وانتجت الطبقة النقيض التي ستغير العالم . هكذا يصبح الاختيار الثالث انتماء طبقيا وسياسيا ، ويصبح الشعر في اكثر لحظاته فردية نشيدا جماعيا لعالم يولد من الانتفاض . ما نقوله هنا لا علاقة له بالبرامج السياسية او بالظروف المرحلية ، انه يرتبط فقط بالاختيار التاريخي الاساسي الذي كان نيرودا شهادة عليه .

« اجيب على سؤال آخر وجهه الي الصحفي . كما فعلت في السنوات الاخرى فانني سأنشر كتابا جديدا في الثلاثمائة وخمسة وستين يوما . انا متأكد من ذلك . اني اداعب الكتاب ، ازعجه ، اكتبه كل يوم .

ــ ماذا تعالج فيه ؟

ماذا أستطيع أن أجيب ؟ يعالج دوما في كتبي الموضوع نفسه ، دائما اكتب الكتاب ذاته . فليغفر لي أصدقائي أن ليس ما اقدمه لهم في هذه المرة الجديدة في هذه السنة الجديدة الا اشعاري ، الاشعار الجديدة ، الاشعار نفسها . »

بهذه البساطة ، يجيب نيرودا على أكثر الاسئلة الادبية صعوبة . ما هو موضوع الشعر ؟ الموضوع نفسه ، انه الشعر . ان النقد الخارجي الذي يقف بعيدا عن الشعر ــ الممارسة ، يغرق نفسه في بحث هذه المسألة : موضوع الشعر . فلا علاقة للشعر بمسألة تطرح من خارجه . موضوع الشعر هو الشرارة الخارجية، الملاحظة البسيطة أحيانا ، التي تشكل عالما داخليا متكاملا . انه شرارة فقط ، لان القصيدة العظيمة هــي كل المواضيع دفعــة واحدة . لا تتوقف عند التفاصيل الا بوصفهــا دلالات : تأخذها وتعيد صياغتها في عالم رؤيوي جديد . هكذا لا تكون القصيدة واقعية الا بهــذا المعنى . أما التبسيط الواقعي الذي ينتقده نيرودا في مذكراته ، فانه تحويل للشعر الى مجرد مادة دعاوية تستخدم الاوزان ، لتعيد انتاج العالــم القديم الذي يفترض بها تفجيره مــن داخله ، واقتراح بدائله . ثم يروي لنا نيرودا ، صفحات جميلة من معاناته الشعرية.وخاصة معاناته مع صغار النقاد . هذه العلاقة التوترية التي عاناها جميع الادباء الكبار ، لانهم احيطوا بعالم قديم لا يفهم ولا يريد أن يقبل موته ، تأتي هنا بلغة تمزج المرارة بالفكاهة . تتوقف عند موت ماياكوفسكي الفاجع ، لتكتب أهجية النقد الذي لا يواكب الشعر ويسيء فهمه . « لقد قذفت بنفسي الى الحياة وانا اكثر عريا من آدم لكنني كنت مصمما على المحافظة على طهارة شعري، لم يكن هذا الموقف غير المزحزح نافعا لي فقط بل كذلك اهدف منه ان يردع التافهون الاستهزاء من الشاعر . فكان هؤلاء التافهون ، ان كان لهم قلب وضمير ، يستسلمون امام شعري القيم وما يوقظه فيهم من معان انسانية ، وأما الذين هم اشرار فقد بدأوا يتخوفون مني » . هكذا وبكبرياء الفنان الذي يختزل في لغته طموحات مرحلة شعرية كاملة ، يحل نيرودا هذه المسألة . لا يسقط ولا يستسلم . يكتب شعرا كثيرا ، يمتحن حبــه لشعبه بالكتابة ، ولا يسقط أمام اغراءات الخيانة. يقبل جائزة نوبل دون أن يتنازل عن حرف كتبه ، ترتفع هامته وهي مجللة بالكلمات ولا تنحني الا لتلتقط حبات تراب الوطن الذي أحب .

غير ان نيرودا ، يحل مسألة جماهيرية الشعر ، بشكل يبدو لنا سريعا ومبالغا فيه . فهو حين يرفض الواقعية ، « اني امقت الواقعية حين يتعلق الامر بالشعر . وأكثر من هذا ليس هناك ما يفرض على الشعر ان يكون فوق الواقعية او تحت الواقعية

لكن يمكن له ان يكون ضد الواقعية . وهذا الامر الاخير ، بالمعقول كله وباللامعقول جميعه ، اي بالشعر » . يؤكد على ضرورة العلاقة الواسعة بين الشاعر وجمهوره . يبسط هذه العلاقة في تفاصيل يرويها عن تجاربه الشخصية وعن علاقاته بقرائه . هذه الظاهرة التي تبدو لنا تبسيطية ، تعبر في الواقع عن احتمالين مترابطين : فهي من جهة اولى تشير الى المدى الذي يستطيع شاعر القضية ان يتحرك داخله ، حين يصبح في مرحلة ما ، صوتا فنيا لمرحلة كاملة . وهذه هي حالة نيرودا . فهو صوت الشعر التشيلي الاساسي ، لانه لخص في شعره البساطة الى جانب الحلم ، داخل قضية الشعب . كما انها تشير من جهة ثانية الى ظاهرة ثقافية عامة . ظاهرة الدور الثقافي الذي لعبه شعراء وادباء الطبقة العاملة في الثقافة الغربية بوصفهم مؤهلين وحدهم لحمل اجمل عناصر التراث الثوري الثقافي البرجوازي ، ودمجه بتطلعات ثقافية تحملها الطبقة العاملة . فالثورة ، هي محاولة الطبقة الثورية انقاذ المجتمع بأسره وهذا يتضمن بالضرورة انقاذ تراثه الثقافي . هذا ما يفسر دور اراغون وايلوار وغيرهما في الثقافة الفرنسية الحديثة . هنا بالضبط يقع صوت نيرودا ، انه آخر ادباء الطبقة العاملة « النبلاء » الذين حاولوا مخلصين ، انقاذ تراثهم وتاريخهم ومجتمعهم بالثورة . لكن محاولتهم الابداعية ، اصطدمت بحائط مسدود ، فاتت الثورة من مكان اخر . وجاء الصوت الفني الجديد لا لينقذ ، لانه لا يقوم على تاريخ متواصل بل ليؤسس . هكذا تنفجر اليوم الثقافة الغربية الثورية . لانها تعيش في مجتمع ينفجر ولا مخرج له الا بالاختيار الذي رسمه نيرودا ورفاقه . وهذا الاختيار يصطدم بصعوبات كثيرة . لذلك لا تطرح المسألة خارج دائرة الثقافة الغربية بمثل الوضوح الذي يطرحها به نيرودا ورفاقه الشعراء . انهم لا يبسطون المسائل ، لكننا في المقابل لا نعقدها . نحن وهم وجهان لمسألة واحدة.

في اللحظات الاخيرة ، كان الفاشيون يمزقون الكتب واثاث المنزل ، فيما كان الشاعر نائما بهدوء في سريره . لقد رسم الطريق ، وهم ، البرجوازيين الفاشيون ، يقتلون الثقافة ويدمرون انفسهم . لذلك كان موت نيرودا شهادة لزمن قادم . زمن الجماهير التي تكتب الشعر لانها تكتب صفحة جديدة من تاريخ العالم .

مأزق النقد الاكاديمي

يشكل النقد الاكاديمي ، اكثر مناطق الحركة النقدية العربية بروزا . فمنه خرجت أهم المدارس النقدية التي طبعت الادب العربي بطابعها المميز في هذا القرن ، طه حسين ، محمد مندور ، لويس عوض ، احسان عباس ... لكن هذا النقد كان يواجه دائما بصعوبة تكونه في العلاقات الداخلية التي تحكم البناء الاكاديمي العربي ، حيث تنمو الروح المحافظة التي تقف بوجه كل جديد . واذا كان كبار النقاد الاكاديميين قد استطاعوا بنسب متفاوتة كسر رتابة الجمود الجامعي، ودفعوا مقابل ذلك الكثير ، فان هذا لا ينسحب بشكل مطلق على جميع الدراسات الاكاديمية ، التي تبقى ممثلة اخلاصا لاصالة ليست اكثر من خليط عجيب لمدارس نقدية متفرقة ، اخذت بنتائجها وليس بمقدماتها .

واذا أخذنا الدراسات النقدية الفلسطينية كنموذج ، فاننا نجد ان نقد الصوت الأدبي الفلسطيني ، لا يزال في مجمله أسير انطباعية نقدية فرضها توسع الصحافة السريع ، وتحول الموضوع الفلسطيني الى موضوع اساسي يشغل القارىء العربي بعد ولادة الثورة المسلحة . وتحاول بعض الدراسات المتفرقة الخروج على هذه الانطباعية ، بمحاولة دراسة الصوت الادبي الفلسطيني ككل . وحتى الان لا يوجد نماذج لهذه الدراسات الجامعة الا في محاولات الكتب الاكاديمية

* د. عبد الرحمن الكيالي : **الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، الطبعة الاولى ، ١٩٧٥ .

د. عبد الرحمن ياغي على وجه الخصوص ، اقامة بناء متكامل للادب الفلسطيني او في بعض الدراسات النقدية المتفرقة التي تحـاول تأسيس نقد ادبـي يقترب من العلمية .

كانت هذه المقدمة السريعة ، ضرورية لمناقشة كتاب د. عبد الرحمن الكيالي ، **الشعر الفلسطيني في نكبة فلسطين** . لان هذا الكتاب هـو محاولة اكاديمية جديدة لدراسة الشعر الفلسطيني منذ بداياته وحتى اليوم . ولقد بذل الكتاب جهـدا تجميعيا هائلا ، لجمع عناصر الشعر الفلسطيني منذ بداياته . دواوين شعرية ، مخطوطات غـير منشورة ، رسائل شخصية ، اتصالات ... وخرج بمحصلة عامة لجميع الشعراء الفلسطينيين ، بشتى مدارسهم وبمختلف قيمتهم الفنية . لكن هذا الجهد، وظف من خارجه ، اي وظف بالموضوعة السياسية التي تحكم عنوان الكتاب — نكبة فلسطين — ولم تتحول هذه الموضوعة الى عنصر داخلي في استقراء الشعر ونمذجته ودراسـتـه . ان الموضوعـة الخارجية ، هي موضوعة النقد الاساسية . فالنقد لم يجد تبرير وجوده التاريخي ، ودوره المتميز في الحقل الادبي ، الا لانه يستطيع ان ينقل تجربة الابداع الخاصة من دائرتها الى الدائرة الادبية العامة . فتصبح دراسة الاثر الادبي النقدية مدخلا الى تحليل جميع الاثار الادبية ، وربطها ببعضها، تمهيدا لوضعها داخل مستويي الممارسة : المستوى الايديولوجي العام ، وعلاقة هذا المستوى بحقل الممارسة الاجتماعية . فموضوع النقد اذن ، يأتي أساسا من خارج العمل الادبي ، مـن ضرورة اجتماعية وفكرية مختلفة عـن مكونات العمـل الابداعي نفسه . لكن نقطة الانطلاق هذه ، لا تعني ضرورة بقاء العمل النقدي خارج العمل الأبداعي . انه داخله وخارجه في آن : داخله ، لانه يلتقط مفاصلهُ الاساسية ، يدرس بنيته الداخلية ، شكله وموضوعاته ، لغته وايقاعه . حتى يستطيع ان ينتقل الى الخارج : حيث تعم هذه التجربة الخاصة داخل حقل التجربة الادبية العامة ويجري ربطها بحقل الممارسة الاجتماعية . هذه العلاقة المعقدة التي تشير اليها الممارسة النقدية ، تعني تجاوزا لنقطة الانطلاق الى حقل ممارسة واسعة ، تعيد صياغة موضوعات العمل الادبي بشكل جديد، ولا تقع أسيرة الموضوع الخارجي ، الذي يصبح جزءا من سوسيولوجية الادب ، أي من المرحلة الاخيرة في دراسة العمل الادبي .

نقد الموضوعات Critique Thematique : اذا اخذنا كتاب د. عبد الرحمـن الكيالي في بنيتـه العامة ، فاننا نجده يقسم دراسته الـى ثلاث مراحل : ١ — مدخل الى الشعر الفلسطيني في مرحلة الصراع الوطني : حيث يعالج الشعـر الفلسطيني قبـل النكبة والدور الـذي لعبه . ٢ — في مرحلة النكبة : حيث يعالج الاصوات الشعرية التي خرجت بعـد النكبة ومحاورهـا الاساسية . ٣ — شعر المقاومـة في الوطـن المغتصب : حيث يعالج الشعر الفلسطيني القادم من خلف اسوار الاحتلال الاسرائيلي . ان هذا التقسيم يأخذ في اعتبـاره عاملين اساسيين : الشروط التاريخية العامة التي تحكم وضع الشعب الفلسطيني، وتعاقب الاجيال الشعرية الفلسطينية. وهو نمذجة ممكنة ، لكنها تتجاهل محورا رابعا في الشعر الفلسطيني ، وهو شعر المخيم الذي ولد فعليا بعد الثورة الفلسطينية . فالمؤلف يدمج هذا المحور بالمحور الثاني ولا يتكلم الا عن شاعر واحد منه هو القيسي . وهذا تعسف نقدي ، لا يشفع به الطابع الاكاديمي الذي للكتاب ، اذ يتجاهل الكتاب مجموعة كبيرة من الشعراء الفلسطينيين : أحمد دحبور ، عزالدين المناصرة ، وليد سيف ...

اذا درسنا هذه النمذجة بشكل تفصيلي ، فاننا نجد الى جانب المقدمة التاريخية العامة في مطلع الكتاب ، نمذجة لكل محور الى عدة موضوعات . فيقسم المحور الاول الى اربعة فصول : الوطن القومي الصهيوني . الجبهة الوطنية الداخلية . المقاومة الوطنية والثورة المسلحة . الدراسات الادبية . وكل فصل يقسم بدوره الى موضوعات . ان النقطة الاساسية التي يثيرها هذا التقسيم هو الموضوعات الخارجية ، وهي موضوعات سياسية، تجري نمذجة الشعر على اساسها ، **فيصبح النقد مجرد نثر للنص الشعري** . لا يضيف اليه شيئا ، ولا يتوقف الا عند نقطته الايديولوجية . أي يجري اختيار الموضوعات السياسية من داخل القصائد ، ثم تنثر القصائد على اساس هذه الموضوعات . حتى نصل الى الفصل الرابع: الدراسات الادبية، حيث نبدأ بمقدمة صغيرة تدرج الشعر الفلسطيني داخل الشعر العربي وتؤكد على أهمية تضيدة

طوقان « الثلاثاء الحمراء » ، بوصفها كانت فتحا جديدا وظاهرة تغير شعري ملموسة » . ثم تكشف عن مصدري التأثير في الشعر الفلسطيني: الواقعية والرومانسية ، لتعود الى تلخيص الفصول السابقة بما نسميه « اغراض الشعر الفلسطيني في مرحلة الانتداب » . ثم يفرد صفحة واحدة لما يسميه « الشكل والملامح الفلسطينية » .

يقود هذا المقترب النقدي الكتاب بأسره الى مأزق لا مخرج منه . فتحويل الشعر ، وهو بناء فني اساسا ، الى مجرد عنصر ايديولوجي وحيد الجانب ، يسحق الشعر ، ويحوله الى مجرد اطار ايديولوجي، لذلك يتحول النقد الى راصد خارجي، ويجري الفصل التعسفي بين الشكل والمضمون . يأتي هذا الفصل من منظور نقدي يرفض النقد العروضي والبياني ، يستبدله بدراسة الشعر من خلال موضوعاته . لكن هذه الموضوعات لا تستخرج من بنية القصيدة او من علاقاتها الاساسية ومناطق تركيزها ، بل تجري استعارة الموضوعات من اللغة السياسية المباشرة ، ويصبح النقد مجرد تنويع على هذه اللغة يسقط موضوعاتها الشعر ، فيقوم بنثره . وكأن الشكل الفني ، القصيدة ، ليس أكثر من عرض ، لجوهرها : مضمونها . هكذا تمحي الفوارق بين المستويات ، وتصبح اللغة ، وحيدة الجانب ، وتنحل دلالة اللغة الفنية الى دلالة واحدة ، هي الدلالة السياسية المباشرة.

ان هذا النقد الذي نوجهه للمقترب النقدي لكتاب الكيالي ، لا يقلل من قيمته ، كأثر تجميعي تحتاجه المكتبة الفلسطينية . لانه يقدم وثيقة كاملة للتيارات الايديولوجية التي حكمت الشعر الفلسطيني . غير ان نقدنا ، ينطلق من كون نقد الموضوعات ، يستطيع ان يتمحور داخل القصيدة، ليكشف بنيتها واسلوبيتها من خلال كشفه لموضوعاتها الداخلية . اذا اخذنا قصيدة السياب « انشودة المطر » . فاننا اذا تبعنا منهج الكيالي فاننا ندرسها من خلال محورين : ١ ــ مقدمة عامة للوضع السياسي والاقتصادي الذي كان يعانيه العراق . ٢ ــ ثم نثر أبيات القصيدة تحت عناوين : القرية ، الموت ، الجوع ، المطر ... هكذا يفتت جسد القصيدة، وتصبح نصا سياسيا ــ اجتماعيا ، كأي دراسة جيدة عن الوضع في العراق . اما اذا درسنا موضوعاتها الداخلية ، فاننا سنأخذ موضوعة الخصب ندمجها بالتضاد الذي تحتل به القصيدة ، لنتوقف عند الموت بوصفه النقطة المفصلية التي توحد الجدب بالمعاناة الجماعية . هكذا تصبح الموضوعات مدخلا الى دراسة بنية القصيدة وكشف اضافتها الفنية على الشعر العربي الحديث . قد يكون النموذج الذي نقترحه سهلا ، لان قصيدة السياب تنتمي الى مدرسة شعرية اخرى وتسهل مناقشتها بالمقاييس التي نقترح. لكن اذا اخذنا قصيدة طوقان « الثلاثاء الحمراء » او « الشهيد » فانه يمكن مناقشتها بالمقترب الذي نقترح . اذ تؤخذ الموضوعات الداخلية . الموت في « الشهيد » لتجري مناقشة تعبيراتها المختلفة حتى نصل الى بنية القصيدة .

ان نقد الموضوعات ، اذا لم يندرج داخل علاقات القصيدة الداخلية، فانه يقوم عمليا بالغاء المستوى الفني . يكتفي بنثر القصيدة واسقاط معان وحيدة الجانب على لغتها . حتى تصبح القصيدة مجرد كتابة ايديولوجية لا علاقة لها بالشكل الفني الذي هو سبب وجودها كقصيدة . لذلك يجب الفصل بدقة بين المستويات ؛ تمهيدا لاعادة ربطها ببعضها جدليا عند دراسة علاقتها بحقل الممارسة الاجتماعية . هذا الفصل الذي نقترحه هو الذي يميز الدراسة الادبية عن علم الاجتماع السياسي . فمادة الدراسة الادبية هي النص بمستوياته المختلفة . اما علم الاجتماع السياسي ، فهو علم مستقل ، قد يستخدم دراسة النصوص في سبيل تأكيد حقل دراسته الاساسية .

الشعر الفلسطيني والشعر العربي : لا يمكن دراسة الشعر الفلسطيني بمعزل عن الحركة الشعرية العربية . يأتي افتراضنا هذا ، من وحدة الزمن الثقافي والادبي العربي في العصر الحديث . « فالنهضة » بمركزيها مصر ولبنان ركزت على مفاهيم انبعاث ادبية طبعت الحركة الشعرية الحديثة بطابعها . هكذا لا يمكن تجزئة الحركة الشعرية العربية جغرافيا ، كما جرى تقسيم الوطن العربي جغرافيا . ان هذا يعني وحدة مفهومية للمدارس الادبية التي عصفت بالشعر الحديث . وهذا لا يمنع بالمقابل بروز خصوصيات لشعر الاقطار المختلفة نتيجة ظروف سياسية مختلفة . لكن هذه الخصائص لم تنتج مدارس فنية متميزة . نوعت ضمن تطور المدارس الادبية

العربية . هنا مصدر الخطأ الذي يقع فيه النقد حين لا يدرس الشعر الفلسطيني بوصفه جزءا عضويا من الحركة الشعرية العربية . فكيف يمكن مثلا فهم الاتجاه الكلاسيكي الممزوج بالسخرية في شعر طوقان ، اذا لم نربطه بالتأثر الواضح بشوقي وباتجاهه الشعري الكلاسيكي . وكيف يمكننا فهم دخول القصيدة الحديثة ، قصيدة وحدة الموضوع والتفعيلة الى الشعر الفلسطيني في الارض المحتلة دون حدوث معارك ادبية كبيرة كالتي شهدها المشرق العربي في الخمسينات ، اذا لم تكن هذه القصيدة انعكاسا لمفهوم رسخ اقدامه في الخارج . وكيف يمكن دراسة بنية القصيدة عند محمود درويش دون ربطها بمراحل مختلفة لتطور القصيدة العربية المعاصرة : قباني ، السياب ، البياتي ، ادونيس . فقصيدة درويش هي محاولة لاختصار تاريخ الشعر العربي المعاصر في لحظة شعرية فنية واحدة . هذا الارتباط العميق الذي يجعل من الشعر الفلسطيني شعرا في زمن الشعر العربي المعاصر ، لا يلغي خصوصيته ، هذه الخصوصية التي تنبع من المكان ، ومن اشكال صدامية فرضت على شعب بشكل خاص — الاقتلاع من الارض — مما اعطى لهذا الزمن الشعري اطارا نضاليا خاصا . فأصبح الشعر الفلسطيني هو المدخل الى توحيد جميع العناصر الفنية في بؤرة نضالية تعيد تكوين دور القصيدة .

هذا النمط من الدراسة ليس غائبا عن كتاب الكيالي بشكل كلي . لكنه لا يأخذ حجمه الفعلي ، نتيجة ضيق المساحة التي يفرضها اطار الدراسة النقدية في هذا المجال . فالنكبة عام ٤٨ ، ليست حدثا فلسطينيا فقط . فلقد كانت العامل المباشر في حدوث الانقلاب البرجوازي في حياتنا العربية . ولعبت دورا بالغ الاثر في جميع تيارات التحديث الثقافية ، ومن ضمنها تيار ما اطلق عليه « الشعر الحديث » . لذلك تصبح دراسة الحركة الشعرية الفلسطينية بشكل مستقل ، عملا ناقصا ، لاننا حين نهمل العلاقة العضوية بالشعر العربي ، ونختصرها الى مجرد التفاتات عابرة ، فان النقد يسقط في شرك الوهم الايديولوجي الذي يركز على الطابع الفلسطيني الخاص في كل شيء .

القصيدة : ان المنهج النقدي الذي حكم دراسة الكيالي ، قام عمليا بالغاء القصيدة كمفهوم . اذ أنه فرض تفتيت القصيدة الى أبيات تخدم دراستها من خارجها اي دراسة اغراضها . واذا كان هذا المنهج ممكنا في دراسة القصيدة العربية القديمة التي تستند الى وحدة البيت الشعري (رغم ان هذه القصيدة تحمل بنية خاصة بها ومليئة بالدلالات) . أما في دراسة القصائد الحديثة والمعاصرة التي تستند الى وحدة القصيدة ، فان هذا المنهج ، يقودنا الى تدمير مفهوم القصيدة ، ويصبح النقد الادبي ، مجموعة تنويعات على مضامين جرى خلعها من سياقها . ان الإنجاز الاساسي الذي قدمته الحركة الحديثة هو القصيدة كمفهوم . أي القصيدة كوحدة عضوية تتناوب فيها الدلالات ، وتقيم علاقات داخلية ، تحول الشعر من مجرد لحظات متفرقة الى حالة متكاملة . عند دراسة القصيدة ، يجري ربط الشكل بالمضمون في وحدة متدرجة ، لا تدمجهما بشكل اعتباطي ، لكنها تكشف دلالاتهما وعلاقاتهما ببعضهما . وهذا ما نفتقده في هذا الكتاب . فلقد قام المؤلف بالغاء القصيدة ليؤكد على **دور الشعر** . ومفهوم دور الشعر هو مفهوم مبسط رغم انه في الحالة الفلسطينية بالغ الوضوح ، اذ انه قد يقود الدراسة الادبية الى التركيز على الشعر من عناصره الخارجية . أي على المدلول مع حذف الدال . وهذا يقود الى منزلق آخر . اذ ان العوامل التي تتحكم بالمدلول ليست هي نفسها عوامل الدال . فبنية القصيدة قد تقدم مدلولات مختلفة في شروط اجتماعية مختلفة ، لكن عناصرها الداخلية تبقى واحدة . يقودنا هذا المفهوم الى ضرورة مناقشة اللغة الشعرية بوصفها العامل الاساسي الذي يحكم بنية القصيدة .

يندرج المجهود الكبير الذي بذله د. كيالي ، تحت باب آخر ، انه اضافة جدية الى ما سنطلق عليه اسم النقد الوثائقي ، الذي يقوم انطلاقا من موضوعة معينة ، بتوثيق الشعر على اساسها . وهو بهذا المعنى ، كتاب هام يضيف الى المكتبة الفلسطينية معلومات جديدة وشبه ملموسة عن تاريخها الشعري . وهو بذلك يسمح بالانتقال من التوثيق الى النقد الفني . هذا الانتقال هو الذي سيقوم بعملية الدراسة المعقدة للاضافات التي قدمها الصوت الفلسطيني الى شعرنا العربي .

ان النقد الجديد ، النقد الداخلي ، هو المؤهل

ان يقوم بهذا الدور . وهو بهذا لا يقوم بعملية الغاء اعتباطية لما سبقه . بقوم بعملية انقطاع منهجية ، تسمح له بأن يعيد دراسة موروثنا الادبي بشكل جديد . وعلى ضوء التطورات الواقعية والثقافية التي عصفت بمجتمعنا .

الكتابة الانقلابية !!

ربما كانت الكتابة على أدب نزار قباني انطلاقا من كتابه النثري الجديد « الكتابة عمل انقلابي »، مدخلا جزئيا لا يستطيع استيعاب تجربة احد اكثر شعراء العرب رواجا . فنزار قباني قد ادخل الى الشعر العربي الحديث لهجـة مختلفة تقف بين الماضي والمستقبل في لغة بالغة البساطة والشعبية، تحافظ على بريق الكلمة الشعرية ، وتدمجه بأحد امكانيات التحرر ـــ قضية المرأة والحرية الجنسية. شاعر اوقف حياته الشعرية على نفس المقترب الفني ، ضمن قاموس ضيق ، لا يمل من تكراره . لكنه أدخل في المقابل صوته الخاص الى خريطة الشعر المعاصر الذي يجمع الرومانسية الى أحلام البرجوازي الصغير في التحرر والانعتاق . الاهمية الاساسية التي لقباني في أدبنا الحديث ، هي لغته الخاصة ، لغة الموسيقى التي تجمع عناصر كلاسيكية الى عناصر حديثة ، لتقدم خليطا متميزا لاحلام التحرر والانعتاق . وهو بهذا المعنى ليس اديبا محافظا بشكل مطلق ، كما انه في المقابل ليس اديبا تقدميا . انه نقطة الوسط . يثور عليـه المحافظون ، لانه يفضحهم ويرفضه التقدميون لانه يبشر بحرية كاذبة . والاهم من ذلك ان جمهوره يحبه . وانه يستطيع ان يلعب بلغته نفسها ، يعيد القصيدة الواحدة عشرات المرات ، دون ان يمل أو يرفض . أهم ما في لغته الشعرية عنصران :

البساطة : التي تجمع اللغة الكلاسيكية الى طراوة المدينة . فقباني هو شاعر المدينة الاساسي في الشعر الحديث . ينوع على اللغة الكلاسيكية، بالايقاع الجديد ، فتأتي قصيدته دائما طازجة ، فيها الطرافة الى جانب فكرة واحدة تدور حولهـا القصيدة . هذه البساطة غير المفتعلة ، هي تعبير عن تمرس طويل بأصول العربية ، وبقدرة اللغة على الانحناء . فتأتي لغته منحنية ، لا أثر فيها للنتوءات المتوترة التي نلاحظها في اكثـر الشعر الحديث . بساطة هذا الشعر هي انعكاس لضيق رقعة تجربته ، فهو يقف على ارضية الشعـر الغزلي ، ليلتقط منه مواد اساسية يعيد صياغتها على ضوء المعطيات الواقعية. فتأتي قصيدته وكأنها صوت البرجوازي الدمشقي الصغير وهو يبحث عن مكان لحبه وكبته في مجتمع لا تزال تتوده القيم القديمة . هذا النزوع الى نوع من التحرر يسكب في صيغة تأخذ من التجربة الشعرية المعـاصرة بساطتها لتعيد كتابتها على ايقاع الشعر القديم . تتوحد القصيدة دون أن ينكسر العمود الشعري . هذه الصيغة التوفيقية التـي انتجتها اسلوبيـة قباني ، استطاعت عبـر لجوئها الى الايقـاع الخارجي والصورة البسيطـة بجميع اوجههـا ـــ تشبيه ، استعارة ـــ والتي تبقى بسيطة مهما اخذت من اوجه لانها تقيـم علاقة بين عنصرين واضحين ، يخدمان كتأكيد لدلالة نقطـة انطلاقها ان تقيم قصيدة متمايزة . هكذا أتت القصيدة النزارية وكأنها تخرج من ذاكرة بعيدة وكأنها بلا ذاكرة في آن . انهـا نقيض ما يسمى بعصـور الانحطاط من حيث الشكل ، دون ان تدخل قضيته الى الشعر العربي فعليا . نوعت على القضيـة الازلية ـــ الحب ـــ والبستها لباسـا اجتماعيا معاصرا .

الموضوع الواحد: الحب الذي لا ينفذ (لا يوجد فعليا موضوعات تنفذ) . يجيب هذا الموضوع على تطلعات جيل جديد (نحن في الخمسينات) بـدأ يعي التناقض بين نمط حياته المديني ـــ الذي غزاه الانتاج الرأسمالي ـــ وبين الافكار السائدة فـي مجتمعه . عند نقطة التناقض هذه ، استطاعـت القصيدة النزارية ان تعبر عن طموحات مرحلـة . لكنها في المقابل بقيت تراوح عند نقطة واحـدة .

نزار قباني : **الكتابة عمل انقلابي** منشورات نزار قباني . بيروت . الطبعة الاولى ١٩٧٥ .

ففي عصر سقوط الهيمنة الرأسمالية ، عصر الحروب والثورات ، تدمج قضية التحرر بالتحرر العام . او تبقى مجرد انقلاب يريد اجهاض ثورة. اي تبقى مجرد تحرر كاذب ، يتستر بقضية جانبية لكي يخفي القضية الاساسية ، هكذا لم يعرف شعر قباني المرارات الا في المناسبات ، العدوان الثلاثي ، ثورة الجزائر ، هزيمة ٦٧ . وبقي يدور وكأنه فلك مستقل لا يخضع الا لجاذبية تاريخه الشعري . يختفي خلف قدسية الشعر وجماليته الخاصة ، او يرفض هذه الجمالية ، لكنه في قبوله او رفضه لا يطرح قضية فنية . الا قضيته الاولى، جماهيرية الشعر ، انطلاقا من قدرة الشاعر على صياغة موضوعه الجماهيري داخل لغة القصيدة المختلفة .

داخل هذين العنصرين ، تقوم بنية القصيدة النزارية ، ترفض الشكلية لتبقي على الاساس في الشكل القديم . وترفض الجاهز لتقيم هي تقليدها الجاهز .فدخلت قصيدة نزار قباني التاريخ الشعري العربي المعاصر ، بوصفها لحظة في تطور القصيدة العربية . دخلت بانحناءتها وطراوتها وبكلاسيكيتها الجديدة ، بهدوء . لم تثر نقاشات فنية بقدر ما اثارت نقاشات سياسية واخلاقية . هكذا ينجح الشاعر وتسقط القصيدة. ويصبح نزار قباني ظاهرة شعرية خاصة في مبلغ جماهيريته .

من الفئة الى اللافئة : تخدم هذه الملاحظة التي رفعناها ، كمقدمة لدراسة تفصيلية لشعر قباني ونتاجه . لكنها هنا ، تكشف العنصر الاساسي الذي للغته الشعرية ، اي للعنصر الايديولوجي . واذا كانت دراسة هذا العنصر داخل القصيدة عملية بالغة التعقيد ، فان قباني يكشف لغته ، حين يعيد كتابتها نثرا . داخل ايقاع القصيدة ، تختبىء العناصر الايديولوجية وترفض الظهور ، لذلك تحتاج دراستها الى تفكيك صبور لبنية القصيدة . اما في النثر ، فتنكشف اللغة . تأتي عارية من ايقاعيتها ، لا يشفع بها سوى كلمات ترن في الذاكرة . فتنهار ، تكشف نفسها وتفضح اسرارها .

لذلك كانت قراءة كتاب قباني النثري الجديد عملية ضرورية ، لانها تساعد على الاقل، في فك دلالات لغته الشعرية . حيث تأتي اللغة محشوة بالبعد الايديولوجي اليومي ، الذي لا تستطيع الافلات منه ، والواقع ان بعض مقالات هذا الكتاب (كان ولدي .. فصار ولدكم ، عن صوت البجع والاطفال ، هل احترق بنار الشعر ؟ عيد ميلاد جرح ..) تخرج عن اطار هذه المناقشة ، لانها تنبع من ألم حقيقي ، لا نستطيع سوى احترامه وتقديره .

الاساسي في لغة قباني هو الانتقال الى اللالغة. اي انه يفرغ بشكل منظم اللغة من دلالاتها .تصبح الجملة بلا دلالة حقيقية في الوقت الذي تدل فيه على كل شيء . هذا الانتقال الى اللادلالة ، لا يعني الخروج على اللغة . بل استخدامها من اجل افراغها من مضمونها . تصبح اللغة مائعة وصابونية ، تثرثر ، تقفز من موضوع الى اخر ، وتقول كل شيء ، وترضي جميع الاطراف .

ان عملية الانتقال الى اللالغة ، ليست خاصة قبانية بشكل متميز ، انها تيار عام يجد قاعدته في التورم الخدماتي الصحفي الذي تعانيه « بيروت » بصحفها الكثيرة التي تريد ان ترضي جميع انواع الانظمة ، لذلك لا تقول شيئا . وفي القمع الفكري الذي يمارس داخل اكثر الانظمة، حتى تستحيل اللغة وسيلة تتحايل على نفسها ، تشير الى جميع الدلالات وتترك للقارىء حرية اختيار الاتجاه الذي يريد . لا يعني هذا ان لغة اللالغة هي لغة حيادية . انها لغة بكماء ، لكنها في الوقت نفسه لغة الهيمنة الطبقية بامتياز . اذ انها تقود الى نقطة الفراغ حيث تختفي المقاييس يجد اي شيء تبريره ، هكذا نقفز من مدح هذا النظام الى مدح عدوه . ومن التغني بالمقاومة الى اكتشاف اخلاقية وزير الاردن الذي قدم بيده باقة زهر الى الشاعر ، هذه اليد التي لم تجف عنها بعد دماء الاطفال والمقاتلين في معركة ايلول ١٩٧٠ في الاردن . القفز على حبال الواقع ، هوالوصول الى تبني الشيء ونقيضه في نفس اللحظة . الجلاد والضحية يحاكمان بنفس الروحية . هذه هي لغة اللالغة . انها ليست على الحياد ، لانها تبرىء المجرم من دماء الضحية ، وتضع على عروتها اوسمة مغمسة بدماء الشعب .

تختفي الهيمنة الطبقية الرجعية خلف الصمت . انها تريد نزع سلاح لغة النقد من الشعب ، وتستبدلها بلغة مائعة . حيث تفقد العلاقة بين

الشيء ورمزه اللغوي ، ويضيع القارىء حين نضيع مقاييسه .

« للمرة الاولى .. اشتري زجاجة بترول .. واعديها لحبيبتي .

وللمرة الاولى .. تأخذ حبيبتي الهدية باعتزاز ،

وتضع قطرة نفط تحت الاذن اليمنى ..

وقطرة نفط تحت الاذن اليسرى ..

وتشكرني لانني اعدت اليها الثقة بأنوثتها .. واهديتها عطرها المفضل : النفط .

الانوثة العربية ، بعد حرب تشرين ، تخلت عن ادوات التواليت القديمة . الخ .. »

هذا نص نموذجي لما تحويه محاولة قباني الانقلابية !! هذا نثر شعري او نثر شاعري على الاصح ، اي نثر يكتبه شاعر كي لا يقول شيئاً يسقط في موضوع ، يريد الخروج منه ، فيستعيد اكثر اشكال الكتابة مباشرة . فيهرب من المباشرة الى الصورة التي تفرض عليك موقفاً مسبقاً — تقدير الدول النفطية ، دون ان نقول هذا بشكل مباشر . تختفي حول شكل شبه شاعري ؟ لتدعونا الى تقدير النفط والتزين به . هذا التحايل على الموضوع هو جوهر النثر القباني ، يأتي الى موضوعه من الخلف ، ليفرض على القارىء قناعات لا تحتاج الى براهين ، وهذه أفضل طرق تسلل الايديولوجية السائدة . او قد يلجأ الى الديماغوجية بشكل اذاعي كما في مقاله « الشركة السورية الفلسطينية للتحرير » .

هناك ميزة اخرى للغة اللالغة هذه . انها تختفي خلف اللغة الثورية ، تدعو الى رفض الذاكرة ، والى القدرة . لكنها ليست ثورة شعراء السبعينات كما انها « ترفض وضع قنبلة موقوتة تحت سرير كونفوشيوس بعد خمسة الاف سنة من وفاته » . انها ثورة « متمدنة » ثورة التطور. لا تحب الغرباء والصعاليك ، وتعتز بالنابغة الذبياني . هكذا تستطيع هذه اللغة اللجوء الى جميع الاشكال الممكنة ، فهي تارة « ثورية » وطوراً محافظة . لكنها في الحالتين تحافظ على ثابتها الاساسي : الغاء الدلالة ، والبقاء في فراغ ، حيث تستطيع الايديولوجية السائدة ان تقمع دون رقيب .

ان النصوص النثرية في هذا الكتاب ، ليست اكثر من مؤشرات بالغة الدلالة ، لمرحلة قادمة ، تبشرنا بها القوى المسيطرة . مرحلة الغاء الكتابة الفعلية بتحويلها الى كتابة استهلاكية بشكل مطلق، وهنا تناقضها مع نفسها ، لاجل ذلك تستفيق في بعض النصوص لتعود الى الكتابة ، ثم تنام مرة اخرى في شكلها الحالي .

أما لغة قباني الشعرية ، فهي موضوع شائك واكثر تعقيداً ، لكنها فيما عدا بداياتها وايقاعها الذي اكتشفته في هذه البدايات ، تندرج تحت هذا العنوان الكبير ، الذي يريد افراغ النص من مضامينه الصراعية . هكذا فنحن لسنا امام كتابة انقلابية ، نحن فقط امام محاولة انقلابية ، تريد سرقة شعارات الثورة واجهاضها .

جدلية الوطن

في مجموعته الشعرية الاولى « جدلية الوطن »[1] يأتي صوت علي الخليلي ، بالغ التواضع والطموح، ليبحث بين الكلمات عن جسد القصيدة. يحاور مأساة شعبه ، يتغلغل داخلها ، ويخرج منها بحصاد قليل ، لكنه حصاد البحث عن لغة واحدة تضم شتات الصور والانفعالات لتسكبها في اطار يوحدها ، ويعيد ترتيب معانيها : في القصيدة . فاللحظة الشعرية ، بوصفها لحظة انفعالية ، يبلغ فيها التوتر اللغوي درجاته القصوى . لا تستطيع ان تتكون خارج شبكة علاقات ، تكون وحدة في الموقف والرؤيا . فشعر المنفى ، الذي تكون كصوت فني خاص بعد هزيمة ١٩٦٧ ، لم يبق عند لحظات بداياته ، بل استطاع بالتجربة والممارسة ان يؤسس ، لحظة رؤيا متكاملة داخل الصوت الشعري الفلسطيني . فقد استطاع بهذا المعنى ، ان يلم شتات لحظاته الانفعالية المتفرقة ويسكبها داخل معاناة المخيم

---

(1) علي الخليلي : **جدلية الوطن** دار العودة ، بيروت .

الشاملة . فأتى « طائر الوحدات » ، ليرسم بخفقاته ، صوت لحظات تناقض الواقع ، وارتباطها بالحلم الفلسطيني المحمول على دماء « خضرة » . وهي تعبر الحلم الى الواقع . هكذا تتأسس القصيدة ، ولا تبقى داخل جدل الوطن ، الا لترسم القصيدة التي تكتب كل شيء دفعة واحدة . في « جدلية الوطن » ترتسم هذه البدايات من جديد ، دون ان تستطيع ان تكون شكلها الخاص . نحن امام الحلم الفلسطيني الذي ينزف دماء ، لكنه لا ينضب . يسقي شجيرات الوطن وغاباته الخضراء بالوانه . يمتد حول الارض بنبرة لا تزال تحمل توتر اللحظات الاولى وصداميتها . لكننا بعد أن نفرغ من قراءة المجموعة ، نكتشف اننا ما نزال امام بدايات ، لم يتبلور فيها سوى حسها الفاجع ، فبقيت تدور حول نفسها . تلتقط لحظات ، ولا تلتقط الحركة التي تحيط ببنية القصيدة .

صوت الاحتجاج

« غير العشاق الان هم العشاق ،

غير القتلة فيك هم القتلة .

يا وطنا يغرق في الرمز الصوفي وفي الدم .

يا مفقودا ،

علمنا ان نوجد في عصر الاشياء المفقودة »...

بهذه النبرة الاحتجاجية ، يفتتح الخليلي محاوراته للوطن . انه يناجيه بنبرة غنائية ، دون ان يذوب صوته في داخله، تبقى بينهما مسافة،هي مسافة القدرة على الرؤية من الداخل والخارج في آن.تسكب هذه النبرة ايقاعها في لهجة غنائية، غير ان ما يعطل على هذه الغنائية قدرتها على الامتداد هو غرقها في البحث عن القوافي كما في هذه القصيدة . تأتي القافية لتجيب على ضرورات من خارج اشكال التواتر الذي تقودنا اليه علاقات الشاعر بموضوعه . فنغرق معه في البحث عن القوافي وكأننا لا نزال داخل اطر الشعر القديم .

« نكتشف الغيمة والوردة فيك ،

نفجر كل الطبقات المكدودة !! »

غير ان هذه الغنائية تستطيع ان تصل الى لحظة صفاء ، حين تتداخل في تداعيات ، تتموسق على ايقاع الاوجاع التي تصاحب الولادة . فيأتي المقطع الشعري ، وكأنه امتداد للحظات تتداخل.

والجذور تهزني ، عطشى نفير عروقها

وانيق من غبش الطريق : قطاف من اهوى قريب » .

ان النبرة الاحتجاجية الواضحة في شعر الخليلي ، تأتلف داخل قصيدته ، في عنصر التداخل . فهو يحاول بناء قصيدته على قاعدة التداعيات التي تتشابك فيها اللحظات . هنا تختلط المعاني ، وتصبح الدلالات ، دلالات احتمالية في الغالب . لكن هذا التداخل الذي تقطعه الفواصل والخطوط المستقيمة ، يقطع النفس الغنائي الى لحظات . فهو لا يستطيع بحكم اتجاهه الاحتمالي، ان يستوعب الدفق الغنائي ويوظفه داخل القصيدة . هكذا تتقطع اوصال القصيدة الى اشارات غنائية ، لا ينقذها الا قدرة الشاعر على استعادة صوته الغنائي ، كما في قصيدة « الى بابلو نيرودا » ، حيث يستطيع الشاعر توحيد عناصر صوته في انسياب شعري جميل :

« لم يقتلوه حبيبي .

اذا رقص البحر هل يقتلوه ؟

بدي نجمة ، عشبة ، موجة لا تموت ! »

من الشعر الى القصيدة . في رحلته الشعرية الاولى ، يطرح علي الخليلي اسئلة على تجربته الفنية ، دون ان يجيب عليها . والسؤال الملح الذي يخرج به قارىء الشعر الفلسطيني المعاصر، هو المدى الذي استطاع فيه الشعر ان يتحول الى قصيدة . هنا يصبح السؤال المبرر الوحيد للمحاولة . فمحاولة الشعر في ظروف الانفجار الدموي الفلسطيني ، هي استشراف لتغيير العلم. وعالم القصيدة ، هو العالم ممكنا في قدرته على التحول ، داخل الرؤيا الفنية الى حقل ممارسة . فحين يرفع الشاعر صوت احتجاجه الى اقصى درجاته ، يكون ضمن هذا الصوت ، يبحث عن مخارج لبناء عالمه .

بشارة الولادة ومعاناتها التي تأتي في هذا المقطع الشعري ، متدرجة ، متوثبة ومائلة ، هي معاناة الخلق الشعري . فالخارطة الحمراء هي الوطن الذي يرسمه المقاتلون ببنادقهم، وبقصائدهم الدموية ، التي تساهم في تغيير العالم .

مراجعات

مصطفى عبدالله بعيّو ، **المشروع الصهيوني لتوطين اليهـود فـي ليبيـا** ، (الدار العربية للكتاب ، ليبيـا ، تونس ١٩٧٥) .

تقدم دار النشر على صفحة الغلاف الاخيرة هذا الكتاب الى القراء بقولها : « من كان يعلم ان الحركة الصهيونية قد حاولت ان تتخذ من برقـة ومن الجبل الاخضر بالذات مشروعا للوطن القومي لليهود في اوائل هذا القرن ؟... في هذا الكتـاب يكشف الاستاذ مصطفى عبد الله بعيّو ، الـذي يعرف جمهور المثقفين ابحاثه العديدة فـي التاريخ الليبي ، عن هذه الحقيقة التي حرصت الحركـة الصهيونية على اخفائها ، ويلقي عليها من الاضواء ما يجعل الجميع على بينة مما كان يخطط لليبيا ».

ولعل هذه الكلمات ، تعرفنا بفضل الكاتـب في الكشف عن هذا الجانب الهام من تاريخ الحركـة الصهيونية وتحركها في سبيل ايجاد وطن قومـي لليهود ، ويدحض المزاعم التي نسجتها الحركـة الصهيونية حول الارض الموعودة في فلسطين . لقد كان همّ الحركة الصهيونية تنفيذ اقـامة الوطن القومي (الدولة اليهودية) على نسق الاستيطان الاستعماري في اي مكان ، فسعى زعماؤها الـى الاتصال بكافة الدول الامبريالية ، وتوجهوا الـى العراق والعريش وسيناء وبرقة وقبرص واوغندا والارجنتين . وانقسمت الحركة الصهيونية بذلـك احزابا وشيعا كانت انعكاسا للصراع بين الدول الامبريالية داخل المنظمة الصهيونية .

والاستاذ بعيو يلقي في كتابه (مقدمة وستـة فصول) ضوءا على احدى هذه المحاولات ، وهو يشرح في مقدمته عن الدافع الذي جعله يلتفـت الى دراسة اليهود والحركة الصهيونية ، ومـا اثاره في نفسه طغيان الدراسات اليهودية التـي تخدم الصهيونية في الولايات المتحدة اثناء دراسته هناك . وقد وقع في اثناء بحثه على تقرير بعثـة (منظمة الاراضي اليهودية)[١] التـي ارسلـت الى برقة لدراسة امكانية انشاء وطن قومي لليهود في برقة ١٩٠٨ . وقد افاض المؤلف بالحديث عـن العناء الذي لقيه للحصول على التقرير او (الكتاب الازرق) ، وعن سريته ، مع ان التقرير ، كسائر أوراق منظمـة I.T.O. في خزائـن المتحـف البريطاني ، وهي مفتوحة للجميع ، وقد تام مركز الابحاث باستنساخ صورة عن التقرير ووضعها تحت تصرف الباحثين ، واشار اليه الدكتور اسعـد رزوق في كتابه « اسرائيل الكبرى » ، واعتمـدت عليه في فصل من فصول رسالتي للدكتوراه ١٩٧٢.

شيء اخر ، اشار اليه المؤلف كثيرا ، هو لوم غيره من الدارسين العـرب باهمال محاولـة الصهيونية في برقة ، ولا ريب ان هذا الاهمـال قد وقع على محاولات اخرى كانت هامة وخطيرة ، كمحاولة سيناء والعريش والعراق ، بـرأيي لان المحاولة الاساسية في فلسطين استقطبت الانتباه وكادت تطمس غيرها .

في الفصل الاول من الكتـاب (توطين بعـض الجماعات العثمانية في ليبيا) يعـرض المؤلـف باسهاب لمحاولات عثمانية في اواخر القرن الماضي واوائل هذا القرن من اجل توطين بعض الجماعات في ليبيا (مسلمي كريت وبعض الاسر الكردية مـن شمالي العراق) . ويلاحظ ان المؤلف لا يفرق بين توطين هذه الجماعات وتوطين اليهود ، هـذا التفريق المبني على وعي عميق لبنيـة الدولـة

١ ــ الاصح تسميتها المنظمة الاقليمية Jewish Territorial Organization وتعرف اختصارا بـ I.T.O.

العثمانية ، ففي صفحة ٢٥ مثلا يقول ان توطين هذه الجماعات هي « ظاهرة تاريخية قامت بها الدولة العثمانية لتجعل من ليبيا وطنا قوميا لبعض الجماعات المسلمة التي كانت تضمها الامبراطورية العثمانية ، وان اختلفت ظروف كل منها » . ولا ريب ان عبارة (وطن قومي) لم ترد في ذهن احد آنذاك .

ويعقد المؤلف بحثا تاريخيا في الفصل الثاني (اليهود في ليبيا) عن اصل وجود اليهود منذ عهد البطالسة مستعرضا الوان حياتهم الاجتماعية والسياسية متجاوزا فترته التاريخية (زمن البعثة) واصلا الى ايام الاستعمار الايطالي وما بعده . ويعتمد في كثير من جوانب هذا الفصل على ما جاء في تقرير الدكتور ناحوم شلوش مرافق بعثة الاستيطان ، مع ان غايته واضحة : هي ايجاد المرتكز التاريخي للوطن الذي يريد اليهود تحقيقه . وعلى الرغم من انتباه المؤلف الى ذلك ، فان رده لها يعتمد التعليق الخاطف السريع ، وقد يعرض رأيين فيهما شيء من التضارب دون ان يرجح احدهما ، كما هو الحال في صفحة ٣٣ حين يعرض اسباب ما لحق ببرقة من خراب ، فيذكر رأي (الن ويس) استاذ الاثار القديمة بجامعة كمبردج الذي يرى ان سبب الدمار ما ارتكبه اليهود في ثورتهم ايام الرومان من فظائع ، ويذكر رأي شلوش الذي يعيد الخراب الى الرومان الذين (قاموا بتخريب البلاد وحولوها الى صحراء) . ولكن اهمية هذا الفصل تكمن في اعطاء صورة واضحة عن الحياة التي كان يحياها اليهود في البلاد العربية حيث نعموا برخاء لم توفره لهم البلاد الاخرى .

في الفصل الثالث (توطين اليهود في ليبيا) يحدثنا المؤلف عن عطف الدولة العثمانية على اليهود منذ نهاية الحكم العربي في الاندلس ، وهذا العطف اطمعهم فطلبوا وطنا قوميا في فلسطين ايام عبد الحميد ، فرفض طلبهم . فاشترك رجالهم في التخلص من عبد الحميد . ثم وافقت الدولة العثمانية امام الضغوط على فكرة اسكان اليهود في بعض المناطق سوى فلسطين . واذا كان من ملاحظة على هذا الفصل ، فهي بعض التشويش والانتقال غير المنظم من العثمانيين الى الفاطميين .. الى الملك فؤاد ... كذلك فالمؤلف لم يقدم لنا بوضوح الاسباب التي كانت وراء قبول العثمانيين فكرة التوطين في ليبيا ، ولا أظن ان حاكم طرابلس (رجب باشا) كان « يخفي نواياه في مساعدة اليهود .. » كما قال المؤلف . لقد كانت وجهة نظر رجب باشا تقدم مصلحة الدولة العثمانية على كل شيء . فوجد ان الاتيان باليهود يحد من اطماع ايطاليا التي باتت تتربص بليبيا الدوائر .

لقد استغرقت الفصول الثلاثة الاول خمسا وخمسين صفحة قبل ان ينتقل المؤلف الى موضوعه الاساسي : تقرير البعثة الصهيونية . لذا كان الاجدى ان يعرفنا في هذه الفصول عن الظروف التي أدت بفئة من داخل الحركة الصهيونية بعد المؤتمر الصهيوني السابع في بال ١٩٠٥ (وهو المؤتمر الذي عقد بعد موت هرزل ، والذي قرر التخلي عن فكرة استعمار اوغندا البريطانية والعودة الى البرنامج الاولي الذي حدد فلسطين هدفا للاستيطان الاستعماري الصهيوني) الى الانشقاق بقيادة زانجويل ، وانشائها المنظمة الاقليمية التي كان هدفها التفتيش عن اقاليم لاستيطان اليهود في أي جزء ملائم من العالم. وذلك لان صلة هذه الدراسة بموضوع الكتاب اوثق من توطين بعض الجماعات العثمانية في ليبيا ، في تاريخ اليهود في ليبيا القديمة .

يبدأ الفصل الرابع (البعثة اليهودية الى برقة يوليو — اغسطس ١٩٠٨) وهو محور الدراسة ، عن اوضاع اليهود في ليبيا في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين في ظل الدولة العثمانية ، ووسط التنافس البريطاني الفرنسي، ثم ينتقل الى ذكر سبب ورود فكرة برقة في ذهن (زانجويل) اثر اقتراح تنصل بريطانيا في تونس ، ولانها ، حسب رأيه (اي زانجويل) تفضل سائر الامكنة ، حتى فلسطين، فهي ليست بلادا مقدسة، وعدد سكانها الاصليين اقل . ثم ما تبع ذلك من نشاط ناحوم شلوش لدراسة تاريخ يهود المغرب، ثم عن استعداد العثمانيين (بشخص رجب باشا) حاكم طرابلس لقبول فكرة انشاء وطن قومي في برقة في الوقت الذي كانت الدولة العثمانية ترفض توطين اليهود في فلسطين. ويبدو ان زانجويل حاول

الاستفادة من ايطاليا « بأن مهمة احياء برقة التي تسعى اليها ايطاليا من توسعها في ليبيا يمكن أن تتحقق على ايدي المستوطنين ، اذا اعطيت لهم الفرصة » .ورغم حماس زانجويل لمفاوضة حكومة الباب العالي، كان الحذر يخيم على مجلس المنظمة I.T.O. بحجة عدم استقرار الاوضاع في شمالي افريقية ، فكان ان قامت المنظمة باختيار بعثة علمية لدراسة المشروع برئاسة استاذ الجيولوجية بجامعة غلاسقو . وجاءت النتائج مخيبة للامال بسبب نقص المياه ، وقررت المنظمة — رغم بقاء زانجويل على حماسه الاول — عدم القيام باي عمل اخر بالنسبة الى تحقيق الوطن القومي في برقة .

وجاء عرض تقارير البعثة في الفصل الخامس (الكتاب الازرق) الذي اصدرته المنظمة الاقليمية بلندن في يناير ١٩٠٩ . ويبدأ بمقدمة تاريخية وسياسية لاسرائيل زانجويل ويرد المؤلف اتهاماته للعثمانيين بانهم فرضوا العزلة على ليبيا مستشهدا بالرحلات الكثيرة التي قام بها الاوربيون ، كما يرد تهمة ما حمّله زانجويل للعرب وللاتراك من مسؤولية الاوضاع السيئة التي آلت اليها برقة . كذلك تكشف المقدمة بعض اسرار الاطماع الصهيونية في الوطن العربي ومؤامرتها على الدولة العثمانية، وصلتها بانقلاب الاتحاد والترقي ، وتلي المقدمة مجموعة الدراسات التي اعدها اعضاء البعثة (الموقع والحدود، جيولوجية المنطقة وتضاريسها، الموارد المائية ، دراسة للتربة والانتاج النباتي وتصنيف للاراضي وانواعها ، الامطار ، المناخ الحيوانات ، الطيور والحشرات ، تقرير صحي ، عدد السكان وما يمكن ان تستوعبه المنطقة بادخال الزراعة الحديثة) . وتتخلل هذه الدراسات العلمية اشارات سياسية هامة غايتها تقديم الخطوات الاساسية الضرورية لتوطين اليهود مع جملة انطباعات عامة عن السكان المحليين وعلاقاتهم بالاتراك وتسلحهم وطبيعتهم القتالية مما يجعلهم على غير استعداد للترحيب بالقادمين الجدد . والحق بهذه الجوانب العلمية دراسة ناحوم سلوش عن اليهود واليهودية في برقة القديمة ، وغرضه ، كما ذكر من قبل ، ابراز الخلفية التاريخية التي تبرر فكرة انشاء الوطن القومي اليهودي ، وهو يعتبر برقة امتدادا لفلسطين فيما وراء النيل ، وليبيا ، في رأيه ، تنتظر اصالتها وسكانها الاصليين من اليهود .

ويعرض المؤلف في ختام الفصل لصدى لصدور الكتاب عالميا ، ولا سيما في ايطاليا ، التي افادت كثيرا مما جاء فيه ، ويبين ان نتيجة التقرير كانت صرف النظر عن ليبيا والعودة الى فلسطين.

لقد قدم المؤلف في هذا الفصل ابرز ما في التقرير تقديما جيدا ، رغم انه اهمل ارفاق التقرير بخريطة توضح خط سير البعثة والمواقع التي درستها مع ان التقرير الاصلي ، كما نوه اليه ، مرفق بخريطة جغرافية ، ومقطعين جيولوجيين ، وخريطة طوبوغرافية و ٣٢ صورة . وقد بالغ بعض الشيء في قيمة التقرير ، حين جعل الكتاب الازرق مصدرا اساسيا لمعرفة جغرافية وتاريخ برقة ، ذلك ان ما ورد في التقرير انما كانت له غايات اخرى غير الغاية العلمية المحض ولا سيما الجوانب التاريخية . كذلك فان المدة القصيرة التي قضتها البعثة والظروف التي احاطت بها لم تكن كافية باي حال لدراسة علمية متأنية . وهذا النقد وجه الى التقرير من قبل عدد من كتاب الغرب انفسهم .

وقد لا تكون الجوانب العلمية الصرف هامة بالنسبة الى كثير من القراء العرب الذين وجه اليهم الكتاب ، وتطلعوا الى ان يروا فيه تحليلات سياسية توضح طبيعة الحركة الصهيونيةواساليبها وما بينها من تشابه سواء كانت في برقة او في فلسطين . وهذا ما نجده في المقدمة السياسية للتقرير التي كتبها زانجويل وفي بعض اشارات رئيس البعثة وفي الخلفية التاريخية لسالوش ، لكن المؤلف مضى عند كثير من هذه المواقع دون ان يوليها عنايته الكافية ، او انه التفت اليها التفاتات خطابية عاطفية ، ولا سيما الجوانب التاريخية، فخرج في كثير من تعليقاته عن الروح العلمية الهادئة المخلة الى طبيعة انفعالية .

في الفصل الختامي (الفكرة من جديد) يكشف المؤلف عن ان تشرشل اشار في مؤتمر بوتسدام اثناء النقاش حول مصير المستعمرات الايطالية السابقة الى امكان منح اليهود جزءا منها دون أن يحدد ليبيا بالذات . لكن اليهود كانوا قد قطعوا شوطا بعيدا في فلسطين فلم يكن لهذا الرأي اي اثر عملي . هذه الاشارة غير المحددة لا يمكن ان

توحي ببعض ما وصل اليه المؤلف من تخمين في ان اليهود حاولوا احياء الفكرة من جديد ، كما انه لم يعطنا تعليلا للاسباب التي دفعت تشرشل الى هذا الاقتراح وظل الامر مجرد تخمين .

واذا كان هناك من كلمة شكر اخيرة فهي شكر المؤلف على ما قدم للقارىء الذي غابت عنه كثير من الخبايا التاريخية ، وان كان الذي قدمه بحاجة الى تبويب جديد ، والى تركيز وتحليل وتخلص من الاستطراد .

د. خيرية قاسمية

Bichara et Naïm Khader, **Textes de la révolution palestinienne, 1968-1974.** (Paris, La Bibliothèque Arabe Sindbad, 1975).

في فترة التصاعد الثوري التي سبقت احداث ايلول ١٩٧٠ ، اصدرت دار الطليعة للطباعة والنشر مجموعة من بعض الوثائق الخاصة ببعض منظمات الثورة الفلسطينية ، (خاصة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين) وكانت هذه الكتب عبارة عن جمع لعدد من وثائق كل منظمة ، دون شروح او تحليلات ، وكان الكتاب السنوي الذي تصدره فتح يضم بين دفتيه وثائق هامة غير محللة . ومن المؤكد ان وسائل الاعلام في منظمات الثورة كانت تحلل وثائقها وتطرح ذلك على الجماهير وعلى قواعدها في كتيبات او مقالات ، ولكن لم يصدر عنها نشرات تضم النصوص والشروح معا ، ولم تصدر المكتبات العربية او منظمات الثورة كتبا تضم سجلا كاملا أو شبه كامل يعرف بالمنظمة ويحدد المبررات التاريخية لتشكيلها ، ويقدم وثائقها الفكرية المركزية ، ويحدد موقعها داخل الثورة الحالية ، وموقع الثورة الحالية داخل المسيرة النضالية الطويلة للشعب الفلسطيني لينتقل بعد ذلك الى تقديم جدول زمني لاهم مؤتمراتها وعملياتها الاساسية والمنعطفات التي مرت بها . وبسبب هذا النقص الاعلامي التوثيقي، يمكن اعتبار كتاب « نصوص للثورة الفلسطينية ، ١٩٦٨ — ١٩٧٤ » الذي كتبه بشاره ونعيم خضر عملا قريبا من العمل التوثيقي المطلوب ، فهو يبدأ بمقدمة تاريخية تحتل ثلث الكتاب تقريبا ، وتطرح مسيرة النضال الفلسطيني منذ العام ١٩٠٠ حتى العام ١٩٧٤ ، وتلقي الضوء على الارضية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبشرية لهذا النضال في كل مرحلة من مراحله ، وتحدد موقع الثورة الفلسطينية الحالية على خط المسيرة النضالية الفلسطينية الطويلة ، وعلى خط الصراع العربي — الاسرائيلي المتفاعل جدليا مع خط الصراع الفلسطيني ضد الغزوة الصهيونية . ثم يعرف بالمنظمات ويقدم بعض وثائقها ، ويضيف الى نهاية الكتاب جدولا زمنيا يفيد الباحثين .

ويقسم المؤلفان مسيرة النضال الفلسطيني الى ثلاث مراحل : **المرحلة الاولى** ، وتبدأ منذ مطلع هذا القرن وتنتهي مع نهاية حرب ١٩٤٨ . ولقد كان الشعب الفلسطيني خلالها مقيما على ارضه يناضل ضد الصهاينة والبريطانيين معا . **والمرحلة الثانية** ، وتشمل الفترة الواقعة بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٦٧ ، وتتميز بتشتت جزء من الشعب الفلسطيني خارج ارضه ، وبقاء جزء اخر تحت الاحتلال او في منطقة خاضعة للحكم الاردني ، وقيام الحكومات العربية بالوصاية على النضال الفلسطيني . **والمرحلة الثالثة** ، الواقعة بين حرب ١٩٦٧ والعام ١٩٧٤ ، وتتميز بقيام الشعب الفلسطيني بأخذ المبادرة النضالية وشن الكفاح المسلح تحت قيادة منظماته الثورية .

ويركز المؤلفان على أن أهم نقطة في المرحلة الاولى ، هي أن مقاومة الشعب الفلسطيني للغزوة الصهيونية لم تتوقف يوما منذ بداية قدوم الموجات الاولى للاستيطان الصهيوني ، وان عجز هذه المقاومة عن ايقاف المخطط الصهيوني يعود

الى التحالف البريطاني — الصهيوني من جهة ، وعجز القيادات الفلسطينية والعربية التقليدية عن قيادة النضال بشكل حازم ضد العدو الثنائي ، وتبنيها لخط مساوم كان يجهض الهبات والانتفاضات الجماهيرية ، ويمنعها من التحول الى ثورة تحريرية . ويدعم المؤلفان هذه الفكرة بعدة استشهادات تاريخية كأحداث القدس ويافا (١٩٢٠ — ١٩٢١) ، والمؤتمرات الوطنية الفلسطينية (١٩١٩ — ١٩٢٨) ، وثورة ١٩٣٥ — ١٩٣٦ . ويؤكدان على ان وقوف القيادات التقليدية الى جانب مصالحها المتناقضة مع مصالح الجماهير ، جعلها اقل ثورية من هذه الجماهير ، وغير مؤهلة لقيادتها ، ومستعدة للمساومة على تطلعاتها العادلة ، كما ان عدم وضوح الرؤية لدى هذه القيادات بالنسبة الى معسكر العدو ، وفصلها بين الصهيونية وبريطانيا ، جعلها تتساهل مع سلطات الانتداب ، وتطبق مخططات التهدئة البريطانية وتكتفي بتوجيه نقمة الجماهير نحو الصهاينة ، بدلا من ان تعبئها ضد البريطانيين والصهاينة معا .

ويختلف نضال المرحلة الثانية في طبيعته عن نضال المرحلة الاولى ، لان الشعب الفلسطيني فقد بعد حرب ١٩٤٨ هويته ، ولم يعد له قيادة سياسية توجهه او حركة سياسية تجمعه وترسم له طريق النضال اللازم لتحقيق اغراضه ، الامر الذي أدى الى ضعف زخم الحركة النضالية الفلسطينية . ويرد المؤلفان هذه الحالة الى ثلاثة عوامل : ١ — قيام الانظمة العربية بتبني القضية الفلسطينية رغم عدم كفاءتها لحمل اعباء هذه المهمة ، وتبنيها لشعار «التحرر يمر من الوحدة» ، ٢ — انشاء منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة احمد الشقيري ، والاعلان عنها في ٢٨ ايار ١٩٦٤ ووقوف الخلايا الثورية الفلسطينية المصممة على خوض الكفاح ضد هذه المنظمة ، والنظر اليها وكأنها « وزارة خارجية بلا دولة » ، أو « قطعة اسفنج لامتصاص الزخم الثوري للفلسطينيين » . ٣ — سياسة القمع والاحتواء التي طبقتها اسرائيل على العرب الفلسطينيين .

ثم جاءت المرحلة الثالثة بعد حرب ١٩٦٧ التي كسرت القيد الذي كان يكبل القوى الفلسطينية وعرفت الثورة الفلسطينية مرحلة نهوض ثوري . واخذت العمليات العسكرية الفدائية تضغط على المجتمع الاسرائيلي ، وتذكر العالم بوجود الشعب الفلسطيني ، وكانت بندقية الثائر الفلسطيني السلاح العربي الوحيد المرفوع في وجه العدو الصهيوني المنتصر . وعرفت الثورة الفلسطينية فترات نهوض وفترات كبوات . وحصلت على المساعدة العربية ، كما تعرضت لضربات عربية من الخلف ، ولكنها تابعت مسيرتها باصرار . ويأخذ المؤلفان على الثورة خلال هذه المسيرة انها لم توحد صفوفها ، وبقيت موزعة الى عدة منظمات ، وهما يعتبران ان وراء تعدد المنظمات عدة عوامل اهمها — كما يذكر المؤلفان — سياسة الدول العربية التي شجعت التعدد وغذته بغية احتواء الثورة والتأثير عليها وضبط خطواتها . وساعدها على ذلك توزع الشعب الفلسطيني داخل الاقطار العربية ، وتبنيه لمختلف التيارات الايديولوجية . ويصل المؤلفان في نهاية المقدمة الى حرب ١٩٧٣ التي كانت منعطفا هاما بالنسبة الى القضية الفلسطينية ، والى موقف الدول العربية من الصراع العربي — الاسرائيلي ، وموقف دول العالم من القضية الفلسطينية . وهما يركزان على نقطتين: تتمثل اولهما في الانعكاسات الايجابية للحرب على المعسكر العربي ، وانعكاساتها السلبية داخل اسرائيل . اما الثانية فهي اهمية اعتراف العالم بمنظمة التحرير كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني ، والمعاني السياسية لدعوة رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير ياسر عرفات الى الامم المتحدة في العام ١٩٧٤ ، وربط كل حل للصراع في الشرق الاوسط بايجاد حل يضمن حقوق الشعب الفلسطيني . ويختم المؤلفان الطرح التاريخي بالتأكيد على ان نضال الشعب الفلسطيني الذي يكافح اليوم سيستمر ويتصاعد حتى ينتزع هذا الشعب حقوقه كاملة على أرضه .

ويلي المقدمة مجموعة من النصوص المختارة من وثائق منظمة التحرير الفلسطينية ، وفتح ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين . وقد اراد المؤلفان عند اختيار النصوص الرد على خمسة اسئلة هي : ١ — اندلاع الثورة وهدفها ، ٢ — تصورات مهمات ما بعد حرب ١٩٦٧ ، ٣ — كيفية

حل ازمة الثورة بعد مجـازر الاردن في ايلـول ١٩٧٠ ، ٤ ــ مهمات الثورة بعد حرب ١٩٧٣ التي بدلت الوضع بشكل جذري في الشرق الاوسط ، ٥ ــ الحل الديمقراطي للقضية الفلسطينيـة ، والعلاقة المستقبلية بين العرب واليهود .

وبالاضافة الى المقدمة التاريخية التحليليـة ، فان علينا ان نذكر للكتاب ايجابيتين : تتمثـل اولاهما في الاسهام بتعريـف القـارىء الغربـي بمنظمات الثورة الفلسطينية ، عن طريق المقدمات التي سبقت النصوص ، وحددت ظروف نشأة كل منظمة من المنظمات الاربع ، ومراحل تطورهـا ، وطبيعتهـا التنظيميـة وتوجههـا الايديولوجي ، بالاضافة الى وجود فصل في نهاية الكتاب حـول نشأة وتطور منظمات : الصاعقة ، وجبهة التحرير العربية ، والجبهة الشعبية لتحريـر فلسطـين (القيادة العامة) ، وجبهـة النضال الشعبـي الفلسطيني ، والهيئة العاملة لتحرير فلسطـين ، ومنظمة فلسطين العربية ، والمنظمة الشعبيـة لتحرير فلسطين ، والانصار ، وقوات التحريـر الشعبية ، وايلول الاسود . اما الثانية ، فتتمثل بالجدول الزمني المذكور في نهاية الكتاب ، والذي يحدد اهم احداث النضال السياسي ــ العسكري للشعب الفلسطيني ، والاحداث العسكرية فـي المنطقة منذ العام ١٨٩٦ حتى العام ١٩٧٤ .

والى جانب هذه الايجابيات ، فقد وقع الكاتبان في اربع سلبيات تتعلق بتحديد ماهية الكفـاح المسلح الفلسطيني ، واختيار المنظمات ، واختيار النصوص ، واختيار الموضوعات .

١ ــ ماهية الكفاح المسلح الفلسطيني : لقـد اختار المؤلفان لكتابهما اسم « نصوص للثـورة الفلسطينية » . وكان هذا الاختيار يعني انهمـا تبنيا المقولة التي تؤكد ان الكفـاح الفلسطينـي المسلح الذي اندلع في العام ١٩٦٥ وتصاعد بعـد العـام ١٩٦٧ ، حتى حـول قضيـة الشعـب الفلسطيني من قضية انسانية الى قضية سياسية، ومن قضية لاجئين الى قضية شعب يطالب بحقوقه الوطنية ، هو عبارة عن ثورة مقابل المقولة التي تؤكد ان هذا الكفاح هو مقاومة دون ان يذكـر سبب هذا التبني ، ودون التعرض للحوار الذي دار بين منظمات الثورة الفلسطينية حول هـذه المسألة بعد العام ١٩٦٧ . وكان من الممكن تجاوز هذا الاختيار واعتباره موقفا لـو ان المؤلفـين استخدما تعبير « ثورة » وحده في جميع ما كتباه. ولكن من الملاحظ انهما استخدما تارة تعبير «ثورة»، وتارة اخرى تعبير « مقاومة » ، الامر الذي يخلق لدى القارىء الغربي بعض التساؤلات حول طبيعة هذه الحركة النضالية المسلحة ، وهل هي ثورة أم مقاومة ؟ وما هو موقف المؤلفين من هذه المسألـة الهامة ؟ ولو عاد المؤلفان الى كراس رقـم ١ من سلسلة دراسات وتجارب ثوريـة ــ فتح (مـن منطلقات العمل الفدائي) ، ومجلـة الثـورة الفلسطينية عدد ١١ (فتح) ، وكراس الكادحون والثورة (ج.ش.ت.ف) ، وكراس المقـاومة ومعضلاتها (ج.ش.ت.ف) ، وكتاب حركـة المقاومة في واقعها الراهن (ج.ش.د.ت.ف.)، وكتاب حول ازمة حركة المقاومـة الفلسطينيـة (ج.ش.د.ت.ف) ، وتقرير المكتب السياسـي ١٩٧٠/٨/٢٢ (ج.ش.د.ت.ف.) ، ومجـلات ونشرات المنظمات الثلاث المذكورة ، ومجلة شؤون فلسطينية الاعداد ٢ و ٤ و ٧ (احاديث مع قادة منظمات الثورة) ، للاحظا الى اي مدى تختلـف نظرة المنظمات الى هذه المسألة ، والى اي مدى يتباين تقييمها لطبيعة النضال الدائر منذ العـام ١٩٦٥ ، وهل هـو نضـال وطني او وطني ــ اجتماعي . ولامكنهما بعد ذلك اختيار التعبير الذي يتبنياه ، واستخدامـه بشكل موحـد في جميـع صفحات الكتاب .

٢ ــ اختيار المنظمات : ان مما لا شك فيـه ان المنظمات التي اختارها المؤلفان هي منظمـات اساسية وفاعلة . ولكن هذا الاختيار الذي اقتصر على منظمتين تمثلان تجمعا وطنيا (منظمة التحرير، وفتح) ومنظمتين تتبنيان الماركسية ــ اللينينيـة وتطمحان الى التحول الى حزب البروليتاريـا ، قد تجاهل طرح افكار ونصوص منظمتين تتبنيـان الفكـر القـومي ــ الاشتـراكي ــ الوحـدوي (الصاعقة وجبهة التحرير العربية) . وفي هذا اغفال لجانب اساسي من الافكار المتفاعلة داخل الثورة الفلسطينية .

٣ ــ اختيار النصوص : يذكر المؤلفان انهمـا اختارا أهم النصوص القادرة على توضيح الافكار

الاساسية للمنظمات الاربع ، ولكن النصوص المختارة لتوضيح افكار منظمة التحرير الفلسطينية اسقطت مقررات المجالس الوطنية الفلسطينية وتجاهلت النصوص المختارة بالنسبة الى فتح ، كراسات سلسلة دراسات وتجارب ثورية التي تعطي صورة واضحة عن اسباب اندلاع الثورة واهم افكارها ومنطلقاتها ، وتجاهلت بالنسبة الى ج.ش.ت.ف. كراس الاستراتيجية السياسية والتنظيمية (١٩٦٩) ، والنظام الداخلي (١٩٧١)، وكتاب الهدف « الكادحون والثورة الفلسطينية » (١٩٧٠) ، وكتاب الهدف « المقاومة الفلسطينية ومعضلاتها » (١٩٧٠) ، وكراس « الثورة والعمال » (١٩٧٠) ، وكراس « نحو التحول الى تنظيم بروليتاري ثوري » (١٩٧٠) ، وكراس « النهج الثوري في مواجهة التحديات » (١٩٧٤). رغم اهميتها كنصوص تحدد افكار (ج.ش.ت.ف.) اما بالنسبة الى (ج.ش.د.ت.ف.) فقد تجاهل المؤلفان كراس « مشروع برنامج جبهة وطنية فلسطينية موحدة » (١٩٦٩) ، وكراس « حملة ايلول — دروس ونتائج » (١٩٧٠) ، وتقرير المكتب السياسي للجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين (١٩٧٠/٨/٢٢). وبالاضافة الى ذلك ، فقد اسقط المؤلفان نصوص الاحاديث التي اجرتها مجلة « شؤون فلسطينية » مع قادة منظمات الثورة ونشرتها في الاعداد ٢ ، و ٤ ، و ٧ ، رغم اهميتها الفكرية وقيمتها التاريخية .

٤ — **اختيار الموضوعات:** ان اختيار الموضوعات أمر يخص المؤلفين . ولكن الموضوعات الخمسة التي اختار المؤلفان النصوص المذكورة لالقاء الاضواء عليها لا تمثل ، رغم اهميتها ، اهم الموضوعات الفكرية التي طرحتها الثورة. ولا يمكن اعتبارها بالتأكيد اهم من تحديد العدو والصديق ، والموقف من الجماهير ، والبعدين العربي والطبقي للنضال الفلسطيني ، والوحدة الوطنية ،والحزب، والطبقة التي تقود الثورة ، وموقع الثورة الفلسطينية داخل الثورة العالمية ، والحل السلمي ، والرفض . وكلها موضوعات طرحتها الثورة في ادبياتها ، ودار حولها حوار طويل بين المنظمات ، وكان لبعضها دور في تحديد مسيرة الثورة في مختلف مراحل نموها وصعودها وتعثرها.

ويمكن ان توجه الى الموضوعات الخمسة المختارة نقدا اخر هو انها تدور حول المقولات السياسية ، دون التعرض للمقولات العسكرية ، مع ان الثورة الفلسطينية ثورة سياسية — عسكرية، تستخدم الاسلوبين السياسي والعسكري بتناسق تام لتحقيق الهدف . واذا كانت السياسة ترسم الخط الاستراتيجي ، فان القتال هو الاداة لتنفيذ هذا الخط ، وهو وسيلة لتدمير قوى العدو المادية والمعنوية ، بالاضافة الى انه اعلام مسلح. ولقد كان من الضروري تعريف القارىء الغربي بالصورة الكاملة للثورة الفلسطينية عن طريق ذكر النصوص التي تبين سبب تبنيها للكفاح المسلح ، وحرب التحرير الشعبية ، وحرب العصابات ، ورأيها في العنف الثوري في مجابهة العنف القمعي، والسبب الذي دفعها الى تشكيل الميليشيا الشعبية المسلحة ، وموقفها من العمليات الخارجية ، ومفهومها للعلاقة بين الجيوش النظامية وقوات الثورة نظرا للتداخل العضوي بين الحرب النظامية العربية وحرب العصابات التي تشنها الثورة الفلسطينية .

ورغم سلبيات الكتاب فهو بمجمله كتاب جيد يسد نقصا في المكتبة الفرنسية التي تفتقر الى كتب وثائقية حول الثورة الفلسطينية ويعطي القارىء الغربي صورة شمولية لنضال الشعب الفلسطيني، ويرد من خلال الوثائق على بعض تساؤلاته حول افكار الثورة الفلسطينية التي رسم شهداؤها بدمائهم الطريق الى التحرر ، وشدوا انظار دول العالم الى قضية شعبهم ، واجبروها على الاعتراف بقضيتهم العادلة .

سلمى حداد

محمد عبد الرؤوف سليم : **تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧ — ١٩١٨** ، قسمان . (معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٤) .

مضمون ومادة هذا الكتاب أوسع من عنوانه ، وأضيق من العنوان في نفس الوقت . ومن الناحية الاولى ، فان الكتاب لا يقدم فقط تاريخا للحركة الصهيونية خلال الفترة المذكورة ، وانما يتناول تاريخ « الحركة اليهودية » أو تاريخ أغلب روافدها ما بين ١٨٩٧ و١٩١٨ . ومن ناحية ثانية ، فان فترة الدراسة أضيق كثيرا من الفترة المحددة في العنوان ، وتكاد تكون مركزة فيما بين ١٩١٤ و١٩١٨ ، بحيث يكون تناول ما قبل ذلك مجرد تمهيد لدراسة التيارات اليهودية — صهيونية وغير صهيونية — من سنوات الحرب العالمية الاولى . وقد أشار الى ذلك الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم [الذي أشرف على هذه الدراسة الجامعية الممتازة] فذكر ان الموضوع تناول « فترة زمنية قصيرة ، هي فترة الحرب العالمية الاولى ، بعد تمهيد قصير للفترة السابقة منذ اجتماع المؤتمر الصهيوني الاول سنة ١٨٩٧ حتى قيام الحرب » . ومن الافضل ان تسمى الاشياء بأسمائها ، فالاخذ بعنوان الكتاب يؤدي الى الحكم على الجزء الخاص بما قبل الحرب العالمية الاولى بأنه ضعيف للغاية ، حين نقارنه بالبحث العميق ، والتقصي الشامل لاحداث السنوات ١٩١٤ — ١٩١٨ ، مع ان الامر ليس كذلك حين نرى في ذلك الجزء مجرد تقديم وتمهيد لصلب الموضوع .

وأيا كان الامر ، فان الفصل التمهيدي ، الخاص بمجالات التحرك الصهيوني قبل الحرب العالمية الاولى ، يعتبر مع الخاتمة أضعف حلقات هذا السفر الضخم الذي يقع في قسمين الاول يتكون من ٣٩٨ صفحة والثاني يضم حوالي ٣٠٠ صفحة ، بالاضافة الى ٢٧٨ صفحة من الملاحق . وينقسم الكتاب الى اثني عشر فصلا ، قد يغني ايراد أسمائها عن محاولة العرض والتلخيص ، وتحمل الفصول العناوين التالية : تطور اوضاع اليهود الروس قبيل الحرب العالمية الاولى واثناءها ، التشكيلات الصهيونية واليهودية في وسط وغرب اوربا والولايات المتحدة الامريكية اثناء الحرب ، يهود فلسطين قبيل الحرب العالمية الاولى وأثناءها ، دوافع التقارب البريطاني الصهيوني ، التحرك الصهيوني نحو الدوائر البريطانية ، المباحثات البريطانية الصهيونية غير الرسمية ، موقف اليهود المعارضين للصهيونية ، المباحثات البريطانية الصهيونية الرسمية ، الاصداء العالمية لتصريح بلفور ، العرب وتصريح بلفور ، لجنة وايزمان الى فلسطين ، أصول التكوين العسكري الصهيوني .

وسبقت هذه الفصول مقدمة كتبها المؤلف عبارة عن تلخيص للكتاب وتعريف بالمراجع التي استند اليها والمنهج الذي اتبعه ، كما سبقها الفصل التمهيدي عن الحركة الصهيونية قبل نشوب الحرب العالمية الاولى . وتلت الفصول خاتمة سريعة لا تتلاءم بأي حال مع مثل هذه الدراسة القيمة ، وما يمكن استنباطه من دروس مستفادة من خلال هذه القراءة المتمعنة والفاحصة للعمل الصهيوني خلال فترة من أكثر فترات النشاط الصهيوني جهدا، ومثابرة .

ونظرة واحدة الى محتويات الكتاب كما ذكرت اعلاه ، تجعل صاحبها يضع يديه على ملاحظتين هامتين في هذه الدراسة العلمية الرصينة :

الملاحظة الاولى : صعوبة تلخيص الدراسة ، وذلك بسبب غزارة معلوماتها ، وكثرة التشعبات في الرصد والعرض . وقد جمع الكاتب مادة علمية غزيرة حول موضوعه ، خاصة في أغلب الامور الفرعية ووضع يده على جوانب وقضايا قلما درسها باحثون عرب بهذا القدر من التوسع والاستيعاب . ولكن بعض الجوانب غطيت بشكل أفضل من جوانب أخرى . وفي كل ذلك ، اتبع المؤلف جانب السرد ، وايراد الحقائق وربطها في تسلسل او تتابع تاريخي ، بحيث طغى ذلك في أغلب الاحوال على جانب التحليل . والسبب في ذلك هو المنهج التقليدي الذي اتبعه المؤلف ، بحيث ان اطار التقسيم فرض عليه ضعف الجانب التحليلي ، مما أوقعه — دون قصد — في عثرات كان يمكن أن يتجنبها .

مثال ذلك ، ان المؤلف يتابع موقف كل دولة او كتلة من الدول تجاه الحركة الصهيونية . ومن خلال

السرد والشرح يبين ان كـل دولة سعت الـى استخدام الصهيونية اداة لتحقيق أهدافها ــ أي أهداف هـذه الدوله ــ مـع خدمة الاعـداف الصهيونية . في مقابل ذلك ، يختفي الوجه الاخر من العملة . وهو سعي الصهيونية لاستخدام كل دولة وتوظيفها لخدمة الاهداف الصهيونية ، ولا مانع في ذلك من التحالف مع الدولة وعدوها في نفس الوقت . فقد برعت الدبلوماسية الصهيونية براعة ميكيافيلية لا مزيد عليها ، كما ان تقسيم الادوار مبدأ صهيوني ثابت في التعامل الدولي وفي العلاقات الدولية . وأحداث السنـوات الاربع ١٩١٤ ــ ١٩١٨ ملأى بالعديد من الشواعد على ذلك .

الملاحظة الثانية : ان هذه الدراسة الممتازة افتقدت جانبين كـان يجب أن لا يغيبا عن ذعـن المؤلف . الجانب الاول هو الاطار الدولي الذي تمت وجرت فيه الاحداث ، والصراعات الدولية التي أدت الى قيام الحرب العالمية الاولى . ان هذه الدراسة هي بالاساس دراسة في تاريخ حركة ذات طابع دولي ، أي أنها ــ في النهاية ــ دراسة في تاريخ العلاقات الدوليـة . فكيف تكتمل هذه الدراسة دون تسجيل الاطار الدولي الذي صاحب هذه التطورات ، ان غياب هـذا الجانب أدى بالمؤلف الى التكرار من ناحية والى عدم وضوح او توضيح التطورات بشكل كاف من ناحية اخرى . والجانب الثاني هو تطور الهيكل التنظيمي للحركة الصهيونية الذي غاب تماما واختفى كلية من هذه الدراسة .

وبالطبع ، فان هاتين الملاحظتين لا تقللان كثيرا من الجهد الكبـير الذي بذل في تقديم مثل هـذه الدراسة الرائعة ، التي يكفي اي كاتب فخرا ان ينتج مثلها في عمره . فما بالنا وهذه هي باكورة أعمال المؤلف . لا شك انه يعد بتقديم الكثير .

وبالمثل لا يقلل من شأن هذه الدراسة بعض الملاحظات الاخرى او الخلاف في وجهات النظر . من ذلك ، تصوير نجاح الصهيونية في الحصول على وعد بلفور من بريطانيا على انه نجاح دعائي (القسم الاول ص ٣١٨) . وهذا خطأ لا يجوز ان يقع فيه باحث مدقق مثـل الاستاذ عبد الرؤوف سليم . وهو ما كان ليقع في ذلـك لو انه تابع العلاقات الصهيونية مع القوى الرأسمالية الكبرى، حيث لم يكن صدفة ان تصريح بلفور كان بريطانيا ولم يكن فرنسيا او ايطاليا او حتى امريكيا . لقد كانت بريطانيا أكبر قوة امبريالية في ذلك الوقت . وأكبر قوة امبرياليــه طامعة في احتلال الوطـن العربي .

وبالمثل أيضـا . يجانب المؤلف الصـواب في تصويره (ص ٨٥ و٨٩ مـن القسم الاول) ان اصدار تصريح بلفور كان محاولة بريطانية لكسب اليهود الروس . ربما يكون هذا العامل قد لعب دورا ، ولكنه بالتأكيد ليس العامل الاعم ، ولا الاول وراء الوعد البريطاني « لليهود » بوطن قومي في فلسطين .

ويورد المؤلف (القسم الاول ص ١٤٩) قول كاتب صهيوني هو فينكلشتين: « أحسن البريطانيون استعمال امكانيات اليهود ، ولكن عدفهم الاول كان تقديم المصالح الاستعمارية على الاماني القومية اليهودية . لقـد تطلبت المصالح الاستعماريـة استقرار الشرق الاوسط بوجود سكان وحكومات سهلة الانقياد » ، وهذا صحيح ، ولكنه لا يدعم ما ذهب اليه المؤلف من تفسير النجاح الصهيوني على انه نجاح دعائي ! بالاضافة الى ان الكاتب لم يشرح بالشكل المطلوب ــ كما سبق القول ــ التلاقي (أو التعانق على حد التعبير الشائع عذه الايام) بـين الاستعمـار البريطاني والاهـداف الصهيونية ، واكتفـى بالحديث عـن المصالـح البريطانية في فلسطين وعن موقع فلسطين الجغرافي.

والتاريخ في النهاية ليس وقائع صماء . انه حي دائما وغير قابل للنسيان . وفي عذه الدراسة يورد المؤلف صفحات عن التأييد الامريكي للصهيونيـة منذ البداية ، ودور الصهاينة الامريكيين في صدور وعد بلفور ، ودور الرئيس الامـريكي ويلسون صاحب المبادىء الاربعة عشر (والمناضل من اجل السلام !) في اصدار هذا الوعد . وأحيانا نكون مطالبين بأن نقرأ التاريخ برؤية الحاضر . وهذا يصدق على دراسـة الاسـتاذ رؤوف سـليم ، خاصة حينما تعلو نبرة الحديث عن ابتعاد امريكا عن اسرائيل ، وامكانية الضغط الامريكي على اسرائيل .

يقول الكاتب [القسم الثـاني ص ١٠٦ ــ ١٠٧] : « ان الحكومة البريطانية عملت على

استغلال علاقاتهـا بالصهيونيين كعـامل لتحقيق مآربها ، فكانت كل فكرة تولد في لندن توضع محل اختبارات مسبقا في واشنطن ، كما كان كل اقتراح يصدر في واشنطن يلقى اهتماما بالغا في لندن ... كما ان النتائج الحاسمة للمباحثات البريطانيـة الصهيونية تدين بوجودها بشكل او آخر الى عناية الرئيس الامريكي ويلسـون — بالشؤون الصهيونية. لقد كانت اللجنـة التنفيذية المؤقتـة للشـؤون الصهيونية العامة قد جذبت انتباه الرئيس ويلسـون — وكانت قد شكلت في نيويورك في ١٤ اغسطس سنة ١٩١٤ برئاسة برانديس . ويذكـر فيليب جريفـاز في كتـابه : « فلسطين أرض العقـائد الثلاث » ان عطف الرئيس ويلسون علـى الاهداف الصهيونية اثر على كل من الحكومتين الفرنسية والايطالية اللتين كانتا حتى ذلك الوقت لا تبديان عطفا على الحركة الصهيونية . وأدى الى تضامن هاتين الحكومتين مرحليا مع الحكومة البريطانية بهذا الشأن » .

وتكاد الليلة تشبه البارحة ، بل وتماثلها ، طالما ان المصالح الاساسية للقـوى الاساسية التـي رسمت صورة البارحة لا تزال هي التي ترسـم صورة الليلة !

ولعل ذلك يبدو أوضح ما يكون في دور أمريكا في التكوين العسكري الصهيـوني خلال سنوات الحرب العالمية الاولى ، ويتلخص هـذا الدور أساسا في عبارة واحدة يوردها المؤلف [القسم الثانـي ص ٢٨٠] : « .. ان الصهيونيـين الامريكيين أظهروا صراحة ان الغرض من التكوين العسكري اليهودي تكويـن نواة لجيش الدولـة اليهودية المرتقبة ، بعكس اليهـود البريطانيـين الذين أظهروا مجـرد الاستعداد للاشتـراك في التحرير ، وأخفوا الاتجـاه الى ترك المجنديـن اليهود في فلسطين بعد طرد الترك منها » .

وبالطبع ، فان بعض الملاحظات التي تؤخذ على هذه الدراسة والتي ذكرت أهمها ، لا تقلل بأي حال من القيمة العلمية والعملية لكتاب الاستاذ رؤوف سليم ، الذي أستطيع أن أزعم أنه مـن أفضل ما كتب باللغة العربية حتى الآن عن هذا الموضوع . ويجب أن يشار هنا ، ويشاد أيضا ، بالدور الذي لعبـه مركز الابحاث الفلسطينيـة ومؤسسة الدراسـات في توفير المصـادر لهذه الدراسة ، التي لم تكن لترقى الى المستوى الذي صدرت به بدون هذه المساعدة ، حيث أن القاهرة لا تزال تعاني حتى الآن — وبكل أسف — نقصا في المراجع الاصلية عن الحركة الصهيونية ، وجذور القضية الفلسطينية ، فضلا عـن سوء الخدمات المكتبية ، اذا توافرت الكتب ، بحيث أصبح أي باحث مصري جاد لا يملك الا أن يشق بأظافره في الصخر .

وقد أشار الكاتب الى ذلك في المقدمة ، وأشار الى قضية يجب ان توضع تحت انظار الباحثين ، وهي احتفاظ الامانة العامة لجامعة الدول العربية بصورة فوتوغرافية من وثائق وزارة الخـارجية البريطانية ، التي افرج عنها بعد مرور خمسين عاما على تحريرها . ويقول المؤلف (القسم الاول ص ٩) انه لم يتمكن من الاطلاع على هذه الوثائق « الا بعد توسط الاستاذ الدكتور احمد عزت عبد الكريم (المشرف على الرسالة) لدى الدكتور سيد نوفل الامين المساعد لجامعة الدول العربية » . الى هذا الحد ، أصبح الاطلاع على وثائق بريطانية مصورة يحتاج الى وساطة ، وأين في جامعة الدول العربية وبخصوص قضية نردد كثيرا أنها قضية العرب الاولى . وأبسط الواجبات نحو قضية هذه مكانتها ، ان تتاح وثائقها وكتبها وصحفها وجميع مصادرها لكل الباحثين الجادين ، بدون عوائق او قيود روتينية .

وما دمنا بصدد الحديث عن المصادر والوثائق ، فان هناك أكثر من ملاحظة حول الوثائق التي الحقها المؤلف بدراسته . وأهم ملاحظة بهذا الخصوص هي ان الكاتب لم يستثمر الوثائق بشكل كامل في صلب الدراسة ، بحيث أصبحت الوثائق وكأنها — رغم أهميتها — مجرد ملحق اضافي للدراسة . مع ان دور الوثائق في مثل هذه الحالة ليس كذلك . وقد أحسن الاستاذ عبد الرؤوف سليم صنعا حين قدم لكل وثيقة ، وحاول ان يستخلص أهم ما فيها ، ولكن أين صدى هذه الوثائق في صلب الرسالة او في « متنها » على حـد تعبير الاقدمين ؟ ان الوثيقة تضاف لاي دراسة من أجل اثبات وجهة نظر جديدة مخالفة لما سبق الاخذ به ، او اضافة شيء جديد لم يسبق لاحد الاخذ به ، او انها تلقي أضواء جديدة على وجهة نظر معروفة.

هذه — في حدود ما أعرف — وظيفة الوثيقة حين تضاف كملحق لاي دراسة ، على ان يقوم الباحث باستخراج ما يريد قوله استنادا لهذه الوثيقة واضافته الى دراسته . لقد اتبع الاستاذ رؤوف سليم المنهج العلمي الصحيح في تسجيل الوثائق وفي التقديم لها ، ولكنه لم ينجح بالشكل المطلوب في القاء ظلال ذلك على دراسته الرفيعة المستوى ، اقصد في صلبها أو في متنها .

مرة اخرى ، كل هذه الملاحظات لا تنقص كثيرا من تقويم هذه الدراسة . واذا كان عرض اي كتاب او نقده لا يمثل اكثر من وجهة نظر شخصية للعارض او الناقد ، فاني لا املك نفسي من القول بأن هذه دراسة جديرة بأن توصف بأنها لا يمكن ان تغيب عن مكتبة اي مهتم — فضلا عن اي باحث — في الشؤون الصهيونية ونشأة الحركة الصهيونية وتطورها . انها تعتبر بأي مقياس دراسة رفيعة المستوى ، لم يكن ينقص صاحبها الا بعض الاجادة في « صناعة » الكتابة وفنها ، ليقدم لنا دراسة فريدة في موضوعها .

عبدالعال الباقوري

Stewart, Desmond : **Theodor Herzl.**
(Doubleday - New York 1974).

قبل ان احصل على هذا الكتاب ، قرأت في احدى الصحف البريطانية مراجعة له بقلم حاييم بيرمانت ، كان ابرز انتقاد فيها يدور حول ما اعتبره بيرمانت تركيزا زائدا على الناحية الجنسية في حياة هيرتزل . الا ان قراءتي للكتاب اثبتت لي تجني بيرمانت على ستيوارت ، وكذلك اوضحت لي اسباب الامتعاض الذي استقبل به المعلقون الصهيونيون هذه السيرة الجديدة . فان ستيوارت قد وجه الضوء الى الزوايا المظلمة في حياة هيرتزل ، وهو اذا لم يكن قد استكشف خفاياها كلها ، فهو على الاقل قد اخرج مؤسس الصهيونية السياسية الحديثة من هالة التمجيد التي احاطه بها سائر المؤرخين ومؤلفي السيرة ، وقدمه الى القراء بدون رتوش .

ذكر ستيوارت في مقدمة كتابه انه استوحى فكرة تأليف كتاب عن حياة هيرتزل من دراسته لتاريخ الشرق الاوسط في الحقبة الممتدة بين افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ وعصرنا الحالي (وهي الفترة التي الف عنها ستيوارت كتابا يدعى : معبد جانوس) . فقد استحوذ هيرتزل على اهتمامه البالغ ، وذلك للغموض الذي احاط بشخصيته . فقرر ان « يستكشف حياة هذا الانسان الذي عاش من ١٨٦٠ الى ١٩٠٤ ، والذي جمع في شخصه صفات الحالم ورجل العمل الى درجة فريدة ، دون ان يساهم (اي ستيوارت) في الجدل الدائر حول الحركة السياسية المرتبطة بهيرتزل ، فيدلي برأي لها او ضدها » .

والواقع ان هيرتزل يشكل مادة فريدة لكاتب السيرة ، لا سيما اذا جاء الاخير بعد سلسلة من المؤلفين الذين قاموا ، بحكم انتمائهم السياسي ، بعملية تنقيح وترتيب في الوقائع والدوافع ، فازالوا واخفوا ، وتلاعبوا بالاحداث ، وكل ذلك لكي يخرجوا بصورة لبطلهم تختلف اختلافا كبيرا عن الواقع . وقد اضطر ستيوارت الى ان يلعب دور المخبر ومتتبع الاثر من اجل ان يصل الى الحقيقة ، او الى جزء منها ، على الاقل . فزار بودابست حيث ولد هيرتزل ، وزار فيينا حيث اقام معظم حياته . كما طاف بباريس ولندن ونيويورك والقاهرة ، يجمع المعلومات ويدرس خلفية الموضوع . والنتيجة هي كتاب عميق يخلو من الافكار المسبقة بقدر ما هو غني بالمعلومات التي تساهم في استجلاء الغموض حول حياة هيرتزل ، وبالتالي حول العقلية التي انجبت العقيدة الصهيونية الحديثة .

ولد هيرتزل في مدينة مجرية تابعة لامبراطورية يغلب عليها الطابع الجرماني ، فاطلق عليه ابوه يعقوب اسما المانيا شائعا هو : تيودور (وهي تسمية مشتقة في الاصل من الاغريقية وتعني : هبة الله) فنشأ في كنف عائلة ميسورة الحال ، ثقافتها المانية بحتة ، وممارستها لشعائر عقيدتها اليهودية ليست شديدة التعصب . لذا لم يكن مستغربا ان يحصل على درجات سيئة في درس الدين ، فان اهتمامه كله كان منصبا الى دراسة الادب والحضارة الالمانية . وكان عظيم الاعجاب ببسمارك ، وبالدولة البروسية . وكذلك تأثر كثيرا بالمشاريع الهندسية الكبرى التي كان المهندس الفرنسي ده ليسبس يقوم بها ، فاصبح طموحه الاول ان يصبح مهندسا . ولانه الابن الوحيد (كانت له اخت تدعى باولينه ، تكبره بسنة) فقد نشأ مدللا ، ومنذ البداية رأت فيه امه « سيماء العبقرية » ، وباركت فيه طموحه الزائد . وعندما انهى دراسته الثانوية ، التحق بالجامعة ليدرس القانون ، بعد ان اكتشف ان الهندسة ، حلم طفولته الاول ، لم تكن بالدراسة المتلائمة مع امكاناته الفكرية .

ونحن نلاحظ معالم انفصام الشخصية في هيرتزل منذ شبابه الباكر . فهو مثلا لا يصادق الا اليهود ، لكن شريطة ان يكون هؤلاء من غير المتدينين ، اي مثله . وهو يبذل جهده كي ينتمي الى احدى الجمعيات الطلابية التي تمارس المبارزة، مع انه يحس في قرارة نفسه بان هذه الجمعيات تضم اناسا ينظرون الى اليهود بترفع آري . انه مفتتن بالشخصية الجرمانية ، لكنه يشعر بانه لا يستطيع الانتماء الى عالمها الخاص ، حتى وان مارس عاداتها وتقاليدها كالمبارزة . ان كبرياءه وشعوره بيهوديته تدفعانه الى خوض غمار مبارزة واحدة ، ولكنه لا يكرر هذه التجربة*. وهو اثر تخرجه يلتحق بسلك القضاء ، ولكنه بعد ذلك ينصرف الى العمل الصحفي في صحيفة يمتلكها يهود ، بحجة ان يهوديته لن تسمح له ابدا بان يرتقي سلم الوظيفة الى ان يصبح قاضيا .

وفي هذا الموقع من الكتاب ، يكشف ستيوارت عن سر اخفاه سائر المؤلفين الذين سبقوه في الكتابة عن هيرتزل . فهو ينشر رسالة كتبها هيرتزل الى احد اصدقائه وفيها ذكر لاصابته بمرض زهري .

لقد تزوج هيرتزل من فتاة جميلة غنية بعد علاقة حب ، الا ان الزواج كان فاشلا من البداية . ولما كانت المراسلات بين الزوجين قد اختفت دون اثر ، فالمعتقد ان مرض هيرتزل هو الذي حطم حياته الزوجية ، فقضى أيامه في تنقل مستمر بين مدينة ومدينة ، وبلاد وبلاد ، وكأنه مدفوع برغبة لا تقاوم في الابتعاد عن اسرته .

ويقول ستيوارت بأن « يهودية » زوجة هيرتزل كانت أمرا مشكوكا فيه . فهي لم تبد أي اهتمام بمشاريعه الصهيونية ، ولم تنشيء اولادها نشأة دينية ، ولم تهتم بختان ابنها هانس** ، فنشأ غير مختون. الا أنها سمحت لزوجها بأن يبدد دوطتها على طموحه السياسي ، وعندما مات ابوها وترك لها ثروة كبيرة ، وضع هيرتزل يده على هذه الثروة بحجة انه يخشى عليها من تبذير زوجته !

والى جانب فضحه للاسرار التي حرص اتباع هيرتزل على كتمانها ، يقوم ستيوارت ايضا بنسف بعض الاساطير التي حاكها هيرتزل حول بعض دوافعه . فهو يقضي على الاسطورة القائلة بأن هيرتزل اصبح صهيونيا اثناء تغطيته لمحاكمة الضابط الفرنسي اليهودي دريفوس في باريس . ففي ١٨٩٤ ــ ١٨٩٥ ، وهو تأريخ هيرتزل لبداية صهيونيته ،

---

* ان جمعيات السلاح المنتشرة في جامعات المانيا والنمسا منذ أوائل القرن الماضي تعتبر المبارزة بالسيف بمثابة رياضة ، كالملاكمة ، تثبت الرجولة والشجاعة ، ولذا فان اعضاءها يمارسون المبارزة عدة مرات اثناء دراستهم الجامعية ويفخرون بالندوب التي تتركها في وجوههم . وهذا النوع من المبارزة ليس مرتبطا بالرغبة في الدفاع عن الشرف وغير ذلك ، فالتحدي ، والاستجابة له ، يبقيان على المستوى الرياضي ، ولذا فالمبارزة لا تترك الا جروحا بسيطة ، ولا تخلف اية مشاكل بين المتبارزين .

** هانس او جون (بالانكليزية) هو احد الاسماء القليلة التي لا يطلقها اليهود على ابنائهم وذلك لارتباطها بالمسيحية ، ولكن هيرتزل اختار هذا الاسم المسيحي لابنه ، وكذلك لم يختنه .

لم يكن بامكـان المراقب المحايد ان يحكم على دريفوس بالبراءة من تهمة التجسس لحساب المانيا التي وجهها القضاء اليه ، وبالتالي يقفز الى الاستنتاج بأن الموجود في قفص الاتهام هو الشخصية اليهودية التي طالما لحقها الاضطهاد عبر التاريخ . لقد كان دريفوس مظلوما ، الا ان براءته التامة من تهمة الخيانة العظمى لم تظهر الا فيما بعد . اذن فان صهيونية هيرتزل تسبق المحاكمة الشهيرة التي هزت فرنسا .

لقد عقلن هيرتزل صهيونيته عندما أشار الى انها جاءت كرد فعل طبيعي على موجة المعاداة للسامية التي جرفت فرنسا يومذاك ، لكنه لم يشر أبدا الى الحركة المضادة لهذه الموجة ، وهي الحركة التي تزعمتها مجموعة من ابرز رجالات فرنسا ، ضمت جورج كليمنصو واناتول فرانس واميل زولا ، واستطاعت ان تحصل لدريفوس على التبرئة التامة ورد الاعتبار الكامل . ان ستيوارت يبين بوضوح ان الطموح العارم للوصول الى السلطة واحراز المجد والشهرة ، هو الذي غرس في نفس هيرتزل العقيدة الصهيونية . انه في هذه المرحلة من حياته يربي لحية كثيفة ذات شكل آشوري ، ويبدأ في التبشير لعقيدته ، ويسمع الناس ابنه وهو يسأل امه : ماما ؟ هل علي ان اداوم في المدرسة اذا اصبح بابا ملكا ؟

هل كان هيرتزل سينصرف الى التبشير بالصهيونية لو انه احرز النجاح كمؤلف يا ترى ؟ لقد قضى شبابه كله باحثا عن المجد كأديب ، فألف الروايات والمسرحيات ، لكن النجاح الوحيد الذي حاز عليه كان كصحفي يتمتع بأسلوب شيق ، لا سيما في كتابة المواضيع الخفيفة . ولذا يستشهد ستيوارت بعالم النفس الاميركي (اليهودي) لوينبرغ الذي كتب دراسة تحليلية عنوانها : تيودور هيرتزل — دراسة نفسية تحليلية في الزعامة السياسية الجماهيرية ، وفيها يقول لوينبرغ : « ان هيرتزل الذي أخفق في المسرح حول السياسة الى مسرح ، فأصبح المخرج ومدير المسرح وحجز لنفسه دور البطولة . أما المسرحية فكانت تدور حول انقاذ شعب ... » .

وقد حاول المؤلفون الصهيونيون ان يضفوا على بطلهم ملامح الروحانية الدينية ، فكتب أحدهم (اندريه شوراكي) عن حاجة هيرتزل للصلاة ، وزيارته للمعبد في باريس ، بينما يستشهد ستيوارت بمذكرات هيرتزل التي تبين بأن نظرة هيرتزل الى المصلين في المعبد كانت كنظرة مرشح النيابة لابناء دائرته الانتخابية . ان مذكرات هيرتزل مليئة باشارات الاحتقار والازدراء للشعب الذي يريد ان يتوج نفسه ملكا عليه ، وكأن الكاتب هو آري عريق لا يطيق رؤية الانوف المعقوفة والوجوه الشاحبة .

والواقع ان هيرتزل لم يستطع الفكاك ابدا من بيئته وحضارته الجرمانية . ولستيوارت ملاحظة ثاقبة في هذا الشأن ، فانه يستشهد بفقرة من كتابات هيرتزل يقول فيها : عندما يصل اليهود ، الى «بلادهم الجديدة» سيقفون حاسري الرؤوس ليحيوا رايتهم . والطريف هنا هو ان اليهودي ، كالمسلم ، يغطي رأسه كاشارة احترام ، بينما الذي يعري رأسه احتراما هو المسيحي ! وهكذا نرى ان هيرتزل كان بعيدا كل البعد عن الحضارة اليهودية وتقاليد الشعب الذي يريد انقاذه .

وينسف ستيوارت اساطير اخرى في سياق روايته لحياة هيرتزل . فكتابات المعجبين تستفيض في التحدث عن حنوه على اولاده ، بينما يبين ستيوارت بانه بالرغم من اشارات هيرتزل المتعددة الى ابنائه في يومياته ، فمن مجموع خمس اشارات الى اعياد ميلادهم ، نجد ثلاثا منها تتضمن خطأ في تعيين أعمارهم ! ثم هناك الاسطورة المتعلقة بحاييم ماكوبي ، احد مشاهير رجال الدين اليهودي بين معاصري هيرتزل . فان ماكوبي قضى حياته كلها يعارض الصهيونية السياسية ويندد بدعوة هيرتزل . ولكننا نجد اسمه اليوم في عداد مؤيدي هيرتزل الاوائل وهناك قاعة في احدى الجامعات الاسرائيلية مكرسة لذكراه !

اما رحلة هيرتزل الى فلسطين ، وقد استغرقت تسعة ايام بالتمام والكمال ، وكانت الزيارة الاولى والاخيرة ، فان يوميات هيرتزل نفسها تقضي على الاسطورة التي حاكها المؤرخون حول حالة النشوة التي انتابته وانتابت صحبه عندما اقتربت السفينة التي تقلهم من « الساحل اليهودي »*. فهو كان يعاني من سوء الصحة ، وقد أتعبه حر فلسطين ، وهذا كله عكر له مزاجه . الا ان الزيارة التاريخية

---

* يذكر ستيوارت القارىء بأن العبريين القدماء لم يسكنوا ابدا الساحل الفلسطيني .

اصبحت جزءا لا يتجزأ من الميثولوجيا الصهيونية ، فزورت صورة لتظهره واقفا امام القيصر الالماني الذي كان يزور فلسطين في ذلك الحين . لكن الحقيقة بقيت ثابتة ، وهي ان هيرتزل رجل اوربي صميم ، يخشى الحر الشديد ، ويرتبط الشرق في ذهنه بالمستنقعات والثعابين وبالاتوام الهمجية التي لا تتردد في هجر وطن اجدادها في سبيل المال . فبالنسبة اليه ، القومية هي مفهوم اوربي لا يفقهه الشرقي . وهو متأثر بذلك الامبريالي البريطاني الشهير : سيسل رودس ويريد ان يقتفي خطواته في تأسيس مستعمرة اوربية في الشرق . الا ان التطورات داخل الحركة الصهيونية تثير شجونه ، فان يهود اوربا الشرقية الذين لم ينعموا ببركة الحضارة الجرمانية يريدون تأسيس دولة عبرية تستمد روحها من التوراة وليس من بسمارك او رودس . كما ان علاقته مع زوجته تزداد سوءا ، لا سيما وانه انفق الجزء الاكبر من ثروتها وهجرها. وهي ايضا معتلة الصحة ، ولعل ذلك يعود الى اصابتها بالعدوى منه . ولكن ذلك كله لا يطفىء جذوة الحماس في نفسه ، بل انه يفكر في القيام بغارة على قصر يلدز في الاستانة لعزل السلطان عبد الحميد ، وتعيين سلطان آخر مكانه يكون على استعداد لمنحه فلسطين ! وهو اينما ذهب يهمس في آذان الناس منوها بقوة اليهود الكبيرة ونفوذهم الممتد في كل مكان ، ومحذرا من النتائج الوخيمة ان لم تستجب الدول الكبرى لمطالبهم في انشاء دولة لهم . وفي هذا السياق ، يشير ستيوارت الى كتاب بروتوكولات حكماء صهيون ، ليذكر بأن هذه التهديدات بقوة اليهود الخفية قد أعطت مصداقية لهذا الكتاب الذي ما زال العالم يجهل هوية مؤلفه .

وأخيرا يموت هيرتزل .. لقد قتله طموحه . ومع ان وايزمن كتب بعد ذلك في مذكراته : التجربة والخطأ ، يقول بأن هيرتزل لحسن حظه مات في الوقت المناسب ، الا ان طاحونة الدعاية الصهيونية ظلت تنتج المزيد من الاساطير . انها اولا أسدلت الستار على المرض الذي انهى حياته ، اذ هناك اشارة مبهمة الى ان قلبه المريض الذي كان قد ادى الى اعفائه من الخدمة العسكرية في شبابه ، هو الذي كان السبب في موته . ولكن ستيوارت لم يتمكن من العثور في سجلات وزارة الحرب النمساوية على الاسباب التي ادت الى اعفاء هيرتزل من اداء واجبه العسكري، ولذا فالافتراض ما زال قائما بأن موت هيرتزل جاء نتيجة للمرض الزهري الذي اصيب به في مطلع شبابه .

وماتت زوجته بعده بثلاث سنوات وكانت قد أوصت بوجوب حرق جثمانها . ويميل ستيوارت الى الاعتقاد بأنها ذهبت ضحية للعدوى التي اصابتها من زوجها . ولما كان السر في خلاف الزوجين كامنا على الارجح في رسائلهما المتبادلة ، فقد اختفت هذه الرسائل دون اثر .

الا ان مأساة آل هيرتزل الحقيقية كانت في حياة الابناء . فان ابنته باولينه ادمنت المخدرات وفشلت في حياتها الزوجية وماتت في بوردو بفرنسا عام ١٩٣٠ . أما هانس فقد درس في انكلترا واقام بها واعتنق الكاثوليكية ، ولكنه كان عرضة للامراض العصبية ، فلم يتزوج . وقد عانى من الفقر ، ولم يكن يطيق ان يذكر اسم ابيه امامه . وكان شديد التعلق بأخته باولينه ، وبعد مدة قصيرة من وفاتها انهى حياته بيده . أما تروده ، فقد تزوجت رجلا تشيكيا ، الا انها ظلت طول حياتها تعاني من الاختلال العقلي ، واخيرا ماتت في معسكر نازي للاعتقال في عام ١٩٤٣ ، تاركة ابنا وحيدا يدعى ستيفان تيودور نويمان ، خدم كضابط في الجيش البريطاني اثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم عين ملحقا تجاريا في السفارة البريطانية بواشنطن ، ولكنه قفز منتحرا من جسر في العاصمة الاميركية ، وكان في الثامنة والعشرين من عمره وآخر سلالة هيرتزل . ويقول ستيوارت انه اوضح دوافعه للانتحار في اوراق سلمها الى الياهو ايلات ، مندوب الوكالة اليهودية في واشنطن ، ولكن هذه الاوراق لم تنشر ابدا . ويكتب ستيوارت : من الجائز ان يكون قد اكتشف سرا متعلقا بعائلته ، فادى هذا الاكتشاف الى الاخلال بتوازنه العقلي . ما هو هذا السر ؟ لا ندري .

فارس المنصوري

Tahar Ben Jelloun, **Le discours du chameau,**
(Maspero, Paris, 1974).

انه يؤرخ لحركة العالم ابداعيا . هذا ما يفعله بن جلون هنا مستغرقا في الحاضر المجلل بالفاجعة العربية ، باحثا في هذا السواد عن مفتاح يشرع له باب الافق .

في قصيدة واحدة تشبه المطولة الملحمية ، وكصور في شريط سينمائي تمتد حبال هذا الشعر امام قارىء عربي معني بكل حرف يقال له . وبعيدا عن جغرافيا الذات الانانية ، تتفتح اثلام القصيدة الجلونية مرتوية بماء الذات — الجماعة التي تتمثل هنا بالجمل العربي .. أعرق مطية لها منذ فجر الزمن ، وباعتبار هذا الجمل اول جسر عبر عليه العربي من نوم الصحراء الذي كانت تسدر فيه الى الواحات والحواضر ، حيث يخرج الزمن من وحدانيته الى الشرك الابدي .

الاف من القوافل اعتلت ظهر هذا المسافر الدائم المحتفظ مع الماء في اعماقه باسرار الاعراب الرحل والامهم . وهــا آن الاوان لينفتح هذا الجمل بذاكرة الصحراء ، وليعلن على الملأ انه الجندي المجهول والفارس المغامر والامام الواعظ وراء المحراب .

مأزق الذاكرة العربية

انها « موعظة الجمل » هذا الملك المتوج على الذاكرة العربية تطفو على وجوده ، يقتلها فتبعث . وهي المأزق المختمر . واذا كان فتجنشتاين يقول : « ان حدود لغتي هي حدود عالمي الخاص » فان لسان حال بن جلون يقول : « ان حدود ذاكرتي هي حدود عالمي الخاص » . وبما ان الشاعر يجهد للافلات من هذه الخصوصية ، فمن الطبيعي ان يجهد لتدمير الذاكرة .. هذه الذاكرة التي يخصص لها الشاعر جزئين من مطولته ، يلقي بها سارية الكلام ويعود الى المرفأ بواسطتها ايضا .

أول البحر هو هذه « الذاكرة الاثمة » والافق هو « الذاكرة المجرية » ومـا بينهما يعلو موج الكلام ويهبط ، وسدى ينجو من هذين الحدين : البدء والخاتمة . في احدى وظائف الشعر الاساسية هنا « تفيق الذاكرة عند الفجر » .

الشعر هنا لا يعاني ، لان الماضي سد لا يمكن تقويضه ، بل ان المعضلة الكبرى في نظره هي منع زيت الذاكرة من تلويث بحر الحاضر حيث تبدأ طلائع الثورة في الايناع . وبعكس بروست الذي امضى حياته بحثا عن الزمن الضائع لدرجة انه تنسك في سبيل الذاكرة — الجنة ، فان بن جلون لا ينفك عن اطلاق ابشع الالقاب عليها . انها الذاكرة التعسة التي سوف نغطيها بالرماد « الذاكرة المجنونة » « الذاكرة الخاوية في جليد الصباح » . بل انه يذهب الى حد التهكم من اسرارها وجمالاتها ، فهي مجرد « حجاب بلا لغز » ..

الاغتراب في شعر بن جلون ايضا يكمن في ان الانسان العربي ينفتح بالماضي ، وهو من اكثر الاغترابات اشكالا ، علما بان الذاكرة هي المرفوضة ، ولكنها الجذر المتمسك بأرضه . ان اصرار بن جلون هنا على نفيها يسير بهذا الشعر على طريق معاكس للشعر الرومانسي المتمحور حول الذات الطاغية وعقدها . ان خضرة الصحو هنا هي النافذة التي يطالب بن جلون بفتحها ليكتب للانسان التغيير ، باعتبار ان الذاكرة نوم مؤبد :

« الاطفال يطالبون بفقدان الذاكرة
هم لا يصدقونكم ابدا
هم يتامى العصر الذهبي
والشرخ في الذاكرة التعبة »

وكمنبه يقرع لايقاظ السادرين ، او لاحاطتهم بالخطر المحيق بهم ، ترجع كلمة « ذاكرة » تكرارا في القصيدة . ان ثقل الاتهام يقع عليها من خلال التكرار ، اذ ان بن جلون يعتبرها الفاعل الاول في الزمن الانساني . ومن موقع الاتهام هذا يحمل بن جلون على « الاجداد الذين شربوا العار في آنية من رماد ، وصادروا احلامنا » انهم هاجس الرعب يهدد الكيان العربي الذي ما يزال مخدرا بأم كلثوم « النهر الذي لا يستيقظ » « النيل المنتظم في حروف تنازع على جنس مريض » . بل ان تبج الماضي

يدفع ببن جلون الى رؤية الرموز الجماعية ضمن ثباتها وسلبيتها . وهكذا يبدو الحمام عصفورا من البلاستيك .

دون عوادة نشتعل حرب بن جلون على الماضي — المسخ الى ان تسقط كل اصنامه ، ويحتضر الزمن بشكله العمودي . آنذاك يصح القول ان بن جلون تخلص من الذاكرة الآثمة والذاكرة المحنكة .. وكانت بداية الخلود ، باعتبار ان كل احتضار للذاكرة هو نوع من الولوج الى الابد : « وضعت حجاب الموت الابيض على ذاكرتي » ..

رويدا، رويدا ، ينتشر الشاعر في عوالم الافقي، متخلصا من جرثومة الزمن « روحي ازرق .. لا ليست هذه بصورة . كجمال ناظم حكمت ، صرت ملاكا .. انا خفيف . خفيف جدا ، فالى بوابة الجنة احرسها » .

مع ولادة الخلود ، صار الجمل الواعظ غير جمل الصحراء ، باعتبار ان الكائن هو انعكاس ما للمكان . صار جملا زمانه فضاء . وتحول الرمز الى اعرق ما في الحياة العربية ، واكثرها اتصالا بالارض ، تحول الى طائر ابتكرته موهبة الرفض. هو بين الارض والسماء مزيج من براق وجمل .

البتر اسلوبا ثوريا

لان الماضي الذي يجهد بن جلون في التخلص منه ماض قريب ، غير ماضي الامجاد والفتوحات، فان الشاعر لا يخلص تماما من مأزق الذاكرة التي تعبر عن « ذاكرة النكبة » . بل انه يمكننا القول ان الحاضر هو شكل من اشكال الماضي ، لان فلسطين تشده الى الماضي القريب . فلسطين هذا الخيط اللامرئي الذي يجعل الحاضر ماضيا بالقسر ، فهو وهذا الماضي توأمان : ٤٨/٦٧/٧٣ .. ثلاثة تنويعات على الفاجعة العربية .

ولكن هل تتوقف مهمة الشاعر عند نفض الغبار، غبار الغموض عن الانظار ، ومنح الظلال ، واعطاء الاشياء حجمها الحقيقي ؟ لو كان الامر كذلك لما كان هناك شعر ثوري . ان غنائية النفي وحدها لا تكفي لايقاظ بذور الثورة في القلب العربي .

من هنا كان لا بد للشاعر ان يكون ايضا محرضا . اي ان ينتقل من مستوى الوصف الى مستوى الحركة . ومن البديهي ان يكون الحوار مدخلا لهذه الحركة . الحوار بكل درجاته ، تتوسع به دائرة الكلام . ندخل به انا وانت وهو، عسى يبرق في الافق بلقائنا بصيص امل عربي . اكثر ازمنة الحوار ترددا في هذه المطولة ، هو زمن المخاطب حيث يجهد الايقاع بكل ما يملك من وسائل عنف الى ان يكون ايجابيا . وليس من شك بان ضمير المخاطب هو اكثر الضمائر اهلا بالحضور .

« تعودتم صنع التاريخ / مداخنكم تبصق دما اسود في السماء / دما غريبا / كلابكم تعرفه / خائنون انتم من الجمال المتدفقة من الجزيرة العربية / في بطونها يضج اطفال ولدوا تحت الخيام / اطفال قرروا تصحيح التاريخ وتحريك اسفلت طمأنينتكم » .

في منطقة المخاطبة ، يصير الوعي اكثف واكثر واقعية ، الشعر هنا يقترب من المواجهة ، او بتعبير اخر من المسرح ، وندا لند يتلاقى الشاعر والقارىء . ضمن هذا التحرك الثنائي ، يمضي الشاعر في ايضاح المسؤوليات وتوزيع التهم . وكلما كان القارىء المفترض ابعد منالا (الانسان الغربي بالتحديد) انهال سوط الشعر بعنف اكبر :

« لا وقت لديكم للحلم
لا وقت لديكم لاكتشاف شعب مشرد
دفنتم مذابحكم
قبل العودة الى اجسادكم » .

لا شك في ان هذا التهديد والوعيد آنيان ، يمران بسطح الكيان دون ان يقتربا من زلزلة الاعماق ، في حين ان المطلوب هو ايجاد بديل للذاكرة ، اي اعطاء الحاضر بعد الزمن كله . وليس سوى الدهشة بالمعنى البريختي للكلمة قادرة على اقتحام سكة الذات الملتوية ، وانتاج الانتباه للحاضر .

« ثمة جسد متبرج
وجه يبكي لونا
يصعد في عربة
يمد لسانه
يرجم بالحجارة واللهب رجلا في كيس

هذا الرجل ورث خيمة وحبلا

انه عربي »

بقدر ما يقحم الشعر هذه الذات في الواقع الصلف ، ينتبه القارىء الى المأساة المرابطة في كل جزئيات وجودنا . الحوادث اليومية ترتبط مباشرة بالفاجعة حين ستسلم لجهر من جلون اللغوي . والاستشهاد بها كوسيلة من وسائل المقاطعة البريختية ، يوقظ الملل النائم والمقترن باليأس .

« قررت الحكومة

تقديم احتجاج لمجلس الامن ، بعد الهجوم الاسرائيلي

الذي وقع ليل الثلاثاء الاربعاء

يبدو ان العملية خلفت ضحايا كثيرة في صفوف الفلسطينيين

الذين خسروا اكثر من مائة قتيل وجريح »

طبعا ، لا ينجو الشاعر من فخ النثرية وهو يجهد للتحريض . بل ان التآلف مع القضية يصل الى ذروته حيث يغتني الرمز ، ويزدهر النص بالصور التي تصل الى القارىء بسرعة اكبر من سرعة قصاصات الجرائد .

جسر التناقض

ما بين الغنائية الاراغونية الصافية تنبع من نهر القلب ، والمقاطعة البريختية كوسيلة من وسائل الاخراج ، وكنتيجة للعنف الخلاق ، تتمايل المطولة بين هبوط وصعود ، بين خطين شكليين : عمودي يسيطر عليه زمن الوصف الموضوعي (بنسبة ما هنالك من موضوعية في الشعر) وافقي يمسك بزمامه ضمير المخاطبة (احيانا الغائب) ، فنيهما تتلاحق الصور والاوصاف في سيل منتظم عموديا ، نراها تتهاوى فجأة في ايقاع عجل ومتوتر .

تبتدىء المطولة بان يوجه الشاعر العدسة نحو الكلام الذي يزخر بالتفاصيل كلما دخله الضوء اكثر ويموج بالعصبية مما يهز عمود الكلام ، ويلقي به في الايقاع الافقي ، بل في الايقاع المتناثر بتعبير ادق ، حيث ان العنف يعجز عن اعطاء هوية للسقوط .

« انا /

الجمل /

الدم السامي /

لا احسدكم على شيء

اعرف /

تعلمت ان فضيلتكم تقبع في بطن ضفدع /

ضفدع او فار » .

عند زواج النفي بالتأكيد ، يصل الشعر الى الذروة ، حيث تلتقي جميع الاضداد في واحد لتعود تتوزع من جديد في ديالكتيكية ابدية ، بين نفي وتأكيد ، بين ثبات وحركة ، بين وصف ووعظ ، اذ ان الجمل بين محطة كلامية واخرى يسدى لنا النصائح . وهنا ايضا لا تخلو المطولة من لهجة خطابية تسيء الى الغنائية الصادقة ، وحكم تجهد لتقليد اللافتات في قصائد بريخت ، ولكنها تبقى اقل نفاذا منها الى سلبية القارىء . ولحسن الحظ ما تلبث هذه الخطابية ان تذوب في التعاكس الدائم بين الموت والحياة :

« يعرف الذين يموتون

ان يكون حداد

ولا بكاء

ولا مراث

بل ولا صلاة الغائب »

ولكن

« لكن » التناقض تجهز نورا على الاستسلام والهزيمة بشكل علني ، خاصة وان بن جلون يفسح لها مساحة كالعنوان في القصيدة . اي بديل تطرح « لكن » سوى :

« الكبرياء الهائلة

المولودة على المنحدرات

والتي تعبر المدينة المعدنية اليوم دون ان تسمي السلطة القاتلة ، دون

ان تحدد المكان السري للجرح » .

« لكن » تعلن افتتاح الحدث في مناطق تتشكل مقابلة لمناطق الماضي . هنا وهناك ينساب النهر الشعري دون ان توقفه حصى الفواصل وحجارة النقط ، مما يحصر الزخم في مساحات متراصة تبدو للعين القارئة كمقاطع من مسرحية متمحورة حول المونولوغ الجماعي المنطوي على شعاع من

الامل ، اذ ان كـل تشاؤم مبالغ لا يمكن الا ان يشكل خيانة للثـورة التي هي في نهاية الامـر ديالكتيكية الفرح واليأس :

« دم فلسطين ترك ندوبا في الاسفلت

حيث الياسمين نابت في الخريف
دم الاطفال يخصب الارض
ويحرك الذاكرات »

نصوص مختارة

١ —

الجمل المولود قبل الهجرة بثلاثين عاما / هذا انا / وانا الكلم الضائع في التاريخ / المعجون بدم الشجر
لا جذر لي / لا وطن
واحنو على اطفال ولدوا
في مضاجع الرماد
وانا الجمل / رافعا عقيرتي :
مشروع عنف الفلسطينيين / عنف هذي النجمة الجامحة / الامل
القصي / اسمعوني
انا الجمل وهذي واحة وحشتي

٢ —

الفجر :

مرة واحدة اسمعوا نشيد النبع في عروقنا
نشيد النجم المزروع في الطين
انصتوا لسيول السماء تقول لا
للنسيان / انظروا اليد تتقدم / تهدى هـلالا /
انصتوا لقلب غسان كنفاني / نصف برتقـالة ودهش

قلب .. كتاب والامل غزال بين دفتيه
وفيه امرأة جالسة عند الفجر المكتبل / انصتوا
فرس الموت العجوز تروى الاسطورة / انصتوا
تصوغ لنا السماء سرير زهر / وتدمر الشمس
شمس تمنحنا العمى الابدي
وعيوننا ليل وفجر مصبوغ بالالم / انصتوا
عصفور تشرد بين المنفى والرمل يغرد / انصتوا
صحراء ترتد عن احلامكم
وفي الصحف اخبار عن الثأر / اجساد منسوفة
تشعل الحقد الذي يعصر صدوركم
وفي محاجركم ليل ييأس ونام /
ونهار تمزق وانطوى

في الزبد الوتور
ناهض هو النسيان مع الشمس
وكان المطر رمادا هذا الصباح فوق ميونيخ

٣ —

قصيدة مهداة الى محمود الهمشري

لا تبكوا الموتى
علمني الرمل / الشجر / الشمس
ان الموتى اغنياء / عن عبراتنا / شهداء كانوا او ربيعا او كوكبا / هذا قول امرأة عرافة كـل ذاكرة / مع فجر القلب الصامت / شيعت اطفالها برغيف شعير وحفنة زيتون .
شيعتهم / لم تبك / ارتحلوا ابدا / لم تبك /
سكنت حنايا زينته احلام الجبال المتسولـة /
سكنت زهرة تتفتح
بين شواهد القبور .
الغيم طوته بنسيان / وللنسيم ترهف :
محمود قضى بجراحه
محمود ولد في طولكـرم قبل بضع سنين مـن مجزرة دير ياسين
محمود مات في الخريف
وعلى ضفة الصمت الثانية هوت شجرة
في عذاب الذاكرة الملومة
لا تبكوا الموتى
آت زلزال الذاكرة المتهمة

٤ —

موجوع بوحدتنا/موجوع بموت شموس صغيرة/ اشتات سماوات صرن / تناثرن على قمة رابية

لم تعد الصباحـات تذكر الصمت / وكالطـل تساقطن حروفا عجماء .

موجوع بنهار كالسد ناهضا / كرمل ارتفـع حجابا بيننا

ونزعم اننا اخوة ولسنا رفاقا / وهم يطلقــون الاتهم المتقنة على الايدي التي تتفتح على الحياة
وبوجه العاصم تطالب بالارض والشجر والهوية
موجوع بالاهمال يتساقط من نجمة لا اعرفها
موجوع باجساد مدن مدهونة وعارية / مــدن بلا قلب / واراهم غرقى في حساباتهم / وجوههم مطلية بالزبدة يسترون بها رعبا يلون الجباه
اراهم : وجوههم جامدة وراء الزجاج / انهـم ندوب
زمان يكتب مصير احلامهم / ينبئهم بالزلزال
واراهم يحلبون ظلاما لمصالحة التاريخ
لكل شيء تبرير / ولكن حذار ان
تعبث الطفولة بالهدنة / وحذار
هنالك ما هو ألعن / الاشقاء حفارو قبورنا
الراقدون على سرير الحنان / ويحط على ذاكرتهم ذباب ونمل
القصيدة الولادة تصرخ بالاطفال
اطفال يمشون على رغوة البحر :
فليتوقف هذا السرب الحوام من النجم
الى العار ومن العار الى النجم
اي رماد في جمجمتي/مؤمنة ما زالت بحلم ممكن
اي دم تذره هذه الغبراء
اي زيتون يموت مع الفجر الباهت
اية اشعار يلجمها الموت الابيض
دعوني اتمرغ بالرمل لعلي افقد الذاكرة/انسى الناس / اموت .
الدمع في المحاجر / هكذا الاشقاء حفارو القبور
يذبحون الرفاق ينظفون العاصمة / يغسلــون جنسهم
هكذا يقيمون الصلاة وينسون
ولماذا اقول كل هذا ؟
لست اشكو
يموت منهم / كل يوم / في الحقول / في الرمال
والشمس والزيتون يعرفان
للارض الجريح اقول وللازرق والاخضر تشرعهما

ابواب السماء لي / وليشهد البحر وحده على جرحنا
اقوله حتى يرى الاطفال الفجر طالعا من احلامهم
وليعرف الملأ ان التاريخ مزور
اقول . . .
ولكن سدى يعظ الجمل
اقوله للصحراء اقول ويلون وحدتي دثار الرمل
صوب عمان تزحــف الصحــراء / الشفقة / العاصفة
تختنقان الارواح النتنة مصعوقة بعريها
اقول . . .
وكلامي يضيع في الكثبان
ايسمعونني / رحمي ليس مني / رحمي دهــري كعصفور
يرتعد على غصن ناحل /
رحمي صديق فاجأني في هنياني / غفر لي جنوني
وغادر الخيمة رحمي / لست اغني
غير جدير بموتي الليل والمنبعثين فجرا
حقير ما اغنيه / ما انا سوى جمل / تدر يتم حزين بدون يأس
هل ينسى التاريخ رفاقي / الاشقاء وغيرهــم يصرون
والاشقاء وغيرهم يجهلون خبايا الصحراء
في الفضاء حلم / في راحته الحق
وفي الفضاء نجمة جريئة تشرق على معاركه / وحبه
تشرق على زواج الغاب والشجر / وعلــى الحياة
تذبل التيجان / هذا تعبير الرؤيا
تنفجر في الشوارع العربية / تنشد المــوت / تناديه
الموت الهاطل من السماء

مراجعة وتعريب : أميرة الزين

تقارير

التربية القومية في المدارس اليهودية في اسرائيل

المقصود بالتربية القومية في المدارس اليهودية في اسرائيل ، هو ما تبذله أجهزة التعليم الحكومية الاسرائيلية ، الممثلة أساسا بوزارة المعارف والثقافة ، لخلق أجيال اسرائيلية تؤمن بالمعتقدات الصهيونية ، التي اعتنقها « جيل المؤسسين » الصهاينة ، وتعمل من أجل تحقيق اهداف الحركة الصهيونية في المنطقة .

ان اكثرية الطلاب اليهود في اسرائيل خاضعة لبرامج التعليم الحكومية ، بموجب قانون التعليم الحكومي لسنة ٥٧١٣—١٩٥٣ . والمدارس الحكومية تكاد تكون المسيطرة الوحيدة في حقل التعليم . ففي السنة الدراسية ١٩٧٣/٧٤ بلغ عدد الطلاب اليهود في معاهد التدريس اليهودية ، وعددها ٥٩٩٣ معهدا : ٨٤٤٫١٥٠ طالبا ، موزعين في مراحل الدراسة المختلفة ، بين المدارس الحكومية والمدارس الخاصة ، بحسب الجدول التالي[١]:

توزيع الطلاب في المدارس الحكومية والخاصة في السنة الدراسية ١٩٧٣/٧٤ (بالنسبة المئوية)

	تعليم حكومي	تعليم حكومي ديني	تعليم مستقل
معاهد ابتدائية	٦٩،٨	٢٤،١	٦،١
معاهد اعدادية	٦٩،٢	٣٠،٠	٠،٨
معاهد توجيهية	٧٣،٣	٢٢،٧	٤،٠
معاهد اعداد المعلمين	٦٣،٦	٢٥،٤	١١،٠

يتبين من الجدول أعلاه ، ان أكثر من ٩٥٪ من طلاب المدارس الثانوية الاسرائيلية ، واكثر من ٩٣٪ من طلاب المدارس الابتدائية ، يتلقون العلم في مدارس رسمية . واذا لاحظنا ان معاهد « التعليم المستقل » تابعة لحزب « اغودات يسرائيل »[٢] نجد أن كل طالب يهودي تقريبا في اسرائيل خاضع ، منذ دخوله مرحلة الروضة الى ان يتسرح من الجيش ، لبرنامج التعليم الصهيوني الرسمي ، خاصة وان تيار التعليم الحكومي الديني ادخل بتأثير الحزب الديني القومي (المفدال) ، المشترك في الحكومة .

وبالاضافة الى خضوع الطالب الاسرائيلي الى برامج التعليم الصهيونية الرسمية في هذه المدارس الحكومية ، هناك مختلف النوادي الثقافية والرياضية ومعاهد الشباب ، التي تتحكم بعقل هذا الطالب في اوقات فراغه . وهذه المعاهد والنوادي تملكها وتديرها مختلف الاحزاب الصهيونية ، مثل منظمات بني عكيفا واليتسور وغيرهما التابعة لحزب المفدال ، ومؤسسة بيت جابوتنسكي التابعة لحركة حيروت ، وكذلك مختلف النوادي التابعة للمجالس البلدية والتي تتحكم فيها الاحزاب الصهيونية ايضا .

وفي عام ١٩٧٠ تأسس « المجلس الصهيوني في اسرائيل » بهدف « العمل في ميادين الاعلام والتربية الصهيونية ، ولتشجيع روح التطوع لدى الجمهور الاسرائيلي ، وبشكل خاص لدى الشبيبة »[٣]. ويضم هذا المجلس ٦٦ مؤسسة شعبية ومنظمة ، بما فيها كل الاحزاب الصهيونية، وينظم كل سنة مئات المحاضرات والندوات الدراسية في مجال « التوعية الصهيونية » خاصة في المدارس الثانوية . وبالاضافة الى ذلك ، هناك اقسام التعليم و« التوعية الصهيونية واليهودية » في مختلف وسائط الاعلام الرسمية والحزبية وغيرها ، مما يخضع الطالب الاسرائيلي منذ حداثته لجهاز هائل ومتشعب للتربية والتثقيف الموجه ، بهدف خلق اجيال اسرائيلية تؤمن بأهداف الصهيونية ، كما وضعها آباء هذه النظرية .

تربية صهيونية موجهة ومفروضة

يتضح من مراجعة برامج التعليم في المدارس الاسرائيلية ، ومناقشات رجال الفكر والمتخصصين في شؤون التربية ، وكذلك من مناقشات الكنيست حول مهام وزارة المعارف والثقافة ، ان التعليم في اسرائيل موجه الى أقصى الحدود . وتنطلق خطة التعليم هذه من الافتراض ان « الحل الصهيوني » هو الحل الوحيد لمشاكل اليهود في اسرائيل وخارجها ، بحيث لا يوضع الطالب اليهودي امام الخيار الفكري: اعتناق الايديولوجية الصهيونية او سواها ، اذ أن هذه الايديولوجية تفرض عليه بشكل مباشر . والحوار القائم في اسرائيل حول التربية لا يدور حول اعتناق المبادىء الصهيونية او سواها ، بل حول اختيار افضل مواد الدراسة وافضل الاساليب والسبل لتلقين هذه المبادىء للشباب ، والعمل على تحقيقها من وجهة نظر واضعي سياسة التربية الصهيونية . ويتبع هذا الاسلوب في التربية تحت شعارات « التربية على اسس القيم القومية » و« تعميق الوعي اليهودي والصهيوني » .

ظهر هذا التوجه بشكل واضح من الحوار الدائر في اسرائيل على ارضية ظهور بعض الشكوك وعلامات الاستفهام لدى الشبيبة هناك، بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، وبشكل خاص بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، حول جدوى « الحل الصهيوني » وجدوى العيش على الحراب الى الابد . وقد اتهم البعض وزارة المعارف والثقافة بانها مسؤولة عن ظهور هذه الشكوك ، بعد ان قصرت في مجال « التربية على اسس القيم والمثل القومية» . الا ان المسؤولين في حقل التربية والتعليم دافعوا عن سياسة وزارة المعارف وأكدوا ان المدرسة الاسرائيلية لم تقصر في هذا المجال . فقد أعلن ، مثلا ، الدكتور دان روبين ، مستشار وزير المعارف والثقافة : « ليس صحيحا ان المدرسة لم ترب على أسس القيم والمثل القومية. انها تدرس قيم البطولة اليهودية ووجوب انقاذ الارض ويهود الشتات ... »[٤]. وفسر المستشار ردود فعل الطلاب الذين ابدوا ملاحظات لا تروق لمفكري الصهيونية ، بأدعائه انها غير ناجمة عن تقصير المدرسة في التربية على اسس القيم القومية، بل ان « هذا هو رد فعل كل جيل شاب يكتشف تلون الكبار ، ويرى الهوة بين أقوالهم وافعالهم ... ان الصهيونية لم تضع بعد قيام الدولة امام الجيل الجديد الا مجالا واحدا فقط ، هو الخدمة في جيش الدفاع الاسرائيلي . وتطبيق الصهيونية اليوم هو الخدمة في الجيش . ان الجيل الشاب لا يكفر بالاساس ، والاسئلة التي يسألها الشبيبة تنم عن القلق على مصير الشعب اليهودي ، ويجب أن لا تكون سببا لهجوم شامل عليهم ، بل حافزا لتربيتهم »[٥].

وكتب وزير المعارف والثقافة ، اهرون يدلين ، رسالة الى احدى الصحف الاسرائيلية ، عبر فيها عن موقفه من التعليم والتربية «على اسس القيم»، بقوله : « لا يراودني اي شك حول واجب التعليم في غرس القيم ، وفي التربية على اسس القيم والمثل القومية والاجتماعية والاخلاقية . التعليم في الحقيقة موجه الى الفرد ولكن بدون التربية على اسس القيم لن ينمو الطالب ليصبح انسانا ... انني أصر على وجوب وجود اتفاق قومي عام في مجتمعنا »[٦].

وكان يغئال الون ، وزير المعارف والثقافة سابقا ووزير الخارجية حاليا ، قد اوضح دور جهاز التعليم في تنفيذ المشروع الصهيوني ، بقوله في خطاب له في الكنيست عام ١٩٧٠ : « ... ان لجهاز التربية والتعليم ولبناء القيم في المجتمع الاسرائيلي ، دور حاسم في قدرتنا على الثبات ،

وخاصة قدرة الجيل الشاب علــى تحمل العبء الكبير الذي القاه التاريخ اليهودي المعاصر علــى عاتقه ... ان تعميق الجذور الروحية والفكريـــة لجيل الدولة ، يتطلب تعميق معرفته وتضامنه مع تلك الفترة المجيدة في ارض اسرائيل التي سبقت قيام الدولة ، والتي لا تقل في مدلولها القومي عن اهمية الخروج من مصر او عودة صهيون . وعندما يتعمق [في هذه المواضيع] سيعلم [الجيــل الشاب] جيدا من اين جئنا ، ماذا كان هنـــا قبلنا ، لماذا نحن هنا والى اين نتجه . هذه المهمة ليست ملقاة فقط على عاتق جهاز التربية والتعليم، ولكن على عاتقه في الدرجة الاولى .... »(٧). وافرد الون في خطابه مكانا بارزا لاهمية «المدارس الزراعية — الاستيطانية » قائلا ان ســياســة التربية والتعليم في هذه المعاهد قائمة على اسس ثلاث : « ١ — تقوم البلاد على الاستيطان ، وما تزال فيها مناطق شاسعة تنتظر المستوطنين ، ٢ — هناك مستوطنات صغيرة متعطشة للمزيد من المستوطنين ، ٣ — كل تقدم وتطور في هـــذه المستوطنات يعزز قوة الاستيعاب فيها(٨).

ولعل افضل وصف لاسلوب التربية الصهيونية الموجه والمفروض في اسرائيل ، ما كتبه عميد كلية الاداب في الجامعة العبرية في القدس ، تسفــي ادار ، في كتابه « التربية اليهودية في اسرائيــل والولايات المتحدة » . وجاء في هذا الكتاب قول ادار : « بينما تكتسب التربية القومية الطبيعية عن طريق التعرف على الثقافة القومية ، تسعى خطة التوعية اليهودية الى اكساب هذه التربيـــة بصورة مباشرة عن طريق الوعظ والتوجيه . وبينما تقوم التربية القومية على اساس التربية الانسانية الواسعة ، فان خطة التوعية اليهودية تسعى الى الخصوصية [خصوصية الشعب اليهودي]... وكنتيجة لذلك تشوه التربية اليهودية في جهــاز التربية العام ، وتتحول الى تربية من اجـــل التعصب القومي ، تربية شعوريـــة عدوانيـــة وموجهة . وهي بهذا تتناقض مع جوهر التربية ... ان فكرة التوعية اليهودية وبرامج التدريس الجديدة تعيد تدريس التوراة الى انماطه التقليدية [التلمودية] ... »(٩).

ويظهر مدى الوعظ والتوجيه في حقل التربيـــة والتعليم ايضا مما قاله النائب موشي تسفي نيريا (المفدال) في النقاش الذي دار في الكنيست حول نشاط وزارة المعارف والثقافة في حزيران ١٩٧٠، وشدد نيريا في حديثه حول واجب جهاز التعليــم في تلقين الطلاب اليهود بأنهم يملكــون ، دون غيرهم ، القدس العربية وغيرها من المناطق العربية المحتلة : « ... يجب ان لا يكون ولد واحد في اسرائيل ، من دان الى بئر السبع ، ومن كريات شمونه الى ايلات ، ومن جبل الشيخ الى السويس مستعدا للتخلي عن القدس ... »(١٠).

وكشف الاديب الاسرائيلي يزهــار سميلانسكي النقاب عن حقيقة ان جهاز التربية والتعليـــم الصهيوني يعتبر الولد « مادة خاما » يريد واضعو « القيم » الصهيونيون ان يصنعوا منها الالة التي يريدونها ، بقوله : « ... ماذا يريدون مـــن التربية على اسس القيم ؟ ارادوا منها ان تخلق شخصية مستقلة ، وفي الوقت نفسه جماعية ، صوروا فكرة تخليص الارض والشعب عــلى انها غاية الكمال . ارادوا تقديس العمل ، وفـــي الوقت نفسه ارادوا تطوير القوة بأسلوب الحياة المعاصرة . ووعظوا من أجل الاستعداد للخدمة المتواصلة والخلق ومن اجل الاخلاص للوطـــن ولحركة العمل ، من أجل استعادة ميراث الاجداد وعودة الشعب المختار ... كل هذا موجود فـــي برامج التعليم ... التربية تتقرر بواسطة قـــوى الضغط المتنافسة بسلطتها ، وعلى سلطتها ... ان هذه التربية ما هي الا عملية تجنيد لجنـــود مبتدئين ، لكي ينضموا غدا لصراعات الكبـــار المتعبين . هذه التربية هي قوة محكومة وموجهة لخدمة مستخدميها ، وهي من القوة بحيث تستطيع التغلب على كل ما ينافسها . ان هذا الاسلوب من التربية يحول الانسان الى مادة خام طبيعية ، ويتجاهل العنصر الانساني وجوهره ... ثم ما هي القيم ؟ انهم لا يعرفونهـــا ... والقـــوى [الحزبية] هي التي تسجل قائمة هذه القيم... ومتى ينجح التعليم على أسس هذه القيم ؟ عندما يكرر الصغار ما يقوله الكبار بصـــوت خـــافت ضعيف ... »(١١).

ووصف هذا الاديب ، الداعي الى التربيـــة الحرة ، اسلوب التربية الصهيونية على انـــه « خليط من الضغط والاغراء بهدف الحصول على تغيير مقصود في الانسان ... ان هذا التعليـــم

الموجه ليس الا عمليات غسل دماغ ، تكريه ، ارغام واغراء ، واغلاق عقول ... »(١٢). اي ان اسلوب التربية الصهيونية ، بحسب راي سميلانسكي ، يجعل الطالب اليهودي ، باختصار منغلقا على نفسه وعاجزا عن التفكير الحر ، واداة في ايدي القوى الحزبية المسيطرة على الكيان الصهيوني لتحقيق اهدافها .

واكد هذا الاتجاه ايضا البروفيسور يعقوب لورخ ، الذي اطلق على وزارة المعارف والثقافة اسم « وزارة الخنق » ، قائلا : « يوجد لدينا ما اعتبره « المؤامرة الكبرى » في التعليم التي تقتل متعة الدراسة . في الصف الاول يجبرون الولد على حمل حقيبة تزن ٥ كغم لكي يسلبوا منه حرية الحركة . بعد ذلك ، وخلال ١٢ سنة يقضيها في المدرسة الابتدائية والثانوية ، يسلبون منه حرية الحركة النفسية ــ العقلية . وعندها يتحول الطلاب الى ما يسمونه عندنا « شباب طيبون » ... لا توجد لدينا ، في هذه البلاد ، عادات دراسة ، بل عادات اداء الوظائف المدرسية ... »(١٣).

ونجد دعما لهذا الكلام من قبل بعض الطلاب ايضا ، اذ اعلن بعضهم امام احد مراسلي الصحف : « لا يتيحون للطالب فرصة التفكير ، لا في المدرسة ولا في الجيش ، لانني اذا فكرت ، لن احارب جيدا ... في هذه البلاد تبدأ حياتك في سنة ما بعد العشرين من العمر [اي بعد انهاء الدراسة الثانوية وفترة الخدمة الالزامية في الجيش] ... ان الجيش لا يهمني وانا ادرس فقط لكي انجح في الامتحانات . لا يوجد معلم كفوء أسأله لماذا انا موجود هنا ، بدون أن يبدأ بالثرثرة حول الحق التاريخي والميراث اليهودي. انني لا اريد ان اتعلم تقديس شيء ... اعتقد أن الجميع يفكرون مثلي ويخافون من التعبير عما يشعرون . وانا ايضا اقول ما اقوله في ساعات الضعف فقط ... »(١٤).

يتبين من هذه النماذج من الحوار ، حول دور التربية القومية في الكيان الصهيوني واساليبها ، ان سياسة التربية القومية هذه تعتمد اسلوب الفرض والتوجيه . والاهم من ذلك ، يتضح من مضمون هذا الحوار ان هدف سياسة التربية الصهيونية الاساسي هو خدمة اهداف الحركة الصهيونية . ومع ان هذه الاهداف ذات طبيعة عنصرية وغير انسانية ، فان ما يسمى التربية القومية في اسرائيل يقوم على اسس عنصرية وغير انسانية . واكد ذلك النائب الاسرائيلي مئير فيلنر بقوله ، في خطاب القاه في الكنيست عام ١٩٧٠ : « ان التربية الصهيونية في اسرائيل تسعى لترسيخ مشاعر التعالي القومي والعنصرية ومعاداة العرب والروح العسكرية وانكار حقوق الاخرين ... ان كل سياسة الحكومة الاسرائيلية غير انسانية ، بما في ذلك سياستها تجاه تربية اولادنا ... »(١٥).

التربية القومية في برامج التعليم

لكي نتعرف على مدى اتباع سياسة التربية الصهيونية اسلوبا موجها ، مفروضا من فوق وقائما على اسس العنصرية والشوفينية والتعصب القومي والروح العسكرية العدوانية يكفي ان ننظر الى برامج التعليم المقررة في المدارس الاسرائيلية ، التي تدرس بموجبها مواضيع مثل التاريخ واللغة والدين والادب والموطن ، حيث ان هذه المواضيع هي التي تمس القضايا القومية ، خاصة في مرحلة الدراسة الثانوية .

برنامج تدريس التاريخ للمدارس الثانوية

يسجل برنامج تعليم التاريخ للصفوف الثانوية في المدارس اليهودية ، الاهداف التالية من تدريس هذا الموضوع :

الهدف الاول : « ان يتوصل الطالب الى اعتبار أن الحضارة الانسانية ثمرة للجهود المشتركة لليهود وشعوب العالم ، اثناء العصور، وان يقدروا تقديرا صحيحا ما ساهم به شعبنا، وما ساهمت به الشعوب الاخرى في تكوين هذه الحضارة . هذا بالاضافة الى تقوية وعي الطلاب بروابط المشاركة الانسانية ، وتنمية رغبتهم في المساهمة في الاعمال المؤدية الى تقوية اواصر الاخوة والسلام بين الشعوب »(١٦).

ان روح التعالي القومي والعنصرية ظاهرة بوضوح من صياغة هذا الهدف . فهذه الصياغة تضع « اليهود » في احدى كفتي الميزان ، وتضع شعوب العالم كلها في الكفة الاخرى ، ثم انها

تضع « اليهود » في المرتبة الاولى وبعد ذلك تأتي كل شعوب العالم ، تمشيا مع شعار « شعب الله المختار » . ويتأكد هذا الاتجاه أكثر عند مقارنة هذا الهدف بالهدف الموازي في برنامج تدريس التاريخ للمدارس العربية الثانوية في اسرائيل : « ان يتوصل الطلاب الى اعتبار الحضارة الانسانية ثمرة للجهود المشتركة لكافة شعوب العالم خلال العصور ... »(١٧).

الهدف الثاني : « غرس الوعي القومي اليهودي في قلوب الشبيبة ، وتقوية شعورهم بالمشاركة مع المصير اليهودي ، وزرع الحب لليهود في قلوبهم — حب اليهود في البلاد وفي أنحاء العالم وتقوية ارتباطاتهم النفسية مع كافة أبناء هذا الشعب »(١٨).

ان هذا الهدف يقوم على أساس النظرية الصهيونية الداعية الى وحدة الشعب اليهودي وخلق القومية اليهودية الواحدة . فالطالب اليهودي مطالب بحب اليهود اينما كانوا ، على اعتبار انهم شعب واحد ، وعلى اعتبار ان هذه « الامة الواحدة » سيكون مصيرها ، ويجب ان يكون مصيرها ، الهجرة والاستيطان في « أرض الاجداد » . ونلاحظ ان مثل هذا الهدف غير موجود في برنامج تعليم التاريخ في المدارس العربية في اسرائيل ، مع العلم ان وزارة المعارف والثقافة نفسها هي التي تضع البرامج العبرية والعربية .

الهدف الثالث : « ان يفهم الطالب اهمية دولة اسرائيل من أجل تأمين الوجود البيولوجي لليهود، واستمرار وجودهم التاريخي وان ينمي به شعور المسؤولية الفردية تجاه توطيد اركان الدولة وتطورها ، ولاثارة روح الاستعداد لخدمتها والقيام بمطالبها »(١٩).

أي أن الطالب اليهودي في اسرائيل مطالب بأن يقتنع انه بدون دولة اسرائيل وتوطيد اركانها وتطويرها ، لا يمكن ضمان وجوده ووجود شعبه اليهودي ، بيولوجيا وتاريخيا ، وانه يجب ان يقوم بكل ما تطلبه منه هذه الدولة دفاعا عن وجوده . ويلاحظ عند الاطلاع على البرنامج العربي لتدريس التاريخ للطلاب العرب في اسرائيل انهم ايضا مطالبين بالاخلاص لدولة اسرائيل وخدمتها ليس لانها تخدمهم وتخدم شعبهم ، بل فقط «بدافع الشعور بالمصير المشترك للشعبين العربيواليهودي في الماضي والحاضر »(٢٠).

الهدف الرابع : ان تنطبع شخصية الشباب بسمات الرجال المشهورين للامة اليهودية والعالم »(٢١). والملاحظ هنا ان الطالب اليهودي مطالب بأن يتضامن اولا مع الشخصيات اليهودية المشهورة وبعد ذلك مع شخصيات عالمية . ولكنه غير مطالب بالتضامن مع شخصيات عربية مشهورة رغم الحديث عن « المصير المشترك للشعبين » في البرنامج العربي لتعليم التاريخ . أما الطالب العربي فانه مطالب ، كما ينص الهدف الموازي في برنامج التاريخ للمدارس العربية ، بالتماثل مع شخصيات يهودية مشهورة ، وعليه « ... ان ينطبع بسمات الرجال المشهورين في العالم ولا سيما العرب واليهود »(٢٢).

أما الهدف الخامس والاخير فهو : ان يتعلم الطالب ويعتاد البحث في مشاكل المجتمع الانساني والحكم فيها عن طريق التحليل والاستنتاج ، وان يعمل على حلها بواسطة التفكير الذاتي الانتقادي. فالواضح ان هذا الهدف خال من النزعة القومية. ولكونه كذلك نجد انه ورد ايضا في برنامج تعليم التاريخ للمدارس الثانوية العربية في اسرائيل .

توزيع حصص تعليم التاريخ : يخصص برنامج التاريخ للمدارس الثانوية (الفرع الأدبي) ، اليهودية والعربية ، ٤١٦ حصة (الصف التاسع: ٩٦ حصة ، العاشر : ٦٤ حصة ، الحادي عشر: ١٢٨ حصة والثاني عشر : ١٢٨ حصة ، وفي الفرع العلمي ٣٨٤ حصة ، وهي موزعة من حيث المواضيع حسب الجدول التالي »(٢٣).

ويظهر من الجدول التالي ان نحو ٤٠ ٪ من حصص التاريخ للطالب اليهودي تخصص لدراسة تاريخ اليهود ، بينما يدرس تاريخ العرب خلال اقل من ٢٪ من مجموع الحصص . كما يظهر من هذا الجدول انه حتى الطالب العربي يتعلم ، من ناحية عدد الحصص ، عن تاريخ الشعب اليهودي اكثر مما يتعلمه عن تاريخ شعبه العربي .

توزيع حصص تدريس التاريخ في المدارس الثانوية الاسرائيلية
(بالنسبة المئوية)

	ثانوية يهودية (ادبي)	ثانوية عربية (ادبي)	ثانوية يهودية (علمي)	ثانوية عربية (علمي)
تاريخ اليهود	٣٨٫٨	٢٠٫٢	٤٠٫٩	٢٠٫٦
تاريخ العرب	١٫٤	١٩٫١	٢٫١	١٩٫٥
التاريخ العام	٥٩٫٨	٦٠٫٧	٥٧٫٠	٥٩٫٩
المجمـــوع	١٠٠ ٪	١٠٠ ٪	١٠٠ ٪	١٠٠ ٪
(عدد الحصص)	(٤١٦)	(٤١٦)	(٣٨٤)	(٣٨٤)

تعليم اللغة : يضع البرنامج العبري لتدريس اللغة في المدرسة الثانوية ، سبعة اهداف منهـا اثنان (الاول والرابع) يركزان على القضايـا القومية ، وهما (٢٤): « أ ــ اكساب الطالـب مثل الامة العليا واراءها ومشاعرها اثناء مراحل تطور الامة [اليهودية] في فتـرات مختلفـة ، وتقوية الرباط التاريخي الـذي لم ينفصل بـين الشعب وبلاده وثقافته . ويجب الكشف بشكـل خاص عن جهود وانجازات هذا الجيل والاجيـال القريبة منه ، من اجل النهضة القومية والبعـث الحضاري والثقافي والاجتماعي وتقريب ذلك مـن نفسه » . « د ــ اعداد الطالب لاتصال حي مع القضايا والتيارات الفكرية التي الهبت عالمنا في عصور مختلفة ، ومع حوافز ومذاهـب شعبنـا [اليهودي] ومسالكه في مسيرته التاريخية » .

وواضح من هذين الهدفين مدى التركيز القـوي على القضايا القومية ، وعلى استخدام تعليـم اللغة ايضا كوسيلة لخلق وتقوية الرابطة بـين الطالب اليهودي و « بلاده » . فبموجـب خطـة القيمين على جهاز التعليم هذه يجد الطالب مبررا لوجوده في فلسطين ولا ينظر الى نفسه كمحتـل لارض الغير . فهدف تعليم اللغة وادابهـا هو ، اذن ، « تقوية الرباط التاريخي **الذي لم ينفصـل** ... » مع « أرض الميعاد » ، في حين لا يشـير البرنامج العبري وحتى العربي الى الرابطة بـين الشعب العربي الفلسطيني وارضه .

وفي مقارنـــة اجراهـا بعـض الباحثـين الاسرائيليين(٢٥) بين برامج تعليم اللغة وآدابها في المدارس اليهودية والعربية توصلوا الى نتيجة مفادها ان في البرنامج العبري مكانا بارزا « لمـا تقدمه الميراث اليهودي للحضارة الانسانية » بينما لا يوجد اي ذكر لما تقدمه العرب لهذه الحضارة . وحتى بالنسبة للاداب العالمية ، فان تعليمهـا للطالب اليهودي يؤكد على الاتجاه القومي بينمـا لا يفعل البرنامج العربي ذلك . فالطالب اليهودي، مثلا ، يتعلم الادب الكلاسيكي ، واما الطـالب العربي فيتعلم الاداب القديمة لمصر وفارس واليونان والهند والصين . وفي الشعـر يتعلـم الطالـب اليهودي انتاج الشعراء الصهيونيين القوميـين ، مثل بياليك وتشرنيحوفسكي وغيرهما واما الطالـب العربي ، فلا يجد في الانتاج الشعري الذي يتعلمه الا الطبيعة والتأمل والحب ، وهو ايضا يتعلـم شعر بعض الشعراء الصهيونيين القوميين « بينما لا يتعلم شيئا عن الشـعر النضـالي العربي والفلسطيني ، لا في اسرائيل ولا خارجها »(٢٦).

تعليم الديـن : يعلم موضوع الدين في اسرائيل ضمن مواضيع الادب واللغة ، ولكن هناك فروقا تلفت الانتباه بين برنامج تعليم الديـن للطـلاب العرب وبرنامج تعليم هذا الموضوع للطلاب اليهود ... ومن اهم هذه الفروق :

أ ــ تركز اهداف تعليم الدين للطالب اليهودي على « تنمية الوعي القومي » و « وحدة الشعب اليهودي » وغير ذلك . بينما لم يرد ذكر لاي هدف من تعليم القرآن ، مثلا ، للطالب العربي .

ب ــ ان حصص تعليم الدين لليهود والعرب في المدرسة الثانوية موزعة بشكل جائر ، كما يظهر من الجدول التالي(٢٧) :

	تعاليم دينية اسلامية	تعاليم دينية يهودية
المدارس اليهودية	صفر	٦٤٠ حصة
المدارس العربية	٣٠ حصة	٢٥٦ حصة

ويظهر من برنامج تعليم الدين ان الطالب اليهودي يتعلم الكثير من تعاليم التوراة والتلمود، الذي وصفه البروفسور الاسرائيلي التقدمي ، يسرائيل شاحاك ، بقوله : « ان قوانين النازية اكثر اعتدالا من تعاليم التلمود »(٢٨). وبينما لا يدرس الطالب اليهودي شيئا من تعاليم الديانتين الاسلامية والمسيحية ، فان الطالب العربي يتعلم الديانة اليهودية ، اذا قيس ذلك بعدد الحصص فقط ، اكثر بنحو ٧ ـ ٨ اضعاف مما يتعلمه عن دينه .

والبرنامج العبري لتعليم الديانة اليهودية للطالب اليهودي يركز ايضا على النواحي القومية. ومن بين الاهداف التي يسجلها هذا البرنامج(٢٩):

« (١) أن يتعرف الطالب على أباء الامة وقادتها وانبيائها وابطالها ، وعلى تاريخ الشعب في بلاده . (٢) ان يتعرف الطالب الى ارض اسرائيل ، طبيعتها واثارها وان يقف على الرابطة بين الشعب وبلاده . (٣) ان يتعرف الطالب على الاسس التي تقوم عليها مبادىء التوراة وما قدمته للحضارة الانسانية ... » .

والملاحظ في هذا البرنامج انه يؤكد بشكل خاص على سفر يشواع بن نون (الذي اباح قتل الاطفال والنساء وهدم بيوت اريحا)(٣٠)، حيث ان هذا الكتاب يدرس في الصف الرابع الابتدائي ويعاد تدريسه في الصف الثامن الابتدائي(٣١).

ومن الجدير بالذكر ان القيمين على تربية الطالب اليهودي يحاولون ان يغرسوا في نفسه ، منذ حداثته ، اين تقع « حدود ارض اسرائيل » . ففي نقاش حول نشاط وزارة المعارف والثقافة اجراه الكنيست عام ١٩٧٠ ، قال النائب مئير فيلنر ، منتقدا مواضيع التعليم التي تربي على الشوفينية والروح العسكرية والتعصب القومي ، انه يتوجب على ابنه ، وعمره ١٢ سنة ، دراسة وحفظ الفقرة التالية من سفر التثنية (١١ : ٢٤ ـ ٢٥) : « كل مكان تدوسه ابطان اقدامكم يكون لكم . من البرية ولبنان ، من النهر نهر الفرات الى البحر الغربي يكون تخمكم . لا يقف انسان في وجهكم . الرب الهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الارض التي تدوسونها كلما كلمكم »(٣٢).

وبعبارة أخرى ، ان « أرض اسرائيل الكبرى » ليست موجودة فقط في عقول غلاة الصهاينة ، بل انها موجودة ايضا في برامج تعليم الاولاد اليهود التي تضعها وزارة المعارف والثقافة .

وتؤكد المحامية التقدمية فليتسيا لانغر ، التي تخرجت هي ايضا من المدارس الاسرائيلية ، ان سياسة التربية الصهيونية تركز على تعليم الطالب اليهودي فن الحرب وترسخ فيه مشاعر التعصب القومي والحقد على العرب « لكي يحاربهم جيدا ، ولكي لا ترجف يداه عندما يضغط على الزناد ... »(٣٣).

ان سياسة زرع الحقد على الشعب العربي تتم ايضا عن طريق تجاهل الحضارة العربية ، وتحقير دور الشعب العربي الحضاري ، وتزييف صورة العربي عند الاشارة اليه . واذا كانت اللغة العربية تدرس في المعاهد الاسرائيلية ، فليس الهدف من ذلك التفاهم مع العرب والتقرب اليهم، بل « لان حرب تشرين اثبتت افتقار الجيش الاسرائيلي الشديد الى جنود يعرفون اللغة العربية »(٣٤).

أزمة تربوية ام ازمة صهيونية ؟

يحظى جهاز التربية والتعليم بالرعاية البالغة ، ماديا ومعنويا ، من قبل المؤسسة الصهيونية . « فالتربية هي « صناعة » دقيقة جدا ، لانها تعمل على تكوين اثمن كنز لدى الدولة ، وهو جيل الشباب »(٣٥). وهذا الجهاز خاضع للاصلاحات المستمرة . ففي عام ١٩٦٨ بدأ تطبيق « اصلاح

في التربية » ، بحيث استحدثت المرحلة الاعدادية في المدارس الثانوية ، والتي يستمر تطبيقها حتى الان . وكان لهذا الاصلاح من ناحية النوعيـــة هدفان : (١) رفع مستـوى التعليـم ، (٢) تحسين وتطوير عملية الدمج الاجتماعي(٣٦).

ولكن على الرغم من ذلك ، وعلى الرغم مـن التركيز على التربية الصهيونية في برامج التعليم وغيرها ، ظهرت اصوات كثـيرة في السنـوات الماضية تنتقد بشدة جهاز التربية والتعليـم ، وتتهمه بالفشل والتقصير في مجال التربية القومية. وقد نشأ هذا النقد عن شكوك الشبيبة بجـدوى العيش على الحراب وجدوى « الحل الصهيوني » فبعد حرب حزيران ، التي قال عنها المسؤولـون انها خاتمة الحروب ، جاءت حرب الاستنـــزاف وعمليات المقاومة الفلسطينية الموجعة بحيث اخـذ بعض طلاب صفوف الثاني عشر يودعون بعضهم في حفلة الختام قائلين : «الى اللقاء في قائمة القتلى»، معبرين عن عدم حماسهم للخدمـة في الجيش . وظهر عدد من الشباب الذين رفضوا فعلا الخدمة العسكرية في المناطق المحتلة ، وكان ابرزهـــم غيورا نويمان الذي دخل السجن بسبب رفـــض الخدمة العسكرية في سنة ١٩٧١ . ثم جـــاءت حرب تشرين فعمقت شكوك الشبيبة . وبدأ بعض الطلاب يطرح الاسئلة التاليـة : « الى متـى سنحارب في هذه البلاد ؟ لماذا يكرهوننا ولماذا يقف كل العالم ضدنا ؟ هل كتب علينا العيش علـى الحراب الى الابد . وما جدوى هذا كله »(٣٧) .

وفي مقابلة تلفزيونية ، اجـريت بين طـلاب المدرسة الثانويـة في ايـلات (ام الـرشراش) ومجموعة من الكتاب الاسرائيليين وجه الطـلاب اسئلة « مذهلة » ، هذه نماذج قليلة منها :(٣٨).

* الطالب يفتـال لفنشتاين (الصف الثانـي عشر) : « هل يوجد للحق التاريخي اية قيمـة ام انه مجرد حيلة سياسية ؟ » .

* الطالب اران عيدان (الحادي عشر) : « ان حقنا على أرض اسرائيل يتناقض مع التطلعـات القومية للشعب الفلسطيني ، فكيف يمكن في نظركم حل هذه القضية ؟ »

* الطالب عوفر تلسون (الثاني عشر) : « ما هو حق اسرائيل التاريخي على منطقة الساحـل التي لم يسكنها اليهود قديما ؟ »

* الطالبة حانا بيت ــ لحمي (الثاني عشر) : « هل حقنا الادبي ، النابع من محاولة القضـاء علينا في الحرب العالمية الثانية ، يعطينا الحق في اقامة دولة مستقلة لليهود ؟ »

* الطالب يائير ارمون (الحادي عشر) : « هل احتلت ايلات بسبب الحق التاريخي ام بسبـب مصالح اخرى : سياسية او اقتصادية ؟ » ...

ووصلت اجابات الكتاب على هذه الاسئلة بانها « كانت متلعثمة ومرتبكة ، تشبه اجابات عالـم الرياضيات الذي لا يستطيع الاجابة لماذا ٢ + ٢ = ٤ ! ، لانه يعتقد ببداهة الاجابة »(٣٩).

يتضح هنا ، الى حد ما ، ان سياسة التربية الصهيونية المفروضة والموجهة بـدأت تفشـل في مهمة اقناع الشبيبة بالمسلمات الصهيونية ، بسبب ازمة الحركة الصهيونية ذاتها ، والتي كشفـت عنها حرب تشرين . ويتضح ، من جهة اخـرى ، ان الاوساط الصهيونية تتهرب من الاعتراف بالازمة الايديولوجية والسياسية التي تواجه الحركـة الصهيونية ، وبدلا من انتقاد النظرية الصهيونية ، توجه اللوم الى اجهزة التربية والتعليم . « ... فالمذنب الرئيسي هو وزارة المعارف والثقافـة ، فهي المسؤولة عن ظاهرة رامي لفنيه(٤٠)، وقـد تؤدي في المستقبل الى ظواهر اخطر »(٤١).

ومع أن بعض المفكرين الاسرائيليين دعوا الـى التخفيف من المبالغة في التربية القومية الموجهـة والمفروضة ، مثل الاديب يزهار سميلانسكي(٤٢)، الا ان جهاز التعليم الرسمي عمد الى المزيد مـن المبالغة في هذا الاتجاه . فقد شكلت لجنة خاصة لدراسة وضع « الوعي اليهودي لدى الشبيبة » وقدمت تقريرا « مقلقا » لوزير المعارف والثقافة ، عما تبين لها من افتقار الشبيبة لهذا « الوعي » . وبموجب هذا التقرير وضعت خطة لتعميق «الوعي اليهـودي » تقوم علـى الاسس التاليـة(٤٣) : « ١ ــ الاغتراف من المنابع الروحية للشـعب اليهودي على امتداد اجياله ، ٢ ــ تعميق دراسة تاريخ الصهيونية وتاريخ الشعب اليهودي ، ٣ ــ ادراك وحدة الشعب اليهودي عالميا، ٤ ــ السعي

لبناء مجتمع قدوة عادل في اسرائيل ، كما اراده انبياء اسرائيل ؛ ٥ — تعميق الوعي بمركزية أرض اسرائيل والقدس في تاريخ الشعب اليهودي رحياته » .

من ناحية ثانية ، بدأت وزارة المعارف بطبع كراسات عن قضايا سياسية راهنة لتدريسها في مختلف المراحل الدراسية ، مثل « النزاع — العربي — الاسرائيلي — صراعات ، لقاءات ، وبحث عن سبل » ، «الميثاق الوطني الفلسطيني»، « قرارات الامم المتحدة »(٤٤) وغيرها . ومن الواضح ان وزارة المعارف والثقافة تريد ان تفسر هذه المواضيع وان تجيب على اسئلة الطلاب من وجهة النظر الصهيونية الرسمية .

ولوحظ ايضا ان بعض المنشورات الاسرائيلية بدأت تنشر ترجمة لبعض الادباء والشعراء العرب، وان الاختيار يقع على قطع الانتاج العربي الاشد نقمة ضد الصهيونية واسرائيل . ممثلا يقول الاديب الشاب اهود بن عزار انه قرأ ترجمة لبعض انتاج نزار قباني ومحمود درويش في نشرة « اسرائيل والعرب » التي يشرف عليها يهوشفاط هركابي ، وتوزع على المدارس الاسرائيلية ، واتضح له بعد قراءة هذا الانتاج انه « لا يوجد مع من نتكلم »(٤٥)، اي انه بعد هذه المطالعة فقد الامل بجدوى الحوار مع العرب .

ولا بد من الاشارة هنا الى ان الادب الصهيوني الذي يتأثر به الطالب اليهودي في المدرسة ، او عن طريق المطالعة الحرة ، مليء بالتحريض على العرب . وقد شهد على ذلك مؤخرا الشاعر أبوت يشورون ، بقوله ان « الادب العبري لم يقم بوظيفته الرئيسية وهي تقريبنا من المشكلة العربية والشعب العربي في هذه البلاد . انه لم يخبرنا انه يوجد شعب عربي هنا ولم يعدنا لذلك ... »(٤٦).

ومن الامور التي يشكو منها بعض الاسرائيليين ويلومون جهاز التربية والتعليم عليها ، فقدان الروح الطليعية لدى الشباب ، مع العلم ان « قانون التعليم الحكومي لعام ٥٧١٣ — ١٩٥٣ » ينص على ضرورة « الاعداد الطلائعي »(٤٧). ويتجلى هذا من انتقار المستوطنات في الاراضي المحتلة الى اعداد كافية من المستوطنين ، ومن ابتعاد الشباب عن العمل في الزراعة وسيطرة العمال العرب على اعمال الزراعة والبناء وغيرها ويعبر احد المربين عن قلق المؤسسة الصهيونية من هذه الظاهرة قائلا : « اعتقد انه اذا فلح العرب معظم اراضي الدولة فاننا سنفقد حقنا على هذه البلاد »(٤٨).

هناك اذن ازمة في التربية الصهيونية القومية ولكن السؤال هو : هل تكمن هذه الازمة في جهاز التربية والتعليم ، ام انها تكمن في النظرية الصهيونية ذاتها ؟.

وفي اعتقادنا ان هذه الازمة تكمن فيالايديولوجية الصهيونية واهدافها .

من ناحية ثانية ، لم تستطع الحركة الصهيونية، منع الشبيبة من الوقوع في تناقضات أساسية . فمن الناحية الاولى تعمل الصهيونية على اقناع الشباب باساطير دينية وتاريخية قديمة : « حقنا على هذه البلاد نابع من الجذور اليهودية ، وبدون هذه الجذور لن يكون لنا حق والعرب سيكونون على حق ... فاذا لم نبرز خصوصية الشعب [اليهودي] وخصوصية رابطته مع هذه البلاد ، التي لا مثيل لها في اي مكان في العالم ، فان الحجة العربية ستكون قوية وسيتأثر بها كل من هو بعيد عن الجذور الروحية اليهودية ... »(٤٩). ولكن ، من جهة ثانية ، تريد الحركة الصهيونية اقامة مجتمع غربي مادي ، وتقيم جهاز التربية والتعليم على اسس المجتمع المادي الغربي . فهذا التناقض ، والازمة التي تواجهها الحركة الصهيونية اليوم كان لا بد لهما ان يولدا التمزق في نفوس الشبيبة في اسرائيل ، واي جهاز تعليمي لن يستطيع التغلب على هذه الازمة ، ما دامت الحركة الصهيونية تسير في نفس الطريق .

خلاصة

من كل ما تقدم يمكن اجمال الملاحظات التالية حول التربية القومية في اسرائيل :

١ — ان التربية القومية في الكيان الصهيوني لها معنى خاص، نابع من طبيعة الحركة الصهيونية واهدافها التي تبني التربية القومية على اسس التعصب القومي والعنصري والشوفينية والروح العسكرية العدوانية والعداء للعرب والتوسع ،

بحجج دينية وتاريخية وانكار الحقوق المشروعة لشعوب اخرى .

٢ — يضع الكيان الصهيوني جهاز التربية والتعليم من حيث الاهمية في المرتبة الثانية بعد الجهاز العسكري والامني ويعتبره مكملا له .

٣ — تفرض التربية الصهيونية على الشبيبة اليهودية بشكل قسري مباشرة ولا تترك له مجال الاختيار الفكري ، جريا على قاعدة « افعل [هذا] ولا تفعل [ذاك] » ، « اعمل ولا تعمل » والدولة هي المسيطرة ، بدون منافس ، على اجهزة التربية والتعليم .

٤ — تمر التربية القومية الصهيونية بازمة نابعة من الازمة التي تمر بها الحركة الصهيونية ايديولوجيا وسياسيا واجتماعيا .

٥ — المؤسسة الصهيونية تواجه « ازمة التربية القومية » ليس عن طريق اعادة النظر في النظرية الصهيونية وسياسة الحركة الصهيونية بل عن طريق لوم جهاز التربية والتعليم وترسيخ نفس الخط التعليمي الذي بدأت تظهر عليه علامات الفشل ، مما سيؤدي بالضرورة الى ازمات اشد في المستقبل .

---

١ — كتاب الاحصاء السنوي الاسرائيلي، ١٩٧٤، ص ٦١٧ .
٢ — المصدر نفسه .
٣ — قاموس المصطلحات الصهيونية ، اصدار « بيت معاريف » تل ابيب ، ١٩٧٢ ، ص ٤٣ .
٤ — دافار ، ١٩٧٤/٨/٦ .
٥ — المصدر نفسه .
٦ — هآرتس ، ١٩٧٤/٨/٢٠ .
٧ — محاضر الكنيست ، ١٩٧٠/٦/١٥ ، ص ٢٠٨٢ .
٨ — المصدر نفسه .
٩ — حسب اقتباس هآرتس ، ١٩٧٠/٣/١٥ .
١٠ — محاضر الكنيست، ١٩٧٠/٦/١٥ ص٢٠٩٨ .
١١ — هآرتس ، ١٩٧٤/٩/٢٠ .
١٢ — المصدر نفسه .
١٣ — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٤/١/١٨ .
١٤ — ملحق هآرتس ، ١٩٧٤/٤/٢٦ .
١٥ — محاضر الكنيست ، ١٩٧٠/٦/٣٠ ، ص ٢١٠٤ .
١٦ — وزارة المعارف والثقافة الاسرائيلية : البرنامج العبري لتعليم التاريخ في المدرسة الثانوية ، ص ٣٥ .
١٧ — برنامج تعليم التاريخ للمدرسة الثانوية العربية ، ص ١٠٢ .
١٨ — انظر الملاحظة (١٦) أعلاه .
١٩ — المصدر نفسه .
٢٠ — انظر الملاحظة (١٧) اعلاه .
٢١ — انظر الملاحظة (١٦) أعلاه .
٢٢ — انظر الملاحظة (١٧) أعلاه .
٢٣ — عن دراسة للدكتور يوحنان بيرس وآخرين، مجلة « مغاموت » تشرين الاول ١٩٦٨ .
٢٤ — البرنامج العبري لتعليم اللغة في المدرسة الثانوية اليهودية ، ص ٢٥ .
٢٥ — هآرتس ، ١٩٧١/٢/١٩ .
٢٦ — المصدر نفسه .
٢٧ — الدكتور يوحنان بيرس وآخرين ، المصدر السابق .
٢٨ — معاريف ، ١٩٧٥/٤/٨ .
٢٩ — برنامج تعليم التوراة (الروضة — الثاني عشر) القدس ، ١٩٧١ ، ص ١ .
٣٠ — أنظر مقال الاتحاد ، ١٩٦٧/٤/٧ ، حول دراسة لجورج تمارين كان نشرها في مجلة « نيو اوتلوك » سنة ١٩٦٦ .
٣١ — برنامج تعليم التوراة ، ص ٥ .
٣٢ — محاضر الكنيست ، ١٩٧٠/٦/١٥ ، ص ٢١٠٥ .
٣٣ — فليتسيا لانغر ، « بأم عيني » ، اصدار المؤلفة ، تل ابيب ، ١٩٧٤ ، ص ١٢ .
٣٤ — مجلة « بمحانيه »، ١٩٧٥/٣/١٩، ص٤ .
٣٥ — دانكه هنريش ، دافار ، ١٩٧٤/٨/٢٣ .
٣٦ — المصدر نفسه .
٣٧ — معاريف ، ١٩٧٤/١/٢٨ .
٣٨ — معاريف ، ١٩٧٤/٣/٢٤ .
٣٩ — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٤/٣/٨ .
٤٠ — شاب اسرائيلي معتقل بسبب انتمائه الى « الجبهة الحمراء » .

٤١ — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٤/٣/٨ .
٤٢ — ملحق دافار ، ١٩٧٤/٩/١٣ .
٤٣ — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٤/١/١٣ .
٤٤ — دافار ، ١٩٧٤/٨/٧ .
٤٥ — أهود بن عزار ، يديعوت أحرونوت ، ٢١/١٩٧٥/٣ .
٤٦ — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٤/١٠/١١ .
٤٧ — الوقائع الاسرائيلية ، كتاب القوانين ، ١٩٥٣/٨/٢٠ ، المادة ٢ (النسخة العربية) .
٤٨ — شلومو يتسحاقي ، معاريف ، ٢/٢٨/ ١٩٧٥ .
٤٩ — دكتور يهودا مورينيل ، معاريف ، ٢/٢٨/ ١٩٧٥ .

يوسف حمدان

هل بدأت تتحقق نبــوءة توينبــي في عودة الاسرائيليين الى ((المهجر)) ؟



في عام ١٩٧٢ ، عندما بلغت الهجرة الى اسرائيل قمتها بعد هزيمة ١٩٦٧ (٥٦ الف مهاجر) ، كانت مفاجأة ان يتنبأ ارنولد توينبي ، المؤرخ البريطاني الشهير ، بأن الاسرائيليين سيعودون في النهاية الى المهجر بالشتات . ولكن لم تمض شهور حتى بدأت النبوءة تتحقق ، فقد بدأ عدد المهاجرين يهبط بسرعة ، وعدد النازحين يرتفع بسرعة ، حتى ان وزير الهجرة ، شلومو روزن ، ذكر ، في منتصف مايو (ايار) الماضي ، ان عدد النازحين هذا العام سيفوق عدد المهاجرين . وقد وصف ذلك بأنه « كارثة »(١).

صحيح انه كانت هناك نكتة اسرائيلية مشهورة ظهرت قبل حرب يونية ١٩٦٧ مباشرة وكانت تقول : « على اخر شخص يغادر مطار اللد ان لا ينسى اطفاء النور » . وكان سبب هذه النكتة هو أن عدد النازحين من اسرائيل قد ازداد بحيث أصبح في عام ١٩٦٧ ، يتعادل تقريبا مع عدد المهاجرين اليها(٢). ولكن ما يحدث هذه الايام اخطر من ذلك بكثير . فلاول مرة في تاريخ اسرائيل تشير التوقعات والتقديرات المبدئية الى أن عدد النازحين سيفوق عدد المهاجرين اليها هذا العام . وستترتب على ذلك نتائج سياسية مصيرية جسيمة ، ذلك ان الهجرة ليست مسألة اجتماعية واقتصادية ، وانما هي عند اسرائيل قضية امن . بل أن الكتاب السنوي لحكومة اسرائيل يؤكد ان الهجرة « اكثر العوامل حسما واهمية في امن اسرائيل »(٣).

وكان اول من أشار الى هذا ، بصورة غير مباشرة ، هو بنحاس سابير رئيس الوكالة اليهودية ، حين ذكر أن من المتوقع ان يتراوح عدد النازحين هذا العام بين ١٥ — ٢٠ الف اسرائيلي مقابل ٢١ الفا في العام الماضي ١٩٧٤ ، و١٣ الفا عام ١٩٧٣ ، بينما كان المعدل السنوي قبل حرب اكتوبر ٧٥٠٠ نازح(٤).

وللوهلة الاولى يحسب المرء ان النزوح هذا العام سيكون، مبدئيا، أقل قليلا من العام الماضي، ولكن التجربة أثبتت ان التقديرات الاسرائيلية تميل ، غالبا ، في هذه النقطة بالذات الى تقدير الحد الادنى . ففي العام الماضي مثلا قدر مكتب الاحصاء المركزي في اسرائيل ان عدد النازحين عام ١٩٧٤ سيتراوح ايضا بين ١٥ — ٢٠ الفا بينما بلغ ، بشهادة سابير مؤخرا ، ٢١ الفا ، بل ان دايان ، المشهور بصراحته ، قدر عدد النازحين خلال الشهور الخمسة من بدء حرب اكتوبر حتى نهاية فبراير عام ١٩٧٤ بحوالي ٦٧ الف نازح يهودي(٥).

أمـا بالنسبة للمهاجرين الى اسرائيل فمن المتوقع ، طبعا ، ان تكون الارقام الحكومية اقل

دائما من التقديرات المبدئية الرسمية ، وهذا الفرق يتراوح بشدة من عام لاخر ، فقد كان الخطأ في التقدير ١١ الفا عام ١٩٦٨ وخمسة الاف عام ١٩٧٠ والفين عام ١٩٧١ . ثم قلت المبالغة في التقديرات المبدئية بعد حرب اكتوبر ، حفاظا على البقية الباقية من ثقة الاهالي بالبيانات الحكومية، خصوصا بعد أن تبين لها منذ عام ١٩٧١ ان عددا كبيرا من المهاجرين يعودون في نفس العام . وقد قدرت اذاعة اسرائيل هذه النسبة عام ١٩٧١ بحوالي ٤٠٪(٦).

وعلى اية حال فان عدد المهاجرين لاسرائيل بدأ ينخفض بشكل حاد بعد حرب اكتوبر ، فبينما كان عددهم ٥٦ الفا عام ١٩٧٢ ، هبط عام ١٩٧٣ الى ٤٥ الفا ، ثم الى ٣٢ الفا عام ١٩٧٤ . ومن المتوقع ان يصل هذا الرقم عام ١٩٧٥ الى ١٦ الفا فقط . فقد اذيع رسميا ، ان الهجرة خلال الربع الاول من هذا العام قد هبطت الى النصف بالمقارنة مع نفس الفترة من العام الماضي (من ٩٦٠٠ الى ٤٨٠٠)(٧).

وهذا ما جعل شلومو روزن ، وزير توطين المهاجرين ، يقول في ١٩٧٥/٥/١٥ ، ان الاسرائيليين النازحين سيفوقون عدد المهاجرين هذا العام . وأضاف أن المشكلة ليست فقط في انخفاض معدل الهجرة ولا في نسبة المهاجرين الجدد الذين يغادرون اسرائيل مباشرة ، ولكنها في عدد الاسرائيليين المقيمين في اسرائيل منذ مدة طويلة والذين يريدون مغادرتها » وهو عدد وصل الى معدلات مخيفة » (٨)، على حد قوله .

والطريف هنا ان اثنين من كبار المسؤولين في الوكالة اليهودية عن تشجيع هجرة اليهود من استراليا وولاية كاليفورنيا بأمريكا قد هاجرا أيضا من اسرائيل هذا العام ، كما هاجر سفيرا اسرائيل في بون وفيينا ، واستقر الاول في لندن والثاني في فيينا(٩).

ويرجع انخفاض الهجرة الى اسرائيل ، أساسا ، الى انخفاض الهجرة من الاتحاد السوفييتي . فقد وصل الى اسرائيل في شهر ابريل (نيسان) هذا العام ، مثلا ٧٠٠ مهاجر فقط ، وهو رقم يقل عن نصف عدد من هاجر في نفس الشهر من عام ١٩٧٣ (اي قبل الحرب الاخيرة بشهور)(١٠).

ومن سخرية القدر أن مشكلة هجرة اليهود السوفييت الى اسرائيل ، التي كانت سبب الازمة الرئيسية بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفييتي وكادت تحطم سياسة الوفاق او التهدئة بين القوتين العظميين ، قد تحولت الى مهزلة . ذلك ان سابير يتوقع ان يتحول نصف المهاجرين اليهود ، تقريبا ، من الاتحاد السوفييتي الى غير اسرائيل (امريكا واوروبا الغربية) بعد أن كانت النسبة ٤ ٪ عام ١٩٧٢ ، و١٨ ٪ عام ١٩٧٣ كما ان عدد المهاجرين السوفييت الى اي مكان عموما في انخفاض شديد . ففي يناير (كانون الثاني) من هذا العام قدم اليهود لموسكو ١٥٠ طلبا للهجرة فقط . كما ان ١٥٠٠ شخص ممن حصلوا على تصريح بالسفر من موسكو خلال عامي ١٩٧٣ و١٩٧٤ قد اوقفوا سفرهم بالفعل .

وقد جاءت الى موسكو بعثة خاصة من الكونجرس الامريكي لفحص ظاهرة التناقص هذه بعد ادعاء اسرائيل ان السبب هو رفض روسيا اخراج اليهود منها ، ولكنها اكتشفت على الطبيعة وعلى لسان رئيسها اليهودي جوشوا ايلبرج ، ان اليهود السوفييت » أصبحوا أقل رغبة في الهجرة للخارج وان عدد طالبي الهجرة يقل كل عام وان هذا التناقص سوف يستمر »(١١).

والذي يقلق حكومة اسرائيل ، اكثر من ذلك طبعا ، هو أن معظم النازحين منها من قدامى المهاجرين . وتقدر جريدة الجارديان البريطانية(١٢) هذه النسبة بحوالي ٧٥ ٪ بينما ترى جريدة يديعوت احرونوت(١٣) الاسرائيلية رأيا مخالفا ، وهو أن ٨٥ ٪ من النازحين في العام الماضي من مواليد اسرائيل (الصابرا) . وتؤكد ذلك بقولها ان معظم النازحين من الاطباء والمهندسين والاقتصاديين الذين تتراوح اعمارهم غالبا بين ٢٥ — ٣٠ سنة ، وهم غالبا ما يتجهون الى امريكا وكندا واستراليا(١٤).

وسواء كان هذا أم ذاك صحيحا ، فان القاسم المشترك بين هاتين الفئتين هو انهم » من الاسرائيليين المقيمين في اسرائيل منذ مدة طويلة » كما يقول روزن وزير الهجرة . وهو أمر له دلالات بالغة الاهمية خصوصا وان من بين النازحين اعضاء في الحكومة ووفود رسمية .

وفي البداية كان النزوح يتم بتكتم شديد وكأنه « خيانة » للدولة والدين[١٥]. وهكذا كانت الارقام الحقيقية للنازحين تختلف عن الارقام الرسمية ، لان الاخيرة كانت تمثل فقط النازحين الذين اعلنوا عن رغبتهم ، وتقدموا طلبات نزوح ، وصفوا حساباتهم مع الحكومة . والارقام التي نشرها مكتب الاحصاء المركزي باسرائيل تبين مثلا أن عدد النازحين بصورة صريحة عامي ١٩٦٦ و١٩٦٧ ، كان ٢٤٢٠٠ و٢٨٠٠٠ على التوالي ، بينما كان الرقم الفعلي للنازحين ٧٨٠٠٠ و١٠٥٠٠٠ على التوالي[١٦].

والخوف من الاتهام الصامت بالخيانة ليس هو السبب الوحيد لتكتم عدد النازحين ، فهناك اسباب اخرى تماثلها اهمية ، منها أنه يجب على النازح صراحة ان يصفي حساباته ، ويدفع الضرائب المستحقة ، ويسدد ديونه تجاه وزارة الاستيعاب والمهاجرين والاخرين ، اضف الى ذلك انه لا يستطيع ان يخرج بأكثر من ٤٥٠ دولارا كما عليه أن يدفع ضريبة سفر مقدارها ٧٠٠ ليرة و١٥ ٪ ضريبة اضافية على قيمة تذكرة الطائرة ، الامر الذي يجعل تكاليف السفر باهظة للغاية . وعلى هذا الاساس يفضل الكثيرون (ان لم يكن الاغلبية) ان يغادروا البلد كسائحين لفترة قصيرة ثم لا يعودون ابدا[١٧].

وبعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ أصبح الناس اكثر جراة في التعبير صراحة عن رغبتهم في الهجرة امام أصدقائهم ولكنهم استمروا مع ذلك في اسلوب التكتم والسرية ، حتى ليقال أن في الولايات المتحدة وحدها حوالي مائتي الف اسرائيلي[١٨] بينما تقدرهم الاحصاءات الرسمية بحوالي خمسة وعشرين الفا فقط .

وبشكل عام أصبح الشباب بعد الحرب يعبر بصوت عال وبأسلوب لاذع عن عزمهم على النزوح نهائيا ، ولم يعد ذلك عندهم هربا من الدولة او خيانة لرفاق السلاح . يؤكد ذلك ان استفتاء اجراه معهد بوري الاسرائيلي في اكتوبر (تشرين اول) ١٩٧٤ دل على ان ٨٤٤ ٪ من مجموع السكان و١٦٤٨ ٪ من الشباب يفكرون في النزوح خلال العامين المقبلين .

ولمواجهة ذلك اتخذت الحكومة احتياطات اضافية للحد من النازحين ، فقد طلبت من سلطات كل بلد يهاجر اليه الاسرائيليون بعدم تجديد فترة الاقامة الاولى لاجبارهم على العودة الى اسرائيل. كما يدور البحث حول اصدار قانون يلزم المهاجرين المقيمين مؤقتا بتسجيلهم كمهاجرين دائمين بعد ثلاث سنوات على اقامتهم في اسرائيل .

أما بالنسبة للمتساقطين من اليهود السوفييت الذين يغادرون الاتحاد السوفييتي بحجة الهجرة الى اسرائيل ثم يهاجرون الى دول اخرى غيرها، فقد بدأت اسرائيل تحاول منع الهيئات اليهودية وغير اليهودية من تقديم اي نوع من المساعدات لهم . كما انها دأبت على استرداد اجرة الانتقال وسائر المساعدات التي قدمتها لهم السفارة الاسرائيلية في فيينا عند وصولهم اليها ، هذا فضلا عن الاعتداء المتكرر على من غادر منهم اسرائيل وعاد الى فيينا في انتظار السماح له بالعودة الى روسيا ، بل انه عثر على بعضهم قتلى على قضبان السكك الحديدية في النمسا .

أما بالنسبة لزيادة المهاجرين الى اسرائيل من روسيا فقد بلغ من اسفاف الحكومة الاسرائيلية انها كانت تزور خطابات بأسماء اليهود المفقودين خلال الحرب العالمية الثانية وترسلها الى أقاربهم في روسيا فيهرعون الى اسرائيل مهاجرين لرؤية أعزائهم ثم لا يلبث ان يكتشفوا الخديعة ولكن بعد فوات الاوان وبعد أن يكونوا قد باعوا كل ممتلكاتهم في روسيا وأصبحت عودتهم الى وطنهم الاصلي شبه مستحيلة . واليوم نجد في اوروبا والمانيا والنمسا بالذات آلافا من هؤلاء ، وقد اتخذ وضعهم شكل الازمة ، بسبب ضغط اسرائيل التي تطالب بعدم تجديد اقامتهم .

وقد كانت ضربة سياسية بارعة من بعض الدول العربية حين أعلنت انها تعتبر هؤلاء ضحايا الوهم والتغرير وانها ترحب بعودتهم اذا كانوا اصلا من ابنائها كما أعلنت حكومات اليمن والسودان والعراق . وقد أعلن الرئيس السوداني جعفر نميري مثلا اكثر من مرة دعوته لليهود السودانيين للعودة الى أوطانهم » وقد استجاب لها بعض المواطنين السودانيين اليهود ممن نزحوا عن السودان . وهي دعوة سأواصلها لكي افتح باب الخلاص لهؤلاء الذين ضللهم الوهم يوما فعاشوا بشاعة التمييز العنصري »[١٩].

من الملاحظات الهامة ان العوامل الاقتصادية كانت السبب الاول وراء متغيرات الهجرة والنزوح قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ولكن بعد الحرب اصبحت مشكلة الامن هي السبب الاول ، يليها تدهور الاوضاع الاقتصادية من بطالة وارتفاع في الاسعار ، وازدياد الشعور بالاغتراب وصعوبة الاندماج في المجتمع الاسرائيلي خصوصا بالنسبة لليهود السوفييت ، والفساد الاداري ، خاصة في الجيش ، وبشكل عام « فقدان الثقة بالقادة وبالمستقبل »(٢٠).

اما عن مشكلة الامن فقد كانت حرب اكتوبر زلزالا قوميا ، ليس فقط بسبب فداحة الخسائر البشرية فيها ، والتي قدرها هنري كيسنجر ، وزير خارجية امريكا ، خلال وجوده في الكويت ، بحوالي ١٢ الف قتيل و٢١ الف جريح ، بل أيضا بسبب اهتزاز الثقة بالجيش والحكومة وقدرتهما على حماية الاهالي . وقد عزز ذلك تصاعد العمليات الفدائية بعد الحرب ، وخاصة الانتحارية منها ، في عمق اسرائيل ، حتى أصبح الاقبال على شراء متاريس ابواب المنازل ظاهرة ملحوظة . ومن الطريف ، في هذا الصدد ، ان الصحف اليهودية قد ذكرت ان المتاجر والبنوك في مدينة بير السبع في جنوب اسرائيل قد أغلقت ابوابها يوم ١٢ ديسمبر (كانون اول) ١٩٧٤ عندما تجول ثلاثة من الفلسطينيين فيها لمجرد أنهم كانوا يرتدون الكوفيات العربية على رؤوسهم .

وقد أيد شلومو هيليل وزير الشرطة الاسرائيلية ذلك ، حين ذكر ، يوم ١٩٧٥/٥/٢٠ ، ان الاسبوع السابق قد شهد ١٨ عملية فدائية في الضفة الغربية وحدها ، وان نصف عمليات الدوريات الاسرائيلية موجهة حاليا ضد الارهاب والتخريب الذي ساعد بدوره على تفشي الجريمة(٢١). وهو اعتراف اسرائيلي جديد من نوعه ، ويستحق دراسة مستفيضة مستقلة . فقد قال هيليل ان عدد القتلى من ضحايا العمليات الفدائية عام ١٩٧٣ بلغ تسعة فقط ، بينما بلغ في العام المنتهي في شهر مارس (آذار) الماضي من هذا العام (١٩٧٥) ٨٢ قتيلا ... وأضاف قائلا أن جرائم السرقة خلال نفس المدة زادت بنسبة ٥٠ ٪ وازداد الفساد والجرائم الاقتصادية بنسبة ١٢٠ ٪(٢٢).

تدهور السياحة

اما السبب الثاني فهو تدهور الاحوال الاقتصادية ، فقد خفضت قيمة الليرة الاسرائيلية مرتين منذ نوفمبر (تشرين ثاني) حتى يونيو (حزيران) في خلال عام واحد وتسع مرات منذ قيام اسرائيل بحيث هبطت قيمتها من جنيه الى عشرة قروش ان لم يكن أقل . ثم ان اسرائيل فيها أعلى نسبة ضرائب دخل في العالم كله ، فضلا عن الارتفاع الجنوني في الاسعار عامة ، وفي السلع الاستهلاكية خاصة . وكان اكثر ما أضر بالاقتصاد الاسرائيلي هو هبوط السياحة بنسبة ٦٣ ٪ خلال الشهور الثمانية الاولى من عام ١٩٧٤ . (السياحة هي مصدر اسرائيل الاول من النقد الاجنبي) .

وعندما قام الفدائيون في اسرائيل في ٧٥/٣/٦ بعمليتهم الانتحارية في قلب تل ابيب ونسفوا فندق سافوي على انفسهم بعد ان قتلوا واصابوا معهم نحو ١٥٠ شخصا في الفندق وفي دار سينما مجاورة ، ألغى ٢٥ ٪ من السواح رحلاتهم الى اسرائيل فورا . وأسوأ من ذلك ان الاهالي تزايدت شكوكهم في استهانة الحكومة بأرواحهم لانها ترفض في كل عملية انتحارية مطالب الفدائيين بالافراج عن زملائهم المسجونين ، وتلجأ دائما الى مهاجمة الفدائيين متحملة بهذا مسؤولية ما يحدث بعد ذلك دائما من قتل جماعي للرهائن يقوم به الجيش والفدائيون على السواء . وكان هذا من أكبر الاسباب التي جعلت الاهالي يشكون في قدرة الدولة على حمايتهم .

العامل الثالث وراء متغيرات الهجرة والنزوح هو صعوبة الاندماج وازدياد الشعور لدى المهاجرين بالاغتراب وخاصة بين يهود الاتحاد السوفييتي ، الذين يمثلون حاليا الغالبية الساحقة من المهاجرين ... وقد كانت مفاجأة ان يشير استفتاء بين الشباب الاسرائيلي مؤخرا الى ان ٦٤ ٪ منهم لا يؤمنون بصحة حث اليهود على الهجرة الى فلسطين المحتلة(٢٣). وقد ذكرت وكالة اليونايتدبرس انه ظهرت في عام ١٩٧١ منشورات معادية للمهاجرين الجدد بتوقيع جماعة تصف نفسها بأنها من « الصابرا الساخطين » . والتفرقة العنصرية في اسرائيل ضد اليهود الشرقيين والسود غنية عن التعريف، ولكن الغريب هو ان المهاجرين الاوروبيين

الجدد يشكون من نفس المعاملة السيئة حتى ولو كانوا من أمريكا .

تقول المهاجرة الامريكية أنيتا شاجام انها وجدت الاسرائيليين « شرسين وكريهين وغير ودودين »(٢٤). ويقول روبرت جولدي ، أستاذ الفلسفة الامريكي اليهودي في جامعات امريكا الذي أقام في اسرائيل فترة ، في رسالة له بجريدة دافار في ١٩٧١/١١/١٩ « اننا لا نستطيع العيش مع هؤلاء الناس ، ليس فقط لانه يصعب التعامل معهم ويميلون للشجار ، وصاخبون وعنيدون ، وانما أيضا لانهم لا يريدوننا هنا ولا يتورعون عن غشنا في المطاعم والتاكسيات والمتاجر » .

العامل الاخير ، (وهو محصلة لكل ما سبق) هو اهتزاز العقيدة الصهيونية وصحة نظريتها في ان تكون المكان الآمن الوحيد ليهود العالم ، وانهم لا بد ان يهاجروا يوما ما الى اسرائيل . فبغض النظر عن ان اسرائيل لا تضم سوى عشرين في المائة تقريبا من يهود العالم ، فقد اكتشف اليهود خارجها وداخلها ان اليهود ليسوا شعبا متجانسا يسهل اندماجه واستيعابه في « ارض الميعاد » وان المجتمع الاسرائيلي ليس مجتمع المساواة والرخاء او الحل الوحيد « للمشكلة اليهودية » . وقد هز العالم تصريح برونو كرايسكي ، مستشار النمسا (وهو من أب يهودي) ، خلال زيارة الرئيس السادات للنمسا في شهر يونيو (حزيران) الماضي حين قال انه « ليست هناك مشكلة يهودية ، بل مشكلة فلسطينية » .

ومما زاد من غيظ الشباب الاسرائيلي الصهيوني المتحمس للهجرة هو انه ظل يرى كبار الصهاينة في الخارج لا يهاجرون الى اسرائيل، بل وينزحون عنها . وكذلك فقد كان الموضوع الرئيسي في المؤتمر الصهيوني العالمي الثامن والعشرين ، الذي عقد في اوائل عام ١٩٧٢ ، هو تشجيع الهجرة بحيث انه قرر اسقاط العضوية عن كل صهيوني لا يهاجر الى اسرائيل بعد مضي سنتين من عضويته في المؤتمر ، وقد صدر هذا القرار بأغلبية ضئيلة جدا (١٠٤ أصوات ضد ٩٨) ومع ذلك لم تكتب له الحياة ، لان منظمة هداسا النسائية ، وهي من اكبر الجهات التي تجمع التبرعات لاسرائيل، قد هددت بالانسحاب من المؤتمر . وهكذا أوقف العمل به ، سرا . وقد حاول موشي ريفلين المدير العام السابق للوكالة اليهودية ان يبرر ذلك بطريقة طريفة ، حين قال « صحيح ان يهودا كثيرين ليسوا مستعدين للحياة في اسرائيل ، ولكنهم على استعداد للموت في سبيلها » .

خلاصة القول ان هناك عوامل كثيرة جسيمة ظلت تؤثر على حركة الهجرة قبل ان تفجرها حرب ١٩٧٣ . فقد قال البروفسور روبرت جولدي في رسالته السابقة الى جريدة دافار : « انني وزوجتي قد قابلنا خلال العامين اللذين قضيناهما في اسرائيل مئات المهاجرين من روسيا وبولندا ورومانيا وامريكا الجنوبية والهند وكندا وسنغافورة والولايات المتحدة طبعا ... وأستطيع القول بصدق ودون مبالغة اننا لم نجد واحدا منهم مهتما بالبقاء في البلد ، فكل مهاجر ان لم يكن قد عاد الى دياره فهو يخطط للعودة » .

وهكذا ، فان كل الشواهد تشير الى ان وضع اسرائيل هذا العام سيكون أسوأ مما كان عليه قبل حرب ١٩٦٧ مباشرة ، وهي لا يمكن ان تسكت على زيادة عدد النازحين عن المهاجرين لاول مرة بمقدار ستة آلاف هذا العام (١٦ ألف مهاجر مقابل ٢١ الف نازح على وجه التقريب) ناهيك عن ١٢ الفا نزحوا من مناطق خط النار الى الداخل بسبب الامن ، لان هذا سيؤدي الى نتائج خطيرة جدا ، عقائديا وعسكريا واقتصاديا وماليا ، وهذه عينات منها :

(١) ابراز الفشل الحضاري لاسرائيل وفشل الايديولوجية الصهيونية في وحدة الشعب اليهودي (٨٧ ٪ من طلبة المدارس الثانوية في اسرائيل يعتبرون أي يهودي يعيش خارج اسرائيل غريبا عنهم وفق احصائية اجريت عام ١٩٦٦)(٢٥)، وفي مارس (آذار) ١٩٧٤ تفاقم هذا الشعور بين الشباب الى أبعاد خطيرة ... ففي اجتماع حضره ١٥٠ طالبا وطالبة في المرحلة الثانوية لمناقشة كيف هزت حرب اكتوبر « القيم القومية والصهيونية لدى الشباب » ، والتي سجلها الكاتب الاسرائيلي يزهار سميلانسكي ، في وثيقة أصبحت تعرف باسم وثيقة سميلانسكي ، ظهرت عبارات نقد عنيفة متشائمة مثل « لقد انتهت الدولة » ... « ليست لدينا ايديولوجية ولا مطامح » ... « عندنا شكوك في

حقنا في الوجود على هذه الارض » ... « لماذا نحن هنا ، وما المستقبل الذي ينتظرنا ؟ » ... « التاريخ اليهودي لا يعني شيئا بالنسبة لنا »... « هل أرض اسرائيل هي الامكانية الوحيدة المتاحة أمامنا للحياة ؟ » ... « انهم يدعوننا الى الحرب ، ويسوقوننا ونحن مغمضي الاعين ، ولكن لاي سبب نموت ؟ » ... ومعنى هذا ان الشخصية القتالية للشباب الاسرائيلي أصبحت موضع شك وأصبحت النظرية الصهيونية في فرض الصلح على العرب بالقوة موضع شك أيضا ، ولو بين المتعلمين فقط .

(٢) فشل الاستيطان في المناطق المحتلة ، وخاصة في منطقة المرتفعات السورية (الجولان) التي لا يعيش فيها الآن أكثر من ٥٠٠ يهودي ، رغم ان المشروع الاصلي الذي نشر في يناير عام ١٩٦٩ كان يستهدف توطين ٥٠ ألفا هناك قبل عام ١٩٧٩ ، وقس على ذلك سائر المستعمرات العسكرية التي تزيد عن الستين في المناطق المحتلة .

(٣) قد تؤدي زيادة النزوح عن الهجرة الى تعادل تعداد العرب مع اليهود في المناطق المحتلة خلال ثلاثين عاما ، حسب تقدير مكتب الاحصاء المركزي بالقدس للسكان عام ١٩٦٨ على اساس بقاء معدل تزايد السكان الطبيعي العرب واليهود على حاله ، حينذاك ، وهو ١٦ في الالف بين اليهود و٤١ في الالف بين العرب ، مع بقاء الهجرة على معدلها في ذلك العام (٢٠ الفا من المهاجرين مقابل نصف هذا الرقم من النازحين) . وكان من رأي شاؤول فريدلاندر(٢٦) « ان هذا سيخلق مشكلات أمن معقدة في حالة نشوب حرب جديدة مع العرب ، فضلا عن كافة المخاطر التي تميز الدولة ذات القوميتين اللتين سيزيد تعداد كل منهما في هذه الحالة عن مليونين » . ولكن هذه المعادلة تغيرت بعد أن أصبح النازحون اكثر من المهاجرين فضلا عن انخفاض نسبة الزيادة الطبيعية بمقدار الثلث .

(٤) الانخفاض المستمر في عدد المواليد نتيجة قلة الاقبال على الزواج ، وقلة الرغبة في التناسل. فقد هبطت نسبة التكاثر الطبيعي (الفرق بين المواليد والوفيات) بين يهود اسرائيل من ٢٠ في الالف عام ١٩٧٠ الى ١٧ في الالف عام ١٩٧١ الى حوالي ١٣ في الالف عام ١٩٧٤ اي حوالي ٣٢ الفا . وفي هذه الحالة سيكون الفرق بين زيادة السكان (من الهجرة والتناسل) وعدد النازحين ضئيلا جدا (حوالي ٢٧ الفا فقط) هذا العام . وفي العام الماضي ازداد اليهود ٣٦ الفا وعرب فلسطين المحتلة كلها ٦١ الفا(٢٧). واذا استمر هذا التناقص في الهجرة والتناسل مع تزايد النزوح وبقاء الاحتلال فان هذا سيؤدي بعد سنوات الى اكثر من « كارثة » على حد تعبير وزير الاستيعاب روزن . لان معناه تجمد عدد السكان اليهود ان لم يكن تناقصهم كما يحدث في كثير من الدول المتقدمة ، مع فارق هام هو ان النزوح من اسرائيل سيكون أكثر من غيرها للاسباب التي سبق ذكرها ، ومعنى هذا ان استمرار الوضع (وهو سيستمر على الارجح) قد يؤدي على الاقل الى تفوق عرب المناطق المحتلة على يهود اسرائيل في التعداد قبل نهاية هذا القرن (التعداد الحالي ٢٫٩ مليون يهودي و١٫٥ مليون عربي) .

(٥) نزيف اسرائيل أساسا من النازحين من حملة الشهادات العليا والمهنيين كالاطباء والمهندسين والاقتصاديين ، وهؤلاء الكبار المؤهلون لا يعوضهم في الخبرة المواليد الجدد ولا المهاجرون الجدد (ومعظمهم من الاتحاد السوفييتي) لان الاخيرين لا يستطيعون التعامل مع الحكومة والاهالي بسهولة ، حتى ولو كانوا مهنيين خبراء في بلادهم ، وذلك بسبب مشاكل اللغة واختلاف تخصصهم ، فالذي كان محاميا في روسيا لا يستطيع ان يعمل مثلا في القضاء الاسرائيلي ، لانه لا يعرف عنه شيئا ، وقس على ذلك . ولذلك فهم يعملون غالبا في مهن بعيدة عن مجال تخصصاتهم .

(٦) قد يؤدي استمرار ظاهرة النزوح — كما يقول تقرير للجامعة العربية — « الى سيطرة فئة الصابرا على المجتمع ، بما يمثلون من تطرف في السياسة الخارجية وعنصرية تجاه اليهود الشرقيين ، وعلى الرغم من ان غالبية الصفوة الاقتصادية والسياسية من يهود روسيا وبولندا ، فانها تفسح المجال تدريجيا بسبب عامل التقدم في السن لممثلي الصابرا الاكثر شبابا ، الذين يشكلون الآن نسبة عظمى من الصفوة العسكرية ، ونحو نصف سكان اسرائيل » .

(٧) النتيجة النهائية لكل ما تقدم ، هو ان حكومة رابين الضعيفة (وهو من الصابرا) ستكون

اكثر تشددا في سياستها الخارجية تجاه العرب ، وخاصة في محادثات جنيف المقبلة ، لاستعادة هيبة الدولة وسمعتها في التفوق العسكري مثلما فعلت عام ١٩٦٧ . وقد سبق أن أدى تشددها في محادثات كيسنجر الى انهيار مهمته ... وبالتالي الى دعم موقف الحكومة الاسرائيلية ازاء المعارضة ودعم موقف رابين ازاء معارضيه في داخل حزب العمل . وقد دل استفتاء قامت به جريدة دافار على تأييد ٨٤٫٦ ٪ من السكان لسياسة الحكومة المتشددة التي لا تملك أكثر من ٦٦ مقعدا من مجموع ١٢٠ من مقاعد الكنيست . وهذا يفسر قول ايجال الون، وزير الخارجية ، مؤخرا ان تشدد الحكومة يرجع الى « أسباب داخلية » .

ونحن قد نفهم سبب تشدد الحكومة الصهيونية ولكن تأييد السكان الشرقيين المطحونين لها بهذه النسبة غير مفهوم . فقد صدرنا الى المجتمع الاسرائيلي — كما قال الرئيس السادات أكثر من مرة — كل مشاكلنا السابقة من ضياع وانهيار معنوي ، وهذا كفيل بأن يدفع سكان اسرائيل للحرص على السلام بأي ثمن بعد الثمن الفادح الذي دفعوه من دمائهم في حرب عام ١٩٧٣ .

ولكن الحكومة قد استطاعت غسل مخ الاهالي تماما . ومن هنا جاء قول الرئيس السادات ان اسرائيل لا تريد السلام ولا تقدر عليه ... وانتهى في مؤتمره الصحفي في الكويت يوم ١٩٧٥/٥/١٤ الى ان « احتمال الحرب ليس بعيدا أبدا واحتمال محاولة استعادة خرافة اسرائيل التي لا تقهر وجيشها الذي لا يقهر وسيطرتها وسيادتها كلها أمور واردة في كل وقت وفي كل دقيقة ... ونحن مستعدون لها » .

خلاصة القول ان الهجرة اكثر العوامل حسما وأهمية في أمن اسرائيل . وحيث ان الامن هو عجل اسرائيل الذهبي المقدس ، فيجب ان نتوقع من اسرائيل قريبا رد فعل مضاد عنيف قبل ان ينتهي الامر بسكانها الى الشتات والعودة الى المهجر ، كما تنبأ بذلك ايضا توينبي ، واغلب الظن انها ستنتهز فرصة اول انفجار جديد في المنطقة لطرد اكبر عدد ممكن من عرب المناطق المحتلة لحفظ التوازن السكاني بين اليهود والعرب المقيمين فيها قبل فوات الاوان .

---

١ — وكالة الانباء الفرنسية (و.أ.ف.) ، ١٥/ ١٩٧٥/٥ .
٢ — جريدة دافار ، ١٩٦٨/٦/١٨ .
٣ — الكتاب السنوي لاسرائيل عام ١٩٥١ .
٤ — و. أ. ف. ، ١٩٧٥/٥/١٥ .
٥ — تقرير ادارة الهجرة بالامم المتحدة عام ١٩٧٥ .
٦ — اذاعة اسرائيل (عبري) ، ١٩٧١/١٠/١٨ .
٧ — وكالة انباء المانيا الغربية (د.ب.أ.) ، ١٩٧٥/٤/١٨ .
٨ — و.أ.ف. ، ١٩٧٥/٥/١٥ .
٩ — مجلة « كل شيء » اللبنانية ، ٢٤ أيار (مايو) ١٩٧٥ .
١٠ — و. أ. ف. ، ١٩٧٥/٥/٢٢ .
١١ — وكالة الاسوشيتد برس ، ١٩٧٥/٥/٣٠ .
١٢ — وكالة وفا ، ١٩٧٥/١/١٤ .
١٣ — وكالة وفا ، ١٩٧٥/١/٢٤ .
١٤ — يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٣/١٥ .
١٥ — « ظاهرة النزوح من اسرائيل » ، تقرير الجامعة العربية ، مايو (أيار) ١٩٧٢ .
١٦ — دافار ، ١٩٦٨/٦/١٨ .
١٧ — و. أ. ف. ، ١٩٧٤/١٢/١٨ .
١٨ — جريدة « الرأي » الاردنية ، ١٩٧٥/٣/٢٧ نقلا عن وكالة نوفوستي السوفييتية .
١٩ — « المصور » القاهرية ، اول يونيو (حزيران) ١٩٧٥ .
٢٠ — وكالة وفا ، ١٩٧٥/١/١٤ نقلا عن جريدة الجارديان البريطانية .
٢١ — وكالة الاسوشيتد برس ، ١٩٧٥/٥/٢٠ .
٢٢ — نفس المصدر .
٢٣ — « الاهرام » القاهرية ، ١٩٧٥/٥/١٢ .
٢٤ — جريدة « اليوم » اللبنانية ، ١٩٧١/١١/٢٦ نقلا عن جريدة معاريف .
٢٥ — الاهرام ، ١٩٧٥/٥/١٢ .
٢٦ — شاؤل فريدلاندر ، « تاملات في مستقبل اسرائيل » ، ترجمة الهيئة العامة للاستعلامات بالقاهرة ، ١٩٦٨ .
٢٧ — و.أ.ف. ، ١٩٧٥/١/١ .

محمد أحمد رمضان

المستشرقون ومعاهد الاستشراق في اسرائيل

بدأ تطور الدراسات العربية في اسرائيل مع اهتمام العلماء اليهود ، في اماكن متعددة من العالم بالاستشراق ، وخاصة في المانيا في القرن التاسع عشر . واحتل هؤلاء العلماء اماكنهم في عدد كبير من الجامعات في العالم ، ووضعوا خدماتهم تحت تصرف الصهيونية العالمية . ثم قدم البعض منهم الى الجامعة العبرية في القدس ، حيث ساهموا بتطوير قسم الدراسات الشرقية ، الذي اخذ يخرج دفعات من الطلبة اليهود في هذا الميدان .

وهنا لا بد من الاشارة الى الاهمية التي تعلقها اسرائيل على الاستشراق والى الحوافز التي تدفعها للاهتمام به ، وخير ما يشير الى ذلك ما كتبه البروفسور اوريال هايد ، احد اساتذة الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية . يقول هايد : لقد لعبت العلوم الشرقية والاسلامية دورا هاما في تاريخ شعبنا الثقافي ، ومنذ العصور الوسطى عندما كان اليهود يساهمون في نقل فلسفة الاسلام الى اوروبا ، وحتى يومنا هذا ظهر كثير من العلماء اليهود المتخصصين بدراسة الشعوب الاسلامية وثقافتها وحضارتها وتاريخها. وهناك في ايامنا هذه ، نسبة لا بأس بها من المستشرقين اليهود وان مجرد وجود مكتبة اجنتس جولد تسيهر ، وهو يهودي هنغاري ومن كبار المستشرقين في الاسلام ، في مكتبة الجامعة العبرية يمكن من استخدامها كرمز لهذا التتابع التاريخي(١).

ويستعرض البروفسور هايد المزايا التي يتمتع بها المستشرقون اليهود بالمقارنة مع المستشرقين الغربيين فيعزوها الى العوامل التالية :

أ — ان الكثيرين من الطلبة اليهود ، الذين يلتحقون بالجامعة يلمون باللغة العربية ، ومنهم من درس العلوم الشرقية في المدرسة الثانوية .

ب — على الرغم من اغلاق ابواب البلدان العربية في وجه طلبة الاستشراق اليهود ، فانهم يستعيضون عن ذلك بالسفر الى تركيا وايران وغيرها من بلدان الشرق القريبة من اسرائيل خلافا للمستشرقين الغربيين الذين تبعد عنهم هذه البلدان .

ج — ارتباط اليهود والعرب التاريخي والحضاري مع الشرق الاسلامي ، ثم ان تعلم اللغة العبرية وقواعدها ومفرداتها يحتاج الى معرفة مبدئية باللغة العربية حتى على مستوى المدرسة الثانوية . وكذلك فان فهم الشعر والادب الديني والفلسفي اليهودي خلال العصور الوسطى يتطلب دراسة خلفية الاسلام . ويضيف هايد قائلا : ان هذه المعرفة لتلك القومية التاريخية تتطلب دراسة واسعة وعميقة للغة العربية وآدابها في الجامعة العبرية . وينعكس ذلك ايضا على الابحاث التي تجري فيها ، فهناك طلاب مثلا يعدون قانونا عربيا — عبريا ضخما بتوجيه من اساتذتهم . واخرون يعدون الكتب غير المتداولة لاستخدامها في الابحاث التاريخية والاجتماعية لبلدان حوض البحر المتوسط خلال العصور الوسطى(٢).

ويواصل هايد شرحه لدوافع الاهتمام بالاستشراق فيقول : لعل التحدي الاساسي لعملنا انه لا ينبع من مشاركتنا في تاريخ الشرق الاوسط في الماضي ، بل من واقعنا في الحاضر والمستقبل. فقضية انتماء اسرائيل للغرب او للشرق نوقشت كثيرا دون ان يوصلنا هذا النقاش ، حتى الان ، الى اراء متبلورة ومقبولة . ومهما يكن توجهنا الادبي ، وعلاقاتنا السياسية مع جيراننا ، فانه ليس هناك من ينكر ان مستقبلنا القومي مرتبط بمستقبل الشرق الاوسط ، والى حد ما بمستقبل دول اسيا وافريقيا الاكثر بعدا . فهذه الحقيقة ينبغي ان تضفي على اهتمامنا بالشرق الاوسط اهمية خاصة وحيوية ووعيا يزيد عما لدى المستشرقين من بلدان الغرب(٣).

ان اهتمام اسرائيل بالاستشراق لا يعود الى دراسة العرب فقط ، بل ايضا دراسة اليهود الذين تجلبهم الصهيونية من بلدان الشرق الى اسرائيل ، حيث كان من الصعب اندماج هؤلاء اليهود مع الطوائف الغربية في اسرائيل ، الامر الذي خلق مشكلة التفرقة بين الاشكناز ، اي اليهود الغربيين وبين السفارديم ، اليهود الشرقيين . ويقول هايد في هذا المجال : ان استيعاب العدد الكبير من المهاجرين من دول

الشرق يتطلب فهما واسعا للظروف السائدة في بلدانهم الاصلية ودراسة تقاليدهم الخاصة ، في الوقت نفسه مساعدة هامة لمعرفتنا العلمية وللفهم والتقبيح المتبادلين بين الطوائف(٤) .

مؤتمرات الاستشراق

يتمثل اهتمام اسرائيل والصهيونية بالاستشراق بحرصها على الاشتراك في مؤتمرات المستشرقين الدولية التي تعقد بين الحين والاخر . فقد اشتركت اسرائيل في مؤتمر المستشرقين الدولي الذي عقد في باريس عام ١٩٤٨ ، حيث وفد اليه مستشرقون يهود من بلدان مختلفة . كما اشتركت ايضا في المؤتمر الدولي للمستشرقين ، الذي عقد في اسطنبول عام ١٩٥١ ثم في كامبردج في صيف عام ١٩٥٤ . حيث اشترك في هذا المؤتمر مجموعة كبيرة من المستشرقين اليهود من اقطار مختلفة . وقد ادخل اعضاء الوفد موضوعات عن اسرائيل واليهود والتوراة وتعاليم التلمود وحضر المؤتمر مجموعة من المستشرقين الاسرائيليين منهم ايلوية وبنعاط وجوطشطاين وجويكين وغيرهم . كما حضر المؤتمر ايضا يغئال يدين ثاني رئيس اركان للجيش الاسرائيلي الذي القى محاضرة حول « الاحتلال العسكري بين مصر وفلسطين منذ القدم »(٥) .

كما بعثت اسرائيل الى مؤتمر المستشرقين الدولي السادس والعشرين الذي عقد في نيودلهي خلال شتاء عام ١٩٦٤ ، وفدا من الجامعة العبرية يرأسه البروفسور ايلون والاساتذة اوريال هايد وحاييم رابين وبيبع شتماز وطوبيا جلبلوم وجفريال بير . وساهم الاساتذة الاسرائيليون بابحاث ومحاضرات عن الاسلام والحضارة والاداب العربية والتوراة . ويقول الدكتور بير ان رئيس الدائرة الاسلامية في المؤتمر قال له ، ان الاعضاء الاسرائيليين قدموا ابحاثا ممتازة عن الاسلام . هذا وتستغل اسرائيل هذه المؤتمرات للدعاية وكسب صداقة الوفود . ويقول الدكتور جلبلوم : اعتقد ان زيارة الوفد كانت حملة اعلامية هامة بصورة غير مباشرة(٦) .

معاهد الدراسات العربية والشرقية في اسرائيل

تركز اسرائيل على خلق جيل من الباحثين والخبراء في الشؤون العربية والاسيوية والافريقية لتحقيق مطامعها التوسعية . وتدرك اسرائيل ان المواجهة مع العالم العربي تتطلب فريقا من المتخصصين في الشؤون العربية يتوزعون في جميع دور الصحف والنشر والمؤسسات الحكومية والجامعات . كما ان التغلغل الاسرائيلي في اسيا وافريقيا يتطلب بدوره جيلا من الشبان يلم بمشاكل هاتين القارتين ولغاتها وتقاليدها .

ولهذا السبب طورت اسرائيل قسم الدراسات الشرقية واقامت معاهد متعددة لتخريج الباحثين واعداد الدراسات ، واهم هذه المعاهد :

١ — **معهد الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية** . وقد تأسس عام ١٩٢٦ . ومما يدرسه هذا المعهد ، بصورة خاصة ، اللغة العربية وادبها الكلاسيكي ، وكذلك الحضارة العربية التي شملت الديانة الاسلامية والتاريخ العربي في القرون الوسطى ، وكذلك الفلسفة والقانون وعلم الآثار والفنون وتاريخ العلم في الاسلام ثم اللغة العربية الحديثة وآدابها واصولها اللغوية(٧) .

وخلال عام ١٩٣٥ ، قام هذا المعهد بمشروعين ، الاول : اعداد ديوان ضخم عن الشعر العربي القديم . وفي سبيل ذلك تسجل كل كلمة تظهر في هذا الشعر على بطاقة خاصة مع ذكر اصلها . وقد تم تسجيل اكثر من مليوني بطاقة حتى الآن . ويستخدم هذا الديوان ، كمرجع اساسي في البحوث حول تطوير اللغة العربية . والمشروع الثاني هو اعادة طباعة كتاب البلاذري وهو موسوعة كبرى للتاريخ العربي القديم .

ومن اهم محتويات هذا المعهد مجموعة من الصور والرسومات لمبان اسلامية وتحف فنية تربو على اربعة الاف . وقام المعهد بابحاث عدة في مجال العلوم الشرقية . منها بحث اعده البروفسور ويل عن الحديث والقرآن وبحث اخر عن تاريخ اللغة التركية . ومنها ايضا ترجمة القرآن وابن هشام وسيرة محمد والف ليلة وليلة الى اللغة العبرية ، .ومنها ايضا الابحاث التي اعدها الدكتور بولتسكي عن اللغة القبطية والادب العربي الحديث(٨) .

وبعد اقامة اسرائيل اخذ المعهد يعد الباحثين في الشؤون المعاصرة للشرق الاوسط ، وذلك بتكليف من الحكومة ، حيث توسع المعهد بتدريس اللغة

العربية ، الفصحى والعامية . ويقوم هذا المعهد بتسجيل جميع اللهجات التي يتحدث بها الفلسطينيون ، حيث يختارون طلابا عربا من كافة القرى لتسجيل لهجاتهم وحصر كل لهجة سائدة في القرى والمدن الفلسطينية .

ولا بد هنا من الاشارة الى ان معهد الدراسات الشرقية في الجامعة العبرية يصدر مجلة فصلية تدعى « همزراح هيحاداش » ومعناها بالعربية « الشرق الجديد » . حيث تنشر هذه المجلة دراسات عن العالم العربي في كافة المجالات والحقول . وفيها ابواب دائمة عن الاخبار السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية في كل بلد عربي . وحتى انها تترجم الاشعار والقصص والروايات العربية الى اللغة العبرية.

٢ — **معهد شيلواح** : يعتبر معهد شيلواح في تل ابيب من اهم المعاهد الاسرائيلية لجمع المعلومات عن الشرق الاوسط . فقد انشيء عام ١٩٥٩ عندما شعر الاسرائيليون بضرورة استغلال المعلومات الغزيرة عن الشرق الاوسط المتوفرة لديهم . ومن رواد الدعوة الى تأسيس هذا المعهد المستشرق اليهودي رؤبين شيلواح* والذي سمي المعهد باسمه ، ويهوشفاط هركابي الذي عمل رئيسا للاستخبارات العسكرية في الجيش الاسرائيلي واسحق اورن من كبار ضباط الجيش والذي تولى ادارة المعهد اثر تأسيسه . واستطاع اورن ان يوفر للمعهد منذ بدايته مادة ارشيفية نادرة وهي عبارة عن مجموعة من الصحف العربية منذ عام ١٩٤٨ . والمشروع الرئيسي لهذا المعهد هو اصدار كتاب سنوي شامل عن الشرق الاوسط حيث يتضمن التحليلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في كل بلد من بلدان الشرق الاوسط .

هذا ويحرص المعهد على جمع الاعداد اليومية لاكثر من مائتي صحيفة تصدر في الشرق الاوسط . ويقول الدكتور حاييم شاكيد احد المسؤولين في المعهد ، والذي اصبح الان رئيسا له : « يختلف معهدنا عن معاهد الابحاث في العالم ، اذ اننا لا نتابع الاحداث حسب تتابعها التاريخي ، بل نحاول ان نرى ما يشغل الشرق الاوسط اليوم . وربما نحتاج الى الرجوع للوراء ٢٠٠ — ٣٠٠ سنة او اكثر في بعض الاحيان . ونؤمن اننا عندما نتناول المشكلات الحاضرة نستطيع الاستفادة من الماضي وتوقع ما سيحدث في المستقبل . اننا لا نعمل في التنبؤات ولكن معرفة الوضع الحالي ، ومعرفة الاحداث التي ادت اليه ، تمكننا من معرفة ما سيحدث في المستقبل »(٩).

ولدى المعهد مصادر وفيرة من المعلومات ابتداء من الصحف والنشرات الطبية التي تصدر في العالم العربي وانتهاء بما تذيعه محطات الاذاعة العربية ، وكل هذه تدخل كقصاصات في ارشيف خاص . ويترأس معهد شيلواح شمعون شمير ، (حل مكانه الدكتور حاييم شاكيد) ، ويساعده خمسة باحثين يتناوبون على متابعة ما يجري من تطورات سياسية واقتصادية واجتماعية في البلد الذي يشرف عليه . ويضم المعهد ستة اقسام ، يترأس كل قسم « باحث » يحمل درجة الدكتوراه في العلوم السياسية او الاجتماعية او الاقتصادية ، مع مراعاة وضعه في القسم الذي يختص بالبلد الذي تناولته دراسته الجامعية . وهو يتقن لغة هذا البلد وله دراية باللهجات المختلفة المتداولة فيه . ويضم كل قسم مجموعة من الباحثين يتقنون ايضا اللغة العربية .

وينقسم المعهد الى ستة اقسام :

١ — دائرة مصر : يشرف عليها رئيس المعهد الدكتور شمعون شامير ، ويبدو ان اصله مصري.

٢ — سوريا : يشرف عليها الدكتور افيجدور ليفي ، وهو احد الباحثين البارزين في معهد شيلواح . درس في قسم الدراسات الشرقية بالجامعة العبرية في القدس .

٣ — دائرة العراق : يشرف عليها الدكتور اوبرمال وان . وهو مؤلف كتاب عن العراق في عهد عبد الكريم قاسم .

(٤) دائرة السودان ، يشرف عليها الدكتور حاييم شاكيد (الذي أصبح رئيسا للمعهد) وهو خريج الجامعة العبرية . حاز على درجة الدكتوراه من لندن ، اثر تقديم رسالته حول تاريخ المهدية في السودان(١٠).

(٥) دائرة ايران : يشرف عليها باحث آخر هو اريه شموئيلنيتس ، وهو من مواليد فلسطين

ومختص بمشكلات تركيا وايران .

(٦) دائرة العلاقات العربية ويشرف عليها الدكتور دافيد شيرون وهو يختص بالعلاقات بين البلدان العربية وتطورها[١١].

وتكمن أهمية معهد شيلواح في ان الاجهزة الرسمية في اسرائيل تعتمد عليه لدها بالمعلومات عما يجري في العالم العربي . وهو على اتصال دائم مع وزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات . كما يهتم المعهد ايضا بالمقاطعة العربية ووسائل مكافحتها . وأصدر معهد شيلواح مجموعة من الكتب عن العالم العربي اهمها كتاب سوريا تحت حكم البعث وكتاب السياسة العربية في المرآة السوفياتية وكتاب مثقفون في العالم العربي[١٢].

٢ — مركز الدراسات العربية والافرو — آسيوية : اقيم هذا المركز في معهد جفعات حبيبة في المثلث . واعلن هذا المركز عن غايته وهي « خدمة قضية محددة ، أي قضية التفاهم والتعاون بين اليهود والعرب في اسرائيل والمنطقة . ويعمل من اجل تثقيف ابناء الشعبين كي يفهم كل واحد آمال الشعب الاخر ، كما يعنى بالنشاط الاجتماعي لتطوير المجتمع العربي في اسرائيل » . ويخضع المعهد لاشراف حزب مبام الصهيوني اليساري ولهذا يكثر من تشدقه عن السلام .

ولكن ليست هذه هي الاهداف الحقيقية لهذا المركز ، اذ ان هدفه الاساسي هو اعداد دراسات عن العرب في اسرائيل لا من اجل تطوير الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية للعرب ، بل من اجل رصد تحركاتهم في اسرائيل ، ومتابعة ميولهم وفهم عقليتهم ، وبالتالي محاربة اية ظاهرة لا تستسيغها السلطات . كما انه يسعى بطريق ذكي وخبيث لاستيعاب الشباب العربي هناك ، بعد ان غطى نفسه بلباس يساري مزيف.ويقوم هذا المركز بنشر سلسلة من دراسات عربية وافرو — اسيوية ، منها دراسة عن التركيب المهني والمشكلات الاقتصادية للسكان العرب في اسرائيل .

٤ — المعهد الافرو — آسيوي للدراسات العمالية والتعاون : تأسس هذا المعهد في تل أبيب عام ١٩٦٠ لتدريس التنمية والتعاون والمشكلات العمالية للطلبة الأفرو — آسيويين . ويترأسه الياهو ايلات ، الرئيس السابق للجامعة العبرية.

وتضم مكتبة المعهد ٧ آلاف مجلد ، وتخرج منه عام ١٩٦٩ ، ٢٢٣٣ طالبا من ٨٥ دولة .

٥ — المدرسة الاميركية للدراسات الشرقية : تشتمل على مكتبة تضم ٤٥ ألف مجلد . تقوم بأبحاث عن اللغات السامية والاداب والتاريخ والاثار .

٦ — دار ويلفرد اسرائيل للفنون والدراسات الشرقية : تأسست عام ١٩٤٧ في كيبوتس هازوريع بالقرب من حيفا . افتتحت عام ١٩٥١ . وهي مركز للمطالعة والدراسة والمعارض الفنية .

٧ — اللجنة الاكاديمية الاسرائيلية الخاصة بشؤون الشرق الاوسط : ذكرت « جيروزاليم بوست » في عددها ١٩٧١/١/٨ ، انه تألفت في اسرائيل لجنة اكاديمية تعنى بشؤون الشرق الاوسط برئاسة شارل برادو . وقالت الصحيفة ان هدف هذه اللجنة ، هو اعداد المعلومات المتعلقة بالصراع العربي الاسرائيلي ، ووضعها تحت تصرف الاساتذة والمثقفين الامريكيين الذين يزورون اسرائيل . وأضافت « تهدف اللجنة الى تزويد المئات من الاكاديميين الاصدقاء الذين يزورون اسرائيل بالمعلومات والافكار التي تمكنهم من مهاجمة اعداء اسرائيل بعد عودتهم الى بلادهم . وتعمل اللجنة من خلال جمعية الاساتذة الامريكيين من اجل السلام في الشرق الاوسط ».

٨ — معهد اسرائيلي لجمع الوثائق والبحث في تاريخ الشعب الفلسطيني : وقد اقيم هذا المعهد على جبل المكبر في القدس بهدف جمع المادة الوثائقية الوفيرة في البلاد مثل افلام مايكروفيلم لوثائق محفوظة موجودة في الخارج تتعلق بتاريخ عرب البلد خلال الاجيال الاخيرة . ويشرف على هذا المعهد الدكتور موشيه معوز . ويقوم هذا المعهد بتصنيف المادة حسب مجالات رئيسية : عرب فلسطين في عهد الانتداب ، عرب الضفة الغربية خلال العهد الاردني ، وعرب قطاع غزة خلال فترة الحكم المصري ، و« عرب اسرائيل » منذ ١٩٤٨ ، عرب الضفة والقطاع منذ ١٩٦٧ ، الفلسطينيون والنزاع الاسرائيلي — العربي[١٤].

وهناك العديد من هذه المعاهد التي تتبع المخابرات والوزارات الحكومية بصورة مباشرة ، وان ما تقوم به هذه المعاهد وتلك ، من ابحاث

ودراسات علنية وسرية والتي يقوم باعدادها الخبراء الاسرائيليون في الشؤون العربية تستغل استغلالا تاما ، فعلى الصعيد الرسمي توضع تحت تصرف مخططي السياسة والقائمين على الاجهزة التنفيذية كي تكون مخططاتهم مبنية على تحليلات علمية دقيقة . ولا شك ان اسرائيل تعتمد على التخطيط للمدى البعيد ، لادراكها انها تعيش في منطقة تنبذها ، ويهمها ان تعرف كل شيء عن العالم العربي . ولهذا فهي تتابع باهتمام دراسة التطورات في العالم العربي . ومن اهم الامور التي تهتم بها اسرائيل كثيرا هو حجم وسرعة التطور العلمي والتكنولوجي في البلاد العربية . كما تهتم اسرائيل بتعليم وتثقيف الشبان ، عن العالم العربي . ولهذا فالدراسات الشرقية تحظى في اسرائيل باهتمام كبير في جميع الاوساط وخلال مراحل التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية . ويبدأ الاهتمام بهذه الدراسات بتعميم دراسة اللغة العربية في بعض المدارس تمهيدا لمتابعة الدراسات الشرقية الجامعية في المستقبل . ففي العام الدراسي ١٩٦٩ / ١٩٧٠ تم تدريس اللغة العربية في اربع وسبعين مدرسة ثانوية في اسرائيل وبلغ عدد الطلاب الذين يدرسونها حوالي ١٢ الف طالب . وتشتمل عشر من هذه المدارس على فروع للدراسات الشرقية ، يتلقى فيها الطالب دروسا موسعة في اللغة العربية القديمة والحديثة وكذلك تاريخ العرب والاسلام(١٥).

ومن اهم المواضيع التي يقومون بتدريسها وبحثها ، التاريخ الدبلوماسي والسياسي للمشكلة الفلسطينية. وكذلك الحروب العربية — الاسرائيلية والاتصالات الدبلوماسية بين الحركة الصهيونية والحركة القومية العربية بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى ، وكذلك دراسات عن العالم العربي ، منها ، دراسة عن علال الفاسي — خطوط عمله على طريق استقلال مراكش(١٦)، ودراسة عن القبائل اليمنية وكذلك « مسألة الفلسفة القومية في الفكر العربي المعاصر » حيث تم الاعتماد في ذلك على كتاب الدكتور قسطنطين زريق « الوعي القومي » ، وكذلك الاعتماد على دراسات ومؤلفات ساطع الحصري وكتاب حسن صعب « دروب القومية العربية » . وكذلك دراسة مؤلفات قدري طوقان وعبدالرحمن البزاز وهشام شرابي ونقولا زياده وغسان تراره وانيس صايغ وغيرهم .

كما يقوم الاسرائيليون بدراسة الشعر العربي القديم والحديث ، حيث يقومون بترجمة نماذج منه الى اللغة العبرية . ولنأخذ مثلا شموئيل موريه المتخصص في الشعر العربي الحديث الذي قام بترجمة ديوان ادونيس (علي احمد سعيد) : «كتاب التحولات والهجرة في اقاليم النهار والليل»، وديوان محمد الماغوط « حزن في ضوء القمر»(١٧).

كما يقومون بدراسة العرب الذين يعيشون بينهم منذ اكثر من ربع قرن فهم يرقبونهم بعين ساهرة ، واكثر ما يهمهم هو تطور الوعي والمشاعر القومية لدى هؤلاء ، فترى ان هناك دراسة تحمل عنوان « الانتماء القومي للعربي الاسرائيلي » اعدها الدكتور يوحنان بيرس استاذ العلوم الاجتماعية في الجامعة العبرية ونيره ديفيس وكانت معيدة في الجامعة العبرية(١٨). كما قام ستة من الخبراء في الشؤون العربية باعداد دراسة عن العرب في اسرائيل تشتمل على دراسة المواضيع التالية : السكان العرب في اسرائيل تحليل ديموغرافي ، حجم السكان العرب — التوزيع الجغرافي ، سكان المدن والقرى ، التغيرات التي طرأت على القرية العربية هناك ، الوقف الاسلامي ، وضع الشعر والادب لدى العرب في اسرائيل ، والجيل العربي الناشيء وموقفه من الدين . ومما يؤكد اهتمام الخبراء الاسرائيليين بالشؤون العربية ، ما تحدث به اثنان من رؤساء الاستخبارات العسكرية الاسرائيلية السابقين ، والمهتمين الان بهذا الشأن . فقد تحدث عن ذلك يهوشفاط هركابي بقوله : هناك امر هام جدا ، لقد تعودنا ان نسأل ماذا يفعل العرب ، لا ماذا يفكرون . كما أرى الان انهم يفكرون بشكل ممتاز ، ايديولوجيتهم اصبحت عقلانية وتصرفاتهم في كل ما يتعلق بالنزاع اصبحت منطقية ، يوجد لديهم مؤسستان كبيرتان لبحث النزاع العربي الاسرائيلي [مركز الابحاث ومؤسسة الدراسات]. واذا ما احتجت الى مادة ما ، وعن اسرائيل ايضا ، اجدها هناك . واما الجنرال (احتياط) حاييم هرتسوغ فيقول : انا مشترك بمنشوراتهم ، ان افضل بحث قرأته عن حرب الاستنزاف نشروه هم ، وكتبه دكتور فلسطيني(١٩).

ماذا كان دور المستشرقين في حرب اكتوبر

كـــان التحليـلات والمعلومات التي قدمهـا المستشرقون الاسرائيليون قسط وافر من الانتصار العسكري الذي حققته اسرائيل عام ١٩٦٧ . فانه بالمقدار الذي نظر فيه الاسرائيليون الى دايان عام ٦٧ وبالهالة التي اغدقوها عليه وعلى غيره مـن العسكريين ، اغدقت الهالة ايضا على المستشرقين الاسرائيليين ، واخذ الطلب يزداد عليهم وعلـى مؤلفاتهم ، حيث كانوا يدعون لاجراء مقابلات في الوسائل الاعلامية المختلفة ، كما ان التهافت قد ازداد عليهم في مراكز الابحاث والجامعـات المختلفة . ولكن ماذا حدث بعد حرب اكتوبر ؟ ففي غمرة الاتهامات التي تبادلها الاسرائيليون فيمـا بينهم ، بالنسبة الى مسؤولية التقصير والاهمـال في حرب تشرين ١٩٧٣ ، كـــان للمستشرقـــين والمتخصصين بالشؤون العربية ، افرادا ومعاهد، نصيب من هذه الاتهامـات . وقد كتب الدكتـور اوري ميلشتاين مقالا في ملحق دافار (١٩/٤/٧٤) بعنوان : « اين كان المستشرقون ؟ » عرض فيـه اراء هؤلاء بعضهم في بعض وفي مسؤوليتهم عـن التقصير ، وفي اخفاء حقائق كثيرة تنشأ في العالم العربي عن الاسرائيليين ، والتكييف مع وجهـة نظر المؤسسة الحاكمة في اسرائيل . فقد نقـل ميلشتاين عن البروفسور يهوشفاط هركابي ، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية سابقا ، والـذي ينظر اليه كثيرون على انه الخبير الاكاديمي الاول في اسرائيـل ، بمسائـل الصـراع العربي ــ الاسرائيلي » قوله : « انني لا اعتبر فشل تشرين الاول ١٩٧٣ ، فشلا للسياسيين فقط ، بل هـو فشل اكبر ، واذا شئت تقصير ، لرجال الفكر في الدولة . فهم لم يتيحوا للشعب فهم اوضاعه . لقد قال وزير الدفاع انه لا يتوقع حدوث حـرب خلال عشر سنوات وجاء متياهو بيلد (احد كبار المستشرقين) وكتب ان وزير الدفاع يبالغ ، فلن تكون هناك حرب لفترة اطول كثيرا . وكتب عشرة مقالات اخرى ، وقال : لماذا يبالغون في المسألـة الامنية . وانا اتســاءل : هـل تستطيع امة ان تكون مستعدة للحرب عندما يقولون لها صبـاح مساء ، انه لا يتوقع حدوث حرب ، وان الطـرف الاخر قد تنازل عن الحل بالقوة ؟ » ودعا هركابي الى التدقيق في دور بيلد ، وشمعون شمير الاستاذ في جامعة تل ابيب ورئيس معهد شيلواح سابقا ، في « تقصير حرب يوم الغفران » . ورد شمير بانه لم ينصرف الى الكتابة في الصحف ، كما فعل هركابي ، وانه عني بتوضيـح « ان في العالـم العربي جماعة تسعى للتسوية مع دولة اسرائيل، لعلها جماعة هامشية ، ولعلها لا تمارس اليـوم تأثيرا على صانعي القـرارات . واعتبر شمـير هركابي منظر حالة الركود « التي سادت المجتمع الاسرائيلي خلال السنوات الاخيرة » . فقد وزعت مقالاته على الجيش الاسرائيلي « بعشرات الالف من النسخ » واقرت وزارة المعارف والثقافة كتيباته في برامج التعليم في المدارس ، كما مثل امام لجنة الخـــارجية والان ، ودعتـه غولدا مئير الـى الاستشارة ، قبل الحرب وبعدها . « وقد وجهت افكاره الخط الحكومي ، وكانت ، بصورة خاصة، اساسا لموقف غولدا » . كما اتهم شمعون شمير، هركابي ، ايضا بانه نشر افكارا مشوهة عـن المجتمع العربي ، ادت الى الاستهانة به ، وهـو الذي اوجد مصطلح « لا سامية عربية » . وعرض شمير نموذجا للخلافات بينه وبين هركابي ، هو ان هذا الاخير يعتقد بان مصر مستعدة للانتظار طويلا وعدم القبول بتسوية منفردة في سيناء ، بينمـا يرى شمير العكس . « ولكنني حذرت من الحرب اكثر من هركابي ... فقد قلت ان السـادات خارج الى الحرب بسبب سيناء ، وانه لا يجـوز الشك في مدى ارتباط المصريين الفعلي بصحـراء سيناء » .

كما عرض ميلشتاين رأي الدكتور حاييم شاكد، رئيس معهد « شيلواح » اليوم . وكان الخـلاف الرئيسي بين المستشرقـين ، بحسب شاكد : « هل ينبغي لدولة اسرائيل ان تنطلق من الافتراض بانه لا يوجد اي حل للصراع بين اليهود والعـرب ، وان الشرق الاوسط يعيش حروبا دورية لا يمكن الخروج منها ، او انه يمكن اتخاذ العديد مـن الخطوات للحيلولة دون الحرب . لقد كان رأيي يميل الى الاحتمال الثاني . كان واضحا لي انه اذا توصل العرب الى الاستنتاج ان ثمة وضعـا يمكنهم من حل المشكلة بالقوة ، واذا وصلوا الى حالة من اليأس ، فسيحاولون استخدام القوة . ولكنني اعتقدت ان على دولة اسرائيل ان تعمـل كل ما في وسعها ، بمفاهيم المبادرة السياسية ،

للحيلولة دون تولد وضع كهذا . وقد اعتقدت فعلا ان هناك خيارات عديدة في يدنا » .

واضاف ميلشتاين ان الجمهور يأخذ على المستشرقين والخبراء بالشؤون العربية ، انهم لم يتنبأوا بحرب تشرين . وتوجه ميلشتاين بسؤال في هذا الموضوع الى الدكتور ايتمار رابينوفيتش ، من معهد « شيلواح » فأجاب : نحن لم نسأل ، ولم يكن من مهماتنا ان نتنبأ بحرب تشرين الاول ٧٣ بالذات . نحن جزء من مؤسسة جامعية ، ونعمل داخل جهاز لا يملك معطيات للتنبؤ بالحروب خلال ايام او اسابيع او اشهر . نحن لا نشترك في اجتماعات سرية ، والكثيرون منا ، يبحثون في الحقيقة ، في مشكلات مختلفة تتعلق بالدول العربية ، وليس بالصراع بالذات » .

واستعرض ميلشتاين تاريخ الاهتمام الاسرائيلي — الجامعي بالشؤون العربية ، فذكر ان الجامعة العبرية في القدس لم تهتم بها حتى اوائل الخمسينات . ولكنه خلال السنوات الاخيرة فقط تجمع باحثون شبان في الجامعات في القدس وتل ابيب ، وفي الجامعات الفتية ، وكرسوا معظم وقتهم للمشكلات الحاضرة في منطقتنا . كما نقل ميلشتاين عن هركابي قولـه : « ان المستوى الثقافي للبحوث العربية حول الصراع يتفوق على ما لدينا الى حد كبير . انني ارى نشراتهم وكتاباتهم ، والجهود الذي يبذلونه من اجل فهم هذا الموضوع ، بطريقتهم هم طبعا . اننا لا نصل الى رسغ قدمهم » .

كما وصلت الحملة ضد المستشرقين الى اوجها عندما شن اهرون جيفع في دافار (٧٣/١٢/١٠) هجوما على من يعتبرون خبراء بالشؤون العربية في اسرائيل بقوله : « يبدو لي ان زمن الخبراء بالنفسية العربية ، على اختلاف انواعهم ، الذين اثروا فينا بآرائهم وتقويماتهم قبل الحرب ، قد انتهى ومن الافضل لهم ان يفتشوا عن مصدر رزق اخر .

« ويمكن تقسيم خبراء الامس الى ثلاث فئات . منهم من اعتاد ان يعلن : ولدت في العراق وافهم العرب . وتضم الفئة الثانية الذين تذكروا ايام صباهم ، عندما كانوا يعملون مع العرب كمراقبين على العمال العرب في بيارات بتاح تكفا . أما الفئة الثالثة ، وهي اخطر هذه الفئات ، فتضم اولئك المثقفين الذين درسوا الثقافة الاسلامية من الكتب . وللحقيقة فقد اثار اولئك الخبراء ، شكوكي حتى في الماضي . فقد زعموا : « ان العرب ، بسبب ثقافتهم الخاصة ، يتجاهلون الواقع ، ويقعون ضحية خيالهم . وقدموا اكثر من مرة ، الى من طلب برهانا على ذلك ، للابحاث الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨ وحرب الايام الستة . ولم تكن اية كلمة منها صحيحة ، كان كله كذبا وينم عن خيال خصب .

« ولكن الحرب الاخيرة اثبتت ان هذا الادعاء ليس صحيحا دائما . هذه المرة كانت بلاغات الناطق العسكري المصري دقيقة للغاية » .

واضاف جيفع : « لدى خبرائنا ادعاء اخر : ان العرب لا يفهمون الا لغة القوة فقط . لقد كان هذا الادعاء الاساسي للخبراء الذين ولدوا في الدول العربية ، او من القدامى الذين عملوا مع العرب في البيارات . ولكن الواقع لا يثبت ان الخبراء كانوا على حق . لم تكن هناك مظاهرة قوة اكبر من حرب الايام الستة ... وماذا كانت النتيجة ؟ الرضوخ للغة القوة ؟ لقد اعد السادات حربا جديدة . « ان معلقينا — وخصوصا في الاذاعة — يخبروننا كل يوم عن الانقسامات والخلافات في العالم العربي . وان كل المؤتمرات والمشاورات وزيارات الوزراء المتبادلة ليست الا تعبيرا عن الصراع الداخلي في العالم العربي . وهكذا خلق لدى الجمهور انطباع بان العالم العربي عالم منهار عاجز عن التكتل » .

بعد هذه الحملة العنيفة من الاتهامات ضد المستشرقين الاسرائيليين ، وتحميلهم مسؤولية تشويه الحقيقة ، وخداع الجمهور والاوساط الحاكمة . رأت اوساط اسرائيلية بعدم اقتصار الاطلاع على المعلومات التي تصل من العالم العربي على هؤلاء المستشرقين وحدهم ، بل يجب تقديمها وعرضها على الجمهور الواسع . ولكي يطلع عليها اكبر عدد من الجمهور ، الذين لا يجيدون اللغة العربية ، لذا رأوا اصدار نشرة مترجمة من العربية الى العبرية ووضعها في متناول كل من يريد وكل من يهمه الامر . وقد سميت هذه النشرة « العرب واسرائيل » ، وهي عبارة عن

مجموعة ترجمات من العربية ، صدرت عن مركز للابحاث يختص بعرب فلسطين والعلاقات العربية الاسرائيلية برئاسة البروفسور موشيه معوز . وقد صدر العدد الاول والذي اعده البروفسور يهوشفاط هركابي ، ويحتوي على ١٠٧ صفحات ، ومن بين ما يشمله ، النقاش الداخلي حول النظرة الى قرار مجلس الامن ، باشتراك المفكر الفلسطيني د. فايز صايغ ، والياس مرقص ورد خالد محيي الدين رئيس لجنة السلام المصرية الذي يبرر مبادرة مؤتمر بولونيا . وهناك ما يشير اهتماما خاصا بمذكرات احمد الشقيري حول ولادة « لاءات » الخرطوم الثلاث . ترجم هذه المواد جميعها عن مجلة شؤون فلسطينية التي يصدرها مركز الابحاث الفلسطينية . وتجدر الاشارة الى ان العدد الاول قد طبع قبل حرب تشرين، ولذا فان المجموعة الثانية التي صدرت باشراف البروفسور عمانوئيل سينان قد خصصت للادب السياسي ــ الاجتماعي العربي بعد هذه الحرب ، وعلى الاخص الى التغير في نظرة العرب الى انفسهم نتيجة لها ، وكذلك للتغيرات في فهم العرب لاسرائيل ، والعبر العسكرية والسياسية ، والاعلامية والثقافية . وهناك مقال شامل من مجلة مصرية فصلية يبحث في تصيرات الاعلام العربي فيما يتعلق بالحرب ، ويوصي البروفسور سيفان « ان يقرأ وزير الاعلام الاسرائيلي هذا المقال باهتمام »(٢٠).

---

١ ــ مجلة « **همزراج هحاداش** » (الشرق الجديد) القدس ، مجلد ١١ ، عدد ١ ــ ٢ ، ١٩٦١ ، ص ١ .

٢ ــ **المصدر نفسه** ، ص ٢ .

٣ ــ **المصدر نفسه** .

٤ ــ **المصدر نفسه** .

٥ ــ **المصدر نفسه** ، مجلد ٦ ، ١٩٥٥ ، ص ٣ .

٦ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١١٤ .

٧ ــ **المصدر نفسه** ، مجلد ١١ ، عدد ١ ــ ٢ ، ١٩٦١ ، ص ٤ .

٨ ــ **الجامعة العبرية في القدس ، تاريخها وتطورها** ، القدس ، ١٩٣٩ ، ص ٤٤ .

* كان من كبار المسؤولين في جهاز المخابرات الصهيونية قبل اقامة اسرائيل وبعدها، ومعروف بعدائه للعرب .

٩ ــ ملحق « **دافار** » ، ١٩٧٠/٧/٢٤ .

١٠ ــ **المصدر نفسه** .

١١ ــ ملحق « **هآرتس** » ، ١٩٦٧/٢/١٣ .

١٢ ــ **دافار** ، ١٩٧٣/١/١٦ .

١٤ ــ **معاريف** ، ١٩٧٢/١/٣١ .

١٥ ــ **الكتاب السنوي الحكومي الاسرائيلي عام ١٩٧٠** ، ص ١٥٧ .

١٦ ــ **همزراج هيحاداش** ، مجلد ٤ (٥٦) ١٩٦٤ ، ص ٣٢٩ ــ ٣٥٣ .

١٧ ــ **المصدر نفسه** ، مجلد ١٨ (٦٩ ــ ٧٠) ص ١ ــ ٤٢ .

١٨ ــ **المصدر نفسه** ، ص ١٠٦ .

١٩ ــ ملحق « **يديعوت احرونوت** » ، ٧/٢٦/ ١٩٧٤ .

٢٠ ــ **عال همشمار** ، ١٩٧٤/٥/١٥ .

حمدان بدر

النزاع العربي — الاسرائيلي في كتب العلـوم الاجتماعيـة للمدارس الثانوية في الولايـات المتحـدة

تظهر السجلات التاريخية ان الكتب المدرسية كانت قيد الاستعمال منذ وقت طويل . وثمة بعض الادلة التي تشير الى ان الكتب المدرسية كانت تستخدم في مدارس اليونـان وروما القديمتـين (Encyclopedia of Education ، المجلد ٩ ، ص ٢١٤) . والكتب المدرسية هي اليوم اساس التعليم الرسمي في جميع مستويات المدرسة . ويشعر الدارس الجامعي ضائعا ومتحيرا عندما لا يستخدم الاستاذ كتابا او كتبا مدرسية متعددة . والحالة اكثر بروزا وخطورة في المدارس الثانوية والابتدائية ، حيث تؤلف الكتب المدرسية ، نظريا وعمليا في آن معا ، حجر البناء الاساسي للتعليم . وعند كلا المستويين يعتمد معظم المعلمين (اما بسبب عدم وجود التدريب او الاهتمام او الوقت) اعتمادا كبيرا ، ان لم يكن كليا ، على الكتب المدرسية . وليس المعلمـون الذين يستخدمـون قراءات اضافية ومكملة الا الاقلية . ويقدر الدكتور بروس جويس ، الرئيس السابق لتعليم معلمـي المدارس الابتدائية في جامعة شيكاغو ، ان نحو ٨٠ بالمئة من معلمي الامة الابتدائيين يستخدمون الكتب المدرسية كأداتهم التعليمية ومصدر معرفتهم الرئيسيين . ويقول الدكتور جويس : « ان معلم المدرسة الابتدائية النموذجي مدعو لاتقان مجموعة مواضيع تمتد من ادب الاطفال الى القراءة ومن الحساب الى العلوم . وبما ان قلـة من الناس يمكنها أن تصير خبيرة في حقول كثيرة كهذه ، فان معلم المدرسة الابتدائية النموذجي يعتمد اعتمادا كبيرا على النصوص والكتب الدليلة » . ويضيف ان المشكلة في المدرسة الثانوية هي اكبر من ذلك على الارجح . « لان معلم المدرسة الثانوية يعمل مع عدد من التلاميذ يصل الى ١٥٠ يوميا ، فانه يتعذر عليه ان يحضر مواد منفصلة تفصيلا خاصا لكل ولد او حتى لكل صف . وعليه ان يعتمد على الرزمة الجاهزة ، الكتاب المدرسي »(١).

والكتب المدرسية — خصوصا تلك التي لهـا صلة بالانسانيات والعلوم الاجتماعية — هي المصدر الرئيسي الـذي يكتسب منـه الطالب المواقـف والاعتقادات والمشاعر حول شعبه والاقوام العرقية والاجنبية الاخرى . وتعطي الكتب المدرسية الاولاد المعلومات التي يحتاجون اليها حول التاريخ البشري وثقافات العالم الذي فيـه يعيشـون . وتشيـر الدراسات في حقل علم النفس الاجتماعي المتصلة بعملية التنشئة الاجتماعية الى ان التعليم المكتسب في المدرسة الابتدائية والثانوية يميل الى ان يكون له تأثير مستديم . فالمواقف التي يتخذها البالغون ازاء جماعات معينة يمكن تعقبها ، بشكل جزئي ، الى ما تعلمه في المدرسة الابتدائية والثانوية . وستوضح الامثلة التالية ما نقصده . يتناول المثل الاول ادخال نظرية النشوء والارتقاء الى الكتب المدرسية الخاصة بالمدارس الثانوية ، وهو حدث ولد قدرا عظيما من الجـدل بين الذين يدركون التأثير المستديـم للتربية على عقول التلاميـذ . فالخصوم يعترضـون على الفكرة على اساس انها ستسمم عقول الاولاد وتجعلهم يشككون في جميع الاديان والمعتقدات التي تقدم خلق الانسان كعمل من اعمال الله ، والمؤيدون يدعون انها ستزيد التفكير العلمي بين التلاميذ فيغني ذلـك بدوره المدنية المعاصرة المرتكزة على العلم . المثل الثاني ذو صلة بالجدل الذي حصل في كاليفورنيا عام ١٩٥٩ حول كتب العلوم الاجتماعية المدرسية . فان فريقا خاصا مكلفـا بتقييم الكتب المدرسيـة الجديدة ، من الصف الرابع الى الصف الثامن ، شجبها على اساس انها تمثل معاملة مشوهـة لحياة الاقليات ، مما يمكن ان يفضي الى رفض طفل الاقلية لعين هويته كشخص مـن الاقلية(٢). وفي الاونة الاخيرة رفعت الحركة النسوية صوتها عاليا في انتقاد الكتب المدرسية كمصدر رئيسي لتطوير صور نمطية سلبية عن النساء . وتدعي النساء ، بحق ، ان معظم الكتب المدرسية تنقل اعتقادا واضحا بانه لا يوجد أمامهن غـير اربع مهن — ممرضة ، سكرتيرة ، معلمة ، او ام . والاستنتاج الواضح الذي يمكن الوصول اليه من هذه الامثلة وغيرها هـو ان الكتب المدرسية لها فعلا تأثير مستديم على عقول التلاميذ ، ولذا يجب على المربين ان يكونوا معنيين بكل من تصميم الكتاب المدرسي وانواع المواد التي يحتويها .

والى ذلك ، تمارس معظم حكومات العالم ، ان لم يكن جميعها ، قدرا كبيرا من السيطرة على مؤسسة التعليم ، ولا سيما عند مستويي المدرسة الابتدائية والثانوية . فالتعليم يعتبر اهم من ان يترك لنزوات الافراد الخاصين وحاجاتهم . وتعتمد نوعية الحياة ، فضلا عن معدل ومدى النمو الاجتماعي والاقتصادي ، اعتمادا جزئيا على ما يعلم في المدارس . كذلك ، تستخدم الحكومات الكتب المدرسية لتنقل الى التلميذ معرفة تتعلق ببلده وبالامم الاخرى . وبالتالي ، يمكن ان تكون الكتب المدرسية وسيلة لنقل وتطوير صور سلبية عن البلدان الاجنبية . ويتم ذلك بواسطة عمليتين : الاغفال والارتكاب Omission and Commission ويعني الاغفال عدم بحث مواضيع يمكن ان تلقي ضوءا ايجابيا على البلد او البلدان موضع البحث . والارتكاب هو عملية يجري بواسطتها تضمين النص اقوالا خارجة عن الموضوع ، غير كاملة ، غير صحيحة ، متحيزة وخاطئة بغية توليد صورة مشوهة وسلبية عن البلد (البلدان) او الجماعة (الجماعات) موضع البحث .

يجدر بنا في هذا النطاق ان نستشهد بلوثر هـ. افانز : « الكتب المدرسية يمكن ان تكون البذرة لحصاد نهائي من التفاهم والصداقة الدوليين عن طريق تقديم حقائق صحيحة نوعا وكما وفي موقعها الصحيح ، ولكن يمكنها ايضا ان تكون البذرة لحصول من سوء التفاهم والكراهية والاحتقار بين السكان الوطنيين ونحو طرق الحياة الاخرى عن طريق تقديم اقوال قاطعة ، غير متوازنة وغير صحيحة على انها حقائق » . وكانت هذه الحقيقة هي التي أثارت ، في اعقاب مؤتمر السلام عام ١٩١٩ مباشرة ، قدرا كبيرا من الاهتمام والقلق حول علاقة الكتب المدرسية بالتفاهم والنوايا الحسنة الدولية . ومنذ ١٩٢٦ تبنت عصبة الامم قرارا يحث اعضاءها على مراجعة كتبها المدرسية لحذف الكره والمعلومات المتحاملة والمغرضة . الا ان المحاولة اخفقت لان الدول الاعضاء لم تتخذ خطوات جدية لتنفيذ القرار . وفي العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، قامت عدة بلدان بصورة افرادية ، كما قامت لجان دولية ، بمحاولات لتشجيع البلدان على تحسين نوعية كتبها المدرسية بغية زيادة فرص السلام وتحسين التفاهم الدولي.

الا ان الجهود الجديدة والمخلصة الاولى لازالة المعلومات المشوهة والدعاوة القومية غير الصحيحة من كتب التاريخ والعلوم الاجتماعية المدرسية لم تبذل الا في ١٩٥٠ عندما رعت اليونيسكو حلقتين دراسيتين دوليتين ، احداهما في بروكسيل والاخرى في سيفر . ومنذ ذلك الحين عقدت بضع حلقات دراسية اخرى . ولا بد من القول هنا ان الجهود ليست ناجحة جدا حتى الان . فان دراسة اخيرة قام بها المكتب الدولي للتعليم في جنيف تشير الى ان معظم البلدان ما زالت تستعمل كتبا مدرسية لنشر المشاعر القومية ولتعليم الاولاد معلومات مشوهة ومضللة حول البلدان الاجنبية ، وهو أمر لا يسهم كثيرا في السلام والانسانية والتفاهم. مثال ذلك ان مراجعة اخيرة للكتب المدرسية البريطانية كشفت عن الجملة التالية : « الياباني الماكر طور صناعة الكافور ووسعها »[٢].

هذه الدراسة هي محاولة لان أبحث بشيء من التفصيل النزاع العربي – الاسرائيلي كما هو معروض في كتب العلوم الاجتماعية المدرسية للمدارس الثانوية المتوسطة والعالية للسنة المدرسية ١٩٧٤ – ١٩٧٥ في الولايات المتحدة ، فضلا عن الكتب الاضافية والمكملة المتوافرة للمعلمين والتلاميذ في مكتبات المدارس . وقد وقع الاختيار على النزاع العربي – الاسرائيلي نظرا لاهميته في السياسة الدولية ، وتضميناته للسلام والاستقرار العالميين ، وتأثيره على الاقتصاد الاميركي . لقد بقي النزاع معنا خلال الاعوام السبعين الماضية وسيبقى معنا على الارجح لمدة غير قصيرة . وقد أدى حتى الان الى اربع حروب واسعة النطاق ، سقط خلالها الالوف من القتلى والجرحى . ودامت حرب تشرين الاول – اكتوبر ، ١٩٧٣ ، ١٧ يوما عمد خلالها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي الى اعادة امداد المتحاربين بالاسلحة فيما كان القتال محتدما . واقترب كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي من المواجهة : حالة تاهب عالية للقوات المسلحة الاميركية وصفها الرئيس السابق نيكسون بأنها أسوأ أزمة منذ مواجهة الصواريخ الكوبية للعام ١٩٦٢ (كونغريشنال كورتولي ، ص ٢) .

والى ذلك ، فان كل حرب عربية – اسرائيلية قد ضعدت تدفق الدولارات من الولايات المتحدة الى

تدفق الدولارات الى اسرائيل

(لقد دفع حتى الآن ثمن باهظ للعلاقة غير الطبيعية بين الولايات المتحدة واسرائيل !)

١٩٤٨ — ١٩٧٢

معونة اقتصادية من حكومة الولايات المتحدة	١٬٧٣ بليون دولار
مساعدة عسكرية من حكومة الولايات المتحدة	١٬٤٢ بليون دولار
تبرعات خاصة (معفية من الضرائب)	
مؤسسات	٢٬٥٩ بليون دولار
افراد	١٬٩٠ بليون دولار
سندات اسرائيل*	١٬٠٥ بليون دولار
قروض من مصارف اميركية	١٬٠٥ بليون دولار
المجموع في أكتوبر ، ١٩٧٣	١١٬١٤ بليون دولار
معونة عسكرية خاصة لاسرائيل ١٩٧٣	٢٬٢٠ بليون دولار
تبرعات خاصة وسندات منذ حرب أكتوبر	٨٠ر بليون دولار
المجموع	١٤٬١٤ بليون دولار
	(أي ٤٬٥٠٠ دولار لكل مواطن اسرائيلي)

* غير خاضعة لضريبة مساواة الفائدة Interest equalization tax كما هي السندات الاجنبية الاخرى .

اسرائيل — على الصعيدين العام والخاص . والجدول اعلاه يفصل المعونة في اكتوبر ١٩٧٣ .

وفي الآونة الاخيرة ، وفيما تواجه الولايات المتحدة صعوبة اقتصادية بالغة ببطالة تبلغ ٨ ٪ ، طلبت اسرائيل معونة عسكرية واقتصادية بقيمة بليوني دولار ، تقريبا ٥ر١ بليون دولار من المعونة العسكرية اما في شكل تسليف او منح ، و٢٥٠ مليون دولار لاستيراد سلع ونحو ٣٠٠ مليون دولار للمعونة المؤازرة . وحجم طلب اسرائيل مساو للمبلغ الذي طلبته اسرائيل ، ٢ر٢ بليون دولار ، بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ (اراب ريبورت ، شباط — فبراير ١٩٧٥ ، العدد ٥ ، ص ١) .

يؤكد البحث الوارد اعلاه اهمية النزاع العربي — الاسرائيلي ، لذا ستركز دراستنا على كيفية تعريض تلامذة المدارس الثانوية الحالية، المتوسطة والعالية ، لهذا النزاع ، وهم الذين سيتولون مراكز المسؤولية وسيلعبون ادوارا مباشرة في رسم السياسة الاميركية ازاء هذا النزاع . كيف يبحث في كتبهم المدرسية والى اي حد يزود التلاميذ بمعلومات موضوعية ومعقولة حول النزاع .

النزاع العربي — الاسرائيلي

ان جميع الروايات في كتب الدراسات الاجتماعية المدرسية حول النزاع العربي — الاسرائيلي هي موالية لاسرائيل اما بشكل صريح او على نحو مقنع . ولا يمكن اعتبار اي من الروايات موالية للعرب حتى بصورة معتدلة. كذلك يخصص لاسرائيل مساحة اكبر مما يخصص للبلدان العربية وتبحث بمزيد من التفصيل . فأحد الكتب المدرسية للصف السادس يخصص صفحتين ونصف الصفحة من النص مرفقة بتسع صور جيدة وحديثة لاسرائيل ، في حين لا يخصص للعربية السعودية الا ثلثي صفحة وللعراق ربع صفحة فقط . ويبحث نص اخر احدى عشرة امة، اثنتان منها مصر واسرائيل . فيخصص المؤلفون ٣٥ صفحة لمصر ، ٦٢ صفحة لاسرائيل ، اي نحو نصف ما هو مخصص لمصر .

والى ذلك ، فان طبعات المعلمين او اقسام الاسئلة في نهاية الفصول تشدد ايضا على تعلم موال لاسرائيل باقتراحها ان يضع التلاميذ تقارير

او يقوموا بمشروع يرتكز على معلومات مستقاة من وسائل الاعلام . فان كتب الصف السابع المدرسية تقترح المشروعات التالية للتلاميذ : « احتفظوا بسجل قصاصات عن التطورات الراهنة في العلاقة العربية ـ الاسرائيلية في الاراضي المتوسطة » . (ارشدوا التلاميذ للاصغاء الى تقارير في نشرات الاخبار الاذاعية والتلفزيونية ثم اكتبوا مقالة لسجل القصاصات .) « كذلك اطلبوا من التلاميذ ان يجمعوا مواد متعلقة بهذا الموضوع من الصحف ومجلات الاخبار . ابحثوا اية حلول قد تقترحها هذه المقالات مع الصف . ضعوا افضل المقالات في سجل القصاصات »(٤). ويقترح كتاب مدرسي للصف السادس العمل التالي على التلاميذ : « ابدأوا سجل قصاصات او لوحة نشرات اخبار عن الشرق الاوسط . اجمعوا مقالات وصورا من الصحف والمجلات تصف أحداثا في مصر واسرائيل وبلدان اخرى في الشرق الاوسط »(٥). وبما ان وسائل الاعلام في هذا البلد متحيزة لاسرائيل ودائما تنشر مقالات تعبر بالتفصيل ، بطريقة او بأخرى ، عن وجهة نظر اسرائيل ، فان هذه المشروعات والاعمال والاسئلة تميل الى تعزيز وجهات النظر الاسرائيلية وزيادة مصداقيتها .

وبالاضافة الى ذلك ، فان معظم مكتبات المدارس الابتدائية والثانوية المتوسطة تختزن قراءات اضافية عن اسرائيل اكثر مما عن العرب . والى ذلك ، يؤلف معظم هذه القراءات الاضافية كتاب يعطفون على اسرائيل . ولدى احدى المدارس الثانوية المتوسطة في ساكرامنتو خمسة كتب مكرسة لاسرائيل وحدها ، ولكن كتابين فقط عن الشرق الاوسط بوجه عام ، وكلاهما يحتوي على معلومات عن الاسرائيليين والعرب على السواء . وهذا الوجود الاضافي للقراءات الاضافية حول اسرائيل يتيح للمعلمين ان يتعلموا المزيد عن اسرائيل ويشجع التلاميذ على اختيار اسرائيل بدلا من بلد عربي ، كموضوع لتقاريرهم او مشاريعهم الدراسية . واذا رغب التلميذ في اختيار بلد عربي ، عليه ان يذهب الى مكتبة اخرى في مكان آخر ، وهو أمر مزعج لا يثبط من عزم الذين يبلغون الثانية عشرة فحسب ، بل طلاب الجامعات والمعلمين ايضا .

ويتغاضى معظم الكتب المدرسية عن الحق الشرعي للفلسطينيين ، الذين شردوا من ارضهم التي عاشوا فيها منذ عشرات القرون . وتستخدم عدة كتب بصورة متعمدة كلمة عربي بدلا من فلسطيني لكي يظن القارىء النزاع هو بين جليات الجبار وداود الصغير ، بين العرب والاسرائيليين، وليس بين الفلسطيني والاسرائيلي . وقد جاء في احد كتب الصف السادس : « ان اكبر مشكلة انما سببها العرب الذين فروا من اسرائيل خلال القتال »(٦). ويقول كتاب آخر لنفس الصف : «لدى تأسيس اسرائيل ، فر نصف مليون عربي»(٧) (لاحظ هنا ان المؤلف استخدم عبارة عربي ، بدلا من فلسطيني عربي . كذلك لاحظ انه يبخس تقدير عدد الفلسطينيين الذين أكرهوا على الخروج من ارضهم) . ويقول كتاب مدرسي للصف السابع : « عام ١٩٤٨ شن العرب ، تعاونهم الجامعة العربية ، حربا على فلسطين »(٨). (هنا يفترض المؤلفون بأن فلسطين هي ارض يهودية وبأن العرب كانوا يشنون حربا على فلسطين) . وينشر المؤلف نفسه في الزاوية السفلى اليمنى من الصفحة ٢٥٣ صورة امرأة وفتاة صغيرة . وجاء تحت الصورة : « تتقاسم هذه الام وطفلتها مصير مليون ونصف المليون لاجىء عربي شردتهم الحرب » . واخيرا يقول كتاب مدرسي للصف الثامن : « ان كثيرين من العرب الذين كانوا يعيشون في فلسطين الغربية فروا وصاروا لاجئين »(٩). وهذه الكتب المدرسية تديم بشكل او بآخر تحريف غولدا مئير وغيرها من الزعماء الاسرائيليين الذين يزعمون انه لا يوجد هناك شعب فلسطيني .

وتعرض الكتب المدرسية دائما رواية مؤيدة لليهود ، كما هو واضح من الرواية التالية المعاد سبكها : « كان اليهود يعيشون في اسرائيل لاعوام كثيرة ويحلمون ، رغم التشتت ، بالعودة في يوم من الايام الى ارض الموعد ، التي يسمونها صهيون ، وصار الحلم حقيقة واقعة في ١٩٤٨ عندما أسست اسرائيل » . وفي هذا النطاق أيضا يقول كتاب مدرسي للصف السابع : « الصهيوني يريد تأسيس وطن لليهود . وكان من الطبيعي ان يأملوا في العودة الى وطنهم القديم في فلسطين »(١٠). ويقول كتاب مدرسي آخر للصف السابع : « كانت الامة الجديدة اسرائيل ... كانت وطنا لليهود . وكان هذا الشعب قد طرد من

وطنه منذ مئات السنين »(١١). وأخيرا ، يقول كتاب مدرسي للصف السادس : « منذ ذلك الحين (العام ٧٠ ميلادي) حلم الشعب اليهودي بالعودة الى وطنه . لكن فلسطين كانت في القبضة المتينة لحكام مسلمين . ولم يكن بامكان اليهود العودة »(١٢). ويقول كتاب مدرسي للصف السابع: « في الازمنة القديمة كانت القدس عاصمة المملكة اليهودية . ولنحو الفي سنة خلت دمرت المملكة . واعتقد كثيرون من اليهود الذين تبعثروا في بلدان أخرى انهم ذات يوم سيعودون الى أرض أجدادهم. وكانوا كل سنة في عيد الفصح يعربون عن الامل : « السنة القادمة في القدس »(١٣). ولا يشرح اي من الكتب المدرسية الاهداف السياسية للحركة الصهيونية في استعمار فلسطين واقامة رأس جسر للدولة الامبريالية .

تشير جميع الكتب المدرسية الى قرار الامم المتحدة الصادر في التاسع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ، ١٩٤٧ ، الذي قسمت فلسطين بموجبه الى دولة يهودية ودولة عربية . ويقول احد الكتب المدرسية الخاصة بالصف السادس : « قررت الامم المتحدة تقسيم فلسطين الى قسمين . فصار نصفها بلدا حرا [لاحظ هنا استخدام المؤلف كلمة « حر » للبلد اليهودي فقط . بهذه الطريقة ينشر التحيز والمحاباة ضد العرب بالاستدلال] للشعب اليهودي . وصار النصف الآخر جزءا من الاردن »(١٤). ويقول كتاب مدرسي آخر للصف السادس : « في التاسع والعشرين من نوفمبر ، ١٩٤٧ ، وافقت الجمعية العامة على تقسيم فلسطين باقتراع ٣٣ الى ١٣ ، مع عدم اقتراع ١٢ أمة على القضية . واقترع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي للتقسيم(١٥). ويزعم كتاب آخر : « كانت الحالة متفجرة الان ، فتدخلت الامم المتحدة وأوصت بتقسيم فلسطين الى دولتين منفصلتين ، عربية ويهودية »(١٦). (تزعم الكتب المدرسية الاضافية للصف الثامن ان الامم المتحدة قسمت فلسطين الى دولتين ، اسرائيل والاردن . « في ١٩٤٧ ، قسمت الامم المتحدة فلسطين الى دولتين ، اسرائيل الى الغرب ، والاردن الى الشرق . وصارت اسرائيل بلدا يهوديا والاردن بلدا عربيا » . خلط المؤلف هنا بين الدولة العربية والاردن) . ولم يتشر اي من الكتب المدرسية المحتوى الكامل لقرار التاسع والعشرين من نوفمبر ، ١٩٤٧ ، وبنوع خاص الفقرة التي دعت الى منطقة دولية حول القدس ، كما لا تطلع التلميذ على ان الامم المتحدة خرقت مبدأ تقرير المصير في اتخاذها مثل هذا القرار . لقد تجاوزت الجمعية العامة نطاق سلطتها كما حددها الميثاق . وأخفقت المحاولات العربية لرفع القضية الى المحكمة الدولية ، وخضعت الجمعية العامة لضغط الولايات المتحدة السياسي فأقرت القرار . والى ذلك ، فان أيا من الكتب المدرسية لا يبحث كون الجمعية العامة للامم المتحدة أقرت ، في الرابع عشر من ايار (مايو) ، ١٩٤٨ ، قرارا آخر بواحد وثلاثين صوتا ضد سبعة اصوات ، مع استنكاف ١٦ عضوا عن التصويت ، وهو قرار من شأنه تعليق الجهد لتنفيذ قرار التقسيم . ومنح القرار الجديد السلطة لوسيط ليتفحص الحالة بأكملها ويوصي باجراءات قد يعتبر انه يحسن بالجمعية العامة النظر فيها في ما بعد(١٧).

ويشير معظم الكتب المدرسية ، ان لم يكن كلها، الى ان العرب كانوا المعتدين في النزاع . فقد غزوا دولة اسرائيل الصغيرة لدى اعلان استقلالها. وتدعي بعض الكتب المدرسية ان العرب يعتزمون افناء اسرائيل . وفي ما يلي بضعة امثلة . فان كتابا مدرسيا للصف السابع يقول : « اعلن اليهود دولة اسرائيل في القسم الذي خصصته لهم الامم المتحدة . ونتيجة لذلك غزت الجامعة العربية اسرائيل من ثلاث جهات »(١٨). وفي سياق آخر يشير المؤلفون انفسهم الى « الغزو العربي غير الناجح لاسرائيل في ١٩٤٨ »(١٩). وجاء في كتاب مدرسي آخر للصف السابع : « في الرابع عشر من ايار ، ١٩٤٨ ... أعلن اليهود دولة اسرائيل كأمة جديدة ومستقلة . وعلى الفور شنت الدول العربية الحرب على الدولة الجديدة »(٢٠). ويدعي كتاب مدرسي للصف السادس : « هجمت جيوش عربية من جميع البلدان المحيطة باسرائيل على الدولة الجديدة . وكان متوقعا من مصر قيادة هذه البلدان »(٢١). ويقول نص آخر : « في ١٩٤٨ قام العرب (يعني الفلسطينيين) تعاونهم الجامعة العربية (مصر ، سوريا ، لبنان ، الاردن ، العراق ، العربية السعودية واليمن) بشن حرب على فلسطين »(٢٢). ويقول المؤلف نفسه في نص

آخر : « قامت قوات عربية من عدد من البلدان ، بينها مصر والاردن وسوريا والعراق ، بغزو اسرائيل . وكان اليهود مصممين على المحافظة على حريتهم . فردوا الغزاة على اعقابهم »(٢٣). ويقول كتاب مدرسي للصف السادس : « لم يرض العرب بالحل (خطة تقسيم الامم المتحدة) . فقامت جيوش مصر وسوريا والعراق والاردن ولبنان والعربية السعودية بغزو اسرائيل . لكن الاسرائيليين هزموا الجيوش العربية شر هزيمة على كل جبهة »(٢٤). واخيرا يقول كتاب مدرسي للصف الثامن : « رفضت امم الشرق الاوسط وشمال افريقيا العربية الاعتراف بأمة اسرائيل الجديدة وكانت مصممة على تدميرها . واندلعت حرب ، في ١٩٤٨ ، بين اسرائيل والامم العربية »(٢٥). مثل هذه المعلومات التاريخية المضللة والمشوهة الى حد بعيد تسمم عقول التلاميذ ضد العرب . وان أيا من الكتب المدرسية المذكورة اعلاه لا يخبر التلاميذ الجانب العربي من القصة — علما بأنه هو الجانب الصحيح . كما لا تحاول ان تخبر التلاميذ ان الجماعة الصهيونية احتلت الكثير من القرى والمدن والاراضي الواقعة في « القسم العربي من فلسطين » قبل الخامس عشر من مايو ١٩٤٨ بوقت طويل . فقد تولت الجالية الصهيونية في فلسطين الامور على هواها بعد قرار الامم المتحدة الصادر في التاسع والعشرين من نوفمبر ولجأت الى القوة ، فهاجمت واحتلت مدنا وبلدانا رئيسية في فلسطين قبل انسحاب القوات البريطانية في الخامس عشر من مايو ، ١٩٤٨ ، أي قبل التأسيس الرسمي لدولة اسرائيل . وليس هذا بالمكان المناسب لدعم هذه الحقيقة بالوثائق ، ولكن يكفي ان نستشهد برئيس وزراء اسرائيل السابق بن غوريون : « قبل ذهاب البريطانيين ، لم يدخل العرب او يستولوا على اية مستوطنة يهودية مهما كانت بعيدة ، في حين ان الهاجانا ... استولت على العديد من المراكز العربية وحررت طبريا وحيفا ويافا وصفد ... وهكذا في يوم القدر كان ذلك الجزء من فلسطين حيث تستطيع الهاجانا العمل خاليا من العرب »(٢٦). وفي مقدمة لكتاب يوسف اوليتزكي **من الاضطرابات الى الحرب** ، أعيد نشرها في كتاب بن غوريون « بعث اسرائيل وقدرها » تحت عنوان « بدلا من خلاصة » كتب بن غوريون يقول : « كانت المهمة الاساسية للهاجانا ، كما اقول ، هي حماية مستوطناتنا وخطوط مواصلاتنا ، لكن افضل دفاع هنا هو الهجوم . وعلى هذا النحو جرى توزيع قوات الميدان والبالماخ ، وسرعان ما اظهرت البأس الذي ما لبث ان نفخ الحياة في جيشنا وأوصله الى النصر . وفي عملية (ناخ — شون) فتحت الطريق الى القدس في بداية نيسان (ابريل) ، وتم احتلال القدس الجديدة كلها تقريبا ، وطرد الفدائيون من حيفا ويافا وطبريا وصفد بينما كانت السلطة الانتدابية ما تزال موجودة . واحتاج الامر الى الحصافة وضبط النفس لعدم التصادم مع الجيش البريطاني ... وقامت الهاجانا بمهمتها ، وحتى يوم او يومين قبل الغزو العربي لم تسقط اية مستوطنة ولم تقطع أي طريق »(٢٧).

وتهمل عدة كتب مدرسية ان تخبر التلاميذ لماذا نزح الفلسطينيون عن ديارهم . فأحد الكتب المدرسية يقول : « الا ان هناك ، اليوم ، قلة من العرب في اسرائيل . وقبل تنظيم الامة الجديدة، وقعت حرب بين شعب اسرائيل والبلدان العربية المجاورة ، التي فر اليها معظم العرب في اسرائيل »(٢٨). ويقول كتاب مدرسي آخر للصف السادس ان العرب « فروا من اسرائيل خلال القتال . كان ألوف منهم قد ذهبوا الى الاردن المجاورة »(٢٩). ويدعي كتاب مدرسي آخر للصف السادس : « لدى تأسيس اسرائيل ، فر نصف مليون عربي »(٣٠). واخيرا جاء في كتاب مدرسي آخر للصف السادس : « ان كثيرين من العرب الذين فروا من اسرائيل خلال الحرب صاروا الان مشردين ، مقتلعي الجذور ، يعيشون في الفقر ، داخل حدود اسلامية »(٣١). واهملت جميع الكتب المدرسية ان تخبر التلاميذ ان الفلسطينيين اكرهتهم على الخروج وطردتهم السياسة الصهيونية الرامية الى افراغ البلاد من سكانها الوطنيين . كما تهمل جميعها بحث السياسة الصهيونية الرامية الى الاستعمال الواسع النطاق للحرب النفسية التي تستهدف خلق الذعر والخوف بين الفلسطينيين كيما يغادروا بيوتهم . فقد كانت الضربة الاكثر تدميرا للسكان الفلسطينيين هي القتل الوحشي لنحو ٢٥٠ شيخا وامرأة وطفلا في قرية دير ياسين المسالمة . وكان تشويه الجثث والتمثيل بها ، وعرض

الفلسطينيين الذين لم يسقطوا قتلى في سيارات شحن مكشوفة عبر القدس المجاورة ليبصق عليهم، والمؤتمر الصحافي الذي عقد للاعلان عن العمل الشنيع، من صنيع احدى وحدات القوة الاسرائيلية السرية ، ارغون زفاي ليئومي . هذا الحادث وغيره خلق مناخا من الذعر والخوف والخيبة دفع الكثيرين من الفلسطينيين الى البحث عن السلامة في البلدان العربية المجاورة . وحتى قبل التأسيس الرسمي لاسرائيل في الخامس عشر من مايو ، ١٩٤٨ ، كان ما يزيد على ٣٠٠ الف فلسطيني قد أخرجوا من فلسطين الى مكان آمن في بلد مجاور .

ان الكثير من الكتب المدرسية تغفل وتخبىء حقائق عديدة قد تؤذي صورة اسرائيل . مثال ذلك ان أيا من الكتب المدرسية التي شملتها هذه الدراسة ، في معرض بحثها اغتيال وسيط الامم المتحدة السويدي برنادوت مع معاونه العقيد الفرنسي في السابع عشر من أيلول (سبتمبر) ، ١٩٤٨ ، في القدس ، لا يذكر ان عصابة شترن هي التي قتلته . فأحد الكتب المدرسية للصف السابع يقول : « الوسيط الاول ، الكونت برنادوت من السويد ، قتل »(٣٢). ويقول كتاب مدرسي آخر : « ارسلت الامم المتحدة لجنة وساطة برئاسة الكونت فولك برنادوت السويدي لترتيب هدنة ، وفي سبتمبر ، اغتيل برنادوت في القدس »(٣٣). كما ان أيا من الكتب التي شملتها الدراسة لا يذكر ان جناحا من فندق الملك داود يضم سكريتارية الحكومة وجزءا من مقر القيادة العسكرية نسف في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) ، ١٩٤٦ ، مسببا الموت لنحو مئة موظف حكومي ، بريطاني وعربي ويهودي .

وتميل معالجة حرب ١٩٥٦ بين المصريين والاسرائيليين الى ان تكون سطحية ، متحيزة ، وأحيانا تبقى بلا بحث على الاطلاق . فالكتب المدرسية للصف السابع تقول : « انه (اي عبدالناصر) معاد بمرارة لاسرائيل وقد اثارت اصطداماته الحادة مع سوريا خوفا في اسرائيل الى حد انها غزت مصر في أواخر ١٩٥٦ . وكذلك هاجمت مصر كل من بريطانيا وفرنسا ، لقلقهما على سلامة القناة »(٣٤). ويصف كتاب مدرسي آخر للصف السادس حرب ١٩٥٦ على النحو التالي : « جاءت (الحرب) الثانية في ١٩٥٦ ، نتيجة لاغلاق الرئيس عبد الناصر خليج العقبة »(٣٥). وأخيرا يقول كتاب مدرسي للصف الثامن : « في ١٩٥٦ انسحبت القوات البريطانية . واستولت مصر على القناة واغلقتها في وجه السفن الاسرائيلية . ثم أرسلت اسرائيل جيشا ليستولي على القناة ، ونزلت القوات البريطانية والفرنسية للاستيلاء على منطقة القناة . وقد أرادت ان تجبر مصر على ابقاء القناة مفتوحة لسفن جميع الامم »(٣٦). ولم يحاول اي من الكتب المدرسية تقديم الجانب العربي من القصة كما ان أيا منها لم يذكر هجوم اسرائيل على المركز العسكري في غزة في شباط (فبراير) ١٩٥٥ الذي قتل فيه الكثيرون من الجنود المصريين ، وهو حدث ادى الى احياء اهتمام مصر في بناء جيش قوي .

جميع الكتب المدرسية التي تبحث ١٩٦٧ تنحو باللوم بصورة ثابتة على العرب للحرب وعلى الرئيس المصري عبدالناصر بنوع خاص . مثال ذلك ان كتابا مدرسيا للصف السابع يقول : « صمم العرب على شن هجوم على اسرائيل فدمرته . وكانت مصر قائدة الهجوم » . ويمضي المؤلف قائلا : « هوجمت اسرائيل مرة اخرى من ثلاثة جوانب من قبل جيرانها العرب »(٣٧). « خلال ربيع ١٩٦٧، اعترضت مصر سفينة اسرائيلية تتحرك من البحر الاحمر الى خليج العقبة ، فشنت اسرائيل الحرب على الفور ! » (علما انه ليست هناك أدلة تؤيد هذا الزعم. فقد قال عبدالناصر انه لن يسمح لسفن ترفع العلم الاسرائيلي ، او لسفن تحمل مواد استراتيجية ، بعبور مضيق تيران . ولم ترسل اسرائيل اية سفينة لعبور المضيق قبل حرب الايام الستة) . ويقول المؤلف نفسه في سياق آخر : « كانت الحرب الثالثة في ١٩٦٧ ، ومرة اخرى كان السبب المباشر اغلاق خليج العقبة »(٣٨). وأخيرا يقول كتاب مدرسي للصف السادس : « في حزيران ١٩٦٧ سدت الجمهورية العربية المتحدة ، التي كانت ما تزال بقيادة عبدالناصر، منفذ اسرائيل الى البحر الاحمر ونقلت قوات الى حدود اسرائيل. ودعا عبدالناصر جميع الدول العربية الى سحق اسرائيل والمطالبة بها من جديد كأرض عربية.لكن اسرائيل ردت الجيوش العربية على اعقابها»(٣٩). ولم يتحدث أي من الكتب المدرسية عن سلوك اسرائيل العدواني في الاشهر التي سبقت حرب

الخامس من يونيو (١٩٦٧) ، وهو سلوك كان من شأنه تصعيد التوتر الى حد كبير وافضى الى الازمة التي نجمت عنها الحرب . ففي الثالث من نوفمبر ، ١٩٦٦ ، على سبيل المثال ، كانت اسرائيل قد سددت ضربة برية جسيمة الى قرية السموع الاردنية قتل فيها عدد من المدنيين والجنود الاردنيين . وتهدم قسم كبير من القرية . كذلك فان ضربة جوية ضد سوريا في السابع من ابريل اوصلت الطائرات الاسرائيلية الى مسافة لا تبعد عن دمشق غير بضعة اميال . ولا يأتي اي من الكتب المدرسية على ذكر التصاريح الملهبة للمشاعر التي ادلى بها القادة الاسرائيليون ضد سوريا في شهر ابريل . ومعالجة حرب ١٩٦٧ في الكتب المدرسية هي معالجة مضمة جدا بالفعل ولا تمكن التلميذ من تقدير وادراك تعقيدات المسألة ولا تساعده في اتخاذ قرار قويم فيما يتعلق بأسباب الحرب ونتائجها .

وتفسر عدة كتب مدرسية استمرار العداء في الشرق الاوسط عن طريق الانحاء باللوم على العرب . فالمرء يتعلم من احد الكتب المدرسية للصف السابع ان « عداء الامم العربية نحو اسرائيل يعقد المسائل ايضا في الشرق الاوسط »(٤٠). ويقول نص آخر : « ان الكراهية المشتركة التي يشعر بها العرب نحو اسرائيل تشكل ما يمكن تسميته ازمة دائمة »(٤١). ولا يهتم اي من الكتب المدرسية باخبار القارىء عن الكراهية الاسرائيلية نحو العربي . ويشرح احد الكتب المدرسية العداء العربي نحو اسرائيل على انه ناجم عن كون الاخيرة بلد ديموقراطي . يقول كوليرزون : « ان مثال الديموقراطية في اسرائيل يخلق مشكلة لبعض البلدان العربية . ويخشى الحكام ان تتعلم شعوبهم من الامثلة التي يقدمها اليهود ، وقد تطالب بأن يكون لها صوت اعظم في اختيار المسؤولين وفي ادارة الحكومة . واذا ما نمت هذه الحركة ، فان الخطر قد يهدد الحكم الدكتاتوري في عدة أمم عربية »(٤٢). الا انه لا يصار الى اطلاع القارىء على الاقلية العربية في اسرائيل ومعاملة عرب فلسطين كمواطنين من الدرجة الثانية .

النقطة الاخيرة التي يجب التشديد عليها في هذا البحث هي التصوير والتشديد المتواصلان للكتب المدرسية المذكورة على « انجازات » اسرائيل في جميع مجالات الحياة ، ولا سيما في تحويل الصحراء الخالية الى « واحة مزهرة » . وعلى نحو مغاير ، تشدد جميع الكتب المدرسية على تأخر وتخلف العرب وعجزهم عن التنمية رغم الموارد الهائلة الموجودة تحت تصرفهم . ولا بد ان يؤدي مثل هذا التصوير الى تبني التلاميذ شعورا متعاطفا مع وجهة نظر اسرائيل ومؤيدا لها .وفي ما يلي عدة امثلة مستقاة من كتب مدرسية مختلفة خاصة بالصف الثالث الى الصف الثامن . فان كتابا مدرسيا للصف الثالث يصف « انجازات اسرائيل » على النحو التالي : « لنحو ثلاثين سنة خلت ، قامت أمة جديدة (اسرائيل) في اراضي آسيا الصحراوية » . ويكمل المؤلفون : « عندما وصلوا (أي اليهود) الى اسرائيل ، شاهدوا الارض الجافة المقفرة . ولم يكن يهطل فيها الكثير من المطر . وكانت قلة من الناس تعيش في الصحراء . فبنى الرواد الاوائل مجتمعا في الصحراء . وزرعوا المحاصيل . وشيدوا المنازل ، وببطء صارت الصحراء خضراء »(٤٣). ومؤلف هذا النص يري القراء صورتين ، احداهما تتعلق بالصحراء التي اكتشفها اليهود لدى وصولهم الى فلسطين ، والصورة الثانية تظهر انجاز الاسرائيلي في جعل الصحراء تزهر . ويصف كتاب مدرسي آخر للصف الثالث انجازات اسرائيل على النحو التالي : « كانت النقب صحراء لآلاف السنين . وكان يعتقد ذات يوم انه لا يمكن انتاج اية غلال في هذه الارض الحارة الجافة . واستقر شعب اسرائيل في النقب، فروض الصحراء بالعمل المجتهد والماء والعلم » . ويقول كتاب مدرسي للصف الخامس : « اسرائيل هي أمة من الناس يخلقون ، بواسطة التفكير الواسع الخيال والتخطيط الدقيق والعمل المجتهد ، مزارع وكروم عنب خصبة من الاراضي الصحراوية القاحلة والمستنقعات »(٤٤). ويقول المؤلفون انفسهم في سياق آخر : « لم يسبق لشعب قط أن عمل باجتهاد اكبر ، ضد معوقات اعظم ، لاعادة تعمير ارض أضحت عديمة الحياة وقاحلة بسبب قرون من الاهمال . لكن شعب اسرائيل يواجه التحدي بخيال واسع ونشاط ، وهو بمعونة العلم الحديث يحول أرضا مقفرة خاوية الى أمة نشيطة منتجة »(٤٥). ويقول كتاب مدرسي آخر للصف السادس : « حينما وصل المهاجرون اليهود الى فلسطين في أوائل القرن العشرين وجدوا أرضا من

الصحاري ، جاءوا الى فلسطين بقليل من المال وببضعة موارد . وتجمع المهاجرون معا لمواجهة مشقات محاولة جعل الصحراء ارضا زراعية » . The Social Science ، ١٩٧٢ ، ص ٢٤٤). ويقول كتاب مدرسي آخر : « اسرائيل بلد آخر ذو صحراء . لكن خطوط انابيب قد مدت ، مزودة بعض مناطق الصحراء بالماء . وبفضل خطوط الانابيب ، صار الري ممكنا ، وشيدت هنا وهناك مستوطنة زراعية تدعى كيبوتز »(٤٦). وأرفق المؤلف النص بسبع صور جميلة تمثل التغيير والاسلوب الحديث للحياة في كيبوتز في صحراء اسرائيلية . ويصف كتاب مدرسي للصف السابع جهود اسرائيل لجعل الصحراء تزهر على النحو التالي : « ان قناة ونفقا وخط انابيب تحمل الماء الى اراضي صحراء النقب في الجنوب فتجعل من الممكن زراعة الوف الهكتارات الاضافية من الارض. وهذا مثل جيد على ما يمكن فعله لجعل المناطق الصحراوية مفيدة نافعة »(٤٧). وتحدث كتاب مدرسي آخر للصف السابع عن انجاز اسرائيل على النحو التالي : « عن طريق الري والعمل المجتهد ، حول الاسرائيليون الكثير من المناطق الصحراوية سابقا الى بساتين حمضيات مزهرة ، وحقول قمح ، وبساتين تين وشجر زيتون »(٤٨). ويدعي كتاب مدرسي آخر للصف السابع : « تم ادخال أحدث طرق الزراعة العلمية . فالاسمدة تستخدم لاعادة الخصوبة المفقودة الى التربة . وجففت المستنقعات . ورويت الوف الهكتارات من الصحراء بالماء من آبار عميقة وسدود جديدة»(٤٩). وأخيرا ، يقول كتاب مدرسي للصف السادس : « التربة جيدة جدا في منطقة النقب بالجنوب ، لكن متوسط سقوط المطر لا يزيد على بوصة واحدة . وتستخدم اسرائيل خطوط الانابيب لنقل نحو ٣٢٠ مليون متر مكعب من الماء سنويا من بحيرة كينيريت (بحيرة الجليل) في الشمال الى النقب الجاف . وفي عشرين سنة زادت اسرائيل الارض التي يمكن استخدامها للمحاصيل بنسبة ٥٠٠ ٪ »(٥٠). وتديم جميع هذه الكتب المدرسية الاسطورة الصهيونية القائلة بأن ارض فلسطين كانت صحراء . وتدحض الادلة التاريخية هذا الافتراض دحضا قاطعا . ففي مقالة لرتشارد بينيز ، استاذ الانكليزية في الجامعة الاميركية في بيروت ، من جعل الصحراء تزهر ، يستشهد بالكثير من المسافرين الانكليز والفرنسيين وغيرهم من الاوروبيين ، الذين زاروا فلسطين في القرون السابعة عشر والثامنة عشر والتاسعة عشر ، مما يفيد بأن « أجزاء كبيرة من فلسطين كانت منذ عهد بعيد خصبة ومنتجة »(٥١).

كما ان هذه الكتب المدرسية لا تخبر القارىء بأن مشاريع الري في صحراء النقب تبين انها غير اقتصادية منذ ١٩٥٥ . الا انه ابقي على هذه المشاريع لاسباب عسكرية وسياسية .

لقد أظهر البحث القصير اعلاه ان معالجة النزاع العربي — الاسرائيلي في الكتب المدرسية المستخدمة في كل من المدارس الابتدائية والمدارس الثانوية المتوسطة في كاليفورنيا وولايات اخرى هي معالجة غير مرضية على الاطلاق . فالكثير منها يحتوي على اقوال هي اما غير صحيحة ، او مشوهة ، او غير كاملة ، او تروي جانبا واحدا من القضية . وبالتالي يميل التلاميذ الى تطوير انطباعات وافكار خاطئة حول هذا النزاع . ويؤدي بهم هذا الى العطف على وجهة النظر الاسرائيلية وتأييدها . وتدعو الحاجة الى بذل جهود عظيمة لتصحيح الوضع . ولتحقيق ذلك نقترح برنامجا يتألف من خمس خطوات :

١) ينبغي جعل المواد الاضافية المكملة حول النزاع ، والممثلة لوجهة النظر العربية، للمستويين الابتدائي والثانوي ، متوفرة لكل من المعلمين والتلاميذ .

٢) ينبغي القيام بمحاولة لاقناع الناشرين بعرض نظرة متوازنة الى النزاع .

٣) واخيرا — وربما كانت هذه هي الخطوة الاهم — على العرب ان يتصلوا بمجالس التعليم في الولايات المختلفة وينصحوها باختيار نصوص تزود القارىء بأبحاث متوازنة للنزاع .

٤) يجب الاتصال بالمعلمين لدعوة محاضرين يمثلون وجهة النظر العربية .

٥) اقامة ندوات خاصة وحلقات دراسية حول النزاع لمعلمي المدارس الابتدائية والثانوية ، لكي تتاح الفرصة امام المعلمين لمعرفة الجانب العربي من المسألة .

الحواشي :

١ — Black, Hillel. *The American School Book*, New York: William Morrow & Co., 1967, p. 5.

٢ — *Los Angeles Times*, December 10, 1973, p. 3

٣ — *Sacramento Bee*, May 27, 1969.

٤ — Yohe, Ralph Sandlin, *et al. Exploring Regions of the Eastern Hemisphere*, Chicago: Follett Educational Corp, 1971, p. 72

٥ — Davis, O., *Learning About Countries and Societies*, New York: American Book Co., 1971, p. 256

٦ — Hunnicott, C.W., *The Great Adventure*, Syracuse: The Lo W. Singer Co., 1963, p. 350.

٧ — Shorter, Bani, *et al., Eleven Nations*, Lexington, Ginn and Co., 1972, p. 237

٨ — Kolevzon, Edward, *et al., Our World and Its People*, Allyn and Bacon, 1968, p. 326

٩ — Wood, L.C., *et al., America, Its People and Values*, New York : Harcourt Brace, Jovanich, 1975, p. 761

١٠ — Roger, Lester, *et al., Story of Nations*, New York, Holt, Rinehart & Winston, Inc., 1965, p. 758

١١ — McKay, S.W., *The Communities We Build, Chicago* : Follet Publishing Co., 1973, p. 164

١٢ — مصدر رقم ٦ ، ص ٣٤٩ .

١٣ — Cooper, Kenneth, *The Changing Old World*, Sacramento, CA. State Department of Education, 1964, p. 67

١٤ — مصدر رقم ٦ ، ص ٣٥٠ .

١٥ — مصدر رقم ٥ ، ص ٢٤٨ .

١٦ — Platt, Nathaniel, *Our World Through the Ages*, New York : Muriel Jean Drummond, 1967, p. 696

١٧ — Sayegh, Fayez. *The Arab-Israeli Conflict*, New York: The Arab Information Center, 1964, p. 19.

١٨ — مصدر رقم ١٦ ، ص ٦٦٦ .

١٩ — المصدر السابق ، ص ٦٩٧ .

٢٠ — مصدر رقم ١٠ ، ص ٧٥٩ .

٢١ — مصدر رقم ٥ ، ص ٢٤٨ .

٢٢ — مصدر رقم ٨ ، ص ٣٢٧ .

٢٣ — المصدر السابق ، ص ٥٥٣ .

٢٤ — مصدر رقم ٦ ، ص ٣٥٠ .

٢٥ — مصدر رقم ٩ ، ص ٧٦١ .

٢٦ — Ben-Gurion. *Rebirth and Destiny of Israel*, New York : Philosophical Library, 1954, p. 530

٢٧ — المصدر السابق ، ص ٢٩١ .

٢٨ — Barrows, Harlan, *et al., Old World Lands*, Chicago: Silver Burdett Co., 1961, p. 168

٢٩ — مصدر رقم ٦ ، ص ٣٥٠ .

٣٠ — مصدر رقم ٧ ، ص ٢٣٧ .

٣١ — مصدر رقم ٥ ، ص ٢٥٣ .

٣٢ — مصدر رقم ٨ ، ص ٥٥٣ .

٣٣ — مصدر رقم ١٠ ، ص ٥٧٩ .

٣٤ — McCrocklin, James, *The Making of Today's World*, Boston: Allyn & Bacon, Inc., 1962, p. 704

٣٥ — مصدر رقم ٧ ، ص ٢٣٧ .

٣٦ — مصدر رقم ٧ ، ص ٢٣٧ .

٣٧ — مصدر رقم ٥ ، ص ٢٥٣ .

٣٨ — مصدر رقم ٧ ، ص ٢٣٧ .

٣٩ — Okum, Mitchell, *The Challenge of America*, New York: Holt, Rinehart and Winston, Inc., 1973, p. 735

٤٠ — Wallbank, *et al., Living World History, Atlanta:* Scott, Foresman & Co., 1964, p. 720

٤١ — مصدر رقم ١٦ ، ص ٦٨٩ .

٤٢ — مصدر رقم ٨ ، ص ٥٥٣ .

٤٣ — مصدر رقم ١١ ، ص ١٦٤ .

٤٤ — Gartler, Marion, *et al. Understanding Israel*, Sacramento, CA. State Department of Education., 1969, p. 6.

٤٥ — المصدر السابق ، ص ٧ .

٤٦ — Bacon, Phillip, *Regions Around the World*, Palo Alto: Field Educational Publ. Inc., 1972, p. 123

٤٧ — مصدر رقم ٨ ، ص ٣٢٨ .

٤٨ — مصدر رقم ١٦ ، ص ٦٩٧ .

٤٩ — Ahischwed, Ben, *Exploring the Old World.*, p. 91

٥٠ — مصدر رقم ٥ ، ص ٢١٨ .

٥١ — نشرت المقالة في مجلة شؤون فلسطينيه ، عدد ٢ في مايو ١٩٧١ ، ص ١٢٣ .

د. اياد القزاز

الاضطهاد الفكري والثقافي في الارض المحتلة

●

تحاول اسرائيل باستمرار ان تدعي بأنها « واحة الديمقراطية » في الشرق الاوسط . وان احتلالها للارض العربية هو « أعدل » احتلال ظهر في التاريخ ، وان العرب يتمتعون تحت ظل الاحتلال الاسرائيلي بامتيازات وحريات لم تكن متاحة لهم من قبل . فهل تنسجم هذه الادعاءات مع منطق الواقع وحقيقة الاوضاع التي يعيشها العرب تحت الاحتلال ؟ مما لا شك فيه ان اسرائيل تستفيد الى حد كبير في مغالطاتها حول الديمقراطية من مظاهر معاداة الديمقراطية التي تتفشى في أكثرية البلدان العربية ، كما أن اوضاع التخلف المترتبة على استمرار التبعية للامبريالية في بعض هذه البلدان، تعطي اسرائيل مظلة مناسبة لتزوير الحقائق عن الوضع الفكري والثقافي والاقتصادي الذي يعاني منه العرب في ظل الاحتلال .

فمن بين كافة أنواع العنف والارهاب تبرز مسألة الاضطهاد الفكري والثقافي في الارض المحتلة كأنصع دليل على مدى الانسحاق الذي يتعرض له العرب على أيدي السلطات الاسرائيلية المحتلة . ومدى القهر الذي يجعل حياتهم جحيما لا يطاق . مما يحتم ضرورة التخلص من الاحتلال في أسرع وقت ومواصلة الحياة في حرية وكرامة وسلام .

تغيير المناهج التعليمية

لم تقتصر عملية تزوير الحقائق عن الوضع في الارض المحتلة على أجهزة الاعلام الاسرائيلية الرسمية . ففي عملية مسح قام به فريق من الباحثين من دائرتي جغرافية وتاريخ الشرق الاوسط في جامعة حيفا يحاولون التدليل على أن « هدف السلطات الاسرائيلية بعد الحرب مباشرة كان اعادة الحياة الطبيعية بسرعة الى جميع القطاعات، متبعة في ذلك مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للسكان »(١).

الا ان الواقع يشير الى عكس ذلك تماما . فمنذ الايام الاولى لاحتلال القدس والضفة الغربية أطلقت سلطات الاحتلال الاسرائيلي يدها في مناهج التعليم العربية تغيرها وتشوهها وتملأها بالمغالطات التاريخية التي تخدم أهدافها التوسعية والعدوانية ، دون أي اهتمام بمراعاة المشاعر الوطنية للطلاب العرب ، أو تقدير لمصالحهم وتطلعاتهم ، وبما ان السلطات المحتلة قد اعلنت عن ضم القدس نهائيا الى اسرائيل رغم ارادة المجتمع الدولي وهيئاته ، فقد الغت نهائيا مناهج التعليم العربية في هذه المدينة واستبدلتها بمناهج جديدة تخدم أهداف التوسع الاسرائيلي ، وتربي الطلبة العرب بروح التسيب واللاوطنية ، ولاثبات ذلك نورد هنا بعض الامثلة التي توضح مدى التلاعب والاستخفاف بالقيم من خلال العبث بالمناهج التعليمية العربية .

في القدس : لقد برز التشويه وتزييف الحقائق على أشده في مناهج التاريخ والاجتماعيات واللغة العربية والتربية الاسلامية ، ومن مطالعة المناهج المفروضة على طلاب القدس نلاحظ الظواهر التالية : أ ـ تكثيف المعلومات عن تاريخ اسرائيل في مختلف العصور وخاصة العصور القديمة منها والتأكيد على انها جزء من المنطقة . ب ـ حشو أدمغة الطلاب بالمعلومات المفصلة عن دولة اسرائيل وتطوراتها واسسها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والمثل العليا التي تقوم عليها(٢). جـ ـ محاولة خلق اجيال عربية مهزوزة فاقدة لكل صلة حية مع جذورها ، وضعيفة الارتباط بالارض والوطن ، كجزء من مخطط انهاء الوجود الوطني والكفاحي للشعب الفلسطيني .

ان نظرة متأنية الى منهاج التاريخ للصفوف الخامس والسادس والثامن . ترينا الى أي حد يجري الاهتمام بتاريخ اليهود . والى أي حد بالمقابل يجري تشويه التاريخ العربي وعدم التركيز على أية قيمة من القيم الانسانية التي يحويها هذا التاريخ . ففي منهاج التاريخ للصف الخامس الابتدائي يحتل الحديث عن العبرانيين ثلث المنهاج الدراسي بالاضافة الى ان بقية مواد المنهاج تدرس من زاوية علاقتها باليهود في فلسطين ، فلدى دراسة تاريخ الجزيرة العربية القديم يركز المنهاج على انتشار المستوطنات اليهودية المزدهرة في الجزيرة . وفي دراسة الامبراطورية الفارسية يجري التركيز على كورش مبدين تعاطفا شديدا معه . كما يبرزون تصريحه بالعودة الى اسرائيل وبناء الهيكل الثاني ، وفي دراسة اليونان يتناول

المنهاج « مقاومة اليهود في اسرائيل انتشار الديانة اليونانية بينهم وثورتهم على اليونان مستشهدين بالمكابيين ويهودا المكابي وانتصاراته »[٣].

وهكذا نرى أن تدريس التاريخ في الصف الخامس الابتدائي يدور كلية حول العبرانيين ويهدف الى ترسيخ الاعتقاد في اذهان الطلاب ان فلسطين بلد يهودي منذ القدم[٤]. وما دام الامر كذلك ، فلا مانع لدى المسؤولين الصهاينة أن يجردوا الطالب العربي من أبسط حقوقه الانسانية، فيطالبونه في كتاب « مدنيات اسرائيل » بالتقيد بأن « علينا التزامات تجاه الدولة التي نعيش فيها ، كل واحد منا عليه أن يحترم الدولة وقادتها . وعلينا ان نظهر الاحترام الواجب نحو علم الدولة وشعاراتها والمحافظة على سيادتها وسلامتها »[٥].

أما منهاج التاريخ للصف السادس الابتدائي ، فان التاريخ الاسلامي يحظى بنسبة ٥٦ ٪ من المنهاج . ولكن عرض هذا التاريخ يتسم بتشويه كامل ، اذ يجري تصويره وكأنه سلسلة من الغزوات والحروب المستمرة ضد الامم الاخرى ، وفي كتاب الجغرافيا لهذا الصف « على الصفحة ٤٩ توصف الفتوحات الاسلامية بالعدوان الاسلامي »[٦].

واما منهاج التاريخ للصف الثامن فان نسبة ٥٠ ٪ منه مخصصة لدراسة دولة اسرائيل مع اشارات اخرى عن اليهود في بقية مواد المنهاج المتعلقة بأوربا ، اما ما يتعلق بالعرب فان المنهاج يمر مرورا سريعا على استقلال الشعوب العربية بعد الحرب العالمية الثانية ويركز فقط على ادخال النفوذ السوفياتي في مصر والشرق[٧].

ولو استعرضنا بقية كتب الاجتماعيات فاننا نلاحظ الظواهر التالية :

أ — بروز سياسة التهويد بكل أبعادها من خلال : ١ — استبدال اسماء البلدان والانهار العربية بأسماء عبرية . « وحيثما ظهرت كلمة فلسطين فقد غيرت الى أرض اسرائيل او دولة اسرائيل ، وجبال نابلس أصبحت شمرون وجبال القدس اصبحت جبال يهودا »[٨]. ٢ — ربط الاماكن المقتصبة بتاريخ العبرانيين . ٣ — توجيه الطلاب والغرس في نفوسهم وعقولهم ان فلسطين يهودية منذ القدم[٩].

ب — اعداد الطالب نفسيا لنوايا اسرائيل التوسعية ، بحيث تظهر هذه النوايا وكأنها طموحات قومية مشروعة ، « ففي كتاب (اسرائيل: جغرافيا وموطن) وعلى الصفحة ٢٣ تحت عنوان (حدود اسرائيل) نقرأ (الحدود الطبيعية لاسرائيل تمتد من نهر القاسمية في الشمال الى ايلات في الجنوب ومن البحر المتوسط في الغرب الى غور الاردن في الشرق) »[١٠]. « وعلى الصفحة ١٢٧ من كتاب آخر عن جغرافية اسرائيل ذكر ان غور الاردن يقسم اسرائيل الى قسمين شرق اسرائيل وغرب اسرائيل »[١١]. ومن الضروري هنا ان نلاحظ تناقض التحديد السابق مع هذا التحديد ، ومدى النزعة التوسعية التي ينطوي عليها التحديد الاخير .

ج — اضعاف ايمان الطالب العربي بنفسه وبقومه وذلك باظهار تأخرهم والحط من شأنهم اجتماعيا واقتصاديا . « ففي كتاب اسرائيل جغرافيا وموطن على الصفحة ١٨٦ وخلال بحث عن العربية السعودية ذكر ان الماء نادر وعزيز المنال ، وهنالك من لا يغتسلون غالبا ، لانه لا يوجد ماء من اجل الاستحمام . والبدو يمسحون أيديهم في الرمل من اجل تنظيفها من الاوساخ »[١٢].

« يستخدم نفس الكتاب صورا تظهر النواحي البدائية في المجتمع العربي مع تعليقات تحت الصور لتاكيد هذه البدائية ، على الصفحة ١٤٧ مثلا صورة لدمشق تظهرها مجموعة اكواخ طينية»[١٣].

أما بالنسبة لمنهاج التربية الدينية فقد جرى حذف الآيات والاحاديث التي تحض على الجهاد في سبيل الوطن . واما مادة الادب العربي فقد خضعت لاتجاه التعتيم على الشعور الوطني والترويج للاتجاهات اللاوطنية التي تفتقر الى القيم الضرورية لربط الطلاب بأرضهم ووطنهم ، وضرورة التضحية من أجل الوطن اذا ما داهمه الخطر كما يجري بالنسبة لاي شعب من الشعوب .

في الضفة الغربية : لم تقم سلطات الاحتلال هنا باستبدال المناهج التعليمية كلية كما جرى في القدس ، ذلك انه تحت تأثير الاضراب الذي امتد أكثر من شهرين والذي نظمه المعلمون والطلاب ،

فقد اضطر الصهاينة الى التراجع عن قرار الغاء ٧٦ كتابا . واكتفوا بتفريغها من أي مضمون وطني ، ومن اية اشارة الى قضية الشعب العربي الفلسطيني ، كما افرغوا هذه المناهج من اية مادة تحث على التضحية والنضال من اجل استرداد الحق والوطن .

ففي مادة التاريخ حذفت الفصول المتعلقة بالقضية الفلسطينية ، وحيثما وردت كلمة « فلسطين » في أية صفحة من صفحات الكتب فقد حذفت واستبدلت بكلمة « اسرائيل » ، وهكذا اصبح الوضع بالنسبة لفلسطين « فليس لها تاريخ وليس للطالب حق في معرفة اي شيء قبل سنة ١٩٤٨ طبقا لما تريده السلطات الاسرائيلية . واذا ذكرت فلسطين قبل ١٩٤٨ فانها تعطى اسم « اسرائيل » . ففي احدى الجمل يعلمون الطالب ان اول مطبعة دخلت اسرائيل كانت في سنة ١٨٦٨ »(١٤).

« كذلك حذفت السلطات الاسرائيلية كل الاجزاء المتعلقة بصلاح الدين الايوبي ، الفتح العربي للاندلس ، استقلال الجزائر ، ومعركة اليرموك . وحذف فصل كامل عن تاريخ القدس من كتاب للصف الثاني الثانوي »(١٥).

يعترف الاسرائيليون بأن « الكتب تراقب وتدقق ويحذف منها كل مادة الكراهية التي تناقض مبادىء حقوق الانسان »(١٦). ولا شك ان هذا الاعتراف صادق في مسألة المراقبة والتدقيق ، ولكنه بعيد عن الصدق فيما يتعلق بمبادىء حقوق الانسان . « فعلى الصفحة ٦١ من كتاب تاريخ العرب الحديث والمعاصر اسقطت الجملة التالية (كل نضالات الناس في العصر الحديث موجهة ضد الامبريالية التي عانت منها الامة العربية) »(١٧). فأية كراهية تناقض مبادىء حقوق الانسان يحتوي عليها النص السابق ام انه التماثل التام مع الامبريالية والدفاع عنها الذي ما انفكت تمارسه السلطات الاسرائيلية !!

بالنسبة لمادة اللغة العربية فقد حذفت كل الموضوعات او الجمل التي تحتوي على دلالات وطنية حتى ولو كانت هذه الموضوعات سابقة على الصراع العربي الاسرائيلي بألف عام . فمثلا الشاعر ابن الرومي عاش في العصر العباسي قبل عدة قرون . ولكن السلطات المحتلة لا تطيق ان تبقي هذين البيتين من شعره في المنهاج نظرا لمضمونهما :

ولي وطن آليت ألا أبيعه
وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال اليهمو
مآرب قضاها الشباب هنالكا

ولم تقف المسألة عند هذا الحد . فأية جملة في كتب قواعد اللغة العربية تشير الى تعلق الفلسطيني بحقه المشروع في وطنه تعرضت للحذف واستبدلت بجملة اخرى ركيكة وفارغة من أي مضمون ، ان جملة « أحن الى عروس البحر يافا » تعتبر في نظر المحتلين الاسرائيليين تحريضا عدوانيا لا يطاق .

وكما حدث في القدس بالنسبة لمنهاج التربية الدينية فقد حدث في الضفة الغربية حيث جرى حذف كل الآيات والاحاديث التي تحض على الجهاد والتضحية في سبيل الوطن .

ان اقدام السلطات الاسرائيلية المحتلة على تغيير وتشويه المناهج التعليمية في الارض المحتلة يتنافى تماما مع قرار المؤتمر العام لليونسكو الذي اقر في دورته التاسعة سنة ١٩٥٦ رقم ٧٠٨١ الدعوة الى تأمين الظروف الضرورية التي تضمن المحافظة على التراث الوطني والديني والثقافي للناس في كل مكان وعدم تغييره تحت أية اعتبارات سياسية .

كما يتنافى هذا الاجراء التعسفي مع الاعلان العالمي لحقوق الانسان — المادة ٢٦ — التي تنص على ان للآباء حقا طبيعيا في اختيار نوع الثقافة التي يمكن ان تقدم لاطفالهم .

تبرير مفضوح : لقد ادعت سلطات الاحتلال انها قامت بتغيير المناهج دون أي مساس بمشاعر العرب او قيمهم الروحية ، وانها لم تحذف من هذه المناهج سوى « مادة الكراهية التي تناقض مبادىء حقوق الانسان » . ولعل الامثلة القليلة التي أوردناها سابقا تدحض مثل هذه الادعاءات .

ومن ناحية اخرى فان « مادة الكراهية » التي تلصقها سلطات الاحتلال بالمناهج العربية تمارس على نحو واسع ومكشوف في المطبوعات الاسرائيلية

وذلك لتربية الاجيال اليهودية بروح الكراهية للعرب على نحو عنصري بغيض .

فقد ذكرت جريدة الليموند في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ ايار ١٩٧١ ما يلي : « تعرضت عدة كتب للمراهقين نشرت حديثا في اسرائيل الى حملة نقد خلال حوار نظمه راديو اسرائيل . وقد احتج المشاركون في الحوار ضد العنصرية المعادية للعرب التي تتسم بها هذه الكتب » .

وفي ملحق هآرتس بتاريخ ١٩٧٤/٩/٢٠ كتبت الكاتبة الاسرائيلية تمار مروز مقالا جاء فيه « ان احدى الظواهر المفزعة في مجال ادب الاطفال في البلاد هي الكتب التي تصدر بين حين وآخر . ويتلقفها الاطفال بحماسة ، والتي تروي دائما كيف ينتصر الطفل او الاطفال الابطال على العرب المضحكين والاغبياء »(١٨). وتضيف الكاتبة مقتطفة مقاطع من رسالة بعث بها الى جريدة هآرتس أب غاضب يقول في رسالته « الآن تقع يدي على كتب ، كل مضمونها واسلوب التعبير فيها والرسوم التي تزاغتها مفعمة بالغرور ومشاعر التفوق وتساعد أكثر من أي شيء آخر على كراهية الجيران »(١٩).

اجراءات قمعية اخرى

لم يتوقف الاضطهاد الفكري والثقافي في الارض المحتلة على موضوعة المناهج التعليمية فقط ، وانما تعداها الى جوانب اخرى في جهاز التربية والتعليم يمكن ايجازها فيما يلي :

أ ـ اغلاق مكتب التربية والتعليم في القدس نهائيا واعتقال عدد من المسؤولين فيه لعدة اشهر .

ب ـ تعيين ضباط تربية اسرائيليين في مكاتب التربية والتعليم في الضفة الغربية ، يتحكمون في هذه المكاتب ويمارسون عمليات ضغط وتعسف ضد المعلمين والطلاب .

ج ـ حرمان المعلمين من تأسيس نقابة علنية تدافع عن حقوقهم وتؤمن لهم شروطا معيشية افضل في ظل الاوضاع القاسية التي يعيشونها .

د ـ عدم التوسع في تلبية احتياجات المدارس القائمة مثل اضافة غرف جديدة ودورات مياه وغيرها من المستلزمات الضرورية .

هـ ـ استخدام الابنية القديمة التي تفتقر الى الكثير من الشروط الملائمة لتدريس الطلاب فيها وخاصة في القرى .

و ـ النقص الفادح في الوسائل المعينة والاجهزة والمختبرات والملاعب .

ز ـ تقليص المدارس المهنية الى حد كبير مما يؤدي الى ترك الطلاب الذين لا يرغبون مواصلة التحصيل الاكاديمي للمدارس وتحولهم الى عمال ، « فقد كان عدد المدارس المهنية في سنة ١٩٦٦ (١٣) مدرسة وفي سنة ١٩٧٢ تناقصت الى مدرستين فقط »(٢٠).

ح ـ اغلاق المدارس لفترات طويلة كلما تصاعد النضال الوطني ضد الاحتلال مما يسبب الخسارة للطلاب ولا يمكنهم من انهاء المنهاج المقرر .

ط ـ ممارسة عمليات الاعتقال والسجن والابعاد ضد الالوف من الطلبة والمعلمين .

طمس التراث الثقافي في القدس كجزء من عملية التهويد

ان التراث الثقافي العربي الذي يميز مدينة القدس ويحفظ لها عروبتها ، يتعرض الآن ومنذ العدوان الاسرائيلي سنة ١٩٦٧ الى هجمة شرسة، وذلك لطمس هذا التراث وتضييعه من أجل تسهيل عملية الضم والتهويد التي اعلنت عنها السلطات الاسرائيلية المحتلة ، والتي جوبهت برفض قاطع من غالبية دول وشعوب العالم ، ومن قبل الهيئات الدولية المختلفة أيضا .

ولقد قامت اسرائيل بعدة اجراءات تستهدف تكريس عملية الضم والتهويد ومنها :

أ ـ « بدأت سلطات الاحتلال الاسرائيلي حفريات في أماكن متعددة من داخل الاحياء العربية المصادرة داخل السور والمناطق الملاصقة للحائطين الجنوبي والغربي من الحرم الشريف ، واتخذت من هذه الحفريات وسيلة لتصديع ما فوقها من أبنية سكنية وتجارية ودينية وحضارية ، والتسبب في انهيارها ثم هدمها واجلاء سكانها »(٢١). بالاضافة الى ازالة حي المغاربة وانشاء ساحة كبيرة أمام حائط المبكى وكذلك هدم مئات البيوت في حارة الشرف واقامة عمارات لا تتناسب والطابع التاريخي للمدينة .

ان المقارات العربيــة التي تهدمها سلطـات الاحتلال في القدس « هي جزء مــن أروع الابنية الاسلامية التي بنيت في القرون الوسطى »(٢٢).

ب ــ غيرت سلطات الاحتلال معالم المدينة ، وطوقتها بمجموعات من الاحيــاء السكنية ذات العمارات العالية مما طمس افق المدينة وشــوه شكلها ، ودفع بعــض المهندسين الاسرائيليــين انفسهم الى انتقادها .

جـ ــ تواطأت سلطات الاحتلال على « احراق المسجد الاقصى واستمرار الاعتداءات على الاماكن الدينية الاسلامية في القدس »(٢٣). بالاضافة الى « الاعتداءات علــى الاماكن المسيحية الدينيــة والمقدسة »(٢٤).

لقد جوبهت هذه الاجراءات الاسرائيلية بالكثير من الاستهجان والاستنكار لدى العديد من الهيئات الدولية ، فلقد أصدرت الجمعية العمومية للامم المتحدة العديد من القرارات التي تدعو الى الغاء كل هذه الاجراءات التي اتخذتهــا اسرائيل ، بالاضـافة الى قرارات اخرى بنفس المضمون اتخذت من قبل مجلس الامن .

كما أصدرت منظمة اليونسكو عدة قرارات لردع اسرائيل ومنعها من مواصلة الحفريات في مدينة القدس ومن تغيير معالمها وذلك « للمحافظة بدقة على كل المواقع والمباني وسائر الممتلكات الثقافية في الارض المحتلة وخاصــة في مدينة القــدس القديمة » . وقد كان آخر هذه القرارات قرار المجلس التنفيذي العام رقم ٤٤١ الذي اتخذ بتاريخ ٢٤ حزيران ١٩٧٤ والذي أدان « اسرائيل لموقفها المناقض للاهداف التي تتوخاها المنظمة ــ أي اليونسكو ــ كما وردت في ميثاقهــا التأسيسي باستمرارها في تغيير معالم مدينة القدس التاريخية، وفي اجراء الحفريات التي تشكل خطرا على آثارها وذلك عقب احتلالها غير الشرعي لهذه المدينة»(٢٥).

بالاضافة الى موجــات الغضب الجماهــيري والنضال المتعاظم الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني ضد مخططات الاحتلال عموما ، وضد محاولات تهويد القدس خاصة ، فقد ذكرت جريدة الشعب الصادرة في الارض المحتلة بتاريخ ٢٢/٤/ ١٩٧٥ الخبر التالي « حاول خمسة عشر شخصا من أعضاء طائفة (ناطوري كارتــا) اليهودية المعادية للصهيونية التدخل لمنع الحفريات الاثرية في منطقة القلعة في القدس العربية ، وقام البوليس بتفريقهم واعتقل سبعة منهم للاستجواب » . ورغم كل ذلك فما زالت سلطات الاحتلال تتحدى الرأي العام العالمي وكل المؤسســات الدولية على نحو أحمق وغير مسؤول .

سرقات مكشوفة

ولا تكتفي سلطات الاحتلال بكل ما أقدمت عليه من تجاوزات في الارض المحتلة ، فهي جاهدة منذ الايام الاولى للاحتلال بالتنقيب عن الاثار في مناطق مختلفة من الارض المحتلة والاستيلاء عليها ووضعها في المتاحف الاسرائيلية .

كما قامت « بوضع اليد على المتحف الفلسطيني والشروع في اتخاذ اجراءات لنقل محتوياته الى اسرائيل ، كما ان السلطات الاسرائيلية تخطط أيضــا لنقــل مخطوطات البحــر الميت الــى اسرائيل »(٢٦).

اضطهاد المثقفين والكتاب

ان المتتبع لاجراءات السلطات الاسرائيليــة المحتلة ضد المؤسسات الثقافية والتعليمية ، وضد المثقفين والكتاب في الارض المحتلة ، يدرك الهدف الاساسي الذي تسعى اليه هذه السلطات من وراء اجراءاتها المتلاحقة ، وهو تدمــير كل امكانية للنهوض الثقافي في الارض المحتلة الذي يستتبع بالضرورة تنمية الشخصيــة الفلسطينية وبلورتها على نحو لا تريده سلطات الاحتلال بل تنزع منه .

ففي مقابلة مع صحيفة معاريف بتاريخ ٢٢/١١/ ١٩٧٤ يقول شموئيل طوليدانــو مستشار رئيس الوزراء للشؤون العربية « ان السؤال هو كيف يمكن العيش على أفضل وجه مع اقلية قومية ليس لرغباتها القومية حل في اسرائيل » . ويضيف طوليدانو قائلا « ان الثقافة تزيد من حدة المشاعر القومية ومن قدرة التعبير عنها وتمنحها قوة ووزنا اكثر »(٢٧).

فالى جانب اغتيال الكتاب والمثقفين الفلسطينيين أمثال غسان كنفاني ، كمال ناصر ، وائل زعيتر ، ومحمود الهمشري الذي تم خارج الارض المحتلة على أيدي عملاء اسرائيليين ، فان الارض المحتلة تشهد صنوفا من الارهاب والعسف تلحق بالمثقفين والكتاب

والصحفيين ، وذلك لشل قدراتهم وتعطيلها ، وتفريغ الارض المحتلة من قادة الراي والفكر الذين يستطيعون التأثير في الراي العام وقيادة الجماهير.

وتتنوع اساليب الاضطهاد التي تمارس ضد المثقفين والكتاب والصحفيين ، الا ان ابرز هذه الاساليب ينحصر فيما يلي :

أ — استدعاء العديد من المثقفين (كتاب ، صحفيون ، اطباء ، صيادلة ، محامون ، مهندسون ، معلمون) الى مراكز التحقيق حيث يتولى رجال المخابرات استجوابهم وذلك من اجل اشاعة جو من الارهاب لاعاقة هؤلاء المثقفين عن ممارسة أي نشاط خلاق .

ب — فرض أوامر الاقامة الجبرية لاشهر وسنوات على العديد من المثقفين .

جـ — النفي داخل البلاد الى مدينة بعيدة وتحديد الاقامة فيها لعدة اشهر ، وقد نفذ هذا الاجراء ضد عدد من المثقفين والقادة السياسيين في اعقاب الاحتلال مباشرة .

د — الاعتقال والسجن وما يرافقهما من تحقيق وتعذيب وحشي ، واسناد مختلف التهم الى المثقفين واصدار احكام جائرة بالسجن ضدهم ، او اصدار اوامر اعتقال اداري بحقهم لعدم ثبوت اية تهمة تدينهم. وفيما يلي اسماء بعض الكتاب والصحفيين الذين تعرضوا للاعتقال والسجن على أيدي السلطات المحتلة : ١ — المؤلف والصحفي بشير البرغوثي ، اعتقل ثمانية اشهر وقدم للمحاكمة وبرىء من التهمة المنسوبة اليه . ٢ — نعيم الاشهب ، عضو هيئة تحرير جريدة الوطن السرية الصادرة في الارض المحتلة ، وعضو هيئة تحرير قضايا السلم والاشتراكية حاليا ، اعتقل اداريا حوالي ثلاث سنوات ثم ابعد خارج الوطن . ٣ — محمود شقير ، كاتب قصة وصحفي ، اعتقل اداريا على فترتين مدة عشرين شهرا وفرضت عليه الاقامة الجبرية مدة سنة اشهر ثم ابعد خارج الوطن. ٤ — الصحفي غسان طهبوب اعتقل لمدة شهر بتهمة اقامة الندوات السياسية في القدس . ٥ — الشاعر خليل توما ما زال معتقلا اداريا منذ سنة دون توجيه تهمة ضده . ٦ — الصحفي صلاح سالم ما زال معتقلا اداريا منذ سنة دون توجيه تهمة ضده . ٧ — الصحفي غسان حرب ما زال معتقلا اداريا منذ سنة دون توجيه تهمة ضده . ٨ — الشاعر الشعبي راجح غنيم ما زال معتقلا اداريا منذ سنة دون توجيه تهمة ضده . ٩ — محمد البطراوي ، رئيس تحرير صحيفة الفجر حاليا ، اعتقل وافرج عنه . ١٠ — حسيب النشاشيبي ، مدير ادارة صحيفة الفجر ، اعتقل وافرج عنه . ١١ — الصحفي عادل سمارة ، حكم عليه بالسجن خمس سنوات ، ١٢ — الشاعر طلال حماد ، حكم عليه بالسجن سنتين . ١٣ — الصحفي غازي علم الدين، اعتقل وحكم عدة اشهر وافرج عنه . ١٤ — الشاعر والرسام والصحفي محمد عبد السلام حكم عليه بالسجن اربع سنوات . ١٥ — خليل السواحري، كاتب قصة وناقد وصحفي ، اعتقل مرتين ثم ابعد خارج الوطن .

هـ — الابعاد : ويعتبر هذا الاجراء غير الانساني من أخطر الاجراءات التي تتبعها السلطات المحتلة ضد الشعب العربي الفلسطيني عامة ، وضد المثقفين وقادة الرأي والفكر من ابنائه على نحو خاص . ويرمي هذا الاجراء الى تفريغ الارض المحتلة من العناصر القيادية الواعية التي تؤثر في بلورة الرأي العام ، ومن الكوادر المثقفة القادرة على اغناء الشخصية الوطنية الفلسطينية.

لقد أقدمت سلطات الاحتلال الاسرائيلي « حتى عام ١٩٧٤ على ابعاد حوالي ١٥٨٠ شخصية قيادية من مختلف القوى السياسية والمهنية والطبقات الاجتماعية شملت رجال دين ومحامين واطباء ومهندسين وسياسيين ورؤساء بلديات وصحافيين ومدرسين ونقابيين وعمالا وطلابا . وما زالت سلطات الاحتلال تمارس هذه الجريمة على مسمع ومشهد من العالم اجمع »(٢٨).

ان اكثرية المبعدين هم من المثقفين الذين كانوا يلعبون أدوارا اساسية في الحياة الثقافية والفكرية للشعب العربي الفلسطيني في الارض المحتلة ، والذين كانوا يشغلون مراكز حساسة في قيادة المؤسسات الثقافية والتعليمية والنقابات المهنية والنوادي والصحف وهيئات الرأي العام المختلفة. ويضيق المجال هنا عن ايراد أمثلة لتأكيد هذه القضية ، ولكن الاستنتاج الرئيسي الذي يكمن وراء هذه الظاهرة الخطرة وغير الانسانية ، يظل استنتاجا صحيحا وأكيدا وهو أن السلطات المحتلة

جادة في تدمير المقومات الفكرية والثقافية للشعب العربي الفلسطيني تسهيلا لتنفيذ مخططاتها التوسعية التي تهدف الى القضاء على هذا الشعب وانكار وجوده القومي والاستيطان فوق ارضه المغتصبة .

ملامح اخرى للاضطهاد

تقوم سلطات الاحتلال الاسرائيلي بممارسة عملية مبرمجة لاضعاف واقع الحياة الفكرية والثقافية في الارض المحتلة ، ومن ثم افقار الحياة الروحية للناس على نحو مريع ، بحيث يتحولون الى مجرد خدم وعبيد ينسحقون يوميا في المؤسسات والمصانع الاسرائيلية .

ثمة هجرة واسعة نسبيا خارج ارض الوطن من بين صفوف خريجي الجامعات الذين ينهون دراستهم في الخارج ويعودون — بوساطة التصاريح السنوية — ليفاجأوا بعدم وجود اية فرصة للعمل امامهم ، مما يضطرهم الى البحث عن عمل مناسب في احدى البلدان العربية المجاورة او غيرها من الاقطار .

وهنالك ايضا تضييق مستمر على النقابات والاندية التي تسهم الى جانب نشاطاتها المتعددة في تغطية جزء من مهمات التثقيف الوطني لجماهير العمال والطلاب والشباب المنخرطين في صفوفها . ومن هنا نفهم معنى النقمة المستمرة على هذه المؤسسات والتنكيل بقادتها واعتقالهم وابعادهم.

كذلك فهنالك رقابة مشددة على الصحف التي تخطو على بداية الطريق بتهيب وحذر تحت ضغط الارهاب والعسف ، مما يجعلها في أغلب الاحيان عاجزة عن الاستجابة لمتطلبات الناس وتطلعاتهم المشروعة .

ولعل ما جرى لصحيفتي الشعب والفجر اللتين تصدران في القدس خير دليل على الاضطهاد الفكري والثقافي في الارض المحتلة . فلقد جرت محاولتان لحرق جريدة الشعب ، ثم قامت اجهزة المخابرات بتوجيه التحذيرات الى رئيس تحريرها علي الخطيب ، وما لبثت بعد ذلك ان ابعدته من وطنه ليلحق بقوافل المبعدين العديدة .

واما جريدة الفجر فقد تعرض صاحبها الصحفي يوسف نصر الى الاعتقال ، ثم تواطأت سلطات الاحتلال مع بعض المجرمين على اختطافه الى جهة مجهولة حتى الآن .

يضاف الى ذلك كله ، الحاق أشد الضرر بالحركة الادبية والفكرية التي كانت تنمو وتزدهر قبل الاحتلال ، وتراجعها الى ابعد الحدود بسبب قلة مجالات النشر ، الى جانب الرقابة المشددة على الندوات الفكرية والادبية والسياسية ، واستدعاء القائمين عليها للتحقيق وتعريضهم لممارسات ارهابية متنوعة ، مما يؤدي الى تراجع الكثيرين من المثقفين وانزوائهم تحت وطأة العسف الذي تبرع فيه السلطات الاسرائيلية المحتلة ، وللتدليل على واقع الحياة الادبية قبل الاحتلال فاننا نقتطف الفقرة التالية من عملية المسح التي قام بها فريق الباحثين الاسرائيليين « كان الادب متطورا الى حد ما في الضفة الغربية ، حيث ان غالبية الاردنيين من اهل الفكر كانت تتجمع هناك . كان كثير من الكتاب والشعراء يعيشون في هذه المنطقة وكانت تنتشر في جميع المنطقة كثير من المطابع النشيطة »(٢٩).

ان الاضطهاد الفكري والثقافي الذي تمارسه سلطات الاحتلال في الارض المحتلة يعتبر جزءا من ظاهرة اوسع تشمل اضطهادا متعدد الجوانب والمظاهر لشعب يرزح تحت نير الاحتلال ، ولكنه رغم كل العسف والارهاب والاضطهاد ما زال يناضل بكل مثابرة ودأب من اجل تحرير ارضه وانتزاع حقوقه المشروعة في وطنه فلسطين .

---

١ — التعليم والثقافة في المناطق تحت الادارة ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ١ .

٢ — صبا الفاهوم ، مجلة الثقافة العربية ، العدد السابع ، ايار ١٩٧٤ ، ص ٤٦ .

٣ — المصدر السابق ، ص ٤٧ .

٤ — المصدر السابق ، ص ٤٧ .

٥ — Ibrahim al-Abid, *Israel and Human Rights*, (Beirut: Palestine Research Center, 1969), p. 146.

٦ — المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

٧ — صبا الفاهوم ، المصدر نفسه .

٨ ــ العابد ، ص ١٤٥ .
٩ ــ صبا الفاهوم ، المصدر نفسه .
١٠ ــ العابد ، ص ١٤٤ .
١١ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .
١٢ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٧ .
١٣ ــ المصدر نفسه .
١٤ ــ المصدر نفسه ، ص ١٤٨ .
١٥ ــ المصدر نفسه .
١٦ ــ التعليم والثقافة في المناطق تحت الادارة ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٨ .
١٧ ــ العابد ، ص ١٤٨ .
١٨ ــ نشرة الارض ، العدد ٤ ، ١٩٧٤/١١/٧ .
١٩ ــ المصدر السابق .
٢٠ ــ التعليم والثقافة في المناطق تحت الادارة ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ٢ .
٢١ ــ روحي الخطيب ، مجلة **شؤون فلسطينية** ، كانون الثاني ــ شباط ١٩٧٥ ، ص ١٠٠ .
٢٢ ــ المصدر السابق ، ص ١٠٣ .
٢٣ ــ المصدر السابق ، ص ١٠٧ .
٢٤ ــ المصدر السابق ، ص ١٠٩ .
٢٥ ــ **مجلة الآداب** ، آذار ١٩٧٥ ، ص ٧ .
٢٦ ــ العابد ، ص ١٥٩ .
٢٧ ــ **ملف قضايا اسرائيلية** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، ٦ آذار ١٩٧٥ .
٢٨ ــ عبد المحسن ابو ميزر ، تقرير منسوخ عن الابعاد السياسي .
٢٩ ــ **التعليم والثقافة في المناطق تحت الادارة** ، نيسان ١٩٧٤ ، ص ١٣ .

محمود شقير

رسائل من العالم

[١]
النظام الجديد في البرتغال والصراع العربي الاسرائيلي

قامت في البرتغال في ٢٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ حركة سياسية جديدة أطاحت بالحكم الديكتاتوري (حكم سالازار وكاتيانو) . واشتركت في هذه الحركة عناصر من قواد الجيش — ومن بينهم الجنرال سبينولا — تعاونت معهما الاحزاب السياسية السرية التي كان نشاطها محظورا خلال فترة الحكم الديكتاتوري ، وأهمها الحزب الاشتراكي بزعامة ماريو سوارس والحزب الشيوعي بزعامة ألفارو كونيال .

وعلى الرغم من أن النظام السياسي الجديد في البرتغال ما زال في مرحلة عدم الاستقرار الناتج عن تضارب الاراء والاتجاهات داخل الحركة — خاصة بين الاشتراكيين والشيوعيين — فان هذا النظام قد اتخذ موقفا واضحا تجاه الصراع العربي الاسرائيلي يعد مغايرا تماما لموقف النظام السابق.

ويستهدف هذا التقرير القاء الضوء على علاقات البرتغال بكل من اسرائيل والبلاد العربية ، وموقف النظام الجديد من الصراع العربي الاسرائيلي وقضية فلسطين ، واحتمالات المستقبل بالنسبة للعلاقات العربية البرتغالية .

العلاقات البرتغالية الاسرائيلية

لم تقم علاقات دبلوماسية بين البرتغال واسرائيل وان كان لاسرائيل قنصلية عامة في لشبونة . وهناك علاقات في المجال الاقتصادي ، وعلى سبيل المثال فقد وقعت اتفاقية بين شركة أمكور الاسرائيلية لانتاج الآلات الزراعية وحكومة البرتغال تقضي بقيام الشركة بتصدير ٥٠٠ ماكينة زراعية الى اسرائيل تبلغ قيمتها ٣٠ ألف دولار(١).

وعند قيام حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ أعلن وزير خارجية البرتغال في مؤتمر صحفي في ٨/٦/١٩٦٧ ، ان ازمة الشرق الاوسط مكنت الاتحاد السوفييتي من تحقيق حلمه الاستعماري القديم بدخول البحر الابيض المتوسط(٢).

وفي الدورة الطارئة للجمعية العامة للامم المتحدة في أعقاب الحرب صوتت البرتغال ضد مشروع القرار الألباني الذي كان يسانده الاتحاد السوفييتي الخاص بوقف اطلاق النار وانسحاب القوات الاسرائيلية ، وامتنعت عن التصويت على باقي المشروعات .

واثناء حرب تشرين الاول (أكتوبر) منحت الحكومة البرتغالية للولايات المتحدة الامريكيين حق استخدام القاعدة الكبرى في جزر الازور (التابعة للبرتغال) في عمليات نقل السلاح والعتاد الى اسرائيل . وخلال هذه العمليات تم نقل قرابة ٢٥ الف طن من السلاح لاسرائيل مما كان له أثر كبير في تقوية وتدعيم المجهود الحربي الاسرائيلي(٣).

وبعد قيام النظام الجديد في البرتغال واعلانه عن منع استخدام قاعدة الازور في نقل السلاح الى اسرائيل(٤) أخذت اسرائيل ، والصهيونية العالمية ، في خلق العقبات امام النظام الجديد ، عن طريق مساعدة حركات التمرد في جزر الازور ، والتي تطالب بالاستقلال عن البرتغال . ومن المعلوم ان مدبري هذا التمرد ، هم من موظفي نظام كاتيانو الديكتاتوري الذين تم طردهم من لشبونه وبعض العناصر من العاملين في القاعدة الجوية . وتقوم بتزويدهم بالسلاح شركات دولية تعمل في تهريب الاسلحة(٥). ويقوم بتمويل هذه

الحركة المليونير اليهودي هاري اوبنهايمر ، الملقب بملك الذهب والماس في جنوب افريقيا ، وهو صهيوني يشترك في كل مؤتمرات أصحاب الملايين التي تعقد في القدس وتل ابيب ، ونتيجة لجهوده تشغل الجالية اليهودية في جنوب افريقيا المركز الثاني في العالم — من حيث تقديم المساعدة المالية لاسرائيل — بعد الجالية اليهودية في الولايات المتحدة(٦).

العلاقات البرتغالية العربية

تعود العلاقات بين العالم العربي والبرتغال الى سنة ٧١١ ميلادية حينما غزا العرب شبه جزيرة ايبريا التي ظلت تحت الحكم الاسلامي حتى منتصف القرن الثالث عشر .

وفي عصر الكشوف الجغرافية احتدم الصدام بين المصالح التجارية البرتغالية والمصالح العربية ودارت بين أساطيل الجانبين معارك عديدة . وكان عامل الدين كامنا وراء الصراع .

وقد قامت الدول العربية بقطع العلاقات الدبلوماسية مع البرتغال بسبب موقفها من المستعمرات الافريقية ، وذلك تنفيذا لقرارات الامم المتحدة وجامعة الدول العربية ومنظمة الوحدة الافريقية في هذا الشأن .

وبعد تغير النظام السياسي في البرتغال ووضوح تأييده للقضايا العربية واتجاهه الى منح الاستقلال للمستعمرات الافريقية اصدر مجلس جامعة الدول العربية في دورته الثالثة والستين القرار رقم ٣٢٣٦ الذي ينص على ان المجلس لا يرى « ما يحول واعادة العلاقات بين البرتغال والدول العربية الراغبة في ذلك »(٧).

وقد اعادت سوريا العلاقات مع البرتغال في ١٩٧٥/٢/٢٠(٨) كما اعادت مصر العلاقات معها في ١٩٧٥/٢/٢٥(٩). وكذلك تونس والعراق .

موقف النظام الجديد من الصراع العربي الاسرائيلي وقضية فلسطين

يمكن عرض موقف النظام السياسي الجديد في البرتغال من الصراع العربي الاسرائيلي وقضية الشعب الفلسطيني من خلال تصريحات المصادر المسئولة ، على النحو التالي :

١ — اعلن رئيس الحكومة البرتغالية فاسكو جونالفيس ان البرتغال لن تسمح للطائرات الامريكية التي تحمل معدات حربية لاسرائيل بأن تهبط في قاعدة جزر الازور ، واكد ان بلاده « لن تتخذ أي خطوة او توافق على أي اجراء يتخذ ضد الشعب العربي(١٠)».

٢ — كما اعلن رئيس الحكومة البرتغالية ان حل مشكلة الشرق الاوسط يجب ان يتم بالوسائل السلمية التي تضع في حسابها المصالح الشرعية لشعوب المنطقة وعلى وجه الخصوص شعب فلسطين(١١).

٣ — وصف وزير الخارجية البرتغالي السابق — ماريو سوارس — القضية الفلسطينية بأنها « قضية استعمارية اخرج فيها شعب من دياره وحل مكانه افراد جاءوا من كل اطراف الدنيا»(١٢).

كما اعلنت البرتغال — في بيان مشترك مع رومانيا — انه يمكن التوصل لتسوية عادلة لمشكلة الشرق الاوسط عن طريق الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية وانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة(١٣).

٤ — اعلن وزير الخارجية السابق ماريو سوارس ، موافقة بلاده على فتح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية في لشبونة(١٤). وعلى هذا الاساس فان موقف النظام الجديد في البرتغال من الصراع العربي الاسرائيلي وقضية فلسطين ،يتركز في ضرورة التوصل الى تسوية سلمية تقوم على انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ممثلا في منظمة التحرير الفلسطينية .

احتمالات المستقبل بالنسبة للعلاقات العربية البرتغالية

من العرض السابق يمكن القول بانه اصبح واضحا للامة موقف النظام الجديد في البرتغال من القضايا العربية . بالاضافة الى محاولاته اقامة علاقات ودية مع الدول العربية سواء عن طريق الزيارات التي قام بها المسئولون البرتغاليون لبعض البلاد العربية (ومن بينهم ماريو سوارس وزير الخارجية السابق وزعيم الحزب الاشتراكي

وهو حزب الاغلبية) او عن طريق انشاء جمعية صداقة برتغالية عربية تحت اسم « جمعية اصدقاء الدول العربية » التي اعترفت بها حكومة البرتغال رسميا في ٢٦ سبتمبر (ايلول) ١٩٧٤[١٥].

وعلى الدول العربية ان تساعد النظام الجديد في البرتغال على الاستمرار في هذا الاتجاه عن طريق دعمه من الناحيتين السياسية والاقتصادية، وخاصة وانه يواجه مؤامرات امريكية وصهيونية تستهدف القضاء عليه واعادة النظام الديكتاتوري القديم . ويمكن للدول العربية استخدام الوسائل التالية :

١ – ضمان تزويد الاقتصاد البرتغالي بحاجته من البترول خاصة وان البرتغال سوف تفتقد بترول انجولا بعد حصولها على الاستقلال . ويمكن للدول العربية البترولية الواقعة في شمال افريقيا ان تلعب هذا الدور . بالاضافة الى استثناء البرتغال من اي خطر بترولي قادم فيما لو تم استخدام سلاح البترول مرة اخرى في الصراع العربي الاسرائيلي .

٢ – تقديم المساعدات المالية والقروض طويلة الاجل وتوسيع مجالات التعاون الاقتصادي والفني واقامة مشروعات مشتركة .

٣ – اعادة العلاقات الدبلوماسية مع البرتغال بالنسبة للدول العربية التي لم تقم تلك الخطوة بعد ، وتقوية العلاقات الثنائية . واقامة نمط جديد للعلاقات بين الجانبين اساسه التفاهم المتبادل والمصلحة المشتركة .

وعلى هذا الاساس يمكن ضمان عدم استخدام قاعدة جزر الازور لمساعدة اسرائيل خلال اي صراع مقبل . بالاضافة الى كسب صوت البرتغال الى جانب القضايا العربية في الامم المتحدة وداخل مجموعة السوق الاوروبية المشتركة اذا نجحت محاولات البرتغال في دخول السوق .

الحواشي

١ – **اليوميات الفلسطينية** ، المجلد العاشر ، ص ٢٢٦ .
٢ – **وكالة رويتر** ، ١٩٦٧/٦/٨ .
٣ – **الاهرام** ، ١٩٧٥/٤/١٣ .
٤ – وكالة أ – ب ١٩٧٥/٤/٣ .
٥ – **وكالة نوفستي** ، ١٩٧٥/٣/١٩ .
٦ – **المصدر السابق** .
٧ – من ٣٢٣٦ / د ٦٣ / ص ٤ .
٨ – وكالة رويتر ١٩٧٥/٢/٢٠ .
٩ – **الاهرام** ١٩٧٥/٢/٢٦ .
١٠ – **الاهرام** ١٩٧٥/٤/١٣ ، مصدر سابق .
١١ – وكالة أ.ب ١٩٧٥/٤/٣ ، مصدر سابق .
١٢ – وكالة أ.ش.أ ١٩٧٤/١١/٨ .
١٣ – وكالة أ.ش.أ. ١٩٧٥/١/٦ .
١٤ – **الاهرام** ١٩٧٥/٥/٥ .
١٥ – وكالة أ.ش.أ. ١٩٧٤/٩/٢٦ .

عبد المنعم عباس

[٢]

اسرائيل والحركة الانفصالية في نيجيريا

من اخطر الاحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها القارة الافريقية في اواخر سنوات الستينات ، الحركة الانفصالية في نيجيريا والتي تمخضت عن قيام دولة بيافرا في الاقليم الشرقي المنشق عن اتحاد نيجيريا الفيدرالي ، بزعامة الكولونيل اوجووكو الحاكم العسكري السابق للاقليم الشرقي من البلاد . ولم تعش جمهورية بيافـــرا اكثر من ثلاثين شهرا ابتداء من يوم ٣٠ مايو سنة ١٩٦٧ الى يـوم ١٥ يناير سنة ١٩٧٠ ، ثم حسم السلاح الموقف بين الفريقين المتحاربين . وكانت الغلبة النهائية للقوات الفيدرالية التي تمكنت من ارجاع الاقليم الشرقي الى الدولــة النيجيريـــة الفيدرالية .

ولقد كان للابعاد الدولية للحرب الاهلية في نيجيريا،اهمية خاصة واثر عميق في تطور مجريات الاحداث وفي تصاعد هذه الازمة الافريقية . ويلقي هذا التقرير بعض الضوء على السياسة الاسرائيلية تجاه قضية بيافرا منذ بدايتها وحتى نهايتها ، وذلـــك بمناسبة الانقلاب العسكري الاخير في نيجيريا الذي اطاح بالجنرال جوون .

مرت العلاقات النيجيرية الاسرائيلية بازمـــات حادة طيلة سنوات الحرب الاهلية نظرا للمساندة العسكرية الكاملة التي قدمتها الحكومة الاسرائيلية الى انفصاليي الاقليم الشرقي بنيجيريا ضد الجانب الفيدرالي في الازمة . ووصل الامر بين الدولتين ، نيجيريا واسرائيل ، لدرجة ان اصدرت سفـــارة نيجيريا في باريس ، بعد اندلاع الحرب بشهـــور معدودة ، بيانا رسميا وزعته على السفـــــارات الاجنبية في باريس(١)، يعلن ان اسرائيل تساعـــد المتمردين في بيافرا بالمعدات العسكرية ، وانـــه كانت تجري مفاوضات بين الجانبيـــن بواسطـــة حكومة البرتغال لتوقيع اتفاق بين بيافرا واسرائيل، تمد اسرائيل بمقتضاه البيافريين بعشرين الـــف مدفع رشاش من طراز « عوزي » المنتج في مصانع توجـــد في البرتغـــال وفي مقابل ذلك فان بيافـــرا مستعدة ان تمنح اسرائيل امتيازا للتنقيب عـــن البترول في اراضيها بالاقليم الشرقي لنيجيريا .

ولقد اهتمت الصحافة العربية بكشف الـــدور الاسرائيلي في اذكاء الفتنة بين طرفي الحـــــرب الاهلية . فنشرت الصحـــافة السورية ان عددا من اصحاب دور النشر في نيجيريا اصدروا بيانا في اواخر اغسطس ١٩٦٧ ، اي بعد اسابيع قليلة من نشوب القتال في نيجيريا ، اتهموا فيه كلا مـــن الولايات المتحدة والمانيا الغربية واسرائيل بالتآمر على سيادة نيجيريا ، والعمل على تقويض دعائم الوحدة الافريقية عن طريق تقديم العون العسكري والتحالف مع سلطات جنوب افريقيا وروديسيـــا والحكومة البرتغالية(٣).

وركزت الصحافة اللبنانية على دور المرتزقـــة الاسرائيليين في الصراع النيجيري وقتالهم كجنـــود وكخبراء عسكريين في صف الانفصاليين ، وكـــان معظمهم يعمل من قبل مع القوات المتمردة بقيـــادة تشومبي في الكونغو(٢). اما الصحافة الليبية ، فقد ذكرت ان الحكومة الاتحادية النيجيرية قـــد ضبطت مراسلات متبادلة بين بعض الانفصاليـــين في اقليم بيافرا وبنك روتشيلد الصهيوني ، وان تلك المراسلات انما تدل على ان البنك يشتـــرك في تمويل عملية الانفصال(٤).

ولقد دعم صحة الانباء الواردة سلفـــــا في الصحف السورية واللبنانية والليبية ما اذاعـــه راديو اسرائيـــل في ٣ اغسطـــس ١٩٦٨ من ان الكولونيل اوجووكو قد بعث برسالة مسجلة الى الحكومة الاسرائيلية يدعوها فيها الى مساعـــدة حركته الانفصالية ، بعد استمرار الحرب الاهلية لاكثر من عام كامل . ولم تحدد الاذاعة الاسرائيلية او رسالة حاكم اقليم بيافرا ماهية المساعـــدات

المطلوبة ولكن بدا منها ان اوجووكو كـــان على اتصال سابق باسرائيل(٥).

وبالرغم من كل ما ورد في الصحف العربية عن السياسة الاسرائيلية اثناء الازمة النيجيرية ، فان الدراسة الموضوعية والنظـرة العلمية المحايـدة تقتضي التقرير بأن الدلائل والشواهد على الدور الاسرائيلي في تأييد جانب الانفصاليين البيافريـين قليلة بالفعل . وتتمثل اهم تلك الدلائل والشواهد في بعض المظاهر الواقعية المحدودة التي حدثـت اثناء الحرب الاهلية ، ثم فيها بعد انهيار بيافرا ، وهي ما يلي :

اولا : النداءات الانسانية التي وجهتها بعض الشخصيات الدينية اليهودية والمذهبية الصهيونية الى الضمير العالمي ، من اجل تقديم يد العـون الى الاهالي المدنيين ، ضحايا الحرب ، من ابناء الايبـــو . ففي نداء وجهه جاكوب كابلان كبـير حاخامي فرنسا الـى جميع يهـود فرنسا ، حث الحاخام يهود فرنسا على المساهمة الفعالة في اغاثة البيافريين ، قائلا(٦) « نحن الذين كنا ضحية أكبر وافظع مجزرة في التاريخ نشعر بنفس آلام اولئك الذين يتعرضون لخطر من نفس النوع » . وبعد ذلك بأيام قليلة وجه ناحوم جولدمان ، رئيس المؤتمر اليهودي العالمي نداء الى كل الطوائـف والمنظمات اليهودية والصهيونية كي تشترك ايجابيا في عمليات نجدة اهالي اقليم بيافرا المنشق فـي نيجيريا(٧).

ثانيا : نشرت مجلة ميدستريم(٨) التي تصدرها مؤسسة تيودور هيرتزل في نيويورك مقالا بقلـم الكاتبة اودري سموك قارنت فيه بين اسرائيـل وبيافرا ، وذهبت الكاتبة الى ان عددا من الزعماء في بيافرا قد اعلنوا انه يوجد نقاط تشابه مشتركة بين اسرائيل وبيافرا ، فجيش بيافرا اقل عـددا وعدة من الجيش الفيدرالي ، مثلما كان الحـال بالنسبة لقوات كل من اسرائيل والدول العربية في حرب يونيو ١٩٦٧ . ولذلك فان انتصار جيـش اسرائيل خلال ستة ايام يمكن ان يتخذ امثولـة لجيش بيافرا . وذكرت الكاتبة ان اسرائيل قـد أرسلت الى بيافرا من المساعدات ما قيمته نصف مليون جنيه استرليني ، وان وزير خارجية اسرائيل قد قال في الكنيست في يوم ٩ يوليو ١٩٦٩ ، ان من واجب الحكومة الاسرائيلية ارسال المساعـدات القصوى لبيافرا .

ثم تعرضت الكاتبة لما درج عليه العديـد مـن المعلقين السياسيين من وصف قبائل الايبو بانهـم « يهود افريقيا » ، ولما كان يردده بعض رجـال قبائل الايبو من اساطير حول كونهم احدى قبائـل اسرائيل الضائعة . وعلقت الكاتبة على هـــذا بقولها ان دور قبائل الايبو في نيجيريا يشبـــه في بعض النواحي دور اليهود التاريخي قبل اقامـة دولة اسرائيل ، فالايبو كانوا تجارا ورجال اعمال والعديد منهم هاجر الى الشمال وتعرض للمذابح. لهذا فان مطالبة الايبو بالسيادة علـى الاقليـم الشرقي وانشاء دولة مستقلة هو الحل الوحيـد والبديل للمذابح التـي تعرضوا لها، فبيافـرا واسرائيل خرجتا الى الوجود كاجراءات جماعية ضد الموت والدمار .

وذكرت الكاتبة ان البيافريين حاولوا تقليـــد استراتيجية اسرائيل في غزو مناطق شاسعة مـن نيجيريا في الاسابيع الاولى للحرب ولكنهم لم ينجحوا في ذلك لانهم لم يمتلكوا قدرة البقاء والقوة مثـل اسرائيل .

هذه المقالة للكاتبة اليهودية تعبر عن الجوهـر الدعائي للسياسة الاسرائيلية في الازمة النيجيرية، حيث بررت اجهزة الاعلام الاسرائيلية ، مساندتها للانفصاليين على اساس تقارب المعطيات التاريخية في كل من التكوين الاسرائيلي والتركيب الاجتماعي لقبائل الايبو في نطاق اتحاد نيجيريا الفيدرالي .

ثالثا : في اواخر شهر يوليو ١٩٦٩ ، اتهـم راديو نيجيريا اسرائيل(٩) بارسال عدد كبير مـن الدبابات والمدافع والصواريخ لبيافرا تحت غطاء المساعدات الانسانية ، كما اذاع ان خبـــراء اسرائيليين يدربون رجالا مـن بيافرا على حـرب العصابات وكان هذا هو الاتهام الرسمي الثانـي من جانب الحكومة الفيدرالية لنيجيريا للحكومـة الاسرائيليـة بالتدخـل غـير المشروع في صـف الانفصاليين .

رابعا : عندما انهارت القـوات الانفصاليـة وانتهت جمهورية بيافرا بالفعل وعادت الوحـدة الوطنية الى اتحاد نيجيريـا الفيدرالي في ينايـر ١٩٧٠ ، ظهر التعاطف الشديد سواء في الاوساط

الرسمية او الصحافة الاسرائيلية ، مع الجـانب الانفصالي الى المنهزم . ففي يوم ١٤ يناير ١٩٧٠، وهو تاريخ استسلام القوات البيافرية للقـوات الفيدرالية ، نشرت جريدة دافار الاسرائيلية(١٠) تحت عنوان « سقطت بيافـرا ضحية التقاعـس الدولي » ، خبرا قالت فيه ان المؤتمر الثامـن لمنظمة نجمة داوود الحمراء قد اعلن ان شعبـا جريئا وفخورا سقط الان ضحية ، التقاعس الدولي المصحوب بالنفاق والتلون » . وتلى هذا التصريح بيان اصدره اريه الياب السكرتير العام لحـزب العمل الاسرائيلي جـاء فيه ان حزب العمـل الاسرائيلي يعرب عن تأثره للفاجعة التي حلـت بشعب بيافرا ، وكأبناء شعب تعرض للابـادة خلال اجيال عدة ، يشعر اعضاء حزب العمل ، كما يشعر مواطنو اسرائيل ، بعطف شديد علـى مصير ابناء بيافرا .

وفي اليوم التالي مباشرة ، قال وزير خارجية اسرائيل ابا ايبان ، امام الكنيست الاسرائيلي ، اثناء مناقشة موضوع انهيار بيافـرا(١١): « ان الامم المتحدة عاجزة عن الاسهام جيدا في تدعيـم السلام والامن ، وان الدول الكبرى التي تتصرف على أساس انها تتحكم في مصير السلام العالمـي قد حولت هذا المبدأ الى سخرية ، وان التكتـل السياسي في افريقيا وقف الى جانب نيجيريـا ، ووضع العالم في موقف حرج .

تلك كانت بعض المظاهـر الثابتة واقعيـا للسياسة الاسرائيلية في الازمة النيجيرية ، ننتقل بعدها الى تحليل اهم الاعتبارات التي حركت تلك السياسة .

ان اول عوامل المساندة الاسرائيلية لانفصاليي الاقليم الشرقي ، تكمن في الاستثمارات الاقتصادية البترولية التي طمعت الحكومة الاسرائيلية فـي الحصول عليها مستقبلا ، من الدولة البيافرية في حالة استقرارها على تلك الاراضي الغنية بحقول البترول .

ومن النواحي السياسية ، استهدفت اسرائيل تحقيق عدة اغراض اهمها توسيع نطاق نفوذهـا في افريقيا عامة بما يشمل غرب القارة على وجه الخصوص . كذلـك رغبت اسرائيل في وضـع العراقيل امام حكومة يعقوب جوون التي تقاربت اثناء سنوات الحرب الاهلية وما بعدها مع الدول العربية عامة نتيجة للعون الفعال العسكـري الذي قدمته حكومة مصر الى الجانب الفيدرالي في الازمة النيجيرية . وفي هذا الصدد ينطبق علـى الموقف الاسرائيلي من تلك الازمة المبدأ الذي ينص على أن « صديق العدو عدو » .

واخـيرا كانت من اهم خلفيات المسانـدة الاسرائيلية للبيافريين ، ما اشتركت فيه اجهـزة كل من الدعاية الاسرائيلية والدعاية البيافرية في عواصم الدول الغربيـة ، من اكسـاب الحرب الاهلية في نيجيريا لونا عنصريا اذ صورتها علـى انها حركة سياسيـة مشروعـة ، من الوجهـة الانسانية والاخلاقية لابناء اقليـم واحد وجنـس واحد(١٢) وتراث تاريخي مشترك ، يدافعون بها عن بقائهم والا تعرضوا للفناء من جانب غالبيـة النيجيريين ، وبعد ان لاقوا اضطهادا اجتماعيـا اينما حلوا في المناطق المحيطة بأراضيهم الاصلية.

وبذلك استفادت اسرائيل دعائيا بتقديم الحرب الاهلية النيجيرية ، بشكـل يعيـد الى الاذهان الاوروبية ، ذكرى الكيان اليهودي المعذب في انحاء اوروبا في القرون الماضية ، ثم الحروب الاسرائيلية الدفاعية في العصر الحديث ، ضد التهديـدات العربية المحيطة بالدولة الاسرائيلية من كـافة جوانبها .

ولكن رغم تيقن الحكومة الفيدرالية لنيجيريا من الدور الاسرائيلي السياسي والعسكري والدعائي، المؤيد للانفصاليين ، الا انها لم تقدم على اي اجراء رادع فيه فعالية تجاه اسرائيل ، مثل قطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين كما نادت بذلـك الصحافة النيجيرية ، طوال فترات الحرب ومـا بعدها . وتفسير ذلك يكمن في الانشطة الاقتصادية الاسرائيلية الضخمة التي توجد منـذ سنوات في نيجيريا . فاتحـاد نيجيريا الفيدرالي يعد مـن الاسواق الرئيسية في افريقيا ، التي تستوعـب صادرات شركة كايزر فرايزر الاسرائيلية ، كمـا تشترك رؤوس اموال اسرائيلية في معظم شركـات استغلال المطاط في نيجيريا . وتقوم المؤسـسـات الاسرائيلية بتنفيذ الكثير من المشروعات الهامـة الاقتصادية في اقاليم نيجيريا المختلفـة الشرقيـة والغربية وتعمل خاصة في ميادين الانشاء والطرق

والتعمير والمشروعـــات المائية . كما تشـرف الشركات الاسرائيلية على ١٢ مزرعة مساحة كـل منها ١٥٠٠ فدان ، على نمط مزارع اسرائيـــل التعاونية . وتسهم اسرائيل بنسبة ٦٠٪ من رأس مال شركتين تعملان في مشاريع المياه وحفر الابار. كذلك تقوم شركة تاهل الاسرائيلية باستصـــلاح الاراضي الزراعية في شرق نيجيريا . وقد طلبـت نيجيريا مؤخرا من شركة ايبر الاسرائيلية ارســال اخصائيين في تنظيم خطـوط المواصلات خـــارج المدن ، كما اشتركت اسرائيل في بناء مركز صناعي في بور هاركورت[١٢].

وبذلك يمكن فهم عدم الاستجابة الذي لاقتـه صحيفة صنداي بوست الناطقة باســم حكومـة نيجيريا الاتحادية ، عندما هاجمت في يونيو ١٩٧٢، اسرائيل ووزير خارجيتها ابا ايبان ، ودعت الـى قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل ، وذلـك بعد ان اعلنت الاخيرة رفضها لقرار منظمة الوحدة الافريقية الصادر في ذلك الشهر ، والذي دعا الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلة في يونيو ١٩٦٧ .

وفي أول يونيو عام ١٩٧٣ ، اعلن الجنـرال يعقوب جوون ان بلاده : « لن تتردد في قطـــع علاقاتها باسرائيل اذا اصرت على تجاهلها لنصائح منظمة الوحدة الافريقية » . وجاء ذلك في مؤتمـر صحفي عقده جوون لدى عودته من اديس ابابا بعد ان ترأس مؤتمر القمة الافريقي في مايو ١٩٧٣ . وطالب جوون الدول الاعضاء في منظمة الوحـدة الافريقية بالتفكير في اتخـــاذ اجـراء سياسـي واقتصادي ضد اسرائيل ، اذا رفضت الجلاء عن الاراضي العربية المحتلة . وظهر تأييد الحكومة النيجيرية الصريح للحق العربي في ازمة الشرق الاوسط ، حين اقدمت على قطـع عـلاقاتهـــا الدبلوماسية في يوم ٢٥ اكتوبر ١٩٧٣ ، مـــع اسرائيل ، تضامنا مع الدول العربية .

---

١ — *Le Monde*, 28 Février 1968.

٢ — **البعث** السورية، يوم ٣١ أغسطس ١٩٦٧ .

٣ — **الحوادث** اللبنانية، يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٦٧ .

٤ — **الرائد** الليبية ، يوم ١٠ أكتوبر ١٩٦٧ .

٥ — جريدة **الاهرام** ، يوم اغسطس ١٩٦٨ .

٦ — *Le Monde*, 8 Août 1968.

٧ — *New York Times*, 13 August 1968.

٨ — د. عدنان العبد ، « المخطط الاسرائيلي ضد تحرير افريقيا » ، **السياسة الدولية** ، ع. ٢٦، س. ٧ ، القاهرة أكتوبر ١٩٧١ ، ص ٢٧ .

٩ — *Daily Times*, Lagos, 29 July 1969.

١٠ — د. عدنان العبد ، مرجع سابق ، ص ٢٦.

١١ — **المرجع السابق** .

١٢ — محمد حقي، « انتهت أكثر حروب الستينات تعقيدا » ، جريدة **الاهرام** ، ١٢ يناير ١٩٧٠ .

١٣ — *New York Times*, 14 August 1969.

نازلي معوض أحمد

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

المعركة من اجل طرد اسرائيل من الامم المتحدة

بعد ان كسبت منظمة التحرير الفلسطينية معركة الشرعية الدولية باعتراف الامم المتحدة بها ممثلة الشعب الفلسطيني وذلك في الدورة التاسعة والعشرين للجمعية العمومية للمنظمة الدولية في السنة الماضية ، كان من الطبيعي ومنطق الاشياء ان تسعى م‌تف الى النضال السياسي من اجل نزع هذه الشرعية عن اسرائيل في ضوء حقيقة واحدة هي استحالة تلاقي الاضداد على صعيد واحد ، باعتبار ان الوجود الاسرائيلي هو نقيض الوجود الفلسطيني ، وان الاعتراف باحدهما ، ان كان هذا الاعتراف منطقيا مع نفسه ومع مقدماته التي يستند اليها ، لا يحمل الا معنى النفي للاخر . وهكذا مع اقتراب موعد انعقاد الجمعية العمومية للامم المتحدة نشطت م‌تف مع كل صعيد مؤثر لخوض المعركة الهادفة الى احكام العزلة من حول اسرائيل في الدوائر والمنظمات الدولية توطئة لمعركة فاصلة على صعيد الامم المتحدة تكرس فيها هذه العزلة بطرد اسرائيل من الامم المتحدة وهي خطوة ، ان تمت ، ستكون الوجه الاخر لاعتراف المجتمع الدولي بـ م‌تف ، الوجه المستكمل بنزع الشرعية الدولية عن اسرائيل . وكان من الطبيعي ان تقاتل م‌تف معركتها على أرض دول العالم الثالث اكثر الميادين خصبا لاثمار النضال السياسي الفلسطيني ضد اسرائيل . وكان انعقاد مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في جده (افتتح في ١٢ تموز) الفرصة الاولى التي اتيحت من اجل هذا الهدف. وكان ابرز ما استحوذ على اهتمام مؤتمر جده في اليوم الثالث لانعقاده الطلب السوري — الفلسطيني بطرد اسرائيل من الامم المتحدة ،

وكانت سوريا البادئة في الدعوة اليه في الكلمة التي القاها السيد عبد الحليم خدام ، نائب رئيس الوزراء السوري ووزير الخارجية ، ثم اعتبه الاخ ابو اللطف ، رئيس الدائرة السياسية في م‌تف ، الذي حدد المسألة كما يلي : « اننا نعلم ان الامر يرجع الى مجلس الامن الذي يملك الحق في اتخاذ اية توصية بشأن طرد اي عضو من منظمة الامم المتحدة . ولكن هذا لا يمنع الجمعية العامة للامم المتحدة ان تتخذ قرارا بطرد اي عضو من اعضائها خارج قاعة الاجتماعات العامة للجمعية وحرمانه من المشاركة في دورتها . وتستطيع الجمعية العامة ان تمارس هذا الحق في كل دورة من دوراتها حيث لا نص ضمن ميثاق الامم المتحدة يحول دون مثل هذا الاجراء على ان ترفع الجمعية العامة طلبها الى مجلس الامن بطرد اسرائيل من الامم المتحدة كليا . ولذا فان وفد م‌تف ... يأمل ان يخرج [المؤتمر] بقرار الموافقة على طرد اسرائيل من الامم المتحدة » .

وقد خرج المؤتمر نتيجة مداولاته بقرار يتفق مع هذا الرأي الذي طرحته م‌تف ، فقد جاء في مقدمة القرارات المتعلقة بفلسطين ان المؤتمر « يعتبر ان الابقاء على عضوية اسرائيل في منظمة الامم المتحدة امر يتنافى مع مبادىء الامم المتحدة ويشجعها على التمرد على قراراتها وتواطئها مع الانظمة العنصرية التوسعية العدوانية ». واستنادا الى ذلك قرر المؤتمر « دعوة الدول الاعضاء للعمل في المحافل الدولية والامم المتحدة على طرد اسرائيل من المنظمة الدولية لانتهاكها المتكرر مبادىء وميثاق الامم المتحدة ، ورفضها تنفيذ قرارات هذه المنظمة » .

ان اشتراك اربعين دولة (هي الدول التي

حضرت مؤتمر جدة) في هذا القرار ادخل المعركة من اجل طرد اسرائيل مرحلة عملية تنذر في حال تكرار مثل هذا القرار على صعيد دولي آخر بنتائج ستنعكس حتما لمصلحة الهدف من المعركة ، حال انعقاد الجمعية العمومية للامم المتحدة وهي الساحة الرئيسية لجميع هذه المقدمات التمهيدية . وهكذا بدات الحملة المضادة من جانب اسرائيل والولايات المتحدة لتفريغ الانتصار في مؤتمر جدة من مضمونه وللحيلولة دون ان يصبح مطلبا دوليا . وكان اتجاه اسرائيل في هذه الحملة المضادة موجها الى مصر بشكل مباشر بغرض ابتزازي يربط ما بين طردها من الامم المتحدة والتهديد بوقف المساعي للوصول الى تسوية جزئية في جبهة سيناء . وكان هذا الاتجاه واضحا في التصريح الذي ادلى به « مصدر مأذون » في تل ابيب لبعض وكالات الانباء في (٧/١٧) والذي قال فيه « ان التحرك العربي لطرد اسرائيل من الامم المتحدة قد يسيء الى فرص التفاوض الهادفة للوصول الى حل مؤقت بين اسرائيل ومصر » . وبالتأكيد فان الولايات المتحدة لم تكن بمعزل عن مثل هذا الاتجاه وان كانت قد وسعت دائرة حملتها لتشمل دول العالم الثالث بالتهديد بوقف مساعداتها لها ودعمها للامم المتحدة ، في محاولة لاخضاعها لمشيئتها الاستعمارية . وقد كان هنري كيسنجر ، وزير الخارجية الاميركي ، واضحا في هذه المحاولة في التحذير الذي وجهه (في خطاب القاه في جامعة ويسكنسن يوم ٧/١٤) الى دول العالم الثالث من ان الولايات المتحدة قد تعيد النظر في مساهمتها المالية في موازنة الامم المتحدة اذا استمرت هذه الدول في جعل المنظمة الدولية « مكانا للمواجهة » بدل ان تكون « قاعة يجري فيها التفاهم بين الامم » . وبعدما ذكر كيسنجر بان الولايات المتحدة هي التي تقدم اكبر دعم مادي للمنظمة الدولية قال « ان مساندة الشعب الاميركي قد تسحب اذا لم تحترم الاكثرية العددية وجهات نظر الاقلية » . وقد صعدت الولايات المتحدة حملتها تلك بالقرار الذي وافق عليه مجلس الشيوخ الاميركي في ٧/١٨ والذي جاء فيه « ان مجلس الشيوخ سيعيد النظر في مختلف التزامات الولايات المتحدة تجاه دول العالم الثالث المعنية اذا طردت اسرائيل » ، وحذر من ان مجلس الشيوخ « سيعيد النظر جديا في استمرار الولايات المتحدة عضوا في الامم المتحدة تحت هذه الظروف».

كان لا بد لهذه الحملة ان يكون مصيرها الفشل ان لم تجد الفجوة العربية التي تنفذ من خلالها . فالاجماع العربي ، بالاضافة الى الحق الواضح في هذه القضية ، كان ينبغي له ان يكون ذا تأثير ايجابي في مواقف دول العالم الثالث . واكثر من ذلك فان التهديدات الاميركية كان لا بد لها ان تجد ردود فعل معاكسة ، ان احسنت ادارة المعركة ، تفشل الهجمة الاميركية . وقد نقلت وكالة « الاسوشيتدبرس » (٧/١٩) بعض ردود الفعل على هذه التهديدات فأوردت قولا لاحد السفراء الاوروبيين في الامم المتحدة اكد فيه « ان اي قرار من مجلس الشيوخ الاميركي لن يساعد بل سيكون له مفعول عكسي » . كما ذكر مندوب لاحدى الدول الغربية الصديقة لاسرائيل ان اي قرار من هذا النوع يضر اكثر مما ينفع . وذكرت الوكالة ان هؤلاء الدبلوماسيين يعتقدون انه بسبب تهديد مجلس الشيوخ الاميركي بقطع المساعدات عن الامم المتحدة ، فان الدول الاعضاء في المنظمة الدولية ستقوم بتحركات جماعية من اجل طرد اسرائيل كما ستضطر للانضمام الى الخط المتصلب في المنظمة كي لا تتهم بانها تستسلم للضغط الاميركي.

كان الاختبار العملي لتأثير الحملة المضادة في مؤتمر القمة الافريقية الذي بدأ جلساته في كمبالا باوغندا في ٢٨ تموز . وكان واضحا منذ ما قبل انعقاد المؤتمر ان الحملة المضادة وجدت فجوتها العربية في الموقف المصري .

ففي اليوم السابق للمؤتمر عقد الرئيس أنور السادات مؤتمرا صحافيا في الخرطوم (أ.ش.أ — ٧/٢٧) قال فيه « اذا كنا نطالب اسرائيل بتنفيذ قرارات الامم المتحدة فيجب ان تكون اسرائيل في الامم المتحدة حتى تنفذ هذه القرارات ... ان وجود اسرائيل في الامم المتحدة وتنفيذها قرارات الامم المتحدة أجدى من طردها حتى لا تتحلل من كل شيء » . وكان المقصود من هذا الموقف واضحا وهو لا يتعلق من قريب أو بعيد بضرورة التزام اسرائيل بتنفيذ قرارات الامم المتحدة التي أصبحت مخالفتها والتحلل منها و « من كل شيء » جزءا أساسيا من تراث المنظمة الدولية وتاريخها ،

وانما المقصود كان هو اظهار « حسن النوايا » تجاه اسرائيل واستجابة لموقفها الابتزازي المتعلق بالتسوية الجزئية مع مصر .

مع هذا الموقف المصري الذي رافقته حملات اعلامية مركزية نشطت م.ت.ف. التي كان وفدها المراقب برئاسة الاخ ابو عمار ، مع بعض الوفود الاخرى (كان موقفا وفدي الجزائر وليبيا بارزين في هذا المضمار) لتفشيل الحملة المضادة . وقد أعطى الاخ ياسر عبد ربه ، رئيس دائرة الاعلام في م.ت.ف. وعضو الوفد الفلسطيني ، صورة عما دار في المؤتمر في هذا الصدد : « من مجموع ٤٦ دولة افريقية شاركت في أعمال المؤتمر أعلن رؤساء وممثلو ٤٠ دولة على الاقل تأييدهم بدون تحفظ لقرار طرد اسرائيل من الجمعية العامة لـلامم المتحدة وسائر وكالاتها . وكانت الـدول التي استقلت حديثا مثل موزامبيق وغينيا بيساو من أشد الوفود حماسا لمشروع قرار الطرد . ويكفي ان نقول ان بعض الدول التي كانت تتخذ موقفا مترددا في السابق بشأن طرد اسرائيل قد حسمت موقفها من قرار الطرد في ضوء المناقشات التي جرت والتي ساهم فيها الوفد الفلسطيني بفعالية ... ومن المؤسف حقا ان الدول الخمس [التي شذت عن الموقف الافريقي وهي زئير وغانـــا وسيراليون والسنغال وليبيريا] لم تجرؤ عــلى اعلان معارضة مكشوفة لقرار طرد اسرائيل بقدر ما حاولت ان تتسلح بالموقف المصري وتتخــذه ذريعة للتنصل من تأييد قرار الطرد ... وفــد زئير برئاسة موبوتو أعلن صراحة انه لا يستطيع تأييد قرار الطرد ما دام وفد مصر يتخذ موقفا سلبيا منه . [قالت زئير انها ضد مشروع القرار كليا سواء بصيغته الاصلية او بالصيغة المعدلة . أما وفود غانا وسيراليون والسنغال وليبيريـــا فقالت انها لم تتلق تفويضا واضحا من رؤســاء دولها الغائبين عن اجتماع القمة لكنها قد تقبل بها. ولدى التصويت على القرار سجلت الدول الخمس تحفظاتها رسميا] ... ان وزير خارجية افريقيا أعلن صراحة امام المجتمعين ان وزير خارجية دولة عربية قد حرضه على معارضة قرار الطرد ، الامر الذي يستغربه هذا الوزير الافريقي كمال قال ، لانه لا يفهم كيف يمكن لدولة ذات اراض محتلة ان لا تطالب بفرض عقوبات حازمة على عدوها ... ان الطرف العربي الذي عارض قرار الطرد وجد نفسه في نهاية المطاف معزولا تماما عن الاتجاه العام السائد في المؤتمر ولم ينجح سوى في كسب دولة افريقية واحدة تساند موقفه علنا » (وكالة الانباء الفلسطينية « وفا » ٨/٥).

وقد تسبب هذا الموقف السلبي في ضعف القرار الذي اتخذه المؤتمر بصدد اسرائيل فلم ينص على ذلك صراحة وانما جاء فيه ان المؤتمر « يطلب من كل الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية اتخاذ أكثر الاجراءات ملاءمة لتعزيز الضغط المفروض على اسرائيل في الامم المتحدة ووكالاتها المختصة ، بما في ذلك حرمان اسرائيل من عضويتها في هذه المؤسسات ».

وقد علق الاخ زهير محسن ، رئيس الـدائرة العسكرية في م.ت.ف. ، على هذا الموقف بقوله (في تصريح نشرته « النهار » ٨/١٢) : « أمـا الادعاءات التي صدرت بعد المؤتمر في محاولة لتبرير الموقف الغريب واللامنطقي الذي وقفته مصر بالذات في معارضة قرار الطرد فكلها ادعاءات لا تستند الى أي منطق ولا تستهدف غير تقديم المزيد مـن الترضيات والتعبير عن أقصى الولاء للـــولايات المتحدة ورغباتها ومصالحها وسـياسـتها ... وسيكون لهذا التراجع الجزئي الذي سجله مؤتمر كمبالا انعكاسات سلبية على اجتماع دول عـدم الانحياز المقبل في ليما ، وسوف يسجل تاريخيا بأن بعض العرب وقفوا ضد مصالحهم ونشطوا ضـد قضيتهم وقدموا لعدوهم خدمة مجانية كـبرى ، لم يكن يحلم بها على الاطلاق ومن دون أي مقابل».

عــلى أي حـــال ، فان نشاطات م.ت.ف. واتصالاتها التي أعقبت مؤتمر كمبالا ، تؤكد انهـا تعمق مسيرتها نحو طرد اسرائيل من الامم المتحدة، وهي التي بدأ التمهيد لها منذ اختتام الـدورة التاسعة والعشرين للجمعية العمومية ، وسيكون مؤتمر وزراء خارجية دول عدم الانحياز المقرر عقده في ليما بالبيرو في ٢٥ آب الخطوة ما قبل الاخيرة لتقرير دخول المعركة الاكثر حسما على ارض الامم المتحدة في دورتها المقبلة .

الموقف من الاردن

تعمدت بعض الصحف العربية في الآونة الاخيرة نشر أنباء احتمال قيام « مصالحة » بين م.ت.ف.

والنظام الهاشمي في الاردن على اساس اقامة بعض قواعد للفدائيين ومكاتب سياسية ضمن اطار معين . وقد صرح مصدر اعلامي مسؤول في الثورة الفلسطينية ، ردا على ذلك بما يلي : « نشرت بعض الصحف البيروتية ووكالات الانباء ، نقلا عن صحيفة الوطن الكويتية نبأ يتعلق باقامة قواعد فدائية مسيطر عليها في الاردن ، وكذلك مكاتب للثورة هناك ، واننا نوضح ما يلي : ان هذا النبأ عار عن الصحة تماما ، وان موضوع التواجد الفدائي فوق الارض الاردنية هو مطروح اساسا كبند في جدول اعمال المؤتمر الرباعي الذي كان مقررا ان ينعقد منذ سبعة أشهر ولم ينعقد حتى الان ، على الرغم من طلب م.ت.ف. المتكرر بضرورة عقده » . (وفا ، ٧/٢١).

وقد كتبت مجلة « فلسطين الثورة » ، الجريدة المركزية لـ م.ت.ف. ، (٧/٢٠) عن الموقف تجاه ما تردد من أنباء عن هذه « القواعد المسيطر عليها » ما يلي « ان قاعدة فدائية معزولة عن شعبها ومحرومة من روافد جماهيرها ، ليست أكثر من وجود مؤقت ، محسوب ومسيطر عليه يتقرر مصيره وفق المخطط الامبريالي الجاري تنفيذه، في ظل اللهاث المجاني وراء حكمة وحنكة الحكام الامبرياليين في الولايات المتحدة الامركية . [و] ان الضمانات والتعهدات في ظل المناخ الامبريالي السائد ، وفي ظل الممارسات الخاطئة التي لم تبق ولم تذر لا يمكن ان تشكل قيدا مانعا جامعا ، يغل يد النظام الاردني ويمنعه من التصرف بالقضية الفلسطينية على ضوء اتفاقاته ولقاءاته بالعدو الصهيوني واعلان العدو المتكرر ان الاردن هو الذي يمثل الفلسطينيين وهو الذي يقرر مصيرهم ».

وفي اثناء ذلك كان النظام الاردني يمارس مواقفه ممارسة عملية من المقاومة الفلسطينية فقد نشرت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) في ٧/٢٣ أسماء اثنين وعشرين مناضلا فلسطينيا من أصل سبعة وعشرين مناضلا اعتقلتهم السلطات الاردنية خلال الاسبوعين اللذين سبقا نشر النبأ « بينما كانوا في طريقهم الى فلسطين المحتلة لتأدية مهماتهم النضالية » . وعلى الرغم من هذا الدليل الحسي على موقف النظام من المقاومة فقد « انتشرت أخبار من هنا وهناك [كما تقول « فلسطين الثورة » ٦/٢٧] تؤكد على قرب وقوع « مصالحة اخوية » بين الثورة والنظام العميل في الاردن ... وفي الحقيقة فقد نفت الثورة قيام أية اتصالات ، الا ان سيل الاخبار لم ينقطع ، مما يشير الى ان هذه « المصالحة الاخوية » تجد من يدفع ومن يضغط باتجاهها لسبب في نفس يعقوب » ، وقالت المجلة « ان دعوة المصالحة ليست الا محاولة مكشوفة لجر الثورة الى التسوية الامبريالية ، وارغامها على تفويض النظام الاردني لعقد صفقة تصفوية مع العدو الصهيوني وضد الشعب الفلسطيني ».

في هذا المناخ جاءت تصريحات الملك حسين الى بعض الصحافيين الاميركيين (نقلتها وكالات الانباء في ٨ آب) والتي استبعد فيها عودة قواعد الفدائيين الفلسطينيين الى الاردن « مهما يكن نوع الاتفاق العسكري مع سوريا » ، اذ قال « لن أسمح للفدائيين بدخول هذا البلد مرة اخرى . هذا نهائي ». وقد ذكر زيد الرفاعي ، رئيس الوزراء الاردني ، في المناسبة نفسها « ان سوريا تعرف ذلك ومصر تعرف ذلك . وهو أمر غير مطروح للمفاوضة ». ولم يكن هذا الموقف ليخرج عن الخط الذي اتبعه النظام الاردني منذ مجازر ايلول والاحراج حتى الان ، كما ان أي موقف آخر ينبغي الا يكون متوقعا منه . وقد أوضح الاخ ياسر عبد ربه أن تصريحات الملك « تجيء دليلا جديدا وقويا على حقيقة نوايا نظام الملك حسين تجاه قرارات الرباط التي أعلن الملك موافقته عليها شكليا بينما أضمر استمرار عدائه وحقده على الثورة والحقوق الفلسطينية . وتجيء هذه التصريحات الآن في وقت يظن الملك حسين ان علاقاته العربية وبعض التطورات السياسية الاخيرة لدى بعض الانظمة في اتجاه الحل الامركي يمكن ان تعطيه غطاء مناسبا لتحركاته المشبوهة والمكشوفة العداء للثورة الفلسطينية والشعب الفلسطيني » (وفا ، ٨/٩).

ومع وضوح الموقف الاردني لجهة عودة المقاومة الى الساحة الاردنية فقد جاء النفي و « التوضيح » اللذان صدرا بعد أيام قليلة على تصريحات الملك حسين ليؤكدا بصفة جازمة ان استئثار النظام بالساحة الاردنية هو أمر لا يقبل الجدل بالنسبة

اليه . وفي معرض النفي جاء تأكيد هذه الحقيقة . فقد وصف ناطق رسمي اردني (٨/١٣) « ما نسب » الى الملك حسين من أنه لن يسمح للفدائيين بدخول الاردن مرة اخرى بأنه « لم يكن دقيقا ولا صحيحا » . وقال الناطق ان الملك حسين أوضح في لقاء له مع الصحافيين الاجانب ان « علاقة الاردن بـ م.ت.ف. علاقة طبيعية ولا سيما بعد مؤتمر القمة في الرباط حيث أعلن الاردن قبوله راي القيادات العربية باعتبار م.ت.ف. الممثل الشرعي الوحيد للشعب العربي الفلسطيني » واضاف « وفي معرض الحديث عن الماضي بتجاربه وأخطائه رفض الملك ، باسم كل مواطن اردني ، مجرد السماح بتكرار المآسي الماضية على الساحة الاردنية ، ايمانا منه بوجوب وقوف أهلها صفا واحدا ويدا واحدة في وجه ما يهدد القضية والاردن والعرب من تحديات واخطار » . ومع هذه المزاعم عن « العلاقة الطبيعية » بين المنظمة والاردن أوضح الناطق الاردني انه « عندما تظهر عناصر الخير في المنظمة على عناصر الشر والهدم فيها ، وعندما يثبت صدق النيات وصفاؤها ، وعندما تصبح القضية هي الغاية السامية الوحيدة ، سيعرف الجميع ان هذا البلد يقف في الطليعة العربية بذلا وتضحية وعطاء » . غير ان السؤال الذي يكشف حقيقة الموقف الاردني والذي يحدد فعلا قبوله « العلاقات الطبيعية » مع المنظمة ، هو ما هي المقاييس والقيم التي يقيس النظام في ضوئها « عناصر الخير في المنظمة » و « عناصر الشر والهدم فيها » ؟ أليست هي المقاييس التي لا تحتمل سوى معنى واحد : « الترويض » وهو الذي ما انفكت الشعوب المعادية عن محاولات ممارسته منذ كانت الثورة ؟

المؤتمر البرلماني الدولي

حضور المؤتمرات الدولية واحد من أساليب النضال السياسي التي تخوضها م.ت.ف. على صعيد دولي . وهي في الوقت نفسه هدف للحملات الاسرائيلية والصهيونية في محاولات ناشطة على الاغلب لمحاصرة هذا النضال . وعلى الرغم من النجاح الذي حققته الصهيونية الدولية في التأثير على كندا بمنع وفد من م.ت.ف. من المشاركة في مؤتمر علم الجريمة الذي كان مقررا عقده هناك ، الا ان هذا النجاح انتقص من قيمته الكلية ومضمونه الفعلي واقع فشل انعقاد المؤتمر نفسه في موعده المقرر ومكانه الاصلي الامر الذي كان بحد ذاته نجاحا لا يقل من قيمته للاصرار الفلسطيني على حضور المؤتمر .

وقد بدأت « القضية » عندما أعلن النائب العمالي لسلي هاكفيلد (٨/٨) ان عريضة ضد حضور الوفد الفلسطيني قدمت الى مجلس العموم وعليها تواقيع نحو ١٠٠ نائب بريطاني وتصف الدعوة الموجهة الى « المنظمة الارهابية » بأنها « غير مقبولة على الاطلاق » . وقد اثار هذا الموقف جدلا في بريطانيه وأوردت وكالات الانباء (٨/٨) انه سبب « احراجا متزايدا لوزارة الخارجية البريطانية » . غير ان الموقف الفلسطيني كان حاسما في هذا الصدد ، فقد أعلن الاخ خالد الفاهوم ، رئيس المجلس الوطني الفلسطيني ، بتأكيد « ان فلسطين ستشارك في جميع المؤتمرات والاجتماعات الدولية التي تدعى اليها بما في ذلك المؤتمر البرلماني الدولي المقرر عقده في لندن » . (وفا ، ٨/١٠) . كما كان الموقف العربي ، في هذا الشأن ، متماسكا فقد أكد مجلس الاتحاد البرلماني العربي ، في بيانه الذي صدر في دمشق يوم ٩ /٨ عن اجتماعاته التي عقدت يوم ٦ و٧ آب ، تمسكه الكامل بحضور المجلس الوطني الفلسطيني كعضو مراقب في مؤتمرات الاتحاد البرلماني ، واستنكر كل المساعي التي تبذل للحيلولة دون حضور المجلس الوطني الفلسطيني مؤتمر لندن ، وناشد المجلس « كل البرلمانات الصديقة وجميع البرلمانيين ذوي الضمير الحر الذين تفهموا عدالة القضية العربية ووقفوا الى جانبها ان يكونوا على يقظة تامة وحذر كامل من المساعي المعادية المفضوحة للصهيونية وسواها ، والتي تجتهد كي تضع العالم مرة اخرى على حافة الخطر » .

ازاء ذلك حسم روي جنكنز ، وزير الداخلية البريطانية ، الجدل الذي اثير وصرح (٨/١٣) بأنه لا يستطيع ايجاد سبب لرفض دخول أعضاء من المجلس الوطني الفلسطيني الى بريطانيه تلبية لدعوة وجهت اليهم لحضور مؤتمر للاتحاد البرلماني الدولي بصفة مراقبين .

عصام سخنيني

(٢) القضية الفلسطينية دوليا

ما زالت التفاعلات المتعلقة بمحاولات التوصل الى اتفاق جزئي جديد بين مصر واسرائيل تسيطر علـى التطورات الدوليـة المرتبطة بالقضيـة الفلسطينية . ويمكننا ان نلتقط خيط هذه التفاعلات مجددا من خلال التصريحات التي ادلى بها رابين عند عودته الى تل ابيب بعد الزيارة التي قـام بها لواشنطن حيث قابل كبار المسؤولين الامريكيين بمـن فيهـم الرئيس فـورد (راجع « شـؤون فلسطينية » عدد ٤٨ ، اب ١٩٧٥ ، ص ٢٦٢ وما بعده) . وتأتي اهمية هـذه التصريحات مـن تشددها وطابعها المماطل خاصة بالقياس الى خلفية التفاؤل العام الذي انتشر اثر قمة سالسبـورغ بين السادات وفورد والـذي وصل الى ذروتـه في الاخبار التي جرى تداولها بشكل واسع حـول توصل مصر واسرائيل الى اتفاقية جزئية جديـدة (المرجع السابق ، ص ٢٦٦) .

ذكر رابين في تصريحاته ان عملية التفـاوض مع مصر ستكون طويلة ولا يجوز توقع اية تطورات دراماتيكية على هذا الصعيد في الوقت الحاضر . وألح الى ان هذه العملية الطويلة قد تستغـرق « أسابيع او اشهرا او ربما سنة » لان مصر لا تريد « التحدث الينا مباشرة » مما لا يترك اي مجال كي تكون المفاوضات قصيرة وسريعة . وفي هذا التصريح اشارة خفية الى مطلب اسرائيل — الذي سيصرح عنه رابين فيما بعد — باجـراء مفاوضات مباشرة وجها لوجه مع مصر كشـرط لتحقيق الاتفاق الجزئي . ورفض رابين الموافقـة علـى اي جـدول زمني محـدد « مفروض مـن الخارج » او على اية مهل قصوى « تفرض على اسرائيل » لتحقيق الاتفاقية المطلوبة . وبتحديـد اكبر اكد رابين ان اسرائيل ترفض اعتبار موعـد انتهاء انتـداب القوات الدوليـة في سيناء (٢٤ تموز ، ١٩٧٥) كموعد اقصى للتوصل الى هـذه الاتفاقية . واضاف قائلا بأن هناك دلائل تشيـر الى ان مصر مستعدة لتغييـر موقفها من اجـل تسهيل الوصول الى اتفاقية جديدة في سيناء ولكن اذا لم يكن هذا التغيير كبيرا لن تتمكن اسرائيـل من التجاوب مع رغبات مصر . وفي الوقت ذاتـه نشرت مجلة « تايم » الامريكية مقابلة مع رابـين اشار فيها الى راي الحكومة الاسرائيلية المعروف بأن اتفاقا جديدا لفصـل القوات بين سوريـا واسرائيل — على غرار الاتفاق المزمع عقـده في سيناء — غير ممكن « بسبب جغرافية الجـولان وطوبوغرافيتها » وحث مصر على عدم ترك موقفها يتأثر بهذا الواقع خاصة وان اي اتفاق جديـد مع مصر يجب ان تليه « فترة من الانفراج تمتد سنوات عدة من دون اية ضغوط او تهديدات » . واضاف رابين قائلا انه بعد مرور هذا العدد من السنوات ستكون اسرائيل مستعدة للبحث في عناصر اتفاق شامل ومفصل وفقا لتطور الوضع في مصر وبعض الدول العربية الاخرى . ولا يفوتنا ان نذكر تكرار رابين من جديد رفض حكومته التفاوض مع منظمة التحرير .

بطبيعة الحال كان لهـذه التصريحات وقعهـا السيء في الاوساط الحاكمة في مصر اذ انهـا لا تتجاوب مع الالحاح المصري على ضرورة الاسراع في تحقيق التسوية الجزئية . وكان لا بد للسلطات المصرية من اتخاذ خطوة معينة للرد على الموقـف الاسرائيلي المتصلب والمماطل معا . ففي منتصـف شهر تموز اعلن اسماعيل فهمي — وزير خارجية مصر — بصورة مفاجئة قرار مصر برفض التمديـد لمهلة القوات الدولية في سيناء والتي تنتهي في ٢٤ تموز . وبرر فهمي هذا القرار بقوله ان اسرائيل استغلت الهدوء النسبي السائد عـلى الجبهـة لكي تكرس احتلالها للاراضي العربية بدلا من ان تساعد في الجهود الهادفة الى اقامة سلام دائـم في المنطقة . وبما ان اسرائيـل ترى في وجـود القوات الدولية عودة الى حالة اللاحرب واللاسلم فان مصر وجدت نفسها مضطـرة لاتخاذ هـذا القرار . يضاف الى ذلك ان هدف مجلس الامـن من تكوين قوات الطوارىء ليس تكريس الهـدوء على الجبهة بحيث تعود حالة اللاحرب واللاسلم والى استقرار الاحتلال مما يجعل استمرار وجود القوة الدولية مناقضا لاهداف المجلس واغراضـه في

تشكيلها . كذلك اكد فهمي ان قوات الطوارىء لا يمكن ان تبقى على ارض سيناء بدون موافقة السلطات المصرية . وتبعت مصر هذا القرار بخطوة اخرى هي ابلاغ قرارها الى مجلس الامن والطلب اليه اتخاذ قرار جديد يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة . وبينت الحكومة المصرية في طلبها هذا ان بقاء القوات الدولية مرهون بنوعية القرار الذي سيتخذه مجلس الامن حول هذا الموضوع . وكان رد الفعل الامريكي على هذا التحرك تسريب معلومات تقول بأن الحكومة الامريكية ستعارض اي قرار جديد قد يقدم عليه مجلس الامن من شأنه الاخلال بتوازن القرار رقم ٢٤٢ . بعبارة اخرى رفضت الولايات المتحدة طلب السادات الى مجلس الامن اتخاذ اي قرار جديد يتعلق بالنزاع العربي الاسرائيلي والاحتلال القائم للاراضي العربية . اما بالنسبة للجانب الاسرائيلي فقد صدرت تصريحات وتلميحات وتعليقات توحي بأن مسألة الوصول الى اتفاق جزئي غير مستبعدة ابدا ، كما انها لا تتطلب كثيرا من الوقت ، لان « عناصر جديدة » قد طرأت على المفاوضات مع مصر ، مع التأكيد بان القرار المصري لا يساهم في تسهيل المفاوضات الجارية . (وكل هذا الكلام الاسرائيلي يتعارض مع ما كان قد قاله رابين حول احتمالات التوصل الى تسوية جزئية سريعة) وبعد مداولات سياسية على اعلى المستويات ومشاورات دبلوماسية وجه رئيس مجلس الامن نداء الى الرئيس السادات يناشده اسقاط اعتراض مصر على تجديد انتداب قوة الطوارىء في سيناء . وصوت ١٣ عضوا في المجلس (من أصل ١٥) الى جانب قرار توجيه هذا النداء العاجل ولم يشترك العراق والصين في التصويت. وشدد النداء على ان تمديد انتداب قوة الطوارىء لفترة اخرى سيساهم في خلق الجو المناسب للتقدم نحو السلام العادل والدائم في المنطقة ، وانه سيمنع حالة الركود من السيطرة على الشرق الاوسط . واستجابت السلطات المصرية لهذا النداء فأعلن اسماعيل فهمي في ٢٤ تموز قرار الرئيس السادات تمديد مهلة القوات الدولية ٣ اشهر اخرى تنتهي في ٢٤ تشرين الاول . وبرر الوزير المصري هذه الاستجابة السريعة (او التراجع عن الموقف القوي السابق) بقوله ان نداء مجلس الامن كان منسجما مع هدف الدبلوماسية المصرية وهو « استمرار التحرك نحو السلام وبسرعة وبدون ابطاء » ورفض النداء اية محاولة لتجميد الموقف في المنطقة . وعلى اثر ذلك اتخذ مجلس الامن قرارا في ٢٦ تموز دعا فيه جميع الفرقاء المعنيين لتنفيذ قرار مجلس الامن الرقم ٣٣٨ لعام ١٩٧٣ وقرر تجديد انتداب قوة الطوارىء الدولية لمدة ثلاثة اشهر اخرى كما طلب من الامين العام لهيئة الامم ان يقدم تقريرا عن الوضع في الشرق الاوسط والخطوات المتخذة لتنفيذ القرار ٣٣٨ قبل انتهاء فترة الثلاثة اشهر المشار اليها .

ما ان تمت تسوية مشكلة تمديد قوات الطوارىء في سيناء حتى عادت الحكومة الاسرائيلية الى تصعيد مواقفها مجددا . وقد اتضح هذا التصعيد في التصرفات الاسرائيلية التالية : (١) اعلن اسحاق رابين بأن اسرائيل لن توقع اتفاقا مؤقتا جديدا مع مصر الا اذا سبقته مفاوضات مباشرة وجها لوجه بين الطرفين لان موافقة اسرائيل على التفاوض مع مصر من خلال مساعي الولايات المتحدة لا يمكن ان تصل الى نهايتها المتوقعة بدون مثل هذه المفاوضات المباشرة . أما اذا رفضت مصر هذا النوع من المفاوضات « فعليها ان تفهم ان عملية التفاوض ستكون طويلة » .

(٢) اعلان رابين في ٢٦ تموز ان حكومته رفضت كافة الاقتراحات المصرية المتعلقة بالاتفاق المصري حول سيناء جملة وتفصيلا ، وتأكيده مرة اخرى ان المفاوضات ستكون طويلة واشتراطه لنجاحها صدور اعلان مصري رسمي ينص على « ان استخدام القوة لم يعد له مكان في بنية العلاقات المصرية الاسرائيلية ، وان جميع الخلافات في الاراء بين البلدين يجب ان تسوى بسلام وعن طريق المفاوضات » . (٣) تصريح شمعون بيريز — وزير الدفاع الاسرائيلي — بأن المقترحات الاسرائيلية الاخيرة التي جرى نقلها الى مصر بواسطة الولايات المتحدة هي « مقترحاتنا النهائية » وهذا يعني « اننا لن نتقدم بمزيد من التنازلات » لاننا « ذهبنا بعيدا وبعيدا جدا في هذا الميدان » كذلك اتهم بيريز مصر — عبر هذه الحملة التصعيدية — باثارة المصاعب الضخمة في وجه الوصول الى الاتفاقية الجزئية « حتى انه

يحق لنا ان نتساءل ما اذا كانت مصر تهتم بالاتفاق فعلا » لان المقترحات المصرية تتجاهل تماما مطالب اسرائيل و« وتطلب منا الكثير بدون ان تقدم شيئا في مقابل ذلك » . كما اتهم بيريز مصر بتعليق الامال على اثارة التوتر بين الولايات المتحدة واسرائيل على أمل الحصول على تنازلات جديدة نتيجة للضغط الامريكي . وأكد بيريز ان السادات يرتكب خطأ كبيرا اذا كان يعتقد انه سيحقق هدفه هذا . ولخص الوزير الاسرائيلي الاحتمالات التي يمكن ان تنشأ نتيجة فشل المحاولات الجارية حاليا للوصول الى تسوية جزئية مع مصر بقوله : اما ان تستأنف الاشتباكات او يبقى الوضع القائم على حاله او تحدث تغيرات سياسية في مصر تؤدي الى اعادة نظر جديدة في الوضع .

أما الجانب الامريكي فقد شارك أيضا في حملة التصعيد هذه اذ أعلن كيسنجر في مؤتمر صحفي بأن الهوة بين الموقفين المصري والاسرائيلي ما زالت هائلة وان « فوارق كبيرة » ما زالت تفصل بين الطرفين . لذلك استنتج بأنه من السابق لاوانه القول ما اذا كان سيتم التوصل الى اتفاق جزئي ام لا لان مواقف الطرفين « متباعدة الان حول مسائل اساسية وجدية » . أما الرئيس فورد فقد خفف قليلا من حدة تصريحات كيسنجر بدعوته كل من مصر واسرائيل الى اظهار مقدار كبير من « الاعتدال والمرونة » لتحقيق تقدم في المساعي السلمية . وألح الرئيس الامريكي الى ضرورة تحقيق مثل هذا التقدم خوفا من حدوث مجابهة امريكية سوفياتية نتيجة اندلاع حرب جديدة في الشرق الاوسط .

الجدير بالاشارة هنا ان انباء اخذت تتوارد خلال الاسبوع الثاني من شهر آب تقول بأن تحولا قد طرأ على الموقف التفاوضي المصري باتجاه الاقتراب من الخطوط العريضة للموقف الاسرائيلي والمقترحات التي ينطوي عليها والتي وصفها بيريز بأنها نهائية كما مر معنا . فقد ذكرت مصادر اسرائيلية ان مقترحات مصر الجديدة — التي وصلت الى الحكومة الاسرائيلية عبر الولايات المتحدة — تدمت بعض الاستجابة لمطالب اسرائيل خاصة فيما يتعلق بالحملات العربية الاقتصادية والدعائية ضد الدولة الصهيونية . كذلك ذكرت المصادر الاسرائيلية ان « المقترحات المصرية الاخيرة عكست تحولا بارزا نحو التقارب مع المفهوم الاسرائيلي على الرغم من استمرار وجود ثغرات مهمة بين الطرفين والتي لا بد من سدها ». وترددت انباء كذلك حول احتمال عودة كيسنجر الى المنطقة للقيام بجولة دبلوماسية جديدة لابرام الاتفاق الجزئي ، قبل نهاية شهر آب . وبهذا الصدد ذكر بيريز ان اسرائيل « مهتمة بايجاد تسوية مع سوريا شريطة ألا تمس هذه التسوية اية مستوطنة اسرائيلية في مرتفعات الجولان او تؤدي الى الانسحاب منها » . كذلك ذكرت الانباء الصحفية ان المقترحات المصرية المقدمة الى اسرائيل تنطوي على النقاط التالية : (١) تقوم مصر بوضع كتيبتين في الطرف الغربي من الممرات الاستراتيجية في سيناء بدون ايراد اي ذكر للطرف الشرقي من الممرات وهو الطرف الذي تصر اسرائيل على الاحتفاظ به . (٢) توافق مصر على ممر أضيق مما كانت تطالب به يصل الممرات الاستراتيجية بحقول البترول بأبو رديس . (٣) توافق مصر على وجود امريكي في مراكز المراقبة المصرية والاسرائيلية على طرفي الممرات وتتجاهل الوجود الاسرائيلي في بعض هذه المراكز (هنا تذكر الانباء ان اسرائيل مصرة على ادارة مراكز المراقبة بنفسها حتى مع توفر العنصر الامريكي فيها). (٤) توافق مصر على وجود اسرائيلي ومحطات مراقبة اسرائيلية على مرتفعات ممر الجدي . أما على الجانب المصري فقد ذكرت صحيفة الاهرام ان كيسنجر متفائل باحتمال التوصل الى اتفاق جديد لفصل القوات في سيناء في اواخر هذا الشهر . كما توقعت ان يزور الوزير الامريكي المنطقة قريبا لانجاز الاتفاق قبل انعقاد مؤتمر الدول غير المنحازة في ٢٤ آب في البيرو . ودعمت الاهرام نبأها بالقول ان الولايات المتحدة تدرس مسألة تعويض اسرائيل الخسائر التي ستتكبدها نتيجة انسحابها من خطها الدفاعي الحالي ومن حقول النفط في أبو رديس على ان تغطي التعويضات تكاليف اقامة خطوط دفاعية اسرائيلية جديدة بعد الانسحاب .

ومن الملاحظ انه مع طرح كل هذه الاخبار قيد التداول ظهرت تصريحات امريكية تشير الى موضوع كان قد طرح سابقا ثم سحب من التداول وهو موضوع قيام الخبراء الامريكيين بالاشراف على محطات المراقبة المتقدمة في جبهة سيناء . فقد

اشار الرئيس فورد الـى أن ارسال الولايات المتحدة جنودها وخبراءها الى سيناء للقيام بهذه المهمة هو أمر وارد جدا . كما أعلن سيسكو عن استعداد حكومة بلاده لدرس أية اقتراحات بتكليف كادرات امريكيـة للذهاب الـى سيناء لحمـل المسؤوليات المذكورة سابقا .

وكجزء من الاخـذ والرد الجاري حول مسألـة التسوية الجزئية قام أمين عام هيئة الامم بزيارة للقاهرة في الاسبوع الاخير من شهـر تموز حيث اجرى مباحثات مع الـرئيس السادات وكبـار المسؤولين في القاهرة . وعنـد وصوله شـدد فالدهايم على خطورة الموقف في الشرق الاوسط بسبب عدم التوصل الى حـل شامل ونهائي للمشكلة . كما رحب بالجهود الهادفة الى تحقيق اتفاق جديد للفصل بين القوات في سيناء وعبر عن توقعه بأن الاشهر الثلاثة المقبلة « ستسفر عن تقدم حقيقي نحو سلام نهائي في المنطقة » واشار الامين العام الى اعتماد معالجة ازمة الشـرق الاوسط معالجة ناجحة على مؤتمر جنيف . وعلى اثر محادثاته مع الرئيس السادات ذكر فالدهايم ان مباحثاته كانت « بناءة للغاية » وامتدح قراري مجلس الامن رقـم ٢٤٢ و٣٣٨ كأساس لتسوية النزاع الاسرائيلي على أسس سليمة . وأوضح فالدهايم بأنه لا ينـوي زيـارة اسرائيل في الوقت الحاضر .

التطور الهام الآخر على الصعيد الدولي الذي يمس القضية الفلسطينية هو الحملة الكبيرة التي جرت في أوساط دول العالم الثالث لطرد اسرائيل — او تعليق عضويتها على أقل تعديل — مـن الجمعية العامة لهيئة الامم . وقد ظهرت بوادر هذه الحملة في مؤتمر المرأة الذي انعقد في المكسيك منذ فترة قصيرة حيث صدر قرار يدين الصهيونية بصراحة ووضوح . وقد عارضت كل دول اوروبا الغربية بالاضافة الـى الولايات المتحدة وكنـدا واليابان طبعا وبعض دول العالم الثالث المرتبطة مباشرة بالامبريالية الامريكية والتابعة لها . مع ذلك فقد أحرز قرار الادانة الاكثرية اللازمة لتبنيه بفضل اتجاه السـواد الاعظم من دول العالم الثالث نحو وضع الصهيونية في موضـع الحركات العنصرية وتشبيهها بالمؤسسات القائمة على التمييز ضـد السود في جنوب افريقيا . بعد هذا النجاح انتقلت هذه الحملة الى المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في جدة في منتصف شهر تموز ، وقد تقدمت كل مـن سوريا ومنظمة التحرير بمشروع قرار يدعو الدول الاسلامية لتأييد فكرة طـرد اسرائيل من الامم المتحدة والعمل على تنفيذها . وقرر المؤتمر تكوين لجنة دائمة مؤلفة من ممثلي ١٢ دولة مـن الدول الاعضاء تسمى لجنة القدس مهمتها متابعة تنفيذ القرارات التي يتخذها المؤتمر الاسلامي حـول فلسطين والتي تتخذها الهيئـات الدولية المؤيدة لمواقف المؤتمر في هذا الشأن . ودعا البيان الذي صدر عن المؤتمر الدول الاعضاء للعمل في المحافل الدولية والامم المتحدة علـى طرد اسرائيل مـن المنظمة الدولية . كما طالب مجددا الدول الاعضاء التي لا تزال لها علاقات سياسية او ثقافية او اقتصادية مع اسرائيل بقطع هذه العلاقات . وجدد المؤتمر تأكيده على ان منظمة التحرير هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وطالب الدول الاعضاء بتنفيـذ قرارات المؤتمرات الاسلاميـة السابقة حول قضية فلسطين . كذلك أعلن المؤتمر تمسك المسلمين بمدينة القدس وعـزم حكوماتهم الاكيد على العمل مـن اجل تحريرها واعـادة السيادة العربية عليها مع الاصرار على الا تكون القدس موضع أية مساومات او تنازلات مع ضرورة تقديم الدعم المالي اللازم لتدعيم الوجود العربي الاسلامي في المدينة المقدسة . قرر المؤتمر ايضا مساندته الكاملة والفعالة للشعب الفلسطيني في نضاله المشروع لاسترجـاع حقوقه الوطنيـة في فلسطين وممارسة حقه في السيادة على ارضـه واقامة سلطته الوطنية المستقلة . هذا بالاضافة الى تقديم الدعم الفعال لدول المواجهة لاسترجاع كل الاراضي المحتلة بكل الوسائل المتاحة . وأكد المؤتمر ان السلام العـادل والدائم في فلسطين والشرق الاوسط لا يمكن ان يتم التوصل اليه الا على اساس انسحاب اسرائيل الكامل مـن كل الاراضي العربيـة المحتلـة وممارسـة الشعب الفلسطيني لحقوقه الوطنية الكاملة .

بعد هذين النجاحين على صعيد الحملة لطـرد اسرائيل من هيئة الامم المتحدة تقدمت الولايات المتحدة في محاولة للوقوف في وجه هذه النجاحات واجهاضها بكافة الطرق . على سبيل المثال حذر كيسنجر في شهر تموز دول العالم الثالث من ان

بلاده ستعيد النظر في مساهمتها المالية في موازنة الامم المتحدة اذا استمرت الدول المذكورة في تحويل « المنظمة الدولية الى مكان للمواجهة بدلا من ان تكون مكانا للتفاهم بين الامم » . واتهم كيسنجر دول العالم الثالث بسوء استخدام الامم المتحدة عن طريق ما أسماه « بعمليات التصويت المتحيزة » التي تؤدي « الى نتائج غير عادلة » اعتمادا على « خطط اعتباطيــة » ولم يخف كيسنجــر سبب انزعاجه من الاكثرية التابعة للعــالم الثالث في الجمعية العامة اذ قــال انه اذا فقدت الدول الكبرى ، وخصوصا تلك التي تقدم الدعم المالي الاساسي لهيئة الامم (أي الولايات المتحدة) ، ثقتها في المنظمة تصبح الجمعية العامة مهــددة بالزوال وبفقدان التأثير المعنوي الذي تتمتع به . وفي الوقت نفســه اتخذ مجلس الشيوخ الامريكي قرارا انتقد فيه بشــدة الجهود المبذولة لطــرد اسرائيل من المنظمة الدولية . وهــدد القرار باعادة النظر في كافة التزامات الولايات المتحــدة تجاه دول العالم الثالث اذا جرى طرد اسرائيل من المنظمة الدولية . هذا بالاضافة الى اعادة النظر في موضوع استمرار الولايات المتحدة عضوا في المنظمة . أما الحكومة الاسرائيلية فقد هددت على لسان وزير خارجيتهــا بأنه في حال تعليــق عضوية اسرائيل في هيئة الامم فان جميع نشاطات المنظمة الدولية في اسرائيل ستتوقف . مما يعني : (أ) كف اسرائيل عن التقيد بقرارات هيئة الامم المتعلقة بالمنطقة ، (ب) تأثر اتفاقات فك الارتباط مع مصر وسوريا على اعتبار ان الامم المتحدة هي فريق أصيل في هذه الاتفاقات ، (ج) تأثر مؤتمر جنيف واحتمالات انعقاده على اعتبار انه قائم ضمن اطار هيئة الامم وبرئاسة أمينها العام ، (د) تأثر مساعدات هيئة الامم الى « اللاجئين الفلسطينيين » عبر الانروا في الاراضي المحتلة .

ويبدو انــه كان لهذه الحملــة الامريكية ــ الاسرائيلية المضادة تأثيرها في كبح التعبئة الجارية لطرد اسرائيل من المنظمة الدولية . وقد ظهر تأثير الحملة المضادة في الاوساط الحاكمة المصرية وبعض الدول الافريقية كما تبين ذلك جليا في مؤتمر القمة الافريقي الذي انعقد في أواخر شهر تموز في كمبالا عاصمة اوغندا . استنادا الى ما جرى في مؤتمر المرأة في المكسيك ومؤتمر الدول الاسلامية كانت كل الدلائل تشير الى ان مؤتمر قمة دول منظمة الوحدة الافريقية سيدعو بصراحة وبصورة مباشرة الى طرد اسرائيل من الامم المتحدة وحتى الى فرض العقوبات عليها الى أن تنسحب مــن الاراضي العربية المحتلة وتعترف بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . في الواقع اتفق وزراء خارجية الدول الافريقية في اجتماعاتهم التحضيرية لمؤتمر القمــة على رفع توصية الى الرؤساء بطرد اسرائيل من هيئة الامم (او تعليق عضويتها على اقل تعديل) . غير ان الموقف المصري الذي عبر عنــه الرئيس السادات في المؤتمر لم يترك مجالا امــام مؤتمــر القمة لاقرار توصيــة وزراء الخارجية . وجدير بالاشارة ان الســادات كان قد قال في مؤتمــر صحفي عقده في الخرطوم ، أنه « اذا كنا نطالب اسرائيل بتنفيذ قرارات الامم المتحدة فيجب ان تكون اسرائيل في الامم المتحدة حتى تنفذ هذه القرارات » كما أكد السادات « ان وجود اسرائيل في الامم المتحدة وتنفيذها قرارات المنظمة الدولية أجدى من طردها حتى لا تتحلل من كل شيء » . وقد كرر الرئيس السادات هذا الموقف في مؤتمر القمة مما جعل اي قرار افريقــي بطرد اسرائيل سيبــدو « ملكيا اكثر من الملــك » ومزاودا على الدولة صاحبة العلاقة المباشرة بالنزاع مع اسرائيل . لذلك لم يخرج المؤتمر الا بقرار مائع يطلب من كل الدول الاعضاء في منظمة الوحدة الافريقية اتخــاذ الاجراءات الملائمة لتعزيز الضغط على اسرائيل داخل الامم المتحدة ووكالاتها بما في ذلك امكــان حرمان اسرائيل من عضويتها في هذه الوكالات . وحتى هذا القرار المائع خضع لتحفظات عدد من الدول الافريقية بحجة الموقف المصري المذكور . من جهة اخرى أكد المؤتمــر مساندته الكاملــة والفعالة للشعب الفلسطيني في نضاله المشروع لاسترجاع حقوقه الوطنية وحقه في العودة الــى وطنه فلسطين في تقرير مصيره واقامة سلطتــه الوطنية المستقلة .

على صعيد آخر قام الرئيس المكسيكي بزيارة كل من القاهرة وعمان وتل ابيب خلال جولة يجريها في الدول الاسيوية ــ الافريقية . واعلن الرئيس المكسيكي خلال وجوده في القاهرة اعتراف بلاده بحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية وبمنظمة التحرير الفلسطينية وضرورة استعادة الاراضي العربيــة

المحتلة وتنفيذ كل قرارات هيئة الامم باعتبار ان كل هذه الاشياء هي الاساس الذي لا يمكن ان تقوم بدونه اية تسوية لمشكلة الشرق الاوسط.كما وعد بنقل وجهة النظر هذه الى الزعماء الاسرائيليين . وعند انتقاله الى هناك دعا السلطات الاسرائيلية الى الانسحاب من الاراضي العربية المحتلة والى ادراك ان حصولها على حدود آمنة يتوقف على حل القضية الفلسطينية . وعلى اثر مشاوراته مع رابين أعلن الرئيس المكسيكي بأنه قرر ارسال وزير خارجيته الى القاهرة على أمل تحقيق تقدم في المحادثات بين مصر واسرائيل حول التسوية الجزئية في سيناء . ولم يعرف شيء بعد عـن نتائج هذه الوساطـة الجديدة والمفاجئة .

أخيرا هناك بعض التفصيلات التي لا بد مـن الاشارة اليها بسرعة وهي تتلخص بالنقاط التالية :

(١) برزت حملة قوية داخل مجلس الشيـوخ الامريكي استهدفت الاتفاق الذي جرى التوصل اليه بين الحكومة الامريكية والملك حسين لتزويد الاردن بـ ١٤ بطارية من صواريخ هوك المضادة للطائرات بالاضافة الـى مجموعة اخرى مـن الاسلحة ذات الطابع الدفاعي . وقد سحب فورد عرضه بتزويد الاردن بهذه الاسلحة ممـا حـدا بالسلطات الاردنية التهديد بالسعي للحصول على الاسلحة المطلوبة من « مصادر اخرى » . (٢) في منتصف شهر تموز شنت اجهزة الاعلام السوفياتية حملة قوية على الصحف المصرية متهمة اياها بتعمد تشويه سياسة الاتحاد السوفياتي فـي الشرق الاوسط واثارة النعرات المناوئة ضد السوفيات في الاوساط العربية . واتهم الجانب السوفياتي الصحافة المصرية « بالانضمام الى جوقة الدعاية الامبريالية والصهيونية » . على سبيل المثـال أعربت البرافدا عن استياء الاتحاد السوفياتي من تعليقات الصحف المصريـة التي تتعمد التشكيك بقيمة التعاون الاقتصادي المصري السوفياتي مذكرة بدور الاسلحة السوفياتية وأهميتها في حرب تشرين ١٩٧٣ وفي بنيان القوة العربية الحالية . (٣) طلبت الحكومة الكندية من هيئة الامم تأجيل انعقـاد المؤتمر الدولي لمكافحة الجريمة الذي كان سينعقد في تورنتو . والسبب وراء هـذا الطلب رغبـة مراقبين عن منظمة التحرير حضور المؤتمر . الا ان لجنة المؤتمرات في الامم المتحـدة رفضت الطلب الكندي وقررت نقل مقر المؤتمر من تورنتو الـى جنيف وعقده في التاريخ المحدد له سابقا.

(٣) المناطق المحتلة

عدا عن تواصل النضال العسكري الفلسطيني في المناطق المحتلة طوال سنوات الاحتلال السابقة، برزت في السنوات الاخيرة — على وجه التحديد — اشكال نضالية هامة تعتمد على المبادرات الجماهيرية واشراك اوسع الفئات الشعبية في النضال ضد الاحتلال ومقاومة سياساته البغيضة . وما تشهده المناطق المحتلة في هذه الايام من تكثيف وتصعيد للكفاح المسلح ، ما هو الا نتيجة طبيعية لتحسس الجماهير الرازحة تحت الاحتلال لمسؤولياتها الوطنية ، بعد ان نزلت الى مواجهة المحتلين في الشارع عبر المظاهرة والاعتصام والاضراب والمسيرات وغيرها من طرائق النضال المتبعة .

لقد جاء تعدد اشكال النضال في السنوات الاخيرة بعد ان ظل لسنوات يقتصر على الكفاح المسلح كشكل نضالي وحيد ، تطورا هاما في مسيرة الكفاح الوطني الفلسطيني بحيث اتسع المجال لكافة ابناء الشعب للمساهمة في دحر الاحتلال عبر اشكال النضال المتاحة .

وشهدت المناطق المحتلة في الفترة الاخيرة مثلين بارزين في هذا المجال . الاول هو الاعتصام عن الطعام الذي اعلنه الموقوفون الاداريون في سجون الاحتلال وتضامن المعتقلين السياسيين معهم . وقد الهب الاعتصام هذا اعمق المشاعر لدى الجماهير الفلسطينية ليس داخل الوطن المحتل فحسب وانما خارج الوطن . والثاني الاجراء الذي اقدمت عليه سلطات الاحتلال بتقسيم الحرم الابراهيمي في الخليل بحيث اصبح جزء من الحرم يخص اليهود واخر للمسلمين . وقد اثار هذا الاجراء الاحتلالي بدوره اعمق المشاعر لدى ابناء الشعب الفلسطيني وقاد ردود فعل واسعة شملت كافة مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة وامتدت الى ردود فعل رسمية على الصعيد العربي .

اضراب المعتقلين عن الطعام

اعلن المعتقلون الاداريون في سجن نابلس اضرابا مفتوحا عن الطعام احتجاجا على مواصلة سلطات الاحتلال الاسرائيلية توقيفهم لمدة تزيد عن السنة دون ان تقدمهم الى المحاكمة . وفي اليوم الذي بدأ فيه المعتقلون اضرابهم قام وفد يمثل امهات وذوي المعتقلين الاداريين في مدينة نابلس بمقابلة الحاكم العسكري للمدينة ، وقدم له مذكرة حول استمرار توقيف ابنائهن دون تقديمهم للمحاكمة . وقد جاء في المذكرة كما نشرتها صحيفة الشعب (٧٥/٧/١١) التأكيد على النقطتين التاليتين :

١ — لقد مضى على المعتقلين مدة تقارب الخمسة عشر شهرا وانه خلال هذه المدة كان جواب السلطات المعنية عن تكرار المراجعات بشأن المعتقلين ان التحقيق لم ينته بعد .

٢ — « ان بقاء ازواجنا وابنائنا داخل السجن لا يخدم السلام في هذه المنطقة على الاطلاق . ولا شك ان السلام القائم على العدل هو رغبتنا ورغبة الكثيرين من ابناء الشعبين الفلسطيني والاسرائيلي » .

وفي الوقت الذي اخذت فيه سلطات الاحتلال تكتم خبر اعتصام المعتقلين واضرابهم عن الطعام، كان خبر هذا الاعتصام يسري بين كافة ابناء الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة . وأخذت ردود الفعل تتوالى من مختلف المناطق والاتجاهات .

ففي يوم ٧٥/٧/١٧ اعتصم في دار البلدية بنابلس وفد من امهات وزوجات المعتقلين الاداريين في سجن نابلس المركزي . واجتمعن مع السيد عادل الشكعة نائب رئيس البلدية للمطالبةبمساعدة ابنائهن الذين يواصلون اضرابهم عن الطعام منذ ثمانية ايام . وجاء في معرض مطالبتهن بتدخل البلدية قولهن « اننا نطالب ان ندخل نحن وعائلاتنا السجن مع اقاربنا المعتقلين او ان يتم اطلاق سراحهم » . وحملن الامم المتحدة وسكرتيرها العام مسؤولية ما سيحدث لابنائهن وازواجهن المعتقلين . وناشدن الصليب الاحمر بالعمل السريع على اطلاق سراح الموقوفين . وكان وفد من هؤلاء النسوة قد اجتمع قبل ذلك مع رئيس البلدية في

نابلس الحاج معزوز المصري وطالبنه التدخل في الموضوع . فتقدمت البلدية على اثر تلك طلب السماح لوفد من المجلس البلدي بالاجتماع مع وزير الدفاع الاسرائيلي او الحاكم العسكري العام للضفة الغربية لدراسة هذا الموضوع . غير ان المجلس البلدي الى ذلك الحين لم يتلق ردا على طلبه هذا (الفجر ١٩٧٥/٧/١٨) .

وعندما دخل اضراب الموقوفين يومه العاشر اتصل مكتب المحامية فليتسيا لانغر بالصليب الاحمر الدولي لطلب تدخله في الامر . فكان جواب الصليب بان المضربين يتلقون جرعات من الطعام السائل بصورة قسرية .

وقد اوردت صحيفة الشعب كشفا باسماء الموقوفين الاداريين المضربين عن الطعام موزعا على عدة سجون هي كما يلي :

١ ــ سجن كفار يونا : يعقوب فراج ، فاروق السلفيتي ، محمد ابو غربية ، الشاعر خليل توما . وقد جددت مدة توقيفهم ٦ أشهر أخرى بعد ان مضى على اعتقالهم حتى ذلك التاريخ ١٥ شهرا .

٢ ــ سجن الخليل : عطاالله رشماوي ، محمد سعادة ، عبد المجيد حمدان . جدد لهم في ١٩٧٥/٧/٢٠ لمدة ستة اشهر اخرى بعد ان مضى على اعتقالهم ١٥ شهرا . اما خليل رشماوي وداود نصر فقد جدد لهما التوقيف لمدة ثلاثة اشهر من التاريخ نفسه بعد ان مضى على توقيفهما ١٠ اشهر . اما مصطفى ابو سنينة وسالم جابر فلم يعرف المصير الاداري لكل منهما . وكذلك الامر لم يعرف مصير الموقوفين الاداريين من قطاع غزة وهم : محمد عاشور ، زويد العجة، عياد العابدة، زويد عليان ، عثمان ابو عيسى .

٣ ــ سجن رام الله : خضر العالم ، عبدالله البعيرات ، عبد الحميد ابو الحمص ، عيد الريماوي ، تيسير العاروري ، غسان حرب ، عدنان داغر ، حسين الطويل ، صلاح زهران ، عادل برغوثي ومحمد برغوثي . ولم يعرف المصير الاداري لهؤلاء جميعا .

٤ ــ سجن نابلس : خلدون عبد الحق ، عباس عبد الحق ، لبيب فخر الدين ، الدكتور فرحان ابو ليل ، عبد الباسط الخياط ، جمال فريتخ ، راجح غنيم ، احمد دحلول ، زهير عميرة ومحمد بغدادي . (الشعب ١٩٧٥/٧/٢٢) .

وعلم فيما بعد ان سلطات الحكم العسكري جددت اعتقال الموقوفين الاداريين في سجن نابلس لمدة ستة اشهر اخرى ابتداء من ١٩٧٥/٧/٢٠ بعد ان مضى على اعتقالهم اكثر من خمسة عشر شهرا . (الفجر ١٩٧٥/٧/٢٣) .

الا ان تجديد فترة التوقيف لم يوقف المعتقلين من مواصلتهم الاضراب عن الطعام . وقد نشرت « الفجر » بتاريخ ١٩٧٥/٧/٢٦ انهم ما زالوا مضربين عن الطعام الامر الذي ادى الى تدهور صحتهم . وقد ادى ذلك الى قيام الهيئات النسائية والنقابات المهنية والاندية والغرف التجارية بتقديم مذكرة احتجاج على استمرار الاعتقال وتجديده وطالبت بالافراج عنهم او تقديمهم الى المحاكمة .

وانتقل اعتصام زوجات وامهات واخوات المعتقلين المضربين عن الطعام في سجون اسرائيل الى بناية المجلس الاسلامي بالقدس يوم ١٩٧٥/٧/٢٩ . وقد اصدر رئيس الهيئة الاسلامية نداء الى وزير الشرطة طالب فيه بتدخله السريع للبت في مصير هؤلاء المعتقلين والافراج عنهم . وورد في النداء كما نشرته صحيفة الفجر يوم ١٩٧٥/٧/٣٠ « ... لقد اعتصمت هؤلاء السيدات في بناية المجلس الاسلامي يوم امس لذلك فانني اطالب بتدخلكم السريع . امل ان المس النتائج الحاسمة للبت في مصير هؤلاء المعتقلين والافراج عنهم » . وقد بعث رئيس الهيئة الاسلامية بنسخ عن هذا النداء الى كل من وزير الدفاع الاسرائيلي والحاكم العسكري العام للضفة الغربية ومدير مكتب جمعية الصليب الاحمر الدولي .

من ناحية اخرى تقدم رئيس بلدية نابلس احتجاجا الى الحاكم العسكري بعد ان منعت السلطات مقابلة الاهالي لذويهم المعتقلين بعد مضي حوالي عشرين يوما على اضرابهم وبعد ان ساءت صحة العديدين منهم ونقلوا الى المستشفيات . (الفجر ١٩٧٥/٧/٣١) . غير ان وزير الدفاع الاسرائيلي لم يستجب لنداء رئيس بلدية نابلس باطلاق سراح الموقوفين الاداريين او محاكمتهم بصفة عاجلة . (الشعب ١٩٧٥/٨/٥) . وفي وقت لاحق ذكرت

وكالة الصحافة الفرنسية ان المعتقلين الاداريين الذين بدأوا اضرابا عن الطعام في سجن نابلس قد وافقوا في صباح يوم ١٩٧٥/٨/٦ على وضع حد لاضرابهم الذي بدأ منذ يوم ١٩٧٥/٧/١١ . وقالت الوكالة ان وقف الاضراب قد تم بعد وعد قدمه شمعون بيرس وزير الدفاع الاسرائيلي الى رئيس بلدية نابلس بان تعيد اللجنة الخاصة بحث حالة المعتقلين خلال ١٥ يوما .

وخلال فترة اضراب الموقوفين عن الطعام ، واضافة الى التضامن الشامل معهم من قبل جماهير الارض المحتلة ، امتدت الحملة التضامنية هذه لتشمل مناطق التجمعات الفلسطينية خارج الارض المحتلة . ففي عمان دعت لجنة الدفاع عن المعتقلين الى اعتصام في مقر لجنة انقاذ القدس ، وطير المجتمعون برقيات احتجاج من هناك الى الامم المتحدة والهيئات الدولية المعنية .

وفي بيروت دعت لجنة الدفاع عن المعتقلين والاتحادات الشعبية الفلسطينية الى اعتصام في مقر الامم المتحدة حيث ابرقت ايضا الى المؤسسات الدولية المعنية ببرقيات احتجاج على مواصلة العدو لسياساته التعسفية ضد ابناء الشعب الفلسطيني في الاراضي المحتلة وخاصة المعتقلين منهم .

وفي دمشق كذلك دعت منظمة التحرير الفلسطينية الى مؤتمر صحفي اعلنت فيه تضامنها مع المعتقلين ونددت بسياسات الاحتلال وفضحت اساليبه ومحاولاته لترويض الجماهير الفلسطينية وقهر ارادتها الوطنية .

تهويد الحرم الابراهيمي

منذ مدة طويلة ومحاولات العدو وخاصة مستوطنيه في كريات اربع تتواصل للاستيلاء على الحرم الابراهيمي واضرحة الانبياء في مدينة الخليل . واستطاع المستوطنون اليهود من خلال التأييد الرسمي لهم من قبل سلطات الاحتلال اقامة الشعائر الدينية في الحرم في بادىء الامر ، ثم اخذوا رويدا رويدا بالاستيلاء على جانب من الحرم لاقامة الشعائر والصلوات فيه ، كما خصصوا ركنا منه للاحتفاظ بمكتبة دينية .

غير ان محاولات اليهود للاستيلاء على الحرم الابراهيمي تصاعدت في الفترة الاخيرة، حيث رفعوا المذكرات واقاموا المظاهرات والاعتصامات ، واكثروا من التعديات على المصلين المسلمين . وكانت اخر محاولة لهم في هذا النطاق الاعتصام الذي بدأه عدد من المستوطنين اليهود في الحرم الابراهيمي يوم ١٩٧٥/٧/٢٦ ولم تخرجهم منه الا قوات الشرطة في اليوم التالي . وفي يوم ١٩٧٥/٧/٣١ قام وزير الدفاع الاسرائيلي بزيارة للخليل وللمستوطنة المجاورة كريات اربع حيث اطلع من المستوطنين على رغبتهم في الاستيلاء على الحرم الابراهيمي وتوسيع المستوطنة وبناء الحي اليهودي في الخليل . وفي الجلسة التالية للحكومة عرض وزير الدفاع مقترحاته لتقسيم الحرم الابراهيمي فاقرت الحكومة اقتراحه . وصدر بيان رسمي اذاعه وزير الاديان الاسرائيلي يقول ان « التدبير الجديد يقوم على مبدأ التساوي في الحقوق دون تمييز » (ر.ا.ف. ١٩٧٥/٨/٧) .

ولقد كان لهذا الاجراء الاسرائيلي بدوره اوسع اثر واعمقه لدى الجماهير الفلسطينية داخل الوطن المحتل وخارجه . ففي الضفة الغربية قامت البلديات بارسال برقيات احتجاج الى وزير الدفاع على ذلك الاجراء .

لم يتوقف الاحتجاج بالطبع عند رفع المذكرات وبرقيات الاحتجاج سواء من البلديات او المجلس الاسلامي الاعلى في القدس ، بل امتد ليشمل قطاعات واسعة من الجماهير الشعبية . ففي مدينة الخليل قام المصلون الذين ادوا صلاتهم يوم ١٩٧٥/٨/٦ في الحرم الابراهيمي نفسه ، بمظاهرة عنيفة في شوارع الخليل احتجاجا على سلطات الاحتلال واجراءاتها المتعلقة بالحرم . وقد اعلن التلفزيون الاسرائيلي في حينه ، ان قوات الشرطة التي تدخلت لتفريق المتظاهرين بالقوة اوقفت ٢٠ متظاهرا ، وان عدة اشخاص اصيبوا بجراح اثناء تبادل المتظاهرين الحجارة مع رجال الشرطة والسيارات العسكرية الاسرائيلية ، وقالت وكالة الصحافة الفرنسية التي اوردت الخبر ، ان المصلين توجهوا من الحرم الى ساحة البلدة وهم يهتفون بشعارات معادية لاسرائيل ، وان عدة مئات من المواطنين انضموا اليهم ، الامر الذي دفع سلطات الاحتلال الى ارسال جنود اضافيين الى مدينة الخليل بعد ان تصاعد التوتر فيها على اثر الاشتباك والاعتقالات .

واوردت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) فيما بعد تقريرا من الضفة الغربية جاء فيه ، ان قرى ومدن الضفة تستعد لاعلان الاضراب يوم ١٥/٨/١٩٧٥ بعد صلاة الجمعة ، وذلك احتجاجا على قرار سلطات الاحتلال المتعلق بالحرم الابراهيمي . وقال التقرير ان الدوائر العسكرية الاسرائيلية تعرب عن خشيتها في ان تتحول التظاهرات التي ينظمها المواطنون الفلسطينيون الى تحركات مشابهة للانتفاضة التي حدثت عشية عرض القضية الفلسطينية في الدورة التاسعة والعشرين لهيئة الامم المتحدة. كما تخشى الدوائر الاسرائيلية من تصعيد الموقف وتطويره الى ما أسمته « باضرابات خطيرة » . وقالت (وفا) ان المجلس الاسلامي الاعلى في القدس اصدر اوامره الى جميع ائمة المساجد والخطباء بتخصيص خطبة الجمعة لموضوع « التدنيس » . كما اقترح عدد من اعيان الضفة الغربية القيام بمسيرة الى الخليل والتظاهر امام الحرم الابراهيمي .

وذكرت صحيفة معاريف الاسرائيلية ان المسؤولين عن الامن استدعوا اعيان الضفة الغربية وابلغوهم بان قوات الامن لن تسمح باي خروج على النظام العام .

واضاف تقرير « وفا » يقول ان الانباء الواردة من الضفة الغربية تؤكد ان جو القلق والتوتر يسود مدن الضفة الغربية وان سلطات الاحتلال اتخذت اجراءات امن مشددة لمواجهة التحرك الشعبي المتوقع تعاظمه ، كما حذرت المواطنين من المشاركة في الاضراب المقرر وحذرت التجار من اغلاق محلاتهم والا تعرضوا لاقصى العقوبات.

وكما سبق ان ذكرنا فان ردود الفعل تعدت نطاق الضفة الغربية لتشمل مختلف الجماهير والمؤسسات الفلسطينية والعربية خارج الوطن المحتل .

ففي عمان بعث رئيس الوزراء الاردني ببرقيات احتجاج على الاجراء الاسرائيلي الى الامم المتحدة، كما دعت الحكومة الاردنية الى عقد اجتماع عاجل لوزراء خارجية الدول الاسلامية ، وبعثت بطلبها هذا الى الامين العام للمؤتمر الاسلامي بجدة . وقام الامين العام للمؤتمر الاسلامي باتصالاته مع الدول الاسلامية فقر الرأي على عقد اجتماع للجنة القدس المنبثقة عن المؤتمر والمكونة من ١٣ دولة عربية واسلامية .

وفي القاهرة بعثت الامانة العامة لجامعة الدول العربية بناء على طلب الاردن الى الدول العربية الاعضاء بمذكرات تتضمن طلب الحكومة الاردنية عقد مؤتمر طارىء لوزراء خارجية الدول الاسلامية كما تطالب باتخاذ موقف عربي موحد لدعم الطلب الاردني . وتلقى رئيس الحكومة الاردنية برقية من الامين العام للمؤتمر الاسلامي يقترح فيها عقد اجتماع تمهيدي عاجل للاعداد لمؤتمر وزراء الخارجية في العاصمة الاردنية . فوافقت الحكومة الاردنية على الاقتراح . الا ان منظمة التحرير الفلسطينية ابلغت الامين العام للمؤتمر الاسلامي رفضها عقد اجتماع لجنة القدس في عمان وطالبت بعقد الاجتماع في دمشق او القاهرة او جدة ،وذلك بسبب موقف النظام الاردني من مقررات الرباط . فتقرر اخيرا عقده في جده يوم ١٨/٨/١٩٧٥ .

تدهور صحة المطران كبوجي

اوردت الاذاعة الاسرائيلية يوم ٢٨/٧/١٩٧٥ نبأ نقلته عن طبيب عربي من القدس زار المطران كبوجي في سجنه مؤخرا فقالت : « ان كبوجي يعاني من خطر الاصابة بالشلل اذا ما بقي سجينا » . وبعد ذلك بايام قليلة اوردت صحف الضفة الغربية ان المطران قد اعلن اضرابا عن الطعام ابتداء من يوم ٢/٨/١٩٧٥ ، احتجاجا على المعاملة السيئة التي يلقاها في المعتقل ، حيث يعيش في زنزانة ضيقة رطبة لا يدخلها النور بعيدا عن بقية المعتقلين السياسيين .

ونشرت صحيفة الشعب يوم ٢٩/٧/٧٥ تقريرا عن صحة المطران وضعه المحامي علي رافع الذي قام بزيارة المطران بناء على تكليف من بطريركية الروم الكاثوليك بالقدس . وجاء في التقرير ان المحامي توصل الى الحقائق التالية :

١ — لا تزال حالة المطران الصحية تدعو الى القلق ولا تزال رجلاه متورمتان ويشعر بالم في ظهره بالعمود الفقري . ورغم مرور اسبوع على التقرير الذي وضعه الطبيب الاخصائي انطوان طرزي وجاء فيه بان المطران مهدد بالشلل اذا لم يعالج بسرعة ، ورغم ان التقرير سلم الى طبيب السجن كوهن الذي درس الطب في الجامعة

الكاثوليكية في بيروت ، فانه لم يجر للمطران تصوير باشعة اكس ولم يتوفر له العلاج اللازم .

٢ ــ لا يزال المطران يعيش في غرفة المر ... ولا يسمح له بالبقاء مع السجناء السياسيين العرب الموجودين في القسم رغم مطالبته بوضعه معهم .

٣ ــ كتب المطران عدة رسائل الى ادارة السجون العامة والى ادارة سجن الرملة شارحا وضعه الصحي ومحملا اياهم مسؤولية تدهور صحته ولم يتلق اي جواب حتى التاريخ المذكور .

٤ ــ يطالب المطران بنقله حتى يكون مسجونا في دير كما تقتضي القوانين الكنسية او حتى في اي بيت خاص اسوة مثلا برئيس عصبة الدفاع اليهودي الذي تم سجنه في نيويورك قبل عدة اشهر .

٥ ــ بعد الاطلاع على الخبر الذي نشرته صحيفة يديعوت احرونوت يوم ١٩٧٥/٧/٢٨ على رأس صفحتها الاخيرة وتدعي فيه على لسان المطران بان صحته جيدة وليست له اية ادعاءات ، تبين ان هذا الخبر مليء بالتلفيق والكذب . فالمطران لا يعيش مع السجناء السياسيين العرب ولم يجر ان استقبلهم في مقابلة خاصة كما تدعي الصحيفة الاسرائيلية ، وهو موجود في غرفته طوال الليل والنهار عدا ساعتين ونصف الساعة في الصباح . وهو ليس حرا في التجوال طوال اليوم كما تدعي الصحيفة . والمطران ليس هو الذي اختار غرفة المر كما تدعي الصحيفة ، بل انه طالب صراحة بنقله منها ، وانه لا يقوم بالتمارين الرياضية وصحته لا تسمح له بذلك قطعيا . كما ان الصحيفة تضرب عرض الحائط بالتقرير الطبي الذي وضعه طبيب اخصائي وتدعي صراحة بان هذا التقرير والنشر المجدد عن صحة المطران ما هو الا جزء من حملة واسعة تستهدف اطلاق سراحه . ومع ان قضية اطلاق سراحه قضية هامة ويطالب جميع الوطنيين باطلاق سراحه فعلا وذلك من قبل ان يصاب بهذه الامراض الخطيرة . الا ان الامر الهام اليوم هو ان يعالج المطران وعلى جناح السرعة (الشعب ١٩٧٥/٧/٣١) .

وقد ادى تواتر الانباء عن تدهور صحة المطران كبوجي في السجن الى قلق شعبي عام وخوف على حياته . وقد زاد هذا القلق التقرير الطبي الذي نشرته الصحف والذي يشير الى ان المطران اصبح مهددا بالاصابة بالشلل العام . وقد وردت هذه المشاعر عبر مطالبة تقدم بها رؤساء بلديات بيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا الى سلطات الاحتلال للافراج الفوري عن المطران المعتقل والذي يقضي محكومية مدتها ١٢ عاما .

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليات

تزايد احتمالات توقيع اتفاقية جديدة في سيناء

تميزت التصريحات والتعليقات الاسرائيلية ، في الاسبوع الاخير من الشهر الماضي ، حول امكانية التوصل الى تسوية جزئية اخرى في سيناء بالتشاؤم . ولكن في الاسبوع الاول من الشهر الحالي حدث العكس وتحولت النغمة الى التفاؤل المشوب ببعض الحذر . وظهر اكثر من دليل على ان المفاوضات بين مصر واسرائيل تقترب من مرحلة التوصل الى اتفاق .

ففي ٧٥/٧/٢٤ رفضت اسرائيل على لسان رئيس حكومتها خارطة مصر « المضادة » ، التي اعتبرت ردا على خارطة اسرائيل « الاخيرة » ، والتي كانت قد قدمت لمصر في ٧٥/٧/١٤ . ولكن رغم ذلك استمرت المفاوضات ، وفي ٧٥/٧/٢٨ سلم السفير الاميركي هرمان ايلتس الحكومة المصرية خارطة اسرائيلية « ثانية » . وفي ٧٥/٨/٣ نقل السفير ايلتس الرد المصري الى فورد وكيسنجر في بلغراد حيث كانا هناك ، بعد أن حضرا مؤتمر هلسنكي . وفي ٧٥/٨/٥ نقل السفير الاسرائيلي في واشنطن سمحه دينتس الرد المصري الى حكومته ، وعلى الاثر اجتمع الفريق الوزاري المفاوض (رابين ، ألون ، بيريس) في مكتب رئيس الحكومة يتسحاق رابين في تل ابيب ، بتاريخ ٧٥/٨/٧ ، لمناقشة الرد المصري . وذكرت مصادر حكومية بعد الاجتماع لمراسل اذاعة اسرائيل للشؤون السياسية ، شالوم كيتال ، ان « الموقف المصري يقترب من نواح عديدة حتى من الموقف الاسرائيلي نفسه » (ر.أ.أ. ، ٧٥/٨/٨).

دلائل توحي بقرب عقد اتفاق

نشرت اجهزة الاعلام الاسرائيلية خلال الاسبوعين الماضيين المزيد من التفاصيل والتعليقات حول نقاط الخلاف والالتقاء في المقترحات المضادة والايضاحات والاستيضاحات المتبادلة ، بين الطرفين المصري والاسرائيلي ، حول التسوية الجزئية في سيناء . ورغم الحذر الذي يميز التصريحات الاسرائيلية حول امكانية عقد الاتفاق ، رغم الحديث عن ان الخلافات ما زالت قائمة بين الطرفين حول نقاط حيوية ، ظهرت في الايام الاخيرة عدة دلائل توحي بأن عقد الاتفاق بات قريبا وبعد أن صرح رابين في حزيران الماضي ، ان المفاوضات حول تسوية جزئية في سيناء قد تستمر لمدة نصف سنة اخرى ، أعلن وزير الدفاع بيريس في ٧٥/٧/٢٩ ان « المفاوضات حول تسوية جزئية دخلت مراحلها الاخيرة . واذا لم تنجح هذه المفاوضات الان فسيكون من الصعب ان تبقى على قيد الحياة » (دافار ، ٧٥/٧/٣٠) .

وفي ٧٥/٨/١٠ صرح رابين نفسه في المؤتمر الصحفي الذي عقد في ختام زيارة الرئيس المكسيكي اتشيفريا الى اسرائيل ان تقدما قد احرز في الاسابيع الاخيرة في المفاوضات حول تسوية جزئية في سيناء ، رغم انه « ما زالت هناك فروق في مواقف الطرفين يجري العمل على ازالتها » (ر.أ.أ، ٧٥/٨/١١) .

ولوحظ ان التصريحات الرسمية والتعليقات الصحفية الاسرائيلية كانت تستعمل سابقا تعبير « هوة واسعة » بدلا من تعبير « فروق » الذي تستخدمه حاليا .

وكان احد المعلقين في صحيفة دافار شبه الرسمية قد ذكر ان « هناك دلائل على اننا وصلنا الى المحطة الاخيرة في مفاوضات التسوية الجزئية، وهو ما وجد تعبيرا عنه في التصريحات الاخيرة الصادرة عن الفريق الاسرائيلي المفاوض ... ان الوضع الحزبي اليوم يمكن من المصادقة على المقترحات الاخيرة للحكومة الاسرائيلية » (حناي ايشد ــ دافار ، ٧٥/٨/١) .

وذكرت المصادر الاسرائيلية ، اثناء انعقاد مؤتمر هلسنكي ، ان فورد وكيسنجر « يظهران نبرة جديدة من التفاؤل حول امكانية عقد اتفاقية جزئية في سيناء » (يديعوت احرونوت ، ٨/٤/ ٧٥) . وأعلن أيضا ان الولايات المتحدة « وافقت للمرة الاولى منذ فشل مهمة كيسنجر في اذار

الماضي على دعوة وفد رسمي اسرائيلي الى واشنطن للتباحث في مسائل العون الامني والاقتصادي لاسرائيل » (هآرتس ، ٧٥/٨/٤). وكانت اجهزة الاعلام الاسرائيلية قد نشرت سابقا ان الولايات المتحدة اشترطت هذه الدعوة بنجاح التسوية الجزئية . وقد سافر هذا الوفد فعلا الى الولايات المتحدة في ٧٥/٨/١٠ (رال ، ١١ /٧٥/٨) .

وذكرت الاذاعة الاسرائيلية ان مباحثات الوفد الاسرائيلي في واشنطن ستشتمل على موضوع تمويل اقامة خط دفاعي جديد ، بعد الانسحاب من سيناء ، وعلى تعويض اسرائيل عن خسارة نفط حقول ابو رديس (المصدر نفسه) .

وبالاضافة الى الدلائل المذكورة ، هناك دلائل اخرى منها حديث المصادر الاسرائيلية عن عزم الدكتور كيسنجر القدوم الى المنطقة في ٧٥/٨/٢٠، وذلك بعد ان أعلن سابقا انه لن يحضر الى المنطقة الا اذا وصلت احتمالات النجاح في تحقيق تسوية جزئية الى نسبة ٩٠ ٪ . ومن ناحية ثانية، ذكر مراسل صحيفة هآرتس في واشنطن ان اسرائيل « وافقت على فكرة قبول التسوية الجزئية مقابل عدم طردها من الامم المتحدة » (دان مرغليت — هآرتس ، ٧٥/٧/٢٩) . ومن المعروف ان موقف مصر من هذا الموضوع في مؤتمر كمبالا ينسجم مع هذه « الفكرة » . ومن بين الدلائل التي قد تشير الى قرب احتمال الوصول الى تسوية جزئية ، ان اجهزة الاعلام الاسرائيلية وصفت الرد المصري الاخير ، الذي نقله السفير ايلتس في ٧٥/٨/٣ الى كيسنجر في بلغراد ، على انه « مخفف » ، على الرغم من ان هذه الاجهزة نقلت عن الاهرام تصريحا للرئيس السادات ، صدر بعد ذلك الرد ، مفاده انه لم يحدث اي تغيير في الموقف المصري وان مصر لن توافق على عقد اتفاق بدون الانسحاب من الممرات وابو رديس (جيروزاليم بوست ، ٧٥/٨/٥) .

ولعل من دلائل قرب التوصل الى اتفاق ايضا، ان كتلة ليكود المعارضة طلبت في ٧٥/٨/١٠ عقد اجتماع عاجل للكنيست الاسرائيلي على الرغم من عطلته الصيفية ، لمناقشة موضوع التسوية الجزئية مع مصر . وقد وجهت هذه الدعوة بعد اجتماع الحكومة الاسرائيلية الذي قدم فيه كلا من رابين وبيريس والون تقارير حول اخر ما وصلت اليه المفاوضات حول هذا الموضوع . وكانت الحكومة قد اصدرت في نهاية الاجتماع بيانا اعلنت فيه أن « الفريق المفاوض سيستمر في المفاوضات » (رال ، ٧٥/٨/١١) . وذكرت الاذاعة الاسرائيلية ان رئيس الحكومة سيجتمع في اليوم التالي (٧٥/٨/١١) بلجنة الخارجية والامن في الكنيست ، لتقديم تقرير حول الموضوع . وعلم ان كتلة ليكود طلبت عقد الاجتماع العاجل بحجة « عدم تزويدها بمعلومات موثوقة » حول اخر التطورات بشأن التسوية الجزئية (المصدر نفسه) .

اقتراحات مصر قبل « التخفيف »

نشرت المصادر الاسرائيلية مزيدا من التفاصيل حول « خارطة مصر » المقدمة في ٧٥/٧/٢٤ ، وهي الخارطة التي رفضتها اسرائيل « في مجملها » ، ثم قيل انها « خففت » من قبل مصر في ردها الذي نقله السفير الاميركي ايلتس الى كيسنجر في ٧٥/٨/٣ .

وذكر احد المعلقين ان اسرائيل رفضت الخارطة المصرية للاسباب التالية : (١) ان خط الانسحاب الاسرائيلي في الخارطة المصرية اعمق من الخط الذي اقترحته اسرائيل . (٢) خط الحدود داخل المنطقة العازلة الذي اقترحته مصر اعمق الى جهة الشرق مما اقترحته اسرائيل، (٣) يضع الاقتراح المصري علامات سؤال حول مسألة نقاط المراقبة سواء من حيث مواقعها او من يشغلها ، فمصر ترفض وجود اسرائيليين فيها وتوافق على وجود اميركي محدود هناك (يهوشاع طيرة — هآرتس ، ٧٥/٧/٢٧ .

وقال معلق اخر ان مصر ، في اقتراحها الاخير، ترفض التواجد الاميركي في اجهزة الانذار وتريد تعميق خط الانسحاب الاسرائيلي نحو الشرق ، بينما تريد تقديم خط تقدم جيشها نحو الاتجاه نفسه (حغاي ايشد — دافار ، ٧٥/٧/٢٧) .

وذكر مراسل في واشنطن ان مصر « لا تريد فقط انسحاب الجيش الاسرائيلي الى الشرق ولكنها تريد ايضا تقديم جيشها ، ليس فقط في كل المنطقة العازلة القائمة حاليا الى مسافة كبيرة الى الشرق

منها » (شموئيل سيغف — معاريف ، ٧/٣١/٧٥) .

واضاف مراسل اخر ان مصر تسعى لتحقيق ما يلي : (١) توسيع الممر البري من خليج السويس الى حقول ابو رديس اكثر مما اقترحت اسرائيل، وهذا يعني انسحابا اسرائيليا مسافة ٧ — ١٥ كم من الخليج . (٢) الانسحاب مسافة ٤٠ كم في شمال سيناء ، وهذا ما اقترحته اسرائيل في اذار الماضي ، ولكنها تراجعت عنه لانها اقترحت ذلك في حينه ، مقابل السيطرة على نصف الممرات. (٣) وافقت مصر على تواجد فنيين اسرائيليين فقط في ام خشيبه ، اما نقاط المراقبة الاربعة الاخرى فوافقت على أن يكون فيها امريكيون فقط (دان مرغليت — هآرتس ، ٨/١/٧٥) .

ونسب البعض (اريئيل غيناي — يديعوت احرونوت ، ٨/١/٧٥) الى مصر مجموعة اخرى من الطلبات ، منها تقديم قواتها مسافة ٨ كم الى الشرق من المنطقة العازلة القائمة حاليا ، وبحيث تحدد هذه المنطقة في الممرات بشكل لا يمكن معه الدفاع عن مطار رفيديم ، ويضعف الخط الدفاعي الاسرائيلي بكامله. اما بالنسبة لاجهزة الانذار فتريد مصر بقاء محطة انذار واحدة في ام خشيبه تحت العلم الاميركي ، بدون ان يشترك في تشغيلها خبراء اسرائيليون ، بل فقط عدد محدود من الخبراء الاميركيين . واما محطات المراقبة المصرية الثلاث في الممرات فتريد مصر ان يشغلها المصريون وحدهم .

ولكن المصادر الاسرائيلية ، على أي حال ، لا تتحدث عن « التخفيف » الذي طرأ على موقف مصر الاخير .

خارطة اسرائيلية بعد « الاخيرة »

بالرغم من ان اسرائيل اعلنت ان مقترحاتها المقدمة الى مصر في ٧/٤/٧٥ هي « الاخيرة » ، فقد تبين انها لم تكن الاخيرة فعلا ، اذ ان مقترحات جديدة قدمت بعدها . وعلق على ذلك مراسل في واشنطن بقوله ان اسرائيل كانت قد اعدت خارطتين في آن واحد ، الاولى للمساومة وتقترح انسحاب القوات الاسرائيلية حتى مسافة ٥ كم من الطرف الشرقي للممرات . ولما رفضت مصر هذه الخارطة قدمت لها الخارطة الثانية التي تقترح انسحابا اسرائيليا اعمق (دان مرغليت — هآرتس ، ٧/٢٨/٧٥) .

واما بخصوص مدى عمق هذا الانسحاب الاسرائيلي في الخارطة الثانية ، فقد ذكر ان الفريق الاسرائيلي المفاوض وافق على أن تبقى القوات الاسرائيلية في مساحة عمقها ٥را كم في ممر الجدي،واخرى عمقها ٣٠٠ م فقط في ممر المتلا (يوسف حاريف — معاريف ، ٨/١/٧٥) .

اخطاء رابين

في معرض الحديث عن تغيير الخرائط الاسرائيلية وجه نقد الى رئيس الحكومة يتسحاق رابين واتهم انه وقع في اخطاء اوجبت تعديل المقترحات التي قدمها الى واشنطن . فقد ذكر احد المراسلين ان رابين اخطأ عندما التقى مع الرئيس فورد ووافق على تقدم القوات المصرية في المنطقة العازلة حاليا مقابل بقاء القوات الاسرائيلية في جزء من الممرات، «الامر الذي عرض رابين الى نقد شديد في القدس» لان تقدم القوات المصرية لا يعني فقط ان مصر ستربح ١٠ كم بل سيكون ذلك بمثابة الغاء لمبدأ نزع سلاح كل منطقة تخليها اسرائيل ، وسيكون سابقة في المستقبل . واضاف المراسل « ان رابين اضطر بعد ذلك ان يرسل مستشاره العسكري افرام بوران الى واشنطن سرا لتعديل الخارطة التي كان قد اقترحها .. وفي هذه الخارطة [الجديدة] طلبت اسرائيل البقاء في مناطق واسعة في الممرات ، ولكن الولايات المتحدة رفضت تسليم هذه الخريطة الى مصر » (فان مرغليت — هآرتس ، ٨/١/٧٥) . واعلن البعض ان الولايات المتحدة تضغط بشدة على اسرائيل وتقول « ان السادات تعب من المماطلة الاسرائيلية » (المصدر نفسه) .

وانتقد احدهم يتسحاق رابين لانه اخطأ في تقدير الرئيس فورد ، اذ عندما اقترح وزير الدفاع شمعون بيريس التواجد الاميركي في اجهزة المراقبة رد رابين ان الولايات المتحدة لن توافق على ذلك . وبناء عليه ، قرر ان يقترح خارطة انسحاب « كريمة » بشرط ان يتواجد خبراء اميركيون في اجهزة المراقبة ، ظنا منه أن الولايات المتحدة سترفض الاقتراح ، ولكنه اكتشف — بعد فوات الاوان — ان « فورد مستعد لان يدفع غاليا

مقابل عقد اتفاق التسوية الجزئية » (شموئيل سيقف — معاريف ، ٧٥/٨/٣) .

واشارت مصادر معينة ان بعض الوزراء ، وخاصة يسرائيل غليلي (عضو كتلة احدوت عفوداه في حزب العمل) يتحفظ على الوجود الاميركي في اجهزة المراقبة وذلك لاعتبارين : (١) الخشية من أن يصبح ذلك مجرد سابقة ، نيطلب الشيء نفسه من اسرائيل في حال الانسحاب في الجولان او في الضفة الغربية ، مقابل وضع قوات مراقبة اميركية (يوسف حاريف — معاريف، ٧٥/٨/١) . (٢) « اذا كان الاتراك قادرون على طرد الاميركيين ، واذا كان الفيتناميون قد فعلوا ذلك ، فان العرب قادرون على طردهم من اي مكان يوضعون فيه » (اوري دان — معاريف ، ٧٥/٧/٢١) .

غير أن رابين تعرض للنقد لاسباب اخرى ايضا، لخصت على النحو التالي : (١) صرح للتلفزيون الاسرائيلي انه يرفض المقترحات المصرية قبل أن يسلم السفير سمحا دينتس رد اسرائيل عليها الى كيسنجر ، وبهذا خلق الانطباع لدى الرأي العام الاميركي ان اسرائيل عنيدة . (٢) في الوقت الذي قال فيه كيسنجر في احاديث خاصة ان اسرائيل تخلت عن معظم شروطها ، صرح رابين ان الاتفاق لن يتم الا بالمفاوضات المباشرة ، وهذا ايضا قوى الانطباع حول تصلب اسرائيل . واما السادات فيرفض بدون ان يقول « لا » ، مما يظهره كمعتدل . لذلك يجب ان يستبدل رابين في مجال التصريحات بالون وبيريس ، اللذين يقولان الشيء نفسه بلغة اكثر ايجابية . (٣) اخطات حكومة اسرائيل عندما تنازلت ووافقت على قبول التسوية مقابل عدم طردها من الامم المتحدة ، وكذلك (٤) عندما تنازلت عن مبدأ جعل كل منطقة تخليها منزوعة السلاح (دان مرغليت — هآرتس ، ٧٥/٧/٢٩) .

الخلاف الداخلي مستمر

يفهم من التعليقات والانباء الواردة من اسرائيل ان الخلاف الداخلي هناك حول قبول او رفض التسوية الجزئية لا يزال قائما ، ليس بين الكتل والاحزاب فقط ، بل بين اعضاء الحزب نفسه في الكتلة نفسها وهو موجود ايضا بين وزراء الحكومة الائتلافية . ويعتقد بعض المراسلين ان الفريق الاسرائيلي المفاوض لن يحصل على موافقة اكثرية الوزراء على اقتراحاته اذا «تمادى» في التنازلات (يوئيل ماركوس — هآرتس ، ٨/٤/ ٧٥) . والاراء ليست موحدة في المعراخ (حزب العمل — حزب مبام) ، ولا في حزب العمل نفسه وحتى ليس داخل الكتل الثلاث التي يتألف منها . فعلى سبيل المثال ، ينتمي كل من يسرائيل غليلي ويغئال الون الى كتلة احدوت هعفوداه في حزب العمل ، ولكن الاول يوصف بأنه « صقر » بينما يوصف الثاني على أنه « حمامة » . وفي كتلة ليكود المعارضة حاول بعض الاعضاء القياديين في حزب الاحرار دفع الكتلة الى التخلي عن المبدأ الذي تبناه وهو « لا انسحاب بدون معاهدة سلام » ولكنهم فشلوا . وذهب احدهم ، وهو النائب ابراهام كاتس « الى حد الحديث عن امكانية اقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية » (شلومو نكديمون — يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/١) ، وفي معسكر المتدينين يقال ان جماعة « حمائمية » تعمل على تنظيم نفسها لتكون وزنا مضادا لجماعة ايمونيم المتطرفة . واما القوى السياسية التي تطلق على نفسها اسم « معسكر السلام » ، والتي تمثل جانبا صغيرا من المجتمع الاسرائيلي ، مثل جماعة ياعد وموكيد و« بقايا » حركة حقوق المواطن وهاعولام هازيه ، وغيرها ، فتنشط من اجل الموافقة على التسوية الجزئية وتنادي بالحل الشامل المتمثل باقامة دولة فلسطينية والانسحاب مقابل الاعتراف باسرائيل . وفي ٧٥/٧/٢٧ عقد بعض هؤلاء ندوة في بيت سوكولوف في تل ابيب اشترك فيها كلا من البروفيسور يشعياهو ليبوفيتش واوري افنيري والجنرال المتقاعد يوسف جيفع ، فدعا الاول الدول الكبرى لفرض حل في المنطقة « لان ذلك هو الحل الوحيد الكفيل بمنع حدوث كارثة في الشرق الاوسط » (هآرتس ، ٧٥/٧/٢٨). كذلك طالب افنيري باقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بينما طالب الجنرال جيفع بالانسحاب بمقابل السلام (المصدر نفسه).

أما بالنسبة للرأي العام الاسرائيلي فقد اجرت صحيفة يديعوت احرونوت (٧٥/٨/١) استقصاءا اظهرت نتيجته ان ٤٥٫٨ ٪ ، من بين الذين اشتركوا في الاستفتاء ، يؤيدون التسوية الجزئية

القائمة على أساس وقف اطلاق النار لمدة ٣-٤ سنوات وموقع اسرائيلي في السفوح الشرقيــة للممرات واستمرار الدعم الاميركي . واما نسبــة المعارضين فكانت ٥ر٣٩ ٪ . وقد عارض الوجود الاميركي في اجهزة المراقبة ٥ر٤٤ ٪ ووافق عليه ١ر٣٩ ٪ . ولم يكن لدى الباحثــين رأي بخصوص الموضوعين .

ومن الجدير بالذكر ان ابا ايبن وزير الخارجية السابق ، وهو من قادة مباي في حزب العمل ، دعا مؤخرا الى وجوب التوصل الى تسوية جزئية في سيناء ، « لان السؤال الان ليس ما هو حسن وما هو شر بالنسبة لنا ، بل السؤال مـا هو اهون الشرين ؟ اننا نشبه شخصا قفز من الطائرة ولا يستطيع العودة لها ، والمهم هو الوصول الى الارض بدون كسر اعضاء الجسم » (معـاريف ، ٧٥/٨/٤) .

استمرار التطلع الى الاتحاد السوفييتي

منذ بدأ الحديث عن « ضغوط » اميركية تمارس على اسرائيل لحملها على الموافقة على تسويـة جزئية في سيناء ، ارتفعت من حين لآخر اصوات تدعو الى اشراك السوفييت ايضا في التسوية ، حفاظا على مصالح اسرائيل وخشية ان « تنفرد » اميركا بها . وعلق بعضهم على الموقف الاسرائيلي بقوله : « ان سياسة اسرائيل تهدف الى تأجيل الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ . واحدى الطـرق لتجميد مسألة الحدود النهائية هي ايجاد طريـق لاشراك السوفييت ايضا في المرحلة الحالية مـن التسويات الجزئية ، وتمكينهم من تجديد العلاقات الديبلوماسية معنا . ان الولايات المتحدة ستفرض علينا ان آجلا او عاجلا الاشتراك السوفييتي في حل الازمة ، ولكن عندها لن نستفيد من التواجد السوفييتي . لذلك يجب علينا اقتراح وضع قوات سوفييتية - اميركية بالاضافة الى قـوات الامم المتحدة في اطار التسويات الجزئية مــع مصر وسوريا (حغاي ايشد - دافار ، ٧٥/٨/٤) .

وكان معلق اخر قد اشار قبل ذلك الى هـذا الموضوع بقوله : « ان سياسة اسرائيل هــي التوصل الى تسوية جزئية بهدف الاستقرار ومنع الحرب في السنوات القليلة القادمة . ومن يريد ذلك عليه ان يعلم ، انه يجب ان تكـون هنـاك تسوية جزئية موازية مع سوريا باشتراك السوفييت النشط . ان التسوية مع مصر مرهونة بالولايات المتحدة وبها مرهون العون العسكري والاقتصادي، [ولكن] هناك ثلاثة اشياء مرهونة بالاتحـاد السوفييتي وهي : الحرب والسلام والهجرة ... ان الاميركيين يعلمون ان الوضع قد يتردى الـى انفجار جديد بدون تسوية مع سوريا برعايـة سوفييتية وبدون تقدم نحو الحـل الشامل ... والتسوية الجزئية في سيناء هي مصلحة اميركيـة ليس اقل مما هي مصلحة مصرية ، واكثر مما هي مصلحة اسرائيلية »... (هليل دانتسيـغ - دافار ، ٧٥/٨/١) .

وقسم البعض دول الشرق الاوسـط الـى « ركيزتين : الركيزة الجنوبية وهي ركيزة الولايات المتحدة المؤلفة من القاهرة - الرياض - طهران، والركيزة الشمالية وهي السوفييتية ، المؤلفة من سوريا والعراق بالاضافة الـى م.ت.ف. ... واسرائيل تقف بين الركيزتين المتنافستين ، ولذلك عليها أن تحافظ على مكانة متوازنة بينهما بقـدر الامكان وخاصة بين الدولتين الكبيرتين الوصيتين عليهما ، فهذا قد يحسن وضعنا في المنطقـة ، وقد يحسن امكانيات الهجرة الى اسرائيل ... » (المصدر نفسه) .

سوريا بعد مصر

رغم ان الجهـود مركـزة الان على التسوية الجزئية مع مصر ، يستفاد مــن التصريحـات والتعليقات الاسرائيلية انه من غير المستبعد ان تكون الخطوة التالية ، في حال نجاح التسوية في سيناء ، اجراء مفاوضات مع سوريا بهدف الوصول الى تسوية مماثلة في الجولان . وقد صرح وزيـر الدفاع بيريس أنه « بعد التوصل الى اتفاق حول التسوية الجزئية مع مصر ستأخذ اسرائيل فـي الحسبان تسوية جزئية مع سوريا ، تضمـــن لاسرائيل السيطرة على المرتفعات الاستراتيجيـة، وبدون ان تعرض المستوطنات للخطر » (جيروزاليم بوست ، ٧٥/٨/٥) .

وصرح وزير الخارجية السابق ابا ايبن « ان كل من يعتقد ان الهدوء سيسود في المنطقة بعـد تحقيق اتفاق حول تسوية جزئية مع مصر سيكون واهما ، لانه بعد هذا الاتفاق ستبقى كل اسس

الخلاف مع العالم العربي على ما كانت عليه » (معاريف ، ٧٥/٨/٤) . وقد قال ابين ذلك في معرض دعوته للتوصل الى تسوية جزئيـة فـي سيناء .

وفي الوقت نفسه واصلت اجهـزة الاعـلام الاسرائيلية الحديث عن انه بعد عقد الاتفاق مع مصر « سيكون هناك ضغط على اسرائيل من اجل الانسحاب في الجولان » (يهوشاع حلميش ــ دافار ، ٧٥/٧/٢٨) .

يوسف حمدان

[٢]

مخطط جديد لمصادرة الاف الدونمات من الاراضي العربية تنفيذاً لسياسة تهويد الجليل

صادقت الحكومة الاسرائيلية ، قبل اكثر مـن شهرين ، على خطة رئيسية لاعادة توزيع السكان اليهود في اسرائيل ، الذين يفترض ان يصل عددهم بموجبها الى خمسة ملايين نسمة في سنة ١٩٩٢، منهم ٤ر١٨٠٠٠٠ من اليهود . أما المبدأ الموجه لهذه الخطة فهو خفض عدد السكان اليهود فـي مركز البلد وزيادتهم في الشمال والجنوب ، وخاصة في القدس (معاريف ، ٧٥/٥/١٩) . والبنـد الرئيسي في هذه الخطة هو تهويد منطقة الجليل ، التي تعيش بها اكثرية عربية حتى الان ، وذلك بواسطة مصادرة المزيد من اراضي العرب هناك واقامة المستوطنات اليهودية عليها . وبحسب هذه الخطة ستزيد نسبة السكان اليهود في الجليـــل بالمقارنة مع مجموع سـكان اسرائيل اليـوم من ٦ر٧ ٪ او ٤ر١٢ ٪ في سنة ١٩٩٢ ، بحيث تصبح نسبتهم في تلك السنة ٥٩ ٪ من سكان الجليل . ويفترض ان يكون أساس الزيادة ، بحسب الخطة، في الجليل الغربي ، حيث تبلغ نسبة السكـان اليهود هناك ٣٧ ٪ فقط ، بحيث يتوقع ارتفـاع هذه النسبة الى ٤٧ ٪ . كذلك تطرقت الخطـة الى وضع الناصرة العليا ، التي يفترض ان يصل عدد سكانها ، في سنة ١٩٩١ ، الى ٤٤ الـف يهودي (المصدر نفسه) .

ليست هذه هي الخطة الاولى التي تضعهـــا المؤسسات الاسرائيلية لتهويد واستيطان الجليل، فقد سبقتها عدة خطط ومشاريع ــ منها ما نفـذ ومنها ما بقي حبرا على ورق حتى هذا اليوم ، الا ان المميز لها هو أنها تعبر عن الموقف الرسمي للحكومة الحالية تجاه مسألة تهويد الجليل، التي أصبحت تغشية الاستيطان الاولى ، داخل اسرائيل، التي تتبناها كل حكومة جديدة منذ عهد اشكول . «فقد بدأت قصة تهويد الجليل منذ مطلع الستينات، وكان احد الاشخاص البارزين الذين دعموها ليفي أشكول ، رئيس حكومة اسرائيل انذاك » (ملحق دافار ، ٧٥/٣/١٤) . امـا السبب الرئيسي في اثارة هذه المسألة ، في الماضي والحاضر ، فهو وجود اقلية يهودية في الجليل ، مقابل اكثريـة عربية ، بالمقارنة مع مجموع كل من السكـان اليهود والعرب في اسرائيل . « ففي سنة ١٩٦١ وصل عدد سكان الجليل الى ٢٣٧ الف نسمـة وبلغت نسبتهم بين مجموع السكان في اسرائيل ٥ر١٥ ٪ ، بينما وصل عددهم في سنة ١٩٧٢ الى ٤٧٣ الـف نسمـة ، ولكـن نسبتهـم بـين سائـر السكـان انخفضت قليـلا . امـا نسبة اليهود سكان الجليل فقد انخفضت من ٥٨٪ الى ٥٢ ٪ [خلال هذه الفترة] . وقد نجحت فقط كرميئيل والناصرة العليا ومغدال هاعيمك في زيادة عدد سكانها ، اما باقي المستوطنات فمـا زالت تتعثر في مكانها اكثر من عشر سنين . أي ان هناك خطرا على وجود اكثرية يهودية فـي الجليل . ويتساءل بعض الاشخاص وبينهم رئيس قسم الاستيطان في المنظمة الصهيونية ، الدكتور رعنان فايتس ، كيف يمكن تجنب خطر ان يصبح

الجليل بمثابة [امتداد] لجنوب لبنان اكثر من كونه شمال اسرائيل بعد بضع سنوات ؟ » (المصدر نفسه) .

وتحدث وزير الاسكان الاسرائيلي ابراهام عوفر (في حديث مع ملحق دافار ، ١٩٧٤/٩/١٣) عن سياسة حكومته ازاء مسألة تهويد الجليل ، قائلا : « ليس سرا ان رغبة الحكومة تتمثل في وجود اكثرية يهودية في كل منطقة من مناطق البلد. وبالنسبة للوضع في الجليل فان نسبة سكانه اليهود تصل اليوم الى ٥٤ ٪ مقابل ٤٦ ٪ من العرب . واذا لم نخصص اهتماما كبيرا لزيادة ومضاعفة عدد السكان في هذه المنطقة ، فهناك خوف كبير من أن يتحول [المستوطنون اليهود] خلال زمن قصير الى اقلية بين سكان الجليل ، وذلك بسبب التكاثر الطبيعي بين السكان العرب » . ويواصل عوفر حديثه قائلا : « يجب علينا مضاعفة عدد السكان اليهود في الجليل الذين يبلغ عددهم اليوم نحو ربع مليون شخص ، لكي يصل الى نصف مليون خلال عشر سنين » . كذلك اشار عوفر الى انه ينوي تقديم مشروع بناء الى الحكومة للمصادقة عليه ، يرتكز على مضاعفة نسبة البناء في الجليل وزيادتها من ١٢ ٪ الى ٢٥ ٪ في السنة ، من مجموع اعمال البناء في كافة انحاء اسرائيل (ومن الجدير بالذكر ان وزير الاسكان عوفر يصنف كـ « حمامة » ويعارض الاستيطان في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧) . وقبل اعلان عوفر هذا بنحو شهرين ، اعلن مدير قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية يحيئيل ادموني ، ان الوكالة وضعت خطة لاسكان ١٥ الف عائلة في الجليل خلال السنوات الخمس المقبلة ، واقامة ٦ — ٧ مستوطنات جديدة في المنطقة (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٧/١٤) .

المشاكل الامنية والاقتصادية والاجتماعية تعيق خطط تهويد الجليل .

يتزايد الحديث بعد كل عملية فدائية في الجليل، خاصة من قبل المسؤولين الاسرائيليين عن اهمية تهويد الجليل ، « ففي كل مكان في شمال البلد تعرض له المخربون ، قدم وزراء ورؤساء مؤسسات واعضاء كنيست ، ووعد الجميع بتقوية الاستيطان في الجليل . وفي كل مكان طالب رؤساء السلطات المحلية باضافة مساكن ، واقامة مصانع ، وفي الاساس زيادة عدد السكان من اجل تقوية المستوطنات ، خاصة مستوطنات الحدود »(يهودا اريئيل — هآرتس ، ٧٥/٧/١١) . غير انه يبدو ان هذه التصريحات والوعود لم تجد نفعا ، ولم تردع الكثير من اليهود عن ترك الجليل والتوجه للسكن في مناطق اخرى في اسرائيل اكثر امانا ، الامر الذي تتجنب مختلف وسائل الاعلام في اسرائيل نشره . وعندما تتجرأ وتقوم بذلك ، تكتفي بالاشارة الى المشاكل الاجتماعية والاقتصادية محاولة الايحاء كأن هذه المشاكل هي السبب الوحيد وراء عملية النزوح هذه . وقد جاء في الانباء بعد عملية كريات شمونه (الخالصة) ان عددا من العائلات قد نزحت عن هذه المستوطنة . واعلن ابراهام الوني رئيس بلدية كريات شمونه في ذلك الحين ، ان نحو ١٥٠ عائلة قد نزحت من المستوطنة خلال ثلاثة اشهر ، ومعظمها من العائلات القديمة في المكان ، الا ان النائب يوسي ساريد ، وهو من سكان البلدة ،اعلن أن عدد العائلات النازحة يصل الى ٥٠٠ عائلة . « ويعتقد ساريد ان المشكلة الامنية والخوف من عمليات الفدائيين ، تقلق سكان كريات شمونه » (هآرتس، ١٩٧٥/٢/٣) .

ومن ناحية ثانية ، من الواضح ان المشاكل الاقتصادية والاجتماعية ، وخاصة مشاكل السكن والعمل والتعليم ، تؤثر على عملية تهويد الجليل. وتختلف حدة هذه المشاكل بين مستوطنة واخرى في الجليل ، بحسب نوعية السكان اليهود واصلهم . « ومن ناحية عملية يواجه المخططون ثلاثة قضايا اساسية تتطلب الحسم : (١) كيف يمكن تأمين عمل لعشرات المستوطنات الزراعية في جبال الجليل ، خاصة لسكان الجيل الثاني في هذه المستوطنات ، الذين لم يعد باستطاعتهم الاعتماد على الزراعة كمصدر لاعالتهم ، بسبب النقص في الارض والمياه . (٢) كيف يمكن جذب السكان الى بعض مدن الاعمار التي تعاني من نزوح المثقفين واصحاب الكفاءات ، وتجمع [العائلات التي تعيش] على الاعانات الاجتماعية . (٣) كيف يمكن اضافة مستوطنات في الاماكن الخالية ، من اجل خلق استمرارية اقليمية من الاستيطان المديني والزراعي في الجليل كله » (يوفال

اليشـور ــ معاريف ، ١٩٧٥/٥/١٨) . ويعمـل المسؤولون عن الاستيطان في الجليل ، على ايجاد حلول لهذه القضايا بواسطـة تنشيط البنـاء ، وايجاد حلول لمشاكل التعليم ، واضافة وحـدات زراعية الى المستوطنات ، ثم اقامة صناعـات مختلفة لايجاد اماكن عمل للسكان اليهود . الا انه يبدو ان تلك الحلول لم تكن كافية . فبالنسبـة لمشاكل السكن « جرى مؤخرا بحـث بين ادارة وزارة الاسكـان وبـين رؤساء مدن الاعمـار في الجليل ، بشأن زيادة البناء في الشمال . ودار الحديث خلال هذا البحث حول زيادة نسبة البناء التي تخصصها وزارة الاسكان للجليل من ١٦٪ الى ٣٢٪ ... كذلك كانت وزارة المعارف والثقافة قد وعدت منذ سنين بتقوية شبكة التعليم في الجليل بواسطة احضار معلمين جيدين ، يمكنهم السكن في المنطقة نفسها . الا انه لم يحدث تقدم في هـذا الموضوع ، وربما بسبب مشاكل السكن » (يهودا اريئيل ــ هآرتس ١٩٧٥/٧/١١) . اما بالنسبة لاقامة المصانع ، « فقد بدأت تظهر في معلـوت ، شلومي ، كرمئيل ومحانايم المباني الصناعية ، وينتظر انتقال المصانع اليها . ولكن هل ستتوفر لها الطاقة البشرية الكافية للانتـاج ، او انـه سيتكرر ما حدث في مصنع جيبور (للجوارب) في معلوت ، الذي اقيم من اجل سكان معلوت، ويعمل فيه اساسا ابناء القرى العربيـة . واية قيمـة ستكون لهذه المصانع اذا لم يسكن خبراؤها في المنطقة ؟ » (المصدر نفسه) .

تهويد الجليل على حساب مصادرة الاراضي العربية

تعتزم الحكومة الاسرائيلية القيام بجولة جديدة من مصادرة الاراضي العربية ، لاقـامة مستوطنات جديدة عليها او لتسليمها للمستوطنـات القائمـة لتوسيع رقعة اراضيها ، بهدف تنفيذ خططهـا الخاصة بتهويد الجليل . وعلم ، عند البحـث في عمليات المصادرة المقترحة ، ان الجنرال المتقاعد مئير زورياع مدير مديرية عقارات اسرائيل ، اضطر مؤخرا الى نض جلسـة لجنـة مصادرة الاراضي القطرية التي يرئسها والتابعة لوزارة الماليـة ، وذلك على اثر خلاف شديد بـين المديرية وبـين مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية شموئيل طوليدانو ، حول حجم المصادرة (معاريف ودافار، ١٩٧٥/٦/١٦) . « وتنظرا لفض الجلسـة فـان الموضوع سيحـال عـلى الحكومة لاتخاذ قـرار بشأنه » . وذكر ان « الخلاف نابع من المخطـط الجديد الذي وضعته مديرية عقارات اسرائيـل لمصادرة الاف الدنمات من الاراضي [العربية] ، خصوصا في منطقة الناصرة العليا وكرميئيل وصفد، من اجل تطوير هذه المدن ضمن مخطط استيطـان الجليل . وفي الجلسة التي جرى نضها ، اكـد زورياع انه لا يمكن تنفيذ مخطط استيطان الجليـل بدون مصادرة اراض . اما طوليدانو فقد رد عليه بقوله ان مصادرة الاراضي بالحجم الذي قررتـه مديرية عقارات اسرائيل ، ستكون له انعكاسات سياسية واقتصادية بعيدة المدى . لذلك لا يحـق لهذه اللجنة ان تقرر في هذا الامر الذي هو مـن اختصاص الحكومة » . وتقرر بالتالي احالة امر المصادرة الى الحكومة (المصدر نفسـه) . كذلـك وقع خلاف بين اعضاء كتلة المعراخ في الكنيسـت اثر البحث في موضـوع مصادرة الاراضـي في الجليل . وقد اشار وزير المالية ، الذي اشترك في النقاش ، الى ضرورة تنفيذ المصادرة ، واضاف انه بعد الانتهاء من وضع الخطة بكاملها في وزارة المالية والحكومة ، ستعرض ايضا على كتلـة المعراخ في الكنيست . ويبـدو ان التخوف مـن ردة فعل السكان العرب في الجليل ، كـان مصدر تحفظ بعض المشتركين في النقـاش عـلى مخطط المصادرة (دافار ، ١٩٧٥/٦/١٦) .

وعلم ، من جهة اخرى ، ان القرى العربيـة التي ستتعرض اراضيها للمصادرة هي الرينة ، كفركنا ، دير حنا ، يانوح ، كسرى ، سخنـين ، عرابة ، جولس ويركا وغيرها ، وتقع معظم هذه القرى في وسط الجليل . وتقدر مساحة الاراضي التي تعتزم السلطات مصادرتها بخمسة الاف حتى عشرة الاف دونم ، « رغم ان المطلوب في هـذه المرحلة هو نحو ٣٠ الف دونم « لتنفيذ خطة تهويد الجليل باكملها (تسفي البيليغ ــ دافار ، ٧/٣١/ ١٩٧٥) . ويظهر ان هناك هدفين لعملية المصادرة هذه ، اولهما توسيـع الاستيطـان اليهودي في الجليل ، وثانيهما ، نقل بعض المصانع العسكرية من مركز البلد الى مناطق بعيدة في الشمال ، ثـم توسيع مشاريع صناعية قائمة واقامـة مناطـق وقرى صناعية جديدة (المصدر نفسه) .

ومن المعروف ان السلطات الاسرائيلية كانت قد صادرت في الماضي مساحات كبيرة من الاراضي التي يملكها العرب ، تنفيذا لسياسة تهويد الجليل . فبعد حرب ١٩٥٦ صادرت السلطات نحو ١٢٠٠ دونم من اراضي الناصرة لاقامة مدينة الناصرة العليا عليها ، وكذلك صادرت في سنة ١٩٦١ نحو ٢٠٠٠ دونم من الاراضي العربية الواقعة في سهل البطوف والتابعة لقريتي عرابة وسخنين ، لاستعمالها في مشروع تحويل مياه نهر الاردن . وفي اواخر السنة نفسها صادرت مساحته ٥١٠٠ دونم من الاراضي التابعة لقرى دير الاسد والبعنة ونحف الواقعة في مركز الجليل على الطريق الرئيسية عكا – صفد ، وذلك لاقامة مدينة كرميئيل عليها . وهذا عدا عن الاراضي التي استولت عليها اسرائيل خلال حرب ١٩٤٨ وبعدها، ثم صادرتها ، من معظم القرى العربية في الجليل. ويبدو ان الحكومة الحالية ماضية في سياسة المصادرة هذه ، رغم ما اثارته في الماضي من سخط واستنكار شديدين بين العرب .

وفي اطار تقوية الاستيطان في الجليل ، اعلن ايضا ان وزارة الزراعة وقسم الاستيطان في الوكالة اليهودية قد شنا مؤخرا حملة قوية « للقضاء على وباء تأجير الاراضي والبساتين [من قبل اليهود] للبدو والفلاحين العرب في الجليل الغربي » (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٣) . وقد اعلن مدير قضاء الجليل في الوكالة اليهودية اهرون نحماني ان دائرته ارسلت تعميمات لجميع المستوطنات تحذرهم بها « بأن تأجير الاراضي الوطنية للعرب وتسليمهم البساتين من اجل قطفها وتسويقها يعارض القانون وانظمة المؤسسات الموطنة والحركات الاستيطانية » . وكانت حكومة اسرائيل قد عملت في السابق على سن قانون يمنع المستوطنين اليهود من تأجير اراضيهم للعرب او السماح لهم باستغلالها ، تحت طائلة مصادرة حقوقهم في تلك الاراضي . ووصف اعضاء بعض المستوطنات في الجليل ، الذين يعارضون تأجير الارض للبدو والعرب في الجليل الغربي ، هذه الظاهرة ، الشائعة في الاساس في منطقة طبريا وضواحيها ، بانها خلقت « منطقة استيطان للعرب » ، وانها ظاهرة « سلبية جدا » يمكن ان تضر بالاستيطان اليهودي في الجليل ، واشاروا الى ان هذه الظاهرة تتمثل في تأجير الاف الدونمات في الجليل للبدو والعرب من قريتي سخنين وعرابة (المصدر نفسه) . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه الاراضي كانت ملكا لابناء هذه القرى نفسها في الماضي .

محاولة اعادة اهالي قريتي اقرت وكفر برعم الى بيوتهم

في الوقت الذي يدور فيه الحديث حول مخطط مصادرة جديد للاراضي العربية ، بدأت ترد الاخبار حول احتمال سماح الحكومة الاسرائيلية بعودة اهالي قريتي اقرت وكفر برعم الى قراهم . وكانت قوات الجيش الاسرائيلي قد طردت اهالي القريتين من منازلهم بعد احتلال قراهم سنة ١٩٤٨، ولا زالوا يعيشون كلاجئين في القرى المجاورة في الجليل ، خاصة في قريتي الجش والرامة . ان قصة نضال اهالي هاتين القريتين للسماح لهم بالعودة الى منازلهم معروفة منذ قيام اسرائيل ، وخاصة خلال حكم غولدا مئير . الا ان طلباتهم هذه كانت ترفض دائما . وكانت الحكومة السابقة قد اتخذت قرارا في شهر تموز ١٩٧٢ يقضي بعدم السماح لاهالي القريتين بالعودة الى منازلهم ، لان ذلك سيؤدي الى خلق سابقة خطيرة في اسرائيل ، بسبب وجود الكثير من القرى التي هجرها سكانها في سنة ١٩٤٨ ، والذين لا زالت اعداد منهم تعيش في قرى اخرى داخل فلسطين مثل سحماتا ، البروة ، الكويكات ، عين حوض ، وام الزينات وغيرها . ويبدو ان هناك اتجاها داخل الحكومة الحالية يطالب بالسماح لهؤلاء العرب بالعودة الى قراهم ، بشرط ان يتخلوا عن المطالبة باراضيهم التي كانوا يملكونها قبل قيام اسرائيل ، والتي سلمت للمستوطنات المجاورة . ويدعم هذا الاتجاه نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية الاسرائيلي يغئال الون ، الذي تقدم مشروع قرار الى الحكومة يقضي بالموافقة على عودة سكان القريتين . « ولكن هذا القرار ينطبق فقط على اولئك الذين لم يستوطنوا حتى الان بصورة متفق عليها مع الاوساط الحكومية » (رأا ، ١٩٧٥/٧/٢٦) . وهناك مشروع قرار اخر ، وهو مشروع الوزيرين موشي كول وشلومو روزن ، يدعو الى السماح لعرب اقرت وكفر برعم بالعودة الى القريتين ، دون اية شروط

مسبقة . ومع ان الحكومة لم تتخذ حتى الان قرارا رسميا بشأن اعادة اولئك السكان يظهر ان هـذا القرار اصبح شبه مؤكد ، بعدما اقتنعت الحكومة على ما يبدو بأنهم لا يشكلون « خطرا على الامن »، وان عودتهم لا يمكن ان تخلق سابقة في اسرائيل . وقد علق مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، شموئيل طوليدانو ، على هذه المسألة بقوله : « هناك حديث عن ٢٢ قرية مهجورة ، قد يطالب سكانها السابقون بالعودة اليها . والواقع انه لا توجد ٢٢ قرية مهجورة على غرار اقرت وكفر برعم ... اذ ان معظمها قد دمر كليا ، وفي جزء منها مساكن لليهود ومستوطنات يهودية ، وليس بالامكان المقارنة بين قرية اقرت او كفر برعم وبين قرية ابيدت ولم تعد قائمة وسكانها غير موجودين . هناك ٦ — ٧ قرى من هذا النوع فقط ، اي انها لا تزال قائمة وسكانها يعيشون في اسرائيل » (المصدر نفسه) .

اما بالنسبة لموقف اهالي القريتين فيبدو انهم موافقون على العودة الى قراهم والتخلي عن اراضيهم . وعلق احد سكان كفر برعم ، ايوب مطانس (في حديث مع دافار ، ١٩٧٥/٧/٣١) على هذا الاقتراح بقوله « اننا نعرف ان اراضينا (١٢ الف دونم بحسب قوله) قد وزعت بين الكيبوتسات والمستوطنات في المنطقة لذا لن نستطيع الاعتماد على الزراعة ، لذلك ، يجب الا تخشى هذه المستوطنات والكيبوتسات من سلبها الاراضي التي تقوم بزراعتها ... سننشيء قرية سكنية تعتمد على الصناعة البسيطة ، خاصة وان معظم سكانها مقاولون وعمال بناء او موظفون ... » . الا ان هذا الوعد من جانب الاهالي ، بعدم المطالبة باراضيهم ، لم يقنع على ما يبدو جميع سكان المستوطنات اليهودية المجاورة : مثل شوميره ، زرعيت ، ابن مناحم وغورين ، الذين اجتمعوا من اجل البحث في الخطوات التي ينبغي عليهم اتخاذها لمنع عودة اهالي القريتين (هآرتس، ١٩٧٥/٧/٢١) . وعلم ان شركة مكوروت للمياه قد قامت بمد خط انابيب مياه لقريتي اقرت وكفر برعم بتصديق من مكتب مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية ، الامر الذي اثار غضب سكان المستوطنات المجاورة (دافار ، ١٩٧٥/٨/١) .

امتصاص نقمة العرب

يبدو ان هناك تفسيرين لموقف الحكومة الاسرائيلية التي قد تسمح بعودة اهالي قريتي اقرت وكفر برعم ، بعد نضالهم الطويل الذي استمر بدون انقطاع منذ قيام اسرائيل . والتفسير الاول هو ان السلطات ترغب في امتصاص نقمة السكان العرب في الجليل على عملية المصادرة المتوقعة ، التي ستؤدي بدون شك الى اثارة موجة من السخط والاستنكار بين العرب في اسرائيل ، والى تأزم في العلاقات القائمة بينهم وبين السلطات الاسرائيلية ، الامر الذي يخشاه المسؤولون عن القطاع العربي .

اما التفسير الثاني فهو ان الحكومة الاسرائيلية لم تعد قادرة على معارضة طلب سكان القريتين ، الذين كسبوا تأييدا كبيرا بين الرأي العام ، وداخل الكنيست ايضا ، بحيث لا تستطيع تجاهل هذه القضية بعد الان كما فعلت الحكومات السابقة .

حنه شاهين

[٣]

اسرائيل تنشط لاحباط محاولات طردها من الامم المتحدة

تصدر موضوع طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، خلال الاسبوعين الماضيين ، العناوين الرئيسية ونشرات الاخبار والتعليقات ، والتصريحات الرسمية وشبه الرسمية في كافة انحاء العالم تقريبا . ومنذ ان اعلنت منظمة التحرير الفلسطينية عن نيتها في العمل على طرد اسرائيل وبادرت بنشاط ديبلوماسي واسع ، في مؤتمر جده ومؤتمر منظمة الوحدة الافريقية في كمبالا ، لم تتوقف ردود الفعل الاسرائيلية الرسمية وغير الرسمية ، وكذلك ردود الفعل العالمية المؤيدة والمعارضة ، على موقف منظمة التحرير هذا .

كان اول من حذر من خطوة م.ت.ف. في اعقاب تصريح فاروق القدومي ، رئيس الدائرةالسياسية في منظمة التحرير الفلسطينية ، وزير الاعلام الاسرائيلي السابق اهرون ياريف الذي اعلن انه « رغم كل الشكوك التي لدي بالنسبة لمنظمة الامم المتحدة بصفة عامة ، ونظرتها لاسرائيل بصفة خاصة ، اعتقد ان طردنا من الامم المتحدة امر يتوجب علينا معارضته . لقد دخلنا الامم المتحدة كدولة ذات سيادة وكعضو متساو في الحقوق في المنظمة ، ويجب علينا الحفاظ على هذا من خلال مبدأ كوننا دولة مستقلة وذات سيادة » (رأا ، ١٩٧٥/٧/١٤) .

اما رئيس حكومة اسرائيل يتسحاق رابين فقد علق على هذه الخطوة بقوله ان « المقصود هو ابعاد اسرائيل عن جلسات الجمعية العمومية ، لان طردنا من الامم المتحدة يتطلب قرارا من مجلس الامن ، الذي لن يتخذ قرارا كهذا . اما اذا تبلورت اغلبية في الجمعية العمومية تؤيد تعليق عضويتنا في هذه الجمعية ، فستفقد الامم المتحدة عندئذ ما تبقى لها من هيبة كمنظمة دولية » (رأا ، ١٩٧٥/٧/١١) .

تهديد بنسف التسويات السياسية

على الرغم من أن قادة وزعماء اسرائيل سواء كانوا في الحكومة او في المعارضة ، يدركون تماما ان اسرائيل لم تلتزم في السابق بقرارات المنظمة الدولية ، حذر يغئال الون وزير الخارجية « انه اذا تمكن اعداؤنا العرب من تحقيق هدفهم في المساس بمكانة اسرائيل في الامم المتحدة ، فعلى شعوب العالم ان لا تنتظر منا ان نقبل هذا بصمت ، [ونتيجة لهذا] لن نكترث بقرارات الامم المتحدة ولن نتعاون معها ... كما ان تعليق عضوية اسرائيل او المساس بحقها في الجمعية العمومية ، سيكون بمثابة تعليق للامم المتحدة نفسها ، بالنسبة لما يتعلق بالتسوية في المنطقة » (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٢٤) .

ان التهديد بنسف التسويات الجزئية ، ووقف المفاوضات مع الدول العربية ، اذا علقت عضوية اسرائيل في الجمعية العمومية ، كانت النغمة التي ركز الاسرائيليون عليها للتأثير على مواقف بعض الدول العربية المعنية بتسويات جزئية منفردة . وحول هذا الموضوع تحدث النائب شموئيل حاريش بقوله « ان تعليق عضويتنا في الجمعية العمومية سيؤدي الى وقف المفاوضات مع الدول العربية على اساس قراري ٢٤٢ و ٣٣٨ ، والغاء مؤتمر جنيف ، وعلينا ان نقنع اميركا ، بصفتها طرفا اساسيا في التسوية ، لكي توضح للعرب والدول الاخرى ، ان تعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة سيؤدي الى ترك الولايات المتحدة مقعدها في المنظمة » (المصدر نفسه) .

وعلى هذا الوتر نفسه عزف ايضا يوسف تكواع ، سفير اسرائيل في الامم المتحدة سابقا والمستشار الخاص لوزير الخارجية حاليا بقوله : « بالنسبة لاحتمال انسحابنا من الامم المتحدة ، يجب ان نتساءل ما اذا كان اشتراكنا في هذه المؤسسة يثقل علينا ، وما اذا كانت عضوية اسرائيل في هذه المنظمة تعرقل خطواتنا في السياسة الخارجية ، والجواب لا ... قبل اعوام عديدة مضت كان باستطاعة الامم المتحدة ان تؤثر علينا ، او ان تضغط علينا ، اما الان فاننا لا نعتبر الامم المتحدة مؤسسة تستطيع التأثير على سياستنا الخارجية » . واقترح تكواع « تعليق موافقة اسرائيل بالتوقيع على تسوية جزئية اخرى مع مصر ، طالما لم يتم

اسقاط موضوع عضوية اسرائيل في الامم المتحدة » (رأا ، ١٩٧٥/٨/٢) .

وتطرقت بعض الدوائر والشخصيات الاسرائيلية الى الاجراءات التي ينبغي على اسرائيل اتخاذها عند طردها من الامم المتحدة او تعليق عضويتها ، فاعلن اهرون ياريف انه « لا ينبغي على اسرائيل ان تهدد باتخاذ اجراءات معينة ، واعتقد اننا مطالبون بان نشرح لماذا لا يجب ان يتم شيء من هذا القبيل لانه يناقض المبادىء التي تقوم عليها منظمة الامم المتحدة » (رأا ، ١٩٧٥/٧/١٤) .

اما يوسف تكواع فقد اقترح « انه في حال نجاح العرب بمبادرتهم يتوجب علينا ان نستغل الفرصة لتصفية بعض الحسابات . لقد فرض علينا ، مثلا، الاطار الحالي لمؤتمر جنيف ، وهذه حقيقة تاريخية . كنا دائما نريد مفاوضات مباشرة ، وكنا دائما نعارض اشتراك الدول العربية في جبهة واحدة تقف امامنا في المفاوضات ، كما كنا نعارض دائما في الاشتراك بمفاوضات سلمية مع الدول الكبرى . واعتقد انه من الافضل ان نبدل هذه الشروط وكذلك اطار مؤتمر جنيف حيث المفاوضات مع الدول العربية . لقد فرضت علينا التسويات المتعلقة بقوات الامم المتحدة ، فاسرائيل لم تبادر بفكرة دخول هذه القوات ، كذلك ليس سيئا ان تقوم اسرائيل كنتيجة لتعليق عضويتها في الامم المتحدة باعادة ترتيب علاقاتنا مع هذه القوات » (دافار ، ١٩٧٥/٨/١) . ولسبب ما ينسى تكواع ان اسرائيل هي التي تهتم عادة اكثر من غيرها بتجديد فترات عمل هذه القوات في المنطقة .

اما النائب شموئيل تامير (من ليكود) فقد علق على امكانية طرد اسرائيل من الامم المتحدة بقوله : « ان طرد اسرائيل من الامم المتحدة هو بمثابة وضعها خارج القانون الدولي » (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٢٤) .

لقد اطلقت التصريحات الاسرائيلية الرسمية التي اشرنا لها ، والتي تهدد بوقف المفاوضات ، في اعقاب مؤتمر جده واستمرت طوال الفترة التي انعقد خلالها مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية في كمبالا — وركزت كلها على التهديد بوقف المفاوضات وتعليق موافقة اسرائيل على التسوية الجزئية .

ومن هنا لوحظ (كما ورد في اجهزة الاعلام الاسرائيلية) ان حماس الوفد المصري لطرد اسرائيل قد فتر في مؤتمر كمبالا ، مما جعل هذا الوفد يتقدم بمشروع قرار للمؤتمر بهذا الشأن قبل ان تحدد وفود الدول المشتركة فيه موقفها من مشروع قرار طرد اسرائيل الذي اقترحته م.ت.ف وتبنته ليبيا . ومشروع القرار المصري ، وان كان قد طالب بتعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة، شجع في الوقت نفسه دولا افريقية عديدة على رفض مشروع القرار الليبي ، كما شجع دولا اخرى على رفض المشروعين . وقد اعتبرت معظم الوفود مشروع القرار المصري مشروعا معاكسا .

ولاحظت صحيفة دافار (١٩٧٥/٨/٣) شبه الرسمية ان وسائل الاعلام المصرية تتخذ جانب الحذر « بما يختص بتعليق عضوية اسرائيل ، وتحاول في الواقع ان تبرر دوافع الدول الافريقية زائير،غابون،كينيا،اثيوبيا، ليبيريا وسيراليون التي عارضت المشروعين في كمبالا . كما ان عددا من المعلقين المصريين ، وبينهم رئيس تحرير صحيفة الاهرام القاهرية اوضحوا يوم ١٩٧٥/٨/٢ ان هناك اسبابا وجيهة للتفكير مرتين في مشروع تعليق عضوية اسرائيل ، لان هذا قد يؤدي الى عدم التزام واحترام اسرائيل للقرارات المنظمة ، وقد يجعل اسرائيل تحصل على تأييد عالمي واسع، او قد ينتهي الامر بفشل عربي ذريع في التصويت. ومع ذلك يقول بعض المسؤولين المصريين ان التهديد بتعليق العضوية سيبقى قائما ، اذا لم تتحقق تسوية جزئية مع مصر في المستقبل القريب.

« لقد كان القرار الذى اتخذه مؤتمر كمبالا انجازا اكبر بكثير من قرار الزعماء الاشتراكيين فى ستوكهولم ، ففى اوروبا اعلنت دول السوق الاوروبية المشتركة معارضتها للمشروع العربى ، اما فى افريقيا فقد فشلت الدبلوماسية العربية بسبب الاختلاف حول مشروع طرد اسرائيل او تعليق عضويتها » (معاريف ، ١٩٧٥/٨/٣) .

حملة اعلامية واسعة

في اطار الحملة الاعلامية الواسعة التى تقوم بها اسرائيل لمواجهة الجهود العربية لطردها من الامم المتحدة او تعليق عضويتها فيها ، « اوفد رئيس الحكومة يتسحاق رابين يوم ١٩٧٥/٨/١

وزير الصحة فكتور شمطوف (من مبام) للقيام بجولة في عدد من دول امريكا الجنوبية وذلك لشرح موقف اسرائيل من طردها من الامم المتحدة ، ولكسب تأثير بعض هذه الدول ضد المشروع ... وسيزور شمطوف كولومبيا ، بوليفيا ، البرازيل ، اوروغواي وباراغواي » (دافار ، ١٩٧٥/٨/٣).

ولم تقتصر الحملة الاسرائيلية على ايفاد الوزير شمطوف بل شملت ايضا معظم المؤسسات والهيئات اليهودية في امريكا وبريطانيا التي اخذت تقوم باتصالات مع نواب في البرلمانات لكسب التأييد ضد مشروع الطرد او تعليق العضوية .

كذلك يبدو ان اسرائيل تنوي في اطار هذه الحملة القيام بحملة ديبلوماسية واعلامية ضد الدكتور فالدهايم ، « وذلك لتصرفه المستغرب لانه حتى الان لم يتخذ في اية مناسبة موقفا ضد المشروع العربي » (هآرتس ، ١٩٧٥/٧/٢٩) .

وعلى الصعيد الاسرائيلي الداخلي قام النائب ميخا حاريش بارسال مذكرة الى رئيس الحكومة يطالبه فيها « ان يعقد فورا جلسة للجنة السياسية للمعراخ (التجمع) لتحديد سياسة لمواجهةالنوايا العربية الرامية الى طرد اسرائيل من الامم المتحدة . وجاء في المذكرة انه اذا علقت عضوية اسرائيل في الامم المتحدة فعلا بناء على طلب الدول العربية ، فان الامر يحتاج الى تغيير جوهري في سياسة اسرائيل تجاه الامم المتحدة ومؤسساتها » (هآرتس ، ١٩٧٥/٧/٢٩) .

ومن ناحية ثانية ، اجرى معهد البحوث الاجتماعية التطبيقية التابعة للجامعة العبرية في القدس استفتاء لمعرفة موقف الاسرائيليين من محاولات طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، اظهرت نتيجته ان ٦٨٪ من الذين اشتركوا في الاستفتاء « واثقون من ان الولايات المتحدة ستساعدنا في حال قيام العرب بمحاولة لطردنا من الامم المتحدة. ٥٨٪ يعتقدون انه حتى اذا ابعد الوفد الاسرائيلي من الجمعية العمومية المقبلة ، فلا ينبغي ان تنسحب اسرائيل من المنظمة . ٤٢٪ يعتقدون بوجوب الانسحاب من الامم المتحدة في مثل هذه الحالة بشكل تظاهري . ٥٢٪ يعتقدون ان طرد اسرائيل من الامم المتحدة امر مستحيل . ٢٤٪ لا يعتمدون كثيرا على دعم الولايات المتحدة . ٨ ٪ لا يعتمدون اطلاقا على الولايات المتحدة » (رأ ، ١٩٧٥/٨/١) .

ان احدا لم يفاجأ بالموقف الامريكي واستخفافه بقرار مؤتمر الدول الاسلامية في جده . وبانت اسس هذا الموقف عندما أعلن « ان عددا من اعضاء الكونغرس الامريكي ينوي تقديم مشروع قرار بشأن موضوع طرد اسرائيل من الامم المتحدة لبحثه . واعلن حتى الان ١٣٦ عضوا من الكونغرس عن تأييدهم لمشروع القرار بشأن المعارضة الشديدة لطرد اسرائيل او تعليق عضويتها ، ولا شك ان مشروع القرار الذي يدعو الولايات المتحدة لاعادة النظر في علاقاتها بالامم المتحدة في حال تعليق عضوية اسرائيل ، سيحظى باغلبية كبيرة في الكونغرس . وقد قدم المشروع توماس اونيل زعيم الكتلة الديمقراطية ، وهي كتلة الاغلبية . وقال اونيل ان اسرائيل موفورة الحظ ، بسبب المشاعر المؤيدة لها ، ذلك انها الحليف الديمقراطي للولايات المتحدة » (رأأ، ٧٥/٧/٣١) .

أما وزير الخارجية الدكتور هنري كيسنجر فقد علق على هذا الموضوع بقوله : « من المحتمل ان تتخذ الجمعية العمومية قرارا بشأن طرد اسرائيل . ثم ربط كيسنجر الموضوع باستعراض عام للتطورات التي تهدد استمرار وجود الامم المتحدة كجهاز مهمته المحافظة على السلام في العالم . واضاف انه اذا « استولت » الجمعية العمومية على صلاحيات لم تمنح لها بموجب ميثاق الامم المتحدة لتعليق عضوية او طرد دول اعضاء ، فان هذا قد يهدد وجود الامم المتحدة نفسها » (دافار ، ١٩٧٥/٧/٢٠) .

كذلك « وقع ٢٣٢ من مجموع ٤٣٥ عضوا من مجلس النواب الامريكي يوم ٧٥/٨/١ على مذكرة تحذر من طرد اسرائيل من الامم المتحدة . وقد دعت المذكرة الولايات المتحدة الى اتخاذ خطوات ضد هذا العمل ، ويعتقد ان هذه المبادرة ستحظى خلال فترة قصيرة بتأييد مائة نائب اخر . كما ان مشروع قرار سيطرح للتصويت في مجلس النواب بعد الاجازة الصيفية ، وكان المجلس قد اتخذ قرارا يشجب طرد اسرائيل من الامم المتحدة . وقدم عدد من الشيوخ اقتراحا بمنع

المساعدات المالية عن الامم المتحدة التي تطرد من بين صفوفها عضوا دائما كاسرائيل متجاوزة بهذا القانون » (هآرتس ، ٧٥/٨/٣) .

وأشارت بعض المصادر الاسرائيلية الى « ان واشنطن ابدت ارتياحها من مؤتمر كمبالا الذي لم يتبن مطالب العرب بطرد اسرائيل او تعليق عضويتها ، بل اكتفى بمناشدة الدول العربية لزيادة الضغط على اسرائيل في الامم المتحدة والمؤسسات التابعة لها ، وذلك وفقا للمشروع المصري » (المصدر نفسه) .

ردود فعل عالمية

كان للدعوة الى طرد اسرائيل من الامم المتحدة ردود فعل في كافة انحاء العالم ، كما أشرنا ، فأعلن على سبيل المثال رئيس الحكومة البريطانية هارولد ويلسون ردا على سؤال مراسل اذاعة اسرائيل « ان بلاده ستعارض طرد او تعليق عضوية اسرائيل ، وليس كما فعلت تجاه جنوب افريقيا ... » .

وعلق احد كبار موظفي وزارة الخارجية الدانماركية على الموضوع بقوله « قد يكون هذا القرار نهاية الامم المتحدة » (رال ، ٧٥/٧/٣١).

« ... ونفى مصدر فرنسي مسؤول في هلسنكي الانباء القائلة ان دول السوق الاوروبية المشتركة تندد بمحاولات طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، وقال المصدر ان هذا الموضوع لم يبحث حتى الان » (المصدر نفسه) .

وجاء في بيان رئيس حكومة السويد « ان محاولة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ستكون مخالفة لميثاق الامم المتحدة ، كما قد يؤدي هذا الامر الى نتائج خطيرة جدا في المستقبل . وأكد أن هذه الخطوة ستكون في غير صالح السلام والاستقرار في الشرق الاوسط . والتزم [رئيس الحكومة] باسم الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية بالعمل على احباط المؤامرة العربية . ويعني هذا ان الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية التي تحكم في بريطانيا ، المانيا الغربية ، النروج ، هولندا ، الدانمارك والسويد ستبذل جهودا من اجل احباط المؤامرة العربية ، ولن تكتفي هذه الدول بالامتناع عن التصويت ، كما كان متبعا في الماضي ... وهذا الامر قد يحول دون ركوب السوفييت العربة العربية ، خاصة بعد ان ظهر من موقف الوفد المصري انه ضد طرد اسرائيل » (دافار ، ٧٥/٨/٣) .

وأعلنت حكومة استراليا يوم ٧٥/٨/١ انها ستعارض بشدة كل المحاولات الهادفة الى طرد اسرائيل من الجمعية العمومية ومن المؤسسات الاخرى التابعة للامم المتحدة . وصرح وزير خارجية استراليا « بأن بلاده أيدت دائما عضوية اسرائيل في منظمة الامم المتحدة ، وان حكومته قلقة من محاولات طرد اسرائيل ، لان الامر قد يمس بقدرة المنظمة على القيام بدور بناء في المحافظة على السلام في الشرق الاوسط ... كما أعلنت حكومة نيوزيلندا عن معارضتها لطرد اسرائيل » (المصدر نفسه) .

الحملة الاسرائيلية المضادة

نتيجة للحملة التي شنتها اسرائيل ضد محاولات طردها من الامم المتحدة ، حصلت على وعود وبيانات من دول مختلفة ، تندد بمحاولة الطرد وتعد بالعمل والتصويت لصالحها ليس في نطاق مؤتمر الاممية الاشتراكية فقط بل كدول منفردة ، بما في ذلك، استخدام نفوذها في دول العالم الثالث. وقد شجع هذا الامر يتسحاق رابين لان يكون اكثر تطرفا ويطالب بأن تلتزم تلك الدول بموقف معين لمنع مناقشة الموضوع في الجمعية العمومية.

ان هذا الانجاز في ستوكهولم ، يعتبر صغيرا اذا ما قورن « بالانجازات » في كمبالا « فقد عبر موظفون في القدس عن ارتياحهم لقيام عدد من الدول الافريقية برفض تعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة ، وقالوا اننا سعداء لمعرفة ان عددا من الدول الافريقية اظهرت حكمة سياسية » (رال ، ٧٥/٨/١) .

ليست هذه انجازات اسرائيلية بقدر ما هي انجازات امريكية ، بمساعدة بعض الدول العربية، لصالح اسرائيل ، « فانجازات » كمبالا لم تكن على الاطلاق بفعل النشاط الديبلوماسي الاسرائيلي، اذ ليس لمعظم الدول الافريقية علاقات ديبلوماسية مع اسرائيل ، ولكن خطوات ومشاريع دول عربية ومراهنتها وتبريراتها جعلت الدول الافريقية الاخرى تختار الطريق الاسهل وهي رفض مشروع طرد اسرائيل او تعليق عضويتها والاكتفاء بمناشدة الدول العربية لزيادة الضغط عليها .

مكرم يونس

[٤]

الصناعة العسكرية الاسرائيلية توسع نشاطها

عملت اسرائيل ، منذ فترة غير قصيرة ، على بناء قاعدة لصناعة حربية ، كأحد المصادر لتزويد جيشها بالسلاح والذخائر والمعدات اللازمة . وعملت في الوقت نفسه ، على اقامة عدد من مراكز وهيئات ومعاهد البحوث التي وصل عددها سنة ١٩٧٢ الى ٤٨ معهدا ومركزا وذلك لتطوير أسلحتها وذخائرها ، او ملاءمتها لمسارح العمليات في الشرق الاوسط . ومن بين مؤسسات البحث والمعاهد التي تقوم بالابحاث العسكرية معهد وايزمان في رحوفوت ، الذي يعمل ايضا في مجال البحوث الذرية ، ومصلحة تطوير وسائل القتال «رفائيل» ، ومعهد الهندسة التطبيقية «التخنيون» في حيفا وغيرها. وقد توصلت الصناعة العسكرية الاسرائيلية حتى الان — حسب ادعاءات الاسرائيليين — الى انتاج وتطوير اكثر من ٥٠٠ نوع من الاسلحة والذخائر المختلفة ، تغطي نحو ٣٠ ٪ من حاجتها .

وكانت الصناعة الحربية قد بدأت نشاطها بصناعة الاسلحة والذخائر الخفيفة كالبنادق والمسدسات والقنابل اليدوية والهاونات ، ثم اخذت تصنع ، او تعدل بعض القذائف الصاروخية وتصنع بعض المعدات الاخرى كالعربات المصفحة والزوارق الحربية والطائرات ، التي تقوم بتجميعها او بنائها .

وهناك اكثر من سبب يدفع الاسرائيليين الى الاهتمام بالانتاج الحربي ، الذي تقدم بقفزات كبيرة ، من حيث الكمية والنوعية ، خصوصا بعد الحظر الفرنسي على تزويد اسرائيل بالاسلحة في اعقاب حرب حزيران ١٩٦٧ . وخلال حرب تشرين ١٩٧٣ ، اتضح للاسرائيليين ان انتاجهم الحربي غير قادر على تعويض الخسائر الضخمة ، التي تعرضت لها قواتهم في الحرب ، او على امداد القوات المحاربة بالذخائر اللازمة لمتابعة حرب طويلة ، بحيث اقتنعوا ان مصيرهم أصبح مرهونا بالدعم الاميركي ، مع ما يمكن ان تمارسه اميركا من ضغط تسليحي على اسرائيل ، وذلك بالاضافة الى ارتفاع تكاليف الجسر الجوي ، مع ما يمكن أن يواجهه من عقبات في حالة تجدد القتال — وكل هذه الاعتبارات تدفع الاسرائيليين الى تطوير وتوسيع صناعاتهم الحربية المستقلة .

ان اهتمام اسرائيل بصناعتها الحربية يعكس رغبتها في خلق النواة اللازمة لتطوير الانتاج الحربي في المستقبل ، وذلك لتخفيف حجم الدعم الاميركي المطلوب ، وتوفير جزء من العملة الصعبة، بل والحصول على مبالغ منها بواسطة بيع منتجاتها في الخارج . كذلك يساهم هذا النشاط في تطوير الاسلحة والمعدات ، ويزيد من قدرة اسرائيل على اصلاح الاسلحة وصيانتها خلال الحرب ، ويجعل من الممكن الافادة بسرعة من الاسلحة التي يتم الاستيلاء عليها .

وتعتمد اسرائيل في صناعتها الحربية بمدى كبير على الدعم والمعونة الخارجية ، سواء كان ذلك من ناحية التمويل او الفنيين او الخبرات الفنية. ففي مجال تغطية التكاليف تعتمد اسرائيل على دعم الشركات العالمية ، وخصوصا الاميركية . ويشكل رأس المال الاميركي في الصناعات الالكترونية ، مثلا ، نسبة تصل الى ٦٠ ٪ ، وهذا اضافة الى الدعم المالي الذي تقدمه المنظمات الصهيونية العالمية . كما وان معظم الابحاث العلمية التي تجري في اسرائيل يتم تنفيذها بتمويل خارجي . ففي عام ١٩٧١ ، مثلا، قام ٤٨ معهدا ومركزا بوضع ٢٦٦ تصميما لصناعات حربية مختلفة بتمويل اميركي . كذلك تقوم حاليا كلية هندسة الطيران في التخنيون ، باجراء ٤٠ بحثا بتمويل خارجي (دافار ، ٧٥/١/٢٨) . والهدف من هذه الابحاث تحسين شبكة السيطرة والمراقبة في الطائرة ، وتقصير مدة تدريب الطيارين ، وتحسين جهاز قيادة الطائرات الذي يعفي الطيار من كثير من المهام (دافار ، ٣/٥/ ٧٥) . كذلك يقوم التخنيون ايضا بابحاث لتحسين اجهزة التصويب في الطائرات المقاتلة .

وعلى صعيد الخبرات الفنية ، وبالرغم من ان الصناعات الجوية تستوعب جميع خريجي معهد

الهندسة التطبيقية (التخنيون) ، مثلا ، الذي تخرج منه حتى الان نحو ٧٠٠ مهندس يعمل ٨٠ ٪ منهم في الصناعة الجوية ، يبدو ان الصناعة الجوية لا تزال تواجه نقصا كبيرا في الفنيين وذلك « بسبب الهبوط المقلق في عدد الطلاب الثانويين الذين يلتحقون بكلية هندسة الطيران ... ولان ١٠٠ ــ ١٥٠ خريجا لا يكفون لسد الحاجة في المستقبل » (هآرتس ، ٧٥/٥/١٢) . وفي حين ان الحاجة لكل هؤلاء الخريجين كبيرة ، فقد بدا اقل من ٧٠ تلميذا دراستهم هذه السنة، ويتوقع ان يتخرج ٧٠ ٪ منهم فقط ، رغم أن الكلية تستطيع استيعاب ١٤٠ طالبا (المصدر نفسه). لذا فان الصناعة الحربية الاسرائيلية تعتمد ، الى حد كبير ، على الفنيين والاختصاصيين والخبراء الاجانب الذين يتم التعاقد معهم للعمل في اسرائيل ، وفق عقود قصيرة او طويلة الامد ، بغية زيادة المعرفة العلمية والخبرة الفنية وتعليم وتدريب الفنيين والاختصاصيين الاسرائيليين .

وفي مجال المعونة الفنية تعتمد اسرائيل على الولايات المتحدة بصورة اساسية ، وذلك بالحصول على تصاميم اسلحة اميركية معينة وانتاجها في اسرائيل ، بعد ادخال بعض التعديلات عليها . ونذكر على سبيل المثال زورق « دفور » وهو « نموذج مطور عن النموذج الاميركي الاصل ، الذي اشتراه سلاح البحرية من الولايات المتحدة، التي قدمت المعونة الفنية لتطوير الطراز الاسرائيلي منه ... » (معاريف ، ٧٥/٢/٥) ، وكذلك صاروخ جو ــ جو « شفرير » الذي « اعتمدت اسرائيل عند صناعته على الصاروخ الاميركي جو ــ جو سايدويندر » (معاريف ، ٧٥/٥/١٢) . وهناك ايضا اسلوب اخر ، وهو شراء مصانع او وحدات انتاجية كاملة ونقلها الى اسرائيل مثل المصنع الذي ينتج طائرة رجال الاعمال « وستد ويند ١١٢٤ » ، وشراء شركة الكتروسبيس التي تصنع اجهزة اتصال عسكرية . ولم تنجح اسرائيل في بناء طائرة مقاتلة الا بعد أن قدمت لها اميركا الدعم الفني المطلوب ، بما في ذلك المحرك الذي يصنع بكامله في اميركا ، وبعد أن سرقت تصاميم هيكل طائرة الميراج .

الاهتمام بالصناعة الجوية

تعتبر الصناعة الجوية اكبر مؤسسات الصناعة الحربية الاسرائيلية ، ولها ١٤ مصنعا منتشرة في جميع ارجاء البلاد (دافار ، ٧٥/٧/٢٢) . وتقوم الصناعة الجوية بانتاج الطلبات لحساب وزارة الدفاع بكل فروعها، وتقيم دورات تدريبية لتأهيل الفنيين ، وتنوي توسيع القوة البشرية العاملة فيها حتى ١٨ الف عامل خلال بضعة اشهر (معاريف ، ٧٥/٣/١٢) . ويبلغ حجم الانتاج في الصناعة الجوية حاليا نحو ٢٠٠ مليون دولار سنويا علاوة على القيمة الاضافية التي تصل الى ٥٠ ٪ . وتنتج هذه الصناعة عدة أصناف من المعدات والاسلحة البرية والبحرية والجوية ، من اهمها العربات المصفحة والزوارق والطائرات العسكرية والمدنية وصواريخ سطح ــ سطح وجو ــ جو ، ووضع تصاميم الطائرات والمعدات الجديدة والتعديلات المقترح ادخالها على الطائرات الموجودة وصناعة بعض محركات الطائرات العمودية (هآرتس ، ٧٥/٥/١٢) . كذلك تنتج هذه الصناعة وسائل مساعدة لسلاح المدرعات ، بناء على طلب مستعجل من الجيش، من ضمنها سلسلة من قنابل البنادق التي بدأ انتاجها فعلا ، وأنواع من صواريخ المدفعية ، ومحرك لصاروخ سطح ــ سطح يبلغ مداه ٤٠ كم ، أي ضعف مدى صاروخ غبريئيل تقريبا (معاريف ، ٧٥/٤/٢٣) . وذكر مدير الصناعة الجوية ، المهندس شور ، بأن « الصناعة الجوية قادرة على تزويد جيش الدفاع الاسرائيلي بمعظم حاجياته من السلاح والذخيرة ، شرط ان تكون هناك خطط طويلة المدى وميزانيات لسنوات عديدة ، ليتم التخطيط والانتاج بشكل منهجي » . واضاف بأن « هناك بعض الانواع التي تضاعف الانتاج فيها ... وقد اقيمت بعد الحرب وحدات انتاج جديدة وقطاع جديد يعنى بتطوير امكانيات انتاج الانواع المتطورة من الذخيرة . وذكر ايضا « ان الصناعة الجوية تبذل الجهود في [تصنيع] جميع انواع المعدات والصواريخ ... وليس هناك صاروخ او قذيفة صاروخية تنتج في البلاد لا تشترك فيها هذه الصناعة » . وفي السنة المالية ١٩٧٤ ارتفع تصدير منتجات هذه الصناعة بنسبة ٥٠٪ عن السنة التي سبقتها ، وهناك طلبات للتصدير تبلغ قيمتها ١٢٠ مليون دولار بالاضافة الى اتفاقيات اخرى للتصدير ستوقع قريبا (المصدر نفسه) .

وتأتي الصناعات الالكترونية والمعدنية بعد الصناعة الجوية من حيث الحجم اذ يبلغ عدد عمالها نحو ٦ الاف عامل وفني . وتأمل اسرائيل ان ترتفع صادراتها من هذه المنتجات الى ١٧٠ مليون دولار في السنة الحالية . وهناك ايضا مصلحة تطوير وسائل القتال « رفائيل » ، التي قامت حتى الان بانتاج اكثر من مئة نوع من المعدات التي يقدر ثمنها بمئات الملايين من الليرات . والمعروف ان « رفائيل » هي اكبر هيئة للتطوير والبحث العسكري في اسرائيل ، والمشروع الرئيسي الذي قامت به هو انتاج الصاروخ جو — جو « شفرير » ، الذي يستخدمه سلاح الجو الاسرائيلي . وتعمل « رفائيل » أيضا في انتاج ذخائر الطائرات والالات الحاسبة وشبكات القتال الالكترونية واجهزة اتصال خاصة ومواد متفجرة (دافار ، ٧٥/٦/٧) .

اهم المنتجات الحربية

تعتبر طائرة كفير من أهم المنتجات الحربية التي اعلن عنها حتى الان ، وهي تركيب لمحرك الفانتوم (جي أي ٧٩) على هيكل طائرة الميراج ف — ٥ . وكفير طائرة اعتراضية مقاتلة تصل سرعتها الى ٢٫٢ ماك ، ويدعي الاسرائيليون انها تفوق الفانتوم في قدرتها على خوض المعارك الجوية ، وبأنها تستطيع مواجهة الميراج ف — ١ وطائرة الويغان السويدية والميغ ٢١ المعدلة بسهولة . وذكر ايضا بأن احدى الانواع المتقدمة منها اشتركت في حرب تشرين الاول ١٩٧٣ . ويبلغ ثمن الطائرة الواحدة ٤ ملايين دولار (هآرتس ، ٧٤/٤/١٥) .

لم تنشر الصناعة الجوية او سلاح الجو الاسرائيليين تفاصيل كاملة عن الطائرة الجديدة من حيث مهامها ، حمولتها ،مداها وما شابه ذلك . كذلك لم تنشر تفاصيل عن موعد البدء بانتاجها وعدد الطائرات التي تم صنعها حتى الان، والعدد الذي استلمه سلاح الجو او العدد الذي اوصى عليه (المصدر نفسه) . واعلن موشي ارنس ، الذي كان يشغل مدير قسم الهندسة في الصناعة الجوية ، ان قدرة اسرائيل على انتاج طائرة كفير تفوق قدرة مصانع اوروبية مشابهة (معاريف ، ٧٥/٧/٢) . وذكرت مجلة الصناعة الجوية بياعف (٧٥/٧/٢) ان طائرة كفير غير قادرة على نقل حمولة تفوق حمولة الميراج ٥ — ج لان قوة الدفع القصوى للكفير تزيد بطن واحد عن الميراج ٥ — ج ، بالاضافة الى أن ابعاد الطائرتين متشابهة . ومن هنا يمكن الافتراض ان كفير تستطيع الاقلاع بحمولة اربعة اطنان مربوطة على سبعة نقاط تعليق خارجية . ونشرت بمحانيه، مجلة الجيش الاسرائيلي الاسبوعية (٧٥/٤/٧) المقارنة التالية بين كفير وبين منافساتها :

	كفير	ف — ١٦ الاميركية	ميراج اف — ١ (أي) الفرنسية	ميغ ٢٣ السوفييتية
السرعة	٢٫٢	٢٫٢	٢٫٣	٢٫٣ ماك
الوزن	٦٥٠٠	٧٤٩٠	٩٥٠٠	١٥٠٠٠ كغم
الارتفاع الاقصى	أكثر من ٥٠ الف قدم	٦٠ الف قدم	٦٥ الف قدم	أكثر من ٦٠ الف قدم
قوة المحرك	١٤٫٥	١١٫٥	١٥٫٢	١٥ طنا
السعر	٤ ملايين دولار	٦٫٧ مليون دولار	٧ ملايين دولار	؟

واذا كان انتاج طائرة كفير يدل على ان اسرائيل قادرة على التوصل الى الاستقلال في جزء لا يستهان به من هذا النوع من السلاح ، كانتاج هيكل الطائرة والشبكات الالكترونية ، ينبغي ان نتذكر ان الطائرة مزودة بمحرك اميركي، ولولا موافقة ومساعدة الولايات المتحدة لوجدت اسرائيل صعوبة كبيرة في انتاج هذه الطائرة ، بل ربما فشلت في ذلك ، لان الدول الكبرى فقط هي التي تستطيع ان تنتج طائراتها بشكل مستقل (هآرتس ، ٧٥/٤/١٥) .

وبالاضافة الى طائرة كفير ، تستعد الصناعة الجوية لانتاج اربع طائرات عرفه شهريا . وتستطيع هذه الطائرة الاقلاع والهبوط من مدرجات قصيرة ، ولاقت نجاحا كبيرا في دول امريكا

اللاتينية ، وخصوصا النموذج العسكري منها . وقد عقدت الصناعة الجوية حتى الان اتفاقيات لبيع ٤٠ طائرة من هذا النوع . ويبلغ ثمن الطائرة الواحدة ٧٥٠ ــ ٨٥٠ الف دولار (دافـــار ، ٣٠/٦/٧٥) .

كذلك عرضت الصناعة الجوية في مصانعها في اللد طائرة رجال الاعمال النفاثة الجديدة « وست ويند ١١٢٤ » ، وهي نموذج متطور للطائـــرة السابقة ١١٢٣ ، التي حققت نجاحا في السوق العالمي . ويبلغ ثمن الطائرة الواحدة ٧٥ر١ مليون دولار مقابل ١٨ر١ مليون دولار للنموذج السابق. وستنتج الصناعة الجوية من النموذج الجديد ١٨ طائرة في هذه السنة و١٨ اخرى سنة ١٩٧٦ و٢٤ سنة ١٩٧٧ و٢٦ سنة ١٩٧٨. ويبلغ المدى الاقصى لهذه الطائرة ٤٢٣٠ كم وتحمل ١٠ ركاب بما فـي ذلك الملاحين (هآرتس ، ٥/٥/٧٥) .

كذلك تسلم سلاح البحرية نموذجا متطورا من الزوارق من طراز « دفور » ، التي تم بناؤهـا في مصانع الصناعة الجوية في بئر السبــــع . ويستخدم هذا الزورق لحراسة السواحل والهجوم، وهو مسلح بمدفعي ٢٠ ملم بالاضافة الى عدد من الرشاشات ويبلغ طول الطراز الاسرائيلي المعدل نحو ٢٠ مترا وسرعته القصوى ٢٤ عقدة فـي الساعة ، وهو مزود بمحرك ديزل ، ومبني بشكل يجعله ذو قدرة كبيرة على المناورة والتهرب اذا لزم الامر (معاريف ، ٥/٢/٧٥) . وتبذل الجهود حاليا لتقصير مدة بناء قوارب « ريشف » بنصف سنة . ويبلغ ثمن القارب الواحد من هذا النوع نحو ٤٠ مليون ليرة اسرائيلية وثمن شبكة الاسلحة التي يزود بها مبلغا مشابها (معاريف ، ١٩/٢/٧٥) .

وانتجت الصناعة الاسرائيلية ايضا مصفحـة حربية ، اطلق عليها اسم « رابي » ، وتقـوم هذه المصفحة بعدة مهام ، منها نقل الجنـود واخلاء الجرحى ، واعمـال الدوريـة ، وعمليات العصابات ومهـام اخرى اثناء القتال . وتتسع العربة الجديدة لثمانية جنود ويمكن تسليحها بمدفع غير مرتد او مدفعين ٢٠ ملم او عدد من البنادق الرشاشة عيـنار ٧ر١٢ و٧ر٢٢ ملم ، ويبلـــغ سمك جدران الهيكل ٥ ملم من الفولاذ . ويسهل نقل هـذه العربة بواسطة الطائرات بسبب وزنها الخفيف نسبيا ، كما ويمكن تغيير تسليحها بناء على طلب الزبائن . ويذكر ان اسرائيل حصلت على عقود كبيرة لبيع هذه المصفحة ، التي كانت قد عرضت في معرض باريس قبل بضعة شهور. كذلك عرضت في المعرض ايضا طائرة رجـــال الاعمال « وست ويند ١١٢٤ » وطائرة عرفه ، ولم توافق فرنسا على عرض طائرة كفير احتجاجا على استخدام تصاميم هيكل الميراج لدى بنـاء هيكل هذه الطائرة . وعرض في معرض بـاريس ايضا نموذج من شبكة انذار الكترونية ، بيـع منها حتى الان بما قيمته ٦ ملايين دولار ، وحاسب صغير لتوجيه الطائرات يثبت في مقصورة القيادة الى جانب الطيار ويساعده على حساب معطيات الاقلاع والطيران . وعرض ايضا جهاز يثبت في تبعات الطيارين ويساعدهم على تحديد لحظـــة القاء القنابل ، وقبعات للطيارين ورجال المدرعات، مصنوعة من الالياف الزجاجية وجهـــاز قيادة اوتوماتيكي يقوم بمعظم مهام قيادة الطائـرة ، بحيث يجعل الطيار يتفرغ للمهام الاساسيـة . وعرضت أيضا نماذج مختلفة لصواريخ جو ــ جو من طراز « شفرير » (معاريف ، ٢٨/٥/٧٥) .

افاق الصناعة الحربية الاسرائيلية

بالرغم من تزايد الانتاج الحربي الاسرائيلي ، والجهود المبذولة لتصدير هذه المنتجـات فـان اسرائيل قد فشلت ، حتى الان ، في تحقيق الاكتفاء الذاتي من حيث النوعية والكمية ولا تزال مضطرة للاعتماد على الولايات المتحدة وذلـك بسبب الصعوبات الفنية والمالية والنقص في القـــوة البشرية وعدم وجود قاعدة صناعية متينة وواسعة. ان انتاج طائرة هجومية حديثة ، مثلا ، يستلزم قاعدة صناعية متشعبة قادرة على انتاج عشرات الاف الاجزاء اللازمة لمثل هذه الطائرة ، ويحتاج ايضا الى التكنولوجيا المتقدمة والعصرية فـي اكثر من مجال ، ويستلزم تأهيل قاعدة كبيرة من العمال والفنيين .

وتتمثل الصعوبات الاخرى التي تواجهها اسرائيل في احجام اصحاب رؤوس الاموال عن استثمـار اموالهم في اسرائيل ، خصوصا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ ، واحجام الفنيين الاجانب عـن القدوم

اليها ، ونقص المواد الخام وارتفاع اسعارها، وتقلص شبكة علاقاتها بدول العالم واغلاق أسواق كثيرة في وجهها واشتداد المنافسة العالمية في هذا المجال . ولكن بالرغم من ذلك فانه لا يجوز الاستخفاف بما حققه العدو من انجازات في هذا المضمار .

سمير جريس

[٥]

الاقتصاد الاسرائيلي يواجه مشاكل ملحة
احتمال اعلان حالة الطوارىء الاقتصادية في حال عدم وصول المساعدات الاميركية

يواجه الاقتصاد الاسرائيلي خلال هذه الفترة عدة مشاكل اقتصادية ملحة ، تتطلب ايجاد حلول سريعة لها . ويلاحظ ان هذه القضايا تستأثر باهتمام معظم الدوائر الاقتصادية والمسؤولين في اسرائيل ، وذلك لما لها من اثر بعيد المدى على مستقبل الاقتصاد الاسرائيلي وتطوره ، وامكانات خروجه من الازمات الحالية المسيطرة عليه. ويمكن تلخيص هذه القضايا على النحو التالي: (١) البدء بتطبيق الاصلاح في الضرائب المباشرة والاستعداد لفرض ضريبة القيمة الاضافية ، (٢) البحث في مسألة دفع علاوة غلاء المعيشة وتمديد اتفاقيات الاجور ، (٣) التخفيض البطيء في قيمة الليرة الاسرائيلية ، (٤) بدء سريان مفعول الاتفاق التجاري بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة، (٥) مستقبل المساعدات الاقتصادية من الولايات المتحدة .

البدء بتطبيق قوانين الاصلاح في الضرائب المباشرة

صادق الكنيست بتاريخ ١٩٧٥/٧/١١ على قوانين الاصلاح في الضرائب المباشرة ، وذلك في القراءتين الثانية والثالثة ، وتقرر البدء بتطبيقها ابتداءا من اول تموز الحالي . ويلاحظ ان البحث في هذه القوانين ، سواء في الكنيست أو في اللجنة المالية التابعة له ، تم بسرعة ومن خلال تجاوز بعض الاجراءات المتبعة عند سن قوانين كهذه ، لان وزير المالية اراد البدء بتطبيقها ابتداء من أول هذا الشهر . وبرزت خلال البحث في القوانين عدة نقاط خلاف ، خاصة بسبب اعتراضات الهستدروت وارباب العمل ، تمت في نهاية الامر تسويتها ، رغم استياء بعض الاوساط . وكانت اعتراضات الهستدروت قد تلخصت في مطالبتها بتنفيذ الاصلاح الضريبي بشكل لا يمس معه بالدخل الصافي للعاملين ، وكذلك عدم فرض ضريبة على نفقات السفر الى مكان العمل في السيارات العمومية ، ثم تشكيل وحدة خاصة في وزارة المالية لتعميق جباية الضرائب والامتناع عن فرض ضريبة القيمة الاضافية خلال هذه السنة (يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٥/٧/١٣). أما اعتراضات أرباب العمل فقد اقتصرت على عدم الموافقة على ضريبة أرباح رأس المال ، حسب ما جاء في توصيات لجنة بن ـ شاحار . الا ان اللجنة المالية التابعة للكنيست ، توصلت الى تسويات بشأن هذه الامور ، قبل طرح مشاريع القوانين على الكنيست للتصديق عليها ، فقررت « الاعتراف » بنفقات الهاتف والسيارات وعدم فرض ضريبة عليها ، بالنسبة للعاملين المستقلين فقط (وبنسبة محدودة لارباب العمل) . وكذلك وافقت اللجنة المالية على وجوب المحافظة على الدخل الصافي للعاملين ، بعد البدء بتطبيق الاصلاح ، وذلك لحين تجديد اتفاقات الاجور بعد نصف سنة ، الامر الذي أصرت عليه الهستدروت بشدة . وقررت اللجنة ايضا ادخال تسهيلات على ضريبة تحسين العقارات ، بالنسبة لشراء مسكن جديد بعد بيع مسكن قديم ، بحيث يكون البائع معفيا من دفع ضريبة تحسين في مثل هذه الحالة (دافار ، ١٩٧٥/٧/٩) . كذلك تم التوصل الى تسوية بين وزارة المالية

وبين ارباب العمل بشأن ضريبة ارباح رأس المال ، تفرض بموجبها ضريبة على الارباح الناتجة عن بيع الممتلكات والاراضي والاسهم وانواع أخرى من الاموال غير المنقولة ، بنسبة أقل من النسبة المقترحة لضريبة الدخل في مستويات الدخل المرتفع (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٢) .

بعد التصديق على قوانين الاصلاح الضريبي ، قررت وزارة المالية والهستدروت تأليف لجنة متابعة مشتركة للاشراف على تطبيق الاصلاح والمحافظة على مستوى الدخل الصافي للمأجورين وتعميق جباية الضرائب . وقد تحدث رئيس لجنة الضرائب في الهستدروت يهوشواع فوشتشينا عن مهمة هذه اللجنة بقوله : « تتمثل مهمة اللجنة في دراسة ملاءمة ما يتم تنفيذه في مجال اصلاح الضرائب مع النوايا الحقيقية لهذا الاصلاح ، ودراسة الظواهر التي تتناقض مع المتطلبات الاقتصادية والاجتماعية من اجل بلورة المواقف » (دافار ، ١٩٧٥/٧/١٥) .

اهمية الاصلاح الاقتصادية والاجتماعية

رغم الارتياح الذي عم اوساطا عديدة في اسرائيل ، بعد نشر تقرير بن ـ شاحار بشأن الاصلاح في الضرائب المباشرة ، ظهر اثناء عملية سن قوانين الاصلاح ، ان هناك الكثير من التحفظات والاعتراضات حول بنود مختلفة ، بين فئات عدة ، كانت تستفيد ماديا من الوضع القائم في مجال الضرائب . ولوحظ ان هناك تحركا بين صفوف هذه الفئات للضغط على الحكومة من اجل الحصول على مكاسب معينة في مجال تخفيف الضرائب . وكانت اولى هذه الفئات الصحافيون، الذين خططوا لاعلان الاضراب في اواخر هذا الشهر ، اذا لم تستجب مطالبهم بشأن اعفائهم من دفع ضريبة على نفقات الهاتف والسيارة (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٩) . وعلق الدكتور امير برنساع ، المستشار لشؤون الضرائب في الهستدروت ، على هذه الظاهرة بقوله انه اتضح خلال الاسابيع الاخيرة ان عدد المأجورين الذين سينخفض اجرهم الصافي نتيجة الاصلاح اكبر مما كان متوقعا ، حيث تقدر نسبتهم الان بـ ١٠ ـ ١٥٪ من مجموع العاملين . كذلك اشار برنساع الى ظاهرة اخرى ، وهي ان اولئك العاملين الذين كانوا على استعداد للقبول بالاصلاح في شهر اذار الماضي ، لم يشعروا بتأثيره الخاص عليهم، والان يشعرون بالظلم بالمقارنة مع جماعات اخرى من العاملين (ل. دافيد ـ دافار ، ١٩٧٥/٧/١١).

ووصف وزير المالية يهوشواع رابينوفيتش تصرف هذه الفئات بقوله : « حدث هجوم من قبل « المنجوعين » ، وحماس كبير من اجل تخليد « الخطأ الخاص » [بهم] . ولو انتظرنا ، ولم نقر هذه القوانين ، لما بقي من الاصلاح شيء » (في مقابلة مع معاريف ، ١٩٧٥/٧/١٨). واعلن رابينوفيتش ايضا ان كل من له اعتراض او شكاوى ، باستطاعته التوجه الى لجنة المتابعة ، التي تتمثل مهمتها في البحث والتوجيه باصلاح الخطأ ، وتساءل عن سبب تصرف هذه الفئات ما دام دخلها الصافي سيبقى على حاله . كذلك اعلن وزير المالية ان الحكومة والقطاع العام والبلديات والمؤسسات والهستدروت ستعمل على المحافظة على الدخل الصافي للعاملين فيها ، ولن يكون بوسع ارباب العمل المستقلين الا التصرف على هذا النحو (المصدر نفسه) .

ويبدو ، من ناحية ثانية ، ان الفائدة المالية من وراء الاصلاح في الضرائب المباشرة محدودة جدا، خاصة على المدى القريب ، سواء بالنسبة للجمهور او بالنسبة لخزينة اسرائيل . وبحسب اقوال وزير المالية رابينوفيتش (في مقابلة مع معاريف ، ١٩٧٥/٧/١٨) ستخسر خزينة اسرائيل مبلغ مليار ليرة سنويا نتيجة الاصلاح ، لذا فان وزارة المالية جادة في الاعداد لفرض ضريبة القيمة الاضافية لكي تعوض عن خسارتها في الضرائب المباشرة . وكان وزير المالية قد اعلن ان « ضريبة القيمة الاضافية ستفرض خلال هذه السنة ، في مطلع تشرين الاول ١٩٧٥ . لم اقل ابدا انه سيحدث تخفيض في عبء الضرائب . ففي وضع اسرائيل لا يمكن ان يحدث هذا . هناك وجهان للعملة ـ تسهيل في الضرائب المباشرة نتيجة الاصلاح ، ثم ضريبة القيمة الاضافية . لن يخفف العبء » (المصدر نفسه) . اما على المدى البعيد فمن المفروض ان يؤدي تعميق جباية الضرائب ، وهو احد اهداف الاصلاح ، الى تغطية خسارة خزينة اسرائيل بسبب هذا الاصلاح،

ويبدو ايضا ان اهمية الاصلاح محدودة بالنسبة للجمهور ، خاصة تلك الطبقة الفقيرة التي كانت تستفيد ، على اي حال ، من الاعفاء في دفع الضرائب ، لذا فان وضعها الان لن يتغير كثيرا ، بل ربما يزداد سوءا « لان المال الذي يمنح للجمهور بيد واحدة ، يجب ان يؤخذ منه باليد الاخرى ، سواء من اجل تغطية الميزانية او من اجل منع تضخم مالي اخر . ولكن هذا المال سيؤخذ خاصة من اولئك الذين لم يحصلوا عليه، وذلك بواسطة تقليص الخدمات ، التي يحتاجها محدودو الامكانات . وبدلا من فرض ضريبة مباشرة على اولئك الذين يتوفر لديهم المال ، ستفرض ضريبة غير مباشرة على الخدمات والمواد الاستهلاكية الضرورية » (آشر منيف — دافار ، ١٩٧٥/٦/١٧) . لذا فان الاصلاح قد يؤدي الى زيادة الثغرات الاجتماعية القائمة في اسرائيل ، بدلا من تقليصها .

ويبقى السؤال المطروح : هل يمكن ان يساهم الاصلاح في الضرائب المباشرة ، في حل مشاكل اسرائيل الاقتصادية — ابتداء من التضخم المالي والعجز في ميزان المدفوعات ، وانتهاء بانتاجية العمل وتقوية الصناعة ؟ يعتقد الكثيرون ، في هذا المجال ، ان قلة اهمية الاصلاح « كامنة في عدم قدرته على شفاء الامراض الاساسية في الاقتصاد الاسرائيلي ، اذ لن يغير توزيع الدخل القومي ، وهناك شك فيما اذا كان سيحقق الهدف المحدود المتمثل في تخفيف العبء عن اصحاب الدخل المتوسط .

« ان اسلوب الحساب الجديد — قاعدة واسعة مع نسب [الضريبة] اقل — لن يؤدي الى زيادة الانتاج المنخفض في الصناعة ، ولن يزيد من فائدة ومستوى ادارتها ولا البحث والتطوير ولن يحسن علاقات العمل ، وبالطبع لن يستطيع اصلاح الهوة بين الخدمات والانتاج . وفي احسن الحالات يستطيع الاصلاح ان يسهل الامور التنظيمية ، وربما يساعد بذلك على تحصيل ضريبة حقيقية » (تيدي برويس — دافار ، ١٩٧٥/٧/١٠) . الا ان هناك من يخالف هذا الرأي ، خاصة بالنسبة لتأثير الاصلاح على انتاجية العمل . فقد ذكر مدير معهد انتاجية العمل بسرائيل ميدان (في مقابلة مع معاريف ، ١٩٧٥/٧/٩) ان « تخفيض نسبة الضريبة ، سيمكن الادارات من منح اجور مقابل الجهد والتفوق ، كذلك فان الدخل الصافي الذي سيبقى للعامل سيكون حافزا بالنسبة له لزيادة انتاجه » . بينما يرى يعقوب ارنون ، مدير دائرة ضريبة الدخل سابقا « اننا نعيش في فترة صعبة جدا . ويمكن ان نصل الى وضع نجد فيه حلولا مثالية لمشاكل مهمة ... ولكن هذه لن توفر لنا الحل لمشكلتنا الاساسية الحقيقية في هذه الفترة — وهي العجز في ميزان المدفوعات » (دافار ، ١٩٧٥/٧/١٥) . ويشارك ارنون في رأيه هذا معلق اخر ، بقوله : « ان الاصلاح ليس الخلاص كله . وربما احسن وزير المالية صنعا باعلانه ان « الطرف الاخر » للاصلاح — هو ضريبة القيمة الاضافية ، التي تعتبر خطوة مكملة وضرورية » (هـ. يوسطوس — معاريف ، ١٩٧٥/٧/٤) . ويتساءل البعض فيما اذا كانت سترافق هذا الاصلاح خطوات اخرى لحل المشاكل الاقتصادية في اسرائيل ؟ « ان الابقار المقدسة التي وعدنا وزير المالية بذبحها ، موجودة في حقل الاخطاء نفسه ، التي جاء الاصلاح من اجلها ... وليست هناك حاجة الى التأكيد ، ما هي المشكلة الاساسية في الاقتصاد ، الذي يبلغ العجز في ميزان المدفوعات فيه من ٣ — ٣٫٥ مليار دولار ... ، ونسبة الانتاج داخله اقل من نسبة الانتاج في معظم الدول الاوروبية الصناعية » (المصدر نفسه) .

توصيات لجنة زوسمان بشأن علاوة غلاء المعيشة

تجري مفاوضات الان بين الحكومة واتحاد الصناعيين من جهة وبين الهستدروت من جهة اخرى ، حول مبالغ علاوة غلاء المعيشة التي ينبغي دفعها خلال هذا الشهر ، ثم تجديد اتفاقيات الاجور لنصف سنة اخرى . وكان وزير المالية قد عين لجنة من الخبراء تمثل الحكومة والهستدروت واتحاد الصناعيين ، برئاسة دكتور تسفي زوسمان مدير دائرة البحث في بنك اسرائيل وعضوية كل من يوسف الشيخ ودكتور امير برناع ودافيد غولومب ودكتور بن عامي تسوكرمان ، لدراسة هذه المسألة وتقديم توصيات بشأن تعيين انظمة ثابتة لدفع علاوة غلاء المعيشة خلال كل سنة . « وظهرت الحاجة الى تعيين مثل هذه

اللجنة ، بعد نشر تقرير بن ــ شاحار ، الـذي اوصى بفرض ضريبة دخل عادية على علاوة غلاء المعيشة ، كما تفرض على الدخل . ونتيجة لذلك، اصبح واضحا انه يجب ايجـاد طريقة جديـدة لحساب عــلاوة الغلاء » (يتسحاق ديـش ــ معاريف ، ١٩٧٥/٧/٧) . وقـد اصبحت هـذه الحاجة ملحة بعد اعلان وزير المالية « بانه لـن يوافق على دفع علاوة غلاء كاملة على مجمل الغلاء في الاقتصاد ، وخاصة ذلك الناتج عن الخطـوات الاقتصادية الطارئة وغلاء الاستـيراد . ويـرى [وزير المالية] ان دفع علاوة غلاء معيشة كاملة سيقوي من سرعة التضخم المالي ... » (المصدر نفسه) . اما الموعد المقرر لدفع علاوة غــلاء المعيشة فهو ١٥ تموز ، وعلى هذا الاساس قدمت توصيات لجنة الخبراء .

جاء في مقدمة التوصيات التي قدمتهـا لجنـة زوسمـان ان علاوة غـلاء المعيشـة هي الاداة الوحيدة ، التي يمكن بواسطتها الحفـاظ علـى اتفاقيات الاجور لعدة سنوات في فترة تضخم مالي، وذلك دون اجراء مفاوضات غير منقطعـة حـول الاجور ، خلال فترة سريان مفعول هذه الاتفاقيات، وبدون ان تنص على ضرورة دفع تعويض مسبـق على ارتفاع الاسعار غير المتوقع في هذه الاتفاقيات. واوضحت التوصيات التي اشتمل عليها التقريـر ايضا ان علاوة غلاء المعيشة ليست حسنة يقدمها ارباب العمل والحكومة الى الهستـدروت « لان الاجر الحقيقي للعاملين حسب اتفاقيات العمـل كان سينخفض بسبب التضخم المالي السريـع ، الامر الذي يدفع العاملين الى المطالبة بتجديد هذه الاتفاقيات . وبما ان ارباب العمـل لا يسرهـم تجديدها ، فان الطريق الوحيدة لمنع الوصول الى وضع كهذا هي الحفاظ على الاجر الحقيقي للعامل بواسطة علاوة الغلاء . ان علاوة الغلاء تمكـن اذن من الحفاظ على اتفاقيات الاجور حتى في فترة التضخم المالي ، ولذلك تعتمد عليهـا الحكومـة وارباب العمل » (ابراهام كوشنير ــ دافـار ، ١٩٧٥/٧/١١) . وتتلخص توصيات لجنة زوسمان بشأن الطريقة الجديدة لدفع علاوة غلاء المعيشـة على النحو التــالي : (١) تدفع علاوة غــلاء المعيشة بنسبة ٧٠٪ من ارتفاع جدول الاسعـار للمستهلك ، (٢) تدفع العلاوة لمدة نصف سنة ، شرط ان يرتفع الجدول خلال هذه الفترة باكثـر من خمسة بالمئة ، (٣) يلغى « الحد الاعلى » للاجور المتبع لدفع علاوة الغلاء ، بصورة تدريجية (المصدر نفسه) .

وقد تبنت وزارة المالية توصيات لجنة زوسمـان بكاملها ، ويدور البحث الان حول دفع علاوة غلاء المعيشة حسب هذه التوصيات . وكان وزير المالية رابينوفيتش قد اعلن (في مقابلة مع معاريـف ، ١٩٧٥/٧/١٨) ان دفع علاوة غلاء المعيشة سيتـم حسب توصيات لجنة زوسمان ، « اي بين ٩ ــ ١٠٪ ، على حد اعلى من الاجور يبلغ ٣٥٠٠ ليرة. وسيتم الغاء هذا الحد الاعلى تدريجيا ، بحيـث تسري علاوة غلاء المعيشة على الاجـر كله » . واضاف رابينوفيتش ان هذه العـلاوة ستخضـع لضريبة الدخل حسب قوانين الاصلاح الضريبي .

اما بالنسبة لتمديد اتفاقات الاجـور فما زال البحث دائرا بين الحكومة والهستدروت واربـاب العمل بشأن تمديدها لنصف سنة اخرى ، اي حتى مطلع كانون الثاني ١٩٧٦ ، ويبدو ان هنــاك اتفاقا بهذا الشأن ، رغم ان البعض ، ومنهـم وزير المواصلات غاد يعقوبي (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٧/١٣) ، يطالب بتمديدها لسنة كاملة . وقد اعلن وزير المالية انه ينوي تأليف لجنة مـن الخبراء لدراسة تركيب الاجور ، واخرى لدراسة مشاكل العمالة في اسرائيل .

رغم اصرار وزير المالية على تطبيق توصيـات لجنة زوسمان ، فان دفع علاوة غــلاء المعيشـة في الظروف الحالية يسبب ضررا كبيرا للاقتصـاد الاسرائيلي ، لانه سيزيد الدخل الصافي للعاملـين الامر الذي سيؤدي الى زيادة الاستهلاك الفردي ، في الوقت الذي يدعو فيه الجميع الى تقليص هذا الاستهلاك وخفض مستوى المعيشـة . وتطـرق يعقوب ارنون ، مدير دائرة ضريبة الدخل سابقا ، الى هذا الموضوع بقوله : « يبدو لي ان دفـع علاوة غلاء المعيشة بنسبة ١٠٪ على دخل شامل يبلغ ٣٥٠٠ ليرة شهريا ، سيؤدي الى زيادة الدخل القائم بنحو ملياري ليرة سنويا ، والدخل الصافي بنحو مليار ونصف المليار ليرة ، بالاضافة الـى مليار ونصف مليار ليرة نتيجة الاصلاح في الضرائب. ان زيادة الدخل هذه غير ملائمة لمطالـب الامـة

المتمثلة في تقليل تعلقنا بالاوساط الخارجية » (دافار ، ١٩٧٥/٧/١٥) . ويضيف ارنون قائلا ان « حاجة الساعة تتطلب تحسين موقفنا في المستقبل في المجال الاقتصادي تجاه العالم الكبير، من اجل تحسين احتمالات صمودنا بنجاح اكبر امام كل ضغط وكل ضائقة تحل بنا في السنين المقبلة . والطريق نحو تحقيق هذا الهدف لا يؤدي الى دفع علاوة غلاء معيشة في تموز ١٩٧٥ . واذا لم يكن امامنا خيار فينبغي الاكتفاء بدفع هذه العلاوة للطبقات الفقيرة فقط » (المصدر نفسه) .

فك ارتباط الليرة بالدولار بصورة تدريجية

مر اكثر من شهر على قرار الحكومة الاسرائيلية بشأن تخفيض قيمة الليرة بنسبة ٢٪ (انظر « قضايا اسرائيلية » ، العدد ١٢ (١٩) ، ١٩٧٥/٦/٢٦ ، ص ٣٨٩ — ٣٩٥) ولا زالت التعليقات والتفسيرات حول هذا القرار مستمرة ، خاصة وان هناك احتمالا لاجراء تخفيض اخر في قيمة الليرة بين لحظة واخرى . ويبدو ان الهدف الاساسي من وراء عملية التخفيض التدريجية هذه هو فك ارتباط الليرة بالدولار بصورة نهائية . « فطالما كانت قيمة الدولار في انخفاض فضلت الحكومة الاسرائيلية عدم تحريك اي ساكن من اجل الغاء الارتباط بين الليرة والدولار . وهكذا حققت تخفيضا في قيمة الليرة بالنسبة لاوروبا واليابان ، بدون ان تكون هناك حاجة لان يعلن وزير المالية ذلك . ولكن قيمة الدولار بدأت تتحسن ، وفي كل مرة ارتفعت فيها هذه القيمة ادى الامر الى تعويم الليرة الاسرائيلية تجاه اوروبا واليابان . ولقد تضررت الصادرات الاسرائيلية نتيجة ذلك ، وكانت هناك حاجة الى زيادة حوافز التصدير » (شاؤول افران — معاريف ١٩٧٥/٦/١٩) . واتضح اخيرا لوزارة المالية بانه لا يمكن الاستمرار في وضع كهذا ، خاصة بعد الارتباط بالسوق الاوروبية المشتركة. « وبما ان اوساط وزارة المالية لا زالت تخشى فك ارتباط الليرة بالدولار بصورة كاملة ، فقد اقترحت التخفيض التدريجي في قيمتها . وبهذه الطريقة يمكن معرفة ما اذا كان الارتباط بالدولار خلال كل شهر هو لمصلحة الليرة الاسرائيلية . واذا اتضح انه لم يكن لمصلحتها — يمكن عندئذ معادلتها بواسطة اجراء تخفيض بسيط في قيمتها » (المصدر نفسه) . وفسر وزير المالية رابينوفيتش الهدف من وراء هذه الطريقة بقوله (في مقابلة مع معاريف ، ١٩٧٥/٦/١٩) : « انني اعارض اجراء عمليات تخفيض كبيرة في قيمة الليرة تؤدي الى زعزعة الاقتصاد والمجتمع في آن واحد . واعتقد ان الطريقة الجديدة تمنحنا افضل اداة من اجل تشجيع الصادرات وتنظيم مستوى الاسعار بيننا وبين الدول التي نصدر لها » .

وكان من المفروض ، حسب قرار الحكومة ، اجراء تخفيض اخر في قيمة الليرة خلال الاسبوعين الماضيين ، الا انه يبدو ان اوساط وزارة المالية قررت الانتظار حتى يتم الانتهاء من بحث مسألة غلاء المعيشة وتمديد اتفاقيات الاجور (ابراهام كوشنير — دافار ، ١٩٧٥/٧/٢٠) .

بدء سريان مفعول الاتفاق التجاري بين اسرائيل والسوق الاوروبية المشتركة

بدأ في أول تموز الحالي سريان مفعول الاتفاق التجاري مع السوق الاوروبية المشتركة ، الذي وقعته اسرائيل والسوق خلال شهر ايار الماضي (انظر « قضايا اسرائيلية » ، العدد ١١ (١٨) ، ١٩٧٥/٦/١٢ ، ص ٣٦٤ — ٣٧١) . وبهذه المناسبة اعلن مدير عام وزارة التجارة والصناعة، دكتور موشي مندلباوم ، ان الاتفاق مع السوق سيفتح فرصا جديدة امام الاقتصاد الاسرائيلي ، اذ سيكون بالامكان زيادة حجم الصادرات الاسرائيلية الى اوروبا بنسبة ٢٥٪ سنويا خلال السنوات الاربع او الخمس المقبلة ، بينما لا تتعدى نسبة الاستيراد من السوق ٥٪ سنويا فقط . وبهذه الطريقة يمكن تقليص الثغرة في الميزان التجاري بين اسرائيل والسوق » (دافار ، ١٩٧٥/٧/١) . ولكن رغم هذا التفاؤل ، هناك خوف من ان يؤدي انكشاف الصناعة الاسرائيلية امام المنتوجات الاوروبية ، الى « زوال » بعض فروعها بسبب عدم قدرتها على المنافسة . « فمن جهة واحدة يفتح الاتفاق مع السوق ، الاسواق الاوروبية امام الصناعات الاسرائيلية ذات المبادرة والقدرة ، بينما يكشف مصانع اخرى امام المنافسة القوية التي يمكن ان تؤدي الى اغلاقها » (دافار، ١٩٧٥/٧/١) .

باريليف : سنعلن حالة الطوارىء الاقتصادية

ان ما يثقل على الاقتصـــاد الاسرائيلي بشكل خاص في هذه الفترة ، هو عدم الوضوح بالنسبـــة للمساعدات الماليـــة الاميركية التي تطالـــب بهـــا اسرائيل . ويبدو ان هناك قضايا اقتصادية كثيرة لا زالت معلقة بانتظار وصول هذه المساعـــدات ، منها العجز في ميزان المدفوعات الذي يبلغ نحـــو ٥ر٢ مليار دولار ، ثم العجز في الميزانية الاسرائيلية البالغ حتى الان نحو ٤ مليارات ليرة . لذلك اعلن وزير التجـــارة والصناعة حاييم باريليـــف « ان اسرائيل ستضطر الى اعـــلان حالـــة الطوارىء الاقتصادية ، اذا لم نحصل من الولايات المتحـــدة على مبلغ ٥ر٢ مليار دولار ، كما طلبنا ، وكمـــا اخذنا بالحسبان في الميزانية والسياسة الاقتصادية لهذه السنـــة » واضـــاف باريليف ان احتمـــال الحصول على هذا المبلغ او ما يقاربه متعلـــق بامكانية تحقيق اتفاق سياسي حســـب مضمـــون السياسة الاميركية . « ان امكانية اضطرارنـــا الى الانتقال الى سياسة طوارىء اقتصادية ليست نظرية ، ويمكن ان يطرح هذا الامر خلال بضعـــة اشهر . ويتمثل ذلك في خفض عنيف في مستـــوى الاستهـــلاك ، وفـــرض نظام عمل جـــدي ومنـــع (الاضرابات العمالية) والمنـــح الخاصـــة » (معاريف ، ١٩٧٥/٧/٩) .

وسواء اعلنت حالة الطوارىء الاقتصاديـــة في اسرائيل او لم تعلن ، فان وضعها الاقتصـــادي يتعلق الان بمدى كبير بوضعها السياسي ، الامر الذي يدفعها في كل مرة الى اتبـــاع اجـــراءات اقتصادية داخلية لتخفيض حدة ازماتها . الا ان الدوائر الاقتصادية في اسرائيل تدرك جيدا ان هذه الاجراءات غير كافية لاخراجها نهائيا من ازمتهـــا الاقتصادية ، وبدون الحصول على المساعـــدات الاميركية تكون هذه الاجراءات عديمة الجـــدوى احيانـــا .

حنه شاهين

(٥) القضية الفلسطينية عسكريا

النشاط الفدائي في داخل الارض المحتلة
والاعتداءات العسكرية الاسرائيلية عبر الحدود في جنوب لبنان

واصلت طلائع الثورة الفلسطينية داخل الارض المحتلة عملياتها ضد الكيان الصهيوني . ففي ١٩٧٥/٧/١٨ جرت في الجليل الاعلى معركة عنيفة بين الفدائيين والقوات الاسرائيلية استمرت (٩) ساعات من الساعة (٠٣٠) فجرا وحتى (١١،٣٠) ظهرا ، واستخدمت فيها البنادق والرشاشات والقنابل اليدوية ومدافع الهاون (النهار ١٩/٧/ ١٩٧٥) . وكان بيان عسكري فلسطيني قد صرح ان مجموعة الشهيد (يوسف كلوسه) العاملة داخل الارض المحتلة اقتحمت مستعمرة (المطلة) من الناحية الغربية واخذت عددا من الرهائن ووزعت منشورات باللغات العربية والعبرية والانكليزية داخل شوارع المستعمرة تطالببالافراج عن (٢٠) مناضلا من بينهم المطران ايلاريون كبوجي . وقد تمكن ثوارنا الانسحاب مع الرهائن الى البساتين خارج المستعمرة في انتظار اجابة العدو على مطالبهم . الا ان العدو زج قوات كبيرة تساندها طائرات الهليوكبتر مع عدد كبير من آلياته لمحاصرة ثوارنا . فدارت معركة عنيفة استخدم فيها ثوارنا الاسلحة الرشاشة الصاروخية والقنابل اليدوية واستمرت حتى الساعة الثانية عشر ظهرا شوهدت خلالها النيران تندلع في منطقة القتال . وفي بيروت اعلن الناطق الفلسطيني عن استشهاد ثلاثة فدائيين في العملية . (المصدر نفسه) .

وفي تل ابيب قال ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي ان القوات الاسرائيلية قتلت ثلاثة فدائيين عبروا الحدود في الجليل الاعلى . واضاف الناطق قائلا بأن جنديا اسرائيليا واحدا اصيب بجروح في المعركة التي دارت على مقربة من المطلة . وذكر الناطق ان الفدائيين كانوا مسلحين ببنادق اوتوماتيكية وقنابل يدوية ومتفجرات وكانوا يحملون منشورات تطالب بالافراج عن فدائيين محتجزين في السجون الاسرائيلية (المصدر نفسه) . واثناء الاشتباك تعرضت قرى كفر كلا وعديسه ويليدا لقصف مدفعي اسرائيلي مما ادى الى وقوع بعض الاضرار (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/٧/١٩ كشفت حركة فتح في مؤتمر صحفي عقدته في بيروت تفاصيل عملية جديدة كان متوقعا ان تجري يوم الجمعة ١٩٧٥/٧/١٨ في مطار اللد . وقال ناطق بلسان حركة « فتح » ان « المحاولة التي حاولت القيام بها مجموعة تابعة لحركتنا لم تنجح هذه المرة ». الا ان المصدر نفسه قال « لكننا سندخل مطار اللد في المرة المقبلة او المرة التي بعدها » . ثم قال « ان مجرد وصول الثوار الى ابنية المطار هو عمل ضخم في حد ذاته بسبب اجراءات الامن المضروبة حول المطار ». ثم ابرز مغلف يحوي تفاصيل العملية داخل المطار. (النهار ١٩٧٥/٧/٢٠) .

وتجدر الاشارة ان مصادر اسرائيلية قد اعلنت يوم ١٩٧٥/٧/١٩ ان شرطيين من حرس الحدود كانا قرب الحاجز على مدخل المطار قاما بالقاء القبض على شخصين عربيين بعد الاشتباه بهما لادعائهما بانهما انما يجيدان فقط اللغتين الفرنسية والانكليزية . وتقول المصادر نفسها ان الشرطيين عندما اشتبها بالشخصين طلبا من احدهما دخول غرفة التفتيش ولما طلب منه ابراز هويته ، عندها اتضح انهما من نابلس . وعلى الفور تم تفتيشهما بدقة حيث عثر بحوزتهما على عبوة ناسفة كانت مخبأة على جسم احدهما . وعلى الفور استدعي خبير المتفجرات الذي ابطل مفعول العبوة . وقال قائد حرس الحدود في المطار انه لو نجح العربيان بتنفيذ مهمتهما لوقعت فاجعة كبيرة . (ر أأ — ٨٦٧ — ١٩٧٥/٧/٢١). وفي ١٩٧٥/٧/٢٠ كشفت الشرطة الاسرائيلية النقاب عن العملية وقالت « ان الفدائيين قدما من مدينة نابلس في الضفة

الغربية المحتلة وان احدهما يعمل في شركة السياحة في نابلس ويعرف المطار جيدا » . وزادت « ان الفدائيين كانا ينويان القيام بهجوم كبير على صالة المسافرين في المطار . وقد وصل الفدائيان في سيارة اجرة الى مطعم قرب المطار ومن هناك اقتربا مشيا على الاقدام نحو المبنى الرئيسي للمطار ، غير ان منظرهما اثار ريبة شرطية في نقطة المراقبة . وظهر من التحقيق ان كلا من الفدائيين كان يحمل شحنة متفجرة ملتصقة بجسده . (النهار ١٩٧٥/٧/٢١) .

وفي ١٩٧٥/٧/٢٠ وقع انفجار في خزان للمياه الساخنة يعمل على الغاز في منزل سكني في القدس ، نجم عنه اصابة عدة اشخاص ، كما لحقت اضرار بالطوابق الثالث والرابع والخامس من المبنى رقم (١١٥) في شارع اولتسمان في كريات يوفيل في القدس . ويبدو ان الانفجار وقع في الطابق الرابع . (رأ — ٨٦٧ — ١٩٧٥/٧/٢١) . وفي اعقاب الحادث ، اعلنت بلدية القدس انها ستؤمن السكن لجميع السكان الذين تضرروا نتيجة الانفجار . وفي ١٩٧٥/٧/١٩ ذكرت مصادر اسرائيلية ان قنبلة يدوية القيت على دورية تابعة لحرس الحدود ، ولم تقع اصابات . (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/٧/٢٠ قالت الشرطة الاسرائيلية في تل ابيب ان الفدائيين وضعوا عبوة ناسفة زنتها (١٠٠) غرام تقريبا ، قرب منزل سكني في ازور في تل ابيب وان العبوة وضعت في علبة اغذية محفوظة هذا وقالت الشرطة ان التحقيق الذي اجري اثبت ان العملية كانت عملية تخريبية نفذتها منظمة معادية . وقالت هذه المصادر انها افرجت عن (١٦) شخصا من المعتقلين الاربعة والعشرين الذين تم اعتقالهم يوم الجمعة (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/٧/٢١ اعلنت حركة المقاومة في بيروت ان الفدائيين الفلسطينيين دمروا احدى البنايات السكنية التابعة لوزارة الاسكان قرب تل ابيب وذلك بوضع عبوات ناسفة شديدة الانفجار مما ادى الى اصابة عدد من افراد العدو اصابات مختلفة . (النهار ١٩٧٥/٧/٢٢) .

وفي تل ابيب قالت مصادر الامن والجيش في ١٩٧٥/٧/٢١ انه تم اكتشاف (٣) شبكات تخريب عربية واعتقال افرادها في الايام القليلة الماضية في الضفة الغربية المحتلة . وقال ناطق عسكري اسرائيلي ان احدى هذه المجموعات وهي تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين مؤلفة من تسعة رجال اكتشفت في منطقة طولكرم واعتقل افرادها بعدما اعترف ثلاثة منهم بوضع دراجة هوائية ملغومة في منتجع ناتانيا الساحلي الاسبوع الماضي . وقالت مصادر الجيش والامن ايضا انه اكتشفت شبكة ثانية تابعة لفتح في نابلس في اعقاب توقيف رجلين في مطار اللد يوم ١٩٧٥/٧/١٨ . ثم اضافت هذه المصادر ان المعلومات التي توافرت نتيجة عمليات التفتيش الاخيرة والاعتقالات في الضفة الغربية كشفت خططا لخطف جنوداسرائيليين للاستيلاء على اسلحتهم . وكان ذكر عن وقوع عمليتي خطف من مثل هذه العمليات عام ١٩٧٣ . وقد قتل في احداهما جندي اسرائيلي ونزع منه سلاحه . (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى قالت صحيفة « معاريف » الاسرائيلية ان الخلية التابعة لفتح في نابلس ادرجت ضمن عملياتها القيام باختطاف الجنود الاسرائيليين . وزادت الصحيفة ان هذه الخطط كانت تستفيد من واقع ان الغالبية الكبرى من الجنود الاسرائيليين الذين يحصلون على اجازات ينتقلون في البلاد بطريقة (الاوتوستوب) . ولمزيد من تسهيل عملياتها كانت المجموعة الفدائية تعتزم استخدام سيارات مزودة بارقام اسرائيلية مزورة. وكان الهدف من تنفيذ هذه العمليات هو قتل الجنود المخطوفين او استخدامهم كرهائن او الاستيلاء على اسلحتهم في اي شكل (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/٧/٢٣ دخلت قوة اسرائيلية بلدة « كفر كلا » في قضاء مرجعيون ، فاستقبلها المواطنون بالرصاص . وقد دارت معركة فيشوارع وازقة القرية استمرت نحو ساعتين اصيب خلالها عدد غير قليل من جنود العدو ، وحضرت على الفور طائرات الهليوكبتر واخذتهم . واعترف العدو بسقوط قتيل و (٦) جرحى بين جنودهم على ايدي الاهالي . وفي اثناء الاشتباك حال الجيش اللبناني دون تطويق البلدة فقصف تجمعا للعدو وافشل محاولته . واسفر الاعتداء عن نسف منزلين وجرح امراة وطفل وخطف (٧) مواطنين من البلدة . واثناء الاشتباك اقام الاسرائيليون

حاجزا على طريق داخل الاراضي اللبنانية واطلقوا النار على شاحنة تنقل تبغا فاصابوا سائقها واثنين كانا فيها . (النهار — ١٩٧٥/٧/٢٤) .

وفي بيروت صرح ناطق لبناني بما يلي : « في الساعة (٠١١٠) من فجر ١٩٧٥/٧/٢٢ عبرت قوات معادية الحدود الجنوبية الى خراج بلدة كفركلا ووادي هورا في قضاء مرجعيون المتاخمة للاراضي المحتلة .

وفي الساعة (٠١٣٠) تصدت مدفعيتنا لنقاط تجمع العدو واحبطت محاولاته المتكررة لتمشيط كامل القرية والمنطقة . وقد ردت مدفعيته طوال ساعتين بقصف مرابضنا ومواقعنا المتقدمة . توقف الاشتباك في الساعة (٠٣٣٠) . وقد هبطت طوافة على مسرح الاشتباكات لنقل عدد من جرحاه . وانسحب العدو تاركا وراءه بعض المتاع والاغراض . وأسفر الاشتباك عن جرح امراة وطفل وخطف (٦) مواطنين ونسف منزلين (المصدر نفسه) .

وفي تل ابيب قالت مصادر الجيش الاسرائيلي ان قوة اسرائيلية دخلت الحدود اللبنانية ٢٣/٧/١٩٧٥ واحتجزت (٧) أشخاص في معركة مع الفدائيين جرت قرب الحدود . وقال الناطق ان جنديا قتل وان ستة آخرين جرحوا في الاشتباك الذي وقع في قرية كفركلا (المصدر نفسه).

وفي بيروت ذكرت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) ان الناطق الفلسطيني أصدر بلاغين عسكريين عن عمليتين للثوار الفلسطينيين في داخل الارض المحتلة . ففي العملية الاولى نصب ثوارنا من المجموعات المقاتلة كمينا لدوريات العدو على الطريق الرئيسي بين عكا وصفد . واثناء مرور احدى السيارات العسكرية المحملة بالجنود في الساعة (٢٠٠٠) من يوم ١٩٧٥/٧/٢٢ فاجأها ثوارنا بالاسلحة الرشاشة والقنابل اليدوية وتمكنوا من تدمير السيارة وقتل وجرح عدد من أفراد العدو . أما في العملية الثانية قام ثوارنا بوضع عبوة حارقة مؤقتة داخل مبنى بريد بلدة دورا في قضاء الخليل على رغم الاجراءات الامنية الواسعة التي يتخذها العدو داخل البلدة . وقد انفجرت في الوقت المحدد لها في الساعة (٢٢٣٠) من يوم ١٩٧٥/٧/٢٣ وادى انفجارها الى تدمير الباب الرئيسي للمبنى واصابة محتوياته بأضرار كما اشتعلت النيران فيه (النهار ، ١٩٧٥/٧/٢٦) .

وفي اسرائيل قامت قوات الشرطة يوم الخميس ١٩٧٥/٧/٢٤ بدوريات وحملات تفتيش مشددة في « ريشيون لتسيون » ووضعت حواجز في كل مداخل المدينة وفتشت سيارات الركاب . كما عملت دوريات مدرعة من الشرطة والمشاة وبعضها بالالبسة المدنية . وقد جرت العملية ضمن نطاق السياسة الجديدة التي اعتمدها اللواء الجنوبي للشرطة لقيام قوات كبيرة من الشرطة بعمليات بوليسية خاصة . (ر.ا.ف.١٠. — ٨٧١ — ٧/٢٥/ باذى . (ر.ا.ف.١٠. — ٨٧٥ — ١٩٧٥/٧/٣٠) .

وضمن نطاق حملات تحص مدى يقظة سائقي شركة باصات (ايجيد) وضع رجال الشرطة عبوات ناسفة زائفة في الباصات وتصرفوا تصرفا مشبوها للاطلاع على مدى يقظة السائقين . وبعد وضع المواد الناسفة الزائفة ، رصد رجال الشرطة وضباط الامن تصرفات سائقي الباصات .

وفي وقت لاحق تدمت شكاوى الى محكمة التعاونية الداخلية ضد اربعة سواقين لم يفتشوا باصاتهم وفرضت غرامات بقيمة (٢٥٠) ليرة على كل سائق وذلك بموجب قرار امانة سر ايجيد . (ر.ا.ف.١٠. — ٨٧٣ — ١٩٧٥/٧/٢٧) .

وفي اسرائيل قالت مصادر الشرطة في ٢٩/٧/١٩٧٥ ان خمس عيارات نارية أطلقت خلال الليل على مقهى محلي في قرية أم الفحم ولم يصب أحد بأذى .

وفي الساعة (٠٥١٥) من صباح ١٩٧٥/٧/٣٠ أطلقت قذيفة بازوكا من الاراضي اللبنانية باتجاه دورية تابعة لجيش الدفاع الاسرائيلي كانت في الاراضي الواقعة غربي المطلة ولم تقع اصابات وردت الدورية على مصدر النيران بالمثل . (المصدر نفسه) .

وفي القدس انفجرت عبوة ناسفة صغيرة يوم الخميس ١٩٧٥/٧/٣١ حوالى الساعة (٠٩٤٥) في محطة باصات (ايجيد) وادى الانفجار الى وقوع اضرار طفيفة ولم يصب أحد بأذى .

وقد ذكر شاهد عيان ، انه كان هناك كيس نايلون عليه عنوان (العال) وضع على أحد مقاعد

رصيف الباصات المتجهة الى بئر السبع . وكانت هناك سيدة اشتبهت بالكيس فاستدعت سائق الباص الذي شاهد العبوة في داخله . وعلى الفور تم استدعاء الشرطة . فأبعدت جميع الركاب والجمهور ، كما ابعدت الباصات القريبة من مكان الكيس . وعندما كان خبير متفجرات الشرطة في طريقه الى المكان ، انفجرت العبوة والحقت ضررا كبيرا بالمقعد. (ر.ا.ا. - ٨٧٦ - ١٩٧٥/٧/٣١).

وفي القدس قالت مصادر عسكرية اسرائيلية في ١٩٧٥/٧/٣٠ ان فريقا من سكان قلندية العرب (شمال القدس) اعتقلوا بتهمة تشكيل خلية تابعة لحركة فتح . وذكرت المصادر ان بين الاعمال التي اتهم الفريق بتنفيذها القاء قنبلة يدوية على سيارة ركاب كبيرة كانت تقل سياحا في قرية العيزرية قرب القدس في شهر كانون الاول الماضي . وقالت مصادر الشرطة انها تشتبه في ان يكون الفريق قام بست عمليات فدائية أخرى .

وكانت مصادر الشرطة قد ذكرت في ١٩٧٥/٧/٢١ انه تم اعتقال افراد ثلاث شبكات عربية في الضفة الغربية .

ومن جهة اخرى قالت الشرطة الاسرائيلية ان (٣٥) عربيا اعتقلوا ليلة الثلاثاء ١٩٧٥/٧/٢٩ بعد شجار بين العرب واليهود في مغارة الكفيلا في الخليل . (النهار ، ١٩٧٥/٧/٣١).

وفي ١٩٧٥/٨/١ قالت الشرطة في تل ابيب انها اعتقلت شبكة فدائية عربية بقيادة فتاة في الرابعة والعشرين من العمر . واضافت انه تم اعتقال أفراد الشبكة السبعة وبينهم زعيمتها وجميعهم من عرب اسرائيل . وان اكثريتهم من الطلاب تم تجنيدهم في الشبكة التابعة لفتح اثناء وجودهم في اوروبا . (النهار ، ١٩٧٥/٨/٢).

وفي بيروت دعا تصريح ادلى به عربي عواد امين المكتب التنفيذي للجبهة الوطنية الفلسطينية في ١٩٧٥/٨/٣ الى تشديد التضامن مع المناضلين المحكومين والمعتقلين في اسرائيل الذين يواصلون اضرابهم عن الطعام لليوم الثالث والعشرين الامر الذي ادى الى تدهور حالتهم الصحية واشتداد الخطر على حياتهم . (النهار ، ١٩٧٥/٨/٤) .

وفي بيروت ايضا قالت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) بتاريخ ١٩٧٥/٨/٣ ان المطران ايلاريون كبوجي المسجون في اسرائيل أعلن اضرابا عن الطعام في سجنه اعتبارا من ١٩٧٥/٨/١ احتجاجا على سوء معاملته . (المصدر نفسه) .

وفي تل ابيب قال ناطق عسكري اسرائيلي في ١٩٧٥/٨/٤ ان جنديا اسرائيليا وفدائيا عربيا قتلا في معركة جرت في ساعة مبكرة بين دورية اسرائيلية ودورية فدائيين في منطقة جبل منور ويقع المكان على بعد (٣) كيلومتر شمال شرقي كيبوتس ادميت في الجليل الاعلى . واضاف ان جنديين اسرائيليين آخرين جرحا في هذه المعركة بينما اسر العضوان الاخران في المجموعة الفدائية التي كانت مؤلفة من ثلاثة أفراد .

وقال مراسل النهار في بنت جبيل ان دورية اسرائيلية تكبدت اصابات عدة في اشتباك مع مجموعة من المقاتلين الفلسطينيين بين تربيخا وادميت المحتلتين على الساحل الغربي من الجليل الى الغرب من مروحين وان فدائيا سقط في المعركة. ووزعت وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) بيانا جاء فيه « ان المعركة استمرت ١٦ ساعة وان جنديين اسرائيليين قتلا فيها كما استشهد مقاتل فلسطيني وأسر اثنان وجرح واحد أعاده رفاقه الى قاعدتهم (النهار ، ١٩٧٥/٨/٥) .

وفي فجر ١٩٧٥/٨/٥ تعرضت منطقة صور لاعتداء اسرائيلي واسع برا وبحرا وجوا . فقد قامت زوارق اسرائيلية بعملية انزال في منطقة (البص) غطتها بقصف مدفعي كثيف استهدف المواقع العسكرية اللبنانية ايضا ، فسقطت قذيفتان في ثكنة (بنوا بركات) العسكرية في صور فقتلت (٤) ضباط لبنانيين . هذا وردت المدفعية اللبنانية على القصف المدفعي الاسرائيلي بقصف معاكس مركز كما تصدى الفدائيون والاهلين لقوة الكوماندوس الاسرائيلية التي نزلت من البحر حيث دارت معارك في شوارع المدينة سقط فيها (٦) مدنيين وطفل . وبعد الظهر أغارت الطائرات الاسرائيلية على مخيم البرغلية ومنطقة برج رحال وقصفت بقنابلها وصواريخها المنطقة فاصيب (٥٠) منزلا كما وقعت (٥) ضحايا بينها طفلان كما أصيب من جراء القصف في المنطقة عشرات الجرحى . (النهار ، ١٩٧٥/٨/٦) . وفي تل ابيب أعلن وزير الدفاع

الاسرائيلي شمعون بيريس في مساء ١٩٧٥/٨/٥ « ان العمليات الاسرائيلية داخل الاراضي اللبنانية ليست موجهة ضد الشعب اللبناني ولا ضد جيشه أو حكومته او سيادته » . (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى صرح ناطق عسكري اسرائيلي ان الفدائيين اللذين أسرا ليل ١٩٧٥/٨/٣ على الحدود اللبنانية كانا يقيمان في القدس الشرقية وانتقلا منها الى الاردن ولبنان حيث انضما الى حركة (فتح) . (المصدر نفسه) .

وفي فجر ١٩٧٥/٨/٧ دخلت قوتان اسرائيليتان الى بلدة حانين قضاء بنت جبيل وبلدة طلوسه في قضاء مرجعيون . ففي حانين نسفت منزلا وخطفت صاحبه . وفي هذه الاثناء كانت قوات اخرى من داخل الاراضي المحتلة تقصف بالمدفعية بعيدة المدى وادي الصالحاني وتضرب بالرشاشات مدار قرية (راميه) وخراجها طوال ثلاث ساعات . وكانت القوة الاسرائيلية قد خطفت ايضا خمسة مواطنين أعادتهم فيما بعد بعدما ساروا مكبلي الايدي مسافة كيلومتر خارج البلدة . (النهار ، ١٩٧٥/٨/٨) .

وفي طلوسه دخلت قوة اسرائيلية اخرى القرية في منتصف ليل ١٩٧٥/٨/٧ من الجهتين الشمالية والجنوبية للبلدة بعد اطلاق القوة الاسرائيلية النار بغزارة من أسلحتها الاتوماتيكية . وعلى اثر دخول القوة بدأ الجنود الاسرائيليون يقتحمون المنازل واحدا واحدا ويفتشونها . ثم غادروا القرية بعد ان اصطحبوا معهم مختار القرية وشاب من شبابها حيث أطلقوا سراحهما قرب الحدود . (المصدر نفسه) .

وفي بيروت صرح ناطق عسكري لبناني ان أحد مراكز الجيش المتقدمة فيقطاع الدفاع الغربي تعرض في الساعة (٠١٢٥) فجر ١٩٧٥/٨/٧ لقذيفتي (أر.بي.جي) ولنيران اسلحة رشاشة وبعض القذائف المتفجرة من داخل الاراضي المحتلة ، فرد المركز على النار بالمثل لمدة عشرين دقيقة ولم تقع اصابات وفي الوقت نفسه تسللت قوة معادية الى قرية حانين الحدودية ونسفت منزلا واصطحبت صاحبه معها الى الارض المحتلة . كما تعرضت بعض الاودية والمرتفعات على امتداد الحدود الجنوبية لعدد من القذائف المضيئة والمتفجرة ، ولم يسجل وقوع خسائر (المصدر نفسه) .

وفي تل ابيب قال ناطق عسكري اسرائيلي ان ثلاث حرائق نشبت ليل الاربعاء ١٩٧٥/٨/٧ على الحدود اللبنانية مع الاراضي المحتلة ولم تقع خسائر في الارواح . واضاف ان وحدة اسرائيلية دخلت الاراضي اللبنانية بحثا عن فدائيين في قريتي حانين وطلوسه الواقعتين على بعد (٥) كيلومترات من الحدود . ونسف أفراد الوحدة في قرية حانين منزلا عرف صاحبه بتعاونه مع الفدائيين .

وذكر الناطق ان دوريتين اسرائيليتين في قطاعي مرغاليوت والمطلة تعرضتا لقذائف البازوكا ونيران الاسلحة الاتوماتيكية. وقال ان القوات الاسرائيلية ردت على النار بالمثل ولم تقع أية خسائر. (المصدر نفسه) .

ومن جهة اخرى قامت وحدات فلسطينية بتاريخ ١٩٧٥/٨/٧ بعمليات جريئة استهدفت اهدافا عسكرية ومقرات قيادة اسرائيلية في الاراضي المحتلة ردا على قصف العدو لمخيمات اللاجئين في منطقة صور .

فقد أذاعت القيادة العامة لقوات الصاعقة العمليات التالية :

١ — في الساعة (٢٢) من صباح ١٩٧٥/٨/٧ قامت مجموعة من الفدائيين بمهاجمة مقر القيادة العسكرية في مستعمرة المطله بالقذائف الصاروخية والاسلحة الفردية مدعومة برمايات الصواريخ الثقيلة مما ادى الى تدمير مقر القيادة وعلى الاثر دفع العدو بقوات كبيرة لتطويق المجموعة حيث وقعت معركة دامت (٣) ساعات دمر للعدو خلالها دبابة واحدة وآليتان نصف مجنزرتين وعربة جيب عسكرية بقيت لكها داخل الاراضي اللبنانية بعد الساعة.٠٨٠٠) .

٢ — وفي الساعة (٠١٠٥) من صباح ١٩٧٥/٨/٧ قامت مجموعة اخرى بمهاجمة احد مكامن العدو في منطقة زرعيت في الجليل الغربي مما ادى الى مقتل جميع افراد الكمين المعادي ويقدر عددهم بثمانية . وعلى الاثر اشتبكت هذه المجموعة مع مكامن العدو المجاورة . اذ دفع العدو بقواته لتطويق المجموعة فدارت معركة استمرت نصف ساعة تكبد العدو فيها خسائر

كبيرة . وقد استمرت عملية اخلاء الخسائر من قبل العدو في ارض المعركة حتى الساعة السابعة صباحا ، في حين قامت قوة معادية اخرى بتفتيش قرية حانين والاراضي المحيطة بها بحثا عن أفراد المجموعة الفدائية .

٢ ـ وفي الساعة (٠٣٠٠) من صباح ١٩٧٥/٨/٧ قامت مجموعة ثالثة بمهاجمة مستعمرة مرحليون / هونين واشتبكت مع قوات العدو داخل المستعمرة ودمرت مقر قيادته . وعلى الاثر دفع العدو بقواته الى داخل الاراضي اللبنانية محاولا تطويق المجموعة الفدائية ، ومن ثم دخلت القوة الاسرائيلية قرية طلوسه بحثا عن افراد المجموعة الفدائية . وقد اعترف العدو في نشرته الاخبارية الساعة ٧،٣٠ والساعة ٨،٣٠ من صباح يوم ١٩٧٥/٨/٧ بجراة هذه العمليات الثلاث وببسالة الفدائيين ، خاصة وانهم تمكنوا من اقتحام سياج الامن الاسرائيلي . كما اعترف بمعارك المواجهة كلها من دون ذكر خسائره .

(المصدر نفسه) .

وفي دمشق قال ناطق باسم المقاومة في ١٢/٨/١٩٧٥ في بيان نقلته وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) ان احدى مجموعات الداخل زرعت عبوات ناسفة في مبنى يقيم فيه مستوطنون اسرائيليون جدد في المنطقة الشرقية من تل ابيب . وقد ادى انفجار العبوات الى الحاق اضرار بالغة بالمبنى واصابة عدد غير معروف من الاسرائيليين .

وقال الناطق في بلاغ اخر ان احد الفدائيين الفلسطينيين القى قنبلة يدوية مساء الخميس ١٩٧٥/٨/٨ على دورية اسرائيلية داخل بلدة عاقر في وادي الصرار أدى الى قتل وجرح جميع افراد الدورية .

الرائد الطيار حسين عويضة

ملحق

الاعتـــداء على صور
في ضوء الاختيـــارات اللبنـــــانية

استشهاد الضباط اللبنانيين الاربعة في ثكنة بنوا بركات في جنوب لبنان ، قرب مدينة صور ، يعيد هذه المرة سياسات لبنان الرسمية الدفاعية، بطريقة مختلفة من حيث الخطورة، للبحث والتقرير في الاوساط اللبنانية والعربية والفلسطينية . هذه المرة كان الشهداء الاربعة برتب عسكرية عالية وانتماءات لبنانية متفرقة ومكان اصابتهم ، وهذا كثير الاهمية ، كان في ثكنة بعيدا عـن مناطق الحدود المتوترة والخطرة حيث يمكن الاعتـداء والتعرض لمواقع دوريات الجيش اللبناني المتنقلة على قاعدة « الخطأ الاسرائيلي غير المقصود » . كما أن التصويب والتهديف الاسرائيلي ظهر دقيقا ومقصودا حد الخطورة الجدية . وبالقذائف نفسها أصيب مناخ ووجهة السياسات اللبنانية الداخلية ، من المسألة الفلسطينية في لبنان ، والدفـــاعية الوطنية ، في وقت لم تقو فيه بعد على الاختيار او التوكل . والاختيار اللبناني محكوم اما صوب اعادة صياغة مهمات الجيش اللبناني واعتمـاد سياسة دفاعية وطنية تلتحق عمليا بقاعدة العمل الفلسطيني الوطني المعادي للمؤسسات الاسرائيلية العدوانية الحالية ، وهو اختيار صعب جـدا ومحوكم بأيديولوجية اليمين اللبنانـي المرتبطـة بالرأسمالية وسوقها وهي ايديولوجية متخاذلـة وطنيا ، وهو اختيار صعب كذلك لانـه محكوم بسياسة لبنانية تقليدية تعتمد الحياد في المسائل العربية الوطنية وتلتحق في الوقت نفسه بما يطرحه الداخل العربي حيث السوق الاقوى للرأسماليتين اللبنانيتين التجارية المصرفية والصناعية . ولا يبقى أمام لبنان الرسمي الا الاستمرار في الاختيـار الاخر وهو التوكل صوب سياسات « ان قوة لبنان تكمن في ضعفه » وان الطريق البرية السوريـة « ليست أقصر الطرق » ـ خصوصا بعد اعادة فتح قناة السويس للملاحة ـ لوصول الرأسماليتين اللبنانيتين الى اسواقها في الداخل العربي حيث المصلحة الاقتصادية لهاتين الرأسماليتين وحيـث القاعدة العربية التي تقوم عليها سياسات التخاذل الوطنـي للقـوى اللبنانية اليمينية الشعبيـــة والرسمية . يضاف الى هـــذا ان التصـويب الاسرائيلي في قلب ثكنة بنوا بركات قرب صور جاء في مناخ متوتر يحيط بطبيعة المهمات المعقــودة للمؤسسات العسكرية اللبنانية . فقد بدأت بعض القوى اللبنانية ، المعنية وطنيا ويوميا بالاعتداءات الاسرائيلية ،تخطو تجربة جديدة وجدية خارج هذا التوتر نفسه ، على شكل استقلال مسلح ومنظم في الدفاع الوطني ، وكانت هذه التجربة الجديـة قد بدأت بصمود بلدة كفرشوبا وبعدها ظهـــور الحرس الشعبي في بلدة كفركلا وما يبدو انـه مقاومة لبنانية شعبية ، مستقلة عن المؤسسات اللبنانية الدفاعية ، التحقت بطريق النضـــال الفلسطيني الوطني الاطول . واهمية هذه المقاومة الشعبية اللبنانية المستقلة هي أنها تحمل السلاح ضد العدوان الاسرائيلي خارج المؤسسات العربية الرسمية مما سيحررها من قيود كثيرة ، كما أنها امتداد لاحزاب عقائدية لها تجاربها الطويلة فـي التنظيم والعمل الشعبي . كل هـــذه الخصائص ستعفي المقاومة الفلسطينية من بعض الاخطار في الاوساط اللبنانية الشعبية والرسمية . مهما يكن فالثابت حتى الان هو أن التصويب الاسرائيلي في قلب ثكنة بنوا بركات اراد ترسيخ الاستمرار فـي السياسات اللبنانية اللادفاعية عن طريق عودة المؤسسات الاسرائيلية العدوانية الى اعتمـــاد سياسات « اليد الطويلة والعصا الغليظـة » العدوانية القمعية والمعادية للشعـــوب العربيـة عموما والشعب الفلسطيني خصوصا ، وهـي السياسة المقياس ، في حال التخلي عنها نهائيا في الساحة اللبنانية الفلسطينية ، لمدى فرص التحول في السياسة الاسرائيلية في موضـــوع التعايش الديمقراطي في المنطقة.والثابت أيضا ان التصويب الاسرائيلي سيزيد من التعقيدات للوجود الفلسطيني وعلاقاته اللبنانية الشعبية ، وهو ما اتضح في استشهاد الفدائيين الاربعة في الخيمة المنفردة قرب شاطىء صور الشرقي عند مخيم البص للفلسطينيين. لقد تأكد نزول القوات الاسرائيلية على طريـق تدخل ضمن السيادة اللبنانية الكاملة ، كما يجب

الفكر اليميني اللبناني القول ، وتأكد ان موقع الخيمة ، قرب بيت عبد الرحمن الخليل ، رئيس بلدية صور وشقيق كاظم الخليل الوزير السابق، لم يكن هدفا عسكريا غالي الثمن يحتاج زخم العملية الاسرائيلية وحجمها . بل الادق من ذلك ان المسافة السياسية بين المقاومة الفلسطينية وسلطة آل الخليل ، وهي سلطة تقوم على قاعدة الاقطاع السياسي والمحاربة بسبب المنافع والخدمات الفردية ، هي التي كانت الهدف . ولقد سبق ان جرت محاولة لتوتير هذه العلاقات بحوادث اعتداء على شخص عبد الرحمن الخليل نفسه ، وهذا اكثر خطرا من استعداء وتحريض الدولة والاجهزة التي ضعف ما تبقى من أجهزتها مع دخول سلطة المقاومة الفلسطينية . ففي الوقت الذي حلت فيه المقاومة الفلسطينية في اواخر الستينات على سلطات اقطاعية لبنانية قوية في الريف اللبناني الجنوبي ، حيث العلاقات الاقطاعية هي السائدة في الريف تاريخيا ، بقيت المقاومة الفلسطينية غير راغبة وغير قادرة على اضعاف سلطات الاقطاع اللبناني بسلطات شعبية وطنية وديمقراطية عن طريق الاختيار الثوري في التعامل والتسليح والتنظيم ، في هذا الوقت كانت قوى الاقطاع وقوى السلطة الرسمية تحاصر المناخ الذي اوجدته المقاومة حتى لا يتمكن من التغيير والتبديل السياسي . صحيح ان ايجاد تعقيدات شعبية للوجود الفلسطيني في جنوب لبنان اكثر خطورة من التعقيدات مع الدولة او منه في أي مكان اخر من لبنان ، غير أن المقاومة الفلسطينية ربما تكون قد استطاعت منذ مدة حل معادلة الاعتداءات الاسرائيلية التي تقوم على اكمال دور القوى اليمينية المعادية وعلى توتير علاقات المقاومة الفلسطينية مع فئات من الشعب اللبناني على قاعدة ضرب مصالح هذه الفئات الاقتصادية ووجودها البشري بدعوى احتضان الوجود الفلسطيني المسلح . فلقد بدأ الفكر الوطني المعادي للعدوانية الاسرائيلية يسود في اوساط غالبية كبيرة من الشعب اللبناني ولم يعد الفكر المتخاذل والمحايد قادرا على اعتماد قاعدة باستثناء بعض التحريضات الطائفية التي بدأت تنهزم بدورها . لكن أخطر ما يواجهه الفكر الوطني المعادي للعدوانية الاسرائيلية هو امكانية ان يثبت لبنان الرسمي في اعتماد سياسات في معالجة الوجود الفلسطيني الوطني في لبنان على قاعدة بعض السياسات العربية التي تسعى لاجل الحاق الفلسطينيين والحركة اللبنانية الشعبية بسياسات تتخلى عن المكاسب التي حققتها في تثبيت سلطة منظمة التحرير الفلسطينية كسلطة وطنية لمعالجة المسألة الفلسطينية وتحقيق سلطة الشعب الفلسطيني الديمقراطية وتدعوها لتقبل سياسات تعيد من جديد اقتسام الشعب الفلسطيني ومصادرة حقوقه الوطنية بين الاسرائيليين والاردنيين بدعوى أن اميركا واسرائيل ترفضان التعامل في هذه المرحلة مع منظمة التحرير الفلسطينية . ان اختيار لبنان الرسمي التمسك بسياساته اللادفاعية على قاعدة بعض السياسات العربية سيضعف الموقف الفلسطيني ويجعل من احتمالات تفشيل السياسات الاسرائيلية المعادية للشعوب العربية عموما والشعب الفلسطيني خصوصا غير ممكنة من دون حرب جديدة تكون حرب الانتصار للحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني وليس حرب استعادة بعض الاراضي العربية .

ناشي طه

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٧/١٥ — ١٩٧٥/٨/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١ —	٧/١٥	١٤٤٠٠	رام الله	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير سيارة مدير بنك لئومي واصابة سيارات اخرى بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٢٦	٧/١٦
٢ —	٧/١٥	٢٠٤٠٠	الخالصة	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد		اصابة واشعال النيران في تجمع آليات ومعسكر للعدو	—	—	—	٧٥/٢٢٧	٧/١٦
٣ —	٧/١٨	٣٤٣٠	المطلة	اقتحام	اسلحة رشاشة وتذائف صاروخية	غيرمحدد		حجز عدد من الرهائن واصابة عدد من المواقع في المستعمرة واشعال النيران فيها	٣	—	—	٧٥/٢٢٨	٧/١٨
٤ —	٧/٢٠	١٤٤٠٠	القدس/حي كريات يوفيل(١)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير ثلاثة طوابق من مبنى سكني لمخابرات العدو وتصدعه وتدميره واعطاب عدد من السيارات وقطع الاتصال الهاتفي والتيار الكهربائي عن المنطقة	—	—	—	٧٥/٢٢٩	٧/٢٠
٥ —	٧/١٩	—	نابلس	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	٥	—	اعطاب سيارة عسكرية	—	—	—	٧٥/٢٣٠	٧/٢٠
٦ —	٧/١٨	١١٤٣٠	يازور/الرملة — تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من مبنى لوزارة الاسكان الصهيونية	—	—	—	٧٥/٢٣١	٧/٢٠
٧ —	٧/٢٢	—	القدس/حي موشيرم	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٣٢	٧/٢٣

٨ — ٧/٢٢	١٠،٠٠	نحال كوريم/شرقي عكـا	تفجير	عبوات حارقة	— —	اشعال النيران في آلاف الهكتارات الحرشيـة وامتدادها لمعسكر للدروع	—	—	—	٧٥/٢٣٣	٧/٢٣
٩ — ٧/٢٢	٢٠،٠٠	بين عكا وصفد	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد	تدمير سيارة دورية للعدو وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٣٤	٧/٢٥
١٠ — ٧/٢٣	٢٢،٣٠	دورا/الخليل	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد	تدمير الباب الرئيسي لمبنى البريد واصابة محتوياته بأضرار واشعال النيران فيـه	—	—	—	٧٥/٢٣٥	٧/٢٥
١١ — ٧/٢٥	٢٢،١٥	بتاح تكفا	تفجير	عبوات حارقة	— —	اشعال النيران في عدة اقسام من مصنع للاقمشة	—	—	—	٧٥/٢٣٦	٧/٢٦
١٢ — ٧/٢٥	١٦،٠٠	كيبوتس عنيت/شرق بتاح تكفا	تفجير	عبوات حارقة	— —	اشعال النيران في أحد المخازن الرئيسية وامتدادها لمخازن مجاورة	—	—	—	٧٥/٢٣٧	٧/٢٦
١٣ — ٧/٣١	١٠،٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	تدمير واصابة عدد من الباصات في المحطة المركزية	—	—	—	٧٥/٢٣٨	٧/٣١
١٤ — ٨/ ١	١٤،٣٠	بيت لحم	تفجير	عبوة ناسفة	غيرمحدد	تدمير أجزاء من مبنى البلدية	—	—	—	٧٥/٢٣٩	٨/ ١
١٥ — ٨/ ٣	٠،٤٥	ادميت وايلون	اشتباك	أسلحة مختلفة	غيرمحدد	—	١	—	٢	٧٥/٢٤٠	٨/ ٤
١٦ — ٨/ ٥	٦،٠٠	الخالصة	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	اصابة عدد من المنشآت واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٢٤٢	٨/ ٥
١٧ — ٨/ ٣	٨،٣٠	رويسة الرمثا	هجوم	أسلحة رشاشة وصاروخية	غيرمحدد	اصابة معسكر نشكول ومرصد معاد بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٤٣	٨/ ٥
١٨ — ٨/ ٥	١،٣٠	موقعا الشحل وسدانة/شبعا	كمين	اسلحة مختلفة	غيرمحدد	تدمير دبابة وناقلة جنـود نصف مجنزرة وتدمير عربة مدفع ١٠٦ ومربض رشاش	—	—	—	٧٥/٢٤٤	٨/ ٥

١٢ — ٧

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١٩	٨/ ٥	٢٢،٣٠	الخالصة	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد		اصابة عدد من المنشآت واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٢٤٥	٨/ ٥
٢٠	٨/١٠	٦،٤٥	ديمونا/النقب	تفجير	عبوات حارقة	غيرمحدد		تدمير جزء كبير من باص لشركة ايجد واصابة من فيه	—	—	—	٧٥/٢٤٦	٨/١٠
٢١	٨/ ٥	١٥،٠٠	نابلس	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	تم اكتشاف العبوة أسفل سيارة عسكرية وعند محاولة ابطال مفعولها انفجرت واصابت السيارة بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٤٧	٨/١٠
٢٢	٨/ ٢	٩،٠٠	ميجان ميخائيل/ بين حيفا وتل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدفق مئات الاطنان من النفط خارج الانبوب وتعطيل حركة السير ثماني ساعات	—	—	—	٧٥/٢٤٨	٨/١٠
٢٣	٨/ ٣	—	الجولان/قرب جسر بنات يعقوب(٢)	كمين	أسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غيرمحدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٤٩	٨/١٠
٢٤	٨/١٠	٧،٠٠	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		اصابة بعض آلات التنقيب بأضرار داخل منجم النحاس (ايما)	—	—	—	٧٥/٢٥٠	٨/١٠
٢٥	٨/١٠	٢٠،٠٠	اسدوم/جنوب البحر الميت	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد		تدمير باص لشركة ايجد وقتل وجرح معظم ركابه	—	—	—	٧٥/٢٥١	٨/١١

٢٦ — ٨/١٢	٧،١٥	تل ابيب(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غيرمحدد	اصابة مبنى سكني للمستوطنين الجدد بأضرار بالغة	—	—	—	٧٥/٢٥٢	٨/١٢
٢٧ — ٨/ ٧	—	عاقر/اللد	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	غيرمحدد	اصابة معظم افراد دورية للعدو بين قتيل وجريح	—	—	—	٧٥/٢٥٣	٨/١٢
٢٨ — ٨/ ٨	—	بيت جالا	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	— —	حرق منزل أحد سماسرة بيع الاراضي	—	—	—	٧٥/٢٥٣	٨/١٢
٢٩ — ٨/١٢	٠،١٥	محولا	قصف	صواريخ ثقيلة	غيرمحدد	اصابة مركز الامداد في المستعمرة واحدى المنشآت العسكرية	—	—	—	٧٥/٢٥٤	٨/١٢

---

١ — ادعى العدو بأن الانفجار قد وقع من جراء انفجار خزان للمياه الساخنة وألحق اضرارا بالغة بثلاث طبقات من مبنى سكني . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٨٦٧ ، صفحة ٣٨١ ، بتاريخ ١٩٧٥/٧/٢١).

٢ — ادعى العدو بأن الشاحنة العسكرية قد تدهورت واصيب ٢٤ جنديا بجروح . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٨٧٩ ، صفحة ٨٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٨/٤) .

٣ — اعترف العدو بحادث الانفجار ، الا انه ادعى بأن سببه نزاع حول نفقة احدى الزوجات . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٨٨٦ ، صفحة ٢٤٣ ، بتاريخ ١٩٧٥/٨/١٢) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية .

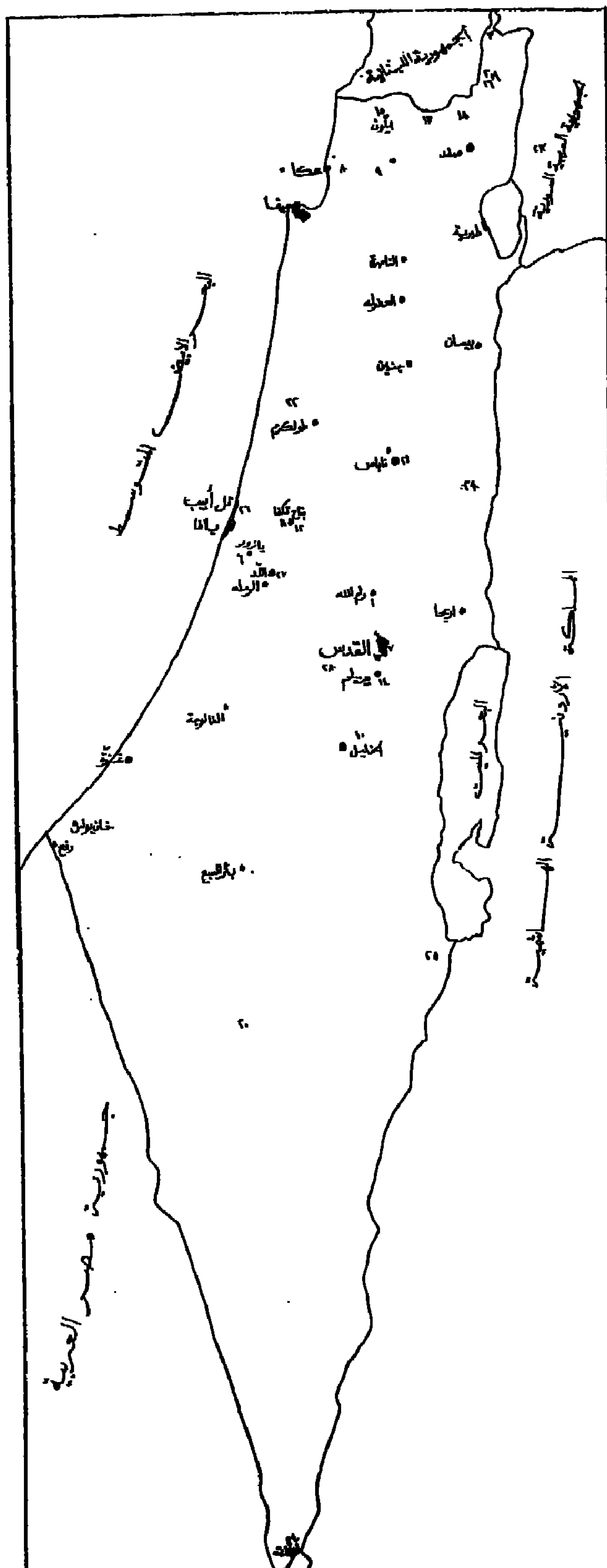
جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٧/١٥ — ١٩٧٥/٨/١٥

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	٧/١٥	—	رام الله	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة سيارة مدير فرع بنك للومي بأضرار	—	—	—	ن.عدد٨٦٣ص٢٨٨	٧/١٦
٢	٧/١٥	—	الخالصة	قصف	صواريخ كاتيوشا	—	—	لم تقع أية أضرار	—	—	—	ن.عدد٨٦٣ص٢٨٨	٧/١٦
٣	٧/١٨	١٠١٠	المطلة	اشتباك	أسلحة مختلفة	—	١	اشعال النيران في البساتين المجاورة	٣	—	—	ن.عدد٨٦٦ص٣٤٩	٧/١٩
٤	٧/١٩	—	—	القاء قنبلة	قنبلة يدوية	—	—	لم يصب أحد من أفراد دورية حرس الحدود	—	—	—	ن.عدد٨٦٧ص٣٨٤	٧/٢١
٥	٧/١٨	—	ازور	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة منزل سكني بأضرار	—	—	—	ن.عدد٨٦٧ص٣٨٤	٧/٢١
٦	٧/٢٠	٥٠١٥	المطلة	قصف	قذيفة بازوكا	—	—	لم تقع أية أضرار	—	—	—	ن.عدد٨٧٥ص٥٧٧	٧/٣٠
٧	٧/٣١	—	مرجليون	كمين	أسلحة رشاشة	—	—	لم تقع أية اصابات	—	—	—	ن.عدد٨٧٦ص٦٠٣	٧/٣١
٨	٧/٣١	١٠٠٤٥	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة ولكن انفجرت قبل ابطال مفعولها وأصابت باص بأضرار	—	—	—	ن.عدد٨٧٦ص٦٠٤	٧/٣١
٩	٨/ ٤	١٠٠٠	ادميت	اشتباك	اسلحة رشاشة	١	٢	—	١	—	٢	ن.عدد٨٧٩ص٩١	٨/ ٤
١٠	٨/ ٥	—	الخالصة	قصف	قذائف كاتيوشا	—	٢	لم تقع أية أضرار	—	—	—	ن.عدد٨٨٢ص١٥٩	٨/ ٧
١١	٨/١٠	—	ديمونا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	اصابة باص لشركة ايجد بأضرار	—	—	—	ن.عدد٨٨٥ص٢٢٤	٨/١١
١٢	٨/١٢	—	ميحولاه	قصف	قذائف كاتيوشا	—	—	لم تقع أية اضرار	—	—	—	ن.عدد٨٨٧ص٢٦٥	٨/١٣

ن. نشرة « رصد اذاعة اسرائيل » تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

غازي خورشيد

خارطة تبين المواقع التي نفذت فيها العمليات العسكرية الوارد نصها في الجدول



نشرة رصد اذاعة اسرائيل

أصدر مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية اعتبارا من ١٩٧٢/٨/١ نشرة استماع يومية للاذاعة الاسرائيلية التي تبث برامجها باللغة العبرية ، وذلك بغية تزويد الجهات المعنية والمسؤولة والمختصة في البلاد العربية (العسكريون ، السياسيون ، الاعلاميون ، الصحافيون ، الاقتصاديون ، مكاتب المقاطعة ، الباحثون الخ ...) باخبار العدو ومواقف قادته واتجاهات سياسته والتطورات التي تطرأ عليه في مختلف الميادين ، واخبار المناطق المحتلة حديثا بحيث يسهل على ذوي الشأن ، حين يطلعون على حقيقة ما يجري ويقال في اسرائيل ، اتخاذ الاجراءات اللازمة .

تتميز نشرة مركز الابحاث بأنها تتضمن تسجيلا كاملا ودقيقا للتعليقات السياسية والندوات والمقابلات واقوال الصحف التي تبث من الاذاعة يوميا ، بالاضافة الى تسجيل جميع نشرات الاخبـار .

وتطبع النشرة على « الاوفست » لضمان اخراجها بشكل جيد ومريح للقارىء .

يقوم المركز بتوزيع النشرة يوميا على المشتركين في بيروت . اما المشتركون خارج بيروت فترسل لهم النشرات بالبريد الجوي ، او باية وسائل أسرع .

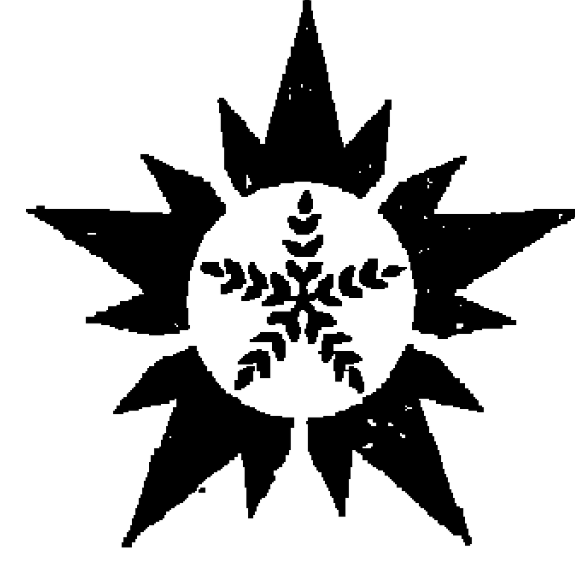
يتوجه مركز الابحاث اليكم على أمل ان تشتركوا بنسخة او اكثر من هذه النشرة . وبالنظر الى التكاليف الباهظة نسبيا للنشرة (الاستماع ، الترجمة ، السحب ، التوضيب ، التوزيع، الورق وخلافه) فقد تقرر ان تكون قيمة الاشتراك خمسماية ليرة لبنانية للحكومات والمؤسسات العامة، وثلاثماية ليرة للمؤسسات الخاصة والصحافة ، او ما يعادل ذلك بالعملات الاخرى، يضاف اليها أجور البريد : في البلاد العربية ١١٠ ل.ل. ، في اوروبة ١٥٠ ل.ل. ، في الاميركتين ٢٠٠ ل.ل. ، وفي آسيه وافريقيه ٢٥٠ ل.ل.

ان مساهمتكم بالاشتراك بأكبر عدد ممكن من النسخ هو الذي سيمكن النشرة من الصدور والاستمرار والنمو .

ترسل الاشتراكات الى :

مركز الابحاث ، نشرة الاستماع

ص.ب ١٦٩١ ، بيروت .



المكتب الشريف للفوسفاط

نظرة مجملة حول المكتب الشريف للفوسفاط

أنشىء المكتب الشريف للفوسفاط سنة 1920 في شكل مؤسسة تابعة للدولة ذات صبغة صناعية وتجارية تتمتع بتنظيم يسمح لها ان تتصرف بنفس الفعالية والمرونة التي تتمتع بها كبريات المؤسسات الحرة .

ويسير المكتب مدير عام معين بموجب ظهير كما يراقب من طرف مجلس اداري مركب من عدة وزراء يرأسه الوزير الاول .

1) مناجم الفوسفاط

هناك منجمان هامان : منجم اولاد عبدون ومنجم غنطور . أما الاول ، وهو من اهم المناجم في العالم ، فيحتوي على :

— منطقة خريبكة — وادي زم ، التي تستغل حاليا .

— منطقة سيدي حجاج غربا ، وسيشرع في استغلالها سنة 1980 .

وأما منجم غنطور فيحتوي هو الآخر من الغرب الى الشرق على :

— منطقة اليوسفية التي تستغل حاليا .

— منطقة ابن جرير التي سيشرع في استغلالها سنة 1977 .

وهناك مناطق فوسفاطية اخرى أكثر تجزيئا نجد احداها بمسكالة جنوب الناحية الواقعة بين الصويرة ومراكش. وتباشر الدراسات حاليا من أجل استغلالها فيما بعد .

وينتشر مجموع هذه المناجم على عدة آلاف من الكيلومترات المربعة في حين تقدر مدخراتها بعدة مليارات من الاطنان . وتمثل المناجم المغربية حسب التقديرات حوالى 60 في المائة من المدخرات العالمية المعروفة .

2) موانىء الشحن

الدار البيضــاء

ان ما يقرب من ثلاثة أرباع من الكميات المصدرة من الفوسفاط يقع شحنها بميناء الدار البيضاء . وتبلغ طاقة الخزن في هذا الميناء حاليا 400.000 طن موزعة على انواع أربعة .

ولقد بدأ التجهيز العصري بميناء الدار البيضاء خلال التخطيط الخماسي 1968 — 1972 وسيستمر طوال الحقبة 1973 — 1977 ويدار هذا الجهاز في مجموعه بواســطة عداد كهربائي . وسترتفع قدرة الشحن من 10 الى 25 مليون طن سنويا .

آســفي

يرتكز رواج ميناء آسفي في أغلبه على تصدير فوسفاط اليوسفية وعلى واردات وصادرات معمل أسمدة كيماويات المغرب ، وقريبا على واردات وصادرات معامل المغرب فوســفور رقم 1 و2 وقد تقرر رفع قدرة شحن ميناء آسفي الى 10 ملايين طن في السنة .

تطلعات المســتقبل

نظرا للازدياد المرتفع في صادرات الفوسفاط خلال السنوات المقبلة ، شرع من الان في تشييد ميناء فوسفاطي جديد ثالث بناحية دكالة قرب مدينة الجديدة بجرف الاصفر وذلك

نظرا لانميناءي الدار البيضاء وآسفي سيلغيان قدرتهما القصوى في السنوات العشر القادمة، وحرصا على تمكين تحقيق المعامل المستقبلية الخاصة بتحويل الفوسفاط (المغرب فوسفور رقم 3 وما سيتبعه) .

3) السياسة الاجتماعية

بذل المسؤولون عن المكتب ، منذ الحصول على الاستقلال سنة 1956 ، جهودا مستمرة لتحقيق الرفع من المستوى الاجتماعي لمختلف فئات المستخدمين وعائلاتهم .

وتحتوي التجهيزات ذات الصبغة الاجتماعية التي شيدها المكتب تدريجيا منذ تأسيسه ، وخاصة في غضون الخمس عشرة سنة الاخيرة ، على منازل ومستشفيات ومصحات ومدارس ومخيمات صيفية وتعاونيات ونوادي وتجهيزات رياضية كاملة وخزانات ومساجد وقاعات للمسرح والسينما .

4) التكوين المهني

كان المكتب الشريف للفوسفاط الى نهاية دجنبر 1972 يضم 13.343 عونا ، وأصبح يضم في نهاية 1974 15.600 عونا .

وباعتبار أهمية هذه الاعداد وتطور التقنيات الحديثة ، فانه ليس من العسير ادراك الاسباب التي أدت بالمكتب الى سن سياسة محكمة في ميدان التكوين المهني ووضعها في مقدمة الصفوف من أسبقياته . وهكذا ، أنشأت مصالح مكلفة بوضع هذه السياسة وتطبيقها مما جعل المكتب يتوفر في الوقت الراهن على :

— مصلحة للتكوين المهني واستكمال التكوين لفائدة التقنيين والاطر المسيرة والعمال المؤهلين .

— مصلحة لاستكمال تكوين الاطر السامية .

5) المنجزات المتوقعة في التخطيط الانمائي 1973/77

الاستخــراج

سترتفع الكميات المستخرجة من 16،5 مليون طن سنة 1972 الى 23،9 مليون طن سنة 1977 ، أي ما يعادل ازديادا سنويا بنسبة 7،8 في المائة .

المبيعـــات

نظرا للتطور المتوقع في الطلب العالمي من الفوسفاط والاسمدة الفوسفاطية ، قام المكتب بتحديد هدف يرمي الى رفع مبيعاته الاجمالية من 14،16 مليون طن سنة 1972 الى 26 مليون طن في سنة 1977 ، أي ما يعادل ارتفاعا يقدر بـ 13 في المائة .

وستظل الصادرات أهم هذه المبيعات (22،6 مليون طن سنة 1977)، غير ان المبيعات على الصعيد المحلي ستعرف ارتفاعا أسرع اذا ما أخذنا بعين الاعتبار النسبة المائوية . اذ ستنتقل هذه الكميات من 670.000 طن سنة 1973 الى 4 ملايين طن في سنة 1977 .

استثمار الفوسفاط وتقييمه

ان الارتفاع السريع الذي تعرفه مبيعات المكتب على الصعيد المحلي كما يتبين ذلك مما سبق ، لراجع الى السياسة المتبعة في الاستثمار المحلي للفوسفاط المرتكزة على :

— انشاء وحدتين لصنع الحامض الفوسفوريك هما المغرب فوصفور رقم 1 والمغرب فوصفور رقم 2 اللذين سيبلغ انتاجهما الاجمالي مليون طن في السنة من P 205 ستصدر جميعها . أما انتاجهما فسيبدأ في غضون النصف الثاني من سنة 1975 بالنسبة للمعمل الاول وفي بداية سنة 1977 للمعمل الثاني .

— مضاعفة قدرة شركة كيماويات المغرب ثلاث مرات ، هذه الشركة التي أصبحت تتعاطى صناعة الاسمدة المركبة زيادة على الاسمدة الفوسفاطية .

الأقــلام

مجلة فكرية عامة تصدرها شهرياً وزارة الاعـلام / بغـداد

الأقلام مجلة الأدب العربي الجـديد

اقرأ في كل عدد قصائد وقصصاً ودراسات
لأبرز أدباء العربية إضافة الى رسائل
ثقافية تغطي النشاطات الإبداعية في
العـــالـــم والـــوطن العـربي
والعـــراق

سعر النسخة

العـــراق	١٠٠ فلـــس
لبنـــان	ليرة لبنـــانية
مصـــر	١٠٠مليم مصري
السـودان	١٠٠مليم سوداني
البـحرين	١٠٠ فلس بحريني
الكـويت	١٥٠ فلساً كويتياً
تـونس	٢٠٠ فلس تونسي

المراسلات : العراق / بغداد / وزارة الاعـــلام - مجلة الاقــلام

بسم الله الرحمن الرحيم

Abu Dhabi National Oil Co.
Cable : "ADNOC"
P. O. Box 898 - ABU DHABI
Tel : 45600

شركة بترول ابوظبي الوطنية
برقيا . ادنوك
ص.ب ٨٩٨ - ابوظبي
تلفون : ٤٥٦٠٠



مصفاة ابو ظبي التابعة لشركة بترول ابو ظبي الوطنية

تباشر العمل في العام القادم

تعتبر مصفاة أم النار من أهم المشاريع الصناعية التي تتولى شركة بترول أبو ظبي الوطنية مهمة تنفيذها في الوقت الحاضر . وتقع المصفاة على جزيرة أم النار التي تبعد ٢٥ كم عن مدينة ابو ظبي . وتبلغ تكاليف هذا المشروع حوالي ٤٠ مليون دولار وسيساهم في سد حاجات البلاد الاستهلاكية من الوقود كما انه سيتيح العمل لاكثر من ٣٠٠ شخص بين فني وعامل ، هذا الى جانب انه سيخلق الكوادر الوطنية من ابناء الامارات العربية المتحدة والتي تتدرب الان على أعمال المصافي ، مصفاة الزرقاء بالاردن ومصفاة النصر بالاسكندرية .

تتألف مصفاة أم النار من عدة وحدات للتكرير والتحسين فهي تحتوي على أنبوب قطره ٨ بوصة وطوله ١٢٥ كم يضخ فيه البترول الخام من حقول الانتاج الى موقع المصفاة وتحتوي المصفاة على وحدة للتكرير المبدأي للنفط الخام طاقتها ١٥٦٠٠ برميل في اليوم وهناك وحدة تنقية البنزين والكيروسين وهناك أيضا وحدة انتاج الغاز . وبالاضافة الى هذه الوحدات ، هناك وحدات للخدمات مثل تنقية مياه البحر لتوليد البخار وكذلك التوربينات لتوليد الطاقة الكهربائية اللازمة لتشغيل المصفاة علاوة على خدمات الهواء المضغوط الآلات الدقيقة ومياه التبريد ، هذا بالاضافة الى الورش والمخازن اللازمة للقيام بصيانة الآلات والمعدات على أكمل وجه .

ومن المنتظر ان يبدأ انتاج مصفاة أم النار مع مطلع العام القادم .

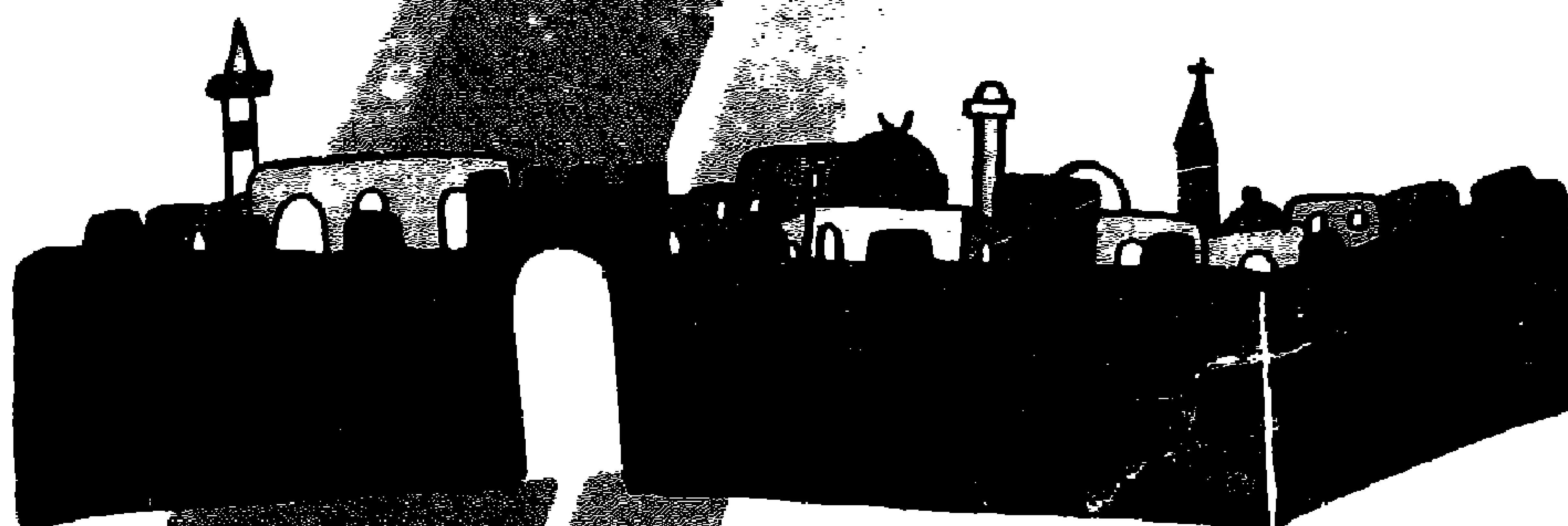
Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

السعر ٣ ١/٢ ل.ل. في لبنان
٤ ل.س. في سوريا
٤٥٠ فلساً في الكويت والعراق
٤ ١/٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية

شؤون فلسطينية

٥١/٥٠ تشرين الاول/تشرين الثاني (اكتوبر/نوفمبر) ١٩٧٥



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور انيس صايغ

رقم ٥٠/٥١ تشرين الاول/تشرين الثاني (اكتوبر/نوفمبر) ١٩٧٥

شهرية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

يشارك في التحرير : محمود درويش .

سكرتير التحرير : ابراهيم العابد **مدير التوزيع** : غازي خورشيد .

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني (متفرع من السادات) ، راس بيروت ، بيروت ـ لبنان ، ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦٠ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ، برقيا مرابحات ، بيروت .

ثمن هذا العدد : ٧ ل.ل. في لبنان ، ٨ ل.س. في سوريا ، ٩٠٠ فلس في الكويت والعراق ، ٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية .

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل. في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل. في سائر الاقطار العربية ، ٨٠ ل.ل. في أوروبا وأفريقيا ، ١٠٠ ل.ل. في أميركا واستراليا وآسيا .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل. في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة الفنانة الفلسطينية جمانه الحسيني

المحتويات

شؤون فلسطينيـة

حريق تشرين وحريق بيروت

□ نرى الموت يملأ الوقت والمدينـــة . وحـــده المشهد المألوف ، الخبر العادي ، والمناخ السائد . منذ نيسان الماضي حتى تشرين هذا ولا نرى غير الموت ، حاكمـــا ومواطنا . . هاجسا وواقعا . لا ينام ولا يتعب ولا يذهب . تخلت الفصول عن كنايتها الثابتة وتحولت ، كلها ، الى فصل الموت في بيروت . ولا أحد . . لا أحد في بيروت او خارجها ، لا القاتل ولا القتيل يعرف متى تسقط سلطة الموت ، ومتى تتوقف ضربات الصواعق التي تجعل السكون الخاطف ، حين تسكن ، أخطر من الانفجار .

أن تصحو ولا تجد جثتك بين ذراعيك ــ ذلك هو الفرح الشخصي الوحيد في بيروت ، وان تخرج الى الشـارع لتحصل على الخبز ثم تجد نفسك ، ثانية ، في البيت ــ معناه انك نلت المغفرة ــ المعجزة وعدت الى الجنة .

ولكن اية يد تصفق لنجاتها من مصير اليد الاخرى التي لم تضرب بأقل من صاروخ . لا ، ليس هذا هو الطاعون ولا هي الحرب . انها طراز مدهش من التعبير عـــن حنين الذين وجدوا انفسهم في دائرة الأنسنة ، بدون جدارة ، الى العودة النادمة الى احضان الحيوانية . « اغفروا لنا لأننا وجدنا أنفسنا بشرا بدون ارادتنا . نريد العودة الـــى الغابة » هذا هو لسان حال ابناء التربيـــة العنصرية الانعزالية الذين تشكل **الطائفة** محور وجودهم وعلاقاتهم . وهذا هو الفارق بينهـــم وبين الذين يريدون الذهاب الى وطنهم لتطوير انسانيتهم ، وتشكل **الثورة** محور وجودهم وعلاقاتهم .

□ هذه الحرب التي يشنهـــا الانعزاليون الذين وجدوا في العنصريـــة الاسرائيلية نموذجهم المنحط هي حرب الاسرائيليين ذاتها ، التي صارت تتشابك خطوطها في نقاط تقاطع عديدة مع حروب الردة العربية لتدشين عصر السلام الاميركي ، الذي لا يتأسس الا على جثث المكافحين من اجل الحرية والتحرر والتقدم ، تعبيران عن جوهر واحد . فان فتح بوابة الشرق العربي أمام عودة الروح الاميركية يتفق مع فتح بطن المقاومـــة لتخرج منها الروح في بيروت .

أن بيروت تحترق لا من أجل ان تحترق بيروت ، بل مـــن أجل ان تحترق المقاومة الفلسطينية والوطنية اللبنانية الحقيقية ، ومن أجل أن تحترق وسائل الاعتراض على

قطار أميركا السريع الذي يعبر رمال سيناء في طريقه الى الشرق الذي قال : لا . وان الذين يزودون هـذا القطار بالوقود قد يدركون أنهـم . بذلك . يريحون العدو الاسرائيلي [اما زال عدوا لهم في نظرهم ؟] مـن همومه الجنوبية . ويعيدونه الى صوابه الكلاسيكي بالتحرك في مجالـه الحيوي [المشرق] مرتاحا الـى الضمانات الاميركية بابقـاء الجنوب الواسع مفتوحا علـى علاقاتـه الاستراتيجية الجديـدة [الاستهلاكية لمن هو قادر على الاستهلاك طبعا] . وهكذا . بعد سبع وعشرين سنة من زمن الصراع ومهر الدم تم حفل الزفاف بين سلامة بعض الانظمة العربية وسلامة الامن الاسرائيلي . وانتقلت الحرب مـن خط المواجهة العربي ــ الاسرائيلي الـى الصفوف العربية .

ولم تكن حرب بيروت الا انعكاسا . ففي هذا المناخ وجد الانعزاليون الفرصة مواتية ــ في نظرهم ــ للانقضاض على المقاومة وعلى الحركة الوطنية لافتتاح محطة أنيقة للقطار الاميركي القادم من الجنوب . فهل كانت مصادفة ان تحترق بيروت ويسقط آلاف الضحايا في تشرين الثالث ؟ ان الذين عاد اليهم الوعي الاميركي فاغتالوا روح تشرين الاول قد وجدوا في دخان بيروت عباءة يسترون بها وجوههم الملطخـة بالقبل الاميركية ، فمر تشرين الثالث في هدوء وحياء . فما هي العلاقة ، اذن ، بـين حريق بيروت وبين حريق روح تشرين ؟ هل هي علاقة المصادفة ؛ ام علاقة الحظ ؛ ام علاقة الفضيحة ؟

□ اننا نرى الموت . ولكننا لا نيأس . وعمليات الدفاع التي يخوضها الفلسطينيون واللبنانيون ليست دفاع اليائسين أو الذاهبين الى الموت بلا ارادة . ان الحرب التي يشنها الانعزاليون ، المشبعون بروح الردة والتخاذل في الجو العربي ، هـي حرب اليأس . ومصدر الهامهم وتشجيعهم لا يأتي الا من الجفاف الوطني . ومصدر قوتنـا وصمودنا هو خصوبـة الملايين والمستقبل . ولقد تمكنت المقاومة الفلسطينية مـن الاعتراف بشرعيتها وتحمل مسؤولياتها نتيجة صلابتها وتعبيرها عـن حركة التاريخ واستعدادها اللامتناهي للتضحية . وبهذه القوة ، لن يستطيع اعداؤها الآن البرهنة على عجزها وعدم جدارتها بتحمل مسؤولياتها . ان المقاومـة تجتاز هذا الامتحان ، امتحان الجدارة والقدرة على تحمل المسؤولية بثقتهـا بالنفس وبالجماهير وبالحلفاء وبايمانها بحتمية النصر .

فليكن واضحا ان دفاعنا ليس سلبيا . .

وليكن واضحا واضحا واضحا اننا لسنا وحدنا . .

وليكن واضحا جدا ان الجسد الفلسطيني ينبض بدم مائة مليون عربي .

وليكن واضحا واضحا واضحا ان العرب لن يرضوا بانتحارهم . ولن تتحول القارة العربية الى راقصة في الملهى الاميركي .

اننا نرى الموت . ولكننا لا نيأس . . وسننتصر على الموت .

محمود درويش

لبنان ـ السيادة ولبنان ـ النظام

الدكتور كلوفيس مقصود

جاءت الاحداث اللبنانية المأسوية تذكيرا للعرب اجمعين بأن اي تراخ في تصميمهم على مجابهة الكيان الصهيوني من شأنه ان يفلت القوى والعناصر الانعزالية والمتخاذلة والرجعية في الوطن العربي . اكثر من ذلك فبروز اي رجحان وان كان آنيا او تكتيكيا او مرحليا لأي استعداد للمساومة مع الكيان الصهيوني ، او تبلور اية نزعة لمهادنة حقيقية مع اسرائيل تحت ستار الواقعية ، او بحجة الذرائعية ، او كعملية احراج لاسرائيل ، من شأنه ان يرجح في الساحات العربية المختلفة اجهزة القمع للحركات الشعبية والديمقراطية ، وان يتيح لعوامل التجزئة والتفكك مجالات الحركة والمناورة بأكثر مما يجيزه الواقع الشعبي أو المصالح القومية والوطنية المعروفة .

من هذا المدخل نجد ان القوى المعنة في تمييع الانتماء القومي وتفتيت التلاحم المصيري وارباك المسيرة التحررية ، تكتسب قدرة على التنظيم وتنمية قواها الضاربة بواسطة التسلح واشاعة جو من الانقسام وافتعال أحداث تعمينا عن ادراك أولوياتنا الحقيقية ، فتدخل الحركة الوطنية والثورية في متاهات ومشاغل تؤدي الى استنزاف قدراتها التعبوية المتنامية ، وتحرف توجهها من مقتضيات المجابهات المصيرية مع المحور الامبريالي الصهيوني ، الى تركيز على حماية خلفيتها وأطرها ، فيصبح الهدف المرحلي التقليل من الخسائر على الحركات الوطنية والديمقراطية والثورة الفلسطينية ، بدلا من تحقيق المزيد من المكاسب لهذه الحركات وفي طليعتها الثورة الفلسطينية .

اذن نحن بصدد وضع استثنائي يراد له ان يصبح نمطا طبيعيا وهذا ما يشكل انتكاسة حقيقية لنضال الجماهير العربية . من هذا المنظور علينا ان ندرس أحداث التجربة اللبنانية في الاشهر الستة الماضية وانعكاساتها على الخط البياني لحركة الجماهير العربية وللثورة الفلسطينية ، لأنه تحت كل الاحتمالات يبقى ان الذي حصل في الساحة اللبنانية ليس مجرد واقع سرعة العطب الذي يميز كيان الجسم السياسي اللبناني من حيث تركيبه الطائفي والاجتماعي ، بل من حيث ان موازين القوى في المنطقة ككل اختلت لصالح قوى المهادنة في الوطن العربي على حساب قوى المجابهة ، مما انعكس على الساحة اللبنانية فأعطى للقوى الانعزالية والطائفية واليمينية فرصة لاسترجاع انفاسها وتصورا لامكانيات اجهاض المكاسب التي حققتها القوى الوطنية والديمقراطية الملتحمة مصيريا بالعمود الفقري لكيان المجابهة العربية — اي الثورة الفلسطينية . يتبين لنا اذن الترابط العضوي القائم بين مختلف التطورات في المنطقة ككل ، وبين تعبيراتها المحلية في لبنان وتأثيراتها المباشرة والسلبية على المد الجماهيري ، والذي تنمي فعالياته فعل المقاومة الفلسطينية ووضوح الرؤيا عندها .

ان هذا الترابط هو بحد ذاته دليل قاطع على الوحدة القومية والمصيرية للأمة العربية والتي تجسدها وتعبر عنها تلقائية التجاوب الجماهيري مع أهداف النضال الفلسطيني • واعتبارها ان هذه الاهداف التحريرية تشكل معيار صدق الالتزامات القومية الراهنة . كما ان هذا الترابط يشير أو بالاحرى يسلط الاضواء على ما يمكن لنمو تيار انعزالي في موقع عربي رئيسي من أن ينمي بدوره حركية التيارات الانعزالية وبنسب متفاوتة في عدد من الاقطار العربية . يتضح لنا ان التداخل الذي تفرضه وحدة المصير للشعوب العربية توجد بشكل جذري وحدة في مصير تيارات ونزعات القوى الانعزالية والعوامل المفتتة في الوطن العربي نفسه .

في ضوء هذا الاستقراء النظري يصبح بامكاننا النفاذ الى خلفية وحقائق الازمة اللبنانية وان تصبح وقائعها ومسبباتها وأبعادها أكثر وضوحا مما تجيزه قراءة سريعة لهذه الازمة ، والتي بدون الامساك بقوانين الترابط العضوي في الوطن العربي تبدو الازمة اللبنانية شديدة التعقيد وبالتالي يصبح الحكم عليها من قبل المواطن العربي سطحيا او انفعاليا .

× × ×

من أين بدأ مسلسل العنف الذي عاش لبنان مآسيه طيلة ستة أشهر ؟ اذا أخذنا الوقائع بحد ذاتها كنقطة بداية لوجدنا أن الازمة بدأت يوم ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ اثر الاعتداء الاجرامي على سيارة الاوتوبيس واستشهاد أكثر من ثلاثين شخصا في عين الرمانة . أو يمكن الرجوع الى حوادث صيدا واستشهاد المناضل معروف سعد . وباستطاعتنا ان نقرر بأن عدم المحاسبة الجادة والصارمة في حوادث صيدا والتي استشهد فيها أكثر من عشرين مواطنا أرست سابقة بأن عدم المحاسبة من شأنه أن يؤدي الى تزايد عمليات استباحة الحركات الوطنية والجماهيرية ، مما يفجر الاوضاع في لحظة يختارها من يريد أن ينصب مصيدة لقوى المجابهة وللحركات الوطنية بشكل عام . كما انه باستطاعتنا أن نرجع اسباب مسلسل العنف الى تهاون نسبي عند القوى الوطنية في تطبيق احكام المحاسبة في ذلك الحين ، بذريعة الاستمرار في حكم أتاح للحركات الوطنية والتقدمية انجاز بعض الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ، كما يمكن الرجوع اكثر الى الوراء الى حين قبل وزير الدفاع اللبناني منذ عام ونيف — ان لم نقل شجع — تكاثر وانتشار السلاح عند مختلف الميليشيات الطائفية بشكل غير مسؤول يوازي بين السلاح المشروع في يد المقاومة الفلسطينية ، ويحاول أن يعطي مشروعية زائفة للانتشار الفوضوي للسلاح بيد العديد العديد من المواطنين بذريعة تسلح الفلسطينيين . اكثر من ذلك فقد شكل هذا التسييب الرسمي عملية زرع بذور التحريض على المقاومة الفلسطينية مرددا نفس الشعارات التي سبقت عملية الانقضاض على المخيمات الفلسطينية في عمان في أيلول ١٩٧٠ .

وقد تناغم هذا التشجيع الرسمي لانتشار الاسلحة مع مسلسل من المذكرات الكتائبية الى رئيس الجمهورية تركز في مجملها على جعل التجاوزات لقلائل الفلسطينيين وكأنها تبريرا مسبقا لتجاوزات كثرة من اللبنانيين . واذا نحن دققنا في مضمون هذه المذكرات الكتائبية المدروسة لوجدنا انها كانت تستهدف الانتقال لمرحلة الانقضاض جاعلة من التشجيع الرسمي والذي عبر عنه وزير الدفاع آنذاك وكأن ما يهيأ في معسكرات الميليشيات الطائفية هو نتيجة منطقية لسياسة مرسومة تنوي الانقضاض والتصفية وفي أحسن الاحتمالات اللجم والتقليص .

بمعنى آخر دابت هذه المذكرات الكتائبية الى افتعال جو سياسي ونفسي في لبنان

يبرر انتزاع القانون الى يدهم . فتصبح هذه القوى الانعزالية امتدادا لبعض اجهزة الدولة ومؤسساتها او ادوات تنفيذ غير مباشرة لأهداف هذه القوى ، وحتى لا نظلم الحكومات المتعاقبة فان التوجه كان الى استضعاف المؤسسة الحكومية — أو الوزارية — وافتقاد التوازن داخل السلطة التنفيذية . بغية تمرير العديد من التجاوزات الخارجة عن الشرعية ، مثل التدريبات التي كانت تؤمنها بعض مؤسسات الدولة للقوى غير النظامية . اكثر من ذلك فلقد وجدنا كيف انه اثناء العام الماضي تصرفت الكتائب والقوى الانعزالية وكانها هي ، وحدها ، القيمة على « سيادة » لبنان وتعمدت أن توحي بأنها هي وحدها حريصة على سمعة ودور المؤسسة العسكرية اللبنانية . ولقد أجازت القيادة العسكرية آنذاك من خلال سلوكها ان يشيع مثل هذا الانطباع ومثل هذه الصورة ، فتكونت عند قسم هام من الراي العام قناعة بأن المؤسسة العسكرية ليست المؤسسة الحكم بمقدار ما هي فريق . من هنا ساد رأي عند معظم اللبنانيين بأن قيادة الجيش آنذاك كانت أكثر تسيسا مما يجب ، مما جعل المطالبة بتغيير هذه القيادة مطلبا وطنيا ملحا ، حرصا على وظائفية الجيش وتحريرا له من التسيس . بمعنى آخر صار المطلب الوطني بجعل الجيش اداة للدولة بمعناها الاشمل ، وليس جهازا « للدولة » بالمعنى الاضيق المتداول .

هكذا يتبين لنا ان الصراع الذي كان قائما في لبنان طيلة العام الماضي كان منصبا في استباق المحاولات المتكررة لحصر السلطة والاستئثار بها من قبل الرئاسة الاولى وتفرعاتها واعادة موازين القوى الى مختلف مؤسسات الدولة والمواطنين بغية ردع السلطة التنفيذية من الطغيان الكامل على اوجه الحياة العامة ، وترسيخ المعادلات الديمقراطية النسبية ، تمهيدا لجعل المؤسسات تستجيب للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الساحة اللبنانية .

ولقد وجدنا كيف ان عملية تعطيل المؤسسات اصبحت نمطا عاديا ، وان عملية اخراج القوى الفاعلة من امتثالها للمؤسسات القائمة — بكل ما فيها من عجز — حققت اهدافها من حيث انتشر التسيب والفوضى والخروج عن القوانين والمشروعية . ولعل ما شاهدناه من تعطيل لمؤسسة رئاسة الحكومة وللهيئة التشريعية (مجلس النواب) وغيرها من المؤسسات الضابطة للحياة العامة ، هو الذي فرخ دويلات قائمة بذاتها تجهز من أجل ضرب الاتفاقيات المعقودة بين المقاومة الفلسطينية والدولة ، وضرب الحركات الوطنية والجماهيرية . كان لا بد لمثل هذه السياسة المستضعفة للمؤسسات والقائمة على تشجيع التسيب ان ترتكز على شحن لاعقلاني للعوامل الانقسامية من طائفية واقليمية وعشائرية ، بغية اقفال فرص التلاحم ووضع الحوار على اسس الردع المتبادل بدلا من التمحور الوطني الصلب .

وقد كان من ابرز اوجه هذا التيار الساعي الى تعطيل المؤسسات قيام الحكومة العسكرية التي اتاحت للقوى الوطنية والديمقراطية فرصة تجاوز تناقضاتها الذاتية ، واستعادة مبادرتها في استرجاع موازين القوى واحباط مؤامرة الاستئثار بالسلطة ، وما انطوى هذا الاستئثار عليه من ابتزاز حقيقي من خلال طرح خيار التقسيم كاحتمال وارد جديا لأول مرة في تاريخ لبنان المعاصر . وبرغم عناد التيار السلطوي الانعزالي في جعل ولادة الحكومة المدنية قاسية ومتعبة ودامية ، فقد كان هناك ما يشابه القرار الشعبي بضرورة ارجاع الثقة بالصيغة التعددية حتى يكون هناك ردع للسلطة التنفيذية ، من خلال السلطة التنفيذية ، مما يقوض الاستئثار ويفسح المجال امام عودة التوازن الى الممارسات الديمقراطية النسبية . وما ان تشكلت هذه الحكومة المدنية حتى عاودت القوى الانعزالية الكرة لتقليص نفوذها وتبهيت مصداقيتها حتى تعود للسلطة المستأثرة

حرية التصرف وضمانات الاستمرار وبصلاحيات مطلقة . وبرغم الزخم الشعبي الذي رافق تأليف الحكومة الكرامية فقد واصلت القوى الانعزالية خطتها في محاولة تفريغها من الفعالية السياسية والاجرائية التي اعطيت لها من جراء الموجة الشعبية التي اسقطت الحكومة العسكرية . وقد ظلت القوى الانعزالية تناور قتاليا وسياسيا من اجل اغراق هذه الحكومة ببحور من الدم للتدليل على العجز والجمود وجفاف سلطتها الحقيقية . ولعل التصادمات الدموية التي حصلت في الشمال ، خاصة بعد مجزرة داريا ، كانت من ابرز التعابير عن التصميم من اجل عودة الاحجام الى أوضاعها السابقة بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة . لكن الحكومة وان لم يكن بمقدورها ان تؤمن من خلال قوتها الذاتية المطاليب الامنية تمكنت ، على الاقل ، من وضع حد ما للتمادي الذي كان يميز الاوضاع السائدة منذ نيسان ١٩٧٣ وحتى قبل ذلك التاريخ ، مما ادى الى التعديلات المتقدمة التي حصلت في قيادة المؤسسة العسكرية ومن توزع جزئي لمراكز القوى وما استتبع ذلك من حد للاستئثار وعودة التعددية الى النظام القائم .

× × ×

لقد حاولنا بشكل مقتضب ان نرجع الازمة اللبنانية الراهنة الى بعض مسبباتها الذاتية ، وان نؤكد انه مهما عدنا الى سبب مباشر ، فانه باستطاعتنا العودة الى اسباب مباشرة أخرى كامنة في معظمها في الالتباسات المقصودة التي تميز النظام اللبناني القائم . وقبل الخوض في جوهر الاسباب الرئيسية التي كما اشرنا في بداية التحليل تكمن في أوضاع المنطقة ككل ، والتي اتاحت للقوى الانعزالية والانقسامية فرصا مستجدة للتحرك والفعل ، لا بد من القاء نظرة سريعة على بعد ذاتي في الواقع اللبناني وهو البعد الاجتماعي الحاد الناشىء عن عدد من العوامل والمتغيرات التي طرات على المجتمع اللبناني ككل . فان كل محاولة لفهم واستيعاب ابعاد الازمة اللبنانية لا تؤدي الى نتائج موضوعية او علمية دقيقة وسليمة ما لم يضاف على سجل تاريخ الوقائع السياسية احاطة بالتحولات الجذرية في البنية الاقتصادية والاجتماعية ، والتي بدا النظام اللبناني القائم وكأنه لا مبال بها أو عاجز عن استيعاب المعاني الحقيقية التي تنطوي عليها هذه المتغيرات .

وبرغم اننا لسنا هنا بصدد تحليل هذه العوامل المستجدة والتي كانت دائما موجودة دون أن تطفو على سطح الجسم السياسي اللبناني بالشكل الحاد الذي شاهدناه وعشناه طيلة العامين الماضيين ، الا أن ما يلفت النظر هو ان المخــاض الشعبي الجماهيري كان يعبر عن نفسه وكأنه النظام في عالمين مختلفين ومتناقضين . ان فجوة التصديق التي نشأت من جراء انقطاع النظام فكريا وسياسيا وسلوكيا عن حقائق المعاناة المأسوية التي عاشتها وتعيشها الجماهير المسحوقة والمحرومة ، قد ادى الى انفضاح ترهل النظام وكونه اصبح مرشحا بشكل جدي للتعديل الجذري أو للتغيير .

في هذا المضمار سعت القوى المستأثرة بالسلطة بتواطىء مع القوى الانعزالية الى دمج الحفظ على السيادة بمفهوم الحفاظ على النظام القائم . وكان الهدف من هذا الدمج المقصود والمفتعل تضييق مفهوم السيادة وتخويف قوى معتدلة ليبرالية داخل النظام أريد تحييدها بحجة حصر اهدافها « باصلاح » النظام لا بتغييره جذريا او بشكل شامل . ان الخطة التي كانت تسعى لدمج مفهومي السيادة والنظام في اطار واحد اربكت الى حد ما العناصر الوسطية الوطنية التي ترفض المدلول الاضيق للسيادة من حيث ان تأكيد السيادة هو ازاء العرب وليس ازاء العدو الصهيوني . ولكن هذه القوى الوسطية بدورها تخاف من التغيير ومدى جذريته مما يجعلها حريصة على النظام القائم

ولكنها عاجزة عن التوفيق بين مقتضيات التزاماتها الوطنية ومصالحها الطبقية مما يجعلها تفقد الكثير من اهليتها في المساهمة بتصليب وتقوية وطنية لبنان من حيث ان المفهوم المتطور لحرية الوطن هو مساواة المواطنين .

واذا نحن تمعنا اكثر في هذه الحقائق المستجدة على صعيد الواقع الاجتماعي لوجدنا كيف ان تباطؤ وعجز النظام عن مجابهة الاعتداءات الاسرائيلية على جنوب لبنان وعلى المخيمات الفلسطينية ادى الى تنزيح عدد كبير جدا من ابناء الجنوب الى العاصمة وضواحيها ، مما جعلهم في وضع ربطوا فيه النظام بواقع تخليه عن السيادة ، مما وضعهم في واقع المجابهة الحقيقيه مع من ربطوا النظام بمفهوم مبتور للسيادة . بكلام آخر فان النازحين اللبنانيين من الجنوب الذين وجدوا ان قراهم معرضة للاعتداءات الاسرائيلية المتكررة وحتى اليومية دون اي تصد حقيقي لهذه الاعتداءات من قبل مؤسسات الدولة او اجهزتها عنى بالنسبة اليهم ان المؤسسة العسكرية تترجح عندها مقتضيات القمع للحفاظ على « النظام » على ضرورات الدفاع عن الحدود وبالتالي السيادة .

هذه النظرة الى الجيش ساهمت في تعميق المخاوف السائدة عند اغلبية المواطنين بأن النظام من حيث اسقاطه للجنوب من اهتماماته الجادة والحقيقية هو نظام تتحدد اولوياته بدافع الحرص على المصالح الطبقية والامتيازات السياسية ، لا بحافز ايجاد الصيغ الملائمة لتأمين مشاركة اوسع للجماهير في كافة المجالات اكان على مستوى صناعة القرارات او الاستفادة الحقيقية منها . ازاء هذا الاسقاط الحقيقي من قبل النظام لمستلزمات اهل الجنوب عنى ان النظام فقد المقدرة على تقييم سليم لدور الجنوب كونه احدى الساحات الرئيسية للمجابهة العربية مع الكيان الصهيوني . وقد تأتى عن ذلك حالة افتراق نفسي وسياسي بين معظم اهالي الجنوب والنظام مع ما يعنيه هذا الافتراق من انعدام توقع اي تقيد من قبل النظام بالضرورات الحياتية والاستراتيجية التي تفرضها كثافة الاعتداءات الاسرائيلية على منطقة الجنوب . وقد تذرع النظام مرارا بأن الانكفاء عن المجابهة او الرد الفوري على الاعتداء الاسرائيلي هو بحد ذاته ممارسة للاستراتيجية القائلة بضرورة تحويل الضعف الى قوة . اكثر من ذلك فان هذه النظرية تفترض وجود مظلة وقائية اميركية تحمي السيادة الشكلية للبنان او ترجع للبنان الممارسة الشكلية لهذه السيادة على مناطق كثيرة من الجنوب ، في حين تؤمن لاسرائيل حرية استباحة السيادة اللبنانية في هذه المنطقة الحساسة والهامة معا . من هنا تبرعمت العلاقات الحميمة بين أهالي الجنوب والمقاومة الفلسطينية بعد أن اتضح لأهالي الجنوب التزام المقاومة الفلسطينية بضرورات الدفاع المشروعة عن الاراضي التي يشتركون معها في القيام عليها ، بينما يرضخ النظام للمنطق الذي يقول بأن التواجد الفلسطيني المقاوم هو المسبب للاعتداءات الاسرائيلية المتكررة .

هذا الواقع الجنوبي ببعديه الجغرافي والسكاني ساهم في توضيح معالم التناقض بين اهتمامات النظام وهموم المحرومين والنازحين الجدد ، مثلما سلط الاضواء على اللااكتراث بأوضاع القطاعات الفقيرة والمتوسطة في كافة المناطق . وان كان النظام اللبناني قد أخذ على عاتقه ادخال بعض الاصلاحات الجزئية فانما كان بدافع استباق المطالبة بالاصلاحات الجذرية والتعديلات المطلوبة مما كان بدافع الاقتناع بحقوق هذه الفئات وتلبية مطالبها . جاء النزوح من الجنوب ليظهر بشكل فاضح عيوب ونواقص النظام القائم ، وليجعل ضرورة معالجتها بذهنية وتفكير جديدين مطلبا وطنيا شاملا عجز النظام عن فهم أبعاده أو حتى الاقتراب من فهم أوجه المعاناة الحقيقية فيه . فكان النظام يسعى الى عملية التسويف والمماطلة في تلبية الحقوق الاولية والمشروعة ويعمل

على قمع تحركاتها والسعي من أجل احتوائها من قبل ارتكازه الى زعامات تخلت عن مواقع المجابهة مع العدو الصهيوني اثناء اعتداءاته وعن التعبير المتفصل عن آلام وحاجات ومطاليب هذه الجماهير النازحة والمحرومة عندما كانت بأمس الحاجة الى من يضيء مسيرتها ويوجهها بمنأى عـــن مطبات الوقوع فريسة للتبعثـــر والعشوائية والاحتقانات العشائرية والطائفية .

كان لا بد لهذا الواقع الاجتماعي الحاد والذي صار حضوره على الساحة اللبنانية اكثر وضوحا وفعلا من ان يتلاقى ويتفاعل وبالتالي ان يتلاحم مع القطاعات الفلسطينية الشعبية المتواجدة في لبنان وان يتأثر بها من حيث انها أكثر انتظاما ، واكثر تجربة في حقول النضالات الوطنية والمطلبية . وبرغم من المحاولات المتكررة من النظام على تحويل الفروقات الظرفية والتباينات في مستويات الوعي والتنظيم بين الفئات المحرومة النازحة الى تناقضات فعلية يتمكن النظام شراء مزيد من الوقت لديمومته فان هذه الفئات افسدت على النظام محاولاته من خلال انضوائها وتجاوبها مع القوى التقدمية واطارات اليسار اللبناني . بالاضافة الى حركة المحرومين التي عملت على نقل هذه القطاعات الى حالة متقدمة من الوعي السياسي الاجتماعي الذي سهل استيعابهم لحقيقة تداخل مصائرهم مع التوجهات الاساسية للنضال الفلسطيني . في هذا المضمار حاولت القوى الانعزالية الغارقة في يمينيتها أن تفسر هذه الظاهرة الاجتماعية السياسية الطبيعية والمحتومة وكأنها عملية « انتقاص للسيادة اللبنانية » . اي ان اليمين الانعزالي اللبناني من اجل الامعان في تعمية المواطنين عن رؤيا عملية التآكل في نظامه المتقوقع ، فسر واقع التداخل النامي المحتوم بين الآلام الفلسطينية القائمة والآلام اللبنانية الناشئة ــ خاصة من خبراء تخاذل النظام في الدفاع عن السيادة الحقيقية ــ وكأنه « تدخل » فلسطيني وبالتالي انتقاص للمفهوم الشكلي والمبتور والمنحرف للسيادة اللبنانية .

كما انه اذا تمعنا اكثر في مفهوم القوى الانعزالية للسيادة لوجدنا انه ، من خلال الخلفية النظرية لتفكيرهم ومن خلال ممارساتهم الراهنة يتلخص بكون السيادة مرهونة بقدرة النظام على الحفاظ على امتيازات القلة المهيمنة واستمرار هضم حقوق الاكثرية المغبونة . ولم تتورع هذه القلة المهيمنة عن تسخير كل الامكانيات والوسائل والاساليب من اجل ديمومة تسلطها واستئثارها . وكانت كلما احكم طوق الوعي الجماهيري حولها كلما كشفت عن ادمانهاــ وكأنها تتحين الفرص ــ في رغبة اللجوء الى استنفار غرائز الخوف واللاعقلانية من اجل اجهـــاض الحقيقة الاجتماعية الطبقيـــة للصراع السياسي الى عملية اغراق المواطنين من كل الطوائف في حرب اهلية اقتتالية يتوقف عنده العقل المحلل ليفسح المجال أمام الهذيان السياسي الذي يولده جنون الطائفيين ومخططات العملاء . حتى انه بدا لقطاعات كثيرة اثناء الازمة اللبنانية الدامية ، وما انطوت عليه من تجارب مرة ومأساوية ، ان عملية تقسيم فعلية آخذة بالتنفيذ من خلال التفريغات الطائفية المعيبة التي جرت في عدد من المناطق اللبنانية بواسطة الارهاب الذي مورس وحيث كان المسيحيون او المسلمون اقلية قائمة وراسخة . لقد وجدنا ايضا كيف ان مفردات التخاطب السياسي حتى عند بعض التقدميين الملتزمين اتسمت بالرضوخ للحسابات الطائفية ولبعض أوجه لغتهم . لقد تصور هذا الفريق من التقدميين الوطنيين أن من شأنه التعجيل في تعبئة المحرومين والمسحوقين حتى يصار فيما بعد الى تثقيفهم السياسي في مرحلة لاحقة لمرحلة التقاتل . وبرغم ان استعمال بعض المفردات والمفاهيم الطائفية عند قطاع من القوى التقدمية والوطنية كان استنسابا الا انه يجدر بنا أن نسجل هذه الانحرافات عن الخط العلماني الصرف المطلوب منا جميعا وتحت كل الظروف والتحديات تأكيده والتزامه . غير ان تسجيل هذه الواقعة لا يجب مطلقا

— كما كان يقول الشهيد كمال ناصر — ان يؤدي بأن نوازي بين أخطاء الملتزمين وبين خطايا المتربصين .

يتراءى لنا ان المخطط الذي يراد تنفيذه هو جعل التقسيم خيارا واردا من خلال عملية ابتزاز يقوم بها بعض قطاعات النظام بغية وضع الفرامل على مسيرة ونمو القوى الوطنية واليسارية والليبرالية والديمقراطية . حتى اذا صار التقسيم خيارا واردا عملت هذه القوى الوطنية والديمقراطية على اسقاط بعض مطاليبها المشروعة وميعت برضاها التزاماتها المبدئية والسلوكية من أجل اسقاط خيار التقسيم وانقاذا لوحدة الوطن اللبناني وحرصا أكيدا منها على كيانه . وبرغم ان الظروف الدولية في المنطقة لن تجيز لخيار التقسيم ان يتم بالسرعة أو بالصيغة المرغوبة من بعض غلاة الانعزالية والطائفية الا انه من الاكيد ان الضالعين في تنفيذ مخططات الجناح الانعزالي اليميني في النظام دائبون على تثبيت ركائز حقيقية للتقسيم فيما اذا تم الآن أو في اية مرحلة لاحقة . ولقد تأكد لعديد من الدوائر الدبلوماسية التي راقبت عن كثب ما حدث في قبرص اجمالا ان هناك لا مجرد توارد في الافكار بل توارد في الخطط وفي التوقيت بين المطالبة التركية بالتقسيم في قبرص وترسيخ خطوط عملية — وان لم تكن شرعية او قانونية — لتقسيم في العديد من المناطق اللبنانية يبدأ بتعويد الناس على احتمال وقوعها حتى لا تقاوم عند الحدوث . وليس أدل من ذلك هذه الاستقطابات الطائفية التي حصلت على اسس احياء وقرى ومدن وان كانت الآن لا تزال محصورة فان استمرار الاقتتال من شأنه توسيع رقعة التقسيم في لبنان . اذن باستطاعتنا القول ان خيار التقسيم وان كان مستبعدا الآن وفي المرحلة الراهنة فان التيار الانعزالي الاستئثاري في الحكم يعمل على رسم ومن ثم وضع أسسه منذ الآن .

الا ان هذا التيار القائم في النظام يدرك ان قسما من محازبيه يخشى أن يؤدي التقسيم الى تهديد حقيقي لمصالحهم الطبقية البورجوازية والى الفرص المتاحة في الوطن العربي بأسره ، خاصة ان نشوء الاستثمارات في الدول المنتجة للنفط والسيولة التي تتمتع بها جعل هذه الفرص جذابة لتوظيف كفاءاتهم وخدماتهم في هذا المنحى . من هذه الزاوية يتبين لنا احتمالات اسقاط خيار التقسيم لا من خلال صلابة وقوة وجماهيرية هدف الوحدة الوطنية فحسب ، بل من خلال التهديد الحقيقي لمصالح فئة مركنتيلية تجارية تخشى أن تؤدي صهينة الطوائف في لبنان الى سلخه عن مصادر الاستفادة والانتفاع المتاحين لها في المجال العربي .

يبقى أن نعي أن مجموعة هذه العوامل بحد نفسها تجعل مراهنة التيار الانعزالي في النظام خاسرة كما تبين من جراء العزلة الحقيقية التي استشعرها دعاة هذا التيار من المؤتمرين في مقر البطركية المارونية في بكركي أثناء الازمة . ان استبعاد هذا الخيار لا يعني انه لم يعد لدى هذه الفئة خيارات أخرى تستهدف تصديع الوحدة العضوية للشعب اللبناني وتنحية لبنان عن تجربته وخاصة عن احتمالات تطور هذه التجربة .

من هنا تتجلى لنا بعض الحقائق الاساسية التي تنشأ عن عجز النظام من مجابهة التحديات المعاصرة التي يواجهها لبنان . حتى ان الفئة ذات النزعة الوطنية فيه ، والتي سبق لها ان ساهمت في احباط الكثير من مخططات التيار الانعزالي اليميني ، لم ترتفع بمستواها الى الدرجة المطلوبة من أجل استيعاب تضاريس الازمة وتعقيداتها ، ناهيك عن انكشاف عجزها عن فهم كل ابعادها وعجزها في استنباط الوسائل الذاتية لمواجهتها ومعالجة أبعادها وذيولها . بمعنى آخر فان الازمة اللبنانية الراهنة لا تزال تعالج من

خلال مسببيها لدرجة ان اقصى ما يطمح اليه الوطنيون الحقيقيون هو تقليل الخسائر واسترجاع الانفاس .

هذا الواقع بحد ذاته يلقي ضوءا كاشفا على ناحية اخرى من الازمة والتي لم يقف الوطنيون والتقدميون عندها بشكل كاف . وهي معالجة القلق — او بالاحرى الخوف — الذي يعيشه معظم المسيحيين في لبنان . وبرغم اننا نريا البحث بمثل هذه القضايا من الزاوية المبدئية . الا ان اي تجاهل للوقائع الموضوعية في هذا المضمار من شأنه ان يغيب عنا حقائق اساسية نصبح في تجاهلنا لها وكاننا نتكلم مع انفسنا راغبين في تثبيت انسجامنا مع انفسنا على حساب الجدوى وحساب الفرص والفاعلية المتاحة امامنا . وبرغم اننا لسنا هنا في مجال تحليل هذا الموضوع الشائك . الا انه علينا ان ندخله في اطار بحثنا . من حيث ان مخاوف معظم المسيحيين كانت من العوامل اللاعقلانية والتقسيمية التي انفلتت بعد ان تراخى الانشداد القومي في الساحة العربية ووهنت معها صلابة المجابهة والصمود . النقاط الثلاث الاساسية التي يجب ان تتأكد في هذا الموضوع هي التالية : **اولا** — ان الاستشعار بكون الواحد منا ينتمي الى اقلية يعني تغليب الحماية الذاتية من الغير على شعورنا بضرورة تلاحمنا المصيري مع الغير — او ما يسمى بالاكثرية . عندما يحدث هذا الشعور وينحصر مفهوم الانتماء حتى يكاد يختنق ، عندئذ تصبح الوطنية الحقة بمفهومها العضوي تذويبا للذات وعملية انصهار لاغية لما قد نتصوره معطيات تميز . **ثانيا** — يستتبع هذا الشعور ويغذيه بنفس الوقت تقوقع فكري ، لأن مستلزمات « الدفاع » عن النفس لهذه الاقلية تطلب تكريس حالة الاغتراب . ومن ثم الدخول في دوامة التأرجح بين الاستشراس والتملق حسب متطلبات الظرف . **ثالثا** — في حال استمرار هذا الشعور وهذا التقوقع الى نتيجته المنطقية تصبح الاقلية العددية محكومة بعامل الخوف اكثر مما هي محكومة بقوانين العقل والتطور . ينتج عن هذا الواقع تصور لواقع الاقلية وكأنها محكومة بحتمية الابادة — ان لم يكن بالمعنى الجسدي الكامل فبمعنى مبهم يقترب منه — هذا الوضع يخرج « الاقلية » من دائرة اي حوار ، اذ انه يفقدها رغبة الحوار والقدرة عليه . اكثر من ذلك فان مجرد الاقتراح على الاقلية بالحوار يتحول الى تصور الحوار وكأنه استدراج للتخلي عن مواقع التشنج التي تصبح عندها السياج الحامي لوجودها .

ان التيار الانعزالي الطائفي حاول أن يجعل من هذا الشعور حالة دائمة بدلا من كونه ظرفيا بالمنظور التاريخي وبحكم قوانين التطور البديهية . الا أن النظام ككل ساهم في تكريس هذا الواقع لا بل ساهم في تشجيع وتقوية مثل هذا الشعور عند مختلف الطوائف . وقد حصل هذا بالفعل . ان كل الطوائف نما في صفوفها الشعور بكونها اقلية . وبرغم الحقيقة انه بالمفهوم العددي ليس هناك اكثرية من طائفة واحدة الا أن التوجه كان نحو جمع الطوائف في اطر الدينين المسيحي والاسلامي ، لكن قبل ان يوصل النظام الطوائف الى هذا المستوى من التنسيق الداخلي ضمن الاطار الديني الاعم كان النظام القائم ضمن لذاته ان كل طائفة تتصرف من منطلق كونها اقلية لتأمين استبدال حقوق الطائفة هذه او تلك بحقوق المواطنين . وما ان تم مثل هذا الاستبدال في التوجه المطلبي وتكرس سلخ المواطن عن ارتباطه بالوطن ككل حتى تصرف النظام وكأنه قائم على تلبية مطاليب الطوائف بدلا عن مطاليب المواطنين . في الواقع قام النظام على محورة نفسه حول التركيب الطائفي فأفقد لبنان كينونته الوطنية ، وما ان تأمن للطائفيين من كل الطوائف العلاقة المباشرة مع النظام حتى ضمن النظام اللبناني القائم لنفسه قدرة على تغليب التيار الانعزالي الرأسمالي من خلال الجيوب التي اقامها بنسب متفاوتة من القوة داخل كل الطوائف . الا أن تحول الشعب الفلسطيني من لاجئين

خانفين الى شعب منظم منضبط الى حد كبير في اطار المقاومة جعل لتواجده على الساحة اللبنانيه اثرا فكريا ومسلكيا بارزا على الخريطة السياسية في لبنان . فدعوة الثوره الفلسطينية الى قيام الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين صير العلمانية تيارا متناميا في واقع السياسة اللبنانية . فالثورة الفلسطينية الداعية للبديل الديمقراطي العلماني للكيان الصهيوني وضعت الطائفية المتحكمة في نظام لبنان في حالة انحسار مستمر بفعل التعبئة الفكرية والاعلامية التي استهدفت العالم بأسره . فكان لا بد ان تمس الاجيال الصاعدة اللبنانية التي تكونت لديها عبر السنوات الثلاثين بعد الاستقلال قناعة بأن العلمانية والوطنية اصبحا صنوين في لبنان . الحقيقة ان وجود المقاومة اسهم في تنام سريع لقدرة التصدي الوطني العلمـــاني للطائفيين من كـــل الطوائف .

يضاف الى ذلك ان المقاومة الفلسطينية بحكم وظيفتها التثقيفية لجماهيرها اسرعت في تنمية قدرة الحركات الفكرية السياسية المشابهة لها من حيث المضمون الفلسفي والعقـــائدي على التصدي المباشر للقضايا المطلبيـــة على الصعيدين الاجتمـــاعي والاقتصادي . وبرغم ان هذا الالتقاء المستمر في المفاهيم السياسية العامة وفي التركيز على المضمون الوطني والاجتماعي للتعاطي السياسي ولممارسة الحياة العامة أدى الى الكثير من التمـــازج والتنسيق أدى الى مد القوى التقدمية والوطنية والعلمـــانية والديمقراطية بحيوية جاءت بأسرع مما تمكن النظام ان يفهم أو يستوعب أو يتعظ . من هنا نشأت حملة التحريض والاستعداء التي قام بها النظام على هذه القوى اللبنانية المتعاظمة نفوذا وقوة وتنظيما ليجعل من عزل المقاومة عنها شرطا لسلامة التعامل مع النظام تارة ، وتارة أخرى شحن الطائفية والانعزالية وافتعال المخاوف لتصوير المقاومة بأنها القوة المضافة حاليا والاحتياطية مستقبلا « لليســار » في لبنان على أهل النظام من كل الطوائف . وهكذا بقي النظام بمنأى عن المتغيرات الحقيقية في الواقع اللبناني وتصرف على أساس ان الثوابت التي مكنته من الاستمرار طيلة هذه الحقبة من الزمن سوف تحصنه ضد المتغيرات الفاعلة في صميم الجسم السياسي اللبناني .

الا ان محاولة التيار الانعزالي دمج السيادة بالنظام اصطدم بتهاون النظام في سيادة جنوبي لبنان ، فلجأ النظام الى ما اعتبره الورقة الاخيرة له وهو تعميم تجمع الطوائف داخل اطار الاديان سوف يمكنه من نقل الازمة من دوامة العشوائية والفوضى وتراكم المماطلات والتسويف ازاء المشاكل الى دوامة الاقتتال والنزيف ، حتى تسقط عند كل الجماهير معظم المطاليب وينحصر الاهتمام بضرورة الامن وما يسمى بالاستقرار الذي يعني بمفهوم النظام الجمود عند المعادلات القائمة . فاذا تم مثل هذا الحصر لمطاليب الجماهير — أي بمطلب الامن — عندئذ يتمكن النظام مـــن معاودة توجيه المؤسسة العسكرية الى وظائف امنية بدلا من مهمتها الاصلية وهي الدفاع عن السيادة وليس عن النظام القائم .

وتمهيدا لهذه العملية — المصيدة ، تحرك المخطط نحو اشغال اللبنانيين بمتاهات جانبية مثل مطالبة بعض الطائفيين بالتعطيل الكامل يوم الجمعة او باضافة عدد جديد من كبار الموظفين من طائفة معينة . لهذا وجدنا انه قبل استفحال الازمة الدامية التي عشناها منذ اكثر من ستة أشهر كانت النضالات تتميز بتأمين « حقوق » الطوائف على حساب حقوق المواطنين . الاهم من هذا كله ان مثل هذا التحريف للحيوية الجماهيرية اتاح للتيار الانعزالي في النظام أن يجعل المطالبة بحقوق المغبونين والمحرومين وكأنها عملية نقل الامتيازات التي يتمتع بهـــا المستفيدون من النظام — خاصة في أوســـاط المسيحيين — الى امتيازات للمحرومين خاصة في أوساط المسلمين . بمعنى آخر أدرك

النظام ان امتيازات محازبيه لم يعد بالامكان الاحتفاظ بها . فالمعروف ان اي تمتع بامتيازات هو بالضرورة حرمان لحقوق . وبحيث ان لبنان يسوده نظام يجيز مثل هذا التمتع ويسمح بمثل هذا الحرمان فقد تعمد التيار الانعزالي المهيمن ان يصور عملية المطالبة بحقوق وكأنها عملية انتزاع الامتيازات الى المطالبين بالحقوق . وبرغم ان عددا كبيرا من الوطنيين في الدوائر المسيحية ادرك انه لا مفر من بقاء عهد الامتيازات فانهم كانوا بنفس الوقت حريصين على ضمان حقوق من انتزعت منهم الامتيازات . كذلك كان ضروريا ايضا ان تطوق محاولات بعض الزعماء الطائفيين التقليديين من المسلمين . ان مطالبة المحرومين بحقوقهم لا يمكن ان تستغل في غاية تجيز وراثة امتيازات لهم بل تعني قيام نظام تؤمن بواسطته حقوق المواطنين — كمواطنين وليس كأقليات او اكثريات او منتسبين الى طوائف . هنا تصبح العلمانية شرطا للتلاحم الوطني ويصبح التوجه نحو ضمان حقوق المواطنين شرطا للحيلولة دون العودة الى دولة الامتيازات .

× × ×

ان الازمة اللبنانية في حدتها ومآسيها ناتجة اذن عن العوامل الذاتية التي جعلت من التركيبة الطائفية ورجحان النزعة الاستئثارية في النظام قادرة على الاستمرار . كما انها ناتجة عن مجموعة السلبيات التي افرزهـا جمود النظام في معالجة القضايا الاجتماعية الحادة القائمة والمستجدة . كما ان الازمة زادت تعقيدا بطبيعة التخلف في القيادات السياسية والتقليدية الذي يميز عادة كل القيادات المستندة او المستمدة من الواقع الطائفي . كما ان التركيب الطائفي والقبول به او بالاحرى استساغته عند القيادات التقليدية جعل صانعي القرار في موقع المجابهة والتصادم مع مواقع التفكير في لبنان مما ادى الى جعل السياسة والفكر في لبنان يعيشان في عالمين مختلفين وغريبين عن بعضهما البعض . وبرغم استعانة اصحاب القرار ببعض اصحاب الراي فان هذا يتم اما للتغطية او من موقع التعالي وليس اقتناعا من صاحب القرار بأن المناخ الفكري المتطور هو الكفيل بجعل القرار مناسبا مع مستلزمات العصر ومقتضيات التحدي .

ولبنان النظام ظل يماطل في معالجة قضاياه المصيرية واليومية وظل يتجاهل مشاكله الاقتصادية والاجتماعية وتطلعات اجياله الصاعدة حتى انفجرت بوجهه انفجارا قويا داميا ، أظهر بشكل لم يعد يرقى اليه اي شك مدى سرعة العطب في واقعنا واحتمال ديمومة هذا الواقع اذا لم ندخل على النظام التعديلات الجذرية المتناسقة مع شروط التغيير والتحول .

لكن الازمة وصلت الى نقطة انفجارها الدموي في ظرف ووقت تمكن التيار الانعزالي اليميني في النظام ان ينتزع في كثير من الاحيان زمام المبادرة لجهة الانقضاض ، لأن احداث المنطقة — وخاصة اتفاقية سيناء والقبول بالمفاهيم الاميركية لهذه الاتفاقية والخلفية السياسية التي سبقت هذه الاتفاقية — مكنت الى حد كبير من تفلت التيارات الانعزالية المماثلة في عدد من الاقطار العربية .

لقد ادت اتفاقية سيناء الى تفلت القوى الانعزالية والمتربصة وكان اعنف تعبير لهذا التفلت في الساحة اللبنانية نظرا لترهل نظامه الطائفي الراسمالي من جهة ، ولتواجد ركائز اساسية للقضية الفلسطينية . اذ ان الهدف المستمر للمخططات الامبريالية في هذا الصدد تحويل لبنان من قوة فاعلة للمجابهة وللمشاركة في معركة المصير الى احد فكي كماشة ليكون احدى المصائد للمقاومة الفلسطينية — طليعة النضال العربي المعاصر .

برغم الخسائر الجسيمة التي لا نزال نعيش مآسيها فقد اثبتت الثورة الفلسطينية عن حكمة تكمن عند كل الثورات الاصيلة بأن لا تستدرج الى المزالق التي ينصبهـا « الواقعيون » الجدد في الوطن العربي وان لا تجيز لتعاملها المحتوم مع الانظمة العربية ان يعيق او يؤخر او يضعف تداخلها المشروع مع الجماهير العربية . وهكذا فوتت على التيار الانعزالي فرصة ايقاعها في مخططاته وخرجت من المأساة اكثر وعيا واشد تمرسا في النضال الحقيقي .

في مثل هذه المآسي لا يجوز ان ندعي الانتصار . اهم ما حصل اننا واجهنا العصبيات الغرائزية المتخلفة بأعصاب صلبة تدرك ان معظم الذين شاركوا في تنفيذ مخططات التيار الانعزالي المتربص يشكلون التحدي المقبل بتحريرهم من مخوفيهم ومخاوفهم وارجاعهم الى حظيرة الجماهير الدائنة التي تنقذهم من تخلف الطائفية . واذا تحقق هذا الهدف البسيط يصبح بامكاننا ان نتفاءل لأنه برغم حاضرنا المأساوي فالمستقبل لنا .

الازمة ... والبديل

سمير فرنجيـــة

بعد قبول مصر بالمبادرة الاميركية من اجل اتفاق جديد مع اسرائيل ، تحولت الساحة اللبنانية بوجود المقاومة الفلسطينية الى ساحة التصدي الرئيسية للمخططات الهادفة الى احلال السلام الاميركي في المنطقة . وكانت هذه المبادرة بمثابـــة الضوء الاخضر للقوى الرجعية في لبنان . فاستغلت الظرف العربي والدولي لتوجه ضرباتها للمقاومة الفلسطينية ؛ في محاولة لتقييدها ودفعها الى القبول بما يجري في المنطقة ، وللحركة الوطنية اللبنانية في محاولة لقطع الطريق أمام التغيير الذي فرضته ازمة النظام .

بدات الكتائب ؛ بمساعدة السلطة ، تنفيذ مخططاتها في ١٣ نيسان ١٩٧٥ عندما ارتكبت مجزرة عين الرمانة . وكان هدفها في ذلك الوقت زج الجيش في المعركة بغية حسم الصراع منذ بدايته . غير أنها فوجئت بعدم انزال الجيش الى الشارع واضطرت بعد أيام قليلة الى طلب وقف اطلاق النار . لكن الكتائب لم تقطع الامل في امكانية زج الجيش في الاقتتال ، فلجأت الى توفير الاجواء حتى قـــام رئيس الجمهورية بتشكيل الحكومة العسكرية في ٢٣ أيار . وبعد فشل هذه التجربة الجديدة ، عادت الكتائب مع حلفائها الى التصعيد لفرض اعادة البحث بموضوع الجيش . وكانت الجولة الثالثة التي انتهت أيضا بفشل ذريع دون ان تتمكن الكتائب من فك العزلـــة التي كانت قد فرضتها الحركة الوطنية عليها .

وبعد احداث زحلة وطرابلس ، حاولت الكتائب من جديد ان تفرض انزال الجيش الى الشارع . فبدأت جولتها الجديدة باحراق الاسواق التجارية لدفـــع البرجوازية الاسلامية الى الالتجـــاء للجيش . ففوجئت بردة الفعـــل السياسية والعسكريـــة المعاكسة ، فلجأت الى اسلوب التهويل لفرض ما تريده خـــاصة بعد أن ثبت بشكل ملموس ، على اثر حوادث طرابلس ، ان انزال الجيش يعني نقل الازمة من موقع الى موقع آخر . فاضطرت الى التراجع والقبول بالهيئة الوطنية للحوار حيث لا يوجد لها سوى ممثل واحد . ولكنها استمرت في التصعيد السياسي . فأخذت تتداول في تقسيم لبنان لفرض تجميد الاوضـــاع ومنع البحث بالاصلاح الذي طرحته الحركة الوطنية والذي وافقت عليه قوى عديدة تنتمي الى الوسط وحتى الى اليمين المعتدل .

هذا المسلسل للأحداث يدل بوضوح على فشل مخطط الكتائب وحلفائها داخليا . غير أن أحداث لبنان ساهمت في افساح المجال للنظام المصري لعقد الاتفاق الاخير مع اسرائيل دون التعرض الى ضغوطات عربية قوية . فكانت الاولوية بالنسبة للمقاومة الفلسطينية وسوريا في مواجهة التطورات اللبنانية . ولم يكن بالامكان تنظيم حملـــة مركزة ومتواصلة ضد اتفاقية سيناء . فمن هذه الناحية ، أمكن الكتائب ان تحقق الى

حد ما بعضا من مخططها ، ولكنها بالمقابل ، فشلت في تقييد المقاومة وتوجيه ضربـة قاسية للحركة الوطنية .

بل على العكس تماما ، يمكن اعتبار ما جرى في لبنان نقطة تحول اساسية في تاريخ هذا البلد . فعلى صعيد العلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية ، ثبت بشكل ملموس انه لم يعد بامكان اي طرف تحجيم أو تصفيـة المقاومة الفلسطينية علـى ارض لبنان ، فأصبح واضحا أن كل محاولة تقوم بها الكتائب والسلطة لتقييد النشاط الفلسطيني تكلف لبنان اضعافا مضاعفة عما تكلفه مواجهة العدو الاسرائيلي وتزيد تلاحم المقاومة مع اوسع الجماهير في هذا البلد . ولقد ثبتت الاحداث الاخيرة الى أي حد وصل هذا التلاحم بعد ان اتضح للمقاومة ان اعداءها هم في الوقت نفسه أعداء أكثرية اللبنانيين وبعد أن اتضح لأكثرية اللبنانيين ان أعداءهم هم في الوقت نفسه أعداء المقاومة .

اما على الصعيد الداخلي ، فلقد اكدت الأزمة أمرا أساسيا وهو مأزق الحكام الذين اصبحوا اليوم مضطرين الـى الاختيار بين المحافظة علـى امتيازات النظـام وبين الاستجابة لضرورات التغيير .

لأن الازمة الحالية ليست عابرة ، بل لها جذور عميقة في مشكلات التطور الراسمالي وفي تخلف النظام السياسي القائم ، تفاقمت أزمة نظام الاقتصـاد الحر وتجلت بتعمق تبعية هذا الاقتصاد للسوق الخارجية في خلال السنوات القليلة الماضية . وحـاولت البرجوازية تحميل الجماهير كل الاعباء الناجمة عن هذه الازمة من ارتفاع في أكلاف المعيشة الى تقلص مجالات العمل . وأدت هذه المحاولة الى تعمق التمايز الاجتماعي بشكل أوضح من السابق والى تدهور الاوضاع المعيشية لأكثرية اللبنانيين بمـا فيهم الفئات المتوسطة .

وجاء تفاقم الازمة الاقتصادية ليؤكد حقيقة أساسية وهـي أن النظام السياسي للبرجوازية اللبنانية ليس نظاما برجوازيا انما هو في حقيقته نظام شبـه اقطاعي يقوم على الطائفية السياسية . وهذا التفاوت بين النظام الاقتصادي والنظام السياسي يشكل حاجزا مهما في وجه نمو رأسمالي طبيعي ويولد تناقضات بين المسيطرين على اقتصاد البلاد وممثليهم السياسيين لا بد ان تدفع الى اعادة النظر في النظام السياسي كلـه .

وفي ظل هذا التناقض ، بدات مؤسسات الدولة تتفكك ، خاصة بعد احداث أيـار ١٩٧٣ التي اظهرت بوضوح استئثار رئيس الجمهورية بالسلطة وانحياز الجيش الى معسكر طائفي واحد . وجاء هذا التفكك في الوقت الذي كانت الازمة الاقتصادية تتفاقم اكثر فأكثر . فلم يتمكن النظام لا من تقديم الحلول المناسبة ولا حتى من القيام بدوره كمدافع عن المصالح البرجوازية . فتفجرت المعارك الاجتماعية وتسارع نمـو اليسار واتسعت حركة المطالبـة بحقوق الطوائف المحرومة . واستمرت الأزمة الاقتصادية متصاعدة فضربت مواقع البرجوازية الصغيرة التـي كانت تشكل عـامل الاستقرار الاساسي للنظام السياسي .

من هنا بدأت الكتائب تتحرك في محاولة يائسة لمنع تدهور الاوضاع . فاعتبرت ان السبيل الوحيد لذلك هو تجميد الصراع الوطني بضرب المقاومـة الفلسطينية وتجميد الصراع الاجتماعي بسحق اليسار . وجاء هذا التحرك كردة فعل على تململ اوساط الطبقة الوسطى والبرجوازية الصغيرة المسيحية التي اصبحت تفقد ، نتيجـة الازمة الاقتصادية ، ما كانت تتمتع به من فضلات امتيازات البرجوازية . كما انه جاء أيضا

نتيجة ضغط الجناح الغالب في صفوف الطبقة المسيطرة الذي أراد الابقاء على الاوضاع القائمة بواسطة العنف المسلح . ودعمت المراجع العليا تحرك الكتائب في محاولة منها للمحافظة على امتيازاتها الخاصة . فبعد فشل الجولة الاولى من التحرك الكتائبي ، حاولت السلطة اعتماد صيغة الحكم العسكري معتبرة انهـــا ستجمع حولها جناحي الطبقة المسيطرة ، المسيحي والمسلم . غير أن اعتماد هذا الحل جاء متأخرا . ففي احداث صيدا ــ قبل مجزرة عين الرمانة بشهر واحد ــ كشفت الحركـــة الوطنية انحياز هذه المؤسسة ودعمها لحزب الكتائب . فوجد الجناح المسلم من الطبقة الحاكمة نفسه مضطرا الى الوقوف الى جانب الحركة الوطنية لاحبـــاط مشروع اقامة حكم عسكري .

ومع فشل هذه المحاولة ، انهارت الامال المعقودة حول حزبالكتائب . فلم يعد أمام هذا الاخير سوى وسيلة واحدة للخروج من مأزقه وهي التهويل بتقسيم لبنان ، خاصة بعد أن اتضح ان الاقتتال الطائفي غير قابل للحسم . غير ان طرح هـــذا الموضوع خلق تعارضا بين حزب الكتائب والبرجوازية المسيحية التي تعي بوضوح ان هـــذا المشروع سيقضي على مصالحها الاقتصادية بشكل نهائي .

وهذا التعارض يحد من قدرة الكتائب على المناورة . فلم يعد لها ورقة تلعبهـــا بعد ذلك سوى ورقة الامن . فهي مصرة على الاستمرار في سياسة تأزيم الاوضاع حتى يقتنع اخصامها بضرورة تقديم تنازلات تمكنها من انقاذ ما يمكن انقاذه أمام جمهورها . لان الجمهور المسيحي الذي كان يؤيد ، بأكثريته ، المشروع الكتائبي في بدايتـــه أصبح اليوم بعد حوالي سبعة أشهر من الاقتتال الاهلي يعيد النظر بالتزاماته السابقة . فهذا الجمهور تضرر كثيرا من الاحداث دون ان يحصل على شيء . وسيجد نفسه في حـــال توقف القتال مضطرا الى مراجعة حساباته ، على ضوء ما ستقوله الفئـــات المعتدلة من البرجوازية المسيحية التي تدعو الـــى تطويع النظام السياسي القائم للتطورات المستجدة مع الحفاظ على ركائزه الاساسية ، والى وضع ميثاق اجتماعي جديد لحل القضايا اللبنانية .

فهذه الفئات المعتدلة التي لم تبرز خلال الاحداث اصبحت اليوم مقتنعة بعـــد فشل المشروع الكتائبي بضرورة التغيير ، وهذا التغيير يعني ادخال تعديلات أساسية على الشكل السياسي لسيطرة البورجوازية ، دون المساس بالطبيعة الطبقية لهذه السلطة ، وتصفية بقايا العلاقات قبل الرأسمالية مع تصحيح وجهة تطور الاقتصاد اللبناني .

غير أن هـــذه الفئات البرجوازية غير الفاشية ليست قادرة على فرض التغيير لانها لا تملك القوة اللازمة لهذا الفرض . فالقوة الوحيدة القادرة على فرض التغيير كمخرج للأزمة الراهنة هي الحركة الوطنية التي استطاعت أن تحبط المشروع الكتائبي الفاشي ، وان تلف حول برنامجها أوسع الفئات الشعبية .

كما ان الحركة الوطنية تمثل القوة الوحيدة التي يمكن لها تقديم الضمانات الفعلية للأقلية المسيحية . فهي دون سواها تستطيع اعطـــاء التغيير ابعـــاده الديمقراطية والعلمانية ، لأن الازمة كشفت الـــى أي حد يستطيـــع حزب فاشي كحزب الكتائب استغلال تخوف المسيحيين لايجـــاد قاعدة شعبية تمكنه من التحرك والتصدي لكل محاولات الاصلاح . فالاقليات المسيحية تشكل عمليـــا قوة الاحتياط الوحيدة الباقية للنظام القائم ، ولا يمكن تعطيل مفعول هذه القوة الا اذا تم استقطاب جزء منها حول برنامج ديمقراطي علماني يشكل البديل المقبول للنظام الطائفي القائم .

وهذا هو الشرط الاساسي للخروج من الازمة . فافشال المخطط الكتائبي لا يعني بالضرورة ان الازمة حسمت لصالح الحركة الوطنية ، لأن الكتائب تستمر بتعبئة جزء مهم من جماهير المسيحيين الذين لا يزالون يعتبرون أنه لا يوجد خيار آخر سوى مـــا يقدمه حزب الكتائب . وهذا ما يفسر اشتراك الفئات المحرومة من المسيحيين في القتال من اجل اهداف تتعارض في النهاية مع مصالحهم الفعلية . ولم تعالج هـــذه الظاهرة بشكل صحيح حتى الآن اذ ان الحركة الوطنية لم تكن قد وصلت الى مستوى من النمو يمكنها من طرح برنامج وطني يشمل كل فئات المجتمع . وكان الطرف الطائفي الآخر يكتفي بتقديم الضمانات السياسية للقيادات التقليدية المسيحيـــة ، معتبرا أن هذه الوسيلة كفيلة بحل المشاكل المطروحة . ففوجئت الاطراف كلها بحدة التعبئة الطائفية التي قام بها حزب الكتائب بالتجاوب الذي لاقاه في عدد من المناطق المسيحية . فطرحت عددا من الحلول تقوم بأغلبيتها على المراهنة على التباينات والتعارضات الجزئية التي ظهرت بين أجنحة البرجوازية المسيحية . غير ان هـــذا الاسلوب لم يعط أي نتيجة ملموسة لسبب اساسي وهو أنه لا يقدم اي جواب على التساؤلات التي تطرحها أكثرية المسيحيين . فكان بامكان الكتائب أن تشد هذه الاكثرية الى جانبها في أية مواجهة عسكرية بحجة الدفاع عنهـــا وحمايتها ضد الذين يحاولون تصفيتها . واستطاعت الكتائب ان تقنع هذه الاكثرية بأن الطرف الآخر هو الذي بادر في فتح المعركة ، وانها تكتفي بالرد على هذا الهجوم الذي يستهدف كل وجود المسيحيين في هذا البلد !

ولم يكن بالامكان تأمين فك ارتباط أكثرية المسيحيين والكتائب طالما لم يطرح برنامج بديل يقدم الضمانات الفعليـــة للمسيحيين . فارتبط موضوع الضمانـــات بموضوع الاصلاح واصبحت مسألة تأمين الضمانات المقدمة الاساسية لتأمين الاصلاح .

وهذا ما بدأت الحركة الوطنية تعيه بوضوح عندما طرحت في برنامجها موضوع الغاء الطائفية السياسية في مجـــال التمثيل الشعبي وفي الادارة والقضاء والجيش كخطوة على طريق العلمنة الكاملة .

الميثاق الوطني اللبناني

الدكتور جورج ديب

في المفهوم العام ان الميثاق الوطني هو تعاقد تعاقده شخصان هما الشيخ بشارة الخوري ورياض الصلح ، كل منهما باسم الطائفة التي ينتمي اليها ، لتنظيم الحياة الوطنية في لبنان على أساس العدل بين الطوائف والعدل في توزيع المناصب ، والعدل في توجيه دفتي السياسة الداخلية والخارجية .

بهذا المعنى يفهمه عادة السياسي التقليدي فيرتاح اليه نفسيا ومصلحيا . وبهذا المعنى يفهمه التقدمي كذلك فيحكم عليه بالبطلان بصفته مكرسا للوضع الطائفي المقيت .

وفوق هذا وذاك هناك من يفسر الميثاق على أنه صك انعزالي ارتبط به اللبنانيون قوامه المناداة بلبنان وطنا انعزاليا منغلقا عن محيطه العربي في الحاضر والمستقبل حريصا على طابع له خاص يباعد ما بينه وبين جواره ويقرب ما بينه وبين الدول الغربية .

وبهذا المعنى فهمه ويحاول ان يشرحه للناس كثيرون من اللبنانيين الذين يقولون بالسياسة الانعزالية .

فهل هذا حقا هو الميثاق ؟ وهل الميثاق تعاقد طائفي ؟ وهل هو صك انعزالي ؟

ان أول ما يبرز لباحث عن حقيقة الميثاق الوطني هو نص تلك الوثيقة التاريخية التي اصطلح الناس على تسميتها بالميثاق الوطني ، ونعني بها البيان الوزاري الذي القاه رئيس الحكومة اللبنانية رياض الصلح عام ١٩٤٣ في مجلس النواب متقدما به لنيل الثقة بحكومته الاستقلالية الاولى .

ان البيان الوزاري هذا ، خال مئة بالمئة من أية اشارة الى الطائفية . بل بالعكس تماما ، فهو ينص صراحة على العمل لازالة الطائفية . ولو رجعنا الى التفسير الذي أعطاه اللبنانيون يومذاك لهذا الميثاق كما انعكس في مناقشات مجلس النواب وفي الصحف ، لأدركنا ان اللبنانيين في ذلك الزمن فهموا جوهر البيان الحكومي المذكور على انه موقف في السياسة العربية والخارجية قوامه اتفاق اللبنانيين فيما بينهم على ان يكون لبنان بلدا مستقلا كل الاستقلال متعاونا مع البلاد العربية الاخرى الى أقصى حدود التعاون وفيا للاهداف العربية المشتركة .

اذن ، ان المفهوم الصحيح للميثاق هو انه موقف في السياسة العربية والخارجية ، وهذا المفهوم بعيد كل البعد عن المفهوم الانعزالي الذي يحاول البعض ان يعطيه اياه . والادلة على هذا القول كثيرة اكتفي بتدوين ثلاثة منها :

أولا : ان البيان الحكومي الذي اطلق عليه اسم الميثاق الوطني خال تماما من اية اشارة قريبة أو بعيدة الى مثل هذا المعنى الانعزالي .

ثانيا : ان البيان الوزاري قد صدر عام ١٩٤٣ وهو العام الذي انطلق فيه لبنان لاول مرة في تاريخه الحديث الى المجال العربي . فلا يعقل ان يكون البيان الذي كان فاتحة انخراط لبنان في الدنيا العربية ذا روح انعزالية .

ثالثا : خرج البيان الى النور والوحدة الاقتصادية والعسكرية تامة كاملة بين لبنان وسوريا ، ومجرد سكوته عن هذه الوحدة هو موافقة ضمنية عليها . فكيف اذا عرفنا ان في البيان المذكور مقاطع صريحة بوجوب دعم هذه الوحدة وتقويتها !

هذا هو في رايي المفهوم الصحيح للميثاق . ولكن هذا المفهوم لا يكتمل معناه الا اذا درسناه على ضوء التطورات التاريخية التي أخرجته ألى الوجود .

بعد الحرب العالمية الاولى قررت فرنسا أن توسع حدود لبنان الصغير لتتألف من المناطق التالية : سنجق لبنان ، أي جبل لبنان ، مدينة بيروت ، سنجق طرابلس ، قضاء صيدا وقضاء صور ، أقضية حاصبيا وراشيا والبقاع وبعلبك .

وفي ٣٠ آب ١٩١٩ أصدر المفوض السامي الفرنسي الجنرال غورو مرسوما بتأليف الكيان اللبناني على الشكل المذكور وأعلنه في حفلة رسمية يوم أول أيلول ١٩١٩ مناديا بقيام دولة لبنان الكبير .

والاتجاه الذي ساد في أوساط المناضلين ضد الانتداب الفرنسي هو عدم الاعتراف بالحدود اللبنانية التي عينها الجنرال غورو باقامة دولة لبنان الكبير . وكان هذا التنكر يقوم بالدرجة الاولى على أساسين :

الاول ، أساس قانوني ، قوامه ان فرنسا لا تملك قانونا حق تعديل حدود جبل لبنان والحاق اقضية سورية بالاصل له . ذلك لأن صك الانتداب الذي ترتبط به فرنسا تجاه عصبة الامم لا يسمح لفرنسا بأن تخلق دولة جديدة . بل تنحصر صلاحيتها بتأهيل شعبي جبل لبنان وسوريا للاستقلال . ففرنسا ، اذ خلقت دولة لبنان الكبير ، انما ارتكبت مخالفة قانونية فاحشة .

أما الاساس الثاني الذي أقام عليه المناضلون ضد الانتداب تنكرهم للكيان اللبناني الجديد ، فقد كان ديمقراطيا يتعلق بحق الجماعات في تقرير مصيرها . ان فرنسا لم تستشر أبناء الاقضية التي ضمت الى جبل لبنان قبل أن تضمها . ولذلك ، فان تصرفها غير ديمقراطي ولا يربط الشعب الذي لم تستشره باحترام الحدود التي عينها قرار الجنرال غورو .

وبقي منطق الحركة في كل من سوريا ولبنان كذلك حتى عام ١٩٣٦ وهي المدة التي بلغت فيها الحركة النضالية درجة ملحوظة من النضج والرقي . في تلك المدة خف تركيز الحركة الوطنية على كل من الاساسين القانوني والديمقراطي ليحل محلهما اساس ثالث هو : كيان لبنان حر من النفوذ الاجنبي (لا قاعدة ولا معاهدة ، لا امتياز ولا مركز ممتاز) يعمل ضمن المجموعة العربية في ظل وحدة اقتصادية وعسكرية مع الجمهورية السورية ، هذه الوحدة التي كانت أيام التفكير بالميثاق قاعدة لسياسة الدولة وحقيقة قائمة راهنة .

بين القانون والواقع

الصفة الاولى التي يتميز بها الاساس الجديد هي انه ينطلق من الواقع ، لا من

النظرية القانونية ولا من النظرية الديمقراطية . فهو لا يجد اي فائدة من تحكيم المنطق القانوني او المنطق الديمقراطي ، ما دام الواقع قائما والكيان حقيقة وضعية .

والصفة الثانية التي يتميز بها الاساس الجديد هي انه قومي بمعنى انه لا يعالج القضية على اساس تصحيح وضع خاطىء من الوجهة القانونية او الديمقراطية وانما يعالج الامر على اساس المصلحة القومية .

هاتان الصفتان هما اللتان دعتا الوطنيين أخصام الانتداب الفرنسي في سوريا ولبنان لاعتماد الميثاق الوطني صيغة للعمل الوطني .

تساءل الوطنيون في سوريا وفي لبنان : ماذا يفيد القضية الوطنية الاصرار على لاشرعية الكيان وقسريته ؟

ــ هل يقدم مثل هذا الموقف القضية أم يؤخرها ؟

ــ هل يسهل لها النجاح أم يخلق لها المصاعب ؟

ــ هل يقذف ببعض اللبنانيين الى التشبث بالنفوذ الاجنبي أم يحررهم من هذا النفوذ ؟

ــ هل يقربه الى الفكرة العربية أم يعمل على نفرته منها ؟

وكانت النتيجة ان توصل الوطنيون الى الاعتقاد بأن التمسك باللاشرعية واللاتمثيلية من شأنه ان يباعد بين لبنان والاستقلال . بل من شأنه ان يقضي على فكرة الوحدة الوطنية بضم جزء من لبنان الى سوريا والابقاء على البقيــة الباقية منه وطنا انعزاليا ذا صفة طائفية عدوا لكل ما حوله متعاونا في سبيل بقائه مع كل قوة معادية للعرب .

وهكذا حكم الوطنيون على مواقفهم السابقة بالعقم واعتنقوا نظرية الميثاق الوطني صيغة للعمل الوطني .

واتخذ الوطنيون في سوريا وفي لبنان منذ عام ١٩٣٦ موقفهم الجديد في موضوع الكيان اللبناني الذي رأوا فيه الواقعية والمصلحة القومية في وقت واحد . فقالوا بالكيان اللبناني الحر المتعاون مع البلاد العربية الاخرى الى أبعد حدود التعاون . والذي قال هذا القول الوطنيون السوريون جنبا الى جنب مع الوطنيين اللبنانيين .

فالوطنيون السوريون بدأوا يقولون في الصحف المعبرة عن رأيهم ، وعلــى الاخص في جريدة « القبس » الدمشقية لصاحبهــا الاستــاذ نجيب الريس ، ان السوريين مستعدون أن يضموا الى لبنان أجزاء جديدة من سوريا اذا اعتنق لبنــان السياسة الاستقلالية وسار في طريق التعاون العربي ، الامر الذي شجع المناضلين في لبنان ضد الانتداب الفرنسي لأن يقبلوا لبنان بحدوده القائمة شرط أن يسير نحو الاستقلال .

ولقد ظهر هذا الرأي أول ما ظهر في مؤتمر الساحل الذي عقد في بيت سليم علي سلام في بيروت عام ١٩٣٦ اذ أنه رغم اجماع الحاضرين على اصدار قرارات بالمطالبة برفع الحصة الاسلامية في الحكم واستفتاء المسلمين في بقائهم أو خروجهم من لبنــان ، برز رأي آخر لأقلية من الحاضرين سرعان ما تجمع حوله اللبنانيون الوطنيون خــلال ثمانية أعوام ، ١٩٣٦ الى عام ١٩٤٣ . وهذا الرأي قد تضمنه كراس أخرجه في ذلك الوقت أحد المعارضين لقرارات المؤتمر الاستاذ كاظم الصلح بعنوان « مشكلة الانفصال والاتصال » . ولعل هذا الكراس هو المرجع الرئيسي لولادة فكرة الميثاق .

هكذا سار في المرحلة الممتدة من عـــام ١٩٣٦ الى ١٩٤٣ منطق الميثـــاق . وما نسميه الميثاق الوطني اليوم أي بيـــان حكومة لبنان الاستقلالية عام ١٩٤٣ ليس الا النهاية المظفرة لسيطرة هذا المنطق ثماني سنوات .

ان اقل ما يقال في هذا المنطق انه خرج من صميم التجربة الوطنية وانـــه ادى من الوجهة التاريخية خدمة كبيرة لقضية الاستقلال والتعريب في لبنان .

غير أن الميثاق قد خضع بعد جلاء الفرنسيين عن لبنان عام ١٩٤٦ ، وبعد ان زال عن مسرح السياسة رجال استقلاليون صادقون ، لتفسيرات حاولت أن تخرج به عن معناه الاصيل .

لقد حاولت الفئات المسيطرة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ان تجعل من الميثاق الوطني تنظيما للحصص والغنائم والامتيازات التي تنعم بها هذه الفئات عن طريق فهمه والتبشير بـــه دستورا للعدل بين الطوائف . وبديهي القول ان في مصلحة هذه الفئات تصوير الحياة الوطنية على أنها صراع بين مسلمين ومسيحيين لا بين منعمين ومحرومين أو ظالمين ومظلومين .

ولذلك ، فليكن الميثاق أداة اقتسام للغنائم بين المنتفعين بالاسلام السياسي والمنتفعين بالمسيحية السياسية . ومن هنا اصطبغ الميثاق بصبغة طائفية ظاهرا ولكنها استثمارية باطنا . فبموجب الميثاق عدد المناصب من الطائفة الفلانية يجب أن يكون كذا الى آخر ما هنالك من اجتهادات يبلغ عددها عدد ما في النفوس من شهوات وربما أكثر .

ومما لا شك فيه ان ما نشهده من أحداث في لبنان اليوم يعود بالدرجة الاولى الـــى هذا الانحراف في تطبيق الميثاق لذلك فان أي بحث في تعديله وتطويره يجب ان ينطلق من المعنى الاصيل للميثاق الذي حاولت أن أرسمه في هذا المقال .

السلطة والتوازن في لبنان

خالد جابر

بهذه الدراسة ، تبدأ « شؤون فلسطينية » نشر سلسلة من الدراسات عن الكيان اللبناني وعلاقته بالثورة الفلسطينية .

وهذه الدراسة هي القسم الثالث من بحث بعنوان « السلطة والتوازن — مقدمة منهجية لدراسة الكيان اللبناني » . يعالج القسمان الاول والثاني الكيان اللبناني بنيويا في علاقته بتجزئة المنطقة العربية ، ثم يدرس « النمط الاقتصادي الوسيط » بصفته النمط السائد في لبنان .

ان الوصول الى دراسة مفهومي السلطة والتوازن في لبنان ، تعني الوصول الى المستوى السياسي اللبناني في سبيل تقديم تحليل أولي له .

قسمنا هذه الدراسة الى أربعة محاور : الملكية ، التوزيع ، الطائفة والشرائح الطبقية ، ودائرية الصراع الطائفي .

١ — الملكية

« في كل مرحلة تاريخية ، تتطور الملكية بشكل مختلف وضمن جملة علاقات اجتماعية مختلفة كليا . هكذا فان تحديد الملكية البورجوازية ، ليست سوى عرض لجميع العلاقات الاجتماعية التي للانتاج البورجوازي . ان محاولة اعطاء تحديد للملكية ، كعلاقة مستقلة أو كمقولة موضوعة على حدة ؛ أو لفكرة أزلية مجردة ، لا يمكن أن يكون الا وهما ميتافيزيقيا(١) » .

الملكية ، هي اذن محصلة علاقات اجتماعية في مرحلة تاريخية محددة . لذلك تصبح دراسة شكل ووظيفة الملكية في الاقتصاد اللبناني الوسيط ، مفتاحا لدراسة جملة العلاقات الاجتماعية داخله .

أ — الملكية في النمط الاقتصادي اللبناني الوسيط

تقوم الوساطة ، كما رأينا في القسم السابق ، على العمالة الاقتصادية . أي أنها وساطة ترتبط بالرأسمال في المركز ، وتلعب دور عميل اقتصادي مباشر له . وهذا ينعكس بدوره على مفهوم **الدولة** . فالدولة هي الاطار الحقوقي — السياسي لتنظيم عملية العمالة هذه ، واعطائها طابعا شرعيا حقوقيا .

من أجل الوصول الى كشف علاقات الملكية في النمط الاقتصادي اللبناني الوسيط ،

سوف نقوم بمقارنتها بالملكية في نمط الانتاج الرأسمالي ، لنكتشف الفروق والعلاقات .

١ ــ الملكية في نمط الانتاج الرأسمالي

أ ــ تملك فعلي لوسائل الانتاج .

ب ــ كون العلاقة بين موضوع العمل واداة العمل هي الاساس في علاقة التملك ، يلعب الرأسمال دورا متحكما بالانتاج ، وليس فقط كاقتطاع لفائض القيمة .

ج ــ شكلا الملكية :

١ ــ اقتصادية ، ملكية وسائل الانتاج ، أو استهلاك وسائل الانتاج بشكل منتج .

٢ ــ سياسية حقوقية ، تعمم الملكية من ملكية طبقة لوسائل الانتاج الى ملكية الافراد للاشياء عامة . كما تعمم علاقة تبادل قوة العمل بين الطبقة العاملة والطبقة الرأسمالية الى عقد اجارة يقوم بين فرد وفرد . من هنا تصبح علاقة الاجارة مستقلة عن العمل المنتج لفضل القيمة اذ تشمل العمل غير المنتج (الخدمات) .

د ــ تقوم الدولة الرأسمالية بتوحيد الطبقة البورجوازية تجاه بقية الطبقات المفتتة الى عملاء انتاج كأفراد أحرار . وتقيم ديمقراطية الطبقة الواحدة . أي « دولة شعبية لطبقة » .

٢ ــ الملكية في النمط الوسيط

أ ــ ليس هناك علاقات انتاج تقنية اقتصادية ، بمعنى عدم وجود انتاج وتملك فائض قيمة داخلي ، بل تقاسم للريع مع المركز .

ب ــ ليست الملكية ملكية اقتصادية ، بمعنى ملكية وسائل الانتاج . بل هي احتكار سياسي يشكل قاعدة تقاسم الريوع مع المركز .

ج ــ لا وجود لتقسيم تقنـــي . فهناك ضرب لقوى الانتاج ، أي لقاعدة علاقات التملك الفعلية واستبدالها بعملاء أحرار للتبادل ، ملكيتهم الفردية هي ملكية حقوقية . اي هناك استبدال للانتاج بالرواج .

د ــ يتوحد الافراد في غياب علاقات الانتاج (تقسيم العمل) على أساس علاقات القرابة التي تضطلع بوظيفة علاقات التوزيع كعلاقات سياسية بشكل مباشر .

هـ ــ تصبح الدولة نقطة توازن التجمعات القائمة على القرابة (الطوائف) ويقوم هذا التوازن بالغلبة وليس بالهيمنة .

تشير هذه المقارنة ، الى عناصر النمط الوسيط بأسرها . فالملكية السياسية ــ الحقوقية هي مجموعة علاقات داخلية وخارجية ، يقوم عليها هذا النمط الذي يعطي شرعية لوجود الكيان .

قبل الدخول في تحليل هذه العناصر ، تستوقفنا ظاهرة انتقال شكل الملكية في جبل لبنان . هذا الانتقال الذي افرز صراعات اجتماعية متعددة الجوانب ، ودخول مباشر للدول الاستعمارية (فرنسا أساسا) في هذا الصراع . والذي على قاعدة اتجاهه التاريخي العام يقف النمط الوسيط .

ب ــ المرحلة الانتقالية في جبل لبنان

لن نقوم بدراسة تاريخية لاحدى أعقد مراحل تاريخ جبل لبنان ، بل سنقف فقط عند العناصر الاساسية التي تحدد مرحلة الانتقال لنكشف علاقاتها . فنحن في دراستنا ، لا نقوم بدراسة تحقيبية . نعود الى هذه المرحلة ، لكي نكشف عناصر الملكية كما حددناها في النقطة السابقة .

حين نتحدث عن انتقال ، فان هذا يعني انتقالا من شكل ملكية الى شكل آخر . فالملكية التي سادت الجبل في القرن الثامن عشر ، كانت الملكية العثمانية التي منها جرى الانتقال الى ملكية جديدة . فما هي عناصر هذه الملكية :

ملكية الدولة وأشكالها الفعلية :

تتحدد الملكية العثمانية ، من خلال أوالية سحب ريع الاراضي الزراعية التي يقوم الفلاحون بزراعتها . فالملكية من حيث المبدأ هي ملكية الدولة ، أي ملكية السلطان التي يقطعها لولاته وللامراء ولقادة الجيش ويستخرج الريع منها . لكن هذا التحديد هو تحديد عائم ، لأن سحب الريوع يخضع لمراتبية هي التعبير عن التوازنات العامة في السلطنة في علاقاتها بتوازنات الجبل .

ان هذه المراتبية : السلطان ، الوالي ، الامير ، المقاطعجي ... هي تعبيرات عن توازنات العصبيات المتنازعة على سحب الريع . والملكية هي بهذا المعنى ، لحظة توازن هذه العصبيات . لذلك في فترات صراعات العصبيات ، أي انهيار توازناتها ، يعاد توزيع الملكية ، على حجم التوازن الجديد الذي ينتج عن الصراع . هكذا تصبح المراتبية لحظة توازن للملكية الخراجية ، تقوم على الغلبة . اذ لا تستطيع العصبيات تصفية بعضها ، بل تتحالف ضد بعضها من أجل اعادة تشكيل التوازن .

« لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذ تكافأت العناصر ، فلا بد من غلبة أحدها والا لم يتم التكون . فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية . ومن تعيين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص كما قررناه(٢) » .

تقوم هذه الملكية على العصبية ، أي على نظام القرابة ، بوصفه اعادة انتاج النسل واعادة انتاج لعلاقات الانتاج . لكن هذه العصبية هي مزاج ، أي تتكون من أكثر من عنصر واحد . اذا أخذنا نظام القرابة في الجبل قبل الانتقال ، أي في القرن الثامن عشر ، فاننا نلاحظ ثلاثة مستويات .

١ ــ **العشيرة :** القائمة على علاقات الحسب .

٢ ــ **العائلة :** القائمة على علاقات الزواج والحسب المزدوج (الاب ، الام) .

بين هذين المستويين ، كان المستوى الاول هو الغالب . فالعشيرة عبر تحالفاتها كانت تشكل قاعدة الملكية القائمة على المراتبية والتوازن .

٣ ــ **الطائفة :** هناك مستوى ثالث : الطائفة . الذي كان يضبط المستويين الاولين ضمن ايديولوجية الاقلية الدينية المعرضة للاضطهاد ، وضمن وضع حدود لعلاقات الزواج . دون أن يستطيع الهيمنة على المستويين الاولين ، لأن علاقات الانتاج كانت تحدد بمراتبية وتوازن يضبطان بالدولة بوصفها المالك الاسمي للارض ، وبالعشيرة بوصفها قاعدة المراتبية والتوازن التي يقوم عليها سحب الريع .

الانتقال : الطائفة شكل جديد

لقد كانت مؤشرات انهيار السلطنة العثمانية أمام الهجمة الاستعمارية الغربية تتلخص في الجبل بعاملين رئيسيين :

١ ــ دخول الزراعة الآحادية (التوت ــ الحرير) المرتبطة مباشرة بالسوق الراسمالية العالمية . وما يستتبع ذلك من ضرب أسس الملكية القديمة وربطها بالتجارة والكوميسيون .

٢ ــ توسع بيروت بوصفها مرفأ عملية التصدير والاستيراد .
استتبع هذا التطور بداية انهيار علاقات الملكية القديمة قانونيا ــ خط شريف كلخانة ــ وسياسيا بدخول عوامل مساعدة على رسملة الجبل (محمد علي ، ضرب الامير بشير للتوازن المقاطعجي) . وبداية انهيار شكل المراتبية القديمة ، الذي تحل مكانه الوحدة الطائفية . فأتت النعرة الدينية في لحظة انهيار الانتاج وبروز الشكل الجديد للملكية لتلعب دور قاعدة العلاقات الاجتماعية .

على أساس هذه الوجهة العامة ، نقرأ ثورة الفلاحين ١٨٥٨ بوصفها التعبير السياسي لمرحلة الانتقال . ونقرأ حرب ١٨٦٠ الاهلية الطائفية ، التي انتهت بتكريس نمط علاقات جديدة من جهة ، وبتكريس الطائفة المارونية كنعرة غالبة على الجبل بالتحالف مع الجيش الفرنسي الذي أتى غازيا .

هكذا تتوحد الطائفتان الرئيسيتان في الجبل : الموارنة على قاعدة الملكية الجديدة التي فتتت العشيرة لذلك كان التنظيم العسكري الماروني غير موحد . والدروز على قاعدة الملكية القديمة لرد التغييرات الراسمالية القادمة الى الجبل . لذلك لم يوظف النصر العسكري الدرزي ، وتحولت الهزيمة المارونية الى انتصار فعلي كرس بالمتصرفية وبعد ذلك بدولة لبنان الكبير(٣) .

ان المستويات الثلاثة التي درسناها في القرن الثامن عشر ، تبقى في مرحلة الانتقال ، لكن مزاجها يصبح مختلفا . تصبح الطائفة هي التي تحكم هذه المستويات بوصفها قاعدة القرابة القائمة على التوزيع والتجارة . وتصبح العائلة قاعدة الطائفة بوصفها شكلا اجتماعيا يلائم الملكية الفردية الجديدة . أما العشيرة ، شكل التحالف العصبي القديم فتبدأ عملية انهيارها .

ان هذا الانقلاب ، في أولوية المستوى الذي يحكم المستويات الاخرى ، هو في الواقع التعبير العيني عن انتقال شكل الملكية في الجبل . فالملكية القائمة على الوساطة ، هي ملكية تستعير الشكل البورجوازي ــ ملكية فردية ــ من جهة . وهي ملكية حقوقية جرى تكريسها النهائي بانهيار زراعة التوت في الجبل في أوائل القرن من جهة ثانية . هكذا لا تضبط الملكية الحقوقية الا بالنعرة التي تحل محل العشيرة . لأن العشيرة فقدت نقطة ارتكازها الانتاجية ، وبدأت عملية انهيارها كشكل للعصبية .

تبدو هذه الترسيمة التي نقترحها لعلاقات المستويات الثلاثة بحاجة الى محاكمة داخلية . اي الى قراءة علاقاتها وربطها بالدولة ، بوصفها كانت المالك الاساسي للارض .

أ ــ ان علاقة العشيرة ــ العائلة هي علاقة تناقضية . فالعائلة بوصفها شكلا

للعلاقات الاجتماعية تقوم على الحسب المزدوج ، هي في تناقض داخل وحدة مع العشيرة . لذلك تقوم الصراعات داخل العصبيات ، وتتشكل التحالفات الجديدة .

ب ـــ غير ان هذه الوحدة التناقضية ، تلعب دور علاقة انتاج . وهي حين تحكم بالعشيرة . فان هذا يعود الى شكل الملكية المرتبطة بالغلبة وبالدولة .

ج ـــ في مرحلة الانتقال ، أصبحت العشيرة شكلا غير ملائم لنمط جديد قاعدته التجارة والخدمات والملكية الفردية . فبدأ انهيار العشيرة داخل وحدتها التناقضية مع العائلة .

د ـــ هنا تبرز الطائفة . فالطائفة لا تحل فقط مكان العشيرة . انها تأتي في ظروف انهيار الدولة العثمانية وتفسخها وتجزئتها . انها عنصر الوحدة الجديدة الذي يلائم شكل الملكية الجديدة : الملكية الفردية (العائلة) . يضمها في وحدة ويفتتها في آن : يوحدها داخل التوزيع . فالطائفة هي قاعدة التوزيع . ويفتتها الى وحدات صغيرة لا تأتلف الا داخل البنيان الطائفي .

الطائفة هي بهذا المعنى عنصر قرابة : الزواج الداخلي . وقاعدة توزيع في شرط التفسخ والتجزئة القادمين مع السيطرة الاستعمارية . هكذا يأتي عامل الايديولوجيا الدينية ليشكل نعرة توحيد . اطارا يجمع العملاء الاقتصاديين داخل علاقة قرابة بعيدة « مناصرة » تضبط عملية توزيع الثروة .

٢ – التوزيع

في المجتمعات الراسمالية ، يتحدد توزيع الدخل بتوزيع وسائل الانتاج . فتوزيع وسائل الانتاج هو الذي يحدد الانشطارات الطبقية ، أي القاعدة الاقتصادية التي يقوم عليها الصراع الطبقي .

أما في النمط اللبناني الوسيط ، فان توزيع الدخل يتبع قانونا مختلفا . اذ انه يقوم على المستوى المفهومي كنتيجة لمفهوم الملكية في هـــذا النمط . لن نستعيد الآن تحليل هذا المفهوم ، بل سنقوم باستخلاص نتائجه على المستوى السياسي الحقوقي من جهة ، وعلى مستوى الانشطارات الطبقية من جهة أخرى .

أ ـــ الاحتكار

حين حددنا النمط الرأسمالي اللبناني بوصفه وسيطا ، اشرنا الى دور الدولة بوصفها منظما لهذه الوساطة . غير أن هذا التحليل الاولي يقوم على معادلة معقدة لها ثلاثة اطراف : الوساطة ـــ السلطة ـــ المركز . فكيف تتحدد علاقات هذه الاطراف .

الوساطة والمركز . الوساطة هي ملكية حقوقية لامتيازات شركات واحتكارات انتاج وخبرات لها تاريخها في التطور الاقتصادي في لبنان . انها تقوم على شريحة بورجوازية تجارية ، استطاعت في فترة خلخلة الدولة العثمانية ، والهجمة الغربية الرأسمالية على المستعمرات ، أن تتشكل . فلقد تكونت كشريحة طبقية في العلاقة المباشرة مع المركز ، بوصفها وسيطا اقتصاديا وعميلا مباشرا للبضائع الاجنبية . لحظة التكون هذه ، لا تنفي وجود شرائح التجار في الساحل قبل الامتيازات وما استتبعها على المستوى الحقوقي ـــ السياسي . لكن هذه الامتيازات شكلت قفزة نوعية في هـــذه الشرائح ، وكونتها من جديد ، بوصفها شريحة طبقية تتعاطى الوساطة الاقتصادية

مع المركز . هنا تبدا بذور الاختلافات في المواقع بين البورجوازية المسيحية والبورجوازية السنية .

ان الشرعية الحقوقية الاساسية التي اخذتها هذه الشريحة الطبقية ، تأتي من المركز . أي من فرض قوانين الهيمنة بالعنف المباشر وغير المباشر . وعلى هذه القاعدة الاقتصادية تشكل الكيان .

الوساطة والسلطة . ان ما أطلقنا عليه تسمية الشرعية الحقوقية التي اخذتها الوساطة ، هو تسمية غير مباشرة **للاحتكار** . فالوساطة هي احتكار للعمالة الاقتصادية ، يجري ضبطه وتنظيمه على المستوى السياسي في جهاز السلطة ، حيث يعطى طابعه الحقوقي . فالكيان اللبناني هو الشكل الحقوقي الذي أخذه تنظيم الوساطة الاقتصادية داخل عملية التجزئة . هكذا تصبح السلطة تنظيما للاحتكار واحتكارا في الوقت نفسه .

فهي بوصفها تضبط عملية التملك الحقوقية ، تنظم الاحتكار وعملية توزيعه على العملاء الافراد من جهة ، وتصبح مكانا للتملك الحقوقي ومراكمة الثروة من جهة اخرى . انها الحلقة الوسيطة بين الوساطة بوصفها عملية اقتصادية تتبع قانون التراكم الاولي في المنظومة الراسمالية العالمية ، والوساطة بوصفها جزءا من عملية سياسية : الوجود الامبريالي ، التجزئة ... من جهة أخرى .

ب ــ التوازن

يقود هذا التحديد الاولي لعلاقات الاطراف الثلاثة : الوساطة ، السلطة ، المركز ، في النمط اللبناني الوسيط الى تحديد مفهوم التوزيع في هذا النمط . فالتوزيع لا يتحدد بتوزيع وسائل الانتاج . **بل سيتحدد بالاحتكار بوصفه موقعا في السلطة** . فحين تكون السلطة السياسية احتكارا وتنظيما للاحتكار ، فان التوزيع في ظل غياب الملكية الفعلية لوسائل الانتاج ، يصبح أساسا ومباشرة موقعا في السلطة .

يستتبع هذا التحديد ، محاولة اكتشاف اوالية العلاقات التي تحكم التوزيع ــ السلطة . فحين نحدد الملكية بوصفها ملكية حقوقية أساسا ، فاننا نكتشف الجذر الاساسي للتوزيع في النمط الوسيط . فهي ملكية بورجوازية فردية ، تنتج عن تفتت العشيرة شكل مراتبية سحب الريع في النمط العثماني ــ ملكية الدولة لتستبدلها بالطائفة : علاقة قرابة تضطلع بوظيفة علاقات التوزيع كعلاقات سياسية مباشرة .

هكذا يتحدد الموقع في السلطة ، بموقع الطائفة في السلطة . أي ان الطائفة بوصفها شكل التنظيم الاجتماعي للملكية الحقوقية الفردية ، تصبح الاطار المركزي للصراع على السلطة . أي على التوزيع . ان اوالية هذه العملية اوالية معقدة . فالاتفاق الطائفي الاول ميثاق ١٩٤٣ عقد في ظل الهيمنة الاستعمارية بين طائفتين اساسيتين : الموارنة والسنة . جرى على أساسه تقسيم مراكز النفوذ في السلطة بين الطائفتين (الذي قام بهذا التقسيم هو شرائح البورجوازية التجارية الكبرى في الطائفتين ولمصلحتهما المباشرة) . غير ان هذا الاتفاق هو اتفاق توازن ، يحافظ على توازن فعلي بين الطائفتين من ضمن الغلبة المارونية .

ان التوازن بالغلبة المارونية ، الذي صيغ عام ١٩٤٣ جاء نتيجة عاملين : ــ

ــ المواقع الفعلية في الملكية الحقوقية التي أعطيت زمن الانتداب ، والتي كرست

العملية الطويلة لصعود البورجوازية التجارية المارونية منذ أواسط القرن الماضي .

ـــ الوضع العربي الذي كان مقسما الى اقطار وكيانات خاضعة لهيمنة الاستعمار القديم ـــ الانكليزي اساسا ـــ بشكل مباشر أو غير مباشر .

ان اوالية هذا التوازن بالغلبة تخضع لقانونين اساسيين يحكمانها : ـــ

١ ـــ توسع الراسمالية وامتداد مرحلة الانتقال التي تدمر انماط الانتاج ما قبل الراسمالية الى مناطق جديدة في دولة لبنان الكبير . هذا التوحد يوحد الطائفة ويضرب الشكل التدريجي للملكية القديمة .

٢ ـــ التوازن والصراع بين طرفي الوساطة : المراكز الامبريالية والمحيط العربي .

يقود هذان القانونان الى مفهوم نطلق عليه اسم **التوازن بالغلبة** .

ان المستوى السياسي ، الذي يقوم باعادة انتاج النمط الوسيط ، يخضع للعلاقة الجدلية بين هذين القانونين . فتوسع الراسمالية الوسيطة ، يشكل قاعدة وحدة الطائفة وبروز طوائف جديدة . والتوازن والصراع بين طرفي الوساطة يقوم بكبح امكانيات تفرد احدى الطوائف بالسلطة بشكل مطلق .

ان الميثاق الوطني ، هو تنظيم هذا التوازن بالغلبة . فجميع الصراعات الطائفية اعادت وتعيد ترتيب التوازن بالغلبة دون أن تطرح هيمنة احدى الطوائف . أي دون أن تطرح تفرد احدى الطوائف بالسلطة السياسية ومحاولتها تفتيت الحركة السياسية للطوائف الاخرى .

ان البقاء ضمن توازن الغلبة ، هو الذي يعيد في التحليل الاخير انتاج نظام الوساطة . لأن الهيمنة تعني في ظروف الصراعات بين الاقطار العربية والمراكز الامبريالية اخضاع دور الوساطة لأحد طرفي المعادلة بشكل كامل ، وبالتالي تحطيما لها .

هكذا تحمل الصراعات الطائفية المعنى السياسي ، بوصفها انعكاسا للتجزئة اساسا ، واعادة انتاج لاحدى مناطق حركتها .

٣ – الطائفة والشرائح الاجتماعية

استنتجنا حتى الآن ، في سياق تحليلنا للنمط الوسيط ، أن الصراع الرئيسي داخل لبنان ، هو صراع بين الطوائف ، باعتبار الطائفة علاقة قرابة تضطلع بعلاقة توزيع . فالتوزيع هو موقع في السلطة كما رأينا . لكنه في المقابل محكوم بعاملين : الموقع من السلطة ، وتراكم رأس المال التجاري . والعلاقة بين العاملين هي علاقة تكاملية . فالموقع من السلطة يسمح بمراكمة الثروة ـــ الراسمال التجاري ، كما أن الثروة ، الراسمال التجاري تصبح موقعا في السلطة . داخل هذه العلاقة التكاملية تنشأ المراتبية الاجتماعية داخل الطائفة ، وهي ما سنطلق عليه اسم الشرائح الاجتماعية .

الشريحة الاجتماعية ليست طبقة . فالطبقة تقوم على علاقات الانتاج . أما في واقع عدم وجود علاقات انتاج ، فان شرط وجود الطبقة كشكل للصراع الاجتماعي ليس متوفرا . فالمراتبية الاجتماعية ، التي تنشأ داخل توزيع الريوع في لبنان ، هي انعكاس

لوجود توزيع غير متساو للريوع على الافراد ، وهذا بدوره هو نتيجة تراكم الراسمال التجاري بوصفه قائما ضمن قواعد الحق البورجوازي .

كي نستطيع تحليل هذه المراتبية الاجتماعية بشكل عام ، سوف ندرس اوالية الاجور في النمط الوسيط .

نرى ، أن أجور العمل غير المنتج في النمط الرأسمالي ، هي جزء يقتطع من فائض القيمة في القطاعات المنتجة ، ويخضع لمقاييس الاجور في القطاعات المنتجة . اي ان الصراع الطبقي في القطاع المهيمن ــ الصناعة ــ هو الذي يضع مقاييس الاجور في المجتمع بشكل عام .

اما في النمط الرأسمالي الوسيط ، فان الاجور هي جزء يقتطع من الريع . وهي موضوع صراع بين الشرائح الاجتماعية المختلفة .

غير أن الصراع الذي تقوم به شرائح « البورجوازية الصغيرة » العاملة في القطاعات غير المنتجة (الخدمات ، التجارة) وهي القطاعات الاساسية ، لا يشكل لحظة صراع على السلطة . في المقابل ، فان الصراع الطبقي في تدرجاته المختلفة يطرح مسألة السلطة ، أي مسألة هيمنة الطبقة البورجوازية على المجتمع . أما هنا ، فان الصراع على الاجور ليس لحظــة في صراع طبقي على وسائل الانتاج أو على السلطة . انه صراع على اقتسام الثروة . لذلك لا يستطيع اختراق آفاقه « الاقتصادية » وصولا الى المستوى السياسي . بل يقوم بدور متمايز داخل الوحدة الاساسية ، الطائفة ، التي ينعكس صراعها في المستوى السياسي ، على مجمل الاجور (زيادة حصة الطائفة في الوظائف العامة . . .) أي على نسب اقتسام الثروة بين الطوائف ، الذي ينعكس بدوره على المراتبية الاجتماعية داخل كل طائفة . يقود هذا التحليل مباشرة ، الى استحالة تكون حركة سياسية خاصة بالبورجوازية الصغيرة . اذ تنضبط الشرائح البورجوازية الصغيرة باطارات الصراع السياسي العامة : أي الطوائف .

ان النتائج التي وصلنا اليها ، تعني عدم قدرة التحليل على كشف الواقع . لأن التحليل بقي حتى الآن في اطار التجزئة كواقع معطى ، حاجبا اياها بوصفها جزءا من العملية الاستعمارية . فاعتبار الطائفة ، اطارا سياسيا متماسكا ، يقودنا الى دائرية التوازن بالغلبة التي لا مخرج منها . وهذا ما تبشر به بالضبط ايديولوجية الكيان .

لنحاول طرح المسألة بشكل آخر .

وحدة الطائفة التي اشرنا اليها ليست وحدة مطلقة . فهي تخضع لتمايزات وصراعات اجتماعية « داخلية » . لكن هذه الصراعات تبقى هامشية أمام الصراع الرئيسي على السلطة . لذلك تتوحد الطائفة المارونية ، حول البورجوازية الكبرى ، لتشكل وحدة متماسكة(٤) . لأن هذه الوحدة هي شرط الغلبة المارونية من جهة ، ولأنها تقوم كذلك على رفض منطق النضال القومي باعتباره تهديدا مباشرا لوجودها كطائفة غــالبة وكطائفة . فشرط ولادة الطائفة ، ارتبط بالتجزئة ، واعادة انتاج الكيان ــ التجزئة لا تتم الا بوجود الطائفة الغالبة .

أما « الطائفة » السنية ، فان موضوعة وحدتها تبدو أكثر تعقيدا . فاذا أخذنــا المقياس « الاقتصادي » لشرط وحدة الطائفة ، فانه مقياس متوفر بقدر توفره في الطائفة المارونية . لكنه هنا لا يوحد الطائفة . بل تبقى مفتتة في زعامات صغيرة وكبيرة

وتنظيمات بورجوازية صغيرة متنوعة ، وبذلك تتعدد ادوات صراعها السياسي والمسلح بشكل لا يمكن مقارنته مطلقا بالطائفة المارونية .

اذا حاولنا تفسير هذه الظاهرة - بمقارنتها ببعض مناطق الجبل المارونية ، حيث لا تزال الزعامات العائلية تلعب دورا أساسيا - فان هذه المقارنة تسقط أمام واقع كون المناطق الرئيسية لتواجد « السنة » هي المدن اللبنانية الكبرى : بيروت ، طرابلس ، صيدا - حيث استكملت مرحلة الانتقال . أي ان هذه الظاهرة تختلف نوعيا عن الظاهرة الهامشية المارونية (بعض مناطق الجبل حيث لم تستكمل مرحلة الانتقال وبقيت العشيرة تلعب دورا سياسيا : الشمال الماروني مثلا) .

قد نقوم بمحاولة تقديم تفسير تاريخي : « فالطائفة » السنية لم تتكون كطائفة الا حديثا . أي بعد هزيمة السلطنة العثمانية بعد الحرب العالمية . لذلك فالوعي السني « الطائفي » هو وعي قومي ، بمعنى ارتباط مفهوم الامة بتراث ايديولوجي اسلامي واضح . ووجود الطائفة الحديث لا بد وأن ينعكس على تركيبها الداخلي . يساهم هذا التفسير التاريخي في تقديم اضاءة المسألة ، لكنه لا يجيب عليها .

تعود هذه الظاهرة اذن الى سبب آخر : فالتفتت السياسي في الشارع السني يجري لحمه في ظروف محددة . أي في ظرف تأزم الصراع القومي مع الامبريالية . في هذه الحالة المحددة ، يلعب العامل القومي دوره في تفتيت الطائفة السنية ولحمتها : تفتيتها : بمعنى طرح مهام تتجاوز الشرائح البورجوازية الكبيرة السنية وعلاقتها بالتوزيع . ولحمتها : عبر اخضاع النضال القومي للأهداف المرحلية التي ترسمها هذه الشرائح البورجوازية . في ظل مستوى صراعي على الساحة القومية ، لا تستطيع فيه القيادة البورجوازية الوطنية لحركة التحرر العربي ، والتي في السلطة تجاوزه ، حين تصطدم بجدار التجزئة ، جدار قطع الجسور مع العدو الامبريالي . هكذا تعيد التجزئة والتوازن بين الاقطار العربية والامبريالية ، انتاج قيادة الشريحة البورجوازية الكبيرة للطائفة السنية .

ان هذه القيادة السياسية للطائفة ، لا توحد الطائفة الا في لحظات اختلال التوازن بين الاقطار العربية والامبريالية . لكنها لا تستطيع الاحتفاظ بقيادتها الا ضمن اعتبار شروط التجزئة كمعطى لا يطرح على بساط البحث .

توضح ثورة ١٩٥٨ بالتجربة التاريخية ، صحة هذا التحليل . فاختلال التوازن اللبناني ، كان نتيجة مباشرة للمد القومي الذي أطلقته الحركة الناصرية بنضالاتها ضد الاستعمار وبتجربتها الوحدوية . لكن اختلال التوازن هذا ، ضبط في الصراع السياسي المسلح على السلطة من قبل البورجوازية السنية الكبيرة . لأنه حين اصطدم فعليا بجدار الصدام بالامبرياليين الاميركيين ، بعد غزو المارينز الاميركيين للبنان ، اضطرت القيادة الناصرية باعتبارها قيادة بورجوازية وطنية في السلطة أن لا تحسم صراعها مع الولايات المتحدة . فتمت اتفاقية ناصر ، مورفي ، شهاب ، التي أقامت التوازن العربي الاميركي ، والتوازن اللبناني — اللبناني من جديد . هكذا استطاعت الطائفة السنية أن تعزز مواقعها في السلطة ، دون أن يطرح المد القومي المسألة اللبنانية على بساط العملية الثورية بشكل جذري .

الانتاج واللاانتاج

يقوم تحليلنا للنمط الوسيط ، على قاعدة اساسية ، هي استبداله للانتاج بالرواج .

فدورة الراسمال الاجتماعي محكومة بالراسمال التجاري ، بوصفها المهيمن على حركة الاقتصاد العامة . غير ان هذا التحليل يبقى ناقصا ، اذا لم نر علاقة الرأسمال التجاري بالراسمال المنتج . فالاقتصاد الوسيط ليس فقط ، وبالمطلق اقتصادا لا ينتج شيئا . لكنه يخضع الانتاج للاانتاج ، أي يهمشه الى اقصى الدرجات . فالراسمال الاجتماعي الذي يبدو مفتتا في القطاعات الاقتصادية الثلاثة ، يجري توحيده داخل الرأسمال التجاري كملحق في حركة هذا الرأسمال العامة . ان الراسمال التجاري في النمط الوسيط ، ليس وظيفة من وظائف الراسمال الاجتماعي ، بل شكله السائد . هنا الرواج ليس لحظة من دورة الانتاج . بل على العكس من ذلك . فالانتاج خاضع لحركة الراسمال التجاري ودوره الوسيط .

لنأخذ جدول مقارنة لتطور القوى العاملة في لبنان بين عامي ١٩٦٤ و١٩٧٠ ، ولتوزيع العاملين بحسب القطاعات :

جدول رقم — ٥ —

المعطيات	السنة ١٩٦٤	١٩٧٠	الفرق
عدد السكان الاجمالي	٢١٧٩٦٣٤	٢٤٠٠٠٠٠	+٢٪ سنويا
نسبة عناصر القوى العاملة	٣٢,٧٪	٢٧٪	—٤,١٪
عدد العاملين	٦٣٥٠٠٠	٥٢٨٠٠٠	
نسبة العاملين	٢٩,١٪	٢٥٪	—٤,١٪
نسبة العاطلين عن العمل	٢٠٪	٨,١٪	—١١,٩٪
توزيع العاملين حسب القطاعات	٪	٪	٪
الزراعة	٤٥,٢	١٨,٩	—٢٦,٤
الصناعة	٢٠,١	٢٤,٣	+٤,٢
الخدمات	٣٤,٦	٥٦,٨	+٢٢,٢

١ — يقيم هذا الجدول مقارنة بين المعطيات الاحصائية المقدرة لسنة ١٩٦٤ من قبل لوسيا ، بيروتي في كتابه Problem de l'emploi au Liban ومعطيات دراسة القوى العاملة في لبنان ١٩٧٠ (وزارة التصميم العام) . ان الفرق بين معدل زيادة السكان الذي يعتمده بيروتي ٢,٤٪ والمعدل المحسوب في دراسة وزارة التصميم يؤدي الى تضخيم الفرق بين سلسلتي أرقام الجدول رقم ٥ . اذ يضخم عدد السكان الاجمالي . الا أن هذا الخطأ لا يغير باعتقادنا الوجهة التطورية العامة التي للارقام .

يخدم هذا الجدول كمؤشر لانهيار القطاعات المنتجة ، واتباعها بالقطاع اللامنتج . واهميته هي في كونه يؤشر للعهد الشهابي الثاني كاستكمال فعلي لمرحلة الانتقال الثانية التي اتت بعد ١٩٥٨ ، والتي تمثلت برسملة الريف على نطاق واسع ، وتورم القطاع الثالث ، وتحوله الى القطاع المهيمن بشكل مطلق .

ان حركة الراسمال التجاري تحكم وتهمش الرأسمال المنتج . أي تحيله الى مجرد تابع لحركتها . فتصبح الصناعة والزراعة لحظة في حركة هذا الرأسمال . ان الميل العام الذي نلحظه في الجدول رقم — ٥ — هو ميل الى ضرب الانتاج ، وقذف المنتجين من العمل المنتج الى العمل اللامنتج من الريف الى المدينة ومن المدينة الى الهجرة نحو الاقطار العربية المنتجة للنفط .

ان المؤشر الاساسي على المستوى النظري الذي نخلص اليـه ، هو عدم وجود استقلالية لدورة راس المال المنتج ، وبالتالي ، تبعيته المطلقة للراسمال التجاري . هذه التبعية التي سوف تنعكس على الشرائح الاجتماعية بشكل مباشر .

فاذا كان الريف يخضع للرسملة ، ويخضع للزراعات التصديرية الخاضعة بدورها لآلية التصدير (التجارة) فان الصناعات الخفيفة لا تتشكل كصناعة بل كصناعات . وهذا يعني ان الرأسمال المنتج مرتبط بدور لبنان الوسيط : صناعة تحويلية خفيفة تجهز السلع المستوردة من المركز لتعيد تصديرها الى المحيط العربي . اي ان تركيبة الصناعات المرتبطة بالاستيراد — التصدير ، لا تسمح بتبادل بين الصناعات ، اي لا توحدها كصناعة مركبة . فالصناعات لا تتوحد الا مفتتة داخل حركة الراسمال التجاري . أي ان النمو الصناعي هو نمو ظرفي خارجي الوجهة مرتبط بدورة الرساميل في المركز . فهو هامشي نتيجة ركود نمو الصناعة التي لا تزال تراوح مع البناء في حدود ٢٢٪ من الدخل القومي منذ عام ١٩٦٥ . وهذا الرقم ٢٢٪ هو رقم يغشى ، لأن نمو البناء يخفف من فعاليته من جهة ، ولأننا لا نستطيع حسابه ضمن دورة صناعية خاصة به من جهة ثانية . فالصناعة هي مصدر هامشي للثروة ولا تقوم الا على هذا الاساس ، فانخفاض أجور العاملين فيها ، هو الذي يشكل ارضية نمو الصناعة الوسيطة : جلب الرساميل الاجنبية وتوظيف رساميل وطنية : اي نقل مراحل معينة من دورة الانتاج من المركز الى لبنان .

ان انخفاض الاجور في الصناعة الوسيطة بالنسبة للاجور في المركز وللاجور في القطاع الثالث ، هو قاعدة نموها بوصفها تشترك في التبادل اللامتكافىء ضمن دائرة الوساطة الاقتصادية . من هنا فهي لا تحكم بدورة الراسمال المنتج في المركز الا في التحليل الاخير ، بوصفها جزءا من تصدير السلع التي تجهز في لبنان .

هكذا ، فنمو الصناعة في لبنان مرهون بهامشيتها . انها لا تستطيع أن تقيم دورتها المستقلة في شروط هيمنة الراسمال التجاري شرط تكونها كصناعات . فهي لا تنشأ الا كجزء من حركته ويصبح نموها بالتالي مشروطا بهامشيتها ، كما تشكل هذه الهامشية حدود نموها .

اذا اردنا ربط هذا التحليل لهامشية الصناعة بالحركة الاجتماعية العامة في لبنان ، فاننا نتوقف عند نقطتين أساسيتين : —

١ — ان حجم الصناعة في الثروة ، هو حجم هامشي . اي انها ملحق بحركة الراسمال التجاري ، لا تستطيع الانفصال عنه لتشكل دورتها المستقلة ، لانها بذلك تضرب شرط وجودها .

٢ — يستتبع هذا موضوعة تدني الاجور في القطاع الصناعي . هذا التدني هو شرط دورها كصناعة وسيطة من جهة ، وهو نتيجة هامشيتها في الثروة الوطنية من جهة أخرى . فالاجور المنخفضة التي تخضع حركتها للصراعات الطبقية ، تصبح جزءا من العامل البنيوي الذي يشل تكون الطبقة العاملة كطبقة سياسية على المستوى الوطني . فالطبقة العاملة ، تتكون كطبقة سياسية حتى تكون احدى الطبقات الرئيسية التي تنتج الثروة في المجتمع ، وتصبح بنضالاتها العفوية رافدا أوليا لقدرتها على التوحد في المستوى السياسي كطبقة سياسية ، تحمل بديل النمط الراسمالي . أي ان تشكلها كطبقة سياسية مشروط بحجمها الاساسي في الانتاج .

أما حين يكون الانتاج الصناعي هامشيا في حركة الراسمال الاجتماعي . فان قدرة نضالات الطبقة العاملة على التوحد في المستوى السياسي تصبح شبه معدومة . لانها لا تحمل بديل نظام الوساطة من داخله . أي انها كطبقة ليست جزءا اساسيا من عملية تراكم الثروة ، وبالتالي فهي لا تحمل في داخلها قدرة على النمو كطبقة سياسية ، اي ان الطبقة العاملة لا تدخل في الصراع السياسي (مكان تقاسم الثروة الفعلية) كطبقة بل كشريحة اجتماعية . فالنضالات الجزئية الاقتصادية التي تخاض داخل المصنع . لا تتوحد في حركة « الطبقة العاملة الصناعية » السياسي . بل توحد داخل التنظيم العام النقابي للشغيلة الذي تقوده بورجوازية الخدمات الصغيرة ، بوصفها الشريحة الاكثر فاعلية في عملية تراكم الثروة . فليس عبثا أن يقاد الاتحاد العمالي العام من نقابة موظفي المصارف . وليس عبثا انتقال الحركة النقابية من القيادة السياسية لحزب الشعب الذي نشأ كتوحيد لنضالات عمالية وحرفية في العشرينات ، لتنتقل الى قيادة البورجوازية الصغيرة في القطاع الثالث . فالتفسير السياسي الذي يعطيه كولان(٥) لهذا التحول ضرب الحزب الشيوعي ، ليس سببا بل نتيجة لهذا التحول في بنية الاقتصاد نحو اللاانتاج ــ الوساطة .

ان اخضاع النضالات الجزئية في المصانع لحركة النضـــال المطلبي الذي تخوضه البورجوازية الصغيرة ، يعني عمليا دخول هذا النضال في اطار الصراع الطائفي .

لقد رأينا من تحليلنا للنضالات الاجتماعية للبورجوازية الصغيرة من أجل تحسين شروط المعيشة (الاجور ، الايجارات . . .) انها لا تستطيع أن تتشكل كنضالات مستقلة . بل تدخل فعليا ضمن دائرة الصراع الطائفي بوصفه الصراع الاساسي على اقتسام الثروة وتوزيعها . وحين توحد نضالات عمال المصانع في حركة البورجوازية الصغيرة ، فانها لا توحد فعليا ، بل تفتح على الصراع الاساسي الطائفي ، لتتشكل كجزء منه .

ينهي هذا التحليل وهمين ايديولوجيين شائعين :

١ــ الوهم الاول : الطبقة ــ الطائفة

ان أكثرية العمال في لبنان ، شيعية . والمناطق الشيعية في ضواحي بيروت وفي المناطق (الجنوب ، البقاع) هي أكثر المناطق فقرا وحرمانا في لبنان . والطائفة الشيعية كطائفة هي أكثر الطوائف استضعافا في المستوى السياسي . اذن تصبح الطائفة الشيعية طائفة طبقة .

يهمل هذا الطرح الايديولوجي اوالية تكون الطائفة الشيعية .

فالطائفة الشيعية ، لم تتكون كطائفة الا حديثا . أي ضمن شروط توسع مرحلة الانتقال لتشمل مناطق جديدة في لبنان . أدى هذا التوسع الى ضرب نمط الانتاج ، عبر تفريغ الجنوب من سكانه بشكل تصاعدي ليشكلوا تدريجيا جزءا من قطاع الخدمات وليكونوا وقود الصناعات الخفيفة (يد عاملة رخيصة ، تتفتت علاقاتها القديمة) .

فلقد ارتبطت بدايات تكون الشيعة كطائفة سياسية ، ارتبطت برسملة الريف ، وبحركة النزوح منه بشكل واسع . أي انها تعيد تطبيق القانون الاساسي الذي حكم الطوائف في لبنان في القرن الماضي . وقد ارتبطت برساميل تجارية شيعية (مهجرية في الاساس) تبحث لنفسها عن مكان فعلي في المستوى السياسي . أي ان تكوّن الشيعة كطائفة سياسية يقف على أرضيـــة موضوعية ، هي توسع الراسمـــالية

الوسيطة . لكن هذا التكوّن ليس جوابا ميكانيكيا على هذه الظاهرة . انه تكوّن صراعي . اي ان وحدة الطائفة كعلاقة قرابة تضطلع بوظيفة التوزيع تصطدم بالعشيرة بوصفها اطار نمط انتاج سابق ، تحطمها لتدرجها في وحدة الطائفة . وهذا يفسر الصراعات البالغة الدلالة بين زعامة الطائفة المتمثلة بالمجلس الاسلامي الشيعي الاعلى والزعامات شبه الاقطاعية . كما نصطدم بالعشيرة في وظيفتها الجديدة كاطار للتوزيع في المدن وفي المناطق الريفية التي دخلها الرأسمال الوسيط . هذا الصراع الذي يحسم فعليا بالممارسة أي بتنظيم الطائفة كطائفة وكقنوات توزيع .

غير أن النقطة الصراعية المركزية التي تخوضها الطائفة الشيعية في مرحلة تكونها هي الاصطدام بجهاز الدولة . فاذا كانت الخلافات العشائرية في المناطق النائية تضبط وتحل بواسطة الجيش (المكتب الثاني) فانها اليوم ولأول مرة تضبط وتوحد بواسطة مؤسسة طائفية توحد الطائفة . هذا هو أحد أوجه الصراع الحاد بين الدولة والمجلس الشيعي الاعلى . وهذا هو أحد أسباب تمركز الصراعات المسلحة في الصدام الاخير في ضواحي بيروت الشرقية حيث أكثرية شيعية من العمال والعاطلين عن العمل وصغار البورجوازيين . ان بروز الطائفة الشيعية على المستوى السياسي يعني بروز حقيقة جديدة تضاف الى حقائق التوازن اللبناني . فهذا التوازن الذي سقط بدخول المقاومة يتشكل اليوم في الصراع الفعلي المسلح .

داخل الطائفة اذن (رغم حرمانها العام) تتشكل شرائح اجتماعية مختلفة . تتوحد كطائفة في شروط دائرة المستوى السياسي اللبناني . هذا التوحد بين شرائح اجتماعية مختلفة مشروط باعادة انتاج التجزئة ، التي توظف الاطار الصراعي داخل قناة ضيقة هي التوزيع القائم على الوساطة . والتي تعيد انتاج هيمنة القيادات البورجوازية على الطائفة ككل .

٢ــ الوهم الثاني : الطائفة تكبح الصراع الطبقي

أن الوهم الثاني : الطائفية تكبح الصراع الطبقي ، وهو أكثر خطورة . لأنه يقف على اجتزاءات ماركسية « ان تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع بين الطبقات » . ليعتبر :

أ ــ الطائفة ايديولوجيا ، أي انها ترسب من أنماط انتاج أخرى ما قبل رأسمالية . ويوحد الطائفة بالعائلة والعشيرة والاقطاع السياسي . باعتبارها ظاهرات مترسبة من نمط انتاج ما قبل رأسمالي ، وهي بالتالي ظاهرات ايديولوجية .

ب ــ ينطلق من أن نمط الانتاج السائد في لبنان ، هو نمط الانتاج الراسمالي . وبذلك يهمل الوساطة أو بجعلها تابعة لدورة انتاج رأسمالية .

ج ــ اذن ، في ظل سيادة نمط الانتاج الرأسمالي ، تصبح الترسبات الايديولوجية عائقا لنمو الرأسمالية ، وكابحا للصراع الطبقي .

يقف هذا التحليل على أرضية ايديولوجية تعتبر النمط السائد في لبنان هو النمط الرأسمالي ولا تستطيع التمييز بين النمط الرأسمالي والنمط الوسيط . فالنمط الوسيط السائد في لبنان ، لا يخضع لدورة انتاج ، بل يخضع لحركة الرأسمال التجاري ، هنا يقع الخطأ الاساسي في التحليل الذي يهمل دراسة الواقع العيني ، وينصرف الى اسقاط تحليلات جاهزة أو شبه جاهزة عليه . فالفرق بين النمطين الرأسمالي والوسيط فرق شاسع لا تغطيه النوايا « الحسنة » .

لقد قامت الرأسمالية الوسيطة بضرب علاقات الانتاج القديمة لتحل مكانها حركة الرأسمال التجاري ؛ فاستبدل توزيع وسائل الانتاج بتوزيع الريوع . على هذه القاعدة توحدت الطوائف ، لتشكل توازناتها في المستوى السياسي . فالرأسمالية الوسيطة ملازمة للكيان . أي انها جزء من عملية التجزئة . ان العلاقات الاجتماعية الجديدة التي تقوم في النمط الوسيط ليست ترسبات ايديولوجية . انها أشكال جديدة تضطلع بوظائف جديدة . من هنا ضربت الاشكال الاجتماعية القديمة وادخلتها مفتتة في الشكل الاجتماعي الجديد . هنا تسقط مقولة « الاقطاع السياسي أداة السيطرة البورجوازية » بسقوط الاقطاع نفسه عبر تعميم الرأسمالية الوسيطة . وما وهم الاقطاع السياسي الا التعبير الايديولوجي عن أزمنة الانتقال المتفاوتة في لبنان الكبير ، حيث ينجز الانتقال الى الرأسمالية الوسيطة في فترات متفاوتة .

يقود هذا الافتراض الاساسي الى استحالة وجود صراع طبقي متبلور في اطار الكيان الوسيط . فشرط تبلور الطبقات كطبقات سياسية ، أي كطبقات تمارس النضال السياسي غير متوفر في اطار الوساطة الاقتصادية المهيمنة . فالشرائح الاجتماعية التي تناضل من أجل تحسين شروطها المعيشية لا تتوحد الا من خارجها أي في المستوى السياسي ، حيث ينعكس الصراع السياسي عليها ليوحدها داخل الطوائف . من هنا لا تستطيع الصراعات الطائفية أن تمس المستوى السياسي بشكل جذري اذا لم تكن تعبيرا أوليا عن تغيرات وطنية جذرية في المحيط العربي ، تضع الهيمنة الامبريالية على بساط الممارسة النضاليـــة الفعلية ، وتنفي الوســـاطة ، عبر نفيها الكـــامل للنهب الامبريالي .

ان افتراض الطائفة ككابح للصراع الطبقي ، هو مفهوم ايديولوجي يخفي ممارسة فعلية ؛ تقوم على اعتبار التجزئة واقعا مسلما به بشكل نهائي أو واقعا يجب تأجيل البحث به حتى استكمال التحولات الاشتراكية في الاقطار والكيانات . هكذا تصبح هذه الممارسة في التحليل الاخير خارج النضال الوحدوي القومي وتنقاد بنيويا الى الارتباط بالخارج .

يخفي هذا المفهوم ممارسة فعلية للصراع الطائفي تحت لفظية الصراع الطبقي . فيقوم فعليا بتفتيت الشارع الوطني ويساهم في توحيد الطائفة المارونية تحت القبضة الفاشية لحزب الكتائب . أي ان اخفاء الاطار الفعلي للصراع داخل الكيان يقود الى وهم امكانية المسير الى الثورة الاشتراكية اللبنانية . هذا الوهم الذي لا يستطيع القفز على الصراع الطائفي ، فيمارسه فعليا . دون أن يستطيع صياغة تكتيكـــات تناسب المرحلة .

ان هذا التحليل هو الوجه الآخر والمبسط للايديولوجيا اليمينية الفعلية — شيحا وحبشي . التي تقوم على أزلية الكيان التجارة ، لتصوغ دائرية التوازن الطائفي . أما هنا فينقلب هذا التحليل على رأسه بلغة تحديثية ، ليقبل الكيان كاطار للصراع الاجتماعي وليحجب التناقض الرئيسي في المنطقة العربية : التناقض بين حركة التحرر الوطني العربية والامبريالية الاميركية والكيان الصهيوني العدواني .

٤ — دائرية الصراع الطائفي

لقد حاولنا في سياق هذا التحليل دراسة النمط اللبناني باعتباره جزءا من تجزئة المنطقة العربية بالهيمنة الامبريالية . واكتشفنا موضوعة التوازن والسلطة .

غير ان قراءة سريعة ووحيدة الجانب . لتحليل الصراع الطائفي . تستطيع ان تجرده من اساسه بوصفه انعكاسا لسيطرة الراسمالية الوسيطة ، في خضم محيط من الصراع — التوازن بين حركة التحرر العربية والامبريالية .

لذلك تخرج هذه القراءة باستنتاج دائرية الصراع الطائفي على الطريقة الخلدونية . اي باستبدال العصبية بالطائفة . ان هذا الاستنتاج الدائري ، لا يجد اساسه الا في اعتبار التجزئة كمعطى وحجب التناقض الرئيسي بين الحركة الوطنية العربية والامبريالية . وحجب واقع الكيان باعتباره نقطة توازن هذا الصراع . لذلك فالصراع الطائفي ليس دائريا ، الا بمقدار عدم وجود القدرة على الحسم في الحركة الوطنية العربية . هذه القدرة على الحسم لن تتشكل الا في لهب الصراع مع العدو الرئيسي الاسرائيلي الاميركي .

ان انفجار الصراع الطائفي في لبنان عام ١٩٥٨ كان كما أسلفنا ، نتيجة حتمية لاختلال التوازن بين المحيط العربي بقيادة عبد الناصر والمركز الامبريالي . وعودة التوازن كانت نتيجة عدم قدرة القيادة البورجوازية العربية على الحسم . اما الآن ، فحين يتكرر الصراع الطائفي بصيغ جديدة وأكثر عنفا ، فانه نتيجة لاختلال التوازن الذي عبرت عنه حرب ٦٧ العدوانية بالهجمة الامبريالية الشرسة على القيادة البورجوازية الوطنية لتدجينها . هكذا برزت المقاومة بأفق قطري يتلمس وجهته القومية بالممارسة ، لتشكل نقطة جذب فعلية الى التناقض الرئيسي بالممارسة اليومية المسلحة . وهي بهذا المعنى . أدخلت الى لبنان اختلالا في توازنه السياسي . فالمقاومة ليست على المستوى البنيوي سلطة عربية يمكن اقامة توازن معها . بل هي قوة جماهيرية لا يمكن تدجينها الا بتصفيتها . من هنا دورها الثوري في المرحلة الراهنة . باعتبار استحالة اقامة توازن نهائي معها في الميزان الفعلي للصراع العربي — الاسرائيلي .

ان هذا يعني على المستوى اللبناني حقيقة أساسية : فالصراع الطائفي في لبنان هو انعكاس مباشر للصراع القومي في سبيل التحرر من القبضة الامبريالية . وهو بهذا المعنى ، وفي التحليل الاخير الشكل المؤقت للصراع الطبقي العربي في الساحة اللبنانية .

انه شكل صراع لأن الصراعات تستعير الاشكال القديمة لتدمرها في الصراع نفسه . ففي ظل الكيان . وفي اطار التوازن العربي — الامبريالي (هذا التوازن هو لحظة في الصراع وليس نهايته) تصبح الطوائف أطر الصراع الوطني العربي ، لأنها الشكل اللبناني الذي تفرزه البنية .

وهو شكل مؤقت لأنه يقوم على عدم قدرة الحركة الوطنية العربية على حسم تناقضها الرئيسي مع الامبريالية . لذلك فان اعادة انتاج الشكل الطائفي مرهونة باعادة انتاج الكيان — التجزئة . من هنا قدرة الصراع القومي على طرح المسألة اللبنانية على بساط البحث في شروط وصول التناقض الرئيسي الى نقطة الانفجار الموضوعية في الحرب الشعبية الوطنية . هنا تسقط مقولات اليمين اللبناني « الذكي » القائمة على تكثيف التوزيع واعادة بنائه بشكل متوازن . لأن المسألة القومية تستطيع اعادة صياغة التحالفات الاجتماعية بشكل جديد ورمي الاقتصادوية في مكانها الطبيعي بوصفها ايديولوجية كاذبة . ان الصراع الوطني داخل جبهة وطنية عربية متحدة تضم جميع الطبقات الوطنية بقيادة الطبقة العاملة العربية ، هو الاطار النضالي الذي سيوحد جميع الشرائح الاجتماعية الوطنية في لبنان ليسقط الصراع الطائفي ، بعد أن يستنفد دوره بوصفه شكلا مؤقتا للصراع الطبقي .

ان هذه العملية هي عملية طويلة ومعقدة ومليئة بالمنعطفات . لأن كل التحولات الكبرى لا تتم بشكل ميكانيكي ، بل هي لحظة تلخص الماضي والحاضر في لهب الصراع الذي يصنع المستقبل .

ان الصراع الطائفي اللبناني ، الذي يأخذ اليوم شكل قتال أهلي ، سوف يسقط نهائيا داخل عملية انجاز الثورة العربية .

---

1 - Karl Marx: **Misére de la philosophie.** page 160.

٢ ــ ابن خلدون : **المقدمة** . دار احياء التراث العربي ــ بيروت . الطبعة الثالثة بدون تاريخ . ص ١٣١ ــ ١٣٢ .

٣ ــ وضاح شرارة : **في أصول لبنان الطائفي . اليمين الجماهيري** . دار الطليعة ، بيروت .

٤ ــ ان وحدة الطائفة المارونية ، هي وحدة ضمن اتجاهين تاريخيين : اتجاه متصلب ، وآخر منفتح . ونقطة توازنهما هي نقطة توازن الكيان نفسه . لذلك يعبران عن وحدة فعلية ، أي عن توازن تقيمه أقلية مسيطرة ولا يغلب أحد الاتجاهين الا نتيجة توازنات الوضع العربي .

٥ ــ جاك كولان : **الحركة النقابية في لبنان** . دار الفارابي ــ بيروت .

الطائفية السياسية ، والحقائق الاقتصادية في لبنان

حسين ابو النمل

الفتنة الطائفية في لبنان والتي لم تكتمل فصولها بعد ، فتحت المجال واسعا أمام أحاديث شتى عن قبرصة لبنان وعن الانسحاب من الجامعة العربية وعن الغرباء ودورهم في تخريب لبنان ... وغيرها من الاطروحات التي كانت تجد فرصتها في تزايد الحريق الطائفي وانتقاله من منطقة لأخرى حسب المخطط المرسوم للفتنة .

لقد ساهمت الحوادث الاخيرة في تزايد الاتجاهات الطائفية لدرجة حدوث عملية فرز طائفي في بعض المناطق نتيجة للارهاب الجماعي الذي كان يرتكب على أساس طائفي وردود الفعل التي كانت تحدث ، برغم الموقف الواضح الذي لعبته الحركة الوطنية اللبنانية لضبط ردود الفعل الطائفية ولوضع الصراع في لبنان ضمن مجراه الطبقي معبرا عن هذا الصراع بوسائل سياسية .

ان هذه الازمة والتعبيرات التـي أخذتها تفرض الوقوف بشكل علمـي أمام هذه المسألة ، لتحديدها وتحديد الوسائل الكفيلة بحلها ، ضمن السؤال المنطقي المطروح ، لمصلحة من حدث ما حدث ، لمصلحة لبنان ؟ وأي لبنان تخدم الحوادث الأخيرة ؟ ومن المستفيد من شعار قبرصة لبنان الذي بدأت تغذيه بعض الاوساط الانعزالية ؟ ولبنان هل هو مجرد كلمات ، أم ان لبنان المزدهر اقتصاديا هو موضوع يرتبط بأسبابه المادية التي لا بد وان تلحظ بدقة وتراعى بشكل كامل . وذلك لا يكون الا من خلال مواكبة الحقائق المستجدة في الوضع اللبناني وتطوير البنية السياسية والدستورية لهذا الكيان بما يتناسب والحقائق الجديدة . ان عدم تناسب الوعاء السياسي مع ما يتضمنه هـذا الوعاء من حقائق اقتصادية واجتماعية لا بد وأن يؤدي بالضرورة الى تفجر الوعاء ليتسع لهذه الحقائق . وان خلق هذا التناسب ليس مصلحة لطائفة دون الاخرى ، بقدر مـا هو مصلحة لأهل هذا البلد جميعا والتي تكمن في بناء لبنان الحديث . فقد مضى وقت طويل على الطريقة التي نظمت بها أمور الدولة ، وهي وان راعت بعض الاعتبارات والمصالح بمقياس الاربعينات ، فلقد سقطت تلك الاعتبارات وأصبح التغيير من مصلحة حتى المستفيدين من الترتيبات الدستورية الحالية . وكما سيتضح مـن العرض التالي فالتبديل ليس مسؤولية الطوائف المحمدية بقدر ما هو مسؤولية الطوائف المسيحية أيضا . ولا يمكن لنا ادراك ابعاد هذه المسألة الا من خلال رصد الاساس الذي قامت عليه مشكلة الطائفيـة والقدر الهائل مـن التطور الذي طرأ على هذا الاساس .

ان قضية الطائفية في لبنان ليست قضية مفتعلة أو قضية جديدة بل هي قضية قديمة ولها جذورها التاريخية . ومهما عددت من أسباب لقضية الطائفية فـلا شك في أن

الاساس المادي لها هو العنصر الذي جعل منها هما جماهيريا يوميا واعطاها صفة الاستمرار ، لأن الطائفية قد اكتسبت في فترة من الفترات وما زالت مظهرا اقتصاديا كان يعود بالفائدة على طائفة دون الاخرى . علما بأن هذه المصلحة قد بدأت بالتضاؤل مع تزايد نمو الوضع الاقتصادي في لبنان وتبدل الاساس الذي كان يستند اليه . بحيث أعطى حجما محدودا للمصالح الاقتصادية التي كانت تؤمنها الطائفية قياسا بالاوضاع الاقتصادية الجديدة التي يعيشها لبنان .

في اللحظة التي أجبر فيها الاستعمار على مغادرة لبنان ، حرص على أن يستغل كافة الامراض التي كان يعاني منها المجتمع اللبناني بالشكل الذي يضمن استمرار النفوذ الاستعماري في لبنان برغم الاستقلال الذي أعطي له . ومن هنا ركب النظام السياسي اللبناني على أساس طائفي بحيث قننت الطائفية وكرست كحقائق دستورية في الوضع اللبناني وان كانت هذه الحقائق غير مكتوبة ولكن متعارف عليها ضمن ما يسمى بالميثاق اللبناني . وقد وزعت الوظائف على هذا الاساس ابتداء من رئيس الجمهورية الى أصغر موظف في أي دائرة حكومية . وقد خدمت هذه السياسة ثلاثة أهداف مركبة . هدف القوى الاستعمارية بتفتيت لبنان السياسي الامر الذي يبقي على مصالح الاستعمار ونفوذه في لبنان . خاصة وانه قد صور لبعض الطوائف ، ان امانها مرتبط باستمرار علاقتها بالغرب . والهدف الثاني تكريس الزعامات العشائرية — الاقطاعية وضمان استمرار نفوذها من خلال توزيع المناصب الرسمية بين أطرافها المختلفة ، والهدف الثالث ابقاء قضية الطائفية قضية يومية في المجتمع اللبناني يعيشها المواطن يوميا بحيث لا يستطيع أي مواطن أن يحقق مصالحه الا من خلال التركيب الطائفي القائم في المجتمع وعلى أساس اللعبة الطائفية التي تتم فيه .

وفي ظل درجة معينة من تطور الوضع الاقتصادي اللبناني وبالتالي من الحجم المحدود لفرص العمل المتاحة كانت الوظيفة الرسمية تعتبر امتيازا كبيرا لمن يستطيع الحصول عليها حتى ولو كان موظفا في البلدية . ولم يكن ممكنا لأي مواطن الحصول على وظيفة ، خاصة في الدوائر الرسمية الا من خلال الواسطة التي يوفرها هذا الزعيم أو ذاك ، الامر الذي جعل الطريق للوظيفة الرسمية يمر دائما عبر بوابة الزعماء التقليديين ، الامر الذي كان يزيد من هيمنتهم ونفوذهم . وما لهذا من انعكاسات على صعيد الانتخابات وغيرها من أوجه الحياة السياسية في لبنان وهي في النهاية تكريس للطائفية ، لأن الانتماء للدولة يفترض قبل ذلك انتماء للطائفة .

وعلى الجانب الثاني فقد كانت هنالك لهذه الطائفة أو تلك ، امتيازات تتدرج في ضوء الفئة التي يشغلها الموظف . ان (التمييز) بين الطوائف قد سعر مشكلة الطائفية برغم أن حجم التمييز يبقى محدودا فيما لو قورن بالتمييز المعطى على أساس الوظائف التي كانت تشغل على أساس طبقي بالدرجة الاساسية ، واذا كان لهذه الطائفة عدد من الوظائف زيادة عن وظائف الطائفة الاخرى ، وهو المظهر الاول لطائفية النظام ، فان المظهر الاخر هو طبقية النظام التي تتضح من خلال الامتيازات التي تقدم لموظفي الفئات الممتازة والذين لا يمكن ان يعينوا الا في ضوء الاعتبارات الطبقية ، وتتضح هذه الحقيقة جلية من خلال مراقبة أسماء موظفي الفئة الاولى والثانية في الدولة اللبنانية . ولكن ولاعتبارات عديدة جدا أبرزها محاولة اخفاء طبيعة النظام الطبقية ، كان التركيز يجري دائما على الطابع الطائفي للوظيفة . الامر الذي ولد ما يشبه الطائفة — الطبقة في النظام اللبناني . والتي تجد مصلحتها في ابقاء الوضع اللبناني في وضعيته تلك ، وتجد أمانها ومصلحتها في استمرار علاقاتها الوثيقة مع الغرب ، خصوصا وان مثل هذا التوجه السياسي كان متناسبا مع طبيعة البنية الاجتماعية — الاقتصادية المتخلفة

لبنان . فالقطاع الانتاجي كان ينحصر في الزراعة ، اضافة الى قطاع التجارة والتي كانت تتم بشكل رئيسي مع أوروبا الغربية ، باعتبار ان لبنان كان سوقـــا لهذه الدول الامبريالية . ومصلحة القطاع التجاري تقوم على استمرار العلاقات الاقتصادية مع هذه الدول . وهو الامر الذي ينسجم مع التوجهات السياسية للنظام .

ان الاساس السياسي الذي نفتتت في ظله مشكلة الطائفية في لبنان قد تبدل بشكل جوهري خلال الفترة التي مرت على لبنان منذ الاستقلال وحتى الآن بحيث نستطيع القول أن الاساس الاقتصادي لمشكلة الطائفية قد تبدل بدرجة مساوية للتبدلات التي طرأت على القطاعات المختلفة للاقتصاد اللبناني .

لقد نما القطاع الزراعي والقطاع الصناعي في لبنان خلال الحقبة التاريخية الماضية بشكل فاق قدرة السوق اللبنانية على الاستيعاب خاصة وان معظم النمو كان بغرض التصدير . وقد ترك هذا الامر اثرا كبيرا على المجالين الداخلي والخارجي ، ولم يكن الاثر الخارجي الا انعكاسا لما حصل على الصعيد الداخلي . فحتـــى المالك الصغير أصبح معنيا بطبيعة علاقات لبنان الخارجية ويتأثر مباشرة بأي تطور سلبي أو ايجابي يطرأ عليها .

ان المالك الذي كان يصرف انتاجه في حدود السوق المحلية نتيجة لحجم انتـــاجه الضئيل بحكم تخلف وسائل الانتاج وحاجات السوق المحليـــة ، كان بالمقابل يحصر اهتماماته وعلاقاته في حدود السياسة المحلية ، ولكن تزايد الانتاج من ناحية وارتفاع الاسعار في الخارج من ناحية أخرى نقلت طبيعة الاهتمامات والمصالح مـــن اطارها المحلي الى اطارها الخارجي .

وبالاضافة الى نمو قطاع الانتاج لدرجة جعل الحاجة للسوق الخارجية حاجة ملحة فقد نما قطاع الخدمات أيضا وتنوعت أيضا طبيعـــة الخدمات التـــي يقدمها واتسع نطاقها ، فبالاضافة الى قطاع السياحة ، وهو القطاع التقليدي في لبنان ، توسعت تجارة اعادة التصدير ، ونما قطاع البنوك ، اضافة الى تزايد الخدمات الفنية التي تقدمها السوق اللبنانية ممثلة بالعديد من المكاتب الاستشارية وبالتحديد في مجال المال والاقتصاد اضافة الى ان لبنان قد أصبح المركز الرئيسي في المنطقة للشركات الهندسية ولاعمال المقاولات ، والتي (رأسها) في لبنان ولكن جسمها في الخارج .

ان النمو الهائل الذي طرأ علـــى القطاعات المختلفـــة للاقتصاد اللبنانـــي مرتبط بالامكانيات التسويقية التي وفرت له ، وفرض على لبنان نمطا جديدا من التوجهات : بحيث تبدل الاتجاه الرئيسي لحركة الاقتصاد اللبناني من سوق لمنتجات غيره من الدول الى اقتصاد بدأ يبحث لنفسه عن أسواق لتصريف منتجاته وخدماته ، واذا كانت أوروبا الغربية بحكم دورها في الاقتصاد العالمي قد لعبت دور المصدر فانها وللسبب نفسه لا يمكن أن تلعب دور المستورد لان هذا يتناقض تمام التناقض مع نمـــط العلاقات التي درجت على نسجها مع غيرها من الدول . خصوصا اذا ما كانت المواد المصدرة اليها هي مواد جاهزة الاستهلاك وليست مواد خام . ولذا فقد كانت المنطقة العربية هي المجال الحيوي للاقتصاد اللبناني وبالتحديد على صعيد التصدير في الوقت الذي شكلت أوروبا الغربية والولايات المتحدة مصدر الواردات اللبنانية ، وبدأ (لبنان) يكتشف عمقه العربي ، بعد أن اكتشف أكثر فأكثر الفوائد التي تعود عليه من ذلك العمق .

لقد انعكست زيادة الصادرات اللبنانية سواء من السلع أو من الخدمات على حجم الدخل القومي في لبنان وبالتالي على متوسط الدخل الفردي للمواطن اللبناني . وفيما

يلي جدول يوضح هذا الامر ، ولتبيان مدى ارتفاع معدل الناتج القومي والدخل الفردي ما علينا سوى ملاحظة الارقام المتعلقة بالنسبة للبنان للعام ١٩٧٤ — ١٩٧٥ قياساً بمجموعة من الدول العربية منهما دولتان بتروليتان هما العراق والسعودية .

اسم الدولة	الدخل القومي (مليون دولار)	عدد السكان (مليون)	متوسط الدخل الفردي (دولار)
لبنان	٢٩٠٠	٣,١٤٠	٩٢٤
السعودية	٦٨٠٠	٨,٦٧٠	٧٨٤
العراق	٥٠٠٠	١٠,٧٤٠	٤٦٥
سوريا	٢٥٣٠	٧,١٣٠	٣٥٥
الاردن	٨٠٠	٢,٦٤٠	٣٠٣
مصر	٨٤٠٠	٣٦,٦٠٠	٢٣٠

ولو اخذنا نسبة دخل الفرد اللبناني بالقياس الى دخل الفرد في الدول المذكورة لاكتشفنا أن دخل الفرد اللبناني هو ٤ أضعاف دخل الفرد في مصر و ٣,٠٤ مرة ضعف دخل الفرد في الاردن و ٢,٦ ضعف دخل الفرد في سوريا وضعفا الفرد في العراق و١,١٧ مرة بالنسبة للفرد في العربية السعودية .

وتجنبا للدلالات الخاطئة لموضوع ارتفاع الدخل القومي ، باعتبار ان العبرة في النهاية هي في طريقة توزيع هذا الدخل . وهنا تلعب طبيعة النظام الطبقية وملكية وسائل الانتاج دورا هاما في توزيع الدخل القومي بطريقة غير عادلة ، بحيث تتفاوت الدخول بدرجة كبيرة من طبقة لأخرى ، ومن فئة لأخرى داخل الطبقة نفسها .

لكن وبرغم عدم عدالة التوزيع ، فان النمو العام للاقتصاد اللبناني قد عكس نفسه حتى على الفرد اللبناني العادي الذي حصل على مستوى معيشي متميز نسبيا قياسا بالاوضاع المعيشية للمواطن العادي في الدول المجاورة .

ان ما تقدم يؤكد بما لا يترك مجالا للشك النمو الكبير الذي شهده الاقتصاد اللبناني والبحبوحة النسبية التي يعيشها المواطن اللبناني والتي هي ليست وليدة التركيب الطائفي بقدر ما هي وليدة الدور الانتاجي الذي اضطلع به لبنان . وبكلمة أخرى فقد لعب لبنان دورا اقتصاديا منافذه الرئيسية كانت المنطقة العربية بالدرجة الاساسية باعتبار أن تزايد الناتج القومي مرتبط بتزايد دور القطاع الانتاجي وقطاع الخدمات في لبنان واذا كان لبنان يعتمد على الغرب في وارداته فان المنطقة العربية هي السوق الرئيسية لصادراته والتي هي العامل الرئيسي وراء تزايد الناتج القومي وبالتالي الدخل الفردي ، تلك الزيادة التي لم يكن ممكنا تحقيقها لولا المجالات التي فتحت أمامه .

ان توسع الاقتصاد اللبناني ونموه قد ساهم في تبديل تركيب القوى العاملة في الاقتصاد اللبناني ، وجعل من الحاجة لليد العاملة الرخيصة حاجة متزايدة لتلبية متطلبات كافة فروع الاقتصاد اللبناني ، وهنالك قطاعات بأكملها كقطاع البناء تعتمد اعتمادا كليا على اليد العاملة غير اللبنانية ، وقطاعات أخرى كقطاع الزراعة تعتمد بدرجة كبيرة على الفلسطينيين والسوريين وبالتحديد في الساحل اللبناني . اضافة الى تزايد أعداد العمال غير اللبنانيين في مجالات عدة وبنسب وأعداد تختلف من قطاع لآخر .

ان من تسميهم القوى الانعزالية بالغربـاء هم عنصر اساسي لاستمرار الاقتصاد اللبناني في التقدم والتوسع في وتيرة نموه الحالية ، ويكفي للتدليل على ذلك ان نتذكر توقف قطاع البناء وبشكل شبـه كامل بعد حوادث ايـار ١٩٧٣ ورحيل العمـال السوريين .

ان لبنان في اعتماده على العمال غير اللبنانيين يعيد بطريقة أخرى تجارب دول أخرى في هذا المجال وبالذات معظم الدول الاوروبية الغربية التي قيل في وصف اعتمادها على العمال الاجانب « لقد اعتمدت عليهم لدرجة ان رحيلهم سيكون مصيبة فيما لو حدث » و « العمال الاجانب هبة يقدمها الفقراء الى الاغنياء » * .

ان من تسميهم القوى الانعزاليـة (بالغرباء) هم الركـن الذي يقع على عـاتقه الاقتصاد اللبنـاني ، ومقابل اقل الاجـور التي تدفع لهـم يقومون بأكثر الاعمـال شقاء وحاجة للجهد ، ذلك الجهد الذي يتحول الى زيادة في الناتج القومي والى فائض قيمة يصب في جيوب البرجوازية اللبنانية . وبالنهابة فان أي حديث عن الغرباء سوف يعني بالضرورة حديثا عن ازدهـار لبنان واستمرار تقـدم واستمرار حصول الفرد اللبناني على معدل الدخل المرتفع الذي يزيد حتى عن دخـل الفرد في بعض الدول البترولية .

ان نمو الوضع الاقتصادي في لبنان قد ساهم في زيادة فرص العمل المتاحـة أمام اللبنانيين ، ولم يعد للوظيفة الرسمية ذلك البريق الذي كان لها في الماضي . وان زيادة الفرص قد حررت الفرد اللبناني ، نسبيا ، من شبكة العلاقات والتوازنات الطائفية التي طالما تحكمت في المواطن اللبناني . واذا كانت الدولة الطائفية قد اعتبرت الانتماء الطائفي اساس التعيين ، فان الكفاءة الشخصية بشكل عام هي مفتاح الوظيفة فـي القطاع الخاص ، لأن المؤسسة الخاصة تسعى للربح وهذا لا يؤمنه لها الا الموظف الكفؤ . وقد ترتب على هذا الوضع مزيد من تحرر الجيل الجديد من ربقـة العلاقات الطائفية ، ومن سيطرة الزعامات الطائفية التي كانت تتحكم بمستقبل الكثيرين .

ان خير مثل على المنافسة القائمة بين وظائف القطاع الخاص ووظائف الدولـة استقالة عدد كبير من خبراء مكتب الاحصاء اللبناني نتيجة لحصولهم على وظائف في القطاع الخاص بمرتبات هي ضعف ما تقدمه لهم وظيفتهم الرسمية .

دولة طائفية أم دولة برجوازية ؟

ان النظام الطائفي قد عجز عن بناء حتى الدولة البرجوازية القادرة على توفير بعض الخدمات التي يتطلبهـا النمو الذي طرأ علـى القطاع الاقتصادي وبعض المتطلبات البسيطة التي يحتاجها المواطن . فهنالك سيل الازمات المستمر ، وآخرها كان فضيحة المرافىء في بيروت وطرابلس والتي كانت قد هددت التجارة اللبنانية بالشلل وغيرها من الفضائح التي تعكس التناقض بين التصورات المختلفة لدور الدولة ، اهي (مزرعة) فردية تؤمن مصالح فلان أو فلان من الزعماء ، أم هي دولة لها وظيفة محددة ترتبط باطار طبقي محدد لا بد وان تواكب تطوره وتتطور معه . ولو أخذنا مثلا حادثة مرفأ بيروت لاتضح بما لا يقبل الشك تناقض المصالح بين أهل النظام انفسهم ، فالرشاوى التي تدفع والطريقة المتخلفة التي تسير بها أمور المرفأ تحقق مصالح بعض المتنفذين

---

* لمزيد من الاطلاع والتفاصيل راجع (**بحوث في الاقتصاد الاسرائيلي**) الصادر عن مركز الابحاث ، دور العمال العرب في الاقتصاد الاسرائيلي ص ٧٣ — ٩٦ .

والذين توصلوا الى وظائفهم تلك بحكم التركيبة الطائفية . وفي الوقت نفسه فقد لحق الضرر بمصالح طبقة بأكملها هي طبقة التجار التي تخسر يوميا من جراء الطريقة التي تسير بها امور المرفأ . وباعتبار ان التاريخ لا يسير الى الوراء فان الامور في النهاية سوف تحسم لصالح مطالب طبقة التجار حتى وان كانت على حساب متنفذي المرفأ . والا لما قام واحد من أهل النظام بفضح ما يجري في مرفأ بيروت وهو عندما قال ما قاله فانما كان يعبر عن مصلحة طبقية لقطاع اوسع من قطاع المستفيدين حاليا من أوضاع المرفأ ، والذي هو ليس سوى نموذج لما يجري في مؤسسات ومرافق الدولة .

ان المثل الاكثر وضوحا على التناقض بين ما هو قائم (الدولة الطائفية) وبين حقائق الوضع الاجتماعي — الاقتصادي اللبناني هو فيما تردد منذ فترة غير قصيرة عن النقص في قوى الأمن الداخلي ، والاعتبارات الطائفية التي كانت وراء عدم استكمال هذا النقص . ففي الوقت الذي فتحت به احدى دورات قوى الامن ، اضطرت الدولة لأن تأخذ من المتقدمين عددا اقل من العدد المطلوب ، اذ تقدم من احدى الطوائف عدد اقل مما تعطيه القاعدة الطائفية للوظيفة . في الوقت الذي تقدم به من الطوائف الاخرى عدد أكبر مما تعطيه نفس القاعدة الطائفية وبالقياس لما تقدم من الطائفة الاولى ، وقد كانت النتيجة الرضوخ للاعتبارات الطائفية وعين من المتقدمين عدد أقل من احتياجات النظـام .

وفي ضوء الحقيقة البديهية التي تقول بأن النظام الطائفي في النهاية ما هو الا نظام طبقي ، لا بد من طرح السؤال التالي ، هل يمكن للنظام الطبقي ان يخضع للاعتبارات الطائفية لدرجة انه سيعتمد على جهاز قمع عدده أقل من العدد المطلوب . وهل الطائفية هي التي ستحمي النظام الطبقي أم جهاز القمع الذي سيكون تحت يد الطبقة الحاكمة . ان الجواب المنطقي هو أن الطبقة الحاكمة التي أرادت الطائفية وسيلة لحماية مصالحها لا يمكن لها الا ان تتخلى تدريجيا عن الطائفية عندما تصبح قيدا على حركتها وعلى مصالحها باعتبار ان الطائفية ليست هدفا في حد ذاتها بالنسبة للكثيرين من اهل النظام اللبناني والذين بدأوا يعون حجم وطبيعة التطورات التي طرأت على الوضع الاجتماعي — الاقتصادي في لبنان .

هذا الوضع عبر عن نفسه بوجود تيارين في الطبقة الحاكمة ، يعبران عن التعارض القائم بين التيار الانعزالي الطائفي والذي ما زال يعيش مفاهيم النصف الاول من هذا القرن والذي يعتبر الطائفية قضية بحد ذاتها ولا مصلحة له الا من خلال استمرار هذه الظاهرة المرضية حيث يستمد منها نفوذه السياسي ومصالحه ولا يستطيع ان يستمر في تكتيل جماهيره من حوله الا من خلال اللعبة الطائفية ، ولا تقتصر هـذه النزعة على الزعامات المارونية بل انها تتسع لتشمل زعامات سياسية لطوائف أخرى . وان كانت المسألة بالنسبة لها أقل حدة .

وعلى الجانب الاخر فقد بدأ بالبروز ومن داخل مؤسسات النظام نفسه تيار اخر اكثر انفتاحا على حقائق العصر وعلى حقائق الوضع اللبناني ويحاول ان يطور النظام اللبناني ليتناسب والحقائق الجديدة ، تطوير يهدف الحفاظ على الاسس الطبقية للنظام اللبناني . مع محاولة تبديل أسلوب العمل الذي تسير عليه الدولة والوظيفة التي تؤديها . ويمكن لنا على سبيل المثال ان نلحظ تباين المواقف بين ريمون اده من ناحية وبيار الجميل من ناحية أخرى اضافـة الى أطروحات هنري اده وغيره مـن الاسماء التي لمعت في عهد حكومة الشباب والقصة الشهيرة لمرسوم ١٩٤٣ وقضية الدواء وغيرها من المسائل التي انتهت باستقالة وزراء تلك الحكومة تباعا .

ان المشكلة الطائفية التي تفجرت في لبنان والتي ما زالت تحرق لبنان وتنتقل تباعا من منطقة لأخرى والاطروحات من طراز قبرصة لبنان وغيرها هي قضيـة القضايا التي لا بد من ايجاد حلول لها . وقد آن الاوان للوقوف امام المشكلة الطائفية وتصفيتها من الحياة السياسية اللبنانية . وبرغم عمق الجذور التاريخية لهذه المشكلـة فبلا شك فان تقنين القضية الطائفية هو الذي أعطاها صفة الاستمرارية والحياة . وبالمقدار الذي تشكل فيه مسألة الطائفية خطرا على الجماهير الشعبية فانها تشكـل خطرا موازيا على النمو والتقدم الذي طرأ على الاقتصاد اللبناني ، والمستفيدين الاول من هذا التقدم هم البرجوازية اللبنانية الصاعدة . واذا كانت القوى التقدمية قد قالت كلمتها في هذا الخصوص ، فان البرجوازية المسيحية بالدرجة الاولى مطالبة بأن تقول كلمتها ايضا . وعندها يستوي الصراع ويأخذ مداه الحقيقي ، ولكن على الاقل يكون المجتمع اللبناني ككل قد خطا خطوة كبيرة الى الامام وهي بالتأكيد لصالح البرجوازية اللبنانية وفي راسها البرجوازية المسيحية . ومهما تمت من عمليات مراوغة ، فلا أحد يستطيع ان يأخذ من العملة وجهها الواحد . و « الغرباء » الذين يذبحون في الشارع هم انفسهم الذين يعطون من عرقهم فائض القيمة وبالتالي الرفاه للمجتمع اللبناني . وعندما يذبح « الغرباء » ويطردون في هـذا الوقت نفسه يذبح الازدهار اللبناني ورفـاه المواطن اللبناني .

مليون عصفور

ايتـل عدنان

يتصل بي موريس بالهاتف . انه يريد اخراج فيلم ، ويطلب مني السيناريو . يصر موريس على أن يكون الموضوع حول عامل أقنعه موريس ورفاقه خلال احدى رحلات الصيد بالمجيء الى لبنان .

وليضعني في الجو ، عرض موريس في اليوم التالي علي فيلما ملونا مقيـــاس (٨ سوبر) قام بتصويره مع رفاقه في البادية السورية وجنوب شرق تركيا .

يبتدىء العرض . أرى مساحات مفتوحة على الهواء والغبار . هناك عمود من الغبار يزوبع ، وسماوات رحبة مخططة بالاحمر الناري . أرى «جيب» الفولكسواغن يسوقها بيار ، والى جانبه موريس وطوني وفؤاد . بنادق الصيد واضحة للعيان .

ننتقل الى مشهد حيث العصافير تعبر السماء كتشكيلات الطائرات . انها وقائع حرب ١٩٤٤ ، أو افلام الحروب التي صورتها . التربة كما في ليبيـــا ، والصيادون يشبهون جنود « افريكا كورب » السمر .

هناك مشاهد جميلة جدا : مستنقع تعبره الجيب وتنثر حولها الماء . للوحل لون الصلصال المفرح . العصافير تعود ولكن الدنيـــا تعتم . المغيب رائع باحتدامه . الصيادون يصوبون بنادقهم باتجاه السماء كأنها قواعـــد لاطلاق الصواريخ . انهم يضحكون ليكشفوا عن اسنانهم وعافيتهم ولذتهم .

يعلق موريس بحماسة . على الارض تجلس زوجته ، وزوجة اخيه التي كانت زوجته سابقا ، وزوجة أخيه الآخر ، وصديقة لي ، وانا . جمهور كله من النســـاء يحتشد في شقة من أفخم منازل بيروت . طوني هو ابن عم صديقتي ، ويتصرف تجاه كل شيء بشكل مغيظ . كل ما يهمه هو ان « الرجال » رفضوا مرافقته في رحلـــة الصيد هذه . انهم لم يريدوا ازعاج انفسهم .

فجأة نسمع لحنا لـ « بنك فلويد » . موسيقى متقطعة . على ايقاع هذه الموسيقى المتقطعة تتساقط العصافير . المونتاج تام . طوني يطلق النـــار . يسقط عصفور . بيار يطلق النار . يسقط عصفور . موريس يطلق النار . يسقط عصفور . فؤاد يطلق النار . يسقط عصفور . كل الوجوه طلقة الا وجه فؤاد شقيق موريس . فؤاد هو القاتل الكامل ، يتعذب لأنه لا يقتل كفاية . الطلقة في جسد العصفور اصطدمت بشيء هش . لم يكن اصطدامها صلدا أو ناجحا .

فؤاد يفضل الصيد على التقبيل . انه يمقت عبارة ممارسة الحب ، لأنه كما يقول ، لا يمارس شيئا . انه يفضل مجموعة جيب ــ سرعة ــ بادية ــ عصفور ــ طلقة على مجموعة فتاة ــ في ــ سرير ــ طز . حتى « البارتوز » يضجرونه لأنه ليس من « السبور » كفاية أن تنغلق مع مجموعة وتصبح مخبولا بفضل الحشيش .

موريس - بيـــر - طوني - يبدون بعض الاهتمام بكل شيء . ولكن لم يجـــد احـــد منهم بعد المرأة التي يمكن ان تعوضهم عن سياراتهم او تمنحهم نفس الشعور بالقوة . هناك سباق اكثر اهمية من ليلة حب . والذهاب الى الصيد افضل من المشاركـــة في السباق . اولا : هذا صحي اكثر ، وثقافي اكثر . نخرج من لبنان ، ونبتدىء بالتعرف علـــى البلد الشقيق أي سوريـــة . السوريون ليسوا اغنيـــاء مثلنـــا : وغـــير مجبزين مثلنا ، وليس لديهم اللياقة اللازمة ... ليصطادوا جيدا . في السابـــق كان للاوروبيين نفس ملامح الناس الذين نشاهدهم الان على الشاشة ، والذين كـــانوا يذهبون للصيد في سورية والعراق ، او اي مكان اخـــر ... امـــا الان فاللبنانيـــون المسيحيون « المودرن » هم الذيـــن يذهبون الى حيث يريدون بعتادهـــم العسكري السياحي ، ترافقهم الكاميرا لتصوير بطولاتهم وانفسهم : لحم الساق ، الاحذيـــة ، الشورت ، ازرار وسحابات الشورت ، القمصان مفتوحة ، والشعر اسود ... ثـــم ان هؤلاء الاربعة هم رجال اعفاء جدا . انهم لا ينامون ابدا .. سوية .

ينتهي الفيلم بمشهد لسيارات محشوة بريش عصافير مخردقة ومرتخية . وفي مثل هذا الصيد تحل « الفولكسواغن » محل الكلاب لانها تسير على جميع الطرقـــات . ويشرح موريس بكثير من الرقة ان فيلمه تعطل هنا . الجميع يطمئنه ، كل شيء علـــى ما يرام : بل ان ذلك تحفة فنية قصيرة . كم تدل تشكيلات العصافير — الطائرات على صدق الطبيعة . كل شيء متماسك .

قال موريس : لم تشاهدوا شيئا . لا استطيع ان اعبر لكم عن الباديـــة:يجب ان تذهبوا لتروا ، اما انتن النساء فلـــن تشاهدنهـــا ابدا . ان علينـــا ان نقطع طرقـــا والاستعانة بخارطة وبوصلة لرؤية البادية فعلا . انتن لن تشاهدنها ابدا .

طبعا ، نحن النساء كنا سعيدات بهذا المقطع من السينما الملونة وغـــير الكاملة . لقد منحت هؤلاء الرجال الذين نراهم يوميا اهمية اضافية . في حلقة ضيقة جدا ازداد سحر هؤلاء الذكور العاديين . كل واحد يلعب دوره جيدا في هذه المسرحية .

قالت احدانا : المرة القادمة تأخذنا معك . اما الباقون فلم يكلفوا انفسهم بالرد .

بعد بضعة ايام يتصل بي موريس . لدى فكرة . يجب ان اراك . اريد ان اخـــرج فيلما معك . ولكنه سيكون فيلمي . اريد ان اصنعه معك .

في هذه القاعة من منزل زوجة موريس الواســـع نلتقي لاول مرة حـــول موضوع الفيلم .

— ساخبرك بسرعة عما اريد . انت تعرفين اهمية السينما عنـــدي . ولكنني لا استطيع ترك أعمالي للتفرغ للسينما . حتى لو احتجت لعشر سنوات فانني سأعـــد فيلما تجاريا . فيلما حقيقيا عن جد . اريد ان ابرهن لنفسي انني استطيع ذلك .

انت تعرفين ايضا ان لدى وساوس ، وتعلمين كم احب سورية . ثم انني اعرفها . لا اسير على الطرقات المعروفة ، بل امضي في كل مكان .

انطلقي من ضيعة سورية . هذا ما يجعلني افكر في ان آخذك الى هنالك .

— انني اعرف القرى السورية . غالبا ما صيفت فيها وانا طفلة .

— انها قرية نائية . القرى هناك ذات اسطحة كقوالب السكـــر ، مخروطـــة ، مكعبة . كل هذا من تراب الارض المحروثة . كل هذا من ذهب تحت الشمس . هؤلاء الناس بسطاء جدا وكرماء جدا . لم يفسد داخلهم بعد . ابدا .

ــ كيف ذلك ؛ اليس لديهم الراديو ؟

ــ نعم . ولكن حين دخلنا بيوتهم ، كنا أول الاوربيين الذين يرونهم في حياتهم . عفوا اريد ان اقول . . اللبنانيين .

ــ نعم . افهم ذلك . أول اناس « مودرن » .

ــ هذا ما اقصد . في السابق كان الاجانب مثلنا . الان نحن نمثل كل ما هو « مودرن » . انهم ينظرون الى عتادنا وبنادقنا . . .

ــ تقصد رشاشاتكم .

ــ تماما . ان قدرة النار في بنادقنا امر لا يمكن تصوره بالنسبة لهم .

ــ هل قتلتم كثيرا من العصافير ؟

ــ كلا . انهم في سورية اكثر من لبنان . ومع ذلك فان سورية فقدت كثافة عصافيرها . على كل حال ان رحلتنا القادمة ستكون الى تركيا . كل شيء هنالك بكر للصيادين . وكل ما نطلبه موجود .

ــ حسنا ؛ حين نصل الى هذه القرية . ماذا ستفعل بخصوص الفيلم .

ــ اليك . انهم مندهشون . انهم معجبون بنا . أقيم صداقات معهم . ثم اعود اكثر من مرة الى هذه القرية . في كل مرة يتعرفون علينا . وفي كل مرة يتغيرون . ولا يعودون كما كانوا . لقد رأونا .

ــ وبعد ذلك .

ــ اعود بواحد منهم او اثنين الى بيروت . اريد ان ادعوهم .

ــ هل تأتي بهم ام يأتون وحدهم ؟

ــ لا اعرف بعد . ولكن لا اهمية لذلك . اتعرفين . ان سوريا شابا في بيروت كما نحن في باريس .

ــ تعني سوريا من هذه القرى ؟

ــ طبعا !

ــ افهم . انت تريد ان تخرج فيلما كأفلام العمال الجزائريين في باريس ؟

ــ تماما ، ولكنني غير متأكد . هنالك اولا جمال البادية التي اريد ان اصفها . انت لا تعرفين روعة ذلك .

ــ ولكن الفيلم الجمالي جدا لا ينجح .

ــ جمالي جدا جدا . كلا . بما انني اريد ان اعد فيلما ، ولان المسائل المادية لا تشكل عقبة ، فانني اريد ان اعده لاعبر عن وجهة نظر الصيادين الموجودين هنالك والفخورين بتفوقهم . انهم يحبون هذه القرية انها جميلة وفطرية .

ــ انا يهمني السوري في بيروت .

ــ طبعا . على كل لن يكون هنالك سوري واحد ، بل عدة . وهكذا ستكون هناك نهايات مختلفة .

ــ اذن ، ستحاول ان تجد لي ورشتين او ثلاثا ، تعرف متعهديها وسأذهب كل يوم

قليلا ، لاقترب اكثر من حياة العمال السوريين في لبنان . ان عددهـم هو في حـدود المائتي الف .

ــ هؤلاء متكيفون مع حياه بيروت ، ولا شيء يدهشهم .

ــ ذلك يحتاج الى دراسة . على كل حال انا بحاجة للاقتراب منهـم اكثر ، لارى مشاكلهم الخاصة ، ومحيطهم .

ــ كلا . كلا . انت لا تفهمين . انت تقومين بكتابة النص وانا اعد الفيلم .

ــ ولكنني لا استطيع كتابة النص من الهواء .

ــ بما انني اصحبك الى سورية .

ــ هنا المهم .

ــ هذه وجهة نظرك وليست وجهة نظري .

ــ هذا الفيلم يجب ان يعبر عن امر ما . لهؤلاء النـاس مشاكلهـم ، وحياتهـم الخاصة ، وربما لديهم امور مهمة جدا يقولونها .

ــ دعيني اتصرف . فكرت ان استدعي من باريس صديقي جان بيار الذي يعـرف لبنان ، والذي سبق ان عمل في السينما .

ــ تعامل مع مخرج من بيروت ، من بين الشباب الذين تخصصوا في الخارج .

ــ انهم ، اما ان يسرقوا فكرتي ، او ان يفرضوا علي ارادتهم . ان ما اريـده هو ان يساعدني احد على تنفيذ مشروعي . هذا التناقض ...

ــ في هذه الحال استدع اذن جان بيار .

اشتغل جان بيار في الحقل التلفزيوني وفي التصوير . انه ضائـع نوعـا ما تجاه عصبية موريس ، ولقد وافق على رأيي انه من الصعب صنع فيلم جيد من سمـاوات البادية الحمر وحدها ، خاصة وان موريس يريد ان يعرض فيلمه في المهرجانات وفي الصالات التجارية . يقترح جان بيار ان نختـار من بيروت نفسهـا عاملين سوريين مخضرمين في عملهما ، وان ينتهي الفيلم بتأقلم احدهمـا مع مجتمـع اللذة في شارع الحمراء (بما في ذلك الفليبرز) ، بينما تكون نهاية الثاني تعيسة . قلت انه يغتال رب عمله . قلب جان بيار شفته وحرد موريس . قال : لقد وصلت الى النهاية ، بينمـا اريد انا ان اظهر السعادة في القرى السورية ، حيث الحكمة والتكيف مـع فصـول الطبيعة .

قال جان بيار :

ــ الربيع السوري رائع . انني اعرفه .

قلت :

ــ اسمع يا موريس ، اوضح فكرتك ، ثم نعمل سوية . وفي هذا الوقت سأذهب في جولة على الورشات . انه أمر يعنيني في جميع الاحوال . وكنت انوي القيام به . أما الان فقد اصبح لدي مبرر لذلك .

*

لا بد من القول ان في هذا المركز الذي يستقطب جميع الدعـارات اعني المدينة ، هنالك الكثير من المال وورشات لانهائيه . امتزج الاسمنت مع الارض ، وشيئا فشيئا حتى معظم الاشجار . المدينة تبدو من كل نافذه مثل لعبة ضخمة هائلة من المكعبات بالوانها التي تلتهمها الشمس . يجب ان نستيقظ باكرا جدا حتى نرى المشهد ينجلي بالنور الصاعد من وراء جبل صنين : آنذاك تشكل كل هذه الاحجام بالوانها الشاحبة الرقيقه التي لا يتدخل في ايقاعها اي شكل خارجي ، شجرة كان او فضاء ، تشكل لعبة عملاقه من الابنيه ، تمنحني في كل مرة شعورا بالرهبة قريبا من الصوفية . وشبيها بما احسست به مرة عند المغيب في قرية « تاوس » احدى قرى الهنود الحمر في اميركا .

مع ذلك بعد ساعة نهبط على هذه المدينة قتامة شريرة ، وتتضح التناقضات في هذه المدينه التي ليست بصناعية ولا تجارية . بيوت فخمة بالقرب من اكواخ قذرة ، وبيوت متعددة تنبت كاقفاص من الاسمنت وتركب بعضها بصبر .

في نفس الشارع حيث اسكن ورشات كبيرة لا تنتهي الواحدة منها بسنتين . هناك ورشات اخرى في الحي الذي تقطنه اغلبية مسيحية في هذه المدينة ، حيث ما تـزال غريزة الغيتو نطبع الشرق الاوسط بطابعها القوي . يمكننا القول ان بيروت يفصلها خط من الشمال الى الجنوب ، الى الغرب الاحياء الاسلامية ، والى الشرق الاحياء المسيحية . وهنا وهنالك ، خاصة على حافة البحر ارض حيادية مخصصة للسياحة والدعارة .

اثرثر في الورشات مع العمال السوريين وحيث ارسلني موريس . انهم شباب ، عمال يدويون ، عمال اسمنت ، معظمهم من الموسميين . كما في كل الاماكن ، انهم يشكلون يدا عاملة رخيصة بالنسبة للبلد ، وان كانت الاجور التي تدفع لها تعتبر ممتازة بالنسبة لما تتقاضاه في بلدها . المتعهد لبناني ومتوحش . انه يخاطبهم ، وكانهم اقل من بشر ، او دواب لا تمشي على اربع قوائم بل على اثنتين نظرا لضيق السلالم . أما المتعهد فغاية في التأنق ، ولا يتخلى عن عقدة الرقبة ابدا . يصل في سيارة فخمة وجميلة جدا ، وفاحشة الضخامة من الخلف . انها سيارة بويك او شفروليه . العمال صغار القامة ، سريعو الحركة ، عضلاتهم مفتولة ، وكلهم حياء وكتمان وصمت .

أريدهم ان يتكلموا . يرفضون . كل شيء في نظرهم على ما يرام . عند الظهر يأكلون على الارض ، والاسمنت يختلط دائما بطعامهم . في المساء ينامون في الطابق حيث يعملون . على الارض . لا يوجد مرحاض ابدا في هذه الورشات . ابدا . كل شيء يتم على الارض ايضا . وهكذا ليس هناك ورشة بدون روائح قذرة . عندما تمطر ، صيفا أو شتاء ، تبقى الامور على حالها . يبقون مسمرين في أماكنهم في الهواء والرطوبة ، بانتظار النهاية . بعد تركيب المصعد مباشرة يعطل ، ويبقى مفتاحه مع المتعهدين او الملاك أو الزبائن . حين يتوجب رفع الحجرة الى الطابق العاشر ، يجب رفعها على الاقدام . هكذا .

أحدثهم عن قريتهم . يقولون انها بعيدة ، هنالك . بيروت ، هذا عظيم . كيف كانت ردة فعلهم حيال هذه المدينة . يقولون : الله يحميها . هل هم مشتاقون الى أسرهم ؟ يأتي الجواب ، لا ادري ، او كلا . ارسل لهم مالا . هل تحبون اللبنانيين ؟ طبعا ، هذا جوابهم . انهم اخواننا ، ولكنهم أكثر تطورا منا . لديهم سيارات كبيرة ، وبيوت جميلة .

عندما أقول لموريس انه لا يمكن ان نستنتج من هذا كله الا الدوائر الزرق حول العيون ، والظهر المحدودب ، والحزن ، وصوت آلات طحن الاسمنت الجهنمي ،

والشمس اللافحة . والمطر النقب . كل ذلك يقال بسرعة . بضعة مشاهد كبيرة ، وينتهي الامر . عندما اقول ذلك لموريس يخيب أمله . حتما أن فيلمه يدور في الفراغ .

*

في ١٣ نيسان ١٩٧٥ ، اشتعل الحقد . مليارات من سنوات الكبت والحرمان عادت الى التعبير عن نفسها . ظهر الاحد مرت سيارة باص مليئة بالفلسطينيين العائدين من مخيمهم أمام كنيسة كان يقدس فيها رئيس حزب الكتائب المسيحي اللبناني . كمين ام مصادفة ؟ لا أحد يعلم . مهما يكن فان ميليشيا الحزب أوقفت الباص ، وانزلت ركابه ، ورمتهم بالرصاص واحدا بعد الآخر .

الخبر يخترق المدينة كصدمة كهربائية . والصمت يغطي بعد الظهر بأكمله . وعند هبوط الليل كانت الانفجارات تهز المدينة . زخات الرشاشات تسمع على فترات زمنية تتضاءل تدريجا . الفلسطينيون يثأرون لموتاهم الثلاثين . الكتائبيون يردون على النار .

كل نزاعات العالم العربي بممثليها هنا يشتركون في المجزرة . كل البائسين أصيبوا بالرعب . هذا حصاد العشب الطري . كل ثانية يسقط جسد .

صباح الاثنين تجمع الناس حول سيارة مرسيدس . أصيب السائق بعدة طلقات في راسه . دماغه تناثر والتصق على جدران السيارة من الداخل . مادة تلتصق بمادة .

أطراف عدة تشترك في هذا الارهاب العام . ولكن يبقى حزب الكتائب واليمينيون المسيحيون من جهة ، والثوار الفلسطينيون المتمردون من جهــة اخرى ابرز أطراف النزاع .

الحرب الاهلية تستمر . نحن في نيسان عاطر وحار تتخلله النضارة . المدفع يقصف . الميليشيات المحلية تملك اسلحة أكثر من الجيش النظامي .

السماء مخططة هذا المساء ببروق هائلة تشقتها من جهة لاخرى . الطرق التي أراها من الطابق التاسع خاوية كانها لوحة لفنان ساذج . صوت المؤذن في هذا الحي المسيحي من الاشرفية يبدو نشازا ، مع اننا نعلــم ان الصوت ليس حقيقيا بل هو اسطوانة . الشرق الاوسط العربي يعيش مصيره . ليس هنـــاك صوت عادي أو زقاقي . هناك قوة مطلقة للارهاب . الطلقات الرصاصية تفرقع وتترك صدى في مدرج أسمه بيروت . الصدى يرجع صوت المدفع فوق كل مساحة البحر . العاصفة تختلط بايقاعات الحرب وتطهر بيروت . لم تعد بيروت مدينة تجار بل مدينة قتلة هائمين فوق خلفية فضائية .

العنف يتصاعد من كل متر مربع من الارض ، وكأنه يتصاعد من غابة معدنية . العقل البشري في هذه الايام يبدو كجسد عازل أو كقوة عاجزة . المدينة حقل كهربائي مغناطيسي . كل يريد ان يحتك به . الخوف من الالم الجسدي يمنعني من الاشتراك في هذه المعركة . ثمة خطف يومي وتعذيب . النساء يحتجبن في منازلهن أكثر من اي وقت مضى . هذه الحاجة الى العنف أدركتها يوما أمام شريط كهربائي اقتلع من « بريز » : كانت بقايا من الاشرطة النحاسية البيضاء عالقة في الثقبين ، وكنت أسمعها تقريبا تناديني . وكنت أريد بكل قواي أن ألمسها ، وأعيد جمعها بيدي ليعبر جسدي هذا الصعق الكهربائي ، ولادرك معنى الاحتراق . لم أقاوم هذه الرغبة الا بصعوبة بالغة .

بلد بأكمله يرضخ لنداء العنف هذا . لذة القتل تتبرعم برفقة كــل التبريرات التي اعطيت لها . عند الحواجز فتيان لم يعرفوا بعد كيف ينامون بلياقة مع فتاة ، يعرضون

قمصانهم المغطاة بالدماء او يتنزهون في سيارات لم تغسل بعد من بقع الدم ، وبدون خجل .

مضى الاسبوع في عد القتلى . يبدو ان وقف اطلاق النار تحقق . مساء هذا السبت: حرائق وتخريب . المرفأ يحترق . تخرج الى الشرفة وريشة مستودعات الكحول . منزلها يواجه السنة اللهب . المرفأ جزء من أسطورتها . انها تحاول من سطيحتها المحاذية للبحر أن تستصرخ رجال الاطفاء ، والمرفأ يستمر في الاحتراق حتى السابعة صباحا .

صباح هذا الاحد اخرج الى الشارع للمرة الاولى منذ سبعة أيام . عند الاشارة الحمراء تأتيني فتاة صغيرة بعينين زرقاوين تميلان الى الخضرة لتبيعني حجرا صغيرا ازرق على طريقة المتسولين . اطردها واندم . لقد منحت للحظة هذا الشيء الرخو الذي نسميه العالم نوعا من الحياة . يا لصبر الشمس .

*

علم فيتكونغ يرفرف فوق مدينة هوشي منه . تلك هي « مانشيت » الجريدة . نحن في الاول من أيار ، والانفجارات التي حصلت خلال الليل ، تدل على ان « الامور » ستنفجر من جديد . يتوقف السير للتو . وبفضل الاتصالات الهاتفية المتواصلة يتأكد لدينا بأن السجن ينغلق على كل منا . الفضاء ينغلق على كل منا . نعد الطلقات النارية من الشرفات والسطيحات ونتأمل في تنوعها وحدتها . ننصت الى الاذاعات الاجنبية طوال النهار لنعرف ماذا يجري هنا . . لا حكومة ولا أخبار .

يتقاتلون تحت ضوء القمر . في الليل تتضح الاصوات . الصواريخ تنطلق من المسلخ على الدكوانة ، واخرى تسقط من المكلس على تل الزعتر ، وهو مخيم فلسطيني . المدفع يقصف . والموت يشخط الافق بخط مستقيم .

بين منتصف الليل والساعة الرابعة يندر وجود السيارات . انهـا فقط سيارات ميليشيا الكتائب . شقتي مقززة ، وفي فضاء مكشوف كمرصد . منهـا أرى الجبال مشتعلة . أنوارها قريبة جدا من النجوم . الانفجارات متقطعـة وفظة . ينسحق « الهاون » ككومة من البطيخ الاصفر الفاسد . والبيوت تتساقط في صوت رخو . الصواريخ تجلد البيوت ، والديناميت ينفجر كمين صائبة ، ثم تأتي زخات الرشاشات كرسائل رمزية لارادة منتصرة . والمدينة تتخفى أكثر فأكثر تحت الرعب محتفلة بهذه الارادة التي هي ارادة الموت .

انها اكثر قفرا من حالة منع التجول . لم نعد نرى القناصـة المختبئين ، وكأن الرصاص ينطلق لوحده . هناك اكثر من مائتي باخرة في المرفأ تنتظر تفريغ حمولتها ، ولانها جميعا مشعلة ، فان بيروت في الليل تبدو وكأنها انتقلت من مكانها وانزلقت فوق البحر . تعطلت حركة الزمن .

الحكومة العسكرية التي شكلت بسرعة تذيع « الاخبار » . ليست نشرات حربية بل نشرات سادية . كل ساعة يعلن الراديو عن فقء عيون ، عن خصي اعضاء . . ، عن وجود أكياس نايلون وبداخلها اجساد مقطعة ومرمية في الساحات العامة . انهم قتلى سكاكين المطابخ وضحايا التعذيب في المقابر .

موريس و« اصدقاؤه » عندي في المنزل . طوني يساعد الكتائب ماليا لانهم يدافعون كما يقول عن اليمين اللبناني ، وعن المصالح . بيار غير حزبي هو أيضا ، ولكنه يساند

الحزب . انه يشجعهم ، يواسيهم ، ويقوم بهمزة الوصل . له اصدقاء في كل مكان ، وينقل الاخبار عن الجهة المعادية .

قال بيار :

ــ معنويات الفلسطينيين منخفضة جدا في المخيمات . انهم ينامون في الملاجىء ، بالقرب من المجارير المفتوحة . لقد خسروا الف رجل .

قال فؤاد :

ــ هذا لا شيء أمام ما سيلاقونه . نحن فقدنا مائة وخمسين رجلا فقط . اما الباقي فهم مدنيون سقطوا برصاص طائش . عندما تتم الهدنة سنركز المدافع على أماكن اخرى من التل ، وسيلاقون الموت من كل جانب .

انهم يأكلون ، ويشربون ، ويذهبون . يصعد ناطور البناية . انه بيد واحدة . لقد اضاع الثانية في حادث عمل . لكن هذا لم يمنعه من حمل الكلاشينكوف . انه تائه . « انهم يطلقون النار من البناية المجاورة ! » . واجيب : « لا » . ليس فيها سوى عمال سوريين . ولقد اختبأوا منذ بضعة أيام .

اخرج الى الشرفة . ارى في الليل العمال السوريين في صف منتظم ، والايدي مرفوعة ، دليل الاستسلام ، تحيط بهم الميليشيا ، ثم يساقون الى مركز التحقيق في الحزب . اتصل هاتفيا بصديقي وهو صاحب بنك يسكن في بناية مواجهة : انظر ماذا يجري لهؤلاء العمال . قل لرجال الميليشيا أن يدعوهم وشأنهم . انهم ابرياء . انهم يسمعون لك . ولكن رجل الاعمال هذا الذي يدين بكل ماله لعرب الخليج يكره العرب، ولا يريد المشاكل . ويختبىء في سريره .

قلت في سري : لو نرمي في سماء لبنان مليون عصفور لينفس الصيادون اللبنانيون فيهم عن غريزة القتل ، ويجنبونا هذه المجزرة . . .

• • •

قصة غامضة تفجر الاشتباكات من جديد . ثمــة ميليشيات مسيحية استضافت عراقيين . انها الجولة الثالثة ، وعلى ما يبدو أن الحلقة الجهنمية لن تغلق ابدا . من سطيحتي أرى الزوجين القاطنين تحت منزلي يمارسان الحب على الشرفة في منتصف بعد الظهر . يبدو ان الحوادث افقدتهما صوابهما ، وربما كانا يحاولان على طريقتهما الخاصة تجاوز قلقهما . اما انا فاني أرى الزمن ميتا . وليس هناك احد يملك صورة واضحة عن مجموع العمليات التي تجري هنا وهناك . اما المسجونون داخل منازلهم لا يستطيعون حتى بخيالهم أن يصلوا الى اقرب مناطق القتال اليهم . حتى الخيال نفسه يتوقف عند حواجز الشرطة .

عمودي الفقري شبه أعوج وتائه في الشمس كشجرة منهدة ومقطوعة . اقرأ بتركيز جريدة الصباح ذات الصفحات القليلة والتي تقدم يوميا عبر مقاطع صغيرة فظائع الامس . انها حلقات من الرعب تتوالى بسرعة خارقة . التنوع في الجريمة صاعق وواضح . عندما يسجل « العدو » الفلسطيني او اليسار انتصارا يجيء الرد مباشرا من جانب الكتائب : يطلقون الرصاص على الاحياء الاسلامية والمخيمات ، او يوقفون في الحي او في ورشات البناء بلا سبب عمالا سوريين ويذبحونهم ، ثم ينقلون في صناديق تضم عشرين أو ثلاثين منهم الى المشرحة . وحين يضربون احدهم ضربا مبرحا يلقون به على الرصيف ، لينتشل بسرعة حتى لا يقع اي وباء في الاحياء المسيحية التي يخف تعرضها للنار .

بدات تلوح بوادر التشفي والرعب . الاتصالات الهاتفية بين الاصدقاء أصبحت اقصر واقل . في الشوارع بدأ فتيان صغار من الميليشيا بالظهور . انهم يستخدمون الاطفال لانهم أرشق ولانهم يستطيعون التسلل تحت الدخان لالتقاط الاسلحة التي يخلفها العدو ، وهكذا يتعلمون حب الوطن ، وكيف يجب أن يموتوا .

المستشفيات مكتظة . كما مرت ساعة هدوء نغامر بزيارة أحد أنجرحى في المستشفى . المشوهون والمبتوره أعضاؤهم كثيرون جدا . الحالات اليائسة تنتظر في الممرات .

عيناي نبتتان تتفتحان نهارا وتغلقان ليلا . صرت اتمنى ان يخترق صاروخان دماغي لاموت سالمة ، فتلك هي المشكلة . كل شيء يصبح بدائيا . الخلايا تتذكر خفقان الشمس في الايام الاولى حيث كانت نائمة في بداياتها ، وعلى مستوى طبيعة سابقة للانسان . كل ما تعلمناه يطفو . الاجسام هي أيضا تنفجر كالحقد ، كليمونة معصورة ومشققة .

الراديو يعلن عن تاليف حكومة جديدة تحت الضغط الشعبي . ما زالت الناس لا تجرؤ على المغامرة والنزول الى الشارع . خفت الانفجارات . فترات الصمت صعبة ، لان انتظار الجولة المقبلة امر غير محتمل . الانفجارات نوع من التنفيس الضروري . من يعلم .

صباح هذا الاربعاء ، الناس تخرج الى الشوارع بتردد بعد ليل هادىء نسبيا . هناك رائحة عفونة دافئة تخنق . بيروت في ٢ تموز شمس محرقة في كل مكان . الضوء مزعج للذين بقوا في منازلهم . الزبالة أكوام يلعب فوقها اطفال هذه المدينة الخالية من الحدائق العامة والمنتزهات ، سواء أكانوا أطفالا أغنياء أم فقراء . كأن الزبالة حلت محل الناس في الشوارع . انها ملونة لزجة وذات حضور صاعق . الطقس حار مع شيء من الهواء . المحلات على الغالب مدمرة جزئيا او كليا . الزجاج المتناثر هو الشيء الوحيد الذي يبدو نظيفا في هذه العفونة ، ويلمع كالماء الساكن فوق اسفلت الطرقات.

في مقهى الاكسبرس بضعة اشخاص يتناقشون . يقول لي « أ.ن » ان العرب لا يعرفون للاسف الحقد على الاعداء . انهم لا يكرهون الا بعضهم . انهم ما زالوا في المستوى البدائي ، حيث الخصومات العائلية هي الاهم . وهم لا يهتمون الا بأنفسهم . هكذا يفسر وحشية هذه المذبحة الاهلية التي لم تصل الى مستوى الحرب .

اخترق المدينة شارعا شارعا . بيروت مدينة مخذولة . انها هي الخاسرة . انها تشبه كلبا وضع ذيله بين رجليه. كانت خالية البال حتى الجنون . لقد حشدت في احشائها كل ما في العالم من اعراف وتقاليد ، ونقائص وثار ، وجشع ورذيلة . وها هي تتقيأ ، ويطفو تقيؤها على كل فضائها . لقد نكست الوقاحة رايتها في الاحياء المسيحية المتطهرة والمتوحشة . ملامح الوجوه قاسية . الشباب في ثيابهم الكاكية ، هؤلاء الذين يحملون البندقية ، هؤلاء الذين يتجولون في « جيب بلا لوحة » ، هؤلاء الذين يتقنعون بأقنعة الجلادين ، هؤلاء الذين يتباهون بفولكلور ثوري لا يعرفون تناقضاته ، هؤلاء الذين يبصقون على كل سيارة تعبر ، هؤلاء الذين يبيعون جريدة الكتائب .. كل هذا العالم يحمل ملامح انتصار مزيف .

الاحياء الاسلامية أكثر فوضوية وتلونا . القمامة فيها اكثر وابرز ، ولكن التحدي في العيون اقل ، والحزن القدري اكبر . ليس هنالك رعب ، ولكن هناك تغضن حول الافواه . آثار الحواجز أبرز . كل شيء مرتجل ، ثمة فتور يترك اثره على الحركات والاشكال والبيئة .

الاحياء المسيحية اكثر أوربية ، وبالتالي أكثر فعالية في الجريمة . ان فيها شيئا من تقسوه التي تقربها من بعض احياء نيس ومرسيليا التي يقطنها الاوروبيون من اصل جزائري . ما تزال المناطق الاسلامية المغلقة تحتفظ بفوضى الشرق هذه التي تبقى آخر ما يبقى لهذه البلاد المتخلفة التي لا تملك ثقافة مميزة باستثناء قليل من التطور هو بالتحديد مزيج من القيم في حالة التفسخ . ولكي تلمس باليد بقايا انسانية هي كبوصلة تحدد الشمال المغناطيسي للجنس البشري ، عليك ان تبحث عن فرد قابع في ركن لم يجعله التعذيب متعصبا .

هل الخاسر اذن الا سكان هذه المدينة وبضعة حيوانات نسوا أن يطعموها ، وماتت هي ايضا في المسالخ تحت مطر الرصاص . انها المدينة ، هذا الكائن الكبير البالغ الجنون والثورة . الان خنقت ثورتها واغتصبت ومثل بها . انها تشبه الفتيات اللواتي اغتصبتهن الميليشيات بمعدل ثلاثين او اربعين فتاة في اليوم . لقد صرن مجنونات في المستشفيات . وبدلا من ان تعالجهن أسرهن المتوسطية لآخر نفس قامت باخفائهن عن العيون ... ولكن كيف نعالج الذاكرة ؟ المدينة ايضا اغتصبت مثلهن . ها تمر امامي سيارة مرسيدس عمومية محترقة بأكملها تجرها سيارة اخرى. طلاؤها الاسود مكلس كجلد بشري . على كل حال انها تشبه كائنا بشريا يسير على اربع ، حيوانا بعجلات اربع ينقل الى المستشفى او الى المشرحة . كل ما جرى مماثل .

يمكن الظن ان ثمة هدوءا نسبيا قد عاد . صباح هذا الخميس ٣ تموز اقرأ الجريدة. القسم اليومي الخاص بالحوادث الاخيرة ما يزال موجودا ، ربما للمرة الاخيرة . اقرأ هنا على ارواح كل الذين ماتوا مجهولي الهوية ، او الذين عرفت هوياتهم ولكنهم دفنوا بسرعة .. اقرأ هنا صلاة جنائزية كما نشرتها جريدة فرنسية يومية في بيروت :

- نعلن ان شوارع الاحياء الغربية أخليت من المسلحين الذيـــن كانوا يسيطرون عليها . شاب اسمه منير يوسف منصور اصيب برصاص قناص قابع على سطح احدى ابنية « الطيونة » . وتوفي متأثرا بجراحه في مستشفى « أوتيل ديو » . كما قتل بنفس الطريقة حمادة عزام في سن الفيل .

- التقطت ١٢ جثة من احياء « البور » و« الاشرفية » ومن ساحة الدباس .

- قناص قابع بالقرب من مستشفى القديس يوسف في الدورة كان يزرع الرعب في المنطقة . حاول رجال الشرطة اكتشاف مكانه لاعتقاله.

- قتل جان يوسف قشقان برصاص طائش في عين الرمانة ، وكذلك ياسين عبدالله باشا ، ويوسف فرسان ، احمد محمد حجازي ، علي حسن غندور ، محمود علي موسى .

- دمر صاروخ مؤسسة عبد القادر الزعتري .

- في الخامسة صباحا سقط صاروخان بالقرب من مخفر الشرطة بالطريق الجديدة. قتل ثلاثة رجال شرطة .

- عثر على جثة شاب في العشرين من عمره في حي صنين بالاشرفية. وجهه مشوه. البحث مستمر لمعرفة هوية الضحية .

- في المنطقة المعروفة باسم التويتي على طريق زحلة ــ ضهور الشوير عثر بالامس على جثث انطوان يعقوب مبارك (٣٨ عاما) ، جان الياس بو عاصي (٢٠ عاما) من مواليد الحدث . قتلوا في سيارة مبارك وهي مرسيدس رقمها ١٣٥٥٢٥ ، وعثر على جثثهم في حفرة . على نفس الطريق غير الآمنة وجدت جثة داود خراط .

● قذيفة هاون سقطت في حمانا ، بالقرب من الحديقه العامة ، وقتلت طفلة .

● في ليلة الاربعاء اطلق مجهول النار في اللويزة على ميشال صقر ، وارداه قتيلا وراء مقود سيارته .

● عثر في غرفة في الدكوانة على جثث ثلاثة عمال سوريين ، مقتولين بالرصاص . تمر امام عيني سماوات سورية الحمراء . لم اعد اقدر على متابعة هذه القراءة التي اقوم بها يوميا منذ شهرين .

اتصل بموريس هذا الصباح . واقول له : هل قرات الجريدة ؟ يجيب : نعم لماذا ؟

ــ اتعرف ؟ العمال السوريون الثلاثة الذين وجدوا مقتولين في غرفتهم في الدكوانة برصاص اخترق رؤوسهم . اتعرف ؟

ــ نعم . لماذا ؟

ــ الا تعتقد ان بامكانك وضع نهاية لفيلمك بهذه الطريقة: العمال الثلاثة الذين تجيء بهم من القرية السورية يموتون في مثل هذه الغرفة . هنالك اكثر من مائتين ماتوا على هذه الشاكلة .

ــ كلا . في مثل هذه الحال لا استطيع عرض فيلمي في لبنان . بل ولا في اي بلــد عربي . ثم انني اقبل أن يكون لعمالي متاعب في لبنان ، ولكن ليس الى هذه الدرجة . هذا عنف لا يطاق . ومسيس جدا . ولكي ادافع عن وجهة نظري لا بد من عودة احدهم الى قريته .

ــ اعتقد يا موريس انني لا استطيع أن اساهم معك في مثل هذا الفيلم .

ــ لا يهم . وسأناقش الموضوع مع بيار وطوني وفؤاد . ولا بد انني سأجد شخصا آخر . أما أنت فمدعوة لتناول العشاء في منزلي .

(كتبت هذه القصة بالفرنسية ونقلتها الى العربية اميرة الزين)

الاتفاق المرحلي في سيناء ...
دفعة اولى على حساب التسوية

الدكتور الياس شوفاني

بعد مفاوضات طويلة وعسيرة ، انفردت برعايتها حكومة الولايات المتحدة الاميركية، وقعت حكومة جمهوريه مصر العربية اتفاقا مرحليا جديدا مع حكومة العدو الصهيوني، ظاهره عسكري ، يتعلق بخطوط جديدة للفصل بين القوات في سيناء ، وباطنه سياسي ، يتضمن تعهدات وضمانات ، هي في جوهرها تنازلات سياسية ، وربما كانت اكثر من ذلك . وبعد توقيع الاتفاق ، انبرى مؤيدوه ، بايحاء واضح من القيادة المصرية الحالية ، يهللون له ويبينون ما له من محاسن ، بينما قام معارضوه ينددون ، ويدللون على عوراته ومساوئه . هذا طبعا مع العلم بان اتجاه التسوية الجارية كان واضح المعالم منذ البداية ، كما كان معظم بنود الاتفاق الراهن قد اصبح معروفا جيدا قبل توقيعه بزمن ليس بالقصير . ويدور الان كلام كثير حول تقييم بنود الاتفاق ، سلبا وايجابا ، فكفينا بذلك ، مع الشكر ، عناء التصدي لهذه المسألة ، خاصة واننا لا شأن لنا بمعظم المعايير التي تقاس بها هذه البنود . فقد كنا منذ البداية ، وما زلنا ، ضد التسوية الجارية بكلياتها ، ناهيك عن الجزئيات ، وكان موقفنا مناوئا للتسوية السلمية في ظل الظروف الراهنة ، بغض النظر عن « ماركتها المسجلة » .

وليس في نيتنا هنا التعرض لتبيان ما ينطوي عليه الاتفاق من مخاطر على الامة العربية عامة ، وعلى الشعب المصري خاصة . فقد قيل الكثير في الموضوع ،وخصوصا في مسألة التمركز الاميركي في سيناء ، والذي هو في تقديرنا اخطر ما في الاتفاق . واذا تذكرنا ان عدد النقاط الحساسة سيزداد كلما تقدمت التسوية المرحلية ، ادركنا ما لهذه السابقة من مضاعفات . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، نورد هنا عقدة شرم الشيخ ، فهل تحل على غرار عقدة الممرات ؟ وهل سيصبح شرم الشيخ قاعدة اميركية ، تطل على كل من البحر الاحمر وخليجي السويس والعقبة ، وتكون حلقة اخرى في سلسلة القواعد الاميركية حول الجزيرة العربية ؟ وبالمناسبة ، فالاتفاق واضح حول هذه المسألة . ففي حال سحب قوات الطوارىء الدولية من المنطقة العازلة بين الطرفين لسبب ما ، تتولى قوات اميركية هذه المهمة . وتجدر هنا الاشارة كذلك ، الى ان وزير حربية العدو ، شمعون بيرس ، يدعي ابتداع فكرة « الانزال » الاميركي الى منطقة الممرات ، وبذلك فهو ينافس الرئيس السادات على شرف هذه المأثرة . اما رابين ، فلاسباب تتعلق بموقف الراي العام الاميركي من اسرائيل ، فهو ينكر ان يكون طرح الفكرة اسرائيلي المصدر .

والذي يهمنا هنا هو الاشارة الى **بعض** الاضرار التي لحقت بالشعب الفلسطيني وبثورته من جراء هذا الاتفاق ، وذلك بقصد التنبيه الى المخاطر التي قد تتعرض لها

القضية الفلسطينية نتيجة لمثل هذه الاتفاقات في المستقبل ، كون التنازلات التي انطوى عليها الاتفاق ، ليست سوى الدفعة الاولى ، وربما الصغرى ، على حساب التسوية السلمية الشاملة . ولئن كان مثل هذه التنازلات يبدو ثمنا باهظا ، ينتزعه العدو من الامة العربية ، لقاء انسحاب طفيف (٥٪) في سيناء النائية ، فلنتصور حجم التنازلات التي سيطلبها مقابل التخلي عن الجولان او عن الضفة الغربية مثلا ، في اطار مفاوضات كهذه الجارية . وسنحصر كلامنا هنا في عدد قليل من المسائل ، اذ ليس همنا فيما نقول التهويل بعظم المصاب .

تقول المصادر المصرية المسؤولة بان الاتفاق كان كسبا صافيا تقريبا لمصر . فهي قد استعادت ارضا مصرية ، تتضمن مواقع استراتيجية وموارد اقتصادية هامة ، بينما دفعت اميركا الثمن . وتشير جميع الدلائل الى ان العدو كان راضيا جدا عن الاتفاق . فقد صوت الى جانبه سبعون نائبا في الكنيست ـــ وهو تقريبا العدد الذي أيد اتفاقات الفصل بين القوات في حينه . ويرى وزير خارجية العدو ان التأييد الشعبي للاتفاق في اسرائيل سيزداد كلما تكشفت بنوده ، وبرز على حقيقته . والمعروف ان ادارة فورد كانت تسعى جاهدة لانجاز هذا الاتفاق . وها هي قد احرزت مبتغاها ، مع كل ما استتبع ذلك من امتيازات . ومن المؤكد ان كيسنجر لن يذرف هذه المرة سوى دمعات الفرح . واذا صرفنا النظر عن الضرر غير المباشر الذي لحق بجماهير الامة العربية عامة ، والمصرية خاصة ، والذي ستظهر اثاره في المستقبل المنظور ، يبقى ان الشعب الفلسطيني ، ممثلا بمنظمة التحرير الفلسطينية ، كان الخاسر المباشر الوحيد من هذا الاتفاق . وعليه ، فلا غرو ان منظمة التحرير ، قد بادرت الى التصدي للاتفاق ، وشمرت عن ساعدها للعمل على افشاله .

وليست خسارة الفلسطينيين في انهم خرجوا صفر اليدين من هذا الاتفاق ، ولا هي في انه جاء خلوا من اية ضمانات لحقوقهم ، او اشارة الى برامجهم المرحلية وسواها، فهذه في الظروف الراهنة ليست خسارة . وانما خسارتهم هي في عرقلة مسيرتهم النضالية من اجل تحرير بلدهم ، وفي المكاسب التي يحرزها نقيضهم ، التجمع الاستيطاني الصهيوني ، في هذه الاتفاقات ، خاصة في مجال الاعتراف بشرعية كيانه السياسي ، والتي لا يمكن لها ان تكون الا على حسابهم . فكيف ينظر الشعب الفلسطيني الى الحكم المصري ، وهو يجاهر بمكاسبه من الاتفاق ، وشريكاه في ذلك هما العدوان الالدان لهذا الشعب ـــ الامبريالية الاميركية والاستيطان الصهيوني . ناهيك عن ان الاتفاق الراهن ليس الا خطوة من خطوات ، وقد تكون كثيرة ، على طريق التسوية الطويلة المطروحة ، والتي لن تأتي في نهاية المطاف ، دون ان يتحمل الشعب الفلسطيني ، على وجه الخصوص ، وزر تبعاتها . ومع ذلك ، فلا ينبغي الاسراف في تقدير الانعكاسات السلبية لهذا الاتفاق على نضال الشعب الفلسطيني ، وعلى حقوقه المشروعة ومصير ثورته . فهذا الشعب وثورته قد شبا عن الطوق ، وتجاوزا الوصاية ، وبيدهما مقاليد أمورهما . وفي حين لا يجوز السكوت عن التمادي على حقوق الشعب الفلسطيني ، لا بد من التقرير بان هذه ليست لقمة سائغة لمن سولت له نفسه ذلك . وتاريخ القضية الفلسطينية يثبت ذلك . اما اعتراف اطراف ، ولو كانت عربية ، بشرعية ما للاغتصاب الصهيوني ، فانه لا يلزم الطرف الاصيل في الصراع ، بقدر ما يجرح هؤلاء .

على طريق الاتفاق ...
تفتيت القوى العربية

منذ البداية ، سارت التسوية المطروحة ، بتنسيق تام وواضح بين اسرائيل واميركا ، نحو الالتفاف على مؤتمر جنيف ، وباتجاه السير « خطوة ــ خطوة » على طريق الاتفاقات الثنائية المرحلية . والمعروف ان مؤتمر جنيف كان مشروعا مصريا ، بينما كان الحل المرحلي اسرائيليا ، طرح حتى قبل حرب تشرين . ولكن سرعان ما تنازل الرئيس السادات عن مشروعه ، الذي كان طرحه اثناء الحرب ، وارتبط هو ايضا بعجلة الحل المرحلي . ومن المؤكد ان هذا هو الطريق الانسب لتنفيذ الاهداف الاميركية في المنطقة . والتقى هؤلاء جميعا مع النظام الاردني في تأييد التسوية المرحلية ، بينما بقي الاتحاد السوفياتي يعارض هذا الخط ، ويدعو الى عقد مؤتمر جنيف ، ومعه من المشاركين اصلا في المؤتمر ، سوريا فقط . وهكذا بدأت اسرائيل العمل بنجاح على تفتيت القوى العربية ، وعلى تصديع الصف العربي ، الذي تكون بصورته الهشة في حرب تشرين . وبمساندة من الولايات المتحدة ، التي تتستر بالحياد ، كانت اسرائيل تمهد الطريق للانفراد بكل جبهة عربية على حدة ، والضغط عليها لتليينها من اجل دفعها في الاتجاه المرغوب .

ومن مراقبة مسار التسوية ، وكذلك من اقوال الرئيس السادات الاخيرة ، يمكن تحديد الاسلوب الاميركي ــ الاسرائيلي في المفاوضات ، والذي اتاح لهما التحكم بمسارها . ويبدأ هذا الاسلوب بالترهيب الراجح على الترغيب الى ان يعدل الطرف المعني عن مواقفه السابقة . وعندها يرتفع الترغيب ليغلب في تقرير المواقف السياسية ، من كل مسألة على حدة ، حساب الربح والخسارة ، مما يحول دون رؤية القضية باكملها ، ويؤدي بالتالي الى التناقضات في الجانب العربي . ويقول الرئيس السادات انه منذ نهاية الاسبوع الاول من القتال في اكتوبر ، كان بالفعل يقاتل امريكا . وهو طبعا لم يكن يستطيع ذلك . وايضا ، عندما قرر « تصفية الجيب الاسرائيلي » غربي القناة ، ابلغه كيسنجر ، بما لا يقبل التأويل ، ان امريكا ستحول دون ذلك . ومن هنا توصل الرئيس السادات الى القناعة بان امريكا « تملك ٩٩٪ من اوراق اللعبة في الشرق الاوسط ، ان لم تكن تملكها كلها » . وبعد ان سلم الرئيس السادات بهذه الفرضية ، لم يعد هناك كبير فائدة في ترهيبه ، فبدأ الترغيب . وانجرفت القيادة المصرية في الاغراءات الاميركية ، والتي يكثر الحديث عنها في الصحف المصرية ، وخاصة في كلام الرئيس السادات نفسه . فهو ، على حد قوله ، يتطلع الى الكثير الكثير من زيارته المقبلة الى الولايات المتحدة .

وقد اتبع الاسلوب ذاته مع سوريا ، الا انه لم يحرز هناك نفس الدرجة من النجاح . وليس ادل على ذلك من قول وزير حربية العدو ، شمعون بيرس ، من ان المطلوب الان هو دفع الوضع السوري بالاتجاه المناسب ، بحيث يصل الى ما كان عليه الوضع المصري في بداية عام ١٩٧٤ . وهذا يعني ترهيب سوريا الى حد الاقتناع بهيمنة امريكا على الوضع في الشرق الاوسط ، والتسليم لاغراءات الترغيب . وفي تقدير بيرس ان ذلك يتطلب فترة زمنية قد تطول الى ثلاث او اربع سنوات . وهي فترة سريان مفعول الاتفاق الراهن مع مصر . وبالنسبة الى سوريا ، لا يزال الغالب في هذا الخط سياسة الترهيب ، والتي قد تؤدي الى نشوب حرب جديدة ، لا تخفي اسرائيل هدفها منها ــ تحطيم قدرة سوريا القتالية . ومع ذلك ، فان كيسنجر لا يفوته التعريج على دمشق

اثناء وجوده في المنطقة . ولا يخلو كلام التسوية من اشارات غامضة الى أمكان انجاز اتفاق ما في الجولان . حتى ولو كان بمثابة « عملية تجميل » للخطوط الحالية .

ولم يستثن هذا الخط الفلسطينيين ايضا . ولكن الامر هنا يختلف نوعا وكما . فالواقع الفلسطيني لا يزال بعيدا جدا عن بلوغ ما وصل اليه الوضع المصري في بداية عام ١٩٧٤ . ولذلك فانه في تقدير بيرس ، قد يحتاج الى عدد اكبر من السنوات ، قد تطول الى ثمان . وعليه فالطاغي في الكلام الاسرائيلي عن الفلسطينيين هو الترهيب . ومع هذه الساحة ، لا يتوقف التعامل الاسرائيلي عند حد التهديد والوعيد ، بل يتجاوزه الى العمل العسكري المستمر ، المباشر وسواه . ورغم ذلك ، فهناك كلام عن « حكم ذاتي » في الضفة الغربية ، وتصدر احيانا تصريحات بشأن اقامة « اتحاد فدرالي » ، العنصر الثابت فيه هم فلسطينيون ، والمتغير هو اما اسرائيل أو الاردن ، تبعا للظروف والمواقف السياسية . ومهما يكن من أمر ، لا تفوت المتحدث عند الادلاء بهذه التصريحات ، الاشارة الى ان هذا سيكون في المستقبل البعيد . وفي مرحلة معينة، صدرت تصريحات اسرائيلية ، شبه رسمية ، تنم عن استعداد اسرائيل للاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، شريطة ان تعدل هذه عن ميثاقها الوطني ، وتعترف هي أولا بالدولة اليهودية . وكان واضحا ان الهدف من هذا الكلام هو اثارة الفتنة في الساحة الفلسطينية وشقها ، وبالتالي دفعها الى الاقتتال .

وعلى اي حال ، فان ما كان يسمى بالتضامن العربي ، والذي كثيرا ما اكد عليه الرئيس السادات ، وهو في بداية الطريق الى هذا الاتفاق ، كان اول ضحايا الاتفاق نفسه . والغريب اننا نسمع اليوم ترددا متواترا لعبارة « لم نستشر احدا » ، واغرب من ذلك الافصاح عن الخلاف مع الرئيس الاسد منذ اليوم الاول بعد الحرب . ولا نأتي بجديد حين نشير الى الاضرار الجسيمة التي يتعرض لها النضال العربي عامة ، والفلسطيني خاصة ، نتيجة لتفتيت القوى العربية ، بينما العدو يبني قواه العسكرية. ولا بد هنا من الاشارة الى الفارق الكبير بين قوة العدو العسكرية وفاعليته السياسية. وفي وضع كهذا فانه يلجأ الى استعمال هذه القوة ، كلما عجزت فاعليته السياسية عن اداء الغرض المطلوب .

... تدعيم التصلب الاسرائيلي

بعد ان تم اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة السورية ، توجهت الانظار في المنطقة ، كما في واشنطن ، الى الضفة الغربية والى الاردن والملك حسين . وطرحت مقولة التعادل والتكافؤ بين الجبهات ، وضرورة السير بخطى وئيدة ، ولكن على الجبهات الثلاث . وكانت الادارة الاميركية مهتمة جدا بانجاز اتفاق ما ، ولو كان رمزيا ، في الضفة الغربية ، يثبت الملك حسين شريكا في المفاوضات الجارية مع اسرائيل ، ويقطع على منظمة التحرير الفلسطينية طريق انتزاع حق تمثيل الشعب الفلسطيني في التحركات السياسية التي تجري في المنطقة . الا ان حكومة رابين ، التي لم تكن قد ثبتت اقدامها في الحكم بعد ، لم تجرؤ ، ولاسباب داخلية اساسا ، على التحرك في هذا المجال . فحكومة رابين كانت ملتزمة ببرنامج حزب العمل الانتخابي ، والذي ينص على الا تجري الحكومة تغييرا جوهريا في الوضع في الضفة الغربية دون استفتاء راي الجمهور الاسرائيلي . وكان رابين يخشى ان يؤدي اي اتفاق في الضفة الغربية الى انتخابات عامة ، تذهب بحكومته وتقضي على مستقبله السياسي الناشىء ، فكان اسهل عليه ان يخوض معركة مع الادارة الاميركية من ان يدخل حلبة الصراعات الداخلية ، وهو لا يزال حديث العهد في الحكم . واندلع على اثر ذلك خلاف

بين حكومته وبين الادارة الاميركية ، وبدا وكأن نهاية رابين السياسية قد اصبحت وشيكة .

ولكن سقوط رابين ، وبالتالي اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، كان يعني تجميد التسوية لفترة قد تطول ، ربما الى سنة . هذا في حالة نجاح حزب العمل في الانتخابات . واما اذا نجح ليكود ، فستكون التسوية كلها على كف عفريت . وهكذا اصبحت قوة رابين في ضعف حكومته السياسي . الا ان ذلك لم يعفه من مواجهة المسألة . وارتفعت بعض الاصوات التي تنادي بضرورة التحرك ، حتى ولو ادى ذلك الى سقوط الحكومة ، وبالتالي الى انتخابات عامة . واتهم رابين بادارة سياسة اسرائيل الخارجية على اساس املاءات موازين القوى الداخلية . وكان من معارضي رابين ؛ وزير خارجيته ، الون ، الذي كان على اتفاق مع التوجه الاميركي نحو الاردن . واشتد الخلاف بين المحاور المختلفة داخل الحكومة كما تكالب عليها معارضوها خارج الحكم . وهنا انبرت الحكومة المصرية لانقاذ الموقف ، وطرحت تأجيل البحث في مسألة الضفة الغربية ، والانصراف الى انجاز اتفاق مرحلي اخر في سيناء ، اذ كان همها الحفاظ على مسار التسوية ، مما ترتب عليه صرف النظر عن جميع المشاكل الشائكة ، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية . اما التوجه نحو الجبهة المصرية ثانية ، فقد كان مريحا لحكومة رابين ، ومشجعا للرئيس السادات على المضي في التسويات المرحلية ؛ كما كان مقبولا للادارة الاميركية . ولكن اهم ما في الموضوع ، كان اخراج حكومة رابين من مأزقها . وخرج رابين من محنته بعبرة ان التصلب ، ورفض الرضوخ للضغط ، يقويان من مركزه داخليا ، خاصة بعد ان اكتشف مدى اهتمام كل من مصر والولايات المتحدة بتحاشي الجمود في مسيرة التسوية المرحلية ، خشية ان يؤدي ذلك الى استئناف المفاوضات في مؤتمر جنيف ، حيث يدخل الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المؤتمر ، على قدم المساواة مع الولايات المتحدة . وقد ذهبت حكومة رابين الى ابعد من ذلك فيما بعد ، فقد راحت تهدد كلا من مصر والولايات المتحدة بالدعوة الى عقد مؤتمر جنيف ، كلما اشتد الضغط عليها ، ووصلت حد مغازلة الاتحاد السوفياتي .

وعلى اي حال ، فقد اهمل موضوع الاردن ، وتوالت على الملك النكسات . ففي حين تخلى عنه اولياء نعمته ، استطاعت منظمة التحرير الفلسطينية انتزاع قرارات الرباط ، واتبعت ذلك بانجاز مماثل في الامم المتحدة . وبدا ، ولو الى حين ، بان هذه الانتصارات التي احرزتها منظمة التحرير ، قد اخرجت الملك حسين من اللعب على الساحة الفلسطينية . الا انها مع ذلك ، لم تدخل الفلسطينيين في « لعبة التسوية » . ورغم ان انجازات المنظمة كانت صدمة كبيرة لسياسة حكومة رابين ، غير انها لم تحدث فيها تحولا جوهريا ، خاصة فيما يتعلق بالموقف الاسرائيلي من منظمة التحرير . ولعل العكس هو الصحيح ، فانه نتيجة لبروز المنظمة ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، عمد رابين الى التركيز على الجبهة المصرية ، معتبرا اياها الاساس ، مع الاصرار على هامشية القضية الفلسطينية في الصراع الدائر في المنطقة ، والتأكيد على ان بروز المنظمة ليس الا حدثا عابرا ، ستعود بعده المنظمة الى الانكفاء ، خاصة اذا صمدت اسرائيل في رفضها الاعتراف بالمنظمة والتعامل معها . وبدأ رابين يبدي مرونة تجاه مصر ، وراح يلمح الى امكانية تقديم تنازلات في سيناء ، بغرض جر مصر ، ومن ورائها « عرب التسوية » الى الالتفاف على قرارات الرباط ، واجهاض انجازات المنظمة . وواضح انه منذ ان بدأت المفاوضات تتقدم باتجاه الاتفاق الراهن ، عاد

الاردن الى البروز على الساحة العربية ، واخذ يخرج من عزلته ، الى ان توصل الى اتفاقيته الاخيرة مع سوريا .

وباسدال الستار على موضوع « فك الارتباط » مع الاردن ، لدى بروز منظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني ، لم يبق امام الاطراف المعنية باستمرار مساعي التسوية . بالوساطة الاميركية ، الا التوجه نحو سيناء ، وهو ما كان يريده كل من رابين وبيرس ، من الثلاثي الاسرائيلي الذي يتولى امر المفاوضات . وهكذا بدات مرحلة جديدة من المفاوضات ، هي التي انتهت بفشل مهمة كيسنجر في اذار (مارس) ١٩٧٥ . ومن المؤكد ان حكومة رابين هي التي تسببت بذلك الفشل . اذ ان رابين بعد ابداء بعض المرونة تجاه مصر ، خاصة ازاء زيارة بريجنيف الى القاهرة ، سرعان ما عاد الى مواقفه المتصلبة بعد الغاء الزيارة . فأخذ يطالب بانهاء حالة الحرب بين مصر واسرائيل ، مقابل الانسحاب من الممرات وابو رديس ، علما باستحالة ذلك على القيادة المصرية ، على الاقل في المرحلة الحالية . ولكن كيسنجر ظل على قناعته بامكان انجاز اتفاق ، بناء على المرونة التي ابداها رابين في تصريحاته الكثيرة . ولما لم يتحقق ذلك وصلت المفاوضات الى طريق مسدود .

وواكب فشل كيسنجر في الشرق الاوسط ، سقوط عملاء امريكا في كل من سايغون وبنوم بنه ، مما زاد في حدة الحملات الداخلية على سياسة الولايات المتحدة الخارجية. وكان لا بد لادارة فورد من تحقيق انجاز سياسي في الحقل الخارجي ، يعوضها ما فقدته في الشرق الاقصى . فقام فورد بزيارة الى اوروبا ، حيث التقى مع الرئيس السادات في سالزبورغ . وقبل سفره الى هذا اللقاء ، قام الرئيس السادات بجولة عربية ، كما أجرى اتصالات سياسية مكثفة ، كان الهدف منها تدعيم موقفه تجاه كل من الولايات المتحدة واسرائيل ، وذلك بابراز تضامن عربي مساند له في مسعاه ، كما التقى بالرئيس الاسد في الرياض ، واصلح معه ما كانت افسدته رحلة كيسنجر ، رغم فشلها ، في العلاقات بين الرئيسين . وبدا بعد لقاء سالزبورغ وكأن لا خلاف في وجهات النظر بين واشنطن والقاهرة ، وان العقبات في طريق الاتفاق هي جميعا من صنع حكومة رابين .

لدى عودة كيسنجر من رحلته الفاشلة الى الشرق الاوسط ، اخذت الادارة الاميركية تمارس على حكومة اسرائيل شيئا من سياسة الترهيب والترغيب ، التي كانتا تنسقانها بينهما سابقا ، لتمارساها على الجهات العربية المعنية . ودارت معركة حامية بين الاثنتين على الساحة الاميركية ، واضطرت فيها كل منهما الى التراجع قليلا ، لافساح المجال للخروج من المأزق ، بلا غالب ولا مغلوب . وفي هذه الفترة زاد الكلام عن « اعادة النظر في السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط » . الا ان « اعادة النظر » هذه لم تكن سوى مناورة لكسب الوقت . وربما كان الاصح ان المصلحة المشتركة للطرفين ، اسرائيل واميركا ، في السير على طريق التسوية على مراحل ، وخشية كل منهما ان يفلت الرئيس السادات من صنارة «الخطوة ــ خطوة»، قد دفعتاهما الى رأب الصدع في علاقاتهما والعودة الى العمل معا بتنسيق مسبق . وعلى هذه الخلفية جاءت زيارة رابين الى واشنطن ، ومن ثم استئناف المفاوضات التي أدت الى الاتفاق الراهن .

ومن المؤكد ، انه ما كان لهذه المفاوضات ان تستأنف ، وما كان لهذا الاتفاق ان ينجز ، وبالتالي خروج حكومة رابين من مأزق علاقاتها المتوترة مع ادارة فورد ، لولا التنازلات التي قدمتها حكومة جمهورية مصر العربية ، حسما للخلاف ، وحفاظا على

مسار التسوية . ومع ذلك يريد الاعلام المصري اقناع الجماهير العربية ، بأن الانفتاح على امريكا ليس الا من اجل احداث شرخ في العلاقات بينها وبين اسرائيل ، بينما تبدي تعيان هو العكس تماما . وانه عندما تحصل ازمة في تلك العلاقات تتطوع الحكومة المصرية للاسهام في حلها . وبهذا تعين الحكومة المصرية القيادة الاسرائيلية على تخطي مصاعبها . بدلا من تضييق الخناق عليها ، استطرادا لنتائج حرب اكتوبر ، اذ كان من اهم نتائج تلك الحرب نشوب ازمة ثقة بين المستوطنين الاسرائيليين وقيادتهم الصهيونية . اما الاخيرة فعمدت الى تبرير ما حدث في الحرب « بالتقصير » . وارادت القيادة الاسرائيلية بهذا اقناع جمهور المستوطنين في الارض المحتلة ان المسألة لا تتعدى حصول بعض الاخطاء في الجهاز العسكري ، وبعض سوء التقدير في القيادة السياسية . فاذا ازيلت مسببات التقصير ، لا تبقى هناك حاجة للاستمرار في طرح الاسئلة المصيرية ، التي اثارتها الحرب حول قيام الدولة . وحاولت القيادة الاسرائيلية تخطي تلك الازمة ، بصرف الانظار نحو مقومات الدولة ، ايحاء بان قيامها ليس موضع تساؤل . ويجيء مثل هذا الاتفاق بين مصر واسرائيل ليدعم ادعاءات القيادة الاسرائيلية وليساعدها على تجاوز العقبات التي تعترض طريق تنفيذ المشروع الصهيوني . وبهذا فهو يطعن النضال الفلسطيني من اجل التحرير في الصميم .

الاتفاق وطرد اسرائيل من الامم المتحدة

لقد كان طبيعيا ان تعمد منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد انجازاتها في الدورة الماضية للجمعية العمومية ، وعلى ضوء المنطق الصحيح للامور ، الى التحرك باتجاه طرد اسرائيل من المنظمة الدولية ، واحتلال مكانها هناك ، ممثلا شرعيا وحيدا لجميع الفلسطينيين . وكان قرار كهذا قد اتخذ في مؤتمر القمة في الرباط . وفي مؤتمر الدول الاسلامية ، الذي عقد في جدة ، طرح المشروع بجدية ونال تأييد المشتركين في المؤتمر بالاجماع . ثم اعيد طرحه في مؤتمر الدول الافريقية في كمبالا ، من اجل الحصول على تأييد الدول الافريقية له . وهنا ظهرت معارضة الحكومة المصرية للمشروع واضحة جلية . وكذلك كان الحال في مؤتمر دول عدم الانحياز في ليما — بيرو .

ومنذ ان طرح المشروع ، وتناقلت الصحف ووكالات الانباء اخباره ، بدأ القلق يساور الحكومة الاسرائيلية . فقامت بتحركات سياسية مكثفة ، كان هدفها تجنيد جميع اعوانها للحؤول دون طرح المشروع في الدورة القادمة للجمعية العمومية . وفي الوقت نفسه ، راحت تتظاهر بالاستخفاف بالمسألة وتغطي قلقها بالمكابرة والتحدي . ولكن المصادر الصحفية الاسرائيلية تؤكد ان الحكومة هناك كانت واثقة من ان المشروع ، اذا امكن له ان يطرح في الجمعية العمومية ، فانه سينال الاكثرية المطلوبة لتعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة . وكذلك كانت حكومة الولايات المتحدة ، التي اخذت تهدد بالانتقام من المنظمة الدولية . ولا بد هنا من التنويه بأن الولايات المتحدة كانت في تلك الاثناء تدعي « اعادة النظر » في سياستها تجاه الشرق الاوسط . ولو كان ذلك صحيحا لعمدت الادارة الامريكية الى السكوت على الاقل ، عن هذا التحرك الفلسطيني ، واستعماله كاداة للضغط الذي اقنعت البعض بانها تمارسه على اسرائيل . ثم ألم يكن من مصلحة مصر ان تستمر مناوشة العدو المتصلب على جميع الجبهات وخلخلة مواقعه ؟

الواقع انه عندما عادت عجلة المفاوضات الى التحرك ، اشترطت اسرائيل على مصر العمل من اجل احباط السعي لطردها من الامم المتحدة ، مقابل ابداء استعدادها لاستئناف المفاوضات ، ووافقتها على ذلك حكومة الولايات المتحدة . اما الحكومة

المصرية ، فحرصا منها على مصير التسوية ، ورغبة منها في انجاز الاتفاق المرحلي كما قال الرئيس السادات في تصريحه في الخرطوم ، وهو في طريقه الى كمبالا لم يكن بوسعها سوى القبول بالشرط . وهذا بالطبع انحراف عن قرار مؤتمر القمة في الرباط ، وهو تصرف يمليه منطق التسوية المطروحة ، والذي لا يجيز العمل على طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، في حين تجري معها مفاوضات على اساس قرار صادر عن المنظمة الدولية اياها . وهو كذلك لا يسمح باضعاف موقف احد الطرفين المفاوضين بحيث يخل بميزان القوى بينهما ، مما يفسد على القائم برعاية هذه المفاوضات خطته في العمل .

رب قائل بان توقيت طرح المشروع كان غير مناسب . وهو قول فيه الكثير من الصحة ، اذا كانت نقطة الانطلاق هي القبول بالتسوية المطروحة . ولكن لماذا لم يثر هذا الاعتراض في الرباط او في جدة ، وانما برز في كمبالا ، ومن ثم في ليما . والجواب في تقديرنا يتعلق بسير مفاوضات التسوية . اما القول بان الامم المتحدة ستبقى قائمة الى العام القادم ، وكذلك اسرائيل ، وعندها يمكن ، بعد انجاز الاتفاق ، ان يطرح المشروع ، فهو ينطبق ايضا على كثبان الرمل في سيناء ، وكذلك على الممرات . فهي لن تذوب او تمحى ، بل ستبقى ، وعندها تجري المفاوضات عليها ، بعد طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، وهي في موقع اضعف .

وليس صحيحا ان اسرائيل لا يهمها طردها من الامم المتحدة ، او القول بان ذلك سيزيد من قوتها ، وبالتالي من تصلبها . فالعكس هو الصحيح . وذلك لان طردها يزيد من عزلتها ، ويعمل على ضعضعة قوتها ، وبالتالي على تليين مواقفها ، خاصة وان امال التسوية معقودة كلها تقريبا على فاعلية الضغط الذي يمارس على اسرائيل . ولكن يبدو ان المقولة الاميركية بان اسرائيل يجب ان تمنح مساعدات عسكرية واقتصادية ، تؤمن لها الاحتفاظ بشعور القوة ، وان تعطى تطمينات على مستقبل وجودها وشرعية قيامها ، لتتمكن من المساهمة البناءة في عملية التسوية ، قد اصبحت مقبولة من الجانب المصري . وهذا ما قد يفسر سلوك الحكومة المصرية ازاء مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، وسكوتها ، وهي ماضية في التسوية ، عن الكميات الضخمة من الاسلحة ، التي تدفقت على اسرائيل بعد الحرب بهذه الحجة الخادعة . والمفارقة المأساوية في هذا الوضع هي ان اسرائيل تصبح ترسانة كاملة لادوات الحرب والعدوان وهي تراوغ في المفاوضة على تسوية سلمية .

ان اخطر ما في امر تصرف الحكومة المصرية حيال مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة هي السابقة المستهجنة ، على الاقل عربيا ، من قيام نظام عربي ، رغبة منه في تمرير خطه السياسي ، بالدفاع عن مصالح العدو ، وبالعمل على احباط محاولات ضرب هذه المصالح . وهذا انحراف لا يجوز السكوت عنه ، خاصة من قبل الفلسطينيين .

الاتفاق والالتفاف حول قرارات الرباط

ليس سرا ان منظمة التحرير الفلسطينية انتزعت قرارات الرباط رغم معارضة « عرب التسوية » الشديدة . وقد برز ذلك في اجتماعات وزراء الخارجية ، التي مهدت لمؤتمر القمة . ولم تحصل المنظمة على الاعتراف بها ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني الا نتيجة لقوة موقفها السياسي ازاء الاخرين ، اثناء جمود في مسار التسوية بعد فصل القوات . وفي المؤتمر حاولت الاطراف المعارضة التستر وراء الواجب الوطني بتحرير الارض ، بغض النظر عن « العلم الذي يرفع عليها » . كما

برزت مقولة ان يتولى الملك حسين التفاوض بشأن الضفة الغربية ، خاصة وانه مقبول من الطرف الاخر ، ومن ثم يسلمها الى المنظمة . ولم يكن لهذا القول ما يبرره ، علما بانه لم يكن معروضا على حسين شيء ملموس في الاتصالات الجارية من اجل التسوية . وتهاوت الحجج وتراجع الملك حسين ، ووافق المؤتمرون على قرارات الرباط بالاجماع ، مع أن بعضهم فعل ذلك على مضض .

وكانت تلك القرارات مفاجأة كبرى لحكومة رابين وللادارة الامريكية ، على حد سواء ، مما حدا بكيسنجر الى الاسراع بزيارة المنطقة والاطمئنان الى سلامة خطته ، في ضوء الواقع الجديد . اما قادة اسرائيل ، فلم ينفكوا ، منذ مؤتمر الرباط ، يرددون عدم استعدادهم للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية . ولقد صدرت عنهم ، في مناسبات عدة ، تصريحات تؤكد دور السياسة الاسرائيلية ، في ابراز الاردن على الساحة السياسية في المنطقة ، بعد نكسة الرباط .

ومرت فترة كان النظام الاردني فيها معزولا عن ساحة الاحداث في المنطقة . فلم يكن له دور يذكر اثناء زيارة كيسنجر ، التي انتهت الى الفشل . ولكن بعد ذلك ، وعندما بدأ التحرك باتجاه جولة جديدة من المفاوضات ، اخذ الاردن يبرز من جديد على الساحة ، وتوالت على عمان زيارات القادة العرب . وواكب ذلك عدد من التصريحات المناقضة في جوهرها لقرارات الرباط ، والتي كانت جزءا من مناورات التسوية المرحلية الجديدة . ثم قامت بعد ذلك المحادثات السورية ـــ الاردنية . والان وقد ظهرت نتائج الاتفاق ، وانكشفت لعبة كيسنجر ، ستبقى اعيننا مشدودة لاستطلاع ما سينجلي عنه التقارب السوري ـــ الاردني .

منظمة التحرير الفلسطينية والاتفاق

اعلنت منظمة التحرير الفلسطينية رفضها للاتفاق، وهي تجاهر بالتصدي له والعمل على افشاله . ولا غرابة في ذلك ، ففي الاتفاق من الضرر على القضية الفلسطينية ما يبرر رد فعل المنظمة . وقد انضمت الى المنظمة جهات عربية ، ابرزها سوريا ، راحت تندد بالاتفاق وما زالت تصعد الحملة ضده. ويظهر ان الحكم المصري لا ينوي التراجع ، بل هو ماض في طريقه ، ومستعد لشن حملات مضادة ، لا يتورع فيها عن اثارة نعرات اقليمية . وهذا ما يصبو اليه العدو ، وما يتوقعه من الاتفاق . ومن هنا حراجة الموقف . ففي حين لا يجوز السكوت عن الاتفاق ، لا يمكن ايضا خدمة اهداف العدو . وفي هذا المجال بالذات يتميز دور منظمة التحرير الفلسطينية عن بقية الانظمة العربية . فهي تمثل شعبا ، يضيف تناقضه المباشر مع الاستيطان الصهيوني بعدا جديدا ، يجعل الصراع بينهما اكثر حدة . وهذا يلقي على المنظمة عبئا اضافيا ، يحتم عليها البقاء في طليعة التصدي لكل ما من شأنه ان يمد الكيان الاستيطاني على ارض فلسطين باسباب البقاء . وهذا ينطبق على الاتفاق الراهن بين اسرائيل ومصر . ولذا فلا مناص للمنظمة من العمل على افشاله .

والعمل على افشال الاتفاق لا ينحصر في الحؤول دون توقيعه . وعلى اي حال ، فقد سبق السيف العذل . وكذلك فانه لا يتوقف عند حد تنفيذ بنوده ، فذلك شعار للنضال ضد الاتفاق ، قد يكون محبطا . ولكنه ، في تقديرنا ، يتعدى ذلك الى قطع الطريق امام امكان ان يحصل العدو على اهدافه ومآربه من التسوية ، التي هو بصددها ، والتي ليس الاتفاق الراهن سوى خطوة صغيرة في سبيلها . وهدف العدو من التسوية الجارية واضح في خطوطه العامة . فهو يريد مقايضة المناطق المحتلة بالاعتراف العربي بالدولة اليهودية ، وذلك في حدود يعتبرها هو آمنة . وهذا لا يتم

الا بالقضاء على الثورة الفلسطينية ، ومن ثم اكراه الشعب الفلسطيني على التنازل عن حقه في تقرير مصيره على أرضه ، بالاضافه الى احداث تغييرات جذرية في الخارطه السياسيه للمنطقة العربية ، مع تعديلات ملموسة في الخطوط التي كانت قائمة قبل حرب حزيران .

ولئن سلمنا جدلا بان الثورة الفلسطينية لا تملك ايقاف الجرف السياسي في بعض البلدان العربية ، وانه ليس لها ، في ظل الظروف الراهنة ، ان تفرض على حكومات معينة عدم التنازل عن أرض الوطن ، فانه ما من شك ، وقد ثبت ذلك عمليا ، في انها قادرة على البقاء ، ومؤهلة للاستمرار في النضال من اجل تجسيد الحق الفلسطيني . وهذا في تقديرنا كاف لافشال كل تسوية تلحق الضرر بذلك الحق ، بما فيها الاتفاق الراهن .

ومن تصريحات قادة العدو ، وكذلك من توجهاته في التسوية ، اخذا بالاعتبار موازين القوى في المنطقة ، وكذلك الاتجاهات السياسية الجديدة لدى بعض الاطراف الفاعلة في الساحة ، يمكن ، في رأينا ، تقرير النقاط الثلاث التالية : اولا ، امكان انسحاب اسرائيلي كامل من سيناء ، بما في ذلك من شرم الشيخ ، خاصة اذا اصبح هذا قاعدة اميركية ، مقابل انهاء حالة الحرب بين اسرائيل ومصر ، واخراج الاخيرة من ساحة الصراع ضد الاستعمار والاستيطان في المنطقة . ثانيا ، اصرار اسرائيل على الاحتفاظ بالمرتفعات في هضبة الجولان ، وذلك من اجل السيطرة على منابع نهر الاردن اولا ، وللحفاظ على أمن المستوطنات في الجليل ثانيا . ثالثا ، رفض اسرائيل المطلق التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ما دامت الثورة تقودها ، او السماح لها ، عن طريق المفاوضات ، اقامة كيان فلسطيني مستقل سياسيا ، على أي جزء من الوطن المحتل .

واذا كان العدو يرى التسوية على هذا الاساس ، فانه لا بد يرى في الثورة الفلسطينية العقبة الكأداء ، التي لا بد من ازالتها ، لتصبح الطريق الى التسوية المرغوبة سالكة . ويلي ذلك أهمية التصلب السوري ازاء التنازل عن مرتفعات الجولان . واخيرا التردد المصري ازاء الانعزال عن الصراع الدائر في المنطقة . وهو لا بد يعي الترابط القائم بين هذه العقبات . ولذلك ، فقد عمد الى ما يعتبره اضعف الحلقات ، فركز جهده في مراحل التسوية الاولى على عزل مصر ، معتقدا انه اذا نجح في ذلك ، فسيكون باستطاعته تليين سوريا ، ومن ثم دفعها في نفس المسار . فيبقى عليه أن يحشر الثورة الفلسطينية في مأزق الخيار بين اهون الشرين ، فاما التصفية واما المملكة المتحدة او ما شابهها من المشاريع التي من شأنها تذويب الهوية الفلسطينية .

واذا كان هذا هو خط العدو ، فانه من الطبيعي ان تسلك الثورة الفلسطينية اتجاها معاكسا تماما ، فتنهج خطا ينطلق من الاوليات التالية : ١) ترسيخ جذور الثورة وتثبيت مواقعها في صفوف جماهيرها ، وذلك للحؤول دون امكان تصفيتها ، ومن ثم ضياع شعبها وفقدان هويته . ٢) العمل على تصليب الموقف السوري ، كيلا تبقى الثورة وحدها في هذه المرحلة . ٣) النضال ، مع اطراف عربية اخرى ، ضد محاولات عزل مصر عن ساحة الصراع . وفي تقديرنا ، أنه بقدر ما تفلح الثورة في تثبيت مواقعها ، بقدر ما تنجح في استئصال التفكير بامكان تصفيتها . والمردود الايجابي لمثل هذا النجاح على الثورة سينعكس بالضرورة سلبيا على التسوية الجارية . فهو حين يحبط الهدف الاساسي منها كلية ، يلغي بالضرورة ما للخطوات الجزئية من اهمية،

بما في ذلك الاتفاق الراهن في سيناء . واذا ثبت للعدو ان لا مجال امامه في الوصول الى هدفه النهائي ، فانه لا بد سيعدل عن مساره الحالي .

وفي اعتقادنا ان أول اسباب نجاح الثورة في هذا الخط ، هو العمل الجدي والفوري على ترجمة الانتصارات الكبيرة - كما انعكست في مقررات الرباط والامم المتحدة ، والتي احرزتها الثورة بنضالها الطويل ، الى ممارسات عملية على ارض الواقع الفلسطيني ، حتى ولو كان ذلك في النطاق الضيق المتاح مرحليا . وهذه مسألة اشبه ما تكون بكرة الثلج ، ان وجدت من يدحرجها . والافادة من هذه القرارات لا تكون بالاستناد اليها كوثائق في صراع الثورة مع الاطراف الخارجة عنها او عليها ، وانما بتولي المهام المترتبة على الاعتراف بشرعية تمثيل المنظمة للشعب الفلسطيني . والزارعون بالدموع بالفرح يحصدون . ولا نرانا هنا بحاجة الى مزيد من التفصيل .

بعد توقيع الاتفاق ، قال عنه الرئيس السادات بانه كان منعطفا في تاريخ الصراع العربي — الاسرائيلي ، ووافقه على ذلك رئيس حكومة العدو ، رابين . وكذلك جاء في بيان منظمة التحرير الفلسطينية حول الاتفاق . والواضح ان المنطقة باسرها تواجه مرحلة جديدة ، سماتها في وجهها ، الذي طلع علينا بالاعتراف الضمني بالعدو ، وبالدعوة لقوات اجنبية لاحتلال مواقع جديدة في الوطن العربي . وامام هذا الوضع الجديد ، لا بد للثورة الفلسطينية من وقفة رصينة امام تقديرات الموقف ، وما انبثق عنها من برامج ، على اثر حرب تشرين . واملنا بان ينصب جهد المجلس الوطني الفلسطيني ، الذي سيعقد قريبا ، على هذه المسألة بالذات ، عله يخرج ببرنامج عمل فلسطيني ، وذلك للمرحلة القريبة جدا على الاقل ، يقي الثورة الفلسطينية شر هذه التسوية ، كما يوحد بين فصائلها ، على اساس الخصوصية التي يتميز بها الوضع الفلسطيني ، وفي ضوء الحقائق التي تمخضت عنها التسوية حتى الان ، والتي تشكل مؤشرا لما قد يتبع .

محاور السياسة الاميركية ـ الصهيونية في الصراع العربي ـ الاسرائيلي

ميشيل كيلو

سواء تمت الخطوة الثانية « للتسوية » الاميركية الصراع العربي ـ الصهيوني أم لم تتم ، فان ما حدث خلال العامين الماضيين يستحق التأمل واشغال الذهن والدراسة .

فقد كان قادة الكيان الصهيوني عقب توقف حرب تشرين يشعرون بأن سياساتهم التاكتيكية خلال الاعوام السبعة التي تلت حرب ١٩٦٧ قد وصلت الى ورطة خطرة ومأزق صعب . وكانوا يدركون ان هذا الكيان صار مجابها بمجموعة من الحقائق التي لا سبيل الى تجاهلها ، وفي رأسها تعرض التفوق العسكري الذي كان لهم على العرب بعد عام ١٩٤٨ لخطر اهتزاز شديد ، وصفته دوائرهم غالبا « بالزلزال » .

وكان جليا بالنسبة للزعماء الصهاينة ان ما رفضوه طوال سبع سنوات سيفرض عليهم ، وان جيوشهم ستضطر للانسحاب من الاراضي العربية المحتلة تحت ضغط الوضع الجديد ومجموع مكونات الوضع الدولي ، الذي زادت الحرب في عزلهم عنه . لقد وجد الصهاينة انفسهم أمام وضع جديد ، لا سبيل الى التملص من الضغوط التي سيمارسها عليهم الا « بموقف » جديد عما حدث . ولان كـل شيء في السياسة يبدأ وينتهي بموازين القوى ، فقد كان همهم ميزان القوى الجديد الذي ترتب على الحرب ، والذي جعلهم يدركون مدى الخطل الذي كانت سياساتهم تسير اليه ، فوق كل صعيد.

وكانت المصاعب التي تواجه الكيان الصهيوني جديدة لم يألفها . فمن جهة كانت قوات جرارة من جيش اسرائيل منقطعة عن قاعدتها الاساسية في الاراضي المحتلة داخل جيوب خطيرة لا قبل له بالدفاع عنها ، ان هو أراد الحفـاظ على توازن قواته العسكرية فوق جبهات القتال . ومن جهة اخرى كان الصهاينة أمام سياسة اميركية تسعى لان ترسخ المصالح الغربية ـ وفي رأسها الاميركية ـ وفق **توجه جديد** ، كان لا يزال في طور الاختبار والتنفيذ ، وان كانت ملامحه العامة واضحة لراسميه في البيت الابيض . وطبيعي انه كان على الكيان الصهيوني ان يعمل ، عسكريا ، على اعادة التوازن لاداته العسكرية ، وعلى اقلمة نهجه السياسي عموما ، واهدافه السياسية جزئيا ، مع توجه واشنطن المذكور ، بعد أن افسدت المطامع التوسعية الاسرائيلية على اميركا خططها في وضع مصالحها على أرضية تأخـذ بعين الاعتبار المتغـيرات السياسية والاجتماعية التي شهدها الوطن العربي بعد ١٩٦٧ ، وهي كثيرة وهامة .

وكانت المشكلة التي طرحت نفسها على القيادة الصهيونية الجديدة جلية وواضحة وصعبة : كيف تستطيع أن تؤقلم مطالبها التوسعية والعدوانية التي سارت الصهيونية عليها طوال ثلاثين عاما ، والتي يتوقف عليها دور وطبيعة كيانها ، مع سياسة اميركية لم تجرب بعد في ميدان التطبيق العملي ، ولم يكتب لها النجاح بعد ، ولا تدري ان كانت

ستنجح اصلا ، مع مراعاة اكبر قدر من التطابق بين أهدافها التوسعية وهذه السياسة الامبركية المرنة ؟! ثم كيف ستساعد سياسة واشنطن على أن تنجح ، ونجاحها يفترض قيامها بتنازلات اقليمية ، دون ان تؤثر هذه السياسة ، والتنازلات التي تفرضها عليها ، على خططها في البقاء كدولة مهيمنة في المنطقة ؟!

وبعيدا عن الحل الذي أوجده الامبركان للكيان الصهيوني في المشكلة الاولى ، العسكرية ، فان المعضلة الحقيقية كانت هي المشكلة الثانية ، السياسية . خاصة وان جانبا منها يرتبط اشد الارتباط باقناع قوى سياسية هامة داخل اسرائيل بتفهم التوجه الجديد الذي سيفرضه على السياسة الاسرائيلية توجه أميركا نحو الوطن العربي مجددا ، بعد ان أعلن قادة اميركا اكثر من مرة أن مصالح اسرائيل ستؤمن بقدر مراعاتها لمصالح واشنطن واستجابتها « لخططها الجديدة » حيال الشرق الاوسط .

والحقيقة ان فهم جوهر السياسة الاسرائيلية كان طوال الاعوام الثلاثين المنصرمة صعبا دون فهم السياسة الاميركية . ولهذا فان فهم التوجه الصهيوني الجديد صعب بدوره دون فهم التوجه الاميركي الذي سارت واشنطن عليه . فماذا كان هذا التوجه؟!

ببساطة يمكن القول ان السياسة الاميركية قامت اساسا على التمييز بين نوعين من التسوية :

١ ــ تسوية أميركية ــ عربية ، وهي ذات طبيعة سياسية ــ اجتماعية .

٢ ــ تسوية عربية ــ اسرائيلية جوهرها الاساسي هو مسألة الاراضي المحتلة منذ عام ١٩٦٧ بالنسبة لبعض العرب ، وهذه مضافا اليها اقرار حقوق للشعب العربي الفلسطيني بالنسبة لبعضهم الآخر .

ويقوم « التوجه » الاميركي الجديد على الربط بين هذين النوعين من التسوية ، فبقدر ما تحقق التسوية الاميركية ــ العربية تقدما ، تحقق التسوية العربية ــ الاسرائيلية تقدما مماثلا . وبقدر ما تخفق السياسة الاميركية في احراز تسويتها مع العرب، تستخدم واشنطن الاحتلال الصهيوني لتحطيم المقاومة العربية المعيقة للتسوية الاولى .

هذا يعني ان واشنطن قد عملت على محورين متلازمين ومتساندين : فمن جهة وضعت العرب امام مسألة العدوان الى أن يتلاقوا مع مطامعها ومصالحها السياسية ــ الاجتماعية . ومن جهة أخرى اشترطت عليهم ان يتراجعوا عن الخط الثوري المعادي للرأسمالية والغرب ، من أجل فك أنشوطة المسألة الوطنية (الاحتلال) عن اعناقهم « خطوة ــ خطوة » . واستفادت ديبلوماسية كيسنجر في التعامل مع العرب من خلال موقف كهذا من تدخلها السريع ابان حرب تشرين لمصلحة اسرائيل ، سواء عبر الجسر الجوي الذي انقذ الجيش الصهيوني ، أم عبر تهديداتها المعلنة بأن تصفية الجيوب الاسرائيلية العسكرية ستؤدي الى المجابهة معها . هذا التلازم في السياسة الاميركية لمستويي ونوعي التسوية هو الذي يفسر التاكتيكات الاميركية المتنوعة ، وهو الذي يفسر التراجعات العربية المستمرة . فواشنطن لن ترغم اسرائيل على القيام « بخطوة » اخرى على طريق التراجع العسكري عن الاراضي العربية المحتلة ، حتى يقوم العرب « بخطوة » على طريق التراجع السياسي ــ الاجتماعي على طريق الثورة. وقد دلت التجارب التي شهدناها خلال العامين الماضيين على ان اميركا تعمل لتحديد حجم التراجعين المطلوبين : التراجع الاسرائيلي المطلوب عربيا ، والتراجع العربي

المطلوب اميركيا واسرائيليا . وقد عبرت وزارة الخارجية الاميركية عـن تلازم هذين التراجعين في قول شهير : قطعة ارض مقابل قطعة سياسة .

*

وسلكت واشنطن لتحقيق هذين النوعين من التسوية سبيلا تاكتيكيا بسيطا بدوره. فعملت أول ما عملت لجعل تصورها حول التسوية هو التصـور الوحيـد المقبول والفعال . وتجلى ذلك في اقتناع بعض الوجوه الهامة في الطرف العربي بأن اميركـا دون سواها من القوى والدول قادرة على تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي . وترتب على ذلك بداهة تراجع التصورات الاخرى حول التسوية الى الظل ، فغـاب المفهوم السوفياتي للتسوية عن المسرح ، وتراجع معه أيضا المفهوم العربي حول هذا الموضوع الذي كان يرى ، أيام عبد الناصر ، ان بالامكان تحقيق الانسحاب الاسرائيلي مع التمسك بالمنجزات الثورية التي حققتها الامة العربية خلال العقديـن الماضيين ، والذي كان يربط بين هذه المنجزات وبين الاعداد العسكري لمعركـة ترغـم العـدو الصهيوني على التراجع بالقوة ، فيما لو فشلت في اخافة حلفائه الاميركان من العواقب الخطيرة التي ستترتب على تطورها باتجاه اكثر راديكالية ، يقطع مع الراسمالية في الداخل والخارج ، ويدفع الثورة العربية على طريق الاشتراكية أكثر فأكثر .

وتجلت سيادة التصور الاميركي للتسوية بتعطيل دور الاتحاد السوفياتي في الجهود المبذولة للوصول الى تسوية للصراع الغربي ـ الاسرائيلي تنقذ قوى الثورة العربية من عبء المسألة الوطنية ، وتتيح لها بالتالي الفرص لالحاق اكبر قدر ممكن من الضرر بالتسوية العربية ـ الاميركية . فعطلت واشنطن مؤتمر جنيف تماما ، ثم شرعت في فصل الجبهات العربية الواحدة عن الاخرى لاضعاف الموقف العربي ، والحيلولة دون بروز تضامن قتالي عربي جديد كالذي جاء بانجازات حرب تشرين . كما شرعت فـي تقوية الموقف العسكري للعدو ، بحيث يفقد العرب آخر آمالهم في تحريـر اراضيهم بالقوة ، ويسيرون على طريق تسوية الصراع العربي ـ الاسرائيلي عبـر البوابة الوحيدة التي ستتبقى لهم : بوابة التسوية العربية ـ الاميركية . وتتناغم الاوساط الاسرائيلية الحاكمة مع هذه السياسة التي تتمركز على هدفين :

١ ـ اجراء تعديلات في حدود الصهاينة لعام ١٩٦٧ ، بحيث لا ينسحب جيشهم من الاراضي العربية المحتلة بكاملها .

٢ ـ تجاهل المشكلة الفلسطينية تماما كمشكلة سياسية والتعاطي معها كمشكلة لاجئين لم تعد لهم حقوق وطنية ، لانهم لم يعودوا شعبا بالاصل !

ماذا يترتب على هذه السياسة الاميركية ؟! .

١ ـ ان الاصل بالنسبة لواشنطن هو التسوية الاميركيـة ـ العربيـة وليست التسوية العربية ـ الاسرائيلية . فهذه فرع يرتبط بالاصل ، وجزء يرتبط بالكل ويوجد في اطاره فقط .

٢ ـ للتسوية الاميركية ـ العربية اولوية على التسوية العربية ـ الاسرائيليـة فالاولى ستحدد حجم ونوع الثانية ، بل وستحدد ما اذا كانت ستحدث أصلا .

٣ ـ لو فشلت التسوية الاميركية ـ العربية فان التسوية العربية ـ الاسرائيلية ستقلع عن أن تكون هدفا لسياسة واشنطن ، وسيتحول الجانب الاسرائيلي من مفاوض الى محارب مهمته اكراه العرب على الدخول في وضع لا مفر لهم فيـه مـن القبول بالتسوية مع اميركا ، بشروط هذه ووفقا لمصالحها . السيف الاسرائيلي لم يرفع اذن

عن رقاب العرب ، ولن يرفع عنها ، حتى ترى اميركا ان مصلحتها رفعه ، وهي لن ترى ذلك مطلقا . وقد شجعت التنازلات العربية التي قدمت لاميركا ولا تزال تقدم لها على الصعيدين السياسي والاجتماعي على الاعتقاد ، في واشنطن،بان القوة الاسرائيلية التي استخدمت في عدوان ١٩٦٧ كانت السلاح المناسب لاخضاع العرب وارغامهم على القبول بتسوية مع مصالحها . واميركا تؤمن الآن بأن القوة الصهيونية قد افادتها في امتصاص الطاقة الثورية العربية ، وفتحت لها الطريق لاستعادة ما خسرته طوال عقدين ، ومكنتها من ممارسة دورها الجديد لترتيب اوضاع المنطقة في مصلحتها . وهي لا ترى مانعا من شق طريقها السياسي مجددا بالقوة المسلحة ، سواء كانت لاسرائيل ام لسواها من القوى التي داخل المنطقة ومن حولها . ان كيسنجر يؤمن بالتفاوض من مركز قوة ، ولكنه في الصراع العربي — الصهيوني لم يعزز القوة الاسرائيلية من اجل تحسين مواقعه ومواقع تل ابيب في التفاوض مع العرب وحسب ، بل عززها من اجل قطع الطريق على العرب ، لو فكروا في ترك التفاوض والعودة الى ميدان القتال .

التسوية الاميركية تتضمن اذن مصالح الطرفين الاميركي والاسرائيلي ، فهي ترتب اوضاع المنطقة بما يفيد المصالح الراسمالية ويحميها ، وبما يضعف الموقف العربي في الصراع المرحلي والتاريخي مع العدو ، ويحفظ للصهاينة اطماعهم في توسيع رقعة كيانهم على حساب العرب ، ويوكل اليهم دورا عسكريا هاما في الاشراف على الوضع الجديد ، المرتب ، فيمنحهم ، في نفس الوقت ، الفرصة لممارسة عدوانيتهم على العرب ، اذا فكر هؤلاء بتحرير أنفسهم من قيود واشنطن الجديدة ، وبمواصلة الثورة . والعدوانية الاسرائيلية تعني في العادة التوسع . ان اسرائيل كما تريد لها اميركا ، ستضمن لنفسها وضعا لا تتهددها فيه اية اخطار عربية تذكر ، مع استمرار قدرتها في الهيمنة على جيرانها بوسائل غير عنيفة ، واستمرار قدرتها على استخدام الوسائل العنيفة ، متى اريد لها أن تستعملها .

*

لقد استجاب الاسرائيليون لهذا « التوجه الاميركي الجديد » بتوجه سياسي جديد . صحيح ان بعض الاطراف السياسية قد عارضته في البدء لظنها بانه سينهي الدور التوسعي لاسرائيل . ولكنها لم تلبث ان وجدت فيه حلا للمشكلة التي كانت قد بدأت تؤرق الكيان الصهيوني ، وهي مشكلة استخدام العنف المسلح دون مردود سياسي مباشر ، مما أدخل الكيان الاسرائيلي في حلقة مفرغة من عبثية العنف، وجعلهم يقتنعون بان « حرب الايام الستة » لم تنته ولن تنتهي ، وبان دائرة العنف قد تقفل ذات يوم لمصلحة العرب ، فتكون المعركة الاخيرة الخاسرة التي لن يسمح لاسرائيل بسواها ، على حد قول صائب لبن غوريون . ان التوجه الاميركي يؤمن للكيان الصهيوني ، ولاول مرة في تاريخه (وربما لآخر مرة) فرصة الخروج من هذه الحلقة المفرغة ، ويقدم لها ما طمحت اليه دوما ، وعبثا : تحقيق منجزات سياسية يعترف بها العرب ، كاعترافهم « بحقه » في الوجود السياسي ، واعترافهم « بامنه » ، وادخاله في « نادي دول الشرق الاوسط » . وهذه اهداف سياسية كانت من جملة ما سعى الصهاينة اليه بعد حرب حزيران ، وعجزوا بقوتهم العسكرية عن فرضه . هذا مع العلم بأن هذه المكاسب السياسية ستحول العرب من مجابهين بالقوة لاسرائيل ، الى حراس بالفعل لكيانها. اما الميزة الثانية التي وجدتها اسرائيل في توجه واشنطن ، فهي انطلاقة من قوتها بوصفها أهم قوة ستسهر على حماية الوضع الجديد . وهذا يعني بكلمات قليلة انه

لن يضعها امام دور جديد كانت تخشى من أن يكون متنافيا مع طبيعتها ، بل سيوكل لها مجددا دورها القديم وسط ظروف وعلاقات جديدة كانت تطمح هي بالاساس لايصال العرب اليها .

لقد فهم الصهاينة دورهم الجديد ، وادركوا صحة ونجاعة المخطط الاميركي . وعبر ذلك عن نفسه في تعزز مركز حكومة رابين « المعتدلة » ، وفي التفاف مختلف الاوساط البرلمانية حول دورها في « الحلول » الاميركية ، وخفوت الاصوات التي كانت تنكر عليها حقها ، وهي حكومة اغلبية الصوت الواحد ، ان تقرر في قضايا تمس « مصير اسرائيل ومستقبلها » . كما اختفت اللهجة التي كانت تتهم رابين بالعنف والعجز ، وحلت محلها لهجة اخرى حولته الى رجل يملك صفات قيادية لا بأس بها . واذا كانت لا تزال لدى الصهاينة تحفظات حول هذه النقطة او تلك من السياسة الاميركية ، فانها تعالجها بالضغط على الحكومة الاميركية عبر اجهزتها في واشنطن ، ولكنها لا ترفض هذه السياسة ، او تعمل علي احباطها ، كما يوحي لنا أصدقاؤها من العرب بين حين وآخر ، بقصد تبييض صفحتها واظهارها بمظهر موال للمصالح العربية ، لا بل متحرق على تخليص امتنا من مشكلة الاحتلال، التي لا تنظر اميركا اليها كمشكلة رديفة، كما يقولون ، بل تعمل على كنسها من طريق علاقاتها بالعرب .

*

كيف عمل الاميركان والاسرائيليون على تطبيق « السياسة الجديدة » ؟! . تدل مجموعة السياسات المرحلية (التاكتيكات) الاميركية — الاسرائيلية عن أن هم واشنطن وتل أبيب الاول ليس ايجاد تسوية للصراع العربي — الصهيوني . ويمكن اجمالا تقسيم هذه التاكتيكات الى نوعين :

١ — تلك التي استخدمت قبل فصل القوات على الجبهة المصرية .

٢ — التاكتيكات التي تلت فصل القوات ، وما زلنا نعيشها حتى الان .

وقد امتازت تاكتيكات ما قبل فصل القوات بميزة أساسية كان اللين والتساهل طابعها العام . فقد اعلنت واشنطن استعدادها في القرار ٣٣٨ للعمل على **التنفيذ الفوري** للقرار ٢٤٢ الذي تضمن فيما تضمن انسحاب القوات الاسرائيلية من « اراض عربية محتلة » . ومن المعروف ان سياسة واشنطن قد قامت بعد ١٩٦٧ على اولوية الامن الاسرائيلي ، وليس على اولوية الانسحاب الاسرائيلي. وتساهلها في القرار ٣٣٨ يتجلى في أنها تخلت عن نهجها السابق (أمن فانسحاب) الى نهج جديد يقوم على ربط الامن بالانسحاب والانسحاب بالامن . وهو نهج مكنها ولا زال يمكنها من استخدام مجموعة متنوعة من الاساليب والحيل والطرق الديبلوماسية التي تسهل لها عملية الوصول الى التسوية الاميركية — العربية .

ولم تكن اسرائيل بعيدة عن هذا الاسلوب ، فجيشها كان متورطا ، على الجبهة المصرية ، ومحاصرا داخل جيب من الصعب الدفاع عنه . وكانت العسكرية الصهيونية تعمل لانقاذ عشرات آلاف الجنود المحاصرين ، وعشرات الآلاف الذين اوكلت اليهم مهمة التدخل العسكري في حالة اشتعال القتال من جديد ، انقاذا لجنود الجيب . وكان ضروريا « سحب » هؤلاء لاعادة تدريبهم وتسليحهم ، ولتسوية خط الجبهة العسكري الذي هدد ، كما أسلفنا ، توازن الجيش برمته .

غير أن التساهل « النظري » الذي عبر عن نفسه في القرار ٣٣٨ لم يقابله تساهل

فعلي في التطبيق ، الا على الجبهة المصرية . فقد كانت واشنطن تعمل لامساك زمـــام التسويه بيدها وحدها ، وبجعل العرب يقبلون فكرة الحلول الجزئية (سياسـة خطوة ــ خطوه) والمنفرده . وكان نجاحها في تحقيق هذين الهدفين جوهريا بالنسبة لهـــا ، فهو بوابتها الى فرض تسويتها الاميركيه ــ العربيه اولا ، وهو اختبار لمدى قبول العرب بنوجهها السياسي الجديد ثانيا . وقد مكنها فصل القوات على الجبهة المصرية من ان تستعيد علاقاتها مع مصر ، كما مكنها فصل القوات على الجبهة السورية من استعادة علاقاتها مع سوريا . وكان هذان الحدثان ، بالبداهة ، أول خطوة على طريق التسوية الاميركية ــ العربية ، بالنسبة لواشنطن .

بعد فصل القوات على الجبهة المصرية كانت ثغرة واسعة قد انفتحت في جـــدار الموقف العربي الواحد ، والتضامن **القتالي** العربي . وجاءت مرحلة مـــن الاعلانات الاسرائيلية بعدم الرغبة في الانسحاب من الجولان كانت أول اعلانات تصدر عن العدو حول نيته في تحويل **التنفيذ الفوري** للقرار ٢٤٢ الى مسألة في ضمير الغيب . ممـــا اضطر سوريا الى خوض حرب حقيقية في الجولان استمرت مع بعض التقطع قرابـــة اربعة اشهر ، قبل أن يخلي الصهاينة الجيب الذي احتلوه خلال حرب تشرين علـــى الجبهة السوريـــة .

لقد وضعت التاكتيكات الاميركية ــ الاسرائيلية ، مع فصل القوات ، الاساس لشق الصف العربي ، فبين اللين هنا ، والتشدد هناك ، وجدت كل دولة من دول المواجهة التشرينية نفسها تسير في طرقها الخاصة . وكان هذا هو النجاح الاميركي الاكبر ، كما كان في نفس الوقت نجاحا لسياسة العدو الصهيوني الذي كسب خلال ذلك وقتا مكنه من لمّ وضعه الداخلي ، وتسليح جيشه ، وخلق الاساس السياسي والعسكري للنهج الذي سيطبق فيما بعد ، نهج التشدد والتحدث من مواقع القوة .

ومكن فصل القوات ، بالصورة التي تم بها ، اميركا من احتلال وضع في سياسات المنطقة يمنحها الفرص للشروع في ربط التسوية العربية ــ الاسرائيليـــة بالتسويـــة الاميركية ــ العربية . فقد قبل العرب لاول مرة بدورها كوسيط في الصراع العربي ــ الصهيوني ، بعد ان عاملوها طوال قرابة ثلاثة عقود كطرف معاد رئيسي فيه . وكان فصل القوات بالصورة التي عشناها ، برهانا آخر على أن الدول القطرية العربية تضع مصالحها الضيقة فوق مصالحها القومية ، لانها لا تنظر الـــى الصراع العربـــي ــ الصهيوني كتناقض عدائي بين **الامة العربية** وبين الامبريالية وكيانهـــا الاستيطـــاني الدخيل ، وتضع مقولات الجغرافيا فوق مقولات السياسة التي يمليها مثل هـــــذا التنـــاقض .

من هذه النقطة بالذات بدأت الامبريالية الاميركية واسرائيل العمل بعد ذلك ، اي بعد فصل القوات . فقد توصلت اميركا الى الامساك بزمام التسوية ، الـــى فرض تصورها حولها ، وشرعت تعمل وفق مبدأ قطعة أرض بقطعة سياسة ، أو ما أسميناه تنفيذ خطى على طريق الصراع العربي ــ الصهيوني ــ جزئية ومنفردة طبعا ــ تتحدد على ضوء الخطى التي يقطعها العرب باتجاه واشنطن أولا ، وتل أبيب ثانيا .

في هذه المرحلة ، مرحلة ما بعد فصل القوات ، لم تجد واشنطن نفسها مهتمة بايجاد حل سريع لمشكلة الخطوة الثانية . فقد استغلت الخطوة الاولى عن طريق « تسوية » الصراع العربي ــ الصهيوني من اجل دفع العرب خطى عديدة على طريق التسوية

الاميركية ــ العربيه . وصار هذا المستوى من التسويه يحتل الآن أولويته التاكتيكية والاستراتيجيه بالنسبه لها . وتدل الاحداث التي تشهدنها بعض الاقطار العربيه بعد « فتسل » مهمه كيسنجر في ادار الماضي على الاتجاه الذي تهب رياح التسويه الاميركية اليه ومنه .

ما هي أخيرا أهداف التسويه الاميركية ؟ . ذات مره قال كيسنجر ان تسوية الصراع العربي ــ الصهيوني من منظورات موازين القوى الراهنة في المنطقة لن يكفل للصهاينه الحياه ، فالعرب امه كبيره تملك امكانات اسطوريه ، ولها حضاره تدل على ان التخلف ليس سوى مرحلة لن تلبث ان تتخلص منها . وأكد ان الضمانة الوحيده لبقاء اسرائيل تكمن في ترتيب واعاده ترتيب الاوضاع العربية ، كلما بدا أن التطور العربي بات يهددها(١) .

وتعتقد واشنطن ان ثمة فرصة تاريخية نادرة متاحة لها . فمن جهة تعززت وتقوت مراكز القوى المحافظه العربية نتيجه لثرواتها الطائلة ، وتعزز دورها في مجمل السياسة العربية ايضا . ومن جهه اخرى برزت في الكيان الصهيوني قيادة تتفهم ضرورة ايجاد « دور جديد » لاسرائيل في المنطقة لا يستند أساسا الى القمع المسلح ، بل الى مجمل الفعاليات التي يمكن لمجتمع متقدم أن يمارسها ، دون حرمانه من دوره العسكري . وهناك من جهه ثالثة أرضيه سياسية واجتماعية جديدة في بعض الاقطار العربية التي كانت مسرحا لحركة ثورية عنيفة طوال العقدين المنصرمين ، جوهرها العداء للراسمالية العالمية والاستعداد لمعركة تاريخية مع ركيزتها الصهيونية . وتتجلى هذه الارضية في استعداد بعض القادة العرب لانهاء هذه المعركة ، والوصول الى « تسوية » مع اسرائيل والمصالح الغربية . وترى واشنطن انه لا بد من ايجاد نقاط تقاطع بين هذه الاتجاهات الثلاثة ، تستند الى اوضاع ومصالح مشتركة تدرأ من جهة خطر تجدد المد الثوري ، وتعتمد من جهة اخرى على حالة من الاستقرار تحمي المصالح الاميركية. ولا تجد اميركا محيدا عن تقريب هذه الاتجاهات بعضها من بعض على أرضية اجتماعية ــ سياسية تنشط التطور الراسمالي والمعتدل في المنطقة بأسرها . واذا كانت سياسة اميركا قد صنعت الكثير على المحورين الاولين ، محور القوى المحافظة واسرائيل ، فانها تبذل الان معظم جهودها « لتسوية » مع المحور الثالث . وعلى نجاحها في جهودها هذه او فشلها يتوقف موضوع تسوية الصراع العربي ــ الصهيوني برمته ... وويل لمن لا يفهم اشارات العصر الاميركي ، كما تريده وتعمل له واشنطن ؟! .

---

١ ــ من حديث نشرت جريدة الجمهورية مقتطفات منه يوم ١٤ ايار ١٩٧١ ، وكان مع رؤساء تحرير بعض الصحف الاميركية .

تسوية سيناء
وأوهام التسوية «الوطنية»

هاني مندس

لم تترك صفقة «التسوية الجزئية» ، في سيناء ، مجالا للتأويل او الابهام عن المخاطر الفعلية التي شكلتها في وجه مسيرة النضال التحرري الوطني في مصر وسائر المنطقة العربية . لذا ، اجمعت مختلف تنظيمات حركة المقاومة الفلسطينية واحزاب وتنظيمات الحركة الوطنية، في اللحظة الراهنة ، على اتخاذ موقف الشجب الوطني لهذه الصفقة. الا ان منهج ومنطق الشجب السياسي الوطني لهذه الصفقة تراوح تبعا لتباين الخطوط السياسية ، التي يطرحها هذا التنظيم السياسي او ذاك ، في مواجهة المعضـــلات الرئيسية للنضال الثوري ، لا سيما معضلات الصراع مع اسرائيل والامبريالية وطريقة فهم طبيعة التسوية الدائرة في المنطقة العربية بعلاقتها بموازين القوى الخ...

فازاء مواقف الاستنكار والدهشة والادانة السياسية ذات الطابع الاخلاقي لصفقـــة التسوية الجزئية ، نجد ايضا مواقف التفسير الجزئية الميكانيكية الشكلية ، مما يضفي دلالة نوعية خاصة وحاسمة على أهمية بلورة وابراز الموقف العلمي الثوري القـــائم على فهم المسار الموضوعي التاريخي لحركة القوى الطبقيـــة في البلدان العربيـــة ، وبالتالي ، طبيعة الصراع والتسوية الدائرة في المنطقة .

مخاطر ودلالات صفقة « التسوية الجزئية » :

تعبر نصوص اتفاق التسوية الجزئية بوضوح كامل عن الخضوع للشروطالاسرائيلية الامبريالية في أكثر من مجال . فالاتفاق ، كما جاء في بيان اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي لمنظمة التحرير ، « لم يكن على الاطلاق مجرد خطوة عسكرية في اطـــار ما يسمى بفصل القوات ، بل هو في حقيقته اتفاق سياسي يجمد حالة الحرب مع العدو الصهيوني على جبهة واحدة ، ويرفع عنه الحصار العسكري والاقتصادي لتفتح الطريق امام التعامل معه ... كما ينطوي هذا الاتفاق على أخطار حقيقية تهدد السيـــادة القومية ومستقبل النضال الوطني ، وذلك بالموافقة على الوجود الامريكي في سيناء ، ومحاولة تقليص القوات المسلحة العربية كما تضمن مساسا واضحا بقضية فلسطين والحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وذلك بالموافقة على انهاء حالة الحرب ورفع الحصار العسكري والاقتصادي عنه والاعتراف الضمني بشرعية كيانه والسماح بمرور بضائعه في قناة السويس .. » (الصحف ، ١٩٧٥/٩/١١).

الا ان الاشكال الذي يعنينا هنا ليس الاكتفاء بوصف وادانة ما يدور ، بل بتبيـــان اسباب استجابة النظام المصري للشروط الاسرائيلية الاميركية لابرام هذه الصفقة ، وبالتالي شكل هذه الاستجابة بمخاطرها ودلالاتها السياسية .

وسنبين اولا كيف ان الاتفاقية ، في اساسها ، هي **اتفاقية بالشروط الاسرائيليـة الاميركية** .

في اعقاب فشل مهمة كيسنجر في شهر آذار الماضي أخذت الصحف والتعليقـات الرسمية الاسرائيلية تتحدث عن ان الموقف المصري هو السبب في افشال المفاوضات وذلك بسبب « عدم الموافقة على مطالب اسرائيل بانهاء حالة الحرب ، وتحديد مـدة مقبولة للاتفاقية ، وتعيين اطقم مشتركة للمراقبة واعطاء ضمانات بعدم استخـدام القوة ». (هآرتس ، ١٩٧٥/٣/٢٤).

وان **اسرائيل « رغم انها تضع في حسبانها مصالح الولايات المتحدة في تدعيم النفوذ الامريكي في المنطقة ، الا انها تضع الى جانب ذلك معطيات أمنها ، ولن تسلم سيناء دون مقابل »**. (هتسوفيه ، ١٩٧٥/٣/٢٤).

أما عن الاسباب التي تحفز اسرائيل والولايات المتحدة لتحقيق تسويات جزئيـة منفردة مع مصر ، فهي كما يقول الكاتب الاسرائيلي يوسف شتيل : « ان عقد اتفاقية جزئية مع مصر من شأنه كسب الوقت . فاذا أمكن عن طريق الانسحاب من سيناء تأجيل القضية الشاملة لمدة عامين او ثلاثة فيجب الاقدام على ذلك لسببين ، اولهما توقع تضعضع قوة العرب ، والثاني ، اعطاء أنفسنا فرصة للتفكير » (عل همشمار ، ١٩٧٥/٢/٢٨).

ويقول ارييل غيناي في الصدد نفسه : « **كسب الوقت يخدم المصالح الاسرائيلية ، وهو يخدم مصالح الولايات المتحدة ويأمل كيسنجر ان يؤدي ذلك الى عزل مصر عن سورية وتعزيز المحور المضاد للشيوعية** ». (يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٥/٢/٧).

وفي المداولات السياسية التي جرت مؤخرا في مؤسسات التجمع الحاكم « المعراخ » اعلن رابين رفضه للعودة الى حدود ١٩٦٧ ، وأشار الى عزم اسرائيل على البقاء في شرم الشيخ والرصيف الساحلي الموصل بينه وبين ايلات ، وفي الجولان وبشكل ما في الضفة الغربية ، ورفض التعامل مع منظمة التحرير . (عل همشمار، ١٩٧٥/٥/٢٨).

وقد اماطت الصحف الاسرائيلية اللثام عن التوجيهات التي اقرتها الحـكومة الاسرائيلية يوم ١٩٧٥/٦/٨ وهي كما ذكرتها صحيفة « هتسوفيه » الاسرائيلية في ١٩٧٥/٦/١١ ما يلي :

« ١ ــ ضرورة وجود بديل سياسي لقاء أي انسحاب اسرائيلي، **فلكل منطقة تنسحب منها اسرائيل ثمن سياسي** .

٢ ــ الاتفاق ممكن اذا كان السادات مستعدا لدفع الثمن .

٣ ــ التنازل عن مطلب انهاء حالة الحرب ، مقابل التمديد لقوات الطوارىء ما بين ٣ ــ ٤ سنوات .

٤ ــ ضرورة وجود مناطق مجردة بالاضافة الى تعزيز قوات الامم المتحدة .

٥ ــ عد مارتباط الاتفاقية بالاوضاع على الجبهات الاخرى .

٦ ــ الغاء المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل من جانب مصر .

٧ ــ حرية الملاحة للسفن الاسرائيلية في قناة السويس .

٨ ــ تخفيف الضغط الذي تمارسه مصر على الدول الافريقية ، ودول العالم الثالث لعدم اقامة علاقات مع اسرائيل ».

وقبل توقيع الاتفاقية بأيام قليلة كتبت صحيفة دافار « علينا ان نتابع تصرفات مصر في مؤتمر عدم الانحياز في ليما عاصمة البيرو ، حيث ستجري محاولات لتعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة ». (دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٥). والجدير بالتنويه ان نفس المتابعة لموقف مصر ، من مسألة تعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة ، كانت له الاستجابة المعروفة في كمبالا ايضا .

الواقع ان اسرائيل تعتبر الاتفاقية بأكملهــا صفقة ممتــازة . « **ان اسرائيل تعتبر الاتفاقية بأسرها صفقة كاملة** ولذلك فان **خط الانسحاب يعتمد على البديل (السياسي) المصري والضمان الامريكي** ». (هآرتس ، ١٩٧٥/٧/١٤).

وكما صرح مصدر اسرائيلي كبير « من المعروف ان الذي لا نحصل عليه من مصر نستعيض عنه بالالتزام الامريكي ». (عل همشمار ، ١٩٧٥/٧/١٨).

اما بخصوص **التباين بين الموقف الامريكي والموقف الاسرائيلي** بصدد التسوية فهو تباين درجي اساسه قائم على ضرورة المزج والجمع بين مصالح اميركا بعلاقتهــا باتباعها القدامى والجدد وبين المحافظة على بقاء وأمن اسرائيل كعصا غليظة في يد الولايات المتحدة في المنطقة العربية . لقد « تبنى » رابين بعد عودته من الولايات المتحدة في حزيران الماضي « فكرة وزير الخارجية الامريكية هنري كيسنجر القائلة، ان **المصلحة الاسرائيلية تقضي بملازمة المصالح الامريكية في الشرق الاوسط** ». (هآرتس، ٢٠/٦/ ١٩٧٥).

وقبل ان يغادر كيسنجر الولايات المتحدة ، متوجها الى اسرائيل ، عقد اجتماعا مع زعماء اليهود في الولايات المتحدة الاميركية شرح خلاله الاهداف السياسية للاتفاق الذي يسعى الى عقده في سيناء **قال كيسنجر** : « لم أغضب عندما رفضت اسرائيل الموافقة في شهر آذار (مارس) على الشروط التي كانت معروضة عليها . **ومــا هو معروض عليها لقبوله اليوم هو أفضل** . واستطيع ان اقول **ان موقف اسرائيل لم يتبدل خــلال الشهور الاخيرة ، ولم يطلب منها ان تتنازل عن أشياء كثيرة .. ان خط التسوية المقترح في سيناء هو ((خط اسرائيلي)) رسمته اسرائيل** ولم تقم أميركا برسمه . ولكن اذا ابرز يهود الولايات المتحدة هذه التسوية الجزئية كعملية رضوخ اسرائيلي ، فان العــرب سيحثون الولايات المتحدة على الضغط عــلى اسرائيل .. **ان الدبلوماســية المصرية تعهدت بعدم خوض حرب ، واذا لم تلتزم بما تعهدت به ، فانها تخرق التزاما تعهدت به للولايات المتحدة** . وحتى اذا انضمت مصر للحرب ، التي قد تقع بين سوريا واسرائيل بعد مدة وجيزة فان هذه الفترة الزمنية مهمة لاسرائيل ». (مجلة البلاغ اللبنانيــة ، العدد ١٨٩ ، ٢٥ آب الى ١ ايلول ، ص ٨ ، ٩).

لقد حققت الاتفاقية لاسرائيل والولايات المتحدة مكاسب سياسية ممتازة منهــا : (١) توطيد نفوذ الولايات المتحدة الامريكية في المنطقة ، (٢) الوجود الامريكي المباشر من خلال «الفنيين». (٣) التعهد بعدم استخدام القوة واعتماد الاساليب الديبلوماسية في مواجهة اسرائيل . (٤) اضعاف موقف سوريا والمقاومة الفلسطينية بسبب تهدئــة الاوضاع على الجبهة المصرية طيلة سريان مفعول الاتفاقية (٣ سنوات) (٥) تحييد مصر في الجهود المبذولة لعزل اسرائيل عالميا . (٦) الطابع السياسي للاتفاقية بمــا يتضمنه من اعتراف ضمني باسرائيل . (٧) بقاء اسرائيل في السفوح التي تشرف على الممرات في سيناء ، الى جانب ضآلة المساحة الفعلية التي انسحبت منها اسرائيل ، وصعوبة الوضع العسكري المصري في حال نشوب قتال جديد . ولقد صرح رابــين بان « الاتفاق المرحلي مع مصر يشير الى تغيير في العلاقات بين اسرائيــل وجارتهــا

الكبرى والرئيسية ، من حيث كونه **تعهدا ، صريحا وتعاقديا ، بعدم استخدام القوة ، وحتى بعدم التهديد باستخدامها** ... ان التغيير المتوقع في نظام العلاقات بين اسرائيل ومصر ، ليس عسكريا فقط ، وانما هو **تغيير ذو اهمية سياسية كبيرة ، ويفتح أمام اسرائيل امكان التحرك بحرية اكبر ازاء باقي جاراتها** ومن خلال القدرة على اتخاذ موقف صلب » . (دافار ١٩٧٥/٨/٢٤) .

أما بيريز وزير الدفاع فقد صرح في خطاب القاه امام خريجي كلية القيادة والاركان بان « **مصر** قدمت اشياء كانت تبدو لها في السابق مستحيلة : **وافقت على أن الاتفاق المرحلي قائم بحد ذاته** ، وليس مرتبطا بجدول زمني لانسحابات اسرائيلية ، واتفاقيات مع دول عربية اخرى . ووافقت على انتشار جغرافي ، في منطقة الاتفاق ، **ميزته** المدنية واضحة ، ولكن اهميته العسكرية بالنسبة اليها تنطوي على اشكال . **فالانتشار المصري على طول الخط الضيق بين خليج السويس والجيش الاسرائيلي هو بالنسبة الى مصر انتشار مدني محض** .. واستبدلت مصر مطالبتها بالمرين ، بالموافقة على انتشار مختلف فيهما ، قائم على وجود اميركي مستقل عن الامم المتحدة، ومحطات انذار اسرائيلية ومصرية وامريكية . وهذا اتصال فريد في نوعه . اما اسرائيل فقد تنازلت عن حقول النفط في ابو رديس ، وسلمت الامم المتحدة مناطق ممري الجدي ومتلا .. ان الاتفاق يخلق فرصة امام تشكل وضع جديد في الجنوب ، وربما في المنطقة كلها » . (هآرتس ١٩٧٥/٨/٢٩) .

وقد ذكر يتسحاق نافون ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية والامن في الكنيست ان الاتفاق « يمكن ان يكون بداية تغيير الوضع السياسي في الشرق الاوسط ، باتجاه قبول العرب بوجود اسرائيل ، أول مرة منذ ١٩٤٨ ، وهو يعني ، على صعيد العلاقات بالعالم ، اخراج اسرائيل من العزلة التي تعيشها في مختلف القارات » . (دافار ١٩٧٥/٨/٢٢) .

وتوقع نافون ان الموضوعات المعلقة مع دول عربية بصدد خطوات التسوية ستثار كلها وتجري « في جو مختلف تماما ، بعد ان يصبح أحد اضلاع المثلث — مصر — خارج المناخ الحربي » .

وصرح آلون ان الاتفاق « لن يؤدي » الى اضعاف اسرائيل من الناحية العسكرية والسياسية . والتنازل الذي اقدمنا عليه في سيناء ، لا يتجاوز سدسها أو سبعها » . (هآرتس ١٩٧٥/٨/٢٦) .

وقد عكست صحيفة دافار في افتتاحيتها ١٩٧٥/٨/٢١ الجو العام في الاوساط الرسمية الصهيونية ازاء الاتفاق فكتبت « يجب ان نذكر ان **فكرة الاتفاق المرحلي بالذات ، هي فكرة اسرائيلية** » وعلى الرغم من كل التنازلات الاقليمية المطلوبة منا ، **هناك في مسودة الاتفاق وملاحقها ، بنود يمكن ان تلبي المصالح الحيوية لاسرائيل** » . وذكر ماركوس في صحيفة هآرتس ١٩٧٥/٨/٢٩ ان ميزة الاتفاقيات المرحلية هي انها « تخفف ، اكثر فأكثر ، من الدوافع الى شن الحروب .. وتزيد من ضمان الدول الكبرى ، وخصوصا الولايات المتحدة ، لتوازنات المنطقة .. وتعود الاعداء على امكان التسليم بالواقع » .

واعرب اريئيل غيناي في صحيفة يديعوت احرونوت ١٩٧٥/٨/٢١ عن رأيه في ان الاتفاق هو افضل البدائل القائمة امام اسرائيل . واضاف ان حقول نفط أبو رديس ستتصل بالمواقع المصرية في السويس بواسطة ممر فيه طريق واحد سيكون مفتوحا أمام المدنيين المصريين فقط . وبذلك « **ستكون ابو رديس بمثابة منطقة رهينة في يد**

اسرائيل ، وهذا معناه ان المصريين سيجازفون بخسائر كبيرة ، اذا خرقوا الاتفاق » وهناك ايضا « وجود الامريكيين في مراكز المراقبة ، في الطرق والممرات ، وهناك طبعا الوجود الاسرائيلي في أم خشيبة » **ويزيد من فعالية الوجـود الامريكي ((كونه غير مرتبط بالامم المتحدة وبالتفويض الممنوع لقواتها .. ان المعونات والضمانات الامريكية الكبيرة ، لن تؤدي الى المحافظة على القدرة الامنيـة الاسرائيلية فقـط ، وانما الى تعزيزها ايضا))** . اما حقيقة « المدنيين » الامريكيين في سيناء ، فقد ذكرت مجلة التايم الامريكية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٧٥/٩/٨ « ان هناك مدرسة اميركية واحـدة لتدريب خبراء اجهزة الحرب الالكترونية وهي **المدرسة الحربية** . ففي خلال حـرب فيتنام لم يدرب البنتاجون فيها فرق مخابراته فقط ، بـل ايضا فرق الـ C.I.A. وفنيي جهاز الامن القومي على فن الرقابة الالكترونية للمواجهة ، وبعض هؤلاء يمكن ان يكون صالحا لاداء المهمة في سيناء .. **لا يتوقع البنتاجون ووزارة الخارجية وجود نقص في المتطوعين . فالعديد من العناصر السابقة في الجيش التي خدمت في المنطقـة المنزوعة السلاح في فيتنام يتطلعون للعودة الى سحر عالم الرادارات الالكترونيـة واقمار التجسس الصناعية** ، وهم يتطلعون ايضا الى رواتب تصـل الى اكثر مـن ٤٠,٠٠٠ دولار في السنة . وهناك دافع اخر هو امكانية العمل على اجهزة رقـابة اسرائيلية توفر التقاط رؤية الكترونية من خليج السويس في الجنوب انتهاء الى البحر الابيض المتوسط في الشمال حيث يتضمن النقاط انتينات موجودة في لبنان وسوريا . **وهذه الاجهزة ستكون اكثر تطورا بكثير مـن خط مكنمارا القديـم في فيتنـام ..** » بالاضافة لذلك هناك ، ايضا ، « رادار جديد يمكن من التقاط اهدافه التي تكون عادة خارج مجال الرادار . وجهاز تصوير حراري يستطيع ان « يرى » الاعداء على مجال بعيد وفي ظلام كامل بواسطة الاشعة ما تحت الحمراء التي يبعثها الجهاز ، وذلك من خلال التقاط الحرارة سواء المنبعثة من جسم الانسان او المحركات الآلية المختلفة » .

وهكذا ، بعد ان بينا ، بالشواهد والادلة ان اتفاقية سيناء هي اتفاقية معقـودة بالشروط الاسرائيلية الامريكية ، (وذلك من خلال وجهتي النظر الاسرائيلية والامريكية لهذه الاتفاقية) سننتقل الى معالجة **اسباب استجابة النظام المصري لهذه الشـروط** وذلك من خلال التصدي لعدد من الاطروحات السياسية الخاطئة حول طبيعة التسوية والمرحلة الراهنة .

الاوهام النظرية والسياسية :

لقد كان موقف الاندهاش ، ازاء الدرجة او الحد الذي ذهب اليه اتفاق سينـاء ، يعبر عن وجود أوهام نظرية وسياسية ، لـدى العديـد من التنظيمـات والاحزاب الوطنية ، وذلك لجهة فهم عدد من المعضلات السياسية الرئيسية التي تواجه مسيرة النضال الثوري في المنطقة العربية عامة وفي فلسطين خاصة .

ان أخطر الاوهام ينبع من عدم وجود تحليل علمي للطبقـات والقوى في المرحلـة السياسية الراهنة ولطبيعة السلطة في مصر . وذلك حيث يجري الحديث عن وجود سلطة وطنية محدودة خاضت حربا وطنية « محدودة » أيضا ، وأدت بدورها الى نتائج ايجابية « محدودة » . وعندما يتم التساؤل لماذا يجري ، اذن ، « توظيف » كل هـذه النتائج الوطنية والايجابية ، ولو كانت « محدودة » ، في سياق سياسي معاد للوطنية ومتقارب ومتهاون مع اسرائيل والامبريالية والرجعية العربية ، يأتي الجواب ضمنيا ، ليفسر المسألة برمتها وكأن هناك سوء تقدير او غباء سياسيا عابرا لا بد ان يزولا من خلال القيام بدور الوعظ والارشاد السياسي لكي تحسن هذه السلطـة استثمـار

النتائج الايجابية للحرب ، ولعدم السماح « بجر » السلطة غير الراشدة والحيلولة دون « استدراجها » و « خداعها » من قبل الامبريالية الاميركية .

ولكن حين يمضي المزيد من الوقت ويتم بالمعاينة الملموسة ان هناك خطا سياسيا قويا لا « يتزحزح » ولا « يرغب » في استثمار هذه النتائج بالطريقة التي « يتمنون » فيها ان يستخدمها النظام ، فانهم يستدركون بانه لا بد ان يكون هناك اتجاه يميني موال لامريكا داخل النظام نفسه وهو السبب في « جر » السلطة الى أحضان ومواقع الحل الامريكي . وبالطبع ، هم ليسوا معنيين ، هنا ، بتوضيح كيف يمكن للاتجاه اليميني الموالي لامريكا داخل النظام ان ينمو ويتعزز في مناخ حرب وطنية « محدودة » ولها نتائجها الايجابية ، ذلك لان منهجهم المثالي لا يقوم على تحليل ورؤية المسار الموضوعي للطبقة الحاكمة ومصالحها في اللحظة الراهنة ، وعلاقة هذه المصالح بالسياسة والحرب (الحرب باعتبارها السياسة وهي تتحقق وتعبر عن نفسها ولكن بوسائل اشد عنفا) . كما انهم ليسوا معنيين ، تبعا لنفس منهجهم ، بتوضيح طبيعة المصالح الطبقية التي يعكسها الاتجاه الموالي لامريكا داخل النظام . فهل هذه المصالح الطبقية جزئية ، وعارضة عابرة قفزت فجأة ، وفي « غفلة » عن الاتجاهات « الوطنية » الاخرى داخل النظام ، الى مواقع التأثير على السلطة ؟ أم انها تعبر عن اتجاه المصلحة العامة لمجمل الطبقة الحاكمة في هذه المرحلة ؟ ومن الناحية الجدلية لا يهم اصحاب هذا النوع من التفكير المثالي معالجة اثره الخارجي على الداخلي . فهل « التآمر » — كما يطلقون عليه احيانا — او المخطط الامبريالي الخارجي يمكن ان يفعل فعله وتأثير بالداخلي دون ان يلتقي بمصلحة الداخلي نفسه في تقبل هذا التأثير ؟

ان **جذر الخطأ النظري** في منهج مثالي ميكانيكي شكلي كهذا ، انما يكمن في **عزل مسالة السلطة السياسية عن المصالح الطبقية التي تمثلها** . فالسلطة تقف ، هنا ، فوق الطبقات ومصالحها ، يتجاذبها هذا الاتجاه او ذاك ويحاول أن يؤثر في مسار حركتها ومواقفها بينما هي تقف على الحياد ، بريئة الميول ، لتتلقى التأثيرات المختلفة التي تنعكس عليها من هنا وهناك . ويبقى المهم ، والحالة هذه ، العمل على عزل تأثير الاتجاه اليميني الامريكي الرجعي حتى يرجع كل شيء الى نصابه وتعود السلطة، بالتالي ، الى نهج المواقف الوطنية (وان كانت « محدودة » .. اذ ان هذا هو ما تستطيع القيام به « بحكم آفاقها وحدودها » !) .

وكأن جوهر الخلاف ، كما يبدو هنا ، في فهم موقف الطبقات من المسألة الوطنية انما ينحصر في ضيق او حجم التأثير الكمي لا النوعي ، (بمدى سعة افق النظرة السياسية او ضيق افقها !) ، وليس من خلال رؤية مصالح هذه الطبقات في المسألة الوطنية وكيفية معالجتها لحل هذه المسألة .

فتبعا لمنطق وآلية هذا الطرح السياسي ، يظل الحكم على النظام يتحدد في ضوء مواقفه السياسية اللفظية وليس من خلال تفسير وتحليل مسار تطوره ككل ومعاينة مصالحه الطبقية في كل مرحلة وتبيان ماذا يعني غلبة اتجاه سياسي معين في مرحلة سياسية محددة . فهل ننظر اليه باعتباره الوجه الرئيسي أم باعتباره الوجه الثانوي الطارىء المؤقت والذي ينبغي ان يزول باي شكل وباي ثمن .. ولو كان على حساب تحديد موقف سياسي من السلطة ، وذلك خوفا من « استفزاز » الاتجاه اليميني ومنعا بالتالي من أحراج الاتجاه الوطني في النظام والذي يعمل في ظروف بالغة الصعوبة في آن واحد !.

وفي النهاية ، وكمحصلة لهذا المنهج الشكلي ، القائم على الاوهام بالفصل ، نجد

امامنا **الموقف اللا ادري أو الانتظاري** . وهو اخطر المواقف على الصعيد السياسي العملي ، اذ انه يفصح ضمنا او جهارا ، عن عدم امكانية التنبؤ مسبقا بالخطوات التي قد تقدم او تسير عليها السلطه في المستقبل ، لان ذلك يعتمد على مدى تأثير الاتجاهات المختلفة على السلطة . **فقد** يبرز في المستقبل القريب الاتجاه الوطني في النظام ويؤثر على موقف السلطة في حال فشل الاتجاه اليميني الذي يمارس تأثيره وضغطه على السلطة لانجاح « وتمرير » التسوية الامبريالية . والطريف في الامر ان **السلطة** تبدو هنا **كمتفرج** يشهد مباراة منافسة حامية بين الاتجاهات المختلفة !

وفي مرحلة سابقة ، وبفعل غياب التحليل العلمي لطبيعة الطبقة الحاكمة ، كان اصحاب هذا المنهج يفسرون القضايا على اساس ان الطبقة الحاكمة في مصر هي طبقة البورجوازية الصغيرة — التي لم تحكم يوما في اي بلد عربي او غير عربي — وهي طبقة « متذبذبة » المصالح والميول السياسية ، حيث نجد ان هناك تحولا مستمرا في المواقف لا يمكننا ان نحدد متى تحين ساعته (الا بعد ظهوره) . وذلك بفضل طبيعة « التذبذب » للطبقة البورجوازية الصغيرة « الحاكمة » . ثم « اكتشفوا » بعد ذلك ان الطبقة البورجوازية الصغيرة الحاكمة ، لا بد لها ان « تكبر » ، ولو بفعل مرور الزمن .. فأخذوا يطلقون عليها اسم بورجوازية الدولة « ذات الاصول البورجوازية الصغيرة » . وبدأ حديث « الاتجاهات » داخل الطبقة يأخذ مجراه بالصورة التي عرضناها .

واذا ما تأخر بروز الاتجاه الوطني داخل النظام لكي يقوم بضغطه على السلطة ويصحح مسارها ، فانهم « يستبدلون » ذلك بالجماهير لكي تمارس « ضغطها » على النظام لا بهدف قطع الطريق عليه ، بل من اجل « تصليب » موقفه الوطني في مواجهة السياسة الامبريالية .

وهكذا يظل عقد الآمال على السلطة « المحدودة الوطنية » محط الرحال ونهاية المطاف ، ولو كان ذلك بالرغم من « تعنت » و « عناد » النظام وضيق افقه وعدم استجابته لما يطرحون .

الا ان خطورة استخدامهم لنضال الجماهير في هذا المجال كعامل « تصليب » وكابح « للتنازلات » التي يقوم بها النظام ، تكمن في انهم لا يرون ، بالفعل ، افقا مختلفا جذريا ونوعيا لنضال الطبقات الشعبية تجاه المسألة الوطنية وسائر القضايا الاخرى. فالنضال الجماهيري الوطني من الممكن ، بالطبع ، ان يلجم أو يحد من أي تهادن أو تفريط وطني تقوم به الطبقة البورجوازية الحاكمة ، ولكن وظيفة ودور هذا النضال لا يقتصران على « اللجم » أو الحد ، بل يتجاوزانها الى استكمال شروط النضال والاطاحة بالوضع القائم كطريق وحيد من أجل تصحيح مسار المسألة الوطنية .

اما خطر الموقف اللا ادري الانتظاري فانه يضعف من روح اليقظة الثورية ويترك المجال للمراهنة على النظم والاوضاع القائمة وليس اساسا على نضال الجماهير الفلسطينية والعربية . ان النتيجة المنطقية لهذا الموقف عند اصطدامه بالواقع هو طغيان ردود الفعل المندهشة والاحكام الاخلاقية عليه اثناء تحليله لمسار الاوضاع .

وبالطبع ، فان الوجه الاخر للموقف اللا ادري الانتظاري هو سعادة **منطق المراهنة** البورجوازي الصغير . المراهنة على الاتجاهات او المؤسسات داخل النظام ،المراهنة على « ضغط » الجماهير من اجل « تصليب » مواقف البورجوازية وليس التصدي لها، المراهنة على تغير انقلابي فجائي ، المراهنة على النظم الاخرى غير المحددة الهوية وعلى القوى السياسية « الوطنية » التي ينسجها الخيال لا حركة الواقع .

ويلتقي هذا النهج ، في نهاية المطاف ، **بجـذر الطرح الايديـولوجي والسياسي البورجوازي القومي** ذي الطابع المثالي الاخلاقي وطريقة فهمه للقضايا والمعضلات . فما دامت الاتجاهات والقوى التي تم « المراهنه » عليهـا لم تستجـب « لدعوات استنهاضها ، وبالسرعة المطلوبه ، فانه ازاء هذا الفشل والاحباط والتخبط تجـري المراهنة على الاعتقاد بانه لا يمكن ان يجرؤ اي حاكم « عربي » على « توقيع » صك الخيانة والاعتراف باسرائيل والتبرؤ من القضية الفلسطينية بسهولـة . « فكـل » العرب لهم مصلحة في محاربة العدو الصهيوني . والصراع ، كما يطرح ، هنا ، هـو صراع عربي ـ اسرائيلي ، وليس صراعا ضد الامبرياليه بكافة اشكال وجودهـا ، وفي مقدمة ذلك الشكل الامبريالي الاستيطاني الصهيوني العدواني الخاص الذي تمثله اسرائيل .

ومن جملة ما يتجاهله هذا الطرح ، ايضا ، ان **الخيانة** لا تنحصر في مجرد التوقيع على الصك الاخير ، بل هي **طريق التفريط باسس الاستقلال السياسي والاقتصـادي للوطن** . كما يتغافل عن الاسس الموضوعية التي تجمع بين مصالح اسرائيل والرجعية العربية ، حيث تمسك الامبريالية الاميركية بزمام هذه الاسس لخدمة مصالحها الحيوية في المنطقة . فاسرائيل ، في النهاية ، تحمي موضوعيا الرجعيات العربيـة ، وهـذه الاخيرة تساهم في صيانة أمن اسرائيل من خلال ضربها ومحاربتها لاي نهوض وطني من جهة ، وباستبقائها على الشروط الاساسية السياسيـة والاقتصاديـة في التبعيـة للامبريالية .

والجدير بالتنويه ان دور الرجعية العربية كان دورا بارزا في خلق دولة اسرائيل . ذلك ان ما يقارب من نصف سكان اسرائيل هم مـن اليهود العـرب الـذين قامـت الرجعيات العربية بطردهم وترحيلهم الى اسرائيل . كما ان دور الرجعية العـربية في حرب ١٩٤٨ وغيرها ، بالاضافة الى دور النظام الاردني في قمع حركة الجماهـير الفلسطينية والاردنية ، التي تناضل ضد الوجـود الصهيوني ، غني عـن الاشارة والتعريف .

وضع المسألـة :

والان ، ردا على المنطلقات النظرية والسياسية الخاطئة ، ما هو بالضبط موقـف النظام في مصر من المسألة الوطنية ، في المرحلة الراهنة ، وانعكاس هذا الموقف على الوضع الفلسطيني ؟

انطلاقا من المفهوم التاريخي للصراع الطبقي فقد جاء انقلاب ١٩٥٢ لانقاذ ازمـة الطريق الرأسمالي وحل المشاكل التي تواجه نموه ، اي جاء مخرجا لازمة الحكم في النظام القديم وفي سبيل استكمال البورجوازية القومية الكبيرة سيطرتها على السلطة والسوق ضمن اشكال سياسية جديدة . فقد وجهت السلطة الجديدة الضربات لرأس المال الكومبرادوري ورأس المال الامبريالي المباشر ، كما عملت على ضرب وتحجيـم كبار الملاك كطبقة . هذا في الوقت الذي وجهت فيه جهدها لوقف النشاط السياسي الديمقراطي للجماهير الشعبية . الا ان **الوجـه الرئيسي للسلطـة** ، **ابان مرحلـة صعودها السياسي** وفي مواجهة معضلات نموها ، كان هو **التصادم مـع المصالـح الامبريالية والصهيونية والرجعية** . ولقد تمكنت الطبقة البورجوازية البيروقراطية من بناء الحد الادنى من اقتصاد رأسمالي مستقل **نسبيا** ، بمساندة المعسكر الاشتراكي ، وبكل ما استتبعه هذا البناء من معـارك سياسية ذات طابـع تقـدمي في مواجهـة الامبريالية .

ولكن ما لبث ان استفحل مع تطورها الرأسمالي ازمات وتناقضات اخرى — ليس هنا مجال ذكرها — تمس صميم بنيتها كنظام رأسمالي . مما جعل ، في النتيجة ، هذه الطبقة عاجزة عن تطوير قوى الانتاج ومواجهة التحديـات الصهيونية والامبريـالية والرجعية .

ففي بداية ومنتصف الستينات ، بدت معالم تراجعهـا وعجزها السياسي تظهـر بوضوح ، فقد فشلت الوحدة التي اقامتها مع سورية — كوحدة بورجوازية — واخذت تنهج سياسة التقارب مع الرجعية العربية وطرحت شعار « وحـدة الصف » بـدل « وحدة الهدف » ، والاعلان عن عدم وجود خطة ، لتحرير فلسطين ، وتحويلها لمعركة الاستعداد لمواجهة الصهيونية الى معركة تحويل روافد نهر الاردن . كمـا فشلت في مواجهة الرجعية في اليمن . وتجلى على الصعيد الداخلي عـدم قدرتها على تطويـر ودفع قوى الانتاج . وبينت هزيمة حزيران ١٩٦٧ مدى هزالـة التـركيب السياسي للطبقة الحاكمة وقدراتها على المواجهة ، وسرعت ، بالتالي ، مـن معـدل استجابة النظام لتقديم التنازلات السياسية والاقتصادية امام اسرائيل والامبريالية . وقد كان ابرز التنازلات في تلك الفترة الاعتراف بالقرار ٢٤٢ وقبولها مشروع روجرز والسكوت عن ضرب المقاومة في الاردن .

فبعد ١٩٦٧ و ١٩٧٠ بدأ النظام يشهد تسارعا متزايدا في اتجاه هبوطه السياسي وذلك ضمن نطاق وآلية تطور النظام نفسه . فالطبقـة البورجوازيـة البيروقراطية تسعى اليوم الى تحميل ازماتها الرأسمالية كاهل الجماهير الشعبية . الا ان **الجديد في وضعها** ، وهي تمر في **مرحلة هبوطها وعجزها السياسي** ، انها لم **تعد تستطيـع مواصلة نهبها واستثمارها والاستمرار في سياستها المتهادنة بدون الترابط مع المعسكر الامبريالي** وبدون التشارك مع الاحتكارات القائمة في مركز الثقل الامبريالي العالمـي (اميركا) . وذلك حيث تحتاج هذا المركز ، أيضا من الناحية السياسية ، « للضغط » على اسرائيل من اجل مزيد من الانسحاب من الاراضي المحتلة مقابل تقديم شـروط الولاء والتبعية . انها طبقة لا تستطيع ان تحل ازمتها الرأسمالية وتناقضاتها الطبقية مع القوى الثورية في مصر والمنطقة العربية بدون التنسيق والاعتماد المتبادل (الـذي يجسد التحالف الموضوعي في المصالح الاسـتغلالية والسياسية) مع الامبريـاليـة الاميركية والرجعية العربية والتهادن مع الصهيونية .

ان الوجه الرئيسي ، في مرحلة هبوط هذه الطبقة ، ليس التصادم مع الامبريالية والصهيونية والرجعية ، بل المزيد مـن التهـادن والتفريط بالاستقـلال السياسي والاقتصادي . **فتناقض هذه الطبقة مع القوى المعادية لم يعد العامل الحاسم في توجيه مجمل سياستها** . فهي لا تعتبر ، اليوم ، الامبريالية الامريكية العدو الاول في المنطقة، بل تتعهد لها بالمحافظة على مصالحها في العالم العربي مقابل الضغط على اسرائيـل للانسحاب .

ولم تغير حرب تشرين من مسار هذه الطبقة في نفس الاتجاه ، بل عمقت من السير فيه . « فالحرب هي السياسة ولكن بوسائل اشد عنفا » . واللحظة الوطنية في حرب تشرين مستخدمة ، من قبل النظام ، في الاتجاه الذي يخدم مصالحه وسياسته ، وفي اسكاته للقوى الوطنية وتوجهه نحو الامبريالية .

فلا يمكننا القول ، كما يفعل ذلك البعض ، بان عودة النظام الى حظـيرة التبعية اساسه فقط عجز النظام من المواجهة العسكرية المنسجمة ، وذلك بدون البحث عن

اسباب هذا العجز داخل بنية وطبيعة النظـام الطبقيـة ومصالحـه الاقتصادية والسياسية ومعاينة مدى تناقضها مع المصالح والسياسة الامبريالية والصهيونية . فان نوع وشكل المواجهة العسكرية هما تعبير في النهاية عن مدى تناقض المصالح السياسية والاقتصادية .

يقودنا ما ذكرناه الى الوقوف امام **فكرة البورجوازيـة الوطنيـة ابدا ودائمـا .** فاصحاب هذه الفكرة يخلطون بين الواقع الاقتصادي الانتاجي للبورجوازية القومية الكبيرة (كبورجوازية صناعية وزراعية اساسا) وبين دورها السياسي . فاذا كان الدور السياسي (بعلاقته الجدلية بالمصالح الاقتصادية للطبقة) في المرحلة السابقة ذا وجه تقدمي في مقارعة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، فان هذا الدور لم يعد ، اليوم ، هو الوجه الرئيسي في تقرير سياستها ، بل ان السياسة التي تنهجها الآن انما تفرط بالاستقلال السياسي والاقتصادي للوطن .

فمن هنا **ينبغي التمييز بدقة** ، بل **والقيام بفصل واضح بين مفهوم الوطنية وبين البورجوازية .**

فالبورجوازية القومية الكبيرة قد تنهج ، الى هذا الحد او ذاك تبعـا لمصالحها السياسية والاقتصادية ، سياسة وطنية تعمل على ترسيخ أسس الاستقلال السياسي والاقتصادي ومحاربة الامبريالية . **ولكن عندما تبدأ هذه البورجوازية نفسها تسلك سياسة نابعة من مصالحها الاقتصادية والسياسية ، في مرحلة محددة من تطورها ، وتقوم على التفريط بالاستقلال السياسي والاقتصادي فكيف يمكن لنا ان نستمر بلصق صفة الوطنية بها كصفة « خالدة » لا تحول او تزول ؟!**

فالطبقات الشعبية العمالية والفلاحية هي الطبقات الاكثر انسجاما في تصديها للمهام الوطنية ، لا سيما وان امكانات البورجوازية في عصر الامبريالية على انجاز مهام ثورتها نفسها ، اي مهام مرحلة الثورة الديمقراطيـة ، مسألـة تثبت الحياة والوقائع فشلها الذريع . فالبورجوازية لا تستطيع ، لكي تنجز مهام ثورتها مواجهة الامبريالية بالاعتماد على الجماهير . وذلك بحكم مصالحها الطبقية السياسية المتناقضة مع مصالح الجماهير . فمن هنا باتت مهام الثورة الديمقراطية البورجوازية ملقاة كمهمة تكتيكية على عاتق الطبقات الشعبية بقيادة الطبقة العاملة . فالبورجوازية تعجز اليوم حتى عن صيانة بعض المهام التي حققتها بنفسها (الاستقلال السياسي والاقتصادي النسبي) .

ان معاينة هذه المسألة بعمق على الوضع المصري ، من خلال معاينـة تاريخية ملموسة من شأنها ان تبدد الكثير من الاوهام المطروحة والقائلة بوجود ردة وطنية ظهرت فجأة في « غفلة » عن القوى و « الاتجاهات » الوطنية داخل النظام نفسه . والواقع ان ما يحدث هو نتيجة لتطور النظـام البورجازي وهو يمر حاليـا ككل في مرحلة هبوطه ، والتي تعبر عنها سياسة الردة الوطنية على اكثر من صعيد . أما الحديث عن اخراج الامبريالية لمصر من ساحة الصراع و « انعزالها » وتخليها عن البلاد العربية الاخرى والقضايا الوطنية وفي مقدمتها قضية شعب فلسطين ، فهو حديث يتجاهل انه لا يمكن الحديث عن « حياد » مصر . فالمسألة هي تحول دور مصر، من الزاوية الرئيسية ، من الدور الوطني الى الدور التابع . وهذا الدور الاخير يمارس تأثيره الخطير داخل مصر وفي مجمل التطورات السياسية في المنطقة العربية .

التسوية ودور اسرائيل :

اذا كانت الامبريالية واسرائيل قد رفضتا بعـد ١٩٦٧ الاسراع في انجـاز حلقات

التسوية مع الدول العربية التي احتلت اراضيها . فان ذلك كان مرتبطا بانتظار جملة من التحولات السياسية والاقتصادية التي تقرب هذه الدول للامبريالية . وذلك تحت ضغط الاحتلال الاسرائيلي للارض والتقائه بالميل الموضوعي الداخلي المتهادن . وسيظل مسار التسوية الراهن مرتبطا ارتباطا عضويا بمدى الاستجابة لاتجاه التفريط بالاستقلال السياسي والاقتصادي . ذلك لان تحرير الاراضي المحتلة يتطلب : استعدادا سياسيا واقتصاديا وتعبويا وعسكريا مختلفا ، وهذا يتناقض مع المصالح الطبقية القائمة . كما يفترض التحضير لصدام مباشر وطويل مع اسرائيل والولايات المتحدة .

اما بخصوص استجابة النظام المصري للتحولات السياسية والاقتصادية المطلوبة (التي تتلاقى مع مصالح الطبقة الحاكمة ، في هذه المرحلة) فهذه العملية قد انجزت من حيث الاساس . والحديث الفقهي هنا حول قياس **درجات وكم** هذه التحولات ، رغم اهميته على صعيد التعامل التكتيكي ، من شأنه ان يضع المسألة كلها خارج مسارها الفعلي ويؤدي الى عدد من الاخطاء والاوهام السياسية الخطيرة بما في ذلك العودة مجددا الى منطق « المراهنة » .

فالاستسلام هو وضع كيفي ، لا كمي ، وهو لا ينحصر بأساليب العمل السياسية لاسترجاع الاراضي المحتلة (أو معظمها) ومهما كان الثمن . هذا في الوقت الذي توضع فيه البلاد كلها تحت هيمنة النفوذ الامبريالي . ان **الاستسلام هو قضية التفريط بالاستقلال السياسي والاقتصادي للوطن ، بما في ذلك التفريط ، أيضا ، بقضية الشعب الفلسطيني** . والاستسلام كذلك يتجلى في عدم التصدي للمصالح الامبريالية الاقتصادية والسياسية في المنطقة .. وفي توطيد العلاقات مع الرجعية العربية ، وتحسينها ، بالتالي ، مع اسرائيل والاقرار بدورها في المنطقة كعصا غليظة للامبريالية ، وفي ضرب القوى الوطنية الثورية ، ومعاداة الشيوعية الخ ...

وعليه ، فالاستسلام ، ليس كما يتصور البعض ، انه « ابرام التسوية السياسية النهائية » مع اسرائيل من خلال التوقيع باليد على صك الخيانة . **فالاستسلام الذي تجري صياغته اليوم من خلال التسوية ، هو وضع اطار جديد للنفوذ السياسي للامبريالية الامريكية في المنطقة العربية** التي تريدها الامبريالية سوقا اكثر انسجاما مع متطلبات انتاجها الراسمالي وضمن نطاق تقسيم العمل الدولي ذي الطابع الامبريالي . وحيث يصير ايضا تأمين وتوفير الشروط السياسية والاقتصادية لنهب ثروات المنطقة وفي مقدمتها النفط العربي . وداخل اطار تنامي النفوذ الامبريالي هذا ، ستجري المحاولات الرامية للاعتراف باسرائيل .

فالامبريالية لا تسعى اليوم الى تصفية اسواق البورجوازيات المحلية نهائيا ، هذه الاسواق التي تكونت في مواجهة الامبريالية ، لكنها تسعى الى تحجيمها ودمجها ضمن الاطار العام لسوقها . اذ ان هذه الاسواق التي اتسعت بفعل النمو البورجوازي المستقل نسبيا توفر للامبريالية مجالا اوسع لاستثماراتها وتجارتها .

والجدير بالتشديد عليه هنا ، ان **الامبريالية ، فقط في هذه المرحلة ، وليس قبلها ، تلاقي النجاح والاستجابة في مسعاها. نظرا لان هذا المسعى قد التقى بالميل الموضوعي للبورجوازية نحو التهادن والسير في ركاب التبعية كشريك صغير للامبريالية . لقد واجهت الامبريالية ، في السابق ، بورجوازية في مرحلة صعودها السياسي والاقتصادي ففشلت وقتها في مسعاها . اما اليوم فانها تواجه نفس البورجوازية ولكن في مرحلة هبوطها وتفسخها السياسي وحيث لعب الاحتلال الاسرائيلي دورا**

بارزا في تسريع معدل هبوطها وتضييق هامش المناورة امامها في مواجهة الامبريالية .

ان البورجوازية تحل تناقضها مع الامبريالية واسرائيل ، في مرحلة معينة من تطورها (مرحلة الهبوط) . ونتيجة لازمتها العامة فانها تحل هذا التناقض بالمساومة ، من الزاوية الرئيسية ، مما يؤدي الى خلق حالة كيفية جديدة من التبعية للنفوذ الامبريالي . ان طريقة البورجوازية في حل تناقضها مع الامبريالية تؤدي الى الانتكاسة الوطنية ولكن ذلك منسجم ، بالطبع ، مع مصالحها الطبقية التي تتناقض مع مصالح الطبقات الشعبية في حل المسألة الوطنية .

وعليه ، اذا كان الاستسلام كعملية كيفية ، تم انجازها من حيث الاساس ، طوال السنوات التي سبقت وتلت هزيمة ١٩٦٧ بصفة خاصة (ليس ميزان قياس **درجة** الاستسلام هو التوقيع على صك الاستسلام النهائي) ، فانه ينبغي على القوى الثورية الحقيقية أن ترفض وضع نفسها امام اختيار وهمي ، بين استعادة الارض المحتلة عام ١٩٦٧ وبين عدم استعادتها ، في حين ان ما يجري ، بالضبط ، هو وضع هذه القوى امام اختيار حقيقي هو اما قبول التبعية للامبريالية (مقابل بعض الارض وليس كلها) ، واما النضال ضد هذه التبعية وتحرير الاراضي المحتلة . وهذا لن يتم ، في اللحظة الراهنة ، الا من خلال النضال الحازم ضد التسوية وكافة اشكال التبعية .

مما سبق نستطيع ان نستنتج ، بصفة عامة ، اية تسوية تدور اليوم ؟ فهل التسوية التي تدور حلقاتها تستهدف ، كما يقال ويعلن فعلا ، العمل على « انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ واستعادة الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني » ؟

فاذا كان ذلك كذلك ، كما يعتقد البعض ، فانه ينبغي استخدام جميع الوسائل من اجل تحقيق هذه الاهداف بما في ذلك استخدام التباين الدرجي بين امريكا واسرائيل . وبالتالي اغفال العين ، استنتاجا ، عما يدور من سياسات تفرط بالاستقلال السياسي والاقتصادي . اذ ان هذه السياسات ، حسب هذا النهج ، هي مجرد سياسات « كلامية » وعوامل ثانوية تستخدم تكتيكيا لتحقيق الهدف الرئيسي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني !

ويستمد هذا المنطق المضلل والشكلي قوته المادية من بطء تسارع مسيرة وحلقات التسوية . فيتم الاستنتاج الخاطىء بان اسرائيل وحدها ، وليس الولايات المتحدة واسرائيل معا ، لا تريد التسوية **بهذا الشكل** وهي ترفض بعناد الانسحاب من الاراضي المحتلة . وعليه ، ينبغي حشد **جميع** القوى العربية لمواجهة العدو الصهيوني الذي هو عدو « جميع » العرب .

ويتناسى هذا المنطق المضلل والمتخلف ، ذو الجذور الفكرية البورجوازية القومية ، الذي تصفعه عادة قوة الاحداث السياسية ووضوحها ، يتناسى ان **عرقلة مسيرة وحلقات التسوية** (عن انسحاب اسرائيل من جميع او معظم الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧) **انما يستهدف انتظار التحولات السياسية والاقتصادية التي تريدها الامبريالية واسرائيل من الانظمة العربية** . فبمقدار ما تتم هذه التحولات يجري بالمقابل المقايضة بقطعة من الارض . وحسب هذا السياق ، فانه ما ان تأتي اسرائيل على الانسحاب من معظم الاراضي العربية والفلسطينية المحتلة حتى تكون مجمل اراضي البلدان العربية « محتلة » وواقعة تحت النفوذ الامبريالي !

ان عرقلة مسيرة التسوية من قبل الامبريالية واسرائيل ، انما يستهدف بالضبط الضغط لابرام التسوية الفعلية الاخرى التي تدور وتجري . فالاستنتاج الصحيح والثوري ينبغي ان يتركز على ضرورة محاربة كل اشكال السياسة التي تؤدي الى التفريط بالاستقلال السياسي والاقتصادي التي تقوم بها البورجوازية كتعبير عن تلاقي مصالحها الطبقية باطار التبعية للامبريالية وارتضائهــا بلعب دور الشريك الصغير .

اما الاستنتاج المضلل الرجعي الاخر ، فهو القائل بانه مهما جرى من تنازلات سياسية واقتصادية فان اسرائيل ستظل ترفض الانسحاب من الاراضي المحتلة . ولذلك فان البديل هو العمل على حشد « جميع » القوى العربية لمحاربتها . فالحرب هي العمل الجدي لمواجهة العناد الاسرائيلي (السياسة هنا شيء لفظي ، اما الحرب فمسألة جدية !) . ولكن اي قوى اجتماعية لها مصلحة بالاستعداد للحرب وخوضها في مواجهة العدو الفعلي : الامبريالية الاميركية ورأس حربتها اسرائيل ، فهذه المسألة لا تخطر على ذهن اصحابنا ، المتأثرين بالفكر القومي البورجوازي في مرحلة انحداره ، فهي تربك مخططاتهم العقلية الشكلية و « تعقد » المسائل « الواضحة » .. وتضرب « التضامن العربي » وتبعد الجهود الرامية الى حشد القوى العربية لمواجهة وقتال العدو الصهيوني .. باعتباره العدو الرئيسي « للجميع » في المنطقة .

ان اسرائيل باحتلالها للاراضي العربية والفلسطينية انما تقوم بدورهــا الرئيسي في خدمة وانجاح المخططات الامبريالية . فهي لا تحتل كل الاراضي لنفسها او مجانا ، بل انها تضغط باحتلالها للارض من اجل الاسراع بمعــدل التحــولات السياسيــة والاقتصادية لدى البورجوازية العربية لتكون الارض ممهــدة اكثر لتغلغــل النفــوذ الامبريالي الامريكي . **فمن يا ترى يحصد اليوم فعلا ، حصيلة وثمار استمرار اسرائيل باحتلال الاراضي ؟** ان اتفاقية سيناء الاخيرة دليل واضح وعملي عــلى مدى تزايــد النفوذ الامريكي في المنطقة .

واذا كانت اسرائيل ، باستمرار احتلالها للاراضي ، تستهدف تحقيق بعض اطماعها الخاصة بالارض وضمان مصالحها الامنية ، فان هذه المسألة تتم عبــر اداء دورهــا الرئيسي كرأس حربة للامبريالية ومخططاتها وكمكافأة لها على مقدرتها في اداء وتأمين هذا الدور نفسه .

الواقع ان الاستسلام الذي تجري صياغته وتقوم به البورجوازيــة اليوم ، انمــا يفترض ويشترط ضرورة الحفاظ على الدور الاسرائيلي في المنطقة ، بل وتوسيع وتعزيز هذا الدور .

فالولايات المتحدة ستكون دائما معنية بوجود اسرائيل قوية وقادرة على ممارســة دورها الامبريالي ، ولكنها لن تكون معنية بوجود اسرائيل كهدف مستقل في حد ذاته .

أية تسوية اذن واي « سلام » يجري عقد حلقاته في المرحلة الراهنة ؟

ان اضطرار القوى الثورية لعقد تسويات تكون بمثابة هدنة مؤقتة وذلك في لحظة سياسية محددة ، مسألة لا يمكن اتخاذ موقف قطعي وسلبي منها . اذ ان طابع المسألة يتحدد في ضوء المقاييس السياسية الثورية التي تلزم القيام بهــذه التسوية المؤقتــة او تلك . ولكن السؤال الفعلي ، في وضعنا الحــالي ، هو اية طبقــات تعقد هــذه التسوية وضمن اي موازين للقوى ، وكيفية عقدها ، وهل يتم على ارضه نهج اسلوب النضال والكفاح الحازم أساسا (فيتنام) أم بأسلوب المساومة والتنازلات (مصر) ؟

ففي ظل ميزان القوى الراهن حيث تمسك الامبريالية الامريكية بزمام الحبل الذي يجمع علاقات القوى الفاعلة والمؤثرة في مسيرة التسوية (اسرائيل ، الرجعية العربية، البورجوازية) ، وتلعب دور ((الوسيط)) والحكم في الصراع ، لا يوجد هناك سوى تسوية واحدة فقط هي التسوية الامبريالية . أما ((التسوية الوطنية)) أو ((الشاملة))، كما يطلق عليها عادة ، فهي ليست سوى شعار مضلل » . فالتسوية الراهنة الجارية على أرض الواقع لا تعدل من موازين قواها ومسيرتها الالفاظ والشعارات الوطنية البراقة ، بل النضال الحازم في مواجهتها . فالسير ، ضمن مسيرة التسوية القائمة اليوم ، سيمضي بالنهاية ، الى طريق الاستسلام وبصرف النظر عن الاوهام الوطنية والنوايا الحسنة .

وهنا لا بد من التنويه بانه لا يمكن تغيير ميزان القوى بمجرد خوض حرب اخرى في ظل سيطرة نفس القوى البورجوازية والرجعية العربية . فهذه الحرب اذا لم تتمكن الطبقات الثورية وقواها السياسية من لعب دور فاعل في تغيير مسارها وتحويلها الى حرب تحرير وطنية فعلية ، فانها لن تصب ، بنتائجها السياسية ، خارج سياق المسار الحالي . وكل ما ستفعله انها ستعجل من سرعة ومعدل السير في نفس السياق الحالي للتسوية .

ان شرط خوض حرب وطنية حقيقية وصيانة المسألة الوطنية برمتها ، اليوم ، انما يمر عبر التصدي لما يدور من سياسات استسلامية في مختلف المجالات وقطع الطريق عليها وعرقلتها ومحاصرتها حتى التطويح الثوري ، في النهاية ، بالقوى التي تمثلها وتنتهجها . وبهذه الطريقة ، وحدها يتم تغيير موازين القوى وتحرير الاراضي المحتلة العربية والفلسطينية او اجزاء منها ، وذلك على طريق تحريرها نهائيا وتصفية الكيان الصهيوني الامبريالي .

هذا هو صلب مقومات الموقف الوطني الثوري في اللحظة الراهنة .

وهنا لا بد من التوقف لدحض تصورين خاطئين عن التسوية ، لهما نفس الجذر المثالي وان اتخذا اشكالا « يسارية » مراهقة او يمينية انتهازية .

فالشكل « اليساري » المراهق يرى بان التسوية اذا تمت كل حلقاتها (التوقيع على صك الخيانة) فان ذلك سيكون نهاية النهاية لكل نضال وطني .

وبالمقابل لا يقوم هذا الفهم « اليساري » بطرح برامج ثورية فعالة بين الجماهير لكي تكون مستعدة ومؤهلة لمقاومة التسوية ومحاربة نتائجها ، بل انه يدخل منطق المراهنة اياه لمقاومة التسوية « بأي شكل من الاشكال » وذلك برهانه على قوى ليست مؤهلة لمقاومة التسوية واسقاطها . وفي النهاية يكتفي هذا الموقف بالتشهير والتنديد الاعلامي دون القدرة على التأثير بفعالية بما يدور .

أما الشكل اليميني الانتهازي ، فانه من منطلق الطرح البورجوازي الصغير المقسم بضيق الافق والعجز السياسي من جهة ولرؤيته صعوبة مقاومة التسوية واسقاطها في اللحظة الراهنة وفورا من جهة ثانية ، نراه ينخرط في جوقة التسوية بغية قطف الثمار « الوطنية » منها فقط . ونحن نجد لسان حال هذا المنطق يتساءل دوما بالحاح: اين « البديل » ، ارني اياه ، حتى اتمسك به ، واتخلى عما اطرحه اليوم من سياسة « واقعية » « مرحلية » . فالحل الامثل ، أمام طرح كهذا ، هو الاشتراك بقطف ثمار ونتائج هذه التسوية « الوطنية المحدودة » . وبعد ان يفاجأ هذا المنطق ، بان ما يدور لا علاقة له من قريب او بعيد بالوطنية سواء كانت « محدودة » او غير محدودة . . فانه

ينعي سبب ذلك ، كما سبق واسلفنا ، على الامكانيات والايجابيات التي تم هدرها نتيجه سوء تقدير او غباء القوى السياسيه العربية القائمه والمؤثرة في مسار التسوية، ثم ينسب ذلك الي « تامر » الامبرياليه والتيارات والاتجاهات اليمنية داخل النظام المصري .

فهذا الطرح بدلا من التخلي عن منطقه المراهن على القوى القائمة ، فانه يعيد انتاج منطق المراهنه من جديد وباشكال جديدة . فهو ينسج حول طرحه السياسي الاوهام نتيجة لتعقيد الواقع السياسي وضعف معدل مسار التسوية ، فيصور طرحه السياسي هذا على انه طرح وطني متصادم وان المطالب والشعارات الوطنية التي تم رفعها هي التي تعمل على عرقلة مسيرة التسوية الامبريالية و « الحل الامريكي » . ان خطوره هذا المنطق انه يقوم وظيفيا بتزيين التسوية الاستسلامية ، وتغذية الاوهام بدل اطلاق اليقظة الثورية .

ان مثل هذا الطرح لا يرى ان مكتسبات النضال الوطني وما يثيره من تحد وقلق لدى الامبريالية واتباعها هو أساس الصمود ، وان تطوير وتصليب هذا النضال ، على ضوء طرح برامج سياسية ثورية منسجمة ، هو ، ايضا ، اساس اي عرقلة أو مقاومة لنتائج أي تفريط وطني مهما كان مصدره .

ان التسوية السلمية الراهنة ، ما هي الا لحظة من لحظات الانتكاسة الوطنية والسير في ركاب التبعية الامبريالية ، وهي ليست نهاية النهاية بالطبع . فالنضال الوطني للشعوب العربية والشعب الفلسطيني ، كان يستهدف قطع طريق هذه التسوية الاستسلامية منذ بداياتها الاولى ، وقد تبلور هذا النضال الوطني (خاصة الفلسطيني) في مواجهتها ومقاومتها باشكال مختلفة . ولقد اكتسب النضال الوطني الفلسطيني نفوذه السياسي على هذا الاساس وعانى بالتالي ، وما زال يعاني ، من تأثير وآثار حلقاتها ومؤامراتها عليه ، (مجازر ايلول ١٩٧٠ ، ومحاولات التصفية الجارية في لبنان اليوم) ، وسيواصل النضال ضد هذه التسوية وضد القوى التي تفرزها وتمثلها . كما انه سيقاوم ببطولة وحزم النتائج الناجمة عنها في كل مرحلة . ولكن ذلك يطرح عليه ضرورة الاستجابة التنظيمية والسياسية للشروط الجديدة التي سيوضع فيها النضال الوطني والتي تفرض على كل القوى الثورية الفلسطينية والعربية المزيد من عقد اواصر التلاحم والوعي الثوري وتعميق التحالف مع الدول الاشتراكية والقوى التقدمية في العالم من اجل مواجهة الحلف الامبريالي الرجعي .

والواقع ان **النقيض الذي تبلور في مواجهة التسوية ، لن ينمو عن طريق اقتسامه نتائج هذه التسوية الامبريالية نفسها** ، وذلك من خلال التوهم ان هناك امكانا « لتسوية وطنية » وبالتالي يتعين الحصول منها على سلطة وطنية فلسطينية .

فالسلطة الوطنية الفلسطينية ، على اي جزء يتم تحريره من الارض الفلسطينية ، انما يجري تحقيقها في مواجهة التسوية الراهنة .

فالتسوية القائمة تستهدف ضرب وتطويق كافة القوى الوطنية بمن فيها تلك التي ما زالت تحمل بعض الاوهام عن امكان تحقيق تسوية وطنية في ظل ميزان القوى الراهن . **ان اية سلطة وطنية فلسطينية ولو على شبر واحد من الارض الفلسطينية لا تتحقق الا من خلال مقاومة التسوية الراهنة وفي مواجهتها بالضبط** . وذلك على اساس من التحالف الوثيق مع الطبقات الثورية وقواها السياسية في البلاد العربية المجاورة والتي لها مصلحة فعلية وحقيقية في مقارعة الامبريالية والصهيونية والرجعية بانسجام والى النهاية .

ان مقاومة التسوية الحالية لا تنحصر ، كما ينحو الى ذلك البعض ، بالتركيز على رفض الاعتراف والصلح مع اسرائيل ككيان عدواني وادانة السياسات التي تتوجه على هذا الطريق فحسب ، بل ينبغي ايضا محاربه كـل خطوات واشكال التفريط بأسس الاستقلال السياسي والاقتصادي والسيادة الوطنية في البلاد العربية ، باعتبار هذا التفريط جزءا لا يتجزأ من المسألة الوطنية . فالسياسة التي تقوم على **التفريط بالاستقلال الوطني لبلادها كيف يمكن لها ان تصون القضية الوطنية للشعب الفلسطيني ؟!**

اسرائيل والسلام : هل يمكن معاملة اسرائيل كدولة عادية في المنطقة ؟

ثمة من اخذ يروج في الاوساط العربية والفلسطينية ، خاصة بعد ١٩٧٣ ، بعض الافكار الرجعية المتخلفة القائلة بأن « تحدي السلام » هو اكبر خطر تواجهه اسرائيل. فهو قادر على « اذابتها » تدريجيا في المحيط العربي الواسع . ولقد اكتسبت هذه الاقوال دلالاتها السياسية لا من حيث قيمتها « وعلميتها » ، بل من خلال تجميلها وتزيينها لمسار التسوية الامبريالية الجارية بالفعل ، ومساهمتها في اضعاف روح اليقظة الثورية الوطنية . وهذا مما جعل هذا الافكار — الاقوال تخدم وظيفيا المسار الموضوعي للتسوية الامبريالية .

والجدير بالذكر ان هذه « الافكار » التقت مع الاطروحات السياسية التي روجت لامكان حدوث « تسوية وطنية » في ظل ميزان القوى الراهن . وقد سبق الاشارة الى أوهام ومخاطر هذه الاطروحات . ولكن هذا يعني ، ايضا ، ان الطرح اليميني الرجعي قد تقاطع في تلك الآونة مع اوهام الطرح « اليساري » في سياق وظيفي عمل على تأدية خدمة لما هو قائم ودائر بالفعل .

اما الاساس المادي للافكار الرجعية التي اخذت تروج لخطر السلام على اسرائيل، فانها تستند على حقيقة جزئية منتزعة بوحشية وعمد من سياقها الواقعي . وهي ان الولايات المتحدة واسرائيل لا يستهدفان بالفعل تحقيق سلام حقيقي في المنطقة اللهم الا « السلام » والاستقرار الذي يحقق مصالحهما المشتركة .

ولكن يبدو لب الموضوع هنا ، وكما تروج هذه الافكار الرجعية ، هو القبول باسرائيل كدولة وكيان لها « حقها في العيش بسلام مع جيرانها » (تماما كما تردد الدعاية الصهيونية والامبريالية للموضوع)، فالتعنت من الطرفين العربي والاسرائيلي لا يؤدي الا الى مزيد من المآسي وما علينا الا التكيف بما يتفضل به الوضع الراهن من حلول « ومكاسب » ولو كانت جزئية وضئيلة والقبول بها . وذلك على أمل ان كل شيء في المستقبل سيجري حله تدريجيا وبصورة سلمية هادئة . فاسرائيل « اقلية » لا بد لها ان تذوب في « الاكثرية » العربية . وعليه فان التطور السلمي الهادىء هو الذي سيحكم مسار الامور سواء داخل اسرائيل ام في المنطقة .

والخطورة الفعلية لهذا المفهوم ((الساذج)) لحل الصراع انه يتجاهل تماما المسالة الرئيسية وهي دور اسرائيل العدواني العسكري السياسي في المنطقة . وهو دور ملازم لطبيعة الكيان الصهيوني ولا يزول الا بتدمير وازالة الكيان نفسه من خلال توجيه الضربات المتتالية له من الخارج . فالتناقض الاساسي في الكيان الصهيوني نفسه ليس تناقضاته الداخلية ، بل تناقض الكيان نفسه مع الشعوب العربية وفي المقدمة الشعب الفلسطيني . فاسرائيل لا تمارس دورها كرأس حربة للامبريالية في المنطقة عن طريق اغتصابها وتجاهلها لحقوق الشعب الفلسطيني فحسب ، بل ايضا

بتهديد ومحاربة اية محاولة وطنية للاستقلال السياسي والاقتصادي والخروج عن نطاق السيطرة الامبريالية ، لا سيما في كل من مصر وسوريا .

ان زرع اسرائيل نفسها في هذه المنطقة هو تهديد للسلام وافصاح عن عدم رغبة الامبرياليه والصهيونية في اقرار اي سلام حقيقي سوى « سلام » مصالحهما المشتركة . فدور اسرائيل ، اذن ، هو خلق حاله من التهديد الدائم واستنزاف الطاقات السياسية والاقتصادية والبشرية خاصة في مراكز الثقل الاساسية في المنطقة. ومنعها من تشكيل قوة سياسية قادرة على تهديد استمرار المصالح الامبريالية .

لقد ادركت القوى الامبريالية المختلفة الاهمية الاستراتيجية في زرع الكيان الصهيوني ، حتى حين كانت كل المنطقة العربية تقريبا واقعة تحت النفوذ المباشر للقوى الامبريالية . اذ ان **هناك فرقا كبيرا بين الضامن** للمصالح الامبريالية **وبين التابع** . فالدول العربية الرجعية التابعة للامبريالية من غير المضمون ان تستمر تبعيتها طويلا بفعل التغيرات الداخلية الممكنة ، هذا بينما الكيان الصهيوني بنظامه ووجوده ضامن وتابع دائما ، طالما لا توجد قوى ثورية عربية قادرة على ردعه وضربه والقضاء عليه **من الخارج** .

وفيما يلي مقارنة ، من مصادر اسرائيلية حديثة ، تحدد بنفسها الفرق بين الضامن والتابع للمصالح الامبريالية في المنطقة « **ان اسرائيل استثناء وحيد . فالمجتمع بكليته ملتزم بصورة عميقة . ولا حاجة هنا لا للجنود الامريكيين ولا للقواعد المكلفة التي تحتفظ بها امريكا في اوروبا واماكن اخرى** . ان **هذا الحصن من حصون الغرب في منطقة غير مستقرة ، لا يتطلب سوى المعونة المالية والديبلوماسية ، بالاضافة الى التدفق المستمر للامدادات . ان المرء ليتساءل فيما اذا لم يكن هذا ثمنا رخيصا لحليف يعتمد عليه** . وفيما اذا لم تكن الدبابة الموضوعة في ارض صديقة في شرقي المتوسط (اسرائيل) اكثر قيمة في الدفاع عن الطريقة الغربية في الحياة من الدبابة نفسها الموضوعة في كانزاس أو اريزونا .

ان المحافظة على صديق كهذا ، قويا ، يمكن ان يكون مصلحة اساسية اكثر للسياسة الامريكية ، من اضعافه من اجل شراء صداقات ، على حسابه ، اقل ضمانا أو استقرارا » . (جيروزالم بوست ١٩٧٥/٢/١١) .

فعلى المدى الاستراتيجي تقع المصالح الحيوية الامريكية (النفط) ، بصورة رئيسية ، في منطقة الخليج العربي . وفي هذه المنطقة ، في حال ظهور اي تهديد جدي للمصالح الامريكية في المستقبل ، تستطيع الولايات المتحدة ضمان مصالحها باستعمال قواتها (أو قوات دولة تابعة اخرى — ايران) دون أن تخشى كثيرا القوات المحلية المتواجدة في هذه المنطقة . فالاحتياط البشري والسياسي المؤهل للتصدي الفعال في وجه المصالح الامبريالية وخلق الصعوبات في وجه اي تدخل امريكي في تلك المنطقة غير موجود سوى في مصر وسورية والعراق ، بصورة رئيسية . وهنا يأتي دور القوات الاسرائيلية سواء في حماية النظم التابعة او في تحييد دور القوات المصرية والسورية والعراقية .

« ان **اسرائيل قوية وحازمة هي المرتكز الامريكي ، السياسي والعسكري ، الاساسي في المنطقة** . ان **اي تقليص لاسرائيل** ، يدفعها للتحول الى دولة صغيرة .. لا يعتبر فقط خطرا على الوجود الاسرائيلي، بل **زعزعة لمكانة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط وفي المحيط الهندي** وعلى اساس هذا المفهوم ، من المتوقع ان تقوم اسرائيل **بدور بناء وفعال** عندما يحين الوقت لردع الاحتكار النفطي العربي » . (معريب ١٩٧٤/١١/٤) .

« ان اسرائيل هي الحاجز الاكثر أهمية في وجه تحقيق المطامع السوفييتية في الشرق الاوسط . ان اسرائيل هي حصن الغرب . **انها المفتاح للاستراتيجية المضادة الامريكية** » . (جيروزالم بوست ١٩٧٥/٢/١١) .

وعليه ، فان المفكرين والمسؤولين الاسرائيليين يدركون ان **استمرار بقاء اسرائيل في المنطقة ليس مرهونا بقبول العرب لها او عدم قبولهم ، وانما هو مرهون ، بالدرجة الاولى بقدرة الكيان الصهيوني ومؤسسته العسكرية على اداء الخدمات التي تتطلبها مصالح الولايات المتحدة** . ان حجم الوظيفة والخدمة التي تطلبها الولايات المتحدة من اسرائيل ، يحدد حجم اسرائيل نفسها .

فاذا كان هذا هو الوجه الاساسي لطبيعة الكيان الصهيوني ككيان سياسي عسكري يقوم بحماية المصالح الامريكية بالمنطقة في مواجهة اية محاولة وطنية لتهديد هذه المصالح وضربها ، فاي جدوى ، اذن ، من الحديث عن العيش باخاء وسلام مع كيان عدواني عن طريق فكرة « التذويب » الساذجة تلك .

اية اوهام وضرر يلحقه هذا الفهم بمسيرة النضال الوطني الفلسطيني والعربي في المنطقة العربية ؟

فاسرائيل لا يمكن ، بحكم طبيعة تكوينها ودورها ، ان تكون دولة عادية في المنطقة. ثم « هل يمكن ان نعتبر الآلة العسكرية الصهيونية ، آلة تملكها الحركة الصهيونية ؟ ان أبسط الشروط لذلك هو قدرة الحركة الصهيونية على تمويل هذه الآلة ، وهو شرط غير متوفر . هنا تكمن الاستحالة المطلقة للتعايش بين الشعوب العربية وبين الحركة الصهيونية ، وذلك لسبب بسيط وهو ان الحركة الصهيونية ليست هي الحركة المؤهلة لصنع السلام ولا لتحمل نتائجه » . (نشرة الارض ، دمشق ، العدد ١٨ ، ١٩٧٥/٦/١٧) .

ان الموقف الوطني العلمي هو التحضير الدائب للنضال السياسي المسلح بحزم وقوة ضد هذا الكيان والعمل على كبح دوره وتوجيه الضربات اليه وتصفيته ، في النهاية ، **من الخارج** .

ولكن **البعض ما زال يحلم** ، في ظل ميزان القوى الراهن ، **بتحقيق تسوية سياسية متوازية** ، تأخذ بعين الاعتبار تبعية الرجعية والبورجوازية العربية للامبريالية والمحافظة على مصالحها ، في مقابل ما تحققه اسرائيل من حماية لهذه المصالح نفسها. الا ان هذا ليس سوى حلم طوباوي رجعي . فمن شروط تبعية الرجعية والبورجوازية العربية للامبريالية ضمن مسار التسوية الراهنة ، هو فرض تعزيز وتوسيع دور اسرائيل كعصا غليظة . وضامن في يد المصالح الامريكية . وهذا ما عكسته تسوية سيناء الاخيرة بوضوح .

ان الاكتفاء بادانة « التسوية الجزئية » والمطالبة بدلا منها « بالتسوية الشاملة » أو « الوطنية » ، في ظل ميزان القوى الراهن لهو من قبيل صب الماء في طاحونة الاعداء ، فالموقف الوطني الثوري ينبغي ان ينطلق ويتحدد على اساس من محاربة مجمل اشكال وانواع التسوية الراهنة (وليس اية تسوية في المطلق) التي تعمل على توطيد النفوذ والمصالح الامبريالية في المنطقة . كما ينبغي ، بالتالي ، مقاومة مختلف الاتجاهات والقوى التي تروج او تعمل لها سواء كانت مدركة لاخطار هذه التسوية أم غير مدركة .

السياسة الاميركية الدولية تبحث عن استراتيجية جديدة

سلمى حداد

تمر الولايات المتحدة اليوم في مرحلة التقاط انفاس لمجابهة المعطيات الجديدة في العالم . وتشكل هذه المعطيات تحديات كبيرة لها . فمن تعدد الاقطاب بين الدول ، الى الانقسامات في معسكر الحلفاء الغربيين ، وتطورات المعسكر الشيوعي ، ونمو العالم الثالث . ولقد بدأت الولايات المتحدة تشعر بان هيمنتها على حلفائها ومناطق نفوذها لم تعد بالمتانة التي كانت عليها . فمنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى اواخر الستينات ، حاكت الولايات المتحدة شبكة عسكرية وسياسية حول العالم ، وفرضت سيطرتها على هذه الشبكة باسم « مسؤولياتها الدفاعية العالمية » حتى غدت تحمل على عاتقها مسؤولية الدفاع عن ٤٢ دولة . فبموجب معاهدة ريو (١٩٤٧) ، تتعهد واشنطن بالدفاع عن ٢١ دولة في اميركا اللاتينية ، وتخولها اتفاقية منظمة حلف شمالي الاطلسي (١٩٤٩) حماية ١٣ دولة اوروبية ، وهي تتحمل في جنوب شرقي آسيا ، عبء الدفاع عن أربع دول مرتبطة بحلف « السياتو » (١٩٥٤) ، وتتعهد في جنوب المحيط الهادي بمساعدة استراليا ونيوزيلندا بموجب الحلف الاسترالي ـــ النيوزيلاندي ـــ الاميركي للامن المشترك (١٩٥١) ، وهناك معاهدات دفاعية في الشرق الاقصى تلزم اميركا بالدفاع عن كوريا الجنوبية وتايوان والفيلبين واليابان . وبالاضافة الى ذلك فان اميركا عضو مراقب في الحلف المركزي « السنتو » وهي مرتبطة بالعديد من الاتفاقيات الاخرى مع عدد من الدول .

ولتأمين متطلبات هذا الدفاع ، اقامت الولايات المتحدة حوالي ٣٠٠ قاعدة عسكرية رئيسية موزعة على عشرين دولة ، كما اقامت عددا كبيرا من المنشآت العسكرية الصغيرة حول العالم . ورغم جميع هذه المعاهدات التي لا تزال قائمة ، ورغم هذا الوجود العسكري الكبير ، فقد بدأت الولايات المتحدة تتحسس المخاطر التي تهدد مواقعها . وهي تعيش اليوم ازمة ثقة حلفائها بها ، وشكوكهم حول استعدادها للدفاع عنهم بعد ان كشفت الهزيمة الاميركية في فيتنام ان الولايات المتحدة لا تتورع عن اتباع أية سياسة تخدم أهدافها ، وخاصة بعد ان بدأ الكنغرس يطالب بممارسة صلاحياته فيما يتعلق بالسياسة الخارجية .

وليست أزمة الثقة ظاهرة جديدة . فلقد بدأت منذ فشل نظرية الرد الشامل في الخمسينات ابان أوج الحرب الباردة ، حين تساءل الجنرال ديغول وغيره من الساسة الاوروبيين عن مدى استعداد الولايات المتحدة لارسال قواتها للدفاع عن حليفاتها الاوروبية . ولكن سقوط سايغون وبنوم بنه صعد ازمة فقدان الثقة الى درجة جعلت اسرائيل ، الحليف العضوي للولايات المتحدة ، تتحدث عن المثل الفيتنامي بشيء من القلق .

وتحاول الولايات المتحدة تقديم التطمينات الى حلفائها لمنع المزيد من التدهور ، ريثما تتبلور الامور وتجد صيغة جديدة للسيطرة على الوضع العالمي . ولقد سارع الرئيس الاميركي جيرالد فورد لحضور اجتماع منظمة حلف شمالي الاطلسي المنعقد في بروكسل (٢٨ ــ ٣١ ايار ١٩٧٥) بغية استعادة ثقة الدول الاوروبية . وطلب من دول الحلف ان تتناسى فيتنام . واكد لها ان الولايات المتحدة ستظل مرتبطة بجميع التزاماتها تجاه الحلف .

ولقد نجح فورد الى حد ما في تحسين علاقات بلاده مع بعض الدول الاوروبيــة ، ولكنه فشل في حل المشاكل الاساسية المتمثلة « بالدومينو » الاوروبي الذي يهدد حلف شمالي الاطلسي بالانهيار . فلم يستطع مثلا اقناع اعضاء الحلــف بقبــول عضوية اسبانيا والتغلب على العداء الاوروبي لنظام فرانكو . ومن المتوقع ان تلاقي الولايات المتحدة الكثير من المتاعب في ايلول ١٩٧٥ عندما يحين موعد تجديد الاتفاقية حــول القواعد العسكرية الاميركية في اسبانيا ، خاصة وان الكنغرس الاميركي يعارض توقيع معاهدة امنية مع فرانكو . اما في مرحلة ما بعد فرانكو فمصالح اميركا في اسبانيــا مهددة ، بما في ذلك وجودها العسكري في قاعدة « توريخون » البريــة ، وقاعــدة « روتا » للغواصات النووية .

وهناك خطر اخر ينمو مع نمو القوى الاشتراكية والشيوعية في ايطاليا والبرتغال بشكل يهدد بظهور تيارات متزايدة ضد اميركا داخل هذين البلدين ، ويطرح تساؤلات عديدة حول اهمية الروابط الدفاعية مع الولايات المتحدة . ويمكن تصور الخسارة التي ستواجهها السياسة الاميركية اذا عرفنا ان في ايطاليا اكبر عدد من القوات الاميركية خارج الولايات المتحدة ، بعد المانيا الغربية وكوريا الجنوبية ، وان ضياع القــاعدة الجوية الاميركية في جزر الآزور (آشوريس) التابعة للبرتغــال يشكــل خسارة لا تعوض ، نظرا لما لهذه القاعدة من اهمية حيوية بالنسبة الى جنــاح حلف شمــالي الاطلسي ، وبالنسبة الى اي جسر جوي تود الولايات المتحدة مده الى الشرق الاوسط.

واذا اضفنا الى كل ذلك الخلاف اليوناني ــ التركي حول جزيرة قبرص ، وما نجم عنه من انتكاسات ، كتجميد القواعد الاميركية في تركيا على اثر حظر السلاح الاميركي لتركيا (باستثناء قاعدة انسيرليك) ، وانسحاب اليونان من القيادة العسكرية الموحدة لحلف شمالي الاطلسي ، وتهديدها باغلاق جميع القواعد الاميركية ، يتبين لنــا ان خطر التآكل خطر واقعي يهدد حلف شمالي الاطلسي ، ويهدد بالتالي النفوذ الاميركي في اوروبا .

اما في آسيا ، فلا تزال اليابان تذكر التقارب الاميركي ــ الصيني الذي تم من وراء ظهرها في العام ١٩٧١ ــ ١٩٧٢ . ولقد بدأ التيار المعارض للحلف الامني الياباني ــ الاميركي يتصاعد . وبعد الهزيمة الاميركية في فيتنام وسقوط الحكومــات الهزيلة في كمبوديا ولاووس ، بدأ بعض حلفاء الولايات المتحدة الاسيويين التقرب من بكين وهانوي بغية التكيف مع الوضع الراهن الجديد في المنطقة . وتطالب تايلاند بانهاء الوجــود العسكري الاميركي على اراضيها . واذا ما أصرت تايلاند عــلى طلبهــا ، خسرت الولايات المتحدة مركز الامدادات « ستاهيب » في خليج « سيام » ، الامر الذي سيؤدي بالتالي الى تهديد طريق الامدادات البترولية لاوروبا الغربية واليابــان والولايــات المتحدة نفسها ، وسيشكل ضربة للقوة الاميركيــة الزادعــة غــربي المحيط الهادي (الاسطول السابع) ، وسيزيد اعتماد الولايات المتحدة على القاعدة البحرية الاميركية في خليج « سوبيك » والقاعدة الجوية « كلارك فيلد » في الفيلبين . بيد أن حكومــة

الفيلبين نفسها بدات تنتقد وجود القواعد الاميركية على أرضها . ويطالب رئيسها فردينان ماركوس اعادة النظر في الاتفاقيات الخاصة بهذه القواعد والتي تشكل جزءا من معاهدة المساعدة المشتركة المعقودة بين الفيلبين والولايات المتحدة في العام ١٩٥٢ . وتخشى الولايات المتحدة نمو قوة الاسطول السوفياتي في هذه المنطقة ، ولولا الخلاف السوفياتي — الصيني لكان وضعها اسوا بكثير مما هو عليه الان .

ان الولايات المتحدة غير متورطة في نزاع حاد مع المعسكر الاشتراكي في الوقت الحاضر . ولكن هناك خلافا حول تحديد الاسلحة النووية ، واتهامات متبادلة حول بعض المناطق الساخنة كالبرتغال والشرق الاوسط . وتكمن وراء واجهة الوفاق حرب باردة خفية تدور رحاها بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، وتتجسد في تقوية الاساطيل ، وارتفاع ميزانية التسلح النووي والتقليدي في الدولتين .

ويهم الولايات المتحدة حاليا الحفاظ على سياسة الوفاق . وهي ترغب في ترسيخ سياسة المثلث : واشنطن ، موسكو ، بكين ، كحجر الزاوية لسياستها الخارجية . فبعد صراع دام اكثر من ربع قرن لاحتواء الشيوعية ، اقتنعت الولايات المتحدة انه ليس باستطاعتها وقف المد الشيوعي أو احتواءه ، مع انها لا تزال تحارب الشيوعية حيثما استطاعت ذلك ، كما تفعل الان في البرتغال . وتعي واشنطن ان موازين القوى في العالم قد تبدلت . ففي الاربعينات كان الشيوعيون يشكلون ٧٪ من سكان العالم ويعيشون على أرض مساحتها تعادل ١٨٪ من مساحة الكرة الارضية . اما اليوم فهناك ٣٥٪ من سكان الارض يؤمنون بالمبادىء الشيوعية ويقطنون اكثر من ربع مساحة العالم . وأمام هذا الواقع الجديد ، وجدت الولايات المتحدة ان سياسة الوفاق هي خير وسيلة لتجميد نزاعها مع الاتحاد السوفياتي . ولا يعني هذا الوفاق انها ستهادن الاتحاد السوفياتي بشكل كامل، ولكنه يعني أنها غدت على استعداد للاعتراف بالوجود السوفياتي في مناطق لم تعد تعتبرها حيوية .

والولايات المتحدة مهتمة بالحفاظ على تقاربها مع الصين ، وتعتبره ورقة رابحة خلال مساوماتها مع الاتحاد السوفياتي . وهي تخشى ان يؤثر اي تقارب سوفياتي — صيني على اليابان وكوريا الجنوبية وحتى اوروبا الغربية ، وخاصة بعد ان بدأت بعض الدول الاوروبية تتقرب من بكين . وسوف تستمر هذه السياسة فترة من الزمن، لان الفريقين مقتنعان — لاسباب متباينة — بضرورة تبني سياسة الوفاق ، وان كان الرئيس فورد يعطيها اهتماما اقل من اهتمام سلفه نيكسون .

وترى الولايات المتحدة انه ليس هناك من بديل لسياسة الوفاق ، بينما يعتقد الاتحاد السوفياتي ان سياسة الوفاق قد تؤدي الى انفلاش التضامن داخل المعسكر الغربي ، من جراء الشعور بالاطمئنان الامني . ويأمل السوفيات ان ينصرف الحلفاء عندئذ الى تأمين مصالحهم المتناقضة مع المصالح الاميركية (التناقض المصلحي داخل المعسكر الرأسمالي) الامر الذي يؤدي بدوره الى تصاعد بين الحلفاء الامبرياليين ، بدلا من تركيز الاهتمام بالنزاع مع موسكو ، ولا سيما وان موسكو تأمل بأن تكون الوثيقة التي وقعتها ٣٥ دولة اثر مؤتمر الامن الاوروبي في هلسينكي ، في ٣٠ تموز ١٩٧٥ ، البديل العملي للحماية الاميركية ، عندما تقرر الدول الاوروبية الابتعاد عن سيطرة الولايات المتحدة . وليس من المستبعد ان يطبق الاتحاد السوفياتي والصين المبدأ اللينيني المتعلق بمهادنة المعسكر الرأسمالي « مؤقتا » للحصول على مكاسب مادية للمعسكر الاشتراكي . خاصة وأن الدولتين الاشتراكيتين الكبيرتين لا تزالان حتى الان بحاجة الى التقنية الاميركية .

وبالاضافة الى ذلك ، فان تقارب الصين من الولايات المتحدة هو تطــور طبيعي للسياسة التي بداتها الصين منذ العام ١٩٦٩ للتقارب من الدول الاخـــرى ، بعد ان شعرت باستقرار ثورتها وبقدرتها على الحفاظ على منجزات هذه الثورة . ففي العام ١٩٧٠ كانت الصين تقيم علاقات دبلوماسية مع ٤٠ دولة . ثم ارتفع الرقم في العــام ١٩٧٥ الى ١٠٤ دول . ورغم عدم ثقة الصينيين بسياسة الولايات المتحدة ، والخلاف الايديولوجي العميق بين بكين وواشنطن ، فان العلاقات بين البلدين لا تزال تسيــر وفق اتفاقية شنغهاي (للتعاون في بعض المجالات ومن أجل التبادل العلمي والثقافي) التي وقعها الرئيسان ماوتسي تونغ ونيكسون ، خلال زيارة الرئيس الاميركي للصين في شباط ١٩٧٢ . وترى الصين ان الوجود العسكري الاميركي الحالي في المحيــط الهندي ، وجود رادع للاتحاد السوفياتي . وهي تخشى أن يؤدي اي انسحاب اميركي في هذه المنطقة الى فراغ يسارع الاتحاد السوفياتي الى اشغاله . ومن المؤكد ان كل هذه الاعتبارات المتشابكة كانت وراء قرار المعسكر الاشتراكي بارجاء مجابهة الولايات المتحدة في كوريا الجنوبية على اثر سقوط سايغون ، الامر الذي يجعل الشرق الاوسط المحك الحقيقي لسياسة الوفاق .

ولقد اصيبت الولايات المتحدة ، على جبهة العالم الثالث ، بعدة هزائم . وهي تجد وضعها داخل الامم المتحدة مهزوزا ، كما تجد أن نفوذها الدولي يتضاءل يوما بعــد يوم . ولقد حاولت في السنوات الماضية الهروب من هذا الواقع الى مؤتمرات الذروة والدبلوماسية السرية ظنا منها ان سياسة الوفاق ستخمد الاصوات المرتفعة ضدها في البلدان النامية . ثم لم تلبث ان اكتشفت خلال الدورة التاسعة والعشرين للجمعيــة العامة في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، وما رافقها من تعليـــق عضويـــة جنوب افريقيا ، واشتراك منظمة التحرير الفلسطينية ، وطرد اسرائيل من منظمة الاونسكو ، بــان العالم لم يعد يدور في فلكها .

ولقد هاجمت اميركا تسلط الغالبية — على لسان ممثلها في الامم المتحدة جــون سكالي — عندما لاحظت تكتل الاغلبية الساحقة للعالم الثالث ، وجرأتها ، ووقوفهــا صفا واحدا بوجهها . وبدأت واشنطن سلسلة من التهديدات بقطع المساعدات المادية عن المنظمة الدولية ، وبالانسحـــاب من المنظمة ، آملة ارهـــاب الــدول النامية او « الغالبية الجديدة » كما اسمتها . ولكنها تشعر انها ما زالت على أول طريق الصراع مع العالم الثالث . ولقد زاد من احساس الولايات المتحدة بالخطر الجديد ، الجــو الذي ساد مؤتمر وزراء الخارجية لاربعين دولة اسلامية ، المنعقد في جدة (١٢ — ١٥ تموز ١٩٧٥) ، ومؤتمر القمة الافريقي ، المنعقد في كمبالا (٢٩ تموز ١٩٧٥) ، وظهور تيار قوي يطالب بطرد اسرائيل من المنظمة الدولية أو تجميد عضويتها على الاقــل ، ويدل على أن واشنطن ستجابه في المستقبل متاعب متزايدة .

وهناك مجابهة في الشهور المقبلة بين الدول الصناعية المستهلكة التي تتزعمهــا الولايات المتحدة والدول المنتجة للمواد الخام . ويحاول كيسنجر احتواء المجابهة قبل وقوعها ، وذلك عن طريق تفتيت جبهة الدول المنتجـــة والتأكيد عــلى ضرورة فصل موضوع الطاقة عن موضوع المواد الخام الاخرى ، ومطالبة دول العالم الثالث بعدم الربط بين اسعار صادراتها واسعار مستورداتها . ومن الواضـــح ان دول العالــم الثالث تتجه نحو رفض هاتين الفكرتين . وتجابه المصالح الاميركية في هذا المجــال اخطارا جسيمة في جنوبي افريقيا ، حيث يهمها الحصول على الــذهب واليورانيوم والفحم الحجري والكروم والبلاتين وغيرها من المواد الهامة . وتخشى الولايات المتحدة

نمو القوى اليسارية في القارة الافريقية وتزايد الاضطرابات في جنوبي افريقيا والمنطقة العربيه من المحيط الهندي . ويزيد من قلقها تنامي النفوذ السوفياتي في الصومال ، واحتمال وجود قاعده سوفياتيه قرب بربره على خليج عدن . وهي تخشى ايضا الحكم اليساري القائم في كل من موزامبيق وزامبيا ، والاوضاع غير المستقرة في انغولا . ولا تنظر بعين الرضى الى حكم عيدي امين في أوغنده . وللولايات المتحدة مصالح استراتيجية في رأس الرجاء الصالح لان معظم ناقلات البترول المتجهة الى اوروبا والولايات المتحده تمر حول رأس الرجاء الصالح حتى بعد فتح قناة السويس للملاحه في ٥ حزيران ١٩٧٥ . وتخشى الولايات المتحدة ان يؤدي تزايد الوجود السوفياتي في المحيط الهندي الى تعطيل المرور حول رأس الرجاء الصالح ، وهناك اقتراحات بشأن انشاء منصات اطلاق صواريخ في القاعدة البحرية « سيمونزتاون » قرب راس الرجاء الصالح(١) .

ولا تسير جميع الامور في اميركا اللاتينية وفق رغبات الادارة الاميركية ، ولكن انشغال هذه الادارة في اماكن اخرى من العالم يدفعها الى تقبل الحقائق السياسية الجديدة عندما تشعر بعجزها عن استغلال الاوضاع لصالحها . ففي ٢٩ تموز ١٩٧٥، وافقت منظمة الدول الاميركية في اجتماع عقدته في « سان خوزيه » في كوستاريكا ، على اقتراح اميركي برفع الحظر الاقتصادي المفروض على كوبا منذ العام ١٩٦٤ . وفي ٢١ آب رفعت الولايات المتحدة الحظر عن الصادرات الى كوبا عبر الشركات التابعة للشركات الاميركية ، ولكنها لم ترفع الحظر عن التجارة المباشرة .

واذا اضفنا الى كل هذه المشاكل ، متاعب الولايات المتحدة الداخلية : كالازمات الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، والبلبلة السياسية التي عاشتها الاوساط الاميركية المسؤولة منذ قضية ووترغيت ، والمجابهة الحالية بين الادارة والكنغرس حول السياسة الخارجية ، امكننا فهم المغزى الكامن وراء قول كيسنجر : « اننا ننتقل الى عالم جديد ، فالعالم الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة تآكل كثيرا في اواخر الستينات واوائل السبعينات . اننا في فترة تكييف الدور الاميركي في العالم وفقا للبيئة الجديدة(٢) » .

ونكثر حاليا التساؤلات والنظريات والاقتراحات في الاوساط الاميركية المسؤولة والحاكمة حول « الواقع الجديد » و « الوجود العسكري الاميركي في العالم » و « الاحلاف والمعاهدات » المعقودة بين الولايات المتحدة والعديد من الدول . وهناك تيارات رسمية وغير رسمية تدعو الى « اعادة تقييم » سياسة الولايات المتحدة في الشرق الاوسط « واعادة النظر » في السياسة الاميركية في جنوب شرقي آسيا . والى جانب المنادين باستراتيجية « التصلب » نجد المنادين بضرورة اتباع « سياسة انعزالية » .

والواقع ان الولايات المتحدة تحاول ان تجابه ذيول حدثين هامين وقعا في العامين الاخيرين ، ولا تزال آثارهما تتفاعل حتى اليوم ، وهما : انتصار الثورة الفيتنامية (١٩٧٥) ، والحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة (١٩٧٣) . ولقد خلق الحدث الثاني وضعا جديدا في الشرق الاوسط . وجاء حظر النفط وارتفاع اسعاره لينقلا مشكلة الشرق الاوسط الى مكان الصدارة بين المشاكل الدولية . كما ان الصورة التي انتهت بها فيتنام خلخلت الاوضاع والاحلاف السائدة . ولقد كان من الطبيعي ان تسارع الولايات المتحدة لمجابهة الاحداث واحتوائها حيثما تستطيع ، وبالشكل الذي تسمح به معطيات المواقف الجديدة .

وليست هذه هي المرة الاولى التي تجد الولايات المتحدة نفسها فيهـــا مضطرة الى تكييف سياستها الخارجية مع متطلبات جديده يفرضها واقع جديد . ومن المعـــروف انه ما ان نجد الولايات المتحده أن سياستها لم تعد تتلاءم مع الاوضـاع الجديدة في مكان مـــا ، حتى تحاول التكيف مع الوضع الراهن الجديد بصياغة سياسة جديدة لا تقبل بالواقع كما هو ، بل تحاول ايجاد السياسة الافضل لتأمين اهدافها ومصالحها ضمن اطار هذا الواقع . واذا عدنا الى التاريخ الاميركي وجدنا انه عندما شعرت الولايات المتحدة بان العزلة التي كانت تعيش في ظلها منـــذ ان أعلـــن الرئيس مونرو في العام ١٨٢٤ مبداه القاضي بعدم السماح للدول الاوروبية بالتدخل في شؤون القارة الأميركية (هذا المبدأ الذي اصبح فيما بعد وسيلة للتدخل في شؤون اميركا اللاتينية) لم تعـد تتلاءم والتطورات الجديدة في العالم آنذاك ، وبصورة خاصة في القارة الاوروبيـــة . دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الاولى ، ثم دخلت الحرب العالمية الثانية مفتتحة بذلك تاريخا طويلا من التدخل المباشر وغير المباشر في العالم .

وفي اعقاب الحرب العالمية الثانية ، اتخذت السياسة الخارجية الاميركية طابعـا « اقتصاديا » متعدد الاسماء ، (كمشروع مارشال ، والنقطـــة الرابعة ، وغيرهما) لاعادة تعمير اوروبا واليابان وبعض دول الشرق الاوسط . ومع بدء الحرب الباردة واعلان مبدأ ترومان (١٢ آذار ١٩٤٧) الذي تعهدت به الولايات المتحدة بمساعدة اية دولة تطلب المساعدة ضد الشيوعية ، اتخذت السياسة الاميركية الخارجية الطابع العسكري ، وخاصة بعد الحرب الكورية (١٩٥٠ — ١٩٥٣) . واصبحت المساعدات الاقتصادية مكرسة لمؤازرة حكومات « صديقة » ، بغية مساعدتها وتثبيتها في الحكم. ولا شك في ان نجاح الولايات المتحدة خلال الحربين العالميتين شجعها على الاستمرار في التدخل بالامور الدولية ، حتى ظنت أن باستطاعتها فرض ارادتها على العالـم . ولم يكن مبدأ ترومان وبعده مبدأ ايزنهاور (الذي يمثل في الواقع صورة اخرى لمبــدأ ترومان) ، سوى تعبير عن ارادة الولايات المتحدة للسيطرة على العالم باسم المحافظة على « الديمقراطية » و « الحرية » . واستمرت هذه السياسة الاميركية تهيمن على معظم اقطار العالم غير الاشتراكي الى اواخر الستينات ، حين شعـــرت الحكومـــة الاميركية بثقل اعباء ورطة الحرب في فيتنام ، وما سببته هذه الحـــرب من خسائـــر مادية ومعنوية ، فبدأت تنوء تحت ضغط الحركات الثورية والعالمية ، وتنظر بقلق الى تململ حلفائها وبوادر الازمة الاقتصادية الداخلية التي ما زالت تعاني منها حتى الان، فاضطرت الى اعادة النظر في سياستها الدولية ، وظهر من جراء ذلك مبدأ نيكسون وما رافقه من شعارات مثل « الطموح المتواضع » ، و « الثمن الاقل » ، و « ثقل الاعباء الدولية » و « مساهمة الحلفـــاء في تكاليف الـــدفاع عن انفسهـــم » ، وغيرهـــا من الشعارات التي اعطت العالم انطباعا بان الولايات المتحـــدة تقف على عتبة اتخـــاذ اجراءات بشأن وجودها الدولي .

ويتلخص مبدأ نيكسون الذي أعلن عنه الرئيس الاميركي في خطاب ٢٥ تموز ١٩٦٩ في جزيرة « غوام » بالنقاط التالية : احترام الولايات المتحدة لجميـــع معاهداتهـــا ، واستعدادها لتقديم « الدرع » اذا تعرضت دولة صديقة أو اية دولة اخرى تعتبـــر الولايات المتحدة ان امنها حيوي بالنسبة اليها لتهديد من قبل دولة نووية ، وتقديـــم المساعدة العسكرية والاقتصادية في حالة وقوع اعتـــداء غير نووي علـــى أية دولة مستعدة للدفاع عن نفسها . وكانت الغاية مـــن هذا المبـــدأ تهدئة النقمة الداخلية والخارجية ضد سياسة التدخل ، والعمل على عسكرة الحلفاء واعدادهم للقيام بدور « الشرطي » الاقليمي ، لان الولايات المتحدة شعرت بانه لم يعد باستطاعتها القيـــام

عنا بدور « الشرطي » في العالـــم ، كما كانت الحـــال في الاربعينات وحتى اواخـــر الستينات ، ثم ان الثمن الذي تدفعه لوجودها العسكري في بعض المناطق يفوق ثمن مصالحها .

ومن هذا المنظور يمكن القول ان ما حدث في فيتنام لم يفاجىء المسؤولين الاميركيين . ولكن هذا لا يعني ان سقوط سايغون (١ ايار ١٩٧٥) لم يشكل هزيمة كبيرة للولايات المتحدة التي كانت تفضل مخرجا لبقا ونهاية أفضل لحرب كلفتها غاليا . ولكن الولايات المتحده قررت بان لا تضع نفسها في المستقبل في اوضاع صعبة ، وخاصة في آسيا حيث لا تزال تامل بأن يؤمن لها حلفاؤها كل مصالحها ، مع استعدادها للقتال اذا اقتضى الامر في المستقبل ، شريطة ان تكون الحرب التي ستخوضهـــا حربا يدفـــع ثمنهـــا الاسيويون . وترى واشنطن في انقسام المعسكر الشيوعي خير وسيلة لتحقيق هـــذه الغاية .

ان من قصر النظر اعتبار المشاكل والمتاعب التي تجابه الحكومة الاميركية حاليـــا هزائم اميركية ساحقة ، أو الاعتقاد بان الولايات المتحدة هي في حالة استعداد للقيام بتراجع استراتيجي . والحقيقة ان الولايات المتحدة تواجه تطورات خطيرة دفعتها الى اعادة النظر في استراتيجيتها في العالم ، ولكنها لم تقنعها بانها على حافة الانهيـــار ، او انها مصابة بهزيمة حاسمة . ففي اوروبا مثلا ، ورغم المخاطر التي تهدد الحلـــف الاطلسي ، ليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان الولايات المتحدة ستخسر حلفاءهـــا الاوروبيين قريبا . واذا استثنينا ما يحدث في البرتغال ، وجدنا انه ليس في اوروبـــا تطورات تشير الى احتمال وقوع انقلاب على طريقة براغ (١٩٤٨) ، حتى في ايطاليا، حيث ينمو الحزب الشيوعي باستمرار .

اما في آسيا ، وبالرغـــم من الهزيمة في فيتنـــام ، فما يـــزال المحيط الهادي يعج بالاساطيل الحربية الاميركية . ومع ان الوجود الاميركي وان لم يعد يمر عبر القارة الاسيوية ، فهو يحتفظ حتى الان بمرساته الاسيوية (كوريا الجنوبية) ، ويمتد علـــى طول الارخبيلات الاسيوية الكبرى : اندونيسيا ، والفيلبين ، واوكيناوا واليابان .

ويبدو ان عصر ما بعد فيتنام هو عصر القوة البحرية . ويعود هذا التركيز عـــلى الاسطول الى عدة اسباب : منها مراعاة الرأي العام الاميركي الذي يرفض ارســـال الجنود الى ما وراء البحار والتورط في حرب اسيوية جديدة ، وتحاشي الصدام مـــع الحركات الشعبية في الدول الناشئة في المنطقة ، ومن المؤكد ان الوجـــود في عرض البحار اقل احراجا للحكومات الصديقة للولايات المتحدة . وهناك سبب اخر وهـــو تأمين طرق الامدادات في الخليج الهندي ، وحماية مصادر المواد الاولية . ولا تغني الاساطيل بالطبع عن الحاجة الى مرافىء . ولكن الولايات المتحدة رغم متاعبها مـــع المعارضة في اليابان والفيلبين ، لا تزال تتمتع بالتسهيلات في مرافىء هذين البلدين .

ولا يقتصر الوجود الاميركي في جنوبي آسيا على الاساطيـــل البحرية والقواعـــد العسكرية . فهناك ايضا العديد من الشركات والبنوك والفنادق الاميركية التي تسيطر على قطاعات هامة من اقتصاد هذه المنطقة . وليس هناك مؤشرات تدل على نهايـــة النفوذ الاميركي . فلقد عبرت تايلاند والفيلبين — منذ انتهـــاء حـــرب فيتنام بصورة خاصة — عن عدم رضاهما عن وجود القواعد الاميركية على اراضيهما ، ولكنهمـــا لا تزالان تعتبران الوجود الاميركي ضروريا لتوازن القوى في المنطقة . ورغم الكلام عن « دومينو اسيوي » فليس هناك ما يدل على ان سنغافوره وماليزيا واندونيسيا على وشك التحول الى أنظمة شيوعية .

وفي العالم الثالث مناطق لم تبدأ فيها المجابهة الحقيقية مع الولايات المتحدة . ولمنع حدوث هذه المجابهة يحاول كيسنجر التفاهم مع العالم الثالث بطرحه فكرة اجراء حوار دولي جديد وفكرة « المشاركة » وذلك في سبيل التهدئه وكسب الوقت ريثما يجد مخرجا يعيد للولايات المتحدة نفوذها . ان حاجة الولايات المتحدة للمواد الاولية (النفط أساسا) حاجة متصاعدة باستمرار . ولكن لا يمكن القول في الوقت الحاضر ان وضع الولايات المتحدة سيء في هذا المجال . اذ انها لا تزال محتفظة بصداقة العديد من حكومات العالم الثالث ، ومسيطرة على العديد من جيوش هذه الدول ، من خلال مدها بالاسلحة والمساعدات العسكرية . وبالاضافة الى ذلك ، فهناك الشركات المتعددة القوميات Transnational ذات النفوذ المتصاعد في هذه الدول . وتقع القاعدة الاساسية لغالبية هذه الشركات في الولايات المتحدة ، وهي تخضع لمراقبة الاميركيين . ومن المؤكد ان وجود هذه الشركات في دول مثل البرازيل وايران واندونيسيا وافريقيا الجنوبية ، واحتمال وجودها قريبا في بلدان اخرى مثل مصر ونيجيريا وزائير وغيرها ، يؤمن لواشنطن السيطرة على مصادر المواد الخام ، ومن ثم على اقتصاد هذه البلدان اذا ما تعذر القيام بتدخل مباشر .

يقول سيمون بوليفار : « ان الولايات المتحدة مختارة من قبل العناية الالهية لتضطهد بلا رحمة اميركا اللاتينية باسم الحرية » . والواقع ان هذا القول ينطبق على السياسة الخارجية الاميركية في انحاء اخرى من العالم وبصورة خاصة على سياستها خلال الحرب الباردة حين ملأت مبادىء الرئيس الاميركي وودرو ويلسون أجواء العالم ، ونمت الاجهزة المختصة ، كوكالة المخابرات المركزية ، وغيرها للدفاع عن « الحرية » و « الديمقراطية » . اما اليوم وبالتحديد منذ اعلان مبدأ نيكسون ، فقد سقط القناع الايديولوجي والاخلاقي عن السياسة الاميركية الخارجية التي لم تعد قادرة على التضليل ، فأخذت شكلا صريحا رغم ما يكتنفها من الغموض في بعض الاحيان . وبدأت الادارة الاميركية تصرح على رؤوس الاشهاد بانها ستتصرف بموجب مصالحها القومية . ولقد كانت تتصرف دائما على هذا الاساس ، ولكنها كانت تموه مصالحها تحت تعابير ملطفة ومخادعة مثل « حماية العالم الحر » ، و «الديمقراطيات في العالم » و « المبادىء المشتركة » . . . الخ أما الان فقد أخذت المصالح هوية واضحة : كالبترول في الشرق الاوسط ، والمواد الخام في بقية دول العالم الثالث ، والدفاع على مناطق النفوذ الحيوية بالنسبة الى الامن القومي الاميركي .

ولقد وعى المعسكر الاشتراكي هذا الواقع منذ زمن بعيد . ثم بدأ الحلفاء الاوروبيون يعونه ايضا . وكان الجنرال ديغول سباقا في هذا المجال . ولكنه ظل وحيدا خلال فترة طويلة ، وهذا ما جعل فرنسا تتبع سياسة شبه مستقلة عن الولايات المتحدة . اما الان ، وبعد ان رفض الكنغرس التصويت على المساعدة العسكرية التي وعد بها الرئيس السابق نيكسون حكومتي فيتنام الجنوبية وكمبوديا بموجب المبدأ الذي يحمل اسمه ، وبعد تحرير سايغون وبنوم بينه ، فان الادارة الاميركية تجد صعوبة كبيرة في اعادة ترميم صورتها في الداخل والخارج . ويحاول المسؤولون اعادة شيء من الهيبة والثقة للسياسة الاميركية . فلقد اعلن فورد في خطاب له في سان دييغو (كاليفورنيا) في ٣ نيسان ١٩٧٥ ان الولايات المتحدة لن تتخلى عن جنوب شرقي آسيا . وكانت عملية انقاذ سفينة مايا غويز (١٣ — ١٤ ايار ١٩٧٥) التي احتجزتها الحكومة الكمبودية ، عملية رد اعتبار موجهة الى الحلفاء والخصوم على السواء ، لتذكيرهم بان الولايات المتحدة ما زالت قوية . ولم تكن زيارة شليسنجر ، وزير الدفاع الاميركي ، التي قام بها في اواخر اب ١٩٧٥ الى كوريا الجنوبية واليابان الا لتهدئة هذين البلدين

واعادة الثقة الى نفوس الاصدقاء الاسيويين . ولكن الحكومة الاميركية مقتنعة انه لم يعد باستطاعتها التحكم بالعالم باسم مبادئها او باسم مصالحها ، وانها لم تعد تهيمن على معسكر حلفائها . وهي تريد من ناحية اخرى تأمين مصالحهـــا بمؤازرة هـــؤلاء الحلفاء دون الاصطدام معهم من جراء تضارب المصالح . ان مصالحها موزعة حـــول العالم . ولا يسعها تأمينها الا بتأييد الاصدقاء وتحييد الخصوم .

وتحاول الولايات المتحدة من خلال هذا المخطط تحديـــد استراتيجيتهـــا المقبلة . وتتجمع في افق واشنطن اليوم معالم مبدأ جديد لا يزال برسم التسمية . ويتلخص هذا المبدأ بالنقاط التالية(٢):

ـــ ان تأييد الولايات المتحدة الاقتصادي والعسكري لدولة ما سوف تحدده المصالح الاميركية في مفهومها الضيق .

ـــ ان الالتزامات التي يوافق عليها الكنغرس هي وحدها ملزمة ، اما الالتزامات الاخرى فهي غير ملزمة .

ـــ اذا دعت الحاجة الى ارسال قوات للاشتراك في حرب ما ، توجب على رئيـــس الجمهورية ان يحصل على موافقة الكنغرس خلال فترة ٦٠ يوما .

وسواء سارت السياسة الاميركية الخارجية وفق هذا المبدأ أم لا ، فان السياسة الاميركية في السنين الاخيرة تدل على ان الخطوط العريضة لهذا المبدأ ستكون نقطـــة انطلاق للسياسة الاميركية الخارجية المقبلة . وليس هناك ما يشير الى ان الولايات المتحدة ستتخلى عن مكاسبها بسهولة . ولا شك في ان تطبيق المبدأ الجديد ســـيشكل خطرا جديدا على السلام العالمي ، لان الحكومة الاميركية ستختار بموجبه الالتزامات التي تتلاءم ومصالحها ، وتركز قواها في مكان معين وفقا لحاجاتها ، حتى لو ادى ذلك الى صدامها مع القوى العالمية الاخرى .

ومهما كانت المبادىء التي ستطبقها الولايات المتحدة ، والدور الـــذي ستلعبه ، فهناك من المؤشرات ما يسمح بتكوين فكرة شبه متكاملة عن السياسة الخـــارجية الاميركية المستقبلية . واهم هذه المؤشرات :

(١) ان الوجود العســكـري الاميركي لا يزال قويا في العالم ، رغـــم الهزائم التي تلقتها الولايات المتحدة مؤخرا ولا تزال تتلقاها في مختلف انحاء العالم .

(٢) ترتفع الاصوات داخل البنتاغون والاوساط ذات النفوذ مطالبة بالحفاظ على التفوق العسكري الاميركي في العالم وتقوية البحرية الاميركية ـــ ولقد تجاوبت الادارة الاميركية مع هذه الاصوات ورفعت ميزانية البحرية للعام ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٥ الى ٩ر٣ مليار دولار ، اي بزيادة قدرها ٣٠٪ من ميزانية العام السابق .

(٣) استمرار ارتفاع الميزانية العسكرية الاميركية . ولقد غدت ميزانية البنتاغون للعام ١٩٧٦ ١٠٥ بليون دولار اي بزيادة ١٨٪ عن السنة الماضية .

(٤) التصريحات الاميركية حول فاعلية دور الولايات المتحدة لتجنيب العـــالم خطر وقوع حرب نووية مدمرة .

(٥) التحذيرات والتهديدات الاميركية لكل من يستهين بالمكانة الدولية الاميركية .

ان الولايات المتحدة تحاول اليوم التشبث بمواقعها ودورها في العالم ، وتعمل ما في وسعها لمنع النكسات المحلية من التحول الى انحسار شامل وعزلة قاتلة . ويمكـــن القول أنها تمر في مرحلة ترتيب اوضاعها واعادة تنظيم صفوفها مع البحث عن وسيلة

للنهوض من هزائم جنوب شرقي اسيا والحيلولة دون تكرارها ، وتقوية جبهتها وجبهة حلفائها لمجابهه المشاكل الدوليه بافضل السبل . وعندما يطالب بعض المسؤولين داخل الولايات المتحده بالتخلص من الالتزامات التي يفرضها حلف جنوب شرقي آسيا ، ومعاهدة ريو ، والحلف المركزي ، فان هذه المطالبه ناجمة عن عدم جدوى هذه الاحلاف والتكتلات بالنسبة الى الاستراتيجيه الامريكيه المستقبلية ، وضرورة التخلي عن معظم الالتزامات من اجل تقوية منظمة حلف شمالي الاطلسي . واذا قررت الولايات المتحدة سحب بعض قواتها من مكان ما فسوف يكون ذلك لاعادة توزيع هذه القوات ونقل مركز ثقلها الى المناطق التي نعتبرها حيوية بالنسبة الى مصالحها .

ان اي انسحاب من جنوب شرقي آسيا مثلا لن يتم الا لتقوية الوجود العسكري في المحيط الهندي . ومن هنا جاء التركيز على قاعدة دييغو غارسيا (في المحيط الهندي)، وتوطيد العلاقات مع ايران . ولا شك ان الولايات المتحدة ستبحث عن اساليب مبتكرة لتعزيز وجودها العسكري الجديد الذي حصلت عليه في الشرق الاوسط بموجب اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء (ايلول ١٩٧٥)(٤).

وليس من المنتظر ان تتخلى الولايات المتحدة في المستقبل المنظور عن جوهر استراتجيتها العالمية . ولكنها ستبقى على العكس مخلصة لاهدافها الامبراطورية ، مع التركيز على وجودها في اوروبا واليابان والشرق الاوسط ، واعطائه أولوية على وجودها في المناطق الاخرى .

ولا تشكل اوروبا في الوقت الحاضر نقطة ساخنة ، رغم ما تسببه للولايات المتحدة من متاعب وينطبق هذا القول على اليابان الا اذا وقع داخل النظام الياباني تطورات جذرية تدفعه الى اعادة النظر في العلاقات اليابانية — الامريكية . ويبقى الشرق الاوسط نقطة متفجرة تستقطب اهتمام الولايات المتحدة ، وتشغل حيزا هاما في مخططها الاستراتيجي الحالي والمستقبلي .

ان الولايات المتحدة تعترف بان المعطيات العالمية تختلف عما كانت عليه في ربع القرن الماضي . وهي ترى ان البشرية تعيش في عالم جديد . وبدلا من التلاؤم مع طبيعة العصر ومعطياته ، فانها تتهيأ لمجابهة العالم الجديد بعقلية الامبريالية القديمه التي زاد من خطورتها قدرتها على استخدام اساليب عصرية حديثة .

الحواشي

١ — **نيويورك تايمز** ، ١١ اب ١٩٧٥ .

٢ — في تصريح له لمجلة **يو اس نيوز اند وورلد ريبورت** ، ٢٣ حزيران ١٩٧٥ .

٣ — **يو اس نيوز اند وورلد ريبورت** ، ٧ تموز ١٩٧٥ .

٤ — حول اهمية الوجود العسكري الامريكي وخطره على المنطقة ككل انظر **نيويورك تايمز** ، ٢ — ٥ ايلول ١٩٧٥، **ولوموند** ٣ ايلول ١٩٧٥.

الدكتور كيسنجر وسياسة المناطق المتجانسة
حول الدلالة السياسية للاتفاقية المصرية ـ الأسرائيلية

الدكتور فيصل دراج

« برز كيسنجر والاضواء مسلطة عليه ليعانق الوزير المصري وكانما وجد اخا طال فراقه »
مارفين وبرنارد كالب (كيسنجر صفحة ٢٦٩)

تناضل الامبريالية الامريكية باستمرار وتحت أشكال متعددة لاقامة وخلق « مناطق هادئة » سياسيا ، أي مناطق متجانسة سياسيا (بدون تناقض) تعمل وتدار من خلال طبقة أو تحالف طبقي مرتبط عضويا بالامبريالية الامريكية ومحكوم بتبعية اقتصادية وسياسية وايدولوجية على الرغم من الاشكال المختلفة التي يمكن أن تأخذها التبعية الايديولوجية • ويمكن ان تضم المناطق «المتجانسة سياسيا» دولا ذات انظمة مختلفة تتميز كل منها بتاريخها وثقافتها وعقائدها التقليدية ، فما يهم مهندسو السياسة الامريكية ليس تميز كل بلد وخصوصيته التاريخية بل الدور الذي يلعبه سياسيا كتابع للسياسة الامريكية وكأداة لاستراتيجيتها ومطامعها الاقتصادية • وهذا يعني أن هناك محورا وبؤرة مركزية للامبريالية الامريكية ، وتلعبه هنا أمريكا ذاتها ، وهناك في الوقت نفسه استطالات وأذرعة لهذه الامبريالية ، فهناك اذن تواجد مركزي للامبريالية وآخر لا مركزي لكنه يقوم بعكس طموحات واستراتيجية هذه الامبريالية على مستويات عدة •

ولم تكن استراتيجية الامبريالية الامريكية في منطقة الشرق الاوسط تختلف عن ما ذكرناه ، فقد كانت تناضل دائما من اجل اقامة حقل سياسي متجانس في المنطقة ينزوي تحت العباءة الامريكية ، لكن وجود دولة اسرائيل جعل هذا الحقل ناقصا باستمرار وكثيرا ما خلق شروطا ثورية تهدد بنسف وزعزعة هذا الحقل • وقد خلق النضال التحرري العربي منذ منتصف الخمسينات حقلا مناقضا ومناهضا للاستراتيجية الامريكية ، فأصبح هناك حقلان متناقضان محكومان بنزاع عدائي ، فكل منهما يحاول نقض الاخر ونفيه أي تهديمه • مثل الحقل الاول (الهادىء) أسرائيل وتحالفها اللامباشر مع الرجعية العربية ، في حين مثلت حركة التحرر العربية الحقل الثاني (حقل الزوابع) الذي يهدد وجود المصالح الامريكية وينمو باتجاه اقامة أنظمة وطنية مدعومة بالمعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفيتي كان هم امريكا ضمن هذا الاطار يهدف دائما الى امرين : اولهما تهديم الحقل الثاني وتغيير بنيانه ثم اعادة ربطه بالحقل الاول، في حين تمثل الهدف الثاني في اقامة حقل متجانس على مستوى الشرق الاوسط ، أي يضم الدول العربية واسرائيل ، ويجب أن نؤكد من جديد أن أمريكا تنظر الى هذا الحقل من خلال فاعليته السياسية المرتبطة بها ومن خلال مجاله الاقتصادي كمكان لانتاج واعادة انتاج رأسمال في اطار الاحتكارات الامبريالية ، فما يهم هو الممارسة السياسية للنظام من حيث هو انعكاس للمصالح الامريكية وليس من حيث هو نظام ذا دين معين أو ثقافة معينة •

فالحقل السياسي المتجانس بالنسبة لامريكا هو وحدة مترابطة من عدة أجزاء وكل جزء له دور وظيفي محدد في ممارسات الثورة المضـادة على المستوى المحلي والعالمي • فلا يرى النظام من خلال طقوسه الدينية بل من خلال فعله المباشر المرتبط بالامبريالية •

لم يكن المشروع الامريكي هذا قابلا للتحقيق قبل هزيمة حزيران ، لذلك جاءت الحرب الاسرائيلية ـ الامبريالية في الخامس من حزيران لاعادة توزيع الحقول، أي تهديم الحقل التحرري بكل مكاسبه وشد التاريخ الى الوراء ، وأصبحت استراتيجية أمريكا في المنطقة تعتمد علىتوظيف الانتصار الاسرائيلي لاجهاض كل ما تم ولارجاع النفوذ الامريكي من جديد الى المواقع التي أخرجته منها حركة التحرر العربية• وقد لعبت اسرائيل في الفترة الاولى من انتصارها وحتى حرب اكتوبر دورا رئيسيا في تحقيق المشـــروع الامريكـي ، فقـــد اوكـل اليهـــا تحقيق الســـلام الاسرائيلي PAX ISRAELITICA أي هدم الانظمة الوطنية (مصر وسوريا) وخلق شروط جديدة تسمح باقامة أنظمة جديدة تقبل واقع السيادة الاسرائيلية، وتستحيل بالتالي الى أنظمة خائنة وساقطة تاريخيا ترضى بالدخـول بشكل مباشر أو لا مباشر تحت المظلة الامريكية • لكن الصمود العربي المدعوم من الاتحاد السوفيتي والدور النشط والفاعل للشعبالفلسطيني ولد حرباكتوبر التي قوضت التفوق الاسرائيلي، وأعادت من جديد اسرائيل الى تابع مطلق للامبريالية الامريكية بعد ان حاولت ان تلعب دور الشريك ، وقوض هذا بالتالي صيغة السلام الاسرائيلي التي استبدلت « بالســلام الامريكي »

شهد الشرقالاوسط بعد ذلك دخولا كثيفا للدبلوماسية الامريكية ممثلا بشخص الدكتور كيسنجر ، ولم يكن هذا الدخول الكثيف يرجع الى تغير في ظاهر أو جوهـر السياسة الامريكية ، بل جاء في وقت سقطت فيه صيغة السلامالاسرائيلي منناحية، وولدت فيه الدبلوماسية الامريكية تغييرات في صميم النظام المصري، تغييرات بدأت قبل حرب اكتوبر • بدأ الدكتور كيسنجر في ظل الظروف الجديدة بتطبيق مفهومـه للعمل الدبلوماسي القائل « تكمن قيمة رجل الدولة في موهبته على تقييم ميزانالقوى بشكل دقيق لاستعماله في تحقيق الاهداف التي رسمها » (١) • وقد انطلق كيسنجر هنا منأرضية واضحة محكومة بأمرين أولهما ميزان القوى الجديد وثانيهما تحقيق الاهداف المرسومة مسبقا • فيما يتعلق بميزان القوى الجديد فقد تميز بتحجيم دور اسرائيل وخضوعها واعتمادها على أمريكا ، أي تكسير صلفها • وبالتالي شرعية أمريكا باستعادة الراية والجزم في القرار ، أما بالنسبة للنظـام المصري فقد تميـز بتحولات في بنيانه وأجهزته جعلته يتقرب ويزحف الى البلاط الامريكي بدون تردد ، بشكل لا تمليهالضرورة بقدر ما تمليه طبيعة النظامالجديد بمركباته اليمينيةوالرجعية القاصرة بنيويا عن محاربة الامبريالية • امـا الجزء الاخـر فيتجسد في « تحقيق الاهداف المرسومة مسبقا » والمنطلقـة من نظـرية « تجانس المنطقـة »، تجانس في الممارسات السياسية المرتبطة بأمريكا من حيث هي حكم ووسيط ومقرر يسعى بدأب الى اعادة نفوذه وقصم ظهر الحركة التحررية العربية وطرد التواجد السوفيتي من المنطقة • ولقد استطاعت دبلوماسية كيسنجر أن تقترب من هدفها بواسطة تنسيق متعدد الاشكال بينها وبين الرجعية المحلية في مجال تلعب فيه اسرائيل دور الموجه والضاغط • من هنا فقد نجح كيسنجر في سحب الدائرة المصرية حتى تلامسالدائرة الاسرائيلية ، ثم تابع رحلاته المكوكية ووعوده لتحقيق خطوة نوعية أخرى تهدف الى تداخل الدائرتين ، تداخل من خلال وسيط يمثله الان الخبـراء الامريكيون الـذين

سيرابطون في سيناء حسب بنود الاتفاقية الجديدة ، وسيلعب الامريكيون هنـا دور همزة الوصل وناقل الحوار ووسطاء التعايش وضبـط الجوار والجسـر الذي يربط مصر بالجزيرة الاسرائيلية ، وبهذا تتجسد أطروحة أخـرى لكيسنجر « انني أتكلـم باسم الطرفين العربي والاسرائيلي » (٢)، وعندما يتكلم « الساحر » باسم القضية العربية فمعنى ذلك أن هذه القضية أجهضت ورقدت صامتـة في أحضان خصمهـا التاريخي ·

الكيسنجرية ـ الهدف والاسلوب

يقول كيسنجر في دراستـه عن مترنيخ بأن هدف السياسي « ليس البحث عن الكمال بل عن الامان » (٣)· وهذا يعني أن ما سعى اليه.كيسنجر ليس البحث عن حل لمشكلة فعلية ومحددة بل اخفاء هذه المشكلة وكتم صوتها بواسطة صيغ مضللة، فليس المهم عنده موضوعية الحل ومصداقيته الموضوعية بل قدرة هـذا الحل على خدمة أمريكا من خلال شروط أمان وسلام زائفـة ، فما يـراه الدكتور كيسنجر ليس السلام كضرورة موضوعية بل شكل السلام الممكن من حيث هو مصدر ربح جديـد للساسة الامبريالية ، وبذلك يرجع الدكتور الى أصول الفلسفة البرجماتية القائلـة « الشيء صحيح بقدر ما يقدم لي من ربح » ·

ويسعى كيسنجر هنا الى أمر آخر ، فالى جانب الربح يجب اقفـال « النوافـذ السيئة » أي عزل الخصم الحقيقي ثم اضعافه لسحقه واجبـاره على الدخول الى الدائرة الامريكية · فبعد ترويض «الحـوت» يمكن اصطياد الاسماك الصغيـرة « سوريا والمقاومة الفلسطينية »·

ان مترنيخ السياسة الامريكية اللاهث وراء « أمان» يخدمه كامبريالي عمل منذ البدء على تشويه المشكلة الاصلية (الانسحاب من كل الاراضي المحتلة)، عندما قال « ان السلام يبدأ بتحقيق أمور صغيرة تظهر حسن نية الطرفين، وبذلك حصرالعملية بين مصر واسرائيل ، ثم تخلى عن سيناء ليحصر الحوار في مشكلة المساجين ، ثم اعادة تعمير مدن القناة ، ففتح قناة السويس ، وهكذا فان المشكلـة المحورية قـد غيبت وطمست تحت ركام من المشاكل الصغيرة التي ابتدعها « هنري العرب »، وقد عمد من أجل ذلك الى تفتيت المشكلة عبر ركام من الوعود الكيسنجرية ، أي خلال فضاء زماني طويل كاف لترويض ساسة مصر واقناعهم « بالوقائع الجديدة »· وقد نجح كيسنجر بذلك في تحقيق ما يسمى « باستيعاب الخصم »، باقناعه أولا بضرورة وقف القتال ثم تدجينه والحاقه ثانيا في قفص السياسة الامريكية ·

يقول كيسنجر « ان السياسة لا تفرز جوهرها الخاص ، فهي لا تخلق نفسها بنفسها » بل تنطلق من ميزان قوى محدد ، ولفرض ميزان قوى يقبل بالحل الامريكي كان من الضرورة كسر الجبهة العربية، أي تعريب الصراعات ، وتحييد وشل القوى العربية الضاربة ، وهذا الميزان لا يمكن أن يبدأ بالظهور الا بعد خلع الدور المصري منه ، فبعد خروج القوى الاكثر حسما يمكن « تقليم الاشواك التي تعتور مسيـرة السلام في الشرق الاوسط » ·

ويمكن أن نلاحظ في مسار كيسنجر الهادف الى « تقليـم النباتات الوحشية » امرين مترابطين مهد احدهما للاخر، اولهما «شل وتجميد العسكرية العربية» بواسطة تفوق عسكري مطرد لاسرائيل من شانه أن يرمي في التربة العربية اليأس والمراوحة

وثانيهما الاخراج الفعلي لجزء من « العسكرية العربية » من المعركة ، وهـو يعتقـد أن هذا الخروج الفعلي لم يكن ممكنا بدون الشلل والمراوحة التي سبقتـه ، ومعنى هذا أن كيسنجر استعمل أدوات عديدة قبل وصوله الى الاتفاقية الجزئية الراهنة، وقد أراد أن يبرهن دائما أن امريكا هي الاصل والجـذر والمطلق ، وهـذه السياسة (الجزرة الامريكية) هي التي أودت الى التسليم بواقع اسرائيل ، ومن خلال الجزرة ـ الحلم وصل النظام المصري الى قبول صيغة أن نزع الارض لا يتم الا بنزع السلاح، نزع السلاح الذاتي ٠

الاكاذيب منهجـا

كتب كيسنجر عن مترنيخ بانه « كان يستعمل الاكاذيب كأداة سياسية ، فرجل الدولة القوي يمكن أن يكذب دون أن يجد تحديا »٠ وقد استعمل مترنيخ البيت الابيض الاكاذيب مع النظام المصري حتى الثمالة « لنبدأ الان بمشكلة محددة أمـا المشاكل الاخرى فيأتي دورها فيما بعد »، وكانت أكاذيب الدكتور موسمية دائما أي مرتبطة بظرف معين ٠ فهو يطلق الحل ـ الاكذوبة كلما شعر أن العرب شرعوا في الحركة ، وتضليله كان يهدف دائما الى اجهاض اي مشروع عربي أو على حد قوله « لمنع العرب من المغامرة »، يقول مايكل هدسن « أن الولايات المتحدة تريد أن تعطي العرب دائما الانطباع بأنها قد تتدخل في النزاع وتفعل شيئا لصلحتهم ، بينما هـي في الواقع لا تفعل شيئـا سوى استغراق الوقت واعطاء اسرائيل الفرصة لكـي تدعم مركزها وتكرس وجودها في الاراضي العربية » (٤) واذا كان كيسنجر يعتمد الخديعة كمنهج فان مأساة النظام المصري انه كان يعتمد ـ ولا يزال ـ الاكذوبة كحقيقة ٠ على أية حال لم يكن الامـر خيارا بل تعبيـرا عن عنصر مسيطر في النظـام يرنو الى الامبريالية بشوق لانها مثاله الاقتصادي والسياسي والايدولوجي ٠

الدبلوماسي لا يبدأ عمله من الصفر

من اطروحات الدكتور كيسنجر أن الدبلوماسي « لا يعمل ابتداء من الصفر من شرط أعد له مسبقا » (٥)، فالدبلوماسي وخاصة اذا كان مناضلا محترفا في الامبريالية العالمية كالدكتور كيسنجر لا يمكنه أن يحاور بشكل « مثمر » نظاما وطنيا ، فشكل الحوار الوحيد الذي يعرفه تمثل في مأساة تشيلي ، فمنطقه هو منطق المؤامرة والجزرة ، لذلك فان كل رحلة حوار يمهد لها مسبقا بأظافر الدكتور السرية ، وهو يبدأ عمله في تربة قد فلحت وأصابها السماد الامريكي ٠ وقد لمسنا ثمار التربة المتأمركة قبل وصول الدكتور ، وعلى عدة مستويات ٠

على المستوى السياسي، غيبت القوى الوطنية وراء الجدران واجتثت من الحقل السياسي ، واستبدلت بوجـوه ملكية تحن الى الماضي والغـرب حنين النـاقة الى فصيلها ، ثم جاء طرد الخبراء السوفيت وهو ما كان ينادي بـه كيسنجر جهـارا مستعملا كلمة الطرد Expelling (٦) كشرط لا مناص منه للتحرك الامريكي من أجل « السلام »، ثم زامل ذلك حملة مسعورة على الاتحـاد السوفيتي ، فنـدد بالخبراء كمستعمرين ، وشتم الاتحاد السوفيتي « كحليف » لا يمكن الركون اليه ، فهـو سبب الهزيمة »، وعقبة التحرير الشامل ، ولا يمد مصر بالسـلاح ، ويطالـب بالديون في ظروف مصرية صعبة ٠٠٠، ان كل هذه الحملة المزيفة للحقيقة قدمتهـا مصر كبرهان « ساطع » على ثقتهـا بالدبلوماسية الامريكية ٠ أمـا على الصعيـد

الايديولوجي فقد اطلق العنان لكل الفكر المناهض للمنهج العلمي، وشهدت البلاد كل رقصات الفكر الرجعي المهترىء ، والدعوة الى الفكر التيوقراطي المعـادي للعلـم والمروج للاتجاهات الغيبية، وانتعش الفكر التقليدي والعقلية الشوفينية (٧)، وخرج مهرجو البلاط ليندووا بكل تراث الانسانية العقلاني ، داعين الى العودة الى الفطرة الطاهرة والشعور الصافي· وهكذا بعثت من مراقدها كل المقولات الاظلامية والجاهلية. كل ذلك لتخلق فردا جاهلا ومواطنا معتوها يقبل بالامر الواقع كحقيقة ·

لكن هذا الفكر الاظلامي الداعي الى العودة الى ينابيع الفضيلة والطهر لم يترك ساحة القرن العشرين ، فقد ارتبط بأكثـر جوانحها رجعية واظلامية ، فدافع عـن تكنولوجيا الغرب وديمقراطية المجتمع الرأسمالي ، بل أصبح مبررا ومدافعا عن كل سقطات المجتمع الرأسمالي · فرأى في فضيحة ووترغيت مؤامـرة صهيونية وليس نبراسا لزيف الديمقراطية البرجوازية ، ثم وصل هذا الفكر الرجعي الى أقصى مداه عندما بدأ يبرر السياسة الامريكية وتصريحات ممثليها· فلم تر الاهرام في تهديدات شليسنغر بغزو الشرق الاوسط الا « تهويشا غير جاد » أو « نوعا من تخويف بعض ضعاف الاعصاب »، وعندما يقول كيسنجر بأنه ليس عند الولايات المتحدة أي خطى جديدة أو مقترحات ، ينبري احسان عبد القدوس ليقول « لا شك ان هذا الكلام مجرد كلام دبلوماسي ··· ، وربما اراد به كيسنجر ان يخفي سرا» (٨) · وهكذا فقد تحول النظام الى مبرر بدون شرط لكل السياسة الامريكية ·

أما اذا انتقلنا الى المجال الاقتصادي لما وجدناه يخالف المستويات الاخرى ، فقد استؤصل منه كل القذى الذي يمكن أن يعكر عيون الاحتكارات الغربية ، وجاء الانفتاح الاقتصادي ليصفي كل المنجزات الايجابية ، فدفـع بالقطاع الخاص الـى مركز الحلبة ، بينما طالب الرأسماليون الجدد بـ « تصفية المشروعات الخاسرة··· مع انسحاب القطاع العام من غير مجالاته » (٩)، وربط الاقتصاد المصري من جديد بالاقتصاد الامبريالي والامريكي منه بشكل خاص · فعند زيارة نيكسون الى القاهرة تم التوصل الى « عقود » اقتصادية بين الطرفين تعطى فيها رؤوس الاموال الامريكية ضمانات مطلقة (١٠)، فتح على أثرها المجال أمام الاستثمارات الخاصة الامريكية في مصر ، ومنذ تلك الزيارة وحتى اليوم أصبحت مصر مجالا مفتوحا أمـام الشركات الامريكية ورؤوس الاموال الغربية ·

يبقى لاكمال الصورة عنصر طريف هو صور كيسنجر الملونة التي رسمتهـا ووزعتها بسخاء الصحف المصرية والقيادات المصرية ، فالدكتور هـو رجل سلام ، ودبلوماسي بارع ، ورجل معجزات ، ولم يتورع الرئيس السادات أن يتبـع الدكتور الى سيارته ليقول لـه « سيادة الوزير أنت لست صديقي فحسب بل أخـي » (١١)، وعندما سأل أحد المراسلين السادات « سيدي الرئيس ما هي نصيحتكم للرئيس الاسد بصدد فصل القوات ؟ » وضع الرئيس يده حول كيسنجر وقال « انني اثق بصديقي هنري · هذا ما اقول للاسد · ثق بصديقي هنري » (١٢)·

ان الدكتور كيسنجر لم يصل الى صيغة سلامه الا بعد أن أعـاد حرث التـربة المصرية السياسية وجعلها دمنة صالحة لكل الاشواك الامريكية ·

الاتفاقية الجزئية والنموذج التركي ـ اليوناني

تهدف الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية جوهريا الى تقديم واعتبـــار اسرائيل كجسم طبيعي في الشرق الاوسط يجب قبوله والتعايش معه، وبذلك فان الاتفاقية تغفر

لاسرائيل وجودها المغتصب وممارساتها العدوانية وتعاملها كوجود شرعي • فنص الاتفاقية يبدأ بعبارة « اتفقت حكومةجمهورية مصر العربية وحكومة اسرائيل»، وهذه العبارة اقرار مباشر وجلي بالاعتراف بالعدو الاسرائيلي ككيان شرعي يجب التعايش معه بدون حروب حيث أن الاتفاقية تقول « ان النزاع بينهما وفي الشرق الاوسط لا يحل بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية »• وبذلك وصل الدكتور كيسنجر الى هدفه الذي نادى به منذ امد عن ضرورة « السـلام » في الشرق الاوسط ، سـلام على الطريقة الامريكية يكرس الوجود الاسرائيلي ويعطيه طابع الشرعية • بل يمكن القول أن الاتفاقية لم تمد اسرائيل بالهوية الشرعية فقط بل منحتها أيضاً « ظروف سلام » جديدة تتابع من خلالها احتلال الارض العربية « يتعهد الطرفان بعدم استخدام القوة أو التهديد بها أو الحصار العسكري في مواجهة الطرف الاخر »• فالنظـام المصري يعامل اسرائيل كوجود نظيف يتم التعامل معه بالحوار وليس بالمـدافع ، ويجب أن تستعمل معه كل أدوات الحوار السلمي « سوف يستمر الطرفان في أن يراعيـا بدقة وقف اطلاق النار في البر والبحر والجو والامتناع عن أية أعمال عسكرية أو شبـه عسكرية ضد الطرف الاخر »• تستحيل اسرائيل من خلال الدبلوماسية الامريكية ـ المصرية الى وجود قدسي طاهر سلاحنا معه الكلمة وليس شيئاً آخر • وهـذا يعني الاعتراف سياسيا باسرائيل كجار لا يجب خدشه أو الاعتداء عليـه حتى ولو راوح لسنوات عديدة فوق الارض العربية • ان الاتفاقيـة المذكورة لا تعطي شرعيـة فقط لاسرائيل بل تعطي شرعية لاغتصابها للارض العربية ، فالاتفاقية التي قلمت الاظافر المصرية حتى الجذر لا تعامل الامور بمسمياتها « احتلال أراضي » و« تشريد شعب» و « اعتداء مستمر » بل تقفز فوق الحقائق لتطرحها كأمور عـادية يمكن حلهـا وحسمها بالمفاوضات فقط •

ان شكل العلاقة الان بين مصر واسرائيل يذكرنا بعلاقة أخرى هي علاقة تركيا باليونان ، فعلى الرغم من العداء التاريخي بين البلدين ، فان أمريكـا استطاعت أن تسكت وتدجن هذا العداء باستيعابه تحت قبعة أمريكية ، وعلى الرغـم من تفجـر الخلافات بينها من حين لاخر ، الا أن كليهما يسير في تيار السياسة الامريكية• وتحكم أمريكا هذه العلاقة وتسيطر عليها عن طريق المساعدات المالية والاقتصادية المستمرة• لذلك فان ما فعلته أمريكا باليونان وتركيا تحاول تطبيقه الان على مصر واسرائيل • فقد ذكرت وكالة رويتر مؤخرا بأن مصر واسرائيل تعدان نفسيهما لكسب مساعدات تتراوح بين ٤٠٠٠ مليون دولار و ٥٠٠٠ مليون ، وقد تكون المساعدات على الشكل التالي : تنال اسرائيل حوالي ٢٥٠٠ مليون دولار من الولايات المتحدة كمساعدات لاغراض عسكرية واقتصادية ؟ وتنال مصر ما قد يتراوح بين ١٥٠٠ مليون دولار الى ٢٥٠٠ معظمها من الولايات المتحدة ، والباقي من الدول الصناعية والبلدان المنتجـة للنفط بجهود أمريكية لتنسيق المساعدات •

وذكرت صحيفة « نيويورك تايمز » أن المسؤولين المصريين يأملون من الولايات المتحدة أن تحاول تأمين صفقة مساعدات لمصر بالتعاون مع الدول الصناعية وبلدان نفط عربية تصل الى ٣٠٠٠ مليون دولار •

ان أمريكا تشد مصر الى تبعية سياسية لها بالاعتماد على تبعية اقتصادية ، وهي تحكم بذلك الحبل حول العنق المصري بشكل لا يشب أبدا عن اطـار الدائـرة الامريكية ، لكن الجديد هنا أن هذا الشراء تجـاوز عمليـة التبعية الكلاسيكيـة • فالنظام المصري لا يرى الواقع بابعاده المحسوسة (الارض والاحتلال) بل يرى ذلك من خلال أزمته كنظام يحاول أن يستمر على قيد الحياة بفضل صيغ سحرية أمريكية•

ان مصر التي اختارت الطريقة الامريكية للسلام لا يمكنها الا ان تصل الى هذه التخوم من التراجع والتبعية · فكل ما تم بأيـد أمريكية أي امبريالية ، لذلـك فان التسوية جاءت امبريالية ايضا أي تخـدم أمريكا واسرائيل وتضطهـد العرب وبشكل خاص الشعب الفلسطيني· وقد عمل « هنري العرب» منذ البدء حسب هذا المنطق ، فأمريكا يجب أن تصبح «مستودع مفاوضات » والا فالسلام مستحيل ، ويعني السلام كمـا قال كيسنجر لهيكـل بضرورة « حل الخلافات العربية ـ الاسرائيلية سلميـا »، أي بالتخلي عن الحقوق العربية في فلسطين ·

لقد تم السلام الامريكي في المنطقة، لكن هذا السلام يعني القتل الفعلي للسلام، « فالقضية المشتركة » التي ناضل من اجلها كيسنجر هي قضية الامبريالية التي تنفي وتناقض القضية المشتركة التي تناضل منأجلها الشعوب العربية والمقاومةالفلسطينية وقوى السلام في العالم ·

---

١ ـ Le chemin de la paix. Denoel Paris 1972 P. 401

٢ ـ كيسنجر بقلم مارفن كالب وبرنارد كالب الاهلية للنشر والتوزيع ص ٢٩٢ ·

٣ ـ Le chemin de la paix. P. 392

٤ ـ M. Hudson : The U.S. and the middle east in the Next Nixon Administration. Boulder, Colorado. 1973 P. 2.

٥ ـ Le chemin... P. 400

٦ ـ كيسنجر وصراع الشرق الاوسط الدكتور سعد الدين ابراهيم ، دار الطليعة · ص ١٥٢ ·

٧ ـ مجلة الطريق آذار ١٩٧٥ · ص · ٤٩ ·

٨ ـ كتابات مصرية رقم ٣ ص· ٤٠ ـ ٤١ ·

٩ ـ المرجع السابق ص ٤٦ ·

١٠ ـ كتابات مصرية رقم ١ ص ١٠٤ـ ١١٢

١١ ـ كيسنجر : مارفن وبرنـــارد كالب ص ٢٩٧ ·

١٢ ـ المصدر السابق ص ٢٩٧ ·

الآن
ابدا حربي انـــا

منير العكش

حين خرجت الى الشرفة صباحا ، ادركت ان مملكتي اقتلعت نفسها من الارض ، وطارت . كان كل شيء مقلوبا على قفاه . بساتين جديده تملأ مساحات الرمل . النهر أيضا غير مجراه ، وبدات مياهه تتدفق باتجاه الاحياء الفقيرة . حتى الشمس استيقظت اليوم مبكرة على غير عادتها ، وراحت تتحرك بفرح عصفور حول دائرة الارض .

كانت نهايات الشوارع محشوة ببقع سود لا تميزها العين . ثمة كتل تتدفق منها.. من كل مكان ، وتزحف باتجاه قصري . هذا هو شعبي اذن . شعبي بلحمه ودمه يأتي الي هنا . اسمع صراخه وهيجانه لاول مرة . صوت يتدحرج مـــع البقع الســود باتجاه القصر .

واحسست ان علي ان ادخل . هذا الشعب لا يستأهلني . ليبحث عن ملك آخر . ليذهب الى مملكة ثانية . انه يشوه سمعتي ، ويسيء الي . لينصرف .

حين التفت الى الوراء لم اجد قصري . المحه بعيدا يسرع باتجـــاه مجرى النهـــر الجديد . عروس بثيابها البيضاء تحلق عاليا في سماء المملكة . وبين النهـــر والقصر الهارب شريط من النخل تنفتح فيه الريح . لم يبق لي اذن الا هذه الشرفة . شرفة في الهواء وعليها ملك . لم اسمع بهذا من قبل . كيف سأحكم شعبي بشرفة واحدة من منتصف السماء ؟

وقلت للحارس المسمر عند الزاوية :

ــ اذهب الى النهر ، وقل له : بأمر جلالة ملكنا المعظم ، عد الى المجرى القديم .

ــ ولكن يا جلالة الملك ، لم تقل لي كيف اذهب !

ــ اقفز ايها المجنون . اقفز يجب أن يعود النهر الى مجراه القديم حالا .

وامسكت بالحارس ودفعته ، ورحت ارقبه وهو يهوي ، واقول : الى النهر بسرعة. الى النهر .

لم أعد المح شيئا . الشرفة ايضا تحاول ان تفلت من اقدامي . ورحت اخبط عليها بقوة . السور الحجري المحيط بأطراف الشرفة الثلاثة يقتلع نفسه ويهوي فوق الممر الرئيسي الذي كان يؤدي الى القصر . صارت الشرفة أشبه بسجادة من البلاط . ثمة ريح قوية تحمل الي رائحة الشعب وهو يتدفق من كل مكان . ريح تعوم بالشرفة كما لو أنه جنازة تترنح فوق الاكتاف . الشعب يقترب أكثر فأكثر ، واميز هتافاته وفرحه. انه يهتف لي فعلا . يهتف من قلبه .

قطيعا بعد قطيع . يمتلىء حديقة القصر بالبشر . لم يعد هناك حارس يمنعهم . الأوغاد لم يتركوا محلاً لزهره . ألمح في عينيهم الدهشة والفضول .

رفعت يدي الاثنتين الى الأعلى. وبدأت الأصوات تمحي . . الى أن انتشر الصمت، وارتفعت الوجوه كلها الي . هذا الحقل من الملفوف البشري كم اتمنى لو اقطفه دفعة واحده . كانت الرؤوس تتماوج وتنتظر . لم انس وانا افتتح خطابي ان ابقي قدمي ثابتتين فوق أرض الشرفه . كان علي ان احافظ على توازني وهيبتي الملكية امام الالوف التي تنتظر من ملكها خطابا عن النصر الاخير الذي احرزه الجيش في الجبهة .

الجماهير تصفق ، فيما كان النهر امام عيني يتابع مجراه الجديد . وكانت البساتين تتناسل في الارض . العروس بثيابها البيضاء تمددت على طول مجرى النهر . والجماهير تهتف عاليا لكل كلمة اقولها . ثمة طفل على جذع شجرة قريبة يحدق فيّ بدهشة ، وكأنه يعرف اللعبة كلها . وتسمرت عيناي في عينيه طويلا . لم يكن لون عينيه مميزا عن بعد . وكما كان النهر يغير مجراه بقوة ، كانت قامة الطفل ترتفع وتتطاول عيناه حتى كادتا ان تلامسا حافة الشرفة .

ملت قليلا باتجاه الطفل ، وقلت :

— من انت ؟

— طفل النهر . لقد ارسلني ابي لاقول لك انه يحب مجراه الجديد ، وان مياهه لا تحب ان تتدفق بارادة ملكية .

تابعت خطابي بانفعال . لم أعد اعرف كيف انهيه ، ومع ذلك فقد بدأ الناس ينصرفون واحدا بعد الاخر الى أن عادت أرض الحديقة . ولم يبق غير الطفل وخوفي . كان كلاهما يعلوان في الفضاء ويملآن العالم :

— ماذا تريد الآن ؟

— لا شيء . ان ابي يسألك ماذا تريد أنت .

— يتوقف الجيش الان . ويعود الي قائد الجبهة لانفذ فيه ارادتي المَلكية .

— ستمنحه وساما ؟

— انه يستأهل اكثر من وسام . يستأهل الموت

— ولكنه حقق انتصارا لك وللمملكة .

— أبدا . هذه هزيمة للملك . ما الفائدة ان تنتصر المملكة ويخسر الملك ؟ . ماذا سأقول لاصدقائي الذين وعدتهم بشرفي ؟ آه . يجب ان يتوقف كل شيء الان ، وقبل أن يصبح شرفي في الوحل .

بساتين جديدة تتناسل في الارض . والعروس تحمل ثوبها المبلل وتطلق النهر . ثمة أمل أبيض يركض بين العروس وعيني. الشرفة لن تبقى الى الابد. حين ينتهي سفر القصر أبدأ من جديد . الان لا بد من مباركة مجرى النهر الجديد . الان ابدأ حربي أنا . .

— الا تريد ان تحمل الى أبيك مباركة الملك ؟

— واحمل اليه الملك أيضا اذا اراد .

ولمعت عينا الطفل .

تبتدىء أصابعي بالاختفاء . الاعضاء البارزة تضمر . يتقدم من الوجه فكان وعينان

حمراوان . محطة صغيرة تطل على غابة الملوك . كنت الهث وحدي علــى الطريق السرية بين المحطة والمعهد . احك جلدي بحجر البرج ، وينفتح البـــاب المقدس . عروس بيضـاء تتقدم ، تحمل سكينا وفرحا .

وامسك بالعروس . عند عتبة المعبد كانت شريطة حمراء من الدم تحيط بعنــق العروس ، وصلوات تهز شجر الغابة . بين كل صلاة وصلاة يخرج من باب المعبــد ملك بالتسبيح والتهليل ، وتكتمل عشيرة الملوك .

اتقدم نحو المذبح ، حاملا عروسي ، ويأتي الصوت يرج المعبد ، وينطلق بعيدا حتى قاع النهر :

ــ الملك ينتصر على شعبه . ليتقدس النصر .

ــ تتوقف الحرب . ليتقدس النصر .

ــ مياه النهر تعود . ليتقدس النصر .

ــ باسم معبدنا المقدس نفوض شعبك بالانتحار . ليتقدس النصر .

ــ يجيء ذهب وخمر من كل الغابات . ليتقدس النصر .

اطباق ذهبية تحمل لحم العروس الى مائدة الملوك . لقمة لقمة ، ويغلق المعبد .



افتح بيدي جناحي المملكة . واطويها على خاصرتي النهر . المخالب المدببة تطول في اليد ، والفكان تتسعان لكل اسلحة الجبهة . قريبا من النهر كانت ثياب العروس سوداء ومنتفخة كخيمة . وكانت عناقيد من الرمل تتهدل من كل الاشجار .

راسي وراء المحيط ، وقدماي في الخيمة . قائد الجبهة يحمل نصره ويطير . وتتوقف الحرب . يرتفع صوت الحاشية بالتهليل ، ولا يبقى على الرمل الا ثيـــاب العروس سوداء ومنتفخة كخيمة .

الان أبدأ حربي انا .

كل جندي يحفر خندقه في الرمل . والحرب قادمة . رؤوس الجند تهطل في الخنادق. تختفي .

الان أبدأ حربي انا . قدماي تخرجان من الخيمة . قدمان بحجم آلة الحرب . تتقدمان على الرمل . وتغلق الخنادق على الجند . وابقى مع افق المملكة .

قراءة في بنود الأتفاقية المصرية . الأسرائيلية

عيسى الشعيبي

الاتفاقية المصرية ـــ الاسرائيلية التي وقعها الطرفان في الساعات الاخيرة من يوم ١٩٧٥/٩/١، كما وصفها الرئيس انور السادات بحق « نقطة تحول في النزاع العربي ـــ الاسرائيلي » . وبالرغم من ان الرئيس السادات لم يشرح ذلك التحول الذي ادخلته الاتفاقية على مجرى الصراع ، فان المعنى المقصود هنا لم يغب عن الفهم العربي العام الذي تترجم في ردود الفعل الرسمية والشعبية وما زال .

نعم ، ان الاتفاقية المصرية ـــ الاسرائيلية من الاهمية والخطورة البالغتين الى الحد الذي يمكن القول معه بان الصراع في هذه المنطقة قد دخل نقطة تحول جديدة، بما رتبته على الطرفين المتعاقدين من التزامات متبادلة ، وما انشأته من وقائع جديدة وحقوق وواجبات عند كل طرف لدى الطرف الاخر .

قراءة بنود الاتفاقية

الاصرار الاسرائيلي على أن ينضمن اي اتفاق مصري ـــ اسرائيلي انهاء لحالــــة الحرب بينهما ، كان سببا في تأجيل التوصل الى هذه الاتفاقية مدة ستة اشهر تقريبا. ففي اذار (مارس) الماضي بلغ التعنت الاسرائيلي ذروته، باصرار المفاوضين الحكوميين الاسرائيليين على تضمين الاتفاق مع مصر بندا ينص على انهاء حالة الحرب بينهمــــا ، الامر الذي عطل الوصول الى اتفاق والى فشل مهمة الدكتور هنري كيسنجر . الا انه في اواخر آب (أغسطس) الماضي عاد كيسنجر الى المنطقة مواصلا دبلوماسيته الطائرة ، بين القدس والاسكندرية . ليحقق في ختامها هذه المرة الاتفاق بين حكومتي مصر واسرائيل ، غير متضمن نص انهاء حالة الحرب بينهما .

فما الذي حققته هذه الاتفاقية ، وما هي الوقائع المنشأة بموجبها ، وما هــــي التزامات كل طرف تجاه الطرف الاخر ؟

ان الانجاز الملموس الذي حققته مصر بهذه الاتفاقية هو انسحاب اسرائيل من بعض سيناء المحتلة . وبتعبير آخر ، عودة آبار نفط ابو رديس الى الادارة المدنية المصرية وعودة الممرين الاستراتيجيين ـــ المينلا والجدي ـــ الى الادارة الدولية مع الابقاء على أبوابها الشرقية بيد الاسرائيليين ، وبوجود اميركي مستقل في محطات الانذار المبكر في المنطقة المدارة دوليا .

الانسحاب الاسرائيلي هذا تم بثمن باهظ جدا ، بالنظر لما انشأه من وقائع جديدة وما رتبه من التزامات على الجانب المصري . فمن خلال النصوص المعلنة في الاتفاقية ، تم الاقرار من جانب الطرفين بأن « النزاع بينهما وفي الشرق الاوسط لا يتم حله بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية » ـــ المادة الاولى .

واضح هنا ان تضمين هذا النص في الاتفاقية ، جاء بطلب من جانب اسرائيل وخدمة

سياساتها . ذلك ان التزام الجانب المصري بمبدا عدم جواز حل نزاعه الخاص مع اسرائيل بالقوه العسكريه قد تم في ظل احتلال القوات العسكرية الاسرائيلية بالقوه المسلحه للجزء الاكبر من الاراضي المصريه المحتلة منذ حرب العام ١٩٦٧ . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد بل تعدى ذلك الى اقرار من الجانب المصري بان النزاع ايضا في الشرق الاوسط — وليس بين مصر واسرائيل فقط — لا يتم حله بالقوه المسلحه . ومن المعلوم هنا ان الاطراف الاخرى في صراع الشرق الاوسط . لم نجد بعد في وجه التعنت الاسرائيلي بالتسليم بحقوقها غير ممارسه القوة المسلحه لنيل هذه الحقوق كما هو حال الثورة الفلسطينية . او الاعداد العسكري والمطالبة بهذه الحقوق كما هو حال سوريه . اي ان الالتزام المصري بهذا المبدأ قد تجاوز حدود الاراضي المصرية ليمس حقوق الشعب الفلسطيني والاراضي السورية التي ما زالت محتلة بالقوة المسلحة .

ولم يتوقف الكسب الاسرائيلي عند التزام مصر نفسها وبالنيابة عن غيرها بحل النزاع عن غير طريق القوة المسلحة ، وانما تجاهل الجانب المصري أيضا تضمين هذا الاتفاق لاسباب نزاع مصر ونزاع الاطراف الاخرى مع اسرائيل. فنزاع الشرق الاوسط — وهو لفظ تخفيفي لواقع الصراع في المنطقة العربية — قد نجم عن احتلال اسرائيل لفلسطين ولاجزاء واسعه من الاراضي العربية ومواصلة رفضها التسليم بالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في أرضه . ويقينا ان تجاهل النص لاسباب « النزاع » قد تم لمصلحة اسرائيل وبطلب منها . اذ ان عكس ذلك كان سيرتب على الجانب الاسرائيلي التزاما قانونيا بالانسحاب من الاراضي التي يسبب احتلالها النزاع في الشرق الاوسط .

وبعد ان تضمنت المادة الاولى من الاتفاق مبدا حل النزاع بغير القوة المسلحة ، جاءت المادة الثانية لتقرر تعهد الطرفين « بعدم استخدام القوة او التهديد بها او الحصار العسكري في مواجهة الطرف الآخر » . فعوضا عما تضمنته هذه المادة من تأكيد على المعنى الذي تضمنته المادة الاولى ؛ فهي تقرر تعهدا مصريا بعدم اغلاق قناة السويس او مضيق باب المندب في وجه اسرائيل . وهذا هو معنى الحصار العسكري في حالة الصراع بين طرفين كمصر واسرائيل ، تملك فيه الاولى ولا تملك فيه الثانية ، استخدام ممرات دولية لاعلان حالة الحصار العسكري .

وبعيدا عن الصدمة العاطفية التي سيحدثها مرور الشحنات والبضائع الاسرائيلية عبر مياه قناة السويس المصرية ؛ لدى الشعب المصري وسائر الشعوب العربية ، فان معنى ذلك قبول مصر بفتح شريان عبر مياهها الاقليمية للاقتصاد الاسرائيلي الذي يغذي العدوان ويوفر له — الى جانب المساعدات الامريكية — استمرار احتلال القوات الاسرائيلية لأراض مصرية واخرى عربية شاسعة . وقد جاء في المادة السابعة من هذه الاتفاقية نص صريح يقرر السماح بمرور الشحنات غير العسكرية المتجهة من والى اسرائيل بالمرور في قناة السويس ، وهو نص لا يحتمل التأويل او الشرح غير ما ذكرناه آنفا .

وللتأكيد على ما تضمنته المادة الاولى من معنى ، صيغت المادة الثالثة ايضا من هذه الاتفاقية ، لتقرير التزام الطرفين بوقف اطلاق النار في البر والبحر والجو والامتناع عن اية أعمال عسكرية أو شبه عسكرية ضد بعضهما البعض . وصياغة هذه المادة جاءت في صياغة المطلق وبغير تقييدات . وهو الامر الذي سعت اليه اسرائيل طويلا في عزل الجبهة المصرية عن غيرها من الجبهات العربية مع اسرائيل . اذ انه وفقا لنص المادة المذكورة سوف يستمر التزام مصر قانونيا بالمراعاة الدقيقة لوقف اطلاق النار حتى في

حالة انفجار الموقف مع اسرائيل على الجبهات الاخرى . وهنا كان علــى المفاوض المصري ان يتساءل ــ في الحدود الدنيا ــ عن النوايا الاسرائيليــة المبيتة وراء هذا النص ، وان لا يغل نفسه بنفسه في مختلف الحالات وفي كل الظروف .

وفي المادة الرابعة تحديد لتحريك القوات المسلحة للطرفين وفق الخطوط الجغرافية المحددة والمبينة في الخرائط الملحقة بالاتفاقية . اما المادة الخامسة والتي تنص على ان قوات الطوارىء التابعة للامم المتحدة « اساسية وسوف تستمــر في القيام بعملها وستجدد مدتها سنويا » ، فهي تنازل آخر من جانب مصر أقرت فيه باستمرار تواجد قوات الامم المتحدة على الاراضي المصرية لتظل حاجزا بين قواتهــا وقوات الاحتلال الاسرائيلي لبقية الاراضي المصرية في سيناء . كما تضمن هذا التنازل تجديدا سنويا لهذه القوات بدل ان كانت مدة التمديد نصف سنوية كما بينــه القرار الدولي الذي انشئت قوات الطوارىء بموجبه وحددته الاحكام التفصيلية اللاحقة .

اما المادة السادسة فتتعلق بانشاء قوة مشتركة مــن الطرفين أثناء سريان هذه الاتفاقية ، والسابعة خاصة بالسماح بمرور بضائع اسرائيلية عبر قناة السويس ، والثامنة والاخيرة تتضمن نصا على اعتبار هذه الاتفاقية خطوة هامة نحو سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط ووجوب مواصلة الاطراف التفاوض لتحقيق سلام نهائي في اطار مؤتمر جنيف للسلام .

هكذا اذن ، نجد ان كافة بنود الاتفاقية، باستثناء المادة الرابعة الخاصة بالانسحاب الاسرائيلي ، قد جاءت وفق مصالح اسرائيل وسياساتها في المنطقة . ويمكن القول كذلك ان اسرائيل قد حققت من خلال هذه الاتفاقية مكاسب سياسية هامة ، وكرست نهجها الخاص بالتعامل مع أطراف الصراع الاخرى في المنطقة ، هذا النهج المعبر عنه عمليا ببرنامج : « شبر من الارض مقابل ميل من السلام » . والسلام هذا هو سلام اسرائيل وليس سلام الشعوب العربية .

ما الذي بقي من حالة الحرب ؟

كما سبق ان ذكرنا فلقد توصل الطرفان ، الاسرائيلي والمصري، الى اتفاقية بينهما ، دون ان تتضمن نصا ينهي حالة الحرب بينهما . وبغير دخول في جــدل قانوني حول معنى انهاء حالة الحرب ، فان موافقة مصر على ذلك كانت ستعني ، باعتراف ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل السابق ، تخلي مصر عن باقي أراضيها المحتلة قانونيا لاسرائيل، وهو امر ما كانت ستقدم عليه دولة كمصر ، سواء بما أنجزته في حرب تشرين او بما تمتلكه من امكانات تؤهلها لمواصلة الصراع لتحرير أراضيها المحتلة . الا انه وفقــا للمنطق المساوم الذي أداره وزير الخارجية الاميركية ، تم التوصل الى الاتفاقية مفرغة حالة الحرب من كل مضامينها العملية والقانونية ايضا . فقد أدت الاتفاقية بمعناها العملي الى تجميد الجبهة المصرية في الصراع مع اسرائيل وأقرت عدم جواز استخدام القوة لفض النزاع ، وأدت بالتالي الى انهاء تعاقدي وواقعي لحالة الحرب ذاتها . اذ تنص المادة الاولى على ان « النزاع بين الطرفين وفي الشرق الاوسط لا يتم حله بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية » . وقد تم بموجب هذه الاتفاقية انهاء كافة تعبيرات حالة الحرب ، وليس الحصار البحري ومرور الشحنات الاسرائيلية في قناة السويس أقل تعبيرات حالة الحرب التى استمرت زهاء ربع قرن .

وعبر نصوص هذه الاتفاقية تم الغاء كافة مسببات حالة الحرب . فهي لم تشر الى مسببات النزاع بين مصر واسرائيل او اسرائيل والاطراف العربية الاخرى . فقــد تجاهلت الاتفاقية قضية الاراضي العربية المحتلة كما تجاهلت صراحة وبكل وضوح قضية الحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني .

ومن خلال هذه الاتفاقية ، استطاعت اسرائيل ان تضمن لنفسها حدودا اكثر امنا من سابقتها ، بتواجد اميركي يشكل ضمانا لاسرائيل بعدم خرق مصر عمليا لحالة عدم الحرب معها . كما ان بقاء هذه الحدود طوال مدة سريان الاتفاقية ، وهي مدة غير محددة زمنيا ، ومحصنة بالتواجد الاميركي ، سوف يترك آثاره العملية المباشرة والملموسة على حالة عدم الحرب السائدة عمليا وقانونيا لمصلحة اسرائيل .

الاتفاقية سياسية أم عسكرية ؟

بقدر ما كانت اسرائيل تحاول طوال الاشهر الماضية ابرام اتفاقية لهـا مدلولاتها السياسية الواضحة ، عمل الجانب المصري على اضفاء الطابع العسكري على هذه الاتفاقية . اذ ان اسرائيل التي حققت في حرب العـام ١٩٦٧ انتصارها العسكري الباهر ، لم تستطع طوال السنوات اللاحقة جني الثمار السياسية لذلك الانتصار . وبقيت اسرائيل طوال تلك المدة تتمسك بالارض وترهن التنازل عـن بعضها باجراء مفاوضات ثنائية ومباشرة مع كل دولة عربية على حدة ، مقدمة للتوصل الى سلام تعاقدي وملزم مع الدول العربية المجاورة . وكان السلام الذي تنشده اسرائيل طوال سنوات هزيمة العام ١٩٦٧ ، سلاما بشروطها هي ومتطابقا مـع فهمها العنصري التوسعي . ولذلك رفضت الشعوب العربية سلام اسرائيل القائم على مبداي الامـن الجغرافي والتفوق العسكري المطلق . وتحقق للشعوب العربية في حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ انجازات عسكرية اعادت بموجبها التوازن النسبي في ميزان القوى بينها وبين اسرائيل . غير ان الاخيرة هذه ظلت متمسكة بأهدافها ، حتـى بعد حرب اكتوبر ، في محاولة لتحقيق سلامها على حساب أمن وسلامة الشعوب العربية .

لذلك كله حاولت اسرائيل مقايضة جزء مـن الاراضي المصرية المحتلة باتفاقيـة سياسية مع مصر ، تكفل لها تحقيق جانب من أهدافها السياسية المذكورة. اما الجانب المصري ، الذي رفض والشعوب العربية نتائج هزيمة العام ١٩٦٧ ، وخاض والعرب حرب اكتوبر تحت شعارين هما : انسحاب اسرائيل مـن كافة الاراضي العربية ، وعـودة الحقـوق الوطنية للشـعب الفلسطيني ، فقـد ظل يرهن توصله الـى اتفاق سياسي مع اسرائيل بتحقق هذين الشرطين . لذلك فقـد تجنب المفاوضون المصريون اعطاء اتفاقيتهم الاخيرة مع اسرائيل الطابع السياسي ، وعملوا على اخراجها كاتفاقية عسكرية تحت اسم : فض الاشتباك الثاني في سيناء .

فماذا كانت الاتفاقية ؟

اذاعت وكالة انباء الشرق الاوسط ، وهي وكالة انباء مصرية رسمية ، نصوص المواد التي تضمنتها الاتفاقية والمذاعة من اسرائيل ، دون أن تذكر عنوان الاتفاقية . وكان ما توصلت اليه مصر واسرائيل قد سمي « اتفاق بين مصر واسرائيل » . أي ان الاتفاق لم يوصف كاتفاق عسكري او سياسي ، وبالتالي ترك لبنود الاتفـاق تحديد ماهيته الحقيقية .

فهل نجح المفاوضون المصريون في تجنيب اتفاقهم واسرائيل صفته السياسية والابقاء عليه كاتفاق عسكري ؟

ان المحاكمة النقدية للنتائج السياسية لبنود الاتفاقية ، هي المعيار الاساسي الذي يحدد الصفة الحقيقية الملازمة لهذه الاتفاقية . كما ان حالة الصراع التي ظلت قائمة في المنطقة زهاء ثلاثة عقود من الزمن ، محدد آخر لصفة الاتفاق هذا .

فمن ناحية اولى ، جاءت المواد الثماني التي تتضمنها الاتفاقية لتقيد حالة الحرب

ان لم نقل تفرغها من مضامينها كافة . وبغير ان نعيد التذكير بتلك البنود ، يكفي ان نشير الى النتائج السياسية المقننة والمترتبة عليها .

اولا : ان نص المادة الاولى على ان النزاع لا يتم حله بالقوة المسلحة وانما بالوسائل السلمية ، قد حدد خيارات مصر لحل معضلة اراضيها المحتلة بالقوة المسلحة . وعليه فان مصر ملزمة باتباع المفاوضات السلمية مع اسرائيل للحصول على اراضيها المحتلة. وقد لا يشكل هذا الامر مأخذا على السياسة المصرية ، طالما انها ملتزمة أساسا بمبدأ التسوية السياسية المقرر أصلا في قرارات مجلس الامن الدولي الخاصة بنزاع الشرق الاوسط. الا ان هذا الالتزام المصري قد انشىء دون أن يتم بالمقابل الزام اسرائيل بمبدأ الانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة كما نصت على ذلك قرارات مجلس الامن نفسها .

اذن ، فقد ترتب على هذا النص واقع سياسي يظل ساري المفعول الى زمن غير محدد ، الا وهو تجميد خيار مصر العسكري والزامها بالتفاوض سبيلا الى استعادة اراضيها المحتلة .

ثانيا : كرست بنود الاتفاقية عامة فهما مصريا خاصا . اذ انه على مدى التاريخ المكتوب ، ظل الامن المصري الاقليمي مرتبطا تمام الارتباط بأمن المنطقة وجزءا لا يتجزأ منه . ولقد ثبتت صحة ذلك أمام كل الغزوات التي تعرضت لهـا المنطقة منذ أيـام الفراعنة ، وغزوات الهكسوس والمغول والصليبيين. فقد كان المصريون دائما يحققون امنهم الخاص بالخروج لمحاربة الغازين في البلاد السورية .

واذا كان هذا الامر صحيحا على المدى التاريخي ، فان صحته قد ازدادت رسوخا في حالة الصراع الراهن مع اسرائيل . فمنذ قيام أسرائيل ظلت مصر مهددة في صميم أمنها الاقليمي . وما حروبها المتعددة مع اسرائيل واستنزافها الاقتصادي والبشري الا دليلا صارخا على كل ذلك .

نستطيع القول اذن ، ان أمن مصر الاقليمي والمهدد بقيام اسرائيل ، مرتبط تمـام الارتباط بالامن الجماعي لدول المنطقة العربية . الا ان الاتفاقية الاخيرة ضربت فهم الامن القومي العربي لمصلحة « أمن » مصر الاقليمي .

ثالثا : لم تشر الاتفاقية المصرية ـــ الاسرائيلية الى التزامات مصر العربية ، تمشيا مع طلب اسرائيل القائل بأن النزاع مع كل دولة عربية يجب أن يحل مستقلا عن نزاعها مع الدولة الاخرى ، وتمشيا أيضا مع الفهم المصري الجديد للامن الاقليمي المصري . واذا كان يدعى في وجه هذا الاستنتاج بأن المادة الأخيرة من الاتفاقية قد أشارت الى انها خطوة نحو سلام عادل ودائم ووجوب مواصلة الاطراف التفاوض لتحقيق ذلك في اطار مؤتمر جنيف للسلام ، فان قرار مجلس الامن الدولي المنشأ لمؤتمر جنيف لا يشير بدوره من قريب أو بعيد الى الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .

رابعا : ان ردود الفعل العربية ، خاصة من جانب شركاء مصر في حربها الاخيرة ضد اسرائيل ، قد جردت مصر من ورقة هامة ظلت بيدهـا طوال الفترة التي تلت حرب تشرين ، ألا وهي ورقة التضامن العربي . ومن الصعب هنا القول ان المفاوضين المصريين ما كانوا ليتوقعوا مثل ردود الفعل هذه ، انسجاما مـع المبدأ القائل بأن شركاء مصر في الحرب يجب ان يكونوا شركاءها في التسوية . ولذلك يمكن الاستنتاج تباعا ، ان تفريط مصر بورقة التضامن العربي ما كان ليتم الا باعتمادها عـلى ورقة الدعم الاميركي ، الامر الذي يفسره قول الرئيس السادات الشائع بأن اميركا « تملك كافة أوراق اللعبة » (أ) .

خامسا : لم تتوقف النتائج السياسية التي رتبتها الاتفاقية عند حد تخريب التضامن العربي وبالتالي اضعاف كافة الاطراف في مواجهة اسرائيل ، بل تعدته الى تخريب علاقه مصر التاريخية بالاتحاد السوفياتي الصديق . وكانت عملية التخريب في هذه العلاقة قد بدأت بعد حرب اكتوبر مباشرة ، الا انها بلغت مع توقيع الاتفاقية مدى خطيرا جدا . وكان يمكن فهم هذا الامر ـ بعيدا عن الناحية المبدئية ـ لو ان مصر قد حررت أراضيها بموجب هذه الاتفاقية وحققت الشعارات التي خاضت حرب اكتوبر تحتها وبسلاح الاتحاد السوفياتي . غير انه في ظل احتلال معظم أراضي سيناء المصرية وباقي الاراضي العربية المحتلة، فان تخريب علاقة مصر بحلفائها السوفيات سوف تنجم عنه آثار سياسية ليست في مصلحة المطالب العربية الراهنة .

سادسا : في الوقت الذي قيدت فيه الاتفاقية يد القوات المسلحة المصرية والزمتها بالمراعاة الدقيقة لوقف اطلاق النار في البر والبحر والجو ومنعتها من اللجوء الى الحرب او التهديد بها ، فان يد القوات الاسرائيلية على الجبهات الاخرى، وخاصة على الجبهة الفلسطينية ـ اللبنانية ، قد بقيت طليقة . واذا كان الامر كذلك منذ حرب اكتوبر ، فانه منذ التوقيع على الاتفاقية قد أصبح حالة قانونية مقرا بها من قبل الجانب المصري . وقد تكون هذه أخطر نتائج الاتفاقية وأهم مكاسب اسرائيل السياسية منها.

اما **من الناحية الثانية** فان حالة الصراع القائم بين مصر والعرب من جهة واسرائيل من جهة اخرى ، وهي قائمة على اساس احتلال اسرائيل لاراض عربية ومواصلتها انكار الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في وطنه ، محدد آخر لصفة الاتفاقية .

اذن فان الصراع العربي ضد اسرائيل ليس على الحدود او لدحض ادعاءات اقليمية معينة . بل ان جوهره الحقيقي قائم على تحقيق سلام الشعوب العربية ورفض السلام الاسرائيلي ذي المفاهيم التوسعية والعنصرية . وعليه ، فان اي اتفاق سلام حقيقي يمكن التوصل اليه ، او اية تسوية سياسية يمكن تحقيقها ، لا تكون كذلك الا بكفالة سلام وأمن الشعوب العربية وعودة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .

هنا يمكن طرح التساؤلين التاليين : الم تضعف الاتفاقية مطالب مصر المشروعة بتحرير باقي أراضي سيناء المحتلة بعد أن حددت لها الخيارات ؟ ثم الم تضعف الاتفاقية مطالب الاطراف العربية الاخرى بانتزاع أراضيها المحتلة وحقوقها المغتصبة بعد ان اخلت الاتفاقية بميزان القوى القائم لصالح اسرائيل ؟

ان اتفاقية تمس كل هذه المطالب السياسية وتفرز كل تلك الوقائع القانونية والسياسية والاقتصادية والعسكرية ، لا يمكن وصفها بأنها اتفاقية عسكرية . وبالتالي فانه يمكن القول بأن اسرائيل نجحت في ابرام اتفاقية سياسية ـ عسكرية شاملة ، حيث فشل المفاوضون المصريون بالابقاء على الطابع العسكري لاتفاقيتهم تلك . ولن ينفع توقيع رؤساء الاركان لدى الطرفين بتوقيع الاتفاقية بالاحرف الاولى في اضفاء الطابع العسكري عليها ، بدليل ان الاتفاقية لم تصبح ملزمة الا بعد أن وقعها عن كل طرف ممثل سياسي وآخر عسكري في جنيف بوجود رمزي للامم المتحدة وبغياب الدولتين اللتين ترئسان بالتناوب مؤتمر جنيف الخاص بالشرق الاوسط .

الخيار العسكري المغلق

ان هزالة المقابل الجغرافي الذي حصلت عليه مصر ، بالقياس الى ما قدمته من تنازلات ، يطرح على الفور شكوكا عميقة بجدوى المراهنة المصرية على الوسائل السياسية طريقا لاستعادة اراضيها المحتلة وتحقيق الشعارين اللذين خاضت بهما

حرب اكتوبر ، اي عـودة الاراضي العربيـة المحتلة واسترجـاع حقـوق الشعب الفلسطيني . ولا يمكن ان يكون مرد هذه الشكوك نابعا من نتائج حرب اكتوبر غير الحاسمة بقدر ما ترجع الى نهج السياسة المصريـة في تعاملها مع نتائج الحـرب وانجازاتها الوطنية حتما . ولن نقف هنا طويلا لمناقشة السياسات المصرية بعد اكتوبر وادارتها لدفة الصراع السياسي لاستكمال نتائج الحرب . فالنتائج السياسية التـي رتبتها الاتفاقية مع اسرائيل تكفي وحدها لاصدار حكم تاريخي على مجمل السياسات المصرية خلال العامين الماضيين .

ان المراقب السياسي اذ يستوقفه مدى التعنت الاسرائيلـي فيما يخص الاراضي المصرية وحدها ، يطرح على نفسه وعلى القيادة السياسية المصرية سؤالا يتعلـق بالبديل المصري اذا ما واصلت اسرائيل تمسكها بسيناء ـ ناهيك عن الاراضي العربية الاخرى . والبديل المعني هنا هو قرار بالحرب لانتزاع الارض . فهل تركت القيادة المصرية لنفسها مجالا لتنفيذ مثل ذلك القرار او التهديد به ؟

لدى مراجعة السياسات المصرية عينها ، وخاصة ما اتصل منها بامكانية بقاء الباب مفتوحا للخيار العسكري اذا ما دعت اليه ظروف خارج الحسابات الحالية في مصر ، تستوقف المراقب جملة من الحقائق السياسية هي :

أولا : حدوث تدهور في العلاقات المصرية ـ السوفياتية في اكثر الظروف حراجة ومدعاة لتمتين أواصر الصداقة العريقة مع الحلفاء السوفيات . ولن ندخل هنـا في مناقشة النتائج السياسية الخطيرة التي ترتبت وما زالت ، علـى المعركة السياسية التي أديرت لاستكمال نتائج حرب اكتوبر . بل نشير فقط الى ان الاتحاد السوفياتي هو مصدر السلاح الرئيسي الذي خاض به العرب حربهم الاخيرة ، وسيظل مصدر التسليح الاساسي لاي حرب اخرى محتملة من جانب العرب . ويقينا ان الذي يريد أن يبقي لنفسه خيارا مفتوحا بالحرب ، لن يسمـح بالحملات الصحفية ، في أدنى الحدود ، للنيل من العلاقات العربية ـ السوفياتية ، وتجنبا لانعكاسات ذلك على الامدادات العسكرية . غير ان ما شهدته المنطقة طوال العامين الماضيين ، وغداة حرب اكتوبر مباشرة ، لا يمكن تسميته الا باسمه الحقيقي ، الا وهو قرار بتخريب هذه العلاقة الهامة على كل الاصعدة وفي شتى الظروف والحالات .

ثانيا : تركيز معظم المشروعات الاقتصادية التي تسعـى القيادة المصرية الـى انشائها في منطقة قناة السويس . وقد جاء ذلك بقرار سياسي حتى قبل التوصل الى الاتفاقية الاخيرة . والامر البديهي في مثل الظروف السياسية ـ الامنية التي تعيشها مصر ، هو أن لا تقام مثل تلك المشروعات المكلفة في منطقة هـي أقرب الى المناطق الحدودية مع اسرائيل . غير اننا نجد ان ذلك كله قد تم بقرار سياسي وكأن حالة الصراع منتهية أو في حكم المنتهية مع اسرائيل . والتساؤل المشروع هنا : الا تقيد هذه المشاريع باقامتها في منطقة كقناة السويس على اي قرار مصري باللجوء الـى الحرب لتحقيق شعارات حرب اكتوبر ؟

اننا لا نقول بأن ذلك سوف يمنع مصر من اللجوء الـى الحرب لتحقيق اهدافهـا ، ولكنه من المؤكد انه يخفف كثيرا من حالة التهديد بالحرب ويثقل على قرار الحرب بما تتطلبه تلك المشروعات من حماية عسكرية . ونعيد الى الذهن في هذا المجال مـا اشترطته اسرائيل في فك اشتباك القوات الاول في سيناء ، حينما طالبت بعودة سكان مدن القناة الى منازلهم كجزء من ترتيبات فك الاشتباك .

ثالثا : اعادة حقول نفط ابو رديس الى الادارة المدنية المصرية بحالتها المنتجة . وهنا يلاحظ ان الاتفاقية الاخيرة التي أعيدت بموجبها هذه الحقول الى مصر ، قد قيدت هي الاخرى اي قرار محتمل بالحرب من جانب مصر . فاسرائيل التــي وافقت على الانسحاب من ابار النفط ، أبقت على هــذه الآبار وسلامتهــا رهينة بيدها في حالة اللجوء الى الحرب مجددا . اذ ان الترتيبات الفنية المتعلقــة بخطوط الانسحــاب الاسرائيلي من هذه المنطقة ، ابقت على آبار النفط هدفا في مرمى المدفعية القصيرة والمتوسطه المدى . كما أن الوجود المصري في منطقة الآبار والسواحل المقابلة لها لن يتعــدى الوجود المدني اللازم لادارة الانتاج فقط . ولم تكتف اسرائيل بكل ذلك بــل حصلت على حق استخدام الطريق البري الواقع في منطقة الانسحاب هذه لعدة ساعات يوميا . والسؤال المباشر هنا كذلك ، الا تقيد عودة آبار النفط على هذه الكيفية قرار مصر بالحرب ؟

رابعا : حصول مصر على مساعدات اقتصادية متزايدة مقابل حصول اسرائيل على مساعدات عسكرية واقتصادية كبيرة من قبل الولايات المتحدة الاميركية. والمساعدات الاقتصادية غير المشروطة من اي مصدر اتت تساهم عادة في رفع القدرة القتالية لمتلقي هذه المساعدات . الا أنه من الملفت للانتباه حقــا ، ان مصر لم تتلــق مساعدات اقتصادية اميركية منذ حرب العام ١٩٦٧ ، الا في العام الماضي بعد توقيع فك الاشتباك الاول في سيناء ، وان هذه المساعدات قد ارتفعت كثيرا بعد توقيع الاتفاق الثاني في سيناء . فهل تعتبر زيادة المساعدات الاميركية لمصر عاملا بناء في قرار مصر المحتمل بالحرب ؟

ان تزامن هذه المساعدات من جهة ، وزيادتها من جهة اخرى ، تكشف الى اي حد تراهن الولايات المتحدة على تعزيز اتجاهات السياسة المصرية الحالية والنازعة بعيدا عن الحرب واحتمالاتها الممكنة . وبالتالــي فان اي تبدل محتمل في اتجاه السياسة المصرية ازاء الصراع العربي ـــ الاسرائيلي سوف يكــون مثقلا بانقطاع المساعدات الاميركية المتزايدة .

وهكذا نكتشف ان جملة الممارسات السياسية المصرية طوال العامين الماضيين ، حتى قبل التوقيع على الاتفاقية الاخيرة، تنضوي جميعها تحت راية الثقة غير المشروطة بالتعهدات الاميركية والركون الى « النوايــا الحسنة » للامبريالية . ومــا جملة الخطوات والمواقف التي أشرنا اليها آنفاً ، الا تدليلا عمليا وملموسا على التغيــر الجوهري في الموقف المصري الجديد من النزاع العربي ـــ الاسرائيلي ، والتي تندرج جميعها في أطار التأكيد على « حسن النية » بابتعاد القيادة المصرية عــن التزاماتها الوطنية والقومية ، وبنزوعها عن المشاركة في النضال ضد المحتلين . اذ ان الحقائق المتصلة بالموقف المصري من مسألة الصراع مع اسرائيل ، لا يمكن وصفها الا بأنها قيد وضعته القيادة المصرية بكلتا يديها ، وحجز لحرية حركتها في ظروف جديدة وأوضاع متغيرة .

اتفاقية التسوية ومكاسب اسرائيل

يوسف حمدان

مع ان جولة وزير الخارجية الاميركي الاخيرة في المنطقة استمرت ١٢ يوما كان واضحا منذ البداية ان اتفاق سيناء الجديد ، الذي وقع بالاحرف الاولى في ١/٩/١٩٧٥ ، كان جاهزا قبل وصول كيسنجر في ٢١/٨/١٩٧٥ الى المنطقة . ففي يوم ١٧/٨/١٩٧٥ صادقت الحكومة الاسرائيلية على دعوة الوزير الاميركي ، الامر الذي اعتبره بعض المراسلين السياسيين مصادقة على الاتفاق نفسه (ماتي غولان ـ هآرتس ، ٢٢/٨/١٩٧٥) . وظهرت دلائل اخرى على ان الاتفاق كان جاهزا ، منها تصريح الرئيس فورد ان « الاستراتيجية الاميركية الكونية ستصاب بكارثة اذا لم يقم كيسنجر بجولته قبل انعقاد مؤتمر ليما والجمعية العمومية للامم المتحدة » (المصدر نفسه) . ومنها ايضا تصريحات يتسحاق نافون ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، التي ادلى بها قبيل وصول كيسنجر ، ودافع فيها عن الاتفاق الجديد وكشف بعض بنوده (دافار ، ٢٢/٨/١٩٧٥) . اما « التحفظ » الرسمي الاسرائيلي الذي سبق الجولة والمظاهرات الصاخبة التي رافقتها ، وكذلك طول الجولة فيبدو ان الهدف منها كان من جهة ، تضخيم « انتصار » كيسنجر مع حجم الجهد المبذول وصعوبة المهمة ، ومن جهة اخرى اظهار « التنازلات » الاسرائيلية على انها لا تؤخذ بسهولة ، خاصة وان ادارة فورد تعول كثيرا على الاتفاق في سيناء من اجل النجاح في انتخابات الرئاسة الاميركية .

منذ فشل جولة كيسنجر السابقة في اذار وحتى شهر آب ، نشرت في اسرائيل تعليقات وتلميحات رسمية مفادها ان الولايات المتحدة التي اتهمت اسرائيل بتفشيل المفاوضات في آذار ، وجهت ضغطا شديدا اليها . ووصف البعض اعلان واشنطن عن « اعادة تقييم سياستها » في الشرق الاوسط ، كأنه بمثابة « عقوبة » لاسرائيل ، اقترنت بخفض تزويدها بالسلاح . ولكن مع بدء جولة كيسنجر الجديدة ذكرت بعض المصادر الاسرائيلية ان « الولايات المتحدة قررت ان تمنح اسرائيل العفو ، وهي تفاوض اسرائيل الان حول شروط هذا العفو . فالمطلوب من اسرائيل في هذه المفاوضات ان تساعد اميركا في تنفيذ سياستها في الشرق الاوسط ، الرامية الى تعزيز مواقعها في مصر ، والى بلورة محور القاهرة ـ طهران ـ الرياض ، مقابل التزامها بتقديم المساعدات الاقتصادية والعسكرية لاسرائيل » (موشي زاك ـ معاريف ، ٢٢/٨/١٩٧٥) . واعلن البعض ان الولايات المتحدة لم تفكر جديا ، خلال ما سمي اعادة تقييم سياستها في الشرق الاوسط ، بمؤتمر جنيف لانها لم تشأ تحديد علاقات نهائية مع الاتحاد السوفييتي في المنطقة ، « فاللعبة ما زالت مستمرة وانسحابنا على مراحل مطلوب لخدمة اهداف التقدم الاميركي في المنطقة » (المصدر نفسه) .

وحول هذا الموضوع كتب معلق اخر : « هناك مبدآن يتحكمان بسياسة الولايات المتحدة في المنطقة . الاول : ازدياد اعتماد الغرب على نفط الشرق الاوسط . والثاني :

ازدياد نفوذ الولايات المتحدة في الشرق الاوسط . وعلى هذين المبدأين ترتكز خطة تعميق النفوذ الاميركي مقابل اعادة مناطق [محتلة بواسطة اسرائيل] ... » (بوعز عفرون ــ يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٨/٢٩) .

هذه الحقائق تفسر اصرار الولايات المتحدة على الاستمرار في سياسة « الخطوة خطوة » رغم فشلها قبل ٥ شهور ، وتنسجم مع بنود الاتفاق الجديد العلنية وكذلك مع ما نشر عن البنود السرية في الاتفاق الاسرائيلي ــ الاميركي ــ المصري .

خارطة آب ليست خارطة اذار

مع بدء جولة كيسنجر الاخيرة تحدث يتسحاق نافون رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست عن الفرق بين خارطة الاتفاق الجديد وخارطة اذار التي رفضتها اسرائيل. وخلال حديثه (مقابلة مع دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٢) أشار نافون الى الفروق التالية : (١) كانت خارطة مصر في اذار « رهيبة » واليوم تختلف هذه الخارطة كليا ، فقد تراجع المصريون من حيث الخارطة الجغرافية بصورة جدية للغاية . (٢) هناك فرق كبير بين التزام اميركا في اذار والتزامها اليوم حول تشغيل محطة الانذار المبكر في ام خشيبة بواسطة اسرائيليين . (٣) في اذار لم تكن قد تبلورت كل الاتفاقيات بين اسرائيل واميركا ، ولم يكن هناك تفاهم حول ما سيفعل في مؤتمر جنيف ، وحول التنسيق المشترك . لم يكن هناك تنسيق اميركي اسرائيلي حول الموقف من دول عربية اخرى . « لا استطيع ان اشرح هذا ، ولكنه سيفصل مرة في المستقبل » . (٤) في اذار لم نتفق حول سريان مفعول الاتفاق لمدة ٣ سنوات . و « هناك فروق اخرى من المصلحة السكوت عليها في هذه المرحلة » .

وحول العلاقات بين مصر واسرائيل في اطار الاتفاق الجديد اعلن نافون ان هذه هي المرة الاولى منذ عام ١٩٤٨ التي نستطيع فيها ان نقدم لمصر شيئا يكون لديها مصلحة للتوصل الى تسوية في مقابله . في هذه المرحلة تسوية جزئية ، وفي المستقبل ربما اكثر من ذلك . ان السؤال الذي نقف عنده الان هو : هل نستطيع ان نغير الوضع السياسي في الشرق الاوسط ونقطع سلسلة الحروب لكي نركز جهودنا في الامور الحقيقية والجذرية التي يجب ان تشغلنا مثل : الهجرة ، استيطان النقب والجليل ، حل المشاكل الاجتماعية ، خلق مجتمع نموذجي ورفع المستوى الاخلاقي . « وعندما اتحدث عن التغيير اقصد ان العرب سيرون في اسرائيل حقيقة قائمة لا يمكن القضاء عليها ومن يحاربها يكون كمن يحارب اميركا . وحتى اذا كانت تلك حجة فهي مهمة » .

وفي مجال تأثير الاتفاق الجديد على علاقات اسرائيل الدولية قال نافون ان العرب نجحوا منذ حرب حزيران ١٩٦٧ في عزل اسرائيل في اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية . وحتى اوروبا الغربية « مستعدة فقط للوقوف الى جانب امننا وليس الى جانب احتلالنا وسيطرتنا على الفلسطينيين » ــ اي ان الاتفاق الجديد من شأنه ان يكسر طوق العزلة الدولية حول اسرائيل .

واعلن نافون ايضا ان تأييد الولايات المتحدة لاسرائيل ليس « في جيبنا » في كل الظروف ويجب ان تكون لها مصلحة في تأييدنا . واما ضغطنا ونفوذنا في اميركا فيجب ان نوفره الى ان يحين الحديث عن الحدود النهائية . واضاف نافون ان هناك فرقا بين دخول الفنيين الاميركيين الى سيناء ودخولهم في فيتنام ، فهناك ارسلوا لمساعدة طرف ضد طرف اخر وهنا سيرسلون بناء على موافقة الطرفين الاسرائيلي والمصري . والوجود الاميركي لن يجر وجودا سوفييتيا « لان الطرفين يريدان فلانا وليس علانا » .

وعندما سئل ناغون : الن يمنع الوجود الاميركي هجوما اسرائيليا مفاجئا عندما يكون ذلك ضروريا . اجاب « اذا رأيت سيفا يمتد اليك ويهددك فانك تمد ذراعك وتحطم السيف حتى اذا قال عنك الجار انك ولد سيء » (المصدر نفسه) .

واضاف نافون ايضا ان للرئيس السادات مصلحة في المحافظة على الاتفاق خاصة من الناحية الاقتصادية . اما اذا نشبت حرب « فسنكون في وضع عسكري جيد بينما ٩٠٪ من ارض سيناء في ايدينا ووضعنا السياسي الدولي افضل الف مرة . . . لقد تخلت مصر في الاتفاق عن مبدا ما اخذ بالقوة لا يرد بغير القوة . ومن شأن هذا الاتفاق ان يقسم العالم العربي » (المصدر نفسه) .

اتفاق سياسي — عسكري

يتألف الاتفاق الاسرائيلي — الاميركي — المصري من ثلاثة فصول ، يحتوي الاول منها على المبادىء وترتيب القوات ، والثاني ملحق يحدد قواعد السلوك في المناطق التي ستخليها اسرائيل ، والثالث « اقتراح » يدور حول اقامة وتحديد وظيفة ومكان مجموعة الفنيين الاميركيين التي ستشغل شبكات الانذار المبكر في ممري الجدي والمتلا . اما الاتفاق الاسرائيلي الاميركي المرافق فقد ظلت بنوده طي الكتمان ، ومع ذلك لا يعتقد ان ما تسرب منها يعاني من اي نقصان . وقد جاء ذلك ، كما يبدو ، لموازنة ما ينظر اليه الكثيرون على انه صفقة لصالح مصر .

وعلقت بعض المصادر الاسرائيلية على الاتفاق بقولها ان المادتين الاولى والثانية هما المادتان المبدئيتان فيه ، « وسيكون من الخطأ ان ننضم الى الدعاية المصرية التي تحاول الادعاء ان القاهرة لم تأخذ على عاتقها اي التزام خارج عن المجال العسكري . ان هاتين المادتين هما النواة السياسية للاتفاق . فالالتزام بعدم استخدام القوة له طابع سياسي وكذلك الاعتماد على القرار ٣٣٨ الذي يقصد منه احلال السلام بين الاطراف » (افتتاحية هآرتس ، ١٩٧٥/٩/٢) .

واشار البعض الى نقطتي ضعف في الاتفاق الرئيسي ، هما عدم المحافظة على مبدا نزع السلاح من كل منطقة تخليها اسرائيل وعدم تمديد مدة الاتفاق بصورة واضحة . ولكن « الامرين اللذين يزيلان من الخطوة الاسرائيلية صفة المقامرة هما المساعدات العسكرية الاميركية وتدخل الولايات المتحدة المتعاظم من اجل المحافظة على الهدوء في المنطقة . ان من يعتقد ان في الاتفاق خطوة نحو السلام من الافضل ان يبدي تحفظا من ذلك فالحكومة اخذت على عاتقها مخاطرة معقولة » (المصدر نفسه) .

ووصف احد المراسلين (ماتي غولان — هآرتس ، ١٩٧٥/٩/٢) الاتفاق بانه « معقد » ويحتوي على ٤ وثائق : « الوثيقة الرئيسية وهي الاتفاق بين مصر واسرائيل . وتتضمن النواحي السياسية والعسكرية في هذه الوثيقة ما يلي : (١) عدم استخدام القوة ، (٢) خطوة مهمة نحو السلام ، (٣) حرية الملاحة في باب المندب ومرور بضائع اسرائيلية في قناة السويس ، (٤) سريان الاتفاق الى ان يستبدل باتفاق اخر . والوثيقة الثانية هي ملحق الاتفاق ويتضمن الخطوط الاساسية التي سيترجم الوفدان المصري والاسرائيلي بموجبها مبادىء الاتفاق الى لغة العمل . والوثيقة الثالثة هي اتفاق بين اسرائيل والولايات المتحدة ومصر حول الوجود الاميركي في سيناء . اما الوثيقة الرابعة فهي « مذكرة تفاهم » بين اسرائيل والولايات المتحدة . لقد طلبت اسرائيل ان تسمي هذه المذكرة « اتفاقية » ولكن الولايات المتحدة فضلت عدم استخدام هذه التسمية « لكي لا تشتم منها رائحة معاهدة دفاع مشترك » . وتتضمن هذه الوثيقة

مساعدات بقيمة ٣ر٢ — ٤ر٢ مليار دولار وتفاصيل المساعدات العسكرية والتعهدات الاميركية ازاء الخطوات السياسية القادمة في المنطقة . وقد اثار هذا الموضوع بعض المصاعب ، لان كيسنجر لم يشأ التمادي في التزامات تجعل مجال المناورة المستقلة ضيقا بالنسبة للولايات المتحدة في المنطقه . وقد اقتنعت اسرائيل بسبب حجة اخرى وهي ان الكونغرس والرأي العام الاميركيين قد يرفضان اعطاء تعهدات مبالغ بها . وبناء على ذلك وضعت « صيغ معتدلة » تعهدت الولايات المتحدة بموجبها بصورة مبدئية بعدم اتخاذ مبادرات سياسية وعدم الضغط على حكومة اسرائيل وعدم تبني مواقف سياسية متعارضة مع ارادتها .

واشار البعض ايضا ان مجموعة العمل المصرية الاسرائيلية التي ستعد بروتوكول تنفيذ الاتفاق تختلف عما كانت عليه في اتفاق فصل القوات في شباط ١٩٧٤ . ففي المرة السابقة كانت المجموعة مؤلفة من عسكريين فقط واما في هذه المرة فهي خليط من العسكريين والدبلوماسيين . وقد عينت مصر لرئاسة وفدها رجلا عسكريا لتأكيد الجانب العسكري في الاتفاق ، واما اسرائيل فقد عينت رجلا سياسيا لتأكيد الجانب السياسي فيه (المصدر نفسه) .

البنود « السرية »

سربت عدة مصادر اسرائيلية البنود السرية في الاتفاق الاسرائيلي — الاميركي المقترن بالاتفاق الاسرائيلي — المصري . وفيما يلي اهم ما نشر من معلومات حول هذا الموضوع .

نقلت مجلة تايم الاميركية عن « مسؤول اسرائيلي كبير » قوله ان الاتفاقية الاسرائيلية الاميركية « هي في الحقيقة معاهدة دفاع بين الولايات المتحدة واسرائيل حتى ولو كان النص لا يقول ذلك صراحة » (تايم ، ١٩٧٥/٩/٨) . وقد اقتبست الصحف الاسرائيلية هذا النبأ على صدر صفحاتها الاولى . كذلك نقلت هذه الصحف عن مصادر اميركية قولها ان الولايات المتحدة وعدت اسرائيل بـ ٥ر٢ — ٣ مليارات دولار في السنة المالية القادمة وبمساعدات اخرى خلال العقد القادم تتراوح بين ٥ر٣ — ٤ مليارات كل سنة (جيروزاليم بوست ، ١٩٧٥/٨/٣١) . وذكر ايضا ان اسرائيل ستتلقى من الولايات المتحدة كل ما تريده من الاسلحة المتطورة ، مثل طائرات ف — ١٥ وف — ١٦ ، صواريخ لانس ، قذائف موجهة باشعة لايزر وغير ذلك (تايم ، ١٩٧٥/٩/٨) . وذكرت مجلة « افييشن ويك » الاميركية ان الولايات المتحدة « تزود اسرائيل بأكثر مما تحتاج من الاسلحة » (جيروزاليم بوست ، ١٩٧٥/٨/٣١) .

واشار احد المراسلين الى ان « الاتفاقية الاسرائيلية تشتمل على ٢٤ بندا ، تنص بالتفصيل على تعهدات الولايات المتحدة في مجال المساعدات العسكرية والاقتصادية وفي مجال التنسيق السياسي معها في كل مراحل المفاوضات الشرق اوسطية » (أريئيل غيناى — يديعوت أحرونوت ، ١٩٧٥/٩/١) . ولكن ازاء المعارضة المتوقعة لدى الراي العام الاميركي والكونغرس اكتفت اسرائيل « بوعود سرية وغامضة وفي بعض الاحيان غير مكتوبة » (المصدر نفسه) .

وذكرت مصادر اخرى ان الاتفاق السري يتضمن التزامات اميركية بالتنسيق مع اسرائيل في المستقبل ، ازاء كل دولة مواجهة عربية وازاء منظمة التحرير الفلسطينية. فبالنسبة ل — م.ت.ف. تتعهد الولايات المتحدة بان لا تعترف بها قبل ان تعترف هي باسرائيل . وبالنسبة لمصر تتعهد اميركا بعدم تقديم اقتراحات ومبادرات حتى نهاية

عام ١٩٧٧ . وبعد هذ ـتت تستطيع اميركا القيام بذلك بشرط ان لا يتعارض هـذا مع رغبة اسرائيل « وقد اعلمت مصر بذلك » . وبالنسبة للاردن قيل ان الحل الشامل هو الحل الوحيد الوارد في الحسبان . اما بالنسبة لسوريا فقد قيل انه « لا يوجد مكان لتسوية جزئية عدا عن تعديلات « تجميلية » على الحدود ، وبما ان سوريا سترفض ذلك بلا شك فالحل الشامل ايضا هو الحل الوحيد الممكن معها » (ماتي غولان ـ هآرتس ، ١٩٧٥/٩/٢) .

اما بالنسبة للحرب الاقتصادية والسياسية فقد ذكر ان مصر وافقت على عدم مقاطعة الشركات الاميركية التي تتعامل مع اسرائيل ورفضت اتباع السياسة نفسها ازاء شركات اوروبا الغربية . وذكر مصدر اخر ان مصر سمحت بمرور السفن السياحية بين الاسكندرية وحيفا . ولكن مصدرا ثالثا اعلن ان مصر « لم تتنازل كثيرا في مجال تخفيف الحرب الاقتصادية والسياسية » (اريئيل غيناي ـ يديعوت احرونوت، ١٩٧٥/٩/١) .

وعبر احد المعلقين عن ضخامة الالتزامات المالية الاميركية لاسرائيل بقوله ان الولايات المتحدة الاميركية « ستدفع لاسرائيل نحو ٤ ملايين ليرة اسرائيلية مقابل كل كيلومتر مربع من رمال سيناء » (الياهو سلفطر ـ هآرتس ، ١٩٧٥/٩/٢). وتشتمل الالتزامات الاميركية هذه على تعويض اسرائيل عن نفط ابو رديس وضمان امدادها بالنفط في اوقات السلم والحرب .

الاتفاق بين القابلين والرافضين

في اجتماع الحكومة الاسرائيلية بتاريخ ١٩٧٥/٩/١ ، الذي صادق على الاتفاق بعد نقاش استغرق ٩ ساعات ، تبين ان كل الوزراء تقريبا يؤيدون الاتفاق ، فقد صوت لصالحه ١٨ وزيرا وامتنع الوزير التاسع عشر (وزير الشرطة شلومو هيلل) عن التصويت . وتبين ان قسما من الوزراء مثل حاييم تسادوق (العدل) ، ويهوشواع رابينوفيتش (المالية) واهرون يادلين (المعارف والثقافة) وابرآهام عوفر (الاسكان) وفكتور شمطوف (الصحة) وشلومو روزن (الهجرة والاستيعاب) وموشي كول (السياحة) وجدعون هاوزنر (بلا وزارة) ايدوا الاتفاق لانه « جيد بحد ذاته » ، بينما ايده قسم اخر من الوزراء لانه « اهون الشرين » ، ومن هؤلاء غاد يعقوبي (المواصلات) يتسحاق رفائيل (الاديان) ، يوسف بورغ (الداخلية) ويسرائيل غليلي (بلا وزارة) .

وبعد توقيع الاتفاق ، وبمناسبة راس السنة العبرية الجديدة ، اجرت صحيفة دافار (١٩٧٥/٩/٥) شبه الرسمية مقابلة مع رئيس حكومة اسرائيل رابين حول الاتفاق ، شرح رابين خلالها اسس الموقف الاسرائيلي واصراره على البدء بالمفاوضات مع مصر قبل غيرها ، بقوله : « اعتقدت دائما ان المفتاح للنزاع العربي ـ الاسرائيلي موجود في اوضاع العلاقات مع مصر . وبحسب رايي من المهم للغاية السماح بتطور الاتجاه [السلمي ؟] ، الذي اخذ يتبلور ، كما آمل ، بعد اتفاقية التسوية . ولكن مصر غير معزولة عن العالم العربي وعلينا ان نذكر ذلك . ستبذل محاولة للمفاوضات مع سوريا ، واما بالنسبة للاردن فالوضع هو كما يلي : ليس لديها توكيل للتفاوض مع اسرائيل . لقد سلبها العالم العربي ... ذلك في قرارات الرباط » . وردا على سؤال اخر حول امكانية اتجاه اميركا للاعتماد على العرب في المنطقة واهمال اسرائيل ، اجاب رابين : « اعتقد وآمل بان الاميركيين يعرفون بان ما

باستطاعته المحافظة ، في نهاية الامر ، على تعاون العرب معهم على المدى الطويل هو استمرار وجود اسرائيل قوية . وفي اللحظة التي لا تكون فيها اسرائيل قوية ، لا حاجة ابدا للولايات المتحدة » . واعرب رابين عن شكوكه في امكانية التوصل الى حل شامل دون اشتراك الاتحاد السوفييتي ، وتوقع ان يبذل الاتحاد السوفييتي جهودا « لاستغلال كل تلك الجهات ، في العالم العربي ، التي تستطيع ازعاج التغلغل الاميركي الى جزء من الدول العربية » . كذلك اعلن رابين في مقابلته عن معارضته لتزويد العرب بسلاح اميركي .

وفي اليوم نفسه أجرت أيضا صحيفة هآرتس مقابلة مع وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريس حول الاتفاقية ، اعرب بيريس فيها عن رأيه في « ان مصر موجودة في نقطة تحول من بلد حرب الى بلد تطور داخلي » ، رغم انه لا يعرف متى سينتهي هذا التحول . واعلن بيريس ايضا انه « لا يعتقد ان التسوية الشاملة ... ممكنة في المستقبل المنظور بسبب القضية الفلسطينية » واعرب عن اعتقاده بان « الطريق الى تسوية شاملة تمر في اتفاق جزئي اخر ، ربما على عكس اراء وزراء اخرين في الحكومة . انني لا اعتقد اننا نستطيع الانطلاق من التسوية الحالية الى تسوية شاملة ودائمة . اعتقد ان بيننا وبين السلام مرحلة انهاء حالة الحرب من قبل مصر وخارطة اسرائيلية اضافية » .

وتحدث بيريس عن القضية الفلسطينية ، فاعلن انه يتوقع « تغييرا في المواقف . لا اعتقد ان الامور ثابتة . رأيي في حل القضية الفلسطينية ــ وقلت هذا اكثر من مرة ــ لا يكمن في التقسيم وانما في الجمع ، في اتحاد فيدرالي . وربما ، حتى نصل الى موافقة العرب على اتحاد فيدرالي ، ليس هناك ٣ ــ ٤ سنوات ، وانما ٨ ــ ١٠ سنوات . لا اعتقد اننا نستطيع تجاهل القضية الفلسطينية ، ولا اؤيد ذلك . اعتقد ان الحل لا يكمن في موقف الفلسطينيين المتطرف ، وانما في اتحاد فيدرالي . وحتى يحدث تطور في الموقف الفلسطيني ينبغي ان نأخذ بالحسبان نقطة انطلاقهم ، واليوم نقطة انطلاقهم ابادة اسرائيل ... انني افضل [اتحادا فيدراليا] اسرائيليا ــ فلسطينيا ، ولا اعارض امكانية اردنية أيضا » .

وتطرق بيريس الى الموقف الاسرائيلي من التسوية مع سوريا ، فاعلن انه « يؤيد تغييرات تجميلية [في الحدود] فقط ــ اي ان نعطي شيئا صغيرا للغاية مقابل شيء صغير للغاية » . واضاف بيريس انه قد يوافق « على تسوية جزئية تمنح سوريا فترة سنتين او ثلاث سنوات للوصول الى نقطة الانطلاق المصرية سنة ١٩٧٤ ، اعتقد ان سوريا لم تصل الى موقف مصر ١٩٧٤ ، وبالطبع ليس موقف مصر ١٩٧٥ . اعتقد أن سوريا تقف امام قرار بالاتجاه نحو الحرب ، حرب استنزاف ، او الاتجاه نحو واشنطن والتسوية مع اسرائيل . قد اوافق ، مثلا ، على تغييرات تجميلية لتشجيع اتجاه السوريين نحو تسويات . هذا قصدي » .

وعلق وزير الخارجية الون على الاتفاق بقوله انه افضل اتفاق يوقع بيننا وبين دولة عربية منذ العام ١٩٤٨ (دافار ، ١٩٧٥/٩/٢) ، بينما اضاف وزير الصحة فكتور شمطوف ان اسرائيل حصلت على مكاسب جيدة (المصدر نفسه) . وصرح رئيس الاركان مردخاي غور بانه اذا صمد الاتفاق لمدة خمس سنوات سنستطيع القول ان هذا بالفعل منعطفا جديدا (المصدر نفسه) .

اما عوزى نركيس ، رئيس دائرة الهجرة والاستيعاب في الوكالة اليهودية ، فقد أعلن ان الاتفاق سيزيد من حجم الهجرة الى اسرائيل لان أهم عوامل انخفاض الهجرة

هو الوضع الامني ، وحتى ١٩٧٥/٩/١ انخفض عدد المهاجرين الى اسرائيل بنسبة ٥٢٪ بالمقارنة مع السنه الماضيه (المصدر نفسه) . وامتدح حاييم هرتسوغ ، سفير اسرائيل الجديد في الامم المتحده الاتفاق بقوله انه افضل اتفاق توقعه اسرائيل مع احدى جاراتها ، ومع ذلك يترك لاسرائيل عمقا استراتيجيا لتدافع عن نفسها في حال خرقه . واضاف ان الاتفاق مهم لانه يشتمل على تعهدات اميركية ومساعدات اميركية، خاصة اذا علمنا ان اسرائيل لم تكن لديها قوات كافية شرقي قناة السويس لاسباب اقتصادية (دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٤) .

اما بالنسبة للمعارضين ، فقد كان من أبرزهم موشي دايان وزير الدفاع السابق وزعماء ليكود وشباب حزب المفدال ، وغيرهم من غلاة الصهاينة والمتدينين المتطرفين. وفي راي دايان أن الاتفاق يضعف اسرائيل من كل النواحي . ويبدو ان موقفه هذا نابع من بعض التوقعات التي تقول ان التعهدات الاميركية ووضع التقنيين الاميركيين في سيناء « هي خطوة اولى نحو معاهدة دفاع اميركية ــ اسرائيلية مقابل الانسحاب الى ما وراء حدود حزيران ١٩٦٧ » (ناحوم برنياع ــ دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٨) . ومن المعروف ان دايان هاجم بشدة في مناسبات عدة في الماضي اعتماد اسرائيل على التعهدات الدولية من اي نوع .

وعلى الصعيد الصحفي انقسمت الاقلام الاسرائيلية بين مؤيدة ومعارضة . وعبر معظم المعارضين عن مواقف المعارضة اليمينية والدينية المتطرفة التي لا تكتفي بالمناطق المحتلة عام ١٩٦٧ ، ولذلك كان من الطبيعي ان تعارض اي انسحاب خاصة اذا ظهر كمقدمة لانسحابات اخرى في المستقبل . ولكن يبدو ان بعض الاسرائيليين في مختلف المعسكرات السياسية يخشون من تبعية اسرائيل المتزايدة للولايات المتحدة ويخشون من حقيقة ان اغراق اسرائيل بالمساعدات الاميركية قد يحول تل ابيب الى سايغون اخرى ويعرض مجتمعها الى المزيد من الفساد (يزهار سميلانسكي ــ هآرتس ، ١٩٧٥/٨/٢٩) .

أما الكتاب المؤيدون ، فيرى بعضهم ان الاتفاق سيخرج مصر من معادلة الصراع العربي الاسرائيلي ، مما سيتيح لاسرائيل تركيز جهودها على الجبهة السورية ــ الفلسطينية ــ الاردنية (حغاي اشد ــ دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٢ ويهوشواع تدمور ــ دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٥) . ويرى مؤيدون اخرون ان التجربة التاريخية تثبت ان اسرائيل تستفيد بعد كل « تنازل » ، فقد « تنازلت » بعد حرب ١٩٤٨ ، فكانت الفترة بين ١٩٤٨ و ١٩٥٦ اهم فترة لاستيعاب المهاجرين . و « تنازلت » بعد حرب ١٩٥٦ فربحت الكثير في مجال الوضع السياسي الدولي وتقوية الجيش وحرية الملاحة في الفترة ١٩٥٦ ــ ١٩٦٧ . ولم « تتنازل » في الفترة ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ ، وكما هو معلوم كانت النتيجة حرب تشرين الدامية (حانه زيمر ــ دافار ، ١٩٧٥/٨/٢٩) .

خطوة ... الى اين ؟

يظهر من حجج الحكومة والمعارضة حول قبول او رفض الاتفاق في سيناء وكذلك من حجج دوائر مختلفة ان المواقف الاساسية للحكومة والمعارضة هي مواقف مشتركة ازاء الصراع العربي الاسرائيلي . وتعبر معظم تلك المواقف عن رغبة اسرائيلية في منع التوصل الى حل شامل وعادل بهدف تكريس الاحتلال وابقاء الازمة مفتوحة ، مما يمكن الولايات المتحدة من مواصلة استغلال الصراع لخدمة اهدافها الاستراتيجية والاقتصادية ، ضد مصالح شعوب المنطقة . « ان الاتفاق قد يؤجل اندلاع الحرب من

جديد فترة من الزمن ولكنه يبقي على كل العوامل والظروف الموضوعية لاندلاع هذه الحرب ، بل ربما يجعلها اشد ضراوة (من بيان حزب راكاح في الكنيست ، ١٨/٨/١٩٧٥) .

ومع توقيع الاتفاق الاخير ، ظهر ان التصريحات الاسرائيلية تجاه الاطراف الاخرى ازدادت تطرفا ، فقد اعلن الوزير غليلي ، مثلا ، ان « تصريح الرئيس الاسد انه مستعد للسلام مع اسرائيل يلغي نفسه لانه يريد الجولان » (يديعوت احرونوت ، ٢٩/٨/١٩٧٥) . وقال رابين لاحدى شبكات التلفزيون الاميركية انه « لا يوجد مجال لتسوية جزئية مع سوريا » (الاذاعة الاسرائيلية ، ٨/٩/١٩٧٥) واما التصريحات تجاه الاردن والشعب الفلسطيني فهي اكثر تطرفا ، مما يدل على ان اسرائيل تريد من « الانسحاب الجزئي في سيناء ان يكون نهاية المطاف » (بوعز عفرون — يديعوت احرونوت ، ٢٩/٨/١٩٧٥) .

ويقول شموئيل تامير زعيم المركز الحر في كتلة ليكود ان « كل حكومات اسرائيل لم تجعل السلام هدفا للحرب الاسرائيلية . لقد تصرفت من موقع اليائس من السلام بل واستغلت حالة الحصار لبلورة الامة المتجددة وللمحافظة على شخصيتها الخاصة في الشرق الاوسط ... ان الزمن لا يعمل لصالحنا والتسويات الجزئية عابرة ولا تدوم طويلا » (هآرتس ، ٢٩/٨/١٩٧٥) .

اسرائيل بعد سنتين من تشرين : عود على بدء

صبري جريس

يبدو ، مع مرور سنتين على حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، ان الدورة التي بدأتها تلك الحرب تقترب من نهايتها . ويبدو أيضا ان معظم المشاكل التي نجمت عن تلك الحرب ، على صعيد الاوضاع الاسرائيلية الداخلية او علاقاتها الخارجية ، تسير على طريق ايجاد الحلول لها ، المؤقتة او الدائمة . ان الفترة التي مرت منذ نشوب الحرب وحتى اليوم ليست كافية بالطبع لتقويم نتائجها على صعيد الصراع العربي — الاسرائيلي على المدى البعيد . ولكن ما تخللها من أحداث وتطورات وما تبعهـا من مواقف وردود فعل اسرائيلية يكفي ، على الاقل ، للوقوف على الملامح الرئيسيـة للسياسة الاسرائيلية التي تبلورت بعد حرب تشرين ، وفي ضوء نتائجها .

النظام يعود الى سابق عهده

كانت اولى النتائج التي ترتبت على حرب تشرين ، وما لحق باسرائيل خلالها من خسائر بشرية ومادية ، تضعضع هيبة الحكم في اسرائيل وسقوط أسهم معظم الزعماء السياسيين والقادة العسكريين الذين كانوا يقودون اسرائيل وقتها . فالمفاجأة التي وقع الاسرائيليون فيها مع نشوب الحرب ، ثم الخسائر البشرية التي نجمت عن ذلك ، المتمثلة في الآف القتلى والجرحى ، أثـارت سخطا لا مثيل له على النظام وقادته ، وادت الى اشتداد حملات الطعن والانتقاد الموجهة الى نظام الحكم ، بزعمائه واحزابه ومؤسساته على اختلاف انواعها . وسرعان ما تبلورت حملات الانتقاد هذه علـى شكل حركات احتجاج منظمة ، يقال ان عددها زاد على ٣٠ حركة او مجموعة ، هدفها المعلن العمل على كشف « التقصير » الاسرائيلي الذي اسفرت عنه الحرب ومعاقبـة المسؤولين عن ذلك . ولم يمر وقت طويل حتى وجدت الحكومة الاسرائيلية نفسهـا تشكل لجنة للتحقيق في سير الحرب وتحديد مسؤولية الاشخاص الذين اشرفوا عليها. وقد ادانت لجنة التحقيق هذه (لجنة أغرانات) ، كما هو معروف ، في تقريرها الاولي الذي نشرته في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، المخابرات العسكرية الاسرائيلية بالتقصير وحملتها المسؤولية الاولى لما اصاب اسرائيل من خسائر ، مما ادى الى اقالة رئيس شعبة المخابرات وعدد من كبار ضباطه . ولكن حملة الغضب التي اجتاحت اسرائيل لم تكتف بأكباش الفداء هذه ، اذ استمرت حملات الاحتجاج الداعية الى الكشف عـن كبار المسؤولين عما لحق باسرائيل اثناء الحرب « ومعاقبتهـم » ، بينمـا استمرت المظاهرات المعادية للحكومة ، وخاصة رئيستها غولـدا مئير ووزير الدفـاع موشـي دايان ، الى ان اضطر دايان الى تقديم استقالته وتبعته مئير ، فاستقالت الحكومـة بأسرها . وكان من الواضح ، مع استقالة الحكومة ، ان الاشخاص الذين تزعمـوا اسرائيل حتى ذلك الوقت ، وخاصة مئير ، قد وصلوا الى نهاية المطاف ويتوجب عليهم، على الاقل ، اعتزال الحياة السياسية . وعلى الاثر اجتمعت اللجنة المركزية لحزب العمل الحاكم في اسرائيل لاختيار خلف لمئير كرئيس للحكومة ، ووقع الاختيـار على

يستحق رابين ، الذي فاز على منافسه شمعون بيريس بأكثرية ضئيلة ، فقام بتشكيل الحكومة الجديدة وعين بيريس وزيرا للدفاع .

مع تشكيل حكومة رابين ، بدات اوضاع نظام الحكم في اسرائيل تعود الى حالتها الطبيعية السابقة تدريجيا ، حتى وصلت اليوم ـــ بعد مرور سنتين على الحـــرب ـــ الى حالة تكاد لا تختلف كثيرا عن تلك التي كانت قائمة قبل الحرب ، بحيث يبدو كأنـــه لم يكن للحرب ، تقريبا ، اي تأثير في هذه الناحية على المدى البعيد .

كانت النتيجة الاولى التي ترتبت على تشكيل حكومة رابين « تبخر » كل حركـــات الاحتجاج التي قامت في اسرائيل بعد الحرب واختفائهـــا من علـــى مسرح الحيـــاة السياسية هناك ، وبالتالي زوال اية امكانية لاحداث تغيير سياسي داخلي في اسرائيل او بروز قوى جديدة قد تعمل على تغيير السياسة الاسرائيلية . ويبـــدو ان النجـــاح المفاجيء ، الذي اعتقدت هذه القوى انها حققته مع سقوط حكومة مئير ، وذلك قبـــل أن تتمكن من بلورة مـــواقف ايجابيـــة خاصة بها تدفعها الى الاستمـــرار في العمـــل السياسي ، كان السبب في اندثارها(١) . ولهذا لم يبق أمام رابين ، عندما اتجه الـــى تشكيل حكومته ، الا مواجهة المناورات الحزبية التقليدية ، خاصة بعد أن حاول عدد من الاحزاب والتكتلات السياسية ، وخـــاصة الحزب الديني القومـــي (مفـــدال) ، استغلال مـــا اعتقده ضعفـــا في موقف حزب العمل وموقف مرشحه لرئاسة الحكومة وفرض شروط قاسية للدخول في الائتلاف الحكومي . غير انه لم يمر الا وقت قصير حتى تمكن حزب العمل من تذليل هذه العقبات وتأليف حكومة جديدة برئاسة رابـــين ، حظيت بأكثرية ٦١ صوتا (من بين ١٢٠) في الكنيست ، ودون اشراك الحزب الديني القومي ، الذي اضطر في نهاية الامر الى دخول الحكومة بعد بضعة اشهر من تشكيلها ، وفق الشروط السابقة التي وضعها حزب العمل . ولا تزال حكومة رابين هذه تحكم اسرائيل منذ تشكيلها ، في حزيران (يونيو) ١٩٧٤ . وحتى اليوم ، رغم استقالـــة شولاميت الوني وأهرون ياريف منها .

تعرضت حكومة رابين ، مع تشكيلها ، لحملات عنيفة من قبل كتلة ليكود اليمينية ، باشتراك الحزب الديني القومي ، بهدف اسقاطها او حمل حزب العمل على الموافقة لاستبدالها بحكومة تكتل وطني ، كتلك التي كانت قائمة في اسرائيل منذ حرب ١٩٦٧ وحتى منتصف سنة ١٩٧٠ عندما سقطت اثر الخلاف داخلها حول مشروع روجرز ، وزير خارجية الولايات المتحدة وقتها ، ولكن كل هذه الحمـــلات باءت بالفشل . وفي الوقت نفسه تعرضت الحكومة ايضا لحملات انتقاد « شعبية » واسعة ، بسبب عدم ثقة رئيسها وكبار وزرائه بأنفسهم ، وترددهم وعدم مقدرتهم ـــ هكذا قيل ـــ عـــلى الحسم في المشاكل التي تواجه اسرائيل . وبقيت هذه الحملة تتفاعل داخليا حتى شهر اذار (مارس) من هذه السنة ، عندما افشلت حكومة رابين مهمة كيسنجر ، فكسبت بذلك عالمها على صعيد الشارع الاسرائيلي . وخلال هذه الفترة طرات ايضا تغييرات طفيفة على الدفع الحزبي في اسرائيل منها ، مثلا ، اقامة حزب ياعـــد ، ولكن هـــذه التغييرات لم تسفر عن تأثير يذكر على ميزان القوى الحزبية الذي يسيطر في نهـــاية الامر على النظام الاسرائيلي .

كانت هذه ، اذن ، هي التغييرات الظاهرية التي طرات على اوضـــاع نظام الحكم في اسرائيل بعد تشرين ، التي لم تختلف جذريا عن الوضع الذي كان قائما قبـــل الحرب ، بحيث يمكننا القول ان الحرب ـــ من هذه الناحية ـــ لم تحدث اي تغيير(٢) . ولم يتوقف الامر عند هذا الحد ، اذ لم يمر سوى بضعة اشهر على تأسيس حكومة رابين حتى

كانت الاحزاب الاسرائيلية الكبرى تتامر فيما بينها لبسط نفوذها وتوسيع سيطرتها على الحياه العامة في اسرائيل ، ولدرجة حاولت معها اقرار قوانين تستطيع بموجبها تامين تمويلها في المستقبل وتسديد ديونها السابقة من خزينة الدوله ، بعد ان كانت قد اقرت في الماضي قوانين تكفل تأمين تسديد نفقات حملاتها الانتخابية من الجهة ذاتها ، الا ان هذه المحاولة منيت بالفشل نظرا للمعارضة الواسعة التي تصدت لها .

ان حرب تشرين التي لم تحدث اي تغيير في « قشور » نظام الحكم الاسرائيلي ، كما اوضحنا ، لم تحدث ايضا اي تغيير في جوهره . فرغم الديموقراطية التي ينسبها الاسرائيليون لنظام حكمهم ، كان هناك دائما تذمر وشكاو من ان القرارات الحاسمة في تاريخ اسرائيل تصنع من قبل مجموعة صغيرة من الاشخاص ، واحيانا من قبل شخص واحد . فخلال حكم بن ــ غوريون ، مثلا ، أي حتى سنة ١٩٦٣ ، كانت القرارات الحاسمة تتخذ من قبله ، بعد استشارة بعض المقربين اليه ــ احيانا . وخلال حكم اشكول (١٩٦٣ ــ ١٩٦٨) توسعت هذه الدائرة قليلا لتضم بعض قدامى رجال مباي . اما خلال حكم مئير (١٩٦٨ ــ ١٩٧٣) فقد تقلصت هذه الدائرة كثيرا وانحصرت في نهاية الامر ، بعد عملية تنظيف لــ « مطبخ » مئير المشهور حيث كانت تجري المشاورات السياسية ، بثلاثة اشخاص ، هم مئير نفسها ووزير الدفاع موشي دايان وصديق مئير « ومستشارها » ، الوزير بلا حقيبة يسرائيل غليلي . وقد تعرضت عملية تركيز السلطة هذه في ايدي قلة من الوزراء الى انتقادات شديدة ، وجوبهت احيانا بمعارضة من داخل الحكومة ، بينما اعتبرها البعض السبب الرئيسي في الجمود السياسي وقصر النظر الذي سيطر على المواقف السياسية الاسرائيلية منذ حرب حزيران ١٩٦٧ وحتى حرب تشرين ١٩٧٣ ، وبالتالي عاملا مهما من عوامل التقصير الاسرائيلي في تشرين . ومع سقوط حكومة مئير توقع البعض ان تبادر الحكومة الجديدة الى الافادة من التجارب السابقة والعمل على تلافي الاخطاء التي وقعت فيها، وذلك بتوسيع قاعدة صانعي القرارات في السياسة الاسرائيلية وتعميق « الممارسة الديموقراطية » . غير أن ما حدث فعلا كان عكس ذلك تماما . ويتضح الان ان رابين وصحبه قضوا الفترة التي اتهموا فيها بالتردد وعدم القدرة على اتخاذ القرارات في تقوية نفوذهم ودعم سيطرتهم ، بحيث بدا واضحا ، بعد نحو سنة على تشكيل حكومة رابين ، ان هناك ثلاثة وزراء فقط يسيطرون على مقاليد الحكم في اسرائيل ، هم رئيس الحكومة يتسحاق رابين ووزير الدفاع شمعون بيريس ووزير الخارجية يغئال الون . وهؤلاء الثلاثة يمثلون الكتل الثلاث التي يتألف منها حزب العمل الاسرائيلي : فرابين محسوب على كتلة مباي ، رغم انه ليس من « صلب » الحزب ، وبيريس ينتمي الى كتلة رافي ، اما الون فهو احد زعماء كتلة احدوت هعفوداه . وبعبارة اخرى يمكننا القول ان حرب تشرين قد اسفرت ، على صعيد نظام الحكم الاسرائيلي ، عن استبدال الثلاثي مئير ــ دايان ــ غليلي بثلاثي اخر : رابين ــ بيريس ــ الون .

البنغوريونية تطل براسها

ان الثلاثي رابين ــ بيريس ــ الون الذي يبدو انه يحكم اسرائيل ويبت في مواقفها السياسية والعسكرية ، تاركا الشؤون الاقتصادية لوزير المالية رابينوفيتش(٣)، تلميذ بنحاس سابير « الاسطوري » الذي توفي مؤخرا ، لا يتقاسم الصلاحيات ــ على ما يظهر ــ بالتساوى بين افراده . ويلاحظ من مراقبة مجمل العلاقات بين هذا الثلاثي انه في حين يحافظ رابين على « الثلث » الخاص به ، يخف تأثير الون تدريجيا بينما ترتفع اسهم بيريس ويقوى نفوذه وتزداد شعبيته ــ على حساب معظم الزعماء

الاسرائيليين الاخرين . وبالنسبة لوزير الخارجيه الون ليس في هذا الوضع ، على اي حال . اي جديد . فوزراء خارجيه اسرائيل السابقين ايضا ، موشي شاريت وغولده متير (التي كانت تشكو من ندخل شمعون بيريس وصحبه في الشؤون الخارجية اثناء عملها كوزيره للخارجيه) وابا ايبن . لم يتمتعوا بنفوذ يذكر في التاثير علـــى سيـــاسة اسرائيل الخارجية . ويبدو ان اتجاه معظم اولئـــك الـــوزراء الى « الاعتـــدال » في سياستهم . في وقت كان التطرف فيه هو المسيطر على مواقف اسرائيل بينما يســـود التوتر المنطقة بأسرها . لم يكن في صالحهم . وعكس ذلك ينطبق ، عامة ، على وزراء الدفاع الاسرائيليين الذين تمتعوا عادة بنفوذ كبير في السياسة الاسرائيلية ، بما في ذلك الشؤون الخارجية ، وذلك بحكم مسؤولياتهم الامنية المهمة بالنسبة لاسرائيل — وهذا هو الوضع بالنسبة لوزير الدفاع بيريس ايضا ، الذي يبدو انه يتجه تدريجيا ليحتل ما يمكن ان نسميه مكانة « الرجل القوي » في النظام الاسرائيلي عمليا ، و « فيلسوفه » نظريا . ويظهر ، استنادا الى الاوضاع الحزبية والسياسية الداخلية في اسرائيـــل ، ان بيريس سيستمر في المحافظة على مكانته هذه لفترة طويلة ، هذا ان لم يصل — ان عاجلا او آجلا — الى منصب رئيس الحكومة . ومن هنا يبدو لنا انه من الاهمية بمكان الاطلاع على آراء بيريس ومساعديه ومواقفهم والحلـــول التي يطرحونهـــا للمشاكل الاستراتيجية التي تواجه اسرائيل ، ان كـــانت تلك التي نجمت عن حرب تشرين او المتغيرات الدولية عامة ، بما في ذلك حلولهم المرحلية للمشاكل الانية وتصورهم لكيفية قيادة اسرائيل وايصالها الى ما يسمونه « شاطىء الامان » .

وتجدر الاشارة هنا ، قبل التطرق الى النواحي التي ذكرناها ، ان بيريس يعتبـــر واحدا من مجموعة — نخص بالذكر منها موشي دايان وزير الدفاع السابق ، وآشر بن — ناتان سفير اسرائيل في فرنسا حاليا ، وتيدي كوليك رئيس بلدية القدس — اطلق عليها في حينه اسم « شباب بن — غوريون » . ويقال — وهناك اكثر من دليل يؤيـــد صحة هذا القول — ان بن — غوريون توصل في بداية الخمسينات ، بعد ان انتهى من عملية اقامة اسرائيل التي ربحت حرب ١٩٤٨ وحملت الدول العربية المجاورة علـــى توقيع اتفاقيات هدنة معها ثم دخلت الامم المتحدة بعد ان اعترف بها عدد لا بأس بـــه من دول العالم ، وصل الى نتيجة مفادها ان جيل المؤسسين الصهيونيين من ابنـــاء الهجرتين الثانية والثالثة ، الذين قدموا إلى فلسطين من روسيا القيصرية وبولونيـــا خلال الربع الاول من هذا القرن ، غير قادر على قيادة اسرائيل المستقبل — خاصة بعد ان يتوفى بن — غوريون . . . — او الاستمرار في تنفيذ المشروع الصهيوني على الوجه الاكمل ، نظرا لضيق أفقهم بسبب العقد المهجرية اليهودية التي كانت تتحكـــم بهم . ولهذا قرر « العجوز » الاتجاه الى ابناء جيل الصابرا الذي نشأ في فلسطين ، في ظل سياسة الوطن القومي و« الييشوف الجديد » ، وراح يختار من اعتبرهم النجبـــاء من بينهم ويحيط نفسه بهم ، أو يوصلهم الى مراكز حساسة في الجهاز الحاكم ، علـــى أمل تدريبهم وتهيئتهم لتسلم مقاليد الحكم في المستقبل . وقد اثار عمل بن — غوريون هذا في حينه غضب قدامى زعماء مباى ، الذين ابدوا معارضة شديدة ، ونجمت عنه مضاعفات عديدة كان بعضها السبب في « اعتزال » بن — غوريون الحكم سنة ١٩٥٣ (ثم عاد اليه في مطلع سنة ١٩٥٥) . ولكن بن — غوريون ، قبل ان « يعتزل » الحكم بيوم واحد ، قام بتعيين دايان رئيسا للاركان وبيريس مديرا عاما لوزارة الدفـــاع . ومنذ ذلك الوقت عمل بيريس بصحبة بن — غوريون فترة طويلة ، وخاض معه معارك عديدة نذكر من بينها العمليات الانتقامية الاسرائيلية ضد الدول العربية في منتصـــف الخمسينات ، غزوة سيناء سنة ١٩٥٦ ثم توثيق العلاقات مع فرنسا ، رغم فشل هذه

الغزوة . وتأمين تزويد اسرائيل بالاسلحة الفرنسية الحديثة على اختلاف انواعها ، فساهم بذلك مساهمة كبيرة في انتصار اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وكذلك ادخال مفاعلات ذرية الى اسرائيل . وقد ايد بيريس بن ــ غوريون ، دون تردد ، في معظم مواقفه ، وعندما انشق الاخير عن مباي سنة ١٩٦٥ واقام قائمة عمال اسرائيل (رافي) ، التي اشتركت يومها في الانتخابات كقائمة مستقلة ، معارضة لمباي وغيره ، كان بيريس من اوائل من تبعوه في صحراء المعارضة ، ولم يعد الى الحكم الا بعد حرب ١٩٦٧ ، في اطار حكومة التكتل الوطني وبعد جو المصالحة الذي ساد اسرائيل وقتها . ان مشروع « شباب بن ــ غوريون » ، على اي حال ، لم يحظ بنجاح كبير ، لاسباب لا مجال لذكرها هنا ، ولكن واحدا من اولئك « الشباب » يشغل الان اكبر المناصب العسكرية (والسياسية) ، وفي فترة حرجة بالنسبة للاسرائيليين ، ويفترض ان لا يخيب آمال معلمه اولا ، وان يطبق الطرق البنغوريونية لحل المشاكل التي تجابهها اسرائيل ثانيا . فما هي ، اذن ، خطط تلميذ بن ــ غوريون و « خليفته » ؟

« الغذاء والماء والطاقة والسلاح »

على عكس العديد من الاسرائيليين ، الذين يعتقدون ان اسرائيل تمر في ازمة منذ حرب تشرين ، ولهذا يشعرون بالقلق نتيجة لما وصلوا اليه ، يرى بيريس « ان الازمة يمكن ان تكون ايضا مصدر قوة للشعب . انها تجلب معها روحا مطهرة . ثمة شوائب وظلم في مجتمعنا،وهذه الفترة مناسبة جدا للاصلاح الداخلي في اسرائيل. هذه مناسبة جيدة للغاية للعمل لاجل اولئك الشباب الذين لم يحصلوا على ثقافة،ولاجل الذين ظلمتهم الطبيعة او الادارة ، لاعادة توزيع العبء وخلق حياة اقتصادية [سليمة] »(٤).

وعلى عكس العديد من الاسرائيليين ايضا ، لا « يخاف » بيريس من القوة العربية المتصاعدة ، ولديه اسبابه الخاصة به : « ان الغنى العربي يبقى خارجيا . واذا لم يصل هذا الغنى الى المدارس والمؤسسات الاجتماعية ومستوى حياة الفرد ــ فمن الممكن ، طبعا ، شراء سلاح سوفييتي . . . ولكن مع غنى كهذا لا تخلق شيئا . . . ان اساس فشل [العالم العربي] داخلي . الشعب غني ــ والافراد فقراء . ان الزعماء يبذرون ملايين من الدولارات خلال ليلة واحدة ، بينما هناك ملايين من الاشخاص ليس لديهم ما يأكلون . . . لا يمكن شراء جنود بالمال . يمكن شراء التقنية بالمال ، ولكن لا يمكن شراء الدوافع . في سنة ١٩٤٨ كان في مصر ١٨ مليون نسمة واليوم . . . هناك ٣٦ مليونا . . . فهل حقا تضاعفت قوة مصر بالنسبة لنا ؟ ان اسرائيل ، بحسب رأيي، تنظيم لا مثيل له من الناحية العسكرية ، حتى اذا اخذنا بالاعتبار كل « المشاكل » [الاقواس في الاصل] التي حدثت يوم الغفران [حرب تشرين] . ان الجيش الاسرائيلي ، ليس فقط من الناحيتين التنظيمية والنفسية وانما من الناحية الثقافية ايضا ، تنظيم غير اعتيادي . انني مقتنع انه اذا لم نضعف [موقفنا] بأيدينا ، فان اسرائيل ستستطيع الصمود دون نهاية تقريبا ، لان القوة العربية خارجية والقوة الاسرائيلية داخلية . واذا لم يوظف العرب اموالهم الطائلة في تحسين اوضاعهم الاجتماعية ، فلن يكون لديهم ابدا جيش حقيقي ، جيش ذو قيمة . وكل ما يملكه العرب لا يكفي لتحسين اوضاعهم الاجتماعية ، لانهم مضطرون للبدء من نقطة انحدار مخيفة. اذا حفظت ٥٠ مليار دولار في بنك ، لديك مالا كثيرا ودولارات كثيرة ، ولكن قلة من الرجال »(٥).

ان طريقة التفكير هذه بنغوريونية تقليدية ، وكثيرا ما استند بن ــ غوريون اليها عندما وضع خططه لمجابهة العرب ، تلك الخطط التي نجحت في معظم الاحوال . ولكن

من الخطأ الاعتقاد ان زعماء النظام الاسرائيلي الحسيين يقفون عند هذا الحد ليدفنوا رؤوسهم في الرمال وينغاضوا عما يحدث حولهم ، بل على العكس من ذلك ، يبدو ان هذه الاراء لا تعدو كونها مجرد خلفية بعيده ، قد لا يكون من المناسب الاعتماد عليها كليا . ولا شك ان مخططي السياسه الاسرائيلية تعلموا عددا لا بأس به من الدروس نتيجة لحرب تشرين ، خاصة بعد ان وجدت اسرائيل نفسها في وضع عزلة تامة تقريبا على الصعيد الدولي ، مما ادى الى ازدياد تعلقها بالولايات المتحدة ، وبالتالي احتمال توجيه ضغوط اكبر اليها قد تحملها على اتخاذ مواقف لا ترضى عنها ، ثم اضطرارها الى تخصيص جزء اكبر من قواها البشرية والمادية لضمان أمنها في الاحوال العادية والاستعداء للحروب التي قد تنشب في المستقبل . « ان احدى الاستنتاجات بعيدة المدى المترتبة على الوضع الحالي تقضي بتقوية عدم — تعلق اسرائيل ، بمفاهيمه المختلفة . . . ان اسرائيل تستطيع الوصول الى الاستقلال في اربعة مجالات : الماء — بواسطة تحلية مياه البحر ، الطاقة — بواسطة مفاعلات ذرية ، الغذاء — بواسطة استعمال الطاقة والمياه لري مناطق مقفرة ، وبانتاج سلاحنا ذاتيا . اننا ننتج اليوم ٣٠ ٪ من سلاحنا ، وربما نستطيع الوصول الى ٤٠ ٪ او حتى ٥٠ ٪ . وهذا شيء مهم للغاية »(٦) .

عامل الزمن

ان مثل هذا المخطط ، الذي يفترض ان يدعم صمود اسرائيل وقدرتها على الوقوف ليس أمام اعدائها فقط وانما في وجه اصدقائها ايضا ، اذا قرروا توجيه ضغوط اليها او حتى التخلي عنها ، غير قابل للتنفيذ خلال فترة قصيرة . ولهذا فان اسرائيل بحاجة الى الوقت لتنفيذه . ولا يخفي الزعماء الاسرائيليون حاجتهم الى الوقت لتنفيذ خططهم ، ويتحدثون عن ذلك صراحة . وبينما يعتقد رابين ان فترة السنوات السبع المقبلة حرجة بالنسبة لاسرائيل(٧) ، نرى ان بيريس يتحدث عن عشر سنوات : « انني أرى أمامنا ممرا طويلا للغاية من المجابهة السياسية ، وربما ليس السياسية فقط ، سيستمر على الاقل ١٠ سنوات . انني لا اتوقع حادثا معينا خلال هذه السنوات العشر ، قد يحرر اسرائيل من ضائقتها السياسية ، الاقتصادية او العسكرية . ولكن الشعوب الكبيرة تولد ، في نهاية الامر ، وقت الضيق »(٨) . و « اسرائيل بحاجة الى الوقت لكي تجدد الهجرة وتستوطن البلد وتطور الزراعة وتنمي الصناعة وتصقل المجتمع »(٩) .

ويدرك حكام اسرائيل بالطبع ان عامل الزمن ليس وقفا عليهم وحدهم ، اذ يمكن للاخرين ايضا ان يستغلوه ، بحيث قد تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ، ولهذا يعلنون عن استعدادهم لعقد السلام مع الدول العربية . ولكنهم يدركون في الوقت نفسه ان السلام الكامل مع الدول العربية ، بالشكل الذي يريدونه ، غير ممكن لان الولايات المتحدة « أكدت » لهم ان الدول العربية غير مستعدة في الظروف الراهنة للسلام ، وانهم « اقتنعوا » بهذا الرأي(١٠) ، بحيث لم تبق امامهم الا طريق التسويات الجزئية .

وفي اتجاههم للسير على طريق التسويات الجزئية يركز زعماء اسرائيل على مصر اولا ، لان « العالم العربي لم يثبت حتى الان — هكذا يقول رابين — انه قادر على السير خطوة نحو التسوية مع اسرائيل اذا لم تقده مصر . لا أذكر حادثا مختلفا عن ذلك خلال سنوات الدولة الستة والعشرون . ولكن اذا اتضح غدا ان هناك امكانية عملية لاجراء محادثات مع الاردن ، او حتى مع لبنان ، فينبغي علينا التمييز بين الفرضيات النظرية والمواقف الواقعية والتفتيش عن الامكانيات العملية »(١١) . ولكن عند

صياغة المواقف الاسرائيلية العملية تجاه مصر ، يترك رابين مجال الحديث لزميله بيريس ، الذي يعتقد ان هنالك اتجاهات مختلفة ، واحيانا مناقضة ، في السياسة المصرية تجاه اسرائيل . ويتضح من تصريحات بيريس ان السياسة المصرية نحو اسرائيل ، بزعامة السادات ، تتجه ــ بحسب رأيه ــ الى تحقيق ثلاثة اهداف : اولها محاولة عزل اسرائيل وحمل الولايات المتحدة على تقليل الدعم لها من جهة وجذبها نحو العرب من جهة اخرى ، ثانيها محاولة الاحتفاظ بزعامة مصر في العالم العربي وثالثها مجابهة « الفقر المصري » ومحاولة حل مشاكل البلد الاجتماعية والاقتصادية(١٢). وبما أن هذه الاهداف تتناقض مع بعضها البعض احيانا خاصة ، مثلا ، عندما يتعارض موقف مصر الساعي الى الاحتفاظ بزعامة العالم العربي مع حاجتها للمساعدات الاقتصادية منه او من دول اخرى ، على اسرائيل ان تكون متيقظة للتحركات المصرية ، فتعمل على تشجيع الاتجاهات الايجابية وكبح السلبية ، كأن تقدم على سبيل المثال التنازلات لمصر عندما يكون الهدف منها تشجيعها على حل مشاكلها الداخلية ، بينما تعارض اتجاهاتها الاخرى ، خاصة «الحربية» أو «العربية» منها . وبلغة اخرى ، يجب « مساعدة » مصر ــ والعرب ايضا ــ ومن خلال المحافظة على القوة العسكرية الاسرائيلية لوقت الضيق ، وخوفا من ان يحدث ما لا تحمد عقباه ــ تشرين اخرى ، مثلا ــ على الانتقال من مرحلة « الاستعباد الذاتي الى الخلاص الذاتي » . وهذه المرحلة قد تستغرق فترة طويلة : ثمانية ، عشرة أو خمسة عشر عاما ، التي يفترض ان تقوى اسرائيل خلالها وتصل الى وضع يؤمن لها استمرار وجودها » . وفي مكان ما ستلتقي هذه التطورات العميقة ، لدينا ولدى العرب ، في نقطة تكون لقاء لا صراعا »(١٣).

مشكلة « الهوية الفلسطينية »

تبقى بالطبع القضية الفلسطينية . وهنا لا تزال حكومة اسرائيل الحالية متمسكة بالمواقف التي اقرتها الحكومة السابقة . ففي اوائل كانون الاول (ديسمبر) ١٩٧٣ ، اي بعد مرور نحو شهرين على اندلاع حرب تشرين ، نشر حزب العمل الحاكم وثيقة اطلق عليها أسم المبادىء الاربعة عشر ، التي جاءت بمثابة برنامج الحزب لخوض الانتخابات للكنيست الثامن في ١٩٧٣/١٢/٣١ . وجاء في البند ١٠ من الوثيقة المقترحة ان اسرائيل ستسعى الى اتفاق سلام مع الاردن على أساس وجود دولتين مستقلتين بين الصحراء والبحر : « اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة » ، ودولة عربية الى الشرق منها . و « في الدولة الاردنية ــ الفلسطينية المجاورة ، يمكن للهوية الذاتية للعرب الفلسطينيين والاردنيين ان تعبر عن نفسها » ، اي ــ بشكل اوضح ــ ما معناه حل القضية الفلسطينية من خلال الاتفاق مع الاردن . ولكن لم يمر اكثر من نصف سنة على اقرار هذا البرنامج حتى وجدت حكومة رابين الجديدة نفسها مضطرة ، بعد نحو شهر ونصف الشهر من تشكيلها ، لعقد جلسة خاصة (في ٢١/ ١٩٧٤/٧) لبحث القضية الفلسطينية ، نظرا للضجة التي ثارت حول هذا الموضوع في اسرائيل وقتها . ورغم الخلافات في وجهات النظر داخل الحكومة بشأن الموقف من الفلسطينيين وحل قضيتهم(١٤)، عادت اكثرية الوزراء وتبنت الموقف الذي عرضته الحكومة عندما طلبت منحها الثقة في الكنيست يوم ١٩٧٤/٦/٣ ، وقررت ما يلي : « ستستمر اسرائيل في السعي الى اتفاقيات سلام مع الدول العربية ضمن حدود قابلة للدفاع عنها ، يتم الوصول اليها من خلال مفاوضات دون شروط مسبقة . وستسعى الحكومة الى اتفاق سلام مع الاردن . ويبنى السلام على وجود دولتين مستقلتين فقط ، اسرائيل وعاصمتها القدس الموحدة ودولة عربية اردنية ــ

فلسطينية ، الى الشرق من اسرائيل ، ضمن حدود ستعين في مفاوضات بين اسرائيل والاردن . وفي هذه الدولة ستجد الهوية الذاتية للاردنيين والفلسطينيين تعبيرا عن ذاتها ، من خلال سلام وحسن جوار مع اسرائيل ... ولن تفاوض حكومة اسرائيل منظمات ارهاب هدفها تدمير دولة اسرائيل »(١٥).

ان الموقف الرسمي الاسرائيلي هذا من الفلسطينيين لا يحظى ، نظريا على الاقل ، بموافقة كل مراكز القوى في اسرائيل ، فهناك اكثر من وزير او شخصية ذات نفوذ في الائتلاف الحكومي او المعارضة ، عبروا عن معارضتهم له وطالبوا باتخاذ مواقف اكثر مرونة . كذلك يبدو ان آراء الثلاثي رابين ـ بيريس ـ الون غير متجانسة تجاهه ، اذ بينما يصر الون على التعبير عن « اهتمامه » بمسألة « الهوية الفلسطينية » وأمله في ايجاد طريق لابرازها ، دون أن يوضح كيفية ذلك ، بعد أن دخل المشروع الذي يحمل اسمه طور النزاع ، يلاحظ ان الثنائي رابين ـ بيريس يصران على ابداء تصلبهما ـ ومبرراتهما العديدة لذلك . « ان الموضوع المركزي في النزاع الاسرائيلي ـ العربي (هكذا يقول رابين) هو شبكة العلاقات بين الدول العربية واسرائيل ... وليس القضية الفلسطينية ... ربما كان هذا قبل عشرين او ثلاثين سنة . ولكن الان ليس الامر كذلك . انني اعالج الان المشكلة الاسرائيلية ـ العربية برمتها ولهذا يبدو لي الموضوع الفلسطيني كثانوي في مجمل علاقات اسرائيل والدول العربية »(١٦). ثم ان دولة فلسطينية في الضفة الغربية « تضم نحو ٢٠٪ من الفلسطينيين لن تستطيع حل المشكلة الفلسطينية ، وانما ستكون دولة مضطرة بطبيعتها الى الاستمرار في الصراع ضد اسرائيل اولا وضد الاردن بعد ذلك » . كذلك فان مثل هذه الدولة لن تحل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين في لبنان او قطاع غزة ، مثلا ، الذين لن يستطيعوا تقرير مصيرهم في مساحة صغيرة كالضفة الغربية(١٧). أما شمعون بيريس فيضيف الى هذه المبررات « هالة » اخرى خاصة به : « ان الـ ١٢٠ عربي اولئك [يقصد الفدائيين الفلسطينيين] لا يمثلون بالضرورة منطقة يهودا والسامرة [الضفة الغربية] ولا غزة . انهم يدعون ... تمثيل مناطق حيفا وتل ـ ابيب وغيرها . ان ادعاءهم لا يتركز بالضرورة على استرجاع الضفة الغربية وقطاع غزة ، رغم انه هناك من هو مستعد لان يبدأ من هنا . ان انظارهم تتجه نحو السهل الساحلي [الفلسطيني] والجليل والنقب . وبالاضافة الى ذلك : لو وصل شخص ما الى [قناعة] تقضي بأن نعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، لاكتشف بسرعة انه رغم الاعتراف بعرفات والاتفاق معه ، سيجابه في الغد مشكلة مع جبريل ومع حواتمة ومع حبش . ان الامر لا ينتهي مع عرفات ، انه فقط يبدأ عنده »(١٨).

أصيب الموقف الاسرائيلي هذا من الفلسطينيين بصدمة في اواخر السنة الماضية ، بعد ان اعترف مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط ، ثم الجمعية العمومية للامم المتحدة ، بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للفلسطينيين . واثارت هذه القرارات « زعل » اسرائيل على العرب عامة والاردن خاصة ، بينما اعلن اكثر من زعيم اسرائيلي « معتدل » عن خيبة أمله منها . ويبدو ان هذه القرارات اسفرت ايضا عن خلافات في مواقف اعضاء الثلاثي الحاكم في اسرائيل ، اذ بينما استمر الون في الاعلان عن « شغفه » وتمسكه « بالهوية الفلسطينية » ، اعرب رابين عن أمله اكثر من مرة بأن يعود الاردن الى تحمل مسؤولية القضية الفلسطينية ويتجه « بشجاعة » نحو اسرائيل لحلها ، في حين لوحظ ان بيريس راح يفكر بطرق اخرى . ومنذ مطلع هذا العام وحتى اليوم طرح بيريس مشروعين لحل القضية الفلسطينية ، اولهما خلق زعامة محلية في الضفة الغربية وثانيهما ، الذي يعتبر مكملا للاول ، اقامة اتحاد فيدرالي بين

اسرائيل وبين سكان الضفة الغربية وقطاع غزه ، من خلال تجاهل الاردن وغيره . ويبدو ان مشاريع بيريس ، على اي حال ، لا تحظى بتأييد كبير داخل اسرائيل ، اذ لم يلاحظ منذ طرحها وحتى اليوم ان جهة ذات تأثير في اسرائيل قد أيدتها او ابدت استحسانها لها ، رغم ان مشروع الاتحاد الفدرالي ينم ، من وجهة النظر الصهيونية النظرية على الاقل ، عن جراة معينة في تجاهله « للخطر السكاني » العربي على الدولة الصهيونية ، الذي لا زالت ركب بعض قدامى الصهيونيين تصطك خوفا منه .

ان نظرة سريعة الى مجمل المواقف الاسرائيلية ، الرسمية والحزبية والشعبية ، من الحلول المطروحة للقضية الفلسطينية تظهر ان ما نجم عن حرب تشرين ، على هذا الصعيد ، كان ازدياد الحيرة والقلق والتخبط داخل اسرائيل ، والاتجاه نحو تجاهل القضية الفلسطينية او ، على الاقل ، وضعها في البراد حتى يتم تنظيم علاقات اسرائيل مع الدول العربية الاخرى .

بين النظريات والتطبيق

اذا كان النظام الاسرائيلي لا يزال مترددا في موقفه من القضية الفلسطينية ، فأن الامر يختلف بالنسبة للنواحي الاخرى التي يعتقد النظام انها حيوية بالنسبة لدعم قوة اسرائيل وضمان بقائها . ومنذ تشكيل حكومة رابين وحتى اليوم ، اي خلال الـ ١٥ شهرا الاخيرة وضعت معظم تلك النظريات موضع التطبيق . ولا يمكن بالطبع استنتاج كافة النتائج ، المترتبة على هذا الاتجاه خلال هذه الفترة القصيرة ، الا ان ما حدث خلالها يكفينا للاطلاع ، على الاقل ، على الدروس التي استخلصتها اسرائيل من حرب تشرين على اصعدة عديدة ، بما في ذلك شؤونها العسكرية والخارجية والداخلية ، وبالتالي يمكننا من تقييم تأثير الحرب ، حتى الان ، على اسرائيل .

لم تقتصر العبر التي تعلمتها اسرائيل من تشرين على جهة واحدة دون سواها ، اذ ان تأثير الصدمة التي نجمت عن الحرب وصل الى نواح عديدة ، ودفع الاسرائيليين الى اعادة النظر في أكثر من مشكلة من المشاكل التي تواجههم ، داخلية كانت ام خارجية . وكانت اولى النواحي التي خضعت لعملية اعادة النظر ، كما هو معروف ، الناحية العسكرية . ولم تكتف سلطات اسرائيل ، في هذا المجال ، بتعيين لجنة تحقيق مؤلفة من ٥ اعضاء للتحقيق في اسباب التقصير العسكري خلال الايام الاولى من الحرب ، بل اتجهت الى اجراء تحقيق واسع بواسطة اجهزة الجيش الادارية . وخلال هذه العملية طلب من الاف الضباط والجنود الذين اشتركوا في الحرب الادلاء بكل ما لديهم حول النواقص التي برزت اثناء الحرب والتعديلات التي يقترحونها لتحسين الوضع ، بينما طلب من كبار القادة والمخططين العسكريين تقديم ما لديهم من اقتراحات استراتيجية او تكتيكية في ضوء تجربتهم خلال الحرب وبعدها . وكانت حصيلة حملة التحقيق هذه الاف الصفحات من التقارير والاقتراحات ، التي صنفت ودرست بعناية ، وتم تنفيذ الملائم منها . ويلاحظ ان حصيلة هذه الدراسات كانت حملة من الاصلاحات والتغييرات مست معظم قطاعات الجيش . وكان اولى هذه الاصلاحات اعادة تنظيم جهاز المخابرات العسكرية ، واقامة شعبة مخابرات مستقلة خاصة بالطيران وشعبة اخرى للتخطيط الاستراتيجي ، ولوحظ في هذا الصدد كثرة الاعلانات في الصحف العبرية التي تقترح عملا مغريا لمن يتقنون اللغة العربية في اسرائيل وتطلب اليهم الكتابة الى صندوق بريد معين في هذه المدينة او تلك ، بينما راح البعض يطالب بتوسيع تدريس العربية في معاهد اسرائيل وجامعاتها . كذلك اعيد تنظيم شعبة التسليح ، بعد أن اتضح أن الاسلحة التي سلمت لجنود الاحتياط الذين خاضوا الحرب لم تكن سليمة

بالشكل المناسب . وتمت ايضا زيادة افراد الجيش الدائم بنحو ٥٠ ٪ ، بحيث يقدر عدده الان بنحو ١٢٠ — ١٣٠ الف جندي،وهو عدد تعتقد القيادة العسكرية الاسرائيلية انه قادر على صد اي هجوم مفاجيء قد يقوم به العرب . وفي الوقت نفسه ادخلت تغييرات على نسب القوى بين مختلف اسلحة الجيش الاخرى . وبعد أن اتضح ان سلاح الطيران الاسرائيلي لم يكن فعالا خلال الحرب بالشكل الذي توقعه القادة الاسرائيليون ، ولدرجة دفعت « فيلسوف » قوة الطيران الضاربة الاسرائيلية الجنرال المتقاعد عيزر وايزمان الى ندب حظه « لأن الصاروخ لوى جناح الطائرة »(١٩) في تشرين من جهة ، وأن المدفعية والدبابات العربية الحقت اضرارا كبيرة بالاسرائيليين خلال الحرب من جهة ثانية ، تقرر تقوية سلاحي المدفعية والدبابات الاسرائيليين وزيادة قواتهما بنسب تتراوح بين ٥٠ — ١٠٠ ٪ . وتم ذلك بعد أن حولت أعداد لا بأس بها من الجنود والضباط للعمل في المدفعية والدبابات ، وبعد الحصول على كميات وافرة من المدافع والدبابات من الولايات المتحدة خلال حرب تشرين وبعدها لقاء موافقة اسرائيل على فك ارتباط القوات مع مصر بعد الحرب مباشرة . والواضح أن مثل هذا التحول يضغط بشكل لا مثيل له على قوة اسرائيل البشرية ، ولهذا اعيد مسح هذه القوة واجبر الالاف من المعفيين من الخدمة العسكرية سابقا على العودة الى دائرة الخدمة ، بينما اقترح البعض ، من ناحية ثانية ، سن قانون يقضي بفرض الخدمة الاجبارية ، في كافة المجالات المكنة ، على كل سكان اسرائيل من سن ١٥ — ٧٠ سنة(٢٠)، بعد تدريبهم واعدادهم لذلك . أما حصيلة هذا النشاط فكانت عودة الثقة بالنفس ، وربما الغطرسة ، لمعظم قادة اسرائيل العسكريين(٢١)، وبشكل يكاد يشبه ذاك الذي عهدناه قبل تشرين ، بينما يؤكد وزير الدفاع بيريس : « لدي شعور عميق ، من محادثات مع ضباط وجنود ، بأنه لو حاول العرب تكرار محاولة يوم الغفران ، لذاقوا طعما لم يعرفوه في حياتهم . هناك قرار شخصي بأن ما فعله العرب بنا يوم الغفران كان قاسيا ومهينا ومفاجئا لدرجة لا تسمح لنا أن نقع ضحية مرة أخرى لشيء كهذا . وليس هذا قرار شخص ما « من فوق » — انه الشعور العام في الصفوف . وهذا ليس جيشا مسلحا كما ينبغي فقط ، وانما تصميمه واضح ايضا »(٢٢). وهذه اللهجة ليست غريبة . انها تذكرنا بلهجة دايان ووايزمان وشارون وغيرهم من الجنرالات الاسرائيليين ، قبل تشرين .

ومن الصعيد العسكري ، انتقل الاسرائيليون الى العمل على الصعيد الاقتصادي ، خاصة بعد أن كادت الحرب تدمر اقتصادهم نتيجة للخسائر المادية الباهظة التي تكبدوها خلالها . وبعد الحرب مباشرة ، حصلت اسرائيل على ما يزيد على مليارى دولار من المساعدات الامريكية ، مما مكنها من تسيير شؤونها الاقتصادية لبضعة اشهر ، رغم الارتفاع الفاحش في الاسعار الذي طرأ خلالها وظهور بوادر تضخم مالي مخيفة . والواضح ان اسرائيل توقعت استمرار المساعدات الاقتصادية خلال هذه السنة ايضا ، وبشكل يمكنها من حل مشاكلها الاقتصادية الملحة ، الا ان الوضع الاقتصادي استمر ، رغم ذلك ، في تدهوره . وقد استغل النظام الاسرائيلي هذه الضائقة من جهة والمطالبة من الداخل باصلاح الاوضاع الاجتماعية من جهة أخرى ، لاعادة النظر في سياسته الاقتصادية . وفي هذا الاطار اتخذت حكومة اسرائيل عدة اجراءات صارمة ، فخفضت قيمة الليرة من قبل بضعة اشهر من ٤٫٢٠ ليرة للدولار الى ٦ ليرات للدولار ، ثم اصدرت قرارا آخر سمحت بموجبه بتخفيض هذه القيمة بنسبة ٢ ٪ كل ٣٠ يوما ، وذلك ضمن خطة لتقوية الصادرات وتقليل الواردات ، وبالتالي ايقاف التدهور الاقتصادي على الاقل ، رغم ما يفرضه مثل هذا الاتجاه من

اعباء اضافية باهظة على سكان اسرائيل . كذلك تمكنت اسرائيل خلال هذه الفترة من عقد اتفاق تجاري مع السوق الاوروبية المشتركة وآخر مالي مع الولايات المتحدة، يفترض ان يساهما في حل بعض مشاكلها الاقتصادية على المدى البعيد ــ بينما لم يحرك العرب ساكنا ، لا قبل توقيع تلك الاتفاقيات ولا بعدها . وعلى صعيد النظام الاقتصادي الداخلي ، أقر الكنيست سلسلة من القوانين لاصلاح نظام الضرائب المباشرة ، التي يعتبر نسبها من اعلى الضرائب في العالم ، والغاء كثير من الامتيازات التي كانت تمنح لفئات عديدة من العاملين « من تحت الطاولة » ، وذلك في محاولة للافادة من النواحي الايجابية في « النظريات الاقتصادية السابيرية »(٢٣)، التي استطاع وزير المالية السابق بنحاس سابير بناء اسرائيل اقتصاديا بموجبها ، والتخلص من نواحيها السلبية . وقد شنت الفئات التي فقدت بعض امتيازاتها بسبب هذا الاصلاح حملات عنيفة على الحكومة ، على شكل اضرابات متتالية ، لحملها على التراجع عن موقفها ــ الا أن وزير المالية رابينوفيتش لا يزال صامدا . ولوحظ أيضا ان السلطات الاسرائيلية قامت بحملة واسعة لتطهير بعض الاجهزة الحكومية من الفساد الذي انتشر فيها. وكان من نتائج هذه الحملة سقوط اكثر من راس (كبير) ، من موظفي وزارة الدفاع او المتعاونين معهم من مقاولي مشتريات الاسلحة للجيش ، الذين اتهموا بالرشوة وقدموا الى المحاكم . ان هذه الاجراءات لم تحل بالطبع مشاكل اسرائيل الاقتصادية المزمنة ، التي لا تزال بحاجة الى مساعدات اقتصادية ضخمة من الخارج، ولكنها تشكل ــ على الاقل ــ خطوات لا بأس بها على الطريق الطويل والشاق للوصول الى الاستقلال الاقتصادي(٢٤).

ولم تتوان سلطات اسرائيل أيضا في العمل على تحقيق شعار « الغذاء والماء والطاقة والسلاح » . فعلى صعيد تأمين « الغذاء » ادخلت تغييرات على الزراعة الاسرائيلية ، التي وصلت الى مرحلة متقدمة من التطور ، بهدف التركيز على انتاج المواد الغذائية الاستهلاكية قبل غيرها ، ووضعت عدة خطط لزيادة المستوطنات الزراعية . ويلاحظ ان معظم هذه الخطط ستنفذ على حساب ما تبقى لدى العرب داخل اسرائيل من الاراضي الزراعية ، بعد أن كانت اسرائيل قد صادرت مساحات شاسعة من تلك الاراضي في الماضي ، وعلى حساب الاراضي الفلسطينية في المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧ (خاصة قطاع غزة) وكذلك ــ وهذا ما يلفت النظر ــ على حساب الاراضي المصرية . وتعمل سلطات اسرائيل ، في هذه الناحية ، على احياء مشروع تهويد الجليل لتوسيع المستوطنات الزراعية اليهودية القائمة هناك او لاقامة مستوطنات جديدة عليها . غير انه يبدو ان الامال الكبيرة ، في هذا المجال ، معلقة على استيطان ما مساحته نحو مليون دونم من الاراضي الخصبة الممتدة بين بئر السبع ، في المنطقة المحتلة سنة ١٩٤٨ ، وبين مشارف رفح ، في المنطقة المحتلة سنة ١٩٦٧ . وتضم هذه المنطقة مساحة لا بأس بها من الاراضي المصرية في شمال شرق سيناء ، القريبة من قطاع غزة . وكخطوة اولى على هذه الطريق اقامت اسرائيل في تلك المنطقة بعض المستوطنات الزراعية ــ العسكرية بهدف تطويقها وفصلها عن سيناء ، وباشرت مؤخرا في توطين مدينة يميت ، الواقعة في الاراضي المصرية ، جنوب قطاع غزه ، على شاطىء البحر المتوسط . وعلى صعيد تأمين « الماء » تم احياء مشاريع تحلية مياه البحر ، التي كانت قد جمدت في حينه ، واتخذت الاحتياطات اللازمة لمنع الاسراف في تبذير الماء وتخزين كميات منه في جوف الارض .

وعلى صعيد « الطاقة » اقرت حكومة اسرائيل ، بعد أن أعلن ان القوات الاسرائيلية ستنسحب من حقول ابو رديس ، خطة شاملة للتنقيب عن النفط في كافة الاراضي التي

تسيطر عليها . كذلك وافقت الحكومة على اقامة محطات لتوليد الطاقة الكهربائية بواسطة الذرة ، يفترض ان تكون جاهزة للعمل في منتصف الثمانينات . كذلك أعلن ان الجيش وبعض معاهد البحوث في اسرائيل يقومون بتجارب لاستغلال الطاقة الشمسية في انتاج الكهرباء على نطاق واسع ، وان تقدما ما قد أحرز في هذا المجال(٢٥) . اما على صعيد « السلاح » ، فقد كشف النقاب خلال السنة الاخيرة عن ان اسرائيل حصلت على امتياز اكثر من اختراع اميركي لانتاج بعض انواع الاسلحة التي تحتاجها . وكان من اشهر هذه الاسلحة طائرة كفير المقاتلة ، التي تنتجها الصناعة الجوية الاسرائيلية حاليا ، وهي تركيب لمحرك طائرة الفانتوم الاميركية على هيكل الميراج الافرنسية ، التي كانت اسرائيل قد سرقت تصاميمها قبل مدة . وفي الوقت نفسه يناقش الاسرائيليون علنا مسألة انتاج اسلحة ذرية والاحتفاظ بها للرد على القوة العربية المتعاظمة في المستقبل ، ومن ضمن اولئك بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين .

تشرين بعد سنتين

ان نظرة سريعة الى مجمل اوضاع اسرائيل ، الداخلية والخارجية ، ومواقفها ومشاريعها للمستقبل ، بعد مرور سنتين على حرب تشرين ، لا تظهر ان الحرب اثرت على اسرائيل بالصورة الملموسة التي توقعها البعض ، بل لا يبدو أنها كانت كافية لحمل الاسرائيليين على ادخال تغييرات جوهرية على مواقفهم السابقة او حتى آرائهم . ويبدو ، مع بداية السنة الثالثة ، ان اسرائيل تنظر الى المستقبل بثقة تزيد على تلك التي ميزت مواقفها خلال السنتين الماضيتين على الاقل . واسباب ذلك عديدة .

نجم عن حرب تشرين ، مع وقوعها ، هزات عنيفة في اسرائيل ظهر كأنها ستطيح بالنظام من جذوره ، الا انه لم تمر الا بضعة أشهر حتى كان هذا النظام يستعيد توازنه ويستمر في طريقه ، ومع وجوه جديدة أقل غرورا من الوجوه السابقة . كذلك فجرت الحرب مشاكل عديدة ، اجتماعية واقتصادية ، على الصعيد الداخلي ، الا ان نظام الحكم الجديد سرعان ما اتجه الى حلها ، وربما كان هذا في مصلحة اسرائيل في النهاية، اذ ان طريق محاولة حل المشاكل التي ينتهجها حكام اسرائيل الجدد أفضل ، على الاقل، من موقف الحكام السابقين الذين اعتادوا على تجاهل تلك المشاكل . كذلك ادت الحرب الى تضعضع اوضاع اسرائيل الدولية ، بعد قطع دول عديدة — وخاصة في افريقيا — علاقاتها معها بينما « فترت » هذه العلاقات مع عدد من الدول الاوروبية ، ولكن بعد مرور سنتين على الحرب استطاعت اسرائيل تأمين مصالحها في هذه الدول ، وذلك بالمحافظة على علاقاتها الاقتصادية مع بعض الدول الافريقية ، وخاصة في النواحي التي تهمها ، بينما وقعت اتفاقا تجاريا مع السوق الاوروبية المشتركة . وخلاصة القول ان الحرب لم تسبب ، في هذه النواحي بالذات ، اضرارا كبيرة لاسرائيل .

غير أنه من الخطأ الاستنتاج ، من ناحية ثانية ، ان الحرب جاءت بمثابة « بركة » لاسرائيل ، اذ نجمت عنها مشاكل عديدة لا تزال تواجه الاسرائيليين ولا يبدو أنهم سيستطيعون حلها بسهولة ، على المدى القصير او البعيد ، أهمها ما يمكن ان نسميه الازمة الاستراتيجية المتمثلة في خوف الاسرائيليين من قوة العرب المتعاظمة والشكوك التي تتطرق الى قلوبهم لجهة قدرتهم على مجابهتها ، خاصة على المدى البعيد ، رغم محاولة أكثر من جهة اسرائيلية التغاضي عن هذه الناحية او التقليل من أهميتها . كذلك هناك مشكلة أخرى ، ناجمة عن المشكلة الاولى التي أشرنا لها ، وهي انخفاض المعنويات لدى فئات واسعة من الاسرائيليين وتطرق الشك الى قلوبهم بشأن مستقبل المشروع الصهيوني ، وقلقهم الدائم مما يخبئه لهم المستقبل . ويبدو لنا ان خلاصة ما

تبقى من حرب تشرين ، بعد سنتين من وقوعها ، ينحصر في هاتين المشكلتين . وان كانت الازمة الاستراتيجية الاسرائيلية لم تعط حتى الآن ثمارا تذكر بالنسبة للعرب ، فان ذلك لا يعود الى « طبيعة العدو » ومناوراته فقط ، وانما يعود ايضا الى « طبيعة العرب » وتشتتهم ومواقفهم المنفردة المتناقضة .

مرت اسرائيل ، خلال حرب تشرين وبعدها ، بازمة خانقة استمرت فترة غير قصيرة كان سببها الهجوم العربي العسكري ــ السياسي المنسق ضدها واستمرار هذا التنسيق ، نسبيا ، فترة ما بعد انتهاء الحرب . والدافع لهذه الازمة هو الشعور الذي ساد لدى معظم الدوائر الاسرائيلية بان اسرائيل وصلت في نهاية الامر الى المرحلة التي ينبغي عليها فيها مواجهة عالم عربي موحد ، تجاهها على الاقل . ولوحظ خلال هذه الفترة بروز انقسامات عديدة (واحيانا خطيرة) في الراي والموقف بين العديد من مخططي السياسة الاسرائيلية وزعماء الاحزاب وبعض القادة ، بينما راح البعض يطالب نتيجة لذلك بادخال تغييرات ، تكاد تكون جوهرية ، على السياسة الاسرائيلية برمتها . ويمكننا القول ان تلك الحملة الداعية الى التغيير ، استنادا الى « نوعية » وتاثير الفئات التي بادرت اليها داخل النظام الاسرائيلي ، ما كانت لتمر دون ان يحصل العرب على نتيجة منها لو استمروا في ضغوطهم من خلال موقف موحد . ولكن يبدو ، من ناحية ثانية ، ان اسرائيل واصدقاءها قاموا بحملة مضادة من الضغوط اسفرت عن « ارهاب » بعض العرب وحملتهم على التراجع ، سرا على الاقل ، عن بعض مواقفهم، خاصة لجهة مطالبتهم بحل القضية الفلسطينية ، لقاء اغراءات ووعود قدمت لهم . وكانت النتيجة أن اقتصرت انجازات العرب السياسية ، بعد سنتين من تشرين ، على انسحاب اسرائيلي من ما تقل مساحته عن ٥ ٪ من مساحة الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، ودون أن تظهر اية بادرة تدل على النية لحل اي من المشاكل الاساسية في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وعلى راسها مسألة الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني .

لقد تمكنت اسرائيل من تحقيق هذا ، مع الاصرار على موقفها الحالي ، عندما استطاعت حمل بعض الدول العربية على السير على طريق التسويات الجزئية. وليس في هذا الموقف ، من جهة اسرائيل بالطبع ، اية غرابة ، اذ منذ استطاع الكيان الصهيوني في فلسطين تثبيت جذوره والاعلان عن نفسه كدولة سنة ١٩٤٨ ، استطاعت بعد الحرب التي نشبت اثر ذلك فرض اتفاقيات هدنة منفصلة على الدول العربية المجاورة ، واحدة بعد الاخرى ، لا يزال الاسرائيليون ــ دائما وابدا ــ يبذلون كل ما في وسعهم لتجزئة الصف العربي والتعامل مع كل دولة او جهة على حدة . وهذه الاتجاهات في السياسة الاسرائيلية مكشوفة الى درجة لا تخفى معها على اي عاقل او مراقب للصراع العربي ــ الاسرائيلي ، بل ان الاسرائيليين انفسهم يتحدثون عن ذلك صراحة ، والامثلة في هذا المضمار أكثر من أن تحصى . ولكن رغم ذلك تصر بعض الانظمة ، التي تتغير هويتها من حين لآخر ، حسب الظروف ، على الوقوع في الخطأ الكلاسيكي اياه وتتخذ موقفا منفردا خاصا بها ، سرعان ما ينعكس على الوضع العربي العام ويشله . وتاريخ الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، خلال ربع القرن الاخير ، يظهر انه ما من دولة او نظام ، الا ووقعا في هذا الخطأ في مرحلة من المراحل. واذا أمعنا النظر في الوضع الراهن ، والركود العسكري والسياسي الذي يسيطر عليه ويضر بمصالح العرب ، نرى أن مسؤولية ذلك غير ناجمة عن مواقف اسرائيل وحلفائها ومناوراتهم فقط ، بل أن الدول العربية ، على اختلاف انظمتها واتجاهاتها ، تتحمل أيضا جزءا من المسؤولية . فالدول العربية الغنية ، مثلا ، لم تدفع مالا بما فيه الكفاية،

يساعد دول المواجهة على تحمل اعباء الحرب الباهظة التكاليف ، او دعم اقتصادها : فالحرب لم تؤثر على اقتصاد اسرائيل فقط بل اثرت أيضا على اقتصاد دول المواجهة . ومن الواضح ان هذه الدول لا تستطيع لوحدها تحمل نفقات اعادة تسليح جيوشها والاستعداد للحروب المقبلة . والدوائر المتزمتة في العالم العربي ، ان كانت انظمة او احزابا أو هيئات أو أفرادا ، تلك الدوائر التي لم تتعلم شيئا ولم تنس شيئا ، مما حدث في الماضي من اخطاء فادحة ، تضر عمليا بالموقف العربي اكثر مما تفيده ، بطرحها مشاريع حلول خيالية تتجاهل المعطيات العربية والدولية ، وباتباعها طريق الكلام الكبير والاعمال الصغيرة التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، ثم تقاعسها في تقديم العون لمن يخوض الحرب فعليا . كذلك تتحمل أطراف المواجهة الرئيسية مسؤوليتها عن هذا الوضع وذلك ، على الاقل ، بسبب عدم تعاونها مع بعضها بالطريقة المثلى او تنسيق مواقفها ونشاطها ، رغم ما يعود عليها من أضرار نتيجة لسياساتها هذه .

ان الملامح البارزة للوضع الراهن في المنطقة ، بعد مرور سنتين على تشرين ، محصورة في عودة النفوذ الاميركي الى المنطقة بشكل اقوى مما كان عليه حتى الآن ، وفي تقديم ضمانات ومساعدات أميركية طائلة لاسرائيل ، وبشكل لم يسبق له مثيل ايضا . ان حجم التراجع العربي ، منذ تشرين ، يزيد كثيرا عن حجم ضعف العرب وحجم التقدم الاميركي — الاسرائيلي أيضا يزيد كثيرا حجم القوة الاميركية — الاسرائيلية ، ولا بد من تصحيح هذا الوضع . ان الراي القائل ان لاميركا نفوذا في اسرائيل وقدرة على التأثير في مواقفها صحيح ، وآخر مثال على ذلك نجاحها في تنفيذ اتفاقية فصل القوات الثاني في سيناء ، ولكن الرأي القائل ان للعرب ايضا قدرة للتأثير على اميركا تفوق الضغوط التي يمارسونها حاليا صحيح أيضا . ولهذا يبدو ان مفتاح الحل يكمن في العودة الى التضامن العربي ، الذي كان قائما خلال تشرين وبعدها بفترة قصيرة ، والعمل مرحليا على تحقيق الاهداف التي يتفق عليها كل العرب — علنا على الاقل — وذلك باسترجاع الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ وضمان الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني . ولا بد من التنويه هنا ايضا الى ان الوضع الذي نشأ في المنطقة، بعد توقيع اتفاقية فصل القوات الثانية في سيناء ، وما يتبعها من اتفاقيات و« تفاهم » اسرائيلي — اميركي — مصري يضع الجبهة الشرقية ، التي تملك أسلحة وعتادا وطاقة بشرية لا بأس بها ، أمام مسؤولياتها مرة اخرى . والواضح ان هذه المسؤوليات تعني تحريك هذه الجبهة وزيادة فعاليتها ، ان انضمت اليها دول اخرى أو رفضت القيام بذلك ، فالتحركات الاسرائيلية المختلفة ، منذ الحرب وحتى اليوم ، لا تزال موجهة ضد هذه الجبهة أساسا ، بمركباتها الثلاثة . والواضح أيضا ان هذا الوضع يلقي مسؤوليات خاصة على عاتق الفلسطينيين ، اذ ان رأس الحربة في تلك التحركات موجه ضدهم .

---

١ — انظر مقالتي يسرائيل هرئيل في معاريف ، ١٩٧٤/١٠/١٨ وعمانوئيل بار — كما في ملحق يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٧/٢٢ .

٢ — انظر ايضا مقابلة النائبة شولاميت الوني مع يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/١٢/١١ .

٣ — يديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٥/٢ .

٤ — من مقابلة مع مجلة الجيش الاسرائيلي الاسبوعية ، بمحانيه ، ١٩٧٥/٤/٩ .

٥ — من مقابلة مع دافار ، ١٩٧٥/١/١٧ .

٦ — من مقابلة لشمعون بيريس مع بمحانيه ، ١٩٧٥/٤/٩ .

٧ — انظر مقابلته مع هآرتس ، ١٩٧٤/١٢/٣ .

٨ — مقابلة لبيريس مع مجلة بمحانيه ناحال ، ١٩٧٤/١١/١٥ .

٩ — من محاضرة لبيريس نشرتها بمحانيه ، ١٩٧٥/٥/٢٨ .

١٠ ــ من تصريحات لرابين في مقابلة مع حوتام ، ١٩٧٥/٧/٢٠ .
١١ ــ من مقابلة لرابين مع يديعوت احرونوت ، ١٩٧٤/٧/٢٦ .
١٢ ــ بمحانيه ، ١٩٧٥/٤/٩ .
١٣ ــ من تصريحات لبيريس مع مقابلتين مع بمحانيه ، ١٩٧٥/٤/٩ و ١٩٧٥/٥/٢٨ .
١٤ ــ راجع مقالتي يوسف حاريف ومتتياهو بيليد في معاريف ، ١٩٧٤/٧/٢٦ .
١٥ ــ كما اوردتها معاريف ، ١٩٧٤/٧/٢٢ .
١٦ ــ انظر الملاحظة (١١) اعلاه .
١٧ ــ من مقابلة لرابين مع معاريف ، ١٩٧٤/١٠/١٠ .
١٨ ــ من مقابلة لبيريس مع دافار ، ١٩٧٤/٨/٢٣ .
١٩ ــ للاطلاع على آراء وايزمان حول تأثير الصواريخ المضادة للطائرات على الطيران الاسرائيلي في حرب تشرين ، راجع كتابه « ليخا شمايم ــ ليخا آرتس » ، (« لك السماء ــ لك الارض ») ، تل ابيب ، اصدار مكتبة معاريف ، ١٩٧٥ ، ص ٢٦٦ ــ ٣٣٢ .
٢٠ ــ انظر نص دراسة بهذا الشأن نشرت في معاريف ، ١٩٧٥/٧/٢٧ .
٢١ ــ انظر ، للتفاصيل ، مقابلة رئيس الاركان مع بمحانيه ، ١٩٧٤/١٢/١١ ومقابلة قائد سلاح الطيران مع ملحق معاريف ، ١٩٧٥/٧/٢٧ ومقابلة مع قائد سلاح الدبابات مع بمحانيه ، ١٩٧٤/١٠/١٦ ومقابلة مع قائد سلاح المدفعية في ملحق معاريف ، ١٩٧٥/٧/١١ .
٢٢ ــ من مقابلة لبيريس مع بمحانيه ، ١٩٧٥/٤/٩ .
٢٣ ــ للاطلاع على طريقة العمل « الصابيرية » ، انظر مقابلة سابير في ملحق دافار ، ١٥ و١٩٧٥/٥/٢٣ .
٢٤ ــ انظر ايضا مقابلة وزير المواصلات غاد يعقوبي مع ملحق دافار ، ١٩٧٥/٤/٢٥ ومقابلة وزير الصناعة والتجارة حاييم بار ــ ليف مع عل همشمار ، ١٩٧٥/٤/١٥ ، للاطلاع على بعض عيوب الاقتصاد الاسرائيلي وخطط تصحيحها .
٢٥ ــ انظر بمحانيه ، ١٩٧٥/٧/٢٣ ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٥/٨/٢٤ .

يكتب الراوي : يمــوت

محمود درويش

- ١ -

ليس لي وجــهٌ على هــذا الزجــاجْ
ألشظايــا جســدي
وخريفي نائمٌ في البحرِ
والبحرُ زواج .
فلينم أصحابُ هذا الوقت في ساعاتهم
هذه الاجراس لا تأخذني اليومَ
إلى أي لقــاء أو وداع . .
هــذه الأجراسُ لا تعلن وقــتي
انْ وقــتي من شــعاع

*   *   *

يكتبُ الراوي على الكورنيش
والمــوج الممزّق :
ذهب المــوتُ الى البحر
وظلّ البحر أزرق

- ٢ -

مُدنٌ تأتي وتمضي . هــذه زنزانتي
بــين حوار الضوء والظلّ
حمــاس وجــدار . .
ان وجهي واحــد . والموت واحــد .
مــدن تأتي . . وظــل يتمدد
مــدن تمضي . . وظل يتبدد
هــذه حريتي
بــين حوار الظلّ والضوء
نهــار وجــدار
ان وجهي واحــد . . والمــوت واحــد .

* * *

يكتب الراوي على السكين :
من هــذا النزيف
طــار عنقود حمــام
وعلى سطح الرغيف
وجــد العش ، ونــام

- ٣ -

ليس لي وجــه على مرآة هــذا الوقت
وجهي كبيوت الفقراء
« يشرب النسيان » من ذاكرة القمح
وحــلمِ الانبياء .
مــدن تأتي وتمضي . ساعة الحائط للعرض
وللأرض أنــا . . والشــهداء

وهنا ببيروت في الصفر التجاريّ وفي أقراص منع الحمل والحنطة
ـ تبكي وقتها المكسور في الإعلان عن أقراص منع الوطن الآخر ـ
تبكي وقتها المهدور في هذا المساء .

ليس لي وجـه على هذا الكفن
فلينم أصحاب هـذا الوقت في ساعاتهم
ولينهض الموتى من الموت لترويض الزمن

* * *

يكتب الراوي على باب المدينه :
من هنـا مـر الخريف
في ثيـاب القتله
وعلى كل رصيف
حفلة للسنبله

ـ ٤ ـ

ليس لي وجـه على هـذا الفراق
الشظايا جســدي
والمسافات عنـاق
آه ، لو يبتعد الموتى عن الموت قليلا
لأراهم في تفاصيل الأمل
آه ، لو أسحب منّي جثتي
لأرى الفارق ما بين الصّدى والصوت
والفكرة في بؤس العمل .
كل شيء قابل للاحتراق
في احتمالات الكتابه
كل شيء في يـد الراوي أو الشاعر
شعر وعنـاق . .

الضحايا – صورة
والدم – ايقاع قصيده
واندلاع الفجر في الغابة
والماء الطليعي . .
وعطر البرتقال الرحب . .
والموت دفاعاً عن حصان أو عقيده
في يد الشاعر شعر وعناق ! . .
يا الهي ! أين انسانيتي
يا الهي ! كيف أنجو من مهارات اللغه !
كل شيء قابل للاحتراق
في احتمالات الكتابه
المسافات عناق
والتفاصيل عناق
والعلاقات عناق

* * *

ولذلك
يكتب الراوي على كل البيوت :
الحقيقي يموت
والحقيقي يموت ! . .

حرب تشرين ..
هل هي آخر الحروب ؟

ابرهيم عامر

هل حان الوقت لمحاولة القيام بتقييم دقيق متكامل ومترابط للمترتبات التي تحققت ، والتي يمكن ان تتحقق ، نتيجة لحرب ٦ تشرين الاول (أكتوبر) ١٩٧٣ ، وللعوامل العسكرية ، والدولية والاقتصادية والدبلوماسية ، والاجتماعية ــ السياسية ، التي أدت الى تلك الحرب ، وقررت صورتها ومداها ، وبالتالي نتائجها ؟

وهل حان الوقت لتقييم تأثير كل تلك المترتبات والعوامل على مسار تطور الاوضاع العربية ــ الفلسطينية الان وفي المستقبل ؟

وبداية ، ينبغي ان ندرك ان الكثير من المعلومات والحقائق عما جرى قبيل حرب تشرين واثناءها وبعدها ، وحتى الان ، لا يزال طي الكتمان ، بسبب الدبلوماسية السرية المتبعة ، وبسبب القيود المختلفة التي لا تزال مفروضة حتى على نشر بعض المعلومات والحقائق المتوفرة .

وبدون توفر هذه المعلومات والحقائق وتمحيصها وفحصها ، تظل محاولات تقييم مترتبات حرب تشرين محدودة ، ان لم تصبح مجرد تقييمات انفعالية دعائية (ولا أقول انتهازية) او مجرد كتابات ايديولوجية سوقية (ولا اقول جاهلة وغير مطلعة) .

ومن هنا ، فان المهمة الاولى لما بعد حرب تشرين ، لا تزال وستظل لبعض الوقت، هي مهمة الكشف عن اسرار ما حدث ، وجمع كل الوثائق وترتيبها وتأكيد صحتها وصدقها واكتمالها . وحتى الان جرت محاولات لتسجيل « بعض » الوقائع والتفاصيل، ولجمع « بعض » الوثائق وترتيبها بصورة معينة لاهداف معينة .

* * *

ومع هذا ــ وفي حدود المعلومات والحقائق والوثائق المتاحة ، والاراء المختلفة التي تم التعبير عنها حتى الان ، وكنظرة لا تزال اولية مطروحة للمناقشة ، والنقد ، الى ما حدث وما يحدث وما يمكن ان يحدث ، فلعل اهم ما ينبغي طرحه للمناقشة ذلك الافتراض القائل بان حرب تشرين برهنت على انه « لم يعد في امكان اي طرف في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ان يحسم هذا الصراع باستخدام القوة » .

ويسوق اصحاب هذا الافتراض كثيرا من الحجج لاثبات صحة افتراضهم ، على أساس واقع ميزان وعلاقات القوى الدولية والاقليمية الذي كشفت عنه حرب تشرين، والذي سيظل ــ في رأيهم ــ يحكم مسار احداث الصراع العربي ــ الاسرائيلي للمستقبل المنظور منطقيا . وهم يعتبرون سياسة « الانفراج » الدولي وخاصة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي العامل الاساسي في استبعاد امكانية استخدام القوة لحسم الصراع العربي ــ الاسرائيلي .

كذلك فان اصحاب هذا الافتراض يبنونه على اساس القول بان اي حرب اخرى بين العرب والاسرائيليين لن تقتصر ، اطلاقا ، على ميادين القتال والاهداف العسكرية ، وانما ستتعداها الى عمق البلاد المتحاربة والاهداف المدنية . مما اصبح يشكل عامل ردع للدول المتصارعة بحيث لم يعد في استطاعتها اختيار الحرب كوسيلة لحسم الصراع.

وبينما تتحدث بعض الجوانب العربية (والمصرية خاصة) عن دور عامل «الانفراج» الدولي (والذي يفضل الكثيرون حتى الان وصفه بـ « الوفاق » لاعطائه مدلولا اكثر ثباتا) تتحدث بعض الجوانب الاسرائيلية او الاميركية ايضا عن دور عامل اتساع رقعة التدمير والقتل الى عمق المتحاربين . وبين الحين والحين تلوح هذه الجوانب الاسرائيلية بعامل « ردع » اكثر فعالية ، هو عامل الردع النووي ، الذي قد تكون اسرائيل حصلت او هي في سبيلها الى الحصول عليه فعلا ، والذي تسعى بعض الدول العربية للحصول عليه . وهو أمر من الممكن ان يخلق توازن « رعب نووي » في المنطقة بالاضافة الى توازن « رعب مدني » .

واذا اخذنا بهذا الافتراض ، فان من الممكن استنتاج ان حرب ٧٣ هي اخر الحروب العربية ــ الاسرائيلية في المستقبل المنظور منطقيا ، وعلى اساس المعطيات الراهنة ، والواقع الحالي .

على ان هذا الافتراض هو ــ ككل افتراض ــ مشروط بأبعاد تاريخية ــ اجتماعية معينة . وبالتالي فان مناقشته ينبغي ان تضع في الاعتبار تلك الابعاد التاريخية ــ الاجتماعية التي أدت الى طرحه ، كما ينبغي أن تضع في الاعتبار امكانيات تطور وتغير تلك الابعاد التاريخية ــ الاجتماعية .

ومن هنا ، فان الصيغة الراهنة للافتراض تحتاج الى تدقيق اكثر ، حتى تصبح صيغة عينية ، ما دام الفعل المترتب عليها عينيا بالضرورة .

ومثلا ، يبدو ان المقصود بالحرب والقوة المستخدمة ذلك النوع المعتمد على الاسلحة التقليدية والجيوش النظامية واساليب القتال العربية والاسرائيلية الممكنة الراهنة . كما يبدو ان المقصود بأطراف الصراع تلك الدول ذات النظم المعروفة حاليا ، وان المقصود بالحسم هو ذلك النمط التقليدي السائد طوال اكثر من نصف قرن بين العرب والاسرائيليين كقوتين متضادتين لا كقوتين متناقضتين ، وحسم التضاد يعني قضاء احد الطرفين على الطرف الاخر ، بينما يعني حسم التناقض تجاوز احد الطرفين الطرف الاخر باحتوائه .

ومعنى هذا ، انه اذا أمكن تغيير نوع الحرب ، واساليب القتال ، ونظم اطراف النزاع ، ونمط فهم علاقات الصراع ، فان هذا الافتراض لا يصبح صحيحا ، وبالتالي يصبح من الممكن حسم الصراع ــ اي ايجاد بديل للاوضاع الراهنة ، وهو بديل وضعت حرب تشرين ــ في رأينا ــ الاسس الاولية له .

*

وهنا ، فقد يكون من المستطاع ان نطرح ــ فرضا ــ أساسين اوليين وضعتهما حرب تشرين : الاساس الاول متعلق بالقوة العربية ، والاساس الثاني متعلق بالقوة الاسرائيلية ، وهما قوتا الصراع المباشر .

وفيما يتعلق بالعرب ، بصورة عامة ، يبدو ان حرب تشرين ادت الى ان يعيد

العرب اكتشاف ذاتهم وهويتهم من جديد ، واستكشاف مكامن قوتهم ، وامكانيات وحدتهم وحلقات تكاملهم .

ويبدو ان حرب تشرين قد حطمت ، في الواقع ، اسطورة ان العرب لا يستطيعون القتال بصورة عصرية وفعالة ، كما حطمت اسطورة ان العرب منقسمون على أنفسهم الى الدرجة التي تحول دون قيامهم باي عمل مشترك ذي تأثير وفعالية .

وبعد الاف السنين من السيطرة الاجنبية ، والسنوات الاخيرة من الهزيمة والمهانة على ايدي الاسرائيليين ، يبدو الامر وكانه قد اصبح من الممكن ان يستعيد العرب ثقتهم بانفسهم ، وان يستردوا كرامتهم القومية .

ويبدو ان حرب تشرين قد برهنت على ان الامة العربية « الضعيفة والمفككة » قد استطاعت ، في لحظة تاريخية نضالية ، ان تضم صفوفها لكي تخوض ما اصبح هناك اجماع على وصفه بانه « حرب حديثة كفؤة » ، وان تخلق مصاعب لاقتصاد العالم الصناعي بضغط بترولي .

ونتيجة لبروز هذه القدرة العسكرية ـ الاقتصادية للعرب ، فان القوى المعادية وفي مقدمتها الولايات المتحدة واسرائيل ، سارعت بمحاولة احتواء هذه القدرة ، واستخدمت في هذه المحاولات حتى الان كافة الوسائل الصراعية ، من دبلوماسية « الخطوة ـ خطوة » الكيسنجريه الى التهديد المبطن بالغزو . واستطاعت ـ حتى الان ـ ان تجمد القدرة القتالية العربية ، او على الاقل ان تجمد القدرة العربية على الاختيار القتالي . كما استطاعت بوسائل اكثر تعقيدا ـ ان تحتوي القدرة العربية الاقتصادية ، وخاصة القدرة النفطية . ومن ثمة ، بدا هذا التخلي السريع والغريب عن اهداف حرب تشرين والصراع التاريخي بين القومية العربية والصهيونية ، والتخلي عما كان يوصف بأنه « العناد » النفطي . كما أدى الى دخول الولايات المتحدة الى حلبة الصراع بصورة مباشرة .

ومن المؤسف ، ان بعض القوى العربية الحاكمة وصاحبة القرار والتأثير ، قد لعبت دورا رئيسيا في الوصول الى مثل هذه النتائج المضادة لاهداف القتال والتضحيات الاصيلة ، وذلك ضمن محور يضم بصورة رئيسية مصر والسعودية وايران .

*

على أن النجاح النسبي في الحرب والبترول ، والتراجعات والتخليات التالية ، ولدت العديد من المتناقضات الجديدة ، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، اصبحت تحتاج الى تحليلات واسعة وعميقة .

واذا اردنا ان نحدد بصورة عامة نمط المتناقضات الجديدة ، فمن الممكن ان نقول انها متناقضات اكثر استقطابا واكثر حدة بين الدول العربية بعضها بعضا ، وداخل كل دولة عربية ، وعلى طول وعرض المجتمع العربي كله .

ان النجاح النسبي في حرب تشرين ، خلق امان جديدة عند جماهير العرب ، وزاد من حدة التناقض بين الابنية العليا للنظم والهياكل القاعدية للجماهير ،.الامر الذي أسفر عن نشوء بدايات لحركة جماهيرية عربية ، سواء على المستوى القطري أو المستوى القومي العام ، ذات اشكال تنظيمية جديدة واساليب نضال غير تقليدية .

كذلك ، فان من الممكن ان تكون التغيرات النفسانية الايجابية ، والتحولات السياسية السلبية ، ومحاولات الانحراف والردة العديدة ، بداية لتوليد روح جديدة للوحدة العربية ، وللثقة المتبادلة ، خاصة بين الذين قاتلوا جنبا الى جنب ، وشاركوا

مشاركات فعالة في الحرب . ويمكن ايضا ان ترفع العرب فوق مستوى نظرتهم الخلفية التي ركزت على الاختلافات اكثر مما ركزت على اللقاءات .

ويبدو ان حرب تشرين قد اعادت تقديم العرب الى التاريخ المعاصر ، كقوة محددة مستقلة ذات دور معين في نضال الانسان من اجل التحرر . وابرزت ضرورة تدعيم الروابط العربيه — في ذاتها — بالتاريخ المعاصر ، وضرورة تدعيم الروابط العربية — لذاتها — بالنضال الانساني المعاصر .

ويقتضي ثبوت قدرة العرب على القتال ، فعلا وليس افتراضا ايديولوجيا فقط ، اعادة تقييم الفكرية العربية . فلقد برهنت حرب تشرين على خطأ الزعم القائل بأنه بسبب نوعية التراث الحضاري والثقافي العربي الخاص ، و « المختلف مع التراث الحضاري والثقافي العصري العام » ، جنح العرب دائما الى الهروب من الواقع ، والسقوط في هوة خيالاتهم وافتراضاتهم .

وبرهنت حرب تشرين على كذب الزعم القائل بأن العرب لا يفهمون الا لغة القوة لكي يستسلموا . ذلك لانه لم يحدث ان استخدمت القوة ، والقوة الغاشمة ، بتلك الصورة الساحقة التي استخدمت بها في حرب ١٩٦٧ ، ومن محاولة فرض الاحتلال الاسرائيلي والسيطرة الاسرائيلية طوال سنوات وسنوات . ومع هذا ، فان العرب لم يستسلموا للقوة والاحتلال ، بل واخذوا يعدون انفسهم لحرب جديدة . وبرهنت حرب ٧٣ على خطأ التقدير الاميركي — الاسرائيلي بأن الوطن العربي ينهار منذ ٦٧ ، وانه في طريقه الى التحلل والسقوط .

واثبتت حرب تشرين ان في وسع العرب ان يتوحدوا ، وليس بالكلام فقط ، او بمجرد توحيد النشيد الوطني الرسمي والعلم . اذ توحد العرب ، فعلا ، في القتال . وحتى من المغرب البعيد ، وصل جنود الى الجبهة السورية ليشاركوا في القتال ، مما يؤكد امكانية الوحدة العربية على اسس قتالية نضالية . كما برهن استخدام سلاح النفط ، على ان الذين سخروا — قبل الحرب — من امكانية استخدام ذلك السلاح ولو بصورة جزئية ، كانوا هم الذين يعيشون في الاوهام . ويبدو انهم تعلموا هذه الحقيقة بالاسلوب الصعب . ولا يزال دور النفط العربي — بعد دور الدم العربي وليس قبله بأي حال من الاحوال — يحتاج الى تقييم دقيق وشامل ، كما لا يزال مدى تأثيره في نتائج الحرب — ايجابا وسلبا — في حاجة الى البحث، وكذلك آفاقه المستقبلية.

ان نتائج حرب ١٩٧٣ ذات ايجابية كامنة ، وهي نتائج تفتح الطريق امام انتصارات عربية اوسع واعمق ذات ابعاد استراتيجية ، تاريخية واجتماعية ، بالنسبة للثورة العربية . وليس صحيحا انها حرب اللاغالب ولا مغلوب ، حرب النصف والنصف ، حرب تعادل صفر بصفر . والذين يقولون بمثل هذا الرأي الخاطىء ، اما ان يكونوا مخطئين ، او مضللين ، او ضالعين في الجهود الدؤوبة والدائبة ، منذ الساعة الاولى لبدء تلك الحرب ، لاجهاض تلك الابعاد التاريخية الاجتماعية للحرب .

واكرر :

ان نتائج حرب ١٩٧٣ ايجابية بالنسبة للعرب . وبسبب هذه الايجابية ، فان ثمة جهودا دائبة ودؤوبة لاجهاض تلك النتائج ، بكافة الوسائل والاساليب .

*

ولانها كانت ايجابية بالنسبة للعرب ، فانها كانت ، ولا تزال ، سلبية بالنسبة للاسرائيليين .

ان الزعماء الصهيونيين لاسرائيل ، والراي العام الاسرائيلي ، بالذات ، اصبحوا يجدون انفسهم — ولاول مرة منذ قيام دولة اسرائيل — وهم يواجهون قضية الحرب والسلم مواجهة تمثل خطرا حقيقيا عليهم ، وليس على اعدائهم وخصومهم العــرب فقط ، وهذا وضع لم يواجهه الاسرائيليون من قبل مثلما يواجهونه الان . ذلك لانه لم يحدث من قبل ان فرضت الحرب على حياتهم الخاصة ما فرضته حرب ٦ تشرين .

فلأول مرة — منذ عام ١٩٤٨ — ذاق الاسرائيليون مرارة القتال والقتل ، وعرفوا معنى وجود الاف القتلى والجرحى والاسرى والمفقودين من ابنائهم ، واحسوا بخطر الموت يتربص بهم داخل بيوتهم وفي حجرات نومهم . وطرحت الحرب عليهم الســؤال المصري المتصل بوضعهم الحقيقي في المنطقة ، كدولة صغــيرة محاصرة ، ليس في امكانها ان تصون امنها ، بل وجودها الصهيوني ، بصورة نهائية ، عن طريق الحرب والاحتلال والضم والتوسع . وهي دولة — ومجتمع ايضا — معزولة سياسيا ونفسانيا عن بقية الدول والمجتمعات في العالم ، ولا تكاد تجد التأييد الآمن جانب دول ومجتمعات معزولة مثلها .

ومن الواضح الان ان حرب تشرين قــد زادت المتناقضات الداخليــة (الجديــدة والقديمة) في اسرائيل ، كما زادت حدة الصراعات السياسية والاجتماعية ، وابرزت عوامل جديدة في تلك المتناقضات والصراعات . اصبح الاسرائيليون يواجهون المــوت لاول مرة وجها لوجه ، وانتهت اسطورة السوبرمان الاسرائيلي .

وقبل حرب تشرين ، كان في استطاعة قادة اسرائيل ان يملوا اختيارات الحــرب والسلام لانهم كانوا يحتكرون (أو كانوا يظنون انهم يحتكرون) امكانيات شن الحرب والقدرة على أن يقرروا — مسبقا — نتائجها . اما الان ، فلعلهم يكونون قد وصلــوا الى ادراك ان شن الحرب ليس ميزة وحيدة لهم ، وان نتيجــة اي حرب بينهم وبــين العرب قد لا تكون — بالضرورة — وفق توقعاتهم ورغباتهم .

واذا حكمنا على الامور والمناقشات الواسعة الجارية داخل اسرائيل ، فقد تنتهي الى نتيجــة ان مزيدا من الاسرائيليين يدركون اكثر فأكثر ان نظامهم الســياسي — الاجتماعي الراهن ، وقياداتهم الحالية ، والبنيان الصهيوني لدولتهم ، لا يكفل لهــم سلاما دائما ، ولا يضمن حربا منتصرة ، على حد سواء .

ان هذا النظام السياسي — الاجتماعي ، وتلك القيــادات ، والبنيــان الصهيوني لم يعد يضمن لهم سوى حياة غير آمنة يظللها الموت كحقيقــة من حقائــق الحيــاة اليومية . كما انه قد دفع بهم وبآمالهم في الحرية والعدالة الى ما تحت الحذاء الثقيــل للسيطرة الاميركية ، والى قيود المزيد من التبعية للامبريالية ، واصبحوا مهددين الان بأن يتحولوا الى فيتنام جنوبية .

ومن الارجح ان تكون حرب تشرين قد اسفرت عن اضعــاف ثقة الاسرائيليين في مؤسستهم العسكرية ونظامهم السياسي وبنية مجتمعهم ونسف ايديولوجيتهم وفكرهم .

ان فلسطين التي يعيشون فيها الان ويموتون هي — بكل المعايــير والمقاييس — للفلسطينيين ، عربا ويهودا . والفلسطينيون هم وحدهم القادرون — حقا — على وضع حجر الاساس لمستقبل سلامي دائم وعادل .

*

ولقد كشفت حرب تشرين عن ايجابيات هامة للوضع الفلسطيني تمثل في ثلاثــة انجازات رئيسية :

اولا — وحدة القضية الفلسطينية واستقلاليتها في الوقت ذاته . فلم يحدث من قبل ان اصبحت القضية الفلسطينية جزءا لا يتجزأ من القضية العربية الشاملة ، ومن القضية العالمية المعاصرة . وكيفما كان الوضع الذي تبدو عليه القضية الفلسطينية في هذا الوقت أو ذاك ، فان من الممكن القول ، دون خشية الوقوع في الخطأ — أن القضية الفلسطينية والفلسطينيين اصبحوا قوة عربية داخلية يمكن ان تلعب ، وهي تلعب فعلا ، دورا ثوريا في كل قطر عربي ، وعلى المستوى القومي العام . ومن الممكن ان تلعب الثورة الفلسطينية دور الطليعة لا في الوطن العربي فحسب ، بل وداخل اسرائيل .

على انه ينبغي علينا ان نعترف بأنه لا تزال هناك سلبيات عديدة في الثورة الفلسطينية ، وفي اساليب الطرح الثوري للقضية الفلسطينية . ولعل ابرز هذه السلبيات تحدد قدرة وفعالية الثورة الفلسطينية سياسيا (ونضاليا) داخل أرض فلسطين .

وقد لا يكون من قبيل المبالغة ، القول بأن الثورة العربية المعاصرة سيتقرر مصيرها وفقا لمصير الثورة الفلسطينية ، في اطار الفعالية المستقلة لهذه الثورة من جانب ، وتوحد هذه الثورة مع القوى الثورية العربية وخاصة في مصر ، من جانب اخر .

ولعل ادراك هذه الحقيقة هو ما يدفع القوى المضادة للثورة العربية الى توجيه حد النصل الى عنق الثورة الفلسطينية ، وخاصة على ضوء ما اكتسبته هذه الثورة ، بعد حرب تشرين ، من قوة جديدة كامنة . وهذا الادراك ذاته ، هو ما يدفع حتى بعض القوى العربية « الوطنية » الى محاولة تفريغ القضية الفلسطينية من مضمونها الثوري العربي .

ثانيا : اقرار شكل تنظيمي وحيد للثورة الفلسطينية هو منظمة التحرير الفلسطينية، والاعتراف بكونها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ، سواء على المستوى العربي او على المستوى العالمي . واقرار شرعية منظمة التحرير الفلسطينية كممثل وحيد للشعب الفلسطيني يتضمن الاقرار بوحدة الشعب الفلسطيني . بمعنى ان كون الفلسطينيين قد عاشوا ، ولا يزالون ، تحت نظم حكم مختلفة (عربية ، كما تحت الحكم الاسرائيلي ، وبعض الحكومات الاجنبية) منذ عام ١٩٤٨ ، لا يعني ان هناك شعبين او اكثر . ان كل الذين عاشوا في فلسطين تحت الحكم البريطاني وذريتهم هم فلسطينيون ، مهما كانت اوضاعهم واصولهم الدينية والعرقية والاجتماعية الراهنة .

ان هذه الحقيقة البارزة هي التي اصبحت تطرح الان ، وحتى بين بعض الصهيونيين والاسرائيليين ، ضرورة الاختيار بين فلسطين واسرائيل ، فلسطين الكل واسرائيل الجزء . وهذا الاختيار هو الذي اصبح يقتضي ان تصبح منظمة التحرير الفلسطينية ، منظمة تحرير الفلسطينيين ، وليس الفلسطينيين العرب فقط .

ولا شك ان هذا الامر يقتضي تطوير العلاقات السياسية — التنظيمية — النضالية وأساليب اعمالها في الواقع حتى تصبح في مستوى المهمة التاريخية . وهو يقتضي دعم وحدة المنظمة ، وابداع وسائل نضال جديدة وغير تقليدية ، وتحديث القيادات والاجهزة القيادية . وهنا ، لا ينبغي لاحد ان يدهش اذا اختار بعض العرب أسرائيل دون فلسطين ، او اختار بعض اليهود فلسطين دون اسرائيل .

ثالثا : تطور مهمة منظمة التحرير الفلسطينية الى السعي ، لحساب ومصلحة كل

الشعب الفلسطيني ، الى حل يعيد الحقوق والشخصية القومية لفلسطين ، ويمهد الطريق الى اقامة الدولة الفلسطينية على أرض فسطين .

*

وكنتيجة لاثبات القدرة القتالية العربية ، واسقاط الاسطورة الاسرائيلية ، واستخدام النفط العربي ، وبروز الثورة الفلسطينية ، لم يعد العالم كما كان .

ان علاقة جديدة بين الدول الصناعية و « العالم الثالث » ، وبين قطاع الاعمال والقطاعات الاخرى في المجتمع ، وبين « الدول الكبرى » و « الدول الصغرى » ، وبين العمال المهرة المتقدمين والفلاحين المتخلفين (والبدو) ، وبين الانتاج والاستهلاك ، وبين التبعية الرأسمالية والاستقلالية الاشتراكية ، وبين القيم المادية العاجلة والقيم الحضارية النليدة (كمجرد امثلة من الانماط العديدة ، والتي لا حصر لها ، للعلاقات المعاصرة) أخذت تبرز منذ حرب تشرين .

ان الناس في اوروبا ، وفي اليابان ، وفي الولايات المتحدة ، بل وفي الاتحاد السوفياتي بدأوا يطرحون التساؤلات العديدة حول حقيقة اسس الحضارة المعاصرة ، وحول مدى اعتماد هذه الحضارة على الاخرين ، وحول اساليب ووسائل فرض هذه الحضارة . وايا كان الاسم الذي يمكن ان يطلق على مثل هذه الظاهرة ، فانها أصبحت تحتم الحاجة الى الاعتماد الدولي المتبادل ، وبالتالي أصبحت تحتم تغيير انماط السياسات الدولية والمؤسسات القومية .

ان العالم الرأسمالي لم يعد يواجه العرب او الشعوب المتخلفة فحسب ، وانما أصبح يواجه ايضا متناقضاته الداخلية التي برزت عن حقيقة تحلل القيم الاستهلاكية التي يستند اليها . ان ما نشهده الان ، وما سنشهده بصورة اكثر درامية في السنوات القادمة ، هو انكسار نظام اجتماعي بكامله مقام على اساس استغلال الاخرين ، سواء أكان الاخرون امة ام طبقة أم افراد .

ومن غير المستغرب ان تدرك بعض القوى العربية هذه الحقيقة ، فتعلن صراحة استعدادها لحماية هذا العالم الرأسمالي وانقاذه من ازمته ، بل وتساهم بصورة مباشرة في الصراع مع القوى التقليدية والرجعية في العالم الرأسمالي الغربي ضد القوى الجديدة والتقدمية . وبهذا تحقق قدرا من الاستقطاب الواضح ، لا على المستوى العربي القومي فحسب ، بل وعلى المستوى العربي العالمي ايضا . وينكشف وجه عربي يخون ، في الواقع ، القضية العربية .

*

وبعبارات اكثر تحديدا ، فان حرب تشرين قد أدت بالولايات المتحدة الى ان تعترف — بصورة نهائية — بحدود قوتها وسلطتها ، وبأنه ليس في مقدورها ، منفردة ، ان تواجه الاخطار التي اصبحت تتهدد مصالحها الاستراتيجية والنفطية ، ليس فقط بحكم السياسات الآنية ، وانما ايضا بحكم ميكانيزم هذه السياسات في المستقبل . وتدرك واشنطن الان ، واكثر من اي وقت مضى ، انها لا تخاطر بالشرق الاوسط فحسب ، بل هي تخاطر باوروبا الغربية واليابان وبسياسة « الانفراج » الدولي .

وقد غيرت الولايات المتحدة ، فعلا ، نظرتها الى الصراع العربي — الاسرائيلي ، وأدركت ان استمرار هذا الصراع سيكون من شأنه تصفية مصالحها ، وخاصة مصالحها النفطية ، في المنطقة ، كما سيكون من شأنه تصفية الوجود الاسرائيلي — الاميركي في قلب الوطن العربي . ولعل هذا هو ما يفسر تلك الديناميكية الاميركية

المذهلة في سبيل احتواء هذا الصراع ، ونزع فتيل اشتعاله ؛ ودعم التواجد الاميركي في المنطقه بصوره مباشره . وقد يبدو هذا ظاهريا كدليل على «قوة» الولايات المتحدة . لكنه ، في الحقيقة ، دليل ضعف . ولقد كان دخول الولايات المتحدة في صراع جنوب ــ شرقي اسيا بصورة مباشرة هو بداية النهاية لوجودها ونفوذها في تلك المنطقة ، بدليل ما حدث فعلا لا افتراضا .

وفيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي ، فان دوره يبدو وكأنه قد تقلص واخذ حجما اصغر مما كان عليه ، كنتيجة لحرب تشرين . بل ان من نتائج حرب تشرين ان اصبحت القضية العربية قضية داخلية سوفياتية . ونتيجة لقلة المعلومات عن السياسة السوفياتية في المنطقة ، فان من الصعب انجاز تقييم شامل لاثر حرب تشرين على الاتحاد السوفياتي ، وان كان من المتوقع ان يتضح ذلك الاثر خلال الاشهر القليلة القادمة ، وبعد انعقاد المؤتمر الخامس والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي في شباط (فبراير) ١٩٧٦ .

ومع هذا ، فان من الممكن القول ، ان كلتا القوتين الاعظم اصبحتا ، بعد حرب تشرين وبسبب نتائجها ، تراهنان على حركة القوى الداخلية في الوطن العربي : قوة النخبة صاحبة سلطة القرار ، وقوة الجماهير صاحبة سلطة الاختيار ، لحسم اتجاه المستقبل ، اكثر من اعتمادها على حركتها الذاتية .

*

ومن هنا ، يبدو ان حرب تشرين قد نقلت الصراعات من المجال الدولي بصفة عامة، الى المجالات القومية بصفة خاصة . وتبدو حركة الصراعات الداخلية العربية ، بعد حرب تشرين ، وهي تأخذ مكان الصدارة ، وتستخدم أساليب متعددة للتعبير عن نفسها . وعلى الرغم من عدم دقة المطابقات التاريخية ، فان من الممكن ، اجمالا ، القول بأن نتائج حرب ١٩٧٣ على الاوضاع الداخلية العربية قد تماثل نتائج حرب ١٩٤٨ على تلك الاوضاع .

وبسبب حقيقة ان حرب تشرين ، بكل مترتباتها العسكرية والاقتصادية والسياسية والدولية ، تحتوي على مترتبات اجتماعية بعيدة المدى ، ذات مضمون قومي ثوري شامل ، فلقد برز بالفعل ، وخلال العامين الماضيين ، خطر محاولة تفريغ هذه المترتبات من مضمونها الثوري ، واستغلال نتائجها لحساب فئات الاقلية العربية ، واستخدام مزاياها مبررا لخداع الذات وتجميد وضرب الحركة الجماهيرية ، ومحاولة فرض « امر واقع » أناني وانعزالي وقصير النظر وانتهازي ، والقيام بعملية واسعة للتضليل الفكري وعزل القوى الجماهيرية عن مسار تطورات المستقبل .

ومن هنا ، فان التزام اشد الموضوعية في تقييم نتائج ومترتبات حرب ٦ تشرين ١٩٧٣ من كافة جوانبها الايجابية والسلبية ، ونبذ المواقف الحيادية او التحييدية ، والتمسك بالدفاع الموضوعي عن كل منجزات الثورة العربية ، التي كانت حرب تشرين مرحلة من مراحلها ، يبدو مهمة اساسية لمواجهة اخطار « المبالغة » الغوغائية في مترتبات تلك الحرب ، و « التصويرية الحيادية » الانتهازية في تقييم تلك المترتبات على اساس « لا ولا » او « نعم ونعم » ، و « اليأس » من الفاعلية السياسية لما حققته عسكريا .

والثورة العربية انجازات ، لا مجرد شعارات .

ومن انجازات الثورة العربية حرب تشرين ، بكل ما لها وما عليها .

الصراع المستمر

الياس خوري

تشكل اتفاقية سيناء انعطافا جديدا بالغ الخطورة لمسار الصراع الذي تخوضه الحركة الوطنية العربية ضد العدو الصهيوني . فهي تأتي بعد سنتين على حرب تشرين الاول ١٩٧٣ لتعيد صياغة معادلة الصراع بشكل جديد .

ان تحليل هذه الاتفاقية لا يمكن أن يتم بمعزل عن التناقضات في حركة الواقع التي أفرزتها . فالاتفاقية ، هي صيغة حقوقية لجريات الصراع والتناقضات الفعلية في حركته . فتحليل أية اتفاقية هو تحليل لشروط صياغتها ، أي للقوى الفعلية التي انتجتها كتعبير عن ميزان قوى صراعي .

نقاط لا بد من العودة اليها

قبل الوصول الى دراسة ميزان القوى الذي أنتج اتفاقية سيناء لا بد من التركيز على نقطتين :

١ ــ ان المسألة الوطنية : قضية التحرر القومي من الهيمنة الامبريالية ، هي النقطة المفصلية في مسار حركة تحرر الشعوب التابعة . فالتناقض الرئيسي في ظل التبعية المفروضة بالهيمنة الامبريالية هو تناقض فصائل وطبقات الحركة الوطنيـــة مع العدو الامبريالي . تعيد هذه المسألة صياغة معادلات التحالف الوطني في كل مرحلة جديدة أو انعطاف يتعرض له مسار المعركة مع العدو الرئيسي . كما أن ميـــزان القوى الداخلي ، الطبقي ، هو المحدد في التحليل الاخير للاشكال التي سيأخذها هذا الصراع. فالجدل بين المسألتين : العدو الوطني وميزان القوى الطبقي ، يتحدد في التحليل الاخير بميزان القوى الداخلي ــ الطبقي . أي أية طبقـــة أو تحالف طبقي يقود النضـــال الوطني .

يقود تجاهل هذه المسألة ، الى تبسيطية تحلل الصراعات بمنطق وهمي . فتتوقف عند التفاصيل والشعارات الجاهزة ، دون أن تستطيع صياغة برنامج فعلي لقيادة النضال الوطني . وهذا ما تقوم به الايديولوجية البرجوازية ، لتبرر عدم قدرتها على قيادة الصراع حتى نهايته ، أو لتدين مراكز الصراع من موقع تكتيكي هروبي .

٢ ــ ان التناقض الرئيسي في الساحة العربية هو مع العدو الاميركي الصهيوني . فالعدو الصهيوني يحتل اليوم الأرض العربية ــ فلسطين ــ الجولان ــ سيناء ــ وهو رأس حربة القوة الامبريالية التي تخوض الصراع ضد كل بادرة تحـــرر في الساحة العربية . فالعدو الصهيوني هو بهذا المعنى قبضة الامبريالية الاميركية . هكذا ، يقود حجب الصراع مع الامبريالية الاميركية ، الى السقوط في احضان التنازلات امام العدو الصهيوني . كما ان حجب التناقض مع العدو الصهيوني يقـــود الى تساقط الحركة الوطنية في منطق اقليمي يقبل التجزئة التي فرضتها الامبريالية ، ويتحايل عليها ليقع تحت ضربات العدو الصهيوني . ان معادلة كـــون التناقض الرئيسي هو مع العدو

لاميركي الصهيوني لا تعني عدم وجود امكانيات خلافات تكتيكية او تفصيلية بين طرفي معسكر الاعداء . لكن هذه الخلافات تجمد دائما لمصلحة الوحدة في ظل القيادة الاميركية التي تقود الصراع ضد الشعب العربي .

ان التوقف عند هاتين النقطتين ، يلخص مسار حركة التحرر الوطنية في صراعاتها ومراحلها المختلفة . فالحركة الوطنية العربية ، بقيادة البرجوازية الوطنية، استطاعت بعد ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ في مصر توجيه ضربة قاصمة للاستعمار القديم ، توجت باندحار العدوان الثلاثي على مصر . غير انها ونتيجة لطبيعتها الطبقية ، تجنبت دائما خوض الصراعات المباشرة مع الامبريالية الاميركية ، حتى تلقت الضربة الاميركية الاسرائيلية في حزيران ١٩٦٧ .

حرب تشرين : ميزان القوى العربي والعالمي

لقد مثلت حرب حزيران قمة الهجمة الاميركية الصهيونية على الوطن العربي . واضعة هدف اسقاط الانظمة الوطنية — نظام عبدالناصر — الى جانب أهداف الصهيونية العدوانية التوسعية . فاتى الطابع الغالب لحرب حزيران كهزيمة عربية ، لم تستكمل أهدافها ، اذ ساهمت في خلق حركة قتالية شعبية تمثلت بالثورة الفلسطينية ، وأدت الى تكثيف جهود الانظمة الوطنية لبناء جيش قادر على القتال . فالطابع الغالب لحرب حزيران ، لا ينفي بل يؤكد على وجود اكثر من اتجاه في حركة الواقع ، وان المسألة الوطنية تستطيع بنضالات الجماهير اجهاض توقعات العدو .

هكذا اتت حرب تشرين ، ردا فعليا على الهزيمة . فجاءت لتحسم جمود الموقف الدولي والعربي تجاه قضية الاحتلال ، وقدرت أن تحقق وبالضربة الاولى انتصارا فعليا على العدو الاسرائيلي .

ان تحليل ميزان القوى خلال الحرب وبعدها ، يشير الى النقاط التالية :

١ — تقدم عربي عسكري ساحق في الايام الاولى للقتال ، تمثل في عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف . واجتياح الجولان .

٢ — توقف التقدم المصري بعد ذلك . ليبدأ العدو الاسرائيلي هجوما مضادا على الجبهة السورية ، تبعه اختراق الجبهة المصرية في الدفرسوار .

٣ — نتيجة قرار مجلس الامن ، توقف القتال عند هذه النقطة . أما المحصلة العسكرية العامة التي خرجت بها الحرب فتمثلت بتقدم عربي فعلي وتراجع اسرائيلي. لا تقاس هذه المحصلة بالكيلومترات ، لكنها تقاس بقدرة طرفي النزاع على التحرك والقاعدة التي اكتسباها كأساس لفرض التنازلات على العدو .

٤ — أعقب الحرب ، فك الاشتباك في سيناء وفي الجولان — بعد حرب استنزاف — وقد اتى فك الاشتباك ليكرس المواقع الفعلية التي استطاع الطرف العربي اكتسابها في المعركة العسكرية .

يقودنا تحليل مسار الحرب الى اكتشاف النقطة المركزية التي حكمت تصرف النظام المصري . فهو كان يتجنب بعد احتلال خط بارليف تصعيد القتال الهجومي حتى لا يتورط في صراع مباشر مع الولايات المتحدة . فكل صدام مع العدو الاسرائيلي ، يؤكد انه في نقطة معينة من تصاعد الصدام يتغير العنصر الاساسي في المواجهة ليصبح الولايات المتحدة .

فالبرجوازية المصرية ، حين دخلت حرب تشرين ، كانت تعي تماما هذه المسألة .

لديك راوحت عسكريا لتضطر الى التراجع بعد ذلك ، عندما التقطالعدو انفاسه بعد الجسر الجوي الضخم الذي أمن له السلاح الامركي . فالبرجوازية العربية وضعت لقتالها أفقا محددا لم تتجاوزه ، وهــذا ما أعاق قدرتهــا العسكرية علــى توظيف الإنتصارات في الايام الاولى ، وشل قدرتها على الاستفادة السياسية من ميزان القوى العسكرية الذي أفرزته الحرب .

كيف نفهم على ضوء ميزان القوى الذي افرزته الحرب ، اتفاقية سيناء :

لنبدأ اولا باستعراض ميزان القوى :

أ ــ **في ساحة المعركة** : تقدم عربي في ساحات القتال . وتراجع اسرائيلي . لا يخفف من قيمته قيام العدو بهجوم مضاد على الجبهتين واستعادة بعض الاراضي التي فقدها واحتلاله أراض جديدة .

ب ــ **عربيا** : وحدة الجبهة العربية بشكل فعلي لاول مرة بعد الهزيمة ، حيث قاتلت جيوش مصر وسوريا والعراق والمغرب في خنادق مشتركة ، وحيث التحمت الثورة الفلسطينية في قتال عربي شامل .

ــ دخول سلاح النفط كطرف اساسي في المعركة للضغط على المعسكر الامبريالي واجباره على التراجع .

ج ــ **عالميا** : اما على المستوى العالمي ، فان الامبريالية الامركية تتراجع في كل مكان حيث تحرز حركات التحرر الوطنية أنتصارات كاسحة ، كما عبرت عنه اتفاقية باريس فيما يختص بفيتنام والتي توجت بانتصار الثورة الوطنية في كمبوديا وفيتنام ولاوس . ومن جهة اخرى يتقدم الاتحاد السوفياتي لاحتلال مواقع جديدة عالميا ، عبرت عن نفسها بشكل واضح في مؤتمر الامن الاوروبي .

على ضوء هذا التصنيف السريع لميزان القوى ، لا يوجد أي مبرر للتراجع المصري في اتفاقية سيناء .

ان هذا يعني ، وجود عنصر غائب لم يستطع التحديد الثابت لميزان القوى تحليله ، وادراجه كعنصر داخلي في هذا التحليل .

ان العنصر الغائب عن تحليل ميزان القوى هو اكتشاف حركة التناقضات الجدلية في الواقع . فالواقع لا يمكن اختصاره الى معادلات رياضية ثابتة . بل يجب النظر اليه في حركته . فالتناقض يحكم حركة طرفي الصراع الاساسيين : الامبريالية الامركيــة والبرجوازية العربية :

التناقض في حركة الامبريالية : ان حركة الامبريالية العامة لا تسير في اتجاه واحد الا في التحليل الاخير ، الذي هو اتجاه السقوط والانحدار امام حركة الشعوب . غير ان هذا الاتجاه العام ليس اتجاها بسيطا او مستقيما . انه اتجاه بالغ التعرج لا يحسم الا بالعنف المسلح . ان دراسة وضع الامبريالية الامركية اليوم ، تشير الى تفاوت فاضح في وضعيتها . فحجم سيطرتها على العالم لا يتناسب مع حجم قوتها الفعلية . أي ان النظام الراسمالي العالمي لم يعد يستطيع أن يكون ضابط الحركة العامة في المجتمع الدولي . لذلك تأتي نضالات الشعوب لتعدل ميزان القوى ، اي لتجعله أكثر مطابقة مع الواقع . وهذا لن يتم بشكل نهائي وحاسم الا في حرب شاملة . ان تراجع الامبريالية أمام أي تقدم لحركة الشعوب لا يحسم الامر مــع هيمنتها ، هو تراجع مؤقت ، استعداداً لهجوم شامل يضع المعركة في اطارها الصحيح : اما التراجع امام

الامبريالية او خيار الحرب معها . فالامبريالية حين تتراجع فانها تعد لهجوم مضاد . انيا لا تترك مواقعها دون هزيمة فعلية ، مما يضطرها الى التورط في حروب لا تنتهي الا بنهايتها .

التناقض في حركة البرجوازية : ان برجوازية الدولة التي قادت النضال الوطني ضد الاستعمار القديم في ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانيه ، تواجه مهمة مزدوجة . استكمال الاستقلال الوطني على المستويين الاقتصادي والسياسي ، والتصدي للامبريالية الامركية التي ملأت فراغ الاستعمار القديم . والمهمتان وجهان لمسألة واحدة : التحرر من التبعية وبناء الاستقلال الوطني . لذلك تواجه مجمل حركة النضال الوطني العربي مهمة النضال الحازم ضد الامبريالية الامركية التي تنهب الثروة النفطية العربية وتحاول فرض هيمنتها الشاملة بمختلف الوسائل .

واذا كانت خصوصية النضال الوطني العربي تتركز في النضال المباشر **ضد العدو الصهيوني** ، فان هذا العدو هو قبضة الامبريالية واداتها الهجومية الاساسية . ان البرجوازية الوطنية التي في السلطة محكومة بتناقض بنيوي : الهجوم الامبريالي عليها من اجل شل محاولاتها الاستقلالية ، وعجزها عن احداث تغيرات بنيوية اجتماعية تسمح للطاقات الوطنية بالتبلور في تنظيم حرب شعبية هي وحدها القادرة على دحر الامبريالية . لذلك تتحايل البرجوازية العربية على مأزقها البنيوي بمحاولة تحييد العدو الامركي واخذ تنازلات منه دون الهجوم المباشر عليه . فالتقدم العربي في حرب تشرين كان محكوما بهذا التناقض الاساسي ، مما انتج عجز البرجوازية عن توظيف الانتصار الذي حققه الجيش ، وبداية التراجع الذي أدى الى اتفاقية سيناء .

تلتقي حركة هذين التناقضين بالمناورة الكيسنجرية . فالذكاء الامبريالي يتلخص بمقولة أساسية : تقديم بعض التنازلات الجزئيــة للبرجوازية العربية واخذ تنازلات أساسية منها لمصلحة الولايات المتحدة والعدو الصهيوني .

ان حركة هذا الذكاء ، هي محاولة تجنب الصدام المباشر بين الامبريالية الامركية والعرب . اي حركة تجنب التورط في معركة عسكرية ــ سياسية تضطر الامبريالية الامركية للمشاركة فيها بشكل مباشر .

تلائم هذه الحركة طرفي الصراع الرئيسيين : الامبريالية والبرجوازية العربية .

تلائم الامبريالية : لانها تحقق لها مكسبا اساسيا . أي تخفف من آثار تراجعهــا الذي فرض بالقتال وتجعلها في مواقع متقدمة سوف تكون قواعد هجوم شامل علــى المنطقة . فالامبريالية ، حين تقدم بعض التنازلات الجزئية ، فان هــذا يعود الى أن ميزان القوى عالميا وفي أرض المعركة ليس لصالحها . وهي بهذه التنازلات الجزئية ، تتجنب اساسا التورط العسكري المباشر الذي خبرت دروسه في فيتنــام وكمبوديا ، وتأخذ مكاسب أساسية سوف تسمح لها بهجوم مضاد يعزز مواقعها . فهي لا تتنازل عن مواقعها الاساسية الا بالهزيمة . وحين تتراجــع ، فانها تتراجــع استعــدادا للهجوم .

وتلائم البرجوازية لانها كطبقة ، لا تستطيع الدخول في حرب شاملة مع الولايــات المتحدة . لان هذه الحرب سوف تعني تعديلا جذريا لميزان القوى الداخلي ، لعلاقــات الطبقات ببعضها . فالبرجوازية الوطنيــة لا تستطيع الســير في صراع حاسم مــع امبريالية لم تفقد بعد أسلحتها الهجومية . أي قبل أن يحسم ميزان القوى العالمي ضد الامبريالية الامركية بشكل جذري ، فان البرجوازية تتجنب خوض صراع مكشــوف

معها . فالاساسي في التوازن في ظـل الهيمنة الامبريالية هـو التوازن الداخلي ــ الطبقي . في المقابل عن البرجوازية محكومة بضرورات تحرير الارض المحتلة . لذلـك توجه ضربه للعدو الرئيسي ، ثم تحاول حجبه وفك ارتباطه بالعدو الصهيوني . وهنا مازقها الاساسي .

يلتقي هذان العاملان في الذكاء « الكسينجري » فتصاغ اتفاقية سيناء ، التي تقوم اساسا بحجب العدو الامريكي ، وتحقق انسحابا محدودا ومشروطـا في سيناء وهي في نهاية المطاف ، تهدف الى تحقيق التقدم الاميركي دون التورط المسلح في الصراع .

لكن حدود ذكاء الامبريالية هي تناقضاتها نفسها . وتعقد حركة الصراع . فهي حتى لا تتورط في الصراع تنتزع تنازلات اسرائيلية جزئية وتنازلات مصرية . وتضطر مـن اجل ضبط الصراع الى ارسال خبراء أو فنيين اميركيين لاول مرة في تاريـخ الصراع العربي ــ الاسرائيلي للمرابطة في سيناء وتشغيل محطات الانذار الالكترونية .

هكذا فان أي الغاء للاتفاقية في الجانب العربي ، سوف يعني ولاول مرة اطلاق النار على العدو الاميركي والدخول في بداية صراع عسكـري مكشوف معه **هكـذا يتورط الامبرياليون حين لا يريدون التورط** . فالذكاء الامبريالي ليس اكثر من توازن مؤقـت تستطيع حركة الشعوب تحويله الى غباء مطلق عند خوض النضال الشعبي المسلـح ضده وهزيمته على أرض المعركة .

يأتي التناقض الداخلي في اتفاقية سيناء ، مـن التركيب العضوي للعدو الاميركي الصهيوني . فاذا كانت الولايات المتحدة قد استطاعت فرض تنـازلات جزئية علـى اسرائيل في الجبهة المصرية ، ولا شيء يؤكد قدرتها على فرض تنازلات مشابهة على الجبهة السورية . وكل شيء يؤكد عدم استعدادها لتقديم اي شيء للجبهة الفلسطينية المقاتلة .

فاتفاقية سيناء ، حين تضرب وحدة الموقف العربي ، فانها لا تستطيع التحكم به او ضبطه . لذلك فهي ليست سوى مقدمة لهجوم شامل سوف يتركز على ضرب الثورة الفلسطينية باعتبارها حلقة الصمود الرئيسية في مواجهة الذكاء الامبريالي الـذي لا يستطيع التعامل معها .

هكذا تستطيع الثورة الفلسطينية ان تشـكل حلقة الصمود المباشرة لدحر الهجوم الاميركي المضاد ، ولتمزيق اتفاقية سيناء على أرض القتال ، وعلى أرض عدم قـدرة العدو الاميركي على صياغة توازنات لمجريات صراع لا يستطيع ضبطه .

ان الثورة الفلسطينية تواجه احدى اكثرلحظات تاريخها خطورة وانعطافا ، لذلك فان قدرتها على تحليل التناقضات والاتجاهات في حركة الواقع . (فهذه الحركة اكثر غنى وجدلا من الشعارات الجاهزة . فحركة البرجوازية ليست حركة آحادية . انها اتجاهان متناقضان في حركة واحدة . لذلك يجب التمييز بين التراجع والعمالـة) . هي التي ستقرر قدرتها على فك محاولات عزلها عربيا . لانها مطالبة بتشكيل اوسع جبهة تحالفات في المرحلة الراهنة ، كي تستطيع ردع الهجمـة الامبريالية الصهيونية التي تستهدفها أولا . وهذا يفترض أساسا تلاحم ووحـدة صفوف المقاومة والتركيز على العدو الرئيسي في سبيل دحر مناوراته وهجومه المنتظر .

ان الشعارات الرئيسية المتمثلة بضرب الهيمنة الامبريالية بشكل كامل ، هي التي توحد الشعب في جبهة مقاتلة وتحقق الاستقلالية الفعلية . فالحركة الثورية الجذرية التي تقاتل العدو الرئيسي هي وحدها القادرة على تحقيق استقلاليتها ، أي علـى فرض منطقها الثوري على الصراع .

السياسة العسكرية الاسرائيلية في ضوء دروس تشرين

محمود عزمي

« ان حرب يوم الغفران هي نهاية لمرحلة بدأت في حرب الايّام الستة . ان الاخطار كبيرة ولكن الاحتمالات كثيرة . علينا ان لا نواجه الاخطار المحتملة فحسب بل تحقق الاحتمالات ايضا ، وهذا يتطلب ان تكون دولة اسرائيل قوية جدا وان تزداد قوة الجيش الاسرائيلي بمتوالية هندسية ... هناك ضرورة لجيش قوي جدا وذلك من أجل زيادة الاحتمالات ومواجهة الاخطار المحتملة . وبالاضافة الى هذا ، وحتى لو وصلنا الى تعايش مع العرب ، فأن شرط التعايش الدائم هو وجود قوة قومية ، وتعتبر القوة العسكرية احد عواملها . ولذلك فان الحاجة الى جيش قوي ليست مؤقتة ، بل دائمة »(١).

هذا ما انتهى اليه بحث العميد « يسرائيل طال » للتطورات التي لحقت نظرية الامن الاسرائيلية فيما بين « حرب الايام الستة » عام ١٩٦٧ و « حرب الغفران » عام ١٩٧٣ ، وتاثيرها على نتائج الاخيرة ، ومن تم الدروس التي يجب مراعاتها في السياسة العسكرية الجديده لاسرائيل التي يجب ان تنتهج عقب هذه الحرب . والواقع انه منذ ان استيقظ الجيش الاسرائيلي فجاة من سباته الأمني العميق بعد ظهر يوم السبت ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، وهناك نقاش وبحث طويل متعدد الاراء والاتجاهات يدور بين القادة والكتاب العسكريين والسياسيين في اسرائيل حول مدى صحة نظرية الامن وقدرتها على مواجهة التحدي العسكري العربي في المستقبل ، وضرورات تطوير هذه النظرية ووسائل تنفيذها في ضوء النواقص التي كشفت عنها الحرب .

● اسلوب تنظيم الجيش الاسرائيلي وعقيدته القتالية عشية « يوم الغفران » ١٩٧٣ :

لقد أعد الجيش الاسرائيلي خلال السنوات الفاصلة بين حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، وبقى كذلك حتى حرب ١٩٧٣ ، كجيش هجومي قادر على نقل الحرب الى اراضي العدو منذ الساعات الاولى لبدء القتال وفقا لاساليب وتكتيكات حرب الحركة السريعة الخاطفة ، وذلك حتى يستطيع ان يحقق اهداف اسرائيل التوسعية وفقا لمبدأ الحرب القصيرة ، التي تناسب ظروف اسرائيل من حيث نقص الموارد البشرية والاقتصادية وضيق الرقعة الجغرافية (أي الافتقار للعمق الاستراتيجي) بالقياس لموارد العرب المماثلة ، وكذلك من حيث ضرورة انجاز هذه الاهداف بسرعة لا تتيح للعرب فرصة ملائمة لحشد قواهم والاستفادة من تفوقهم الكمي ، كما لا تتيح للقوى الدولية المؤيدة لهم امكانات فعالة لوقف او عرقلة العمل العسكري الاسرائيلي الذي يتم وفقا لمناورة « الخرشوفة » ، اي القضم السريع المتتابع .

ولذلك اعطيت الاولوية في التسليح والتنظيم والمهام القتالية لاسلحة الطيران والمدرعات والمظليين على التوالي ، باعتبار ان سلاح الطيران يمثل قوة الحسم الرئيسية عن طريق توفير الحماية الجوية اللازمة لتقدم القوات البرية ولطرق مواصلاتها ووسائل امدادها ، فضلا عن حماية التجمعات السكانية ومراكز الحياة الاقتصادية للدولة ، وعن طريق تقديم الدعم الناري القريب والمباشر للقوات البرية (اي المدرعات والمشاة الميكانيكية بصفة رئيسية) بصورة قوية وسريعة تعاونها بفاعلية على انجاز الخرق التكتيكي للدفاع العربي ، وتطوير هجومها بسرعة في العمق العملياتي ، مع حرمان القيادات العربية في الوقت نفسه من امكانات تحريك احتياطياتها المدرعة والميكانيكية من العمق العملياتي او الاستراتيجي لتوجيه ضربات مضادة فعالة ، واثارة الارتباك الشديد في خطوط مواصلاتها وحركة امداداتها الادارية . وباعتبار ان سلاح المدرعات يجمع بين قوة النار والصدمة والحركة ويستطيع ان يقوم ، متى حشد في نقاط ضيقة من الجبهة وتلقي دعم الطيران والمدفعية، بخرق خطوط الدفاع والوصول الى عمقها التكتيكي وتطوير الهجوم في العمق العملياتي ضمن ايقاع حركة سريعة ، أي بمعدلات تقدم عالية تكفل تحقيق مبدأ الحرب الخاطفة. اما المظليون ، فكان دورهم الرئيسي هو القتال كمشاة ميكانيكية ، او مشاة محمولة جوا بطائرات الهليكوبتر ، لتطهير المواقع الدفاعية التي تقتحمها الدبابات الزاحفة في النسق الاول فتؤمن بذلك بقاء الثغرات مفتوحة لضمان وصول الامدادات الادارية للمدرعات المتقدمة ، او لاحداث اضطراب في خطوط المواصلات ومراكز الشؤون الادارية عندما تستخدم كمشاة محمولة جوا في العمق العملياتي ، وفي كلتا الحالتين تستثمر كفاءات جنود المظليين القتالية العالية كعنصر مكمل للمدرعات في الهجوم الصاعق السريع . اي باختصار بنيت القوات المسلحة الاسرائيلية على اساس التمحور حول ثنائي « الطائرة ـ الدبابة » الذي يشكل اداة الحرب الخاطفة . واهملت نسبيا اسلحة المشاة التقليدية والمدفعية والدفاع الجوي . ولذلك قلت الى درجة كبيرة مدافع الهاون والاسلحة المضادة للدبابات والمضادة للطائرات ، ليس فقط لدى تشكيلات المشاة التقليدية والميكانيكية ، وانما ايضا لدى الالوية المدرعة والتشكيلات الفرقية « الاوغدات » . كما اصبحت وحدات مدفعية الميدان والهاوتزر الملحقة بمختلف التشكيلات القتالية لا تضمن توفير دعم ناري كاف للتشكيلات البرية ، سواء في الهجوم او الدفاع ، بدون معاونة فعالة من الطيران . ولذلك ايضا كان الدفاع الجوي الاسرائيلي يفتقر الى الاسلحة الارضية الفعالة كميا ونوعيا ، اذ لم يكن لديه مثلا سوى ١٠ بطاريات صواريخ هوك (بكل منها ٦ صواريخ) ، ولم يكن لديه اعداد كافية من المدافع المضادة للطائرات ، او رشاشات موجهة بالرادار م/ط ، او صواريخ صغيرة مماثلة لسام ٧ ، ويرجع ذلك الى الاعتماد شبه الكلي في العقيدة العسكرية الاسرائيلية على الطائرات المقاتلة في التصدي للطيران المعادي ، ومن ثم تولد شعور بعدم وجود حاجة لانشاء تشكيلات قوية للاسلحة الارضية م/ط تستنفد قوى بشرية ونفقات مالية يمكن ان توظف في تطوير التشكيلات والاسلحة الهجومية ، ومن ثم تحقق مردودا تكتيكيا واستراتيجيا افضل .

وقد ارتبطت قدرة الجيش الاسرائيلي الهجومية على نقل الحرب الى اراضي العدو بسرعة وحسم الموقف العسكري بحرب خاطفة بضرورة اخذه للمبادرة الهجومية ، أي توجيه الضربة الاولى التي يسميها « آلون » ، في مجال التبرير الدعائي الديماغوجي ، بحق اسرائيل الادبي في القيام « بهجوم مضاد مسبق » . وقد شرح « يسرائيل طال » ذلك المبدأ الرئيسي في الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية فقال « ان جميع العوامل

التي منحت العرب التفوق كانت قائمة بين حملة سيناء وحرب الايام الستة . كذلك الحال بالنسبه لعوامل تفوقنا مثل النوعيه والخطوط الداخلية . لذا لم يطرأ تغيير على نظريه نقل الحرب الى اراضي العدو ولم يتغير مفهومنا الهجومي . الا اننا تبنينا بين حمله سيناء وحرب الايام الستة مبدا اهمية توجيه الضربة الاولى . اي ليس فقط نقل المعركه الى ارض العدو ، بل ايضا محاولة توجيه الضربة الاولى اليه »(٢).

وكان تطبيق مبدأ « الهجوم المضاد المسبق » هو السبيل الرئيسي للاستفادة من ميزه الحركه على الخطوط الداخلية التي يوفرها الواقع الجغرافي لاحاطة دول المواجهة العربيه لاسرائيل ، والتي تمكن الجيش الاسرائيلي في حاله اخذه للمبادرة الهجومية من تركيز قواه على احدى الجبهات ثم تغيير هذا التركيز الى الجبهات الاخرى بسرعة تفوق امكانات دول المواجهة العربية ، التي تعمل جيوشها على الخطوط الخارجية ولا تفيد منها الا في حالة اخذها للمبادرة الهجومية وحسن تنسيقها لجهودها المشتركة قبل واثناء المعركه . وقد شرح العميد احتياط « متتياهو بيلد » ارتباط مبدأ الهجوم المضاد المسبق بالحركة على الخطوط الداخلية شرحا مطولا ، رأينا ذكر معظمه لتوضيح طريقة تفكير القيادة الاسرائيلية في هذه المسألة الهامة بدقة ، فقال « منذ حرب الاستقلال (يقصد حرب ١٩٤٨) واستنادا الى تجاربها ، تم تحديد قاعدتين رئيسيتين وجهتا تفكيرنا العسكري . القاعدة الاولى تقضي بأن ينقل الجيش الاسرائيلي الحرب باسرع وقت ممكن الى أرض العدو . اما القاعدة الثانية فكانت تؤكد على أن لا يبذل الجيش الاسرائيلي كل الجهد على جبهة واحدة ولكن على أن يكون في الوقت نفسه مركزا جهده الاساسي على احدى الجبهات . . . ان قاعدة نقل الحرب الى اراضي العدو بأكبر سرعة ممكنة تلزم من الناحية العملية والتنفيذية اخذ زمام المبادرة التكتيكية ثم نقل الحرب الى اراضي العدو . ونظرا لان المبادر يستطيع ان يقرر حشد قواته وفقا لرغبته ، فان الذي يحدث على الطبيعة هو ما كان قد قرره سلفا ، اي انه سيحدد جبهة الجهد الرئيسي في المرحلة الاولى وجبهة الجهد الثانوي ، اي الجبهة الدفاعية خلال المرحلة المذكورة . وبما ان المبادرة التكتيكية توفر القدرة على تحقيق الحسم السريع ، فان المبادر يستطيع ، وبسرعة ، نقل القوات التي فرغت من جبهة الجهد الرئيسي الى الجبهة الاخرى . . . وان الخطر هو أن تكون الجبهتان في حاجة الى جهد رئيسي في الوقت نفسه . . . وبناء على هذا فقد تم تطوير الحل الاساسي لمواجهة هذا الخطر ، وخاصة في المانيا خلال القرن التاسع عشر ، وكان هذا الحل هو تطوير شبكة خطوط داخلية تمكن من نقل القوات بصورة سريعة جدا من جبهة الى اخرى . وبهذه الطريقة فأن الدولة التي تعاني من وضع التطويق تحول هذه النقيصة الى ميزة ، لانها تكون مؤهلة لنقل قواتها من جبهة الى اخرى بسرعة اكبر من سرعة اعدائها ، وتكون لديها دائما القدرة على خلق نقاط ثقل في المكان الذي تختاره . وذلك طالما ان حرية الحركة تظل في يدها ، وطالما ان جيشها مدرب جيدا وعلى مستوى مرتفع من الاستعداد ، فان مثل هذه الدولة لا ينبغي ان تخشى هجوما منسقا من قبل جيرانها . ذلك لانها تملك دائما ان تخترق هذا التنسيق . ان هذا المبدأ الاساسي تحول بعد حرب « الاستقلال » الى حجر زاوية في المفهوم الامني للجيش الاسرائيلي »(٣).

وقد تناسى « بيلد » في معرض مقارنته وضع اسرائيل الجغرافي ، من حيث تمتعها بميزة الحركة على الخطوط الداخلية ، بوضع المانيا المماثل ، ان المانيا قد هزمت في الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وان استفادتها من هذه الميزة على النحو الامثل في بداية الحرب العالمية الثانية حين استطاعت ان تستغل التردد السياسي الفرنسي — البريطاني على الجبهة الغربية (المستند الى روح اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨ الانهزامية)

وتثبت هذه الجبهة دفاعيا ، ثم وجهت قواتها الرئيسية نحو (بولندا) في حملة خاطفة استغرقت ٣ اسابيع ، تحولت بعدها الى الجبهة الغربية التي بقيت « هادئة » باستثناء بعض الهجمات الصغيرة التي لم تخرج عن كونها مظاهرة احتجاج مسلحة على سياسة « هتلر » العدوانية عززتها « حرب منشورات » تدعو الشعب الالماني الى وقف هـذه السياسة والمحافظة على « السلام » ، ثم وجهت اليها هي الاخرى ضربة خاطفـة في ايار (مايو) ١٩٤٠ . استغرقت ٦ اسابيع واسفرت عن سقوط فرنسا وهولندا وبلجيكا. ولكن بمجرد ان استطاعت بريطانيا ان تصمد امام الحرب الجوية الالمانيـة وحصار الغواصات في عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، ثم تمكنت جيوش « جوكوف » السوفييتية ان تفشل تكتيكات « الحرب الخاطفة » عند مشارف موسكو وتلحق الهزيمـة بالجيوش الالمانية هناك في شتاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ ، وتولد التنسيق الفعال بين الجبهتين الشرقية والغربية اثر ذلك وتوالت الضربات عليهما من جانب الحلفاء ، حتى انهارت العسكرية الالمانية ، رغم تمتعها بميزة الحركة على الخطوط الداخلية وبالجيش.« المدرب جيدا »، بحكم افتقارها الى الحجم اللازم الكمي في موارد القوة العسكرية البشرية والاقتصادية بالقياس لموارد الحلفاء . وخلاصة القول أن قـدرة الجيش الاسرائيلي علـى تحقيق الحرب الخاطفة ارتبطت تماما بمبدأ « الهجوم المضاد المسبق » ، اي امكانية توجيـه الضربة الاولى ، التي تنقل الحرب الى أرض العدو بسرعة ، وتمكن اسرائيل عمليـا من التخلص من الاحتمالات الخطرة لهجوم عربي منسق ، والناجمة عن كونها جغرافيا محاصرة من ثلاث جهات بـدول عـربية معادية ، ومن ثـم تحويل هـذه النقيصة الاستراتيجية ــ الجغرافية الى ميزة عن طريق استثمار ممكنات الحركة على الخطوط الداخلية . وضمن هذه الشروط المتكاملة الاداء اصبح في امكان القيادة الاسرائيلية أن تحقق مبدأ « الاعتماد على القوة الذاتية » الذي لا يجعل اسرائيل في حـاجة مباشرة لمساعدات عسكرية خارجية اثناء قيامها بحروبها التوسعية العدوانية ، ومن ثم اثبات مبدأ « التفوق النوعي » الاسرائيلي في مقابل « التفوق الكمي » العربي ودعم او اثبات صحة مبدأ « الردع » ، والقدرة على الحسم السريع ، التي تعطي للردع مصداقيـة عملية تهدف الى توليد « قناعة » لدى القيادات السياسية العربية بعدم جدوى مجابهة اسرائيل عسكريا . وجاءت حرب ١٩٦٧ لتقدم دليلا عمليا على صحـة نظرية الامـن الاسرائيلية بصورة براقة خادعة ، اخفت ضمن بريقهـا السـاطـع عوامل الضعف الحقيقية الموجودة في هذه النظرية ، والشروط الشديـدة الخصوصية ذات الطابع الوقتي التي يجب توافرها كي تعمل مبادىء هذه النظرية بطريقة فعالة ، والتي يمكن أن نوجزها في النقاط التالية :

١ ــ اتخاذ القيادات السياسية العربية لاستراتيجية دفاعية جامدة تجاه اسرائيل بغية تجنب امكان وقوع مجابهة مباشرة بينها وبين الامبريالية الامريكية ، خاصة وأن اخذ المبادرة الهجومية سيؤدي الى اختراق حدود اسرائيل المعترف بها دوليا تقريبـا منذ انتهاء حرب ١٩٤٨ ، ومن ثم تبدو الدول العربية في صورة المعتدية عـلى دولـة اسرائيل التي اكتسبت شرعية دولية ، وفي هذه الحالة يصعـب ضمان استمـرار الحصول على دعم المعسكر الاشتراكي عسكريا وسياسيا بحكـم انه يعترف بهـذه الشرعية .

٢ ــ ضعف التنسيق العسكري الفعال بين دول المواجهة العربية من جهة وبينهـا وبين الدول العربية الاخرى التي يمكن ان تدعمها عسكريا ، وعدم وجود خطة عمل استراتيجية واضحة ومتفق عليها بين هذه الدول جميعا من جهة اخرى .

٣ ـ سيطرة اوهام الامن القطري على قادة دول المواجهة العربية السياسيين والعسكريين ، ومعالجتهم لمشكلة اسرائيل من منطلق انها مجرد اعتداء على شعب عربي شقيق هو الشعب الفلسطيني الذي يجب ضمان حقوقه المشروعة ، ومن ثم خططوا استراتيجيتهم العليا تجاه اسرائيل على اساس ضرورة المحافظة على « الوضع الراهن » وعدم السماح للعدو بخلق وضع جديد اكثر سوءا ، وترجمت هذه السياسة الى استراتيجية دفاعية جامدة كما سبق أن قلنا ، تلخصت في توزيع قوات هذه الدول داخل مواقع دفاعية ثابتة عند الحدود دون أن تتوفر لها وسائل الدفاع الديناميكي ، بل دون ان يتوفر لها عمليا التدريب الفعال على الهجوم والروح التعرضية الهجومية .

٤ ـ انخفاض المستوى الثقافي والتقني لضباط وجنود جيوش دول المواجهة ، بالقياس لضباط وجنود الجيش الاسرائيلي ، ومن ثم ضعف استيعاب هذه الجيوش للاسلحة والمعدات الحديثة التي حصلت عليها بكميات ونوعيات لا تقل بأي حال من الاحوال عن كميات ونوعيات التسليح الاسرائيلي . وفاقم من نتائج هذا الوضع كله الانخفاض العام في حرفية الضباط والقادة العسكريين ، خاصة بالنسبة للمستويات القيادية الهامة (ومع وجود استثناءات عدة بطبيعة الحال لم تستطع ان تغير عمليا من النتيجة لهذا الوضع) . وفي النتيجة الاخيرة انتصرت نظرية الامن الاسرائيلية انتصارا ساحقا في ٥ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ووصلت القوات الاسرائيلية الى « الحدود الآمنة » التي حلم بها « الون » وقادة اسرائيل الآخرين منذ حرب ١٩٤٨ ، واصبح للدولة عمق استراتيجي حقيقي للمرة الاولى ، ومن ثم لم تعد في حاجة ماسة الى شن « هجوم مضاد مسبق » لدى ظهور أي بادرة هجومية عربية محتملة في أفق الصراع القائم ، وذلك الى ان يتم استيعاب الارض الجديدة بصفة نهائية الى الارض الاصلية وتتوفر الظروف الملائمة دوليا ومحليا لقفزة جديدة ، أي الى ان تتاح الفرص والامكانات اللازمة لتطبيق مناورة « الخرشوفة » أو « القضم المتتابع » مرة أخرى وفقا لاحكام المشروع الصهيوني .

• ابرز التطورات بعد حرب ١٩٦٧ :

وهكذا اضيف مبدأ « الحدود الآمنة » الى نظرية الامن الاسرائيلية في اعقاب حرب ١٩٦٧ ، وتدعم في الوقت ذاته مبدأ « التفوق النوعي » ومبدأ « الردع »، واصبحت لهذه المبادىء الثلاثة مكانة الصدارة في هذه النظرية ، التي اكتسبت نتيجة لهذه التطورات الجديدة روحا دفاعية تعززها القدرة الردعية الديناميكية للسلاح الجوي الاسرائيلي . وقد تأكدت هذه الروح وتلك القدرة الردعية خلال مرحلة حرب الاستنزاف التي جرت على الجبهة المصرية في عامي ١٩٦٩ ، ١٩٧٠ ، والتي اضطرت فيها القيادة الاسرائيلية ان تلجأ للمرة الاولى في تاريخها العسكري الى بناء خط دفاعي ثابت على طول الضفة الشرقية لقناة السويس ، وهو خط بارليف ، لامتصاص القصف المدفعي المصري الذي شكل الصورة الرئيسية للهجوم المصري وقتئذ (أي الهجوم بالنار فقط دون الحركة والصدمة) ، ولذلك لجأت الى ضربات الطيران الرادعة واغارات القوات المحمولة جوا في العمق الاستراتيجي المصري كبديل هجومي محدد « للهجوم المضاد المسبق » الكبير الذي درجت عليه من قبل ، وتهيأ الجيش الاسرائيلي ضمن هذه المنظومة الدفاعية التي حاولت ان تجمع بين الدفاع الثابت والدفاع الديناميكي ، لصد اي هجوم مصري عام عبر القناة وتوجيه ضربة مضادة له . ويشرح الكاتب الاسرائيلي « دان هوروفيتش » تأثير هذه التغيرات الاستراتيجية على الجيش الاسرائيلي عشية حرب ١٩٧٣ فيقول « ظهرت فكرة « الحدود الامنة » بعد

حرب الايام الستة ، ولكن هذه الفكرة اتفقت بصعوبة مع مفاهيم اخرى اكثر قدما في نظرية الامن الاسرائيلي . فبدلا من مفهوم « أسباب الحرب » (الذي كان يبرر الضربة الاولى) اصبح مفهوم « الحدود الامنة » فرضية استراتيجية دفاعية تقوم على امتصاص الضربة الاولى وتوجيه ضربة مضادة بعد ذلك ... وهكذا خلق تناقض بين هذه الاستراتيجية الدفاعيه والنظريه العملية الهجومية التي استمرت تشكل الاساس في تنظيم القوات بجيش الدفاع الاسرائيلي »(٤). وهكذا استمر الجيش الاسرائيلي ، المنقسم الى جيش عامل صغير وجيش احتياطي كبير ، والمعتمد على الالوية المدرعة والطيران ، اي جيش ما قبل ١٩٦٧ . هو نفسه الموكول اليه حماية « الحدود الآمنة » ومهام « الدفاع الثابت » عشية حرب ١٩٧٣ .

● **تكشف النواقص في حرب « يوم الغفران » :**

ادت سيادة مبداي « التفوق النوعي » و « الردع » على الذهنية الاسرائيلية السياسية والعسكرية طوال السنوات الفاصلة بين ١٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٧ و ٦ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ ، وعدم استخلاصها لمغزى التطورات التكتيكية والتقنية التي لحقت بالجيش المصري خلال حرب الاستنزاف (خاصة بالنسبة لاسلحة الدفاع الجوي والروح التعرضية لوحدات المغاوير التي كثيرا ما هاجمت التحصينات ونصبت الكمائن للدوريات المدرعة الاسرائيلية في الضفة الشرقية للقناة) ، الى عدم ادراك القيادة السياسية والعسكرية الاسرائيلية للتناقضات الرئيسية التي تتضمنها نظرية الامن الاسرائيلية في الظروف التالية لحرب ١٩٦٧ ، فضلا عن عدم ادراكها للتناقضات الاصلية لهذه النظرية الهشة التي بنيت على اساس استمرار فرضيات سلبية معينة في العمل الاستراتيجي العربي سياسيا وعسكريا . ومن ثم تعرض الجيش الاسرائيلي والطيران للمفاجأة الاستراتيجية وسلسلة من المفاجآت في بداية الحرب نوجزها في النقاط التالية :

١ ــ فوجىء الطيران الاسرائيلي ، الذي يعد القوة النارية الرئيسية للجيش البري (اذ تستطيع طائراته ان تحمل نحو ١٥٨٥ طنا من القنابل في الطلعة الواحدة) ، بفاعلية الاسلحة الارضية المضادة للطائرات لدى الجيشين المصري والسوري ، وخاصة فاعلية صواريخ « سام ٦ » والمدافع الرشاشة رباعية السبطانة من عيار ٢٣ مم الموجهة بالرادار « زدس يو ــ ٢٣ ــ ٤ » (التي يمكن ان ترجع اليها وحدها ثلث خسائر الطائرات الاسرائيلية في الحرب) ، وقد نتج عن ذلك خسارة ١٠٠ طائرة في كل ١٠,٠٠٠ طلعة طيران(٥) وفقا لتقدير الجنرال جريجو رئيس اركان القوات الجوية الفرنسية) ، وهو معدل خسائر مرتفع للغاية بالقياس لمعدل خسائر الطيران الامريكي فوق فيتنام الشمالية الذي كان يبلغ ٢٥ طائرة في كل ١٠,٠٠٠ طلعة، ويزيد قليلا عن معدل خسائر الطيران خلال الحرب العالمية الثانية الذي بلغ ٩٠ طائرة في كل ١٠,٠٠٠ طلعة . ويرجع ارتفاع خسائر الطيران الاسرائيلي عن خسائر الطيران الامريكي في فيتنام الشمالية ، رغم استخدام الطرفين العربي والفيتنامي لاسلحة ومعدات مماثلة تقريبا باستثناء « سام ٦ » ، ليس فقط الى فاعلية الصاروخ الجديد « سام ٦ » ، الذي لم يكن الطيران الاسرائيلي قد واجه من قبل خلال حرب الاستنزاف، او فاعلية المدافع « زدس يو ــ ٢٣ ــ ٤ » ، وانما ايضا لان الطيران الامريكي كان يستخدم عددا كبيرا من الطائرات المزودة بمعدات الكترونية مضادة ومن الطائرات المخصصة لمهاجمة بطاريات الصواريخ والاسلحة م/ط الاخرى يفوق عدد الطائرات التي تهاجم الاهداف الاصلية المطلوب تدميرها بنسبة تصل الى ٣ : ١ في بعض

الحالات ، وهو الامر الذي لم يكن متاحا للطيران الاسرائيلي في « يوم الغفران » نظرا لسوء تقدير قيادة السلاح الجوي لقدرات الدفاع الجوي العربي تقنيا وبشريا من جهة، ومن جهة اخرى لان متطلبات توفير اكبر قوة ضاربة للسلاح الجوي الاسرائيلي بأقل قدر ممكن من القوى البشرية والنفقات المالية دفعت قيادته الى توحيد نوعية غالبية طائراته من حيث المهام القتالية بحيث تكون كلها قاذفات مقاتلة او قاذفات هجوم أرضي ، ومن ثم لم يكن هناك مجال فعال لوجود فرع يعتد بـه في السلاح الجوي الاسرائيلي لممارسة الحرب الالكترونية والتخصص في مهاجمة اسلحة الدفاع الجوي الارضي المختلفة . وفي النتيجة افتقرت الوحدات الصغيرة من المشاة المبعثرة على تحصينات خط « بارليف » و « الجولان » ، وكذلك الوية المدرعات العاملة (٣ في سيناء و ٢ في الجولان) الى الدعم القريب لنيران الطيران ، التي كانت تشكل جزءا رئيسيا من معادلة الصد المعدة لامتصاص الضربة العربية الاولى لحين تعبئة الاحتياط وتوجيه الضربة الثانية اي شن الهجوم المضاد ، هذا فضلا عن افتقارها اصلا لنيران الدعم المدفعي الكافي .

٢ — وكانت المفاجأة الثانية في « يوم الغفران » هي تدمير المشاة العربية المترجلة للدبابات الاسرائيلية عن طريق استخدامها الكفؤ لشبكة الاسلحة م/د المكثفة التي ضمت صواريخ « ساغر » وقذائف « آر بي جي ٧ » والمدافع عديمة الارتداد عيار ٨٢ مم و ١٠٧ مم ، وكانت الصواريخ اكثر هذه الاسلحة فاعلية اذا قدر ما دمرته من دبابات وناقلات الجنود المجنزرة ونصف المجنزرة الاسرائيلية خلال الاسبوع الاول من الحرب على كلا الجبهتين بنحو ٦٥٠ دبابة وناقلة جنود مدرعة ، كما بلغت نسبة النصيب الاجمالي لخسائر الدبابات الاسرائيلية الناتجة عن الاسلحة م/د نحو ٥٠٪ من جملة الخسائر ، على حين دمر نحو ٣٠٪ من الدبابات في معارك دبابات ونحو ٢٠٪ بواسطة نيران الطيران والالغام م/د(٦). وقد عبر الكاتب العسكري الفرنسي المقدم « ر. جيللي » عن فاعلية الدور الذي لعبته المشاة العربية في مواجهة المدرعات الاسرائيلية في دراسة له بعنوان « عودة المشاة او مشاة جديدة للعام ٢٠٠٠ » فقال « في الآونة الاخيرة بدا حكام تل ابيب وكأنهم يعيشون دوما على ذكريات تفوقهم الساحق عام ١٩٦٧ في قتال دبابة الى دبابة وطائرة الى طائرة . ولكن الدبابة والطائرة خضعتا كلاهما لامتحان في مواجهة جديدة وفعالة فتأثر عملهما بصورة ظاهرة ... لقد ظهرت في الشرق الاوسط مشاة قادرة على خوض معارك تجمع بين القديم والحديث . فهي بالفعل « قديمة » ، بل بدائية ، عندما تسير بكثافة ... ولكنها « جديدة » بشكل مدهش بضراوتها ومقدرتها على مواجهة الدبابات ... واذا ما قمنا بفحص موضوعي للمعارك التي دارت رحاها في الشرق الاوسط ، نجد ان وجود اعداد كبيرة من المشاة في المعسكر العربي ، تتمتع بروح معنوية عالية ومقدرة ضد الدبابات خارقة جدا ، كان أحد العناصر الرئيسية في تحقيق المفاجأة التكتيكية ... ويبدو ان هيئة الاركان الاسرائيلية قد قللت من اهمية العامل البشري وقيمته اكثر بكثير مما قللت من قيمة التكنولوجيا السوفييتية »(٧).

٣ — والمفاجأة الاكثر أهمية ، على المستوى الاستراتيجي ، كانت في أخذ الجيوش العربية للمبادرة الهجومية وبصورة منسقة تماما على جبهتين في بداية الحرب . ولقد شكل هذا الهجوم المنسق تطورا جديدا للغاية بالنسبة للصراع العربي — الاسرائيلي، على الرغم من محدودية الاستراتيجية العليا للحرب (خاصة على الجبهة المصرية) ، وعلى الرغم من بطء ايقاع تقدمه في جبهة سيناء والاخطاء التي لحقت سرعة تقدمه في

جبهة الجولان . وذلك نظرا لانه اوضح بصورة عملية مدى المازق الاستراتيجي الذي يصبح فيه اسرائيل عند استغلال العرب لميزة الحركة على الخطوط الخارجية التي يتمتعون بها نظريا منذ عام ١٩٤٨ ، وهو المازق الذي سيؤدي الى هزيمتها الحتمية . متى احسن حشد القوى العربية وتنسيق هجومها والمحافظة على استمرارية وسرعة ايقاعه وتوازنه ، وقد اشار « يسرائيل طال » الى هذه الحقيقة ، التي اكدتها تجربة حرب تشرين الاول (اكتوبر) التي لم تتم ، وشدد على ضرورة عدم تكرارها والسبيل العملي الذي يجب على اسرائيل ان تسلكه لتجنب ذلك مستقبلا فقال « لقد تبنى العرب استراتيجية هجومية صحيحة على طول الجبهة من الشمال في سوريا ، ومن الجنوب على طول قطاع قناة السويس . لقد استطاعوا العمل بهـذا الشكل بسبب تفوقهم الكمي ، ونتيجة لذلك كانت قواتنا متبثة على طول الجبهة . لقد خاضت اسرائيل حربين بريتين منفصلتين . ويجب ان يكون استنتاجنا ان ميزان القوى مـن حيث الكم ، وفي ظروفنا ، يجب ان يكون لصالح المدافع ، وبما انه ليس لدينا اي احتمال لتحقيق تفوق كمي ، فاننا مضطرون ان نتبنى مفهوما امنيا هجوميا . لا نستطيع ان نسمح لانفسنا ، لا من ناحية السياسة الامنية ولا من ناحية النظرية الامنيـة ولا من ناحيـة الحـلول العملية ، اتباع اسلوب الدفاع . يجب ان تخرج دولة اسرائيل للهجوم والحرب وذلك بتركيز القوى والمهاجمة ، وذلك عندما يتهددنا خطر جدي ، ويجب ان يكون هذا هـو السبب الموجب للحرب . علينا ان نقولها علنا ، وليعرف العالم كله ، بمـا في ذلـك العرب ، ان هذه هي قوانين اللعبة . وهذا يتطلب الاستمرار ببناء الجيش مع التشديد على القوات الجوية والتشكيلات المتحركة والمدرعة وعلى القوات المحمولة جوا »(٨). وفي النتيجة فشلت معارك الصد الاولى في الجبهة المصرية ، وكـادت ان تفشـل في الجبهة السورية ايضا ، وترتبت عليها خسائر فادحة . كما ان معارك الهجوم المضاد سارت ببطء شديد وبخسائر عالية للغاية ولم تحقق نتائج حاسمة على كلا الجبهتين ، وتوقف القتال بتدخل القوى الدولية وبدون ان تتحطم الجيوش العربية او تنهار معنويا كما تعودت اسرائيل من قبل ، بل اضطر الجيش الاسرائيلي الى خرق قـرار وقـف اطلاق النار يوم ١٩٧٣/١٠/٢٢ ليفاجىء القوات المصرية غرب القناة ويستطيع ان يحقق هدفه من وراء عملية « الدفرسوار » الذي فشل في تحقيقه اثناء سير القتال ، وهو تطويق قوات الجيش الثالث في السويس .

● **الدروس الاسرائيلية المستفادة من الحرب :**

نستطيع ان نلخص الدروس التي خرج بها الفكر العسكري الاسرائيلي من حـرب « يوم الغفران » ، والتي ترددت تفاصيلها في عديد من الكتابات الاسرائيلية منذ نهايـة هذه الحرب حتى الان ، في النقاط الرئيسية التالية :

١ ــ على الرغم من أن الاراضي العربية المحتلة عـام ١٩٦٧ قد وفـرت عمقـا استراتيجيا لاسرائيل له اهميته في امتصاص الضربة العربية الاولى ، خاصة في سيناء، الا انه ثبت ان هجوما عربيا منسقا على اكثر من جبهة تتوفر لـه استعدادات جيدة وادارة عمليات كفوءة وفترة زمنية ملائمة لتنفيذ اهدافه الاستراتيجية حتى ولو كانت محدودة ضمن اطار شعار استرداد الارض المحتلة عام ١٩٦٧ ، كفيل باجبار الجيش الاسرائيلي على القتال في جبهات برية منفصلة لا تخدمها ميزة الحركة على الخطـوط الداخلية ، ومن ثم يحرم من قدرة تركيز قواه الرئيسية بسرعة عـلى احدى الجبهات لحسم الموقف فيها بهجوم مضاد فعال ثم نقل ثقله الاساسي مرة اخـرى الى جبهـة ثانية . ومن ثم تطول فترة الحرب ، وتزيد الخسائر والمخاطر الاستراتيجية ، وتضطر

اسرائيل لطلب المساعدات العسكرية الخارجية اثناء القتال . ولذلك فان « الحدود الآمنة » لم تعد كافية بحد ذاتها لضمان نجاح استراتيجية دفاعية ، ولا بد من العودة مجددا الى استراتيجية « الهجوم المضاد المسبق » ، اي الى سياسة توجيه « الضربة الاولى » . وقد عبر الجنرال « يسرائيل طال » عن هذه الفكرة بوضوح في الفقرات التي اشرنا اليها مسبقا وفي فقرات اخرى وردت ضمن محاضرة له القاها في « بيتح تكفا » ، اثر تعيينه في منصب طوارىء كبير في تشكيلات الاحتياط في الجيش الاسرائيلي في ١٩٧٤/١٢/١٣ ، قال فيها « على الرغم من ان الحدود قد ابتعدت منذ حرب الايام الستة ، واصبح لدينا عمق استراتيجي ، فاننا لا نستطيع السماح لانفسنا بخوض حرب دفاعية في المستقبل ، بل علينا ان نخوض حربا هجومية في عمق اراضي العدو ... ونستطيع ، كما هو معروف ، ان نخوض حروبا دفاعية ، كما حدث في الايام الاولى من حرب يوم الغفران ، ولكن في مثل هذه الحالة ، سيكون العرب هم الذين يحددون امد الحرب ، وسنضطر نحن الى دفع ضريبة ضخمة في ميدان القتال »(٩).

وتناول « زئيف شيف » المسألة فقال « ان العمق الاستراتيجي يمنح المدافع نفسا طويلا ، وفي مكان كسيناء ، يحول دون نقل الحرب بسرعة الى مناطق مأهولة بالسكان . بيد انه لا يضمن سلفا بأن لا يكون للمهاجم في المرحلة الاولى تفوق كبير ويصيب المدافع بخسائر كبيرة »(١٠).

والواقع انه ليست فقط « الحدود الآمنة » ، وما ولدته من شعور بالاطمئنان المترتب على وجود العمق الاستراتيجي ، كان السبب لتخلي اسرائيل جزئيا عن مبدأ « توجيه الضربة الاولى » من الناحية النظرية (اذ انها كانت عمليا لا تملك خيارا اخر عشية بدء الحرب) ، وانما كان سوء تقديرها السياسي — الاستراتيجي لنوايا وقدرات العرب العسكرية ، الناتج عن احساسها الامني المفرط بتفوقها العسكري وقدرتها على ضرب الجيوش العربية بسهولة تحت اي ظرف ، هو الذي قادها فعليا الى عدم شن « هجومها المضاد المسبق » هذه المرة . ولذلك فان العودة الى التمسك المطلق بهذا المبدأ تشكل ضرورة امنية كبرى لاسرائيل حتى يمكن لنظريتها الامنية ان تستعيد توازنها وتعمل مبادئها المترابطة بعضها ببعض ، اذ ان فقدان المبادرة الهجومية يقود الى فقدان الحركة على الخطوط الداخلية بفاعلية ، وفقدان القدرة على الحسم السريع ، ومن ثم فقدان « الحرب القصيرة » والاضطرار الى طلب المعونة الخارجية العاجلة ، وبالتالي يضيع ايضا مبدأ « قوة الردع » .

٢ — في ضوء ما اثبتته الجيوش العربية من تطور نسبي في قدراتها القتالية (من وجهة النظر الاسرائيلية) والتي زاد كثيرا من خطورتها التفوق الكمي لتشكيلاتها العاملة ، التي تستطيع ان تدخلها الحرب بعد ساعات قليلة من انذارها بذلك ودون حاجة لاجراءات تعبئة عامة ، اصبح من الضروري للجيش الاسرائيلي العامل ان يصبح اكبر مما كان عليه من قبل وأن تقل النسبة العامة لقوات الاحتياط بالقياس لنسبة القوات العاملة ، ولذلك اصبح عدد الجيش العامل يقدر عام ١٩٧٤ بنحو ١٢٥ الف جندي (١٥٠٠٠ دائمين و ١١٠ آلاف مجندين) واصبح الجيش الاحتياطي يقدر بنحو ٢٥٠ الف جندي اخرين ، على حين ان عدد الجيش العامل عام ١٩٧٣ نحو ٩٥ الف جندي وعدد الجيش الاحتياطي نحو ١٨٠ الف جندي(١١). وبالاضافة الى هذا اصبحت التشكيلات الفرقية هي الاساس في تشكيلات الجيش البري وذات صفة دائمة حتى تستدعي اليها قوات الاحتياط مباشرة وتتوفر بذلك قوة ضاربة مركزة فورا ، وتفيد معلومات بعض الدوائر المطلعة انه في نهاية عام ١٩٧٤ اصبح لدى الجيش الاسرائيلي

٧ تشكيلات فرقية « أوغدات » ذات تنظيم ثابت تتفاوت في حجمها بين ٢ لواءين مدرعين ولواء ميكانيكي او٢ لواءين مدرعين و٢ لواءين ميكانيكيين، فضلا عنوجود كتيبة مدفعية مستقلة بأي « اوغدا » وكذلك كتيبة دفاع جوي بخلاف المدفعية والاسلحة ٢/ط الملحقة عضويا بالألوية ، وتتواجد هذه « الفرق » بدرجات متفاوتة الحجم من حيث نسبة القوات العاملة . وبالاضافة الى هذه « الفرق » السبع توجد لدى الجيش الاسرائيلي ٥ الوية مدرعة اخرى مستقلة و ٥ الوية مظليين (تستخدم كمشاة ميكانيكية او قوات محمولة جوا) و ٥ الوية مدفعية مستقلة و ٩ الوية مشاة محمولة ، وتتفاوت ايضا درجات التعبئة العاملة لهذه التشكيلات كما هو الحال بالنسبة للفرق . وتهدف قيادة الجيش الاسرائيلي من تضخيم حجم القوات العاملة وحجم التشكيلات القتالية ، ليس فقط توفير امكانات افضل لصد اي هجوم عربي مفاجيء ، وانما ايضا تحضير نواة جاهزة من القوات العاملة القادرة على بدء هجوم مفاجيء على احدى الجبهات العربية دون استدعاء مسبق لقوات الاحتياط ، قد يلفت انتباه القيادات العسكرية العربية ويضيع عنصر المفاجأة الاستراتيجية ، على ان تلحق بها قوات الاحتياط اثر ذلك مباشرة كنسق ثان للهجوم .

٣ ــ ولمواجهة التطورات التقنية والتكتيكية للاسلحة المضادة للدبابات والمضادة للطائرات ، والتي كانت تعتبر مجرد اسلحة دفاعية من قبل ، التي استخدمتها الجيوش العربية بفاعلية هجومية شلت كثيرا من قدرة الطائرة والدبابة وفكت الترابط التكتيكي السابق لهما « ثنائي الطائرة ــ الدبابة » ، تعمل القيادة العسكرية الاسرائيلية على اعادة التوازن في قوى النيران والاسلحة والمعدات المعاونة المتمحورة حول « الدبابة » و « القاذفة المقاتلة » ضمن صياغات جديدة من التخصص النسبي في المهام بالنسبة لكل منهما . ومن تعاونهما مرة اخرى ، بأسلوب جديد يكفل الافادة من مز ايا هذا التعاون ويعيد للعمليات البرية سرعة ايقاعها في الظروف الجديدة لتطور التسليح والتدريب وادارة القتال لدى الجانب العربي ، والتي لا يمكن اغفالها مرة اخرى . ولذلك يجري زيادة تشكيلات المشاة الميكانيكية وتدعيم تسليحها وتحسين معداتها الحركية في الالوية المدرعة و « الاوغدات » ، وكذلك الحال بالنسبة لقطع المدفعية الملحقة بهذا التشكيلات ، فضلا عن زيادة التشكيلات الاحتياطية المستقلة من المدفعية لضمان توفير قوة نيران اضافية عند الضرورة .

وبالاضافة الى ذلك تضم ، كما وكيفا ، قدرة طائرات الهليكوبتر المضادة للدبابات وللمشاة ، وكل هذا من أجل توفير قوه نيران كافية ومتنوعة المصادر ضد المشاة والاسلحة م/د والدبابات والمدفعية ، دون الاضطرار للدعم القريب بنيران القاذفات المقاتلة او طائرات الهجوم الارضي ، الامر الذي يتيح للدبابات اداء مهماتها القتالية الاصلية بكفاءة افضل .

أما بالنسبة للاسلحة م/ط فتتركز الجهود في سلاح الطيران من اجل تعزيز قدرته في الاستطلاع الجوي والالكتروني لتتوفر له امكانات افضل للهجوم وتجنب اخطار الدفاع الجوي (ولذلك يزود السلاح الجوي الاسرائيلي بعديد من الطائرات الموجهة بدون طيار وبطائرات متطورة للحرب الالكترونية وللانذار المبكر) ، ومن اجل جعله قادرا على مهاجمة بطاريات الصواريخ من مسافات آمنة خارج مداها المؤثر (فضلا عن تجهيزه بالمعدات اللازمة للتشويش الالكتروني) وذلك بواسطة الصواريخ جو ــ ارض الموجهة من انواع « كوندور » و « شرايك » الخ . هذا بالاضافة لزيادة قدرته على اصابة اهداف « النقطة » ، كما يقال ، عن طريق تزويده بقنابل « الليزر » . وللحيلولة دون التعرض لمفاجأة جديدة في مجال التفوق الجوي بواسطة قتال طائرة ضد

طائرة ، نظرا لتزود الاسلحة الجوية العربية بطائرات قتال جوي متطورة من انـــواع « ميغ ــ ٢٣ » و « ميراج ف ــ ١ » واحتمال تطور قدرات القتال الجوي العربي بكافة عناصرها ، يعمل الطيران الاسرائيلي (بمساعدة الولايات المتحدة الامريكية) علــى الحصول على احدث الطائرات المقاتلة الثقيلة والخفيفـــة (ولذلـــك سيحصل علـــى طائرات « الايغل » ف ــ ١٥ وطائرات ف ــ ١٦ تقريبا) ، ومن ثم سيشهد الســـلاح الجوي الاسرائيلي انواعا من التخصص التقني والقتالي بدرجة لم يعرفها من قبـــل ، الامر الذي سيزيد من نفقاته المالية واعبائه البشرية والتنظيميـــة بدرجـــة كبيـــرة ، ويخرجه نهائيا من مرحلة الاعتماد على نوعية واحدة تقريبا من الطائرات الذي شهدته حرب ١٩٦٧ ، واستمر تقريبا حتى حرب ١٩٧٣ .

٤ ــ ونظرا لمخاطر الاعتماد المطلق على احتمال نجاح « الحرب القصيـــرة » ازاء ارتفاع القدرات القتالية العربية ، تعمل القيادة العسكرية الاسرائيلية عـــلى زيـــادة مخزونها من الذخيرة واحتياطي الاسلحة والمعدات وقطع الغيار قـــدر الامكـــان كي تستطيع ان تخوض حربا هجومية طاحنة لمدة لا تقل عن ثلاثة اسابيع في المستقبـــل دون الحاجة لجسر جوي أو بحري اثناء الحرب .

٥ ــ وحتى لا تتكرر النواقص التي كشف عنها الاستدعاء المفاجىء لقوات الاحتياط ، من حيث عدم صلاحية كثير من المعدات للاستخدام الفوري ونقص الذخيرة وبعـــض المعدات الخ ، يجري العمل بكل الوسائل الممكنة لرفع كفاءة مخازن الاحتياط ، ســـواء من حيث صيانة الاسلحة والمعدات او من حيث تنظيم المخازن بحيث تتوفر للوحـــدات الاحتياطية اكبر كميات ممكنة من الاسلحة والمعدات والمركبات والذخـــائر والوقـــود للاستخدام الفوري اثر احتشادها في مراكز التجمع الخـــاصة بها . تلـــك هي ابـــرز الدروس الاسرائيلية المستفادة من حرب ١٩٧٣ ، والتي تتم حول محاورها الرئيسية عملية تطوير القوات المسلحة الاسرائيلية حاليا ، سواء من حيث التسليح أو التنظيـــم أو عقائد القتال ، وذلك بهدف ان تستعيد هذه القوات على نحو مؤكد قدرتها السابقة على انجاز « الحرب القصيـــرة الحاسمة » وقوة « الردع » ، اي من اجل ان تستعيـــد نظرية الامن الاسرائيلية صلاحيتها الكاملة ضمن المتغيرات الجديدة التي خلقتها حرب تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٣ .

---

١ ــ طال ، يسرائيل ، العميد احتياط. الحربان، ملحق **يديعوت احرونوت** ، عدد ٦/٦/١٩٧٥ .

٢ ــ **المرجع السابق** .

٣ ــ بيلد ، متتياهو ، دروس اولية ، صحيفة **معاريف** ، عدد ٢٦/١٠/١٩٧٣ .

٤ ــ هورونيتش ، دان ، الدكتور ، نقد الاعتماد على انفسنا، صحيفة **دافار** ، عدد ٦/١/١٩٧٤.

٥ ــ حول الدروس الجوية المستخلصة من حرب تشرين ، حوار مترجم عن مجلة الدفاع الوطني الفرنسية عدد تشرين الاول ١٩٧٤ ، نشر بمجلة « **الفكر العسكري** » السورية ، عـــدد آذار ١٩٧٥ ، صفحة ٨٩ .

٦ ــ ماسليونيكوف ، العقيد ، التطورات الحديثة. في تنظيم القوات، المرجع السابق، صفحة ٤٤.

٧ ــ جيللي ، ر، المقدم ، عودة المشاة أو مشاة جديدة للعام ٢٠٠٠ ، المرجع السابق ، صفحة ١٠١ ، ١٠٢ .

٨ ــ طال ، يسرائيل ، **المرجع السابق** .

٩ ــ طال ، يسرائيل ، صحيفة **معاريف** في ١٦/١٢/١٩٧٤ ، نشرة م.د.ف.، ١/١/١٩٧٥ ، صفحة ١٣ .

١٠ــ شيف ، زئيف ، دروس أولية (الحلقة ب)، صحيفة ٢٨/١٠/١٩٧٣ .

١١ــ وفقا لتقديرات تقارير **معهد الدراســـــات الاستراتيجية** البريطاني في عامي ٧٣ ، ١٩٧٤ .

اسلحة الحرب الخامسة

هشام عبد الله

تميزت جميع الحروب العربية ــ الاسرائيلية بعدم الحسم ، وكانت كل حرب منها تحمل في ذاتها جرثومة الحرب التي تلي . ولم تستطع جميع الاتفاقات والتعهدات السابقه الصمود لضغط الاطماع الصهيونية ، او لالحاح الحقوق العربية . ولا تختلف حرب ١٩٧٣ ، والسياسة والاتفاقات التي تلتها ، عن باقي الحروب السابقة . وهي لن تمثل ، رغم كل شيء ، أي انعطاف في مجرى انهاء الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، لانها لم تمس جوهر العقيدة او الوجود الصهيونيين ، ولم تعد الحق العربي الى اصحابه . اضف الى ذلك انه لم يطرأ اي انخفاض على الاستعدادات العسكرية لدى اي من الاطراف المتنازعة في الفترة التي تلت الحرب بل هي زادت بشكل لم يسبق له مثيل .

ولقد تمثلت جرثومة حرب ١٩٧٣ في لاءات مؤتمر الخرطوم الثلاث ، من جهة ، وفي تمسك اسرائيل بالاراضي العربية المحتلة ، من جهة اخرى . وكان العامل الاول تعبيراً عن الكبرياء العربي الجريح ، اما الثاني فكان نتاج غطرسة العسكرية الاسرائيلية ، والمخططات الصهيونية . ولقد نمت هذه الجرثومة التي بذرتها حرب ١٩٦٧ ، وترعرعت بعد ان توفرت لها جميع العوامل المادية والقناعات المعنوية ، لتنفجر في حرب اخرى غير حاسمة هي حرب ١٩٧٣ . ورغم الاختلافات الكثيرة في شكل كلا الحربين والطريقة التي دارتا بها ، ورغم النتائج المختلفة سواء على صعيد الخسائر البشرية او المادية ، او على صعيد اعادة تقييم كل طرف لنفسه وللطرف الاخر ، فانه لم يطرأ اي تغير ذو قيمة على موقف كلا الطرفين فلاءات الخرطوم ما زالت قائمة بشكل ضمني او علني ، والموقف الاسرائيلي ما زال متشددا جدا رغم بعض اللين الذي يظهر من حين لاخر .

ان مما يهيء الاجواء لنشوب حرب خامسة ، بالاضافة الى العوامل السابقة ، هو حملة التسلح الضخمة التي تجري في منطقة الشرق الاوسط . وقد اصبح التسلح هاجسا عاما يسيطر على المنطقة منذ قيام دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨ . وكان من الاهمية بحيث اثر تأثيرا بالغا على التيارات والاتجاهات السياسية لدول المنطقة . ولم تحظ اية مؤسسة لدى جميع هذه الدول بذلك القدر من الاهتمام الذي حظيت به مؤسساتها العسكرية . والواقع انه يصعب تصور ان الجيوش الضخمة التي خاضت حرب ١٩٧٣ هي وليدة القوات سيئة التسليح التي خاضت حرب ١٩٤٨ . فالجيش المصري الذي لم يزد تعداده في العام ١٩٤٩ عن ٦٠ الف رجل مع الاحتياط ، لا يملكون سوى ٨٠ دبابة ومدفع اقتحام(١)،خاض حرب ١٩٧٣ بقوة تصل الى ٣٠٠ الف رجل يضاف اليهم اكثر من ٥٠٠ الف جندي من الاحتياط وبقوة من الدبابات تزيد عن ٢٠٠٠ دبابة . اما الجيش الاسرائيلي الذي لم يزد عدده في العام ١٩٤٩ عن ٧٠ الف جندي مع الاحتياط يملكون ٤٠ دبابة فقط(٢)، فقد خاض حرب ١٩٧٣ وقوامه ٣٢٥ الف جندي

يتسلحون بأكثر من ٢٠٠٠ دبابة . ولم تتوقف حمى التسلح عند هذه الحدود بل ازدادت تصاعدا لدى كلا الجانبين بعد حرب ١٩٧٣ ، فقد رفعت اسرائيل عدد قواتها العسكرية الى ٤٠٠ الف رجل يتسلحون بأكثر من ٣٠٠٠ دبابة . وارتفعت ميزانية الدفاع السورية من ٢١٦ مليون دولار في العام ١٩٧٣ الى ٦٦٨ مليون دولار في العام ١٩٧٥ . والحال مشابه تقريبا في كل من مصر والاردن والعراق وليبيا والسعودية .

ولا تنحصر دلالة الارقام السابقة على اظهار مدى التصعيد في التسلح ، بل انها ستساعدنا على ضبط توقعاتنا حول شكل الحرب القادمة والاسلحة التي ستستخدم فيها . وذلك نظرا لان عامل الكم يلعب دورا بارزا في سباق التسلح العربي ــ الاسرائيلي فمن الواضح ان الجهد العسكري الاسرائيلي قد بلغ اقصى حشد كمي له سواء من ناحية الطاقات البشرية ، حيث تبلغ نسبة التجنيد في اسرائيل حوالي ١٥٪ من مجموع السكان اليهود ، وهي نسبة لم تبلغها اية دولة اخرى في المنطقة . او من ناحية الطاقات المادية ، حيث تجاوزت نفقات اسرائيل الدفاعية كل ما تستطيع تقديمه من امكانات ، وهي تعتمد اليوم وبشكل مطلق على المساعدات العسكرية الاميركية . وتكمن اهمية ما تقدم في احتمال لجوء اسرائيل الى « الحل النووي » لايجاد « ردع ذري » يحل محل سياسة التوازن القائمة في الوقت الحاضر ، والتي يكاد زمام الحفاظ عليها يفلت من يدها ، وهذا من شأنه ان يصبغ الحرب القادمة بلون اشعاعي مدمر . وليست فكرة استخدام اسلحة نووية ببعيدة عن اذهان القادة الاسرائيليين . فقد كان نمو القوة العربية المضطرد حافزا لهم للبحث في الامر بشكل جدي . وكان ان اشار رئيس الاركان الاسرائيلي غور الى هذا الخيار ولاول مرة بصورة رسمية في حديث له امام طلاب معهد التخنيون في حيفا ، حين عبر عن رايه في انه يمكن التنبؤ بتغيير ثوري في الشرق الاوسط ، خلال ١٠ ــ ١٥ سنة ، مع انتشار السلاح الذري ، وتطور اشعة ليزر . واعرب عن امله بأن يخلق هذا السلاح ميزان رعب في المنطقة يقلل من خطر الحرب(٢). الا ان تحقيق امال غور في هذا الصدد يبدو صعبا للغاية ، ان لم يكن مستحيلا ، اولا ، لان الفارق بين وضع حد للحرب والتقليل من خطرها ، كبير للغاية . وثانيا ، لانه لا يمكن اقامة ميزان رعب نووي في المنطقة دون تمتع دول المنطقة بحرية تامة في خوض حرب شاملة ، وليس حروبا محدودة ، او حروبا يقصد منها تحريك المساعي الدولية لايجاد حل سلمي ، كما جرت العادة في الحرب العربية ــ الاسرائيلية السابقة . ومجرد انقلاب شكل هذه الحروب من محدودة الى شاملة هو في غير صالح اسرائيل . اضف الى ذلك انه لا يمكن حدوث انقلاب كهذا في ظل الظروف الحالية التي تعيشها المنطقة . فالدولتان العظميان تتحكمان الى حد بعيد بشكل الحرب ومدتها ، وحتى نتائجها . نظرا لان أية دولة من دول المنطقة لم تبلغ حدا من الاستقلال الاقتصادي او الصناعي او التقني يمكنها من بناء قوة عسكرية حديثة تشن بها حربا شاملة لا تتأثر بضغوط الدولتين العظميين . وسوف تبقى الحال كذلك طالما استمرت الاوضاع الاقتصادية والصناعية والتقنية لدول المنطقة في مستواها الحالي . لذلك يمكن القول ان قضية ادخال اسلحة نووية الى المنطقة مرهونة بتأثيرات الزمن على اوضاع المنطقة ومدى ما ستحققه ــ خاصة اسرائيل ، لان العرب ليسوا بحاجة في صراعهم لهذه الاسلحة ــ من تقدم في ميدان استقلالها على كافة الاصعدة .

ولا يخفي بعض الخبراء الاسرائيليين عدم اقتناعهم بجدوى الاسلحة الذرية لتحقيق أمن اسرائيل ، وقد اشار الى ذلك يوسف دوريئيل بقوله « ان غرض السلاح الذري ، اذا توفر لنا ، هو ان يكون جزءا من ميزان الرعب المتبادل مع البلاد العربية ، على افتراض ان الطرف الاخر سيتزود بمثله ، والا لن يكون لدينا ما نستند اليه . فالردع

ببساطة لن يكون متبادلا . ومن خلال معرفتنا بمدى التطــور الحضاري للسلطة في البلاد المجاورة ، ندرك ان الكوابح السارية لدى الدول العظمى لا تفي بميزان الرعب المعروف ، وعلى الرغم من ميزان الرعب المزعوم ، فان قدرة الابتزاز الذري ستكون في يد الجانب المستعد للمراهنة على خراب مدينة في بلده ، وقــد ثبت ان حكام البلاد المجاورة مستعدون لذلك(٤)» . وفي قول دوريئيل هذا جانب من الصدق ، الا انه يتخلى عن موضوعيته ليخوض في احاديث دعائية ، حيث ان « قدرة الابتزاز الذري » ، كما يسميها ، لا يحددها الجانب المغامر المستعد للمراهنة على خراب مدينة في بلده . بل تحددها قدرة اي من الجانبين على استيعاب الضربات الذرية . ولا حاجة الى القول ان توجيه ضربة نووية الى مدينة تل ابيب قد يؤدي الى انهيار دولة اسرائيل بكاملها ، في حين لن يؤدي ضرب القاهرة او دمشق او عمان سوى الى فتح جبهات اخــرى جديدة اكثر تصلبا من سابقتها ، واعظم تربصا لتوجيه ضربة مماثلة الى اسرائيل .

يستخلص مما تقدم ان من المستبعد ان تكون الحرب العــربية ــ الاسرائيليــة الخامسة النووية ، على الاقل طالما بقيت القوتان العظميان مسيطرتين على موازين القوى الدولية . وسوف تقتصر هذه الحرب على معارك تقليدية تشن باسلحة متطورة للغاية . وتتأثر الى حد بعيد بالدروس المستفادة من حرب ١٩٧٣ . والواقع ان جيوش المنطقة قد بدأت تتسلح وتعد نفسها وتنظم تشكيلاتها على ضوء تلك الدروس .

ولقد بدأت اسلحة الحرب الخامسة بالتدفق على المنطقة ومعارك حرب ١٩٧٣ ما تزال مستعرة . وحين توقف القتال بدأ كلا الطرفين في التمعن في سياسته التسليحية واعادة النظر في تكتيكاته العسكرية . واتسمت هذه السياسات بعدة عوامل هــامة للغاية هي :

١ ــ **السعي للحصول على افضل الاسلحة** . وليس هــذا بالاتجــاه الجديد في سياسات دول المنطقة ، بل يمكن القول انه من اقدمها . وقد كان يصطدم في السابق برفض الدول المنتجة تزويد دول المنطقة بأحدث ما لديها من اسلحة ، سواء بسبــب عدم قدرة جيوش المنطقة على استيعاب الاسلحة المتطورة في وحداتها . او عدم رغبة الدول المنتجة كشف احدث انواع الاسلحة التي لديها ومدى فاعليتها مما في ذلك من خطر على امنها القومي . بالاضافة الى ارتفاع اثمان هذه الاسلحة بالنسبة لامكانات دول المنطقة الاقتصادية . وكان ان قضى تقدم دول المنطقة الاقتصادي ، وارتفــاع نفقاتها الدفاعية بشكل هائل ، وتطور جيوشها على العاملين الاول والثالث . وما لبث العامل الثاني ان انهار مع تعاظم التزام الدول الكبرى بالنزاعات الاقليمية ، التــي اصبحت بديلا للحرب النووية الشاملة ومتنفسا لصراع المصالح في مختلــف انحــاء العالم . وكان هذا الالتزام من العمق بحيث اصبحت الدول الكبرى مستعدة لخوضه بأحدث ما تملك من اسلحة . ولا بد ان نشير هنا الى ان الصعوبات الاقتصادية التي تواجهها الدول الغربية قد ساهمت الى حد بعيد في « فك الحصار » عن الاسلحــة المتطورة الى دول المنطقة .

وحصلت دول المنطقة على اسلحة لم يتسن لدول حلف وارسو ، او حلف شمالي الاطلسي الحصول عليها . والواقع ان اسرائيل تملك اسلحة احدث بكثير مما تملكــه الغالبية العظمى من دول حلف شمالي الاطلسي . وعلى سبيــل المثــال ، حصلت اسرائيل على عقد لشراء ٥٠ طائرة « ف ــ ١٥ ايغل » حين كانت هذه الطائرة مــا تزال قيد التطوير . اما بالنسبة للدول العربية فقد حصلت مصر وسوريا والعراق على طائرات « ميغ ــ ٢٣ » قبل ان تسلم هذه الطائرة الى اي من دول حلف وارسو .

٢ ــ **ازدياد الاهتمام باسلحة موجودة ومستخدمة** . وينطبق هذا على اسرائيل بشكل خاص . التي بنت قواتها المسلحة بعد حرب ١٩٦٧ على اسس غير مدروسة او متوازنه . وتخضع زياده الاهتمام بهذا النوع من الاسلحة او ذاك لاعتبارات تكتيكية واستراتيجيه . تستمد جذورها من المتطلبات الدفاعية او الامنية للدولة . ومن ملاءمة الاسلحة لهذه المتطلبات ، ومع امكانات العدو وقدراته .

فبعد حرب ١٩٦٧ : اعتمدت الاستراتيجية الاسرائيلية على تفوق سلاح طيرانها المطلق . الذي لم يكن بالامكان كسره بالاسلحة المضادة للطائرات ، التي كان تطورها قد تخلف كثيرا عن وتيرة تطور المقاتلات النفاثة الى درجة حرمت معها هذه الاسلحة من قسط كبير من فعاليتها . ولم تستطع القوات العربية كسر هذا التفوق من الجو . ونتج عن ذلك ان اصبح الطيران الاسرائيلي بديلا رئيسيا للمدفعية ، وقوة ضاربة جمدت دور سلاح المدرعات وحددته في استثمار الضربات الجوية . ولكن تطور الاسلحة في العالم سار خطوات واسعة دون ان تشعر به القيادة الاسرائيلية ، او هي شعرت به دون ان تعيه . فالفجوة التي كانت قائمة بين المقاتلات النفاثة والاسلحة المضادة لها ردمت ، واصبح هناك تكافؤ بينهما حين اندلعت حرب ١٩٧٣ . وكانت المفاجاة التي احدثتها الوسائل العربية المضادة للطائرات من مدافع وصواريخ ، والتي ادت الى تقليص دور سلاح الطيران وانعكس تأثير ذلك على الجيش الاسرائيلي ، الذي اضطر الى الاعتماد من جديد على الدروع والمدفعية كقوة ضاربة رئيسية . وهكذا ازداد عدد الدبابات فيه بنسبة ٥٠ بالمئة ، وناقلات الجنود المدرعة بنسبة ٢٥ بالمئة ، وعدد بطاريات المدفعية بنسبة ٨٥ بالمئة ، وذلك بعد ان اصبح الطيران عاجزا عن القيام بدور هذه الاسلحة بكفاءة . واهتمت اسرائيل ايضا بتطوير وسائل دفاعها الجوي المرافق للقوات البرية . فحصلت على بطاريات من صواريخ « شابرال » ذاتية الحركة ، ومدافع م/ط ذاتية الحركة ايضا من طراز « فولكان » . هذا في حين لم تزد قوة سلاح الطيران كله الا بنسبة ٢٥ بالمئة ، وكانت هذه الزيادة ردا على تنامي قوة كل من سوريا ومصر والعراق والاردن في الطائرات .

اما الجانب العربي ، فقد اختلفت اهتماماته ، وهو في الواقع لم يكن يعاني من خلل كبير في بنية قواته وتسليحها . والوسائل التي يتبعها اليوم ليست سوى الرد على سياسة التسلح الاسرائيلية . فازدياد حجم وتسليح القوات البرية الاسرائيلية جعلت القوات العربية ، بشكل عام ، تزيد من اهتمامها بالمدرعات ، وبمكننة قواتها . وعلى سبيل المثال ، لا نجد لدى الجيش السوري اليوم اية وحدة مشاة راجلة . فجميع وحداته هي اما ميكانيكية او مدرعة(٥) . وقد ازداد عدد الدبابات السورية الى اكثر من ٢٠٠٠ دبابة مقابل حوالي ١٣٠٠ دبابة في حرب ١٩٧٣ . ويعمل الاردن ايضا على تحويل جميع وحداته الى وحدات مدرعة او ميكانيكية . ويمكن القول ان ما تقدم يدخل في اطار زيادة قوة الجيش ، وهذا صحيح بشكل عام ، لو ان الزيادة وزعت بشكل متساو على جميع الاسلحة .

٣ ــ **اتضاح اهمية بعض انواع الاسلحة والاجهزة** . ويتعلق هذا الجانب بالاسلحة الموجهة ، والاجهزة الالكترونية بشكل عام . ويمكن تقسيم الاسلحة الموجهة كالتالي :

ا) الصواريخ ارض ــ جو ، وقد لعبت الدور الرئيسي في حرب ١٩٧٣ ، واهتم بها كلا الجانبين بعد الحرب . سواء في اسرائيل او في جميع دول المواجهة العربية بما فيها الاردن الذي يبذل جهودا كبيرة للحصول على صواريخ « هوك » ، و« رد آي » من الولايات المتحدة . ومن المحتمل ان تنخفض فعالية هذه الصواريخ بسبب الاجراءات

التي تتبعها الاطراف المتحاربة في اعماء شبكات الرادار الموجهة لهذه الصواريخ ، او لتضليل الصواريخ ذاتها . او بسبب التدريبات الجوية التي تمكن الطيارين من المناورة والافلات من الصواريخ التي تطارد طائراتهم ، وتقترن هذه التدريبات بأجهزة انذار زودت بها الطائرات المقاتلة لدى كلا الجانبين . وقد تزداد فعالية الصواريخ نتيجة لاعمال التطوير المكثفة التي نجري عليها . ولا يمكن معرفة محصلة المنافسة بين الصواريخ والاجراءات المضادة لها دون تجارب عملية ، او عمليات قتالية حقيقية .

ب) الصواريخ المضادة للدبابات ، بلغت فعالية الصواريخ المضادة للدبابات خلال حرب ١٩٧٣ حداً وضع معه مصير الدبابة موضع تساؤل . الا ان فعالية هذه الصواريخ لم تكن وليدة كفاءة حقيقية بقدر ما كانت نتيجة لاخطاء تكتيكية ، او بسبب عدم اخذ مسألة مكافحتها في الاعتبار ، لان هناك حلولا كثيرة تستطيع الحد من فاعلية هذه الصواريخ . وقد اشار العميد احتياطمتتياهو بيليد الى ما اعتبره « درسا تعلمه سلاح المدرعات » في مقال جاء فيه انه كان بامكان سلاح المدرعات تطهير مواقع الاسلحة المضادة للدروع والمواقع المحصنة بواسطة عمليات ليلية ، بصورة خاصة ، ثم تمكين الدبابات من التقدم وراءهم لاكتساح الهدف والاستمرار في طريقها(٦) . والحل الضعيف الذي يطرحه بيليد لا يمثل الا جانبا واحدا من الحلول الكثيرة التي يمكن اتباعها ، ونقول ضعيفا لانه يفترض أصلا مواقع ضعيفة يستطيع سلاح المشاة اقتحامها . أما الجانب الآخر فيتمثل في أن الصواريخ المضادة للدبابات اصبحت اسلحة تحملها ناقلات الجنود المدرعة — او عربات المشاة القتالية — بالاضافة الى المدرعات والمصفحات ، وهي أسلحة لن يستطيع المشاة التصدي لها . والوسيلة المثلى لمواجهة هذه الصواريخ يجب ان تتوفر في الدبابة ذاتها . وبالطبع ليس من الممكن زيادة سماكة دروع الدبابات الى حد تعجز الصواريخ عن خرقه ، بسبب قدرتها العالية على الخرق والتي تصل في الصواريخ العادية الى حوالي ٦٠٠ مم من الفولاذ . الا ان بالامكان اتباع بعض الوسائل القديمة التي تزيد من مقاومة الدرع على غرار الطريقة التي اتبعها الايطاليون في حماية دباباتهم ضعيفة الدرع خلال الحرب العالمية الثانية ، حين ربطوا أكياسا من الرمل مع شبك من الحديد المغرز على مقدمة كل دبابة . وقد كانت هذه الطريقة فعالة جدا على الرغم من بساطتها . ويمكن حماية الدبابات الحديثة بعلب مختلفة الاشكال من البلاستيك تملأ بمواد لدنة او بطبقة من الرمل تتلوها طبقة من مادة لدنة او بأي من الوسائل المجربة التي تمتص الجزء الاكبر من قدرة العبوة الجوفاء على الخرق . أو اتباع حلول تكتيكية أخرى مثل ضرب المواقع التي يتمركز فيها رماة الصواريخ بالمدفعية او الطيران او طائرات الهليكوبتر المسلحة بالرشاشات والصواريخ .

لذلك لا يستبعد أن تنخفض فعالية الصواريخ المضادة للدبابات الا ان انتشارها لن يقل ، خاصة وان بالامكان تزويدها برؤوس ذات عبوات مختلفة الاشكال ، واستعمالها لضرب المواقع والدشم والاهداف الهامة الاخرى التي يمكن الرمي عليها بشكل مستقيم . والوضع مماثل بالنسبة للصواريخ التي تحملها طائرات الهليكوبتر ، الا ان الدبابات ستحتاج الى حماية القسم العلوي من جميع الجهات نظرا لقدرة طائرات الهليكوبتر على المناورة .

ج) الصواريخ أرض — أرض . لم تستخدم هذه الصواريخ بشكل كاف لتقييم فعاليتها أو اهميتها . وقد اقتصر استخدامها خلال حرب ١٩٧٣ على القوات السورية التي قصفت بها بعض المستعمرات في سهل الحولة . ورغم ذلك فهي موجودة لدى كل من مصر وسوريا . وقد عقدت اسرائيل صفقة للحصول على عدد من صواريخ أرض —

ارض من طراز « لانس » الا أن تسليمها جمد في انتظار ان تعيد الولايات المتحدة تقييم سياستها في المنطقة . ودور هذه الصواريخ في الصدامات القتالية المباشرة ضئيل ، ولكنها ذات قيمة لضرب المنشآت العسكرية والاقتصادية الكبيرة . او التجمعات السكانية . وليس لهذه الصواريخ اهمية كبيرة طالما انها لا تحمل أيا من أسلحة الدمار الشامل .

د) الصواريخ جو — ارض . ويقتصر استخدام هذا النوع من الصواريخ على اسرائيل. والطرازات الموجوده منها هي صواريخ مضادة للرادار من طراز « شرايك » التي لم تظهر فعالية كبيرة في حرب الاستنزاف او حرب ١٩٧٣ . وصواريخ « مافريك » التي توجه بواسطة كاميرا تلفزيونية . وهذه الصواريخ فعالة ضد الاهداف الثابتة ، وحين تكون ظروف الرؤية جيدة ، نظرا لانها تستخدم أجهزة بصرية لتوجيهها. وسيبقى استخدامها محدودا ضمن هذه الشروط . وسيحد من فعاليتها توليد مؤثرات تفسد وضوح الرؤية امام كاميرتها .

ه) المعدات الالكترونية ، والمقصود هنا مجموعة المعدات الخاصة بالاجراءات المضادة للالكترونيات ، واجهزة الكشف والانذار الالكترونية . وتزداد اهمية الاجهزة الاولى بسبب زيادة الاعتماد على الاسلحة التي تستخدم معدات الكترونية لتوجيهها . مثل الصواريخ بشكل عام . وتهتم اسرائيل بهذه الناحية أكثر من الدول العربية ، نظرا لان القوات العربية تستخدم شبكات الصواريخ على نطاق واسع . وتجدر الاشارة الى أهمية هذه الاجهزة بالنسبة للقوات البحريه لما لها من اهمية في تضليل الصواريخ سطح — سطح التي بدأت تصبح السلاح الرئيسي والاكثر فعالية من بين جميع الاسلحة التي تحملها السفن الحربية . أما أهمية النوع الثاني من هذه الاجهزة فقد ظهرت بعد المفاجأة العربية في حرب تشرين ، او ان من الاصح القول ان الاهتمام بها كان نتاجا لها ، لانها كانت مفاجأة معنوية أكثر منها مفاجأة مادية . وكان لعامل الزمن واثره في الحروب الحديثة دوره في الاهتمام بهذا النوع من الاجهزة حيث تستطيع وسائط الحرب الحديثة صب مئات الاطنان من المواد الحربية والقنابل خلال فترة وجيزة ، ودون ان تظهر اية آثار مريبة للحشد أو أية نية حقيقية في شن هجوم لدى الطرف المهاجم ، الا قبل الشروع في الهجوم بدقائق ، تمثل مجمل فترة الانذار . وتمتلك جميع دول المنطقة أجهزة للكشف والانذار تختلف في فعاليتها وتكاملها . وتعتبر شبكة الانذار الاسرائيلية افضل شبكة في المنطقة ، وذلك راجع الى أهمية عامل الانذار بالنسبة لاسرائيل بسبب ضيق مساحتها ، ولاعتمادها على سلاحها الجوي في صد الهجمات ، تمهيدا لدعوة الاحتياط واستكمال تعبئة قواتها .

ولقد استخدمت الاجهزة المضادة للاجراءات الالكترونية خلال حرب الاستنزاف ، وفي حرب ١٩٧٣ ، حين قامت الطائرات الموجهة عن بعد من طراز « رايان فايربي » بالتشويش على شبكات الرادار ، وبأعمال الاستطلاع الالكتروني على الجبهتين المصرية والسورية . وكان استخدامها محدودا لدرجة يصعب معها تحديد أهمية دورها . والاجهزة الجديدة التي ستدخل المنطقة هي طائرات الحرب الالكترونية من طراز « غرومان ي أ — ٦ ب براولر » وهي من احدث المعدات التي تمتلكها بحرية الولايات المتحدة . وتتضح مدى فاعلية هذه الطائرات في أمرين هامين ، اولهما : ان هذه الطائرات استخدمت في فيتنام وأفلحت في بادىء الامر في تضليل الصواريخ الفيتنامية الشمالية المضادة للطائرات ، ثم انقلب الوضع حين تمكن الفيتناميون الشماليون من التغلب على اجراءاتها وأسقطوا عددا كبيرا من قاذفات القنابل الضخمة من طراز « ب — ٥٢ » . وثانيهما ، ان التغلب على الاجراءات الالكترونية المعادية

يتطلب وقتا ، لكشف طريقة عمل الاجهزة والوسائل للتغلب عليها ، وهو أمر لا يتوفر في ظروف الحروب قصيرة الامد التي تسمح بها أوضاع منطقة الشرق الاوسط .

٤ — **تنويع مصادر الاسلحة** . جاءت سياسة تنويع مصادر السلاح بعد الصعوبات التي تحدث عنها الرئيس المصري انور السادات بعد حرب ١٩٧٢ ، في الحصول على معدات جديدة من الاتحاد السوفياتي . وقد فتحت هذه السياسة الباب أمام عدد من الدول الاوروبية ، خاصة فرنسا ، لتصبح مصدر أسلحة لمصر التي تتسلح من مصادر شرقية منذ اوائل الخمسينات ،وسوف تضيف أنواعا جديدة من الاسلحة الى الترسانة المصرية ، مثل الطائرات القاذفة المقاتلة ، وبعض أنواع طائرات الهليكوبتر ، بالاضافة الى أسلحة واجهزة متقدمة عن مثيلاتها السوفياتية مثل الصواريخ المضادة للدبابات . ومعدات الحرب الالكترونية ، وتجهيزات اخرى . وكان من نتيجة هذه السياسة ان تقلص نفوذ الاتحاد السوفياتي في مصر ، وهو أمر يترك آثاره اليوم سواء في الصراع على النفوذ بين القوتين العظميين على منطقة الشرق الاوسط — مع ما لذلك من أهمية في مجال التسلح ، واثر على اية حرب عربية — اسرائيلية مقبلة — الا انه يصعب تقدير حجم الآثار التي ستتركها هذه السياسة لانها لم تتطور بالقدر الكافي بعد، فغالبية الاسلحة المصرية ما زالت من مصدر شرقي . وليست مصر هي الدولة الوحيدة التي سارت في هذا الاتجاه فقد اتبعت ليبيا هذا الخط قبلها ، ويبدو ان الاردن مجبر على اتباع سياسة مماثلة اذا ما استمر الكونغرس الاميركي على موقفه من صفقة بطاريات الصواريخ والمدافع المضادة للطائرات التي طلبها مـــن الولايات المتحدة ، بأن يطلب أسلحة مماثلة من الاتحاد السوفياتي . وكما هو واضح فان سياسة تنويع مصادر التسلح هي ، الى حد ما ، اداة ضغط في يد دول المنطقة تمكنهـــا من الحصول على الاسلحة التي تحتاجها وبالكميات التي تريدها ، أكثر منهـــا سياسة مستقلة تتســـم بالديناميكية وحرية التحرك .

٥ — **صناعة الاسلحة** . لم يكن للصناعات الحربية التي اقامتها اسرائيل وبعض الدول العربية داخل أراضيها دور كبير في حرب ١٩٧٣ . وذلك على الرغم مـــن ان اسرائيل كانت تنتج معظم أنواع الذخائر اللازمة لقواتها ، بالاضافة الى الصواريخ سطح — سطح من طراز « غابرييل » ، والصواريخ جو — جو من طراز « شفرير » ، وزوارق صواريخ من فئة « رشاف » (أو « ساغر ٤ ») ، وناقلات الجنود المجنزرة ، ومدافع تصنع بموجب ترخيص في اسرائيل . فقد كانت غالبية الاسلحة الرئيسية لديها من صنع اميركي . اما في مصر ، وهي أكثر الدول العربية تطورا في مجال الصناعة الحربية ، فقد اقتصر الانتاج الحربي فيها على بعض أنواع ذخائر الاسلحة الخفيفة والثقيلة وطائرات التدريب ... الخ . وبعد الحرب ، كان اقامة صناعة حربية عربية وذلك بالاضافة الى سياسة تنويع مصادر السلاح ، كما سبق وذكرنا . وتنفيذا لهذا الخط اقيمت مؤسسة عربية ضخمة براس مال قدره ١٥٠٠ مليون دولار الغرض منها انتاج وتطوير مختلف أنواع الاسلحة، الا أن هذه المؤسسة لم تنتقل الى مرحلة الاعداد للانتاج بعد .

أما في اسرائيل فقد تمكنت الصناعات الجوية من انتاج مقاتلة تزيد سرعتها عـــن سرعة الصوت هي الطائرة « كفير » ، التي صنعت بتركيب المحرك الاميركي « ج — ٧٩ » على تصاميم طائرة « ميراج — ٥ » الفرنسية . واذا اعتبرنا انتاج هذه الطائرة نموذج ما يمكن أن تحققه صناعات الاسلحة المحلية من نجاحات في المستقبل ، حيث انها تمثل أقصى ما تم التوصل اليه حتى اليوم ، فانه يمكن النظر الى أهمية الصناعات الحربية لدول المنطقة من عدة جوانب أهمها :

أ ، ستكون هذه الصناعات اعجز من أن تتمكن من تلبيـــة حاجات جيوش المنطقة سواء من ناحية الكميات أو النوعيات التي تستطيع انتاجهـــا . لان مستوى المنطقة الفني لا يمكن أن يجاري ما توصلت اليه الدول الكبرى المنتجة للاسلحة . ويكفي أن نذكر ، لايضاح مدى التفارق بين دول المنطقة والدول الكبرى ، ان الاتحاد السوفياتي سينفق في العام ١٩٧٥ مبلغا يتراوح ما بين ١٥ ــ ٢٠ مليار دولار على أعمال البحث والتطويـــر العسكرية ، وهـــو يوظف لهذا الغـــرض ٦٢٥ الف تقني مـــن مختلف الاختصاصات . والحال مشابه تقريبا في الولايات المتحدة . ومن الواضـــح ان دول المنطقة لا تستطيع توظيف حتى ١/١٠ هذا المبلغ ، وهي أعجز من ان تقيم المنشآت الضخمة القادرة على انتاج الكميات المطلوبة

ب ، لن تتمكن دول المنطقة ، حتى على المدى الطويل ، من انتـــاج جميع أنواع الاسلحة التي تحتاجها . وسوف تستمر الدولتان العظميان في فرض وجودهما عـــن طريق تقديم الانواع المتطورة من الاسلحة ، ويكفي أن يقـــدم سلاح متطور الى احد الجانبين حتى يكون الجانب الآخر مضطرا الى السعي للحصول على سلاح مماثل ، لان من المستحيل الالتزام بتعهد « أدبي » بين الطرفين يقضي بأن تجري الحروب بالاسلحة المنتجة محليا .

ج ، ستعطي الصناعات المحلية دول المنطقة قسطا اكبر من الحرية في اطالة امد القتال ، او بدء القتال والانعتاق من « ضبط النفس » الذي تفرضه الدول الكبرى ، عن طريق انتاج الذخائر وقطع الغيار في معاملها . وقد كان التحكم في كميات الذخيرة وقطع الغيار المسلمة الى دول المنطقة احدى أهم الوسائل التي كانت الدول الكبرى تعتمد عليها للتحكم في مجريات الحروب السابقة .

٦ ــ **توازن القوى** . يلعب توازن القوى دورا كبيرا في تصعيد سباق التسلح في المنطقة ، وفي سياسة التسلح بشكل عام . ولهذا العامل شقان : كمي ، ويحدد كميات الاسلحة الواجب بيعها أو منحها الى احدى الدول ، ويقرر هذا العـــامل على ضوء المتطلبات الامنية ، او الدفاعية ، او ضرورات الحفاظ على ميزان القوى او غير ذلك من المسميات ، ونوعي ، ويحدد أنواع الاســـلحة الواجب تسـلـيمها ، وهو يقرر في ضوء المعطيات السابقة ذاتها . ومن المهم جدا ملاحظة الديناميكية التي يتسابق فيها العاملان الكمي والنوعي . وعلى سبيل المثال ، أدى تفوق اسرائيل الجوي الى تزويد القوات العربية بأسلحة متطورة مضادة للطائرات ، مما كسر حدة هذا التفوق ، فقامت اسرائيل ، بمساعدة من الولايات المتحدة وبريطانية بتعويض ذلك عن طريق زيادة أعداد الدبابات والمدافع التي تمتلكها ، لتعديل الميزان . وهذا بدوره أدى الى قيام العرب بعقد صفقات كبـــيرة لشراء دبابات . وهكذا فان هذين العاملين يتسابقان في تقرير توازن القوى ويرتبط احدهما بالآخر بشكل وثيق .

وتتاثر عملية موازنة القوى بدوافع الدولة المصدرة للاسلحة وهذا العامل بالذات هو الذي يرسم بدقة الحدود التي يجب الوقوف عندها في تسليح أيـــة دولة وعدم تجاوزها . ويجدر الذكر هنا ان هذا العامل يعطي صناعات الاسلحة المحلية بعض الاهمية ، خاصة اذا استطاعت الدولة انتاج كميات من الاسلحة في نطاق من السرية . وقد يكون فرض السرية صعبا بالنسبة لقطع الاسلحة الكبيرة مثل الطائرات او السفن الحربية الا انه ممكن بالنسبة لبعض أنواع الاسلحة مثل الصواريخ من مختلف الانواع .

كان من نتائج السياسة التسليحية سابقة الذكر ، التي كان لهـــا جوانب محلية وعالمية ؛ ان تحولت منطقة الشرق الاوسط ، خاصـة اسرائيل ودول المواجهة الى

ترسانة ضخمة تضم أحدث ما في العالم من اسلحة تقليدية برية وجوية . ويوضح الجدول التالي ما تضمه هذه الترسانة من اسلحة رئيسية .

البلد	عددالجنود	الطائرات المقاتلة	الدبابات	المدافع
مصر	٦٥٠٠٠٠	٦٠٠	٢٥٠٠	٢٠٠٠
سوريا	١٧٧٠٠٠	٤٠٠	٢٠٠٠	٦٠٠
الأردن	٨٠٠٠٠	٧٥	٦٠٠	٦٠٠
المجموع	٩٠٧٠٠٠	١٠٧٥	٥١٠٠	٣٢٠٠
اسرائيل	٤٠٠٠٠٠	٤٧٠	٣٠٠٠	٩٠٠

يضاف الى ذلك الاسلحة التي يستطيع كل من العراق وليبيا وغيرها من الدول العربية المشاركة بها في الحرب ، وبقدر ما يستطيع العراق دفعه الى المعركة من دبابات بحوالي ٦٠٠ دبابة ، بالاضافة الى الطائرات والمعدات الاخرى . وتوضح الارقام السابقة ضخامة القوات البرية وأهميتها بالنسبة لكلا الجانبين . ولا عجب بعد ذلك ان اصبحت الدروع سلاح الحرب المقبلة الرئيسي ، وان تتحول هذه الحرب الى صدام هائل تخوضه قوات تضم حوالي ١٠٠٠٠ دبابة ، وعدد اكبر من عربات المشاة القتالية ، وناقلات الجنود المدرعة . وستكون الدبابات من طراز « ت — ٦٢ » التي تتسلح بمدافع ذات جوف أملس من عيار ١١٥ مم ، نجم هذه الحرب ، بعد أن ازدادت الاعداد التي تملكها الدول العربية منها الى حد كبير ، منذ حرب ١٩٧٣ . وكانت قد شاركت في هذه الحرب باعداد قليلة بالمقارنة الى مجموع الدبابات المشتركة في القتال . وتقابل هذه الدبابة في الجانب الاسرائيلي دبابة « م — ٦٠ » الاميركية التي ازدادت أعدادها هناك أيضا . وان تكن القوات الاسرائيلية ما زالت تعتمد الى حد كبير على دبابات « سنتوريون » البريطانية .

وستبرز في هذه الحرب ايضا عربات المشاة القتالية من طراز « ب م بي — ٧٦ » ، وتمتلكها الدول العربية التي تتسلح من مصادر شرقية بما في ذلك مصر وليبيا والعراق . وتعتبر هذه العربة أحدث اتجاه في مجال ناقلات الجنود المدرعة ، حيث تستطيع القتال ضد مختلف الاهداف والعربات بما في ذلك الدبابات ، نظرا لانها مسلحة بمدفع من عيار ٧٦ مم ، وقاذف لصواريخ « ساغر » المضادة للدبابات . وتزيد هذه العربة من قوة نيران الوحدات التي تعمل بها سواء كانت مدرعة أو ميكانيكية .

اما في اسرائيل فقد ازداد عدد ناقلات الجنود المدرعة من طراز « م — ١١٣ » ، التي وزعت على غالبية الوحدات الاسرائيلية لتحل محل العربات نصف المجنزرة من طراز « م — ٣ » .

ونظرا لتصاعد الاهتمام بالدروع لدى الجانبين ، فقد ازداد اهتمامهما بالوسائط المضادة لها ، خاصة الصواريخ التي تمتلك جميع الاطراف أعدادا كبيرة منها . ويوجد لدى اسرائيل صواريخ م/د من طراز « س س — ١١ » و« لاو » و« تاو » و« كوبرا » . أما الدول العربية فتمتلك صواريخ سوفياتية من طراز « ساغر » ، و« سنابر » و« سواتر » ، ويمتلك العراق أيضا صواريخ فرنسية من طراز « س س — ١١ » ، اما الاردن فيمتلك صواريخ « تاو » الفرنسية . ومن المحتمل جدا أن تكون مصر قد

حصلت على صواريخ فرنسية . ولاستكمال الافادة من هذه الاسلحة ، ولملاءمتها مع متطلبات حرب الحركة . فقد حسنت الوسائط التي تنقلها ، وتم التوسع في استخدام طائرات الهليكوبتر المسلحة بها ، سواء في الجيوش العربيـــة او اسرائيل . وكانت طائرات الهليكوبتر المسلحة بالصواريخ م/د قد استخدمت على نطاق واسع من قبل اسرائيل في الايام الاخيرة من حرب تشرين ، وكان لها دور كبير في النتائج التي حققتها القوات الاسرائيلية في تلك الفترة . واستخدمت هذه الطائرات على نطاق ضيق من قبل المصريين . وأدى التوسع في استخدام الهليكوبتر ، سواء كأداة قتالية او كواسطة نقل . الى انتشار الصواريخ المضادة للطائرات التي تطلق من الكتف ، وتؤمن هذه الصواريخ حماية جيدة ضد الطائرات التي تقل سرعتها عن سرعة الصوت للوحدات الصغيرة. وقد قدمت الولايات المتحدة الى اسرائيل اعدادا كبيرة من صواريخ « رد آي » . وينتظر ان يحصل الاردن على ٣٠٠ قاذف صواريخ من الطراز المذكور. وتمتلك سوريا ومصر والعراق وليبيا أعدادا كبيرة من صواريخ « سام — ٧ » التي تطلق من الكتف أيضا . ومن المحتمل أن تكون هذه الدول قد حصلت على صواريخ «سام — ٩»، وهي نموذج مطور عن « سام — ٧ » يمتاز بأنه ابعد مدى أشد فاعلية ، وهو يحمل على عربات .

يضاف الى كل ما تقدم الاسلحة المعروفة الاخرى مثل المدافع ذاتية الحركة التي ازداد عددها بنسبة كبيرة لدى اسرائيل ، من عيار ٢٠٣ مم ، و١٧٥ مم ، و١٥٥ مم . والمدافع العربية الثقيلة من عيار ٢٠٣ مم ، و١٥٢ مم ، و ١٣٠ مم ، بالاضافة الـى المدفعية الصاروخية من عيار ٢٤٠ مم ، و ١٣٠ مم . والهاونات الثقيلة من عيار ٢٤٠ مم في مصر ويحتمل في سوريا أيضا و ١٦٠ مم لدى جميع الاطراف . والمدافع م/ط ذاتية الحركة من طراز « ز س يو — ٢٣/٤ » لدى مصـر وسوريا والعراق وليبيـا ، و« فولكان » لدى اسرائيل . هذا بالاضافة الى الصواريخ ارض — جو من مختلف الانواع .

وتجدر بنا الاشارة الى ان اسرائيل قد عززت قدرتها على عبور الموانع المائية ، وحصلت على جسور متحركة مركبة على قواعد دبابات « م — ٤٨ » . ولا تصلح هذه الجسور لعبور القناة لان طول الجسر التي تستطيع ان تمده هو حوالي ٢٠ مترا ، في حين يزيد عرض القناة في أضيق قطاعاتها على ٥٠ مترا .

كما تمكن الجانب العربي من الحصول على أجهزة مساعدة حديثـــة للغاية لمختلف الاختصاصات ، مثل حاسبات معطيات الرمي لاسلحة المدفعية ، وأجهـزة الملاحة والهجوم وأجهزة للتصويب للطائرات المقاتلة التي ذكر ان مصر تسعى للحصول عليها من بريطانيا(٧). كما ذكر الملك حسين « ان الاردن حصل على أجهزة الكترونية لادارة العمليات الجوية »(٨).

اما في سلاح الطيران ، فقد تطورت المعدات التي تملكها الدول العربية الى حد كبير، منذ حرب ١٩٧٣ . فحصلت مصر على ٤٨ طائرة من طراز « ميغ — ٢٣ » ، وستحصل على ٨٨ طائرة من طراز « ميراج ف — ١ » ، بالاضافة الى ٣٨ طائرة مـن طراز « ميراج — ٣ » . وقد حصلت كل من سوريا والعراق وليبيا على طائرات مـن طراز « ميغ — ٢٣ » ، وبدأ الاردن في استلام ٦٠ طائرة من طراز « نورثروب ف — ٥ » من الفئتين « أ » و« ي » . وبالمقابل ستحصل اسرائيل على طائرات « ف — ١٥ ايغل » الاميركية ، بالاضافة الى طائرات « كفير » التي بدات بادخالها الى الخدمة .

ولا يقتصر الخط الذي يتبعه الجانب العربي على ادخال معدات جديدة متطورة ، بل

يهدف الى زيادة القوة النارية للطائرات المقاتلة العربية . فلاول مرة تحصل مصر على طائرات تزيد حمولتها الحربية عن ٤ أطنان من القنابل . مثل الطائرات الفرنسية . ولقد ذكر الفريق حسني مبارك قائد القوات الجوية المصرية السابق ان مصر قد عملت على اضافة بعض النقاط القوية الى طائرات « ميغ ــ ٢١ » المصرية لزيادة حمولتها من القنابل(٩) . وذكر ايضا ان مصر قد استخدمت طائرات التدريب من طراز « ل ــ ٢٩ » في الاعمال القتالية(١٠) . وهذه هي المرة الاولى التي تقوم بها طائرات التدريب العربية بأعمال مماثلة . ولا تتوفر أية معلومات حول ما اذا كانت سوريا او العراق قد اتبعتا خطا مماثلا بالنسبة لطائرات التدريب او طائرات « ميغ ــ ٢١ » التي تملكانها .

ومن ناحية اخرى يبدي الجانب العربي اهتماما كبيرا بالطائرات الخاصة بالاستطلاع التكتيكي . وكانت ليبيا اول دولة عربية تحصل علـــى طائرات استطلاع من طـــراز « ميراج ــ ٣ ي ر » . وكانت تقوم بعمليات الاستطلاع في السابـــق طائرات حربيـــة عادية ، غير مجهزة للقيام بهذا الدور بشكل أساسي . وعلى سبيل المثال ، تستخدم مصر طائرات « ميغ ــ ٢١ » مزودة بحاضنة تضم كاميرا تصوير تحت قمرة الطيـــار كطائرات استطلاع . لذلك لم يكن في استطاعة هذه الطائرات القيام بدورها بالكفاءة المطلوبة . ولا يتلاءم ذلك مع الدور الكبير الذي يلعبه الاستطلاع في تأمين المعلومات السريعة والدقيقة حول سير العمليات ، او تحركات العدو في زمن السلم ، واهمية كل ذلك في اتخاذ القرارات العسكرية على كافة الاصعدة .

أما في مجال البحرية ، فلم تحدث تطورات كثيرة ، باستثناء استكمال بناء ٦ زوارق من فئة « رشاف » زنة ٤١٥ طنا لحساب البحرية الاسرائيلية ، بحيث بلغ مجموع ما لدى اسرائيل من زوارق الصواريخ ١٨ زورقا . وحصولها أيضا على ٣ غواصات من فئة ٥٠٠ طن ، يحتمل أن تكون قد سلمت جميعهـــا الى اسرائيل . وتمتـــاز زوارق الصواريخ الاسرائيلية بملاءمتها لمتطلبات الحرب البحرية في المنطقة ، من ناحية قدرتها على التعامل مع غالبية انواع السفن في المنطقة نظـــرا لتسلحها بالصواريخ سطح ــ سطح ، او لتسلحها بالمدافع ثنائية الاستخدام من عيار ٧٦ مم ، التي تستطيع مقاومة الطائرات بفعالية ، وضرب الاهـــداف الساحلية . وقـــد استخدمت هذه الزوارق في الهجمات التي شنتها البحرية الاسرائيلية ضد المخيمات الفلسطينية الساحلية في جنوب لبنان . أما السفن الحربية العربية ، فالقطع الضخمة منها ، مثل المدمرات المصرية ، ما زالت مسلحة بالمدافع العادية دون الصواريخ سطح ــ سطح ، وليس لهـــا دفاع جوي فعال ، يضم الصواريخ سطح ــ جو ، يتناسب مع حجمها . أما القطع الصغيرة مثل زوارق الصواريخ فليس لها قدرة على ضرب الاهداف الساحلية نظرا لانها لا تحمل الا صواريخ سطح ــ سطح ومدافع م/ط من عيار ٢٥ مم او ٣٠ مم لا تصلح لقصف السواحل .

لقد تطورت أوضاع التسلح في المنطقة خلال الفترة الوجيزة التي انقضت منذ حرب ١٩٧٣ ، وكان التصاعد في نوعيات وكميات الاسلحة التي وصلت الى المنطقة كبيرا الى درجة لم تشهدها المنطقة من قبل . وقد يكون دافع هـــذه الموجة الاساسي شعـــور اسرائيل والدول المساندة لها بأن عامل تفوقها النوعي أخذ في التناقص باســـتمرار . ومهما يكن من أمر فان احساسها بأن عامل الزمن لا يعمل لصالحها وانها ستصبح في القريب العاجل عاجزة عن مجاراة نمـــو القوة العربية سواء منهـــا العسكرية او الاقتصادية ، مما سيتمخض عنه عجزها عن الحفاظ على أسلاب حروبها السابقة مع العرب ، قد يكون سببا في أن تشن حربا تهدف الى وقف نمو هذه القوة . ســـتكون

الاسلحة سابقة الذكر وقودها ، وادابها ، وباعثها . وهي حرب لن نكون بحاجة الى كثير من التامل في طبيعتها لانها ستنسجم دون شك مع سياسة التسلح التي اتبعتها دول المنطقه ومع كميات الاسلحة المتطورة التي حصلت عليهـا ، وهو أمر يفرضه التلاحم الازلي بين الغاية والوسيلة .

الحواشي :

١ — N. Safran, *From war to war,* Pegasus, New York, p. 217.

٢ — **المصدر السابق** ، ص ٢٢٨ .

٣ — نشرة مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ايلول (سبتمبر) ١٩٧٥ .

٤ — **المصدر السابق** .

٥ — أنظر Military Balance, 1974-75.

٦ — **معاريف** ، ١٩٧٣/١٠/٢٦ .

٧ — **ديلي آكسبرس** ، ١٩٧٥/٨/١٢ .

٨ — **الحوادث اللبنانية** ، ١٩٧٥/٧/٤ .

٩ — **افيشن أند مارين** ، عدد آب (أغسطس) ١٩٧٥ ، حديث مع الفريق مبارك .

١٠— **المصدر السابق** .

حرب تشرين واثرها على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة

عبد الرحمن غنيم

كان لحرب تشرين التحريرية آثارها المتعددة على الكيان الصهيوني من كافة الجوانب العسكرية والاقتصادية والسياسية والنفسية . بل ان هذه الحرب زعزعت الارضية الايديولوجية التي قام على اساسها الكيان الصهيوني في فلسطين ، فاصبحت مقولات هذه الايديولوجية موضع تساؤلات عميقة حتى في الاوساط الصهيونية نفسها . من هنا فاننا حين نتناول اثر حرب تشرين على السياحة الى فلسطين المحتلة فانما نتناول جانبا محددا من تأثيرات هذه الحرب ليس الاكثر اهمية بين نتائجها . الا ان ذلك لا ينتقص من اهمية هذا الجانب ، وتناوله بالدراسة . فمعالجة التأثيرات الجزئية المتعددة من شأنها ان تقود في النهاية الى تقديم تقييم كلي لنتائج حرب تشرين يتسم بالدقة والتكامل ، وما السياحة الا احد الجوانب الجزئية التي تتطلب الدراسة في نطاق المحاولات المبذولة من اطراف متعددة لدراسة نتائج حرب تشرين .

وتنبثق اهمية دراسة هذا الجانب ، من الاهمية النسبية للسياحة ليس فقط بالنسبة لاقتصاد العدو ، وانما ايضا في مجمل خططه على مختلف الاصعدة السياسية والاعلامية وغيرها .

يرتبط اهتمام سلطات العدو بالحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، بجملة اعتبارات ، يمكن تلخيصها كما يلي : (١) تعتبر السياحة من المصادر الاساسية للعملات الاجنبية بالنسبة للاقتصاد الصهيوني . (٢) تقدم السياحة فرصا كبيرة لتوظيف الاسرائيليين . (٣) تقدم السياحة فرص استثمار اقتصادي في العديد من المشاريع السياحية . (٤) تساهم في زيادة دخل الحكومة الصهيونية من الضرائب والرسوم على المصالح والمشاريع السياحية . (٥) تستخدم كوسيلة اعلام تجاري عن المنتجات الزراعية والصناعية ، وكوسيلة لتصدير جزء من هذه المنتجات . (٦) تشكل مصدرا من مصادر استقطاب الهجرة اليهودية . (٧) تستغل للاعلام السياسي وللنشاط الدعائي بين يهود العالم ولكسب انصار الصهيونية بين غير اليهود . (٨) تستغل جزئيا في استقطاب المرتزقة للتطوع في خدمة المؤسسة العسكرية الصهيونية . (٩) يستفاد من السياحة في خدمة برامج العمل الصهيونية[١].

ان تقدير اثر حرب تشرين على السياحة الى فلسطين المحتلة ، لا يمكن ان يبلغ المستوى المطلوب من التكامل دون تحديد التأثير الذي نجم عنها على استفادة العدو في مختلف النواحي السابق ايرادها . ولا يمكن تحديد هذا التأثير دون تحديد مسبق الشوط الذي كان العدو قد قطعه في التنمية السياحية قبل ذلك ، وخاصة خلال الفترة التي اعقبت حرب حزيران .

فكيف نصل الى مثل هذا التحديد ؟ ليس من السهل الوصول الى تحديد كلي لعناصر البحث يتسم بالدقة العلمية ، وذلك لاسباب متعددة ابرزها قلة البيانات الاحصائية حول الجوانب الاكثر جزئية في موضوع البحث ، فاذا كان من السهل تقديم جداول رقمية لتطور الحركة السياحية او الدخل السياحي ، فانه ليس من السهل الحصول على احصاءات دقيقة عن المصالح والمشاريع السياحية ، البحتة او المختلطة ، او الحصول على احصاءات حول تشغيل الافراد في العديد من المصالح السياحية بخدماتها المباشرة او غير المباشرة . او حول الدخول الحكومية غير المباشرة

الناجمة عن السياحة ، او حول دور المناطق المحتلة عام ١٩٦٧ في الدخل السياحي ، حيث يلاحظ ان التقديرات الاسرائيلية عن السياحة لا تورد اي ذكر للاراضي المحتلة(٦).

لكن صعوبة الوصول الى تحديد رقمي لمثل هذه الجوانب ، لا يحول دون الوصول الى استنتاجات عامة بصددها ، من خلال الاستدلال بنماذج متعددة لنوعية التطور والتأثير ، خاصة اذا قدرنا دور تلقائية التأثير في حالتي انتعاش او هبوط الحركة السياحية على مختلف المرافق التي يتصل عملها بشكل او بآخر بهذه الحركة .

مع ان موضوع دراستنا المباشر هو تأثير حرب تشرين على الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة، الا اننا وفي سبيل تحديد هذا التأثير بشكل اكثر دقة ، سنحاول وضعه ضمن اطاره العام اي ضمن اطار تطور الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة من جهة ، وضمن اطار الدراسة المقارنة مع خطط العدو وتصوراته المعلنة عن توقعاته لتطور هذه الحركة من جهة ثانية ودور حرب تشرين كعامل معرقل بالنسبة للعوامل المعرقلة الاخرى التي مارست تأثيرها على هذه الحركة ، وبشكل خاص العامل الامني . كل ذلك بالطبع في نطاق محاولة الوصول الى استنتاجات محددة حول كيفية تعميق آثار حرب تشرين ، وهذا هو الهدف الاساسي للدراسة .

في ضوء الملاحظات السابقة ، فان خطة البحث ستكون عبر تحديد الجوانب التالية : ١ — التطور العام للحركة السياحية الى فلسطين المحتلة . ٢ — اهمية تطوير هذه الحركة بالنسبة للعدو واوجه استفادته منها . ٣ — خطط العدو لانعاش الحركة السياحية ومدى تأثير العوامل المعرقلة . ٤ — الاهمية النسبية لحرب تشرين في تقليص الحركة السياحية ، ومدى عمق تأثيرها . ٥ — كيفية تعميق آثار حرب تشرين على الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة .

نظرة عامة على تطور الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة :

فيما عدا بعض الاستثناءات المرتبطة بأسباب محددة ، فقد سارت الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة في خط تصاعدي مستمر ، وان تفاوتت نسب هذا التصاعد من فترة الى اخرى .

ويعين الجدول رقم (١) تطور اعداد السياح الذين وصلوا الى فلسطين المحتلة من سنة الى اخرى منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٤ . وبالقاء نظرة سريعة على الخط البياني لتطور الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة (المخطط رقم ١) نستطيع ملاحظة ظاهرتين بارزتين : انتعاش كبير وفجائي للسياحة في بعض السنوات ، وهبوط في سنوات اخرى . فما هي ملامح ظاهرتي الصعود والهبوط المذكورتين ؟

جدول رقم (١)

تطور الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة
(١٩٥٢ — ١٩٧٤)

السنة	عدد السياح
١٩٥٢	٢٤٢١١
١٩٥٣	٣٧٠٨٥
١٩٥٤	٣٩٣٩٠
١٩٥٥	٤٩٨٩٩
١٩٥٦	٤٢٦١٥
١٩٥٧	٤٢٣٤٢
١٩٥٨	٦٨١٠٠
١٩٥٩	٨٥١٠٤
١٩٦٠	١١٧٦٦٢
١٩٦١	١٥٩٦٢٤
١٩٦٢	١٨٣٧٠١
١٩٦٣	٢١٨٤٦٠
١٩٦٤	٢٥١٦٢٤
١٩٦٥	٢٩٦٤٩٣
١٩٦٦	٣٢٨٠٧٧
١٩٦٧	٢٩١١٦٨
١٩٦٨	٤٣٢٠٠٠
١٩٦٩	٤٠٩٠٠٠
١٩٧٠	٤٣٦٧٠٠
١٩٧١	٦٥٠٠٠٠
١٩٧٢	٧٣٠٠٠٠
١٩٧٣	٦٦٠٠٠٠
١٩٧٤	٦٢٣٠٠٠

حتى سنة ١٩٥٩ ، كانت الزيادة السنوية في عدد السياح حوالي عشرة الاف سائح سنويا ، غير انه ابتداء من عام ١٩٦٠ وحتى عام ١٩٦٦ ، ارتفع معدل الزيادة السنوية الى حوالي ٣٠ الف سائح . وكانت نسبة الزيادة التي سجلها عام ١٩٦٠ حوالي ٣٨٪ بالنسبة لعام ١٩٥٩ . وقد احتفظ عام ١٩٦٠ بكونه العام الذي سجل اعلى رقم في نسبة الزيادة الى ان جاء عام ١٩٦٨ . فقد سجل عام ١٩٦٨ نسبة في الزيادة بلغت ٤٨،٤٪ بالنسبة الى العام السابق عليه(٣) وان كان عام ١٩٦٧ قد سجل بدوره انخفاضا بالنسبة للعام السابق عليه بنسبة ١١٪ ، وكان عام ١٩٦٦ يعتبر فيما يتعلق بعدد السياح قياسيا بالنسبة لمجمل الفترة من عام ١٩٥٢ الى عام ١٩٦٧ . ثم جاء العام ١٩٧٢ ليسجل اندفاعا جديدا للحركة السياحية ، اذ بلغت فيه نسبة الزيادة بالمقارنة مع العام السابق عليه حوالي ٤٨،٥٪ وهي اعلى نسبة للزيادة سجلت في سنة واحدة .

ان تسجيل مثل هذه النسب في الزيادة في بعض السنوات لا يمكن ان يعتبر ظاهرة عادية خاصة اذا قارنا مثل هذه النسب المئوية للزيادة مع المعدل الاجمالي للزيادة في بلدان عالية مشهورة في صناعة السياحة مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا(٤).

ولكن في مقابل ظاهرة الانتعاش البارز هذه ، هناك ظاهرة الهبوط في الحركة السياحية في بعض السنوات .

خلال الفترة بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٧٤ شهدت الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة هبوطا في السنوات التالية : ١٩٥٦/١٩٥٧ و ١٩٦٧ و ١٩٦٩ و ١٩٧٣/١٩٧٤ . ففي عام ١٩٥٦ حدث هبوط في عدد السياح بنسبة ١٤،٦٪ عن العام السابق عليه ، واستمر الهبوط عام ١٩٥٧ . وتكررت هذه الظاهرة عام ١٩٦٧ ، حيث حدث انخفاض في عدد السياح بنسبة ١١٪ عن العام السابق عليه، كذلك سجل عام ١٩٦٩ انخفاضا عن عام ١٩٦٨ . وحدث انخفاض متكرر في العامين ١٩٧٣ و ١٩٧٤، فقد كان عدد السياح في عام ١٩٧٣ اقل بـ ٦٠ الف سائح عنه عام ١٩٧٢ ، وكان عددهم عام ١٩٧٤ اقل بـ ٣٧ الف سائح عنه في عام ١٩٧٣ .

من الواضح وجود ارتباط شديد بين وضعية الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، وبين حالتي الانتعاش والهبوط في الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة . فحالة الهبوط رافقت حصرا حالات الحرب الواسعة في المنطقة . العدوان الثلاثي ، حرب حزيران ، حرب الاستنزاف ، حرب تشرين . وعلى العكس من ذلك فان حالات الانتعاش قد رافقت حالات الهدوء او الهدوء النسبي في المنطقة ، وبلغت افضل مستوياتها في ضوء النتائج التي ترتبت على حرب حزيران . ففي اواخر شهر ايار عام ١٩٦٧ ، توقفت حركة السياحة الى فلسطين المحتلة كليا ، وخلال الفترة بين ايار وتموز من ذلك العام ، بلغ عدد السياح ٧٦،٩٠٠ مقابل ١٠٧،٠٠٠ سائح في نفس الفترة من العام السابق عليه ، وكان النقص بنسبة ٢٨٪ . وكان عدد السياح الذي وصل من بين هؤلاء بعد الحرب ٣٧،٥٠٠ سائح(٥).

ونتيجة للنشاطات الفدائية التي اعقبت حرب حزيران مباشرة ، فقد حدث اختلال في الحركة السياحية . فقد ذكرت اوساط وزارة السياحة الصهيونية ان كثيرا من السياح النصارى الذين كانوا على وشك زيارة فلسطين المحتلة قد الغوا رحلاتهم اثر العمليات الفدائية ، وكان رجال الوزارة يتوقعون ان يصل ٣٠٠،٠٠٠ سائح حتى نهاية عام ١٩٦٧ ، لكنهم في ضوء الارباك الذي الحقه النشاط الفدائي بالسياحة اصبحوا يعتقدون انه لن يصل اكثر من ٢٧٠ الف سائح ، على اعلى تقدير . وان تقديرات وصول ٤٧٠ الف سائح في عام ١٩٦٨ اصبح من الضروري اعادة النظر فيها، وانه يجري بناء على ذلك البحث في مشروع لتضييق اطار البناء في فرع الفنادق وفقا للتطورات المتوقعة(٦).

وبالفعل ، فقد جاءت اعداد السياح خلال العامين ١٩٦٧ و١٩٦٨ اقل من الارقام المتوقعة وتضمن الكتاب السنوي عن الاحصاء الرسمي للمؤسسات الاسرائيلية عن احصاءات عام ١٩٦٧ اعترافا بتأثير كل من حرب حزيران وما تطلبته من نفقات ، وكذلك تأثير المقاومة على معدل السياحة(٧) .

وذكرت صحيفة جون افريك انه من الناحية الاقتصادية ، ازدادت موارد « اسرائيل » من

السياحة ازديادا لم يستمر ، اذ نلقص عـــدد السائحين بعدما رأوا من اخطار القتال والفدائيين مما دعا الى اتخاذ تدابير لمواجهة الاحوال كزيادة الضرائب والرسوم بنسبـــة ١٠٠ ٪ احيانا(٨). وكانت الصحيفة تشير بذلك الى الهبوط الـذي تعاني منه السياحة ١٩٦٦ (عام حرب الاستنزاف).

وقبل أن يسري مفعول وقف اطلاق النار عـــام ١٩٧٠ اثر مبادرة روجرز ، كان العدو لا يـزال يعاني تأثير حرب الاستنزاف على السياحة ، وقد ذكرت صحيفة الغارديان البريطانية ان المسؤولين الصهاينة منعوا السياح من دخول اريحا وجنــين ومدن اخرى في الضفة الغربية والمرتفعات السورية المحتلة وقطاع غزة ، ووصفت الغارديان هــــذه الاجراءات بأنها انتصار للمقاومة(٩).

وقد صرح موشيه كول ، وزير السياحـــــة الصهيوني ، عقب وقف اطلاق النار عام ١٩٧٠ ان « وقف اطلاق النار سيؤدي الى ازدياد السياح في الخريف والشتاء القادمين »(١٠).

وقد اصابت حرب تشرين التحريرية السيـــاحة بالشلل ، وتأثرت من جراء ذلك مختلف الفـــروع المتعلقة بالخدمات السياحية(١١).

واعترفت اذاعة العدو بأن « وضع السياحة في اسرائيل » منذ حرب تشرين « هو وضع سيء » وقالت الجيروزالم بوست « ان الامل ضئيل في اعادة النشاط السياحي الى سابق حيويته قبـل ترسيخ حالة الامن في البلاد ، فرص انقاذ السياحة هذا الصيف ضئيلة جـــدا ، ومن غير المحتمل ان تجري زيادة معدل السياحة الراكدة بشكل كبير . فالوضع الامني يؤثر لا على السياحة من الخارج فقط ، وانما على جانبها الداخلي ايضا والـــذي اصيب بصدمة كبيرة » . وقـــالت الصحيفة ان مسؤولا في وزارة السياحة لاحظ ان حالة الامن غير مسؤولة وحدها كليا عن الانخفاض البالـــغ ١١ ٪ في عدد السياح القادمين خلال الاشهـــر الخمســة الاولى من عام ١٩٧٤ (٢٤٣٠٠٠ سائح بالمقارنة مع ٢٧٧٠٠٠ في نفس الفترة من العـــام الماضي) مشيرا الى التضخم المالي والارتفـــاع الكبير في الاسعار الذي ليس له مثيل في أية فترة سابقة(١٢). ولكن .. اليس التضخم علـــى هذا نتيجة من نتائج حرب تشرين ؟

ومع ذلك ، فاننا حين نقوم باجراء مقارنة عامة بين حالتي الصعود والنكوص في الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، فنجد ان الاتجاه بشكل عام هو اتجاه نحو الصعود . وان تأثير حالات النكوص كان غالبا موسميا ، ينتهي بانتهـــاء الاسبـــاب المؤدية اليه ، على الاقل فيما يتعلق بحروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ وحرب الاستنزاف ، اذ انه ما زال مـــن السابق لاوانه تقييم الاتجاه بعد حـــرب تشرين بشكل كلي .

لكن هذه النتيجة التي تبدو صحيحة للوهلة الاولى ، لا تعطي الصورة الدقيقة بشكل كلي . ذلك ان العوامل المعرقلة للحركة السياحية الـــى فلسطين المحتلة ، تمارس تأثيرها علـــى حجــم هذه الحركة ، بشكل دائم ، وتجعل من مستواها العام حتى في حدها الاعلى اقل مما كان يمكـــن لفلسطين ان تجذبه من السياح . ثم أن حـــالات الانتعاش التي تحققت لا تعود في معظمها الى نمو صناعة السياحة في الكيان الصهيوني بقدر مـــا تعود الى نتائج عدوان حزيران . فمن الطبيعي أن تكون فلسطين بلدا سياحيا من الدرجة الاولى ، في عصر فشلت فيه الحركة الســـياحية كظـــــاهرة عـــامة . ففي عام ١٩٦٩ غادر ١٥٣ مليون شخص بلدانهم ، وذهبوا الى بلاد اخرى مـــن اجـــل السياحة وكان بينهم ٤٣ مليون اوروبي ، وبلغ ما انفقوه ١٧ مليار دولار(١٣). وكانت حصة فلسطين المحتلة ٤٠٩٠٠٠ سائح و٨٧ مليون دولار ، أي ان نسبة السياح الذين قدموا الى فلسطين المحتلـــة كانت في حدود ٠،٢٦ ٪ ، وهي نسبة منخفضة للغاية . هي منخفضة ، ليس فقط بحساب توزيع الحصص بين بلدان العالم ، ولكنها منخفضة لان ميزات فلسطين السياحية ، كان يجب ان تجعلهـــا في طليعة البلدان السياحية في العالم .

لقد عرفت فلسطين منذ القديم بالطابع الدينـــي الخاص الذي ميزها حتى الان كأرض مقدسة لدى الديانات السماوية الثلاث : الاسلام والمسيحيـــة واليهودية . ومن خلال العهود التاريخية التـــي مرت بها امتلأت أرضها بالاوابد والاثار الدينيـــة والتاريخية ، بالاضافة الى ما تتمتع به من موقع جغرافي بين القارات الثلاث آسيا وافريقيا واوروبا وما تمتاز به من طبيعة جميلة ومناخ معتدل ومتنوع، مما جعلها منذ القديم محجا للكثيرين من طـــلاب

العلم والبحث عن الاثار والتاريخ ، ومن محبي الاطلاع والسياحة ، ومن قاصدي الحصول على الراحة النفسية والوجدانية تبعا لدياناتهم[١٤].

فعندما يضع المرء في حسابه هذه الجوانب، فانه لا بد وان يستغرب ارقام الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، اذ تظل هذه الارقام — ورغم ضخامة الاهتمام الصهيوني بالسياحة — اقل مما يستقبله لبنان المجاور لفلسطين من السياح ، والذي لا يضم ما تضمه فلسطين من اماكن مقدسة. فقد كان عدد السياح الى لبنان عام ١٩٦٦ حوالي ٧٠٠ الف سائح عدا الزوار السوريين[١٥] بينما كان عدد السياح الذين أموا فلسطين المحتلة انذاك أقل من نصف هذا الرقم ، ولم تصل الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة رقما قريبا منه الا في عام ١٩٧٢ ، وكان رقما قياسيا لم تستطع « اسرائيل » ان تحافظ عليه بعد ذلك .

فالحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، هي بشكل عام ، وحتى في فترات الانتعاش ، اقل مما يمكن ان تستقطبه فلسطين في الظروف العادية ، اذا ما قورنت هذه الحركة بالحركة السياحية في العالم . وحتى فترات الانتعاش وما تحقق فيها من قفزات كبيرة لم تتسم بالثبات ، ولم تجيء نتيجة لرسوخ اقدام الكيان الصهيوني في الصناعة السياحية — الا نادرا — رغم جهوده الكبيرة في هذا المجال . وانما جاءت بالدرجة الاولى كنتيجة لتوسعه الاقليمي عام ١٩٦٧ ، ومن ثم فانه يتوقع لها النكوص في حالة انسحابه من الاراضي العربية التي احتلت في ذلك العدوان . فقد استغلت « اسرائيل » احتلالها لشرقي القدس وما فيها من اماكن مقدسة في زيادة عدد السياح (الحجاج غالبا) زيادة كبيرة . وكانت التقديرات فور احتلال شرقي القدس ان مدينة القدس ستضيف وحدها — حسب التقدير الاولي — حوالي ١٣ مليون جنيه استرليني الى واردات اسرائيل في السنة الاولى [١٦]. ويمكن تقدير مدى استفادة العدو من احتلاله لشرقي القدس من تصريح لوزير السياحة الصهيوني . قال فيه أن دخل مدينة القدس وحدها من السياحة بلغ ٢٦ مليون دولار عام ١٩٦٩ ، اي ثلث دخل اسرائيل السياحي بالعملات الاجنبية . وان مليونا و٢٠٠ الف سائح قد أموا مدينة القدس منذ احتلالها في حرب حزيران[١٧].

ان الانتعاش الذي تحقق نتيجة احتلال العدو لمدينة القدس ليس الا جزءا من الانتعاش الناجم عن احتلال الضفة والقطاع والجولان وسيناء وما فيها من أماكن دينية ومعالم سياحية ، وهو انتعاش لم يكن نتيجة تطور ذاتي لصناعة السياحة الاسرائيلية ، وانما ساعد على تحقيق مثل هذا التطور . فقد جاء هذا الانتعاش نتيجة مباشرة للاحتلال . وقد تضرر الاردن بشكل رئيسي ، اذ كانت الضفة الغربية ومدينة القدس بالذات هي مقصد السياح الاوروبيين . وكان احتلالها من قبل اسرائيل يعني انقطاع موارد الخزينة الاردنية من دخل السياحة[١٨] بينما تحولت هذه الموارد لتصب في الخزينة الصهيونية .

وهكذا يتضح كيف كان الانتعاش المتحقق منذ عام ١٩٦٨ نتيجة مباشرة من نتائج التوسع على حساب الارض العربية . كما تضامنت عدة عوامل لانعاش الحركة السياحية عام ١٩٦٨ ، ابرزها تدفق عدد كبير من اليهود لزيارة حائط المبكى ، واحتفالات اسرائيل بالذكرى العشرين لقيامها ، وانعكست نتائج ذلك على مصادر الحركة السياحية كما سيرد في مكان لاحق .

أما الانتعاش الذي شهدته الحركة السياحية خلال العامين ١٩٧١ و١٩٧٢ فيمكن ارجاعه الى أسباب متعددة أبرزها الهدوء النسبي نتيجة وقف اطلاق النار بعد حرب الاستنزاف (حالة اللاحرب واللاسلم) ، واستفادة العدو من سياسة الجسور المفتوحة من خلال امرين ، هما : التوسع في زيارات الصيف بالنسبة للفلسطينيين ، والسماح بانتقال السياح بين الضفتين ، ضمن برامج تولت تنفيذها وكالات سياحية امريكية[١٩]. وقد انعكست نتائج هذه التسهيلات على حجم السياحة الى فلسطين المحتلة فسجلت عام ١٩٧٢ أعلى رقم قياسي جرى تسجيله حتى الان وهو ٧٣٠ الف سائح .

وقد شهد قطاع السياحة في عام ١٩٧٢ نشاطا ملحوظا نتيجة للاستقرار الذي ساد جبهات القتال[٢٠] واخذت سلطات العدو تعطي الاستثمارات السياحية اهتماما فائقا اعتقادا منها

بأن حالة اللاسلم واللاحرب سوف يطول أمدها ، الا ان حرب تشرين جاءت لتقود الحركة السياحية في فلسطين المحتلة الى نكوص جديد ، واستمر النكوص في عام ١٩٧٤ .

خلال الفترة السابقة على حرب حزيران ، ومنذ عام ١٩٥٢ ، كانت اوروبا هي المصدر الاول للسياح القادمين الى فلسطين المحتلة ، وكانت امريكا تجيء في المرتبة الثانية . ويتبين من الجدول رقم (٢) ان نسبة السياح الاوروبيين بلغت خلال تلك الفترة ٤٦،٤ ٪ ، وبلغت نسبة السياح القادمين من الامريكتين ٤٢،٢ ٪ ، أما من اسيا وافريقيا فكانت ضئيلة للغاية .

الجدول رقم (٢)

اعداد السياح القادمين الى فلسطين المحتلة حسب القارات ، والنسب المئوية لكل منها(٢١)

(١٩٥١ — ١٩٦٦)

القـارة	العـدد	النسبة المئوية
اوروبا	٨٤٨١٠٣	٤٦،٤ ٪
امريكا	٧٧٤٤٩٢	٤٢،٣ ٪
آسيـا	٩٦٧٠٠	٥،٣ ٪
افريقيا	٨٥٦٢٣	٤،٧ ٪

لقد كان معظم الانتعاش السياحي الذي تحقق بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٦ عائدا الى زيادة السياح القادمين من اوروبا ، وخاصة من انكلترا وفرنسا والمانيا الغربية ، اذ انهم تزايدوا خلال تلك الفترة الى أربعة اضعاف . وكان معظم السياح الامريكيين بين عامي ١٩٥١ و١٩٦٦ من اليهود . اذ لا تقل نسبة هؤلاء من بين السياح القادمين من الولايات المتحدة وكندا عن ٦٥ ٪ ، وكان مجموع هؤلاء يمثل الاغلبية الساحقة بين سياح الامريكتين، اذ ان القادمين من الولايات المتحدة وحدهم كانوا يمثلون ٨٥ ٪ من المجموع(٢٢).

أما التوزيع العام للسياح في اواخر تلك الفترة من حيث الديانة فقد اوضحه مئير بن شاليت المدير العام لوزارة السياحة الصهيونية ، بقوله ان نصف السواح الذين كانوا يزورون فلسطين المحتلة هم من المسيحين ، وان ٥١ ٪ من اوروبا ، و٣٨ ٪ فقط من مجموع السواح هم من اليهود ، و١ ٪ ينتمون الى أية ديانة ، بينما رفض ٧ ٪ الاجابة على السؤال حول ديانتهم(٢٣).

اذن فقد كانت نسبة السياح الاوروبيين هي الاعلى، وكانت نسبة السياح المسحيين اعلى من نسبة السياح اليهود . وكانت نسبة كبيرة من السياح الاوروبيين والامريكيين المسيحيين تزور شرقي القدس اولا ثم تعبر الى القسم الغربي منها مما يدل على أن نسبة كبيرة من هؤلاء كانت تزور فلسطين المحتلة كامتداد لجولتها السياحية في المنطقة .

لقد طرأت تبدلات أساسية على هذه الصورة بعد حرب حزيران . فقد اصبح السياح القادمون من امريكا هم الاكثرية ، كما أصبح اكثرية السياح من اليهود بعد حرب حزيران مباشرة ، وخلال عامي ١٩٦٧ / ١٩٦٩ بلغت نسبة اليهود بين مجموع السياح ٥٣ ٪ مقابل ٤٤ ٪ عام ١٩٦٦ ، وبلغت نسبة اليهود بين السواح الذين وصلوا خلال الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩٦٩ رقما اعلى هو ٦٠ ٪(٢٤). وبالنسبة للقارات ، فان نسبة القادئين من الولايات المتحدة عام ١٩٧١ بلغت ٤٠ ٪ مقابل ٣٩ ٪ من اوروبا(٢٥).

وقد حدثت تبدلات في اهمية البلدان الاوروبية كمصادر للسياحة . ففي عام ١٩٦٨ كانت نسبة السياح القادمين من اوروبا أعلى منها في اي بلد اوروبي اخر ، فبلغ عددهم حوالي ٤٦ الف سائح بريطاني مقابل ٣٦ الفا عام ١٩٦٧(٢٦). وقد لوحظ في عام ١٩٧٠ زيادة في عدد السياح القادمين من فرنسا وبلجيكا والولايات المتحدة والمانيا الغربية، بينما كان عدد السياح القادمين من بريطانيا وايطاليا وهولندا وسويسرا اقل مما كان عليه في السنين السابقة(٢٧). وكان عدد السياح الالمان الغربيين عام ١٩٧١ (٣٥ الفا) ، وبلغ عددهم في الاشهر الثمانية الاولى من عام ١٩٧٢ (٢٤١٠٤) سياح ، بزيادة قدرها ٤٣ ٪ عن السنة السابقة . وظل تدفق السياح من المانيا الغربية مستمرا ، فوصل عام ١٩٧٣ الى حوالي ٤٢ الف سائح مقابل ٤٣ الفا في عام ١٩٧٢(٢٨).

أما بعد حرب تشرين فقد لوحظ انخفاض كبير في نسبة السياح القادمين من الولايات المتحدة ، كما أحدث نسبة السياح المسيحيين تتجه نحو الزيادة بالنسبة للسياح اليهود ، فقد بلغ عدد السياح الاوروبيين ٢٩٨ الفا مقابل ٢٠٤ الاف سائح امريكي . وهذا يعني ان الهبوط في الحركة السياحية قد مس بشكل أساسي المصادر الرئيسية للزيادة التي تحققت بعد حرب حزيران .

في ضوء المعطيات السابقة يمكننا القول انه رغم ان تأثير حرب تشرين على الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة لم يكن تأثيرا جديا ، بمعنى انه لم يؤد الى توقفها الكلي ، او انخفاضها بنسبة كبيرة للغاية ، الا انه تميز بنوع من العمق والثبات . فلم يقتصر على التأثير الموسمي المرتبط بشل هذه الحركة ابان الحرب ، وانما استمر بعدها . بحيث سادت ظاهرة الاتجاه نحو الهبوط عام ١٩٧٤ بكامله ، ولم يحسن من وضع الحركة السياحية في ذلك العام نسبيا الا مصادفته للعام المقدس لدى الكاثوليك الذي يحتفل به مرة كل ٢٥ عاما . وتدل كافة المؤشرات على أن الاتجاه نحو الهبوط سيستمر خلال السنوات القادمة .

وستبدو اهمية تأثير حرب تشرين على الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، اذا قارنا ما آل اليه واقع هذه الحركة مع ما كان العدو يخطط لبلوغه بالفعل . ففي اواخر عام ١٩٧٠ ، صرح حانوخ جبتون ، المدير العام لوزارة السياحة الصهيونية ، ان وزارته ستشرع اعتبارا من سنة ١٩٧١ ، بتنفيذ مشروع خاص يرمي الى مضاعفة الزيادة النسبية للسياحة خلال السنوات الثلاث (٧١ و٧٢ و١٩٧٣) بجلب (١٠٠) الف سائح اضافي بالاضافة الى نسبة الزيادة الطبيعية في السياحة ، والتي تقدر بـ ٤٥٠ الف سائح في ثلاث سنوات[٢٩]. ووفق هذا التطوير فقد كان ينبغي ان تسير الحركة السياحية على النحو المبين في الجدول رقم (٣) .

الجدول رقم (٣)

التطور المتوقع والمخطط له للحركة السياحية

(١٩٧١ — ١٩٧٢)

السنة	عدد السياح الفعلي	العدد المتوقع بالزيادة الطبيعية	العدد المتوقع مع خطة المضاعفة
١٩٧١	٦٥٠،٠٠٠	٥٨٦،٧٠٠	٦١٩،٧٠٠
١٩٧٢	٧٣٠،٠٠٠	٧٣٦،٧٠٠	٨٠٢،٧٠٠
١٩٧٣	٦٦٠،٠٠٠	٨٨٦،٧٠٠	٩٨٦،٧٠٠
١٩٧٤	٦٣٠،٠٠٠	١٠،٣٦،٧٠٠	

ويتضح من الجدول رقم (٣) ان العدو نجح في أن يجعل العدد الفعلي للسياح في عامي ١٩٧١ و١٩٧٢ اكثر او في حدود الارقام المتوقعة نتيجة الزيادة الطبيعية لكن توقعاته اصيبت باخفاق شديد عام ١٩٧٣ وباخفاق اشد عام ١٩٧٤ بحيث لم يستطع ان ينفذ خطته لمضاعفة نسبة الزيادة في السياحة ، او أن يحتفظ بنسبة الزيادة الطبيعية، او حتى ان يحافظ على المستوى الذي بلغته الحركة السياحية عام ١٩٧٢ .

حرب تشرين واثرها على دخل اسرائيل السياحي

يمثل الدخل السياحي من العملات الصعبة المصدر الاساسي من مصادر الدخل السياحي ، ولكنه ليس المصدر الوحيد . فهناك الرسوم والضرائب على المصالح والمشاريع السياحية ، وكذلك ما تسهم به السياسة في عملية تصريف المنتجات ، وفي الترويج لها كاداة من ادوات الاعلام التجاري . فما هو تأثير حرب تشرين على دخل العدو السياحي في هذه المجالات ؟

تطورت اهمية السياحة الى فلسطين المحتلة كمصدر للعملات الاجنبية من سنة الى اخرى ، بحيث اصبحت في السنوات الاخيرة من اهم مصادر الحصول على العملات الاجنبية ، وذلك بالمقارنة مع انواع الصادرات الاخرى ومردودها .

ويبين الجدول رقم (٤) تطور دور السياحة

الجدول رقم (٤)

الدخل السياحي من العملات الاجنبية
(بملايين الدولارات ، ١٩٥٢ — ١٩٧٤)

السنة	الدخل السياحي
١٩٥٢	٢،٥
١٩٥٣	٣،٨
١٩٥٤	٤،٨
١٩٥٥	٧،٢
١٩٥٦	٦،٦
١٩٥٧	٥،٥
١٩٥٨	١٢،٠
١٩٥٩	١٦،٢
١٩٦٠	٢٧،٠
١٩٦١	٢٨،٣
١٩٦٢	٣٨،٣
١٩٦٣	٥٢،٩
١٩٦٤	٥٤،٢
١٩٦٥	٥٤،٨
١٩٦٦	٥٨،٨
١٩٦٧	٦٥،٠
١٩٦٨	٩٠،٠
١٩٦٩	٨٧،٠
١٩٧٠	١٠٤،٠
١٩٧١	١٥٥،٠
١٩٧٢	٢٠٧،٠
١٩٧٣	٢٣٠،٠
١٩٧٤	٢٠٠،٠

* جدول الفترة حتى عام ١٩٦٦ منكتاب «**اسرائيل والسياحة**» السابق الذكر ، ص (١٧) ، اما بقية الاعوام فقد قمنا بتنظيمها بناء على تصريحات وزير السياحة الصهيونية ، والمكتب المركزي للاحصاء .

كمصدر للعملات الاجنبية في الكيان الصهيوني بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٧٤ . ويتضح من هذا الجدول ، ان دخل اسرائيل من العملات الاجنبية قد تطور مع تطور الحركة السياحية ، مسجلا تراجعات طفيفة في بعض السنوات . فبعد ان كان الدخل السياحي عام ١٩٥٢ هو ٢،٥ مليون دولار ، سجل في العام ١٩٧٣ رقما قياسيا هو ٢٣٠ مليون دولار . لكن هذا الدخل تعرض للانخفاض في بعض السنوات ، وخاصة في الاعوام ١٩٥٦/١٩٥٧ و١٩٦٦ و١٩٧٤ . وكما هو واضح فقد ارتبط هذا الانخفاض بنكوص الحركة السياحية في اعوام الحرب .

وتبدى الاهمية النسبية لازدياد دخل العدو من السياحة ، في حالتي المقارنة مع نسبة الزيادة في قيمة الصادرات ، ونسبة الزيادة في قيمة تصدير السلع الرئيسية . فخلال السنوات العشر (١٩٥٥ — ١٩٦٥) كانت نسبة الزيادة في الدخل السياحي ٦٦١ ٪ ، بينما كانت نسبة الزيادة في قيمة الصادرات ٣٥٥ ٪(٣٠) ويعني ذلك ان قطاع السياحة هو احد المجالات البارزة التي يمكن من خلالها تحقيق دخل متزايد بمعدلات مرتفعة من العملات الاجنبية .

ويبين الجدول رقم (٥) الاهمية النسبية للدخل السياحي بالنسبة الى مجموع الدخل من الصادرات السلعية بين عامي ١٩٥٢ و ١٩٧٤ . ومنه يتضح ان نسبة الدخل السياحي الى الصادرات قد ارتفعت من ٥،٨ ٪ عام ١٩٥٢ الى ١٦،٧ ٪ عام ١٩٧٣ ، وبلغت حدا أعلى في عام ١٩٧٠ هو ١٩،١٪ . ومع ان الاهمية النسبية للدخل السياحي من العملات الاجنبية بالنسبة لمجموع الصادرات قد سجلت خلال العامين ١٩٦٦ و١٩٦٧ معدلات أقل مما بلغته في النصف الاول من الستينات ، الا انها عادت الى الارتفاع منذ عام ١٩٦٨ حيث ارتفعت الى حوالي ١٤،١ ٪ بالنسبة لعام ١٩٦٧ ثم انخفضت مع هبوط الحركة السياحية عام ١٩٦٩ الى ١١،٩ ٪ لترتفع من جديد في اوائل السبعينات متجاوزة كافة المعدلات السابقة . ثم تعرضت للانخفاض من جديد عقب حرب تشرين .

ورغم تردد الدخل السياحي من العملات الاجنبية بين الصعود والهبوط ، الا انه ظل مصدرا اساسيا لهذه العملات يفوق في اهميته السلع التصديرية الرئيسية . فكما هو معروف يقف الماس المصقول

الجدول رقم (٥)

نسبة الدخل السياحي الى قيمة الصادرات

القيم بملايين الدولارات (١٩٥٢ — ١٩٧٤)

السنة	الصادرات	الدخل السياحي	نسبة الدخل السياحي الى الصادرات
١٩٥٢	٤٣	٢،٥	٥،٨ ٪
١٩٥٣	٥٨	٣،٨	٦،٥ ٪
١٩٥٤	٨٦	٤،٨	٥،٦ ٪
١٩٥٥	٨٩	٧،٢	٨،٠ ٪
١٩٥٦	١٠٦	٦،٦	٦،٦ ٪
١٩٥٧	١٤٠	٥،٥	٤،٠ ٪
١٩٥٨	١٣٩	١٢،٠	٨،٥ ٪
١٩٥٩	١٧٦	١٦،٢	٩،٢ ٪
١٩٦٠	٢١١	٢٧،٠	١٢،٣ ٪
١٩٦١	٢٣	٢٨،٣	١١،٩ ٪
١٩٦٢	٢٧١	٣٨،٣	١٤،١ ٪
١٩٦٣	٣٣٨	٥٢،٩	١٥،٧ ٪
١٩٦٤	٣٥٢	٥٤،٢	١٥،٤ ٪
١٩٦٥	٤٠٦	٥٤،٨	١٣،٥ ٪
١٩٦٦	٥٠٣	٥٨،٨	١١،٧ ٪
١٩٦٧	٥٥٥	٦٥،٠	١١،٧ ٪
١٩٦٨	٦٣٩	٩٠،٠	١٤،١ ٪
١٩٦٩	٧٣١	٨٧،٠	١٠،٥ ٪
١٩٧٠	٧٨١	١٥٠،٠	١٩،١ ٪
١٩٧١	٩٥٧	١٥٥،٠	١٧،٢ ٪
١٩٧٢	١١٠٠	٢٠٧،٠	١٨،٨ ٪
١٩٧٣	١٣٧٩	٢٣٠،٠	١٦،٧ ٪
١٩٧٤		٢٠٠،٠	

على رأس سلع التصدير الاسرائيلية ، ويعتبر النجاح الوحيد في صناعات اسرائيل التصديرية التي تمت من حجم متواضع عقب الحرب العالمية الثانية لتحتل المركز الاول في قائمة صادرات اسرائيل(٣١) وأصبح الماس المصقول الذي يصدره الكيان الصهيوني أكثر من مهيمن في السوق العالمي(٣٢). لقد بلغت صادرات الماس المصقول عام ١٩٦٥ (١٥٤،٤) مليون دولار ، وفي عام ١٩٦٦ ارتفعت الى ١٩٠ مليون دولار ، وأصبحت عام ١٩٦٧ (١٩٣) مليون دولار ، وكانت نسبة تصدير الماس بالنسبة الى مجموع الصادرات خلال تلك الاعوام هي على التوالي ٣٥،٩ ٪ و٣٧،٧ ٪ و٣٤،٦ ٪ ، مشكلة نصف الصادرات الصناعية(٣٣) وفي عام ١٩٦٩ (الذي شهد انخفاضا في الحركة السياحية) كانت قيمة صادرات الماس ٢١٦ مليون دولار ، واحتلت اسرائيل بذلك المرتبة الاولى في تصدير الماس تليها بلجيكا التي صدرت في ذلك العام بما قيمته ٢٥٠ مليون دولار ، الا ان صادرات

اسرائيل من الماس عادت وانخفضت في عام ١٩٧٠(٢٤) وبلغت ٢٠٢ مليون دولار ، لتعود للارتفاع في العام ١٩٧١ الى ٢٦٥ مليون دولار .

فاذا القينا نظرة عابرة على دخل اسرائيل من السياحة ودخلها من الماس ، فسيبدو للوهلة الاولى تفوق اهمية الماس على السياحة . لكن هذا الاستنتاج يسقط بمجرد حساب القيمة المضافة في الحالتين . فما تحصل عليه اسرائيل من تصدير الماس انما هو نفقات تصنيعه ، بينما تقوم بشراء الماس الخام من جنوب افريقيا ، ولا يزيد ربحها في هذه العملية عن ٢٠ ٪(٣٥). ففي سنة ١٩٥٤ صدرت اسرائيل بما قيمته ١٥،٦٦٨،٧٨٠ دولارا من الماس المصقول ، بينما كانت قيمة الماس الخام الذي استوردته ١٣،٧٩٣،٠٠٠ دولار . وفي سنة ١٩٦٩ صدرت بما قيمته ٢١٥،٩٠٧،٣١٦ دولارا من الماس المصقول مقابل استيراد ماس خام بـ ١٩٢،٧٥٠،٤٧٧ دولارا(٣٦). وفي عام ١٩٧٠ كانت القيمة المضافة هي ١٦ ٪ فقط من قيمة التصدير ، اي ٣٩ مليون دولار من اصل ٢٠٢ مليون دولار(٣٧). فمساهمة صناعة صقل الماس في الدخل « القومي » الاسرائيلي ليست بقدر قيمة تصدير الماس(٣٨).

بالمقابل فان القيمة المضافة في دخل السياحة هي أعلى بكثير . ففي عام ١٩٧١ بلغ دخل اسرائيل من السياحة حوالي ١٨١ مليون دولار ، وبلغت القيمة المضافة ٧٩ ٪ وهي اعلى نسبة على الاطلاق اذا قورنت بأية صناعة تصديرية اخرى في اسرائيل(٣٩). وفي عام ١٩٦٤ كان دخل اسرائيل من السياحة ٥٤ مليون دولار ، منها ٧٣ ٪ ارباح صافية(٤٠) وكانت القيمة المضافة في دخل السياحة عام ١٩٦٦ هي ٧٠ ٪ . فاذا قارنا بين دخل اسرائيل من السياحة ودخلها من الماس ، سنجد ان دخلها من السياحة أعلى من دخلها من الماس . ففي عام ١٩٧١ كانت القيمة المضافة من دخلها من السياحة هي ١٤٢،٩٩ مليون دولار ، بينما لم يتجاوز ربحها من تصدير الماس المصقول ٥٣ مليون دولار . اي ان دخلها من السياحة كان حوالي ثلاثة اضعاف دخلها من تصدير الماس .

ولا تتوقف اهمية السياحة مقارنة بسلعة اسرائيل التصديرية الاولى على دور القيمة المضافة ، وانما هناك اسباب اخرى تجعل للسياحة افضلية على صقل الماس وتصديره . فالماس المصقول الذي يعتمد على استيراد الماس من جنوب افريقيا، يعتمد على كارتل دي بيرز القوي الذي يسيطر على سوق الماس الخام . وتقع صناعة الماس تحت رحمة الطلب العالمي المتذبذب الذي يتغير بشكل كبير تبعا للظروف المالية الدولية ، والطلب المتذبذب خطر خاصة بالنسبة لصناعة ذات قيمة مضافة قليلة وارباح منخفضة للوحدة(٤١). وقد شهدنا مثالا لذلك بالهبوط الذي اصاب صادرات اسرائيل من الماس عام ١٩٧٠ بسبب الهبوط الاقتصادي في الولايات المتحدة التي هي الزبون الرئيسي لاسرائيل ، حيث انخفض تصدير الماس الاسرائيلي بنسبة ١١ ٪ في ذلك العام(٤٢). كما ان الماس المصقول الاسرائيلي عامل مهين على السوق العالمية ، ولا يتوقع له الاستمرار طويلا بمعدل نموه الحالي ، وعلى الاخص نتيجة المنافسة المتزايدة من بلدان كالهند واليابان(٤٣) ومنذ عام ١٩٦٩ ، بدا من الواضح صعوبة توسيع اسواقه الحالية(٤٤). وقد انتكس سوق الماس الاسرائيلي في عام ١٩٧٤ ، وشهد بطالة جزئية في قطاع صناعة صقل الماس .

وما ينطبق على الماس ينطبق الى حد بعيد على صادرات اسرائيل من الحمضيات . فكما هو الحال بالنسبة للماس لم يعد من المستطاع توسيع اسواق الحمضيات الاسرائيلية(٤٥) وبعد ان كانت الحمضيات تشكل عام ١٩٥٠ نصف الصادرات الاسرائيلية ، اصبحت تشكل اليوم ١٥ ٪ منها فقط ، واذا وضعنا في الاعتبار منافسة البلدان الاوروبية ، ونضوب الارض الخصبة ، وقلة المياه، لا يبقى سوى احتمال لنسبة ضئيلة من النمو امام الحمضيات الاسرائيلية على المدى البعيد(٤٦) بل ان اسرائيل ، عمدت الى اتخاذ قرار بتقليص المساحات المزروعة بالحمضيات بنسبة ١٠ ٪ .

لقد كانت قيمة الصادرات الزراعية بما فيها الحمضيات عام ١٩٦٥ هي ٨٦،١ مليون دولار ، وارتفعت في عام ١٩٦٦ الى ٩٤،٨ مليون دولار ، ثم اصبحت في عام ١٩٦٧ (١٠٨،٤) مليون دولار . وكانت نسبتها من مجموع الصادرات في تلك الاعوام هي على التوالي ٢٠،١٪ و١٨،٨٪ و١٩،٤٪(٤٧). وكانت قيمة صادرات الحمضيات خلال تلك

السنوات هي ٧١،٢ و٧٤،٧ و٨٣،٧ مليون دولار(٤٨). وكانت قيمة صادرات الحمضيات خلال تلك السنوات اعلى من دخل السياحة .

وفي عام ١٩٦٨ ، كان مجموع قيمة الصادرات الزراعية ١١٢ مليون دولار(٤٩) منها ٨٨،٤ مليون دولار قيمة صادرات الحمضيات ، وارتفعت عام ١٩٦٩ الى ١٢٠ مليون دولار منها ٩١،٩ مليون دولار للحمضيات ، ثم انخفضت في عام ١٩٧٠ الى ١١٦،٨ مليون دولار منها ٨٣ مليون دولار للحمضيات(٥٠). لكننا نلاحظ ان السياحة كانت قد سجلت عام ١٩٧٠ دخلا قدره ١٥٠ مليون دولار ، اي حوالي ضعف دخل اسرائيل من تصدير الحمضيات .

وهكذا يتضح لنا ان السياحة قد قفزت الى المرتبة الأولى دون منافس كمصدر للعملات الاجنبية بالقياس الى سلع اسرائيل التصديرية الاخرى . ولكنها تجيء في المرتبة الثانية بعد قطاع النقل في مجال الخدمات المتضمن الخدمات والسياحة والصادرات غير المنظورة : وتتضح لنا اهمية قطاع الخدمات ككل ، اذا ذكرنا انه في مقابل القيمة الاجمالية للصادرات الصناعية والزراعية البالغة ٦٤٠ مليون دولار ، لعام ١٩٦٩ ، فان دخل اسرائيل من السياحة والخدمات والصادرات غير المنظورة بلغ ٤٠٠ مليون دولار(٥١).

ومن الملاحظات البارزة على تطور الاقتصاد الاسرائيلي ارتفاع نسبة الصادرات من الخدمات في اجمالي الصادرات ، حيث اتجهت هذه النسبة من ٣٦،٧ ٪ عام ١٩٤٩ الى ٤٩،٣ ٪ عام ١٩٦٨. وتمثلت صادرات الخدمات في السياحة والنقل الخارجي وتصدير الخبرات الفنية الى الدول الافريقية(٥٢). وفي عام ١٩٦٩ سجلت نسبة الصادرات من الخدمات ارتفاعا كبيرا ، فبلغت ٦٢،٥ ٪ من الصادرات الاجمالية . ومن المعروف ان خدمات النقل هي اهم الخدمات التي تصدرها اسرائيل ، فهي تتمتع بأسطول بحري وجوي من الطراز العالمي ، وتأتي السياحة في الدرجة الثانية في قطاع الخدمات(٥٣).

ازاء هذا الوضع لم يكن مستغربا ان يعلن وزير السياحة الصهيوني « ان السياحة اصبحت فرعا رئيسيا ومن أهم فروع مدخولات الدولة من العملة الصعبة »(٥٤).

لكن حرب تشرين حملت معها تأثيرا واضحا على دخل اسرائيل السياحي ، فقد بلغ مجموع الدخل الذي حصلت عليه اسرائيل من السياحة عام ١٩٧٤ حوالي ٢٠٠ مليون دولار ، اي اقل من الدخل الذي حصلت عليه عام ١٩٧٣ (الذي تأثر جزئيا بحرب تشرين) بـ ٣٠ مليون دولار ، وكان المسؤولون الصهاينة يقدرون ان دخل اسرائيل السياحي من العملات الصعبة سيصل عام ١٩٧٤ الى ٣٠٠ مليون دولار رغم ظروف حرب تشرين(٥٥) أي ان تصورا قد حدث بمقدار الثلث .

ويزداد وضوح التأثير الذي مارسته حرب تشرين اذا عرفنا ان التكاليف الاكبر الناجمة عن غلاء الاسعار كان يجب ان تؤمن وحدها زيادة في الدخل السياحي تصل الى ٢٠ — ٣٠ ٪(٥٦).

ويمكن ارجاع النكسة التي لحقت دخل اسرائيل السياحي من العملات الاجنبية بعد حرب تشرين الى الاسباب التالية :

١ — الهبوط الذي شهدته الحركة السياحية بشكل عام . وذلك نتيجة اسباب متعددة أبرزها التأثير السلبي الذي مارسته التقارير الواردة عن حالة الامن على الحركة السياحية(٥٧).

٢ — لجوء المزيد من السياح بسبب دوامة الاسعار التي اجتاحت اسرائيل الى السوق السوداء حيث يحصلون على نسبة ٢٠ ٪ زيادة مقابل نقودهم . ومساعدة التجار لهم في ذلك ، اذ لا يقومون بتسليم الدولارات التي ينفقها السياح الى خزينة الدولة مخالفين الانظمة النافذة . وقد أبلغ وزير السياحة الصهيوني اللجنة الاقتصادية التابعة للكنيست بصراحة ان مزيدا من أموال السياح تتحول الى السوق السوداء(٥٨).

٣ — ما سببه غلاء الاسعار بشكل فاحش من انخفاض في مشتريات السياح ومدة اقامتهم .

وقد كان انخفاض دخل اسرائيل السياحي ، واحدا من الاسباب التي اضطرت الحكومة الاسرائيلية الى تخفيض قيمة الليرة الاسرائيلية في تشرين الثاني ١٩٧٤ مؤملة ان يسهم هذا الاجراء في تنشيط الحركة السياحية بالاضافة الى الاهداف الاخرى التي توختها منه .

توفر السياحة فرصا كبيرة لزيادة الدخل الحكومي من الضرائب . وهذه الضرائب اما ان

تكون مباشرة او غير مباشرة . أمـــا الضرائب المباشرة ، فهي ضرائب الجمارك والضرائب على المشروبات التي يستهلكها السياح والضرائب على اجور الفنادق . وهي ترتفع مع انتعاش الحركة السياحية بنسبة ما يلحق هذه الحركة من انتعاش، وتنخفض بانخفاضها . أما الضرائب غير المباشرة فهي الضرائب على ارباح شركات الطيران والملاحة ووكالات السفر والفنـــادق والسيارات العمومية والمشاريع المختلفة التي تعتمد السياحة اساسا لدخولها[٥٩].

ومن الواضح وجود ارتباط وثيق بين انتعاش وهبوط الحركة السياحية ، وبين دخل الخزانة الاسرائيلية من الضرائب والرسوم في هذه المجالات. واذا اخذنا احد هذه المجالات ، وهو قطاع النقل الجوي ، فسنجـــد ان وارداته الاجمالية عـــام ١٩٦٥ كانت نحو ١٧٩ مليون ليرة اسرائيلية ، ووصلت عام ١٩٦٦ الـــى ١٩٩ مليـــون ليرة ، وارتفعت عام ١٩٦٧ الى ٢٢٤ مليونا ، اما عام ١٩٦٨ ، فبلغت نحو ٣١٧ مليون ليرة اسرائيلية[٦٠]. ويبين الجدولان (٦) و(٧) بعـــض المعطيات الاساسية حول تطور النقل الجوي في الكيـــان الصهيوني ، حيث تمثل الحركة السياحية عاملا رئيسيا في هذا التطور[٦١].

الجدول رقم (٦)

نشاطات شركة العال في النقل الجوي

	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠
عدد الرحلات	٤٧٥	١٦،٨٦٤	٦،٠٢٤
ساعات الطيران	٦،٢٥٠	١٦،٢٦١	٤١،٥٠١
عدد الركاب	١٥،٥١٤	٤٦،٧١٧	٥٦٤،٣٤٧

الجدول رقم (٧)

تطور النقل الجوي الدولي في اسرائيل

	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠
الرحلات الجوية	٢،٢٧٢	٢،٩٢٦	٩،٠٧٩
المسافرون القادمون	٨٢،٧٩١	١١١،٦٠٢	٦٠٣،٣٠٠
المسافرون المغادرون	٣٣،٨٤٦	١١١،٨١٨	٥٨٦،٣٠٠

كذلك فقد ازدادت الليالي السياحية في الفنادق من ١،١٣٦،٠٠٠ ليلة سياحية عام ١٩٦٠ الـــى ٣،٤٣٢،٠٠٠ ليلة سياحية عام ١٩٧٠ ، وقد توقعت لها سلطة التخطيط الاقتصادي أن تصل في عام ١٩٧٥ الى ٦،٣٦٠،٠٠٠ ليلة سياحية[٦٢]. مما يعني مضاعفة حاصلات الخزينة الاسرائيلية مـــن الضرائب والرسوم المترتبة على دخل الفنادق ، ما لم تقم العوامل المعرقلة بالحيلولة دون الوصول الى الارقام المخطط لها ، وهذا ما احدثته حرب تشرين .

ان تحـــديد الارقـــام الفعلية لدخل الخزينـــة الاسرائيلية من الضرائب والرسوم نتيجة الحركة السياحية هو أمر غير متيسر ، وبالتالي فان معرفة الحجم الفعلي الرقمي لتأثير حرب تشرين في هذا المجال هي مسألة غير ممكنة ، لكن الاضرار الكبيرة التي لحقت بالحركة السياحية ، ونشاطات شركة العال ، ومن ثم شركة اركيع للخطوط الداخلية ، والشلل الذي عانت منه شركة تسيم لنقل الركاب، وكذلك الفنادق ، كل ذلك يدل دلالة قاطعة على خسارة اسرائيلية كبيرة في هذا المجال . وقد وصل

الامر برئيس رابطة وكلاء السياحة الى المطالبة بتشكيل لجنة حكومية على مستوى عال ، او هيئة رفيعة المستوى، كي تعيد النظر بسرعة في السياسة السياحية ، وسياسة الرحلات الجوية ، نظرا للانخفاض الكبير في السياحة(٦٣).

لقد أثرت حرب تشرين على مدخولات الفنادق والمقاهي والملاهي والمطاعم وشركات الطيران وشركات السياحة ، بالاضافة الى الفروع الثانوية التي تخدم السياحة ، كفروع المجوهرات والالبسة. وقد ذكر سكرتير اتحاد اصحاب الفنادق في اوائل تشرين الثاني ١٩٧٣ ، بأن معظم الفنادق خالية تماما ، ويخشى ان تغلق قريبا ، وان اصحاب الفنادق توجهوا بسرعة الى وزارة السياحة مطالبين بزيادة رؤوس الاموال المستثمرة وتأجيل دفع الديون ودفع الاموال على حساب المساعدات التي التزمت الحكومة بدفعهما لاصحاب الفنادق(٦٤). كما اقدمت العديد من شركات الطيران على تخفيض رحلاتها الجوية الى اسرائيل ، وظلت خطوط النقل البحرية في حالة شلل لفترة ليست بالقصيرة بعد حرب تشرين ، وكان من شأن ذلك كله ان يؤثر تأثيرا كبيرا على دخل اسرائيل من الرسوم والضرائب .

وتستفيد السلطات الصهيونية من السياحة كوسيلة للاعلان عن منتجاتها الصناعية والزراعية فتدعو النشرات الدعائية السياح الى زيارة المصانع والحقول الزراعية في فلسطين المحتلة(٦٥). وتحصل اسرائيل على دخل كبير من مشتريات السياح من الهدايا التذكارية . وكان معدل ما ينفقه السائح الواحد على المشتريات قبل حرب حزيران ٣٠ دولارا . وتقدم وزارة السياحة تخفيضا خاصا للسياح بنسبة ١٥ ٪ عن مشترياتهم من المتاجر السياحية لكي تشجع بيع المصنوعات المحلية السياحية . وفي عام ١٩٦٤ ، على سبيل المثال ، بلغت قيمة مشتريات السياح من الالبسة والمجوهرات والفرو والهدايا التذكارية حوالي ٥٢٣ مليون دولار . وتركز الحكومة الصهيونية جهودها لبيع هذه السلع والمنتجات التي تساهم في الدعاية للمنتجات الاسرائيلية في الخارج(٦٦). وتوجد في وزارة السياحة دائرة خاصة باسم دائرة مراقبة مشتريات السياح مهمتها مراقبة المتاجر السياحية المختلفة من صالات الرسم والفن ومتاجر الهدايا التذكارية ومتاجر الالبسة والمجوهرات والسجائر والعطور .. الخ . وتحصل هذه المتاجر على موافقة دائرة مراقبة مشتريات السياح لكي تصبح موصى بها للسياح ، وكذلك تقوم الدائرة بتحديد ومراقبة الاسعار في المتاجر المختلفة(٦٧).

ومع انه لا توجد ارقام محددة توضح مدى ما لحق بدخل اسرائيل في هذا المجال من اضرار نتيجة حرب تشرين ، الا ان هناك العديد من الشواهد على ان حالة التضخم التي عانى منها الاقتصاد الاسرائيلي ، وخاصة بعد الحرب ، جعلت مشتريات السياحة أقل مما كانت عليه ، وهو الامر الذي يفسر جزئيا كون نسبة الانخفاض في الدخل السياحي تفوق نسبة الانخفاض في عدد السياح .

ويعترف حانوخ جبتون ، المدير العام لوزارة السياحة ، بأن مشكلة التضخم المالي التي هي أشد خطورة في اسرائيل منها في اي مكان اخر من العالم قد أثرت على الحركة السياحية والدخل السياحي . ويذكر انه في الثلث الاول من عام ١٩٧٤ ازداد التضخم المالي بنسبة ٢١ ٪ تقريبا ، بالمقارنة مع الربع الاخير من عام ١٩٧٣ ، وانه من هذه الناحية فان الاسعار في فلسطين المحتلة مرتفعة للغاية ، وأحيانا تكلف وجبة طعام يأكلها السائح خارج الفندق ، اكثر من سعر المبيت في الفندق . وهذه القضايا تجعل البلاد غالية بالنسبة للسائح ولا تساعد على قدوم السياح ، ويذكر مراسل اذاعة العدو بيني رون انه ، مع ذلك ، فان وزارة السياحة وشركة العال تعملان على تخفيض اسعار السفر لتشجيع السياحة(٦٨).

نخلص من الاستعراض السابق الى استخلاص النتائج التالية : ١ ــ ان دخل اسرائيل من السياحة قد تعرض للانخفاض نتيجة لحرب تشرين . ٢ ــ ان انخفاض هذا الدخل كان بنسبة أعلى من الانخفاض الذي لحق بالحركة السياحية رغم الزيادة الطبيعية في التكاليف . ٣ ــ ان انخفاض الدخل السياحي قد حدث سواء فيما يتعلق بالعملات الاجنبية ، او الدخل من الضرائب والرسوم او المبيعات . ٤ ــ ان التضخم الاقتصادي ، وارتفاع الاسعار ، والاضرابات ــ خاصة في شركة العال ــ قد ساهمت في مضاعفة التأثير ، بحيث لحقت الازمة بكافة فروع دخل اسرائيل من الخدمات . ويجدر

ان نذكر هنا ان الخدمات غير المنظورة المتمثلة في تصدير الخبرات الفنية الى افريقيا قد تأثرت ايضا، حين قطعت الدول الافريقية علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل ابان حرب تشرين .

اثر حرب تشرين على التشغيل والاستثمار في القطاع السياحي :

يوفر انتعاش السياحة مجالات واسعة لتوظيف الايدي العاملة . فالرواج السياحي يعني المزيد من الوظائف في الفنادق والمطاعم والمقاهي وشركات السفر ومصالح المواصلات . وتستوعب السياحة في فلسطين المحتلة اعدادا كبيرة من الموظفين والعمال والمستفيدين من الخدمات السياحية او المرتبطة بالسياحة(٦٩). ولا توجد احصاءات محددة حول عدد المشتغلين بالسياحة، تسمح بتقديم صورة رقمية دقيقة حول تطور توظيف الايدي العاملة في الحقل السياحي ، ولكننا نستطيع ايراد بعض الارقام ذات الدلالة في تبيان حجم هذا التوظيف :

— في عام ١٩٦١ ، كان يوجد في فلسطين المحتلة ٦٠٠ دليل سياحي ، ووصل العدد في عام ١٩٦٥ الى ١٢٠٠ دليل سياحي . اي ان العدد تضاعف خلال ٤ سنوات فقط .

— ومن مجموع ٨٨٠٬٧٠٠ شخص كانوا يشكلون قوة العمل المدني عام ١٩٦٤ ، كان عدد العاملين في قطاع المواصلات الوثيق الصلة بالسياحة ٦١٬٣٠٠ موظف .

— وقد احدث الانتعاش السياحي الذي تبع حرب حزيران ، انتعاشا في الحركة السياحية جاوزت فيه كل الارقام المسجلة في السابق بما في ذلك عدد الاشخاص الذين استخدموا مباشرة او بشكل غير مباشر في الخدمات السياحية(٧٠).

— وفي عام ١٩٧١ كان يتبع وزارة السياحة الصهيونية ٢٠ مكتبا سياحيا خارج فلسطين المحتلة، ومكاتب استعلامات في كافة المدن ووكالات السياحة داخل فلسطين المحتلة ، وكانت تشرف على اكثر من ٣٠٠ فندق مخصصة للسياح ، وعلى بيوت الضيافة في الكيبوتسات(٧١). وهذه الانشطة وسواها تستوعب الكثير من الايدي العاملة .

— وفي قطاع الصناعة الجوية والنقل الجوي ، بلغ عدد العاملين في صناعة الطائرات وتطويرها عام ١٩٧٤ حوالي ١٥ الف عامل ، بالاضافة الى حوالي ٧ آلاف عامل ومستخدم يعملون في خدمة ١٨ خطا جويا دوليا تمر بفلسطين المحتلة(٧٢).

— وكان موشيه كول وزير السياحة الصهيوني ، قد صرح يوم ١٩ تشرين الاول ١٩٧١ ان الدراسات الاخيرة اثبتت ان ١٢ ٪ من مجموع السياح يشكون من الخدمة القائمة في الفنادق ، وان ١٣٬٦ ٪ آخرون يشكون من تدني مستوى الخدمة في الفنادق والمطاعم ، ودعا الى تلافي هذه المشكلة بزيادة عدد المستخدمين في الفنادق بحوالي ٦ آلاف مستخدم اضافي حتى عام ١٩٧٥ شريطة ان يكون ٤٠ ٪ منهم من اصحاب المهن والاختصاص . وكانت اسرائيل قد انشأت مدرسة خاصة لتخريج الادلاء السياحيين بغية الارتقاء بمستوى السياحة. كما اهتمت بتطوير وتنمية الصناعات اليدوية الخفيفة وذلك بانشاء ورشات فنية صغيرة لهذه الغاية(٧٣).

ويبين الجدول رقم (٨) حجم التوظيف في قطاعات الاقتصاد المختلفة في الاعوام ١٩٥٠ و١٩٦٠ و١٩٧٠ والحجم الذي كان متوقعا لعام ١٩٧٥ .

ان نشاطات العمل في الحقل السياحي ترتبط بكل من بنود النقل والمواصلات ، والتجارة والمالية والخدمات العامة والخاصة ، كما ترتبط الى حد ما بقطاع البناء . وكما هو واضح فان هذه البنود تستوعب من سنة الى اخرى اعدادا تتزايد بنسب كبيرة من الموظفين والمستخدمين . ويبين الجدول رقم (٩) تطور النسبة المئوية للاشخاص العاملين في مختلف المجالات بين عامي ١٩٥٥ و١٩٧٠ .

ويتضح من الجدول رقم (٩) ان نسبة العاملين في قطاع التجارة والمالية الذي يشمل الفنادق والمطاعم وانشطة اخرى قد ارتفعت من ١٣٬٥ ٪ عام ١٩٥٥ الى ١٨٬٢ ٪ عام ١٩٧٠ وهي نسبة تفوق حتى نسبة الارتفاع في الصناعة .

لم تتوفر بعد معطيات رقمية تمكننا من تحديد حجم التأثير الذي مارسته حرب تشرين على التشغيل في الحقل السياحي ، والحقول المتصلة به . لكننا نستطيع ان نسجل بأن نسبة لا بأس بها من البطالة التي عانى منها العدو في عام ١٩٧٤ ، والتي شملت في اواخره حوالي ٨٠ الف عامل(٧٤) قد ارتبطت الى حد كبير بانتكاس الحركة

الجدول رقم (٨)

تطور حجم التوظيف في فلسطين المحتلة*

١٩٥٠ — ١٩٦٠ — ١٩٧٠ — ١٩٧٥

(بالآلاف)

	١٩٥٠	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٧٥ (المتوقع)
الزراعة	٧٣	١٢١	٩٣	٨٩
الصناعة والتعدين	٨٩	١٦٢	٢٦٨	٣٣٧
البنـــاء	٣٧	٦٥	٨٢	٩٠
النقل والمواصلات	٢٨	٤٤	٧٣	٨٦
المياه ، الكهرباء ، الصحة		١٦	١٩	٢٠
التجارة ، المالية ، الخدمات العامة	١٩٤	٢٩٤	١٤٢	١٧٥
الخدمات الخاصة			٢٩١	٣٥٤

* الفترة من ١٩٥٠ الى ١٩٧٠ عن المكتب المركزي للاحصاء . وتقديرات عام ١٩٧٥ عـن « سلطة التخطيط الاقتصادي » .

الجدول رقم (٩)

تطور النسبة المئوية للاشخاص العاملين

	١٩٥٥	١٩٧٠
الزراعــة والغابات	٪١٧،٦	٪ ٨،٨
الصناعــة	٪٢١،٥	٪٢٤،٠
البناء والاشغال العامة	٪ ٩،٣	٪ ٨،٣
الكهرباء والغــاز والميـاه	٪ ٢،٠	٪ ١،٢
التجارة والمــالية*	٪١٣،٥	٪١٨،٢
النقل والمواصلات	٪ ٦،٦	٪ ٧،٥
الخدمات الخاصة والملاهي	٪ ٨،٣	٪ ٧،٧

* وتشمل الفنادق والمطاعم .

السياحية . اذ أن في مقدمة الفروع التي شهدت البطالة الجزئية هي فروع صقل الماس والنسيج والبناء وبعض المنشآت السياحية ، خاصة في منطقة التزلج بجبل الشيخ التي شلت كليا ابان حرب الجولان وجبل الشيخ ، وفي شرم الشيخ وايلات . فالاضرار التي لحقت بالحركة السياحية في ايلات كان من شأنها التأثير على ١٥٠٠ عامل تنتظمهم الخدمات السياحية في المدينة(٧٥) والبطالة الجزئية في صناعة صقل الماس نجم عنها اغلاق ٣٠ ورشة يعمل فيها ٥٠٠ عامل(٧٦). كما يجب الا

يغيب عن الذهن حجم البطالة المترتب عن وقف مشاريع التطوير ، وعن وقف العمل في قطاع البناء بصفة خاصة .

والصناعة السياحية مجال قائم بذاته من مجالات الاستثمار الاقتصادي . وقد اهتم العدو الصهيوني منذ قيام « اسرائيل » بتطوير الحركة السياحية . وتجلى هذا الاهتمام بشكل خاص في اواخر الخمسينات وأوائل الستينات عن طريق محاولة جلب استثمارات رأسمالية كبيرة للاسهام في تطوير الصناعة السياحية . وفي ٢٦ آذار ١٩٦٦ صرح موشيه كول ، وزير السياحة الصهيوني ، ان وزارتي السياحة والمالية تبحثان مشروعا شاملا لجمع الاموال في اسرائيل والخارج لدعم وتوسيع المشاريع السياحية. وقال ان الاعمال السياحية برهنت على جدارتها في ضمان الارباح للمستثمرين ، خصوصا بعد انجاز الخطط اللازمة لمضاعفة عدد السائحين القادمين الى اسرائيل ، والذين ينتظر ان يبلغوا عام ١٩٧٠ حوالي ٦٠٠ الف سائح(٧٧).

وقد جاء معدل تطور السياحة سريعا بعد حرب حزيران ، وحدث تطور سريع لفروع النشاطات المرتبطة بها . وكان لنتائج عدوان حزيران في حفز الرأسمال اليهودي خاصة والامبريالي بصفة عامة الدور الاساسي في ذلك . وعلى سبيل المثال ، فان يونايتد تورز و بل تورز ، اشهر مكتبي سفر في فلسطين المحتلة ، هما على التوالي ملك بي. اي. سي اسرائيل ، واوتيلز انترناشيونال التي كانت موجوداتها ١٨ مليون دولار عام ١٩٦٨ ، وهي فروع لشركة فنادق هلتون . كما ان شبكة فنادق دان تقع تحت اشراف مجموعة « اسرا — ميامي » التي هي بدورها عبارة عن ائتلاف مستثمرين اميركين واسرائيليين . ويمكن الاشارة ايضا الى مخططات فنادق هوليداي الرامية الى تطوير منطقة شرم الشيخ كمنطقة سياحية(٧٨).

وقد كلف فندق هلتون القدس الذي هو ثمرة الرساميل الامريكية ٥٠ مليون ليرة . ومن الفنادق الاخرى التي اقامها المستثمرون الامريكان فندق المستعمرة الامريكية بالقدس . وعندما تأسست شركة هيات هاوس الاميركية للاستثمار في افريقيا واسيا ، قررت ان تجعل باكورة نشاطها فندقا بقيمة ٢١ مليون ليرة في القدس . وقررت شركة اخرى توظيف ٢٢٨ مليون ليرة في تجارة الفنادق والمطاعم الاسرائيلية ، وخصصت شركة بسمان وغليك اوف شيكاغو عشرة ملايين دولار لانشاء فنادق في فلسطين المحتلة(٧٩).

وكان للمؤتمرات الاقتصادية التي عقدها رجال المال اليهود في القدس المحتلة الدور الرئيسي في توسيع الاستثمارات في الحقل السياحي . وقد عقد أول هذه المؤتمرات في نيسان١٩٦٨، وفي الوقت الذي كان فيه هذا المؤتمر منعقدا ، عقد مؤتمر آخر جانبي في رحوبوت ضم حوالي مائة شخص من رجال الاعمال الاحداث برئاسة ستيفن شتولمن (اميركي من نيويورك) وتقرر فيه تنفيذ بعض المشاريع لتشجيع السياحة . وبالاضافة الى قرارات هذين المؤتمرين وما نجم عنهما من استثمارات ، نشط الحكام الاسرائيليون في استدراج رؤوس الاموال من الخارج لاستثمارها في السياحة ؛ ومن ذلك الجولة التي قام بها موشيه كول في اواخر عام ١٩٦٨ ، والتي اعلن ان الغاية منها هي اجراء المفاوضات بشأن تمويل اقامة الفنادق في فلسطين المحتلة ، وان اسرائيل مستعدة لمنح القروض بفائدة مخفضة الى مثل هؤلاء المولين(٨٠).

وفي حزيران ١٩٦٩ عقد مؤتمر اقتصادي جديد لرجال المال اليهود ، وصرح بنحاس سابير في الجلسة الاخيرة للمؤتمر (يوم ١٩٦٩/٦/٢٥) ان اسرائيل تحتاج لرصد أموال قدرها ٢٠٠٠ مليون دولار لانفاقها في وزارات الصناعة والزراعة والنقل والسياحة خلال السنوات الخمس القادمة ، وان نصف هذا المبلغ يجب تداركه من الخارج اي بمعدل ٢٠٠ مليون دولار سنويا .

ومن بين ١٢ لجنة انبثقت من المؤتمرالاقتصادي، كانت هناك لجنة للسياحة اجتمعت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦٩ على شكل مؤتمر لدراسة موضوع التثمير في الفنادق . واعلن زفي دنشتاين، نائب وزير المالية الاسرائيلي ، ان ذلك لا يعني توظيف الاموال في الفنادق فقط ، وانما في جميع الفعاليات المرتبطة بالسياحة ، ومنها تطوير الشواطىء واقامة مراكز لقضاء العطلات(٨١).

وقد بلغ اهتمام العدو بتنمية الاستثمار في الحقل السياحي حدا جعله ينظم عام ١٩٧٠ سبعين

مؤتمرا واجتماعا دوليا للسياحة يشترك فيها اكثر من ١٨ الف مندوب من مختلف انحاء العالم[٨٢] كما اعلن موشيه كول ان مؤتمر مستثمري رؤوس الاموال في السياحة الذي سبق الاشارة اليه ، قد احرز نجاحا تجاوز ما كان متوقعا له قبل انعقاده وان المستثمرين عقدوا صفقات بقيمة ١٠٠ مليون دولار في مشاريع سياحية مختلفة . ورغم هـــذا النجاح فقد توجه موشيه كول الى الولايات المتحدة لبيع اسهم شركة تطوير المشاريع السياحية التي تقدر بمبلغ ٢٠ مليون دولار[٨٣].

وفي حزيران ١٩٧٠ ، اعلن يهوذا شعارى ، نائب وزير السياحة الاسرائيلــي ، ان شركـــة السياحة الحكومية ساهمت في نهايـــة عام ١٩٦٩ بحوالي ٢٨ مليون ليرة في تطوير المرافق السياحية في فلسطين المحتلة بالاضافة الى المبالغ التي انفقت من قبل الجهات او الشركـــات الخاصة ، وانه خصص للعام المالي الحالي (١٩٧٠/١٩٧١) من قبل شركة السياحة الحكومية ٨ ملايين ليرة لتطوير الشؤون السياحية بما في ذلك جعل منطقة سانت كاترين في سيناء وعددا من المناطق حتى في شـــرم الشيخ مناطق سياحية[٨٤]. والجدير بالذكـــر ان شركة ادامز فكتور الالمانية الغربية تولت انشـــاء قرية الاستجمام والنزهة في شرم الشيخ[٨٥].

وفي شهر تموز ١٩٧٠ عينت وزارة السياحـــة الصهيونية لجنة خاصة لدراسة تطور السياحـــة في فلسطين المحتلة ، وخاصة بناء الفنادق . وقد كلفت اللجنة بدراسة عدد الفنادق التي يجب ان يتم انشاؤها خلال السنوات العشر القادمـــة ، ونوع هذه الفنادق ، وعدد الغرف فيها . وعلـــم ان تقديرات بناء الفنادق في القدس (وحدهـــا) خلال السنوات الخمس القادمة تنطوي على بنـــاء ٤٢٠٠ غرفة بغية جعـــل القدس مركزا عالميـــا للسياحة[٨٦]. وفي ٢٠ تموز ١٩٧٠ ، اعلن موشيه كول في الكنيست الصهيـــوني ان فرع السياحـــة سيكون على ما يبدو الفرع الاكثر دخلا من العملات الاجنبية ، وان النفقات في المراكـــز السياحيـــة زادت في السنة الماضية بنسبة ٦٠٪ وخاصة عند البدء في اقامـــة سلسلة من مراكز السياحة في القدس . واعلن انه اقترح على الحكومة ان تنشيء شبكة شواطيء مشتركة مـــن وزارة السياحـــة والداخلية التي تخطط لتطوير الشواطيء وتشرف على عملها ، وقام بتقديم اقتراحات عاجلة لمنـــع تلـــوث الشواطيء[٨٧]. وقـــال موشيه كول في الكنيست انه في عام ١٩٦٩ تم توظيف مبلغ قـــدره ٨٣،٢٠٠،٠٠٠ دولار في السياحة ، وهي زيادة في الانفاق على السياحة لم يسبق لها نظير (كـــان الانفاق عام ١٩٦٨ هو ٥١،٧٠٠،٠٠٠ دولار) ، وقد وظف ربع المبلغ في الفنادق ، ويجـــري الان انشاء اكثر من ٣٠٠٠ غرفة في فنادق جديدة[٨٨] كما اعلن في مؤتمر قرض الاعمـــار الاسرائيلي ان زيادة الاستثمارات في المناطق السياحية الجديدة في اسرائيل تعد لاستيعاب السياح الذين سيصلـــون الى اسرائيل بطائرات النقل الضخمة الجديدة ، وان ميزانية تطوير السياحة ستبلغ في عام ١٩٧١ (١١٤ مليون ليرة) بزيادة ٥٠ مليون ليرة عما بلغته هذه الميزانية في عام ١٩٧٠[٨٩]. وفي وقت لاحق من العام ذاته ، اعلن موشيه كول ان السياحـــة في فلسطين المحتلة ستتوسع خلال السنوات القليلة القادمة توسعا كبيرا عندما يتم بناء ثلاثة الاف غرفة في فنادق حديثة يشرع ببنائها الان . وتبلغ نفقات اقامة هذه الفنادق حوالي ١٣٥ مليون ليرة[٩٠] كما اعلن ان المبالغ التي استثمرت في عام ١٩٦٩ في اقامة فنادق جديدة تزيد على ٢٥٠ مليون لـــيرة ، وتعادل نصف المبالغ المستثمرة في كافـــة المشاريع الصناعية[٩١].

والحقيقة ان اهتمام العدو في تطوير السياحة قد تركز في اواخر الستينات واوائل السبعينات في التوسع ببناء الفنادق ، والتوسع في شراء طائرات النقل وبناء او تطوير المطارات . وسنلقي هنـــا نظرة سريعة على التطور الذي حدث في كلا هذين المجالين ، وخطط العدو للتطوير .

في عام ١٩٦٦ ، ووفقا لما ذكره رئيس اتحـــاد اصحاب الفنادق في فلسطين المحتلة ، كان هنـــاك ٢٢٣ فندقا مستعـــدا لاستقبال السياح وتقديـــم الخدمات لهم . ومن هذه الفنادق ٢٧ فندقا مـــن النوع (أ) وفيها ٣٤٦٤ غرفة و٨٨ فندقا مـــن النوع (ب) وفيها ٣٣٥٧ غرفة و ١٠٦ فنادق من النوع (ج) وفيهـــا ٤٠٦٩ غرفة[٩٢] ومجمـــوع هذه الغرف التي يجب ان يستبعد منها في الواقع النوعان (ب) و (ج) هو ١٠،٨٩٠ غرفة .

في مطلع عام ١٩٦٩ ، كان هناك ١٤،٠٠٠ غرفة في الفنادق ، بعد ان اضيفت في عام ١٩٦٨ وحدة

فنادق جديدة تحوي ١١٤٠ غرفة وكلفت ٤٤ مليون ليرة خصص نصفها من قروض حكومية وكان هناك ٢٥٠٠ غرفة قيد الانشاء واربعة الى خمسة الاف غرفة في مرحلة التخطيط(٩٣) وفي عام ١٩٧٠ بلغ عدد الغرف في الفنادق الموصى بها للسياح ١٥٠١٠٠ ووفق حسابات سلطة التخطيط الاقتصادي ، فان هذا الرقم سيرتفع في عام ١٩٧٥ الى ٢٦٠١٠٠ غرفة(٩٤).

ومن اجل تنفيذ الخطة الاسرائيلية في زيادة عدد الفنادق السياحية ارتفع الاستثمار في بناء الفنادق الى ١٠٠ مليون دولار موزعة بين مناطق تل ابيب والقدس والجليل الغربي وخاصة نهاريا واستمرت الحكومة الاسرائيلية في جهودها لاجتذاب المزيد من رؤوس الاموال الاجنبية لاستثمارها في اقامة الفنادق والمشاريع السياحية الاخرى ، عن طريق منحها اعفاءات ضريبية وجمركية ، كما راحت تشجع الاستثمار السياحي بتقديم قروض بفائدة منخفضة وشروط سهلة الى القطاع الخاص. وكان التوسع الكبير في النشاط السياحي يشير الى ان الحكومة الاسرائيلية مقتنعة بأن حالة اللاسلم واللاحرب ستستمر فترة طويلة ، وعلى هذا الاساس فان تشجيع الاستثمار في السياحة يصبح امرا مرغوبا وممكنا(٩٥).

ويلعب النقل الجوي دورا اساسيا في اتاحة المجال لحركة سياحية ناشطة . لذلك اتجهت الحكومة الاسرائيلية في نطاق خططها لانعاش السياحة ، الى اعطاء اهتمام كبير للنقل الجوي سواء في اعداد شبكة من المطارات او في تأمين اسطول جوي كبير .

فيما يتعلق بالمطارات الاسرائيلية لوحظ منذ عام ١٩٧١ وجود اتجاه لتأمين شبكة واسعة من المطارات الدولية والداخلية في فلسطين وبقية الاراضي العربية المحتلة . وذلك عن طريق تطوير او اعادة تشغيل المطارات القائمة ، وبناء مطارات دولية جديدة .

— ففي عام ١٩٧١ ، اعلن انه تقرر اعادة تشغيل مطار دوف للنقل الداخلي .

— في اوائل عام ١٩٧١ ، اعلن عن بدء الدراسات لتعيين مكان ملائم لاقامة مطار قرب بئر السبع . وفي اوقات لاحقة اعلن ان المطار الذي سيقام بين عراد وبئر السبع سيكون مطارا اسرائيل الدولي .

— وفي عام ١٩٧٣ ، وخلال الفترة السابقة على حرب تشرين ، اعلنت الموافقة على الخطوات التالية فيما يتعلق بشبكة المطارات : ١ — انشاء مطار دولي في ايلات ، اكبر من مطار اللد . ٢ — اقامة محطة استقبال جديدة في مطار اللد تبلغ تكلفتها نصف مليار ليرة . ٣ — الاعلان عن قرب افتتاح مطار شرم الشيخ الدولي . ٤ — الاعلان عن قرب افتتاح مطار حيفا ليعود مطارا دوليا بعد توسيع المطار واطالة مدرجه . ٥ — الاعلان عن النية في اعتماد مبلغ ٣٢٥ مليون ليرة لتحسين الخدمات الجوية في مطار محنايم في الجليل ، وخاصة اقامة مدرج جديد فيه ، ومنشآت اضافية.

فاذا وضعنا في الاعتبار وجود مطارات اللد والقدس (قلنديا) وهرتسليا وروشبينا ، فان معنى ذلك ان شبكة المطارات الدولية والداخلية القائمة والمخططة ، ستصل الى ١١ مطارا . وهو عدد كبير بالمقارنة مع المساحة الجغرافية المحدودة التي تقوم عليها هذه المطارات .

اما الاسطول الجوي التابع لشركة العال ، فقد جرى تطويره بشراء خمس طائرات من نوع جمبو تسلم اخرها الى الشركة عام ١٩٧٥ ، ليرتفع عدد طائراتها الى ١٤ طائرة . وقد بلغت نفقات تطوير الاسطول الجوي المدني الاسرائيلي في عام ١٩٧٣ ربع ثمن اسطول اسرائيل الجوي . واوضح جاد يعقوبي سبب اهتمام اسرائيل بتطوير اسطولها الجوي ، فقال ان له اهمية وحيوية بالنسبة لاسرائيل ، بغية المحافظة على الاتصال مع العالم الخارجي طالما بقيت سبل الاتصالات البرية بينها وبين الدول العربية مغلقة ، وقال ان الزيادة في حجم الحمولات الجوية قد ارتفعت من عام ١٩٦٠ الى عام ١٩٧٠ بنسبة ١٤٤٥٪ . كما ينتظر زيادة الاسطول الجوي خلال السنوات العشر القادمة بنسبة ١١٪(٩٦) وكان جاد يعقوبي قد صرح بان حجم انتاج قطاع الطيران في اسرائيل سيرتفع في عام ١٩٧٥ بنسبة ٢٠٪ ويصل الى مليار ليرة . وذلك دون اخذ الصناعة الجوية بالحسبان(٩٧).

وقد اعلن جاد يعقوبي في اب ١٩٧٤ ان الاعتمادات في تجهيز الطيران خلال السنوات العشر

القادمة تقدر بحوالي ٤٠٠ مليون دولار . ويتوقع خلال هذه المدة ازدياد عدد المسافرين بطريق الجو الى اسرائيل ، ووصوله عام ١٩٨٥ الى ٥ ملايين في العام .

جاءت حرب تشرين لتضع حدا لحالة اللاحرب واللاسلم التي كان الحكام الاسرائيليون يضعون خططهم الاقتصادية على اساس توقع استمرارها لفترة طويلة من الزمن . وكان طبيعيا ان تتأثر الاستثمارات السياحية بهذه الحرب اكثر من اي قطاع اخر من قطاعات الاقتصاد الاسرائيلي . فخلال الحرب توقفت الحركة السياحية كليا ، وبعد الحرب انخفضت هذه الحركة عن المعدل الذي كانت قد بلغته عام ١٩٧٢ . وبطبيعة الحال فان معدلات الزيادة الطبيعية التي كانت متوقعة لم يتحقق منها اي شيء على الاطلاق . وبذلك فان المشاريع السياحية التي كانت قائمة بالفعل قد تضررت ، وفي مقدمتها الفنادق السياحية التي لجأت الى الحكومة الاسرائيلية مطالبة بتعويضات. كما تعرضت شركة تسيم لنقل الركاب للتوقف الكلي والخسارة الزائدة ، كذلك تعرضت شركة العال للخسارة ، وكان لاضراب عمال الصيانة تأثير مضاعف على دخل الشركة . اما المشاريع السياحية التي كانت قيد التخطيط ، او لم يشرع بتنفيذها بعد ، فقد كان من الطبيعي تأجيلها او اعادة النظر فيها كليا ، ومن ذلك وقف العمل في انشاء مطار ايلات الدولي . ولعب الوضع الاقتصادي المتدهور ، وفضائح الاختلاسات المالية، دورا اضافيا في وقف الاستثمارات السياحية . كما ان الحكومة الاسرائيلية ، ونتيجة انخفاض الحركة السياحية ، وانعدام المؤشرات على احتمال ارتفاعها من جديد آثرت التركيز على الاستثمار في حقل المنتجات الصناعية الصالحة للتصدير .

فقد اورد مركز الاستثمارات الاسرائيلي في تشرين الثاني (اكتوبر) ١٩٧٤ معلومات حول وضع الاستثمارات بالعملة الصعبة ، جاء فيها انه خلال الاشهر الاولى من سنة ١٩٧٤ طرأ على الاستثمارات المصادق عليها انخفاض بنسبة ٥٠٪. وكان المركز قد اعلن انه صادق على استثمارات قيمتها ١٠٠ مليون دولار منذ شهر كانون الثاني ١٩٧٤ مقابل ٢٢٠ مليون دولار خلال الفترة ذاتها من عام ١٩٧٣ . وعللت صحيفة دافار هذا الانخفاض بانه نابع عن الركود في مجال الاستثمار خلال الاشهر التي تلت حرب تشرين(٩٨).

وبمقتضى السياسة الاقتصادية الجديدة التي اقرت في تشرين الثاني ١٩٧٤ ، فقد تقرر تجميد اعمال البناء لمدة عام كامل ، والاستمرار في تجميد الائتمان المصرفي لمدة ثلاثة اشهر اخرى ، وزيادة ضريبة الارباح الراسمالية من ٤٠٪ الى ٥٠٪ ، وزيادة رسوم المواصلات العامة بنسبة ٤٠٪ . وزيادة معدل الفائدة على قروض التنمية بنسبة ٣٪(٩٩). وكان من شأن هذه الاجراءات توقف العمل في بناء فنادق جديدة ، وتأجيل او وقف تنفيذ بعض المشاريع المتعلقة بالنقل الجوي ، وانخفاض الاستثمارات بشكل عام ، وخاصة في الصناعة السياحية .

واهمية التأثير على الاستثمار السياحي ، ان وقف او انخفاض هذا الاستثمار يعني الاضرار بالحركة السياحية لسنوات عديدة قائمة ، حتى ولو جدت ظروف تسمح بعودتها الى الانتعاش .

آثار اضافية لحرب تشرين على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة

لم تقتصر الآثار الناجمة عن حرب تشرين التحريرية على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة على الاثار الاقتصادية ، وانما كانت لها تأثيرات اخرى متعددة على اوجه استفادة اسرائيل من الحركة السياحية ، وخاصة على دور السياحة كمصدر للهجرة اليهودية ، وكاداة دعائية في تطبيق سياسة كسب الانصار .

اثر حرب تشرين على السياحة كوسيلة لاستقطاب المهاجرين اليهود : ساهمت السياحة منذ عام ١٩٤٨ في زيادة عدد اليهود المهاجرين الى فلسطين المحتلة . ويعود ذلك الى سببين اساسيين: اولهما ، الاغراءات التي يتعرض لها السياح اليهود لدفعهم الى الهجرة الى فلسطين المحتلة ، وثانيهما ان جانبا من المهاجرين اليهود الذين يفكرون بالهجرة الى فلسطين المحتلة يؤثرون قبل اتخاذ قرارهم بشكل نهائي دراسة الامر على الطبيعة ، وربما لابتزاز اكبر قدر ممكن من التسهيلات والاغراءات .

لقد بلغ عدد السياح الذين هاجروا الى فلسطين المحتلة منذ عام ١٩٤٨ وحتى عام ١٩٦٢

(٢٠٤٢١١) سائحا . وبدأ هذا العدد بالتصاعد اعتبارا من عام ١٩٦٢ ، حيث بلغ ١٨٥٥ سائحا، وارتفع عام ١٩٦٣ الى ٢٢٣٨ سائحا ، وعام ١٩٦٤ الى ٢٥٢٣ سائحا شكلوا نسبة ٦،٤٪ من عدد المهاجرين في ذلك العالم(١٠٠).

وفي سنة ١٩٦٤ شكل السياح المستوطنون من اوروبا وامريكا ٦٢٪ من مجموع عدد السياح المستوطنين ، بينما شكل الاسيويون والافريقيون من هؤلاء نسبة ٣٨٪(١٠١).

وقد استمرت ظاهرة استيطان جزء من السياح اليهود بعد حرب حزيران ، وتجاوزت المعدلات السابقة . وجاء في تقرير قدمه ايغـال الون الى مجلس الوزراء الاسرائيلي ان الهجرة خلال الفترة من كانون الثاني ١٩٦٦ الى حزيران من العام ذاته وصلت الى ١٥،١٤١ مهاجرا ، وان هذا الرقم يضم المهاجرين والمقيمين المؤقتين والسياح الذين قرروا الاستيطـان ، ونسب هذه الفئات على التوالي : ٦٥٪ و ٢٨٪ و ٧٪(١٠٢).

ومن الواضح ان نسبة السياح المستوطنين قد ارتفعت كثيرا مع ان الحجم الكلي للهجرة كان قد اخذ يرتفع بعد حرب حزيران .

وكانت صحيفة لانفورماسيون قد ذكرت انـه في منتصف عام ١٩٦٨ ، قدم الى فلسطين المحتلـة ٦ الاف سائح من اجل مشاهدة احوال اسرائيـل ودراسة امكانية الاستيطان فيها ، وان هؤلاء اتوا بشكل مجموعات نظمتها دائرة الهجرة والاستيعاب في الوكالة اليهودية . وكـان هؤلاء السياح قـد وضعوا برنامجا لرحلتهم الى فلسطـين المحتلـة يتضمن زيارة جميع المصانع والمرافق الاقتصادية ، وان يجروا لقاءات مع مهاجرين جدد استقـروا في مراكـز الاستيعـاب التي انشأتهـا الوكالة اليهودية ، ومع مهاجرين اخرين قدموا قبل بضع سنوات . وقالت الصحيفة انه خلال اقامة هؤلاء السياح عرضت عليهم تسهيلات كثيرة من اجـل ايجاد حلول لمشكلة تأمين العمل والسكن لمن يريـد منهم الاستيطان . وقد عزم ٩٠٠ سائح من بينهم على الاستيطان . وتنوي ادارة الهجرة في الوكالة اليهودية توسيع نشاطها في هذا المضمار من اجل تشجيع اكبر عدد ممكن من السياح الذين يودون الهجرة الى اسرائيل وتأمين قدوم الف سائح مـن هذا النوع في كل شهر(١٠٣).

وجاء في تقرير احصائي نشرته صحيفة هآرتس ان عددا من بين المهاجرين كانوا يفضلون القدوم الى فلسطين المحتلة على اساس انهم سواح ، وذلك للوقوف عن كثب على احوال البلاد بصورة عامة ، غير أن المتبقين منهم في البلاد قد ارتفـع عددهم نسبيا خلال الاعوام الاخيرة حتى بلغ مـا يزيد عن ٢٠٠٠ شخص سنويا مقابل ١٠٠٠ شخص حتى عام ١٩٦١ ، وانه في عام ١٩٦٨ كان بـين السواح المهاجرين حوالي ٣٠ ٪ مـن آسيـا وافريقيا و٧٠ ٪ من اوروبا وامريكا ، خاصة من الدول التي تتكلم الانجليزية(١٠٤). اي أن نسبـة الاوروبيين والامريكيين من بين السياح المهاجرين قد ارتفعت عما كانت عليه قبل حرب حزيران.وكانت السلطات الاسرائيلية قد نظمت بعد حرب حزيران مباشرة حملة دعائية في الصحف الغربية تدعـو الشبـان اليهـود للاقامـة فـي الكيبوتسـات وتجريتها(١٠٥).

ان التأثير الذي احدثته حرب تشرين على عدد السياح المهاجرين لم يزل بعد غير واضح تماما ، اذ خلت البيانات الاحصائية الاسرائيلية المعلنـة حتى اعداد هذه الدراسة من ذكر اي شيء حول هذه المسألة . لكن الامر المتوقع في ضوء انخفاض حجم الهجرة اليهودية ، وأسباب هذا الانخفاض، ان يكون عـدد السياح الذين قرروا الاستيطـان ضئيلا أو معدوما كليا .

فقد كان مجموع المهاجرين الذين وصلوا الـى فلسطين المحتلة عام ١٩٧٤ هو ٣٢،٢٠٠ مهاجر ، بنقص قدره ٤٦ ٪ بالمقابلة مع عدد المهاجرين الذين وصلوا عام ١٩٧٣ . وكان عدد اليهود المهاجرين الذين وصلوا من الاتحاد السوفياتي حوالي١٧،٨٥٤ مهاجرا والباقون من الدول الغربية(١٠٦) وبررت المصادر الاسرائيلية هذا الانخفاض بالظـروف القاسية التي تمر بها اسرائيل بعد حرب تشرين. كما ذكرت ان نسبة العازفين عن الهجرة من اليهود الذين وصلوا الى معسكر الانتظار في فيينا بلغـت ٣٣ ٪(١٠٧). وكان هناك في الوقت ذاته تزايد في الهجرة العكسية ، حيث أعلن بنحاس سابير ان حجـم الهجرة العكسيـة بلـغ حوالـي ٨٠٠ مهاجر(١٠٨) بينما قال موشيه سيكرون مسـؤول

الاحصائي الحكومي ان الرقم قد يكون ١٨ الـف مهاجر(١٠٩).

فاذا وضعنـا في حسابنـا حقيقـة ان المهاجرين السياح هم اكثـر المهاجرين حـذرا في اتخاذ قرار الهجرة ، فاننا نستطيع في ضوء هـذه المعطيات ، وفي ضوء الظروف القاسية التي تمر بها اسرائيل منذ حرب تشرين ، ان نؤكد انخفاض عدد المهاجرين من بين السياح مما لم تكن هـذه الظاهرة قد انعدمت تقريبا بعـد حرب تشرين .

حرب تشرين واثرها على السياحة من الزاوية الدعاوية : يستفيد العـدو من السياحة كأحـد المجالات البارزة للدعاية السياسية وتطبيق سياسة كسب الانصار . فهو يرى فيها وسيلة فعالة لايجاد روابط متينة مـع اليـهود في جميـع انحـاء العالم(١١٠) كما يرى العدو في السياحة وسيلة لانشاء علاقات صداقة مع جماعات غير يهودية ، اذ ان هذه الشخصيات غير اليهودية عندما تـزور فلسطين المحتلة وتعود الى بلادها ستكون بمثابة سفراء او دعاة لاسرائيل(١١١) او على حد قول موشيه كول فان السياح يشكلون رسلا جيديـن لدولة اسرائيل(١١٢).

ومن هنا فان اسرائيل تعمد الى ملء نشراتهـا السياحية الدعاوية بالفكر الصهيوني ، داعيـة السياح الى زيارة الاماكن الاثرية التي يدعـي الصهاينة انها يهودية ، وانها تعود الـى عهود التاريخ المختلفة . كما تدعوهم لزيارة الانصـاب التي اقيمت في مختلف انحاء فلسطين المحتلة لذكرى زعماء الصهيونية . وتركز الدعاية السيـاحية الاسرائيلية على ما تسميه بالعمران والتقـدم ، وتدعي أنها حولت فلسطين الى جنة ، كما تدعو السياح لزيارة بعض الكيبوتسات الخاصة لكـي تعطي للسياح فكرة كاذبة عن انجازات اسرائيل . وتقوم هذه الدعايـة بتنميـة التمييـز ضـد العرب(١١٣).

وتقوم السلطات الاسرائيلية باجراء دراسـات حول تأثير دعايتها بين السياح . ومن ذلك دراسة اجرتها دائرة الخدمات الاعلامية في مكتب رئاسـة الوزراء ، بواسطة شركة الدراسات « اوتـوت سكريم » تبين منها ان التأييد لسياسة اسرائيل بين السياح تناقض بين السياح الشباب لجيل ١٧ ــ ٢٤ عاما بعد ان قاموا بزيارة فلسطين المحتلـة واقاموا فيها فترة طويلة . ولم يطرأ اي تغيـر بالنسبة لهذا التأييد فيما يتعلق بالقدس القديمـة وضمها الى اسرائيل بسبب اطلاعهم على السياسة المرسومة بصـدد هـذا الموضـوع منذ زمـن بعيد(١١٤).

لكن حرب تشرين التحريرية حملت معهـا تأثيرات شديدة العمق على قدرة العـدو علـى الاستفادة من السياحة في هذا المجال . مما خلفته هذه الحرب من أزمة اقتصادية خانقة ، ومـن انخفاض في الحركة السياحية ، ومن ارتفـاع كبير في الاسعار قاد الى موجة من الاضرابات ، وفي وسائل النقل بصفة خاصة ، اضافة الـى فضائح الاختلاسات ، والوضع النفسي القلـق والمتدهور ، كل ذلك لم يكن ليعنـي ان رسـل اسرائيل من السياح قد أصبحوا اقل من السابق، ولكنه يعني أنهم قد اصبحوا بالنسبة لاسرائيـل رسلا سيئين بنقلهم صور هذا الواقع المتردي الى العالم الخارجي .

مستقبل الحركة السياحية في فلسطين المحتلة وآفاق تعميق آثار حرب تشرين

ان السؤال الذي يطرح نفسه، بعد الاستعراض السابق لتأثير حرب تشرين على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، هو حول مستقبـل هـذه الحركة في ضوء التأثيرات . هل هي ستستمر في الهبوط ، أم ان تأثيرها كان موسميا سرعان مـا سيكون بالوسع تجاوزه ؟ وما هي طبيعة التدخل الارادي التدريبي الذي يمكن أن يساهم في تعميق الاتجاه نحو الهبوط ، أي تعميق اثـار حـرب تشرين ؟

للاجابة على هذا السؤال المتعدد الجـوانب، يتوجب علينا مناقشة العناصر الاساسية التالية :
١ ــ مدلول الخبرة التاريخية عند اخضاع ملامح الهبوط السياحي بعد حرب تشرين للدراسة المقارنة مع حالات الهبوط السابقة في الحركة السياحية .
٢ ــ تحديد العوامل المعرقلة للحركة السياحيـة في فلسطين المحتلة في الفترة التي تلت حرب تشرين والاهمية النسبية لكل منها . ٣ ــ تحديد المجالات الممكنة التدخل العربي الارادي بغية التحكم الى حد او اخر بالعوامل المعرقلة لضمان استمـرار

اتجاه الهبوط في الحركة السياحية . ولنتناول هذه العناصر بشيء من التحديد .

مدى عمق تأثير حرب تشرين على الحركة السياحية مقارنا بفترات الهبوط السابقة : ان الدراسة المقارنة لحالات الهبوط في الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، من شأنها ان تفسح امامنا المجال لتحديد مدى عمل تأثير حرب تشرين بالمقارنة مع تأثيرات الحروب السابقة ، وهي حروب ١٩٥٦ و١٩٦٥ و١٩٦٩ (حرب الاستنزاف) .

ويبين الجدول رقم (١٠) فترات الهبوط في الحركة السياحية ، ونسبة الانخفاض المتحقق في كل سنة بالنسبة للسنة السابقة عليها مباشرة . ومن معطيات هذا الجدول يتضح لنا ان عام ١٩٥٦ الذي شهد العدوان الثلاثي على مصر ، سجل اعلى نسبة من الانخفاض في الحركة السياحية ، اذ بلغت هذه النسبة ١٤،٦ ٪ وقد جاء عام ١٩٦٧ في المرتبة الثانية ، حيث بلغت نسبة الانخفاض ١١ ٪ ، وجاء عام ١٩٧٣ في المرتبة الثالثة ، وكانت نسبة الانخفاض فيه ٩،٦ ٪ .

الجدول رقم (١٠)

النسب المئوية للانخفاض في عدد السياح في فترات الهبوط السياحي

السنة	نسبة الهبوط
١٩٥٦	١٤،٦ ٪
١٩٥٧	٠،٦ ٪
١٩٦٧	١١،٠ ٪
١٩٦٩	٥،٣ ٪
١٩٧٣	٩،٦ ٪
١٩٧٤	٦،٠ ٪

لكن استعراض نسب الانخفاض على هذا النحو المجرد لا تكفي وحدها للدلالة على الاهمية النسبية للتأثير في الاعوام المذكورة . اذ يتوجب المقارنة بين وضع الحركة السياحية خلال الفترة السابقة لاندلاع الحرب ، وخلال الفترة اللاحقة عليهـا .

هنا نجد ان الانخفاض الكبير الذي شهدته الحركة السياحية في فلسطين المحتلة عام ١٩٥٦ لا يعود بمجمله الى حرب السويس . فمنذ بداية عام ١٩٥٦ كان هناك نشاط فدائي واسع ينطلق من قطاع غزة ، ويشيع الذعر في اسرائيل . كما ان الوضع المتوتر في المنطقة منذ اعلان قرار تأميم شركة قناة السويس وحتى اندلاع الحرب كان من شأنه ان يمارس تأثيرا سلبيا على الحركة السياحية . معنى ذلك ان الانخفاض الذي شهدته الحركة السياحية عام ١٩٥٦ كان انخفاضا ناجما عن جملة الظروف التي مرت بها اسرائيل في ذلك العام ، ومنذ بدايته حتى نهايته .

الظاهرة ذاتها تقريبا تكررت عام ١٩٦٧ ، نشاطات فدائية فلسطينية ، وتوتر دائم على الجبهة السورية ، واحتمالات حرب واسعة منذ ايار ١٩٦٧ ، بالاضافة الى تأثير التباطؤ الاقتصادي .

لكن الصورة تختلف في عام ١٩٧٣ . قبل حرب تشرين ، ومنذ منتصف عام ١٩٧٠ تقريبا كانت هناك حالة اللاسلم واللاحرب . وكانت المقاومة الفلسطينية منذ ايلول ١٩٧٠ تعيش حالة تراجع. وكان وضع الاقتصاد الاسرائيلي مستفيدا من تدفق الاموال اليهودية متينا ، وجاءت حرب تشرين في الربع الاخير من ذلك العام . فلو حاولنا توزيع نسبة الانخفاض على الفترة الزمنية الفعلية للتأثير ، فسنجد ان نسبة الانخفاض الشهري في عام ١٩٥٦ نتيجة العوامل المعرقلة على مدار ذلك العام كانت ١،٢ ٪ تقريبا ، وانها كانت في عام ١٩٦٧ حوالي ٠،٩ ٪ ، بينما كانت في الربع الاخير من عام ١٩٧٣ حوالي ٣،٢ ٪ كل شهر . أي ان حرب تشرين كانت اكثر عمقا .

تتأكد هذه الحقيقة أيضا عند مقارنة مدى التأثير في السنوات التالية لسنوات الحروب المذكورة فقد جاء عام ١٩٧٤ في طليعتها من حيث نسبة الانخفاض ، مسجلا انخفاضا بنسبة ٦ ٪ وهي نسبة تفوق الانخفاض المتحقق نتيجة حرب الاستنزاف عام ١٩٦٠ ، ولا تكاد نسبة الانخفاض المتحقق عام ١٩٥٧ (٠،٦ ٪) تقارن بالنسبة لها، بينما كان عام ١٩٦٨ الذي تلى حرب حزيران قد سجل انتعاشا كبيرا للحركة السياحية في فلسطين المحتلـة .

بالطبع يرتبط هذا التأثير بالنتيجة الاساسيـة للحرب في كل حالة من الحالات موضع الدراسة . اذ ان حروب ١٩٥٦ و١٩٦٧ وحتى حرب الاستنزاف بعد انتهائها بحالة اللاحرب واللاسلم ، مهـدت لانتعاش واسع الحركة السياحية في فلسطـين المحتلة ، بسبب من بروز تفوق كبير او نسبـي في موازين القوى لصالح العدو ، اما بعد حـرب تشرين فمن الطبيعي ان تكون النتيجة مختلفة بعد ما اثبتته هذه الحرب من اختلال في توازن القوى او تعادل فيـه لصالح الجانب العـربي فـي الحالتين .

تأثير الحرب السابقة كان موسميا مرتبطا بوقائع تلك الحروب ، اما تأثير حرب تشرين فلم يتوقف عند حدود التأثير الموسمي ، نظرا لعمل التأثيـر الذي مارسته تلك الحرب على اسرائيل من جميـع النواحـي السياسيـة والاقتصـادية والعسكرية والنفسية ، وصعوبة التخلص من هذا التأثير الذي كان سلبيا بالنسبة للعدو خـلال فترة وجيزة .

وكان امتداد هذا التأثير ليشمل عـام ١٩٧٤ بكامله دليلا على عمقه . لكن هذا التحديد لا يكفي للوصول الى الاستنتاج الاكثر اهمية ، وهو توقعات المستقبل بالنسبة للحركة السياحية في فلسطـين المحتلة . خاصة اذا تذكرنا ان عام ١٩٧٤ شهد في شهوره الاولى حرب الجولان وجبل الشيـخ كامتداد لحرب تشرين وما ارتبط بها من توقعات واحتمالات . فمن اجل تحديد الاتجاه الفعلـي للحركة السياحية ، لا بد لنا من تعقب هـــذا الاتجاه خلال عام ١٩٧٤ بكامله . هل كان هذا الاتجاه تصاعديا ام تنازليا ؟

في الثلث الاول من عام ١٩٧٤ بلغ عدد السياح الذين قدموا الى فلسطين المحتلة — ومن ضمنهم السياح المسيحيون واليهود الذين حضروا للاحتفال بأعياد الفصح — ٢١٢ر٣٠٠ سائح وكانوا اقل من عدد السياح الذين حضروا في عـام ١٩٧٣ (فـي الثلث الاول مـن ذلك العـام) بنسبـة ٨ ٪ . وكان جزء من تعديل الوضع على هذا النحو يعود الى وقوع اعياد الفصح داخل هذه الفترة في عام ١٩٧٤ وعدم وقوعها فيها عام ١٩٧٣(١١٥).

وخلال الاشهر العشرة الاولى من عام ١٩٧٤ بلغ عدد السياح حوالي ٥٣٠ الفا اي اقل بمقدار ١١ ٪ عن الاشهر العشرة الاولى من عام ١٩٧٣ واقل بمقدار ١٧ ٪ عن عدد السياح في الفترة ذاتها من عام ١٩٧٢. وكانت السياحة الى فلسطين المحتلة حتى آب ١٩٧٤ تمثل نقصا مقداره ١٨ ٪ عن نفس الفترة من عام ١٩٧٣ . لكن نسبـة الانخفاض التي تحققت في نهاية عام ١٩٧٤ كانت ٦ ٪ فقط . فهل يعني ذلك ان هنـــاك اتجاها تصاعديا في الحركة السياحية يتجه نحو التغلب على حالة الهبوط ؟ هنا يصعب الجـــزم باجابـة قاطعة على هذا السؤال ، اذ ان جزءا مـن الانتعاش المتحقق في الثلث الاخير من عـام ١٩٧٤ يمكن ارجاعه الى الوضع العام في المنطقة بعـد وقف اطلاق النار ، لكن هناك جزءا اخر مـن الانتعاش المتحقق يعود الى أسباب موسمية ليس منتظرا تكرارها الى ما بعد ربع قرن اخر مـن الزمن . ذلك ان عام ١٩٧٤ شهد احتفالات العام المقدس لدى الكاثوليك ، التي بدأت في ٥ كانون الاول (ديسمبر) ، وتجري هذه الاحتفالات مـرة كل ٢٥ عاما ، وفيها يقوم المسيحيون الكاثوليك بزيارات واسعة للاماكن المقدسة وخاصة فـي القدس وروما .

وقد تنبهت الحكومة الاسرائيلية الى اهمية هذه المناسبة في تعديل الوضع المتدهور الذي تعاني منه الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، وشرعت منذ حزيران ١٩٧٤ بتنظيم حملة دعائية واسعـة تحض المسيحيين الكاثوليك على زيارة الامـاكن المقدسة في فلسطين المحتلة ، واتخذت العديد من الاجراءات منها منح الكاثوليك الذين يحضرون الى فلسطين المحتلة بهذه المناسبة تخفيضات كبيرة في نطاق ضريبة السفر ، وجرى وضع ترتيبات خاصة بين وزارة السياحة الاسرائيلية وبين اللجنـــة المكلفـة بتنظيـم برنامج العـام المقـدس فـي الفاتيكان(١١٦).

ومن اجل ضمان نتائج أفضل فقد قام وزيـــر السياحة الاسرائيلي بجولة واسعة في اوروبـــا واميركا ، زار خلالها الفاتيكان ، واجتمع بقداسة البابا بولس السـادس ، حيث نقـل اليه صورة عن نشاط اسرائيل لتشجيع السياح في العـــام المقدس ، وعن الاتفاق السياحي الذي كـان قيد الاعداد مع حكومة ايطاليا بعد المحادثات التـي أجراها موشيه كول مع وزير السياحة الايطالي .

واعلن موشيه كول ان شعار وزارة السياحة الاسرائيلية سيكون « سافروا الى روما والقدس » وانه بادر الى الاعداد لاقامة مهرجان الموسيقى الكنسية في الناصرة في ربيع عام ١٩٧٥(١١٧).

لقد كان لاحتفالات العام المقدس الفضل الاساسي في تعديل وضع الحركة السياحية جزئيا عام ١٩٧٤ بحيث انحصرت نسبة الانخفاض في ٦ ٪ فقط ، وكان متوقعا أن تكون اكثر من ضعف هذه النسبة .

العوامل المعرقلة والاهمية النسبية لكل منها :

هناك عوامل عديدة تسهم في عرقلة الحركة السياحية في فلسطين المحتلة . ويمكن ان نحدد اكثر هذه العوامل اهمية على النحو التالي : ١ ــ استمرار المقاطعة العربية لاسرائيل . ٢ ــ التأثير المباشر لحالات الحرب الواسعة في المنطقة . ٣ ــ تأثير الوضع الامني . ٤ ــ تأثير الوضع الاقتصادي والاجتماعي . فما هي ابرز ملامح عوامل التأثير المتعددة هذه ، وما هي الاهمية النسبية لكل منها .

لعبت المقاطعة العربية لاسرائيل بشكل دائم دورا معرقلا بالنسبة للحركة السياحية في فلسطين المحتلة . اذ أن هذه المقاطعة وما زافقها من اجراءات حالت اولا من امكانات استفادة العدو من الحركة السياحية العربية في فلسطين ، والتي تحولت بعد عام ١٩٤٨ الى لبنان ، وقلصت ثانيا من عدد السياح الاوروبيين والامريكيين الذين وجدوا أنفسهم مخيرين بين القيام بجولات سياحية واسعة في الوطن العربي ، وبين الذهاب الى فلسطين المحتلة(١١٨). وقد ذكر مردخاي بن غاري، المدير العام لشركة العال الاسرائيلية ، ما يؤكد الاهمية البالغة للمقاطعة العربية كاحد مظاهر الصراع العربي الاسرائيلي المتصل في تحجيم السياحة الى فلسطين المحتلة ، حين قال انه لو كان هناك سلام في المنطقة فأن ملايين السياح كانوا سيتوافدون الى اسرائيل بدلا من مئات الالاف(١١٩).

وقد سمح اول خرق عربي لتعليمات المقاطعة بصدد هذه المسألة باختيار اهميتها ، حين سمحت السلطات الاردنية عام ١٩٧٢ بانتقال السياح عبر جسر اللنبي . وصارت عمليات انتقال السياح تتم عبر الجسور المفتوحة في الاتجاهين . وكان اول فريق من السياح الاجانب قد عبر جسر اللنبي الى الاردن في حزيران ١٩٧٢ ، وقيل ان ذلك تم في اعقاب اتفاق بين وكالة سياحة في شرقي القدس وبين سلطات السياحة الاردنية التي سمحت بموجب هذا الاتفاق للسياح بزيارة اسرائيل اولا ثم عبور جسر اللنبي الى الاردن لمواصلة جولتهم السياحية(١٢٠) كما ذكر انه بناء على اتفاق بين مكاتب السياحة الامريكية وشركة الطيران الاردنية عالية ، فقد شرعت مكاتب السياحة الامريكية بتنظيم رحلات سياحية مخفضة الى اسرائيل عن طريق مطار عمان تضم سياحا من اليهود الامريكيين الراغبين في زيارة اسرائيل(١٢١).

وقد تزايدت نسبة السياح القادمين الى فلسطين المحتلة عن طريق الجسود المفتوحة ، مما حدا بالسلطات الاسرائيلية لاتخاذ قرار في نهاية عام ١٩٧٤ بافتتاح مكتب للتسهيلات السياحية على جسر اللنبي .

وتتضح من ذلك اهمية استمرار المقاطعة العربية لاسرائيل في تقييد حجم النمو بالنسبة للحركة السياحية في فلسطين المحتلة . وتتمتع المقاطعة العربية ــ كعامل عرقلة ــ بأهمية خاصة نظرا لما يتسم به هذا العامل المعرقل من ثبات واستمرار .

وتجيء حالة الحرب الواسعة في المنطقة بنتائجها المباشرة وغير المباشرة في المرتبة الثانية بعد سلاح المقاطعة العربية كعامل معرقل .

فحالات الحرب الواسعة ، وبغض النظر عن نتائجها العسكرية ، تعني شل الحركة السياحية لفترة من الوقت . لكن نتائجها العسكرية تحدد بعد ذلك منحنى الصعود او الهبوط في الحركة السياحية . فاذا كانت تلك النتائج لصالح العدو أمسى بوسعنا ان نتوقع انتعاشا في الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، واذا كانت نتائجها سلبية بالنسبة للعدو اصبح هبوط الحركة السياحية مؤكدا .

لقد كانت النتيجة المباشرة لحرب تشرين هي توقف الحركة السياحية كليا اثناء فترة الحرب وانخفاض الدخل السياحي بنسبة ٧٥ ٪ خلال فترة العشرين يوما من القتال . ولم تعد الفنادق خلال

الحرب تعمل بأكثر من ١٠ — ٢٠ ٪ من طاقتها . وقد ذكر احد الاقتصاديين الاسرائيليين بعد مرور شهر ونصف الشهر على حرب تشرين انه بات ملموسا جدا الركود الذي طرأ على فرع السياحة، والذي لم يمس الفنادق والمطاعم وشركات الطيران وشركات السياحة فقط ، وانما مس أيضا الفروع الثانوية التي تخدم السياحة ، فقد تضررت فروع الحلي والمجوهرات والالبسة الثمينة(١٢٢). وفي نهاية عام ١٩٧٤ ، كان الركود لا يزال يسيطر على هذه الفروع ، فقد ذكر موشيه برعام ، وزير العمل الصهيوني ، انه حدثت بطالة بنسبة ٣ ٪ في أربعة فروع هي النسيج والماس والالواح الخشبية والمنتجات الغذائية ، وان نسبة البطالة يحتمل ان ترتفع في هذه الفروع الى ٥ ٪(١٢٣).

وبسبب الحصار الذي تعرضت له مدينة ايلات ، والذي استمر بعد الحرب لفترة ليست بالقصيرة ، فقد تضررت جميع اوجه النشاط الاقتصادي في المدينة . ومنها ميناء ايلات ويستخدم ٨٠٠ عامل ، وقطاع السياحة وما يلحق به ويستخدم ١٥٠٠ عامل ، وقطاع البناء ويستخدم ٧٠٠ عامل ومستخدم(١٢٤).

لقد ادت نتائج حرب تشرين التي كلفت العدو خسائر بشرية ومادية فادحة (حيث بلغت تكاليفها المادية بالنسبة للعدو رقما يعادل الدخل القومي الاسرائيلي في عام كامل) الى تأثير عميق على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، تجاوز حدود التأثير الموسمي لفترات الحروب الواسعة . فخسائر العدو المادية من جهة ، وحاجته الى اعادة بناء مؤسسته العسكرية بأسرع وقت ممكن ، ووضعه المعنوي المتردي ، كل هذه جعلت تأثير حرب تشرين يمتد ليمس حتى خطط التثمير والتطوير السياحية ، الامر الذي ستنعكس نتائجه على الحركة السياحية لعدة سنوات قادمة .

ولقد عمق من تأثير حرب تشرين على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة طبيعة ما آل اليه تطور الوضع الامني كعامل معرقل .

وعبارة الوضع الامني نوردها هنا بمدلول يختلف من مدلول حالة الحرب الفعلية ، وان كانت حالة الحرب الفعلية تمثل احد مظاهر الوضع الامني . الوضع الامني هنا بمدلول حالة التوتر المرافقة لاستمرار الصدام والصراع بشتى اشكاله ، واحتمالات الانفجار الواسع للحرب كأبرز حالات التوتر . في هذا النطاق ، تتحدد الاهمية الخاصة لعمليات المقاومة وحروب الاستنزاف وشتى الاشتباكات المحدودة ، بالاضافة الى فترات التوتر المرتبطة بتوقع النشوب القريب للحرب . فهذه العناصر جميعا : تمارس تأثيرا سلبيا على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة . وكلما اشتدت مظاهر الصراع والتوتر كلما هبطت الحركة السياحية . ويعترف وزير المواصلات الصهيوني بأن السبب الرئيسي لتقليص السياحة بعد حرب تشرين هو الوضع الامني(١٢٥). فقد شهدت الفترة المذكورة توترا شديدا ناجما عن حرب الاستنزاف على الجبهة السورية (حرب الجولان وجبل الشيخ) كما شهدت تصاعدا كبيرا لنشاطات المقاومة في الارض المحتلة . وكان من شأن ذلك ان يعمق من تأثير حرب تشرين ، وأن يشكل عاملا معرقلا قائما يمارس آثاره على الحركة السياحية الى جانب آثار حرب تشرين .

فالتجربة تدل على وجود علاقة عكسية بين توترات الوضع الامني والحركة السياحية في فلسطين المحتلة : الحرب الفعلية الواسعة تعني شللا كليا للسياحة . وحرب الاستنزاف بشكليها (عمليات المقاومة والاشتباكات اليومية على خطوط القتال) تعني شللا نسبيا للسياحة . وحالة اللاحرب واللاسلم التي تتصف بدرجة من الهدوء النسبي تعني انتعاشا في الحركة السياحية ، لكنه لا يبلغ مستوى الانتعاش المتاح لو كانت الحالة القائمة هي حالة سلام .

ويمثل الوضع الاقتصادي والاجتماعي عاملا اخر من عوامل التأثير في الحركة السياحية في فلسطين المحتلة . لكن هذا الوضع مرتبط بدوره ارتباطا وثيقا بنتائج الحرب وطبيعة الوضع الامني. بعد حرب حزيران ، خرج اقتصاد اسرائيل من حالة التضخم والركود التي كان يعاني منها ، وانتعشت معه السياحة ، وكان لنتائج الحرب اولا ، ولانهيال تبرعات يهود العالم على اسرائيل ثانيا الفضل الاول في ذلك . بعد حرب تشرين اختلت الصورة بشكل كلي . فاسرائيل خرجت من الحرب وقد تكبدت خسائر فادحة ، وكان عليها ان تعوض ما خسرته ، الا ان ذلك لم يكن سهلا . فاسهام النفط

العربي في المعركة ، كانت له انعكاسات كبيرة على الاقتصاد العالمي(١٢٦)، واضطرار اسرائيل للتراجع كان له انعكاسه على تجاوب يهود العالم مع الصهيونية بعد أن اختلت فكرة بناء اسرائيل كملجأ آمن لليهود . وكان من الصعب الحصول على ما يعوض الخسائر ويكفل تنفيذ الخطط اللاحقة للحكومة الاسرائيلية . وهكذا كان دخل اسرائيل من الجباية اليهودية عام ١٩٧٤ اقل بكثير مما كان عليه عام ١٩٧٤ رغم حاجة اسرائيل الماسة الى تبرعات يهود العالم . وهكذا اضطرت الحكومة الاسرائيلية الى اتخاذ اجراءات اقتصادية قاسية ، انعكست آثارها بشكل مباشر على الحركة السياحية ، وسيكون انعكاس آثارها على السياحة في المستقبل اكبر مما هو الان نتيجة توقف الاستثمارات السياحية .

واضح اذن ان العنصر الاهم والاشمل والاساسي في التأثير على السياحة في فلسطين المحتلة هو وضعية الصراع العربي — الاسرائيلي ومدى حدة هذا الصراع .

ان السؤال الذي طرح نفسه في اعقاب استعراضنا السابق للعوامل الاساسية المعرقلة للحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، هو حول احتمالات المستقبل القريب ، وما اذا كانت هذه الاحتمالات تشير الى زيادة منتظرة في دور العوامل المعرقلة ، او ان هناك احتمالا في ان يخف تأثير هذه العوامل بما يسمح للحركة السياحية في فلسطين المحتلة بالانتعاش من جديد .

هنا نجد ان مجمل الدلائل المتوفرة تشير الى الاحتمالات التالية فيما يتعلق بالمستقبل القريب : ١ — فشل محاولات ايجاد تسوية سياسية في المنطقة . ٢ — حتمية الحرب الخامسة ، وقصر المسافة بينها وبين حرب تشرين بالمقارنة مع المسافات الزمنية الفاصلة بين الحروب السابقة . ٣ — تزايد حالة التوتر في المنطقة ، نتيجة لتصاعد نشاط المقاومة من جهة ، ونتيجة للتزايد القائم او المنتظر للاشتباكات على خطوط القتال . ٤ — استمرار الجمود الاقتصادي في « اسرائيل » لفترة ليست بالقصيرة .

ان هذه الاحتمالات تعني انه ليس من السهل على اسرائيل ان تحول دون استمرار الهبوط في الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة ، ربما لعدة سنوات قادمة ، يمكن ان تحمل بدورها ايضا دلائل استحالة التغلب على هذا الهبوط .

ومما يزيد من اهمية هذه الاحتمالات في ترجيح عوامل عرقلة الحركة السياحية في فلسطين المحتلة انها ، او ثلاثة منها على الاقل ، تعمل حاليا ومن المنتظر أن تعمل في المستقبل الى جانب بعضها البعض . لكن ذلك لا يعني بأي حال من الاحوال ان نكتفي بالاعتماد على دور هذه العوامل بشكل عام ، وان نغفل اهمية التدخل الارادي العربي في زيادة تأثير العوامل المعرقلة ، وفي تقليص الحركة السياحية في فلسطين المحتلة .

فكيف يمكن للتدخل الارادي العربي ان يساهم في زيادة حجم الهبوط في الحركة السياحية في فلسطين المحتلة ، وان يعمق آثار حرب تشرين عليها ؟

امكانات التدخل الارادي العربي لتعميق آثار حرب تشرين على الحركة السياحية في فلسطين المحتلة : ان ما نقصده هنا بالتدخل الارادي العربي لتعميق آثار حرب تشرين على السياحة في فلسطين المحتلة ، ليس مجرد اتباع نهج سياسي وعسكري عام ينسجم مع طبيعة العوامل المعرقلة السابق ايرادها ، فهذه مسألة بدهية ، وانما انتقال العمل العربي الرامي الى عرقلة الحركة السياحية في فلسطين المحتلة الى مستوى التحديد الخاص والخاص جدا للخطة والمستلزمات ، بمعنى الا يظل الاعتماد قائما على التأثيرات التلقائية التي تفرضها تطورات الصراع فحسب ، وانما ان ينظر الى الحركة السياحية في فلسطين المحتلة كهدف هناك وسائل للتأثير عليه بشكل جدي في المنحى الذي نريد .

عمليا تتوفر للجانب العربي منذ زمن بعيد عناصر من التخطيط والعمل في هذا الاتجاه تتمثل بالدرجة الاولى في احكام المقاطعة العربية ، وفي الدرجة الثانية في المحاولات المتفرقة التي بذلتها المقاومة الفلسطينية لضرب الحركة السياحية في فلسطين المحتلة .

ونحن نعتقد ان العمل في كلا الاطارين يحتاج الى التطوير ، وان هناك مهمات اخرى يجب التصدي لها ليكون للتعرض العربي للحركة

السياحية في فلسطين المحتلة نتائج افضل .

بالنسبة لاحكام المقاطعة ، يجب التأكد أولا من الدول العربية جميعا انها تقوم بتطبيق هذه الاحكام بشكل حرفي . نحن نعرف ان الاردن على الاقل لم يلتزم بالتطبيق الحرفي لهذه الاحكام فيما يتعلق بالسياحة ، لكننا نعتقد ان هناك اقطارا عربية اخرى عديدة لا تتقيد بهذه الاحكام ، ومن الضروري ان تتقيد بتطبيقها اذا اردنا ان تكون لها نتائج افضل . كما انه يمكن القول ان احكام المقاطعة ذاتها لم تزل بعد غير شاملة ، وقد يكون من الممكن ادخال بعض التطوير عليها في الوقت الراهن ، وقد يكون من الممكن تطويرها بشكل اكثر جدية في وقت لاحق ، وفي الحالتين فان من الضروري النظر في تطوير احكام المقاطعة وتاكيد ضرورة التطبيق الحرفي لاحكامها .

ويجب مطالبة الاردن بوقف الحركة السياحية بينه وبين أسرائيل ، واغلاق الجسور المفتوحة أمام هذه السياحة . وما دمنا قد تطرقنا الى الحديث عن السياحة عبر الجسور المفتوحة ، فان هناك ظاهرة اخرى ترتبط بها وهي أكثر خطورة .. تلك هي ظاهرة التوسع في زيارات الصيف بالنسبة للعرب الفلسطينيين ، بحيث بلغ عدد زوار الصيف (وعمليا جعل العدو من العام كله مجالا لزيارات الصيف) ١٢٥ الف شخص ، وذلك عام ١٩٧٤ ، وقد قام الكثيرون منهم بزيارة الجزء المحتل من فلسطين منذ عام ١٩٤٨ كسياح ، وأنفقوا الكثير من الاموال خلال تلك الزيارات(١٢٧).

ان العدو ، وربما لجعلنا لا ننتبه الى هذه المسألة ، لا يدرج عدد زوار الصيف العرب ضمن قائمة السياح ، ولا يورد ما ينفقونه من عملات اجنبية ضمن قائمة وارداته السياحية ، لكن هذه الناحية الشكلية لا تنفي انهم غالبا بمثابة سياح ، وان ما ينفقونه من أموال يصب في خزينة العدو جزء كبير منه .

ان الواجب يقتضي من الجانب العربي دراسة هذه المسألة دراسة جدية من جميع وجوهها ، واتخاذ الاجراءات المناسبة بصددها بما يكفل تقليص عدد كبير وجدي لعدد زوار الصيف ، او بتعبير أدق في عدد من يسمح لهم بعبور الجسور المفتوحة ، بحيث يقتصر السماح بالانتقال عبر هذه الجسور على الاشخاص الذين يملكون الاسباب الموجبة ، والذين لا يسيء تنقلهم عبرها للمصلحة الوطنية .

اما نشاطات المقاومة الفلسطينية المتجهة الى السياحة في فلسطين المحتلة ، فادت في بعض الحالات الى التأثير على الحركة السياحية بصورة مباشرة بالاضافة الى التأثير العام للعمليات ، انما المطلوب السعي لتكثيف العمليات الموجهة ضد السياحة وكذلك تأمين التغطية الاعلامية الملائمة لتعميق آثارها . ونشير بهذا الصدد الى ان عام ١٩٧٤ شهد عملية فدائية رئيسية استهدفت عرقلة السياحة بشكل مباشر ، وان شهد عمليات فدائية اخرى عديدة في مناطق تعتبر سياحية دون ان تكون السياحة هي الهدف المقصود .

وهذه العملية التي استهدفت السياحة جاءت في الاسبوع الاخير من عام ١٩٧٤ ، وجاءت محاولة الاستفادة منها اعلاميا تالية لها ، بينما لا تشكل فترة اعياد الميلاد سوى واحدة من المناسبات الهامة من بين مجموع مناسبات بالغة الاهمية . وفي عام ١٩٧٤ كانت احتفالات العام المقدس هي الاكثر اهمية ، وهذه الاحتفالات ستستمر حتى الشهر الاخير من عام ١٩٧٥ ، وبالتالي ، فان عرقلة جهد العدو السياحي في هذه الفترة تصبح مسألة هامة للغاية .

ان تخطيط العدو للاستفادة من المناسبات الدينية ، هو الان محور جهده لانعاش الحركة السياحية ، واذا كان موشيه كول قد خطط منذ حزيران ١٩٧٤ لاقامة مهرجان للموسيقى الكنسية في الناصرة في ربيع ١٩٧٥ ، وجعل باكورة نشاطاته في عام ١٩٧٥ هي شد الرحال الى الولايات المتحدة، وضمن برنامجه الاجتماع الى رجال الدين من اجل زيادة حركة الحجاج الى فلسطين المحتلة(١٢٨)، فان ذلك يعكس حقيقة مؤكدة وهي ان وزارة السياحة الاسرائيلية تتاجر بالمقدسات الدينية لابتزاز العملات الصعبة . ونستطيع في هذا المجال ان نقوم بتحرك اعلامي موجه الى الضمير المسيحي بغية احباط جهود العدو ، متذكرين ان عملية بناء موقف ملائم لا تتم بين يوم وليلة .

ان هذا الجهد ينبغي ان يتركز في البلدان التي تشكل المصادر الاساسية لحركة السياحة في

فلسطين المحتلة ، وهـي : الولايات المتحـدة الامريكية ، وفرنسا ، وبريطانيا ، والمانيا الغربية، وبلدان اسكندنافيا .

ويفترض ان تسهـم الكنائس العـربية بجـزء اساسي في الدعاية العربية في تلك البلدان ، وان تكون مسؤولية الدعاية الرامية الى تقليص الحركة السياحية الى فلسطين المحتلة مسؤولية عـربية شاملة .

ولعل انجع السبل في هذا المجال هو التخطيط لاقامة مكاتب سياحية عربية ، وخاصة في بعـض تلك الدول التـي توجد فيها مكـاتب سياحيـة اسرائيلية* وان تعمل وفق اسلوب مـن شأنه اجتذاب السياح الى الوطن العربي ، على ان يجري دعم ذلك باجراءات لتطوير السياحة العربية، وتنسيق نشاط اعلامي سياحي موحد ، تراعى فيه الاعتبارات السياسية الكامنة وراء هذا الجهد . ويمكن بهذا الصدد مواجهة الاساليب الاسرائيلية الرامية الى اساءة سمعة الاقطار العربية من اجل ابعاد السياح عنها بأساليب للمواجهة ترمي الى ابراز حقيقة ما تعـانيه اسرائيل من مشكـلات ومخاطر . ونذكر بهذا الصدد ان اسرائيل انشأت مكتبا خاصا في اوروبا الغربية ، لقراءة الصحف اللبنانية ، وجمع المعلومات عن حوادث السرقة والقتل والسير وانباء غلاء المعيشة ، ومن ثـم لترجمة هذه المعلومات الى عدة لغات ، وطبعها وتوزيعها على مكاتب ووكالات السفر في مختلف انحاء العالم تحت عنوان « لبنان كما يراه اهله .. فتأملوه »(١٢٩).

وبوسع منظمة التحرير الفلسطينية ان تساهم في مثل هذا الجهد العربي مساهمة فعالة على صعيد العالم الخارجي .

اما على الصعيد الداخلي ، اي على صعيـد العمل داخل الارض المحتلة ، فان جهد المقاومة لضرب الحركة السياحية في الكيان الصهيوني يجب ان يطور على اسس مدروسة . وفي هذا الصدد فاننا نسجل الملاحظات التالية :

١ ــ ان تصعيـدا مناسبا في حجـم النشاط الفدائي ، وبالقرب من المناطق السياحية قبل وقت ملائم من بدء المناسبات الرئيسية التي يحضر فيها اعداد كبيرة من السياح هو الاسلوب الامثل في تقليص عدد السياح الراغبيـن في حضور تلـك المناسبات ، على ان يجري الاجتهاد في تعميم انباء هذه العمليات الفدائية ، وردود الفعل الاسرائيلية عليها ، داخل تلك البلدان التي تمثل مصـدرا للسياحة المحتملة .

٢ ــ ان تركيزا معينا للنشاط الفدائي ضد تلك الاهداف السياحية غير الدينية التي يجري التركيز عليها في نشرات الدعاية الصهيونية من شأنه ان يسبب ارباكا كبيرا لجهود العدو السياحية ، وان يمثل عنصر تعميق للشعور بالتوتر لدى السياح ، الامر الذي يقود الى عزوف جزء منهم عن الحضور الى فلسطين المحتلة . وتضم مثل هذه الاهداف الفنادق السياحية والمتاحف والنصب التذكارية ، والمسارح التي تركز عليهـا الدعاية السياحيـة الصهيونية ، فاختفاء اي من هذه المعالم السياحية غير الدينية يمثل شاهدا علـى الصراع الدائـر والمستمـر في الوقت الذي تحاول فيه الدعايـة السياحية الصهيونية التهوين من خطر هذا الصراع.

٣ ــ تهديد المواصـلات السياحية في الارض المحتلة ، بما يفقد السياح انفسهم عنصر الشعور بالطمأنينة والامن .

والاخذ بمثل هذه الاقتراحات المحددة ليس بعيدا عن القدرات المهيأة للمقاومة في الوقت الراهن .

---

* مكاتب الاستعلامـات السياحية الاسرائيليـة موزعة على النحو التالي في الخارج :

١ ــ الارجنتين : بيونس ايرس ١٠٠٢ ــ استراليا : ميدان كارلتون، ٥٥ شارع اليزابث، سدني. ٣ ــ بلجيكا : ٦ شارع رافنشتين ، بروكسل. ٤ ــ البرازيل : ساو باولو. ٥ ــ بريطانيا : ٥٩ شارع جيمس، لندن. ٦ ــ كندا: ١١١٨ شارع كاثريـن غربي ، مونتـريال . ٧ ــ الدنمارك : كوبنهاغن. ٨ ــ فرنسا : ١٤ شارع السـلام ، باريس. ٩ ــ هولندا : هيرنغراشت ٤٢٢ امستردام. ١٠ ــ ايطاليا : شارع فيتوريو فينيتـو ، ٩٦ ، روما. ١١ ــ جنوب افريقيا : جوهانسبرج. ١٢ ــ السويد : ستوكهولم. ١٣ ــ سويسرا : زيورخ. ١٤ ــ الولايات المتحـدة : نيويورك ، جورجيـا ، شيكاغو، بوسطن، كاليفورنيا، ماساشوستس. ١٥ ــ المانيا الغربية : فرانكفورت .

الحواشي :

١ — الياس سعد ، **اسرائيل والسياحة** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٥ — ١٦ . ولانفورماسيون ، ١٩٧٠/٦/١ .
٢ — **جون افريك** ، ١٥/٢١ تموز ١٩٦٩ .
٣ — يحيى عودكي، **العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت، ١٩٧١ ، ص ١٣٢ .
٤ — الياس سعد ، **المصدر السابق** ، ص ٣١ .
٥ — **جيروزالم بوست** ، ١٩٦٧/٨/١٠ .
٦ — **يديعوت احرونوت** ، ١٩٦٧/١٠/٢٣ .
٧ — **الانوار** ، ١٩٦٨/١٠/١٢ .
٨ — **جون افريك** ، ١٥/٢١ تموز ١٩٦٩ .
٩ — **اذاعة صوت فلسطين** ، ١٩٧٠/٥/٦ ، الساعة ١٩،٣٠ .
١٠ — **اذاعة اسرائيل** ، ١٩٧٠/٨/٢٤ ، الساعة ١٦،٣٠ .
١١ — اسعد عبد الرحمن (رئيس تحرير) **الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة : وقائع وتفاعلات** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٥٠٤ .
١١ — **جيروزالم بوست** ، ١٩٧٤/٦/٢٨ .
١٣ — **الانفورماسيون** ، ١٩٧٠/٦/١٩ .
١٤ — يحيى عرودكي ، **المصدر السابق** ، ص ١٢٨ .
١٥ — الياس سعد ، **المصدر السابق** ، ص ٣٢ .
١٦ — **ديلي تلغراف** ، ١٩٦٧/٧/٧ .
١٧ — **اذاعة اسرائيل** ، ١٩٧٠/١١/٢٧ .
١٨ — عيسى عبد الحميد ، **ست سنوات من سياسة الجسور المفتوحة** ، مركز الابحاث الفلسطينية ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ١٥٨ .
١٩ — **نفس المصدر** ، ص ١٤٩ — ١٥٠ .
٢٠ — د. يوسف شبل ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ .
٢١ — الياس سعد ، **المصدر السابق** ، ص ٣٤ .
٢٢ — **نفس المصدر** ، ص ٣٥ .
٢٣ — **جيروزالم بوست** ، ١٩٦٦/٩/١ .
٢٤ — **لامرحاب** ، ١٩٦٩/٥/٨ .
٢٥ — *Facts About Israel*, 1972, p. 125.
٢٦ — **هاتسوفيه** ، ١٩٦٨/١٢/٢٧ .
٢٧ — **لانفورماسيون** ، ١٩٧٠/٧/٦ .
٢٨ — **هآرتس** ، ١٩٧٤/٣/٢٢ .
٢٩ — **اذاعة اسرائيل** ، ١٩٧٠/١٠/٢ ، الساعة ١٥،٣٠ .
٣٠ — الياس سعد ، **المصدر السابق** ، ص ٢٠ .
٣١ — كين ميركورد ، مرحلة الركود القادمة في الاقتصاد الاسرائيلي ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٤ ، تشرين أول ١٩٧٢ ، ص ٩٣ .
٣٢ — شيلا ريان ، بناء امبريالية جديدة ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٨ ، شباط ١٩٧٣ ، ص ٩٢ .
٣٣ — لاري لوك وود ، الامبريالية والاقتصاد الاسرائيلي ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ٢٠ ، ص ٨٢ .
٣٤ — **التايم** ، ١٩٧٠/٨/١٧ .
٣٥ — **نفس المصدر** .
٣٦ — خالد تشطيني ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٤ .
٣٧ — كير ميركورد ، **المصدر السابق** ، ص ٩٣ .
٣٨ — **نفس المصدر** ، ص ٩٣ .
٣٩ — يوسف شبل ، **شؤون فلسطينية** ، العدد ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ٢٣٦ .
٤٠ — **لامرحاب** ، ١٩٦٥/٦/٢٣ .
٤١ — شيلا ريان ، السياسة الاقتصادية الاسرائيلية في المناطق المحتلة، **شؤون فلسطينية**، العدد ٣٧ ، أيلول ١٩٧٤ ، ص ٧٦ .
٤٢ — **التايم** ، ١٩٧٠/٨/١٧ .
٤٣ — شيلا ريان ، **المصدر السابق** ، ص ٧٦ .
٤٤ — **جون افريك** ، ١٥/٢١ تموز ١٩٦٩ .
٤٥ — **نفس المصدر** .
٤٦ — شيلا ريان ، بناء امبريالية جديدة ، **المصدر السابق** ، ص ٩٢ .
٤٧ — لاري لوك وود ، **المصدر السابق** ، ص ٨٢ .
٤٨ — **نفس المصدر** ، ص ٩٣ .
٤٩ — **التايمس** ، ١٩٦٩/٤/٢٣ .
٥٠ — *Facts About Israel*, 1972, p. 100.
٥١ — **التايمس** ، ١٩٦٩/٤/٢٣ .
٥٢ — **شؤون فلسطينية** ، العدد ١ ، تموز ١٩٧٢ .

٥٣ — بطرس لبكي ، اضرار وأخطار اسرائيل على اقتصاد لبنان ، شؤون فلسطينية ، العدد ٢٨ ، كانون الاول ١٩٧٣ ، ص ٦١ .
٥٤ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٧/٢٥ ، الساعة ١٦،٤٥ .
٥٥ — نشرة الارض ، العدد ٧ ، ١٩٧٤/١٢/٢١ ، ص ٢٨ .
٥٦ — جيروزالم بوست ، ١٩٧٤/١٠/٣٠ .
٥٧ — نشرة الفرع الالماني الغربي لمعلومات التجارة الخارجية ، العدد ١٤٧ ، تموز ١٩٧٤ .
٥٨ — جيروزالم بوست ، ١٩٧٤/١٠/٣٠ .
٥٩ — الياس سعد ، المصدر السابق ، ص ٢٤ — ٢٥ .
٦٠ — يحيى عرودكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
٦١ — *Facts About Israel*, 1972, p. 123.
٦٢ — نفس المصدر ، ص ٩٢ .
٦٣ — نشرة ر.ا.ا. ، العدد ٥٧٦ ، ١٩٧٩/٧/٩ .
٦٤ — الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .
٦٥ — الياس سعد ، المصدر السابق ، ص ٢٧ .
٦٦ — نفس المصدر ، ص ٢٧ — ٢٨ .
٦٧ — نفس المصدر ، ص ٤٩ .
٦٨ — نشرة ر.ا.ا ، العدد ٥٦٦ ، ١٩٧٤/٦/٢٧ .
٦٩ — الياس سعد ، المصدر السابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .
٧٠ — جيروزالم بوست ، ١٩٦٩/١/٥ .
٧١ — *Facts About Israel*, 1972, p. 125.
٧٢ — هاتسوفيه ، ١٩٧٤/١٠/٢٤ .
٧٣ — يحيى عرودكي ، المصدر السابق ، ص ١٣٥ .
٧٤ — الثورة (السورية) ، ١٩٧٥/١/٩ .
٧٥ — الحرب العربية الاسرائيلية الرابعة ، المصدر السابق ، ص ٥٠٤ .
٧٦ — نشرة الارض ، العدد ٧ ، ١٩٧٤/١٢/٢١ ، ص ٢١ .
٧٧ — دافار ، ١٩٦٦/٣/٢٧ . ويلاحظ ان عدد السياح عام ١٩٧٠ بلغ ٤٣٦،٧٠٠ رغم الظروف المؤاتية التي تهيأت لاسرائيل بعد حرب حزيران.
٧٨ — لاري لوك وود ، المصدر السابق ، ص ٩٦ — ٩٧ .
٧٩ — خالد قشطيني ، ملاحظات على العلاقات الاميركية الاسرائيلية ، شؤون فلسطينية ، العدد ١٤ ، تشرين الاول ١٩٧٢ ، ص ١٩٩ .
٨٠ — هاتسوفيه ، ١٩٦٨/١٢/١٧ .
٨١ — جيروزالم بوست ، ١٩٦٩/١٠/٢٤ .
٨٢ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٢/٢٢ ، الساعة ١١،٠٠ .
٨٣ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٣/١٥ ، الساعة ١٥،٣٠ .
٨٤ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٦/٧ ، الساعة ٢٤،٠٠ .
٨٥ — اومر ، ١٩٧٠/٤/٣ .
٨٦ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٧/٦ ، الساعة ١٢،٠٠ .
٨٧ — اذاعة اسرائيل — عبري — ، ١٩٧٠/٧/٢٠ .
٨٨ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٧/٢٥ ، الساعة ١٦،٤٥ .
٨٩ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٨/١٨ ، الساعة ٧،٣٠ .
٩٠ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/٩/٣٠ ، الساعة ٢٢،٣٠ .
٩١ — اذاعة اسرائيل ، ١٩٧٠/١١/٤ ، الساعة ٢١،٣٠ .
٩٢ — لامرحاب ، ١٩٦٦/٣/١٦ .
٩٣ — جيروزالم بوست ، ١٩٦٩/١/٥ .
٩٤ — *Facts About Israel*, 1972, p. 92.
٩٥ — د. يوسف شبل ، شؤون فلسطينية ، العدد ١٥ ، تشرين الثاني ١٩٧٢ ، ص ٢٣٦ .
٩٦ — هاتسوفيه ، ١٩٧٤/٧/١٢ .
٩٧ — نشرة ر.ا.ا ، العدد ٥٧٩ ، ١٩٧٤/٧/١٢ .
٩٨ — نشرة الارض ، العدد ٧ ، ١٩٧٤/١٢/٢١ ، ص ٢١ .
٩٩ — نفس المصدر ، ص ٢٤ .
١٠٠ — الياس سعد ، المصدر السابق ، ص ٢٥ .
١٠١ — نفس المصدر ، ص ٢٧ .
١٠٢ — جيروزالم بوست ، ١٩٦٩/٨/٤ .
١٠٣ — لانفورماسيون ، ١٩٦٩/١٢/٨ .
١٠٤ — الدستور (الاردنية) ، ١٩٧٠/٧/٢٠ .

١٠٥ — **الحياة** (البيروتية) ، ١٩٦٧/٧/٢٦ .
١٠٦ — **دافار** ، ١٩٧٥/١/١ .
١٠٧ — **نفس المصدر** .
١٠٨ — **اذاعة عمان** ، ١٩٧٥/١/٧ ، الساعة ١٤٠٠ .
١٠٩ — **اذاعة اسرائيل** — عبري — ، ١٩٧٥/١/٨ ، الساعة ٩٠٠ .
١١٠ — *Facts About Israel*, 1972, p. 125.
١١١ — **لانفورماسيون** ، ١٩٧٠/٦/١٩ .
١١٢ — **اذاعة اسرائيل** — عبري — ، ١٩٧٠/٧/٢٠ ، الساعة ٢٠٠٠ .
١١٣ — الياس سعد ، **المصدر السابق** ، ص ٢٨ — ٢٩ .
١١٤ — **هاتسوفيه** ، ١٩٦٩/٨/١٤ .
١١٥ — **نشرة الفرع الالماني الاتحادي لمعلومات التجارة الخارجية** ، تموز ١٩٧٤ ، العدد ١٤٧ .
١١٦ — **نشرة ر.ا.ا.** ، العدد ٥٦٦ ، ١٩٧٤/٦/٢٧ .
١١٧ — **نشرة ر.ا.ا.** ، العدد ٥٧٥ ، ١٩٧٤/٧/٨ .
١١٨ — بطرس لبكي ، **المصدر السابق** ، ص ٥٣ .
١١٩ — **اذاعة اسرائيل** — عبري — ، ١٩٧٠/٧/٥ .
١٢٠ — عيسى عبد الحميد ، **المصدر السابق** ، ص ١٥٨ .
١٢١ — **نفس المصدر** ، ص ١٥٩ .
١٢٢ — **نشرة م.د.ف.** ، ١٩٧٣/١٢/٦ ، ص ٧٢٢ .
١٢٣ — **وكالة الانباء الفرنسية** — القدس ، ١٩٧٤/١١/٢٦ .
١٢٤ — **دافار** ، ١٩٧٣/١١/١٣ .
١٢٥ — **نشرة ر.ا.ا.** ، ١٩٧٤/٧/١٩ .
١٢٦ — تذكر صحيفة **دافار** (١٩٧٤/١٢/٢٧) ان خسائر اليهود في الولايات المتحدة بسبب التضخم المالي تقدر بحوالي ٤٠ مليار دولار .
١٢٧ — **الحياة** (البيروتية) ، ١٩٧٥/١/٣ .
١٢٨ — **اذاعة اسرائيل** — عبري — ، ١٩٧٥/١/١٣ ، الساعة ٩٠٠ .
١٢٩ — بطرس لبكي ، **المصدر السابق** .

العوامل الاقتصادية وراء قرار الحرب الأسرائيلي

السيد عليوة

تستهدف هذه الدراسة الموجزة التعرف ـ بقدر الامكان ـ على نمط السلوك السياسي الاسرائيلي في مسالة من اخطر واعقد المسائل الا وهي اتخاذ قرار الحرب ٠ وبقدر ما تنطوي هذه المقالة على اهتمام خاص بصنع القرار السياسي في اسرائيل كدراسة اشمل واعم ، فانها تركز ـ بغرض التحديد والدقة ـ على تأثير العوامل الاقتصادية وحدها على اتخاذ هذا النوع من القرار ٠ وبالطبع فهي ليست الا محاولة لفهم افضل لظروف واتجاهات القرار الاسرائيلي آخذين العبرة من الماضي تحسبا للمستقبل وما قد يحمله من احتمالات ٠

والبحث يهتم في البداية بالتعرف على طبيعة قرار الحرب والعوامل المؤثرة (الداخلية والاقليمية والدولية)على اتخاذ القرار السياسي في اسرائيل ٠ ثم يحلل اهم العوامل الاقتصادية المؤثرة وذلك من واقع قراءة تاريخية للسلوك المتواتر من جانب اسرائيل في الحروب الاربع التي خاضتها وبالاخص حربي ١٩٥٦ ويونيه ١٩٦٧ ٠ ونختم المقالة ببحث الوزن المرتقب للعوامل الاقتصادية مستقبلا ٠

اولا : طبيعة قرار الحرب : القرار ـ اي قرار ـ هو مسلك من العمل او اللاعمل يتم اختياره لمواجهة «مشكلة ما»، اي ان القرار هو عملية تطلع الى المستقبل٠ انه واحد من عدة بدائل تم فحصها واعتبره متخذ القرار احسنها (١) ٠وفي الاصل يشمل صنع القرار ثلاث مراحل اساسية هي: ايجاد الفرص لصنع القرار، ايجاد المسالك الممكنة للعمل ، والاختيار بين مسالك العمل هذه ٠ وتغطي المرحلة الاولى بحث محيط الظروف الداعية للقرار وتسمى «الاستخبارات» (المستعار من الاصطلاحات العسكرية) ، وتشمل الثانية الابتكار والتطوير وتحليل المسالك الممكنة للعمل ونسميها «التصميم» ٠ اما المرحلة الثالثة فتعنى باختيار مسلك عملي ، للتصرف ، من البدائل المتاحة وهو النشاط الاختياري او الانتقائي ٠ علما بأن ايا من هذه الانشطة يتداخل مع الاخرين ويشمل قدرا من كل منها (٢) ٠

ونحن نعني هنا بقرار الحرب قرار شن هجوم شامل او محدود على دولة عربية او اكثر من الدول المحيطة باسرائيل (فلسطين مصر سوريا الاردن لبنان) او على الاقل اتخاذ الاجراءات الاستفزازية واصطناع الظروف التي تدفع الدول العربية الى اعلان الحرب على اسرائيل (كما حدث في عام ١٩٤٨) ٠ وقرار الحرب هنا يختلف عن نوعين من القرارات : الاول ، القرار بصد هجوم عسكري عربي مفاجىء بعد وقوعه ـ اي انه تحرك دفاعي ـ وهو لم يحدث في تاريخ اسرائيل اللهم الا في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ٠ والثاني هو القرار بشن غارات انتقامية خاطفة محدودة الغرض ٠

هذا ويتضمن خوض الحرب القيام بالاعمال الحربية ، واستخدام مختلف وسائل الصراع المسلح ، ومن اهمها التشكيلات والقطاعات والوحدات العسكرية ومختلف صنوف القوات المسلحة ، وذلك بغرض بلوغ الاغراض والمقاصد السياسية والاستراتيجية والعملياتية والتكتيكية المحددة • ويقتضي هذا تحديد اسلوب خوض الحرب وبيان الغرض الرئيسي للصراع المسلح ، ومن ثم يجري اعداد التخطيط السياسي والاستراتيجي والعسكري •

وعندما تقرر القيادة السياسية هذه الامور ويقع اختيارها على انفاذها بالشكل الذي ارتأته ، تحدد بصورة نهائية طبيعة الحرب والاتجاهات الرئيسية في اعداد الدولة للحرب وتنظيمها وتمهيد الجو السياسي والنفسي والمحلي والعالمي لذلك ، واعداد السكان ، والدفاع المدني ، والتعبئة الاقتصادية ، واعداد القوات المسلحة مع تعيين القيادة السياسية العليا للحرب وادارتها ، وقيادة ادارة العمليات الاستراتيجية، وقيادة القوات المسلحة • وبناء على ذلك تضع القيادة السياسية خطة الحرب وتبين اهدافها السياسية والاستراتيجية ، وتخطط استخدام الامكانات السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية والمعنوية كافة للحرب • هذا عن قرار الحرب بصفة عامة في اي مجتمع •

وحتى نتبين ابعاد قرار الحرب الاسرائيلي بصورة اوضح يلزم ان نعرف من يملك سلطة اتخاذ مثل هذا القرار ، ونظرا لكونه قرارا سياسيا بالدرجة الاولى فان مجلس الوزراء الاسرائيلي هو الذي يتخذ هذا القرار • وبالطبع تلعب العوامل السياسية الداخلية (الائتلاف الحزبي وضغوط الراي العام) والاقليمية (موقف العالم العربي) والدولية (المناخ العالمي) دورها من خلال قوى عديدة • مثل حزب العمل الحاكم واحزاب الائتلاف والمعارضة وزعامات الكنيست وجماعات الضغط والمنظمة الصهيونية العالمية والسياسة العربية والدول الكبرى ، ناهيك عن الوزن الفعال للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية • وهذه العوامل والقوى تدفع ــ متشابكة ــ في النهاية النخبة الحاكمة الى اتخاذ قرار شن الهجوم او التريث • ولكننا في بحثنا هنا نستبعد كل هذه العوامل ، رغم اهميتها الكبرى ونسلط الضوء على العوامل الاقتصادية ، التي تبين بحكم السوابق مدى تأثيرها على حفز صانع القرار بالتوجه نحو ترجيح كفة الحرب •

لقد اصبح من الحقائق المسلم بها ان العامل الاقتصادي كان احد العوامل الرئيسية التي دفعت **الامبريالية لدعم الصهيونية** في استعمار فلسطين • وقد وضع المفكر العسكري الالماني «كلوزفيتز» امامنا تفسيرا لهذا العامل حيث يقول «ان العامل الاقتصادي هو الذي يوجه سياسة الدولة ، ويوجه جيشها نحو ساحات القتال» • واذا كان هذا الحزم الواضح ينطبق على بعض الوقائع في التاريخ القديم والحديث ، فانه ينطبق على واقعة انشاء اسرائيل (٣) ، **بمساندة الاستعمار العالمي** •

كما انه قد ثبت ان كلا من اسرائيل وجيرانها العرب لا يمكنهم ان يخوضوا حربا شاملة معتمدين على قواهم الذاتية وحدها • كما ان اسرائيل شديدة الضعف لحدثين اقتصاديين : تعطيل وارداتها الحيوية (بالحصار او المقاطعة) ، والاستنزاف الشامل الذي يجهد اقتصادها • لذا تقوم استراتيجيتها على الضربة الخاطفة السريعة ، ومن ثم فانها لا تعتمد على مفهوم غامض لميزان القوى وانما تعتمد على تفوق عسكري واضح (٤) •

نستنتج من هذا ان قرار الحرب الاسرائيلي هو قرار بالغ التعقيد والتداخل لدرجة

يتعذر معها استخلاص المؤثرات الاقتصادية وحدهـــا عند صنعه بصورة واضحه ، ولا سيما ان قرار الحرب ، في اية دولة ، غالبا مـــا يكون تعبيرا عن الاستشعار بالخطر الداهم او للدفاع عن مصالح واهداف استراتيجية عليا ، على نحو تمتزج فيه العوامـــل السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في نسيج واحد • ومع ذلك فان ما يحفزنا على الاجتهاد لفرز العوامل الاقتصادية وحدها هو ان قرار الحرب فـــي حد ذاته قد غدا ــ في جانب منه ــ قرارا اقتصاديا من حيث طبيعة تكنيك صدفة عند تخصيص الموارد المطلوبة وتقدير الامد المتوقع للحرب (٥) •

ثانيا : العوامل المؤثرة على اتخاذ القرار السياسي في اسرائيل : طالما كان قرار الحرب الاسرائيلي هو بالدرجة الاولى قرارا سياسيا اي انه يتخذ من جانب اعلى سلطة مسؤولة في الدولة ، فان مدخلنا للدراسة هو بحث العوامل المؤثرة على اتخاذ القرار السياسي عموما •

يتعذر بداهة ان نميز بدقة بين كل مرحلة واخرى من المراحل الثلاث (الاستخبارات ــ التصميم ــ الاختيار) التي سبق الاشارة اليها والتـــي تنطوي عليها عملية صنـــع القرار ، لانها جد متداخلة ومترابطة وتتبادل التغذية والتاثير • ولكن ما يهمنا هنا هو ان نميز عنصرين هامين في كل مرحلة على حدة ، ونعني بهما : تشخيص القوى التي تصنع هذه المرحلة ، وطبيعة العوامل المؤثرة والداعيـــة الى تغليب اتجاه علـــى اخر في كل مرحلة •

مـــن الواضـــح ان مرحلة الاستخبارات وهي جمع البيانات والمعلومات تقوم بهـــا هيئات متعددة في مقدمتها جهـــاز المخابرات الاسرائيلي وغيرهـــا مـــن المنظمات الاقتصادية مثل بنك اسرائيل ومكتب الاحصاء المركزي ومكتب مراقب الدولة والامانة العامة للكنيست والوزارات المختصة والجامعات والمعاهد ومراكز البحوث هناك • وابرز الظروف المؤثرة على الاتجاه الذي تسلكه هذه العملية (اي عرض وتقـــديم المعلومات) هي مدى تقدم او تخلف الاجهزة ودقة الاحصاءات ، وكذا درجة التمويه التي يستطيع الجانب العـــربي ان يتقنهـــا لاخفاء اوضاعـــه العسكرية والسياسية والاقتصاديـــة عـــن عيون العدو ، وايضا المتاح من المعلومات والتقديرات عن الموقف الدولي (٦) •

اما المرحلة الثانية وهي مرحلة التصميم (وهي اشبه بالتخطيط) وهذه تقوم بهـــا مجموعات من الخبراء والاستراتيجيين والمتخصصين في مختلف الشـــؤون السياسية والعسكرية والدولية والاقتصادية • على سبيل المثال تم اختيار واحد من الاقتصاديين البرزين ، في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، مستشـــارا اقتصاديا لوزارة الدفـــاع الاسرائيلية • وجدير بالملاحظة ان التطور السياسي في اسرائيل قد سمح للمحترفين من التكنوقراط والبيروقراط بتزايد دورهم في صنع السياسة العامة اكثر مـــن الدور الذي كانوا يلعبونه في السنوات الاولى لقيام الدولة الى جانب الدور الذي يلعبه حاليا السياسيون من القادة والزعماء (٧) •

هذا وتعتبر ردود الفعل المتوقعة من جانب العرب ومن جانب القوى الدولية ومـــن جانب القوى الاجتماعية في الداخل من ابرز الظروف المؤثرة على تصميم عدة بدائل من الاستراتيجيات والخطط •

تتبقى اذن المرحلة الثالثة والتي هي محل اهتمامنا ونعني بها مرحلة اختيار مسلك العمل اي في حالتنا هنا اتخاذ قرار الحرب وشن الهجوم او على الاقل اصطناع

الظروف المؤدية اليه ٠ وهذا القرار يقوم به ــ او من المفروض ان يقوم به ــ مجلس الوزراء الاسرائيلي ٠ ولكن في الواقع العمل يجري التمهيد له بواسطة دائرة ضيقة داخل مجلس الوزراء تتكون من نخبة مختارة من اهم الوزراء بالاضافة الى بعض الشخصيات القيادية في الدولة ، اطلقت عليهم جميعا تسميات مختلفة مثل «وزارة المطبخ» او «المؤسسة الحاكمة» ٠٠ الخ ٠ واهم العوامل المؤثرة هنا هي رد الفعل المتوقع للقرار من جانب الاطراف المعنية الرئيسية وبالذات الجانب العربي الذي سيكون هدفا للهجوم العسكري ٠

وبالطبع لا نستطيع ان نغفل الدور الهام الذي تلعبه المنظمة الصهيونية العالمية في تخطيط الاستراتيجية السياسية ــ العسكرية الاسرائيلية ، ويعقب ذلك ان تقوم الحكومة الاسرائيلية وهي تتولى ــ سياسيا ــ الادارة الاستراتيجية للعمليات الحربية٠ ثم هيئة اركان الجيش الاسرائيلي التي تتولى الاشراف على القيادة العامة للعمليات ٠ وجدير بالملاحظة ان النفوذ الشخصي لوزير الدفاع ورئيس الاركان قد يتعدى في كثير من الاحوال ــ سواء في السلم او الحرب ــ مسؤولياتهما الرسمية ويتجاوز صلاحياتهما الدستورية والقانونية (٨) ٠

ولا يفوتنا التنويه بالدور الذي تمارسه الاحزاب السياسية وجماعات الضغط ٠ ومع ذلك تظل الحكومة الاسرائيلية في مركز السيطرة المطلقة طالما انها تحظى بمساندة اغلبية الكنيست ، ورغم تكتيكات المعارضة ومناوراتها ، فان مجلس الوزراء يظل بؤرة القوة في جهاز الدولة (٩) ٠

على اي حال فقد اضحى القرار السياسي في اسرائيل يتأثر بالدور المتزايد لجماعات الضغط الاقتصادية ٠ مثلا تتكون الجماعة التي كان يستشيرها بنحاس سابير وزير المالية السابق من محافظ بنك اسرائيل ورئيس بنك الصناعة والتنمية ومدير عام وزارة المالية وامين صندوق الوكالة اليهودية ومدير بنك العمال وممثلي القطاع الصناعي الخاص ٠ ان المؤسسة الاقتصادية عبارة عن ائتلاف من جماعات اقتصادية ومالية كبيرة، ويوجد من بينهم ثمةيهود لا يحملون الجنسية الاسرائيلية(١٠)٠

لقد درج المراقبون على القول بأن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية ذات نفوذ قوي ومسيطر ، وبالمثل يمكن القول ان المؤسسة الاقتصادية اصبحت ذات تأثير ملحوظ على اتخاذ القرارات السياسية ومن بينها قرار الحرب ٠

ثالثا : متى تكون العوامل الاقتصادية مؤثرة على قرار الحرب : ينبغي التنبيه ، باديء ذي بدء ، ان تأثير العوامل الاقتصادية لا يكون بالضرورة فوريا ومباشرا على متخذ قرار الحرب ، وانما هي تعزز نتائجها بالتدريج وببطء على نحو لا يمكننا معه التعرف على العلاقة بين المتغيرين (التفاعلات الاقتصادية واتخاذ قرار الحرب) الا على المدى المتوسط والطويل ٠

ونظرا لتعدد العوامل الاقتصادية المؤثرة على قرار الحرب الاسرائيلي ، ما بين عوامل داخلية واخرى خارجية ، فاننا سنستبعد الاخيرة ، والتي تتمثل في الحالة الاقتصادية للبلدان العربية المحيطة باسرائيل ، والوضع الاقتصادي الدولي ، وذلك رغم اهميتهما لدرجة قد تكون ذات تأثير واضح على اتجاه صانع السياسة في الدولة الصهيونية ٠ اذن سوف نحصر اهتمامنا في العوامل الاقتصادية الداخلية ، والتي يتمثل اهمها في : ضيق الرقعة الجغرافية ، تدهور الصادرات ، تدهور الهجرة ، زيادة البطالة ، تزايد العجز المالي ، انخفاض معدل النمو الاقتصادي ٠

ومع ذلك لا ينبغي ان يفضي بنا هذا التحليل الى تصور انه يمكن دراسة اثر

العوامل الاقتصادية بمعزل عن بقية العوامل الاخرى • فالحقيقة ان العوامل الاقتصادية يظل تأثيرها محايدا او على الاقل ضعيفا (وبالتالي يتعذر قياسه) اذا كانت الظروف الاخرى وبالاخص العربية والدولية غير مواتية اي ساكنة تماما • وهذا العرض المطروح نظريا غير وارد عمليا ، بمعنى ان الساحة العربية والدولية لا يمكن ان تكون في وقت ممن الاوقات ساكنة وذلك بفعل العوامل الدينامية التي تصول في جنباتها •

مسدااقا لذلك تعالوا نجري قراءة سريعة لتاريخ الحروب الثلاث التي شنتها اسرائيل ضد العرب • انه مما يلفت النظر في العلاقة المتبادلة بين السياسة والاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية هو التناسق والانسجام الكامل بينهما بحيث تختار السياسة اللحظة المواتية لبدء الحرب حتى تجني منها اقصى الفوائد • ففي عام ١٩٤٨ اختارت السياسة اللحظة المواتية لاشعال الحرب في الوقت الذي كان فيه العالم لا يزال يذكر حوادث الاضطهاد النازي ضد اليهود • وكانت القوى السياسية العالمية المتصارعة لا تزال تحت تأثير تحالفهما المشترك ضد العدو النازي ، كما كانت البلاد العربية في وضع معقد ولما يزل معظمها يقاسي ويلات الاستعمار والبعض الاخر في اول عهده بالاستقلال يصفي التركات الثقيلة التي خلفها له الاستعمار • وكانت جماهير الشعب العربي تفتقر الى وحدة الفكر والهدف ووضوح الطريق امامها • في هذه الظروف دفعت الصهيونية البلاد العربية لاعلان الحرب عليها بعد ان رفضت التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة • وهكذا سهلت السياسة الصهيونية للاستراتيجية العسكرية مهمة تنفيذ اهدافها بالاستيلاء على الجزء الاكبر من فلسطين •

وفي عام ١٩٥٦ استغلت السياسة الاسرائيلية نقمة الدوائر الاستعمارية على الشعب العربي الذي بدأ يدرك اهمية الانفتاح على العالم وكسر طوق احتكار السلاح ومساهمته في النضال مع حركات التحرر في العالم وانشغال مصر في تثبيت اركان ثورة ٢٣ يوليو ، ورغبة الولايات المتحدة في احلال نفوذها في المنطقة بدلا من النفوذ الانجليزي والفرنسي المتداعي ، ونقمة الدوائر الاستعمارية الحاكمة في انجلترا وفرنسا على تأميم قناة السويس ، ولوعة الحكومة الفرنسية من جراء هزائمها المتتالية امام الثورة الجزائرية ، واعادة تسليح الجيش المصري بالعتاد الشرقي ـ استغلت السياسة الاسرائيلية ذلك كله لتخلق الموقف الملائم للاستراتيجية العسكرية كي تحتل سيناء وخليج العقبة •

وفي عام ١٩٦٧ ـ وبعد تحضير طويل للحرب منذ عام ١٩٥٧ استغلت السياسة الاسرائيلية الظروف الدولية المعقدة ، والهجمة الاستعمارية الضارية على مواقع التحرر في العالم ، ونقمة الاحتكارات العالمية على الشعب العربي المتطلع الى استثمار ثرواته ، واتجاه الدول الاشتراكية نحو التعايش السلمي ، وبدائية التخطيط الاستراتيجي العربي ، وتمزق الارادة العربية ، وعاطفية اجهزة الاعلام العربي ، وغوغائية السياسة العربية وترددها ـ استغلت السياسة الاسرائيلية ذلك كله لتعطي الاستراتيجية العسكرية الامر بالتنفيذ (١١) •

نخلص من هذا السرد الى ان العوامل الخارجية والدولية كان لها الوزن الارجح في تقرير اختيار الحرب او السلام ، لقد كان من ابرز دروس الحرب التي خرجت بها اسرائيل ان حرية الدول الصغرى في العمل محدودة ومحكومة بموقف الدول الكبرى ، كما ان النجاح العسكري يتحدد لا بدرجة القوة العسكرية للدول الصغرى وانما بدرجة تسامح الدول العظمى ازاء استخدام القوة (١٢) •

ولكن يمكن القول ان العوامل الاقتصادية يتزايد تاثيرها ، في نفس الوقت ، بزيادة التفاعل السياسي والدولي ، وهو من سمات العصر ومن طبيعة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فالعلاقة التي تربط بينهما (العوامل الاقتصادية والسياسية الدولية) علاقة طردية ·

في ضوء ذلك نحاول فيما يلي بيان وتحليل اهم العوامل الاقتصادية المؤثرة على قرار الحرب :

(١) ضيق الرقعة الجغرافية : المفروض اصلا ان الرقعة الجغرافية لاي كيان سياسي او دولة هي انها حقيقة ثابتة في معظم الاحوال ، وليست ظاهرة عضوية قابلة للتمديد والتقلص كما هو الحال في اسرائيل · وسر ذلك يكمن في ضآلة المساحة الجغرافية التي اغتصبتها اسرائيل ، بالقياس الى اطماعها الاقليمية ، وافتقارها الحاد الى الموارد الطبيعية والخاماتمن ناحية ، والتزايد السكاني الكبير بفعل الهجرة اليهودية الوافدة من ناحية اخرى ، مما يشكل ضغطا على الموارد الداخلية وتزايد اطماع القيادة الاسرائيلية في العدوان والتوسع على حساب الاراضي العربية ·

لقد برهنت اسرائيل منذ قيامها عام ١٩٤٨ وحتى اليوم انها سارت على معادلة ان الحرب تؤدي الى التوسع ، ومن ثم الى الهجرة وتدفق رأس المال الذي يؤدي بدوره الى معدل اعلى للنمو ومستوى ارفع للمعيشة · وهذا يستحث مزيداً من اليهود للهجرة الى اسرائيل ، مما يخلق موجة جديدة من الضغط على الموارد المحدودة والتي تؤدي بدورها الى التوتر ، وغالبا ، الحروب من اجل مزيد من التوسع الاقليمي (١٣) ·

وهكذا احرزت اسرائيل خلال الحروب الثلاثة (٤٨ ، ٥٦ ، ١٩٦٧) توسعا اقليميا ، من خلال غزوها للاراضي العربية · وتم هذا التوسع بمعدل سنوي نحو ٢ر٩٪ خلال الفترة ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧ ، مما اتاح لها فرصا هائلة باستغلال موارد بشرية وطبيعية جديدة لا تمتلكها · معنى ذلك ان السيطرة الاقتصادية كانت الهدف الكامن في قرارة نفس صانع السياسة الاسرائيلية قبيل نشوب الحروب العدوانية التي شنتها ·

(٢) تدهور الهجرة : تحدث كثير من الباحثين عن الهجرة (الوافدة الى اسرائيل والخارجة منها) وعن علاقة التطور الذي ينتابها بالضغوط التي يمكن ان يولدها ذلك على القيادة الاسرائيلية لتحبيذ اختيار الحرب او على الاقل تصعيد التوتر العسكري والسياسي في المنطقة · والحقيقة ان تتبع حركة الهجرة يشير الى انه في الاوقات التي كانت تنعم فيها اسرائيل بنوع من الهدوء والسلام النسبي ، كثيرا ما لجأت السلطات الاسرائيلية الى شن الحرب او اشاعة التوتر ، خوفا من تناقص عدد القادمين وتزايد عدد النازحين لما يصحب مثل هذه الفترات من احتدام التناقضات الاجتماعية لانه في ظروف الحرب والتوتر تستطيع اسرائيل والحركة الصهيونية ان تستنفر تعصب اليهود لنجدة اسرائيل ومساندتها · فضلا عن ان سعي اليهود في الشتات لتأييد اسرائيل قد يفضح ظاهرة الولاء المزدوج لهؤلاء الذين يتمتعون بحقوق المواطنة في بلاد اخرى غير اسرائيل مما يثير حنق وشك مواطنيهم · وهذه العملية تولد ، بدورها، بين اليهود مزيدا من الحماس للدولة اليهودية والارتباط بها بل والهجرة اليها ·

والواقع انه رغم حملات الدعاية والابتزاز التي نظمتها الصهيونية واسرائيل لجذب اليهود من الشتات ، فانه يمكن القول بأن اسرائيل كانت غير قادرة على تعبئة اليهودية العالمية من اجل هجرة جماعية الى فلسطين ، اللهم الا في فترات الحرب او التوتر

الشديد · وآية ذلك ان متوسط عدد المهاجرين الوافدين سنويا بلغ ٥٤٢٢٧ شخصا وذلك في الفترات التي اتسمت بسلام نسبي ، ولو سارت الامور على هذا المنوال ، لبلغ اجمالي المهاجرين ٦٧٨٣٥٨ نسمة خلال الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٧١ ، اي بما نسبته ٤٥٪ من اجمالي الزيادة في السكان ، ولكن سنوات الحرب والظروف الاستثنائية دفعت باجمالي المهاجرين الى ٨٢٧٦٢٩ نسمة خلال نفس الفترة ، اي بما نسبته ٥٥٪ من اجمالي الزيادة السكانية (١٤) · لقد وصل صافي الهجرة الى ادنى مستوياته قبيل حرب ١٩٦٧ ، ثم ساهمت نتائج الحرب في اعادة حجم الهجرة اتساعا الى ٤٥ الف عام ١٩٦٩ و٣١ الف عام ١٩٦٨ مقابل ١٨ الف عام ١٩٦٧ ·

ونخلص من هذا ان الحرب تجلب لاسرائيل الاف الايدي العاملة الماهرة والمدربة ممن تكلفت البلاد الاجنبية نفقات تأهيلهم خارج اسرائيل · وجدير بالملاحظة ان معظم العوامل الاقتصادية محل بحثنا هنا ، وبالاخص الهجرة ، ذات طابع مزدوج ، بمعنى انها بقدر ما تكون نتيجة لظاهرة معينة قد تكون سببا لنفس الظاهرة · اي ان القيادة الاسرائيلية تدرك مقدماً ، وقبل اتخاذ قرار الحرب ، ان نشوب الحرب (التي تنتصر فيها) سينجم عنه لا محالة ازدياد تدفق المهاجرين اليهود الى اسرائيل ·

(٣) تدهور الصادرات : يلعب قطاع التجارة الخارجية بالنسبة لاسرائيل دورا بارز الاهمية وحيويا في توفير متطلبات البقاء والاستمرار لكيانها الدخيل في المنطقة العربية ، ولانه يمثل احد المجالات التي تقوم تدابير المقاطعة العربية بالعمل على التأثير فيه · ان الصادرات تشكل حجر الزاوية في تعامل اسرائيل مع العالم الخارجي فهي المنهل الرئيسي لتوفير العملات الاجنبية وهي التي تتيح التوسع في المستوردات · وفضلا عن ذلكفأنها تعتبر الامل في استمرار بقاء الدولة التي تعتمد ، الى حد كبير، على المعونات والمساعدات والقروض الخارجية التي لا يمكن ان تدوم الى الابد ·

تطور الصادرات الاسرائيلية في سنوات مختارة (١٥)

السنة	نسبة الصادرات والواردات
١٩٥٤	٢٠ر٠٪
١٩٥٥	٢٦ر٦٪
١٩٥٦	٢٨ر٠٪
١٩٦٥	٥٠ر١٪
١٩٦٦	٥٨ر٠٪
١٩٦٧	٧٢ر٠٪

والملاحظ بصفة عامة ان ارقام الصادرات لا تعطي دلالة ذات مغزى واضح في ترجيح القيادة الاسرائيلية لاختيار الحرب ، ولكن المتأمل في الجدول السابق يتبين بعض الايماءات · مثلا كانت نسبة الصادرات للواردات عام ١٩٥٦ ، ٢٨٪ ، وهو عام الحرب ، اعلى منها في عامي ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ وهو نفس الحال في الاعوام ٦٥، ٦٦ ، ١٩٦٧ ، اذ نجد ان نسبة الصادرات للواردات تدرجت من ١ر٥٠٪ عام ١٩٦٥ الى ٥٨،٨٪ عام ١٩٦٦ وما لبثت انقفزت الى ٧٢٪ عام ١٩٦٧ وهو عام الحرب · وغني عن البيان ان النقص في الاستيراد يعوض احيانا عدم الزيادة في الصادرات وكلاهما ، اي نقص الاستيراد وزيادة الصادرات ، يجيء مصاحبا لحالة الحرب او في اعقابها ·

على اية حـال فقد لوحظ دأب اسرائيل على استثمار الحروب العدوانية التي تقوم بشنها وذلك بالدعاية . عقب الانتصارات العسكرية لقواتها ، لفنون التكنولوجيـا

الاسرائيلية والسلاح الاسرائيلي وذلك بهدف زيادة صادراتها من الاسلحة والمعدات العسكرية (١٦)، والتي ليست الا معدات امريكية وغربية ادخلت عليها بعض التعديلات ·

(٤) **تزايد البطالة** : لاحظ كثيرون انه في الفترة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ جاءت حرب حزيران التي لا ينبغي عزلها عن مجمل التطورات التي سبقت هذه الحرب ، فقد بلغت البطالة حداً كبيرا وازدادت الاضرابات وقلت الاستثمارات وقلت الهجرة وازدادت مصروفات التسليح وازداد عجز الخزينة النقدي وتباطأ النمو الاقتصادي ، فجاءت الحرب لتقلب الصورة · ان هذا لا يعني ان هذه العوامل هي التي جعلت اسرائيل تقوم بعدوانها في ١٩٦٧ ، ولكن ذلك يعني ان هذه العوامل هي جزء مهم من التأثيرات التي جعلت اسرائيل تخوض حرب حزيران ١٩٦٧ · ان كل ذلك مهد للفترة التالية والتي هي مرحلة ما بعد حرب حزيران (يونيه) ١٩٦٧ (١٧) ، والتي جنت من ورائها فوائد جمة ·

لقد حدث بالفعل ان سبق هذه الحرب ارتفاع عدد العمال العاطلين اذ بلغت نسبتهم نحو ٧ر٤ عام ١٩٦٦ ، ثم وصلت البطالة اسوأ مستوياتها قبيل الحرب اذ بلغت في الربع الاول عام ١٩٦٧ نحو ١٠٪ تقريبا · الا ان نشوب الحرب ادى الى تغيير هذا الوضع اذ انخفضت معدلات البطالة بشكل ملموس (اصبح عدد ايام العمالة العاطلة عام ١٩٦٨ يقدر بنحو ٥٧٠٩ مقابل ١٣٥٢٥ عام ١٩٦٧ اي بنقص نسبته ٨ر٥٧٪) ·

وهذا الكلام لا ينطبق على حرب ١٩٦٧ فحسب ، بل اننا نجده قريبا من ظروف حرب ١٩٥٦ حيث تشير الارقام الى تطور نسبة البطالة من القوى العاملة جرى على النحو التالي : ٤ر٦٪ ، ٢ر٧٪ ، ٣ر٧ ، ٨ر٥٪ ، في الاعوام ١٩٥٥ ، ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ ، ١٩٥٨ (١٨) · اي انها بقدر ما كانت مرتفعة في عام ١٩٥٦ (الذي نشبت الحرب في اواخره) فانها حققت انخفاضا ملحوظا في عام ١٩٥٨ بعد ان اتت الحرب اكلها في ازدهار ميناء ايلات ومنطقة الجنوب بعد فتح خليج العقبة امام الملاحة الاسرائيلية ·

وسر ذلك يكمن ، عموما ، في ان الحرب تؤدي الى نمو الانتاج الصناعي وبالتالي اجمالي الناتج القومي ، مما يخلق طلبا على العمالة ، كما يمتص المجهود الحربي نسبة هامة من المعروض منها ، علاوة على الاعداد الهامة التي تستخدمهم الصناعات الحربية والطيران ·

وبالطبع لا نتصور ان هذا العامل ـ معدلات البطالة ـ يغرب عن بال الحكومة الاسرائيلية عند مناقشة الاوضاع الامنية والاستراتيجية المحيطة بالبلاد · فمن المعروف ان تزايد اعداد العاطلين يفجر التناقضات الاجتماعية والاضرابات العمالية بما يستتبع ذلك من تعطيل التكامل الاجتماعي بين مختلف الجنسيات ، بل وزيادة موجات الهجرة النازحة خارج فلسطين الامر الذي يهدد الكيان الاسرائيلي ذاته ·

(٥) **تزايد العجز المالي** : لا اظن ان هناك عاملا يعادل عامل تزايد العجز المالي وبالتالي مدى تدفق رؤوس الاموال الاجنبية ، وبخاصة الهبات والتبرعات من الجاليات اليهودية في الخارج ، من حيث تأثيره على تأرجح القيادة الاسرائيلية بين خيار الحرب والتوتر وبين خيار السلم والانفراج ·

اذ من المشاهد ان المنح والمساعدات الاجنبية والقروض يزداد تدفقها على الدولة الصهيونية في ظروف الحرب والتوتر ، وقد بلغ اجمالي هذه التدفقات نحو ٥ر١٣ بليون دولار خلال الخمس وعشرين سنة الماضية من حياة اسرائيل · ويلفت الانتباه ان سندات اسرائيل ، مثلا ، تزداد مبيعاتها في الخارج في اوقات الحرب وظروف

التوتر التي تصاحبها كما يتبين من الجدول التالي لسنوات مختارة (١٩) :

السنة	اجمالي المبيعات (بالمليون دولار)
١٩٥٥	٥ر٤٣
١٩٥٦	٥ر٥٤
١٩٥٧	٨ر٤٩
١٩٦٦	٩ر٩٠
١٩٦٧	٥ر٢١٧
١٩٦٨	٥ر١٣٠

ويصور الجدول كيف يقفز رقم المبيعات في عام الحرب عن رقم مبيعات العـــام السابق واللاحق على حد سواء ٠

ولكن العلاقة الجدلية بين العجز المالي وبين ظاهرة الحرب تكشف جانبا اخر من الصورة ٠ لانه اذا كان شن الحرب يكون منفذاً للسلطات الاسرائيلية للخروج من مأزق العجز المالي المتزايد وذلك بجذب المزيد من رؤوس الاموال والهبات ، فان نشـــوب الحرب ، وبالتالي تزايد حجم الانفاق العسكري الذي اصبح يمثل اكثر من ثلث اجمالي الناتج القومي ، بل ويزيد عن ٩٠٪ من حصيلة الضرائب الاسرائيلية ، يؤدي بدوره الى تزايد العجز المالي ٠ اذ يتمخض عن ارتفاع واردات العتاد والســـلاح استمرار تزايد العجز في ميزان المدفوعات الاسرائيلي ، وفضلا عن ذلك فان توفيـر موارد للانفاق العسكري المتزايد ـ وهو قرار سياسي ـ من خلال فرض ضرائب ترفع اسعار السلع ينعكس في زيادة معدلات التضخم وهي احدى المشاكل التـــي يعاني منها الاقتصاد الاسرائيلي ٠ وتتشابك وتتصل خيوط المشاكل التي تشكل نسيج الازمة الاقتصادية ٠٠ فالتضخم يرفع اسعار صادرات اسرائيل ، ويضعف قدرتهـا التنافسية في الاسواق العالمية ، ويقلل بالتالي صادراتها للعالم الخارجي بينما ترتفع وارداتها ، مما يزيد العجز في ميزان المدفوعات ، وازاء تزايد العجز تقل القدرة الاستيعابية ، ومعها تتضاءل رؤوس الاموال الاجنبية الباحثة عن الاستثمار المربح ، مثلا في عام ١٩٧٤ انخفضت رؤوس الاموال بنسبة ٤٥٪ عما كانت عليه قبل حرب اكتوبر (٢٠) ٠

(٦) **انخفاض معدل النمو الاقتصادي** : تكتنف بحث العلاقة بين التغير في معدل النمو الاقتصادي وتفضيل القيادة الاسرائيلية جو الحرب والتوتر صعاب عديدة اهمها وجود فجوة زمنية بين حدوث التغير في معدل النمو ذاته وبين امكانية قياس هــذا التغير، الامر الذي يجعل محاولة الكشف عن هذه العلاقة ضربا من التنجيم والتخمين٠ ولكن مع ذلك فان قراءة ارقام معدل النمو الاقتصادي السنوي في فترات مختارة يظهر على الوجه التالي (٢١) :

السنة	نسبة نمو اجمالي الناتج القومي
١٩٥٥	٩ر١٢٪
١٩٥٦	٢ر٩٪
١٩٥٧	٦ر٨٪
١٩٦٦	١ر١٪
١٩٦٧	٢ر٢٪
١٩٦٨	٩ر١٤٪

ومن هذه الارقام يتضح انه في حين يتجه فيها معدل النمو الاقتصادي الى الهبوط عن المتوسط السنوي لمعدل النمو الاقتصادي في اسرائيل خلال العشرين سنة الاولى

من عمرها (وهو ٣ر٩٪) ، وهي هنا السنوات ١٩٥٦ ، ٦٦ ـ ١٩٦٧ ، فان النذر عادة ما كانت تنبيء عن حرب وشيكة • كما ان اتجاه هذا المعدل الى الانخفاض في السنوات التالية وهي ١٩٥٧ . والنصف الثاني من عام ١٩٦٧ اي اعوام النقاهة من الحرب . فانه كان دلالة على تخصيص جانب هام من الموارد الاقتصادية لاغراض الجهود الحربي وتعويض ما دمرته الحرب •

في ضوء ذلك يثور التساؤل هل يمكن التنبؤ مستقبلا بمدى جنوح المجتمع الاسرائيلي الى شن حرب عدوانية علىالدول العربية في ضوء الاحتمالات المتوقعة لمعدل نمو الناتج القومي ؟

بمزيد من الحذر نستطيع القول ان ذلك قد يكون ممكنا في اطار ادوات التحليل المتاحة ، مثلا تتوقع اللجنة الوزارية معدلا للنمو يقدر بنحو ٥ر٧٪ سنويا خلال الفترة ٧١ـ١٩٨٠ ، في حين يتوقع الاقتصادي الاسرائيلي سرونو معدلا للنمو بنحو ٢ر٧٪ سنويا خلال الفترة ٧٥ـ١٩٨٠ (٢٢) • معنى ذلك ان الحرب الخامسة قد تشنها اسرائيل خلال السنوات الخمس القادمة اذا هبط معدل النمو الاقتصادي الاسرائيلي عن المتوسط المتوقع وهو نحو ٢ر٧٪ ، بشرط ان تكون العوامل الاخرى اقتصادية وغير اقتصادية في صالح هذا التوجه •

رابعا : اولوية العوامل الاقتصادية : قد يثور تساؤل اخر •• ما هي الحالة المثالية التي يمكن ان نفترضها لكي تولد العوامل الاقتصادية المذكورة سلفا تأثيرها الضاغط من اجل قرار الحرب ؟

انها ـ نظريا ـ تلك الحالة التي تتضافر فيها العوامل الستة السابقة ويكون صافي تأثيرها جميعا بالسلب على الاقتصاد الاسرائيلي • بمعنى ان يتزاوج ضيق الرقعة الجغرافية (والافتقار الى الموارد) بتدهور الهجرة، وهبوط الصادرات، وزيادة البطالة، وزيادة العجز المالي (مصحوبا بتناقض تدفق رأس المال الاجنبي) بانخفاض معدل النمو الاقتصادي • ان مثل هذه الازمة الخانقة التي يمكن ان تأخذ بتلابيب الاقتصاد الاسرائيلي تدفع النظام الحاكم حتما في طريق الحرب من هذا المأزق •

معنى ذلك اننا اذا قبلنا بمقولة ان الصراع العربي ـ الاسرائيلي سوف يجنح الى التنافس الاقتصادي ، الى جانب الصدام العسكري ، في اطار احتمالات المستقبل ، فان فاعلية الاقتصاد العربي المتزايدة يمكن ان تضع في يد الامة العربية اسلحة اقتصادية تنزل بالاقتصاد الاسرائيلي ابلغ الخسائر • وهذه النتائج الوخيمة قد تدفع النظام الاسرائيلي الى طريق الحرب مرة اخرى • وهكذا تبدو الحرب العربية الاسرائيلية الخامسة وكأنها عند اقرب منحنى في الطريق •

ومع ذلك فانه يتعذر القول بأن ايا من هذه العوامل يمكن اعتباره العامل الوحيد المؤثر في قرار الحرب . اذ لا بد من تفاعل هذه العوامل مع بعضها البعض ثم مع بقية العوامل غير الاقتصادية ، ليثمر هذا التفاعل في النهاية قرارا سياسيا في اتجاه ما • الا انه يمكن ان نجري قدرا من الترتيب الداخلي في الاولوية بين هذه العوامل ذاتها ، حيث نجد على رأسها جميعا عامل ضيق الرقعة الجغرافية الذي تعتبره اسرائيل بمثابة مؤشر حياتها وترمومتر وجودها فاذا تقلص تهدد حياتها الخطر ، واذا تمدد نعمت بأسباب البقاء •

هذا ونستطيع ان نرتب تسلسل الاهمية بين هذه العوامل على هدى الاهداف الحيوية للاستراتيجية الصهيونية، وطالما كانت اهداف السياسة الخارجية الاسرائيلية

تتمحور حول الحصول على اقرار للوضع الراهن والحصول على المساعدة الاقتصادية لتحقيق الاكتفاء الذاتي والتغلب على المعوقات العربية مثل المقاطعة وحظر الملاحة ، وكذا الوقوف في وجه عودة الكيان السياسي لفلسطين ، فان نظرية الامن الاسرائيلي ارتكزت على الارض والقوة البشرية والحدود الامنة والتفوق العسكري ٠ والواقع ان الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية تتصف بظاهرة هامة ، ذلك انها لا تظهر من نواياها الا ما يحدد الهدف القريب وحده ، بحيث لا يعبر عن الهدف التالي لهذا الهدف القريب ٠ وهي بذلك توهم الرأي العام العالمي ، كما توحي الى خصومها بأن مطامعها جد محدودة ومعقولة ٠ وقد حدد البعض اهم اغراض الاستراتيجية العسكرية في العشرة الاتية : الغاية القومية اي اعادة تكوين دولة اسرائيل القديمة بأوضاعها التاريخية ، تأكيد الوجود الاسرائيلي وامنه ، حماية القاعدة الاقتصادية وانمائها ، حماية القاعدة البشرية وتوسيعها ، التوسع ومجال المناورة، منع العرب من القتال ، منع العرب من الوحدة ، منع حرب التحرير الشعبية ، توازن القوى ، وعقد الصلح (٢٣) ٠

ان محاولة تصوير العلاقة بين كل واحد من العوامل الاقتصادية الستة وكل من الاهداف العشرة للاستراتيجية الاسرائيلية ، على النحو الوارد في الجدول التالي ، تسفر عن ان عامل ضيق الرقعة الجغرافية يؤثر سلبا على تسعة من هذه الاهداف ، يليه تدهور الهجرة (يؤثر على ثمانية اهداف) ، ثم هبوط الصادرات (خمسة اهداف)، تليها زيادة البطالة ، وزيادة العجز المالي ثم انخفاض معدل النمو الاقتصادي ٠

العلاقة بين العوامل الاقتصادية والاهداف الاستراتيجية

الاهداف الاستراتيجية / العوامل الاقتصادية	الغاية القومية	الوجود الاسرائيلي	القاعدة الاقتصادية	القاعدة البشرية	التوسع والمناورة	منع العرب عن القتال	منع الوحدة العربية	منع حرب التحرير	توازن القوى	عقد الصلح
١ ـ ضيق الرقعة الجغرافية	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	
٢ ـ تدهور الهجرة	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ		
٣ ـ هبوط الصادرات	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ					
٤ زيادة البطالة	ـ	ـ	ـ	ـ						
٥ ـ تزايد العجز المالي	ـ	ـ	ـ	ـ						
٦ ـ انخفاض النمو الاقتصادي	ـ	ـ	ـ							

ولكن هذا الترتيب لا يعني جمود الاولويات ، فقد يجد من الظروف السياسية والدولية ما يدفع بأحد هذه العوامل الى مركز الصدارة ٠

خامسا : الوزن المرتقب للعوامل الاقتصادية مستقبلا : سبق ان نوهنا بأن العرض الحالي لا يبتغي التأكيد على ان العوامل الاقتصادية هي العوامل الوحيدة او العليا التي تلعب دورها على الساحة عند صنع قرار الحرب الاسرائيلي ، فان ذلك ابعد ما يكون عن ذهننا ، وانما نستهدف فقط التبسيط بغرض التحليل والفهم لجانب من

هذه المؤثرات · اذ لا جدال في ان العوامل الكثيرة الكامنة وراء مثل هذا القرار هي جد معقدة ومتشابكة لدرجة تستعصي على العقل الفردي الذي قد يسعى للاحاطة او الالمام بها · ولكن لا يخالجنا شك في ان هذه العوامل على كثرتها تخضع للبحث والتحليل من جانب القيادة الاسرائيلية وذلك عن طريق الاستعانة بالتطور العلمي الجاري في اتخاذ القرار باستخدام الحاسبات الالكترونية وبحوث العمليات (معهد حيفا التكنولوجي) والاساليب الرياضية لتحسين التخطيط والبرمجة وغيرها من العمليات الادارية (٢٤) ·

ومهما يكن من امر ، فان من المنتظر تصاعد تأثير العوامل الاقتصادية الذي يأخذها صانع السياسة العامة في اسرائيل في حسبانه تحت ضغط مجموعة من المتغيرات اهمها :

أ ـ تزايد اهمية القيود الواردة على تجدد الانفجار العسكري للصراع العربي ـ الاسرائيلي والتي من بينها مناخ الانفراج في العلاقات الدولية وبالتالي وقوف القوتين الاعظم في وجه تجدد الصراع العسكري او اتساع نطاقه · فضلاً عن نمو اتجاه لدى طرفي الصراع (العرب والاسرائيليين) يدعو الى نبذ الحرب وينادي بفكرة التعايش (٢٥)

ب ـ سيظل الامن العسكري للوجود الاسرائيلي هو الهدف الاسمى للاستراتيجية الصهيونية ولكن في ضوء المتغيرات الدولية والاقليمية سيتسع مفهومه ليشمل الامن الاقتصادي ·

جـ ـ تعدد القنوات الجديدة التي سيسلكها الصراع العربي الاسرائيلي مثل التنافس الاقتصادي والحرب الباردة والسباق نحو احراز التفوق العلمي والتكنولوجي والثقافي وغير ذلك من صور التقدم الحضاري ·

د ـ تصاعد الضغوط الاقتصادية داخل اسرائيل بفعل التطور الاجتماعي وازدياد حدة الصراعات الطبقية والاضرابات العمالية ·

هـ ـ نمو تأثير القوة الاقتصادية المتزايدة للعالم العربي ·

وهكذا يتبين من التحليل السابق ان العلاقة بين المتغيرات الاقتصادية وظاهرة الحرب علاقة جد معقدة ومركبة لاكثر من سبب · السبب الاول ان هذه العوامل الاقتصادية ذات طبيعة مزدوجة بمعنى انها قد تكون السبب والنتيجة في آن واحد ، فقد يحمل ضيق الرقعة الجغرافية (النسبي في نظر الاطماع الصهيونية) القيادة الاسرائيلية على التحمس لشن الحرب ، وقد يكون التغلب على مشكلة ضيق الرقعة الجغرافية نتيجة تتمخض عن شن حرب عدوانية توسعية ، وهكذا الحال مع بقية العوامل : الهجرة ، الصادرات ، البطالة ، العجز المالي وانخفاض معدل النمو الاقتصادي ·

والسبب الثاني في تعقد هذه العلاقة الجدلية بين المتغيرات الاقتصادية بين ظاهرة الحرب ان هذه الاخيرة ـ الحرب ـ ينطبق عليها في حد ذاتها وصف انها «سلاح ذو حدين» بمعنى ان التمادي في استخدامها زيادة عن نقطة معينة قد يأتي بنتائج عكسية · فاستمرار الحرب ، فضلاً عن ان احتمال الهزيمة قد يسفر عن تقلص السيطرة الاسرائيلية على المناطق التي تحتلها يؤدي الى استنزاف موارد اسرائيل · كما ان استمرار الحرب قد يؤدي الى توقف الصادرات وتوقف الهجرة بل وزيادة الهجرة النازحة ، وايضا تردد استثمارات رأس المال الاجنبي عن القدوم الى اسرائيل ، علاوة على زيادة العجز المالي وانخفاض النمو الاقتصادي ·

خلاصة القول ان العوامل الاقتصادية تلعب دورها على النمو المسيطر الـــذي لاحظناه في اطار الاستراتيجية الاسرائيلية الشاملة التي تقوم على فكرة الحـــرب الصاعقة او الخاطفة • اما اذا تحالفت المتغيرات الاقليمية (في العالم العربي بالدرجة الاولى) والدولية لاحباط هذه الاستراتيجية وبالاخص اذا تركزت الجهود العربيـــة لاطالة امد الحرب اذا نشبت ، فان جل العوامل الاقتصادية ، ان لم تكـن كلهـا ، سوف تفرز آثارها السلبية على الاقتصاد الاسرائيلي • وهذا التطور من شأنه ان يلقي بظلال من الشك على سلامة اتخاذ القرار الاسرائيلي بالتوجه نحو الحـــرب مستقبلا •

---

١ ـ Hardwick & Landuyt; **Administrative Strategy and Decision Making,** (Bombay, 1970), pp. 480- 481.

٢ ـ Herbert A. Simon, **The New Science of Management Decision,** (New York, 1966), pp. 1-3.

٣ ـ هيثم الكيلاني ، **المذهـب العسكـري الإسرائيلي** ، (كتب فلسطينية ـ مركـــز الابحاث ـ تموز « يوليـــو » ١٩٦٩) ، ص ٢٧٢ •

٤ ـ Ernest Stock, **Israel On The Road To Sinai 1949 - 1956,** (New York 1967), p. 91.

٥ ـ بهذه المناسبة قارن مع ظروف القـرار المصري بالحرب ، حين أبلغ الرئيس انور السادات مجلس الامن القومي المصـري في أول اكتـوبر ١٩٧٣ ان الاقتصـــــاد المصري وصل الى مرحلة الصفر ـ وأن هذا كان أدعى الى شن الحرب • خطبـة الرئيس انور السادات في عيـد العمال ، **الاهرام** ، مايو ١٩٧٥

٦ ـ عـدد الباحثـين نحـــو عشـــرين مصدرا لاستقـاء المعلومـات والتجسس، للتوسع راجع
Peter Hamilton, **Espoinage and Subversion in an Industrial Society,** (London, 1969), pp. 222-223.

٧ ـ Dror, Public Policy Making Reexamined, Reviewed by Moshe Weiss in, « **Public Administration in Israel and Abroad 1970**», Jerusalem, 1971, pp. 186-187.

٨ ـ راجعها ورد في تقرير لجنـة اجرانـات عن الغموض في توزيع الصلاحيات وعن النقص في تحديد العلاقات المتبادلة بـين القيادة السياسية والقيادة العليا للجيش الاسرائيلي ، ملحق العدد ٨ من **نشـــرة مؤسسة الدراسـات الفلسطينيـــة** ، ١٦ نيسان (أبريل) ١٩٧٤ ، ص ٢٤٩ •

٩ ـ Ervin Brinbaum, **The Politics of Compromise : State and Religion in Israel,** New Jersey, 1970, p. 89.

١٠ ـ عبد القادر ياسين ، القرار السياسـي الاسرائيلي ابان حكـــم مئير ،**شـــؤون فلسطينية** ، العدد ٣٧ ، أيلول (سبتمبر) ١٩٧٤ ، ص ١١٥ ـ ١١٦ •

١١ هيثم الكيلاني ، **المـذهب العسكـري الاسرائيلي** ، مرجع سابق ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ •

١٢ ـ Stock, **Israel On The Road To Sinai,** o.p. cit, p. 212.

١٣ ـ Ibrahim Oweiss, **The Israel Economy a War Economy,** Geargetown University - Washington, D.C., 1974, p. 41.

١٤ ـ راجع عرض السيد عليوه لكتاب د • ابراهيم عويس ، الاقتصاد الاسرائيلـــي اقتصاد حرب ، السابق ذكره ، **الاهـرام الاقتصـــادي** ، ١٥ أبريل ١٩٧٥ ، ص ٥٠ ـ ٥١ •

١٥ ــ الارقام نقلا عــن يحيــى عردوكي العلاقات الاقتصادية الخارجية لاسرائيل، (مــركز الابحــاث ــ حــزيران ١٩٧١)، ص ١٦٠ .

١٦ Eliyahu Kanovsky, The Impact of the Six Day War, Praeger, New York, 1970, p. 51.

١٧ ــ د . سلمان رشيد سلمان ، التغــيرات الاقتصادية وتأثيرها علىالصراع الطبقي والاجتماعي في اسرائيــــل ، شــؤون فلسطينية ، أيلول (سبتمبـــر) ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ .

١٨ ــ راجع الياس سعد ، اسرائيل والبطالة، مركــز الابحـــاث ، ايلـــول ١٩٦٨ ص ٥٢ ــ ٥٣ .

١٩ ــ الارقام مأخوذة عن Aemrican Jewish Year Book, 1972, Volume 73, p. 273.

٢٠ ــ انظر محمد عيسى ، الازمة الاقتصادية الاسرائيلية وقضية الحرب والســلام الاهرام أول مارس ١٩٧٥

٢١ ــ مصدر الارقام Statistical Abstract of Israel, 1972, Number 23, Central Bureau of Statistics.

٢٢ ـ Prime Minister's Office, Israel Economic Development ; Past Progress and Plan for the Future, Jerusalem 1968, tables 22 & 27.

وايضا

Bruno, M; Economic Development Problems of Israel 1970 - 1980, table 10 وايضا ١٩٧٠

٢٣ ــ انظر Stock مرجــع سابق ص ٥ . وأيضا هيثم الكيلانــي ، مــرجع سابــق ص ٢٩٦ ــ ٤١٩ ، وكذلك محمد فيصــل عبد المنعم ، نظرية الامن الاسرائيلــي بعد حرب اكتوبر في كتاب « حرب اكتوبر ــ دراسات في الجــــوانب الاجتماعيـــة والسياسية » ،مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالاهرام ١٩٧٤ .ص٧٧ـ ٧٩

٢٤ ــ انظر د . ابراهيم على احمد ، « الدور المتطور لبحوث العمليــــات فـــي النظم الدفاعية الحديثة ،،الطليعة ، القاهرة يناير ١٩٧٤ ، ص ١٣٦ ــ ١٣٨ .

٢٥ ــ للتوسع راجع

Nadv Sofran, The War and the Future of The Arab - Israeli Conflict, (Foreign Affairs, January 1974, vol. 52, No. 2), pp. 229 - 236.

ملاحظات انتقادية
حول التجارة الدولية والعربية

الدكتور عصام الزعيم*

في الوقت الذي تسلك فيه الدول المصنعة مسلكا يؤدي بها الى الاستغناء ذات يوم عن بترولنا ، يجب علينا نحن ان نعمل جماعيا للتخلص من تبعية السوق البترولية للدول المعنية وهو امر تمليه علينا متطلبات استراتيجيتنا في التنمية وضرورات امننا وتحررنا الاقتصادي .

ونتيجة لاستخدام مصادر جديدة للطاقة تدريجيا بالاضافة الى ما ينتج عن الزيادة المستمرة في قسط انتاجنا الذي سوف نخصصه لاستهلاكنا ، فان حصة البلدان المصدرة للبترول في التموين العالمي يجب ان تنخفض الى ان يجد البترول ضمن المعادلات الدولية المكانة نفسها التي تحتلها جميع البضائع الاخرى ..

من خطاب الرئيس الجزائري هواري بومدين في جلسة افتتاح مؤتمر القمة الاول لبلدان اوبيك ــ صحيفة الشعب اليومية الجزائرية عدد ١٩٧٥/٣/٥ .

رغم ما لنزعات العرض والتسعير من اهمية بالنسبة للاقتصاد العالمي فان هناك بلدانا تحتاج بصورة مطلقة بدهيا الى عدد من المواد الاولية التي لا استغناء عنها حتى عندما ينحدر النشاط الاقتصادي الى ادنى مستوياته ، فاليابان ملزم بأن يستورد ٩٩ بالمائة من نفطه ومائة بالمائة مما يستخدم من اليورانيوم والنيكل والالومين و ٩٦ بالمائة من الزنك و ٨٨ بالمائة من الحديد و ٧٦ بالمائة من النحاس . كذلك فان اوربا الغربية تستورد مجتمعة ٦٦ بالمائة من نفطها ونسبة جد عالية من امداداتها الحيوية(١) . حتى الولايات المتحدة الامريكية التي يتوفر فيها الكثير من المواد ملزمة بأن تستورد اكثر من نصف حاجاتها من قائمة متطاولة من الخامات الصناعية (٦ مواد خام أولية من اصل ١٣ مادة خام في سنة ١٩٧٠) وهي تتمون بها اساسا من العالم الثالث(٢) .

ولنذكر هنا ان المواد الاولية اللازمة للصناعات القائمة في البلدان الراسمالية موزعة بين ٢٥ بلدا من البلدان النامية حيث تملك هذه المجموعة من ٨٠ الى ٩٠ بالمائة من احتياطات العالم الراسمالي من تلك المواد .

يسعى الامبرياليون للابقاء على الشروط الدولية والداخلية لاستغلال العمال داخل بلادهم وفي البلدان الاخرى . لذلك فهم يستخدمون استخداما اقصى منجزات التقدم العلمي والتقني ، كما يجهدون لاعتماد مختلف الطرق في التنظيم وفي البرمجة الخاصة بالدولة ــ الاحتكارية ، كل ذلك بغرض رفع فعالية الانتاج وزيادة وتائر نموه وتدويله .

* استاذ التصنيع والاقتصادات العربية بجامعة الجزائر ومستشار اقتصادي لدى الادارة العامة لشركة النفط الوطنية الجزائرية . استاذ زائر بمعهد دراسة البلدان النامية بجامعة لوفان الكاثوليكية البلجيكيــة .

لقد تضاعف حجم الانتاج الصناعي للاقتصاد الرأسمالي العالمي بنحو ٩ر٥ مرات بين سنتي ١٩٢٨ و ١٩٧٣ ، ولكن التجارة الدولية ضاعفت حجمها الفيزيائي في هذه الفتره بزهاء ٦ر٦ مرات . ولقد انفردت البلدان الرأسمالية الصناعية بحصه الاسد في هذه الانطلاقه . في هذه العملية نضطلع بدور متصاعد الاشكال المختلفة للدمج الاقتصادي الراسمالي والروابط الاحتكارية الدوليه التي تركز في حوزتها حصة مرموقة من طاقات العالم الرأسمالي الحالي الاقتصاديه(٣) .

وهكذا تستمر البلدان الرأسماليه المتطوره صناعيا في احتلال مراكز حاسمة في علاقات العالم الرأسمالي الاقتصادية ، فقد رفعت تلك البلدان حصتها في الصادرات الرأسمالية العالمية من ٦٦ بالمائة في سنة ١٩٥٠ الى ٧٦ بالمائة في سنة ١٩٧٣(٤) .

خلال العقدين الاخيرين الماضيين فاق معدل نمو التجارة الدولية بما يقرب من ٥٠ بالمائة معدل نمو الانتاج الصناعي للعالم الرأسمالي ، الامر الذي يؤكد ظاهرة التوسع الخارجي والتدويل . ولم تتوقف عن النمو حصة المنتوج الوطني الخام المستثمر في السوق الرأسمالية الدولية بحيث انها بلغت ١٣ بالمائة في نهاية الستينات . واذا قارنا قيمة الصادرات باسهام فروع الانتاج المادي مباشرة في المبادلات التجارية الدولية لوجدنا ان ما يقرب من ٢٦ بالمائة من السلع موجهة الى اسواق التصدير(٥) .

يتواصل الدور الاول للتجارة الدولية وذلك على الرغم من تطور الصيغ الاخرى للعلاقات الاقتصادية بوتائر أسرع من وتيرة نموها . مع نهاية العقد الماضي ودخول العقد الحالي كانت التجارة الدولية تستأثر بزهاء ثلاثة ارباع القيمة الاجمالية للمبادلات الاقتصادية العالمية . ويكفي القول ان قيمة صادرات البلدان الرأسمالية قد ارتفعت من ٥٧ مليار دولار امريكي في عام ١٩٤٩ الى ٥٠٩ مليارات في عام ١٩٧٣ اي انها تضاعفت بأكثر من ٨ر٨ مرات(٦) .

وبالمقابل عززت **البلدان الاشتراكية** مساهمتها الاجمالية في الانتاج الصناعي العالمي ، اذ بينما انتجت مجتمعة ما يقرب من خمس هذا الانتاج في مطلع الخمسينات انتجت خمسي هذا الانتاج في مطلع السبعينات(٧) .

واليوم تتحكم **الشركات متعددات الجنسية** بصورة مباشرة او غير مباشرة بما يناهز نصف التجارة العالمية للبلدان الرأسمالية . لقد نظمت هذه الشركات جهازها الانتاجي والتسويقي على امتداد بلدان جديدة ولكنها جعلت ادارتها ممركزة . والحق أن المجمعات الاحتكارية الدولية تقرر احكام الاستيراد والتصدير وتتدخل في تكون الاسعار في السوق الرأسمالية الدولية وتؤثر في التجارة الخارجية لبلدان عديدة سواء من حيث الحجم والتركيب السلعي او من حيث التوزع الجغرافي(٨) .

واذ تستغل الاحتكارات الدولية موارد البلدان المتخلفة فانها تضمن لنفسها ارباحا هائلة . وتقدر حصة المؤسسات المنتمية الى الاحتكارات الكبرى او الخاضعة لسيطرتها بنسبة ٤٠ بالمائة من صادرات تلك البلدان ، ونحن نعلم بأنه عندما تكون الاحتكارات مؤسسات متعددة الجنسيات فانها تأسر تجارة البلدان التي تتمركز فيها فروعها المتكاملة المختلفة في قنوات تجارتها المقفلة الاحتكارية الدولية .

وثمة مسألة هامة يلفت نظرنا اليها خبراء من هيئة الامم المتحدة وهي : « أن الاحتكارات لا تكتفي بالاستئثار بدور مهيمن في تصدير منتجات الصناعات الاستخراجية للدول الفتية بل هي تسعى لزيادة حصتها في صادرات هذه البلدان من السلع النهائية ايضا »(٩) .

« ان التجارة الخارجية للدول الرأسمالية جهاز هائل يمتص الموارد المادية التي يوفرها شغيلة بلدان اسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، ليملأ خزائن الاحتكارات الاجنبية .. »(١٠).

وما البلدان السائرة في طريق النمو الا محقة في قلقها الجدي من وضع علاقاتها الاقتصادية الراهن مع البلدان الرأسمالية . ذلك ان التجارة الخارجية للبلدان النامية تنمو نموا بطيئا ، وبينما ضاعفت البلدان الراسمالية قيمة صادراتها ست مرات في غضون عشرين عاما لم تضاعف البلدان النامية صادراتها الا اربع مرات . وفضلا عن ذلك فقد انخفضت حصة هذه البلدان الاخيرة في التجارة العالمية الراسمالية في الفترة المأخوذة من ٣٤ بالمائة الى ٢٠ بالمائة . ويصطدم التوسع في الصادرات بعقبات سياسية وتجارية قائمة على التمييز التعسفي يفرضها العالم الراسمالي باستمرار عليها(١١).

ليس النضال لتقويم اسعار المواد الاولية ولوقف التدهور في قيم التبادل بقضية تعني البلدان المصدرة للنفط دون سواها من بلدان « العالم الثالث » . ان البلدان المصدرة للسلع الخام والاولية المستخدمة في الصناعات الرأسمالية هي جميعا ضحايا التبادل غير المتكافىء . وفعلا فقد **تفارقت حركية اسعار المواد الاولية وحركية أسعار المنتجات الصناعية خلال العشرين سنة الماضية ، فاسعار المواد الاساسية المعدة للتصدير لم تزد اجمالا الا زيادة طفيفة بين عامي ١٩٥٠ و ١٩٧٠ بينما سجلت اسعار المنتجات النهائية ارتفاعات تراوحت بين ٢٥ و ٣٠ بالمائة .**

بين أول كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥ و ٣٠ ايار (مايو) ١٩٧٥ انخفضت أسعار المواد الاساسية بنسبة ١٧ بالمائة . هذا ما صرح به السيد سينج رئيس اللجنة الثامنة لمؤتمر الامم المتحدة للتنمية والتجارة وهي اللجنة المكلفة بالمواد الاساسية .

غير ان البلدان المتخلفة المنتجة للمواد الاولية المستخدمة في الصناعة الراسمالية الدولية تتأهب لاسترداد المبادرة دفاعا عن مصالحها الحيوية وذلك برفع اسعار تلك المواد مجددا وفعلا فان فترة الانخفاض الشديد في هذه الاسعار عقب ارتفاعها اللاهب في ربيع ١٩٧٤ قد انتهت لتبدأ هذه الاسعار بالارتفاع ارتفاعا خفيفا حتى الان . وفي هذا الاطار ندرج الجولة المقبلة في خريف ١٩٧٥ من معركة البلدان المصدرة للبترول من اجل رفع الاسعار الاسمية لنفطها بعد ان أتى التآكل النقدي والتضخم على ما يزيد على ثلث قيمتها الشرائية الحقيقية منذ بداية هذه السنة .

ولنذكر هنا ان المواد الاولية اللازمة للصناعات القائمة في البلدان الرأسمالية موزعة بين ٢٥ بلدا من البلدان النامية حيث تملك هذه المجموعة من ٨٠ الى ٩٠ بالمائة من احتياطات العالم الرأسمالي من تلك المواد .

وبالمقابل يلاحظ رئيس صندوق « الاحتياط الفيديرالي » للولايات المتحدة بأن **« أسعار البيع التي تطبقها الصناعات في فترة الانكماش الذي أوصل النشاط الاقتصادي الى الحضيض لم تنزل خلافا لما تقول به قوانين الاقتصاد الليبرالي . لا بل بالعكس لقد زادت هذه الاسعار عما كانت عليه وذلك بسبب تمسك المنتجين تمسكا مطلقا بالمحافظة على معدلات ارباحهم »** . وما يقول المسؤول الاميركي عن الاحتكارات الصناعية الاميركية يصح بداهة على الاحتكارات الاوروبية الغربية واليابانية وذلك لان قانون الربح باقتطاع القيمة الفائضة من المنتجين الحقيقيين في المجتمعات الراسمالية يقرر سياسة تسعير السلع فيها .

« تتذبذب اوضاع العالم الثالث الاقتصادية تذبذبا وثيق الصلة بدورات الازدهار والازمة في البلدان الصناعيه ويفوق بشدته ما نعرف منه الاقتصادات الصناعية ، فحتى في غضون سنوات ازدهار الانتاج النسبي انخفضت حصة العالم الثالث في التجارة العالمية من ٢١٫٣ بالمائه في عام ١٩٦٠ الى ١٧٫٦ بالمائه في عام ١٩٧٠ . وتعتبر مشاكل حادة بالنسبة للبلدان الساعية وراء النمو الاقتصادي مشاكل كالمواد الاولية وكلفة الاستيرادات المطلوبة من الامم الصناعيه مقارنة مع ما تنال من دخل لقاء صادراتها : بكلمة اخرى نقصد هنا مشاكل معدلات التبادل . وننوه بأن معدلات التبادل هذه تكون سلبية عادة حتى في فترات صعود اسعار صادرات العالم الثالث »(١٢).

وعلى سبيل المثال نجد بان حصة الزيادات التي أدخلتها بلدان اوبيك على اسعار الخامات البترولية في خريف ونهاية سنة ١٩٧٣ لم تسهم الا بنسبة ١٫٥ بالمائة في ارتفاع الاسعار الذي شهده العالم الراسمالي والذي تراوح معدله بين ١٤ و ١٥ بالمائة في عام ١٩٧٤ . ودون الاستهانة بأهمية ارتفاع اسعار النفط نقول انه لم ينعكس الا بشكل طفيف على تطور قيم التبادل بين البلدان المصدرة للنفط والبلدان الراسمالية المستوردة . وقد سبق للامين العام لمنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية التي تضم البلدان الراسمالية بالدرجة الاولى ان صرح في العام الماضي بأنه « لو طرحنا واردات بلدان المنظمة من مجموع صادراتها لوجدنا ان منطقة بلدان المنظمة تنتج حاليا ٨٠ بالمائة من المنتجات الخام الاساسية التي تستهلكها » . أي بعبارة اخرى ان معدل ٨٠ بالمائة من ارتفاع المداخيل المترتبة على زيادة اسعار المنتجات الاساسية يرد الى عوامل تمارس فعلها في بلدان المنطقة وتميز عن ارتفاع سعر المواد الاساسية المستوردة الى منطقة بلدان المنظمة ، ذلك ان التضخم الذي تشهده تلك البلدان حدث واقع نشأ اكثر ما نشأ داخل منطقة بلدان المنظمة . ونخلص فنقول ان ٠٫٥ بالمائة من ارتفاع الاسعار يمكن ان يرد فعلا الى ما طرأ من تحسين البلدان النامية قيم التبادل عقب رفعها اسعار المواد الاساسية . ويتبين من دراسة قامت بها مؤسسة آرثر دي ليتيل الاميركية الدولية ان حصة النفط في سعر الكلفة للمنتجات (بالنسب المئوية) قد ثبتت في صناعات النسيج عند ١٫٣ بالمائة عامي ١٩٦٣ و ١٩٧٢ ثم أصبحت ٣٫٤ بالمائة خلال الفصل الاول من سنة ١٩٧٤ ، وكانت هذه النسبة ٠٫٨ بالمائة في صناعة السفن ثم نزلت قليلا الى ٠٫٧ بالمائة عام ١٩٧٢ لترتفع الى ٢٫٦ بالمائة خلال الفصل الاول من ١٩٧٤(١٣). وبالمقارنة نجد « أن أسعار المنتجات الصناعية في فرنسا قد ارتفعت بمعدل ١٤٫٩ بالمائة بين شهر نوفمبر من عام ١٩٧٣ وشهر نوفمبر من عام ١٩٧٤ . وفي قطاع السيارات تحديدا بلغ معدل ارتفاع الاسعار ١٧٫٨ بالمائة كما بلغ ١٦٫١ بالمائة في قطاع الألبسة والنسيج »(١٤).

وكما تلاحظ جويس كولكو « تخضع اقتصاديات العالم الثالث في نموها للسوق الرأسمالية العالمية . وينطبق هذا على البلدان الراسمالية الكومبرادورية مثلما ينطبق على البلدان النامية ذات الاقتصادات المتقدمة المختلطة »(١٥).

وبلد كالجزائر يصدر نحو خمسين مليونا من النفط ويفلح في رفع القيمة النوعية لصادراته (وهي البترول أساسا) كما يسعى بالمقابل من خلال تطويره وارداته قيمة مطلقة وتركيبا سلعيا بما يستجيب لمقتضيات التصنيع ، الى التوصل تدريجيا وفي المدى الطويل الى تبادل متكافيء مع البلدان الاخيرة ، نقول بلدا كالجزائر يصدر خاماته للبلدان الراسمالية بينما تحتكر دول السوق الاوربية المشتركة ٨٠ بالمائة من تجارة الجزائر الخارجية وتنال فرنسا منها ما يزيد عن ٤٠ بالمائة .

تولد ازمة فيض الانتاج انخفاضا سريعا في اسعار المواد الاولية بمعظمها . ان هذه العملية غير منتظمة وهي تتناول تارة مادة معينة وتارة اخرى مادة سواها وفي بعض الحالات تتوصل البلدان المنتجة لابطال مفعولها بفضل طرح اسعار جماعية . يصاحب هذا الانخفاض ارتفاع لاهب في اسعار القمح والالات التي تبيعها الدول الراسمالية المتطورة مما ينزل الطاقة الشرائية الفعلية للعديد من البلدان النامية ويشدد التضخم المزمن المصابة به ويزيد تفاقما نقص المواد الغذائية والمحروقات حتى وان كان الاستهلاك ما يزال متدنيا جدا من حيث مستواه(١٦) . ولكن حتى في حالة بلد مصدر مرموق للنفط كالجزائر نلاحظ بأن استيراداته من الحاصلات الزراعية الضرورية قد امتصت ما يقرب الخمسين من مدخوله من بيع النفط في سنة ١٩٧٤ .

ويشكل تطوير المبادلات التجارية مع الاقطار العربية وبالتحديد تطوير الصادرات قيمة وتنوعا الى المنطقة العربية صمام أمان لصناعات دول السوق الاوروبية المشتركة وموازينها التجارية ولمجمل اقتصاداتها في فترة الانكماش الاقتصادي الراهنة هذا الانكماش الذي يشمل العالم الراسمالي بمعظمه . ونجد هنا مثلا ان المانيا الغربية قد تمكنت برفعها قيمة صادراتها الى البلدان المصدرة للبترول المنضمة لمنظمة أوبيك بنسبة ٧٣ بالمائة في عام ١٩٧٤ من تغطية ما يقرب من نصف قيمة مستورداتها في السنة المذكورة من دول أوبيك المذكورة لا بل ان نسبة التغطية وصلت الى الثلثين خلال الربع الاخير من عام ١٩٧٤ المنقضي(١٧) .

ومرة اخرى فان ارتفاع قيمة الصادرات الغربية الى الاقطار العربية يعكس اساسا تدهور قيم التبادل اي تفاقم الطابع غير المتكافىء الذي يميز التبادل بين البلدان الراسمالية الصناعية واقطار الوطن العربي(١٨) .

كان رفع البلدان المصدرة للنفط خلال سنة ١٩٧٣ اسعار خاماتها ضربة اليمة وجهت الى سياسة العالم الراسمالي في التبادل غير المتكافىء وكبحا للتدهور الخطير في قيم التجارة الدولية . ولكن سرعان ما ردت الدول الراسمالية المتطورة بسياسة مضاعفة الغزو التجاري وبتشديد ارتفاع اسعار السلع الصناعية والخدمات التكنولوجية وباستدرار الاموال العربية . اطلقت المصالح الصناعية الكبرى ودولها الامبريالية سياستها باندفاع محموم وذلك على امتداد سنة ١٩٧٤ . ولئن جعلت هذه المصالح والدول من مشكلة العجز في موازين المدفوعات حجة مباشرة لهذا الغزو التجاري الرهيب فان من المقبول الاعتقاد بدور الازمة المستحكمة التي تأخذ بخناق الاقتصاد الراسمالي في تحريك هذه السياسة ودفعها بنشاط واستعجال .

ولنستعرض الان النتائج : بالرجوع الى احصاءات ١٩٧٤ التي نشرتها مؤخرا منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية التي تتجمع فيها دول العالم الراسمالي المختلفة نقرا بأن الاربع والعشرين دولة رأسمالية مصنعة منتمية للمنظمة قد زادت بمعدل ٧٧ بالمائة من قيمة صادراتها الى البلدان الاعضاء في منظمة اوبيك النفطية وذلك بالمقارنة مع ما كانت عليه في عام ١٩٧٣ ونتيجة لهذه الزيادة الضخمة وصلت مبيعات الدول الراسمالية المذكورة الى البلدان المصدرة للنفط لمبلغ ٢٩ مليار و ٢٥٠ مليون دولار في عام ١٩٧٤ ويتوقع ان ترتفع هذه القيمة بمقدار ٢٠ مليار دولار خلال سنة ١٩٧٥ الجارية ثم تصل الى معدل ٦٠ مليار دولار سنويا منذ اواسط عام ١٩٧٦ القادم . ولو نظرنا من الجانب الاخر نجد بأن حجم مشتريات بلدان اوبيك لم تمثل رغم قيمتها المطلقة العالية الا معدل ٥ر٥ بالمائة من مجموع صادرات البلدان أعضاء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية . ولو استبعدنا اثر الميول التضخمية تكون

مشتريات بلدان اوبيك هذه قد زادت بنسبة ٤٢ بالمائة خلال عام ١٩٧٤ . ويتوقع ان تزيد بالنسبة نفسها خلال السنة الجارية ثم تنزل بمقدار النصف خلال العام القـادم ١٩٧٦ .

وبينما ارتفعت مبيعات الدول الراسمالية الكبرى مجتمعة الى اسواق بلدان أوبيك خلال سنة ١٩٧٤ ، انخفضت بالمقابل نسبيا صادرات تلـك الـدول الى الاسـواق الخارجية الاخرى .

لكن هذه الهجمة العامة الكاسحة قد خفضت ايضا لقانون التنافس الحـاد بين الامبرياليات التجارية المتعددة وبتحليل النتائج التي احرزتها كل من هذه الامبرياليات في عام ١٩٧٤ نفسه نستطيع ان نعرف ميزان القوى فيما بينها ونتوصل لفهم تطـور الميزان التجاري لكل منها .

نستطيع ان نعرف **فداحة العجز التجاري الذي حل بالبلدان غير النفطية من بلدان العالم الثالث** خلال عام ١٩٧٤ الماضي وتواصل خلال هذه السنة الجارية ، وذلك من تقرير نشرته في الثاني من آب (اغسطس) ١٩٧٥ منظمة مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية في جنيف(١٩). يستبان من هذا التقرير ان قيمة العجز التجاري لبلدان العالم الثالث غير المصدرة للنفط قد تصل الى ٣٣ مليار دولار في سنة ١٩٧٥ بعد ان بلغـت عتبة خطرة تمثلت بمبلغ ٢٦ر١ مليار دولار في العام المنصرم (١٩٧٤) ، هذا في الوقت الذي تزحف كالسلحفاة المفاوضات الجارية بشأن التعرفـات العالمية رغم أنه قـد حددت نهاية سنة ١٩٧٥ مهلة لانجاز هذه المفاوضات التي تجري تحت اشراف منظمة المعاهدة العامة للتجارة والتعرفات GAAT .

ولنعد الى **الدول الرأسمالية الصناعية التي غزت أسواق البلدان النفطية** وحملت البلدان المتخلفة غير النفطية ما حملت من عجز فادح اشرنا قبل قليل اليه ، ولنر شأن دولتين رأسماليتين احداهما تتمتع بفائض مرموق في تجارتها الخارجية والاخرى تشكو عجزا واختلالا في ميزانها التجاري .

لو اخذنا **أولا المانيا الغربية** . نجد انها حققت فائضا بقيمة ٣ر٢٥ مليار مارك الماني في ميزانها التجاري خلال الفصل الاول من سنـة ١٩٧٤ وفائضا ايضا قيمته ٧ر١٩ مليار مارك خلال الفصل الاول من السنة الجارية ١٩٧٥ .

لنأخذ **الان ايطاليا** التي عانت ازمة حادة للغاية في ميزان مدفوعاتها خـلال النصف الاول من سنة ١٩٧٤ . في هذه الفترة نفسها وصل العجز في الميزان التجاري الايطالي الى ٢٧٧٠ مليار لير ايطالي ولكنه انخفض الى ٧١٥ مليار لير في الفصل الاول من سنة ١٩٧٥ الجارية .

١ ـ **الولايات المتحدة الاميركية** : استأثرت بصفقات بيع الى بلدان أوبيك بقيمـة ٦٧٥٠ مليون دولار اي ٢٥ر٢٣ بالمائة من جملة صادرات الدول الراسمالية الاربـع والعشرين الى اسواق تلك البلدان . لقد رفعت المصالح الاميركية قيمة صادراتهـا هذه بمعدل ٥ر٨٦ بالمائة خلال عام واحد ، وكان لتخفيض قيمة الدولار بصورة مفتعلة جزئيا على الاقل دور اكيد في هذه النتائج .

٢ ـ **اليابان** : صدر اليابان سلعا بمبلغ ٥٥٠٠ مليون دولار او ما معدله ١٩ بالمائة من صادرات هذه الزمرة من الدول الراسمالية الصناعية الى بلدان اوبيك ، وتمكـن من استرداد جل ثمن النفط المستورد في عام ١٩٧٤ .

٣ ــ **المانيا الغربية** : باعت الى بلدان اوبيك سلعا بقيمة ٤٠٠٠ مليون دولار ونالت بذلك ١٥ بالمائة من صفقات الدول الراسمالية المذكورة في اسواق البلدان النفطية .

٤ ــ **فرنسا** : رفعت مبيعاتها الى بلدان اوبيك بمعدل ٦٢٫٥ بالمائة بالمقارنة مع مبيعاتها في سنة ١٩٧٣ (بينما سجلت الصادرات الاميركية معدل ارتفاع قدره ٨٦٫٥ بالمائة كما رأينا) . والواقع ان حصة فرنسا من جملة صادرات الدول الراسمالية الصناعية الى بلدان اوبيك قد انخفضت نسبيا وكانت ١٠٫٥ بالمائة في سنة ١٩٧٤ ، بيد اننا « نجد بين الــ ١٤ دولة الاولى من زبائن فرنسا في سنة ١٩٧٤ نفسها ستة اقطار مصدرة للنفط »(٢٠).

٥ ــ **بريطانيا** : انخفضت حصتها النسبية من جملة صادرات الدول الراسمالية الصناعية الى بلدان أوبيك من ١١٫٢٥ بالمائة في سنة ١٩٧٣ الى ٩٫٢٥ بالمائة في سنة ١٩٧٤ .

ما هي حصيلة هذه الهجمة التجارية العنيفة على مجموع بلدان أوبيك من جهة وعلى الدول الراسمالية الصناعية المصدرة الى هذه البلدان ؟

وفقا لمصادر منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية التي أخذنا عنها هذه الاحصاءات والمعدلات ، يتوقع ان ينزل الفائض التجاري لمجموعة بلدان اوبيك من ٨٢ مليار دولار (٨٢٠٠٠ مليون دولار) في عام ١٩٧٤ الى ٦٠ مليار دولار في عام ١٩٧٥ الجاري والى ٥٩ مليار دولار في عام ١٩٧٦(٢١).

وبالمقابل تمكنت دول منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية وهي الدول الرأسمالية الصناعية من تخفيض عجزها الخارجي بأسرع مما كان متوقعا . لقد تم لها ذلك بغزوها التجاري أسواق بلدان أوبيك من جهة ولقاء الحاقها عجزا فادحا بالبلدان الفقيرة المتخلفة غير المنتجة للنفط . بهذه الملاحظة البليغة جاء اخر تقارير المنظمة المذكورة (عن النصف الاول من سنة ١٩٧٥) .

مغانم الصناعة الغربية من الاسواق العربية

لقد نمت تجارة المانيا الغربية مع البلاد العربية نموا مدهشا فقد زادت الصادرات الالمانية اليها بأكثر من الضعف اذ كانت قيمتها ٣٫٦ مليار مارك الالماني في سنة ١٩٧٣ فأصبحت قيمتها ٧٫٣ مليارات مارك سنة ١٩٧٤ ، وبذلك ارتفعت حصة البلاد العربية من صادرات المانيا الغربية من ٢ بالمائة في سنة ١٩٧٣ الى ٣٫٣ بالمائة في سنة ١٩٧٤.

ان أول مستهلك عربي للبضائع الالمانية هي الجزائر التي استوردت ما قيمته ١٫٢ مليار مارك في عام ١٩٧٤ مقابل ٨٠٠ مليون مارك في عام ١٩٧٣ وتتلوها ليبيا التي استوردت بمليار مارك في عام ١٩٧٤ بينما كانت قيمة استيراداتها الالمانية ٦٠٠ مليون في عام ١٩٧٣ . اما صادرات المانيا الاتحادية الى العربية السعودية فزادت بأكثر من الضعف اذ كانت قيمتها ٣٣٣٫٦ مليون مارك فأصبحت ٧٣٥ مليون مارك تتلوها سورية التي ارتفعت استيراداتها الالمانية الى ٤٥٥٫٨ مليون مارك بعد أن كانت قيمتها ٢٠٤ ملايين . كذلك زادت الصادرات الالمانية الغربية الى الكويت من ١٨٦٫١ مليون مارك الى ٤١٠٫٥ ملايين .

ونظرا لان طلبيات الاقطار العربية مستقلة بوجه العموم عن تطور الوضع الاقتصادي الراسمالي في الظرف الدولي الراهن فانها قد جنبت باعتراف مصادر المانية انهيار التجارة الخارجية الالمانية سيما عندما نلاحظ ان تراجع الصادرات الالمانية

الغربية قد فاق في الفصل الاول من سنة ١٩٧٥ الجـارية المعـدل العـام لانخفاض صادرات البلدان الراسمالية الصناعية مجتمعة بالمقارنة مع ما كانت عليه في الفصل الاخير من سنة ١٩٧٤ الماضية اذ بينما انخفضت صادرات العالم الرأسمالية بنسبة ٧ر٤ بالمائة كان معدل انخفـاض صادرات المانيا الغربية تخصيصا ٧ بالمائة وذلـك بالاستناد الى وثائق مصرف النقد الدولي .

الهجمة البريطانية على الاقتصادات العربية

ان احتدام الازمة الراسمالية العميقة وشمولهـا في بريطانيـا قد حفزا المصالـح الانكليزية الخاصة والحكومية على التوسع النشيط في أسواق المنطقة العربية والدول المصدرة للبترول .

وتراجعت بريطانيا عن سياستها في اعطاء الاولوية في علاقاتها الاقتصادية المتوسطية لاسرائيل نتيجة المقاطعة العربية المتطورة وبغية التغلغل في الاسواق العربية . وفعلا فقد افلحت المصالح البريطانية في جعل بريطانيا ثاني الدول المولـة للعراق (بعـد الاتحاد السوفياتي) . اما في المملكة العربية فقد اقامت لجنة مشتركة بريطانيـة — سعودية لصياغة اتفاق لمقايضة النفط بالسلع البريطانية واخرى موازنة لهـا لتطوير المبادلات التجارية . وفي دبي نالت شركة سميلتر كونستركشن Smelter Construction صفقـة بقيمـة مائتي مليون جنيه استرليني لاقـامة مصفـاة اضافيـة للنفـط في دبي ، علما بأن شركات كوستين Costain (التي ابتاع الكويتيون ٥ر٢٠ بالمائة من اسهمها في العام الماضي) وتايلور — وودرو الاميركية تقوم بانشاء حوض جـاف لصيانة السفن وبنائها بقيمة ٩١ مليون جنيه استرليني بالاضافة الى انشاء مجمع ضخم للمعارض التجارية والدعائية بمبلغ ٥٦ مليون جنيه استرليني(٢٢) . وفي البحرين تـم انشاء مصنع شركة البا المختلطة ومتعددة الجنسيات لتنقية خام الالومينيوم (البوكسيت المستورد من اوستراليا) وذلك بتدخل مصالح غربية منها مؤسسات ويمبي Wimpey وجون براون John Brown وسيليكشن تـرست Selection Trust ومؤسسـة التنجيم المالية Mining Finance House وهي مصالح صناعية ومالية بريطـانية الجنسية . كذلك باعت بريطانيا اسلحة متنوعه للاقطار العربية مؤخرا ونلاحظ هنـا ان هذا التغلغل الشديد في الاسواق التصريفية العربية يرتبط بعملية تصنيعيـة تلاحظ بشدة في مملكات وامارات الخليج (العربية) وايران ولكن ايضا في مصر حيث سيقيم البريطانيون مصنعا لتجميع السيارات ومثله قد ينشئون في لبنان ونحن نحيل القارىء هنا الى افلاس عدة شركات لانتاج السيارات في بريطانيا وتعويـم بعضها بأمـوال الخزينة البريطانية كتأميم الدولة ٧٨ بالمائة من شركة بريتيش ليلانـد للسيارات(٢٣) وحيازتها بذلك على نسبة ٩٠ بالمائة من اسهمها .

لم تستطع **الامبريالية الرأسمالية الايطالية** ان تتوسع كثيرا وان تتغلغل بالعمق في المنطقة العربية . لذلك لم يتأصل فيها تيار منظم متواصـل لغزو المـوارد الطبيعيـة والاسواق العربية ، وحتى المواقع الوحيدة التي انتزعتها بقوة في ليبيا تقوضت بعـد هزيمة الفاشية وهجمة الشركات البترولية الانكلو سكسونية وتدابير السلطة الوطنية الجمهورية بعد فاتح ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ . ونذكر هنا بأن تصفية فاتيي في ظروف غامضة مشبوهة قد عطلت تاريخيا محاولته الاستقلالية وسياسته النشيطة في التغلغل في الاقطار النفطية (المتوسطية خاصة) . وهكذا عادت السياسة النفطية الايطاليـة بقوة الى حظيرة التبعية الاطلسية والاميركية ، ونتيجة لغياب تيار استقلالي قيـادي عن الساحة السياسية والاقتصادية الايطالية لم تستطع الراسماليـة الايطـالية ان

تستغل هزيمة الامبرياليتين الفرنسية والبريطانية في العقدين الخامس والسادس ثم تراجع الامبريالية الامركيه النسبي وخاصه بعد سنة ١٩٦٧ لتقتحم الاسواق العربية كما فعلت فرنسا الديغولية . على أن ايطاليا احتفظت حتى الان بالمرتبة الاولى بين الدول المصدرة للحاصلات الزراعيه الى ليبيا .

وجملة القول أن حصيلة التغلغل الايطالي في الاقطار العربية ضامرة وهي في راي بعض المعلقين الطليان ادنى بكثير مما نملك ايطاليا من طاقات(٢٤)، حيث لم تمثل الصادرات الايطالية الى بلاد الشرق الاوسط الا ٦ أو ٧ بالمائة من مجموع مبيعات ايطاليا الى البلدان الاجنبية في سنة ١٩٧٤ .

في هذا الاطار تدرج المبادرات العديدة المتلاحقة التي اخذتها الاوساط الايطالية لاقامة الحوار مع الدوائر السياسية والاقتصادية والفكرية المهيمنة في الاقطار العربية . وثمة معاهد عديدة في مدن ايطالية مختلفة يتعاون من خلالها ممثلو الفكر والجامعات وممثلو المصالح الصناعية والتجارية والمالية الايطالية الخاصة منها وتلك التابعة للقطاع العام وهو قطاع فائق الوزن والاهمية في الحياة الاقتصادية والسياسية في ايطاليا اليوم .

ومنذ رفع أسعار النفط الخام ركزت المصالح الايطالية هجومها على قطاعات البناء والهيكل الارتكازي والمشاريع البينية . لقد حصلت في العربية السعودية على عقد لبناء مائة ألف شقة سكنية في غضون خمس سنوات والتزمت ببناء وحدات عملاقة لتحلية مياه البحر وراحت تنظم دورات تدريبية للفنيين العرب وتصوغ اساليب حاذقة للتغلغل صناعيا وتجاريا في اقتصاد الاقطار العربية . وتشكل مشروعات التكرير والبتروكيمياء ميدانا هاما لتدخل هذه المصالح وذلك بالاضافة الى مشروعات استصلاح الاراضي وتطوير الزراعة والنضال ضد تلوث البيئة . وتتميز الهجمة المتنامية للمصالح الايطالية بتضافر القطاعين الخاص والعام فيها ودور الشركات المتفرعة عن مجموعة ايني النفطية ــ البتروكيميائية العملاقة في هذه الغزوة .

تجارة العالم الثالث مع الاتحاد السوفياتي

ولا بد لنا من أن نتوقف هنا قليلا عند **تطور التجارة بين الاتحاد السوفياتي والبلدان السائرة في طريق النمو وخاصة منها الاقطار العربية** . لقد ارتفعت قيمة الواردات السوفياتية من البلدان المتخلفة من ٤٨١ مليون روبل سوفياتي في سنة ١٩٦٠ الى ١٧٣٥ مليون روبل في سنة ١٩٧٣(٢٥) وفي الوقت نفسه انخفضت حصة تلك البلدان في الصادرات الرأسمالية الدولية من ٢٣٫٩ بالمائة في سنة ١٩٦٠ الى ١٧٫٦ بالمائة في سنة ١٩٧٣ .

لقد شكلت المواد الاساسية القسم الاعظم من الواردات السوفياتية من البلدان المتخلفة اذ زاد معدلها على ٧٣ بالمائة في سنة ١٩٧٣ بينما تضاعف ثلاث مرات بين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٧٣ كمية المواد الاولية التي استوردها الاتحاد السوفياتي من هذه البلدان . ونجد ان العراق قد سدد بامداداته من النفط الخام الى الاتحاد السوفياتي كلفة مساهمة هذا الاخير في توسيع صناعة النفط العراقية . بيد أن **الخاصة البليغة لتطور التجارة بين الاتحاد السوفياتي والدول النامية هي الزيادة السريعة في حصة المنتجات النهائية وشبه النهائية من وارداته من تلك الدول ، الامر الذي يؤكده ارتفاع قيمة هاتين الزمرتين من الواردات السوفياتية منها من مبلغ** ٥٢ مليون روبل في سنة ١٩٦٠ الى ٤١٠ ملايين روبل في سنة ١٩٧٣ اي بمعدل ١٨٫٨

بالمائة من الارتفاع السنوي خلال هذه الفترة . **كما يؤكد ذلك ارتفاع الحصة النسبية للمنتجات المذكورة اي النهائية وشبه النهائية في مجمل الواردات السوفياتية من البلدان النامية المذكورة من ١١ بالمائة في سنة ١٩٦٠ الى ٢١ بالمائة في سنة ١٩٧٣ .** وبينما تماطل دول السوق المشتركة في مفاوضاتها مع دول المغرب العربي وتهلل الصحافة والدوائر الاقتصادية الغربية لاتفاق السوق الاوروبية المشتركة مع مجموعة دول افريقيا والكارائيب والباسيفيك ، نجد بان الاتحاد السوفياتي قد الغى منذ أول كانون الثاني (يناير) ١٩٦٥ الرسوم الجمركية على جميع البضائع الواردة من البلدان النامية بما فيها السلع النهائية وشبه النهائية . **ونحن نعلم بأن حجم ومعدلات النمو لانتاج السلع النهائية وشبه النهائية والصادرات منها ذات أهمية بالغة في تصفية التخلف الذي تعاني « بلدان العالم الثالث » منه .** ووفقا لاحصاءات هيئة الامم المتحدة زادت صادرات البلدان الفتية من هذه الزمرة من السلع من ٩ر٣ مليار دولار في سنة ١٩٦٠ لتصل الى مبلغ ٢ر٤ مليار دولار في سنة ١٩٧١ ، كما ارتفعت حصة هذه الزمرة من السلع في صادراتها من ١٤ بالمائة الى ٢١ بالمائة خلال الفترة المذكورة . بيد أن البلدان النامية تصطدم عند تصديرها هذه السلع بمنافسة لا ترحم من الصناعة العصرية للدول الراسمالية المتطورة وبحواجز جمركية تضعها امامها هذه الدول . ولو اخذنا تطور صادرات البلدان النامية من السلع المذكورة الى الاتحاد السوفياتي نجد بأنها نمت خلال الفترة المأخوذة ١٩٦٠ — ١٩٧٣ بمعدل ٢ر١٨ بالمائة سنويا وهو معدل يفوق معدل نمو صادراتها من المواد الاولية الذي بلغ ٨ر٨ بالمائة سنويا . وفعلا فقد قفزت هذه الصادرات النهائية وشبه النهائية الى الاتحاد السوفياتي من ٥٢ مليون روبل سوفياتي الى ٤٦٠ مليونا في غضون ١٣ سنه بينما ارتفعت حصتها النسبية من مجموع الواردات السوفياتية من تلك البلدان من ٩ر١٠ بالمائة الى ٥ر٢٦ بالمائة . ان أول بلد متخلف مصدر للسلع النهائية وشبه النهائية الى الاتحاد السوفياتي هو الهند تتلوها مباشرة جمهورية مصر العربية . لقد وصلت قيمة الصادرات المصرية المصنعة (النهائية وشبه النهائية) الى الاتحاد السوفياتي لمبلغ ١ر١١٦ مليون روبل أو ٤٤ بالمائة من مجموع تجارة الاتحاد السوفياتي مع الدول المصدرة الرئيسية اليه (الهند ومصر والجزائر وايران والباكستان وسورية) ، وتشكل منتجات صناعات النسيج مثالا على اتساع الواردات السوفياتية من المنتجات النهائية لصناعات البلدان النامية التي تتاجر مع الاتحاد السوفياتي .

ولا بد لنا من ان نلاحظ هنا الى ان الاقطار العربية بمعظمها لم تبذل اية محاولة جادة لتطوير التبادل التجاري مع بلدان مجلس التعاضد والمعونة المتبادلة (الكوميكون) لا بل ان التقارب المتزايد بينها وبين اوربا الغربية (وامريكا) يبدو وكأنه تراجع عن تنويع الاتجاهات الجغرافية للتجارة الخارجية العربية وتجاهل للصلة الحيوية بين التصنيع العربي والتجارة الخارجية .

اختلال التجارة الخارجية المصرية

في اطار النظام الراسمالي تنزل قسمة العمل الدولية بالبلدان المتخلفة الى مرتبة الاقتصاد الهامشي الذي يخضع للبلدان المركزية المتطورة صناعيا . انها تجعل هذه البلدان محلا للاستغلال الراسمالي الاحتكاري .

عندما نضيف العلاقات الاقتصادية الجائرة الى « مقصات الاسعار » والى المبادلات غير المتكافئة نجد بأن عوائد الدول النامية من التصدير تتقلص بينما ترتفع بالمقابل وبمليارات الدولارات ، انفاقاتها على الاستيراد في كل عام .

لناخذ على سبيل المثـــال تطور التجارة الخـــارجية المصريـــة بين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣(٢٦):

١ ــ **تطور الصادرات المصرية** : زادت قيمة هذه الصادرات من ٧ر٣٥٣ مليون جنيه مصري في عام ١٩٧٢ الى ٣ر٣٩٦ مليون جنيه في عام ١٩٧٣ أي بمعدل يزيد بالكاد عن ٩ بالمائه .

٢ ــ **تطور الواردات المصرية** : ارتفعت قيمتها من ٢ر٥٥٩ مليون جنيه في عام ١٩٧٢ الى ٣ر٦٢٢ مليونا أي بمعدل يزيد قليلا على ١ر١١ بالمائة .

٣ ــ **زيادة العجز التجاري المصري** : ارتفع العجز الإجمالي من ٥ر٢٠٥ مليون جنيه الى ٢٢٦ مليون جنيه أي بمعدل يزيد قليلا على ٧ر٩٧ بالمائة .

٤ ــ **أهمية الواردات الزراعية في العجز** : لو دققنا في ارتفاع قيمـــة الواردات باختلاف زمرها السلعية لوجدنا أن قيمة الواردات الغذائية قد ارتفعت من ٤ر١٠٦ مليون جنيه في عام ١٩٧٢ الى ١٩٦ مليون جنيه في عام ١٩٧٣ وبذلك قفزت حصتها المئوية في مجمل الواردات من ١٩ بالمائة في عام ١٩٧٢ الى ٥ر٣١ بالمائة في عام ١٩٧٣. كذلك نجد بأن الجيوب الزراعية قد كلفت مصر ٢ر١٥٢ مليونا من الجنيهات في عـــام ١٩٧٣ أي ما نسبته ٥ر٢٤ بالمائة من القيمة الاجمالية للواردات المصرية .

ان ضغط النمو السكاني لا يفسر هذه القفزة النسبية الكبيرة في قيمـــة الواردات الزراعية والغذائية على وجه التحديد بل هناك عامل أساسي وهو ارتفاع أسعـــار السلع الغذائية المصدرة من الدول الراسمالية .

ولكي نضع هذا التطور في اطاره الصحيح لا بد لنا من الرجوع الى مفهوم الهامشية الاقتصادية ازاء البلدان المركزية المتطورة صناعيا والى قضية الدمج التجاري بالتبادل غير المتكافىء . ويتسنى لنا ذلك بتحليل **التوزع الجغرافي للتجارة الخارجية المصرية** في مثالنا وتتبع الاسقاطات الجغرافية ــ السياسية لاختلالات المبادلات المصرية .

١ ــ **المبادلات مع البلدان الاشتراكيـــة** : اختصت الدول الاشتراكية (الاتحـــاد السوفياتي ودول أوربا الاشتراكية فقط) بمعدل ١ر٥٧ بالمائة من صادرات مصر في عام ١٩٧٣ . أما الواردات المصرية من الاتحاد السوفياتي ودول أوربا الاشتراكية فقد مثلت ٤ر٣٢ بالمائة من مجموع الواردات . والخلاصة سجل ميزان مصر التجاري فائضا مقداره ٤ر٢٤ مليون جنيه فيما يخص هذه الكتلة الاقتصادية الاشتراكية(٢٧).

٢ ــ **المبادلات مع الدول الرأسمالية الاوربية** : نالت أسواق دول أوربا الغربيـــة ٢ر١٦ بالمائة من صادرات مصر الاجمالية في سنة ١٩٧٣ ، بينما استأثرت هذه الدول بنسبة ١ر٣٢ بالمائة من مجمل الواردات المصرية . ونلاحظ هنا الاختلال البارز في هذه المبادلات .

٣ ــ **المبادلات مع الولايات المتحدة الاميركية** : صدرت مصر الى السوق الاميركية مـــا معدله ٢ر٢ بالمائة فقط من مجموع صادراتهـــا في السنـــة ١٩٧٣ . أمـــا مـــا استوردت من الولايات المتحدة فقـــد بلغ معدله ٥ر١٧ بالمائة مـــن مجمل الواردات المصرية ، والاختلال النسبي هنا بالمقارنة اشد فداحة .

ان فرض العلاقات الاقتصادية الجائرة والتبادل غير المتكافىء ومقصات الاسعار بما تترك من أثر سلبي على الميزان التجاري للبلدان المتخلفة ، أعمال ضارة لا لمصالح هذه البلدان فحسب وأنما بالتجارة العالمية ونمو التعاون بين شتى الدول .

لقد أصبح أمرا لا مفر منه ان يعاد بناء العلاقات الاقتصادية على أساس التكافؤ المقرون بالسيادة ووفقا لقاعدة التعاون بين مختلف الدول أيا كانت أنظمتها السياسية والاجتماعية .

لقد تضاعفت أسعار السلع الغذائية في السوق الرأسمالية الدولية ما بين ثلاث وأربع مرات خلال السنوات الثلاث الاخيرة فانعكس ذلك انعكاسا شديدا على مشتريات مصر الخارجية وعلى عجز الميزان التجاري المصري . في سنة ١٩٧٢ دفعت جمهورية مصر العربية مبلغ مائة مليون جنيه مصري بالنقد النادر ثمنا لمشترياتها من السلع الغذائية من السوق الدولية ودفعت في سنة ١٩٧٤ مبلغ ٤٦٤ مليونا بالنقد النادر ايضا ويتوقع ان تدفع ما يقرب من ٦٠٠ مليون جنيه خلال سنة ١٩٧٥ الجارية(٢٨). ويظهر دور الواردات الغذائية في العجز التجاري المصري من مقارنة القيمة المتوقعة لمشتريات مصر الغذائية هذه السنة بالعجز الاجمالي لميزان مصر التجاري حيث يتوقع ان يصل الى الف مليون جنيه مصري .

ان لجوء مصر الى الاستيراد الغذائي وتضاعف أسعار السلع الغذائية الرأسمالية لا يجتذبان فرنسا وحدها ، بحيث توسع ميدان استراتيجيتها في التوســع التجاري الخارجي الى ميدان التصدير الزراعي وانما هما قد دفعا بدول السوق المشتركة ممثلة بلجنتها الاوربية الى تطبيق سياسة فورية لتصدير المنتجات الغذائية الى مصر . وفعلا فمنذ وقت جد قصير طلبت اللجنة الاوربية للمجموعة الاقتصادية الاوربية من الدول الاعضاء في السوق المشتركة التصريح لها بعقد اتفاق طويل الاجل مع جمهورية مصر العربية لتزويد هذا القطر العربي بالمنتجات الزراعية الاوربية . وتبلغ قيمة الاتفاق ٣٠٠ مليون دولار أميركي اي ١٣٢٠ مليون فرنك فرنسي ، ويتوقع ان تقر المجموعة الاوربية هذا الاتفاق في شهر أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥ .

يشمل **مشروع الاتفاق بين السوق الاوربية المشتركة وجمهورية مصر العربية تزويد مصر بالسكر والحبوب ومنتجات الحليب والالبان ولحم الابقار** وينص على تزويد مصر بما يلي(٢٩):

١ ــ مقدار ٧٥ الف طن من السكر سنويا وذلك طيلة ثلاثة أعوام . أما السعر فهو السعر الموحد المعتمد في دول السوق الاوربية المشتركة محسوبا بوحدات الحساب الاوربية .

٢ ــ مليون طن من القمح او الدقيق (ما لا يقل عن مائتي الف طن دقيق) خلال عام واحد وهو موسم ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ . أما السعر فهو أدنى من السعر السائد داخل السوق المشتركة .

٣ ــ منتجات الالبان : عشرة آلاف طن من مسحوق الحليب خلال عامين وكذلك خمسة آلاف طن من الحليب المعاود تركيبه لتغذية الابقار .

وننوه هنا بأن دول السوق الاوربية المشتركة تملك « فائضا » انتاجيا هائلا من منتجات الالبان . لذلك فهي تسعى لتنمية صادراتها منها .

٤ ــ عشرة آلاف طن سنويا من لحم البقر وذلك بسعر أعلى من السعر العالمي .
ونلاحظ في أوساط الرأسمالية الاوروبية ضمن السوق المشتركة نظرتين متضادتين الى مسالة زيادة الانتاج الزراعي في أوربا الغربية ، فبعض هذه الاوساط يتحفظ ازاء توجه السوق المشتركة نحو اسواق التصدير الزراعي لانها تفضل تقنــين زيادات الانتاج الزراعي ضمن دول السوق وتتبنى بذلك نظرة مالتوسية بتخوفها مــن نمو القوى

المنتجة في الزراعة الاوربية الغربية . اما الاوساط الاخرى فترى توسيع استراتيجية التوسع التجاري الخارجي لتشمل قطاع الزراعة والغذاء وتطرح صيغا ملائمة لاسناد مثل هذه الستراتيجية .

وهكذا فان **الاتفاق الاولي المعقود في نهاية تموز يوليو ١٩٧٥ مع مصر يمثل أولى مبادرات المجموعة الاوربية الغربية لتطبيق سياسة تصدير الحاصلات الزراعية لآجال طويلة** . وليس من قبيل المصادفة البتة ان **الاتفاق المذكور يوكل للرأسمال الاوربي الخاص مسألة تأمين البضائع المدرجة في الاتفـاق** وذلك « باشراف السوق الاوربية المشتركة وبضمانة منها » . كذلك لا يخلو مـن الدلالة ان **الاتفاق يؤمـن للمصالح الاوربية المذكورة أسواقا مستقرة للتصريف** ويختار لها شروطا مثبتة مسبقا كما يضمن لها دعما ماليا لصادراتها فيما لو انخفضت الاسعار المثبتة في الاتفاق عـن الاسعار المعتمدة داخل دول السوق الاوربية المشتركة .

لنأخذ **تجارة تونس الخارجية** . ان نقل بعض الصناعات الهامشية المبتورة اليها وتجديد اندماج الاقتصاد التونسي ماليا عبر الاستثمارات وتجاريا عبر التبادل بالسوق الرأسمالية العالمية ظاهرة ملحوظة تتم تحت وطأة التسابق بين المصالح الرأسمالية المختلفة ولا سيما الامبركية والالمانية الغربيـة والفرنسية . ورغم طفرة اسعـار الفوسفات والنفط الخام فان العجز التجاري التونسي تراجع خلال سنة ١٩٧٤ ولكن ظل خطيرا . لقد بلغ ٨٥ر٩ مليون دينار تونسي(٣٠) في غضون الشهور العشرة الاخيرة من سنة ١٩٧٤ هذه وكان مقداره ٩٢ر٥ مليون دينار خلال الفترة المقابلة مـن سنة ١٩٧٣ . وهكذا فان التحسن المتحقق في تغطية كلفة الواردات بدخل الصادرات أنزل معدل العجز من ٧٦ر٤ بالمائة خلال الاشهر العشرة الاخيرة من سنة ١٩٧٣ الى ٥٦ر٤ بالمائة في الفترة المقابلة من سنة ١٩٧٤ ، ولكن هذه النسبة الاخيرة تبقى عالية ومقلقة. **ولئن كانت قيمة المنتجات الرئيسية التونسية قد زادت خلال سنة ١٩٧٤ فان ارتفاع اسعار السلع المستوردة قد ابتلع قسطا هاما من تلك الزيادة** التي بلغت معدل ٧٢ بالمائة خلال الفترة المأخوذة من سنة ١٩٧٤ مقابل قيمة الواردات التونسية في الفترة المقابلة من سنة ١٩٧٣ . والواقع ان هذا الارتفاع الكبير تفاوتت نسبه بين الزمـر الرئيسية المتعددة من السلع المستوردة .

ولا نستطيع أن نفصل تطور القيم السعرية للواردات والصادرات وبالتالي تطور الميزان التجاري وعجزه في المثال التونسي ، عن التوزع الجغرافي للتجارة الخارجية التونسية . وبالضبط فان مبادلات تونس مع كل من البلدان الاوربية المنضمة للسوق المشتركة والولايات المتحدة الاميركية ما تزال طاغية في تجارة تونس الخارجية(٣١) .

لقد استأثرت البلدان التسع الاعضاء في السوق الاوربيـة المشتركة بنحو ثلثي الواردات التونسية خلال الاشهر العشرة الاولى من سنة ١٩٧٤ ، بينما مثلت صادرات تونس الى البلدان الاوربية المذكورة ما معدله ٥٨ بالمائة من مجمل الصادرات . وعلى الرغم من التحسن في صادرات تونس المتمثلة بزيت الزيتون والنفط الخام الى ايطاليا التي أصبحت اول زبون تجاري لتونس فان عجز التجـارة التونسية مع السـوق الاوربية خف قليلا دون أن يتقلص جديا . لا بل ان عجز ميزان التجارة التونسية مع فرنسا التي هي الممول المحظي لتونس قد تفاقم في سنة ١٩٧٤ .

ان تخصص اقطار المغرب العربي في زراعات معدة للتصدير كالحمضيات والنبيذ وزيت الزيتون واندماجها الزراعي والتجاري بفرنسا وبقية بلدان السوق الاوربية المشتركة أمر فرضه الاستعمار الكولونيالي الاستيطاني على كل من هذه الاقطار .

ورغم الجهود المرموقة التي بذلتها وتبذلها الجزائر لاستئصال هذه الجيوب الكولونيالية من انتاجها ومن تجارتها الخارجية فاننا نستطيع القول ان اقطار المغرب العربي لم تنجز حتى الآن تغيرات جذرية في تخصصها الزراعي الكولونيالي واندماجها التجاري بأوربا الغربية ، فلا الزراعات الكولونيالية الموجهة نحو أسواق التصدير استبدلت بزراعات داخلية التوجه تؤمن الاكتفاء الذاتي الزراعي والغذائي ولا أسواق الاستهلاك الوطني والاسواق الاستهلاكية خارج منطقة اوربا الغربيـــة انقذت منتجات هــذه الزراعات من عبودية السوق الفرنسية والاوربيـــة واشكالاتها . ويمكننا ان نرى في ارتباط اقتصاد المغرب العربي بالسوق الاوربية المشتركة منذ توقيع اتفاقية رومـــا تناقضا موضوعيا يشكل عقدة المفاوضات المتعثرة المطاطة التي تجريها هذه السوق مع دول المغرب العربي . وبالحقيقة فان التناقض الزراعي العربي الاوربي ينزرع في جسد تناقض آخر ينخر السوق نخرا ويضع أعضاء السوق ضد بعضهم بعضا مثلما يضع جماهير الفلاحين في كل من البلدان الاعضاء في السوق في صراع حاد مع كل دولة من دولهم . في تصريح أدلى به الوزير الاول التونسي السيد الهادي نويره قال : « ان المفاوضات التي تجريها تونس مع الســـوق الاوربية المشتركة قــد وقعت ضحية التناقضات القائمة داخل السوق فراحت هذه المفاوضات تتعثر »(٣٢). بعبارة أخرى ان دخول السلع الزراعية المصدرة من المغرب العربي الى بلدان السوق الاوربية يعمق التناقض الحاد بين الفلاحين الاوربيين وجملة المصالـــح المستوردة للسلع الزراعية المغربية ومعها مراكز القوى المالية ــ الصناعية المهيمنة .

ان السوق الاوربية المشتركة لا تريد تبادلا تجاريا متبادل المنافع مع اقطار المغرب العربي فهي لا تهتم الا بأثر صادرات هذه الاقطار على دولها الاعضاء دون ان تراعي بالمقابل واردات هذه الاقطار العربية لاصناف زراعية من دول السوق . ويحس الوزير الاول التونسي « بالذل لان أوربا تتخذ موقفا متصلبا وتماطل في المفاوضات حتى عندما تعوض واردات بلد عربي من السلع الزراعيـــة الاوربية صادراته الـــى الســـوق المشتركة »(٣٣).

اتفاقية السوق الاوربية المشتركة واسرائيل

ان المفارقة بين سياسة السوق الاوربية المشتركة ازاء اسرائيل وسياستها ازاء اقطار المغرب العربي ليست لا ظرفية ولا مزاجية ، بل هي تعكس الاختلاف الجوهري بين علاقة اوربا الرأسمالية باسرائيل وعلاقتها بالمنطقة العربية . **ان اسرائيل مرشحة للاندماج العضوي في اقتصاد أوربا الرأسمالية ولخدمة هذا الاقتصاد في المنطقة العربية مع تجدد قسمة العمل الكولونيالية . اما اقطار المغرب العربي فتتجه استراتيجيا الى التحرر الاقتصادي وتصطدم موضوعيا بالاستعمار الاوربي الجديد .**

لقد وقعت المجموعة الاوربية الغربية اتفاقا بتاريخ ١٢ ايار مايو ١٩٧٥ مع اسرائيل وذلك بعد معارضة أبدتها ايطاليا التي تتوقـــع منافسة الحمضيات المستوردة مـــن اسرائيل .

ان هذا الاتفاق يهدف الى دعم الصناعة والاقتصاد الاسرائيلي عامـــة على المدى المتوسط وتحقيق اندماج اسرائيل باقتصاد دول السوق المشتركة على المدى الطويل ، ويظهر هذا في التباين المزدوج بين التسهيلات والاعفاءات الجمركية الواردة في الاتفاق سواء من حيث الآجال الزمنية لتطبيق الاعفاءات او من حيث نوع المنتجات المشمولة بها في كل من الحالات :

١ ــ **فيما يخص الحمضيات الاسرائيلية** : نلاحظ هنا ان الاتفاق ينص على استفادة

اسرائيل فورا اي بدءا من تاريخ أول تموز يوليو ١٩٧٥ من اعفاء بنسبة ٨٠ بالمائة من الرسوم الجمركية التي تفرضها السوق المشتركة على الحمضيات الاسرائيلية ، وسيترتب على ذلك تمكين هذا الانتاج الاسرائيلي من التغلغل بقوة اشد في أسواق اوربا الغربية وتهديد صادرات الاقطار العربية ولا سيما أقطار المغرب العربي من الحمضيات الى تلك الاسواق سيما وان اعفاء الحمضيات الاسرائيلية فوري ويكاد يكون كاملا ، كما أن هذا الاعفاء ينجد ميزان اسرائيل التجاري .

٢ ـ **فيما يخص الصادرات الصناعية الاسرائيلية** : ستخفض دول السوق الاوروبية المشتركة رسومها الجمركية على صادرات اسرائيل الصناعية بنسبة ٦٠ بالمائة وذلك ابتداء من أول تموز يوليو ١٩٧٥ تمهيدا لالغاء هذه الرسوم نهائيا اعتبارا من تموز يوليو ١٩٧٧ . ونلاحظ هنا ان التسهيلات التسويقية الممنوحة للصناعة الاسرائيلية عالية وعاجلة وتؤكد بأن أوربا الغربية تعطي صادرات اسرائيل الصناعية أولوية على المنتجات الصناعية التي يتوقع أن تنتجها الاقطار العربية على نطاق واسع وأن تحتاج لتصريفها خلال السنوات المقبلة في الاسواق الخارجية . وفضلا عن ذلك يشكل اعفاء الصادرات الصناعية الاسرائيلية من ضرائب السوق احدى مقومات اندماج اسرائيل بهذه السوق .

٣ ـ **وفيما يخص صادرات السوق المشتركة الى اسرائيل** : تخفض اسرائيل من جانبها رسومها على صادرات السوق الاوربية الصناعية اليها بنسبة ٦٠ بالمائة حيثما لا تنافس تلك الصادرات منتجات اسرائيل الصناعية ولا يدخل هذا البند من الاتفاق حيز التنفيذ الا ابتداء من أول كانون الثاني يناير ١٩٨٠ . بعدئذ تخفض اسرائيل الرسوم الجمركية على سائر المنتجات الصناعية الاوربية أي التي تنتج اسرائيل مثلها ولكن بصورة تدريجية لغاية سنة ١٩٨٩ . ونلاحظ هنا ان السوق قد قدمت ضمانات جدية للصناعة الاسرائيلية على المدى المتوسط ولكنها هيأت لاستيعاب الاقتصاد الاسرائيلي ودمجه باقتصادات دولها على المدى الطويل . ولعل أهم ما يجدر التنبيه اليه بصدد التسهيلات الجمركية المتبادلة هو أن المجموعة الاوربية قد سارعت لعقد اتفاقها هذا مع اسرائيل لتؤكد تضامنها المصيري مع الدولة الصهيونية هذا سياسيا أما صناعيا واقتصاديا فان هذا الاتفاق يندرج في سياسة الاتفاقات الدولية التي تطبقها دول السوق المشتركة تجاه البلدان الاخرى ولا سيما المتخلفة لتوسع دائرة انتاجها وسوقها التصريفية معا حيث تضغط أزمتها العضوية ومتاعب المنافسة الاميركية واليابانية باتجاه التوسع خارج « القارة القديمة » وبذلك نفهم فهما أدق وأصوب اتجاه « المشاركة الصناعية » (غير المتكافئة) الذي يشكل محور هذه السياسة ويحدد ما يرتبط بها من اتفاقات جمركية وتجارية . ويتضح المضمون السياسي العميق للاتفاقية الموقعة بين اسرائيل والسوق الاوربية المشتركة كصيغة منظمة لدمج الاقتصاد الاسرائيلي في الاقتصاد الاوربي والراسمالي الدولي واستخدامه مرتكزا في منطقة المشرق العربي في المنظور الستراتيجي من الموقف السياسي العنيف الذي اتخذته دول السوق الاوربية من مشروع طرد اسرائيل من هيئة الامم المتحدة،ففي ٦ آب (اغسطس) اعلن هوبير لاينن نائب رئيس مجلس أوربا المرتبط بالسوق الاوربية المشتركة والنائب السابق لرئيس مجلس الشيوخ البلجيكي « بأن بلجيكا والدول الثماني الاعضاء في السوق ستعارض بشدة أية محاولة لطرد اسرائيل من هيئة الامم المتحدة » .

حتى لا يكون الوطن العربي معبرا الى استغلال افريقيا

كانت مسألة التسويات التجارية التفضيلية بين افريقيا والمجموعة الاوربية مصدرا للنزاع المستمر بين هذه المجموعة والولايات المتحدة الاميركية . ومنذ توقيع الاتفاقية

الجماعية بين دول السوق المشتركة ومجموعة البلدان المتخلفة في افريقيا ومنطقة الكارائيب ومنطقة المحيط الهادي (الباسيفيك) يسعى الغربيون للاتفاق بين الولايات المتحدة الاميركية واليابان والمجموعة الاوربية على دراسة التسويات التفضيلية بمجموعها وعلى ادراجها في استراتيجية عامة منسقة تغطي مسائل التنمية والنظام الدولي ، وان كانت تناقضات المصالح عقبة كاداء امام مثل هذا الاتفاق لاحكام الطوق على « العالم الثالث »(٣٥).

واليوم يطرح قادة السوق الاوربية المشتركة مشروع الحوار العربي الاوربي يهدف في جملة ما يهدف الى اقامة علاقات مثلثية تضم أوربا الغربية والعالم العربي وافريقيا. وخلال مناقشة أعقبت محاضرة ألقيناها في ٧ أيار مايو ١٩٧٥ في بروكسل امام الفرع البلجيكي للرابطة البرلمانية العربية الاوربية سألنا احد البرلمانيين البلجيكيين لماذا لا تتجاوب الاقطار العربية تجاوبا كافيا مع الشركات والمؤسسات الاوربية لتحقيق مشروع التعاون المثلث الذي يستمد أسبابه من تكنولوجيا أوربا الغربية ومال العرب وأسواق افريقيا وآسيا . وواضح ان تضخيم الاموال العربية والمبالغة في قيمتها الاسمية الراهنة والمقبلة (رغم تآكلها بفعل التدهور النقدي وتضاؤل قيمتها الشرائية بفعل التضخم أي ارتفاع الاسعار المركب) يزرع كثيرا من الاوهام لدى الاوساط الاوربية .

---

١ — KOLKO, Joyce : «America and the Crisis of World Capitalism»: Boston, Beacon Press, 1974, Chapter V, page 145.

٢ — KOLKO, Gabriel : « Roots of American Policy », pp. 50-55. *Also* New York Times, November 5, 1972.

٣ — RYMALOV, V. : « L'affaiblissement des liens économiques mondiaux de l'impérialisme », In : La Vie Internationale, No. 3, Moscou, mars 1975, p. 76, (Dossier : Certains problèmes actuels des relations internationales; Conférence scientifique)

٤ — Monthly Bulletin of Statistics, April 1975.

٥ — DUMOULIN, I. « Sur les principes des relations économiques internationales », In : La Vie Internationale, Moscou, mars 1975, pp. 41-42.

٦ — Ibid., p. 42.

٧ — RYMALOV, L. : « L'affaiblissement des liens économiques mondiaux de l'impérialisme », In : La Vie Internationale, No. 3, Moscou, mars 1975, p. 75.

٨ — DUMOULIN, I., op. cit.

٩ — United Nations: «Multinational Corporations in World Development », New York, 1973, p. 21.

١٠ — DUMOULIN, I. « Sur les principes des relations économiques internationales », In : La Vie Internationale, No. 3, Moscou, mars 1975, page 42.

١١ — Ibid.

١٢ — KOLKO, Joyce : « America and the Crisis of World Capitalism », Boston, Beacon Press, 1974, Chapter V, pp. 133-134.

١٣ — EL-ZAIM, Issam : « Le prix du pétrole », In : Révolution Africaine, No. 570, Alger, du 24 au 30 janvier 1975.

١٤ — INSEE : « Hausse des prix de détail en pourcentage». (Indice calculé par l'INSEE sur la base de 100 en 1970), Le Monde, Paris, 3 janvier 1975.

١٥ — KOLKO, Joyce : « America and the Crisis of World Capitalism », Boston, Beacon Press, 1974, page 139.

١٦ — PERLO, Victor : « La crise de l'économie capitaliste », In : La Vie Internationale, No. 4, Moscou, avril 1975, page 28.

١٧ — ننبه هنا الى ان حصة بلدان أوبيك من الصادرات الالمانية ضئيلة وقد ارتفعت نسبتها

في العام ١٩٧٤ .

١٨ ــ عصام الزعيم : « الغزوة التجارية الراسمالية الجديدة تهدد الاقتصادات العربية » صحيفة الشعب الجزائرية ، الجزائر ، عدد ١٩٧٥/٧/٢٤ وعدد ١٩٧٥/٧/٣١ .

١٩ ــ Rapport de la CNUCED, Genève, 2 août 1975.

٢٠ ــ L'Usine Nouvelle, Paris, Numéro du 15 janvier 1975.

٢١ ــ منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية : التقرير نصف السنوي عن الاشهر الستة الاولى من عام ١٩٧٥ ، باريس ، باللغة الفرنسية .

٢٢ ــ STEPHENSON, Hugh, In : Le Monde du 3 juin 1975, Supplément Europa.

٢٣ ــ كانت الدولة تملك ما يقارب من ١٢ بالمائة من راسمال شركة بريتيش لايلاند فصارت الان تملك ٩٠ بالمائة منه .

٢٤ ــ VILLARE, Renzo : « Un réseau commercial insuffisant ». In : Le Monde du 3 juin 1975, (Supplément Europa).

٢٥ ــ IVANOV, A. : « Importations soviétiques provenant des pays en voie de développement », In : Commerce Extérieur, No. 9, Moscou, Septembre 1974, page 38.

٢٦ ــ « La conjoncture égyptienne en 1974 ». (Commerce extérieur : année 1973), In : L'Economie des Pays Arabes, Beyrouth, février 1975, pp. 25-26.

٢٧ ــ المصدر السابق .

٢٨ ــ « L'Egypte. Les chances du cabinet Salem », In : L'Economie des Pays Arabes (mensuel), Beyrouth, mai 1975, pp. 17-18.

كان سعر الجنيه المصري في السوق الموازية دولارين امريكيين في ١٩٧٣/١٢/٣١ . وصار ٦٩ر٢ دولار في ١٩٧٤/١٢/٣١ . واصبح ٦٢ر٢ دولار في ١٩٧٥/٢/١٥ .

٢٩ ــ Le Monde, Paris, 2 août 1975

٣٠ ــ كانت قيمة الدينار التونسي بالدولار الامركي ٢٠ر٠ من الدولار في ١٩٧٣/١٢/٣١ فصارت ٢١ر٠ اي ٢١ سنت امركي في ٩/٣٠/ ١٩٧٤ ووصلت الى ٢٣ سنت في ١٢/٣١/ ١٩٧٤ .

٣١ ــ « Tunisie : Conjoncture 1974. Commerce Extérieur » In : L'Economie des Pays Arabes, Beyrouth, mai 1975, pp. 35-36.

٣٢ ــ Déclaration de Mr. NOUIRA au Journal Le Monde, No. du 8 juillet 1972

٣٣ ــ المصدر نفسه .

٣٤ ــ « دول السوق الاوربية المشتركة تمنح اسرائيل امتيازات اقتصادية وتمنح العرب كلاما » ، صحيفة الشعب الجزائرية ، عدد ١٩٧٥/٧/١٩ ، نقلا عن اوريان بريس . انظر ايضا : حسين ابو النمل « ابعاد الاتفاقية الجديدة بين السوق الاوربية المشتركة واسرائيل » ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٤٤ ، بيروت ، نيسان (ابريل) ١٩٧٥ ، ص ٤٢ ــ ٥٦ .

٣٥ ــ عصام الزعيم : « الغزوة التجارية الراسمالية الجديدة تهدد الاقتصادات العربية» الجزء الثاني ، صحيفة الشعب اليومية (الملحق الاقتصادي) ، الجزائر ، عدد ٣١ ، جويليه ١٩٧٥ .

قوانين العلاقات بين قوى النضال العربي

منير شفيق

لقد دخل الوضع في الوطن العربي مرحلة جديدة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . امتاز بسمتين رئيسيتين : الاولى ، انتشار الاحتلال الصهيوني على كل فلسطين بالاضافة الى مرتفعات الجولان السورية ، وسيناء حتى قناة السويس ، مما جعل نقل مركز الثقل في النضال الوطني المصري والسوري ، والعربي عموما ، الى مواجهة هذا الاحتلال وتحرير الاراضي العربية . أما السمة الثانية ، فكانت بروز الثورة الفلسطينية والتفاف الجماهير الفلسطينية والعربية من حولها . ومن ثم تحول القضية الفلسطينية ـــ تحرير كامل التراب الفلسطيني ـــ الى مركز الثقل الاول في النضال الفلسطيني والعربي .

ان هاتين السمتين ادخلتا على حركة التحرر العربي مجموعة من المعطيات الجديدة .ومن ثم موضوعات جديدة ، وتقاليد نضالية جديدة . كان من بينها مسألة التضامن العربي ، والحشد العربي ، والجبهة العربية العريضة ، بكل ما تحمله هذه المسائل من معضلات بحاجة الى حلول . فضلا عن سلسلة من موضوعات اخرى تحمل في حناياها معضلات متعددة مثل علاقة السمة الاولى بالسمة الثانية ، وعلاقة الثورة الفلسطينية بالثورة العربية ، وعلاقة الثورة الفلسطينية والحركة الجماهيرية العربية بالانظمة العربية ، وعلاقة الحركات الوطنية العربيـــة ببعضها البعض ، وعلاقاتها بالثورة الفلسطينية وبالانظمة العربية . ومن ثم كيف تعالج التناقضات المختلفة في داخل الوضع العربي في المرحلة الجديدة التي تتميز بالسمتين المذكورتين أعلاه ، خاصة بالنسبة للقوى التي تتبنى استراتيجية وتكتيك حرب الشعب .

ستحاول هذه المقالة الكشف عن القوانين التي تحكم حركـة النضال العربي في معالجة التناقضات فيما بين بعضها البعض . وفيما بينها وبين الانظمة العربية عموما منذ أوائل هذا القرن حتى الآن ، خاصة في ظروف الوضع العربي في مرحلة ما بعد حرب حزيران . وذلك استنادا الى ثلاثة مصادر في تكوين هـذه المعرفة ، وهـي : (أ) التحليل الموضوعي لظروف الامة العربية . (ب) التجربة التاريخية لحركة النضال في بلادنا العربية . (جـ) تجربة الثورة الفلسطينية باعتبارها أقرب ما تكون لخط الجماهير ، ولفهم خصائص المرحلة الراهنة .

السمتان الاساسيتان للامة العربية : ثمة سمتان اساسيتان متناقضتان تميزان وضع الامة العربية ، الاولى : هنالك أمة عربية واحدة . ووطن عربي واحد . ويترتب على هذا ان شروط تكوّن الامة الواحدة ، وتوحيد الوطن العربي ، قائمة . ولا يمكن ان تعالج اية قضية أو مسألة دون أن تكون هذه الحقيقة حـاضرة ، ومأخوذة في الحسبان اخذا قويا . وكانت هذه الحقيقة ، ولم تزل ، وستبقى ، تعبر عن نفسها ، بصورة مستمرة ، في التاريخ العربي المعاصر ، متجلية بأشكال عديدة ، وعلى مختلف المستويات . أما السمة الثانية فهي ان الامة العربية والوطن العـربي مقطعان الى كيانات ـــ وصلت حتى الآن الى عشرين كيانا ـــ وقد أخذت هذه التجزئة طابعا تاريخيا

؛ حوالي ٥٥ عاما) وقام في كل جزء دولة ذات تركيب طبقي واقتصادي وقوانين وتعليم وسياسات واوضاع اجتماعية تختلف عن الدول الاخرى . وعرف كل جزء تاريخا في نضال الجماهير فيه يختلف ، بهذا الشكل او ذاك ، عن الاجزاء الاخرى بما في ذلك الاحزاب والقيادات واشكال الصراع . ويترتب عن سمة التجزئة ، فيما يترتب ، عشرات السياسات النابعة من اصول طبقية اقليمية ، الى جانب ان لكل دولة سياساتها . أي ان هنالك عشرين سياسة رسمية مختلفة . فضلا عن التفاوت في مستوى النضال الشعبي بين هذه الاجزاء . وفي مستوى استقلالها السياسي والاقتصادي وتطورها . وكذلك في مستوى خضوعها للنفوذ الامبريالي او تحررها منه. كل ذلك مرتبط بمستوى علاقة كل جزء بوجود الكيان الصهيوني . ولهذا فمن غير الممكن ان تعالج أية قضية ، أو مسألة ، دون ان تكون هذه الحقيقة حاضرة ومأخوذة في الحسبان أخذا قويا . ولقد عبرت هذه الحقيقة عن نفسها ، ولم تزل ، وستبقى — ما دامت التجزئة — تعبر عن نفسها ، بصورة مستمرة، في التاريخ العربي المعاصر، متجلية باشكال عديدة ، وعلى مختلف المستويات .

ان هاتين السمتين تشكلان وحدة ضدين متنافيين . وتحتل السمة الثانية (التجزئة) في هذه الوحدة مرتبة الوجه الرئيسي ،؛ اي الطرف المسيطر ، ولكنه يحمل طبيعة تمثل القديم الماضي الى زوال ، والمعرقل للتقدم التاريخي . في حين تمثل السمة الاولى الوجه الثانوي ، أي الطرف المقهور ، ولكنه يحمل طبيعة ثورية تقدمية تمثل الجديد المندفع باتجاه تطور التاريخ . وهنالك خاصية عامة اخرى لوحدة الضدين هذه هي انها تشكل واحدة من التناقضات الاساسية في بلادنا العربية ، او جانبا من جوانب التناقض الاساسي . وان حل هذا التناقض ، اي تحقيق الوحدة العربية **الشاملة** هو هدف في المرحلة القادمة للثورة العربية ، دون ان يمنع حله جزئيا (وحدة قطرين او بضعة اقطار) في المرحلة الراهنة للثورة العربية ، لان الوصول الى تحقيق الوحدة العربية الشاملة كان لا بد له من ان يمر عبر تحقيق اهداف للثورة العربية تسبقه وتشكل شروطا لبلوغه ، وذلك مثل تحقيق تحرر الاقطار العربية من الاستعمار المباشر ، او من الانظمة العميلة للامبريالية ، أو مثل تحطيم الاحلاف الامبريالية كحلف بغداد ، او خوض الصراع المسلح المباشر ضد الكيان الصهيوني ، وتحقيق استقلال قومي حقيقي الخ .

لقد تولد عن السمتين المذكورتين قوانين محددة ، في كل مرحلة من مراحل النضال العربي ، بالنسبة لعلاقة الحركات الجماهيرية (والحركات السياسية الوطنية والثورية) في كل قطر بالحركات الجماهيرية (والحركات السياسية الوطنية والثورية) في الاقطار الاخرى وكذلك بالنسبة لعلاقتها بالانظمة . فما هي هذه القوانين المحددة في كل مرحلة من مراحل النضال العربي ؟ وكيف اختلفت من مرحلة الى اخرى ؟ سنجد الاجابة من خلال تحديد سمات الوضع في كل مرحلة من مراحل النضال العربي ، والقوانين التي حكمت تلك العلاقات عبر تجربة نضال الجماهير والقوى السياسية الوطنية والثورية في كل مرحلة . ومن ثم تحديد سمات الوضع في المرحلة الراهنة وتجربة الثورة الفلسطينية .

مرحلة التجزئة تحت الاستعمار المباشر: ادى اقتسام البلاد العربية بين الامبرياليتين البريطانية والفرنسية ، ثم تقسيم مناطق نفوذ كل منهما الى عدد من الكيانات ، الى اقامة الاسوار العالية في وجه التحركات السياسية ذات الطابع العربي الموحد والمشترك والعام ، والذي شهدته العقود الثلاثة الاولى من هذا القرن . فقد اضطر كل قطر عربي ان يخوض نضاله منفردا ضد الحكم الاستعماري المباشر ، مكونا

احزابه الخاصة ، وحركته الجماهيرية الخاصة ، واشكال نضاله الخاصة . ولكن صحبت ذلك حركات تضامن واسعه بين الجماهير والحركات الوطنية في مختلف الاقطار . فكانت الهبات الجماهيرية في مصر ، أو العراق ، أو سوريا ، أو المغرب العربي ، او فلسطين تتعاطف مع بعضها البعض . واحيانا ، تندلع بأوقات متقاربة متناثرة ببعضها بعضا . كما كانت تتساند في الاحتجاج على عمليات الاعتقال والقهر والتنكيل . وكانت هنالك مبادرات افراد او زرافات من مختلف الاقطار العربية للاشتراك مع شعب فلسطين في ثوراته المسلحة ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني . على ان سمات العلاقة بين حركات الجماهير وقواها السياسية فيما بين الاقطار العربية **كانت تأخذ شكل التضامن ، والتأييد ، والتساند ، والتأثر المتبادل ، بلا تنسيق ، أو لقاءات بين القيادات الوطنية السياسية ، وبلا برامج مشتركة او تشكيل جبهة على النطاق العربي . فكأن كل قطر يطلق النيران على عدوه الرئيسي في قطره او يتعاطف مع نضالات الاقطار الاخرى ويتضامن معها ، وهو محبوس ضمن جدران عالية يحرسها الاستعمار ويمنع تجاوزها .** وهنا لا بد من ان نلاحظ ان قضية فلسطين التي كانت تحمل بذور تناقض رئيسي عام على المستوى العربي حظيت منذ البداية على تركيز خاص من جانب مختلف الحركات الوطنية في كل الاقطار العربية أخذ شكل النضال ضد الهجرة الصهيونية ، ووعد بلفور ، ليس تضامنا مع الشعب الفلسطيني وثوراته فحسب وانما ايضا ، **عبر عن الشعور بالخطر الداهم على الامة العربية .**

لقد كان مركز الثقل في الثورة العربية في هذه المرحلة هو التحرر من الانتداب المباشر من اجل تحقيق الاستقلال السياسي في كل قطر . وكانت الاقطار التي تمتعت بنوع من الاستقلال مرتبطة بمعاهدات مع الاستعمار لم تجعل وضعها ليختلف كثيرا عن وضع الاقطار التي تحت الانتداب المباشر ، خاصة ، بوجود جنود للاستعمار على أراضيها (أساسا مصر) .

مرحلة ١٩٤٥ — ١٩٥٢

اخذ الوضع العربي ، مع انتهاء الحرب العالمية الثانية ، يشاهد تشكيلا مختلفا نسبيا مع تحرر عدد من البلدان العربية من الانتداب المباشر واعلانها لاستقلالها السياسي . وابتداء من هذه الفترة ، تميز الوضع بحالة وجود اقطار عربية ما زالت تحت الاستعمار المباشر . وأخرى نالت استقلالها . ولكن حكمتها حكومات رجعية عميلة للاستعمار الغربي ، وأخرى تمتعت باستقلال شكلي ، وبقيت مرتبطة بمعاهدات استعمارية تكبلها تماما . لقد اتسم هذا الوضع بنضال الجماهير والحركات السياسية الوطنية والثورية في كل قطر اما ضد الحكم الرجعي العميل فيه ، او ضد الاستعمار المباشر ، حسب وضع كل قطر . وكان الموقف العام الى جانب ذلك ضد كل الانظمة الرجعية والاستعمار الغربي بلا استثناء . **ان مركز الثقل في النضال العربي في هذه المرحلة كان يهدف الى كسر حلقات الانظمة الرجعية العربية** ، مع استكمال النضال ضد الاستعمار المباشر في الاقطار التي لم تنل الاستقلال السياسي ، وذلك من خلال تركيز الجماهير والحركات السياسية الوطنية **على كسر الحلقة في قطرها.** اما العلاقة فيما بينها على المستوى العربي فقد بقيت تعمل تحت شعار **« تضامن الشعوب العربية »** . وقد اتضحت هذه السمات اكثر فأكثر مع وقوع نكبة فلسطين ، وانفضاح خيانات العديد من القيادات الحاكمة في حرب ١٩٤٨ ، وتحول الجامعة العربية الى عنوان للعجز والتفاهة ومبعثا للسخرية . **وأصبح موقع القضية الفلسطينية ، اكثر من أي يوم مضى ، مركزا في التحريض ضد الحكم القائم في كل قطر ، وقطبا يشد اليه**

النضال العربي العام . ان موضوعات هذه المرحلة كانت النضال من اجل اسقاط الحكومات الرجعية العميلة ، والغاء المعاهدات الاستعمارية ، والنضال من اجل خلق اوضاع متحررة ، وجيوش قوية ، لتحرير فلسطين . الى جانب التحريض السياسي ضد الخيانات ، والتفريط ، والاسلحة الفاسدة ، وعدم وجود اوامر للجيوش من اجل القتال وضد الاضطهاد والاعتقالات وقمع حركات الجماهير .

ان ما يجب أن يلاحظ بالنسبة لهذه المرحلة : (١) ان مركز الثقل في النضال العربي انتقل في الفترة ١٩٤٥ — ١٩٥٢ الى كسر حلقات الانظمة العربية الرجعية ، مع الاستمرار في استكمال النضال من اجل استقلال الاقطار التي ترزح تحت الحكم الاستعماري المباشر (أي بقايا مهمات مركز الثقل السابق) . (٢) كانت العلاقات بين قوى النضال العربي على مستوى كل الاقطار تقوم على اساس التضامن والتساند دون ان تكون هنالك جبهة متحدة على المستوى القومي. (يلفت النظر هنا بروز دعوات « لمؤتمر تضامن الشعوب العربية » ، وقيام بعض الاحزاب القومية العربية التي بذلت نشاطا على اساس قومي . ولكن فروعها لم تمتد الى غالبية الاقطار العربية ، وانما الى عدد منها) . (٣) كان القاسم المشترك بين قوى النضال العربي في كل الاقطار العربية ، بلا استثناء ، انها كانت في كل قطر ضد نظام الحكم فيه ، وضد كل الانظمة العربية . الى جانب الموقف المشترك ضد الكيان الصهيوني والاستعمار . (٤) ادى خلق الكيان الصهيوني فوق الارض الفلسطينية الى بروز سمة جديدة في الوضع العربي شكلت في جوهرها بؤرة يتكثف فيها جماع تناقض الجماهير العربية مع الاستعمار ، والقوى العميلة ، والتجزئة ، والانظمة شبه الاقطاعية شبه الاستعمارية. وقد عنى ذلك ، موضوعيا ، نمو خطر الاستيطان الاستعماري الصهيوني بعد قيام دولته الى تناقض رئيسي عام مع الامة العربية . ولهذا اندفعت قوى النضال العربي في الاعوام ١٩٤٧ — ١٩٤٩ — باستثناء الاحزاب الشيوعية — الى تحويل مركز الثقل في كفاحها لمواجهة هذا التناقض الرئيسي . وعبرت عن ذلك بالمناداة لتحرير فلسطين وطلب التطوع للقتال على أرض فلسطين . ولكن هذا الانتقال لمركز الثقل لم يكن من الممكن ان يجد ترجمته العملية من خلال نضال عربي مباشر ، وذلك بسبب حواجز التجزئة المنيعة التي اقامها الاستعمار والانظمة العربية الرجعية في وجه اي تحرك قومي ثوري بهذا الاتجاه . بل ان تلك الحواجز نفسها تصدت للشعب العربي الفلسطيني لمنعه من توجيه سهم نضاله ضد هذا العدو . ومن هنا كان لا بد لمركز الثقل في النضال العربي ، خاصة في بلدان الطوق — مصر ، سوريا ، العراق ، الاردن — ان يعود متجها لكسر حلقات الانظمة الرجعية العميلة من اجل خلق شروط تصفية الكيان الصهيوني ، الى جانب الاهداف الاخرى . (٥) ثمة موضوعة يجب ان تلاحظ خلال مسيرة النضال العربي في المرحلتين السابقتين وهي : ان المدى الذي يمكن ان تذهب اليه البرجوازية الوطنية في معركة التحرر الوطني ضد الامبريالية ، بما في ذلك مستوى صدامها معها ، او دخولها في مساومة واياها ، يرتبط بموازين القوى . فالبرجوازية الوطنية تذهب في هذا الصراع ، وهي تحسب مكاسبها ومخاسرها — الآنية بالدرجة الاولى . فتنضبط مستواه وفق هذه الحسابات . ولهذا عندما تكون الامبريالية — موضوع المواجهة — قوية متفوقة ، فسوف تعمد البرجوازية الوطنية الى خوض النضال ، ثم الدخول في مساومة مع كل تغير نسبي في موازين القوى . وتأتي هذه المساومة لتعكس محصلة ميزان القوى في اللحظة المعطاة . ومن ثم يعود الصراع من جديد . وهكذا . فعلى سبيل المثال ، لقد وقع حزب الوفد في مصر ، بقيادة النحاس ، المعاهدة البريطانية — المصرية عام ١٩٣٦ . ولكن بعد الحرب العالمية الثانية ، أعلن

النحاس بنفسه ، عام ١٩٥١ ، الغاء المعاهدة البريطانية ــ المصرية من طرف واحد ، وبلا قيد أو شرط . وذلك بعد أن مال ميزان القوى على المستوى المصري والعالمي في غير مصلحة الامبريالية البريطانية التي اخذت مواقع نفوذها بالتدهور . وبالمناسبة ، لقد خرجت في الثلاثينات موضوعات ، على المستوى العالمي ، تقول ان البرجوازية الوطنية في الاقطار التي نرزح تحت الاستعمار ، ألقت اعلام النضال بعيدا في البحر . وفهمت هذه الموضوعة من بعض القوى الثورية علـى اطلاقها وراحت تشـن اعنف الحملات ضد برجوازياتها الوطنية . وذلك دون ان يفهم فهما دقيقا أحد القوانين الهامة التي تتحكم في وجهي الصراع والمساومة لدى البرجوازية الوطنية في اثناء مواجهتها للامبريالية ، أي توازن القوى المحلي والعالمي ، بما في ذلك توازن القوى بين الدول الامبريالية . وكذلك فيما بين البرجوازية الوطنية وبين تلك الدول ، وفيما بينها وبين الطبقات الاخرى داخل صفوف الشعب ، فضلا عـن علاقات البرجوازية الوطنيـة بالاسواق والتكتلات الاقتصادية العالمية .

مرحلة ١٩٥٢ ــ ١٩٦٧

فترة ١٩٥٢ ــ ١٩٥٨ : كسرت ثورة يوليو ١٩٥٢ السلسلة الرجعية في ظرف أخذ فيه الاستعمار البريطاني بالتدهور على مستوى عالمي وعربي ولكنه ما زال يحتفظ بقوى هامة . ولهذا جاء الصراع الذي خاضته ثورة يوليو لتحقيق الجلاء ضمن موازين قوى مالت نسبيا لمصلحة الحركة الوطنية في مصر . الامر الذيفرض عليها شن كفاح فدائي ضد القاعدة العسكرية البريطانية ، ثم اجبار بريطانيا في ذلك الحين على توقيع اتفاقية الجلاء مع تمكنها من انتزاع بعض التنازلات مثل بقاء خبراء أو فنيين بريطانيين في قاعدة فايد ، وكحق الجيش البريطاني بالعودة الى مصر اذا هوجمت تركيا . وقد أساءت الحركة الوطنية على المستوى العربي والمصري في ذلك الحين تقييم هذه الاتفاقية فلم تميز بين وجهها الرئيسي وهو الجلاء وبين الشروط البريطانية الواردة فيها مما دفعها الى الهجوم على عبدالناصر واتهامه بالخيانة الوطنية . ولكن مع سقوط الشيشكلي في سوريا ١٩٥٤ ثم تطور الوضع الى مستوى حكم وطني قوي في المنتصف الثاني من عام ١٩٥٤ زادت خلخلة وضع الاستعمار البريطاني . وحدث تغير في موازين القوى لمصلحة مصر ، مما دفعها عام ١٩٥٥ الى الانتقال لمواقع هجوم اقوى فشنت الهجوم المباشر على الاستعمار والاحلاف العسكرية . ولعبت دورا هاما في مؤتمر باندونغ ، وعقدت صفقة الاسلحة التشيكية كاسرة الطوق الاستعماري بالنسبة للحصول على السلاح . وكانت محصلة ذلك بروز المحور المتحرر الذي اخـذت تلتف حوله الجماهير العربية والحركات السياسية الوطنية سواء تلك التي تخوض الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي والبريطاني (بعض بلدان المغرب العربي والخليـج العربي) ، او تلك التي تخـوض الصراع ضد الحكومات الرجعية العميلة والمعاهدات وحلف بغداد (العراق ، الاردن ، لبنان) . ولعب هذا المحور بزعامة جمـال عبدالناصر مركز الاستقطاب للجماهـير والحركات الوطنية والقومية من المحيط الى الخليج . وقـد تعزز ذلك بتأميم قناة السويس ثم بالانتصار علـى العدوان الثلاثي الذي شن مـن قبل بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني . ان مركز الثقل في النضال العربي ، في هذه الفترة ، توجه نحو اسقاط حلف بغداد ، وبؤرته عراق نوري السعيد . وكان ذلك يعني الاجهاز على الاستعمار البريطاني الذي وقع بين مطرقتين مطرقة الشعوب ومطرقة الامبريالية الامريكية التي سعت لابتلاع مستعمراته مما زاد من انهاكه وضعفه . والى جانبه لنضال ضد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي .

وهكذا أصبح النضال العربي العام ملتفا حول المحور المتحـرر باعتباره الطليعة

والقائد وهو يركز لضرب محور نوري السعيد ، بصورة رئيسية ، في حين استمرت الاقطار التي تحت الاستعمار المباشر تشن الكفاح من اجل التحرر وهي مستقطبة حول المحور المتحرر بقيادة عبدالناصر . لقد أصبح جمال عبدالناصر زعيما على نطاق عربي وليس على مستوى مصر فقط . وأخذت الجماهير والحــركات السياسية الوطنية والقومية والثورية تلتف من حوله وتعلن ولاءها له . اما السمة الاخرى التي ولدتها هذه المرحلة فكانت التفريق بين الانظمة مــن جانب الجماهير والحــركات الوطنية والقومية والثورية . فقد أصبح هنالك انظمة متحررة ، وانظمة رجعية عميلة . هنالك محور متحرر قومي وهنالك محور عميل . ففي السنوات ما بين ١٩٥٥ ــ ١٩٥٧ ، كان المحور المتحرر يضم مصر وسوريا وتحالف معه السعودية واليمن الشمالي (انضم الاردن ١٩٥٦) وكان المحور المضاد بزعامة عراق نوري السعيد ، وكان يضم كل عملاء الاستعمار البريطاني .

بعد هزيمة العدوان الثلاثي واقتراب نهاية عراق حلف بغداد اندفعت الامبريالية الامريكية لتحل محل الاستعمار البريطاني . فطرحت عام ١٩٥٦ ــ ١٩٥٧ مشروع ايزنهاور . فخرجت الاردن والسعودية من التحالف مــع المحور المتحرر . ولكــن عبدالناصر مع رفضه لمشروع ايزنهاور أبقى مركز الثقل منصبا على حلف بغداد. وتوج ذلك باعلان وحدة مصر وسوريا ، وتشكيل الجمهورية العربية المتحدة التي اصبحت مركز حركة التحرر العربي . وانطلقت في هذه المرحلة موضوعات « وحدة الهدف » ، « وحدة النضال العربي » ، « الحركة العربية الواحدة » بديلا لحصر أهداف النضال في كل قطر بقطره ، و« تأييد المحور المتحرر والالتفاف حوله » . وكان هذا يعني ان مصر ، القاعدة العربية الاكبر ، والمؤهلة لقيادة النضال العربي ، قد انخرطت ، بوحدتها مع سوريا ، **انخراطا مباشرا** في النضال العربي العام الذي تجاوز حدود النضال في مصر . ولم تعد صيغة العلاقة « تضامن الشعوب العربيــة » او « تضامن بلــدان المحور المتحرر » ، وانما من خلال العمل الوحدوي . ولكن ذلك تم ضمن الاستمرار في اندفاع حركات التحرر العربي ضد الاستعمار البريطاني وبؤرته حلف بغداد .

ثمة موضوعة يمكن استنتاجها من هذه المرحلة . **وهي ان كل توجه لمركز الثقل في النضال العربي ضد عدو رئيسي كان يتطلب تحالفات طبقية محددة** . فالتحالف الذي اسقط الملك فاروق في مصر ، او الشيشكلي في سوريا ، تطلب في كل منهما تحالفا طبقيا محددا . وقد تساقطت بعض القوى في كل منهما عندما انتقل مركز الثقل في النضال العربي والقطري الى نقطة جديدة. وهذا ما عكسه في تلك المرحلة على سبيل المثال، في مصر ، التحالف في منظمة الضباط الاحرار ، ثم ما طرأ عليه من تغير في هيئة التحرير ، ثم في الاتحاد القومي ، ثم في الاتحاد الاشتراكي العربي . وكذلك عكسته الاجراءات الاقتصادية المختلفة في كل مرحلة ــ ضرب مراكز الاقطــاع الكبير ، ضرب المراكــز الراسمالية المندمجة بالراسمال الاحتكاري الامبريالي ، خاصة البريطاني والفرنسي ، ثم تأميم قناة السويس ، وتمصير البنوك والشركات الاجنبية ــ ١٩٥٧ ــ لقد شمل التحالف في الاتحاد القومي ، على المستويين السيــاسي والاقتصادي ، كل القوى المعارضة لحلف بغداد والاستعمار البريطاني ــ بعضها كان من البرجوازية الكبيرة والتقليدية ليس في مصر فحسب ، وانما أيضا ، تجلت هذه الظاهرة في سوريا بعد الوحدة وذلك باعادة اجتذاب قيادات حزب الشعب والحزب الوطني وغيرهما (هاشم الاتاسي ، صبري العسلي ، شكري القوتلي) لاخذ مواقع مهمة في « الاتحاد القومي » . واذا كانت هذه الصيغ من التحالفات ممكنة في مرحلة ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ ، الا انها لم تكن قادرة على مواجهة التحدي الجديد ــ الامبريالية الامريكية . لذلك عندما سقط حلف

بغداد وانتصرت الحركة الوطنية والقومية في العراق أنزل الاستعمار الامريكي الجديد قواته على ارض لبنان بتحد سافر للحركة القومية العربية مؤذنا بانتقال مركز الثقل في النضال العربي الى مواقع الصراع ضد الامبريالية الامريكية . وكان العدوان الثلاثي ١٩٥٦ ، والاعتداءات الصهيونيه المتكررة تلوح من جهتها للقومية العربية بان التناقض الرئيسي مع الكيان الصهيوني مسالة لا يمكن تاجيل مواجهتها طويلا . وكما حدث عام ١٩٥٦ بعد العدوان ، حاول عبد الناصر تاجيل هـذه المواجهـة المباشرة ضد الكيان الصهيوني لكي يستكمل النضال في مركز الثقل ، في حينه ، حلف بغداد والاستعمار القديم . كذلك حاول تأجيل المواجهه مع الشق الثاني الشريك للكيان الصهيوني في طرف التناقض الرئيسي ، اي الامبريالية الامريكية . لقـد بدأ الهجوم **المركـز** للامبريالية الامريكية على البلاد العربية مع فشـل العدوان الثلاثي وتقدمت لتمـلا « الفراغ » بعضلات مفتولة تهدد وتتوعد طالبة النزال . ان تأجيل المواجهة المباشرة مع الكيان الصهيوني وهذه الامبريالية الجديدة القوية (كل امبريالية هي في طريق الانهيار ومن ثم ضعيفة استراتيجيا ولكن في مراحل معينة تكون قوية تكتيكيا) ، تطلبت من عبدالناصر تقديم تنازلات : قبول النقطة الرابعة ، وضع قوات الطوارىء الدولية بينه وبين العدو الصهيوني ، وبقاء العدو في شرم الشيخ والمرور من ممرات تيران الخ ، الى جانب محاولة تهدئة الصراع مع الامبريالية الامريكية ، ولو مؤقتا ، لبينما يستكمل الاجهاز على الاستعمارين البريطاني والفرنسي .

فترة ١٩٥٨ ــ ١٩٦١ : ان سقوط حلف بغداد كان يعني ان مركز الثقل في النضال العربي اصبح ، موضوعيا ، المواجهة المباشرة مع الكيان الصهيوني والامبرياليـة الامريكية وعملائها مهما حاولت حركة النضال العربي مساومته لتجنبه ، او تأجيله . لقد أدى استمرار اندفاع النضال العربي باتجاه مركز الثقل السابق الذي أخذ يلفظ أنفاسه الاخيرة ــ وقد ساعد على استمرار هذا الاندفاع مقاومة حكومة عبد الكريم قاسم الانضمام الى الجمهورية العربية المتحدة ــ وتجنب الانتقال بمركـز الثقل في النضال العربي ضد الامبريالية الامريكية والكيان الصهيوني ، الى انتقال مركز الثقل في النضال العربي الى الصراع العربي ــ العربي . وتحول بسرعة ، في هذه المرة ، الى صراع عدائي فيما بين قوى النضال العربي . امتد فيما بعد ليشمل القوى القومية نفسها . ولعل من الاسباب الهامة لهذا المصير كان وجود فئات برجوازية عليا على هرم التحالف في جماع الحركات الوطنية الاقليمية والقومية مالت الىمساومة الامبريالية الامريكية ومهادنة الكيان الصهيوني بعد أن كانت مستعدة للذهاب بعيدا في مقارعة الاستعمار البريطاني . مما جعل من غير الممكن لعبدالناصر في مثل هكذا وضع ان يدخل الصراع مباشرة ضد الامبريالية الامريكية عندما نزلت بقواتها العسكرية الى لبنان . لقد كان ذلك يعني أيضا الصدام مـع الكيان الصهيوني الذي ما فتىء منـذ قيامه يشكل تناقضا رئيسيا في الوضع العربي يذكر بنفسه بكل مناسبة حتى الآن ــ ١٩٦١ . وذلك ابتداء من محاولات التعرض لكل تحرك وطنـي ، ومرورا بالعدوان الثلاثي وانتهاء بالتحرك والمناورة ضد وحدة مصر وسوريا .

الى هنا تكون القوانين التي برزت في اثناء هذه المرحلة ، والتي حكمت العلاقات فيما بين حركات النضال العربي والانظمة المتحررة قد انتقلت من التضامن ضمن محور واحد والالتفاف حوله ، الى الوحدة والالتفاف حولها والسعي لدخولها ثم الى الصراع العدائي بين المحاور داخل جبهة النضال العربي ــ طبعا أن ذلك كان يرتبط بمركز الثقل في النضال العربي وبمستوى تطور هذا النضال وموازين القوى مع الامبريالية والكيان الصهيوني . ولقد أدت هذه الحالة الثالثة الى فتح ثغرات خطيرة في النضال

العربي ، في الوقت الذي واصلت فيه الامبريالية الامريكية وعملاؤها الهجوم وكذلك العدو الصهيوني ، دون مواجهة مركزة من جانب الجبهة العربية المقابلة ، بل في ظروف تمزقها الى محاور دخلت فيما بينها صراعا عدائيا . وجاءت النكسة الاولى الخطيرة بفصم عرى الوحدة بين مصر وسوريا. وكان عبد الناصر قبيل ذلك بايام قد اخذ يستعد لاعاده ترتيب الوضع الطبقي في الجمهورية العربيـة المتحدة بما يتناسب ودخول المواجهة المباشره مع الامبريالية الامريكية فأصدر قرارات التأميم الاولى . ولكن الانفصال عاجله . وقد ادى ذلك الى زيادة اندفاعه على طريق مواصلة اعادة ترتيب الوضع الطبقي للانتقال الى المواجهة ، فواصل اجراءات التأميم وشكل الاتحـاد الاشتراكي .

فترة ١٩٦١ ــ ١٩٦٧ : لقد أدت الانقسامات في صفوف جبهة النضـال العربي والصراعات العدائية فيما بينها الى فقدان الاتجاه الصحيح لبوصلة النضال عن التركيز الكلي لمواجهة العدو القومي والامبريالية الامريكية منذ سقـوط حلف بغداد وهجوم الامبريالية الامريكية . الامر الذي أدى بالنضال العربي الى التخبط في ظروف صعبة جعلته يعبر طريقا متعرجا من النكسات والانتصارات . فقد انتصر على حكم الانفصال في سوريا . وخطا عبدالناصر خطوات على طريق ضرب الطبقات البرجوازية غـير المستعدة لمواجهة مقتضيات المرحلة الجديدة والتي مالت للمساومة والردة . وانتصرت ثورة الجزائر ، ثم سقط حكم عبد الكريم قاسم ولكن رافق ذلـك استمرار الهجوم الامبريالي الامريكي والصهيوني على مركز حـركة التحرر العربي ــ مصر بقيادة عبدالناصر ــ ففتحت له جبهة اليمن ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ . وفتح العدو الصهيوني جبهة باعلانه اتمام مشروع تحويل مجرى نهر الاردن ١٩٦٣ . كما استمر الوضع في جبهة النضال العربي العام ممزقا متصارعا . الصراع بين عبدالناصر وبين حزب البعث الذي أصبح الآن في السلطة في العراق وسوريا . كذلك بينه وبين الجـزائر بعد سقوط بن بللا .

لقد كانت هذه المرحلة تدفع باتجاه مواجهة مركز الثقل وهو الصراع ضد الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية ، ليس على المستوى الذي كان عليه في السابق أي استعدادات عسكرية وهجمات سياسية عامة متفرقة وانما على مستوى المواجهة المباشرة . وهو الذي لم يحصل من جانب حركة التحرر العربي بشكل مركز وحـازم ولكنه كان حاصلا فعليا من جانب الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية . وقد وصل اتجاه هذه المرحلة قمته في جرب حزيران وانزال ضربة قاسية بالبطل القومي جمال عبدالناصر وبالنضال العربي عموما .

خلاصة حول تجربة المرحلة التاريخية ١٩٥٢ ــ ١٩٦٧ : عرفت العلاقات فيما بين الانظمة العربية الوطنية خلال هذه المرحلة ثلاث حالات تحكمت فيها : (١) التضامن في محور متحرر ، (٢) الوحدة بين مصر وسوريا ، (٣) الصراع العدائي . أما بالنسبة للقوانين التي حكمت علاقة الجماهير وقوى النضال العربي فيما بينها في مختلف الاقطار وارتباط ذلك بالحالات التي عرفتها العلاقة بين الانظمة العربية الوطنية : (١) الالتفاف حول المحور المتحرر وتأييده واعتباره الطليعة والقيادة لعمـوم النضال العربي ، (٢) الانضمام تحت قيادة الجمهورية العربية المتحدة باتجـاه حركة عربية واحدة ، (٣) الصراع العدائي ، فعلى سبيل المثال عرف حزب البعث والقوميون العرب هذه الحالات الثلاث في علاقتهما بحركة القومية العربية التي تزعمها جمال عبدالناصر . أما « الاحزاب الشيوعية » فقد عرفت الحالتين (١) و(٣) في علاقتها بالحركة القومية العربية التي قادها جمال عبدالناصر ، عدا الحزب الشيوعي المصري الذي عرف أيضا الحالة (٢) .

ان الشيء الذي يجب ان يلاحظ هنا ان جمال عبد الناصر كان يحظى بنصيب الاسد من التأييد الجماهيري على النطاق العربي في كل هذه الحالات . مما يعبر من جانب خط الجماهير على سمة كوننا امة عربية واحدة ولنا وطن عربي واحد . ولكن يجب ان يؤخذ بعين الاعتبار ان العلاقات بين قوى النضال العربي وبين حركة جمال عبد الناصر لم تقم على اسس جبهوية في الحالتين الاولى والثانية . ففي الحالة الاولى اي الالتفاف حول المحور المتد.. ماعتبار مصر الطليعة وعبد الناصر القائد ، لم يأخذ شكل جبهة متحدة بنتظمها برنا... ولها قيادة مشتركة تقودها حركة جمال عبد الناصر . وانما حسب جبهة من طراز خاص قائدها جمال عبد الناصر . فقد بقي كل تنظيم يعمل منفردا ولا يشارك في القيادة . ويحاول من جانبه ان يطابق سياساته مع سياسات عبد الناصر . وينهث وراءها . اما في الحالة الثانية اي حل التنظيم والاندماج فقد كانت تعنى الدخول كافراد في « تنظيم » فضفاض جدا . ان هاتين الحالتين ، خاصة ، الحالة الثانية ، اصطدمتا في صيغهما بسمة التجزئة العربية وما تحويه هذه التجزئة في كل قطر من تركيبة طبقية ، وتفاوتات في العديد من النواحي فيما بين الاقطار . اما الحالة الثالثة — الصراع العدائي — فقد كانت التعبير المكثف عن وحدة الضدين المتنافيين — الامة الواحدة والتجزئة — في ظروف الصراع ضد الامبريالية والكيان الصهيوني عبر العملية التاريخية لحركة انتقال مركز الثقل لمواجهة التناقض الرئيسي مع الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية . وفقدان اتجاه البوصلة . بالتحول الى الصراع فيما بين قوى النضال العربي . حيث ادى ذلك الى ان يصبح عبد الناصر هو « العدو رقم ١ » في نظر بعض فصائل النضال العربي . وتصبح هي في نظر حركة جمال عبد الناصر « العدو رقم ١ » . ولكن ذلك كان يصطدم باستمرار بهجمات الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية مذكرا بضرورة وضع الامور في نصابها ومواجهة التناقض الرئيسي .

قبل ترك هذه الفترة التاريخية يجب ان يذكر وجهها الرئيسي وهو انها استطاعت ، رغم كل شيء ، ان تنهي الاستعمار القديم من الوطن العربي . وتوجه ضربات قاسية لعملائه الطبقيين ، وتؤمم قناة السويس ، وتنتصر على العدوان الثلاثي . وتحقق انتصار الثورة الجزائرية ، وتسقط حلف بغداد ، وحكم الانفصال في سوريا . وتقوم بأول تجربة وحدوية رائدة بعد تجزيء الوطن العربي . وتصمد في وجه الاستعمار الامريكي وتصارعه في بعض المواقع . وتحقق استقلال بعض بلدان الخليج العربي والمغرب العربي. هذا فضلا عن ضرب مراكز الاقطاع والرأسمالية الكبيرة في عدة بلدان عربية . ولكن هذه المرحلة كانت حبلى بولادة الثورة الفلسطينية في ١٩٦٥/١/١ ، نتيجة واقع موضوعي تجلى بانتقال مركز الثقل في النضال العربي الى مواجهة الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية ، ونتيجة ما حققت من انتصارات وما حل بها من نكسات وتمزقات وصراعات فيما بين القوى الوطنية . الامر الذي بدأ يدخل النضال العربي في مرحلة جديدة ، خاصة بعد ان وجه الاستعمار الامريكي من خلال الكيان الصهيوني ضربة عسكرية قاسية لمصر وسوريا والضفة الغربية فيحرب حزيران ١٩٦٧، اسفرت عن احتلال فلسطين حتى نهر الاردن واحتلال سيناء حتى قناة السويس واحتلال مرتفعات الجولان السورية .

مرحلة ١٩٦٧ وما بعد

فترة ١٩٦٧ — ١٩٧١ : اتسم الوضع بعد حرب حزيران ١٩٦٧ : (١)فرض حالة « لا حرب ولا سلم » على دول المواجهة ، والتي تعني اساسا فرض الامر الواقع

الذي نجم عن حرب العدوان الصهيوني . اي ابقاء الاحتلال وتكريسه . (٢) خروج الامبرياليه الامريكية منتصره متغطرسه تتحدث عن التركيع وفرض الشروط . (٣) خروج الكيان الصهيوني قويا منتصرا متغطرسا ، يفرض بقاء احتلاله . ويهدد بتاديب كل من يرفع رأسه من المحيط حتى الخليج . (٤) خروج مصر وسوريا بجيوش ممزقة ، واقتصاد مضروب ، في ظل احتلال رابض على الصدور ، وبيده هراوة غليظه — الامر الذي فرض نقل مركز الثقل في النضال المصري والسوري والعربي عموما لمواجهة مباشره للتناقض الرئيسي الذي يقف في طرفه المقابل الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية . وذلك في ظل زيادة توثيق العلاقات المصرية — السوفيائية . (٥) بروز الثورة الفلسطينية كقوة ثورية طليعية تتحدى الاحتلال الصهيوني ، وقد دخلت معه في حرب مستمرة لا تتوقف .

كان ميزان القوى قد مال بقوة لمصلحة الامبريالية الامريكية والكيان الصهيوني . وكان وضعهما في حالة هجوم استراتيجي عام في حين انتقل وضع القوى الوطنية الى مواقع الدفاع الاستراتيجي . ولكن الثورة الفلسطينية مثلت جانب الهجوم التكتيكي . لقد انتقل مركز الثقل في النضال العربي الى الصدام المسلح المباشر مع الكيان الصهيوني الى جانب الصراع الحاد العدائي مع الامبريالية ومخططاتها ومؤامراتها . ولهذا اخذت العلاقات بين قوى النضال العربي تتبلور حول : (أ) دعم الثورة الفلسطينية والالتفاف حولها في صراعها المسلح ضد الكيان الصهيوني . (ب) دعم صمود مصر وسوريا واستعدادهما لخوض الحرب (ج) الضغط على الدول العربية الاخرى لدعم الثورة الفلسطينية ومصر وسوريا . وتحقيق تضامن عربي بهذا الاتجاه . وهنا يجب ان يلاحظ ان التحول العام في النضال العربي ضد الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية ، كان يحمل التناقض داخل صفوف جبهته تركز حول الموقف من قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ . ولكن كان من الممكن تجنب الانقسام أو التحول للصراع العربي — العربي ما دام الاحتلال للاراضي العربية مستمرا وما دام الصراع ضد العدو الصهيوني مستمرا .

لقد رأينا كيف طرحت المراحل السابقة على الجماهير والقوى الوطنية والقومية والثورية في كل قطر وفي الاقطار العربية ككل موضوعة « تنظيف البيت اولا » سواء بسبب وجود الاستعمار المباشر ، او الحكومات الرجعية العميلة ، او نشوء المحور المتحرر في مواجهة المحور « العربي » المضاد المدعوم من الامبريالية . ثم الصراعات فيما بين القوى الوطنية الى جانب الصراع ضد الامبريالية ولكن دون التركيز على مركز ثقل محدد من جانب مجموع النضال العربي . اما مرحلة ١٩٦٧ فقد طرحت مسألة مواجهة الكيان الصهيوني والاحتلال والدعم الامريكي لهما مما دفع الموضوعة الاولى الى المرتبة الثانية . واعطى الاولية للصراع ضد العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية بعد ان كان في المراحل السابقة في المرتبة الثانية. ان انتقال الصراع مع الكيان الصهيوني الى مستوى المواجهة المباشرة هو الذي حرك فكرة مؤتمرات القمة العربية . لقد حدث هذا ، بمستوى ضعيف يتناسب مع مستوى المواجهة المباشرة في حينه — عام ١٩٦٣ — ١٩٦٤ مع بروز ضرورة مواجهة العدو الصهيوني لتحويله مجرى نهر الاردن. وتصاعد العمل بهذا الاتجاه مع ارتفاع مستوى المواجهة المباشرة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . ولقد اخذ عبد الناصر يدفع باتجاه التضامن العربي ومؤتمرات القمة العربية بديلا « لوحدة الهدف » والصراع المحوري الحاد في الداخل العربي . لقد كانت ظروف المرحلة الجديدة تتطلب التركيز على العدو الصهيوني وتجنب المعارك الجانبية حسب اصطلاح مرحلة ما بعد ١٩٦٧ . ولكن الموقف من قرار ٢٤٢ الى جانب شبح الصراعات

السابقة وجراحها وعقلياتها ، فضــــلا عن طغيان قوة العـــدو الصهيوني والامبريالية الامريكيه وتتشجع عملاء الامبريالية في المنطقة وبعض الانظمة الرجعية للعب دور القوى المضاده جعل التحرك باتجاه التضامن العربي مترجرجا متعرجا . وان كانت الثورة الفلسطينيه بقيادة حركة فتح اكثر توفيقا في تحقيق تضامن عربي من حولها. حيث كانت هناك ارضيه أقوى لمثل هذا التضامن الذي أخذ طابع العلاقات الثنائية ، كوجه رئيسي للعلاقات ، من قبل كل دولة عربية مع منظمة التحرير الفلسطينية ، وعلى درجـــات متفاوتة ، الى جانب طابع جماعي في مؤتمرات القمة كوجه في المرتبة الثانية . طبعـــا لم يكن ذلك يعني نفي الصراعات الداخلية على مستوى كل قطـــر وعلـــى المستوى العربي ، وانما كان يعني انتقالها بالضرورة الى المرتبة الثانية وبروز قوانين جديـــدة تحكم الصراعات والعلاقات فيما بين قوى النضال العربي . وكان لا بد من ان تبـــرز الصراعات في فهم هذه القوانين وليدة اوضاع ما بعد حرب حزيران . حيث تركـــزت باتجاهين رئيسيين (كل اتجاه يضم عدة اتجاهات) وهما : اتجـــاه تجمـــد عند فهم الاوضاع على ضوء قوانين المرحلة ، أو المراحل ، السابقة ، وان ظهرت بعض اطرافه بزي جديد اي « اسقاط انظمة البرجوازية الصغير » ، او بكلمـــات اخـــرى خوض معارك المرحلة الجديدة بالعقلية والاساليب التي خيضت فيها معارك المراحل السابقة. واتجاه حاول فهم قوانين المرحلة الجديدة . وسعى الى العمل بموجبها اي طريقة قيادة الصراعات والعلاقات سواء بالنسبـــة لمعالجـــة الصراع ضد العـــدو الصهيونـــي والامبريالية الامريكية وعملاء الامبريالية الامريكية ، او بالنسبة لمعالجة التناقضـــات الداخلية على مستوى كل قطر عربي وعلى المستوى العربي . بحيث تعطى الصراعات ضد العدو اولوية عموما ، على التناقضات الداخلية على المستويين القطري والعربي دون ان يمنع ذلك اسقاط بعض الانظمة من خلال الصراع الداخلي في كل قطر وفقـــا للظروف المعطاة في كل حالة حيث سقط حكم السنوسي ، وحكم عبد السلام عارف ، بانتصار الثورة في ليبيا والعراق وكذلك بالنسبة لليمن الجنوبي . ودون ان يمنع تأجج الثورة في ظفار . لقد شكلت الثورة الفلسطينية بؤرة لصراع هذين الاتجاهين اللذين برزا في داخلها بصورة مكثفة مجسدة في مجـــالات التنظـــير والشعارات والسياسات والتطبيق . وذلك لان الثورة الفلسطينية لعبت دورا طليعيـــا في صراعات المرحلـــة الجديدة وكانت في صفوف الصدام الاولي . الى جانب تماسهـــا المباشر مع الوضـــع العربي العام ، ومع كل قطر من الاقطار العربية ، وان على درجات متفاوتة . ومن هنا فان دراسة التجربة التاريخية للثورة الفلسطينية خلال فترة ١٩٦٧ — ١٩٧١ في مجال موضوعنا سوف يساعد على كشف القوانين التي تحكم الصراعات والعلاقات في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ حتى الان ، فيما بين الحركات الوطنية والثورية على نطـــاق عربي وفيما بينها وبين الانظمة العربية . وذلك بعلاقتها مع توجيـــه مركـــز الثقل في النضال العربي ضد الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية .

تجربة الثورة الفلسطينية في فترة ١٩٦٧ — ١٩٧١ : مثلت حركة التحرير الـــوطني الفلسطيني « فتح » بعد مبادرتها باطلاق الثورة المسلحة ، وبشكل بارز ، بعد معركة الكرامة ١٩٦٨ ، اتجاها جديدا في فهم السمات والقوانين التي تحكم الوضع العـــربي في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ . وطرحت مجموعة من الموضوعات النظرية والشعـــارات والسياسات مع ممارسة جماهيرية مسلحة وسياسية علـــى الساحتين الفلسطينيـــة والعربية . فما هي هذه الموضوعات والشعارات والسياسات والممارسات فيما يتعلق بموضوعنا الذي تتناوله هذه المقالة ؟ لقد رأينا من خلال ما تقـــدم كيف انتقـــل مركز الثقل في صراع حركة الجماهير العربية ، بعد حرب حزيران ، الى الصراع المباشـــر

ضد العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية . ولاحظنا تغير القوانين التي تحكم حركة التحرر الوطني على المستوى العربي وفقا لانتقال مركز الثقل في النضال من حالة الى حالة . فعندما كان مركز الثقل في النضال العربي منصبا في كل قطر على التحرر من النفوذ الاستعماري المباشر تولدت قوانين محددة للعلاقات بين الجماهير ومختلف الحركات الوطنية في كل قطر وبين نظيراتها في الاقطار الاخرى . ثم تولدت قوانين محددة اخرى حكمت العلاقات في مرحلة انتقال مركز الثقل في النضال لكسر حلقات سلسلة الانظمة الرجعية ، خاصة ، بعد وقوع نكبة فلسطين . ثم لوحظ ولادة قوانين مختلفة في فترة ١٩٥٥ ــ ١٩٦٧ في مرحلة انتقال مركز الثقل الى النضال ضد حلف بغداد والغاء المعاهدات الاستعمارية واستكمال تحرير المناطق التي تحت الاحتلال الاستعماري المباشر او شبه المباشر . ومن ثم انتقال مركز الثقل الى النضال من أجل وحدة الاقطار المتحررة ، وبداية الصراعات فيما بين القوى الوطنية . ثم ضد نكسة الانفصال ، والاتجاه لضرب مواقع الاقطاع والرأسمال الاحتكاري التابع للاحتكارات الامبريالية في بعض البلدان المتحررة . ثم الصراع ضد تحويل مجرى نهر الاردن وضد الاستعمار الجديد (الامبريالية الامريكية) . ورأينا كيف كانت تتغير القوانين التي تحكم العلاقات والصراعات فيما بين الانظمة ، وفيما بين الحركات الوطنية . وفيما بين هذه وتلك . وهنا لا بد من ان تلاحظ التداخلات في المراحل وفي القوانين المتحكمة في العلاقات والصراعات . كما ان تحديد تاريخ لمرحلة جديدة او فترة جديدة لا يعني ولادتها في تلك اللحظة ولا يعني زوال سمات المرحلة السابقة تماما . وانما يجب ان يفهم ان بذور كل مرحلة جديدة تلد في المرحلة السابقة كما ان عددا من بقايا المرحلة السابقة تستمر في المرحلة اللاحقة . ولهذا فان منهج التحليل هنا يركز في كل مرة على القاء الضوء على الوجه الرئيسي مع متابعة الوجه الثانوي وحركته . الامر الذي يتطلب التنويه الى ان انتقال مركز الثقل في النضال العربي من نقطة الى نقطة في المراحل والفترات السابقة كان يحمل في طياته فترات يشتد فيها الصراع المباشر مع العدو الصهيوني (فترة قيام دولة الكيان الصهيوني ، الاعتداءات على دول الحزام المطوق للكيان الصهيوني ، العدوان الثلاثي ، تحويل مجرى نهر الاردن) فضلا عن ان النضال العربي حين يركز على التحرر من النفوذ الاستعماري المباشر ، او اسقاط الانظمة الرجعية العميلة ، او اسقاط الاحلاف والمعاهدات الاستعمارية ، او النضال ضد الاستعمار الجديد ، كان يربط هذه الاهداف (التحرر والاستقلال الوطني) بهدفي تحقيق الوحدة العربية وتحرير فلسطين . ان مراكز الثقل المذكورة في المراحل الماضية كانت تعني اشتداد الصراعات الداخلية في الوطن العربي ، بما في ذلك عندما كانت تنحرف البوصلة بيد القوى الوطنية عن تحديد اين مركز الثقل في النضال العربي . الامر الذي حمل معه موضوعاته وتقاليده (فعلى سبيل المثال من موضوعات المراحل السابقة لفترة ١٩٥٣ ــ ١٩٦٧ : « النضال لتنظيف البيت » . اسقاط انظمة الاستعمار والخيانة والرجعية والفساد . الهجوم على تضامن الدول الرجعية في الجامعة العربية . ومن التقاليد النضالية التي ارسيت ، استخدام كل اشكال التحريض ضد الانظمة ومهاجمتها ، بكل صغيرة وكبيرة ، وبلا نقطة لقاء معها . التظاهرات ، الهبات الشعبية . وكانت العلاقات فيما بين الجماهير والقوى الوطنية على المستوى العربي تأخذ شكل تضامن الشعوب العربية . وكذلك من موضوعات مراحل ١٩٥٥ ــ ١٩٦٧ ، اسقاط دول الاحلاف العسكرية والمعاهدات مع الاستعمار، انقسام الانظمة الى انظمة متحررة واخرى عميلة ، مهاجمة الدول المحيطة الداخلة بالاحلاف تركيا ، ايران ، باكستان ، ــ التحالف مع السعودية في مرحلة صراع ضد

محور نوري السعيد ، والهجوم عليها بعد بروز مشروع أيزنهاور ، بل الدخـول في هرب معها في اليمن . ومن التقاليد النضالية التي ارستها هذه المرحلة : « اما مع هذا النظام على طول الخط . واما ضده عـلى طول الخط » . واستخـدام كـل اشكال التحريض السياسي العداني ضد الانظمة العميلة والرجعيـة ـــ وقـد سحبت هذه الاشكال ايضا عندما اندلعت الصراعات فيما بين الانظمة الوطنية . وكذلك فيما بين الحركات الوطنية . ومن اشكال العلاقـات بين الجماهـير والقوى الوطنية عـلى المستوى العربي عرفت اشكال تدعيم المحور المتحرر والالتفاف حوله ، وحدة الهدف وتحقيق الوحده العربية ، ثم الانقسامات في الصفوف الوطنية وانتقالها الى صراعات عدائيه . ولكن انتقال مركز الثقل في النضال العربي في مرحلة ما بعد حزيران ١٩٦٧ا ضد الكيان الصهيوني والاحتلال المدعوم من الامبريالية الامريكية . كان يعني تركيز الصراع ضد العدو الصهيوني ، والعمل على توجيه الوضع العربي بمجمله (انظمـة وجماهير وحركات سياسية) الى دعم الثورة الفلسطينية ومصر وسوريا . ولهذا كان لا بد لهذه المرحلة من ان تحمل موضوعاتها النظرية وشعاراتها وسياساتها وممارساتها وتقاليدها النضالية التي تتحكم فيها قوانين جديدة بالنسبـة للصراع ضد العـدو . او بالنسبة للعلاقات والصراعات في داخل الجبهة المضادة للعدو الصهيوني . الامـر الذي كان لا بد من ان يقود الى صراع مع الموضوعات والشعـارات والسياسـات والممارسات والتقاليد النضالية التي درجت في المراحل السابقة . لقد مثلت حركة فتح التعبير المركز بالنسبة لسمات وقوانين المرحلة الجديدة بينما مثلت الاتجاهات فـوق « اليسارية » في الساحة الفلسطينية التعبير المركـز بالنسبـة لسحب موضوعـات وشعارات وسياسات وممارسات وتقاليد المراحل السابقة عـلى المرحلة الجديدة . وذلك بالباسها « زيا جديدا » في الظاهر . ولكنه ظل اسير المحتوى السابق في الحقيقة والجوهر .

كان من بين الموضوعات التي طرحتها حركة فتح لمرحلة ما بعد حـرب حزيران :
« كل البنادق نحو العدو الصهيوني » . « طريق الوحدة يمر عبر تحرير فلسطـين » .
« التضامن العربي الرسمي ، والالتفاف الجماهيري العربي حول الثورة الفلسطينية».
التعامل مع مختلف الانظمة ـــ دون ان توضع كلها على قدم المساواة ـــ تحت شعـار دعم الثورة الفلسطينية وتسهيل مهماتها . تسخين جبهات القتال ودعمها . وبـدأت ترسي تقاليد جديدة في العلاقات بينها وبين القوى الوطنية والانظمة العربية تتناسب مع وضع الكفاح المسلح الفلسطيني الشعبي طويل الامد . وطرحت على نفسها شعار عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، وعدم الانجرار الى معـارك جانبية ، او تفجـير الصراعات الجانبية . وعدم حـل التناقضات داخـل الوضـع العربي عن طريـق الصراعات العدائية وحملات التحريض والتشهـير . (المقصود هنا على مستـوى العلاقات بين الاقطار وليس المستوى الداخلي في القطر الواحد) . ورفض الدخـول في المحاور او التشجيع عليها . ولكن هذا الاتجاه قوبل باتجاه اخر كان يدفع باستمرار الى محاربة كل الانظمة العربية وفضحها والتشهير بها ، او محاربة هذا النظام او ذاك وفق عقلية البحث عن المحاور والعودة الى جعل مركـز الثقـل هو « تنظيف البيت العربي كله أولا وقبل كل شيء » . الامر الذي يعني ، بالحتمية ، انتقال الصراع ضد العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية الى المرتبة الثانية . ومـن ثم تهدئة جبهـات المواجهة لان الصراعـات المحورية الضاريـة في الداخل العربية ، تقـود الى شل الصراع المباشر ضد العدو الصهيوني .

عندما طرحت حركة فتح تلك الموضوعات والصيغ لم تكن بعيدة عن التناقض مـع

الانظمه العربيه ، او مع الحركات السياسية الاخرى ، على مستويات الهدف والاستراتيجيه والتكتيك والسياسات اليوميه . طبعا على درجات متفاوته بالنسبة لهذا النظام او ذاك ، او هذه الحركه السياسيه او تلك . فكيف عالجت هذه المعضلات ؟ بدايه ، علينا ان ناخذ بعين الاعتبار ان وجود التجزئه يعني ان كل حركة وطنيه عربيه وكل نظام عربي يواجه تناقضات مع عشرات السياسات سواء بتحديد الاهداف المباشره ، او مركز الثقل في النضال الراهن ، او الاستراتيجيه والتكتيك ، او بالنسبه للتحالفات ، وصيغ العلاقات وطرق معالجة التناقضات . لقد اخذت حركة فتح هذه الحقيقه بعين الاعتبار ضمن سمات مرحله ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، في اثناء طرحها لبرنامجها واستراتيجيتها وتكتيكها فقدمت المعالجات التالية :

١ ــ تطرح الثورة الفلسطينية سياستها ايجابيا وتمارس وفق ذلك .

٢ ــ تجنب الدخول في معارك جانبية او استخدام التحريض السياسي العدائي سواء ضد الحركات السياسية الاخرى او الانظمة العربية ، وخاصة ، القوى الوطنية والانظمة الوطنية ، رغم انها دخلت العمل النضالي بموضوعات جديدة وقوبلت بهجمات شعواء من اطراف وطنية عديدة . فعلى سبيل المثال لم تفتح صراعا عدائيا مع عبد الناصر عندما هاجمها ، بشدة ، في فترة ١٩٦٥ ــ ١٩٦٦ ، ولم تنتقل الى الصراع العدائي مع المنظمات السياسية العربية التي وجهت عليها هجمات عدائية . فقد استخدمت اسلوب الحوار الهادىء مع المواظبة على طرح وجهة نظرها ايجابيا والتركيز على ممارسة استراتيجيتها وتكتيكها .

٣ ــ واجهت في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ مسألة قبول عبد الناصر بقرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ وهي ترفضه رفضا حاسما . ولكنها اتبعت في معالجة ذلك نهجا يختلف عن نهج الحركات والانظمة الوطنية التي فتحت النيران على عبد الناصر ونقلت تناقضها معه حول الموقف من قرار ٢٤٢ الى صراع عدائي . كان نهج حركة فتح : (أ) اعلان رفضها القاطع لقرار ٢٤٢ دون التعريض بقبول عبد الناصر به او ادانته بسبب ذلك . (ب) اقامة علاقات وثيقة مع عبد الناصر ، ما دام رغم الموافقة على ذلك القرار ، في مواقع الصراع ضد العدو الصهيوني . الامر الذي يقيم ارضية قوية لبناء هذه العلاقات وطلب دعمه لها ، ودعمه من جانبها في معركة صموده واعادة بناء الجيش والاستمرار في الصراع . (ج) التركيز على برنامجها ايجابيا في مواجهة العدو الصهيوني وفتح نيرانها عليه . ان هذا النهج اتاح لها ان تحافظ على موقف مبدئي من جانبها ، وان تهجم على قرار ٢٤٢ دون الهجوم على عبد الناصر . وان تبنى علاقات ايجابية وثيقة مع عبد الناصر تخدم قضية الصراع العربي ككل ضد العدو الصهيوني. فضلا عن افادتها من تلك العلاقات لتطوير صراعها ضد العدو الصهيوني ، وحرمانها لهذا العدو ، وكذلك حرمان الامبريالية الامريكية والقوى المضادة للثورة ، من الافادة من انتقال المعركة الى الداخل العربي بين عبد الناصر وبين الثورة الفلسطينية . ان المسألة التي يجب ان تفهم ايضا ، في هذا المجال ان سكوت حركة ثورية او نظام وطني عن بعض المسائل التي يختلف فيها مع بعض القوى التي تقع خارج جبهة العدو المباشر . وطرح وجهة النظر ايجابيا وعدم ترجمة الخلاف والتناقضات الى صراع عدائي مباشر ــ الفضح ، التعرية ، التشهير ، الاتهام بالخيانة والتآمر ــ لا يعني الموافقة على سياسات تلك القوى او ممارساتها ولا يعني التواطؤ . كما لا يعنى خداع الجماهير او تضليلها ، خاصة ، اذا طرح الاتجاه الصحيح ايجابيا ، وصحبته ممارسة عملية لفرضه على أرض الواقع .

٤ ــ كانت هنالك تناقضات اساسية بين حركة فتح وبين الانظمة العربية حول قضايا عديدة . وكان السؤال دائما كيف تعالج هذه التناقضات في ظروف انتقال مركز الثقل في النضال ضد العدو الصهيوني ؟ هل ترفع هذه التناقضات فوق التناقض مع العدو الرئيسي أم تبقى النيران موجهة الى العدو الرئيسي ويصار الى اعتبار تلك التناقضات في المرتبة الثانية وتعالج على هذا المستوى . وتبنى علاقات ايجابية وتعاون مشترك ضد العدو ؟ كان الاتجاه الثاني هو ما طبقته حركة فتح مما ساعد على الافادة من الامكانات التي اخذت تتوفر لايجاد تضامن عربي عريض من حول الثورة الفلسطينية . كان أول من افاد منه هو الثورة الفلسطينية والنضال العربي العام ضد العدو الصهيوني . ان المسألة التي يجب ان تفهم هنا ان اقامة علاقة وثيقة وايجابية بين الحركة الثورية او نظام ثوري وبين هذا النظام او ذاك ، او هذه الحركة السياسية او تلك لا تعني الموافقة على سياساته الخارجية او الداخلية . ولا يعني تأييده ضد خصومه ، او تأييده بتحالفاته .

٥ ــ أن ما تقدم لم يمنع من ان تدخل الثورة الفلسطينية وفي مقدمتها حركة فتح في صراع عدائي يصل الى حد الصدام المسلح مع عملاء الامبريالية الامريكية الذين كانوا يجرون الوضع الى هذا المستوى من الصراع جرا ، كما حدث على سبيل المثال في الاردن . ولكن ذلك لا يعني ان يتحول الى نهج في معالجة التناقضات مع الانظمة العربية عموما كلما حدث هنالك تناقض اساسي في المواقف السياسية .

٦ ــ ان معالجة التناقضات ، او الاختلافات السياسية ، بين الحركة الثورية ــ او نظام وطني او ثوري ــ وبين الانظمة العربية الاخرى والحركات السياسية الاخرى **تتطلب في ظروف انتقال مركز الثقل في الصراع العربي ضد العدو الصهيوني ، ان تقوم على اساس نظرة شمولية لجماع الصراع ضد العدو الصهيوني . لا ان تقوم على اساس مناقشة ذلك التناقض بحد ذاته بمعزل عن الصراع ضد العدو الصهيوني .** اي ان ابقاء هذه النظرة الكلية حاضرة عند معالجة التناقضات على المستوى العربي هي احد القوانين التي افرزتها سمات مرحلة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ، وعززتها التجربة الثورية للثورة الفلسطينية . وتجاوبت معها ارادة الجماهير العربية العريضة التي لم تعد في هذه المرحلة تتفهم الصراعات الحادة الداخلية فيما بين القوى والانظمة الوطنية كما كانت تفعل في المراحل السابقة ، خاصة ، قبل انفصام وحدة الجمهورية العربية المتحدة .

ان انتقال مركز الثقل في النضال العربي الى المواجهة المباشرة مع الكيان الصهيوني اخذ يدفع الى امام موضوعات « كل البنادق نحو العدو الصهيوني » ، « التضامن العربي » ، « تجنب المعارك الجانبية » ، « وحدة الصف » ، مع بقاء كل طرف سواء كان نظاما او قوة سياسية محتفظا ببرنامجه وسياساته واستراتيجيته وتكتيكه . واذا لم يكن هنالك اتفاق فلتبق العلاقات ايجابية ويبقى التعاون . واذا لم يكن من الممكن بقاء العلاقات ايجابية وبقاء التعاون فيجب الا يصار الى الانتقال للصراع العدائي ، والتمزق . لان ذلك سيفيد العدو الصهيوني لا محالة . واذا كانت مستويات الصراع ضد العدو الصهيوني متفاوتة بين الانظمة الوطنية ، وكذلك بين الحركات السياسية الوطنية ، فلتنطلق كل هذه المستويات ضد العدو ولا تتحول الى صراع عدائي فيما بينها بسبب تفاوت خوض كل منها للصراع . ولكن دون ان يعني ذلك عدم الانطلاق من هذا المستوى المتدني من علاقات النضال المشترك ضد العدو الى مستويات ارقى او ممارسة النقد الايجابي لتطوير المستويات . شريطة ان يحافظ على هذا المستوى

المتدني والبناء عليه ، لا تحطيمه اذا لم يكن بالامكان تطويره . أو يصار الى تمزيقه تحت شعار الوصول الى ما هو ارقى . ان مرحلة ١٩٦٧ وما بعد ، أخذت ترسي هذه الموضوعات والتقاليد ولكن ضمن صراع شاق ضد الامواج المضطربة التي تمثل العودة الى الماضي وتعزيز اتجاهات التبعية . وكان التقدم بهذا الاتجاه الذي مثلته فتح حثيثا على المستوى العربي العام دون ان يخلو من تراجعات ونكسات ولكنه كان يمثل اتجاه المرحلة . وقد وصل قمته في حرب تشرين ١٩٧٣ . حيث تحقق تضامن عربي عريض حول جبهات القتال المصرية ــ السورية ــ الفلسطينية . وتحقق تنسيق بين هذه الجبهات في اثناء خوض الحرب . والتفت اوسع الجماهير العربية حول جبهة القتال . وتحولت العراق والجزائر الى جبهتين خلفيتين تمدان الجبهة الامامية بالجيوش والاسلحة ومختلف اشكال الدعم . كما تجلت ظاهرة التضامن العربي في خطوة حظر النفط اسنادا للحرب .

على ان من الضروري ملاحظة اربع نقاط حول ما تقدم : (١) تخللت فترة ١٩٦٧ ــ ١٩٧١ صراعات حادة بين الثورة الفلسطينية وبين القوى المضادة للثورة في الاردن ولبنان . وهذه احدى سمات الصراع في مرحلة ما بعد حرب حزيران . لان الامبريالية الامريكية وعملاءها يهمهم ان يعود الصراع الى الداخل العربي ، وتمزيق الصف العربي . وذلك لضرب اية اتجاهات نحو قتال العدو الصهيوني . أو التضامن العربي الموجه ضد الكيان الصهيوني والامبريالية . ولهذا فان القوى التي فتحت المعارك الجانبية الى مستوى الصدام كانت عملاء الامبريالية . وقد تجلى ذلك بشكل بارز في مشروع روجرز الذي هدف الى نقل الصراع الى الداخل العربي ، والتوطئة لصدام ايلول في الاردن . (٢) ان التوجه العام لوحدة الصف ، والتضامن العربي يحمل محتوى مضادا للعدو الصهيوني ، ومن ثم للامبريالية الامريكية ، بصورة مباشرة وغير مباشرة . واذا فقد هذا المحتوى يفقد مقومات وجوده . ولا يمكن ان يتحقق . حيث اثبتت التجربة **ان معادلة التضامن العربي في الظروف العربية القائمة بعد حرب حزيران ، ولكونها تقوم بين عشرين دولة ومن بينها منظمة التحرير ، لا يمكن ان تنجح الا على ارضية دعم القضية الفلسطينية والصراع ضد العدو الصهيوني ، واخذ موقف استقلالي . والا فمصير التضامن ان يمزق ولا يقوم .** لان ثمة العديد من القوى العربية ، ومن بينها الثورة الفلسطينية ، لن تقبل بالتضامن الاعلى تلك الارضية . (٣) ان التوجه العربي العام لوحدة الصف ، والتضامن . لا يمنع ان تخوض القوى الوطنية والثورية صراعات في كل قطر ، اما باتجاه الثورة ، او باتجاه التصحيح ، او لضرب الجيوب العميلة . وبالمناسبة ، انها اذا لم تفعل ذلك فالقوى المضادة للثورة في كل قطر ستسعى ، لا محالة ، لاسقاط القوى الوطنية والثورية . فالصراع في كل قطر قانون موضوعي . ولا يتعارض بالنسبة للقوى الوطنية والثورية مع القانون الموضوعي الاخر وهو ضرورة العمل لوحدة الصف والتضامن العربي في مرحلة المواجهة المباشرة مع العدو الصهيوني (٤) ان انتقال مركز الثقل في النضال العربي لمواجهة العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية وعملائها ، يتطلب تشديد الحفاظ على الاستقلالية والسيادة الوطنية للبلدان العربية ، ورفض الثورة الفلسطينية لاي احتواء . لان ذلك يشكل شرطا لامكانية تحقيق التضامن العربي والاستمرار في الصراع في اتجاه التناقض الرئيسي .

فترة ١٩٧١ ــ ١٩٧٣ : تتميز هذه الفترة باستمرار السمات الاساسية لمرحلة ما بعد حرب حزيران مع دخول عاملين هامين ضمن السمات الاساسية وستكون لهما

فاعليتهما بالتأثير سلبا وايجابا : العامل الاول : هو نجاح المؤامرة الامريكية ـــ الاردنية باخراج الثورة الفلسطينية من الاردن . العامل الثاني : تصفية مجموعة علي صبري من السلطة في مصر وبداية مرحله الصراع الحاد بين مصر وبين الاتحاد السوفياتي . وما تبع ذلك من اخراج الخبراء السوفيات من مصر .

ادى العامل الاول الى عودة بروز الانجاهات التي تريد من الثورة الفلسطينية ان تنقل مركز ثقل نضالها الى الداخل العربي . فبدلا من ان يستمر تعزيز الاتجاهات التي تتطلبها مرحلة ما بعد حرب حزيران ، والتي عبرت عنها فتح ، مع عدم فصلها عن ضرب عملاء الامبريالية الامريكية الذين يشكلون القوى المضادة للثورة في الاردن، راحت تلك الاتجاهات تسعى لسحب ضرورة الصراع ضد النظام الاردني الى الصراع ضد كل الانظمة العربية . ونقل التناقضات الاساسية التي كانت في المرتبة الثانية الى تناقضات رئيسية تحظى على المرتبة الاولى . اما العامل الثاني فقد ادى ، فيما ادى اليه ، الى دخول الوضع في المنطقة في مرحلة الصراع بين مصر وبين الاتحاد السوفياتي في ظل الصراع ضد الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية الى جانب ما يجره ذلك من تغييرات في اعادة ترتيب الوضع الطبقي في مصر . وما يتبعه من صراعات داخلية وعلى المستوى العربي . وادى الى بروز اتجاهات لنقل ثقل الصراع الى الداخل العربي . ومن ثم تعزيز اتجاهات العودة الى صراعات المحاور العربية . على ان تركيز النضال العربي في الفترة ما بين ١٩٧١ ـــ ١٩٧٣ على مواجهة الكيان الصهيوني مواجهة مباشرة ، وما يعنيه ذلك من مواجهة عدائية مع الامبريالية الامريكية . ابقى الاتجاه الغالب في الوضع نحو تعزيز التضامن العربي . وهذا قانون موضوعي ملازم لتركيز النار على الكيان الصهيوني . ووصل هذا الاتجاه قمته في حرب تشرين المجيدة ١٩٧٣ . وفي معركة حظر النفط العربي .

فترة ١٩٧٣ وما بعد : ان السمات الرئيسية ، والقوانين التي تحكمت في الصراعات والعلاقات فيما بين الانظمة العربية . وكذلك فيما بين القوى الوطنية . وفيما بين القوى وبين الانظمة في مرحلة ما بعد ١٩٦٧ حتى الان ، بما في ذلك العاملان اللذان دخلا على الوضع في فترة ١٩٧١ ـــ ١٩٧٣ ، ما زالت قائمة في فترة ما بعد حرب تشرين **التي هي استمرار للمرحلة السابقة ، تحمل كل سماتها الاساسية واتجاهاتها ولكن ضمن موازين قوى مختلفة عن موازين القوى التي اتسمت بها المرحلة التي بدأت عام ١٩٦٧ . وان هذه بدورها ستعطي بعض السمات الجديدة وتغير من بعض السمات والقوانين ولكن ضمن الاتجاه العام الذي حدد لمرحلة ما بعد ١٩٦٧** . وذلك لان الاحتلال الصهيوني لفلسطين ولغالبية الارض العربية في سيناء والجولان **ما زال قائما** . وان انحسر بعد حرب تشرين حتى الان عن بعض الاراضي في سيناء والجولان. الامر الذي يعني **ان مركز الثقل في النضال العربي ما زال ضد العدو الصهيوني المدعوم من الامبريالية الامريكية . وما زالت المواجهة المباشرة قائمة . كما ان الثورة الفلسطينية ما زالت تشكل طليعة ثورية صدامية ضد الكيان الصهيوني . الى جانب استمرار المواجهة ضد الامبريالية الامريكية** . ولكن العوامل الجديدة التي دخلت على الوضع نتيجة حرب تشرين هي : (١) ان ميزان القوى في الصراع مال ضد مصلحة العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية . ولمصلحة الوضع العربي عموما . فقد خرجت مصر وسوريا ومعهما التضامن العربي من الحرب بوضع اقوى وكذلك الثورة الفلسطينية . وخرجت الدول العربية عموما اقوى من بعد معركة حظر النفط . وتعاظم العائدات النفطية بعد رفع الاسعار . (٢) تحقق تضامن عربي فعال في حرب تشرين وفي معركة حظر النفط وكذلك في مؤتمري القمة العربيين السادس والسابع ،

وفي دفع قضية فلسطين لتدرج على جدول اعمال الجمعية العمومية لهيئة الامم المتحدة في الدوره ٢٩ لعام ١٩٧٤ ـــ ١٩٧٥ . (٢) احرزت الثورة الفلسطينية تقدما كبيرا في تصعيد الكفاح المسلح والنضال الشعبي ضد الكيان الصهيوني . وفي مجال الاعتراف العربي بمنظمة التحرير ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني . وفي المجال الدولي في مؤتمرات دول عدم الانحياز ، ومؤتمرات القمة الافريقية والاسلاميه وفي هيئة الامم ولدى الراي العام العالمي .

لقد دخلت الى الوضع العربي سمة جديدة بعد حرب تشرين ونتيجة اختلال موازين القوى المذكورة في غير مصلحة العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية (كذلك حدث اختلال لميزان القوى على النطاق العالمي في غير مصلحة الامبريالية الامريكية) . وهي عدم قدرة الامبريالية الامريكية والعدو الصهيوني على تجميد الوضع تحت حالة « لا حرب ولا سلم » كما فعلا بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . اي عدم القدرة على فرض الامر الواقع الذي نجم عن حرب حزيران كما كان الحال من عام ١٩٦٧ الى ١٩٧٣ . واصبح العدو الصهيوني التوسعي الذي كان يرفض اي تراجع عن الارض مضطرا لتقديم تراجعات جزئية عن بعض الاراضي وذلك من اجل كسب الوقت لاعادة موازين القوى لمصلحته . وتجزيء الصف العربي . وانزال ضربة عسكرية تعيد له هراوته الغليظة . واصبحت الامبريالية الامريكية مضطرة للدخول في مفاوضات مع الجانب العربي ـــ مصر وسوريا ـــ لتحقيق بعض الانسحابات من الارض العربية التي احتلت في حرب حزيران ١٩٦٧ . وذلك من اجل اعادة موازين القوى لمصلحتها ومصلحة العدو الصهيوني . وتجزيء الصف العربي . واعادة فرض الامر الواقع السابق مع استمرار السعي لاخضاع الامة العربية لنفوذها . او بعبارات اخرى دخلت على الوضع ظاهرة اتفاقات « فك الارتباط » . وما يمكن ان تتضمنه ايضا من تنازلات عربية قد تنقل الوضع الى صراعات حادة بين الاقطار العربية وكذلك بين القوى الوطنية ، بما فيها الثورة الفلسطينية ، وبين بعض الانظمة العربية خاصة مصر بما في ذلك التناقض الحاد بين مصر وسوريا . لقد اثبتت التجربة التاريخية لمرحلة ما بعد حرب حزيران ان التضامن العربي بين الانظمة يصبح ممكنا ويقوى مع الاتجاه نحو الحرب ضد العدو الصهيوني . وكذلك مع اشتداد المواجهة والتحدي . ويبدأ بالتضعضع مع اتجاهات تهدئة الصراع والسير على طريق التسويات . ولهذا فان الاتجاه نحو التضامن العربي سار على طريق متعرج مع تعرج طريق المواجهة المباشرة ضد العدو الصهيوني ، عبر فترات التأزم والتجميد والمفاوضات مع امريكا ، والتهدئة والقتال والحرب ووقف اطلاق النار وفك الاشتباك ، والعودة الى التأزيم والاستعداد للحرب والبحث عن فك ارتباط اخر وهكذا . لقد اتسم الوضع بعد حرب تشرين ١٩٧٣ بظاهرة اتجاه الدول العربية نحو التضامن ، كلما اشتد الصراع ضد العدو الصهيوني ، وبظاهرة تعرض العلاقات الى صراعات حادة مع ظاهرة التقدم على طريق خطوات فك الارتباط . فقد شاهدت تلك الفترة تأزما في العلاقات المصرية ـــ السورية وفي العلاقات المصرية ـــ الفلسطينية . وشاهدت تلك الفترة تحسنا للعلاقات بين هذه الاطراف التي تشكل قوى المواجهة الرئيسية بعد ذلك مع عودة اشتداد الصراع ضد العدو الصهيوني . ولهذا يتوقف مصير التضامن العربي على مصير العلاقات فيما بين مصر وسوريا والثورة الفلسطينية والتي تتوقف بدورها على مدى استمرار المواجهة المباشرة ضد العدو الصهيوني . فالقانون الذي يحكم مصير هذه العلاقات من الناحية الموضوعية هو مدى الاستمرار في الصراع ضد العدو الصهيوني .

ان اتفاقية سيناء الاخيرة وشجب غالبية قوى النضال العربي لها أدخلا عاملا جديداً يضاف الى العاملين اللذين دخلا في الوضع في ١٩٧١ وما بعد ، ضمن استمرار بقاء السمات الاساسية التي امتاز بها الوضع بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وهو ازدياد قوة احتمال العودة الى المحاور العربية المتعادية . اي تحويل البنادق ضد بعضها البعض الى الداخل العربي . ان هذه العوامل الثلاثة تشكل الاتجاه المعاكس لعملية تركيز النار على طرف التناقض الرئيسي في الوضع اي العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية . انها تشكل الاتجاه المعـاكس لموضوعات « كل البنادق نحـو العدو الصهيوني » ، « التضامن العربي ضد العدو الصهيوني المدعوم مـن الامبريالية الامريكية » .

ان أخطار هذا الاتجاه المعاكس تتمثل ، اساسا ، في حرف البنـادق عن العـدو الصهيوني والقبول بمهادنته ، وتخفيض مستوى الصراع معه عن مستوى المواجهة المباشرة ، وفي الدخول بمساومة مع الامبريالية الامريكية ، لان ذلك يحرف النضال عن مواجهة التناقض الرئيسي الذي أصبحت مواجهته ملحة ، موضوعيا ، بعد سقوط حلف بغداد ١٩٥٨ ، بالنسبة لمجموع النضال العربي . واصبحت أمرا لا مفر منه بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وقد شكلت هذه المواجهة ، اي ضرورة نقل مركز الثقل في النضال العربي ضد الكيان الصهيوني والامبريالية الامريكية ، الشرط الضروري لتحقيق أهداف الثورة العربية ، وذلك **من خلاله وفي اثنائه** ، اي عبر عملية تحريـر كامل التـراب الفلسطيني . كما تتمثل تلك الاخطار أيضا في انها تضع الحب في طاحونة الذين يريدون العودة الى صراعات المحاور ، وتحويل الصراع الى الداخل العربي . ان التجربة الثورية للنضال العربي علمت ان عدم تحويل مركز الثقـل في الصراع الى الداخل العربي لا يكون الا بالتركيز أساسا على العدو الصهيوني ، **والذي يعني الصدام مع الامبريالية الامريكية في بؤرة نفوذها الرئيسية ، وليس بالضرب في الاطراف** . عندئذ لا يعالج شجب « تهدئة الصراع ضد العدو على جبهة سيناء »، بتهدئة هذا الصراع على الجبهات الاخرى ، او شله ، عبر عملية نقل مركز الثقـل في الصراع الى الداخـل العربي . ومن هنا فان سمات الوضع بعد حرب حزيران ، والتي اعادت مركز الثقل في النضال الى مواجهة التناقض الرئيسي تتهددها الآن رياح العودة الى مرحلة الستينات اي تحقيق حلم كل اولئك الذين سددوا سهامهم المسمومة ضد شعار كل البنادق نحو العدو الصهيوني . ولهذا فان المرحلة الراهنة ستواجه صراعا بين الذين يريدون اعتبار مصر السادات العدو « رقم ١ » ، وتحويل كل البنادق تجاهها ، وبين الذين يريدون الابقاء على تركيز النار ضد العدو الصهيوني مستمرين برفع شعارات مرحلة مـا بعد ١٩٦٧ التي عبرت عنها حركة فتح وعلى رأسها كل البنادق نحو العدو الصهيوني دون أن يتعارض ذلك مع موقفهم المبدئي والتكتيكي في معارضة اتفاقية سيناء ١٩٧٥ ، ودون ان يقود ذلك الى سحب المدافع من الجبهة وتوجيهها ضد السادات ، ونقل مركـز الصراع العدائي الى الداخل العربي ، لانهم يدركون ان هذا هو الطريق لتسخين كل الجبهات وللحفاظ على الثورة الفلسطينية والنضال العربـي ، ولتعزيز الاستقلال والتضامن العربيين ، وضرب مناطق النفوذ الامبريالي ، ومنازلة الامبريالية الامريكية في عقر دارها ــ الكيان الصهيوني .

ينبغي ان يذكر هنا ان المحاولات العربية للدخول في هدنة مع العدو الصهيوني وفي مساومة مع الامبريالية الامريكية اي تجنب نقل مركز الثقل في النضال العربي الى المواجهة المباشرة مع الطرف المقابل لنا في التناقض الرئيسي ، لم تؤد الا الى تذبذب بوصلة النضال عن التوجه نحو الهدف ، والاستراتيجية والتكتيك الصحيحين . كما ان

الاطراف المقابلة لنا في التناقض الرئيسي للكيـــان الصهيوني والامبريالية الامريكيــة وعملائها ، ظلوا يطرقون على رؤوسنا مذكرين ان من العبث التوجـــه الى معارك الاستقلال والتحرر والوحدة الا عبر مواجهتهم مواجهـــة مباشرة . ان هذه العملية ستأخذ في المرحلة القادمة اشكالا ومحتويات جديدة ضمن أوضاع عربية وعالمية مختلفة وموازين قوى مختلفة ، ولكن دون تغير أساسي في الجوهر .

ينبغي أن يلاحظ هنا ايضا قبل الانتقال الى الخلاصة ان مسألة الوعي تلعب دورا هاما وحاسما في كيفية فهم سمات كل مرحلة ، واين مركز الثقل في النضال العربي ، وكيفية معالجة التناقضات داخل الوضع العربي على المستوى العام . لان تغير الوضع من مرحلة الى مرحلة ومن ثم تغير السمات ومركز الثقل والقوانين التي تعالج بهـــا التناقضات داخل الوضع العربي ، يسبق دائما الوعي العام . ولهذا فان مشكلة خوض معارك مرحلة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧ بالعقليـــة والموضوعات والسياســـات والشعارات والاساليب التي خيضت فيها معارك المراحل السابقة تؤدي الى تخلف النضال العربي وتعرضه للكوارث ، وتفتح المجال امام الاتجاهات المشبوهة لاستغلالها من اجل حرف النضال عن مركز الثقل في مواجهة التناقض الرئيسي .

خلاصة :

ان النضال العربي القومي لتحقيق أهداف الثورة العربية في التحرر من الاستعمار ومناطق النفوذ الامبريالية وتحقيق الاستقلال الوطني ، وتحرير فلسطين ، وتوحيد الامة العربية والوطن العربي ، وتحقيق الثورة الديمقراطية ثم الاشتراكية يتخذ طابع عملية تاريخية طويلة الامد تمر عبر مراحل ينتقل فيها مركز الثقل في نضال الجماهير وقواها السياسية المنظمة ، بصورة متنوعة من مرحلة الى اخرى ضمن حلقات متصلة تنتهي الى تحقيق أهداف الثورة العربية كلها . وان كل مرحلة من هذه المراحل تشكل خطوة متقدمة عن المرحلة التي سبقتها . وان لكل مرحلة سماتها ومركز الثقل فيهـــا والقوانين التي تحكم النضال العربي القومي العام . الامر الذي يتطلب من القـــوى الوطنية والقومية والثورية ان تدرك سمات كل مرحلة ومركز الثقل فيها والقوانين التي تحكم النضال العربي القومي العام ، وتترجم ذلك الى موضوعات نظـــرية وبرامج وسياسات وشعارات واستراتيجية وتكتيك واشكال للعلاقات فيما بينها تتناسب وكل مرحلة من تلك المراحل .

ومن هنا فان ادراك سمات مرحلة ما بعد حرب حزيران ١٩٦٧ ومركز الثقل فيها والقوانين التي تحكم العلاقات فيما بين الجماهير والقوى الوطنية والقومية والثورية على النطاق العربي العام ، يشكل اهمية قصوى لانجاز مهمات هذه المرحلة واهدافها المباشرة ومواصلة العملية التاريخية للثورة العربية من أجل انجاز أهدافها كاملة . وفي هذا المجال يمكن تقديم المساهمات التالية بالاضافة الى ما قدم من مساهمات في هذا البحث :

١ — ان مركز الثقل في النضال العربي العام هو المواجهة المباشرة للعدو الصهيوني المدعوم من الامبريالية الامريكية ، مع ملاحظة ان مسالة تعزيز الاستقلال الوطني ضد التغلغل الامبريالي وضد تسلل الاجنحة العميلة في كل قطر عربي ، ومنع اعادة تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ للامبريالية ، أخذت ترتبط في مركز الثقل المذكور ارتباطا قويا .

٢ — ان مركز الثقل المذكور الذي تولد عن السمات الخاصة بمرحلة ما بعد حرب

حزيران والذي يعود الى بداية نضوج ظروفه منذ سقوط حلف بغداد ١٩٥٨ ، ما زال يشكل الاتجاه الرئيسي الموضوعي ، والذي ارتفع الوعي العام الى مستواه بعد ١٩٦٧، ولكنه يواجه الآن عوامل جديدة ذات اهمية كبيرة ينبغي ان تجري معالجتها في اطاره لا في الخروج عنه .

٣ ــ ان موضوعات فتح التي عبرت عن مرحلة مواجهة التناقض الرئيسي ما زالت صالحة لمواجهة الوضع الراهن لان السمات الاساسية المتمثلة (أ) بوجود الكيان الصهيوني على ارض فلسطين وانتشـــار الاحتلال الصهيوني الـــى سيناء والجولان (ب) وبارتباط المعركة مع الامبريالية الامريكية بالمعركة ضـــد الكيان الصهيوني ، (جـ) ومن ثم استمرار مركز الثقل في النضال العربي في نقطة المواجهة المباشرة مع العدو الصهيوني والامبريالية الامريكية ، **يشكل الشرط الضروري للنجـــاح في معركة الاستقلال العربي والتضامن العربي وضرب مناطق النفوذ الامبريالي والسير قدما نحو تحقيق أهداف الثورة العربية .**

تأسيس شرق الاردن في العام ١٩٢١

هنري ديـاب

فيما يلي ترجمة عربية لجزء من دراسة يعدها الباحث الفلسطيني في السويد هنري دياب لنيل شهادة الدكتوراه من دائرة التاريخ في جامعة لوند بجنوب السويد .

بريطانيه وشرق الاردن قبل تأسيس الدولة

المصالح البريطانية في الشرق الاوسط : في أعقاب الحرب العالمية الاولى أصبح الشرق الاوسط « المسرح الجديد للمصالح البريطانية المباشرة الواسعة »(١).وكما ذكر الاستاذ فيتزيمونز فان الشرق الاوسط لم يهيء للامبراطورية البريطانية المواقع الاستراتيجية فحسب ولكنه ايضا كان يزودها بالمواد الخام المهمة التي تحتاجها للابقاء على استمرار اقتصادها الاخذ بالاتساع . ولقد كان الشرق الاوسط ملتقى المواصلات وجارا مهما لروسيا . وبالاضافة الى ذلك فهو الوسيلة للوصول الى الزيت . وكانت هذه المواقع « المواقع الجغرافية على خطوط المواصلات الاستراتيجية » بجانب مصادر الزيت تعني اعادة ترتيب السياسة البريطانية في المنطقة . وفي أي حال فقد تأكد لحكومة جلالته ان اعادة ترتيب السياسة البريطانية يجب ان تأخذ في الاعتبار تقديم تنازلات من جانب بريطانيه الى كل من فرنسه والعرب والصهيونيين ، خلال سنوات الحرب . وكتبلينوفسكي انه نتيجة لهذا الوضع فقد جرى « تطوير نظام هجين يجمع بين اللبرالية والامبريالية في صيغة نظام الانتداب »(٢). وكان وراء ذلك قصة ذات بعدين: فمن جهة ، كان انتصار بريطانيه في الحرب يعني انها يجب أن تحافظ على نفوذها في الشرق الاوسط من خلال ايجاد « انسان من المعاهدات » . بينما كانت هزيمة الامبراطورية العثمانية تعني تفسخ الدولة وولادة قوة سياسية جديدة في المنطقة كشفت عن نفسها في القومية العربية ، وهي قوة جديدة في الشرق الاوسط لم تكن متوقعة .

لقد كان تفسخ الامبراطورية العثمانية ابرز نتائج الحرب واكثرها اهمية ، فقد مثل هذا الحدث نقطة وثوب للقومية العربية وتمهيدا لبريطانيه لتفرض سيطرة جديدة على المنطقة .

وفي احد المعاني . فقد « كانت القومية العربية [كما كتب مارلو] ردة فعل للضغوط الاوروبية »(٣). وكان من الطبيعي ان يؤدي ذلك الى زيادة تورط بريطانيه في المنطقة بالمقارنة مع سنوات ما قبل الحرب .

بالاضافة الى ذلك فان انتصار بريطانيه في العام ١٩١٨ منحها « ثقة بالنفس واحساسا بالامن استمرا حتى العام ١٩٢٩ »(٤). غير ان الاقطار الواقعة تحت الانتداب لم تشارك بريطانيه هذين الاحساسين اللذين حققهما انتصار ١٩١٨ . فقد كان هناك ميل في الشرق الاوسط لعدم قبول الهيمنة والتدخل الغربيين . وهذا الميل نحو النضال ضد السيطرة البريطانية جعل بريطانيه تعيد النظر في كيفية فرض سلطتها على الشرق الاوسط . ذلك أن بريطانيه ، في هذه الفترة ، كانت في نظر الرسميين البريطانيين « عنصر الاستقرار الاساسي »(٥)، وكان الاستقرار يعني فرض السيطرة .

المصالح البريطانية في شرق الاردن : كانت شرق الاردن من بين الاقطار التي اعتبرها صانعو القرار البريطانيون مناطق مهمة(٦). وبذلك دخلت

شرق الاردن في الخطة السياسية البريطانية التي تشمل الشرق الاوسط نظرا لارتباطها بالمصالح الاستراتيجية البريطانية في الاقطار المجاورة وفي الهند . ففي هذا الوقت كانت بريطانية تعلق اهمية كبيرة على « الممر [الموصل] بين مصر والعراق » . وقد ضمنت بريطانيه هذا الممر ، فيما بعد ، بفرض الانتداب البريطاني على فلسطين وشرق الاردن(٧). ومن وجهة نظر استراتيجية فأن السيطرة البريطانية على شرق الاردن تعني الامن في فلسطين ، في الوقت الذي كانت فيه فلسطين تمثل موقعا جغرافيا مهما في المنطقة ، فقد كان البريطانيون مقتنعين بأن فلسطين عامل أساسي في سلامة قناة السويس(٨)، كما أن اهمية فلسطين الاستراتيجية تكمن في اعتبارها مفتاحا للدفاع عن الشرق الاوسط . وقد كتب الكولونيل ماينر تزهاجن في كتابه « يوميات الشرق الاوسط » انه « بوجود القواعد البريطانية في فلسطين فأن وضعنا في الشرق الاوسط سيظل امينا الى الابد »(٩). وبالاضافة الى هذه الاهمية الاستراتيجية ، فقد جذبت شرق الاردن اهتمام وزارة الزراعة . فوجود ترسبات الفوسفات في السلط ، الواقعة ضمن حدود شرق الاردن . ادى الى تبادل في الرسائل بين وزارتي الزراعه والخارجية . فبدعم من « جمعية صانعي الاسمدة — المحدودة » خاطبت وزارة الزراعة وكيل وزارة الخارجية ليشمل السلط ضمن حدود فلسطين . وكان الدافع وراء ذلك « أهمية [المنطقة] من منظور الزراعة البريطانية » ، وقد طلبت الوزارة أن تبقى أهمية الترسبات بالنسبة لبريطانيه « ماثلة في الذهن لدى تصميم حدود فلسطين »(١٠).

مظاهر مستقبل السياسة البريطانية في شرق الاردن : لم يكن الميجور يونج في مذكرته عن مستقبل السيطرة على الشرق الاوسط — حاسما بالنسبة لمستقبل شرق الاردن فقد وضع ثلاثة احتمالات لمستقبل شرق الاردن في حال خروجها من منطقة السيطرة الفرنسية(١١). « فهي اما ان تعتبر جزءا من الحجاز(١٢)، او منطقة انتداب بريطاني(١٣)، او جزءا من مملكة فيصل التي يتنازل فيها الفرنسيون عن مصالحهم(١٤).

ومن الواضح ان شرق الاردن كانت ذات اهميه بالنسبة لبريطانية ، ولكن على الرغم من المصالح الاسرابيجية وما يسمى المصالح الاقتصادية ، فان دور بريطانيه في شرق الاردن كان مرهونا بعلاقاتها بفلسطين . فقد كانت فلسطين كذلك شرق الاردن ، من حصة بريطانيه . وفي الاول من تموز ١٩٢٠ حلت الادارة المدنية محل الحكم العسكري في فلسطين وقد شملت شرق الاردن بذلك ، وعين السير هربرت صموئيل اول مندوب سام . وفي هذاالوقت ظلت شؤون شرق الاردن يديرها مستشارون سياسيون تعينهم الادارة المدنية في فلسطين .

لم تكن وزارة الخارجية في لندن متيقنة من مستقبل البلاد . وقد كتب كرزون الى السير هربرت صموئيل في ٦ آب ١٩٢٠ ، أن احتلال شرق الاردن عسكريا يعتبر عملا غير حكيم وغير ضروري(١٥). وقد بدا واضحا ، على الاقل في تلك الفترة ، ان أي أجراء عسكري كان غير مرغوب فيه ، اذ انه سوف يورط بريطانيه وفرنسه في منازعات حدودية . أما هذا الاسلوب المعدل فقد أبقى فرنسه بعيدة عن شرق الاردن وفي الوقت نفسه لم تدخل تعديلا على السياسة البريطانيه . وقد أوضح كرزون في البرقية نفسها سياسة حكومة جلالته ازاء استغلال شرق الاردن، لكنه « ضمن اوثق العلائق مع فلسطين » . وهكذا فان موقف بريطانيه لم يكن محددا تجاه شرق الاردن التي كانت بريطانيه وفرنسه في نزاع حول مستقبلها . فقد بدا أن موقف كل من الدولتين تحركه قضية الحدود ، فالفرنسيون كانوا يرغبون في وجود منطقة مسالمة ، بينما كان البريطانيون يرغبون في الاستقرار بجانب الامن في فلسطين . وقد يجوز الافتراض ان المسألة كانت على جانب من البساطة ، غير ان الامر لم يكن كذلك ، فالوضع كان يتدهور بسرعة ، وواحدة من الدولتين كانت تعمل ضد الاخرى(١٦). وقد كان كرزون يعارض اي حل عسكري بينما كان هربرت صموئيل كما تظهر ذلك التقارير ، على العكس من ذلك .

ولان المعلومات التي أرسلت الى وزارة الخارجية كانت غير صحيحة فانه يجدر أخذ البرقية التي أرسلت الى كرزون وتحمل الرقم ١٨٠ بعين

الاهتمام . ففي الحقيقة ، لم يؤد انحراف المندوب السامي الى أي تغييرات حادة . ففي البرقية الرقم ١٨٠ ابلغ هربرت صمويل ، كرزون ان حكومة جلالته ترتكب خطأ فاحشا اذا لم تشمل شرق الاردن بفلسطين فورا . فالدمج ضروري لحماية القطر من الفوضى او السيطرة الفرنسية عبر الحدود[١٧].

وفي برقية سابقة أرسلت الى كرزون قبل ١٥ دقيقة من البرقية المذكورة ، دافع المندوب السامي عن الاحتلال البريطاني بأنه جاء بناء على نصيحة اعطيت له من جانب شيوخ شرق الاردن . ففي هذه البرقية التي تحمل الرقم ١٧٩ وصف هربرت صمويل الوضع كما يلي : « أستطيع أن أؤكد ان الاحتلال يمكن ان يحدث دون قتال ويمكن صونه دون نفقات اضافية »[١٨]. تلك كانت خطة صمويل التي اخفاها خلف قناع الادارة المدنية . وكانت دعوته الى الاحتلال التي وردت في البرقيتين ١٧٩ و١٨٠ رفضا للحقائق الجديدة اعني ان شرق الاردن كانت جزءا من منطقة شاسعة وعدت بالاستقلال . وفوق ذلك فان « مشروع الاحتلال » الذي لم يعتبر « مغامرة عسكرية » اظهر استخفاف صمويل بقومية المنطقة . وقد كشفت عواطف صمويل القومية في البرقية رقم ٨٠ التي وجهها اليه كرزون[١٩].

بينما كانت وزارة الخارجية تبحث عن حل مناسب لفرض الادارة البريطانية على شرق الاردن، لم تكن السلطات البريطانية راغبة في اقامة ادارة مشابهة لتلك التي في فلسطين . وليس سهلا تحليل مواقف الرسميين البريطانيين . فقد أظهرت سياسة كرزون في هذه المرحلة انه يعارض اي تبديل في التفاهم البريطاني ـــ الفرنسي . ويوضح ذلك لماذا كان كرزون يدرك ان الاحتلال « أمر غير حكيم » . وفي الجانب الاخر كان هربرت صمويل يذكر وزارة الخارجية بأن الاحتلال أمر ضروري . ولكي يبرهن صمويل ان الاحتلال كان مرغوبا فيه في شرق الاردن فقد بنى معلوماته على ما ابلغه اياه الشيوخ في شرق النهر . وهذه المعلومات لا يمكن ان تعتبر بينة شرعية فتفاصيلها وردت الينا من خلال برقيات صمويل الى وزارة الخارجية وليس ثمة مصدر آخر يدعم رواية صمويل . وبجانب ذلك اعتبر صمويل الشيوخ السند الجديد الذي يمكن ان يتبناه للسيطرة البريطانية القادمة[٢٠].

اما في لندن فقد كان وزير الخارجية ، ايرل كرزون ، معنيا بتعيين امير شريفي ليحكم شرق الاردن ، وكان الملك يشاركه ذلك الراي[٢١]. وقد استفسر كرزون من صمويل عن الامير زيد فأبلغ ان زيدا في حيفا وانه سوف يغادرها الى اوروبه مع فيصل. ويمكن ملاحظة استمرار صمويل في سياسته المعارضة لـ « الحل الشريفي » من خلال الملاحظات التي كان يبديها المندوب السامي لوزير الخارجية . فقد أبلغه ان زيد (احد افراد الاسرة الشريفية) كان رجلا غير ذي تجربة و« تنقصه المؤهلات الشخصية التي يتطلبها اقامة السلطة »[٢٢].

ويثير هذا الخلاف الملاحظتين المهمتين التاليتين : الاولى، منطلقة من الفهم الحقيقي لسياسة بريطانيه تجاه شرق الاردن ، هي ان وزارة الخارجية كانت مهتمة في ايجاد حل حكيم وغير مكلف للمنطقة ، وهذا الحل ينبغي أن يضمن ، بوضوح ، الامن والمصالح البريطانية . والملاحظة الثانية هي ان هربرت صمويل ، بوصفه مندوبا ساميا ، كان يتصرف ايضا وفق مصالح المنظمة الصهيونية .

وفي غضون ذلك تأكد لدى البريطانيين اهمية تأسيس حكومة ذاتية محلية في شرق الاردن . وكان كرزون يفضل ذلك ، فقد اقترح في رسالة وجهها الى هربرت صمويل في ١١ آب ١٩٢٠ ان يرسل ضباطا سياسيين بريطانيين الى مناطق مختلفة في شرق الاردن « بشرط ألا يكون من ضرورة لوجود حاميات عسكرية لتحافظ على سلامتهم »[٢٣]. وقد كان هذا القرار ناتجا عن رفض وزارة الخارجية أي حل عسكري . بالاضافة الى ذلك فان وزارة الحربية كانت ترفض بحسم ان تقدم جنودا بغرض احتلال شرق الاردن فقد كانت وزارة الحربية تعارض « أي اجراء في شرق الاردن يمكن ان يزيد من تورط الجنود البريطانيين العسكري »[٢٤].

وهكذا انتصر خط وزارة الخارجية « المعتدل » في السيطرة على شرق الاردن بعد استشارات تمت مع كلايتون وديدز اللذين عبرا عن رأيهما في ان « الوسيلة الافضل لضمان رغبة حقيقية ودائمة في مد الادارة البريطانية نحو الشرق هي في اعطاء شعب شرق الاردن فرصة التأكد تدريجيا من المنافع التي ستجلبها هذه الادارة لهم »[٢٥].

كانت تلك هي الخطوة الاولى في السيطرة على شرق الاردن ، البلد الذي استبدل بالحكم العثماني حكما بريطانيا . وفي البداية جرى تنفيذ الادارة البريطانية في شرق الاردن من خلال « اعطاء المشورة بناء على طلب الشعب »(٢٦). وكان البريطانيون يؤكدون ان هدفهم هو ان يقدموا العون من اجل الوصول الى ديموقراطية دستورية ملائمة .

في المرحلة الاولى من السياسة البريطانية في شرق الاردن كان البريطانيون معنيين بالتوضيح ان فلسطين هي « المنفذ الطبيعي لشرق الاردن »(٢٧) وان شرق الاردن هي حديقة فلسطين الخلفية .

وعلى الرغم من الخلاف بين وزارة الخارجية والمندوب السامي البريطاني على فلسطين بالنسبة لوسائل « الاستيلاء » على شرق الاردن او ادارتها، فان الجانبين يتقاسمان الرأي حول اهمية وجود علاقة منسجمة بين فلسطين وشرق الاردن .

وفي أي حال ، فقد رفضت وزارة الخارجيه اقتراح هربرت صمويل بأن تشمل فلسطين شرق الاردن . فقد كان رأي وزارة الخارجية ان ضم شرق الاردن الى ادارة فلسطين المدنية سوف يواجه معارضة سياسية . وكان كرزون يدرك ان هذا الوضع سيجعل بريطانيه تختار احد بديلين ، أما « الانسحاب او الاحتلال العسكري »(٢٨).

الاعداد للسيطرة البريطانية قبل مؤتمر القاهرة

أسلوب السيطرة البريطانية : ان المظهر الاستعماري للسياسة البريطانية في شرق الاردن كشف عن نفسه في اسلوب الممارسة السياسية . فقد كان دخول بريطانيه هذه البلاد نتيجة لهزيمة الامبراطورية العثمانية وتميز هذا الدخول بموافقة من فرنسه . وقد كان الوجود البريطاني في المنطقة يكاد لا يلحظ ، ولم تكن أهداف المصالح البريطانية في المنطقة قد أدرجت بعد في خطة العمل السياسية البريطانية . وعلى العكس من ذلك فقد تركت المنطقة دون ادارة . وكان ذلك في الوقت الذي كانت فيه السلطات البريطانية مشغولة باقامة ادارة مدنية في فلسطين . بيد ان تدهور الاوضاع السياسية في شرق الاردن جعل السلطات البريطانية تبادر الى معالجة الوضع معالجة اكثر انتباها ودقة .

لقد تأثر مجرى العمل السياسي في شرق الاردن بالمصالح البريطانية في فلسطين مع انه لم يكن قد انجز بعد حل محدد . وكانت الاهداف الرئيسية للعمل السياسي البريطاني معنية بأمرين : الاول انقاذ البلاد من ان تغرق « في حالة الفوضى » ، واقامة حكومات محلية . والثاني الاستمرار في السياسة البريطانية الرامية الى اقامة علاقات أوثق مع فلسطين . وقد حاولت هذه السياسة ان تحافظ على الوضع الراهن وان تضع البلاد تحت الادارة البريطانية بشكل اكثر التصاقا . وقد ظن

ان ايرل كرزون ، الذي طلب من المندوب السامي على فلسطين ان يتوجه شرقا ، كان ينشد ود العرب لدى صياغه خطته السياسية في شرق الاردن . فالتعليمات التي تضمنتها رسالة كرزون الى هربرت صمويل تدل على ان المدخل للنظام هو تأسيس « سيطرة غير مباشرة » ، وقد تقرر ذلك خلافا لتوصيات صمويل بمد « السيطرة المباشرة » الى شرق الاردن .

وكانت تلك هي الصيغة الاولى لمستقبل الهيمنة البريطانية على شرق الاردن . عدا وتكشف التعليمات عن اسلوب « القدرة البريطانية على ان تكون المعلم للشعوب المتخلفة »(٢٩).

كان من المتوقع ان يلجأ هذا الاسلوب البريطاني في العمل السياسي الى طلب التعاطف معه داخل حدود شرق الاردن . وكانت وزارة الخارجية والمندوب السامي البريطاني كلاهما يتشاركان الرأي بأن هذا العمل السياسي لن يواجه صعوبات من جانب معارضة منظمة .

لقد تبنى كرزون — في توضيحه لخلفية تعليماته — مبدأ « السيطرة غير المباشرة » . وينبغي فحص مسألة ما اذ كان كرزون واعيا أسلوب الحكم الاستعماري الذي تقرر لمستقبل شرق الاردن ، بالرجوع الى تعليماته هو . فقد كان على كرزون ان يأخذ في الاعتبار الاهداف الاستراتيجية

البريطانية في المنطقة . وفي رسالته المؤرخة في ١١ آب لا توجد اي اشارة الى الربط بين المصالح المحلية والاجراءات المحلية . ومع هذا فمن الواضح ان المصالح المحلية تطلبت مبادرة بريطانية في شرق الاردن منذ ان وقعت البلاد تحت الادارة البريطانية. وتوضح رسالة كرزون ثلاثة مبادىء اساسية في العمل السياسي البريطاني في المنطقة . في المقام الاول تقدم انموذج « السيطرة البريطانية غير المباشرة » في شرق الاردن . وهي ثانيا تميز طريقة العمل السياسي بـ « تشجيع الحكومات الذاتية المحلية »(٣٠). وتؤكد ثالثا على نموذج الهيمنة البريطانية على فلسطين وعلاقتها بشرق الاردن .

في هذا الوقت تحرك السير هربرت صموئيل الى السلط حيث قابل الوجهاء وزعماء عشائر البلاد المجتمعين هناك . وقد أكد صموئيل الحكم البريطاني للمنطقة وأعلن عن مشروع لتأسيس ادارة مستقلة عن الادارة الموجودة في فلسطين . وكانت نتيجة زيارة صموئيل اقامة ثلاث حكومات محلية في الكرك والسلط واربد (ترأسها جميعا ضباط بريطانيون) بدل اقامة حكومة مركزية واحدة في جميع المنطقة(٣١).

لقد نفذت تعليمات كرزون ، وتصرف هربرت صموئيل دون تردد خلافا لتوصياته السابقة . وبعد اجتماع السلط في ٢١ آب أبقى صموئيل في البلاد سبعة ضباط بواجبات سياسية دقيقة ليقوموا بتنفيذها . وكان هؤلاء هم : الكولونيل بيك والميجر كامب والميجر سومرست والكابتن برنتون والكابتن ألك وألان كيركبرايد والكابتن مونكتون . وكانت واجبات هؤلاء الضباط محصورة في « تشجيع الحكومات الذاتية المحلية واعطاء المشورة حسب طلب السكان . وعليهم ان يساعدوا في تشكيل الهيئات البلدية والادارية الذاتية في المقاطعات ، وعليهم الا يضيعوا اية فرصة لتشجيع التجارة مع فلسطين ولتأكيد حقيقة ان فلسطين هي المنفذ الطبيعي لشرق الاردن »(٣٢).

أبلغ صموئيل الزعماء المجتمعين في السلط نية بريطانيه تأسيس ادارة منفصلة عن فلسطين . وقد كان مقبولا بشكل عام أن تدار البلاد من قبل الحكومة الانتدابية في فلسطين . وقد كان على الرجال الذين اختيروا لهذا الواجب ان يمثلوا مصالح بريطانيه الى الشرق من نهر الاردن ، وكان عليهم ان يقيموا ادارة ويحافظوا على القانون والنظام . وكان ذلك بالاضافة الى مهمة تكوين قوة عسكرية . وكان هذا البرنامج ذو الطبيعتين السياسية والعسكرية ضروريا لتخفيض النفقات العسكرية وتقليص الالتزامات العسكرية . وقد كان بسبب الانشغال بقضايا أقطار الشرق الاوسط الاخرى ان الكولونيل رونالد ستورز ، السكرتير المدني البريطاني ، أبلغ الضباط السياسيين أن حكومته تفضل « ان تخسر خمسة ضباط عن ان تزج بجيشها [في شرق الاردن] »(٣٣).

ولم يكن وصول هذه الحملة الى شرق الاردن حلا بالمعنى الكامل . فالضباط البريطانيون ، كل في مركزه الخاص ، عبروا عن عدم رضاهم عن الوضع . فقد ابلغ كامب ، في ١٣ تشرين الاول ، الكولونيل ستورز اهمية تأسيس « سلطة مركزية واحدة للمناطق الثلاث »(٣٤). وقد كان كامب الى جانب فكرة « الاحتلال العسكري » كوسيلة لضمان سلامة الاوضاع . وهذا التحدي للسياسة البريطانية لم يكن يتفاقم فقط بين اعضاء الحملة ، ففي رسالة الى السير جون تيلي (في وزارة الخارجية) مؤرخة في ١٨ تشرين الاول ، رأى ديدز ، الذي كان الى جانب الحل العسكري ، ان وضع قوات بريطانية في مرتفعات عجلون والسلط والكرك سيضع حدا لاعمال الغزو المنطلقة من الشرق. وقد لاحظ ديدز ان الوضع سيتأثر بعاملين: ١ — اتحاد العشائر ضد القوات البريطانية و٢ — زحف القوات الشريفية من الجنوب . وسيكون خطر التدخل الشريفي ممكنا اذ وقعت شرق الاردن « في حالة من الفوضى »(٣٥).

كذلك وجهت انتقادات لاحقة الى سياسة تأسيس حكومات ذاتية محلية . فقد اعتبر ديدز ان النمط الذي اتبعته السياسة البريطانية غير واقعي نظرا لوجود « شعب أمي وجاهل » وغير مهيأ لذلك . وهذا الافتراض عن القبائل الامية الجاهلة غير المهيأة لحكومة ذاتية حسب الانماط الغربية ولد آراء سياسية جديدة بالنسبة لديدز ، فقد اوضح ان القوة هي « العلاج » الوحيد لتهدئة الاوضاع في شرق الاردن . وقد كانت صورة القبائل الرعوية « الضارية » هي الدافع خلف هذا التفكير . وقد كانت تصورات ديدز من أهداف السياسة البريطانية

في شرق الاردن مخالفة لتلك الموجودة لدى وزارة الخارجية فقد كان يعتقد ان على البريطانيين بصفتهم مسؤولين عن القانون والنظام في البلاد ، ان يبتوا «حديقتهم الخلفية» في حالة من النظام[٣٦].

ان واجب السيطرة السياسية ، وفقا لديدز ، يتطلب ١ ــ الاحتلال و٢ ــ التنسيق . ويستلزم التنسيق خلق قوة عسكرية محلية لتنسق أعمالها في ضوء النظام السياسي . وقد كانت هذه « المادة الخام » كما وصفها ديدز ، لتكوين القوة العسكرية المحلية موجودة[٣٧]. ومع هذا فلم يجر تعديل على الالتزامات البريطانية السياسية والعسكرية في كل من وزارة الخارجية ووزارة الحربية وفشلت الاقتراحات والتوصيات التي تقدم بها اعضاء الادارة المدنية في فلسطين من اجل ايجاد سياسة « جديدة » ، وابلغ المندوب السامي نتيجة جهوده المتواصلة مع وزارة الخارجية الرامية لارسال قوات بريطانية الى شرق الاردن ، بأن هذا العمل « سوف يعتبر مثيرا للسخط »[٣٨]، واعاد كرزون تأكيد قرار حكومة جلالته الاصلي « بعدم ارسال قوات » . وقد اعتبرت حكومة جلالته الموافقة على هذه السياسة مدخلا حكيما نحو « السيطرة غير المباشرة » وهو يؤدي الى محاولة كسب ثقة الناس ومنع امكانية الاضطرابات المحلية .

نوه صمويل ، في رسالة سابقة الى كرزون ، بالدور الفعال الذي قام به الضباط السياسيون في منع السكان « من الالتحاق بالحركة المسلحة في حوران التي قامت ضد الفرنسيين » . وقد أعطى كرزون تعليماته ، لدى حديثه عن دور الضباط الاداري ، بتشكيل نظام جديد يهدف الى مركزة الادارة مما يعني ان على المندوب السامي ان يكون لديه قناة اتصال واحدة لدى معالجته شؤون شرق الاردن[٣٩].

ان تأسيس حكومة مركزية واحدة يرئسها ضابط بريطاني كان أمرا غير منسجم مع سياسة « السيطرة غير المباشرة » بيد ان عدم وجود تماثل بين الحكومة المركزية والسيطرة غير المباشرة ، ينبغي ألا يفسر على انه رفض للسياسة السابقة ، فالتصور الاساسي الذي وضعته وزارة الخارجية يهدف الى المحافظة على الادارة ووسائل الاتصال بشكل اكثر فاعلية . ومن جهة ثانية فان ادخال اسلوب هيمنة جديد في سياسة « السيطرة غير المباشرة » الى بلد ذي مؤسسات ضعيفة ، بل تكاد تكون غير موجودة ، لم يكن لغزا غامضا . وعلى الرغم من ذلك فينبغي ان نتذكر في هذا الصدد السياسة البريطانية التي كانت تبحث عن ايجاد حكومة وطنية في شرق الاردن[٤٠].

قوات الاحتياط : ان عدم الاستقرار في شرق الاردن استلزم وجود ما هو أكثر من القرارات السياسية وتنظيم المؤسسات السياسية . فقد تطلبت طبيعة النزاعات بين القبائل وجود قوة بوليسية متينة تفرض القانون والنظام . وفي الوقت الذي كانت فيه الغزوات الى فلسطين تجعل القوات الاردنية في وادي نهر الاردن على أهبة الاستعداد ، فقد كان ثمة صعوبة ثالثة ناجمة عن الحركة المسلحة في شمال الاردن ضد القوات الفرنسية في سوريا .

وقد أوجبت هذه الظروف من الفوضى ، خاصة في بلد خزينته فارغة ، ولديه عدد قليل من رجال الشرطة والضباط الذين لا يتقاضون رواتب (وكانوا قد خدموا الحكومة التركية وحكومة دمشق) وحيث معظم الناس يتجنبون دفع الضرائب ، هذه الظروف اوجبت تشكيل قوة مسلحة ، قوة تشكل « من بين الناس المستقرين ... وتنظم تنظيما شاملا ... وتبقى على درجة عالية من المعنويات القتالية»[٤١].

وقد وافق السكرتير المدني في أيلول ١٩٢٠ على طلب الكابتن برنتون بخصوص انشاء « قوة الاحتياط » . وكانت النية متجهة لدى تشكيل القوة الى ان تكون من العرب والشركس بأعداد متساوية ، غير انه في المرحلة الاولى من التشكيل كانت « قوة الاحتياط » مؤلفة من العرب بشكل رئيسي . وفي الوقت الذي غادر فيه برنتون في كانون الاول ١٩٢٠ ، كانت القوة تضم ١٠٦ عسكريين وضباط[٤٢]. وقد أعطي للقوة واجب معالجة النزاعات الداخلية بينما عهد لسلاح الجو الملكي مهمة حماية البلاد من الهجمات الخارجية .

وفي الوقت الذي عين فيه اللفتنانت كولونيل بيك برتبة ([illegible]ـتام) المحلية كانت انباء وصول الشريف عبدالله الى معان تبعث النشاط في مستقبل البلاد .

قدوم عبدالله : لاول مرة في تاريخ شرق الاردن،

ظهر ان كيانها السياسي كان ينبثق بونيرة بطيئة . فمن الواضح ان ذلك كان يحدث ليس فقط في وقت كانت فيه سياسة بريطانيه الشرق أوسطية في مرحلة انتقال ، ولكن ما هو اهم من ذلك انها كانت في وضع « اللاقرار » بانتظار مؤتمر القاهرة . وفي هذه المرحلة حدث خلاف بين عضوين من الاسرة الشريفيةفقد قرر الشريف عبدالله ، ابن الملك حسين ، ووزير خارجيته السابق ، ان يغادر الجزيرة العربية في اتجاه سوريا بعد أن حصل على موافقة والده .

ولم يكن هذا التحرك السياسي من جانب عبدالله أمرا مكتوما . فالشريف عبدالله ، الامير عبدالله فيما بعد ، كان يلعب لعبة مزدوجة ، فقد فهم البريطانيون ان نشاطه السياسي كان مناورة لتحقيق اغراض سياسية معينة . وقد وردت اول أنباء عن زحفه في « تقرير جدة » لشهر أيلول ، فذكر التقرير ان عبدالله كان مصحوبا بحرس يتألف من ٥٠٠ الى ١٠٠٠ رجل بينهم عدد من الذين شاركوا في الثورة العربية ، في شرق الاردن . ولم يسبب هذا التحرك قلقا للبريطانيين خاصة وان حساباتهم كانت مبنية على ان عبدالله لن يتقدم الى سوريا وانما سوف يستقر في المدينة(٤٣).

غير انه خلافا لما كان يتوقعه المندوب السامي في جدة تقدم عبدالله شمالا نحو معان حيث وصلها في ١١ أيلول ١٩٢٠ . وفي معان ، التي كانت لا تزال ضمن الاقليم الحجازي ، وضع عبدالله خططه السياسية والعسكرية . وقد تسبب وصول عبدالله الى معان في حالة من التوتر في المنطقة . فعلى الصعيد السياسي لم يكن البريطانيون والفرنسيون سعداء بهذا التطور الجديد . واتهمت فرنسه بريطانيه بأنها لم تتخذ أي اجراء ضد عبدالله ، بينما كانت بريطانيه « تميل الى الظن بأن عبدالله لن يتقدم شمالا من معان »(٤٤).

في الجانب العربي ، كان رد الفعل قاسيا . ففيصل الذي كان آنذاك في أوروبه يبحث عن حل للمسألة السورية ، لم يرحب بمغامرة اخيه ، وأبرق حالا الى أبيه ، الملك حسين ، يطلب منه أن يكبح نشاطات عبدالله . وكان الوضع يتطور نحو صراع سياسي على السلطة بين اعضاء الاسرة الشريفية الثلاثة . فالملك حسين الذي كان يفقد سلطته على بلده كان يفقدها ايضا على ابنه عبدالله ، بينما نجاح عبدالله في مدى قصير جعله يبادر الى اتخاذ موقف هجومي ليحقق اغراضه السياسية المتمثلة في تثبيت نفسه حاكما لشرق الاردن . أما فيصل الذي ابعد عن عرش سوريا فقد كان يساوم للحصول على عرش العراق الذي كان قد قدم في وقت سابق لاخيه عبدالله .

كانت مواقف الممثلين في هذه التمثيلية السياسية جميعها ثابتة . فالاهتمام الرئيسي للمجموعة العربية كان ضمان صداقة البريطانيين من اجل الحصول على قوة سياسية معينة . بينما كانت الدولتان الكبريان ، بريطانيه وفرنسه ، معنيتين بعدم التورط في نزال حول شرق الاردن . وقد اتهم البريطانيون الفرنسيين بأنهم لم يتخذوا اي اجراء ضد عبدالله، وجرى ابلاغ المندوب السامي بهذا « الرأي الشخصي المحض » . كذلك ابلغ القائم بأعمال المندوب السامي الفرنسي ، دي كاي ، ابلغ نائب القنصل البريطاني في بيروت ان « احجام البريطانيين عن احتلال شرق الاردن كان بسبب ان المندوب السامي كان يفضل ان يبقى العرب طلقاء في مهاجمة الفرنسيين في سوريا بدل أن يقوموا بأعمال في فلسطين استنادا الى معاداتهم للصهيونية »(٤٥).

كانت الضغوط التي مارسها كل من عبدالله والفرنسيين على وزارة الخارجية بتكتيكات متماثلة ولكن بأغراض مختلفة . فقد كانت للفرنسيين شكوك بالنسبة لاذعان عبدالله للضغوط السياسية التي كان يمارسها الوطنيون السوريون على الامير . وهذه الشكوك أدت بالفرنسيين الى الاعتقاد بأن البريطانيين الذين تركوا المنطقة الواقعة الى شرق نهر الاردن تقع في الفوضى (في أيدي عبدالله) يمكن مرة أخرى وبضغط من الاسرة الشريفية ، ان يدعوا شرق الاردن تصبح مركزا للدعاوة والاعمال المضادة للفرنسيين . وكانت هذه القناعة الفرنسية ناجمة في المقام الاول عن الصراع العربي — الصهيوني في فلسطين ، كذلك ، كما ذكر اعلاه ، من امكانية « استخدام » عبدالله من كل من البريطانيين والوطنيين السوريين .

وخشية من أن تقع شرق الاردن بأيدي الاسرة الشريفية فقد مارس الفرنسيون الضغط وعمليات الاقناع ليجعلوا بريطانيه توافق على احتلال البلاد.

وقد ذكر القائم بأعمال المندوب السامي الفرنسي ان القوات الشريفية المتجهة الى سوريا تضم ٦٠٠٠ عربي[٤٦]. غير ان طريقة عرض الفرنسيين للوضع لم تبدل من السياسة البريطانية في المنطقة. فقد ضمن رد الفعل البريطاني ببرقية مؤرخة في ٣ كانون الاول ارسلتها وزارة الخارجية الى هربرت صموئيل تطلب منه المعلومات والحقائق[٤٧].

ومع ان وزارة الخارجية كانت تعارض الاحتلال كما ظهر سابقا الا انها كانت ترى الا تستفز عبدالله وفي الوقت نفسه أن تتبع سياسة توافقية مع فرنسه . وهي سياسة تظهر للفرنسيين ان الدبلوماسية البريطانية في معالجتها لهذا الوضع انما هي ترجمة لطريقة فهم البريطانيين للعلاقات البريطانية ـ الفرنسية. وقد أدت هذه الدبلوماسية الى تناهم ما ، ان لم يكن لفترة طويلة فعلى الاقل لفترة قصيرة ريثما انقضت مرحلة الانتقال واللاقرار . ومن أجل تأكيد ذلك للحكومة الفرنسية فقد أوضحت وزارة الخارجية في برقية عاجلة الى هربرت صمويل ان « ... أي حركة كهذه ... ستدينها حكومة جلالته بقوة »[٤٨].

يبدو بالتأكيد ان البريطانيين كانوا يتجنبون المواجهة مع الامير . وقد ركزت الدبلوماسية البريطانية ، في هذا المنعطف ، على ابقاء علاقاتهم الطيبة مع الفرنسيين ، ففي اجابتهم على وصول عبدالله قدموا للفرنسيين بيانا يدين ذلك . غير ان الاعتراف بالخطر الذي سببه قدوم عبدالله كان وشيكا . وفي وقت سابق اعترفت وزارة الخارجية بالتهديد الداخلي والخارجي لامن شرق الاردن الذي يمكن ان ينجم عن المنازعات بين القبائل وعن تدخل القوات الحجازية . وبالنظر لهذا التطور السياسي الخطير فكر اللورد كرزون لاول مرة بامكانية ارسال الجيش . وقد نظر لورد كرزون الى هذه الامكانية من وجهة النظر التالية : « أ ــ ان يمنع تحول المنطقة الى قاعدة للهجمات المنظمة ضد الفرنسيين. ب ــ وقف الغزوات على فلسطين عبر نهر الاردن »[٤٩].

على أي حال فان وزارة الدفاع مدفوعة بالحاجة الى تخفيض الالتزامات العسكرية والمالية ، أبلغت وزارة الخارجية بأن مجلس الجيش لن يسمح بتعديل كهذا في السياسة ما لم يوافق مجلس الوزراء على ذلك وكان هذا التغير المفاجىء في السياسة البريطانية محيرا . وهكذا فان عدم تنفيذ الترتيبات التي اتخذت في شرق الاردن في آب هو الذي أثار وزير الخارجية أكثر من خطر عبدالله المتوقع . ووفقا للتقديرات البريطانية فان النداء الذي وجهه عبدالله للشعب السوري لم يكن يقتضي أي تغيير في الوضع العسكري . وفي المقابل فان الخطر الحقيقي الذي توقعه البريطانيون كان يكمن في تدفق الوطنيين السوريين الى الجزء الشمالي من شرق الاردن . وكان يجب عدم التقليل من أبعاد هذا الخطر ، فالمهاجرون السوريون الى شرق الاردن وجدوا في عبدالله قائدا يمكن ان يكون موضع ثقتهم . ذلك ان الامير عبدالله بعد فترة قصيرة من وصوله الى معان أصدر نداء وجهه « الى اخواننا السوريين » ابلغ فيه السوريين ان « المصاعب التي حدثت لهم من قبل المستعمرين الفرنسيين ... تركت انطباعات عميقة لدى كل عربي ... وان هدفنا الوحيد ، كما قال الامير ، هو أن نساعدكم على طرد الغزاة »[٥٠].

لم يترك هذا البيان اللافت للنظر مجالا للشك لدى البريطانيين بأن هذه النغمة المعادية للفرنسيين يجب أن تلغى من البيان[٥١]. ويؤكد هذا بوضوح الرفض البريطاني للانذار الذي وجهه عبدالله للفرنسيين . وبكلمات أخرى فان التغيير المحتمل في السياسة البريطانية لم يكن استجابة لمناورة عبدالله السياسية . ومع هذا فان الضيق الذي سببه عبدالله للبريطانيين جعل هؤلاء يوضحون انه يجب القيام بما يكبح نشاطات عبدالله . وليبرهنوا على ذلك فقد وعدوا باقناع فيصل بأن هذا الجزء المبهم من البرنامج يجب ان يزول .

اذا كان هذا هو الموقف البريطاني تجاه عبدالله فاننا يمكن ان نفترض ان البريطانيين لم يكن لديهم اعتراض على وجود عبدالله في شرق الاردن . وهذا الافتراض يغدو مقبولا اذا علمنا ان النداء الموجه « الى اخواننا السوريين » لم يتضمن في مجموعه أكثر من موقف عبدالله من المسألة السورية . وهذا الافتراض واضح كذلك من حيث ان الموقف البريطاني كان يجد من الضروري التمسك بسياسة مقبولة من جانب الاسرة الشريفية .

ما هي الاسباب الكامنة اذن خلف امكانية تغيير

السياسة البريطانية ؟ هل أخطأ البريطانيون تقدير قوة عبدالله ؟ واذا كان الجواب بنعم فلماذا تمسك البريطانيون اذن بسياسة تقبلها الاسرة الشريفية ؟ واذ كان الجواب بلا فلماذا اذن أنذروا بامكانية ارسال قواتهم ؟

خلال المفاوضات الدبلوماسية حول مسألة شرق الاردن ، برزت فوق سطح النزاع المرير ، سياسة توفيقية تجاه فرنسه وأخرى مقبولة من الاسرة الشريفية . وطبيعة مثل هذه السياسة تؤدي بنا الى الافتراض ان الطريقة غير القابلة للتفسير في البحث عن حل لمسألة شرق الاردن كانت بسبب ظهور ممثلين غير عبدالله والفرنسيين . وهكذا ، فان القرار البريطاني المحتمل باحتلال شرق الاردن تأثر بوجود « تحد جديد » لم يجر أخذه في الاعتبار في المناقشات السابقة التي أثرت في السياسة البريطانية في فلسطين وشرق الاردن . وهذا التحدي الجديد ، أو العامل الجديد في التحدي ، الذي ظهر في وقت مترافق مع قدوم عبدالله الى مسرح الحياة السياسية في شرق الاردن ، يعطي مثالا صارخا على العلاقات البريطانية — الفرنسية المتوترة باستمرار .

التهديد السوري : ان انهيار المملكة العربية في سوريا في تموز ١٩٢٠ وضع سوريا ولبنان تحت سيطرة فرنسه ، وقد استثنيت من ذلك شرق الاردن التي كانت من نصيب البريطانيين حسب مؤتمر سان ريمو . وقد بني النظام الفرنسي الجديد في سوريا على أساس من سياسة « فرق تسد » . وقد أثارت هذه السياسة استياء بين السكان ، وكانت تحض على نمو القومية التي كانت بشكل رئيسي تعارض اخضاع البلاد للإنتداب الفرنسي . ولم تترك سيادة فرنسه العسكرية على مملكة سوريا العربية السابقة مكانا في البلاد للوطنيين السوريين والموالين لفيصل . وكان الناس يتذكرون حكم فيصل القصير متشوقين اليه(٥٢) . وبذلك فان الثورة الاولى ضد الفرنسيين لم تتحقق قبل العام ١٩٢٥ .

ان الاوضاع الجديدة في سوريا كان لها التأثير الاعمق في شرق الاردن مما أثار دهشة البريطانيين . فبدلا من ان يقوم الوطنيون السوريون بالتأثير في الشؤون المحلية لسوريا صعدوا « هياجهم » في شرق الاردن(٥٣) . وقد ووجه البريطانيون — وكان ذلك مفاجأة للمندوب السامي — وهم الذين أرسوا سياستهم في شرق الاردن على أسس « القانون والنظام » ، بمشكلة خطيرة ناتجة عن « اجتياح المهاجرين السوريين » . وقد ضمن هربرت صموئيل في رسالة بعث بها الى كرزون تقريرا عاما عن منطقة عجلون وقد حذر الضابط السياسي فيها من ان الوضع الراهن للامور لن يستمر طويلا . فقد كانت المنطقة تستقبل دما جديدا من الجانب الاخر من الحدود ، وهي مشكلة لن تستطيع شرق الاردن ان تتحملها اذ أن المهاجرين من الشمال يحملون مختلف الصفات ، فهم مشكلون من « وطنيين متطرفين ، وأشخاص محكومين من قبل فرنسه ، وموظفين وضباط مفصولين من الخدمة ومغامرين ومجرمين » ، ومعظمهم مفلسون . وان وجودهم في البلاد يشكل « عبئا وخطرا »(٥٤) .

البحث عن حكومة عربية : ان تطور الاحداث السريع في شرق الاردن منذ قدوم عبدالله فاجأ صانعي القرار في السياسة الخارجية البريطانية وهم يعيدون الترتيب السياسي لدائرة الشرق الاوسط التي نقلت من وزارة الخارجية الى وزارة المستعمرات بوزيرها الجديد ونستون تشرشل الذي استرد مسؤوليته عن سياسة الشرق الاوسط قبل فترة وجيزة من مؤتمر القاهرة .

وخلال هذه الفترة القصيرة التي امتدت اربعة اشهر حدث عدد من التغيرات ، كان اولها التغير في موقف بريطانيا ازاء نشاطاتها السياسية منذ اب ١٩٢٠ . وقد كان وصول عبد الله الى الجزء الجنوبي من شرق الاردن في الحقيقة انهاء لواحدة من الحكومات المحلية الاربعة التي اوجدتها ادارة فلسطين المدنية الانتدابية ، ذلك بانه لم يكن ثمة من امكانية تسوية سياسية بين القانون والجيش الغازي . على اي حال فانه لم ينتج عن هذا التغيير اكثر من انهاء نشاطات مجلس حكومة مؤاب ، على الرغم من ان عبدالله اقام قاعدته المركزية في مكان ، ليثبت بشكل رئيسي موقعه قبل ان يتقدم نحو الشمال . وقد اتاحت فترة بقاء عبد الله الطويلة في الجنوب بين ١١ تشرين الثاني و ٢ اذار ويوم وصوله الى عمان ، الوقت الكافي للفرقاء المعنيين (خاصة البريطانيين) للتوصل الى واحد من خيارين ، اما طرد الامير او اخضاعه . بينما كانت هذه الفترة بالنسبة لعبد الله ذات

اهمية سياسية عالية ، فهي الفترة التي ثبتت فيها حقائق وظروف سياسية معينة كانت (ضرورية) واساسية للمرحلة التالية من طموحات عبد الله السياسية ، فقد مثلت هذه الفترة نقطة وثوب نحو السيطرة السياسية . وبالاضافة الى ذلك فقد كانت هي الفترة الاولى التي وضعت فيها اهداف عبد الله السياسية المختلطة موضع الاختبار :

١ ــ في الحد الاعلى اكد عبد الله على افضلية استعادة سوريا . ومنطلقا من هذه الارضية ومدعوما بانتصار محتملين في سوريا (وشرق الاردن) كان يؤمن بهذا الهدف الاقصى في حالة ما اذا وافق البريطانيون على انهاء المعارضة الفرنسية .

٢ ــ كهدف متوسط ، اتجه عبد الله الى عمان حيث خطط لتثبيت سلطته واقامة حكومة بمساعدة البريطانيين ، بينما ظلت المسألة السورية هدفه السياسي الاقصى عندما يتمكن من تعزيز قوته .

٣ ــ في الحد الادنى اعتقد عبد الله ان السلطات البريطانية ستوافق على منحه ادارة شرق الاردن بمساعدة عسكرية واقتصادية .

وقد كانت اهداف عبد الله السياسية هي القوة الدافعة خلف اعماله السياسية والعسكرية. وبينما كان موقف عبد الله ازاء الفرنسيين متصلبا فقد كانت رغبته المعلنة في اقامة علاقات صداقة مع البريطانيين ، فوق مستوى الاعتراضات . فهو « يؤكد على اهمية المحافظة على العلاقات الطيبة مع الممثل البريطاني ، وان بريطانيه العظمى هي صديق للقضية العربية وان فرنسه وحدها هي العدوة »(٥٥) وقد دفع هذا الوضع بالامير الى ان يعمل ضمن هدفه الادنى ، اي ادارة شريفية في شرق الاردن .

ظهرت اولى الشكوك في نوايا الامير في برقية ارسلها هربرت صموئيل الى وزير الخارجية بنى فيها معلوماته على تقارير كانت قد وزعت في جنوب الاردن . واذا اضيفت شكوك صموئيل الى ما كان يرتبه يونج للمنطقة فيمكن استنتاج ما هي الارضية التي كان يستند اليها عبد الله في مطالبته بشرق الاردن(٥٧). ذلك بان موقف كلا الرجلين ازاء مطالبة عبد الله المحتملة بالبلاد او ازاء قيام ترتيب خاص لحاكم عربي يدعمه البريطانيون، يمكن ان يلمح استنادا الى بعض الاعمال المعينة ومن خلال تفحص سلوك عبد الله السياسي . وفي اي حال فان النتائج يمكن ان تقلص الى حقيقة ان سياسة عبد الله المعلنة ضد الفرنسيين كانت السبب الوحيد في وجود الامير في شرق الاردن .

ان اي محاولة شريفية لـ « استعادة سوريا » كان يجب ان تمنى بالفشل ، فينبغي ان يلاحظ ان بريطانيه وفرنسه كانتا تعارضان مثل هذه المغامرة . وقد اعلن البريطانيون ان حكومة جلالته ليس فقط لا توافق على مثل هذه التحركات ،ولكنها ايضا تدين اي عمل عسكري يحاول ان يزعج الفرنسيين في سوريا(٥٨). ولم تكن مطامح عبد الله القومية من اجل استعادة السيطرة الشريفية على سوريا ، بقادرة على مواجهة معارضة كل من بريطانيه وفرنسه . وينبغي ملاحظة ان طبيعة المصالح السياسية لكلا الطرفين ــ الامير والبريطانيين ــ كانت نتيجة مباشرة للسيطرة السياسية وبالتالي حماية المصالح الحيوية . وقد اتبع الامير سياسة كسب الصداقة البريطانية وكان مهيأ للاعتقاد بأن البريطانيين هم الجهة الممكنة الوحيدة التي يمكن ان تمنحه القوة . اما في الدوائر البريطانية فقد كان هناك افتراض بأن الامير عبد الله يمكن ان يوفر الضمان لحماية المصالح البريطانية .

وهذا الافتراض عن تكامل المصالح البريطانية والشريفية لم يكن يتعارض مع حقيقة الوضع الذي اعتبر فيه البريطانيون ان عبد الله متطفل على المنطقة البريطانية ، اذ ان البريطانيين كانوا يبحثون عن حاكم عربي بينما كان عبد الله ينشد السلطة .

كانت وجهات النظر مختلفة ازاء هذه السياسة. فالملك حسين وفيصل كانا يعتقدان ان مغامرة عبد الله يمكن ان تضعف الموقف العربي ، بينما كان عبد الله يرفض هذا التحليل ، وكان يعتقد انه يملك الورقة الرابحة في اي ترتيبات متفاوض عليها مع البريطانيين . ولم يطرح الامير اي مشروع بالنسبة لشرق الاردن وكان يؤكد فقط على انه يريد ان يقوم بواجب انقاذ سوريا . ومن أجل ذلك فقد ابلغ رجاله ان يقدموا الاحترام اللازم

للممثلين البريطانيين في شرق الاردن ولم يدع الى اثارة اي اضطرابات في المنطقة(٥٩). وكان هربرت صمويل الذي ابرق بهذه المعلومات الى وزارة الخارجية ، قد ذكر في برقية سابقة ان عمان قد تحول الى قاعدة عمليات ضد الفرنسيين(٦٠).

كان هذا التوتر المتزايد لمصلحة الامير ، وكان من صنعه ، فقد كانت تلك ورقته الرابحة . وكان التدخل العسكري الشريفي في سوريا احد الاختيارات الممكنة لممارسة الضغط على البريطانيين كي يستجيبوا بتأييد الامير . وقد ارسل الامير ، مواصلا سياسته هذه ، الشريف علي رسولا الى عمان ليعزز الحركة الوطنية هناك في اوائل كانون الاول(٦١)، وليبلغ الممثل البريطاني هناك ، الكابتن كيركبرايد ، بان العمليات الشريفية المخطط لها ضد الفرنسيين سوف تنطلق قريبا بعد وصول الامير عبد الله الى عمان . وقد ذكر الشريف على ان هذه الاعمال ستكون نتيجة تفاهم مع القائد التركي مصطفى كمال(٦٢).

كان الحفاظ على تصرف عبد الله هذا يحتاج لاقامة توازن حرج(٦٣). فاتباع الامير كانوا يعززون الحركة الوطنية في عمان وعجلون وكانوا يجندون الناس للالتحاق بالامير . وكان هذا التصرف الذي اوصى به عبد الله يسبب هياجا سياسيا في البلاد ، كما اعترف بذلك المندوب السامي(٦٤). وكانت البلاد ، خاصة عمان ومعان ، تتحول الى قاعدة تحريض للقيام بثورة في سوريا(٦٥). وكان المتطوعون يندفعون افواجا الى معان للالتحاق بالجيش الشريفي . وبالاضافة الى التجنيد فقد كانت هناك استعدادات عسكرية اخرى تصعد من امكانيات النزاع والحرب . وازاء هذا التوتر العالي بعث الممثلون البريطانيون بتقارير عن « الانخفاض المستمر في نفوذهم وتزايد نفوذ الشريفيين »(٦٦). وقد تأكد اقتران التجنيد بتلك الاستعدادات عندما ابلغ هربرت صمويل وزارة الخارجية ان ضابطين شريفيين ومعهما مجموعة صغيرة غادروا عمان في ٢٩ كانون الثاني متوجهين الى الشمال مستهدفين تدمير السكة الحديدية شمال درعا(٦٧). وبعد شهر من ذلك ابلغ المندوب السامي لندن عن اضطرابات حدثت في المنطقة الفرنسية وقد شملت هذه قتل مدير وعدد من الدرك . وكان يخشى ان تكون الحادثة ناتجة عن « السخط الذي اثاره التهييج الشريفي »(٦٨). وبعد عدة ايام اوردت « التايمز » اللندنية خبر نسف سكة حديدية في سوريا ، وكانت تلك حادثة اخرى نتيجة الاعمال الشريفية(٦٩).

ان التصرفات العسكرية الشريفية لم تثر الاضطرابات في سوريا فقط وانما لم تحترم ، في الوقت نفسه ، ما اصطلح كليمان على تسميته بـ « التوقف البريطاني عن اتخاذ القرار »(٧٠). فالتدخل العسكري والضغط السياسي الذي مارسه الامير اثبت ان السياسة البريطانية لم تكن حاسمة في شرقي نهر الاردن . وقد اصبح من الواضح في اثناء التدخل الشريفي السياسي والعسكري ، انه يجب اتخاذ اجراءات سريعة تحول دون الانتصار الشريفي . وبتأثير من تدخل عبد الله اخذ البريطانيون في البحث عن حل سريع باجراءات مؤقتة تحمي مصالحهم والبلاد . وكان يمكن تصور ان الخطر المحتمل لم يكن بسبب دخول عبد الله الى مسرح شرق الاردن لكن من خلال السياسة الشريفية المؤثرة التي مارسها عبد الله بين الوطنيين السوريين وعدد من القبائل . ونتيجة الاقرار بأن هناك خطرا يمكن ان يمتد الى سوريا وفلسطين فقد كان على البريطانيين ان يختاروا بين الاستمرار في ابقاء النفوذ البريطاني من خلال عبد الله او ان يقبلوا بالفوضى السياسية .

لم تتحقق الخطوة الاولى لقبول عبد الله كأمر واقع قبل ان ينجح البريطانيون في احتواء الامير ومنع انهيار النظام في المنطقة . وقبل الاحتواء كان ، والفعل البريطاني يتراوح بين سياسة التسوية وسياسة الاحتلال . وقد ابلغت القيادة العامة في القاهرة وزارة الحربية في لندن ان احتلال عمان ، بناء على الاوامر ، سيكون كافيا كخطوة اولى(٧١). ويمكن اعتبار هذه الاقتراحات المتكررة بالاحتلال العسكري ، هي عنصر الردع الوحيد ، اذا علمنا ان « قوة الاحتياط » التي اعتبرت « القوة التي تدعم الحكومة » لم تكن في وضع يتيح لها القيام باستعدادات اجهاضية ضد الفرنسيين »(٧٢). وفي هذا الوقت ، وبينما كان البريطانيون مشغولين بالثورة العراقية(٧٣)، كانوا يفقدون سيطرتهم على شرق الاردن ونفوذهم فيها . وقد ابلغ هربرت صمويل ، نتيجة قناعته

بهذه الحقيقة ، وزارة الخارجية ، بان الممثل البريطاني في عمان اعطي تعليمات بان ينسحب الى السلط لدى وصول عبدالله(٧٤). وفي هذه المرحلة المتقدمة من الاعتراف بعبد الله كأمر واقع في شرق الاردن كانت وزارة الخارجية قد التقت عبد الله في منتصف الطريق ، وهو وضع مناسب لكل من البريطانيين والامير . وقد كان رد الفعل المنطقي عدا عن الخيار الاخير بالنسبة لبريطانية بعد ان تاكد لديها ان سياسة « اللاقرار » بالنسبة لمستقبل شرق الاردن كان يجعل الوضع اكثر صعوبة . وقد جعل الضغط الذي قام به عبد الله واستراتيجيته الحذرة في التدخل العسكري ، جعلا كرزون يقتنع بـ « ان الوسيلة الفعالة الوحيدة لتفادي مثل هذه التطورات هي ان نرحب بالتعاون الشريفي وفي الوقت نفسه نتمسك بموقفنا في تلك المنطقة »(٧٥).

اسس السياسة البريطانية في شرق الاردن

مؤتمر القاهرة : قبل انعقاد مؤتمر القاهرة بفترة وجيزة ابلغ تشرشل بانباء وصول عبد الله الى عمان(٧٦). وقد وجد وزير المستعمرات نفسه، بعد ان كان في وقت سابق قد استبعد امكانية دعوة عبد الله الى المؤتمر ، ومعه اربعون خبيرا بريطانيا في شؤون الشرق الاوسط في وضع يعيدون فيه النظر في سياسة « انتظر لتر » بالنسبة للشرق الاوسط وشرق الاردن بشكل خاص . وكان ذلك في الحقيقة هو هدف المؤتمر الرئيسي ، اي دراسة المناخ السياسي والمصالح البريطانية في الشرق الاوسط والبدء بسياسة جديدة متوافقة مع ذلك . وكان قد جرى الاقرار بأن السياسة البريطانية في شرق الاردن غير واضحة وغير مؤثرة ، وكان ذلك بسبب اهداف هذه السياسة غير المحددة . وفي الواقع كانت هذه السياسة قد وضعت نتيجة لمؤتمر سان ريمو ، غير ان وجود حقل خطر فيها اسهم في تبني سياسة جديدة اكثر ملائمة . وبالاضافة الى الاوضاع المتدهورة في شرق الاردن والاقطار المجاورة الواقعة تحت الانتداب فان المعارضة في بريطانية لم تكن الى جانب زيادة المساعدات المالية الى الشرق الاوسط وكانت تطالب بانسحاب بريطانيه من المنطقة .

برزت مشكلة شرق الاردن كمشكلة ذات طبيعة خاصة من بين المشكلات السياسية المطروحة في مؤتمر القاهرة . واكدت طبيعة هذه القضية الخاصة التزام بريطانيه العميق في فلسطين وموقفها الحاسم من ان اي خطر مصدره «الشرق» يجب ان يكبح . وقد جرى تقديم سلسلة من الاقتراحات غير المحددة . وكان تشرشل يظن ان الظروف شبيهة بتلك السائدة في العراق . وبكلمات اخرى كان تشرشل يفكر بأمكانية تطبيق الترتيبات التي اتخذت للعراق(٧٧). وكانت الظروف المتشابهة المفترضة في كل من شرق الاردن والعراق تعني اشارة واضحة الى الدعم البريطاني لقضية الشريفيين في كلا القطرين .

في اليوم الذي افتتح فيه مؤتمر الشرق الاوسط رسميا ابرق هربرت صمويل الى تشرشل يبلغه من اجتماعه في القدس بعوني عبد الهادي ، مبعوث عبد الله . وقد ذكر صمويل في برقيته الاسباب التي تجعله يعتقد بأن الدعاية التي قام بها عبد الله في معان في وقت سابق ووجوده في عمان في ذلك الوقت يمكن ان يقوضا تدريجيا سلطات الحكومات المحلية(٧٨). وقد لفت عبد الهادي انتباه المندوب السامي في اثناء اجتماعه به الى أهمية مواصلة الجهود لتعزيز اواصر الصداقة بين بريطانيه العظمى والعرب(٧٩). وتعتبر هذه الملاحظة ذات اهمية كبيرة ، فهي بجانب انها توضح موقف عبد الله من بريطانيه ، فهي تعكس كذلك التفكير المتشابه الذي يجمع بين تشرشل وعبد الله ، على الرغم من الفارق الكبير في المقارنة الذي يعود الى طبيعة موقع تشرشل السياسي . ولكن في هذه الحالة فأن عبد الله كان ذا قيمة اساسية بالنسبة لاي ترتيب في المستقبل وقد تم ذلك من خلال نفوذه الادبي ومن خلال ما يقدمه من مساعدة لبريطانية بصفته عضوا في الاسرة الشريفية ، في سياستها الداعمة للشريفيين في الاقطار العربية .

وقد كان تشرشل يؤمن ، وهو في سبيل ايجاد ترتيب كهذا ، مثلما كان يؤمن سلفه كرزون

بالترحيب بالتعاون الشريفي . فمن خلال استذكار الوضع ربما كان تشرشل يفكر بأن تبني سياسة اخرى يمكن ان يقوض خططه المتعلقة بالعراق وفلسطين وهذه السياسة تعني التخلي سياسيا عن الشريف (الامير) ، عبد الله باعتباره عضوا في الاسرة الشريفية وهذا التخلي سوف يكون متناقضا مع الدعم البريطاني لفيصل كحاكم عتيد للعراق . ومن اجل انجاز صيغة سياسية عملية للاقطار الثلاثة : العراق وفلسطين وشرق الاردن، اصبح تشرشل اكثر اقتناعا بأنه يحتاج الى تعزيز اقتراحاته في كل من القاهرة ولندن وكان ذلك مطلوبا كي يفرض موقفه في تثبيت سياسته المقترحة.

وللدفاع عن هذه السياسة استرعى تشرشل انتباه لجنة فلسطين السياسية والعسكرية في اجتماعها الاول الى العواقب الخطرة التي سوف تنجم عن الدعم البريطاني للشريفين في العراق دون شرق الاردن . وفي رأي تشرشل فأن هذه السياسة ستكون « مدعاة للاضطراب »(٨١). وهكذا فأن تشرشل لم ينظر باستغراب الى فكرة دعم الشريفيين وهي السياسة التي سوف تجلب الفائدة الى البريطانيين . وكان تشرشل يهدف الى ان يجعل الاحداث تسير باتجاه لا تنهزم فيه سياسته وكان موقف تشرشل الظاهر هو ان يؤمن المنافع الاستعمارية على حساب سكان الاردن وكان الهدف من وراء هذا الترتيب الملحوظ هو الابقاء على حالة الامر الواقع الذي يحافظ على مصالح بريطانية المتزايدة . وكان تشرشل يتوقع ان تكون المكاسب الحقيقية انتصارا لفكره الاستعماري الذي كان قادرا على التفكير بخطة سلام « رخيص » بدون اي تعديل ، خطة تؤدي الى عزل شرق الاردن عن تيار الحركة القومية واحتوائها ضمن النظام الاستعماري البريطاني .

ولم يتطلب الجانب الاقتصادي من الوضع آنذاك تغييرات كبيرة ولكنه تطلب كفاءة فائقة في زرع « ادارة شريفية » من اجل اقرار السلام . وكان « شراء السلام » في المنطقة مطلبا اسمى لاحلال الحكم البريطاني التقليدي المطعم بالتعاون الشريفي . وكان يضبط خطة « شراء السلام » الشعار القائل بـ « ان تصنع اكثر كمية من الطوب بأقل كمية من القش » ، وكان هذا جزءا من سياسة تشرشل الاقتصادية التي كان عليها ان تصون السلام والاستقرار بـ « اسعار مخفوضة » .

في الجلسة الاولى التي عقدتها لجنة فلسطين ظهرت اقتراحات ووجهات نظر من اجل اقامة السلام والاستقرار فاقت في عددها تلك التي قدمها تشرشل . وفي الحقيقة لقد هيمن على النقاش هربرت صمويل والكولونيل لورنس ، مستشار تشرشل للشؤون العربية . ومن حيث المبدأ فقد اتفق كل من تشرشل وصمويل على ان « افضل مصالح السياسة البريطانية »(٨١) هو دعم الشريف . بيد ان سياسة تشرشل لم تلق قبولا لدى لورنس ، الذي لاحظ ان اختيار عبد الله سوف يتناقض مع السياسة الفرنسية في سوريا ، فقد كان عبد الله الذي يعتبر شرق الاردن جزءا متمما لمملكة اخيه ، وريثا محتملا للعرش السوري تحت الادارة الفرنسية . وكان قبول لورنس بهذا الاتجاه في التطور السياسي يعود الى احتمال اجراء معتدي في السياسة الفرنسية . وبوصول لورنس الى هذا الاستنتاج غير المبني على اساس اعتبر عبد الله شريكا مفيدا في اتفاقية فرنسية ــ شريفية قادمة تضع تسوية للمسألة السورية من خلال الموافقة على ان يكون عبد الله حاكما في دمشق . اما بالنسبة لشرق الاردن ، فقد اضاف لورنس ان لديه من الاسباب ما يجعله يؤمن بأن هذه المنطقة يجب الا تخضع للنفوذ الفرنسي ، وذلك من خلال تقديم الدعم البريطاني لعبد الله . وهذه النتيجة المستخلصة من التوجه السياسي للورنس كانت ايضا موائمة للحكم البريطاني القائم في فلسطين وقد تمثل ذلك في وضع فلسطين الجغرافي التي تتاخم حدودها الشرقية شرق الاردن ، وهذا الوضع حفز لورنس رفض « وجود دولة عربية ــ فرنسية على الحد الشرقي لفلسطين »(٨٢).

ان تقييم لورنس للحالة وادراكه للاوضاع في شرق الاردن كشفا عن كل من الصعوبات الاقليمية ومستقبل المصالح البريطانية وقد ذكر لورنس ان مخاوفه بالنسبة لاجراء تغييرات في السياسة البريطانية مبني في الحقيقة على ما سمعه من رسميين فرنسيين(٨٣)، ولم تكن معالجته للمشكلة مبنية على بينة ذات اساس . فقد كان الفرنسيون

حقيقة ، يعارضون وجود عبد الله في شرق الاردن وقد عبروا عن ذلك بوضوح للسلطات البريطانية في عدد من المناسبات ، فان وجود عبدالله نفسه في قطر محاذ لمناطق الانتداب الفرنسي يمثل تهديدا للامن في سوريا . وعلى هذا الاساس فقد ظن ان استنتاجات لورنس في تفسيره للسياسة الفرنسية كانت غير سليمة .

كانت ثمة آراء بالنسبة للوضع في شرق الاردن لغير مصلحة عبد الله . ولكن كما قال الميجر سومرست كان « من المستحيل في رأيه التخلص من عبد الله » ، وعلى الرغم من انه كان يتفق مع ديدس الذي كان يعارض تعيين عبد الله فقد كان الى جانب الرأي القائل بقبول عبد الله كأمر واقع(٨٤). اما لورنس فكان فهمه يذهب على ان الوضع يعتمد على الموقف العسكري وان اي تقصير في فهم ذلك سيؤدي الى نكسة في السياسة البريطانية . وقد اعتقد لورنس ، كسائر اعضاء لجنة فلسطين السياسية والعسكرية ، ان الاستقرار السياسي في القطر كان ضروريا من اجل الحكم البريطاني . ولذلك فقد تقدم لورنس بثلاثة بدائل : تعيين الشريف عبد الله او تعيين حاكم محلي ، او ارسال حملة عسكرية لطرد عبدالله (٨٥). وهذه البدائل الثلاثة كانت تسجل الرغبة في استمرار الوضع القائم .

في الوقت الذي رفض فيه تشرشل البديل الثالث طلب من الجنرال كونجريف ان يرأس لجنة عسكرية لبحث البديلين الاول والثاني . وبالاضافة الى ذلك فقد طلب من اللجنة ان تقدم توصيات بشأن الوضع العسكري . وكان تشرشل ملتزما بالضرورة باتجاه جديد في السياسة الاستعمارية البريطانية فقد اثار الدهشة في دفاعه عن السياسة العنيفة كوسيلة لتشجيع التسوية الناجحة .

وقد طلب تشرشل في الجلسة التي عقدت في السابع عشر من اذار ، من اللجنة العسكرية ان تبحث ضمن امور اخرى البديلين الاول والثاني اللذين اقترحهما لورنس . وكان تشرشل ، نتيجة تأكده من ضعف المستوطنين وعواقب نزاعات الحدود ، يأمل من الاستفادة من نفوذ الامير عبد الله في تمكين البريطانيين من اقامة حكومة مستقرة هناك . وكان هذا الاجراء ، في المقام الاول ، محاولة لمنع الاعمال العدائية الموجهة ضد الفرنسيين وضد الصهيونيين . وقد كشفت هذه السياسة البريطانية — على سلبيتها — تنامي خيبة الامل والدوافع التي كانت وراء تسوية النزاع .

وبخلاف الجلسة الاولى فقد بدت الجلسة الثانية التي عقدت في الثامن عشر من اذار وكأنها تنفيذ لاحتلال شرق الاردن عسكريا . وكان العنصر الاساسي في كسب التأييد لهذا المظهر الجديد يتم من خلال طلب موافقة رئيس الوزراء . ان ارساء النظام في شرق الاردن ، من اجل تنفيذ السياسة البريطانية ، جعل احتلال القطر عسكريا امرا ضروريا وعاجلا بالنسبة لحكومة جلالته(٨٦). وقد كتب تشرشل لرئيس الوزراء ان هذه السياسة ستكون اجراء ذا تأثير « لمنع الاعمال المناوئة للفرنسيين » . وقد اوضح تشرشل ان الاحتلال العسكري يمثل اجراء في تحديد الحقائق الجديدة في السياسة البريطانية . ان فكرة الاحتلال العسكري سوف « تضمن [بلا شك] وجود حكومة مستقرة تحول دون ان تسبب الغزوات قلقا لفلسطين » ، وتوقف التآمر ضد الفرنسيين ،كذلك تسهل اعادة فتح خط سكة حديد الحجاز وتعيد توطيد طريق الحج الى مكة(٨٧).

كان واضحا ان مؤتمر القاهرة — فيما لو كان تشرشل قد عزم على اتباع « الاسلوب » الذي عارضه دائما ، ولم يكن ذلك في الحقيقة بغير تردد — قد خطط لاتخاذ تدابير من اجل اجراء تحويلات في شرق الاردن . وعلى الرغم من هذا التفكير الجديد فلم يكن الاقتراح بالتغيير عاديا ، فقد كان قبول تشرشل بالتدخل العسكري قرارا عميقا خطط للاهداف ذات المدى البعيد من حيث ان الفوضى الداخلية في شرق الاردن كان يجب الا تقوض الانتداب البريطاني الوطيد في فلسطين . كذلك فان التفاهم غير المتين بين فرنسه وبريطانيه ومراعاة عدم منح العناصر المناوئة لفرنسه فرصة استغلال الوضع ، حث تشرشل على طلب الاحتلال . ولم تتجنب بريطانيه ، بهذا القرار ، دبلوماسية المفاوضات ، فان التدخل العسكري لم يكن يعني دخول البريطانيين الى المسرح دون موافقة الامير عبدالله . وقد ابقى تشرشل الباب مفتوحا حتى اجتماعه القادم مع عبدالله . وهذه

الفكرة الجديدة ، على الرغم من كونها تحولا أساسيا في نمط السياسة البريطانية الا انها لم تغير من أهداف هذه السياسة . ولا يمكن انكار ان هذا التغير في النمط فيحال تنفيذه ما كان له ان يتم بالعمليات العسكرية التي توقعها تشرشل فان النتيجة كانت ستكون خلق حالة من التوتر . ان اكتساب البريطانيين السيطرة العسكرية والسياسية في شرق الاردن كان يجب ان يتحقق بمزج من المواجهة العسكرية والسياسية . ولم تكن المبادرة البريطانية العملية الممارسة من خلال الاحتلال متميزة عن تحقيق تسوية سياسية .

وكانت سياسة « الضرب والمحادثات » هذه تستهدف ايجاد حاكم متعاون . ومن أجل توضيح هذه النقطة قال تشرشل بصراحة ان « الترتيبات العسكرية لاحتلال شرق الاردن تنبع من افتراض توصلنا الى تسوية مرضية مع عبدالله »(٨٨). ويعكس ذلك التأكيدات البريطانية السابقة على التعاون البريطاني — الشريفي . وقد أكد تشرشل في رسالته الى رئيس الوزراء عدم وجود بديل اخر لهذه السياسة . وقال ان البريطانيين لا يمكن ان يتنكروا بالعداء لعبدالله . ويبرز هذا التصريح اهمية الاعتماد البريطاني على عبدالله . وهذه الحقيقة اجبرت بريطانيه علىاستخدام «الدبلوماسية المخادعة » . ومن الواضح انه لا تتوفر دلائل موثقة تدعم هذا الافتراض . الا ان الاحداث التي تلت ، خاصة مؤتمر القدس ، يمكن ان توثق تلك الحقيقة .

لقد كتب تشرشل الى رئيس الوزراء ان احتلال شرق الاردن على أساس من الاتفاق مع عبدالله يعتبر « سياسة صحيحة »(٨٩). وكان على الامير ان يتقبل بظهور هذه « السياسة الصحيحة » وهكذا أبلغ تشرشل لويد جورج باجتماعه القادم مع عبدالله في القدس يوم الاثنين في الثامن والعشرين من اذار .

مؤتمر القدس : نتج عن مؤتمري القاهرة والقدس ترتيبان بارزان . ففي القاهرة جرت صياغة الجانب الاول من جوانب اقامة السياسة البريطانية في العالم العربي ، بينما احدث المؤتمر الثاني تسوية مؤقتة في شرق الاردن . وقد نتج عن هذا المؤتمر الذي عقد في القدس روابط بريطانيه — شريفية فعاله بحيث يعتبر هذا المؤتمر بداية تاريخ علاقات الصداقة الطويل بين البريطانيين وشرق الاردن .

ان هذا المؤتمر الموثق جيدا ، هو سجل ذو أهمية كبيرة للاساليب الشاذة التي اتبعها البريطانيون والامير عبدالله ليس لتقرير مستقبل شرق الاردن فحسب ولكن ايضا مستقبل الاقطار المجاورة . وقد كشف ذلك عن عدم مقدرة عبدالله على التحقق من « رغبات شعبه » ، وأخيرا أنجز المؤتمر تسوية مليئة بالعيوب . وكان المؤتمر خاضعا للهيمنة البريطانية فقد حضره تشرشل وصمويل وديدز ولورنس ليمثلوا الجانب البريطاني بينما مثل عبدالله الجانب الاردني يساعده مترجمه عوني عبد الهادي .

كان التصرف البريطاني في اثناء الاجتماعات يستهدف تأمين المصالح البريطانية في المنطقة ، من خلال توطيد الامن في شرق الاردن.وكانت السياسة البريطانية تستخدم الشريفيين كوسيلة لدعم القضية العربية ، غير ان ذلك لم يكن ينطبق على سوريا وفلسطين . ولم يكن التصرف البريطاني في المؤتمر محكوما « بخط في المفاوضات » . وفي الحقيقة فقد توصل البريطانيون الى تسوية مع عبدالله من خلال « المكر والخديعة » ، وقد اتبعوا هذه السياسة عند مناقشة الاوضاع في فلسطين وسوريا . فقد عبر الامير عن مخاوفه من التطورات التي تجري في فلسطين وكانت مسالة الهجرة اليهودية تضايقه . واجابة على هذه المسألة أبلغ صمويل عبدالله. ان البريطانيين « لا ينوون الاقتلاع او استبدال النباتات وانما هم [ينوون] ان يزرعوا نبتات جديدة فقط »(٩٠)، بينما أكد تشرشل للامير ان « الهجرة اليهودية ستكون عملية بطيئة جديدة وان حقوق السكان غير اليهود سيحافظ عليها بحزم »(٩١).

ولم تكن هذه التأكيدات مبنية على أساس ، فقد كانت تستخدم كواسطة كسب تأييد الامير . وتظهر هذه « الخديعة » في ضوء المشاريع البريطانية السابقة الرامية الى الاحتلال . وفي بداية المؤتمر جرى تعتيم على الخيار العسكري ولم تكن هناك حاجة الى هذا الخيار لسببين الاول يعود الى نجاح دبلوماسية تشرشل بينما يعود السبب الثاني الى تعاون الامير . ولم يكن هذا التعاون نتيجة

« الخديعة » فحسب وانما ايضا نتيجة لفرض سياسة « التنازلات » . وكانت الفكرة الكامنة خلف هذه السياسة تستهدف ان تجعل عبدالله يتخلى عن سياسته القديمة المتناقضة مع وجهة النظر البريطانية . وقد فشل تشرشل في الحصول على تنازلات في اليوم الاول ، غير انه في الاجتماعات الاخرى وجه عزمه نحو التحكم بالامير . وفي الحقيقة فان اعضاء الوفد البريطاني لم يكن بامكانهم ان يتجنبوا فرض سيطرتهم على الامير . ولم يترك هذا النمط من الدبلوماسية مجالا لاي تعديل في السياسة البريطانية . وقد أبدى الامير قليلا من خيبة الامل لكنه شعر بخزي العمل من أجل البريطانيين .

لقد ضمن مؤتمر القدس استمرار السياسة البريطانية ازاء شرق الاردن ، ويمكن القول أن النظام البريطاني الجديد لشرق الاردن قد وضعت أساساته في القدس . وقد تم التوصل بناء على هذه الاسس الى تسوية ناجحة نسبيا بين البريطانيين والامير ، وكانت هذه التسوية التي اقترحها تشرشل وقبلها عبدالله فيما بعد ، نتيجة اجتماعات دامت ثلاثة أيام . وقد اوضح تشرشل في الاجتماع الاول أهداف السياسة البريطانية في الاقطار العربية كما اوضح العلاقة بين فلسطين وشرق الاردن . ولم يترك البريطانيون مجالا للشك في أن الهجرة اليهودية سوف تستمر بجانب الاستيطان في البلاد . وقد اقترح الامير الذي كان لا يثق بنوايا البريطانيين ، توحيد فلسطين وشرق الاردن تحت حكم امير عربي . وانها لسخرية تاريخية ان الامير الذي تقدم بهذا الاقتراح دعم في اثناء الاجتماعات التالية ، الخطة البريطانية المتعلقة بفلسطين دعما كاملا .

حاول البريطانيون ، بعد أن اختبروا مواقف الامير ووجهات نظره في الاجتماع الاول ، ان يفوزوا ، في الاجتماع الثاني ، بموافقته على مخططاتهم في شرق الاردن . وكان تشرشل مهتما بالا تمثل شرق الاردن في المستقبل قاعدة للاعمال المناوئة للفرنسيين . وكانت تلك هي المشكلة التي تحتاج حلا سريعا . وكان ثمة توقع بأن توضح بتحديد كيفية معالجة قضية الحدود . وقد ابلغ الامير تشرشل ان « السكان في شرق الاردن قد احجموا من اعمالهم المناوئة للفرنسيين في سوريا وسوف يستمرون في ذلك الا ان هذا لا يتعلق بالسوريين المنفيين الكثر الذين استقروا بينهم »(٩٢) .

قدم تشرشل الى الامير في الاجتماع الثالث الاقتراحات التالية : (١) اقتراح تشرشل بأن يبقى الامير في شرق الاردن مدة ستة أشهر . (٢) تعيين ضابط سياسي بريطاني يلحق بالامير كمستشار رئيسي له . (٣) المساعدات الاقتصادية والعسكرية .

وفي مقابل هذا الدعم كان على الامير « ان يضمن عدم حدوث هياج مناوىء للفرنسيين او الصهيونيين في البلد »(٩٣)، وشرط مهم اخر هو فتح الطريق الصحراوي الى العراق .

وتبع ذلك تحالف وثيق مع بريطانية ادى الى ظهور امارة شرق الاردن واستمرار السيطرة البريطانبة . وهذا التحالف الذي استمر عمليا من ١٩٢١ الى ١٩٥٦ وسم بطابع موافقة حاكم عربي على استعمار فلسطين والمعارك التي قام بها ضد الحركة الوطنية .

تسوية تشرشل : فشل ام نكسة ؟ : اعتبرت محادثات تشرشل — عبدالله في القدس (آذار ١٩٢١) جزءا مهما من مستقبل السياسة البريطانية التي تم التوصل اليها في مؤتمر القاهرة الذي عقد في وقت سابق من شهر اذار . وفي تعليق لونستون تشرشل ، وزير المستعمرات ، على هذه المحادثات وصف عبدالله بأنه معتدل وودود ورجل دولة(٩٤). وكانت التسوية التي تم التوصل اليها تحديدا نصرا للسياسة البريطانية وبديلا لارسال حملة عسكرية لطرد عبدالله من شرق الاردن . وعوضا عن ذلك فقد التقى تعيين عبدالله لمدة ستة أشهر مع اهداف السياسة البريطانية في المنطقة ، اعني الامن في شرق الاردن باعتباره خطوة هامة نحو «توفيق نهائي مع الفرنسيين»(٩٥). من ناحية ، ولكبح امكانية النشاطات المناوئة للمستوطنات الصهيونية من ناحية ثانية(٩٦).

لقد توصلت بريطانيه بذلك ، لاول مرة في الفترة التي أعقبت الحرب ، الى عقد صفقة « رخيصة » ومرضية مع أحد اعضاء الاسرة الشريفية ، وهذا يعني أن ترسيخ القانون والنظام في شرق الاردن سوف يؤدي الى اقامة نظام سياسي واداري

وعسكري في البلاد . وهكذا كان على الاردن ان يصبح ، اولا مقاطعة عربية ضمن فلسطين بادارة المندوب السامي البريطاني في فلسطين . وثانيا ، وجهت تعليمات الى صمويل لتقديم خمسة الاف جنيه الى عبدالله لتغطية مصروفاته الشخصية ، وقدمت بعد ذلك مساعدات مالية لمواجهة النفقات الادارية العسكرية . واخيرا كان يجب تعيين ضابط سياسي رئيسي في عمان .

في أول خطاب القاه هربرت صمويل في عمان في الثامن عشر من نيسان في أعقاب اتفاقية تشرشل قال « ان الحكومة البريطانية مصممة على الا تصبح شرق الاردن مركزا للاعمال العدائية على فلسطين او سوريا » . ولتحقيق هذين الهدفين قال صمويل ان بريطانية « يمكنها الاعتماد على تعاون سمو الامير عبدالله »(٩٧). وفي ٢١ نيسان ١٩٢١ أبلغ صمويل وزارة المستعمرات في لندن عن التطورات المرضية في شرق الاردن وأشار الى صداقة عبدالله المخلصة ومحاولاته منع الهجمات ضد الفرنسيين . وكان صمويل قد لاحظ في وقت سابق انه يجب البحث عن الامن في فلسطين من خلال توطيد الامن في شرق الاردن ، وقال « تكون السياسة الفعالة في الاراضي الواقعة عبر نهر الاردن مثالية اذا منعت عمليات الغزو الى فلسطين »(٩٨). وبالنسبة للنظام الاداري فقد امتدح صمويل الامير عبدالله لاختياره الرجال الاكفياء والجديرين بالثقة ، اما بالنسبة لابقاء السيطرة على « القبائل القوية » وحفظ هيبة عبدالله فقد احتاج الامر الى قوة كبيرة(٩٩).

بعد أن عهد الى عبدالله بانشاء ادارة مركزية في عمان وجد نفسه يفرض سلطته على مجتمع قبلي . وقد ادرك عبدالله ، استنادا الى خلفيته القبلية ، ان أي اجراءات فعالة يجب ان تراعي فرض تفوقه على القبائل كذلك ان يضع في اعتباره المساعدات العسكرية التي سوف يتلقاها من البريطانيين لمواجهة النزاعات القبلية . وهكذا ارسل عبدالله رسالة الى تشرشل في ١٤ أيار ١٩٢١ يطلب فيها مزيدا من القوات لهدف توطيد النظام في البلاد ، غير أن هذا الطلب رفض بناء على اعتبارات مالية وذلك في رسالة مؤرخة في ٣٠ حزيران(١٠٠). وعلى الرغم من أن هذا الامر لم يكن عاملا مباشرا في عدم كفاءة الجيش، الا انه ظهر ان قوات الامن في هذه المرحلة المبكرة من الادارة ، لم تكن كفوءة . وقد طلب عبدالله ، الذي كان قائدا لجميع هذه القوات من الكولونيل علي خلقي ان يتسلم المسؤولية المباشرة في ادارة قوات الامن بينما اخذ بيك على عاتقه مسؤولية تدريب الدرك . كما عين ابرامسون في وظيفة الممثل البريطاني الرئيسي . وقد ووجهت قوات الامن وهي لا تزال في مرحلتها الاولى من التدريب والتنظيم بالاضطرابات القبلية . وكان اضطراب الكورة يعود الى عدم رغبة الساكن هناك في دفع الضرائب، مع ان جوهر المشكلة كان رفض الاندماج تحت سلطة الامير المركزية . ووقع حادث الكورة في أيار ١٩٢١ اثناء وجود بيك في القدس . وقد ارسل الفيلق العربي الذي لم يتجاوز عمره بضعة أشهر الى تلك المنطقة ولم يكن الجيش معدا للقتال وهكذا فقد مني بالهزيمة(١٠١).

أخذت الاوضاع في الاردن تتحرج ، ولم يبد الامير خلال اشهر التجربة الستة دلائل تشير الى كفاءته. فالجيش لم يكن فعالا ، وحدث عدد من اضطرابات القبائل والهجمات على المستوطنات الصهيونية وعلى الاقليم السوري بما في ذلك محاولة اغتيال المندوب السامي الفرنسي ، الجنرال غورو.وهذه الحالة غير المرضية جعلت تشرشل يطلب من صمويل « ان يمارس درجة من الضبط » على الوضع المالي.وفي الوقت نفسه ارتهنت المساعدات المالية القادمة لشرق الاردن بشرط اتخاذ اجراءات فعالة في البلاد(١٠٢). وقد اشتكى الممثل البريطاني الرئيسي في عمان من أن الامير لم يكن بقادر على ان تكون لديه الادارة المناسبة او على التخلص من الوطنيين السوريين . وهكذا كانت تسوية تشرشل في خطر وكادت السياسة البريطانية ان تصاب بنكستها الاولى في شرق الاردن . وقد أبدى ابرامسون وصمويل ويونج عدم موافقتهم على استمرار « أمير بدوي » في حكم شرق الاردن ، وهنا تدخل تشرشل مهندس الامارة الجديدة الواقعة على طرف الصحراء ، فأرسل لورنس الى عمان ليخبره عن الاوضاع هناك . وبذلك فقد بدأ طور جديد في تاريخ البلاد ، واجراءات جديدة في السياسة البريطانية في المنطقة . وقد انقذ هذا التصرف الحاسم سياسة تشرشل من الفشل .

مبادرة جديدة : مهمة لورنس : من بين الانجازات

التي حققتها السياسة البريطانية في شرق الاردن في فترة التجربة (آذار — ايلول ١٩٢١) ظهور امارة (دولة) شرق الاردن كمقاطعة عربية يرئسها أمير عربي غريب . ولم يكن هذا التكوين البريطاني كفؤا وكان خاسرا نسبيا . غير ان التحليل البريطاني لفشل هذه التجربة الاستعمارية لم يتوصل الى ازاحة هذه المؤسسة الجديدة ولا الى انهاء خدمة عبدالله . ذلك ان تشرشل واجه فشل عبدالله في تلبية المطالب البريطانية والفساد النسبي في البلاد بمبادرة جديدة تمثلت في البدء بسياسة مالية سليمة في البلاد او كما وصفها تشرشل « ادخال نظام جديد أكبر شبها بالعمل التجاري »(١٠٣).

وبناء على تعليمات من تشرشل غادر لورنس الحجاز الى القدس حيث التقى مع صمويل وديدس ثم مع ابرامسون.وعبدالله في عمان وكانت المهمة ناجحة مع انها واجهت اوضاعا جديدة . وقد كتب لورنس تقريرا لوزارة المستعمرات عن الوضع السياسي في شرق الاردن حيث « عدم الثقة المتزايدة بشرف الدوافع (البريطانية) في شرق الاردن » واستنتج ان « الخوف ناجم عن الصهيونية ويجب ان يكون في الامكان تبديده »(١٠٤).

لقد أظهرت مهمة لورنس واستقصاءاته رغبة في السياسة التالية :

١ — ان تستمر ادارة عبدالله لشرق الاردن في الوقت الراهن لكن دون اعلان رسمي جديد عن ذلك .

٢ — ابعاد بعض الموظفين السوريين .

٣ — لم يرصد اعتماد لتقديم مساعدة شهرية مقدارها خمسة الاف جنيه في الشهر الى ما بعد ٣٠ ايلول .

٤ — يجب اصدار بيان يوضح ان تعديل الانتداب يعني ان بنوده المتعلقة بالصهيونية لن تنطبق على شرق الاردن .

٥ — يجب الضغط على عبدالله مرة اخرى ليتخذ خطوات فعالة لتأمين القبض على الاشخاص الذين هاجموا غورو .

٦ — دعوة عبدالله الى لندن بعد فصل الشتاء(١٠٥).

لم تكن دوافع لورنس عرضية ، وانما كانت مبنية على الحقائق التي قام بتجميعها ليس فقط في اثناء زيارته القصيرة الى عمان في شهر تشرين الاول ، وانما من خلال معلوماته وخبرته غير المحدودة . وينبغي ملاحظة ان السياسة التي اقترحها كانت ترمي الى دعم الاسرة الشريفية وخاصة الامير عبدالله . وعلى الرغم من ان مخطط هذه السياسة نال موافقة تشرشل فقد ظهر وضع غريب . فاتفاق وزير المستعمرات والكولونيل لورنس على المحافظة على استمرار دور عبدالله السياسي كشف عن وجود استياء ما . ومهما كانت اهمية هذا « الاستياء » الذي ظهر الى حد ما بأنه سياسة معارضة لخط تشرشل — لورنس ، وليس « استياء » ، فقد انتهى الى الفشل . غير أن نتائج هذا الاستياء تركت علامتها على شكل مستقبل السياسة البريطانية في شرق الاردن. ففي تقرير بعث به المندوب السامي البريطاني في فلسطين الى تشرشل معلقا على تقرير لورنس قال « ان استقلال شرق الاردن تحت حكم بدوي لن يكون مصحوبا بأي درجة مهمة من الامن العام ». وفي التقرير نفسه اقترح ان « انقاذ شرق الاردن وتطورها من خلال حكومة محلية يمكن أن يتم بالتخلص من الامير عبدالله والسوريين »(١٠٦) وفي تلخيص التوصيات التي قدمها السير هربرت صمويل لمستقبل السياسة في شرق الاردن اقترح على تشرشل سحب عبدالله ودعوته الى لندن(١٠٧). ولم يلق الاقتراح قبولا من تشرشل الذي أجاب بأن « عبدالله سوف يتلقى في الوقت نفسه دعوة لزيارة لندن كضيف على حكومة جلالته » اما بالنسبة لازاحة الامير فقد كان رفض تشرشل لاقتراح صمويل مبنيا على انه « يظهر انه لا يوجد سبب أساسي قوي للتعجيل بترحيله »(١٠٨).

لم تنل وجهات نظر كل من لورنس وصمويل التي عبرا عنها في رسائلهما الى وزارة المستعمرات في ٢٤ تشرين الاول والتي اقترحا فيها اصدار بيان سياسي بالنسبة لبنود صك الانتداب على فلسطين وعلاقتها بشرق الاردن (البنود المتعلقة بالصهيونية)، قبولا من تشرشل . فمع ادراكه اهمية هذا البيان فقد كانت حجته ان وجود الشريفيين في شخص عبدالله كان « ضمانا في وجه المجازفة بالتغلغل الصهيوني ... وشكلا قيما من أشكال الحماية »(١٠٦).

لم تكن الاوضاع العامة في شرق الاردن بشكل عام ومستقبل الامير عبدالله في شكل خاص مجرد وجهات نظر وآراء مختلفة ، ذلك أن تطبيق السياسة المستقبلية ستطلب قرارا سريعا من جانب وزارة المستعمرات كي تضع حدا للعاصفة التي ثارت في دائرة الشرق الاوسط وفي مقر الحكومة في القدس . وقد عزز فيلبي ، فيما بعد ، هذه العاصفة السياسية عندما وصف الاوضاع في شرق الاردن آنذاك بأنها « أسوأ ما نكون » . وقد علق فيلبي ، الذي اصبح الممثل البريطاني الرئيسي في شرق الاردن بعد انهاء خدمات ابرامسون ، في تقرير ارسل به في ٢٢ ايار ١٩٢٢ . « ان السلطات البريطانية المختصة قد توصلت الى نتيجة هي ان انسحاب سموه هو خطوة تمهيدية ضرورية لاي تقدم هناك » ، غير ان هذه **العاصفة انجلت** بـ « فجأة مذهلة عند وصول لورنس»(١١٠).

من الواضح اذن ان تسوية تشرشل كانت في خطر . فوزارة المستعمرات كانت متمسكة بموقفها بالنسبة للتحقيق في الاوضاع بينما كانت الاتجاهات المعارضة لاستمرار تلك السياسة تؤيد فك الارتباط مع الامير ، غير انه حتى ذلك الحين لم يكن قد حان بعد احداث تغيير كبير في شؤون شرق الاردن .

مع ابقاء هذه الاعتبارات في البال . سنراجع بعض مواضيع المعارضة لتجربة تشرشل . ومع ان هذه المعارضة لم تغير مجرى السياسة العامة في شرق الاردن فهي قد اثرت الى حد ما في مجرى الاحداث في القطر . لقد كتب ديدس (الذي كان سكرتير الادارة البريطانية في فلسطين ١٩٢٠ — ١٩٢٣) رسالة سرية في قصاصة في ١٥ نيسان ١٩٢١ الى يونغ (مساعد سكرتير دائرة الشرق الاوسط في وزارة المستعمرات ١٩٢١ — ١٩٢٧) يبلغه فيها انه لا يتفق مع رأي لورنس مشيرا في ذلك الى شرق الاردن . وفي الرسالة نفسها كشف ديدس عن عدائه للمشرقيين بقوله « ما من شرقي يمكن الاعتماد عليه وليس عبد الله استثناء من ذلك »(١١١). وقد وردت يونغ شكاوى أخرى من الجنرال كونجريف (في القيادة العامة في القاهرة) في السادس عشر من حزيران فقد وصف الامير بأنه دجال كما وصفه بأنه فاسد وغير كفوء . وقد اقترح بأن يكون الى جانب عبد الله « رجل انجليزي جيد وقوي » كي يقوده تماما كذلك قوات انجليزية كي تدعمه »(١١٢).

على اي حال فخلال فترة الاشهر الستة التجريبية تدفقت الى وزارة المستعمرات الملاحظات والشكاوى والمعارضة حول الاوضاع في شرق الاردن ، وقد ارسلت هذه التقارير من جانب المخابرات والقيادة العامة والادارة والوزارات الاخرى لتظهر من بين امور اخرى النقاط التالية : ١ — انهاء الامير عبد الله . ٢ — فساد الادارة وعدم كفاءتها . ٣ — عدم الاستقرار في البلاد . ٤ — صدامات الحدود الخطيرة على الجبهة السورية . ٥ — الشك بالنسبة لفلسطين وعلائقها بشرق الاردن . ٦ — اقامة حكومة محلية .

ان اي محاولة تحليل شامل للدوافع والمبادىء التي اثرت على الموظفين البريطانيين في تعاملهم مع شرق الاردن يمكن ان تكشف ببساطة عن خطين للسياسة المستقبلية . ومن الواضح ان اغراض كلا الخطين تركزت في مسألة الامن ، كما ان تشرشل ولورنس من جانب وهربرت صموئيل والموظفين الاخرين من جانب ثان كانوا جميعا يهدفون الى الوفاء بالتزاماتهم تجاه فرنسة وابقاء فلسطين بعيدة عن الاضطرابات في المستقبل . وكانت الدوافع التي حفزت تشرشل على تمديد فترة تسويته المؤقتة مع عبد الله هي تلك الاسباب نفسها التي ذكرها تشرشل في رسالته الى الجنرال غورو المؤرخة في ٣١ اذار ١٩٢١ . فادراك تشرشل لنفوذ عبد الله جعله يعترف بان لدى الامير ، في الاوضاع القائمة ، القوة التي تمكنه من خلق اضطرابات جديرة بالاهتمام ، و « يبقى ان نرى اذا كانت لديه القوة لمنعها »(١١٣). وكان هذا الشرط بالتخصيص ، هو الذي سيحكم على نجاح الامير او فشله .

ان الاقتراب من فهم هذا الشرط يعطي مشروعية للقبول بعبدالله كـ « صمام أمان » . وفي أي حال فأن الثقة البريطانية الحذرة في الامير كانت نتاجا لعدم الاستقرار السياسي في المنطقة . وكان القرار بقبول الامير على اساس مؤقت يعزى الى الالتزامات البريطانية تجاه الاسرة الشريفية والى هيبة الامير ونفوذه . وفي عملية بناء هذه الدولة

العربية في شرق الاردن لغرض محدد هو المصالح البريطانية في الشرق الاوسط ، كانت حكومة جلالته بشكل عام مهتمة بالدولة اكثر من اهتمامها بالحاكم . غير انه يجب التوضيح بأنه جرى تبني هذه الالتزامات البريطانية بسبب وصول عبد الله عشية انعقاد مؤتمر القاهرة ، وقد كان هذا الوضع ، الى مدى بعيد ، هو الذي اثر على القرار البريطاني بالتوفيق مع عبد الله . ومن وجهة نظر بريطانيه فقد ساهمت التقارير الواردة من شرق الاردن ومن جدة في وقت سابق ، في التعاون مع الامير . ففي تقرير للمخابرات ارسل الى وزارة الخارجية في كانون الاول ١٩١٩ ذكر ان عبد الله « على خلاف » مع ابيه . ومثل هذا الوضع الناجم عن رفض الملك حسين اعطاء ابنه مالا يناسب البريطانيين ويجعل الوصول الى اتفاق مع الامير اكثر سهولة(١١٤) وفي وقت لاحق ، في كانون الثاني ١٩٢٠ ، كتب عميل بريطاني في جدة تقريرا عن اتساع الفجوة بين الملك حسين وابنه عبد الله . وقد كتب هذا العميل (الكولونيل نيكري) عن اشمئزاز عبد الله من سلوك الملك السياسي واكثر اهمية من ذلك فقد ذكر ان عبد الله « سوف يقبل التاج اذا امكن تنحية علي (اخي عبد الله) ، ويحكم البلاد وفقا للاراء البريطانية »(١١٥).

لم يغفل تشرشل الذي قاد المحادثات مع عبد الله في اذار ١٩٢١ في ادراك النقاط الثلاث المهمة التالية : ١ ــ التزام عبد الله بالبريطانيين. ٢ ــ نوايا عبد الله . ٣ ــ وضع عبد الله العسكري والمعنوي .

وفيما يتعلق بالنقطة الاولى فقد كان رأي تشرشل ان عبد الله اشار في عدد من المناسبات الى قبوله بـ « ان يشتغل » من اجل البريطانيين. وقد كتب هربرت صمويل في كانون الاول ١٩٢٠ الى ايرل كرزون مشيرا الى هذه العلاقات الودية ، ان عبد الله كان ينشر انباء بين سكان شرق الاردن تشير بوضوح الى العلاقات الودية والطيبة مع البريطانيين(١١٦). كذلك كتب صمويل فيما بعد ، في شباط ، ان المعلومات الموثوقة التي تلقاها تشير الى ان عبد الله كان تواقا الى « عدم اغضاب حكومة جلالته وكان يرغب فوق كل شيء في استمرار وجود الموظفين البريطانيين في شرق الاردن (١١٧).

اما بالنسبة للنقطة الثانية المتعلقه بنوايا عبد الله اثر وصوله الى عمان في الثاني من اذار، فكانت نشير الى خططه في تجنيد جيش والحصول على التأييد بهدف مهاجمة الفرنسيين . وقد تناول بيان عبد الله عن الاوضاع في سوريا ، في شكل رئيسي ، تحرير ذلك القطر من الاحتلال الفرنسي. وقال الامير في النداء الذي وجهه الى الشعب السوري « اتينا لنضحي بانفسنا لانقاذكم ... واذا كنتم انتم تقبلون بهذه الحالة فان الجزيرة (يشير بذلك الى الاسرة الشريفية) لن تقبل بذلك ، وسوف تأتي لنجدتكم »(١١٨). ان تحليل هذا البيان ونوايا عبد الله يجب ان يأخذ في الاعتبار تصريحا سابقا للامير عن سوريا . ويعتبر هذا ذا اهمية لفهم « تبديل المخططات » لدى الامير بعد اتفاقه مع تشرشل وذلك بعد فترة قصيرة من تعهده العلني بتحرير سوريا . ففي اذار ١٩٢٠ اعترف عبد الله بأنه رفض ان يصبح وزيرا لخارجية اخيه فيصل عندما علم ان سوريا سوف تصبح منطقة فرنسية(١١٩).

وبالنسبة للنقطة الثالثة فان وضع عبد الله العسكري في شرق الاردن كان مكفولا بسبب سياسته المعلنة ضد الفرنسيين . فبعد وصوله الى شرق الاردن قام الامير بتنفيذ دعاية منظمة جيدا لتعبئة الوطنيين السوريين وشيوخ القبائل . وقدرت قوته بثمانية الاف مسلح بينما اشار الجنرال كونجريف الى تشرشل بان البريطانيين كانوا قادرين على حشد ٢٢ الف رجل اثناء الحرب مع تركيا ، وقد اكد الجنرال ان هذه القوة يمكن ان تستخدم ضد البريطانيين(١٢٠) كذلك ذكر موريس فيما بعد ، في مذكرة كتبها في تشرين الاول ، انه « اذا انضم العرب في شرق الاردن الى اي عصيان ... وهو امر قد لا يمكن تجنبه ، فأن الحالة ستصبح مؤوسا منها لانه يبدو ان ثمة نحو ٢٠ الف عربي مسلحين جيدا في الجانب البعيد من نهر الاردن »(١٢١).

الحواشي :

١ — Fitzimons, M.A., Empire by Treaty, p. 1.

٢ — Lenczowski, G.: The Middle East in World Affairs, p. 655.

٣ — Marlowe: Arab Nationalism and British Imperialism, p. 1.

٤ — Medlicoff: British Foreign Policy Since Versailles 1919 - 1963, p. XVI.

٥ — Fitzsionons: Empire by Treaty, p. 20.

٦ — Medlicott: British Foreign Policy Since Versailles, p. XVI.

٧ — Marlowe: Op. cit., p. 24f.

٨ — Williams, Ann: Britain and France in the Middle East and North Africa, p. 18.

٩ — Meinertzhagen, R: Middle East Diary, 1917 - 1956, p. 132.

١٠ — F.O. 371/5276. C.F. 1384/80. From Ministry of Agriculture and Fisheries to the Under Secretary for the Foreign Office. 18th August, 1920.

١١ — وضعت شرق الاردن تحت الانتداب في مؤتمر سان ريمو في ٢٥ نيسان ١٩٢٠ . وفي ١٦ ايلول ١٩٢٢ عهدت عصبة الامم لبريطانيه بالانتداب على فلسطين وشرق الاردن .

١٢ — Woodward, E.L. & Butler, Roham, eds., Documents on British Foreign Policy, 1919 - 1939, 1st ser. Vol. XIII, Memorandum on the Future Control of the Middle East by Major H.W.Young, Foreign Office, May 17th, 1920. No. 250.

١٣ — ١ — فلسطين — لا توجد حكومة وطنية ، وان سياسة حكومة جلالته لن تنفذ اذا خرجت الى الوجود حكومة كهذه بدون اجراءات خاصة تتعلق بالسيطرة الادارية .

٢ — بلاد ما بين النهر — لا توجد حكومة وطنية ، غير انه جرى سابقا الاعتراف باستقلال البلاد الخاضع لنصيحة حكومة جلالته ومساعدتها حتى تكون البلاد قادرة على ان تقوم وحدها .

١٤ — المصدر نفسه .

١٥ — المصدر نفسه . No. 298, Curzon to Herbert Samuel, August 6th, 10, 1920.

١٦ — ارسل كرزون ، بناء على معلومات تلقاها من هربرت صمويل ، برقية مستعجلة جدا الى ايرل ديربي (في باريس) يعلمه فيهـا ان الفرنسيين احتلوا بعض المناطق في شرق الاردن وعينوا فيها حكاما . المصدر نفسه . No 300, Earl Curzon to the Earl of Derby (Paris) Foreign Office, August 7th., 1920.

١٧ — المصدر نفسه No 302; Herbert Samuel to Curzon, August 7th, 1920. وتظهر هذه البرقية بلا شك التناقض الواضح مع المعلومات السابقة عن الاحتلال الفرنسي للمنطقة عبر الحدود .

١٨ — المصدر نفسه . No. 301, telegram No. 179, Herbert Samuel to Curzon, August 8th, 1920

١٩ — المصدر نفسه . No. 305, telegram No. 80. Curzon to Herbert Samuel, August 11th, 1920

٢٠ — المصدر نفسه . No. 301

٢١ — Samuel : Memoirs, p. 160. في رسالة كتبت نيابة عن الملك في ٢٩ ايلول ١٩٢٠ كان على هربرت صمويل ان يتقبل حلا شريفيا : « دع عبدالله ، اذن ، يوقف حملته على فرنسه ويستقر في شرق الاردن ، واجعله معترفا به حاكما هناك وان يساعده عدد قليل من المستشارين البريطانيين ».

٢٢ — Documents on British Foreign Policy, 1919-1939, 1st ser. Vol. XIII, No. 301, telegram 179.

٢٣ — المصدر نفسه . No. 305. Curzon to Samuel, August 11th, 1920

٢٤ — المصدر نفسه .

٢٥ — المصدر نفسه .

٢٦ — Ibid.

٢٧ — Ibid.

٢٨ — المصدر نفسه .

٢٩ — Fitzsimons : Empire by Treaty, p. 18.

٣٠ — Documents on British Foreign Policy, No. 305

٣١ ــ في رسالة مؤرخة ٢٠ تشرين الثاني اعطى صمويل تعليماته بانشاء ادارة مركزية واحدة ، المصدر نفسه ، No. 410

٣٢ ــ المصدر نفسه . No. 305.

٣٣ ــ Dann : The Beginnings of the Arab Legion, p. 184, in Middle Eastern Studies, Vol. 5, October 1969

٣٤ ــ F.O. 371/5289, Camp to Storres, October, 13th, 1920

٣٥ ــ F.O. 371/5289, Deeds to Tilley, October, 18th, 1920

٣٦ ــ المصدر نفسه .

٣٧ ــ المصدر نفسه .

٣٨ ــ Documents on British Foreign Policy, 1919-1939, Curzon to Samuel, November 30th, 1920, No. 410.

٣٩ ــ المصدر نفسه .

٤٠ ــ في رسالة موجهة الى السيد فانسيتار (باريس) أكد كرزون ان حكومة جلالته في تعاملها مع شرق الاردن تعتبرها منفصلة عن دولة دمشق ، وفي الوقت نفسه هي تتجنب ان تقيم بينها وبين فلسطين علاقة محددة ، وبذلك فهي تبقي الباب مفتوحا أمام اقامة شكل من الحكومة العربية المستقلة ، ربما باجراء ترتيبات حول ذلك مع الملك حسين او الزعماء العرب الآخرين المهتمين بذلك .

٤١ ــ Middle Eastern Studies, Vol. 5 Oct. 1969, p. 184.

٤٢ ــ كانت القوة تضم سرية واحدة (٧٥ خيالا و٢٥شخصا آخرين مسلحين بالرشاشات) بقيادة الملازم عمر لطفي وخمسة ضباط .

٤٣ ــ F.O. 686/26, Political, Jeddeh Report, 20th-30th sep., 1920

لقد بنى المندوب السامي البريطاني في جـدة استنتاجه هذا على ما ذكر في الصحيفة المحلية « القبلة » من ان الامير عبدالله غادر الى المدينة للحلول محل أخيه . وعلى الرغم من ان المندوب السامي فهم من رسالة الامير انه في طريقه الى سوريا ، الا انه توقع ان الامير بسبب شخصيته العسكرية لن يتقدم لاكثر من المدينة « لبعض الوقت ».

٤٤ ــ F.O. 371/5289, Foreign Office to Herbert Samuel, 9th, Nov. 1920

تأكد مضمون هذه البرقية في مقابلة اجراهـا الاستاذ فاتيكيوتيس مع السير الك كيركبرايد ، فقد ذكر الاخير ان البريطانيين كانوا مقتنعين بأن عبدالله لن يجرؤ على الزحف شمالا . انظر : Vatiriotis : Politics and Military in Jordan, p. 43.

٤٥ ــ F.O. 371/5290. Mr. Fontana to Foreign Office, 2nd December, 1920.

٤٦ ــ المصدر نفسه . وفي الحقيقة كانت هذه القوات تضم ٢٠٠ رجل معهم ستة رشاشات . أنظر :
Herbert Samuel to Foreign Office, Dec. 4th, 1920.

٤٧ ــ المصدر نفسه .
Foreign Office to Herbert Samuel, Dec. 3rd, 1920

٤٨ ــ المصدر نفسه .

٤٩ ــ المصدر نفسه .
War Office to Foreign Office, 28th Dec. 1920.

٥٠ ــ F.O. 371/6371, Herbert Samuel to Curzon, January 7th, 1921

٥١ ــ المصدر نفسه .
Young to Herbert Samuel, Jan. 18th, 1921.

٥٢ ــ Williams, Ann : Britain and France in the Middle East-N. Africa, p. 32

قدمت مملكة سوريه الى فيصل في ٢٠ نيسان ١٩٢٠ وحل محله الفرنسيون في ١٩ تموز ١٩٢٠ الذين دخلوا مدينة دمشق في ٢٥ تموز بعد معركة ميسلون .

٥٣ ــ F.O. 371/6371, Herbert Samuel to Curzon, 30th Jan. 1921.

كتب صمويل الى كرزون ان « الهياج في شرق الاردن لم يكن بسبب سياستنا في فلسطين او في اي مكان آخر ، ولا بسبب رفض ارسال قوات عبر النهر ، ولكن بسبب السياسة المعادية للعرب التي اتبعتها فرنسه في سوريا ».

٥٤ ــ F.O. 371/6371. Herbert Samuel to Curzon, 7th January, 1921.

٥٥ ــ C.O. 733/1. Report on the political situation in Palestine and Transjordan for the month of Feb. 1921.

٥٦ ــ المصدر نفسه .

to Churchill, 12th March, 1921

٧٩ — المصدر نفسه .

٨٠ — CAB 24/126

٨١ — المصدر نفسه .

٨٢ — المصدر نفسه .

٨٣ — المصدر نفسه .

٨٤ — المصدر نفسه .

٨٥ — المصدر نفسه .

٨٦ — أوصت بهذا القرار لجنة فلسطين العسكرية وقد أكدت توصية اللجنة ان حجم الحملة يعتمد على افتراض ان عبدالله يعتبر صديقا للحكومة الامبريالية .

CAB. 24/126. Appendix 18 Palestine : Military-First Meeting of the Palestine Military Committee, March 17, 1921

٨٧ — F.O. 371/6371, Churchill to Prime Minister, Cairo, March 18th, 11 p.m. (1921), part III.

٨٨ — المصدر نفسه .

٨٩ — المصدر نفسه .

٩٠ — CAB/24/126

٩١ — المصدر نفسه .

٩٢ — المصدر نفسه .

٩٣ — المصدر نفسه .

٩٤ — CAB/24/122, C.P. Trans-jordanian. Memo. by Mr. Churchill. 18/J/102, 24. 1921.

٩٥ — المصدر نفسه .

٩٦ — Klieman, A. : Foundations of British Policy in the Arab World, p. 116.

٩٧ — C.O. 733/3. Speech of His High Commissioner delivered on April 18th, 1921, at Amman.

٩٨ — C.O. 733/2. Report on Palestine and Transjordan for the month of March 1921.
Interview between the High Commissioner und representatives of the Ajloun government on the subject of the Western Boundary of Ajloun.

٩٩ — C.O. 733/2. Telegram No. 93, from the High Commissioner to the Secretary of State for Colonies, 21st, April, 1921.

١٠٠ — C.O. 733/3. Churchill to Samuel, 30th June, 1921.

١٠١ — Jarvis : Arab Command, p. 75.

٥٧ — C.O. 733/1, February 28th, 1921

قال يونج ان الاضطراب سيستمر الى ان يتم الاعتراف بحاكم عربي في شرق الاردن .

٥٨ — F.O. 371/5290, Herbert Samuel to Foreign Office, Dec. 7th, 1920.

٥٩ — Ibid. Samuel to Foreign Office, Dec. 18th, 1920

٦٠ — Ibid. Samuel to Foreign Office, Dec. 8th, 1920.

٦١ — F.O. 371/6371, Samuel to Curzon, Dec. 31st, 1920.

٦٢ — المصدر نفسه .

٦٣ — Klieman, A.: Foundation of British Policy in the Arab World : The Cairo conference of 1921, p. 208

٦٤ — F.O. 371/5290, Herbert Samuel to Foreign Office, Dec. 26th, 1920

٦٥ — F.O. 371/6371, Herber Samuel to Foreign Office, Jan. 1st, 1921

٦٦ — المصدر نفسه ، ١٠ شباط ١٩٢١ .

٦٧ — المصدر نفسه .

٦٨ — C.O. 733/1, Jan. 24th, 1921

٦٩ — The Times, Feb. 28th, 1921

٧٠ — Klieman : Foundation of British Policy in the Arab World, p. 207

٧١ — F.O. 371/5290, G.H.Q. (Cairo) to War Office, Dec. 20th, 1920

٧٢ — F.O. 371/6371, Herbert Samuel to Foreign Office, Feb. 2nd, 1921.

٧٣ — Vatikiotis : Politics and the Military in Jordan, p. 43.

٧٤ — F.O. 371/6371, Herbert Samuel to Foreign Office, Feb. 22nd 1921.

وقد اعطى كرزون تعليمات الى هربرت صمويل بالا يسحب المثلين ما لم يتعرضوا للخطر .

٧٥ — المصدر نفسه ،
Curzon to Herbert Samuel, Feb. 22nd, 1921

٧٦ — وصل عبدالله عمان في ٢ آذار ١٩٢١ .
F.O. 371/6371, March 8th, Herbert Samuel to Churchill.

٧٧ — CAB. 24/126, C.P. 3121.
Report on Middle East Conference Held in Cairo and Jerusalem March 12-30/1921, circulated by Mr. W. Churchill, 18/J 9105, 11.7.1921

٧٨ — F.O. 371/6371, Herbert Samuel

١٠٢— C.O. 733/4. W. Churchill to H. Samuel, 8 Aug. 1921

١٠٣— المصدر نفسه .

١٠٤— C.O. 733/7. Report by Colonel Lawrence on the situation in Trans-jordan, 24th October, 1921.

١٠٥— C.O. 733/7 No. 436, dated October 24th, Samuel to Churchill.

١٠٦— المصدر نفسه ،

A note on Colonel Lawrence's Report.

١٠٧— المصدر نفسه ،

Samuel to Churchill, Jerusalem 24th, November, 1921.

١٠٨— C.O. 733/8. Confidential reply of 7th February, 1922 to H. Samuel's despatches of the 24th November and the 19th of Dec. 1921.

١٠٩— المصدر نفسه .

١١٠— F.O. 684/1. Serial No. 28. Appreciation of the situation in Trans-jordan by Mr. Philby, 12th May, 1922

١١١— C.O. 733/17 A. Deeds to Young, Cairo June 16th, 1921

١١٢— المصدر نفسه ،

General Gongrave to Young, Cairo June 16th, 1921.

١١٣— C.O. 733/13. Letter from Churchill to General Gouraud. 31st March, 1921.

١١٤— F.O. 686/26. Intellegence and Political Report. 1.12.1919-11.12.1919.

١١٥— F.O. 686/63. Vickery to Mukhabarat, Khartum. 11.1.1920.

١١٦— F.O. 371/6371. Despatch No. 231 of 31st December, 1920

١١٧— المصدر نفسه ،

Samuel to Foreign Office, 24th February, 1921.

١١٨ — المصدر نفسه ،

Despatch No. 8, 7th January, 1921. Samuel to Curzon.

١١٩— F.O. 686/26. British Agent, Jeddeh, to the Director of the Arab Bureau, Cairo. March 6th, 1920.

١٢٠— CAB. 24/126. Report of Middle East Conference held in Cairo and Jerusalem, 12-30 (March/1921. Circulated by Churchill, 11.7.21

١٢١—

C.O. 733/17B. Confidential. Memo. on Palestine and Proposals for dealing with the situation, October 1921, From E. H.J. Morris.

صفحة من تاريخ نضال الحركة
العمالية العربيـــة في فلسطين

مؤتمر العمال العرب الأول

ماهر الشريف

يعتبر مؤتمر العمال العرب الاول الذي انعقد بمدينة حيفا عام ١٩٣٠ ، حدثا هاما في مسيرة الحركة العمالية العربية في فلسطين . ومـــع ان جميع الباحثين المهتمـــين بدراسة تاريخ هذه الحركة قد أشاروا الى هذا الحدث التاريخي واكدوا على أهميته ، غير انه لم تظهر ، حسب اعتقادنا ، اي دراسة تفصيلية عنـــه . وهذا يرجع على الاغلب . لعدم توفر الوثائق التاريخية الضرورية لانجاز بحث خاص عن هذا الموضوع.

ان هدف بحثنا المتواضـع ، التطرق ببعض التفصيل لهذا المؤتمر العمالي العربي . وقد اعتمدنا لانجاز بحثنا هذا على مجموعة من المقالات والابحاث التي نشرت في صحف الاممية الشيوعية والاممية النقابية الحمراء ، والتي تتعرض لاوضاع الطبقة العاملة العربية التنظيمية . وقد ظهرت معظم هذه المقالات خلال فترة انعقاد المؤتمر ، وضمت تقارير ارسلت مباشرة من فلسطين .

اننا نعترف سلفا بأننا لن نقول ببحثنا المتواضـع هذا ، الكلمة الاخيرة حول هذا المؤتمر وملابسات انعقاده ، خاصة وقد اعتمدنا على مصادر محددة ، قد يقال أنها تعكس خلفيات سياسية وايديولوجية معينة .

اننا في الوقت الذي نؤكد فيه عدم قناعتنا بدور الباحث « المحـــايد » الذي يتابع الحوادث التاريخية « بنزاهة » من خارج ساحة الصراع الاجتماعي ، لندعو كافة الباحثين المختصين بدراسة تاريخ الحركة العمالية في فلسطين ، لتقديم أبحاث تكمل هذا البحث وتغنيه .

لقد عبر مؤتمر العمال العرب الاول عن تغير نوعي في مستوى الوعي الطبقي للحركة العمالية العربية ، تعاظمت على اثره نضالاتها الاجتماعية في سبيل تحسين ظروفها المعيشية ، وبدأت تلعب وللمرة الاولى ، دورا هامـــا مستقلا في النضال الذي كانت تخوضه الحركة القومية العربية ضد الامبريالية والصهيونية .

لقد كانت الجماهير العمالية غير المنظمة تساهم بشجاعة في كافة المعارك الوطنية ، بل انها كانت تمثل الى جانب الجماهير الفلاحية وقود جميع هذه المعارك . غير ان الطبقة العاملة العربية ، لم تظهر كقوة طبقية منظمة ومستقلة ضمن الحركة القومية العربية الا في المرحلة التي اعقبت انتفاضة آب ١٩٢٩ الثورية ، وبعد انعقاد المؤتمر العمالي الاول .

قبل انعقاد المؤتمر العمالي الاول ، لم يكن للطبقة العاملة العربية ، برنامج مطلبي واضح ، يعبر عن اهدافها ومصالحها .

من جهة اخرى ، كانت بعض المطالب الفلاحية كمطلب الدفاع عــن الارض ضد السياسه الصهيونية لاحتلال الارض ، تجد مكانا لها في برامج الحركة القومية العربية، خاصة وان سياسة الصهيونيين الرامية للاستيلاء على الارض العربية ، كانت تهدد ايضا مصالح القيادات الاقطاعية والدينية المتزعمة للحركة القومية العربية . أمــا المطالب العمالية فقد غابت تماما عن برامج الحركة القومية .

قبل التعرض لملابسات الدعوة لانعقاد المؤتمر وسير جلساته والاثر الذي تركه على مسيرة الحركة العمالية العربية ، سنحاول الرجوع تاريخيا الى الوراء ، للتعرف على واقع هذه الحركة ، خاصة على صعيد تنظيمي ، متعرضين الى أهم محاولات التنظيم النقابي العمالي العربي ، التي سبقت فترة انعقاد المؤتمر .

في بداية عهد الانتداب البريطاني ، لم يكن للعمال العرب في فلسطين ، اي تجربة على صعيد التنظيم النقابي . لقد كان شكل التنظيم الوحيد الذي يعرفونه ، هو شكل الجمعيات التعاونية ، القائمة على قاعدة قانون الجمعيات العثماني الذي كان لا يزال معمولا به ، والذي كان يسمح لسبعة أشخاص فأكثر ، أن يؤلفوا فيما بينهم جمعية تعاونية لرعاية مصالحهم ورفع مستواهم المادي والثقافي . ولقد كان القانون يشترط عدم تدخل مثل هذه الجمعيات بالقضايا السياسية . وكانت هذه التعاونيات تجمع العمال وأصحاب العمل جنبا الى جنب ، وكانت تدافع غالبا عــن المصالح الطبقية لهؤلاء الاخيرين أكثر من دفاعها عن مصالح العمال .

في بداية سنوات العشرين، بدأ يظهر عند العمال العرب اتجاه قوي للتنظيم النقابي. وقد لعب النقابيون المصريون ، الذين كانوا يعملون آنذاك في فلسطــين ، الى جانب النقابيين اليهود ، دورا كبيرا في تدعيم هذا الاتجاه ودفعه .

يمكننا تقسيم الفترة التاريخية التي اجتازتها الحركة العمالية العربية على طريق التنظيم النقابي ، قبل انعقاد المؤتمر ، الى مرحلتين :

المرحلة الاولى : وتمتد من أوائل سنوات العشرين حتى عام ١٩٢٦ ، او بتخصيص أكثر حتى تاريخ ظهور جمعية العمال العرب الفلسطينية .وكانت محاولات تنظيم العمال العرب خلال هذه المرحلة تتجه باتجاهين : الاتجاه الاول كان يجسده الحزب الشيوعي الفلسطيني من خلال نضاله لتنظيم العمال العرب داخــل المنظمات النقابية التابعة للهستدروت ، وخلق منظمات نقابية وحدوية وأممية . اما الاتجاه الثاني فكانت تجسده بعض الفئات القومية العربية ، التي كانت تسعى لخلق منظمات « عمالية » صفراء ، تضمن للقيادات الاقطاعية والبرجوازية فرض هيمنتهــا الطبقية والسياسية علــى جماهير العمال العرب ، وتجيير نضالاتهم في خدمة مصالحها الطبقية الضيقة .

المرحلة الثانية : وتبدأ بظهور جمعية العمال العرب ، أهم المنظمات النقابية العربية التي ظهرت آنذاك ، وتنتهي بانعقاد المؤتمر العمالي الاول . وكان اتجاه تنظيم العمال العرب يتجه خلال هذه المرحلة نحو تشكيل منظمات نقابية عربية مستقلة ، وذلك بعد فشل مهمة تأسيس منظمات امية وحدويــة ، بسبب سياســة القيادة الشوفينية للهستدروت أولا، وتأثير القيادات القومية على العمال العرب ثانيا . وقد دار صراع حاد بين العناصر الثورية والعناصر الاصلاحية داخل هذه المنظمات النقابية العربية ، لاستقطاب جماهير العمال .

اهتمت الكتلة العمالية التي اسسها الحزب الشيوعي الفلسطيني ، وبنــاء على توجيهات الاممية الشيوعية والاممية النقابية الحمراء ، اهتماما كبيرا بقضية تنظيم

العمال العرب . وكان المكتب التنفيذي للاممية النقابية الحمراء ، قد وجه نداء بتاريخ ٢٠ شباط ١٩٢٤ ، موجها الى العمال العرب في فلسطين ، جاء فيه : « أيها العمال العرب !! انكم حتى الآن غير منظمين ، لا تحتجون ، كل واحد منكم يعاني على حدة من قهر المستثمرين الرأسماليين عربا كانوا أم أجانب . لقد أصبح بلدكم مستعمرة للامبريالية الانكليزية (...) وقد عقد الشيوخ والافندية تحالفا وطيدا مع الامبرياليين الانكليز والرأسماليين الصهيونيين ، وذلك لاضطهاد العمال العرب (...) ان عدم تنظيمكم هو مصدر قوة أعدائكم الطبقيين ومسبب مآسيكم . ان ظروف عملكم شاقة جدا ، وأصحاب العمل يعاملونكم كالعبيد . فالعامل العربي لا يمثل بنظر الرأسمالي أكثر من دابة (...) . ان سبب هذا الوضع هو أنكم (أيها العمال العرب) لا تملكون منظماتكم النقابية (...) . ان منظمة الهستدروت التي توجد في فلسطين ، لا تدافع عن مصالحكم وعن حقوقكم . وهذا يعود ليس لانها تضم فقط اليهود ، ولكن أساسا لان قادة هذه المنظمة قد أخضعوا مصالح العمال اليهود لمصالح الصهيونيين ، اي لمصالح البرجوازية اليهودية ، المعادية لمصالح العمال اليهود والعرب (...) . أيها العمال العرب !! ان الاممية النقابية الحمراء التي تضم في صفوفها (١٥) مليون عامل ثوري من مختلف القوميات ، والتي تخوض نضالا حاسما ضد الاستغلال الرأسمالي وتدعم كل حركة ثورية معادية للاضطهاد القومي ، تتوجه اليكم بهذا النداء ، يا عمال فلسطين العرب ، وتدعوكم للنضال في سبيل تحرركم . هبوا للدفاع عن مصالحكم ! ضعوا حدا لاستثمار بلدكم ! أقيموا نقاباتكم واجعلوها منظمات للنضال الطبقي العمالي ! اعلموا أنكم عندما ستتنظمون ، سيكون بأيديكم السلاح الاقوى والاحسم (...) .

أيها العمال العرب !! ان للاممية النقابية الحمراء أنصارا في بلدكم ، فلسطين . وهم مناضلو الكتلة العمالية داخل الهستدروت : يناضلون منذ وقت طويل ، ليس في سبيل المصلحة القومية اليهودية ، وانما في سبيل المصالح الطبقية ، في سبيل مصالح العمال اليهود والعرب . ان الكتلة العمالية تسعى لاقامة تحالف كفاحي بينكم وبين العمال الثوريين اليهود ، للنضال على جبهة واحدة ضد المستعمرين والمستوطنين الاغنياء (...) .

أيها العمال العرب !! عليكم أن تجابهوا تحالف راس المال الانكليزي ــ الصهيوني مع الشيوخ والافندية العرب بالتضامن الكفاحي لجميع العمال الثوريين في فلسطين .

هبوا جميعا الى العمل !

هبوا جميعا الى التنظيم ! » .

ترجع أول محاولة جدية لتنظيم العمال العرب الى عام ١٩٢٢ ، عندما تقدم عمال سكك الحديد العرب (الذين كانوا يمثلون الفئة الاكثر وعيا على صعيد طبقي بين البروليتاريا العربية) ، بطلب للانضمام الى نقابة عمال سكك الحديد التابعة للهستدروت . غير ان القيادة الشوفينية للهستدروت رفضت آنذاك ذلك الطلب .

في العام التالي ، وبضغط من العمال الثوريين اليهود ، المنضوين تحت لواء الكتلة العمالية الشيوعية، وافقت قيادة اتحاد نقابات سكك الحديد والبريد والبرق على قبول انضمام العمال العرب للاتحاد . لقد كانت الكتلة العمالية الشيوعية ذات تواجد تنظيمي فعال داخل نقابة عمال سكك الحديد ، التي كانت تضم في أوائل عام ١٩٢٤ ، (٤٠) عاملا عربيا من أصل (٣٠٠) نقابي . وقد عقدت هذه النقابة يومي ٩ و١٠ كانون الثاني ١٩٢٤ مؤتمرا عاما ، قررت على أثره النضال لاقامة منظمات نقابية

امية ، تجمع العمال اليهود والعرب جنبا الى جنب ، وتجسد وحدة الطبقة العاملة في فلسطين . وجاء في مقررات هذا المؤتمر : « ان نقابة عمال سكك الحديد ، لن تتمكن من تجاوز المصاعب التي تعترضها الا اذا استطاعت تنظيم كافة عمال هذه المهنة ، دون اي تمييز قومي ، والامتداد الى كافة مناطق البلاد » . وجاء في البند الثالث من المقررات : « ان مؤتمرنا يطالب المؤتمر العام القادم للهستدروت بأن يطبق مبدأ التنظيم الاممي . فعلى قاعدة هذا المبدأ التنظيمي فقط ، ستقوم منظمة نقابية أممية ، تلعب داخلها نقابتنا دورا رئيسيا » .

لقد لاقى نضال الكتلة العمالية الشيوعية في سبيل خلق منظمات أممية وحدوية ، معارضة شديدة من قبل قيادة الهسندروت الشوفينية ، التي وصل بها الامر الى حد محاكمة مناضلي الكتلة ، بتهمة العمل ضد « مصلحة الطبقة العاملة اليهودية » . وقد اجتمع المجلس المركزي للهستدروت في نيسان ١٩٢٤ بصورة سرية للبت بمصير أعضاء الكتلة ، الذين لم يسمح لهم بالدفاع عن انفسهم . وبعد مداولات طويلة اتخذ المجلس المركزي قرارا بطرد أعضاء الكتلة من كافة النقابات التابعة للهستدروت ، وقد جاء في قرار الطرد : « أعداء للامة اليهودية ، أعداء للطبقة العاملة اليهودية ! يطرد أعضاء الكتلة العمالية من الهستدروت ! كما يطرد كل من نطق باسمها أو كان ممثلا ضمن لوائحها الانتخابية . وسيطرد في المستقبل وبصورة آلية كل من حاول تحت أي تسمية كانت ، متابعة نشاط هذه الكتلة . . . » .

لم تمض فترة قصيرة على فصل اعضاء الكتلة من الهستدروت ، حتى قامت السلطات الانكليزية باعلان منظمتهم منظمة غير شرعية ، حيث أغلقت كافة نواديها واعتقلت معظم كوادرها . وهكذا تعاونت قيادة الهستدروت مع السلطات الامبريالية في محاربة العناصر العمالية الشيوعية والقضاء على منظمتهم النقابية .

على اثر ذلك بدات حملة واسعة داخل كافة النقابات التابعة للهستدروت بهدف « تطهيرها » من العناصر الشيوعية ، من « أعداء الطبقة العاملة اليهودية » . وقد لاقت هذه الحملة معارضة شديدة من بعض النقابات خاصة في نقابة عمال سكك الحديد ، حيث أدانت اللجنة المركزية لهذه النقابة قرار الطرد الصادر بحق اعضاء الكتلة واعتبرته غير شرعي ، وبقيت هذه النقابة محافظة على طابعها الاممي ، تجمع العمال العرب واليهود جنبا الى جنب . ففي بداية عام ١٩٢٥ كانت قيادة هذه النقابة تضم خمسة عمال عرب من أصل عشرة نقابيين . وفي نهاية ذلك العام كانت النقابة تضم (٣٥٠) عاملا عربيا من أصل (٦٥٠) نقابيا ، و(٤٢٠) من أصل (٨٨٤) في منتصف عام ١٩٢٦ .

لم تكن قيادة الهستدروت الشوفينية تعارض وحدها قيام منظمات نقابية أممية موحدة . فالقيادات الاقطاعية والبرجوازية العربية كانت تعارض من جهتها ايضا خلق مثل هذه النقابات الاممية . وقد حاولت بعض هذه القيادات ، ومنذ وقت مبكر ، خلق منظمات « عمالية » عربية صفراء ، تمكنها من فرض هيمنتها على جماهير العمال العرب ، وتمنعهم من لعب دور مستقل في النضال ضد الامبريالية والصهيونية . في عام ١٩٢٤ ، تأسس في نابلس ، مركز الصناعة العربية للصابون ، على يد احد كبار أصحاب العمل ، حزب « عمالي » دعي باسم « حزب العمال العرب في نابلس » . وكان من أهداف هذا الحزب العمل على تحسين الظروف المعاشية للعمال والنضال ضد الشيوعية . غير أن هذا الحزب لم يعمر طويلا وتلاشى بعد فترة قصيرة من تأسيسه . في عام ١٩٢٧ ، حاولت بعض العناصر الاكثر رجعية في الحزب الوطني ، تأسيس

عدد من المنظمات العمالية الصفراء ، التي كانت تختفي الواحدة تلو الاخرى بعد فترة من ظهورها . في عام ١٩٢٥ بدأ يتقوى الاتجاه بين العمال العرب لخلق منظمات نقابية عربية مستقلة . كان من أهم هذه المنظمات جمعية العمال العرب الفلسطينية التي تأسست بمدينة حيفا بتاريخ ١٩٢٥/٣/٢١ . وكانت نشاطات هذه الجمعية تعبر عن اهداف مطلبية بحتة ، ضمن دائـــرة القانون والنظام ، شريطـــة ألا تمس الشؤون السياسية . وكانت قيادتها متأثرة بالنهج الاصلاحي للنقابات البريطانية ، وقد استطاع عدد من المثقفين وأصحاب العمل الوصول الى قيادتها . ومع هذا كله ، ساهمت هذه الجمعية برفع درجة وعي جماهير العمال العرب ، وزيادة تحسسهم لضرورة بنـــاء منظمة نقابية عامة ، تضم جميع العمال العرب في فلسطين .

في المؤتمر القومي العربي الذي انعقد في عام ١٩٢٨ ظهر وللمرة الاولى ممثلون عن العمال . وكانت قد تشكلت بمدينة حيفا في العام نفسه ، جمعيـــة تضامنيـــة هدفها مساعدة العمال العرب في العثور على عمل داخل الميناء .

في آب ١٩٢٩ ، لم تكن الطبقة العاملـــة العربية مهيأة للمساهمة بدور فعال في الحوادث الثورية . في ذلك الوقت لم يكن يعي ضرورة المساهمة المباشرة والمستقلة في الانتفاضة ، ضرورة النضال في سبيل انتزاع الهيمنة على قيادة الحركة الوطنية ، سوى قلة قليلة من العمال العرب . ومع هذا ، فقد كان لهزيمة الانتفاضة ولتهادن القيادات الاقطاعية والبرجوازية العربية ، دور كبير في تعميق الوعـــي الطبقـــي لدى جمـــاهير العمال العرب وزيادة تلمسهم لحاجتهم الموضوعية الى تنظيم طبقي مستقل يعبر عن مصالحهم وطموحاتهم . وهكذا شهدت الفترة التي اعقبت انتفاضة آب ، تصاعدا في النضالات الاجتماعية والسياسية لجماهير العمال العرب ، مما أعطى لشعار الدعوة لعقد مؤتمر عام للعمال العرب في فلسطين ، هذا الشعار الذي نادى به الشيوعيون منذ فترة طويلة ، قاعدة صلبة ، وجعله مهمة عاجلة لا تقبل التأخير .

لقد كانت القيادات البرجوازية الوطنية العربية ، تتهيب وجود منظمة نقابية ثورية، فوجود مثل هذه المنظمة قد يمكن الطبقة العاملة العربية من أن تغدو منافسا خطيرا لها، فيما يتعلق بقيادة الحركة الوطنية. ولقد حاولت القيادة الاصلاحية لجمعية العمال العرب المماطلة طويلا بالدعوة لعقد المؤتمر ، بل انها فكرت أحيانا بالغائه . غير انها أمام الاتجاه العام العفوي الذي ساد الجماهير العمالية الداعية لعقد المؤتمر ، قررت أخيرا عقد مؤتمر عام للعمال العرب في فلسطين ، بهدف تأسيس اتحاد عام لنقابات العمال ، وذلك في ١١ كانون الثاني ١٩٣٠ .

شنت القيادة الصهيونية للهستدروت حملة عنيفة ضد فكرة انعقاد مؤتمر عمالي عربي ، وكانت تظهر المؤتمر المقبل أمام جماهير العمال اليهود كعمل من أعمال الفئات البرجوازية القومية العربية ، أما تجاه سلطات الانتداب الانكليزي فكانت تصوره على انه من تدبير الشيوعيين . وهكذا لم تلحظ قيادة الهستدروت المصابة بعمى العداء الشوفيني للعرب ، حقيقة استيقاظ الطبقة العاملة العربية التي كانت ستبرز خلال مؤتمرها ، كطبقة اجتماعية منظمة ومستقلة ، للمرة الاولى منذ تاريخ ولادتها . من جهة أخرى ، حاولت الفئات البرجوازية القومية العربية التقليل من أهمية هذا الحدث ، والسعي لافراغ المؤتمر من مضمونه الطبقي . ولتحقيق هـــذا الهدف ، شنت حملة عنيفة ضد الشيوعيين ، محاولة اقناع الجماهير العمالية بأن تكون مطالبها متوافقة مع مطالب البرجوازية العربية ، وان تحارب كل نفوذ شيوعي داخل المؤتمر ، بحجة أن مثل هذا النفوذ قد يجلب ارهاب سلطات الانتداب ، وقد يؤدي الى منع المنظمة العمالية الناشئة .

كانت مهمة العمال الشيوعيين العــرب ، المنضوين تحت لواء الكتلة العمالية ، محاربة تلك التاثيرات البرجوازية القومية الاصلاحية داخل المؤتمر ، والنضال في سبيل وضعه بمستوى المهام الثورية والطبقية المطروحة أمامه .

بدات في فلسطين وفي البلدان العربية المجاورة ، حملة كبــيرة للتحضير لانعقاد المؤتمر . فعقدت عدة اجتماعات ومهرجانات سرية وعلنية ، وصدرت عدة نداءات تدعو الطبقة العاملة العربية لانتخاب مندوبيها الى المؤتمر . وقد ساهمت بهذه الحملة قطاعات كبيرة من العمال العرب تراوح عددها بين ٤ ـــ ٦ آلاف عامل وذلك في عدة مدن وقرى عربية مثل : القدس ويافا وحيفا واللد والناصرة وعكا ، وعين كارم وبيت صفافا ، والطيرة وشفاعمرو .

ساهم نقابيو الكتلة العمالية الشيوعية مساهمة فعالة في هذه الحملة الانتخابية ، وتمكنوا من ايصال عدد كبير من مندوبيهم الى المؤتمر كان على رأسهم القائد الشيوعي العربي « نجاتي صدقي » ، الملقب بـ « مصطفى سعدي » . كان من المفترض أن يساهم وفد منتخب عن عمال سوريا في هذا المؤتمر ، غــير ان سلطات الانتداب الافرنسية رفضت اعطاء أعضائه التصاريح اللازمة للسفر . وقد ساهم عاملان سو يان ، كانا يتواجدان في فلسطين آنذاك ، بصورة سرية في المؤتمر .

افتتح المؤتمر في مدينة حيفا يوم ١١ كانون الثاني ١٩٣٠ ، بحضور (٦١) مندوبا . وكانت الجماهير العمالية العربية الغفيرة ، تتابع جلساته من خارج الصالة بانتباه بالغ ، بعد أن أحاطت المبنى الذي انعقد فيه .

كانت غالبية المندوبين من العمال ، الذين انتخبوا في مراكز عملهم . ومع هذا فقد استطاع عدد من المثقفين واصحاب العمل التسلل الى المؤتمر .

افتتح المؤتمر بوقفة صمت حدادا على أرواح العمال العرب الذين سقطوا في ساحة النضال ضد الامبريالية والصهيونية . تلا ذلك قراءة برقيات التحية التي وصلت المؤتمر من أوروبا وبعض البلدان العربية المجاورة . وقد استمع المندوبون بحماس بالغ لتحية السكرتاريا العربية لعصبة مناهضة الامبريالية والتي كانت تدعو العرب للوقوف في طليعة نضال الشعوب المناهضة للامبريالية .

كان جدول أعمال المؤتمر يتضمن النقاط الثلاث التالية :

(١) تقرير عن أوضاع الطبقة العاملة العالمية وعــن أوضاع العمال العرب في فلسطين .

(٢) مناقشات عامة واقتراحات .

(٣) انتخاب لجنة مركزية جديدة .

منذ اللحظات الاولى لافتتاح المؤتمر دار صراع حامي بين المندوبين الشيوعيين وبين المندوبين القوميين الاصلاحيين في محاولة للسيطرة على المؤتمر واستقطاب غالبية مندوبيه . وقد تجسد هذا الصراع حول جملة من القضايا اهمها :

(١) هل يسمح بالمداخلات السياسية داخل المؤتمر ؟

(٢) ما هو موقف العمال العرب تجاه البرجوازية العربية وتجاه مطالبها الطبقية ؟

(٣) تحديد يوم العمل بثماني ساعات ، والنضال في سبيل رفع الاجور .

(٤) اصدار جريدة عمالية مركزية .

(٥) ارسال تحية تضامن مع نضال عمال الهند ضد الامبريالية الانكليزية وعملائها المحليين .

أثناء النقاشات التي دارت حول القضية الاولى ، قدم أحد المندوبين الشيوعيين تقريرا سياسيا ، تطرق فيه لانتفاضة آب الثورية ، منتقدا الموقف المتخاذل الذي وقفته الحركة القومية العربية خلال حوادثها الثورية . وقد حث المندوب الشيوعي جماهير العمال على تصعيد نضالها ليس فقط ضد وعد بلفور ، بل أساسا ضد الامبريالية الانكليزية ، ودعاها للنضال في سبيل الثورة الزراعية ودعم نضال مجموعات الانصار العربية ، وفي سبيل اقامة « حكومة العمال والفلاحين » في فلسطين .

تصدت العناصر الاصلاحية القومية للمندوب الشيوعي وطالبت مندوبي المؤتمر بمنعه من متابعة مداخلته وسحب التقرير الذي قدمه ، بحجة ان السلطات الانكليزية قد وافقت على انعقاد المؤتمر شريطة ألا يتطرق للامور السياسية . وبعد مجادلات طويلة ، تم التصويت على سحب التقرير السياسي ، حيث صوت (٣٥) مندوبا مع سحبه و(٢٢) ضده . وهكذا ربحت العناصر الاصلاحية هذه الجولة ، بعد أن أرهبت مندوبي المؤتمر بخطر تدخل السلطات .

حاول ممثلو البرجوازية العربية ، من أصحاب الاعمال ، الذين استطاعوا التسلل الى المؤتمر ، دفع هذا الاخير لاقرار بعض المقررات التي تخدم مصالحهم الطبقية الضيقة . ومثالا على ذلك ، حاول صاحب أحد الكراجات الكبرى ، دفع المؤتمر لاقرار توصية تطالب السلطات بوقف استيراد السيارات وتخفيض ثمن المحروقات . ولكن عندما بدأ المؤتمر بمناقشة تحديد يوم العمل ، تصدى ممثلو البرجوازية هؤلاء للمندوب الشيوعي الذي طالب بتحديد يوم العمل بثماني ساعات ، وادعوا بأن مثل هذا التحديد ، سيؤدي لاضعاف الصناعة العربية والقضاء عليها ، وعدم تمكينها من منافسة الصناعة اليهودية . وطالبوا العمال العرب بالعمل (١٤) ساعة يوميا عند أصحاب الاعمال العرب ، ودعوهم لمضاعفة انتاجهم ، في سبيل تقوية « الاقتصاد القومي » .

تحجج ممثلو البرجوازية داخل المؤتمر بنفس حجة تقوية « الاقتصاد القومي » ، لمجابهة دعوة المندوبين الشيوعيين في سبيل النضال من اجل رفع اجور العاملين العرب ، وزعموا بأن العامل العربي لن يقدر على منافسة العامل اليهودي في سوق الطلب ، اذا طالب بأجر مرتفع . لذلك يجب على العامل العربي أن يبقى قانعا بأجره الزهيد والا فقد فرص العمل .

غير ان غالبية مندوبي المؤتمر ، وقفت بشجاعة تتصدى لمناورات ممثلي البرجوازية هذه ، واقرت قرارا يحدد يوم العمل للعامل العربي بثماني ساعات ، كما اقرت قرارا يطالب برفع أجور العاملين العرب ، وجعلها تتساوى واجور العاملين اليهود .

وهكذا ربح المندوبون هذه الجولة ، وتمكنوا من طرد راسمالي عربي كبير من على منصة المؤتمر ، بعد أن حاول التدخل باسم « عماله » . ومع هذا فقد أقر المؤتمر عدة مقررات لدعم الصناعة العربية وطالب بمنح الاستثمارات في المشاريع العامة لاصحاب الاعمال العرب .

أثناء النقاشات التي جرت حول قضية اصدار جريدة عمالية مركزية، وقف المندوبون الاصلاحيون ضد هذه الفكرة ودعوا المنظمة العمالية للمساهمة بالكتابة والنشر في احدى الصحف القومية العربية . غير ان غالبية المندوبين ، وبدفع من المندوبين

الشيوعيين رفضت هذا الاقتراح ، وقررت اصدار صحيفة عمالية مستقلة باسم « العامل العربي » . كما تم الاتفاق بعد مداولات طويلة ، على ارسال تحية تضامن مع عمال الهند في نضالهم ضد الامبريالية .

أصدر المؤتمر بعد انتهاء جلساته عدة توصيات ، كما تم انتخاب لجنة مركزية جديدة ضمت عددا من العمال الثوريين . وكان من أهم توصيات المؤتمر :

ــ الدعوة لتشكيل نقابات عمالية في كافة أنحاء فلسطين والبلدان العربية المجاورة.

ــ المطالبة بسن قوانين وتشاريع خاصة لحماية العمال .

ــ المطالبة بايجاد عمل للعاطلين العرب . ودعوة السلطات للعمل على تشغيل العمال العرب في الاشغال العامة الحكومية ، بحسب نسبة المواطنين العرب لمجموع سكان فلسطين .

ــ منح الاستقلال السياسي التام لفلسطين في اطار الوحدة العربية ، ورفض تجزئة سوريا ، ومنها سوريا الجنوبية (فلسطين) .

ــ شجب الهجرة اليهودية .

ــ اقرار حق العمال بالاضراب كلما احتاجوا لذلك .

ــ الدعوة لوضع نظام خاص للمساجين السياسيين .

ــ شجب قرار السلطات الحكومية القاضي بمنح حق استثمار مشروع فوسفات البحر الميت لاحدى الشركات الامريكية .

كان لمؤتمر العمال العرب في فلسطين ، صدى كبيرا في كافة البلدان العربية المجاورة . وكانت مدينة حيفا أثناء انعقاده ، محطا لانظار الحركة العمالية والنقابية الثورية في العالم ، خاصة وانه قد انعقد بعد أشهر قليلة من الانتفاضة الثورية التي شدت انتباه العالم لهذا البلد الصغير : فلسطين . وكانت قيادة الاممية الشيوعية قد خصصت مكانا كبيرا في صحفها للحديث عن أهمية هذا المؤتمر . ووجهت قيادة عصبة مناهضة الامبريالية بهذه المناسبة ، نداء الى « المؤتمر العمالي العربي » بتاريخ ٩ كانون الثاني ١٩٣٠ جاء فيه : « اننا نرى من واجبنا ان نسترعي انتباه العمال العرب للخطر الكبير الذي يهددهم ، ألا وهو محاولة (القيادات الوطنية الاصلاحية) لاجهاض النضال البطولي لجماهير الشعب العربي ، من داخله ، وذلك قبل انجاز الاستقلال الوطني التام ، وتحقيق الوحدة الفيدرالية للبلدان العربية (...) . ان الجماهير العمالية والفلاحية العريضة مدعوة لمراقبة قياداتها الوطنية الاصلاحية ، التي تسعى لعقد مساومة مع الامبريالية الانكليزية على حساب الجماهير الشعبية (...) . ان مؤتمركم العمالي يدل على أن العمال العرب قد بدأوا يعون المهمة التاريخية الملقاة على عاتقهم في المعركة الكبرى التي يخوضها الشعب العربي في سبيل تحرره الوطني . ان اتحاد العمال المنظمين مع الجماهير الفلاحية المنظمة سيضمن القضاء على الامبريالية والانتصار الحاسم لمثلكم العليا » . شنت قيادات الهستدروت ، التي اذهلها اتساع الحركة العمالية العربية ، حملة عنيفة ضد المؤتمر ونتائجه ، وذلك من خلال تضخيم التأثيرات البرجوازية القومية داخله . حتى ان احدى الصحف الصهيونية وصفته بأنه مغامرة جديدة « للأفندية » العرب . هذا في نفس الوقت الذي كانت فيه هذه الفئات الصهيونية نفسها تصوره بالمؤتمر « البلشفي » أمام سلطات الانتداب .

لم تستطع القيادات البرجوازية العربية شن حملة مباشرة ضد المؤتمر . غير انها

تحدت لقرراته الاجتماعية القاضية بتحديد ساعات العمل وزيادة أجور العاملين العرب ، وادعت بان هذه المطالب العمالية ستدعم بصورة غير مباشرة الفئات الصهيونية ، وان الشيوعيين يسعون للقضاء على الصناعة العربية .



اذا حاولنا اعطاء تقييم عام لهذا المؤتمر ولنتائجه ، نستطيع القول بان القيادات القومية الاصلاحية قد استطاعت استقطاب غالبيه مندوبيه واعطائه طابعا قوميا في جميع القضايا التي استطاعت فيها التخفي خلف الجمل القومية واثارة مشاعر المندوبين القومية تارة ، أو التهديد بخطر تدخل السلطات تارة أخرى . أما في القضايا ذات المضمون الطبقي الواضح فقد استطاع المندوبون الثوريون احراز نجاحات ظاهرة .

لقد تحسس العامل العربي خلال مؤتمره الاول ضرورة النضال في سبيل مصالحه الطبقية ، وخرج من اطاره القومي ، محاولا ربط نضالاته بنضال الحركة العمالية العالمية .

لقد طرحت الطبقة العاملة العربية خلال مؤتمرها ، وبكل وضوح ، قضية تحولها من « طبقة بذاتها » الى « طبقة لذاتها » .

وضع مؤتمر العمال العرب الاول أسسا صلبة لخلق منظمة عمالية جماهيرية . وبدات على اثره حملة كبيرة لتنظيم العمال العرب ودعوتهم للانضمام الى النقابات . كما كان لنتائجه اثر كبير في تصعيد نضالات الطبقة العاملة العربية ، حيث عرفت الفترة التي اعقبته موجة نضالية عمالية ، لم تعرفها فلسطين قبلا . يورد الدكتور اميل توما أن المدن الفلسطينية قد عرفت ٤٦ اضرابا ، اشترك فيها ٤٠٠٠ عامل عربي بين سنوات ١٩٣٠ و ١٩٣٥ . ونسفت اتساع حركة الاضراب في القطاع العربي مزاعم الصهيونية حول خنوع العمال العرب وعدم قدرتهم النضالية بالمقارنة مع العمال اليهود .

كان نمو الطبقة العاملة العربية تنظيميا أحد العوامل التي غيرت المناخ السياسي في الثلاثينات وساعدت على تحول وجهة الحركة القومية العربية الى طريق مكافحة الامبريالية بدلا من الانحراف عن هذا النضال الى الاحتراب العنصري والديني .

مصادر البحث

١ ــ **المكتب التنفيذي للاممية النقابية الحمراء** : « الى العمال العرب في فلسطين » ، في الاممية النقابية الحمراء ، رقم ٣٧ ــ ٣٨ ، عام ١٩٢٤ ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .

٢ ــ **ج ج زيمننغ** J. J. Zimming : « الطبقة العاملة العربية ونشاطها النقابي » ، في الاممية النقابية الحمراء ، رقم ٧١ ، سنة ١٩٢٦ ، ص ١١١٣ ــ ص ١١١٥ .

٣ ــ بيرغر (Berger) : « النضال في سبيل الوحدة النقابية » (رسالة من القدس) ، في الاممية النقابية الحمراء ، رقم ٥٧ ، سنة ١٩٢٥ ، ص ٨٤٢ ــ ص ٨٤٤ .

٤ ــ **نداب** Nadab : « المؤتمر العمالي العربي الاول في فلسطين » ، في الاممية النقابية الحمراء ، رقم ١١٠ ، سنة ١٩٣٠ ، ص ٢٢٨ ــ ص ٢٣١ .

٥ ــ **ايبيس** Ibis **(يافا)** : « قبل المؤتمر العمالي العربي » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٤ ، ١٥ كانون الثاني ١٩٣٠ .

٦ — نداء من عصبة مناهضة الامبريالية الى « المؤتمر العمالي العربي » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ٤ ، ١٥ كانون الثاني ١٩٣٠ .

٧ — مصطفى سعدي (يافا) : « استيقاظ الطبقة العاملة العربية » ، في المراسلات الصحفية الدولية ، رقم ١٠ ، ١ شباط ١٩٣٠ .

٨ — J. B. (القدس) : « صدى المؤتمر العمالي العربي » ، في المراسلات الصحفية الدولية رقم ١٢ ، ١٢ شباط ١٩٣٠ .

٩ — نداب Nadab : « المؤتمر العربي الاول في فلسطين والنضال المعادي للامبريالية في البلدان العربية » ، في الاممية الشيوعية ، رقم ١١ ، سنة ١٩٣٠ ، ص ٧٠٩ — ص ٧١٩ .

١٠ — جاك كولان J. Couland : الحركة النقابية في لبنان ، باريس ، ١٩٧٠ . (صدر بالعربية عن دار الفارابي) ، ص ١٥٢ — ١٥٤ .

١١ — الدكتور اميل توما . جذور القضية الفلسطينية ، مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ص ١٨٤ .

ملاحظة : اعتمدنا على الطبعة الافرنسية من صحف الاممية الشيوعية والاممية النقابية الحمراء ، التي ورد ذكرها .

الغزو الصهيوني لارض فلسطين

فوزي الاسمر

نشرت جمعية « البدائل اليهودية الاميركية للصهيونية » دراسة للكاتب والشاعر الفلسطيني فوزي الاسمر ، باللغة الانكليزية ، حول الغزو الصهيوني لارض فلسطين . وقد مهد رئيس الجمعية ، الحاخام المر برغر ، للدراسة بمقدمة . وتنشر شؤون فلسطينية فيما يلي مقدمة الحاخام برغر ثم دراسة فوزي الاسمر .

يميز كونراد لورينز ، في كتابه الكلاسيكي « حول العدوان » ، بين « مسافة الفرار » و « المسافة الخطرة » فيما هو يحاول ان يشرح عند أية نقطة يقف الانسان ، أو جماعة من البشر (او الحيوانات) ، ويقاوم المفترسين النهابين . فيقول ان « الخطر يكون قريبا جدا » ضمن حدود « المسافة الخطرة ! ولذا لا يجرؤ الحيوان على ان يدير ظهره له ، فيقاوم بشجاعة اليأس المشهورة » . ويستعير لورينز المماثلة التالية من مؤلف آخر : « ينـاور مروضو الاسود ليضعوا وحوشهم المفترسة الكبيرة في المراكز التي يريدونها في الحلبة ، عن طريق القيام بلعبة خطرة بالهامش بين مسافة الفرار (فرصة للهروب والخلاص) والمسافة الخطرة (التي قد يرد الحيوان الضربة فيها) . » .

وقد تذكرت هذا المقطع من كتاب لورينز عندما قرأت بحث فوزي الاسمر وطلب مني ان اضع هذه المقدمة .

المستجدون في المشكلة الفلسطينية قد لا يلاحظون العلاقة . فبوجه عام لم تجتذب المشكلة الفلسطينية انتباها واسع النطاق الا منذ الحرب العربية/ الاسرائيلية الثالثة في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ . وهي لم تبدأ في اثارة اهتمام أوسع وأعمق في معظم أجزاء العالم غير الشرق أوسطي الا الآن — في اطار مشكلة الطاقة . وارتكازا الى هذه الخلفية من الفترة الزمنية القصيرة ، فان معظم العالم لا يدرك حتى الآن ان عدوان الصهيونية على السكان الفلسطينيين الوطنيين يعود الى أكثر من نصف قرن . ودون المنظور التاريخي نلاحظ ان معظم العالم اما غاضب من يأس « العرب » ، أو يشعر بالحيرة نحوه . والكثيرون من غير المطلعين لا يستطيعون — او لا يريدون — أن يفهموا لماذا « العرب » في عالم مستغرق تمام الاستغراق بالمشكلات ، لا ينتظرون فترة أطول بعض الشيء ليطلع شخص ما ، أو دولة ما ، أو مجموعة ما من الدول بالمخطط لتسوية حل وسط « معقولة » . وان شئنا التعبير بطريقة أخرى ، قلنا ان قسما كبيرا من العالم لا يفهم لماذا « العرب » (وبنوع أخص الفلسطينيون) يقاتلون الان وكأنهم في تلك « المسافة الخطرة » حيث يبدو لهم ان الاجراءات اليائسة هي سبيلهم الوحيد الباقي ، أو لماذا لا يستطيع « العرب » ان يكونوا عاقلين ويتنازلوا عن بضعة أميال أخرى من الاراضي وبعض الحقوق السياسية — وحتى بعض الحقوق الانسانية — بغية التكيف مع « النظام الجديد » « للتشاور بدل المواجهة » والوفاق بدل النزاع .

احد التفسيرات لهذا التضايق العام من « العرب » هو ان العالم لم يسمع غير القليل جدا من فلسطينيين عرب اصيلين طوال الخمسين

عاما من النزاع الصهيوني / الفلسطيني . وأسباب الفجوة الاعلامية هذه كثيرة — ومعقدة في كثير من الاحيان . وبكل انصاف لا بد من القول ان هذا الاخفاق ينبغي عزوه ، جزئيا ، الى « العرب » انفسهم . فان جزءا من الفجوة الثقافية التي تقسم شعب الشرق الاوسط عن الغرب هو عدم فهم « العرب » ، التام تقريبا ، لأساليب وفنون وتعقيدات وكلفة ما نسميه نحن الغربيين ، بشيء من السخرية ، « علاقات عامة » . لكن الطريقة غير الوافية التي اتصل بها الفلسطينيون بالغرب لا تغير الحقائق الاساسية التي كان لا بد من ايصالها الى الغرب ولا يجب الخلط بينهما .

والآن مع زيادة النزاع حدة — ومع زيادة الاهتمام به — منذ ١٩٦٧ ، اخذ العالم يسمع بعض الاصوات المعارضة من بين الخليط المتنوع من الاقوام التي تحكمها البيروقراطية الصهيونية التي تدير اسرائيل والاراضي المحتلة .

فوزي الاسمر هو أحد هذه الاصوات ، وبما ان معظم المعارضين الذين استمع اليهم خارج اسرائيل هم يهود اسرائيليون ، فلا بد من التوكيد على انه عربي مسيحي اسرائيلي . وهو أيضا شاعر وصحافي . وأخيرا ، انما ليس آخرا ، هو بين العدد النامي من الاسرائيليين اليهود والعرب في اسرائيل حاليا الذين لمسوا « فوائد » الاحتلال التي لا يراها أبدا السياح الذين تفرش لهم السجادة الحمراء . لقد كان فوزي الاسمر سجينا سياسيا ، اعتقل بموجب « نظام الطوارىء » المخالف للقانون وتدابيره الشيطانية « للاحتجاز الاداري » التي تسمح بالسجن دون أضأل أثر للاجراءات القانونية المحقة والعادلة . وعلى الرغم من ذلك فان الاستاذ ألن ديرشويتز من جامعة هارفارد — وهو محام وداعية صهيوني رئيسي — اعترف بعد زيارته للأسمر في السجن بأن فوزي يشكل خطرا على الهدوء العام للاحتلال الاسرائيلي لأنه « قائد رجال » .

والاسمر طالب في الولايات المتحدة الآن ، وهو لذلك حر في ان يتقاسم معرفته وخبرته الشخصية الجديرتين بالاعتبار مع الاميركيين الذين ، من أجل مصلحتهم الخاصة في شأن الطاقة ان لم يكن لأي سبب آخر ، يحتاجون بلا ريب الى زيادة معرفتهم الحالية حول المشكلة السياسية الرئيسية في منطقة تحتوي على نحو ٦٠ — ٧٠٪ من موارد العالم النفطية المعروفة .

أهمية دراسة الاسمر ثنائية . فهي تستخدم مصادر موثوقة ، ورسمية أحيانا كثيرة ، وتصف أحد أشكال العدوان الصهيوني التاريخي الذي يرقى عهده الى بداية القرن . وسيكون هذا بحد ذاته منظورا زمنيا جديدا مفاجئا للعديد من القراء . وقد يساعد في ازالة الوهم لدى الكثيرين بأن « العرب » هم مجرد قوم غضوبين ، سريعي الانفعال ، نافذي الصبر وغير عاقلين . فمظالمهم تسبق بوقت طويل ما يسمى « بحرب الايام الستة » التي لم تكن ، في الواقع ، الا معركة من معارك عديدة في حرب مضى عليها خمسون سنة ولم تنته بعد ولن تنتهي الا متى واجه صانعو السلام المزعومون الاعتداءات والاعمال الظالمة التي انتجتها .

ثانيا ، تميط الدراسة اللثام عن جزء من سبب استمرار العدوان الصهيوني ، بموافقة « الدول الكبرى » ، وحتما بقبولها — في غياب أصوات حقة من الفلسطينيين أنفسهم لمعظم نصف القرن هذا . فالصهيونية لم تخدم مصالح استراتيجية ، جغرافية — سياسية معينة لهذه « الدول الكبرى » فحسب ، بل هي انتهجت سياسة اقتصادية نهابة لصوصية قدمتها للعالم ، بواسطة احدى أفضل وسائل الدعاوة في العالم ، على انها محسنة عظيمة « لتمدين » شعب « متخلف » .

فالصهيونية جعلت « الصحراء تزهر » ، وجففت « مستنقعات الملاريا » ، وطورت « الزراعة الحديثة » ، وشيدت الطرقات ، وادخلت اجراءات الصحة العامة ، وبنت مدنا بأسرها . وليس « العرب » الا « عاقين» لمقاومتهم كل هذا التقدم . أو انهم « كارهون لليهود » . أو هم مجرد « متخلفين » خلقيا أو « كسالى » أو كلا الامرين معا . والامر الذي أهملت الدعاوة الصهيونية نقله الى العالم المعجب بها كان ، في الواقع ، المفتاح الى مقاومة العرب لكل هذه « المدنية » . فالسيطرة المباشرة والفوائد الاساسية لجميع هذه البركات حصرتها التشريعات الصهيونية في دائرة « الشعب اليهودي » التابعة للصهيونية بينما استبعد عنها الفلسطينيون من « غير اليهود » — علما بأن درجة التحسين التي جلبها الصهاينة

هي نفسها مبالغ بها اذ كان هناك مجتمع عربي قابل للحياة في فلسطين قبل المغامرة الصهيونية . واية فوائد وصلت الى الفلسطينيين كانت كلها ثانوية وبالاكراه . وقد جرى تهريب نظام « تفرقة عنصرية » اجتماعي واقتصادي وثقافي الى بنية فلسطين ، محجبا بثياب « تحديث » بلد « مهجور » وسكان « كسالى » .

احدى الوسائل الصهيونية الرئيسية لتحقيق هذه التجزئة للبلد كانت «الصندوق القومي اليهودي» . تأسس الصندوق رسميا عام ١٩٠١ في المؤتمر الخامس للمنظمة الصهيونية العالمية . وكان هدفه — وما يزال — هو شراء الاراضي في فلسطين ، وتنميتها الى حد ما ، الا أن الاراضي التي تم شراؤها صارت ملك « الشعب اليهودي » غير القابل للتحويل . فقد منع ميثاق « الصندوق القومي اليهودي » الملكية الفردية . وهذا البند أو الاجراء مكن الكيان القومي المصطنع للصهيونية (« الشعب اليهودي ») من شراء الاراضي التي زودته بقاعدة اقليمية من أجل « الوطن القومي للشعب اليهودي » .

وبما ان الكيان القومي « للشعب اليهودي » يشتمل على جميع اليهود في أي مكان ، وفقا للمزاعم الصهيونية ، فعلينا ان نلاحظ الامور الشاذة التي خلقتها سياسة الاراضي هذه . فـ « الحق القومي » المزعوم اعتبر ان لأي يهودي في أي مكان ، الحق في أراضي فلسطين التي منع التشريع الصهيوني الفلسطينيين أنفسهم منها .

دراسة فوزي الاسمر تحدد بعض « الكيفيات » التي تم بها شراء هذه الاراضي . ليس هذا هو المكان المناسب للدخول في النزاع اللغوي حول ما اذا كان هذا الاجراء شكلا من أشكال « الاستعمار » ، مع انه لا بد من الملاحظة بأنه في زمن اعتبر فيه « الاصلاح الزراعي » و « توزيع الاراضي » — اللذان يرسخان جذور الفرد في أرضه — خطوة أساسية في اتجاه تحرير مجتمعات اقطاعية سابقا ، اخذت الصهيونية تعمل في فلسطين على خط مناقض تماما . ولكن ان شئنا التسامح التام برفع الشبهة عن الصهيونية ، فان سياسة شراء الاراضي « كان يمكن » ان تنفذ بطريقة خيرة ومحررة . و « كان يمكن » ان تفضي ، في نهاية المطاف ، الى دولة ديموقراطية في فلسطين كان الصهاينة (كما زعموا كاذبين) قد اشتروا ، بوسائل شرعية وشريفة ، قاعدتها على الارض .

غير انه كان هناك قيد آخر كتب في عقود ايجار « الصندوق القومي اليهودي » مع المستوطنين اليهود الذين اختيروا للهجرة الى فلسطين وأسكنوا في أراضي « الصندوق » لزراعتها . فالمادة ٢٣ من عقد ايجار « الصندوق » اشترطت ، من بين أمور أخرى ، ما يلي : « يتعهد المستأجر بتنفيذ جميع الاعمال المتصلة بزراعة الارض بأيد عاملة يهودية فقط » .

وقد أدى الشكل المزدوج للتمييز — حصر كل ... الملكية والاستخدام باليهود — الى ما دعاه « تقرير سيمبسون » عام ١٩٣٠ « اخراج الاراضي عن نطاق التشريع الوطني » .

بكلام آخر ، لم تبدأ عملية تشريد الشعب الفلسطيني « غير اليهودي » من أراضيه باحلال شعب آخر مكانه في ما يسمى الحرب العربية / الاسرائيلية الاولى عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ ، فبطول ذلك الوقت كانت العملية قد تقدمت أربعة عقود وواجهتها خلال الاعوام مقاومة متقطعة — وغير فعالة الى حد كبير — بقدر ما وجد العرب الفقراء والمشردون انه يمكنهم تعبئة مثل هذه المقاومة .

والامر الذي تبينه عقود ايجار « الصندوق القومي اليهودي » — ودراسة فوزي الاسمر — هو ان العدوان الصهيوني ضد السكان الوطنيين في فلسطين كان مستمرا منذ وقت طويل جدا . ولم تكن الحملات العسكرية غير شكل واحد ، فالعدوان الاقتصادي كان اكثر دقة وخبثا . أو ، على الاقل ، كان بالامكان حجبه عن أنظار العالم ، على افتراض ان قسما كبيرا من العالم يهتم حقا . وكانت سياسة الاراضي الصهيونية شكلا من أشكال هذا العدوان الدقيق الخفي .

فليس مستغربا ، اذا ، ان يكون الفلسطينيون « غير اليهود » قد بلغوا « المسافة الخطيرة » التي يقول لورينز انه من الغريزي فيها لأي حيوان (بما فيها الانسان) ان يقف ويقاتل بيأس . ويجب توعية الذين ينشدون السلام في الشرق الاوسط الى تاريخ العدوان هذا ، ودون هذه المعرفة لا يستطيع صانعو السلام معرفة القضايا التي ينبغي حلها . وسيعجزون ، بالتالي ، عن ان

يحملوا الى المشكلة حتى القليل من الانصاف والعدالة اللذين لا يمكن دونهما تحقيق السلام اليوم كما كان غير ممكن تحقيقه طوال هذه الاعوام الكثيرة .

ليس ثمة دليل حتى الآن على أن صانعي القرارات يملكون مثل هذا الوعي . فمعظم جهود « السلام » تبدأ « بحقائق » ١٩٦٧ وتتوسل الى الاسرائيليين ان يكونوا اسخياء والعرب ان يكونوا عاقلين في حسم نهائي ما « لغنائم » تلك الحرب . ولا يقال شيء حول التغييرات الاساسية في البنية الصهيونية ، علما بأن هذه البنية وتحديداتها القومية المقصورة على اليهود والمميزة ضد غيرهم هي البذور التي نمت منها غابة العداء الحالي في الشرق الاوسط . « فالصندوق القومي اليهودي » ، على سبيل المثال ، ما يزال مسموحا له بالعمل في الولايات المتحدة وكأنه جمعية خيرية . وهو ما يزال يبني — « لشعبه اليهودي » — مستوطنات جديدة ، وهو ما يسميه دايان « حقائق جديدة » في الاراضي المحتلة . وكثيرا ما تكون الوكالة هي التي تشتري الاراضي من الحكومة الاسرائيلية عندما تصير ملكية الحكومة لهذه الاراضي ، المأخوذة اما بالحرب او بالتمييز المستمر ضمن اسرائيل ما قبل حزيران ١٩٦٧ ، موضع الكثير من الشك . وبكلام آخر ، فان « الصندوق القومي اليهودي » هو ما كان طوال التاريخ — اداة للعدوان الصهيوني ودبلوماسية الامر الواقع ، ما يزال يعمل كجمعية خيرية « شعبية » ويتمتع بحصانات « الجمعية الخيرية » واعتبارها والامتيازات التي تعفيها من الضرائب .

في هذا الاطار بالذات ينبغي قراءة دراسة فوزي الاسمر الواضحة الصريحة .لكن قراءتها يجب أن تكون أيضا أكثر من مجرد تمرين اكاديمي أو فكري . فالى الحد الذي قد يتوقف فيه سلام العالم على تسوية شريفة وعادلة للمشكلة الرئيسية في الشرق الاوسط ، الى ذلك الحد من المهم « للشعب » أن يقول لصانعي القرارات وصانعي السلام أن اللعبة او الحيلة الصهيونية قد انتهت . ولا ينبغي للذين يعلنون انفسهم دعاة السلام بعد الآن ان يقدموا العون لأداة عدوان ، اما باضفاء الاعتبار عليها او بمنحها الامتيازات الضريبية او غيرها . ليست هذه هي المشكلة كلها ، ولكنه سيكون من المفيد اذا ما دفعت حقائق فوزي الاسمر التي تكشف النقاب عن الصفة الحقيقية لهذا الجزء من الآلة الصهيونية ، اعدادا كبيرة من الذين لهم عقلية منصفة الى المطالبة بانهاء التغاضي عن هذا العدوان الذي سلب الاراضي .

المر برغر

١ — ارض بلا شعب

ان مشكلة العرب في اسرائيل هي جزء لا يتجزأ من المشكلة الفلسطينية . والمؤتمر الصهيوني الاول ، الذي عقد في بال تحت قيادة مؤسس الحركة الصهيونية ، تيودور هرتزل ، في آب (أغسطس) ١٨٩٧ ، كان يعي مشكلة الفلسطينيين وعيا شديدا . وهي مشروحة في اعلان بلفور ١٩١٧ . وكانتاعتبارا جوهريا أساسيا في اطار حرب ١٩٦٧ ولها دور أولي في الاطار السياسي الراهن للشرق الاوسط . ولم تقم الحركة الصهيونية بأية محاولات جدية لخلق أساس للمصالح المشتركة مع الشعب الوطني للبلاد . بل كانت عادة تستجدي دعم القوى الخارجية لمساعدتها في مسعاها : السلطان التركي ، القيصر الالماني ، الحكومة البريطانية ، والولايات المتحدة ، وذلك لأن منطق الصهيونية لا بد وان ينطوي على التشريد والقتال والحرب . ولم يكن ممكنا أي أساس للمصالح المشتركة مع السكان الوطنيين وفقا للشروط الصهيونية . وقاومت الحركة الصهيونية المنظمة معظم الذين دعوا الى تعايش سلمي وحوار مع السكان العرب . ورغم موقف الحركة الصهيونية المنظمة — فان بعض الصهاينة الناظرين الى الامام ، أمثال احاد هاعام ومارتن بوبر ويهودا ماغنيس وحاييم وايزمان ، دعوا أحيانا الى تعايش سلمي وحوار مع العرب . الا ان هؤلاء القلة من الصهاينة كانوا بوجه عام ساذجين من حيث انهم لم يقترحوا عادة أفكارا واقعية وتكتيكيا عملية ، والى ذلك رفض الجسم الرئيسي للحركة الصهيونية أفكارهم . والمقتطف التالي من كتاب آرون كوهين ، اسرائيل والعالم العربي(١) ، يوضح هذه الناحية : « أرغم المؤتمر الصهيوني السابع عشر الدكتور وايزمان على الاستقالة من رئاسة الاتحاد الصهيوني بعدما عبر في خطابه الافتتاحي أمام المؤتمر من الاستعداد للترحيب

بالاتفاق بين الشعبين النسبيين عنصريا على أساس المساواة السياسية » .

ليست السياسات الصهيونية المتعلقة بالمسألة الفلسطينية — العربية ، بأي معنى من المعاني ، نزوية أو مجرد نفعية . بل هي متأصلة في الاهداف الاساسية للصهيونية وتنطلق بالضرورة من منطقها الاساسي : استعمار بلد آهل بالسكان . ولم يكن باستطاعة الحركة الصهيونية ، منذ بدايتها ، ان تتجنب العدوان ضد العرب .

الدعاوة الصهيونية الاولى تعمدت تصوير فلسطين على أنها فارغة من السكان في ما عدا بعض القبائل البدوية . وما زالت الدعاوة الصهيونية تكرر ان اكثرية عرب فلسطين «هاجروا» بالدرجة الاولى بعد آن جاء اليهود وفلحوا الارض ، وطوروا زراعتها وبنوا البلد(٢) . والحقائق في الصفحات التالية معظمها مأخوذ من مصادر صهيونية ، وتبين بوضوح التحريف الساخر للحقيقة في هذه المزاعم .

وفي هذا النطاق كتب احاد هاعام(٣) ، الداعية والكاتب اليهودي المعروف ، كلمته الشهيرة في ١٨٩١ ، بعد زيارته لفلسطين : « لقد اعتدنا نحن في الخارج ان نعتقد ان أرض اسرائيل هي الآن مقفرة تماما تقريبا ، صحراء غير مزروعة ، وبامكان كل من يرغب في أن يشتري أراض هناك ان يأتي ويشتري بقدر ما يحلو له . ولكن ليس هذا هو الوضع في الحقيقة . ففي جميع أنحاء البلاد من الصعب ان تجد حقولا غير مزروعة ، وحدها الحقول الرملية والجبال الحجرية غير الصالحة (لزراعة أي شيء) سوى أشجار الفاكهة ، علما بأن زراعة هذه الاشجار غير ممكنة الا بعد أعمال شاقة وأكلاف باهظة لتنظيفها واستصلاحها — وحدها هذه الحقول غير مزروعة » .

وقد أيد هذا الرأي المندوب السامي البريطاني (الموالي للصهيونية) في فلسطين ، السير هيربرت صموئيل ، عام ١٩١٥(٤) : « كان عدد العرب في فلسطين في بداية هذا القرن نصف مليون نسمة الى ٦٠٠ ألف نسمة . واليهود من ٩٠ الفا الى مئة ألف » .

كانت القضية المركزية في النزاع العربي — الصهيوني على الدوام مسألة الاراضي . ولفهم أسس القضية ، من الضروري التمعن في السياسات والاساليب التاريخية التي استخدمها الصهاينة ، بالتعاون مع الملاكين الافندية العرب الكبار والقوى الاجنبية المسيطرة على المنطقة (الاتراك حتى الحرب العالمية الاولى ، والبريطانيين حتى ١٩٤٧ والاميركيين حاليا) للسيطرة على هذه الاراضي . ومثل هذا الفحص يوضح الاطار الذي تصاعد فيه النزاع . ولم تكن حرب ١٩٦٧ غير الظاهرة الاخيرة الاكثر دراماتيكية . ولن تكون الحرب الاخيرة ، الا اذا ضبطت القوى المحركة للصهيونية أو تغيرت .

٢ — تحليل وصفي تاريخي

كان الملاكون العرب الكبار يسيطرون على نحو ٢٩,١٪ من الاراضي الزراعية الخصبة لفلسطين عام ١٩٣٩(٥) . وكان الفلاحون المستأجرون وعبيد الارض يزرعون الاراضي (SERFS) . وتحت النير الثقيل جدا للظلم الاقتصادي والاستغلال ارغموا على بيع الاراضي لكبار الملاكين المتغيبين وكانوا مغلولين بنظام معقد من الضرائب الفاحشة والرهونات . وكانت الارباح تصب في خزنات الملاكين الذين كان يقيم معظمهم اما خارج فلسطين أو في مدن فلسطين الكبيرة . وكان عملاء الحركة الصهيونية ووسطاؤها يتصلون بهم ويعرضون عليهم مبالغ كبيرة من المال لأراضيهم .

وما كان يسعهم الا الترحيب بالعرض . فهم لم يكونوا مهتمين بمستقبل المستأجرين ، الذين أقاموا على هذه الاراضي أجيالا عديدة . مثال ذلك : كان مرج ابن عامر اكبر عملية شراء صهيونية واسعة النطاق للأراضي . وتم شراؤه عام ١٩٢٥ من عائلة سرسق . وتتألف مساحته من نحو ٤٠٠ ألف دونم منها ٣٧٢ ألف دونم خصب وصالح للزراعة . كان أحد أخصب المناطق في فلسطين ويشكل هري قمح مهما للبلد . وحصلت عائلة سرسق على ٧٢٦ الف جنيه فلسطيني لقاء الارض . وكان سرسق نفسه قد اشترى الارض من الحكومة التركية بمبلغ ١٨ الف جنيه فلسطيني ، وفي الواقع لم يدفع سوى ستة الاف جنيه فلسطيني للحكومة التركية ، وقد دفع الاثني عشرة الف جنيه فلسطيني الباقية للوسيط . ولذا كانت أرباح سرسق من الصفقة هائلة . وكانت تقيم في المرج ١٢٧٠ عائلة عربية

فلسطينية ، موزعة بين ١٣ قرية . وكان اعضاؤها مستخدمين ومستأجرين . ولتجنب الفضيحة العامة حول تصفية ١٣ قرية ، دفعت الحركة الصهيونية لكل عائلة ٢٤ جنيها فلسطينيا من قبيل « التعويض » . الا انها في حالات عديدة لم تدفع شيئا . فبعد شراء وادي الحافر ، على سبيل المثال ، تشرد نحو ٢٠٠٠ فلاح عربي . وولد التشريد نزاعات دموية بين المستخدمين والمستأجرين وبين المستوطنين اليهود . وتبع ذلك تدخل البوليس البريطاني . وهذا التدخل سهل تشريد العرب وحلول اليهود مكانهم ، في نهاية المطاف ، بدل أن يمنعه .

كانت القيادة الصهيونية تفهم تمام الفهم أهمية الروابط بين الانسان والارض وتدرك تمام الادراك ان السيطرة على البلاد لن تكون ممكنة دون قطع هذا الرباط . وفي ١٩٣٠ قدم الدكتور ارثر روبين(٦) خبير الوكالة اليهودية في الزراعة والاستيطان ، مذكرة سرية الى الوكالة اليهودية قال فيها ، من بين أمور أخرى : « الارض هي أهم شيء لتوطيد جذورنا في فلسطين . وبما انه لا تكاد تبقى أية أراض زراعية غير مستوطنة في فلسطين ، نسنضطر في كل حالة من حالات شراء الاراضي واستيطانها **الى ازالة الفلاحين الذين زرعوا الارض حتى الآن ، المالكين منهم والمستأجرين »** .

وقد موهت الجهود الرامية الى اقتلاع العرب من بلادهم بشعارات مثل « الايدي العاملة العبرية » و « الكفاية الذاتية » . وكانت « الايدي العاملة العبرية » تعني ان كل رب عمل يهودي مطلوب منه الا يستخدم غير العمال اليهود ، مع ان معظم الملاكين اليهود كانوا يفضلون العمال العرب لان معدلات أجورهم أرخص ونوعية عملهم أرفع . وقد ترجم مطلب « الايدي العاملة العبرية » ليعني ، لا استبعاد العمال الجدد فحسب ، بل ايضا اقصاء الكثير من العرب الذين زرعوا الارض ، تحت اسم ملكيتها العربية سابقا ، أعواما عديدة ، وأحيانا كثيرة اجيالا عديدة . وقد فسرت الحركة الصهيونية « الكفاية الذاتية » على أنها تعني شراء منتجات ، زراعية وغير زراعية ، يهودية ويهودية فقط ، اي مقاطعة تامة للمنتجات العربية .

لم تكن سياسة الشراء والاستخدام اليهوديين الحصريين معبرا عنها بالدعوة الشفهية فحسب ، بل أيضا بأعمال متطرفة وأحيانا كثيرة عنيفة ، زادت من حدة ومرارة النزاع بين اليهود والعرب . وفي ما كان يسمى « المراقبة العمالية » ، كان يصار الى ايقاف شبان يهود أمام كل عمل يهودي حيث يقصون عنه بالاكراه كل عامل غير يهودي . كذلك كانت هناك معارضة ثابتة ومستمرة لجهود النقابات العربية / اليهودية المشتركة للحصول على تحسين للأجور وفوائد اجتماعية . كما احتفظ بالمنظمات النقابية العمالية اليهودية المنفصلة والحصرية بعد تأسيس دولة اسرائيل ، وحتى ١٩٦٦ كانت « المنظمة النقابية الاسرائيلية العامة » (الهستدروت) مغلقة في وجه العرب . وقد انسجمت هذه السياسة مع الاهداف المعينة الواضحة للهستدروت والغاية من تأسيسها عام ١٩٢٠ . ففي مقابلة في الابزيرفر اللندنية (٢٤ كانون الثاني — يناير ١٩٧١) قالت رئيسة الوزراء الاسرائيلية آنذاك : « ثم (في ١٩٢٨) جرى تعييني في اللجنة التنفيذية للهستدروت ، في وقت لم يكن فيه هذا الاتحاد العمالي الكبير مجرد منظمة نقابية ؟ بل كان وسيلة كبرى للاستعمار » .

وقد عنت « الكفاية الذاتية » التدمير ، فضلا عن مقاطعة المنتجات العربية حيث نجحت مثل هذه المنتجات ، رغم العقبات ، في الوصول الى مناطق السكان اليهودية الكبيرة . وكان يصار الى قلب العربات العربية التي تحمل البيض رأسا على عقب والى سكب الكاز على المنتجات الزراعية للفلاحين العرب الذين يأتون لبيع منتجاتهم في المستوطنات والمدن اليهودية .

وقال الزعيم الصهيوني مناحيم أوسيشكين ، في شهادته السرية ، أمام لجنة الوكالة اليهودية حول العلاقات اليهودية / العربية في آذار (مارس) ١٩٤٠ : « أنا أؤيد الايدي العاملة العبرية والمنتجات العبرية ١٠٠٪ . أنا أؤيد ذلك لأنني أعارض تقوية العرب . أنا ضد تمكينهم من أن يرسخوا جذورهم في البلد »(٧) .

٣ — الهجوم المضاد

وكان من الطبيعي ان يشن الفلاحون العرب هجوما مضادا لتشريدهم واحلال المهاجرين اليهود مكانهم . وشنوا هجوما مضادا بجميع الوسائل المتيسرة لديهم : العنف والهجمات المسلحة على

مستوطنات القوم الذين شردوهم وحلوا محلهم ، وكذلك ضد العرب واليهود الذين تلاعبوا بأراضيهم وضاربوا عليها وجنوا منهـا أرباحا استغلاليـة فاحشة . واعتبر الفلاحـون العـرب مجموعـة السياسات الصهيونية المتعلقة « بالايدي العاملة » و « الاراضي » خداعا وغشا واحتيالا تاما . وهذا يؤكده موسى غولدنبرغ ، عضو كيبوتز بيت ألفا التابع لهاشومير كاتزير(٨) وهو موظف قديم مـن موظفي « الصندوق القومي اليهودي » . فهو يقول في روايته لشراء أراضي صحنة (Sahnah) مـن أحد الملاكين العرب(٩) : « كانت معظـم أراضي صحنـة مسجلة باسـم « الصنـدوق القومـي اليهودي » . ومع هذا ، فقد واجهنا هنا صعوبات كبيرة جمة في الحصول على أراضينا . فقد تمرد جميع سكان القرية ، ورفضوا تسليم بوصة واحدة من الارض . وكـان « الصندوق » قد اشترى الاراضي بوساطة اثنين من كبار المضاربين احدهما يهودي يدعى رفائيل حاخام ... وكانت المفاوضات مع السكان سلبية ، ومع هذا قرروا ان عملية الشراء كلها هـي عمل خيانـة ورفضوا تسليم الارض » .

وكانت معظـم صفقات الاراضي تنطوي علـى خيانة . وكان الفلاحون شهودا مباشرين ، ومع هذا كانوا عاجزين تماما . ولم تكن لديهم أيـة وسيلة سياسية لانهاء الخيانة ، ولم يجدوا دعما شعبيا لاحتجاجهم ونضالهم . واليوم ، بعـد ٢٥ سنة ، من الواضح ان الحقائق تبرر مقاومتهـم الباكرة . والقصة التالية ، التي يرويها ايضا موسى غولدنبرغ(١٠) ، المشار اليه في المرجـع السابق ، تتعلق بمالك عربـي أراد ان يبيـع أراضيه ، بشرط أن يحصل على سعر جيد ويشرط ان تتم الصفقة بطريقة من شأنها الا تفضحه أمام شعبه كخائن ، وتتخلص من مستأجريه دون اجتذاب الانتباه العام . يكتب غولدنبرغ : « فـي مكتبنا بحيفا عثرنا على الطريقة : سيصار الـى اعلان افلاس الملكية والى عرضها للبيع من قبل المحكمة والمكتب التنفيذي التابع للمحكمة . وستنتقل فـي البدايـة وبصورة وهميـة الـى أحد العرب ، وسنشتري الارض منه بصورة سرية . وهكذا سيتم كل شيء بهدوء وسلام ... » .

والعربي الـذي اشترى الارض سرا كـان ، بالطبع ، رجل غولدنبرغ . الا ان هـذه الصفقة المعينة لم تتم(١١) : « حضر المحرضون الى المكان وشجعوا القوم على تحدي أسيادهم ورفض النزوح عن الارض والتخلي عن الارض ... » .

وكتاب غولدنبرغ (**والصندوق مـا زال حيـا** ، **Ve - Hakereh Odenah Kayemet** تلاعب لفظي علـى عبارة كيرين كايميت لي ـ يزرائيل : أي الصندوق القومي اليهودي) مليء بالقصص المماثلـة المتعلقة بالطرق المستخدمـة للسيطرة على الاراضي وتشريد العرب من أراضيهم واحلال اليهود فيها(١٢) : « في مكتبنا فـي حيفا رحنا نعمل باجتهاد . كانت احدى الطرق هـي تسجيل الاراضي التي اشتريها أنا بأسماء بعـض العرب الذين استؤجروا من أجل هذا العمـل ، بعدما نضمن مقدما بواسطة اجراءات قضائيـة معقدة تحويل الارض الينا عن طريق المكتب التنفيذي التابع للمحكمة أو عن طريق اسماء معينة الخ » .

وفي الواقع ، فان القضية بالنسبة الـى عدد كبير من المستخدمين والمستأجرين كانت مـا اذا كانوا سيشردون مـن الارض أم لا . الا ان هدف المشترين الصهاينـة كان واضحـا : ان يجتثوا الفلاحـين العرب بأي ثمن بغيـة تحقيق الحلم الصهيوني . وفي نفس الرواية عن شراء أراضي صحنة(١٣) ، يبدو واضحا ان الصهيونيين تعمدوا اخراج السكان ولم يكونوا يكتفون بأخذ المحاصيل . « فاليشوف » اليهودي الذي جاء الـى البلاد وحمل معه تكنولوجيا حديثة ، اعلن بمهابة انه يعتزم انماء السكان « المتخلفين » . ولكنه فـي الواقع بذل قصارى جهده لخنق مثل هذا الانماء . ففي آذار (مارس) ١٩٤٠ ، أدلى اسحق بـن زفي(١٤) بالملاحظة التالية أمام اللجنة السرية حول العلاقات اليهودية ـ العربية ، التـابعة للوكالة اليهودية : « لا يجب ان نعبأ بالنظريـة المعنية بمسألة الانماء العربي . فأنا لست مهتما بتنميـة العرب ... » .

وليس من الصعب العثور على السبب . فلطالما جوهر به علنا في الواقع ، وبصورة عمدية وواضحة جدا . فالدكتور آرثر روبن ، خبير الوكالة اليهودية في شؤون الزراعة والمستوطنات ، أعرب عنـه بصراحة تامة(١٥) : « نقوم في الوقت الحاضر بري قطع أرضنا وترك قطع الاراضي العربية خـارج

الاعتبار . الا ان هناك ، في بيسان علـى سبيل المثال ، بعض المناطق التي يمكننا تأسيس مشاريع مشتركة فيها . **ولا أريد أن أخفي عنكم الخطر الذي ينطوي عليـه الامر ، فطالما بقيـت الارض غير مروية ، لدينا امكانية شرائها . وبعد ادخال الري سيكون ذلك في غايـة الصعوبة** » . (التشديد مضاف) .

وبالطبع فان هذا يضع في اطار واضح الزعـم الصهيوني بأن أحد اهدافها كان تنمية الارض . وقد بذلت ، بالفعل ، جهودا كبيرة في تنمية الاراضي — ولكـن لليهود بصورة حصريـة . واستجاب المستخدمون والمستأجرون باشتباكات دمويـة . ويلاحظ موسى غولدنبرغ ذلك(١٦) : « عندمـا ذهبنا لنزرع قطعة أخرى من الارض (في صحنة) ، وجدنا جمهورا كبيرا متجمعا حول تراكتور ، مستأجر من بيت الفا ، وحدث رجم ومطاردة بالعصي . فأصيب سائق التراكتور بجراح بالغة وكانت زوجته في خطر » .

بعد هذا الحادث المعين جاء الحاكم البريطاني لينشر السلام بين الفريقين المختلفين . فجمع كل السكان مع عدد مـن ممثلي « الصنـدوق القومي اليهـودي » . وحسبمـا يقول غولدنبرغ مـرة أخرى(١٧) : « جرى الحديث بتأدب وهدوء ، وفجأة اقتحم الخيمة رجل مـن مديد القامة منتصبها ، له لحية بيضاء وعينان تقدحان نارا . وقالوا ان هذا هو الشيخ عبدالله شهاب الدرويش ، وهو يتجاوز التسعين من عمره وقال البعض انه بلغ المئة سنة الآن ... وقف في وسط الخيمة وخاطب الحاكم بصوت قوي متغطرس : يا صحاب السعادة الحاكم ، كانت قبيلتنا ، الصقر ، تحكم في الماضي جميع الاراضي من بيسان الى حيفا . ولم تكن هناك قوة تجرؤ على أن تعصانا وتدخل المنطقة الخاضعة لحكمنا ضد ارادتنا . والآن أنظر حولك ، رويدا رويدا يصار الى دفعنا شرقا وقد حصرنا في هـذه المنطقة الصغيرة ، الصحنه ، وتأتون وتطالبون باخراج هذا المعقل الاخير من ايدينا . لن يكون ذلك يا صاحب السعادة الحاكم . وباجسادنا سنقاتل من أجل كل بوصة من الارض » .

هذا الحادث يمثل تمثيلا نموذجيا مقاومة الفلاحين العرب لتشريدهم من أراضيهم واحلال اليهود فيها ، قبل تأسيس دولة اسرائيل . خلال هذه الفترة شن العرب هجمات على المستوطنات اليهودية المقامة على الاراضي التي شردوا منها . والى حد ما نجح الصهاينة في تصوير هذه الهجمات كأفعال "بربرية" لشعب بدائي يخاف الاجانب ويكرههم هدفه الوحيد السرقة والسطو .

وتروي قصص الاطفال التي ألفها صهـاينة ، مطولا ، كيف هاجم العرب المستوطنات اليهودية المسالمة بغية السرقـة والقتل . وبالاضـافة الى تسويغ تجريد الصهاينة للعرب من ملكية الاراضي ، فان هـذه القصص تكيف الطفل اليهودي ليعتبـر العرب بدائيين مكـرسين للقتال من أجل القتـال فحسب . ولم يكن النظام الاستعماري البريطاني الذي حكم فلسطين آنذاك مهتما الا في استمرار سلطته وتوسيعها . فاستخدم بمهارة مبدأ « فرق تسد » ، دون أن يتضايق اطلاقا من النزاع الآخذ بالاتساع بين العرب واليهود . وقد استخدم كلا من الحركة الصهيونيـة والملاكين العرب الاقطـاعيين لتعزيز مصالحه . وفوق جميع الاعتبارات الاخرى ، كان يتوق الى منع أية جهود مشتركة ذات معنى أو أي تعاون بين العرب واليهود غير الصهيونيين . وقد اعتقد ان مثل هذه الجهود ستفضي الى نضال من أجل التحـرير وانهاء سيطرته الاجنبية تحـت الانتداب .

٤ — دخول « دولة اسرائيل »

بعد تأسيس دولة اسرائيل ، واصل الزعمـاء الصهاينة سياساتهم التقليدية الرامية الى تشريد الفلاحين العرب من أراضيهم واحلال يهود مكانهم . والفرق هو أن عملية التشريد صارت تنفذها سلطات الدولة لغاية « الانماء » و« الامن » وغيرهما من الذرائع الرسمية . وفي ١٩٤٨ ، خلال الحرب ، يقول موسى غولدنبرغ ، كانت الحالة في الناصرة لا تطاق(١٨) : « تجمع الالوف من العرب الذين فروا خوفا من المعارك حول قراهم ، في الناصرة ، وانتظروا حتى تمر العاصفة . وفي هذه الاثناء كانت قد أعلنـت قراهم مهجـورة وابتـدأ تدميرهـا بالبولدوزرات . وكانت هناك أيضا قرى شملها العطف اذ ان سكانهـا تعاونوا مع السلطـات العسكرية ، وبالتالي لم تؤذ . كانت تلك القرى هي الاسعد في البلاد . ومع هذا فان وضع القرى التي فر سكانها الى المدينة أو عبروا مؤقتا الى شرقي الاردن مع أقربائهم ، أو فروا الى قرى أخرى

وبعد فترة من الوقت عادوا الى قراهم الاصلية لتأكيد حقهم في ملكية أراضيهم ومنازلهم — وضع تلك القرى لم يكن افضل . فالحكومة العسكرية سجلت جميع الذين كانوا حاضرين من قبل الكاتب في يوم الاحصاء الرسمي ، وهؤلاء تلقوا شهادات مؤقتة بالمواطنية الاسرائيلية . أما الباقون الذين حضروا وادعوا بشدة انهم لم يغيبوا غير يوم أو يومين عن القرية ، فقد عادوا فارغي اليدين . وهكذا تألف مخيم كبير من العرب ، الذين سجلوا في كتب الحكومة الاسرائيلية كمتغيبين وصودرت أملاكهم . وبعد فترة من الوقت تم فعلا تسجيلهم كمقيمين اسرائيليين ، الا أن أملاكهم لم تعد اليهم ، وربطت بهم الصفة الغريبة : « المتغيبون الحاضرون » . وكان هذا أيضا هو وضع سكان بيسان الذين غادروا المدينة « بصورة مؤقتة » بطلب من الجيش : وهذا هو الوضع كذلك في بعض القرى والبلدات ، المجردة الآن من كل شيء ، ولا تستطيع بيع أملاكها وتكاد تهلك من الجوع » .

هذه هي الشهادة المباشرة لصهيوني مخلص تخصص في صفقات الاراضي .

لم ينته طرد السكان العرب من أراضيهم بفترة حرب ١٩٤٨ . بل استمر في الخمسينات وصار الكثيرون من السكان العرب لاجئين ضمن حدود دولة اسرائيل . وبوصفي رئيسا لتحرير مجلة « **هذا العالم** »(١٩) ذهبت مع احدى الصديقات وصحافي آخر من الصحيفة لزيارة لاجئي قرية عين حوض (الآن عين هود) . فوجدناهم يقيمون في أكواخ خشبية وبيوت ووحدات سكنية على مسافة ميل من قريتهم . أما القرية نفسها ، القائمة على قمة تلة جميلة تطل على البحر الابيض المتوسط ، فقد حولت الى قرية فنانين ، ويزرع أراضيها كيبوتز مجاور . وبكثير من الاضطراب روى لنا شيخ القرية المسن كيف حولت الانتليجانسيا اليهودية مسجد القرية الى ناد ليلي : « فهم لم يطردونا من قريتنا فحسب ، بل حولوا المسجد الى ناد ليلي أيضا ... » . وكان هذا أمر مريع بنوع خاص لأن القرية يسكنها الآن أناس ينتمون حتما الى الانتليجانسيا الاسرائيلية وقد عرف البعض بينهم « بالنضال » ضد انتهاك الحقوق العربية . وقد نشرت القصة في مقالة في **هذا العالم** تحت عنوان « براندي في المسجد » .

هناك ما لا يقل عن ٢١ حالة مماثلة (**هآرتس** ، ٢٨ آب — أغسطس ، ١٩٧٢) بينها اقرت وكفر برعم والغبسية . فقد سلمت أراضي هذه القرى الى الكيبوتزات اليهودية ، وفي كثير من الاحيان الى كيبوتزات هاشومر هاتزير (المابام) (مثال ذلك ان كيبوتز برام أقيم على أراضي قرية برعم العربية) . وحالة قرية اقرت مهمة بنوع خاص لأن سكانها اخرجوا منها بالخداع والاحتيال والغش . وفي ١٩٧٢ استهلت حملة في اسرائيل نطالب بحق القرويين في العودة الى منازلهم . وان مباشرة هؤلاء القوم وجهودهم التي لا تلين لاستعادة حقوقهم المنتهكة والمحرومة بصورة نظامية خلال ٢٥ سنة طويلة هي احدى المظاهر الحقة للشجاعة والثبات في اسرائيل . وقد نشر زغي تل(٢٠) تاريخ اقرت وبرعم في **يديعوت أحرونوت** ، في ٣٠ حزيران ، ١٩٧٢ ، بشيء من التفصيل : « في أحد أيام كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٨ حضر ضابط شاب من الجيش الاسرائيلي الى بيت مختار قرية اقرت المسيحية على الحدود اللبنانية . ونهض المختار ، مبدي داود ، ليستقبل الضابط وفقا لأفضل التقاليد العربية ، ومع هذا ، سرعان ما اتضح ان الضابط الشاب لم يأت ليشرب القهوة معه . وبصوت رسمي جازم شرح الضابط ان على سكان القرية (٧٠٠ نسمة) أن يجلوا عن المكان . وصعق المختار ، لكن الضابط هدأ من روعه قائلا : « لاسبوعين فقط ، فالمنطقة مليئة بالالغام وثمة خطر حقيقي ينتظركم » . كان هذا بعد شهر من تحرير الجليل ، ومن رفع اقرت العلم الابيض دون اطلاق رصاصة واحدة . فحزم الرجال والنساء والاطفال أحزمتهم الهزيلة وتحركت قافلة المشردين نحو قرية الرامة قرب طريق عكا — صفد . وولد مخيم جديد للاجئين (معبرة) في دولة اسرائيل المؤسسة حديثا — « مخيم لاجئي الرامة » (معبرة الرامة)(٢١) » .

« لاسبوعين فقط » — ومنذ ذلك الحين مرت ٢٤ سنة . وقد دمرت بيوت القرية ، منازلها الطينية والحجرية ، تدميرا تاما . ولم تبق غير الكنيسة ، منتصبة ، مطلة من قمة الجبل على المنظر الحابس للأنفاس لجبال الجليل وقربها على المقبرة الصامتة . وخلال الاعوام نقلت ملكية ٢٠ ألف دونم من الاراضي الى سيطرة « سلطة أراضي اسرائيل » وأجرت للمستوطنات اليهودية المؤسسة في اطار الخطط الرامية الى تهويد الجليل .

ومع هذا رفض أبناء اقرت التنازل عن قريتهم ، وعندما صمتت أصوات المدافع أخذوا يناضلون من أجل استعادة ممتلكاتهم . فجندوا لدعم قضيتهم القيادة الكاملة للكنيسة المسيحية : المطارنة والبطاركة وزعماء كنيسة الروم الكاثوليك وحتى البابا نفسه .

ولما أدرك قرويو اقرت ان لا خلاص لهم بالضغط المعنوي ، قرروا محاولة اللجوء الى المحاكم الاسرائيلية طلبا للعدالة . وفي ١٩٥٢ رفعوا دعوى أمام محكمة العدل العليا في القدس . وقالوا في دعواهم : « نحن لسنا متغيبين . لقد تركنا قريتنا لفترة محدودة من الزمن بناء على أمر من الجيش الاسرائيلي . ولذا فان ممتلكاتنا هي خارج فئة أملاك المتغيبين » .

وقبل القضاة هذا الموقف وقضوا بأن من حق المدعين العودة الى أراضيهم . ومع هذا كان ثمة شرك في حكم القضاة . فقد أضافوا الى حكمهم الشرط بأن تسند عودتهم الى ترخيص من الحاكم العسكري . ولا حاجة الى القول ان ترخيصا كهذا لم يصدر . (التوكيد لزغبي تل) .

ومضت أعوام . وتمت تصفية مخيمات اللاجئين (اليهود) الواحد تلو الآخر . ولم يصف « مخيم لاجئي الرامة » . وتحول سكانه ، أبناء اقرت ، الذين كانوا سابقا فلاحين يزرعون أراضيهم الى عمال مأجورين في الزراعة وحركة البناء والصناعة. ولم توافق غير قلة ضئيلة منهم (١٠٪ تقريبا) على قبول تعويض على أراضيهم . فتلقى هؤلاء اما المال أو الارض في مواقع أخرى .

وتخشى الحكومة الاسرائيلية من انها ستثبت سابقة اذا ما سمحت لابناء اقرت وبرعم المشردين ، الذين صاروا لاجئين داخل اسرائيل طوال الخمس والعشرين سنة الماضية ، بالعودة الى قريتيهم .

هذه واحدة من قصص مماثلة كثيرة . فقد طرد السكان من قرى كثيرة وكان شعار الحاكم العسكري على الدوام هو « الامن » . ومع ان الرسميين الاسرائيليين لا يحددون قط المعنى الدقيق لهذه العبارة ، فان الصحافي يشعياهو بن بورات تحلى بالشجاعة الكافية ليوضح معناها في مقالة نشرتها **يديعوت أحرونوت** في الرابع عشر من تموز (يوليو) ، ١٩٧٢ : « الامن كما تفهمه المؤسسة الحاكمة الاسرائيلية ، مؤسسة أرض اسرائيل منذ أن ظهرت الى حيز الوجود ، كان وما يزال يعني ، لا تركيز المدافع في نقطة معينة بغية الدفاع عنها فحسب ، بل بالاحرى — وخلال فترات معينة من الزمن ، بالدرجة الاولى — خلق استمرار أرضي **يهودي غير منازع** (التوكيد لبن بورات) . وبكلام آخر خلاص البلاد عن طريق الحصول على الاراضي بطرق مختلفة والاستيطان اليهودي على هذه الارض » .

٥ — « اللاجئون » الداخليون

استولت الحكومة الاسرائيلية بصورة آلية على الاراضي العربية التي طرد منها أصحابها أو فروا من فلسطين خوفا من الحرب . وصار على العرب الذين ظلوا في البلاد أن يقدموا وثائق تثبت ملكيتهم للعقار . وقد أضاع الكثيرون وثائقهم ابان الحرب وهكذا صاروا بلا أملاك ، وعندما كان أحد الاشخاص يطلب من الطابو أن يرى القائمة المسجلة بالمالكين كيما يثبت حقه في ملكية العقار المعني ، كان الجواب عادة هو أن الوثائق فقدت في حريق ، وعندما كان أحد العرب يتقدم بوثائقه ، كانت قضيته تؤجل شهورا وحتى أعواما ، « الى أن تتثبت من الامر مرة أخرى بالميكروفلام في القدس ». واذا صدف أن نجح أحد العرب أخيرا في استعادة أرضه (وفي الواقع لم يفلح في ذلك الكثيرون ممن كانت لديهم الوثائق المطلوبة) فانه يبقى عرضة للخطر المستمر ، وأحيانا كثيرة للمصادرة الفعلية . وقد استغلت الحكومة الاسرائيلية كل وسيلة ممكنة لطرد العرب من أراضيهم . وكان أحد الدوافع الرئيسية هو الهدف الاصلي الرامي الى قطع صلة العربي بأرضه ، والى تركه بلا جذور وخلق حالة يشعر فيها انه لن يخسر شيئا بمغادرته البلاد بصورة نهائية . وبانتهاج هذه السياسات صار ممكنا اقامة الهدف الاساسي للحركة الصهيونية — كدولة مقصورة على اليهود قدر الامكان في ظل الظروف السائدة .

ولتعزيز هذه السياسات المتعلقة بالاراضي والايدي العاملة ، استخدمت الحكومة الاسرائيلية على نطاق واسع انظمة (طوارىء) الدفاع لعام ١٩٤٥ . كان البريطانيون هم الذين أدخلوا هذه الانظمة الى البلاد ، وفيما بعد جرى ضمها بأكملها الى جسم القانون الاسرائيلي بعد الاستقلال .

وهذه الانظمة تمنح الحاكم العسكري سلطات غير محدودة . وكانت الاكثرية الساحقة من السكان العرب في اسرائيل تحت الحكم العسكري حتى عام ١٩٦٥ . ومن أجل غرض مصادرة الاراضي كان الحاكم العسكري يلجأ عادة الى النظام ١٢٥ من انظمة (طوارىء) الدفاع(٢٢) : « التي تمنح الحكام العسكريين صلاحية الاعلان في مناطق معينة المناطق مغلقة وتحديد الخروج منها والدخول اليها . وهذه المادة هي القاعدة القانونية التي بحسبها يفرض الحاكم العسكري على السكان واجب تجهيز انفسهم بتصاريح للخروج أو للدخول في مناطق مغلقة . وبهذا تمنع وتحدد حرية التنقل » .

بامكان الحاكم العسكري ، اذا ، أن يمنع أي شخص من مغادرة قريته أو بلدته من أجل الاستخدام أو أي غرض آخر . وليس مستغربا أن تكون معظم أراضي القرى العربية ، التي ارتكز عليها اقتصاد القرية الزراعي ، قد أعلنت مناطق مغلقة « لأسباب تتعلق بأمن الدولة » . وكان على أي عربي يريد أن يصل الى أراضيه ويزرعها أن يتقدم طلبا لتصريح من الحاكم العسكري — ولم تكن التصاريح تعطى في معظم الاحيان .

ويتساوى في الاهمية مع تلك الانظمة القانون الذي يخول وزير الزراعة « الاستيلاء على الاراضي غير المزروعة لضمان زرعها » . وبما ان العربي لم يحصل على تصريح لدخول أراضيه وزرعها ، فقد كانت وزارة الزراعة تصادرها بمجرد اعلانها بورا وثم تحولها الى المستوطنات اليهودية .

مثال ذلك قرية أم الفحم العربية . في ١٩٤٨ كان يبلغ عدد سكانها ٧٠٠٠ وكانت تبلغ مساحتها ١٤٠ ألف دونم . وفي ١٩٥٩ صار عدد سكانها ١١ ألف نسمة وصارت تملك ١٥٠٠ دونم . وقرية الطيبة العربية ، في ١٩٤٨ كان يبلغ عدد سكانها ٣٥٠٠ شخص يزرعون ٤٥ الف دونم . وفي ١٩٥٩ كان على عدد من السكان يبلغ ٧٠٠٠ أن يزرعوا ١٣ الف دونم فقط . وكذلك قرية الطيره العربية ، فقد كانت تضم ٣١٠٠ نسمة يملكون ويزرعون ٢٨ الف دونم . وفي ١٩٥٩ لم يكن سكانها البالغ عددهم ٥١٠٠ يملكون ٧٥٠٠ دونم(٢٣) .

وفي أوائل الستينات صودرت أراضي القرى الثلاث دير الاسد وبعنه ونحف من العرب من أجل بناء مدينة كرمئيل اليهودية . وبعد المصادرة أعلنت سلطة الاراضي الاسرائيلية قطعا من الاراضي للبيع في كرمئيل — ولكن ليس الى العرب — وفي الآونة الاخيرة احتل اسم كرمئيل عناوين الصحف عندما اقترح أحد الراسماليين العرب في المنطقة أن يوظف مجلس المدينة مليوني ليرة اسرائيلية في متنزه المدينة الصناعي ، كان الدافع الى الفكرة هو الاعفاءات التي توفرها الحكومة للمستثمرين في مناطق الانماء . ومع ان رئيس البلدية وبعض أعضاء مجلس المدينة أيدوا الاقتراح ، فقد ثبت ان رأيهم هو رأي الاقلية ورفض الاقتراح . وكان التفسير حجة صهيونية نموذجية ، استشهدت بها **معاريف** في الثلاثين من كانون الثاني (يناير) ، ١٩٧٢ : « نحن بالطبع نعترض على تحقيق هذه الخطط ، اذ ان كرمئيل قد اسست بالدرجة الاولى لهدف تهويد الجليل ، وليس لهدف توفير حقل مؤات لاستثمارات السكان العرب في القرى المجاورة ... هذه مسألة مبدأ ونعتزم فعل كل شيء بغية منع تأسيس مصانع وأعمال من قبل العرب في كرمئيل ... » .

وحتى الذين أيدوا الاقتراح لم يكن دافعهم الرغبة في تشجيع التعاون . وبالاحرى أوصت المصالح الصهيونية باستخدام الاستثمار العربي لتوسيع المستوطنة اليهودية . وقد أوضح رئيس بلدية المدينة هذا الامر في مقابلة أجرتها معه **معاريف** (المرجع ذاته ، ٣٠ يناير ، ١٩٧٢) : « اذا لم تحقق الخطط في المدينة فماذا سيمكننا عرضه للمهاجرين الجدد والقدامى الذين ندعوهم الى الاستيطان في كرمئيل ؟ » .

ومن الواضح ان « آباء المدينة » لم يكونوا مهتمين باستخدام العمال العرب ، بل بالاغراءات للعمال اليهود — واليهود فقط . وحينما صودرت أراضي القرى في أوائل الستينات ، انفجر احتجاج كان في وسطه يهودي اسرائيلي يساري راديكالي هو اوري ديفيز . وظهرت في الصحف مقالات عديدة ، والحجج التي طرحها مؤيدو المصادرة تنطوي على قراءة مثيرة للاهتمام . فقد نشرت **معاريف** في التاسع والعشرين من كانون الاول (ديسمبر) ، ١٩٦١ ، مقالة لصموئيل سيغيف ، مراسلها للشؤون العربية ، قال فيها : « ان الغاء النظام ١٢٥ [الذي صودرت معظم الاراضي

العربية استنادا الى سلطته — ف. أ.] المتعلق بالمناطق المغلقة ، وهو النظام الاهم في ما يتصل بالحكومة العسكرية ، سيعني بالنتيجة حرمان الحق الشرعي لاغلاق المناطق — واغلاق المناطق وفقــا لهذا النظام يعني ... تحضير المنطقة للاستيطان اليهودي ، الذي بات الآن أكثر الحاحا مع ارتفاع مد أمواج الهجرة ... » .

وكتب شمعون بيريز (وزير الدفاع الآن) في صحيفة **دافار**(٢٤) : « ان استخدام النظام ١٢٥ ، الذي ترتكز عليه الحكومة العسكرية الى حد كبير ، هو استمرار مباشر للنضال من أجل الاستيطــان اليهودي والهجرة اليهودية » .

وبعد ذلك بعشرة أعوام تم الاعراب عن هــذا الموقف بمزيد من التوكيد والوضوح ردا على الضجة التي ولدتها مطالبة الاشخاص المشردين من قريتيهم اقرت وبرعم بالعودة اليهما . فقد عالج يشعياهو بن بورات القضية في مقالة رئيسية نشرتها صحيفة **يديعوت أحرونوت**(٢٥) في الرابع عشر مــن تموز (يوليو) ، ١٩٧٤ ، حيث قال ، من بين أمور أخرى : « انها لحقيقة بارزة ان لا صهيونية هناك ، ولا استيطان ولا دولة يهودية دون اجــلاء العرب ومصادرة الاراضي وتسييجها » .

وينطبق قرار الحكومة الاسرائيلية عدم السماح لسكان برعم واقرت سابقا بالعودة الى قريتيهم على اطار أوسع من اطار القريتين فحسب . وقد لاحظ زئيف تل في مقالة نشرتها **يديعوت أحرونوت** في ٢٠ حزيران (يونيو) ، ١٩٧٢ : « اذا فتحنا مخرجا ، اضطررنا ان نفتح جميع المخارج » .

وهذا ، بالطبع ، هو أحد المنطلقات الاساسية للحكومة الاسرائيلية . وقد جاء في مقــالة لناثان فابيان نشرتها **هآرتس** في ٢٨ تموز ، ١٩٧٢ ، ان في اسرائيل أشخاصا مشردين من ٢١ قرية (وأكثر من ذلك بكثير ، على الارجح) .

٦ — جزء من السجل

في ٢٨ تموز ، ١٩٧٢ ، عددت هارتس الاحدى والعشرين قرية :

« قرية البروه ، عند سفح جبال الجليل الغربي ، وقد استولي عليها في عملية (ديكيل)(٢٦) التي أعدت لمهاجمة وقهر قوات القاوقجي في قواعدها .

وقد ظل على قيد الحياة نحو ألف شخص شردوا من القرية ، وهؤلاء يعيشون حاليا في قرى الجديدة ، دير العسل ، كابول ، كفر ياسيف ، مجد الكروم وشفاعمرو . وعلى أراضي هذه القرية تم تأسيس موشاف(٢٧) أحيهــود واعطيت قطع مــن الاراضي للموشاف وكذلــك لكيبوتزات عين بيرتز ويسعــور وفارود (ألف دونم على وجه التقريب) . ولم تعتبر هذه القرية قط قريبة من الحدود ولم تحدد أبدا « كمنطقة أمن » . وبيت زيت في الجليل الغربي هي مثل آخر . فقد أسس موشاف بيت زيت على أراضيها . وأعطيت ٢٥٠٠ دونم لأبناء الموشاف ليزرعوها . والمئة شخص الذين شردوا من القرية يعيشون الآن في قرى أبو سنــان ، كفر ياسيف والمزرعة . (لاحظ ان قريتين فقط جيء على ذكرهما في هذه المادة . وهذا يؤكد قولي ان هناك أكثر من ٢١ قرية على الارجح — ف. أ.) .

* قرية صفورية ، في منطقة الناصرة ، وهي أيضا احتلت في عملية (ديكيل) ، قد استبدلت بموشاف تسفوري . وانتقل قسم من السبعماية شخص من سكان القرية الى الناصرة حيث أقاموا لأنفسهم حيا خاصا يدعى حي تسفوري ، وانتقل قسم آخر الى قرى شفاعمرو وكفر رينه وعربه . وتم تقسيم ٥٠٠٠ دونم بين الموشــاف والكيبوتز المجــاور سليليم ، المتخصص بزراعــة الازهــار للتصدير .

* ومكان قرية عنان ، أسس كيبوتز فارود على طريق عكا — صفد في الجليــل الاعلى . ويعيش الاشخاص المشردون المئة والثمانون اليوم في قريتي الرامة ومجد الكروم . وقد أعطيــت الاراضي ، ومساحتها ٥٠٠٠ دونم على وجه التقريب ، الى كيبوتز فارود وهي مزروعة ببسـاتين الفاكهة بصورة رئيسية .

* على أطلال قرية قميم أسس كيبوتــز عين حرود — (أ) في الخمسينات ، بعد الانقسام في عين حرود . وأعطيت أراضي القرية البالغة مساحتها ٤٠٠٠ دونم على وجه التقريب الى كيبوتزي عين حرود وتل يوسف ، ويقيم معظم المئة والثلاثين شخصا مشردا من أهاليها اليوم في الحي الشرقي من الناصرة وفي كفركنا .

* على أراضي قرية الطيرة ، قرب عين دور في

الجليل الاعلى ، أسس كيبوتز غازيت التابع لهاشومر هاتزير ، ويسكنه بصورة رئيسية مهاجرون من أصل أميركي لاتيني . وقد أعطيت ١٠ آلاف دونم الى الكيبوتز ، والمشردون الباقون من قرية الطيرة انتقلوا ليعيشوا في قرية مصر في مرج ابن عامر .

* قرية كويكات استبدلت بكيبوتز بيت هعيمق في الجليل الغربي ، وسكانها المشردون يعيشون الآن في كفر ياسيف ، المزرعة ، أبو سنان ومجد الكروم . وأعطيت ٤٠٠٠ دونم الى بيت هعيمق وكعتون . وسكان هذه القرية طلبوا من رئيسة الوزراء السابقة السماح لهم بالعودة الى أراضيهم وبيوتهم .

* تم توحيد عدد من القرى في بلدات الحدود واقيمت منازل جديدة عليها . فعلى أراضي قرية أم الفرج شيدت مشاريع سكن مدينة نهاريا وبجوارها مستشفى مالبن التابع لهذا المنتجع الشمالي . وأعطي قسم من المنطقة الزراعية ليزرعه سكان نهاريا . وانتقل سكان أم الفرج المشردون ، وعددهم مئة على وجه التقريب ، الى قرية المزرعة . (لاحظ انه جيء على ذكر « عدد من القرى » هنا ، أي أكثر من مجرد ام الفرج — ف. أ) .

* على أراضي قرية المنشية ، شرقي عكره ، شيد مشروع سكني . وأعطيت أراضي المنشية البالغة مساحتها ١١٠٠٠ دونم ليزرعها أهالي موشاف بستات هاجليل وكيبوتز عين هامفرتس . وانتقل المشردون المئتان الى ترشيحه ، المزرعة ودير الاسد في المنطقة المجاورة .

* قرب قرية سحماته في الجليل الغربي تم تأسيس موشاف (حسن) . وانتقل المئة والخمسون شخصا مشردا ليقيموا في قرى حرفيش ، فسوطه وترشيحه . وأعطيت أراضي القرية المهجورة ، ومساحتها ١٦٠٠٠ دونم تقريبا ، ليزرعها اهالي موشاف بكتعم .

* ولم يستول موشاف عمقا على أراضي القرية العربية فحسب ، بل على اسمها أيضا . كانت عمقا احدى القرى الاكبر حجما في المنطقة عام ١٩٤٨ . وانتقل الاربعة آلاف مشرد من أهاليها الى ترشيحا ويرتا والمزرعة . ونقلت ملكية أراضيها ، البالغة مساحتها ٦٠٠٠ دونم تقريبا ، الى الموشاف .

* في جوار قرية ميعار في الجليل الغربي تم تأسيس موشاف سجف . ويقيم أهالي القرية المشردون ، وعددهم نحو ٦٠٠ نسمة ، اليوم في عربه وسخنين وتمره . وأعطيت المناطق الصالحة للزراعة ، ومساحتها نحو ١٠ آلاف دونم ، الى المستوطنات اليهودية القائمة في الجوار . وتقدم أهالي ميعار عريضة الى غولدا مئير ، يوم كانت رئيسة للوزراء ، للسماح لهم بالعودة الى قريتهم والاستقرار فيها من جديد .

* الغابات التي يستعملها « الصندوق القومي اليهودي » لاغراض مختلفة ، كما تستعملها حركات الشبيبة للمخيمات الصيفية ، قد زرعت على أراضي قرية معلول المهجورة (مقابل مشمار هعيمق) . وكل ما يبقى من القرية هو بيت واحد والحوض المستخدم لارواء مواشي البدو في المنطقة . ويقيم مشردو معلول ، وعددهم ٨٠٠ نسمة تقريبا ، في قسم خاص من الناصرة يدعى حي معلول . وانتقل بعض العائلات الى قرية الرينه قرب الناصرة . وقسمت أراضي القرية الصالحة للزراعة ، ومساحتها ٤٥٠٠ دونم ، بين كيبوتزي كفار هموريش ورامات شين .

* وفي نفس الجوار كانت تقوم قرية رويس ، وقربها تأسست بلدة مجدال هعيمق . وقد زرعت غابة على أراضي القرية . وكان لسكان القرية ١١٠٠ دونم على وجه التقريب . وأعطي بعض هذه الاراضي الى كيبوتز رامات يوحانان والبعض كتعويض للسكان العرب الذين لم يعلنوا « متغيبين » في اطار التشريع ، الذي منح الصفة الشرعية للاستيلاء على الاراضي بحجة توحيد الاراضي . ويعيش مشردو قرية رويس ، البالغ عددهم ٤٢٠ شخصا ، اليوم بصورة رئيسية في تمره وشفاعمرو . وقد طلبوا أخيرا من رئيس الوزراء الاسرائيلي العودة الى قريتهم .

* المئة شخص الباقون من قرية شجرة ، قرب نقطة تقاطع غولاني ، انتقلوا الى الناصرة وكفركنا ودبوريه . أما أراضي القرية الصالحة للزراعة ، ومساحتها ١٥ الف دونم ، فقد أعطيت الى موشاف الانيا . والبقية تغطيها الاحراج .

* على أراضي الغبسية ، قرب نهاريا ، لم تؤسس أية مستوطنة ولم تزرع أية غابة . والمئة

والخمسون مشردا هم الآن سكان عكا وكفر ياسيف. وقسمت ١٠ آلاف دونم من أراضي القرية بين مستوطنات نتيف هاشيلاره وجعتون ورجباه . وفي الآونة الاخيرة طلب سكان القرية من الحكومة الاسرائيلية السماح لهم بترميم المسجد والمقبرة . وقد رفض الحارس على الاملاك طلبهم مجادلا بأنه بقدر ما هو من الضروري ترميم هذين الموقعين ، سيخول الحارس أعمال الترميم وينفذه عماله ، وقد أراد سكان الغبسية أن يعرب في الطلب عن توقهم الى العودة الى القرية .

* تعكس قرية دامون في منطقة رامات يوحانان وضعا مماثلا ، فقد أعطي ١٢٠٠ دونم من أراضيها الى كيبوتزات رامات يوحانان وكفار هاماكابي وكفار مازاريك . وبقي من هذه القرية ٨٠٠ شخص ، يقيمون اليوم في تمره . وقدم هؤلاء المشردون أخيرا عريضة الى السلطات الاسرائيلية طالبين العودة الى دامون .

* المئنا مشرد من سكان قرية قديثا قرب قرية ميرون يعيشون الآن في مغربه في الجليل الاعلى . ولم تؤسس أية مستوطنات على أراضيها ، الا أن قسما من هذه الاراضي ، حوالي ٢٢٠٠ دونم ، أعطي الى موشاف ميرون . ومنذ أعوام يطالب سكان قديثا ، في اجتماعات غير رسمية ، بالعودة الى قريتهم الاصلية والسكن فيها .

* كانت العباسية ، قرب نفناه في الجليل الاعلى ، قرية يقطنها بدو من سكان المستنقعات يمارسون الزراعة وتربية الماشية . وقد تم نقل هؤلاء البدو في نهاية حرب ١٩٤٨ الى وادي اربيل . وفي الآونة الاخيرة أعلنت الحكومة انه سيصار الى تشييد مبان بدل الخيام التي أقاموا فيها عبر الاعوام وان مقرهم في وادي هاماان سيعلن مستوطنة دائمة . وقد شرد ١٥٠ شخصا من العباسية . وهم اليوم مجندون في الجيش الاسرائيلي . وقد أعطي ١٥ ألف دونم من هذه القرية الى كيبوتز شامير (التابع الى هاكيبوتز هاآرتزي(٢٨) والى كيبوتز سده نحمياه) .

* من القرى المهجورة الاخرى عرب ثابت . وقد فر معظم سكانها الى سوريا والتحق بعضهم بقوات الثورة الفلسطينية . ويعيش الاشخاص الخمسة والسبعون الباقون من القرية اليوم في تمره وكفركنا . وقد أعطي ٧٠٠٠ دونم الى مدرسة خدوري الزراعية لزراعتها .

* كانت قرية شعب في الجليل الغربي مهجورة جزئيا . وبقي ٨٠٠ من سكانها ضمن الخط الاخضر(٢٩) . ويقيم نحو نصفهم اليوم في جوار القرية . وانتقل قسم من الآخرين الى عكا ومجد الكروم . وأعطيت أراضي « المتغيبين » الى مستوطنتي سجف ويدفات ، وأعطي قسم من الاراضي الى المشردين أنفسهم كتعويض .

٧ — احتلال ١٩٦٧

أرى ان هذه القائمة غير كاملة . لقد سبق لي أن ذكرت قرية عين حوض . ويقيم سكانها في ضواحيها ، الا أن أراضيها يزرعها كيبوتز ديني يهودي مجاور . وهناك أيضا المجدل في الجنوب ، وقد انتقل معظم سكانها الى مدينة اللد . وواجه سكان قرية زرنوقة مصيرا مماثلا . لذا يمكن الافتراض ان عددا من الاماكن لم تشملها جردة مقالة هآرتس . غير ان الامر الذي لم ينكر على نحو واف يبين الطبيعة الاستعمارية للانماء الصهيوني . فقد أقام جميع هؤلاء الناس في دولة اسرائيل طوال الخمس والعشرين سنة الماضية كلاجئين . ولا تشتمل رواية هآرتس على الاراضي المصادرة من القرى العربية التي بقي سكانها في قراهم خلال حرب ١٩٤٨ . ونظرا الى معدل الولادة البالغ ٤,٥٪ بين السكان العرب في اسرائيل ، فلا بد أن تكون أعداد المشردين العرب في دولة اسرائيل قد تضاعفت خلال الربع القرن هذا .

ان السياسة الصهيونية التي تتعمد تجريد الشعب من أراضيه وتشريده عنها واحلال شعب آخر مكانه قد قررت الوضع في الاراضي التي احتلتها منذ ١٩٦٧ كذلك . فقد دمرت تدميرا تاما ثلاث قرى في منطقة اللطرون — هي بيت نوبا وعمواس ويالو — بعيد انتهاء القتال الفعلي في هذه الجبهة في حزيران ١٩٦٧ . وطرد سكانها منها وحتى الحجارة اخذت من المنطقة . وكتب الصحافي الاسرائيلي عموس كينان ، الذي اشترك في احتلال هذه القرى ، التقرير التالي :

« قال لنا قائد الوحدة انه تقرر نسف ثلاث قرى في قطاعنا ، وهي بيت نوبا وعمواس ويالو . وفسر هذا القرار باعتبارات استراتيجية وتكتيكية وأمنية .

اولا ، لتصحيح الحدود عند اللطرون(٣٠) . ثانيا ، لمعاقبة قواعد اعمال القتل . ثالثا ، لمنع اقامة قواعد لتسلل مستقبلي .

بامكان المـــرء ان يناقش هذا المفهـــوم الاحمق للعقاب الجماعي الذي يظن ان المتسلل لن يجد منزلا آخر اذا خسر أحد المنازل . وبامكان المرء أن يناقش وسيلة زيادة عدد أعداء المستقبل . ولكن ما نفع النقاش ؟

لقد طلب منـــا أن نفتش منازل القرية لنعتقـــل كسجناء اي رجال مسلحين . وعلينا أن نسمح لغير المسلحين أن يحزموا أمتعتهم وأن نأمرهم بالذهاب الى قرية بيت سورا . وصدرت الينا الاوامر بسد مداخل القرية ومنع السكان من العودة الى القرية من مخابئهم ، بعدما سمعوا الاذاعات الاسرائيلية تحثهم على العودة الى بيوتهم . وكانت الاوامر المعطاة لنا هي أن نطلق النار فوق الرؤوس ونقول لهم الا يدخلوا القرية .

وبيت نوبا مبنية بحجارة مقالع رائعة . وبعض المنازل بديع . ويحيط بكل منزل بستان يضم اشجار زيتون ومشمش ودوال ومعاصر . وهي محفوظة جيدا . وتوجد بين الاشجار احواض خضار تلقى عناية حسنة .

وفي المنازل وجدنا ضابطـــا مصريا جريحا مـــن المغـــاوير ، وبعض الاشخاص الطـــاعنين جدا في السن . وعند الظهيرة وصلت أول بولدوزر وهدمت المنزل الاول عند طرف القرية . وفي غضون ١٠ دقائق تحول المنزل الى أنقاض ، بما فيه جميع محتوياته ، واقتلعت اشجار الزيتون والسرو ... وبعد تدمير ثلاثة منازل وصل أول طابور من اللاجئين من اتجاه رام الله .

ولم نطلق النار في الهواء بل اتخذنـــا مواقع محمية . وتوجه اليهـــم بعض الجنود النـــاطقين بالعربية لتبليغهم الانذار . كانوا أشخاصا متقدمين بالسن ويكـــادون لا يقـــوون على المشي ، وبينهم عجائز تتمتمـــن وامهات تحملن اطفـــالا ، وبعض الاطفال . وكان الاطفال يبكون ويطلبون ماء . وكانوا جميعا يرفعون اعلاما بيضاء .

وأمرناهم بالذهاب الى بيت سورا . فقالوا لنا انهم طردوا من كل مكان ، ومنعوا من دخول أية قرية ، وانهم هائمون على هذا النحو منـــذ اربعة أيام ، بلا طعام ولا ماء ، والبعض مات علـــى الطريق . وطلبوا العودة الى القرية ، وقالوا انه يجدر بنا ان نقتلهم .

وكان لدى البعض عنزة او نعجة او حمـــار او جمل . وطحن اب قمحا بيده ليطعم أولاده الاربعة . وعند الافق كان بامكاننا ان نرى الجماعة التالية من اللاجئين . رجل يحمل ١٠٠ ليبرة مـــن الدقيق في كيس ــ كان قد مشى على هذا النحو ميلا بعد ميل ، والمزيد مـــن الشيوخ والعجائز والنساء والاطفال . وانهاروا أرضا منهكي القوى حيـــث امرناهم بالجلوس . وكان لدى البعض بقرة او بقرتين ، أو عجل : كل ما يملكون على وجـــه الارض . ولم نسمح لهم بدخول القرية وأخذ اي شيء منها .

وبكى الاطفال ، واخذ بعض جنودنا يبكـــون ايضا . وذهبنا لنأتي للعرب ببعض الماء . واوقفنا سيارة تقل ضابطا برتبة رائد وضابطين برتبة رئيس وامـــرأة . واخذنا وعاء من المـــاء ووزعناه على اللاجئين . كذلك قدمنا لهم السجائر والحلوى ، وبكى المزيد من الجنود . وسألنا الضابط عن سبب ارسال هؤلاء اللاجئين من مكان الى اخر وطردهم من كل مكان . فقالوا لنا ان هذا لصالحهم ، وان عليهم الذهاب . وقال الضباط : « بالاضافة الى ذلك ، لماذا نهتم بالعرب على أية حال ؟ » وسرنا ان نسمـــع ان هؤلاء الضبـــاط اعتقلتهم الشرطة العسكرية جميعا بعد ذلك بنصف ساعة لأن سيارتهم كانت مليئة بالغنائم .

ووصل المزيد من طوابير اللاجئين ، الـــى ان تجمع مئات منهم . ولم يفهموا لماذا طلب منهـــم العودة ولم يسمح لهـــم بالدخـــول . ولم نتحمل توسلاتهم . وسألنا احدهم لماذا دمرنا منازلهـــم بدل أن نأخذها نحن انفسنا .

وقرر قائد الفصيلة ان يتوجه الى مقر القيـــادة ليرى ما اذا كان هناك أية أوامر حول مـــا ينبغي فعله بشأنهم ، وأين يجب ارسالهم ، ومـــا اذا كان من الممكن توفير وسيلة نقل للنساء وطعـــام للاطفال . وعاد ليقول انه لا توجد أوامر خطية ، وكل ما هنالك هو انه ينبغي طردهم .

فطردناهم . وذهبوا تائهـــين نحو الجنـــوب

كالماشية الضائعة . والضعفاء منهم ماتوا . وفي المساء تبين لنا اننا خدعنا ، اذ ان البولدوزرات في بيت سورا ايضا كانت قد ابتدأت تدمر المكان ولم يسمح لهم بالدخول . واكتشفنا ان الحدود لم تصحح لأسباب أمنية في قطاعنا فحسب بل في جميع القطاعات ايضا . ولم يعرف بالوعد المذاع بالراديو . ولم تنفذ السياسة المعلنة ابدا .

وثار سخط وحدتنا . وأصر اللاجئون بأسنانهم عندما رأوا البولدوزرات تقتلع الاشجار . وفي الليل أمرنا بحراسة البولدوزرات ، لكن الوحدة كانت حانقة الى درجة ان ما من جندي كان مستعدا للقيام بمثل هذا الواجب . وفي الصباح نقلنا من المنطقة . ولم يفهم اي منا كيف يمكن لليهود ان يسلكوا هذا السلوك. وحتى الذين استساغوا العمل قالوا انه كان يجب ، على الاقل ، ان يكون من الممكن الاحتفاظ بالعرب في مخيم ما الى ان يتخذ قرار نهائي متعلق بمصيرهم ، ويمكن نقلهم ، مع أمتعتهم ، الى مكان اخر . ولم يفهم احد لماذا لا يجب السماح للفلاحين بأخذ اجهزة طبخهم وبطانياتهم وبعض الاغذية .

لقد دفن الدجاج والحمائم تحت الانقاض . وحولت الحقول الى أرض بور أمام نظرنا . والاطفال الذين كانوا يبكون على الطريق سيكونون فدائيين بعد ١٩ عاما ، في الجولة التالية .

وهكذا خسرنا النصر » .

٨ ـــ القدس وغزة

صودرت مساحات كبيرة من الاراضي في القدس الشرقية المحتلة لبناء مشاريع اسكان للاستيطان اليهودي . وأرغم الجيش السكان العرب المقيمين في الحي اليهودي من القدس المحتلة على اخلاء الحي « بغية اعادة المقيمين السابقين اليه ... » وكان معظم سكان الحي اليهودي لاجئين فلسطينيين من حرب ١٩٤٨ . وللكثيرين منهم منازل وأملاك ضمن دولة اسرائيل . ولكن حتى الذين يملكون منازل في القدس الغربية منعوا من العودة الى بيوتهم. وبعد حرب ١٩٦٧ مباشرة دمر حي المغاربة في القدس تدميرا تاما لافساح المجال لساحة عامة عند حائط المبكى . ولم يسمح للسكان باخراج ونقل أمتعتهم . وأنا شخصيا شهدت تدمير المنازل والامتعة الشخصية لدى زيارتي للقدس بعد الحرب بنحو عشرة أيام .

الحجة الرسمية المقدمة لتسويغ اجلاء السكان العرب عن الحي اليهودي للقدس الشرقية ارتدت الى نحر مطلقيها . فأكثرية السكان السابقين للحي هم اعضاء الجالية اليهودية « الارثوذكسية » نيتوراي كارتا ، وهم أعداء الداء للصهيونية . ولا يكتفي هؤلاء برفض العودة الى مقرهم السابق ، القائم تحت الاحتلال الصهيوني الآن ، بل يرفضون ان تطأ أقدامهم ذلك المكان حتى في زيارة . ويأبون حتى الذهاب الى حائط المبكى رغم انه من الاسرار المقدسة في الديانة اليهودية التقليدية . وزعيم نيتوراي كارتا ، الحاخام أبرام بلاو ، هو الحاخام اليهودي الوحيد الذي شجب مصادرة الاراضي والمنازل العربية باعتبارها لصوصية . وكانت ابنته ، لعشرين سنة خلت ، قد سكنت شقة في القدس في منزل كان يملكه سابقا أحد العرب . ومنذ ذلك الحين لم تطأ قدم والدها عتبة بيتها . وأعلن الحاخام بلاو على الملأ انه لن يزورها وعاش بالحظر الذي فرضه على نفسه حتى هذا اليوم . وليست مناهضة نيتوراي كارتا للصهيونية مقصورة على هذه الامور . والمقطع التالي المأخوذ من معاريف (٢١ نيسان ـــ ابريل ، ١٩٧٢) يبين منظورها الاوسع : « كانت القدس بأسرها مزينة بالاعلام تكريما لعيد الاستقلال . ورفعت الاعلام فوق المباني العامة وفوق المنازل الخاصة ايضا . كما رفعت الاعلام لمناسبة عيد الاستقلال في حي ميا شيعاريم(٣١) . الا ان الاعلام فوق عدد من المنازل في هذا الحي « الارثوذكسي » كانت ... أعلاما سوداء ... للتعبير عن « حداد » الارثوذكس المتشددين لكون « الدولة الصهيونية » تحتفل بالذكرى الخامسة والعشرين لتأسيسها . والحالة في قطاع غزة منجعة . فسكانه يشردون بالاكراه من منازلهم وتسيج أراضيهم ، وقد أرغمت مئات العائلات وعدد من قبائل البدو على الانتقال الى أماكن أخرى » . وقالت هآرتس في العاشر من اذار (مارس) ١٩٧٢ : « تلقت السلطات شكوى من ان جنود الجيش الاسرائيلي ، في اجلاء البدو من منطقة رفح ، سببوا أضرارا بالغة لممتلكاتهم وعاملوهم معاملة قاسية . والشكاوى التي قدمتها مستعمرات هاشو هاتزير في الجنوب « ضد طرد العرب في قطاع غزة » (الصحيفة نفسها وضعت

هذه الجملة ضمن علامات الاقتباس — ف. ا.) تشير بين أمور اخرى الى الزعم بأن الجيش الاسرائيلي اجلى البدو بالاكراه عن منطقة رفح . وأعلن ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي فيما بعد ان نشاطات تسييج واسعة النطاق نفذت في منطقة رفح (٤٠ الف دونم) بغية تحضير المنطقة للاستيطان اليهودي ومنع نشاط المخربين ... وقال شهود عيان أن آبار مياه البدو في المنطقة كانت ملآنة قبل الاجلاء وان الاملاك دمرت وجنود الجيش الاسرائيلي ضربوا عددا من البدو خلال عملية الاجلاء . وجاءت تقارير شهود العيان من جنود احتياط اشمأزوا مما أمروا بفعله ... وقال اعضاء كيبوتز خدموا كجنود احتياط في قطاع غزة انهم استخدموا في تسييج مناطق في القطاع وانهم تلقوا الاوامر لطرد البدو وغيرهم من السكان في القطاع من أراضيهم ومنازلهم الدائمة . وقال عضو في كيبوتز غيفولوت ، اسمه موشيه ابشتين ، انه رأى بولدوزر تدمر البساتين والحقول المروية والمباني بغية تسييج المناطق في القطاع » .

وقد تم تحويل الكثير من الاراضي في المناطق المحتلة الآن الى الكثير من المستوطنات اليهودية ، وتسييج الاراضي ضد العرب لاقامة مصانع يهودية . وبعض هذه المصانع قيد العمل الآن وتمثل استثمارات بملايين الليرات الاسرائيلية .

٩ — من اعمالهم

اجمل بالقول ان هدف الحركة الصهيونية كان دوما تجريد الفلاحين العرب من أراضيهم ، ومن اجل هذا الهدف عثرت على شريكين . الاول ، عدد محدود جدا من الاقطاعيين الافندية العرب الذين باعوا الصهاينة جزءا من الاراضي ، متجاهلين تجاهلا تاما الشعب الذي عاش عليها وزرعها وكرس حياته للأرض . وكان هؤلاء سادة مالكين اقطاعيين متغيبين ، يتركز اهتمامهم على جمع المال وجني الارباح . كان الحليف الثاني للصهيونية طوال هذه الفترة من الابعاد عن الاراضي وابعاد الايدي العاملة العربية هو الدول الامبريالية التي تسلطت على المنطقة : تركيا العثمانية وبريطانيا وحاليا الولايات المتحدة .

كان الزعماء الصهاينة يدركون تمام الادراك أهمية ودلالة الرباط بين الانسان والارض . وادركوا انه من الضروري قطع هذه الروابط مع الارض لتشريد شعب من بلاده . ويجب طردهم بالقوة اذا دعت الضرورة . والحقائق لا تدعم الزعم بأن المستوطنين الصهاينة في فلسطين ساعدوا الفلاح العربي . فقد رفضت الصهيونية ، كسياسة عملية ، الاشتراك مع العرب في نقابات عمالية مشتركة . وعرقلت السياسة الصهيونية ، بصورة خطرة ، المنتجات العربية التي كان يقصد بها ان تباع الى الجالية اليهودية ومنعت بصورة فعالة ارباب العمل اليهود من استخدام عمال عرب .

لقد صورت الدعاوة الصهيونية في جميع أنحاء العالم العرب على أنهم منهمكون بالقتل والسرقة والارهاب كغاية بحد ذاته . وقصص الاطفال العبرية اليهودية تصف العرب بأنهم قذرون وقتلة وحقيرون وغدارون . وتعرض هذه الصور لاخفاء حقيقة ان العرب قاتلوا المستوطنين الجدد لأن الصهيونية هددت بسرقة خبزهم وتجريدهم من اراضيهم . وكما يلاحظ غولدنبرغ (المصدر نفسه ، ص ١٢٤) ، فقد كان الفلاح العربى لا يعبأ بمن يملك رسميا الارض ويجنى منها الارباح بقدر ما كان يهم هذا الفلاح العربى ان لا يمنع من دخول ارضه . لكن الطرد من الارض كان هو الهدف الصهيونى على وجه الدقة ، لقد كانت الحركة الصهيونية — وما تزال — مشروطة بالاستعمار . واى شكل من اشكال التعايش مع تلك الحركة مستحيل .

لقد نجحت الحركة الصهيونية في غسل ادمغة الرأى العام — وبخاصة في الولايات المتحدة — لتعتقد ان فلسطين ، ربما باستثناء عدد من القبائل البدوية ، كانت فارغة من الناس عندما قدم أول المستوطنين الصهاينة . وهذا غير صحيح قطعيا ، وهو تحريف وتشويه تاريخى عمدى واع ، لقد ولدت فى هذا البلد ، ونشأت فيه ، ورأيت العرب يبنونه ويحافظون عليه . ورأيت المدن الناهضة — اللد والرملة ويافا وحيفا وعكا وطبريا والناصرة والمجدل وصفد وغيرها . وفى هذا النطاق اتت على ذكر احاد هاعام ومقالته ، « الحقيقة من أرض اسرائيل » (١٨٩١) .

وقال موشيه دايان ، وزير الدفاع السابق ، فى محاضرة القاها فى المعهد التكنولوجي الاسرائيلى

بحيفا ، عام ١٩٦٨ : « جئنا الى هذا البلد ، الذي كان آهلا بالسكان العرب ، ونحن نؤسس دولــة عبرية ، أي يهودية ، هنا . وفي مناطق كبيرة من البلد اشترينا الارض من العرب . وبنيت القرى اليهودية في مكان القرى العربية . حتى انكــم لا تعرفون أسماء تلك القرى العربية ، وانا لا الومكم ، اذ ان كتب الجغرافيه هذه لم تعد موجودة . وليس الكتب وحدها لم تعد موجودة ـــ بل القرى العربية نفسها لم تعد موجودة » (هآرتس ، ٤ نيسان ، ١٩٦٩) .

١ ـــ بالعبرية ، سيفريات ، بوعاليم ، تل أبيب ١٩٦٤ ، ص ٢٣٨٠ . متوافــر ايضــا بالانكليزية ، طبع في الولايات المتحدة ١٩٧٠ .

٢ ـــ غولدا مئير ، « اسرائيل في بحثها عن سلام دائم » ، فورين أفيرز ، المجلد ٥١ ، العدد ٣ ، نيسان (ابريل) ١٩٧٣ ، ص ٤٤٩ : « بين ١٩٢٢ و ١٩٤٧ نما سكان فلسطين العرب من ٦٧٠,٠٠٠ الــى ١,٢٠٠,٠٠٠ وهي زيادة مذهلة لم يحدث مثلها في أي قطر عربي مجاور . وبفضل الانمــاء الزراعي والصناعي للبلد ، تغيرت فلسطين من أرض يهجرها العرب الى أرض يهجر اليها العرب تجذبهم مستويات أعلى مــن الحياة وفرص أعظم . ان التشريــد الصهيوني المفترض للعرب هو أسطورة يدحضها كــل احصاء رسمي للسكان » .

٣ ـــ

Ahad Ha'am, Complete Works, (H. E. B.) Devir Publishing House, TEL - AVIV And The Hebrew Publishing House, Jerusalem 8 TH Edition, P. 23.

٤ ـــ

Viscount Samuel, By John Bowle. Victor Gollancz, London,1957, 8. 77.

٥ ـــ القائمــة الاحصائيــة التاليــة نشرت فــي ARAKHIM ، العدد ٣ ، ١٩٧١ ، ص ١١

ملكية الاراضي في فلسطين عام ١٩٣٩

	النسبة المئوية للأراضي المملكة
ملاكو الاراضي العرب الكبار	٢٩,١ ٪
المؤسسات الصهيونية	٢٣,٠ ٪
المؤسسات الدينية الاسلامية	١,٥ ٪
الحكومة	١,٥ ٪
الاجانب (الكنائس المسيحية والالمان)	٠,٧ ٪
الفلاحون العرب	٤٤,٢ ٪
المجموع	١٠٠ ٪

٦ ـــ

« The Arab Population In Israel » (HEB) Arakhim NO. 3, 1971, P. 10.

٧ ـــ

« The Arab Population in Israel » , Arakhim, NO. 3, 1971, P. 12.

٨ ـــ هاشومير كاتزير هو اتحاد كيبوتزات حزب العمــال المتحد الاشتراكــي الصهيونــي ـــ مابام ـــ وهو الآن في تحالف مع حزب العمال الاسرائيلي الحاكم .

٩ ـــ

Musa Goldenberg, And The Fund Is Still Alive (HEB), Sifriyat Poalim, TEL - AVIV, 1965, P. 124.

١٠ ـــ المرجع نفسه ، ص ١٥٩ .

١١ ــ المرجع نفسه ، ص ١٥٩

١٢ ــ المرجع نفسه ، ص ١٦٢ .

١٣ ــ المرجع نفسه ، ص ١٢٤ .

١٤ ــ كان اسحق بن زفي ثانـي رئيس لدولـة اسرائيل .

١٥ ــ
Musa oldenrerg . And Tec Fu d s Slit ive, P. 12 - 13

١٦ ــ المرجع نفسه ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

١٧ ــ المرجع نفسه ، ص ١٢٥ .

١٨ ــ المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ .

١٩ ــ الطبعة العربية من هاعولام هذه

٢٠ ــ زفي تل هو مراسل في **يديعوت احرونوت** ، احدى الصحف العبرية اليومية الثـلاث الاوسع انتشارا في اسرائيل .

٢١ ــ معبرة عبارة تخصص عـادة لوصف مخيم اللاجئـين المهاجرين اليهـود الجدد ، واستخدامها تهكمي في هذا النطاق .

٢٢ ــ صبري جريس ، **العـرب في اسرائيل** ، مركز الابحـاث الفلسطينيـة ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٦ ، ص ٢١ .

٢٣ ــ
Aaron cohne, Israel A d The Arah World' (HFB), P. 529.

٢٤ ــ **دافار** هي صحيفة الهستدروت العبريـة اليومية . والتاريخ هو ٢٦ كانون الثاني (يناير) ، ١٩٦٢ .

٢٥ ــ هذه الصحيفة ، وهآرتس ، المذكورتان هنا ، هما اثنتان مـن الصحف العبرية الاوسع انتشارا في اسرائيل .

٢٦ ــ « ديكيل » هي عملية عسكرية اسرائيلية في ١٩٤٨ .

٢٧ ــ الموشاف مستوطنة تعاونية لصغار الملاكين في اسرائيل .

٢٨ ــ كيبوتز هاآرتزي هي العبارة الشاملة لجميع كيبوتزات المابام في اسرائيل .

٢٩ ــ حدود اسرائيل ما قبل حـرب حزيران ، ١٩٦٧ .

٣٠ ــ بموجب اتفاق الهدنة لسنة ١٩٤٨ كانت اللطرون جيبا من الاراضي الاردنية يبدو كنتوء داخـل طريق القدس الرئيسية في الاراضي الاسرائيليـة . وقـد استولت اسرائيل عليها في حرب حزيران ١٩٦٧ .

٣١ ــ ميا شيعاريم هو القسم الخاص باليهود الارثوذكس المتشردين في القدس .

مراجعات

المقدم الهيثم الايوبي ، دروس الحرب الرابعة

(مركز الابحاث / منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت : ١٩٧٤)

كثيرة هي الكتب التي تحدثت عن الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة (حرب أكتوبر أو حرب رمضان) ولكن دون ان تتعرض لتحليل نتائجها من الناحية الاستراتيجية ، الامر الذي قام به المقدم الهيثم الايوبي في كتابه موضوع بحثنا هذا .

قسم المؤلف كتابه الى ثلاثة فصول ، خص الاول منها ببحث الطريقة التي يتم بها تعلم دروس الحرب بصورة مبدئية وعامة . فتحدث ، عن التعلم بالمقاربة اي بالتدريب والاختبار ، والتعلم بالقياس أي بالاستفادة من تجارب الاخرين ولو أدى الامر الى الاشتراك معهم في مهمات قتالية ، وخلص الى نتيجة حتمية ، وهي ان الحرب الحقيقية هي في النهاية المختبر الذي يتم فيه امتحان صحة كل النظريات والعقائد العسكرية .

وخص المؤلف الفصل الثاني من الكتاب ببحث الاستراتيجية العليا كدرس من دروس الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة . فتحدث عن الاسس المبدئية في العقيدة العسكرية الاسرائيلية ومدى تطبيقها في هذه الحرب وذكر منها :

١ — تجنب اسرائيل لاي صدام مع المعسكر العربي ككل الى ان يتأمن لها التفوق العسكري المادي الكامل على هذا المعسكر ، من هنا كان عملها الدائب في سبيل تطوير قوتها العسكرية حتى أصبحت «مجتمعا عسكريا كل ما فيه معد للقتال» ، بزيدها ثقة بالنفس اطمئنانها الى تخلف العرب التكنولوجي ، وتفرقهم وانقسام معسكرهم ، وبالتالي عجزهم عن القيام بأي عمل عسكري موحد ضدها . ويخلص المؤلف الى القول ان الحرب الرابعة برهنت عن « سقوط فكرة الهوة التكنولوجية » وعن ان « تزايد القوة الاسرائيلية وتعاظم أطماعها أديا الى تعميق وعي العرب بالخطر واستعدادهم لدرئه » (ص ٢٦) .

٢ — تبني اسرائيل لمبدأ الحرب القصيرة الخاطفة وهو المبدأ الذي مارسته خلال حربين متتاليتين ، أي حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، ونجحت به ايما نجاح ، وهو يتعارض مع المبدأ العربي القائل بالحرب طويلة الامد . ويتعرض المؤلف هنا « لمحدودية الحرب » لدى الدول الصغيرة بمصالح الدول الكبرى نظرا لاعتماد الاولى على الثانية في مجال التسلح والاعداد العسكري ، ويعتبر ان الدول الصغرى ترتبط الى حد كبير باستراتيجية الدول الكبرى التي تمونها بالاسلحة حتى تكاد تكون تابعة لها ، بل وترتبط ارادتها القتالية ومذهبها العسكري بارادة هذه الدولة الكبرى ومذهبها العسكري ، ويعطي مثلا على ذلك ان ارادة الدولتين العظميين استطاعت تقصير أمد القتال وايقاف الحرب العربية الاسرائيلية الاخيرة « رغم ارادة العرب الراغبين باطالة مدة الحرب ، ورغم ارادة الاسرائيليين الذين رأوا أن اطالة مدة الحرب القصيرة فترة محددة جدا من الزمن سيساعدهم على بلوغ أهدافهم » . (ص ٣٤) .

ويحاول المؤلف ، ردا على هذين المبدأين في الاستراتيجية الاسرائيلية ، ان يحلل اخطار اعتماد اسرائيل الكلي على الدعم الاميركي في سياستها العسكرية ، ويبرهن بالتالي عن سقوط مذهبها العسكري الذي اعتمدته حتى الآن في ان تظل القوة العسكرية المتفوقة دائما في الشرق الاوسط ، فيرى ان الدعم الاميركي الاسرائيلي معرض للتبدل

وذلك لأسباب عديدة أهمها : الاحتكاك الذي يمكن ان يحصل بين الدولتين حول نقاط عدة منها فشل نظرية الحدود الآمنة التي أطلقتها اسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧ . وقد أسقطتها حرب أكتوبر وما بدا فيها من تصميم عربي على استرجاع الارض المحتلة وتأمين الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومن قصور اسرائيلي في ساحة القتال ، مما أظهر أن السلام والامن في منطقة الشرق الاوسط منوطان أولا وأخيرا بعدم تجاهل هذا العامل الجديد الذي طرأ على الوضع العربي ، وبرهن على أن اسرائيل لم تعد ، كما كان يحلو لها أن تسمي نفسها وان تقتنع أميركا به ، وهو انها العصا التي يمكن ان تهزها أميركا في وجه الدول العربية كلما حلا لها ذلك ، ويخلص المؤلف الى القول « وهكذا فان من المنتظر ان تصبح القوة العسكرية الاسرائيلية الجديدة اداة لتسريع التقارب العربي الاميركي لا اداة لردع القوة العربية أو ضربها أو استنزافها » (ص ٥٢) ثم يستدرك فيرى ان أميركا سوف تحتفظ باسرائيل كرأس جسر « تستند اليه العسكرية الاميركية اذا ما وقعت تبدلات مفاجئة في الشرق الاوسط » (ص ٥٢) .

ولا ينسى المؤلف ان يسجل الاهمية القصوى والدور الكبير الذي لعبه استخدام البترول في حرب اكتوبر مستخلصا انه « يمكن قتل اسرائيل بأكثر من سلاح » فقد استخدم العرب سلاحهم السياسي والديبلوماسي « بشكل حاذق » كما كان حذقهم في استخدام سلاح البترول « مماثلا لحذقهم السياسي والديبلوماسي » ، وهكذا ، كشفت الحرب العربية — الاسرائيلية الرابعة عن أسلحة عربية لم يسبق ان استعملها العرب ضد اسرائيل في حروبهم السابقة . وكان لهذه الاسلحة الجديدة فاعلية قصوى وتأثير هام سواء على اسرائيل مباشرة او عليها بواسطة ما تركته من تأثير على العالم .

ومن الدروس التي استخلصها المؤلف من الحرب الرابعة أن التناقض في السياسة الداخلية بين الدول العربية ذات الانظمة والمذاهب السياسية المختلفة لم يمنع اتفاق هذه الدول على الاهداف الاستراتيجية . وانطلاقا من هذا الاستنتاج خلص الى استنتاج عكسي هو ان تناقض الاهداف الخارجية هو الذي يخلق « التناقض الاستراتيجي »

مستشهدا على ذلك بالسلوك التاريخي للدول العربية تجاه قضية فلسطين منذ ثورة سنة ١٩٣٦ ، مرورا بحرب ١٩٤٨ ، فحرب ١٩٥٦ ، ثم حرب ١٩٦٧ ، ثم حرب الاستنزاف ١٩٦٩ — ١٩٧٠ ، ثم حرب الملك حسين مع الفدائيين في أيلول ١٩٧٠ ، ومبرهنا في سياق استشهاده هذا على ان التناقضات في المواقف بين الدول العربية من جهة ، والتناقضات في سلوك كل دولة على حدة في مختلف هذه المراحل ، من جهة أخرى ، انما كانت نتيجة تناقض في الاهداف الخارجية بين هذه الدول من جهة ونتيجة تناقض في الاهداف المرحلية لدى كل دولة من جهة أخرى ، ويرى بالتالي في « محدودية العمل العسكري » ، على الجبهة المصرية خاصة ، نتيجة حتمية وبديهية للخطة السياسية أو الهدف السياسي الذي اندلعت الحرب من أجله وهو « تحطيم حالة اللاحرب واللاسلم وتحريك الوضع الدولي المتجمد » للوصول الى نتيجة (مرحلية) في صراع العرب مع اسرائيل وهي استعادة الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ واعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، أقول (مرحلية) لأن هذه النتيجة في الصراع العربي — الاسرائيلي الدائر منذ ربع قرن ليست نهائية ، اذ ان الصراع لن ينتهي الا باقتلاع الكيان الصهيوني العنصري واستبداله بكيان ديموقراطي علماني ، وهذا هو الهدف الاساسي والنهائي للصراع . ومهما كانت الدبلوماسية العربية حاذقة في ثورية هذا الهدف فان منطق التاريخ هو الذي سيسود في النهاية .

وقد أثر هذا الغرض السياسي ليس على نتيجة العمليات القتالية على الجبهتين المصرية والسورية فحسب ، بل كذلك على الاعداد المسبق لوسائل القتال وتجهيزاته وعلى الاعداد التكتيكي للمعركة . أما الفصل الثالث من الكتاب فخصه المؤلف ببحث الدروس الاستراتيجية في الحرب الرابعة . اذ تحدث عن « امكان الخنق الاستراتيجي عند انعدام الردع » ، مبرهنا ان العرب لم يتمكنوا في السابق من تطبيق الخنق الاستراتيجي البحري على اسرائيل عند مداخل البحر الاحمر في باب المندب بسبب عامل الردع الجوي الاسرائيلي ، وذلك رغم حساسية اسرائيل من هذه الناحية بسبب ضعف قوتها البحرية من جهة وبعد مطاراتها الحربية عن منطقة الخنق هذه من جهة أخرى ، وما ان انعدمت

قوة الردع الجوية الاسرائيلية في حرب تشرين الاول حتى تمكنت مصر من تنفيذ هـذا الخنق في البحر الاحمر ، دون ان تتمكن الدولة العدوة مـن الرد عليه في مواقع أخرى . ولكن هـذا الخنق بقـي محدودا نظرا لقصر مدة الحرب ، وللضغط الاميركي الديبلوماسي لفك الحصار .

ولقد كانت المفاجأة العربية لاسرائيل فـي حرب اكتوبر عنصرا أساسيا من عناصر تقويض العقيدة الاسرائيلية العسكرية المعتمدة الى حد كبير علـى عامل الزمن في حشد القوى عند أي حرب مـع العرب ، فاسرائيل في وضع سكاني لا يسمح لها أن تعبىء القوى بشكل مستمر مما حدا بهـا لأن تضع نظاما دقيقا لتعبئة الاحتياط ، ولكن الذي يحدد نجاح هذا النظام في التعبئة هو الانذار المسبق اولا ، ثم السرعة في التنفيذ ثانيـا . وقد خسرت اسرائيل هذين العاملين بسبب المفاجأة العربية ، لهذا السبب كانت الضجة الكبرى التي قامت فـي اسرائيل بعد حرب تشرين الاول تتهم الحكومـة الاسرائيلية وجهاز الاستخبارات التابع لها بالتقصير ، وأدت بالتالي الى تغييرات جذرية في جهاز العدو الحاكم والاستخباري .

وكان من أهم دروس حرب اكتوبر في نظر المؤلف هو فشل نظرية الحدود الآمنة التي اطلقتها اسرائيل بعـد حرب حزيران ، ويعزو المؤلف هذا الفشل الى ان اسرائيل التي كانت حدودها عام ١٩٦٧ لا تؤمن لها الوقاية الفعالة ، والدفاع القوي بسبب ضيق رقعتها وعدم وجود موانع طبيعية على هذه الحدود واعتقدت بعد حرب ١٩٦٧ انها ارتكزت على موانع طبيعيـة وحدود آمنة (قنـاة السويس ، الجولان ، نهر الاردن) ، فوجئت بأن هذه النظرية قد أسقطها هجوم العرب المفاجىء عليهـا سنة ١٩٧٣ ، مع ما أسقط من نظريـات الغطرسة الاسرائيلية ، ونتـج عن ذلك سقوط الذريعـة الاسرائيلية التي كانت تتمسك بها تجاه العالم بأن الحدود التي وقفت عليها في حرب ١٩٦٧ في سيناء والجولان والاردن ، هي الحدود الآمنة والطبيعية المثالية اللازمة لأمنها ، مما أدى الى سقوط أي مبرر اسرائيلي للتمسك بالارض العربية المحتلة في حرب حزيران .

ومن النظريـات العسكرية الاسرائيلية التـي سقطت في حرب اكتوبر نظرية تمسكـت اسرائيل بها في حروبها قبل الاخيرة الا وهي نظرية « المناورة علـى الخطوط الداخليـة » فلقد بنت اسرائيـل استراتيجيتها على قاعدتين متلازمتين هما : نقـل الحرب الى أرض العدو ، وبذل الجهد الاساسي على جبهة واحدة ، ثم الانتقال بعد تدمير الخصم على هذه الجبهة الى قتاله وتدميره علـى الجبهة الاخرى . وقد طبقت اسرائيل هذه النظرية بطريقة مثالية ونموذجية في حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، الا ان اكتسابها لأراض شاسعة في هذه الحرب أدى الى تطويل المسافات وصعوبة الانتقال بين حدودها المختلفة ، وبالتالي بين الجبهات المختلفة ، فاذا أضفنا الى ذلك استخدام العرب لعنصر المفاجـأة في حرب تشرين الاول باتقان لم يسبق له مثيل ، وقيام الجبهتين الشمالية والجنوبية بالضغط علـى العدو بآن واحد ، فهمنا سبب فشل اسرائيل في تطبيق هذه النظرية ، خاصة وانها تعتمد أساسا في تطبيقها على أن تكون البادئة هي بالهجوم .

كذلك فان اسرائيل التي اعتمدت فيمـا سبق نظرية « الهجوم الاجهاضي المسبق » الذي طبقته بنجاح كبير في حربي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ ، لم تتمكن من تطبيقها في الحرب الرابعة بسبب عنصر المفاجأة العربية ، فأسقط في يدها ، وأضاعت فـرصة ذهبية هي الوحيدة التي كانت تمكنها من النصر ، وكان سبب ذلك استخفافها بالقوة العربية واعتقادها بأن العرب لـن يكونوا أبدا عازمـين على البدء بالقتال ، ولكن الذي أنقذ اسرائيل مـن الهزيمـة المرة الكبرى ، هو ذلك الجسر الجوي الذي مدته أميركا لخدمتها في ساحة القتال ، ورغم ان الاتحاد السوفياتي مد جسرا جويا مماثلا لكل من سوريـا ومصر ، فان الجسر الجوي الاميركي ، بالنسبة الى نتائج المعركة ، كان أكثر فعالية لانه كـان السبب في صمود اسرائيل وجعلها تلتقط انفاسها في خضم المعركـة لتخترق الجبهـة المصريـة في الدفرسوار وتخترق الجبهة السورية عند سعسع .

ولقد كـان الجسران الجويـان (الاميركـي والسوفياتي) لكل من اسرائيل ومصر وسوريا سمة مميزة من سمات الحرب الرابعة ، اذ انهما زادا أهمية مبدأ محدودية الحرب بمصالح الدول الكبرى تأكيدا ووضوحا ، وبرهنا ، بشكل لا يقبل الجدل ، على أن الحرب بين الدول الصغرى لا يمكـن ان تحسم في ساحة القتال دون اخذ مصالح الـدول الكبرى الممونة بالسلاح بالاعتبار ، ودون التأثـر

بسياسة هذه الدول واستراتيجية كل منها تجـاه المنطقة التي نشب القتال فيها ، ولا يغربن عن البال ان ايقاف القتال في الحرب الرابعة كـان نتيجة حتمية لهذا المبدأ .

ويرى المؤلف كنتيجة للحرب الرابعة أن قوة الردع التقليدية الاسرائيلية قد سقطت بفعل هذه الحرب اذ ثبت انه « بالرغم من القوة الاسرائيلية الرادعة ، فقد خطط العرب لحرب جديدة واندفعوا اليها محطمين حلقة الردع أو حلقة الخوف التـي كانت قاعدة من القواعد التي بنى عليها الاسرائيليون استراتيجيتهم » (ص ١٢٤) ، وذلك بفضل العامل القومي المسبب لهذه الحرب التي هي في الاساس صراع من اجـل الوجود أو اللاوجود ، وبفضل « هدف الرهان » في هذا الصراع وهو « بقاء الامة العربية حضاريا أو وضعها على هامش الحضارة والتاريخ » (ص ١٢٥) . وهـذان العاملان : العامل القومي وهدف الرهان ، هما ولا شك أهم ما يميز الصراع العربي — الاسرائيلي عـن أي صراع شهده القرن العشرون .

وينهي المؤلـف كتابه عـن الحرب العربيـة الاسرائيلية الرابعة باستخلاص دروس ثلاثـة ذات أهمية قصوى في الصراع العربي الاسرائيلي من جهة ، وذات أهمية قصوى على صعيد الاستراتيجية العسكرية من جهة أخرى وهي : ١ — لـم يعد الطيران الاسرائيلي ، كما كان في السابق ، عاملا حاسما من عوامل الصراع العربي الاسرائيلي على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي . ٢ — حسمت الصواريخ أرض — جو عامل الـردع الجـوي الاسرائيلي ، كما حسمت صواريخ أرض — أرض عامل الردع التقليدي الاسرائيلي . ٣ — أثبتت خطوط التحصينات فشلها بصورة نهائية ، اذ تم للقوات العربية عبور خط بارليف في سيناء وخط آلون في الجولان بفضل عوامل متتالية عديدة أهمها فعالية الصواريخ أرض — جو التي عطلت جهد الطيران المعادي ومنعته من التدخل الفعال ، فكان مصير هذين الخطين هو نفسه مصير خط ماجينو الفرنسي في الحرب العالمية الثانية .

لا شك في ان المقدم الايوبي قد قدم في كتابه هذا الى القارىء العربـي خدمة جلـى خاصة وان استنتاجاته الاستراتيجية لدروس الحرب الرابعة كانت عميقة ومكثفة . فقد حلل ، في سياق الفصول المختلفة من الكتاب ، الاستراتيجية التـي اتبعتها اسرائيل في عملها العسكري ضد العرب منذ انشائها حتى اليوم ، متغافيا ، ربما قصدا ، عـن ذكر أية استراتيجية عربية في المقابل ، وذلـك لغياب هذه الاستراتيجية ، على ما اعتقد ، غيابا مطلقا قبـل حرب اكتوبر ، — سوى مـا عرف عـن « السياسة » الدفاعية لهذه الدول — ومظهرا ، ببراعة وفهم ، كيف استطاع العدو الصهيوني ان ينجح على مدى ربع قرن ، في ان يفرض نفسه قويا على العرب ، بفضل استراتيجية عسكرية مدروسة ومركزة ومنبثقة من عوامل عديدة أملتها عليـه أوضاعه السكانية والجغرافية وارتباطـه الوثيق ، « عسكريا وسياسيا وماديا » بالاجهزة الاميركية الحاكمة من جهة ، وأوضاع خصومـه العرب النفسية والاجتماعية والعقيدية مـن جهة ثانية ، ولم تتغير موازين القوى لصالح العرب ، الا حين أظهر هؤلاء قدرة على التحرك الاستراتيجي والتكتيكي والسياسي ، وكان كافيا لهم ان يتحركوا لتتساقط نظريات اسرائيـل الاستراتيجية وتفسد عقيدتها العسكرية ، رغم ان تحركهم كان محدودا بهدف مرحلي هو تحريك الوضع السياسي بهـدف استرجاع الارض المحتلة واعادة الحقوق المغتصبة للشعب الفلسطيني .

وانني وان كنت أوافق المؤلف على معظم ما ورد في كتابه من تحليل واستنتاجات ، الا أن أمـرا هاما سيوقفني ولا أرى بدا من مناقشته ، فهو حين يحلل اخطار اعتماد اسرائيل الكلي علـى الدعم الاميركي يرى ان هذا الدعم معرض للتبدل ، ويورد لذلك أسبابا عدة سبق وذكرناها في سياق حديثنا ، وذلك يتناقض ولا شك مع نظرية التبعيـة المطلقة التي تربط اسرائيل بأميركا ، بتبعية مبنية علـى أسس ثابتـة لا تتغير ، أهمها هيكليـة البنـاء الاجتماعي ، الطبقي والعنصري ، لكل من اسرائيل وأميركا ، وهي هيكلية متشابهة الى حد كبيـر ، بالاضافة الى قوة الضغط الصهيوني الفاعلة فـي المجتمع الاميركي وبالتالي في الجهاز الحاكم لهـذا البلد ، واذ يستدرك المؤلف فيقول أن أميركا سوف تحتفظ باسرائيل كرأس جسر « تستند اليه العسكرية الاميركية اذا ما وقعت تبدلات مفاجئة فـي الشرق الاوسط » ، ترانا نستطرد بدورنا فنقول أن أميركا نفسها هي التي سوف تعمل جاهدة لايجاد هـذه التبدلات المفاجئة في الشرق الاوسط كي تتمكن من

الاحتفاظ باسرائيل كرأس جسر لعسكريتها في هـذه المنطقة من العالم ، وستكون هـذه التبدلات ولا بد على حساب الدول العربية والتضامن العربي والقوة العربية ، ومواقف أميركا الاخيرة تجـاه القضية الفلسطينية وتجاه الدول العربية المصدرة للبترول خير دليل على ذلك .

ان ارتباط الصهيونية العالمية بالاجهزة الاميركية الحاكمة والمؤسسات الاعلامية والمصرفية المسيطرة عليها هو ارتباط أساسي وتاريخي ومصلحي ، لذا فكل محاولة لفك هذا الارتباط ستواجهها ولا شك مقاومة عنيفة وجدية من قبل المعسكرين معا .

وخلاصة القـول ، لقد كـانت محاولة المقدم الايوبي في استخلاص الدروس من حـرب العرب في أكتوبر محاولـة ناجحـة ، ويستحق كتابه ، بجسدارة ، ان يقتنـى في المعـاهد الاستراتيجية والعسكرية والعربية العليا .

العقيد ياسين سويد

O'BALLANCE, EDGAR, **The Electronic War In The Middle East 1968 - 1970** (FABER AND FABER - LONDON : 1974)

في كتابه الخامس عن الصراع العربي الاسرائيلي يسجل الميجر أوبالنس وقائع المرحلة التي دخلت التاريخ تحت اسم : حرب الاستنزاف ، هذه المرحلة التي تميزت بالاستخدام المتزايد لكل من الفريقين ، المصري والاسرائيلي ، لاجهزة الحرب الاليكترونية . وقد شهدت بدايتها عام ١٩٦٨ عندما كان الجيش المصري قد استعاد جزءا من الاسلحة التي خسرها في حرب حزيران ، وأخذ يشن حرب الاستنزاف — وانتهت بوقف اطلاق النار في ٧ آب ١٩٧٠ ، حينما استجاب الفـريقان لبادرة روجرز . في هـاتين السنتين ، كانت ضفتا القناة حقل تجارب لآخر ما أنتجته المصانع الاميركية والسوفيتية من معـدات اليكترونية بالغة الدقة والتعقيد ، أدى استخدامها الى احداث ثورة في علم الحرب .

ويعرب الميجر عن اعتقاده بأن حرب الاستنزاف كانت أول حرب اليكترونية في التاريخ . فمع ان الاجهزة الاليكترونية سبق وان استخدمت في الحرب الفييتنامية قبل حرب الاستنزاف بسنوات ، الا أن استخدامها ذاك لم يجر على النطاق الواسع الذي شهدته منطقة السويس . فالآلات الاليكترونية التي استخدمها المصريون والاسرائيليون كانت أحدث وأكثر فعالية ، مما أدى بها الى أن تسيطر على سير المعركة بشكل لم يعرفه ميدان قتال آخر . فلاسقاط الطائرات الاسرائيلية المغيرة ، اعتمدت وسـائل الدفاع المصرية بالدرجة الاولى على صواريخ سام* والمدافع المضـادة للطائرات الموجهـة بالرادار . بينما لافشال هـذه الوسائل ، دأبت الطـائرات الاسرائيلية على حمل الاجهزة التي يطلق عليهـا اسـم :

Electronic Counter Measures

(الاجراءات الاليكترونية المضادة) وذلك لتضليل الصواريخ وابعادها عنها . كما ان هذه الطائرات جهزت بالصواريخ والقنابل الموجهة التي تندفع نحو قواعد الـرادار والصواريخ ، متتبعة الذبذبـات الاليكترونية الصادرة عن هذه القواعد . وبالاضافة الى هذه الاساليب القتالية المباشرة ، كانت أجهزة التضليل الاليكتروني في كلا الجانبين تقوم بمهامها في التشويش على شاشات الرادار العادية ، أو في الانصات الى الاتصالات السلكية واللاسلكية ، وغير

ذلك من طرق حربية جديدة اتسم بها عصر الاليكترون ، كما دشن عسكريا على ضفتي القناة .

وقد تتبع الميجر سير المعركة اسبوعا باسبوع ، وحاول أن يصل الى الحقيقة من خلال البيانات العسكرية المتضاربة الصادرة عن الجانبين . كما انه استعان بخبير في علم الاليكترون ليشرح له بعض مبادىء هذا العلم الحديث .

وكانت نتيجة هذا الجهد هو كتاب صغير الحجم (١٤٨ صفحة) يستمد أهميته من كونه على الارجح الكتاب الوحيد الذي ظهر عن حرب الاستنزاف .

ولا يقتصر الكتاب على الجانب الحربي فقط ، وانما هناك أيضا الخلفية السياسية للحرب . الا أن المؤلف ، بحكم نزعته اليمينية المحافظة ، لا يقدم تحليلا موضوعيا عميقا للتطورات السياسية . كما ان عداءه المتأصل للرئيس عبد الناصر يدفعه الى تشويه دوافع هذا الزعيم العربي ، والى نفض الغبار عن الكليشيهات السقيمة التي طالما استخدمها الكتاب الغربيون عند حديثهم عن عبد الناصر . فهو مثلا ، يكتب عن حادثة اشعال النار في المسجد الاقصى بأن عبد الناصر « حاول أن يستثمر هذا العمل ليحمس العرب ويدفعهم الى خوض غمار الجهاد المقدس ضد اسرائيل ، الا أن الدول العربية لم تشاركه حماسه » (ص ٩٣-٩٤).

بيد أن الموضوع الاساسي للكتاب هو حرب الاستنزاف ، وفي هذا الصدد يمكن القول بأن المؤلف سجل وقائعها المعروفة بأمانة . كما ان اعادة تقييمه للجيش المصري الذي طالما تهكم عليه في كتبه السابقة ، لا شك ستدهش الكثيرين . فهو يبين أن نسبة القوة الضاربة الى القوة المساندة في هذا الجيش هي ٤٠ الى ٦٠ ، وهي بالطبع نسبة عالية . (النسبة في الجيش الاسرائيلي هي ٥٠ الى ٥٠) كما يعرب عن اعتقاده بأن الضابط المصري ، وان لم يكن بمستوى الضابط الاسرائيلي من ناحية الكفاءة والتفاني في اداء الواجب ، الا انه ليس بالرداءة التي صورته بها الدعاية الغربية والاسرائيلية المعادية . وهذا الحكم الصادر عن الميجر يجب أن نعتبره سخيا جدا بالمقارنة مع احكامه في كتبه السابقة . فهو مثلا يقول : لقد شعر الضباط المصريون بالاهانة التي لحقت بهم (في حرب حزيران) فانهمكوا في التدريب ، مصممين على أن يثبتوا جدارتهم . وتجاوبوا مع الحاح الخبراء العسكريين السوفييت عليهم بأن يعملوا بجد ونشاط . وهذا بالتالي جعل جنودهم يتجاوبون معهم ، فاكتشف ضباط مصريون كثيرون ، وذلك لأول مرة ، كم هو جيد الجندي المصري القادم من بيئة الفلاحين ، ان هو وجد نفسه تحت قيادة كفؤة مشجعة . (ص ٣٣) .

وفي صفحة أخرى يكتب : ان الجندي المصري قوي البأس ، وثابت الجنان . وفي الساعات الاولى من حرب حزيران ، حارب الكثيرون بشكل ممتاز ، الى أن صدرت اليهم الاوامر بالانسحاب (..) ان الاعتقاد الشائع بأن الجندي المصري لا يمتلك اللياقة البدنية المطلوبة للقتال ، هو وهم . (ص ٣٤) . كما ان أوبالنس يشدد على أن الحماس المتأجج دفع بالضباط المصريين الى حد القيام باضراب SIT - IN للضغط على الحكومة المصرية لتصدر اوامرها لهم بعبور القناة وتحرير سيناء . وهذا الضغط المتزايد هو الذي دعا القيادة لأن ترسل قوات الكوماندوز لتقوم بغارات فعالة على الخطوط الاسرائيلية .

أما على صعيد الطيران ، فالميجر يبين بأن الطيارين المصريين لم يترددوا أبدا في الاشتباك مع مقاتلات العدو ، بالرغم من ادراكهم جيدا بأن خبرتهم ما زالت أقل من خبرة الطيارين الاسرائيليين وتجاربهم في القتال الجوي ، وكذلك يؤكد على ان الفرق في المستوى بين الطيرانين أخذ يضيق تدريجيا الى أن بدا السلاح الجوي المصري يبرز أخيرا كخصم خطير للطيران الاسرائيلي .

ما هي النقاط العسكرية التي تسترعي النظر بصورة خاصة في كتاب أوبالنس ؟ برأي الكاتب الحالي ، أهمها هو الانتقاد الذي يوجهه الميجر الى القيادة المصرية « لتقاعسها » في استغلال تفوقها المدفعي الكبير على القوات الاسرائيلية ، وعدم مواصلتها قصف العدو بالعنف الشديد الذي هي قادرة عليه . فهو يكتب : لو انها فعلت ذلك ، لتمكنت من اقامة حزام نيران عرضه عشرين ميلا على ضفة القناة الشرقية ، لا يمكن للقوات الاسرائيلية أن تتمركز بداخله لفترة طويلة . ولكن المصريين أخفقوا في استغلال تفوقهم التكتيكي وبذا فوتوا على أنفسهم فرصة من أعظم الفرص

التكتيكية في هذه الحرب التي كانت يومئذ في مراحلها الاولى (ص ٤٣) .

ان الذي غاب عن بال الميجر في هذا السياق هو ان مصر تعمدت أن تخسر هذه الفرصة التكتيكية وذلك لكسب الفرصة الاستراتيجية الكبرى : فرصة العبور التاريخي . فقد أثبتت وقائع حرب رمضان ان خط بارليف ، في موقعه القريب من القناة ، كان هبة من السماء للقيادة المصرية . بينما لو أقامت اسرائيل خطها الدفاعي الاول على بعد عشرين ميلا من القناة ، أي في عمق سيناء ، لأمكنها ذلك على الارجح من اجهاض أية محاولة مصرية للعبور .

لقد كانت الخطة الاستراتيجية البعيدة الامد التي اختطتها القيادة المصرية للعبور ، صائبة تماما . وتدل الاحداث على انها وضعت خطوطها العامة الاولى بعد أشهر قليلة على حرب حزيران . ويمكننا اليوم أن نتابع الخطوات التي اتخذتها هذه القيادة في سبيل تحقيق أهدافها ، كما نتابع تحركات لعبة شطرنج شهيرة على صفحات كتاب . لقد جرت على الوجه التالي :

١ — جلبت القيادة المصرية عددا هائلا من المدافع الى منطقة السويس ، وهذه المدافع باشرت من مواقعها الحصينة قصف مواقع العدو المكشوفة نسبيا .

٢ — أصاب التفوق المدفعي المصري الاسرائيليين بالذعر . الا أن مذهبهم العسكري المرتكز على الروح الهجومية ، ووجوب عدم التراجع ، حتم عليهم بناء خط بارليف بمحاذاة القناة وليس في عمق سيناء . وقد خففت المدفعية المصرية من حدة قصفها لتتيح للعدو فرصة بناء حصونه واستحكاماته .

٣ — باشرت القيادة المصرية انشاء قواعد سام على طول الجبهة .

٤ — حاول الاسرائيليون تخريب القواعد قبل الانتهاء من انشائها .

٥ — قبل عبد الناصر بادرة روجرز ، واخذت القيادة المصرية تستكمل بناء القواعد في فترة وقف اطلاق النار ، في الوقت الذي تعالت فيه بعض الاصوات منددة بمهادنة العدو .

٦ — في السادس من تشرين الاول ١٩٧٣ عبر المقاتلون المصريون القناة وطوقوا حصون بارليف في غضون ساعات .

انها لعبة شطرنج استغرقت حوالي خمس سنوات !

وختاما ، فان كتاب الميجر لا يهمنا عسكريا ، بقدر ما يهمنا كنموذج على تغير المواقف عقب حرب رمضان . فمع ان ناشر الكتاب يشير في كلمته التعريفية على الغلاف الى أن حرب رمضان لا تدخل في نطاق الكتاب ، الا أن القارىء العربي المطلع على كتابات الميجر أوبالنس عن الصراع العربي الاسرائيلي ، والعارف بموقفه المناوىء للعرب ، لا يملك الا أن يلاحظ نبرة الاحترام التي اتسمت بها لهجته في هذا الكتاب الجديد ، فلأول مرة يتحدث الميجر عن شجاعة المصريين وصمودهم ، فيثني على الطيارين وطواقم المدفعية والصواريخ ، وينوه بانجازات القوات المصرية الخاصة ، الكوماندوز ، ذاكرا ان هذه القوات أنزلت بالاسرائيليين خسائر هي أكبر مما اعترفوا به في بلاغاتهم الرسمية . وهذه النبرة الجديدة لا يمكن للميجر الا أن يكون قد اكتسبها من حرب رمضان والتي واكبت احداثها تأليفه لهذا الكتاب .

---

* الاعتقاد الشائع هو ان « سام » الاسم العلم الذي يطلقه السوفييت على نوع خاص من الصواريخ التي تنتجها مصانعهم . أما في الواقع ، فان أي صاروخ سطح — جو ، بصرف النظر عن نوعه ومصدر صناعته ، يحمل اسم سام المشتق من الاحرف الاولى للكلمات الانكليزية التالية :

Surface - To - Air - Missile

فارس المنصوري

هاني الراهب ، **الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية**
(مركز الابحاث / منظمة التحرير الفلسطينية ، بالاشتراك مع وزارة التعليم العالي في سوريا) ، صدر في بيروت ، ١٩٧٤

أثار هذا الكتاب اهتماما فكريا واسعا في عقلي ، خصوصا وانه عبارة عن رسالة دكتوراه تقدم بها الباحث الى قسم الادب الانجليزي في جامعة اكستر البريطانية ، وقد عالج فيها الصور الذهنية الاربع للانسان الصهيوني المرتسمة في مخيلة كاتب القصة الانجليزية ، والتي عززتها هذه القصة في ذهن القارىء الانجليزي ، وهي صورة الصهيوني القومي ، وصورة الرائد المستوطن ، وصورتا الاسرائيلي ، قبل الاغتصاب ، وبعده ، وقد أجيزت هذه الرسالة من قبل الاساتذة الفاحصين ، كما يقول أنيس صايغ ، كما كان هذا الاهتمام المثار في ذهني ، راجعا بالدرجة الاولى ، الى كون هذه الدراسة ليست رسالة دكتوراه فحسب ، وينبغي على صاحبها استعمال لغة المراجع الدقيقة ، وأسلوب عمل ذي نمط كلاسيكي فقط ، بل كون هذه الرسالة مقدمة الى عقلية غربية محددة ، هي العقلية الانجليزية ، التي تسيطر عليها ايديولوجية معينة تتخذ مواقف حذر مشددة قبالة مفاهيم صاحب الرسالة نفسه ، ومن قضاياه الوطنية والايديولوجية ايضا ، وهذا يعني ، بالتالي ، صعوبة التفاهم المتبادل بمباشرية وحرارة ، وضرورة تنازل احد الطرفين عن فاصل الحسم الفكري المكون لشخصيته المتكاملة الجوانب .

وبكل صراحة ، انني أوظف منهجا ظواهريا في خدمة بناء هذه المراجعة ، والمنهج الظواهري يتناول العمل الفكري أو الادبي أو الفني — مقصودا — كموضوع يمتلك حيزا وتاريخ علاقات متنامية تتشابك وتتفاعل ، جدليا ، مع وضد المواضيع الاخرى التي تمتلك ، بدورها ، أحيزة وتواريخ علاقات (١) ، ومن فوائد هذا المنهج انه يمكننا من الحكم على الموضوع قيد المعالجة ، بالاضافة الى استكناه وضع المؤلف وسط العالم المقيم فيه ومقدار تجاوبه معه وله . تبدو هذه المهمة صعبة وطويلة الامد ، بيد اننا سنحاول الاختصار والتركيز قدر الامكان ، خاصة واننا سنوازن بين شخصية المؤلف العربية السمات من خلال دراستها للشخصية الصهيونية المضادة لها ، وتقديرها لها ، وسنعرض لكل فصل على حدة ، مع تكوين بعض الملاحظات التي سنجمل النتائج المترتبة عليها في نهاية المراجعة .

١ — المقدمة والفصل الاول : يحدد المؤلف غرضه من هذه الدراسة بأنه تقصي ظهور وتطور الشخصية الصهيونية في الرواية الانجليزية ، فحتى بداية القرن التاسع عشر ، كان اليهودي يصور في القصص الانجليزي اما على صورة شايلوك المرابي ، أو اليهودي الضال ، غير ان روايتي هارنغتون « ١٨١٧ » لماريا ادجورث ، وايفنهو « ١٨١٩ » للسير والتر سكوت ، هاتان الروايتان قدمتا مفهوما جديدا لليهودي ، بابرازه على انه شخصية طيبة ، وبعدئذ بدأت شخصية اليهودي الطيب تعالج بتكرار أكثر وأشمل خلال القرن التاسع عشر ، منقسمة الى شخصيتين متناقضتين ، هما اليهودي المندمج والصهيوني الباحث عن فكرة الخلاص .

يشرع المؤلف في تبيان أن أوضاعا اجتماعية واقتصادية ودينية وسياسية لم تحل دون اندماج اليهودي فحسب ، بل وعزلت جمهرة من اليهود في غيتوات بقيت حتى مطلع القرن العشرين ، لكنه ، نتيجة لروح المساواة التي نادت بها البرجوازية الاوروبية الصاعدة ، كانت استجابة اليهود لهذه الظاهرة شاملة ، وفي بعض الاحيان ناجحة ، وقد قادها فيلسوف الماني يهودي هو موزس مندلسون الذي أسس حركة اندماجية ، وكان يعتقد ان اليهودية ليست دينا منزلا ولكن شريعة منزلة ، غير ان حركة مندلسون ، كما يؤكد المؤلف ، ساعدت ، ولكن بدون قصد ، على انماء وعي عرقي لدى اليهود ، فبدلا ان تكون القدس موضوع توق ديني عند اتباع مندلسون ، صارت ترتبط بفكرة الملاذ السياسي ، وينتهي الباحث الى القول في نهاية هذا الفصل ان الصهيوني ، اذن ، المؤمن بمبدأ الصهيونية في القومية من الناحية السياسية ، هذه

القومية القائمة على اعتبار اليهود شعبا واحدا ، وفلسطين وطنا لهم .

في هذا الفصل يصف المؤلف الارضية التاريخية ـ الاجتماعية التي عاش فوقها يهود أوروبا ، ولكن وصفه يراعي نواحي اخلاقية ، لم يكن لها تأثير كبير وقاطع على تطور النفسانية الصهيونية ، فهو يشدد ، في البداية ، على ان استجابة اليهود لحركة مندلسون كانت شاملة ، ثم يعود الى القول ان هذه الحركة نفسها خلقت ، بدون قصد ، وعيا عرقيا سياسيا ، وهذه النظرية ، بحد ذاتها ، أمر غير مجزوم به على الاطلاق ، ولنقرأ هذا المقطع الذي ثبته غسان كنفاني : اذا كانت فرص الاندماج والذوبان قد بدأت بالاتساع ، اثناء هذا الانفراج ، ويشير غسان هنا الى تطور البرجوازية ، فاننا نلاحظ في المقابل ، أن تيارا من التعصب كان ينمو في الاتجاه المضاد ، في الاوساط اليهودية ذات الامتيازات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة (٢) ، ويرجع غسان حقيقة هذه الواقعة الى نمو وعي عالمي أتاح ، في هذه الفترة ، الفرصة لاعادة النظر بالمعضلة اليهودية على أسس علمية (٣) ، اذن فاستجابة اليهود البسطاء كانت شاملة ، باستثناء الطبقات البرجوازية من اليهود ، صاحبة الامتيازات ، فهذه الطبقات لم تكن تنظر الى اللوحة المعطاة الا على أساس مصالحها ، ومن مصالحها الاولية والبديهية ، منافسة البرجوازية الاوروبية ، والتوازي معها ، بالاستيلاء على أراض تقيم عليها مستعمراتها الخاصة ، وبالطبع ، فان هذا التوجه لم يكن بدون قصد بأي حال من الاحوال . الا ان المؤلف ، كما نرى ، يرامي هاهنا ضمن أطروحته الوضع العقلي الايديولوجي لمناقشيه الانجليز ، وهذا العمل ليس تهربا فكريا ، بمقدار ما هو مسايرة تورط المؤلف في أحضانها ، ويجبر على التقيد بقوانين منطقها .

اليهودي صار صدفة صهيونيا لان لا خيار لديه ، لا أعني ان لا نأخذ بعين الاعتبار نمط العقلية الغربية ، ولكن يجب أن نصدمها لكي لا تظل سادرة في أهوائها ، وهذا ما لم يعمل به المؤلف .

٢ ــ **الفصل الثاني ، اليهودي الطيب :** سوف يهتم الدارس ، في هذا الفصل ، بتلك الشخصيات اليهودية القصصية التي سبقت ظهور الشخصية الصهيونية ، وجاء التعبير عن هذه الشخصية ، اليهودي الطيب ، أول ما جاء ، في رواية « هارنغتون » لماريا ادجورث ، غير أن هذه القصصية نفسها عمدت ، فيما مضى ، الى ملء قصصها التربوية باللصوص والمجرمين من اليهود ، بغية اعطاء درس اخلاقي ، ولقد غيرت هذه القاصة موقفها ، غير المتعمد من اليهود ، اثر تلقيها رسالة شاكية من الولايات المتحدة ، من آنسة يهودية تدعى مردخاي ، تتذمر فيها من التحيز الفاضح ، للمؤلفة ، ضد الامة اليهودية ، وهكذا ظهرت رواية هارنغتون ، فمونتنيرو ، والد هارنغتون الابن ، بطل القصة ، فريسة لسوء الفهم ، ففي السادسة من عمره يعلن ان اليهود هم بالطبع حزمة غير طبيعية من الناس ، وهو يحمل سمات لا توصف ، تميز الجنتلمان ، بالرغم من كونه يهوديا ، ففيه لباقة وكآبة في عينيه ، الا اننا نعلم بأنه ، ومع طيبته ، يهدد ابنه بالحرمان من الميراث ، ان هو تزوج برينيس ، الفتاة نصف الانجليزية المسيحية والتي تختلط في دمائها دماء أمها اليهودية ، لذا فانها لا تستطيع ان تكون اسبانية ولا أمريكية ولا انجليزية بحتة ، بسبب الدم اليهودي الساري في شرايينها ، يقول كاتب دراستنا : ليس غرض هذه الدراسة تقديم تبريرات ، لما يصفه عدد من النقاد بأنه تراجع ، من قبل ماريا ادجورث ، غير انه من غير العدل ، ان نطالب بتعويض حماقة بشرية عريقة ، ثم انه من المؤكد ان معالجة المؤلفة لموضوعها ورسمها للشخصيات الطيبة اليهودية ، النيرة والمظلومة والمعزولة قسرا ، متقدمان كثيرا عن عصرها .

وفي محاولة لرؤية هذه الشخصية الصهيونية الطيبة ، من منظور عمل روائي آخر ، يبحث المؤلف تركيب رواية السير والتر سكوت المسماة « ايفنهو » فيستعير ، من ديفيد ديتشز ، أول ناقد فحص أعمال سكوت على ضوء جديد ، مكتشفا قابلية شخصيات سكوت للتفسير الرمزي ، رأيه القائل ان عنصرا غير رومانتيكي يدخل صلب اعمال هذا الروائي الانجليزي ، الذي حسبه الجميع رومانتيكيا صرفا ، ورأي ديفيد ديتشز ، يقرر ان سكوت يرفض التقاليد الفارغة ويدعو الى اتجاهات متحررة عصرية وبرجماتية ، لهذا فان حب ربيكا ، الفتاة اليهودية ، للفارس ايفنهو المسيحي ، يقدم مثالا أوضح للكيفية التي يخرج فيها سكوت الرومانتيكي واللارومانتيكي معا ، غير ان ايفنهو لا يظهر ، في أي

جزء من الرواية ، اي وعي بحب ربيكا اليهودية المدلهة بـه ، فيبدو من المؤكد ، ان الواقعـي في سكوت قد غلب الرومانتيكي ، وبالتحديد ، فـي موضوع زواج ربيكا وايفنهو ، ولذلك السبب ، وبالرغم من حب ربيكا الهائل لايفنهو ، لا بد من الابقاء على الفوارق ، فربيكا بموضعها تعقلن ، باسم سكوت ، تصرفات اليهود الطيبين ، وفي الوقت نفسه تعري الرديء واللاانساني في مجتمع القرن الثاني عشر الذي تدور احداث الروايـة في احشائه ، اذن الحال اليهودية ، في هارنغتون ، وفي ايفنهو ، تقريبا واحدة ، فمن ناحيـة المجتمع المسيحي المعادي لليهود ، ومن ناحية ثمة اليهود الباحثين عن قبول لائق في ذلك المجتمع ، والنقطة الحاسمة في تاريـخ يهود أوروبـا هي رغبتهم في الاندماج ، وضرورة اعتراف المجتمعات الاوروبية بحق اليهود التاريخي .

بهذا الحكم الاخلاقي المحض ينهي المؤلف الفصل الثاني ، ولكن لنلاحظ نقطتين متناقضتين لم يسع المؤلف الى تفسيرهما أو على الاقل تبريرهمـا ، أولا ان الاب اليهودي هارنغتون يرفض تزويج ابنه من فتاة تحمل دما غير يهودي ، ثانيا ان تضحية ربيكا اليهودية ، في رواية سكوت ، وامتناعها عن ايفنهو حالة يهودية ، ولاجل اليهودية نفسها ، وهذه اليهودية ، التي تعلنها ربيكا ، ليست دينية فحسب ، او انتماء اخلاقيا ، بل تختزن عوامل اجتماعية تقوم هيكلها ، ان الوضع الاقتصادي ـ الاجتماعي في أوروبا هو العـامل الاساسي الذي خلق النوع اليهودي الموصوم بالتقوقع ، ولا ننسى ان استجابة اليهود لهذا العامل وطريقة هـذه الاستجابة قادهم الى الانكفاء على ذاتهم والرضى بل والمطالبة بهذا الوضع ، هذا ما تبرهن عليـه شخصية هارنغتون الاب ، الذي ينظر الى فقـر الفتاة قبل دينها ، اما من ناحية ماريا ادجورث صاحبة الرواية ، فاننا نستشف ، خلف موقفهـا المتذبذب ، حقيقة موقف البرجوازية المتردد ، عند بدء طلوع شمسـها ، اليوم رضى عن اليهـود ، وغدا منافسة وصخب ، وفي المجال هذا ، نصر على القول ، ان الصهاينة اسقطوا هذا البعد الاجتماعي تماما ، اي الصراع الطبقي ، وبذا تحول الصراع من صراع طبقي متعين داخل المجتمـع اليهودي القديم الى صراع ازلي بين اليهود والاغيار (٤) ، ومثل هـذه النظرية ايضا يعتمدهـا الصهاينة ، فاليهودي متميز لانه يهودي لا غير ، ولا دخل له فيما يدور داخل المجتمع الذي يتواجد فيه من صراع طبقي وفكري ، فيحول الصهاينة المتغير الهامشي الى متغير محوري (٥) ، لقد انساق المؤلف هنا الى التعامل مع العقلية الانجليزية علـى أساس برامجها هي ونظراتها الطوباوية ، التي تخفـي حقيقة الصراع الدائر ، فليس من المعقـول ان ينحول هذا الجمع الهائل من الكتاب الانجليز ، من معاداة اليهودية ، الى الدفاع عنها ، فقط لبواعث اخلاقية ، ولكن ، في الواقع ، ان مرحلة نهوض البرجوازية فرضت هذا الطابع ، حتى على الكتاب انفسهم ، لقد حدث تنازل من قبل المؤلف لصالح مناقشيه .

٣ ـ الفصل الثالث ، ما قبل الصهيوني : أتاح القرن التاسع عشر ، بمعاييره الاخلاقية وقـوانين الصراع الاجتماعي فيـه ، التـي ولدت نظرات عمومية ، أتت بها الثورة الفرنسية ، أتاح الانتقال لليهود من حياة العزلة والاضطهاد الـى حيـاة المشاركة والاندماج ، خصوصا في فرنسا وبريطانيا وأميركا الشمالية ، بيد ان هذا التفاهم الضمنـي بين اليهـود والمجتمعات الغربيـة لم يكن ليلائم طموحات كثير من اليهود ، مـن أمثـال بنجامين دزرائيلي اليهودي المتنصر ، فطموحه تجاوز حدود التسامح البريطاني في سياق الاندماج ، وهكذا كان الصراع الذي خاضه ليصير رئيس وزراء واحدا من الصراعات الاعنف والاشق ، وكان بارزا فيه طرفان متناقضان ، هما الاندماج والوعي الذاتي . وقد سجل دزرائيلي ، في أعماله القصصية ، قدرا كبيرا من سيرته الذاتية وأفكاره الدينية والسياسية ، ويستشهد المؤلف هنا بأوراق هيودن لدزرائيلي ، حين يعلن الاخير انني صورت طموحي الحقيقي والفعال في روايـة فيفان غري ، وفي الروي ، طموحي المثالي ، وهكذا نشاهد انه حقا ، ان دزرائيلي قد حلم باحياء المجد والقوة العرقيين القديمين لليهود ، مع ان هذا الحلم لم يتحقق في حينه ، وهذا هو أحد الرواسب التي جعلتنا نصنفه على انه من قبل صهيوني وليس صهيونيا ، ثم هذا الراسب يمكننا أن ننسب لدزرائيلي كونه أول من سجل في التاريخ الحديث تطلعا صهيونيا ، وهو أمر مقصور على القرن التاسع عشر ، وليس قديما كما يدعي دهاقنة الصهاينة ، ولقد شهد عـام ١٨٣٣ ميلاد رواية الروي التي تجسد هذا التطلع ،

وبطلها يهودي شرقي يحلم باقامة مملكة يهودا علـى أنقاض بغداد ، متوازيـا حلمه مـع حلم دزرائيلي بفتح لندن ، والمقارنة هنا بين شخصية بطله وذاته ممتعة وخلاقة ، والروي امير شاب وقع أسيرا لدى الاعداء ، وهو يشعر بقواه العقلية والروحية ويناجي نفسه بالكلمات التالية : آه يا روحي مثقلة بالحزن ، ولكن ما أشعر به جنون .. يا رب الجند دعني أغز ، أو أمت ، أغز مثـل داود ، او أمت مثل شاوول . اما حنين اخـو الروي ، فهو يهودي مندمج ، ويقول لا لروي : أنا أؤمن بالحقيقة ، وأتمنى من الناس جميعا ان يفعلوا ذلك ، بيد ان الروي يمضي في سعيه لقيادة اليهود في حرب ناجحة ضد خليفة البلاد ، ونلمس هنا ان الطموح الواقعي يلتحم بالرؤى الميتافيزيقية والتاريخ ، ليشكلوا قاعدة العقيدة الصهيونية ولكن موقف دزرائيلي تجاه اليهود متضارب أساسا ، وقد صاغ نظريته عن تفوق العرق اليهودي ، كوسيلة دفاعيـة ضد غرمائـه السياسيين الذين ينافسونه على مقعد الوزارة البريطانية ، وليس بسبب تفكيره الحصيف ، ويهتف دزرائيلي ، مبلورا نظريته العرقية الميتافيزيقية الهشة : لا بـد ان احد نتائج الحكم الالهي في هذا العالم قرر ان الهدف المقدس يجب ان ينجز بواسطة عروق بشريـة ، واختار الخط الغيور على الوحي الذي نزل على عائلة خاصة ، ويعني بالعائلة الخاصة اليهود . وبنتيجة هذه المقارنة يقرر دزرائيلي ان اليهود هم سادة العالم ، وبذلك نرى ان التاريخ الواقعـي لشخصية دزرائيلي يتحول الى تاريخ ميتافيزيقـي ناجع ونقي ، رغم تلوث دزرائيلي نفسه بالمضاربات السياسية الجارية في عصره ، وهذا ما لم يفطن المؤلف اليه ، ولكنه يمضي فيقول : ثمـة نقطتان في مفاهيم دزرائيلي المقبل صهيونية تستحقان مزيدا من البحث ، العلاقة بين العرب واليهود أولا ، وفلسطين ثانيا ، انـه ، اي دزرائيلي ، يؤمن في روايتي تانكريد وكوننغزي ان الاسحاقيين ، اي اليهود ، والاسماعيليين ، اي العرب ، ابنـاء عمومه ، وعاشوا دائما بسلام ، بيد ان العقـل الاوروبي ، على حد تعبير المؤلف ، ميال الى الظن ان العرب لا بد وان يعاملوا اليهود بالطريقـة نفسها التي عاملهم بها الاوروبيون .

وفي الحقيقة اننا نريد الاشارة الـى ان المؤلف سها عن كون دزرائيلي أسقط الاوضاع والمعاناة والطموحات التي امتلكها في بريطانيا علـى احداث وأبطال مجمل رواياته ، فلا يبدو غريبا ، بعد هذا ، ان استخلص القاريء المضمون الخارجي والشكلي للرواية دون ان يتطرق ، مـع المؤلف ، الى لب الايديولوجية الاوروبية العرقية، او حتى البرجوازية الفاقعة ، هذه الايديولوجية التي تقـف كمظلـة واقية تحول دون التقدم نحو اكتشاف مـا وراء الرمز ، وهذا الحائل واضح في نفسية دزرائيلي نفسه ، اليهـودي الاوروبـي المشبع بالعقليـة البرجوازية الاوروبية ، فهو يحاول ان يلائم تمييع الفروق بين المسيحية ، كما تراها البرجوازيـة وتستعملها ، وبين اليهودية كما تراها وتستعملها البرجوازية اليهودية الاوروبية ، ولذلك لا نصادر على مقولة المؤلف القائلة : انه من غـير المعقول ان نصف بالصهيوني يهوديا لا يعرف مـاذا يفعل بالقدس عندما يصلها ، فمن البديهي ان هـذا الصهيوني البرجوازي سيركز على نفس الاهـداف التي تعمل مـن أجلهـا البرجوازية الاحتكاريـة الاوروبية ، خصوصا وان دزرائيلي سياسي بالدرجة الاولى كما هو معروف ، فالاستيلاء على الارض واستغلال الايدي العاملة في المستعمرات ونهب المواد الخام هذ ههي الاهداف المقصودة مباشرة من قبل البرجوازية الاحتكارية .

٤ ــ الفصل الرابع ، الصهيوني مكتشفا للذات والامة : في هذا الفصل يتناول المؤلف شخصيـة اليهودي ، وقد أتم اكتشافه للذات والامة ، ليس من خلال وضعـه وفكره الذاتيين ، ولكـن عبر الاخرين ، من مفكرين وسياسيين ومنظري التحركات الامبريالية ، وأول من بشر بهذا الاكتشاف كانت الكاتبة جورج اليوت ، فعلى الرغم من انها كتبت عام ١٨٤٨ رسالة الى صديقة لها ، معلقة علـى عرقية دزرائيلي كما يلي : لقد أنجب جنس اليهود موسى وعيسى ، ولكن موسى مشبع بالفلسفـة المصرية ، وعيسى تجاوز أو ناهض اليهودية ، فكل شيء يهودي على وجه الخصوص ، هو من درجة « وضيعة » ، ويشير المؤلف الى انه ، بعد هـذا النقد الحاد لدزرائيلي واليهود ، بدأت جـورج اليوت عام ١٨٧٤ كتابة روايتها المناصرة للصهيونية، وهي تعد بحق أول رواية صهيونية وعلى أية حال يبدو ان اليوت قد تخلت في رواية دانيال ديروندا عن أفكارها المعادية لليهود ، ففي رسالة الـى مؤلف كوخ العم توم ، تكشف اليوت عن حافزها

المباشر ، في كتابة الجزء اليهودي من ديروندا بالشكل التالي : لاني ، بالضبط ، اشعر بأن الموقف المعادي للمسيحيين تجاه اليهود هو أكثر عتوا ، ليس تجاه اليهود فقط ، وانما تجاه الشعوب الشرقية جميعها ، فان روحا من القحة والديكتاتورية المزدرية تسيطر علينا ، وأحرص ان استحث خيال الرجال والنساء ، وأرفعه الى رؤيا المطالب الانسانية في تلك العروق ، ويبرر مؤلفنا هذه الروح العرقية لدى الكاتبة الانجليزية فيسطر ما يلي : والحال ان مفهوم جورج اليوت عن الصهيونية لم يفهم جيدا من قبل عدد من النقاد ، الذين ناقشوا القيمة الاجتماعية والادبية لدانيال ديروندا ، بطريقة قصرت عن ربط موضوعة الصهيونية بفلسفة اليوت عن الطبيعة والانسان ، ويستضيف المؤلف رأيا نقديا قالت به السيدة هاردي وهو : ان النقيضة العرقية تشكل الرواية ، ولكن في نموذجها ما هو أكثر من النقيضة ، ويؤول المؤلف استعراضه لبعض الاراء النقدية التي صدرت حول الرواية ذاتها تأويلا خاصا حين يسجل : ان المقصود من هذه المراجعة السريعة ، للنقد الذي حظيت به دانيال ديروندا ، اظهار بعد هذا النقد عن أن يستوعب موضوعتي الصهيونية وخلاص غويندولين الاخلاقي ، بطلة الرواية ، بعضهما ببعض ، وعن ان يفسرهما بحسب رؤية جورج اليوت للحياة ، انما يبدو غريبا عن قصد المؤلفة هو ، بالضبط ، هذه الفكرة السائدة عن شخصيات يهودية ممتازة ، متفوقة ، تواجه شخصيات انجليزية رديئة ، فهي فكرة لا تجد ما يدعمها . ولكن لنقرأ كيف تصف اليوت ، وأعني نقرأ نحن ، دانيال ديروندا اليهودي : فهو شاب وسيم متميز المظهر — ليس واحدا من هؤلاء الفلسطينيين التائهين الازرياء . وعلى أية حال ، ليس من الصعب ان نمسك هنا لب مفهوم اليوت عن العرقية ، فاذا كان هذا المفهوم انسانيا ، فلماذا ، اذن ، هذه العمومية في قولها الفلسطينيين الازرياء ، فمن الواضح انها تقسم العروق الى نوعيات متفوقة واخرى بائرة ، ومن الجلي ان مفهوم العرق هو الذي يحدد هذا التقسيم العمومي، فعرق ناصع وراق ، وعرق متأخر في طبيعته ومنها ، ولكن المؤلف ، ولأجل خاطر خلق لغة مشتركة ، للتواصل مع اساتذة جامعته الانجليز ، يفتش عن عذر مقبول لنظرية اليوت العرقية ، بأن يصف هذه العرقية بالانسانية ، والواقع ان الجمع بين العرقية والانسانية مستحيل .

أما محور الرواية فيدور حول ديروندا الوسيم ، فهو يحس باقتراب تيابه بمهمة مثالية ما ، يمكنه أن يشعر فيها بأنه القلب والدماغ للجمهور — التطبيع على الاصح لو أردنا أن نستمد علاقة حميمة مع مفهوم اليوت — ويستمر هاجس ديروندا بالتململ ، انه يريد قيادة اجتماعية ما ، تأتي اليه كواجب دون أن يسعى اليها كجائزة ، وعلى هذا النحو تكون اعادة تجميع اليهود في وطن قومي استعادة الحياة الانسانية للطبيعة ، ويفضي بنا بحث ديروندا الى ثلاثة معابر للخلاص اليهودي تتفاعل وتتواشج وتتبادل التأثير — أولا : الطبيعة نظام شاسع ومعقد يقرر مصير الانسان ، والانسان متجذر فيه . ثانيا : حنين الدم لأن ديروندا يشعر دائما بلاطبيعة وضعه ، لانه لم يتعرف على الصفات الوراثية في أبويه الحقيقيين اليهوديين ، التائه عنهما . أما المعبر الثالث : فهو البيئة اليهودية التي تعادل في أهميتها الوراثة والتراث في عملية صياغة الامة اليهودية .

اذا كانت اليوت تقولب كل هذه الخصائص لنظريتها العرقية في قالب الامة اليهودية ، وتميزها عن غيرها ، فكيف ندرك الوعي الانساني لديها الذي يرجحه المؤلف . ان الطبيعة والوراثة والدم والبيئة عناصر لا تجد محلا لها سوى في نظرية مثل النظرية النازية العرقية ، ولكن تبدو لنا محاولة المؤلف هذه ، للاعتذار نيابة عن اليوت ، انها محاولة للاتساق والتوافق من قبل المؤلف للتمتع بمباركة العقلية الانجليزية ، ونخلص الى ما يلي : ان سمات الشخصية الصهيونية القومية تتحدد بالعوامل التالية ، الارض — الدم — البيئة ، لتنتج الصهيوني رائدا ومستعمرا .

٥ — **الفصل الخامس : الصهيوني رائدا ومستعمرا** : على العكس من جورج اليوت ، في دانيال ديروندا ، يقدم اسرائيل زانغويل ، أحد الروائيين الصهاينة القدامى ، شخصية الصهيونية في بيئة يهودية واقعية ، فيهود جورج اليوت مستمدون من « وعيها » الاخلاقي المطعم بالتعاطف والغيبية ، أما زانغويل فانه يفهم « شعبه » بدقة ، ويستوعبهم كبشر ، ليسوا قديسين مثل ديروندا ، ولا غيلان مثلما صورتهم بعض الروايات ، وانما

أناس عاديون لهم فضائلهم ورذائلهم ، وبدقة تصويرية يكشف لنا في روايته « ابناء الغيتو » ، صدرت ١٨٩٢ ، الخلفية العملية التي دفعت بليون ، بطله ، الى أحضان الصهيونية . وينقسم الكتاب الى قسمين ، يصف الاول منهم ، وهو بعنوان « النهاية الشرقية » للندن حيث يعيش اليهود الملتون ، والثاني « النهاية الغربية » ، للندن حيث ينعم أغنياء اليهود بحياة انجليزية الطابع ، ففي النهاية الشرقية نعاشر أسرة آنسل ، مثلا ، اسبوعا كاملا وهي تعيش على رغيف خبز ، والعاطلون عن العمل يتسولون لقمتهم ، لكن المؤلف يظهر لنا رابطة « من الاخوة » تجمع اليهود رغم تشرذمهم ، وأهم هذا التشرذم هو الانقسام التاريخي بين الاشكنازيم والسفارديم ، الاولون من أوروبا الشرقية ، والآخرون من أوروبا الجنوبية ، ومن نتائج هذا الصراع بين أغنياء اليهود وفقرائهم ، يقوم تنافس بين الكنيس الاصلاحي ، في الحي الشرقي ، وكنيس كنسنغتون في الحي الغربي ، ومن الطبيعي أن تقدم ، وسط هذا الوضع المضطرب ، عقائد ودعوات لحل المشكلة اليهودية ، ومن بينها الصهيونية ، يحمل لواءها رافايل ليون ، خريج جامعي ، وابن عائلة ثرية ، ولديه الامكانات لابتكار خطط تنجز له « مصالحه » تحت ستار الاقناع الايديولوجي ، انه يؤمن ان اليهودية الاساسية فلسفة شاملة قادرة على انقاذ اليهود ، وفي اعتقاده ان الدين التليد — وحدنا حتى الآن ، ويجب أن لا نخسره وهو على أعتاب تجاوزه الديانات التي انبثقت عنه ، ان الاخوة العرقية قوة عاتية ، واضح هذا الوعي المتعصب في كلمات ليون ، فان العرق والتقاليد وتذويب الفروقات الطبقية هي مكونات قومية ليون ، وهدف زانغويل من كتابه « أبناء الغيتو » هو تقديم الحياة والافكار الرئيسية ، ولكن زانغويل عاد ادراجه ولم يبق صهيونيا وانما شارك في تأسيس المنظمة اليهودية الاقليمية ، وهي معادية للصهيونية ، وبحث في توطين اليهود في أوغندا . ويختلف الامر مع جوزيف باراتز ، كاتب صهيوني آخر ، فهو يعلن قصة حياته ، في رواية « قرية عند الاردن » ، فهذه السيرة تقدم صورة أكثر حيوية للصهيوني الرائد ، وينتقل المشهد الى فلسطين ، والشخصية الرئيسية هي باراتز نفسه ، وقد أخذ دور المستعمر ، وباراتز انكفأ الى الذات الصهيونية بعد الفشل المروع للثورة الروسية عام ١٩٠٥ ، فقرر ، في الخامسة عشر من عمره ، ان يهاجر الى فلسطين ، وهو يناغي نفسه قائلا : في الايام الاولى كانت فلسطين بالنسبة لنا ملجأ ، أما الآن فقد رأينا انه لكي نبني بلادنا يجب أن نبني أنفسنا أولا . ان اعادة بناء الذات هي هدف باراتز ، كما هي واحدة من قيمات جورج اليوت ، ولكن باراتز يصدم حين تطأ قدماه أرض فلسطين ، ويدرك ، ان البلاد كفت عن أن تكون أرض العسل واللبن الموعودة ، تضاف الى هذه الصعوبات ، صعوبة التكيف ، مع أجواء البلاد ، وثمة نفسية خاصة ، كما يقول دارسنا ، لهؤلاء الرواد من أمثال باراتز ، نفسية قائمة على الوهم والايهام ، وهم يقيمون قرية يسمونها « الكفوتزا » فتغدو بالنسبة لهم وحدة في الاسرة الانسانية المناضلة لأجل السلم والحرية والعدالة ، ثم تأتي اللحظة الحاسمة في حياة المستعمرين ، يوم انتصروا على الجيش السوري عقب اعلان « الاستقلال » . لقد جاء السوريون ، حسب ما ترسم الرواية ، بدباباتهم وسياراتهم المصفحة ومدفعيتهم وطائراتهم ، واندفعوا عبر أقسام المستعمرة الجديدة دغانيا العزلاء ، لكن صبيا ، من المستوطنين ، تقذ بقنابل مولوتوف ، وبدأ يرميها على دبابة بعد أخرى ، وعندها بدأ السوريون بالانسحاب ، وهكذا ينصرف المستعمرون الى تمجيد أعمالهم وذواتهم ، ولكن هذه المعجزة ، كما يصفها حاخام طبريا ، خطوة في تجاه صنع الاسطورة ، والوصف الذي يقدمه باراتز للجيش السوري ، يجعل من الصعب ان نصدق هزيمة جيش كهذا بقنابل مولوتوف ، كما يقول الباحث ، ثم يمضي الى تعريف هذه الشخصيات الروائية وصانعيها فيكتب ان الكتاب الذين ناقشناهم ، في هذا الفصل ، يقدمون الشخصية الصهيونية في بحثها غير العابىء بالنتائج عن معنى وأمان لحياتهم ، فان الشخصيات التي يرسمها الكتاب ممسوسة بحلم اقامة وطن قومي جديد ، وبعد ذلك يبقى أن نقول أن صورة المستعمر الصهيوني تظل ناقصة في أعمال هؤلاء الكتاب .

أما نحن فليس لنا سوى ملاحظة واحدة نبديها على طريقة استقراء المؤلف لسمات هذه الشخصيات ، وهي ان العصر الذي ظهرت فيه الحركة الصهيونية وأدبياتها كان عصر بحث الطبقة الرأسمالية الاوروبية للخروج من أزمتها عن أسواق

واراض جديدة ، والبحث عن سوق مستقلة وطنية خاصة بالبرجوازية اليهودية ، حتى تضمن استمرار تدفق الانتاج البضاعي من معاملها ، هو السمة الرئيسية للصهيونية ، بمعنى ما ، كانت هنـاك البرجوازية اليهودية والبروليتاريا اليهودية(٦) ، وبالرغم من أن المؤلف مس العلاقة الخفية بين ظهور روايات صهيونية من نوع أبناء الغيتو وبين الوضع الطبقي الاوروبي ، الا انه لم يعط هـذه العلاقة أهميتها الحقيقية ، فهو يشير الى انتماء ليون الطبقي ، وهواجسه القومية العرقية ، التي في مضمونها لا تخدم سوى وضعه الطبقي ، الا ان العلاقة ظلت باهتة تماما ، وكان من المجدي أن يدرس خطوط هذه العلاقة وتوازياتها مع حياة زانغويل ، بهدف التصدي لمزاعم الوعي القومي الصهيوني .

وبما ان صورة المستعمر الصهيوني تظل ، كما تقرر دارسنا ، ناقصة في أعمال الكتاب الذيـن تجاوزناهم حتى الآن ، فانه يتحول الى استقصاء أبعاد هذه الصورة ، في أعمال كاتب شيوعي ، مرتد الى الصهيونية ، هو آرثر كوستلر ، فيقول : كما هي الحال مع دزرائلي ، لا بد من الاحاطة بحياة السيد كوستلر ، وهو ابن يهودي روسي ، عاش والده حيـاة النفي في هنغاريا النمسـاوية وغيرها ، وفي بودابست حيث نشأ آرثر ، ثم ترك الجامعة وغادر الى فلسطين ، فعاش هناك أعواما ثلاثة ، متحملا الجوع والبرد ، وأثناء اقامته هذه تعرف الى فلاديمير جابوتنسكي الارهابي المعروف ، وكان جابوتنسكي يدعو الى امتلاك الارض بالقوة لأنها حق اليهود التاريخي ، وفي عام ١٩٣٢ انضم كوستلر الى الحزب الشيوعي الالماني وسافر الى الاتحاد السوفياتي ، فأمضى هناك عاما كسائق جرار ، وفي عام ١٩٣٩ طبع رواية « المصارعون » ، وفي عام ١٩٤٠ أخرج رواية « ظلام في الظهيرة » ، التي أظهرت قطيعته النهائية مع الشيوعية ، وحياة السيد كوستلر غريبة ومليئة بالضجيج ، وبمعنى ما هو يهودي تائه ، ورواية « لصوص في الليل » كتبها عام ١٩٣٧ ، وشدتها وجرسها المضغوط ينبعان من حاجته الى ربط نفسه بقضية ، وليس من الوضع الانساني الفريد في فلسطين ، وعلى العكس من روايته « ظلام في الظهيرة » التي هاجم فيها الشيوعية ، يحاول كوستلر ان يدافع عـن القول الشهير « ان الغاية تبرر الوسيلة » في حالة استعمار فلسطين من قبل الصهاينة ، وهو يعترف بحكاية يعقـوب الذي سرق النبوة من أخيـه ، فيقول : جدنا الاعلى اسمه يعقوب حصل على البركة ومعها الارض بالخبث والاعوجاج ، وهذا لسان حال بطل « لصوص في الليل » جوزيف ، ومع ذلك فان دينا ، فتاته ، لا تفهم اختياره العرقي الذي حرمه من حياة أسعد بين الآخرين ، وهو يظن نفسه بأنه حامل رسالة التمدن والانسانية الجديدة الى أرض فلسطين القديمة الخربة . ان فكرة استصلاح الارض حاضرة دائما في « لصوص في الليل » ، ويؤمن روبين ، أحد ابطال الرواية ، بأن الارض لم تعط محصولا منذ تركها أسلافه ، وان العرب قد أهملوها ، بحيث تخربت والمطر قد جرف التربة ، وتربط الرواية ما بين ثلاثة أجيال من المستعمرين الصهاينة ، جيل الرواد ، جيل باراتز ، والجيل الذي يقدمه كوستلر ، ثم الجيل المولود في فلسطين والمسمى « صابرا » ، على ان جوزيف ، الجيل المتوسط ، يلخص قبيل نهـاية الرواية الاجيال الثلاثة قائلا لروبين : ان مخلوق الطبيعة الكامل كان ، ذات يوم ، السمك السابح بسعادة في البحار والعرب هم السمك الذي يربط اي تطور ، أو وعي على الاصح ، ولكن هنـاك سطرا آخر لهذه الرؤيا الكوستلرية نحو العرب ، وهي التفاهم مع العرب ، ويقوم هذا التفاهم على أساس أن اليهود فقراء ، وكذلك العرب ، وانه لمن مصلحـة الشعبين التفـاهم تحت الشعـار اللينيني ، وبالرغم من أن جوزيف يشعر بالقرف من اليهودية والجهد المركوم كله لاعادة الحياة الى شيء مات منذ ألفي عام ، دولة صهيون ، لكنه لا يستطيع أن يهجر عقلنته الصهيونية ، واذ يفكر بالغـارات العربية المتقطعـة على المستعمـرات الصهيونية ، يرى ضرورة الرد ، ويغدو الارهاب مبررا بل وضروريا ، كما هي الحرب . اما الوطنيون العرب فهم مرتزقة ينشرون الرعب ولا يحرزون نصرا واحدا! ، وهكذا كما يقول دارسنا ، يظهر السيد كوستلر تحيزه عبر معالجاتـه المتناقضة لمسألة الغايات والوسائل ، ثم يضيف دارسنا ان غرض كوستلر من كتابه « لصوص في الليـل » ليس عقائديا ولا عقلانيا وانما هو الوفاء بالدين ومداواة احساس بالذنب ، والامل بأنه سيجد في الصهيونية الملاذ الذي فقده في الشيوعية .

هنا كلمـة ينبغي أن نثبتها ، فالمؤلف يعطـي

لشخصية كوستلر قيمة ايجابية اكثر من اللزوم ونعني تأثير هذه الشخصية على المنحى الايديولوجي ، ولكن يجب ان لا نتجاهل ان الايديولوجية الصهيونية ليست وليدة الصدفة ، كما يريد اظهارها كوستلر ، بل هي تراكم حتمي من تراكمات المجتمعات الغربية ، وان كان الدين اليهودي يعمل فيها عمل الحصن الواقي لها ، فيدمج الاسطورة بالواقع والحياة بالحلم غير المعقول ، هذا الدمج الايديولوجي الذي يحكم حالة حصار نفسي حول الانسان اليهودي ، ولقد اكتشف معين بسيسو هذا حين كتب : في كتاب مقدمة الى اسرائيل الذي كتبه ناحوم غولدمان يقول غولدمان : لقد كان الغرض من الدولة اليهودية الحفاظ على الشعب اليهودي الذي كان يهدده وضع رفع القيود والاندماج ، فاليهودي المندمج مرفوض ، ويضيف معين : وهذا اكثر دلالة على احتقار البطل الروائي الصهيوني المعاصر ، لليهود الذين يتجهون الى اسرائيل ، في جيوبهم ، جوازات سفرهم الاميركية(٧) . ونعود لتكرار القول ، ان الدارس يقع كثيرا في دائرة نفوذ الايديولوجية الغربية ، لينظر من خلالها الى الوضع والفكر الصهيوني المنتج عنها وفيها ، ولا يصبح كوستلر هنا لاجئا بل ملتجأ اليه لتطبيق وعيه الصهيوني من قبل أبطال رواياته .

٦ ــ **الفصل السادس : الصهيوني صابرا :** هذا الصهيوني : صابرا انسان ، كما عرينا جذوره الثقافية والايديولوجية ، يشعر بأنه محاصر من كل الجوانب ، بل ومحكوم عليه سلفا ، والصابرا كلمة عبرية مأخوذة أساسا من الصبار والمعنى واضح ، ويقول مؤلفنا : نلقى ، في رواية « لصوص في الليل » وصفا حيا للصابرا كمراهقين ، ان جوزيف يشعر بالذي من الجيل الجديد « الصابرا » ، وكذلك يأسف لمعرفة الصابرا الهزيلة بالادب العالمي والتاريخ واللغات الاوروبية ، ويبدو ان جوزيف يكره في الصابرا ما يحبه مجموعة من الكتاب الاميركيين الصهاينة ، شوفينيتهم ، قلة أدبهم ، ملامحهم الفظة ، انعدام الذوق ، عدوانيتهم التي بلا رادع ، وهذا هو حال الكاتب الاميركي الصهيوني ليـوس يوريس ، مؤلف رواية « الخروج » ، فصابراه يتكلمون ويكتبون انجليزية قحة ، وقادرون على التعبير عن أنفسهم ، ويدعي صابرا الكتاب الاميركيين الصهاينة ، بأنهم يتحدثون باسم اليهود جميعا ، وشخصية الصابرا الملفقة من قبل الكتاب ، تتجلى رائعة ، ومتميزة ، لأنها عدوانية شجاعة ، عارفة ، وتنحدر هذه الشخصية في أغلب الاعمال الروائية موضوع النظر ، من اسرة اشكينازية هاجر ربها من روسيا ، وأحيانا من بولونيا والمانيا ، ففي رواية « نجم في الريح » ، أو كوكب الهوا ، للمؤلف الصهيوني الاميركي ، يلاحظ ما يلي : انهم الصابرا ، ذوو تحديقة فخورة ، وملامح قوية ، والادراك بأن هذا الانسان مسلح لأول مرة منذ قرون ، ويكتب ميكي ماركوس ، في روايته « ارم ظلا عملاقا » عن الصابرا انهم نوع جديد من اليهود ، فيزيائيا وعقليا ، أما فتيات الصابرا فيحتقرون المساحيق ، باعتبارها ألهية نسائية ، وفي رواية « ترقب الصباح » ، لتوماس سرغيو ، وفي رواية « الينبوع » لمتشنر ، ينتقل الصابرا من معركة الى أخرى ، وهم ينشدون أغاني البالماخ ، ويتلون أحداثا تاريخية من العهد القديم . ان نظرة الكتاب الاربعة ، كما يصفها مؤلفنا ، الى مقدرة الصابرا القتالية أكثر انتفاخا وتبجحا ، وان تكريس الصابرا أنفسهم للقضية أمر يعود أصله الى العهد القديم ، فالايمان بهذه الرابطة راسخ ، وهو يرسخ في الصابرا شوفينيتهم وعقليتهم ، والبطل المعصوم ، من الصابرا ، هو ما تقدمه رواية الخروج ، فاري ، بطلها ، يتقيد بشعار العين بالعين والسن بالسن ، وهو يمضي مباشرة الى الموضوع ، هكذا يصفه مؤلف « الخروج » . ثم ينهي مؤلفنا هذا الفصل بعد تصفحه للأربع روايات ، فيقول ان شخصيتي شايلوك واليهودي التائه ، وكذلك ساكن الغيتو ، تحوم كالاشباح في خلفية تصوير الشخصيات في هذه الروايات ، ويبدو ان هؤلاء الكتاب ، يصارعون احساسا بالعار ، لأن هذه الشخصيات لا تتوافق مع معصومية الصابرا الصهيونية ، فهم يقدمون شخصيات مناقضة لها ، وتفوقها جسامة ووزنا ، ليزيلوا الفكرة العامة غير المريحة عن اليهود ، ولكن مخلوقاتهم كانت سطحية برغم اسطوريتها ، وخالية من الانسانية .

ان هذا الفصل أروع ما في الكتاب ، سواء من ناحية دراسته للكتاب ، ونفسيات شخصياتهم ، أو من ناحية استقصائه للدور المرسوم لمؤلفاتهم ، من قبل الدوائر الصهيونية والامبريالية .

٧ ــ **الفصل السابع : الصهيوني اسرائيليا :** يتفحص الدارس في هذا الفصل الشخصية

الصهيونية ، الصابرا ، ولكن من الوجه الآخر لها ... الوجه الاسرائيلي العادي ، كما رسمته يائيل دايان ، فيرى ان الفرق بينها وبين الكتاب الاميركيين الصهاينة ، ان يائيل دايان هي نفسها صابرا ، أي مولودة في الكيان الصهيوني ، لذا فانها تصف البيئة التي نشأت فيها وصفا يختلف عما شاهدناه من قبل ، ولا نستطيع ، بالطبع ، استعراض كل رواياتها الاربع ، ولكن لنجمل القول ، ان في رواياتها لا يبدو الاهتمام الذي يبديه الآخرون بالدعاية لاثارة تعاطف الناس مع اسرائيل ، وهذا ما يجعل الرؤيا المأساوية لديها أبلغ اثرا ، ونقدها لبني جنسها أكثر قابلية للتصديق ، ولكن الرؤيا والنقد لا يصدران عن مشاعر معادية لوضع سياسي أو حالة راهنة . كتبت يائيل دايان « وجه جديد في المرآة » في التاسعة عشر من عمرها، وهذا يفسر عنصر السيرة الذاتية الواضح في قصة آريبل رون ، البطلة ، والفتاة الاسرائيلية التي تؤدي خدمة العلم وعمرها ثمانية عشر عاما ، ان خدمة آريبل العسكرية موضوعة ثانوية في الرواية ، بيد ان عنصر الموت المتحكم ، يدخل هنا كرمز بالبندقية ، فلرابع مرة تقول آريبل لنا : انكمشت يدي وهي تلمس المعدن البارد ، فآريبل ليست النوع المقاتل ، وليست مهتمة بالدفاع عن اسرائيل ، طبعا هي تحب اسرائيل ، ولكنها توجه اهتمامها الكلي الى السيطرة على الآخرين ، وتشمل مخططاتها جميع من نعرفهم ، زميلتها الفقيرة ، أخوين مسيحيين ، أبويها ، وبيتر صديق العائلة ، ويبقى الشبه الوحيد المكون لعنصر التشابه بين آريبل وبقية شخصيات دايان ، هو ان الجيش بالنسبة لها ملجأ ، ويكون فشلها في الحياة حافزا لمزيد من الانغماس في العسكرية . وبين عامي ١٩٦١ — ١٩٦٧ ، كتبت يائيل دايان ثلاث روايات ، تتضمن دراسة متكاملة للشخصية الاسرائيلية ، وتبدأ هذه الدراسة بالاسرائيلي الحديث ثم ترجع الى الصهيوني فاليهودي العتيق ، فروايتها « اغبط الخائنين » تجسد الموضوعة التالية — من هو الاقوى — وهي لعبة أطفال « بيت اون » قرية صهيونية في الجليل أو أية قرية ، ونهاية اللعبة المحتمة هي الموت الروحي او الجسدي ، أو الاثنان معا ، والمبدأ هذا ، نفسه ، المبدأ الذي تقوم عليه تربية الصابرا ، كما رأينا في « لصوص في الليل » لكوستلر ، أو بكلمة أخرى التغير من اليهودي الى الصهيوني فالاسرائيلي ، في اطار رسالة اسرائيل التاريخية ، والاسطورة التي تبنى حولها ، يقول أحد أبطال رواياتها : يجب ان لا تثق بأحد ، فليس ثمة أصدقاء حقيقيون ، هذه صديقتك الوحيدة ، القوة .

ولهذه الفلسفة القاسية الصارمة جذور عميقة في الاستعمار الصهيوني ، وجميع أبطال دايان لديهم الدافع الى الغزو ، وهو حاجة لتوكيد الذات ، وبطل « اغبط الخائنين » ، نمرود قد آمن بفكرة غزو الخوف ، والى هاتين المسألتين المحوريتين ، في شخصية الصهيوني ، كما تلونها دايان نضيف ثالثة ، ان حساسية نمرود لم تمت ، فأحيانا يشعر ، على نحو غامض ، ان الحياة تتجه في طريق خاطىء ، وتوضح هذه المحاور علاقات نمرود باسرته والناس الذين حوله ، وعندما يتلقى رسالة من صديق انتحر ، تبدو له الرسالة هجوما حادا على مبدأ اللاخوف ، ومن هنا ترى دايان ، في الروح الاسبارطية ، ليس فقط تدميرا ذاتيا ، وانما مصدرا مفزعا لسفك الدماء ، ثم يستعرض دارسنا عدة شخصيات من شخصيات دايان في مختلف رواياتها ، ومنها ياردينا التي تتحرك أيضا نحو الموت ، ومع اسرة ديفيد صديقها ، في محاولتها اعطاء الحياة لديفيد ، تأخذ منه الموت ، وأيضا هذه حال دانيال ، بطل رواية « كان للموت بنان » عام ١٩٦٧ ، فالمشاعر الوحيدة التي تراوده مرتبطة بالموت ، ويصر على ان أباه ، لو بقي في بولونيا لكان الامر أروح له ، ونحن هنا مرة أخرى أمام رمز الرمل والغبار ، عنوان رواية ليائيل أيضا ، وعندما يحكم دانيال على أبيه بأي شكل ، لا يأتي الحكم أجوف ، فحياة دانيال الاسرائيلية وهو الآتي من ايطاليا بحكم مجيء أبيه ، ليست سلسلة من الاحداث الهامشية غير الضرورية ، وهكذا تتضح وتتماسك المكونات العاملة في الشخصيات الصهيونية الواقعية ، الموت ، غزو الخوف الاجباري ، وأخيرا ليس كل هذا مصادفة ، وهذه الصورة تتفتق عن رموز بليغة الدلالة ، فان بداية مطاف الموت ، في الشخصية الصهيونية ، تأتي مع ابراهيم نفسه باعتباره اليهودي الاول ، أما الدين والايمان به فأمر منته من حياة الشخصيات الرئيسية في روايات يائيل دايان ، والسؤال الآن ، كما يصوغه دارسنا ، هل تمثل شخصيات السيدة دايان الاسرائيليين ، والجدل ليس سهلا ويرتكز على عدة

نقاط نختصرها كما يلي ، أولا — ان نقدها شديد للروح العسكرية الصهيونية ، ثانيا — ولكن في كتابها مذكرات جندي ، وهو وصف لحرب ١٩٦٧ ، يبرز ثقة المؤلفة وفخرها لكونها جندية ، ثالثا — وعي النقطة الاهم ، ان الجو التشاؤمي ، في هذه الروايات ، هو الصورة الظاهرية لاسرائيل ، ولكنه جزء من ظاهرة عامة في الادب الاسرائيلي المعاصر .

في الحقيقة ان دراسة مؤلفنا لروايات يائيل دايان دراسة معمقة وجيدة ، وتتسم بالتنقيب الشديد في تركيب شخصياتها ، ولكن القول الاخير ان شخصيات دايان تشاؤمية ، ولكن واقع الحياة في اسرائيل يتناقض مع هذا التشاؤم الادبي ، ان مثل هذا القول لا نستطيع افتراض صحته ، خصوصا وان كثيرا من الادلة والدراسات السيسيولوجية أثبتت ان المجتمع الصهيوني قائم ، ومتضامن على بنية عقدة الرعب الدائم ، فالصهيونية تسعى الى زج أفرادها في آتون الخوف المستمر حتى تضمن ابقاءهم متكافلين ، بحيث يبهت الصراع الطبقي ، داخل المجتمع الاسرائيلي ، ولا يؤدي بالتالي الى التفتت وانقسام الآراء فيه ، وكما تروج وسائل الاعلام الصهيونية المقولة التالية : ان الخلاص من لعنة اللاسامية ، التي ستظل أبد الدهر سيفا مسلطا على رقاب اليهود الا اذا التفوا حول اسرائيل ، وما تنفك الدعاية الصهيونية تثير في نفوس اليهود الحقد وتلهب حماسهم للالتفاف حول الحركة الصهيونية ، وذلك يتم بتفجير مخزون معاناة اليهود الماضية ، منذ أيام السبي وحتى زمن النازية ، والهجومات العربية(٨) .

وبعد انتهاء استعراضنا لمضمون هذا الكتاب ، ووضع بعض الملاحظات على فصوله ، نجمل النتائج التي تترتب على هذه الملحوظات ، في البنود التالية :

أولا — ان الدارس ، ولكونه قدم رسالته في أحضان المجتمع الانجليزي وناقشها مع عقلية تسيطر عليها ايديولوجية ورؤية معينة سقط أسير نفوذ هذه الايديولوجية ، بهدف ارضاء مناقشيه الحاملين لمفاهيم هذه الايديولوجية حول الصهيونية ، وبذلك تخلى عن بعض مكونات شخصيته العربية ، والتي يجب أن تكون في مستوى العقلية العلمية ، ولا نقول مستوى الايديولوجية الغيبية .

ثانيا — ابتعد المؤلف ، للأسباب التي أوردناها ، عن حقيقة الصهيونية المتولدة على أطراف المشكلة اليهودية ، هذه المشكلة المتمخضة ، بدورها عن تطور المجتمعات الاوروبية فقط ، والتي طرحت الصهيونية نفسها كحل عقائدي ومادي لها ، ولكنها ليست المشكلة اليهودية بحد ذاتها ، لأنها ابتزت هذه المشكلة لصالح طبقات معينة من اليهود والرأسماليين الاحتكاريين في العالم الغربي .

ثالثا — تبقى الدراسة بعد ذلك موفورة القوة والصياغة ، وهي أول دراسة متخصصة ، من نوعها ، نحن بحاجة اليها بالفعل .

المراجع :

١ — كتاب هوسرل « تأملات ديكارتيه » ترجمة نازلي اسماعيل حسين ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

٢ — غسان كنفاني ، في الادب الصهيوني ، ص ٤٢ ، مركز الابحاث الفلسطيني ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٣ — غسان كنفاني ، نفس المرجع ، نفس الصفحة .

٤ — الدكتور عبد الوهاب المسيري ، دراسة بعنوان « ماسادا » بين التاريخ والاسطورة ، مجلة قضايا عربية العدد ٥ ، ١٩٧٤ .

٥ — د. عبد الوهاب ، نفس المعطيات السابقة .

٦ — راجع مقال لطف‌الله حيدر ، الجذور الطبقية للحركة الصهيونية ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٣٦ .

٧ — معين بسيسو ، نماذج من الرواية الاسرائيلية المعاصرة ، ص ٢٧ ، دار الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة .

٨ — راجع مروان كنعاني ، حول وسائل الاعلام الصهيوني وأساليبه ، مجلة شؤون فلسطينية ، العدد ٢٦ .

هاني الزعبي

مجلة نيواوتلوك الاسرائيلية بعد حرب رمضان

على عتبة السلام .. الزلزال السياسي في اسرائيل .. الانتخابات الصعبة .. وقت ارميا . هذه هي عناوين المقالات الرئيسية في عدد مجلة نيواوتلوك الصادر عن شهري كانون الاول ١٩٧٣ — كانون الثاني ١٩٧٤ ، المكرس لحرب اكتوبر ونتائجها . ويعتذر المحررون في قصاصة زرقاء ملحقة بصفحات المجلة ، لاضطرارهم الى دمج العددين في عدد واحد ، معزين ذلك الى ظروف الحرب القاهرة التي خفضت عدد المحررين وعمال المطبعة الى الحد الادنى . أي ان هذه الظروف الاستثنائية جدا لم تثبط عزيمة جماعة نيواوتلوك عن تأدية رسالتهم . بل يكاد القارىء يظن ان المجلة قد رحبت بحرب رمضان من أجل أن تقول للاسرائيليين بعدها : تفضلوا ! ألم نقل لكم ؟!

فان نيواوتلوك ، المجلة الشهرية السياسية — الفكرية التي أسسها حزب مابام عام ١٩٥٧ لتنطق باسمه بالانكليزية حول ضرورة التوصل الى « سلام دائم عادل بين اسرائيل والعرب » ، نيواوتلوك هذه ما زالت تقوم بدورها على هذا الصعيد ، وذلك بالرغم من حربين كبيرتين وقعتا منذ ذلك الحين (ناهيك عن حرب الاستنزاف ، ونشاط المقاومة الفلسطينية) مصرة على انها صوت التعقل والاعتدال وسط أجواء مثقلة بالتحيز والتعصب والآفاق الضيقة .

ولذا فاننا في هذا البحث سندرس محتويات ثماني أعداد من نيواوتلوك صدرت بعد حرب رمضان لنجد الاجوبة على الاسئلة التالية : هل تغيرت مواقف هذه المجلة عما كانت عليه سابقا ، وذلك نتيجة لحرب رمضان ؟ هل هي صادقة مخلصة في مواقفها ؟ ما هو مدى تأثيرها على الرأي العام الاسرائيلي ؟

يتضمن العدد الاول بعد حرب رمضان (كانون الاول ٧٣ — كانون الثاني ٧٤) نداء للسلام بعنوان : مبادرة للسلام الآن ! وهذا النداء المؤلف من ثماني نقاط يمكن تلخيصه فيما يلي : لقد قضت حرب يوم كيبور على الاوهام والاخطاء الكائنة في سياسة الطريق المسدود ، والتوسع الاقليمي ، تلك السياسة التي لم تؤد الى السلام ، ولم تمنع الحرب . ولذا فقد برزت فرصة تاريخية للسلام بعد وقف اطلاق النار . ولكن هذه الفرصة ستختفي وتحل الحرب محلها ، ان لم تبذل الجهود لتحقيق السلام . وعلى اسرائيل ان تأخذ بيدها زمام المبادرة لرسم خطة سلام واقعية ، آخذة في الاعتبار ان أمنها لن تحصل عليه بواسطة التوسع الاقليمي ، وانما باتفاقيات السلام ، وخلق المناطق المنزوعة السلاح ، وتقوية قوات الدفاع الاسرائيلية ، وزيادة استعدادها . ان السلام أهم من الاراضي المحتلة ، وعلى اسرائيل أن تعترف بوجود الشعب الفلسطيني العربي ، وتساعده على الاشتراك في مساعي السلام . كما ان الموقف الجديد يتطلب قيادة قادرة على استكشاف جميع السبل المؤدية الى السلام ، وذلك دونما تهيب أو تردد .

هذا النداء الذي تتكرر فيه كلمة السلام مرات عديدة ، ويأتي فيه ذكر الشعب الفلسطيني ، يحمل تواقيع عدد من الاساتذة والدكاترة والمفكرين المتعاطفين مع مابام ، بينهم الجنرال المستقيل ماتيتياهو بيليد . وتقول المجلة ان الاسماء المذكورة تحت النداء ما هي الا جزء بسيط من بين آلاف التوقيعات التي حصل عليها هذا النداء . الا أن القارىء يلاحظ خلو القائمة من أي نائب في الكنيست .

وتضيف هيئة التحرير كلمة موجزة الى هذا النداء لتذكر القارىء بأنها منذ انشاء المجلة عام ١٩٥٧ ، ترفع بثبات الشعار القائل : أعداء اليوم سيصبحون حلفاء الغد . ثم تناشد قراءها الانضمام اليها في مطالبة الحكومة بالقيام بمبادرة السلام . وبعد هذه الافتتاحية ، تقدم مقال العدد الذي كتبه أحد العسكريين البارزين في حركة السلام الجديدة ، وهو مئير باعيل الذي قضى ٢٨ سنة من حياته في القوات المسلحة التي تركها برتبة عقيد . وقد سبق ان خدم في الهاغاناه والبالماخ ، وتولى ادارة كلية الضباط المركزية . وهو الآن استاذ التاريخ العسكري في جامعة تل أبيب ، وعضو في هيئة نيواوتلوك الاستشارية . وكان مرشحا ، أثناء كتابته للمقال ، للكنيسيت ، وذلك عن قائمة موكيد التي ضمت أسماء من « سياح » (اليسار الاسرائيلي الجديد) وماكي (الحزب الشيوعي

الاسرائيلي) ، وقد فاز في الانتخابات .

ان عنوان مقاله الطويل هو « تأملات سياسية وعسكرية في أعقاب حرب اكتوبر » وربما أهم النقاط التي تسترعي النظر في المقال المذكور هي التالية :

● لو كانت اسرائيل هي البادئة بالهجوم ، لتمكن العرب من صدها بعد يوم أو يومين ، ولاجبرتها أميركا على التخلي عن معظم مكاسبها العسكرية والسياسية الناجمة عن حرب الايام الستة .

● ان اسرائيل خرجت من الحرب بانتصار عسكري واضح ، ولكن هذه الحرب استغرقت ثلاثة أضعاف الزمن الذي استغرقته حرب حزيران ، وكلفت اسرائيل ضعف عدد القتلى في الحرب السابقة .

● على اسرائيل أن تعرف حدود قوتها ، ولذا يجب أن تتصرف بحكمة عندما تتقل الحرب الى الاراضي العربية ، فانها لن تتمكن قط من السيطرة بقوة السلاح على الشرق الاوسط كله ، وذلك للأسباب الجغرافية والديموغرافية المعروفة .

ثم ينتقد القيادة الاسرائيلية لأنها بعد ان نجحت في دفع قواتها الى الضفة الغربية لقناة السويس ، عمدت الى تطويق الجيش المصري الثالث ، وقطعت خطوط مواصلاته الخلفية . فهذا خطأ عسكري في نظر باعيل ، وكان التصرف الصائب في هذه الحالة يحتم ترك ثغرة لينفذ منها الجيش المحاصر وينسحب . فلو ان القوات الاسرائيلية أتاحت الفرصة للجيش الثالث المحاصر لأن يتراجع الى الضفة الغربية من القنال عبر ثغرة تترك عمدا لتكون خط انسحابه ، لانسحب فعلا ، تاركا ضفة القنال الشرقية تعود كلها الى حوزة الجيش الاسرائيلي . وعند ذلك تعود الحالة الى ما كانت عليه قبل الحرب ، فتسترجع اسرائيل خط بارليف ، ويصبح القنال مرة أخرى حدا فاصلا بين الجيشين .

وبصدد جبهة الجولان ، يبدي باعيل رأيه بأن الهجوم الاسرائيلي المضاد كان يجب أن يكون في اتجاه بلدة شيخ مسكين وجبل الدروز ، وذلك للفصل بين سوريا والاردن . وبعد ذلك يعرب عن ارتياحه لعدم اسراع الدولتين العظميين الى التدخل لايقاف الحرب . فلو انهما تدخلتا وأوقفتا الحرب في اسبوعها الاول ، لأصبحت اسرائيل في موقف سيىء جدا . ويختتم باعيل مقاله بدعوة الحكومة الاسرائيلية الى السماح باجراء الانتخابات الحرة في الضفة الغربية وغزة ، ومنح الفلسطينيين الحق في تقرير مصيرهم ، واعادة سيناء الى المصريين شريطة أن تجرد من السلاح ، ويسمح لاسرائيل باستخدام قناة السويس . الا انه لا يتطرق الى موضوعي القدس والجولان ، مكتفيا بالقول ان الاتفاق مع مصر والفلسطينيين قد يشجع السوريين على مسالمة اسرائيل .

ومن « الحمائم » الاسرائيليين الذين يمثلهم باعيل ، ننتقل الى « الحمائم » في صفوف الصهيونيين الاميركان . فالعدد نفسه يحتوي على مقال قصير بقلم آرثر واسكو عنوانه : وقت ارميا* — يهودي أميركي يتكلم . وفي هذا المقال يذكر واسكو ان مجموعة صغيرة من اليهود الاميركان والاسرائيليين طالما حذرت حكومة مئير من مغبة مواصلة السير في الطريق الوعر الذي سارت عليه منذ حرب ١٩٦٧ . فقد كتب واسكو يقول : « لقد رأينا غطرسة الاسرائيليين ، وليدة النصر . وشاهدنا هستيريا العرب ، وليدة الهزيمة ، ولكن ببطء كبير نمى العرب وكبروا عن حالة الهستيريا التي كانوا فيها . والخطر الآن كائن في احتمال وقوعهم في خطأ الغطرسة » .

ثم ذكر اسرائيل باسطورة السلحفاة الدؤوب التي فازت في السباق على الارنب المغرور ، قائلا ان اليهود الاميركان أخذوا يتحفظون الآن في ابداء المزيد من التأييد السياسي الاعمى لاسرائيل بعد كل تعنتها ، وكذلك سخاءهم المالي تجاهها لن يظل دائما بدون حد . فالزمن لا يعمل لصالح اسرائيل ، وعلى قادتها أن يعجلوا في السعي عن حل . عليهم أن يعيدوا الاراضي المحتلة الى العرب ، وأن

---

* ارميا هو أحد أنبياء التوراة في القرن السابع قبل الميلاد ، واشتهر بتنبؤاته المتشائمة حول مستقبل الدولة اليهودية آنذاك . فقد طالب اليهود بالكف عن معاداة بابل ، والانصراف الى شؤونهم الداخلية وممارساتهم الدينية . فجر عليه موقفه هذا نقمة الناس وسجنوه ، ولكن أطلق سراحه اثر سقوط القدس بيد البابليين .

يسمحوا للفلسطينيين باقامة دولة مستقلة محايدة ، منزوعة السلاح في الضفة الغربية وغزة . وعلى الاسرائيليين أن يتقاسموا مع الفلسطينيين السيطرة على القدس . وبختتم واسكو مقاله القصير يتذكر الاسرائيليين بأن تنبؤات ارميا تبين عدم وجود تضارب بين العدالة والامن ، اذ هما متكاملان .

وفي العدد الذي يلي ذلك ، أي الصادر في شباط ١٩٧٤ ، تواصل نيواوتلوك حملتها من أجل السلام . فيتصدر العدد مقال افتتاحي بقلم رئيس التحرير سمحا فلابان ، عنوانه : الطريق نحو السلام . وفيه تنويه بالعرب ، وخاصة بالمصريين ، لأنهم اجتازوا حاجز الخوف عندما برهنوا لأنفسهم وللعالم بأنهم يملكون الشجاعة والجرأة في ميدان القتال ، والقدرة على استخدام الاسلحة الحديثة المعقدة بجدارة . ثم يعرب عن ظنه بأن الاعتقاد الاسرائيلي السابق لحرب اكتوبر ، والقائل ان الاسرائيليين سيحتفظون دائما بالتفوق العسكري والتكنولوجي هو اعتقاد أسقطته الاحداث . وبعد ذلك يشير الى التناقض الكائن في موقف بعض الجنود الاسرائيليين على الجبهة . فهم صوتوا لحزب ليكود في الانتخابات ، لكنهم رحبوا باتفاقيات وقف اطلاق النار وفصل القوات . ثم يختتم مقاله داعيا الى سلام يتضمن حلا عادلا للقضية الفلسطينية .

وتتتابع المقالات الاخرى ، وكلها عزف على نفس الوتر : السلام .. السلام .. دائما السلام . فيتحدث ايان لوستيك ، وهو طالب اميركي يهودي يحضر الدكتوراه في الجامعة العبرية ، عن انطباعاته في الضفة الغربية ، فيؤكد على ارتفاع معنويات أهاليها بالمقارنة مع تشاؤمهم قبل حرب اكتوبر . لكنه يعرب عن رأيه بأن تأييد الاهالي لمنظمة التحرير لا ينبع عن حبهم لها ، وانما عن كراهيتهم للملك حسين ووجهاء المنطقة ، اذ يقول : معظم الذين تحدثت اليهم يوضحون بأن تأييدهم للمنظمة لا يعني انهم يعتنقون مبدأ الحل الدمقراطي للقضية . فهذا الحل يعتبرونه حلما لا يمكن تحقيقه ، بل ما يريدوه هو حكم فلسطيني مستقل في الضفة الغربية ، يرافقه حل لمشكلة اللاجئين .

أما عدد آذار — نيسان ١٩٧٤ فيحمل نعي عبد العزيز الزعبي ، وكيل وزارة الصحة ، والنائب بالكنيسيت ، وصديق مابام القديم ، وعضو مجلس ادارة النيواوتلوك ، الذي مات عن ٤٨ عاما قضى معظمها في « خدمة التفاهم والتقارب بين الشعبين الاسرائيلي والعربي ». فيرثيه صديقه سمحا فلابان ، معلنا عن عزمه اصدار كتاب يدور حول شخصية الزعبي وحياته ومبادئه وانجازاته ، وذاكرا ان الزعبي كان يمثل المجلة في المؤتمرات والندوات الدولية ، وآخرها ندوة البحر المتوسط التي نظمها جيورجيو لا بيرا ، رئيس بلدية فلورنسا ، وفيها أشار الى الزعبي قائلا لأعضاء المؤتمر : هنا نرى رمزا للسلام في هذا الرجل الذي يجمع في شخصه بين قوميته العربية ومواطنيته الاسرائيلية . علاوة على انه مسلم يتولى رئاسة بلدية الناصرة ، المدينة المقدسة للمسيحيين .

ويحتوي هذا العدد أيضا على مقال سناء حسن المنشور في النيويورك تايمز مغازين . وهذا المقال أشهر من أن نتحدث عنه بتفصيل ، بل يمكن تلخيصه بأن الكاتبة المذكورة قدمت فيه برنامجا شاملا للصلح بين العرب واسرائيل يتضمن اقامة العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية والسياحية بينهما ، على أن تحتفظ اسرائيل بوجود عسكري في كل من شرم الشيخ والجولان وعلى طول نهر الاردن . وتبدي الكاتبة ارتياحها لأن حرب اكتوبر لم تنته بانتصار عربي ، اذ بذلك تعلم العرب درسا فحواه ان الارض لا يمكن استعادتها بالحرب .

أما عدد أيار ١٩٧٤ ، فتتصدره كلمة لرئيس التحرير فلابان يبدي فيها ارتياحه لتنويه بعض المثقفين العرب بالدور البناء الذي تلعبه نيواوتلوك ، اذ يشير الى فقرة واردة في مقال « للمفكر اللبناني فؤاد عجمي نشر في عدد الربيع من مجلة فورين بوليسي » الاميركية : « ان صفحات المجلة الاسرائيلية نيواوتلوك تبقى منصة في خدمة المفكرين والمثقفين الاسرائيليين الذين يعذبهم التفكير في مستقبل اسرائيل ، والذين يجدونها قد نكثت بمثالياتها ، وفشلت (أي اسرائيل) في تحقيق وعدها الاصلي ، كما هم يرونه » .

وفي عدد حزيران ١٩٧٤ تذكر كلمة التحرير بفخر الجهود المبذولة في سبيل تأسيس جمعيات « لأصدقاء نيواوتلوك » في بعض الدول ، وبينها بريطانيا وفنزويلا وسويسرا والولايات المتحدة . وهدف هذه الجمعيات سيكون الترويج للمبادىء التي تنادي هذه

المجلة بها ، وأيضا الحصول على بعض المساعدات المالية التي تحتاج اليهـا المجلة حاجة مـاسـة . ويحتوي العدد نفسه على مقال لعبد العزيز الزعبي المتوفي ، عنوانه « الاقلية العربية في اسرائيل » كان قد صدر في العدد الاول للمجلة عام ١٩٥٧ . وقد أعادت نيواوتلوك نشره في ظل الظروف المخيمة على اسرائيل في أعقاب الهجومين على قريات شمونه ومعلوت ، واعتـداء اليهود على العـرب وحتى الدروز المنخرطين في الجيش الاسرائيلي ، كرد فعل على هذين الهجومين . وتعتبر نيواوتلوك هذا المقال بمثابة تذكير من الزعبي ، مر عليه ثمانية عشر عاما دون أن يفقد اهميته . فالمقال يتحدث عـن الاقلية العربية في اسرائيل على انها جسر المستقبل بين اسرائيـل والعرب ، وذلـك لروابطها القوميـة والتاريخية والثقافية ببقية الشعوب العربيـة ، من جهة ، ولارتباطها المصيري باسرائيل ، مـن الجهة الاخرى . ويأسف الزعبي لأن الاقلية العربية في اسرائيل ما زالت موضع شك الدولـة كخطر داخلي وكطابور خامس ، ويذكر في هذا الصدد مذبحة كفرقاسم ، لكنه يبدي ارتياحه « لأن الدولة كلها أدانت » هذه المذبحة .

وواصلت نيواوتلوك « بحثها » عن السلام ، وذلك في عددهـا التالي (تموز ١٩٧٤) فأعلنت لقرائها في كلمة التحرير بأن الدكتور حاييم درابكن ، رئيس مجلس ادارة المجلـة ، قد عاد لتوه مـن الولايات المتحدة حيث كان قد اشترك في مؤتمر جرى تحت عنوان « حلول بناءة لفلسطين » وقدم فيه دراسة تتناول الحلول الاقتصادية لمشاكل اللاجئين . وفي طريق عودتـه الى اسرائيل ، زار أصدقـاء نيواوتلوك في لندن وجنيف . أما دافيد شاحام ، أحد أعضاء مجلس الادارة ، فهو يتأهب لمغادرة اسرائيل الـى سويسرا وفرنسا ولنـدن ليجتمع بأصدقاء نيواوتلوك ويناقشهم حول احتمـالات المبادرات الجديدة ، كمقابلة المثقفين العرب وعقد الندوات معهم .

ثم كانت هنـاك في صدر العدد الرسـالة التي أرسلتها الاسرائيلية روث ليز الى عقيلـة الرئيس أنور السادات لتخبرها بأن ابنها قد قتلته رصاصة مصرية ، ولتناشدها بأن ترفع صوتها كأم لتطالب بالسلام وذلك ضمن اتحـاد نسائي يضم نسـاء اسرائيل .

ثم يرفع محمد وتد (أحد محرري مجلة مرصاد العربية التي يصدرها مابام) صوته في رسـالة مفتوحة الى المجلس الوطني الفلسطيني الذي كان منعقدا في ذلك الحين بالقاهرة ، منددا بما حدث في معلوت وقريات شمونه ، ومنتقدا المثقفين العرب في اسرائيل والضفة الغربيـة لصمتهم حول هذين الحادثين ، قائلا ان هذا الصمت لا يعطي فكـرة حسنة عن المستوى الاخلاقي السائد بين العرب ، لا سيما بالمقارنة مع موقف الكتاب العبريين الذين كانوا حتى ذلك الوقت متعاطفين صادقين مع الدعوة الفلسطينية . وينعي وتد على الحركة الفلسطينية فشلها في بنـاء الانسان الفلسطيني على غـرار الشخصية اليهودية التي بنتها دولة اسرائيل ، هذه « الشخصية الخلاقة » كما يصفها . ثم يتساءل : « لماذا لا نسمع الفلسطينيـين يقولون ولو مـرة واحدة . بعضنا سيبني وبعضنا سيحارب ؟ أي نوع من الحرب هذه ؟ هل الذبح يسمى حربا ؟ وأين هي المحاولات البناءة ، وأين هو التطوير ؟ لماذا لا نتعلم ، نحن الفلسطينيون ، الدروس الموضوعية للتاريخ ؟ » .

ثم يذكر الفلسطينيين بمبارطة المحاربة مقابل اثينا المتحضرة ، وباليابـان الامبريالية والمانيـا النازية ، الى أن يصل الى ذروة البلاغة فيقول بانتشاء : « ان أسلحة اسرائيل السرية هي قيمها ، وتفانيها في سبيل هذه القيم . فبالرغم من أعمال الخرق والنقض التي تقوم بها هنا وهناك ، فانها تعتنق فلسفة بناء . (..) ان حكومات بن غوريون لم تشنق المتظاهرين ضد الحكم العسكري ومصادرة الاراضي . كما ان اسرائيل ضمنت محاكمة عـادلة لمقترفي مذبحـة كفر قاسم . وكان الرأي العـام الاسرائيلي قد اشمئز من هذه المذبحة ، مع انها لم تكن مخططـة سلفا ولا تمـاثل حمام الدمـاء في معلوت » . ثم يختتم مقاله بدعوة للفلسطينيين للتعلم من اسرائيل واقتفاء اثرها في هذه السياسة .

ويتبع هذا المقال نداء موجه الى شعوب العالم وحكوماتها ، والى المفكرين والمؤلفين ، ليرفعوا أصواتهم ضد أعمال « الارهاب المقترفة بحق الاطفال والنساء » . وتضم قائمة أسماء الموقعين عددا من الكتاب الفلسطينيـين ، قاموا فيما بعد بسحـب توقيعاتهم عندما اتضح لهم ان النداء الذي اعطوه أسماءهم ، حرف بعد ذلك ونشر بشكل مغاير . وقد أغضب ذلك مجلة « نيواوتلوك » ، فنشرت

كلمة كانت قد ظهرت قبل ذلك في يديعوت آحرونوت بعنوان : « ألا يستطيع الكتاب القراءة ؟! » .

ويحتوي هذا العدد أيضا على مقال بقلم أحد الكتاب المنتظمين في نيواوتلوك — عمنون كابليوك — ينتقد فيه المستوطنين الاسرائيليين في مرتفعات الجولان ويناشدهم التضحية ببيوتهم من أجل السلام ، قائلا ان هذه المستوطنات العسكرية لم تتمكن من صد التقدم السوري في حرب يوم كيبور . ومع ان المستوطنين يعتبرون أنفسهم روادا في أرض بكر ، الا انهم في الواقع ضحايا التفكير التوسعي الذي ساد الدولة عقب حرب الايام الستة . ويختتم كابليوك مقاله مطالبا هؤلاء المستوطنين بالانصات الى صوت العقل والوطنية الحقيقية ، بدلا من صيحات الصقور والتوسعيين .

وفي عدد آب — أيلول ١٩٧٤ ، يشترك ثلاثة من محرري نيواوتلوك في كتابة مقال يدور حول استيطان فريق من الاسرائيليين يبلغ عددهم الالفين ، لسبسطيه بالقرب من نابلس . ان الثلاثة ينتقدون اجراءات الحكومة الاسرائيلية في منع هذا الاستيطان ، قائلين انها ليست كافية على الاطلاق . فالحكومة منعته بحجة انه غير مأذون ، بينما كان يجب أن تعلن بأنه يعرض احتمالات السلام الى الخطر .

وفي فقرة أخرى من كلمة التحرير ، ترحب الكاتبة باولا هيرت بزيارة « الصحفية المصرية سناء حسن » لاسرائيل ، مهنئة اياها على شجاعتها ، ومعربة عن أملها بأن تكون هذه الزيارة فاتحة لزيارات متبادلة بين الجانبين .

وفي مقال بعنوان « أصوات من الضفة الغربية » يكتب فكتور سيغلمان ، أحد محرري نيواوتلوك ومراسل لو نوفيل اوبزرفاتور وراديو لكسمبرغ في اسرائيل ، عن الاتجاهات في الاراضي المحتلة كما يراها هو ، فيذكر ان عددا كبيرا جدا من المثقفين الفلسطينيين ينظرون الى الملك حسين والفدائيين والاحتلال الاسرائيلي بنفس الدرجة من العداء ، الا ان هذا العداء لا يشمل اسرائيل نفسها (يقول سيغلمان) وهؤلاء المثقفين طلبوا من السلطات الاسرائيلية أن تسمح لهم بتأليف أحزاب سياسية من أجل التحضير لدولة فلسطينية بامكانها أن تتصالح مع اسرائيل على قاعدة من الاعتراف المتبادل والحقوق الوطنية . الا أن الحكومات الاسرائيلية السابقة التي كان يسيطر عليها ثلاثي مئير — ديان — غاليلي ، رفضت هذا الطلب ، مما سبب السرور البالغ للوجهاء الفلسطينيين ذوي المصالح السياسية والمالية المرتبطة بالحكومة الاردنية ، وأيضا أسعد الوطنيين المتطرفين من أنصار منظمة التحرير . أما المعتدلين ، فقد أبعدتهم السلطات الاسرائيلية خارج الاراضي المحتلة ، بينما واصل البقية حوارهم غير الناجح مع اسرائيليين ذوي نية حسنة ، الا انهم معزولين في بلادهم . ولكن جزءا مهما من الرأي العام الاسرائيلي اليوم ، بالاضافة الى عدة وزراء ، قد أدركوا الآن غلطتهم وأبدوا الرغبة في تصحيحها . فهل فات الوقت على ذلك ؟

وفي سياق محاولته الاجابة على هذا السؤال ، يستعرض سيغلمان بعض الحالات . فيتحدث عن الشيخ الجعبري ، رئيس بلدية الخليل ، قائلا انه بعد سنوات من الغزل مع ديان والملك حسين ، قد أدلى الآن بدلوه مع منظمة التحرير ، وأصبح يقول لمن يريد مناقشته حول مستقبل الضفة الغربية : اني رئيس بلدية الخليل ، فاذا أردت التحدث في السياسة ، اذهب الى عرفات . ثم يذكر حالة عزيز شحاده الذي أيضا أعلن « استسلامه السياسي » قائلا ان منظمة التحرير هي التي تمثل الفلسطينيين ، وأخيرا يختتم سيغلمان مقاله دون التوصل الى جواب شاف لسؤاله حول فوات الوقت . ويحتوي هذا العدد أيضا على ملخص لما قيل في ثلاث ندوات ، أولها ندوة مجلة الطليعة المصرية التي عقدت في القاهرة لمناقشة دروس حرب رمضان ، وضمت عبد المحسن أبو ميزر ولطفي الخولي وبعض المفكرين المصريين والفلسطينيين . وندوة ثانية عقدتها جماعة منبثقة عن حزب مابای لمناقشة أحداث بعض التغييرات في الحزب وأيضا في البلاد . وهذه الندوة المنعقدة في تل أبيب قدمتها نيواوتلوك الى القارىء بعنوان « من الاحتجاج الى العمل » . أما الندوة الثالثة ، فعقدت في ماريلند بالولايات المتحدة وكان هدفها فتح الحوار بين المفكرين العرب والاسرائيليين . وقد اشترك فيها عن الجانب العربي أميركي من أصل فلسطيني يدعى جورج السوسه ، وهو فيزيائي يعمل في معهد كارينغي بواشنطن ، الأب رمزي حبيب مالك من لبنان ، والدكتور الياس طعمه ، استاذ الاقتصاد في جامعة كاليفورنيا ، والبروفيسور ابراهيم هويس

من مصر ، وهو استـــاذ في جامعة جورجتـــاون . ونشرت نيواوتلوك الدراســـة التي قدمها جـــورج السوسه في هذه الندوة ، وكان قد كتبها بالاشتراك مع الاسرائيلـــي يوسف بن داك ، وتدور حـــول فلسطين الجديدة . وكذلك نشرت دراسة الدكتور الياس طعمـــه التي تبحـــث الموضوع نفســـه . والدراستان تريبتان جدا من تفكير نيواوتلوك .

وفي عدد تشريـــن الاول ١٩٧٤ ، يعـــود رئيس التحرير سمحا فلابان الى طرح اعتقاده بأن الزمن لا يعمل لصالح اسرائيل . فحرب اكتوبر قد حررت العرب من مركب النقص والشعور بالخيبة ، الا انهم يعرفون الثمن الفظيع للحرب ، ويدركون قوة اسرائيل وتصميمها على البقـــاء في الشرق الاوسط كدولة مستقلـــة ، ولذا فان الظروف الموضوعيـــة لتغيير مواقف الجانبين موجودة (في رأي فلابان) ويجب اغتنامها للتوصل الى السلام .

أما المقال الرئيسي في هذا العدد فبقلم موريس أوربـــاخ ، النائب العمـــالي في مجلس العمـــوم البريطاني ، وعضو الهيئـــة التنفيذية للمؤتمـــر اليهودي العالمي ، وهو مأخوذ من التقرير الذي كان قد قدمه الى المؤتمر اليهودي العـــالمي موشي شاريت قبل عشرين سنة ، وذلك اثر عودته مـــن مصر حيث كان قد قابل الرئيس عبد الناصر . وكان أورباخ قد توسط لدى الرئيس المصري للابقاء على حياة العملاء الصهيونيين الثلاثة عشر الذين كانت السلطات المصرية قد اعتقلتهم اثر قيامهم بعمليات تفجير في كل من الاسكندرية والقاهرة عام ١٩٥٤ . فقد وضعوا المتفجـــرات في مركزي الاستعلامـــات الاميركيـــة بالقاهرة والاسكندريـــة وذلـــك لنسف العلاقات الاميركية المصرية التي كانت جيدة يومذاك .

أثناء زيارته لمصر قابل أورباخ رئيس الطـــائفة اليهوديـــة المصرية المسيـــو شيكوريل ، صـــاحب المحلات التجارية المعروفة باسمه ، الذي أكد له رفض الطائفة القاطع لاصدار أي بيان باسمها ضد الصهيونية . ولكنه أخبره بأن معاملة السلطـــات المصرية للطائفة جيدة ، باستثناء بعض الاحتكـــاك النـــاتج عـــن موقف الحكـــومة تجاه اسرائيـــل والصهيونية . كما أكد لـــه بأنه خلافا للاخبـــار المنشورة بالخارج ، فان المؤسســـات اليهوديـــة في مصر ، كالمدارس ، تواصل نشاطها دون أي تدخل أوعرقلة من السلطـــات . ولم يلق القبض على أي يهودي بسبب دراسته للعبرية أو للزراعـــة ، كما اشيع في الخارج . ولكن بعض الاشخاص أعتقلوا لقيامهم بتنظيم فروع لمابام وماباي ، والدعاية لهذين الحزبين الاسرائيليين في مصر .

وكان مجلس الثورة قد نقل الى حاخـــام مصر الاكبر وشيكوريل ، البيان الذي أصدرته جمعيـــة فرنسية صهيونية مرتبطة بمابام ، وزعمت فيه بأن الطائفة اليهودية تتعرض لحكم الارهاب في مصر . فأصدر الحاخام وشيكوريل بيانا متحفظا نفيا فيه ، « على حد علمهما » وجود الارهاب . ولكنهما طلبا من الحكومة المصرية قـــائمة بأسماء الاشخـــاص المعتقلين في البلاد . فأعطيا قائمة تحتوي على الفي اسم . فلما درس الحاخام وشيكوريل هذه القائمة بعناية ، وجدا انها تحتوي على أربعة أشخاص يهود ، أودعوا السجن لجرائم عادية .

ثم زار أورباخ الحاخام الاكبر في بيته ، فأخبره الاخير بأن بيانه الذي برىء فيه السلطات المصرية ، قد أسيء تفسيره في الخارج ، ونشرت نسخ محرفة منه ، مما جعل البعض ينتقدوه . ثم ألقى اللوم على كاهل المستر ديفيد ليلينثيال ، قائلا ان هـــذا الرجـــل قـــابل رئيس الوزراء المصري والمسيـــو شيكوريل ، وقام بالقاء الخطب بشكل لا يخـــدم مصلحة الطائفة اليهودية ، بل ان نشاطه كان ضارا ومؤذيا . فالمستر ليلينثيال ألح على الطائفة بأن تتخذ موقفا معاديا علنيا من الصهيونية ، وطلب مـــن الحاخام ان يرسل بعض اليهود المصريين الى أميركا ليبلغوا الشعب الاميركي عن أوضاعهم الحسنة في مصر وبلاد الشرق الاوسط الاخرى . ولما أمعن في الحاحه ، أراه المسيو شيكوريل والحاخام الاكبـــر « الباب » . فقال لهما وهو يهم بالمغادرة انه سيبعث برسالة اليهما ، فأخبراه انهما يفضلان عدم استلام أي شيء منه . ومع ذلك وصلتهما رسالة منه جاء فيها : « لقد حان الوقت للطائفة اليهودية في مصر لأن تصبح نشيطة في مقاومة الصهيونية ، فمعاداة الصهيونية على الصعيـــد السلبي لن تكفي » . وتحدث ليلينثيال في رسالته عـــن الحرب العدائية التي تشنها اسرائيل على العالم العربي والجاليات اليهودية في الشتات* . وقد عبر الحاخام الاكبر (الحديث ما زال لأورباخ) عن شعوره بالمرارة البالغة بسبب تصرفات المسيو ليلينثيال . فلمـــا أخبره أورباخ بأنه سيبذل جهده لايقاف نشاطه هذا ،

اقترحت عليه المسز ناحوم (زوجة الحاخام) أن يذبحه .

وعاد الحديث يدور حول أوضاع الطائفة في مصر ، فقال الحاخام ان النقاط السلبية هي خمس :
١ – صعوبة اليهود في الحصول على الجنسية المصرية مع ان بعضهم ولد في البلاد . ٢ – يحتاج اليهود الى اسبوعين أو ثلاثة قبل الحصول على سمة خروج لمغادرة البلاد في رحلة . ٣ – قانون وزارة العمل الذي ينص على أن يكون ٧٥٪ من المستخدمين من المواطنين المصريين . ٤ – لا تستخدم الدولة اليهود كموظفين حكوميين . ٥ – لا يوجد في المستشفيات الا عدد قليل من الاطباء اليهود ، ولكن لا يوجد اي حظر على العيادات اليهودية الخاصة . وكذلك لا يوجد حظر على اليهود العاملين في سلك المحاماة ، ولكنهم يعانون من الصعوبة الناتجة عن جهلهم باللغة العربية .

وقال الحاخام مشتكيا بانه استلم دعوة بالبريد لحضور مؤتمر في القدس الاسرائيلية ، ولولا علاقته الطيبة بالسلطات المصرية ، لأصبح في موقف محرج بسبب هذه الرسالة فالبريد مراقب . ثم طلب من أورباخ بأن يذكر المنظمات اليهودية في الخارج بأن حالة الحرب بين اسرائيل ومصر ما زالت قائمة ، ولذا عليها مراعاة ذلك عندما تكتب اليه (أي الى الحاخام) .

أما ابن الحاخام فابلغ أورباخ ان تعداد الطائفة يبلغ ٥٥ الف يهودي ، وأكد له بأن الطائفة محترمة ولها علاقات اجتماعية جيدة مع المسلمين والمسيحيين . وشكر له اهتمام اليهود في أوروبا وامريكا بأوضاع الطائفة ، ولكنه أكد له بأن قلقهم على سلامة الطائفة لا مبرر له ، فالطائفة في أمان ولا يتهددها خطر .

وغادر أورباخ مصر ليعود اليها ثانية بعد أسابيع وذلك ليواصل مساعيه حول العلاقات المصرية الاسرائيلية . وفي تقريره الذي قدمه بعد ذلك الى موشي شاريت ، رئيس وزراء اسرائيل آنذاك ، قال ان الرئيس عبد الناصر استقبله في مكتبه بعد ساعتين فقط من نزوله في مطار القاهرة . وفي معرض الحديث حول المعتقلين الثلاثة عشر ، واحتجاز الباخرة الاسرائيلية بيت جاليم في مصر أثناء محاولتها اجتياز قناة السويس ، نقل أورباخ الى الرئيس المصري استعداد اسرائيل للدخول معه في اتفاق مرحلي بالغ السرية . وأبلغه مطالب اسرائيل السبعة وهي : عدم اصدار أحكام قاسية على المعتقلين الثلاثة عشر ، الافراج عن الباخرة بيت جاليم ، عدم التعرض للبضائع الذاهبة الى اسرائيل (عن طريق قناة السويس) أو الخارجة عنها ، ايقاف الدعاية المعادية والحرب السياسية ، ايقاف حوادث الحدود ، القيام باتصالات سرية بواسطة أشخاص مجازين وذلك لوضع التفاصيل ، تبادل سري للنظرات حول مستقبل العلاقات المصرية الاسرائيلية ، وذلك على مستوى عال . ومقابل هذه المطالب ، أبلغ أورباخ الرئيس عبد الناصر بأن بامكانه أن يثق بنية اسرائيل الحسنة تجاهه ، قائلا : وأنا وأصدقائي سنعبىء المساعدة على الصعيد الاخلاقي والسياسي ، وأيضا بلا شك ، على الصعيد المادي .

ويتضمن هذا العدد أيضا مقالين عن قبرص ، أحدهما بقلم الصهيوني المخضرم روبرت فيلش ، الذي اشتهر في الثلاثينات بسبب علاقاته مع النازيين ، والآخر بقلم مئير باعيل ، عضو الكنيست عن موكيد . والمقالان يعكسان التجربة الاسرائيلية والدروس المستخلصة منها . فبالنسبة لفيلش ، لا يوجد مجال واقعي لجمع قوميتين متعاديتين تحت مظلة كيان سياسي واحد . وهو في هذا الصدد يشير الى تجربة مارتن بوبر الذي كان يدعو ، قبل قيام اسرائيل ، الى انشاء اتحاد فيدرالي عربي – يهودي في فلسطين ، الا ان بوبر ، برأيه ، ترك أسئلة كثيرة دون تقديم جواب مرض عليها . وكذلك باعيل يصل الى استنتاج مماثل ، وهو ان حل مشكلة قبرص لا يمكن ان يتم الا بواسطة التنازلات الاقليمية من قبل الطرفين ، لا سيما وان التدخل العسكري التركي قد خلق حقائق واضحة . ومع ان الكاتبين لا يشيران الى الحل الديمقراطي لقضية فلسطين الذي صاغته منظمة التحرير ، الا انه بالتأكيد كان في ذهنهما عندما أبديا شكهما في امكان

---

* من الجدير بالذكر ان أورباخ أورد مع ملخص رسالة ليلينثيال ، عنوان الاخير الكامل في نيويورك ، فهل فعل ذلك ليحرض عليه القوى الصهيونية في تلك المدينة المعروفة بقوة النفوذ الصهيوني فيها ؟

جمع القوميتين ، اليونانية والتركية ، داخل دولة موحدة .

ويفسح هذا العدد صفحاته لنقاش بين مؤيدي ادخال عقوبة الاعدام في القانون الاسرائيلي ، ومعارضيه . فيقود المؤيدين البروفيسور فيرشون فايلر ، استاذ الفلسفة في جامعة تل أبيب بينما يعارضه الدكتور ليون شيليف استاذ علم الاجرام في كلية الحقوق بنفس الجامعة . ان فايلر ينفي وجود تعارض بين الاخلاقية اليهودية ، والحكم بالاعدام على المجرمين . وهو يستند في موقفه هذا الى تعاليم التلمود . كما يعرب عن اعتقاده بأن القول ان الاعدام لا يصلح كرادع ، هو ليس بالحكم الذي ينطبق على جميع الحالات . فان الاعدام قد لا يردع القاتل العادي الذي يقترف جريمته وهو في حالة نفسية خاصة ، « ولكن لا يوجد سبب يمنعنا من الظن بأن شخصا جالسا في أمان أحد المقاهي في بيروت ، ومفكرا في الانتماء الى منظمة قد تجعله ينتهي في قفص الاتهام بمحكمة اسرائيلية . لا يوجد سبب يمنعنا من الظن بأنه لن يفكر في مواقب ذلك » في حالة سريان حكم الاعدام في اسرائيل . ثم ينهي فايلر مقاله بالقول ان حكم الاعدام في اسرائيل قضية سياسية وليس قضية اخلاقية .

أما ليون شيليف فيبني رفضه لحكم الاعدام على الحجج التالية : سبقت اسرائيل دولا كثيرة في العالم عندما الغت عقوبة الاعدام ، وفازت بذلك على تقدير الناس ، لا سيما وانها لم تستثن من هذا القرار الا أدولف ايخمن ، ولذا عليها أن تتمسك بقرارها في الغاء عقوبة الموت . ثم ان اعدام « الارهابيين » سيجعلهم شهداء أبطال في نظر الكثيرين ، بينما الرادع الافضل من الاعدام هو تقوية اجراءات الامن في اسرائيل . بينما الرادع الافضل من الاعدام هو تقوية اجراءات الامن في اسرائيل . كما ان الاعدام سيؤدي على الارجح الى زيادة الارهاب . ويشير شيليف الى عصابة شترن أيام الانتداب البريطاني . فان أحكام الاعدام البريطانية أدت فعلا الى تناقص في عضوية هذه العصابة الارهابية ، الا أن الاعضاء الباقين ازدادوا صلابة وتعصبا ، وهذا قد ينطبق على « الارهابيين العرب » ، وقد يزداد نشاطهم خارج اسرائيل ، عنفا وقسوة ، نتيجة لادخال حكم الاعدام في اسرائيل . كما ان ادخال هذا الحكم قد يؤدي الى جعل اسرائيل عرضة للضغط الدبلوماسي من الخارج . ويعارض شيليف زميله فايلر بخصوص رأي الاخير بأن « الارهابي يجلس مرتاحا في السجن بعد أن يرتكب جريمته » اذ يذكر شيليف زميله بأن السجن المؤبد ليس مكان راحة لأحد . وبدلا من الاعدام ، يقترح شيليف محاربة المنظمات الارهابية داخل البلدان التي تحتمي فيها ، ويشدد على وجوب عدم التساوم معها في حالة امساكها بالرهائن ، بل ينصح السلطات باللجوء الى كل وسيلة وحيلة ممكنة ، من القوة والمباغتة الى المكر والخداع ، في سبيل تخليص الرهائن والقضاء على الفدائيين ، وذلك على غرار ما حدث قبل أعوام في حادثة الطائرة التابعة لشركة سابينا البلجيكية التي هبطت في مطار اللد وعلى متنها مجموعة من الفدائيين . اذ تمكنت القوات الاسرائيلية من خدع الفدائيين ، فقتلت اثنين منهم ، وأسرت الفتاتين ، وأفرجت عن الرهائن .

وأخيرا نختتم مراجعتنا لهذا العدد الثامن برسالة من قارىء اسرائيلي منشورة في نهايته ، يقول فيها انه يرحب بالاستماع الى وجهات نظر العرب داخل اسرائيل ، ولكن مواطنيه الاسرائيليين قد غالوا ، حسب رأيه ، في رحابة الصدر والتسامح الى حد انهم اخذوا يزودون اجهزة الدعاية العربية بمادة جاهزة . فالعرب يشتكون من عدم ايصال الدولة الاسرائيلية للكهرباء الى بعض قراهم . وعليهم في هذه الحالة ان يتذكروا بأن الدولة تحصل على الاعانات المالية من اليهود في الخارج . وبالرغم من هذا السخاء ، ما زالت الضرائب الاسرائيلية أعلى الضرائب في العالم . ويستشهد كاتب الرسالة بحالته ، قائلا ان راتبه الشهري يبلغ ٢٨٧١ ليرة اسرائيلية . الا ان هذا المبلغ ينخفض الى ١٥٩٣ ليرة فقط بعد دفع الضرائب ، أي انه يخسر نصف راتبه تقريبا الى الدولة . ولذا فهو ليس على استعداد لأن يدفع المزيد من الضرائب من أجل ايصال الكهرباء الى القرى العربية ، كما لن يطلب من اليهود في الخارج ان يزيدوا اعانتهم لاسرائيل لهذا السبب ، بل ينصح العرب في اسرائيل ان يتوجهوا صوب اخوتهم اغنياء النفط ..

هذه كانت نبذة عن محتويات الاعداد الثمانية من مجلة نيواوتلوك بعد حرب رمضان . فاذا ما قارناها في الموقف والاتجاه مع الاعداد التي سبقت هذه

الحرب كان انطباعنا لأول وهلة بأنها لـم تغير سياستها أو خطها العام ، بل ظلت ثابتة علـى خطها الليبرالي المنفتح كمجلة تريد أن تصبح جسرا بين المثقفين العرب والاسرائيليين . أو لعل هذا هو الانطباع الذي سيحصل عليه القارىء الاوروبي او الاميركي الذي لا يستطيع ، بحكم واقعه البعيد ، ان يتغلغل عبر الكلمة المكتوبة الى الواقع الفعلي ، فيضطر بالتالي الى قبول الكلمة المكتوبة كترجمـة أمينة للواقع الفعلي ، وبذا ينخرط في سلك المعجبين بهذه المجلة التي تبدو وكأنها صاحبة رأي معتدل وموقف مخلص في دعوتها للتفاهم والسلام .

أما بالنسبة لنا فان أي دراسة متعمقة لخط المجلة من شأنها أن ترينا الهيكل العظمي داخل الخزانة ، كما يقول المثل الانكليزي . فحزب مابام الذي يصدر نيواوتلوك لم يكن أبدا حزبا معارضا في اسرائيل ، وانما دائما من صميم المؤسسة الحاكمة . ففـي البداية كان بمثابة الاخ الاصغر لماباي ، ثم اندمج الاثنان ليشكلا كتلـة المعراخ التي تحكم الدولـة الصهيونية اليوم ، أي ان مابام انتهى عمليا كحزب مستقل . ومع ذلك ما زالت نيواوتلوك تتحدث عنه وكأنه الحزب حامل لواء الاعتدال والتفاهم داخل اسرائيل .

ان هذه الازدواجية في الموقف قد تنطلي علـى القارىء الغريب عن لابرينث السياسة الاسرائيلية الداخلية . اما العالم ببواطن الامور ، فسيتساءل حتما : اذا كان مابام قد اصبح جزءا لا يتجزأ من جهاز الحكم الاسرائيلي ، فلماذا لا يضع قيد التنفيذ تلك السياسات المعتدلة التي تنادي بها مجلته منذ أواخر الخمسينات ؟ ان نيواوتلوك ليست « هاهالم هازيه » مجلـة أوري افنيري صاحب المقعد او المقعدين في الكنيست ، وانما هـي مجلة الحزب الحاكم .. مجلة النظام القائم . فلماذا لم تجد الى الآن من يترجم عواطفها في التفاهم والسلام الى برنامج عمل فعلي ؟

الجواب على ذلك بسيط ومباشر : انها مجلة للاستهلاك الخارجي ، لا أكثر ولا أقل . امـا أهدافها ، فهي التالية : التمويه على الناس فـي الخارج ، وحملهم على الظن بأن اسرائيل دولـة ديمقراطية تتضارب فيها الاراء والافكار في جو مـن الحرية التامة . فالنظام الاسرائيلي يدرك جيدا بأن معاملته السيئة للمواطنين الفلسطينيين الذين بقوا في أراضيهم ولم يهاجروا ، لا يمكن اخفاؤها طويلا عن العالم الخارجي . لذا فهو في هذه الحـالة يقتفـي حذو المثال الاميركي في اغراق المسامـع بالحديث المليء بالعواطف عن وجوب تغيير الاوضاع والاحوال ، وكأن مجرد الحديث عن ذلك سيؤدي الى تغيير الاوضاع .

لقد طالبت مجلة نيواوتلوك منذ انشائها عـام ١٩٥٧ برفع الحكم العسكري عن القرى العربية . ومع ذلك ، لم « يلغ » الحكم العسكري الا عام ١٩٦٦ . وكان الالغـاء في الواقع مجرد انتقـال سلطة القمع والضغط المفروضة على العرب مـن الجيش الى الشرطة . وهي الى اليوم تنشر المقالات الداعية الى رفع المستويات التعليمية والاقتصادية في القرى العربية ، وتفسح المجال في صفحاتهـا للاصوات المنتقدة ، دون ان يؤدي ذلك الى حدوث التغيير المطلوب . ولعـل ابرازها لعبد العزيز الزعبي هو أبلغ مثال على أسلوبها . فقد كتـب فلابان في سياق مقاله الرثائي عن الزعبي ، بأنـه تعرف عليه عام ١٩٥٤ ، عندما كان الزعبي موظفا صغيرا مغمورا في الناصرة . ولكنـه فورا شعر « بأن الزعبي يمتلـك شخصية ناضجـة لاصدار القرارات العظيمة التـي تؤهله لأن يلعب دورا سياسيا فريدا » فنشر له مقالا عن « الاقلية العربية في اسرائيل » في العدد الاول لمجلـة نيواوتلوك . ومنذ ذلـك اليوم بدأ تدرج الزعبي في المنـاصب المرموقة . فأصبح العضو العربي الاهم في حزب المابام ، وتولى رئاسة بلدية الناصرة بالوكالة ، ثم دخل الكنيسيت نائبا . أي انه اصبح العربي — الواجهة بالنسبة للحكومة الاسرائيلية ، تعرضه لكل مـن يريد أن يستعلم عن حالـة العرب في اسرائيل . وقبل سنوات عين وكيلا لوزارة الصحة ، وهي أعلى وظيفة يصل اليها عربي في اسرائيل . وقد ثبت في منصبه هذا بالرغم مـن الاحتجاجات الاسرائيلية القوية على تعيينه . (وكانت الحكومة قد ردت على هذه الاحتجاجات موضحة بأن الزعبي لن يحضر ، بالرغم من منصبه الرفيع ، جلسات الوزارة نيابة عن الوزير في حالة غيابه ، ولذا لن يطلع على أسرار الدولة) وربما كـانت الاوساط المختصة قد أدركت منذ ذلـك الحين بأن وكيلها الجديد لوزارة الصحة ليس في حالة صحية تسمح له بأن يعمر طويلا ، ولذا لم تبخل عليـه بالمنصب

الذي لم يشغله الا سنوات قليلة في الواقع .

هذا بالنسبة للعرب المقيمين في الدولة الصهيونية . أما بصدد هدف المجلة فتح الحوار مع المثقفين العرب خارج الحدود ، فان نجاحها كان ضئيلا جدا ، مما يفسر تلهفها على نشر أي استشهاد بها يصدر عن كاتب عربي ، علما بأنها لم تحصل على اي محاور عربي باستثناء سناء حسن ، مما لا يعتبر بالمكسب الذي يمكنها بصدق ان تهنىء نفسها عليه .

اذن فالمجال الوحيد الذي سجلت فيه نيواوتلوك شيئا من النجاح هو الغرب ، عندما اقنعت بعض الاوساط الليبرالية في أوروبا الغربية وامريكا بأنها صادقة ومخلصة في مواقفها ، مع العلم بأن هذه الاوساط الليبرالية مشهورة بميوعتها الاخلاقية تجاه العديد من الحركات التحررية في العالم ، مما يجعلها على استعداد فطري لأن تصدق زعم ايان لوستيك في مقاله من اراء الاهالي في الضفة الغربية المحتلة ، عندما قال ان العرب في الضفة لا يحبون المقاومة ، ولا يظنون بأن الحل الديمقراطي للمشكلة قابل للتحقيق ، علاوة على زعم سيغلمان بأن العداء العربي للاحتلال لا ينبسط على اسرائيل نفسها ، وهو الزعم الذي يحمل في طياته درجة مذهلة من الصفاقة .

اذن يمكن القول بشكل جزمي بأن مواقف المجلة لم تتغير ، وبأنها لم تؤثر على الرأي العام الاسرائيلي وذلك لأن حقيقة الدور الذي تقوم به ليس خافيا على أحد . فنيواوتلوك مرتبطة بالسياسة الصهيونية ارتباطا عضويا لا فكاك منه ، وجو الثرثرة الذي تنشره حولها لا يمكن مقارنته الا باجواء رواية « دخان » للمؤلف الروسي ايفان تورغنيف . ففي تلك الرواية تنتهي اشواط الحديث الماراثيونية عندما تكل السنة المتحدثين من فرط الكلام الكثير ، فيعم الصمت الغرفة ، وينصرف الحاضرون الى التدخين ، والتفرج على الدخان وهو يرتفع نحو السقف .

ف . م .

منـاقشـات

عبد الحفيظ محـارب

المطلوب تغيير النظام وليس الكيان

تضمنت « شؤون فلسطينية » مقـالا يتسم بالخطورة للكاتب الفلسطيني عصام سخنيني الباحث في مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية تحت عنوان « محاولة اولى في اطروحة : شرق الاردن الفلسطينية » . ولا تعود خطورة المقال الى المغالطات الكامنة فيـه بقدر ما تعود الى دعوة المقاومة الفلسطينية الى تبني فكرة جديدة ، تبدو للوهلة الاولى بأنها تعمل على اختزال المسافة ما بين التشرد والتحرير ، ولكنها في جوهرها تعرقل المسار الثوري السليم لشعبنا .

وقبل أن نناقش فكرة الكاتب لا بد لنا من الوقوف حول المقال بايجاز . في بداية مقالته يعالج الكاتب ضرورة قيام ارض تكون بمثابة قاعدة آمنة للمقاومة الفلسطينية ، ويعتقد ان الاردن أكثر من غيره هو المرشح لتشكيل قـاعدة الانطلاق الثـابتة والآمنة « ففي شرق الاردن تعيش غالبية الفلسطينيين وهم المعنيون أولا بالثورة ، ومشتلها الخصب ... » ليتحدث بعد ذلك عن تاريخ نشوء الكيان الاردني والهدف الاستعماري من وراء اقامته ، ليصل الى القول بأن الكيان الاردني والنظام هنـاك « هما وجهان لعملة واحدة » ويعيب على « الفكر الثوري الفلسطيني » عدم ادراكه ذلك ، الامر الذي أدى بالمقاومة الى تقديم ثمن باهظ ، تمثل في تصفيـة وجودها في شرق الاردن ، ثم يقدم « ثلاث مقدمات » تشكل صلب التفكير في ضرورة اتخاذ الثورة ، شرق الاردن القاعدة الاسـاسية لها ، الاول « ان الثورة الفلسطينية بحاجة الى قاعدة انطلاق لها ثابتة تحكم سيطرتها عليها في المدى الطويل ما دامت هي تمارس اسلـوب حرب الشعـب طويلـة النفس ... » والثانية : « ان الدول العربية جميعها لن تكون هذه القاعدة التي تتمتع بالديمومة والثبات والتي تستطيع منها الثورة أن تمارس فعلهـا النضالي لسبب واحـد ... هو أن استراتيجية الثـورة ستصطدم في المدى البعيد حتما باستراتيجية الدول ، فلكل حساباتها الخاصة بها ... » والثالثة : « ان تغيير النظام في شرق الاردن أو اسقاطه كما هو مطروح كشعار لن يحول شرق الاردن الى هـذه القاعدة الثابتة للثورة ، الا اذا كان هذا الهدف خطوة الى تغيير البنيـة الكيانية نفسهـا لشرق الاردن ... وهكذا فان اسقاط النظام كهدف ينبغي — لاستمرار الثورة — أن يستتبع الوجه الآخر من العملـة ، نفي الكيان نفسـه ... » ليصل الى القول : « المطروح اذن بوضوح هو الغاء الكيان من جانب ، وبناء كيان ثورة بديل من جانب آخر » .

ثم يطـالب بضرورة « اعادة تصحيح التـاريخ لجهتين : الجهة الاولى ان شرق الاردن انشئت وحدة ادارية مستقلة ، ثم كيانا منفصلا قائما بذاته على أرض فلسطين التاريخية التي تمتد من البحر المتوسط حتى بادية الشام ، والجهة الثانية ان من اصطلـح على تسميتهـم « الاردنيين مـن أصل فلسطيني » هم فلسطينيون طمست هويتهم بعزل عن ارادتهم » ليقول بعد ذلك ان الاردن هو وطن الفلسطينيين مثلما هو وطـن « الشرق أردنيين » وينبغي أن تكون « شرق الاردن الفلسطينية » بمثابة الوطن البديل ، كما يدعو لذلك الاسرائيليون بقوله : « فان الاساس في شرق الاردن الفلسطينية هو بناء الوطن القـاعدة الذي هو الخطـوة الاولى ذات التجسيد العملي نحو فلسطين الكبرى ، وهو الذي يمكن الفلسطينيين مـن أطراف الارض المرشحـة للتحـرير فـ « يتوسعون » من عليهـا الـى

الغرب ... » ويضيف : « كما ان هذا الكيـــان الجديد الذي يشترك فيه الفلسطينيـــون والشرق اردنيون — أن يخلق المعـــادل الموضوعي للتفوق الحضاري الاسرائيلي بأن يكون مركز استقطـــاب للقدرات الفلسطينية من مختلف أنحاء العـــالم ، تنتسب اليه هذه القدرات وتسهم في صنع ، بادراك غير متواضع لقدرات الخلق الحضاري الفلسطيني » وبناء على ذلك يدعو الى الغاء الكيـــان الاردني واقامة كيان فلسطيني ثوري مكانه ، وهذه باختصار المقولة التي يذهب اليها الكاتب .

لم يكن عصام سخنيني أول من يقدم على طرح الدعوة لالغاء الكيان الاردني واحلال كيان فلسطيني مكانه ، الا انه بلا شك يعتبر أول كاتب فلسطيني يدعو الى ذلك ، ويختلف من حيث الهدف اختلافا كليا عن أولئك الذين سبقوه ، فقد سبقه الرئيس التونسي الحبيب بورقيبه حين دعا الى الغاء الكيان الاردني باعتبار ان الاردن هو الجزء الشرقي مـــن فلسطين التاريخية ، وان سكانه هم فلسطينيون ، ويستهدف من وراء طرحه هذا وضع حد للنزاع العربي الاسرائيلي من خلال منح الفلسطينيين دولة تشتمل على شرق الاردن والضفة الغربية وقطـــاع غزة . وسبقته أيضا شخصيتان اسرائيليتان الاولى من التيار الحمائمي ، اريه الياف ، والاخرى من التيـــار الصتري البروفيسور يوسف دان ، حين روجتا لاطروحة « أرض اسرائيل الكبرى » (فلسطين الكبرى) التي تشتمل على كل من فلسطين والاردن ، ويسكن فيها شعبـــان الاسرائيلي والفلسطينـــي ، ليخرجا من هـــذا الطرح بضرورة اعـــادة تقسيم « أرض اسرائيل الكبرى » (فلسطين الكبرى) بين الشعبين ليقيما دولتيهما عليها .

ثم ليس القصد من الاشارة الى مقولات هؤلاء الاشخاص الانتقاص من مقولة الكاتب التي نحـــن بصدد مناقشتها ونقدها وانما أردنـــا القول بأن الفكرة كانت قـــائمة لدى أطراف مختلفة ليســـت فلسطينية . وقد طرحها للمرة الاولى فلسطيني من خلال دوافع مختلفة تماما للوصول الى هدف مختلف تماما أيضا .

سنركز الحديث في ردنـــا على نقاط ثـــلاث : (١) فلسطـــين التـــاريخية و« الشرق أردنيـــين » الموجوديـــن على أجزاء منها (٢) الكيـــان الاردني (٣) مسألة النظام والثورة .

« الشرق اردنيون » : ان الجمل الواردة في مقال الكاتب ، مثل « من حق الثورة وواجبها في أن تجعل نضالها متلاحما مع نضال الكتلة الفلسطينية الاكثر عددا » و«سيطرة الشرق أردنيين على الفلسطينيين» و« وحدة السكان الفلسطينيين والشرق أردنيين » واشارته الى أن غالبية السكان هم فلسطينيون ، تشير كلها الى اعتراف الكاتب بوجود قطاع مـــن البشر يعيشون في أحد أطراف « فلسطين الكبرى » يضفي عليهم صفة « الشرق أردنيين » على خلاف القائلين بفلسطين الكبرى ، الذين يعتبرون جميع السكان العرب في هذه « الخريطة » فلسطينيين ، الامر الذي يدفعنا الى التساؤل : اذا لم يكن هؤلاء « الشرق أردنيين » الذيـــن يعيشون في مســـاحة واسعة من فلسطين الكبرى ، فلسطينيين ، فمن هم ؟ هل هم مجموعة بشرية أتت في غفلة مـــن التاريخ لتستوطن جزءا من فلسطين ، ولم تحظ بعد باعتراف من قبل السكان الاصليين بحق الانتماء الى فلسطين ونيل شرف الكنية الفلسطينية ؟ واذا كان الامر كذلك فمن أي بلاد قدموا ؟ هذا اذا استثنينا من السؤال العائلة الهاشمية التي استقدمت من الحجاز لتحكم تلك المجموعة البشرية التي تتواجد على رقعة واسعة من أرض فلسطين الكبرى .

ان تقديم مثل هذه التساؤلات لم تكن لتوجـــه للكاتب لو اعتبـــر جميع السكان العرب الذيـــن يعيشون في أرض فلسطين الكبرى ، فلسطينيين ، كما فعل كل من بورقيبه والياف ويوسف دان ، الا ان هذه الاسئلة تبقى قائمة وتحتاج الى رد ما دام الكاتب يلغي صفة الهوية الفلسطينية عن مجموعة بشرية عربية تسكن مناطق يعتبرها ضمن خريطـــة فلسطين الكبرى .

أرض فلسطين التاريخية ... وفلسطين الكبرى :
يذكر الكاتب بأنه يجب تصحيح التاريخ لجهتين : « الجهة الاولى ان شرق الاردن أنشئت وحدة ادارية مستقلة ثم كيانا منفصلا قائما بذاتـــه على أرض فلسطين التاريخية التي تمتد من البحر المتوسط حتى بادية الشام ... » .

ان هـــذا القول والذي يحـــاول فيه الكـــاتب « تصحيح التاريخ » ليصل بعد ذلك الى الغـــاء الكيان الاردني ، واقامة الوطـــن الفلسطيني في « شرق الاردن الفلسطينية » بهدف خلق قـــاعدة لاستمـــرار النضـــال حتى تحرير ســـائر الاراضي

الفلسطينية ، يدفعنا الى طرح علامات استفهام كبرى ليس حول كيفية نشوء الكيان الاردني ، والقصد من وراء انشائه ، لأن ذلك واضح تماما ، ولكن حول « أرض فلسطين التاريخية التي تمتد من البحر المتوسط الى بادية الشام ... » و« أرض فلسطين الكبرى » ليستنتج من ذلك « ان هذه الحقائق — المقدمات تقود الى نتيجة واحدة هي ان شرق الاردن بجانب انها وطن الشرق اردنيين هي أيضا وطن للفلسطينيين » .

ومع ادراكنا وايماننا بأن فلسطين هي جزء لا يتجزأ من العالم العربي ، وان أي عربي مكمل ومتمم للآخر ، وبالتالي فان أي جزء من الوطن العربي يعتبر وطنا للانسان العربي أينما وجد ، وان ذلك ستفرضه حركة الوحدة التي تقودها الجماهير ، والتي ستلغي هي ، وهي فقط ، الكيانات بل وتذيبها في كيان واحد ، مع ادراكنا هذا نود أن نعرف ماهية الخريطة الفلسطينية التاريخية ، وماهية فلسطين الكبرى ، والحدود الدقيقة لها .

ان اصطلاحي أرض فلسطين التاريخية وكذلك فلسطين الكبرى ، هما اصطلاحان روجت لهما الحركة الصهيونية في أدبياتها كثيرا ، ليس خدمة للتاريخ من خلال بحث موضوعي (اذا كانت هناك فلسطين كبرى) وانما بغرض خدمة أهدافها ومآربها الرامية الى توسيع نفوذها واحتلالها ، في الفرص المناسبة ، لمزيد من الاراضي العربية ، على أساس انها « تعيد » بل « تحرر » أجزاء من أرض الآباء والاجداد « أرض اسرائيل الكبرى » (فلسطين الكبرى) .

ومن الجدير بالذكر هنا ان الصهيونيين يتفقون على شيء اسمه فلسطين الكبرى ، الا انهم يختلفون حول خريطة هذه الارض ، فمنهم من يرى في حدود الانتداب البريطاني في كل من فلسطين والاردن ، خريطة يمكن أن تكون قريبة من خريطة « أرض اسرائيل » . وقسم آخر ينظر اليها من خلال أماكن سكن الاثني عشر سبطا وهؤلاء يختلفون أيضا في تحديد الحدود بسبب عدم معرفة المكان الذي يسكنه بعض هؤلاء الاسباط !! وبذا تتسع الخريطة الفلسطينية « أرض اسرائيل » لتشمل جنوب سوريا ولبنان بالاضافة الى فلسطين وشرق الاردن .

وهنالك الخريطة التوراتية التي ينقسم دعاتها الى قسمين ، قسم يرى بأن « أرض اسرائيل الكبرى » تمتد من النيل الى الفرات ، وآخر يرى انها تمتد من الفرات الى « النهر الكبير » ويعنون به وادي العريش في سيناء .

من الملاحظ ان القاسم المشترك لهذه الخرائط يتمثل في طمس حدود ما يسمى بفلسطين الكبرى أو التاريخية وعدم اتضاحها . ومع ادراكنا بأن هذه الخرائط هي خرائط وهمية ، لا تمت الى التاريخ بصلة ، وانما يراد منها تمزيق خريطة الشرق العربي لاقامة الكيان الصهيوني بحجج وذرائع واهية ، الا اننا هنا لا بد أن نتساءل ، بكل جدية ، عن خريطة فلسطين الكبرى التي طرحها الكاتب الفلسطيني . فاذا سلمنا جدلا بوجود « فلسطين كبرى » و« فلسطين التاريخية » فان السؤال الذي يطرح نفسه ، ما هي حدود خريطتها ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ضرورية ، لكي يكون بوسع الانسان الفلسطيني الذي يربي ابنه على حب وطنه فلسطين أن يجيب على أسئلة الطفل اذا تطرق الى خريطة الوطن بدون تلعثم أو غموض ، كغموض خريطة « أرض اسرائيل » . يحدد الكاتب حدود فلسطين التاريخية بقوله ان « أرض فلسطين التاريخية تمتد من البحر المتوسط حتى بادية الشام ... » ووفق هذا التحديد المطاط يمكن القول بأنها تشمل فلسطين وشرق الاردن وجنوب سوريا ، وربما أيضا اجزاء من السعودية ! ولا نعرف لماذا لم يذكر بأن الاستعمار الفرنسي أقام كيانا سوريا على أجزاء من أرض فلسطين ، بل اكتفى بالقول بأن الاستعمار البريطاني أقام كيانا أردنيا على أرض فلسطين التاريخية .

الكيان الاردني : يطالب الكاتب بالغاء الكيان الاردني وبناء كيان ثوري فلسطيني مكانه . وكمدخل لمناقشة هذا المطلب نرى من الضروري تسجيل بعض الملاحظات :

١ — ان الدعوة لالغاء كيان أو كيانات عربية تدخل في اطار موضوعة الوحدة العربية ، وهي دعوة شرعية لجماهير الامة العربية التي تسعى لاذابة الكيانات ككل في بوتقة كيان عربي واحد ، وفي حال اقتصار الدعوة على الغاء كيان واحد لحساب كيان آخر ، فان ذلك يفرغ الدعوة من

مضمونها الشرعي . ومن هنا ، فاننا لا نقف ضد فكرة الغاء كيان عربي أو كيانات عربية شريطة أن تصب عملية الالغاء في مجرى الوحدة العربية .

٢ — ان معارضتنا لفكرة الغاء كيان واحد لصالح « كيان الثورة » لا تنبع من التمسك بأهداب اخلاقيات معينة بقدر ما هي ناجمة عن حساب دقيق لمصلحة الثورة الفلسطينية طليعة حركة التحرر العربي .

٣ — والملاحظة الاخيرة والاساسية هي ، هل تقبل الجماهير الاردنية الغاء الكيان الاردني لحساب كيان ثوري فلسطيني ؟ أليس من شأن ذلك أن يدفعها الى أحضان الملك ويكرس ابتعادها عن المقاومة ، وبالتالي تبقى مقولة الكاتب أو اطروحته — اذا تجاوزنا جدواها — تحوم في السماء دون أن تقدر على الهبوط على أرض ، حتى لو كانت من أرض فلسطين التاريخية !

لم يشأ الكاتب ان يميز في مقالته بين الكيان الاردني والنظام السائد هناك معتبرا الكيان الاردني بمثابة « الوجه الآخر من العملة » ، ويعيب على الثورة الفلسطينية عدم مقدرتها على رؤية الترابط العضوي بين الكيان الاردني والنظام الهاشمي ، « هذه الوظيفة الكيانية لم يدخل تحليلها ضمن الفكر الثوري الفلسطيني . واقصى ما وصل اليه هذا الفكر هو تحليل دور النظام الهاشمي وموقفه من القضية الفلسطينية دون اعتبار العلاقة العضوية بين الكيان والنظام ، وادراك انهما وجهان لعملة واحدة بوظيفة محددة رسمت لها في عشرينات هذا القرن ولم يطرأ عليها تغيير » .

أعتقد ان من حسن حظ « الفكر الثوري الفلسطيني » انه كان ولا يزال يميز بين الكيان والنظام ، يميز جيداً بين الكيانات العربية وانظمتها ، ويدعو الى الغاء هذه الكيانات ككل لتذوب في كيان عربي واحد ، ينتفي فيه استغلال الانسان للانسان .

ان صفة « الترابط العضوي بين الكيان والنظام » لخدمة أهداف ومآرب استعمارية تقتصر على عدد محدود جدا من الكيانات العنصرية مثل « الكيان الاسرائيلي » حيث نجد بالفعل علاقة وثيقة بين الكيان الاسرائيلي والنظام السائد هناك ، ومثل « كيان البيض » في جنوب أفريقيا ، حيث نجد ايضا ترابطا وثيقا بينهما .

لا أحد ينكر بأن الاستعمار البريطاني عمل لخلق كيان أردني ، والى جانب ذلك أقام لهذا الكيان نظام حكم هاشمي لا يزال قائما ويقوم بدوره المناهض تماما لحركة الجماهير الفلسطينية في تصديها للنشاط العنصري الصهيوني . ففي أعقاب الحرب العالمية الاولى قامت الدول الاستعمارية الغربية بخلق مجموعة من الكيانات العربية بغرض تمزيق وحدة الشعوب العربية ، والتسلل من خلال ذلك لاستغلال ثروات هذه الشعوب ، وقد قطع الاستعمار شوطا بعيدا في هذا الطريق لدرجة ان الاستعمار الفرنسي حاول خلق عدد من الكيانات (الدول) داخل سوريا ، وتصدى الشعب السوري لهذه المحاولات وتمكن بفضل وعيه القومي المتقدم من افشالها ، واذابة الكيانات (الدول) داخل سوريا ، ومع ذلك فقد بقيت معظم ان لم نقل كل هذه الكيانات العربية قائمة حتى اليوم على الرغم من حصول الدول (الكيانات) على استقلالها . وليس من شك بأن استمرارية هذه الكيانات قد نمت أحساسا قطريا أو كيانيا أو اقليميا لدى شرائح معينة في هذا الكيان أو ذاك ، الا أن الاحساس الاقوى والسائد — وهذا يختلف بين كيان وآخر تبعا لمدى النمو القومي — هو الاحساس بالانتماء الى الكيان الواحد ، والدليل على ذلك ان أحدا لا يجرؤ على المطالبة بتكريس الكيانية أو القطرية أو الاقليمية ، والعكس هو الصحيح .

وفيما يتعلق بالاردن ، فقد كان الاحساس الوطني والقومي قائما بين جماهير السكان هناك ، وان كان أضعف من الاحساس الوطني والقومي لدى الجماهير في سوريا أو فلسطين مثلا . اما بالنسبة لـ « الانتمائية الكيانية » فقد كان الاحساس يكاد يكون معدوما في عهد الانتداب البريطاني ، ولم تكن ذات بال حتى بعد ضم النظام الاردني الهاشمي للأراضي الفلسطينية التي لم يتمكن العدو من احتلالها ، وانما ظهرت بشكل خطر مع تصاعد ونمو حركة المقاومة الفلسطينية في الاردن ، وانعكست خطورتها في مجزرة ايلول .

وهنا لا نختلف كثيرا مع الكاتب حين يقول : ما نريد استنتاجه هو ان الانتمائية الكيانية الاردنية ظلت عائمة على السطح ، ولم تصبح من تراث

الجماهير المتأصل في وجدانها الوطني لفترة طويلة من تاريخ شرق الاردن ، وان كانت في السنوات الاخيرة قد اتخذت لها شكلا مرضيا . الا أن الكاتب لم يعالج أسباب اتخاذ الاقليمية في الآونة الاخيرة الشكل « المرضي » ، وكذلك قفز عن أسباب بروز الاقليمية او « الانتمائية الكيانية » التي زامنت من حيث النمو نمو وتصاعد المقاومة الفلسطينية في الاردن . واعتقد أن التهرب من هذا الموضوع وعدم مواجهته بالجراة من شأنه ان يدفع البعض الى طرح مقولات تكتسب مظهرا ثوريا ، الا انها في الواقع تعرقل مسار الثورة .

لسنا هنا بصدد دراسة أسباب بروز الاقليمية لدى الشعب الاردني بشكل اقوى واخطر عقب حرب حزيران ، الا اننا سنكتفي بالقاء ضوء على هذه الاسباب والعوامل . وكمدخل لذلك سنقف قليلا حول الشرائح الاجتماعية القائمة في الاردن بشكل عام ، ففي اعقاب الحرب كان الاردن يتشكل من عشائر أردنية تستوطن الجنوب تعتمد على الماشية والزراعة مع اعتماد قطاع واسع منها على ما يدرها أبناؤها من « الوظيفة » في الجيش ، وريف اردني في الشمال يتسم بالطابع العشائري ويشكل حالة أرق من الجنوب ، وتعتمد شرائح واسعة منه على الارض والماشية وفي الاساس على ما يجلبه ابناؤها الذين يخدمون في الجيش والمرافق الحكومية ، اما الفلسطينيون فقد كانوا يشكلون معظم الطبقة البرجوازية مثلما يشكلون أيضا معظم الطبقة العمالية ، ويحتلون مراكز بسيطة في الجيش والدوائر الحكومية ، هذا علاوة عن شريحة سكان المخيمات التي ازدادت عقب حرب حزيران . ومن الطبيعي ان تتحرك هذه الشرائح الاجتماعية وفق مصالحها ، وتنظر كل منها الى الثورة الوليدة من زوايا مختلفة . فقد تجاوبت شريحة سكان المخيمات مع الحركة الثورية الجديدة ، وشكلت بالفعل عمودها الفقري ، كما وتجاوبت معها الجماهير الفلسطينية المسحوقة . وكذلك الجماهير الاردنية . وفيما يتعلق بالبرجوازية الفلسطينية الوسطى والعليا فقد كان يتنازعها عامل الاخلاص الى « الوطن السليب » وعامل الاخلاص الى « المصالح الذاتية » التي يمكن ان تتأثر خلال مسار الثورة . أما الشريحة البيروقراطية والعسكرية من أبناء الاردن سواء في الشمال او الجنوب فقد كانت تنظر الى المقاومة منذ نشأتها نظرة الخوف على مصالحها ، ومع مرور الزمن تحولت النظرة الى نظرة عدائية . واخذت هذه الفئة ، وهي التي تسيطر على الجيش والمرافق الحكومية تدخل الروع في قلوب سكان الاردن من احتمال تغيير نظام الحكم وما يستتبع ذلك من تكافؤ الفرص ، وفقدان معظم الاردنيين مراكزهم في المؤسسة العسكرية والمرافق الحكومية بسبب التفاوت الحضاري النسبي بين الشعبين ، وتهول من خطر انعكاس ذلك على معيشة ومصدر رزق السكان الاردنيين . ومن المعروف ان النظام الهاشمي حرصا منه على استمراريته ابتدع وظائف اجتماعية للشعب الفلسطيني والاردني خشية حدوث وحدة حقيقية وما يتأتى عن ذلك من خطر على نظام الحكم ، ولذا نراه اعتمد على الاردنيين في شغل معظم المؤسسة العسكرية والمراكز الحكومية. وكان النظام قبل ضم الاراضي الفلسطينية اليه يعتمد على الجالية الشركسية في شغل المناصب العليا والحرس الملكي ، ويتقرب من المناطق الجنوبية على حساب المناطق الشمالية الاكثر تقدما بهدف الحصول على نوع من التوازن بين الشرائح الاجتماعية بشكل يكون في مأمن من الاطاحة به . وكذلك فعل مع الشعب الفلسطيني والشعب الاردني .

وكان من نتيجة ذلك ان اخذت قطاعات شعبية أردنية تبتعد عن المقاومة الى النظام مع تزايد تصاعد قوة المقاومة الفلسطينية ، خشية ان يحدث التغيير المرتقب حالة من تكافؤ الفرص ، وبالتالي تضيع « الفرص » التي منحها النظام للاردنيين على حساب الفلسطينيين . ولذا فان الشريحة البيروقراطية والعسكرية في الاردن كانت مدركة للتناقض المصلحي بينها وبين الثورة . وأخذت تعمل جاهدة على تصوير الثورة بأنها تناقض مصلحيا مع مصالح الجماهير الاردنية العريضة حيث يعمل قسم كبير من أبنائها في الجيش (الذي يعتبر علاوة على كونه مؤسسة عسكرية ، مؤسسة اقتصادية كبيرة يعتاش منها قطاع واسع من سكان الاردن) وفي المرافق الحكومية والاقتصادية . وبما ان الوعي السياسي لهذه الجماهير غير متقدم ، ومدرك بأن التناقض الاساسي هو بينها وبين النظام الهاشمي ، فقد اخذت تتقبل هذه المقولات بشكل عفوي .

ومما زاد الطين بلة ، ودفع الجماهير الاردنية

الى احضان الشريحة البيروقراطية العسكرية المتحالفة مصلحيا مع الملك ، « الفلسطنة » السريعة والمتسرعة لمؤسسات الثورة ، مرفقة بالتشدد والتأكيد على الشخصية الفلسطينية ، مع ظهور تصرفات فردية كثيرة تطفح منها رائحة الاقليمية » الفلسطينية . زد على ذلك وجود أعداد كبيرة من الشعب الفلسطيني ، كانت قد ذاقت الأمرين من النظام الملكي ، وعندما أتيح لها حمل السلاح للمرة الاولى ورأت انها سيدة نفسها ، وفي غياب التثقيف الثوري ، كان الامر يختلط عليها في كثير من الاحيان بين النظام الاردني والاردنيين . وكان التشنج الفلسطيني « الاقليمي » يوجه في كثير من الاحيان ضد أردنيين لكونهم أردنيين ، الامر الذي ساعد على دفع هؤلاء الى الاحساس بـ « الانتمائية الاردنية » وتنميته وبالتالي زيادة المشاعر الاقليمية .

وتجدر الاشارة هنا انه مع حدوث شرخ في المجتمع الفلسطيني الاردني في شرق الاردن على الصعيد الشعبي ، وتمحور الاستقطاب حول مسقط رأس المواطن ، أخذت اعداد كبيرة من الاردنيين تشعر بأنها غريبة عن الثورة الفلسطينية ، كما وأخذ البعض من الاردنيين ، وخاصة من فئة المثقفين الذين يشكلون الشريحة البيروقراطية العسكرية ، ينمي الاحساس بالخطر لدى الاردنيين من التواجد العددي الضخم للشعب الفلسطيني في الاردن ، وأخذ يوازي بين خطر التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين على الفلسطينيين ، ومن خطر « التجمع الاستيطاني » الفلسطيني في الاردن على الاردنيين ، ويتخوفون من قيام وطن فلسطيني بديل في الاردن بسبب الصعوبات الجمة التي تعترض طريق التحرير . وكلنا نذكر الاشاعات التي روجت لها الدوائر الاستعمارية اثناء تواجد المقاومة في الاردن ، حول احتمال منح المقاومة دولة فلسطينية تضم شرق الاردن والضفة الغربية وقطاع غزة في صفقة سلام مع العدو الاسرائيلي . لقد كانت هذه الاشاعات تعصر قلوب الاردنيين وتجعلهم يتخوفون على مصالحهم ، وكيانهم ، الامر الذي نمى لديهم الاحساس بـ « الانتمائية الكيانية » . زد على ذلك ان النظام الملكي لم يكن غافلا عن القيام بحملات دعائية نفسية بين صفوف المواطنين الاردنيين ، تستهدف التهويل من الخطر الفلسطيني على الاردنيين من حيث المصالح والكيان .

لهذه الاسباب مجتمعة خلق للمرة الاولى في تاريخ الاردن احساس اقوى وأوضح بالشخصية الاردنية والهوية الاردنية والكيان الاردني . وقد نجم عن ذلك ان استطاع الملك ان يسحب من أيدي المقاومة الفلسطينية شرائح اجتماعية واسعة مسحوقة تلتقي مصلحيا مع الثورة الفلسطينية .

اذن يمكن القول بأن تخوف القطاع الاكبر من الاردنيين من تصفية الكيان الاردني لحساب الكيان الفلسطيني لواقع وجود غالبية فلسطينية ، من الاسباب الرئيسية التي دفعت معظم الاردنيين للوقوف الى جانب الملك ، ومع ان هذا التخوف ليس في محله ، وانما روجت له الشريحة البيروقراطية العسكرية ، وغذته حملات الملك النفسية ، وساعدت على ولادته بعض التصرفات الطائشة من قبل عناصر فلسطينية ، الا انه لا يزال قائما .

ويأتي الآن كاتب فلسطيني لينصح المقاومة الفلسطينية بالعمل على الغاء الكيان الاردني بغرض اقامة الكيان الفلسطيني الثوري فوق التراب الاردني ، متذرعا بحجتين واهيتين ، الاولى قيام الكيان الاردني فوق أرض فلسطين التاريخية .. والثانية وجود أغلبية فلسطينية في شرق الاردن . لقد سبق لنا وتحدثنا عن مدى عقم الحجة الاولى . وفيما يتعلق بالحجة الثانية ، فان السؤال المطروح هل الحجم العددي للفلسطينيين في بلد ما هو الذي يقرر الغاء كيان ذلك البلد واقامة الكيان الوطني الفلسطيني الثوري بديلا عنه ؟ ألا تدفع هذه الحجة — بغض النظر عن مدى سلامتها — قوى انعزالية واقليمية في بعض اقطار المواجهة الى اقتفاء غولدا مئير حين تصحو من نومها كل صباح ليكون أول سؤال يرتسم في مخيلتها كم من الاطفال انجب الفلسطينيون هذه الليلة ؟

ومن هنا يمكن القول بأن ما ذهب اليه الكاتب بخصوص الكيان الاردني ، من شأنه ان يدفع الاكثرية الساحقة من ابناء الشعب الاردني للتمسك بكل أظافرهم بـ « الانتمائية الكيانية » الخاصة بهم ، ويجعلهم سوطا طيعا في أجهزة الملك القمعية ضد ابناء الشعب الفلسطيني ، الامر الذي يتأتى عنه تأخير المسار الثوري لشعبنا وعرقلته . ومن هنا تكمن خطورة مقولة الكاتب . فالمطلوب الان وضع حد للردة الاقليمية الموجودة بين قطاع من

الجمهور الفلسطيني والاردني ، والمطلوب الان وفي المستقبل ايضا العمل بلا كلل أو ملل لبناء صيغة العلاقة السليمة بين الجماهير الاردنية والفلسطينية بشكل يضمن مصالح هذه الجماهير المطلبية والوطنية ، ويكشف التناقض الاساسي القائم بين مصالحها ومصالح النظام الملكي لكي يتوفر المناخ الثوري هناك ، ويسهل من عملية الاطاحة بالنظام الهاشمي واقامة النظام الثوري البديل .

النظام والثورة : يقول الكاتب « ان تغيير النظام في شرق الاردن أو اسقاطه كما هو مطروح لن يحول شرق الاردن الى هذه القاعدة الثابتة للثورة الا اذا كان هذا الهدف خطوة الى تغيير البنية الكيانية نفسها لشرق الاردن . ان احلال نظام بديل للنظام الهاشمي في شرق الاردن دون اقتحام المسألة الكيانية كما هي هناك ، لا يعني الا خلق نظام اخر في سلسلة الانظمة الراهنة ، ستجد الثورة نفسها بعد أن يمكن جذوره في الارض ، انها باستراتيجيتها من حيث هي ثورة في منطق مختلف معه من حيث هو دولة ، وهكذا فان اسقاط النظام كهدف ينبغي — لاستمرار الثورة — ان يستتبع أيضا الوجه الاخر من العملة نعني الكيان نفسه » .

من الواضح ان الكاتب يدعو الى احلال الثورة الفلسطينية محل النظام الهاشمي ، في حال سقوطه ، مع احداث تغيير على « البنية السكانية » لشرق الاردن ، ويعارض احلال نظام غير نظام الثورة ، محل النظام الهاشمي ، خشية حدوث بينها كثورة وبينه كدولة ، ليقول بعد ذلك « وهذه النظرة الجذرية هي الكفيلة بكبح تعارض منطق الدولة ومنطق الثورة بحيث نكون الثورة هي صاحبة المقدرات في شرق الاردن ، ويتم ذلك بخلق الكيان وبنائه على أسس سكانية واجتماعية وسياسية تضمن للثورة استمرارها ، وباطار جغرافي يجعل الارض (القاعدة المنطلق) جزءا أساسيا منه » .

هنالك ملاحظة قبل مناقشة الكاتب في مسألة النظام البديل و « الكيان الثورة » هي اننا نختلف معه لدرجة اللالقاء في قضية الغاء « البنية الكيانية » للاردن ، لأن هذه مسألة كما ذكرنا تطرحها فقط موضوعة الوحدة العربية الرامية الى تذويب البنى الكيانية الراهنة في بوتقة كيان واحد ، حينذاك ، فقط ، يكون الطرح شرعيا ، بل وثوريا ، يصب في عملية بناء الغد المشرق للجماهير العربية .

أما فيما يتعلق باحلال الثورة الفلسطينية محل النظام الهاشمي ، ومعارضته حلول نظام اخر غير الثورة محل النظام في حال سقوطه ، بدعوى التعارض بين منطق الدولة ومنطق الثورة ، وخشيته من تحول النظام البديل الى مجرد نظام شبيه بالانظمة العربية الراهنة ، وتحميله الثورة الفلسطينية عبء القيام بتحمل وظيفتين في آن واحد ، تسيير دفة الحكم في « الكيان الثورة » أي في الاردن عقب الاطاحة بالنظام ، والقيام بمهام التحرير ، فاننا هنا أيضا نجد أنفسنا نقف موقفا اخر ، وذلك حرصا على الثورة واستمراريتها وتطويرها . ذلك ان المطلوب بعد الاطاحة بالنظام الملكي قيام نظام ثوري يسير دفة الحكم في الاردن ، متمم للمقاومة وليس مناقضا معها ، متناغم مع أهدافها واستراتيجيتها وليس متعارضا معها ، مطورا لأفكارها وليس معطلا لها ، الامر الذي يكفل لها القيام بأعباء مهام التحرير بسهولة اكثر ، دون ان يكون هنالك تعارض بين منطق الثورة ومنطق الدولة . ان التعارض يمكن ان يحدث في حال تحميل الثورة المهمتين معا في آن واحد ، مهمة ادارة الدولة ومهمة ادارة الثورة . وفيما يتعلق بتخوف الكاتب من امكانية تحول النظام الذي سيحل على انقاض النظام الملكي الى مجرد نظام عربي يضاف الى صف الانظمة الراهنة ، حيث يتناقض مع منطق الثورة ، يمكن أن يكون مبررا ، الا ان اشتراطه احلال المقاومة الفلسطينية محل النظام الملكي في حال سقوطه ، فليس مبررا على الاطلاق . ذلك ان المقاومة ستكون بالضرورة حينذاك مطالبة باعطاء تصور لنوعية المجتمع الذي تبنيه ، ما هو المذهب الاجتماعي الاقتصادي الذي ستهتدي به اثناء تسييرها لمقاليد الحكم ؟ ما هي الطبقة أو الطبقات الاجتماعية التي ستستفيد من الوضع الجديد ، وتسيطر بالتالي على وسائل الانتاج ؟ واذا أخذنا بعين الاعتبار ان هذه الامور لم تحسم حتى الان في الساحة الفلسطينية (بين صفوف مختلف التنظيمات) لاسباب ليس هنا مجال الوقوف عليها ، فاننا ندرك حينئذ مدى المنزلق الكامن في **اشتراط** الكاتب احلال المقاومة محل النظام في حال سقوطه ومعارضة قيام نظام الى جانبها . ليس من السهل التنبؤ بماهية النظام الجديد الذي سيحل محل النظام

الهاشمي ، هـذا فضلا عن ان الاطـاحة بـه ليسـت مهمة سهلـة وانما تعتريهـا صعوبـات جمة ، الا انه من خـلال استقرائنا لخصوصية الوضع في الاردن ، وادراكنا لمدى القهر والاضطهاد والكبت الذي تعانيه شرائح اجتماعية عريضة من الجماهير هناك ، ومدى التناقض القائم بين مصالح الجماهير الفلسطينية والاردنية مع النظام الـذي يعود بقاؤه واستمراره بشكل ليس بالقليل الـى الكيان الاسرائيلي ، مـن خلال وعينـا وادراكنا لذلك ، يمكن لنا ان نستشف وجه النظام الجديد في حال سقوط النظام الملكي ، انه على الارجح لن يكون نظاما يضاف الى سلسلة الانظمة العربية ، بل يمكن له ان يكون نظاما ثوريا متمايزا عنها . واذا ما استطاعت المقاومـة الفلسطينية كسب الجماهير الاردنية ، وسحبها من جانب الملـك ، لتقف مع الجماهير الفلسطينية في تصديهـا للنظام هناك ، على أساس ان مصالحها الحقيقية تكمن في التغيير ، فان امكانيـة اسقاط النظام تكـون واردة ، وقيام نظام متمايز عن الانظمة العربيـة يكون واردا أيضا ، واذا حدث وان حل نظـام حكم محل النظام الملكي ، وعبر تعبيرا صادقا عن مصالح الجماهير الاردنية والفلسطينية المسحوقـة والمحرومة فان من الضروري الاشتراط حينذاك بأن تناط به مهمة تسيير دفة الحكم ، لأن لن يكون متناغما مع اهداف الثورة ومنسجما مـع منطقتها واستراتيجيتها فحسب ، بل سيمكن الثورة ايضا من دخول حالة أرقى على الصعيديـن الفكـري والنضالي ، ويخلصها من جملة السلبيات العالقة بها ، لتصبح هي والنظام الجديد « وجهان لعملة واحدة » كما كان الحال بالنسبة لجبهة التحرير الوطني لفيتنام الجنوبية والنظام القائم في فيتنـام الشماليـة . حينئذ سيتحول الاردن الـى بؤرة ثورية ، تستقطب الثوار ، وتهب منهـا ريـاح التغيير على المنطقة بأسرها ، وسنجد أنفسنا أننا قد اختزلنا المسافة الفاصلة بين التشرد والتحرير .

بين القهر القومي والخلاص الوطني ، سنجد أنفسنا نقف على أرض صلبة قوية يندفع منهـا الثـوار الفلسطينيون مع جميع الانصار نحو الغرب لتحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني ، وتخليصه من الكيان الاسرائيلي العنصري . وليس كما جاء في طـرح الكاتب « فان الاساس في شرق الاردن الفلسطينية هو بناء الوطن القاعدة ، الذي هـو الخطـوة ذات التجسيد العملـي نحو فلسطين الكبرى ، وهو الذي يمكن الفلسطينيين من اطراف الارض المرشحة للتحرير فـ « يتوسعون » مـن عليها الى الغرب من النهر » .

ربما يتبادر الى الذهن بأن التصور الذي قدمناه صعب التحقيق بسبب ضخامة المعوقات القائمة ، والحقيقة ان الامر كذلك ، وليس من شك بأن وضوح الرؤيا لجملة المصاعب والاعتراف بها ، يساعد على توجيه الثورة في مسارها السليم . ومع ذلك يبقى هذا التصور أقرب الـى التحقيق والتجسيد من المقولة التـي تبناهـا الاخ عصام سخنيني ، هذا اذا تجاوزنا المخاطر والسلبيـات الكامنـة بها تجـاه النضال الوطنـي للشعب الفلسطيني . ولذا فاننا نقول بأن المطلوب ليس الغاء الكيان الاردني ، فهذه مسألة تخص موضوع الوحدة العربية ، وانما المطلوب خلق نظام وطني ثوري على أنقاض النظام الهاشمي ، يعبر عـن مصالح الطبقات المسحوقة والمحرومة ، الاردنية والفلسطينية . ولا يتأتى ذلك الا بخلق صيغـة نضالية تلتف حولها جماهير الشعبين . وليس من شك بأن مساهمة المثقفين الثوريين الاردنيين ــ بحكـم التصاقهـم بالجماهير الاردنيـة ودرايتهم بمشاعرها وأحاسيسها وآمالها ــ في خوض النقاش حول هذه الصيغة ، من خلال « شؤون فلسطينية » مثلا ، ستصب في خدمة الثـورة الفلسطينيـة المعبرة عن أشرف وأنبل هدف : تحريـر الارض والانسان .

كتابان اسرائيليان عن حرب اكتوبر

[١] الصدمة ، يائير كوتلر (تل أبيب ١٩٧٤ : شوكن)

عقب حرب حزيران ١٩٦٧ صدرت عدة كتب اسرائيلية حول مختلف جوانب تلك الحرب ، ولعل كتاب « حديث المقاتلين » يعتبر من أهمها على الاطلاق لوقوفه بعمق على انعكاسات الحرب على شريحة معينة في المجتمع الاسرائيلي ، الا وهي شريحة مجتمع الكيبوتس . فقد حرص واضعو الكتاب على اعطاء صورة حية نابضة وعميقة عن مشاعر وأحاسيس شريحة مجتمع الكيبوتس تجاه الحرب وانعكاساتها على تلك الشريحة ، وذلك من خلال رصد وتسجيل احاديث لجنود شاركوا في الحرب ، واحاديث لاناس عاشوها ومن ثم تفريغ هذه الاحاديث على صفحات كتاب . وليس هنالك شك بان كتاب « حديث المقاتلين » يعتبر اهم مرجع لن يود الوقوف على نفسية وتفكير شريحة مجتمع الكيبوتس في اسرائيل تجاه قضية السلام والحرب.

وفي اعقاب حرب اوكتوبر ١٩٧٣ صدرت عدة كتب اسرائيلية حول مختلف جوانبها ، الا ان أهم كتاب صدر حتى الان عن انعكاسات الحرب على المجتمع الاسرائيلي ككل ، وصور بشكل واضح الازمة النفسية العميقة التي يواجهها هذا المجتمع، نتيجة الحرب ، هو كتاب « الصدمة » لصاحبه يئير كوتلر (٢١٤ صفحة ، صدر عام ١٩٧٤) الذي يقدم لنا صورا نابضة وحية وعميقة عن انعكاسات الحرب على شرائح المجتمع الاسرائيلي المتعددة ، من خلال تسجيل احاديث لعينات متمايزة ، عبرت عن احاسيسها ومشاعرها وانطباعاتها تجاه الحرب الاخيرة .

عندما انتهيت من قراءة الكتاب بغرض تقديم مراجعة له ، اصبت ببعض الحيرة ، هل انتهج الاسلوب الدارج ، اي تقديم مراجعة للكتاب بشكل مقتضب سريع مع احاطة ذلك بشيء من النقد لبعض الافكار او الفقرات ، بحيث لا يتعدى ذلك صفحتين او ثلاثا ، والخروج من ذلك بدعوة القارىء الى قراءة الكتاب لاستكمال الصورة ! ، او اتباع اسلوب آخر ؟ ان اتباع الاسلوب الاول لن يجدي نفعا ، خاصة وان الكتاب كتب باللغة العبرية ، ولا يمكن للمراجع اعتماد الجملة التقليدية التي تدعو القارىء للاطلاع عليه ، لان الدعوة في هذه الحالة لا تعني الا اثارة استهجان القارىء ، ومن هنا فاني ارتأيت تقديم هذا الكتاب بشكل موسع ، مراعيا قدر الامكان المحافظة على روح حديث صاحب الحديث ، مركزا على الامور الاساسية الواردة في جميع الفصول ، مع المحافظة على أن يكون التعليق بأدنى حد ممكن .

هنالك ملاحظة يجدر تسجيلها قبل البدء في تقديم الكتاب وهي ان القارىء العربي ربما يفاجأ مما احدثته حرب اوكتوبر الاخيرة في نفسية مجتمع المهاجرين والمستوطنين ، حيث يقف بعد قراءة الفصول ككل على مدى الجرح النفسي العميق الذي أحدثته تلك الحرب في نفوس الاسرائيليين ، وعلى مدى حالة اليأس والهرب من الواقع الاسرائيلي ، اليأس من الاطر السياسية القائمة في اسرائيل باعتبارها من أسباب الفشل في حرب اوكتوبر ، ولكن دون العثور على بديل ، والهرب

من اسرائيل بالذات . وكذلك على علامة السؤال التي اخذت ترتسم بشكل اوضح في ذهنية المواطن الاسرائيلي تجاه مستقبل المشروع الصهيوني . الا انه ينبغي ان لا يغيب عن بالنا ونحن نقف على صدمة عينات من المجتمع الاسرائيلي ، وعلى الخسائر التي وقعت في المعدات والارواح ، ان نذكر ونتذكر ايضا — وهذا غير وارد في الكتاب — الاعداد الكبيرة من شهدائنا الذين كان لهم شرف الاستشهاد لخلق واقع جديد ، يمهد للتحرير .

العميد

يبدأ العميد بالاعراب عن رأيه بأن حرب « يوم الغفران » ليست الحرب الاخيرة ، ويرى ان هنالك احتمالين لنشوب الحرب من جديد ، خلال انعقاد مؤتمر جنيف او عقب انتهاء مباحثات المؤتمر ، لاعتقاده بأن الهوة بين مواقف الاطراف المتنازعة واسعة جدا ، وليس هنالك أمل بسدها وبالتالي فهو يرى بأن مؤتمر جنيف لن يثمر أبدا .

ثم ينتقل الى عملية عبور القوات الاسرائيلية لقناة السويس وينتقد التباطؤ الذي حدث في بداية مرحلة العبور في نقل القوات الاسرائيلية وبعد ان يشرح عملية نقل قوات المظليين وبعض الالوية المدرعة غربي القناة يقف على الذهول الذي اصاب الطرفين : « لقد أصيب المصريون بذهول ، كما وان الطرفين كانا مذهولين ... لم يصدق الطرفان بأن القوات اصبحت بالفعل في الناحية الاخرى ، لقد عرف اليهود بأن القوات قد اجتازت ، الا انهم لم يصدقوا بأن العملية حقيقية ... » ثم يذكر بأن دباباته تقدمت في ذلك اليوم مسافة ٢٥ كيلومترا ودمرت ٣٠ دبابة مصرية . لينتقل بعد ذلك الى القول : « انني أعرف واسمع كل ما يقال ضدي ، الا انني اعتقد بأنني تركت قيادة منظمة تماما ، انني اعتقد بأنني خلقت فهما واضحا للدفاع عن القناة ... » وهنا ندرك ان العميد الذي يتحدث هو اريك شارون الذي شغل قيادة المنطقة الجنوبية حتى قبيل حرب اوكتوبر ، ثم عاد الى الخدمة العسكرية وسط الحرب وقاد تشكيلا انيطت به مهمة اجتياز القناة .

ثم ينتقل العميد الى توجيه انتقاداته الى الحصون الاسرائيلية المسماة بالقلاع : « لقد رأيت في القلاع جذور الشر ونقطة الضعف ، مثلما حدث بالفعل في الحرب ، ففي هذه القلاع وقع عدد كبير جدا من القتلى ، في القلاع نفسها وفي الدفاع عنها ... » ويذكر انه كان قد وقف ضد اقامة هذا النوع من القلاع ويحمل مسؤولية فشلها الى بارليف دون ذكر اسمه ، ثم يخوض بتوسع مناقشا مسألة التصدي للهجوم المصري وينتقد اسلوب الدفاع ويذكر بأنه كان يتوجب على القوات الاسرائيلية خلال ثلاثة ساعات ان تقوم بهجوم معاكس وتجتاز القناة بدل استخدام اسلوب الدفاع وقال ان هذه القوات دربت على ذلك عشرات المرات، وبدل ذلك كانت القوات الاسرائيلية الرئيسية المدرعة بعيدة عن خط القتال كما وان القيادة كانت هي الاخرى بعيدة عن الجبهة ، تحت الارض في احد الاستحكامات ، ويذكر ان القيادة أمرت بوضوح التخلي عن الخطة المسبقة الرامية الى القيام بهجوم معاكس ، ثم يوجه انتقاده لواقع استمرار تواجد القيادة في الايام الاولى للحرب داخل الاستحكام بعيدا عن الجبهة بقوله : « ... تحدثت مع البرت (قائد القوات المدرعة في سيناء ، لقي مصرعه في الحرب) وعندما جئت مع فجر يوم الاحد وجدته ، ويا لشدة مفاجأتي ، في الاستحكام ، مثل بقية القادة الموجودين في الاستحكام . انهم لم يعرفوا ما يجري في ميدان القتال . لقد حدثت اخطاء عقب ذلك ، انني لا اعتقد بأنهم تخوفوا على حياتهم انني اعتقد بأنه كان لهم هنالك اتصال افضل . انني اريد ان اقول : ان جيش الدفاع الاسرائيلي هذا هو ليس جيش الدفاع الاسرائيلي الذي نعرفه ، جيش الدفاع الاسرائيلي هذا اذا لم يجتز هزة . انني اقول هزة لم يعرف مثيلا لها ، فستحدث كوارث فظيعة في المستقبل » . ثم يتطرق الى دخول القوات الاسرائيلية المدرعة المعركة خلال اليوم الاول بدون نظام ويتطرق الى الخسائر في الجانب الاسرائيلي خلال اليوم الاول ، اكثر من ١٥٠ دبابة . « عندما بدأ المصريون بالعبور ، شرعت دباباتنا بالتوجه نحو الجبهة ، وبما ان الوضع كان غير واضح ، فانها ادخلت ايضا بشكل غير منتظم ، لذا فاننا فقدنا خلال اليوم الاول ، يوم الاحد حتى الصباح ، حوالي ١٥٠ دبابة ، وربما اكثر ، فهم لم يعرفوا من القادم ... لقد أصيب معظمها بواسطة الصواريخ » . ثم ينتقل الى الحديث عن دوره في

حرب الاستنـزاف ودوره في محـاربة الثـورة الفلسطينية في قطاع غزة حتى استقالته من قيادة المنطقة الجنوبية ، وبعد ذلك يتحدث عـن رأس الجسر الاسرائيلي الذي أقامته قواته وعن الثغرة غربي القناة مركزا على ان معارك مريرة قد نشبت غربي القناة تفوق في شدتها معارك الحرب العالمية الثانية ، ويصف رأس الجسر بقوله : « كان رأس الجسر دائما تحت نيران المدفعية حتى وقف اطلاق النار ، الا انه بواسطة رأس الجسر هذا مرت ثلاث تشكيلات عسكرية مدرعة ، آلاف آلاف من وسائط النقل مرت عن طريقه ... انني اقول : كانت هنالك نيران ، وبالفعل كانت ، جميعنا كنا تحت النيران ، الا ان القيادة كانت في مكان ليس فيه نيران ، ونحن كنا في مكان فيه نيران . لقد وقعت معارك عنيفة بالدبابات ومعارك مشاة ، وكان هنالك قصف ثقيل . لقد وقعت بعض الاخطاء الصغيرة في تشكيلتي العسكرية مثل معركة سرفوم عند مدخل الاسماعيلية . ولكن لـم تكن هنالك اجراءات او اخطاء تسببت باحداث خسائر ، بيد انه كانت هنالك معارك عنيفة للغاية ، فتشكيلي العسكري كان يضم آلافا كثيرة من الجنود ، مع كل المستويات الادارية الاخرى . وكان لدينا حوالي ٢٠٠٠ مصاب ربعهم في عداد القتلى والمفقودين ، وهذا يعني ان الكثيرين قد اصيبـوا في معارك عنيفة ، معارك عنيفة بالفعل . هذه خسائر كبيرة . عقب المعركة الليلية حول رأس الجسر ، احصيت دباباتنا التي دمرت لوجدتها ٤٨ دبابة ... » . ثم يعود ويوجه سهامه نحو القيادة البعيدة عن ميدان القتال ، وينكر بأنه لم يطع اوامر القيادة : « هم بكل بساطة ، لم يعرفوا المنطقة ... ولم يصلوا الى ميدان القتـال ، ولم يكونوا فـي الميدان ... وانتصروا مـن بعيد ... وتخوفوا حسب اعتقادي من أن أنجح ... هم تخوفوا من نجاحي ... وسلكوا معي مسلكا عدائيا من اللحظة الاولى ولا سيما منذ اللحظـة التي وصل فيهـا بارليف . في البداية كانت هـذه بمثابة مسألـة سياسية . هكذا بالفعل . لقد تخوفوا من انجاز يحرزه الى « ليكود » في الانتخابات ، ان الخوف من ان احرز انجازا كان في نظرهم اخطر بكثير من ان يحرز المصريون انجازا ... »

ثم يعود مرة اخرى ويتحدث عن القيادة وعن نظرة الجنود نحوها ، وارتباطهم به : « ... من هنا يمكن تفسير نظرة الجنود نحوي ، لا يمكن خداع الجنود . ان نظرة الجنود نحوي ونحـو تشكيلي العسكري كانت عامة في جميع الجبهات ، ذلك ان جميع الجنود رأوا وشاهدوا ، وعندما وقف الى جانبي رئيس هيئة الاركان او قائد المنطقة الجنوبية. لم يتحرك نحوهما أي جندي...» ولم ينج من انتقادات شارون الا شخص واحد في القيادة الاسرائيلية ، موشيه ديان ، فقد حرص « العميد » على الاشادة به وامتداحه. وفي نهاية الفصل يتطرق شارون الى حروب اسرائيل بشكل سريع ويذكر ان حرب ١٩٤٨ كانت « غير ممتنعة » وان حرب ١٩٥٦ كانت « ضرورية » وان حرب حزيران ١٩٦٧ كانت « غير ممتنعة » اما حرب اوكتوبر الاخيرة فقـد « كان من الممكن تأجيلها او منع حدوثها . لقد قلت ذلك أمام الحكومة ، ذلك انني اعتقد بأن الحرب لم تكن لتندلع لو اعلنـا التعبئة العامة بشكل علني . ان عملية وقائية يقوم بها سلاح الجو لم تكن لتمنع اندلاع الحرب ، ذلك ان سلاح الجو ليس بوسعه القيام بهجوم . فقد كانت هنـالك صواريخ . ان الاقتراح الداعي الى قيام سلاح الجو بشن هجوم لا ينطوي على شيء ، ولو حدث تجنيد كامل فان الحرب ستؤجل الى ان نغفو ، وتخف حدة يقظتنا ... ».

ثم ينهي حديثه بابداء وجهة نظره حول احتمالات التسوية ، ويقرر بأن لا أمل للتسوية ذلك ان هنالك « مناطق يمكن التنازل عنها ومناطق لا يمكن التنازل عنها ، ولن يوافقوا عـلى تسوية اذا لم نتنازل عن جميع المناطق ، وحينذاك لن تكـون تسوية » . ومن هنا يؤكد ما كان قد ذكره في بداية حديثه بأن حرب يـوم الغفران ليست الحـرب الاخيرة .

٣٦ ساعة من العزلة

يعرف الكاتب ، المتحدث بأنه ضابط مظلي برتبة رائد في قوات الاحتياط ، متزوج وله طفلان ، وكان ضمن الوحدة الاولـى التي اجتازت قنـاة السويس بزوارق مطاط ، وانه شغل خلال حرب اوكتوبر منصب مساعد قائد كتيبة .

يبدأ الرائد حديثـه بشرح ظروف تجنيده عقب اندلاع الحرب يوم السبت ، ويذكر ان الحرب قد

فاجأت الجميع ، الا ان الاحساس السائد بين الجنود ينم عن ان العرب سيتلقون ضربة قوية وعلى جناح السرعة ، ويعلل سبب ذلك بعدم توفر المعلومات الصحيحة عن سير المعارك وتستر المتحدث الرسمي الاسرائيلي عليها : « ان المتحدث الرسمي باسم الجيش الاسرائيلي لم ينقل لنا معلومات ، اية معلومات ، وعلى العكس ، فان المعلومات التي أبلغونا بها كانت قليلة ، فقد ذكر المتحدث ان موقع جبل الشيخ قد اعيد احتلاله من جديد . ولم يكن ذلك صحيحا ، بل تضليل بالفعل » . بعد ذلك يذكر بأن القيادة أمرت المجموعة بالانتقال بواسطة طائرات النقل من وسط البلاد الى منطقة الميتلا لتطويق احتمال قيام قوات الكوماندو المصرية بهجوم هناك ، وبمجرد وصول الكتيبة الى هناك فوجئت بغارة من قبل طائرات الميج المصرية الامر الذي استدعى انتشار القوات في الوادي ، وهناك ، داخل الوادي ، عثرت قوات الرائد على ضابط مصري وجندي مصري مزودان بآلات اتصال وبأسلحة فردية ، ويقول : « قال لي الضابط المصري : اسمع ، لو كنتم فقط خمسين جنديا لاطلقنا عليكم النار ... » ثم يذكر ان طائرات الميج عادت مرة اخرى وألقت بقذائفها على قوات الكتيبة واصابت مستودع الذخيرة ، وحدث اشتباك جوي بينها وبين الطائرات الاسرائيلية الا انه لم يذكر نتيجة هذا الاشتباك . وبعد ذلك يتطرق الى نقل القوات الى الخلف ، ومن ثم ضمها الى التشكيل العسكري الذي يقوده اريك شارون ، وبعد ذلك يغوص بشيء من التفصيل في عملية توجه قواته مع قوات شارون ليلا نحو القناة بغرض اجتيازها متطرقا الى معارك الدبابات الرهيبة التي كانت تدور بالقرب من موقع العبور الاسرائيلي وانه شاهد عددا كبيرا من الآليات الاسرائيلية مدمرة على جانبي الطريق ، والى وصول قواته الى ضفاف القناة واجتيازها بواسطة الزوارق المطاطية ، وقيامها بعد ذلك بالتمركز والقيام بعمليات استطلاعية واصطدامها مع بعض الجنود المصريين الذين يذكر بأنهم فوجئوا بوجود قوات اسرائيلية غربي القناة ، الا انهم بعد ذلك اخذوا يقاومون القوات الاسرائيلية ويوجهون نحوها قصفا مركزا « يتمتع المصريون بتوجيه صحيح ودقيق » الامر الذي احدث اصابات بين القوات الاسرائيلية ومن ضمنهم « الرائد » المظلي ، ثم يذكر بأن قوات المظلات « سرية » بقيت تتنقل هناك وتحدث اشتباكات صغيرة مع المصريين لوحدها طيلة ٣٦ ساعة في الضفة الغربية للقناة ، الى ان بدأ العمل باقامة رأس الجسر الاسرائيلي ، ويرجع سبب تأخير تدفق القوات الاسرائيلية الى تصدي القوات المصرية لعملية بناء رأس الجسر الاسرائيلي ، وبالتالي عزل سرية المظلات طيلة ٣٦ ساعة « ببساطة كنا معزولين . حسب الخطة كان ينبغي ان يقام رأس الجسر ، ومن ثم يبنى الجسر فورا وتبدأ القوات بالتدفق ، وفي مرحلة ما واجه الجسر قصفا ، وانقلبت بضع دبابات ، وكان القصف غير عادي في منطقة الجسر ، وامسك المصريون بزمام الامر ، وتقدموا نحو المحور وعزلوه ، وكان الامر يستلزم القيام بعملية التفاف من الجنوب ومن ثم التقدم واستغرقت هذه العملية ٣٦ ساعة ، كما وان صدهم استغرق ٣٦ ساعة ، وطيلة الـ ٣٦ ساعة هذه كنا معزولين يومين بدون طعام ... كما وان الماء قد انتهى بسرعة ، وشعرنا بالعطش ... » ثم يذكر بأن جنود سريته اضطروا للشرب من الآبار المحلية بالرغم من ان الاوامر الصادرة اليهم تدعوهم الى عدم الاقدام على ذلك خوفا من تسميم الماء او اتقاء شر مرض الملاريا ، كما وان « الجنود اخذوا يتصرفون كالحيوانات ، فقد كنا نتضور جوعا، وبدأنا باصطياد العجول والخراف والدجاج والاوز ، حيث كانت في الضفة حيوانات كثيرة ... اصطدنا ، وشوينا على الجمر ، وأكلنا لحما نيئا ، لقد كان ذلك صعبا ، صعبا للغاية ومثيرا للتقزز ... » ومن ثم يتطرق الى اقامة رأس الجسر والخسائر « طيلة اليوم وصلت تقارير حول سقوط عدد كبير من القتلى والجرحى ، فقد لاقى عدد كبير من جنود الكتيبة مصرعهم ، وعلمنا من اخطاء في القيادة ابان المعارك ، وسادنا جو من الوجوم ... وبعد أن أقيم رأس الجسر تحسنت الحالة بالنسبة لنا كثيرا ، وشرعت قوات كبيرة مدرعة بالتدفق نحو الشمال والجنوب ، وكادت ان تهاجم قواتنا التي تحركت نحو الشمال » .

ويفهم من حديث « الرائد » بأن قواته بالاضافة الى مجموعة القوات المتحركة نحو الشمال كانت تستهدف تطويق الجيش الثاني المصري ومحاصرته

ومن ثم القضاء عليه ، الا ان القوات الاسرائيلية لم تتمكن من ذلك وتوقفت عند مشارف الاسماعيلية « اثناء وقف اطلاق النار الاول في ٢٢ اوكتوبر جلسنا بالقرب من الاسماعيلية ، وتاهبنا لعبور قنوات المياه الحلوة ، وكان هنالك احساس جيد يسود الجنود ، لقد حدث اول وقف للنار ، لقد اراد الجنود الانتهاء من هذا العمل ، لقد فقدنا اكثر من عشرين قتيلا وحوالي ٧٠ جريحا ، وفي اللحظة الاخيرة وقف اطلاق النار . كان الجنود يجتازون توترا نفسيا غير اعتيادي ، تعبين منهكين، وخائفوا من استمرار القتال ، لقد اعتقدوا بانه لن تكون هنالك خسائر كثيرة الا انها كانت بما فيـه الكفاية ، شعور غير طيب ، ارادوا الانتهاء ، كفى كفى . وفجأة استؤنفت اعمال القصف ، واستمرت اعمال القتال ، واستغرقت يومين ، وبعد ذلك اعلن عن وقف اطلاق النار الثاني ، وأبلغونا بأن ننطوي ونعود لـ ... لكي نكون بمثابة قـوى احتياطية . فرح الرجال من وقف اطلاق النار ، وخافوا من وقوع اصابات اخرى وحتى على الرغم من انهـم كانوا يعرفون انه مـن الممكن تطويق الجيش الثاني فقد فضلوا وقف اطلاق النار ، كل جندي اعتراه الخوف ... وفي سريتي قام جنديان بكتابة وصيتهما ، وبعد ذلك صادف ان لقيـا مصرعهما بالفعل ، وكانا يشعران كأنهما على موعد مع الموت » .

الى هنا ينتهي الرائد من الحديث حول سرد بعض اعمال سريته خلال معركة اوكتوبر وينتقل للتحدث عن احتمالات السلام والحرب في المنطقة . ينطلق من الفكرة القائلة بأنـه لا ينبغي احداث تنازلات كبيرة للعرب لانهم لا يقتنعون بأية تنازلات ، حيث يتقبلون هذه التنازلات اليوم ومن ثم يطالبون بتنازلات اخرى وهلمجـرا الى ان ينهوا دولـة اسرائيل ، ومن هنا فانه يطالب بأن تكون التنازلات واضحة ونهائية ، مع وجود اسرائيل قوية عسكريا: « من الممكن حسب رأيي التوصل الـى تعايش سلمي مع العرب . ان القوة العسكرية هي التي تقرر ، وكلما تعززت قوتنـا العسكرية تحسـن وضعنا . ان جيش الدفـاع الاسرائيلي سيكون بمثابة عامل الردع ، ينبغي التنازل (لمصر) حتى خط معين لا اكثر ، وهذا الخط المعين هـو الميتلا والجدي وليس أكثر . اما بالنسبة لسوريا ينبغي عدم التنازل عن اي شيء ، ومن الممكن العودة في الهضبة الى الحدود التي كانت لنا قبل حرب يوم الغفران . وفي الضفة يمكن اطلاق يد حسين ولكن بدون جيش . ولا يعتريني شك انه مـن خلال المناطق والعمق الاستراتيجي يكون بامكاننا الدفاع بشكل جيد عن انفسنا » . اي انه يؤمن بفرض السلام مـن خلال القوة الاسرائيلية الرادعة ، ويبدي تخوفه من قيام امريكا بالضغط على اسرائيل «ويعرب عن اعتقاده» بأن العرب ينهجون في الوقت الحاضر اسلوب المرحلية لتصفية اسرائيل. اما اذا كان لا بد من احداث تسوية مع العرب فانه يقترح تجريد سيناء بكاملها من السلاح بعد الانسحاب الاسرائيلي منها ، وبالنسبة لهضبة الجولان يقترح بقاءها تحت السيطرة الاسرائيلية . وبعد حديثه القصير من التسوية المعقولة في نظره يعود مرة اخرى الى انتقاد القيـادة ويتهمها بانها تتغنـى بالنصر مع انه لم يكن هنالك نصر ، ممتدحا الصف الثاني من القيادة مثل شارون ورفول ، الا ان جو الكآبة يعود ويخيم على نفسيته اثنـاء تصوره للمرحلة القادمة التي سيدخلها : « لقد سئمت . انني اعتزم الزواج وشتم القيادة . سأنمي كرشي ، واقتني شقة ، وأسرق ضريبة الدخل مثل سائـر اليهود . ومن ثم تندلع الحرب مرة اخرى ، ويمكن لامرأتي ان تبقى أرملة، حينذاك، سيقومون بالتأكيد بترفيعي الى رتبة رائد ، الخ ... ماذا أستطيع ان اعمل ؟ كيف يمكن تغيير الامور في اسرائيل ؟ لا اجابة عندي . انني اصل الى طريق مسدود ... » ولعل روح هذه الكآبة تعـود الى نتائج حـرب اوكتوبر وكذلك الى الظواهر السلبية التي اخذت تتفشى في المجتمع الاسرائيلي : « لقد تركت الجيش وانا محطم تماما . لهذه الحرب قتلتني . هذا علاوة على قضايانا الداخلية . اننـي مستاء للغاية . أسأل الناس كيف يصلون الى شقة : غزو ، صراخ ، فضـائح . الا ان المهـاجرين الجـدد يحصلون ... »

المحاصرون الاربعة عشر

بطل هذا الفصل قائـد سرية في لواء مظليين برتبة رئيس ، كان ضمن القوة الاولى التي اجتازت القناة غربا ، يبلغ من العمر ٣٠ عاما . اعزب . هكذا يعرف الكاتب المتحدث التالي .

يبدأ الضابط المظلي حديثه حول معركة فاشلة

جرت عند مدخل الاسماعيلية ، ويوجه انتقادات لاذعة لقائد الكتيبة قائلا : كانت المعركة حول سرفوم عند مشارف الاسماعيلية بمثابة فشل كبير ، ولم يكن هنالك اي رأي صحيح لقائد الكتيبة ، وقد سكتنا بشكل او بآخر طيلة الوقت ، وقبلنا سلطته، الا أننا في النهاية لم نستطع تحمل اكثر من ذلك . كانت هنالك مشكلة مع جنود الكوماندو المصريين ، قال لي قائد الكتيبة ، خذ مجموعة وتقدم بهـا مسافة ٢٠٠ متر منا ، اي شيء هذا ؟ قال لي : نفذ الامر . قلت : لا يوجد شيء كهذا ، مجموعة لوحدها مع مدفع رشاش ، ما هذا ؟ ان المصريين لا يعملون بمجموعات صغيرة ، وفي النهاية عملت مثلما أراد قائد الكتيبة ، ولم أرد أن أرفض الامر، وبعد ذلك اعادنا » . ويستطرد قائلا : « لقد بدأت ظاهرة التباهي ، انني اقول ذلك بكامل المسؤولية ، لقد قابل قائد الكتيبة الصحفيين ، وتحدث معهم حول معركة سرفوم وحول البطولة ، وجذب اليه صحفيين كالذباب . وحول المعركة الى معركة بطولة ، وروى لهم كيف ان ١٤ مظليـا اسرائيليا صدوا كتيبة مصرية . والحقيقة ان شيئا من هذا القبيل لم يحدث على الاطلاق ... كل واحد كان في سرفوم ساده شعور من الفشل ، بما في ذلك قائد الكتيبة نفسه ... » ثم ينتقل الضابط المظلي الى التحدث عن صراعه مع قائد الكتيبة وكيف ان الاخير أراد نقله الى وحدة اخرى، ورفضه لهذا الامر ، وفي الوقت نفسه يمتدح اريك شارون وينتقد مجموعة القيادات الاخرى ولا سيما بارليف : « هنالك ظواهر سلبية كثيرة في الجيش، مثلا خط بارليف ، انني ارى فيه بداية تدمير الجيش ... » ثم يتطرق الى عدد الجنود الاسرائيليين الذين لاقوا حتفهم في حصون بارليف خلال الايام الاولى للمعركة . ويقدر عدد القتلى بـ ٥٠٠ قتيل وعدد الجرحى بـ ٥٠٠ جريح ، ويكشف النقاب اثناء حديثه عن هذا الخط ، للمرة الاولى عن عدد قتلى اسرائيل خلال حرب الاستنزاف حين يذكر بأنه قد سقط حوالي ٨٠٠ قتيل في تلك الحرب ، هذا علاوة على انتقاده للاموال الطائلة التي ابتلعها الخط المذكور والتي تعادل كما يقول الضابط المظلي ميزانية سلاح الجو الاسرائيلي . ثم يصل الى الجرح النفسي العميق الذي احدثته حرب اوكتوبر في نفسه :

« ... لقد اصبت في حينه في معركة الكرامة ، الا انني خرجت من معركة يوم الغفران بجرح فظيع ... » ويصل به جرحه النفسي الى التشكك باستمرار قيام الدولة : « انني مصاب بجرح نفسي ، انني مصدوم ، فهذه هي المرة الاولى التي اشعر فيها بأنني لست متأكدا من ان هذه الدولة ستظل قائمة ، وقد سادني هذا الاحساس بعد الحرب ليس لان المصريين اقوياء ، بل لانني ارى الاخطاء التي نرتكبها » . ثم ينتقل لوصف المعركة التي وقعت بالقرب من مشارف الاسماعيلية ، وينسب كافة اخطاء تلك المعركة وفشلها الى قائد الكتيبة الذي لم يلتفت الى نصائح ضباطه ومن بينهم الضابط المظلي صاحب الحديث ، ويذكر بأنه كان يتقدم سرية مع ١٣ جنديا ومجنزرة ، واثناء تقدم قوات الكتيبة نحو سرفوم كانت تتعرض لقصف مصري وفي هذه المرحلة لقي قرابة عشرة جنود مصرعهم واصيب اكثر من عشرين بجراح . ويذكر بأنه مع مجموعته الصغيرة قد اصبحوا معزولين « نشب قتال استمر ثلاث ساعات ، وأوشكنا على الهلاك ، كيف اصطدمنا بالموقع ؟ لقد نفذت ذخيرتنا ، وبقي معي آخر مبتودع ، كان بوسعنا خلال ساعة الابتعاد عن الموقع ، وكانت لدينا مجنزرة صغيرة ، وكان بوسعنا الانضمام للقوة ، بيد ان قائد الكتيبة توقف . ورويدا رويدا احاطوا بنا ، وفي غضون ذلك لقي اثنان منا مصرعهما ، واصيب آخران بجراح . كما وقتل المسؤول عن الاتصال اللاسلكي وكان رجل ثقة قائد الكتيبة ، وأصيب في تلك اللحظة قائد الكتيبة بصدمة ، حيث اتضح له المصير الذي ينتظرنا ، وبذلك وصل الى قمة تقصيره . كان مساعد قائد الكتيبة يبعد عنا مسافة ٤٠٠ متر ، وكان بوسعه تطهير المنطقة واحداث اتصال بنا لان المنطقة كانت مفتوحة ... » ويذكر ان المصريين كانوا قريبين جدا من المجموعة المطوقة ويقدر المسافة بين اربعين الى مئة متر ، الا انه نجا مع بعض الجنود بعد ان قدمت الكتيبة وتمكنت من « انقاذنا » . ويرجع سبب نجاة الكتيبة من التدمير الى عامل الضباب : « بسبب ضباب المعركة لم يتمكن المصريون من ابادة الكتيبة ، ولكن لم تكن هنالك أمور كثيرة تحول دون ذلك ... » ثم يعود ويقيم المعركة التي خاضتها الكتيبة بقوله : « لقد كانت المعركة فاشلة

بالنسبة للكتيبة . ليس هنالك جدل حول ذلك . الا ان جلبة المعركة وتسارعها أذهلتا المصريين ، فلم يعرفوا ماذا يدور بالضبط . لم نحتل الموقع ولا اي شيء آخر ، لقد خرجنا من هذه المعركة بـ ١٢ قتيلا و٣٠ جريحا ، هذا هو كل شيء » . ثم ينتقل بعد ذلك الى تقييم الحرب ذاتها ويوجه نقدا الى الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية والقائمين عليها : « انني افكر كثيرا بالحرب . ان الصحافة جزء من المؤسسة ، ولا تكتب ما ينبغي كتابته . لماذا لا يستقيل ديان ؟ لقد ادخل هذا الشعب في أطول سجود يمكن لقائد ان يدخل فيه الشعب . لقد منحته الاعوام السبعة رصيدا ، كما وان الشعب رفعه واعلى من شأنه ، لقد تحدث حول بميت وحول يميت ، ومرة اخرى حول يميت ، هذا علاوة على جسوره . هذا يهم من ؟ ولا ننسى المستوطنات التي اقيمت . لقد رأينا ان المستوطنات لا توقف العدو . لقد أجلوهم عن الهضبة ، يا للفضيحة . لقد كان ديان مسؤولا عن استراتيجية بارليف . انني لا افرق بينهما ، فهو الذي صادق وليس هنالك فرق بين الاثنين . ان قدرة ديان العسكرية ربما تكون تلائم فريقا من الدرجة السابعة ... » وينكر الضابط المظلي الاسرائيلي ان يكون عامل المفاجأة هو الذي ادى الى تقصير الجيش الاسرائيلي : « ليس صحيحا ان التقصيرات نجمت هذه المرة في جيش الدفاع الاسرائيلي من جراء المفاجأة . لا ، ان ذلك غير صحيح ابدا . فحتى لو كنا نحن البادئين ، فاننا سنواجه نفس المفاجآت ، سلاح الدروع سيفاجأ بنفس المقدار الذي فوجىء به ، وكذلك سلاح الجو . ولكنا سندرك بأن قوة نيراننا تنتمي الى القرون الوسطى وليس الى هذا العصر ... » وفي مكان آخر يتطرق الى قوة المقاتل العربي التي تحولت من الكم الى النوع والى ضرورة استخلاص الدروس من ذلك : « في هذه الحرب ثبت ان الكم يتحول الى نوع . حول ذلك ليس هنالك جدل . لقد واجه الاميركيون ذات مرة مشكلة مع الصينيين في كوريا، ولم يعرفوا كيف يلتهمون الصينيين الى ان جاء ريذجوي مع قوة نيران ومدفعية . ولكن لاية قوة نيرانية نستطيع ان نصل ؟ كما وان القوة النيرانية بحاجة الى قوى بشرية . لقد شاهدت ستارا من الدفاعات الجوية المصرية . لقد كان من الممتع ان ترى قرابة ٥٠ كيلومترا محمية من قبل اية طائرة تدخل . تسللت الطائرات واصيبت . ان الامر يتطلب من جيش الدفاع الاسرائيلي ان يجري اعادة بناء عظيمة في قواه البشرية لكي يكون من الممكن استخدامها كما يرام . اننا بعيدون جدا عن السقف » . وعند انتقاله للتحدث عن احتمالات السلام والحرب يبدي روحا تتسم بالتشاؤم « انقذتنا » خلال الحرب الاخيرة : « صحيح ان الاميركيين انقذونا في نهاية الحرب ، لقد بقينا بدون ذخائر ، الا ان اميركا هي التي تستخدم ضغطا علينا بشكل غير عادي . نتنازل لاميركا . يقولون لنا : مقابل السلام من المجدي التنازل عن مناطق »، ويطرح السؤال : هل يمكن لنا ان نلعب هذه اللعبة مرتين ، نرجع مناطق وبعد ذلك يتضح لنا ان الصفقة لم تنجح ، ماذا حينذاك ؟ » ثم ينتقل الى امتداح اريك شارون والى امتداح الـ « ليكود » .

قائد الدبابة

يعرف الكاتب « قائد الدبابة » بأنه من سكان تل ابيب يبلغ من العمر ٢٧ عاما ، اعزب ، هاجر الى اسرائيل من احدى دول شرق اوروبا . في حرب « يوم الغفران » قاتل في هضبة الجولان كقائد دبابة برتبة شاويش .

...

يبدأ حديثه عن الامور التي قام بها حين سماعه لنشرة اخبار ما بعد الظهر عندما كان في بيت والديه ، حيث توجه بعد ذلك الى نقطة تجمع الاحتياط في تل ابيب ثم في « روش بينا » (الجاعونه) بالقرب من هضبة الجولان ، ومن ثم انضمامه الى وحدته في احدى المعسكرات وتوجهه مع قوات الاحتياط نحو الهضبة في يوم الاحد في مكان قريب من بحيرة طبريا . ويفهم من حديثه ان طلائع قوات الجيش السوري تمكنت خلال اليوم الاول من المعركة اجتياح المنطقة الوسطى من هضبة الجولان ووصول بحيرة طبريا وان القوات الاسرائيلية التي كانت واقفة على خط النار اخذت تفر وتهرب متجهة نحو الغرب . ولندع « قائد الدبابة » يصف ما شاهده فجر يوم الاحد بالقرب من بحيرة طبريا : « عندما خلق الاتصال الاول مع السوريين كانوا على بعد ٣٠٠ متر منا . وكانوا قد اخذوا مواقعهم . ولحسن حظنا انهم لم يواصلوا التقدم

ليلا ، فقد كان بوسعهم الهبوط الى اسفل تماما ، ومن ثم تجاوز البحيرة . الا انهم توقفوا ، ويبدو انهم انتظروا قوة اخرى . لم يريدوا التحرك لوحدهم ، فقد كانت تلك رأس حربة قوتهم . وبعد ان خلق الاتصال شرعنا في التقدم ببطء . كنت قائد الدبابة ، وتقدمنا على قطعة ارض صغيرة بالقرب من الطريق . لو انهم لم يتوقفوا لاحتلوا بحيرة طبريا ليلا . ولم يكن هنالك حتى مجنزرة واحدة لتوقفهم .

وفي الصباح شاهدت منظرا فظيعا ، شاهدت عن بعد مجموعة من الجنود ، واردنا ان نوجه نيراننا نحوهم ، الا ان قائد الكتيبة امر بالانتظار لحظة . لقد ساده احساس ما ، ولم يكن هنالك منظار ولم نشاهد جيدا . لم نعرف بالضبط هوية هؤلاء ، لقد كان هؤلاء الجنود رفاقنا من الجيش النظامي ، ونجحوا في الهرب من المواقع وتجولوا ليلا في المنطقة ، وكان بينهم ضابط برتبة رائد شرع في جمعهم من الطرقات . لقد كانوا واقعين تحت تأثير الصدمة ، اولاد ابناء ١٨ ، قسم منهم سار بسلاحه وقسم اخر بدونه ... وكان قسم منهم يحتذي الاحذية المنزلية ، ومن اجل اخراجهم من الصدمة ، كان الرائد يوجه لهم الصفعات . ولم يشاهد هؤلاء شيئا . كانوا قرابة مئة شخص ، وقد مروا بالقرب منا وبعد ذلك سقطوا ، ومن ثم قاموا باجلائهم . كان ذلك منظرا فظيعا ، ولم اسمح للاطقم بالخروج لرؤية ذلك ، كانت الدموع تملأ عيني ... » بعد ذلك ينتقل الى انتقاد تواجد اعداد كبيرة من الجنود في الاماكن التي ينبغي ان لا يتواجدوا فيها ، والى « اختلاط القوات » بعضها ببعض مشيرا الى الخسائر الكبيرة » في كتيبتنا وقعت خسائر كبيرة جدا ، وكذلك سقطت اعداد كبيرة في الكتائب الاخرى ». ويذكر ان الروح المعنوية وصلت الى الحضيض ، وان الخسائر في الجانب الاسرائيلي تخلق احساسا لديه بالانتحار « ... لقد استمعنا من طريق اللاسلكي الى سير القتال : الضابط أ ذهب ، الضابط ب ذهب ، الضابط حـ ذهب .. حينذاك يحدوك احساس بالانتحار .. » . ثم يقف قليلا حول احاسيسه بعد الحرب وعدم ايمانه باستمرار قيام دولة اسرائيل بعد التجربة التي مرت عليه في هضبة الجولان : « يسودني احساس بعدم الثقة.

لقد خرجت في هذه الحرب بجرح نفسي . انني اليوم لا اؤمن بقيام اسرائيل . كل واحد يريد الانتماء الى شيء ما ، الا انني لا انجح لانني لا ارى نفسي ضمن اي اطار سياسي . انني لا اؤمن بالعجائب ، غير انني اؤمن بعجيبة واحدة، وقد وقعت هذه في يوم الغفران . انني لا اؤمن بعجيبة اخرى . انني اعرف الطابع الوقح لليهود، فهم يحولون هذه الحرب الى حرب انتصار ، انني لا اعتبر هذه الحرب حرب انتصار فقط لكونهم لم يأتوا ويقتلوننا » ثم يتطرق ضابط الدبابة ويفهم من سير حديثه انه جامعي وفنان ، الى واقع الترهل في الجيش الاسرائيلي والى حياة البذخ التي يعيشها كبار الضباط ، فهنالك « ضباط كبار يخرجون لقضاء وقتهم مع صديقات مجندات في المقاهي والمطاعم ، ويبذرون النقود . انني اعرف عقداء لديهم عشيقات مجندات او ... هنالك فساد معنوي في جيش الدفاع الاسرائيلي . الضباط يثرثرون ويكشفون اسرارا دون حذر . يتناولون طعامهم في مطعم عربي ويتحدثون . لقد سبق لي واجتزت دورة استخبارات في الجيش انني اعرف ما اتحدث . ان هذا الامر على غاية من الخطورة .. » ليصل بعد ذلك الى التحدث عن تعاطي الجنود والضباط وخاصة في الجبهة الجنوبية الحشيش . « بسبب عملي كنت اتردد كثيرا على القناة ، وشاهدت جنودا مخدرين ، دخنوا حشيشا في القلاع ، وكان هنالك ايضا ضباط يتعاطون تدخين الحشيش . هل تعرف ماذا تعني « رفيديم » ؟ . قبل الحرب كنت كثيرا في رفيديم . قشعريرة بالفعل . ان نجاعة المجندات وسكرتيرات الضباط تقاس وفق جودة القهوة التي يقمن باعدادها ... » ثم ينتقل الى موضوع اخر ويشدد على ضرورة قول الحقيقة مشيرا الى البيانات الكاذبة التي كانت تصدر عن المتحدث باسم الجيش الاسرائيلي والتي كانت تقول بان هضبة الجولان غدت « تحت ايدينا » في الوقت الذي كانت فيه القوات السورية تسيطر على معظمها : « ينبغي قول الحقيقة ، والحقيقة فقط. واذا ما حدث وخرجت الحقيقة ذات مرة الى الضوء فان وضعنا سيتقهقر . في اليوم الثاني للحرب سمعنا من خلال الراديو بان الهضبة في ايدينا . لقد كنا عند مصب نهر الاردن وشاهدنا

السوريين . وذهبنا ننتحر مع الدموع في اعيينا ، ومن ثم بدأنا نستمع الى صوت القاهرة وكذلك الى صوت دمشق . ليست هنالك ثقة في المتحدث باسم جيش الدفاع الاسرائيلي » . ثم يأخذ بانتقاد الواقع السياسي الاسرائيلي ، ويعرب عن رأيه بانه ليس متأكدا من انه سيصوت في الانتخابات لعدم وجود تنظيم او حزب يراه مناسبا الى ان يصل الى احتمالات السلام ومستقبل اسرائيل ، وهنا نقف على وجهة نظره القائلة بانه لا امل في احلال السلام وبالتالي لا امل في مستقبل اسرائيل : « حسب رأيي لا يوجد هنالك ما نفعله ، لا يمكن منع حدوث الكارثة . انني لا اؤمن بامكانية احلال السلام ، انني لا اؤمن بالسلام ، انني لا اؤمن بقيام اسرائيل ، ننتصر مرة مرتين ، ثلاث ، اربع ، خمس ، وفي المرة السادسة لا يأتي الانتصار ، حينذاك ينتهي كل شيء ، انني اعيش في اطار الشك . انني بكل بساطة اعيش في شك . لقد هاجرت الى البلاد لان اسرائيل هي المكان الوحيد لليهود في العالم ، الا ان هذه الدولة ضمن دائرة الشك ... الحياة والموت هما بمثابة امر نسبي للغاية . انني اتمتع بكل لحظة لكوني حيا . لقد توقفت عن برمجة مستقبلي ، انني اعيش بفوضى ذاتية تامة . انني اشعر بان الدولة تقف على عتبة الفناء . لقد جاءت هذه الحرب فقط لتثبت قولي ووجهة نظري. ليس هنالك حل ، ومن غير الممكن الحيلولة دون هذا الفناء » . ويذهب الى اكثر من ذلك حين يتنبأ بان الدولة ستنتهي في الجولة القادمة ، ويرى ان هنالك عددا كبيرا ممن اشتركوا في الحرب اصبحوا يعتقدون مثله ،ويصل الى أقصى درجات اليأس من معضلة الصراع العربي الاسرائيلي حين يذكر بأنه يؤيد احداث تنازلات من اجل التوصل الى تسوية. « لان اتفاقا كهذا يمنحني وقتا اطول لابقى على قيد الحياة .. » حول ذلك يقول : « انني متشائم للغاية ، ولكن ليس انا فقط ، فاصدقائي الذين قاتلوا معي يعتقدون مثلي ، وليس هنالك ثمة امل لدى اي واحد ، فهم لا ينتظرون اي شيء . تسوية سلام تحل القضايا ؟ ربما لعام ، لعامين ، بعد ذلك يهاجموننا وينهوننا . انني أؤيد احداث تنازلات من اجل تسوية سلام فقط لان اتفاقا كهذا يمنحني وقتا اطول لابقى على قيد الحياة ، ولكن في نهاية الامر سيدمروننا . في حرب الاستنزاف كنت اخدم في الجيش النظامي ، وكنت عندما استيقظ في الصباح لا اعرف اذا ما كنت سأنام في المساء . ان زماننا قصير » .

ثم يأخذ بتوجيه انتقادات لفئة الضباط من رتبة ملازم « عندما يصل الجندي الى رتبة ملازم يشرع في الفساد ، فهو يبدأ بالاهتمام بفتيات الكتيبة » كما ويوجه انتقادات الى الواقع السياسي في اسرائيل ، هذا الواقع الذي يحول دون وصول ضباط اكفاء الى رئاسة الاركان لكونهم ينتمون الى احزاب غير حزب العمل الحاكم ، ليصل بعد ذلك الى انتقاد الواقع الاجتماعي موجها سهامه الى الزعامة : « الواحد يكره الاخر في اسرائيل . هنالك هوة كبيرة ، وهنالك حي هتكفا . لماذا لا يهدمون البيوت ؟ لماذا لا يبنون مساكن جديدة . لا يمكن لهذا التعفن ان يستمر بهذا الشكل . ان خطرا يحدق باسرائيل من الداخل اكثر من الخارج ، يجب ان يكون هنالك تغيير ثوري ، وان يقوم قائد كبير . ولكن لا يوجد لنا كهذا . احفظ لي ، واحفظ لك . يد تغسل يدا . وكل ما يشغل بال زعامتنا العمل على تغيير السيارات الفخمة . فهم فقط يريدون الحكم ، ولهذا السبب لا يوجد لدي امل ، ولو كان هنالك قائد كبير لخصص مليارين ليرة لبناء مساكن للمساكين ، لاولئك الذين يعيشون بشكل فظيع ، ولا تعرف كيف يعيشون .. » . ويستمر في توجيه انتقاداته للمجتمع الاسرائيلي الى ان يصل الى توجيه نقد لاذع « لطبيعة اليهود النزاعة الى الاثراء » ويرى فيها اصل البلاء ، ومن الجدير بالذكر ان هذا النقد الموجه لليهود لو حدث ووجهه اي كاتب مغمور او مشهور سواء كان هذا الكاتب موجودا في اليابان او الاسكا ، فان اصبع الاتهام سيوجه اليه بانه معاد للسامية ، ومن الغريب ان اصبع الاتهام يذوب او ينخفض عندما يكون المتحدث او الكاتب اسرائيليا ، والحقيقة مغايرة لما ذهب اليه المتحدث فليست طبيعة اليهود هي سبب البلاء من خلال نزعتها للاثراء ، بل طبيعة المجتمع الاسرائيلي المبني على العنصرية الصهيونية ، نعود الى النقد الموجه لليهود ، يقول محدثنا : «الجنود يعودون الى البيت ، والاحتياطيون يعودون ، كل واحد يهتم لنفسه ، يريد ان يربح اكثر ، ان

يسرق اكثر من ضريبة الدخل ، ويحاولون ان يبذلوا مزيدا من الجهد لكي يعوضوا تلك الايام التي اضاعوها في الحرب. ان طبيعة اليهود تنطوي على ميل للاثراء ، فهم يركضون وراء المال ، ان ذلك مرض ، علاوة على انه كارثة ... » .

وبعد ان ينتقد معظم جوانب الحياة في اسرائيل يصل في النهاية الى توجيه نقد للواقع العسكري الذي يتسم به المجتمع الاسرائيلي « لقد فتشت عن عمل ، ووصلت صدفة الى ... وقبل ان يسألني عن اسمي ، سألني : اين كنت في الجيش ؟ قلت في لواء مدرعات .. سألني : ماذا عملت هناك ؟ قلت : قائد دبابة . اجاب : اوكي ، يوم الاحد تاتي للعمل . ان هذا الامر دارج للغاية في اسرائيل . انها دولة عسكرية . هنالك ٨٠٪ من المصانع تدار بواسطة العمداء والعقداء ، كما وان المدير السابق للتلفزيون كان برتبة مقدم . اية علاقة بين الجيش والتلفزيون ؟ انك لا تستطيع ان تفعل شيئا او تخطو خطوة ، دون ان تخرج العسكرية من انفك » ..

الدكتور

يعرف الكاتب المتحدث التالي بانه من مواليد عام ١٩٤٩ في القدس ، وتخرج من احدى كلياتها ، كما واطلق سراحه من الجيش بعد ان اشترك في حرب الاستنزاف كمدفعي في الدبابة برتبة عريف ، ثم توجه لاستكمال دراسة الطب في احدى الجامعات الايطالية ، وقدم الى اسرائيل في ١٢/١٠/١٩٧٣ للاشتراك في حرب يوم الغفران ، ويدعوه رفاقه في الوحدة بكنية « الدكتور » .

...

يبدأ « الدكتور » حديثه بالقول بان السفارة الاسرائيلية في روما استدعت جميع الاسرائيليين الموجودين هناك من الخاضعين للخدمة العسكرية ، ثم يتطرق الى وصوله الى مطار اللد ومن ثم ارساله مع اخرين الى احد المعسكرات في الداخل، وهنا يركز على الفوضى التي كانت قائمة هناك ، فكثير من الذين استدعوا وهو من بينهم لم يجر تسجيلهم ولذا فانه مكث مدة في المعسكر دون ان يعمل شيئا ، الامر الذي دعاه الى ترك المعسكر، اسوة بزملاء له ، والذهاب الى تل ابيب لقضاء ليلة هناك ، ومن ثم العودة ثانية الى المعسكر، مشيرا بذلك الى حالة الفوضى ، ويذكر بعد ذلك انه قد انتقل مع مجموعة من الاحتياطيين الى احد المواقع في سيناء ، وهناك حدث له ما حدث في المعسكر الاول حيث لم يجر تسجيله وكذلك لم يزود ببطاقة اسير ، وبعد ان اخذ الملل منه مكانا ، عاد ثانية الى تل ابيب مع مجموعة من زملائه دون معرفة المسؤولين ثم عاد مرة اخرى الى نفس المعسكر ، وبعد ذلك ينطرق الى انتقاله من معسكر الى معسكر دون ان يشترك في الحرب ويذكر بان الذخيرة لم تكن كافية كما وان معظم جنود الوحدة لم يكونوا لائقين للقتال ، ومع ذلك توجهوا الى ساحة الحرب ولذا فان نتيجة المعركة كانت فظيعة كما يصف « ٥٠ ٪ من قوتنا اصيبت ، وكانت هنالك خسائر جسيمة . وفي وحدة الاحتياطي التي كنت فيها بقيت ثلاث دبابات من مجموع ... اعتقد ان ٩٠٪ من قوتنا قد اصيبت ... » الا ان اهم شيء يقف عنده « الدكتور » نتيجة معركة حدثت في المنطقة الوسطى ، ويفهم من حديثه ان صور القتل والدمار التي لحقت بوحدات الجيش المصري عام ١٩٦٧ قد اصبحت من نصيب الجيش الاسرائيلي في عام ١٩٧٣ وفوق نفس الارض : « في الساعة الثانية ايقظونا. بسرعة ، بسرعة الى القناة . لواء .. كتيبة .. لواء دبابات . لقد نجحوا في تنظيم بعض الدبابات جمعوها من امكنة متعددة هذا ما بقي من القوة التي صدت المصريين. لقد وقعت هنا خسائر فظيعة ، ليس مثلما حدث في الثغرة او الصد . لقد جاءوا بنا الى المنطقة الوسطى بواسطة الباص ، يوم السبت ، المنطقة ملأى بالجثث ، وبالذباب ، والاليات المحروقة . لم افهم ما يجري ، انه لمنظر فظيع . على بعد بضعة كيلومترات من الاسماعيلية ، على الضفة الشرقية ، توجد اعداد كبيرة من القتلى من المصريين ومنا وكذلك دبابات محروقة . لقد قتل ذلك معنوياتنا . لم اشاهد شيئا كهذا في حياتي . انك نرى كيف ان دباباتنا تدمر بصواريخ الكتف ، واحدة وراء الاخرى ، ولم يبق منها شيء . انك ترى بطاريات مدفعيتنا مدمرة ، انك ترى الذخيرة مبعثرة ، ومفجرة . ناقلات تنفجر . هذه هي الصورة التي شاهدتها عندما توجهت للمرة الاولى الى سيناء اثناء خدمتي الالزامية في الجيش . شاهدت حينذاك ما بقي من الجيش المصري . وما

شاهدته اليوم نفس الشيء . ان ذلك يؤلمني كثيرا ، كما وانه اثر على الروح المعنوية لدى رفاقي ...»

ويفهم من استطراده في الحديث ، ان هذه المعركة وقعت بالقرب من مكان الثغرة على الضفة الشرقية للقناة . ويبدو ان نتيجة المعارك قد احدثت ردة فعل قوية لدى الدكتور ، حيث دفعته الى اتخاذ قرار خطير ، ترك اسرائيل والبقاء في الخارج ، الا ان هذا القرار يحدث لديه ارتباكا نفسيا ، فهو يشير الى نفسه بانه « وطني » ، وان ترك اسرائيل والهجرة منها يتنافى و « وطنيته » ، وهنا ندرك مدى عذابه النفسي ومدى ارتباكه : « انني لا اعرف ماذا افعل ... انني ساعود الى ايطاليا وابقى هناك . انني لا اريد العودة الى اسرائيل . انني لا اريد ان اهاجر ، ولكن ... حتى الان لم اقرر . انني وطني ، كما وانني من عائلة وطنية ، وكذلك اخي . فقد قاتل في الجولان ، وكان يقود مفرزة دبابات ، ونجا باعجوبة .. »

وبعد ان يعود ويتطرق في حديثه الى بعض التقصيرات ، ويذكر ان بعض الدبابات توجهت الى ساحة القتال بدون مدفع رشاش ، يقف قليلا حول نوعية المقاتل المصري ، ويكشف النقاب عن دخول بعض الوحدات المصرية منطقة الحصون الاسرائيلية قبل يوم من اندلاع الحرب : « ... ليس الزملاء هم الذين اوقفوا المصريين بل توقفوا هم لوحدهم . لقد شرعوا بالغزو عشية يوم الغفران يوم الجمعة مساء ، حين دخلوا بهدوء ، وتمركزوا بين الحصون بدون اية طلقة ، وقد قدم الزملاء تقارير حول ذلك ، الا انهم تلقوا امرا بعدم اطلاق النار . وروى لنا قائد السرية ، ان المصريين قاتلوا هذه المرة كالاسود ، قاتلوا بشكل جيد ، فقد قاتلوا من بعد خمسة امتار . سلاح مشاة مع صواريخ كتف ، سيطر علينا اليأس ، واصبحنا نعيش تحت وطأة الصدمة ، وقد بقي قسم من زملائي على قيد الحياة ، الا ان ذلك يعود الى الحظ ، لا اعرف ماذا سيحدث اذا ما اندلعت الحرب مرة اخرى ، ولا اعرف كيف تكون ردةالفعل لدى الزملاء .. لا اعرف كيف سيردون . ان الزملاء يعرفون عن وجود تقصيرات ، وان الامر لم يكن على ما يرام .. » وفي نهاية حديثه يعود ويعلن عن اعتزامه العودة الى ايطاليا مع اليأس: « انني اعود الى ايطاليا مع اليأس ، مع كثير من اليأس . لا اريد ان اتهم اي واحد ، الا ان التقصير يبدأ من الاستخبارات . لا اريد ان اقول ذلك ، ولكن دماء الزملاء ذهبت سدى » .

اللاسلكي الجريح وامرأته

يعرف الكاتب « اللاسلكي الجريح » بانه طالب في كلية الزراعة في رحوبوت ، يبلغ من العمر ٣٢ عاما ، متزوج وله ولدان ، عريف لاسلكي في قوة استطلاع تابعة لتشكيل عسكري في هضبة الجولان .

. . .

كزملائه يبدأ « اللاسلكي الجريح » حديثه عن ردود الفعل لديه عند سماعه في نشرة الساعة الثانية من يوم السبت عن اندلاع القتال ، وتوجهه بعد ذلك الى نقطة التجمع ووصوله الى معسكر قريب من الهضبة ، وعن الفوضى القائمة هناك ، ثم يتطرق الى تستر القيادة الاسرائيلية عن حقيقة ما يجري في الهضبة : « لم نعرف ماذا يجري ، ولم نعرف ان حربا تدور في الجولان ، ولم نعرف ان السوريين احتلوا الهضبة . قالوا لنا ان هنالك معارك وان السوريين يتقدمون ، ولكن لم يقولوا لنا ما يجري بالضبط . لم نتلق معلومات كاملة . لقد اخفوا عنا سقوط موقع جبل الشيخ ، هكذا كان الامر حتى نهاية الحرب ، وانني اذكر انه اثناء القتال تم استدعاء قائد السرية للاستشارة ، وسألنا عما يجري ، وقال لنا حينذاك : اننا نتقدم بشكل جيد . وان جبل الشيخ في ايدينا وبعد ذلك صدمنا عندما علمنا ان جبل الشيخ قد احتل . انه لم يكذب فهذه هيالمعلومات التي تلقاها » .

ثم يأخذ بالتحدث عن المعارك الاولى وعن سقوط معظم هضبة الجولان بايدي القوات السورية : « خلال الايام الاولى بقينا في الجبهة الخلفية ، وخافوا ان يأمرونا بالتقدم . نشبت معارك عنيفة بالدبابات ، ولم نقم بجولات استطلاعية . لقد كان السوريون قريبين جدا ، واحتلوا الجولان كله تقريبا ... » . ويسترسل في وصف المعارك ليصل في حديثه الى شبكات الاتصال ويذكر بان الحديث كان يدور خلالها بشكل علني الامر الذى افاد العدو ويقصد به سوريا : « لقد كانت جميع شبكات الاتصال مفتوحة

امامي . وسمعت جميع احاديث الكبار ، فقد تحدثوا بحرية بواسطة الشبكة حول كل شيء . نلتقي هنا ، ونعسكر هذه الليلة هناك ، اسماء قادة ، واسماء مهمات ، ان ذلك بمثابة تقصير فظيع ، لقي الكثير من الرفاق مصرعهم بسببه ، لان السوريين كانوا يصغون الى الاحاديث ... ». وبعد ان يكثر من الحديث حول الاحاديث الحرة في جهاز اللاسلكي ينتقل الى التطرق للاعمال القتالية في الجيب حين يذكر « بدأت القذائف تنهال علينا مسافة ١٠ كيلو مترات شرقي خط وقف اطلاق النار . انك ترفع رأسك لترى القذائف من حولك ، غيوم من الدخان الكثيف في جميع الاتجاهات ، كنت اجلس في مجنزرة بالقرب من اللاسلكي ... ويعلن القائد : هذه الدبابة اصيبت ، وتلك الدبابة اصيبت ، وكانت هنالك حالات اصابت فيها دباباتنا دبابة اخرى لنا ... ». ليصل بعد ذلك للتحدث من دقة النيران السورية ، والانسحاب السوري المدروس ، وايقاع القوات السورية المنسحبة القوات الاسرائيلية في مصيدة، اصطادت فيه معظم القوة الاسرائيلية بشريا والياً: « كان توجيه السوريين للنيران جيدا للغاية ودقيقاً. كما وان انسحابهم كان منظما . لقد درجنا في جيش الدفاع الاسرائيلي على القول بان العرب يهربون حفاة بذهول وعدم نظام . ولكن هذه المرة كان الانسحاب السوري منظما للغاية ، لقد قاموا بتلغيم الطريق كلها ، وبتلغيم سهل واسع شرقي الخط البنفسجي ، خلال انسحابهم ، اوقعونا في مصيدة بغرسهم الغاما ضد المشاة والغاما قافزة. فعندما قمنا بتخليص الدبابات اصبنا نحن ايضا ، وكان من الصعب الوصول الى الدبابات ، وقد اصيبت دبابات كثيرة . وقام القائد بابلاغ قائد اللواء وقام هذا بدوره بابلاغ قائد التشكيل العسكري : هذه اصيبت ، وهذه اصيبت ، وتلك اصيبت .. جميعها اصيبت ، وبقيت دبابة واحدة لم تصب ، واخيرا اعلن القائد في اللاسلكي : انني ايضا اصبت . وكنت بين اولئك الذين خرجوا لانقاذ القائد الذي اصطيد في دبابة في حقل الغام. بدأ القائد يهذي ، لقد كان تحت تأثير الصدمة ... لم تكن اصابته مباشرة تماما ، وقد انفعل عندما شاهدني . كان الكمين الذي وقعنا فيه صعبا ، ولم يكن من الممكن نقل قوات الينا ، وشاهد

القائد كيف ان دباباته تصاب وتدمر الواحدة تلو الاخرى ، وكان يبلغ عن ذلك طيلة الوقت . لقد اصابنا السوريون اصابات مباشرة وقوية ، ولم تكن هنالك دبابة لم تصب خلال التقدم في الخط البنفسجي على محور القنيطرة دمشق . وقد منيت القوة بخسائر جسيمة في الارواح والعتاد . وبعد الحرب جرى ترميم الوحدة ... » ثم يذكر بانه تقدم بسيارة مصفحة لانقاذ القائد ، الا ان آليته مرت فوق لغم ، اسفر انفجاره عن اصابة عدد من الجنود بجراح ، وهنا يتحدث بشيء من الاسهاب عن وقوع عدد من الجنود تحت تأثير الصدمة وكيف اخذ البعض منهم يهذي باقوال لا معنى لها . كما وتحدث عن حالة الخوف التي المت بعدد اخر ، وكيف ان احد الجنود رفض ان يحرك ساكنا لمجرد وقوعه تحت تأثير الخوف . ثم يعود للحديث عن توجه عدد من الجنود لانقاذ الضابط الذي يبعد عنهم مسافة ٤٠ مترا وكان هو على رأسهم ، ويذكر ان الكمين السوري الذي يبعد مسافة امتار عن القوة الاسرائيلية وكذلك القصف السوري قد حالت دون وصول الجنود الى القائد، وعندما اراد التقدم نحوه فوجيء بنفسه يطير فوق الارض على اثر انفجار قذيفة ويهوي على الارض باصابة خطرة في ساقه ، وهنا يسهب في الحديث عن كيفية نقله الى مستشفى الجيش في القنيطرة، ويكشف النقاب عن وجود طبيب امركي هناك قام بتقديم الاسعافات الاولية له، ومن ثم نقله بواسطة الهليكوبتر الى احد المستشفيات الاسرائيلية . ويتضح له هناك ان عضوه التناسلي قد اصيب في جميع اجزائه الا ان انبوب البول بقي سالما وانه اضطر ان يبول طيلة اربعين يوما بواسطة انبوب اصطناعي ويذكر بان هنالك عدد اخر من الجنود في المستشفى اصيبوا مثله في اعضائهم التناسلية الا ان حالتهم كانت افضل . ويذكر انه بعد قضاء اربعين يوما نقل الى مستشفى اخر ، وقام الاطباء في المستشفى الجديد باعادة العملية في اعلى ساقه وفي تضبيه التناسلي اعتقادا منهم بان العملية الاولى غير ناجحة ، وهنا يسهب في الحديث عن « تقصير » الاطباء ، الى ان يصل للتحدث عن الشؤون السياسية ، مازجا وجهة نظره بالاحلام التي تراوده ليلا : « في هذه الايام بدأت افكر بشكل اكثر حول الموضوعات

السياسية ، انني ارى نفسي كل مرة وكأنني اشترك في المعركة القادمة ، انني اتخوف من نشوب جولة اخرى ، انني احلم بالحرب في الليل، ولا اعرف اذا ما كان ذلك كابوسا او حلما ، لقد انفجرت ليلة امس صارخا اثناء النوم ، صرخت، جرحت ثانية ، جرحت ثانية في نفس الساق ، اي حلم هذا ... « المراة : انه يحلم ليلا ، فهو يتذكر ما مر عليه ... انه يحس خلال الليل صدمته بالتراب .. كل شيء يراوده ... » .

« الجريح : انني اذكر التفاصيل ، واحلم كيف جندوني ، كما واحلم حول الجولة الجديدة مع الاردنيين في الجبهة الوسطى . انني لا اؤمن بمباحثات جنيف ، ولا اؤمن بانها ستسفر عن شيء . انني لا اؤمن بتنازلات للعرب ، فانا اعرف العرب ، انهم يعرفون فقط لغة القوة ، فاذا ما بدأت بالتنازل لهم فانهم يبدأون يركبونك . لقد كانت اسرائيل دائما في نزاع مع العرب ، منذ اسماعيل ... » اما امرأته فهي كزوجها الجريح لا تؤمن بامكانية السلام مع العرب بحجة ان العرب لا يريدون السلام : « انني لا اؤمن بمبادرات السلام الخاصة بنا . الى اين تؤدي بنا ؟ لقد صوت الى جانب الـ « ليكود » ، لانني بكل بساطة اتعاطف مع برنامج الـ « ليكود » وحتى بعد ان اصيب زوجي بجراح لم اغير رايي ، انني لا اؤمن بالسلام مع العرب لانهم لا يريدون السلام ويسعون الى ابادتنا ... » ومن الطبيعي اذا كان الاب وزوجته ينظران الى قضية السلام والحرب من هذا المنظور ، فان اولادهما سيترعرعان على كراهية العرب ، من خلال التلقين البيتي والمدرسي . ان اولادي يعرفون كل شيء عن الحرب ، يتعلمون ذلك في المدرسة ، يعلمونهم كيف يحذرون الاشياء الملغومة ، ويتلقى الاولاد ذلك بجدية ، انهم يدركون وضع الحرب . ان الاولاد يكرهون العرب ... » .

الصدمة

يعرف الكاتب « صاحب الصدمة » بانه من مواليد مراكش وهاجر الى البلاد في طفولته ، ويبلغ من العمر الان ٢٦ عاما . متزوج وله طفلة ، من سكان احدى قرى التطوير في وسط البلاد خدم في الجيش النظامي في حرب « الايام الستة » وفي حرب الاستنزاف في قوات الدروع ، ونجا من الموت مرتين ، وفي المرة الثالثة نجا من الموت في حرب اوكتوبر . خدم في هذه الحرب كسائق شاحنة ذخيرة الى ان اصيب بصدمة عندما قامت الطائرات المصرية بتوجيه ضربة عنيفة لقافلة التموين .

....

في بداية حديثه يذكر سائق شاحنة الذخيرة انه نزل الى سيناء عندما علم باندلاع المعارك واخذ مع مجموعة اخرى يقوم بنقل الذخائر من اسرائيل الى الجبهة الجنوبية ، ويقدر عدد قافلة الذخائر بـ ٢٥ شاحنة كانت تقوم بنقل الذخائر الى دروع احد الالوية في الجبهة الوسطى ، وفي اليوم الثالث للقتال يذكر بان طائرات الميج المصرية قامت بتوجيه قصف للقافلة في عمق سيناء ، وينتقل بعد ذلك الى وصف قيام الطائرات المصرية بمهاجمة قاعدة اسرائيلية كانت بمثابة مركز لقوافل التموين :عندما وصلنا الى القاعدة ، ظهرت طائرات الميج مرة اخرى ، وكانت القاعدة تحتوي على وقود وغاز وذخائر ، وكنت انا صدفة داخل الشاحنة ، بينما كان بعض الرفاق يجلسون في الخارج ، مستلقين على الرمل ، ينتظرون دورهم لنقل الذخائر ، وبدأوا يتجادلون حول ماهية هذه الطائرات ، التي تطير بهذه الدرجة من الانخفاض وتأتي من الناحية الشمالية ، لقد كانت اربع طائرات ميج ، وعندما انتبهت الى ذلك صرخت : الهرب ايها الرفاق ! فاذا ما حدث انفجار لهذا المكان فان الامر سيكون سيئا بالنسبة للمنطقة هناك ، ونصبح معزولين .. ثم عادت الطائرات واغارت على القاعدة ، وبدأت بتفريغ قذائفها هناك ، ولحسن حظنا لم تصب الذخائر ولا الوقود ، بل اصابت نقط الغاز ، والتهمت السنة اللهب المستودع كله. لم تكن هنالك اية مقاومة ، وقد اصابت رفاقي ، حيث سقط عدد من القتلى والجرحى ... » ثم يتطرق الى حالة الذهول التي اصابت الجنود وبعد ذلك الى قيامه مع مجموعة اخرى بواجبه المتمثل في نقل الذخائر الى القوات المقاتلة ، ويذكر انه وصل الى الكتيبة في الجبهة اثناء الليل ، ويشير الى ان عدد الدبابات يأخذ بالتناقص كل مرة « كل مرة اتي فيها الى الكتيبة اشاهد دبابات اقل ، كل مرة اقل ، اقل في الدبابات وفي الرجال ... كل مرة هكذا ... » وبعد ان يسهب في

وصف توزيع الذخيرة على الجنود ، والاعياء الذي يبدو على ملامحهم يقول : « كنت اتساءل : اين بقية الرفاق ؟ يجيبون : قسم منهم احترق ، وقسم بقي هناك ... كل ... كل واحد وقدره ... كل واحد وقدره ... » ليعود بعد ذلك للتحدث عن نقله للذخائر في اليوم الرابع ، ويذكر ان فداحة الخسائر قد جعلت الروح المعنوية للمقاتلين في الحضيض « كنت اسمع كل مرة اتي فيها الى داخل الدبابة امورا فظيعة فيما يتعلق بهذا او ذاك ، كل مرة اجيء فيها اسمع اخبارا ، قائد الكتيبة اصيب ، قائد اللواء الذي عين قائد الكتيبة الجريح اصيب ايضا ، مساعد قائد الكتيبة لقي مصرعه ، لم تكن حينذاك معنوية ابدا ... ولم تكن هنالك قوة او رغبة ... لقد انهار الرجال ، وغدوا في يأس مطبق تماما ... »

وفي اليوم الخامس عادت الطائرات المصرية لقصف شاحنات الذخيرة وما تبقى من آليات الكتيبة ، ويرسم صاحب الصدمة ، صورة دقيقة لاستفراد ست طائرات مصرية بكتيبة اسرائيلية مدرعة وبعدد كبير من شاحنات الذخيرة ، فوق رمال سيناء ، صورة تكاد تكون طبق الاصل لما حدث في حزيران ١٩٦٧ ، ولكن هذه المرة مع تغيير الادوار ! حين يذكر بان الطائرات المصرية التي كانت تطير على ارتفاع منخفض جدا اخذت «تقصف الدبابات والشاحنات والمجنزرات ... انقضت عليها جميعا بالقذائف والنيران . كنت حينذاك انتظر داخل السيارة وعلى الفور ميزت هوية الطائرات ... وفي تلك اللحظة خرجت على جناح السرعة وبدأت اصرخ : الهرب الهرب ايها الرفاق ، طائرات . وبدأت اركض واركض باتجاه الكثبان الرملية ، اركض للهرب من المكان ، ولم اكد ان اهرب واذ بشاحنات الذخيرة تبدأ باحداث انفجارات ، كما وان شاحنتي اخذت تنفجر . لقد اصيبت شاحنتي في المرة الثانية ، لقد انقضوا مرات عدة على القافلة ، ولم تواجههم اية مقاومة حتى في هذه الحالة ... جميع الرفاق اخذوا يفرون كالمعتاد في المكان الذي يفر نحوه شخص ، يتبعه اخر ، كلهم تقريبا هربوا باتجاه واحد، اما انا فركضت مع مجموعة من الرجال خمسة او ستة نحو اتجاه اخر ... على يمين الطريق والاليات، بينما هبط الجميع من السيارات وركضوا على يسار الطريق ، وتجمع الجميع في مكان واحد .. في زاوية واحدة . الكل ركض الى هناك، عشرات من الرجال فروا وركضوا ، كل من استطاع الى الهرب سبيلا . القوا بكل شيء . وبدأ كل شيء يتفجر واصيب عدد كبير من الرفاق ... ولقي قرابة ٣٠ جنديا مصرعهم بينما اصيب عشرات اخرون بجراح خطيرة توفي قسم منهم متأثرا بجراحه ... كل شيء كان هناك اصبح بحكم المنتهي » وبعد ان يستمر في وصف الطائرات وهي تنقض على الاليات وتحولها الى هياكل محروقة ، ينتقل الى وصف ما فعلته الطائرات بالجنود الذين فروا نحو الكثبان الرملية : « بعد ان انتهت الطائرات الاربع من اعمال القصف ، قامت طائرتان اخريان في نفس الوقت بالانقضاض على ارتفاع منخفض على الجنود ، على كل من تمكن من الهرب . لقد رأوا المكان الذي هرب اليه الجنود ، واغارت الطائرتان على ارتفاع منخفض على الزملاء ، مع وابل من الرصاص ، انقضتا على جميع الزملاء ، وقامتا بتمزيقهم ، حقا انه لامر فظيع . لقد تمزق الزملاء اربا اربا ... » وبعد انتهاء الطائرات المصرية من مهمتها يذكر صاحب الصدمة انه نجا لانه هرب باتجاه غير الاتجاه الذي فر نحوه معظم جنود الكتيبة.، ويعود ويقول ان جميع اليات الكتيبة قد تدمرت وانه توجه نحو الجنود الذين تعرضوا للقصف فوق رمال سيناء ، في محاولة لانقاذ ما يمكن انقاذه ، وجمع ما يمكن جمعه من قطع الاجساد المتناثرة ، ويصف لنا المنظر الذي رآه والذي احدث بنفسه جرحا كبيرا بقوله « ... انه لامر فظيع رؤية ما حدث هناك . رجال غدوا قطعا بلا اعضاء ... اجساد بدون رأس ، زملاء محترقون داخل الاليات ... جسد مع نصف رأس ... كيف يمكن ان اصف .. نصف رأس .. نصف رأس ... نصف يد ... نصف يدين ... اجساد مقطعة الاوصال ... لقد انقضوا على الزملاء بمدافع رشاشة ٢٠ مم او ما شابه ... ان ذلك لامر غير بسيط ، فهؤلاء زملائي الذين عشت معهم ... جنود كتيبتي ... كل هؤلاء ... ذهبوا ... » .

وبعد ان يسهب في التعبير عن احاسيسه الداخلية ، ويفهم من سير حديثه انه بالاضافة الى عدد القتلى بقي في ساحة المعركة الى جانبهم ما لا

يقل عن ٧٠ جنديا مصابون بجراح بليغة ، يذكر بان طائرة هليكوبتر اتت بعد ذلك لنقل اجساد القتلى المتناثرة والجنود المصابين ، واثناء عملية الاخلاء اشتدت عليه الصدمة مما دفعه الى معاودة الصراخ والهرب مرة اخرى ، ليجد نفسه في احدى المستشفيات « ... امور فظيعة .. صعبة وشاقة ... قتلتني تماما في ذلك اليوم ... وبدأت اصرخ ... اقتلوني اقتلوني .. لا اريد ان اعيش ... واصبت بنوبة عصبية ، تقلصت ، وارتجفت ، وتقلصت ... وبدأت اصرخ واركض ، وركضوا خلفي ، وامسكوا بي ، وامسكتوني ، لا اعرف كيف ، سكت او اسكتوني ، وفقدت وعيي ، واستيقظت في المستشفى » .

وهنا يبدأ في حديث طويل حول صدمته وشفائه بعد شهر تقريبا على اثر تردده على المستشفيات النفسية ، الى ان يصل للاعراب عن رأيه في الشؤون السياسية ، وهو هنا لا يختلف بكثير عن اراء زملائه الاخرين : « انني انظر اليوم الى الوضع بانه غير بسيط بالنسبة لما كان عليه ، فقد تكاثروا وتعززوا ، ولا يمكن التوصل معهم في اية مرة الى تسوية . واذا ما اعطيناهم جزءا من المناطق ، فانهم سيطالبون بالبقية ولن يتنازلوا ، انهم سيدعون العالم يهدأ عاما ، عامين ، ثلاثة ، هذا هو رأيي ، حسب فهمي للجنس العربي . مرة اخرى ستنشب حرب استنزاف واعمال تسلل ... تؤدي الى الحرب . انني اقول يجب الحفاظ على المناطق ، ويجب إن نعطي . يجب أن ننتظر ، ربما يأتي السلام من شيء ما » ... ثم يكرر ما قاله بصيغ اخرى مشيرا الى ان العرب لن يتنازلوا عن شيء ، وان الصراع العربي الاسرائيلي وفق ما يزعم له جذور في اعماق التاريخ ! « ... لا يمكن التوصل الى سلام معهم ، فمنذ اجدادنا الاوائل وحتى اليوم ، ويمكن القول انه منذ ولادة اسماعيل ، ونحن نعيش في هذا الوضع .. » .

ثم يستطرد صاحب الصدمة في حديثه مركزا على انه قد اصيب بجرح نفسي عميق في هذه الحرب ، وان ذلك اثر عليه كثيرا ولذا فانه يجد الحل في مغادرة اسرائيل فبعد ان يذكر بأن قيمة الليرة الاسرائيلية اخذت بالهبوط وان المعيشة غدت صعبة يقول : « انني بالفعل افكر حول اية دولة يمكن السفر لكي اتأسس واعيش بهدوء دون اية حروب او قلق . انني بالفعل ساهاجر ... وافتش عن طرق للخروج ، بسرعة الى المانيا ... انني اريد ان استريح من الحروب . قبل الحرب لم افكر هكذا ، في ذلك الحين لم يحدث لي ما حدث. لقد شاهدت الموت بأم عيني ، وشاهدت القتل .. من الواضح ان ذلك يؤثر ، ويمكن القول ان الكثيرين من الاشخاص الذين اعرفهم فردا فردا ، قد ذهبوا . فقد بقي من جنود الكتيبة ٢٤ من الزملاء . هذه ضربة صعبة » .

الاسير

يعرف الكاتب ، الاسير بقوله انه ولد في تل ابيب عام ١٩٥٢ ، خريج المرحلة الثانوية . مجند في سلاح الناحال المظلي . سقط اسيرا في احد حصون بارليف في المنطقة الوسطى في ٨ اوكتوبر واصيب برصاصة في ساقه . اعزب ، ويعتزم استكمال دراسته الجامعية .

.....

في بداية حديثه يتطرق « الاسير » الى الدقائق العشر الاولى التي سبقت اندلاع الحرب ، ويذكر بانه كان مع جنديين اخرين في استحكام صغير يبعد مسافة ٨٠٠ م عن الحصن ، وان قائد المفرزة اتصل بهم وامرهم بالاستعداد لاي طارىء ، وفي الساعة الثانية بدأت المدفعية المصرية بتوجيه قذائفها نحو الحصن والاستحكام الصغير ، ويشير الى ان القصف المصري كان شديدا ودقيقا واتى على كل شيء : « في الساعات الاولى كان القصف شديدا ، كانت القذائف الثقيلة تطلق بسرعة من خلف تحصيناتهم . تسقط القذيفة عليك من فوق ... وكانت اصاباتهم مباشرة ، فقد دخلت قذائف كثيرة داخل الخنادق ، وفي وقت متأخر وعندما خرجنا رأينا ان اي شيء لم يبق ، حتى الحصن لم يبق ، ونجونا عن طريق الحظ .. » وهنا يذكر بانه مع احد الجنود لجأ الى حفرة قريبة بينما لجأ الجندي الثالث الى حفرة ثانية ، وبعد ان خفت وطأة القصف يذكر بانه رفع رأسه لالقاء نظرة نحو القناة القريبة منه ، فيشاهد اعدادا كبيرة من الجنود المصريين يجتازونها بواسطة القوارب ، وبعد مضي حوالي ٤٥ دقيقة على اندلاع القتال يذكر بأن الافا من الجنود المصريين غدوا على

الفئة الشرقية يجتاحون الحصن واستحكاماته : « استمر القصف طيلة الليل ، وبعد ٤٥ دقيقة من بداية القصف ، وفي حوالي الساعة الثالثة الا ربعا من بعد الظهر كان هنالك الاف من الجنود المصريين عند موقعنا ، الاف من الجنود ، لقد شاهدناهم ، عبروا واجتاحوا ، لم نستطع اطلاق النار عليهم ... لقد هاجمونا من ناحيتين ، وطيلة الوقت كان الاستحكام تحت القصف .. » ويذكر بانه ورفيقه المختبئين في الحفر كانوا يأملون ان تأتي نجدات اسرائيلية ، الا ان ذلك كان مجرد امل ، وهنا يذكر بان الاستعدادات المصرية لشن الحرب كانت واضحة امامهم ، وقدموا تقريرا حولهـا ، الا ان اي واحد لم يأخذها بعين الاعتبار « لقد شاهدنا كل شيء ، قبل شهر من ذلك شاهدنا هذه الامور المهمة ، تقريب ادوات، وتجميع ادوات .. زوارق في المنطقة ، اعتدة برمائية ، وشاهدنا ذلك في يوم الغفران ، ومن المؤكد اننا قدمنا تقارير وتحدثنا عن كل شيء ، قدمنا تقريرا عاجلا حول تحرك جدي للقوات ، وحول جنود متمنطقين ... ولم نكن بعد قد شاهدناهم يعبرون . قالوا لنا : كل شيء على ما يرام .. ان ذلك تمرين فقط ، وكان قائد مفرزتنا متأكدا من ان ذلك تمرين ، كما وان المصريين انفسهم كانوا يعتقدون بأن ذلك تمرين ... » ثم ينتقل لوصف تحـرك الجنود المصريين فوق استحكامهم وبالقرب منهم . ويذكر بان القوات المصرية كانت تلقي بقذائفها وقنابلهـا ونيرانها داخل الاستحكام، والخنادق بغرض تطهيره وان الجنود الاسرائيليين الثلاثة لم يلحق بهم اذى لكونهم مختبئين داخل حفرتين وفي الجانب المعتم منهما ، واشد ما كان يخيفهم خطـوات الجنود المصريين وهم يقفزون فـوق الخنـادق والحفـر وصيحاتهم المخيفة « تقلصنا الى اقصى حد ممكن، كنا نشاهد بالفعـل الاقـدام وهي تسرع داخـل الخنادق ، صرخات ، صليات نارية ، وصيحـات مخيفة مختلفة ... » ويذكر بأن الخوف سيطـر على اوصالهم وايقن مع زملائه بان ساعة النهاية قد ازفت عندما شاهد ، يد جندي مصري علـى بعد ٢٠ سم تمتد لالتقاط سلاحهم الشخصي من جانب الحفرة ، ولكنه لم يشاهدهم ، ويذكر قصصا اخرى من حالات الخوف مثل جلوس بعض الجنود المصريين فوق حفرتهم لتناول بعض الطعام والقائهم تشور البرتقال داخل الحفرة ويذكر بانه لا يعرف العربية الا انه كان يستمع الى حديث الجنـود المشنوع بالضحك . وبعد ذلك ينتقل للحديث عن كيفية القاء القبض على الجنود الاسرائيليين الثلاثة ويذكر بان احد الجنود المصريين شاهد في الليلـة الثانية تحرك احد جنود الحفرة ، الامر الذي وضع حدا لاختفاء الجنود الثلاثة وسوقهم الى الاسـر المصري ، ويذكر بأن النيران اطلقت عليهم من كل حدب وصوب قبل ان يرفعوا ايديهم ، وان اثنـين اصيبا بجراح ، ومن ثم قاموا الواحد تلو الاخـر بالخروج من الحفرة رافعي الايدي . وهنا يخوض ويسهب في ... ما مر عليه اثناء عملية نقله الى الاسر حيث اقتيد الى نقطة تجمع الاسرى في الجبهة، ومن ثم نقل في باص مليء بالاسرى ، توجه بهـم الى القاهرة ، لتلقي العلاج في احد المستشفيـات ومن ثم الى الاسر والتحقيق ، ويسهب في ذلك حتى يصل الى فترة تبادل الاسرى وعودته الى اسرائيل وهنا يبدي اراءه حول السلام والحرب ويذكر بانه لا يؤمن بامكانية احلال السلام .

العائلـة

في هذا الفصل يجري المؤلف مقابلة مع عائلـة من مواليد البلاد ، فقدت ابنا لهـا في الجبهـة المصرية ، برتبة ملازم في سلاح الدروع ، يـدور الجزء الاعظم من الحديث المتشعب والطويل حـول احاسيس ومشاعر الاب والام والاخ لفقدان عزيز، وهذه الاحاسيـس ، والمشاعـر لا تختلف عـن احاسيس ومشاعـر اي عائلـة فقدت ابنها في الحروب ، الا بكونها محاطـة بمثل واوضـاع وظروف مغايرة . ومن هنا فاننا سنكتفي بالقـاء الضوء على الانعكاسات السياسية لدى العائلة ، وازمة التصديق بالنسبة لها .

يفهم من احاديث الوالدين انه كان لهما قبـل حرب اوكتوبر شابان حصدت الحرب احدهما وهو برتبة ملازم ، عندما تقدم بسرية دبابات في اليـوم الثالث لانقاذ عدد من الجرحى في احدى القـلاع الاسرائيلية بالقرب مـن القنـاة ، وخاضت هذه السرية قتالا مع القـوات المصريـة وتـم تدمير معظمها ، اذ لم يرجع منها سالما الا دبابتان فقط ، ولم يعد ابن « العائلة » ، ويفهم من حديث الام انها علمت بمقتل ٤٦شخصا من جنود الكتيبة التي

كان ينضم اليها ابنها باستثناء المفقودين والاعـداد الكبيرة من الجرحى ، كما ويفهم من حديث الابـن الثاني وهو مجند ايضا في سلاح الدروع واشترك في حرب اوكتوبر الاخيرة في القتـال في الجبهتـين المصرية ثم السورية ، ان جميع قادة السرايـا التابعة للكتيبة التي كان اخوه يعمل ضمنها قـد لاقوا حتفهم ، الا ان مشكلة العائلة كانت تتمثـل في البحث عن حقيقة ما حدث للابن ، لانه اعتبـر بمثابة «مفقود» وهنا يدور حديث طويل عن الاماني التي كان يعلقها كل فرد على ان المفقود ربما يكون في الاسر ، او احد المستشفيات الاسرائيليـة ، ويذكر الاب انه جاب المستشفيات ومعظم القواعد العسكرية بحثا عنه ، وان حساب التليفون خلال شهر واحد قد بلغ الفي ليرة اسرائيلية لكثـرة المكالمات بخصوص الابن ، وخلال ذلك يوجه نقدا للمسؤولين ولكبار الضباط بسبب المعاملة السيئة التي كما يقول كان يلاقيها على ايديهم ، الـى ان تتضح الحقيقة بعد عودة الاسرى الاسرائيليين من الاسر المصري ، وبذلك فقد الامل .

ويفهم من حديث الابن الثاني انه اشترك في الجبهتين المصرية ثم السورية ، الا ان اكثر مـا يسترعي الاهتمام والانتباه في حديثه تطرقـه الى فقدان الثقة في البيانات الاسرائيلية حـول سـير المعارك وتشبيهه لهذه البيانات بالبيانات العسكرية العربية في حرب ١٩٦٧ ، « ... ذات مرة كنـا نضحك على صوت القاهرة وصوت دمشق ، ونهزأ بتقاريرهم في حرب الايام الستة . وفي هذه الحرب لم يكن صوت اسرائيل بالافضل . عندما كنت في هضبة الجولان استمعنا الى الاذاعة وهي تقـول بان الجيش السوري ولى الادبار ، في الوقـت الذي كانت توجه فيه الكمائن السورية لنا ضربات، لم يكن ذلك لطيفا . انك تجلس وتتلقى الضربات وفي نفس الوقت تستمع الى تقارير كهذه من اذاعة اسرائيل ، وبيانات المتحدث الرسمي باسم الجيش الاسرائيلي ... » ثم يذكر « اننـا هبطنا الـى مستوى العرب » في عام ١٩٦٧ ، ويتهـم بعض القادة بالكذب ، ويشير باصبع الاتهام الى شمعون بيرس ... اما بالنسبة للابوين فقد اصبح جـل اهتمامهما اطلاق سراح ابنهما الثاني من الخدمـة العسكرية ، ويسهب الاب في الحديث حول هـذا الموضوع ، ويذكر بان المسؤولين وعدوه اكثر من مرة باطلاق سراح ابنه على اساس انه الابـن الوحيد ، وفي النهاية يحصل على مبتغاه .

اما على صعيد الانعكاسات السياسية فيفهم من حديث الاب انه كان من المؤيدين المتحمسين لموشيه ديان ولكن بعد الحرب فانه اخذ يكفر به وفي الوقت نفسه لا يعرف اين يكمن البديل ، كما ويعتقد بان الانتخابات لن تحل المشكلة ، ويشارك الابن الاب في رأيه حين يقول في نهاية الحديث : « ينبغـي القاء القبض على المسؤولين عن التقصير ... لن تحل الانتخابات هذه المسألة ، ينبغي اقالة ديان ، انه لا يريـد ان يستقيـل . كيـف اعرف بـان الـ « ليكود » سيكون افضل ؟ هل بسبب وجود بعض الاشخاص في « التجمع » كهؤلاء واولئـك اذهب واصوت لصالح الـ « ليكود » ؟ ان ذلك بمثابة امر سخيف ، غير منطقي ... ولنفتـرض ان التجمع يستبدل ويسقط من الحكم ، حينئـذ سيبرز السؤال ، من سيأتي بعد ذلك ؟ سيأتـي فاسـدون اخرون ... » ولذا فان البديل غائب او غـير موجـود حسب تفكير افـراد العائلة ، الا انـه يمكـن ان يأتي مـن خـلال صحـوة السكان في اسرائيل كما يقول الابن ، الا ان وسيلة « الايقاظ » هذه لا تخطر على بال ، فهو يرى بان الصواريخ المصرية يمكن لها ان تدفع في هذا الاتجاه لو اصابت تل ابيب ! « انني اقول بأن الطيـار الذي اصاب الصاروخ فوق مياه تل ابيب ، قد ارتكب الخطأ الاكبر . لو كانوا في الملاجيء وتهدمت بضعة منازل ، فربما اهتزوا قليلا » الا ان الاب يعتقد بأن « عملية الارتجاج لا تكفي » ، ولكنـه يبقى حائرا امام البديل .

الام الثكلـى

يعرف الكاتب المتحدثة التالية بانها متزوجـة لشخص من رجال الفكر ، وهي عضو في كيبوتس هشومير هتسعير . أم لاثنين ، الاول ملازم في سلاح الدروع النظامي ، وسقط خلال اليوم الاول للحرب بالقرب من القناة . الام تعمل في سلك التعليم .

....

حديث « الام الثكلى » عن فقدان ابنها في الحرب كحديث اي ام في العالم تفقد عزيزها ومهجة كبدها في اية حرب ، الا ان حديثها حول اسباب الحـرب يختلف اختلافا كليا عن الاحاديث السابقة التـي

وقفنا عليها ، ويشكل حالة ارق واجرأ واقـرب الى الموضوعية في فهم الاسباب الكامنة وراء اندلاع الحرب ، ففي بداية حديثها لم تشدد كالاخريـن على عامل المباغتة في شن الحرب وما يستتبع ذلك من حديث حول التقصير ، بل ذكـرت بان جنـود الجيش الاسرائيلي كانوا في حالـة قصوى مـن التأهب ، وركزت على احد العوامل الكامنة وراء الحرب ، المتمثلة في احتلال اسرائيل لاراضـي عربية : « انني وقفت الى جانب امور ربما تحول دون الوصول الى هذا الوضع ... لقد كنت طيلة السنوات السابقة اقف بمثابرة لاخلاء المناطـق واعادتها . ولم اقم بزيارة الى اية بقعة سياحية، لانني نفرت من ذلك . في كل يوم سبت كنت اشاهد السيارات تمر بالقرب من كيبوتسنا في رحلة لجبل الشيخ . تقززت من ذلك . ولم اكن في سينـاء ابدا ، ولكن يبدو انني بمثابة حالة خاصة . لقـد فعلت ذلك بشكل تظاهري ، وكنت اغتبط لقـراءة اي رأي لاي شخص يفعل ذلك بادراك . ولكـن لا يوجد كثيرون كهؤلاء » .

بالاضافة الى عامل احتلال المناطق ، مسـت الام الثكلى العامل الاساسي الاخر والذي يتمثل في الكارثة التي حلت بالشعب الفلسطيني « ... لقد عرفت ما يدور . لم اتخيل الامر الفظيع بهـذا الشكل ، ولكنني ايقنت ان اسرائيل لا يمكن ان تشاد من خلال مأساة شعب اخر ، ومن خـلال كل بيت مهدم على يد الجرافات ، لقد اطاحـت الجرافات بكل شيء ، ونظفت كل شيء ، لا يوجد نبات صبر في ابو كبـير ... ان اي نفع لنـا لا يمكن ان ينبت على انقاض شعب اخر » .

ثم تتطرق الى نضال « الشعـب الاخر » اي الشعب الفلسطيني وتنتقد بشكل لاذع النعـوت والصفات التي درجت السلطات الاسرائيلية علـى لصقها به ، وتقرر بان ابناء الشعب الفلسطيني يدافعون عن حياتهم : « ان هؤلاء الناس يدافعون عن حياتهم ، ويضحون بانفسهم ، بكل ما تعنيه الكلمة من معنى . من الممكن تسميتهم بالمخربين ، ومن الممكن نعتهم بأوصاف فظيعة ، قتلة ، الا ان هؤلاء الناس هم الذين طردوا من بيوتهم . كذلـك فاننا نحن ايضا لم نخضع لاعمال الطرد بسهولة ، مع ما رافق ذلك من النعوت المشينة في العالم . اننا نقوم بافناء اولئك الناس الذيـــن كنا قـد طردناهم ، ولا يمكنني ان اتمشى مع ذلك ... »

وتعود مرة اخرى وتؤكد ان سبب البلاء يعـود الى تأسيس الدولة على حساب كارثة شعـب اخر : « لا يمكن التغاضي عن مأساة شعب اخر ، ان ذلك يطل من كل غصن ، من كل لوحة صبر . ان هذا الامر تسبب لنا بضربة ، واصبح بمثابـة امر واقع . انني لا اعتقد ان شخصا ما يجـرأ بوعي كامل على التستر على الضربة التيتلقيناها، نتيجة الوضع الذي وصلنا اليه، بسبب التغاضي، والعجرفة ، والرضى الذاتي . لقد وصلنا الـى ذلك، لان هنالك فسادا عظيما في شكل تأسيسنا ».

بالاضافة الى ذلك مست الام الثكلى عاملا اخر وراء اندلاع الحـرب ، يتمثل في نهـب الاراضي العربية بواسطة اقامة مستوطنات عليها مشنوعة بطرق بربرية مثلما حدث في قرية عقربة في الضفة الغربية ، حين قامـت طـائرات سلاح الجـو الاسرائيلي برش السموم على مزروعات القريـة وحولتها الى رماد ، لتقيم على انقاضها مستوطنة خضراء للمستوطنين . « ... برزت مستوطنـة جيتيت على الارض ، على ارض عقربة . لقـد اعدوا المنطقة بشكل مخادع شرير لكي يبـرزوا هذه المستوطنة على الارض ، حيث قاموا بحـرق الغلة بحجة امنية ، ان ذلك يعتبر من اعمـــال الظلم التي آلمتني للغايـة . واردت ان اكتب رسالة الى مستوطني جيتيت ، الا ان الحرب لم تمهلني ، حين انفجرت في يوم الغفران . كيف ان الارض لا تحترق تحت اقدامهم ؟ كيف يسكنـون فوق حقل مروي بالدماء ؟ »

وهنالك عامل اخر وراء اندلاع الحرب لم يغب عن بال « الام الثكلى » يتمثـل في تأجيـج روح الكراهية نحو العرب ، وتنمية الروح الشوفينية في اسرائيل ، ولعل هذا العامل يجيب على صرخة الام : كيف يسكنون فوق حقل مروي بالدماء ؟ تقول الام الثكلى في هذا المجال : انني معلمة .. ولي اهتمامات بالاناشيد ، انني مصابة بصدمة مـن واقع الاناشيد التي يلقنونها للاولاد ، انـاشيد شوفينية سيئة واذا كان هنالك مصطلح سيء او جيد في الفنون ، فان هذه ببساطة سيئة وساقطة، ويمكنني القول ، ان هؤلاء الاولاد الابرياء يتلقون ذلك . اعمال غسل دماغ بواسطة وسائل الاعلام مع جميع انواع الافلام الفظيعة ... »

وخلال حديثها تركز الام حديثها حول روح الكراهية تجاه العرب التي تعتري صدور كثير من الاسرائيليين بسبب المبادىء الشوفينية التي ترعرعوا عليها ، وتذكر بانها لا تكره العرب ابدا، كما ان ابنها كان لا يكن الكراهية للعرب ، وتذكر بأن لها علاقات حسنة مع بعض العمال العرب الذين يعملون في الكيبوتس ، وان نظرتها اليهم لم تتغير بعد فقدان ابنها ، بعكس الكثرة من الامهات ، وتسرد لنا قصة ام فقدت ابنها ، وفي نهاية السرد تطلق صرخة نابعة من اعماق قلبها : « من الذي يجب ان نكره ؟ » تقول الام الثكلى : « ... استمعت الى ام في الكيبوتس وهي تقول : هؤلاء القتلة ... اخذت افكر : ان هذه الام تملك في الحقيقة الجرأة للقول بانهم قتلة ... ان هذا تعبير قاس للغاية . من خلال تعاطيها للحبوب المنشطة والمواد السامة الاخرى، تجد لنفسها بالفعل مجرى قويا جدا من الكراهية ... هكذا اسهل بالنسبة لها .. اني افهم اما كهذه .. فهي من اولئك الذين انقذوا من الكارثة، وقد ولد ابنها في الغابات ، وكان طفلا عندما اتت معه الى البلاد ، الى الكيبوتس . واراد القدر ان يكون الابن مفقودا ، لم يبق منه شيء ... ابلغوها بانه مفقود ، ولم يبلغوها بانه قد قتل . وخلق واقع : بكل بساطة ابنها غير موجود ، لذا فانها تصب جام كراهيتها تجاه العرب ، ولكن السؤال : عليها ان تكره من ؟ » .

الارملة

يعرف الكاتب المتحدثة الاخيرة في كتابه بانها من مواليد البلاد ، تبلغ من العمر ٣٣ عاما ، ام لثلاثة اطفال . زوجها من مواليد البلاد ، ٣٤ عاما ، لقي مصرعه في هضبة الجولان . كان برتبة رائد في الاحتياط ، وشغل مساعد قائد كتيبة دبابات ، اما في المجال المدني فقد شغل منصبا مرموقا في شركة رسمية . تسكن العائلة في فيلا بالقرب من تل ابيب .

.....

يقسم حديث الارملة الى ثلاثة اقسام ، الجزء الخاص بمشاعرها واحاسيسها مع اطفالها الثلاثة تجاه فقدان عزيز ، الجزء الخاص بمشاكلها المعيشية كامرأة تنتمي الى الطبقة الوسطى ، والجزء الخاص بافكارها تجاه المستقبل والشؤون السياسية ، لا تختلف مشاعرها واحاسيسها تجاه فقدان زوجها عن احاسيس ومشاعر اية امرأة الا من حيث الظرف والمكان ، ويستشف من خلال سرد مشاعرها ان زوجها لقي مصرعه خلال الايام الاولى لنشوب الحرب في جبهة الجولان ، الا انها لم تعلم بذلك الا في وقت متأخر ، وفي مجال حديثها عن مشاكلها المعيشية بعد موت زوجها نجدها تكثر من الاسهاب فيه ، فهي تمتلك فيلا مؤثثة وسيارة وتتلقى من الحكومة حوالي الف ليرة بعد غياب زوجها ، وتشدد على ان هذا المبلغ لا يكفي فقد كان زوجها يكسب اكثر من الفي ليرة ، ومن هنا يأتي تذمرها ، كيف تستطيع ان تحافظ على صيانة البيت والاطفال والسيارة في هذا المبلغ : « ... لماذا لا يأخذون بعين الاعتبار مستوانا المعيشي السابق ؟ ماذا يريدون مني ؟ لقد دفعت الثمن كاملا ، حين سقط زوجي ، اعتقد بانني اعطيت بما فيه الكفاية ، انني لا اريد هدايا من وزارة الدفاع ، وكذلك لا اريد الانتقال الى مستوى معيشة اعلى ، وجل ما اريده الحفاظ على مستوى المعيشة السابق ... »

اما بالنسبة لمستقبلها فانها لا تعارض الاقدام على الزواج مرة اخرى ، فخلال حديثنا مرت على هذا الموضوع اكثر من مرة « ابنتي تقول لي : ماذا نفعل بلباس ابي ؟ قلت لها : سنحافظ عليه . ولكن ربما تتزوجين مرة ثانية ؟ قفز الابن الاكبر وقال : لا . لن تتزوجي ابدا ؟ سألت : لماذا لا ، وعلى العكس ، فاذا ما عثرت على شخص اريد الزواج منه فسأتزوجه ، وسيكون الجميع بخير .. »

اما على الصعيد السياسي ، فهي تختلف كثيرا عن « الام الثكلى » التي وقفنا على منطلقات تفكيرها في الحلقة السابقة ، فمن خلال حديثها يفهم بانها تتفقت على الفكر الصهيوني ، الا ان الحرب الاخيرة ، جعلتها تعيد النظر في كل شيء، ولكن دون الاهتداء الى شيء ! ولذا فان حديثها عن السلام والحرب والسياسة يتسم بالشمول ولكن لا يخلو من توجيه الانتقاد وخاصة تجاه سياسة « لا خيار » : « اعتقد ان سياسة لا خيار هي بدعة اسرائيلية . لماذا نتوجه بابصارنا نحو الغرب وليس نحو الشرق ؟ اعتقد ان بيت القصيد

يكمن هنا . لا يمكن العيش هكـــذا معزولـــين محاصرين . كفى انهم يكرهوننا لاننا يهود . انني اعتقد باننا لا نعرف العرب بما فيه الكفاية ، واذا ما تعلمنا العربية فاننا نتعلم اللغة الفصحى وليس العامية ، واعتقد ان الجماهير العربية لا تريـد الحرب ، مثلنا بالضبط .. » ثم تذكر بانها لا تكره العرب ، ولكنها تحمل مسؤولية عدم احلال السلام على كاهل سياسة « لا خيار » الاسرائيلية ، وعلى كاهل الحكام العرب الذين « يحرضون » الجماهير العربية ، ولا تتطرق مطلقا الى جوهر الصراع . ولذا نراها تعـدد مرة اخـرى وتنتقد سياسـة « لا خيار » الاسرائيلية : « ... انني لا اعتقـد باننا لم نفعل شيئا للحيلولة دون منع القتـل . واذا كان حقا لا يوجد امامنا خيار، فانني اتساءل: من اجل اي شيء كل هذا ؟ ان ذلك لا يسـاوي شيئا بالنسبة لي . ولو افترضنا بانني سأتزوج مرة اخرى ، بعد عامين ، ويصبح زوجي مقاتلا ، فانني لن انام خلال الليل . ان الناس اصبحـوا يزيفون شهادتهم الطبية حول لياقتهم البدنيـة . واذا كانت هذه هي السياسة ، اذن ينبغي علينا ان نأكل ونشرب على اساس اننا سنموت غدا ، ولو كنت اعرف بان هذا هو مصيرنا ، لعشـت بشكل اخر تماما ، حيث انني كنت سأستغل الـ ١٢ عاما التي خلت ، لاعيش من اليد الى الفـم مثلما كل شيء في هذه الدولة . كلهم يفعلـون ذلك . يبكون على التقصيرات ولكنهم لا يحلـون شيئا . يقومون بسد الثغرات مؤقتا ، كما يفعـل طبيب الاسنان ، انني لا استطيع الاستمرار في العيش هكذا . كل اربعة اعوام حرب ، يقولون لي : لقد حارب اليهود دائما ولكنهم لم يبادوا في اية مرة مع انهم كانوا دائما اقلية . ان ذلـك لا يعزيني . انني اعيش حياة الامة ، لقد نجـت الدولة ، ولذا فانني سعيدة ، ولكـن زوجـي سقط .. » . وهنا تجتاح « الارملة » ثورة عارمة ضد الحروب التي تختطف ارواح الاعزاء ، والحل الذي يسيطر على تفكيرها يكمن في عدم الزواج من شخص قادر على القتال ، ويبلغ سخطها اشـده عندما تتذكر ان الشخص غير القادر على القتـال بانه يستطيع انجاب اطفال يمكن ان يكونوا قادرين على القتال ، وهنا تقول بانها ستتزوج « كلب » ! ولكنها تستفيق في النهاية من ثورتها : ... انني لا اريد ان استمر في دفع الثمن انني لا اريد انجاب اطفال . انني اريد الان رجلا سمينا وليس مقاتلا، لا يذهب الى الحرب . وليكن كلبا ، فانا لا اريـد اولادا فقط كلاب وقطط . ماذا جرى لاتحدث هكذا؟ ماذا دهاني ؟ انا التي ترعرعت على المثل ؟ »

وفي نهاية حديثها تتطرق الى اسباب « الكارثة » التي حلت باسرائيل ، وترجعها الى تدهور القيم في المجتمع الاسرائيلي ، والى ان الجميع مسؤولون عما حدث . « لقد اقترعت الى جانب شوليـت الوني ، انني اقول باننا نتحمل مسؤولية جزء من الكارثة التي حلت بنا ، لقد ركضنا وراء التألق ، والبريق الخارجي . ان العيش في هـذه الدولة اصبح غير مريح ، بالفعل غير مريح ، لقد وصلنا الى وضع ، يعتبر فيه الشخص الذي لا يخـدع الدولة احمق . من يعيش من الدخل ؟ انهـم يعيشون حول الدخل . الجو السائد هو هكذا . الواحد يلقي بالطين على الاخر ، الرجل لا يعتبر زميله ، ان الانسان للانسان ذئب . ليس مـن المريح السفر في الباص او السكن في بيت مشترك. فنحن كالحيوانات .. » وبعد ان تسهب في نقـد المجتمع الاسرائيلي تتذكر بان ابنها البكر سيرغم بعد فترة للعمل في الخدمة العسكرية ، فتنطلـق صرخة من اعماقها : لماذا ينبغي علينا ان نقاتل ؟ ومع ان هذه الصرخة محقة وعادلة . الا ان الحل الذي طرحته غير عادل : « بعد سبعة اعـوام ونصف سيضطر ابني للذهاب للجيش . من الواضح انه ينبغي ان يكون هنالك جيش دفاع لاسرائيـل ولكن ليس جيش حرب لاسرائيل . ان جيش الحرب يجب ان يكون جيش مرتزقة . لماذا ينبغي علينـا ان نقاتل ؟ فلنأخذ مرتزقة ليقوموا بهذا العمـل بشكل افضل » .

وتنهي حديثها باطلاق صرخة موجهة الى اولئك الذين جعلوا منه لقمة للمدافع . « لـماذا اخذوا رجلا كروجي في سن ٣٤ عاما ، رجل ناجح مـع مستقبل كهذا ، والقوا به في الجيش ، وعملـوا منه غذاء للمدافع ؟ لماذا ؟ »

طبعا لا يمكن لها ان تتلقى الجواب من اولئك الذين صنعوا من زوجها غذاء للمدافع ، ولكنهـا تستطيع بكل تأكيد ان تتلقى الجواب الشافي اذا ارادت ذلك ، وفتحت الكتاب الذي قمنا بتقديمه – كتاب الصدمة – وهو بلا شك موجود بدرجها، وقرأت مليا حديث « الام الثكلى » .

عبد الحفيظ محارب

[٢]

زلزال في اكتوبر ـ زئيف شيف (تل أبيب ـ زموره ـ بيتان ـ مودان ـ ١٩٧٤)

يعتبر المؤلف احد المعلقين العسكريين المعروفين في اسرائيل ، حيث له خبرة واطلاع في قضايا الجيش والامن . وهو يعمل عضوا في هيئة تحرير صحيفة « هآرتس » منذ الخمسينات ، كمراسل عسكري ومعلق رئيسي للقضايا العسكرية والامنية. وهو من المقربين الى بعض رجال السلطة في اسرائيل ، ولهذا فهو يحصل على بعض المعلومات من مصادرها الاساسية . وقد الف عدة كتب حول قضايا امنية وعسكرية مختلفة وبلغات متعددة . فقد الف « اجنحة فوق السويس » حول حرب الاستنزاف باللغة العبرية ، وكتاب حرب الايام الستة «بالفرنسية» وكتاب الفدائيون «بالانجليزية» ويجري طبع كتابه الجديد « تاريخ الجيش الاسرائيلي » في سان فرانسيسكو .

يمكن اعتبار « زلزال في اكتوبر » انه قصة « حرب يوم الغفران » من وراء الكواليس ، حسب ما يراه شيف . فهو يكشف حقائق جديدة وتفاصيل لم تنشر بعد ، كما يكشف المشاورات والخلافات في الرأي بين وزير الدفاع ، موشي دايان ، ورئيس الاركان اليعازار ، في ساعات ما قبل البدء باطلاق النار وخلال الحرب . كما اورد فقرات من بعض الوثائق المصرية حول خطة الهجوم والخداع العربية .

ان أبرز الامور التي يكشفها شيف في كتابه هذا ، هو التناقض في الموقف الاسرائيلي ،بالنسبة الى احتمال وقوع الحرب او عدم ذلك . فمرة يقول ان لدى المسؤولين الاسرائيليين معلومات كافية عما يحدث في الجانب العربي وعن نيتهم بالحرب ، ثم لا يلبثون ان يعلنوا ان احتمالات الحرب ضعيفة وان الاستخبارات الاسرائيلية اخطأت في تقديرها للامور . ورغم تبجح الاسرائيليين بأنهم يعرفون كل ما يحدث في الجانب العربي ، فلم يسع شيف الى ان يكشف عن ان الحكومة الاسرائيلية سمعت عن الاستعدادات والتأهب في اللحظات الاخيرة . كما كشف عن الكذب والتزوير في البلاغات الاسرائيلية وخاصة في الايام الاولى للحرب ، واخفاء بعض الحقائق والاخبار عن الجمهور الاسرائيلي . وقد اشترك شيف نفسه في هذا الكذب ، عندما اورد في كتابه ان سلاح الطيران الاسرائيلي قد خسر طيلة الحرب ١٠٢ طائرة ، مع العلم انه اعترف بسقوط ٦٦ طائرة اسرائيلية خلال اليومين الاولين من الحرب فقط .

وكشف شيف أيضا عن حقيقة هامة ، وهي انهيار وسقوط شعار بان الجيش الاسرائيلي لا يقهر ، فاعترف صراحة بأن الطائرات الاسرائيلية التي لم تسقط خلال الحرب أضطرت الى القاء حمولتها من القنابل والصواريخ في البحر ، واشار ايضا الى حدوث تمرد لدى بعض الجنود ورفضهم العودة الى المواقع والى الدبابات بعد ان رأوا ما حل بزملائهم .

ومن جهة ثانية ، لم يكن بوسعه ، الا الاعتراف والاشادة بقدرة وشجاعة الجيوش العربية وبتقدمها وتضحيتها . حيث اعترف بانها قامت بمهمات انتحارية شجاعة ذات معنويات عالية . كما انه كشف عن الانهيار الذي اصيب به الجنرال دايان في الايام الاولى للحرب ، وعن البيان الذي كان سيوجهه الى الشعب ، كما انه هاجم وبعنف الاستخبارات الاسرائيلية والزعماء الاسرائيليين متهما اياهم بالتقصير . وقال ان اسرائيل تفتقر الى الزعامات المطلوبة في اللحظات الحرجة ، كما أشار الى الثقة المتزعزعة بين الشعب والقيادة وعن التعفن والغطرسة داخل الجيش الاسرائيلي وعن تناحر الاحزاب على رجالات الجيش .

بدأ المؤلف باستعراض الاحداث التي سبقت الحرب ، وذلك بمثابة يوميات . ففي يوم ٩/٢٦/ ١٩٧٣ قام دايان ورئيس الاركان اليعازار بجولة على خط وقف اطلاق النار مع سوريا . وكان وزير الحربية المصرية قد تجول يوم ١٩٧٣/٩/٢٤ على الجبهة لدى القوات التي تقوم بمناورة شاملة (وقد تم وضع هذا الخبر بمكان متواضع لكيلا يلفت النظر) . واعتقدت الاستخبارات الاسرائيلية بان

هذه المناورة هي في اطــار منــاورات الموســم الروتينية . ولكن موشي دايان واليعازر كــانــا قلقين . وكان لدى الاركان العامة الاسرائيلية قناعة بان السوريين لن يتمكنوا من الامتناع عن رد فعل بالنسبة للمعركة الجوية التي وقعت في ١٣ ايلول (سبتمبر) . وكان الاعتقاد بان السوريين سيكتفون بضربة واحدة وذلك في اشتباك موسع ليستمر عدة ساعات ، وهناك احتمال بان تدخل الدبابــات السورية الى هضبة الجولان والسيطـرة علـى احدى المستوطنات ولو لعدة ساعات . وكانــت الانباء قد تناقلت بان السوريين يقومون بتعزيــز قواتهم على جبهة الجولان ، مما دفــع الاركــان العامة الاسرائيلية الى نقل بطاريتي مدفعية من سيناء الى الهضبة . ولم يكن هناك قلق بالنسبة للجبهة الجنوبية ، وكذلــك تم نقــل ارتال مــن الدبابات من الجنوب الى الشمال . ومع هذا ، فالخبراء الاسرائيليون يقرأون بارتياح الاخبار عن الخلاف بين حكومة دمشق ومستشاريها الروس في اعقاب المعركة الجوية (وقد تــم تسريب هــذه المعلومات عمدا ، من خلال خطة الخداع العربية). وكان قائد المنطقة الشمالية يتسحاق حوفي قــد عرض الوضع امام دايان ، وعبر عن انــــه لا يعتقد بأنه سيقابل السوريين بعد عشرة ايام في معركة قاسية على وجود الدولة ، ولكنه منذ عدة اشهر يحاول اقناع القيادة بان الخطر الكبــير بالنسبة لاسرائيل يتوقــع بالــذات في الجبهــة الشمالية .

وفي ٣٠ ايلول (سبتمبر) تزايدت مخــــاوف الجنرال يسرائيل طال ، نائب رئيس الاركــان ، الذي اوصى لدى اجتماعه مــع رئيس الاركــان بارسال قوة مدرعة نظامية او تجنيد وحدات مدرعة احتياطية . وفي الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ظهرت في الصحف الاسرائيلية للمرة الاولى اخبــار عن التوتر على الحدود . فقد ذكرت « هآرتس » في احدى صفحاتها الداخلية عن حالة التأهب في هضبة الجولان بعد ان نقل السوريون وحدات من الجيش من حدودهم مع الاردن . وفي هذا المجال تتغذى الصحف الاسرائيلية فقط من مصادر عسكرية اسرائيلية ، حيث طلبت هذه المصادر من الصحفيين التقليل من اهمية الاخبار ، كيلا تحدث فزعا في اسرائيل وتقلق العرب . كما اخذت نقاط المراقبة على طول قناة السويس بارسال التقارير التـــي تشير الى وجود تحركات غريبة في الجانب المصري.

وفي ٣ اكتوبر عقدت الحكومة جلستها الهامة جدا قبل الحرب ، والتي اشترك فيها الوزراء وعدد من الجنرالات ورجال الاستخبارات . واعتــرف شيف بأن خطأ الاستخبارات الاسرائيليــة أخذ في هذه الجلسة اقرارا حكوميا ، فمنذ انتهاء هــذه الجلسة اصبح الخطأ ليس فقط خطــأ الجيــش الاسرائيلي ، وانما ايضا خطأ الحكومة . وكانت هذه هي المرة الاولى التي يقوم بها دايان ورجاله بتقديم تقرير كامل امام هيئة وزارية حول التطورات الاخيرة على حدود سوريا ومصر . واتضح في هذه الجلسة ان الاستخبارات تعرف الشيء الكثــير ، فلديها تفاصيل من مصادر مختلفة حول ما يجري داخل الجيوش السورية والمصرية . وبناء علــى المعلومات التي تم عرضها على وزراء « المطبخ » فان التقدير هو بان الحرب ضعيفة الاحتمــال ، حيث قال الجنرال آريه شليف بان الاستعــداد السوري هو دفاعي محض وقد حدث ذلك بعــد المعركة الجوية في ١٣ سبتمبر .

وفي ٤ اكتوبر تسببت الصور الجويــة التـي التقطت وراء القناة في تغيير راي رئيس الاركــان الذي قرر بان الاستعداد المصري اصبح هجوميا . ومن هنا فهو لا يتفق مع تقدير الاستخبارات بــأن احتمال الحرب ضعيف . وبالرغــم من احساس رئيس الاركان بأن الاستعــداد المصري اصبــح هجوميا ، فان الاركان العامة لم تبحث الموضــوع خلال جلستها . ففي جلسة الاركان العامة التــي استمرت الى ما بعد الظهر تم بحث موضوع واحد وهو الانضباط في الجيش الاسرائيلي . وفي هــذا اليوم سمح عدد من وحدات الجيش الاسرائيلــي التي كانت في حالة استعــداد لعدد من القــادة بالاجازة لمناسبة يوم الغفران . كما وصل امر الى كلية الدبابات : الغاء حالة التأهب وكذلك تــم السماح لفرقة البرت مندلــر بــان تعطي للقادة ونوابهم اجازة بمناسبة العيد .

وفي الخامس من اكتوبر ادى تحريك قوات اخرى سورية ومصرية الى الحدود ، الى ان يعلــن اليعازار حالة التأهب « ج » في الجيش النظامي ، واصبح التأهب يشمــل الان الجيش الاسرائيلي

كله ، كما صدر الامر في الساعة الحادية عشرة الى الوحدات كافة . ولدى الجيش الاسرائيلي ثلاث درجات من التأهب ، اعلاها التأهب ج . والاقوى منها فقط هي الامر بالدخول الى المواقع وانتظار اطلاق النار . وكذلك تم اعطاء الامر الى الاذاعة الاسرائيلية بان تكون في حالة تأهب كامل ، بالرغم من عطلتها يوم الغفران ، وذلك لاحتمال استدعاء رجال الاحتياط ، وطلب الى الشرطة بان تعد سيارات مع مكبرات للصوت ، كما تم ارسال احد رجال سلاح الهندسة البرت رحاميم الى الجنوب ، وقد انضم هو ورفيقه الى المهندس لفحص اجهزة الوقود التي اعدت لاشعال النيران في القناة اذا ما حاول المصريون العبور . ويوجد مثل هذين الجهازين في القناة بالقرب من المواقع ، وليس باستطاعتها اغلاق سوى مسافات قصيرة تصل الى عدة عشرات الامتار .

ثم تحدث الكاتب عن الخطة العربية بقوله : بعد اخراج الروس من مصر بحوالي اسبوع أمر السادات وزير حربيته احمد صادق بان يقوم بالتخطيط للحرب . وفي حوالي شهر اكتوبر ١٩٧٢ قدم صادق خطة العملية « غرانيت ١ » ، وهي خطة لحرب محدودة ، وتعتمد في اساسها على مرحلتين : انزال لواء مظلي مصري في سيناء واستعداده للدفاع ، وبالمقابل تقوم حوالي ٥٠ طائرة مصرية بمهاجمة شرم الشيخ ، وهنا ستحاول اسرائيل القضاء على اللواء المظلي ، ولكن مصر ستستخدم مجلس الامن ، الذي يعلن عن وقف اطلاق النار ، وسيتم وقف النار في الوقت الذي يعسكر لواء مظلي مصري في سيناء . وعندها يتم تحريك الوضع السياسي ، حيث توجه الولايات المتحدة ضغطا على اسرائيل للتسوية من خلال الانسحاب من سيناء ، ولكن الرئيس المصري لم يكن راضيا عن تفاصيل هذه الخطة . وقد ساد الانطباع لدى السادات بان وزير حربيته لا يثق بالجيوش المصرية . وقد حذر احمد صادق من سلاح الجو الاسرائيلي ومن الضرب في المؤخرة المصرية التي ليست مستعدة للحرب ، وبعد ذلك عين السادات وزير حربية جديد وهو احمد اسماعيل بدلا من صادق . وقد نجح اسماعيل علي باقناع السادات بالا تكتفي مصر بعملية محدودة ، ومع ذلك يحظر الخوف من عملية واسعة جدا ، التي يمكن ان تعطي نتائج جيدة وكثيرة . وتقرر القيام بتخطيط عملية عبور واسعة لقناة السويس. وفي ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٣ قدم احمد اسماعيل علي الى الرئيس المصري خطة العبور المسماة « غرانيت ٢ » . وكانت قد وصلت الانباء عن استعداد مصر للحرب الى الولايات المتحدة خلال اذار (مارس) ، وقالت احدى الشخصيات الغربية التي قابلت السادات ، الى سيسكو ان السادات قد أقسم بأنه خلال أسابيع معدودة سيقوم بتنفيذ وعده بشأن الحرب . كما ابلغ بذلك كيسنجر ، الذي وافق على التقدير بان السادات سيذهب الى الحرب ، ولكن ليس خلال بضع اسابيع . لم تخرج مصر للحرب في ايار (مايو) ، لان الرئيس السوري اعلن عن ان جيشه ليس مستعدا للحرب ، كما ان ضباط الجيش المصري يقولون للسادات بأنهم بحاجة لعدة اشهر لاكمال الاستعدادات .

وتحدث عن التنقلات والرحلات التي قام بها السادات والاسد وغيرهما من القادة ، ولكن رجال الاستخبارات لا يثور لديهم شك بالنسبة للحركة بين مصر وسوريا ، ثم تحدث عن الزيارات التي قام بها احمد اسماعيل لسوريا والعراق ، وقد اعتبرت هذه اللقاءات في اسرائيل بأنها تنسيقية اعتيادية . واما في الاردن فيشعرون اكثر بالاستعداد الغريب ، ففي ١٣ (ايار) تم توزيع رسالة سرية على كبار الضباط الاردنيين يبشر الملك حسين ضباطه فيها بان بعض الدول العربية تستعد لشن هجوم قريبا ، ولكن حسب تقدير الملك فان هذه الخطة ليست جاهزة . وبعد عدة ايام تتسرب بعض التفاصيل من رسالة حسين الى الصحف اللبنانية ، وفي اسرائيل لا يهتمون بهذا الخبر . وخلص شيف الى القول بأن الخطة العربية التي تمت في ١٤ يناير ١٩٧٣ اعتمدت على النقاط التالية :

* ستكون البداية القيام بهجوم شامل من قبل مئات كثيرة من الدبابات وعشرات الالاف من المشاة على كلا الجبهتين .

* القصف المدفعي والقصف الجوي المسبق سيكون قصيرا وسيتركز على الجبهة ، وهكذا يتم ضمان تحقيق المفاجأة في الهجوم الشامل .

ويجب المحافظة على اسلحة الجو للمرحلة الثانية من المعركة .

* الجيش الاسرائيلي يحتفظ بقوات صغيرة على الخطوط الامامية . لهذا يجب السعي الى مفاجأة كاملة ، حيث يمكن توجيه الضربة الاولى قبل تجنيد الاحتياط الاسرائيلي .

* المهاجمون لا يهتمون في المرحلة الاولى بالمواقع الاسرائيلية ، وانما يتوغلون في الداخل ، وهكذا في هضبة الجولان . وفي القناة يبدأ سلاح المشاة الهجوم عندما يستخدم القوارب . وبعد ذلك تتم اقامة الجسور لمرور الدبابات .

* لدى هبوط الظلام يتم استخدام قوات الكوماندوس المحمولة بالطائرات . وهؤلاء يحتلون الممرات (المتلا ، والجدي) ومفترق الطرق ومهمتهم عرقلة التعزيزات الاسرائيلية والاحتياط .

* لزيادة صدمة الهجوم المفاجيء سيتم دراسة احتمال ضرب احد التجمعات السكانية الكبيرة في اسرائيل ، من على بعد ، بواسطة صواريخ جو — ارض من نوع كالط .

* الهدف من المرحلة الاولى في الحرب هي احتلال قناة السويس وكافة هضبة الجولان ، حتى نهر الاردن . وهدف المرحلة الثانية ، التوغل الى المتلا والجدي في سيناء والهجوم الى ما وراء نهر الاردن على محورين — جسر بنات يعقوب وشمالي بحيرة طبريا .

* اذا ما حدث خلل ، يقف المهاجمون وينتظمون بمجموعات مدرعة ، حيث يقام في المقدمة سور من الاف الصواريخ المضادة للدبابات وفي المؤخرة يقام ستار من عشرات بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات . وفي تلك الاثناء يتم تدفق الاحتياط الاستراتيجي من الدول العربية الاخرى .

وتحدث شيف عن الاسباب التي جعلت العرب يختارون يوم الغفران موعدا لهجومهم فقال : اختار العرب يوم الغفران ، موعدا لهجومهم ، لان في هذا اليوم ستتحقق المفاجأة الكاملة . فهذا هو اليوم الوحيد الذي يعطل فيه الراديو والتلفزيون في اسرائيل ايضا . (ولكن شيف يقول ان العرب لم ينتبهوا الى ان كافة الاسرائيليين يوجدون في هذا اليوم في الكنيس او في بيوتهم ، ولهذا من السهل تجنيدهم . وفي رأس السنة وعيد العرش يوجد مئات الالاف من الاسرائيليين على الطرقات ، ويمكن ان تقوم سياراتهم باغلاق الطرق مع بداية الحرب والتعبئة الكبيرة) . وتكلم عن مهمة السوفيات في التخطيط الفعلي وفي قرار الخروج للحرب فقال : هناك رأيان لدى الاستخبارات الاسرائيلية ، الاول ، وهو اقل احتمالا ، انه كان للسوفيات نصيب كبير في دفع مصر وسوريا للحرب . والثاني ، ان الاتحاد السوفياتي عرف من القرار العربي بالخروج للحرب ، وقد حذر الاتحاد السوفياتي مصر وسوريا بأنها ليست مستعدة بعد من الناحية العسكرية ، ولكن عندما رأى الكرملين انه لن يغير اراء السادات والاسد ، فقد ساهم السوفيات في التخطيط الفعلي واعدوا العتاد العسكري للمرحلة الثانية من الحرب . ويضيف شيف ، بأنه لا شك في ان الاتحاد السوفياتي قد عرف عن موعد الهجوم . فقد امر خبراءه وعائلاتهم بالخروج من مصر وسوريا لحمايتهم تماما قبل الحرب .

ثم تحدث عن التمويه والتضليل الذي قام به العرب قبل الحرب ، فقال لقد تحولت مصر للنضال السياسي بعد ان يئست من النضال العسكري ، وذلك لتحويل انتباه اسرائيل ويقظتها . وقد بذل العرب جهودا سياسية لعزل اسرائيل من الناحية السياسية ، فقد انفقت ليبيا مالا كثيرا لاقناع الدول الافريقية بقطع علاقاتها مع اسرائيل . وقدرت الجهات الاسرائيلية بان سلاح النفط سيثبت بأنه غير ناجع . وكانت سوريا قد قامت بخطوة تضليلية كبيرة ، عندما أعلمت فالدهايم لدى زيارته لسوريا ومصر في اغسطس بانها توافق على بحث قرار ٢٤٢ ، وهي التي كانت قد رفضت مناقشته حتى الان . كما اعلن المصريون انهم يؤمنون بالتسوية في الشرق الاوسط ، وكذلك نشروا المعلومات عن عدم استعداد الجيش المصري والسوري للحرب . ووصلت اخبار من سوريا بأن الطيارين السوريين غير راضين عن طائرة الميج . وللتغطية على تركيز القوات على الحدود دأب المصريون والسوريون على نقل القوات باتجاه الحدود ثم اعادتها الى اماكنها ، ثم حديث مصر وسوريا عن مناورات الشتاء عند اقتراب موعد

الهجوم . وعند اللحظة الاخيرة تقريبا كـــانوا مقتنعين في اسرائيل بان حالة التأهب غربي القناة ما هي الا مناورة كبيرة . وكانت المناورة تغطيــة للاستعدادات الاخيرة للحرب التي تم البدء بهـا في الاول من اكتوبر . وقد ساعدت المعركة الجوية في ١٣ سبتمبر السوريـين علـى توسيع خطـة التمويه ، عندما بدأوا ينشـرون الاخبار بـان اسرائيل تنوي مهاجمة سوريا . وقال شيف ، لم تكن خطة التمويه العربية لتنجح لو لم يحفظ سر موعد الحرب . ففي سوريا عرف ثلاثة اشخاص الموعد ، الرئيس ووزير الدفاع ورئيس الاركان ، واما قادة الميدان فلم يعرفوا الا قبل ايام معدودة قبل الهجوم . وقبل بدء الحرب بنصـف ساعـة شوهد الجنود المصريون على القناة وهم يرتدون الفانيلات بدون اسلحة .

ثم تحدث عن يوم ٦ اكتوبر فقال : قبل الساعة الرابعة صباحا بدقائق معدودة دق التليفـون في بيوت ثلاثة اشخاص في تل ابيب ، رئيس شعبة الاستخبارات الجنرال ايلي زعيرا ، السكرتـير العسكري لرئيسة الحكومـة ، العميد يسرائيـل ليئور ، والسكرتير العسكري لوزيـر الدفاع ، العميد يشعياهو رفيف ، وكانت المكالمة قصـيرة جدا : « وصل خبر بأن مصر وسوريا ستبدآن الحرب اليوم . وان ساعة الصفر هي ١٨,٠٠ » . وعندها اتصل ليئور برئيسة الحكومة التي طلبت منه دعوة الوزراء للتشاور في الثامنة صباحـا . وكذلك تم الاتصال بدافيد اليعازار ، الذي اتصل بدوره ايضا بقائد سلاح الجو واستفسر منه ، حتى يستطيع سلاح الجو ان يكون مستعدا للهجوم ج » فاجابه « كما اتفقنا امس في الساعة ١٣,٠٠ » . « وبهذا استلم امـر الانذار بالهجـوم في هـذه الساعة . انهى رئيس الاركان المكالمة . ثم عقدت الاركان العامة اجتماعا في الخامسة صباحـا . وكان اول المتحدثين رئيس شعبة الاستخبـارات زعيرا ، الذي استعرض التأهب لـدى الجيوش العربية ونواياها . وكان قد قدر بالامس بان احتمال الحرب قليل ، والان يقول بان المعلومات الجديدة تزيد من احتمال الحرب . وانهى اليعازار الجلسة بقوله : « وبالرغم من ذلك بانني انطلق من خلال الافتراض بان العرب سيبداون باطلاق النار هذا المساء . سأطلب تعبئة شاملة للاحتياط ، وآمـل ان يوافق على ذلك » . وفي الساعة الثامنة وصل دايان واليعازار الى مكتب رئيسة الحكومة ، في هكريا بتل ابيب واشترك في المناقشة التي دارت هناك ألون وغاليلي . وقد طرح اليعازار اقتراحه من جديد بضربة وقائية ، ولكن غولدا مئير عارضت ذلك . وقد تم اتخاذ قرار بتعبئة مائة الف جندي. واعتقد دايان بان هذا الرقم كبير وانه يكفي تعبئة حوالي ٣٠ الف شخص على الاكثر .

ثم تحدث شيف عن عبور العرب لحاجز الخوف فيشير الى ان هذه الحرب كانت بالنسبة للعـرب حربا على الكرامة وليس على الارض ، وقـال بأنهم لم يقدروا في اسرائيل كما يجب الى اي مدى يمكن ان يحث الانسحاق والمرارة العرب . وكان التقدير الرسمي في اسـرائيل انـه كلما ازداد الانسحاق العربي كلما زاد الاستعداد للتنازلات . وتحدث عن اجتياز العرب لحاجز الخوف ، الذي وضع في الخمسينات ، وكان لذلك افتراضـات ، العرب يفهمون ويقدرون فقـط لغـة القـوة وان السكوت وضبط النفس يفهم لديهـم بأنه خـوف وسيجر الى عمليات عنف اخرى . ٢) اذا قام العرب بضرب اسرائيل ، فانه لا تكفي العقوبـة الاعتيادية . يجب تحديد ثمن مضاعف وحتى اكثـر من ذلك لاية ضربة ، وكان دايان رئيس الاركـان حينذاك أحد آباء هذه الفلسفة . ويضيف شيف ، ان اسرائيل قد لاحظت كيف يرتفع حاجز الخـوف العربي . وكلما طال امد هذا الحاجز ، كلمـا ترسخ الافتراض لدى سياسيـين وعسكريـين في اسرائيل بأن « العرب لن يجرؤوا » . وقد عرف رؤساء الجيش الاسرائيلي عن التعاظم العـربي منذ حرب الايام الستة، ولكنه صعب عليهم الاعتقاد بأن العـرب سـيجؤون على تجسـيد قـواهم العسكرية . وقد اوردت الصحف الاسرائيلية مرة بعد اخرى عدد الطائرات والدبابات التي اضيفت للعرب ، ولكن الجمهور في اسرائيل نظر الى هذه الارقام كأنها اسهم في البورصة . وقـد صـرح السادات وقادة الجيش المصـري بالضبط عمـا سيفعلونه وكيف ، ولكن قليلين في اسرائيل اعاروها أي اهتمام .

ثم تحدث عن فشل الاستخبـارات الاسرائيلية فقال ، ليست هذه هي المرة الاولى التي تفشـل فيها الاستخبارات الاسرائيلية في تقدير نواياالعرب

وتحركات جيوشهم . ففي عام ١٩٤٨ وعشية الحرب ، كان بعض كبار ضباط مصلحة المعلومات (الاستخبارات) في الهاجانا يعتقدون حتى اللحظة الاخيرة بان الملك عبد الله لن يدخل الحرب ، وفي بداية الستينات ، في اعقاب حوادث الحدود مع سوريا وعملية الانتقام ضد قرية التوافيق ، دفعت مصر بجيش الى سيناء ، وقد فوجئت اسرائيل بذلك . واتضح بان جهاز الانذار في اسرائيل شائب . وكان تقدير الاستخبارات الاسرائيلية قبل اسابيع قليلة من حرب الايام الستة ، بأنه لا يتوقع حدوث حرب في تلك السنة. وفي عام ١٩٧٣ كان جهاز الانذار متطورا ، ولكن من جلس بالقرب منه لم يقرأ جيدا الاخبار والارقام التي كانت على لوح الجهاز . والتقدير لم يكن فقط في المرحلة الاخيرة والحرجة ، وانما تقديرات مسبقة بان مصر السادات ايضا لم تكن مستعدة لحرب شاملة عام ١٩٧٣ ، وهو نفس الخطأ الذي واجهناه عام ١٩٦٧ . وحسب هذا التقدير فان مصر تمر في اوج مرحلة الاعداد للحرب ، واعتبر عام ١٩٧٥ عاما حرجا . ويقول شيف انه تقابل في ١٤ حزيران (يونيو) ١٩٧٣ مع رئيس الاركان بعد فترة من التأهب على الحدود ، حيث قال له رئيس الاركان : « ليس بلاهة ان تفتح مصر النار . لديهم تبريرات استراتيجية وعملية لذلك، فالدافع موجود ، والعرب دخلوا الى الجمود السياسي ، واصبح وضع مصر في العالم العربي غير سهل » . ويعزي شيف جذور الفشل في العودة الى عام ١٩٦٧ . ويقول بان حرب الايام الستة هي مفترق طرق في التقدير الاسرائيلي بالنسبة لنسب القوى بين اسرائيل والعرب . وكان هناك اتجاه بالاستهانة بالجندي العربي ولكن كان هناك قلق بالنسبة لعدد العرب » . وبعد حرب الايام الستة بدأ الاسرائيليون يتحدثون عن الفارق الكيفي واوقفوا الحديث عن الارقام العربية ، وهكذا استهان الاسرائيليون بالعرب ، ولذلك تم استبعاد التفكير حول احتمال مبادرة الدول العربية بالحرب . وتحدث جنرالات الجيش من ابطال حرب الايام الستة انه في عام ١٩٦٧ لم يكن هناك خطر يواجه وجود اسرائيل ، كما تحدث دايان لمجلة « التايم » : « ان حدود الدولة ستبقى كما هي في السنوات العشر القادمة . ولا يتوقع حدوث حرب جديدة في هذه السنوات » .

وركز شيف على دور الاستخبارات في تضليل القيادة ، وقد شبه ما حدث عام ١٩٦٧ من قبل الاستخبارات المصرية عندما قالت بان اسرائيل اشكول لن تجرؤ على الهجوم ، تماما كما حدث عام ١٩٧٣ عندما قالت الاستخبارات الاسرائيلية بأن مصر السادات لن تجرؤ على القيام بحرب . ثم تحدث عن الازمة والصدمة التي اصابت القيادة الاسرائيلية نتيجة لمفاجأة الحرب فقال : لقد سلبت المفاجأة من الزعامة السياسية والعسكرية الاسرائيلية ثقتها بنفسها . وان القليلين فقط قد نجحوا في التخلص من ذلك وقت الحرب ، وحتى هؤلاء الذين تخلصوا فقد خطوا بعد ذلك بتردد . ولهذا فقد تميزت تقريبا كافة القرارات بحذر مبالغ فيه ، وهو ليس مألوفا في التفكير الاستراتيجي الاسرائيلي . وقد كشفت الصدمة على الفور نقاط ضعف قديمة ، اغلبها معروف . وخلال فترة التأهب وانتظار الحرب ، خلال يوم الغفران ، ثم الكشف عن ضعف المستوى المقرر ، العالي جدا . وقد كان معروفا منذ مدة ان عملية اتخاذ القرارات من قبل حكومة اسرائيل شائبة من اساسها وليست ملائمة لدولة متقدمة . فالحكومة الاسرائيلية سمعت عن الاستعدادات والتأهب في اللحظات الاخيرة فقط . وكشف شيف عن اتخاذ القرارات في « المطابخ » وليس في الحكومة ، ففي حرب سيناء ١٩٥٦ اتخذ بن غوريون القرار وعرضه على الحكومة للموافقة عليه .

ويقول شيف انه في اليوم الثاني للحرب السابع من اكتوبر ، وصل خبر هام من جنوب البحر الاحمر ، الطوربيدات المصرية تهاجم ناقلة بترول في طريقها الى ايلات . وقد امر وزير الدفاع بعدم السماح بنشر اخبار حول الحصار في باب المندب. وليس هذا هو الخبر الوحيد الذي منع عن الجمهور ، وانما ايضا الصاروخ باتجاه تل ابيب. كما أمر اهارون ياريف الذي كان مسؤولا في الايام الاولى عن شؤون الاعلام ، بعدم نشر خبر سقوط موقع جبل الشيخ . واشار شيف الى العمل الممتاز الذي قام به الجنود المصريون لتركيب الجسور رغم مهاجمة الطائرات لذلك ، حيث استخدموا طرقا عديدة للتمويه . ويتحدث عن موقف اسرائيل الحرج في الجبهات ، وخاصة بعد

عودة دايان من سيناء عندما قال : « هذه حرب على البيت الثالث وليس على سيناء . يجب الانطواء الى شرم الشيخ . المهم شرم الشيخ . علينا الاستعداد في الخط الثاني ، في الممرات » . واورد شيف بعض ما قاله دايان عندما ذهب للاجتماع الى رئيسة الحكومة فقال لها ، ان الوضع في الجبهات خطير ، في الجبهة السورية لن يكون هناك مناص من الانسحاب الى الدرجة السفلى من هضبة الجولان . وقد اندهشت رئيسة الحكومة ومستشاروها من هذا .

ثم استعرض شيف تأخر اسرائيل في البدء بالحرب واشار الى بعض الاخطاء التي ارتكبت وكان اولها ، ان الامر اعطي فقط في الساعة ١٤ر١٥ لتحرك الدبابات في وسط سيناء ، فبدلا من ان تدخل الدبابات المعركة بتركيز ، ادى ذلك الى تشتتها وتوزع قوتها . وكانت هناك مشكلة لا تقل عن ذلك اهمية وهي مشكلة قلة النار الاسرائيلية حيث برز مع بداية الحرب عدم وجود مدفعية اسرائيلية مكثفة ، واشار الى ان النار المضادة الفعلية في المرحلة الاولى من الحرب في منطقة القناة كان سلاح الجو . وحتى هنا كان الجيش الاسرائيلي مقيدا للغاية ، كان على سلاح الجو في البداية القيام بمهمات اعتراضية ، وكذلك اجبرت طائرات كثيرة على القاء ذخيرتها في البحر وكانت خصصت لاهداف اخرى في اطار الخطة بضربة وقائية مسبقة . وهناك خطأ واضح في ادارة الحرب وقع عشية يوم الغفران وذلك فيما يتعلق بشأن المواقع . فحتى هبوط الظلام سقط موقعان على الاكثر ، وكان بالامكان اخلاء بقية المواقع ، وقد جاء امر اخلاء المواقع بعد ان كانت محاصرة تماما .

ثم تحدث عن طلب اسرائيل من الولايات المتحدة تزويدها بالاسلحة المطلوبة ، وكان الرئيس الامريكي قد أمر بتزويدها بالاسلحة التي خسرتها في الحرب. وعندما وصل الطلب الاسرائيلي دهشوا في البداية من الكميات المطلوبة من عدد الادوات التي ضاعت خلال اليومين الاولين من الحرب . واتضح لمستشاري الرئيس بأن نصيحتهم بان تقوم اسرائيل بنقل العتاد بنفسها ليس عمليا . واذا ارادت الادارة الاميركية ان يصل هذا العتاد بسرعة الى اسرائيل ، فعلى الولايات المتحدة ان تنقله بقطار جوي . واشار الى الهجوم الكبير الذي قام به السوريون في ٨ اكتوبر وخاصة في القطاع الشمالي وقد ادى ذلك الى ضغط كبير على الاسرائيليين ، الامر الذي دفع الاسرائيليين الى ضرب بعض الاهداف السورية من قبل الطيران الاسرائيلي للتخفيف عن الجبهة ، وهو ما نقله ألون لقائد المنطقة الشمالية عندما زاره في غرفة العمليات وسأله « هل يؤدي القصف لاهداف استراتيجية في عمق سوريا الى التخفيف عن الجبهة » ، فاجابه ، بالايجاب، وعندها اتصل ألون بغولدا مئير وطلب منها القيام بذلك .

وتحدث شيف عن الخطأ الذي وقع حول اجتياز برن لقناة السويس ، حيث فهم العريف الموجود في غرفة العمليات بالخطأ انه يقترب من الفردان . انه اجتاز الفردان . ثم يتحدث عن محاولة برن للعبور والتي انتهت بالفشل لانه خسر عشرات الدبابات في الهجوم ، وقد شدد هنا على ما ـعلته صواريخ ساجر ضد الدبابات . وفي الوقت نفسه قامت مجموعة اخرى بمحاولة للعبور فكان مصيرها كالبقية ، وهنا شارك في الهجوم بالاضافة الى الجنود المصريين وحدة فلسطينية ، وفي هذا الاشتباك تم أسر العقيد اساف ياغوري .

وتحدث شيف عن خط بارليف فأشار الى اضطرار الاسرائيليين لاقامة هذا الخط كما اشار الى الخلاف الذي نشب حول ذلك . وكان الجنرال شارون احد المعارضين لذلك حيث اجرى احصاء بين فيه انه نجم عن هذا الخط اصابة ٤٨٩ ، بين قتيل وجريح في الفترة ما بين ١٩٧٠/١/١ وحتى ١٩٧٠/٧/٨ في خط القناة . ثم اشار الى اليوم الثالث من الحرب وهو ٨ اكتوبر فقال : كان احد الايام الصعبة بالنسبة لموشي دايان ، الذي لم يتخلص حتى الان من تشاؤم ذلك اليوم . فقد اعتقد ان باستطاعة الجيش الاسرائيلي ان يصد المصريين بسهولة ، ولكنه رأى ان ذلك قد تغير كله الان . فقد تحدث في موقع القيادة العليا ، عن ضرورة الانسحاب الى الخط الثاني . مرة اخرى ذكر ضرورة اقامة خط في الجبال . وكانت يده ممدودة على خريطة سيناء ، وقد فهم الكثير من رجال القيادة ان قصده الانسحاب العميق ، وراء المتلا حتى الثلث الشرقي من شبه الجزيرة ، بالقرب من جبل مرارة . ولم يناقشوا الوزير بذلك ،

والذي قال انه سينقل ذلك لمحرري الصحف ، وطلب من قائد سلاح الجو ان يرافقه في هذه المقابلة . ومما قاله للصحافيين : « لا يوجد لدينا القوة لالقاء المصريين من وراء القناة دون ان تستنزف قوتنا حتى النهايه تقريبا . واذا قمنا بذلك ، فاننا سنفقد قوتنا وسنبقى في دولة اسرائيل بدون قوة . وان ما يجب ان نفعله هو الاستعداد بخطوط اخرى . واتضح اننا لسنا بأقوى من المصريين » . وقال انه سيعلن ذلك للامة بواسطة التلفزيون في الساعة التاسعة . وقال غرشوم شوكين ، رئيس تحرير صحيفة « هارتس » : « اذا اذعت ما قلته لنا بواسطة التلفزيون ، فمعناه هزة في وعي الشعب في اسرائيل والشعب اليهودي والشعب العربي » . ولكن غولدا مئير ألغت اذاعة هذا البيان . ويعلق شيف على دايان فيقول ، ان دايان عام ١٩٧٣ يختلف تماما عن دايان كما عرفوه عام ١٩٦٧ . ففي اللحظات الحرجة يتردد ويمتنع عن الحسم . فعندما يختلف القادة لا يتدخل ، وعندما يختلف هو واحد القادة يعرض الامر على غولدا للحسم .

وذكر شيف انه حتى اليوم العاشر من اكتوبر ، عندما وصلت اوائل الطائرات الاميركية ، فقد الطيران الاسرائيلي ٦٦ طائرة وان قسما كبيرا من الطيارين ومساعديهم قد قتلوا ، او بمثابة مفقودين . وكذلك تحدث عن القتل الكثير الذي حدث بين رجال الدبابات ، حيث قتل عدد كبير منهم . وتحدث عن مقتل قائد دبابة ثم حل محله آخر وقتل هو ايضا ، وعندها رفض الطاقم الذي عاد وهم ثلاثة العودة الى الدبابة والى المعركة. وتحدث عن الهجوم المضاد الذي قام بهالاسرائيليون على محور خان ارنبه فقال : كانت تطلق من البيوت في خان ارنبه ، قذائف البازوكا بكثرة ، وقد اصابت احدى القذائف سيارة مصفحة كانت تحمل حوالي ١٠٠ كغم من المواد المتفجرة ، وكان الانفجار قويا ، حيث لم يبق من ركاب السيارة المظليين واحد ، والذين يبلغ عددهم ١٣ جنديا . والسوريون لا يهربون وانما يقومون بمهمات انتحارية ، وكانت هذه المجموعات شجاعة ومعنوياتها عالية . ثم تحدث عن عدم استغلال القوات الاسرائيلية للقتال ليلا ، وهو المجال الذي امتازت به سابقا ، ولكن اتضح بان العرب هم ايضا طوروا اساليب القتال ليلا . كما أشار الى فشل الجيش الاسرائيلي في استخدام الكوماندو ، حيث اقتصر عمله على مساعدة الدبابات وانه لم يقم بعمليات ليلية سوى مرتين .

ثم تحدث شيف عن عملية العبور التي حملها بارليف لعرضها على رئيس الاركان ، الذي طلب بدوره عرضها على وزير الدفاع والحكومة . وقد طلب دايان من بارليف ان يشرح له ما هو « هدف العبور » . فاجابه بارليف « بهذه الطريقة سنهزم المصريين ، بدون عبور لن يكون هناك وقف اطلاق نار ، حيث انه لا يوجد اي ضغط على المصريين حتى ولا ضغط سياسي . وقد اجتمعت وزارة الحرب المؤلفة من غولدا وغاليلي ودايان والون لبحث هذا الموضوع ، وفي ذلك اليوم وصل تقرير من سفارة اسرائيل في واشنطن وكان غير مشجع . فقد تحسس سمحا دينتس لدى كيسنجر بالنسبة لاحتمال وقف اطلاق النار ، ونظر اليه وزير الخارجية الاميركية بدهشة وقال : لا يطلبون وقف اطلاق النار في حالة الضعف ! وكان هناك من عارض فكرة العبور ، فقال احد الجنرالات ان العبور سيقع على عاتق الاحتياط غير المدرب كثيرا على العبور ، وكذلك لوجود ضفتي القناة بيد العدو . ثم تحدث عن الهجوم الاسرائيلي على الجبهة المصرية وعبور قناة السويس في الليلة بين اليوم العاشر والحادي عشر من الحرب فتساءل هل حاربت اسرائيل دون الاهتمام بجدول زمني سياسي ويتساءل شيف هل نجم هذا التأخير عن اخطاء تكتيكية في الميدان وعن قرارات سيئة من قبل هؤلاء الذين اداروا الحرب ، او عن مفهوم شائب ، جذوره موجودة قبل حرب يوم الغفران ! ويجيب على ذلك بان من الجدير التأكيد ان حرب يوم الغفران قد كشفت تقصيرا خطيرا بشأن الاحتياطي في الذخيرة والعتاد حتى في الولايات المتحدة . فقد كشف البنتاغون بعد الحرب ان امداد اسرائيل بالذخيرة خلال المعارك قد اخلى اكثر من ٣٠٪ من الاحتياطي . وقال بان احد الاخطاء التي وقعت في الاركان هو عدم توقعها نشوب حرب شاملة . ان الحرب الخاطفة هي التي أدت الى التأخير . وقال بان مصر قد استخلصت من حرب الايام الستة انه يجب الاعتماد على ان الجيش الاسرائيلي لا يستطيع القيام

بحرب خاطفة بجدول زمني قصير ، ولهذا بـدا العرب الحرب على جبهتين في آن واحد . ومـن اجل منع اسرائيل من الحـرب الخاطفة سعـى العرب ان يضطر الجيش الاسرائيلي الى توزيـع جهوده ولا يستطع تركيز قوة لجهود حاسم فـي قطاع واحد . والاستنتاج من ذلك هو ان التأخير بالجدول الزمني نجم بصورة غير قليلة عن اخطاء في المفهوم وفي التخطيط العملي وليس فقط ممـا حدث في أرض المعركة . وقال بان جنرالات الجيش الاسرائيلي لم يستوعبوا ما حدث داخل الجيوش العربية ، حيث قال بعضهـم اذا عبر الجيـش الاسرائيلي قناة السويس ، فان الحرب ستجري على غرار حرب الايام الستة ولن تستمر سـوى اربعة أيام . وادعى هؤلاء بعد الحرب انه لولا تدخل الاتحاد السوفياتي لهزم الجيش المصـري خلال ٤ ـ ٦ ايام . وان هذا الادعاء يدل ايضا على ان المفهوم الاستراتيجي ـ السياسي كـان شائبا مند البداية ، وحتى ان هذا الخلل قد ادى الى التأخير .

وتحدث شيف عن الاستهانة بالمقاتل العربي ، فقال ، ان هذا الرأي كان سائدا في اسرائيل ، ولكن اتضح في حرب اكتوبر ان هذا الانطباع كان خاطئا . فتبين ان المقاتل العربي مستعد للتضحية وان لديه الدافع للقتال ، وقـد امتدح القـادة الاسرائيليون الجنود المصريـين والسوريـين ، وخاصة الذين وقفوا الى جانب بطاريات الصواريخ والمدفعية المضادة للطائرات ، ثم تحدث عن عملية العبور وفشلها بعد ١٨ ساعة من المحاولـة ، وكان دايان في ذلك الوقت في غرفة العمليـات في قيادة الجبهة وكان يستعرض الخرائـط ، وقـد « اقترح باعـادة القوة المكونـة من المظليـين والدبابات » . ولكن قائد المنطقـة الجنوبيـة ، غونين رفض هذا الاقتراح ، وفي النهاية تم اتخاذ القرار بعبور القناة . وتحدث عن يوم ١٧ اكتوبر فقال ، في صباح هذا اليوم كان عدد الدبابات التي عبرت القناة ٣٦ دبابة اسرائيلية . وكان المظليون منهكين وانهم يطلبون النجاة ، وشعر قائدهم بان قواته قد وصلت الى نهاية قواها ، والمعركة ليست حول اختراق الطريق وانما على الاشخاص، وطلب قائدهم الانسحاب ولكن غونين رفض ذلك . ثـم تحدث عن المقاومة الشديدة من قبل المصريين باتجاه العوامات ، حيث كانت النيران المصرية تصيـب اصابات مباشـرة ففي البدايـة اصيبت احـدى العوامات اصابة مباشرة وكان عليها دبابتان غرقت بأطقمها . ثم اشار الى الهجوم الذي قامت بـه الطائرات المصرية في ١٨ اكتوبر ضد رأس الجسر ، حيث كانت تأتي أسرابا أسرابا . ويعترف شيف بأن سلاح الجو الاسرائيلي قد خسر خلال الحرب ١٠٢ طائرة فقط ، وان عددا كبيرا من طاقمها قد قتل . ثم روى كيفية احتلال موقع جبل الشيـخ ، وعن المقاومة العنيفة والشديـدة التي ابداهـا السوريون ، واعترف بان لواء جولاني الذي قام بالهجوم قد فقد في هذه المعركة ٦١ قتيـلا . كما أشار الى بعض الخلافات بين القـادة الاسرائيليين حول تنفيذ الاوامر وخوض بعض المعارك ، وخاصة بين غونين وشارون . وقد اتهم شارون بأنه يديـر حربا فردية . كما اشار الى الخـداع الـذي استخدمه الجنود المصريون ، عندما اعلن حاكـم مدينة السويس، وقائد بعض المواقع عن استعداده للتسليم ، وما ان دخلت القـوات الاسـرائيلية ضواحي المدينة ، حتى انهالت عليهـا القنابـل اليدوية والصواريخ حيث قتل ٨٠ مظليا ورجـل دبابات .

وتحدث في النهاية عن اسرائيل التي « كانت لن تكون » . حيث استعرض الثقة المتزايدة والغرور الذي حدث بعد حرب الايام الستة ، ثم تطرق الى النتائج والتساؤلات التي تركتها الحرب ، فأشار الى ان الحرب قد هزت اسرائيل من اقصاها الى اقصاها ، كما ان الثقة الذاتية قد تزعزعـت . وفجأة ظهرت أسئلة كانت قد استبعدت : الى متى سنحيا على انقاضنا ؟ هل هناك امكانية لصمودنا في حرب اخرى في حين ان الكم لصالح العـرب ، فهم يملكون المصادر الطبيعية وخزانات النفط ؟ مرة اخرى ظهر الخطر على وجود الدولة . كمـا ادت الحرب الى حدوث ازمة داخـل الجيـش الاسرائيلي ، فقد كان لـدى الجيـش الاسرائيلي تقليد بعدم ترك الجرحى في أرض المعركة ، والان ترك الجرحى وكذلك الاصحاء في ارض المعركـة، كما تركت دبابات باطقمها الجرحى وغير الجرحى . وكشفت حرب يوم الغفران عن ازمة اخرى ، فقد كشفت الزعامة الاسرائيلية بكامل تقصيرها ، ففي اللحظة الصعبة جدا لم يكن هناك من يتحـدث

الى الشعب . كما وجه انتقاد الى دايان الذي لم يعرف كيف يعد الجيش للحرب ، ولم يعرف كيف يديره اثناء الحرب . كما تسببت الحرب في ازمة ثقة ، فالشعب لا يثق بزعمائه . وكان هناك من ربط هذه الازمة ببلاغات المتحدث باسم الجيش وقد استحسن الزعماء هذا الشعور ، ولكن الازمة أعمق ومرتبطة بمواضيع كثيرة : الوعود بالعمل على تقدم فئات فقيرة من السكان ، ان الوضع القائم بين اسرائيل والدول العربية سيستمر وأنه جيد بالنسبة لاسرائيل ، لن تندلع حرب بعد سنوات طويلة ، واذا ما اندلعت فلن يستطيع المصريون ابعاد الجيش الاسرائيلي عن قناة السويس . ثم تحدث عن التعفن داخل الجيش الاسرائيلي ، فاشار الى انه كانت هناك اسطورة تقول « بان الجيش الاسرائيلي شيء اخر » ، وان ما يحدث لدى الجمهور المدني لا يحدث في الجيش الاسرائيلي . ولكن هذا ليس صحيحا حيث ان الجيش هو كبقية المؤسسات الاخرى في اسرائيل. كما أشار الى الاسراف والعجرفة التي أصابت الجيش بعد حرب ١٩٦٧ وكذلك انعدام الانضباط. وتحدث ايضا على تسييس الجيش وتناحر الاحزاب حول القادة العسكريين ، ثم انتقد عدم وجود مجلس للامن القومي وكذلك عجز الاستخبارات عن تقييم الوضع .

ودعا شيف اسرائيل الى الاستعداد للحرب القادمة ، وذلك ليس على نسق حرب يوم الغفران وانما ستكون هذه الحرب ، حرب صواريخ وكذلك اشتراك جبهات اخرى فيها مثل الاردن . وانها ستكون اصعب من سابقتها ومدمرة اكثر حيث سيقتل فيها عدد اكثر وان الجبهة المدنية ستتضرر . وعبر عن شكه في ان اسرائيل ستكون حرة كما في الماضي في تنفيذ نظرية الحرب الوقائية المسبقة ، حيث نغير مصطلح الحرب الوقائية بعد حرب يوم الغفران . كما دعا اسرائيل الى ان تعلن بسان لديها صواريخ نستطيع ان تصيب اهدافا حيوية في البلاد العربية . واذا لم يعرف العرب ذلك فلن يكون هناك توازن خوف . كما دعا اسرائيل الى فتح صفحة جديدة ليس فقط في الجيش الاسرائيلي وانما بكافة المجالات في التعليم واستيعاب الهجرة والاقتصاد والضرائب والجانب السياسي والحزبي وطريقة التمثيل وانتخاب الزعماء .

حمدان بدر

تقارير

[١]

تحليل لاتجاهات الدعاوة الصهيونيــة في شهري يونيو ويوليو ١٩٧٥

سوف نكرس القسم الاعظم من هذا التقرير ، للحملة الصهيونية المضادة لمسعى العرب لطرد اسرائيل من هيئة الامم المتحدة . وسنتناول بشيء من التفصيل الخط الدعاوي الذي لجأ اليه رجال الاعلام الصهيونيون ، وكذلك فشل الجانب العربي في رسم وتنسيق استراتيجية دبلوماسية واعلامية معينة . كما سنعطي شيئا من الاهتمام في هــذا التقرير ، الى المشكلات الاعلامية الناتجة عــن انعدام الوحدة السياسية في المعسكر العربي ، فيما يخص مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة .

وخصصنا الصفحات الاخيرة من التقرير للنظر في الدعاوة الصهيونية حول اقتتال يونيو ويوليــو في لبنان . وسنؤكد في هذا الميدان عــلى الفائدة التي جناها الاعلام الصهيوني من التصريحـــات العربية السيئة التقدير حول أسباب الاحداث في لبنان . وسنتطرق في الختام بايجــاز الى الزعم الصهيوني القائل ان احداث لبنان قد اكـــدت استحالة تأسيس دولة علمانية ديموقراطية في أي مكان في « الشرق الاوسط » .

اسرائيل وهيئة الامم المتحدة

مع اقتراب الدورة السنوية لانعقاد الجمعيــة العامة للامم المتحدة ، بدأت بعض الدول العربية بالتفاهم مع منظمة التحرير الفلسطينية ، بيــذل مساع ترمي الى اكتساب تأييد عــالمي لحملــة دبلوماسية تستهدف طرد اسرائيل من الامم المتحدة، أو تعليق عضويتها فيها . ولقد توصلت هـــذه المجهودات العربية الى احراز نتائج ممتازة منــذ البداية ، وذلك من خلال القرار الذي تبناه مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية الذي ضم منظمة التحرير الفلسطينية بين أربعين بلدا في مؤتمر جدة الذي انعقد في يوليو الماضي . ولقد دعا القــرار الذي اتخذ باجماع أصوات الحاضرين ، الى طرد اسرائيل من جميع الهيئات الدولية « ردا علــى التحدي الاسرائيلي المستمر لقرارات الامم المتحدة الداعية الى انسحابها من جميع لمناطق التـــي احتلتها بالحرب » .

ولقد استقبل هذا القرار بدرجة غير اعتيادية من الاهتمام الاعلامي العالمي ، وذلك لانه جاء مباشرة في أعقاب التهديدات المشهورة لناظر الخــــارجية الامريكية دكتور كيسينجر التي ألح فيها بقوة الى ان الولايات المتحدة قد تسحب دعمها المالي لهيئــة الامم المتحدة، اذا ما واصلت المنظمة الدولية اتخاذ قرارات لا تروق للسياسة لامريكية .

لكن هذا الزخم الكبير الذي ولده قرار المؤتمر الاسلامي في جدة ، ما كان ينقضي اسبوعان حتى جرى « تنفيســه » واضعافه بصورة خطيرة في مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية في كمبالا . فلقد تكشفت في العاصمة الاوغندية خلافات حادة داخل المعســكر العربي حول مسألة طرد اسرائيل . ووقع الانقسام بين الدول العربية التي تضع ثقتها في فعــــالية الدبلوماسية الامريكية لاستعادة بعض المنـــاطق العربية المحتلة ، وبين الدول العربية الاخرى التي تعادي هذه الدبلوماسية باعتبارها شكلا مـــن اشكال المكائد الامبريالية . ومن الواضح أن الفريق الاول يخشى اغضاب النصير الرئيسي لاسرائيل في الوقت الذي يراهنون عليه كي يضغط عليها لتقديم

سـ.ـلات رئيسيه . وان رغبه هذا الفريق في تجنب اغضاب الولايات المتحدة الامريكيه أدت الى تبني قرار ضعيف اكتفى بالكلام عن احتمال ان يتم في « نهاية الامر ، حرمان اسرائيل من عضويتها » في هيئة الامم المتحدة .

ولهذا فلقد غدا من المشكوك فيه أن تطـــرح مسألة طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، او تعليـــق عضويتها فيها ، بصورة فعالة ، في الدورة المقبلـــة للجمعية العامة . ومع ذلك فان القضية لا تزال حتى الان واقعية للغاية . وما يبرر هذا هــــو احتمال تراجع بعض الدول العربية عن موقفهـــــا غير المتحمس لهذه المسألة ، في المستقبل ، في حال اخفاق الدبلوماسية الامريكية في تقديم النتائج التي تتوخاها هذه الدول .

وعلى الرغم من الانقسام المؤسف في الصـــف العربي حول هذه المسألة ، فلقد أولاها الصهيونيون عناية فائقة ، وأعظم قدر من الاهتمام . وحتى قبل ظهور هذا الانقسام في الصف العربي ، كان الصهيونيون قد اتخذوا عدة اجراءات وخطوات مهمة على الصعيدين الدبلوماسي والدعـــاوي ، لمجابهة هــذا التهديــد الجديــد لمركزهم الدولـــي المتداعي . ولقد شن الصهيونيون حملة عــــاتية انحطت الى درجة الهجوم المباشر على الامم المتحدة ذاتها،وعاونتهم في حملتهم جميع الحكومات الغربية وأجهزة الاعلام الغربية . ولهذا السبب فاننـــــا سننظر في هذا التقرير التحليلي ، في المـــــواد الدعاوية الصهيونية والغربية على السواء .

وصلت الحملة الاعلامية الصهيونية بشأن هــذا الموضوع الى ذروتها الحادة ، في اعقاب تبنـــي مؤتمر جدة قرار طرد اسرائيل في السادس عشر من يوليو . لكننا أشرنا من قبل ، الى انه حتى قبل هذا التاريخ ، كانت الولايات المتحدة ممثلة فــــي شخص ناظر خارجيتها كيسينجر ، قد اتخذت عدة خطوات جدية لدفن هذه الموجة المعادية لاسرائيـــل في مهدها . وأعلن كيسينجر بوضوح في خطاب وصف بأنه « خطاب رئيسي بشأن السياسة الخارجية »، ان الولايات المتحدة منزعجة لفقدانها السيطرة على المنظمة العالمية . وفيما انتقد كيسينجر «تسييس» وكالات هيئة الامم المتحدة المتخصصة ، وقيـــام هذه الوكالات وكذلك الجمعية العامة بطرد دول أعضاء « لانها لسبب أو لاخر لا تروق لهـا » . فانه لم يترك مجالا للشك في أن الولايات المتحــدة ستعرد بتدابير حاسمه اذا مـــا استمرت هــــذه الممارسات . وبعد ان ذكر بفظاظه ان الولايات المتحدة ، خلاف الامم الاصغر والافقر ، ستطيع ان « تزدهر » بدون الامم المتحدة ، أشار الى ما يمكن أن يحدث اذا ما واصلت دول العالم الثالث تأكيد وجودها في الدورات المقبلة للامم المتحدة :

« لقد كانت الولايات المتحدة حتى الان ، الممول الاكبر للامم المتحدة . لكن هذا الدعم المالي من جانب الشعب الامريكي الذي شكل شريان الحيـــاة للمنظمة ، سوف يتوقف الا اذا كان هناك انصاف في اللعبة ، واحترمت الاغلبيـــة العــددية رأي الاقليـــة » .

وشن الصهيونيون حملتهم المعادية للامم المتحدة بعد ذلك الخطاب بأيام ، معتمدين علـــى هــذه الدبلوماسية الامريكية ، دبلوماسية « العصـــا الغليظة » . وان الجهود الدعاوية التي بذلهـــا الصهيونيون ، والتي لاقت دعما حثيثا من وسائط الاعلام الغربية ، كان القصد منها تعزيز هجمة دبلوماسيه عاتية تشن في الوقت نفسه ، وكانت مرسومة ومدبرة من قبل .

نشرت **الجيروزاليم بوست** مقالة افتتاحية فـــي العشرين من يوليو ، ظهر فيها العديد من الموضوعات الرئيسية التي كثيرا ما ترددت في الحملة الصهيونية التي استمرت حتى اغسطس . وكان البارز فـــي المقالة ، الهجوم الشائن على منظمة الامم المتحدة ذاتها ، وليس أدل على ذلك من أن المقال كـــان بعنوان « الامم المتحدة تحتضر » . وكانت المقالة تنضح بروح عنصرية حادة ، وجل ما ابتغته هــو الحط من فكرة تمثيل الامم المتحدة للرأي العـــام العالمي ، وذلك بالتلميح الى أن كثيرا من الدول الاعضاء ليست أهلا لاعتبارها أعضاء كاملة فـــي المجتمع الدولي :

« لقد انتفخت الامم المتحدة من خمسين دولـــة مؤسسة في العام ١٩٤٥ الى ١٣٨ دولة اليـــوم ، **نصفها تقريبا ميني — دول (أنصاف دول) تتمتـع باستقلال اسمي لا أكثر** ، وبين بعضها الذي انضم في المدة الاخيرة ، دول لا تضم غير مئات قليلة من الوف السكان . ان الكثير من هذه الدول فقيـر

ومتخلف وينتمي الى العالم الثالث ، وهي على غير دراية بالحقائق السياسية الى حد أنها ترى في روسيا والدول العربية ناصحها الثوري الامين » . (خط التشديد من عندنا) .

ان هذا التهجم المهين الصريح على هيئة الامم المتحدة والرأي العام العالمي الذي تمثله ، يلاقي بالرغم من كل شيء استجابة قوية طالما انه يوجه الى الرأي العام الغربي ، الذي هو نفسه يعاني من الارتباك والاضطراب نتيجة للمواقف الجريئة التي تتخذها مختلف مؤسسات الامم المتحدة . وفي هذه المقالة وأمثالها ، ان هدف الصهيونيين هو الافادة من الشعور العام القوي المعادي للامم المتحدة في بعض الدول الغربية ، وفي الولايات المتحدة على وجه الخصوص . ان هذا هو الجمهور الذي تستهدفه الصحيفة حين تمضي الى القول :

« في الخمسينات ، وتحت ضغط تهديدات الفيتو السوفياتي ، كانت الامم المتحدة تأسف لغارات الارهابيين العرب في اسرائيل ، لكنها كانت تشجب ردود الفعل الاسرائيلية ضد مراكز التخريب ... وربما كان خيرا لو أننا دفنّا الامم المتحدة في تلك الايام . فلقد غدت الان أداة سياسية ذات أغلبية سوفياتية — عربية ، وان الولايات المتحدة تصحو ببطء على حقيقة أنها لا تستفيد سوى القليل من بقائها الممول الرئيسي لمنظمة معادية للامريكيين ».

نحن هنا لسنا فقط أمام تشويه للتاريخ ، الامر الذي أصبح سمة ثابتة في الدعاوة الصهيونية (وذلك في قول الصحيفة ان فيتو الاتحاد السوفياتي استخدم « للضغط » على الامم المتحدة من أجل ادانة اسرائيل) ، لكننا أيضا أمام نغمة سلبية عميقة ، وهذا مؤشر على أن الصهيونيين لم يجدوا **في ذلك الوقت** غير أمل ضئيل في عدم تعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة في الجلسة التالية للجمعية العامة للامم المتحدة . وهذا يبين ان الصهيونيين كانوا يفتشون عن صيغة تشرح توقيف عضويتهم في المنظمة العالمية ، استباقا للحدث قبل وقوعه ، وذلك بتشويه سمعة الامم المتحدة وتسويد وجودها ذاته . وسنرى بعد حين ، ان الصهيونيين نبذوا هذه النغمة بعد أسابيع قليلة عندما تأكد الانقسام العربي بجلاء .

وفي الوقت نفسه تقريبا ظهرت في وسائط اعلامية صهيونية اخرى هجمات أقل حدة على الامم المتحدة . وكما يتبين في جميع الحملات الدعاوية الصهيونية ، وعلى الاخص في تلك الحملات التي تعني النظام الصهيوني بصورة خاصة ، نجد في هذه الحملة كذلك درجة ملحوظة من التشابه في الموضوعات المطروحة في مختلف التعليقات والتصريحات الرسمية . ولنأخذ على سبيل المثال ما قاله الجنرال حاييم هرتسوج السفير الاسرائيلي الجديد في الامم المتحدة . فلقد نشر هرتسوج مقالة في **التايمز** اللندنية في السابع والعشرين من يونيو ، أي قبل أن تصل حملة الدعاوة الاسرائيلية الى كامل زخمها ، حاول فيها أن يشخص المشكلات التي تواجه اسرائيل على الصعيد الدولي ، باعتبارها مشكلات **تمس بصورة مباشرة مصالح الغرب قاطبة** : « ان مشكلة اسرائيل ليست في أساسها مشكلة اسرائيلية . انها مشكلة الامم المتحدة ذاتها ومشكلة الغرب .» وكما رأينا في مقالة **الجيروزاليم بوست** التي اقتطفنا منها آنفا ، فلقد أوضح هرتسوج كذلك وبصراحة أكبر ، ان الامم المتحدة ليست أهلا لاصدار الاحكام على اسرائيل : « ان أشد ما في القضية كلها من شذوذ أنكم كنتم في الاسبوع الماضي أمام قطع للرأس في ساحة عامة في الرياض ، وفي هذا الاسبوع أمام مأساة السيد هيلز في اوغندة ، وان هذه هي البلدان التي ستقوم باصدار الحكم على أكثر بلدان العالم ليبرالية وديموقراطية » .

وفي مجالات اخرى كثيرة يظهر الطرح نفسه ، بتصوير اسرائيل على أنها **حالة اختبارية** ، باعتبارها الضحية الاولى في هجمة بلدان العالم الثالث المتخلفة ، على الغرب المستنير . من هذا ان **الجويش كرونيكل** اشتكت في الثامن عشر من يوليو ، من ان « اسرائيل تحملت الوطأة العظمى من الهجمة غير المسئولة والعدوانية من جانب قوة دول آسيا وأفريقيا والكتلة الشرقية في الامم المتحدة . ثم تمضي المقالة الى القول : « ان ضحية النشاطات الاخيرة السقيمة التوجيه وغير المسئولة ليست اسرائيل ، بل العالم بأسره » . وفي هذا كما يلاحظ صدى وترديد لتهديد كيسينجر ، ذلك انها تصل الى القول ان الدول الغربية تستطيع « العيش » بدون الامم المتحدة ، اما البلدان الاكثر فقرا فلا تستطيع ، ثم تخلص الى

ان « اسرائيل تستخدم كحالة اختبارية » وان المسألة تشكل امتحانا حيويا وشديد الاهمية للعالم كله » .

وهذا طرح صهيوني مألوف ومعروف ، أي ربط مصالح اسرائيل الضيقة بمصالح الغرب كله ، بل وبمصالح العالم قاطبة . وتكرر هذا الطرح مرة اخرى على لسان يجال الون وزير خارجية اسرائيل في خطاب القاه في الكنيست ونقلت مقتطفات منه صحيفة **الجويش ابزرفر** اللندنية الصادرة يوم الاول من اغسطس : « ان مكائد الدول العربية ضد مكانة اسرائيل في الامم المتحدة ، تشكل امتحانا للامم المتحدة نفسها أكثر مما هي امتحان لاسرائيل ... » ويشكو آلون من « الطغيان غير المنضبط الذي تمارسه الاكثرية على الامم المتحدة بعملية الاقتراع » ويذكر ان من العسير فعل أي شيء لوقف تمرير قرارات هذه الاكثرية ، ذلك لان « في وسع بلدان النفط والتعصب ان تحقق دائما الاغلبية عند التصويت » . وعلى ضوء هذا ينصح آلون بأن يكون هدف اسرائيل هو :

« ان تعوق المتآمرين حتى قبل وصولهم الى الجلسة . وكي يمكن الوصول الى هذا ، ينبغي على **البلدان المستنيرة** المكرسة لمصير الامم المتحدة، ان تبادر الى اتخاذ اجراءات أقوى مما فعلت حتى الان ... وينبغي على **الدول المسئولة** ان تعلن بوضوح ... ان مصير اسرائيل في الامم المتحدة سوف يقرر مصير الامم المتحدة نفسها ، وانه اذا منعت اسرائيل من الاشتراك في مداولات الجمعية [العامة للامم المتحدة] ، او اذا حدث اي مساس بأي شكل بوضعيتها في الامم المتحدة ، فان هذا سوف يعني في نظر أصدقاء اسرائيل ، انها لن تكون وحدها في هذا الوضع . » (خطوط التشديد من عندنا) .

ويتكرر طرح هذا الخط الاسرائيلي الاعلامي مرة تلو الاخرى في الصحافة الصهيونية : ان كفاح اسرائيل هو كفاح في سبيل كل ما له قيمة في الامم المتحدة ... **سلامة ووحدة أراضي الدول ، وعالمية الامم المتحدة ، والتبادل الحر للافكار .** وان اسرائيل حالة اختبارية : فاليوم اسرائيل ، أما غدا ، فمن يستطيع التكهن اي بلد من البلدان « **المستنيرة** » سيقع عليه دور المعاناة ؟ واذا ما أوقفت عضوية اسرائيل في الامم المتحدة او علقت ، فان الامر سيكون بداية النهاية للامم المتحدة .

وبهذا المعنى تقول افتتاحية **للجويش أبزرفر** يوم الخامس والعشرين من يوليو : « ان اسرائيل هدف الهجوم اليوم ، وغدا يمكن أن يقع الدور في الثأر الوحشي الذي تطبقه الاغلبية في الجمعية العامة على دول اخرى . وليس من العسير تصور نهاية هذا كله : كسوف شمس الامم المتحدة » . ومرة اخرى ، ان البلدان الساعية لطرد اسرائيل من الامم المتحدة ، هي — بريشة الصحيفة — بلدان منحطة اخلاقيا ، وبالطبع معادية للسامية :

« ان الاسلام مدين بأصله لليهودية التي يسعى لتشويهها الان . لقد اتخذ القرار المعادي للصهيونية في تجمع انعقد في بلد لا تزال العبودية سائدة فيه ، وتُمتلك النساء (بضم التاء الاولى)، وحيث الاشخاص الذين يدانون بارتكاب جرائم تافهة ، تقطع رؤوسهم على الاشهاد » .

يتضح من هذا كله النقص المذهل في مناقشة الخط الاعلامي الصهيوني للقضايا الحقيقية . فان الصهيونيين لم يتطرقوا في أي مكان — معالجة أو تفنيدا — للحجج الاصلية المقدمة تبريرا لطرد اسرائيل . ان هناك اغفالا كاملا لموضوع احتلال اسرائيل للاراضي العربية . وهناك كذلك تجاهل كامل لانتهاكاتحقوق الانسان في الاراضي المحتلة . وبالطبع لا ذكر لقرارات الامم المتحدة المتعددة التي تدين اسرائيل في هذا الاطار ، ولا للحجج العربية القوية بشأن نواحي التشابه بل التطابق بين اسرائيل وجنوب أفريقيا . فالصهيونيون يغفلون كليا جميع هذه القضايا الاساسية . وان هناك سببين يتيحان لهم القدرة على ذلك ، أي ابقاء السجال يدور فوق الارضية التي اختاروها هم :

اولا : اعتمادهم المطلق على الدبلوماسية ، ومن ذلك العقوبات التهديدية من جانب الدول الغربية ، بغية الحفاظ علىمراكزهم في الامم المتحدة .

ثانيا : تقديم الموقف العربي لقراء الصحافة الغربية بصورة سيئة وفاشلة بحيث ان الصهيونيين لم يعودوا مضطرين لالتزام جانب الدفاع عن جرائمهم .

سنعود الى النقطة الاخيرة في وقت لاحق . هناك ذريعة اخرى شديدة الاهمية تتردد كثيرا في كل بيان صهيوني حول المسألة تقريبا ، وهي مؤشر على الحقائق السياسية الراهنة في الشرق الاوسط. وبعبارات **الجيروزاليم بوست** يوم الخامس من أغسطس : « ربما كان يتوجب على المستر فالدهايم ان يسأل المصريين عما يمكن ان يتبقى من القرار الرقم ٢٤٢ ، الذي غدا شيئا عظيم الاهمية بالنسبة لهم ، اذا ما حيل بأي شكل من الاشكال بين اسرائيل وممارستها الكاملة لدورها في الامم المتحدة » . ان هذه الفكرة تتردد كثيرا في ما تقوله وسائط الاعلام الاسرائيلية والصهيونية والغربية،وهي ليست في الواقع مجرد خط اعلامي، ولكنها تمثل بالفعل موقفا سياسيا حقيقيا . ذلك ان الصهيونيين يعرفون جيدا ان موقف مصر المتداخل بصورة عميقة بالدبلوماسية الامريكية ، يجعل من العسير عليها الى حد بعيد ان تسعى جديا لبذل اي جهد لابعاد اسرائيل عن الامم المتحدة . ومن المحتمل ان استغلال الصهيونيين لنقطة الضعف هذه ومناوراتهم بخصوصها من خلال المسئولين الامريكيين ، يقف وراء ذلك الانقلاب المفاجىء في الموقف المصري بين مؤتمر جدة ، وبين مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية على مستوى القمة في كمبالا .

كما أن الصهيونيين حققوا كل ما أمكنهم من فائدة من المساندة الاجماعية تقريبا التي ظفروا بها من جانب الصحافة الغربية . ولقد نجح الصهيونيون في ان يجروا وراءهم قطاعات كبيرة من الرأي العام الغربي ، بصدد هذه المسألة . بل ان صحفا **كالجارديان والتايمز** اللندنيتين اللتين تظهران غالبا درجة من الموضوعية في معالجة قضايا الشرق الاوسط ، كانتا تنشران مقالات وتعليقات مؤيدة لاسرائيل بصورة غير مألوفة . اما **التايمز** فلقد حددت موقفها بشكل قاطع في الاستهلال الذي بدأت به تعليقها بشأن القضية مدار البحث ، يوم السادس والعشرين من يوليو :

« لا بد من القول مرارا وتكرارا ان اي تهديد بطرد اسرائيل من الامم المتحدة، هو تهديد للسلام، وللامم المتحدة ، وتهديد مباشر لمصالح الدول العربية ذاتها . »

وان محور الحجة التي تطرحها **التايمز** هو « ان دور الامم المتحدة في نزاع الشرق الاوسط حيوي » ، وانه اذا طردت اسرائيل فعلا فان من شأن هذا اذكاء نار الحرب . ويعني منطق **التايمز** بكل وضوح ، ان اي بلد عربي يؤيد المسعى لطرد اسرائيل من الامم المتحدة ، فانه بلد لا يريد السلام . (ومن الطريف ان **التايمز** لا تأتي على ذكر امكانية **تعليق عضوية اسرائيل** في الجمعية العامة للامم المتحدة) .

أما حجة **الجارديان** ضد طرد اسرائيل فمختلفة تماما . وخلافا **للتايمز** التي لجأت الى الاسلوب البراغماتي ، فان **الجارديان** تتبنى بعض الحجج المستقاة من الايديولوجية الصهيونية نفسها ، وهي تشكو من « تكتلات التصويت » في الامم المتحدة، ومن القرارات « غير الواقعية » الخ ... بل انها تدعي :

« ان مضايقة الاقليات تحمل في طياتها مخاطر واضحة على الامم المتحدة ، وتتعارض والميثاق ، الذي صيغ ليقر بأن من حق جميع البلدان ، ضعيفة كانت او قوية ، سيئة او حسنة ، ان تكون ممثلة في الامم المتحدة . »

وهكذا نرى ان **الجارديان** ، مثل الصهيونيين ، تتجاهل كليا ما تعرفه ويعرفونه من أن في الميثاق بنودا ومواد صريحة بشأن طرد الاعضاء او تعليق عضويتهم اذا ما انتهكوا بصورة منهجية قرارات الامم المتحدة ، أو الميثاق نفسه ، مثلما فعلت اسرائيل حتى الان بكل وضوح .

على ان الموقف الصهيوني يعتمد الى حد كبير على الولايات المتحدة ودعمها في هذه الناحية . وان التحالف الامريكي — الصهيوني يقول بكل خبث ووقاحة ، وبصورة مؤثرة فعالة : ابتعدوا عن اسرائيل،والا دفعت الامم المتحدة الثمن ! فلقد كان هذا مثلا جوهر تعليق **النيويورك تايمز** يوم السابع عشر من يوليو ، وهو التعليق الذي استقى وحيه وخطوطه الاساسية من الملاحظات التي ابداها كيسينجر في اليوم السابق . وان ما تقوله هذه الصحيفة المناصرة للصهيونيين لا يكترث ابدا للقضايا الاخلاقية ، ولا يتعرض بشيء لمسألة أين الخطأ والصواب . بل ان الصحيفة تستهل تعليقها في الواقع باعتراف تطلقه بلا خجل ، بأن الولايات

المتحدة كانت منذ تأسيس الامم المتحدة ، المسئولة والمدانة بسبب جميع الاعمال التي تدان بها دول العالم الثالث الان من جانب كيسينجر : « في الخمسينات، عندما كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها اصحاب الاغلبية شبه الاوتوماتيكية ، اسهمت واشنطن بنصيبها في اتخاذ القرارات الوحيدة الجانب والرامية لخدمة مصالحها الخاصة » .

على ان هذه الحقيقة ليست من بنات افكار **النيويورك تايمز** ، بل هي انعكاس مباشر وصدى لتهديدات كيسينجر . وان الصحيفة تقتبس من اقوال كيسينجر ، لتحذر من العقوبات المنتظرة اذا ما جرى تهديد اسرائيل بالطرد او تعليق العضوية :

« ان أصغر أعضاء الامم المتحدة حجما ، هم الذين سيكونون الاعظم خسارة » ، هذا ما قاله المستر كيسينجر ... « وان اولئك الذين يسعون للتلاعب بعضوية الامم المتحدة باساءة استخدام اجراءاتها ، هم الذين سيرثون اية السلة فارغة » .

أي ، بكلمات اخرى ، اذا لم توقف بلدان العالم الثالث ممارسة حقوقها كأغلبية في الجمعية العامة للامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة ، وذلك بادانة ، وطرد ، وتعليق عضوية دول كاسرائيل وجنوب افريقيا ، وبغض النظر عن الحجج الاخلاقية والاسباب الشرعية المقدمة ، فاننا سوف نترك الامم المتحدة .

ولم يكتف الصهيونيون بالولايات المتحدة ، بل سعوا جهدهم ليكسبوا الى صفهم معظم حكومات اوروبا الغربية . فصدر بيان رسمي باسم المجتمع الاقتصادي الاوروبي في منتصف يوليو يؤكد عزم هذه البلدان على حماية « عالمية » الامم المتحدة، وهذا مصطلح اصبح يستخدم ليعني استمرار عضوية اسرائيل وجنوب افريقيا . كما قرر مؤتمر على مستوى القمة لاحد عشر بلدا اوروبيا غربيا، حضره قادة الاحزاب « الاشتراكية » الديمقراطية في ستوكهولم ، في الثاني من اغسطس ، قرر بالاجماع بعد اللقاء مع رابين رئيس وزراء اسرائيل، العمل ضد اية محاولة لطرد اسرائيل او تعليق عضويتها في الامم المتحدة . وصرح اولف بالمه رئيس وزراء السويد وهو يتلو القرار « ان ابعاد اسرائيل سوف يكون منافيا لميثاق الامم المتحدة الذي يقوم على مبدأ العالمية ، وينطوي على عواقب خطيرة بالنسبة لمستقبل الامم المتحدة » .

ويتبين من هذا ان رابين لم ينجح فقط في ان يقنع « القادة الاشتراكيين بفحوى الخط الاسرائيلي ، بل وايضا بصيغة هذا الخط فيما يتعلق بطرد اسرائيل . وان فرنسا كذلك ، اعلنت غداة المؤتمر الاسلامي في جده ، في تصريح اعلنته وزارة الخارجية رسميا ، انها تعارض المسعى المبذول لابعاد اسرائيل عن الامم المتحدة .

لا ريب في ان الصهيونيين قد نجحوا حتى الان (اواخر اغسطس) ، في تحويل الحملة العربية لطرد اسرائيل من الامم المتحدة ، لخدمة مصالحهم. وبالمفهوم الاعلامي الصرف يمكن القول انهم نجحوا في نقل المسألة من البحث في **لماذا** يوجه هذا التهديد لاسرائيل ، الى شتات من الموضوعات الاخرى البعيدة عن جوهر الموضوع . وحتى لو افترضنا ان طرد اسرائيل عمليا او تعليق عضويتها لم يكن بالامر الممكن في هذه المرحلة ، فلقد كان على الجهد الاعلامي العربي مع ذلك ، او تلك القطاعات العربية الاعلامية المحبذة للحملة على الاقل ، ان تسعى للاستفادة من الدعاوة العريضة التي احاطت بالمسألة كلها ، وذلك بهدف التأثير على الرأي العام الغربي بتبيان فداحة الانتهاكات الاسرائيلية لحقوق الانسان ولميثاق الامم المتحدة .

ولم يحدث شيء من هذا . ولقد اشرنا من قبل الى ان نجاح الرد الاسرائيلي على هذا الموضوع في تمكنه من تجاهل مسألة **ما الذي فعلته اسرائيل** حتى جلبت على نفسها غضب العالم الثالث ، احد أسبابه ان القضية العربية لم تقدم الى الرأي العام الغربي بطريقة منهجية . وانها لحقيقة مذهلة انه لم ينشر اي تقديم سليم او عرض مقنع لوجهة النظر العربية بشأن هذه المسألة ، في اي مكان في الصحافة الغربية ، طوال هذه الفترة ، باستثناء رسالة او رسالتين ردا على مقالات بعض الصحف.

ولقد بينا في تقرير تحليلي سابق كيف اناسرائيل قطفت فوائد جمة وحققت دعاوة فاعلة في قضية الاونيسكو ، وذلك باستغلال الاخفاق العربي في ربط المساعي الدبلوماسية بمجهودات اعلامية . ولقد تكرر الامر نفسه هذه المرة ايضا تماما ، وفي

قضية مشابهة كذلك . فلقد كان يجب اقامة تنسيق وثيق بين تبني قرار جدة ، وبين حملة اعلامية معدة سلفا ، تكون فاعلة ومنهجية غايتها ان تكشف بصورة مثيرة ان اسرائيل انتهكت ميثاق الامم المتحدة ، وتجاهلت عددا لا يحصى من قرارات الامم المتحدة ضدها ، وان استمرار بقائها في المنظمة العالمية تشويه لحقوق السيادة ولمفاهيم العدالة . اضف الى ذلك ان تكثيف واستمرار الحملة الاعلامية العربية في هذه المسألة ، كان كفيلا بتوفير فرصة ممتازة للكشف عن الطبيعة الحقيقية للتوسعية الاسرائيلية وسياساتها الوحشية في المناطق العربية المحتلة .

على انه ينبغي القول ان هناك نقطة ذات شأن تتصل بتقديم وجهة النظر العربية ولا يمكن اغفالها ، وهي مسألة انقسام الموقف العربي . فان انعدام الوحدة في المعسكر العربي على الصعيد السياسي ، جعل من العسير تماما شن حملة اعلامية مؤثرة . فالخلافات التي ظهرت بين العرب اثناء انعقاد مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية ، والتي اخفيت من قبل ، جعلت مهمة الصهيونيين في التصدي للحملة العربية ، ايسر سبيلا واشد فاعلية . ولقد نشرت **الجيروزاليم بوست** في الاول من اغسطس مقالة بعنوان « مفاجآت كمبالا » ، حيث انعقد مؤتمر منظمة الوحدة الافريقية . تعليقا على الانباء والتقارير الصحافية التي اكدت وقفة مصر الحازمة ضد اي قرار يدعو الى طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، او تعليق عضويتها فيها ، كتبت الصحيفة بارتياح ظاهر : « حتى مصر انور السادات قد توصلت الى ادراك ان هذه الحملة لا تخدم الصالح العربي ، وانها تتحول لتصبح قيدا سياسيا » . كما عبرت الصحيفة عن مشاعر مماثلة في المقالات التي نشرتها في الثالث والخامس من اغسطس .

ولن نتطرق في هذا التقرير الى بحث المواقف السياسية للدول العربية المعنية ، الا ان هناك نقطة اخيرة تستحق الايراد في هذه المسألة . وهي ان نجاح العرب في حقل الاعلام — كما في الحرب وكما في الدبلوماسية — لا يمكن توفيره بغير الوحدة والاتفاق والتنسيق عند شن اية حملة . وان اية حكومة عربية تضع مصالحها الذاتية الضيقة قبل المصالح العربية العليا والعامة ، فانها تعرض كفاح جميع الشعوب العربية لافدح المخاطر .

كلمة اخيرة عن لبنان

شهد شهر يوليو — مؤقتا على الاقل — نهاية النزاع الاهلي في لبنان . ولقد انغمست قوات الثورة الفلسطينية بصورة جزئية في اقتتال يونيو — يوليو ، باعتبار ان النزاع كان ذا ابعاد لبنانية كليا . ومع ذلك واصلت الدعاوة الصهيونية تصوير الامر وكأن المقاومة الفلسطينية هي السبب الوحيد في النزاع . على ان تصريحات الرئيس السادات لمجلة **الصياد** اللبنانية قدمت مساعدة لا تقدر بثمن للجهود الاعلامية الصهيونية في هذا النطاق . ويمكن ان تكون تصريحات السادات جزءا من الحروب الكلامية المصرية — الليبية ، لكن الصهيونيين افادوا منها كثيرا واستغلوها على الفور ، بصرف النظر عن نوايا السادات . وكتب محرر الشؤون العربية في **الجيروزاليم بوست** يوم السادس والعشرين من يونيو ما يلي :

« بالامس اتهم السادات زعيم ليبيا معمر القذافي ، بانفاق مبالغ طائلة من المال لاثارة الاقتتال في لبنان فلقد صرح السادات في مقابلة صحافية بأن « من المعروف ان القذافي دفع مبالغ كبيرة من المال لاشعال القتال كلما كان يهدأ » في بيروت . ونشرت اجهزة الاعلام في القاهرة ، ان القذافي يمد بالمساعدات ما يسمى بجبهة الرفض ، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » .

وكانت **الجيروزاليم بوست** قد نشرت قبل ذلك التاريخ بأيام قلائل ، مقالة في سلسلة مقالات نشرتها عن الانهيار المزعوم ، السياسي والعسكري ، لمنظمة التحرير الفلسطينية . وذكرت الصحيفة هنا ايضا ان المقاومة الفلسطينية هي المتسببة بالاقتتال في لبنان . وكي تسند الصحيفة مزاعمها ، لجأت الى القول ان هذه « الحقيقة » مسلم بها في المعسكر العربي :

« ان كلا الرئيسين الاسد والسادات راغبان في اعادة الاستقرار الى لبنان . انهما يدركان ان الاضطراب الذي يثيره الارهابيون في بيروت هو جزء من السياسة العامة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، الامر الذي يجعلها عقبة امام

الاهداف الدبلوماسية الراهنة لكل من القاهرة ودمشق » .

ولقد اصبحت هذه « الحقيقة » « مؤكدة » بعد تصريحات السادات . فلقد كانت جهود الصهيونيين منصبة منذ شهر ابريل لتصوير الامور على أن « المتعصبين » الفلسطينيين هم السبب في الاحداث الدامية في لبنان ، ولم يكن الصهيونيون يحلمون بأفضل من هذا الدعم لمزاعمهم . اضف الى ذلك ان اي تعزيز عربي للفكرة القائلة ان ليبيا او غيرها من الدول العربية قد تدخلت في الشؤون الداخلية اللبنانية عبر جبهة الرفض ، يصب الماء لا في طواحين الصهيونيين فقط ، بل وكذلك الرجعيين المحليين في لبنان .

وهناك موضوع اخر في الدعاوة الصهيونية حول احداث لبنان ، لم يظهر الا في اوائل يوليو . فكثيرا ما يشار الى لبنان — كما هو معروف جيدا — باعتباره نموذجا للدولة الديموقراطية العلمانية المستقبلية في فلسطين المحررة . ومهما كانت مدى قابلية هذا النمط للتطبيق ، من الواضح ان مجرد وجود عدة مجتمعات دينية مختلفة تتعايش بسلام في لبنان ، امر يضعف مبرر وجود الدولة اليهودية وفق المزاعم الصهيونية . ولهذا لم يكن مستغربا قيام الصهيونيين بالاشارة الى الاقتتال الدموي في لبنان في فترة ابريل — يوليو باعتباره حجة دامغة على استحالة انشاء دولة ديموقراطية علمانية . لكن اللافت للنظر ان الصهيونيين لم يكتبوا عن هذا الموضوع من قبل . وفي الرابع من يوليو ، كتب مراسل **الجويش ابزرفر** اللندنية لشؤون الشرق الاوسط :

« هناك درس واحد تأمل اسرائيل ان يتعلمه العالم من الاحداث الفظيعة في لبنان ، وهو ان فكرة الدولة العلمانية الثنائية القومية مستحيلة عمليا بكل بساطة ، وعلى الاخص في الشرق الاوسط . واذا لم تنجح هذه الفكرة في لبنان ، فانها لن تنجح في اي مكان اخر بكل تأكيد » .

والذريعة نفسها تظهر مرة اخرى بطريقة غير مباشرة ، في مقالة « لمراسل خاص » في **الجيروزاليم بوست** في السابع من يوليو ، بعنوان «الحياة والموت في لبنان ، العلماني الديمقراطي». ويؤكد الكاتب في المقال ان لبنان مبتلى بالطائفية ، و « بالقومية العربية المتعصبة التي اظهرت عداء سافرا لتجمعات الاقلية » . ويكرر في المقالة الزعم الوارد اعلاه ، من ان ليبيا والعراق اثارتا النزاع في لبنان عبر جبهة الرفض ، ويضيف زعما اخر ، وهو ان المقاومة على وجه الاجمال « اصبحت من الناحية الدينية اكثر تعصبا سواء في المفهوم او في الممارسة » . ويختتم مزاعمه بالقول : « هذا هو حال المسيحيين في لبنان ، العلماني الديموقراطي » .

ادريس الخالدي

[٢]
الدنمارك بين الحركة الصهيونية والقضية الفلسطينية

تكاد الدول الاسكندنافية ان تكون مثلا تقليديا لصحة المقولة الماركسية بأنه حيثما يتوقف اليهود عن تشكيل « طبقة » فلسوف تختفي بشكل او بآخر خصائصهم « العرقية » والدينية واللغوية . ولان يهود العالم الاسكندنافي توقفوا عن ان يكونوا كذلك ، فاننا نعدم في هذه المجتمعات على امتداد تاريخها أية « نزعات لاسامية » ونفتقد امكانية الحديث عن اضطهادات متميزة ضدهم . واذا ابتغينا وضع محدد تاريخي يلجم اطلاقية احكامنا فيمكننا البدء من العام ١٨١٤ في الدنمارك حيث نال اليهود دستوريا حقوق المواطنية الكاملة. ولعل قصة ملك الدنمارك (كريستيان العاشر) الذي كان يضع على صدره بشجاعة وفخر نادرين نجمة داوود الصفراء تضامنا منه مع الطائفة المهددة ابان الاحتلال النازي لبلاده ، تشكل مع مجموعة الاساطير التي نسجت حولها نموذجا لا بأس به لتوضيح طبيعة موقف سكان الدنمارك — البروتستانت — من مواطنيهم اليهود .

ان المناخ الليبرالي العلماني لهذا المجتمع لم ينعكس فقط على شكل انعدام وجود طائفي بالغ التمييز لليهود فيه ، اي اختفاء الخصائص التي اعتمدت تقليديا على انها خصائص قومية ، ولكن ايضا انعكس تلقائيا في تواضع حدة تأييد هؤلاء اليهود للمشروع الصهيوني ككل . وهناك أكثر من دليل يشير الى ان هجرات مجموعات يهودية من شرق اوربا وروسيا الى الدنمارك في الربع الاول من هذا القرن بالاضافة الى الاثار التي خلفها الاحتلال النازي لدول الشرق وغرب اوربا فكانا عاملين حاسمين في نقل الطائفة اليهودية الاسكندنافية من موقفها المتحفظ تجاه المشروع الصهيوني الى موقف اكثر ليونة وتجاوبا .

لقد تبلور في البلدان الاسكندنافية منذ منتصف هذا القرن موقف رسمي وشعبي لصالح الحركة الصهيونية توج في تأييد هذه الدول لقرار التقسيم في الامم المتحدة ، وظل منحنى التأييد والعطف هذا يتابع صعوده الثابت والسريع حتى بلغ ذروته في العام ١٩٦٧ ، حيث اخذ صعوده بعدها يتصف ببعض التواضع في تسارعه وأصبح غير بعيد عن معاناة شيء من الاضطراب والتذبذب . ان الموقف الاسكندنافي هذا تجاه الحركة الصهيونية لا يدخل في عوامل تكوينه الحس بضرورة التكفير عن الذنوب والخطايا التي ارتكبت هنا لمواجهة اليهود ، وذلك ببساطة لانعدام وجود هذه الاثام اصلا ولانتفاء وجود عقدة ذنب اسكندنافية . ولكن موقف التأييد هذا جاء في واقع الامر كجزء من التأييد العام الذي حصل عليه المشروع الصهيوني من قبل البرجوازية الغربية ، تلك التي اكتشفت بحسها المصلحي المرهف التلاؤم بين نجاح ذلك المشروع وبين التحولات التاريخية التي باتت تفرض حدوث تطورات في شكل الظاهرة الامبريالية .

I الدنمارك

النظام السياسي دستوري برلماني يحتل الملك (الملكة) فيه أعلى المناصب البروتوكولية ، وينحصر دوره العملي في تقبل استقالة رئيس الوزراء بعد ان يفشل في نيل الثقة البرلمانية او في تنصيب رئيس وزراء بعد ان تحدده الاغلبية البرلمانية . تتألف الدنمارك من عدد كبير من الجزر أهمها جزيرة « سيلن » حيث تقع العاصمة كوبنهاجن ، وأكبرها شبه جزيرة « جوتلند » . عدد السكان خمسة ملايين نسمة يتزايدون بمعدل ٠ر٧ ٪ . بلغ الناتج القومي للفرد ٣٤٣٠ دولارا في عام ١٩٧١ ، ومعدل النمو السنوي ٩ر٣ ٪ .

لم تخض الدنمارك الحرب العالمية الاولى ولكنها اكتسحت من قبل القوات النازية في مطلع الحرب الثانية (نيسان ١٩٤٠) وتم تحريرها في ايار ١٩٤٥ . الدنمارك واحدة من الدول الاسكندنافية وهي عضو في حلف شمال الاطلسي (الناتو) ، وعضو في السوق الاوربية المشتركة منذ ١٩٧٣ . صوتت لصالح قرار التقسيم في هيئة الامم عام ١٩٤٧ ، وامتنعت من التصويت لقراري دعوة وفد منظمة التحرير للمشاركة في نقاش القضية عام ١٩٧٤ ولقرار حق تقرير المصير ، ووقفت ضد قرار منح صفة المراقب للمنظمة في هيئة الامم المتحدة خلال الدورة الاخيرة .

II المؤسسات السياسية ومواقفها من القضية الفلسطينية :

لعل الدنمارك واحدة من البلدان التي اقترب تطبيقها من حد الكمال لمفهوم الديمقراطية البرجوازي . وهذا يعكس تلقائيا وبالضرورة وجود جميع الثغرات والشكليات التي يحملها هذا المفهوم .

منذ الحرب العالمية الثانية يرتبط التاريخ السياسي لهذا البلد مباشرة بتاريخ الحزب الديمقراطي ــ الاشتراكي . فلقد كان له باستمرار اكبر عدد من المثلين في البرلمان ، وكانت السنوات التي اقصي فيها عن الحكم مبالغة بتواضعها امام سنوات حكمه ، ولهذا فهو قادر بكثير من الثقة على ان ينسب التطور الاقتصادي الرفيع الذي حققته الدنمارك الى جهوده الخاصة وحنكته وادراكه للمتغيرات العالمية . على ان اقرارنا بهذه الحقيقة لن يعطيها صفة الاطلاق ، اذ ان هناك عوامل مهمة لعبت دورا أساسيا حتى استطاعت الدنمارك ــ بجهود الديمقراطيين الاشتراكيين ــ تحقيق هذا المستوى المتقدم. ان احد هذه العوامل يكمن في « وداعة » الاحتلال النازي للبلاد ، فالدنمارك لم تخض معركة عسكرية واحدة ، ولم تجر على أراضيها اي حرب ايضا ، وأعلن استسلام البلاد قبل ان تصل القوات النازية الشواطىء الدنماركية ، اما الخسائر البشرية خلال الحرب فانها لا تتجاوز المائة . ولقد ظلت الدنمارك كيانا اقتصاديا متماسكا وظلت المنشآت الصناعية تدور وبسرعة اكبر ــ وان كان بعضها معطلا احيانا ــ حتى ان المانيا كانت مدينة للدنمارك عند نهاية الحرب ببضعة ملايين من الماركات كاثمان سلع كانت قد استوردت في وقت سابق . على ان هذا الواقع لم يحل دون استفادة الدنمارك في فترة ما بعد الحرب من برنامج المساعدات الامريكي (مارشال) ، خصوصا وانها تقع على المدخل الاوربي من الحدود السوفياتية . وهكذا كانت الدنمارك « كالمنشار » لم تؤذها الحرب الساخنة واستفادت من الحرب الباردة وظروفها ، وبين هذه وتلك كان الحزب الديمقراطي ــ الاشتراكي يحصد مجتمع الرفاه .

التركيبة البرلمانية الحالية في الدنمارك هي نتاج انتخابات جرت في العام الماضي ١٩٧٤ ، واعتبرت تلك الانتخابات جديدة النتائج مقارنة بتقليدية التركيبات البرلمانية التي مرت على البلاد منذ نهاية الحرب . وأكثر ما يسترعي الانتباه فيها الان ارتفاع عدد الاحزاب الى جانب فقدان أيها للاغلبية المطلقة او النسبية . وتعود ظاهرة التعدد الى الانشقاقات التي عانت منها بعض من الاحزاب البرلمانية الى جانب الازمات الاقتصادية التي تمر بها البلاد والتي دفعت ببعض الاحزاب الصغيرة الى المقاعد البرلمانية نتيجة للبرامج المختلفة التي صاغوها لتجاوز تلك الازمات .

١ ــ الحكومة والاحزاب :

استعاد الحزب الديمقراطي ــ الاشتراكي الحكم بعد ان ابتعد عنه عاما واحدا فقط وفي آذار من هذا العام تقدمت الحكومة بالبيان الذي حصلت على الثقة بموجبه . وأعلن وزير الخارجية في نفس الجلسة موقف الحكومة من قضية الشرق الاوسط والمشكلة الفلسطينية*:

« .. من الوجهة الدنماركية يجب ان تبتعد عن التسييس المتزايد الذي يجري في المنظمات الخاصة، كالذي تم في اليونسكو بالنسبة الى اسرائيل ... يجب علينا في الدنمارك ــ كما هو الحال في اوربا الغربية ــ ان لا نجعل من التطورات الاخيرة في هيئة الامم مسألة دراماتيكية ، يجب ان نعيش مع الواقع بان في هيئة الامم ١٣٨ دولة ــ وهناك دول

---

* مواقف الحكومة والاحزاب المختلفة من قضية الشرق الاوسط والمسألة الفلسطينية مأخوذة من محاضر التسجيلات الرسمية للبرلمان الدنماركي، عن الجلسة المنعقدة بتاريخ ١٨ آذار ١٩٧٥ ، الصفحات : « ٢٠٢٢ ــ ٢١٥٤ » . وهي الجلسة السنوية الوحيدة التي تطرح فيها مواضيع السياسة الخارجية .

قادرة ايضا — وان الاغلبية من عدد الدول اصبح لها الامكانية فقط خلال هذه السنوات لتتصرف ببعض القوة عبر تعاون وتحالف دولي . بالنسبة للشرق الاوسط .. فان الحكومة تتابع بحرص كبير المحاولات الجارية لايجـاد حل سيـاسي للصراع التراجيدي الذي استمر عشرات السنين وسبب الحروب والمعاناة البشرية الهائلة لهؤلاء المتورطين، والذي بنفس الوقت شكل تهديدا للوفاق الدولي . ان امنيتنا المميزة ان يكون بالامكان تأسيس حـل سياسي مستديم يعطي العدالة لجميع الاطراف .. وكما قيل مرارا هنا وفي الامم المتحدة فاننا نلاحظ التطور الذي اخذ مجاله فيما يتعلـق بالحقوق الشرعية للفلسطينيين والذي يجب بالطبع ان يؤخذ بعين الاعتبار اذا ما كان سـوف يؤسس سلام مستمر وعادل في المنطقة . وفي نفس الوقت نحن نؤكد حق كل دولة في المنطقة — كل — ، سواء اسرائيل او الدول العربية المجاورة لتعيش في سلام في اطار حدود آمنة ومعترف بها . »

يمكن تقسيم احزاب البرلمان الدنماركي الـى ثلاثة اقسام ، احزاب اليسار والوسط واليمين .

— أحزاب اليسار

● الاشتراكيون اليساريون (V. S.)

ويعتبر من أحزاب « اليسار الجديد » . ولقد دخل البرلمان للمرة الاولى في الانتخابات السابقة ، وله أربعة ممثلين هناك — الحد الادنى لتمثيل الحزب في البرلمان — . والفترة السابقة شهدت بطبيعة الحال بعض الليونة السياسية من هـذا الحزب خصوصا فيما يتعلق بازدواجية موقفه تجاه عدم القناعة بالعمـل البرلماني من جهـة وجهده الدعائي الجاد والنشيط للوصول الى البرلمان من جهة اخرى . معظم كوادر هذا الحزب من العناصر الشابة (مثقفـين ، طلاب ..) ويعود تاريخ تأسيسه الى العام ١٩٦٨ حين انشقت المجموعة عن حزب الشعب الاشتراكي (S. F.) وللحزب مواقف حادة ومتطرفة تجـاه الوضع السياسي الدنماركي والدولي ، ويبـدو ان امكانية اجراء صيغ تحالف بينه وبين القوى اليسارية البرلمانية الاخرى (الحزب الشيوعي تحديدا) بعيدة المنال ان لم تكن مستحيلة ويبدو هذا واضحا من العجز عن امكانية تنظيم حتى تظاهرات مشتركة . مواقف هذا الحزب واضحة تجاه القضية الفلسطينية وان كان ما زال بعيدا عن ممارسات نشاطات مميزة لصالحها . على ان الاطار الايديولوجي للحزب يفسح للحزب مجالا واسعا أمام الالتزام بقضايا العالم الثالث السياسية والاقتصادية ، وهو ما انعكس بنشاطهم الكبير لقضايا «فيتنام» و«تشيلي» وباطارات بعيدة عن الاطارات التي مارس الحزب الشيوعي عبرها مناصرته لقضايا هذين البلدين . على أية حال من المرجح ان لا يتمكن هذا الحزب من زيادة عدد ممثليـه البرلمانيين في الانتخابات القادمة ، هذا اذا ما احتفظ بما يملكه حاليا ! ، في جلسة الثقة الحكومية الاخيرة عبر ممثل الحزب عن موقفه تجاه مسألة الشرق الاوسط ، فقال :

« ان حزبنـا لا يقف مـع تأييد الامبرياليـة الاسرائيلية ، وهو في نفس الوقت ليس مع الدول الرجعية العربية ، ولا داعي لان نتحدث عن موقفنا تجاه القوى العظمى التي تحاول بشتى الوسائل فرض حل امبريالي على الشرق الاوسط ... ان تأسيس دولة اسرائيل كان بحد ذاته حلا امبرياليا لمشكلة اوربية ، ولقد نتج عـن ذلك ارتكـاب اضطهادات دموية ضد الفلسطينيين . وحزبنا على ذلك يؤيد نضال الشعب الفلسطيني ... اننـا نعتقد ان المشكلة الفلسطينية لن تجد لهـا حلا مستقرا قبل ان يتم حدوث تغيرات اشتراكية في اطار المنطقة ككل » .

● الحزب الشيوعي (D. K. P.)

تأسس الحزب الشيوعي الدنماركي في العـام ١٩٢٠ كفرع للاممية الثالثة ، والحزب كحال بعض الاحزاب الشيوعية الاوربية يعاني من ذلك الارتفاع والانخفاض السريع والدوري في مستوى شعبيته ، عند نهاية الحرب العالمية الثانية وقبل بداية ما اصطلح على تسميته « بالحرب الباردة » كان الحزب الشيوعي في أوج قوته (١٨ مقعدا برلمانيا عام ١٩٤٥) ، وربما يعود هذا الى تحمل الحـزب لمسؤولية المقاومة السرية ضد النازية والى انه لم يتورط كالآخرين بتهم الخيانة الوطنية ، ولقد وصل

عدد اعضائه في تلك الفترة الى مائة الف عضو عامل . على ان موجة من الانحسار أصابت ذلك الحزب وبدأت شعبيته بالتدهور بمعدلات متسارعة وحتى مطلع السبعينات حين هدأت ردود فعل احداث تشيكوسلوفاكيا وبدأ الحزب يستعيد تماسكه شيئا فشيئا وبدأ بالاستفادة العقلانية من الازمات الاقتصادية ، واستطاع في ١٩٧٣ ان يدفع بأربعة من اعضائه الى البرلمان ثم ان يرفع ذلك الرقم في العام التالي الى سبعة . ولا يبدو ان هناك خطورة جدية الان سوف تعيق التقدم الثابت الخطى لهذا الحزب مستقبلا . لقد انعش هذا الحزب بالدماء الجديدة التي تدفقت في شرايينه مؤخرا خصوصا من العناصر التي احبطت قوى « اليسار الجديد » وانشقاقاته وطفولته آمالها باحداث تأثير جدي في ساحة العمل السياسي ، والتي برهنت عجزها عن صياغة برنامج متكامل عملي للتطوير السياسي والاقتصادي .

مواقف الحزب من القضية الفلسطينية يعبر عنها بكلمات حذرة تقف في سقفها عند حدود الموقف السوفياتي صياغة ، الا ان الموقف العملي يبقى متراجعا عن ذاك الموقف النظري بعض الشيء . ولهذا أسباب عديدة قد لا يكون أقلها اهمية الرغبة الملحة من قيادة الحزب لكسب الرأي العام الدنماركي مما يتطلب عدم الدخول في تفاصيل مواقف قد تقود الى حملات معارضة قوية . اضافة الى ان تبني القضية الفلسطينية من قبل بعض المجموعات اليسارية المتطرفة تصيب الشيوعيين التقليديين بحساسية مرضية ثبت ان تجاوزها ليس بالعمل الهين .

تنظيم الشباب في الحزب أقل تأثرا بالاسباب السابقة مما يجعله ذا مواقف اكثر ايجابية ، ولقد أدرجت القضية الفلسطينية مؤخرا على جدول برنامج التضامن الذي يتبناه الحزب . ولقد عبر الناطق الحزبي عن مواقف الشيوعيين الدنماركيين تجاه الشرق الاوسط :

« ان الموقف الدنماركي الرسمي لا يمكن ان يقود الى اي شيء ايجابي في الشرق الاوسط . لقد رفضوا بأسلوب تظاهري الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني عندما كانت المسألة متعلقة بسماع منظمة التحرير وباعطائها موقع المراقب ، وكانوا يتخبطون في سياستهم حتى سقط رأس سفيرهم هناك (اشارة الى اقالة مندوب الدنمارك في هيئة الامم بعد تصريحه بأنه كان على الدنمارك ان توافق على دعوة منظمة التحرير) ... اود ان اسمع رأي الحكومة الجديدة بموقف الحكومة السابقة في الدورة ٢٨ لهيئة الامم ، يجب ان نتذكر انه كان للامم المتحدة المسؤولية التامة في انشاء اسرائيل وهي بهذا تتحمل مسؤولية مشتركة عن المأساة التي عاشها الشعب الفلسطيني خلال الـ ٢٥ سنة الاخيرة ، مليونان من الناس هجّروا الى مخيمات لاجئين والى اكثر المناطق بؤسا ، ومليون آخر يعيش بظروف قاسية في الاراضي المحتلة ، بمواجهة هذا فان الحديث عن وجود مكان آخر لهم في الشرق الاوسط — وهذا كلام قيل من قبل اشخاص في الحكومة الآن — (تصريح لرئيس الوزراء انكر جورغنسون) — هو حديث ذو وقع وموضع سيىء فضلا عن تعاليه .

هيئة الامم والدنمارك يجب ان تعترفا بمسؤوليتهما الكاملة لكلا الطرفين ، لقد فعلت هيئة الامم ذلك بقراراتها ٢٤٢ ، ٣٣٨ التي تحدد الحقوق الشرعية للشعوب ، والوجود المستقل للدول في هذه المنطقة، ان تلك القرارات ... مرتكزة على مفهوم محدد وهو واجب اسرائيل التخلي عن جميع المناطق التي احتلتها بالعدوان ، لقد تم تجاهل هذه المسألة كثيرا هنا ، بالرغم من انها مسألة مبدأ ... ان الحكومة وعدت نفسها بأشياء كثيرة ، ولكن هل استخدمت تأثيرها على الحكومة الاسرائيلية — والذي تعتقد انها تملكه — لتطلب منها التراجع عن المناطق المحتلة . هذه مسألة غير واضحة في صياغة مواقف الحكومة ... يجب ايضا ان لا نتجنب توجيه ضغط ضد التهديد الامريكي المعروف المتعلق بضمان البترول وربما بالطرق العسكرية... اذا لم تنعكس هذه التصريحات بشكل ضغط على الحكومة الدنماركية فيجب على الاقل ان يكون واضحا ان هذا يشكل ضغطا على الشعب العربي .. »

● حزب الشعب الاشتراكي (S. F.)

تأسس هذا الحزب في العام ١٩٥٨ كانشقاق عن الحزب الشيوعي عقب خلاف ايديولوجي بين القيادات ابان ازمة المجر . وعاش هذا الحزب

فترات ازدهار طويلة بفضل الشعبية الكبيرة لمؤسسه (اكسل لارسن) وبسبب دعم الحزب الديمقراطي — الاشتراكي له كبديل للحزب الشيوعي . شارك حزب الشعب الاشتراكي في مطلع حياته بعدة حكومات ائتلافية مع الديمقراطيين — الاشتراكيين ، الا انه يعاني الآن تراجعات كبيرة حيث هبطت نسبة تمثيله البرلمانية الى (١٠) أعضاء بعد أن كان في الفترة السابقة ممثلا بـ ١٨ . ولعل من أبرز أسباب هذا التراجع ان الحزب لا يمثل في جوهره الا تطويرا بالغ التواضع لبرنامج وايديولوجية الحزب الديمقراطي — الاشتراكي . وابرز نقاط الاختلاف « التطوير » بينهما في السياسة الخارجية يتمثل في معارضة هذا الحزب لعضوية الدنمارك في « الناتو » وفي « السوق المشتركة ».

مواقف الحزب تجاه القضية الفلسطينية مائعة وغير موحدة ، وليس من المستغرب ان نجد فيه المناصرين للقضية الى جانب الصهيونيين ، والامر كذلك ايضا بالنسبة الى قياداته . على ان الكوادر الحزبية الشابة والتي تشعر باستمرار بعقدة « النقص في التطرف » تعبر بشكل اوضح عن مواقف ايجابية وتقدمية تجاه الصراع في الشرق الاوسط . ويبدو ان هناك علاقة ذات طبيعة خاصة بين هذا الحزب وحزب « المبام » الاسرائيلي . ولقد تمت صياغة الموقف الرسمي للحزب — كما عبر عنها ناطقه في البرلمان — على الشكل التالي :

« .. ليس هناك خلاف كبير بين تقييمنا وبين التقييم المتقدم من قبل الحكومة فيما يتعلق بالوضع في الشرق الاوسط ... اذا ما كان بالامكان تأسيس سلام في الشرق الاوسط فان هذا يفترض ويتضمن ان كل طرف سوف يعترف بحقوق كل القوميات المتورطة ، وهذا يعني كلا من القومية الفلسطينية والاسرائيلية . اذن الحق بدولة مستقلة لكلا الفلسطينيين والاسرائيليين .. اعتقد ان الصيغ التي استعملها وزير الخارجية تشير الى آراء متقاربة مع ما ذكرت الان ، ولكنني لست متأكدا من عدم وجود اختلاف طفيف » .

— أحزاب الوسط

● الحزب الديمقراطي الاشتراكي :

٥٤ مقعدا برلمانيا ، رئاسة الوزراء ، الوزراء . الحزب عضو في « الاشتراكية الدولية » ، ومن ابرز المدافعين عن عضوية الدنمارك في حلف شمال الاطلسي وفي السوق الاوربية المشتركة . يعتبر الحزب المعقل الاكثر مناعة للحركة الصهيونية في الدنمارك ، رئيس الحزب (رئيس الوزراء) « انكر جورغنسون » صهيوني لامع قام بعدة زيارات لاسرائيل ويشارك بمختلف تظاهرات وندوات التضامن معها ، وللحزب علاقات خاصة جدا مع حزب « العمل الصهيوني » ولقد اتخذ مواقف متطرفة الى جانبه في اجتماعات « الاشتراكية الدولية » . عضوية الحكومة في « الناتو » تفترض طبعا درجة ما من التنسيق في السياسة الخارجية مع الولايات المتحدة وهو ما لم تستطع الدنمارك حتى الان التخلص منه ، بالرغم من ذلك اتخذ الحزب مواقف متأخرة معارضة للحرب الامريكية في فيتنام وكان ذلك بتأثير من المواقف المبكرة والعنيفة للحزب الديمقراطي — الاشتراكي السويدي ضد الولايات المتحدة بهذا الشأن .

قوة الحزب تعود الى رسوخ ركائزه في الاتحادات العمالية (٨٠ ٪ من عمال الدنمارك منظمين نقابيا) ، وما زال تهديد الشيوعيين له في تلك المعاقل محدودا وان كان ملفتا للنظر .

مواقف الحزب من قضية الشرق الاوسط لا تختلف بالطبع عن مواقف الحكومة ، بالرغم من انها أكثر انطلاقا في مجالات الصياغة :

« نحن نعتقد انه من غير المقبول كليا استثناء اسرائيل من اطار التعاون في اليونسكو ، وان التظاهر بالحديث عن حظر اقتصادي دنماركي ضد هذه المنظمة لن يساعد كثيرا .. ولكن نأمل ان تحتفظ الحكومة بمفاهيمها وبمسؤولياتها الدولية في تلك المنطقة أيضا .. وآمل ان تبقى الحكومة نشيطة في محاولاتها لاستعادة اسرائيل داخل اليونسكو ، وفي مواجهة المحاولات التي يمكن ان تجري في هيئة الامم لتطبيق حظر ضد اسرائيل . حول الشرق الاوسط أود أن أذكر اننا نعتقد ان

اعتماد ٢٤٢ يمكن ان يقود كما نأمل الى سلام مستمر ، بالاضافة الى موافقتنا على التصريحات التي أطلقت داخل السوق المشتركة حول قضية الشرق الاوسط ... والحزب الديمقراطي — الاشتراكي يوافق على ما اضيف في هيئة الامم حول الحقوق الشرعية للفلسطينيين ولكن يجب ان لا ننسى مسؤولياتنا تجاه اسرائيل ان تلك الدولة لها حقوق ، وقد كان لديها اسباب تخشى منها على وجودها . ان السلام يجب ان يضمن الجميع ، وأيضا اسرائيل » .

وبالطبع فان هذا الموقف لا ينفي التوجه الذي عبر عنه رئيس الحزب قبل عامين حين قال : « ان مشاعري هي غالبا الى جانب اسرائيل ، وباستطاعتي الدفاع مطولا عن عدوانية اسرائيل لان جيرانها يهددون بالقائها في المتوسط » .

● **الحزب الراديكالي :**

١٣ مقعدا برلمانيا ، وهو حزب برجوازي وما يجعله يصنف بين أحزاب الوسط مواقفه الليبرالية الواضحة ، وبالرغم من انه مع انضمام الدنمارك الى السوق الاوربية المشتركة الا انه عارض في البداية انضمامها الى « الناتو » ، وهذا ما يزيد عملية تصنيفه صعوبة . ليس للحزب مواقف رسمية ودية تجاه الفلسطينيين الا أن تنظيم الشباب فيه يتميز بالانفتاح ويبدي اهتماما بالاطلاع على دقائق أزمة الشرق الاوسط والقضية الفلسطينية ، عبر الحزب عن وجهة نظره حول الشرق الاوسط كما يلي :

« .. هناك احساس بأن أمورا سلبية جرت في الدورة ٢٨ لهيئة الامم المتحدة ، خصوصا بسبب المسألة الفلسطينية ، ولقد تناولت الصحافة الرزينة قضية انسحاب الدنمارك من هيئة الامم ، وأحب أن أؤكد هنا ان سياسة حزبنا تعتمد على ان وجودنا هناك هو حجر الاساس في السياسة الخارجية الدنماركية ، بالرغم من الواقع بأن لنا موقفا نقديا كما جرى خلال الدورة ٢٨ ، ولكن الانزعاج من التصويت الذي حصل بمعارضتنا — او بمعارضة هذا الجزء من العالم — لن يساهم في حل المشاكل .. ان اسرائيل يجب ان تكون داخل حدود آمنة ومعترف بها ، وان حق اسرائيل في الوجود والذي لم ينص عليه في قرار هيئة الامم الذي احتوى على حقوق الفلسطينيين هو السبب الحقيقي لعدم تصويتنا على المشروع . البعض يقول ان الدنمارك كان عليها ان تصوت ضد ، ولكن ذلك كان يعني اننا لا نؤيد حقوق الفلسطينيين ، وبالامتناع عرضنا ان مضمون القرار لم يكن مرضيا بالنسبة لنا ، وان كان قد احتوى اجزاء يمكن أن نؤيدها ... اننا نؤكد حق اسرائيل بالوجود ونعترف بالحقوق الشرعية للفلسطينيين... ويجب ان نشير هنا الى ان بعض الدول لم توقع بعد على معاهدة حظر السلاح النووي وهو ما يجب ادانته بشدة ، وتضم هذه البلدان في من تضم الهند وباكستان وجنوب افريقيا واسرائيل..»

● **الحزب اليساري :**

٤٢ مقعدا برلمانيا وثاني اقوى الاحزاب في الدنمارك ، تولى مسؤولية الحكومة في الفترة ١٩٧٣ — ١٩٧٤ ويعتبر حزب الفلاحين الكبار والمتوسطين . كان بالامكان تصنيف ذلك الحزب مع احزاب اليمين دون ارتكاب خطأ فادح . مواقفه السياسية الخارجية غير بعيدة عن موقف الاشتراكيين — الديمقراطيين وكان هذا واضحا من بيان وزير الخارجية الحالي . على ان التورطات الخارجية لهذا الحزب قليلة وجل اهتمامه منصب على الوضع الاقتصادي والسياسي الداخلي . عرض موقفه من ازمة الشرق الاوسط بقول مندوبه :

« هناك بالطبع علاقة تاريخية وواقعية بين المشاكل الاقتصادية لهذا العالم والصراع في الشرق الاوسط ، على أية حال يجب ان لا نبالغ في تلك العلاقة ... ان حل واحدة منهما لن يعني تلقائيا حل الاخرى ، ولكن من الواضح ان النتائج الموفقة التي يمكن لوزير الخارجية الامريكي « كيسنجر » ان ينجزها من محاولاته الحالية سوف تقلل من عدم الامان في كلا المستويين السياسي والاقتصادي . نحن نوافق مع وزير الخارجية .. لدينا من الجانب الدنماركي .. واجب ضمان حق اسرائيل بالوجود، وبامكانية العيش لها بسلام مع جيرانها ، وواجب آخر ايضا ، انساهم (لندعم) في خلق ارضية للفلسطينيين ليحصلوا فيها على وجود مسيطر عليه من قبلهم .. »

ـ أحزاب اليمين :

وهي بشكل عام ذات مواقف اكثر تحفظا حول الصراع في الشرق الاوسط ، اذن تجاه المقاومة الفلسطينية . على ان دور هذه الاحزاب في رسم السياسة الداخلية والخارجية يبدو محدودا . وهذه الاحزاب لا تمتلك ارضية تنظيمية متماسكة وكوادر حزبيين ثابتين بقدر اعتمادها على الدعاية والتحريض المباشر في الفترات التي تسبق الإنتخابات .

● **حزب التقدم :**

وهو حزب جديد يرئسه محام شهير «غليستروب» وبرنامجه يرتكز على نقطة واحدة ـ جوهرية بالنسبة للمواطن الدنماركي ـ وهي تخفيض العبء الضريبي عن السكان على ان يعوض ذلك بالغاء شبكة الضمانات الاجتماعية الواسعة والغاء الخدمات العامة وحل الجيش الخ ، حاز الحزب على شعبية كبيرة انعكست في ٢٤ مقعدا برلمانيا ، ويعتبره اليساريون من مقدمات « الفاشية الاسكندنافية » خصوصا لمواقفه تجاه الحركة العمالية والنقابات . بقية الافكار السياسية للحزب لا تخلو من طرافة ـ مثلا الإستعاضة عن الجيش بشريط تسجيل ينص بكل اللغات (الروسية خاصة) على استسلام الدنمارك . الحزب ضد اتخاذ الدنمارك لاية مواقف سياسية خارجية ، لان هذا ـ ببساطة ـ لا يعنيها !!..

● **حزب المحافظين :**

١٠ اعضاء في البرلمان ، وهو حزب البرجوازية الكبيرة . ومواقفه تجاه اسرائيل لا ينقصها الوضوح ولا تطالها شبهات سوء الفهم :

« ان مسألة الاعتداء على اسرائيل في قرارات هيئة الامم المتحدة الاخيرة تهدف الى اعداد الطريق لالغاء وجودها . وبمواجهة هذا فان هناك عددا كبيرا من سكان هذا البلد يريدون ان يردوا وبشكل قوي ، .. كان من المؤسف بالنسبة لنا ان الدول الغربية لم تقم برد فعل مشترك ضد ذلك ، نحن نعتقد ان هذا كان يجب ان يتم في اليونسكو ويجب ان يتم في هيئة الامم اذا ما جرت محاولات لاستخلاص قرارات مشابهة في الفترة القادمة . »

● **الحزب الديمقراطي ـ المركزي :**

تأسس هذا الحزب في عام ١٩٧٣ كانشقاق من الحزب الديمقراطي ـ الاشتراكي . وكان هذا الحزب مهددا بالخروج من البرلمان في الانتخابات الاخيرة لكنه سقط على الحافة بأربعة اعضاء برلمانيين (الحد الادنى لمشاركة الحزب في البرلمان). يعتبر هذا الحزب ابرز المؤيدين للحركة الصهيونية الى حد انه لم يجد ضرورة ـ او مجالا ـ لعرض آرائه حول الشرق الاوسط في الجلسة البرلمانية العامة لمناقشة بيان الحكومة الاخيرة . رئيس هذا الحزب هو « ا. ياركوبسن » .

● **حزب الشعب المسيحي :**

ان « الشعور بالاثم » الذي يبديه هذا الحزب من « خلاعة » المجتمع الدنماركي ومن ابتعاد الناس عن الكنيسة افواجا لم يحل دونه ودون التعبير عن وجهة نظره حول الصراع على الاراضي المقدسة . وربما يجدر بنا أن نذكر قبل عرض ذلك الموقف ، التعاطف الحار الذي اظهرته الكنيسة الدنماركية والصليب الاحمر الدنماركي في عام ١٩٤٧ لانشاء دولة يهودية « صافية » في فلسطين . للحزب ٩ مقاعد برلمانية :

« يجب ان نقول لا بقوة لمواجهة المفاهيم التي تعمل لاستثناء اية دولة من هيئة الامم المتحدة ، هذا يصح أيضا بالنسبة الى « جنوب افريقيا » . اما فيما يتعلق بما تم في الدورة ٢٨ للجمعية العامة ضد اسرائيل فيجدر بنا فعلا هنا ان نقول لا أيضا. .. ان من حق اسرائيل بحدود آمنة ومعترف بها يجب ان يقر من جميع الاطراف ، ونحن لا نستطيع تأييد السياسة التي تقول نعم لعزل اسرائيل سياسيا واقتصاديا بتأثير استخدام سلاح النفط العربي ،.. يجب ايضا ان نلاحظ انه بجانب اسرائيل والدول العربية هناك القوى العظمى التي تتحمل مسؤولية مباشرة عن الحرب والسلم في الشرق الاوسط » .

الى جانب هذه الاحزاب البرلمانية هناك بعض التنظيمات والجمعيات الصغيرة تلعب دورا ما في بلورة المواقف السياسية للبلاد ، والتي لا تكتمل صورة الوضع السياسي الدنماركي دون الاشارة الى « الرتوش » التي تتركها .

— الجوارب الحمراء : جمعية — لها طابع الحزب — مهتمة بقضايا المراة وذات تصورات وممارسات . تقدمية على طريق تحريرها ، تهتم ايضا بمشاكل ونضالات المراة في العالم الثالث .

— اتحاد الاشتراكيين الثوريين (R. S. F.) حزب مرتبط بالاممية الرابعة التروتسكية .

— اتحاد الشيوعيين الماركسي اللينيني K. F. M. L. مجموعات مادية .

— الجبهة المتحدة للماركسيين اللينينين M. L. E. مجموعات مادية ايضا .

— « فيتنام ٦٩ » ، « جمعية الهند الصينية » لجنتان لمناصرة النضال الفيتنامي الاولى مرتبطة بشكل غير مباشر « بالشيوعيين » والثانية بمجموعات « اليسار الجديد » .

— « جمعية سلفادور الندي » ، « جمعية تشيلي » ايضا الاولى تضم الشيوعيين والمستقلين والثانية لقوى « اليسار الجديد » .

بالاضافة هناك لجان نصرة فلسطين — سنتحدث عنها بالتفصيل لاحقا — ونصرة « الجبهة الشعبية لتحرير عمان » ، وبعض النوادي السياسية والاجتماعية والجمعيات الاقل اهمية واثرا .

٢ — الاذاعة والتلفزيون

اذا ما استثنينا الحزب الشيوعي والاحزاب اليسارية الصغيرة الاخرى فاننا نعدم بين غالبية القوى السياسية الاخرى البناء التنظيمي المتماسك الذي يمكن عبر قنواته نقل التوجهات السياسية والتصورات والتطورات الايديولوجية من القمة الى القاعدة وبالعكس . ان هذه المسالة الى جانب القناعة الموجودة لدى الفرد الدنماركي العادي بموضوعة التخصص المهني تكسبان الاذاعة والتلفزيون اهمية بالغة في عملية تركيب وتكوين الرأي العام حول اية مسألة اجتماعية او سياسية .

الاذاعة والتلفزيون مؤسسة كلية الاستقلال — نظريا — ، وهي تتبع الحكومة فقط في مجال التمويل اذ لا وجود للاعلانات ، وتشرف على المؤسسة هيئات مستقلة عن القوى الممسكة بزمام الحكم . وللمؤسسة مراسلين في كافة انحاء العالم — بما فيها بيروت والقدس — ، وقسم الاخبار يعتمد على وكالات الانباء الاجنبية تبعا للتسلسل التالي : « رويتر ، الوكالات الاميركية ، الوكالة الفرنسية » ، على ان تقارير المراسلين الخاصين المتعددة يوميا هي التي تحظى بمكان الصدارة في النشرات الاخبارية ، من هنا فان حجم المعلومات التي تتوفر للمراسل بالاضافة الى ميوله الخاصة تلعبان دورا في التوجيهات السياسية التي تطبع الانباء . قسم الاخبار من المفترض — نظريا ايضا — ان يحفظ توازنا دقيقا في البرامج التي تتعلق بقضايا الصراع في العالم ، فاذا لم يكن بالامكان وضع وجهتي النظر معا في برنامج واحد فان برنامجا اخر لوجهة النظر الاخرى يجب ان يجد طريقه للبث . وهنا ايضا يتضح الدور الكبير الذي تلعبه التوجيهات السياسية الخاصة لمعدي البرامج الاذاعية والتلفزيونية .

من نافل القول ان هذه المفاهيم النظرية لا تجد طريقها للتطبيق العملي في اغلب الاحيان ، ذلك ان ميوعة المحددات هذه تفسح المجال واسعا امام الراغبين بالتلاعب عليها ، فمثلا بامكان اية لجنة مراقبة ان ترفض بث اي برنامج بدعوى انه متحيز بشكل سافر لوجهة نظر واحدة — وغالبا ما يكون هذا مع وجهة النظر العربية والفلسطينية — وبنفس الوقت يمكن للافلام والبرامج المنفذة من قبل جهات اسرائيلية حكومية او مؤسسات صهيونية سياحية ان تجد طريقها للبث والعرض بدعوى انها برامج تثقيفية أو انها باطار التعاون والمبادلات بين الدنمارك واسرائيل .. الخ .. من ناحية اخرى فان المراقب لن يجد صعوبة في اكتشاف الترابط الوثيق بين وجهة النظر السياسية للحزب الديمقراطي — الاشتراكي وبين التوجهات التي تسير الاذاعة والتلفزيون بالرغم من الاستقلال المفترض بالاخيرة . وفي الواقع فان معظم المسؤولين في تلك الاجهزة هم من الحزب الديمقراطي — الاشتراكي ذي المواقف الصهيونية المميزة . وعلى سبيل المثال فقط فان الرئيس الحالي لقسم الاخبار في الاذاعة « يون سليمان » يعتبر واحدا من ابرز صهيونيي الدنمارك . وهذا طبعا يضع عقبات

اخرى في وجه الاخبار والبرامج المناصرة لوجهة النظر العربية ، او للحيادية على الاقل ، في نفس الوقت الذي ينفسح فيه مجالا اكبر للدعاية الصهيونية والتي تصل احيانا إلى درجة اعتماد النص الحرفي لصياغات الاخبار التي تنقلها وكالة « عيتم » .

٣ ـ الصحافة

في مجتمع لا يعرف الامية منذ حوالي قرن كامل، لا بد وان تلعب الصحيفة اليومية دورا مركزيا في تكوين الرأي العام بين ابنائه ، والدنمارك لا تقع خارج اطار هذه البديهة ، بل ويمكن ان نضيف بأن ما تكتبه الصحيفة اليومية يبقى غالبا مصدر المعلومات الرئيسي والوحيد بالنسبة الى عدد كبير من السكان .

حتى الان باءت بالفشل المحاولات المتكررة للقوى اليسارية في البرلمان الدنماركي لتمرير مشروع قانون ـ نظير للقانون السويدي ـ ينص على منح جميع الصحف والمجلات مساعدة مالية حكومية ثابتة تغنيها عن الاعتماد الكلي على واردات الاعلانات والمساعدات الخاصة والتي تنعكس على توجهها وخطها السياسي ، ولا بد ان يؤثر في تركيب وتوجهات الرأي العام . لقد وقفت القوى اليمينية ضد هذا المشروع بالرغم من الازمات الدورية التي تواجهها الصحافة اليومية على اختلاف اتجاهاتها بما فيها أكثر الصحف انتشارا ، ولعل السبب في ذلك يعود اساسا الى استيعاب تلك القوى بأن هذا المشروع سوف ينعش الصحافة اليسارية وينتشلها من ازماتها المالية المزمنة ، بينما لن تنعكس اثاره ايجابيا بذاك المقدار على صحافة اليمين . ان تركيب الصحافة اليسارية وطبيعة كوادرها وضيق بيروقراطيتها تشكل عوامل اساسية لجعلها اكثر قدرة على التكيف مع التحولات الهيكلية المفروضة على الصحافة بشكل عام ، وان تغطية العجز المالي ـ ولو في الفترة الاولى ـ سوف يجعلها قادرة على تحقيق قفزات نوعية وكمية الى الامام . بينما يبدو واضحا ان حل ازمة الصحافة اليمينية امرا ليس مرهونا عند الاطلاق بمساعدة مالية بقدر ارتهانه بتجاوز المفاهيم وبتطوير الكادر اللذان بنيت عليهما وعملت في ظلهما عشرات العقود .

الاخبار الدولية في الصحافة الدنماركية اخبار مهضومة الحقوق دائما ، ونادرا ما تتاح الفرصة امام واحدها لان يكون غير « مبستر » على الصفحة الاولى ، تلك التي تحتل من قبل الانباء المرتبطة غالبا بما يمس الحياة اليومية الاقتصادية للسكان.

بشكل عام فان الاخبار غير الاسكندنافية او غير الاوربية تجد دائما حيزا اقل في الصحف الا اذا فرضت حرارة الخبر نفسها . وقد يكون بالامكان استثناء الصحافة اليسارية وصحف المثقفين من هذا الحكم .

معظم الصحف الدنماركية تراجعت الان عن التركيز على « صحافة الخبر » ، وبالرغم من اننا لن نجد بين كل الصحف سوى اثنتين ، او ثلاث تعتمد « صحافة التحليل » بشكل كامل ، ذلك ان الصحف الاخرى ما زالت في مرحلة المخاض تزاوج بين النوعين معا .

شركتان مساهمتان فقط تسيطران في الدنمارك على الصحافة اليومية ، وكلا منهما تصدر صحيفتين يوميتين . « اكسترا بلادت » و« بوليتكن » عن دار النشر الاولى « بي ـ تي » و « بيرلسنكه تدنه » عن الثانية .

اكسترا بلادت (٢٣٣ الف نسخة يوميا) و بي ـ تي (٢٢٩ الفا) صحيفتان متشابهتان وهما تتناولان المواضيع من زاوية تفترض « خفة الظل » وتعتمد « الاثارة » في الصياغة و «الفهلوة» في اختيار الاخبار ، وبطبيعة الحال فان كل هذا لا بد وان يتطلب تزييفا وقحا للحقائق وسخرية مرة من اكثر الاخبار مأساوية . ومهما بلغت اثارة اخبار الصفحة الاولى فيهما ـ وهي دائما مثيرة بالفعل ـ فانها لا يمكن ان تتطاول على المساحة الشاسعة المخصصة يوميا للصورة العارية ، لقد اصبح ذلك تقليدا لا تضاهيه رساخة التقاليد البريطانية !!

أما بوليتكن (١١٠ الاف نسخة يوميا) بيرلنسكه تدنه (١٣٣ الفا) فهما تفترضان ـ أيضا ـ تناول الاخبار من منظور أكثر جدية وأقل ابتذالا ،

واذا كان هناك صحة نسبية في هذا ، فانه لا يمكن ابدا ان ينسحب على تواضع اكثر في درجة التزييف او تهاون اقل في الحماس لتبرير السياسات الامبريالية .

كما يبدو واضحا فان صحيفتي الصورة العارية هما الاكثر توزيعا وشعبية ، ومن المعتقد ان ايراداتهما تغطي خسارة الصحف « الرزينة » لداري النشر . أما سبب استمرار الشركتين في طبع صحف لا تجني ارباحا فانه يقع على الاغلب خارج اطار العوامل الاقتصادية المجردة !!.

بالطبع سيكون من نافل القول الحديث عن مواقف تلك الصحف الاربع من قضية الشرق الاوسط وحركة المقاومة ، يكفي ان نقول ان الصحف الاولى كانت منشغلة في الفترة الاخيرة بتوقع « اي من المناطق السياحية الاوربية ستكون مسرحا للعملية القادمة لايلول الاسود » بينما كانت الصحف « الرزينة » مأخوذة كليا « بفضح النازية الجديدة واللاسامية الشيوعية ضد اليهود .. » !! . وهو ما يبدو على انه اعتذار لمواقف مناقضة اخذتها تلك الصحف من الدعوة اللاسامية خلال الحرب العالمية الثانية !! ، وربما من الامور ذات الدلالة ان نذكر بأن رئيس التحرير الحالي لصحيفة بوليتكن « هـ. بوندك » يحمل الجنسية الاسرائيلية ، تلك التي كلفته مقتل ابنه الوحيد على الجبهة المصرية ابان الحرب الاخيرة.

الصحف الحزبية تأتي في مرتبة الاهمية الثانية بعد تلك الصحف الاربع ، وليس هنا من حاجة للحديث من سياسات تلك الصحف تجاه الشرق الاوسط طالما انها تعكس المواقف والاراء السياسية لاحزابها . من الملفت للنظر هنا ان صحيفة الحزب الديمقراطي – الاشتراكي – الناطقة باسم نقابات العمال ايضا – « اكتولت » تحتل مكانة متواضعة جدا مقارنة مع الثقل القيادي لذلك الحزب (٢٥م الف عدد يومي) ويعيد الصحفيون الدنماركيون اسباب ذلك الى ضعف الكادر وقوة البيروقراطية في تلك الصحيفة.

لاند – اوك – فولك (الارض والشعب) صحيفة للحزب الشيوعي (٩ الاف نسخة) تصدر خمسة أيام فقط في الاسبوع . ويقتصر قراؤها على اعضاء الحزب وبعض الاصدقاء المقربين . تقل هذه الصحيفة مرتبط مباشرة بثقل الحزب الشيوعي ذاته ، ولقد باتت مؤخرا المرجع الاكثر ثقة لاخبار التحركات والنضالات العمالية النقابية . على انها تعاني من نقص المحررين المطلعين والخبراء بقضايا العالم الثالث وينسحب هذا الى درجة كبيرة على القضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط حيث ترتكب احيانا اخطاء فادحة .

ايضا هناك صحيفة « مين افيزن » الناطقة باسم حزب الشعب الاشتراكي ، واخرى ناطقة باسم الحزب المسيحي « كريستلت دوبلا »بالاضافة الى مجلة لحزب الاشتراكيين اليساريين . وتوزيع هذه الصحف والمجلات غالبا ما يقتصر ايضا على الاعضاء الحزبيين والاصدقاء ، وهذا ما يجعل دورها الاكبر مقتصرا على عرض وجهة نظر الحزب وسياساته تجاه المسائل الداخلية والخارجية.

الصحف الصغيرة « المستقلة » تأتي في مرتبة الاهمية الثالثة ، وابرز هذه الصحف جريدة « انفورماسيون » وهي صحيفة « المثقفين » بدون منازع سواء في الدنمارك او في المناطق المحيطة (جنوب السويد) ، رزانة في التعليقات ،موضوعية ليبرالية نموذجية ، انفتاح على مشاكل الدول المتخلفة .. الخ ، وبالرغم من أن اكثر التعليقات والدراسات موضوعية عن الشرق الاوسط والفلسطينيين تنشر في تلك الصحيفة ، الا ان محدودية توزيعها (٢٤ الف نسخة) بالاضافة الى الضغط المباشر من السفارة الاسرائيلية عليها (مقالات للسفير ، رسائل مستمرة لبريد القراء ، المطالبة باقالة بعض الصحافيين .. الخ) يجعلان من استمرارية موضوعيتها النسبية ومن تطور قدرتها على التأثير في الاوساط الدنماركية امورا محفوفة بالمخاطر دائما . ومن الملاحظ ان ضغط السفارة الاسرائيلية قد بدأ يجني ثماره في هذه الصحيفة حيث باتت المقالات التي تعبر عن وجهة نظر « حمائم » الصهاينة تتوالى بشكل مثير للريبة .

الى جانب هذا ، هناك صحافة التنظيمات اليسارية الصغيرة ، واكثر هذه المجلات اهمية وانتظاما في الصدور مجلة « بولتكس رفيو» النصف شهرية والتي تشرف عليها مجموعة من الشباب ذوي الالتزامات الحزبية المختلفة . وليس لهذه

المجلة مواقف ثابتة ومحددة تجاه ما يجري في الشرق الاوسط من تحركات سياسية ، وان كانت ذات توجهات ايجابية تماما نحو المقاومة الفلسطينية .

كل الصحف والمجلات التي تحدثنا عنها تصدر في كوبنهاغن (ربع سكان الدنمارك) ، ولكن هناك صحف عديدة اخرى اقل شأنا تصدر في المدن الدنماركية المختلفة . على ان ظاهرة التمركز هذه لا يمكن ان تفوت المراقب ، على سبيل المثال فان اكبر صحف شبه جزيرة « يولند » (٦٥٪ من مساحة الدنمارك) « يولندبوستن » لا تطبع سوى ٧٣ الف نسخة — وبالمناسبة لهذه الصحيفة ايضا التزام صهيوني فوق الشبهات .

III لجان مناصرة القضية الفلسطينية

غالبا ما أثارت المواضيع التي كتبت عن لجان المناصرة الاوروبية جملة من الازمات ، على ان هذا يجب ان لا يحول اطلاقا دون تناول الموضوع مرة اخرى . ذلك لانه بالرغم من التجربة الطويلة — والمريرة غالبا — للعمل الفلسطيني المناصر في الخارج فان هذه التجارب لم تستوف حقها من البحث والتحليل ، وظل تصحيح الاخطاء في مجال الاجتهادات الفردية غالبا — او اجتهادات التنظيمات كل على حدة في افضل الحالات . لعله من حسن الحظ ان اعوام اواخر الستينات بكل ما حملته من تناقضات وتخبطات وطفولية على صعيد العمل الخارجي المناصر قد انتهت — الى غير رجعة كما نأمل — ، ولكن من المهم ان نتذكر ايضا ان تجاوز تلك المرحلة لم يكن غالبا نتيجة استقرار نظري في التوجهات السياسية والايديولوجية للجان المناصرة الاوربية او في توجهات تنظيمات حركة المقاومة نحو تلك اللجان .

لا شك ان قوى « اليسار الاوروبي الجديد » مدينة بجزء كبير من وجودها الى العمل الثوري الذي تبلور في الستينات لصالح التضامن مع النضال الفيتنامي ، فلقد لعبت لجان معارضة التدخل الامريكي في فيتنام ومناصرة الثورة الفيتنامية دورا مركزيا في توضيح ملامح واتجاهات قوى اليسار تلك في كل من اوروبا الغربية وامريكا الشمالية . على ان هذا الترابط بين الطرفين والذي يأخذ شكل علاقة جدلية وليس سببية بحتة ، انعكس في الفترة اللاحقة بأثر ايجابي مترافق مع اخر سلبي :

فمن جهة اولى اوضحت تلك العلاقة الترابط الوثيق بين قضايا التحرر الوطني في العالم الثالث وبين قضايا النضال الطبقي في العالم الراسمالي ، واعادت الى الاسماع كل المفاهيم الماركسية — التي تغز عنها سابقا — حول تحرير المستعمرات بكونها « رافعة الثورة الطبقية » . .الخ .. اما من جهة ثانية فان لجان المناصرة تلك — وبفضل شمولية وبطولة النضال الفيتنامي — باتت وسيلة التحريض الاساسية لاثارة جميع القضايا الاجتماعية المتمركزة في البلدان الراسمالية ، واصبحت تلك اللجان « وطهر » العناصر الجديدة الراغبة في الانخراط بالاحزاب السياسية ، وحين جاءت « تمردات » ذلك اليسار الجديد في عدد من البلدان الاوروبية كانت لجان المناصرة الفيتنامية في الصف الاول ، وتطور الامر في بعض الاحيان حتى باتت تلك اللجان شبه احزاب مميزة ذات برامج محددة تجاه الوضع الاجتماعي والسياسي في البلدان المتمركزة فيها .

مبدئيا قد يبدو عدم وجود اي اختلاف او تناقض بين الاثرين السابقين ، ومبدئيا قد يبدو هذا الوضع ايجابيا طالما ان تحويل الاوضاع السياسية والاجتماعية في تلك البلدان يشكل الخدمة (المساندة) الاكبر التي يمكن ان تقدم لنضال حركات التحرر ، ولكن ان وعي وجود علاقة بين تحرر المستعمرات والثورة الطبقية لا يعني اطلاقا ضرورة جعل « لجنة المناصرة » « حزبا سياسيا » ذو برامج داخلية ، ذلك لان هذا المزج سوف ينعكس بشكل مأساوي حين يعيق الناتج كلا نوعي النضال ، مساندة حركات التحرر من جهة ، والمساهمة في الصراع الاجتماعي داخل البلد من جهة اخرى .

ان الدور الذي لعبته لجان المناصرة الفيتنامية

على صعيد الاوضاع السياسية والاجتماعية داخل البلدان الراسمالية (والذي كان الى حد كبير نتيجة ظروف تاريخية خاصة) ، شجعت بعض العناصر العاجزة عن ايجاد متنفس لارائها السياسية واطار عام لالتزامها ان تتبع ذات الطريق ، والذي لاح انه سهل لتثوير المجتمعات الراسمالية ، وان تعمل على الاتخاذ من لجان المناصرة (الفلسطينية ، التشيلية ، العمانية ..) وسائل لاعادة تلك التجربة .. لقد بات الان واضحا ان عجز تلك التجمعات عن أن تكون « احزابا ثورية » لا يضاهيه سوى عجزها عن أن تكون « لجان مناصرة » .

استقر الوضع الان في الدنمارك على صعيد النضال التضامني مع الشعب الفلسطيني بلجنتين اولاهما « لجنة فلسطين « P. Committee التي تأسست منذ العام ١٩٦٩ من قبل مجموعة من الطلبة الجامعيين « كلية الهندسة » اتيحت لهم في تلك الفترة فرصة زيارة المنطقة والاطلاع عن كثب على التنظيمات الفلسطينية ، والعناصر هؤلاء ما زالوا اساس اللجنة — معظم اعضائها — منذ ذلك التاريخ وحتى الان . شهدت اللجنة على امتداد عمرها دخول وخروج — او فصل — عدد من الافراد ذوي الالتزامات السياسية المختلفة . حاولت اللجنة اقامة علاقات مع الاحزاب الدنماركية الا أنها فشلت في ذلك وهي تعاني الان من عزلة عن تلك الاحزاب سواء بسبب عدم رضاء اللجنة عن سياستهم او بسبب حساسية الاحزاب من المواقف المميزة والمتطرفة لهذه اللجنة .

ان مقارنة العمر الزمني الطويل نسبيا للجنة فلسطين بمجمل انجازاتها يؤكد وجود خلل ما ، فضلا عن ان مبدأ طرد بعض العناصر لانهم ليسوا يساريين بما فيه الكفاية يطرح مجددا قضية الخلط بين دور ومهام الحزب ودور ومهام لجنة المناصرة ، تلك المسألة التي يبدو وكأنها اسس الداء . وفي الواقع فان اللجنة هذه ما زالت حتى الان تفتقد برنامج حد أدنى يحدد أهدافا متواضعة تكون مشجعة وقادرة على احتواء أكبر عدد من المناصرين وليس برنامجا يتجاوز في محدداته وقيوده وحريته الحدود المعقولة ويكاد أن يكون تعجيزيا .

هذه اللجنة لها موقف سياسي معلن الى جانب « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » ، ويبدو ان هذه المسألة اثيرت عندهم الى درجة ان ندواتهم ونشراتهم — النادرة على اية حال — توقفت عن فعل أي شيء اخر سوى الحديث عن الخلاف الذي جمدت الجبهة عضويتها في اللجنة التنفيذية على أثره . ذلك بالرغم من أن اللجنة هذه تعيش في ظل مجتمع ما تزال مسألة «وجود الفلسطيني» أصلا قابلة للنقاش عنده !

قامت لجنة فلسطين في مطلع هذا العام بتنظيم مؤتمر عام ضم اللجان المشابهة (الى جانب التجمعات اليسارية المجهرية) في عدة دول اوربية لتأسيس منظمة معارضة للامبريالية على مستوى اوربي ، وبالرغم من مراعاة السرية الكاملة — وربما بسبب من مراعاتها — نشرت الصحف الدنماركية الخبر تحت عناوين عريضة بأن « منظمة التحرير تعقد اجتماعا لقياداتها في كوبنهاجن » ، وكان هذا المؤتمر « السري » مترافق مع معرض ناجح قامت به اللجنة عن القضية الفلسطينية .. كل ذلك دفع بالقوى اليمينية لان تطرح استفسارا في البرلمان حول تغاضي البوليس عن النشاطات التي تقوم بها المنظمات « الارهابية » في الدنمارك !؟.

اللجنة الثانية تسمى « مجموعات فلسطين » P. Groups وهي على عكس الاولى لا تعاني التطرف بل أن ازمتها تكاد ان تكون « المحافظة ». يقف على رأس هذه المجموعة قسيس وبروفوسور في علم اللاهوت « ستن هولم نلسن » وهو صاحب عدة مؤلفات عن القضية الفلسطينية . .

« مجموعات فلسطين » لجنة حديثة العهد نسبيا وهي تضم أشخاصا ذوي اتجاهات سياسية متباينة ، وبالرغم من أنها أكثر قدرة — بحكم تركيبها وتوجهاتها — على التحرك والاتصال بالقوى والاحزاب الدنماركية من لجنة فلسطين الاولى ، الا ان عدم جدية التزام اعضائها ومشاغلهم اليومية المتراكمة تحول دونهم وانجاز هذه الاتصالات .. وهذا ما يجعل اجتماعات هذه المجموعة اقل من موسمية وطابعها أكثر من شكلي. ولقد تم في الفترة الاخيرة لقاءات مشتركة بين اللجنتين بهدف تنظيم « اسبوع فلسطيني » في الدنمارك ، ولا يبدو ان نتائج هذا الاجتماع كانت ايجابية .

الى جانب هذا ، هناك لجنة صغيرة في مدينة «اودنسة » يقف على رأسها احد الضباط السابقين في قوات الطوارىء الدولية والتي تواجدت في « غزة » خلال الفترات الماضية ، بالاضافة الى مجموعات صغيرة في عدة مدن اخرى . أيضا هناك نشاط المجموعات غير المؤطرة سياسيا وأبرزها الاعمال الملفتة للنظر التي تقوم بها « المدرسة الثانوية للرحلات » وهم مجموعات من الشبان قاموا برحلات برية الى الشرق الاوسط وتلمسوا القضية عن كثب . كذلك هنالك الجهود الفردية : (مناقشة المناهج الدراسية المتحيزة ، الكتابة في الصحف ، المناقشات العامة في النوادي ، نشاطات بعض اليهود المناوئين للصهيونية .. الخ) . ومن الواضح أن عجز « مجموعات فلسطين » و« لجنة فلسطين » عن تأطير نشاطات هؤلاء وتوحيد قواهم يساهم بشكل كبير في هدر فائدة تلك الاعمال والتوقف عن متابعتها فضلا عن الانهاك واليأس الذي يودي بهؤلاء الافراد نحو الجمود .

ان جزءا كبيرا من المشكلة يكمن في أن تنظيمات الثورة الفلسطينية المختلفة لم تجاوب حتى الان على سؤال: ماذا نريد من لجان المناصرة الاوربية؟.. وبالتالي فهي ما تزال عاجزة عن وضع برنامج نظري محدد يكبح جماح تطرف تلك المجموعات بنفس الوقت الذي يحميها فيه من الوقوع في مستنقع المحافظة .

الطائفة اليهودية والنشاطات الصهيونية في الدنمارك

كانت الدنمارك أول بلد اسكندناقي منح اليهود حقوق المواطنية الكاملة . فمنذ العام ١٨١٤ وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية لن يفوت المراقب ملاحظة ندرة — ان لم يكن انعدام — أي وجود لدعوات لاسامية او لاضطهادات مميزة ضد الطائفة اليهودية . ان هذا المناخ الليبرالي العام الذي عاشت اليهودية بظله في هذه المجتمعات يعود الى أسباب عديدة ، قد لا يكون اقلها اهمية عدم تميز اليهود خلال تاريخهم بالدنمارك بدور اقتصادي محدد ، ذلك الذي ترافق جنبا الى جنب مع محدودية اعدادهم .

في نهاية القرن التاسع عشر كان عدد اليهود في الدنمارك يقارب ٣٥٠٠ شخص فقط*، ولقد اتخذوا في ذلك الحين موقفا بالغ التحفظ تجاه المشروع الصهيوني حتى أنهم رفضوا قبول « الجمعية الصهيونية الدنماركية » — التي قام بعض اليهود بتأسيسها في كوبنهاجن عام ١٩٠٢ — كاحدى جمعيات الطائفة ، ولم تحظ هذه الجمعية بتلك الصفة الا بعد ثلاث سنوات كاملة واجهت خلالها مقاومة ومعارضة شديدة من الاغلبية اليهودية ، خصوصا وان الهدف المعلن لهذه اللجنة كان القيام بالدعاية وجمع المؤيدين للبرنامج الذي وضعت اسسه في مؤتمر بازل ١٨٩٧ . على أن موقف الطائفة اليهودية تجاه الحركة الصهيونية أخذ بالتغير شيئا فشيئا ، ولعل من ابرز العوامل التي أدت الى ذلك ، التبدل النوعي الذي أصاب الطائفة نتيجة الهجرة اليهودية الواسعة التي جاءت في عام ١٩٠٤ من روسيا القيصرية ، والتي ضمت عناصر ذات التزام سابق في حزب «البوند» ما كانت بعيدة عن الافكار الصهيونية . أما موجة الهجرة الثانية فقد كانت قبيل الحرب العالمية الاولى حيث استوطن في كوبنهاجن عدد من يهود اوربا الشرقية الذين قاموا بتأسيس نادي ثقافي صغير ، رطن « باليدشية » بين جدرانه لاول مرة في الدنمارك . ان هذه التغيرات النوعية البارزة في تركيب الطائفة شجعت الصهيونيين ابان الحرب العالمية الاولى على تأسيس فرع « للمنظمة الصهيونية العالمية » في « كوبنهاجن » الحيادية .

في الفترة ما بين الحربين ستكون نشاطات « بنيامين سلور » لصالح الحركة الصهيونية هي كل ما يستحق الذكر . فلقد قام ببذل جهود كبيرة لتثبيت دعائم فروع « المنظمة الصهيونية » في الدنمارك ولنشر برنامجها في الاوساط اليهودية . ولقد توج « سلور » مآثره في عام ١٩٣١ بافتتاح مدرسة زراعية لتدريب الشباب اليهودي «الرواد» تمهيدا لارسالهم للاستيطان في فلسطين ، وقامت

---

* المعلومات عن وضع الطائفة اليهودية والتاريخ الصهيوني في الدنمارك مستقاة اساسا من المراجع التالية :

- Dansk og/eller Jode, J. BLUM Copenhagen 1972.
- German Court Jews and Denmark during the great Northen War. A. ARNHEIM, Copenhagen 1966.
- Encyclopedia of Zionism and Israel New York, 1971.

هذه المدرسة بتخريج ١٤٠٠ طالب على امتداد تاريخها معظمهم من المانيا وسويسرا وتشيكوسلوفاكيا لعبوا دورا في انشاء وتدعيم بعض المستعمرات في فلسطين .

في مطلع نيسان ١٩٤٠ اكتسحت الجيوش النازية الاراضي الدنماركية ، وكانت اعداد اليهود آنذاك في الدنمارك تقارب الـ ٧ الاف من ضمنهم ١٥٠٠ يهودي هاجروا اليها من اوربا الشرقية ابان فترة الصعود النازية (١٩٣٣ — ١٩٤٠). الا ان الالمان لم يقوموا بنصب الافران مباشرة ، وظل الطرفان في حالة ترقب وانتظار متوتر لمدة ثلاث سنوات ، والغريب ان « المدرسة الزراعية » التي سبق الحديث عنها استمرت بأعمالها التقليدية وبطلبتها الـ ٣٥٠ على امتداد تلك السنوات الثلاث ، وكأن شيئا لم يكن . لا ندرى لماذا قدر الالمان فجاة في اكتوبر ١٩٤٣ البدء بنقل يهود الدنمارك الى معسكرات الاعتقال في المانيا ، ولا ندري ايضا الملابسات التي أدت الى تسريب ذلك الخبر ، المهم أن الفرصة اتيحت امام غالبية اليهود للفرار الى « السويد » . وتشير المعلومات الرسمية السويدية الى أن ٦٣٨٣ يهوديا من أصل دنماركي دخلوا البلاد خلال تلك الفترة (الرواد اليهود في المدرسة الزراعية الصهيونية فروا الى السويد أيضا !) ، ولم يقع في أيدي الالمان سوى ٤٧٥ يهوديا تم نقلهم الى معسكرات الاعتقال ، ولكن النازية سقطت قبل أن يمس اليهود هؤلاء أي سوء .

من الواضح اذن أن المعاناة اليهودية هنا حتى ابان الحرب لم تكن كبيرة ، خصوصا اذا ما ذكرنا أن النزعات اللاسامية ظلت محصورة في الجيش الغازي دون أن تجد ارضا خصبة للسريان بين الشعب ، وان تهريب اليهود الى السويد كان قد تم بالتعاون مع المقاومة السرية وبمشاركة عدد كبير من « البروتستانت » الدنماركيين . اذن مرة اخرى لم تخلق حواجز جدية امام هؤلاء للهجرة الى فلسطين او للوقوف بحزم الى جانب المشروع الصهيوني ، وفي الواقع فان اللامبالاة المميزة ليهود الدنمارك كانت مثار حنق القادة الصهيونيين ، ولم تكن مفاجأة « بن غوريون » — اثناء زيارته لاسكندنافية في مطلع الخمسينات — كبيرة حين أصر حاخام الطائفة اليهودية في الدنمارك على أن يقول امامه بأن يهود الدنمارك هم دنماركيون اولا .

ولعل « بن غوريون » كان يفكر مباشرة بيهود اسكندنافيا حين قال :

« ان مبدأ مساواة اليهود بغير اليهود في الحقوق والواجبات هو الذي يجعل خطر الاندماج أشد » .

ان ٥٧ ٪ فقط من زيجات يهود الدنمارك تتم داخل الكنيس ، وترتفع نسبة الزواج المختلط بين اليهود وغير اليهود بمعدلات متزايدة تبعا للجدول التالي :

سنة الولادة لاكبر الزوجين عمرا	نسبة الزيجات المختلطة من الزيجات اليهودية الكلية لمواليد ذلك العام
١٩٠٠	٥ ٪
١٩٠٥	٢٥ ٪
١٩٢٠	٤٥ ٪
١٩٣٠	٥٣ ٪
١٩٤٠	٦٠ ٪
١٩٥٠	٧٠ ٪

وفي دراسة ميدانية جامعية قام بها طالب يهودي على عينة واسعة من اليهود الدنماركيين توصل الى النتائج التالية :

٣٠ ٪ من يهود الدنمارك لهم أصدقاء يهود (الثلاثة أصدقاء — غير الاقرباء — الحميمين هم من اليهود) .

٢٤ ٪ من يهود الدنمارك لهم أصدقاء مختلطون (واحد على الاقل من الثلاثة غير يهودي) .

٤٦ ٪ من يهود الدنمارك لهم أصدقاء غير يهود (الاصدقاء الثلاثة غير يهود) .

وتوصلت الدراسة ايضا الى أن النسبة الاخيرة (أصدقاء غير يهود) ترتفع الى ٥٣ ٪ في اوساط يهود الدنمارك الذين تقل أعمارهم عن ٥٠ سنة.

ان مخاوف « بن غوريون » لها ما يبررها اذن ، ولن يكون من المستغرب ان نقرأ في « دائرة معارف الصهيونية واسرائيل » ان يهود الدنمارك .. « لم يكن لديهم خلفية حقيقية او فهم للحاجة الملحة الى حركة يهودية وطنية .. » (ص ٢٤٨) .

اما فيما يتعلق بالهجرة فان هناك دلائل تشير الى أن اعداد الذين جاءوا من اسرائيل الى الدنمارك

ابان الازمة الاقتصادية التي مرت على الاولى في الخمسينات يتجاوز كثيرا اعداد اليهود الذيـــن هاجروا من الدنمارك الى فلسطين علـــى امتداد تاريخ المشروع الصهيوني . وتذكـر المراجـــع الصهيونية ان ١٢٥ يهوديا دنماركيا توجهوا الى فلسطين (اسرائيل) خلال الفترة ١٩٤٥ ــ ١٩٦٥ اما خلال الفترة السابقة للحرب فـان عددهم لم يتجاوز العشرين .

يحدد الكتاب السنوي الاسرائيلي لعام ١٩٦٩ اعداد يهود الدنمارك بـ ٦ آلاف شخص (١٢ر٠ ٪ من السكان) وتذكر « دائرة المعارف الصهيونية » أن سدس هؤلاء فقط اعضاء بشكل او بآخر في تنظيمات صهيونية (٧٠٠ عضو في Wizo المنظمة الدولية للمرأة الصهيونية ، ١٦٠ عضوا في الاتحاد الدنماركي الصهيوني D Z A) . بالاضافة الـى هذه التنظيمات فان الحركة الصهيونية تحاول تأطير وترسيخ علاقاتها سواء بين يهود الدنمارك او في الاوساط السياسية الدنماركية عبر مجموعة مـن اللجـان :

ــ لجنة الاتصالات الاسرائيلية ــ الدنماركية .

ــ الاصدقاء الدنماركيون للكيبوتزات DAKIV

ــ نادي الطلبة اليهود في الدنمارك .

ــ جمعية (نادي) الصداقـــة الاسرائيلي ــ الدنماركي .

وتساهم الجمعية الاخيرة التي تأسست في ١٩٥٧ بالتعاون مع فرع المنظمة الصهيونية العالمية ــ الذي أصبح منذ ١٩٣٥ علـى مستـوى اسكندنافي ــ باصدار مجلة فصلية باسم « اسرائيل » منذ ١٩٦٥. وبالطبع فان فرع المنظمة الصهيونية لم يتوقف عن ممارسة نشاطاته التقليدية والمتعددة عبر مؤسساته المتخصصة ، فلقد استطاع فعلا في ١٩٥٠ جمع مبلغ ٧٥ الف دولار (وضعت الحكومة الدنماركية فوقها مبلغا مساويا) لصالح مشاريع الاعمار في القدس . وكان بامكان الفرع ان يجمع مبلغـــا سنويا يقارب الـ ٦٠ الف دولار كتبرعات مـن الطائفة والمؤسسات الخيرية الاخرى على امتداد سنوات الستينات .

على أن تعدد هذه اللجان والمنظمات يجب ان يحجب عنا واقع الضعف النسبي للحركة الصهيونية في الدنمارك ، ولقد بدت هذه المسألة على أكبـر درجة من الوضوح في العام الماضي حين جندت هذه التنظيمات مجتمعة كل قواها وخاضت حملة اعلامية باهظة التكاليف بهدف تنظيم مسيرة احتجاج على هيئة الامم المتحدة وعلى القرارات الفلسطينية التي اتخذت هناك . وبالرغم من المشاركة الشخصية لرئيس الحزب الديمقراطي ــ الاشتراكي (رئيس الوزراء حاليا) فان اكثر الصحف صهيونية لم تتمكن من المبالغة برفع عدد المتظاهرين الى اكثر من الف شخص ، في حين كان الرقم الفعلي يتجاوز نصف هذا الرقم الدعائي بقليل .

ان الضعف النسبي الذي عـاشته الحركـة الصهيونية في الدنمارك والذي ما تزال تعانيه بشكل متزايد على صعيد شعبي ، لم تجر الاستفادة منه بالشكل الامثل من قبل الطرف العربي والفلسطيني. صحيح ان هذا الضعف يعود في احد وجوهه الى أن رجل الشارع الدنماركي نادرا ما يهتم بالقضايا التي لا تمس مشاكله الحياتية اليومية ، ولكن من الصحيح أيضا ان رجل الشارع هذا يمتلك تراثـا مشرفا تجاه كل النظريات والحركات العنصرية ، ولديه حساسية مفرطة ضد التمييزات العرقية .

ان كسب هذا المواطن ، مسألة في نطـــاق « الممكن » ، بالرغم من كونهـا خــارج حدود « السهل » . وان عزل اسرائيل شعبيا داخل دول واحزاب « الاشتراكية الدولية » طموح تبرز اهمية ضرورة تذليل كل العقبات التي تحول دونه .

نعمان كنفاني

[٣]

جامعة بيت لحم ، ما لها وما عليها

من المشاكل البارزة التي تواجه الشباب في المناطق المحتلة ، مشكلة الدراسة الجامعية ، اذ ان المعاهد العلمية التي انشئت في الضفة الغربية قبل الاحتلال اقتصرت على معاهد لتدريب المعلمين ، اضافة الى ان هذه المعاهد غير قادرة على استيعاب الاف الطلبة ممن ينهون دراستهم الثانوية في كل عام . وقد حاولت بعض هذه المعاهد ، ان تطور نفسها قبل وبعد الاحتلال، لتصبح قادرة على المساهمة في مواجهة هذه المشكلة . غير انه لم يسمح لها بذلك ووضعت في سبيلها العراقيل ، وعلى سبيل المثال ، فقد طالب عميد معهد خضوري في طولكرم (مدرسة خضوري الزراعية) عام ١٩٦٥ ، بتطوير المعهد الزراعي ، ليصبح كلية للزراعة تابعة للجامعة الاردنية ، لكن الحكومة الاردنية اشترطت ان يدفع المعهد مبلغ مليون دينار وذلك لانشاء معهد زراعي لتخريج الفنيين الزراعيين . وكان هذا الطلب ، حجر عثرة في سبيل تأسيس كلية للزراعة في طولكرم . اما بعد الاحتلال ، فقد سعت كلية بيرزيت لتطوير امكاناتها ولتصبح قادرة على منح شهادة جامعية للطلاب ، بدل الشهادة المتوسطة ، وظلت تواجه المحاربة والعراقيل من سلطات الاحتلال حتى تم لها ذلك في عام ١٩٧٣ . لكن امكاناتها في استيعاب اعداد واسعة من الطلبة تظل محدودة ، اذ لا يتجاوز عدد طلابها ثلاثمائة طالب وطالبة .

وامام هذه المشكلة الملحة ، تحركت سلطات الاحتلال ، لتنفيذ مشروع جامعة عربية في الضفة الغربية وذلك ضمن مخططها في ايجاد ادارة محلية للمناطق المحتلة تابعة لسلطة الاحتلال ، وبالتالي عزل الطلبة الفلسطينيين عن الجامعات العربية ، وجامعات الدول الاشتراكية .ومن هنا فان اللجنة التحضيرية التي شكلت لتنفيذ هذا المشروع ، كانت من فرسان الحكم الذاتي بدءا بالشيخ محمد علي الجعبري رئيسا للجنة وانتهاءا بشخصيات مثل الدكتور عباس الكرد والسيد حمدي كنعان ، والدكتور عيسى السلطي والسيد حنا جنحو والدكتور ياسر عبيد .. وبدأت هذه اللجنة باجراء الاتصالات وبدأت الصحف الاسرائيلية تعطي هذه الاتصالات وتروج للمشروع ، لكن نوايا الاحتلال لم تخف على احد ، وهي تتلخص فيما يلي :

١) احتواء الشباب الفلسطيني علميا ، وتنشئة اجيال من الشباب ، بعيدة عن العمل السياسي ، وهي في هذا تقتفي خطا الاستعمار البريطاني .

٢) تمزيق التجمعات الطلابية في كليات موزعة على انحاء الضفة ، في نابلس ورام الله والخليل، مستبعدة القدس التي تعتبرها جزء من دولة اسرائيل .

٣) ربط هذه الجامعة ، بالجامعة العبرية ، من خلال هيئة ادارية متعاونة مع الاحتلال .

٤) اظهار الاحتلال الاسرائيلي ، بمظهر المحب للعلم والمعرفة والتغطية على ممارسات الاحتلال من اساليب القمع الفردية والجماعية وهدم البيوت ومصادرة الاراضي .

ومن هنا ، فقد لقي المشروع ، معارضة شديدة من جماهيرنا في المناطق المحتلة ، وتناولته الصحف العربية في الداخل بالنقد ، كما عارضته وشجبته المؤسسات العربية المعنية مثل مؤتمر المشرفين على الشؤون الفلسطينية المنعقد عام ٧٢ ، والمجلس الدائم للتخطيط التربوي التابع للجامعة العربية ثم حذر من المشروع ، مجلس الجامعة العربية المنعقد في نيسان ١٩٧٣ ، وقد طرحت هذه المؤسسات اقتراحات تدور حول :

١ — توسيع الجامعات العربية في دول المواجهة لتكون قادرة على استيعاب الطلبة الفلسطينيين ، وذلك بدعم هذه الجامعات ماليا من دول النفط العربية .

٢ — العمل على انشاء جامعة فلسطينية في احد الاقطار العربية .

لكن قضية الطلبة الفلسطينيين لم تحل ، وظلت اوضاعهم كما كانت في السابق . فالجامعات العربية لا تقبل الا اعدادا محدودة وضمن شروط معينة ، والجامعات الاوروبية المتقدمة بتكاليفها المالية العالية لا تستطيع الوصول اليها غير فئة

محدودة من الطلبة ، اضافة الى المواقف السياسية المعادية للفلسطينيين التي عبر عنها موقف دولة مثل المانيا الغربية كما تجسد واضحا بعد حادثة ميونيخ ، اذ طردت العمال والطلاب الفلسطينيين. اما جامعات الدول الاوروبية غير المتطورة في اسبانيا واليونان وايطاليا فقد اتجه اليها اعداد من الطلبة مع ان تكاليف المعيشة فيها ظلت تتصاعد عاما بعد عام . وبالنسبة لجامعات البلدان الاشتراكية فيظل استقبالها للطلاب محدودا ،ضمن بعثات تمنح لمنظمة التحرير واحزاب ومؤسسات فلسطينية اخرى ، ابرزها الحزب الشيوعي وجمعياته في الضفة الغربية وخارجها .

وهكذا فان الطالب الفلسطيني ، ظل يجد نفسه امام مشكلة حادة ، تؤثر على مستقبله الدراسي . وهكذا ظلت الضرورة قائمة لانشاء جامعة فلسطينية ، فأين هو مكان جامعة بيت لحم التي انشئت في تشرين الاول ١٩٧٣ من هذه الضرورة .

جامعة بيت لحم

في صيف ١٩٧٣ ، وبينما كانت الصحف الاسرائيلية تترحم على مشروع الجعبري المؤود ، وبينما ردود الفعل الفلسطينية والعربية لم تهدأ بعد ، في هذه الفترة ، بدأت لجنة ادارية في بيت لحم ، شكلها رهبان مؤسسة الفرير الدينية ، بدأت تجري اتصالاتها باحثة عن هيئة تدريسية مؤهلة للتدريس الجامعي ، ومعدة لبرامج تعليمية لفروع مختلفة من التعليم الجامعي . وكان على رأس هذه اللجنة الدكتور انطون صنصور «دكتوراه رياضيات من الاتحاد السوفياتي » . وفي تشرين الاول من عام ١٩٧٣ ، بوشر بالتدريس في ثلاث كليات جامعية ، كلية للعلوم وكلية للاداب ، وكلية لادارة الاعمال والفندقة . اضيفت اليها ، كلية للمعلمين في السنة الدراسية التالية . وبينما كان عدد الطلبة محدودا في السنة الاولى ، فانه بلغ المائتي طالب وطالبة في السنة الدراسية الثانية . وتشير الاخبار الواردة من الداخل الى ان هذا العدد سيكون اكبر بكثير في السنة الجديدة ، وذلك مرتبط بالثقة والتقدير الذي تحظى بها الجامعة بين الجماهير في الارض المحتلة . وقبل ان نلقي نظرة على اعمال الجامعة ونشاطاتها ، لا بد ان نطرح هذه التساؤلات :

١ — ان مؤسسة رهبان الفرير ، لا تخرج عن نطاق المؤسسات التبشيرية التي انشأت عددا من المدارس في فلسطين والبلاد العربية ، فالى اي مدى يمكن ان تلتزم هذه المؤسسة بسياسة تعليمية لمصلحة شعبنا الفلسطيني .

٢ — كيف حصلت هذه المؤسسة على ترخيص من السلطات المحتلة بانشاء جامعة في نفس الفترة الذي فشل فيها مشروع مماثل ، كانت هذه السلطات من ورائه .

٣ — لم تقم الجامعة في القدس — حيث تملك المؤسسة الرهبانية هناك ، بناء مدرسي كبير ، وانما اقيمت في مدرسة بيت لحم ، وهي في هذا لم تتجاوز سياسة الاحتلال المتعلقة بضم القدس .

٤ — اتفاق ادارة الجامعة ، على ان جامعة بيت لحم ، هي نواة لجامعة عربية في الضفة الغربية ، بحيث تتوزع كلياتها في شمال ووسط وجنوب فلسطين « نابلس ورام الله والخليل » .

٥ — الى اي مدى ، ستوافق السلطة المحتلة ، على هذا الوجه الاستقلالي للجامعة .

هذه التحفظات نضعها بين يدي القارىء ، قبل ان نشرع في الحديث عن الجامعة ، ونعطي الصورة المشرقة ، التي تكونت لدينا عنها من خلال معرفتنا لهيئتها التدريسية واطلاعنا على النشاطات المتعددة التي تقوم بها والتفاف الجماهير حول هذه النشاطات الثقافية والفنية والرياضية والعلمية .

الهيئة التدريسية

تضم جامعة بيت لحم ، نخبة من الاساتذة النشطاء المخلصين، على رأسهم الدكتور صنصور، الذي هو عميد الجامعة الاداري ، والذي يشرف على وضع المناهج الدراسية ، لا سيما مناهج كلية العلوم ، كما يدرس الرياضيات والفيزياء . ويدرس الرياضيات المعاصرة في كلية المعلمين . وهو بالتالي ، شاب بالغ الحيوية ، قريب من الطلبة ، تجتذبه كافة نشاطات الجامعة الثقافية والفنية والرياضية ، اوقفته السلطات اسبوعا وحققت معه بتهمة تشكيل منظمة « تخريبية » .

الاستاذ سعيد جمجوم ، « ماجستير في علم النفس » وهو عمليا عميد كلية المعلمين ، التي

تقدم لمعلمين منتسبين للجامعة وفي اوقات فراغهم ، تقدم محاضرات مكثفة ضمن اقسام للغة العربية، وعلم النفس ، واللغة الانجليزية ، والرياضيات العامة ، والرياضيات المعاصرة ، والاستاذ جمجوم فصلته سلطة الاحتلال من دار المعلمات الحكومية برام الله .

الاستاذ صدقي حميدان ، استاذ اللغة العربية المتفرغ في الجامعة ، يعد محاضرات اسبوعية في اللغة العربية ، للهواة من الطلبة ومن خارج الجامعة .

الاستاذ ابراهيم علم ، يحاضر في اللغة العربية.

الاستاذ بشير العيسى وهو استاذ الكيمياء ، وله نشاطات ثقافية بارزة في الجامعة .

الدكتور عيسى المصو « دكتوراه ادب انجليزي » وهو استاذ اللغة الانجليزية ، ويدرس اللغة الفرنسية في الجامعة اب من أصل فرنسي .

اما عميد الجامعة فهو أب من أصل امريكي . وهو حريص على سمعة الجامعة في علاقاتها مع سلطة الاحتلال .

ومن الهيئة التدريسية كذلك الاستاذ خليل الرشماوي « ماجستير في العلوم الزراعية » ، وكان يدرس موضوع الكيمياء ، وقد اعتقلته السلطات العسكرية وظل في التوقيف الاداري منذ اكثر من سنة .

كما درس الكيمياء في الجامعة الاستاذ محمود قدري « بكالوريوس علوم » وقد ابعدته السلطات العسكرية الى لبنان .

وتهتم ادارة الجامعة ، بالمستوى العلمي لبرامجها بالرغم من امكانياتها المادية المحدودة والتي تبرز في مقر المختبرات العلمية والادوات العلمية الاخرى . وهي تأمل في تخطي هذا النقص بجمع التبرعات العربية والعالمية لها ، وفي هذا المجال تجري الاتصالات مع عدد من الجامعات الامريكية لتعترف بها ولتقبل خريجيها لاتمام دراساتهم العليا فيها . وهناك اخبار موثوقة من ان الجامعة الاردنية تدرس بجدية موضوع الاعتراف بها .

النشاطات الفنية والثقافية

هذا وبالرغم ، من العمر الزمني القصير للجامعة ، فان اتحاد الطلبة فيها ، يقوم بنشاطات واسعة ، وذلك من خلال لجان متخصصة ،وبالفعل غدت الجامعة مركز للاشعاع الفني والثقافي والعلمي والرياضي .

فمنذ السنة الدراسية الاولى ، تشكلت فرقة فنية للجامعة يقوم على تدريبها الفنان الفلسطيني مصطفى الكرد عضو فرقة بلالين للمسرح والفنون الشعبية . وفي مهرجانات فنية اقامتها فرقة الجامعة ، قدمت اغنيات ثورية ورقصات شعبية وعرض مقصف للتراث الشعبي الفلسطيني يحتوي على الادوات الشعبية التي كانت تستعمل في البيوت الفلسطينية .

وفي اسبوع ثقافي ، عرضت الفرقة المسرحية للجامعة ، مسرحية هادفة ، تعالج قضية سماسرة الارض وتطرح أهمية مواجهتهم للمحافظة على تراب الوطن ازاء الهجمة الاستيطانية . كما تعقد في الجامعة الامسيات الشعرية ، والمحاضرات ، والندوات ، وممن قدمتهم الجامعة في امسياتها الشاعر الفلسطيني توفيق زياد في امسية شعرية وفي محاضرة سياسية ايضا .

وفي المناسبات الوطنية ، لا تتأخر الجامعة عن دورها النضالي ، فعلى اثر مقررات مؤتمر الرباط، عقدت الندوات السياسية في الجامعة ، وناقش الطلبة القضايا السياسية التي تهم الشعب الفلسطيني . وفي انتفاضة تشرين ، تجمع طلاب وطالبات مدارس بيت لحم ، في حرم الجامعة ، حيث رفعوا الاعلام الفلسطينية وهتفوا لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وقد جرى اقتحام الجامعة من جنود الاحتلال .

ان جامعة بيت لحم بالتالي ، مؤسسة جماهيرية بارزة في الارض المحتلة ، تناضل مثل غيرها من المؤسسات ، ضد محاولات السلطة العسكرية الصهيونية لاحتوائها والسيطرة عليها .

غطاس ابو عيطه

[٤]

الابتزاز النووي واسرائيل

أصبح من المؤكد الان ان اسرائيل بدأت تلوح بالابتزاز النووي كي يكون ذلك رادعا امام اية محاولة عربية لاسترداد الاراضي المحتلة . واذا كانت الفترة الاخيرة قد شهدت حديثا واسعا عن التسلح النووي في اسرائيل فان المحاولات التي جرت هناك لصناعة السلاح النووي قد بدأت منذ وقت مبكر . لقد فكرت حكومة اسرائيل بالتسلح النووي منذ نشأتها سنة ١٩٤٨ وشجعها على ذلك وجود مادة اليورانيوم بنسب ١ر٪ — ١٠ر٪ في معادن الفوسفات التي اكتشفتها البعثة العلمية التي اوفدتها وزارة الدفاع للتنقيب عن المعادن في صحراء النقب آنذاك . ومن الجدير بالذكر ان مادة اليورانيوم الطبيعية تحتوي على عنصر اليورانيوم U 235 القابل للانشطار بنسبة ٧ر٪ وعلى عنصر اليورانيوم U 238 غير القابل للانشطار بنسبة ٣ر٩٩٪ . وبعد فصل اليورانيوم القابل للانشطار U 235 من اليورانيوم الطبيعي بطرق علمية خاصة وتكريره ليصل الى درجة تشبع ما فوق ٩٠٪ يصبح جاهزا للاستعمال كوقود للسلاح النووي .

تأسيس لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية :
ان حكومة بن غوريون (١٩٤٨ — ١٩٥٣ و١٩٥٥ — ١٩٦٣) هي التي أطلقت الرصاصة الاولى نحو التسلح النووي . فقد قامت بتأسيس لجنة للطاقة الذرية في ١٣ حزيران سنة ١٩٥٢ لتعمل ضمن أطار وزارة الدفاع الاسرائيلي وخصصت لها ميزانية مستقلة وزودتها بأجهزة خاصة بها . وقد عين الدكتور ارنست بر غمان الذي كان يرأس البعثة العلمية المكتشفة ليورانيوم صحراء النقب ، رئيسا للجنة الطاقة الذرية . وضمت هذه اللجنة خمسة اعضاء اخرين وهم الدكتور اسرائيل دوستروفسكي والاستاذ كوهين والاستاذ راكا والاستاذ سمبورسكي والجنرال دوري وكان على هذه اللجنة ان تسعى بالبحث عن جميع الوسائل للحصول على المواد المشعة لانتاج الوقود النووي وايضا عن الماء الثقيل الذي يستعمل كمهدىء في المفاعلات النووية اذ يعمل على ابطاء سرع النيوترونات المنبعثة بطاقات حركية هائلة من مادة الانشطار الى الحد الكفيل بحدوث الانشطار المتسلسل في الوقود النووي . علما بأنه يمكن استبدال الماء الثقيل بالماء العادي كما هو الحال في انواع معينة من المفاعلات النووية او يمكن استعمال مادة الجرافيت كمهدىء كما هو الحال بأول مفاعل نووي صنع في شيكاغو في ٢ كانون الاول سنة ١٩٤٢ تحت اشراف العالم الفيزيائي المشهور انريكو فرمي Enrico Fermi . ولاهمية الماء الثقيل ومادة اليورانيوم لكونهما المادتين الاساسيتين في انتاج اي سلاح نووي ، فقد قامت الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفياتي بإحتكارهما من الاسواق التجارية . حتى ان معظم انتاج النرويج للماء الثقيل كان يصدر الى الولايات المتحدة الامريكية حسب اتفاق نرويجي — امريكي. ومن الجدير بالذكر ان النرويج هي البلد غير النووي الوحيد الذي كان ينتج الماء الثقيل لتوفر القوة الكهرومائية هناك . ولهذا فقد ندرت هذه المواد في الاسواق الحرة في اوائل الخمسينات . فما كان على اسرائيل الا ان تطور طرقا محلية للحصول على هذه المواد الاساسية للسلاح النووي . وبالفعل فقد نجح الدكتور دوستروفسكي في تطوير طريقة محلية لصنع الماء الثقيل عرفت باسمه فيما بعد .

كان على لجنة الطاقة الاسرائيلية تمثيل اسرائيل بالمؤتمرات الدولية في المجال النووي وقد جندت البعثات العلمية الى مراكز الابحاث في فرنسا والولايات المتحدة حسب الاتفاقات المبرمة بين الطرفين . فقد اعلن الرئيس الامريكي ايزنهاور بتاريخ ٨ كانون الاول ١٩٥٣ بخطابه الشهير « الذرة للسلام » الذي وجهه بهيئة الامم ان امريكا تفتح ابواب المراكز الذرية والكشف عن المعلومات بهذا الخصوص للدول الاخرى بقصد التعاون في استخدام الذرة في الاغراض السلمية . وعلى اثر ذلك وقعت اتفاقية مع اسرائيل بتاريخ ١٢ تموز ١٩٥٥ مما ادى الى تزويدها بأول مفاعل نووي بنحال زوريك وتم نقل ٢٠ كغم من يورانيوم U 235 المشبع لدرجة ٢٠٪ . وفي الوقت نفسه زودت اسرائيل بمكتبة تقنية بها ٥٠٠ر٦ تقرير عن الابحاث الذرية و ٤٥ كتابا عن الفيزياء النووية فكانت بمثابة دفعه الى الامام في هذا المجال .

مفاعل نحال زوريك : ومن الجدير بالذكر بـأن المفاعل النووي هو العمود الفقري لانتاج السلاح. فقد اختارت اسرائيل ان يكون أول مفاعل نووي لها من النوع الذي يستعمل الماء العادي كمهدىء. وقد صمم للحصول علـى قـدرة ٥٠٠٠ كيلو واط حرارة . ووضـعت ٦ كغم من الوقود بقـاع بركة عمقها ٢٥ قدما ملئت بالماء العادي المرشح وبجدران من الاسمنت المسلح بثخن ٨ اقدام . ويتحكم في فيض النيوترونـات قضبـان مطليـة بالكادميوم والبورون مغروسة في البركة . وقد زادت الولايات المتحـدة امدادهـا من ٦ كغم الى ١٠ كغم مـن اليورانيوم المشبع بدرجة ٩٠٪ حسب اتفـاق ملحق بتاريخ ٢٠ اب سنة ١٩٥٩ ، ومفاعل نحال زوريك كان معرضا للرقابة من قبل الولايـات المتحدة مرتين بالسنة . ومن الناحية العسكريـة فـلم يعـد هذا المفـاعل عن كونـه مركز تدريب للعلماء والتقنيين في المجالات النووية ، وامـا المفاعل بديمونا الذي يعمل في منتهى الكتمان والذي تم بناؤه بتعاون فرنسا مع اسرائيل فهو المعبـر الحقيقي عن نوايا اسرائيل نحو التسلح النووي .

مفاعل ديمونا : لقد أبرمـت فرنسا اتفاقـا ثنائيا مع اسرائيل للتعاون في بناء مفاعل بقـوة ٢٤٠٠٠ كيلو واط حراري . وقد بقي هذا المفاعل سرا حتى بالنسبة لاعضاء الكنيست الاسرائيلـي انفسهم . ومفاعل ديمونا صمم علـى استخدام بلوتونيوم Pu 239 كوقـود ذري والماء الثقيـل كمهدىء . واستخلـص المـاء الثقيل بطريقـة دوستروفسكي كي لا يكشف امره ولم يعرض هذا المفاعل لرقابة دولية حتى انه لم يكن تحت تحكم الفرنسيين . ومن المحتمل ان يكون الاسرائيليون قد طوروا سلاحهم النووي بهذا المفاعل وفي منتهى السرية . وبامكان الدول العربية ان تحذو حـذو اسرائيل ولهذا فسأتطرق لبحث كيفية انتاج السلاح النووي من وجهة عامة وبالتركيز على امكـانية تطويره باسرائيل والدول العربية .

انتاج السلاح النووي : هنالك ثلاثـة شروط يجب توفرها وثلاثة مراحل يجب ان يمـر بهـا انتاج السلاح النووي . اما الشروط الثلاثة فهي الاتي :

أ ـ **الامكانيات المادية** : ان انتاج اي سـلاح نووي يكلف تكاليف باهظة ولاعطاء فكرة عامة عما يكلف انتاج قنبلة نووية واحدة . فقد قام ١٢ خبيرا سنة ١٩٦٧ بطلب من هيئة الامم بدراسـة عـن تكاليف السلاح النووي . وكان تقديرهم عن تكاليف عشرة قنابل قوة ٢٠ كيلوطن يتم انتاجها في مـدة ١٠ سنوات بمعدل قنبلة واحدة بالسنة هو ١٠٤ مليون دولار موزعة كالاتي : الوقـود النـووي ٧٠ مليون دولار ، التركيب التقني ١٨ مليونـا ، اختبار السلاح ١٢ مليونـا ، خـزن وصيانة ٤ ملايين .

وبالتالي يكون تكاليف القنبلة الواحدة حسـب هذا التقدير هو ١٠٫٤ مليون دولار وهو طبعا في حدود الامكانيات العربية والاسرائيلية .

ب ـ **توفر الخبراء التقنيين والعلماء النوويين:** من الطبيعي جدا ان يكون هناك رصيد من الخبراء التقنيين في المجال النووي . واسرائيل محظوظة في هذا المجال بسبب تعاون الدول المنتجة لهـذا السلاح معها . فقد ساعدها الاتفاقان بينها وبـين فرنسا والولايات المتحدة الامريكية منذ اوائـل الخمسينات على تبادل البعثات العلمية والمعلومات في هذا المجال النووي . ولهذا لم تبدأ اسرائيـل من مرحلة الصفر كما بدات الولايـات المتحـدة الامريكية والاتحاد السوفياتي مثلا . فباطـلاع علمائها على اخر ما وصل اليه تقدم علماء الذرة بفرنسا وامريكا اخذت اسرائيل تلحـق بقطـار التسابق على التسلح النووي وكونت لنفسهـا رصيدا لا بأس به في الوقت الذي لم تفكر اي دولة عربية بطرق هذا المجال . فوق هذا كله فـأن اسرائيل عندها العزم والتصميم على التسلـح النووي منذ البداية وتسعى جديا في هذا المضمـار علما بأن الدول العربية حتى هذا اليوم لم تصـل الى درجة عزم وتصميم اسرائيل بأوائل الخمسينات نحو التسلح النووي . ولكن في الوقت الحاضر لم تعد كيفية انتاج السلاح النووي سرا كما كانت عليه بالسابق . فمعظم المعلومات متوفرة ولهذا فبأمكان علماء الذرة بالدول الغربية اللحاق بقطار التسابق النووي ان وجد هناك العزم والتصميم بالاتجـاه في هذا المضمار . ويمكننا القول بأن هذا الشـرط متوفر عند الدول العربية وان لم يكن بنفس درجة توفره عند اسرائيل .

جـ) **التحايل على المراقبة الدولية بعدم انتشار السلاح النووي** : هنالك اتفاقية دولية بعدم انتشار

السلاح النووي موقعة من الدول المسلحة نوويا بهدف احتكاره وأيضا مفتوحة للتوقيع من الدول الاخرى المقتنعة تماما بأن العالم في غنى عن هذا السلاح الرهيب . وقد فتح الباب للتوقيع بتاريخ ١ تموز ١٩٦٨ واصبحت سارية المفعول بتاريخ ٥ آذار ١٩٧٠ . وفي الوقت نفسه توجد اتفاقات ثنائية على نمط الاتفاقات مع اسرائيل من قبل فرنسا والولايات المتحدة الامريكية في التعاون في المجالات النووية وامدادها بالمواد الاساسية شريطة ان تستخدم في الاغراض السلمية . ولان اسرائيل لم توقع على اتفاقية عدم انتشار الاسلحة النووية فهي لا تخضع للرقابة الدولية كما هو الحال بمفاعل ديمونا . وانما ما استوردته من مواد مشعة لتموين مفاعل نحال زوريك كان تحت مراقبة الولايات المتحدة . فتم التحايل من قبل اسرائيل بجعل مفاعل ناحل زوريك مكشوفا للرقابة حيث يتم فيه التدريب على ازدياد رصيدها العلمي في هذا المضمار ونقلت الى مفاعل ديمونا الذي لا يخضع الى رقابة دولية ما تحتاجه الى تطوير السلاح النووي . وقد تم ذلك بمنتهى الكتمان . ويمكننا القول بأن الشروط الثلاثة متوفرة عند الدول العربية وأن لم تكن بنفس درجة توفرها عند اسرائيل . فبأمكان الدول العربية البدء بمراحل انتاج هذا السلاح وهي التالي :

١) **الحصول على الوقود النووي والمهدىء :** ان هاتين المادتين هما صلب القنبلة النووية . ويستخدم كوقود نووي اما يورانيوم U 235 او بلوتونيوم Pu 239؛ ويتم التحكم بكتلة الوقود النووي بحيث تبقى دائما تحت الحرجة حتى وقت الانفجار . والكتلة الحرجة هي أقل كمية من الوقود النووي تكفي لتوفر تسلسل التشاطر النووي . أما بخصوص المهدىء فيستخدم الماء الثقيل ويمكن أيضا استخدام الماء العادي او الجرافيت .

ان المشكلة الاساسية هو الحصول على الوقود النووي . فعنصر اليورانيوم U 235 القابل للانشطار يوجد بنسبة ٧ر٠ ٪ في اليورانيوم الطبيعي . ويتم فصله عن اليورانيوم الطبيعي بطريقة الانتشار الغازي اذ يتم تكريره بانتشاره خلال مسامات دقيقة. وبما ان جزئيات يورانيوم U 235 أخف من جزئيات يورانيوم U 238 الذي يؤلف ٣ر٩٩ ٪ من اليورانيوم الطبيعي فانه أكثر سرعة بالانتشار مما يؤدي الى زيادة تركيزه في اليورانيوم الطبيعي بعد الانتشار . وتكرر هذه العملية لفترة طويلة من الزمن حتى يصل تركيزه الى ما فوق ٩٠ ٪ حيث يصبح عندها صالحا للاستعمال كوقود نووي . وعملية الفصل هذه هي الحاسمة في موضوع التسلح نوويا . وفي حالة استعمال البلوتونيوم Pu 239 كوقود نووي فيتم الحصول عليه من عنصر اليورانيوم U 238 الموجود بوفرة في اليورانيوم الطبيعي . لعدم وجوده كعنصر طبيعي. وعملية انتاجه تتم بالمفاعل النووي وذلك عندما تلتقف بعض نظائر يورانيوم U 238 نيوترونات منشطرة عن يورانيوم U 235 اذ تحولها في خلال نصف ساعة الى عنصر النبوتونيوم والذي بدوره يتحول خلال يومين الى عنصر البلوتونيوم Pu 239

ويمكن الحصول على الوقود النووي، ان تواجد اليورانيوم الطبيعي باستخلاصه من المعادن الطبيعية المتوفرة في البلد نفسه او بشرائه من الاسواق . لقد استخلصت اسرائيل اليورانيوم الطبيعي من فوسفات صحراء النقب كما ذكر سابقا ويمكن استخلاص كمية من اليورانيوم الطبيعي من الدول العربية كافية لبدء انتاج السلاح النووي .

٢) التركيب التقني للسلاح : ان تصميم السلاح النووي لم يعد سرا فطريقة صنعه موجودة في الكتب العلمية وفي متناول المختصين به . واهم ما في الامر هو كيفية تفجير السلاح النووي . وقد استعملت شحنة من المتفجرات الكيماوية بالقنابل النووية المكونة من البلوتونيوم كوقود ذري حيث تدفع صلب القنبلة بسرعة وبطريقة معينة تبدأ بها الانشطار المتسلسل الهائل . وهناك طرق عديدة متطورة للتفجير يمكن استخلاص أفضلها واستعماله في التصميم التقني للسلاح . لا تشكل هذه المرحلة مشكلة على الطرفين وبهما ينتهي انتاج السلاح على الشكل المطلوب ولم يبق الا اختبار صلاحيته للاستعمال .

٣) اختبار السلاح : — ليس من الضروري جدا اختبار السلاح النووي قبل استعماله وذلك استنادا الى أن أول قنبلة ذرية صنعت لم تفشل كما انه لم يجر اختبار القنبلة الذرية التي القيت على هيروشيما . هذا علاوة على النوايا الموجودة

من وراء انتاج السلاح النووي . فان كانت فـي منتهى الكتمان فالاختبار قد يؤدي الى كشفها . فوق هذا كله يمكن اضافة خسارة ما كلفته صناعة القنبلة هذه هي المراحل الثلاث التي يمر بهـــا تطوير أي سلاح نووي . وتبقى هناك مشكلـــة فعلية وهي طريقة نقله الى الهدف في حالة الحرب. ويعتمد هذا على مقدار تطور وسائل الدفاع عند الطرفين ولا يعد ذلك مشكلة ان قورن بمشكلـــة الانتاج النووي .

الرد العربي على ابتزاز اسرائيل النووي : ان الامكانيات العربية لانتاج السلاح النووي متوفرة كما ادرج سابقا ، وأن معادلة هذا السلاح عربيا تتم ان توفر التصميم على السير في هذا الاتجاه. وهناك مفاعلان نوويان تحت التصرف (واحد فـي القاهرة والآخر في بغداد) ويمكن استجلاب المزيد بطريقة او اخرى . وان وجود مجموعة مـن العلماء الباحثين في العلوم النووية يأخذون علـى عاتقهم هذا العمل وتحت ظروف ملائمة وبامكانيات مالية متوفرة يمكن من انتاج اول قنبلة نووية في مدة تتراوح ما بين سنتين وثلاث سنوات . وبهذا تقفز الدول العربية الى مرتبة الدول الكبـرى . وبحيازتها هذا السلاح النووي فانها تبطل فاعلية الابتزاز الاسرائيلي للقنابل النووية ويصبح بيدها السلاح نفسه الذي تلوح به اسرائيل هذا ويجب أن تكون مراكز الانتاج متفرقة في انحـاء البلاد العربية لحماية السير نحو التسلح النووي فيما لو نجحت اسرائيل في تدمير أحد المراكز . كذلك يجب التخطيط بانتاج العديد من القنابل في حالة فشل استعمال البعض بسبب قوة الدفاع المضادة.

د. عبد الجابر الشايب

[٥]

تقرير حول السياسات النفطية العربية بعد حرب اكتوبر

عندما استخدمت الدول العربية سلاح النفط في اكتوبر ١٩٧٣ (لدعم المجهود العسكري المصري ــ السوري ــ الفلسطيني) لم تقتصر تأثيرات هذه الخطوة وتفاعلاتها على العالم الخارجي فقط بل مست أيضا الدول العربية المنتجة للبترول نفسها . على سبيل المثال أدى استخدام سلاح النفط الى مزيد من ارتفاع أسعاره والى تأكيد هامش حرية الحركة والمناورة الذي تتمتع به الدول المعنية في التصرف بشؤونها البترولية مما افرز سياســات نفطية جديدة ذات طابع وطني واستقلالي في اكثرية البلدان العربية المنتجة . وسنتناول في هذا التقرير المعالم الرئيسية لهذه السياسات التي استجدت بعد حرب اكتوبر وكمـا تجلت في مواقف الـدول المنتجة الرئيسية ازاء عدد من الموضوعات النفطية المحورية مثل : (أ) الحوار الذي يجري الحديث عنه هــذه الايام بـين الدول المنتجة والـدول المستهلكـة ، (ب) قضايـا برمجة الانتـاج ، (ج) المحافظـة على اسعار النفط في مستوياتهـا الحالية على اقل تعديل ، (د) اتجاه الدول العربية المنتجة نحو وضع يدها على صناعة البترول ، (هـ) نظرتها الى عمليات التنقيب عن المزيد مـن حقول النفط في أراضيها .

العراق : أصبح معروفا ان المحور الاسـاسي الذي تدور حوله سياسة العراق النفطية محليـا وعالميا هو بذل اقصى الجهود من أجل التنميـة الاقتصادية للبلاد . فعلى الصعيد المالي يعني هذا الواقع ان العراق سيحتاج في المستقبل المنظور الى كل الاموال التي يمكن أن يأتي بها النفط من أجل تمويل برامجه التنموية الطموحة (أي لـن يواجه العراق ما يسمى « بمشكلة » فائضات ريع البترول) كما يعني اتباع سياسات تسعيرية تهدف الى المحـافظة على القـوة الشرائية للمداخيـل البترولية في وجه التضخم المالي العالمي عن طريق

التعاون مع بقية دول الاوبيك والدفع بالاتجاه القائل بضرورة ربط اسعار البترول بمعدلات التضخم وبأسعار السلع المصنعة والمطروحة للتبادل التجاري في السوق العالمية . على الرغم من أن الارقام الدقيقة حول عائدات العراق المالية للعام ١٩٧٤ غير متوفرة يقدر الخبراء الدوليون مقدارها بحوالي ٦ — ٧ بليون دولار ولم يثر العراق أية اعتراضات على هذه التقديرات . وبلغت التزامات العراق المالية في العام الماضي تجاه العالم الثالث ٨٥٠ مليون دولار ذهبت على شكل هبات وقروض وتسهيلات ائتمانية طويلة الامد (مثلا الترتيبات التي تم الاتفاق عليها مع الهند لتأجيل دفع ثمن البترول العراقي) استفادت منها الدول العربية والافريقية والآسيوية وغيرها من الدول الصديقة . واذا اضفنا الى هذه المساعدات ما ينفقه العراق على خططه التنموية يتبين لماذا لن يعاني البلد من مشكلة « فائض عائدات البترول » كما ذكرنا .

وبالنسبة لموضوع الحوار بين الدول المنتجة والدول المستهلكة يأخذ العراق موقفا مؤيدا للجهود الرامية الى اقامة حوار موسع بين دول العالم الثالث من ناحية (بما في ذلك دول الاوبيك) والدول الصناعية من ناحية اخرى . واستنادا الى هذا المنطلق ترى السلطات العراقية ان السبب الاساسي لفشل المحادثات التحضيرية التي جرت في باريس في شهر نيسان المنصرم لفتح مثل هذا الحوار هو سياسات المجابهة التي تسير عليها الولايات المتحدة ووكالة الطاقة الدولية في الميدان البترولي . وقد شرح وزير النفط العراقي السيد طايع عبد الكريم موقف بلاده من هذا الموضوع بقوله ان هناك اتجاهين حول مسألة الحوار بين الدول المنتجة والدول المستهلكة . يقر الاتجاه الاول بأن المشكلة الاساسية لا تنحصر فقط بموضوع الطاقة (في الواقع لا توجد ازمة طاقة حقيقية اذ ان هناك فائضا من الطاقة في الوقت الحاضر) بل تتعدى ذلك لتتناول الاقتصاد العالمي بكافة جوانبه مثل الطاقة والمواد الاولية والنظام المالي القائم حاليا الخ . لذلك ليس من الانصاف بشيء اعتبار ارتفاع اسعار البترول مسؤولا عن كافة المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها العالم في حين ان هذا الارتفاع لم يؤد الا الى زيادة معدل التضخم بحوالي ٢ بالمئة فقط . ولا يمكن تسوية المشكلة الاقتصادية العالمية بصورة شمولية الا من خلال مؤتمر دولي يكون جدول اعماله الاساسي مؤلفا من ثلاث نقاط رئيسية هي الطاقة والمواد الاولية والنظام المالي العالمي . ويؤكد الوزير ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكننا من العمل من أجل التقدم في ظل السلام ومن أجل ايجاد حل عادل لهذه المشكلات بحيث لا يكون هناك مستغلون (بفتح الغين) ومستغلون (بكسر الغين) . أما الاتجاه الثاني فيتمثل في سياسات المجابهة والعدوان كما هو ظاهر في مواقف الولايات المتحدة ووكالة الطاقة الدولية التابعة لها . ويؤكد الوزير العراقي أن مبتغى بلاده هو التفاهم وليس سياسات المجابهة والعدوان على طريقة تصريحات وزير الدفاع الامريكي شليسنغر . وفي حال استمرار هذا النوع من المجابهة يحق عندئذ لكل بلد الدفاع عن مصالحه بطبيعة الحال . واشار الوزير الى انه لا يريد أن يجزم ما اذا كانت هذه التهديدات جدية أم هي نوعا من حرب الاعصاب أو الحرب النفسية على الدول المنتجة ، ولكن على أي حال فانها مرفوضة . واذا تبين ان هذه التهديدات جدية وستؤدي الى محاولات لاحتلال حقول النفط فان هذا سيعني بالتأكيد وضع حد لتزويد العالم بالطاقة . وأكد المسؤول العراقي مجددا ان بلاده لا تريد المجابهة مع الدول المستهلكة واستعدادها لتزويد العالم بالطاقة التي يحتاج اليها بأسعار منصفة على ان تحصل الدول المنتجة في مقابل ذلك على التكنولوجيا الحديثة والمشاركة الجدية من جانب العالم الصناعي في برامجه التنموية . وتتحمل الولايات المتحدة ووكالة الطاقة الدولية القسم الاكبر من مسؤولية تأزيم الموقف لانهما ما زالتا تمارسان مختلف أنواع الضغوط — من سياسية واقتصادية — لارغام الدول المنتجة على تخفيض أسعار نفطها . وتركز الولايات المتحدة جهودها على البترول وحده كي تجبر أوروبا واليابان الخضوع لسياساتها عموما . كذلك أكد الوزير ان موقف حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق وفي العالم العربي عموما واضح جدا بالنسبة لاستخدام البترول كسلاح فعال ليس لاهداف عدوانية ولكن لاهداف دفاعية ضد العدوان اذ ان هذا حق من حقوقنا القومية .

النقطة الرئيسية الاخرى التي لا بد من التطرق اليها في سياسة العراق النفطية هي مسألة برمجة

الانتاج . وقد شرح الامين العام للجنة متابعة شؤون النفط وتنفيذ الاتفاقات ، السيد عدنان الحمداني ، الموقف العراقي بقوله ان الكلام في هذا المجال يجب الا ينصب على خفض الانتاج او ضبطه بل على تنظيمه . اذ لا تكمن المسألة في خفض الانتاج الى مستوى ادنى من مستوى الطلب على النفط في السوق العالمية (والعراق على استعداد تام لتزويد السوق بكل ما تحتاج اليه من البترول) بل في توزيع مجمل الاحتياجات البترولية العالمية بين مختلف الدول المنتجة توزيعا متوازنا . لنفترض على سبيل المثال حدوث انخفاض في الطلب على البترول بما يعادل ٤,٦ مليون برميل في اليوم هنا لا بد من القيام بعملية تنسيق داخل الاوبيك نفسها لمنع حدوث اية منافسة ضارة ومؤذية بين مختلف الدول المنتجة وذلك عن طريق توزيع عبء هذا الانخفاض على أساس من التساوي بين دول الاوبيك بحيث تتحمل كل واحدة منها جزءا من هذا الانخفاض . ولا ينطوي هذا التنسيق على اية مجابهة مع الدول المستهلكة لانه لا يتعدى كونه شأنا من شؤون الاوبيك الداخلية .

كذلك شرح وزير النفط العراقي موقف حكومته من هذا الموضوع بقوله ان برمجة الانتاج مسألة حيوية لأن الفائض الموجود حاليا في الانتاج لدى دول الاوبيك ذو طابع مفتعل وناتج عن سياسات تتبعها عمدا بعض الدول المستهلكة لخفض استهلاكها البترولي آتيا من اجل الضغط على الدول المنتجة لخفض اسعارها . بعبارة أخرى هناك اختلال مصطنع في الميزان الطبيعي بين العرض والطلب لذلك تحاول دول الاوبيك حماية مصالحها باتخاذ خطوات معينة لاعادة هذا الميزان الى حالته الاولى . وهذا يتطلب توزيع كميات البترول التي ينبغي انتاجها بين الدول المعنية على اساس معادلة متفق عليها تأخذ بعين الاعتبار أمورا مثل احتياطي النفط المتوفر في كل بلد ، موقعه الجغرافي ، حاجاته التنموية ، الخ بحيث لا يبقى الانتاج مسألة خاضعة لمزاج كل بلد من بلدان الاوبيك على حدة . وهنا يمكننا أن نقول ان سياسة العراق بالنسبة لموضوع انتاج البترول تتحدد استنادا الى ثلاثة عوامل رئيسية : (أ) حاجات البلد المالية من اجل تحقيق اهداف برامجه التنموية . (ب) احتياطي النفط في البلاد (وما زال مستوى هذا الاحتياطي كمية غير معروفة تماما والموضوع قيد الدرس حاليا) . (ج) أوضاع السوق العالمية . وفي ما يلي مثالا عن كيفية تطبيق هذه السياسة على الصعيد التنفيذي : كانت الخطة العراقية الموضوعة عام ١٩٧٢ تدعو الى رفع مستوى الانتاج والتصدير الى ٣٢٥ مليون طن في السنة (٦,٥ مليون برميل في اليوم) في نهاية السبعينات . الا انه أجريت اعادة تقييم لهذا الهدف فخفض الى ٢٠٠ مليون طن في السنة (٤ مليون برميل في اليوم) على ضوء التبدلات التي طرأت على اسعار النفط اذ ان الخطة الاولى وضعت عندما كان سعر البترول الخام لا يتعدى الدولارين والنصف للبرميل الواحد وفي وقت كانت فيه صناعة البترول في العراق تعاني من الركود لسنوات عديدة قبل تأميمها نتيجة امتناع الشركات عن توظيف أموالها في هذا الميدان (منذ ١٩٥٩ بقيت الزيادة في انتاج البترول العراقي اقل بكثير من معدل الزيادة في باقي دول المنطقة والبالغ ١١ بالمئة) . بعد التأميم تبين ان العراق مصمم على تعويض خسائره السابقة خاصة النقص في الاستثمارات النفطية وفي نمو انتاجه البترولي . وبعد الارتفاع الكبير الذي طرأ على اسعار البترول في ٧٣ – ١٩٧٤ أعاد العراق النظر بخطته الاصلية من اجل تحقيق توازن افضل بين مستوى الانتاج وحاجات البلاد المالية لذلك حدد العراق لنفسه هدفا جديدا هو الوصول الى مستوى من الانتاج يبلغ ٢٠٠ مليون طن في السنة (بدلا من ٣٢٥ مليون طن) مع حلول سنة ١٩٨٢ (بدلا من ١٩٨٠) . بطبيعة الحال من المتوقع أن يعيد العراق النظر باستمرار بسياساته الانتاجية على ضوء التطورات التي تطرأ على الطلب في السوق وعلى ضوء حاجاته المالية والتنموية بالاضافة الى ما يستجد من اكتشافات حول مستوى احتياطه البترولي .

لا بد من الاشارة هنا الى المشاريع التي ينفذها العراق لمد المزيد من انابيب النفط ورفع قدرة البلاد الانتاجية مما سيوفر « المرونة الكافية » لصادرات العراق من البترول الخام في السوق العالمية بدون أن يعني ذلك بالضرورة زيادة حجم هذه الصادرات. وينطبق هذا الكلام بصورة خاصة على ما يسمى « بخط الانابيب الاستراتيجي » بين الحديثة (مركز محطة الضخ ك٣ على خط الانابيب الممتد بين كركوك والبحر الابيض المتوسط) وحقل الرميلة في جنوب

العراق . ومن المتوقع أن ينتهي العمل على هذا الخط في آخر هذه السنة . ويبلغ قطر خط الانابيب المذكور ٤٢ انشا وطاقته الاستيعابية من ٤٤ الى ٤٨ مليون طن في السنة ، وهو قادر على نقل البترول في اتجاهين حسب الطلب (من الجنوب الى الشمال وبالعكس) أي نقل بترول حقول الرميلة الى البحر الابيض المتوسط وبترول كركوك الى الخليج وفقا لما تفرضه الحاجة . وبهذه الصورة سيكون بمقدور العراق صب بتروله في الخليج أو في البحر الأبيض المتوسط وفقا لحاجات السوق وللظروف التي تتحكم بشحن البترول وغيرها من العوامل .

يعطي العراق في الوقت الحاضر الاولوية لعمليات التنقيب من النفط وقد خصص مبلغ بليون ونصف بليون دولار لهذا الغرض خلال السنوات الخمس القادمة ابتداء من السنة الماضية . ولا شك ان العراق يريد من جملة ما يريده من تركيزه على أعمال التنقيب معرفة مستوى احتياطه النفطي بصورة اكثر دقة مما هو متوفر الآن . وهناك من يتوقع بين الخبراء الدوليين في الموضوع بأن يأتي العراق بعد المملكة العربية السعودية مباشرة فيما يتعلق بكميات احتياطه النفطي . وقد اتخذ العراق قراره باعطاء الاولوية لعمليات التنقيب في منتصف ١٩٧٤ على أن تتحمل شركة نفط العراق الوطنية مسؤولية تنفيذ البرنامج التنقيبي بكامله باستثناء العقود التي أبرمت سابقا مع شركة ايلف/ايراب الفرنسية وبتروبراس البرازيلية ولجنة البترول والغاز الطبيعي الهندية . ويرحب العراق بمشاركة الشركات الدولية في عمليات التنقيب على أساس عقود تبرمها شركة نفط العراق الوطنية لقاء أتعاب محددة تدفع للشركة المتعاقدة مع استبعاد كافة أنواع الترتيبات الاخرى مثل مشاركة الشركات الاجنبية في عمليات الانتاج . ويحق للشركات الدولية المتعاقدة شراء كميات معينة ومتفق عليها من البترول بأسعار السوق ولكن ليس بأسعار خاصة .

على صعيد آخر يدرس العراق حاليا عروضا تقدمت بها شركات دولية لانشاء مصنع ضخم لتسييل الغاز بطاقة تبلغ ٣,٨ مليون طن في السنة . ولا يبدو أن العراق ينوي تصدير الكثير من الغاز المتوفر لديه اذ انه يقوم حاليا بعملية مسح لاحتياطي الغاز الموجود في البلاد بالقياس الى حاجات العراق المستقبلية . ومن المتوقع أن يعمل العراق الى استخدام الغاز الذي يجري حرقه الآن في خططه التنموية . كما تدرس الهيئات المسؤولة موضوع تكرير البترول بهدف تصديره على ضوء أوضاع السوق الحالية ومستوى الطلب فيها . وتنصب الدراسات الآن على مشروع لانشاء مصفاة لتصدير النفط في جنوب العراق بطاقة تبلغ بين ١٠ الى ٢٠ مليون طن في السنة . وتدعو الخطط العراقية الحالية لزيادة طاقة البلاد في التكرير الى حوالي ٢٥ مليون طن في السنة (٧٠٠ الف برميل في اليوم) خلال السنوات الخمس القادمة علما بأن طاقة العراق التكريرية في الوقت الحاضر تبلغ حوالي ١٠ مليون طن في السنة فقط .

الكويت : يمكننا القول ان سياسة الكويت البترولية الداخلية تقوم على شقين أساسيين أحدهما تنظيمي والآخر تنفيذي . وسنبدأ بمناقشة الشق التنظيمي .

لا شك ان الهدف الاساسي الذي تسعى الى تحقيقه السلطات الكويتية في هذا المجال هو اتمام الخطوات الرامية الى السيطرة سيطرة تامة على موارد البلد النفطية ووضع مسؤولية تسييرها في أيدي المواطنين الكويتيين . وتعتبر الاجراءات التي اتخذتها الحكومة في هذا الميدان منذ شهر آذار (مارس) ١٩٧٥ خطوات أساسية على طريق الوصول الى هذه الغاية . وقد حصرت هذه الاجراءات في الحكومة الكويتية وحدها حق تحديد المبادىء التي تتحكم بالمحافظة على الموارد النفطية في البلاد ومستويات الانتاج وتحديد الاسعار وشؤون النظام المالي وحصة الحكومة الكويتية في أرباح الشركات العاملة بالاضافة الى وضع سياسة التوظيف في قطاع النفط وسياسة المشاركة الوطنية المباشرة في استغلال المصادر النفطية على كافة المستويات بما فيها الانتاج والادارة والتسويق . أما بالنسبة لتحقيق الملكية الكاملة من جانب الكويت للمنشآت النفطية وما يترتب على ذلك من حقوق وواجبات فقد أعلنت الحكومة الكويتية في ٥ آذار الماضي عن قرارها باستملاك حصة شركتي بريتش بتروليوم وغالف أويل البالغة ٤٠ بالمئة . كانت الحكومة الكويتية تريد في البداية الوصول

الى هذه النتيجة عن طريق المفاوضات مع الشركتين المذكورتين وذلك وفقا لاتفاقية المشاركة المعقودة بين الطرفين والتي تنص على حق اعادة النظر في العلاقة بين الحكومة والشركتين قبل نهاية العام ١٩٧٩ (في الواقع لا تمس المفاوضات مبدأ استملاك الحكومة الكويتية لبترول البلاد والمنشآت الخ بل تطال فقط مسألة تقرير التعويضات التي ينبغي دفعها للشركتين وتحديد الاجراءات الضرورية لاستمرار الانتاج والتسويق وعمليات التصدير بصورة طبيعية) . أما في ما يتعلق بالشركات الاخرى في الكويت — اي الشركات العاملة في الحقول المشتركة (مع السعودية) في المنطقة المحايدة وفي المياه الاقليمية — فقد قررت الحكومة أن تكون علاقاتها مع هذه الشركات قائمة على مبدأ السيطرة القومية الكاملة على الموارد النفطية بما يتوافق مع ظروف استغلالها المشترك في الوقت الحاضر ومع امكانات استغلالها في المستقبل بصورة مباشرة من قبل الحكومة الكويتية وبالتعاون مع الدول العربية الاخرى صاحبة العلاقة .

يبين المسؤولون الكويتيون بأن الشق التنظيمي من سياسة حكومتهم النفطية يسعى لبناء اطار فعال تعمل من خلاله الشركات الوطنية العاملة في هذا الحقل أو المرتبطة به بحيث تتمكن من استغلال الموارد البترولية والسيطرة عليها كليا على جميع المستويات . وتعتمد سياسة الحكومة في بناء هذا الاطار على مبدأ الفصل بين الوظائف الادارية البترولية والوظائف التنفيذية ذات الطابع الاقتصادي والصناعي والتجاري والتابعة أصلا للشق التنفيذي من سياسة البلاد النفطية . يجري وضع الوظائف الاولى في يد أجهزة تضطلع بمسؤولياتها وفقا لتوجيهات الادارة الحكومية وقوانينها (أما الوظائف التنفيذية فسيجري وضعها بيد وكالة تعمل وفقا للمبادىء المرعية في العمل التجاري والصناعي وتقوم بعملها وفقا لما يجري في المشاريع الصناعية والتجارية المعروفة) . لذلك شكل مجلس الوزراء لجنة عليا للبترول برئاسة ولي العهد ورئيس الوزراء للاشراف على وضع الخطوط العامة لسياسة البلاد النفطية والوصول الى الاهداف التنظيمية المذكورة بحيث تتحقق أكبر فائدة ممكنة في مجالات التنمية الاجتماعية والاقتصادية في الكويت . كما تم فصل وزارة البترول عن وزارة المال . بعبارة أخرى يعني استملاك الحكومة الكويتية لشركة نفط الكويت — وفقا لهذه المبادىء التنظيمية — استمرار الشركة في العمل على أساس كونها شركة تجارية تتبع أساليب العمل التجاري ومبادئه وبدون أن تكون خاضعة للقوانين واللوائح السائدة في دوائر الحكومة . وقد وافق البرلمان الكويتي في شهر أيار الماضي على القانون رقم ٨ الذي يضمن لهذه الشركة هذا النوع من الاستقلال الذاتي على الصعيد التنفيذي .

ومن ناحية أخرى تقوم وزارة النفط الآن باتخاذ الخطوات اللازمة لضبط كافة الاعمال البترولية ومركزتها بحيث يجري التنسيق بين مختلف المشاريع وتستخدم فيها الخبرات والمهارات الوطنية الى أقصى حد ممكن ويستأصل منها قدر الامكان كل اهدار للجهود والطاقات والاموال بسبب التشابك والتضارب الذي كثيرا ما يقع بينها . وتهدف هذه الخطوات أيضا الى تطوير القدرات الادارية والفنية والتنظيمية لشركة نفط الكويت بوضعها الجديد بحيث تصبح الذراع التنفيذية الرئيسية لوزارة النفط في كافة المجالات الصناعية والتجارية المتعلقة بالبترول .

أما في ما يتعلق بالشق التنفيذي من سياسة البلاد البترولية يقول المسؤولون الكويتيون ان الاهداف التي تعمل الحكومة على تحقيقها في هذا المجال هي :

أولا ، المحافظة على الموارد النفطية عبر استعمال أحدث الوسائل التكنولوجية في استغلال حقول النفط وتحديد أفضل المستويات للانتاج على أسس علمية تأخذ بعين الاعتبار السمات الخاصة التي تتصف بها الحقول من ناحية والاعتبارات الاقتصادية التي تؤثر على هذا المستوى من ناحية ثانية . على سبيل المثال من اهم الاعتبارات الاقتصادية المؤثرة على مستوى الانتاج السنوي : (أ) احتياجات البلد للغاز الطبيعي من اجل توليد الكهرباء وتنقية المياه وتزويد صناعة النفط والكيميائيات وغيرها بما تحتاجه من الغاز كمصدر للطاقة وكأحد المو[illegible] الاولية ، خاصة وان تطور الكويت الاقتص[illegible]ي لا يمكن ان يعتمد الا على المصدر الرئيسي للطاقة وللمواد الاولية في البلاد اي البترول الخام والغاز الطبيعي . (ب) حاجات ميزانية الكويت وتمويل القطاع العام فيها بالاضافة

الى مشاركة الكويت في تمويل مشاريع التنمية في بلدان عربيــة وغير عربية أخرى . هنــا يشدد المسؤولون الكويتيون على مسؤولية حكومتهم ازاء دعم القضية العربية وتقديم المعونة للدول النامية الفقيرة وللعــالم الثالث عموما . لذلك تحــاول الحكومة الكويتية دوما أن تكون سياستها البترولية على مستوى رفيع من المرونة فيما يتعلق بتحديد مستويات انتاج البترول الخام بحيث تحقق توازنا على المدى البعيــد بين مصالح البلد وحاجــاته الداخلية من ناحية ومصالحه العربية والاقليميــة والاجنبية من ناحية أخرى . على سبيل المثــال نجد أن مستوى انتــاج البترول الخام خــلال الخمسة أشهر الاولى من هذا العام بلغت ٢,١ مليون برميل في اليوم بما في ذلك حصة من الحقول المشتركة مع السعودية في المنطقة المحايدة . أما الانتاج الآتي من الحقول الكويتية الصرفة والذي استخرجته شركة نفط الكويت فلم يتعد ١,٩ مليون برميل في اليوم . وتذكر مصادر رسمية كويتية بأن معدل الانتاج من هذه الحقول خلال ١٩٧٥ لــن يتعدى مليوني برميل في اليوم . أما مستويــات الانتاج في السنوات المقبلة فسيجري تحديده وفقا للمعطيات التي ستنشأ عندئذ .

ثانيا ، الاستفادة الى أقصى حد ممكن مــن موارد الكــويت البترولية (بما في ذلك الغــاز الطبيعي) عبر تنفيذ خطة تنقل الكويت من الاعتماد شبه الكلي على تصدير البترول كمادة خام الى تكريره من أجل تصديره بأشكال مصنعــة جديدة تشمل الغاز السائل والمنتجات المتنوعة للصناعات البتروكيميائية . وبالفعل فقد بدأ تنفيذ المرحلــة الاولى من هذه الخطــة الهادفة الى الاستفــادة الكاملة من الغــاز الطبيعي ويتوقع المسؤولــون الكويتيون أن ينتهي العمل منها في ١٩٧٨ . وفي الوقت نفسه تجري الدراسات الفنية والاقتصادية اللازمة حول امكانات زيادة طاقة الكــويت على تكرير البترول الخام وانتاج الاسمدة الكيمــاوية وغيرها من المنتجات البتروكيميائية . ومن المتوقع أن تصل هذه الدراسات الى مرحلتها التنفيذية في المستقبل القريب .

ثالثا ، رغبة الكويت ايصــال بترولها بكــافة أشكاله الى السوق العالمية عبر اسطول عربي من الناقلات يعمل على مستــوى رفيع من الكفــاية والدقة . وقد بذلت الحكومة الكويتية جهودا كبيرة من أجل السير على طــريق تحقيق هذا الهــدف بنجاح .

رابعا ، رغبة الحكومة الكويتية المحافظة على مصالح مواطنيها والمستهلكين على ارضها بابقاء أسعار المحروقات المستخدمة شعبيــا في مستوى معقول . لذلك قررت الحكومــة خفض أسعــار المحروقات المعدة للاستخدام المحلي الى المستوى الذي كانت عليه في ١٩٧٢ وذلك ابتداء من ١ أيار من هذا العام .

ولتنفيذ هذا المخطط وتحقيق أهدافه المذكــورة جرى تشكيل لجنة للاشراف والتنسيق في ٢٧ تموز الماضي تكون مسؤولة عن صناعات البترول برئاسة وزير النفط . وجرى تحديد وظائف اللجنة على النحو التالي : (أ) وضع المخططات اللازمة لتنفيذ السياسة العامة المتعلقة بالصناعات البترولية . (ب) الاشراف على الشركات والمشاريع التي ترتبط نشاطاتها بصورة رئيسيــة بالبترول والغــاز . (ج) التنسيــق بين نشاطــات مختلف الشركــات والمشروعات من أجل تحقيق التكــامل اللازم بين الصناعات البترولية في البلاد . (د) دراسة وتحليل التقارير التي ترفعها هذه الشركات والمشروعات واتخاذ القرارات والتوصيات المناسبة حولها . (هـ) اجراء الدراســات اللازمة من أجل تنميــة الصناعات البترولية وتأمين لوازم البحث العلمي والخبرات الفنية والادارية الضرورية لهذه الشركات والمشروعات . (و) دراسة الخطوات اللازمة من أجل اعادة تنظيم شركة نفط الكويت الوطنية بحيث تصبح الذراع التنفيذيــة الاولى لوزارة النفط في ميدان الصناعات التي تستند الى البترول . وتضم عضوية اللجنــة بعض كبار موظفــي وزارة النفط ورؤســاء مجالس ادارة الشركات ومديري المشروعات التي ترتبط نشاطاتهــا بصورة رئيسية بالبتــرول والغاز بالاضافة الى مجموعة من الخبراء والفنيين التابعين لوزارة النفط .

المملكة العربية السعودية : يبدو واضحــا ان المنحى الذي ستأخذه سياسة المملكــة العربيــة السعودية بالنسبة لمسألتــي مستويات الانتــاج وأسعار البترول الجوهريتان سيعتمد الــى حد كبير على التطورات التي ستطرأ على موقف الدول

الصناعية المستهلكة من الاوبيك والعالم الثالث عموما . ولا يخفي المسؤولون السعوديون بأنهم يطرحون ثلاث احتمالات لتطور العلاقات بين الدول المنتجة والدول المستهلكة تتراوح بين التعاون المثمر من ناحية والمجابهة العنيفة من ناحية أخرى . لذلك ستتحدد ملامح السياسة النفطية السعودية وفقا للأولويات التالية : أولا : احتمال ان تقوم جبهة الدول المستهلكة بتبديل موقفها الحالي من الاوبيك لتدخل في حوار مجدد مع الدول المنتجة وعندئذ ستحافظ المملكة العربية السعودية على سياساتها المعتدلة التقليدية بالنسبة لقضايا الاسعار وضبط الانتاج الخ . على أن يكون معلوما بأن مثل هذا الحوار لا يمكن ان يبقى محصورا في موضوع الطاقة وحده (كما تريد الدول المستهلكة) بل يجب ان يتناول أيضا مشكلات العالم الثالث الملحة الاخرى مثل المواد الخام واصلاح النظام المالي الدولي وحماية القوة الشرائية لعائدات البترول . ثانيا ، اذا تبين ان الدول المستهلكة غير مهتمة باجراء اي حوار جدي وبناء مع الدول المنتجة وتعتمد في الوقت ذاته على الاعتدال السعودي المعروف داخل الاوبيك لكبح جماح المتطرفين في المنظمة (بحيث يبقى البترول متوفرا بكثرة والاسعار منخفضة نسبيا) عندئذ ستجد المملكة العربية السعودية نفسها مضطرة الى تعديل سياستها ومماشاة باقي أعضاء الاوبيك مما يعني السماح برفع أسعار البترول بقرار من المنظمة على أن يجري دعم هذا القرار بشيء من ممارسة عمليات ضبط الانتاج . بطبيعة الحال لن تهدف السعودية من انتهاج مثل هذه السياسة الى اركاع الدول الصناعية بل الى التأكيد لها بطريقة عملية وفعالة انه ليس بامكان الدول المستهلكة تدمير الاوبيك وخفض اسعار البترول من خلال التكتيكات التي تلجأ اليها هذه الدول في الوقت الحاضر ومنها خفض استهلاكها النفطي . عندئذ اما أن تقتنع الدول المستهلكة بهذا الواقع وتعود الى فكرة الدخول في حوار جدي وبناء مع الدول المنتجة او تتدهور العلاقات بين الطرفين باتجاه المجابهة الكلية . ثالثا ، في حال حدوث مثل هذا التدهور سيؤدي ذلك الى تخلي السعودية كليا عن سياساتها المعتدلة المرونة وتضامنها مع بقية دول الاوبيك للدفاع عن مصالح المنظمة بكافة الوسائل المتاحة بما في ذلك تخفيض الانتاج الى المستويات التي تحتمها الظروف .

على صعيد اخر من المعروف ان السعودية قررت الاستملاك الكامل لشركة الارامكو . ويتوقع الخبراء ان تأخذ الاتفاقية بين السعودية وشركات البترول مالكة الارامكو الشكل التالي :

ـ تستملك الحكومة السعودية الارامكو استملاكا كليا وتحسب نفقات هذا الاستملاك على اساس المبادىء التي جرى تطبيقها في الخليج من اجل عقد اتفاقيات المشاركة المعروفة (٦٠ بالمئة للحكومات و ٤٠ بالمئة للشركات) وهذا يعني ان تقدير التعويضات التي ستدفعها السعودية سيكون على اساس القيمة الصافية التي تساويها الارامكو أي حوالي ٢ بليون دولار ، علما بأن السعودية قد دفعت مبلغ ٥٠٠ مليون دولار مقابل استملاكها ٢٥ بالمئة من الارامكو ١٩٧٢ . ولا شك بأن هذا المبلغ سيدخل في الحساب عند تحديد الارقام النهائية للتعويضات التي ستأخذها الشركات .

ـ تضمن السعودية للشركات مالكة الارامكو سابقا الحصول على كميات معينة من البترول الخام على اساس السعر السائد في السوق الدولية . ولكن لم يجر تحديد هذه الكميات حتى الآن . بعبارة أخرى ستبيع الحكومة السعودية بترولها الخام الى كافة المشترين بأسعار واحدة بدون اي تمييز . وواضح انه لا فارق بالنسبة للسعوديين من الناحية المالية ان هي باعت بترولها الى الشركات الكبرى المذكورة او الى الحكومات او الى شركات اخرى . الا انه لهذا الموضوع اهمية كبرى من وجهة نظر الشركات المعنية لانه كلما كانت الكمية المضمونة لها أكبر كلما تمكنت من المحافظة على موقعها التقليدي المسيطر في السوق . من هنا تكتسب نتائج المساومة بين السعودية والشركات اهمية خاصة بالنسبة لمستقبل تجارة البترول . من ناحية اخرى لا شك ان السعودية ستزيد تدريجيا من كميات البترول التي ستبيعها مباشرة الى اطراف اخرى كما ان قرارها حول كيفية توزيع مبيعاتها يرتبط بخططها لتكرير وتصنيع أكبر كمية ممكنة من البترول محليا بالاضافة الى حاجات البلد التنموية والتصنيعية .

ـ تستثمر الشركات مالكة الارامكو سابقا بتقديم كافة الخدمات الادارية والتنفيذية والفنية التـي تحتاجها الحكومة السعودية . وتحصل الشركات علـى أتعاب محددة مقابل تقديم هذه الخدمات على أن يجري تحديد هذه الاتعاب على ضوء الخدمات المطلوبة . ولا بد من الاشارة هنا بأن هذا النوع من الخدمات سيكون أوسع مما هو عليه الآن لأن « الارامكو السعودية » ستوسع اعمالهـا بحيث تتعدى جدود عمليات استخراج النفط وتصديره لتدخل مجالات أخرى مثل الصناعات المرتبطة بانتاج البترول عموما . وهـذا يعنـي بأنه على الشركات أن تقدم خدمات تكنولوجية ذات طابـع موسع أيضا . وقد اقترحت الشركـات حساب اتعابها بحوالي ٥٥ الى ٦٠ سنتـا عن كل برميل من البترول . ورفضت السعودية هذا الاقتراح واصرت على ضرورة تقييم كل فئـة مـن فئات الخدمات التي ستقدمها الشركات على حدة قبل تحديد الاتعاب المستحقة . وما زالت المساومة جارية بين الطرفين حول هذه النقطة . ـ يجري عقد اتفاقات مستقلة تتنـاول استمرار الشركات مالكة الارامكو سابقا في عمليـات التنقيب عـن البترول في المناطق التابعة للأرامكو . في هـذا المجال تريد السعودية استثمار أموالها في تطوير الحقول المنتجة والمكتشفة حاليا في حين تطلب من الشركات استثمار الامـوال اللازمـة في عمليات التنقيب عن حقول جديدة . ويبدو ان الحكومـة السعودية تتعاطف مع دعوى الشركات بأن هذا الموضوع يتطلب اتفاقات مستقلة وترتيبات خاصة تضمن جزءا من الرأسمال الذي تجازف بـه في عمليات التنقيب خاصة اذا لم يؤد التنقيب الى نتائج تجارية مرضية .

وجدير بالاشارة هنا الى أن الارامكو تختلف عن بقية الشركات المشابهة لها في المنطقة من حيث كونها كيـان متكامل وقائم بذاته (دولـة ضمن دولة) وليست مجرد امتداد محلي هزيل وصوري للشركات المالكة في الخـارج . من هنا اهتمـام السعودية الاستفـادة الى اقصى حـد ممكـن من كيان الارامكو المتاح لها استخدام التكنولوجيا المتوفرة لأربع من كبريات شركات الطاقة فـي العالم (ايكسون ، سوكال ، تيكسـاكو ، موبيل) على أن تعمـل الحكومـة السعودية على تنمية الكادرات المحلية بحيث تصبح قادرة علـى ادارة الارامكو كليا وتشغيلها فيما بعد . وجدير بالذكر أيضا أن من أهداف السعودية في العمل على وضع اتفاقيات استملاك الارامكو هو الوصول الـى صيغة ثابتة ومفيدة للبلد بحيث لا تسمح للدول الاخرى بالمزايدة على السعودية عن طريق ابتكار صيغة أفضل .

بالاضافة الى ذلك لقد شرعت الشركة الوطنية للبترول والغاز والموارد المعدنية (بترومين) في العمل على تنفيذ برنامج واسع للتنمية والتصنيع يتطلب استثمار حوالي ١٢ بليون دولار خـلال السنوات الخمس القادمة موزعة علـى النحـو التالي : ٥ بليون دولار لانشاء مجمـع صناعي ضخم لتجميع الغاز الطبيعي وتصنيعه ونقله . ٣ بليون دولار من اجل بناء مصافي بترولية بهدف تصدير البترول المكرر وما يستتبع ذلك مـن مد لخطوط الانابيب . ٤ بليون دولار لبناء مصانـع بتروكيميائية على ان ينفق المبلغ الباقـي على انشاء مصانع للأسمدة وغيرها مـن المشاريـع المشابهة . ويضاف الى كل ذلك ٨٠٠ مليون دولار مخصصة لتوسيع الطاقة التكريرية في البلد مـن اجل الاستهلاك المحلي . وفي ما يلي ذكر لبعض المشاريع التي تنوي بترومين العمل على تنفيذها والتي وضعت تصميماتها بمساعدة خبراء مـن الولايات المتحدة : (لكل منها) تبلغ ٢٥٠ الف برميل في اليوم ويمكن رفعها الى نصف مليون برميل في اليوم . (ب) سبع مصانع للبتروكيميائيات . (ج) ثـلاث مصانع لانتاج السمـاد الآزوتي . (د) مصنع لانتاج الفولاذ طاقته ٣,٥ مليون طن في السنة .

وستتمركز هذه المشاريع الانشائية في المنطقـة الصناعية الجديدة التي يجري التخطيط لهـا في مدينة الجبيل الساحلية في المنطقة الشرقية مـن البـلاد والواقعة علـى بعد ٦٠ كيلومترا مـن راس التنورة . كما انـه يجري الاعداد لانشاء مجمع صناعي ـ يضم مصـاف لتكرير البتـرول ومصانع بتروكيميائية وانشاءات لتصدير الغـاز السائل ـ على ساحل البحر الاحمر في ميناء ينبوع في غربي البلاد . ويجري الاعداد أيضا لانشـاء مصانـع للاسمدة في مدينـة حلوف في المنطقـة الشرقية .

ليبيـا : حدد وزير البترول الليبـي السيد

عز الدين المبروك السياسة الحالية لحكومة بلاده في ميدان البترول بقوله ان ليبيا راضية في الوقت الحاضر عن اتفاقيات المشاركة القائمة مع شركات البترول الاجنبية العاملة على ارضها وهي لا تنوي الآن الدخول في اية مفاوضات مع هذه الشركات بهدف زيادة حصتها في عمليات انتاج البترول والبالغة ٥١ بالمئة (والشركات هي أوكسيدنتال بتروليم ، ايكسون ، موبيل ، كونتيننتال/ماراثون/اميرادا ، ايني/اجيب ، ومعروف ان ليبيا كانت قد أممت كليا الحصص التابعة لشركات بريتش بتروليم/هانت ، أموسيس التابعة لكالتكس ، وشل) . وأوضح الوزير ان السبب الرئيسي وراء عدم رغبة ليبيا في زيادة حصتها من ملكية عمليات انتاج البترول هو مشكلة تسويق النفط الخام التي تمر بأزمة في الوقت الحاضر ، خاصة وان بلاده لا تريد الاستملاك على طريقة السعودية (المشاركة مئة بالمئة) من أجل مجرد الاستملاك أو السيطرة اذ أن الحكومة تسيطر أصلا على ٧٥ بالمئة من انتاج البلاد للبترول . فالواقع هو ان دخول السوق مسألة صعبة باعتبار ان الشركات مسيطرة عليها سيطرة شبه كاملة مما يعني انه باستثناء مبيعات ليبيا الى الحكومات مباشرة تبقى امكاناتها لتسويق بترولها محدودة جدا . أشار الوزير أيضا الى أسباب أخرى تجعل ليبيا لا تفكر حاليا برفع حصتها من ملكية البترول وأهمها : (أ) مشكلة الاستثمارات المطلوبة للتنقيب عن النفط خاصة وان شركات ايكسون وموبيل وأوكسيدنتال ملتزمة بالقيام بعمليات تنقيب واسعة في البلاد . وقد وقعت ليبيا في ١٩٧٤ اتفاقيات جديدة للتنقيب من ٦ شركات تبلغ مجمل التزاماتها المالية في عمليات التنقيب بحوالي ٤٦٧ مليون دولار خلال السنوات الخمس القادمة . وهي موزعة على النحو التالي : ايكسون ٩٠ مليون دولار ، الشركة الفرنسية للبترول ٩٠ مليون دولار ، اوكسيدنتال ٩٠ مليون دولار ، ايني/اجيب ٨٢ مليون دولار ، موبيل ٨٠ مليون دولار ، بتروبراس ٣٥ مليون دولار . وتنص هذه الاتفاقيات على المشاركة في الانتاج على أساس ٨٥ بالمئة لليبيا و ١٥ بالمئة للشركة المعنية على البر ، و ٨١ بالمئة لليبيا مقابل ١٩ بالمئة للشركة المعنية في البحر . وعبر الوزير عن رضاه على العمل الذي تقوم به هذه الشركات وأثنى على تقيدها الكلي بالتزاماتها وتنفيذ واجباتها . وواضح ان ليبيا تولي أهمية كبرى للتنقيب عن البترول لأن اكتشاف احتياطي جديد مسألة مهمة لمستقبل البلاد . (ب) مشكلة الاستثمارات اللازمة من أجل المحافظة على الانتاج في الحقول العاملة اذ ان نفقات هذا الانتاج تتصاعد مع تصاعد الحاجة لصيانة الحقول . وخلص الوزير الى القول انه بناء على الاعتبارات المذكورة لا يعتقد ان مصلحة ليبيا تتطلب الدخول في اتفاقيات للاستملاك أو المشاركة مئة بالمئة في الوقت الحاضر .

من ناحية أخرى تعتبر ليبيا من الدول العربية المتحمسة لتطبيق فكرة تنسيق الانتاج البترولي بين دول الاوبيك باعتبار ان هذا الاجراء هو أفضل الطرق وأكثرها فعالية لمواجهة اي ضعف في الاسعار . وعلى الرغم من ضرورة تلبية حاجات السوق ينبغي الا ندخل الدول المنتجة في أية منافسة مدمرة فيما بينها . لذلك لا ترى الحكومة الليبية ان هناك عوائق لا يمكن تخطيها في وجه وضع خطة عملية لبرمجة الانتاج وضبطه . فالمطلوب هو الارادة السياسية لتحقيق ذلك — من وجهة نظر السلطات الليبية .

أبو ظبي : على الرغم من أن حكومة أبو ظبي اعلنت مرارا عن تمسكها بمبدأ وضع يدها على البترول في البلاد فان خطواتها العملية في هذا الاتجاه اتسمت بالحذر والبطء . وقد شرح وزير النفط في أبو ظبي السيد مانع سعيد العتيبة موقف بلاده من هذه المسألة — خلال اعادة تقييم قام بها الوزير لمستقبل سياسة حكومته في ميدان البترول — فقال ان بلاده قد وصلت حاليا الى مرحلة المشاركة مع الشركات بمستوى ٦٠ بالمئة ، ولكن قبل ان تتقدم ابو ظبي الى ما هو أبعد من ذلك لا بد من ان تطرح على نفسها سؤالا هاما هو ما اذا كانت البلاد قادرة على تسيير صناعة البترول وادارتها في الوقت الحاضر ؟ وأجاب على هذا التساؤل سلبيا ومبينا ان هنالك فارقا بين المشاركة الاسمية وبين السيطرة الفعلية — قانونيا وماليا واقتصاديا وتقنيا — على بترول البلاد . وشدد الوزير على ان حكومته عندما نتكلم عن المشاركة فانها لا تعني المشاركة الاسمية بل السيطرة الفعلية بحيث يقدم كل طرف

من الاطراف المشاركة ما يستطيعه لتسيير شؤون هذه الصناعة الحيوية . من هنا أكد الوزير ضرورة الكلام الصريح حول عجز أبو ظبي الحالي عن ادارة صناعة البترول وتسييرها خاصة وان النقص في الكادرات الفنية المطلوبة كبير . ويبدو ان حكومة أبو ظبي تريد الآن التصدي لمشكلة الطبيعة غير المتوازنة لاقتصاد البلد حيث يوجد قطاع متقدم جدا يستند الى البترول وقطاع آخر هو في منتهى التخلف يشمل كافة النشاطات الاقتصادية والانتاجية الاخرى . ولا يمكن تحقيق التوازن الاقتصادي المنشود بدون دمج القطاع الاضعف بالقطاع الاقوى .

بالنسبة للمحادثات التحضيرية مع شركات البترول حول استملاك حكومة ابو ظبي استملاكا تاما لنفط البلاد والمنشآت التابعة له قال الوزير ان الشركات لم توافق على مبدا المشاركة مئة بالمئة فحسب بل حثت الحكومة على التأميم علما بأن الشركات كانت تعارض في السابق مثل هذه الفكرة . واستنتج الوزير من هذا الموقف بأن الشركات لم تعد مهتمة في استثمار أية أموال اضافية في أبو ظبي مفضلة تحويل استثماراتها الجديدة الى مناطق أخرى مثل بحر الشمال والاسكا لان هامش ربحها على البترول الخام قد انخفض بحوالي ٢٠ سنتا للبرميل الواحد في حين أنها تتوقع بين ٤٠ و ٥٠ سنتا من الربح للبرميل الواحد .

واضح اذن ان ابو ظبي تبحث عن صيغة جديدة لاقامة علاقاتها مع الشركات العاملة على أراضيها ولكن يبدو أن الصيغة التي يجري البحث عنها ستكون من نوع يختلف عن اتفاقات المشاركة السائدة حاليا في عدد من الدول المنتجة كما أنها تستبعد استيلاء الحكومة على النفط بصورة كلية . أما السبب الكامن وراء هذا الموقف فيتلخص في أنه لدى أبو ظبي احتياطي كبير من البترول والغاز المطلوب تطويره مما يضع البلد في موضع يختلف نوعا ما عن البلدان المنتجة الاخرى . على سبيل المثال تحتوي منطقة زاكوم العليا حوالي ٥٠ بالمئة من الاحتياطي البترولي المعروف في أبو ظبي . مع ذلك لا تنتج هذه المنطقة في الوقت الحاضر سوى ٣٠ ألف برميل في اليوم في حين باستطاعتها ان تنتج في المستقبل مئة ضعف هذا الرقم أي حوالي ٣ مليون برميل في اليوم . وبما ان تطوير هذه الحقول وتنميتها يتطلبان تكنولوجية معقدة ومتقدمة وليس باستطاعة أبو ظبي تحقيق مثل هذه الخطوات بدون الخبرات الفنية الاجنبية .

في ما يتعلق بموضوع تثبيت أسعار البترول تميل حكومة ابو ظبي الى الفكرة القائلة بتنظيم الانتاج . ويقترح المسؤولون في أبو ظبي حساب الفائض الحالي من البترول لدى دول الاوبيك حسابا دقيقا من أجل تحديد المستوى الذي يجب أن ينخفض اليه هذا الفائض لابقاء أسعار البترول على حالها . وبما ان الفائض المذكور مصطنع نتيجة تدخل مفتعل من جانب الدول المستهلكة في القوانين الطبيعية للسوق الحرة ينبغي مطالبة كل عضو من أعضاء الاوبيك بخفض انتاجها الى الحد الذي يمكن ان تتحمله بدون فرض أية كميات محددة عليها . واذا لم يكن هذا الاجراء كافيا لخفض الفائض المتوفر لا بد من الطلب مجددا الى الدول المنتجة لتزيد من تخفيض انتاجها . وبهذه الطريقة تأمل أبو ظبي ان تتمكن الدول المنتجة من حل مشكلة الفائض لانه اذا فشلت هذه الجهود فان المنافسة بين دول الاوبيك ستؤدي الى كسر الاسعار مما سيضر بمصلحة دول المنظمة ككل .

بالنسبة لموضوع الحوار بين العالم الثالث والدول الصناعية أيدت حكومة أبو ظبي المقترحات الداعية الى ربط مسألة الطاقة بمشكلات المواد الاولية والتنمية في العالم الثالث واصلاح النظام المالي العالمي . وهذا موقف طبيعي على اعتبار ان ابو ظبي لا تعاني من أزمة طاقة بل من أزمة تنمية وتطور بالاضافة الى الأزمات الناشئة عن انعدام الاستقرار في الانظمة النقدية المتعامل بها حاليا .

رهف بدوي

شهريات

(١) المقاومة الفلسطينية

I

وضعت حرب تشرين ، بنتائجها المباشرة، حركة المقاومة الفلسطينية ضمن « أجواء » جديدة سمتها الاساسية احتمالات التسوية . وقد كانت هذه الاجواء هي التي تحكمت بمسيرة المقاومة خلال السنتين اللتين أعقبتا الحرب وفرضت نفسها على انشطتها وموضوعاتها . وكان واضحا في اثناء المسيرة هذه ان النضال الفلسطيني (السياسي منه خصوصا) انصب على تحقيق ما اصطلح على تسميته « الممكن الوطني » في التسوية ، وكان هذا « الممكن الوطني » الذي يمكن استخلاصه في ظل موازين القوى التي اظهرتها الحرب ، يدور حول اقامة سلطة وطنية فلسطينية على الارض الفلسطينية التي سوف تجلو عنها قوات الاحتلال الاسرائيلي ، وفي الوقت نفسه كان يشترط عدم تجزئة القضية وعدم الانفراد بحل على أي جبهة من جبهات الصراع . وكانت مصر مخاطبة اكثر من سواها بهذا الاشتراط . فهي الشريك الاكبر في حرب تشرين ، كما انها من ناحية تاريخية مثلت مفتاحا رئيسيا ، وربما المفتاح الرئيسي ، في الصراع . وقد كانت « التطمينات » العلنية التي نثرتها القيادة المصرية خلال السنتين الماضيتين في مسعاها نحو التسوية تدور حول محورين : الاول ان التسوية يجب ان تستند الى الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي التي احتلت في العام ١٩٦٧ (بما في ذلك الارض الفلسطينية في الضفة الغربية) ، والثاني ان التسوية لن تتسم الا بنيل الشعب الفلسطيني حقوقه الوطنية . وكلا المحورين يلتقيان عند زاوية واحدة في الاهداف المرحلية التي حددتها حركة المقاومة ، نعني اقامة السلطة الوطنية .

غير ان هذه « التطمينات » كانت دائما محط التساؤل والارتياب نتيجة الممارسات العملية للقيادة المصرية فيما يتعلق بالطريق الذي انتهجته وصولا الى تحقيق اهدافها — المعلنة على الاقل — وهو طريق يتعارض ، باهدافه ومساره ، مع تطمينات القيادة المصرية بالنسبة الى التسوية . فمنذ البداية كان واضحا ان التسوية ملوثة بالاختام الاميركية تحت الشعار الذي رفعته القيادة المصرية القائل بأن مفتاح الحل بيد اميركه . بيد ان الشكوك ، القائمة على المعطيات العملية والمدعومة باسانيد نظرية تتعلق بتحليل بنية النظام المصري والتحولات الاجتماعية التي حدثت في مصر منذ رحيل عبد الناصر ، اصبحت حقيقة راهنة في الاتفاق الاسرائيلي — الاميركي — المصري الذي وقع في الاول من ايلول (سبتمبر) الماضي فالاتفاق بجانب آثاره المترتبة على مجمل مصير الصراع العربي — الاسرائيلي (والاميركي ايضا) ، يضع حركة المقاومة امام حالة جديدة تختلف جذريا عن « الاجواء » التي سادت بتأثير حرب تشرين . فالتفكير الذي عم بفعل النتائج الايجابية التي حققتها الحرب (وهي الاولى التي ينجز فيها العرب المعاصرون انتصارا من هذا النوع) والذي نظر الى التسوية من جانب انها قادرة على توليد « الممكن الوطني » فلسطينيا ، هذا التفكير استفاق على جرح التسوية الجزئية والانفراد بالحل اللذين يخرجان الشريك الاكبر في حرب تشرين من حلبة الصراع في عملية اجهاض مبكر للاهداف الفلسطينية المرحلية التي صممت معالمها بشكل حاسم مترتبات حرب تشرين ، والتي كانت تفترض ان عدم تجزئة الحل والاستفادة الى الدرجة القصوى من نتائج الحرب ستجبر اسرائيل على الانسحاب على الجبهات الثلاث بما في ذلك

الجبهة الفلسطينية (الضفة الغربية معنية هنا اساسا) الامر الذي يكفل للمقاومة تحقيق اقامة سلطتها الوطنية .

من هنا كان الاحباط الفلسطيني الذي عبر عنه بيان اللجنة التنفيذية والمجلس المركزي لمنظمة التحرير الفلسطينية (الصادر في ٩/١٠) بالقول « ان النتيجة الطبيعية والمنطقية لهذا الاتفاق تتجلى في ازدياد الصلف والتمادي في مواقف العدو الصهيوني وسياسته العدوانية التوسعية،وتكريس الاحتلال والاغتصاب ، واستمراره في التنكر للحقوق الوطنية لشعب فلسطين العربي » .

واذا كانت هذه احد معالم الحالة التي ستجد المقاومة نفسها في مواجهتها في اعقاب الاتفاق ، نعني اجهاض الهدف المرحلي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، فان السمات الاكثر خطرا وجذرية هي تلك المتعلقة بمستقبل النضال الفلسطيني العسكري والسياسي . فقد ظهر واضحا من خلال نصوص الاتفاق نفسه من جانب ومن استقراء الظروف السياسية التي احاطت بولادته ، ان خروج مصر ، او اخراجها من الصراع ، ليس هدفا بحد ذاته بقدر ما هو جزء مما يخطط للمنطقة العربية باجمال . ذلك انه لا يمكن فصل الاتفاق ، الا فصلا تعسفيا ساذجا ، عن المد الاميركي في المنطقة الذي يجد استجابة له في بعض البنى الاجتماعية — الاقتصادية في بعض الاقطار العربية والذي سيكون من نتائجه اعادة ترتيب الخارطة السياسية العربية بما يضمن استمرار تقبل النفوذ الاميركي وحمايته . والقيادة السياسية الفلسطينية تدرك هذه الحقيقة تماما فحسب قول الاخ ابو عمار (الى صحيفة « الاخبار » اللبنانية ٩/٦) « ان المؤامرة الاميركية تسعى الى جعل هذه المنطقة منطقة نفوذ امبريالي ، ومنطقة سيطرة للاحتكارات الاميركية بشكل اساسي والامبريالية العالمية بشكل عام . وهي في هذا المنطلق استطاعت ان تحقق بعض النجاحات هنا او هناك ، وراهنت ولا تزال تراهن على هدوء هذه الاوضاع في تآمرها ومخططاتها . ومن هنا تنظر الثورة الفلسطينية الى هذه الخطوات المكوكية التي يقوم بها كيسنجر لتنفيذ هذه السياسة ولتثبيت هذه الاطماع ولتحقيق بعض المكتسبات » .

وبالتأكيد فان هذه العملية ستتصادم حتى الموت مع جميع القوى الثورية في المنطقة بهدف لوي اذرعتها ، بل تكسيرها . ولان الثورة الفلسطينية هي الفصيل الاكثر تقدما ، من حيث الممارسة ، بين هذه القوى فسوف تكون (بالاضافة الى اسباب اخرى تتعلق بالتحالف العضوي الاميركي — الاسرائيلي) هي الهدف الاول من هذه العملية المدبرة . وحتى الان ظهر ان المواجهة ستأخذ لها اكثر من شكل واسلوب ، وستكون على اكثر من صعيد وساحة ، وان ما بدا من وجه ذلك في الايام القليلة التي تقع على جانبي يوم الاتفاق يلاحظ كما يلي :

ان عملية المواجهة تسير على اكثر من محور وتستعمل أكثر من أداة . فبجانب الاعتداءات الاسرائيلية المعتادة على مواقع المقاومة في الجنوب اللبناني ومناطق تجمعات الفلسطينيين فيه وهي اعتداءات من المتوقع ازديادها وتصعيدها ليس في الكم فحسب وانما في النوع ايضا ، يعتبر ما يجري الان في لبنان من استخدام القوى الرجعية الانعزالية في التصدي للحركة الوطنية اللبنانية وجها رئيسيا من اوجه العملية الامبريالية في المنطقة . ذلك انه على الرغم من جميع التعقيدات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والطائفية في لبنان ، والتي يمكن في ضوئها تفسير الاقتتال الذي يجري حاليا هنا ، الا ان هذا التفسير يجب ان يتخذ له شكلا محددا هو انه ليس « مسؤولا » عن الاقتتال ، بقدر ما هو ارض خصبة لعوامل محركة تستهدف استثمار هذه التعقيدات جميعا وصولا الى غرض محدد يرتبط بما يدبر لحركة المقاومة وحلفائها في الحركة الوطنية اللبنانية . ولا يمكن ان يكون من باب المصادفة ان بداية العمليات في لبنان (ابتدأت في ١٣ نيسان بمذبحة الباص في عين الرمانة) كانت بعد ايام قلائل من فشل كيسنجر الاول في تحقيق التسوية الجزئية على الجبهة المصرية (وقد جاء اعلان ذلك في ٢٢ نيسان بلسان ناطق باسم وزارة الخارجية الاميركية) . ان تزامن الحدثين يقود الى نتيجة واحدة هي ان تحجيم المقاومة وحلفائها في لبنان ، ولبنان يمثل الان الساحة الاكثر حسما بالنسبة للمقاومة، يدخل ضمن العملية الكبيرة والتي رؤوس خيوطها بيد الامبريالية الاميركية . وكهدف آني مباشر فان ما

يجري في لبنان حاليا — وفي الوقت الذي يلقى على عاتق حركة المقاومة مهمة التصدي لاتفاق سيناء — انما المقصود به اشعال الحرائق والفتن من حول المقاومة وحلفائهـا واقعادها عن هـذه المهمـة التاريخية ، وبذلك يسهل تمرير الاتفاق في ظـل انشغال المقاومة بالدفاع عن نفسها وحلفائها . ودون ان تأخذنا النرجسية ببهرجها ، فيبدو ان حركة المقاومة كان لها تأثير مباشر في افشال محاولة التسوية التي انتهت في ٢٢ نيسان الماضي . وقد تأتى ذلك من خلال عملية سافوي في تل أبيب التي رأى الاسرائيليون في حينها ان الفدائيين قصدوا بتوقيتها مع زيارة كيسنجر للمنطقة احباط مهمته في مهدها . وقد اكدت صحيفة « يديعوت احرونوت » (٣/٧) آنذاك « انه لا يوجد ادنى شك في ان هذه العملية ستضع عقبات جديدة في الطريق نحو حل وسط بين مصر واسرائيل » . واذا كان ذلـك تحليلا فان « المعلومات » التي ادلى بها الرئيس السادات في خطابه يوم ٩/١٥ تؤكد صدق التحليل فقد اشار الى هذه الواقعة واعتبرها سببـا في فشل مساعي التسوية .

على أي حال ، فأن ما يدور الان في لبنان مـن معارك تبدو وكأنها الجريمة المنظمة لا يمكن تبريره تبريرا داخليا محضا ، وانما التفسير الحقيقي يكمن في عملية ترتيب المنطقة بما يتلاءم مـع الهجمـة الامبريالية الاميركية ، بادوات عربية ، ليس على لبنان فحسب وانما على اجزاء اخرى من الوطـن العربي .

ان هذا الوجه الـدامي من العملية في لبنان ، يقابله وجه بملامح أخرى في مصر . فالسلطة هناك « قادرة » على ترتيب البيت من الداخل بما ينسجم مع الاهداف الاميركية في الغزو الاقتصادي والنفوذ السياسي وهي ليست بحاجة الى حمامات الـدم التي تقام في لبنان . اما فيما يتعلق بالمقاومـة الفلسطينية فان النهج الذي اختطته القيادة المصرية وضح منه حتى الان عدد من العلائم .

لقد جربت اسلوب « البقشيش » . فالقيـادة المصرية تدرك تماما مدى التأثير الفلسطيني في الجماهير العربية فكانت المحاولة لشراء سكـوت المقاومة باسلوب يكشف العقلية التي تتحكمبالقيادة المصرية . فقد كتبت « الاهرام » (٩/٢) « ان مصر قررت ان يكون دخل القناة من مرور البضائع الاسرائيلية لخدمة القضية الفلسطينية ، اي ان كل هذه الرسوم سوف تحـول الى الثـورة الفلسطينية وتوجهها في العمل الـذي تقوم بـه لاستخلاص حقوقها » . وجاء رد الثورة بتصريـح ادلى به الاخ ياسر عبد ربه لـ « وفا » (٩/٥) وقال فيه « ان موقف متف من الاتفاقية الخيانية هو موقف مبدئي لا يمكن ان يخضع للمساومة او المقايضة من اي نوع ... وانطلاقا من هذا الموقف المبدئي فاننا نرفض ان نقتسم اموال قناة السويس مع نظام السادات ، كما اننا لا يمكن ان نبيـع القضية الوطنية مقابل حفنة من الدولارات نحصل عليها ثمنا لسكوتنا على مرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس » .

واذا كان هذا الاسلوب رخيصا وهامشيا في آن واحد ، فان الاخطر الذي تواجهه المقاومة الان هو ذلك الموقف المصري المستند الى ما ذكـر عـن التعهدات السرية التي رافقت اتفاق سيناء العلني. وقد كشفت الممارسات المصرية ، بشكل عملي ، عن جانب من هذه التعهدات على غير صعيـد . واصر من ذلك الموقف المصري من مسألة طـرد اسرائيل من الامم المتحدة وهو هدف سعت اليـه متف وكثفت من اجله الجزء الاكبر من جهودهـا السياسية خلال الاشهر القليلة الماضية . وقد كان الموقف المصري في مؤتمر القمة الافريقية في كمبالا (بدأ جلساته في ٢٨ تموز الماضي) سببـا في تمييع مشروع قرار كان يدعو الى طرد اسرائيـل من الامم المحدة ، كذلك كان هذا الموقف مسؤولا عن فشل متف ومعها سوريا في اتخاذ قرار بذلك في مؤتمر وزراء خارجية دول عـدم الانحياز (٨٢ عضوا) في ليما بالبيرو . فقد دعا البيان السياسي الذي صدر عن المؤتمر (٨/٣٠) ، مجلس الامن للبحث في اتخاذ تدابير الزامية ضد اسرائيل لكن ليس لطردها من الامم المتحدة . وقد ذكرت «النهار» (٨/٣٠) ان « مسؤولا عربيا كبيرا » صرح بـأن ما جرى التوصل اليه في ليما هو حل وسط دعـت اليه مصر وغالبية الدول الافريقية « المعتدلة » .

ان ما حدث في هذه المؤتمرات الدولية يرهص بما سوف يكون عليه الموقف في الدورة القادمـة للجمعية العامة للامم المتحدة . وهو في الوقـت نفسه يضع المقاومة في وضع تجد فيه نفسهـا —

نضالها السياسي لعزل اسرائيل — في تعارض مع « الشقيقة الكبرى » التي ستفتح الباب واسعا لتلج منه كثير من الدول « المؤلفة قلوبها » في افريقيا وغير افريقيا نحو اتخاذ مواقف تتعارض مع ما تدعو اليه مصر ، مستظلة بذلك بالستار المصري .

جانب اخر يكشف عما ذكر عن التعهدات السرية ذلك باغلاق صوت فلسطين من القاهرة . لم يكن هذا عملا « تأديبيا » وانما كان جزءا من تخفيف الحملة على اسرائيل ، وهو اجراء مرتبط بالاعلام المصري كله . وقد كشفه ذلك المصادر الاسرائيلية نفسها التي نقلت عنها وكالات الانباء العالمية (« رويتر » في ٩/١٢ بشكل ملحوظ) انها تعتقد ان مصر خففت من برامجها الاذاعية الموجهة الى اسرائيل . واضافت هذه المصادر انه يبدو ان هذا الاجراء مرتبط بوعود « يقال » ان مصر قطعتها للولايات المتحدة بتخفيف دعايتها ضد اسرائيل بموجب الاتفاق الاخير . وذكرت ان ذلك لوحظ في لهجة هذه البرامج وفي عدد الاشارات السلبية الى اسرائيل . وقال مصدر اسرائيلي ان اسرائيل تدرس الان احتمال تخفيف لهجة البرامج الموجهة الى الدول العربية .

ان هذا الخطر في الموقف المستند الى التعهدات السرية بالاضافة الى المضمون السياسي للاتفاق نفسه أوضحه بيان اللجنة التنفيذية المذكور بالقول « وقد تأكد بصورة جلية ان الاتفاق لم يكن على الاطلاق مجرد خطوة عسكرية في اطار ما يسمى بفصل القوات ، بل هو في حقيقته اتفاق سياسي يجمد حالة الحرب مع العدو الصهيوني على جبهة واحدة ، ويرفع الحصار العسكري والاقتصادي لتفتح الطريق امام التعامل معه ... اضافة الى ذلك فهو يعتبر محاولة اميركية — صهيونية محمومة لاغتيال المنجزات العسكرية والسياسية التي حققها النضال العربي الفلسطيني في حرب تشرين المجيدة ، وعبر السنوات العديدة من الصمود والنضال والتضحيات الجسام وقوافل الشهداء .

ويزيد من خطر هذا الموقف الحملات المركزة التي تشن على المقاومة الفلسطينية من جانب الاعلام المصري ، والتي تستهدف التشكيك باصالة الموقف الفلسطيني ، (الاعلام المصري يتهم السوفييت بأنهم وراء الموقف الفلسطيني ، وانور السادات في خطابه المشار اليه اعلاه « يؤكد » التهمة بالاضافة الى ما يذكره عن ان حزب البعث في سوريا كان وراء الموقف الفلسطيني) . ووجه الخطورة هنا لا يتعلق بالجماهير العربية خارج مصر فهي تمتلك الحقيقة بجميع ابعادها حتى ان التنظيمات العربية التي تدين بالناصرية والتي كانت ترتبط بمصر « ارتباطا ما » أدانت الاتفاقية وشجبتها ، وانما الخطورة تتعلق بالجماهير العربية داخل مصر نفسها . فالاعلام المصري موجه الى هذه الجماهير تحديدا والسلطة هناك قادرة بوسائل متعددة على حجب الحقيقة كما هي عن جماهيرها وتضليلها ، واذا نجحت في ذلك فان النكسة التي ستصيب الفكرة العربية في مصر والتقاء الجماهير العفوي هناك مع نضال العرب المشارقة ، ستكون وخيمة النتائج .

هذه بعض معالم الحالة التي تواجهها حركة المقاومة بعد اتفاق سيناء . وعلى الرغم من اعتام بعض جوانب الصورة ، فـ « لسنا وحدنا » كما قال ابو عمار . وكان مهرجان ٩/١ الذي احتفل فيه بمنح ابو عمار جائزة جوليات كوري للسلام حدثا ذا دلالة معينة ورمزا بالغ الدلالة : ان الثورة الفلسطينية جزء من نضال شعوب العالم التحرري ، جزء مركزي سيجد فيه احرار العالم جميعا تعبيرا عن ذاتهم النضالية . وانه لعل التاريخ ان مهرجان تعليق الوسام على صدر الثورة الفلسطينية ، على صدر ابو عمار ، حدث في اليوم نفسه الذي وقع فيه اتفاق سيناء وكان ذلك رد مباشر من شعوب العالم على ذلك الاتفاق . وفي المهرجان وضع ابو عمار بعض معالم الطريق : الايمان بقوة الجماهير فـ « اذا كان بعض الناس في هذه الامة العربية لا يؤمنون بقوة الجماهير وقدرتها على الصمود والنضال فيصيبهم وهن ، فاننا نعلم بأن اجيال هذه الامة تسلم العلم من جيل الى جيل ، ولعل من في سريرته بعض التردد ، ومن في قلبه الوهن ان يتذكر مصير الامبريالية ، العملاء في سايغون وفي فنوم بنه » . تعزيز التحالف مع الاصدقاء في العالم : « اشكر كل هؤلاء من القوى الديمقراطية في العالم لانها تعرفكم اصدقاء حقيقيين للثورة التي تعترف بجميل الاصدقاء الذين امدوا هذه الثورة بالسلاح الذي

صنع نصر عام ١٩٧٣ ، والذي سيصنع النصر القادم الذي اراه كما اراكم الان » . استمرار النضال : « بلغ كل الرفاق وكل الاصدقاء والمقاتلين من اجل الحرية في العالم باننا سنستمر في درب الكفاح والنضال بعزيمة لا تلين » . وعلى الصعيد الداخلي ، الوحدة الوطنية : « انني اقول باسم هذا الجيل من حملة البنادق في الثورة الفلسطينية توحدوا ، وجنبا الى جنب بندقية واحدة لتصنع النصر ... ومزيدا من التفاعل والوحدة ». واخيرا « ان السلام لن يكون اميركيا ، السلام سلام الثورة والثوار ، سلام الارادة الحرة التي تفرض ارادتها على الامبريالية ، السلام سوف يكون سلاما فلسطينيا » .

جولة العنف الاخيرة التي شهدها لبنان والتي اشتعلت في بيروت ليلة ١٦ أيلول (سبتمبر) الماضي ، اوضحت الى حد بعيد أهداف القوى الانعزالية اللبنانية ، واقتران هذه الاهداف اقترانا تطبيقيا بالغايات الدولية التي تنضج تدريجيا في لهيب القتال في الساحة اللبنانية ، والمرتبطة باعادة ترتيب الاوضاع في المنطقة العربية بما ينسجم مع نوايا الولايات المتحدة تجاهها ومساعيها الحثيثة نحو ترتيب هذه الاوضاع ترتيبا يخدم مصلحتها في النهاية . وان ما ذكره الاخ ياسر عرفات عن ارتباط أحداث لبنان بالاتفاقية المصرية — الاسرائيلية صحيح باطلاق . ففي حديث لتلفزيون المانيا الديموقراطية أكد : ان الاتفاقية المصرية الاسرائيلية في سيناء ليست الا أحد العوامل الرئيسية التي شجعت العناصر الانعزالية المرتبطة بالمخطط الامبريالي الصهيوني الاميركي في لبنان على البدء بتنفيذ المخطط . يضاف الى كل ذلك بكل أسف ان الاعلام المصري كان خطه واضحا في الاحداث الاخيرة الى جانب تأييد هذه القوى الانعزالية في لبنان . وهذا الشيء يؤسف له فلأول مرة يحدث أن يقف الاعلام المصري ضد الثورة الفلسطينية وضد القوى الوطنية والتقدمية في لبنان » (« فلسطين الثورة » ١٠/٥) . والذي يجعل مثل هذا التأكيد صحيحا ان اتفاقية سيناء تعتبر نهائية من وجهة النظر الاميركية — الاسرائيلية ، فقد نصت الاتفاقية « السرية » التي وقعتها أميركا واسرائيل والتي نشرت مؤخرا ، في أحد بنودها على « ان الحكومة الاميركية قدمت تعهدا الى اسرائيل بأن يكون الاتفاق القادم الذي تعقده مع مصر اتفاق سلام نهائي » ولان هذا « السلام النهائي » صعب التحقق ان لم يكن مستحيلا في المرحلة الراهنة من مراحل الصراع العربي — الاسرائيلي ، فانه يجوز الافتراض ، بل التأكيد ، ان اتفاقية سيناء هي « الاتفاقية النهائية » التي اختتم بها كيسنجر سياسة الخطوة — خطوة على الجبهة المصرية . ومع اخراج مصر من حلبة الصراع بمثل هذه الاتفاقية فان التوجه الآن ينصب في الجبهة الشمالية حيث حركة المقاومة الفلسطينية تشكل وجودا رئيسيا يحتاج تدبير شأنه الى قوى محلية تأخذ زمام المبادرة في التصدي له . وفي الوقت نفسه فان ترتيب أوضاع هذه الجبهة — نعني لبنان تحديدا — بما يتفق مع الاهداف الاميركية في المنطقة يستوجب ترتيبات خاصة اجتماعية وسياسية تتيح لهذه الاهداف أن تتحقق كاملة .

وخلال الشهر الماضي توضحت أبعاد الصورة هذه . فمع تجدد القتال كان واضحا ان القوى الانعزالية اللبنانية حريصة على جر المقاومة الى معركة علنية ، وكان تكتيك هذه القوى ينصب على محاولة زج الجيش في القتال طرفا يجعل المقاومة في وضع تصادمي معه . وقد ظهر هذا التكتيك علنا في تصريح للشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب (نقلته وكالة « يونايتدبرس » يوم ٩/١٨) وقال فيه « ان اطلاق النار لن يتوقف حتى انزال الجيش » . وقد كانت حركة المقاومة حريصة في البداية على الا تظهر نفسها طرفا في الصراع ، وقد استجابت للوساطة السورية التي بذلها السيدان عبد الحليم خدام واللواء حكمت الشهابي اللذان وصلا بيروت في ٩/١٦ وأصدرت . بالاضافة الى ما أصدرته القوى والاحزاب الوطنية والتقدمية وحزب

الكتائب ، بيانا دعت فيه الى وقف اطلاق النار . وقد جاء في هذا البيان (صدر في ٩/٢٠) « حرصا من الثورة الفلسطينية على أمن لبنان واستقراره وسلامة شعبه ، ومساهمة في الجهود التي تبذلها مختلف الاطراف الحريصة على مصلحة لبنان والثورة الفلسطينية ، وفي مقدمتها جهود الاخ عبد الحليم خدام ، نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية واللواء حكمت الشهابي ، رئيس أركان الجيش العربي السوري ، تدعو الثورة الفلسطينية الى دعم جميع الجهود الرامية الى اعادة الامن والاستقرار والتقيد الفوري والحازم بقرار وقف اطلاق النار » .

غير انه كان واضحا منذ البداية وبدليل تصريح الجميل المشار اليه أعلاه ان القوى الانعزالية اللبنانية بما فيها الكتائب حريصة على استمرار الصدام المسلح بما يتيح تدخل الجيش وتعقد الازمة وتصاعدها الامر الذي يؤدي الى البحث في الوجود الفلسطيني من اساسه . وكانت هذه الغاية الاخيرة هي ما تسعى اليه القوى الانعزالية اللبنانية فقد وزعت الكتائب في الاشرفية وعين الرمانة بيانا نص على ما يلي : « نداء الى اللبنانيين . يا أبناء المردة دافعوا عن تراب لبنانكم . اطردوا الاغراب منه . ليرحل الفلسطينيون الذين باعوا أرضهم وجاؤوا يدنسون ترابنا . يجب ألا يتوقف القتال طالما هناك فلسطينيون على أرض وطننا » (« السفير » ٩/٢١) . كذلك وزعت « جبهة حراس الارز » بيانا مشابها قالت فيه « لقد ثبت بما لا يضع [كذا] مجالا للشك ان الفلسطينيين في لبنان هم وراء الفتنة الدنيئة التي تعصف في لبنان والمؤامرة السافرة التي تحاك ضده . ان هؤلاء الاغراب الذين استضافهم لبنان عشرات السنين وتقاسم معهم الرغيف يحاولون اليوم رد الجميل بتقسيم لبنان واستباحة المقدسات وانتهاك الاعراض . مرارا قلنا ان الفلسطينيين هدفهم لبنان وشق وطن لهم في لبنان وان « العمل الفدائي لاسترداد فلسطين » ما هو الا شعار يتسترون وراءه للاطاحة بالوطن الذي فتح لهم صدره . وكررنا ان الذين باعوا فلسطين عام ١٩٤٨ لن يتورعوا عن بيع لبنان عام ١٩٧٥ ، والذين كفروا بوطنهم لا يمكن أن يؤمنوا بوطن غيرهم ... ايها اللبنانيون ، يا أحفاد المردة ، مسلمون كنتم أم مسيحيين ، حان لكم أن تعوا هذه الحقيقة وأن تعملوا صفا واحدا ضد هؤلاء الغرباء الذين يحاولون بيع لبنان كما باعوا فلسطين وزرع بذور التفرقة بين صفوفكم لتمرير مؤامرتهم الدنيئة . أيها اللبنانيون ، لقد قررنا اعتبارا من اليوم اعلان الحرب ضد هؤلاء العملاء المأجورين بلا رحمة ولا هوادة ولن نلقي السلاح قبل طرد آخر فلسطيني عن أرض لبنان » . (المصدر نفسه) .

بجانب هذه التعبئة التي تذكر بما كان عليه الحال في الاردن عشية مجزرة أيلول ، فقد حاولت الكتائب في لجنة الحوار الوطني أن تطرح قضية الامن في لبنان من زاوية الوجود الفلسطيني فيه ، الا أن هذه المحاولة التي جرت في جلسة اللجنة بتاريخ ٩/٢٩ قد فشلت . وكانت الحجة الكتائبية في ذلك هي ما عبر عنه الجميل في تصريح له بتاريخ ٩/٣٠ وقال فيه « علينا أولا أن نتفق على معنى السيادة قبل البحث في المطالب » . و« السيادة » المعنية هنا تتناقض في رأي الكتائب مع الوجود الفلسطيني في لبنان .

ان هذا المسعى من جانب الكتائب وحلفائها كان يرافقه تصعيد الحديث عن التقسيم ، وعلى الرغم من « النفي » الرسمي الكتائبي لفكرة التقسيم فان الممارسات العملية التي تقوم بها الكتائب وبقية القوى الانعزالية في لبنان تقود عمليا الى هذا الهدف . وحتى الآن فاذا كان التقسيم لم يطرح بشكل دستوري فان حواجز الرعب بين الطوائف اللبنانية بعد ممارسة القتل « على الهوية » تعتبر انجازا لا يقل من خطره ضمن ما أنجزته الكتائب . كذلك فان الفرز السكاني (انتقال الاسر أو تهجيرها من حي الى آخر حسب الطائفة) يعتبر انجازا آخر . وبقدر ما يتعلق الامر بالمقاومة في هذا الشأن فان هذه القوى الانعزالية في ممارستها للتقسيم عمليا تلصق « التهمة » بالمقاومة الفلسطينية . وقد مر شيء من ذلك في بيان « جبهة حراس الارز » الذي ورد نصه أعلاه ، كما ورد شيء مماثل في المذكرة التي رفعها المؤتمر الدائم لرؤساء الرهبانيات اللبنانية والمجلس التنفيذي للرابطة المارونية الى رئيس الجمهورية (نشرت الصحف نصها في ١٠/١٥) اذ فيها تحذير من « أن يصبح التقسيم الواقعي بقوة الاحتلال والتهجير الكرهي ، أمرا ، لا سمح الله ، محتوما وهذا ما لا نريده اطلاقا » . والاحتلال المشار اليه في

هذا النص هو « الاحتلال الفلسطيني » الذي جرى الحديث عنه بتفصيل في المذكرة نفسها في موقع آخر . ان هذه « التهمة » مقصود بها أمران : الاول تمهيد الطريق أمام الكتائب وحلفائها لتبني فكرة التقسيم علنا كرد على « التقسيم الفلسطيني » والثاني تدويل الازمة اللبنانية واخراجها من حيز الصراع الداخلي والحرب الاهلية الى نطاق أزمة الوجود نفسه ومشكلة الكيان التي تستحق بحثا واثارة على الصعيد الدولي .

وقد جاءت فكرة تعريب الازمة اللبنانية خطوة أولى نحو تدويلها . ولم تكن أصابع السلطات المصرية خفية عن فكرة التعريب . فعلى الرغم من أن الدعوة الى عقد مجلس الجامعة العربية لبحث الازمة اللبنانية قد جاءت من الكويت فقد تردد في الوقت نفسه ان مصر هي التي كانت وراء الدعوة ، وقد تعزز هذا الراي بالحماس الاعلامي المصري لفكرة عقد مجلس الجامعة وبحث الازمة في نطاق عربي . ان الذي بدا على السطح في هذا الموقف المصري هو محاولة مصر سحب البساط من تحت أقدام السوريين وتفشيل خصوصية دورهم في التوسط لمعالجة الازمة اللبنانية . غير اننا لا نستبعد كذلك ان يكون النظام المصري ، بجانب ذلك ، مدفوعا نحو الدور الذي ترشحه له المخططات التي تنفذ حاليا في المنطقة ، بحيث يكون الاسهام المصري في تعريب الازمة اللبنانية اسهاما يصب في طواحين هذه المخططات .

ان موقف القوى الانعزالية اللبنانية من تعريب الازمة اللبنانية ثم تدويلها واضح كل الوضوح في مذكرة الرهبانيات والرابطة المارونية المشار اليها سابقا . فهي تطرح الوجود الفلسطيني في لبنان كاحتلال وتقول « ان لبنان واقع تحت الاحتلال الفعلي ، فأجزاء كبرى من أراضيه خرجت عن سيادة الدولة . فالكل يعلم انه لم يعد من وجود للسلطة اللبنانية : — في جنوب لبنان ابتداء من صيدا حتى آخر الحدود الجنوبية ، من ساحل البحر الى البقاع الغربي . — وفي شمال لبنان ابتداء من البحصاص فطرابلس فعكار لغاية الحدود السورية . — وفي بيروت نفسها : المنطقة الغربية من العاصمة ومعظم مداخلها بما في ذلك مطار بيروت والمنطقة الشرقية للمرفأ . كل هذه المناطق خرجت تماما عن سلطة الدولة اللبنانية وأصبحت تحت سيطرة المنظمات الفلسطينية ومن يناصرها » . وتدعو المذكرة رئيس الجمهورية الى « طرح هذه القضية ... على الراي العام العالمي سواء عن طريق الجامعة العربية أم هيئة الامم المتحدة ... لكي يتأكد هذا العالم من حقيقة الاحتلال الذي يتعرض له جزء من الاراضي اللبنانية » . ولمناسبة انعقاد مجلس الجامعة العربية كتب مقدمو المذكرة « اننا نصر كل الاصرار على أن يبحث صراحة ومن دون موارية وبشكل واضح جدا ، في الوجود الفلسطيني في لبنان على النحو الذي أشرنا اليه أعلاه وتدخل الفلسطينيين في شؤون لبنان الداخلية ، وامتدادهم في عمق المناطق اللبنانية واحتلال جزء كبير منها واشتراكهم المباشر في الحوادث الاخيرة » .

ان هذه الاهداف التي يسعى اليها دعاة تعريب الازمة اللبنانية ، فتدويلها جعل منظمة التحرير الفلسطينية تعارض حضور اجتماع الجامعة العربية ، وقد أعلن ذلك السيد فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية في م.ت.ف. ، الذي أضاف « ان منظمة التحرير ترى ان هذا الاجتماع محاولة لاحراج الاخوة اللبنانيين وادخال العرب في معركة جانبية عما يحدث في المنطقة من أحداث خطيرة وعلى رأسها الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية في سيناء » .

وكان لسوريا موقف مماثل اذ أعلنت انها لن تحضر الاجتماع ، وقد أدلى ناطق سوري رسمي (١٤/٦) بالتصريح الآتي « ترى سوريا انه من المفضل أن يجتمع وزراء الخارجية العرب ليعالجوا اتفاق سيناء وليعملوا على احباط هذا الاتفاق — النكسة لأنه يشكل الخلفية لأحداث لبنان . وسوريا اذ لا تحضر الاجتماع المدعى اليه فلأنها ترى انه يجب التصدي على الصعيد العربي لأصل المشكلة أولا قبل فروعها » .

أما بالنسبة لموقف لبنان رسميا ، فعلى الرغم من انه وافق على اجتماع وزراء الخارجية العرب ، فقد ذكرت الانباء الصحافية ان وزير الخارجية ، فيليب تقلا ، وافق على الذهاب الى القاهرة لأن الدعوة من الكويت ولا يجوز للبنان بروتوكوليا ان يرفضها ولو انه غير راض عنها تماما .

وقد رفضت الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية اللبنانية تعريب القضية اللبنانية وأصرت ، في

اجتماع عقدتـــه في ١٠/١٤ برئاسة السيد كمـــال جنبلاط ، على اعتبارها قضية صراع داخلي لبناني صرف ، وطلبت الى الدول العربية الاخذ بموقف م.ت.ف. والحركة الوطنية في هــذا الموضوع ، السفير » ١٠/١٥) .

وعشية انعقاد المؤتمر ، سلمت اللجنة التنفيذية لـ م.ت.ف. (في ١٠/١٤) مذكرة للسيد رشيد كرامي ، رئيس الوزراء اللبناني ، موجهة الى لجنة الحوار الوطني « توضح النقاط التي يهم اللجنة التنفيذية أن يطلع عليها الاخوة اللبنانيون للتعرف على رأي منظمـــة التحـــرير في بعض القضايـــا الراهنة » . وقد اكدت المذكرة النقاط التالية : « أولا — ان شعبنا الذي فرض عليه الاحتـــلال الصهيوني والمؤامرات الامبريالية العالمية أن يتشرد خارج وطنه والذي قاوم طوال أكثر من ربع قرن كل مشاريع التوطين والاستيعاب ، هو اليوم أشـــد اصرارا من أي وقت مضى على العودة الى وطنه ، ورفض أي وطن بديل عن الوطن الفلسطيني المحتل . ثانيا — ان شعبنا يرفض اية جنسـية أو هويـــة سياسية بديلة عن الهوية والجنسـية الفلسطينية ، ويرفض اية عمليـــة تذويب ودمج واستيعـــاب في المجتمعات العربيـــة ، خصوصا بعد الانتصـــارات الثورية التي أحرزتها الثورة على مختلف الاصعدة العسكرية والسياسية في المجالات العربية والدولية وهذا الموقف ينطبق بشكل خاص على شعبنا الذي فرضت عليه الظروف اللجوء الى لبنان . ثالثا — اننا نؤكد مجددا حرصنا على امن لبنان واستقراره واستقلاله وسيادته ووحدة ترابه وشعبه ، ومـــا يمليه ذلك من حق الدولة في ممارسـة سلطتها على مختلف المناطق اللبنانية . رابعا — ونؤكد مجددا حرصنا على الاتفاقات المعقودة بين الدولة اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية بصفتها الصيغة التي تنظم العلاقات اللبنانية — الفلسطينية والاســـاس الذي يضمن حل اية اشكالات أو ملابسـات تعترض هذه العلاقات . وحرصنا هذا يملي علينا أن يتم حصر البحـــث في قضايـــا العلاقات اللبنـــانية — الفلسطينيـــة مع الدولة اللبنـــانية ، وفي اطـــار مؤسساتها الشرعيـــة وحدها . ان ذلـــك يقتضي بالضرورة احترام سائر الاطراف لهذه الصيغة في التعامل وتقيدها بتلك الاسس التي تنظم علاقاتنـــا المشتركة ، ومبادرتها الى الاعلان عـــن ذلك . خامسا — وفي كل الظـــروف ، ان تعهد مختلف الاطراف باستبعاد اللجوء الى العنف كوسيلة لمعالجة العلاقات اللبنانية — الفلسطينية من شأنه ان يوفر المناخ الملائم لتوطيد هذه العلاقات ، وتوجيه طاقات شعبنا ضد العدو المشتـــرك ضمن اطار المعركـــة الشاملة التي تخوضها الامة العربية » .

هذا الجانب من الازمة اللبنانية المتعلق بالمقاومة الفلسطينية بل بالقضية الفلسطينية باجمال لا يمكن فصله عـــن « الترتيبات » الخاصة الاجتمـــاعية والاقتصادية التي يجب أن تسود في لبنـــان كرديف للتصدي للوجود الفلسطيني فيه . والمهم في هـــذا الصدد الاشـــارة الى ان نمو الحركة الوطنيـــة والتقدمية في السنوات الاخيرة في لبنـــان قد هدد أسس النظام فيه . وقد جاء نمو الحركة الوطنية بالتحالف مع حركة المقاومة الفلسطينية من جهـــة ونتيجة طبيعية لنمو الفوارق بين الطبقات المستغلة والمستغلة ، جاء هذا النمو ليمزق المعادلة التي كانت ترتاح اليها حتى أمد قريب قوى الاحتكـــار والاستغلال والاقطاع السياسي ، وقد كان هـــذا الخرق لغير مصلحة هذه القوى الامر الذي هزها في الصميـــم ودفعها الـــى التصدي لحركـــة التغيير الاجتمـــاعية والسياسيـــة بما يضمن استمـــرار مصالحها . وان أي تحليل لطبيعة بنية الاقتصاد اللبنـــاني سيكشف علاقـــاته العضوية بالســـوق الرأسمالية العالمية وبالمصالح الامبريالية ، ومن هنا فان التصدي لارادة التغيير في لبنان ، الاجتماعية والسياسية ، لا يمكن الا ان يكون مرتهنا بهـــذه السوق ومصالحها في المنطقة وبوحي منها . وبذلك فان « الترتيبات » الخاصة التي تهيأ للبنان تدور حول محور اساسي هو اجهاض النمو الاجتماعي والسياسي التقدمي وبتر وتيرة تسارعه ، وفي حال فشل ذلك فان اللجوء الى التقسيم لا يمكن فصله الا اعتسافا عن هذا المحور . ذلك انه لاسباب تاريخية معقدة فان وتيرة النمو الوطني — التقدمي في لبنان كانت أكثر تسارعا لدى جماهير الطوائف الاسلامية عنها لدى جماهير الطوائف المسيحية ، وبذلك فان اقتسام الوطن اللبناني ما بين الطائفتين يضمـــن للشرائح الاقتصـــادية العليا في الطـــائفة المسيحية استمرار مصالحها محمية من التفاعلات الاجتماعية التي تشمل الجماهير الفقيرة في الطوائف الاسلامية . وربما يزيد في تفاقم الامور بالنسبة لهذه الشرائح الاقتصادية العليا ان الاضطرابات المتواصلة في لبنان بالاضافة الى الانفتاح الاقتصادي

في مصر على الراسمالية العالمية ، جعلت عددا كبيرا من الشركات ، وكانذار مبكر ، تنقل تمثيلها التجاري من بيروت الى القاهرة ، الامر الذي يعتبر حافزا ملحا للشرائح الاقتصادية العليا في الطائفة المسيحية في سعيها نحو اقتسام الوطن وبناء الدولة « المطهرة » من الاسباب التي تجعل الراسمال العالمي يشيح بوجهه حاليا عن لبنان .

وقد كشفت الكتائب في الجولة الاخيرة بالملموس حقيقة موقعها الطبقي . وفي تحليل ورد في بيان للأحزاب والقوى الوطنية والتقدمية صدر مع تجدد الاشتباكات الاخيرة (٩/١٧) تستنتج هذه القوى « ان حزب الكتائب يريد أن يقطع الطريق على أجواء الهدوء والاستقرار في البلاد كي لا ينفتح المجال أمام دعوة التغيير السياسي التي أطلقتها الاحزاب التقدمية بحيث يتكتل حولها حشد واسع من القوى التي يمكن ان تلتقي مع الاحزاب على حد أدنى يكرس عزلة الكتائب وينفضح حقيقة مشروعها الفاشي الانتحاري ، فبالتصعيد العسكري يتصور حزب الكتائب ان في قدرته طمس الدعوة التقدمية الى التغيير السياسي ، والخروج من عزلته وفرض منطق المصالحات العشائرية سبيلا لاستعادة الموقع السياسي الذي فقده نتيجة نهجه الفاشي الطائفي الذي دفعت البلاد ثمنه غاليا » . وقد برهنت الكتائب فيما بعد على صحة هذا التحليل . فاذا كانت القوى الوطنية قد وجدت في لجنة الحوار الوطني احدى الوسائل لمحاولات التغيير الاجتماعي والسياسي في لبنان ، فان الكتائب بتصعيدها العسكري قد فرضت على اللجنة هذه جوا خاصا تعتبر فيه المسألة الامنية المحور الرئيسي . وبذلك فهي حتى الآن قد شلت هذه اللجنة وحرفتها عن الاهداف التي أنيطت بها . بجانب ذلك فان مواقع الكتائب الطبقية اعلنها الجميل بصراحة في الاجتماع الاول للجنة الحوار حينما أكد « لبنان شيوعي لا نريد . لبنان اشتراكي لا نريد . وقد رأينا التجارب المجاورة . النظام عظيم والدستور عظيم . ثمة أشياء بحاجة الى تطوير لكن الدستور لا يمس ونحن ضد اعادة النظر بالصيغة اللبنانية » (« السفير » ٩/٢٦) . والنظام الذي يدافع عنه الجميل هو الذي يتيح للاستغلال والاحتكار والاقطاع السياسي البحبوحة ورغد العيش على حساب أوسع قطاعات الجماهير الفقيرة . وفي التصريح الذي أدلى به الجميل للتلفزيون اللبناني (١٠/١٢) تتوضح صورة الموقف كله بالنسبة للصراع الاجتماعي في لبنان . فهو يقول « الجو الذي يخلق ضد الاغنياء لا يجوز ، فالغني يحاسبه الله وليس الفرد . والمهم ان يصرف ثروته في البلاد فينتعش الفقير . واذا لم يكن هناك غني فكيف يعيش الفقير ... هذه الاجواء التي يحاولون خلقها في البلاد : العامل ضد رب العمل والفقير ضد الغني والجيل الجديد ضد الجيل القديم ، كل هذا اعتبره ضررا على لبنان » . ولبنان هنا حسب التفسير الطائفي — الطبقي هو حدود مصالح الطبقة التي يعبر عنها مثل هذا الفكر الذي يخشى كل أشكال الصراع التي عددها الجميل في تصريحه .

واذا كان هذا هو الموقع الطبقي للكتائب فانه يغدو واضحا سبب اتخاذها الاداة الاكثر تنظيما وقدرة لتنفيذ « الترتيبات » الخاصة في لبنان ، سواء على صعيد القضية الفلسطينية ام على صعيد الحركة الوطنية اللبنانية وهي ترتيبات ستكشف جولات الصراع القادمة أشكالها النهائية في ضوء موازين القوى المحلية من جهة وضمن آفاق المصالح الدولية ليس في لبنان فحسب وانما في المنطقة العربية باجمال ، من جهة ثانية .

عصام سخنيني

ملحق

استنزاف الايديولوجية الوطنية التي ادخلتها المقاومة الفلسطينية في لبنان

التركيبة الطائفية « والوطنية » للجنوب اللبناني ، حيث تتجمع قوة المقاومة الفلسطينية الاساسية ، أتت في نهاية الستينات ملائمة الى حد كبير لحاجات دخول المقاومة الطارىء على مجمل هذه التركيبة . فباستثناء اقليات متداخلة ، فان الطائفية المسلمة تغلب في المنطقة كفئة محرومة ، اصيب وضعها الاقتصادي والمعيشي بانتكاسة بعد نكبة ١٩٤٨ في فلسطين . فقد كان التبادل والتعامل مع شمالي فلسطين الوجهة الرئيسية لعلاقات الجنوب اللبناني الاقتصادية . وتحولت هذه العلاقات بعد العام ١٩٤٨ الى تمركز مشترك اذ انتقلت الخبرة الزراعية والقوة الشرائية الفلسطينية الجيدة الى الجنوب ، لكن التمركز الفلسطيني لم يولد وضعا « وطنيا » أو مناخا سياسيا مغايرا للاتجاهات السياسية القومية — الوحدوية التي حملتها التجمعات ذات الاتجاهات القومية التي كانت سائدة في جنوب لبنان بالاضافة الى أن الاقطاع السياسي هناك كان يدين بها كذلك ، خصوصا ان المناخ الذي ساد بين التجمعات الفلسطينية كان قوميا ولم يتعارض مع هذه الاتجاهات التي استمدت شعاراتها من الناصرية والاتجاهات القومية (حركة القوميين العرب وحزب البعث) . خلال الفترة نفسها كانت الخاصية الاساسية للوضع اللبناني بأسره هي أن أي خلاف أو صراع سياسي ، يتحول عن طريق الالحاق التعسفي ، الى صراع طائفي . ولم تتمكن المسألة الفلسطينية في لبنان من أن تتحول الى هم لبناني وطني تجمع الوضع اللبناني بطوائفه واقطاعياته على امتداد الداخل في الريف أو على طول الساحل .

الساحل اللبناني ، بالمعنى التاريخي ، كان النصف الاقتصادي والثقافي لما عرف بلبنان الكبير ، لبنان ١٩٢٠ ، الذي الحقت به ، بوعي مستقبلي عبقري ، الجوانب الريفية الموسومة بوشم الوحدة والعروبة مع سوريا . أبقي الريف مستقلا بهمومه الوحدوية والقومية هذه حتى تمكن الساحل اللبناني ، بتواطؤ تاريخي مع الاقطاع السياسي في الريف ، من اقامة موازنة سياسية لعلاقاته الاقتصادية بالرأسمالية الغربية وعلاقاته السياسية بسوريا ، واستطرادا بالاسواق الاستهلاكية في الداخل العربي . كان الاختلال في هذه المقايضة مخيفا : فكر رومانسي قومي وفئات تسحق حتى العوز في الريف ، . أسمال تجاري ومصرفي يتجمع في وسط الساحل اللبناني وطبقة متوسطة تنمو على قاعدة العمل الوظيفي في المؤسسات التجارية والمصرفية والثقافية تركت مظاهر ازدهار حتى أوائل الستينات .

الخلل الحاد الاول

كانت نهاية الخمسينات بداية الخلل في معادلة الوضع اللبناني . وقتها اتجه لبنان بحدة أعظم نحو السياسات الغربية حتى وقف على أبواب النظام الامبريالي السياسي (مشروع ايزنهاور ، الحلف المركزي) بعد أن ثبت وضعه في النظام الرأسمالي الوسيط . في الفترة نفسها كان الاقطاع السياسي يتيم ادارة من المحاسيب ، على قاعدة الخدمات الفردية التي يقدمها الاقطاع لقاعدته الانتخابية ، فاسدة وقاصرة عن تلبية التوسع الاقتصادي للرأسمالية التجارية المصرفية . أرادت الرأسمالية الكمبرادورية ان تمد أسواقها الى كل الاطراف اللبنانية بما فيها الاقطاعيات في الجنوب والبقاع وعكار . هذا التوسع لم يكن ليتم [كما تعتقد الرأسمالية اللبنانية] الا بادارة ماهرة ومنظمة تقدر ان تقيم المشاريع الثقافية والاقتصادية وتحسين القوة الشرائية لهذه المناطق لتتمكن ، الرأسمالية ، من فتح هذه الاقطاعيات أمام البضائع المستوردة ، وليصبح سوق الرأسمالية على كامل التراب اللبناني ، وتنمو الطبقة المتوسطة على ذات المقدار من الاتساع — الطبقة المتوسطة هي سحر الرأسمالية اللبنانية والحرز ضد المشاكل . حاولت الشهابية حل التناقض بين تصور الادارة اللبنانية الملتحقة بالاقطاع وبين نمو

الرأسماليه التجارية والمصرفية بما عرف بالاصلاح الاداري والتطهير . وفشلت التجربة وبدأ انحراف الاقطاع السياسي عن تبعيته للرأسمالية اللبنانية .

دخول المقاومة الفلسطينية على الوضع اللبناني

لم تتمكن الحركة الوطنية اللبنانية ، في هذا الوضع ، وقبل دخول المقاومة الفلسطينية كايديولوجية وطنية قومية ، من تنظيم أبناء الجنوب ، أو البقاع ، أو عكار ، في حركات سياسية مستقلة عن الاقطاعيات المحلية ، وهي التي كانت تعمل ، بالوكالة ، للتبشير للعروبة والوحدة مع مصر وسوريا . وأكملت بهذا الدور السياسي النصف الآخر للاستقلال اللبناني الذي تام على قاعدة ان الطائفية المسيحية (الطائفية المارونية أساسا) أخذت وكالة الرأسمالية والثقافات الاوروبية الغربية وان الطائفية المسلمة (الطائفية السنية أساسا) أخذت وكالة الاسواق العربية الاستهلاكية ، وهذا ما عرف بالميثاق الوطني اللبناني . الجنوب اللبناني من بين كل الاطراف الريفية كان يمتاز بخاصية موضوعية مهمة : ان الجنوب ، بحكم جغرافيته الملاصقة للحدود الاسرائيلية ، وبحكم تاريخية علاقاته مع شمال فلسطين ، وبحكم انتقال غالبية من التجمعات الفلسطينية اليه ، أضاف الى مجمل وضعه ظرفا موضوعيا بأن أبدى استعدادا وملاءمة أفضل لدخول المسألة الفلسطينية الوطنية . ولم يكن سهلا أن يتحول الصراع حول دخول المقاومة الفلسطينية الى صراع سياسي ، حتى لا يتحول ، على طريق الصراع الطائفي والقومي العربي ، الى مأزق للطائفية المسلمة فقط ، بعلاقاتها مع الاوضاع العربية التي كانت لا تقبل حتى ذلك الوقت معالجة الوجود الفلسطيني المسلح معالجة عسكرية لا وطنية . وحين حاولت بعض المؤسسات اللبنانية أن تفعل ذلك في العام ١٩٦٩ وبعدها في العام ١٩٧٣ تحول الصراع الى مأزق للطائفية المسلمة (استقالة رشيد كرامي ، رئيس الوزارة اللبنانية لمدة سبعة أشهر في العام ١٩٦٩ واستقالات صائب سلام والدكتور أمين الحافظ ، من رؤساء الوزارة اللبنانية في العام ١٩٧٣) . وفي هذه الاثناء ترسخ في جنوب لبنان فكر وطني أبرز قصور المؤسسات اللبنانية في تأمين حماية وطنية للمقاومة الفلسطينية وللجماهير اللبنانية .

ونعتقد هذا القصور الوطني مع القصور الاقتصادي والاجتماعي حيث لم تتمكن الرأسمالية اللبنانية من تفتيت العلاقات الاقطاعية في الريف ، كما حصل في أوروبا ، واستطرادا لم تتمكن من تنمية هذا الريف واقامة أوضاع طبقية متوسطة ، تتحول الى ظواهر ارستقراطية على الاصعدة الاجتماعية والمعيشية وهامشية على الاصعدة الوطنية والقومية . وبقيت قاعدة العمل الفلسطيني المسلح في الجنوب اللبناني قاعدة عمل وطني ضد العدوانية الاسرائيلية . غير ان هذه القاعدة اتسعت وشكلت مناخات من النضالات الديمقراطية والاجتماعية استفادت منها الحركة الوطنية اللبنانية الشعبية خصوصا بعد تحول العمل الفلسطيني برمته الى لبنان بعد الخروج من الاردن .

المسألة الفلسطينية خارج الجنوب اللبناني

لم يكن مأزق لبنان الوطني في المناطق الريفية الاخرى ملموسا بالمعاناة اليومية من العدوانية الاسرائيلية ، كما هو في الجنوب اللبناني . الازمة الوطنية في البقاع وعكار هي مشاركة طائفية في المعاناة أو وعي سياسي قومي تمتلكه الفئات المثقفة أو المنضوية في أحزاب عقائدية . غير ان الاقطاع في البقاع (أحداث زحلة ٧٥/٨/٢٤) والذي يقود قسما منه (مدينة زحلة وبلدة القاع) اقطاع الطائفية الكاثوليكية لم يخش معالجة الوجود الفلسطيني [الوجود الفلسطيني يعني المناخ الثوري الذي أوجد ايديولوجية وطنية للصراع السياسي في لبنان] بالتصادم والتحريض الطائفي ، مع علم الطائفية الكاثوليكية في زحلة ان قاعدتها الانتخابية والتي تتسع لفئات من طوائف مختلفة ، ستضيق كثيرا . وبذلك بدأت القوى اليمينية تستنسب اثارة أزمات للمقاومة الفلسطينية على قاعدة التحريض الطائفي ، وهي قاعدة تتقبل التحريض الطائفي بكمية أكبر في المناطق التي ينتفي فيها التصادم الوطني بين المقاومة الفلسطينية والعدوانية الاسرائيلية، بدعوى ان وجود المقاومة الطبيعي هو في مناطق المواجهة مع اسرائيل وليس في الداخل اللبناني حيث تنتفي هذه المواجهة . وفي مجرى أحداث زحلة كان واضحا ان بعض الفئات تعي تماما هذا الوضع في الريف . وتعي أيضا انه من الانسب للطائفيين تحريض الطائفية غير المارونية ، خاصة ان الطائفية المارونية

تستحوذ على أكثر السلطات ومراكز القوى في لبنان بما يسهل الاستعداء ضدها . ظهر هذا الوعي في تحريض الطائفية المسيحية المحرومة بقنبلة الكنيسة الكاثوليكية في بعلبك ، « السفير » ٧٥/٨/٢١) واختطاف الرهبان الارثوذكس من مطرانية مدينة طرابلس ، « النهار » ٧٥/٩/٥) . واهمية تحريض هاتين الطائفتين يزداد خطورة ، عدا انهما من الطوائف المحرومة التي تشملها المطالب الوطنية في مشروع الاصلاح الديمقراطي التي تعمل له الحركة الوطنية اللبنانية ، بسبب المواقف غير التحريضية لهاتين الطائفتين . وربما تكون الطائفية الكاثوليكية في البقاع أول مظاهر التحريض المسلح التي اعتمدها الطائفيون الكاثوليك .

العمل الفلسطيني في لبنان الآن

لا شك ان المقاومة الفلسطينية تحاول في هذا الوضع المعقود على الصراع السياسي المتحق بشكل تعسفي بالصراع الطائفي أن تحافظ على أصالتها كحركة نضال وطني ضد الوجود الصهيوني ، ولا شك أنها تخشى أن تستدرج الى معارك استنزاف في الريف اللبناني بمعارك ضد الاقطاع السياسي الطائفي المعادي لوجودها في لبنان ، لانها أضعفت سلطة الاقطاع وأوجدت ايديولوجية وطنية للصراع على مستوى لبنان كله ، بحيث تحول الى جزء من المسألة اللبنانية وتناقضاتها وتفقد بذلك قاعدة عملها ووجودها الوطني . لكن المقاومة لا شك تخشى من جهة مقابلة ، ان فصلت وجودها عن المسألة اللبنانية والصراعات البارزة بين المشاريع الديمقراطية واليمينية الانتحارية ، أن يتم شل القوى الجماهيرية والشعبية التقدمية المعادية للمشاريع الامبريالية في المنطقة ، حيث الوضع الجماهيري اللبناني حلقة التصدي له المركزية ، لكي تسهل تصفية المقاومة الفلسطينية ، من غير حاجة لتدخل اسرائيلي ، ويسقط مشروع الحركة الوطنية الذي يمكن اقامة مشروع الدولة الفلسطينية الديمقراطية على نموذجه [وليس على شكل لبنان الحالي كما تحب الطائفية اليمينية اللبنانية الاجترار] ليتعايش العرب واليهود في سلطة ديمقراطية شعبية تنمي مؤسسات معادية للامبريالية متحالفة مع قوى التحرر العالمي . ان علاقة المقاومة الفلسطينية كحركة نضال وطني بالمسألة اللبنانية ترتكز ، بعلنية ثورية ، عند حدود الانحياز بفاعلية لدفع الوضع اللبناني الى أوضاع ديمقراطية شعبية مسترشدة برامج الحركة الوطنية مع الحفاظ على فاعليتها والتصادم اليومي ضد العدوانية الاسرائيلية . ان حدود هذا الانحياز لا تقل ، في هذه المرحلة ، عن الدفاع العضوي عن الحركة اللبنانية الشعبية بكل الاشكال وفي الوقت نفسه الاسهام الفعال بتقوية أوضاع هذه الحركة وقواها المنظمة عسكريا وسياسيا وتنظيميا ، حتى تتمكن المقاومة اللبنانية ، بالعمل المستقل ، أن تردع نهائيا مشروع القوى اليمينية الطائفي . وحتى يمكن للمقاومة الفلسطينية العمل وهي مطمئنة الى عمق شعبي وقدرة لبنان في تأمين حماية وطنية للوجود الفلسطيني والمقاومة اللبنانية كذلك . وهذا الانحياز ليس « تدخلا في الشؤون الداخلية اللبنانية » الا بقدر وعي المقاومة الفلسطينية ان الجزء الهام من المسألة اللبنانية هو المأزق الوطني الذي سببه تخاذل المؤسسات اللبنانية في تحمل المسؤوليات القومية . ان دخول المقاومة الفلسطينية على المسألة اللبنانية أعاد الصراع اللبناني الى صراع سياسي وأوجد ايديولوجية وطنية للصراع . والآن تحاول الطائفية اللبنانية تزييف الصراع مرة أخرى والحاقه بالصراع الطائفي ، مستفيدة من الاوضاع العربية الملتحقة بالنظام الامبريالي الامركي لاجهاض الايديولوجية الوطنية التي أدخلتها المقاومة الفلسطينية على الصراع اللبناني لأول مرة .

ناشي طه

ا (٢) القضية الفلسطينية دوليـاً

I

تمكنت دبلوماسية كيسينجر من تحقيق انتصار للامبريالية الامريكية في الشرق الاوسط أخذ شكل الاتفاق الجزئي والمنفرد الذي عقدته حكومة الرئيس السادات مع الحكومة الاسرائيلية لتحقيق انسحاب جزئي جديد على جبهة سيناء . وانطوى هذا النجاح على تصديع للجبهة العربية التي تكونت عشيـة حرب اكتوبر وخلالها ، وتشقق التضامن العربي ، وتجميد السلطات المصرية الصراع مع اسرائيل وترك سوريا والشعب الفلسطيني وحدهما فـي ساحة العراك .

جرى التوقيع بالاحرف الاولى على الاتفاقيـة الجديدة في مطلع شهر ايلول (سبتمبر) الماضي في كل من الاسكندرية واسرائيل . وتتألف الاتفاقية من اربعة اجزاء هي : (أ) وثيقة سياسية تحدد المبادىء العامة عسكريا وسياسيا لطبيعة الاتفاق ومستقبل « العلاقات » بين البلدين . (ب) ملحق عسكري يحدد صلاحيات فريقي العمل المصـري والاسرائيلي المجتمعين حاليا في جينيف من اجـل التفاوض على تنظيم عملية تنفيذ بنود الاتفاق وتحديد خطوط الجبهة الجديدة والمناطـق العازلـة الخ بالتفصيل . (جـ) وثيقة تحدد طبيعـة الوجـود الاميركي في سيناء وصلاحياته ومستقبله . (د) وثيقة أطلق عليهـا اسم « مـذكرة » تحـدد طبيعة العلاقات الامريكية ـ الاسرائيلية بما فيهـا المساعدات التي ستتلقاها اسرائيل نتيجة موافقتها على الانسحاب الجزئي في سينـاء . وقد ذكـر كيسينجر ان هناك اجزاء سرية لن يعلن عنها في اتفاقية سيناء .

ان أحد الاسباب الرئيسية لقولنا بان الاتفاقية حققت انتصارا مرحليا للامبريالية الامريكية نابـع من طبيعة التنازلات التي قبل بها الرئيس السادات امام اسرائيل والولايات المتحدة ونصـت عليهـا الاتفاقية بوضوح . وهذا ظاهر حتى من اسـم الصفقة الرسمي التي تحمل عنوان « اتفاق بـين مصر واسرائيل » ، وهذه هي المرة الاولى التـي توقع فيها دولة عربية وثيقة من هذا النوع مـع اسرائيل . يضاف الى ذلك ان بنودا رئيسيـة من الوثيقة الاولى تفيد عمليا انهاء السلطـات المصرية لحالة الحرب مع اسرائيل . فقد نصـت المادة الاولى على أن النـزاع بـين الطرفين في الشرق الاوسط يجب الا يحل بالقوة المسلحة انما بالطرق السلمية . وجـاء في المـادة الثانية بان الطرفين المعنيين يتعهدان بعـدم الالتجاء الـى التهديد بالقوة والى عدم استخدامها او استخدام الحصار العسكري ضد الطرف الاخر . نصـت المادة الثالثة على امتناع الطرفان المعنيان عـن القيام بأي عمل عسكري او شبه عسكري ضـد الطرف الاخر . يضاف الى ذلـك ان الوجـود الامريكي قد اكتسب شرعية معينة في سيناء من خلال محطات المراقبة الالكترونية علـى طـرفي خطوط الجبهة . ونصت الاتفاقية ايضا على السمـاح للبضائع الاسرائيلية المرور في قناة السويس مـن اسرائيل واليها ، وعلى بقاء هذا الاتفاق ساري المفعول الى اجل غير محدد وحتى اتمام اتفـاق اخر بين الطرفين ، وعلى التجديد لقوات الطوارىء الدولية سنويا . وقد بينت الاتفاقيـة الخطـوط العسكرية التي ستتمركز عندها القوات المصريـة والاسرائيلية . ووفقا للترتيبات الجديدة تحصـل مصر على حقول نفط ابو روديس باستثناء الابـار الجديدة التي حفرتها اسرائيل ، وعلى الممـرات الاستراتيجية في سيناء باستثناء المنحدرات الشرقية في ممر الجدي ، وعلى ممر بري يستخدمه المصريون والاسرائيليون تناوبا . وخلال سريان مفعول هذه الاتفاقية سينشىء الطرفان لجنة مشتركة تعمـل تحت رئاسة المنسق العام لعمليات الامم المتحـدة في الشرق الاوسط وذلك للنظر في أية مشكلـة تنجم من تطبيق نصوص الاتفاق وتتعاون اللجنة مع قوات الطوارىء الدولية . والجدير بالاشارة الى ان الانسحاب الجديد يبقي حوالي ٨٥ بالمئة مـن أراضي سيناء تحت الاحتلال الاسرائيلي .

اما الوثيقة المتعلقة بوجود محطات الانـذار الامريكية فقد نصت على ما يلي : (أ) انشـاء محطتان للاستكشاف والانذار الاستراتيجي المبكر يقوم بتشغيل احداهما خبراء مصريون وامريكيون

والثانية خبراء اسرائيليون وامريكيون على الا يزيد عدد الكادرات في كل محطة على ٢٥٠ عنصرا من الفنيين والاداريين . (ب) تدعيما لهاتين المحطتين تقيم الولايات المتحدة ثلاث محطات مراقبة في ممري الجدي والمتلا وتديرها عناصر امريكية . وتقيم الولايات المتحدة ايضا ثلاث مواقع الكترونية تعمل بصورة آلية في نهايتي كل ممر من الممرين المذكورين وفي المناطق المحيطة بكل محطة وفي الطرق المؤدية الى هذه المحطات . (جـ) تسحب الولايات المتحدة خبراءها في حال قناعتها بأن سلامتهم معرضة للخطر او بان استمرارهم في العمل بات غير ضروري ، او في حال طلب الطرفين المعنيين بانهاء وجود هؤلاء الخبراء في سيناء .

أما بالنسبة للبنود السرية فقد ذكرت الصحافة الامريكية التكهنات التالية حول طبيعتها : (أ) تعهدت الولايات المتحدة بارسال احدث الاعتدة العسكرية الى اسرائيل . (ب) تعهدت مصر بالتجديد سنويا لقوة الطوارىء الدولية بصورة آلية على امتداد ثلاث سنوات ، وبتخفيف حجم الدعاية العربية المناوئة لاسرائيل بما في ذلك داخل الامم المتحدة ، وبوقف مقاطعتها للشركات الامريكية التي تتعامل مع اسرائيل . (جـ) تعهدت مصر بعدم الاشتراك في اي حرب اذا هوجمت اسرائيل من قبل اية دولة ثالثة الا اذا كانت اسرائيل هي البادئة بالعدوان على ان يترك امر تحديد ذلك للحكومة المصرية . (د) تعهدت الولايات المتحدة امام اسرائيل بعدم الاعتراف بمنظمة التحرير ما دامت المنظمة ترفض الاعتراف بالوجود الاسرائيلي وبعدم تقديم اية مبادرات سلام جديدة في الشرق الاوسط بدون استشارة اسرائيل . (هـ) تعهدت الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بحاجتها من النفط. وذكرت مجلة « تايم » الاسبوعية بان الفنيين الامريكيين الذين سيشرفون على محطات الانذار سيأتون من صفوف العسكريين ورجال الاستخبارات وأن العلاقة الامريكية الاسرائيلية تحولت — بعد صفقة سيناء — الى ما يساوي معاهدة امن غير رسمية بين البلدين . وحول هذا الموضوع اكدت مصادر دبلوماسية اسرائيلية ما ذكرته الصحافة الامريكية واضافت اليه قائلة بان الولايات المتحدة تعهدت امام اسرائيل بعدم الضغط عليها خلال اية مفاوضات قد تجري مع سوريا لتقديم تنازلات في الاراضي غير تلك التي اشار اليها رابين في محادثاته في واشنطن في شهر حزيران الماضي (اشار رابين وقتها الى احتمال قبول اسرائيل التفاوض مع سوريا لاجراء تعديلات طفيفة على خطوط الجبهة في الجولان على الا يؤثر ذلك على وضع المستعمرات العدوة هناك) . كذلك تعهدت الولايات المتحدة بعدم الضغط على اسرائيل لعقد اتفاق مؤقت اخر في سيناء او لعقد اتفاق مؤقت مع الاردن . كما التزمت بضرورة التنسيق مع اسرائيل حول توقيت جدول اعمال مؤتمر جينيف للسلام .

واضح اذن ان الولايات المتحدة اصبحت هي المتحكمة بالوضع في الشرق الاوسط (على الاصعدة الرسمية طبعا) اذ انها ضمنت تجميد الصراع لمدة ثلاث سنوات على اقل تعديل وادخلت مصر واسرائيل تحت مظلة واحدة من الضمانات الامريكية وابعدت الاتحاد السوفياتي عن مجرى المفاوضات والاتفاقات وضمنت لنفسها وجودا جديدا يمكنها من مراقبة المنطقة عن كثب وخاصة حقول البترول .

على اثر انتهاء كيسينجر من مهمته في المنطقة وتوقيع الاتفاقية المذكورة بالاحرف الاولى عقد كيسنجر مؤتمرا صحافيا مشتركا مع الرئيس السادات ناقشا فيه التسوية الجزئية الجديدة في سيناء . وكان أهم ما ذكره كيسينجر في المؤتمر هو : (أ) ان الاتفاق يشكل نقطة تحول في الصراع في الشرق الاوسط وخطوة مهمة نحو السلام العادل والدائم في المنطقة . (ب) أن حكومة بلاده ستشجع بالتأكيد اجراء مفاوضات مباشرة بين طرفي النزاع بعد التجربة الناجحة التي تم انجازها . (جـ) بأنه ليس هناك اتفاقات مؤقتة وشيكة الحدوث بين اسرائيل من ناحية وسوريا والاردن من ناحية ثانية . اما الرئيس السادات فقد دافع باسهاب عن الاتفاقية والوجود الامريكي في سيناء ويمكن تلخيص ما قاله بالنقاط التالية : (أ) بأن « المهم ليس قطعة أرض ولا كيلومترا بل المهم لن نسلك طريق السلام »ولذلك يشكل هذا الاتفاق نقطة تحول في تاريخ النزاع العربي الاسرائيلي . (ب) أن مصر ستتجه الى المزيد من الانفتاح الاقتصادي خاصة بعد الدفعة الجديدة التي سيولدها تحقيق الاتفاق في سيناء في

هذا الاتجاه . (ج) بانه ما زال عند رأيه القائل بأن « أوراق هذه اللعبة ان لم تكن كلها بيد امريكا فان ٩٩ بالمئة منها على اقل تعديل هي كذلك » ولذلك طلب من الرئيس فورد في قمة سالزبورج « ليكون شاهدا » بينه وبين اسرائيل من خلال محطات الانذار الالكترونية . (د) بأنه ابلغ الرئيس فورد ضرورة المحافظة على قوة الدفع الحالية في جهود السلام الامريكية وحثه على ضرورة تحقيق تحرك مشابه على الجبهة السورية ودخول امريكا في حوار مع الفلسطينيين لان التسوية النهائية في المنطقة غير ممكنة بدون موافقتهم . (هـ) بانه يتطلع الى زيارة الولايات المتحدة ومقابلة الرئيس فورد في المستقبل القريب.

في طريق عودته الى واشنطن توقف كيسينجر في المملكة العربية السعودية والاردن وسوريا حيث قابل الملكين خالد وحسين والرئيس الاسد . وذكرت مصادر الوفد المرافق للوزير الامريكي بأن السلطات السعودية وافقت على التسوية المؤقتة « بكل ما في الكلمة من معنى » ، وبأن كيسينجر قدم تطمينات للملك حسين بدون ان يتعهد بأي التزامات محددة . في الواقع ذكر الوزير الامريكي في عمان صراحة « بأن انسحاب اسرائيل من الضفة الغربية ليس وشيكا » وان المفاوضات بين الاردن واسرائيل اصبحت مستحيلة بعد ان منحت الحكومات العربية منظمة التحرير حق تمثيل شعب الضفة الغربية . وبالنسبة لسوريا ذكرت مصادر الوفد الامريكي بأنه ليس لدى كيسينجر أية خطط حالية للاشراف على مفاوضات لفك ارتباط جديد بين سوريا واسرائيل . وفي واشنطن ابلغ كيسينجر زعماء الكونغرس الامريكي بحضور الرئيس فورد وجود اقسام سرية من الاتفاق بين مصر واسرائيل والتي لا يمكن لاحد ان يطلع عليها باستثناء لجان الكونغرس المختصة.

ولدت الاتفاقية التي عقدها الرئيس السادات مع اسرائيل ردود فعل عنيفة محلية وعربية ودولية. ومن أهم مواقف المعارضة التي ظهرت كان موقف الاتحاد السوفياتي الذي عبر عن ادانته للصفقة بامتناعه عن الاشتراك في جلسة التوقيع على وثائق الاتفاقية في جينيف مما حدى بالجانب الامريكي الى عدم المشاركة ايضا في جلسة التوقيع . وادى هذا الوضع عمليا الى اخراج الاتفاقية الجديدة من اطار مؤتمر جينيف الذي يرأسه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة سوية . وقد شرح الاتحاد السوفياتي موقفه هذا من خلال رسالة بعثتها القيادة السوفياتية الى ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير . وذكرت مصادر مطلعة بأن الاعتبارات التي عرضها الاتحاد السوفياتي تلخصت بما يلي : (أ) اصراره على ضرورة الانسحاب الاسرائيلي الشامل من الاراضي العربية المحتلة وضمان الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . (ب) اصراره على ان مؤتمر جينيف وحده هو المكان المناسب ا ث قضايا النزاع العربي الاسرائيلي . (ج) اعتقاد الاتحاد السوفياتي بأن هذا النوع من الحلول الجزئية والمنفردة مخالف لقرارات مجلس الامن المتعلقة بالشرق الاوسط مما جعل الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية تتم بعيدا عن قرارات الامم المتحدة ومجلس الامن الدولي . (د) ان اتفاقية سيناء لا تنسجم مع المواقف التي تم الاتفاق عليها بين الاطراف الدولية المعنية وبين الاطراف العربية في اعقاب حرب اكتوبر ١٩٧٣ . وبالفعل فقد تم التوقيع على وثائق الاتفاقية بغياب الدولتين الكبريين وتستمر الاجتماعات حاليا بين الوفدين المصري والاسرائيلي في جينيف ضمن هذا الاطار .

وفي تصريح ادلى به مسؤول سوفياتي كبير لصحيفة « السفير » البيروتية (١٩٧٥/٩/٧) أكد ان سياسة الاتحاد السوفياتي لا تنوي ترك الشرق الاوسط للامريكيين وان بلاده ستناضل بكل الوسائل المتاحة لافشال الجهود الدبلوماسية الامريكية في المنطقة كما انها ستتعاون مع كافة القوى الوطنية لتحقيق ذلك . واوضح المسؤول بان مسألة الشرق الاوسط اصبحت بمثابة القضية الداخلية بالنسبة للاتحاد السوفياتي مما ادى الى متاعب نتيجة تساؤلات داخل البلاد حول اسباب الوصول الى مثل هذه النتائج السلبية بعد كل المساعدات التي قدمها الاتحاد السوفياتي للدول العربية والجهود التي بذلها في دعمها . وكشف المسؤول النقاب عن أن القيادة السوفياتية عاكفة الان على بحث سياسة البلاد في المنطقة واعادة تقييمها من جديد ، ووصف علاقات الاتحاد السوفياتي بالدول العربية بأنها جيدة ووثيقة مع سوريا ، فاترة مع

العراق ، طيبة مع ليبيا ، ومتنامية مع الاردن . واختتم المسؤول تصريحه بقوله ان سياسة النظام المصري الحالية ستؤدي الى عزلتـه عن موقـع الزعامة العربية والى عزل مصر عـن محيطهـا العربي ، وأكد ان سوريا لن توافق على عقـد اتفاق جزئي في الجولان مماثل لاتفاق مصر خـاصة وان الولايات المتحدة لن تحرك ساكنا بهذا الشأن قبل ١٩٧٧ بسبب انتخابات الرئاسة الامريكية . ولا بـد من الاشـارة هنـا الى ان الصحافـة السوفياتية هاجمت اتفاقية سيناء وانتقدتها معتبرة اياها لا تشكل خطوة حقيقية على طريق التسويـة الشاملة ولا تقرب المنطقة من السلام المنشود لان السلام الذي تحتاجه ، المنطقة هو الذي تشـارك في تحقيقه جميع الاطراف المعنية بالنزاع وهذا ما لا تتناوله صفقة سيناء . كما واتهمت الصحافة السوفياتية مصر واسرائيل بمحاولة ايهام الاطراف الاخرى بأن الاتفاقية تمت ضمن اطار مؤتمر جنيف في حين ان الواقع ليس كذلك . وشنت حملـة على التدخل الامريكي المباشر في المنطقة من خلال محطات الانذار والخبراء الامريكيين التابعين لها مذكرة بان المساعدة الامريكية لنظام سايغون بدأت بفريق صغير من المستشارين . والمحت الـى ان المشكلة الفلسطينية ما زالت على حالها كمـا ان السياسة التوسعيـة الاسرائيليـة في الاراضي العربية المحتلة لم تتغير .

جاء الرد السوري على الاتفاقية عنيفا ايضا . فقد اصدرت القيادتان القومية والقطرية لحـزب البعث العربي الاشتراكي بيانا شديد اللهجة ادان فيه خطوات الرئيس السادات باتجاه القبـول بالحل الجزئي المنفرد . وقبل اذاعة البيان علقت الاذاعة السورية بلهجة حادة على الاتفاقية مبينة ما تنطوي عليه من خسائر للجانب العربي ومكاسب لاسرائيل وللولايات المتحدة التي تحولت « من عدوة الى حارسة للسلام في المنطقة » . واستند بيـان الادانة السوري الى الاعتبارات التالية في رفضه اتفاقية سيناء ومهاجمته لها : (أ) تجميد الاتفاق للجبهة المصرية نتيجة الالتزام بعدم استخـدام القوة والاكتفاء بالمفاوضات وسيلة وحيدة لمعالجـة الصراع مع العدو في الوقت الذي لا يزال القسم الاكبر من سيناء وباقي الاراضي العربية المحتلـة يرزح تحت نير الاحتلال . (ب) تأدية الاتفاق الى انهاء عملي وتعاقدي لحالة الحرب ورفع الحصار العسكري العربي عن اسرائيل . (ج) اغفـال الاتفاق الاشارة الى الاراضي العربية المحتلـة الاخرى وقضية الشعب الفلسطيني وانزلاقه بذلك نحو الحلول المنفردة والجزئية . (د) تكريـس الاتفاق للسياسة الاسرائيلية المعلنة من زمن بعيد والقائلـة بضرورة حـل الصراع مع العـرب بالمفاوضات الثنائية وليس بأية وسائـل اخـرى مما من شأنه طمس قضية الشعب الفلسطينـي وتحويل الصراع الى مجرد نزاع على الحدود . (هـ) تثبيت الاتفاق حدودا آمنة لاسرائيل مع مصر داخل الاراضي المصرية ذاتها من خلال الوجـود الامريكي في سيناء والتزام مصـ بعدم القيام بأيـة أعمال عسكرية او شبه عسكرية مما سيفسـح الفرصة امام اسرائيل لتركيز قواها (العسكرية وغير العسكرية) لمواجهة الجبهات العربيةالاخرى. (و) ادخال الاتفاق للولايات المتحدة كطرف مباشر في الصراع واعطائها وجودا من نوع جديـد في المنطقة بعد ان كان الجهد الوطني العربي موجها دوما لطرد الوجود الامريكي من المنطقة . (ز) تعارض نصوص الاتفـاق ومضمونه مـع قرارات مؤتمرات القمة العربية في الخرطـوم والجزائـر والرباط حيث تم التأكيد على رفض التفاوض والصلح والاعتراف بالعدو الاسرائيلي وعلى وحدة القضية العربية في مواجهة اسرائيل وادانة كل محـاولة لتجزئتها مع الالتزام الكامل بتحريـر الاراضـي العربية المحتلة واستعادة الحقوق الوطنية للشعب العربي الفلسطيني وضرورة تعزيز التضامن العربي الشامل والفعال في كافة المجالات لمواجهة العدوان الاسرائيلي . وخلص البيان السوري الى تأكيـد وحدة القضية العربية واستمرار المعركة والصراع مع العدو في كل المجالات داعيا قوى المواجهة في فلسطين والاردن الى تجاوز كل الخلافات من اجل التصدي للواقع الجديد الذي فرضته الاتفـاقية المصرية ـــ الاسرائيلية الجديدة .

بالاضافة الى هذا البيان عبر الرئيس الاسد عن رأيـه في الاتفاقية الكيسينجرية خـلال مقـابلة تلفزيونية شاملة ومطولة اجرتها معه هيئة الاذاعة البريطانية قال فيها : (١) أن سوريا لا توافق على الاتفاق لانه يشكل محاولة خطيرة لتفتيت الجبهة العربية واضعافها ولان الاتفاق يعتبر في بعـض

جوانبه رضوخا لواقع الاحتلال الاسرائيلي كما انه يتعارض مع مقررات هيئة الامم المتحدة . (٢) ان سوريا تعمل من اجل حل شامل للنزاع على أساس مقررات الامم المتحدة ، وهذا يعني عدم معارضة سوريا التحرك خطوة خطوة شريطة الا يعني ذلك اتباع اساليب العمل الجزئية والمنفردة مما لا يخدم قضية السلام العادل . (٣) أن احدا لم يتعهد لسوريا – والسلطات السورية لم تطلب ان يتعهد لها احد – ببدء مفاوضات لتحقيق فك ارتباط جديد في جبهة الجولان . وأكد الرئيس الاسد بأن المهم ليس ان تبدأ مثل هذه المفاوضات بل المهم كيفية سيرها والاسس التي تنطلق منها والمبادىء التي تسترشد بها ونوعية النتائج التي تحققها . (٤) انه اذا اغلقت كافة الخيارات والابواب الاخرى لا يبقى امامنا الا اللجوء الى الحرب من اجل استرداد الحقوق المغتصبة علما بأن احدا لا يهوى الحرب من اجل الحرب . وهنا أشار الرئيس الاسد الى انه يكاد يشعر ان الابواب كلها تكاد تكون مغلقة . (٥) ان الاعتقاد بامكانية انهاء حالة الحرب في المنطقة من قبل اي طرف من اطراف النزاع بمفرده ليست سوى وهم لانه لا يمكن ان تكون هناك في آن واحد حالة حرب بين اسرائيل وبعض الدول العربية وحالة سلام مع دول عربية أخرى لان العرب يشكلون امة واحدة تشارك بمصير ومستقبل موحد . (٦) ان انهاء حالة الحرب بالنسبة لسوريا يتطلب تحقيق شرطين : انسحاب اسرائيل من كل الاراضي العربية المحتلة ، وتأمين حقوق الشعب الفلسطيني الوطنية . (٧) ان سوريا ترفض تجريد الجولان تجريدا كاملا من السلاح ولكنها مستعدة لقبول تجريد مساحات معينة منه شريطة ان تجرد مناطق مساوية على الجانب الاخر من الحدود . (٨) ان سوريا لا يمكن ان تقبل اتفاق جديد لفك الارتباط لا يؤدي الا الى انسحاب اسرائيلي من بضع مئات من الامتار في الجولان .

ومن ناحية اخرى اعلن وزير خارجية سوريا بأن حكومته تسعى حاليا لانشاء جبهة عسكرية تواجه اسرائيل تمتد من رأس الناقورة على الساحل اللبناني الى ميناء العقبة الاردني . واكد الوزير السوري بأن الجبهة السورية – الاردنية قد تشكلت وان الجهود تبذل لضم الفلسطينيين اليها.

ووصف اتفاقية سيناء بانها انهيار للنضال العربي.

بالنسبة للثورة الفلسطينية صدرت عدة ردود فعل قوية على اعلى المستويات ضد اتفاقية سيناء وتعبيرا عن ادانتها . وجاء أول رد فعل على لسان ياسر عرفات نفسه ساعة توقيع الاتفاقية حيث هاجمها بوضوح وحزم خلال الخطاب الذي القاه بمناسبة حفل تقليده وسام السلم العالمي في بيروت . وكآن اهم ما قاله عرفات في هذا الصدد أن امريكا واسرائيل تخطئان ان اعتقدتا ان الجيش المصري سيقف مكتوف الايدي اذا تعرضت الثورة الفلسطينية للتصفية او ضربت اي اجزاء من الارض العربية . واكد بأن السلام في المنطقة لا يمكن ان يكون سلاما امريكيا بل لا بد ان يكون سلام فلسطين وسلام الجماهير التي تفرض شروطها على الامبريالية والصهيونية.ودعى عرفات التنظيمات الفلسطينية كافة لعقد المشاورات اللازمة لتخطي المؤامرة التي تلتف حول الثورة الفلسطينية . وجدير بالاشارة ايضا ان المصادر الاعلامية الرسمية لمنظمة التحرير اعلنت رفض المنظمة لدعوة الرئيس السادات الولايات المتحدة الدخول في حوار مع الفلسطينيين . ووصفت الاتفاقية المصرية – الاسرائيلية بأنها اتفاقية سياسية خطيرة على خلاف ما كانت تقولهالسلطات المصرية حول كونها اتفاقية محض عسكرية . وعلى أثر ذلك صدر بيان عن اللجنة المركزية لحركة فتح ادان اتفاقية سيناء بوضوح استنادا الى الاعتبارات التالية : (١) تجميد الاتفاق للصراع العربي – الصهيوني مقابل قطعة ارض مصرية في حين يبقى الاحتلال الاسرائيلي قائما في بقية الاراضي العربية المحتلة . (٢) تجزئة الاتفاق للقضية العربية – الفلسطينية وتأديته الى احداث شرخ في التضامن العربي . (٣) جعل الاتفاق الثورة الفلسطينية تقاتل وحدها في الميدان وتهيئته الاجواء المناسبة لاستمرار العدوان الاسرائيلي على جنوب لبنان . (٤) اعطاء الاتفاقية الشرعية المطلوبة للتدخل الامريكي وذلك بموافقة عربية رسمية مما يجعل الاحتلال ذو طابع مزدوج اسرائيلي امريكي . (٥) تشكيل الاتفاق اعترافا بالعدو الصهيوني وبداية للتعامل معه على اساس الامر الواقع كما تعكسه الصفقة الكيسينجرية . ودعى البيان كافة القوى العربية الشعبيةوالوطنية

والتقدمية الى الوقوف مع الشعب الفلسطيني وثورته لمواجهة النتائج السيئة المترتبة على هذه الاتفاقية ولحماية الثورة ومواجهة المخططات الامبريالية الامريكية في المنطقة . كما دعى الدول العربية الى احترام مقررات مؤتمري القمة في الجزائر والرباط والى الوحدة الوطنية داخل صفوف الثورة الفلسطينية .

وحددت منظمة التحرير موقفها الرسمي من الاتفاقية في بيان مشترك صدر عن اللجنة التنفيذية للمنظمة والمجلس المركزي ادان اتفاقية سيناء ورفض ما تنطوي عليه من تفريط بالسيادة المصرية وبالقيادة الفلسطينية وبوحدة الصراع العربي — الفلسطيني . ويمكننا تلخيص اهم ما جاء في البيان بالنقاط التالية : (أ) اشارة البيان الى أن موقف المنظمة من اتفاقية سيناء يأتي على اثر استعراض المواقف العربية والدولية وردود فعل الجماهير الفلسطينية خاصة والعربية عامة من الاتفاقية المذكورة . (ب) التأكيد بأن الاتفاقية ليست مجرد خطوة عسكرية ضمن اطار ما يسمى بفصل القوات بل هي في حقيقتها اتفاقية سياسية تجمد حالة الحرب مع العدو على جبهة واحدة وترفع عنه الحصار العسكري والاقتصادي وتعزل مصر عن دائرة الصراع العربي الصهيوني وتطعن في الصميم كرامة مصر وكرامة شعبها وجيشها . (جـ) التأكيد على ان الاتفاقية تنطوي على اخطار حقيقية تهدد السيادة القومية العربية ومستقبل النضال الوطني خاصة في موافقتها على الوجود الامريكي في سيناء . (د) التأكيد على ان الاتفاقية مست مسا واضحا بقضية فلسطين وبالحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني عن طريق الاعتراف الضمني بشرعية الكيان الصهيوني . واكد البيان تمسك المنظمة ببرنامجها المرحلي المعروف والمرتكز الى ابراز الشخصية النضالية السياسية للشعب الفلسطيني وتحقيق استقلاله الوطني ورفض الاعتراف بالكيان الصهيوني والدعوة الى الالتزام المستمر بالتضامن العربي الفعال سياسيا وعسكريا .

اما في اسرائيل فقد جاءت أهم ردود الفعل الرسمية على تحقيق اتفاقية سيناء على لسان رئيس الوزراء نفسه الذي ادلى بعدد من الخطب والتصريحات حول الموضوع . وكان اهم ما قاله رابين بهذا الصدد : (أ) ان الاتفاقية هي أول اتفاق من نوعه بين مصر واسرائيل يتحدث عن تسوية النزاع بالطرق السلمية بدون الاشارة الى قرارات الامم المتحدة او الارتباط بها وبدون ربط الاتفاق بضرورة تحقيق تسويات مشابهة مع دول عربية اخرى . (ب) ان تعهد مصر بعدم استخدام القوة سيكون له تأثير لمصلحة اسرائيل على عقلية حكام الدول العربية المجاورة . (جـ) اذا كانت مصر مستعدة لابدال الاتفاق المؤقت بمعاهدة سلام فان اسرائيل مستعدة على الفور الى مواجهة ما يترتب على ذلك من نتائج بما في ذلك الانسحاب من اراضي سيناء الى حدود يتم التفاوض بشأنها وتكون آمنة ومعترف بها . (د) ان وجهات النظر الاسرائيلية والامريكية متطابقة بالنسبة للجبهة الاردنية والمنظمات الفلسطينية . وأكد رابين أنه بعد أن جردت قمة الرباط العربية الاردن من صلاحية اجراء مفاوضات مع اسرائيل بخصوص الضفة الغربية لم يعد هناك اي طرف صالح تتفاوض معه اسرائيل في الجبهة الشرقية اذ انها ترفض التفاوض مع منظمة التحرير . (هـ) اكد رابين مجددا انعدام وجود اي مجال سياسي او جغرافي لاجراء مساومات في جبهة الجولان خاصة وان سياسة حكومته تقضي بعدم ازالة المستعمرات الاسرائيلية التي انشئت هناك وبابقاء قمة جبل حرمون مجردة من السلاح . واشار الى ان مجال المساومة في بعض قطاعات الجولان لا يتعدى مئة او مئتين مترا . واستنتج من ذلك انعدام وجود اية فرصة للوصول الى اتفاق مؤقت مع سوريا . (و) ليس في لبنان حكومة قوية يمكن ان تجري اسرائيل معها اية مفاوضات علما بأن المشكلة مع لبنان لا تتناول الارض بل وجود المنظمات الفلسطينية التي تعمل ضد اسرائيل . (ز) تكهن رابين بامكانية تحول رفض الاتحاد السوفياتي « حضور جلسة توقيع اتفاقية سيناء الى معارضة قوية وواسعة » تتخذ اشكالا مختلفة من اجل ضرب الغاية التي يرمي اليها الاتفاق المؤقت » .

نتيجة ردود الفعل العنيفة التي اشرنا اليها دافع الرئيس السادات مجددا عن صفقة سيناء وهاجم معارضيها في حملة عنيفة شنها في خطاب

القاه مؤخرا . وخص الرئيس السادات بهجومه الحاد مظاهرات الاستنكار الشعبي للاتفاقية التي جرت في سوريا والبيان الذي صدر عن "القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي هناك ، والبيان الذي صدر في بغداد . وتناول السادات في هجومه ياسر عرفات مستغربا كلام رئيس منظمة التحرير حول الجيش المصري الذي لن يقف مكتوف الايدي امام محاولات تصفية الثورة الفلسطينية وضرب الجبهة العربية واتهمه بتحريض الجيش المصري على القيام بانقلاب. كذلك هاجم الاتحاد السوفياتي واصفا اياه «بالوسواس الخناس » الذي يريد التحريض على شق الصف العربي عن طريق مقاطعة جلسة توقيع الاتفاق في جنيف . بالاضافة الى كل ذلك كشف الرئيس المصري بأن الخلافات كانت قائمة بين مصر وسوريا منذ مجيء كيسينجر الى المنطقة للمرة الاولى بعد حرب اكتوبر ووجه الشكر مرة اخرى الى الرئيس فورد ودافع عن تحول مصر باتجاه الانسجام مع السياسة الامريكية في المنطقة بقوله « ظل العرب يشتمون امريكا طوال الخمسين سنة الماضية فلم يكسبوا من شتائمهم شيئا » .

II

ما زالت التطورات الدولية المتعلقة بالقضية الفلسطينية تتمحور حول الاثار التي تركتها اتفاقية سيناء والتفاعلات التي خلفتها . ومن أهم جوانب الموضوع التي تثير الاهتمام الجدل العربي الدائر حول هذه الصفقة « الدولية » الطابع وان كانت أمريكية التدبير تخطيطا وتنفيذا . وأهم ما في هذا الجدل الاستقطاب الذى جرى في المواقف بين سوريا ومصر ، حيث أدانت الاولى الاتفاقية ورفضتها جملة وتفصيلا وعملت كل ما في وسعها على فضحها . في حين عمدت السلطات المصرية الى الدفاع عن الاتفاقية مهاجمة كل نقادها وخصومها وبخاصة السلطات السورية ومنظمة التحرير .

استمرارا لهذا الجدال والاستقطاب في المواقف أدلى الرئيس حافظ الاسد بتصريحات هامة جديدة الى مجلة « نيوزويك » الاسبوعية الاميركية في منتصف شهر أيلول المنصرم أكد فيها : (١) أن سوريا تعتبر الاتفاقية خطوة الى الوراء بالنسبة لموضوع تحقيق السلام في المنطقة لانها تعجل في تدوم الازمة المقبلة باغلاقها كافة الابواب التي كان يمكن أن تؤدي الى السلام الحقيقي . (٢) ان الاتفاقية تقسم مشكلة الشرق الاوسط الى أجزاء منفصلة في حين أن « النزاع ليس نزاعا مصريا — اسرائيليا أو سوريا — اسرائيليا بل هو نزاع عربي اسرائيلي ، وتجاهل هذه الحقائق لا يبدل شيئا من طبيعتها » . (٣) ان موافقة مصر على انهاء حالة العداء مع اسرائيل والسماح لبضائعها بالمرور في قناة السويس كان يجب ان يتما في حال قبول اسرائيل بالانسحاب الكامل من الاراضي العربية المحتلة وضمان حقوق الشعب الفلسطيني ، خاصة وان « الملايين التي تعطيها الولايات المتحدة لاسرائيل في مقابل بضعة أميال من الارض العربية ستشجع اسرائيل في تعنتها وتصلبها » . (٤) ان الاتفاقية جعلت من الولايات المتحدة طرفا مباشرا في النزاع العربي الاسرائيلي وهذا بالطبع لا يخدم المصلحة العربية . كما انه واضح لسوريا أن الحكومة الاميركية تعمل على تخدير الوضع في المنطقة وعلى استمراره على ما هو عليه . (٥) ان كيسنجر لم يعط اية تقديرات أو تخمينات على الاطلاق حول فرص حدوث انسحاب اسرائيلي جديد في الجولان وان جميع المحادثات السورية الامريكية حول هذا الموضوع بقيت ضمن اطار العموميات ولم تتطرق الى اية تفاصيل محددة . (٦) ان ما تقوله السلطات المصرية حول الشروع في مفاوضات قريبة لتحقيق اتفاقية جديدة على جبهة الجولان ليس صحيحا على الاطلاق « اذ ليس هناك اي اتفاق مع أي كان حول البدء بأية مفاوضات » . (٧) ان سوريا تعيد الآن النظر في موقفها وسياستها على ضوء التعقيدات التي خلقتها اتفاقية سيناء وما أدت اليه من اعطاء اسرائيل المزيد من المكاسب

، أسلحة متطورة ، التزام اميركي أكثر عمقا ، انهاء حالة العداء مع مصر الخ ...) وستكـون نتيجة اعادة النظر في السياسة السورية ذات طبيعـة حاسمة وليس كالنتيجة التي أسفرت عنها اعادة النظر المزعومة في السياسة الاميركية في المنطقة . ٨) ان سوريا ترفض اقامة جهاز انذار أميركي مبكر في الجولان على غرار ما حدث في سيناء حتى لو انسحبت اسرائيل انسحابا كليا مـن الهضبة . ٩) ان سوريا لن تقبل باقامة مناطق مجردة مـن السلاح الا اذا شملت مساحات متعادلة على جانبي خط الجبهة . (١٠) ان سوريا تؤيد حق الفدائيين الفلسطينيين في شن غاراتهم على اسرائيل من كافة اراضي الوطن العربي بما في ذلك سوريا . (١١) ان قمة الرياض كانت قد أسفرت عـن اتفاق علـى التنسيق الكامل بين سوريا ومصر وعدم اتخاذ أية خطوات هامة قبل تبادل وجهات النظر والتوصل الى موقف مشترك بين البلدين . لذلك تم انشاء لجنة التنسيق لهذا الغرض . لكن اللجنة المذكورة لم تبحث في أي شيء يتعلق باتفاق سيناء كما أنه لم يجر اي تبادل لوجهات النظر أو أية محاولة للوصول الى موقف مشترك بين سوريا ومصر حول هذا الموضوع الخطير . (١٢) ان الاتحاد السوفياتي غير موافق على اتفاقية سيناء وما يقوله كيسنجر خلافا لذلك مجانب للحقيقة ، كما ان الاتفاق بين سوريا والاتحاد السوفياتي تام بالنسبة للمشكلات العربية لان الدولة الصديقة الكبرى تؤيد الانسحاب الاسرائيلي الكامل من الاراضي العربية المحتلـة وتدعو الـى ضمان الحقوق الوطنيـة للشعـب الفلسطيني .

كذلك أدلى الرئيس الاسد بتصريحين هامين الى كل من صحيفة « النيويورك تايمس » و « القبس » الكويتية أكد فيهما : (١) ان كل اتفاق سلمي قد تتوصل اليه سوريا مع اسرائيل لا يمكن أن يتم الا بموافقة منظمة التحرير لأن احلال السلام في المنطقة غير ممكن بدون الاخذ بعين الاعتبار المصالح الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني . (٢) بأن سوريا لن تعترف باسرائيل بأي حال من الاحوال وهي مصرة على استعادة هضبة الجولان بكاملها باعتبار ذلك قضية قومية عليا . (٣) وجه الرئيس الاسد دعوة الى الرئيس السادات لالغاء اتفاقية سيناء قائلا « ان المخرج الوحيد من الوضع الذي يجد العرب انفسهم فيه حاليا هو في ان تكرر مصر العبارة التي قالها النحاس باشا : من أجل مصر والعرب نعلن الغاء هذا الاتفاق » (أي المعاهدة التي وقعها النحاس مع بريطانيا) . وأشار الرئيس الاسد الى ان الاردن رفض في السابق اتفاقـا مشابها لاتفاق سيناء لأنـه لم يكـن يتضمن الا انسحابا اسرائيليا « من بضعة كيلومترات في الضفة الغربية » . (٤) ان سوريا تبذل جهودهـا لتعيد التوازن ، بشكل أو بآخر ، مع اسرائيل وهـو التوازن الذي اختل بسبب تجميد الجبهة المصرية بعد اتفاقية سيناء .

وجدير بالاشارة هنا أن رئيس الوزراء السوري رد على الاراء المتداولـة في الاوساط السياسية الدولية والعربية والقائلة بأن سوريا مقبلة علـى توقيع اتفاق للفصل بين القوات في الجولان علـى غرار ما جرى في سينـاء . اذ ذكرت المصادر السياسية المصرية ان شهر تشرين الاول هو موعد الدخول في المباحثات الجدية لتحقيق هذا الامر . قال الايوبي في رده بأن سوريا « لن تقبل بأي اتفاق تدفع ثمنه جزءا واحدا مما دفعته مصر في اتفـاق سيناء ولن تقبل حتى استعادة الجولان بكاملـه مقابل ثمن شبيه بثمن اتفاقية سيناء » . ووجـه الايوبي كلامه الى الحكام في القاهرة قائلا : « لقد أخطأتم خطأ كبيرا وخسرتم خسارة كبيرة ، وربحت اسرائيل » . أما مندوب سوريا في هيئـة الامم فقد دخل في جدال مع مندوبي كل من مصر واسرائيل حول اتفاقية سيناء أثناء انعقاد الدورة الحاليـة للجمعية العمومية . رد المندوب السوري علـى نهجمات ممثل مصر على كبار المسؤولين السوريين وموقفهم النقدي من الاتفاقية وذلك أثناء ممارسته حق الرد على خطاب آلون وزير خارجية اسرائيل . أكد المندوب السوري أن بلاده لن توافق مطلقا على توقيع « اي اتفاق غادر كاتفاق سيناء وبالشروط ذاتها التي وافقت عليها مصر » لأن الاتفاقية هي مناورة اميركية اسرائيلية غايتهـا تجميد الوضع الراهن في المنطقة واطالة أمد الاحتلال الاسرائيلي للأراضي العربية . وقد اعتبرت المصادر الدبلوماسية الغربية أن موقف سوريا متصلب جـدا بالنسبة لشروط تحقيق اتفاق فك ارتباط جديد فـي الجولان وخاصة ربط سوريا لأية مفاوضات مع اسرائيل باجراء مفاوضات موازية مـع منظمة التحرير . وأوضحت هذه الاوسـاط انها تريد تحقيق اتفاق ما في الجولان لأن في ذلـك تدعيما لمواقـع الرئيس

السادات وسياسته الموالية للغرب ، الا ان موقف سوريا المتصلب لا يفسح مجالا كبيرا للأمل في هذا المجال .

بالنسبة للجانب المصري ألقى الرئيس السادات أكثر من خطاب وأدلى بأكثر من تصريح وحديث في دفاعه عن اتفاقية سيناء وتبريرها . وتميزت أقوال السادات بحملة لم يسبق لها مثيل على الاتحاد السوفياتي وصلت الى حد نفي وجود أية مساعدات سوفياتية لبلاده ووضع الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في مستوى واحد خلال حرب تشرين حيث قال « ان موقف موسكو سبب لمصر القلق نفسه الذي سببه الموقف الاميركي » . كما تميزت أقوال السادات أيضا بهجوم على حزب البعث العربي الاشتراكي وقياداته في سوريا وعلى منظمة التحرير وقياداتها بما فيهم ياسر عرفات . وكرر السادات أكثر من مرة أن الرئيس فورد تعهد له بألا تهاجم اسرائيل سوريا وبأن فك ارتباط جديد سيتم في الجولان كما أنه سيجري اشراك الفلسطينيين في التسوية . قال السادات كلاما مبهما بهذا الصدد : « اذا هاجمت اسرائيل سوريا فسينشأ وضع معقد جدا ونحن لدينا التزاماتنا » . ولم يوضح أحد حتى الآن ما هي هذه الالتزامات وما هي طبيعتها . اما وزير خارجية مصر فقد اعلن في دفاعه عن اتفاقية سيناء : (١) ان بلاده ستدعو الى عقد مؤتمر جنيف في أواخر تشرين الثاني للنظر في موضوع التسوية الشاملة . (٢) ان لدى حكومته تأكيدات رسمية تخص سوريا بحيث يتم التوصل الى اتفاق بشأن الجولان قبل شهر تشرين الثاني . (٣) ان اتفاقية سيناء ليست اتفاقية سياسية بل عسكرية لا تتعرض للقضية الفلسطينية وغيرها من القضايا الكبرى خاصة وان مصر ليس لديها تفويض من سوريا او منظمة التحرير للمفاوضة باسمهما .

من النتائج التي أسفر عنها الموقف المصري اغلاق محطة اذاعة « صوت فلسطين » في القاهرة التي كانت تديرها منظمة التحرير . وعلق المتحدث الرسمي باسم الثورة الفلسطينية على الحدث بقوله ان اغلاق المحطة جاء على ما يبدو تنفيذا للمقررات السرية في الاتفاق المصري — الاسرائيلي — الاميركي المتعلقة بايقاف الحملات الاعلامية ضد اسرائيل . وعلق ياسر عرفات على هذه الخطوة قائلا : « أرجو ألا تكون جزءا من خطط التهدئة تجاه العدو الصهيوني على الصعيد الاعلامي أيضا » . ودعت الصحافة المصرية منظمة التحرير الى « اعادة تقييم نفسها وقدراتها ودورها وتحديد التزامها وحقها » لأن المنظمة « تخسر كثيرا اذا تصورت نفسها دولة فوق الدول وحكومة فوق الحكومات » .

على صعيد السياسة الاميركية اعترف سفير الولايات المتحدة في اسرائيل بأن ما سمي « باعادة تقييم السياسة الاميركية في الشرق الاوسط » ، لم يكن اسما على مسمى لأنه لم تطرأ أية تغييرات جوهرية على سياسة حكومته في المنطقة ، وقد وضع كلام السفير حدا نهائيا لكل التهويش والطنطنة التي ملأت الاعلام الغربي والمحلي التابع حول قيام أميركا باعادة النظر في سياستها تجاه اسرائيل بعد « فشل » جولة كيسنجر الشهيرة في المنطقة » . ومن ناحية اخرى علق كيسنجر في اكثر من خطاب وتصريح ومؤتمر على اتفاقية سيناء . وبامكاننا ايجاز أهم ما ذكره الوزير الاميركي بالنقاط التالية : (١) أن الحكومة الاميركية ستعارض أية جهود تبذلها دول من خارج منطقة الشرق الاوسط لاحباط الاتفاق المصري الاسرائيلي (والمقصود هنا الاتحاد السوفياتي طبعا) (٢) واجب على أميركا أن تساعد مصر لجعلها دولة قوية بعد الخطوات التي اتخذتها باتجاه السلام وتوثيق علاقاتها مع الغرب. ودعا كيسنجر لان يأتي التشجيع الاميركي من جانب الرأسمال الخاص والعام في الولايات المتحدة بما في ذلك تقديم التقنية اللازمة لتدعيم الوضع في مصر . (٣) ان اتفاق سيناء هو في وقت واحد اتفاق عسكري وسياسي ونفسي لأنه يلزم الفريقين بحل نزاعهما سلميا وبدون اللجوء الى القوة او التهديد بها او الحصار العسكري . ويتمثل الجانب السياسي من الاتفاق بهذه النقطة بالذات بالاضافة الى السماح للبضائع الاسرائيلية بالمرور في قناة السويس . وواضح ان كلام كيسنجر ينفي المزاعم المصرية الرسمية حول الطابع العسكري المحض للاتفاق . (٤) ان حكومته مستعدة لتشجيع قيام مفاوضات بين سوريا واسرائيل ، وللتشاور مع الاتحاد السوفياتي وجميع الدول المعنية حول مؤتمر جنيف ومستقبله ، مع العلم بأن الحكومة الاميركية تعرف بأن الخلاف مع الاتحاد السوفياتي حول الشرق الاوسط هو

خلاف جوهري وعميق . ٥) ان التفكير الرسمي في العالم العربي يتجه بصورة واضحة نحو الاعتراف باسرائيل كدولة ذات سيادة وان دور الولايات المتحدة في الدفع بهذا الاتجاه نابع من مصالحها الحيوية في المنطقة وأهمها البترول العربي . (٦) أن حكومته لن تعترف بمنظمة التحرير ولن تتعامل معها ما لم تعترف المنظمة بحق اسرائيل في الوجود وما لم توافق اسرائيل نفسها على تعامل الولايات المتحدة مع المنظمة . (٧) ان حكومته تريد انعقاد مؤتمر متعدد الاطراف لمناقشة أزمة الشرق الاوسط والطرق الدبلوماسية المناسبة لتسويتها . تقدم كيسنجر بهذا الاقتراح امام الجمعية العمومية لهيئة الامم معتبرا اياه نوعا من البديل عن مؤتمر جنيف وعن الجهود الاميركية الموعودة للتوسط بين سوريا واسرائيل . وقد اوضح مصدر أميركي دبلوماسي ان اقتراح كيسنجر يستثني منظمة التحرير ولا يعتبرها واحدا من الاطراف المؤهلة للمشاركة في هذا المؤتمر . وقد بحث كيسنجر فكرة عقد هذا المؤتمر مع غروميكو وغيره من الدبلوماسيين . كما أكد بأن حكومته جادة في اجراء المشاورات اللازمة لانجاح المؤتمر . (٨) ان « التقدم الكبير » الذي تم احرازه حتى الآن تحقق بفضل ادراك الزعماء العرب بأن تحقيق أهدافهم ممكن من خلال التعاون الاميركي العربي بدلا من المجابهة ، وعلى هذا الاساس فان الولايات المتحدة مستعدة « للتعاون مع دول الشرق الاوسط وربط اقتصادياتها بالاقتصاد الاميركي على أسس عادلة » .

لم يقتصر الموقف الاميركي على الدفاع عن اتفاقية سيناء وتعزيزها بل انتقل الى مرحلة تزويد اسرائيل بطائرات هيليكوبتر من طراز « كوبرا » القادرة على اطلاق الصواريخ والمصممة خصيصا لمقاومة قتال العصابات وحروب التحرير الشعبية . كذلك تجري الدراسات العملية الآن لتزويد اسرائيل بصاروخ بيرشينغ القادر على حمل رؤوس نووية ويبلغ مداه ٨٠٠ كيلومتر . في الواقع ذكر كيسنجر في النصف الثاني من شهر ايلول بأن الولايات المتحدة تجري المباحثات اللازمة مع اسرائيل حول تزويدها بهذا الصاروخ . وجدير بالذكر ان هذا السلاح سيمنح اسرائيل القدرة على ضرب المدن العربية الرئيسية ان شاءت ذلك . وقد أشارت أخبار المباحثات الاميركية الاسرائيلية بشأن هذا الصاروخ القلق في الاوساط العربية والمصرية مما دعا أمين عام الجامعة العربية الى التصريح في أواخر شهر أيلول بأن الدول العربية تتابع في قلق بالغ عزم الولايات المتحدة تزويد اسرائيل بكميات ضخمة من الاسلحة المتطورة والهجومية مما من شأنه تدعيم احتلالها للاراضي العربية . كما عقد وزراء خارجية الدول العربية ورؤساء وفودها في هيئة الامم اجتماعا خصصوه لدراسة الموضوع ذاته وخاصة تزويد اسرائيل بطائرات الفانتوم الحديثة من طراز « ف٥١ » و « ف١٦ » وصواريخ من طراز لانس وبيرشينغ وغيرها من الاسلحة الهجومية .

بالنسبة للموقف الاسرائيلي من كل هذه التطورات فانه يتلخص في استبعاد رابين لأية امكانية للتوصل الى اتفاق سلام مؤقت مع سوريا مع التأكيد على ان حكومته لم تتعهد لأحد بالدخول في محادثات مع سوريا قد تؤدي الى انسحابات اسرائيلية من الجولان . أما وزير الخارجية الاسرائيلي آلون فقد أيد اقتراح كيسنجر لعقد مؤتمر متعدد الاطراف للعمل على تحقيق التسوية السلمية في المنطقة كما استخف بمؤتمر جنيف بقوله ان المؤتمر سيتعقد عندما يكون الفرقاء مستعدين له . وبالنسبة « للمشكلة الفلسطينية » عاد الى تكرار القول بأن حلها لا يمكن أن يأتي الا ضمن اطار اتفاق سلام بين اسرائيل والاردن .

فيما يتعلق بوثائق اتفاقية سيناء فقد وقعت عليها مصر بشكل نهائي في أوائل تشرين الاول في جنيف في حين رفضت اسرائيل يومها التوقيع بغير الاحرف الاولى مشترطة لاستكمال توقيعها موافقة الكونغرس الاميركي على ارسال « الخبراء » الاميركيين الى سيناء ومرور البضائع الاسرائيلية في قناة السويس. وجدير بالاشارة ان البروتوكولات التي جرى توقيعها في جنيف من قبل الوفدين المفاوضين المصري والاسرائيلي تضمنت بنودا سرية لم تعرف أو تنشر . وجرى نقاش بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية في الولايات المتحدة حول نشر الوثائق السرية الملحقة باتفاقية سيناء . فقد اشترطت السلطات التشريعية نشر هذه الملاحق علنا قبل موافقتها على ارسال الفنيين الاميركيين الى سيناء . في حين أصرت السلطة التنفيذية ممثلة بشخص كيسنجر على ابقائها سرية . ونتيجة لتضارب المواقف تأخرت موافقة الكونغرس كما تأخر استكمال

التوقيـع الاسرائيلي علـى بروتوكولات تنفيـذ الاتفاقية .

وفي نهاية المطـاف قامت السلطات التشريعيـة الاميركية بنشر نصوص الملاحق السرية وفيما يلـي أهم ما جاء فيها من التزامات أميركية : (١) التزام الولايات المتحدة بتلبية حاجات اسرائيل من الاعتدة العسكرية والمستلزمات الاقتصادية (بما في ذلك الطاقة) على أساس متواصل وطويل الامد . ٢) التزامها بتزويد اسرائيل بالنفط في حال احتياجها له وعجزها عن تأمينه بمفردها . ويشمل هـذا الالتزام عمليات شحن النفط الى اسرائيل اذا دعت الحاجة الى ذلك . في الواقع القسم الاكبر مـن الملحق الاول لاتفاقية سيناء مكرس لتزويد اسرائيل بالنرول وضمان سد حاجاتها له في كافة الاحوال والظروف مهما كانت . بالاضافة الى رصد اعتمادات من الموازنة الاميركية من أجل بناء وسائل تخزين النفط في اسرائيل بحيث يغطي الاحتياطي الموجود لديها حاجاتها لمدة سنة كاملة . (٣) التزامها بأن يكون اي اتفاق مقبل مع مصر هو اتفاق السلام النهائي وليس اتفاقا مؤقتا جديدا . (٤) التزامها باتخاذ الاجراءات التصحيحية اللازمة بعد التشاور مع اسرائيل في حال قيام مصر بخرق بنود الاتفاق . ٥) التزامها بالاقتراع في مجلس الامن ضد أي قرار يؤثر تأثيرا سلبيا على اتفاق سيناء أو يضر بمصالح اسرائيل ، كما يتم التفاهم عليها بين البلدين) أو يهدف الـى ادخال تعديلات غـير مناسبة على القرارين رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ . ٦) التزامها باعداد خطة خلال شهرين من توقيع هـذه الوثيقة لعمليات نقل الامدادات العسكرية اللازمة الى اسرائيل عند حدوث حالة طارئة تدعو الى ذلك . (٧) التزامها بأن يكون الاتفاق المصري الاسرائيلي وتطبيقـه وسريان مفعوله ومدته غير مشروطة بأية ارتباطات أو تطورات بين اسرائيل ودول عربية أخرى غـير مصر . ٨) التزامها بأن توجه الولايات المتحـدة المفاوضات مع الاردن نحو تسوية سلمية شاملة . ٩) التزامها بأن تعتبر الولايات المتحدة مضيق باب المندب ومضيق جبل طارق مـن الممرات المائية الدوليه ، وتؤكد حق اسرائيل في حرية الطيران فوق البحر الاحمر وفوق هذه الممرات المائية الدوليـة مع تأييد هذا الحق دبلوماسيا . (١٠) التزامهـا بأن تعتبر الولايـات المتحدة اتفـاق سيناء ملزما وساري المفعول حتى في حال سحب قوة الطوارىء الدولية أو أية هيئة تـابعة للأمم المتحدة بدون موافقـة الولايـات المتحدة والطرفـين المصري والاسرائيلي . (١١) التزامها بانعقاد مؤتمر جنيف للسلام في موعد يجري تحديده على أساس التنسيق بين الولايات المتحدة واسرائيل . (١٢) التزامها بأن تستمر الولايات المتحدة بسياستها الحالية حيـال منظمة التحرير وهي السياسة القائمة علـى عدم الاعتراف بالمنظمة أو التفاوض معها ما دامت لا تعترف بحق اسرائيل في الوجود ولا تقبل قراري مجلس الامن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨ على أن تسير الولايات المتحدة وفقا لسياسة منسجمة مع هـذا الموقف في مؤتمر جنيـف . (١٣) التزامها بأن تبذل كـل جهودها لتكون كل المفاوضات في مؤتمر جنيف ذات طابع ثنائي ، وأن يسير المؤتمر بشكل يتفق مـع نصوص هذه الوثيقة . (١٤) التزامها بأن تزود اسرائيل بأسلحة متطورة بخاصة طائرات « ف١٦ » وبالدخول في محادثات لتزويد اسرائيـل بأعتـدة عسكرية متطورة مثل صواريخ « برشينغ » أرض ــ أرض . (١٥) التزامها بأن تبذل جهودا لاجراء مزيد من المفاوضات بين سوريا واسرائيل . (١٦) التزامها بأن تتخذ الاجراءات التصحيحية اللازمـة بعد التشاور مع مصر في حال حدوث خرق اسرائيلي لبنود الاتفاقيـة . (١٧) التزامها بأن تقدم لمصر المساعدات اللازمة لاقامة محطة انذار مبكرة فـي سيناء بالاضافة الى تقديم المساعدات الاقتصادية اللازمة لتنمية مصر وفقا للاعتمادات التي يقرهـا الكونغرس .

على اثر نشر الملاحق السرية وموافقة الكونغرس على ارسال الخبراء الاميركيين الى سيناء وقعت اسرائيل بالكامل على بروتوكولات تنفيذ اتفاقيـة سينـاء . وقد رحبت الاوساط المصرية الرسمية بهذه التطورات معتبرة ارسال الخبراء الـى سيناء « دليلا على تصميم الولايات المتحدة المساعدة في تحقيق السلام في الشرق الاوسط » .

بالنسبة للدبلوماسية السوفياتية فقد عبرت عن نفسها في هجوم شنـه غروميكو علـى ما يسمى سياسة الخطوة خطوة الاميركية معتبرا اياهـا تحويلا للأنظار عن التسوية الحقيقية والشاملة التي لا يمكن ان تقوم الا على أساس انسحاب اسرائيلي كامل من الاراضي العربية المحتلة والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في انشاء دولته . وأكد غروميكو

ان مثل هذه التسوية لا يمكن تحقيقها الا من خلال مؤتمر جنيف الذي تتجاهله اسرائيل والولايات المتحدة . ومن ناحية أخرى هاجمت صحيفة « البرافدا » صفقة سيناء والتعهدات الاميركية لاسرائيل التي تضمنتها ، وأشارت في معرض هجومها الى أن « بضع عشرات الكيلومترات المربعة من الاراضي المحتلة ثمنها هو ٢,٥ مليار دولار » . وفي هيئة الامم عقد غروميكو اجتماعا مع وزير خارجية اسرائيل في اواخر شهر أيلول بناء على طلب الوفد الاسرائيلي حيث جرى البحث في أزمة الشرق الاوسط واقتراح كيسنجر لعقد مؤتمر متعدد الاطراف يتناول مشكلات المنطقة . وعلى الرغم من الشائعات التي تداولتها المصادر الاعلامية الغربية على اثر هذا الاجتماع حول اعادة العلاقات الدبلوماسية بين اسرائيل والاتحاد السوفياتي فقد تبين أن السوفيات ما زالوا عند شروطهم لاعادة هذه العلاقات وهي انسحاب اسرائيل الكامل وضمان حقوق الشعب الفلسطيني.

(٣) المناطق المحتلة

I

بالاضافة الى ما تشهده المناطق المحتلة من أحداث متصلة بطبيعة الاحتلال الاسرائيلي ، ونعني بها القمع والارهاب والمصادرة ، فانها تشهد الى جانب ذلك صورة مشرقة لنضال الشعب الفلسطيني ، معبرة عن نفسها بمختلف اشكال النضال المتاحة . ففي كل يوم يتعرض العديد من ابناء الشعب الفلسطيني الى الاعتقال بتهمة مقاومة الاحتلال أو الانضواء تحت لواء حركة المقاومة السرية . وبينما تمنع المحاكمة عن البعض وتبقيهم رهن الاعتقال الكيفي لشهور مديدة ، يقدم البعض الآخر امام المحاكم العسكرية بعد ان تنتزع المخابرات منهم اعترافات مزيفة ، لتصدر ضدهم احكاما قاسية وخيالية في بعض الاحيان من حيث طول المدة . ولا يتوقف مع المحتلين الاسرائيليين عند هذا الحد . فكثيرا ما تلجأ سلطات الحكم العسكري الى ابعاد الوطنيين الى خارج الارض الفلسطينية المحتلة ، وكثيرا جدا ما تلجأ الى هدم المنازل كاحدى وسائل العقاب والترويع . أما فيما يتعلق بمصادرة الارض ونزع الملكيات فان ذلك يتم تحت حجج اقامة المعسكرات وأحيانا لاقامة المستوطنات ، وغيرها .

وبالمقابل ، فان النضال الوطني الفلسطيني كما تكرسه جماهير المناطق المحتلة عامة ، وجماهير الضفة الغربية بشكل خاص في هذه المرحلة ، سيتسع ليشمل مختلف فئات الشعب وطبقاته الوطنية . وتتعدد أشكال هذا النضال لتمتد من المذكرة الاحتجاجية لتصل الى *العبوة الناسفة* ، مرورا بالاضراب والمظاهرة والاعتصام وغير ذلك . وجماهير الشعب الفلسطيني التي جعلت من مقاومة الاحتلال مهمتها الاساسية ووطدت نفسها على افشال كافة مخططاته ، تتأثر حتما بما يطرح على الساحة العربية من مشاريع وتسويات وما يمر بها من أحداث ، خاصة المتصلة منها بالاراضي العربية المحتلة أو ما يمس منها الحقوق الوطنية الراهنة للشعب الفلسطيني وفي طليعتها اقامة دولته الوطنية المستقلة على كل شبر يجري انتزاعه من قبضة المحتلين . وينطبق ذلك بشكل بالغ الدقة على الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية الاخيرة ، بوصفها احدى المعطيات السلبية والخطرة على مجمل النضال العربي وحركة التحرر الوطني الفلسطينية .

الاعتقالات

كما سبق وأن ذكرنا في مقدمة هذا التقرير ، فان حملة الاعتقالات ضد ابناء الشعب الفلسطيني في المناطق المحتلة ، مستمرة باستمرار المقاومة ورفض الاحتلال بكافة صوره وأشكاله . ففي شهر آب

، اغسطس) الماضي ذكرت وسائل الاعلام الاسرائيلية من جهة الضفة وصحف الغربية من جهة اخرى ، ان سلطات الحكم العسكري الاسرائيلي قد القت القبض على يد من ابناء الشعب الفلسطيني بتهم الانتماء الى المقاومة أو القيام باعمال عسكرية وغيرها ضد المحتلين .

ففي الاول من آب ذكر راديو العدو الاسرائيلي انه تم مؤخرا اعتقال اعضاء شبكة تنتمي الى منظمة فتح تضم سبعة من أبناء المثلث . وقال الراديو ان طالبة فلسطينية من جامعة بار ايلان تترأس الشبكة التي تضم معلمة فرنسية وخمسة طلاب . (الشعب ٧٥/٨/١) .

وادعى ناطق عسكري اسرائيلي ان قوات الامن أحبطت محاولة لامرأة عربية بتهريب متفجرات داخل حقيبة عبر جسر اللنبي من الاردن . وان المرأة التي تم اعتقالها هي من قطاع غزة . (الشعب ٨/٥) .

وذكرت جريدة القدس بتاريخ ٨/٥ ايضا ، ان سلطات الاحتلال ألقت القبض على عربي من قرية الطيرة القريبة من حيفا بتهمة تجنيد العرب في اسرائيل لحساب منظمة فتح . وذكرت جريدة الشعب أيضا بتاريخ ٧٥/٨/٧ ان قوات اسرائيلية قامت قبل يومين من هذا التاريخ باعتقال عدد من الاشخاص في نابلس في أعقاب اكتشاف عبوة ناسفة في سيارة جيب اسرائيلية . وفي الخليل اعتقل المدرس عطية عبد الحميد الطوباسي بعد وصوله من الاردن باسبوع لزيارة أهله خلال العطلة الصيفية . وأضافت صحيفة القدس التي أوردت هذا النبأ في عددها الصادر يوم ٧٥/٨/٩ ان السلطات الاسرائيلية قد قررت توقيف أحمد بيوض التميمي توقيفا اداريا لمدة ستة أشهر اعتبارا من ٧٥/٦/٢٨ . وكانت هذه السلطات قد القت القبض عليه في بداية شهر نيسان (ابريل) من العام الماضي ، ولم توجه له أي اتهام حتى تاريخه . وكانت « الشعب » قد ذكرت يوم ٧٥/٨/٨ ان قوات الامن الاسرائيلية اعتقلت عشرة رجال كانوا قد قاموا بتوزيع منشورات في تل أبيب تطالب باطلاق سراح المعتقلين الاداريين في الضفة الغربية . وقالت الشرطة ان المعتقلين هم من حزب راكاح . وفي يوم ٧٥/٨/١٣ ذكرت صحيفة الفجر ان قوات الامن اعتقلت قبل يومين من تاريخه عددا من المواطنين من مدينة الخليل وضواحيها في أعقاب الانفجار الذي وقع في باص كان ينقل العمال العرب الى ديمونة في النقب . وفي ٧٥/٨/١٥ قالت « القدس » انه تم القاء القبض على كل من محمد عبد الجمال ، خالد محمد صالح ، كامل عبدالله عقل ومحمد عبدالله الجمال على جسر اللنبي . ومن ناحية أخرى ذكرت صحيفة عل همشمار الاسرائيلية في عددها الصادر يوم ٧٥/٨/١٩ ان محكمة الصلح في القدس أمرت بتوقيف ناصر داود من القدس لمدة ١٥ يوما بتهمة الانتماء للمنظمات . وفي رام الله وبعد القاء قنبلة يدوية على فرع بنك لئومي ، قامت قوات الاحتلال باعتقالات واسعة بين صفوف المواطنين بعد أن فرضت منع التجول على المكان . ونقلت « الفجر » في عددها يوم ٧٥/٨/٢٠ عن وكالة عيتم الاسرائيلية انه في اعقاب العمليات التي تزايدت في منطقة رام الله بصورة خاصة فرضت سلطات الاحتلال مجددا قيودها على السفر والتجارة عبر الجسور . وكما في رام الله كذلك في نابلس حيث اعتقلت سلطات الاحتلال أربعة اشخاص من عائلة القرح ووضعوا رهن التحقيق (القدس ٨/٢١) . وكانت « الشعب » قد ذكرت أن قوات الشرطة قد أحضرت شابين معتقلين من سلوان الى رأس العامود في منطقة القدس ضمن اجراءات التحقيق التي تجريها معهما ، وهما سعيد علي عياش وتحسين صبيح اللذان وقعا بيد القوات الاسرائيلية اثر معركة وقعت بالقرب من مستوطنة ادميت على الحدود اللبنانية (الشعب ٨/١٩) . وفي ٧٥/٨/٢٧ ذكرت « الشعب » ان الناطق العسكري الاسرائيلي قال أمس انه تم اعتقال ١٢ عضوا في مجموعة فلسطينية تنتمي لحركة فتح في نابلس . وزعم الناطق انهم متهمون بزرع متفجرات في وقت سابق من شهر آب في سيارة . وادعى الناطق كذلك انه عثر على مواد لصنع القنابل في منازل عدد من المعتقلين . وأضاف كذلك ان شابا عربيا اعتقل قبل ذلك باسبوع بينما كان يزرع عبوة ناسفة في سيارة ركاب كبيرة في القدس . وقد أدى اعتقاله الى اعتقال أربعة عرب آخرين في منطقة الخليل بتهمة الاشتراك معه في هجمات سابقة في منطقة القدس . وكانت الصحيفة قد ذكرت في اليوم السابق عن تمديد توقيف عدد من المعتقلين من قضاء جنين ومن بينهم عمر أبو فرحه ، عاصم ومحمد حمدان ، حسن

أبو لبدة ، فيصل أبو عيسى ، عبد الرحيم أبو بكر ، عبد الرؤوف ساد ، سليم هياسة ، أحمد ابو شاووف . وقال المحامي الذي قابل هؤلاء انه تم تحديد توقيف هؤلاء الى جانب عشرات غيرهم من قبل قاض عسكري حضر خصيصا الى سجن نابلس يوم ٨/١٢ لمدة عشرين يوما بعد ان ادعى المدعي العام العسكري ان التهم المنسوبة الى هؤلاء خطرة وتستوجب تمديد توقيفهم . ونقلت صحيفة هارتس الاسرائيلية عن قائد المنطقة الوسطى يونا افرات في مقابلة مع المراسلين العسكريين الاسرائيليين ، ان قواته تمكنت خلال العام الماضي من كشف ٨٥ خلية فدائية ، واعتقلت حوالى ٨٠٠ عضو ومتعاون مع تلك الخلية وبذلك يصل عدد المعتقلين الى ٢٦٠٠ شخص . وكانت هارتس قد كتبت يوم ٨/٢٧ ان قوات الاحتلال قد قامت باعتقال احد سكان قرية دورا — قضاء الخليل — الى جانب أربعة اخرين من القضاء نفسه .

هدم المنازل

الى جانب سوق عشرات المواطنين الى السجون والمعتقلات تلجأ سلطات الاحتلال الى وسيلة قمعية أخرى وهي هدم المنازل . وقد ذكرت صحف الضفة الغربية وغيرها انه تم في شهر آب الماضي هدم عدة بيوت في أنحاء متفرقة من الضفة الغربية وقطاع غزة . فقد ذكرت صحيفة الاتحاد التي تصدر في حيفا انه تم في الاسبوع الاول من شهر آب نفسه هدم منزل المواطن نايف احمد راضي من غزة وذلك بتهمة انتمائه الى المقاومة الفلسطينية . وفي الخليل هدمت سلطات الاحتلال منزل السيدة ثريا عبد الرسول ادعيس من بلدة دورا وذلك ايضا بتهمة انتمائها الى المنظمات الفدائية . وذكرت صحيفة الشعب في عددها الصادر يوم ٧٥/٨/٢١ ان سلطات الحكم العسكري قامت في اليوم السابق بتشميع منزل المواطن نشأت يعيش والد المعتقل عماد يعيش الذي اعتقل في تموز (يوليه) الماضي في مطار اللد مع زميله لؤي عبده . ومن الجدير بالذكر ان سلطات الاحتلال طلبت من بلدية نابلس قطع المياه والكهرباء عن منزل المواطن يعيش وقد فعلت البلدية بعد أن تم اخلاؤه .

وفي عددها الصادر يوم ٧٥/٨/٢٤ ذكرت صحيفة يدعوت احرنوت الاسرائيلية ان سلطات الاحتلال الاسرائيلي في الضفة الغربية قامت بنسف بيت الشاب الذي اعتقل في مطار اللد والتابع لمنظمة فتح الفدائية . وقالت الصحيفة في العدد نفسه ان سلطات الاحتلال قامت كذلك بنسف ثلاثة بيوت في قرية يطا بقضاء الخليل .

مظاهرات الاحتجاج على تقسيم الحرم الابراهيمي

كما ذكرنا في العدد السابق من « شؤون فلسطينية » ، كانت السلطات الاسرائيلية قد أقدمت في أوائل شهر آب على تقسيم الحرم الابراهيمي ، وان ذلك القرار قد اتخذ في جلسة رسمية للحكومة الاسرائيلية ، وانه تم الاعلان عن ذلك من قبل وزير الاديان الاسرائيلي يوم ١٩٧٥/٨/٥ .

وقد أثار هذا القرار في حينه ردود فعل واسعة داخل الوطن المحتل وخارجه . وكنا قد بينا جزءا من ردود الفعل هذه في هذا الباب من عدد « شؤون فلسطينية » السابق . وبعد ان وصلتنا اعداد من صحف الضفة الغربية لاحقة على تاريخ تقسيم الحرم الابراهيمي ، رأينا ان نعرض لها مجددا وذلك لتبيان ردة الفعل الجماهيرية الفلسطينية داخل الوطن المحتل وعرضها بتفاصيلها المتيسرة على أوسع نطاق خارج الوطن المحتل .

ففي أول يوم جمعة بعد اجراء تقسيم الحرم والمصادف يوم ٧٥/٨/٨ ، قامت اعداد كبيرة بعد صلاة الجمعة ، بالتظاهر احتجاجا على قرار الحكومة الاسرائيلية . وضمت التظاهرة التي انطلقت من الحرم الابراهيمي نفسه جماهير كبيرة من ابناء الخليل والمحافظة . وسار المتظاهرون في الشارع الرئيسي من المدينة وكانوا يرددون « الله اكبر الله اكبر .. لن نقبل بتقسيم مقدساتنا » . وقالت صحيفة القدس التي أوردت هذه التفاصيل ، ان قوات الامن قد استدعيت على الفور فقامت بتفريق المتظاهرين وألقت القبض على عدد منهم . وأغلق الشارع الرئيسي الذي يمتد من مبنى البلدية القديمة الى باب الزاوية ، الى ساعات العصر وتحول السير الى الشوارع الجانبية . وقالت « القدس » ان اجتماعا شعبيا سيعقد في الخليل خلال الايام القليلة اللاحقة للبحث في القرار الاسرائيلي بتقسيم الحرم الابراهيمي بين المسلمين واليهود . وقالت

. القدس » ايضا ان المجالس البلدية والقروية والمؤسسات في محافظة الخليل ستعقد جلسات طارئة لنبحث في هذا الموضوع ايضا (القدس ٧٥/٨/٩) .

وقالت صحيفة الشعب بعد ذلك انه لا يزال الانفعال يسود مدينة الخليل ومدن الضفة الغربية المحتلة على اثر الاجراءات التي أقدمت عليها السلطات الاسرائيلية الرامية الى تقسيم الحرم الابراهيمي . فالدوريات الاسرائيلية كانت لا تزال تجوب الشوارع في مدينة الخليل وذلك بعد المظاهرة التي شهدتها المدينة في يوم الجمعة السابق حيث هتف المواطنون ضد اجراءات التقسيم هذه . واعترفت الصحف الاسرائيلية من جانبها باستمرار التوتر في المدينة . فقد ذكرت صحيفة الجروزاليم بوست يوم ٧٥/٨/١٠ بأن تعزيزات من قوات الجيش الاسرائيلي قد أرسلت الى مدينة الخليل (الشعب ٧٥/٨/١١) .

وكانت الشعب قد نشرت في عدد سابق البيان الذي أصدرته الهيئة الاسلامية في القدس بتاريخ ٧٥/٨/٥ والخاص بوضع الحرم الابراهيمي وجاء فيه : « اطلعت الهيئة الاسلامية على مضمون الترتيبات الجديدة التي اتخذتها سلطات الاحتلال الاسرائيلي بالنسبة للحرم الابراهيمي الشريف وأبلغتها لقاضي الخليل الشرعي ورئيس السدنة مساء يوم الاثنين الواقع في ٢٦ رجب سنة ١٣٩٥ هجرية الموافق ١٩٧٥/٨/٤ ميلادية ، والتي بموجبها تحول جزء كبير من الحرم الشريف الى كنيس .

والهيئة الاسلامية التي اعلنت ان الحرم الابراهيمي الشريف هو مسجد اسلامي ، وقد اسمعت صوتها للسلطات المحتلة والعالم اجمع ورفضت اي وجود لغير المسلمين فيه . وهي اذ تعلن رفضها للاجراءات وتناشد الانسانية بأن تتدخل لحماية هذا المكان المقدس لدى المسلمين ، تعلن أيضا بأن يكون يوم الجمعة الواقع في ١٩٧٥/٨/١٥ يوم الحرم الابراهيمي الشريف وتطلب الى خطباء المساجد في جميع انحاء البلاد وتناشد الهيئات والمؤسسات الشعبية ان تقوم بما يترتب عليها من توضيح لما يحدث في هذا المسجد الاسلامي الشريف ، وهي مؤمنة بأن الله لن يتخلى عن بيته ... » (الشعب ٧٥/٨/٧) .

بعد صدور بيان الهيئة الاسلامية هذا ، ومظاهرة يوم ٨/١٠ في مدينة الخليل ، صعدت سلطات الاحتلال من احراءاتها الامنية المشددة لمواجهة قيام اي عمل جماهيري محتمل . فذكرت صحيفة دافار الاسرائيلية ان سلطات الاحتلال وجهت تهديدا الى جميع رؤساء البلديات والمخاتير وائمة المساجد في الضفة الغربية المحتلة ، بعدم مساعدة كل من يحاول اثارة المشاعر يوم الجمعة الموافق ٨/١٥ . وفي مدينة نابلس قابل القاضي الشرعي يرافقه مدير الاوقاف وجميع الخطباء وائمة المساجد في المدينة الحاكم العسكري الاسرائيلي وأبلغه القاضي الشرعي نيابة عن جميع السكان احتجاج المسلمين على تقسيم الحرم الابراهيمي وانتهاك حقوق المسلمين ومقدساتهم . وفي مدينة جنين المحتلة رفع كل من رئيس بلدية جنين وعرابة ويعبد وقباطية ونائب رئيس بلدية طوباس وعدد من تجار المدينة ، برقية استنكار للاجراءات التي اتخذتها السلطات المحتلة وذلك الى كل من وزيري الدفاع والاديان الاسرائيليين والحاكم العسكري العام للضفة الغربية والحاكم العسكري لمدينة جنين ، يطالبون فيها بالغاء اجراء الحكومة الاسرائيلية المتعلق بالحرم الابراهيمي .

وبلغت مظاهر التوتر أوجها في مدينة الخليل لدى خروج المصلين من المساجد بعد اداء صلاة الجمعة يوم ٨/١٥ ، واصطدامهم بقوات الاحتلال الاسرائيلي التي كانت قد اغلقت جميع الطرق المؤدية الى المدينة ومنعت الاتصال مع خارجها وأعادت جميع وسائط النقل التي كانت تقل المواطنين اليها ، ولم تسمح بعبور الخليل الا لكل من يحمل هوية منطقة الخليل فقط .

وحول هذه الاجراءات كتبت صحيفة الشعب بتاريخ ٧٥/٨/١٧ التفاصيل التالية : كانت القوات العسكرية والدوريات المسلحة تجوب شوارع المدينة وأزقتها وتتمركز فوق أسطح المنازل منذ مساء الخميس ٨/١٤ . كما جرت اعتقالات واسعة شملت حوالي ٥٠ شخصا . وتراشق المصلون مع قوات الاحتلال بالحجارة . وشارك خطباء المساجد في الضفة الغربية بتوضيح مكانة الحرم الابراهيمي وموقعه بين المساجد الاسلامية وكيف بقي اسلاميا . وكانت السلطات الاسرائيلية قد استدعت الى سجن المسكوبية في القدس عددا

من رجال الدين والخطباء حيث وجهت اليهم تحذيرات قبل صلاة الجمعة . وكانت السلطات العسكرية ايضا قد منعت الصحفيين الاجانب والاسرائيليين من دخول مدينة الخليل وأبقتهم حتى بعد الظهر في مفرق كفار عصيون وأخبروا بأن أوامر عليا هي التي منعت دخولهم .

ردود الفعل على الاتفاقية المصرية — الاسرائيلية

أحدث توقيع مصر على الاتفاقية الاخيرة مع اسرائيل ردود فعل عنيفة في المناطق ، عبرت عنها عناوين وافتتاحيات الصحف العربية الصادرة في الضفة الغربية . فقالت صحيفة الفجر ان الاتفاق يتناسى مقررات مؤتمر الرياض ولجنة التنسيق السورية — المصرية المنبثقة عنه . كما لفتت « الفجر » في عناوينها الى النوايا الاسرائيلية المبيتة والتي بدأت تتضح من خلال تصريحات زعماء العدو ولما تمضي أيام على توقيع الاتفاقية . فقد نفت هذه التصريحات ان تكون الاتفاقية ملزمة لاسرائيل بتوقيع اتفاقية مماثلة في جبهة الجولان السورية . فقال اسحق رابين ان الاتفاقية لا تلزم حكومته بالتوصل الى اتفاقية مماثلة مع سوريا . وقال بيجال الون ان اسرائيل لا تسمح بربط هذه الاتفاقية مع التزامات بالنسبة لسوريا أو اي جبهة أخرى . وقال ان الخط الجديد يتيح للقوات الاسرائيلية الدفاع والهجوم اذا دعت الضرورة الى ذلك ، واذا نقضت مصر الاتفاقية فان اسرائيل ستكون في حل منها وان الولايات المتحدة تعلم بذلك . اما شمعون بيرس فقد أعلن انه ليس بامكانه ان يعد بأن تضمن الاتفاقية الجديدة الهدوء في المنطقة خلال الاعوام الثلاثة القادمة ، وقال ان ذلك يتوقف على موقف الدول العربية الاخرى من هذا الاتفاق (الفجر ٧٥/٩/٦) .

أما صحيفة الشعب فقد تناولت بدورها ردود الفعل العربية التي احدثتها الاتفاقية . فقالت في عنوان رئيسي لها يوم ٩/٥ ان « مظاهرات صاخبة تعم دمشق وبيروت استنكارا للاتفاقية » و « المتظاهرون يرفعون شعارات معادية للاتفاقية » و « البوليس يحرس سفارتي مصر وأميركا خوفا عليهما » . وتحت تلك العناوين جاءت افتتاحية الصحيفة متسائلة حول ما اذا كان شعار وحدة الصف العربي تعني السكوت عن الاخطاء . وبعد ان نفت ذلك قالت ، انه بعد انتظار ملهف من الجماهير العربية عامة والجماهير الفلسطينية بشكل خاص ، حددت سورية موقفها من الاتفاقية الاخيرة فأدانتها ورفضتها جملة وتفصيلا ، فجاء الموقف السوري متسقا وارادة الجماهير العربية ومواكبا لآمالها ومعبرا عن مطالبها . وقالت ان البيان السوري حمل تفسيرا واضحا لأسباب ادانة الاتفاقية . ولم يكتف بذلك بل حدد امام الجماهير العربية بوضوح أسلوب العمل نحو تحقيق حل سلمي مشرف يكفل اعادة الاراضي العربية المحتلة ويصون حقوق الشعب الفلسطيني المشروعة . وأشادت « الشعب » بتركيز سورية في بيانها الذي ادان الاتفاقية ، على وحدة الصف العربي باعتباره مصدر قوة للأمة العربية . وقالت ايضا ان قضية الحرص على وحدة الموقف العربي تتعرض في بعض الاحيان لكثير من الظلم والتجني . وآخر ما تعرضت له كان حين حاولت مصر ان تفرض على سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية ان تسير في نفس الطريق الذي سارت فيه حين وقعت اتفاقيتها الاخيرة مع اسرائيل ، وحين اعتبرت ان عدم مجاراتها فيما تقوم به هو الخروج على وحدة الصف والتنسيق العربي . وأنهت «الشعب» افتتاحيتها بالقول ان وحدة الصف العربي لا تعني التقاء الجيوش في ساحة الحرب فقط ، ولكنها تعني في الوجه الاول تنسيق الدول العربية فيما بينها كل الخطوات تجاه اية قضية عربية مصيرية بشكل عام ، وتجاه القضية الفلسطينية على وجه الخصوص (الشعب ٧٥/٩/٥) .

أما صحيفة القدس فقد حملت عناوينها أنباء تصاعد الحملة ضد اتفاقية سيناء . ووجهت في احدى افتتاحياتها — ٩/٦ — نداء الى « رفاق المسيرة » ناشدت فيه مصر وسوريا والعراق ومنظمة التحرير ، الذين استطاعوا بالدم والعرق والدموع والصبر والشجاعة والتضحية والاحتمال، ان يحطموا الجليد المتراكم فوق القضية وان يخرجوها من الثلاجة التي وضعت فيها سنين طويلة ويجبروا الدنيا كلها ان تنظر الى الحق العربي والحق الفلسطيني نظرة ايجابية لاول مرة منذ نصف قرن . وقالت ان هؤلاء الرفاق الذين امتزجت وتوحدت دماؤهم فوق الارض العربية الطيبة،بعد ان امتزجت وتوحدت مصائرهم النابعة من مصير أمة عظيمة ينتسبون اليها، وتاريخ مجيد

يعتزون به ومستقبل يريدونه ان يكـون مشرقا مزدهرا اشراق المـاضي وازدهـاره . وناشدت « القدس » هؤلاء الرفاق باسم المزرعين فـي ارضهم وفي مدنهم وقراهم في الوطن المحتل بالتوقف عند ما يجري ، لانه يهدد وجودنا بالضياع، وتزرع في نفوسنا اليأس وتغرس في قلوبنا القلق وتبث بين صفوفنا الفرقة والانقسام ، أشواكا داميـة وتناحرا هداما ، وتجعلنا أشبه بالضائع التائـه الذي لا يعرف له طريقا أو هدفا . وقالت أيضا « اننا نريد ان نقول لرفاق المسيرة أيضا ، انهم أول من يعلم ماذا يعني اختلافهم بالنسبة لشعب نصفـه في المهاجر والنصف الاخـر يعيش تحت الاحتلال كالسمك في بحر تتسرب منه المياه .. وماذا يعني اختلافهم بالنسبة لمصير وطن وأرض وقضية ، أثبتت الايام والليالي ان الخلافات تجعل منها طيرا مهيض الجناح ما أسهل مـا تقتنصه النسور والصقور المتربصة بهم من كـل جانب لتذبحه بلا رحمة بسكاكينها المشحوذة . ونريد ان نقول لرفـاق المسيرة المصريـين والسوريين والفلسطينيين والعراقيين ان هذه الخلافات التي بدأت نفخا في الرماد ، ويراد لها ان تتحول الـى نار متأججة ، ليس من الصعب ازالتها واطفاؤها اذا استبدل رفـاق المسيرة العاطفـة بالعقـل والحساسيات بالموضوعية والتصرفات العفويـة بالتفكير الهادىء الرزين والعصبية بالهدوء والشتم والسباب بالنقد البنـاء والنظرة المقتصرة علـى السطح بالنظرة الغائصة الى الاعماق ... » . وختمت « القدس » افتتاحيتها قائلة : اننـا نحن الفلسطينيين الصامدين في الضفة الغربية وقطاع غزة نناشد رفاق المسيرة ان يتقـوا اللـه في أنفسهم وفي أمتهم وفي القضية . وقبل هـذا وبعد هذا ان يتقوا الله فينا نحن الذين توشك خلافاتهم ان تمزقنا أشلاء وان تدمي قلوبنا وان تجعـل مصيرنا ومصير وطننا ومصير السلام العادل الذي ننشده ومصير حقوقنا ، مجـرد ريشة في مهـب الرياح ، أو سراب فوق رمال الصحاري (القدس ٧٥/٩/٦) .

II

آراء من الضفة الغربية في الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية

في محاولة منها لتقديم وجهات نظر فلسطينية في الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية الاخيرة ، أجرت صحيفة الفجر في عددها يوم ١٩٧٥/٩/٩ مقابلـة شملت آراء العديدين من وجهاء الضفة الغربية . وقد دلت هذه المقابلة على وجود تيارات متباينـة بين رؤساء البلديات يمكن ابرازها علـى النحـو التالـي :

١ ــ استنكار الاتفاقية وادانتها من خلال فهـم واضح وصريح لما اشتملت عليـه الاتفاقية مـن نتائج ماسة بالنضال الوطني الفلسطيني خـاصة وحركة التحرر الوطني العربية بشكل عام . وكان أبرز المتحدثين بهذا الاتجاه السيد كريم خلف رئيس بلدية رام الله .

٢ ــ التخوف من نتائج الاتفاقية علـى مستقبل القضية الفلسطينية و « العتب » علـى موقعيها لاستبعادها أي نص يتضمن انسحاب اسرائيل من الاراضي العربية الاخرى وخاصة الضفة الغربية . وقد اقترن هذا العتب بالتعويل غير المباشر علـى دور الولايـات المتحدة حـال انتهاجها خطا يقر بالتعامل مع الشعب الفلسطيني كشعب له حقوق وطنية مشروعة ، كما عبر عن ذلك الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس .

٣ ــ تأييد الاتفاقية باعتبارها « خطـوة نحو السلام » وهو ما ورد في نصوص اجابات رؤساء بلديات بيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا . وليس مستغربا ان يتخذ هؤلاء الثلاثة مثل هـذا الموقف

باعتبار منطقتهم منطقة نفوذ تقليدية للشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل الذي صرح في مناسبة سابقة بأنه يعتبر الاتفاقية « خطوة نحـو السلام » .

٤ ــ امتناع عدد من رؤساء البلديات عن تحديد موقف خاص من الاتفاقية وذلك باعتذارهم عن الرد على أسئلة « الفجر » كما حدث مع رئيسي بلديتي أريحا والبيرة . وعدم اتخاذ موقف مـن الاتفاقية لا يمكن اعتباره في هذه المرحلة موقفا محايدا طالما ان الاتفاقية تمس القضية الفلسطينية ومستقبـل الاراضي الفلسطينية المحتلة . بل يمكن اعتبار هذا الموقف « الحيادي » موقفا ممالئا للنهج المصري وضارا بالشعب الفلسطيني .

وفيما يلي نثبت نصوص الاجابات كما أوردتها صحيفة الفجر نظرا لاهميتها وطبيعتها الوثائقية .

كان اللقاء الاول مع السيد **حلمي حنون رئيس بلدية طولكرم** الذي أجاب بقوله : اعتقد أن أميركا خصم لدود للشعب الفلسطيني وزعمائه . وأكبر دليل على ذلك عدم اعترافها بمنظمـة التحرير الفلسطينية كممثـل للشعب الفلسطيني ، وكل مواقفها بالسابق والحاضر مكشوفة وتدلل علـى صحة هذا الكلام . ونحن بدورنا ليس لنا أية ثقة بأميركا . واستمر حنون قائلا : يجب ان تكون جميع اتفاقيات الفصل باطـلاع الدول الكبرى الاخرى ونعني بذلك روسيا . ويجب أن يكون الخبراء الفنيون من الدولتين سويا . وحول الاتفاق المصري ــ الاسرائيلي تحديدا أجاب رئيس بلدية طولكرم قائلا : اعتقد ان هذا الاتفاق الجزئي بـين مصر واسرائيل لن يكون في صالح القضية الفلسطينية ، وسيؤخر في حلها حلا عادلا . كما أننا نرى ان عدم ربط هذه الاتفاقية بأي انسحاب آخر مـن الضفة الغربيـة والجولان هـو تأخير في حـل القضية الفلسطينية التي هـي اساس المشكلـة الشرق أوسطية . وختم حلمي حنون حديثه قائلا : لا أعتقد أن التسويات الجزئية ستوصل بنا الى حل نهائي لقضيتنا الفلسطينية .

وقال **الحاج معزوز المصري رئيس بلدية نابلس** مستغربا : لماذا ندين أميركا ونحن نعلم ان أميركا ظالمة وهي أيضا ضالعة مع اسرائيل . اذن فماذا ننتظر منها ؟ يجب على العرب ان يثبتوا قضيتهم ويصروا على اشراك الفلسطينيين في جميع خطوات حل القضيـة الفلسطينية ، وان تجاهل أميركـا للوجود الفلسطيني هو ظلم (!!) .

أما السيد **كريم خلف رئيس بلدية رام الله** فقد قال : هذا فخ نصبته أميركا ضد الشعب العربي عامة والشعب الفلسطيني خـاصة وذلك لبسط نفوذها الامبريالي في الشرق الاوسط . ولو كانت أميركا تريد حل القضية فعلا لكان أجدر بهـا أن تعترف بمنظمة التحرير الفلسطينية قبل ان تقدم على حل القضية . ان هذا الاتفاق من جانب مصر مخالف لمقررات قمة الرباط ، اذ أن هنـاك قرارا بعدم تجزئة القضية وايجاد حل شامل لها . ان الاتفاقية ليست في صالحنا ، انها في صالح أميركا واسرائيل.

الا ان السادة الياس فريج وفرح الاعرج وجريس الطويل قد أيدوا الاتفاق . فقال السيد **الياس فريج رئيس بلدية بيت لحم** : ان الاتفاق خطوة على طريق السلام . الا انه استدرك قائلا : بدون الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني والتعامل مـع الشعب كشعب لا يوجد حل . أما السيد **فرح الاعرج رئيس بلدية بيت جالا** فقال انه يطالب بالتروي لدى تحديد الموقف مـن مصر ، وعبر عـن اعتقاده بأن أي استرجاع لأية قطعة من الارض هو لمصلحة العرب ومصلحة القضية الفلسطينية . أما السيد **جريس الطويل رئيس بلدية بيت ساحور فقال** : ان الاتفاق الجديد يمكن ان يوقف المجازر بين الشعبين العربي واليهودي وخطوة على طريق السلام (!!) .

وقالت « الفجر » ان السيد شفيق بالـي رئيس بلدية أريحا والسيد أحمد درويش رئيس بلديـة البيرة قد اعتذرا عن التعليق على الاتفاق . ولم تورد الصحيفة ما اذا كانت قد توجهت بأسئلتها حول الاتفاقية الى رؤساء بلديات الخليـل وجنين وقلقيلية وغيرها .

من ناحية أخرى شملت المقابلة ذاتها اجابـات ممثلي قطاعات اخرى ووجوها سياسية واجتماعية عديدة . فقال السيد فتحي الفحماوي رئيس الغرفة التجارية بجنين انه يجب ان لا نكـون على الرف ضمـن المباحثات الجارية . أمـا الدكتور حاتم ابو غزالة فقد بدأ حديثه بالقول : ان التسويات الجزئية ما هي الا محاولات لخدمة المصالح الاميركية وخلق واقع أميركـي جديد في الشرق الاوسط ، يعوضها عن خسائرها في جنوب شرق آسيا . وردا

على سؤال عن رأيه في تجاهل أميركا للوجود الفلسطيني ودوره قال : ان تجاهل أميركا للوجود الفلسطيني ما هو الا تكتيك لاجبار منظمة التحرير الفلسطينية على القبول بالمخطط الاميركي وذلك بتقديم كل التنازلات من قبل الفلسطينيين وعلى عدم الحصول على أية مكاسب في مقابلها . وحول اتفاقية سيناء قال : هناك أربع نقاط أريد تحديدها بالنسبة للتسوية الاخيرة في سيناء :

أولا — ان هذه الاتفاقية تزيل عنصر الصراع المسلح في منطقة سيناء ، في الوقت الذي ستنهال فيه أحدث الاسلحة الاميركية على اسرائيل ، وبالتالي تحقق الحلم العسكري الاسرائيلي باستمرارية التفوق الاسرائيلي في المنطقة .

ثانيا — لأول مرة منذ سنة ١٩٥٢ يسمح بمرور البضائع الاستراتيجية الاسرائيلية من خلال قناة السويس وذلك عن طريق التلاعب بالالفاظ وذلك باستبدال نقطة البضائع غير العسكرية بدلا من البضائع غير الاستراتيجية .

ثالثا — ان الصفة القانونية لاستمرارية هذه الاتفاقية لا تحدد فترتها بثلاث سنوات ونصف بل لفترة طويلة غير محدودة مرتبطة ارتباطا مباشرا بتوقيع اتفاقية جديدة تحل محل هذه الاتفاقية .

رابعا — كما ان اتفاق الطرفين على تأليف لجان مشتركة مصرية — اسرائيلية للاشراف على التنفيذ ، مع عدم اعطاء رئيس قوات الطوارىء الدولية اية صفة ادارية او تنفيذية او سلطوية خلال فترة اشتراكه في هذه اللجان ، قد أعطى لاسرائيل فرصة التخلص من القيود التي فرضتها عليها اتفاقيات الهدنة لسنة ١٩٤٩ فيما لو جددت هذه الاتفاقيات .

وقال السيد شحادة الميناوي الامين العام لنقابات العمال بالضفة الغربية : ان اي استرداد لأرض عربية هو مكسب . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه ، كيف سنصل الى نتيجة نهائية ونحن نرى ان بضعة كيلومترات من سيناء أخذت كل هذه المدة ؟ وكيف سيتم استرداد بقية الاراضي المحتلة وكم ستحتاج من الوقت ؟ وختم حديثه بالتدليل على عقم المساعي والمشاريع الاميركية حيث قال : ان التسويات الجزئية ستحتاج الى مدة طويلة جدا جدا ، هذا اذا كانت ستستمر . ويبدو لي انه لو استمررنا بها على هذا المنوال والمستوى فلن نشهد الحل لان كل عدة كيلومترات تحتاج كما يبدو الى خمس سنوات ونصف لاستردادها . وهل هناك أمر أنجع من هذا ؟ .

وعلق السيد عبد الكريم الكحيان من مجلس طلبة جامعة بيرزيت بقوله : خرج العرب من حرب اكتوبر وهم في شبه وحدة ، الامر الذي جعلهم يلعبون دورا جيدا ظهر في المعارك السياسية في الامم المتحدة والانتصارات السياسية التي حققتها منظمة التحرير الفلسطينية . الا ان هذه الوحدة قد حلت نتيجة سياسة الخطوة خطوة التي تجزىء الموقف العربي ولا تتطرق للمسألة السياسية وهي القضية الفلسطينية بالاضافة الى أنها تطيل الطريق نحو مؤتمر جنيف . أضف الى ذلك الارتماء في أحضان الامبريالية .

أما المحامي محمود الشيخ ياسين فقد عقب على الاتفاقية بقوله : ان الاتفاقات المرحلية لم ولن تعطنا أية فائدة . وأخشى ما أخشاه أن تؤدي الى تمييع القضية الفلسطينية . وقال أيضا : ما لم يكن الشعب الفلسطيني طرفا رئيسيا في أية تسوية فان هذه التسويات لن تحل القضية الفلسطينية .

وأجاب محمد عيسى دودين وهو فلاح من الخليل لدى سؤاله عن رأيه في الاتفاقية فقال : بكل بساطة ان الانجاز الذي يتحقق من عملية الفصل الجديدة في سيناء هو لصالح الامبريالية الاميركية فقط ولصالح احتكاراتها . وأميركا قامت بهذه الخطوة بهدف تأمين مصالحها بضمان وجود بؤرة صراع في منطقة الشرق الاوسط تمكنها من اللعب بمقدراتها وسلب ثرواتها الطبيعية لمصلحة الاحتكارات البترولية الاميركية ، وتمكنها من استمرارية الهيمنة والتدخل في هذه المنطقة التي تحتوي على أهم مصدر للطاقة في الوقت الحاضر . وعن طريق الحركات السياسية التي تلعبها تستمر في اشغال هذه المنطقة في صراعات دائمة تمكنها من ذلك الارتباطات المشبوهة بالحاكمين في المنطقة.

وقال المحامي رجائي كاتبه من الخليل : اليوم نرى أسلوبا يدعو للقلق والذعر مما يخبئه لنا المستقبل من وراء خطوات ليست هي طريقنا ولا واضعي هذه الخطوات والحلول بالمخلصين لنا

ولا يغفون موقف الحكم العادل بل الانحياز فيهم ظاهر بل هم منهم ولهم والقضية مصيرية لأمة بأسرها . والاخطر من ذلك ان تعزل أكبر دولة عربية واقواها سنوات طوال . هذا عدا ما تخبئه البنود السرية ، وكما يقول المثل : المخفي أعظم) . ان هذه الخطوة هي خطوات الى الوراء وقد لا يدري مقترفوها أي الم سيحل بنا وأية مصيبة تنتظرنا ، والله أسأل أن يلهمهم الصواب ويهديهم سواء السبيل .

وقال السيد موسى الجيوسي : ان تجاهل أميركا للوجود الفلسطيني هو تجاهل العارف وان لا قيمة لهذا التجاهل لان تجاهل ارادة الشعوب محال ، ولن يعوقها عن تحقيق غاياتها . وختم حديثه قائلا : نحن ملزمون بما يقرره ممثلونا الشرعيون .

بيان الجبهة الوطنية الفلسطينية حول الاتفاقية

اصدرت الجبهة الوطنية الفلسطينية في الارض المحتلة بيانا وزعته في أواخر شهر أيلول (سبتمبر) الماضي ، أدانت فيه الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية ونددت بها تنديدا شديدا . فقال البيان « في الوقت الذي يناضل فيه شعبنا الفلسطيني وشعوبنا العربية ضد قوى الاحتلال الاسرائيلي والقوى المأجورة التي تحاول ضرب ثورتنا والتآمر على مستقبل قضيتنا ، وفي الوقت الذي شدد فيه العدو الصهيوني من اجراءاته التي تستهدف ترسيخ أقدامه في أرضنا ، وبدلا من ان يحفز هذا الواقع القيادة المصرية الى تعزيز وحدة القوى الوطنية العربية المواجهة للاحتلال ، وبدلا من توثيق علاقات الجبهة العربية المواجهة للاحتلال ، طلعت علينا هذه القيادة باتفاقية لا يمكن تجاهل أبعادها السياسية مع العدو الصهيوني وبالتعاون مع الامبريالية الاميركية عدوة شعبنا وكل شعوب العالم » . وأضاف بيان الجبهة معددا مخاطر الاتفاقية على الوجه التالي :

أولا ــ انها تأتي في وقت أحوج ما تكون فيه قضيتنا الوطنية للوحدة والتضامن العربي لمواجهة العدوان الصهيوني المدعوم من الامبريالية الاميركية . لقد جاءت هذه الاتفاقية كتعبير عن رغبة اعداء شعبنا في شق وحدة الموقف العربي والاستفراد بالجبهات العربية الواحدة بعد الاخرى عن طريق تحييدها للجبهة المصرية .

ثانيا ــ ان هذه الاتفاقية جردت مصر من حقها المشروع في استخدام القوى من أجل تحرير أرضها والاراضي العربية المحتلة ، وذلك من خلال تعهدها بعدم استخدام القوة او التهديد بها . وبذلك تتنكر القيادة اليمينية الرجعية المصرية لقرارات مؤتمرات القمة العربية والاجماع العربي والاهداف الوطنية لحركة التحرير العربية والفلسطينية .

ثالثا ــ تتناقض الاتفاقية مع اهداف الحصار الاقتصادي الذي تشنه حركة التحرر العربية ضد الكيان الصهيوني وذلك من خلال سماحها للسفن الاسرائيلية المرور في قناة السويس من والى الموانىء الاسرائيلية .

رابعا ــ تجاهلت الاتفاقية قضية شعبنا الفلسطيني وقضية الاراضي العربية المحتلة ، وبذلك تكون القيادة المصرية قد قدمت تنازلات سياسية خطيرة دون مقابل يذكر لا على الصعيد العربي والفلسطيني فحسب وانما على الصعيد المصري أيضا .

خامسا ــ ان الاتفاقية لما انطوت عليه من التزامات تمثل تراجعا عن المكاسب العظيمة التي حققتها حركة التحرر العربية والفلسطينية وخاصة بعد حرب تشرين الوطنية . وبكل تحديد فقد منحت اسرائيل مكافأة على عدوانها واحتلالها للاراضي العربية كما منحت للولايات المتحدة قواعد عسكرية في سيناء العربية ، طالما ناضلت شعوبنا العربية للتخلص منها .

وختمت الجبهة الوطنية بيانها قائلة : « ان اصرارنا على متابعة النضال والتمسك بأهداف مسيرتنا الوطنية وحقنا في تقرير المصير واقامة دولتنا الوطنية المستقلة على أرضنا ، سيمكننا حتما من التصدي لجيش الاعداء وطابور التخاذل . واننا بدعم من حركة التحرر الوطني العربية وحركة التحرر والتقدم العالمية وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الصديق لقادرون بكل تأكيد على تحقيق النصر » .

بعض مشاكل التعليم في المناطق المحتلة

مع افتتاح السنة الدراسية الجديدة ، برزت في المناطق المحتلة مشكلات عديدة تتعلق بالتعليم . فمثلا بلغ عدد النقص في غرف التدريس حوالى

٢٠٠ غرفة . وهذا الرقم الضخم المستخلص من تقارير خاصة بالمشكلة التعليمية يعكس السياسة التي تتبعها اسرائيل فيما يتعلق بالتعليم في المدارس العربية . ولعل ابرز سمات المشكلات التعليمية ، الى جانب النقص في غرف التدريس هي :

أولا : اغلاق المدارس العربية في الضفة الغربية وقطاع غزة بحجج « أمنية » . ويستمر اغـلاق المدارس لمدة أسابيع ويمتد في احيان كثيرة الـى شهور . والهدف الواضح من وراء ذلك هو ايجاد قطيعة بين الطلاب وبين المدرسة ، واتاحة الفرصة أمامهم لكي يكونوا عرضة لاغراء العمل في المزارع والمعامل ومختلف الاعمال الاخرى . وبذلك يتحول الطالب الفلسطيني الى عامل جاهل غـير فني رخيص الاجر .

ثانيا : تقوم السلطات حاليا بطرد اعداد متزايدة من المعلمين الفلسطينيين الذين يعملون في مدارس الضفة الغربية وقطاع غزة ، متذرعة بعدم حاجة المدارس العربية لكل هذا العدد من المعلمين ، أو التذرع بأن المعلمين يقومون بتحريض الطلبة ولا يتقيدون بمناهج التعليم المفروضة من قبل الاحتلال .

ثالثا : تعمد سلطات العدو الى خلـق المشاكل العديدة في المدارس ووضع العقبات أمام كل محاولة للنهوض بمستوى التعليم ، فتعمل علـى تكريس حالة كاملة من الاهمال وعدم السماح باجراء أيـة ترميمات للغرف أو سد احتياجات المدارس مـن أدوات ومقاعد وغيرها .

وقد نشرت صحيفة « الفجر » يوم ١٩٧٥/٨/٥ أن المدارس العربية تعاني من نقص كبير في غرف التدريس كما تعاني مـن عدم الاهتمام بالحالـة الصحية للطلبة الامر الذي يشكل خطورة بالغـة بسبب تفشي بعض الامراض فيهم . ويقول المشرفون على التعليم ان سياسة الاحتلال تتركز في تقليص عدد المدارس الى أقصى حد ممكن ووضع العراقيل أمام اقامة مدارس جديدة تستوعب الاعداد المتزايدة من الطلبة والناشئة . وتبدو هذه المشكلة واضحة في مدينة القدس وقرى الضفة الغربية وقطاع غزة . وكان وفد من العاملين في حقل التعليم داخل الارض المحتلـة قد أجرى اتصالات مـع وزير التعليم الاسرائيلي وعرض عليه المشاكل التي تعاني منهـا المدارس وطالب بايجاد الحلول السريعـة لانقاذ مستقبل الطلبة الفلسطينيين . الا ان وزير التعليم الاسرائيلي رد قائلا : « ان على الشبان العرب في اسرائيل ان يتعلموا أولا أن يصبحوا أكثـر ولاء لهذه الدولة قبل ان يتعلموا أي شيء آخر » !!

وكلام الوزير الاسرائيلي هـذا يعكس بوضوح أبعاد المخطط المكرس والذي يستهدف ابناء الشعب الفلسطيني في الارض المحتلـة . فهـو يقول ان المطلوب احد اثنين : اما تجهيل الطلبة وتحويلهم الى أيد عاملة مسخرة لخدمة اقتصاد العـدو ، واما تهديد أفكار هؤلاء الطلبة وسلخهم عن عروبتهم وانتمائهم الوطني والقومي .

وسادت حالة من التذمر أوساط المواطنين فـي القدس خاصة وسائر مناطق الضفة الغربية أيضا بسبب امعـان السلطات الاسرائيليـة في محاربة المدارس العربية وطرد المعلمين منها وتكريس حالة الاهمال المبنية على مخطط تجهيل كامل فيما يتعلق بأبناء شعبنا وعدم اتاحة الفرصة أمامهم لاكمـال دراستهم . ففي القدس دعا المواطنون الى جمع التبرعات لاقامـة مدارس جديدة وخصم هـذه التبرعات من الضرائب الباهظة التي تحصل عليها سلطات الاحتلال من المواطنين عنوة واكراها . وهذه الدعوة التي تشكل حلا ذاتيا تعتبر الحل الجماهيري لمشكلة التعليم ولمواجهـة مخططات الاحتلال واحباطها ، وتحدي كـل أشكال تهويد العقل الفلسطيني والارض الفلسطينية .

الانتخابات المحلية

أعلنت سلطات الحكم العسكري في شهر سبتمبر حل المجالس القروية في الضفـة الغربية تمهيدا لاجراء انتخابات جديدة فيها ، في الفترة الواقعـة بين شهر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٥ وشهر اذار (مارس) ١٩٧٦ . وقرار سلطات الاحتلال هـذا يشمل ٥٧ مجلسا قرويا ومحليا تتوزعها مختلف مناطق الضفة المحتلة . ومنحت السلطات حـق الانتخاب للمرأة — دون حق الترشيح — والشباب فوق سن الثامنة عشرة لأول مرة ، وذلك حسب التعديل الذي أجرته الحكومة الاردنية في قوانينها السارية أيضا في الضفة الغربية . وبالتالي فان مجموع الناخبين لمختلف المجالس القروية سـوف يرتفع الـى ٣٦ ألـف ناخب . وتمهيـدا لاجراء الانتخابات عينت سلطات الحكم العسكري لجنـة محلية للاشراف على الانتخابات ولجنـة اعتراض

على قوائم الناخبين يرشسها قاض محلي .

وينشط الحكام العسكريون في مختلف مدن ومناطق الضفة الغربية حاليا لطبخ عملية الانتخابات هذه تدعمهم آلة البطش والارهاب المطورة . الا ان الجماهير الفلسطينية التي تعودت على مقارعة المحتلين تتحرك الآن لمواجهة معركة الانتخابات وانشال مخطط المحتلين بفرض عملائهم والضالعين في ركابهم . وليس أدل على ذلك مما يجري في مدينة نابلس ، وهي احدى قلاع النضال الوطني في الضفة الغربية ، من تحركات جماهيرية لمواجهة مخططات الاحتلال الانتخابية ، التي يمكن التقاطها من خلال المظاهر التالية :

١ ــ تشكلت لجنة في نابلس تمثل المجلس البلدي في المدينة ، الغرفة التجارية ، اتحاد نقابات العمال ، الهيئات النسائية ، مهمتها مناقشة القضايا الهامة التي تهم المدينة .

٢ ــ في أول اجتماع للجنة تقرر رفض أية تعديلات على قانون البلديات خوفا من منح صلاحيات موسعة للمجالس البلدية .

٣ ــ عقد اجتماع في نابلس ضم عددا من المؤسسات الجماهيرية كالنقابات والنوادي حيث ناقش المجتمعون قضية الانتخابات وضرورة دفع عناصر وطنية للمجلس البلدي .

٤ ــ عقد اللاجئون في المدينة اجتماعات مماثلة ، كما عقد اجتماع آخر بأحد المصانع ، وثالث للتجار ، حيث ساد في هذه الاجتماعات اتجاه باختيار عناصر شابة ووطنية لخوض معركة الانتخابات في مواجهة عملاء سلطات الاحتلال وعموم الوجوه التقليدية .

وما جرى في نابلس لا يختلف كثيرا عما جرى في مختلف أنحاء الضفة الغربية ، من نشاط لانشال القوائم غير الوطنية وغير القادرة على مواجهة متطلبات النضال الوطني في هذه المرحلة الدقيقة ، حيث يشتد التآمر على القضية الفلسطينية والشعب الفلسطيني .

ويقيننا منا ان التجربة الانتخابية التي مرت بها جماهير الضفة الغربية في أواسط العام ١٩٧٢ ، سوف تكون ماثلة في أذهانها وهي تعد نفسها لمواجهة الانتخابات هذه المرة وهزيمة عملاء الاحتلال وأزلامه . فالشعب الفلسطيني في الضفة الغربية الذي صمد في وجه مختلف ضغوطات ومشاريع الاحتلال ، وآخرها مشروع الادارة المدنية ، سوف يصمد مجددا في هذه التجربة ، ويحافظ على وجهه الوطني ، وذلك باسقاط رموز الخيانة والعمالة للمحتلين .

عيسى الشعيبي

(٤) اسرائيليـــات

I

المظاهرات المعادية لاتفاقية التسوية
تعم شوارع اسرائيل ... والكنيست يصادق عليها

فور وصول وزير الخارجية الاميركي الى المنطقة للعمل على عقد تسوية جزئية اخرى بـين اسرائيل ومصر ، اجتاحت معظم مدن اسرائيل موجة منظمة من المظاهرات العنيفة ، التي لم تتوقف الا بعـد التوقيع على الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل . وتعتبر هذه المظاهرات من اعنف ما شهدته اسرائيل منذ قيامها ، الامر الذي أثار ردود فعـل عنيفـة لدى الرأي العام الاسرائيلي ، الرسمي والشعبي. وقد نظم هـذه المظاهرات المعاديـة للتسويـة الجزئية ، الفئات اليمينية المتطرفة في اسرائيل ، وأهمها تلك الجماعة المتزمتة المعروفة باسم غوش ايمونيم ، وشباب حركة حيروت ، وأعضاء حركة أرض اسرائيل الكاملة . ورفع هؤلاء شعـارات تدعـو الـى عدم القبـول بالتسوية المقترحـة والانسحاب مـن ممرات سينـاء وحقول نفط ابو رديس ، وطالبـوا باسقـاط الحكومة واجراء انتخابات جديدة . كذلك رفعت شعـارات معادية لكيسنجر ومساعيه ، تدعوه الى ترك اسرائيل « لانه عدو الشعب اليهودي » . وتدعـي هذه الجماعات ان القبول بشروط التسويـة الجزئية ناتج عن الضغط الاميركي على اسرائيل ، الامر الذي سيؤدي الى تعريض أمنها للخطر بسبب التنازل عن مواقع استراتيجية مهمة بـدون أي مقابل من جانب مصر . ووقف وراء هذه المظاهرات زعماء الاحزاب اليمينية المتطرفة في اسرائيل ، وعلى رأسهم النائب مناحم بيغن ، زعيم كتلـة ليكود ، الذي تزعم معارضة الاتفاق الجزئـي ، بكامل بنوده وتفاصيله .

وكان مفتش عام الشرطة في اسرائيل شاؤول روزوليو قد اعلن أمام لجنة الداخلية في الكنيست ان ٥٨ مظاهرة غير قانونية قد قامت ، خلال جولة كيسنجر في المنطقة ، في جميع انحـاء اسرائيل ، وخاصة في القدس وتل ابيب (مالرتس ، ٣١/٧٥/٨) . وتميـزت هـذه المظاهرات بتنظيمها الدقيق كوسيلة ضغط سياسية . وكشف روزوليو ان زعماء غوش ايمونيم الذين نظموا المظاهرات ، التي كانت تختلف في طابعها وحجمها مـن مكان لآخر ، سيطروا بشكل كامل عليها (المصدر نفسه) اذ خططوا سرا لهذه المظاهرات قبل تنفيذها . واهم هذه المظاهرات كانت تلك التي جرت أمـام منزلي رئيس الحكومـة في القدس وتـل ابيب ، ومحاولة سد الطريق المؤدي الى القدس أمـام قافلة وزير الخارجية الاميركي فور وصوله ، ثم المظاهرات الكبرى (في ٧٥/٨/٢٨) قـرب حائط المبكى في القدس ، التي شارك بها نحو ١٥ الف شخص حضروا من مختلف انحاء اسرائيل . كذلك رافق هذه المظاهرات نشاطـات وأعمال عنـف أخرى مثل استخدام مكبرات للصوت خلال الليل قرب فندق الملك داوود في القدس ، الـذي اتخذه كيسنجر مقرا له ، والتعرض لرئيس بلدية القدس وأحد ضباط الجيش ، ومحاولة التسلق الى بيت وزير خارجية اسرائيل الكائن في الحي اليهودي في المدينة القديمة ، وأعمال أخرى مماثلة . ولم تقتصر المظاهرات على هذه الجماعات المعارضة فقط ، وانما حدثت مظاهرات أخرى نظمها الطرف الثاني ، اي الجماعات المؤيدة للتسوية ، وأهمها مظاهرتين جرت الاولى في تل ابيب بمبادرة اعضاء مبام وكيبوتسات هاشومير هاتسعير واشترك بها أكثر من عشرة الاف شخص ، حملوا لافتات تقول « الـدم أثمن مـن النفط » ، « امنحوا فرصة للسلام » ، « نعم للسلام — لا للحرب » . أما المظاهرة الثانية فقد جرت في القدس بمبادرة من حزب العمل بعد التوقيع على الاتفاق الجزئـي بالاحرف الاولى ، ويوم اجراء المناقشات فـي الكنيست (٧٥/٩/٣) ، واشترك فيها نحو ٢٠ الف شخص حضروا من مختلف انحاء اسرائيل ، يحملون شعارات التأييد للحكومة وللاتفاق الجزئي. وقد ترك رئيس الحكومة رابين ونائبه ألون ووزير الدفاع بيريس جلسة المناقشات في الكنيست لالقاء الخطب في المتظاهرين . الا ان هاتين المظاهرتين لم تتسما بالعنف الذي ميز المظاهرات المعادية التي نظمها اليمين والذي بدا كأنه يسيطر على

الشارع الاسرائيلي ، خلال انشغال الحكومة الاسرائيلية بالمفاوضات .

من هم جماعة غوش ايمونيم ؟

لوحظ خلال المظاهرات المعادية للتسوية ان الجماعة المعروفة باسم غوش ايمونيم كادت تسيطر على الشارع الاسرائيلي ، بعد ان نشطت في مجال الاستيطان في المناطق المحتلة . وغوش ايمونيم جماعة يمينية متزمتة ظهرت بعد حرب ١٩٧٣ ، اي انها حركة جديدة في اسرائيل « رغم ان جذورها والاحداث التي أدت الى ظهورها ، هي نتيجة متوقعة لاسلوب ثقافة (يهودية) تديم في حركة الشبيبة « بني عكيفا » (التابعة للمفدال) والمدارس الثانوية الدينية وغيرها » (يسرائيل هرئيل ــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٤) . وقد تقرر الا تكون الحركة جزءا من أي حزب قائم ، بل مفتوحة أمام المتدينين والعلمانيين على السواء ، الذين يتطلعون الى استيطان البلد كله . ورغم ان معظم منظمي ونشيطي غوش ايمونيم هم من خريجي « بني عكيفا » ، واعضاء « هبوعيل همزراحي » ، فقد رفضوا بشدة ان يكونوا كتلة داخل الحزب الديني القومي ، او الانضمام الى تلك الكتلة داخل الحزب التي تؤيد وتتماثل مع نضالهم ، وهي كتلة الشباب » (المصدر نفسه) . الا ان هذا لا ينفي التقارب بينهم وبين شباب الحزب الديني القومي الذين شاركوهم في المظاهرات الاخيرة . وتجدر الاشارة ايضا الى ان معظم المبادرين الى اقامة غوش ايمونيم قد تعلموا في مدارس الحاخام تسفي يهودا كوك ، الذي يستشيرونه في نشاطاتهم المختلفة . أما مبادئهم الاساسية فهي « السعي للحفاظ على السيادة الاسرائيلية في المناطق (المحتلة) والمحافظة على الاستقلال والوقوف دائما منتصبي القامة ... وهذا هو سبب الصرخة الكبيرة التي يطلقها اعضاء غوش ايمونيم في هذه الايام . صحيح ان ابو رديس ، مثلا ، لا تعتبر من أرض الاجداد ولكن الاسلوب الذي تدور به الاتصالات لاعادتها تقلق زعماء غوش ايمونيم ، لكونه ــ حسب رأيهم ــ سابقة لاسلوب متوقع للتنازل عن الضفة الغربية » (مناحم ميخلسون ــ يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/٢٥) . وقد وجد أعضاء غوش ايمونيم حلفاء لهم في حركة أرض اسرائيل الكاملة وشباب حركة حيروت ، وشباب الحزب الديني القومي ، الذين يتزعمهم النائبان يهودا بن مئير وزفولون هامر .

ان الجماعات التي أشرنا لها كانت ، ولا زالت ، أقلية منذ قيام اسرائيل ، وجوبهت بمعارضة شديدة وانتقادات لاذعة من قبل فئات عديدة ، بسبب العنف الذي سيطر على مظاهراتها . وتحدث الكاتب اهرون ميغد حول أسلوب هذه الفئات وأهدافها بقوله : « ان غوش ايمونيم وحركة أرض اسرائيل الكاملة ، وباقي الجماعات المتحمسة الاخرى ، مستمرة ــ بصيغ ووسائل مختلفة ــ في الخط العقائدي والتكتيكي للحركة الاصلاحية عندما كانت في ذروة تطرفها العدائي : تحقيق الهدف الاقصى فورا ، وبكل ثمن ، بدون أخذ الواقع التاريخي المعين بالاعتبار ، وبدون اعتبار رأي أغلبية الشعب . القتال حتى النهاية ــ لأن الحق معنا » (دافار ، ٧٥/٨/٢٩).

وكانت غوش ايمونيم قد برزت في البداية بفضل الغزوات الاستيطانية التي كانت تقوم بها من حين لآخر في أنحاء الضفة الغربية ، رغم ارادة الحكومة الاسرائيلية ، الا ان السلطات كانت تمنع أعضاءها ، عادة ، من البقاء في مكان الاستيطان حتى بالقوة . وقد تحدث أحد رؤساء غوش ايمونيم ، حنان بورات ، عن نشاط هذه الحركة الاستيطاني بقوله (في مقابلة مع يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/٢٩) : « ان استيطان البلد يقف نصب اعيننا ــ وليس فقط المناطق المحتلة في سنة ١٩٦٧ ، وانما استيطان الجليل والنقب أيضا . وقد وجدنا من الضرورة أن نركز في البداية على يهودا والسامرة ، لأن المنطقة تعتبر خالية من اليهود ، وربما ضيعنا الفرصة . وعشية حرب يوم الغفران ، وصل وفدنا الى هضبة الجولان وأقاموا هنالك مستوطنة كيشت ، وهناك كثير من المستوطنين في رمات مغشيميم ونوف ، ينتمون الينا . بدأنا الآن بتأليف نواة خاصة بكريات شمونة ... والاستيطان من ناحيتنا مرتبط بأمور أخرى : بالهجرة ، باستملاك الارض ، بتقوية السيادة اليهودية في أرض اسرائيل » . وردا على تصريح وزير المعارف اهرون يدلين ، خلال المظاهرات ، ان غوش ايمونيم بدأت كحركة استيطانية وتحولت الآن الى حركة سياسية ، أعلن بورات « اننا حركة غير حزبية ، ولا نتطلع

الى أي اطار سياسي — ولكننا بالتأكيد حركة تريد التأثير في مجالات سياسية » (المصدر نفسه) .

الشرطة تقمع المظاهرات

كانت حصيلة المظاهرات التي نظمتها غوش ايمونيم والحركات اليمينية الاخرى المعارضة للتسوية الجزئية ، عشرات المعتقلين والجرحى في تل أبيب والقدس ، بسبب الاصطدامات التي وقعت بين المتظاهرين والشرطة . وخلافا للرأي السائد ان الشرطة الاسرائيلية لا تقمع سوى مظاهرات الفئات اليسارية في اسرائيل ، فقد تصرفت هذه بصورة لا سابق لها من العنف والشدة تجاه المتظاهرين ، واشتبكت معهم داخل ساحات القدس ، وفي مركز تل ابيب ، واستخدمت ضدهم القنابل المسيلة للدموع ، الامر الذي أثار موجة من المعارضة ضد أعمالها ، خاصة بين مؤيدي المتظاهرين ، الذين اتهموها بكونها أداة منفذة في يد السلطة . وعلى أثر هذه الاصطدامات عقدت اللجنة الداخلية في الكنيست جلسة خاصة ، بدعوة من رئيسها وأحد اعضاء ليكود النائب يوسف تامير ، للتحقيق في أعمال الشرطة ضد المتظاهرين ، حيث تعرض وزير الشرطة شلومو هيلل ومفتش عام الشرطة روزوليو الى استجواب دقيق بهذا الشأن واعلن وزير الشرطة (في مقابلة مع معاريف ، ٧٥/٨/٢٤) ان الشرطة سمحت بعقد اجتماعات ومظاهرات ، ولكنها لا تستطيع ان تسمح بتحويل هذه المظاهرات الى وسيلة ارهاب « ورغم ذلك فقد تصرفت الشرطة بتعقل واستخدمت قوة بسيطة فقط ضد المتظاهرين » . وقد ساعد الشرطة في عملية قمع المظاهرات قوة من حرس الحدود احضرت خصيصا الى القدس وتل أبيب . ويقال ان هذه القوة عملت « ضمن اطارات واضحة ، وانضباط داخلي ، ونفذت مهمتها على الوجه الصحيح ، كما طلب منها ، خلافا للشرطة التي دخلت في مناقشات حادة مع المتظاهرين ، وبشكل يدل على ان أفرادها فقدوا السيطرة على اعصابهم » (ناثان دونفيتس — هآرتس ، ٧٥/٨/٢٧) . وقد برز عنف الشرطة بصورة خاصة في تل أبيب اثناء تفريق المظاهرة أمام بيت رئيس الحكومة وأمام الكانتري كلوب .

غير انه كان هناك ايضا من أيد الشرطة في نشاطها ضد المتظاهرين الذين حاولوا في البداية استمالة افرادها لدفعهم الى الانضمام الى أعمال المتظاهرين او التغاضي عنهم . وعلق الكاتب حاييم ايزك على هذه الظاهرة بقوله : « ليست هذه هي المرة الاولى التي يعلن فيها غوش ايمونيم التمرد العلني . فأثناء عمليات الاستيطان الممنوعة ، دعوا جنود الجيش الى الخروج عن الانضباط ، واليوم يدعون أفراد شرطة اسرائيل الى عدم الانصياع لاوامر حكومة جبانة تستسلم للضغوط ... انني اشفق على الشرطة في دولة مصابة بالجنون . قبل زمن قصير فقط كنت واثقا بعد احداث اقرت وكفر برعم وكير شالوم وأشدود ، انني تعرفت على نوعيتها : شرطة تحارب اليسار ، ولا تكف عن الضرب بعصي اليمين . وها هي تضرب ايضا حراس اسرائيل من اليمين . تضرب — كما يقولون — بشكل لا سابق له ، شرطة بدون ايديولوجية ، افرادها من المجرمين الذين لا يفرقون بين اليمين واليسار » (دافار ، ٧٥/٨/٢٦) .

معارضة مظاهرات العنف

أثارت المظاهرات موجة شديدة من المعارضة والانتقاد لدى الرأي العام الاسرائيلي بسبب العنف الذي سادها ، لان استخدام العنف ، بحسب رأي البعض ، « خطير جدا ويؤدي الى تقويض أسس الحكم الديمقراطي والنظام والقانون في الدولة .. وربما نصل الى وضع لا يبقى فيه اعضاء غوش ايمونيم وحدهم في الشارع ، اذا راح « الشارع » حقا يتخذ ويملي القرارات في المواضيع التي يجب ان تقرر داخل المؤسسة الرسمية والمفوضة او حسب طرق شرعية وفق قوانين الدولة » (افتتاحية معاريف ، ٧٥/٨/٢٤) . « ان الحديث عن الخطر المتوقع على بنيتنا الاجتماعية والسياسية غير مبالغ فيه ، اذا انتقل الحوار السياسي حقا الى شوارع المدن ، وبدأت القرارات تتخذ بأسلوب تبادل اللكمات ، وضرب الحجارة والعصي والمتاريس المرتجلة » . وحذر البعض من الخطر الناجم عن أسلوب العنف هذا ، لانه « اذا شعرت كل جماعة بأن مؤسسات الدولة تسير باتجاه سلبي بحسب رأيها ، ولم تكتف بالجلوس في الكنيست وانما رابطت على الطرق الرئيسية في البلد ، وعلى مداخل العاصمة ، ولم تكتف بالتحدث عبر مكبر الصوت داخل الكنيست وانما بدأت تستخدم

مكبرات الصوت في الشوارع ، ولا ترفــع أيديها في عملية تصويت ديمقراطية ، وانمـــا ترفعها في المظاهرات العنيفة ، فاننا سنصل الــى وضع بائس جدا ... هناك قواعد للعبة ، يجب عدم تجاوزهـــا » (حانــوخ برطوف ـــ معاريف ، ٧٥/٨/٢٤) .

كذلك هاجمت النائبة شولاميت الوني من كتلة ياعد (في مقال نشرته في يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/٢٩) المتظاهرين واتهمتهم باللاسامية بسبب تهجمهم على كيسنجر شخصيا ، « واذا كان هناك ما هو معاد للديمقراطية ومخيف فــي مظاهرات غوش ايمونيم ، فانه الهجوم القوي على كيسنجر الانسان ، بسبب أصله اليهودي والمطالب التي قدمت اليــه بسبب ذلــك ... لقد تمثل طلب (المتظاهرين) في أن كيسنجر اليهودي ملزم بتلبية كل مطالبنا وادارة سياسة الولايات المتحدة حسب امــلاءات المتطرفين في غــوش ايمونيم ... ان تصرفهم هذا يثير اللاسامية في العالم ، التي تدعي انه محظور على اليهود الوصول الــى مناصب سياسية عليــا ، لان اخلاصهــم الاكبر موجه للقدس ، وبعد ذلك لبلدهم » .

المظاهرات ساعدت الحكومة

يبدو ان الحكومة كانت اكبر المستفيدين مــن المظاهرات خلال المفاوضات الاخيرة ، ممـــا دفع احد الوزراء الى الاعلان « انه لو لم يكن هنـــاك غوش ايمونيم ، لاضطررنا الى ايجاده » . وتصف النائبة الوني الفائدة التي جنتها الحكومة مــن وراء هذه المظاهرات بقولها : « ان هذه المظاهرات أمر مرغوب فيه لدى السلطة عندنا ، اذ بوسعها يمكن ان تهتف امام العالم : انظروا ، نحــن ديمقراطيون وعندنا من يعارض التسوية الجزئية وكل تسوية ممكنة تؤدي الى تنازل عن مناطق . انظروا الى المعارضة والغضب المستعر ، وافهموا اننا مقيدين » . وتضيف الوني قائلة : « لا أقصد هنا أن اقــول ان الحكومة بادرت الــى هــذه المظاهرات او خططت لها وعرفت شعاراتها سلفا ، ولكنها بالتأكيد كانت راغبة بها ، لانها ضروريــة لمطالبها » (المصدر نفسه) . واشار البعض ايضا الى فوائد اخرى لهــذه المظاهرات ، اذ « ان الحكومة لم تستعن بها فقط لكي تشرح لكيسنجر ، انها وصلت الى نهاية حدود تنازلاتها ، وانما كان محظورا ترك الغرب يعتقد ان التنازلات تتم ببساطة وبرضاء . كان مجرى اتخاذ القرارات ، بدون هذه المظاهرات غير سليم ، بحيث يبدو ان قرارات كهذه تتخذ بدون نقاش شديد أو صراع قوي . ان احد الاخطاء الكثيرة التي ارتكبتها حكومــة اسرائيــل خلال ادارة المفاوضات في السنة الاخيرة ، هو عدم جعل الولايات المتحدة تدرك حجم الخسارة المتوقعة لجيش اسرائيل وللاقتصاد الاسرائيلي . وقــد اصلحت مظاهرات غوش ايمونيم قليلا مــن هــذه الصورة المعوجة » (دان مرغليت ، هارتس ، ٧٥/٨/٢٧) . كذلك ساهمت هذه المظاهرات في « ايقاظ » الاغلبية الصامتة في اسرائيل التــي تؤيد الاتفاق الجزئي مع مصر ، والتي كانت تتردد في تأييد موقف الحكومة ، الامر الذي عاد بالفائدة على الحكومة بالطبع (افتتاحية دافار ، ٢٩/ ٧٥/٨) .

المظاهرات تحذير للمستقبل

تبين ان المظاهرات المعادية للتسوية لــم تؤثر على موقف الحكومــة الاسرائيلية بشأن الاتفاق الجزئي مع مصر ، والبرهان على ذلك ان الاتفاق تم رغم هذه المعارضة الشديدة في اسرائيــل . وقد ظهرت عــدة تفسيرات لذلــك ، أولهــا ان المتظاهرين ليسوا سوى اقلية رغم الضجة التي اثاروها ، بحيث لــم يتجاوز عددهم ١٥ ألــف شخص ، وثانيها ان المتظاهرين عملوا في فراغ على مستوى الراي العام ، حدث بسبب التناقض بــين موقف الحكومة خــلال المفاوضات في شهر اذار الماضي ، وموقفها خلال المفاوضات الاخيرة . وقد ساعد على ذلك سرية المفاوضات ، بحيــث لم تستطع الحكومة كشف ما يجري امام الــراي العام ، وبذلك « اندفع اعضاء غوش ايمونيم وشباب حيروت الى داخل هذا الفراغ ، وحظوا بتأييد كبير حتى بين « الاكثرية الصامتة » التي لم يتم تهيئتها للتغيير » في موقف الحكومة (شلومو اهرونسون ـــ هارتس ، ٧٥/٩/١) . ولكن كلما كشفت تفاصيل اكثر حول الاتفاق بــدأ الانطباع حوله يتحسن لدى الجمهور ، بحيث لم تعد « جبهة الرفض » الاسرائيلية تعتبر سورا حصينا ضد الاتفاق » (دانييل بلوخ ـــ دافار ، ٧٥/٨/٢٩) . كذلك يعود التغير لدى الراي العام الاسرائيلــي لصالح الاتفاق الى فشل المتظاهرين انفسهم ،

« لانهم بدأوا معركة صاخبة في وقت متأخر من ناحية استراتيجية ، ومبكر جدا من ناحية تكتيكية . وبسرعة انشق نضالهم الى عدة مجالات فرعية — حول حقيقة ادعائهم ضد الاتفاق الجزئي ، والصورة التي عبروا بها حول ذلك ، ثم ردود فعلهم على أعمال الشرطة » (شلومو اهرونسون — هآرتس، ١/٩/٧٥) . اما التفسير الثالث فهو ان اعضاء غوش ايمونيم وشباب حيروت كانوا على يقين بأن الاتفاق سيتحقق رغم مظاهراتهم ، ويبدو انه كان لهم هدف اخر يتعلق بالمستقبل . « ان المشاهد التي تكررت خلال الاسابيع الاخيرة في القدس ، خلال المظاهرات التي نظمها غوش ايمونيم ضد اتفاق سيناء ، كانت بمثابة «بروفة» لعمل مضاد لاتفاقات مماثلة في الجولان او في يهودا والسامرة . ان اعضاء غوش ايمونيم ، الذين دعوا الاف مؤيديهم للخروج والتظاهر ، كانوا على يقين ان احتجاجهم موجه ضد أمر منته ... وكانت سلسلة المظاهرات العنيفة التي نظمها غوش ايمونيم وشباب حيروت واخرون بمثابة استعراض عضلات امام الجمهور وأمام الحكومة ، استعدادا لمواجهات مماثلة في المستقبل . كما كان الهدف من المظاهرات تقديم برهان للعالم الكبير ان هناك جسما كبيرا ومنظما في اسرائيل يعارض بحزم كل انسحاب من المناطق » (يهودا ليطني — هآرتس ، ٣١/٨/ ٧٥) . واشار البعض الى ان المتظاهرين « أرادوا أن يبينوا لحكومة اسرائيل ما ينتظرها اذا دخلت في مفاوضات حول مناطق اكثر قربا لاسرائيل ... كان الشعار الحقيقي للمظاهرات : لا تمسوا هضبة الجولان أو يهودا والسامرة ، لاننا لم نسمح لكم » (افتتاحية هآرتس ، ٢٩/٨/٧٥) . وقد عبر عن ذلك احد زعماء غوش ايمونيم حنان بورات (في مقابلة مع يديعوت احرونوت ، ٢٩/ ٨/٧٥) بقوله : « ان سيناء هي السد الذي اذا تفجر ، سيجرف معه كل شيء ... وقد بدأ الانجراف فعلا . تنازلنا عن المفاوضات المباشرة ، تخلينا عن المطالبة بسلام تعاقدي ، وحتى اننا تنازلنا عن طلبنا بالغاء حالة الحرب . قبل شهرين التقينا بلجنة مستوطنات الجولان وحذرناهم : اذا حدث استسلام للضغط الامريكي في سيناء ، فأنتم المقبلين في الدور ... وقد بدأوا يتحدثون الان عن مفاوضات وفصل للقوات في الجولان ، وبدأوا كذلك يشيرون الى اتصالات مع حسين أيضا » .

الا ان السؤال الذي يطرح نفسه هو هل تستطيع هذه الفئات اليمينية حقا ، منع الحكومة الاسرائيلية في المستقبل من الوصول الى اتفاقيات اخرى مع الدول العربية بشأن الانسحاب من المناطق المحتلة ؟ ويبدو من خلال عرض مجمل نشاطات ومظاهرات هذه الفئات خلال المفاوضات الاخيرة بشأن الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل ، انها لا تستطيع تحقيق اكثر من الضجة او تسجيل موقف ، في ميزان القوى السياسي الداخلي في اسرائيل ، كما هو عليه اليوم . « لن يستطيع اليمين وشباب المتدينين وضع حاجز متين امام الاتفاقات المقبلة ، اذا قررت واشنطن انه ليس هناك مهرب من ذلك ، واذا قررت حكومة اسرائيل سلفا ، السير بثقة في الطريق الذي تختاره . أما اذا واجهت تحديا من جانب شباب بيغن ، وتلامذة كوك الشباب ، ودايان وبن — بورات ، فيحتمل ان تضربهم بواسطة تطرفهم ... » (شلومو اهرونسون — هآرتس ، ١/٩/٧٥) .

مواقف الاحزاب والكتل السياسية في اسرائيل من الاتفاق الجزئي

بعد الاعلان عن عقد الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل ، راحت الاحزاب والكتل السياسية في اسرائيل تعقد اجتماعات لتحديد موقفها من الاتفاق قبل عرضه على الكنيست للمصادقة عليه . وقد اجتمع مركز حزب العمل لهذه الغاية وصادق على الاتفاق بأغلبية ٢٧٠ صوتا ضد ٤ أصوات ، وامتناع أربعة عن التصويت ، وذلك عقب نقاش دام أربع ساعات ونصف الساعة ، تحدث خلاله رابين وألون وايبن ودايان ونافون ومئير . وقد اصر دايان في كلمته على معارضته للاتفاق واصراره على التصويت ضده في الكنيست (دافار ، ٣/٩/٧٥) ، وهذا ما قام به فعلا . كذلك كان حزب العمل قد اعرب عن تأييده الكامل للاتفاق خلال جلسة مشتركة لمكتب الحزب وكتلته في الكنيست ، عقدت في مكتب رئيس الحكومة في القدس (هآرتس ، ٢٨/٨/٧٥) . كذلك اجتمعت اللجنة السياسية لحزب مبام في تل أبيب وقررت تأييد الاتفاق الجزئي مع مصر (المصدر نفسه) .

أما بالنسبة للحزب الديني القومي ، فقد قررت ادارة الحزب تأييد الاتفاق بأغلبية ٣٠ ضد ١٩ صوتا ، وذلك خلال جلسة صاخبة تخللها اشتباك

بالايدي . وكان أبرز المعارضين للاتفاق النائبين زفولون هامر ويهودا بن ــ مئير ، اللذين أعلنا انهما سيصوتا ضده في الكنيست (معاريف ، ٧٥/٩/٢) .

كذلك صادق مركز حزب الاحرار المستقلين ، أحد الشركاء في الائتلاف الحكومي ، على قرار الحزب القاضي بتأييد الاتفاق الجزئي مع مصر ، وطلب من اعضاء كتلته في الكنيست التصرف وفق هذا القرار (دافار ، ٧٥/٩/٣) . وبالنسبة لحركة ياعد ، دار نقاش عنيف داخل مجلسها تقرر في نهايته تأييد الاتفاق بأغلبية ٣٢ ضد ١٩ صوتا (معاريف ، ٧٥/٩/١) . كذلك قرر مجلس حركة موكيد تأييد الاتفاق ، وطلب من ممثله في الكنيست ، النائب مئير باعيل التصويت وفق ذلك (دافار ، ٧٥/٩/٣) . أما الجبهة التوراتية فقد تركت لاعضائها « حرية التصويت حسب ضميرهم » (المصدر نفسه) ، بينما قررت كتلة ليكود بالاجماع التصويت ضد الاتفاق في الكنيست (معاريف ، ٧٥/٩/١) .

الكنيست يصادق على الاتفاق

عقد الكنيست الاسرائيلي جلسة خاصة بتاريخ ٧٥/٩/٣ ، لبحث الاتفاق الجزئي بين اسرائيل ومصر والمصادقة عليه . وقد حضر الجلسة ، على غير عادة ، جميع اعضاء الكنيست المئة والعشرين، بدون استثناء (ونادرا ما يحدث ذلك) . واستغرق النقاش نحو تسع ساعات متواصلة ، تحدث خلالها معظم ممثلي الاحزاب والكتل في الكنيست . وفي نهاية النقاش جرى التصويت على مشروع قرار تقدمت به كتل الائتلاف ، وتمت بموجبه المصادقة على الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل بأغلبية ٧٠ (أي اكثر بصوتين من عدد النواب المؤيدين للحكومة) ضد ٤٣ صوتا وامتناع ٧ نواب عن التصويت . وقد صوت اعضاء الكنيست على النحو التالي : المؤيدون (٧٠ عضوا) : نواب المعراخ باستثناء ثلاثة من كتلة رافي ، وهم موشي دايان ، ومردخاي بن ــ بورات وعاموس هدار ، نواب الحزب الديني القومي باستثناء ممثلي الشباب زفولون هامر ويهودا بن ــ مئير ، ونواب حزب الاحرار المستقلين باستثناء هيلل زايدل الذي امتنع عن التصويت . كذلك ايد الاتفاق نواب كتلة ياعد الاربعة ، وممثل موكيد ، وثلاثة نواب من اغودات يسرائيل ، بينما امتنع النائبان الاخران عن التصويت . اما المعارضون (٤٣ نائبا) فهم نواب ليكود ، وثلاثة نواب من رافي ونائبان من الحزب الديني القومي . وامتنع عن التصويت ٧ نواب ، هم ممثلو راكاح ، ونائبان من اغودات يسرائيل ، ونائب من حزب الاحرار المستقلين .

النقاش في الكنيست

افتتح النقاش في الكنيست حول الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل ، رئيس الحكومة يتسحاق رابين ، حيث أكد في بيانه ان الاتفاق مع مصر هو حدث كبير الاحتمالات ، وان أهميته الاساسية هي سياسية ، وهذا ما يستدل عليه من الالتزام التعاقدي بين الطرفين بشأن عدم اللجوء الى استخدام القوة . وأكد رابين انه لم يرد حتى الان في اية وثيقة تم التوقيع عليها مع مصر ، بأن النزاع ينبغي حله بالطرق السلمية وليس بالقوة . كذلك امتدح رئيس الحكومة السادات لتوقيعه على هذا الاتفاق ، بدون ان يربط ذلك بما يحدث على الجبهات الاخرى ، الامر الذي يدل على موقفه الواقعي . كذلك اعترف رابين ان الخط الجديد ليس افضل من الخط الحالي ، ولكنه يوفر لجيش اسرائيل جميع امكانات الهجوم والدفاع في آن واحد . أما بالنسبة لحقول نفط أبو رديس فقد أعلن ان اسرائيل لم تفكر على أي حال بالاحتفاظ بها الى الابد . وأشار كذلك الى الوجود الاميركي المقترح في سيناء ومحاولة عرضه وكأنه تدخل يخدم مصالح الولايات المتحدة ، فقال : « لن يكون هناك تدخل عسكري أميركي . فاسرائيل غير مهتمة بأن يقوم الجيش الاميركي بالقتال من أجلها ، وان وجود الفنيين هدفه فقط ضمان تنفيذ الاتفاق . ان اي مواطن اميركي يجب عليه عدم البقاء في المنطقة في حال نشوب المعارك » . كذلك كشف رابين لاول مرة ان السادات هو الذي اقترح وجود الفنيين الاميركيين في سيناء ، اثناء لقائه مع الرئيس فورد في سالزبورغ لذلك فان هذا الامر لا يعتبر « اختراعا » اسرائيليا (معاريف ، ٧٥/٩/٤) . ولكن بيريس اعلن ــ في مقابلة مع دافار ، ٧٥/٩/٥ ــ انه هو صاحب الفكرة .

وتبع رابين زعيم كتلة ليكود مناحم بيغن الذي

أعلن ان رسالة الرئيس فورد للسادات القائلة بأنه لن يحدث جمود في المنطقة تعني فرض عمليات انسحاب اخرى على اسرائيل . ورغم صيغة الاتفاق التي تتحدث عن عدم استخدام القوة ، فقد بدأت تسمع تهديدات من القاهرة تقول انه بدون عمليات انسحاب اخرى ستكون أوضاع المنطقة خطيرة جدا . كذلك أشار بيغن الى ان حكومة اسرائيل استسلمت للضغط الاميركي ، لانها لم تكن تملك القدرة على الصمود .

وهاجم بيغن بصورة خاصة بيان رئيس الحكومة، لانه طالب في البداية بالغاء حالة الحرب كشرط للانسحاب من الممرات ، بحيث ان الحكومة الاسرائيلية ، بتنازلها عن هذا الشرط نعتبر كأنها صادقت على حالة الحرب . كذلك هاجم بيغن رئيس الاركان بسبب تصريحاته التي تقول بأن الانسحاب من الممرات لا يشكل خطرا أمنيا ، وبذلك يكون قد تدخل في نقاش سياسي لا دخل له به . وعاد بيغن وكرر مطلبه بوجوب طرح الموضوع في استفتاء شعبي . كذلك اعترض على فرض الطاعة الحزبية للتصويت مع الاتفاق (هارتس ، ٧٥/٩/٤) .

وبعد بيغن ، تحدث وزير خارجية اسرائيل السابق ابا ايبن (المعراخ) الذي اعلن ان بيغن عارض جميع الاتفاقيات منذ سنة ١٩٤٩ وحتى اليوم . وهذا الامر يدل على وجود خلافات في الرأي ناجمة عن وجهات النظر بشأن معالجة الوضع السياسي . وأكد ايبن ان الغاء الاتفاق في المرحلة الحالية سيؤدي الى وضع سيء جدا سواء على الصعيد السياسي الدولي او في المجال الامني المتمثل في وقف تسلم الاسلحة من الولايات المتحدة وفي المجال الاقتصادي ايضا . كذلك اشار الى ان نقل البضائع في قناة السويس سيكون اختبارا لنوايا المصريين بتنفيذ الاتفاق (المصدر نفسه) . والجدير بالذكر هنا ان ايبن كان من مؤيدي الوصول الى اتفاق جزئي منذ شهر اذار الماضي ، حيث هاجم موقف الحكومة الاسرائيلية بشدة ، بعد فشل تلك المفاوضات . وكان ايبن قد اعلن في جلسة مركز حزب العمل ان الاتفاق يبعد الحرب ، ولكنه ليس بديلا لسياسة مبادرة ، مثابرة وشاملة. كذلك دعا الى تبني مبدأ الولايات المتحدة حول « عدم جمود » الوضع . وبحسب رأيه يجب على حكومة اسرائيل ان تبدأ بمفاوضات حول سلام شامل ، يرتكز على تسويات اقليمية ، خاصة في الضفة الغربية وغزة (دافار ، ٧٥/٩/٣) .

ونعتبر الكلمة التي ألقاها دايان اثناء النقاش في الكنيست استمرارا لتصريحاته السابقة ، التي عارض بموجبها الاتفاق الجزئي بين مصر واسرائيل لانه ، على حد قوله ، « يضعف اسرائيل من الناحية العسكرية والسياسية ايضا ، ومن ناحية قدرتها على المساومة أمام العرب ، وكذلك من ناحية التعلق بالولايات المتحدة » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٩/١) . وأضاف دايان ان مكسب مصر الاساسي من وراء الاتفاق هو تحقيق انسحاب اسرائيلي بدون ان تتنازل عن الخيار العسكري . وكان دايان قد ذكر في كلمته أمام جلسة مركز حزب العمل ان الحكومات السابقة قامت بمبادرات سلمية لتسويات مع مصر ومع سوريا ، ولكن العرب رفضوها كليا ، « وحتى مع قيادة الاردن جرت محادثات ، ومنح الون خلالها فرصة لعرض مشروعه ، ولكن الاردنيين رفضوه » (دافار ، ٧٥/٩/٣) . وخلال كلمته في الكنيست أعاد دايان الى الذاكرة ان رئيس الحكومة كان قد أعلن أمام الكنيست ان حكام مصر يريدون الحفاظ على حالة الحرب ، ومع ذلك يطالبون باخلاء الممرات ، وقد صوت التجمع كله مؤيدا هذا التصريح ، بعدم قبول الموقف المصري . « والآن غير الجميع موقفهم . ولا أستطيع ان اكون مرنا مثلهم » (هآرتس ، ٧٥/٩/٤) . كذلك أعلن دايان ان اسرائيل لم تحصل على شيء من مصر بواسطة هذا الاتفاق . « وكل ما ستحصل عليه هو تعويض من الولايات المتحدة . وهكذا سيعتاد العرب على اسلوب تفكير جديد : اسرائيل تنسحب — العرب لا يمنحوا شيئا في المقابل — الاميركيون يعوضون على اسرائيل ... ان المتلا والجدي لا يقلان أهمية بالنسبة لي من نقاط الاستيطان في الجولان » . وأضاف دايان انه مستعد للتنازل عن الاثنين ولكن فقط مقابل سلام حقيقي (معاريف ، ٧٥/٩/٤) .

وقد رد على دايان زميله وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريس ، في كلمة اعتبرت بمثابة اول دليل على الخلاف في الرأي بين الاثنين ، فقال ان اسرائيل كانت وستبقى مستقلة ولن يعسكر على

يرسمها جيش غريب . ولكن من اجل الحفاظ على هذا الاستقلال فان اسرائيل بحاجة الى السلاح والمساعدات التي يمكننا الحصول عليها من الولايات المتحدة فقط . وكل هذا في وقت تكلف فيه طائرة حربية واحدة ، مثلا ، ١٤٠ مليون ليرة ، ودبابة خمسة ملايين ليرة . وتساءل بيريس : أي رئيس حكومة يستطيع في وضع كهذا ان يقول «لا» لواشنطن ؟ (المصدر نفسه) .

وتحدث النائب ي. شمري (الاحرار المستقلين) فأعلن ان الاتفاق « لا يعتبر كاملا من ناحيتنا ، ولكنه يعبر عن أقصى ما يمكن الحصول عليه في الظروف القائمة . كذلك فانه افضل من الاتفاق الذي أرادوا فرضه علينا في شهر آذار ، لأنه يتضمن التزامات سياسية وأخرى أميركية بعيدة المدى ، ليس لها سابق في العلاقات بين البلدين » (هآرتس ، ٧٥/٩/٤) .

أما ممثل الحزب الديني القومي زيراح فيرهافتيغ فقد أعلن انه « اذا استطعنا استنفاذ جميع الامكانات في فترة هدوء نسبية ، وربما قصيرة نستطيع أن نأمل عندها بالتأثير على جيراننا ، اذ ربما هناك طريق أخرى لتسوية المشاكل بيننا ، وهي طريق السلام » (دافار ، ٧٥/٩/٤) . وكان الدكتور يتسحاق رفائيل وزير الاديان ، وهو من زعماء الحزب الديني القومي ، قد أعلن أمام وفد من غوش ايمونيم ان تأييده للاتفاق الجزئي ناجم عن ثلاثة أسباب « (١) الحقيقة ان مصر ، أقوى دولة بين أعدائنا ، توصلت معنا الى اتفاق شكل منفصل عن باقي الدول العربية . وهذا يقوي الامل بالوصول الى اتفاق نهائي منفصل مع هذه الدولة ، الامر الذي سيقوي مجال المناورة لدينا في الصراع من أجل فرض الحكم الاسرائيلي على جميع أنحاء أرض اسرائيل . (٢) تحقيق فترة هدوء طويلة في المنطقة ، يكمن خلالها الوصول الى الامتناع عن استخدام القوة كطريق لحل المشاكل . (٣) يمنحنا الاتفاق عزما جديدا لزيادة القوة الاسرائيلية ، التي تعتبر اهم ، من ناحية عسكرية وقومية ، من الاراضي ومصادر النفط التي سنتنازل عنها في سيناء » . ومن المعروف ان ممثلي الشباب داخل الحزب الديني القومي ، يعارضون الاتفاق بشدة ، لانه على حد قول أحدهم ، النائب زفولون هامر (معاريف ، ٧٥/٩/٤) « جزء من خطة اميركية مبلورة ، ستم تنفيذها الى جانب خطة عربية علنية تهدف الى سلبنا جميع ثمار نصر حرب الايام الستة : في سيناء ، في الغور ، في الجولان ، في يهودا والسامرة وفي القدس . كل هذا على مراحل ، وبدون أن نحصل في المقابل على السلام والامن » . وبحسب رأي هامر يعارض نحو ٤٠٪ من أعضاء ادارة الحزب الديني القومي الاتفاق ويؤيدون رأيه هذا (المصدر نفسه) .

وتحدثت النائبة شولاميت الوني عن حزب ياعد فأعلنت ان التدخل الاميركي الذي بادر اليه وزير الدفاع ، والمساعدات الاميركية تبعد الاستقلال الاقتصادي عن اسرائيل وتحولها الى تابعة للولايات المتحدة (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٩/٤) . وكان النائب ارييه الياف ، وهو من زعماء كتلة ياعد قد أعرب عن رأيه في الاتفاق (في مقابلة مع معاريف ، ٧٥/٨/٢٥) بقوله « ان هذا الاتفاق هو بمثابة طريق ليس له مخرج أو اتجاه . ان الحكومة بدأت تسير على حقل من الالغام . فادخال فنيين أميركيين الى سيناء ... خطر فادح على استقلالنا . لقد حذر جميع رؤساء الحكومات السابقين من ادخال جنود أو مدنيين من الدولتين الكبيرتين ، كحذرهم من النار . أما اللغم الثاني ، فهو ان الاتفاق غير مباشر . انه لم يتم بمبادرة من جانبنا ، كذلك لا يعتبر ملائما من ناحية عسكرية ، لأن مبدأ نزع السلاح غير وارد فيه . أما أصعب الامور فهو اعتقاد الحكومة بأنها « ستربح » ثلاث سنين ، وأقول لأسفي الشديد ، ان ما حدث خلال الاشهر الاخيرة ، سيحدث خلال هذه السنين أيضا » . ستستغل « الحكومة هذه الفرصة لخلق فوضى مخينة في المناطق ، بحيث تسمح لنفسها بأن تكون شريكة لخلق حقائق غير قانونية في يهودا والسامرة ، وفي الحرم الابراهيمي ، واقامة مدن [الاشارة الى مشروع لاقامة مدينتين يهوديتين جديدتين في الضفة الغربية] ليس لها أي مبرر . سندفع الثمن الكامل لجميع هذه الاعمال في المستقبل » .

II

الاسرائيليون يناقشون سياستهم الذرية

ازداد الحديث في الفترة الاخيرة ، خاصة منذ حرب تشرين ، حول احتمال وجود أسلحة ذرية في اسرائيل ، وذلك على اثر التصريحات التي أطلقها بعض الزعماء الاسرائيليين بشأن قدرات بلدهم النووية . ففي نهاية السنة الماضية اعلن الرئيس الاسرائيلي ، افرايم كاتسير ، أمام مجموعة من المراسلين الاجانب للشؤون العلمية ، كانت تقوم بزيارة الى اسرائيل ، ان بلده تملك طاقة ذرية (معاريف ، ١٩٧٤/١٢/٢) . كذلك أعلن رئيس الاركان الاسرائيلي الجنرال مردخاي غور قبل مدة قصيرة انه « لا يخشى في المدى القريب ، أي خلال ٥ — ١٠ سنوات ، حدوث تقلص في التفوق العسكري للجيش الاسرائيلي على الجيوش العربية . أما في الفترة التي تليها ، فانه يتوقع تغييرا ثوريا مع انتشار الاسلحة الذرية وتطور اللايزر » . واضاف غور قائلا : « آمل ان يؤدي هذا الامر الى خلق ميزان رعب يقلل من خطر الصدام العسكري في المنطقة » (دافار ، ٦/١٧/ ٧٥) . ورغم هذه التصريحات ، والاخبار المتزايدة حول قدرة اسرائيل وتقدمها في مجال البحوث الذرية ، فقد نفى رئيس حكومتها ، قبل اسبوعين تقريبا أثناء زيارة الرئيس المكسيكي لاسرائيل ، ان نكون اسرائيل دولة ذرية ، مؤكدا « ان اسرائيل أعلنت مرارا انها لن تكون البادئة في ادخال أسلحة ذرية الى ... الشرق الاوسط » (دافار ، ٨/١١/ ٧٥) . وجاء هذا التصريح اثر اعلان مصر عن تشكيل هيئة للطاقة الذرية .

ورغم هذه السياسة التي تنفي اسرائيل بموجبها كونها دولة ذرية ، فان الحديث يزداد يوما بعد يوم ، حتى داخل اسرائيل ، حول امكان ادخال أسلحة ذرية الى منطقة الشرق الاوسط في المستقبل القريب ، وخاصة في مصر واسرائيل .

اسرائيل حققت تقدما في مجال البحوث الذرية

لا بد من الاشارة أولا ، الى ان اسرائيل بدأت تهتم بموضوع البحوث الذرية منذ قيامها ، الامر الذي أكسبها تقدما في هذا المجال ، بحسب اعتراف بعض المصادر العالمية . وساعد اسرائيل في ذلك التعاون في المجال الذري بينها وبين كل من الولايات المتحدة وفرنسا خلال الخمسينات ومطلع الستينات ، الذي أسفر عن اقامة مفاعلين ذريين في اسرائيل ، يعتبران الآن العامل الاساسي في تقدمها في هذا المجال . والمفاعل الاول هو ذاك الموجود في ناحال سوريك ، قرب معهد وايزمان في رحوفوت الى الجنوب من تل أبيب . وقد خطط لهذا المفاعل المهندسون الاسرائيليون بالتعاون مع العلماء الاميركيين ، وبدأ عمله في حزيران سنة ١٩٦٠ . وتصل طاقته الى خمسة آلاف كيلو واط ، ويعتبر مركزا لتدريب العلماء والفنيين الاسرائيليين في مجال البحوث النووية وتطويرها . أما الثاني فهو مفاعل ديمونه ، في النقب الشمالي ، الذي اقيم بمساعدة فرنسية ، وبدأ عمله في سنة ١٩٦٤ ، وتقدر طاقته بـ ٢٤٠٠٠ كيلو واط . ويحاط عمل هذا المفاعل بالسرية التامة حتى هذا اليوم ، على العكس من مفاعل ناحال سوريك حيث يستقبل الزوار والعلماء الاجانب . وبالاضافة الى هذين المفاعلين هناك مؤسسات علمية أخرى تهتم بالبحوث الذرية مثل معهد وايزمان في رحوفوت ومعهد الهندسة التطبيقية (التخنيون) في حيفا والجامعة العبرية في القدس . ويعمل في هذه المؤسسات كبار العلماء الاسرائيليين في مجال الذرة ، مثل بروفيسور شمعون يفتاح من التخنيون الذي يشغل منصب رئيس الجمعية الاسرائيلية للعلوم الذرية ، وبروفيسور نفتالي شنرير رئيس قسم الهندسة الذرية في التخنيون ، وبروفيسور الفين ريدكوفسكي ، العالم اليهودي الذي طور مفاعل الغواصة الذرية « ناوتيلوس » ، ويعمل الان في جامعة تل أبيب ، ودكتور يسرائيل طال مدير المجلس القومي للبحث والتطوير في اسرائيل وكثيرون غيرهم . ويتخرج من هذه المؤسسات في كل سنة عشرات المهندسين والفنيين والباحثين في المجال الذري ، الذين يكونون ، في مجال اختصاصهم ، طاقة بشرية لا بأس بها .

قنابل العرب ... « المالية » والذرية

رغم ادعاء الاسرائيليين بتفوقهم على العرب

في المجال الذري ، بدأوا في الآونة الاخيرة يبدون تلقهم من النشاط الذي تبذله الدول العربية ، وخاصة مصر ، للحصول على طاقة ذرية ، تمكنها في المستقبل من انتاج أسلحة ذرية في حال اضطرارها الى ذلك . « فالتنافس الذري في منطقتنا اصبح حقيقة واقعة ، لا يمكن تجاهلها بعد . ان النشاط البارز والمتزايد للدول العربية في الآونة الاخيرة ، من اجل التزود بمفاعلات ذرية تقدر قوتها بمئات الميغاواط حيث يتنافس الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وفرنسا على تزويدها — ناتج في الاساس عن ادراك هذه الدول للحقيقة التي لم تعد سرا ، وهي ان اسرائيل وصلت الى مستوى متفوق من القدرة العلمية والتكنولوجية في المجال النووي » (مردخاي أورن — عل همشمار ، ٧٥/٢/١٤) . أما رئيس الجمعية الاسرائيلية للعلوم الذرية ، بروفيسور شمعون يفتاح ، فيصف اقبال الدول العربية على الحصول على مفاعلات ذرية ، في محاضرة ألقاها في النادي الهندسي في تل أبيب بقوله : « ليست اسرائيل وحدها هي التي اهتمت بموضوع الذرة في السنة الاخيرة . ففي ١٤ حزيران ١٩٧٤ ، وقع في القاهرة اتفاق بين الرئيس الاميركي السابق وبين الرئيس المصري ، لتزويد مصر بمحطات طاقة ذرية ووقود ذري ، وفي ٧ حزيران من السنة نفسها وقع اتفاق مماثل بين اميركا واسرائيل . وفي تشرين الثاني ١٩٧٤ وعد الاتحاد السوفييتي مصر بتزويدها بمحطة طاقة ذرية . وفي كانون الثاني ١٩٧٥ دارت مباحثات حول تزويد مصر بمحطتي طاقة ذرية من فرنسا . كذلك ذكرت الصحافة العالمية ان العراق وقع على اتفاق مع فرنسا — التي تحولت الى مزود الاسلحة والتكنولوجيا الذرية رقم واحد للدول العربية — لتزويده بمحطة طاقة ذرية تعتمد على الاورانيوم الطبيعي . وقد أجرى خبراء فرنسيون بحثا دقيقا وسريا عن حقول أورانيوم في العراق ، واكتشفوا كما يبدو ، حسب قول مصادر فرنسية ، حقل أورانيوم خصب » . وأضاف يفتاح ان الجزائر وتونس ايضا تبحثان في مشروع مشترك لانشاء محطات طاقة ذرية بقوة ٦٠٠ ميغاواط ، وان ليبيا ايضا تريد تأسيس « مدينة علماء عربية » تكون أداة لتحويلها الى دولة ذرية . وخلال حديثه أشار يفتاح ايضا الى مشروع الشاه الايراني للحصول على أسلحة ذرية ، وهو المشروع الذي يشمل طلب عشرين مفاعلا ذريا خلال السنوات العشر المقبلة (ابراهام بيلغ — معاريف ، ٧٥/٨/١٥) . أما البروفيسور نفتالي شفرير فقد علق على نشاط مصر الذري بقوله : « ان كل مفاعل ذري يحوي وقوده أورانيوم ٢٣٨ يشكل طاقة لانتاج البلوتونيوم — وهي المادة الاساسية في انتاج القنابل النووية من النوع الذي ألقي على هيروشيما وناغاساكي . ان الوقود الذري الذي ستزود واشنطن به القاهرة ، يحوي حقا على اورانيوم ٢٣٨ » (روث شرايبر — يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/١٣) . الا ان مصر « لا تستطيع حتى الان فصل البلوتونيوم الذي يتكون في المفاعل الذري ، بسبب عدم توفر جهاز فصل لديها . . . ولكن الخوف هو ان يتحول المفاعل الى مدرسة ذرية للعلماء المصريين ، وهذا ما تخشى منه اسرائيل » (ابراهام بيلغ — معاريف ، ٧٥/٨/١٥) . وقد عبر عن هذا القلق أيضا مدير المجلس القومي للبحث والتطوير في اسرائيل الدكتور يسرائيل طال ، بقوله « ان تزويد مصر بالتكنولوجيا الذرية لن يتمثل بالضرورة في القدرة على انتاج أسلحة ذرية ، وانما قبل كل شيء في تنشيط التطور التكنولوجي . ونتيجة لذلك هناك خطر محتمل بأن تضيق الثغرة التكنولوجية والعلمية القائمة الان لصالح اسرائيل » (المصدر نفسه) . أما البروفيسور ريدكونسكي فيخشى « القنبلة المالية » التي يملكها العرب ، اكثر مما يخشى انتاج قنبلة ذرية في مصر « لانه بأموال كثيرة كهذه يستطيع العرب شراء خبراء لانتاج القنابل او لفصل الاورانيوم » (معاريف ، ١٥/ ٧٥/٨) .

اسرائيل تقرر بناء محطة طاقة ذرية

من ناحية ثانية ، تجدر الشارة هنا الى ان الحكومة الاسرائيلية صادقت مؤخرا على اقامة محطة طاقة ذرية أولى لتوليد الكهرباء في اسرائيل ، على أن تبدأ هذه المحطة عملها في سنة ١٩٨٣/٨٤ ، وذلك بناء على اقتراح تقدمت به شركة كهرباء اسرائيل (دافار ، ٧٥/٤/٢٨) . وهذا القرار ناجم أساسا عن بعض الدروس التي تعلمتها اسرائيل نتيجة لأزمة الطاقة التي انفجرت بعد حرب تشرين . وبحسب قول العلماء الاسرائيليين « تقف اسرائيل ، نتيجة هذا القرار ، على عتبة

ثورة ذرية في انتاج الكهرباء وبناء صناعة ذرية كبيرة ... الامر الذي سيؤدي الى تغيير بنية الصناعة الاسرائيلية من صناعة خفيفة (باستثناء الانتاج الامني) الى صناعة غنية بالخبرة والتكنولوجيا المتطورة » (يوسف مبخاليسكي — دافار ، ١٠/٨/٧٥) . ويرى البروفيسور يفتاح ، رئيس الجمعية الاسرائيلية للعلوم الذرية ، ان « حل مشاكل الطاقة في اسرائيل وتطوير اقتصادها نتيجة بناء محطات طاقة ذرية متعلق بثلاثة شروط : استعداد رسمي للاهتمام بجميع مواضيع الطاقة ، مشاركة الاقتصاد الاسرائيلي في تمويل المشاريع لانتاج الطاقة ، والتقدم في مجال انتاج الوقود الذري لمحطات الطاقة الذرية التي ستبنى في البلد » (المصدر نفسه) . وهي شروط من الممكن تنفيذها. وتجدر الاشارة هنا الى ان اسرائيل تنتج الاورانيوم من خامات الفوسفور الموجودة في النقب . « ويقدر احتياطي الفوسفات في اسرائيل بنحو ٣٠٠ مليون طن ، حيث تبلغ نسبة الاورانيوم فيه من ١٠٠ — ٢٠٠ غرام للطن ، اي من ٣٠ — ٦٠ الف طن أورانيوم » (المصدر نفسه) .

مفاعلات للاغراض السلمية .. والعسكرية

رغم ادعاء اسرائيل ان بحوثها الذرية ومحطات الطاقة التي تريد انشاءها مخصصة للاغراض السلمية فقط ، يعترف علماؤها انه من الخطأ الفصل بين « تطوير التكنولوجيا الذرية لاغراض سلمية ، وبين تطويرها للاغراض العسكرية » (ابراهام بيلغ — معاريف ، ١٥/٨/٧٥) . لذلك يقول البروفيسور يفتاح « انه في منتصف السبعينات ، وعلى عتبة الربع الاخير من القرن العشرين ، يواجه تطور التكنولوجيا الذرية ، ثلاث أزمات : أزمة الطاقة ، أزمة البيئة ، وأخطار انتشار الاسلحة الذرية في العالم ... ان انتشار الخبرة الذرية وبناء محطات ذرية في العالم باعداد كبيرة — من أجل تخفيف حدة أزمة الطاقة — مرتبط بتعلم خبرة وتكنولوجيا ملائمين لانتاج الاسلحة الذرية ... وقد وصلت هذه الازمات الثلاث الى الشرق الاوسط ... لذا ينبغي الاخذ بالحسبان انه ابتداء من منتصف الثمانينات ، سيكون في عدد من دول المنطقة أسلحة ذرية » (المصدر نفسه) . كذلك اعلن البروفيسور ابراهام طال ان الفصل بين التكنولوجيا المدنية والعسكرية هو اعتباطي ، حيث ان الخبرة التكنولوجية التي يتم التوصل اليها في المجال المدني يمكن نقلها الى المجال العسكري (معاريف ، ١٥/٨/٧٥) . ويتساءل أرييه حشفيا ، احد الباحثين الاسرائيليين المتخصصين في الدراسات الاستراتيجية عن الشروط المطلوبة لاي دولة من دول المنطقة لكي تصبح دولة ذرية ، ثم يعدد هذه الشروط بقوله انها تشمل على « (١) الرغبة في أن يكون بلدا ذريا ... ان اسرائيل ومصر مهتمتان بمفاعلات ذرية ، سواء للاغراض السلمية (محطات طاقة ، تحلية مياه البحر ، أو مشاريع هندسية كبيرة) أو لمتطلبات الردع العسكري ... (٢) وجود طاقة بشرية كافية من الاف الفنيين والمهندسين الفيزيائيين والكيمائيين الذين درسوا العلوم الذرية وحصلوا على تدريب عملي في مراكز ذرية هامة ... واسرائيل تملك هذه الطاقة ... أما مصر فتعتبر متخلفة وراءها عدة سنوات . (٣) خطة طويلة الامد للاعتماد المالي بمبالغ كبيرة جدا ... (٤) مفاعلات كبيرة ... ومعفية من الاشراف والرقابة الاجنبية ، وذلك من أجل انتاج القنبلة الذرية (٥) تزويد مستمر وكاف من مادة الاورانيوم ، من أجل انتاج البلوتونيوم ... واسرائيل لا تشكو من النقص في ذلك ... (٦) جهاز فصل — لفصل البلوتونيوم الناتج في المفاعل الذري ، وحتى الان لم يشر الخبراء الاجانب الى وجود مثل هذا الجهاز في اسرائيل ... » (هارتس ، ٦/١٢/٧٥) .

دوافع اسرائيل لانتاج الاسلحة الذرية

ان النقاش داخل اسرائيل حول مسألة انتاج الاسلحة الذرية ، ليس جديدا ، اذ بدأ منذ مطلع الستينات ، بعد اقامة مفاعلي ديمونه وناحال سوريك ، « الا ان هذا النقاش كان ينتهي دائما بالقول اننا نستطيع الانتصار على العرب بالوسائل العادية ، بينما في استطاعتهم ضربنا بشدة ... في حال ادخال أسلحة ذرية الى المنطقة » (شلومو اهرونسون — هارتس ، ٢٩/٦/٧٥) . الا ان التغييرات التي حدثت في المنطقة منذ ذلك الوقت ، وخاصة بعد حرب تشرين ، « تلزم اعادة تقييم لوضع اسرائيل الاستراتيجي — السياسي » . فللمرة الاولى منذ حرب ١٩٤٨ ، هناك خوف كبير من أن تتغير نسب القوى العددية بين جيش

اسرائيل وبين جيوش العالم العربي بشكل كبير ، خلال عشر سنين ، لغير صالح اسرائيل . كذلك هناك خوف الان ، للمرة الاولى منذ صفقة السلاح المصرية – التشيكية قبل عشرين سنة ، من ان معود الجيوش العربية الى استعمال الاسلحة والتكنولوجيا الغربية ، وتتحول تدريجيا الى جيوش متحركة مع تفوق أو مساواة في الجو . كذلك فان المصالح المشتركة بين العرب والغرب ، سواء كان الحديث عن أوروبا الغربية أو الولايات المتحدة ، يمكن ان تقلل خلال السنين من التزام الغرب تجاه اسرائيل او تحييده . ومن ناحية الجمهور الاسرائيلي ايضا ، فان استعداده لدفع ثمن الحروب آخذ في الانخفاض ، اذ ان عدد الخسائر المتوقعة من اشتباك الاف الدبابات والمدافع سيزداد . كذلك ليست هناك اية امكانية للاستفادة بصورة كاملة من ثمار اي انتصار اسرائيلي متوقع ، ثم ان التحسن المستمر في الوضع الاقتصادي عند العرب يتناسب تناسبا عكسيا مع سوء الوضع الاقتصادي في اسرائيل . « وفي ظروف كهذه ينبغي ان نزن بدقة مساوىء وميزات السلاح الذري » (المصدر نفسه) . وعلى هذا الاساس يدور النقاش في اسرائيل بين مؤيد لفكرة ادخال الاسلحة الذرية او معارض لها . وقبل التطرق الى هذا النقاش ، نجدر الاشارة هنا الى ان اسرائيل لم توقع حتى الان على معاهدة حظر انتشار الاسلحة الذرية التي بدأ سريان مفعولها في سنة ١٩٧٠ ، ولكنها في الوقت نفسه لم « تبرز قدرتها الذرية بواسطة تجربة تظاهرية ، تكسبها مكانة مصداقية ردع » (يورام نمرود – دافار ، ٧٥/٨/١) .

سياسة « الارباك »

يزعم البعض ان هذا التصرف من جانب اسرائيل يهدف الى خلق « ارباك » معين تعتمد عليه في سياستها الذرية حتى الان .« والارباك هو تكتيك ، يستهدف اخفاء النوايا واشغال الطرف الثاني بالتخمينات ... ولكن من هو الطرف الثاني ؟ هناك من يقول انه الجانب العربي في النزاع . ولكن اعتقادهم هذا ليس له أساس ، لانه اذا كان العرب يخشون ان اسرائيل تعد حقا سلاحا معينا ، فانهم سيخططون بدورهم ... وكأن هذا السلاح قائم بالفعل . ثمة منطق في « الارباك » تجاه العرب اذا كان القصد منه هو دفع بلد عربي ما الى الاعلان اولا انه يملك أسلحة ذرية . ان سياسة كهذه تكون ذات مغزى اذا كان القصد منها [الاحجام] عن اتباع سياسة ردع ذري علني بسبب علاقات اسرائيل مع دول صديقة . لذا فان سياسة الارباك هذه يمكن ان تكون موجهة نحو جهات ليست « طرفا » في حلبة النزاع الاسرائيلي – العربي ، ورغم ذلك لها دخل به » (المصدر نفسه) . وعليه يبدو ان اسرائيل تستخدم سياسة « الارباك » هذه فيما يتعلق باحتمال حيازتها أسلحة ذرية ، كورقة سياسية سواء ضد العرب ، او ضد الدول الكبرى ، مكتفية بالقول انها لن تكون البادئة في ادخال اسلحة ذرية الى المنطقة . ولكن هل يدوم هذا الوضع طويلا ؟ وما هو تأثير وجود أسلحة ذرية على تطور النزاع بين اسرائيل والعرب ؟ ثم ما هي الانعكاسات الدولية لوجود أسلحة ذرية لدى دول المنطقة ، وعلى رأسها اسرائيل ؟ .

بالنسبة للسؤال الاول يبدو ان اسرائيل لا تستطيع الاستمرار في الامتناع عن التوقيع على معاهدة حظر انتشار الاسلحة ، وذلك لسببين « أولا ، ان اسرائيل متخلفة من ناحية مصادر الطاقة والمياه بالمقارنة مع امكاناتها . وبسبب تحفظها ازاء المعاهدة ، يتوقع حدوث فتور خلال السنة المقبلة – وربما وقف كامل – في التعاون القائم بينها وبين البلدان الموقعة [على المعاهدة] ... وعلى رأسها الولايات المتحدة . ثانيا ، ان الخلاف مع الولايات المتحدة حول هذا الموضوع المهم بالنسبة لها ، انعكاسات على مجمل العلاقات معها ، بما في ذلك موقفها من موضوع الاتفاقيات مع مصر . ان ثمن الامتناع عن التوقيع هو انعزال اسرائيل المتزايد ، في الوقت الذي يقترب فيه موقف فرنسا من موقف الولايات المتحدة الاساسي . وفي هذه الحالة ، ربما وجدت اسرائيل نفسها في صف واحد مع جنوب افريقيا فقط » (المصدر نفسه) .

ميزان الرعب وفائدته بالنسبة لاسرائيل

يتضح من خلال النقاش الدائر في اسرائيل ، ان هناك من يؤيد فكرة حيازة اسلحة ذرية ، وهناك من يعارضها خوفا من نشوب حرب ذرية

في المنطقة ، لن تكون في صالح اسرائيل في النهاية . وبحسب رأي المعارضين « فان وجود أسلحة ذرية في اسرائيل ، سيؤدي سريعا الى وجودها بين أيدي العرب ايضا . ان اسرائيل هي هدف صغير ، ومعظم سكانها مركزون في جزء حساس من منطقتها ، بينما يمتد العالم العربي من طرابلس في ليبيا حتى طرابلس في لبنان ، ومعظم سكانه ترويون وموزعون على مناطق واسعة ... واذا تجرأت اسرائيل حتا على ضربه بقنابل ذرية ، فان دمارها سيكون اكيدا ، بدون ان يتضرر العالم العربي بالمدى نفسه . لذلك فان اسرائيل لن تستخدم الخيار الذري ، لانها تردع نفسها به » (شلومو اهرونسون — هارتس ، ٧٥/٦/٢٩) . أما موقف المؤيدين لحيازة الاسلحة الذرية فيستند على رأي اخر ، مفاده ان السلاح الذري هو السلاح الوحيد الذي يمكن بواسطته تهديد العالم العربي « لان العرب يمكن ان يتفوقوا علينا بالاسلحة التقليدية خلال عشر سنين ، وهكذا سيتولد لديهم الاعتقاد انه في استطاعتهم هزمنا بواسطة الدبابات والطائرات والاموال والقوة السياسية . أما السلاح الذري فهو صعب جدا في حساباتهم (وحسابات الدول الكبرى أيضا) حيث يكتنفه عامل عدم التأكد الشديد بالنسبة للاضرار التي يمكن ان يسببها » (المصدر نفسه) . ويعتمد هؤلاء في تحليلهم على نظرية الردع الذري ، التي يمكن ان تؤدي الى عدول العرب عن فكرة تدمير اسرائيل ، « فالسلاح الذري هو احد الوسائل التي يمكن بواسطتها تشويش آمال العرب . اذ ان كمية كافية من القنابل الذرية المركبة على أجهزة قذف ملائمة ، يمكن ان تضرب جميع العواصم العربية ، وتدمر سد اسوان . بينما يمكن بواسطة كمية اضافية ضرب مدن أخرى ومنشآت النفط . ويمكن — بواسطة قنابل هيدروجينية — تدمير أهداف محددة ، بما في ذلك تجمعات الفلسطينيين في لبنان ، اذا ألقيت هذه القنابل ، مثلا ، في البحر في منطقة الهدف ، وسببت أمواجا ضاغطة » (المصدر نفسه) . وينطلق أصحاب هذا الرأي من اعتقادهم ان الحرب الذرية لا يمكن ان تقع ، وانما ستبقى عاملا دائما في اعتبارات الاطراف المتنازعة . « فالعرب يجب ان يأخذوا بالحسبان ايضا ان اسرائيل يمكن ان تستخدم اسلحة من هذا النوع في حال تعرض وجودها للخطر . ومن جهة أخرى لا يستطيع الزعماء العرب ان يعرفوا تماما ما هو « الخط الاحمر » الذي تعتبر مجاوزه خطرا على وجودها . كذلك لا يستطيع العرب ولا اسرائيل ايضا ، معرفة رد فعل الدول الكبرى ، اذا أصدرت اسرائيل ، في وضع حرج ، تحذيرا ذريا » (الياهو سلفطر — هارتس، ٧٥/٦/٢٠).

السلاح الذري ليس بديلا للاسلحة التقليدية

رغم اهتمام الاسرائيليين بالاسلحة الذرية ، يسود لديهم الاعتقاد ان هذه الاسلحة لن تكون في الوقت الحاضر « بديلا للاسلحة التقليدية ، وانما اضافة اليها . وربما تكلفنا هذه الاضافة مبالغ كبيرة ، حتى انه يصعب علينا ان نفكر كيف سنستطيع الصمود ماليا في جميع هذه التحديات في آن واحد » (يائير عفرون — دافار ، ٧٥/٤/١٥) . كذلك فان السلاح الذري لا يمكن ان يكون ردا شاملا على كل « استفزاز عسكري متوقع ، [ولكنه] يحتمل ان يكون عاملا رادعا ضد خطر الابادة الشاملة لدولة اسرائيل ... ولكن هذا الخطر بعيد الان . على العكس ، تتمتع اسرائيل (في الوقت الحالي) بتفوق عسكري تقليدي ، وعلى ما يبدو سيستمر هذا التفوق خلال فترة طويلة . يمكن الافتراض ان العرب سيحاولون تحقيق أهدافهم ، في حال مساواة في [الاسلحة] التقليدية بينهم وبين اسرائيل ... بواسطة هجمات محدودة من أجل تحقيق أهداف محدودة ، او بواسطة أشكال مختلفة من حروب الاستنزاف . وفي حروب كهذه لن يكون السلاح الذري وسيلة رادعة ، اذ يصعب الافتراض ان اسرائيل ستهدد ، في حال نشوب حرب استنزاف ... باستعمال السلاح الذري من أجل ايقافها ، لان تهديدا كهذا عديم المصداقية » (المصدر نفسه) . لذلك يرى البعض ان السلاح الذري لا يزال وسيلة غير فعالة لحل مشاكل اسرائيل او تنظيم علاقاتها مع العرب .

من الواضح ان هذه التحليلات تعتمد على افتراض وجود أسلحة ذرية في اسرائيل ، وعدم وجودها في الدول العربية . ولكن ماذا سيحدث اذا اتضح ان العرب حصلوا فعلا على أسلحة ذرية ، بحيث يسيطر « ميزان رعب » ذري

— بحسب قول رئيس الاركان الاسرائيلي — في المنطقـة ؟

ميزان الرعب سيزيل الثغرة العددية بين اسرائيل والعرب

لاقى تصريح رئيس الاركان الاسرائيلي ، بشأن ميزان الرعب ، تأييدا لدى البعض ، واستنكارا لدى الاخرين . ويرى المعارضون ان « ميـزان الرعب الذي يعتمد على أسلحة ذرية ... هو مذهب خطـير جدا ... خاصة وان التفكـير بأن سلاحا ذريا ، وحتى قنابل تكتيكية ، ستصل في يوم من الايام الى يد جهات عربية مغامرة لم يعد خياليا . سيحدث هذا في يوم من الايام ... وكل حديث من هذا النوع من جانب جهـة اسرائيلية مسؤولة سيزيد من جهود العرب في هذا المجال . ان من يؤمن بميزان رعب كهذا مصاب بأوهـام خطيرة » (يهوشواع تدمور — دافار ، ١٨/٧٥/٦) . ويعلق كاتب اخر على الوضع الذي قد يسود المنطقة في حال وجود ميزان رعب كهذا ، فيقول ان اسرائيل « ستكون متأكدة عندئذ مـن القدرة العربية ، [ولكن] غير متأكدة من أمرين : أولهما الوقت الذي يتطلبه العرب للانتقال مـن الخيار الذري الـى المحافظة علـى منشآتهم . وثانيهما امكانية وصول الاسلحة الذرية الى تلك البلدان العربية التـي ستكون علـى استعداد لاستخدامها في الضربـة الاولى مـن أجل تدمير اسرائيـل » (الياهـو سلفطر — هآرتس ، ٢٠/٧٥/٦) . وفي هـذه الحالـة « ستضطر اسرائيل الى تأمين قدرة لتوجيه الضربة الثانية ، وذلك من أجل ردع العرب عن الضربة الاولـى (مثلا بواسطة تطوير أسطول مـن الغواصات القادرة على اطلاق الصواريخ) ، وذلك في ظروف صعبة جدا نظرا لصغر مساحة اسرائيل بالمقارنة مع الدول العربية ذات المساحات الواسعة » (المصدر نفسه) . ومن ناحية أخرى ، أعرب البعض عن تأييدهم لامكانية حدوث ميزان رعـب « كالميزان القائم منذ ثلاثين سنـة بـين الشرق والغرب ... ان ميزان الرعب هو الوضع الوحيد الذي سنغلق بواسطته الثغرة العددية الكبـيرة بين ثلاثة ملايين يهودي وبين مئة وأربعين مليـون عربي ، اذ انه بالمدى نفسه الذي يستطيع فيه العرب ، في وضع كهذا ، تدمير مدننا ، نستطيع نحن ايضا تدمير المدن العربية الكبيرة ، والمراكز الاقتصادية ، والقوة والثراء في البلدان العربية » (ميخائيل بار — زوهار — يديعوت احرونوت ، ٨/٧٥/٦) . أما بالنسبة لاحتمال نشوب حروب أخرى بين اسرائيل والدول العربية ، حتى في حال وجود ميزان رعب ، « فهذا أمر وارد ، ولكن هذه الحروب ستكون تقليدية ومحدودة بأنواع الاسلحة وبحجمها ومناطقها ، وسيحذر كل طرف ، حتـى اذا كان النصر حليفه ، من تجاوز « الخط الاحمر » الذي يمكن أن يشكل خطرا على وجود الطـرف الثاني ، لئلا يدفعـه الى استخدام أسلحتـه الذرية . لذلك فان ميزان الرعب سيثبت ويجمد الوضع في الشرق الاوسط ، ويوضح للطرفين ان تدمير وفناء طرف واحد أصبح غير وارد بالحسبان.

« ان ميزانا كهذا هو الاساس الثابت الـذي يمكن بناء تسوية عليه ، ليس ميزان قوى ضعيف ، مهدد بالانهيار خلال عشر سنوات ، وانما ميزان رعب يستمر مئة سنة وربما أكثر ، ويستثني كـل امكانية لتدمير » وتتبؤ « اسرائيل من المنطقة » (المصدر نفسه) .

غير ان هذا الوضع يثير ، من جهـة أخرى ، مخاوف عديدة لـدى الكثيرين مـن الاسرائيليين ويدفعهم الى الدعوة لتحقيق تسوية مع العرب ، بدلا من الركض وراء الاسلحة الذرية ، « فمحظور علينا انتظار الخطر وحكم القدر ، [وذلك] بأن يتخذ النزاع بيننا وبين الدول العربية « طابعـا غير تقليدي » . علينا ان نبذل كل جهد ممكن ، من اجل تحقيق السلام مع اعدائنا ، في الوقـت الذي لا زال طابع النزاع « تقليديا » ، وقبل ان يدخل في مرحلة تستخدم فيها الاسلحة « غـير التقليدية » التي تستطيع تدمير مـدن بأكملها ، وافناء شعب كامـل خـلال بضعـة ساعات » (مردخاي أورن — عل همشمار ، ١٤/٧٥/٢) . كذلك دعا كاتب اخر الى تحقيق تسوية مع الجهات المعتدلة في العالم العربي ، حيث ان الفـرصة مؤاتية لذلك ، « وليس الحديث هنا حول تسوية مثالية ، ولا حتى حول سلام كامل كالذي تسعى اليه اسرائيل ، ولكن هذه ستكون افضل حلـول يمكن التوصل اليها . ثمـة أساس للاعتقاد ان اتفاقات السلام التي يمكـن تحقيقها — ستصمد اذا رافقتها ضمانات من الدول الكبرى ، ومن خلال

الاعتماد على ميزان قوى رادع . ان هذه الاتفاقات ، حتى وان كانت لا تعبر عن سلام كامل ، افضل من الاوهام بشأن « ميزان الرعب » ، الذي يمكن ان يشكل خطرا على وجود اسرائيل » ؛ يهوشواع تدمور — دافار ، ١٨/٦/٧٥) .

حنه شاهين

(٥) القضية الفلسطينية عسكرياً

I

النشاط الفدائي في داخل الارض المحتلة وردود الفعل الاسرائيلية

لا يمكن النظر الى النشاط الفدائي في داخل الارض المحتلة بمعزل عما يجري في المنطقة من احداث وتطورات على الصعيدين العسكري والسياسي . فهذه العمليات الجريئة تجيء ضمن مخطط تصعيدي مدروس معد له وتنفذه الخلايا المسلحة وتنظيمات المقاومة السرية في الداخل بتنسيق رائع مع قيادات وتنظيمات الثورة العسكرية والسياسية في خارج الارض المحتلة بهدف مقاومة الاحتلال وزعزعة اركان نظرية الامن الاسرائيلية في الجبهة الداخلية (الرابعة) بعدما تداعت هذه النظرية في حرب تشرين في جبهتي القتال الرئيسيتين المصرية والسورية : عن طريق تصعيد الكفاح المسلح في الارض الفلسطينية المحتلة واعطاء شعبنا حقه في تقرير مصيره واقامة سلطته الوطنية فوق اي جزء من التراب الفلسطيني الذي يتم تحريره . وهكذا يستمر النضال ويواصل ابطالنا مقاتلة العدو الاسرائيلي اينما وجد في الارض الفلسطينية .

ففي ٢٠/٨/١٩٧٥ دارت معركة بين ثلاثة من الفدائيين ودورية اسرائيلية في منطقة تغطيها الغابات الكثيفة على مسافة غير بعيدة من كيبوتس « حانيتا » في الجليل الاعلى . فقد ذكرت اوساط العدو انه نتيجة هذا الاشتباك استشهد افراد المجموعة الفدائية وعددهم ثلاثة ، على حين ذكرت الاوساط نفسها ان جنديا اسرائيليا جرح ونقل الى مستشفى قريب من المنطقة . وتقول التقارير الواردة من الارض المحتلة ان ابناء المستوطنات تلقوا بارتياح زائد تصدي الدورية للفدائيين والقضاء عليهم قبل ان يتمكنوا من دخول المستوطنة (ر أ أ — ٨٩٤ — ٢١/٨/١٩٧٥) تجيء هذه الانباء لتؤكد مدى القلق الذي يساور ابناء المستوطنات الحدودية والحالة النفسية التي تسيطر عليهم . فعلى الرغم من الاجراءات العسكرية الواسعة التي اتخذتها وتتخذها القيادة الشمالية واجهزة الامن وحرس الحدود واقامة السياج المكهرب على امتداد الحدود وعلى الرغم من كل ذلك تبدو الحياة غير طبيعية في المستوطنات الحدودية في الجبل الاعلى . وهذا دليل قاطع على ان هذه العمليات ومهما كانت صغيرة تعطي نتائج ايجابية جيدة ستظهر نتائجها على المدى غير البعيد اذا استمرت على هذا النحو .

وفي بيروت أعلنت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ان رجالها هم الذين استشهدوا في الصدام مع الجيش الاسرائيلي قرب كيبوتس « حانيتا » ورفض الناطق اعطاء اية تفصيلات عن المعركة واكتفى بالقول ان تفاصيل اخرى ستنشر عن المعركة في موعد لاحق (المصدر نفسه) .

وبعد ظهر اليوم نفسه ، هاجمت طائرات سلاح

الجو الاسرائيلي قاعدة تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في قرية (حام) في شمالي شرق لبنان ، فيما يبدو على انه عملية رد ثأرية ، فقد ذكر راديو بيروت في ١٩٧٥/٨/٢١ انه نتج عن الغارة استشهاد (١٢) شخصا بينهم ثلاثة لبنانيين واصابة (٢٢) شخصا بجروح بينهم (١٥) لبنانيا وتدمير تسعة منازل (رأا — ٤٩٤ — ١٩٧٥/٨/٢١) وفي اليوم التالي تقدم لبنان بشكوى الى مجلس الامن جاء فيها ان ٢٠ منزلا قد تهدم (النهار — ١٩٧٥/٨/٢٢) .

ان عملية القصف الجوي لقاعدة الفدائيين قرب قرية حام اللبنانية تجيء لتؤكد اربع حقائق : —

١ — دقة المعلومات التي تملكها اجهزة العدو الاستخبارية عن النشاط الفدائي في لبنان (قواعده ومقاتليه) . ٢ — ضرورة تعزيز الاجراءات الوقائية لضمان امن القواعد والمقاتلين . ٣ — قدرة الطيران الاسرائيلي في الوصول الى كل شبر من الارض اللبنانية لمهاجمة قواعد الفدائيين واينما كانت في الجنوب وفي الشمال وفي الشرق . ٤ — ضرورة ادراكنا لطبيعة الحرب الدائرة والمعدات المتطورة والوسائل المتقدمة التي يلجأ الى استخدامها العدو لجمع المعلومات عن النشاط الفدائي في لبنان . واول هذه الوسائل طائرات الاستطلاع الثفاثة من طراز (فانتوم رف — ٤ اي) و (الميراج — رف — ٣ سي جي) والمركبات الجوية التي تطير بدون طيار من نوع (تليداين رايان — أ . كيو . م — ٣٤ جي) (ريان ١٤٧) والتي بامكانها التقاط اوضح الصور الجوية وجمع ادق المعلومات عن العمل الفدائي في لبنان وهي محلقة في الجو على ارتفاعات شاهقة (٢٥ — ٣٥) الف قدم .

وفي ليل ١٩٧٥/٨/٢١ مرت فوق شاطيء صيدا طائرة هليكوبتر معادية ، فاطلقت باتجاهها عيارات نارية كثيفة وما لبثت ان غادرت المنطقة . ومن جهة اخرى اعلن ناطق فلسطيني ان المقاومات الارضية للفدائيين تصدت للطائرة واجبرتها على التراجع باتجاه المنطقة المحتلة (النهار — ١٩٧٥/٨/٢٢) . ان تحليق طائرات الهليكوبتر المعادية في الليل فوق البحر يمكن ان يكون من اجل استطلاع المناطق الساحلية لشمالي فلسطين المحتلة ولجنوبي لبنان ووضعها بصورة متواصلة (ليلا ونهارا) تحت المراقبة البحرية والجوية الدقيقتين ، او لنقل العملاء وانزالهم خلف الخطوط اللبنانية والفلسطينية في جنوب لبنان .

وفي ١٩٧٥/٨/٢٢ ذكر في تل ابيب انه لاول مرة منذ عام ١٩٦٧ تطلق صواريخ كاتيوشا على المنطقة الجنوبية لمرتفعات الجولان المحتلة . وذكر ناطق عسكري اسرائيلي انه لم تقع اصابات أو اضرار ولم يتضح من اين اطلقت هذه الصواريخ (النهار — ١٩٧٥/٨/٢٣) . ولكن لم يصدر اي تعليق عن الحادث من الجانب الفلسطيني . وفي ١٩٧٥/٨/٢٥ اعلن ناطق عسكري فلسطيني في دمشق ان مجموعات الداخل شنت فجر يوم الجمعة ١٩٧٥/٨/٢٢ هجومين بالصواريخ الثقيلة من طراز (كاتيوشا) * على مدينتي طبريا وسمخ على شواطيء البحيرة ، مستهدفة المناطق العسكرية والحيوية فيهما . وقد حدث قصف مدينة سمخ في الساعة (١٢٢٠) من بعد منتصف الليل ، على حين قصفت طبريا في الساعة (٠١١٥) من فجر اليوم نفسه . واضاف الناطق ان الصواريخ اصابت اهدافها ملحقة خسائر واصابات في العدو (المحرر — ١٩٧٥/٨/٢٦) . ان وصول الفدائيين الى أهداف حيوية مأهولة بالسكان مثل طبريا وسمخ ، كانتا الى وقت غير بعيد من الاماكن المحرمة على العمل الفدائي يؤكد حقيقة ثابتة ان العمل الفدائي ، الذي ازداد قوة وميزة وتجهيزا ، بمقدوره الوصول الى كافة الاهداف الحيوية للعدو اينما وجدت في داخل الارض المحتلة . وهذا دليل على ان كافة الاجراءات والاساليب الوقائية التي يتخذها العدو لم تعد تفيد وتمنع تصعيد المقاومة في الداخل .

ان تصعيد المقاومة في الداخل يدفع العدو الى تصعيد اجراءاته المضادة لها . ففي ١٩٧٥/٨/٢٥ اعلنت مصادر اجهزة الامن الاسرائيلية انها اكتشفت خلال الاسبوعين الماضيين تنظيما للمخربين — على حد قولها — في جبل الخليل . فقد اوردت هذه المصادر انها اكتشفت خليتين تابعتين (لفتح) وان اعضاء الخليتين متهمون باحراق سيارة احد الاشخاص المحليين قبل سبعة اشهر ، والتخطيط

---

* صواريخ (كاتيوشا) الفردية المنقولة هي من عيار (١٤٠) ملم ووزن الصاروخ الواحد هو (١٤) كلغ ومداه (٩) كلم ، يوجد منها ايضا صواريخ بعيارات اكبر ومدى ابعد .

لعمليات تخريب اخرى . واضافت هذه المصادر انه تم حتى الان اعتقال (٢٥) شخصا ، كما اكتشفت اسلحة من انواع مختلفة بحوزة اعضاء الخليتين (رأأ — ٨٩٨ — ١٩٧٥/٨/٢٥) .

ومهما يكن اجراءات العدو ، فالعمليات الفدائية في الداخل اخذت في التصعيد . واصبح العدو يوجه عمليات ملاحقة منها . ففي ١٩٧٥/٨/٢٦ اعلنت مصادر اسرائيلية ان عبوة ناسفة انفجرت واصابت موظفا في بلدية رام الله (رأأ — ٨٩٩ — ١٩٧٥/٨/٢٧) وفي اليوم نفسه اعلنت مصادر الامن الاسرائيلية في القدس المحتلة انه تم القاء القبض على شخص حاول وضع عبوة ناسفة في حافلة للركاب . ونتيجة لالقاء القبض عليه اكتشفت خلية من اربعة (مخربين) اخرين في جبل الخليل ، وتقول مصادر البوليس الاسرائيلي انه تم ابطال مفعول العبوة . وقد اتضح ان (المخرب) هو من سكان قرية دورا في جبل الخليل . ونسبت الى المجموعة اربع عمليات تخريب منها وضع عبوة ناسفة في سوق محانيه يهودا قبل عامين ، ووضع عبوة حارقة قرب معمل كريات اربع ، والقاء قنبلة في احد شوارع المدينة القديمة في القدس ووضع عبوة ناسفة موقوتة داخل باص كان ينقل عمالا للعمل من الخليل الى بئر السبع (المصدر نفسه) .

ان هذه العمليات تثبت ان اجهزة الامن الاسرائيلية ليست قوية الى الحد الذي يجعلها قادرة على منع وقوع اية عمليات فدائية في داخل الارض المحتلة . فاكتشاف خلية من اربعة افراد قام اعضاؤها بعدة عمليات قبل سنتين ضد اهداف في عدة مناطق مختلفة من الارض المحتلة يعطي الدليل القاطع على ان المقاومة في الداخل مستمرة وان العدو لا يعلن عن اغلب نشاطاتها ، لذلك يجب اخذ بيانات العدو باستمرار بحذر شديد ، ذلك لان العدو يقصد بها التعتيم على المقاومة في الداخل للتأثير سلبا على معنويات المواطنين العرب في الاراضي المحتلة وايجابا على معنويات المواطنين اليهود .

وعلى صعيد اخر فقد اغارت الطائرات الاسرائيلية النافذة في الساعة (١٥٠٠) من يوم ١٩٧٥/٨/٢٨ على مواقع الفدائيين شمال صور في لبنان ، وقد استمرت الغارة بضع دقائق ولم يعلن الناطق عن وقوع اية خسائر بين الطائرات الاسرائيلية (رأأ — ٩٠١ — ١٩٧٥/٨/٢٩) .

وفي ١٩٧٥/٨/٣٠ أعلنت القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان مجموعة فدائية من المجموعات التابعة (لفتح) العاملة في الارض المحتلة اقتحمت مستوطنة (تربيخا) في الجليل الغربي في منتصف ليل الجمعة ١٩٧٥/٨/٢٩ وتمركزت فيها . وفي الساعة الاولى صباح السبت وبعد وصول نجدات عسكرية كبيرة للعدو ، حاول فيها تطويق الفدائيين وحصر تحركاتهم في منطقة محدودة . الا ان الفدائيين اشتبكوا مع العدو بمختلف الاسلحة الصاروخية والرشاشة وتمكنوا من ايقاع عدة خسائر في صفوفه . وفي الساعة (٠٤٠٠) دفع العدو بمزيد من القوات تساندها المدرعات وطائرات هليكوبتر التي قامت بقصف المجموعة الفدائية . وفي الساعة (٠٥٠٠) حاول العدو ضرب حصار شديد حول المجموعة في اثناء انسحابها الى هدف اخر ، واشتبك افرادها معه في معركة مواجهة عنيفة استمرت الى الساعة (٠٩٠٠) . وقد استشهد في هذه المعركة اثنان من افراد المجموعة على حين تمكنت المجموعة من نقل جريحين اخرين اصيبا في اثناء المعركة باصابات بسيطة . (النهار ١٩٧٥/٨/٣١) وفي تل ابيب قالت القيادة العسكرية الاسرائيلية ان الجنود الاسرائيليين قتلوا اثنين من الفدائيين كانا يحاولان عبور الحدود من لبنان الى الارض المحتلة قرب مستعمرة (زرعييت) يوم الجمعة ١٩٧٥/٨/٢٩ . ولم يبلغ عن وقوع اصابات بين الاسرائيليين (المصدر نفسه) .

ان القاء نظرة على حجم القوات وانواع الاسلحة والمعدات التي دفع بها العدو الاسرائيلي ضد افراد المجموعة الفدائية يثبت ان العدو انما يحشد قوات كبيرة في شمالي فلسطين المحتلة ، ولا يتوانى عن القاء اعداد كبيرة منها ضد المجموعات الفدائية التي يجري اكتشافها داخل الارض المحتلة بهدف منع افرادها من تحقيق اهدافهم . خاصة وان اكثر العمليات في الشمال تركزت على اقتحام المستوطنات والابنية فيها والاحتفاظ برهائن من سكانها . ان أكثر ما يقلق العدو ويزعجه هو وقوع الخسائر بين سكان المستوطنات الحدودية ، اذ ان وقوع مثل هذه الخسائر غالبا ما تكون له تأثيرات نفسية ومعنوية سيئة على سكانها . ثم ان اكثر ما يخشاه العدو ويخافه هو ان تتمكن احدى المجموعات الفدائية احد الايام من احتجاز عدد كبير من

المواطنين اليهود ، وان ننجح في نهاية الامر على اجبار السلطة الاسرائيلية بالافراج عن عدد من الموقوفين الفدائيين الموجودين في السجون الاسرائيلية ، لان تعتبر مثل هذه الخطوة بادرة خطيرة وظاهرة يمكن ان نكون لها نتائج سيئة على الاوضاع الامنية داخل اسرائيل .

وفي ١٩٧٥/٨/٣١ كتبت « معاريف » الاسرائيلية محذرة من ازدياد النشاط الفدائي في الايام الاخيرة . وقالت الصحيفة « انه لا يمكن الافتراض ان المخربين يؤمنون بأنهم سيحبطون التسوية ، ولكنهم يأملون ان يثيروا الرأي العام العالمي مرة اخرى في الدول العربية » . واضافت الصحيفة قائلة « ان هناك الان بالذات واجبات مضاعفة ملقاة على عاتق جميع الاطراف لزيادة اليقظة واتباع جميع وسائل الحذر الممكنة » . (رأ — ٩٠٣ — ١٩٧٥/٩/١) .

ومن جهة اخرى ذكر تقرير اورده مراسل الاذاعة الاسرائيلية في ٧٥/٩/١ جاء فيه ان مستوطنات الحدود تعيش في الاونة الاخيرة في ظل توتر امني متزايد ومن الطبيعي ان يكون حديث الجميع في هذه المستوطنات من عمليات المخربين . ان جيش الدفاع الاسرائيلي وحرس الحدود والشرطة المدنية يتبعون كل الوسائل الممكنة لمواجهة اعمال التخريب او محاولات التسلل . ويقول التقرير ان حوادث التخريب والنشاطات الامنية تزداد في مواسم الاعياد في اسرائيل ، وان جميع سكان المستوطنات الحدودية قلقون . (رأ — ٩٠٤ — ١٩٧٥/٩/٢) . يجيء هذا التقرير في اعقاب قيام الفدائيين يوم ١٩٧٥/٩/١ بقصف مستعمرتي دان وكريات شمونة (الخالصة) ومعسكر في سهل الحولة في الجليل الاعلى ردا على القصف الاسرائيلي لعدد من القرى في جنوب لبنان يوم ١٩٧٥/٨/٣١ . فقد قال ناطق فلسطيني ان فدائيين من وحدة الصواريخ الثقيلة قاموا في الساعة (٢٢٤٥) من مساء ١٩٧٥/٨/٣١ بقصف مستعمرة (دان) بالصواريخ الثقيلة . واضاف الناطق يقول ان القصف استهدف عددا من المنشآت العسكرية الاسرائيلية . واوضح الناطق نفسه ان الفدائيين قاموا فيمنتصف ليلة ٣١ /١٩٧٥/٨ بقصف مستعمرة كريات شمونة بالصواريخ الثقيلة ثم اعادوا قصفهم مرة اخرى بعد (١٥) دقيقة . وقد اصابت الصواريخ اهدافها في داخل المستعمرة وان طائرات الهليكوبتر وسيارت الاسعاف شوهدت وهي تقوم باخلاء القتلى والجرحى ، ثم قال ان المجموعة قامت في الساعة (١٢٣٠) من بعد منتصف الليلة الماضية بقصف معسكر اسرائيلي في شمال سهل الحولة ، ومضى الناطق قائلا ان هذا القصف اسفر عن قتل وجرح عدد من جنود العدو . وقال ان القصف جاء ردا على قصف مدفعية العدو لقرى كفرشوبا وكفرحمام وراشيا الفخار والخريبة بجنوب لبنان يوم ١٩٧٥/٨/٣١ . (المحرر — ١٩٧٥/٩/٢) .

ان عمليات الفدائيين هذه تشير الى قدرة الفدائيين على شن هجمات بالصواريخ الثقيلة في داخل الارض المحتلة ، ويكفي ان تجيء هذه الهجمات ردا على قصف العدو لعدة قرى لبنانية . وهذا يبين قدرة العمل الفدائي على المبادرة بالرد السريع وهو مؤشر له دلالاته الهامة على مستقبل الصراع . ومن الطبيعي الا يكون الرد الفدائي بنفس قوة ومدى وكثافة القصف الاسرائيلي الذي يستخدم مدفعية متوسطة وبعيدة المدى متفوقة كما ونوعا مثل مدافع هاوتزر ذاتية الحركة عيار ١٠٥ ملم التي يصل مداها الى ١٣ — ١٥ كلم واخرى من عيار ١٥٥ ملم التي يصل مداها الى ١٦ كلم والمدافع بعيدة المدى التي يصل مداها الى ٣٢ كلم من عيار ١٧٥ ملم . ومدافع هاون عيار ١٦٠ ملم التي يصل مداها الى ١٢ كلم ، على حين يستخدم الفدائيون صواريخ كاتيوشا التي يتراوح مداها بين ١٢ — ٢٠ كلم مع الفارق في كثافة الرمي ووسائل التسديد الحديثة التي يستخدمها الجيش الاسرائيلي .

ان هذا التصعيد المفاجيء من جانب الفدائيين يجيء بعد توقيع اتفاق فصل القوات الثاني في الجبهة الجنوبية بين اسرائيل ومصر بعد ان نددت منظمة التحرير وكافة المنظمات الاخرى بالاتفاق لهذا السبب وامور اخرى اهمها قرب حلول الاعياد وبدء السنة الدراسية الجديدة ، تتوقع اجهزة الامن الاسرائيلية ان يزيد الفدائيون من نشاطاتهم وعملياتهم . وتقول مصادر الاذاعة الاسرائيلية ان هدف الفدائيين في جميع العمليات هو مهاجمة المستوطنات لاحتجاز الرهائن في محاولة لاجبار الحكومة الاسرائيلية الامتثال لمطالبهم (رأ — ٩٠٥ — ١٩٧٥/٩/٣) .

ويبدو ان التصعيد من جانب العمل الفدائي دفع

اسرائيل الى تصعيد وتطوير اعمالها العدوانية ، تشمل هذه الاسلحة البرية والبحرية والجوية ، في محاولة لاعطاء قواتها قدرة اكبر على الردع وانزال اكبر قدر من الخسائر البشرية والمادية في صفوف الفدائيين والمدنيين الفلسطينيين واللبنانيين المقيمين في القرى والمخيمات الجنوبية المتاخمة للحدود . ومن الطبيعي ان يكون الهدف من وراء هذه الاعمال الوحشية تحقيق الامور التالية :

١ — خلق انقسام بين اللبناني والفلسطيني عن طريق اشعار الاول بان امنه واستقرار اوضاعه سيظلان معرضين للخطر طالما بقي في المنطقة فدائي واحد .

٢ — خلق التناقض بين سكان المخيمات والفدائيين عن طريق ضرب المخيمات بكافة الاسلحة المتاحة بهمجية ووحشية ، الى ان يستجيب سكان المخيمات للارادة الاسرائيلية .

ويطالب هؤلاء في نهاية الامر الفدائيين بضرورة الابتعاد عن مخيماتهم . والا فاسرائيل لن تفرق بين الفدائي والمدني .

٣ — انزال اكبر قدر ممكن من الخسائر المادية والبشرية في صفوف الفدائيين ويظل هذا هدفا من الاهداف التي تقوم عليها استراتيجية الجيش الاسرائيلي في الظروف الراهنة .

٤ — مواصلة ضرب الفدائيين بعنف اينما وجدوا في لبنان للتخريب على عملياتهم وعرقلة خططهم ومنعهم من تنفيذ هذه العمليات .

٥ — ضرب قواعد الفدائيين والمخيمات للرد على نشاطات الفدائيين في الجليل الاعلى وعلى نشاطات خلايا الثورة في الداخل لما لهذه العمليات البرية التي يشنها الجيش الاسرائيلي من تأثير على معنويات الجمهور في اسرائيل وخاصة سكان المستوطنات الحدودية .

ففي فجر ١٩٧٥/٩/٤ وفي حوالي الساعة ٠١٠٠) اقتربت من شاطىء صيدا بين قلعة صيدا البرية وقلعة صيدا البحرية حيث تقع قاعدة للفدائيين مجموعة من الزوارق الحربية الاسرائيلية قدر عددها بخمسة زوارق . وقد تنبهت اجهزة المقاومة لاقتراب الزوارق العدد ٥ التي اطلقت قنابل مضيئة بدأ في اثرها التراشق بمختلف الاسلحة .

وجوبهت الزوارق بمقاومة شديدة من الفدائيين والسكان المحليين والتنظيم الناصري . وبعد اشتداد المعركة شوهدت الزوارق تبتعد عن شاطىء صيدا .

وفي حوالي الساعة (٠٢٢٠) جرت محاولة انزال على الشاطىء قرب قلعة صيدا البحرية وتصدت المقاومة والقوى الشعبية لعملية الانزال فسقط ثلاثة جرحى .

وحتى الساعة (٠٢٠٠) من صباح ١٩٧٥/٩/٤ كان الاشتباك لا زال مستمرا . (النهار — ١٩٧٥/٩/٤) .

وفي تل ابيب قال ناطق بلسان الجيش الاسرائيلي ان قوة من الجيش الاسرائيلي قامت في صباح ١٩٧٥/٩/٤) بعملية في منطقة صيدا ، هاجمت خلالها زورقين للمخربين وعادت قواتنا الى قواعدها سالمة . واضاف الناطق الرسمي انه تم نسف سيارتين للفدائيين واصيب عدد من الفدائيين (رأا — ٩٠٦ — ١٩٧٥/٩/٤) .

في حوالي الساعة (١٢٠٠) من اليوم نفسه اغارت طائرات سلاح الجو الاسرائيلي لبضع دقائق على قواعد للفدائيين شمالي مدينة صور ، وعادت الطائرات جميعها سالمة . (المصدر نفسه) .

وفي اسرائيل قالت مصادر الجيش الاسرائيلي ان عملية صيدا التي نفذتها قوات الكوماندو البحريين الاسرائيليين بحماية من الزوارق الاسرائيلية تعتبر من اعمق العمليات التي نفذتها قواتنا في الاونة الاخيرة . ويمكن اعتبار هذه العملية في نطاق القتال المستمر ضد الفدائيين ضمن الخط القاضي بضربهم في قواعدهم وقبل ان يقوموا بتنفيذ اية عملية وذلك لعرقلة مخططاتهم . (رأا — ٩٠٧ — ١٩٧٥/٩/٥) .

وفي ١٩٧٥/٩/٧ اعلن الناطق العسكري باسم القيادة العامة لقوات الثورة الفلسطينية ان احدى المجموعات المقاتلة العاملة في الاراضي المحتلة هاجمت بالاسلحة الرشاشة الية للعدو كانت تقوم باعمال الحراسة في كمين نصبته على طريق مستعمرة « شتولا » في منطقة الجليل ، كما قصفت مجموعة اخرى مستوطنة « هونين » في الجليل بالصواريخ والاسلحة الرشاشة (النهار — ١٩٧٥/٩/٨) .

ان هجمات قوات الثورة الفلسطينية هذه تجيء في اعقاب الهجوم الذي شنه العدو ضد المخيمات وقواعد الثورة في مدينتي صور وصيدا ، لتثبت له خرافة نظرية الامن المطلق التي يحاول العدو تطبيقها في شمالي فلسطين المحتلة وفي الداخل . لذلك فمن المتوقع ان يزيد العدو من عنف ضرباته وهجماته في جنوب لبنان في اعقاب توقيع اتفاق سيناء ورفع الولايات المتحدة القيود التي كانت تفرضها على تزويده باحدث الاسلحة والمعدات والاعتدة الحربية في محاولة للانفراد بهذه الجبهة . ان سياسة الانفراد بجبهات القتال ليست جديدة على العدو فطالما استند عليها وتمسك بها . ان كافة الدلائل تشير الى ان هذه الهجمات ستستمر وستصعد ولن يكون مستبعدا ان تتطور في المستقبل الى عمليات واسعة برية وجوية وبحرية تشارك فيها قوات كبيرة من الجيش الاسرائيلي .

ففي الساعة (٢١١٥) من ليل ١٩٧٥/٩/١٠ جددت المدفعية الاسرائيلية قصفها لمنطقة العرقوب لمدة نصف ساعة ، تساقطت القذائف على مناطق متفرقة في جوار مزرعة الخربة وراشيا الفخار ومجرى نهر الحاصباني وشرق الخيام . (النهار — ١٩٧٥/٩/١١) .

في ١٩٧٥/٩/١١ اغارت الطائرات الاسرائيلية المعادية على مواقع للفدائيين في صور . فقد حلقت في الساعة (١٨٠٠) فوق المدينة طائرات الفانتوم الاسرائيلية وما لبثت ان هاجمت بناية يملكها احد اهالي المدينة والقت قنابلها على البناية فاحدثت فيها اضرارا كبيرة . فقتل من جراء الهجوم الجوي (٨) مواطنين . كما اصيبت باضرار بناية مجاورة . (النهار — ١٩٧٥/٩/١٢) .

وفي بيروت ادلى ناطق عسكري لبناني بالاتي : — قصفت في الساعة (١٨١٥) من بعد ظهر ٩/١١/ ١٩٧٥ (٦) طائرات معادية من نوع فانتوم ولمدة (٢٠) دقيقة مخيم البرغلية المجاور لمدينة صور وتفيد التقارير الاولية عن مقتل مواطنين وجرح (٥) اشخاص . المصدر نفسه .

اما وكالة الانباء الفلسطينية (وفا) فقالت ان منطقة صور تعرضت لعدوان جوي صهيوني وحشي استهدف الاحياء والمدينة وبيوت المدنيين . واضافت ان ثماني طائرات من طراز (فانتوم) قامت في الساعة (١٨٠٥) بالاغارة على منطقة البرغلية لمدة (٢٠) دقيقة . وقد تصدت مقاومات الثورة الارضية للطائرات واجبرتها على الفرار . وذكر المصدر ان المعلومات تشير الى مقتل اثنين وجرح (٥) وتهديم (٥) منازل . المصدر نفسه .

اما الناطق الاسرائيلي فقد قال بان الطائرات الاسرائيلية اغارت على أهداف فدائية شمالي صور وان القصف استمر بضع دقائق . المصدر نفسه .

وفي الساعة (١٢٢٠) من منتصف ليل ٩/١١/ ١٩٧٥ سمعت في صيدا انفجارات عنيفة وعلى الفور اطفئت الانوار في المناطق المحيطة بالجبال الشرقية للمدينة لمدة ٢٠ دقيقة استمر خلالها دوي الانفجارات حتى الساعة (٠١١٥) من صباح ١٩٧٥/٩/١٢ . وقد افادت مصادر الثورة الفلسطينية في صيدا ان (٦) زوارق حربية اسرائيلية ظهرت خلف جزيرة صيدا واطلقت القنابل المضيئة وفتحت كشافاتها في اتجاه الساحل ، مما دفع قوات الثورة للرد عليها بزخات كثيفة من الرصاص . وبعد وقت قصير انسحبت الزوارق . (النهار — ١٩٧٥/٩/١٢) .

وهكذا تواصل اسرائيل حربها ضد العمل الفدائي في داخل الارض وفي المناطق الشمالية وفي الجنوب اللبناني في اطار استراتيجية الردع التي تبنتها لمواجهة الموقف العسكري وخطر ازدياد العمليات الفدائية في الجليل الاعلى وعلى الحدود مع لبنان.

واذا استعرضنا التهديدات الصادرة عن المسؤولين العسكريين في اسرائيل والتهديد بانزال المصائب في صفوف الفلسطينيين ليس فقط قرب الحدود وانما في داخل لبنان ، نستطيع ان ندرك خطورة الاوضاع في الجنوب اللبناني . واذا كانت الاوضاع العسكرية والسياسية في الماضي قد حالت دون تفرغ الجيش الاسرائيلي لردع العمل الفدائي بشكل فعال ومؤثر فان الشهور القليلة القادمة ستشهد تصعيدا خطيرا للاعتداءات الاسرائيلية على قواعد ومخيمات الفلسطينيين في جنوب لبنان .

II

المساعدات العسكرية الاميركية لاسرائيل وصفقة السبعينات

في ١٩٧٣/١١/١٥ توقف الجسر الجوي الاميركي عن نقل الامدادات الحربية الى اسرائيل بعد ان نقل في خلال شهر واحد (١٠/١٤ — ١٩٧٣/١١/١٥) ما مجموعه (٢٢٦٠٠) طن من الاسلحة والتجهيزات والاعتدة الحربية في (٥٧٠) رحلة جوية كلفت الخزينة الاميركية حوالي (١٠٠٠) مليون دولار (٤٣٠) مليون جنيه استرليني . وفي ١٩٧٣/١٢/١٨ وافق مجلس الشيوخ الاميركي على اعتماد معونات عسكرية واقتصادية طارئة لاسرائيل قيمتها (٢ر٢) مليار دولار كان الرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون قد اقترح اعتمادها في ١٩٧٣/١٠/١٩ ضمن برنامج مساعدات عسكرية فورية لاسرائيل لتعويضها عن خسائرها في حرب رمضان . وقد نص قرار مجلس الشيوخ انذاك على اعفاء اسرائيل من (٥ر١) مليار دولار . من ثمن الاسلحة التي تسلمتها في اثناء وبعد الحرب . وكان مجلس الشيوخ قد اقر مبلغ (٧ر١) مليار دولار مساعدات عسكرية لاسرائيل من اصل مبلغ (٢ر٢) مليار دولار اما باقي المبالغ فيدفع على اساس مساعدات ائتمانية اقتصادية طويلة الاجل.

وفي ١٩٧٤/١/٤ زار الولايات المتحدة موشيه دايان وزير الدفاع الاسرائيلي وتقدم خلالها بعدة طلبات لتزويد اسرائيل بالسلاح لتعويضها عما فقدته في الحرب . ثم زارها « شمعون بيريس » وزير الدفاع الاسرائيلي في ١٩٧٤/٦/٢٣ ويرافقه وفد عسكري كبير ضم قائد سلاح الجو السابق ومستشار وزير الدفاع الاسرائيلي لشؤون سلاح الطيران الجنرال المتقاعد « مرخاي هود » لاستكمال بحث موضوع المساعدات العسكرية التي سبق للكونغرس الاميركي واقرها لاسرائيل ومجموعها (٧ر١) مليار دولار وتتضمن انواع مختلفة من الاسلحة التي تحتاجها اسرائيل . وقد ذكرت المعلومات انذاك ان بيريس وضع اللبنة الاولى لصفقة سلاح اميركية ضخمة لاسرائيل هي صفقة السبعينات في اثناء زيارته . وقد تم وقتها طلب العديد من الاسلحة التي يحتاجها الجيش الاسرائيلي ومن بينها (٤٨) طائرة (ف — ١٥ و ١٢٠ — ٢٠٠) صواريخ موجهة تكتيكية ارض — ارض نوع (لانس) ، وصواريخ موجهة فردية ضد الطائرات نوع (رد اي) وغيرها من الاسلحة والتجهيزات الحربية المتقدمة والمعدات الالكترونية المتطورة التي بمقدورها ان تحافظ على التوازن الاستراتيجي في منطقة الصراع ، في ضوء المساعدات العسكرية السوفياتية الضخمة التي تقدم للعرب ، والتغيرات التي دخلت على الموقف العسكري العربي بعد حرب رمضان .

لكن الموقف الاميركي تبدل في شهر نيسان ١٩٧٥ في اعقاب صدور القرار الاميركي باعادة تقييم السياسة الاميركية في المنطقة والذي نجم عنه تأجيل تسليم اسرائيل العديد من الاسلحة الهامة خاصة في اعقاب الاعلان عن فشل مساعي الدكتور كيسنجر السلمية في ١٩٧٥/٣/٢٢ مما زاد الامور تعقيدا بالنسبة لاسرائيل حيث ضعفت امالها بالحصول على الاسلحة المطلوبة في المدى القريب واصبح القلق الاسرائيلي منصبا على طبيعة الموقف الاميركي والتحول الذي طرأ على نظرة واشنطن لموضوع تزويد اسرائيل بالسلاح ونتائج ذلك على العلاقات الاميركية — الاسرائيلية في المستقبل . اذ اصبح واضحا ان واشنطن لن تكون ملزمة في المستقبل بالموافقة الفورية على كافة الطلبات التي تتقدم بها اسرائيل للحصول على السلاح من الترسانة الحربية الاميركية .

وفي ١٩٧٥/٣/٢٨ ذكرت صحيفة « بلتيمور صن » ان الدكتور كيسنجر امر بتأخير تسليم اسرائيل طائرات (ف — ١٥) وتأجيل التوقيع على الصفقة. (رأ — ١٩٧٥/٣/٢٨) . وكانت اسرائيل على وشك ارسال فريق عسكري من الطيارين والفنيين الى الولايات المتحدة للتدرب على قيادة وصيانة هذه الطائرات (المصدر نفسه) .

وفي ١٩٧٥/٤/١ قال « جيمس شليسنجر » وزير الدفاع الاميركي ان الولايات المتحدة ستعارض الدخول في اي اتفاق جديد مع اسرائيل للحصول على السلاح اثناء اعادة تقييم السياسة الاميركية

في الشرق الاوسط . (هيرالد تريبيون) — ٢/٤/١٩٧٥ . وقالت مصادر اميركية انذاك ان هذا الموقف جرت الموافقة عليه في الاجتماع المطول الذي عقده مجلس الامن القومي الاميركي برئاسة الرئيس فورد حيث امر باعادة تقييم سياسة واشنطن في الشرق الاوسط في ضوء المعطيات الجديدة التي دخلت على الموقف العام في المنطقة وعلى العلاقات الاميركية — العربية والاميركية — الاسرائيلية .

وكان من الطبيعي ان يكون لهذا التبدل في الموقف الاميركي تأثير على امداد اسرائيل ببعض الاسلحة التي كانت بأمس الحاجة لها . خاصة في اعقاب حرب تشرين حيث بدأت اسرائيل في اعادة تنظيم قواتها المسلحة في ضوء نتائج الحرب ، وفي اعادة تجهيز قواتها البرية والجوية والبحرية باسلحة حديثة تتناسب وحجم المخططات التي وضعت لزيادة طاقة قواتها المسلحة البشرية . ونظرا لان الطيران والمدرعات يشكلان العمود الفقري لقوتها العسكرية ، فقد ساءها الا تحصل على مزيد من الدبابات (م — ٦٠ أ ١) و (ام — ٤٨ أ ٣) على الرغم من انها عوضت خسائرها في الحرب واكثر حيث تسلمت في اثناء الحرب وبعد الحرب حتى الان اسلحة بقيمة (٢١١٧) مليون دولار . فقد ذكرت التقارير المختصة بميزان القوى في المنطقة ان عدد الدبابات التي لديها الان يزيد على (٢٥٠٠) دبابة اي بزيادة (٥٠٠ — ٦٠٠) دبابة عما كان لديها قبل اندلاع الحرب فيتشرين اول ١٩٧٣ .

ومن جهة اخرى ابدت اسرائيل قلقا كبيرا من موضوع اقدام واشنطن على تأخير تسليمها طائرات (ف — ١٥) وتأجيل ارسال الطيارين الاسرائيليين للتدرب عليها في الولايات المتحدة على الرغم من ان قوة سلاح الطيران الاسرائيلي الحالية تفوق كثيرا قوته التي كان عليها قبل اندلاع القتال في عام ١٩٧٣ . بالاضافة الى ان سلاح الطيران حصل في الفترة الاخيرة على معدات وتجهيزات جوية من الولايات المتحدة تزيد من تفوقه النوعي على الاسلحة العربية المقابلة اكثر بكثير مما كان قائما قبل اندلاع حرب رمضان . غير ان القلق الاسرائيلي نجم عن تسلم كل من مصر وسوريا والعراق وليبيا لطائرة (ميغ — ٢٣) السوفياتية، على الرغم من ان اسرائيل تدرك جيدا ان قدرات هذه الطائرة القتالية لا تشكل اية خطورة على اوضاعها ولا يمكنها بأي حال ان تقلب موازين القوى السائدة في منطقة الصراع لسببين جوهريين هما : —

١ — ان سلاح الجو الاسرائيلي لا زال متفوقا من الناحيتين النوعية والتقنية على الاسلحة الجوية العربية مجتمعة ، على الرغم من تسلمها لطائرة (ميغ — ٢٣) .

٢ — ان عدد الطائرات الهجومية والقتالية الحديثة التي يملكها سلاح الجو الاسرائيلي (٢٠٠) فانتوم و (٢١٠) سكايهوك والاسلحة الدفاعية الحديثة التي تملكها اجهزة الدفاع الجوي الاسرائيلي تجعل اسرائيل قادرة على صد اي هجوم جوي عربي ومهما كان حجمه والرد على ذلك بهجوم جوي مضاد فورا .

غير ان ما تريده اسرائيل من طائرات الان هو ضعف عدد الطائرات التي كانت لديها قبل اندلاع حرب رمضان . لانها تدرك انه مثلما تحسنت اوضاع سلاحها الجوي وتضاعفت قواه القتالية فان شبكات الدفاع الجوي العربية الصاروخية هي الاخرى ازدادت قوة وتضاعف عدد الصواريخ التي لديها . اذا فان اية مجابهة في المستقبل ستكلف اسرائيل باهظا ، لا سيما وان اسرائيل اخذت من حرب تشرين الكثير من الدروس والعبر ، لذلك فهي تحسب للمستقبل حتى لا تقع في الورطة نفسها التي تعرضت لها في مراحل القتال الاولى من حرب رمضان .

في ٥/٤/١٩٧٥ وصلت الضغوط الاميركية حدها الاقصى برفض الولايات المتحدة استقبال « شمعون بيريس » في واشنطن ومطالبة بيريس تأجيل زيارته في اثناء مواصلة اعادة تقييم سياستها الشرق اوسطية . (ر أ أ — ٥/٤/١٩٧٥) .

وقد اعتبرت اسرائيل ذلك بمثابة حظر جزئي على توريد السلاح تفرضه الولايات المتحدة عليها . ومما اساء اليها اكثر رفض الولايات المتحدة تزويدها بطائرات استطلاع جوي حديثة مجهزة بأحدث المعدات والتجهيزات الالكترونية التي تستخدم في الاستطلاع والتصوير الجوي وهذه الطائرات هي (غرومان هوك اي—اي—٢سي) وهذه الطائرة تعتبر احدث من طائرة (غرومان موهوك — واي. او. في — ١أ) التي تسلم

منها سلاح الجو الاسرائيلي بضع طائرات . (الاهرام المصرية — ١٩٧٥/٥/١٧) فطائرة (موهوك) انتجت في عام ١٩٥٩ وتستخدم في استطلاع ميادين القتال واهداف تكتيكية محدودة ، ويبلغ مداها الاقصى (١٩٨٠) كلم . على حين انتجت طائرة (هوك اي) في عام ١٩٧١ وجرى تجهيزها باجهزة رادار للانذار المبكر والاستطلاع بعيد المدى . لهذا جرى تجهيزها بمعدات الكترونية متقدمة جدا وبجهاز حاسب متطور . اما مداهـا الاقصى فيبلغ (٢٥٨٣) كلم . وعندما وافقت الولايات المتحدة على تزويد اسرائيل بطائرة(موهوك) وحجبت عنها طائرة (هوك اي) كانت الولايات المتحدة تعرف جيدا ان اسرائيل لا تحتاج الى طائرة معقدة ومتقدمة مثل (الهوك اي) تستخدم في الاستطلاع الاستراتيجي او العملياتي . لذلك قدمت لها طائرة استطلاع تكتيكية بامكانها استطلاع جبهات القتال فقط . غير ان ذلك يجب الا يفهم ان اسرائيل لا تملك طائرات للاستطلاع الاستراتيجي ، فقد ذكرت تقارير مختلفة ان اسرائيل تسلمت في خلال حرب الأستنزاف (١٩٦٩ — ١٩٧٠) حوالي (١٢) مركبة جوية تطير بدون طيار للاستطلاع الجوي الأستراتيجي بامكانها التحليق في الجو لمدة طويلة وعلى ارتفاعات عالية تصل الى (٥٠,٠٠٠) قدم . كما تسلمت مجموعة اخرى منها اكثر تطورا وتقدما في اثناء حرب رمضان وبعدها .

منذ انتكست جهود الدكتور كيسنجر السلمية الخطوة خطوة في شهر اذار من هذا العام ، اصبح واضحا ان اميركا ربطت موافقتها على تزويد اسرائيل بالاسلحة الحديثة بموافقة اسرائيل على اعطاء بعض التنازلات وتغيير موقفها المتصلب من التسوية الجزئية في سيناء . لهذا اضطرت اسرائيل الى اعطاء بعض التنازلات في مقابل احتفاظها بعلاوات جيدة مع الولايات المتحدة الممول الرئيسي والاوحد في العالم القادر على اعطاء الجيش الاسرائيلي كافة احتياجاته من الاسلحة الدفاعية والهجومية والاجهزة والمعدات الالكترونية المتقدمة التي لا يوجد مثيل لها في ترسانات الدول الكبرى الاخرى .

وفي شهر اب (اغسطس) من هذا العام بدات العلاقات الاميركية الاسرائيلية تتحسن عندما بدا ان كافة العقبات التي كانت تعترض اتفاق سيناء الجزئي الثاني قد ذللت ، لذلك طلبت الولايات المتحدة من اسرائيل في ١٩٧٥/٨/١١ ارسال وفد عسكري وفني الى واشنطن لبحث القضايا المعلقة بين البلدين فيما يخص الاسلحة التي كانت الولايات المتحدة قد منعت تسليمها لاسرائيل بصورة مؤقتة . وفي ١٩٧٥/٨/١٢ غادر الى واشنطن وفد اسرائيلي برئاسة مردخاي غازيت المدير العام لرئاسة الوزراء فيما ضم الوفد عددا من المستشارين الاقتصاديين والقانونيين والعسكريين . (النهار — ٨/١٢/ ١٩٧٥) وقد اصبح واضحا ان اسرائيل ستحصل من الولايات المتحدة على اسلحة بقيمة (١٧٠٠) مليون دولار خلال السنوات الاربع القادمة . وستضم هذه :

— (٢٦ — ٥٠) طائرة (ف — ١٥ النسر) التي تعتبر طائرة التفوق الجوي الاميركية لجيل الثمانينات. اذ تبلغ سرعتها القصوى (٢٤٤٦) كلم الساعة (١٥٢٠) ميل (٢ر٣) ماك . اما مداها الاقصى فيبلغ (٤٦٣١) كلم . وتسليحها الحالي يتكون من مدفع رشاش دوار بست فوهات عيار (٢٠) ملم سيستبدل قريبا بمدفع رشاش دوار عيار (٢٥) ملم . بالاضافة الى (٨) صواريخ موجهة جو — جو من نوع (سايدوايندر) و (سبارو) .

— دبابات (م ٦٠ — أ ١) وتزن الواحدة ٤٨ طنا . وهي مجهزة باجهزة الرؤيا للقتال الليلي . في اعقاب حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ادخلت على هذه الدبابة تعديلات اساسية ابرزها استبدال زيت الهايدروليك القابل للاشتعال باخر غير قابل للاشتعال . تستخدمها دول عديدة في العالم كدبابة اساسية في تشكيلاتها المدرعة .

— صواريخ تاو الموجهة المضادة للدبابات ، يمكن استخدامها من على قاعدة ثابتة او محمولة على سيارة جيب او مجنزرة او كسلاح مضاد للدبابات تطلقه طائرات الهليكوبتر . اما مدى الصاروخ الادنى فهو ٦٥ مترا والاقصى ٣٠٠٠ متر .

— صواريخ (هوك) المعدلة . تسلمت اسرائيل مزيدا منها بعد حرب تشرين الاول١٩٧٣ لدعم شبكة دفاعها الجوي . وهذه الصواريخ الموجهة تستخدم لمقاومة الطائرات من ارتفاعات واطئة جدا (٥٠) مترا وحتى ارتفاع (١٦،٠٠٠) متر ، وهي الصواريخ نفسها التي طلبها الاردن .

ـ المدفع السداسي الدوار عيار (٢٠) ملم الموجه بالرادار . وهو نفسه المدفع السداسي الدوار عيار (٢٠) ملم الذي اصبح يشكل السلاح الرئيسي في الطائرات الامريكية . اما الفرق بينهما فهو ، ان النموذج الذي تستخدمه الطائرات بامكانه اطلاق (٦٠٠٠) طلقة / الدقيقة على حين ـ امكان النموذج الارضي ان يطلق فقط (٦٠٠٠) طلقة في الدقيقة .

ـ ناقلات جنود مجنزرة نوع (م ـ ١١٣) .

ـ صواريخ موجّهة تكتيكية ارض ـ ارض نوع (لانس) وقد طلبت اسرائيل من الولايات المتحدة تزويدها بـ (١٢٠ ـ ٢٠٠) صاروخ منها، ويصل مداها الى (١١٠) كلم .

ـ مركبات جوية تطير بدون طيار وهذه يمكن استخدامها كطائرات استطلاع وتصوير جوي ، على حين يوجد هناك انواع متقدمة منها يمكن استخدامها في مهاجمة اهداف تكتيكية محمية جيدا من قبل وسائط الدفاع الجوي التقليدية والصاروخية. غير ان الولايات المتحدة رفضت تزويد اسرائيل بالنوع الذي يستخدم في مهام هجومية ، واكتفت بتسليمها مركبات جوية للاستطلاع الجوي العملياتي والتكتيكي .

ـ صواريخ موجهة ارض ـ جو نوع (رد اي) التي يستخدمها جندي المشاة ضد الطائرات التي تحلق على ارتفاعات واطئة في ارض المعركة . وهذا الصاروخ يعادل الصاروخ (سام ـ ٧ ستريلا) السوفييتي الذي لعب دورا بارزا في معارك حرب تشرين الاول ١٩٧٣ .

وغيرها من الاسلحة التي ستتسلمها اسرائيل في وقت لاحق من نهاية السبعينات واوائل الثمانينات منها طائرات (ف ـ ١٦) . (الحياة ـ ١٢/١٤/ ١٩٧٤) .

ولما كانت الاسلحة التي طلبتها اسرائيل من الولايات المتحدة ستكلفها مبالغ طائلة تزيد على (٣٢٥٠) مليون دولار (رأا ـ ١٩٧٥/٩/٢) فقد رأت الحكومة الاسرائيلية ان تحصل على جزء من المبلغ عن طريق طرح سندات للبيع في اسرائيل . كما انها طلبت العون من صندوق الجباية اليهودية في الولايات المتحدة لهذا وصلت الى اسرائيل بتاريخ ١٩٧٥/٨/٢٥ جماعة تضم (٣٣٠) من زعماء الجباية اليهودية في الولايات المتحدة في زيارة لها تستغرق يومين بغية الاطلاع على احتياجات اسرائيل من الاموال للعام القادم . واجتمع الوفد لدى وصول اسحق رابين رئيس الوزراء الذي شرح للوفد عن الوضع الاقتصادي في اسرائيل واعباء الامن الثقيلة . (رأا ـ ١٩٧٥/٨/٢٦) .

وفي هذه الاثناء حذرت (هآرتس) من ثقل الاعباء التي تلقى على دافع الضرائب الاميركي نتيجة المساعدات العسكرية الضخمة التي تعهدت واشنطن بتقديمها الى اسرائيل . وحذرت الصحيفة من خطورة صحوة دافع الضرائب الاميركي في يوم من الايام على ضخامة ما تكلفه صداقة اسرائيل . (رأا ـ ١٩٧٥/٩/٤) . فقد قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل مبلغ (٢١١٥) مليون دولار منذ حرب تشرين الاول حتى الان ، لتعويضها عن خسائرها في الحرب . وهي الان بصدد تقديم مبلغ يتراوح بين (١٨٠٠) مليون دولار مساعدات عسكرية لشراء اسلحة متطورة ومتقدمة من الصناعات الحربية في الولايات المتحدة . بالاضافة الى مبلغ اخر يزيد عن (١٠٠٠) مليون في شكل مساعدات اقتصادية ونفطية واعانات اغذية ، وتوطين اليهود القادمين من الاتحاد السوفييتي (النهار ـ ١٩٧٥/٨/١٢) .

ولكي يتم ترتيب الامور المالية في الاتفاق الاميركي ـ الاسرائيلي الجديد ووضع جدول زمني لتسديد المبالغ التي ستسددها اسرائيل في المستقبل فقد غادر اسرائيل الى الولايات المتحدة وزير المالية الاسرائيلي ومما قاله قبل مغادرته « ان المساعدات الاقتصادية ستكون في الواقع اقل مما كانت عليه في العام الماضي وسينفق المبلغ المتبقي على النفقات الامنية » . (رأا ـ ١٩٧٥/٩/٣) . لهذا تنبأ للقطاع الاقتصادي في اسرائيل بسنوات عجاف قاسية بسبب اعباء الامن (رأا ـ ١٩٧٥/٩/٥). ويجيء كلام رئيس الوزراء الجنرال اسحق رابين في ١٩٧٥/٩/٦ مؤيدا لقول وزير المالية الاسرائيلية فيقول « ان المساعدات التي طلبناها من الولايات المتحدة تتضمن نسبة ٧٥٪ على الاقل مساعدات عسكرية لشراء اسلحة » ويضيف قائلا « المقصود ببساطة الحصول على المال من حكومة الولايات المتحدة كي تدفع الثمن للمصانع التي تنتج الطائرات والدبابات والمدافع والذخيرة والسيارات وكل انواع الاسلحة التي يحتاجها جيش الدفاع الاسرائيلي»

(رأا ــ ١٩٧٥/٩/٨) . كل هذا في سبيل سد احتياجات الجيش الاسرائيلي من السلاح في ضوء البرامج التي وضعت لاعادة تنظيمه وزيادة طاقة تشكيلاته النظامية والاحتياطية البشرية بنسبة ٥٠٪ ، وزيادة عدد وحدات المدفعية بنسبة كبيرة جدا .. ليصبح هذا الجيش قادرا على تخطي الصعاب في المستقبل وحتى تتمكن تشكيلاته النظامية من مواجهة تطورات الحرب منذ لحظة نشوب القتال الى ان يتم استدعاء الاحتياطي الاستراتيجي ودفعه الى ساحات القتال .

وفي ١٩٧٥/٩/٨ اوردت مجلة (نيوزويك) ان الاسرائيليين حصلوا كشرط مسبق لاستئناف كيسنجر مهمته الاخيرة في الشرق الاوسط على وعد بأن يتلقوا (٥٠) طائرة معترضة من (طراز ف ــ ١٥) ومئات الطائرات من طراز (ف ــ ١٦) في اوائل الثمانينات وحوالي الف قنبلة ذكية توجه باشعة لايزر . (المحرر ــ ١٩٧٥/٩/٩) .

وقد اوردت المجلة ذلك بعد ان تأكد لها من ان الولايات المتحدة قد ازالت القيود التي كانت تفرضها على توريد السلاح لاسرائيل .

وفي ١٩٧٥/٩/٩ قال ناطق بلسان وزارة الخارجية الاميركية ان المحادثات بين اسرائيل والولايات المتحدة جارية في واشنطن لوضع الترتيبات النهائية لاتفاق بيع اسرائيل طائرات (ف ــ ١٥ النسر) ومعدات حربية متطورة اخرى . واضاف المصدر ان طلبات اسرائيل الحصول على مساعدات عسكرية واقتصادية بقيمة (٢٣٠٠) مليون دولار ستخفض . (النهار ١٩٧٥/٩/١٠) .

وتعتبر المحادثات الجارية الان في واشنطن خاتمة المطاف بالنسبة لقضية المساعدات العسكرية الاميركية لاسرائيل والتي شغلت الرأي العام العربي والرأي العام في اسرائيل منذ فشل كيسنجر في تحقيق اتفاق سلام مؤقت في سيناء خلال جولته التي قام بها الى المنطقة وانتهت بالفشل في ١٩٧٥/٣/٢٢ . وتجيء هذه المحادثات في اعقاب التوقيع على اتفاق فصل القوات في سيناء في ١٩٧٥/٩/١ . ومن المتوقع ان يزور واشنطن شمعون بيريس في نهاية هذا الشهر للتوقيع على الاتفاق في شكله النهائي . (النهار ١٩٧٥/٩/١٤) .

غير ان اسرائيل تبدي قلقها من رفع اميركا القيود التي كانت تفرضها على بيع السلاح لها مخافة ان يؤدي ذلك الى تقديم كميات مقابلة الى الدول العربية بما فيها مصر . وهذه ستشمل طائرات فانتوم وسكايهوك الى كل من السعودية والكويت وصواريخ (هوك) المعدلة الى الاردن حيث يتوقع ان يحصل الاردن على (١٤) بطارية تحمل اكثر من ٥٠٠ صاروخ بعد ان ذكرت الانباء ان الدكتور كيسنجر قد بذل مساعيه للتغلب على العقبات التي تعترض بيع الاردن هذا العدد من الصواريخ .

الرائد الطيار حسين عويضة

III

خطوط الانسحاب الجديدة في سيناء تكفل لاسرائيل أستمرار السيطرة العسكرية على المنطقة

تضم اتفاقية التسوية الاسرائيلية ــ الاميركية ــ المصرية ملحقا عسكريا يحدد خطوط الانسحاب الاسرائيلية الجديدة في سيناء والمناطق التي سيدخلها الجيش المصري وتلك التي تسيطر عليها قوات الامم المتحدة . ويبدو انه كان للولايات المتحدة دور رئيسي في تحديد خطوط الانسحاب الجديدة ، اذ « كان لقادة وخبراء الجيش الاميركي تدخل مباشر في الاتصالات التي جرت حول تحديد خط الانسحاب الاسرائيلي من الممرات . وكان تأييدهم للخريطة العسكرية التي قدمها رئيس الاركان (الاسرائيلي) مردخاي غور ، احد العوامل التي اقنعت كيسنجر بقبول الخريطة الاسرائيلية » (معاريف ٧٥/٨/٢٤) .

الخط الاسرائيلي الجديد

يبدأ الخط الاسرائيلي الجديد في الشمال من

نقطه على ساحل البحر الابيض المتوسط ، تقع بين مستعمرة ناحال يام شرقا وبين رمانه غربا ، « وهنا سيكون الانسحاب الاسرائيلي الى الشرق بعمق ٣٨ كم » (خريطة ملحق هآرتس ، ٧٥/٨/٢٩) ، ثم يتجه الخط الى الجنوب قاطعا الطريق الساحلي العريش — رمانه ، مارا بين الكثبان الرمليــة المتحركة بخط مستقيم الى ان يقطع بالعرض الطريق بين بير جفجفة (رفيديم) وبين الطاسة ، ثم ينحرف غربا تاركا في يد القوات الاسرائيلية ، اي من الجهة الشرقية من الخط ، جبل محسه . ومن هناك يلتف باتجاه جنوبي شرقي ليمر في الثلث الاخير من ممر الجدي ويتجه غربا تاركا في الجهة الشرقية ، اي في يد القوات الاسرائيلية ، جبل الجدي ايضا . ثم يتجه الخط الاسرائيلي الجديد جنوبا مرورا بمرتفعات ممر المتلا ثم التلال الواقعة جنوب هـذا الممر ، مع انحراف تدريجي في الاتجاه الجنوبي الغربي ، الى ان يصل الى جبل راحه المقابـل للقوات المصرية في النقطة الجنوبية من الشريـط الذي كان حتى الان تحت سيطرة قوات الطوارىء الدولية . ثم ياخذ الخط الاسرائيلي بالاقتراب من ساحل خليج السويس مارا في رأس سدر ثم جبل حمام فرعون وابو زنيمة ويضيق جدا في منطقـة ابو رديس الى ان ينتهي في منطقة بلاعيم (المصدر نفسه) .

الخط المصري الجديد

يبدا الخط المصري الجديد في الشمال من نقطة على ساحل البحر الابيض المتوسط تقع غرب موقع بودابست ، اخر موقع في خط بارليف ، ويتجه جنوبا في خط يكاد يكون مستقيما قاطعا الطريـق الساحلي بين بالوظة والقنطرة ومارا بمنطقةمنبسطة جدا ، ثم يقطع الطريق بين الطاسة والاسماعيلية ويأخذ بالانحراف شرقا في المنطقة المواجهة لجبـل محسه . ومن هناك يقطع الخط المصري الجديـد الطريق المؤدية الى ممر الجدي ، فممر المتلا ثـم يأخذ بالانحراف تدريجيا نحو الجهة الغربية الـى ان ينتهي على ساحل خليج السويس ، في نقطـة مواجهة لجبل راحة . « والشريط الذي ستتقـدم عليه القوات المصرية هو ذلك الذي كانت تحتله قوات الطوارىء الدولية بموجب اتفاقية فصـل القوات لاولى ، والذي يبلغ عرضه من ٢ — ٧ كيلو مترات ، اي ان الخط المصري الجديد سيكون الخط نفسه التي كانت ترابط عليه قوات الطوارىء الدولية من الجانب الغربي والقوات الاسرائيلية من الجانب الشرقي » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

وبموجب الاتفاق وافقت اسرائيل ايضا علـى « تقدم القوات المصرية المخففة لتحتـل شريطا ضيقا يتراوح عرضه من كيلومترين الى بضـع مئات من الامتار في اتجاه عيون موسى على ساحل خليج السويس . وهذا الشريط هو المنطقة الوحيدة التي لن تأخذها القوات المصرية من قوات الامـم المتحدة بل من القوات الاسرائيلية » (المصـدر نفسه) .

المنطقـة العازلـة

تقع المنطقـة العازلة بين الخط الاسرائيلي شرقا وبين الخط المصري الجديد غربا ، وهي عبارة عن « شريط يبلغ عرضه من ٣٠ — ٤٠ كيلومترا تقريبا ، يمتد من ساحل البحر المتوسط شمالا حتى راس سدر جنوبا . وسيكون هذا الشريط تحت سيطرة القوات الدولية » (خريطة بلحق هآرتس ، ٨/٢٩/ ٧٥) . « اما الشريط الساحلي من رأس سدر الى منطقة بلاعيم على ساحل خليج السويس فسيكون تحت سيطرة ادارة مدنية مصرية ، بينما يحـق للدوريات الاسرائيلية المرور والتفتيش على طول الطريق الساحلي من رأس سدز بلاعيم مرورا بمنطقة ابو زنيمة وحقول النفط في ابو رديس ، اضافة الى وجود جيب لقوات الطوارىء الدولية . وهذا الجيب يقع على قمة جبل حمام فرعون على ساحل خليج السويس » (دافار ، ٧٥/٨/٢٨) .

القيمة العسكرية للخطوط الجديدة

رغم انسحابها حصلت اسرائيل على مميزات كثيرة ذات قيمة عسكرية كبيرة . « ويقدر اللواء مردخاي غور رئيس الاركان ان المواقع ونقاط التمركـز الاسرائيلية على الخط الجديد تبقى ، من الناحية العسكرية الصرفة ، كل الخيارات العسكرية مفتوحة امام اسرائيل ... وان الخطوط لجديدة تمكننا من الدفاع الجيد ، ويمكن ان تكون نقطة عسكرية جيدة لشن هجوم » (هآرتس ، ٧٥/٩/٢) .

وتحدث وزير الدفاع الأسرائيلي شمعون بيريس عن التسوية وقيمتها العسكرية ، معلنا : « انني واثق اننا لم نلحق ، اي ضرر بمبدأ الدفاع عـن اسرائيل ، حيث اننا لم ننسحب من الممرات بل من الطرق الواقعة داخل هذه الممرات وبقيت قواتنا على قمم لتلال والجبال . ان هذه الخطوط والمواقع

التي ستنسحب اليها بعد تنفيذ الاتفاق درست سلفا ولم تأت خلال عملية المفاوضات » (المصدر نفسه).

وظهر ايضا ان الجيش الاسرائيلي عندما كان متمركزا على الضفة الشرقية لقناة السويس كان يحتفظ بقواته الاساسية في المواقع نفسها التي تركتها التسوية الجديدة تحت سيطرته . « لقد بقيت في يد القوات الاسرائيلية قمم وتلال لها قيمة عسكرية من الدرجة الاولى . فقمة جبل محسه ، مثلا ، بقيت في يد القوات الاسرائيلية ، وهي تمكن هذه القوات من المراقبة والدفاع في الاتجاهين الغربي والشرقي . لقد تخلت اسرائيل عن القسم الاكبر من الممرات لقوات الامم المتحدة ولكنها بقيت على عدد من القمم والسفوح التي تسيطر سيطرة تامة على الحركة في الممرات ، ويبلغ ارتفاعه ٩٥٠م عن سطح البحر ، ويسيطر هذا الجبل على النصف الشرقي من الممرات في الاتجاهين الشرقي والغربي ويمكن من هذه القمة مراقبة ا تحرك مصري في المناطق القديمة والجديدة شرقي القناة ، اضافة الى مراقبة منطقة العزل الجديدة ... ويمكن للمدفعية الاسرائيلية والصواريخ ارض — ارض ان تضرب من هذا الموقع مواقع ومنشآت الجيش المصري على القناة » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

« اما في منطقة ممر المتلا فقد بقيت قمة جبل راحه بيد القوات الاسرائيلية ، جزء منها في اطار القوات الاسرائيلية المخفضة والآخر دون تحديد لهذه القوات . ويرتفع جبل راحه عن سطح البحر ٧٨٠ مترا ، ومنه يمكن السيطرة عسكريا على الجانب الجنوبي من المتلا وعلى المداخل الغربية لهذا الممر حتى ساحل خليج السويس .... وذلك بالاضافة الى ان هذا الجبل يشرف على الممر الثالث ممر الجدي (رأس سدر) الذي بقي كاملا في يد القوات الاسرائيلية ويمكنها منه الالتفاف وتطويق ممري الجدي والمتلا ... وكانت القوات الاسرائيلية قد شقت طريقا عسكريا في هذا الممر يمكنها من الوصول الى المنطقة الشمالية والشرقية والى ساحل خليج السويس في حالة نشوب حرب جديدة» (المصدر نفسه) . « ان القوات الاسرائيلية المتمركزة في ممر الجدي وعلى الداخل الشرقية لممري الجدي والمتلا وعلى قمة جبل محسه وجبل راحه يمكنها ، في حالة حرب ، الوصول بسرعة الى المناطق المجاورة للخط المصري والى القطاعات التي يمكن عن طريقها السيطرة على المدخل الجنوبي لقناة السويس ، ومن ثم على مدينة السويس نفسها ... وفي منطقة المتلا سيبقى المدخل الشرقي للممر في يد القوات الاسرائيلية ، وهذا المدخل عبارة عن ثلاث تلال تشكل مواقع اسرائيلية قوية » (المصدر نفسه) .

وبنظرة شمولية يتضح ان تمركز القوات الاسرائيلية في هذه المواقع ، وفقا للاتفاقية الجديدة ، لم يفقدها اية مواقع استراتيجية من شأنها ان تؤثر على سير المعارك في حالة نشوب حرب جديدة .

ويؤكد الخبراء العسكريون ان وجود الممر الثالث ممر الجدي ، بيد القوات الاسرائيلية مع قمة جبل راحه وسيطرتها على سلسلة جبال ام خشيبة من الجانب الشمالي للممرات يمكن اسرائيل من السيطرة الفعالة على المنطقة الغربية والشرقية للممرات ، اضافة لامكانية الالتفاف في المناطق العازلة في القطاعين الاوسط والجنوبي والوصول الى خليج السويس دون المرور في الممرات . ففي اذار ١٩٧٤ اشار العميد اريئيل شارون مستشار رئيس الحكومة ... الى اهمية سلسلة جبال راحه، وقال في حينه انه بامكاننا من هذا الجبل السيطرة على المناطق الشرقية والغربية لوسط سيناء . واشار ايضا لاهمية الممر الثالث الذي يمكن من خلاله الوصول الى تقاطع فاروق ثم الى سواحل خليج السويس (معاريف ، ٧٥/٨/٢٤) .

وعلى الرغم من ان الخط الاسرائيلي الجديد يمر شرقي جبل ام خشيبه حيث توجد اكبر محطة انذار ومراقبة لاسرائيل ، اي ان ام خشيبة ستكون ضمن المنطقة التابعة لقوات الامم المتحدة ، تسمح بنود الاتفاقية للقوات الاسرائيلية بمواصلة استعمال محطة المراقبة والانذار وتسمح ايضا بمرور الاسرائيليين الى هذه المحطة تحت رقابة الفنيين الاميركيين .

« التنازلات » الاسرائيلية

قدمت اسرائيل في هذه التسوية عدة « تنازلات » لا يمكن ان نعتبرها عسكريا في صالح المصريين ، ورغم هذا يصر الاسرائيليون على انها تنازلات سخية . « ففي اطار هذه التسوية تخلت اسرائيل عن موقع بودابست على بعد ٢٠ كيلومترا جنوبي شرق بور فؤاد » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) . وكان موقع بودابست احد المواقع النادرة التي لم تسقط

خلال حرب تشرين . وترى اسرائيل في انسحابها من هذا الموقع تنازلا ، رغم انه سيكون في المنطقة العازلة وتحت سيطرة قوات الطوارىء الدولية ، لا بيد القوات المصرية .

كما تعتبر اسرائيل انسحابها من معسكر بالوظه وتسليمه للقوات الدولية في منطقة العزل تنازلا اخر . « ان لمعسكر بالوظه اهمية عسكرية. فهذا المعسكر يقع على الطريق الساحلي الذي يربط العريش بالقنطرة ، ومن تلال بالوظه يمكن السيطرة على المحور الرئيسي في شمال سيناء ، وعلى المساحات الرملية الممتدة غربا . اضافة الى ذلك كان معسكر بالوظه يحتوي على مراكز القيادات الامامية ومنشآت عسكرية هامة ... اما الموقع الثالث الذي ستتخلى عنه القوات الاسرائيلية فهو موقع الطاسه ، ولهذا المعسكر اهمية عسكرية كتلك التي لبالوظه . وتقع الطاسه على بعد ٢٥ كيلومترا من قناة السويس وهي تسيطر على المساحات الواقعة غربا وعلى المحور الرئيسي في القطاع الاوسط — طريق بير جفجفة — الاسماعيلية » (المصدر نفسه) .

وهناك تنازل اخر ، من وجهة نظر الاسرائيليين، وهو مطار رفيديم (بير جفجفة) ، « الذي يعتبر ، الى جانب كونه مطارا حربيا ، معسكرا للشؤون الادارية للقوات الاسرائيلية . وسيصبح بعد تنفيذ الاتفاقية الجديدة على بعد ٣٤ كيلومترا من الحدود المصرية الجديدة ، اي في مرمى المدفعية المصرية الثقيلة ، هذا اذا سمح لمثل هذه المدفعية بان تتمركز شرق القناة ، ومعنى هذا انه فقد قيمته الاستراتيجية . واضافة الى ذلك فان المساحة الواقعة غرب رفيديم مساحة رملية منبسطة تمكن من حركة سريعة ومريحة للقوات المدرعة ، ولذا سيضطر الجيش الاسرائيلي الى الاحتفاظ بقوات مدرعة في رفيديم » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

ابدى الاسرائيليون خشيتهم من تخلي القوات الاسرائيلية عن منطقة عيون موسى على خليج السويس وتسليمها للقوات المصرية المخفضة ، التي لن تزيد بموجب الإتفاق الجديد عن ٧٠٠٠ جندي و ٧٠ دبابة ، وزعموا ان هذا التخلي يشكل سابقة تضر بمبدأ « سيناء منزوعة السلاح » . ورد شمعون بيريس وزير الدفاع على هذا الادعاء بقوله : « ان هذا الاتفاق لا يشكل سابقة من شأنها ان تلحق الضرر بمبدأ المناطق المنزوعة السلاح ، وسنصر في المستقبل على ان تصبح كل منطقة نخليها منطقة منزوعة السلاح » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/٢٧) .

واشارت مصادر رسمية اخرى في القدس الى « ان هذا التنازل ليس تنازلاً رئيسيا وليست له اية قيمة ، ولم يأت الا في اطار المفاوضات على قمة راحه ، ذات الاهمية العسكرية الكبيرة ، التي لا يمكن مقارنتها بالاهمية العسكرية لذلك الشريط الرملي الضيق في عيون موسى » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

الشريط الساحلي الجنوبي

في القطاع الجنوبي ، الذي يبدأ من عيون موسى وينتهي في الجنوب في منطقة بلاعيم ، والواقع بمحاذاة خليج السويس ، « لا يسمح للمصريين بالاحتفاظ بقوات عسكرية . وسيكون (القطاع) تحت سيطرة ادارة مصرية مدنية ، اضافة الى جيوب لقوات الامم المتحدة على قمة جبل حمام فرعون .. وهناك محورين متوازيين في الجزء الشمالي من هذا الشريط ، وستستعمل القوات الاسرائيلية المحور الشرقي ، والمدنيون المصريون المحور الغربي . وبالقرب من جبل حمام فرعون يتحد المحوران . وسيكون هذا المحور ، على امتداد ٧٠ كيلومترا في اتجاه الجنوب ، خاضعا في ساعات محددة لاستعمال القوات الاسرائيلية وفي ساعات اخرى لاستعمال المدنيين المصريين ، العاملين في حقول نفط ابو رديس » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

ورغم انه ، بحسب رأي البعض ، ليست هناك اية قيمة عسكرية للمواقع التي حصل المصريون عليها ، يخشى الاسرائيليون « ان يحاول المصريون ، في حالة حرب ، تحويل هذا الشريط الى رأس جسر لقواتهم . الا ان الخبراء العسكريين يعتقدون ان هذا الشريط لا يصلح ليكون رأس جسر ، وحتى في حالة انزال يمكن صد وسحق هذه القوات » (المصدر نفسه) .

التواجد الاميركي ومحطات الانذار

تقرر ، بموجب الاتفاقية الاسرائيلية — المصرية ، اقامة اربع محطات انذار ومراقبة يديرها فنيون

اميركيون . وستقام محطات الانذار في المواقــــع التالية :

« محطة انذار يديرها اميركيون فقط ، جنوب أم خشيبه ، على المحور المؤدي الى ممر الجدي في المنطقة العازلة . محطة انذار ثانية تقع جنوب الاولى على محور ممر المتلا ايضا في المنطقة العازلة بادارة اميركية فقط ... محطة انذار ثالثة يشغلها اميركيون واسرائيليون مما تقع على السفح الجنوبي لمر الجدي ، وفي الثلث الغربي الاول للممر ... محطة انذار رابعة يديرها اميركيون واسرائيليون على السفح الجنوبي ، في منتصف ممر المتلا ... وهذا اضافة الى محطة الانذار الاسرائيلية في أم خشيبه » (ملحق هآرتس ، ٧٥/٨/٢٩) .

مهام الفنيين الاميركيين

بناء على بنود الاتفاقية « يكلف الاميركيون بمراقبة الداخلين والخارجين الى جميع محطات الانذار ، كما سيقوم الفريق الأميركي بدوريات في الطـرق المؤدية الى هذه المحطات في الجانب المصري ... ولم تحدد فترة مكوث الفنيين » (يديعوت احرونوت ٧٥/٨/٢٧) .

وعلق وزير الدفاع شمعون بيريس على تواجـد الفريق الاميركي بقوله : « ان وضع الفنيـين الاميركيين في الممرات قد يحول دون نشوب حرب اخرى ، وسيكون هذا تدخلا اميركيا ، لكنه في خدمة سلامنا ، وليس للدفاع عنا ، ولو كان في عـــام ١٩٥٧ محطة انذار اميركية في شرم الشيخ لما عاد المصريون الى مضائق تيران » (يديعوت احرونوت ، ٧٥/٨/٢٧)

واشار بيريس ايضا الى « ان التواجد الاميركي يعطي مصر حجة جيدة لكي لا تتجه نحو الحرب ، وهذا اعتبار جديد ضمن الاعتبارات المصرية ولــه وزن كبير ، لان المصريين سيزعمون انهم لن يقبلوا بمحاربة اميركا . اضافة لهذا فان هذا التواجـد الاميركي سيعطينا فرصة للتمركز والاستعـــداد الجيد في سيناء » (معاريف ، ٧٥/٨/٢٩) .

ولكن ، من ناحية ثانية ، اعلن البعض انــه « يجب ان يكون واضحا بان التواجد الاميركي في محطات الانذار هو تواجد مشروط . واذا كانت مصر هي صاحبة السيادة المطلقة فانها تستطيـع امرهم بالخروج . ولكن اذا حدث هذا فان للامر دلالة عسكرية كبيرة وهو بمثابة انذار مبكر جـدا بحرب قادمة ، لذا سيفكر قادة مصر سبع مرات قبل اقدامهم على خطوة كهذه ... ان الفارق بين فنيين وعسكريين دقيق جدا . والجدير بالذكـــر ان التدخل الاميركي في فيتنام بدأ بمجموعة مــن الفنيين ايضا . لذا فان التواجد الاميركي سيرسخ الهدوء الذي تحتاجه اسرائيل » (هآرتس ، ٧٥/٨/٢٢) .

تعليقات على التسوية

اجمعت التعليقات الرسمية وشبه الرسميـــــة والشعبية على ان التسوية الجديدة في صالـــح اسرائيل عسكريا . وعلق رئيس الاركان مردخاي غور على هذه الناحية بقوله : « ان الوضـع العسكري الذي سيخلق على الخط الجديد في سيناء سيكسبنا ميزات عسكرية ، على العكس مــن الجيش المصري ، وبعد تنفيذ الاتفاق ، سيكون الجيشان بعيدين كل واحد عن الاخر . وهـــذا الوضع يعطينا ميزة عسكرية خاصة . أن الجيش الاسرائيلي يفضل القتال المتحرك ، وهـــذه نقطة ضعف لدى الجيش المصري ، لانالمصريين اذا ارادوا شن حرب اخرى عليهم لن يخرجوا مــن تحت مظلة الصواريخ والمدفعية بالقرب من القناة ومن ثم الدخول في مشاكل تكتيكية لم يواجهوها في الماضي . اما بالنسبة للمنطقة العازلة ... فاننا اقرب اليها من المصريين » (دافار ، ٨٥/٨/٢١).

وعلق رابين ، رئيس حكومة اسرائيل، على الخط الاسرائيلي الجديد بقوله : « في رأيي ان الخـط الاسرائيلي الجديد ليس افضل من الخط الحالي ، لكن في هذا الخط امكانيات دفاعية وهجومية جيدة . ان الخط الجديد طويل حقا ، لكن طبيعته الجغرافية لا تدعونا لزيادة حجم قواتنا ، ومن الناحيــــة العسكرية بقينا في الممرات ليس باقل من تواجدنـــا فيها في الماضي » (يديعوت احرونوت ، ٨/٢٨/ ٧٥) .

واعلن شمعون بيريس « ان مصر وافقت علـى توزيع جغرافي له ميزات مدنية بالنسبة لها وليس له اي قيمة عسكرية ، وحتى التواجد المصري بين خليج السويس وبين مواقع القوات الاسرائيليـة يعتبر تواجدا مدنيا بحتا . ففي الطريق الى ابـو رديس ، هناك استعمال مشترك لنا وللمصريين . اضافة الى هذا بدلت مصر مطالبها للحصول علـى الممرات ، ووافقت على تواجد اميركي هناك غـير

مرتبط بقوات الطوارىء الدولية ، وهؤلاء يشرفون على محطات الانذار الاسرائيلية والمصرية . وهذا نوع من الاتصال المباشر والخاص من نوعـــه » (هآرتس ، ٧٥/٨/٢٨) .

اما عن التسوية عسكريا فقد قال الخبـــراء العسكريون الاميركيون « ان الانسحاب الاسرائيلي في اطار التسوية الجزئية لن يلحق اضرارا بالوضع التكتيكي والاستراتيجي لاسرائيل على الحدود المصرية ... وذكر احد كبار الموظفين الاسرائيليين فـي واشنطن ان خط الانسحاب المقترح سيمكن اسرائيل من السيطرة على الممرات في الشمال والجنوب اضافة الى سيطرتها على المناطق الواقعة شرق الممرات » (دافار ، ٧٥/٨/٢٤) .

ومن الجدير بالذكر ، من ناحية ثانية، ان خطوط الانسحاب الجديدة لا تسمح للاسرائيليين ، بحسب تقديراتهم العسكرية ، بتخفيض قوات الاحتيـــاط الموجودة في المنطقة او في المناطق المحتلة الأخرى . ويؤثر استمرار تجنيد هذه القوات بشكل واضح على اوضـاع اسرائيل الاجتماعية والاقتصادية .

مكرم يونس

IV

المحاولات الاسرائيلية للحفاظ على التوازن العسكري في السبعينات والثمانينات

من الظواهر المألوفة التي نقرأ ونسمع عنها هذه الايام مواصلـة المؤسسـة العسكريـة الاسرائيلية جهودهـا لتحديـث وتطوير أسلحتهـا ومعداتها وتجهيزاتها الحربية بقصد ادخال المزيد مـن هذه الاسلحة المتطورة والمتقدمة في ترسانتها الحربيـة للافادة منها اطول مدة ممكنة من أجل المحافظـة على ميزان القوى في المنطقة من جهة ولزيادة قدرتها القتالية من الجهة الاخرى .

منذ توقف القتال في حرب رمضان ، تكشفـت لاسرائيل حقـائق عسكرية مذهلـة ، أولها ان الضرورات اجبرتها للاسراع وعمل كل ما من شأنه من اجل تعديل ميزان القوى في المنطقة الـذي بدأ يميل لصالح العرب بشكل خطير في اعقاب المعارك التي دارت في الحرب ، وذلك عن طريق المحافظة على تفوقها النوعي والتقني . لذلك اتجهت الـى الولايات المتحدة ، المصدر الوحيد الـذي بامكانه مساعدتها على بلوغ هـذه المستويات . فكان ان اوصت من الولايات المتحدة على اعداد كبـيرة من الطائرات والدبابات والصواريخ الموجهـة علـى اختلافها ، والمدافع بعيدة المدى .

ومن الاسلحة الجديدة التي طلبتهـا اسرائيل لمواجهة تطورات الصراع المسلح ومتطلبات المعركة المقبلة صواريخ موجهة أرض — أرض ذات قدرة تكتيكية مـن نوع « لانس » وأخرى ذات قـدرة استراتيجية نوع « بيرشنغ » . فقد سبق للولايات المتحدة ان وافقت في ١٩٧٥/١/٢٤ علـى تزويد اسرائيل بصواريخ تكتيكية موجهة أرض — أرض نوع « لانس » تضاربت الابنـاء حـول عددها الحقيقي ، الا أن هذه المصادر ذكرت ان العـدد سيتراوح بين ١١٠ — ٢٠٠ صاروخ . (النهار ، ١٩٧٥/١/٢٥ ور.١.١٠. — ١٩٧٥/٢/١٦) . وفي ١٩٧٥/٩/١٦ ذكرت صحيفـة « الواشنطن بوست » ان الولايـات المتحدة ستقدم لاسرائيل صواريخ موجهة أرض — أرض يبلـغ مداهـا (٨٠٠) كلم تستخدم في مساعدة القوات البرية ، وضرب أهداف استراتيجية معادية (ر.١.١٠. — ٩١٦ — ١٩٧٥/٩/١٧) .

ما هي المعلومات التقنية المتوفرة عن الصاروخين المذكورين ؟

ان صاروخ « لانس » هو من انتاج اميركي وهو صاروخ موجه أرض — أرض ذا مدى تكتيكي يبلغ (١١٠) كلم ، تستخدمه الوحدات الاميركية العاملة في أوروبه الغربية . ولما كان مداه محدودا فانه يستخدم ضد الاهداف العسكرية التكتيكية التي تقع ضمن نطاق الجبهة . ان « لانس » ذو قابلية كبيرة على الحركة ويستخدم من قبل فريق مكون من ستة أفراد ويمكن قطره بواسطة آلية عبر المستنقعات والاراضي الوعرة . كما يمكن تثبيته على ظهر آلية مجنزرة تبلغ سرعتها في الاراضي الوعرة (٤٠) ميلا / الساعة ، في حين تبلغ سرعتها على المـاء

(٣) أميال / الساعة . كما ان التجارب دلت انه بالامكان نقله جوا بواسطة طائرات الهليكوبتر المتوسطة الحجم ، وهذا يعطيه قدرة أكبر على الحركة والمناورة ، وهو عامل مهم جدا في العمليات الحربية .

انتج « لانس » لأول مرة في عام ١٩٦٥ وجرت التجارب عليه في أوضاع مختلفة ، كما أجريت التجارب عليه في أجواء بلغت درجة الحرارة فيها حتى ١٤٠ درجة مئوية وفي اجواء تدنت درجة البرودة فيها حتى ٤٠ درجة مئوية . وفي شهر نيسان ١٩٧١ أدخل « لانس » في خدمة القوات الامريكية . وقد حل هذا الصاروخ بدل الصاروخين الموجهين التكتيكيين الامريكيين أرض — أرض « أونست جون » و« سارجينت » كما يؤمل ان يحل مكان هذين الصاروخين المستخدمين في الوحدات التابعة للدول الاعضاء في حلف شمال الاطلسي . ان صاروخ « لانس » بامكانه حمل راس متفجر عادي ورأس نووي . وكشف النقاب في عام ١٩٧٢ ان الجيش الامريكي يدرس امكانية انتاج نموذج من « لانس » متعدد الرؤوس الحربية . ان طول الصاروخ يبلغ (٦) أمتار وقطره (٥٥) سم. أما وزنه عند الاطلاق فيبلغ تقريبا (١٥٠٠) كلغ ، كما أن سرعته تبلغ اكثر من سرعة الصوت ، على حين يعرف الصاروخ في أوساط الجيش الامريكي باسم (م.جي.م — ٥٢ أ) .

أما الصاروخ الآخر فيوجد منه نموذجان (بيرشينغ ١) و (بيرشينغ أ ١) ، وهو من انتاج شركة « مارتن مارشيا » الامريكية المختصة بانتاج الاجهزة الالكترونية الدقيقة والصواريخ الموجهة . لقد بوشر بانتاج الصاروخ في عام ١٩٥٨ وأجريت أول تجربة على اطلاقه في كاب كنيدي في ولاية فلوريدا في عام ١٩٦٠ ، وأدخل الخدمة لأول مرة مع الجيش الامريكي في عام ١٩٦٢ . وفي عام ١٩٦٤ ادخل في خدمة القوات الامريكية العاملة في أوروبا الغربية وفي عام ١٩٦٧ أوقف انتاج النموذج الاول ليبدأ انتاج النموذج المعدل (بيرشينغ أ ١) . وقد بدأت الشركة وضع التصاميم لانتاج النموذج الجديد في عام ١٩٦٦ وفي عام ١٩٦٧ أتمت الشركة انتاج الصاروخ . وفي عام ١٩٦٩ أدخل الصاروخ في خدمة القوات الامريكية وقوات حلف شمال الاطلسي في أوروبا الغربية .

ان صاروخ (بيرشينغ أ ١) قادر على حمل راس حربي تقليدي او رأس نووي قوته (٥٠٠) كيلو طن . اما طوله فيبلغ (١٠،٥) متر وقطره متر واحد ، على حين يبلغ وزنه عند الاطلاق (٤٦٠٠) كلغ . ومن جهة اخرى تبلغ سرعته اقل من سرعة الصوت اذ تبلغ (٠،٨) ماك ومداه يتراوح ما بين ١٦٠ — ٧٤٠ كلم .

لقد سعت اسرائيل للحصول على صواريخ موجهة أرض — أرض ذات مدى استراتيجي وتكتيكي لسببين ، **الاول** ، ردا على تزويد الاتحاد السوفياتي الجيوش العربية بصواريخ موجهة أرض — أرض نوع (فروغ — ٤) و (فروغ — ٧) التي يتراوح مداها بين ٥٠ — ٧٥) كلم و (سكود) الذي يتراوح مداه بين (١٦٠ — ٢٨٠) كلم للمحافظة على التوازن في المنطقة . والثاني يتعلق بدروس وعبر الحرب بعد أن لمست القيادة العسكرية العليا في اسرائيل الصعوبات التي جابهتها في الحرب الاخيرة اثناء المحاولات المتكررة التي بذلها سلاح الطيران الاسرائيلي للوصول الى الاهداف الحيوية في داخل جبهتي القتال المصرية والسورية والنتائج الخطيرة التي نجمت عن ذلك وجعلت الجيش الاسرائيلي عاجزا عن توجيه ضربات قاتلة للاهداف الحيوية في الجبهتين ، يضاف الى ذلك ان الحد من فعالية هجمات الطيران الاسرائيلي أثر على دور القوات الاسرائيلية في صد الهجوم المصري والسوري الكاسح في سيناء والجولان في مراحل القتال الاولى .

وقد تمت ترتيبات حصول اسرائيل على هذه الصواريخ في الزيارة التي قام بها وزير الدفاع الاسرائيلي « شمعون بيريس » الى الولايات المتحدة في أيلول ١٩٧٥ حيث أجرى مباحثات تعلقت بطلبات الاسلحة الاسرائيلية . (ر.١٠.أ — ٢٩/٩/١٩٧٥) .

الا ان اسرائيل على ما يبدو لم تكتف بهذا الصاروخ الذي يصل مداه الى (١١٠) كلم ، وذلك بسبب امتلاك كل من مصر وسوريا لصاروخ سكود الذي يصل مداه الى (٢٨٠) كلم وهو مدى يغطي كافة الاراضي الاسرائيلية . لذلك اتجهت اسرائيل الى الولايات المتحدة مطالبة بالحصول على صاروخ يغطي في مداه عواصم دول المواجهة

العربية الشملاث ويصل الى اعماق أراضي هـذه الدول . وكان بيريس قد ركز على هـذه النقطة في مقابلة اجرتها معه مجلة « تايم » الاميركية في أواخر شهر ايلول الفائت بقوله « ان بلاده تريد الحصول على صواريخ « بيرشينغ » من اجل اقامة توازن صواريخ في الشرق الاوسط يؤدي الى تفادي نشوب نزاع مسلح جديد » . وذكر ايضا « ان صواريخ « بيرشينغ » تعتبر احد العناصر الاساسية في سياسة الاقناع التي تنتهجها اسرائيل تجاه الدول العربية » (النهار — ١٩٧٥/٩/٣٠) . ومـن ناحية ثانيـة وعلى اثر انتشار الانبـاء المتعلقـة بنية الولايات المتحدة تزويد اسرائيل بصواريخ ذات مدى استراتيجي قادرة على حمل رؤوس نووية ، فقد ازدادت المخاوف مـن اقدام اسرائيل علـى تجهيزها برأس نووي . لكن بيريس سبق له وصرح في ١٩٧٥/٩/١٨ « انـه في حال تزويد الولايات المتحدة لاسرائيل بصواريخ قادرة على حمل رؤوس نووية ، فان اسرائيل ستعطي ضمانات بعدم تجهيز تلك الصواريخ بمثل هذه الرؤوس » . وأضاف قائلا « اذا أردتم منا أن نعطي مثل هذه الضمانات فاننا مستعدون لذلك » . وقال بأن اسرائيل تقدمت بطلبها الى الولايات المتحدة لانه أصبـح واضحا للجميع أن العرب يملكون صواريخ سوفياتية قصيرة ومتوسطة المدى » (النهار — ١٩٧٥/٩/١٩) .

وكان الخبراء الاميركيون في البنتاغون في واشنطن قد ذكروا انهم يعتقدون ان صواريخ « بيرشينغ » ستكون بمثابة دعم نفسي وسياسي لاسرائيل فقط الا اذا قررت تجهيزها برؤوس نووية تبلغ طاقتها حوالـي (٥٠٠) كيلو طن (المحرر — ١٩٧٥/٩/٢٦) . هذا وكان قد ذكر في واشنطن ان ثمن الصاروخ الواحد يبلغ ١٤٤ مليون دولار . (المصدر نفسه) . ويقول هؤلاء الخبراء ان اسرائيل قـد تستخدم صواريخ « بيرشينغ » في قصف الاهداف الحيوية العسكرية والاقتصادية العربية وربما المدن العربية الآهلة بالسكان ، اذا ما هاجمتها الجيوش العربية وذلك في محاولة منها لوقف الحرب قبـل بلوغها مرحلة ميؤوسا منها بالنسبة لها .

وكانت آخر الانباء التي تواترت حول الموضوع تصريح لوزير الخارجية الكويتي الذي صرح فيـه « ان حكومته أعلمت رسميا ان الادارة الاميركية قررت عـدم تزويد اسرائيل بصواريخ بيرشينغ متوسطة المدى والقادرة على حمل رؤوس نووية ». وأضاف قائلا « ان السفير الاميركي في الكويت نقل الى قرار حكومته رفض بيع اسرائيل مثـل هذه الصواريخ » . (النهار — ١٩٧٥/٩/٢٠) . وفي واشنطن جـاء تأكيد مشابه فقد ذكرت مجلـة « نيوزويك » الاميركية بتاريخ ١٩٧٥/٩/٢٩ « انه من المحتمل ان تستثني الولايات المتحدة صواريخ « بيرشينغ » من صفقة الاسلحة مع اسرائيل » . وزادت الى ذلك بقولها « ان الحكومة الاميركية قد لا تزود اسرائيل بهذه الصواريخ » (المصدر نفسه) ، لكن مصدرا أميركيا في وزارة الخارجية الاميركية لم يكشف اسمه قـال « ان عرض صفقة صواريخ « بيرشينغ » سيظل قائما من حيث المبدأ ولكن هناك معارضة شديدة من الكونغرس ووزارة الدفـاع للصفقة » (المصدر نفسـه) . ويبدو ان الدكتور كيسنجر على الرغم من الاحتجاجات العنيفـة التي صدرت من مصادر عربية ضد تزويد اسرائيل بهذه الصواريخ والقلـق الذي ساور بعـض الاوساط الاوروبية الغربية من الاقدام على مثل هذه الخطوة والمعارضة الشديدة التـي أبدتها أوساط وزارة الدفاع الاميركية والكونغرس الاميركي لا زال مصرا على الاحتفاظ بورقة صفقة « بيرشينغ » وسيلـة من وسائل شد الحبل الذي يستخدمه للضغط على أطراف النزاع في المنطقة لتخويف العرب من جهة واشعار الاسرائيليين بشكل غير مباشر أن مصدر قوتهم هو واشنطن وانها — أي واشنطن — هـي التي تملك زمام الموقف وليس تل أبيب .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية من ٨/١٦ — ١٩٧٥/١٠/٣١

الرقم	تاريخ العملية: اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	جريح	مفقود	المصدر: البلاغ العسكري	تاريخه
١	٨/١٥	٢٢,٠٠	زرعيت	كمين	تذائف صاروخية ورشاشات	غير محدد		تدمير آلية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٥٥	٨/١٦
٢	٨/١٦	٢٣,٠٠	هرتسليا	كمين	الغام	غير محدد		تدمير تقاطع سكة الحديد وتدهور عدد من العربات وايقاف الحركة على خط سكة الحديد وقتل وجرح عدد كبير من الجنود	—	—	—	٧٥/٢٥٦	٨/١٧
٣	٨/١٧	١٦,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	مقتل خبير المتفجرات اثناء تفكيك العبوة واصابة مبنى وزارة التربية والتعليم بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٥٧	٨/١٨
٤	٨/١٧	١٧,١٥	رام‌الله	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء كبير من مبنى البنك الصهيوني واعطاب معظم محتوياته	—	—	—	٧٥/٢٥٨	٨/١٨
٥	٨/١٧	١٨,٠٠	البيرة	تفجير	عبوة ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة على مدخل سوق الخضار	—	—	—	٧٥/٢٥٩	٨/١٨
٦	٨/١٧	٦,٠٠	بناطين/بئر السبع(١)	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير شاحنة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٦٠	٨/١٨

٧ — ٨/١٨	٢,٣٠	بين صلحا — ازريم	كمين	تذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد		تدمير آلية واعطاب اخرى	—	١	—	٧٥/٢٦١	٨/١٩
٨ — ٨/١٨	٢٢,٠٠	شتولا	هجوم	تذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد		قتل وجرح جميع افراد كمين للعدو	—	—	—	٧٥/٢٦١	٨/١٩
٩ — ٨/١٨	٢٢,٠٠	معسكر الرمثا	هجوم	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير مهجع للعدو وقتل جميع من فيه	—	—	—	٧٥/٢٦١	٨/١٩
١٠ — ٨/١٨	٢٣,٠٠	بركة ريشه	اشتباك	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير آلية للعدو	—	—	—	٧٥/٢٦١	٨/١٩
١١ — ٨/١٩	٢٠,٠٠	الرملة	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اصابة مبنى سكني لضباط العدو بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٦٢	٨/٢٠
١٢ — ٨/٢٠	١٤,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء كبير من مكتب لمخابرات العدو واتلاف محتوياته	—	—	—	٧٥/٢٦٣	٨/٢٠
١٣ — ٨/٢٢	١,١٥	طبريا	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة بعض المنشآت في المدينة	—	—	—	٧٥/٢٦٤	٨/٢٢
١٤ — ٨/٢٢	٠,٣٠	سمخ	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة بعض الاماكن العسكرية والحيوية في المدينة	—	—	—	٧٥/٢٦٥	٨/٢٣
١٥ — ٨/٢٦	٨,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير الكابل الرئيسي للهاتف	—	—	—	٧٥/٢٦٦	٨/٢٦
١٦ — ٨/١٩	١٠,٠٠	اسدود(٢)	تفجير	عبوات حارقة	—	—	تدمير المجمع الكهربائي في مصافي تكرير البترول واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٢٦٧	٨/٢٦
١٧ — ٨/٢٢	١٥,١٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة في احد باصات شركة ايجد وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٦٨	٨/٢٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
١٨ —	٨/٢٦	١٦,١٥	رام‌الله	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تدمير سيارة احد رجال المخابرات واصابة عدد من السيارات الاخرى بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٦٩	٨/٢٧
١٩ —	٨/٢٩	٢٤,٠٠	تربيخا	اشتباك وهجوم	اسلحة صاروخية ورشاشة	غير محدد		تمكنت المجموعة اثر اقتحام المستوطنة من ايقاع عدد كبير من الاصابات في صفوف العدو	٢	٢	—	٧٥/٢٧٠	٨/٣٠
٢٠ —	٨/٣١	٢٢,٤٥	دان	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة عدد من المنشآت في المستوطنة	—	—	—	٧٥/٢٧١	٩/١
٢١ —	٨/٣١	٢٤,٠٠	كريات شمونة	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة عدد من المنشآت في المستوطنة	—	—	—	٧٥/٢٧١	٩/١
٢٢ —	٩/١	٠,٣٠	معسكر للعدو/شمال سهل الحولة	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد		اصابة عدد من المباني العسكرية	—	—	—	٧٥/٢٧١	٩/١
٢٣ —	٩/١	٩,٣٠	كفارسابا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء كبير من المبنى الرئيسي لمصنع تعليب الفواكه واعطاب عدد من الآلات	—	—	—	٧٥/٢٧٢	٩/١
٢٤ —	٩/٥	—	ريشون ليتسيون/تل‌ابيب(٣)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير وتصدع جزء من مبنى سكني لضباط العدو	—	—	—	٧٥/٢٧٤	٩/٥

٢٥ — ٩/١	١٦,٠٠	نابلس	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد	تدمير عدد من المنشآت العسكرية في معسكر العدو واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٢٧٥	٩/٥
٢٦ — ٩/٥	١٩,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اشعال النيران في مستودع للألبسة وامتداد الى طوابق اخرى في البناية	—	—	—	٧٥/٢٧٦	٩/٥
٢٧ — ٩/٦	٢٢,٠٠	شتولا	كمين	اسلحة رشاشة	غير محدد	تدمير آلية للعدو وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٧٧	٩/٧
٢٨ — ٩/٧	١,٣٠	هونين	هجوم	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد	تدمير عدد من المنشآت داخل المستعمرة	—	—	—	٧٥/٢٧٧	٩/٧
٢٩ — ٩/٨	٢١,٠٠	كريات يام(٤)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اشعال النيران في قسم المواد الخام وامتداد الى اقسام أخرى من مصنع الشمع	—	—	—	٧٥/٢٧٨	٩/٩
٣٠ — ٩/٥	١٩,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد	اشعال النيران في مستودع للألبسة وامتداد النيران الى اقسام أخرى من المبنى	—	—	—	٧٥/٢٧٩	٩/٩
٣١ — ٩/١٢	٢٣,٠٠	نهاريا	قصف	صواريخ ثقيلة	غير محدد	اصابة عدد من المنشآت في المدينة	—	—	—	٧٥/٢٨٠	٩/١٣
٣٢ — ٩/١٢	١٤,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	تم اكتشاف المعبوة داخل أحد المحلات التجارية في تل بيوت وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٨١	٩/١٣
٣٣ — ٩/٨	—	ريشون ليتسيون/جنوب تل أبيب	هجوم	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد	مهاجمة مبنى يستخدمه ضباط مخابرات العدو	—	—	—	٧٥/٢٨٢	٩/١٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٣٤ —	٩/٨	٨,٠٠	نابلس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات أسفل بناية الحاكم العسكري وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٨٣	٩/١٦
٣٥ —	٩/١٦	—	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اشعال النيران في مستودع أحد المصانع	—	—	—	٧٥/٢٨٤	٩/١٧
٣٦ —	٩/١٨	٧,٠٠	حيفا	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة أسفل سيارة أحد ضباط العدو وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٨٥	٩/١٨
٣٧ —	٩/١٨	١٠,٣٠	كفارسابا	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من باص لشركة ايجد	—	—	—	٧٥/٢٨٦	٩/١٨
٣٨ —	٩/١٩	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	١	—	تم اكتشاف العبوة وأثناء تفكيكها انفجرت وقتلت خبير المتفجرات وجرحت عددا آخر	—	—	—	٧٥/٢٨٧	٩/٢٥
٣٩ —	٩/٢١	—	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة أسفل مبنى يسكنه ضباط مخابرات العدو وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٨٨	٩/٢٥
٤٠ —	٩/٢٧	٦,٠٠	الخليل	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من استراحة لجنود العدو	—	—	—	٧٥/٢٨٩	٩/٢٨

٤١ — ٩/٢٨	٩,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة اسفل مبنى سكن أحد الضباط وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٩٠	٩/٢٨
٤٢ — ٩/٢٨	١٢,٠٠	الخضير/شمال تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		اصابة مبنى محطة الباصات وبعض الباصات بأضرار	—	—	—	٧٥/٢٩١	٩/٢٩
٤٣ — ٩/٣٠	٤,٠٠	تل ابيب(٥)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واشعال النيران في مبنى بنك صندوق الشعب وبنك الرهن العقاري	—	—	—	٧٥/٢٩٢	٩/٣٠
٤٤ — ٩/٣٠	٥,٠٠	ريشون ليتسيون/جنوب تل أبيب(٦)	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٢٩٣	٩/٣٠
٤٥ — ١٠/٣	٨,٠٥	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير وتصدع أجزاء كبيرة من مبنى محطة الباصات المركزية والابنية المجاورة وتدمير عدد من الباصات	—	—	—	٧٥/٢٩٤	١٠/٣
٤٦ — ١٠/٣	٢٣,٠٠	بين دير البلح وخان يونس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير أجزاء كبيرة من خط السكة الحديد وتعطيل سير القطارات عليه	—	—	—	٧٥/٢٩٥	١٠/٦
٤٧ — ١٠/٤	١٣,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من محطة الباصات واشعال النيران فيها	—	—	—	٧٥/٢٩٦	١٠/٦
٤٨ — ١٠/٤	١٧,٠٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير جزء من مبنى الدائرة الاجتماعية في شارع هليل	—	—	—	٧٥/٢٩٦	١٠/٦
٤٩ — ١٠/٥	١٧,٠٠	مطار اللد	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٩٧	١٠/٦
٥٠ — ١٠/٥	٢٣,٠٠	القدس	كمين	اسلحة رشاشة	١	—	قتل أحد ضباط العدو أمام مسكنه في شارع باريو حاي	—	—	—	٧٥/٢٩٨	١٠/٦

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٥١ —	١٠/٥	٩,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في اسفل مبنى في شارع ستروت يورشلايم وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٩٩	١٠/٦
٥٢ —	١٠/٥	١٤,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في حديقة هاكوفشيم وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٩٩	١٠/٦
٥٣ —	١٠/٥	١٧,٠٠	بني براك/شمال شرق تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات في أسفل مبنى في شارع تسفات أميت وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٢٩٩	١٠/٦
٥٤ —	١٠/٥	٢١,٣٠	بين يفتاح والمنارة	كمين	تذائف صاروخية	غير محدد		تدمير آلية نصف مجنزرة وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٣٠٠	١٠/٦
٥٥ —	١٠/١١	١٤,٣٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات بين تجمع لسيارات العدو في باب الخليل وابطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٣٠١	١٠/١٢

٥٦ — ١٠/٩	٢٣,٠٠	شفى تسيون/جنوب مدينة نهاريا	كمين	اسلحة رشاشة وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير عدد من عربات القطار من جراء انفجار الذخيرة التي بداخلها وتعطيل سير القطارات	—	—	—	٧٥/٣٠٢	١٠/١٢
٥٧ — ١٠/١٣	٨,٠٠	مركز النبي صالح/رام‌الله	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوات أسفل مبنى الحاكم العسكري وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٣٠٣	١٠/١٤
٥٨ — ١٠/١٨	—	كريات شالوم/جنوب شرق تل ابيب	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير مبنى يسكنه احد ضباط مخابرات العدو تدميرا تاما	—	—	—	٧٥/٣٠٤	١٠/١٩
٥٩ — ١٠/١٠	—	كفار شامير/جنوب حيفا	تفجير	عبوات حارقة	غير محدد		اندلاع النيران في أحد مختبرات جيش العدو وتدميره	—	—	—	٧٥/٣٠٥	١٠/٢٠
٦٠ — ١٠/١٤	—	النقب	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تدمير برج ارسال اذاعة العدو	—	—	—	٧٥/٣٠٦	١٠/٢٠
٦١ — ١٠/١٩	٦,٠٠	مجد الكروم / الجليل الأوسط	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير أجزاء كبيرة من منشآت حيوية في احد معسكرات العدو واندلاع النيران فيها	—	—	—	٧٥/٣٠٧	١٠/٢١
٦٢ — ١٠/٢٢	—	ايلات	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير أجزاء كبيرة من ملهى « بدر » وقتل وجرح عدد من جنود العدو	—	—	—	٧٥/٣٠٨	١٠/٢٣
٦٣ — ١٠/٢٢	٧,٠٠	قرب بيت ليد	تفجير	عبوات ناسفة	١	—	انفجرت العبوة اثناء عملية تفكيكها من قبل احد خبراء العدو	—	—	—	٧٥/٣٠٩	١٠/٢٣
٦٤ — ١٠/٢٢	—	بئر السبع	تفجير	عبوات ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة في متر يستخدمه الحرس المدنى وأبطل مفعولها	—	—	—	٧٥/٣١٠	١٠/٢٣

الرقم	تاريخ العملية اليوم	الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة شهيد	جريح	مفقود	المصدر : البلاغ العسكري	تاريخه
٦٥ —	١٠/٢٠	١٠,٠٠	مشروع عامر/قرب معسكر الشاطىء	هجوم	رشاشات وقنابل يدوية	غير محدد		تدمير سيارة عسكرية وقتل وجرح من فيها	—	—	—	٧٥/٣١١	١٠/٢٧
٦٦ —	١٠/٢٧	٦,٥٠	القدس	تفجير	عبوات ناسفة	غير محدد		تدمير واجهة فندق « ايال » ونسف اجزاء كبيرة من مبنى الدائرة السياحية وتدمير جزء كبير من مطعم شيز سيمون واصابة اكثر من ثمانية محلات تجارية	—	—	—	٧٥/٣١٢	١٠/٢٧
٦٧ —	١٠/٢٥	٢٢,٠٠	نيئوت هكيكار/جنوب البحر الميت	اشتباك وهجوم	مدافع الهاون	غير محدد		اصابة منشآت حيوية في المستوطنة واشعال النيران فيها واشتبكت المجموعة اثر انسحابها بدورية للعدو ودمرت عربة نصف مجنزرة	—	—	—	٧٥/٣١٣	١٠/٢٧
٦٨ —	١٠/٢٨	١٥,٠٠	اسقورا / غرب منطقة دبورة	اشتباك	قذائف صاروخية واسلحة رشاشة	غير محدد		قدرت خسائر العدو بأنها كبيرة في الارواح والمعدات ومنها اصابة هيلوكبتر	٢	٥	—	٧٥/٣١٤	١٠/٢٩

الحواشـي

١ ـــ ادعى العدو بأن « حادث سير كبير » قد وقع على طريق بئر السبع ـــ ديمونا ادى الى مقتل خمسة اشخاص وجرح ثلاثين آخرين وذلك بسبب الضباب . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٨٩١ ، صفحة ٣٦٤ ، بتاريخ ٧٥/٨/١٨) .

٢ ـــ ادعى العدو بأن العمل توقف في مصافي التكرير بسبب عطل فني ونتج عنه حريق في الكابلات الكهربائية واعاد العطل اما لاحتكاك كهربائي أو لارتفاع في درجـة الحرارة . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٨٩٤ ، صفحة ٤٧٣ ، بتاريخ ١٩٧٥/٨/٢١) .

٣ ـــ ادعى العدو بأن الانفجار وقع بعد ان احضر احد افراد عائلة كلازنر المتفجرات الى المنزل مما أدى الى اصابة خمسة اشخاص بجروح . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٠٨ ، صفحة ١٦٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/٩/٦) .

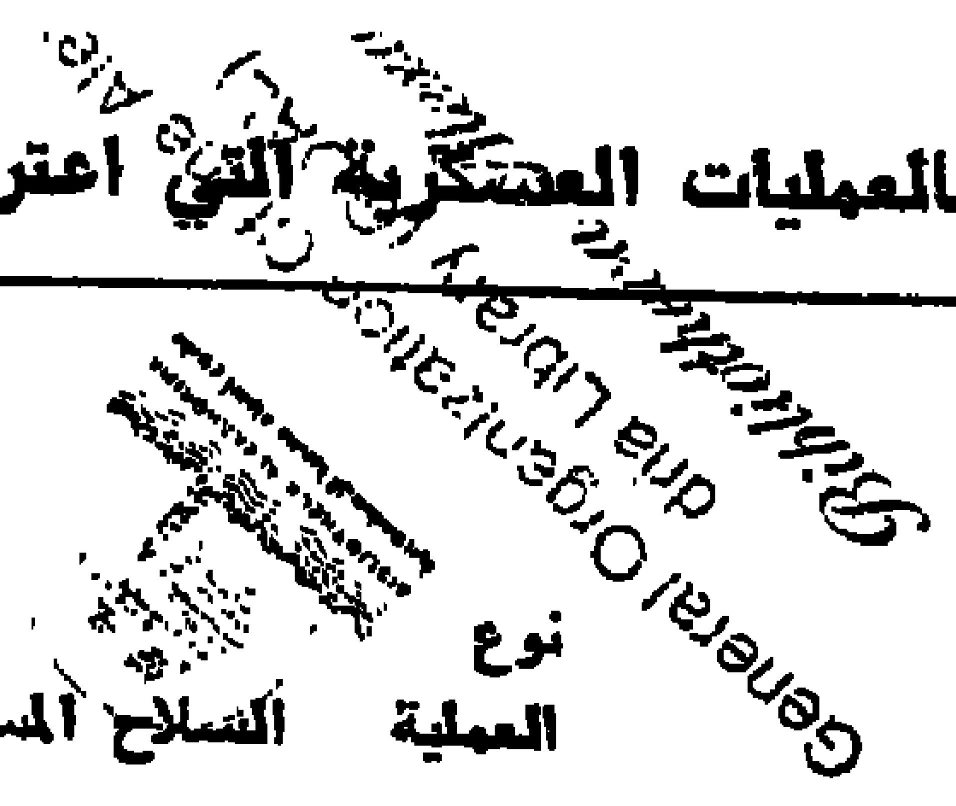
٤ ـــ اعترف العدو بأن حريقا شب في مصنع « لابيد » لانتاج الشموع دون ذكر التفاصيل أو الاسباب . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩١٠ ، صفحة ٢١٥ ، بتاريخ ١٩٧٥/٩/٩) .

٥ ـــ ادعى العدو بأن حريقا شب في مبنى المكاتب ويحاول رجال الاطفاء اخماده . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩١٩ ، صفحة ١٥ ، بتاريخ ١٩٧٥/١٠/١) .

٦ ـــ اعترف العدو بأن عدة سيارات قد احرقت في المدينة وتقوم الشرطة بالتحقيق . (راجع نشرة رصد اذاعة اسرائيل ، العدد ٩٢٢ ، صفحة ٧٦ ، بتاريخ ١٩٧٥/١٠/٤) .

ملاحظة : تصدر البلاغات العسكرية عن الاعلام العسكري في القيادة العـامة لقوات الثورة الفلسطينية .

جدول بالعمليات العسكرية التي اعترف بها العدو الصهيوني من ٨/١٦ — ١٩٧٥/١٠/٣١



الرقم	تاريخ العملية: اليوم	تاريخ العملية: الساعة	موقعها	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية: قتيل	خسائر العدو البشرية: جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة: شهيد	خسائر المقاومة: جريح	خسائر المقاومة: مفقود	المصدر	تاريخه
١	٨/١٥	٢٢,٠٠	زرعيت	تصف	تذائف بازوكا	—	—	لم تقع اصابات	—	—	—	ن.عدد ٨٩٠،ص٣٢٣	٨/١٦
٢	٨/١٧	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	تم اكتشاف العبوة بالقرب من مبنى وزارة الثقافة وابطل مفعولها	—	—	—	ن.عدد٨٩١،ص٣٧٥	٦/١٨
٣	٨/١٨	٣,٣٠	يرون	تصف	تذائف بازوكا	—	—	لم تقع اصابات أثناء مرور الدورية شمال يرون	—	—	—	ن.عدد٨٩٢،ص٤١٥	٨/١٩
٤	٨/١٩	٢٣,٠٠	زرعيت	تصف	تذائف بازوكا	—	—	لم تقع اصابات بين افراد دورية لجيش العدو	—	—	—	ن.عدد٨٩٣،ص٤٤١	٨/٢٠
٥	٨/٢٠	١٢,٠٠	حانيتا	اشتباك	اسلحة رشاشة	١	—	—	٣	—	—	ن.عدد٨٩٤،ص٤٧٠	٨/٢١
٦	٨/٢٠	—	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	—	—	لم تحدث العبوة اضرارا في المبنى الذي انفجرت فيه	—	—	—	ن.عدد٨٩٤،ص٤٧١	٨/٢١
٧	٨/٢٢	١,٣٠	جنوب الجولان	تصف	تذائف	—	—	لم تقع اصابات	—	—	—	ن.عدد٨٩٥،ص٥٠٨	٨/٢٢
٨	٨/٢٦	—	رام‌الله	تفجير	عبوة ناسفة	—	١	وقع الانفجار في الساحة الرئيسية في المدينة	—	—	—	ن.عدد٨١٩،ص٦٢٩	٨/٢٧
٩	٨/٣١	٥,٠٠	كفارجلعادي	اشتباك	اسلحة رشاشة	—	٢	—	٢	—	—	ن.عدد٩٠٣،ص٤٠	٩/١
١٠	٨/٣١	٢٤,٠٠	شمالي غور الحولة	تصف	صواريخ كاتيوشا	—	—	—	—	—	—	ن.عدد٩٠٣،ص٤٤	٩/١
١١	٨/٣١	٢٤,٠٠	كريات شمونة	تصف	صواريخ كاتيوشا	—	—	—	—	—	—	ن.عدد٩٠٣،ص٤٤	٩/١

١٢ ــ ٨/٣١	٢٤,٠٠	دان	تصف	صواريخ كاتيوشا	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩٠٣،ص٤٤	٩/١
١٣ ــ ٩/٢	ــ	جبل دوف	تصف	تذائف	ــ	ــ	لم تقع اصابات	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩٠٤،ص٦٤	٩/٢
١٤ ــ ٩/١١	ــ	مسكاف عام	تصف	تذائف بازوكا	ــ	ــ	لم تقع اصابات بين أفراد الدورية	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩١٢،ص٢٦٦	٩/١١
١٥ ــ ٩/١٢	ــ	القدس	تفجير	عبوة ناسفة	ــ	ــ	تم اكتشاف العبوة وأبطـل مفعولها	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩١٤،ص٢٨٧	٩/١٣
١٦ ــ ٩/١٨	٩,٣٠	كفارسابا	تفجير	عبوات ناسفة	ــ	ــ	اصابة أوتوبيس في المحطة المركزية بأضرار	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩١٧،ص٣٩٦	٩/٣٠
١٧ ــ ١٠/٣	٨,٠٠	تل أبيب	تفجير	عبوات ناسفة	ــ	٢	لم تقع اية اضرار في محطة رمات جان للباصات	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩٢٢،ص٨٦	١٠/٤
١٨ ــ ١٠/٢	٢٣,٠٠	خان يونس	تفجير	عبوات ناسفة	ــ	ــ	لم تقع ايـة اضرار في خط سكة الحديد	ــ	ــ	ــ	ن٠عدد٩٢٢،ص٨٦	١٠/٤

ن٠ ــ نشرة رصد اذاعة اسرائيل التي تصدر يوميا عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ٠

غازي خورشيد

Palestine Affairs

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center; *Editor*, Dr. Anis Sayegh; *Annual Subscription* (airmail): Lebanon and Syria L L 50, other Arab countries L L 60 or equivalent, Africa and Europe L L 80, elsewhere L L 100; *Annual Subscription* (surface mail): Countries outside the Arab World L L 50. *Address:* P.O.Box 1691, Beirut, Lebanon; Tel. 351260; Cables: MARABHATH.

سعر هذا العدد

٧ ل.ل. في لبنان

٨ ل.س. في سوريا

٩٠٠ فلس في الكويت والعراق

٩ ل.ل. في سائر الاقطار العربية



